العدد الحادي عشر / السنة الثالثة / (أبريل - يونيو) ٢٠٠٨

حراء

مجلة علمية ثقافية فصلية

www.hiramagazine.com

محمد ﷺ

محفور على القلب اسمُكَ،

روحاً هوّاماً في أفقك أدور، وفؤادكَ أروم

ليتني به أَفنى، وبه أذوب

إن لم أكن بالوفاء جديراً فشفيعي أني إليك نسيب

* * *



المستقبل

"التجديد" هاجس ملح من هواجس الأستاذ "فتح الله كولن" الدائم، ومن همومه الفكرية التي تؤرقه وتشغل فكره. فكتاباته في معظمها تكاد تكون مكرسة لعملية التجديد كما يراه ويدعو إليه. وهو يعزو تأخر المسلمين الحضاري والفكري إلى ما أصاب الفكر من شيخوخة، وإلى ما أصاب القلب من وَهَن، والروحَ من ضعف وهزال. وأزعم أن لسان حاله يقول: أعطني قلباً وذهناً ألمعياً وروحاً نورانياً أفتح لك مغاليق عالَمي الكون والإنسان، وأخرق بك أسرار الأرض والسماء، وأجعلك موضع نظر العالم واحترامه وتقديره، وعلى قدر ما يتركه الذهن المسهد من أخاديد على الجبين وهو يذرع جمجمة المسلم جيئة وذهابا يكون ارتقاؤه في سلم التجديد. أما إذا كان القلب خرباً والذهن عاطلا والروح مظلما فإنِ "اليد" سرعان ما تُجَنّ وتنبت لها مخالب وأنيابا لتخبط خبط عشواء فتبطش بنفسها وتبطش بالآخرين دون رادع من فكر أو من ضمير.

وكما يشير الأستاذ، لابد للمسلم الذي يسعى لتجديد نفسه من أن يستبقي منافذ الإدراك عنده مشرعة دائما لكي تستقبل هواء التجديد العصري وتستوعب مقاصده وأغراضه من دون أن يمس ذلك مبادئه وقيمه الروحية؛ وعليه -كذلك- أن يربي في نفسه عشق البحث والتنقيب وزيادة المعرفة بالكون والإنسان وبأسرارهما الإلهية التي هي لباب الحقائق جميعا في هذا العالم، وما لم يرتفع رأس المسلم مثقلا بالمعرفة حتى يلامس سماء العظمة، فإنه يبقى دون بلوغ مرتبة الإنسان الحضاري المطلوب.

هذه هي المحاور التي يدور عليها مقال الأستاذ فتح الله كولن "الإنسان الجديد" في صدر هذا العدد من "حراء". فمن أخطر أنواع البشر على الجنس البشري برمته، هم أولئك الذين تفرغ أذهانهم من أية فكرة سامية، وتقفر قلوبهم من نور الإيمان، وتختلج أرواحهم برعب خرافي يحول بينها وبين نشدان حقائق الأمور العليا والتعلق بها والمجاهدة من أجلها.

ومن هنا كان من اهتمامات "حراء" ومن نهجها الدائم الأخذ بيد كل ضارب في معارج الرقي الحضاري والفكري، وكل ضارب بسهم وافر في حقول العلوم الإنسانية والكونية الإيمانية. ومن يتابع "حراء" يخلص إلى نتيجة مفادها أن هذه المجلة لا تفتأ تنشر على صفحاتها بشكل متوازن من المقالات والأبحاث ما يغطي احتياجات المسلم المعاصر من ثقافات ومعارف -إنسانية وكونية علمية وإيمانية تجديدية- علما بأنها لم تغفل يوما الوجدانيات من شعر وأدب وقصة، والله من وراء القصد.■

حراء

مجلة علمية ثقافية فصلية

www.hiramagazine.com

العدد الحادي العاشر – السنة الثالثة (أبريل – يونيو) ٢٠٠٨

التصور العام

- حراء مجلة علمية ثقافية فصلية تعنى بالعلوم الطبيعية والإنسانية والاجتماعية وتحاور أسرار النفس البشرية وآفاق الكون الشاسعة بالمنظور القرآني الإيماني في تآلف وتناسب بين العلم والإيمان، والعقل والقلب، والفكر والواقع.
- تجمع بين الأصالة والمعاصرة وتعتمد الوسطية في فهم الإسلام وفهم الواقع، مع البعد عن الإفراط والتفريط.
- تؤمن بالانفتاح على الآخر، والحوار البناء والهادئ فيما يصب لصالح الإنسانية.
- تسعى إلى الموازنة بين العلمية في المضمون والجمالية في الشكل وأسلوب العرض، ومن ثم تدعو إلى معالجة المواد بمهنية عالية مع التبسيط ومراعاة الجوانب الأدبية والجمالية في الكتابة.

شروط النشر

- أن يكون النص المرسل جديدا لم يسبق نشره.
- ألا يزيد حجم النص على ٢٠٠٠ كلمة كحد أقصى، وللمجلة أن تلخص أو تختصر النصوص التي تتجاوز الحد المطلوب.
- يرجى من الكاتب الذي لم يسبق له النشر في المجلة إرسال نبذة مختصرة عن سيرته الذاتية.
- تخضع الأعمال المعروضة للنشر لموافقة هيئة التحرير، ولهيئة التحرير أن تطلب من الكاتب إجراء أي تعديل على المادة المقدمة قبل إجازتها للنشر.
- المجلة غير ملزمة بإعادة النصوص إلى أصحابها نشرت أم لم تنشر، وتلتزم بإبلاغ أصحابها بقبول النشر، ولا تلتزم بإبداء أسباب عدم النشر.
- تحتفظ المجلة بحقها في نشر النصوص وفق خطة التحرير وحسب التوقيت الذي تراه مناسبا.
- النصوص التي تنشر في المجلة تعبِّر عن آراء كُتّابها، ولا تعبِّر بالضرورة عن رأي المجلة.
- للمجلة حق إعادة نشر النص منفصلاً أو ضمن مجموعة من البحوث، بلغته الأصلية أو مترجمًا إلى أي لغة أخرى، دون حاجة إلى استئذان صاحب النص.
- مجلة حراء لا تمانع في النقل أو الاقتباس عنها شريطة ذكر المصدر.

يرجى إرسال جميع المشاركات إلى هيئة تحرير المجلة على العنوان الآتي:

hira@hiramagazine.com

مجلة علمية ثقافية فصلية تصدر عن:
Işık Özel Eğitim Tic. Ltd. Şti.
İstanbul / Türkiye

صاحب الامتياز
أنس أركنه
mergene@hiramagazine.com

المشرف العام
نوزاد صواش
nsavas@hiramagazine.com

رئيس التحرير المسؤول
هانئ رسلان
hraslan@hiramagazine.com

مدير التحرير
أشرف أونن
eonen@hiramagazine.com

المخرج الفني
مراد عرباجي
marabaci@hiramagazine.com

المركز الرئيس
HIRA MAGAZINE
Emniyet Mah. Huzur Sok.
No:5 34676 Üsküdar
İstanbul / Turkey
Phone: +902163186011
Fax: +902164224140
hira@hiramagazine.com

مركز التوزيع
٧ ش البرامكة – الحي السابع – م.نصر/القاهرة
تليفون وفاكس: 20222631551+
الهاتف الجوال : 20165523088+
جمهورية مصر العربية
sub@hiramagazine.com

نوع النشر
مجلة دورية دولية

Yayın Türü
Yaygın Süreli

رقم الإيداع
١٨٧٩-١٣٠٦

م دار «الجمهورية» للصحافة

المحتويات

حراء
مجلة علمية ثقافية فصلية
www.hiramagazine.com

عناوين الاتصال:

EGYPT
Daralnile
7 Albaramka Street . From Tayaran Street. Nasr City, Cairo – Egypt
Tel: +20 16 55 230 88
sukru@hiramagazine.com

SAUDI ARABIA
AL Watania Distribution
الوطنية للتوزيع
P.O.BOX 8454 Riyadh Zip Code: 11671 Saudia
Tel: +966 1 4871414
saudia@hiramagazine.com

MOROCCO
الدار البيضاء ٧٠ زنقة سجلماسة
Société Arabo-Africaine de Distribution, d'Edition et de Presse (Sapress)
70, rue de Sijilmassa, 20300
Casablanca / Morocco
Tel: +212 22 24 92 00
morocco@hiramagazine.com

YEMEN
دار النشر للجامعات
الجمهورية اليمنية، صنعاء، الخط الدائري الغربي، أمام الجامعة القديمة
Tel: +967 1 440144
yemen@hiramagazine.com

USA
The Light, Inc.
26 Worlds Fair Dr. Unit C Somerset, 08873 New Jersey, USA
Tel:+1 732 868 0210
Fax:+1 732 868 0211
usa@hiramagazine.com

ALGERIA
algeria@hiramagazine.com

SUDAN
Tel:00249918248388
sudan@hiramagazine.com

JORDAN
jordan@hiramagazine.com

SYRIA
syria@hiramagazine.com



الإنسان الجديد

فتح الله كولن

نحن اليوم على مشارف عهد جديد في مسيرة تاريخ الإنسانية، متفتح على تجليات العناية الربانية. لقد كان القرن الثامن عشر، بالنسبة لعالمنا، قرن التقليد الأعمى والمبتعدين عن جوهرهم وكيانهم؛ وكان القرن التاسع عشر، قرن الذين انجرفوا خلف شتى أنواع الفانتازيات واصطدموا بماضيهم ومقوماتهم التاريخية؛ والقرن العشرون، كان قرن المغتربين عن أنفسهم كليا والمنكرين لذواتهم وهويتهم، قرن الذين ظلوا يُنقّبون عن مَن يرشدهم وينير لهم الطريق في عالم غير عالمهم. ولكن جميع الأمارات والعلامات التي تلوح في الأفق تبشر بأن القرن الواحد والعشرين، سيكون قرن الإيمان والمؤمنين، وعصر انبعاثنا ونهضتنا من جديد.

أجل، من بين هؤلاء الذين هجروا العقل والتفكير مندفعين خلف "الموضات" الفكرية دون أي تمحيص أو تدقيق، ومن ضمن الجماهير الفاقدة لوَعيها، الهائمة على وجهها، سيولد إنسان جديد كل الجدة، إنسان يفكر ويحاسب، ويوازن ويدقق، ويعتمد على التجربة قدر اعتماده على العقل، ويثق ويؤمن بالإلهام والوجدان قدر اهتمامه بالعقل والتجربة؛ إنسان يحاول دوما بروحه وبدنه الوصولَ إلى الأفضل، ويرغب في الوصول إلى الكمال والتكامل في كل شيء. إنسان يسمو بالموازنة بين الدنيا والآخرة، ويوفق إلى الجمع بين عقله وقلبه فيصبح نموذجا جديدا لا مثيل له. ولا شك أن ولادة هذا الإنسان الجديد ليس بالأمر السهل، فلا بد من آلام مخاض وتوجّع وأنين. ولكن حين يئين الأوان فسوف

تتحقق هذه الولادة المباركة حتما، ويظهر هذا الجيل الذهبي بيننا فجأة -كالخضر عليه السلام- بوجهه النوراني الذي يشع كالبدر. فكما تنهمر الرحمة الإلهية من خلال الغيوم المتراكم بعضها فوق بعض، وكما تتفجر المياه من ينابيع الأرض، وتتفتح زهرات الثلج وتنتشر في مواقع ذَوَبان الثلج والجليد، وكما تتلألأ قطرات الندى وتتربع على الأوراق، سيسطع نور هذا الإنسان في سماء البشرية البائسة الحزينة لا محالة، ربما اليوم أو غدا أو بعد غد.

الإنسان الجديد بطل يتمتع بشخصية قوية استطاعت أن تسمو على المؤثرات الخارجية بشتى أنواعها، وعزمت على الصمود والاكتفاء الذاتي. فكما أن الشرق والغرب لن يستطيعا أسره ووضع السلاسل في قدميه، فكذلك لن تستطيع الأفكار والفلسفات التي تتناقض مع هويته المعنوية وجذوره أن تغير وجهته وتضله في ظلامها عن طريقه، بل ولن تستطيع أن تزحزحه عن مكانه قيد أنملة أو أقل من ذلك. أجل، الإنسان الجديد رجل حر في تفكيره، حر في تصوره، حر في إرادته، وحريته هذه مرتبطة بقدر عبوديته لله جل جلاله. ثم إن الإنسان الجديد لا يتشبه بالآخرين ولا يتمثل بهم، بل يحاول جاهدا أن يتزيّى بهويته الذاتية ويتزيّن بمقوماته التاريخية.

الإنسان الجديد ممتلئ بالفكر، ملتهب بعشق البحث، مفعم بالإيمان، قابل للوجدانيات، متشبع بنشوة الروحانية ومعانيها... إنسان يبدي كفاءة من نوع آخر في سبيل بناء عالمه، مستفيدا من إمكانيات عصره إلى أقصى حد، متمسكا بمبادئه وقيمه الذاتية.

الإنسان الجديد، هو إنسان يحمل في قلبه إيمان أجداده الأجلاّء، ويفكر تفكير أعلام حضارته العظماء، ويمتلئ مثلهم رغبة في إسماع صوته وإظهار قوة رسالته للبشرية جمعاء... ومثلهم كذلك يسطع نورا في كبد الظلام فيضيء الأرجاء برمتها... يؤدي واجبه هذا بصدق ووفاء غير محدود، معتصما بالحق متمسكا بالرسالة السماوية في كل لحظة.. يتألم ويئن، يموت ويحيا من أجل إحياء الحق وإنهاضه. فهو دائما على أهبة الاستعداد للتخلي عن المال والولد والغالي والنفيس، ولن تكون سعادته الشخصية بغيته أو همه أبدا، بل همه الوحيد ألا يضيع بذرة واحدة من البذور الصالحة التي منحها له الحق تعالى، بل ينثرها كلها بدقة فائقة على سفوح العناية الربانية من أجل مستقبل الأمة القريب والبعيد... ثم يرتقب مكابدا آلام مخاض جديد، يتلوى ويتأوه ويئن ويقلق، ويبتهل إلى المولى جل جلاله في أمل، يموت ويحيا في اليوم ألف مرة ومرة. فالسير في سبيل الحق والفناء فيه غايته الوحيدة في الحياة، وانفلات هذه الغاية من بين يديه -في نظره- خسارة لا تعوض أبدا.

الإنسان الجديد يستخدم جميع وسائل الاتصالات الحديثة؛ كتباً وجرائد ومجلات، وإذاعة وتلفازاً ومنشورات للولوج إلى القلوب والنفوذ إلى العقول والدخول إلى الأرواح، ويثبت جدارته من خلالها مرة أخرى، بل ويسترد مكانته المسلوبة في التوازن العالمي من جديد.

> **الإنسان الجديد**
> **يملك طاقة بناءة وروحا مؤسّسا، يبتعد عن النمطية بشدة، يعرف كيف يجدد نفسه مع الحفاظ على جوهره. ويعرف كيف يروّض الأحداث فتأتي لأمره طائعة خاضعة. يسبق عصره فيسير أمامه قدُما على الدوام بهمّة تتجاوز حدود إرادته، وشوق عارم وحب عميق واعتماد بالله عظيم.**

الإنسان الجديد، هو إنسان عميق من حيث جذوره الروحية، متعدد من حيث ما يملكه من كفاءات صالحة للحياة التي يعيش في أحضانها. إنه صاحب القول الفصل في كل الميادين بدءا من العلم إلى الفن ومن التكنولوجيا إلى الميتافيزيقيا، وصاحب خبرة ومراس في كل ما يخص الإنسان والحياة. أجل، إنه عاشق لا ينطفئ ظمؤه إلى العلوم مهما نهل، مولع بالمعرفة ولعاً لا يفتأ يتجدد كل حين، عميق بأبعاده اللدنية التي تعجز العقول عن تصورها.. وهو بهذه الخصال كلها يسير جنبا إلى جنب مع سعداء عصر السعادة وينافس الروحانيين في سباق معراجي جديد كل يوم.

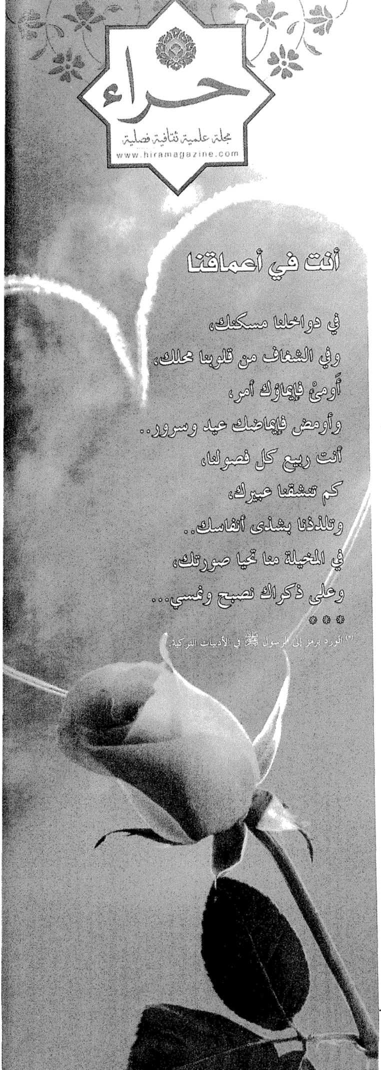
الإنسان الجديد متشبع بحب الوجود كله، حارس للقيم الإنسانية وراصد لها. فهو من جهة يحدد موقعه وينشئ ذاته على أساس الأخلاق والفضيلة التي تجعل من الإنسان أنسانا مثاليا، ومن جهة أخرى يحتضن الوجود كله بقلبه الواسع وشفقته الشاملة، ويسعى دائما من أجل إسعاد الآخرين. وفي الوقت

الذي يقوم بوضع المعايير لنفسه، يقوم أيضا بوضع مقاييس حول كيفية التعامل مع الأشياء والناس الذين كتب عليه العيش معهم؛ وإذا ما سنحت له الفرصة سعى جاهدا لتحقيق معاييره وخططه التي وضعها. فهو لا يتوانى أبدا عن متابعة كل ما هو إيجابي فيما حوله وعن الحفاظ عليه، وحث الآخرين على ذلك... وهو يشن حربا على كافة المساوئ، وهو كالقوس المشدود، مستعد دائما لإزالة هذه المساوئ واقتلاعها من تربة المجتمع الذي يعيش فيه. وهو مؤمن ذاق حلاوة الإيمان، ومن ثم يدعو الجميع إلى رحاب الإيمان. العبادة -عنده- جمال مطلق وهو لسانها... يقرأ الكتب التي ينبغي أن تُقرأ، ويوصيها للآخرين؛ ولا يبرح يشجع الصحف والمجلات التي توقر جذورنا الروحية وتبجل أصولنا المعنوية... يتنقل من شارع إلى شارع آخر حاملا كل ما يحتاج إليه أبناء وطنه وأمته، ومن ثم فهو رمز للمسؤولية السامية.

الإنسان الجديد يملك طاقة بناءة وروحا مؤسِّسا، يبتعد عن النمطية بشدة، يعرف كيف يجدد نفسه مع الحفاظ على جوهره، ويعرف كيف يروّض الأحداث فتأتي لأمره طائعة خاضعة. يسبق عصره فيسير أمام التاريخ قدُما على الدوام همّة تتجاوز حدود إرادته، وشوق عارم وحب عميق واعتماد بالله عظيم. إنه مثال للتوازن التام بين الأخذ بالأسباب والاستسلام لرب الأسباب.. مَن رآه دون معرفة به، ظنه عابدا للأسباب أو معطّلا لها؛ بينما الحقيقة ليست هذه ولا تلك.. لأن الإنسان الجديد، بطل التوازن بكل ما تعنيه كلمة التوازن؛ فهو يرى أن الأخذ بالأسباب من واجبه، والتسليم للحق تعالى من صميم إيمانه.

الإنسان الجديد فاتح ومكتشف معا، يغوص كل يوم في أعماق أعماق ذاته، ويطلق شراعه على الفضاء الشاسع دوما فينصب رايته على أبراج جديدة كل حين، ويلح على طرق الأبواب المكنونة وفتحها في الآفاق والأنفُس. وكلما بلغ بفضل إيمانه وعرفانه إلى أسرارِ ما وراء الوراء ازداد شوقا ورغبة، وظل يتنقل بِخبائه من ربع إلى ربع آخر في عوالم وراء وراء الأبعاد. وأخيرا يأتي يوم تخاطبه الأرض بما تكتزه في باطنها، وتنفلق البحار بعصاه السحرية لتنبثق اللآلئ من أعماقها، وتتفتح له أبواب السماء على مصاريعها وتستقبله بالتأهيل والترحاب.■

(*) الترجمة عن التركية: هيئة تحرير المجلة.



أنت في أعماقنا

في دواخلنا مسكنك،
وفي الشغاف من قلوبنا محلك،
أَومئْ فإيماؤك أمر،
وأومض فإيماضك عيد وسرور..
أنت ربيع كل فصولنا،
كم تنشقنا عبيرك،
وتلذذنا بشذى أنفاسك..
في المخيلة منا تحيا صورتك،
وعلى ذكراك نصبح ونمسي...

* * *

(*) الورد يرمز إلى الرسول ﷺ في الأدبيات التركية.

هـزّة في الأكوان سـرت، والأرض بمولـده ﷺ انتشت، ومـن رحيـق روحـه ارتـوت... فـإذا العالـم نشـيد، وأغـرودة عشـق مديـد، والسـماوات أبـواب مفتّحـة، وأضـواء مشـتعلة، تنـث أنـداء رأفـة، وتسـحّ شـآبيب رحمـة...

* * *

محمد ﷺ

دروس من السيرة النبوية والسنة الشريفة

أ.د. علي جمعة*

في قراءتنا للسيرة والسـنة يجب علينا أن نلتمس الأحداث الحياتية، وأن نأخذ منها المنهج الضابط لمراد النـبي المصطفـى ﷺ، ويتأتى هـذا بتتبع القضايـا، وما ورد فيها من حيثيـات تمكننا من الغوص وراءها واسـتخراج منهجها، والقيام بالتحليل المناسب في هذا الشأن.

صلح الحديبية

ونضرب هنا مثالا ليكون نبراسـا لغيره، وهو ما حدث في صلح الحديبية في ذي القعدة سنة ٦ هـ؛ ففي البخاري حديث طويل عمّا حدث في الحديبية بين رسول الله ﷺ ورسولَي قريش عروة بن مسعود وسهيل بن عمرو، إلى أن وقّعوا اتفاق الحديبية، وبالإضافة إلى ما يمكن أن نسـتنبطه من نص هذا الحديث الطويل من أدب التفـاوض، إلا أننا نريد أن نقرأه قراءة أخرى. وهو أن رسـول الله ﷺ في المدينة شـعر بخطر داهم من الشمال يكمن في خيبر، حيث اليهود يتربصون به، وخطر داهم من جهة الجنوب يكمن في مشركي مكة، وأن هناك اتفاقا سرّيًا بين اليهود والمشركين في الهجوم على المدينة مرة واحدة من الشـمال والجنوب حتى يعجز المسـلمون عن الدفاع عن أنفسـهم، ويجتاح هؤلاء المدينة مرة واحدة، فتنتهي الدعوة وينتهي الأمر.

والحنكة السياسية هنا تكمن في العمل على فك هذه الكمّاشة -إن صحّ التعبير- فرأينا النبي ﷺ بتفاوض الحديبية قد حيّد طرف مكة، وخرج من المدينة بعد ذلك إلى خيبر من أجل فك الطرف الآخر من هذه الكماشة العسكرية، فقد كانت خيبر -وهي لفظ عبري على الأغلب- تعني القلعة، وكان اليهود قد شيّدوا قلاعا عديـدة ومُحْكمة يوجد آثار بعضها حتى الآن. وحين أُجلي بنو النضـير من المدينة أقاموا بخيبر، وأخذوا يثيرون العرب جميعا ضد الإسلام، بل إن غزوة الأحزاب كانت أول مظهر لهذا الإثارة.

وزادت مـن خطورة خيبر مجاورة قبيلة غطفان لها، وهي من أكبر قبائل العرب نفوذا وسطوة، ولقد ورد أن أبا رافع سلام بن أبي الحقيق ذهب إلى تلك القبيلة وما حولها من القبائل للتحريض

على مناهضة الإسلام، بل تعدّى الأمر إلى إعداد جيش جرار للهجوم على المدينة. وعلى ذلك فإن خيبر تعد أول غزوة لم تكن دفاعا فقط كما كانت كل الغزوات، بل إنها ضربة وقائية، وهي نوع من أنواع الدفاع إلا أنه دفاع استباقي، وليس هجوما مجردا من أجل الأرض أو من أجل الاحتلال.

عندما فتحت خيبر وانكسرت تلك الخطورة الشمالية، وحدث أن أخلّت مكة بعهدها ونقضته -كما هو معلوم في السيرة- تم فتح مكة في رمضان سنة ٨ هـ، فانتهت بذلك الخطورةُ الجنوبية.

إن هذا الدرس وهذا التحليل يعلمنا كيفية التفاوض، وتحديد الأهداف الإستراتيجية، وترتيب الأولويات، وأنّ صلح الحديبية لم يكن من قبيل قبول الدنية في ديننا -كما خطر على ذهن سيدنا عمر رضي الله تعالى عنه وأرضاه- و لم يكن من قبيل المهادنة، ولا القبول بالشروط المجحفة، بقدر ما كان طريقة واقعية للحماية والاستمرار والدوام.

الاهتمام بالأطفال وملاطفتهم

وإذا نظرنا إلى مثال آخر نقرأ فيه السيرة النبوية المطهرة، ونجمع فيه أطراف قضية بعينها من أجل أن نستخرج موقف النبي ﷺ منها حتى نتأسى بهديه الشريف، فليكن مثالنا الثاني هو عن "الطفولة" وكيفية تعامل النبي ﷺ معها؛ حتى إننا إذا تأملنا فيما ورد في هذا الشأن استطعنا أن نخرج بقاعدة كلية تقول: "إن الطفولة توقف الأحكام"، فقد كان النبي ﷺ يربّي الأطفال بالحنان والحب والتوجيه السليم، فطالما كان يحمل أحفاده الحسن والحسين وأمامة حتى في الصلاة، وينزل من على المنبر رحمة بهم.

بل نستطيع أن نقول إن الحياة النبوية -عبادةً وعادةً- كانت تتوقف أمام الطفولة؛ فيسرع ﷺ في الصلاة عند سماع بكاء الصغير، ويطيل السجود حتى ينتهي الحفيد من على ظهره وهو ساجد، وينزل من المنبر في وسط الخطبة ليأخذ الحسن أو الحسين في حضنه لمّا رآه يحبو. وقد ورد في هذا المعنى أحاديث كثيرة.

نذكر منها ما رواه أبو هريرة ﷺ، قال: كنا نصلّي مع النبي ﷺ العشاء، فإذا سجد وثب الحسن والحسين على ظهره، فإذا رفع رأسه أخذهما من خلفه أخذا رفيقا ووضعهما في الأرض، فإذا عاد إلى السجود عادا إلى ظهره حتى قضى صلاته، ثم أقعد أحدهما على فخذيه. يقول أبو هريرة: فقمت إليه، فقلت: يا رسول الله، أردّهما؟ فبرقت برقة في السماء، فقال لهما: "الحقا بأمّكما" فمكث ضوءها حتى دخلا (رواه الإمام أحمد).

وعن أنس ﷺ قال: كان رسول الله ﷺ يسجد فيجيء الحسن والحسين فيركب ظهره فيطيل السجود فيقال: يا نبي الله أطلتَ السجود، فيقول :"ارتحلني ابني فكرهت أن أعجله" (رواه أبو يعلى).

وعن أنس ﷺ قال: "كان رسول الله ﷺ يسمع بكاء الصبي مع أمّه وهو في الصلاة، فيقرأ بالسورة الخفيفة أو بالسورة القصيرة" (رواه مسلم).

وعن أم خالد رضي الله عنها قالت: أتيتُ رسول الله ﷺ مع أبي [وأنا صغيرة]، وعليّ قميص أصفر، فقال رسول الله: "سنه سنه" -قال عبد الله وهي بالحبشية: حسنة-. قالت: فذهبت ألعب بخاتم النبوة على ظهر رسول الله (رواه البخاري).

العدل بين الأولاد

ولما كان للعرب من ميراث جاهلي بتفضيل الذكور على الإناث اعتنى النبي ﷺ بالطفلة الأنثى، وحث على المساواة بينها وبين الذكر، فمن ذلك ما ورد عن أنس بن مالك ﷺ أن النبي ﷺ قال: "من عال جاريتين حتى تبلغا جاء يومَ القيامة أنا وهو"، وضم أصابعه (رواه مسلم). وفي نَهْيه عن تفضيل الذكر على الأنثى في التربية والعناية فقد قال ﷺ: "من كانت له أنثى فلم يئدها و لم يؤْثر ولده -يعني الذكور عليها- أدخله الله الجنة" (رواه أحمد وأبو داود).

وعن أنس ﷺ أن رجلا كان جالسا مع النبي ﷺ، فجاء ابن له فقبّله وأجلسه في حجره، ثم جاءت بنته، فأخذها فأجلسها إلى جنبه، فقال النبي ﷺ: "فما عدلتَ بينهما" (رواه البيهقي).

وعن عائشة رضي الله عنها أنها قالت: "أُتِيَ رسول الله ﷺ بصبيّ فبال على ثوبه، فدعا بماء فأتبعه إياه" (رواه البخاري).

فكان ﷺ يلاعب الأطفال ويمشي خلفهم أمام الناس، وكان يقبّلهم ويضاحكهم؛ فعن يعلى بن مرة ﷺ قال: خرجت مع النبي ﷺ وقد دُعينا إلى طعام، فإذا الحسين بن عليّ رضي الله عنهما يلعب في الطريق، فأسرع النبي ﷺ أمام القوم ثم بسط يديه ليأخذه، فطفق الغلام يفر ههنا ويفر ههنا ورسول الله ﷺ يلحقه ويضاحكه حتى أخذه، فجعل إحدى يديه في ذقنه والآخرى في رأسه ثم اعتنقه، ثم أقبل علينا وقال: "حسين منّي وأنا من حسين" (رواه البخاري في الأدب).

وجاء الأقرع بن حابس إلى رسول الله ﷺ فرآه يقبل الحسن بن علي فقال الأقرع: أتقبّلون صبيانكم؟ فقال رسول الله: "نعم"، فقال الأقرع: إنّ لي عشـــرة من الولد ما قبّلت واحدا منهم قطّ، فقال له رسول الله ﷺ: "من لا يَرحم لا يُرحم" (متفق عليه).

وعن أبي قتادة الأنصاري أن رسول الله ﷺ كان يصلي وهو حامل أُمامة بنتَ زينب بنتِ رســـول الله ﷺ. ولأبي العاص بن الربيع بن عبد شمس: فإذا سجد وضعها وإذا قام حملها (متفق عليه).

وعن أبي بريدة ﷺ يقول: "كان رسول الله ﷺ يخطبنا، إذ جاء الحسن والحسين رضي الله عنهما، عليهما قميصان أحمران يمشيان ويعثران، فنـــزل رسول الله ﷺ من المنبر فحملهما ووضعهما بين يديه" (رواه أحمد والترمذي).

وكان ﷺ يعلّـــم الأطفال -برفـــق- آدابَ الطعام؛ فعن ابن عباس ﷺ قال: كنت غلاما في حِجر رسول الله ﷺ وكانت يدي تطيش في الصحفة، فقال لي رسول الله ﷺ: "يا غلام سمّ الله، وكُلْ بيمينك وكُلْ مما يَليك"، فما زالتْ تلك طعمتي بعد (رواه البخاري).

وكان ﷺ يداعب الأطفال ويواســـيهم بكلمات رقيقة؛ فعن أنس ﷺ قال: كان النبي ﷺ أحســـن الناس خلُقا، وكان لي أخ يقال له أبو عمير، وكان إذا جاء قال: "يا أبا عُمير ما فعل النُّغير؟". والنغير طائر صغير كان يلعب به هذا الطفل، وذلك لما رآه النبي ﷺ حزينا، لأن النغير مات، فجلس ﷺ يداعبه ويواسيه (متفق عليه).

تربية الأطفال منذ الصغر

وكان النـــبي ﷺ يؤكد على تعليم الأطفال الصدق من صغرهم، وذلك بأنه كان ينهـــي الكبير أن يكذب عليهم حتى لا يتعوّدوا على الكذب، وذلك لما في الكذب من آثار ســـيّئة أقلُّ ما فيها أنها تفقد الطفل الثقة في أبَوَيه إن هما كذبا عليه؛ فعن عبد الله بن عامر ﷺ قال: دعَتني أمّي ورســـول الله ﷺ قاعد في بيتنا فقالت: ها تعال أُعطيك، فقال لهـــا ﷺ: "ما أردت أن تعطيه؟" قالت: أعطيه تَمرا، فقال لها: "أما أنّكِ لو لم تعطيه شـــيئا كُتبت عليك كذبة" (رواه أحمد وأبو داود).

فإذا انضمّ إلى ذلك ما أمر به الإسلام بشأن الطفولة من تحريم الزنا من أجل الحفاظ على الطفولة ونسل الأبناء، وجعل الحفاظ على النسل من الضروريات الخمس التي على أساسها بني التشريع الإســـلامي، كما أنه خفف على المرأة الحامل والمرضع، وذلك حـــتى يَقوما بتغذية الطفل وهو وليـــد ومن قبل ذلك وهو جنين رعاية له، واهتماما به.

كما أن الإسلام حرم الإجهاض لحفظ حياة الطفل المرتقب، وعدَّ ذلك جناية توجب العقوبـــة، وكذلك أحكام الحضانة في حالة الفصال الأبوي، كانت كلها لصالح الطفولة، وإيجاب النفقة والكسوة على الآباء في صالح الطفولة، واستحباب اختيار الاسم الحسَن، فمِن حقّ الابن على أبيه أن يختار له اسما حسنا.

ومن قبل ذلك حثّ الإسلام على اختيار الزوجة الصالحة من الرجـــل، واختيار الرجل الصالح من المرأة. كل ذلك من أجل أن ينشأ الطفل في بيئة صالحة عناية له؛ فمرحلة الطفولة من أهمّ مراحل الإنسان وأخطرها شأنا، إذ هي مرحلة النّقش، ومرحلة الغَرس، فستكون الصورة على ما نُقشت، ويكون الزّرع على ما غرس.

وفي القرآن مجموعة من السلوكيات الرشيدة تبدأ من العقيدة، وبرّ الوالدين، وتنتهي بالســـلوك بين النـــاس، وذلك في نصيحة لُقمان الحكيم لابنه في سورة سمّيت باسم لقمان، وذلك في قوله تعالى: ﴿وَإِذْ قَالَ لُقْمَانُ لِابْنِهِ وَهُوَ يَعِظُهُ يَا بُنَيَّ لاَ تُشْرِكْ بِاللهِ إِنَّ الشِّـــرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ ۞ وَوَصَّيْنَا الإِنْسَانَ بِوَالِدَيْهِ حَمَلَتْهُ أُمُّهُ وَهْنًا عَلَى وَهْنٍ وَفِصَالُهُ فِي عَامَيْنِ أَنِ اشْكُرْ لِي وَلِوَالِدَيْكَ إِلَيَّ الْمَصِيرُ ۞ وَإِنْ جَاهَـــدَاكَ عَلَى أَنْ تُشْـــرِكَ بِي مَا لَيْسَ لَـــكَ بِهِ عِلْمٌ فَلاَ تُطِعْهُمَا وَصَاحِبْهُمَا فِي الدُّنْيَا مَعْرُوفًا وَاتَّبِعْ سَـــبِيلَ مَنْ أَنَابَ إِلَيَّ ثُمَّ إِلَيَّ مَرْجِعُكُمْ فَأُنَبِّئُكُمْ بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ ۞ يَا بُنَيَّ إِنَّهَا إِنْ تَكُ مِثْقَالَ حَبَّةٍ مِنْ خَرْدَلٍ فَتَكُنْ فِي صَخْرَةٍ أَوْ فِي السَّـــمَاوَاتِ أَوْ فِي الأَرْضِ يَأْتِ بِهَا اللهُ إِنَّ اللهَ لَطِيفٌ خَبِيرٌ ۞ يَا بُنَيَّ أَقِمِ الصَّلاَةَ وَأْمُرْ بِالْمَعْـــرُوفِ وَانْهَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَاصْبِرْ عَلَى مَا أَصَابَكَ إِنَّ ذَلِكَ مِنْ عَزْمِ الأُمُورِ ۞ وَلاَ تُصَعِّرْ خَدَّكَ لِلنَّاسِ وَلاَ تَمْشِ فِي الأَرْضِ مَرَحًا إِنَّ اللهَ لاَ يُحِبُّ كُلَّ مُخْتَالٍ فَخُورٍ ۞ وَاقْصِدْ فِي مَشْيِكَ وَاغْضُضْ مِنْ صَوْتِكَ إِنَّ أَنْكَرَ الأَصْوَاتِ لَصَوْتُ الْحَمِيرِ﴾ (لقمان:١٣-١٩).

لعل في مثال صلح الحديبية، ومثال تعامل النبي ﷺ مع الأطفال كثيرا من الدروس، ولعلّنا قد وُفقنا في الإشارة إلى بعض منها، رزقنا الله الفهم عنه سبحانه، وفهم سنة نبيه المصطفى ﷺ والعمل بذلك. ■

(*) مفتي الديار المصرية.

تجدد الخطاب الديني
أو
سؤال المرجعية

د. سمير بودينار*

لا يمكن الحديث بصيغة تعميم تتجه إلى مستويات خطاب الدين كلها دون استثناء، أو ما اصطلح على تسميته على نطاق واسع بـ"الخطاب الديني"، خاصة إذا تعلق الأمر بمطلب التجديد الذي أضحى مطلبا ملحّا -رغم اتخاذه طابع الإلزام الصادر من خارج منظومة الدين نفسه ومتطلباته الذاتية-، ذلك أن الدين -أيّ دين- باعتبار إطلاقية مصدره لدى معتنقيه أوّلا، كما باعتبار خصائص التسليم التي تطبع علاقاتهم به، لا يمكن أن يكون مجالا مفتوحا للتجديد في كافة مستوياته.

من هنا تنبع أهمية التأكيد أن خطاب التجديد المتجه إلى الدين ليس مطروحا عليه بوصفه هوية شخصية، بل باعتبار وظيفته المرجعية، فالتجدّد كفعل ذاتي متجاوبٍ مع حاجات حقيقية إنما يقع من الدين في مساحات المرجعية. ولا شك أن أي مرجعية إلا وتتسم -بالضرورة- ببعض سمات المعتقد الديني، إذ لا يمكنها أن تحقق وظائف المرجعية التي يعتنقها الإنسان بوصفها منظومة اعتقادية بشكل من الأشكال دون أن تتسم بسمات المعتقد الديني، وبذلك فإن المرجعية خاضعة لحتمية التجدد الذاتي انطلاقا من تلك السمات.

الدين بوصفه مرجعية متجددة

والدين بتقديمه رؤية معرفية للإنسان، يزوّده بمنظومة من القيم والأحكام ذات مَقْدرة تفسيرية هائلة للظواهر والقضايا التي تشغله، إذ الإسلام -ومنطلقه القرآن- مثّل ذروة مرحلة الوحي ونقطة فاصلة اكتملت فيها رسالة السماء للأرض، لذا فإن الأهمية الاستثنائية لهذه النقطة تفرض التوقف عندها باعتبارها



حدثا فاصلا في تاريخ الإنسان يؤرَّخ به لما بعده، وبالتالي فإن تجليات الوحي وتنـزّله في واقع الإنسان والعالم، -وعلى رغم التجربة الحضارية البالغة الغنى لتفاعل العقل والواقع المسلم معه تاريخيا- تتجه بفعاليتها وانفتاحها عبر خط المستقبل، وبالتالي فإن مركز الثقل في هذا الوعي ليس في المرحلة التي تفصلنا عن اكتمال نزول الوحي (الماضي)، بل تلك التي تفصلنا عن اكتمال وجود الإنسان (المستقبل).

إن التجربة الحضارية للإنسان في استلهامه من الدين (الإسلام) وتفاعله معه، والتي تتجلى على امتداد المساحة الزمنية التي تفصلنا عن بداية تنزل الوحي، ورغم انطباعها بالغنى والثراء، ليست في الواقع إلا جزءا يسيرا من تجليات مقدرة الوحي التفسيرية لظواهر الحياة والإنسان، بل لقدرته على الفعل في مسار البشرية وأداء مقاصده الكبرى بحفظ الإنسان والدين والكون (المفصلة في كليات الدين ومقاصده الخمس).

ولعل التحديات الاستثنائية التي أصبحت تواجه تحقيق تلك المقاصد (الأهداف الكبرى) صارت تقتضي من الإنسان لزوما العملَ على تجديد قدرته على التعامل مع جوهر الدين، وزيادة فعالية أدواته في التفاعل والاستيعاب والاستنباط والمساءلة والتفسير. غير أن تجديد القدرة تلك لا ينبغي أن يفهم باعتباره متجها إلى جوهر الدين، أي مضمون رسالته؛ فالتجديد هنا لا علاقة له مطلقا بجوهر تلك الرسالة، إذ الإيمان بالدين من مقتضاه التسليم بإطلاقية عناصر الهداية والإقناع والتسديد فيه، كما يقول "غوته" عن الإسلام في "الديوان الشرقي الغربي" أنه: "إذا كان الإسلام يعني التسليم لله فإننا جميعا نعيش ونموت مسلمين". أما التحدي الواقع اليوم فهو أن يكون الإنسان المسلم أهلا لتنـزّل تلك العناصر في حياته، أو الحيلولة دون مسار في الفكر والخطاب يتحول الإنسان المسلم بمقتضاه إلى عنصر معيق لذلك الجوهر المعبر عن مقاصد الإسلام، في أن يتحول إلى خطاب واضح وفعال يؤدي رسالته إلى العالم.

لقد كانت قدرة الإنسان على استنطاق مكنونات الوحي عبر مسار العلاقة بينهما مرتبطة بصيغة بناء الأسئلة التي يطرحها في عملية مساءلته لمعاني الدين ومكامن المعرفة فيه. فالتجديد في خطاب الدين بهذا المعنى ربما ظل بعيدا عن بلوغ الأهداف المطروحة اليوم في مجمل الخطابات البديلة السائدة، ما لم يتم التركيز عبره على إعادة بناء سؤال الإنسان للوحي بأمثل صيغة متاحة، لتكون مقدرته على الاستفادة من ذلك الوحي في أمثل مستوى متاح، وهو ما يؤكد أن مجال التجدّد المطلوب ربما كان خطابَ الدين للإنسان في العصر الذي يعيش فيه وكيفية تزويده بمقومات الهداية والسداد والسعادة، من خلال حسن استنطاق ذلك الخطاب بالسؤال الصائب.

معيارية التجدد في خطاب الدين

هنالك سؤال ينتصب ملحا كلما طرق موضوع التجدد في خطاب الدين، ذلك هو سؤال المعيارية، فما هو المعيار الحاكم لعملية التجدد؟ هل يكون آراء ومواقف المتتبعين والنقاد؟! أي أولئك المعنيين أساسا وربما حصرا بـ"صورة الدين"، الذين يؤسسون معاييرهم في بناءِ أو مساءلة خطاب الدين على"صورته لدى الغير".

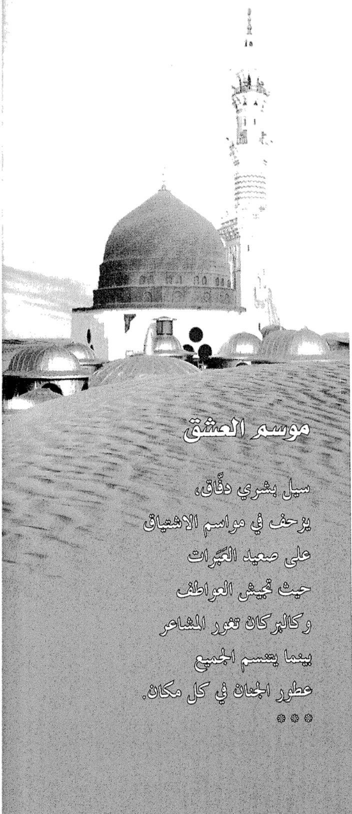
ولعل موقف كثير من علماء الاجتماع الذين يتابعون تجليات الظاهرة الدينية في الغرب خاصة، يشير إلى عمق الأزمة التي تعاني منها أطروحة "متتبعي الخطاب الديني ونقاده" عندما يطرحون السؤال المتعلق بالإسلام خاصة، وهو كيف تكون أكبر حصة من النقد موجهة لخطاب الإسلام الذي يتفق علماء الاجتماع على أنه أكثر الأديان تأثيرا وفاعلية في استيعاب أي نموذج إنساني أو اجتماعي، واستيعابه في منظومة فكرية وأخلاقية مؤسَّسة على قيمه المتعالية؟

إن خطاب الإسلام الراهن رغم كل الملاحظات التي يمكن قولها عنه يظل في نظر هؤلاء أحد أكثر الخطابات إقناعا، بل إن مضمونه المعرفي لا يكاد يقارن من حيث حجم الأسئلة الوجودية التي يقدم أجوبة عنها بأي خطاب آخر.

والملاحظ أن أي خطاب للدين لم يكن بإمكانه التجدد في غياب التزام ذي طبيعة أخلاقية بمقصد محدد، إذ في غيابه تقع عملية التجديد في مسار عبثي تكون محصلته إفراغَ الخطاب من أي قدرة على الفعل، بأن يسقط في النسبية المطلقة والإبهام فيصير إلى العدمية، أو في التجزيء فيتحول الإسلام وخطابه إلى أي شيء آخر إلا أن يكون الإسلام نفسه، كما وقع حين طرح البعض خطاب "الإسلام الاشتراكي"، أو "الإسلام الرأسمالي"، الذي ازدهر كثيرا بعد حالة النجاح الجزئي الذي حققته التيارات الإسلامية على مستوى المؤسسات البرلمانية في الدول العربية.

إذن فثمة حاجة أساسية للاتفاق ولو في شكل نسبي على

حراء
مجلة علمية ثقافية فصلية
www.hiramagazine.com



معيارية التجدد في الخطاب، بل ومقصديته كذلك.

إن غياب الالتزام بمقصد الدين/المرجعية يؤدي إلى أنه بدلا من أن يتجدد خطاب الدين نفسه فإنه يتحول إلى خطاب ذي طبيعة مغايرة. ومن هنـــا تتضح أهمية إدراك ثوابت هذه المرجعية، وهو المطلـــب الذي يبدو غير قابل للتحقّق بغير النظر في منظومة القيم التي على أساســـها يتحدد مقصد الخطاب ومعايير تجدده، ليكون الالتزام الأخلاقي بمنظومة القيـــم الحاكمة معيارا ومحدِّدا لتجدد الخطاب الديني نفسه.

ففي ضوء منظومة القيـــم تتحدد القيمة المركزية أو العليا في المرجعية والقيم الثانوية لهـــا. وإذا كانت القيمة المركزية -على ســـبيل المثال- في الاشتراكية هي "المساواة"، والقيمة المركزية في الليبرالية الرأسمالية هي "الحرية"، فإن التجربة الإســـلامية قامت بجعل "العدالة" قاعدة التعامل المجتمعي، لتأخذ الحرية والمســـاواة بُعدهما الإنساني في إطار العدالة.

ولذلك اعتبر بعض مفكري الإسلام المعاصرين والقدماء على الســـواء، أن القيمة العليا فيه هي العدالة، إذ -كما قال ابن أبي الربيع في ســـلوك المالك-: "تحقيـــق الحرية بمطلقها قد لا يضمن تحقيق العدالة أو المساواة، وكذلك تحقيق المساواة وإطلاقها قد لا يعنيـــان ضمان الحرية والعدالة، أما جعل العدالة القيمةَ العليا فإنه يضمن تحقيق الحرية والمساواة بما لا يخل بالعدالة".

والواقع أن عملية اســـتيعاب القيمة العليا تعني أن هذه القيمة تؤثـــر على القيم الأخرى وتؤثر على الفهم الخاص ببقية المنظومة القيمية. ولعلنا بإدراك قيمة العدل أو بصيغة أشمل "العدالة" كقيمة عليا في الإســـلام ندرك مبلغ ما يمكن لخطاب الإسلام أن يؤثره في واقع عالم يجمع بين تطلع أبنائه المشترك إلى العدل، وبين واقع ظالم يعيشـــه في أكثر من مجال وعلى شـــتى الصُعُد، واقع عرف أكثر صور الخلل في نظام العدالة مع اكتمال "مشـــروع العولمة" التأحيـــدي، الذي لا يغيّب خصوصيـــات المجتمعات وهويات الأمم فحســـب، بل كذلك حقوقها في الاســـتفادة المنصفة من خـــيرات العالم، بل من إمكاناتها الذاتيـــة، والأهم من ذلك كله تطلعاتها الروحية ومطالبها المعنوية.■

(*) رئيس مركز الدراسات والبحوث الإنسانية والاجتماعية، وجدة / المغرب.



﴿وَيُنَزِّلُ مِنَ السَّمَاءِ مِنْ جِبَالٍ فِيهَا مِنْ بَرَدٍ﴾(النور:٤٣).

البرَد بين العلم والقرآن

د. محمد راتب النابلسي*

البرَد هو أحد الظواهر الأكثر تعقيدا، والتي بحثها العلماء طويلا، ولم يـزل هنالك الكثير مما نجهله حول هذه الظاهرة الخطيرة والجميلة، والتي تؤدي إلى خسـارات تصل إلى مئات الملايين من الدولارات كل عام. ففي إحدى عواصف البرَد في عام ٢٠٠٠ قُتل أحد الناس عندما سقطت عليه حبّة برد بحجم حبة التفاح. وفي عام ١٩٨١ سببت عاصفة رعدية نزل فيها البرد بكميات كبيرة في الولايات المتحدة خسـارة أكثر من ١٠٠ مليون دولار. وأكبر حبة برد سقطت كانت في ولاية كنساس عام ١٩٧٠ وتزن ٧٥٠ غراما.

يتجلى تعقيد هذه الظاهرة من خلال العمليات بالغة التعقيد التي ترافق تشكل البرَد، لأن تشكله يتم أثناء العواصف الرعدية، والتي تصل فيها سـرعة التيار الهوائي المتجـه لأعلى الغيمة إلى ١٦٠كم في السـاعة أو أكثر. ويقوم العلماء اليوم باسـتخدام الرادارات التي تعمل بالأشـعة تحت الحمـراء، وكذلك الأقمار الاصطناعية لدراسة أسرار هذه الظاهرة المعقدة.

لقد نُسجت الأسـاطير قديماً حول الظواهر الكونية المخيفة مثل كسـوف الشـمس والبرق والرعد وظاهـرة البرَد. فكان للناس معتقدات ينسـبون فيها هذه الظواهر إلى الآلهة. ولقد نزل القرآن العظيم في القرن السابع الميلادي، وفي ذلك العصر كانت الأسـاطير تملأ معتقدات البشـر. ولكن كيف عالج القرآن هذه الظاهرة ومـاذا يقول عنها؟ إن المنطـق العلمي يفرض كما في جميع الكتب البشرية أن المؤلف عندما يتحدث عن ظاهرة كونية تجده ينقل لنا الأساطير التي تأثر بها، وتجد في ذلك الكتاب ثقافة ذلك العصر. والسؤال: هل تأثر القرآن فعلاً بثقافة القرن السابع الميـلادي؟ وهل صحيح ما ينادي به بعضهم اليوم من أن القرآن نص تاريخي يقبل التبديل والتغيير بما يتناسب مع علوم كل عصر؟ لنطلع أوّلا على ما يقوله علماء القرن الحادي والعشـرين حول أسـرار البرَد والعمليات الفيزيائية المعقدة لتطور حبّة البرَد، وبعد ذلـك نطلع على ما جاء في القرآن حول تشـكل البرَد، ونتأمل ونتساءل: هل يوجد أي اختلاف أو تناقض بين العلم والقرآن؟! وهذا ما نجده واضحـا في كتاب الله تعالى عندما أمرنا أن نتدبّر القرآن لنسـتيقن بأنه كتاب الله. يقـول تعالى مخاطبا كل ملحد وكل مؤمن: ﴿أَفَلاَ يَتَدَبَّرُونَ الْقُـرْآنَ وَلَوْ كَانَ مِنْ عِنْدِ غَيْرِ اللهِ لَوَجَدُوا فِيهِ اخْتِلاَفًا كَثِيرًا﴾(النساء:٨٢).

كيف يتشكل البرد؟

يبدأ تشكل البرَد عندما تكون درجة الحرارة منخفضة جدا دون الصفر، حيث تتجمع قطيرات الماء الصغيرة والشـديدة البرودة لتتجمد وتُشكِّل حبةَ البرَد. ويقول العلماء: إن حبة البرد الواحدة والصغيرة يستغرق تشـكلها زمناً ٥–١٠ دقائق، وتحتاج لمئات الملايين من قطيرات الماء التي تتجمع لتشكيل حبَّة برد واحدة، وقد يصل أحيانا قُطر حبة البرد إلى ١٥ سم، وتصطدم بالأرض بسرعة ١٨٠ كم. يتشكل البرد على ارتفاعات عالية تصل إلى ١٨ كم. يتشـكل البرد حول قطرات الماء المجمدة، أو حول ذرات الثلج الصغيرة وقد يحوي البرَد في داخله بعض الغبار والأتربة العالقة أو الحشرات الصغيرة التي سـاقها التيار الهوائي في الجو بين الغيوم.

ويؤكد العلماء علـى أن الغيمة الأطول تملك فرصة أكبر في تشـكل البرَد بسبب ملامستها لطبقـات الجو العليا شـديدة البرودة. والتيـارات القوية من الهـواء مطلوبة لتأمين تشـكل البرَد وحمله والتغلب على قوى الجاذبيـة الأرضية خصوصا إذا كانت حبات البرَد كبيرة، وهذه التيارات هي ما يسـبب تشكل أبراج مـن الغيوم الركامية كما يقول العلماء. وكلما كان التيار الهوائي المتجه للأعلى قويا كانت حبات البرَد أكبر، وعندما يعجز التيار الهوائي عن حمل حبات البرَد فإن البرَد يسقط. لذلك عندما نقطع حبَّة البَرَد إلى نصفين نلاحظ عددا من الحلقات على شكل طبقـات متعددة تماما كحلقات البصلة، وهذا يعني أن حبة البرد تتشـكل على مراحل، كل مرحلة تنمو فيها حلقة. وقد لاحظ العلماء أن المطر ينـزل من كل الغيمة بينما البرد يسـقط فقط من ممرات محددة من الغيمـة وتدعى صفوف البرَد. وجميع هذه المراحل والتي تسبق تشـكل البرد ضرورية ولا يمكن أن يتشكل البرد بدونها.

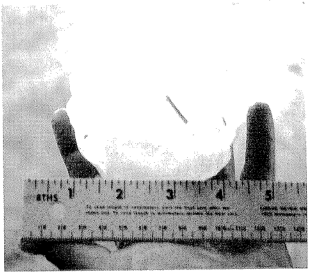
يتواجد البرد بشكل شـبه دائم في أعالي الغيوم وأواسطها. وعلى كل حال إما أن تذوب حبة البرد قبل وصولها إلى الأرض أو تكون صغيرة الحجم فتـذوب داخل التيار الهوائي في الغيمة.

وقد تبين أن معظم البرد المتشـكل في الغيمة (من ٤٠–٧٠ ٪) يذوب قبل وصوله إلى الأرض. وأخيرا يؤكد العلماء أن التيارات الهوائية المتجهة نحو الأعلى لا تقتصر مهمتها على تشكيل البرَد، بل إنها أيضا مسؤولة عن دفع قمم الغيوم الركامية عاليا إلى طبقة التروبوسفير، مما يؤدي لخلق البيئة المناسبة لحدوث البرق.

والآن وبعدما تعرّفنا على الحقائق العلمية اليقينية حول ظاهرة تشكل البرَد والتي هي محل اتفاق العلماء، وبعد أن اطلعنا إلى أهم الاكتشـافات في هذا المجال، ماذا عن كتاب الحقائق (القرآن)؟ وكيف تناول كتاب الله تعالى هذه الظاهرة، وكيف وصفها؟

حقائق علمية من القرآن

لقد تحدث القرآن عن البرَد في آية من آياته العظيمة. جمع الله ﷻ في هذه الآية كل الحقائق العلمية التي رأيناها بمنتهى الدقة والإيجاز، وبنفـس التسلسـل العلمي.



لقد بـدأت الآيـة بقوله تعالى: ﴿أَلَمْ تَـرَ أَنَّ اللهَ يُزْجِي سَـحَابًا﴾(النور:٤٣). وقد رأينا أن عملية تشـكل الـبرد تبدأ بدفع التيـارات الهوائية للغيوم وتجميعها والتآلف بينها، وكلمة ﴿يُزْجِي﴾ تعني في اللغة "يسوق ويدفع". وهـذا ما نراه في أول مرحلة من مراحل تشكل البرد. ثم تـأتي المرحلة الثانية بعد ذلك في قوله تعالى: ﴿ثُمَّ يُؤَلِّفُ بَيْنَهُ﴾ أي يجمع بين السـحب، وهذه المرحلة رأيناها عندما تبدأ الغيوم بالتجمع. ثم تأتي المرحلة الأخيرة لتشكل الغيوم وهي الغيوم الركامية، وهذه نجدها في قوله تعالى: ﴿ثُمَّ يَجْعَلُهُ رُكَامًا﴾. وكلمة "رَكَم" في اللغة تعني "ألقى الأشياء بعضها فـوق بعض"، وهذا ما يحدث تمامـا في الغيوم الركامية حيث تدفعها التيـارات الهوائية باتجاه الأعلـى وتجمّعها باتجاه عال يشـبه الأبراج ذات القاعدة العريضة وتضيق كلما ارتفعت للأعلى وتكوّن شـكلاً يشـبه "الجبل". وتأمّل كيف يستخدم القرآن كلمـة ﴿رُكَامًا﴾ وهي نفس الكلمة التي يسـتخدمها العلماء اليوم "الغيوم الركامية". وفي المرحلة التالية يبدأ تشـكل المطر ونزوله. وهـذا ما تخبرنا عنه الآية بعد ذلك في قوله تعالى:

﴿فَتَرَى الْوَدْقَ يَخْرُجُ مِنْ خِلالِه﴾ وقد ثبت أن المطر الغزير وهو "الودق" يخرج من جميع أجزاء الغيمة، وهذا ما أشارت إليه الآية في عبارة ﴿مِنْ خِلالِه﴾. والآن بعدما تشكلت قطيرات المطر أصبح تشكل البرد ممكنا، وذلك من خلال اجتماع ملايين القطيرات من الماء شديد البرودة لتشكيل حبات البرد والتي تتجمع في مناطق محددة في أعلى وأوسط الغيمة. ويبدأ نزول البرد من مناطق محددة أيضا، وهذا ما تحدثنا عنه الآية بعد ذلك: ﴿وَيُنَزِّلُ مِنَ السَّمَاءِ مِنْ جِبَالٍ فِيهَا مِنْ بَرَدٍ﴾ وهنا نلاحظ أن القرآن يستخدم كلمة ﴿جِبَالٍ﴾ والعلماء يستخدمون كلمة "أبراج" من الغيوم، لأنهم وجدوا أن شكل الغيوم التي تحوي البرَد يشبه البرج. فتأمل التقارب الشديد بين الكلمة القرآنية والكلمة العلمية. ونلاحظ أيضا كيف يراعي القرآن تسلسل المراحل.

ويقول العلماء أيضا: إن البرَد لا يوجد في جميع أجزاء الغيمة بل في مناطق محددة فيها، وينزل من مناطق محددة أيضا وليس من الغيمة كلها، ولذلك لم يقل تعالى: وينزل البرَد، بل قال: ﴿مِنْ بَرَدٍ﴾ أي إن جبال الغيوم الركامية تحوي شيئا من البرَد. ولكن قسما كبيرا من البرَد المتشكل يذوب قبل وصوله إلى الأرض، وقسما آخر يذوب داخل الغيمة. وهذا ما عبَّر عنه القرآن بقوله تعالى: ﴿فَيُصِيبُ بِهِ مَنْ يَشَاءُ وَيَصْرِفُهُ عَنْ مَنْ يَشَاءُ﴾. إذن الله تعالى يصيب بهذا البرَد من يشاء فتجد أن حبات البرد تبقى متجمدة حتى تصل إلى الأرض، ويصرف الله تعالى هذا البرد عمن يشاء من خلال ذوبان الجزء الأكبر من حبات البرد وعدم وصولها إلى الأرض. ولكن بقي شيء مهم يحدثنا عنه العلماء كما رأينا وهو موضوع البرق وارتباطه بالبرد. فالبيئة المناسبة لتشكل البرد هي ذاتها المناسبة لحدوث ومضة البرق، وهذا أيضا حدثنا عنه القرآن في نفس الآية في قوله تعالى: ﴿يَكَادُ سَنَا بَرْقِهِ يَذْهَبُ بِالأَبْصَارِ﴾. فتأمل أخي القارئ هذا التسلسل العجيب!

الإعجاز العلمي للآية

لنكتب الآن الآية كاملة ونَرَ الحقيقة العلمية الكاملة لظاهرة تشكل البرد: ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ يُزْجِي سَحَابًا ثُمَّ يُؤَلِّفُ بَيْنَهُ ثُمَّ يَجْعَلُهُ رُكَامًا فَتَرَى الْوَدْقَ يَخْرُجُ مِنْ خِلالِهِ وَيُنَزِّلُ مِنَ السَّمَاءِ مِنْ جِبَالٍ فِيهَا مِنْ بَرَدٍ فَيُصِيبُ بِهِ مَنْ يَشَاءُ وَيَصْرِفُهُ عَنْ مَنْ يَشَاءُ يَكَادُ سَنَا بَرْقِهِ يَذْهَبُ بِالأَبْصَارِ﴾(النور:٤٣). إن الذي يتأمل هذه الآية الكريمة يدرك مباشرة التطابق والتوافق الكامل مع معطيات العلم الحديث، ويدرك أيضا أنه لا اختلاف ولا تناقض بين الحقيقة العلمية اليقينية وبين النص القرآني. وفي هذا الدليلُ العلمي على أن القرآن إنما نزل بعلم الله ﷻ، وأنه لا ينبغي لبشر -ولا يستطيع أبدا- أن يتحدث عن هذه الظاهرة المعقدة بكل الدقة العلمية التي رأيناها.

والآن نلخص إعجاز الآية من خلال ذكرها لمراحل تشكل البرَد:

١-﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ يُزْجِي سَحَابًا﴾: إشارة إلى التيارات الهوائية التي تدفع وتسوق السحب باتجاه الأعلى.

٢-﴿ثُمَّ يُؤَلِّفُ بَيْنَهُ﴾: إشارة إلى تجميع الغيوم لتشكل تجمعات كبيرة من السحب.

٣-﴿ثُمَّ يَجْعَلُهُ رُكَامًا﴾: إشارة إلى تشكل الغيوم الركامية، أي المتراكم بعضها فوق بعض.

٤-﴿فَتَرَى الْوَدْقَ يَخْرُجُ مِنْ خِلالِهِ﴾: إشارة إلى تشكل قطرات المطر وخروجها من أجزاء الغيمة.

٥-﴿وَيُنَزِّلُ مِنَ السَّمَاءِ مِنْ جِبَالٍ فِيهَا مِنْ بَرَدٍ﴾: إشارة إلى الشكل الهندسي للغيوم الركامية، حيث تشبه الجبال في شكلها، وإشارة أيضا إلى أماكنِ تشكّلِ وتجمّعِ البرَد في أجزاء محددة من الغيوم وليس في كلها.

٦-﴿فَيُصِيبُ بِهِ مَنْ يَشَاءُ وَيَصْرِفُهُ عَنْ مَنْ يَشَاءُ﴾: إشارة إلى وصول جزء من البرَد إلى الأرض، وذوبان الجزء الآخر وعدم وصوله إلى الأرض.

٧-﴿يَكَادُ سَنَا بَرْقِهِ يَذْهَبُ بِالأَبْصَارِ﴾: أي يكاد ضوء البرق يذهب بالأبصار، وفي هذا إشارة لحدوث البرق في هذه البيئة التي تَشكّل فيها البرَد.

هذه المقاطع السبعة تُشكل آية عظيمة، تَحدث فيها الله تعالى عن تشكل البرد ومراحله وعلاقته بالبرق بكلمات في قمة البلاغة والبيان. ولكن العلماء استغرقوا عشرات السنين من البحث والتجارب، وبالنتيجة وصلوا إلى الحقائق ذاتها، والسؤال: أليس هذا إعجازا واضحا للآية الكريمة؟ إن هذه الحقائق دليلٌ على أن القرآن كتاب الله، ﴿وَلَوْ كَانَ مِنْ عِنْدِ غَيْرِ اللَّهِ لَوَجَدُوا فِيهِ اخْتِلافًا كَثِيرًا﴾(النساء:٨٢). ■

(*) أستاذ الإعجاز العلمي في القرآن والسنة في كليات الشريعة وأصول الدين/ سوريا.

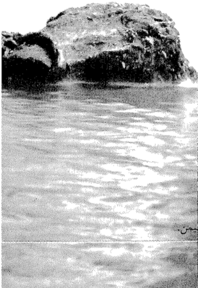


ترانيم مائية بلون الرؤى

(في ذكرى المولد الشريف)

د. محمد عبد الله الحجري*

كم عَذَّبَ الحُبُّ روحاً في الهوى وسَبَا   وشتَّتَ القلبَ حيراناً ومضطربا
إنْ يَذْكُر الحُبَّ، من فرطِ الجنونِ هفا   أو يَذْكُر الحِبَّ، من فرطِ الجوى وثَبَا
فالعقلُ في حُجُبٍ، والفكرُ في دَلَهٍ   والروحُ في سَقَمٍ، والقلبُ قيلَ كَبَا
للحبِّ منزلةٌ، فيك الهوى صَبَبا   أعلى مقاصِدِها بين الورى رُتَبَا
يا مصطفى الله، يا قصدي، ومعتمدي   يا أحمدَ الحبِّ، يا من حبُّه وجبا
حبٌّ لأجمل مَنْ رأى الخيالُ، ومن   هوى الفؤادُ، ومن للعقل قد سلبا
حبٌّ تملَّكني في كلِّ خاطرةٍ   أنَّى ذهبتُ فقلبي فيه قد ذهبا
حبٌّ عرفتُ به معنى الحياةِ إذا   معنى المماتِ ومعنى الغيبِ قد حُجبا
يا قبلةَ الناسِ حين الناسُ زلزلَهم   رعبُ القيامةِ: مِنْ هَوْلِ اللظى رَهَبَا
يا مَفْزَعَ الخلق إن ضاقت بهم سُبُلٌ   إذا الرفيقُ تولى ثَمَّ أو هربا
يا روضةَ الصحبِ عند الحوضِ تجمعُهم   يا ملتقى مَن رجا أو تاب أو طلبا
لي في هواك تراتيلٌ شُغِفْتُ بها   قيَّدتُ روحي لها في الله مُحتسِبا
إن دلَّه القلبُ في حبِّ النبي فما   أحْرَاهُ، أو هامَ مجنوناً به وصَبَا
ما ضَرَّ عاشقَهُ أنْ يرتمي شَغَفا   في سَكْرةِ الحبِّ مأخوذًا ومنسكبا
من علَّم الحبَّ والإيمانَ مجتهدًا   ما واهبٌ وَهَبَ الحُبَّ الذي وهبا
المصطفى خُلُقا، المصطفى وَرَعا   المصطفى حَسَبا، المصطفى نَسَبا
قد أُعلن الحقُّ في كل الرُّبا فرحاً:   قد اصطفى اللهُ طه، واصطفى العربا
يا سيدي يا رسول الله، أيُّ هوىً   يجري بروحي، فيسري ملأها طربا
أنتَ الأخُ الناصحُ، الوافي، وأنت أبٌ   أحببتُ فيك أخاً، أحببت فيك أبا
أنتَ الذي أخلص المولى محبتَهُ   أنتَ الذي صَدَقَ التقوى وما كَذَبَا
جَهِدْتَ أن يبلغَ الإنسانُ مبلغَه   في صحةِ الدينِ والدنيا كما وَجَبَا
جاهدتَ في الله طاغوتاً وطاغيةً   حطَّمتَ بالحق جباراً ومغتصبا
بَيَّنْتَ للناسِ هَوْلَ الأمرِ عاقبةً:   كلُّ امرئ نائلٌ ما اختار ما اكتسبا:
فالمقسطون لهم في الله مأملهم   والقاسطون فكانوا للظى حطبا
والخائنون لهم في النار أسفلها   من لّم يمعرْ لِحَقٍّ وجهَهُ غضبا
ما قدوتي في الملا إلاك يا مثلي   إذ كنتَ لي في هوى دينِ الهدى سببا
يا رَبِّ وَجِّهْ فؤادي في العُلا مثلاً   واجعلْ نبيَّك والقرآنَ لي أدبا
ربيعَ قلبٍ وصدرٍ بالعَنا زللاً   ورَوْحَ حزنٍ وهمٍّ في الأسى ذهبا
هدي البساتين من شعري لكم زهرا   أسعى بها سائلاً صَبًّا ومُطَّلِبا
فربي إلى الله [illegible] يغفر بها زللي   أدعوه [illegible]





الخصائص المنهجية لثقافة السلام

عند الأستاذ النورسي

د. مولاي المصطفى الهند*

إن ثقافة السلام المبثوثة في رسائل النور عبارة عن تلك القيم الحضارية الإسلامية السامية التي تعتبر أكبر من مجرد حقوق يجب أن تصان، وإنما هي أصل من أصول العقيدة السمحة، وعنصر من عناصر التربية الإسلامية الفريدة التي تسهم في بناء الفرد المسالم والمجتمع الآمن. فجاء عرضنا المختصر هذا ليجلّيها ويقف عندها، إسهاما في توضيح منهج الأستاذ النورسي في معالجة المشاكل الاجتماعية التي تتخبط فيها المجتمعات البشرية اليوم، وبيان الصورة الفعلية لروح الإسلام، ذلكم الدين الذي يأمر أهله بإلقاء تحية السلام على من يعرفون ومن لا يعرفون.

حقيقة العداء ووجوهه

حين أراد العلامة النورسي رحمه الله أن ينبه الأمة الإسلامية إلى بعض المظاهر الاجتماعية الخطيرة التي يمكن أن تنشأ بين المسلمين، استعمل مصطلح "العداء". فالعداء لا يعني فقط الظلم وتجاوز الحد، بل يعني كذلك الفساد والمنع والبعد. وبهذا يكاد يجمع النقائص كلها، فيحدث شرخا بين أفراد المجتمع. ومن هنا عبر الإمام النورسي عن مفهوم العداء فقال: "إن العداء ظلم شنيع يفسد حياة البشر الشخصية والاجتماعية والمعنوية، بل هو سمّ زعاف لحياة البشرية قاطبة". فاعتَبر العداء مرفوضا بكل المقاييس؛ "ترفضه الحقيقة والحكمة، ويرفضه الإسلام الذي يمثل روح الإنسانية الكبرى".

وقد ذكر لهذه الحقيقة ستة أوجه:

الأول: إن عداء الإنسان لأخيه الإنسان ظلم في نظر الحقيقة؛ فكما لا يجوز إغراق سفينة برمتها تضم مجرمين طالما فيها بريء واحد، فإنه لا يجوز كذلك أن يحمل الإنسان لأخيه الإنسان في نفسه العداء والحقد لمجرد صفة إجرامية واحدة فيه. وموقفه هذا واضح لكونه يعتبر الإنسان بناء ربانيا وسفينة إلهية. وهذه لمحة فلسفية عميقة قلّما نجدها في الفكر الإسلامي.

الثاني: إن العداء ظلم في نظر الحكمة، إذ العداء والمحبة نقيضان، فهما كالنور والظلام لا يجتمعان معا بمعناهما الحقيقي أبدا. فإذا ما اجتمعت دواعي المحبة وترجحت أسبابها فأرست أسسها في القلب، استحالت العداوة إلى عداء صوري، بل انقلبت إلى صورة العطف والإشفاق، إذ المؤمن يحب أخاه، وعليه أن يوده، فأيما تصّرف مشين يصدر من أخيه يحمله على الإشفاق عليه، وعلى الجد في محاولة إصلاحه باللين والرفق دون اللجوء إلى القوة والتحكم. أما إذا تغلبت أسباب العداوة والبغضاء وتمكنت في القلب، فإن المحبة تنقلب عندئذ إلى محبة شكلية تلبس لبوس التصنع والتملق.

ونبه الأستاذ إلى ما يرتكبه الإنسان من ظلم في حق أخيه الإنسان حين يستعظم زلات صدرت منه في حقه، ويستهول هفوات وسلوكات مشينة ارتكبها. فمهما ارتكب الإنسان المؤمن في حق أخيه المؤمن من أخطاء وزلات فإنها جد بسيطة إذا ما قورنت بعظمة إيمانه وسمو إسلامه.

ومن هنا جاءت دعوته إلى وحدة المجتمع الذي هو من مقتضيات وحدة العقيدة التي ترتبط بوحدة قلوب المؤمنين، فقال رحمه الله: "إن خالقكما واحد، مالككما واحد، معبودكما واحد، رازقكما واحد... وهكذا واحد، واحد... إلى أن تبلغ الألف. ثم إن نبيكما واحد، دينكما واحد، قبلتكما واحدة... وهكذا واحد، واحد... إلى أن تبلغ المائة. ثم إنكما تعيشان معا في قرية واحدة، تحت ظل دولة واحدة، في بلاد واحدة... وهكذا واحد، واحد إلى أن تبلغ العشرة".

الثالث: العدالة المحضة الواردة في الآية الكريمة: ﴿وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَى﴾(الأنعام:١٦٤)؛ حيث لا يجوز أن يعاقَب إنسان بجريرة غيره. ويوضح كيف أن العداء الذي يحمله الإنسان المؤمن بين جنبيه تجاه أخيه المؤمن هو ظلم عظيم، لأنه إدانة لجميع الصفات البريئة الطاهرة التي يتصف بها. وبما أن الظلم لا يجر وراءه إلا المفاسد والمهالك، فإن هذه المفاسد هي سبب العداء والبغضاء، وهي كثيفة في نظر الحقيقة، "وشأن الكثيف أنه لا يسري ولا ينعكس إلى الغير -إلا ما يتعلمه الإنسان من شر من الآخرين- بينما البر والإحسان وغيرهما من أسباب المحبة، فهي لطيفة كالنور وكالمحبة نفسها، ومن شأن النور الانعكاس والسريان إلى الغير".

الرابع: إن العداء للمؤمن ظلم مبين من حيث الحياة الشخصية، ووضّح هذه الفكرة من خلال جملة من الدساتير:

- إن الإنسان له أن يدّعي أن مسلكه حق أو هو أفضل، لكن لا يجوز أن يدعي أن الحق مسلكه هو فحسب، لأن نظره الناقص لا يخول له ذلك، وهذا تنبيه له حتى لا يقع في خطأ تجاه أخيه الإنسان.
- عليك أن تقول الحقَّ في كل ما تقول، ولكن ليس لك أن تذيع كل الحقائق. وعليك أن تصدُق في كل ما تتكلمه، ولكن ليس صوابا أن تقول كل صدق.
- كل من يريد العداء، عليه أن يبدأ بعداوة ما في قلبه وما تحمله نفسه، فبهذا فليبدأ، وبعد ذلك يمكنه أن يعادي خصمه، وإن أردت أن تغلب خصمك فادفع سيئته بالحسنة، فبه تخمد نار الخصومة. أما إذا قابلت إساءته بمثلها فالخصومة تزداد، حتى لو أصبح مغلوبا -ظاهرا- فقلبه يمتلئ غيظا عليك، فالعداء يدوم، والشحناء تستمر.
- مرض الحسد يأكل الحسنات كما تأكل النار الحطب، ويأتي على الأخضر واليابس في حقل العلاقات الاجتماعية. فالحاسد يعذب نفسه عذابا أليما، ولا يلحق المحسود شيء منه؛ فإذا كان ناشئا عن أمور دنيوية فالأحرى للحاسد أن لا يهتم به لأنها أمور زائلة وفانية، وإذا كان منشؤه عن دوافع أخروية فليس فيها حسد أصلا.

وفي حالِ إذا مست الإنسانَ المسلم إساءة من أخيه المسلم، فلا يجب عليه أن يدينه وحده، لأن عوامل أخرى تتدخل في الموضوع، منها:

أ-القدر الإلهي له حظه في الأمر، فعليك أن تستقبل حظ القدَر هذا بالرضى والتسليم.

ب-إن للشيطان والنفس الأمارة بالسوء حظهما كذلك. فإذا ما أخرجتَ هاتين الحصتين لا يبقى أمامك إلا الإشفاق على أخيك بدلا من عدائه. لأنك تراه مغلوبا على أمره أمام نفسه وشيطانه. فتنتظـرُ منه بعد ذلك الندمَ على فعلته، وتأملُ عودته إلى صوابه.

جـ-عليك أن تلاحظ في هذا الأمر تقصيرات نفسك، تلك الـتي لا تراها أو لا ترغب أن تراها، فاعزل هذه الحصة أيضا مع الحصتين السابقتين، تر الباقي حصة ضئيلة جزئية، فإذا استقبلتها بهمة عالية وشهامة رفيعة أي بالعفو والصفح، تنجو من ارتكاب ظلم وتتخلص من إيذاء الآخرين.

الخامس: مدى الضرر البالغ الذي يصيب الحياة الاجتماعية جراء العناد والتنافر والتفرقة؛ وردّ على أولئك الذين يستشهدون بحديث الرسـول ﷺ: "اختلاف أمتي رحمـة"، ويتخذونه مطية لتبرير النـزاع والشقاق والاختلاف، ففسر الحديث تفسيرا ينمّ عـن حظه الوافر في فقه الحديث فقال: "إن الاختلاف الوارد في الحديث هو الاختلاف الإيجابي البنّاء المثبت. ومعناه أن يسـعى كل واحد لترويج مسلكه وإظهار صحة وجهته وصواب نظرته، لإكمال النقص ورأب الصدع والإصلاح ما استطاع إليه سبيلا. أمـا الاختلاف السـلبي فهو محاولة كل واحد تخريب مسـلك الآخرين وهدمه، ومبعثه الحقد والضغينة والعداوة، وهذا مردود أصلا في نظر الحديث، حيث المتنازعون والمختلفون يعجزون عن القيام بأي عمل إيجابي بناء".

وختم النورسـي هذا الوجه الخامس بتوجيه نداء إيماني حار إلى أهل الإيمان والإسـلام ينبههم فيه إلى مكامن القوة والضعف عندهم، ويجلّي لهم الفوارق بين العزة والذل، وكيف أن تضخيم صوت "أنا" في النفس قد يكون سـببا مباشـرا في هلاك الأمة، وهكذا قـال: "أيها المؤمنـون! إن كنتم تريـدون حقا الحياةَ العزيزة، وترفضون الرضوخ لأغـلال الذل والهوان، فأفيقوا من رقدتكم، وعودوا إلى رشدكم، وادخلوا القلعة الحصينة المقدسة: ﴿إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ﴾(الحجرات:١٠)، وحصنوا أنفسـكم بها من أيدي أولئك الظلمة الذين يسـتغلون خلافاتكم الداخلية. وإلا فسـتعجزون عن الدفاع عن حقوقكم بل حتى عن الحفاظ على حياتكم، إذ لا يخفى أن طفلا صغيرا يسـتطيع أن يضرب بطلين يتصارعان، وأن حصاة صغيرة تلعـب دورا في رفع كفة ميزان وخفض الأخرى، ولو كان فيهما جبلان متوازنان".

السـادس: كان مقتضبـا ومختصرا، تنـاول فيه الإخلاصَ باعتباره وسـيلة ناجعة لما يمكن أن يصدر من الإنسـان المسلم مـن عداء وظلم تجاه العباد. وأشـار إلى أمر خفي مهم لا يكاد ينتبه إليه الكثـير من الناس، وهو أن المعاند الذي ينحاز إلى رأيه وجماعتـه يروم التفـوق على خصمه حتى في أعمـال البر التي يزاولهـا. فلا يوفَّق توفيقا كامـلا إلى عمل خالص لوجه الله. ثم إنـه لا يوفق أيضا إلى العدالة، إذ يرجـح الموالين لرأيه الموافقين لـه في أحكامه ومعاملاته على غيرهم. وهكذا يَضيع أساسـان مهمان لبنـاء البر: "الإخـلاص والعدالة" بالخصـام والعداء.

وبهذه المقارنة الشـمولية استطاع أن يؤسس لنا تصورا رفيعا لبناء علاقة اجتماعية تسـودها المحبة والسلام والألفة والأخوة، تكونُ هي السـقف التربوي التي تعول عليها البشـرية -بما فيها الأمة الإسلامية- لتحيا في أمن وطمأنينة وسلام.

حقيقة التعارف بين الشعوب

أورد النورسي الآية الكريمة: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُمْ مِنْ ذَكَرٍ وَأُنْثَى وَجَعَلْنَاكُمْ شُـعُوبًا وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا﴾(الحجرات:١٣)، واتخذها سقفا معرفيا لتصوره لحقيقة التعارف بين الشعوب كما هو وارد في الشـريعة الإسلامية السمحة، وشبه المجتمع الإسلامي بقبائله وطوائفه بجيش مقسـم إلى فيالق وفرق وألوية وأفواج وسـرايا وفصائـل وحظائر، ومـا هذا التقسـيم إلا ليَعرف كل جندي واجباته حسب تلك العلاقة المختلفة المتعددة من جهة، ولتصان حياتهم من هجوم الأعداء من جهة ثانية.

الإجراءات التربوية والإيمانية للتعايش السلمي

حدد الأسـتاذ لتطبيق التعايش السلمي بين الناس في مجموعة من الضوابط والمعـالم التربوية والإيمانية ذات النفع الكبير على الفرد والمجتمع، نجمل بعضها فيما يلي:

أ-الإيمان: اعتبر الأسـتاذ الإيمان أسمـى غاية للخلق وأعظم نتيجة للفطرة، وأفضل مقام للبشرية. ومن هنا دعا رحمه الله الناس إلى معرفة الله ﷻ والإيمان به، لأن هذا من شـأنه أن يريحهم من العنت والضنك الذي يعيشونه في حياتهم الخاصة والعامة، ويجعل المجتمعات البشرية تعرف أنواع السعادة الحقة والسرور الخالص،

فتعيش في أمن وأمان واستقرار تحت رحمة الخالق سبحانه.

وأكد على أن كل من عرف الله تعالى حق المعرفة، وملأ قلبه من نور محبته، سيكون أهلا لسعادة لا تنتهي ولنعمة لا تنضُب ولأنوار وأسرار لا تنفد، وسينالها إما فعلا وواقعا أو استعدادا وقابلية.

ب- الإخلاص: اعتنى الأستاذ في رسائله بالإخلاص أيما عناية، اعتقادا منه أن فيه أنوارا مشعة وقوى رصينة كثيرة من شأنها أن توثق عرى المحبة والأخوة بين الناس.

ونظرا لأهمية الإخلاص في حياة الإنسان، جعل له الأستاذ أربعة دساتير اتخذت صفة توجيهات تربوية لعموم المسلمين، نجملها كالآتي:

- ابتغاء مرضاة الله في العمل، فإذا رضي هو سبحانه فلا قيمة لإعراض العالم أجمع ولا أهمية له.
- عدم انتقاد من يعمل في هذه الخدمة القرآنية، وعدم إثارة نوازع الغبطة بالتفاخر والاستعلاء.
- القوة في الحق والإخلاص، حتى إن أهل الباطل يحرزون القوة لِما يبدون من ثبات وإخلاص في باطلهم.
- الافتخار -مع الشكر- بمزايا الإخوان، وتصورها في الأنفس.

جـ- الأخوّة: تحدث الأستاذ عن الأخوّة واعتبرها دستورا جميلا يجب الاعتماد عليه لتجاوز الكثير من المشاكل والعراقيل بين الناس، وهو ينبثق من الدستور الإلهي: ﴿إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ﴾(الحجرات:١٠).

والذي يميز مفهومه للأخوّة عن غيره من العلماء هو استخدامه لتعبير دال عن المعنى العميق للأخوة، وذلكم هو اصطلاحه "الفناء في الإخوان" أي أن يفنى كل في الآخر، "بأن ينسى كل أخ حسياته النفسانية ويعيش -فكرا- مع مزايا إخوانه وفضائلهم. حيث إن أساس مسلكنا ومنهجنا هو "الأخوّة في الله"، وإن العلاقات التي تربطنا هي الأخوة الحقيقية، وليست علاقة الأب مع الابن ولا علاقة الشيخ مع المريد. وإن كان لابد فمجرد العلاقة بالأستاذ. وما دام مسلكنا هو "الخليلية" فمشربنا إذن "الخلة". والخلة تقتضي صديقا صدوقا ورفيقا مضحيا وأخا شهما غيورا. وأسُّ الأساس لهذه الخلة هو "الإخلاص التام". فمن يقصّر منكم فيه فقد هوى من على برج الخلة العالي، ولربما يتردى في واد سحيق، إذ لا موضع في المنتصف".

د- المحبة: وهي ركن أساس في العلاقة الاجتماعية بين الناس، ولا يمكن تصور مجتمع يعيش في أمن واطمئنان دون الحديث عن المحبة التي تعمر قلوب أصحابه ونفوسهم. ولهذا أولاها أهمية خاصة في رسائله النورانية، واتخذ منها نبراسا يَهتدي بنوره طلابُه والإنسانية جمعاء. ولا غرابة أن نجده يعتبر المحبة سر الوجود والكائنات، وأضفى عليها مسحة تربوية رفيعة، حيث ربط بينها وبين القصد منها، فإن كانت محبةً لله دامت واتصلت وآتت أكلها في الدنيا والآخرة، وإن كانت لغير ذلك فهي غير نافعة ولا أثر لها.

ومن هنا فإنه تحدث عن المحبة في جميع علاقات الإنسان الاجتماعية، ووثقها بخيط نوراني رفيع يتصل بالخالق ﷻ، فأكد على أن محبة هذا الإنسان للوالدين واحترامهما، إنما يعودان إلى محبته لله سبحانه؛ إذ هو الذي غرس فيهما الرحمة والشفقة حتى قاما برعايته وتربيته بكل رحمة وحكمة. وعلامة كونها محبة لوجه الله تعالى هي المبالغة في محبتهما واحترامهما عندما يبلغان الكبر ولا يبقى له فيهما من مطمع.

أما محبة الأولاد فهي كذلك محبة لله تعالى وتعود إليه، وذلك بالقيام برعايتهم بكمال الشفقة والرحمة بكونهم هبة من الرحيم الكريم. ثم إن محبة الزوجة وهي رفيقة الحياة، فعلى الإنسان أن يحبها على أنها هدية أنيسة لطيفة من هدايا الرحمة الإلهية. وعليه أن لا يربط محبته لها برباط الجمال الظاهري السريع الزوال، بل يوثقها بالجمال الذي لا يزول، بل يزدادُ تألقا يوما بعد يوم، وهو جمال الأخلاق والسيرة الطيبة المنغرزة في أنوثتها ورقّتها. والحياة أيضا التي وهبها الله ﷻ للإنسان هي رأس مال عظيم يستطيع أن يكسب به الحياة الأخروية الباقية. من هنا فالمحافظة عليها ومحبتها من هذه الزاوية، وتسخيرها في سبيل المولى ﷻ تعود إلى الله سبحانه أيضا. وهكذا فإن جميع ما ذكرناه من أنواع المحبة، إن وُجهت الوجهةَ الصائبة، أي عندما تكون لله وفي سبيله، فإنها تورث لذة حقيقية بلا ألم، وتكون وصالا حقا بلا زوال، بل تزيد محبة الله ﷻ، فضلا عن أنها محبة مشروعة وشكر لله في اللذة نفسها، وفكر في آلائه في المحبة عينها.

هـ- الصدق: اعتبره الأستاذ حجر الزاوية في الحياة الاجتماعية للإنسان، وبه يداوي أمراضه المعنوية. وأكد على أن

الكذب من قبيل المداهنة والتصنع دنيء ومرفوض، فاختلط الحق بالباطل، وتاه الناس عن سبيل الله المستقيم، فاختلطت كمالات البشرية بسفاسفها ونقائصها، وعمت المجتمعات البشرية فوضى واضطرابات عذبت الإنسانية عذابا شديدا في روحها ونفسها وقلبها.

و-الأمل واستشراف المستقبل: نظر الأستاذ إلى الإنسان نظرة جامعة تخرجه من ضيق الدنيا إلى سعتها وسعة الآخرة، وأكد على أن مقام الإنسان الراقي بسجاياه السامية لا يتحقق إلا إذا تجاوز حاضره الضيق الذي يجعله في علاقة اجتماعية محدودة الأثر والنتائج، فلا يرقى أبدا إلى مرتبة الصدق في الوفاء، ولا إلى مكانة الإخلاص في الصداقة، ولا إلى درجة الود في المحبة، ولا إلى الاحترام المبرأ من الغرض في الخدمة.

ومن هنا تأتي دعوة الأستاذ الإنسانَ إلى تغيير منطق تعامله مع محيطه الاجتماعي بأمل كبير واستشراف مستقبليّ من نوع فريد وخاص، أجمَله -رحمه الله- في كلمتين اثنتين: "الإيمان بالآخرة". هذا الإيمان الذي يعتبر إكسيرَ حياةِ البشر، وما إن يأتي "الإيمان بالآخرة" إلى هذا الإنسان لينقذه ويمده ويغيثه، حتى يحوّل ذلك الزمن الضيق -الشبيه بالقبر- إلى زمان فسيح واسع جدا بحيث يستوعب الماضي والمستقبل معا، ولا يجعل هذه الدائرة الحياتية الواسعة الفسيحة -وما فيها من علاقات وخدمات مهمة- وسيلة لأمور تافهة دنيوية ولا لأغراضها الجزئية ومنافعها الزهيدة.■

(*) جامعة الحسن الثاني / المغرب.

المصادر

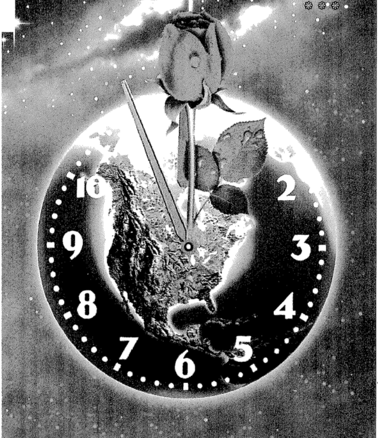
[1] لسان العرب، لابن منظور، دار صادر، بيروت ١٩٩٤.
[2] الكلمات، لبديع الزمان سعيد النورسي، ترجمة: إحسان قاسم الصالحي، دار سوزلر للنشر، القاهرة.
[3] الشعاعات، لبديع الزمان سعيد النورسي، ترجمة: إحسان قاسم الصالحي، دار سوزلر للنشر، القاهرة.
[4] اللمعات، لبديع الزمان سعيد النورسي، ترجمة: إحسان قاسم الصالحي، دار سوزلر للنشر، القاهرة.
[5] المكتوبات، لبديع الزمان سعيد النورسي، ترجمة: إحسان قاسم الصالحي، دار سوزلر للنشر، القاهرة.

حراء
مجلة علمية ثقافية فصلية
www.hiramagazine.com

من وحي الساعة

يا وردة الأفئدة،
يا فوَّاحة العطر،
يا عالية القدر،
يا قمة فوق القمم..
ها نحن قادمون..
أميال ساعتنا،
إليكِ تشير،
قادمون، وإليكِ سائرون..
ومهما تباطأ الخطو،
غير أننا سائرون..
وللمسافات قاطعون...

* * *



على صعيد الدنيا كان ﷺ يدرج، غير أنها لم تستطع أن تحجب بصيرته عن جلال الأزل والأبد، يا لَقلبه العظيم! برب الزمان والمكان كان معلّقاً، وبين الخلق والخالق يروح ويغدو؛ جائعاً يظلُّ ليشبعَ الآخرون، فقيراً يبقى ليغنىَ المعدِمون.



الأسوة الحسنة
ودورها في التربية الناجحة

أ.د. هارون أوجي*

مهما يكن لدى المرء من قدرات ومواهب وأساليب يستثمرها لتربية ذاته وتزكيتها، فإنه لا يستغني عن وجود قدوة من بني جنسه تكون له نبراسا في سيره إلى ربه. فعليه أن يحرص على اختيار شخص استجمع قدرا كبيرا من الفضل والتقوى يكون قدوة له في أمور الخير والهدى ويرجع إليه في السراء والضراء مستفيدا من رأيه ومشورته فيما يلم به من أحداث ومواقف. فللقدوة تأثير كبير في تكوين شخصية الفرد وصقلها حيث إن الإنسان ميال بطبعه إلى التقليد والمحاكاة، وفي التربية الإسلامية يتحول هذا التقليد ويرتقي إلى مفهوم راق يطلق عليه "الاتباع"، وأرقى هذا الاتباع ما كان على بصيرة. يقول الحق ﷻ: ﴿قُلْ هَذِهِ سَبِيلِي أَدْعُو إِلَى اللهِ عَلَى بَصِيرَةٍ أَنَا وَمَنِ اتَّبَعَنِي﴾(يوسف:١٠٨). فالاتباع عملية فكرية يمزج فيها بين الوعي والانتماء والمحاكاة والاعتزاز في ظل البصيرة والحجة.

القدوة وإحراز الأهداف

نعم، هنالك الكثير من الأفكار والطموحات -بدءا بالأعمال اليومية والمشاريع العادية، وصولا إلى الأهداف السامية والمطالب العالية- لاقينا دون تحقيقها عراقيل وصعوبات، وفشلنا في إكمالها، بل منها ما لم نتجاوز بها مرحلة التصور والخيال.

ومع أن عديدا من العوامل لها تأثير مباشر في تحقيق الأهداف، لكن لا مـراء في أن أقرب الطرق وأسـلمها للوصول إليها هو اتخـاذ قدوة صالحة، والاحتذاء بحذوه، والاسـتفادة من تجاربه، والاستنارة بمعارفه. وإذا كان هناك من يستطيع أن يكون سعيدا حتى في الظروف القاسية، فإن بإمكاننا أن نكون سعداء مثله بمجرد التعرف على إستراتيجيته في كيفية النظر إلى الأشياء والأحداث. والذي يسـتطيع أن ينهض من نومه مبكرا نشيطا مفعما بالطاقة والحيوية، فإنما يتيسـر له ذلك بفضل أعمال وتصرفات يقوم بها. فمتابعة أمثال هؤلاء قد تؤدي بنا إلى نفس النتيجة التي وصلوا إليها.

والحقيقة أننـا في مراحل مختلفة من حياتنا نسـتلهم العديدَ من الأشـخاص، فتكون في طريقة تفكيرنا وتصوراتنا وتصرفاتنا بصمات واضحة منهم على قدر علاقتنا بهم. فلا غرو أن يبرز في ملامح شخصيتنا أمور تلقيناها من أبينا أو أمنا أو كليهما أو من مدرسنا أو من شخص تقي ورع متدين. ففي كل موقف تطفو على السطح تجربة تلقيناها من أحد هؤلاء، مما ينم عن مدى تأثرنا به واستفادتنا منه. فحق ما قيل: "المرء ابن بيئته وخلاصة تجاربه".

ومن جانـب آخر نجد في مجتمعاتنا مـن انحرف، فعاش في بداية أمره تجارب تافهة وسلبية، ولكنه ثاب -أخيرا- إلى رشده وبحث عن مرشد يعينه على تسـوية وضعه وإصلاح أمره، وفي نهايـة المطاف فاز به فعلا. علما بأن في أوضاع الناس -صالحهم وطالحهم- دروسا وعبرا يستخرجها الكيس الفطن.

الإنسان مجبول على التأسي

والحقيقة أننا نتأسـى دائما في مختلف مراحـل حياتنا؛ فالطفل يقوم بالاقتداء بالكبار باعتبارهم مثله الأعلى، ويبدأ باكتسـاب العادات والتقاليد والملكات من خلال ما يسـمعه ويلاحظه من أقـوال وحركات وانفعالات. فيندفع برغبة خفية لا يشـعر بها نحو محاكاة من يعجب به في لهجة الحديث أو أسـلوب الحركة والمعاملة. والتلميذ يتدرب على الصنعة بالتأسي بالأستاذ والمعلم. وأنتم إذا كنتم لا تتقنون النطق بألفاظ، فعليكم التأسي بأشخاص يتقنونها، فقد تكونون مثلهم في غضون وقت قصير للغاية. فالذي يقلد خطيبا مفوها بصوته وإيقاعاته ونبراته يبدأ شـيئا فشـيئا بالإحسـاس بالثقة بالنفس. ومن أراد الاستفادة من الأحاسيس القوية والمشاعر الجياشـة التي يتمتع بها، فعليه أن يبدأ بالأمر من محاكاة أحد الذين يعجب بهم. وإذا كنتم تعرفون أناسا يحسنون الاتصال والتعامل مع أولادهم فبإمكانكم متابعتهم والاسـتفادة من تجربتهم. فنحن نسـتطيع التشبه بمن نعجب به بالاحتذاء به؛ بأن نؤمن مثله ونفكر على طرازه ونتكلم بسـليقته ونثابر على شاكلته ونتخلق بأخلاقه.

نعم، لا مـراء في أن بعض المهام معقدة ومتشـابكة بحيث يستغرق التأسـي والاقتداء بمن يحسنونها والقيام بمثل ما قاموا به وقتا طويلا، إلا أنه إذا كان لدى الإنسان الذي يريد التأسي من العزيمة والإيمان ما يسند هذه الإرادة ويدعمها فإنه سيحقق ذلك إن عاجلا أو آجلا.

إن التأسـي أسرع من طريقة التجربة والخطأ في الوصول إلى الهدف المطلـوب، فرب أعمال وإنجازات صرف عليها أصحابها عمرا ثمينا ومبالغ باهظة، يسـتطيع الإنسـان أن يحققها في زمن قصير جدا، وذلك بالمتابعة الحثيثة والتأسي الفعال والسير في نفس الطريق الذي سلكوه.

واليابانيون هم أكبر المقلدين في العالم، فالسـر الذي يكمن وراء النجاح الباهر لاقتصاد اليابان ليس هو الاختراعات الفريدة، بـل إنهم يبدؤون من العمل بأخذ المنتجات والأفكار من شـتى الجهات وعلى نطاق واسـع، سـواء في مجال قطاع السيارات وأنصـاف الموصلات أو غيرها، وبتصميـم دقيق يحافظون على العناصر المهمة في تلك الأفـكار والمنتجات ويطوّرون الجوانب الأخرى. صحيح أنه لابد من بـذل الجهد لاختراعات جديدة وكشوفات مبتكرة، ولكن لا يعني ذلك أننا سنضرب صفحا عمّا تم اختراعه، وسنحاول كشفه من جديد.

ولابد للإنسـان من القدوة الصالحة في أمور معاشه وحياته الدنيوية لكي يعيش حياة مثالية؛ فالإنسـان الذي ليس له قدوة صالحة لن يهتدي إلى الصواب في الحقيقة، ولن يكون على بصيرة من أمـره وواثقاً من كونه على الحق والصـواب، ولن يتفلت من الوساوس والشكوك حول الوصول إلى أهدافه؛ فمثله كمثل سفينة في خضم بحر محيط تمخر بدون بوصلة، فلا غرو أنها ستتيه بين ألف وجهة ووجهة. فهكذا الحياة؛ عروقها متشعبة وأساليبها متنوعة يحتاج سالكها إلى مرشد رشيد.

الرسول ﷺ قدوة القدوات

فنحـن في علاقاتنا مـع أولادنا وأبوينا وأزواجنـا، وفي مأكلنا ومشربنا وعباداتنا ودعواتنا وسـائر أعمالنا أحرار، نستطيع أن

نتصرف كما نشاء. وبذلك قد نسمو إلى العلا وقد نهبط إلى الحضيض، ونحسن أو نسيء. ولكن علينا أن لا ننسى أن الذي خلق الإنسان في أحسن تقويم لم يتركه سدى، و لم يدَعْه بدون أسوة، سائبا يسرح ويمرح في الحياة من دون هاد أمين، بل هداه بالقرآن إلى الأسوة الحسنة، كما في قوله تعالى: ﴿لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ اللهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِمَنْ كَانَ يَرْجُو اللهَ وَالْيَوْمَ الآخِرَ وَذَكَرَ اللهَ كَثِيراً﴾(الأحزاب:٢١) و﴿قُلْ إِنْ كُنْتُمْ تُحِبُّونَ اللهَ فَاتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ اللهُ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَاللهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾(آل عمران:٣١) . فهاتان الآيتان وغيرهما تشير إلى أن الطريق الآمن والدرب الموصل إلى المطالب إنما هو اتخاذ القدوة الصالحة واتباع الأسوة الحسنة. وهل هناك طريق أسلم من التأسي بسيدنا محمد ﷺ الذي اتفق الصديق والعدو على أنه كان في قمة الأخلاق الحسنة.

وفي شخصية الرسول ﷺ وسيرته يجد المرء الأسوة الحسنة في حياته كلها؛ فهو إنسان أكرمه الله ﷺ برسالته، وسيرته شاملة لكل النواحي الإنسانية في الإنسان، فهو الشاب الأمين قبل البعثة والتاجر الصادق، وهو الباذل لكل طاقته في تبليغ دعوة ربه، وهو الأب الرحيم والزوج المحبوب والقائد المحنك والصديق المخلص والمربي المرشد والحاكم العادل. كما أنه ﷺ ضرب المثل الأعلى في تربية الذات من جميع النواحي سواء في عبادته أو زهده أو خلقه الكريم أو غير ذلك. والمتأمل لسيرته يجد الحل الأمثل لكل المعضلات التي تقف حائلا دون إشباع الروح وبلوغ صفائها ونقائها.

فقد ولد ﷺ وبزغت شمسه في عصر مظلم محلولك تراكمت فيه العقائد الزائفة والمشاكل الاجتماعية؛ فكان الناس يعبدون الشجر والحجر، والشمس والقمر، حتى إن بعضهم كان يصنع من المأكولات مثل الحلوى والجبن صنما، فإذا جاع عاد ليأكله. وكان أحدهم إذا بُشّر بالأنثى ﴿ظَلَّ وَجْهُهُ مُسْوَدًّا وَهُوَ كَظِيمٌ ۝ يَتَوَارَى مِنَ الْقَوْمِ مِنْ سُوءِ مَا بُشِّرَ بِهِ أَيُمْسِكُهُ عَلَى هُونٍ أَمْ يَدُسُّهُ فِي التُّرَابِ﴾(النحل:٥٨-٥٩)، وكانت الأخلاق الرذيلة والأفعال الشنيعة -مثل الزنا والميسر وتعاطي الخمور والتعامل بالربا- كأنها تصرفات عادية في المجتمع. ولكنه ﷺ استطاع في زمن قصير أن يقضي عليها كلها، ويرسي بدلا عنها فكرةَ أن غاية خلق الإنسان هو التعرف إلى الله والقيام بالعبودية له، فعلّم الناس وربّاهم على سبل العيش المتوازن بعيدا عن الإفراط والتفريط، وإخلاص الأعمال لله تعالى، وملازمة الصدق، والوفاء بالعهود، وعدم الخيانة عند الائتمان، والشفقة على الأهل، والرفق بالنساء. وأرشدهم إلى العدل والتواضع والسخاء والمعروف والبر والحلم والصبر.

فالذين أحبوه واتبعوا مبادئه واقتدوا به واتخذوه أسوة في ذلك العصر، بنوا حضارة إنسانية يتمتع فيها الإنسان بإنسانيته ويحس بكرامته.. حضارة أحرزوا فيها شأوا أعلى لم تبلغ إليه حضارة بعدهم حتى الآن. ومن بعد ذلك أنشئت عشرات من الدول على خطى النظام الذي جاء به مثل الدولة الأموية والعباسية والسلجوقية والقره خانية والعثمانية. وكم نشأ وترعرع في ظل تلك الدول علماء دهاة اهتدوا بهديه ﷺ وسبقوا عصورهم وألقوا بضيائهم إلى أيامنا هذه، وأبطالُ روح عاشوا في أبعادٍ ماورائية، وأدباء مصاقع وأساتذة بيان.

فها هم سادتنا أبو بكر وعمر وعثمان وعلي وأبو عبيدة وعقبة بن نافع رضي الله عنهم وطارق بن زياد والإمام أبو يوسف ومحمد بن الحسن والجابري وابن سينا وابن بطوطة والخوارزمي وجلال الدين الرومي والإمام الرباني وبديع الزمان سعيد النورسي رحمهم الله تعالى وغيرهم ممن تركوا بصمات واضحة على عصورهم رضي الله عنهم وأرضاهم.

ولقد علمنا التاريخ أن الذي سما بهؤلاء الدول والأشخاص وحلق بهم في الذرى إنما هو اتخاذهم الحبيب المصطفى ﷺ أسوة يحتذى به من كل الوجوه، وقدوة يؤتم به من كل النواحي.

القدوة الصالحة وقصة نجاح

طالب في مقتبل العمر، لا يتلقى من أسرته أيّ دعم مادي أو معنوي. وما إن ناهز سنه الرابع عشر حتى اضطر إلى العمل والدراسة معا. وأخيرا حصل على عمل في جريدة، ودخل الجامعة، فواصل مدير تحرير الجريدة مساعدته ومساندته أثناء دراسته الجامعية، مما أدى بالطالب الشاب أن يقول في قابل أيامه: "لقد تعلمت من تصرف مديري أن أمد يد العون إلى الآخرين، وأن أفسح المجال لغيري كي يستفيد من الفرص التي أتيحت لي".

وبعد أن تخرّج الشاب من الجامعة بدأ بالعمل في مؤسسة. فكان من مبادئ مدير المؤسسة أنه يطلب من العاملين أن ينجزوا كل مهمة في يومها، وأن يُجروا الاتصالات الهاتفية ويردوا على الرسائل في نفس اليوم. وكان -مع ذلك- يعامل كل أحد بظرافة

عالية أيا كان مستــواه الاجتماعي، لا يميز في ذلك بين شخص عادي لا يتمتع بأي صلاحية أو منصب أو شبكة علاقات، وبين شـخص ذي منصب رفيع من وزير أو سفير أو غيرهما. وكان الشـاب يراقب هذا المدير ويتابع تصرفاته، فيتعلم من أسـلوبه كيفية تأسيس العلاقات الطيبة مع الآخرين والوصول إلى المستوى المطلوب في إنجاز المهام وإحراز النجاح.

وبعد فترة عُيّن الشـاب محررا للمجلة، ومن بعد ذلك مديرا للنشـر. وكان صاحب الجريدة من النوع الذي يسـتهدف في مشاريعه الربح، وكان يطمح دائما في كل عمل يقوم به الوصول إلى المسـتوى الأمثل وغير العادي، سواء كان مسابقة رياضية أو نشاطا تجاريا أو غير ذلك. فهذه الطبيعة التنافسية أثرت في المدير الشاب تأثيرا بالغا، وبهذه الروح والعزيمة وأسلوب الإدارة الرشيدة وعقليـة الطموح إلى الأمثل قفزت جريدته إلى الدرجة الأولى في البلد سواء من ناحية المبيعات أو النوعية. وحينما يتحدث الشاب عن أيامه تلك كان يقول: "لقد كنت محظوظا للغاية لأنني كنت برفقة أناس يقدّرون الإنسان وجهده وإنجازاته...".

فهذا الرجل هو "توم جونسون" (Tom Johnson) الذي أدار قناة (CNN) سنة ١٩٩٠، والتي كانت تواصل بثها الحي المباشر ٢٤ ساعة، وكانت تشـاهَد من ١٣٠ دولة. وفي غضون ست سنوات من المدة التي ترأسـها "توم جونسون" أصبحت تشاهَد من ٢٠٨ دولة.

فـ"توم جونسـون" القائل: "بإمكانـك التعلم من كل من تلاقيـه" هو الذي يقول بدوره: "لقد تعلمت مقابلة الإحسـان بالإحسان من "بيتون" (Peyton)، وأهمية الاستفادة من كل يوم يمـر بي، وجدوى الحرص على النوعيـة الجيدة من "بيل" (Bill) و"ليندن جونسون" (LBJ)، وتعلمت من "تيد" (Ted) و"أوتيس" (Otis) أن الفـوز إنما يتوفر برفع المسـتوى وتجنُّب الغش، وأن الحفاظ على الجودة يحقق نجاحات مذهلة.." نعم، إنه اسـتطاع أن يقول هذا كله لأنه كان إنسـانا عاقلا يقدّر مواهب الآخرين ويبذل جهدا جهيدا في سبيل الاستفادة من قدراتهم وتجاربهم. وما فعله وحققه جونسون ليس شيئا جديدا وغريبا، بل إنما وصل إلى ما وصل إليه بالتأسي والقدوة الحسنة.

مَن طلب القدوة وجدها

الحاصل أن الإنسـان ميال بطبعه وغريزته إلى الاقتداء بالآخرين، فهو بميزته هذه يتمكن مـن الوصول إلى أهدافه والحصول على طموحاتـه، وهذا النوع من الاقتداء يلـبي رغبة فطرية موجودة لدى الإنسان الذي يتطلع إلى تحقيق ما وصل إليه أولئك الأفذاذ أو يزيـد. وبالمقابل إن وقع في شـباك الجهل والغرور وفخهما، وتغاضى عما أحرزه غيره من الإنجازات والنجاحات، ولم يراجع حساباته ويقيّم وضعه في مجال النجاحات والإخفاقات، فسيحرم قطعا من هذه الطاقة الكامنة في كيانه، ويقع في كوارث لا تحمد عقباها لا سمح الله!

فإذا كان لـدى الفرد ميل إلى نوع من أنواع النبوغ كالعلم أو العبـادة أو التخصـص في أي علم من العلـوم، فيحتاج أن يكون أمامه مثل بارز في هذا المجال يسـير على خطاه ويقتفي آثاره. علما بأن عالم الإنسـانية في غاية الثـراء من ناحية توافر القدوات الحسـنة في النواحي المعنويـة والمادية، وإذا تلفّت المرء يمنة ويسـرة واستعرض أمام مخيلته أساتذته الذين تتلمذ عليهم في إحدى المؤسسات التربوية أو التعليمية فلا شك أنه سيجد بغيته، ولربما تكون هذه القدوة من العلماء العاملين البارزين في المجتمع ممن يبعد آلاف الأميال، ومع ذلك يسـهل الاتصال بهم والغَرْف من معينهم للاسـتفادة من علومهم وجهودهم وتجاربهم التربوية والروحية، فيوفر على نفسـه كثيرا من الوقت والجهد في سبيل البحث عن الأفضل والأصلح لذاته. بل يزيده ذلك تمسكا بتعاليم دينه وقيمه، فيجاهد نفسه في ذلك لأنه يرى إمكانية تطبيق تلك التعاليم في أرض الواقع.

فإذا سـار على الدرب الذي فتحوه وعبّدوه فسيرى بعين اليقين كيف تتوالى النجاحات والنتائج الباهرة الحميدة.

وخـير مثال على ذلك هو الأثر الكبير الذي مثلته القدوة في نشـر الإسـلام في كثير من أصقاع الدنيا بواسطة تلك النماذج المتحركة التي دعت إلى الإسـلام بأفعالها قبل أقوالها، فاستقطبت ملايين من البشـر دخلوا في دين الله دونما فتح ولا جهاد. تلك النماذج تمثلت في أعداد ليسـت بالكثيرة من التجار المسـلمين والزوار الذين أدخلوا بسيرتهم وتمسكهم بتعاليم دينهم كل هذه الأعداد إلى الإسلام.■

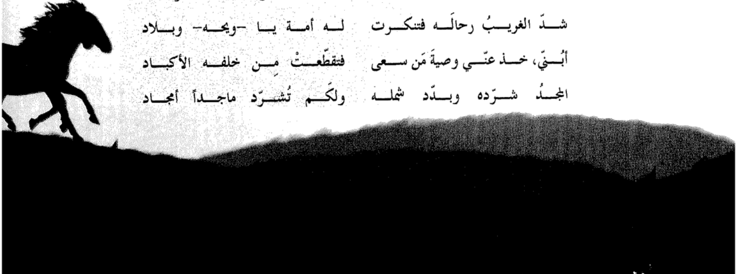
(*) كاتب وباحث تركي. الترجمة عن التركية: أجير جمال الدين أشيوق.



حدائق النور

أ.د. حسن الأمراني*

أزف الرحيل بنا، فأين نُقاد ... وعلى الطريق مفاوزٌ ووهاد؟
طال السُّرى والنجم أظلمَ نورُه ... والصبُّ قرّح جفنه التسهاد
لكأنني أبصرت طيفك راحلا ... وتَفرّق الأحبابُ والعوّاد
وبقيتَ وحدك، لا ترى إلا الذي ... زرعتْ يداكَ وقد تلاهُ حصاد
طرقتْك صائدةُ الهوى فتبعتَها ... من حيث تحسَب أنك الصياد
وغزا عذارَيكَ البياضُ وإنه ... -لو كنتَ تعلم- حسرة وسواد
هلا بذلت من الفضائل ما به ... يبيضّ في يوم الحساب مداد؟
ويحَ النوى! ما للنوى تُذكي الهوى ... ولقد يقال: من الدوا التسآد
إن الهوى يُردي، ولو سيّجته ... بالصالحات وقاك منه رشاد
شدّ الغريبُ رحالَه فتنكرت ... له أمة يا -ويحه- وبلاد
أبُنيّ، خذ عنّي وصيةَ مَن سعى ... فتقطّعتْ مِن خلفه الأكباد
المجدُ شرّده وبدّد شمله ... ولكَم تُشرّد ماجداً أمجاد



مــا كان يحســب للبعــاد أظافــرا ... مســنونةً حــتى رمــاه بعِــاد

ســيظل هذا الســيفُ يــأكل غمدَه ... حــتى يحُــلّ بســاحتَيه مَعــاد

قــد يخطــئ القصــدَ الفــتى ولَربما ... مِــن قبــل غايتــه يَــزِلّ جــواد

لا كأسَ أعذبُ -لو بَصُرتَ- مِن التقى ... فبهــا يَطيــب الــورد والــوَرّاد

انظــر وراءك، هــل تَحقَّــق بالذي ... أنفقــتَ مــن زهر الشــباب مــرادُ

انظــر وراءك ليس مــن غضب، فما ... يَنســابُ نهــرٌ مــا لــه إمــدادُ

منّيت نفســك بالذي يهفــو له الــ ... ـعشــاقُ إنْ ســجنُ الخَلــيّ رقــاد

منّيــت نفســك بالجهــاد ولم يكــن ... لــك أنــتَ غــير الأُمْنيــات عَتــاد

منّيت نفســك بالوصــال وهل جرتْ ... يومــاً علــى درْب الغريــب جِيــاد؟

وسمعت صوتــا في الضُّلــوع مجلجلا ... ويــكاد منــه يســتغيث فــؤاد:

البــنــدقــيةُ زهـــرةٌ فـــوّاحـــةٌ ... إنْ عــمَّ هــذا العالمــين فسَــاد

هيهات، دربُــك مقفــرٌ، والخيلُ قد ... عــبرتْ، وليــل الطالبــين سُــهاد

حجبَتْــك عن آلائــه نفــسٌ غوَتْ ... وتعلقــتْ بالنجــم وَهْــوَ رمــاد

كُشِــف الغطاءُ وأبصــرتْ عيناك ما ... يُــزْري، لقــد مــلأ الريــاضَ قَتــاد

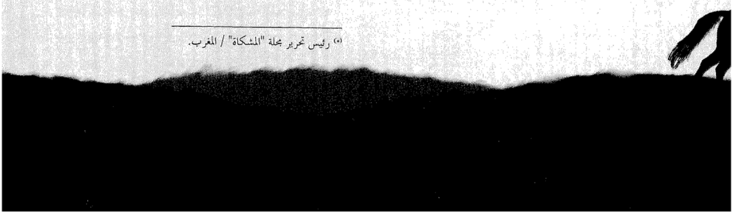
ولقــد بلَــوتُ الدهــرَ حــتى خِلته ... قــد صــار وَهْــو لرغبــتي ينقــاد

ثم انتبهــتُ فلــم أجــد إلا مــنىً ... لا عــينَ تُســعدُها ولا أوراد

وَهَــجٌ دعــا قلــبي فلمّــا جئتُــه ... ســدّتْ علــيّ طريقــيَ الأســداد

فبمن ألــوذ؟ ومن يجير ســوى الذي ... ســوّى، وزادُ الله نعْــم الــزاد؟

النــورُ دونــك، فاغترف يا ســالكا ... درب الأحبــة، والنعيــمُ مِهــاد

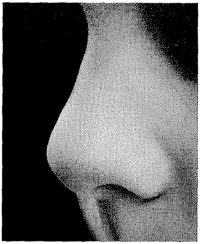


(*) رئيس تحرير مجلة "المشكاة" / المغرب.

أحنوا أصلابكم، واجمعوا شتاتكم، وقفوا في حضرة المصطفى ﷺ الذي أعطى الدنيا كلَّ شيء ولم يأخذ منها شيئا، وأشعل ضوءا في قلب الضياع الإنساني الحزين.

***

أنا أنف عبد الله



أ.د. عرفان يلماز*

عزيزي عبد الله... لا تنس أن الله تعالى الذي خلق الكون وكل ما فيه قد أعطى صفات مختلفة لجميع الأشياء كاللون والشكل والصوت والصلابة والنعومة والحرارة والبرودة والرائحة والطعم لكي يمكن تمييز الأشياء بعضها عن بعض. ولكي تستطيع معرفة هذه الصفات فقد وضع في جسدك حواس تدرك بها الأشياء. فأنت تميز وتعرف الضوء بعينيك، والموجات الصوتية بأذنيك. وهذه الحواس بدقتها وفنها الراقي تفصح عن تجليات الأسماء الحسنى عليها وتكون ترجمانا للخالق. واليوم أقول لك بأنني عضو مخلوق لحاسة شم روائح المواد. ويتجلى فيَّ فن متميز وخارق من الصنعة والخلق. وأنا أُعرّفك بنفسي لكي يتجلى لك من زاوية أخرى علمُ ربنا تعالى وقدرتُه.

لقد وضعني الله تعالى في أنسب مكان في وجهك إلى درجة أنه لو تغير مكاني قليلا أو جرحت أو تعرضت لأي ضرر، تشوّه منظر وجهك وقبُح. فكأنه تعالى خلقني بعد أن خلق وجهك وجسدك، وجعلني في أفضل وضع متلائم معهما، بل حتى مع روحك.

أشكال الأنوف

ومع أن لي مظاهر جانبية بأعداد لا تحصى إلا أن شكلي في الغالب هو إما دقيق وطويل أو ضيق أو واسع ومفلطح أو مقوس، بطرف مدبب أو غير مدبب، والعلماء القدامى الذين عملوا في ساحة "علم السيما" أي الذين كانوا يحكمون على خُلق الشخص وطبيعته ومزاجه وذكائه من دراسة تقاطيع وجهه، كانوا يهتمون بشكلي كثيرا ويعقدون الصلة بينه وبين مزاجه وطبيعة روحه. ولكني أرى أنه من الخطأ إصدار حكم على أي شخص بالتفرس في شكلي، لأن هناك أشكال أعضاء أخرى، كما أن للتربية والتعليم أثرا مهمّا في تشكيل شخصية ومواصفات الإنسان. لذا أرى ألا تبدي رأيك حول أي شخص انطلاقا من شكل أنفه فقط.

فن الخَلق البديع

والحقيقة أن ما أريد ذكره هنا يتعلق بالفن الراقي لخلقي وحكمة وجودي. فسأتكلم عن أشياء موضوعية وليست عن أشياء ذاتية وغير موضوعية. ولم يضعني الخالق في القسم الأمامي من وجهك فقط، بل وضعني في القسم الأمامي لوجوه جميع الحيوانات الفقرية ولاسيما الحيوانات الثديية. لأنها تستخدمني من أجل الحصول على غذائها وإشباع بطنها وفي العثور على صغارها أو زوجها. فأنا أكثر الأعضاء استعمالا من قِبَلها. لذا فقد وُضعتُ أمام الوجه لأعمل كآلة كاشفة وحساسة في تعقب الروائح. والحيوانات عندما تعثر على شيء تقوم أوّلا بدسي في ذلك الشيء أو بالقرب منه لفهم ماهيته. لذا شاع في الناس استعمال تعبير "يدس أنفه

في كل شيء". وحاسة الشم لدى معظم الحيوانات أقوى مما هي موجودة عند الإنسـان. ونظرا لقلة العقل والشعور لديها فهي تحصل بواسطة أنوفها على الكثير من المعلومات التي تحتاج إليها. ولما كان الإنسـان يملك عقلا وشعورا فلا يضطر إلى أن "يدس أنفه في كل شيء". ولكن هذا لا يعني أن الإنسان لا يحتاج إليّ، أو أنـي عضو زائد لا ضرورة ولا حاجة إليّ. على العكس، فأنا عضو مهم ولي العديد من المهام، ولي بنية خُلقتْ بحكمة بالغة.

البروز اللحمي الذي أشـكّله في وسـط الوجه يسهُل تغيير شـكله بالضغط عليه، لأن مسـنده غضروفي. وقسمي النهائي مدبب، ويوجـد جناحان في جانبيّ. أما نهايتي من الطرف الثاني فتقع بين العينين تماما ويرتبط قسمي الغضروفي هنا بالعظم الأنفي الذي هو جزء من عظم القحف حيث يشكل سندا قويا لي. يقوم الغضروف الموجود في وسطي بتقسيم تجويفي إلى قناتين تنتهيان بثقبـين إلى الخارج. والحنك الصلب الموجود في أسـفلي أي في قاعدتي يشكل في الوقت نفسه سقف تجويف الفم. أما الجسم اللين من الحنك الموجود وراءه فيمتد حتى أقرب منطقة للبلعوم مني أي إلى البلعوم الأنفي والذي يرتفع إلى فوق عند البلع ليسـد القسم العلـوي من البلعوم لمنع الطعام واللعاب من التجمع في قسـمي الخلفي. وعندما تأكل تغص أحيانا بالطعام فتسعل فلا ينسد هذا الغطـاء فأمتلئ بالطعام الذي أكلته ويخرج مـن ثُقبَيّ. والفائدة الأخـرى من هذه المنظومة هي أنـه في بعض حالات العمليات التي تُجرى على المرضى وعندما يكون طريق الفم مسـدودا يتم إدخال الهواء والغذاء بأنبـوب مطاطي عن طريقي إلى المريض.

الأنف وعملية التنفس

يتم عن طريقي وصول الهواء إلى رئتيك أي في عملية التنفس التي هي عملية ضرورية لإدامة حياتك. فالهواء الذي يدخل من ثقبيّ لا يكون على الدوام نظيفـا وملائما لرئتيك. فإن وصل إليهما هواء غير ملائم فسـرعان ما يصيبهما البرد فالالتهاب، فتمرض. ولكي لا تواجه مثل هذه الأمور السيئة فقد وضع الخالق الرحيم العالم بكل شيء والمدبر له شـعيرات في مقدمتي لتصفية الهواء، وغشاءا مخاطيا رطبا يغطي سطح قسمي الخلفي.

والحقيقة أن بنية التجويف الداخلي لي معقدة، إذ توجد ثلاثة بروزات علـى جداريّ الخارجيين تمتـد بطولهما من الأمام إلى الخلف. وهذه البروزات يطلق على كل منها اسم "القُرَين" (القُرين السفلي، القرين المتوسط، والقُرين العلوي). والبنية المتعرجة لكل قُرين تساعد على توسيع مساحة سطحي الداخلي فيسهل بذلك ترطيب وتدفئة الهـواء الداخل إلى الرئتين، ولا يذهب الهواء إلى رئتيك مباشرة في أثناء التنفس. فبواسطة الشعيرات الموجودة في قسـمي الأمامي يتصفى الهواء من ذرات الغبار الكبيرة، وعندما يمر من الدهليز ذي التعاريج التي تُشـكلها الـبروزات القُرينية تصفى ذرات التراب الدقيقة وذرات الفحم والبكتريا وغبار طلع الأزهار من قِبل الأغشـية المخاطية وإفرازاتِ هذه الأغشية التي تلتصق عليها هذه الذرات والبكتريا، ومن قبَل بروزاتها التي تشبه الأهداب. ونظرا لأن مقـدار الضغط الجوي الموجود في داخلي أقل من الخارج يسهل تدفئة وترطيب الهواء الذي يمر فيها.

خلايا الشم ومزاياها

هناك نسيج خاص حساس للروائح يغطي القُرين الأعلى. فخلايا هذا النسـيج ذات أهداب وهي حساسة وتعد بمثابة مستقبلات للروائـح. وهذه الخلايا مع الخلايا المسـاعدة لها تشـكل هذا النسيج. فكل مادة تنشـر جزيئاتها في الهواء لها روائح. وعملية الشم عملية معقدة تحتوي على سلسلة من التفاعلات التي تنتهي بهذا الإحساس في الدماغ. وأنا لا أدري في الحقيقة كيف يتم هذا الأمر ولكن هناك عدة نظريات حوله. فاهتزازات الجزيئات التي تصلني مع تيارات الهواء تكون مختلفة تبعا لاختلافات بنيتها، لذا تؤدي إلى اختلاف في طبيعة التفاعلات الكيميائية التي تحدث في الخلايا المستقبلة للروائح، وإلى حدوث تنبيهات كهربائية مختلفة. فالجزيئـات التي تأتي مع الهواء تـذوب في الرطوبة الموجودة في نسيج شـم الروائح وتنبه خلايا أعصاب الشم تنبيها كيمياويا. في الأجواء الجافة يجف غشائي المخاطي، لذا لا تذوب الجزيئات فيصعب عليّ شـم الروائح. كما أن النقص في معدن الزنك – الذي يوجد في جسمك بنسبة قليلة– يؤدي إلى ضعف في قابلية الشم أو إلى انعدامها كليا.

ويعود السبب في اختلاف رائحة وطعم ولون الثوم عن رائحة ولون الورد أو الياسمين إلى أن كل شـيء وكل حي يتركب من عناصر ومن مركبات مختلفة. فالجزيئات التي تنتشـر في الهواء من هذه المركبات تكون مختلفة وتقوم بتنبيهات مختلفة. ولكن الملفت

للنظر هنا هو عمل هذه المنظومة الرائعة التي تستطيع تمييز هذه الروائح المختلفة وحفظها في ذاكرتها.

وعندما تتلقى رائحة جديدة لم يسبق لك أن تلقيتها من قبلُ تستطيع منظومةُ الرائحة عندك معرفة أن هذه رائحة جديدة، وذلك من بنيتها ومن اهتزازاتها، وتسجل هذه الرائحة في ذاكرتها، فإن صادفتْها مرة أخرى عرفتها، وهذا الأمر المعقد الذي لا يُعرف لحد الآن جميعُ ما يتعلق بماهيتها يدخل في فيزيولوجية الشم. ومن المميزات الجميلة للخلايا المستقبلة للروائح هي أنها تكون حساسة للروائح التي تشمها للمرة الأولى، ولكن بعد فترة تقل هذه الحساسية حتى تدخل في مرحلة تعدم فيها قابلية شم تلك الرائحة. وهذا من رحمة الله تعالى، لأنه لولا هذه الميزة لما استطاع عمال تنظيف المجاري، ولا عمال المذبحة والمسلخة العملَ في تلك الأجواء من الروائح.

الغشاء المخاطي وأعراضها

من السهل انتفاخ الغشاء المخاطي الذي يبطني بالدم أو بسوائل الأنسجة. وقد ينسد فراغي الداخلي تماما، فيصعب عليك التنفس عندما يلتهب بفعل البرد أو بسبب التهاب مثل التهاب حمى القش. والحقيقة أنه عند التهاب مجاري التنفس في القسم العلوي، تكون البداية بظهور سيلان، ثم يبدأ الانسداد عندي. فكما يتعفن الماء الراكد ويفسد ويتحول إلى مستنقع، كذلك الأمر عندي، إذ ما إن ينسد فراغي حتى يتسارع تكاثر الجراثيم وتبدأ بالسريان إلى أعضاء التنفس الأخرى. فإذا أصبت بالبرد فعليك أن تحاول جاهدا منع انسدادي. ولا شك أن الشاي الحار ولاسيما شاي بعض النباتات مفيد، ولكن الأفضل هو الماء المالح الذي تبلغ نسبة الملوحة فيه تسعة بالألف، فإذا استنشقت هذا الماء المالح فسرعان ما يزول الانسداد. أما قطرة الأنف -بأنواعها المختلفة- فلا أوصيك باستعمالها إلا عند الضرورة القصوى، لأن استعمالها يؤدي إلى الاعتياد عليها أوّلا، ولأن لها تأثيرات جانبية سلبية أخرى ثانيا. في حالة التهاب تجويفي في الجانبين والتهاب الفراغ الموجود بين عظام القحف فوقي، وكذلك في حالة التهاب اللوزتين وظهور الزوائد وانتفاخها، يأخذ الرشح عندي حالة دائمة، ويؤدي إلى التهاب مزمن. وهناك أمراض عديدة تكون الإشارة إليها عن طريق النزف الذي يصيبني، مثل ارتفاع ضغط الدم والعديد من أمراض الحمى. والحقيقة أن نزفي نتيجة ارتفاع ضغط الدم يعد تحذيراً ويلعب دور صمام أمان، لأنه إذا لم تنفجر إحدى الشعيرات الدموية عندي نتيجة ارتفاع ضغط الدم و لم يحصلْ نزيف دموي يؤدي إلى انخفاض ضغط الدم، انفجر أحد الشرايين في الدماغ وأدى إلى نتائج وخيمة جدا.

الشم نعمة إلهية كبرى

عزيزي عبد الله... إن قمت بعد الآن بشم زهرة أو رائحة جميلة أخرى فلا تنس أن تحمد الله تعالى على ما أحدثتْه تلك الرائحة العطرة من مشاعر جميلة في روحك. فلو لم يجعلني الله تعالى آلة لتصفية الهواء الذي تتنفسه وتنْقيته من المواد الضارة لامتلأت رئتاك بالأوساخ والغبار والسُخام، ولَمَا تمتعتَ تماما بما تتناوله من أطعمة، لأن الإحساس بلذة الطعام لا يقتصر على الطعم فقط، بل هو إحساس يشترك في تكوينه الطعم والرائحة. فمثلا نرى أن الشخص الذي انعدمت عنده قابلية الشم لا يعرف عما إذا كان يأكل تفاحة أم فجلا. فلو لم تشم رائحة ما تأكله لما اكتملت لديك لذة الأطعمة.

عزيزي عبد الله... لا أرى ضرورة لتقديم نفسي إليك أكثر، فحتى النظارة التي تلبسها تستند إليّ. وقد قدمت لك نفسي بصورة موجزة دون الدخول في تفاصيل ميكروسكوبية وتشريحية دقيقة. فبينما يستحيل ظهور شعرة واحدة عندي في مكانها الصحيح مصادفة كيف يمكن أن يظهر بالمصادفة عضو مثلي يحوي حِكما لا تعد ولا تحصى؟! أيّ نحات يستطيع القيام بنحت أنفِ تمثال وبيده مطرقته وإزميله دون أن يكون في ذهنه مثال وموديل معين وإرادة معينة؟! فهل هناك أيّ احتمال أن أظهر -وأنا العضو الأعقد والأدق بالآف المرات من أنف تمثال- دون أن يخلقني رب العالمين؟! إذن عندما تغسل وجهك في المرة القادمة وتتطلع إليه في المرآة دقق النظر فيّ ولا تنس أن تحمد الله تعالى وتشكره.■

(*) جامعة ٩ أيلول / تركيا. الترجمة عن التركية: أورخان محمد علي.



مفهوم الواجب في الإسلام

مقتضياته التشريعية وتطلُّباته الحِكَميّة (٢)

أ.د. أحمد عبادي*

إن علماءنا قد نظروا إلى الواجبات باعتبارها مرتّبة حسب مراتب ثلاث، فثَمة الضروريات ثُم الحاجيات ثم التحسينيات. وأرسوا بناء على هذا الوعي العميق دوائر للواجب يحمي بعضها بعضا وَفْقَ نسق مفهومي في غاية الدقة، فنصّوا على أن اختلال الضروري بإطلاق يؤدي إلى اختلال الحاجي والتحسيني بإطلاق، وأنه لا يلزم مِن اختلالهما أو اختلال أحدهما اختلالُ الضروري بإطلاق، كما نصّوا على أن اختلال الحاجي بإطلاق ينجم عنه اختلال التحسيني بإطلاق، ونصوا على أن اختلال التحسيني بإطلاق يؤدي إلى اختلال الحاجي بوجه ما، وأن اختلال الحاجي بإطلاق يؤدي إلى اختلال الضروري بوجه ما. مما يلزم معه الحفاظ على الواجبات المتعلقة بالتحسيني حماية للحاجي، والحفاظ على الواجبات المتعلقة بالحاجي حماية للضروري. وبينوا أن التجرّؤ على الإخلال بالتحسيني منها معرّض للتجرؤ على ما سواه. وعلى هذا الإدراكِ قام أصل سدّ الذرائع واعتبار المآل، وقرروا أن المندوب إليه بالجزء واجب بالكل، إذ الإخلال بالمندوب مطلقا إخلال بركن من أركان الواجب، ونصّوا على أن المندوب في كليته محميةٌ لا يجب خرمها، لأن خرمها يؤدي إلى الإخلال بالواجب وإبطاله. وقالوا في ذلك: "وكل واحدة من هذه المراتب لّما كانت مختلفة في تأكد الاعتبار -فالضروريات آكدها ثم تليها الحاجيات ثم التحسينيات- وكان مرتبطا بعضها ببعض، كان في إبطال الأخفّ جرأةٌ على ما هو آكد منه، ومدخل للإخلال به، فصار الأخفُّ كأنه حمى للآكد، والراعي حولَ الحمى يوشك أن يرتع فيه، فالمخلّ بما هو مكمِّل كالمخل بالمكَمّل من هذا

الوجه"[1]. قال الإمام الغزالي رحمه الله: "قلّما يُتصوّر الهجوم على الكبيرة بغتة، من غير سوابقَ ولواحقَ من جهةِ الصغائر"[2].

معظم الواجبات كفائية

وحيث ثبت أن جلّ الواجبات التي تقوم عليها حياة الأمم في معاشاتها داخلة في الصنف الكفائي، ويقتضي كلٌّ مِن تَبَيُّنها ومَقْدرها وتقعيدها وتقنينها اجتهادات مستأنفةً في كل حين، من أجل تنزيلٍ متّزنٍ لها على أرض الواقع تكون عاقبته يسرا... لما ثبت أن الأمر كذلك، فقد كان لعلمائنا كلام مفصل نفيس عن كيفية الاضطلاع بالواجب في سياقاته المختلفة؛ مِن نظرٍ في المآلات وتحقيقٍ للمناطات وتنقيحٍ لها وموازنة دقيقة بين المصالح والمفاسد جلبا للأُولى إن رجحت، ودفعا للثانية إن غلبت، تسديدا وتقريبا وتغليبا، مع تحديدات وضيئة لمناهجِ كل ذلك مما هو مفصل في مظانه.

فقه الموازنات واعتبار المصالح

يقول الإمام الشاطبي رحمه الله: "النظر في مآلات الأفعال معتبر مقصود شرعا، كانت الأفعال موافقة أو مخالفة، وذلك أن المجتهد لا يحكم على فعل من الأفعال الصادرة عن المكلفين بالإقدام أو بالإحجام إلا بعد نظره إلى ما يؤول إليه ذلك الفعل [فقد يكون] مشروعا لمصلحة فيه تستجلب، أو لمفسدة تدرأ، ولكن له مآل على خلاف ما قصد فيه، وقد يكون غير مشروع لمفسدة تنشأ عنه، أو مصلحة تندفع به، ولكن له مآل على خلاف ذلك، فإذا أطلق القول في الأول بالمشروعية فربما أدى استجلاب المصلحة فيه إلى مفسدة تساوي المصلحة أو تزيد عليها، فيكون هذا مانعا من إطلاق القول بالمشروعية؛ وكذلك إذا أطلق القول في الثاني بعدم المشروعية ربما أدى استدفاع المفسدة إلى مفسدة تساوي أو تزيد، فلا يصح القول بعدم المشروعية، وهو مجال للمجتهد صعب المورد، إلا أنه عذب المذاق، محمود الغِبِّ جارٍ على مقاصد الشريعة"[3].

وعن فقه الموازنات يقول هذا الإمام: "وإنا وجدنا الشارع قاصدا لمصالح العباد، والأحكام العادية تدور معها حيث دارت، فترى الشيء الواحد يُمنع في حال لا تكون فيه مصلحة، فإذا كان فيه مصلحة جاز"[4]. ومفاد ذلك وجوب الموازنة بين الاحتمالات الممكنة في غير المحكم من الأحكام، ترجيحا وموازنة بين ما تحققه تنزيلاتها في إطار الشرع الحنيف وبمقاييسه وموازينه من المصلحة في الظرف الواقعي المعين، ثم اعتماد الاحتمال الذي يرجُح أنه أكثر تحقيقا للمصلحة بضوابطها الشرعية المبينة في أماكنها، واعتبار ذلك هو الحكم الشرعي في تلك الحالة، وهذا مناط الاجتهاد فيما مردّ الأحكام فيه إلى النظر. ومن تداعيات الوعي العميق عند علمائنا بهذه الآليات في النظر كونهم درجوا على ألا يُسقطوا من اعتبارهم الآراءَ المرجوحة في تراثنا الفقهي، إذ هي ذخيرة اجتماعية قد تمس إليها الحاجة في أوضاع لاحقة مختلفة، فما لم يرجح في واقع عيني مشخص نظرا لملابسات وسياقات معينة، قد يضحى راجحا ضمن ملابسات وسياقات أخرى، وفقه إمام دار الهجرة إمامنا مالك ﷺ يحضر فيه هذا الوعي العميق بشدة، لانبنائه على قواعد واقعية كعمل أهل المدينة والاستحسان والمصلحة المرسلة وسد الذرائع.

كما نبغ علماؤنا في تقعيد فقه مراتب الأعمال ومنازلها في الفضل، ومعرفة مقاديرها، والتمييز بين عاليها والأقلّ علواً، وفاضلها ومفضولها، ورئيسها ومرؤوسها، وسيدها ومسودها. يقول ابن القيم رحمه الله: "فإن في الأعمال والأقوال سيدا ومسودا، وذروة وما دونها، كما في الحديث الصحيح: "سيد الاستغفار أن يقول العبد اللهم أنت ربي لا إله إلا أنت خلقتني وأنا عبدك...الحديث" (رواه البخاري)، وفي الحديث الآخر: "الجهاد ذروة سنام الأمر" (رواه ابن ماجه)، وفي الأثر: "إن الأعمال تفاخرت، فذكر كل عمل منها مرتبته وفضله، فكان للصدقة مزية في الفخر عليهن" ولا يقطع هذه العقبة إلا أهل البصائر والصدق من أولي العلم، السائرين على جادّة التوفيق، قد أنزلوا الأعمال منازلها وأعطوا كل ذي حق حقه"[5].

وصعوبة المورد التي أشار إليها الشاطبي آنفا في هذا الاجتهاد تصبح مضاعفة في واقعنا الراهن، نظرا لكون العالم قد تقاربت أركانه اليوم بفعل كل ما تم التوصل إليه من إمكانات. وأضحى تيار التأثير والتأثر يمرّ بين أرجائه بيسر بالغ، وينطّ فيه الجديد كلَّ عشر ثانية فما أقل، مما يفرض فرضا الاجتهاد الجماعي متعدد الاختصاصات، وفق منهجيات تكاملية تقوَّم في كل حين حتى تُضمن فاعليتُها ومواءمتُها لتطلبات الواقع. وهذا هو الدور الحيوي المنوط بمؤسسة العلماء.

مرحلة الجمود وأسبابه

ويحق للمرء بهذا الصدد أن يتساءل عن الأسباب التي تحول دون التوظيف والاستثمار الأمثلين الدائمين والممنهجين لكل هذه الجهود المشرقة في واقعنا الإسلامي خلال الفترات السابقة.

ويمكن إجمال هذه الأسباب في أربعة:

١-السبب العقيدي: أدى انتشار عقيدة إبطال الأسباب في

الأمة نتيجة لسوء فهم تقريرات بعض الأئمة كالرازي والغزالي وغيرهما، إلى التواكل الذي أفضى إلى أضرب من العجز، فغيض العطاء، وانكمشت العقول، وفشت الشعوذة، واستتب التعامل مع الكون استهلاكا وتأثرا، وليس إبداعا وتأثيرا، مما جرّ عواقب غير مرضية وأسهم بفعالية في إدخال الأمة إلى فترة من الجمود. و لم يقتصر الأمر على الجانب العملي، بل تعدّت الإصابة إلى الجانب التنظيري العلمي فأسقطت المقاصد، إذ استبعد عند طوائف من العلماء أن تكون الشريعة وضعت لعلة، وبسبب جلب المصالح العاجلة والآجلة للعباد في الدنيا والآخرة، مما جعل عطاء فقهاء الأمة ينحسر في ترداد ما كان من الفتاوى والأنظار، ويجمد دون مجال الكشف عن مقاصد الشارع في شرعه مما هو مجاف للشرع نفسه، يقول الشاطبي: "واستقرينا من الشريعة أنها وضعت لمصالح العباد، استقراء لا ينازع فيه الرازي ولا غيره فإن الله تعالى يقول في بعثة الرسل: ﴿رُسُلاً مُبَشِّرِينَ وَمُنْذِرِينَ لِئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَى اللهِ حُجَّةٌ بَعْدَ الرُّسُلِ﴾(النساء:١٦٥)"(٦). ويقول ابن القيم: "وبالجملة فالقرآن من أوله إلى آخره صريح في ترتيب الجزاء بالخير والشرّ، والأحكام الكونية والأمرية، على الأسباب، بل ترتب أحكام الدنيا والآخرة ومصالحهما على الأسباب والأعمال، ومَن تفقه في هذه المسألة وتأملها حق التأمل، انتفع بها غاية النفع و لم يتّكل على القدر، جهلا منه وعجزا وتفريطا وإضاعة، فيكونَ توكّله عجزا، وعجزه توكّلا، بل الفقيه كل الفقه الذي يردّ القدر بالقدر، بل لا يمكن للإنسان أن يعيش إلا بذلك"(٧). ويقول: "وقد رتب سبحانه حصول الخيرات في الدنيا والآخرة، وحصول الشرور في الدنيا والآخرة في كتابه على الأعمال، ترتيبا للجزاء على الشرط والمعلول على العلة والسبب على المسبب، وهذا في القرآن يزيد على الألف موضع"(٨).

وهذا السبب العقيدي كان من شأن الوعي به وتجاوزه أن يوسع آفاق الأمة ومداركها ويجنبها الوقوع في نكبات كثيرة، سياسية واجتماعية واقتصادية.

٢-السبب التصوري: سادت في العالم الإسلامي، خلال العصور الأخيرة تصورات سلبية حادت بالمسلمين خاصتهم وعامتهم عن المشاركة الإيجابية في حل مشاكل مجتمعاتهم، وحادت بهم عن التبني المتبادل لهموم بعضهم البعض من خلال قيام كلٍ حسبَ قدرته بالفروض الكفائية، وتفلتت من وعيهم الجماعي ومن بنائهم التصوري بعض أهم سمات هذا الدين وعلى رأسها الواقعية. فالإسلام دين واقعي، تتجلى واقعيته في تصوراته للإنسان والكون والحياة، وتتجلى في تشريعاته. فالإسلام ينصّ على أن القدرة هي حد التشريع الذي يقف عنده، فلا يتحرك إلا معها، فإذا وقفت القدرة وقف التشريع حيث هو، لا يتقدم ولا يتأخر؛ يقول تعالى: ﴿لاَ يُكَلِّفُ اللهُ نَفْسًا إِلاَّ وُسْعَهَا﴾(البقرة:٢٨٦)، ويقول سبحانه: ﴿فَاتَّقُوا اللهَ مَا اسْتَطَعْتُمْ﴾(التغابن:١٦). فليس ثمة ضيق على الإنسان في التشريع، بل هو المجال الواسع الذي يجعله يتحرك براحة وحرية، فإذا ضاق عليه حُكم وَسعه آخر. فهنالك قاعدة "نفي الحرج": ﴿وَمَا جَعَلَ عَلَيْكُمْ فِي الدِّينِ مِنْ حَرَجٍ﴾(الحج:٧٨)، وقاعدة "الضرر يزال" وقاعدة "لا ضرر ولا ضرار" وقاعدة "الأمر إذا ضاق اتسع". إلا أن هذه التصورات والضوابط حين اختفت من أذهان المسلمين اختفت في تقعيدات علماء العصور المتأخرة، فاختفت من واقعهم حركية الإسلام المعهودة ونبضه المألوف.

إن استبطان هذه السمات هو الذي يقدح زند حركة المجتمع المسلم بمنحه لأفراده هذه الأسس التصورية الرافعة لكوابح الكسب النافع.

٣-السبب الفقهي: إن تدبير وتنظيم الاضطلاع المبرئ للذمة بالواجبات الكفائية في كافة جوانب الحياة العامة، من وظائف مؤسسة الإمامة العظمى، فهي القائمة على تقديرها وتنسيقها وتدبيرها. وعلى "النظر الكلي في كفاية أهم الأشغال" كما قال الإمام الجويني في الغياثي بعد ذكره مهام مؤسسة الإمامة العظمى(٩). فإلى الإمامة العظمى إذن يعود تقدير الفروض الكفائية وتنسيقها وتدبيرها والنظر الكلي في كفاية أهم الأشغال، ولكن هذا لا يعني بحال تبرئة ذمة المواطنين من القيام بواجباتهم في هذا الصدد. وهو ما قرره إمام الحرمين بقوله: "ومما يجب الإحاطة به أن معظم فروض الكفاية مما لا تتخصص بإقامتها الأئمة بل يجب على كافة أهل الإمكان أن لا يغفلوه ولا يغفلوا عنه. وإن ارتفع إلى الإمام أن قوما يعطلون فرضا من فروض الكفايات زجرهم وحملهم على القيام به"(١٠)، إلى أن يقول: "والدنيا بحذافيرها لا تعدل تضرر فقير من فقراء المسلمين في ضر، فإن انتهى نظر الإمام إليهم رمَّ ما استرمّ من أحوالهم، فإن لم يبلغهم نظر الإمام وجب على ذوي اليسار والاقتدار البدار إلى دفع الضِّرار عنهم، وإن ضاع فقير بين ظهراني موسرين حرجوا من عند آخرهم وباؤوا بأعظم المآثم وكان الله طليبهم وحسيبهم. وقد قال رسول الله ﷺ: "من كان يومن بالله واليوم الآخر، فلا يبيتنّ ليلةً شبعانَ وجاره طاو"(١١). وإذا كان تجهيز الموتى من فروض الكفايات، فحفظ مهج الأحياء وتدارك حُشاشَة الفقراء أتم وأهم"(١٢).

ولتحقيق هذه المقاصد مضى إجماع علماء المسلمين على وجوب إقامة الإمامة العظمى حفاظا على حقوق الأمة المرتهنة بالقيام بالواجبات الكفائية على وجه الكفاية، ولولا الإمامة – وكما قال العز بن عبد السلام رحمه الله– "لفاتت المصالح الشاملة وتحققت المفاسد العامة واستولى القويّ على الضعيف"(١٣). وللإمام الجويني رحمه الله في الغياثي مثل هذا القول(١٤)، ولم يشذ عن هذا الإجماع إلا النجدات من الخوارج والأصم من المعتزلة كما روى ذلك الإمام القرطبي المالكي.(١٥)

غير أن انحرافا عن هذه المقاصد قد وقع منذ وقت مبكّر، فقد أتت على الأمة أحيان من الدهر طغى فيها على الانشغال بالاضطلاع بالفروض الكفائية وتنظيمها، وبالمجتمع وقضاياه، اشتغال بالنزاعات والثورات، والثورات المضادّة، وبالتمكين للدول القائمة على أنقاض دول، وتتبع بقايا وجذور الدول المسقطة، كما سُجّل انزلاق في وهاد مشاريع وهمية، كسقوط دولة المأمون في فخ فتنة خلق القرآن، وغيرها من الفتن، وما أعقب ذلك من انفصامات عدة في جسم الدولة، وأعاق جزئيا التطور الطبيعي لكسب الأمة الفقهي، والعلمي التنزيلي في هذه الاتجاهات. فلم يُشحذ فقه المجتمع، ويبرد بالمناظرات والحوارات والرسائل، شأن فقه الأفراد (فقه العبادات بشكل خاص)، إذ لم يكن همّ التنظير للحياة في المجتمع والاضطلاع بالفروض الكفائية، وهمّ استنباط الأحكام الخاصة بذلك همَّ جمهور الفقهاء، ولم يتوجه إلى ذلك إلا بعض النابهين منهم، مما يفسر ندرة ما يتداول من العناوين في هذا المضمار، حتى بين خاصة العلماء، كالأحكام السلطانية للماوردي، والسياسة الشرعية لابن تيمية، والطرق الحكَمية في السياسة الشرعية لتلميذه ابن القيم، وسلوك المالك في تدبير الممالك، لابن أبي الربيع، وما دبّجه ابن خلدون في مقدمته. وغير ذلك قليل.

مما يقتضي اجتهادا مستأنفا تنخرط فيه بوظيفية كلُّ المؤسسات البحثية المعنية من مقترب تنظيم الواجبات الكفائية تحت قيادة مؤسسة الإمامة العظمى، وهو مقترب يمنح –كما تقدم– مدخلا نسقيا للشأن العامّ ويمكّن من القيام بهندسة اجتماعية راشدة.

٤–الصدمة الحضارية: لقد نشطت المجتمعات المسلمة أفرادا ومؤسسات –عبر التاريخ– لإقامة الواجبات الكفائية وأبدعت في ذلك، تشهد بذلك أوقاف المسلمين في تنوعها وإبداعيتها، وكذا التدبيرات السلطانية والمخزنية في الموانئ والثغور، وتسبيلُ السبل وبناءُ المرافق، وحفظُ الأمن وإقامة المعاهد العلمية، وغير ذلك من الوظائف كثير، مما يؤشر على النبض الذي كان في المجتمعات المسلمة، وقد واكب هذه الأعمال جهود تقعيدية وتنظيرات علمية رائعة، لا يزال جلها –للأسف– ثاويا في بطون السجلات والدفاتر المخزنية والكنانيش الوقفية، وتحتاج إلى استخراج وترتيب ودراسة حتى لا نقسو حضاريا على أجيالنا السالفة بسبب عدم التعرف على جهودهم في هذه المجالات، وهذا يحتاج إلى تجسير معرفي –تصالحي– بين أجيال علماء الأمة، خصوصاً بين أجيال ما قبل الاستعمار وما بعده من العلماء والباحثين، وهو تجسير لا يمكن أن يتم إلا بالوقوف على اجتهاداتهم وعلى شدّة الصدمة التي ما كانت تغني عنها هذه الاجتهادات في ما مهّد للاستعمار من فترات فأثمر ما أسماه مالك بن نبي رحمه الله "القابلية للاستعمار".

يقول المؤرخ المنصف (Marshal Hodgson) في كتابه القيم: "التفكير المستأنف في تاريخ العالم": "إلى حدود القرن السابع عشر من حقبتنا التاريخية هذه، كانت المجتمعات المرتبطة بالديانة الإسلامية أغنى المجتمعات في الشق الأفرو (أورو) آسيوي من العالم، وكانت الأكثر تأثيرا على المجتمعات الأخرى، وقد كان ذلك في جزء منه بسبب موقعها الجغرافي المركزي، ولكن كان ذلك أيضا بسبب أنه كانت تظهر فيها وبفعالية ضغوط ثقافية مدنية لا تقليدية نزاعة نحو المساواة. لقد أضحت ثقافة العالم الإسلامي مقياسا للتقدم العالمي لشعوب كثيرة وهي تندمج في مجاله الاقتصادي والحضاري، كما منحت هذه الثقافة إطارا سياسيا مرنا للأعداد المتصاعدة من المتحضرين الأصلاء. لقد كانت المجتمعات الإسلامية تبرهن علىّ إبداعية مستدامة وعلى نماء، رغم أن بعض الفترات كانت أكثر إبداعية من أخرى. إلى أن بلغنا العصر الحديث، حيث انقطع هذا التطور ليس بسبب انهيار داخلي، ولكن أساسا بسبب أحداث خارجية غير مسبوقة"(١٦).

ويقصد بهذه "الأحداث الخارجية غير المسبوقة" الطفرات العلمية التي انطلقت في الغرب، وهي طفرات قد فَرضت على العالم –آنذاك– إيقاعا جديدا لم يكن عنده بمألوف.. إيقاعٌ لم يواكبه الكسب السياسي والاجتماعي والعلمي الممكّن من مجاراته ومن الفعل الحضاري ضمن شروطه.

وبيْن أيدينا نص نفيس معبر التقط فيه المؤرخ عبد الرحمن الجبرتي المتوفى سنة ١٢٤٠هـ/١٨٢٥م ببراءة وأمانة، هذه اللحظةَ الحضارية بالذات، حين كلامه عن حملة نابليون في مصر،

قال ضمن أحداث سنة ١٢١٣هـ: "أحدثوا على التل المعروف بتل العقارب بالناصرية أبنية وكرانك وأبراجا، ووضعوا فيها عُدّة من آلات الحرب، وأفردوا للمدبّرين (أي العلماء القائمين على التجارب) حارة الناصرية. وإذا حضر إليهم بعض المسلمين ممن يريدون الفرجة لا يمنعونه الدخول إلى أعز أماكنهم، ويتلقونه بالبشاشة والضحك. ومن أغرب ما رأيته في ذلك المكان أن بعضهم قد أخذ زجاجة من الزجاجات الموضوع فيها بعض المياه المستخرجة، فصب منها شيئا في كأس، ثم صبّ عليها شيئا من زجاجة أخرى فَعَلا الماء وصعد دخان ملون، حتى انقطع وجفّ ما في الكأس، وصار حجرا أصفر، فأخذناه بأيدينا ونظرناه. ثم فعل ذلك بمياه أخرى فجمد حجرا أزرق، وبأخرى فجمد حجرا ياقوتيا. وأخذ مرة شيئا قليلا من غبار أبيض ووضعه على السندال، وضربه بالمطرقة بلطف، فخرج له صوت هائل كصوت القرابانة، انزعجنا منه فضحكوا منّا. وأداروا زجاجة فتولّد من حركتها شرر يطير بملاقاة أدنى شيء كثيف، ويظهر له صوت وطقطقة، وإذا لمس شخص ولو خيطا لطيفا متصلا بها، ولمس آخرُ الزجاجة الدائرة، أو ما قرب منها بيده الأخرى، ارتج بدنه وارتعد جسمه وطقطقت عظام أكتافه وسواعده في الحال برجّة سريعة. ومن لمس هذا اللامس أو شيئا من ثيابه متصلا به حصل له ذلك، ولو كانوا ألفا أو أكثر. ولهم فيه أحوال وتراكيب غريبة ينتج منها نتائج لا يسعها عقول أمثالنا"(١٧).

"لا يسعها عقول أمثالنا" إنها عبارة قصيرة، ولكنها مشحونة بالدلالات، تعبّر عن شدّة الصدمة وعن التسليم النفسي الذي تلاها، وعند علية القوم. فعبد الرحمن الجبرتي في تلك اللحظة التاريخية كان من خاصة العلماء، بمعنى أن التوتر الحضاري قد فقد بسبب هذه الصدمة قبل أن يعقُبه التماسك في الأمة وفي علمائها، إلا ما استثني من بعض الأفراد الذين كانوا يعيشون غربة، وقد كانت هذه حالة عامة في المشرق والمغرب، وذلك بفقد العزم على فهم الظواهر المحيطة "وهذا ما لا تدركه عقول أمثالنا"، وإذا فقد هذا العزم على فهم الظواهر المحيطة فقد تم الوقوع في البكم الحضاري، وقد مرّ مَعَنا معنى البكم عند الكلام عن قوله تعالى: ﴿وَضَرَبَ اللهُ مَثَلاً رَجُلَيْنِ أَحَدُهُمَا أَبْكَمُ لاَ يَقْدِرُ عَلَى شَيْءٍ وَهُوَ كَلٌّ عَلَى مَوْلاَهُ أَيْنَمَا يُوَجِّههُّ لاَ يَأْتِ بِخَيْرٍ هَلْ يَسْتَوِي هُوَ وَمَنْ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ وَهُوَ عَلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ﴾(النحل:٧٦)، فهو العجز عن الفهم والتفهيم، والبكم مقدمة الكلالة أي الثقل وفقدان الإرادة ﴿وَهُوَ كَلٌّ عَلَى مَوْلاَهُ﴾. والكلالة مقترنة بالبكم تؤدي لا محالة إلى العجز ﴿أَيْنَمَا يُوَجِّههُّ لاَ يَأْتِ بِخَيْرٍ﴾ فلا غرو أن لا يستفاد ضمن شروط نفسية كهذه من الثروات المعرفية التي تمتلكها الأمة في بلورة مناهج التفهم وتحقيقات المناطات وتنقيحاتها توصلا إلى مناهج الصياغة التنزيلية لتناول هذه المستجدات وتبيّن ما يجب إزاءها من واجبات، وهذه الحالة الثانية هي المقصودة في قوله تعالى: ﴿هَلْ يَسْتَوِي هُوَ وَمَنْ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ وَهُوَ عَلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ﴾. غير أن هذه الصدمة الحضارية بفضل الله كانت صدمة أعقبها تماسك فنهوضٌ فغذٌّ للسير، وها هم أبناء الأمة وبناتها اليوم بعد قرنين ونيف (٢٠٩ سنة) من هذه الظرفية التي اجتازتها الأمة وعبّر عنها ببراءة ووضوح وأمانة الشيخُ الجبرتي رحمه الله –وما قرنان ونيف في الزمن الحضاري؟!– وها هم منغمرون بدافع من الشعور بالواجب أشدّ ما يكون الانغمار في أحدث العلوم، داخل الأوطان وخارجها، لا يرددون عبارات الصدمة وإنما يرددون –بحمد الله– عبارات التنافسية البناءة، ولم يكن خلال هذه الرحلة كلّها كالشعور بالواجب زادٌ يحمل المكلفين على البذل والمثابرة.

فهذه جملة أسباب نرى أنها كانت خلال هذا الزمن الوجيز حضاريا وراء ما كان من ارتخاء حضاري وقلة في الفاعلية. وإننا لنرقب بارتياح كبير مؤشرات الوعي العام بها في الأمة، مما يبشر بغد أحسن عاقبة وأيسر مآلا. والله المستعان. ■

(*) الأمين العام للرابطة المحمدية للعلماء / المغرب.

الهوامش

(١) الموافقات، للشاطبي، ٣١/٢.
(٢) إحياء علوم الدين، للغزالي، ٣٢/٤.
(٣) الموافقات، للشاطبي، ١٩٤/٤-١٩٥.
(٤) الموافقات، للشاطبي، ٢٢٥/٢.
(٥) مدارج السالكين، لابن القيم، ٢٢٥/١.
(٦) الموافقات، للشاطبي، ٦/٢-٧.
(٧) الجواب الكافي لمن سأل عن الدواء الشافي، لابن القيم، ص ١٠.
(٨) الجواب الكافي، لابن القيم، ص ١٨٨.
(٩) الغياثي، للجويني، ص ١٤٩.
(١٠) الغياثي، للجويني، ص ١٥٥-١٥٦.
(١١) الأدب المفرد، للبخاري، ص ٤٦.
(١٢) الغياثي، للجويني، ص ١٧٣-١٧٤.
(١٣) قواعد الإمام في مصالح الأنام، للعز بن عبد السلام، ص ٥٨.
(١٤) غياث الأمم في التياث الظلم، للجويني، ص ٢٤.
(١٥) الجامع لأحكام القرآن، للقرطبي، ٢٦٥/١.
(16) Marshal Hodgson, Rethinking World History, pp. 97.
(١٧) عجائب الآثار، لعبد الرحمن الجبرتي، حوادث سنة ١٢١٣هـ.

عنده ﷺ تلتقي ساميات الأفكار، ويجد كلُّ عظيم من بني الإنسان ما يرفده ويغذوه. فكل معرفة منه تتضوأ، وكل فكر إلى جانب فكره عقيم. وأشدُّ النيرات تألقا إلى جانب أنواره ليلٌ دامس، وكل نظر إلى جانب نظره قاصر، وكل شعور إلى جانب شعوره حسير.

•••



التكوين الإلهي العجيب

أبواب السماء

﴿وَلَوْ فَتَحْنَا عَلَيْهِمْ بَابًا مِنَ السَّمَاءِ فَظَلُّوا فِيهِ يَعْرُجُونَ﴾ (الحجر:١٤).

أ.د. زغلول النجار*

على الرغم من كون "لو" حرف امتناع لامتناع، وكون هاتين الآيتين الكريمتين قد وردتا في مقام التشبيه والتصوير لحال المكابرين من الكفار والمشركين وعنادهم وصلفهم، إلا أن صياغتهما قد جاءت -كما تجيء صياغة كل آيات القرآن الكريم- على قدر مذهل من الدقة العلمية والشمول للحقيقة الكونية والكمال المطلق مما يشهد بأن القرآن الكريم هو كلام الله الخالق الذي أبدع هذا الكون بعلمه وحكمته وقدرته.

وأحاول في هذا المقال عرض عدد مما استطعت إدراكه من ملامح الإعجاز العلمي في هاتين الآيتين الكريمتين على النحو التالي:

وقد ورد في قول الحق ﷻ: ﴿وَلَوْ فَتَحْنَا عَلَيْهِمْ بَابًا مِنَ السَّمَاءِ﴾ مما يؤكد أن السماء ليست فراغا كما كان يعتقد الناس إلى عهد قريب، حتى ثبت لنا أنها بنيان محكم، يتعذر دخوله إلا عن طريق أبواب تفتح للداخل فيه. والسماء لغة، هي كل ما علاك فأظلك. واصطلاحاً، هي ذلك العالم العلوي الذي نراه فوق رؤوسنا بكل ما فيه من أجرام، وعلمياً، هي كل ما يحيط بالأرض من مختلف صور المادة والطاقة بدءا من غلافها الغازي وانتهاء بحدود الكون، والذي أدرك العلماء منه مساحة يبلغ قطرها ٢٤ ألف مليون سنة ضوئية على الأقل.

وقد ثبت مؤخرا أن السماء مليئة بمختلف صور المادة والطاقة التي انتشرت بعد انفجار الجرم الكوني الأول –والذي كان يضم كل مادة الكون، ومختلف صور الطاقة المنبثة في أرجائه اليوم– وذلك عند تحوله من مرحلة "الرتق" إلى مرحلة "الفتق" كما يصفهما القرآن الكريم. وعند ذلك تحولت مادته ومختلف صور الطاقة المخزونة فيه إلى سحابة هائلة من الدخان ملأت فسحة الكون، ثم أخذت في التبرد والتكثف بالتدريج حتى وصلت إلى حالة من التوازن الحراري بين جسيمات المادة وفوتونات الطاقة. وهنا تشكلت بعض نوى الإيدروجين المزدوج (الديوتريوم)، وتبع ذلك تخلق النوى الذرية لأخف عنصرين معروفين لنا وهما الأيدروجين والهيليوم، ثم تخلق نسب ضئيلة من العناصر الأثقل وزنا. وبواسطة دوامات الطاقة التي انتشرت في سحابة الدخان التي ملأت أرجاء الكون تشكلت السدم، في سلسلة من العمليات المنضبطة حتى تصل إلى مرحلة الاندماج النووي التي تكوّن النجوم. ومن أشلاء النجوم تكونت الكواكب والكويكبات والأقمار والمذنبات والشهب والنيازك والأشعات الكونية التي تملأ فسحة الكون بأشكالها المتعددة، وغير ذلك مما لا نعلم من أسرار هذا الوجود.

ولقد كان السبب الرئيسي لتصور أن الكون فراغ تام هو التناقص التدريجي لضغط الغلاف الغازي للأرض مع الارتفاع عن سطحها حتى لا يكاد يدرك بعد ألف كم فوق سطح البحر. ومن أسباب زيادة كثافة الغلاف الغازي للأرض بالقرب من سطحها هو انطلاق كميات هائلة من بخار الماء وغازات عديدة أغلبها أكاسيد الكربون والنتروجين. وقد اختلطت تلك الغازات الأرضية بالسحابة الغازية الكونية، وساعدت جاذبية الأرض على الاحتفاظ بالغلاف الغازي للأرض بكثافته التي تتناقص باستمرار بالبعد عنها، حتى تتساوى مع كثافة الغلالة الغازية الأولية التي تملأ أرجاء الكون وتندمج فيها.

قانون بقاء التحرك الزاوي

لقد وصفت الآية الحركة في السماء بالعروج: ﴿فَظَلُّوا فِيهِ يَعْرُجُونَ﴾، والعروج لغةً هو: سير الجسم في خط منعطف منحن، وقد ثبت علميا أن حركة الأجسام في الكون لا يمكن أن تكون في خطوط مستقيمة، بل لابد لها من الانحناء نظرا لانتشار المادة والطاقة في كل الكون، وتأثير كل من جاذبية المادة والمجالات المغناطيسية للطاقة على حركة الأجسام في الكون. وحتى الأشعةُ الكونية على تناهي دقائقها في الصغر إذا عبرت خطوطَ أيِّ مجال مغناطيسي فإن هذا المجال يُحني مسار الشعاع بزاوية قائمة على مساره. فانتشار كل من المادة والطاقة في الكون عبر عملية الفتق وما صاحبها من انفجار عظيم كانت من أسباب تكوره، وكذلك كان انتشار قوى الجاذبية في أرجاء الكون من أسباب تكور كل أجرامه، وكان التوازن الدقيق الذي أوجده الخالق العظيم بين كل من قوى الجاذبية والقوى الدافعة الناتجة عن عملية الفتق هو الذي حدد المدارات التي تتحرك فيها كل أجرام السماء، والسرعات التي تجري بها في تلك المدارات والتي يدور بها كل منها حول محوره.

فعند انفجار الجرم الكوني الأول انطلق كل ما كان به من مخزون المادة والطاقة بالقوة الدافعة الناتجة عن ذلك الانفجار العظيم (عملية الفتق)، والتي أكسبت كل صور المادة والطاقة المنطلقة إلى فسحة الكون طاقة حركة هائلة، وجعلتها بذلك واقعة تحت تأثير قوتين متعارضتين هما: قوة التجاذب الرابطة بينها، والقوة الطاردة الناتجة عن ذلك الانفجار الكوني. وبفضل التوازنُ الدقيق بين هاتين القوتين المتعارضتين هو الذي يحفظ أجرام السماء في مداراتها، ويجعلها تتحرك فيها حركة دائرية بخطوط منحنية باستمرار، كما جعلها تدور حول محاورها بسرعات محددة.

ودوران الأجرام السماوية حول محاورها وفي مداراتها تخضع لقانون يعرف باسم "قانون بقاء التحرك الزاوي" أو "قانون العروج". وينص هذا القانون على أن كمية التحرك الزاوي لأي جرم سماوي تقدر على أساس نسبة سرعة دورانه حول محوره

إلى نصف قطره على محور الدوران، وتبقى كمية التحرك الزاوي تلك محفوظة في حالة انعدام مؤثرات أخرى، ولكن إذا تعرض الجرم السماوي إلى مؤثرات خارجية أو داخلية فإنه سرعان ما يكيف حركته الزاوية في ضوء التغيرات الطارئة.

وبمثل عملية نشأة الكون تماما وبالقوانين التي تحكم دوران أجرامه حول محاورها، وفي مدارات لكل منها حول جرم أكبر منه تتم عملية إطلاق الأقمار الصنعية ومراكب الفضاء من الأرض إلى مدارات محددة حولها، أو حول أي من أجرام مجموعتنا الشمسية، أو حتى إلى خارج حدود المجموعة الشمسية، وذلك بواسطة قوى دافعة كبيرة تعينها على الإفلات من جاذبية الأرض، من مثل صواريخ دافعة تتزايد سرعتها بالجسم المراد دفعه إلى قدر معين من السرعة. ولما كانت الجاذبية الأرضية تتناقص بزيادة الارتفاع عن سطح الأرض، فإن سرعة الجسم المرفوع إلى الفضاء تتغير بتغير ارتفاعه فوق سطح ذلك الكوكب، وبضبط العلاقة بين قوة جذب الأرض للجسم المنطلق منها إلى الفضاء والقوة الدافعة لذلك الجسم (أي سرعته) يمكن ضبط المستوى الذي يدور فيه الجسم حول الأرض، أو حول غيرها من أجرام المجموعة الشمسية أو حتى إرساله إلى خارج المجموعة الشمسية تماما، ليدخل في أسر جرم أكبر يدور في فلكه.

وأقل سرعة يمكن التغلب بها على الجاذبية الأرضية في إطلاق جرم من فوق سطحها إلى فسحة الكون تسمى باسم "سرعة الإفلات من الجاذبية الأرضية"، وحركة أي جسم مندفع من الأرض إلى السماء لابد وأن تكون في خطوط منحنية، وذلك تأثرا بكل من الجاذبية الأرضية، والقوة الدافعة له إلى السماء، وكلتاهما تعتمد على كتلة الجسم المتحرك، وعندما تتكافأ هاتان القوتان المتعارضتان يبدأ الجسم في الدوران في مدار حول الأرض مدفوعا بسرعة أفقية تعرف باسم "سرعة التحرك الزاوي" أو "سرعة العروج".

ولولا معرفة حقيقة عروج الأجسام في السماء لما تمكن الإنسان من إطلاق الأقمار الصنعية، ولا استطاع ريادةَ الفضاء، فقد أصبح من الثابت أن كل جرم متحرك في السماء -مهما كانت كتلته- محكوم بكل من القوى الدافعة له وبالجاذبية مما يضطره إلى التحرك في خط منحن يمثل محصلة كل من قوى الجذب والطرد المؤثرة فيه، وهذا ما يصفه القرآن الكريم بالعروج، وهو وصف التزم به هذا الكتاب الخالد في وصفه لحركة الأجسام في السماء في آيات متفرقات، وذلك قبل ألف وأربعمائة سنة من اكتشاف الإنسان لتلك الحقيقة الكونية المبهرة على النحو التالي:

- ﴿وَلَوْ فَتَحْنَا عَلَيْهِمْ بَابًا مِنَ السَّمَاءِ فَظَلُّوا فِيهِ يَعْرُجُونَ﴾(الحجر:١٤).
- ﴿يُدَبِّرُ الأَمْرَ مِنَ السَّمَاءِ إِلَى الأَرْضِ ثُمَّ يَعْرُجُ إِلَيْهِ فِي يَوْمٍ كَانَ مِقْدَارُهُ أَلْفَ سَنَةٍ مِمَّا تَعُدُّونَ﴾(السجدة:٥).
- ﴿يَعْلَمُ مَا يَلِجُ فِي الأَرْضِ وَمَا يَخْرُجُ مِنْهَا وَمَا يَنْزِلُ مِنَ السَّمَاءِ وَمَا يَعْرُجُ فِيهَا﴾(سبأ:٢)، (الحديد:٤).
- ﴿وَلَوْلاَ أَنْ يَكُونَ النَّاسُ أُمَّةً وَاحِدَةً لَجَعَلْنَا لِمَنْ يَكْفُرُ بِالرَّحْمَنِ لِبُيُوتِهِمْ سُقُفًا مِنْ فَضَّةٍ وَمَعَارِجَ عَلَيْهَا يَظْهَرُونَ﴾(الزخرف:٣٣).
- ﴿مِنَ اللهِ ذِي الْمَعَارِجِ ۞ تَعْرُجُ الْمَلاَئِكَةُ وَالرُّوحُ إِلَيْهِ فِي يَوْمٍ كَانَ مِقْدَارُهُ خَمْسِينَ أَلْفَ سَنَةٍ﴾(المعارج:٤-٥).

ظلمة الكون

وقد وردت في قول الحق ﷻ: ﴿لَقَالُوا إِنَّمَا سُكِّرَتْ أَبْصَارُنَا بَلْ نَحْنُ قَوْمٌ مَسْحُورُونَ﴾. ومعني ﴿سُكِّرَتْ أَبْصَارُنَا﴾ أغلقت عيوننا وسدت، أو غشيت وغطيت لتمنع من الإبصار، وحينئذ لا يرى الإنسان إلا الظلام. ويعجب الإنسان لهذا التشبيه القرآني المعجز الذي يمثل حقيقة كونية لم يعرفها الإنسان إلا بعد نجاحه في ريادة الفضاء حين فوجئ بحقيقة أن الكون يغشاه الظلام الدامس في غالبية أجزائه، وأن حزام النهار في نصف الكرة الأرضية المواجه للشمس لا يتعدى سمكه ٢٠٠ كم فوق مستوى سطح البحر، وإذا ارتفع الإنسان فوق ذلك فإنه يرى الشمس قرصا أزرق في صفحة سوداء حالكة السواد، لا يقطع حلوكة سوادها إلا بعض البقع الباهتة الضوء في مواقع للنجوم.

وإذا كان الجزء الذي يتجلى فيه النهار على الأرض محدودا في طوله وعرضه بنصف مساحة الكرة الأرضية، وفي سمكه بـ ٢٠٠ كم، وكان في حركة دائبة مرتبطة بدوران الأرض حول محورها أمام الشمس، وكانت المسافة بين الأرض والشمس في حدود ١٥٠ مليون كم، وكان نصف قطر الجزء المدرك من الكون يقدر بـ١٢ بليون سنة ضوئية، اتضحت لنا ضآلة سمك الطبقة التي يعمها نور النهار، وعدم استقرارها لانتقالها باستمرار من نقطة إلى أخرى على سطح الأرض مع دوران الأرض حول محورها، واتضح لنا أن تلك الطبقة الرقيقة تحجب عنا ظلام الكون، خارج حدود أرضنا ونحن في وضح النهار، فإذا جن الليل انسلخ منه

النهار، واتصلت ظلمة ليلنا بظلمة الكون، وتحركت تلك الطبقة الرقيقة من النور لتفصل نصف الأرض المقابل عن تلك الظلمة الشاملة التي تعم الكون كله.

وأما تجلي النهار على الجزء السفلي من الغلاف الغازي للأرض بهذا اللون الأبيض المبهج فهو نعمة كبرى من نعم الله على العباد. وتُفسَّر بأن الهواء في هذا الجزء من الغلاف الغازي للأرض له كثافة عالية نسبيا، وأن كثافته تتناقص بالارتفاع حتى لا تكاد تدرك، وأنه مشبع ببخار الماء وبهباءات الغبار التي تثيرها الرياح من فوق سطح الأرض فتعلق بالهواء، وتقوم كل من جزيئات الهواء الكثيف نسبيا، وجزيئات بخار الماء، والجسيمات الدقيقة من الغبار بالعديد من عمليات تشتيت ضوء الشمس وعكسه حتى يظهر باللون الأبيض الذي يميز النهار كظاهرة نورانية مقصورة على النطاق الأسفل من الغلاف الغازي للأرض في نصفها المواجه للشمس. وبعد تجاوز ٢٠٠ كم فوق سطح البحر يبدأ الهواء في التخلخل لتضاؤل تركيزه، وقلة كثافته باستمرار مع الارتفاع ولندرة كل من بخار الماء وجسيمات الغبار فيه لأن نسبها تتضاءل كذلك بالارتفاع حتى تكاد تتلاشى.

فسبحان الذي أخبرنا بهذه الحقيقة الكونية قبل اكتشاف الإنسان لها بألف وأربعمائه سنة، فشبه الذي يعرج في السماء بمن سكر بصره فلم يعد يرى غير ظلام الكون الشامل، أو بمن أعتراه شيء من السحْر فلم يعد يدرك شيئا مما حواليه، وكلا التشبيهين تعبير دقيق عما أصاب رواد الفضاء الأوائل حين عَبَروا نطاق النهار إلى ظلمة الكون فنطقوا بما يكاد أن يكون تعبير الآية القرآنية دون علم بها: ﴿إِنَّمَا سُكِّرَتْ أَبْصَارُنَا بَلْ نَحْنُ قَوْمٌ مَسْحُورُونَ﴾.

باطن الشمس مظلم

نأتي إلى قوله تعالى: ﴿فَظَلُّوا فِيهِ يَعْرُجُونَ﴾. فالتعبير اللغوي لـ﴿ظَلُّوا﴾ يشير إلى عموم الإظلام وشموله وديمومته بعد تجاوز طبقة النهار إلى نهاية الكون. ومن الأمور التي تؤكد ظلمة الكون الشاملة أن باطن الشمس مظلم تماما على الرغم من أن درجات الحرارة فيه تصل إلى خمسة عشر مليون درجة مئوية أو يزيد، وذلك لأنه لا ينتج فيه سوى الإشعاعات غير المرئية من مثل أشعة جاما، والأشعات فوق البنفسجية والسينية. أما ضوء الشمس فلا يصدر إلا عن نطاقها الخارجي فقط والذي يعرف باسم "النطاق المضيء". ويؤكد هذا المعنى قَسَم الحق ﷻ -وهو الغني عن القسم- بالنهار إذ يجلي الشمس أي يكشفها ويوضحها فيقول ﷻ: ﴿وَالشَّمْسِ وَضُحَاهَا ۞ وَالْقَمَرِ إِذَا تَلَاهَا ۞ وَالنَّهَارِ إِذَا جَلَّاهَا ۞ وَاللَّيْلِ إِذَا يَغْشَاهَا﴾(الشمس:١-٤) أي إن النهار هو الذي يجعل الشمس واضحة جلية لأحاسيس المشاهدين لها من سكان الأرض.

وكذلك في إشارة الآيتين الكريمتين إلى الرقة الشديدة لغلالة النهار وذلك في قول الحق ﷻ: ﴿وَلَوْ فَتَحْنَا..لَقَالُوا..﴾ بمعنى أن القول بتسكير العيون وظلمة الكون الشاملة تتم بمجرد العروج لفترة قصيرة في السماء، ثم تظل تلك الظلمة إلى نهاية الكون، وهنا تتضح روعة التشبيه القرآني في مقام آخر يقول فيه الحق ﷻ: ﴿وَآيَةٌ لَهُمُ اللَّيْلُ نَسْلَخُ مِنْهُ النَّهَارَ فَإِذَا هُمْ مُظْلِمُونَ﴾(يس:٣٧)، حيث شبه انحسار طبقة النهار البالغة الرقة من ظلمة كل من ليل الأرض وليل السماء بسلخ جلد الذبيحة الرقيق عن كامل بدنها، مما يؤكد أن الظلام هو الأصل في الكون، وأن النهار ليس إلا ظاهرة نورانية عارضة رقيقة جدا، لا تظهر إلا في الطبقات الدنيا من الغلاف الغازي للأرض، وفي نصفها المواجه للشمس في دورة الأرض حول نفسها أمام ذلك النجم، وبتلك الدورة ينسلخ النهار تدريجيا من ظلمة كل من ليل الأرض وحلكة السماء كما ينسلخ جلد الذبيحة عن جسدها.

وفي تأكيد ظلمة السماء يقرر القرآن الكريم في مقام آخر قول الحق: ﴿أَأَنْتُمْ أَشَدُّ خَلْقًا أَمِ السَّمَاءُ بَنَاهَا ۞ رَفَعَ سَمْكَهَا فَسَوَّاهَا ۞ وَأَغْطَشَ لَيْلَهَا وَأَخْرَجَ ضُحَاهَا﴾(النازعات:٢٧-٢٩) والضمير في ﴿أَغْطَشَ لَيْلَهَا﴾ عائد على السماء، بمعني أن الله تعالى قد جعل ليل السماء حالك السواد من شدة إظلامه، فهو دائم الإظلام، فيصفه ربنا ﷻ بقوله: ﴿وَأَخْرَجَ ضُحَاهَا﴾ أي أظهر ضوء شمس السماء لأحاسيس المشاهدين لها من سكان الأرض بالنور والدفء معا في أثناء نهار الأرض، والضحى هو صدر النهار حين ترتفع الشمس ويظهر ضوؤها جليا للناس، بينما يبقى معظم الكون غارقا في ظلمة السماء.■

(*) أستاذ علوم الأرض ورئيس لجنة الإعجاز العلمي بالمجلس الأعلى للشؤون الإسلامية / مصر.



قلب نبض بالحب الإلهي

يونس أَمْرَهْ

ونظرته إلى الإنسان

أ.د. الصفصافي أحمد القطوري*

عاش يونس أمره ما ينوف على سبعين سنة. وهذه المدة وافقت السنوات الأخيرة من القرن الثالث عشر وبدايات القرن الرابع عشر، فترة القلاقل والاضطرابات في حياة الأناضول وتاريخه.

كانت الهجمات المغولية الكاسحة والمتتالية تهدم وتحطم النظم القائمة، والإمبراطورية السلجوقية في النزع الأخير تتهاوى داخليا وخارجيا. القلاقل والعصيان يشمل كل عشائر الترك والتركمان على حد سواء. بصيص الأمل وشعاع النجاة يتركز فيما أبداه العلماء والمتصوفة والدراويش الذين كانوا بين الجموع البشرية الوافدة من أواسط آسيا أمام الجحافل المغولية، بحثا عن الاستقرار في الأناضول والرغبة في النجاة. وإبان هذا العصر المتلاطم بتيارات الفكر المتصارع، والذي تسوده القوة والقنص والسلب والطمع، كان المسرح مهيأ لظهور بطل. ولكنه بطل من نوع جديد، بطل يسعى للاستقرار والتوطن، بطل يسعى لامتلاك مفردات حضارية جديدة تتواءم مع العصر، حضارة الزرع والنماء. في هذه الأجواء سطع شمس الشاعر يونس أمره.

يونس أمره، شاعر شعبي وصوفي. لا نعرف بالضبط

تاريخ ميلاده، وإن كانت وفاته سنة (٧٢٠هـ/١٣٢١م) عن عمر ناهز السبعين. ووفقا لآخر ما وصل إليه الباحثون الأتراك، فإن يونس أمره ولد وعاش ومات ودفن في قرية تسمى "صاري كُويْ"، وهي تقع في المنطقة الممتدة فيما بين إقليم "بورصوق" و"سقاريا"، وأنه تجول في كل مناطق الأناضول وسوريا وأذربيجان، وأنه كان درويشا لشيخ يدعى "طابطوق أَمْرَهْ" في منطقة سقاريا. وقد صرح يونس أمره في ديوانه أنه ينتسب لهذا الشيخ وأنه تلقى عنه الفيض لسنوات طويلة.

إن الشعب التركي المتدين نظر إلى يونس أمره كدرويش من الصالحين الواصلين أو كبطل ملحمي؛ فكما أقام له مدفنا في "صاري كوي"، فقد أقام له أضرحة أخرى في أماكن مختلفة كثيرة. وبعبارة أخرى، فإن الكل أراد أن يدّعيه لنفسه ويجعله بمنطقته. وقد أثبت الباحثون الأتراك بالوثائق التي استنبطوها من ديوان الشاعر، ومن كتابه المسمى "الرسالة النصْحية" أنه مدفون بقرية صاري كوي.

بيئته الحضارية

إن مشاعر الإنسان وتفكيره، يتشكلان تحت تأثير البيئة والمحيط الحضاري الذي يعيش فيه. وإذا كانت الحيوانات قد احتلت مكانا بارزا كرمز في الأعمال الأدبية التي تحكي حياة التنقل والترحال في الأدب التركي القديم، مثل "ملحمة أوغوزقاغان" وكتاب "حكايات دادا قورقوت"، فإن النباتات قد تصدرت الرموز المستخدمة في الأعمال الأدبية التي ظهرت في البيئة الزراعية المستقرة. فالنبات تابع لقوانين الطبيعة أكثر من تبعيته لإرادة الإنسان وقدرته ومهارته. فالإنسان أمام عوامل الطبيعة سلبي لا يرى مسبباتها بعينه المجردة، بل يراها بالعين ويحسها بالفؤاد.

من هذا المنطلق، هناك تضاد عميق وفوارق شاسعة بين شخصية "البطل" في الحضارة الرعوية، وشخصية الدرويش الولي المتسامي في الحضارة الزراعية. الأول، تسيطر عليه القوة المادية؛ أما الثاني، فتسيطر عليه القوة المعنوية. ولقد استغرقت عملية الانتقال من النموذج الحضاري الرعوي إلى النموذج الزراعي المستقر زمنا وجهدا كبيرين.

اعتنق الأتراك الإسلام، واستقر في نفوسهم ووجدانهم الفكر الصوفي، فسيّروه جنبا إلى جنب مع فكر الجهاد والفتح في سبيل نشر الدين الذي تمثلوه. وما الحضارة العثمانية إلا نموذج ملموس للمزج بين التصوف والفكر العالمي المعتمد على الدين. وكانت شخصية الفاتح "الغازي" و"الولي"، أهم شخصيات المجتمع العثماني. الأول يقوم بالفتح، والثاني يجعل الاستقرار والعيش على مبادئ الدين الجديد شيئا ممكنا ويعمر المناطق المفتوحة ويجعل الإقامة بين ربوعها شيئا محببا إلى النفس بما يزرعه من رياض وبساتين.

لقد كان للمتصوفة دور ملحوظ في عملية التوطين والاستقرار. فيونس أمره كغيره من مئات الدراويش والآخِيان (الفتوة)، كانوا من ذلك النوع الذي يطلق عليه درويش (Kolonizatör)، أي، الدرويش الإيجابي الذي يبني ويعمر. وهذا ما يجعل الباحثين ينظرون إلى هذه الفترة على أنها مرحلة اجتماعية مهمة؛ حيث كان هؤلاء الفتوة والدراويش، يختارون الأماكن الموحشة والخاوية ليقيموا فيها الزوايا والتكايا، ويحولونها بأيديهم إلى أماكن مأهولة ومسكونة.

كان التراث الشعري الشعبي -قبل التوطن والاستقرار- يمجد البطل المهاجر، والمسمى في ذلك التراث بـ"Alp tipi"، وكان جلّ همه هو الاهتمام بالحيوان تدجينا واستئناسا. فبعد الانتقال إلى حضارة القرية والمدينة، احتلت عناصر الطبيعة من تربة وماء ونبات محل العناصر الحيوانية.

وكانت رؤيا الغازي عثمان (مؤسس الإمبراطورية العثمانية) التي تجسد له فكرة امتلاك العالم، كانت عبارة عن شجرة مباركة تخرج من صلبه؛ حيث تقول الرؤيا: "وما إن دخل البدر في أحضان الغازي عثمان، حتى نبتت من أحشائه شجرة تظلل العالم بظلها، وتحت ظلالها تظهر الجبال وتُرى، وتتدفق المياه من تحت جذورها، ومن هذه المياه يشرب البعض، والبعض الآخر يسقي الرياض والبساتين، وتتدفق الغدران".

فالشجرة هي رمز لحضارة التوطن والاستقرار، ومناقبُ أولياء الأناضول مليئة بالأشجار وعيون الماء والرياض والبساتين. ويونس أمره يعقد صلات حميمة بين الإنسان والعناصر النباتية، فيجعلهما يتحادثان ويتحاوران. الوردة عنده هي رمز الجمال ورواء المعشوق، وبهذا الرمز يربط بين الحب والسلام اللذين تنعقد وتتأسس عليهما نظرته تجاه العالم والإنسان. والوردة عنده لا تعيش وحدها، بل في البساتين، حياتها مرتبطة بالماء، وتستمد من التربة النماء. والله هو المحبوب وهو الروضة التي فيها حياته. فيناجي قائلا:

لأصِلْ ولأكُنْ صَفيَّ ذلك الصديق
وردةً متفتحةً فلأكُنْ،
وبلبلاً غريداً فلأكُنْ
ومقامي في روضة الحبيب فليكُنْ...

إذا ما تناولنا المحيط الذي عاش فيه يونس أمره بشكل رمزي، وجدنا أن عالمه الروحاني هو ديار مليئة برياض الرياحين والورود، وفي هذه الأبيات يشبّه الشاعر نفسه بوردة تحترق طوال العام بنار العشق المتقد. إن وردة العشق هذه تنمو، وتترعرع طوال العام:

في أتون نار العشق أتقد،
كلما زاد احتراقي،
تضوع شذي
ولن أذبل أبدا...

مشربه السلوكي

إن يونس أمره الذي يبدأ به الشعر الشعبي الصوفي، أي شعر التكايا، نجد أشعاره انصهارا لتيارات الشعر التركي، أي إنها مزج بين شعر الديوان وشعر التكية والشعر الشعبي. فهو شاعر ولي من أولياء الله الصالحين، ومن الذين وصلوا إلى قمة الهداية. إنه عاشق إلهي ترنم بالحب الإلهي. ومع أنه استشف فلسفة التصوف من "مولانا جلال الدين الرومي"، غير أنه لم يكن مولويا. وإنه نجح نجاحا كبيرا في تبسيط ونقل هذه الفلسفة ونظرتها إلى الحياة، إلى الجماعات الشعبية الواسعة، بلغته الراقية السلسة وبطريقته وأسلوبه الخاص به. وقد تناول في أشعاره بصفة عامة، الحياة والموت والآخرة والحب الإلهي والنزعة الإنسانية الخالصة. كان يونس أمره ينطلق في كل ذلك بفكر حر واضح، لا يهتم بالشكل بقدر اهتمامه بالمعنى والجوهر. إنه يركز على فلسفة التوحيد في أشعاره ولم يكن في يوم من الأيام سوى عاشق إلهي، تغنى وصدح بهذا الحب وكثر إنشاده، بل هو بلبل صداح يتنقل بين الورود والرياحين، يتنسم تلك الرياحين ويجعلها تسبّح الخالق في ترانيم شعرية عذبة المذاق فواحة الرائحة.

منهجه في التفكير

يتضمن ديوان يونس أمره كثيرا من النماذج الشعرية التي تدل أصدق دلالة على نشأته الريفية. فعندما يتحدث عن عواطفه أو أفكاره، كثيرا ما يستخدم رموزا وتشبيهات وكنايات مستقاة من حياة الزرع والبستنة وإنماء الرياض والحدائق، أي إنه ينظر إلى نفسه أولا وإلى البيئة المحيطة به ثانيا:

قد عبرنا تلك الجبال،
والوهاد، والبساتين المواجهة،
بالصفاء، والسلامة،
فالحمد لله...

فالعبور معتمد على الصفاء والسلامة والحمد. وإطار البيئة المحيط جبال ووهاد وبساتين ناضرة، كلها ممزوجة بالسلامة والصفاء ويتبع ذلك "الحمد لله". والإنسان عنده ما لم يكن عاشقا محبا، فهو يستحق القطع والحرق كالشجرة الجافة التي لا تثمر:

من لا يحب فإنه لا يسجد،
ولا يعرف قلبه الإيمان،
الإنسان الذي لا يحب،
يشبه شجرة
وعندما لا تثمر الشجرة،
لا تنحني هامتها...

إذن، فبعد العبور المعتمد على السلامة والصفاء والحمد، يأتي التطهر بالمعاناة ونار الحب والفناء.

ويتساءل الشاعر، أين توجد النيران؟ وما لم توجد فما العمل؟ لا بد من اللجوء لموقد آخر، لا بد من المرشد العارف. يرسم يونس أمره الطريق، ويخط المنهج لمن يريد أن يكون درويشا حيث عليه أن يتوسل بست مراحل:

عليه أن يدع الشراب،
أن يتجرع السم،
أن ينزع قلبه من الدنيا بيمينه،
أن يحصد الشعير،
عليه أن يخلط دقيقه بالرماد،
وأن يجففه في الشمس...

وعلى من يصبح درويشا أن يعي ما حوله، ويفكر في جبلته وكيفية خلقه. فالماء والتراب هما عصب القرية. وإذا كان فلاسفة العصور الوسطى جعلوا الإنسان وسائر الموجودات مكونة من أربعة عناصر: النار والهواء والتراب والماء، فهو أيضا يعتقد أن لهذه العناصر تأثيرا كبيرا على تعيين مزاج الإنسان وشخصيته. فالنار والهواء هما تجسيد للصفات السيئة في الإنسان، كالهدم والحرق والتخريب. أما التربة والمياه فهما مبعث الخير والنماء دائما في الإنسان. إذ يقول:

جاءت مع الصلصال أربع صفات:
الصبر، وحسن الطبع،
والتوكل، والمكرمة.
ومع الماء نبعت أربع خصال:
الصفاء، والسخاء،
واللطف، والوصال.
ومع الرياح هبت أربعة أهواء:
الكذب، والرياء،
والخسة، والهوى.
ومع النيران شبت أربعة مظالم:
الشهوة، والكبر،
والطمع، ومعها الحسد...

يصور يونس أمره هؤلاء المنتسبين إلى النار والهواء على أنهم سفكة للدماء، محبّون للحرب والدمار. وعلى النقيض من هؤلاء يمتدح أخلاقيا أهل التراب والماء، فمنها خُلقنا وإليها نعود. فمن صفات هؤلاء الصبر والتوكل على الله ولين الجانب والسخاء والمكرمة. والدرويش هو من تتجلى في ذاته هذه الصفات. يبدأ يونس بنفسه فيدعوها إلى التمرغ بالتراب:

يونس، أيها المسكين!
لا تتكبر على الواصلين،
وكن ترابا.
فالكل منبته من التراب،
والتراب روضة لك...

ثم إن يونس الفلاح القروي هو كغيره من الزراع، لا يثق بقوةٍ غير قوة الخالق سبحانه. فالحياة في القرية هي الصبر والانتظار. فالفلاح يبذر البذور في أعماق التربة ولا يملك سوى الصبر والانتظار. فبعض البذور تنبت وتثمر والبعض يفنى ويبتلعه الفناء. وما حياة الإنسان عند يونس أمره إلا كذلك:

مسكين ابن آدم،
شبّهوه بالحصاد،
فهو كالبذور المنثورة،
بعضه يفنى،
وبعضه يترعرع...

وأشد ما يلفت نظر يونس هو دوران الفلك وتتابع المواسم الأربعة، وما يتبع ذلك من تأثير على حياة النباتات. في الموسم الذي تصل فيه النباتات إلى كهولتها، وما إن تسلم الروح بالحصاد، حتى يكون ذلك إيذانا لبدء حياة جديدة في موسم جديد. ومن ذلك تَولد فكر الفناء والخلود لدى يونس أمره. والإنسان عنده كالنبات وسائر الكائنات، في دوران ودورات متتابعة. وأمام هذا الدوران والتتابع، ومن متابعته ومشاهدته، يتولد الإيمان لدى الإنسان فيسمو. وهذا ما يميز الإنسان عن سائر الكائنات.

فحياة الكون كلها قائمة على مبدإ الدوران. ذلك أن كل شيء في الكون يدور؛ الذرات تدور، بل الإلكترونات والبروتونات، والنيترونات الموجودة فيها تدور. ويعتمد الإنسان في حياته ووجوده على دوران الذرات المختلفة التي تتكون منها عناصر جسده الأساسية، وعلى دوران كرات دمه، وعلى خلقه من تراب وعودته إليه، فهذا نوع من الدوران. وتعتمد معيشة الإنسان على دوران الفصول وتتابعها. والعاقل هو من يدرك بعد تتبع وتدبر... ومن هنا يتولد الإيمان. وفي هذا يقول:

قطّعَ بَردُ الشتاءِ الأَوْصالَ،
وهبّتْ نسائمُ الربيع العليل من جديد.
وفجأة، لفّت رحمةٌ شاملةٌ المكانَ،
وقدم الصيفُ المبارك من جديد.
فاكتسى العالم من خزائنه خلعا جديدة،
ووَهب النباتَ حياة جديدة.
لم تأت كلمتي،
من أجل الصيف، أو الخريف،
بل من أجل المعشوق من جديد.
أتوسّل للسلطان
أن يهب الحياة،
للذين أفناهم من جديد...

فكره ورؤيته

لقد كان يونس أمره أميا، ولكنه كان ملهما إلهاما إلهيا في كل ما اله من شعر. وهو نفسه يقول:

لا علم عندي،
ولا إحاطة،
ولا قدرة لدي،
ولا طاقة،
ولكن عنايتك يا إلهي،
هي التي أنارت وجهي.

ومن هذا الضياء
تتنــزل الأشعة النورانية،
لكل كلمة في الأرض أو في السماء،
ويونس المسكين ليس له حظ
من علم القراءة والكتابة...

فهــو إن كان ينفي معرفته بالقراءة والكتابة، إلا أنه صاحب معرفــة وعرفان. وكان مصدر هذا العلم والمعرفة هو المســجد والمدرسة، وجاء ذلك عن طريق العبادة:

عبَدتُ كثيرا؛
في المسجد، والمدرسة،
واحترقت بنار العشق،
فتوهجت معرفتي،
وما وجدته في قلبي،
هما العلم والوصول...

إن يونس الذي نلمس في أشعاره الكثير من الاقتباسات القرآنية ومــن الأحاديث النبوية، والذي كان يفهم الفارســية بالقدر الذي يجعلــه يفهم مولانا جلال الدين الرومي، لا بــد أنه قد تعلم علوم عصره. ولكن العلم الذي كان ينكره ولا يعترف به، هو العلم الذي لا يصل بصاحبه إلى معرفة الحق ﷻ، العلم الذي يحول دون الوصول إلى الحقيقــة وإلى الموجود المطلق. تلــك الأمور لا تتأتى بالعلم، بل بالعرفان، ويتم الوصول إليها بالحــب الإلهي. وكان يتعرض دائما للجهلاء وينفر منهم، ويبغض إلى النفوس الجهل والجهلاء، فيقول:

لكي تكون يونسيا،
فابتعدْ عن أهل الجهل؛
فكم من المساوئ،
تصيب المؤمن من الجاهل...

وكان يونس أمره يكره الإنســان الذي لا يحب والذي لا ينبض قلبه بالحب والهوى، كما يوصي بالنظر إلى كل الناس بعين المساواة. ومن يفرق في النظر يعتبر عاصيا، فالكل عنده سواء:

إن من لا ينظر بعين المساواة،
إلى شعب الاثنين والسبعين أمة،
فهو في الواقع عاص،
حتى وإن كان ذا عِمّة وجبّة...

إن يونس أمره يحب كل البشــر ويراهم جميعا سواسية. وإنه كدرويش مسلم ينظر إلى كل الكائنات بنفس النظرة الإنسانية:

لم أُخلق من أجل الخصام،
بل خُلقت من أجل الحب،
القلب هو بيت الصديق،
وقد خُلقت من أجل القلب...

القلب عند الدرويش يونس هو المكان الأعلى والأسمى، ولما كان القلب هو مكان التجلي الإلهي، فعلى المرء أن يطهر قلبه من كل الرزايا، حيث يقول:

القلب هو عرش الحق،
نظرَ الحقُّ إلى العرش،
من تطهّر قلبه،
فما أسعده في الدارين...

إن القوة المعنوية التي تســيطر على أشعار يونس أمره، ليست بخارج الإنسان، إنما بداخله. ولذلك كثيرا ما كان يدعو الإنسان إلى العــودة إلى نفســه، حيث يجد فيها الأدلــة على وجود الله ﴿وَفِي أَنْفُسِــكُمْ أَفَلاَ تُبْصِرُونَ﴾(الذاريات:٢١). والشخصية المحببة إلى نفسه، هي شــخصية الدرويش الباحث في ذاته، الراغب في المساواة والحب والسلام والصداقة. والدرويش الباحث عن نفسه عنده، هو شــجرة مثمرة يستفيد كل شخص من ثمارها، وحتى أوراقها بلسم لكل ذي داء عضال:

من فروعه يقتات الشارد والوارد،
أوراقه دواء لكل ذي داء،
وفي ظلاله يتفيأ كل ذي شأن عظيم...

ويصــل يونس أمــره إلى قمة روعتــه الفنيــة والصوفية، بــل والرمزيــة في آن واحــد، إذ اســتنطق الأزهــار والــورود، وأخــذ يحاورهــا ويجعلهــا تســبح الخالــق:

سألت الزهرة: وما الوردة بالنسبة لكِ؟!
قالت الزهرة: أيها الدرويش،
إن الوردة عَرَق محمد ﷺ.
سألت الزهرة أيضا،
لــمَ عنقك مائل؟
قالت الزهرة: أيها الدرويش،
قلبي نحو الله قائم...

وكان يونس أمره يرفض رفضا تاما المظهرية والخيلاء. وعلى الدرويش الحق أن يترك كل وسائل الخيلاء:

ليست الدروشة،
بالتاج والخلعة،
بل الدرويش المفعم قلبه بالحب،
ليس بحاجة إلى الخرقة، أو التاج...■

(*) جامعة عين شمس / مصر.

الفن الإسلامي والتعبير عن المطلق

د. مصطفى عبده*

لقد فهم الفنان المسلم وقوع التحريم على الفن التجسيمي، فنحا منحى تجريديا، وذلك من خلال الزخارف لتحقيق الانسيابية في الخطوط، والاتزان الهندسي، والتوافق اللوني، والتنغيم الموسيقي، وهي المقدمة اللازمة لفن تجريدي أصيل يبحث عن الأصالة.

وقد توقف التعبير الفني مؤقتا في صدر الإسلام للأسباب التالية:

أ-كان التلقي القرآني قويا حيث بهرهم النور القرآني وأوقفهم عن التعبير مؤقتاً. وهي فترة الدهشة التي تسبق الإنتاج الفني.

ب-كان الرصيد الثقافي رصيدا جاهليا، وهذا الرصيد لا يصلح للدين الجديد والحياة الإيمانية الجديدة، فلا بد إذن من وقت لاستجماع رصيد جديد يصلح للحياة الجديدة لبعث أمة جديدة لها رسالة حضارية.

جـ-لم يزاول العرب الفن التشكيلي من نحت وتصوير بحكم مواده الجامدة في المكان. وبحكم ترحلهم الدائم كان فنهم زمانيا، فمارسوا فن الشعر والفنون التشكيلية الأخرى التي تنسجم مع طبيعتهم البدوية. ولهذا لم يمارسوا فن النحت والتصوير. وكل ما كان ينحت كان يعبد كصنم معبود.

د-أخرج الإسلام الفن من دُور العبادة إلى الطبيعة الرحبة والكون الفسيح، وحوّله من خدمة الآلهة إلى خدمة التدين في الإنسان؛ فكان تأثير التحريم قويا على الفن المستخدم كأداة لوثنية الآلهة المعبودة في تلك الدور التعبدية، فأوقف هذا النوع من الفن الذي يخدم العقيدة الوثنية.

هـ-انشغل المسلمون بالفتوحات الإسلامية ونشر الدعوة والتصدي للوثنية، وقد أسقط



المسلمون انفعالاتهم النفسية في الدعوة والجهاد والاستشهاد.

و-كان الفن جنينا في رحم الأمة الإسلامية، فكان لابد من ولادة جديدة لفهم حضاري جديد من خلال التصور الإسلامي للوجود.

التوجهات الإيجابية للفن التشكيلي

١-الخط العربي: اهتم المسلمون بالكتابة وأكبروا القلم وقدسوا العلم. وأول آية نزلت في القرآن الكريم هي: ﴿اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ﴾(العلق:١). ويقسم الله بالقلم في قوله تعالى: ﴿ن وَالْقَلَمِ وَمَا يَسْطُرُونَ﴾(القلم:١). وكان الخط أول مظهر من مظاهر الفن والجمال الذي عني به العرب بعد إسلامهم حيث كان ذلك في تجميل وتجويد الخط العربي وتحريكه. وقد سما الخط إلى مرتبة عالية لتعامله مع حروف القرآن منذ نزوله، فتعاملوا مع الخط بقدسية حيث زينوا به المصاحف، وزينوا أماكن العبادة باللوحات الخطية. وقد أحيط الخط الكوفي بهالة من الإكبار، وقد ظلت الأغراض اليومية تكتب بالخط النسخي والرقعة، وبرز الخط الديواني للدواوين الحكومية تماما كالخطوط الهيروغلوفية في مصر القديمة.

كان الخط العربي وسيلة للعلم فأصبح مظهرا من مظاهر الجمال، وقد حرك الفنان المسلم الخطوط الجافة وأضاف إليها الزخارف حتى غدت لوحات فنية. وقد استخدمت الكتابة في قوالب زخرفية محل الصورة وعكست نوعا من التعبير له خصائصه التي تتيح له التعبير عن قيم جمالية ترتبط بقيم عقائدية.

ولقد ضمّن الفنان المسلم كل طاقاته عندما كتب الآيات القرآنية على الجدران والواجهات والعقود والأبواب والمنابر ليحمل في نفس الوقت شكلا فنيا على أسس جمالية رياضية. وقد تجاوز الخط العربي الديار العربية والديار الإسلامية. فقد استخدمه الفنان "جيوتو" في زخرفة لوحاته، واستخدمه الفنان الألماني "هانس هولبين".

ونجد أن الخط العربي يأخذ مكانه اللائق في الفن من تجويد وتحسين، وفي استخدامه لأشكال تجريدية؛ فمثلا الخط عند "شبرين" معماري التكوين يتقبل كنمط مرئي ومصور، ويعبر عن أسلوب رمزي تجريدي عن الحالات العقلية والعاطفية. فالمدلولات الموسيقية النطقية ودرجات الحروف الصوتية للحرف الواحد وتركيبها تأتي في تناغم مع الأحاسيس الداخلية للنفس البشرية؛ فتنطق الحروف -ليس نطقا لغويا فقط- بل نطقاً

إستاطيقيا من خلال تناسق وترابط الحروف العربية في تجريدات لانهائية.

٢-الزخارف الإسلامية: فن الزخرفة فن قديم قدم الإنسان. إلا أن الفن الإسلامي أعطى لهذا اللون من الفن كينونة فحور الأشكال وجردها لإحداث الحركة التي تعطي طابع الاستمرارية وتوحي بلانهائية الأشكال المتكررة لتحقيق الانسيابية. وبتأثير التحريم على فن "النحت والتصوير" اتجه الفن الإسلامي نحو "الزخرفة"، فأنشأ زخارف قائمة بذاتها وزخارف تحتويها الأشكال.

والزخرفة الإسلامية عبارة عن وحدات هندسية أو قل إنها وحدات رياضية يراد بها التفكير الرياضي للوصول لحقيقة لا تتعلق بمكان معين ولا بزمان معين، فحقيقة المثلث أو المربع أو الدائرة تظل حقيقة عقلية لتصديقها للمعاني العقلية في تجردها وانطلاقها.

وقد أخذ الفنان المسلم من الطبيعة من شجيراتها وأوراقها وأزهارها وحيواناتها بعد تحويرها لتعطي الحركة الداخلية في تداخل الأشكال الهندسية، فتدرك العين تلك الحركة من خلال الخطوط المتداخلة. وتلك الموسيقى الصادرة عن الأشياء تعبر عنها الحركة الزمانية التي تمثل الديمومة والاستمرارية في حركاتها اللانهائية.

فليس الفن الإبداعي براعة في تصوير المناظر بالمحاكاة القائمة على الدقة والمقدرة على إيجاد الصلة بين العين والأشياء فقط، بل الإبداع الفني الذي يصل حد الروعة الجمالية، وليس الفن في نقل ما في الطبيعة فقط بل البحث عن طبيعة الأشياء.

وقد تميزت الزخرفة الإسلامية بجوانب تكمن في العلاقة القائمة بين الوحدات الزخرفية المتكررة والمتنوعة في تكاملها الهندسي واتساقها الفني. فالخطوط الهندسية والنظرة الرياضية لعالم الأشياء، هو تجريد ذهني للجزئي ليصبح كليا. ولهذا أمكن للوحدات الهندسية المتناهية لتكوين أشكال لانهائية، وبهذا يلتقي فن الأرابسك مع الفن التجريدي في مجال الانطلاق للتعبير عن المطلق.

٣-العمارة الإسلامية: تأثرت العمارة الإسلامية بالحضارات التي احتكت بها والبلاد التي فتحتها، فتأثرت بالأساليب البيزنطية والهيلينية والساسانية والإيرانية، بالإضافة إلى الرصيد الحضاري للحضارة العربية في الجزيرة العربية. ورغم هذه التأثيرات تلحظ الوحدة في الفن الإسلامي على الرغم من تعدد المراكز وبعد المواقع. ويرجع ذلك لوحدة المنبع والأساس الفكري للحضارة الإسلامية.

وقد تعامل المسلمون بذكاء حضاري مع الثقافات الجديدة، إذ أبقت عليها وأضافت إليها ولم تحاول طمس تلك الثقافات، بل



سمت بها ووجهتها الوجهة الصحيحة من خلال أرضية قوية تتجه إلى هدف واحد. ولامتناع الصور والتماثيل في العمارة الإسلامية خاصة في المساجد، استخدم المهندس الإسلامي الأعمدة المتنوعة وأدخل الفسيفساء والزخارف النباتية والهندسية وحورها، واهتم بالتصميم المعماري. فالعمـــارة تعكس المحتوى الحضاري لأي تكتل حضـــاري، والعمارة قوة حضارية وهـــي كتاب مفتوح تسجل فيه الشعوب تاريخها.

والعمارة "فن"، والفن أصدق أنباء التاريخ، لأنه الكاشـــف عن حقائـــق التاريخ المنـــزوي. والعمارة "إبـــداع"، والإبداع خصيصة إنســـانية اختص الله به الإنســـان دون سائر الكائنات، فبيوت العنكبوت والنمل وخلايا النحل صادرة عن عقل غريزي غير متطور من خلال ذاكرة لحظية، وهكذا ستظل تلك البيوت والخلايا كما كانت عليها خارجة عن دورة الزمن؛ إلا أن الإنسان له عقل "إبداعي" متطور من خلال ذاكرة منســـابة لإبداع يسير مع الزمان. والعمارة "جمال"، لأن العمارة تحاول تجميل الفراغين الداخلي والخارجـــي ليصلح للحياة الحضاريـــة. إذن العمارة، فن وإبداع وجمال. وبالعمارة بنى الإنســـان حضارته بفضل ما استحدثه من عمران من خلال "عقله الإبداعي".

وقد سجلت العمارة الإسلامية، مسيرتها الحضارية على العمائر الإســـلامية من خلال طُرزها المختلفة، إذ نجد الوحدة الحضارية التي امتدت من أقصى بلاد المغرب العربي إلى أقصى بلاد الهند، من خليج البنغال إلى جزيرة إيبريا. فإن مئذنة جامع "الكتبية" بمراكش ومئذنـــة جامع "قطب زادة" بدلهي تبـــدوان أمام المتتبع كبروج للحدود الإسلامية، وإن كانت هذه الحدود قد امتدت أبعد من ذلك. وحين نعلم أن هاتين المنارتين قد شـــيدتا في زمن واحد، فبإمكاننا أن نعتبرهما بمثابة رمزين جميلين لوحدة العالم الإسلامي.

والفنان المســـلم لا يفرق بـــين العمائر الشـــاهقة والتحف الصغيرة، ويســـتوي في ذلك القصر المنيف والكوخ الحقير، وآنية الذهب والطين، و لم يفرق بين تحفة غني وســـلعة فقير، هدفه هو تجميل الدنيا في شـــتى زواياها ومرافقها لتعطي جمالا ذاتيا يشيع في النفس الغبطة وفي القلب الرضى، ويشهد لمبدعيه بحس جمالي عميق وللمتذوقين بحس تذوقي نقدي، فتحول المتلقي السلبي إلى متذوق إيجابي يشارك في العملية الإبداعية في خدمة الإنسان.

وهكـــذا تحول الاهتمام بالفنـــون التطبيقية، وتحول الفن إلى خدمة الحياة الإنسانية، حيث كانت الروعة في الصناعات الدقيقة الـــتي غدت تحفا فنية، ممـــا جعلهم يتكـــرون ويهتمون بالعمل اليدوي ويقدسونه. فقد كان تحريم استخدام آنية الذهب والفضة دافعا لاكتشـــاف الخزف ذي البريق المعدني. وكذلك كان تحريم لبس الحرير -للرجال- دافعا لاستخدام الزخرفة النسجية المسماة بـ"التابســـتري". وهكذا فتح الباب واســـعا أمام الفنانين لكي يبتكروا ويبدعوا، اعتمادا على العمل الفني المتقن المجود لتحقيق القيم الجمالية مع القيمة النفعية. وبهذا دخل الابتكار مجال التصنيع وتدخلت الصنعة في مجال الابتكارات.

من أهم المجالات التي أثرت في المسيرة الفنية للفن الإسلامي بصفة غير مباشـــرة، هي "النقابات الإســـلامية" و"الحســـبة" و"الوقف". وذلك في مجال مراجعة الأحوال ومراقبتها وترشيدها. فتحســـن الإنتاج الفني وترقـــى، وانحصر التنافـــس في الجودة والأصالة، وكان التعامل شـــريفا تبعا لقول الرســـول ﷺ: "مَن غشّنا فليس منّا"، حديث شـــريف نُفّذ بدقة؛ فتحولت الأعمال النفعية والمشغولات اليومية إلى تحف جمالية ترضي الصانع والبائع والمشتري والمشاهد.

الإسلام يحرر الفن من القيود

يقرر بعض من علماء الفلسفة والتاريخ أن الفن قد تحرر من الأسر الكهنوتي بظهور فنون عصر النهضة في أوروبا في القرن الخامس عشـــر الميلادي. إلا أن الحقيقة التاريخية تقول من خلال فلسفة التاريخ أن التحرر الذي كان، كان جزئيًا وكان التكنيك الفني -وما زال- الموضوع الفني الذي عالجه عظماء عصر النهضة دينيا. ودليلنـــا على ذلك أعمال عظماء عصـــر النهضة أمثال "مايكل أنجلـــو" الذي يمثل "إرادة" عصر النهضة والذي نحت تمثال "داود وموسى" عليهما السلام، والفنان "ليوناردو دافنشي" الذي يمثل "روح" عصر النهضة والذي ظهرت عبقريته في رسم الشخصيات المقدسة. والمصور الشـــاب "رفائيل" الذي يمثل "أسلوب" عصر النهضة والذي لقب بـــ"مصور مريم".

وعليه يمكـــن أن نقرر أن التحرر الكامل للفن كان في القرن السابع الميلادي، عندما حطم الرسول ﷺ الأصنام عند فتح مكة، فتحول الفن من خدمة الآلهة إلى خدمة التدين في الإنســـان. وإذا ما تتبعنا تاريخ الفن نجد أن الفن تلازم مع الإنســـان، وكان الفن يخدم العقائد المنحرفة الوثنية حيث كان يستمد مواضيعه من الدين واســـتمد الدين قوته بالفن، وهكذا كانت العقائد قبل الإسلام وكان الفن. هذا وقد نحت إنسان الكهوف تمثال "الأم المقدسة" وعبدها على أنها الخالقة -لأنها تلد فهي إذن خالقة-. وقد نحت

فنانو العصر الذهبي الكلاسيكي الإغريقي تمثال "فينوس" آلهة الحب والجمال مركزين على مواطن الجمال في المرأة. وقد نحتت الشعوب تماثيل لآلهتهم في الأدوار المتأخرة لعقائدهم المنحرفة في تجسيدهم للآلهة. وهكذا كان الفن يخدم تلك العقائد في تجسيدها للآلهة وفي تكبيل تلك الشعوب وتأكيد هذه العبودية وتوثيق تلك القيود. وقد عبدت هذه الشعوب تلك الآلهة التي تجسدت في أصنام منحوتة، وعبدت عدة أشكال مجسمة تعبر عن رموز "طوطمية" اعتقادا منهم أن الأرواح حلّت بها؛ وعبدت الظواهر الطبيعية ونحتوا لها التماثيل ورمزوا لها بالرموز المجسمة.

وهكذا نجد أن العقائد المنحرفة نحتت التماثيل المجسمة وعبدوها في شكل أصنام تعبد وتقدس، وبقي الفن دليلاً على أنواع العقائد التي كانت تمارسه تلك الشعوب، وكشفت الفنون على مدى انحرافهم العقائدي والسلوكي. وهكذا تقيد الفن منذ أقدم العصور وحتى ظهور الإسلام الذي حرر الفن من تلك القيود التي كبلته وقيدته. وقد حاول الفنان الأوروبي التحرر من هذه القيود والخروج عن سيطرة الكنيسة، إلا أنه تقيد بالقيد الوثني عندما بعث التراث الكلاسيكي الوثني في عصر النهضة، فكانت المواضيع مقدسة وأساليبهم وثنية.

إن العقدية الإسلامية لم تأمر الناس باتخاذ صيغة فنية محددة كما هو الحال في العقائد والإيديولوجيات الأخرى، بل أوقف الإسلام الفن المنحرف عقائديا وسلوكيا ووضع الفن في دائرة الاختيار؛ فكان تحررا للفن وتحررا للفنان، ذلك الإنسان المختار الذي وضع في مكان الاختيار. ودائرة "لا تفعل" أوسع من دائرة "افعل". وقد تحررت المساجد من الصور والتماثيل -إلا أنها كثيرة الزخرفة- وأصبح للعمارة كيانها الخاص. وكذلك تحرر الفن بابتعاده عن التجسيم واتجاهه نحو التجريد وانطلق نحو المطلق واللانهائي. وعمل الفنان المسلم من خلال العقيدة وليس من خلال القيد العقائدي. ولوجود التوازن بين الروحانيات والماديات، تعامل مع الكائنات وطبيعة الأشياء، ونفذ إلى الأشياء الكامنة من الأشياء الكائنة.

وهكذا كان الإسلام محرراً للفن من القيد الوثني والأسر الكهنوتي، ليسمو بالإنسان بتحقيق إنسانيته، ويعمل من خلال التصور الإسلامي للوجود لبناء حضارة جمالية حيث أصبح الفن الإسلامي فنا ذهنيا يحكمه المنطق، وفي نفس الوقت ينطلق إلى عوالم إبداعية سامية.

ولإيجاد فن من خلال التصور الإسلامي فأول الخطوات هو إحياء الفن الإسلامي، الكلاسيكي كأساس يعتمد عليه الفن التجريدي المعاصر لتحقيق الانسيابية من خلال حل مشكلة الزمن في الفن التشكيلي بإيجاد الحركة الداخلية للأشكال الساكنة، وذلك بإنتاج فنون لها موسيقى بصرية تحقق إيقاعات جمالية. فالموسيقى هندسة في الأنغام، والنحت هندسة في الأشكال، والألوان هندسة في الأضواء، والزخرفة هندسة في الوحدات، والخط هندسة في التركيب. وكل شيء قائم على هندسية الأشكال وتنظيم في تركيب الأشياء بنظام وتناسق. ومن هذا النظام المتناسق تتألف الموسيقى، وهي اللغة الفنية التي تبتغيها كل الفنون وتسعى إليها لتنسجم مع الموسيقى الكونية.

فيجب على الفنان المعاصر أن تكون له رؤية أشد وضوحا لما هو كائن لكي يغوص إلى كوامن الأشياء والكشف عن بواطنها، ليدرك الفنان أسرار التناغم والتناسق الكامنين في العالم المرئي وغير المرئي، والمحسوس وغير المحسوس، والمسموع وغير المسموع.

والفن من خلال التصور الإسلامي للوجود ومن خلال تصوره للكون، يحكي عن الموجودات الكونية "الكائنة والكامنة" ليرسمه في لانهائيته وفي ديمومته وفي انسيابه عبر الزمان ليكون فنا خالدا. والفن الخالد هو الذي يعبر تعبيرا صادقا لمعتقد الخلود، والخلود لا تمثله الجزئيات المتغيرة، إنما تمثله كليات الحركة والصيرورة الدائمة من خلال السيال المتدفق. فالذي يقصد الجزئيات ينتج فنا جزئيا متغيرا فانيا. ويكون الفن خالدا عندما يعبر عن قيم ومعتقدات صادقة، ويكون خالدا عندما يقبل الخلود في كلياته المتحركة لا في جزئياته وصفاته المتغيرة، بل في حركته الكلية اللامتناهية والذي يأتي تعبيرا عن عقيدة صادقة في اتصاله بالزمان لا المكان المتغير، وإن اتصل بالمكان فهو اتصال يوحي بخلود هذا المكان. يكون ذلك بتوسيع رقعة الفن ليشمل كل ما هو جميل من خلال قاعدة فسيحة تشمل كل الوجود، لأن الفن هو التعبير الجميل عن حقائق الوجود ليتحدث عن الكون، فيراه جلية حية متعاطفة ذات روح تسبّح وتخشع.

وبهذا تتوسع دائرة الفن من خلال توسيع دائرة الشوق حتى تشمل الأشواق العليا. وهكذا تنسجم رسالة الفن مع رسالة الإسلام الخالدة، في دعوتها للحق والخير والجمال والاستعلاء والاعتدال والنظام، فيكون الفنان مبدعا تقيا، وخاشعا نقيا.■

(*) جامعة النيلين / السودان.



دع الغيب الذي فيك يتكلم

أ.د. عبد الحليم عويس*

أيها الإنسان (الكون)! ألستَ قسيم الكون؟ وهل يُعقل الكون إلا بك؟ وهل ينطق إلا بك؟ وهل يذلّل الكون -بإذن مكون الأكوان- إلا لك.

إيــاك أن تزعم أنك جرم صغير، ففيك انطوى العالم الأكبر. لقد صنعك الله بيده. ونفخ فيك من روحه. فأنت من الروح جئت، وبالروح تعيش، وبها تصنع كل أمجادك. فالروح قبل العقل وقبل الجسد، كما أن العقل قبل المادة. وعندما تذهب منك الروح صاعدة إلى بارئها ينتهي كل شيء فيك.

في البدء كانت الروح. ثم تمضي الحضارة إلى مرحلة العقل وتدخل عالم الأشياء. أما في مرحلة الروح فالغايات قبل الوسائل، والعام قبل الخاص، والمعاني فوق المباني، والأخلاق والمثل والأشواق العليا فوق القوانين، وفوق المعادلات الدنيوية الوضعية. حتى لو كانت هذه المعادلات في إطار العدل، فالحبّ والرحمة والإيثار فوق العدل، دون إلغاء العدل.

دع الروح تعمل فيك متعانقةً مع الوحي. لأنك -بهما- تصل إلى "إنسانيتك"، وبهما تنطلق إنسانيتك من إسارها فتتفجّر حكمة ونورا.

لسوف يضاء المصباح في داخلك، سيلتقي فيك الغيب والشهادة، ستنطلق حواسك إلى مناراتها لتضيء جوانب كونك الداخلي، وإشعاعاتك الخارجية. هنا قد تتحقق فيك بعض الومضات النورانية الربانية. وقد يلتقي فيك النوران: نور الغيب ونور الشهادة.

سوف يدخل المصباح إلى مشكاتك. فلا تستطيع الشهادة الواردة إليك أن تطفئ نور الغيب، ولا يستطيع الغيب الكامن فيك أن يشلّ فاعلية الشهادة، بل إنك سترى الأشياء على حقيقتها، لأنك سترى بنور البصر والبصيرة، وبالروح والعقل والمحسوس معاً. فكل الطاقات ستتفتّح، كما تتفتح الزهور في الربيع. وسوف يفوح منك عطر الإنسانية الربانية.

سيفقه قلبك، ولسوف تعجب أن هناك ناساً ﴿لَهُمْ قُلُوبٌ لاَ يَفْقَهُونَ بِهَا﴾(الأعراف:١٧٩)، وستبصر عينك الأشياء وما وراء الأشياء، وسيذهلك أن هناك ناساً ﴿لَهُمْ أَعْيُنٌ لاَ يُبْصِرُونَ بِهَا﴾(الأعراف:١٧٩). وستلتقط آذانك كل أنغام التوحيد المبثوثة في "سيمفونية الكون" فتعرف معنى حفيف الأشجار، وخرير الأنهار والبحار، وقطرات الأمطار، بل ربما تفهم منطق الطير، ليس بالشعور السليمانيّ الساطع، بل باللاشعور الوجداني الخافت. وسوف تدرك أن موسيقى الكون لا تتناشز، بل تتناغم، حتى مع العواصف والرياح. فلكلّ دورُه، ولكلّ إيقاعه ودلالته. وما يظنه بعضهم من تناقض ونشاز إنما يعود إلى أنهم لم يفقهوا جيدا أصول

الإصغاء: ﴿وَلَهُمْ آذَانٌ لاَ يَسْمَعُونَ بِهَا﴾(الأعراف:١٧٩).

عندما تترك الغيب الذي فيك يتكلم، سوف تتكشف لك ألغاز كثيرة.. سوف يدلك الغيب على حقيقة ما عجزت "الشهادة" عن تفسيره، سوف تزول عقبات الصعود، وسوف يمضي الوعي فيك إلى غايته دون قيود. كيف رأى عُمير بن الحمام ﷺ أكل تمرات تساوي عمرا طويلا، فألقاها ليقطع العلاقة بالمحسوس في ساعة المفاصلة بين الشهادة والخلود. لقد أدرك الحقيقة وأراد سرعة العبور، لأن "الغيب" فيه هو الذي كان يتكلم ويعمل.

فدع الغيب الذي فيك يحمل فطرتك النقية ويتكلم ويعمل... دعه يمرّ، واترك موازينك المحسوسة رويدا، وتمهل، وحاول أن تصعد وتحلّق. ترك أبو بكر ﷺ لأولاده الحصى، وهاجر مع النور إلى الأرض المنوّرة "ثاني اثنين" ليغنم، لأن الغيب فيه كان هو الذي يتكلم. فاترك الغيب يحمل فطرتك ويعمل.

قال حاتم الأصم: "لا تغترّ بموضع صالح، فلا مكان أعلى من الجنة، وقد لقي آدم عليه السلام فيها ما لقي، ولا تغترّ بكثرة العبادة فإن إبليس بعد طول تعبّده لقي ما لقي. ولا تغترّ بكثرة العلم فإن بَلعام كان يحسن اسم الله الأعظم فانظر ماذا لقي، ولا تغترّ برؤية الصالحين فلا شخص أكبر منزلة عند الله من المصطفى عليه الصلاة والسلام، ولم ينتفع بلقائه أقاربه وأعداؤه"، لأن المهم -قبل كل ذلك- أن يتكلم الغيب الذي فيك، وأن تفقه وتعلم وتقصد أن تعمل.

روي عن ابن أبي ميسرة أنه كان إذا آوى إلى فراشه يقول: "يا ليت أمي لم تلدني"، فقالت له أمه: يا ميسرة إن الله تعالى قد أحسن إليك، هداك إلى الإسلام. قال: "أجل، ولكن الله قد بيّن لنا أنا واردو النار، ولم يبين لنا أنا صادرون عنها". انظر كيف تكلم الغيب في أبي ميسرة فعرف الفروق بين الورود والصدور.

وقال ميمون بن مهران: لما نزلت هذه الآية ﴿وَإِنَّ جَهَنَّمَ لَمَوْعِدُهُمْ أَجْمَعِينَ﴾(الحجر:٤٣)، صاح سلمان الفارسي ﷺ ووضع يده على رأسه، وخرج هاربا ثلاثة أيام لا يقدرون عليه". فأي غيب مكنون تحرك في سلمان فأبصر المستقبل من خلال ﴿وَإِنْ مِنْكُمْ إِلاَّ وَارِدُهَا﴾(مريم:٧١).

قال عبد الله بن عمرو بن العاص ﷺ: "ابكوا فإن لم تبكوا فتباكوا، فوالذي نفسي بيده لو يعلم العلمَ أحدُكم لصرخ حتى ينقطع صوتُه، وصلى حتى ينكسر صُلبه"، وكأنه أشار إلى معنى قوله ﷺ: "لو تعلمون ما أعلم لضحكتم قليلاً ولبكيتم كثيراً"،

ولكن لماذا لا نعلم العلم؟ لأن الشهادة الموجودة فينا وحدها هي التي تتكلم، أما "الغيب" الذي فينا فقد أخرسناه، حتى لا يتكلم.

عندما أخذ ربك من بني آدم من ظهورهم ذريتهم أشهدهم على أنفسهم. لكن كيف شهد جميع بني آدم على أنفسهم؟ وأيّ بني آدم كانوا، أأبناء الحاضر المخاطب أو أبناء المستقبل؟ وأين كانوا عندما أدّوا هذه الشهادة الخالدة؟ وبأي لغة تكلموا؟ كان "الغيبُ الواعي" الذي فيهم هو الذي يشهد ويتكلّم: "ألستُ بربكم؟" أجاب الغيب الجماعي الكامن فيهم: "بلى".

وهكذا شهدوا على أنفسهم بلغة الغيب الواحدة التي تتكلم دون إرادتهم.. لغة القوة التي لا تحبسها إرادة، ولا يحدها زمان، ولا يحكمها وعي.. لغة الماضي والحاضر والمستقبل: ﴿وَقَالُوا لِجُلُودِهِمْ لِمَ شَهِدْتُمْ عَلَيْنَا قَالُوا أَنْطَقَنَا اللهُ الَّذِي أَنْطَقَ كُلَّ شَيْءٍ وَهُوَ خَلَقَكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾(فصلت:٢١). خلقكم أول مرة فاعترفتم بربوبيّته وقلتم: "بلى، شهدنا على أنفسنا". وخلقكم ثاني مرة، أعادكم بعد بعثكم الثاني ﴿وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾، فتكلمَت عنكم جلودكم، أنطقها الله الذي أنطقكم أول مرة.

في البداية تكلم الغيب الكامن فينا معترفا بالربوبية. وفي النهاية تكلم الغيب الكامن فينا معترفا بقدرة القادر، وإبداع الخالق. وبين البداية والنهاية تكلمت فينا قوى كثيرة، لكنها قوى الشهادة.

أما قوة الغيب الكامن فينا: قوة الفطرة والوعي والكهرباء المبثوثة في كياننا.. في قلوبنا وأرواحنا وأسماعنا وأبصارنا.. قوة النواة اللاشعورية والخليّة الحية الدائمة.. قوة المضغة التي لو صلحت صلح الجسد كله، والروح التي كانت في البدء، وتبقى معنا، تغدو وتروح حسب فاعليتنا وحضورنا، فإما غبنا فتوفاها الله حين غيابنا في نومنا أو موتنا؛ وإما حضرنا فأرسلها الله إلى أجَلنا المسمى.. أما قوة الغيب هذه فهي التي يجب أن نستثيرها لتتكلم فينا، بل لتعمل فينا، بل لتقودنا.

استفتِ قلبك، إنه قوتك الحقيقة، وهو المصلح والقائد... استشره دائما، واخضع له ولا تخضع لقوى الشهود حين تختلّ في يدها الموازين.

أما موازين الداخل، موازين الغيب الكامن فيك، فهي لا تختل أبدا، شريطة أن تحفظها بسور البداية: ﴿أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ قَالُوا بَلَى﴾(الأعراف:١٧٢)، وبسور النهاية: ﴿قَالُوا أَنْطَقَنَا اللهُ الَّذِي أَنْطَقَ كُلَّ شَيْءٍ وَهُوَ خَلَقَكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾(فصلت:٢١). ■

(*) أستاذ التاريخ والحضارة الإسلامية / مصر.



معارج الصلاة
وإخراج الإنسان الكوني

أ.د. فريد الأنصاري*

الدين هو العبادة، والعبادة هي الصلاة. نعم، لعبادة الله أشكال شتى من الفرائض والنوافل والأعمال والحركات. سواء مما شرع للتعبد أصالة كالعبادات المحضة؛ أو مما شرع للتعبد تبعا، ككل أعمال العادات والمعاملات. ولكن ذلك كله مجموع في معنى الصلاة. فلا شيء من ذلك يكون عبادة حتى يرتقي إلى معنى الصلاة، ذوقا ووجدانا. ولذلك كانت الصلاة هي أعظم ما في الدين. كما في قوله ﷺ: "رأس الأمر الإسلام، وعموده الصلاة" (رواه ابن ماجة والترمذي)، وكان "أول ما يحاسب به العبد يوم القيامة الصلاة، فإن صلحت صلح له سائر عمله، وإن فسدت فسد سائر عمله" (رواه الطبراني). فالصلاة إذن هي الدين من حيث معناه الذي هو الخضوع لله الواحد القهار رغبا ورهبا.

وللصلاة في الإسلام جمال الدخول في موكب الكون العابد، سيرا إلى الله تسبيحا وتمجيدا. فذلك إذن مقام الأنس البهي، حيث يستشعر العبد صحبة الكائنات كلها، تنافسه في حبه الجميل، ووجدانه العليل، وتسابقه في مسراه عبر قافلة العابدين الراجين الخائفين: ﴿وَيُسَبِّحُ الرَّعْدُ بِحَمْدِهِ وَالْمَلَائِكَةُ مِنْ خِيفَتِهِ﴾(الرعد:١٣). فيا أيها الإنسان! ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ يَسْجُدُ لَهُ مَنْ فِي السَّمَاوَاتِ وَمَنْ فِي الْأَرْضِ وَالشَّمْسُ وَالْقَمَرُ وَالنُّجُومُ وَالْجِبَالُ وَالشَّجَرُ وَالدَّوَابُّ وَكَثِيرٌ مِنَ النَّاسِ وَكَثِيرٌ حَقَّ عَلَيْهِ الْعَذَابُ وَمَنْ يُهِنِ اللَّهُ فَمَا لَهُ مِنْ مُكْرِمٍ إِنَّ اللَّهَ يَفْعَلُ مَا يَشَاءُ﴾(الحج:١٨){س}{س} أيّ تناسق هذا بين الأرض والسماء؟! وأي تناغم هذا بين شتى المدارات؟! وأي شذوذ هذا الذي يمارسه الإنسان في تمزيق وحدة الوجهة

نحو الخالق العظيم؟! فَلِمَ لا يسجد داود عليه السلام لربه في هذا الموكب المتسق التغريد والتجويد... ﴿وَسَخَّرْنَا مَعَ دَاوُودَ الْجِبَالَ يُسَبِّحْنَ وَالطَّيْرَ وَكُنَّا فَاعِلِينَ﴾(الأنبياء:٧٩)، ﴿إِنَّا سَخَّرْنَا الْجِبَالَ مَعَهُ يُسَبِّحْنَ بِالْعَشِيِّ وَالإِشْرَاقِ ۞ وَالطَّيْرَ مَحْشُورَةً كُلٌّ لَهُ أَوَّابٌ﴾(ص:١٨-١٩) ﴿وَإِنْ مِنْ شَيْءٍ إِلاَّ يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِ وَلَكِنْ لاَ تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ﴾(الإسراء:٤٤)، و﴿كُلٌّ قَدْ عَلِمَ صَلاَتَهُ وَتَسْبِيحَهُ﴾(النور:٤١).

الإنسان عبد كوني

إن هذا القرآن يخاطب الإنسان باعتباره كائنا "كونيا" بامتياز. إنه يعيش في الأرض. نعم، ولكنه يمتد بفكره الطموح إلى الآفاق البعيدة بملايين السنوات الضوئية، بل بملاييرها وزيادة. فهو "كوني" بما هو عبد الله رب العالمين، يحمل رسالة الله في رحاب هذا الكون كله، "الكون" بمفهومه القرآني الفسيح، الممتد من عالم الغيب إلى عالم الشهادة، لا بمفهومه الفزيائي الضيق -على سعته- الذي يقف علماء العصر عند حدوده حائرين. فما النجوم والكواكب كلها بفضاءاتها وسُدُمها إلا سقف هذه السماء الدنيا. والكون القرآني يمتد فوقها سبع سماوات. و"السماء" في القرآن مفهوم غيبي لا علاقة له بالمادة المتجلية في عالم الشهادة. قال جل وعلا: ﴿إِنَّا زَيَّنَّا السَّمَاءَ الدُّنْيَا بِزِينَةٍ الْكَوَاكِبِ﴾(الصافات:٦)، وقال سبحانه: ﴿أَلَمْ تَرَوْا كَيْفَ خَلَقَ اللهُ سَبْعَ سَمَوَاتٍ طِبَاقًا ۞ وَجَعَلَ الْقَمَرَ فِيهِنَّ نُورًا وَجَعَلَ الشَّمْسَ سِرَاجًا﴾(نوح:١٥-١٦).

أيْ عبدَ الله! انظرْ، هذه الأجرام السماوية تسبح الله وتصلي، سابحة في مدارها السائر أبدا إلى الله: ﴿وَهُوَ الَّذِي خَلَقَ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ كُلٌّ فِي فَلَكٍ يَسْبَحُونَ﴾(الأنبياء:٢١).

أما أنت أيها العبد المؤمن! ففلكك السيار إنما هو مواقيتك الخمسة، تجري بك عبر أبراج المحبة ومنازل الشوق، فالبِدارَ البدارَ يا سالك بأوقات المطالع! فقد جمعت كل الخير في تجليات الجمال، وما بقي بعدها إلا التيه في فيافي الضلال. عجبا! وأي كوكب هذا الذي يرحل في مداره مجذوبا إلى جاذبيته، ثم يتخلف عن مطالعه؟ كيف وها ﴿ إِنَّ الصَّلاَةَ كَانَتْ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ كِتَابًا مَوْقُوتًا﴾(النساء:١٠٣).

الوقت هو الصلاة

كان الوقت فكانت الصلاة.. وإنما الوقت هو الصلاة.. فتأمل! الإنسان، هذا الجرم الكوني الصغير، كان المفروض فيه أن يدور بفلكه كسائر الأجرام السيارة في الكون طوعا لا كرها. ولكن لو كان يدري... إن هذه الآية العظيمة تضعه في مداره الطبيعي ليسلك سبيله إلى ربه ذلولا: ﴿إِنَّ الصَّلاَةَ كَانَتْ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ كِتَابًا مَوْقُوتاً﴾. وما الإنسان إن لم يكن هو هذا العمر المحدود بداية ونهاية، وبينهما يوجد شيء اسمه الإنسان، فتأمل!

وإنما الصلوات الخمس مواقيت لرموز التحولات الزمنية؛ فالفجر بدء وبه تبدأ الحياة، وما بدأ شيء إلا لينتهي. والفجر اسم وقت قبل أن يكون اسم صلاة، لأننا إنما نعبد الله بالوقت. وإنما الوقت هو الصلاة لله رب العالمين الذي أنعم عليك بالبدء، أنعم بالحياة، فاملأ رئتيك -يا سالك- بالنفَس الأول من صلاة الميلاد، ميلاد الحياة. ويا لخيبة من نام عن شهود النبع الأول من عين الصفاء، فكرع من بعد الوقت ماء مسنونا! وهل يكرع الكارعون في آخر الماء إلا غسالة الأولين والسابقين؟!

ويدور الكوكب العابد في مداره هونا، حتى إذا توسطت الشمس كبد السماء اشرأبت الأعناق لسماع المؤذن يعلن بدء الزوال وانقلاب الظل إلى الجهة الأخرى. زوال الشمس يا صاحبي بداية العد العكسي في عمر الإنسان، فمذ دشن فجره وهو يعد عدا تصاعديا. حتى إذا زالت الشمس وامتد الظل قليلا إلى الجهة الأخرى بدأ الانحدار. ففرارا إلى الله إذن؛ تشهد منتصف عمرك صلاة ظهر، فما بقي أكثر مما سلخت من أنفاس، ذلك هو التحول الفلكي الثاني: محطة كبرى من محطات الزمن الأرضي، تشهدها عابدا لا شاردا عن باب الله. حتى إذا صار الظل مثل طول كل قامة امتد عنها بدأ العصر ينذر بقرب الأفول! وما العصر إلا إنذار لك يا سالك أنْ لم يبق لك من العمر إلا لحظات وتنتهي الأضواء إلى ظلمة القبر.

ماذا أعددت لذلك البيت الموحش من مؤنسات؟ والعصر محطة فلكية أخرى ينعصر فيها الزمن انعصارا ليشهد تحول الصهد المنخنق إلى أصيل. ذلك آخر الزاد إذن من سبحات النهار، ليس بعدها إلا مسك الختام. ومن هنا النذير الشديد لمن غفل عن هذه الساعة الفاصلة. فلحظة أو لحيظة -لا تدري كيف- ويكون الغروب. هنالك تشهد كيف يموت الضوء، بل كيف تموت الحياة، وتصلي. وإنما المغرب غروب، تلك هي الحقيقة الأولى التي نطق بها الفجر مذ تفجر عن أنواره لو تعلمون. فيا عبد، ما أخرك عن شهود حقيقتك؟! هذا الكون كله يغرب، ولا عودة للحظة ماتت، لا عودة لها أبدا... محطة فلكية من تحولات الأزمنة،

تشــهدها صلاة خاتمة للأضواء، وفاتحة للعتمات. ثم ندلج إلى الله بالعشاء صلاة ســارية. وإنما العشاء من العَشاء، وهو في الأصل ضعف البصر حيث العتمة تمنع الإبصار إلا قليلا.

تلــك إذن هي الصلوات الخمس، أوقات للتحولات الفلكية الكبرى، نعدهــا بالصلاة عدا. ألم أقل لكم كان الوقت فكانت الصلاة، وإنما الوقت هو الصلاة؟! ولقد قلت لك يا صاح، فتأمل!

وإنما الأوقات الخمسة رموز لليوم كله؛ فجر، فظهر، فعصر، فمغرب، فعشــاء. فماذا بقي بعد ذلك من الوقت إلا امتدادات لهذه أو تلك؟ فالوقت كله إذن هو الصلاة. أنت تصلي الأوقات الخمسة؛ إذن أنت تصلي العمرَ كله، قلت: كله. وإنما فرض الله الصلاة عمرا، لا حركة ولا ســكنة إلا صلاة. ألم يفرضها ﷻ أول ما فرضها خمسين صلاة، ثم خففها إلى خمس، كل وقت منها ينوب عن عشرة أوقات، والحسنة في ديننا بعشرة أمثالها؟

أن تعبد الله بالوقت يعني أنك تعبده بمهجتك، وما المهجة إلا العمــر، وما العمر إلا زمن، وما الزمن إلا أعوام، وما الأعوام إلا أشهر، وما الشهر إلا أيام، وما الأيام إلا ساعات، وما الساعات إلا دقائق، وما الدقائق إلا ثوان. فما عمرك يا ابن آدم،

دَقّاتُ قلب المرء قائلةٌ له إن الحياة دقائقٌ وثوانِ

هكذا إذن؛ أن تعبد الله بالخمس يعني أنك تعبده بالعمر كله، تنثــر مهجتك بين يديه تعالى وقتا وقتا، أو قل نبضا نبضا، ما دام هذا الفلك يعبر العمر إلى ربه هونا.

أما أن يفوتك وقت فيعني أنك قد خرجت عن مدارك. فانظر أي حافة من الفراغ العاصف تنتظرك، وأي قوة بعد ذلك ستعود بك إلى هدوء المدار...

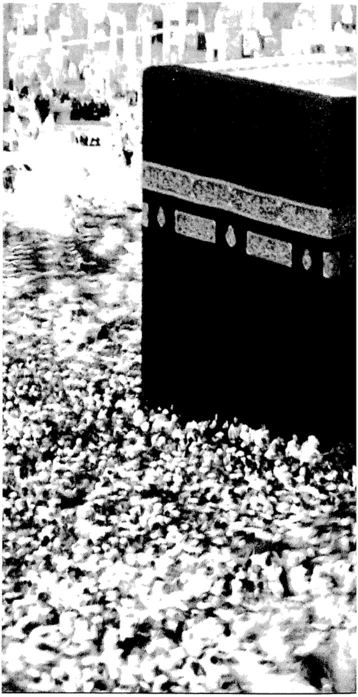
أن يفوتك وقت يعــني أنك فقدت جزءا من العمر. ومن ذا قدير على اســتعادة الزمن الراكض إلى وراء؟ ولقد قال الفقهاء لفعــل الصلاة إذا كان في الوقــت "أداء"؛ وإذا كان بعد الوقت "قضاء"؛ لأن الذي يقضي لا يؤدي أبدا. هل يمكنك اســتعادة الوقت؟ هل يمكنك استعادة التاريخ؟ هل يمكنك أن تعيش اللحظة مرتين؟ ولقد صدقوا في الفلســفة القديمة إذ قالوا: "لا يمكنك أن تســبح في النهر مرتين". لو لم تكن الصلاة "وقتا"، لأمكنك أن تفعل ذلك على سبيل التشبيه والتقريب، أما وإنها وقت فإنك لن تفعل، وإنما الذي تفعله أنك "تعوض" تعويضا، وما كان العِوَضُ -بعذر أو بغير عذر- ليكون كالأصل أبدا، لسبب بسيط هو أن المســألة وقت، فانظر لو أنك لم تأكل طعام عشائك حتى كان الصباح، ثم طلبته؛ أتكون حينئذ تتعشــى أم تفطر؟ طبعا إنك لن



تتعشــى عشاءك ذاك بعدُ أبدا، ولو كان الطعام هو عين الطعام. لســبب بسيط هو أن المسألة وقت. ولا صلاة تفوت فتؤدى بعد ذلــك أبدا، وإنما فرصتك الوحيدة أن تقضي إن جاز لك قضاء. وشــتان شتان بين أداء وقضاء! ألم أقل لكم كان الوقت فكانت الصلاة، وإنما الوقت هو الصلاة؟!

الوضوء حلية المؤمن

وأول البدء في الصلاة تجمل بالوضوء، فهؤلاء المؤمنون يتسابقون إلى تزيين وجوههم، وأيديهم إلى المرافق، ورؤوســهم، فأرجلهم



إلى الكعبين. و"تبلغ الحلية مــن المؤمن حيث يبلغ الوضوء" (رواه مسلم)، ذلك شرط المرور إلى عتبة الصلاة، إذ "لا تُقبل صلاة بغير طُهور" (رواه مسلم).

وتتقاطر أفواج المصلين على الماء؛ ليردوا من بعد عطش شديد، مما أصابهم من دخان المال والأعمال. وتمتد الأيدي خاضعة ذاكرة يدفعها الحنين إلى ارتداء أوسمة الإيمان طهورا ينقلهم مباشــرة إلى مناجاة الرحمن. وإن "الطهور شطر الإيمان" (رواه مسلم)، كلمة سرٌّ مُودَعة في كتاب الاستئذان من حديثك يا رسول الله.

وتدور الفصول من حر إلى قر، فيبقى الوضوء سرا من أسرار الجمال الذي ينسخ نوره آثار معركة الحياة، من سهام إبليس ورشاقته.

كانت كلمات النبوة بلســما، يوضع على الجروح فتشفى بإذن الله. فها أنا ذا يا حبيــبي أرتحل إليك مخترقا حدود الزمان والمكان؛ لعلي أصيب رذاذا مما أصاب الصحابة الكرام، فجنبات المعمــور ما زالت تردد أصداء النور النبــوي: "ألا أدلكم على ما يمحو بــه الله الخطايا، ويرفع به الدرجــات؟" قالوا: بلى يا رسول الله. قال: "إسباغ الوضوء على المكاره، وكثرة الخطا إلى المســاجد، وانتظار الصلاة بعد الصلاة. فذلكم الرباط، فذلكم الرباط" (رواه مسلم).

والمكاره شــتى في هذا الزمن الرهيب يا نبي الله... فهذا قر الشــتاء أصبح اليوم خنقا، بتوقيت تعده عليّ ســاعات الدرهم والوظيفة، وأشياء أخرى ما سلمت منها عين ولا خد ولا يد ولا رجل. فبأي حمأ آسن امتلأت برك هذا العصر الغريب!

ألا هونــا عليك يا صاح! فما في الدنيا وســخ، أو دَرَنٌ لا يغســله أريج الطهور. لكنما التحلي مقام ينبئ عن تمام التخلي. فهلــم إذن، وَأْتِ من أي الجهات أتيت، وبأي الأدواء ارتديت، فكل حفنة من الماء كفيلة بمسح بعض غبار الطريق.

أوَليس "إذا توضأ العبد المســلم، أو المؤمن، فغسل وجهه؛ خرج من وجهه كل خطيئة نظر إليها بعينيه، مع آخر قطر الماء. فإذا غســل يديه خرج من يديه كل خطيئة كان بطشــتها يداه مع آخر قطر الماء. فإذا غسل رجليه خرجت كل خطيئة مشتها رجلاه مع آخر قطر الماء حتى يخرج نقيا من الذنوب" (رواه مسلم).

بلى يا رسول الله!..

مع الغر المحجلين

فما أبطأ بك إذن يا صاحبي؟ هذي جموع المؤمنين ســارعت إلى لقاء رسول الله ﷺ يوم القيامة، يردون حوضه الكريم، بأوسمتهم النورانية: كانت الخيل وهي مقبلة فأل خير، ترفع غُرَرَها البيضاء نحو سماء الانتصــار، ولقوائمها المحجّلة -وهي تباري الأســنة راكضة- جمالٌ، لا يضاهيه إلا جمالها وهي تقف هادئة بين يدي رســول الله ﷺ بوجه أغَرّ وأطراف محجّلة. وإنما ذلك في المؤمن نور يكتســبه بسبب ما كان يحلي به وجهه وأطرافه من طهارة، في مسرى العبادة، السالك إلى الله.

فلتســبغوا الوضوء على المكاره إذن سادتي الأتقياء، فإنكم "أنتــم الغُرُّ المحجَّلون يــوم القيامة من إســباغ الوضوء، فمن اســتطاع منكم فليطل غرتــه وتحجيله" (متفق عليه). تلك ســيم الجمال في وجوهكــم، وأطرافكم يوم تَــرِدون على المصطفى ﷺ، وهي سِيَم "ليســت لأحد من الأمم" (متفق عليه)، بها تُعرفون في كثــرة الخلائق يوم القيامة، كالدر المتناثــر في دلجة الفضاء.

هذه ومضة الإبراق النبوي تبشــر برشح الأنوار على أطراف المتوضئين الساجدين، رشحا لا يذبل وميضه أبدا. فإذا النبي الكريم يميز المحبين وسط الزحام واحدا واحدا: "ما من أمتي من أحد إلا وأنا أعرفه يوم القيامة"، قالوا: وكيف تعرفهم يا رسول الله في كثرة الخلائق؟ قال: "أرأيت لو دخلت صُبْرة [محجرا] فيها خيل دُهْم، بُهْم، وفيها فرس أغر محجل، أما كنت تعرفه منها؟" قالوا: بلى. قال: "فإن أمتي يومئذ غُرٌّ من السجود، مُحَجَّلُون من الوضوء" (رواه أحمد).

هذه قصة الماء الطهور في جداول السلوك إلى الله. وفي الماء سقاء لدالية الشــعور بالرضى الرباني، والقبول للمثول أمام جلال الله. ألا ما أعمق الفرق في الغصن الواحد بين زمانين: الأول سنوات عجاف، لا نصرة ولا نعيم، ولا صدى لصهيل إلا قعقعة الحطب في ليالي الريح.. والثاني عام فيه يغاث الناس، فتتسلق الدوالي أغصان البروق، ويحتفل المطر، فإذا الأشــجار مورقة ريانة، وإذا صفوف المصلين تتراص عند فاتحة الزمان الجديد، والوجوه مازالت ترشح بماء الطهــور... وتكون الصلاة... "والصلاة نور" (رواه مســلم).

كانت كلمات الإقامة إشــعارا ثانيا –بعد الأذان– بضرورة نفض كل ما بقــي من علائق التراب قبــل الإذن للأجنحة أن تقلــع في طريقهــا إلى مقام المحبــة: "قد قامــت الصلاة، قد قامــت الصلاة!" وترتفع الأيدي المحجلــة تجاه القبلة في تكبيرة الإحــرام، لتفريغ البال من جميع الأحوال، إلا حال الفقر المرفوق بالشــوق إلى الغني الحميــد، ثم تتأدب بالتــزام الصدر في وقفة العبــد بين يدي الملك العظيم، تأســيا بجمــال الامتثال في قيام النبي ﷺ، وقد كان في وقوفــه بباب الله "يضع اليمنى على ظهر كفه اليســرى والرسغ والســاعد" (رواه أبو داود والنسائي)، و"كان يضعهمــا على الصــدر" (رواه أبو داود)، ثم تشــرق التجليات...

القِبلة جامعة الأفئدة

والقِبلة جامعة لشتات القلب والبصر، وإنقاذ للعبد السالك من مقام الحيرة إلى حدائق الطمأنينة، قال تعالى: ﴿قَدْ نَرَى تَقَلُّبَ وَجْهِكَ فِي السَّــمَاءِ فَلَنُوَلِّيَنَّكَ قِبْلَةً تَرْضَاهَا فَوَلِّ وَجْهَكَ شَطْرَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ وَحَيْثُ مَا كُنْتُمْ فَوَلُّوا وُجُوهَكُمْ شَطْرَهُ﴾(البقرة:١٤٤).

وكيف لا يحتار هذا الفكر الجزئي البســيط، القابع في مدار كوكب ضئيل، يدب في بحر لُجِّيٍّ من الكواكب والمجرات، وتيه من العوالم والمخلوقات، مما يســتعصي حــتى على مجرد التصور الشامل والاســتحضار الكلي... فكيف إذن لا يحتار هذا الفكر المحدود المنحصر، وهو بصدد الاتصال، وعلى أعتاب المناجاة مع رب هذه العوالم المحيط بجميع هذه المخلوقات...

فلتكن القبلــة إذن قنديلا آخر في طريق التعبد يجمع المصلين في العــالم أجمع حول قلب واحد، ينبض بتوحيد الله ذي الجلال، ويبعث مــن مكة المكرمة أنوارا تتلقاها أفئــدة العابدين في كل مكان "أن هلموا، هذا بيت الله الذي هو أول بيت وضع للناس"، فتحج الأرواح من محاريبها خمس مرات في اليوم... "الله أكبر!"

كأن ســيف النور قد قطع الزمان نصفين، الأول إلى خلف، فما زال راكضا في تغيره يذوب فناءً بذوبان الأشــكال والألوان المتهاوية تترى، في عالم الأوراق السافرة بين ربيع وخريف، ولا برعوم يورق مرتين: ﴿كُلُّ مَــنْ عَلَيْهَا فَانٍ ۞ وَيَبْقَى وَجْهُ رَبِّكَ ذُو الْجَلَالِ وَالْإِكْرَامِ﴾(الرحمــن:٢٦-٢٧). والثاني إلى أمام، ما يزال متوجها إلى مقام البقاء، فالنور المتجلي على الغرر البهية مستمد من معين لا ينضب. والعبادة لحظة تســتمد خلودها من مناجاة الحي الــذي لا يموت، فتفنى الذوات عند آجالها، وتبقى لحظات الصلاة حرما آمنا لا يناله أثر الزمان، ليرسم نعيما سرمديا بقناديل تســتمد زيتها الوضاء من مشكاة الله، ويُتَخَطَّفُ السعي العابث من حوله، فإذا هو محض سراب.

المناجاة بين الخالق والمخلوق

كان الوارد نورا يهمي من أعلى، فينفتح القلب بكلمات من نور آخر، فإذا اللحظة مناجاة بين الخالق والمخلوقات.

أنت الآن أمام جلال الله، تقدم إيمانك إخباتا بين يديه تعالى، والقلب مفتوح الأبواب، فلا شيء به يبقى مستورا. وقد تنتابك

أدخنة الطين ريـــاء ونفاقا، ما بين الذرة وأقـــل، فتفر إلى ربك مذعورا. وتناجيه حزينا أن أبرئني يا سيد هذي الأوراد مني... "أوَ لست تصلي" و"إنَّ أحدكم إذا صلى يناجي ربه" (رواه البخاري).

عجبا! فأي قوة ما زالت تصمد في ساقيك، فتمتثل وقوفا أمام عظمة الواحد القهار، والجبل قد اندكّ وراءك من خشية الله؟ أن تصلي يعني أنك تقابل ربك غصنا منفوض الأوراق... فأنت كما أنت، لا تخفى منك خفقة قلب واحدة؛ صَفَتْ أم خالط دمعتها ريحُ الحمأ المسنون... و"إنَّ أحدكم إذا كان في الصلاة، فإن الله قِبل وجهه" (رواه البخاري)، والله قَبل ذلك وبعده ﴿يَعْلَمُ خَائِنَةَ الأَعْيُنِ وَمَا تُخْفِي الصُّدُورُ﴾(غافـر:١٩). فكيف يمكن لهذا البصر أن يمتد قيد أنملة نحو السماء، والرب بجلاله قِبَلَه؟ إذن تندكّ ضلوعه، فيخر القلب صعقا، ولا يبصر شـيئا بعدها أبدا. كان التحذير النبوي حريصـــا على أمر المحبين بالتزام آداب المحبة حتى لا تســتحيل حديقة النور إلى ظلام دامس. قـــال ﷺ: "لينتهين أقوام يرفعون أبصارهم إلى الســـماء في الصلاة، أو لا ترجع إليهم" (متفق عليه).

وأما التفات عن يمين أو شمال فهو "اختلاس يختلسه الشيطان مـــن صلاة العبد" (رواه البخـــاري). وأنّى لعبد في مقام الخضوع أن ينصرف عن مشاهدة الجمال بقلب ملؤه التقوى والورع؟! وأنى لعبـــد في مقام الخضوع أن ينصرف عن تـــذوق كؤوس الترتيل الطافحة بشهود الفلاح؟! كيف و﴿قَدْ أَفْلَحَ الْمُؤْمِنُونَ ۞ الَّذِينَ هُمْ فِي صَلاتِهِمْ خَاشِعُونَ﴾(المومنون:١-٢).

يا لآيات البهاء تنطلق كلماتها من ألسنة رطبة بذكر الله، مصطفة مثلما تَصُفُّ الملائكة عند ربها... وكيف تَصف الملائكة عند ربها؟ قال: "يتمون الصفوف الأُوَلَ، ويتراصون في الصف" (رواه مسلم).

ألا صلى الله عليك يا رســـول الله! أَصَفٌّ في الأرض، وصف في الســـماء؟ والصلاة جامعة؟ هكـــذا إذن تخف الأجنحة المثقلة بأحزانها، وتنطلق الأسراب محلقة لمزاحمة الملائكة في مدارات النور عند أعتاب ملك الكون الظاهر والباطن.

ألا ما أشـــقى ذلك الجمل الشارد في صحراء الظلمات... لا يفتأ يلهث راكضا خلف ســـراب مال متسخ، حتى يتسخ وبره وتنتن رائحته، فيرين علـــى قلبه ما يحجب رؤيته لجدول الصلاة الرقراق، وراء رمال العصيان، ثم يموت يلهث عطشـــا دون ظل المورد العذب. وما بين استحالة الموت ميلادا إلا أن يركع لمالك خزائن القطر، فإذا القفر حواليه حدائق ذات بهجة، ترشح غصونها بأنداء الطهور، نورا يصفيه من جميع الأدران.

كان البهـــاء يحيط الحبيب المصطفى، وهو في هالة صافية من أصحابه إذ قال: "أرأيتم لو أن نهرا بباب أحدكم، يغتسل فيه كل يوم خمس مرات؛ هل يبقى من دَرَنِه شـــيء؟" قالوا: لا يبقى من درنه شيء. قال: "فكذلك مثل الصلوات الخمس، يمحو الله بهن الخطايا" (متفق عليه).

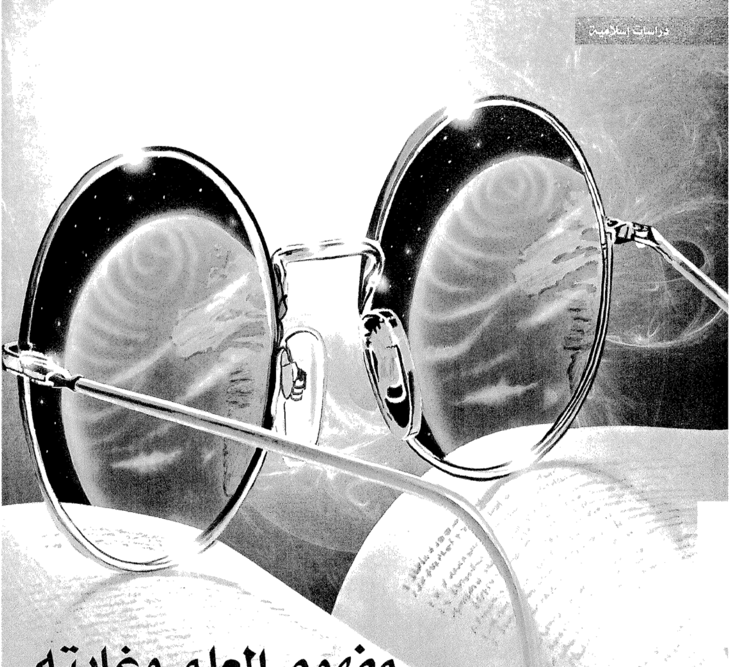
ويوقد الحبيب قنديلا آخر فيقول: "ما أدري أحدثكم بشيء أم أسكت؟" فقلنا: يا رسول الله إن كان خيرا فحدثنا، وإن كان غير ذلك؛ فالله ورســـوله أعلم. قال: "ما من مسلم يتطهر، فيتم الطهـــور الذي كتب الله عليه، فيصلي هذه الصلوات الخمس إلا كانت كفارات لمـــا بينها" (متفق عليـه)، وفي ومضة قنديل آخر: "وذلك الدهر كله" (رواه مسلم).

هـــذا المســـرى الربيعـــي إلى الله، رَغَبا في ينابيـــع الرحمة والمغفرة، تتعانق الصلوات فيه أقواســـا من الدوالي المورقة، حيث تتشـــكل العناقيد قناديل خضراء، ترســـم خطوات النور الهادي إلى الرحمـــن، فتختزل العـــدد والزمان، إذ بكل خطوة عشـــر خطوات في طريق الله، فقد فرض الله على نبيه ﷺ -في الســـماء الســـابعة، وبغير واســـطة الملاك جبريل عليه السلام- خمسين صلاة في كل يوم وليلة، ثم خففها ســـبحانه، اختـــزالا في خمس، ثم قال في الحديث القدســـي: "يا محمد، إنهن خمـــس صلوات كل يوم وليلة، بكل صلاة عشـــر، فذلك خمســـون صلاة" (رواه مســلم).

أي فريضـــة هذه التي هي فضل كلهـــا، ورحمة كلها، ونور كلها، وجمال كلها؟! وإن عبادة فرضت في السماء من غير واسطة الملاك؛ لحرية بالارتقاء صعدا بعشاقها إلى مقامات السماء.

فاصطـــبري يا أبدان على إدامة التطهر بنهر النور، فإن غصنا ينبـــت في جوار الغدير لا يجف أبدا، إن لم ينل من فيضه نال من نداه. والأمل يسري نضرة وجمالا في قده المياد ركوعا وسجودا. ■

(*) جامعة مولاي إسمعيل، ورئيس المجلس العلمي بـ"مكناس" / المغرب.



مفهوم العلم وغايته
في القرآن الكريم والسنة النبوية

د. حبيبة أبو زيد*

كل من تدبر القرآن الكريم والسنة النبوية، واستعرض سيرة رسول الله ﷺ، وجد أن للعلم والمعرفة شأناً عظيما. فقد عَرف سيدنا محمد ﷺ منذ أول ما أوحي إليه أنه سيكون له وللعلم شأن عظيم، وللمعرفة في دعوته مقام رفيع. ومنذ أن أيقن ﷺ أنه كلف تبليغ رسالة الله الخاتمة، لبى أمر خالق الأرض والسماوات، ومدبرِ أمر الإنسان ومربي الكائنات، فدعا العالمين إلى الإسلام وأقام لهم العلامات على صدقه، ولم يمض من الزمن غير يسير حتى أنشأ دولة عظيمة كان العلم أساسها والمعرفة سبيلها.

أعظم تحول في تاريخ البشر

إن التغيير والإصلاح الذي أحدثه رسول الله ﷺ ليس له نظير في التاريخ. لقد استطاع في طرف وجيز أن يقتلع جذور أفكار وعادات كانت راسخة بقوة وأن يبني حضارة عظيمة وأن يضع مدنية محل بداوة وجاهلية. وسبب ذلك أنه بوحي من رب

العباد الذي يحيط علمه بكل شيء سلك منهجا دقيقا في التربية والتعليم، فاستطاع تربية جيل من أصحابه حملوا أمانة صيانة حضارة الإسلام من بعده. وإن هذا التغيير لأحوال العالم الذي حققه رسول الله ﷺ، كان محل دراسة وبحث عميق عند أهل الفكر والثقافة والمتخصصين في بناء الحضارات وتاريخ الأمم عبر العصور من جميع الجنسيات ومن جميع الأديان والمذاهب. والجميع يشهد أنه أعظم تحول يحصل في تاريخ البشر. وما ذلك إلا لأن العلم والمعرفة كان لهما المقام الأعلى والمنزلة الأسمى.

إن من أهم الدعائم التي أقام عليها رسول الله ﷺ الحضارة أن العلم سلعة غالية وأن المعرفة قيمة سامية. ولهذا وضع ﷺ قواعد لتحصيل العلم، وأسس مناهج للبحث عن المعرفة والانتفاع بها، وبيّن مزالق أهل العلم وطلاب المعرفة للحذر منها واتقائها، حتى تسير الأمة كلها على هدي العلم النافع وفي ظلال المعرفة الصحيحة. والذي يهمنا هنا أن نبين أن هناك مفهوما عجيبا للعلم رسخه الرسول ﷺ من خلال القرآن الكريم وسنته القولية والعملية، عليه قامت الحضارة الإسلامية في عصورها الذهبية.

المعتبر من العلوم

لقد نص علماء الإسلام منذ القديم على أن إطلاق العلم في القرآن الكريم والسنة النبوية ينصرف أولا إلى علم الوحي والشريعة، ومن أدلتهم على ذلك قوله ﷺ: "من يرد الله به خيرا يفقهه في الدين" (رواه البخاري)، وغيره من الأحاديث الكثيرة في الحث على تعلم القرآن الكريم وتعليمه ومدارسته، وحفظ السنة النبوية وتبليغها ومدارستها. قال الحافظ ابن حجر في شرح هذا الحديث: "ومفهوم الحديث أن من لم يتفقه في الدين (أي يتعلم قواعد الإسلام وما يتصل بها من الفروع) فقد حرم الخير. وفي ذلك بيان ظاهر لفضل العلماء على سائر الناس، ولفضل التفقه في الدين على سائر العلوم"[1].

فالعلم الشرعي أفضل العلوم وهو جدير بالطلب والحرص على تحصيله؛ لأنه به يعرف الله ﷻ ويعبد، وبهذا العلم يعرف ما أحل الله وما حرم وما يرضيه وما يسخطه. وبهذا العلم يعرف المصير إليه والنهاية من هذه الحياة، وأن قسما من المكلفين ينتهون إلى الجنة والسعادة، وقسما آخر ينتهون إلى دار الهوان والشقاء. ولما كانت هذه فائدة علم الشريعة، كان هذا العلم أشرف العلوم وأسماها لأنه الطريق إلى السعادة الحقة في الدار الآخرة، وهو السبيل إلى الفوز بنعيم الجنة الذي هو الغاية المرجوة والهدف العظيم المنشود.

وإن سعادة الآخرة أساسها ومنطلقها معرفة الله تعالى والإيمان به وطاعته، وهذا إنما يؤخذ من علم الشريعة، ولهذا ينصرف "العلم" عند إطلاقه إليه. يقول الحافظ ابن كثير في تفسير قوله تعالى: ﴿إِنَّمَا يَخْشَى اللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَاءُ﴾(فاطر:٢٨) "أي إنما يخشاه حق خشيته العلماء العارفون به، لأنه كلما كانت المعرفة للعظيم القدير العليم الموصوف بصفات الكمال المنعوت بالأسماء الحسنى، كانت المعرفة به أتم والعلم به أكمل، كانت الخشية له أعظم وأكثر"[2]. فبين أن العبرة في العلم هو معرفة الله التي بها تحصل الخشية. فمعيار العلم الوصول إلى معرفة الله، والمعتبر هو الاهتداء إلى طاعة الله والإيمان به. فكل علم لا يوصل إلى هذا فليس علما على الحقيقة وإن أدخله أصحابه في العلم.

علوم الكون

وإن إطلاق العلم على علم الشريعة لا ينفي صفة العلم عن معارف الدنيا وعلوم الحياة التي يهتدي إليها الإنسان عبر الزمان والمكان، والتي تسمى اليوم "علوم الكون" أو "العلوم التجريبية"؛ لأنها تؤخذ من التجربة المطردة والخبرة المتكررة. وسبب ذلك أن علوم الكون من علم الله تعالى الذي يفتح منه على عباده، فيعرفون خصائص الكون وصفات الإنسان وأحوال عالم الأحياء وقانونَ ذلك كله. فعلوم الكون التي يهتدي إليها البشر إنما هي في الحقيقة وصف للموجود واكتشاف لحقيقة الكون المخلوق وصفاته ونظام عمله وقانون سيره. إنها تستمد من علم الله لأنها تعرّف بخلق الله وبديع صنعه.

وإن علوم الكون ليست معتبرة إلا إذا كانت عونا على معرفة الله، وطريقا إلى مرضاته وحسن عبادته، والسعي في الأرض بالخير والإحسان وليس بالشر والإفساد. ولا يمكن لهذه العلوم أن تكون كذلك إلا إذا سارت تحت ظلال الشريعة، فتكون بذلك علوم الشريعة هي الحَكم لعلوم الكون والمرجع في كل المعارف، فهي بالنسبة للعلوم بمنزلة الروح للجسد، ولهذا ينصرف "العلم" إليها عند الإطلاق في القرآن الكريم والسنة النبوية، وليس معنى ذلك نفي صفة "العلم" عن علوم الكون والحياة.

التأليف بين العلوم الدينية والتجريبية

وإذا كان الأصل أن إطلاق العلم في القرآن والسنة النبوية ينصرف

إلى علم الشـــريعة، فإنما ذلك لأن علم الشـــريعة هو روح باقي العلوم التي تهتم بالكون والحياة والإنســـان، فلا عبرة بعلم إلا إذا سار في ظلال الشريعة واهتدى بأنوار الوحي. ولهذا فلا مانع من إطلاق صفة العلم على كل معارف البشر التي تبحث في الكون والإنسان إذا ســـارت في مقاصدها وضوابطها على هدي علوم الشريعة القائمة على القرآن الكريم والسنة النبوية. ومما يؤيد هذا ويدل عليه أن في القرآن الكريم إثباتَ صفة العلم لعلوم الدنيا، مع الإشارة إلى ضرورة اهتدائها بعلوم الشريعة.

يقـــول الله تعالى: ﴿يَعْلَمُونَ ظَاهِرًا مِنَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَهُمْ عَنِ الْآخِرَةِ هُمْ غَافِلُونَ﴾(الروم:٧) فأثبت لهم العلم، وإنما ذمهم لوقوفهم عند علم الدنيـــا في غفلة عن علم الآخرة، أي إنهم لم يهتدوا في علمهم بالدنيا بعلوم الشريعة، فلو اهتدوا في ذلك بعلوم الشريعة لاستحقوا المدح لا الذم. فعلومهم معتبرة إذا سارت تحت ظلال الشريعة لأنها بذلك تُعرّفهم بالله وتقربهم إليه وتحصل بها المنفعة في الدنيا ويتحقق بها الصلاح.

وهذا ما ذكره أهل التفســـير في هذه الآية، يقول ابن كثير: أي أكثر الناس ليس لهم علم إلا بالدنيا وأكســـابها وشؤونها وما فيهـــا، فهم حذاق أذكياء في تحصيلها ووجوه مكاســـبها، وهم غافلون عما ينفعهم في الدار الآخرة، كأن أحدهم مغفل لا ذهن له ولا فكرة. قال الحســـن البصري: والله لبلغ من أحدهم بدنياه أنه يقلب الدرهم على ظفره فيخبرك بوزنه وما يحسن أن يصلي. وقـــال ابن عباس: يعني: الكفار يعرفـــون عمران الدنيا، وهم في أمر الدين جهال[٢]. فلولا جهلهم بأمر الدين وعدم اعتدادهم بما يرشـــد إليه من علوم الشريعة، لنفعهم علم الدنيا واستحقوا عليه الأجر، لأنه بعلوم الشريعة يعرفون حقوق الله، ويحصل من علوم الدنيا الانتفاع الصحيح.

ومثل هذا أيضـــا في قوله ﷻ: ﴿فَأَعْرِضْ عَنْ مَنْ تَوَلَّى عَنْ ذِكْرِنَا وَلَمْ يُرِدْ إِلَّا الْحَيَاةَ الدُّنْيَا ۞ ذَلِكَ مَبْلَغُهُمْ مِنَ الْعِلْمِ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِمَنْ ضَلَّ عَنْ سَـبِيلِهِ وَهُوَ أَعْلَمُ بِمَنِ اهْتَدَى﴾(النجم:٢٩-٣٠)، فأثبت لهم العلم بالدنيا، وذمَّهم على الإعراض عن ذكر الله تعـــالى، أي إنهم لم ينتفعوا بعلم الدنيا بســـبب غفلتهم عن علوم الشريعة التي هي طريق إلى معرفة الله وذكره. فقوله هنا: ﴿ذَلِكَ مَبْلَغُهُمْ مِنَ الْعِلْمِ﴾ إشـــارة إلى وجوب الارتقاء من هذه الدرجة إلى درجة الجمع بين علوم الدنيا وعلوم الشـــريعة والتأليف بينها، فتلك الغاية المرجوة والمنـــزلة السامية المحمودة.

فلا يفهـــم من هذا نفي صفة العلم عن علوم الكون والحياة، وإنما نفي منفعتها إذا لم تمتد بعلوم الشريعة، لأنها إنما تكون علوما نافعة تحت ظلال الشريعة، فإذا كانت كذلك كانت علوما نافعة حقا. وهذا المعنى نجـــده أيضا فيما ورد عن النبي ﷺ من حديث أبي هريرة قال، قال رسول الله ﷺ: "إن الله يبغض كل جعظريّ جواظ سخاب بالأسواق، جيفة بالليل، حمار بالنهار، عالم بأمر الدنيا، جاهل بأمر الآخـــرة"[١]. فصفة العلم ثابتة لعلوم الدنيا في قوله هنا "عالم بأمر الدنيا"، وإنما أبغض الله هذا الصنف من الناس لجهله بأمر الآخرة. ولو اهتدى بعلوم الشـــريعة لكان عالما بأمر الآخرة. فلا ينتفع على الحقيقة بعلوم الدنيا إلا بعلوم الشـــريعة. وهذا المعنى نفسه هو الذي استنبطه ابن حبان البستي فترجم لهذا الحديث بقوله: "ذكر الزجر عـــن العلم بأمر الدنيا مع الانهماك فيها، والجهل بأمر الآخرة ومجانبة أســـبابها". وواضح من كلامه هـــذا أن الزجر إنما يقع على وجه خـــاص في علوم الدنيا، وهو حال الانصراف إليها والعناية بها في غفلة عن علم الشـــريعة. أما إذا لم تحصـــل الغفلة فذلك خير الدنيا والآخرة، فيتم الاعتداد في هذه الحالة بعلوم الدنيا، فيشرف قدرها وتعلو منـــزلة صاحبها، لأن اقترانها بعلوم الشـــريعة واهتداءها بالوحي، يجعلها طريقا إلى معرفة الله تعالى من خلال معرفة خلقه، ويوجِّه فوائدها نحو تحقيق مقاصد الشريعة، والتي تجتمع في جلب المصالح واتقاء المفاسد.

ومما يدل على هذا المعنى أيضا أنّ تدبر الكون والتفكر في خلق الله مأمور به في القرآن الكريم، لأنه طريق سالك إلى معرفة الله تعالى ومعرفة كماله وجلاله وجماله. ومعلوم أن علوم الكون لا تخرج في حقيقتها وجوهرها عن وصف الكون وبيان نظام الحياة الذي فطره الله تعالى عليها، لأنها تبحث في الكون الموجود، وتشتغل في العالم المنظور، وتعرّف بصفات المادة وخصائصها وعملها وقانون سيرها. ثم إنه لا يمكن الاختلاف في أن علوم الكون منضبطة، لها قانون ومنطق تبنى فيه النتائج على المقدمات.

فعلوم الكون إذن مأمور بها على هذه الصفة وعلى هذا الوجه، وهو أن تكون طريقا إلى معرفة الله تعالى، ثم عونا على تيسير المعاش. فإذا كانت كذلك فهي علوم حقا تثبت لها صفة العلم شـــرعا.

ومن شـــواهد هذا أيضا ما جاء في الحديث عن عائشة وأنس رضي الله عنهمــا أن النبي ﷺ مرّ بقوم يلقّحـــون فقال: "لو لم تفعلوا لصلُح". قال: فخرج شيصا، فمرّ بهم فقال: "ما لنخلكم؟" قالوا: قلتَ كذا وَكذا، قال: "أنتم أعلم بأمر دنياكم" (رواه مسلم). فالرسول ﷺ هنا أثبت صفة العلم لأمور الدنيا التي تخضع للتجربة والخـــبرة. فقوله هنا: "أنتم أعلم بأمر دنياكم" يدل على أن الدنيا موضع للعلم ومجال له.

غاية العلم

يثبت من هذا كله أن معارف الدنيا، والتي تســمى اليوم "العلوم التجريبية"، لها صفة العلم إذا اقترنت بعلوم الشـــريعة، ويصدق عليها معنى العلم بالاصطلاح الشـــرعي في القرآن الكريم والسنة النبوية. وإنما وقع التأكيد في القرآن الكريم والســـنة النبوية على علوم الشـــريعة لأن بها ينتظم أمر جميـــع أمور الحياة الدنيا ومنها "العلوم التجريبيـــة"، فيكون الأمر بالعناية بعلوم الشـــريعة أمرا بالعنايـــة بالعلوم التجريبية على الوجـــه الصحيح الذي ينتظم به أمرها ويحصل الانتفاع بها في الدين والدنيا.

والعناية بعلوم الدنيا على هذا الوجه مضمن في الأمر بالعناية بعلوم الشـــريعة. وعن هذا المعنى عبر أبو الحسن الماوردي بقوله: "اعلم أن ما به تصلح الدنيا، حتى تصير أحوالها منتظمة وأمورها ملتئمة، ســـتة أشياء، في قواعدها وإن تفرعت. وهي: دين متبع، وســـلطان قاهر، وعدل شامل، وأمن عام، وخصب دائم، وأمل فســـيح. فأما القاعدة الأولى وهي الديـــن المتبع، فلأنه يصرف النفوس عن شـــهواتها، ويعطف القلوب عن إرادتها، حتى يصير قاهرا للســـرائر، زاجرا للضمائر، رقيبا على النفوس في خلواتها، نصوحا لها في ملماتها. وهذه الأمور لا يوصل بغير الدين إليها ولا يصلح الناس إلا عليها، فكان الدين أقوى قاعدة في صلاح الدنيا واستقامتها، وأجدى الأمور نفعا في انتظامها وسلامتها. ولذلك لم يخل الله تعـــالى خلقه مذ فطرهم عقلاء من تكليف شـــرعي واعتقاد ديني ينقادون لحكمه فلا تختلف بهم الآراء، ويستسلمون لأمره فلا تتصرف بهم الأهواء"(٥).

فقد وقع التركيز في الســـنة النبوية على علوم القرآن والسنة النبوية لأنهما أصل ســـائر العلوم وأساسها، وعليهما تقوم وبهما تسير سويا على صراط مستقيم.

"إن الانطلاق من علم القرآن والسنة يهدف إلى بناء الإنسان إيمانيا وخلقيا وســـلوكيا، وفي طي ذلك التسليم والطاعة لقانون العلم التجريبي الحق حين ظهوره. وبغير هذا البناء لا تعمر الحياة ولا يستطيع العلم التجريبي أن يقودها. مما يعطي لهذا التأكيد على علم القرآن والسنة الصدارة في العلوم والأحقية في المعرفة، ليكون العلم التجريبي والسلوك الإنساني والنظام العمراني في البشرية في توافـــق واطراد، بعيدا عن الانفصام الذي يؤدي إلى عواقب بالغة السوء والأثر"(٦).

وعلى ما تقدم فإن مفهوم "العلم" يشمل في المقام الأول علوم الشـــريعة القائمة على القرآن والسنة، ثم يشمل بالتبع والتضمن كل علوم الكون والحياة التي تهتدي بأنوار علوم القرآن والســـنة. وموضوع "العلـــم" ومجاله هو نصوص القرآن الكريم والســـنة النبوية أولا وهو أشـــرف المجالات ورأســـها، ثم العالم المخلوق بجميع أنواعه وأجزائه. وعلى هذا المعنى ســـار علماء الإسلام عبر العصور، فيثبتون لعلوم الكون صفة "العلم" في توافق وانســـجام مع علوم الشريعة، فنجد عندهم علم الطب، وعلم الفلك، وعلم الحساب وغيرها.

وخلاصة كل هـــذا أن الغاية الكبرى للعلم هو التعريف بالله تعـــالى خالق الكـــون ومدبر الكائنات. فكل مـــا يدل على الله ويعرف به فهو علم صحيح مطلوب. ولهذا فإن علوم الوحي هي رأس العلم وروحه، لأنها ترشد إلى الله وتبين طرق معرفته، ثم تأتي بعدهـــا علوم الكون لأنها تعرف بالكون المخلوق، فتكون بذلك طريقا ســـالكا إلى الله تعالى، لأنها تفصح عن قدرة الله وتكشف عن أفعاله وتصرفاته في الكون.■

(*) أستاذة باحثة في الشؤون الإسلامية / المغرب.

الهوامش

(١) فتح الباري شرح صحيح البخاري، لابن حجر العسقلاني، ١٦٥/١.

(٢) تفسير القرآن العظيم، لابن كثير، ٣٤٨/٦.

(٣) تفسير القرآن العظيم، لابن كثير، ١٦٨/٦.

(٤) الصحيح، لابن حبان، ٢٧٤/١.

(٥) أدب الدنيا والدين، لأبي الحسن علي بن محمد الماوردي، ص ١١١.

(٦) أسس العلم وضوابطه في السنة النبوية، للدكتور فاروق حمادة، ص ٩٩-١٠٠



الاجتهاد الإسلامي

أ.د. محمد عمارة*

ا الاجتهـــاد -كالجهـــاد- من جَهَـــدَ، وهو لغة: اســـتفراغ الوُسْـــع في تحصيل أمر مُستلزِم للكلفة والمشـــقة. واســـتفراغ الوُسْـــع معناه: بذل تمام الطاقة، بحيث يحس المجتهد من نفســـه العجـــز عن المزيد عليه. وفي اصطلاح الأصوليين: اســـتفراغ الفقيه الوُسع لتحصيل ظن بحكم شرعي. فالمجتهد هو الذي تكون لديه ملكة الاقتدار على استنباط الفروع من الأصول.

والأسباب التي تُمكن المجتهد من الاجتهاد في العلوم الشرعية -وكذلك في العلوم العقلية- كثيرة، تفاوت تعدادها لدى بعض العلماء. لكن يجمعها سببان أو شرطان:

أ-معرفة الأصول كتابا وسنة.

بـ-معرفة الاستنباط من الأصول بالقياس.

هـــذا في الشـــرعيات، والحلال والحرام. أمـــا في العقليات، فالسببان هما:

أ-معرفة الأوائل العقلية.

بـ-ومعرفة وجه الاستنباط منها.

أما تفصيل شروط المجتهد، كما حددها علماء الأصول فهي:

١-التمكن من اللغة العربية إلى الحد الذي تتحصل للمجتهد القدرة على إدراك أسرار البيان القرآني المعجز ومقاصد السنة النبوية الشريفة.

٢-الفهم والتدبر لآيات الأحكام في القرآن الكريم والتي تبلغ الخمسمائة آية.

٣-رسوخ القدم في السنة النبوية وعلومها رواية ودراية سنداً ومتنا، وعلى الأخص ما جاء في صحاحها ومجاميعها ومسانيدها من أحاديث الأحكام التي قدّرها البعض بثلاثة آلاف حديث.

٤-المعرفة المحيطة بالناسخ والمنسوخ والعام والخاص والمطلق المقيد في آيات القرآن الكريم وأحاديث السنة النبوية الشريفة.

٥-المعرفة بأصول الفقه واجتهادات أئمته فيه ومسائل الإجماع والقياس فيه.

٦-الحذق لروح التشريع الإسلامي ومقاصد الشريعة الإسلامية حتى تتحصل للمجتهد ملكة الجمع والمقارنة بين النصوص المتعددة -والتي قد تبدو أحياناً مختلفة أو متناقضة- في المسألة الواحدة، والخروج منها بالحكم المحقق للمقاصد وروح التشريع.

ولقد تبدو هذه الشروط عزيزة الوجود والتحقق والاجتماع في العالم الفرد، في عصر التخصصات الدقيقة والجزئية -للعلوم- الذي نعيش فيه. لكنّ تطوّر أدوات ووسائل الطباعة والتوثيق والفهرسة والتخزين للمعلومات قد يسهل أمور الاجتهاد وييسر اجتماع شروطه لعماء اليوم أكثر مما كان ذلك ميسوراً قبل هذا التطور في سبل البحث العلمي ووسائله.

دواعي الاجتهاد

ودواعي الاجتهاد في الشريعة الإسلامية التي جعلته ضرورة من ضروراتها وقانونا وسنة من قوانينها وسننها كثيرة، منها:

أ-خلود الشريعة الإسلامية لختم الرسالات برسالة محمد ﷺ، الأمر الذي يقتضي الاجتهاد المحقّق لصلاحها لمختلف العصور. فغيبة الاجتهاد يقف بها عند تلبية احتياجات عصور دون الأخرى، الأمر الذي يهددها بالجمود الذي يعجزها عن تلبية حاجات العصور المتتالية، والتي هي بحكم سنة التطور متغيرة ومتجددة.

ب-عموم الرسالة المحمدية -ومن ثم شريعتها- للعالمين. الأمر الذي يستدعي الاجتهاد لتلبية احتياجات البيئات المختلفة والعادات المتغايرة والأعراف المتمايزة، للبلاد والأمم والأجناس المختلفة.

جـ-طروء البدع -بالزيادة والنقصان- على أحكام الشريعة، بمرور الأزمان، وخاصة في عصور الضعف والجمود. الأمر الذي يستدعي الاجتهاد لجلاء الوجه الحقيقي لأحكام الشريعة ومقاصدها.

د-تناهي نصوص الأحكام -في الكتاب والسنة- ولانهائيةُ المشكلات الحادثة للناس عبر الزمان والمكان، الأمر الذي يستدعي الاجتهاد لاستنباط الفروع الجديدة من الأصول الثابتة، لتستظل بهذه الفروع الجديدة مساحات من الوقائع والمشكلات لم تكن موجودة من قبل.

هـ-التطور، الذي هو سنة من سنن الله في خلقه، في الإنسان والحيوان والنبات والجماد والأفكار، والذي يستدعي الاجتهاد لينمو القانون الإسلامي فيواكب ثمرات التطور ويلبي حاجاته في مختلف ميادين الحياة.

أدلة مشروعية الاجتهاد

أما الأدلة على شرعية الاجتهاد من الكتاب والسنة فإنها كثيرة:

فآيات القرآن التي تحدثت عن فعل العقل والتعقل هي تسع وأربعون آية. وآياته التي تحدثت عن القلب -ومن وظائفه التفكير والتعقل- تبلغ مائة واثنين وثلاثين آية. ولقد ورد الحديث في القرآن عن "اللب" بمعنى العقل، لأنه جوهر الإنسان وحقيقته في ستة عشر موضعا. وجاء الحديث فيه عن "النُّهى" (بمعنى العقل) في آيتين. أما التفكر، فلقد جاء الحديث عنه بالقرآن في ثمانية عشر موضعاً. وجاء الحديث فيه عن "الفقه" في عشرين موضعا. وجاء حديثه عن "التدبر" في أربع آيات، وعن "الاعتبار" في سبع آيات. وعن "الحكمة" في تسع عشرة آية. الأمر الذي يجعل رصيد الاجتهاد في القرآن الكريم رصيداً ضخما وغنيا. ففيما يقرب من الثلثمائة آية يأتي الحديث الذي يحث على الاجتهاد ويزكيه.

أما السنة النبوية، فإن مأثوراتها التي تزكي الاجتهاد وتحض عليه -صراحة أو ضمنا- هي الأخرى كثيرة حتى لتستعصي على الحصر الدقيق.

فالرسول ﷺ يدعو إلى الاجتهاد في فهم آيات القرآن اجتهادا يصل بنا إلى ما وراء ظواهر النصوص: "أثيروا القرآن فإن فيه خبر الأولين والآخرين" و"من أراد العلم فليثور القرآن" (رواه الطبراني). وإذا دعا لحبر الأمة (ابن عباس) قال: "اللهم فقهه في الدين" (رواه مسلم)، لأن "من يرد الله به خيراً يفقهه في الدين" (متفق عليه).

وهو عندما يسأل مبعوثه وقاضيه إلى اليمن معاذ بن جبل ﷺ:

– "بم تقضي؟"

فيجيبه: بكتاب الله. يعاود سؤاله:

– "فإن لم تجد في كتاب الله؟"

فيجيبه: أقضي بما قضى به رسول الله. فيعاود سؤاله:

– "فإن لم تجد فيما قضى به رسول الله؟"

فيجيبه: أجتهد برأيي.. وعند ذلك يقول الرسول ﷺ:

– "الحمد لله الذي وفق رسول رسوله" (رواه أبو داود والترمذي).

بل إنه ليشجع على الاجتهاد حتى ليحدثنا عن أن المجتهد مأجور على مطلق الاجتهاد، حتى ولو لم يصادف اجتهاده الصواب "من اجتهد برأيه فأصاب فله اجران، ومن أخطأ فله أجر واحد" (رواه البخاري).

حكم الاجتهاد ومراتبه

والاجتهاد قد يكون فرض عين، وقد يكون فرض كفاية، وقد يكون مندوبا، وذلك وفق مقام الاجتهاد والحاجة إليه والحكم الذي يستنبطه المجتهد بالاجتهاد، وتعلّق هذا الحكم بذات المجتهد أو بالآخرين.

وميدانه ما ليس معلوما من الدين بالضرورة، مما اتفقت عليه الأمة من الشرع الجلي الذي ثبت بالنصوص قطعية الدلالة والثبوت. أما مراتب المجتهدين فإنها ثلاثة:

الأولى: رتبة المجتهد المطلق؛ وهو الذي "يستنبط" الأحكام من الكتاب والسنة مباشرة.

الثانية: رتبة مجتهد المذهب؛ وهو من "يستنبط" الأحكام من "قواعد" إمام مذهبه.

الثالثة: رتبة مجتهد الفتوى؛ وهو المقتدر على "الترجيح" في "أقوال" إمام مذهبه.

والذي جرى عليه الرأي في مبحث الاجتهاد –في الحضارة الإسلامية– هو عدم خلو العصر –كل عصر– ممن ينهض بأداء فريضة الاجتهاد. وللإمام جلال الدين السيوطي كتاب جعل عنوانه: "الرد على من أخلد إلى الأرض، وجهل أن الاجتهاد في كل عصر فرض" قال في مقدمته: "إن الناس قد غلب عليهم الجهل وعمهم، وأعماهم حب العناد وأصمهم، واستعظموا دعوى الاجتهاد، وعدّوه منكرا بين العباد، ولم يشعر هؤلاء الجهلة أن الاجتهاد فرض من فروض الكفايات في كل عصر، وواجب على أهل كل زمان أن يقوم به طائفة في كل قطر".

الاجتهاد الجماعي

لكن الذي حدث للاجتهاد عبر مسيرتنا الحضارية، أن ميادين من إبداع العقل الإسلامي في الفكر الإسلامي قد أصابها الجدب، فأصيبت ثمراتها بالذبول. فمنذ الانقلاب الأموي على فلسفة الشورى ضمرت إبداعات الأمة واجتهاداتها في الفقه الدستوري والفكر السياسي الذي يحدد أطر وضوابط علاقة الحاكم بالمحكوم؛ على حين نمت وازدهرت إبداعات الفكر واجتهاداته في الميادين الأخرى.

فلما طال الأمد بالخطر الخارجي تتاريا وصليبيا، وطال الأمر بدول العسكر المماليك، التي مثلت فروسية العصر اللازمة للدفاع عن وجود الأمة والحضارة إزاء هذا الخطر الخارجي، وجلب المماليك شريعة مواطنهم الأصلية "ياسة" جنكيز خان فجعلوها قانون العسكر (أي الطبقة الحاكمة) والدواوين السلطانية (أي دوائر الدولة) تراجعت مكانة "فقه المعاملات" الإسلامي، فذبل، ثم توقف الإبداع والاجتهاد فيه، وهذا هو الذي أدى إلى ما يسميه البعض إغلاق باب الاجتهاد، حتى جاء عصرنا الحديث ولدينا ثراء وغنى في "فقه العبادات" والشعائر الدينية، يصاحبه فقر شديد في "فقه المعاملات" و"الفكر السياسي" اللازم لمواكبة الواقع الجديد والمستحدثات من الأمور.

الأمر الذي يبرز حاجتنا الماسة إلى تنشيط الاجتهاد في "فقه الواقع" السياسي والاقتصادي والاجتماعي ليتسنى لأصول شريعتنا الفروع التي تظلل وتحكم وتصبغ بالإسلام هذا الواقع الجديد.

وربما مع تعقّد شؤون الواقع الجديد، وتشعّب علوم الشريعة والحضارة إلى تخصصات كثيرة ودقيقة، كانت الحاجة إلى "الاجتهاد الجماعي" كالشكل الأنسب للعصر الذي نعيش فيه.■

(*) كاتب ومفكر إسلامي / مصر.



الصوت والصدى

أديب إبراهيم الدباغ*

في "تركيـا" اليوم صوتٌ متفـرد بين الأصوات، ليس كمثله صوت؛ قوي من غير شِدّة، نافذٌ من غير حِدَّة، عـالٍ من غير صخَب، هامِسٌ من غير ضعف. في كلماته جمال وجلال، وفي نبراته لهفةٌ واشـتياق، وفي ثناياه ذهن يتوقد ذكاءً، وفكر يتلهّب سناءً.

إنه ذلك الصوت المضيء الآتي من قبل الظلمة اليائسة، والطّالعُ من سُـويداء العَتَمَات الهالكات. أفكاره مضيئة وإن لم تَمْسَسْهَا نار، وسانحاته مغدقات بالمعاني المبتكرات. إنه يدعونا لننفض عن أنفسنا سواد الليالي الحالكات، ونغسل عن أرواحنا وهَن السنين اليائسات، ويهتف بنا لنؤمن بأننا طاقة من طاقات القدر، وجند من جنده، ابتعثنا لتغيير الإنسان وتشكيله من جديد.

لقد نفخ "فتح الله كولن" في صور القيام، فقامت الشبيبة من غفلات نومها، وفاضتْ وديان قلوبها بصدى النفير، ولم يعد أحد منهم يحس بالرغبة في العودة إلى النوم، وقيل "هلمّوا يا شـباب، هنا يُصنع الإنسان من جديد وتتخلّق طاقاته، وتبعث آماله".

لقد أثبـت "كولن" بالملموس ومن خلال الأعمال التي تكاد تبلغ حَـدّ الإعجاز عند هؤلاء الفتيـان، أنّ العمل الإبداعي لا يعرف هذا الفاصل الموهوم بين المادة والروح؛ فالمادة عنده خامة روحانية يشـكلها الروحانيون كما يشاؤون، وأما الروح فهي القوة التي تعطي مَوات المادة التشكّل والحياة والإعجاز.

لقد بقي فتياننا جاثين على عتبـات الأغراب ضعافا هزالا، وعندمـا سمعوا النـداء، وبلغهم الهتاف، قامـوا أبطالا خارقين يسـابقون الأيام، ويتقحمون الأزمان دون خوف أو وَجَل، ولم تعد حياتهم سؤالا مؤلما لا يجدون جوابا عنه، بل وجدوا الجواب، ورفعوا النقـاب، ومضوا مع طاقاتهم الدافعة يشـقُّون الطريق، ويقطعون المسافات ليرمموا المتصدّعَ ويقيموا المتهدّم.

لقد وجد هؤلاء الفتية الظامئون في ينابيع الإدراك التي فجّرها "كولن" في نفوسـهم ما يروي ظمأ أرواحهم، ويسقي جفاف عقولهم، بعد عقود من السـنين كانت فيها أرضهم تعاني أوجاع مخاضات عسيرة ثم لا تلد في كل مرة إلاّ مسوخا فكرية غير قادرة على إيقاف نزيفهم الروحي. فمضى "كولن" يمسح جراحاتهم، ثم يشحذ قواهم الفكرية والروحية ويستنفرهم للنـزول إلى ميدان

الفكر متيني البنيان لا يُخترَقون، ومنارات هدى لا يُطالون، وذوي ثقل في موازين الرجال لا يُجارَون.

وقد أتقن "كولن" فنّ خطاب الروح الإنساني وراهن عليه، وظلّتْ آماله معقودة على صحوته مهما طال زمن غفلته؛ فنجاح الدعوات مناط باستكشاف أسراره، وعلى قدر معرفتنا به يكون نجاحنا في التعامل معه.

إن أصداء أفكاره في عقول الآلاف من الفتيان ردّ حاسم على أولئك الذين كانوا يرون أنّ مجتمعاتنا الشبابية قد تفسّخت ودبّ فيها الفساد، و لم يعد ينفع معها لا الأدواء ولا الدعوات. وقد خلُصَ الأستاذ من خلال تجاربه الدعوية إلى أنّ افتقار هؤلاء الفتيان إلى العاطفة الصادقة التي تتفهم أوجاعهم ومشاكلهم وما يعانونه من إحباطات هو الذي يحول دون إصغائهم لمخاطبيهم مهما أوتوا من بيان وقوة إقناع. وقد دفعه ذلك إلى الإنصات إليهم، ومشاركتهم آلامهم وآمالهم، والانكباب على دراسة مشاكلهم. فلمّا أحسّوا منه صدق التوجه إليهم، آثروه بالإصغاء، واختاروه معلما ومرشدا.

لقد أطلق "الأستاذ" الشبابَ من حبوسهم النفسية والفكرية، وشرّع لهم سبل تصريف طاقاتهم المتفجرة في البناء والتعمير، وتشييد سماوات فكرية وروحية يتخذونها سقوفا يستظلون بها، ويسطعون نجوما متلألئة في آفاقها، ويحاورون منها الزمن، ويصارعون أباطيله بالكلمة المضيئة، والفكرة المستنيرة، من غير أن يحتاجوا إلى فتيل عضل أو بسطة جسم.

لقد عرفوا الحقيقة وأمسكوا بها وعاشوا لها، ومضوا يبشرون بها مستلهمين روحها العظيم، وذاكرتها الماورائية الخالدة. و لم يَعُد أحد من هؤلاء الشباب يرغب بالعودة كرة أخرى إلى حبوسه الأولى، حتى إنّ فكرة العودة لأيّ منهم تبدو من المستحيلات، فيستطيع أحدنا أن يُسْلِمَ قياده إلى واحد منهم وهو آمنٌ مطمئن.

إنهم تعلموا من "الأستاذ" كيف يخلعون عن أنفسهم بأنفسهم نير أنفسهم، فإذا هم يتسابقون إلى المعالي وكأن في أرجلهم أجنحة صقورية قوية يطيرون بها طيرانا، وفي دمائهم نشوة مغتبطة بالحياة. وإن بساطا جذلا يمضي معهم حيث يمضون، وينشرونه حيث ينتشرون، ولغبطة الحياة بهم فإنها منحتهم مفتاح قلبها ليلجوا إليها، ويفهموا عنها الومضات والإيماءات والآيات الدالات على خالق الحياة ﷻ.

إن أصداء الأفكار العميقة والواسعة قد تكون أقوى أثرا وأعظم نفاذا في النفوس من صوت الأفكار نفسها، فكل صوت وصداه يُسجّل على صفحات الهواء في الفضاء العريض. حتى إن الجبال الصمّاء نفسها كانت تهتزّ طربا متجاوبةً مع أصداء تضرعات داود عليه السلام كما يشير القرآن الكريم إلى ذلك ﴿يَا جِبَالُ أَوِّبِي مَعَهُ﴾(سبا:١٠)، وكأنها تريد أن تظهر مبلغ حدَبها على أصداء صوت داود عليه السلام الشجي. وأن هذه الأصداء ستكون في رعايتها وكنفها حتى تلقى الله تعالى بها يوم القيامة.

وإننا لنعجب كيف استطاع هؤلاء الفتية أن يصونوا قلوبهم من التلوث بلوثات العصر، ويحتفظوا بها طاهرة نقية وكأنها قلوب ملائكية لا تقرب الدنس ولا يقرب الدنس منها. وإننا لنقرأ ذلك الطهر في وجوههم الصريحة المشرقة، وابتساماتهم العامرة بالإيمان. هذه الابتسامات التي فيها الشيء الكثير من براءة الطفولة وشفافية الإخلاص.

إنهم مخلصون، ولا يستطيعون أن يكونوا غير مخلصين، لأنهم يدركون أن هذا الإخلاص هو من لوازم الإيمان الذي لا يصح إيمان امرئ منهم من دونه.

ومع هذه اللطافة التي تكاد تبلغ حد الرقّة فإنهم ينطوون على قوة روحية خزينة في نفوسهم، يبدو بعضها ويختفي معظمها. حتى إذا جدّ الجِدّ وناداهم الواجب، تواثبوا إليه وتقحموه وتنافسوه وتزاحموه حتى ينجزوه، فإذا أنجزوه اختفوا ونسب كلّ واحد منهم فضل ذلك الإنجاز لأخيه، ثم توارى عن الأنظار فلا يكاد يعرف له مكان في هذا الواجب المنجز، و لم تعد تعرف أيهم المتقدم منهم والمتأخر. فيصدق عليهم ما كان يصدق على الرعيل الأول من المسلمين: "يقلّون عند الطمع ويزيدون عند الفزع".

وصدى الصوت الذي كان مجرّد موجات يحملها الهواء إلى الآذان، فإنها سرعان ما تتشكل عقلا بشريا يمكن أن نقرأه ونحاوره ونأخذ عنه أو نردّ عليه. فإذا كان منبع هذا الصدى فكرا جوهريا أصيلا استطاع أن يحرك الوجدان على بعد آلاف الأميال، لأنه ذاتي المصدر، نقي المعدن غير مشوب بما في واقع الحياة من شوائب طامسة للأصالة والذاتية. وبذلك وحده يغنى الفكر ويخصب الروح ويرهف الحسُّ والشعور، ويصبح المؤمن مؤهلا لاستقبال المدركات الروحية والعقلية العالية. وهذا هو ما يصبو إليه صاحب كل صوت فكري بين الأصوات...! ■

(*) كاتب وأديب عراقي.


النُّورُ الخالِدُ
محمد ﷺ
مَفخرة الإنسانيّة
بقلم فضيلة الأستاذ فتح الله كولن
• جولة مباركة في آفاق السيرة بعقل المؤرخ ومعية الروح والوجدان.
• الوقوف عند المنعطفات الكبرى في السيرة واشباعها فحصا ودراسة.
• التوكيد على التوافق بين سنته عليه السلام والسنة الكونية والحياتية.
• التوكيد على شمولية الإسلام من خلال معطيات السيرة، وأنه دعوة عالمية تخاطب الإنسان في كل زمان ومكان.
النور الخالد
محمد
مفخرة الإنسانية
محمد فتح الله كولن
مركز التوزيع فرع القاهرة : ٧ ش البرامكة، الحي السابع، مدينة نصر - القاهرة / مصر
تليفون وفاكس: +20222631551
الهاتف الجوال: +20165523088
دار النيل

حراء

مجلة علمية ثقافية فصلية

www.hiramagazine.com



تركيا: ٥ ليرات • أوروبا: ٣ يورو • أمريكا: ٤,٥ دولار

ISSN 1306-1879
www.hiramagazine.com
9 771306 187009 11

حراء

مجلة علمية ثقافية فصلية

www.hiramagazine.com

العدد الثاني/السنة الأولى/(يناير-مارس)2006



ISSN 1306-1879

الافتتاحية

آفاق حراء

لسنا -بفضل الله- هواة كلام نلوكه ونثرثر به، ونطلقه على عواهنه بلا ضابط من منطق يضبطه، أو عقل يعقله.

وليس من هَمِّنا أنْ نكرر ما قيل ويقال دون إعمال فكر أو إنفاذ نظر، ولو فعلنا هذا لم نأتِ بجديد، ولم نَرَ ما يوجبُ -أصلاً- ميلاد «حراء»، لأنها لن تكون عندئذ سوى بضاعة كلامية مزجاة في سوق الكلام لا تضيف إلى المكتبة الاسلامية شيئاً جديداً، وهذا ما نربأ بأنفسنا أن نكونه ولـ«حراء» أن تكونه.

تؤمن هذه المجلة -وبكل تواضع- أنّ عندها شيئاً جديداً تريد قوله، وخطاباً دعوياً مبتكراً تخاطب قرّاءَها به، وهي -بكل تواضع مرةً أخرى- ترى أنها في سبيل إنشاء مدرسة فكرية إيمانية تسعى لريادة قوى المسلم الإدراكية إلى المستوى الذي يؤهله لمناقشة التحديات الثقافية والحضارية التي تحاصره من كل جانب. إنها -وبمعية القارئ الكريم- في طريق استقصاء المشيئة الكونية ومحاورة نواميس الكون والطبيعة التي بيدها مفتاح مغاليق كل ما أتت به حضارة اليوم من علوم وتقنيات.

وهذه المجلة ترى في العلم مطلقاً قوى إلهية محركة وهادية وإن كانت خافية غير ظاهرة ولكنها موجودة لا شك في وجودها. وكما لكل شيء روح ﴿وَإِنْ مِنْ شَيْءٍ إِلاَّ يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِ﴾ فللعلم روح كذلك. وروحه هو القوى التي أودعها الله فيه، ومن هنا جاء استعراض المجلة لقوى الطبيعة في جملة من المقالات والأبحاث، وذلك لتنشيط الحافز العلمي لدى المسلم، ولاستثارة فضوله الذهني.

وهذه المجلة ترى في الفوضى الفكرية والروحية -التي تكاد تكون منظمة ومتقصدة إلى حدٍ ما- من كبرى مشاكل هذه الأمة. وهي -أي المجلة- جادّةٌ في تشخيص هذه الظاهرة الغريبة وتحليلها وبيان أسبابها وأساليب معالجتها، وهي ترى أن هذه الفوضى عذاب تتجرعه الأمة، إلاّ أنه لا يُعدّ دليلاً على ضعفها، بل هو دليل على قوة فيها، إلاّ أنها مشتتة تنشد التوحيد النفسي ولكنها تخطئ الطريق إليه، فغدت حياتها تعباً مملاً بعد أنْ جابت تلك المتاهات المحيرة في البحث عن نفسها دون طائل.

فتوحدها النفسي والإيماني والفكري موجود في كتاب ربها وهو القرآن الكريم، وسيظل الشقاء ملازماً لهذه الأمة حتى تعود إلى كتابها، هذا الكتاب الخالد الذي يفنى الوجود ولا يفنى، وتقوم قيامة العالم ويظلّ هو قائماً لا يحول ولا يحور.

وفي هذا المعنى تتحرك أقلام كبار أساتذتنا الذين تصدرت مقالاتهم صفحات هذه المجلة، ونحن في الوقت الذي نشكر لهؤلاء الأساتذة الأفاضل الذين ساهموا بأقلامهم بتحلية صفحات هذا العدد من المجلة نود أن نعتذر لأساتذتنا الآخرين الذين لم تتح لنتاجاتهم فرصة أن ترى النور في هذا العدد وقد يأتي دورهم في أعداد لاحقة.

كما نود أن نشير إلى أننا قد أنشأنا موقعاً على «الانترنت» باسم المجلة يمكن مراجعته لمن يريد.

هذا وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين. ■

حراء
مجلة علمية ثقافية فصلية
www.hiramagazine.com

العدد الثاني / السنة الأولى
(يناير - مارس) ٢٠٠٦

التصور العام

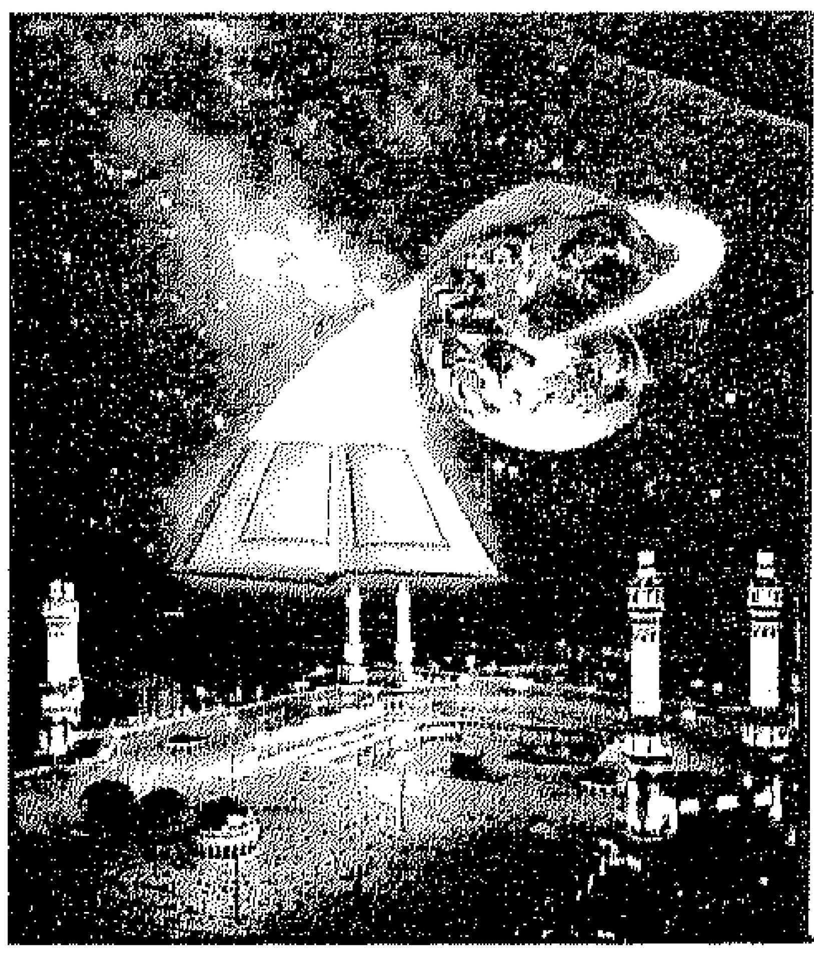
* حراء مجلة علمية ثقافية فصلية تعنى بالعلوم الطبيعية والإنسانية والاجتماعية وتحاور أسرار النفس البشرية وآفاق الكون الشاسعة بالمنظور القرآني الايماني في تآلف وتناسب بين العلم والإيمان، والعقل والقلب، والفكر والواقع.
* تجمع بين الأصالة والمعاصرة وتعتمد الوسطية في فهم الإسلام وفهم الواقع، مع البعد عن الإفراط والتفريط.
* تؤمن بالانفتاح على الآخر، والحوار البناء والهادئ فيما يصب لصالح الإنسانية.
* تسعى إلى الموازنة بين العلمية في المضمون والجمالية في الشكل وأسلوب العرض، ومن ثم تدعو إلى معالجة المواد بمهنية عالية مع التبسيط ومراعاة الجوانب الأدبية والجمالية في الكتابة.

شروط النشر

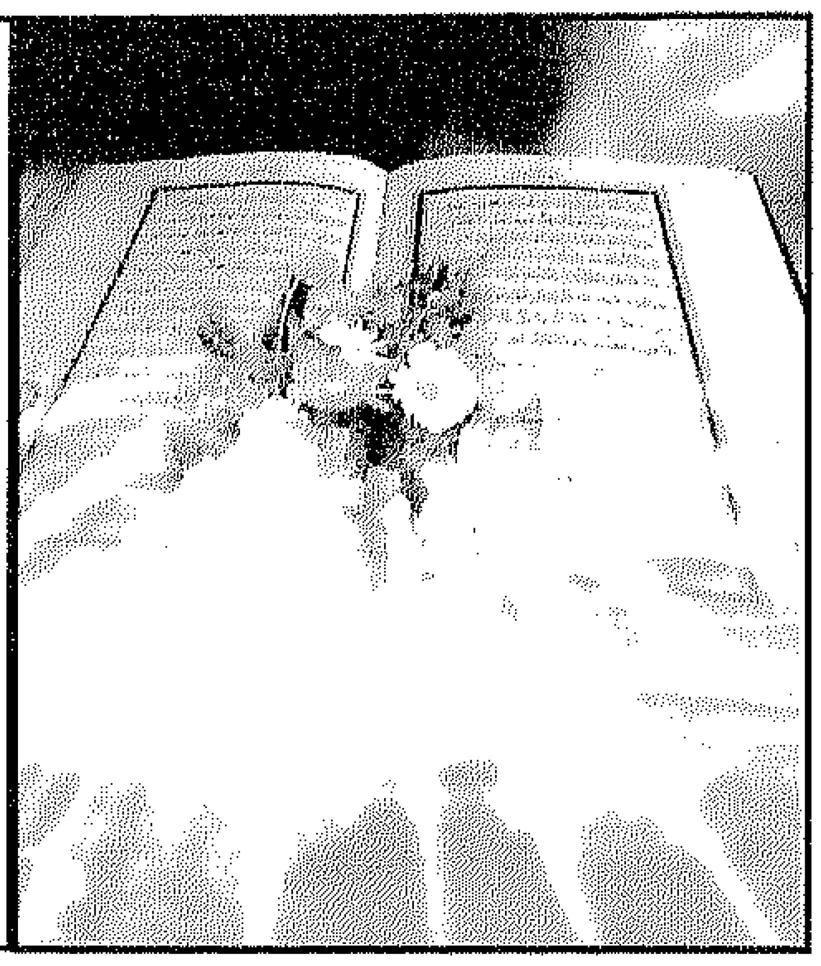
* أن يكون النص المرسل جديدا لم يسبق نشره.
* ألا يزيد حجم النص على ٢٠٠٠ كلمة كحد أقصى، وللمجلة أن تلخص أو تختصر النصوص التي تتجاوز الحد المطلوب.
* يرجى من الكاتب الذي لم يسبق له النشر في المجلة إرسال نبذة مختصرة عن سيرته الذاتية.
* تخضع الأعمال المعروضة للنشر لموافقة هيئة التحرير، ولهيئة التحرير أن تطلب من الكاتب إجراء أي تعديل على المادة المقدمة قبل إجازتها للنشر.
* المجلة غير ملزمة بإعادة النصوص إلى أصحابها نشرت أم لم تنشر، وتلتزم بإبلاغ أصحابها بقبول النشر، ولا تلتزم بإبداء أسباب عدم النشر.
* تحتفظ المجلة بحقها في نشر النصوص وفق خطة التحرير وحسب التوقيت الذي تراه مناسبا.
* النصوص التي تنشر في المجلة تعبِّر عن آراء كُتّابها، ولا تعبِّر بالضرورة عن رأي المجلة.
* للمجلة حق إعادة نشر النص منفصلاً أو ضمن مجموعة من البحوث، بلغته الأصلية أو مترجمًا إلى أي لغة أخرى، دون حاجة إلى استئذان صاحب النص.
* مجلة حراء لا تمانع في النقل أو الاقتباس عنها شريطة ذكر المصدر.
* يرجى إرسال جميع المشاركات إلى هيئة تحرير المجلة على العنوان الآتي:

hira@hiramagazine.com

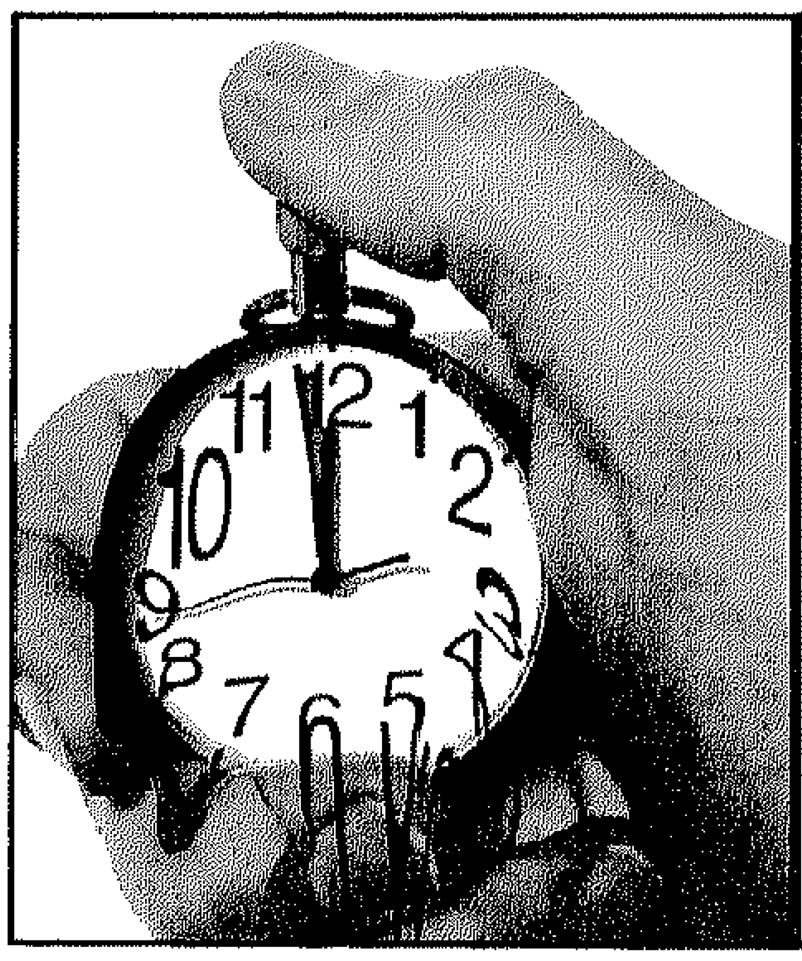
المحتويات



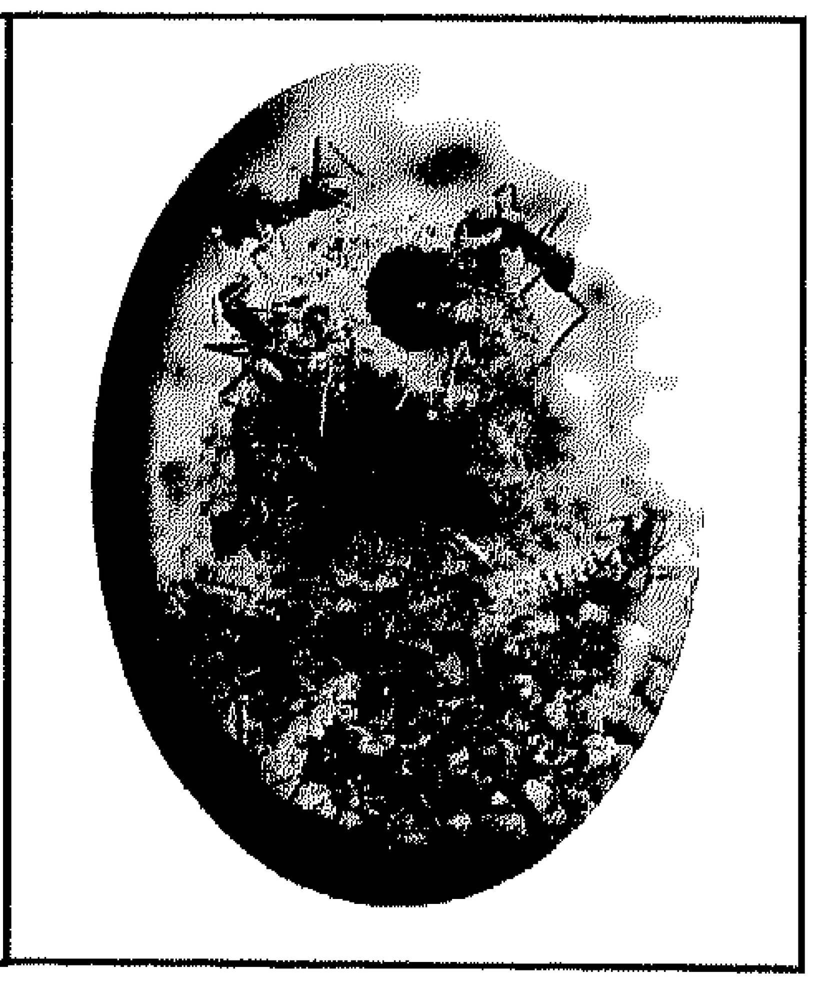
المقال الرئيس ٤



دراسات إسلامية ١٠



أدب ٢١



علوم ٤٤

حراء

مجلة علمية ثقافية فصلية تصدر عن:

Işık Özel Eğitim Tic. Ltd. Şti.

صاحب الامتياز
Publishing Director
أنس أركنه
mergene@hiramagazine.com

رئيس التحرير
Editor - in - Chief
نوزاد صواش
nsavas@hiramagazine.com

مدير التحرير
Managing Editor
أشرف أونن
eonen@hiramagazine.com

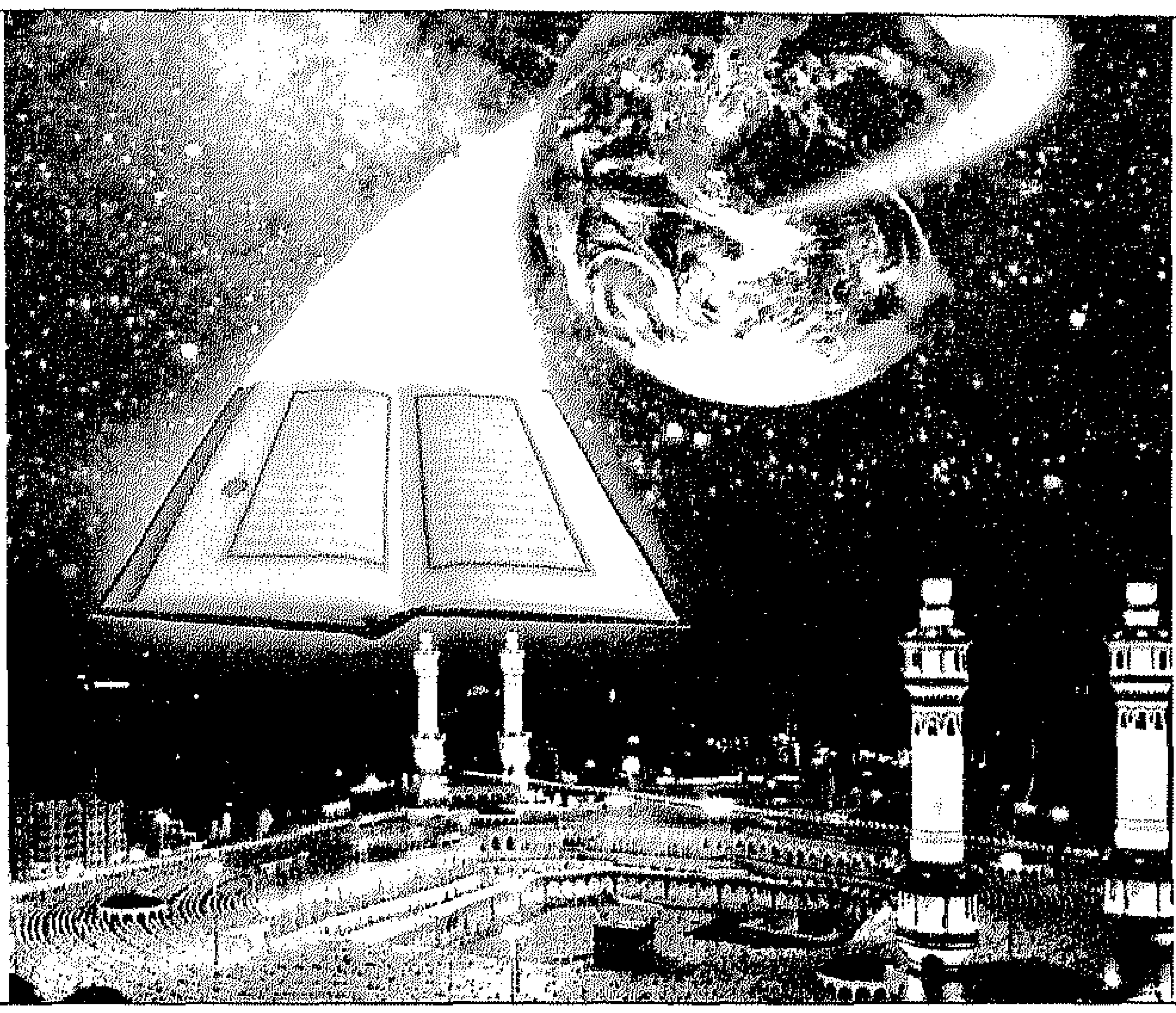
الإخراج الفني
Graphic Designer
أسيد إحسان الصالحي
usalihi@hiramagazine.com

المركز الرئيس
Hira Magazine
Kaynak Publishing Group
Emniyet Mah. Huzur Sok. No:5
34676 Üsküdar-İstanbul/Turkey
Phone: +902163186011
Fax: +902163185314
e-mail: hira@hiramagazine.com

الاشتراكات/مركز التوزيع
٧ ش البرامكة - حي السابع - م. نصر - القاهرة
تليفون وفاكس: ٢٠٢٢٦١٩٢٠٤
المحمول: ٢٠١٢٣٧٨٥١٩٢
جمهورية مصر العربية
sub@hiramagazine.com

الطباعة
International printing house
P.O BOX 312
Public Free Zone, Nasr city
Tel: 0202274074
Heliopolis - Cairo
Egypt

رقم الإيداع
١٣٠٦-١٨٧٩



الحج...

م. فتح الله گولن

يأتي الحج بمعنى القصد والتوجه. ولكن ليس من الصحيح حبس معناه ضمن إطار مجرد القصد والتوجه. فالحج يطلق على زيارة تتم في وقت مخصوص بشعائر معينة لأماكن محددة. وهو عبارة عن القيام بالإحرام في أيام محددة من أيام السنة بنية الحج والتوجه للوقوف في عرفة والطواف حول الكعبة. والإحرام شرط الحج، أما الوقفة على عرفات والطواف حول الكعبة فمن أركانه.

يتوجه كل سنة مئات الآلاف من الناس إلى بيت الله من جميع أنحاء العالم ضمن شريط مبارك من الزمن، فيزورون أماكن معلومة حددها لهم صاحب الشريعة ضمن أصول وشعائر معينة حيث يؤدون واجباتهم ويتطهرون من آثامهم، فالحج فريضة من الفرائض الخمس بقوله تعالى: ﴿وَلِلَّهِ عَلَى النَّاسِ حِجُّ الْبَيْتِ مَنِ اسْتَطَاعَ إِلَيْهِ سَبِيلاً﴾ (آل عمران: ٩٧).

الحج يؤسس الوحدة الاجتماعية

الحج شعيرة إسلامية تؤسس الوحدة الاجتماعية بين المسلمين، وهي شعيرة شاملة وواسعة إلى درجة أنه لا يوجد نظير لها من ناحية الشمول والوسعة فوق هذه الكرة الأرضية، ولا عند أي جماعة أخرى. وتمتد الكعبة بتاريخها –وبكل ما تحويه من معان مقدسة– إلى آدم عليه السلام وإلى ما قبل خلقه، ثم إلى إبراهيم عليه السلام الذي أعاد تعميرها من جديد بعد تعميرات عديدة سابقة. والكعبة بيت التوحيد المرتبط بالملة الإبراهيمية، وبالحقيقة الأحمدية قبل الخلق وفي مرحلة العماء، ورحم للنور المحمدي، وقبلة جميع الأديان السماوية، ومركز للتوحيد بحيث لا يوجد هناك أي بيت أو مبنى يكون نظيرا لها أو مثيلا من هذه الناحية.

يتوجه في كل عام مئات الآلاف من الناس إلى هذا المكان السامي لكي يؤدوا وظيفة العبودية لله تعالى ويزدادوا قرباً منه في هذا الشريط المبارك من الزمن بالعبادات التي يؤدونها، حيث يتنفسون مشاعرهم وأفكارهم من خلال منافذ هذه العبادات، ويجددون عهود إيمانهم، ويتطهرون من أدران آثامهم، ويتذكر كل واحد منهم واجبه نحو الآخر ومسؤوليته تجاهه. ويؤدون جميع أمورهم الاجتماعية والاقتصادية والإدارية والسياسية ضمن خلفية وعلى أرضية من العبادة المتوجهة لله تعالى ومن الشعور بالعبودية له، حيث ترقّ القلوب، وتتسع المشاعر حتى تبلغ طور مدّها وتصاعدها، فيعودون إلى بلدانهم بعزم جديد وبقوة جديدة وشوق نضر.

الحج قوة للروح واطمئنان للقلب

يذهب كل واحد منا إلى الحج عندما ندرك أن الأدران قد أصابت مشاعرنا ولوّثتها. وعندما نبدأ بالسفر يخيل إلينا أننا ولجنا من باب لم نعرفه ولم نعهده في السابق إلى عالم آخر من المعاني،

ونؤدي الشعائر، الواحدة منها تلو الأخرى، ونحس بها ونصل إلى أعماق معانيها. وبينما نحن في الطريق ونقطع الجبال المهيبة، ونشبع أعيننا وقلوبنا بعلامات الإسلام وشعائره، نشعر بهبوب نسيم الحج الدافئ. ونحن نحس بهذا النسيم الدافئ أينما كنا سواء على مقاعد السيارات أو في غرف القطارات أو البواخر أو على مقاعد الطائرات أو في غرف الفنادق أو في صالونات وقاعات المسافرين أو حتى في الأسواق. ومهما كنا متعودين على وسائل السفر هذه أو على هذه الطرق، فإن الأيام والأسابيع التي يستغرقها السفر تكون مملوءة بمعان روحية متناغمة، وبهبات وأفضال، حتى كأننا نستحم بمشاعر القرب والوصال وبأنواع الجمال والشعر والرومانسية، فيكتسب الروح قوة والقلب اطمئنانا، ونحسب أننا أمام باب سري يؤدي إلى عالم خاص مملوء بأنواع من الجمال الساحر. وهذه الرحلة المباركة والمشاعر التي تتخللها تَهَبُ لعالم الأحاسيس لدينا قابلية حدس وشعور إلى درجة أننا نحسب والاطمئنان يلفنا -ونحن بحالة روحية خليطة من البهجة، وأحياناً بحزن خفيف ناتج عن حالة المراقبة الداخلية للنفس- وكأننا نخطو في رواق من أروقة الآخرة.

يرى أصحاب النظرة الصائبة أن الكعبة تنظر من ناحية إلينا، ومن ناحية أخرى إلى ما وراء هذا العالم المادي... إلى عالم الأبد... تبتهج أحياناً... وتغتم أحياناً أخرى... ونستطيع أن نطالع في وجهها الذي نستطيع تشبيهه بوجه إنسان وقور ورزين، له تجربة آلاف السنين، وكأنها تريد أن تبث لنا شيئا، أو كأنها تخاطبنا وتهمس بأبيات شعر:

تعال إليّ أيها العاشق المتخفي... تعال!
هنا حريم خاص... هنا مقام الحرم،
لقد طالعتُ فيك أمارات الوفاء...

كأن الكعبة أُمٌّ تمسك بأيدي أطفالها

كأن الكعبة حسب موقعها ووضعها أمّ أو جدة جالسة في أفضل مكان في البيت لتشارك أولادها وأحفادها مسرّاتهم وأحزانهم، وتعيش آلامهم. تجول بنظرها فيما حولها، تحزن أحياناً وتبتسم أخرى. ويحسب الإنسان وهو يطوف حولها في مدينة أم القرى كأنه طفل تمسك أمه بيده بقوة ليشعر بمزيد من الأمان. أجل!.. إن الإنسان وهو يطوف ضمن سيل من مئات الآلاف من الناس يحس وقد تصاعد عنده الشعور بالدار الآخرة بأنه متوجه لله تعالى بكل حب وشوق، وفارّ إليه جلّ جلاله، حتى ليكاد يغيب عن وعيه. وهو عندما يهرول وعليه ملابس الإحرام، ويرمل في الطواف وأكثر من نصف جسمه عار، تلفه المخافة من جهة، والأمل من جهة أخرى، ويعيش حالة من الانفعال وهو يسرع في طوافه هذا. ويستحيل شرح وتعريف الجو العميق الساحر الذي يحيط بالإنسان وهو يطوف بالبيت العتيق المبارك وما يشعر به أثناء الطواف والسعي من راحة نفسية ومشاعر رومانسية. وقبل أن يبدأ الإنسان بالطواف يكاد يسمع -وهو يشاهد منظر الزحام الذي يذكر بزحام يوم القيامة- صمت الحرم الإلهي المنزوي وشعره. ولا يدري أحد أي الأبواب السرية تنفتح أمام الأرواح السامقة التي تدع أنفسها تنجرف في سحر جو الطواف، ولا أي مطارق خفية يلمسونها، ولا أي نوافذ سحرية تنفتح أمامهم على العالم الآخر؛ حتى أننا ونحن نطوف حول البيت العتيق بمشاعر فوارة ومتجددة في كل لحظة، نندهش ونتعجب من الألطاف التي تنهمر على قلوبنا من المنافذ المنفتحة في خيالنا، ومن البوارق التي تبرق في صدورنا، ومن الأسرار التي تطير بأرواحنا؛ ونتصرف وكأن في كل خطوة نخطوها باباً سرّياً سينفتح أمامنا مع دعوة لنا للدخول منه، ونحسب أننا نكاد نقطف لذة لم نعرفها من قبل، فنحس أن قلوبنا تدق بعنف. عندها نشعر بعظمة الكعبة... هذه العظمة التي خالطت قلوبنا من قبل وسكنت فيها، وبكل عمقها... ونحس بأن نبض سحرها يسري في أنحاء جسدنا، فنرتجف من رأسنا حتى أخمص قدمنا.

ومع أن في الإمكان تفسير بعض هذه الخواطر وإسنادها إلى أسبابها، إلا أننا نبقى صامتين أمام الكثير من السنوحات والألطاف التي ترِد إلينا متجاوزة جميع مقاييسنا وتقييماتنا. لأن الكعبة وما يحيط بها من مظاهر مادية، حتى وإن كانت تعني شيئا، ولكن لكون أسلوبها أخرويا، ومعانيها ضبابية ومحتواها مغلقا وغير معروف، فليس باستطاعة الجميع فهم ما تريد الإشارة إليه. ومع ذلك فإن الجميع سواء أكانوا من العامة أم من الخواص، من الشباب أم من الشيوخ... كل فرد من هؤلاء له نصيب من المعاني التي يدركها، وإن لم يستطع التعبير عنها.

في الكعبة سرُّ الوجود

وبجانب كون الكعبة بموقعها بين الجبال والتلال المهيبة تشبه زهرة زنبقة الماء منشقة عن برعمها، فهي بمثابة فانوس سحري

يحمل سر الوجود، ومسقط سدرة المنتهى، أو هي بلورة من عصارة العوالم التي وراء السماوات. وعندما يطوف الإنسان حول هذا الفانوس المحاط بالألغاز، يحس بأمور خفية بسعة الدنيا الدائرة، ويخيل إليه أنه ينظر من خلال موشور مرتبط بالسدرة المنتهى إلى عوالم فيما وراء السماوات.

أجل! . . فكل من لجأ إلى حرمها، يكتسب أعماقا في روحه ومشاعره وفكره. فعندما يفكر بوجوده وبالكعبة، ويستمر في التفكير في العلاقة بين هذين العنصرين اللذين هما مطمح النظر الإلهي، تنفتح أبواب سرية تنقلهم إلى عوالم سرية لم يكن لهم عهد بها من قبل. ولا شك أن مثل هذا الشعور والحدس، ومثل هذا المعنى والروح لا يحصل ولا يظهر إلا من اتحاد إيمان صحيح وقوي مع عيش حياة إسلامية كاملة، مع إخلاص ويقين تامين، وإلا لم يكن للقوالب المجردة مضمون حقيقي.

بفضل هذا الغنى وهذا العمق الموجودين في الكعبة، يبدو كل شيء عندما يصطبغ بصبغة الحج وبشعوره فوق قيمته عن الأوقات الاعتيادية، وبمهابة أكثر وألوان أجمل. عند ذلك يدع الإنسان نفسه لهذا السحر ليأخذه ويرتفع به ضمن حلزون من النور ليصعد به ويرتفع ليصل إلى معبوده. وصلاة الطواف التي يؤديها صاحب هذا الروح الواصل إلى مثل هذه الذروة تكون مثل سجدة الشكر، ومن يشرب من ماء زمزم يكون كأنه يشرب من كوثر الجنة أو يعب من شراب الوصال.

إنْ قُمْنا بتشبيه الطواف حول الكعبة حسب التعبير الصوفي بـ«السير في الله» الذي يعد في الأكثر سياحة حول شعور مبارك ومحاولة لزيادة العمق النفسي، فإن الذهاب والإياب في مواضع السعي يمكن أن نفسره بمعاني «السير إلى الله» و«السير من الله» الذي هو عنوان العروج من الخلق إلى الحق تعالى، ومن الحق إلى الخلق. أجل! . . ففي السعي بين الصفا والمروة يعيش الإنسان طوفان هذه المشاعر.

في «السعي» تسكب مشاعر التضرع

يعيش الإنسان في أثناء «السعي» شعور التضرع والطلب والدعاء والاستمداد، ويعيش شعر وموسيقى الوصال وداء الوصال. فكأنه لا يفتر يطارد شيئا مهما. ويستمر السعي حتى يظهر ما يسعى إليه. وكل ما يظهر من أثر أو أمارة في هذا السعي يضاعف انفعال الإنسان ويثير مشاعره حتى تنطق الصدور بأمثال ما قال الشاعر:

انظر إلى حال هذا المسكين . . .
أصبح عبدا لشَعرة من شعر الحبيبة . . .
كلما غمس يده في شهد الحب . . .
ظمئ . . . فطلب الماء . . .

يتمتم بهذا وهو يسعى هنا كطوافه حول الكعبة. وفي مقابل محاولته عند الطواف حول الكعبة النزول إلى أعماق نفسه، نراه في السعي بين الصفا والمروة يسعى على خط مستقيم وقد دهمه شعور نبوي بالعيش من أجل الآخرين؛ بالضحك من أجلهم وبالبكاء من أجلهم، بل حتى بالموت من أجلهم. تراه لا يقر له قرار، ولكن لا يفلت الحساب من يده. تراه قلقا، ولكن دون أن يتخلى عن الأمل. وتحت الأضواء الذهبية للسماء، وفي الساعات الزرقاء لموسم الحج تراه يتلوى من حسرة داء وِصال جديد، ومن عدم عثوره تماما على ما يبحث عنه. فتراه يذهب ويجيء . . . يهَرول أو يمشي الهوينا . . . يصعد تلا وينزل من تل . . . يلفه التردد والاضطراب. ينغمس أحياناً في شلال نهر الناس المهرولين في المسعى ليعبر عن أحاسيسه ضمن كورس أو فرقة جماعية، وأحياناً يكون في حالة روحية يخيل إليه معها أنه لا يرى شيئا ولا يرى أحدا وأنه يسعى ويطوف منفردا، يبدو أمامه شبح السيدة هاجر عليها السلام . . . تراه يترنم وهو يرتشف من كأس قلبه:

اطلب أيها الولهان الحبيبة التي أهدابها،
مثل الأسنة لتطفئ لوعة الفراق . . .
أنا ظامئ، فابحث لي عن ماء في هذه الصحراء،
خوف جهنم قد جثم على قلبي وأحرقه،
كل أملي أن يرش غيث إحسانك على قلبي الماء . . .

بهذه الكلمات ينتظر رحمة تنزل عليه من السماء لتطفئ نار قلبه. وإلى جانب ناره التي تلهب روحه وتحرقه يتلوى من حسرة ومن ألم الانتظار الذي لا ينتهي. أحياناً يهبّ في المسعى نسيم بارد من وراء أفق هذا العالم، ولكن هناك في الأغلب حزن يلفه الشوق، أو شوق يلفه الحزن، مع معاناة عشق قد صبغه الرجاء والأمل.

كثيرا ما يختلط الخيال بالحقائق في المسعى، فيبدو الناس هناك أحياناً وقد لفهم صمت عميق . . . وأحياناً تسمع أصوات بكاء متقطع . . . أحياناً كأنهم يساقون إلى الميزان وأحياناً كأنهم يركضون نحو الكوثر، فهم بين خوف ورجاء وبين خشية وفرحة . . . يستمرون في الذهاب والإياب وفي الصعود

والنزول... الدقائق والساعات هناك مع كونها خفرة وحَيِيَّة فهي كثيرة الطلب، فهي تطلب الاهتمام على الدوام. وإلا فستزول وتنمحي دون أن تترك أي أثر.

كلما اقتربت الأيام من العيد تلوّن المطاف والزمزم والمسعى بشعور خفي من الحسرة والغربة إلى اللون اللازوردي، وتبدأ الكعبة بإنزال ستارة نوافذها شيئا فشيئا. ومثل كل الحوادث التي تدل على حقيقة الفناء وتشير إليها يفهم الإنسان أنه متى آن وقت الرحيل فعليه أن يرحل، وأنه لا بد أن يأتي يوم سيرحل فيه عن هذه الدنيا، وعند ذلك ينزوي في عالمه الخاص ويعيش نوعا من الانزواء الروحي.

في «عرفات» تسمع صرير أبواب السماء

ولكن لم ينته بعد كل شيء... فهناك طريق طويل، ورحلة طويلة تنتظر هؤلاء السائرين إلى الله تعالى. فهناك «مِنًى» بلغزها الغامض، وبسحرها الذي يدير الرؤوس منتصبة على الطريق تنتظرهم... وهناك «عرفات» التي كأنك تسمع فيها صرير أبواب السماء ترقبهم... وهناك «المزدلفة» التي لن تدَعهم قبل أن تذيقهم مأدبة روحية... وبعد خطوات هناك المكان الذي يُظهِرون فيه كامل تسليم أنفسهم لله ويرجمون عقولهم المعاشية الدنيوية، ويضحون عن أنفسهم ويعيشون في عوالم أحاسيسهم عيد البراءة والتطهر. ثم يتوجهون إلى الكعبة وإلى كعبة قلوبهم... يتوجهون من الله إلى الله، وينهون عروجهم ونزولهم، وينثرون ابتساماتهم على حظوظهم بإلهام من تداعيات «الفناء في الله» و«البقاء بالله».

«مِنًى» رمز سماوي للتضحية والحنان

«مِنًى» التي فرشت رداءها في عالم التضحية ببريقها الساحر تقوم بإسماع أشعارها حتى قمم تلال المزدلفة، وتحاول أن تدخل إليها، بل تود حتى تجاوزها لتسلم على عرفات... تسلّم على عرفات، وترشد ضيوفها -الذين يلبثون عندها أربعا وعشرين ساعة- وتسلمهم إلى عرفات.

«منى» بالنسبة إليّ رمز سماوي للتضحية والحنان، ولمعنى الانقياد للأمر في جو من المهابة في الأرض، وحضن دافئ. هي عنوان للاستسلام وكأنه عش للإخلاص الذي لا يطلب أي مقابل أو ثمن. و«مِنًى» التي يسكنها لبضعة أيام من لا يملك بيتا أو مسكنا، ولا منزلا أو وطنا مكان وموضع سرّي. فما أكثر المشاعر التي تموج في قلب كل من لم يغلق قلبه للآخرة في هذا الموضع الحافل بالأسرار. أما نحن فنحس أن «مِنًى» قد امتزجت بأرواحنا إلى درجة أننا نحس وكأنها تنبض في قلوبنا وتعيش في أعصابنا. وما أن نخطو إليها خطوة حتى نشعر بأنها احتضنت روحنا (من الملفت للنظر أنها أول مكان احتضن رسولنا ﷺ)، وأنها تشير إلى الطرق المؤدية إلى ما وراء هذه الآفاق، وأنها تكملنا، وأنها تمتزج بعالم مشاعرنا، وهكذا نمتزج ونتوحد معها.

وبينما نبدأ بالتهيؤ في «مِنًى»، ونحاول أن نعطي أجنحة لأرواحنا، إذا بنا نرى عرفات وقد تزينت مثل غرفة عروس، وتهيأت لاستقبال زوارها مثل مرفأ أو ميناء أو ميدان أو قاعدة للانطلاق... تنتظر ضيوف الرحمن الذين يسرعون إليها بلهفةِ مَنْ ألمّ به داء الوصال... ضيوف الرحمن الذين يسرعون إليها بحثا عن احتمال جديد وإمكانية جديدة.

إلى أحضان «عرفات» يسرع ضيوف الرحمن

لعرفات نورانية متميزة، وللزمن الذي ينقضي فيها عمق آخر، بحيث إن كل روح استطاع نيل سعادة الوصول إلى هذه الحاضرة لا يفنى ولا يموت كموت غيره من أصحاب الدنيا. وكل من قضى ساعات من عمره على عرفات يتفتح طوال حياته كزهرة، ولا يشحب ولا يبهت لونه أبدا؛ فالدقائق الحانية المليئة بالعشق والوجد والشّعر تبرق من منافذ ومن عيون أرواحنا على الدوام وتلتمع؛ ويطن في آذاننا صوت الذين يعلنون إيمانهم المزين بالعشق والوجد مغردين تغريد البلابل... يعلنون إيمانهم ومحبتهم وعرفانهم المتين المستقر في أخفى مناطق قلوبهم، فيثيرون قلوبنا التي يغمرها الشوق آخذين بأيدينا إلى لذائذ لا يمكن بلوغها، ويهيجون مشاعرنا بألطاف ناضجة تشبع كل جوع وتضع مسحة من السحر على عيوننا -مثل استغناء الموجودات التي تملك حنكة وتجربة- وتجول بنا داخل غِنى أنفسنا.

الشروق في عرفات والغروب يكون دائما في جو من المهابة والعمق. ومن المحتمل أنه ما من شاعر بليغ يستطيع الترنم بأبيات كالتي تترنم بها عرفات وتسكبها في قلوبنا، أو تهمس لنا بحكمة وجودنا وغايته. وأنا أرى أنه لا بد لكل من يرغب في الوصول إلى رقة في الروح أن يتوجه إلى عرفات مرة واحدة في عمره على الأقل، ويمتزج بجوّها ويعيشه، ويتنفس شروق عرفات وغروبها كتنفسه الأوكسجين.

أنين الإنسان وأنين «عرفات»

يعيش الإنسان في عرفات جو الدعاء والتضرع، ويطلق الآهات الحبيسة في قلبه التي ترتعش منها جوانحه. أما الأدعية بعد فترة العصر فتكون أكثر عمقا، لأنها تبدو وكأنها قد تضمخت بعطر وجوٍّ مِن وداع حزين، وتشبه الأصواتُ والأنفاس أصوات الملائكة فيما وراء السماوات، حتى تصل إلى ذروة السعة والنقاء. وكلما سمع الإنسان الآهات المنبعثة من سهل عرفات يشعر من الجو الأخروي لهذه الأصوات، ومن الرقة والشفقة والرجاء الذي يحدثه الأمل في السعادة الأبدية، بأنه قد أصبح شابا وخالدا، وأنه اتسع وولج من فرجة باب كبير. أما عندما تغرب الشمس، وينشر الظلام جناحه فوق الأفق جالبا معه مشاعر فوارة من مشاعر الوداع، نتخيل وكأن الآمال قد تجسمت وبدأت تسيل في داخلنا، وأن مشاعرنا قد تنورت بفيض عرفات وبركتها، وأننا قد انسللنا من قوالبنا الجسدية -كما يحدث في الأحلام- ويممنا شطر نَواحٍ روحية ومعنوية غير واضحة المعالم تماما، وأننا بدأنا نئن كأنين عرفات، وأننا مع غروب الشمس ذبنا وانتهينا، وأننا قد تحولنا إلى آهات مثل الآهات التي تطرق أسماعنا في عرفات، بل إلى صراخ... ونحس بأننا قد تخلصنا من أثقالنا واكتسبنا أجنحة، ونحسب أن ماهيتنا قد تغيرت وتحولت إلى ماهية روحية وكائن روحاني، فيأخذنا الذهول ونتسمر في أماكننا.

«عرفات» سفح من سفوح الرحمة

عرفات ميدان يسود فيه الأمل والقلق مثل ميدان البعث والحشر يوم القيامة، وسفح من سفوح الرحمة. هي موطن لهطول الرحمة الإلهية على قلوبنا كالغيث، كأن الحوادث كلها تجري في إطار من الأمل، وكأن الإنسان يتجول فيها طوال يومه بين مواكب الملائكة، ويتذكر الآخرة دوما في قيامه وقعوده. يتجول الناس في سهلها وكل واحد منهم كأنه قد انسلخ من كل شيء دنيوي، لا يفكر إلا بحساب الآخرة وبالميزان... يتجول كالأشباح حاملا معه قلقه وخشيته، وكذلك أمله في الرحمة الإلهية، يرجو نيل عفو ربه، ويعيش خيال نجاته وفوزه، ويستفيد من يومه الوحيد هناك ويستغله كاملاً لكي يحصل على ألطاف سَنة كاملة وإلهاماتها... يستغل هذا اليوم، ولكنه ما أن يرى نفسه في موضع آخر وفي وقت دعاء ومناسبة تضرع، حتى يرى أنه لا يستطيع إلا الاندماج في جو الدعاء والتضرع.

التوجه إلى «مزدلفة» كأنه توجه إلى الأبدية

لا مناص أمامه من هذا، لأن مزدلفة بالقرب منه تنتظره على بعد خطوات معدودة. فما أن نتلقى إشارة بأن مزدلفة في انتظارنا، حتى نترك مكاننا الذي تحف به الأضواء والأنوار في عرفات التي تبتسم لنا بسمات الأمل. وبدرجة قرب السجود من الله بالنسبة إلى الركوع، نتوجه نحو مزدلفة التي تعد عنوان القرب من الله. نتوجه إلى مزدلفة وكأننا نتوجه إلى الأبدية، أو نسير إلى الله تعالى. في هذا المكان المبارك الذي يكون البدر آنذاك قد قارب على التمام، فتماوجت الأنوار في السهول والجبال، وفي السفوح والوديان... يبدو كأن السماء قد دنت من الأرض ونزلت إليها، وكأن الأرض قد ارتفعت إلى السماء، وتحولت إليها. وبينما تحتضننا هذه الأحاسيس نشعر كأننا -ونحن في طريقنا إلى الله- في ميناء جديد، وشاطئ جديد، وفي سفح جديد. وضمن أجواء مزدلفة التي لم تتغير منذ إقامة الكعبة، وفي وُجُوهِ الحجاج التي ينعكس عليها نور السماء، نسمع أصوات هؤلاء العباد المخلصين الضارعين إلى الله تعالى... نسمعها في أجسادنا وفي أرواحنا وفي قلوبنا. عند ذلك نتوهم أننا أصبحنا في عالم آخر، وأننا نرافق الملائكة في عالم الملكوت ونتصادق معهم... عند ذلك ندع أنفسنا تماما ونتركها في لجة رحمة الله تعالى الواسعة.

يقول ابن عباس رضي الله عنه إن سيد الأنبياء ﷺ حصل على وصفة مهمة وصريحة في المزدلفة بخصوص أمته وخلاصها، لم يستطع الحصول عليها في عرفات. وكم كان حبيبا إلى قلبي أن يكون هذا الرأي صحيحا مائة في المائة ولكان من حق المزدلفة -التي تقربنا من الله مثلما يقربنا السجود له- أن تطلب منا ضراعة خاصة، وأنيناً وبكاء آخر يقربنا من الله تعالى.

الأضواء المنبعثة من المصابيح الموجودة في أرجاء المزدلفة، والوجوه النيِّرة للحجاج، ونظراتهم التي ضببتها الدموع، وصدورهم التي تموج بالانفعالات، تضيف إلى ساحة هذا المكان المبارك -الذي لا نعرف سوى ليله- جمالا آخر يأخذ بالألباب. أما عندما يتقدم الليل فإن سحره يزداد ويتعمق. وبينما يستريح بعضهم تهيؤاً لغد حافل بالنشاط والجهد، ترى آخرين وهم يقضون الليل حتى الصباح في الصلاة والعبادة. ولا يدري أحد بماذا يفكر هؤلاء من أصحاب الأرواح السامية الذين حبسوا أصواتهم في صدورهم، ولكنهم يوصلون نبض قلوبهم إلى

قلوب أهل القلوب. . . لا أحد يدري بماذا يفكر هؤلاء، ولا ماذا يقولون، ولا ماذا يهمسون لأنفسهم، ولا ما يخطر على بالهم. أصوات قلوبهم تتردد على الدوام في مستويات عالية سامية، وتتسابق مع أنفاس الملائكة وتكون معها كفرسَي رهان. وهؤلاء العمالقة الذين تجاوزوا الزمان، يستمعون إلى قلوبهم ويتكلمون بها. وبجانبِ وقُبَلَ لحن القلوب التي يترنم بها هؤلاء، بل وقبل قبل هذا، ينصتون ويحاولون سماع جميع الأنغام التي يستطيعون جمعها في كورس واحد من ضرب ريشة مشاعرهم على أوتار قلوبهم. . . يسمعونها معا وينصتون لها معا، ثم يرتشفون ماضيهم مع يومهم هذا، وكأنهم يرتشفون نغمة مليئة بالبهجة والحبور.

وعندما تلوح علامات الفجر في الأفق تبدأ جميع المشاعر والأحاسيس التي هاجت في عرفات بالانسياب إلى مزدلفة بعد أن تكون قد تضاعفت، تنساب مختلطة بأصوات أنين وبكاء مع ابيضاض وجه السماء بعد الفجر. . . توجّهٌ إلى الله تعالى خارج أوقات الصلوات وتوجّهٌ نحوه في الصلوات. . . أما الأدعية المنسابة إلى الصلوات والموجودة فيها والتي تعد بعدا من أبعاد القرب من الله تعالى فتأخذ عمقا متميزا آخر.

كأن هذه الأدعية ملابس من حرير تحيط بأجسادنا، أو أيادٍ سماوية تضيء آمالنا، وتمنح السلوان لآلامنا، أو كأنها ماء ينزل بردا وسلاما على صدورنا التي تلتهب فيها النيران، أو كأنها صوت أذان يسمعنا الحقيقة الكبرى فيرسل الرعشة إلى قلوبنا. . . وأحياناً تقوم بجمع أشتات دنيانا السابقة، وتلم أجزاءها المتناثرة، وتسمعنا من المعاني عن حقيقة أنفسنا وجوهرها وعن خلودنا ودنيانا وعُقبانا ما يجعلنا نكتشف أنفسنا من جديد، ونتعرف على حقيقة ذواتنا، وننظر إلى الدنيا نظرة اعتبار ومن زاوية جديدة، ونشعر بقرب من دار العقبى، ونراها أكثر صفاء وأشد وضوحاً.

تستمر هذه التضرعات والتوسلات حتى شروق الشمس وظهورها في الأفق معلنة عن ميلاد يوم جديد. أما الجباه التي بقيت ساجدة حتى ذلك الحين فإنها في أثناء شروق الشمس تبدو وكأنها تشد الرحال من جديد لبلوغ قُرب آخر، وتبدأ برحلتها. أما الآن فأمامنا «مِنًى» التي أتيناها سابقا وسلمنا على وِديانها واديا واديا. . . مِنًى التي يلجم فيها أصحاب الأرواح الصافية منطقهم، ويعطون زمامهم بيد الروح. . . مِنًى التي يبدي فيها الواصلون إلى مرتبة التسليم انقيادَهم. . . مِنًى التي لجمت عقول ومنطق آلاف بل مئات الآلاف من الناس منذ عهد آدم عليه السلام إلى إبراهيم عليه السلام، ومنه إلى سيد المرسلين ﷺ، وربطت تقييمهم للأمور ووزنهم لها بالقلب. . . وأخيرا وبعد هذا كله فمِنًى هي المكان الذي تأخذ فيها النفس نصيبها بعد رجم الشيطان، وفيها يتم التمثيل الجماعي لموضوع التعبد الذي يعد أساس العبودية.

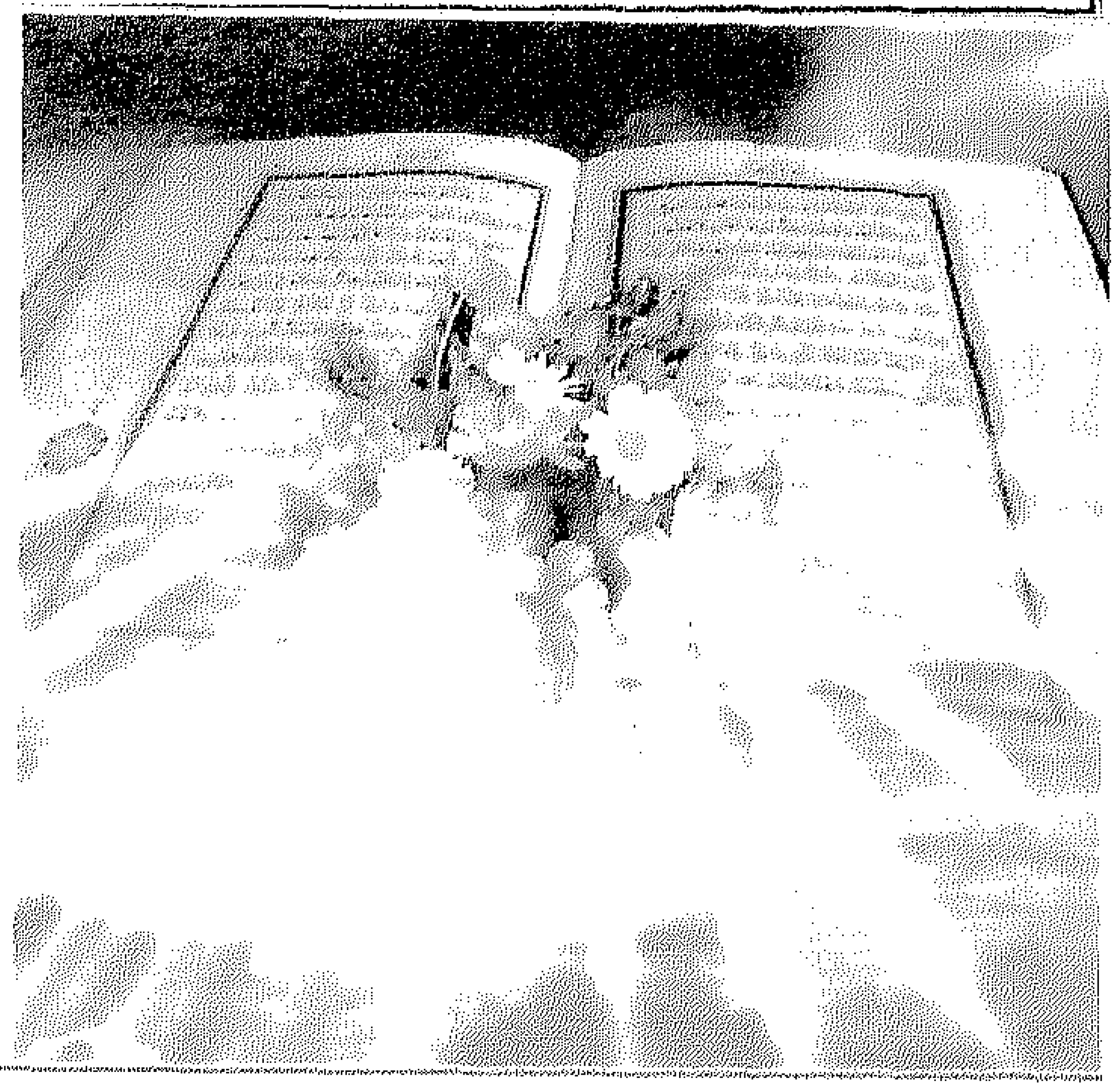
وما أكثر ما يتم عمله هناك بجانب رمي الجمرات؛ تقديم الأضاحي والحلق وتبديل ملابس الإحرام ثم أداء فرض الطواف الذي يتم في جو من مشاعر روحية عالية. . . هذا هو بعض ما يؤدى هنا.

التحلل من جميع الأنانيات

يقوم الحاج منذ مغادرته بيته وطوال طريق رحلته بالتحلل من جميع أنانياته، الواحدة منها تلو الأخرى. أما من ناحية حياته القلبية والروحية فيتكامل ويتزين مثل قطعة مزينة من الحرير. أجل!. . إن الإنسان وهو في رحلته النورانية هذه يتعرف على أقدم الحقائق التي لا تبلى أبدا، وعلى الحقائق الأزلية التي تبقى نضرة على الدوام، ويمتزج معها. يصل هناك إلى أحوال لن ينساها أبدا. أما بالنسبة لمن يدرك حقيقة وكنه ما يؤديه في هذه الرحلة الأرضية/السماوية، والألطاف الإلهية المعنوية التي تنهمر عليه، والذكريات التي يحصل عليها، فإنه يكسب عمقا قلبيا وارتباطا أقوى بالدار الآخرة. وتظل ألوان السماء، وأصوات الحجيج تملأ مخيلتنا، وتلف أرواحنا، وتشخص أمام أعين أرواحنا طوال أعمارنا.

لا يمكن ذكر أي مكان آخر غير الكعبة وما يحيط بها، له نفس الجاذبية والسحر، وإن كان هذا مشوبا بشيء من الحزن. ففي حرمها يشاهد الإنسان في كل حين جمالا أسطوريا، ويقطف هناك كل شيء وكأنه أنضج فاكهة وأحلاها، ويأكلها. والمحظوظون الذين يصلون إلى سعادة تمريغ وجوههم هناك سيتخلصون من وهم البحث عن مكان عبادة آخر، وحتى غروب عمرهم وانتهائه لن يستطيعوا نسيان السحر ذي البعد الأخروي لهذا المكان أبدا. ■

ظاهرتان تبعثان على الدهشة في كتاب الله عز وجل (٢)



شبابية القرآن

أ.د. محمد سعيد رمضان البوطي *

يعبر الأستاذ بديع الزمان سعيد النورسي رحمه الله عن شبابية القرآن وفتوّته فيقول «إن القرآن الكريم قد حافظ على شبابيته وفتوّته حتى كأنه ينزل في كل عصر نضراً فتياً. نعم، إن القرآن الكريم، لأنه خطاب أزلي، يخاطب جميع طبقات البشر، في جميع العصور خطاباً مباشراً، يلزم أن تكون له شبابية دائمة كهذه. فلقد ظهر شاباً، وهو كذلك كما كان. حتى إنه ينظر إلى كل عصر من العصور المختلفة في الأفكار والمتباينة في الطبائع، نظراً كأنه خاص بذلك العصر، ووفق مقتضياته، ملقناً دروسه ملفتاً إليها الأنظار»(١).

«إن آثار البشر وقوانينه تشيب وتهرم، وتتغير وتتبدّل، إلا أن أحكام القرآن وقوانينه لها من الثبات والرسوخ بحيث تظهر متانتها أكثر، كلما مرت العصور»(٢).

عصر أصمّ أذنيه عن سماع القرآن

«نعم، إن هذا العصر الذي اغترّ بنفسه، وأصمّ أذنيه عن سماع القرآن أكثر من أي عصر مضى، وأهل الكتاب منهم خاصة، أحوج ما يكونون إلى إرشاد القرآن الذي يخاطبهم بـ﴿يَا أَهْلَ الْكِتَابِ﴾ حتى كأن ذلك الخطاب موجه إلى هذا العصر بالذات، إذ إن لفظ «أهل الكتاب» يتضمن معنى أهل الثقافة الحديثة أيضاً. فالقرآن يطلق نداءه يدوي في أجواء الآفاق ويملأ الأرض والسبع الطباق بكل شدة وقوة، وبكل نضارة وشباب، فيقول ﴿يَا أَهْلَ الْكِتَابِ تَعَالَوْا إِلَى كَلِمَةٍ سَوَاءٍ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ﴾ (آل عمران: ٦٤)»(٣).

ثم إن الأستاذ رحمه الله تعالى أخذ يعرض من الأمثلة التطبيقية ما يؤكد فتوّة وشبابية القرآن الباقيتين في كل عصر، على حدّ تعبيره.

وأقول: إن هذه المزية واحدة من أخطر وأروع المزايا التي لا تنطبق إلا على كتاب الله عز وجل: القرآن. غير أن هذه المزية لا تولد وتستبين إلا في رحم الأجيال والعصور المتعاقبة. فالمسلمون في صدر الإسلام وعصوره الأولى لا يستطيعون أن يلاحظوا فيه هذه المزية لجهلهم بما ستأتي به العصور اللاحقة من أعراف وتطورات ومعارف وعلوم جديدة، حتى يستبين لهم موقف القرآن منها وحديثه عنها. أما اليوم وقد تراكمت على ساحة التاريخ ألوان من التقلبات والأفكار والاكتشافات والأحداث، متجمعة من سلسلة العصور المتلاحقة، فإنّه بوسعنا، إن عدنا نتأمل في خطاب القرآن لأصحاب هذه العصور كلها، أن نتبين جدّة القرآن، أو شبابيته على حد تعبير بديع الزمان، من خلال تآلفه مع سائر ما قد مرّ أو يمرّ اليوم على دنيا الناس من تطورات في أعرافهم وأفكارهم وظروفهم وعلومهم.

يركز بديع الزمان حديثه عن جدّة القرآن، رغم تقادم ذلك العصر الذي نزل فيه، على ما يحمله القرآن للناس من مبادئ ودساتير وقيم حضارية وسلوكية، ويبين لنا مدى جدّتها ومدى احتياج الناس في كل عصر إليها، في مقابل تهافت الجديد الذي يخالفه والذي تبتدعه اجتهادات الناس مع تقلبات الأزمنة والعصور، ويضرب لذلك أمثلة كثيرة.

القرآن يخاطب جميع المستويات الثقافية

إلاّ أني أتصور أن هذه الجدّة المستمرة أبعث على الدهشة وأكثر إثارة للعجب، عندما نقف عليها من خلال التعابير القرآنية عن حقائق وظواهر كونية، تتفاوت مدارك الناس في رصدها واستيعابها، إذ يكون فيهم الجاهل الذي لا يدرك منها إلا ظاهر ما يرى، ويكون فيهم المثقف الذي يضيف إدراكه إلى ذلك الظاهر المرئي بعض خفاياه العلمية، ثم قد يأتي في أعقاب هذا وذاك من قد خولته معارفه أن يضيف إليهما معلومات معمقة لا يتبينها إلا أصحاب الاختصاص أو الذين ساعدتهم عصورهم العلمية على معرفة هذا المزيد.

وتنظر إلى حديث القرآن عن هذه الظواهر الكونية، فتجده يعبر عنها بألفاظ دقيقة وبأسلوب متميز، بحيث يدرك الجاهل من حديث القرآن عنها ما يتطابق مع الظاهر المرئي الذي وقفت عنده مداركه؛ ويدرك المثقف من الحديث ذاته بالإضافة إلى ما فهمه الأول، ما يتطابق مع بعض تلك الخفايا العلمية التي علمها؛ ويرى العالم المتخصص الذي جاء في العصور التالية في الحديث ذاته، بالإضافة إلى دلالته على المعنى السطحي الأول، والمعنى الخفي الثاني، دلالة واضحة على عمق علمي لا يدركه إلا أصحاب الغوص والاختصاص.

هذا مع العلم بأن دلالة الصيغة القرآنية على هذه الطبقات أو الدرجات الثلاث تأتي واضحة متساوقة، دون أي تمحل أو تكلف مما قد يطيب لبعض الناس فعله، عندما يتمحلون في تحميل بعض الجمل أو الألفاظ ما لا تحمله من المعاني.

انظروا إلى قول الله عز وجل: ﴿وَالْأَرْضَ فَرَشْنَاهَا فَنِعْمَ الْمَاهِدُونَ﴾(الذاريات:٤٨). إن الأعرابي عندما سمع هذا الكلام الربّاني في صدر الإسلام، لم يشكّ أنه وصف لواقع مرئي مشاهد من صفة الأرض ذات الامتداد المرئي لكل ذي عينين، وهو امتداد ييسر للناس الذين يتحركون على ظهرها أن يمارسوا بسهولة ويسر أسباب معايشهم. أما العلماء المدققون والمتخصصون الذين جاؤوا فيما بعد، فلم يشكّوا عندما سمعوا هذا الكلام الدقيق، أن الحديث إنما هو عن الأرض كلها، أي بمعناها الكلي، أي فالامتداد وصف لسائر أجزائها السطحية. فإن سرت مع امتداد الأرض إلى أقصى الشرق، لن تجد لهذا الامتداد أي حافّة أو نهاية، وإن سرت مع امتدادها إلى أقصى الغرب، رأيت الأمر كذلك، وكذلك إن سرت متجهاً إلى الشمال أو الجنوب. وهذا يعني أن الأرض ممتدة في انحناء مستمر إلى أن يتكون لسطحها محيط دائري مكور.

وهذا المعنى ذاته هو الذي ينبثق، بهذا التدرج، من قول الله تعالى ﴿وَإِلَى الْأَرْضِ كَيْفَ سُطِحَتْ﴾ (الغاشية:٢٠) وهذا هو قرار القرآن قبل أن ينطق به أو يدركه أحد من الناس.

فانظروا إلى المعنى السطحي الأول، كيف يتممه المعنى الدقيق الثاني، في تناسق وائتلاف، أي دون أن ينسخ الثاني منهما الأول، ليتكون من العبارة التي تحمل المعنيين الخطاب الشبابي المتجدد، كما يقول بديع الزمان، لسائر طبقات الناس في سائر العصور المتوالية.

كلمة «دحا» تأتي في اللغة العربية بمعنى عظّم، وبمعنى وسّع، وبمعنى كوّر؛ وقد تكررت بمعناها الثاني والثالث في هذه الأبيات لابن الرومي:

إن أنسَ، لا أنسَ خبّازاً مررتُ به ... يدحو الرقاقةَ وَشْكَ اللمْحِ بالبصرِ
ما بين رؤيتها في كفه كُرَةً ... وبين رؤيتها قَوْراءَ كالقمر
إلا بمقدار ما تنداحُ دائرةٌ ... في صفحة الماء يُلْقَى فيه بالحجر

ويقول الله عز وجل ﴿وَالْأَرْضَ بَعْدَ ذَٰلِكَ دَحَاهَا﴾ (النازعات:٣٠) يقرأ هذا الكلامَ العربيُّ الذي لا يعلم عن الأرض وهيئتها إلا الشكل الذي يراها عليه وهو الاتساع والبسط، فيفهم من قوله «دحاها» هذا المعنى الذي يراه. وهو فهم صحيح يطابق المعنى اللغوي للكلمة. ثم يقرؤها العالم الفلكي أو المثقف العادي في هذا العصر، فيفهم بالإضافة إلى ما تحمله الكلمة من المعنى الأول، ما تدل عليه أيضاً من معنى الاستدارة والتكوير.

وإننا لنلاحظ كيف أن الكلمة تحتضن كِلا المعنيين، على درجتين من السطحية والعمق؛ وكيف أن المعنيين مندرجان في تساوق وتآلف، أي دون أن يقع بينهما أيّ تشاكس أو تعارض. وهكذا فالكلمة ذات جدّة إذ سمعها الأعرابي قبل خمسة عشر قرناً، وهي ذات جدّة أيضا إذ يصغي إليها العالم المتخصص أو المثقف من الناس اليوم.

ولنعرض مزيداً من الأمثلة فنقول: يصف القرآن القمر دائماً بالإنارة، في حين يصف الشمس بالإضاءة أو السراج. فهو يقول مثلاً: ﴿هُوَ الَّذِي جَعَلَ الشَّمْسَ ضِيَاءً وَالْقَمَرَ نُوراً﴾

(يونس:٥) ويقول: ﴿تَبَارَكَ الَّذِي جَعَلَ فِي السَّمَاءِ بُرُوجاً وَجَعَلَ فِيهَا سِرَاجاً وَقَمَراً مُنِيراً﴾ (الفرقان:٦١) ويقول: ﴿أَلَمْ تَرَوْا كَيْفَ خَلَقَ اللَّهُ سَبْعَ سَمَوَاتٍ طِبَاقاً وَجَعَلَ الْقَمَرَ فِيهِنَّ نُوراً وَجَعَلَ الشَّمْسَ سِرَاجاً﴾ (نوح: ١٥-١٦).

معاني المنير والمضيء والسراج في القرآن

والجامع المشترك في اللغة بين معنى المنير والمضيء والسراج، هو نقيض الظلمة. ثم إن كلمة المنير تنفصل عن المضيء أو السراج في أن المنير هو ما ينعكس إليه النور من جرم آخر، أما المضيء والسراج فهو كل ما ينبثق منه النورُ حرارةً، أما المنير فلا يطلق إلا على ما ينعكس إليه النور دون أن يبث أي حرارة.

إذن، فحديث القرآن عن كل من الشمس والقمر يحمل معنى ذا ثلاث درجات: سطح قريب يفهمه الناس كلهم، ألا وهو الجامع المشترك الذي هو نقيض الظلمة؛ وعمق يصل إليه المتأملون، ألا وهو التنبيه إلى أن ضياء الشمس مصحوب بحرارة أما نور القمر فخال ومجرد عنها؛ وجذر بعيد يدركه الباحثون المتخصصون أو المثقفون من أهل هذا العصر، ألا وهو أن القمر ينعكس إليه الضياء من جرم آخر هو الشمس، في حين أن ضياء الشمس ينبعث من داخلها.

وهكذا فإن هذه الآيات تفيد كل فئات الناس على اختلاف ثقافاتهم واختلاف عصورهم حسب قدراتهم الفكرية، دون أن يقوم أي تعارض علمي بين حظوظ هذه الفئات فيما يفهمونه من معانيها. إذ هي معان لغوية صحيحة متساوقة ومتدرجة من السطح إلى العمق فالجذور.

حقا إنها شبابية علمية دائمة مستمرة يتّسم بها كتاب الله عز وجل، الذي يمخر أطوار المعارف والعلوم في جدّة تستعصي على التقادم، وهيمنة علمية سامية لا تقهر.

ولكن إياكم أن تتصوروا أننا بهذا الذي أوضحناه نجنح إلى موقف أولئك الذين يحمّلون نصوص القرآن كل ما يروق لهم من النظريات أو التصورات العلمية الرائجة، في تكلف لا موجب له، وبطريقة هي أشبه بالعبث بالقرآن والتلاعب بقانون دلالاته!..

إننا لسنا من هؤلاء العابثين في شيء، ولسنا ممن يدعون إلى إخضاع القرآن لقراءة معاصرة تجعله مرآة دقيقة ينطبع عليها سائر التيارات الفكرية الجانحة والعقائد والتصورات الزائفة والتنبؤات العلمية المتداولة.

إننا نتحدث عن دلالات لغوية ثابتة يحضنها كتاب الله تعالى منذ فجر نزوله، طبقاً لقواعد تفسير النصوص، وقبل أن تتطور المعارف ويسير الناس في طريق اكتشاف الحقائق العلمية المتنوعة.

إن القرآن يقول منذ فجر نزوله ﴿أَلَمْ نَجْعَلِ الْأَرْضَ كِفَاتاً * أَحْيَاءً وَأَمْوَاتاً﴾ (المرسلات: ٢٥-٢٦). والكِفْت معناه في اللغة الجذب، فمعنى الآية إذن: ألم نجعل الأرض جاذبة لكم إذ تتنقلون على وجهها وأنتم في طور الحياة، وتُدفنون في باطنها إذا حاق بكم الموت. ولقد فسر العلماء الآية بهذا المعنى بسائق من ضرورة الدلالة اللغوية، قبل أن يكتشف الغربيون ما يسمى بجاذبية الأرض، بل إن يونس بن قره هُدِي إلى هذه الجاذبية ووجودها قبل اكتشاف الغربيين لها بآماد طويلة اتباعاً لهذا الذي نطقت به دلالة القرآن.

إننا هنا نتحدث عن المواقف التي يهدي القرآن فيها الناس إلى الحقائق الكونية والعلمية، ولسنا نتحدث عن المواقف التي يستجرُّ فيها القرآن من قبل بعض الناس إلى النظريات والافتراضات العلمية، وشتان بين الموقفين.

كل ما في الأمر أننا نقف مع بديع الزمان رحمه الله أمام هذه الجدّة المستمرة في كتاب الله؛ إذ يخاطب فئات الناس على اختلاف مستوياتهم وعصورهم؛ فلا يحمّل القرآنُ الجاهلَ من الناس من معانيه المتراكمة أكثر مما يطيق، ولا ينجلي على العالم منهم بتلقينه من معانيه تلك كل ما يطيق. وكل ذلك يتم ضمن دلالة لغوية مستقرة ثابتة منذ صدر الإسلام وأول نزول القرآن.

أما من حيث جدة المبادئ والقيم التي يخاطب بها القرآن الناس في كل عصر، دون أن تشيخ أو تتقادم، والتي يركز عليها بديع الزمان ويضرب لها أمثلة عديدة، فهو رحمه الله إنما ينبه من ذلك إلى أمر بالغ الأهمية، وهو أن الإنسان قد يتقدم صُعُداً في مجال المعارف والعلوم، كلما امتدّ به الزمن؛ ذلك لأن أداة المعرفة والعلم هي الفكر والعقل، وحركةُ كل منهما في اجتياز معلوم إلى معلوم آخر أشبه ما تكون بالحركة الآلية التي تقوم على الاندفاع الذاتي؛ أما فيما يتعلق بمجال الأخلاق والمبادئ والقيم، فالشأن في الإنسان كلما امتدّ به الزمن وتعرض لتطورات المعايش واختلاف أسبابها، أن يتراجع في ذلك كله إلى الوراء. ذلك لأن التقدم المادي والازدهار المعاشي من شأنهما أن يزجّا بالإنسان في حالة من الترف والاستكبار

والاعتداد بالقوة والتنكر لموازين الحق.

وهذا هو مصداق قول الله عز وجل: ﴿إِنَّ ٱلْإِنسَانَ لَيَطْغَىٰ * أَن رَّآهُ ٱسْتَغْنَىٰ﴾ (العلق:٦-٧).

تجديد النفس والاحتكام إلى المبادئ

ومن هنا تظل دعوة القرآن الإنسان إلى تحكيم المبادئ والقيم، متمثلة في استخدام القوة لرعاية الحق، وإحلال التعاون محل الاستبداد، تتّسم بالجدّة والشبابية على حدّ تعبير الأستاذ رحمه الله، مهما تطور أو تقادم الزمن.

وهذا هو السبب في حاجة الإنسان الدائمة إلى الانضباط بالدين الحق.

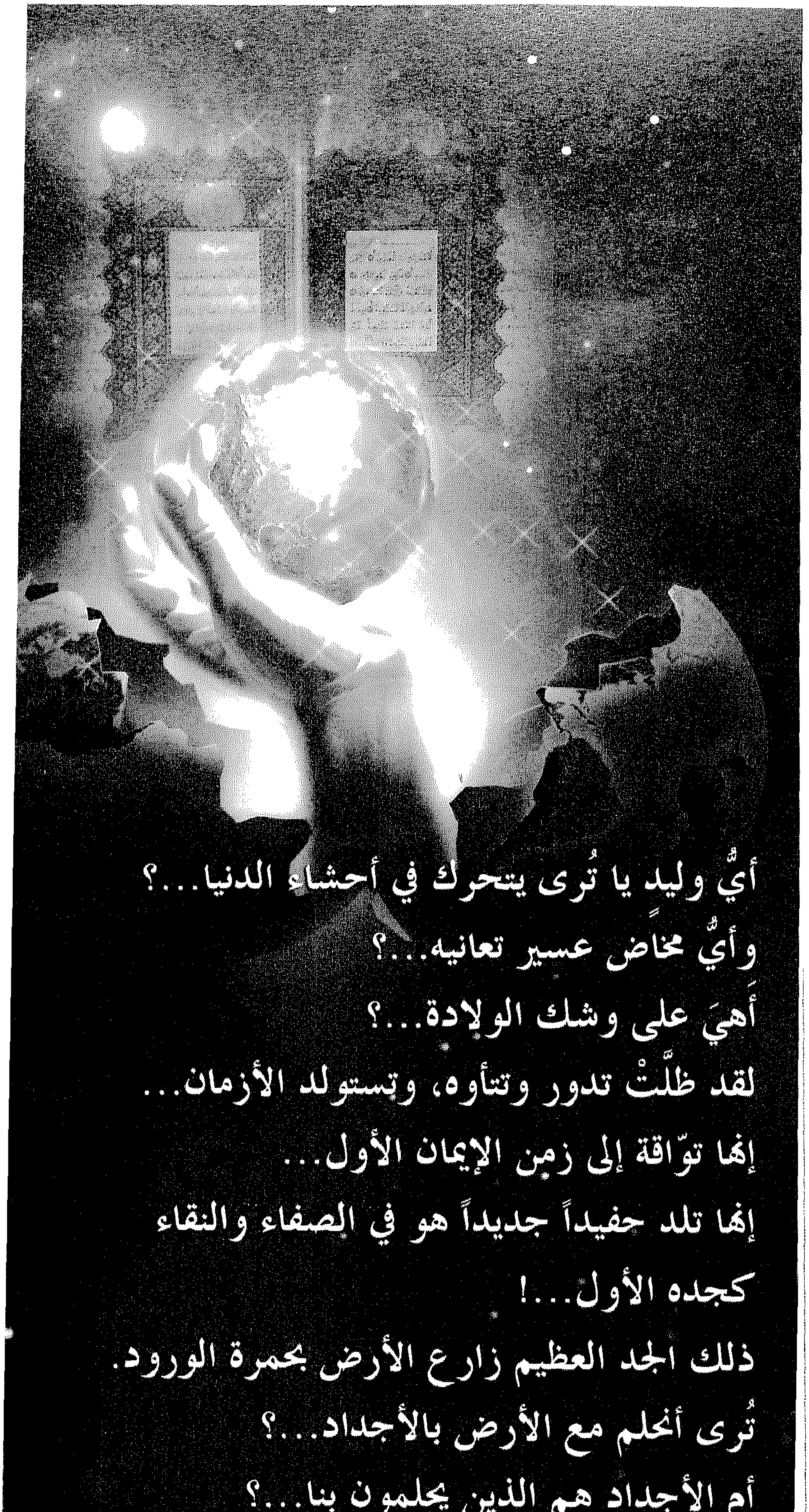
ذلك لأن المجتمع الإنساني مدعوّ بل مضطر إلى أن يجدد نفسه دائماً كي لا يقع في آفة التراجع إلى الاستبداد والطغيان من جراء تألق الحياة المادية وازدهار أسباب المعيشة أمام الإنسان. والسبيل الوحيد إلى تجديد نفسه أن يشدّ نفسه دائماً إلى وصايا القرآن وأوامره وعظاته. وعندئذ يظل المجتمع الإنساني صاعداً في طريقين من التقدم: طريق التقدم في المعارف والعلوم وأسباب المنعة والقوة، وطريق التقدم على سلّم الأخلاق أو القيم الإنسانية الرفيعة التي لا تعرف التفاتاً إلى الوراء ولا تتجه إلاّ صعداً نحو الجدّة وفتوّة المجتمع الإنساني. ■

---

*) جامعة دمشق، كلية الشريعة - سوريا.

الهوامش:

1. كليات رسائل النور -الكلمات ص ٤٧١ ترجمة: إحسان قاسم الصالحي.
2. المصدر نفسه، ص ٤٧١.
3. المصدر نفسه، ص ٤٧١-٤٧٢.



الحياة الحقيقية قائمة بالعلم وبالعرفان. فمن أهمل التعلّم والتعليم مات وإن كان على قيد الحياة، لأن الغاية الكبرى من خلق الإنسان هي النظر والتأمّل وتحصيل المعرفة وإشعاع ذلك على الآخرين.

وسطية الأمة الإسلامية

د. محمد عمارة *

إن الوسطية الإسلامية تمثل السمة والقسمة التي تجد -بحق- أخص ما يخص به المنهج الإسلامي عن مناهج أخرى لمذاهب وشرائع وفلسفات؛ بها انطبعت الحضارة الإسلامية في كل القيم والمعايير والأصول والمعالم والجزئيات، حتى لنستطيع أن نقول: إن هذه الوسطية، بالنسبة للمنهج الإسلامي وحضارته هي «عدسته اللاّمة» لأشعة ضوئه، وزاوية رؤيته كمنهج، وزاوية الرؤية به أيضاً.

وهي قد بلغت وتبلغ هذا المقام، لأنها -بنفيها الغلو الظالم والتطرف الباطل- إنما تمثل الفطرة الإنسانية قبل أن تعرض لها وتعدوَ عليها عوارض وعاديات الآفات... تمثل الفطرة الإنسانية في بساطتها وبداهتها وعمقها وصدق تعبيرها عن فطرة الله التي فطر الناس عليها. إنها صبغة الله، أراد سبحانه وتعالى لها أن تكون صبغة أمة الإسلام، وأخص خصوصيات منهج الإصلاح بالإسلام، فقال: ﴿وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطًا لِّتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ وَيَكُونَ الرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيدًا﴾ (البقرة: ١٤٣). إنها الحق بين باطلَين؛ والعدل بين ظلمَين؛ والاعتدال بين تطرفَين؛ والموقف العادل الجامع لأطراف الحق والعدل والاعتدال، الرافض للغلوّ إفراطا وتفريطا؛ لأن الغلو الذي يتنكّب الوسطية هو انحياز من الغلاة إلى أحد قطبَي الظاهرة، ووقوف عند إحدى كفتي الميزان، يفتقر توسط الوسطية الإسلامية الجامعة وإمكانات الشهادة والشهود.

وهذه الوسطية الإسلامية الجامعة ليست ما يحسبه العامة انعدام الموقف الواضح والمحدد أمام القضايا والمشكلات، لأنها هي الموقف الأصعب الذي لا ينحاز الانحياز السهل إلى أحد القطبين وفقط، فهي بريئة من المعاني «السوقية» التي شاعت عن دلالات مصطلحها بين العوام، وهي كذلك ليست «الوسطية الأرسطية» كما يحسب كثير من المثقفين ودارسي الفلسفة الغربية وطلابها؛ لأن الوسطية الأرسطية التي رأى بها أرسطو (٣٨٤-٣٢٢ ق.م) أن الفضيلة هي وسط بين رذيلتين هي في العرف الأرسطي أشبه ما تكون في توسطها «بالنقطة الرياضية» التي تفصلها عن القطبين -الرذيلتين- مسافة متساوية، تضمن لها التوسط والوسطية. إنها نقطة رياضية، وموقف ساكن، وشيء آخر لا علاقة له بالقطبين اللذين يتوسطهما، وليست هكذا الوسطية في اصطلاح الإسلام.

إنها في التصور الإسلامي موقف ثالث حقا، وموقف جديد حقا، ولكن توسطه بين النقيضين المتقابلين لا يعني أنه منبت الصلة بسماتهما وقسماتهما ومكوناتهما. إنه مخالف لهما، لكن ليس في كل شيء؛ وإنما خلافه لهما منحصر في رفض الانحصار والانغلاق على سمات كل قطب من الأقطاب وحدها دون غيرها، منحصر في رفضه الإبصار بعين واحدة، لاترى إلا قطبا واحداً.. منحصر في رفضه الانحياز المغالي، وغلو الانحياز. ولذلك، فإنها -كموقف ثالث، وجديد- إنما يتمثل تميّزها، ومتمثل جدّتها في أنها تجمع وتؤلف كل ما يمكن جمعه وتأليفه -كنسق غير متنافر ولا ملفق- من السمات والقسمات

والمكونات الموجودة في القطبين النقيضين كليهما. وهي لذلك وسطية «جامعة»، تتميز عن تلك التي قال بها حكيم اليونان.

الوسطية الجامعة

إن «العدل» –والوسطية هي العدل بين ظلمين– لا يعتدل ميزانه بتجاهل كفتيه، والانفراد دونهما، كما أنه لا يعتدل ميزانه بالانحياز إلى إحدى الكفتين. وإنما يعتدل بالوسطية الجامعة التي تجمع الحكم العادل من حقائق ووقائع وحجج وبيّنات الفريقين المختصمين –كفتي الميزان–. ولهذا كان قول رسول الله ﷺ: «الوسط: العدل، جعلناكم أمة وسطا» رواه الإمام أحمد، كان التعبير عن حقيقة مفهوم الوسطية في الإسلام.

وفي ضوء هذا المضمون الإسلامي لمصطلح «الوسطية» –وهو المضمون الذي ميّزها بوصف «الجامعة»– نقرأ كل الآيات القرآنية التي أشارت إلى هذه الخصيصة من خصائص المنهج الإسلامي في الإصلاح. فأمة الإسلام هم: ﴿وَالَّذِينَ إِذَا أَنفَقُوا لَمْ يُسْرِفُوا وَلَمْ يَقْتُرُوا وَكَانَ بَيْنَ ذَٰلِكَ قَوَامًا﴾ (الفرقان: ٦٧). والمنهاج الوسطي في الإنفاق تشير إليه آيات من مثل: ﴿وَآتِ ذَا الْقُرْبَىٰ حَقَّهُ وَالْمِسْكِينَ وَابْنَ السَّبِيلِ وَلَا تُبَذِّرْ تَبْذِيرًا﴾ (الإسراء: ٢٦)، ﴿وَلَا تَجْعَلْ يَدَكَ مَغْلُولَةً إِلَىٰ عُنُقِكَ وَلَا تَبْسُطْهَا كُلَّ الْبَسْطِ فَتَقْعُدَ مَلُومًا مَّحْسُورًا﴾ (الإسراء: ٢٩). فلا الرهبانية النصرانية والنُّسك الأعجمي ولا الحيوانية الشهوانية والتحلل من التكاليف.

وإذا نحن شئنا معرفة الامتياز العظيم الذي تمثله «الوسطية الجامعة» وتحققه للمنهج الإسلامي في الإصلاح، والشمول الذي تبلغه تأثيراتها عندما تُراعى وتوضع في الممارسة والتطبيق، فإننا نستطيع ذلك عندما ندرك كيف مثلت هذه الوسطية –وتمثل– بالنسبة للإصلاح الإسلامي طوق النجاة من تمزق وانشطارية وثنائية المتقابلات المتناقضة، على النحو الذي حدث في حضارات أخرى، وفي الحضارة الغربية على وجه التحديد.

فبهذه الوسطية الجامعة لم يعرف المنهاج الإسلامي التناقض الذي لم يجد له حلاً بين: الروح والجسد، الدنيا والآخرة، الدين والدولة، الذات والموضوع، الفرد والمجموع، الفكر والواقع، المادية والمثالية، المقاصد والوسائل، الثابت والمتغير، القديم والجديد، العقل والنقل، الحق والقوة، الاجتهاد والتقليد، الدين والعلم... إلى آخر الثنائيات، التي عندما افتقد منهج النظر إليها قسمة «الوسطية الجامعة» حدث الانقسام الحاد والشهير في فلسفة الحضارة الغربية إلى «ماديين» و«مثاليين» و«مادية» و«مثالية»، و«عقلانيين» و«لاهوتيين»، و«متدينين»، و«فلاسفة» و«مؤمنين»... منذ العهود اليونانية لتلك الحضارة وحتى نهضتها الحديثة وواقعها المعاصر.

لقد مثلت الوسطية الإسلامية الجامعة لحضارتنا ولمنهاج الإصلاح الإسلامي طوق النجاة من هذه الثنائيات وتمزقاتها وغلوها. ولذلك، كانت المعيار لإسلامية مناهج النظر الفكري ومناهج الإصلاح بالإسلام.

ولقد تألقت الدعوة الإصلاحية للإمام محمد عبده حول بدايات القرن الرابع عشر الهجري في واقع حضاري تميز بسيادة الجمود والتقليد في دوائر طلاب العلم الديني –وهو غلو يحجب الدين والإصلاح الإسلامي عن الواقع والحياة– فيخلق الفراغ الديني الحق في هذا الواقع، ويبعد المنهاج الإصلاحي الإسلامي عن أن يكون هو سبيل الأمة للنهضة والتقدم.

كما تميز هذا الواقع الحضاري بزحف النموذج الغربي في التقدم والتحديث على الشرق الإسلامي، ذلك النموذج الذي وفد إلى بلادنا في ركاب الغزوة الاستعمارية الغربية الحديثة لعالم الإسلام. وهو نموذج قد تميز بالغلو الشديد، وذلك عندما انحاز إلى عالم الشهادة رافضا عالم الغيب، وإلى الدنيا في مواجهة الدين، وإلى الفردية في مقابلة الجماعة، وإلى الأرض في رفضه لحاكمية السماء وشريعتها، وإلى المادية والوضعية في مقابلة الروح، وإلى القوة

> الوسطية الجامعة، هي منهاج الإسلام في الحياة، بمختلف ميادين الحياة الفردية والاجتماعية؛ فإن العقل المسلم يستطيع أن يفقهها ويطبقها في سائر الميادين.

في مواجهة العدل، وإلى الصراع بدلا من التدافع، وإلى العقل في مقابلة النقل والوجدان . . . فملأ هذا النموذج الغربي الفضاء الفلسفي والثقافي والسياسي بحشد غفير من «الثنائيات المتناقضة» التي عبرت وتعبر عن غلو التفريط، المقابل لغلو الإفراط الذي مثله الجمود والتفكير والتقليد السائدَين بين طلاب علوم الدين في شرقنا الإسلامي في ذلك التاريخ.

ولمجافاة كلا الموقفين –جمود طلاب علوم الدين، وجحود طلاب العلوم الغربية– لمنهاج الوسطية الإسلامية في الإصلاح والنهوض، كان حرص الإمام محمد عبده على تميز منهاجه في الإصلاح بسمة الوسطية الإسلامية الجامعة. فكتب عن تميز موقفه ومنهجه ودعوته بهذه الوسطية عن أهل الجمود والتقليد للموروث، وأهل الجمود والتقليد للوافد الغربي فقال: «ولقد خالفتُ في الدعوة إليه (أي إلى منهجه في الإصلاح) رأي الفئتين العظيمتين اللتين يتركب منهما جسم الأمة: طلاب علوم الدين ومن على شاكلتهم، وطلاب فنون هذا العصر ومن هو في ناحيتهم». [1]

لقد مثلت الوسطية الإسلامية الجامعة لحضارتنا ولمنهاج الإصلاح الإسلامي طوق النجاة من الثنائيات وتمزقاتها وغلوها.

ثم تحدث عن أن هذه الوسطية التي انحاز إليها وتميز بها منهاجه الإصلاحي ليست خياراً ذاتياً، وإنما هي منهاج الإسلام، الذي تميز به عن الغلو الذي أصاب أهل الشرائع الأخرى، «فلقد ظهر الإسلام، لا روحيا مجرداً، ولا جسديا جامداً، بل إنسانيا وسطا بين ذلك، آخذا من كلا القبيلين بنصيب، فتوافر له من ملازمة الفطرة البشرية ما لم يتوافر لغيره. ولذلك سمى نفسه دين الفطرة وعرف له ذلك خصومه اليوم، وعدّوه المدرسة الأولى التي يرقى فيها البرابرة على سلم المدنية». [2]

فالوسطية هي السمة المميزة للإسلام، وهي السبب الذي جعل الإسلام دين الفطرة البشرية السوية، فكان لذلك سلم الارتقاء على درب المدنية، بشهادة الخصوم قبل الأصدقاء.

وبهذه الوسطية التي تميز بها الإسلام تميزت أمة الإسلام عن أمم الشرائع السابقة التي حُرّف بعضها إلى الغلو المادي، وحُرّف بعضها الآخر إلى الغلو الروحاني، وبعبارة الإمام محمد عبده: «ذلك أن الناس كانوا قبل ظهور الإسلام على قسمين: قسم تقضي عليه تقاليده المادية المحضة، فلا همّ له إلا الحظوظ الجسدية، كاليهود والمشركين؛ وقسم تحكم عليه تقاليده بالروحانية الخالصة، وترك الدنيا وما فيها من اللذات الجسمانية، كالنصارى والصابئين وطوائف من وثَنيّي الهند أصحاب الرياضات. وأما الأمة الإسلامية فقد جمع الله لها في دينها الحقين؛ حق الروح وحق الجسد، فهي روحانية جسمانية. وإن شئت قلت: إنه أعطاها جميع حقوق الإنسانية، فإن الإنسان جسم وروح، حيوان ومَلَك، فكأنه قال: جعلناكم أمة وسطا، تعرفون الحقّين وتبلغون الكمالَين». [3]

ولأن السنة النبوية هي البيان النبوي للبلاغ القرآني، كانت سنة رسول الله ﷺ وطريقته في العمل والقول التجسيد لمنهاج الوسطية الإسلامية. ويكفي أن نتأمل مع سيرته الشريفة قوله ﷺ: «إن هذا الدين متين، فأوغلوا فيه برفق» (رواه الإمام أحمد)، و«إن دين الله عز وجل يسر» (رواه البخاري)، و«إن الله عز وجل لم يبعثني معنّفا، ولكن بعثني ميسِّراً» (رواه مسلم والإمام أحمد)، وعن عائشة رضي الله عنها: «ما خُيِّر رسول الله ﷺ بين أمرين في الإسلام إلا اختار أيسرهما مالم يكن إثما، فإن كان إثما كان أبعد الناس منه» (رواه البخاري).

الوسطية منهاج الإسلام

ولأن هذه الوسطية الجامعة بهذا المعنى، هي منهاج الإسلام في الحياة، بمختلف ميادين الحياة الفردية والاجتماعية؛ فإن العقل المسلم يستطيع أن يفقهها ويطبقها في سائر الميادين:

■ فـ«الكرم» وهو خلق وسلوك وسط ليس غريبا تماما عن القطبين النقيضين: «الشحّ» و«الإسراف»، وإنما هو جامع منهما سمات هذا الكرم ومكوناته، جامع لقدر من «التدبير والاقتصاد» ولقدر من «البذل والعطاء»، ففيه اجتماع لعناصر الحق والعدل من القطبين المتناقضين.

■ وكذلك «الشجاعة» نجدها وسطا بين «الجبن» و«التهور»، لكنها جامعة بين مقادير من «حذر» الجبان، ومقادير من «إقدام» المتهور، فلا هي منحازة لأحد النقيضين، ولا هي مغايرة كل المغايرة لهما معا.

■ وفي فلسفة الإسلام في الاقتصاد والثروات والأموال، نجد «الاستخلاف» وسطا بين «الحرية المطلقة» في الأموال، وبين الإلغاء الكامل للحرية في الأموال. فالإنسان مالك وحر ومستثمر ومنفق ومستمتع، لكن كوكيل وخليفة في الملكية الاجتماعية عن المالك الحقيقي وهو الله سبحانه وتعالى. فكل حقوق الإنسان في الثروات والأموال محكومة بحقوق الله وفرائضه في التوازن والتكافل بين الأمة.

■ وفي الموقف من تمايز الناس إلى طبقات اجتماعية، يقف الإسلام بوسطيته الجامعة بين الحرية المطلقة التي تثمر التفاوت الفاحش بين الطبقات، وبين «الطوباوية» التي حلت بمجتمعات لا طبقية. فطبيعي وضروري -بناء على تفاوت الطاقات والهمم والجهود- أن يتمايز الناس في المكاسب والحظوظ، لكن الوسطية تفرض وقوف هذا التمايز عند حدود التوازن والتكافل، الذي يجعل الأمة جسداً واحد، تتكافل أعضاؤه، مع تفاوت الأهمية والعطاء والحاجات لكل عضو من هذه الأعضاء.

وبعبارة الإمام علي بن أبي طالب رضي الله عنه في عهده إلى واليه على مصر «الأشتر النخعي»: «واعلم أن الرعية طبقات لا يصلح بعضها إلا ببعض ولا غنى ببعضها عن بعض». (٤)

■ وفي الموقف من العلاقات بين الحضارات تقدم الوسطية الإسلامية منهاج «التفاعل» الذي هو وسط بين غلو في «الانغلاق والعزلة»، و«التبعية والتقليد». ففي «التفاعل» استلهام لكل ما هو مشترك إنساني عام، مع التمايز في الخصوصيات المتعلقة بالهويات العقدية والثقافية.

■ كما تقدم الوسطية الإسلامية منهاج «التدافع» عندما يختل التوازن في العلاقات بين الحضارات وكذلك الطبقات، لأن هذا «التدافع» هو متن وسط، يمثل الحراك الاجتماعي الذي يزيل الخلل، ويعيد العلاقات إلى مستوى التوازن والعدل، مع الحفاظ على تعدد وتنوع وتمايز الفرقاء المختلفين. فهو «التدافع» وسط بين «السكون» الذي ينزل الخلل ليستفحل، وبين «الصراع» الذي يصرع فيه القوي الضعيف، فينهي التعددية والتمايز والاختلاف.

لقد رفض القرآن منهاج «الصراع» لأنه يزيل سنة التعددية ﴿سَخَّرَهَا عَلَيْهِمْ سَبْعَ لَيَالٍ وَثَمَانِيَةَ أَيَّامٍ حُسُوماً فَتَرَى الْقَوْمَ فِيهَا صَرْعَى كَأَنَّهُمْ أَعْجَازُ نَخْلٍ خَاوِيَةٍ فَهَلْ تَرَى لَهُمْ مِنْ بَاقِيَةٍ﴾(الحاقة:٧-٨) بينما «التدافع» حراك يعدل المواقف، مع المحافظة على التعدد والتنوع والاختلاف: ﴿وَلاَ تَسْتَوِي الْحَسَنَةُ وَلاَ السَّيِّئَةُ ادْفَعْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ فَإِذَا الَّذِي بَيْنَكَ وَبَيْنَهُ عَدَاوَةٌ كَأَنَّهُ وَلِيٌّ حَمِيمٌ﴾ (فصلت:٣٤).

تلك هي الوسطية الإسلامية الجامعة، صبغة الله التي أرادها لأمة الإسلام، والفطرة الإسلامية المطهرة من العوارض والآفات، وعدسة الرؤية اللاّمة لقسمات المنهج الإسلامي ومعالم تصوره في «الفكر» و«الحياة». وصدق الله العظيم إذ يقول: ﴿وَكَذَلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطًا لِتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ وَيَكُونَ الرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيدًا﴾(البقرة:١٤٣). وصدق رسول الله ﷺ عندما قال: «الوسط: العدل، جعلناكم أمة وسطا». ■

الوسطية الإسلامية الجامعة هي صبغة الله التي أرادها لأمة الإسلام، والفطرة الإسلامية المطهرة من العوارض والآفات، وعدسة الرؤية اللاّمة لقسمات المنهج الإسلامي ومعالم تصوره في الفكر والحياة.

*) كاتب ومفكر إسلامي – مصر.

الهوامش

١. الأعمال الكاملة للإمام محمد عبده؛ ج٢ ص ٣١٠. دراسة وتحقيق: د. محمد عمارة. ط. دار الشروق/ القاهرة ١٩٩٣م.
٢. المصدر السابق. ج٣ ص ٢٨٧.
٣. المصدر السابق. ج٤ ص ٣٣٣.
٤. «نهج البلاغة» ص ٣٣٧ خ بشرح الإمام محمد عبده. وتحقيق وتعليق: محمد أحمد عاشور، محمد ابراهيم البنا. طبعة دار الشعب / القاهرة.

فلسفة الموت عند بديع الزمان سعيد النورسي

أ.د. مصطفى بنحمزة*

لقد شغلت الرغبة في تعرف حقيقة الموت أذهان العلماء والفلاسفة منذ القديم، فكانت لهم تصورات عديدة مستملاة من مذاهبهم ومواقفهم الفكرية؛ فكان منهم من تمثل الموت تمثلاً مادياً فلم يَرَ فيه أكثر من توقف للجسم عن أداء وظائفه الفسيولوجية لسبب طبيعي، أو لسبب مفاجئ يختم العمر. وكان منهم آخرون تمثلوه تمثلاً روحيا يتم فيه فك الارتباط بين الروح والجسد ليكون ذلك مرحلة ضرورية للخلوص إلى مرحلة جديدة تتجلى فيها الحياة تجلياً آخر أرقى وأشرف.

لقد رأى بعضهم —ومنهم المعتزلة والطبيعيون— أن الموت إنما هو انطفاء بذرة الحياة الذي يعقب توقف الجسد عن أداء وظائفه الفسيولوجية. والموت على هذا حالة عدم «ينشئها انسحاب الحياة من الجسد». ولكن على النقيض مما ذهب إليه المعتزلة والطبيعيون، فإن أهل السنة قد كونوا لهم مذهباً مستقى من إفادة القرآن وتنصيصه على كون الموت مخلوقاً، أي كونه شيئاً وُجودياً. وتعريفات هذا الفريق تلتقي عند هذا المعطى، ومن تلك التعريفات قولهم: «الموت صفة وجودية خُلقت ضد الحياة»[1]، أو هو «صفة وجودية مُضادةٌ للحياة»[2]، أو «هو كيفية مخلوقة في الحي»[3]، إلى غير ذلك من التعاريف التي تطفح بها كتب العقيدة، وهي تعاريف تشترك في اعتبار الموت وجودياً سواء كانت جوهراً أو عرضاً.

لكن الإشكال رغم هذه التعاريف لا يزول، ويظل العقل ينظر إلى الموت على أنه مجرد عدم ومجرد اضمِحْلال وتوقف، وهذه الأعراض لا يمكن أن تكون أشياء وجودية لأنها نقائض لأعراض أخرى وجودية ماثلة. وهذا ما يفرض تلمّس الجواب في تحليلات أخرى قادرة على تقريب المعنى القرآني للموت بعمق واستبعاد التكلف والتمحل؛ وهو الأمر الذي نجح فيه بديع الزمان سعيد النورسي، وهو يلامس بعبقرية نادرة وبعُمق قليل النظير قضيةَ كون الموت مخلوقاً رغم أن الظاهر يوحي بخلاف ذلك.

النورسي وفلسفة الموت

لقد أوضحت أنه على كثرة ما تناول المتناولون قضية الموت محاولين تصورها ضمن حدود العطاء القرآني، فإن المتتبع لا يجد من كل تلك الآراء شفاء لغليل ولا حلاً لإشكال، وإنما يجد الموضوع منبهماً مظلماً في كثير من جوانبه، وبذلك تظل الحاجة قائمة إلى تحليل جديد.

لقد كان الإشكال قائماً ولا شك في أذهان بعض المشتغلين بمثل هذه القضايا الفكرية، فوَجّه إلى النورسي سؤالاً في الموضوع، فأجاب عنه بجوابه الذي أثبته في مجموعة المكتوبات من كليات رسائل النور[4] وصدَّر الإجابة بإيراد السؤال ونصه: «إنه يفهم من آيات القرآن الحكيم مثل قوله تعالى ﴿الَّذِي خَلَقَ الْمَوْتَ وَالْحَيَاةَ لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلاً﴾ (الملك:٢) أن الموت أيضاً مخلوق وأنه نعمة كالحياة، مع أن الموت في الظاهر انحلال وعدم وتفسّخ وانطفاء الحياة وهادم اللذات، فكيف يكون الموت مخلوقاً ونعمة؟»[5]

وبهذا السؤال الذي لا أراه صادراً إلا عن فكر مشغول بتعرف وجه الحق من هذا الإشكال، وهو سؤال محدَّد ينصبّ على فكرتين محدَّدتين هما كون الموت نعمة وكونه أمراً وجودياً؛ وهما فكرتان يصعب تمثلهما فضلا عن تقريبهما للغير والدفاع عنهما بقوة إقناعية. فأما عن كون الموت نعمة، فإن ذلك يتجلى في نظر النورسي في مظاهر أربعة:[6]

«**أولها**: الموت إنقاذ للإنسان من أعباء وظائف الحياة الدنيا ومن تكاليف المعيشة المثقلة. وهو باب وصال في الوقت نفسه مع تسعة وتسعين من الأحبة الأعزاء في عالم البرزخ، فهو إذن نعمة عظمى!

ثانيها: إنه خروج من قضبان سجن الدنيا المظلم الضيق

المضطرب، ودخول في رعاية المحبوب الباقي وفي كنف رحمته الواسعة، وهو تنعم بحياة فسيحة خالدة مستنيرة لا يزعجها خوف، ولا يكدّرها حزن ولا همّ.

ثالثها: إن الشيخوخة وأمثالها من الأسباب الداعية لجعل الحياة صعبة ومرهقة، تبيّن مدى كون الموت نعمة تفوق نعمة الحياة. فلو تصورتَ أن أجدادك مع ما هم عليه من أحوال مؤلمة قابعون أمامك حالياً مع والديك اللذين بَلغا أَرذل العمر، لفهمتَ مدى كون الحياة نقمة، والموت نعمة؛ بل يمكن إدراك مدى الرحمة في الموت ومدى الصعوبة في إدامة الحياة أيضاً بالتأمل في تلك الحشرات الجميلة العاشقة للأزاهير اللطيفة، عند اشتداد وطأة البرد القارس في الشتاء عليها.

رابعها: كما أن النوم راحة للإنسان ورحمة، ولا سيما للمبتلين والمرضى والجرحى، كذلك الموت -الذي هو أخو النوم- رحمة ونعمة عظمى للمبتلين ببلايا يائسة قد تدفعهم إلى الانتحار».

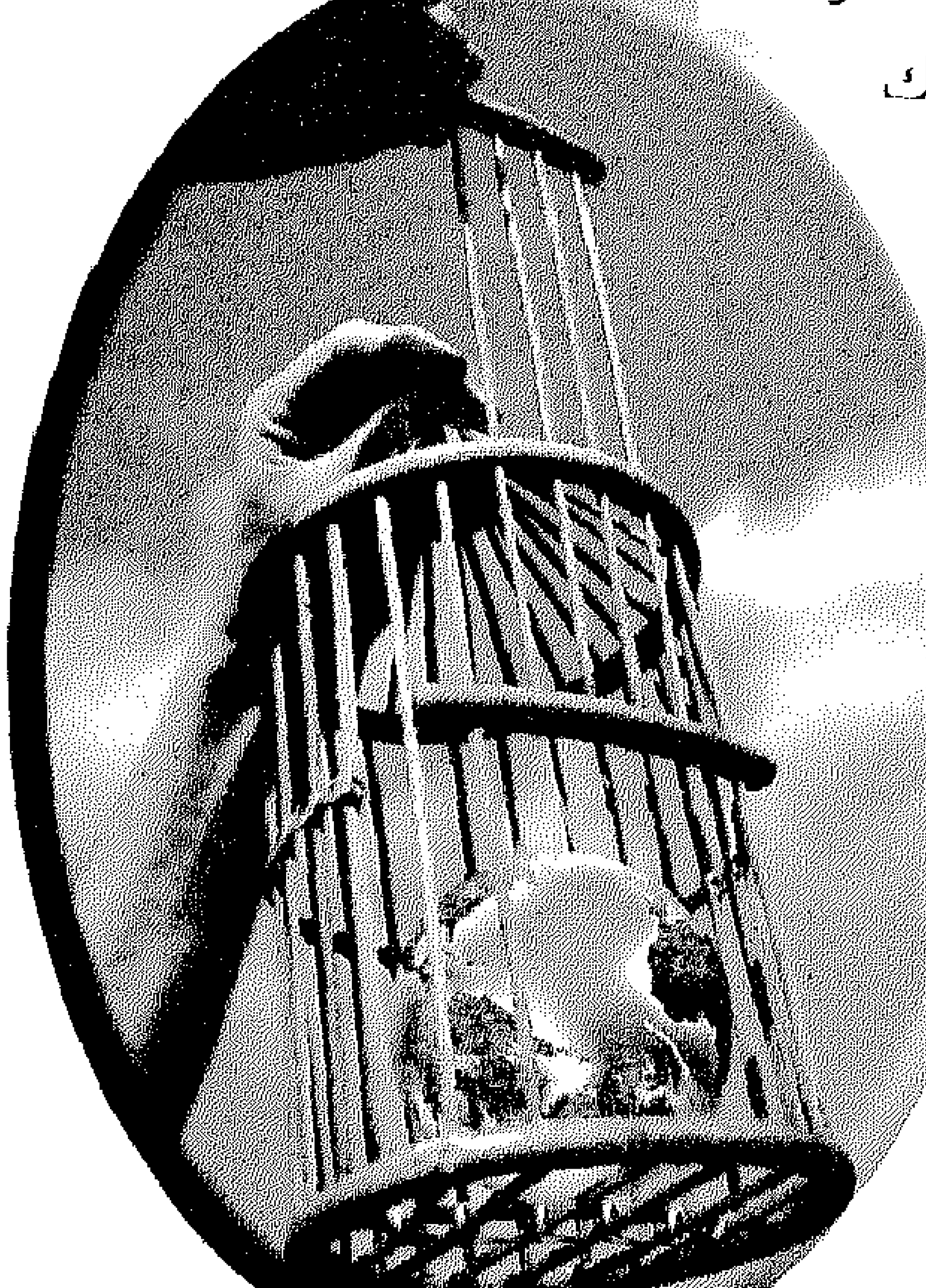
أما الشق الثاني من السؤال وهو المتعلق ببيان كون الموت أمراً وجودياً فقد قال عنه النورسي ما نصه: «إن الموت في حقيقته تسريح وإنهاء لوظيفة الحياة الدنيا، وهو تبديل مكان وتحويل وجود، وهو دعوة إلى الحياة الباقية الخالدة ومقدمة لها؛ إذ كما أن مجيء الحياة إلى الدنيا هو بخلق وبتقدير إلهي، كذلك ذهابها من الدنيا هو أيضاً بخلق وتقدير وحكمة وتدبير إلهي؛ لأن موت أبسط الأحياء -وهو النبات- يُظهر لنا نظاماً دقيقاً وإبداعاً للخلق ما هو أعظم من الحياة نفسها وأنظم منها. فموت الأثمار والبذور والحبوب الذي يبدو ظاهراً تفسّخاً وتحللاً هو في الحقيقة عبارة عن عجن لتفاعلات كيمياوية متسلسلة في غاية الانتظام، وامتزاج لمقادير العناصر في غاية الدقة والميزان، وتركيب وتشكّل للذرات بعضها ببعض في غاية الحكمة والبصيرة، بحيث إن هذا الموت الذي لا يرى، وفيه هذا النظام الحكيم والدقة الرائعة، هو الذي يظهر بشكل حياة نامية للسنبل وللنبات الباسق المثمر. وهذا يعني أن موت البذرة هو مبدأ حياة النبات الجديدة، أزهاراً وأثماراً، بل هو بمثابة عين حياته الجديدة؛ فهذا الموت إذن مخلوق منتظم كالحياة.

وكذلك فإن ما يحدث في معدة الإنسان من موت لثمرات حية أو غذاء حيواني، هو في حقيقته بداية ومنشأ لصعود ذلك الغذاء في أجزاء الحياة الإنسانية الراقية. فذلك الموت إذن مخلوق أكثر انتظاماً من حياة تلك الأغذية.

فلئن كان موت النبات -وهو في أدنى طبقات الحياة- مخلوقاً منتظماً بحكمة، فكيف بالموت الذي يصيب الإنسان وهو في أرقى طبقات الحياة؟ فلا شك أن موته هذا سيثمر حياة دائمة في عالم البرزخ، تماماً كالبذرة الموضوعة تحت التراب والتي تصبح بموتها نباتاً رائعاً في الجمال والحكمة في عالم الهواء».

لقد استطاع النورسي من خلال هذا النص أن يغوص بفكره الوقاد وبألمعيته النادرة خلال بواطن الأشياء ليستخلص منها تصوّراً منطقياً تستطيع العقول أن تدركه وتُجاوب معه، وقد اختار أن يشخص وجودية الموت انطلاقاً من مظاهر مادية لا يُخطِئُها النظر.

فالموت في نظر النورسي بداية رحلة جديدة من الحياة تأتي بعد أن يسلم المرء الروح ليبدأ مرحلة حياتية أشرف وأسمى من تلك الحياة المرئية المألوفة.



والموت بهذا هو قنطرة العبور وممر الخلوص إلى الحياة الأشفّ. ومصيرُ الإنسان في هذا أشبه ما يكون بمصير حبة القمح أو النواة التي تُودع الأرضَ وتغمر بالماء فيؤدي ذلك إلى تحولات كميائية غير عشوائية تخضع لقانون صارم في التحول والتغير وهي مع ذلك تتبدى للناظرين مجرد حبة عفنة متفسخة، لكنها سرعان ما تنبثق عن فصيلة تحمل سنابل عديدة في كل سنبلة منها عشرات الحبات.

وهذا التجلي اليانع ليس في الحقيقة إلا حياة جديدة للحبة الواحدة الواهنة المتمزقة في أحشاء الأرض، ولولا ذلك التفسخ والاضمحلال لما وجدت الحبة إلى هذه الحياة الأوفر طريقاً أو سبيلاً. وتفسخها الذي يُرى اضمحلالاً وتحللاً إن هو في واقعه إلا إشراقة جديدة للحياة.

وإذا كان هذا الانتقال يتم بهذه الكيفية وبهذا الانضباط التام لقوانين كميائية صارمة، فمعنى ذلك أن هناك حركة قوية منضبطة

يراها الناس اضمحلالاً وهي عمليات معقدة محكومة بسنة الله في الخلق؛ وحين تصير حبة القمح مئات الحبات، فإنها قد تصير غذاء للإنسان، فتخالط منه الدم والخلايا وتدخل في تركيبه وبنائه وتصير جزءاً من خلايا التفكير ومن الأعصاب فيه، فتنتقل إذن لتحيا مجدّداً في صورة أشرف بكثير من صورتها الأولى. وما كان لها أن تكون كذلك لولا ذلك الاضمحلال الظاهري الذي يُرى في أعين الناس فناءً وعدماً وهو في واقعه وجود جديد وتجلٍّ أبرز من الأول.

إن صورة استعادة الحبة للحياة ليست في واقعها إلا صورة مُقرِّبة لاستعادة الإنسان حياته بعد أن يموت فينتقل إلى وجود ليس الوجود الأول شيئاً بالنسبة إليه، ومفارقته الحياة الدنيا أمر ضروري لِيُسَنْبِل حياة جديدة سالمة من كل منغصات الحياة الأولى.

الموت في نظر النورسي بداية رحلة جديدة من الحياة تأتي بعد أن يسلم المرء الروح ليبدأ مرحلة حياتية أشرف وأسمى من تلك الحياة المرئية المألوفة.

وبهذا التصور البديع الرائع استطاع النورسي أن يبلغ الغاية من تقرير كون الموت أمراً وجودياً ما دام هذا الموت عبارة عن تفاعلات منضبطة منسقة يَنتُج عنها استعادة الإنسان لوجوده مرة أخرى. وهذه التفاعلات ليست ولا شك إلا أمراً وجودياً عبّر عنه القرآن الكريم بقوله: ﴿الَّذِي خَلَقَ الْمَوْتَ﴾ (الملك:٢).

إن تحليل النورسي ذو أهمية بالغة بالنسبة لدارسي العقيدة وللمفسرين على حد سواء، وأهميته تكمن في ملاحظ عدة: منها أنه استطاع أن يقرب بجلاء ودون تأويلات بعيدة وجودية الموت، وهذا أمر طالما عسر على كثير ممن تناولوا الموضوع.

وتكمن أهمية التحليل أيضاً في أنه استطاع أن يعطي صورة غيرَ مُرعبة عن الموت، لأن الموت بهذا ليس فناء ولا اضمحلالاً ولا انسحاباً، وإنما هو مجرد تحول ونُقلة إلى الأكمل والأشرف.

وتحليل النورسي ينظر إلى قول أبي العلاء المعري:

خلق الناس للفناء فضلّتْ أمة يحسبونهم للنفاد

إنما ينقلون من دار أعمال إلى دار شقوة أو رشاد

ولقد كان الخوف من الموت دائماً مرتبطاً بتصوره عدماً وفناء، فمن ثَم كان الإنسان أسير ذلك الخوف، يراه حرباً على الوجود الإنساني وهدماً لكينونته، فيكرهه ويتحاشى أسبابه حتى ولو كانت جهاداً من أجل الحق ودفاعاً عن العقيدة ومواجهة للباطل.

إن فلسفة الموت عند النورسي إعلان عن بقاء الإنسان واستمراره واتصال حياته الأخرى بالأولى، وهي رفض لفلسفة العدم والإلغاء والتشاؤم التي أشاعتها الفلسفات المادية التي حصرت حياة الإنسان في البعد الأول من رحلته، وأَوهَمَته أن الموت نهايته ودماره فتأزم لذلك.

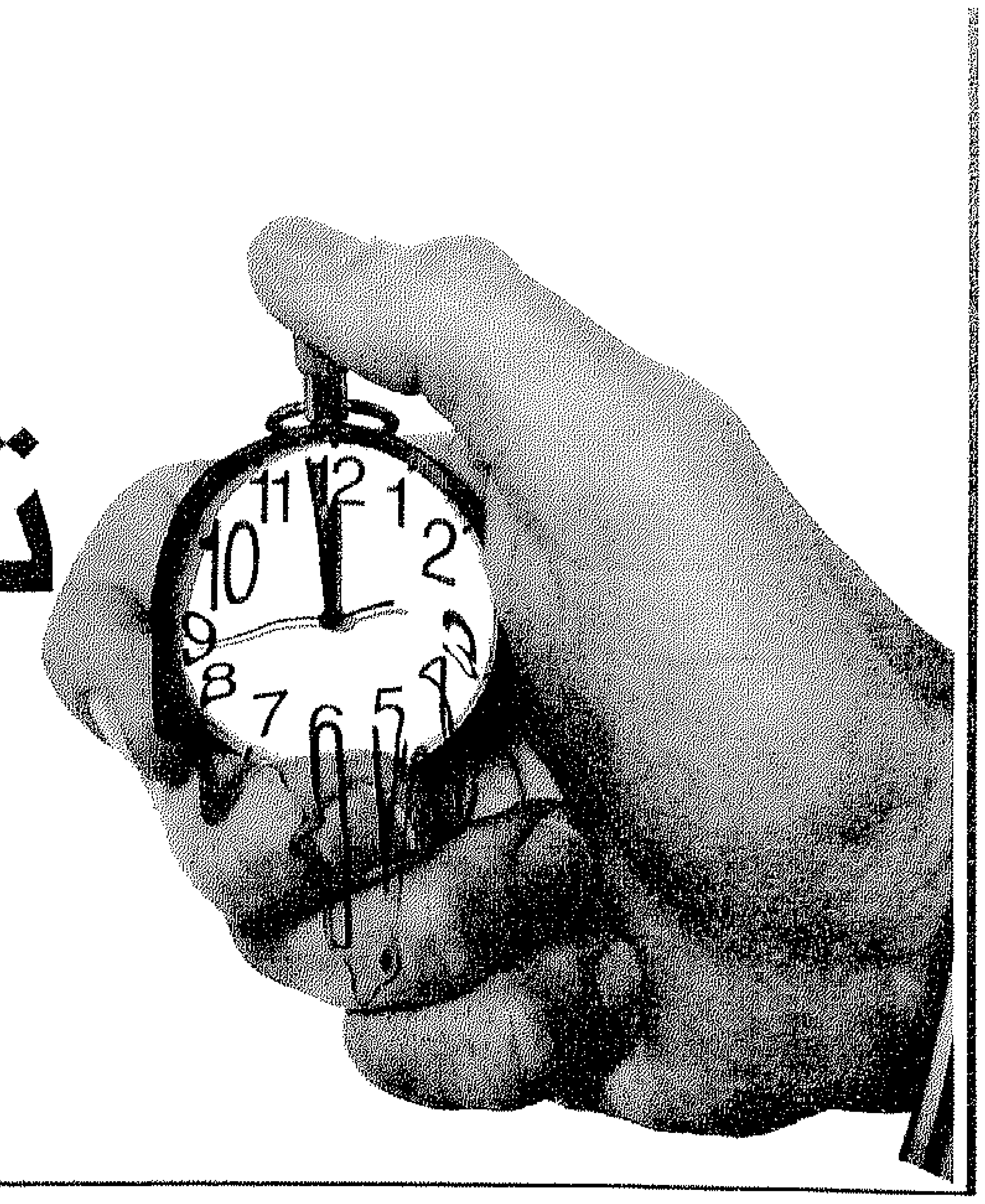
إن تحليل النورسي إلى جانب كل ما سبق مفيد كل الإفادة على أكثر من مستوى؛ فهو مفيد على المستوى العقدي، لأنه ينصبّ على ظاهرة الموت التي هي عتبة اليوم الآخر، وهو جزء من الغيب الذي يؤمن به كل مؤمن.

كما أن تحليل النورسي مفيد على المستوى النفسي، لكونه يكسب المرء اطمئناناً وانسجاماً مع الذات وثقة بالحياة في بعدَيها الأول والثاني؛ كما أنه يهوّن من شأن الموت فلا يجعله ذلك الشبَح المرعب الذي يفني الإنسان ويدمره. ومثل هذا الإحساس لا يكسب الإنسان إلا شجاعة خاصة لمواجهة المشاق واقتحام الصعاب مادام الموت وهو أقصى ما يراد بالإنسان ليس في حقيقته إلا رحلة نحو حياة تقر النفس بها وتطمئن، لأن الدار الآخرة لهي الحيوان لو كانوا يعلمون. ■

*) جامعة محمد الأول - المغرب.

الهوامش:

١. التوقيف على مهمات التعاريف لمحمد عبد الرؤوف المناوي (٦٨٣ هـ)، تحقيق: محمد رضوان الداية، دار الفكر المعاصر؛ مفردات الراغب الاصفهاني، ص ٤٩٧؛ التعريفات للجرجاني، ط حلبية، ص ٢١١.
٢. تفسير الفخر الرازي، ٥٥/٣٠؛ مشارق أنوار العقول للشيخ أحمد الخليلي، تحقيق: عبد الرحمن عميرة، ٨٨/٢.
٣. مشارق أنوار العقول، ٨٨/٢؛ ويقارن بشرح الجوهرة للبيجوري، تخريج: محمد أديب الكيلاني، ص ٣٤٩.
٤. المكتوبات لبديع الزمان سعيد النورسي، ترجمة: إحسان الصالحي، دار سوزلر، إسطنبول ١٩٩٢.
٥. المكتوبات لبديع الزمان سعيد النورسي، ص ٨.
٦. المكتوبات لبديع الزمان سعيد النورسي، ص ٩.



توقَّفْ هُنَيهَة...

تأملات جرم صغير

د. مجدي سعيد *

توقف هنيهة... هذا هو الهاتف الذي خطر على بالي وأنا أهُمّ بالعودة إلى النوم بعد تقلبات أيام شاقة شابتها مناقشات ومناوشات كلامية وخلوات صاخبات، وما هي في الحقيقة بخلوات.

توقف هنيهة... فبين نوم ويقظة هي في ذاتها أشبه بالنوم، بين هذه وتلك يظل الإنسان، ذلك الجرم الصغير في الفلك البشري مندفعا مسرعا بلا توقف... بلا هدف أو معنى أحيانا كثيرة... مندفعا مسرعا في دورانه حول نفسه. فكل منا بلا شك مهما اقترب من غيره أو اقترب منه غيره يظل جرما وحده... أشبه بصندوق مغلق على ذاته، يدور أولا حول ذاته، بينما هو جزء من مجموعة شمسية... أسرة نووية، ثم مجرة... أسرة ممتدة، فمجرة أكبر... مجتمع أوسع، فمجرة أوسع... قوم... وهكذا.

ما أشبه الأجرام والأفلاك البشرية بالأجرام والأفلاك الكونية في دوران كل جرم حول ذاته... في فلك من أفكاره وهمومه ومشاغله واهتماماته. وكل مجموعة وكل مجرة حول نفسها، وكل جرم يدور حول شمس في مجموعته... أب أو أم أو أخ أو زوجة أو صديق. الكل يدور بسرعة في تلك المدارات... وفي مسارات تطول أو تقصر بين نقطة بداية... صرخة الميلاد، ونقطة النهاية... شهقة الموت.

فإذا كانت الأجرام السماوية قد فطرها الله وخلقها هكذا جمادات بلا عقل... لكنها تعرف ربها... خالقها، فما بال الجرم الإنساني... الذي هو أنا وأنت... ألا نتوقف هنيهة لنفتح عيوننا... لا ليست عيون أبصارنا بل عيون بصائرنا لنعرف... فقط وعلى أقل تقدير إلى أين المسير؟ إلى أين الاندفاع في مداراتنا وفي مساراتنا؟ هل نتوقف هنيهة لنسأل هذا السؤال أم أن قصور الاندفاع الذاتي في مداراتنا، وجاذبية الشموس في مجموعاتنا ومجراتنا تمنعنا من ذلك فنظل في مداراتنا الشخصية أو الأسرية أو المجتمعية أو القومية ندور هكذا بلا معنى أو هدف أو حتى توقف للسؤال عن هذا أو ذاك، ما المعنى... وما الهدف؟ هل أنا في تلك المدارات والمسارات في حالة من اليقظة أم في نوم، مغمض العين... مسوق؟! لا أدري...

تذكرت وأنا في غمرة تلك الخواطر الحديث النبوي «الناس نيام.. فإذا ماتوا انتبهوا»... في غمرة ساهون... في غفلة... في حالة بين النوم واليقظة، ولكن... ﴿وَلِكُلٍّ وِجْهَةٌ هُوَ مُوَلِّيهَا﴾. ففي كل تلك المدارات والمسارات سواء استيقظ الإنسان أم نام، غفل وسها أم استيقظ وتفتحت مسام جوارح عقله وانتبه... تظل حالة الدوران والسير... رحلة لا تتوقف حتى ينتهي الأجل. والكارثة ألا تحدث يقظة البصيرة وتفتح مسام العقل وتوقف الهنيهة للسؤال قبل نقطة النهاية...

كل منا أدرى بمساراته ومداراته... يحتاج إلى تأملها ومراجعتها، هل هي غائية أم عبثية؟ وأي وجهة يوليها؟ هل يستبق الخيرات أم يستبق الأهواء والشهوات ويتقاتل على التفاهات واللعاعات؟ وأين ومتى تنطفئ شعلة جرمه في نهاية جميع مداراتها ومساراتها؟!

أظن أن الأمر يحتاج إلى التوقف هنيهة وهنيهات للسؤال فهي رحلة لن تتكرر. فكل نقطة يمر بها جرم الإنسان –زمانا على الأقل– لن يمر بها ثانية... فهلاّ توقفنا هنيهة؟ ■

---

*) كاتب وباحث مصري.



مهداة إلى أولئك الفتيان الشجعان،
الآتين من كل مكان،
إلى أرض «داغستان»،
ليقيموا فيها معاهد العلم والعرفان،
ويُعلوا منارات الهدى والإيمان.

هتاف الأرواح

أديب إبراهيم الدباغ *

لو أصغيتم بآذان أرواحكم في سجوّ الليالي وفي هدوات الأسحار، لسمعتم هتاف أربعين صحابيا يرقدون فوق روابي هذه المدينة وهم ينادونكم قائلين:

انتظَرناكم طويلا.. سألنا عنكم الغادين والرائحين من ملائكة السماء: أين فِتيان الإيمان، متى يقدم حمَلة القرآن؟ الشوق إليكم أضنانا.. والحنين للقياكم عذبنا.. وها أنتم اليوم هنا.. فلأرواحنا أن تسعد، ولوَحشتنا أن تأنس، ولغربتنا أن تتأسى بكم في هذا القفر الموحش المجدب من صحاب الإيمان، والممحل من أشقاء الروح والوجدان.

لا نقول لكم أحرقوا كل شيء يغريكم بالعودة من حيث أتيتم كما فعل طارق بن زياد من قبل، ولكنا نقول: أحرقوا وجودكم كله، وأشعلوا النار في أرواحكم، ثم انثروا حبات هذا الوجود المحترق فوق هذه الأرض، فلا تغادروها -إذا غادرتموها- إلا لتعودوا إليها، لأنها صارت جزءً من وجودكم وقطعة عزيزة من كيانكم.

تتساءلون ما هذه النار التي آنستم وجودها في هذا المكان من بعيد، والتي جذبتكم للمجيء إلى هنا. ونحن نقول لكم: إنها قبس من نور عظيم كنا قد حملناه في أفئدتنا إلى هذه الأرض، ولكنها اليوم ذبالة مرتعشة وجلة توشك على الانطفاء إلى الأبد. وإننا لنناشدكم -يا أبناءنا البررة- ألا تدعوا هذه الذبالة تخفت وتنطفئ. انفخوا فيها من أرواحكم، ألقموها قلوبكم، وأطعموها عقولكم لتعود تتأجج من جديد وتنير لهذا الشعب مصابيح الهدى والإيمان.

جئتم إلى هنا مدفوعين بقوة قدرية لا تقاوم، فأنتم مبعوثو القدر وسفراؤه إلى هذه البلاد؛ لقد اجتزتم بوّابة آسيا الكبرى، وفتحتم الطريق لمواكب الإيمان من بعدكم، ولعل حدس أستاذكم النورسي بنهوض آسيا على صوت الإسلام من جديد يوشك أن يصدق. فأنتم هنا هذا الصوت العظيم الذي سيتردد صداه قريبا في عمق أعماق آسيا... فاهتفوا ولا تنوا عن الهتاف ورجّوا الأرض بهتافكم، وهزوا الأبواب الموصدة في وجوهكم، فمن أدام الطرق فُتح له ولو بعد حين.

لا تقولوا ما نحن؟ ومن نحن؟ وأنّى لنا أن نعيد لكلمة التوحيد وهجها فوق هذه الأرض؟ وأنّى لنا أن نعمر أرضا خرابا عملت فيها معاول الهدم والتخريب خمسة وسبعين عاما؟ وكيف لنا أن نبذر بذرة الإيمان في أرض قاحلة جرداء؟ وبماذا نشق الأرض ولا رفش ولا محراث؟ ونحن نقول لكم: إنْ عزّ المحراث فلتكن أظافركم هي المحراث الذي به تحرثون، وإن عز الرفش فلتكن أسنانكم هي الرفش الذي به تحفرون؛ ولأن صوت الحياة القرآنية هي التي تتكلم في دواخلكم، فسوف تصغي إليها حبات التراب وجلاميد الصخور، بل ستصغي إليها الأرض والسماء، وكل الكائنات ستأتيكم طائعة منقادة. ها هي فرصتكم -يا أبناءنا- كي تعلّموا

البشرية كيف يمكن للإيمان والإخلاص أن يأتي بالمعجزات، وتعلّموا العالم أن وجودكم هنا هو الدليل الأقوى على عالمية الإسلام وعمومية القرآن.

لا تستمعوا إلى أولئك المثبطين والمعوقين الثرثارين، وهم يتخافتون متهامسين: أيّ خيال ضبابي يتشبث به هؤلاء؟! وأيّ حلم وردي يُغرقون أنفسهم فيه؟! وأية آمال بعيدة المنال يركضون وراءها؟!

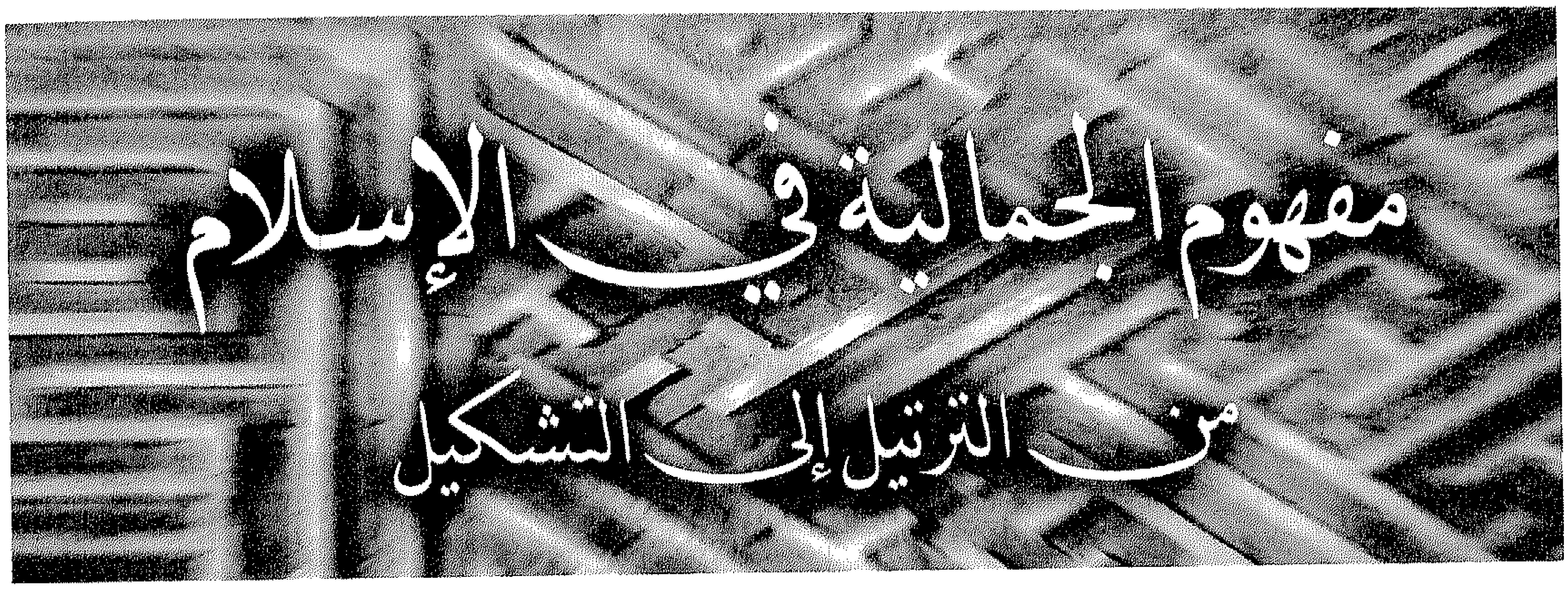
ونحن نقول لكم –يا أبناءنا– ليس الخيال هو ما نخافه عليكم، وإنما نخاف عليكم افتقاركم إلى الخيال.. فما أكثر ما بعثه الخيال من الهمم، وحفز من الأذهان، ودل وأشار إلى خفايا من الحقائق ما زال العقل يدين بها إليه. وجودنا هنا، بل وجودكم أنتم كان حلما من الأحلام، وهو اليوم حقيقة من الحقائق. وما هو خيال اليوم يكاد يكون حقيقة غدا، والأمة التي يعقم خيالها يعقم ذهنها ويتبلد وجدانها.

أحبّوا «داغستان» بكل حبة من قلوبكم، وليكن همكم بها فوق كل همّ، ومحبتها فوق كل محبة. فإذا أحببتموها سهُل عليكم ما تلقونه في سبيلها من متاعب ومشقات، وسهلت عليكم التضحيات.

يقال إن البلبل إذا تعشق وردة وأراد أن يغنّيها حبّه غرز شوكتها في صدره وشرع يغني لها أشجى ألحانه وأعذبها. وأنتم كذلك –يا أبناءنا الأعزاء– دعوا بلابل الإيمان في صدوركم تغني «داغستان» أعذب الألحان رغم ما يوخز صدوركم من أشواكها. فهي وردتكم ووردة آسيا الوسطى التي يهون كل شيء من أجل أن تسمع عنكم وتصغي لكم، وهي ماسة «القفقاس» المتلألئة في تاج جمالها، لكنها تتأبّى عمن يرومها إلا المحبين الذين يشفع لهم عندها إخلاصهم في حبها وهداياهم إليها، وهل من هدية هي أثمن من الإيمان الذي تقدمونه إليها وتُحبّونها به..؟ ■



*) كاتب وأديب – العراق.



أ.د. فريد الأنصاري *

جمال الإنسان

الإنسان جميل، بل هو أجمل مخلوق في الأرض، وتلك حقيقة قرآنية ووجودية؛ ذلك أن مصادر الدين في الإسلام تحدثنا أن الله قد خلق الإنسان في أجمل صورة وأحسنها، وقارن بينه وبين سائر الحيوانات -وهي غاية في الجمال- ظاهرا وباطنا. قال عز وجل: ﴿اللَّهُ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ قَرَارًا وَالسَّمَاءَ بِنَاءً وَصَوَّرَكُمْ فَأَحْسَنَ صُوَرَكُمْ﴾ (غافر: ٦٤) وصح عن النبي ﷺ قوله: «خلق الله آدم على صورته» (متفق عليه)، ثم جعل له الكون من كل حواليه جميلا، وحسنه تحسينا، عساه يكون في تدينه حسنا جميلا. قال تعالى: ﴿إِنَّا جَعَلْنَا مَا عَلَى الْأَرْضِ زِينَةً لَهَا لِنَبْلُوَهُمْ أَيُّهُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا﴾ (الكهف: ٧) فالزينة الكونية مبعث وجداني للتحلي بالزينة الإيمانية.

إن الناظر في هذا العالم الكوني الفسيح، يدرك بسرعة أن الإنسان يعيش في فضاء فنّي راق؛ بيئة واسعة بهية هي آية من الجمال الذي لا يبارى؛ بدءاً بالأرض حتى أركان الفضاء، الممتدة بجمالها الزاخر في المجهول، تسير في رونق الغرابة الزاهي، إلى علم الله المحيط بكل شيء. ومن ذلك قوله سبحانه: ﴿وَلَقَدْ جَعَلْنَا فِي السَّمَاءِ بُرُوجًا وَزَيَّنَّاهَا لِلنَّاظِرِينَ﴾ (الحجر: ١٦) وجعل الأرض الحية تتنفس بالجمال نِعَماً لا تحصى ولا تنتهي ﴿قُلْ مَنْ حَرَّمَ زِينَةَ اللَّهِ الَّتِي أَخْرَجَ لِعِبَادِهِ وَالطَّيِّبَاتِ مِنَ الرِّزْقِ قُلْ هِيَ لِلَّذِينَ آمَنُوا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا خَالِصَةً يَوْمَ الْقِيَامَةِ﴾ (الأعراف: ٣٢). وأرشد ذوق الإنسان إلى تبين معالم هذا الجمال في كل شيء: ﴿وَالْأَنْعَامَ خَلَقَهَا لَكُمْ فِيهَا دِفْءٌ وَمَنَافِعُ وَمِنْهَا تَأْكُلُونَ * وَلَكُمْ فِيهَا جَمَالٌ حِينَ تُرِيحُونَ وَحِينَ تَسْرَحُونَ﴾ (النحل: ٥-٦).

ثم انظر إلى هذا الجمال المتدفق كالشلال، من الآيات التاليات؛ يقول سبحانه بعد الآية السابقة بقليل، في سياق الْمَنِّ بهذه النعم الجميلة الجليلة: ﴿هُوَ الَّذِي أَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً لَكُمْ مِنْهُ شَرَابٌ وَمِنْهُ شَجَرٌ فِيهِ تُسِيمُونَ * يُنْبِتُ لَكُمْ بِهِ الزَّرْعَ وَالزَّيْتُونَ وَالنَّخِيلَ وَالْأَعْنَابَ وَمِنْ كُلِّ الثَّمَرَاتِ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ * وَسَخَّرَ لَكُمُ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ وَالنُّجُومُ مُسَخَّرَاتٌ بِأَمْرِهِ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ﴾ (النحل: ١٠-١٢).

بانوراما الأرض

إنها صورة كلية شمولية ذات ألوان وأنوار حية متحركة، إنها «بانوراما» كاملة للأرض بتضاريسها وبحارها وأشجارها وأنهارها وأحيائها جميعا. ثم بفضائها الرحب الفسيح بما يملأ ذلك كله من حركة الحياة، والنشاط الإنساني بكل صوره مما أتيح له في هذه الأرض وفضائها من المسخَّرات الحيوية. هذا كله هو قصرك الزاهي أيها الإنسان، ومجالك الواسع، محاطا بكل آيات التسخير وكرامات التدبير، المتدفقة بين يديك بكل ألوان النعم والجمال؛ لتصريف العمر كأعلى ما يكون الذوق، وكأجمل ما تكون الحياة.

وفي سورة الأنعام صور تنبض بجمال الخصب والنماء، جمال أرْضِيّ لا يملك معه من له أدنى ذرة من ذوق سليم إلا أن يخضع لمقام الجمال الأعلى، الجمال الرباني العظيم. قال جل جلاله: ﴿وَهُوَ الَّذِي أَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجْنَا بِهِ نَبَاتَ كُلِّ شَيْءٍ فَأَخْرَجْنَا مِنْهُ خَضِرًا نُخْرِجُ مِنْهُ حَبًّا مُتَرَاكِبًا وَمِنَ النَّخْلِ مِنْ طَلْعِهَا قِنْوَانٌ دَانِيَةٌ وَجَنَّاتٍ مِنْ أَعْنَابٍ وَالزَّيْتُونَ وَالرُّمَّانَ مُشْتَبِهًا

وَغَيْرَ مُتَشَابِهٍ انْظُرُوا إِلَى ثَمَرِهِ إِذَا أَثْمَرَ وَيَنْعِهِ إِنَّ فِي ذَلِكُمْ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾ (الأنعام:٩٩). ويلحق بها قوله تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ أَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجْنَا بِهِ ثَمَرَاتٍ مُخْتَلِفًا أَلْوَانُهَا وَمِنَ الْجِبَالِ جُدَدٌ بِيضٌ وَحُمْرٌ مُخْتَلِفٌ أَلْوَانُهَا وَغَرَابِيبُ سُودٌ * وَمِنَ النَّاسِ وَالدَّوَابِّ وَالأَنْعَامِ مُخْتَلِفٌ أَلْوَانُهُ كَذَلِكَ إِنَّمَا يَخْشَى اللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَاءُ إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ غَفُورٌ﴾(فاطر:٢٧-٢٨).

فالصورة تبتدئ -في الآيات الأولى ثم التي بعدها- من لحظة نزول المطر، إلى لحظة خروج النبات والشجر من التربة الندية، إلى مرحلة خروج الحب المتراكب في السنابل، وخروج القِنْوَان، (أي: العراجين والعُذُوق المثقلة بالفاكهة) بجمالها وبهائها، ثم ما يلامسها بعد ذلك من نضج وينع، فتراها -وقد تهيأت للقطاف- متدليةً خلال خمائل الجنات والبساتين، ناظرة إلى الناس في دلال خلاب. والآيات لا تغفل الحركة الحية للألوان، في تطورها من الخضرة إلى سائر ألوان النضج والينع، مما يتاح للخيال أن يتصوره -تَوَرُّداً واصْفِرَاراً واحْمِرَاراً واسْوِدَاداً... إلخ- في الزروع، والتمور، والأعناب، والزيتون، والرمان ونحوها، إلى ما يحيط ذلك كله، أو يتخلله، من ألوان الجبال وجُدَدِهَا، وهي: مسالكها أو خطوطها والتواءاتها المتشكلة منها، وهي غالبا ما تكون ذات انحناءات مختلفة الألوان، كما قال الله تعالى بيض وحمر إلى ما يزينها من غرابيب سود، وهي الصخور الناصعة السواد... إلى حركة اللون المنتشرة هنا وهناك في الحيوان والإنسان، مما لا يملك المؤمن معه إلا أن يكون من الساجدين لمن أفاض على الكون بهذا الجمال كله، الجمال الحي المتجدد. وإنها لآيات تربي الذوق الإنساني على جمالية التوحيد والتفريد، مما تعجز الأقلام والألوان عن تجسيد صورته الحية النابضة، وأي ريشة في الأرض قادرة على رسم الحياة!؟

وإنني لو قصدت إلى استقصاء جماليات القرآن الكريم من السور والآيات لجئت به كله، فهذه عباراته الصريحة وإشاراته اللطيفة كلها، كلها مشعة بتوجيهات ربانية لتربية الذوق الإنساني حتى يكون في مستوى تمثل مقاصد الدين البهية، بتدينه الجميل. فهل عبثا نصَّ القرآنُ على جمالية الكون والنعم والحياة؟ وهل عبثا نبه القرآن الحس البشري الإسلامي، وربَّاه لالتقاط دقائق الحسن والبهاء في مناظر الفضاء والأرض والجبال والشجر والنبات والبحار والأنهار والأنوار والأطيار؟!

إن الله تعالى خلق الحياة على مقاييس الجمال الإلهية الباهرة الساحرة، وأرسل الرسل بالجمال ليتدين الناس على ذلك الوزان وبتلك المقاييس. ولذلك قال النبي محمد ﷺ سيد الأتقياء، وإمام المحبين: «إن الله تعالى جميل يحب الجمال»(رواه مسلم). وفيه زيادة صحيحة: «ويحب معالي الأخلاق ويكره سِفْسافَها»(رواه الطبراني وابن عساكر)؛ مما يشير إلى أن الجمال مطلوب في أداء المسلم شكلا ومضمونا، مبنى ومعنى، رسما ووجدانا.

مواكب الجمال

فليكن الدين إذن سيرا إلى الله في مواكب الجمال ﴿يَا بَنِي آدَمَ خُذُوا زِينَتَكُمْ عِنْدَ كُلِّ مَسْجِدٍ وَكُلُوا وَاشْرَبُوا وَلَا تُسْرِفُوا إِنَّهُ لَا يُحِبُّ الْمُسْرِفِينَ * قُلْ مَنْ حَرَّمَ زِينَةَ اللَّهِ الَّتِي أَخْرَجَ لِعِبَادِهِ وَالطَّيِّبَاتِ مِنَ الرِّزْقِ قُلْ هِيَ لِلَّذِينَ آمَنُوا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا خَالِصَةً يَوْمَ الْقِيَامَةِ كَذَلِكَ نُفَصِّلُ الآيَاتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ﴾ (الأعراف: ٢٩-٣٠) وإنها للطافة كريمة أن يجمع الحق سبحانه في مفهوم الدين، من خلال هذه الكلمات النورانية بين جمالين: جمال الدين وجمال الدنيا: ﴿قُلْ هِيَ لِلَّذِينَ آمَنُوا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا خَالِصَةً يَوْمَ الْقِيَامَةِ﴾ ليكون ذلك كله هو صفة المسلم.

ولقد حرص الرسول ﷺ على تربية صحابته الكرام على كل هذه المعاني. وكيف لا، وهو أول من انبهر بجمال ربه وجلاله؛ فأحبه حتى درجة الخلة. قال عليه الصلاة والسلام لأصحابه يوما: «لو كنت متخذا من أهل الأرض خليلا لاتخذت ابن أبي قحافة [أبا بكر] خليلا، ولكن صاحبكم خليل الله»(رواه مسلم)، وصح ذلك عنه ﷺ في سياق آخر: «إني أبرأ إلى الله أن يكون لي منكم خليل، فإن الله تعالى قد اتخذني خليلا كما اتخذ إبراهيم خليلا»(رواه مسلم). وكان يعلمهم كيفية سلوك طريق المحبة بعبارات وإشارات شتى، ما تزال تنبض بالنور إلى يومنا هذا، فانظر إن شئت، إلى قوله ﷺ: «أنتم الغُرُّ الْمُحَجَّلُونَ يوم القيامة من إسباغ الوضوء، فمن استطاع منكم فليطل غرته وتحجيله!»(رواه مسلم) والغرة بياض في ناصية الحصان، والتحجيل بياض في يديه؛ فتلك سيم الجمال في وجوه المحبين وأطرافهم، يوم يرِدُون على المصطفى ﷺ، وهي سيم «ليست لأحد من الأمم»(متفق عليه)، بها يعرفون في كثرة الخلائق يوم القيامة، كالدر المتناثر في دجنة الفضاء. هذه ومضة الإبراق النبوي تبشر برشح الأنوار على أطراف المتوضئين الساجدين، رشحا لا يذبل وميضه أبدا!

النبي الكريم ميز جمال المحبين وسط الزحام واحدا واحدا.

قال ﷺ: «ما من أمتي من أحد إلا وأنا أعرفه يوم القيامة! قالوا: وكيف تعرفهم يا رسول الله في كثرة الخلائق؟ قال: «أرأيت لو دخلتَ صُبْرَةً [محجرا] فيها خيلٌ دُهْمٌ، بُهْمٌ، وفيها فرَسٌ أغرٌّ مُحَجَّلٌ، أما كنتَ تعرفه منها؟» قالوا: بلى. قال: «فإن أمتي يومئذ غُرٌّ من السجود، مُحَجَّلون من الوضوء!»(رواه أحمد) فأي تذويق فني هذا للدين؟ وأي ترقية لطيفة للشعور هذه وأي تشويق؟

ولم يفتأ النبي ﷺ يرقي الذوق على مستوى التصرف والسلوك، ليس في مجال المعاملات فحسب، ولكن أيضا في مجال الدعوة والإرشاد. وليس قوله ﷺ: «إن الله تعالى رفيق يحب الرفق ويعطي عليه ما لا يعطي على العنف»(رواه البخاري) وقوله: «يسروا ولا تعسروا، وبشروا ولا تنفروا»(متفق عليه) وقوله أيضا في فرض الإحسان على المؤمن في كل تصرفاته وأعماله التعبدية والعادية: «إن الله كتب الإحسان على كل شيء»(رواه مسلم)، إلا نموذجا لعشرات الأحاديث المنضوية تحت هذا المعنى الكلي الكبير: الإحسان في كل شيء؛ في الشعور والأخلاق والمعاملات والتصرفات والسلوك.

أسس الجمالية في الإسلام

ومن هنا – بعد هذه الشواهد النموذجية والمقارنات التقريبية – يمكن أن نخلص إلى أن أسس «الجمالية» في الإسلام تقوم على أركان ثلاثة، هي: المتعة والحكمة والعبادة. وباجتماعها جميعا في وعي الإنسان ووجدانه يتكامل المفهوم الكلي للجمالية في الإسلام.

١. الحكمة: فأما الحكمة فمعناها –هنا– أنه ما من «جمال» إلا وله هدف وجودي، ووظيفة حيوية، يؤديها بذلك الاعتبار. ذلك أنه ما من جمال في هذا الكون إلا وهو رسالة ناطقة بمعنى معين، هو حكمة وجوده ومغزى جماليته. فليس جميلا لذاته فحسب بل هو جميل لغيره أيضا. فعند التأمل في كل تجليات الجمال في الطبيعة، تجد أنها تؤدي وظائف أخرى هي سر جماليتها؛ من مثل الأهداف التناسلية الضرورية لاستمرار الحياة في الكائنات من الإنسان والحيوان والطيور والنبات... إلخ. ففي هذا السياق تقع استعراضات الجمال الخارق مما وهبه الله للكائن الحي؛ لإنتاج الشعور بالجمالية مما ينتج عنه أروع التعابير اللغوية أو الرمزية، على جميع المستويات البشرية والحيوانية والطبيعية عموما، كل على درجة طبقته الفطرية من الوعي بالحياة والوجود الخِلقي. وما ذلك كله في نهاية المطاف إلا ضربا من قوانين التوازن في الحياة، واستقرار الموجودات والخلائق، تماما كما هو دور قانون الجاذبية في استقرار الحياة الأرضية، وتوازن الأجرام والكواكب في الفضاء. فالإحساس الجمالي– بما فيه من عواطف جياشة لدى الإنسان مثلا – ما هو إلا وسيلة وجودية لاستمراره وتوازنه. قال تعالى: ﴿وَمِنْ آيَاتِهِ أَنْ خَلَقَكُمْ مِنْ تُرَابٍ ثُمَّ إِذَا أَنْتُمْ بَشَرٌ تَنْتَشِرُونَ * وَمِنْ آيَاتِهِ أَنْ خَلَقَ لَكُمْ مِنْ أَنْفُسِكُمْ أَزْوَاجًا لِتَسْكُنُوا إِلَيْهَا وَجَعَلَ بَيْنَكُمْ مَوَدَّةً وَرَحْمَةً إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ﴾ (الروم:٢٠–٢١).

ونفس الحقيقة الجمالية التي نراها في الطبيعة والجبال والبحار والنجوم... إلخ؛ ما هي –رغم التصريح القرآني بجماليتها في مقاصد الخلق– إلا مخلوقات تؤدي وظائف في سياق التدبير الإلهي للكون؛ خلقاً وتقديراً ورعايةً. ومن ذلك قوله تعالى على سبيل المثال: ﴿يَسْأَلُونَكَ عَنِ الْأَهِلَّةِ قُلْ هِيَ مَوَاقِيتُ لِلنَّاسِ وَالْحَجِّ﴾ (البقرة:١٨٩). وقوله تعالى: ﴿هُوَ الَّذِي جَعَلَ الشَّمْسَ ضِيَاءً وَالْقَمَرَ نُورًا وَقَدَّرَهُ مَنَازِلَ لِتَعْلَمُوا عَدَدَ السِّنِينَ وَالْحِسَابَ﴾ (يونس:٥) مشيرا بذلك إلى أن وظيفة الأقمار والأفلاك إنما هي إنتاج مفهوم الزمان؛ لتنظيم الحياة الكونية والإنسانية في أمور المعاش والمعاد معا، أي مجال العادات والعبادات على السواء. وكذلك ما ذكره الله من الوظيفة الجيولوجية والتسخيرية للجبال والأنهار والمسالك، في مثل قوله تعالى: ﴿وَأَلْقَى فِي الْأَرْضِ رَوَاسِيَ أَنْ تَمِيدَ بِكُمْ وَأَنْهَارًا وَسُبُلًا لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ وَعَلَامَاتٍ وَبِالنَّجْمِ هُمْ يَهْتَدُونَ﴾ (النحل:١٥–١٦).

فكل المشاهد الجميلة في الحياة والكون –كما عرضها القرآن الكريم– لا تخرج عن هذا القانون الكلي، من حكمة الوجود ووظيفة الخلق.

٢. المتعة والإمتاع: وأما الركن الثاني للجمالية في الإسلام فهو المتعة والإمتاع، سواء في ذلك ما هو على المستوى الحسي أو ما هو على المستوى النفسي والذوقي، أعني العاطفي والوجداني. ومعنى ذلك أن الله جل جلاله خلق في الإنسان مجموعة من الحاجات، كحاجته إلى الطعام والشراب واللباس؛ فكانت منها حاجة التمتع والاستمتاع بالجمال من حيث هو جمال. ومن هنا سعيه الدائم إلى البحث عنه والانجذاب إليه، وهذا صريح في كثير من الآيات والأحاديث النبوية الشريفة. ومن ذلك أن تلك الحقائق الكونية نفسها، التي ذُكرت في سياق هدفها الوجودي، وحكمتها الْخِلْقِيَّة، هي عينها ذُكِرَتْ لها

أهداف إمتاعية في مساقات أخرى. قال تعالى مصرحا بفوائد الأنعام والبهائم الإمتاعية (الجمالية)، إلى جانب منافعها التسخيرية: ﴿وَالْأَنْعَامَ خَلَقَهَا لَكُمْ فِيهَا دِفْءٌ وَمَنَافِعُ وَمِنْهَا تَأْكُلُونَ * وَلَكُمْ فِيهَا جَمَالٌ حِينَ تُرِيحُونَ وَحِينَ تَسْرَحُونَ * وَتَحْمِلُ أَثْقَالَكُمْ إِلَى بَلَدٍ لَمْ تَكُونُوا بَالِغِيهِ إِلا بِشِقِّ الأَنفُسِ إِنَّ رَبَّكُمْ لَرَءُوفٌ رَحِيمٌ * وَالْخَيْلَ وَالْبِغَالَ وَالْحَمِيرَ لِتَرْكَبُوهَا وَزِينَةً وَيَخْلُقُ مَا لا تَعْلَمُونَ﴾ (النحل:٥-٨).

فقوله تعالى: ﴿وَلَكُمْ فِيهَا جَمَالٌ حِينَ تُرِيحُونَ وَحِينَ تَسْرَحُونَ﴾ ثم قوله بَعْدُ: ﴿لِتَرْكَبُوهَا وَزِينَةً﴾، دال بوضوح -بما في السياق اللغوي من حروف التخصيص والتعليل- على قصد إشباع الحاجة الجمالية للإنسان، إلى جانب حاجته البيولوجية إلى الطعام والشراب، وسائر حاجاته المعيشية من الخدمات.

وعلى هذا يجرى ما ذكر في القرآن من مشاهد الجمال والتزيين.

٣. العبادة: وأما الركن الثالث فهو العبادة. العبادة بما هي سلوك وجداني جميل، يمارسه الإنسان في حركته الروحية السائرة نحو رب العالمين، الله ذي الجلال والجمال. وهذا من الوضوح بمكان حيث إن النصوص التي ذكرت قبلُ كافية في إثباته وبيانه. ذلك أنه هو الركن الغائي من خلق الجمال نفسه، بل هو غاية الغايات من الخلق كله، وما به من حقائق الزينة والْحُسْنِ المادية والمعنوية على السواء.

إن إشباع الحاجات الجمالية لدى الإنسان لو تأملتها تجدها لا تخرج عن معنى حاجة الإنسان الفطرية إلى التعبد والسلوك الروحي. ولذلك فإن الإنسان الغربي إنما يمارس بإبداعه الجمالي ضربا من العبادة الخفية أو الظاهرة، التي يوجهها نحو الطبيعة حينا، ونحو ذاته أحيانا أخرى. إنه بدل أن يسلك بإنتاجه الجمالي مسلك التعبد لله الواحد الأحد، مصدر الجمال الحق، وغايته المطلقة في الوجود كله؛ ينحرف بها إلى إشباع شهواته أو أهوائه. ثم يمارس نوعا من الوثنية المعنوية أو المادية. ولذلك كانت فنونه الجميلة تميل إلى التجسيم والتشكيل، محكومة بمثل قوله تعالى: ﴿وَاتَّخَذَ قَوْمُ مُوسَى مِنْ بَعْدِهِ مِنْ حُلِيِّهِمْ عِجْلاً جَسَدًا لَهُ خُوَارٌ أَلَمْ يَرَوْا أَنَّهُ لا يُكَلِّمُهُمْ وَلا يَهْدِيهِمْ سَبِيلاً اتَّخَذُوهُ وَكَانُوا ظَالِمِينَ﴾ (الأعراف:١٤٨).

من هنا إذن أطَّرَ الإسلامُ الجماليةَ بمفهوم العبادة؛ حتى يصحح الاتجاه في مسيرة الإبداع، ويستبصر الفنان بتواضعه التعبدي مصدرَ الجمال الحق؛ فيكون إبداعه على ذلك الوزان، وتتجرد مواجيده لتلك الغاية، وتلك هي جمالية التوحيد، عسى أن يستقيم سير البشرية نحو نبع النور العظيم، النور الذي هو ﴿اللهُ نُورُ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ﴾ (النور:٣٥).

والعبادة في الإسلام سلوك جمالي محض. وذلك بما تبعثه في النفس من أنس وشعور بالاستمتاع. فالسير إلى الله عبر الترتيل والذِّكْرِ والتدبر والتفكر والصلاة والصيام وسائر أنواع العبادات إنما هو سير إليه تعالى في ضوء جمال أسمائه الحسنى بما هو رحمن رحيم مَلِكٌ قدوس سلام . . . إلخ. وليس عبثا أن رسول الله ﷺ كان يصف الصلاة بما يجده فيها من معاني الراحة الروحية، ويقول لبلال رضي الله عنه: «يا بلالُ! أقِم الصلاة! . . أرِحنا بها!» (رواه أحمد وأبو داود) ومن العجيب حقا أنه عليه الصلاة والسلام ذكر متع الدنيا وجماليتها فجعل منها الصلاة، مع العلم أن الصلاة عمل أخروي لا دنيوي، وذلك قوله الصريح الواضح: «حُبِّبَ إليَّ من الدنيا النساء والطِّيب، وجُعل قُرَّةُ عَيني في الصلاة» (رواه النسائي) وتوجيه الحديث دال بسياقه على أنه ﷺ أحب من الدنيا جماليات النساء والطِّيب وما يوحي به الأمران من جمال العواطف والمظاهر، ويقول في السياق نفسه: «وَجُعِلَ قُرَّةُ عَيْنِي فِي الصَّلاَةِ» أي كمال سعادتي وجمال لذتي في صلاتي لله الواحد القهار؛ وذلك لما كان يجده ﷺ من أنس وراحة تامين على مستوى الوجدان الآني الدنيوي، بغض النظر عن المآلات الأخروية؛ لأن التعبير صريح في تصنيف الصلاة في هذا السياق ضمن محبوبات الدنيا. وقد أُثِرَ عن غير واحد من السلف والزهاد تعلُّقهم بالدنيا لا من أجل ذاتها ولكن من أجل ما يجدون فيها من لذة العبادة، وجمالية السير إلى الله وهذا من أدق المعاني وألطف الإشارات الوجدانية.

فالجمالية الإسلامية إنما تكتمل بهذه الأركان الثلاثة جميعا: الحكمة والمتعة والعبادة. وعليه؛ فإن السلوك الإسلامي انطلق متحليا بجماليته إلى جميع مناحي الحياة الفنية والإبداعية والثقافية والعمرانية والأخلاقية والاجتماعية. فكانت له في كل ذلك تجليات خاصة تتميز بخصوص المفهوم الإسلامي للجمال. ■

---

*) جامعة السلطان المولى إسماعيل - المغرب.

الألوان والإنسان

مليح مرد *

يكشف لنا النور حين يلامس أي شيء عن عالم من الألوان. حينئذ يكتسب أثاثنا الخالي من الحياة معنى جديدا وتسري روح الحياة في الأرفف البنية، والمنضدة الرمادية، والأكواب الخضراء، والبسط والمفارش والستائر؛ حتى حقول القمح التي تكتسي باللون الأصفر وقت الحصاد والجرار الفخارية الزرقاء؛ والملابس التي تستر أجسادنا، والأشجار الخضراء الزاهية التي تحيط بها البنايات وتظللها السماء الزرقاء... كل هذا يصبح أكثر بهاء وحيوية حين تزينه الألوان.

فلنرتحل إذن عبر عالم الألوان الرائع؛ فخلف كل لون قصة، بعضها جميل تستبين العيون الباصرة الحقيقة فيها، بينما ترى عيون أخرى فيها روح الشحناء والبغضاء وكل آفات النفس البشرية. لأجل هذا نستطيع القول إن الألوان تحمل المشاعر المتناقضة، فهي تحمل مشاعر الأمل واليأس، وترمز لمفاهيم الإثم كما ترمز لمفاهيم البراءة، ولذا يساء استخدامها حينا ويُضحَّى بها حينا آخر، يفضّل بعضها ويزدرى البعض الآخر.

فاللون يُعرَف بأنه ظاهرة من النور أو الإدراك البصري يمكّن المرء من التمييز بين الأشياء التي لولا هذا اللون لكانت متطابقة. ولكونها إحدى الخصائص التي تمكننا من تمييز الأشياء، تعد الألوان معنى من معاني الحياة. وعليه، فإن قلنا إن الحقيقة تتداخل مع الحياة كان لنا أن نقول إنها -أي الحقيقة- تُرى من خلال الألوان المختلفة.

أثر الألوان على الإنسان

ربما يكون ذلك التجاوب النفسي والمبهج الذي تثيره الألوان هو أهم أثر لها في الحياة اليومية وهو ما يعرف بالإدراك النفسي، فضلا عن آثارها في حياة الفن، الموضة، التجارة والانفعالات النفسية والعاطفية.

على سبيل المثال تعتبر الألوان الأحمر والبرتقالي والأصفر والبني ألوانا ساخنة، بينما تعد الألوان الأزرق والأخضر والرمادي ألوانا باردة.

من هنا قيل إن الألوان الأحمر والبرتقالي والأصفر تثير البهجة والشهية وتدفع الإنسان نحو العدوانية، بينما تدعو الألوان الأزرق والأخضر إلى الحس بالأمان والهدوء والسلام. أما الألوان البني والرمادي والأسود فهي تثير الحزن والإحباط والقنوط. وبالرغم من هذا فيمكننا القول بأن هذه المفاهيم ما زالت فردية وتختلف من فرد لآخر.

فالسن والحالة المزاجية والصحة النفسية إضافة إلى عوامل أخرى تؤثر على إدراكنا للألوان. فالأشخاص الذين يشتركون في صفات فردية مميزة غالبا ما يشتركون في إدراكهم للألوان وتفضيلهم لبعضها على بعض. ولنضرب مثلا على هذا بالأشخاص المصابين بانفصام الشخصية (الشيزوفرانيا)؛ حيث يقال إن لديهم إدراكًا غير طبيعي للألوان؛ وكذلك يفضل الأطفال في مرحلة تعلم التمييز بين الألوان اللونين الأحمر أو البرتقالي.

ويؤكد الأطباء النفسيون أن تحليل استخدام المرء للألوان وتجاوبه معها يكشف لنا معلومات نفسية وثيقة الصلة بالتحليل النفسي؛ بل يذهب البعض منهم إلى أن بعض الألوان لها آثار علاجية لبعض الإعاقات النفسية والجسدية.

ففي الصين والهند واليابان تستخدم الألوان في الطب البديل، فيعتبر اللون البرتقالي مفيدا في حالات الاكتئاب،

والأصفر لمرضى السكر، والأخضر للمصابين بالقرحة والخمول الروحي، والأزرق البنفسجي لمرضى الصرع.

ما يهمنا هنا هو العضو الجسدي الذي يستقبل اللون مثل العين ومراكز الإحساس في البشرة.

فطول الموجة الخاصة بكل لون يحمل وينقل الطاقة إلى العضو الجسدي الذي يحوي ذلك اللون، وتقوم تلك الطاقة بإزالة الاضطرابات الجسدية والنفسية.

فالأشعة الملونة تؤثر مباشرة على الجهاز العصبي، لذا تتم معالجة العلل المختلفة بأشعة متنوعة الألوان لتنوع تأثيرها ولتعدد درجاتها.

وعلى الرغم من أن هذه الفوائد الطبية مازالت قيد البحث فإن الألوان تحدث رد فعل جسدي ونفسي محدد وواضح؛ فالغرف والأشياء ذات اللون الأبيض وتلك التي لها ظلال خفيفة لألوان «مبهجة» ربما تبدو أوسع من تلك التي طليت بألوان داكنة أو «دافئة». وكما يعلم المصممون ومهندسو الديكور فإن الألوان الداكنة لها أثر تقليصي؛ فالحجرة المبهجة التي تطلى باللون السماوي تحتاج إلى تثبيت منظم أضواء، أعلى من الحجرة المطلية بلون برتقالي باهت حتى يمكن الحصول فيها على نفس درجة الإحساس بالدفء.

ويعاني الأفراد الذين يتعرضون لألوان غير عادية منبعثة من مصادر خاصة من صداع واضطرابات عصبية؛ بل إن الأطعمة التي يتم تقديمها في هذا الجو ربما تصيب الانسان بالتقزز والمرض.

وعلى النقيض نجد ألوانا أخرى تدعو إلى البهجة؛ فحينما يتعرض المرء للون مبهج بعد تعرضه للون آخر داكن يزداد لديه الشعور بالسعادة بدرجة أعلى مما لو كان قد تعرض مباشرة للون مبهج فقط، ويعرف هذا الأمر بتطوير التباين المؤثر.

كيف يرى الناس الألوان

بعض اللغات لا تحوي كلمات منفصلة تعبر عن الألوان الأخضر والأزرق والأصفر والبرتقالي؛ بينما يستخدم الإسكيمو ١٧ كلمة لوصف اللون الأبيض الذي يصفون من خلاله درجات الثلج المتنوعة. وتُظهِر لنا مقارنة مصطلحات الألوان وجود نماذج خاصة؛ فكل اللغات تحوي أسماء محددة للونين الأبيض والأسود؛ وإذا قمنا بتمييز لون ثالث سنجده الأحمر يتلوه الأصفر أو الأخضر ثم تليها بقية الألوان.

والألوان هبات ومنح ولا يجب أن تكون سببا للتشرذم. يوضح لنا عالم الاجتماع «أورخان كول أوغلو» أن أتباع المذاهب والسياسات المختلفة يختارون ألوانا مختلفة؛ ففي البلقان مثلا يعتبر اللونان الأبيض والأزرق ألوانا يونانية حيث يحوي العلم اليوناني اللونين الأبيض والأزرق. أما اللونان الأحمر والأسود فغالبا ما يرتبطان بالصراع السياسي والاجتماعي؛ فقد ظل الأحمر لعدة سنوات رمزا للعنف والقتل والظلم والإرهاب ومعاداة الديمقراطية. وبتعبير آخر يعني الأحمر وجها مملوءا بالغيظ (أحمر الوجه) أو دمويا (عينان دمويتان).

أما في مجال السياسة فيشير اللون الأحمر إلى الإثارة أو الدفع نحو تغيير اجتماعي سياسي جذري مصحوبا بالقوة كما هو الحال في الثورة الحمراء وأيّ شيء آخر يتصل بالشيوعية مثل المربع الأحمر الخاص بالاتحاد السوفيتي السابق. بل يوجد في العالم جيشان أحمران؛ الجيش السوفيتي الذي أسس عقب ثورة ١٩١٧، والجيش الأحمر الياباني الذي أسس عام ١٩٦٩، وعرف أولهما بقوانينه ونظمه الصارمة مثل معاقبة بعض الكتائب بإرسالها في موجات انتحار جماعية، غير أن مجموعة من القوانين الجديدة سنت عام ١٩٦٠ خففت من حمرة الجيش السوفيتي؛ أما الثاني فهو عبارة عن منظمة إرهابية يابانية صغيرة بقيت ناشطة حتى ١٩٩٠.

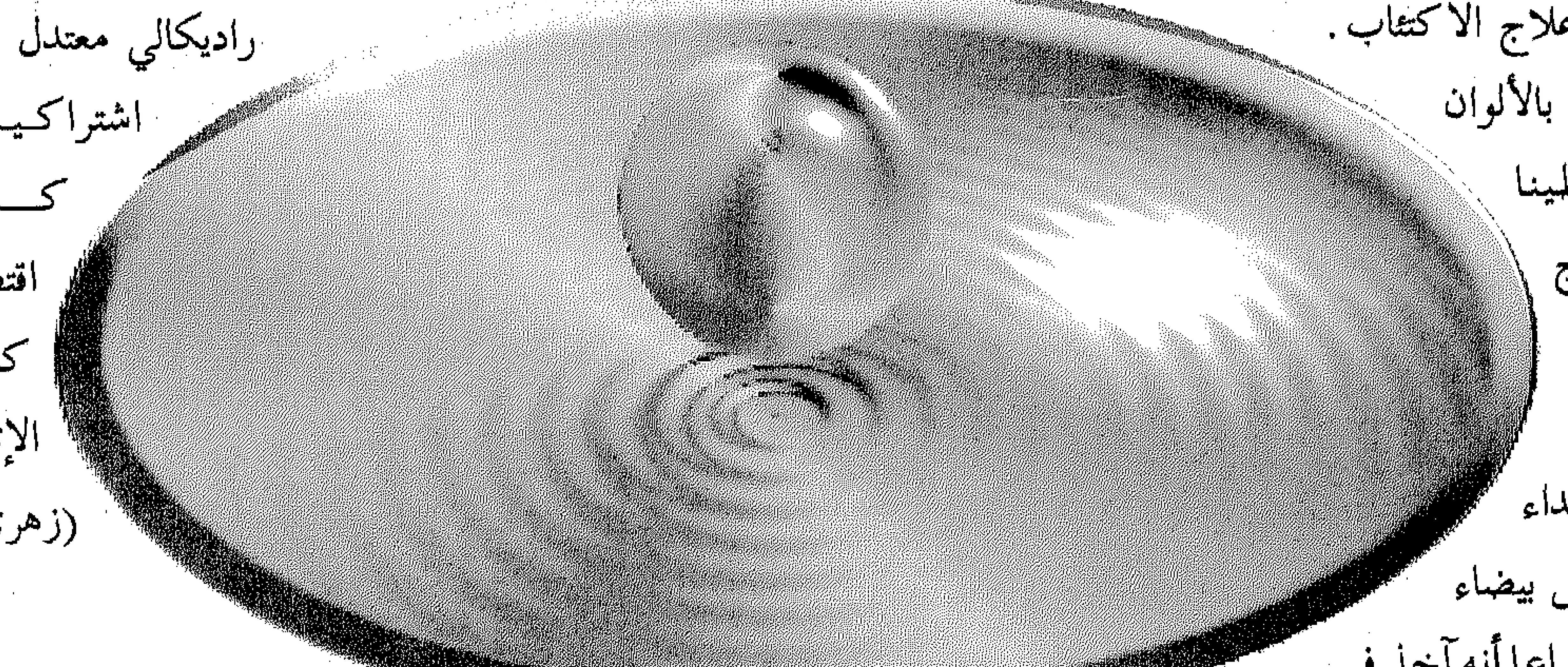
أما الألوية الحمراء الإيطالية وهي منظمة إرهابية يسارية متطرفة فقد اختارت اللون الأحمر والعنف، في سعيها لتهيئة إيطاليا في السبعينيات لثورة ماركسية؛ كما اختار الثوريون الصينيون الذين سعوا لإنهاء الثقافة التقليدية الصينية اللون الأحمر والعنف؛ وتابعهم الثوار الكمبوديون الذين يعرفون باسم «الخمير الحمر» والذين قاموا بقتل جيل بأكمله أو ما يقارب المليون ونصف المليون نسمة من السكان البالغ عددهم ٧.٥ مليون نسمة في فترة حكم امتدت لثلاث سنوات ونصف فقط.

أما اللون الأسود فهو يستخدم للإشارة إلى الأمور الثقيلة والخطيرة (مكيدة سوداء)، أو المتسخة والملوثة (أيدي سوداء)، أو المكر والخبث والشر (أفعال سوداء)، أوالأشياء ذات الأثر السلبي (علامة سوداء في سجل المرء)، أو الأمور الغيبية أو الشيطانية (سحر أسود)، أو الأحداث والمشاعر الحزينة واليائسة والمصائب (اليأس الأسود)، أو الجوائح (السبت الأسود)، أو العداوة والغضب والتجهم (الحقد الأسود)، أو الأمور المشوهة

والسخرية الشاذة (الفكاهة السوداء)، أو عمليات الاستخبارات السرية (المهام الحكومية السوداء).

يقول طبيب علم النفس الاجتماعي «إبراهيم بالي أغلو»: «على الرغم من أننا نربط الأسود بمعان سلبية فلا يمكن أن ننكر أنه يمثل الجدية والاحترام والنبل. فهناك مواطن لا يعد فيها اللون الأبيض الذي هو لون الطهر لونا مناسبا. ولابد أن تستخدم الألوان مع درجاتها وتجميعاتها المناسبة.»

ويرى الطبيب نفسه أن من المنطقي ربط الأبيض بالمفاهيم الإيجابية والأسود بالمفاهيم السلبية: «الأبيض والأسود كالليل والنهار، فبينما يثير سواد الليل الذعر في القلوب يشيع ضوء النهار فيها الطمأنينة والسكينة، كما أن عتمة الليل تخفي الألوان بينما يظهر النهار بريقها. والناس بطبيعتهم يميلون لحب الضوء وألوانه الساطعة، كما أننا نستخدم الضوء الأبيض في علاج الاكتئاب. واهتمام المرء بالألوان الداكنة يعطينا مفتاحا لمزاج هذا الشخص، بينما ارتداء المريض لملابس بيضاء يعطينا انطباعا أنه آخذ في التحسن».



ويسجل لنا التاريخ أن جماعات مثل «جماعة اليد السوداء» و «جماعة الأوجه السوداء» و«جماعة الستر السوداء» دأبت على العنف والتخريب. وتعد جماعة الستر السوداء التابعة للزعيم الفاشي موسوليني أهمها على الإطلاق. فبعد طرد هذه الجماعة على إثر انقلاب عام ١٩٤٣ تجنب الناس ارتداء القمصان السود.

أما اللون الأبيض فهو يعني الخلو من الألوان، كما يعني الضوء أو الشحوب (شعر أبيض، شفاه بيضاء، أيْ من الخوف)، كما يعني الخلو الانحراف الأخلاقي، ويحمل معنى بريء أو عفيف (زواج أبيض)، ومعنى غير ضار (كذب أبيض وسحر أبيض)، كما يشير إلى الأشياء السعيدة أو الأثيرة لدى المرء (أيام الحياة البيضاء)، ويعني أيضا المحافظ سياسيا أو الشعب التقليدي الذي يقوم بإجراءات ثورية مضادة (إرهاب أبيض).

وفي مجال الموسيقى يرتبط الأبيض بجودة النغمة الموسيقية المتميزة بنقاوتها وخلوها من التردد والاهتزاز.

أما اللون الأخضر فيحوي معنى الرحمة واللطف والاعتدال (شتاء أخضر–معتدل)، ومعنى الجاذبية والبهجة، ومعنى الشباب والحيوية وعدم النضج أو الاكتمال (تفاح أخضر)، وكذلك معني الجدة. وفي المقابل قد يعني شيئا له مظهر باهت ومريض أو شخص حسود (اخضرّ من الحسد)، كما يشير هذا اللون إلى الحركات السياسية المناصرة للبيئة (السلام الأخضر)، أو الأفراد الذين يعملون من أجل الحفاظ على البيئة (حزب الخضر).

أما الأصفر فهو يرتبط بمواد الفضائح المثيرة والأخبار المزيفة (الصحافة الصفراء)، كما يشير إلى الجبن (شيء من الجبن في شخصية الرجل).

أما اللون الزهري فيعني أن الشخص راديكالي معتدل يحمل رؤى اشتراكية سياسية كانت أو اقتصادية، كما يعني أيضا الإثارة العاطفية (زهري مبهج).

هل للأمم ألوانها الخاصة؟

المناسبة بين الألوان وتفضيل بعضها على بعض وما تمثله بعض الألوان من معان، فضلا عن الجوانب النفسية للألوان، كلها أمور خاصة بكل أمة وتختلف باختلاف الزمان والمكان. فالأمريكان واليابانيون مثلا يحملون نفس المفهوم حول الألوان الساخنة والألوان الباردة. وعلى الرغم من هذا يرى اليابانيون أن الأزرق والأخضر ألوان طيبة والبرتقالي والأحمر الأرجواني ألوان سيئة، في الوقت الذي يرى فيه الأمريكان الألوان الأخضر والأصفر والأحمر ألوانا طيبة ويضعون البرتقالي والأحمر الأرجواني في مصاف الألوان السيئة. وبينما يمثل اللون الأسود لون الحزن في الغرب يستبدل به الأبيض أو الأرجواني أو الذهبي في بعض الثقافات الأخرى.

ويذهب «أورخان قورال» إلى أن المجتمعات تميل لاستخدام

الألوان التي تتسق مع معتقداتها وثقافتها. ففي جزر بانجي الإندونيسية يعتقد المواطنون أن أسلافهم وصلوا إلى المكان في زوارق بُنّيّة اللون. ولذا فهم يبنون بيوتهم على هيئة زوارق طليت باللون البني، بل يذهبون إلى حد التضحية بحيوان عجل البحر لتعليق رأسه على المنازل كي يزيدوا في زخرفتها، ويرتدون اللون الأحمر في أثناء الجنائز حيث يشيع هذا اللون في ثقافتهم وتمتلىء الشوارع بالمشيعين الذين يتشحون باللون الأحمر.

أما في منغوليا فيشيع اللون الأخضر حيث يحب السكان الطبيعة والحيوانات، وفي جواتيمالا أجبر المحتل الأسباني كل قبيلة من السكان الأصليين على ارتداء لون معين كي يستطيع تمييزهم. وكأن الناس أحبوا هذا الأمر وقبلوه، فما زال الأمر ساريا حتى اليوم. أما مدينة فارانسي الهندية ونهر الجانج فهما يذكران المرء باللون البرتقالي بينما يذكرك تاج محل باللون الأبيض.

وتقول «نوّال سَوينْدي» التي عاشت في إيران لفترة: «إن الإيرانيين يرون أن اللون الأسود لون شريف»، وترى «نوال» أن الإيرانيين والغربيين كذلك يرون اللون الأسود رمزا للحداد؛ ويتشح الإيرانيون باللون الأسود لتذكر أئمتهم، بينما يرتدي الغربيون السواد في جنائزهم لتذكر قديسيهم.



وتستطرد سويندي: «يبدو أن الإيرانيين يرتدون ثياب الحداد على الدوام فكربلاء تعيش داخلهم. أما الأتراك فلا يعدون اللون الأسود لونا حزينا. لذا فهم يرتدون ثيابا عادية أثناء حضور الجنائز لأنهم ينظرون إلى الموت كجزء لا يتجزأ من الحياة.

أما اللون الأحمر فهو عند الإيرانيين لون العار، وأما في تركيا والصين والهند فيعد الأحمر لون الزفاف حيث ترتدي العروس خمارا أحمر على رأسها عشية زفافها وتحيط خصرها بحزام أحمر اللون يوم الزفاف؛ كما تضع المرأة ساعة الولادة أيضا شريطا أحمر اللون كإشارة إلى أنها على عتبة مستقبل جديد مليء بالثراء والغنى.

أما الأفارقة والآسيويون فهم يحبون ارتداء الألوان المتعددة، وأرى أن هذا يرجع إلى طبيعة البلاد التي يقطنونها حيث الطبيعة والجو المشمس الساطع الذي يؤثر على أرديتهم وأمزجتهم.

أما اللون البنفسجي فهو لون الإمبراطورية البيزنطية حيث كان الإمبراطور وحده هو من يرتدي هذا اللون، وحتى بعد موت الإمبراطور بنيت مقبرته من حجارة بنفسجية اللون. وأظهرت حفريات تيومولوس بمدينة «تكيرداغ» في تركيا أن الإسكندر الأكبر كان يرتدي غالبا اللون القرمزي. وربما يكون هذا هو السبب وراء تفضيل أباطرة الدولة البيزنطية هذا اللون بدرجاته المختلفة.

هل للأديان ألوان

يجاب عن هذا السؤال بـ«نعم» و«لا» في الوقت نفسه، فالمسلمون مثلا يفضلون اللون الأخضر حيث تغطى قبورهم وأضرحتهم بأردية خضراء، كما يَشيع اللون ذاته في مساجدهم. ومن المعلوم أنه ليس للإسلام لون خاص؛ وربما يربط بعض الناس بين الإسلام واللون الأخضر حيث كان النبي ﷺ يحب اللون الأخضر، فهو يريح العين ويرتبط بالطبيعة. لكن الحقيقة هي أن النبي ﷺ أمر الناس أن يرتدوا ما صفا لونه وخلا من الدنس وأراح العين.

ونرى القساوسة الأرثوذكس الشرقيين يتشحون بالسواد ويضعون غطاء رأس أسود اللون، بيد أن هذا الأمر ربما ليس له أيّ مغزى ديني، إلا أن رجال الدين والراهبات الكاثوليكيين ربما يفضلون اللون الأسود لبساطته ووقاره.

وبعض الرهبان البروتستانت (مثل اللوثريين-أتباع مارتن لوثر) يرتدون اللون الأبيض أو الرمادي ربما كردّ فعل ضد الكنيسة الكاثوليكية؛ كما ترتدي بعض الجماعات اليهودية المتشددة المعاطف السوداء الطويلة والقبعات السوداء عادة في أثناء المناسبات الدينية أو الأحداث الهامة ليدلوا على أهمية الحدث.

تستخدم الألوان في أغراض شتى تتنوع ما بين الطب والفن والسياسة والأنثربولوجيا. والألوان جزء لا يتجزأ من الحياة، ولا يهمنا كيف تستخدم الألوان، فأفضل استخدام لها نستطيع أن نراه في صنع الخالق العظيم سبحانه. ■

---

*) كاتب وباحث تركي. الترجمة عن الأنكليزية بهاء الدين إبراهيم نعمة الله.

حراء (٢)

أ.د. حسن الأمراني *

وجه أروى

أرى البوسفور يُطلع وجهَ أروى ... يقول: أطلتَ يا أبتي الغيابا
فقلت: بُنيّتي.. هيّا الحقي بي ... هنا الإسلام قد ضرب القبابا
لقد تـرك المدينـة مطمئنّا ... أبـو أيّوب وامتشق الصعابا
تكنّفه الهدى من كل صوب ... فـردّد كلّ محروم: أصـابا
وما رغب المجاهد عن حِماه ... ولمْ يكسبه ترك «الدار» عابا
ولكنْ نـورُ ربي وهْو أبقى ... غـدا يحدو بهمّته الركـابا
وقامت بنت ملحانٍ تنـادي ... وخلّفت الأسـاور والخضـابا
أناساً يركبون البحر خضراً ... ملوك أسـرّةٍ ملكوا الرّقابا
ملاحم لم يشبها ثوب زور ... وكم للحق ثـوب الزور شابا
تحققت البشارة يا حبيبي ... فهذا البحر وطّأ لي الجنابا
فكيف يقيّد الطين انطلاقي؟ ... ويرجو النجمَ من وطئ الترابا
إذا ما راية رفعت لمجدٍ ... غدت بيمين أورخان العُقابا
بغاث الطير تأمن في حماه ... ويـورث كلّ جبّار عِقابا
وأسّس ملك عدل لا يبارى ... وأعـلاه اقتدارا لا انتهـابا



ألا يا أيّها العلم المفدّى   ظمئت فلم يك الإثم احتقابا
ترى الفتح المظفر خير كأسٍ   وطاب الفتح للظامي شرابا
خرجت وريح جعفر خير حاد   إلى الفردوس، تعتنق الضرابا
وسقت الخيل تطّلب المعالي   فكان النجم منزلها غلابا
فقل يا حالما بلواء حمد   يظلّل في القيامة من أنابا
أنا الإيمانُ مثل الشمس يجري   لغايته وينتظم الهضابا
ويغدو الكوخ قصراً مشمخرّا   إذا ما النّور للأحشاء جابا
وأرسل طائري نحو المعالي   فيمسي في دياجيري شهابا
وإن البلبل الموفور عشقاً   يُخلّف للدياجير الغرابا
ويمنح لحنه للفجر يرجو   من الورد استماعا لا رضابا
تأمّل: «أن تكون» وليس «تبدو»   طريقُ هدى لمن فقه الكتابا
تضيق بي البلاد وباصطخابي   فتغدو السّدرة الغرّا مثابا
﴿أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ﴾ لي خيْر زاد   ونور ﴿بَلَى﴾ غدا عندي شرابا
أدرها يا نديم فما سواها   أريدُ... بسرّها زدني اقترابا
ورُشّ بها غداً قبري إذا ما   يدُ الأقدار قد طوت الكتابا

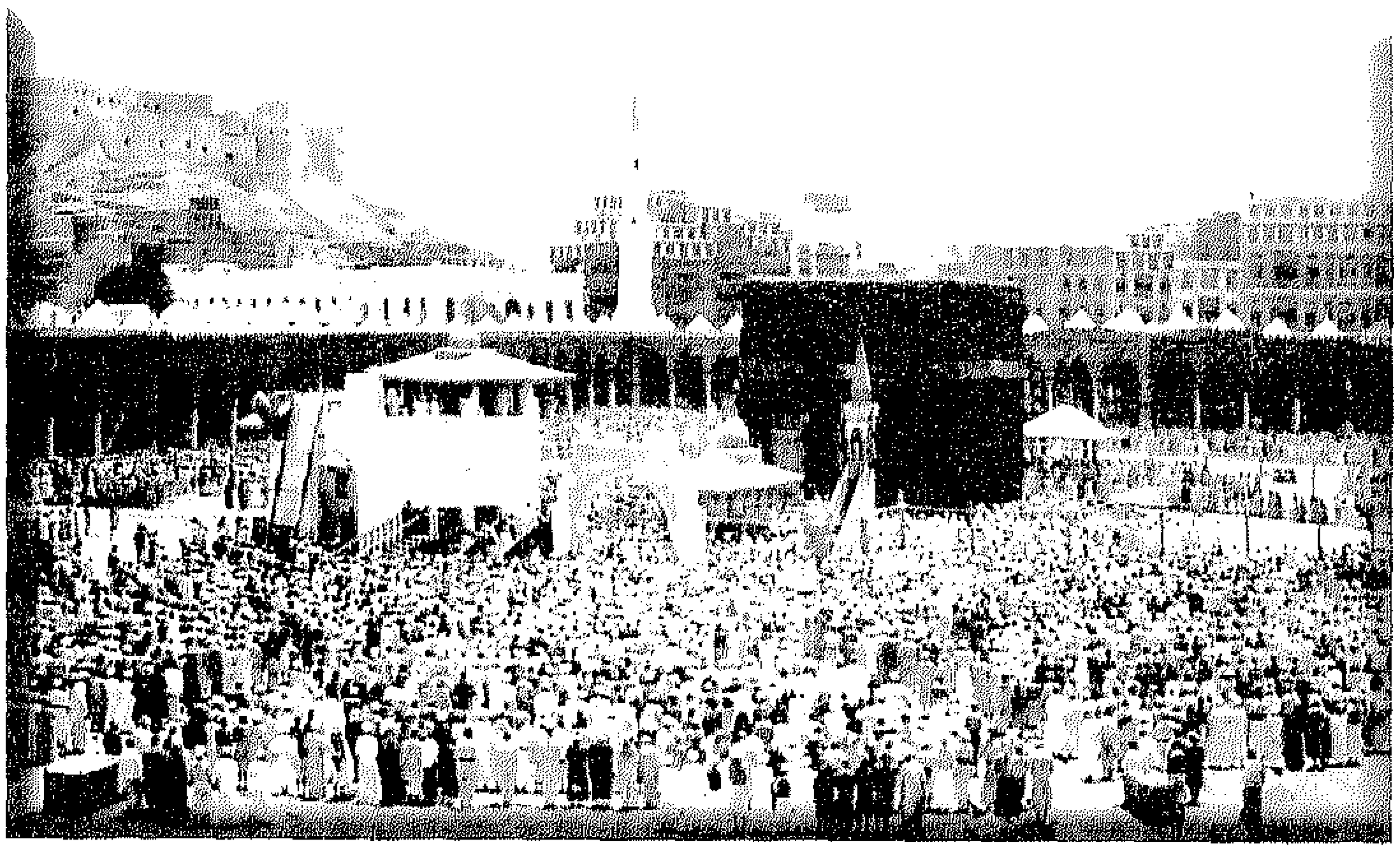
عندليب الكون

تملّكَ عندليبُ الكوْنِ قلبي   فأسْكنَ مهجتي مُدُناً رِحابا
أليس معلّمَ الأكوان ألقتْ   إليه الأمر لله احتسابا؟
ومن غير المعلّم يرتجي من   يسوق لساحه النّجب العرابا
وعلّمني المحبّة والتصافي   وبصّرني بها العجَب العُجابا
على دين الحبيب يكون موتي   وما الصبّ الحزين كمن تصابى
لقد شرُف الرّقيم بساكنيه   وأعلى ذكرُ قطْميرَ الكلابا
أحلّ العشقُ منزلةً هواه   رجاها بعْضُ من لبس الثيابا
فكيف وفي «حراء» قد تجلّى؟   وكيف ومن «حراءَ» همَى شهابا؟
أنا قطمير من قدمي حبيبي   أقبّل عند حضرته الترابا
ولو أني وقفت العمر مدحا   لما أفرغت من مدحي الوطابا
لقد عَرضتْ فقال: إليك عنّي   ولا آلوك بعدا واجتنابا
وقد كشف الغطاء له عيانا   وشاهد عالم الغيب اصطحابا
فما ازداد الفؤاد به يقينا   إذ ازدان الكمال به اختضابا
يهيج ليَ البكاءَ الذكْر حتّى   جميل الصبر في الأحشاء غابا
تضعضع مركبي المسكين وجدا   فموج البحر يوسعني عتابا
وقال العاشق المجْنونُ قولا   وعاه الكون فانشعب انشعابا:
«محمّد ارتقى فأتى محلاً   غدا للسدرة الغراء بابا
ألا قسماً لَوْ أنّي يا إلهي   أتيته ما رضيت به إيابا»
صعدت إلى الجبال فطاش عقلي   فكيف وأحمدُ اخترق الحجابا؟
وكيف وقد دنا حتّى تدلى   فصار من الحبيب الفرْد قابا؟ ■

*) رئيس تحرير مجلة المشكاة – المغرب.

إستانبول: ٣١ يوليو ٢٠٠٥ / ٢٥ جمادى الآخرة ١٤٢٦





الكعبة الشريفة / من ألبوم السلطان عبد الحميد الثاني

قوافل الحج في العصر العثماني

أ.د. الصفصافي أحمد القطوري *

لقد كانت السمة الدينية من أهم السمات التي اتسمت بها تشريعات الدولة العثمانية؛ فقد كان للهيئة الإسلامية وضع معترف به، وكان يطلق على رئيسها لقب المفتي أو مفتي إستانبول، ثم تَغير هذا اللقب إلى «شيخ الإسلام» الذي كان يشرف على الهيئات القضائية والهيئات ذات الطابع والنشاط الديني. وكان السلاطين أنفسهم حريصين على تدعيم سلطته، فقد كان شيخ الإسلام يصدر فتوى تجيز الحرب، دفاعا، أو هجوما، وعقد الصلح، وغير ذلك من الأحداث الجسام.

وقد كان من مظاهر اهتمام الدولة العثمانية بالدين والعالم الإسلامي اهتمامها بمنصب نقيب الأشراف.

الحجاز في العهد العثماني

كما كان الاهتمام الكبير بالحجاز من السمات التي حافظ عليها كل السلاطين العثمانيين؛ فقد كان الحجاز وما يحويه من أماكن إسلامية مقدسة تابعا للدولة العثمانية، مما أضفى عليه مركزا دينيا مرموقا في جميع أرجاء العالم الإسلامي. وقد أعفت الدولة العثمانية منطقة الحجاز من أداء الضرائب، بل أقر لها سليم الأول ثلث ما كان يجبى من مصر. كما أوقف خراج اليونان عند فتحه على الحرمين الشريفين. ولم يكن الاهتمام وقفا على الأماكن، بل تعدّاها إلى المواطن، فقد أُعفِي سكان الحجاز من التجنيد، وأبقت الدولة على الحكم الذاتي المتمثل في نظام الشرافة؛ وكل ما كانت تفعله أن ترسل فرمانا تحدد فيه إمكانات واختصاصات وواجبات الشريف الجديد عند تعيينه، وتوصيته ببعض الوصايا التي كانت تنصب في أغلبها على حماية الحجاج في أموالهم وأرواحهم، وأن يقسم بالعدل الصرة الهمايونية بين الأهالي، وكذلك المؤن القادمة من مصر، وأن يسعى لبسط الأمن على الطرق. وكان أمير مكة المكرمة يتمتع –في التشريفات– بأسمى مقام في صف الصدر الأعظم في الآستانة والخديوي في مصر وترتب له العطايا من قبل السلطان.

ولكن الشيء الذي أولته الدولة العثمانية جل اهتمامها، هو قوافل الحج والإشراف المباشر والفعلي على الحج، واعتبرت هذا العمل واجبا يقع على عاتقها، باعتباره الركن الخامس من أركان الإسلام، وأن عليها تيسير الحج أمام الراغبين فيه، فأنشأت قوافل الحج، واهتمت بالطرق؛ فأقامت الحصون، وحفرت الآبار على طول طرق الحج، وشجعت على إقامة الخانات، وأقامت المخافر، وكانت تشرف على قوافل الحج الرئيسية التي

كانت تخرج من أنحاء الدولة كافة في مواعيد محددة كل عام، وتضع لها قوة تحرسها، يقودها أحد كبار العسكريين، الذي كان يسمى «سَرْدَارُ الحج». وكان على رأس كل قافلة أمير للحج، وكثيرا ما كان أمير الحج يتولى قيادة الجيش المرافق للقافلة، وخاصة قافلة الحج الشامي.

أهم قوافل الحج

وكانت أهم قوافل الحج في العهد العثماني:

أ. **قافلة الحج الشامي**: وتضم حجاج بلاد الشام والجزيرة وأذربيجان والقوقاز والقرم والأناضول والبلقان، وحجاج إستانبول نفسها، وكان عددها يتراوح ما بين ثلاثين وخمسين ألفا.

وقد كان السلطان العثماني يشرف بنفسه على ترتيب وإعداد هذه القافلة وخروجها من مدينة إستانبول. وكانت القافلة تقطع الطريق التجاري حتى تصل إلى دمشق، ومنها إلى أراضي المؤآبيين القدماء، ومن بلاد معن عبر صحراء مزريب إلى مدائن صالح حتى تصل القافلة إلى المدينة المنورة.

وكان السلطان العثماني يصدر أوامره إلى الولاة لتسهيل مهمة مرور القافلة، وأن يتولوا مهام حراستها حتى تصل إلى حدود الولاية المجاورة، فيتولى الوالي الجديد استقبالها وتأمين مسيرتها عبر ولايته، حتى تصل سالمة إلى نهاية ولايته وهكذا.

وقد كانت القافلة وعلى رأسها أمير الحج تعبر هذه الولايات وسط حفاوة واهتمام بالغ، ويتسلم أمير الحج بصك شرعي أموال الأوقاف والهدايا المرسلة إلى أهالي الحرمين الشريفين، وإلى الحرمين الشريفين ذاتهما، من بسط وتحف ومصابيح وشمعدانات ومواد غذائية وما شابه ذلك.

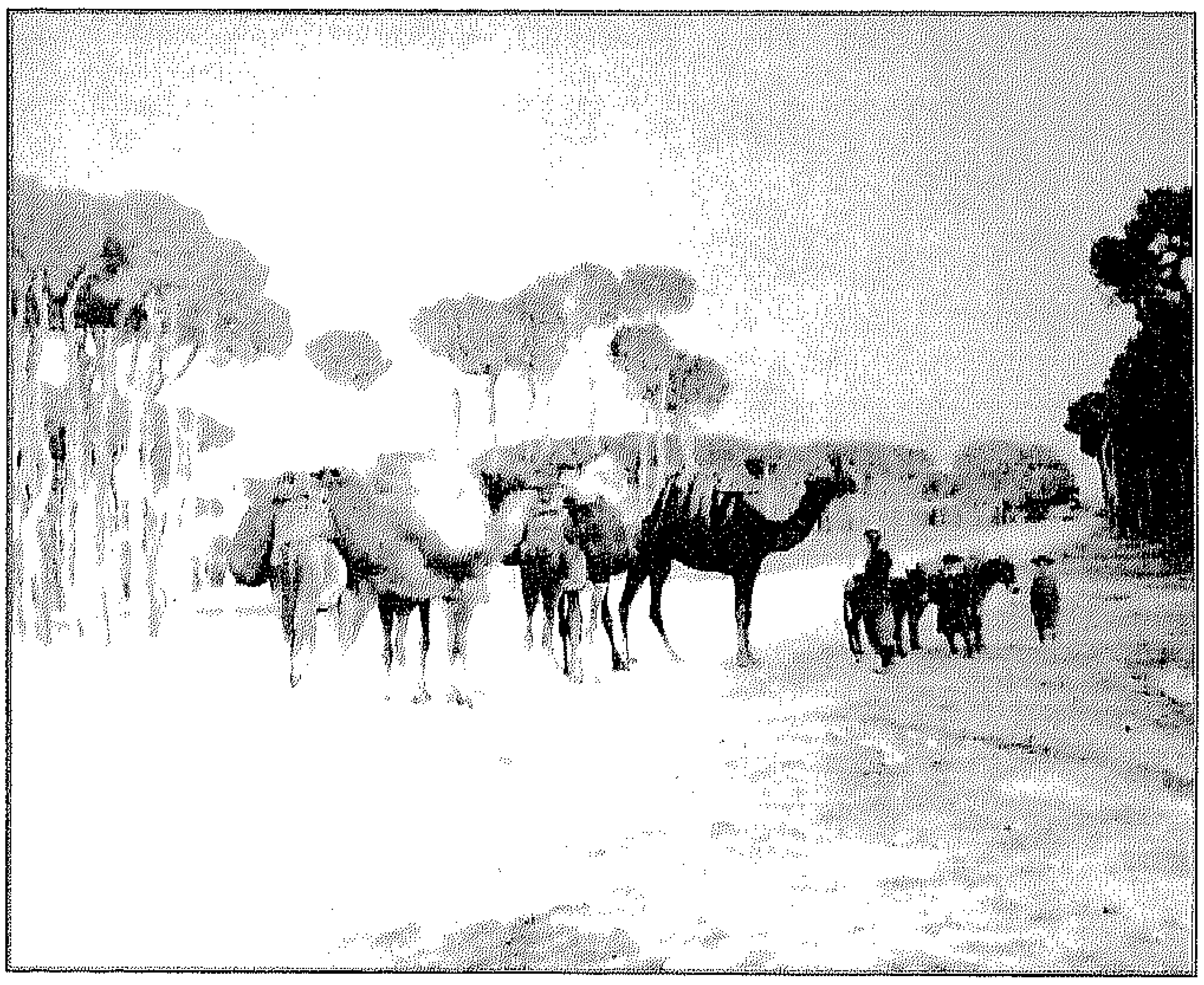
ب. **قافلة الحج المصري**: وتضم حجيج مصر وشمال أفريقيا، وكانت من أهم القوافل خلال العصر العثماني، حيث كانت تضم المحمل المصري وكسوة الكعبة المشرفة الجديدة. وكانت تتحرك من القاهرة خلال الأسبوع الأخير من شوال من كل عام، وسط احتفالات عظيمة تتم تحت إشراف الوالي نفسه. وتقطع المسافة في ٣٧ يوما، سالكة طريق السويس وسيناء والعقبة ثم تلتقي في بعض الطرق مع قوافل الحج الشامي، وفي بعض السنوات كانت تستقل السفن من السويس إلى جدة، أو من الموانيء المصرية الأخرى المواجهة لجدة.

ج. **قافلة الحج العراقي**: وتضم حجاج العراق وفارس، وتسلك الطريق الذي يعبر جزيرة العرب نفسها. وكان كثير من حجاج فارس والخليج العربي واليمن يفضلون طريق البحر والسفن البحرية.

د. **قافلة الحج اليمني**: وتضم حجيج اليمن والهند وماليزيا وأندونيسيا، وينضم إليهم حجاج الحبشة والصومال والأفارقة الذين يصلون إلى مصوع وسواكن وموانيء اليمن.

كانت القوافل تضم عناصر مختلفة؛ ففيها الأمراء، والأثرياء، والتجار ومعهم تجاراتهم، والفقراء والمعدمون. وكان كلٌ حسب قدرته يرافق القافلة، ففيها الهودج وفيها الجمال والخيول، وفيها الرجالة من البدو والفقراء.

وقد كان الولاة يقومون باستئجار الجمال والخيول لحمل مهمات القافلة، ويتعاقدون على ذلك قبل موسم الحج بوقت كافٍ، ويتفقون على ذلك مع مشايخ الأعراب والبدو الذين يعيشون في المناطق التي تسلكها القوافل.



من ألبوم السلطان عبد الحميد الثاني.

أهم طرق القوافل

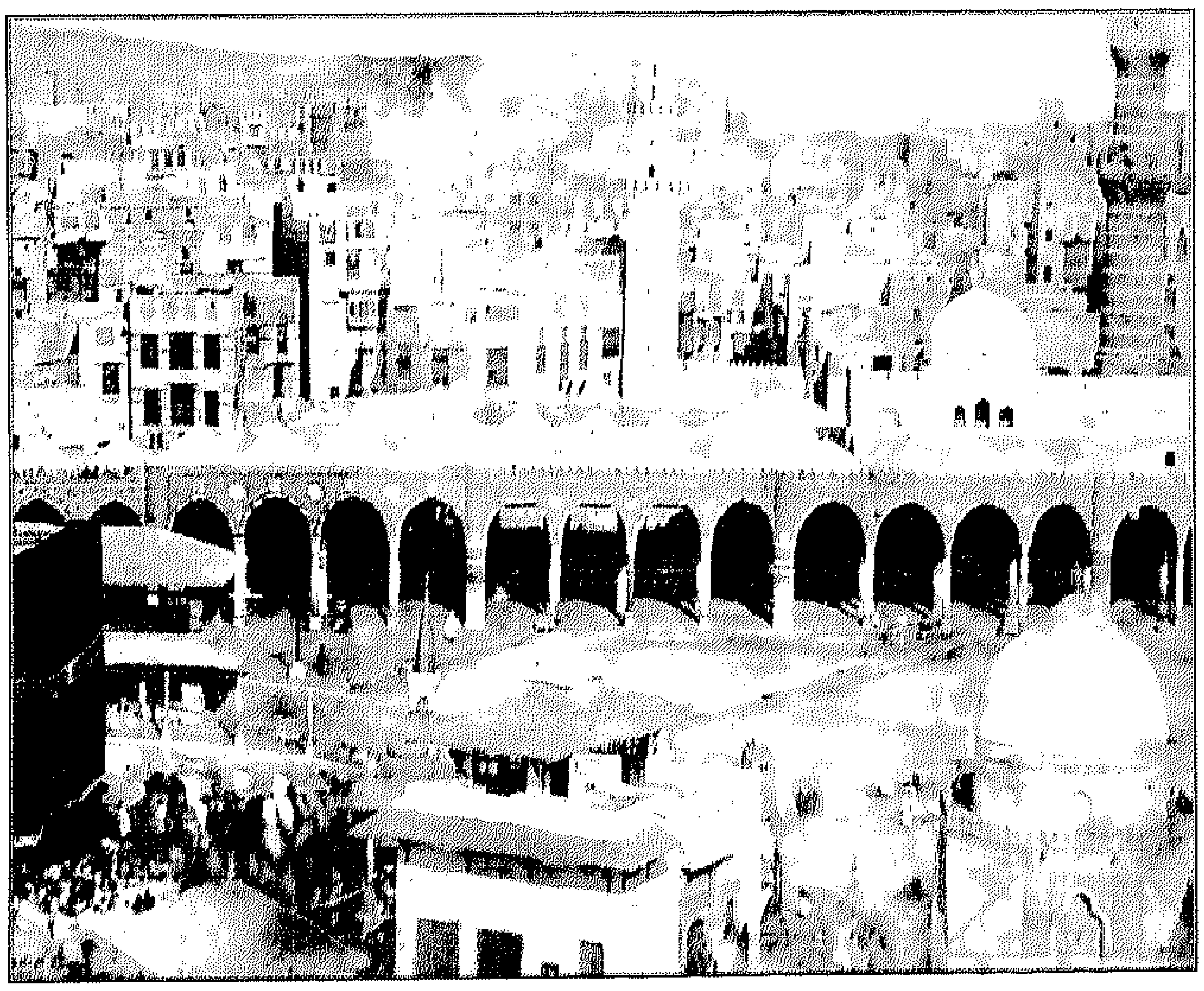
وأهم الطرق التي كانت تسلكها القوافل بين الحرمين الشريفين هي:

١. **الطريق السلطاني**: أي الطريق الرئيسي، وكان على حجاج القافلة التي تسلك هذا الطريق أن يتجمعوا عند وادي فاطمة بالقرب من مكة المكرمة للاتجاه إلى المدينة المنورة. ويتزود الحجاج فيها بما يلزمهم، ثم يتجهون إلى بئر عسفان، وتسلك طريقها حتى تصل إلى رابغ التي تفترق عندها الطرق، وإن كان أكثرها استعمالا هو الطريق السلطاني.

كان الحمّالة هم الذين يحددون أماكن التوقف، وكانوا

يفضلون تلك التي تضم آبارا للتزود بالمياه. وتعودت القوافل أن تدخل المدينة في اليوم السادس من خروجها من رابغ. وهذا الطريق السلطاني كان هو الطريق المعتاد بالنسبة لقوافل الحج وقوافل المحامل. وبالرغم من قلة مياهه فإن مطالعه ومنازله الوعرة كانت شبه معدومة، ولكن كانت تبعد عنه بعض الشيء سلاسل جبلية مكنت بعض عربان البدو من مهاجمة هذه القوافل، مما دفع قوافل الحجاج المسلمين ومواكب التجار إلى أن يسلكوا الطرق المسماة بالطرق الفرعية لعمرانها وعدم خطورتها.

٢. **الطريق الفرعي**: هو الطريق المؤدي من رابغ إلى المدينة المنورة عن طريق «بريدة». والذين يودون السفر عن طريق «الطريق الفرعي» يتجمعون عند «المرحلة»، التي تسمى آنذاك «بئر رضوان»، وهي تبعد مسيرة ثنتي عشرة ساعة من رابغ،



الكعبة الشريفة / من ألبوم السلطان عبد الحميد الثاني

ويتزودون بالمياه والمؤن، ثم يسلكون الطريق مارين بقرية «أبي ضياعة» و«ريان» و«أم العيال» و«مضيق» و«صمد»، ثم تمر القوافل من المنطقة المنخفضة التي تسمى الغدير التي تتجمع فيها مياه الأمطار فتحولها إلى ما يشبه البحيرة.

الطريق الفرعي الثاني المؤدي إلى المدينة المنورة هو طريق غابر، وبالرغم من أن المسافة عبر هذا الطريق كانت تقطع في خمسة أيام من مكة إلى المدينة، فإنه طريق جبلي، كثير المطالع والمنازل، مما جعله صعب المنال بالنسبة للجمال التي غالبا ما تكون محملة بأشياء ثقيلة، وتجعل قطع الطريق مرهقا، كما أن كثرة الجبال تجعله مرتعا لقطاع الطرق والأشقياء، مما يدفع الجمالة إلى الابتعاد عنه وعدم سلوكه، إلا أن قِصَرَه بالنسبة للطريق السلطاني والطريق الفرعي تجعل منه معبرا مطروقا من قبل المشاة، أو من يمتطون صهوة الخيول، أو من قبل فرسان الخيالة والهجانة التابعين لقوة الدولة العثمانية، والمنوط بها حفظ الأمن وحماية مكة المكرمة والمدينة المنورة. وتورد بعض كتب التاريخ أن النبي محمداً ﷺ قد سلك هذا الطريق عند هجرته الميمونة إلى المدينة المنورة.

وهناك أيضا الطريق الشرقي الذي يربط المدينة المنورة ومكة المكرمة، وهو طريق كبير ومتسع إلى حد ما، وكثيرا ما تسلكه القوافل المترددة بين المدينتين المقدستين، وهو الطريق المفضل عند قوافل المحمل، والقوافل التي كانت تحمل الصرة، وخاصة في المواسم التي كانت تشتد فيها الحرارة، وتزداد فيها حملات الخارجين على القانون، وتسلطهم على الطرق الأخرى.

وعرف بهذا الاسم لوقوعه على الطرف الشرقي من بلاد الحجاز، وتصل القوافل التي تقطع هذا الطريق إلى مرحلة بئر الليمون بعد مسيرة أربع عشرة ساعة، ثم بئر برود الذي تفضل القوافل الاستراحة عنده، والتزود من مياهه العذبة. وبعد المرور من بضع آبار ومراحل أخرى تصل القوافل إلى «بركة زبيدة»، وهي البركة التي أمرت السيدة زبيدة زوجة هارون الرشيد بتشييدها لتجمع فيها مياه السيول في هذه المنطقة.

ومن الطرق الفرعية التي تسلكها القوافل بين المدينة المنورة ومكة المكرمة أيضا طريق ينبع البحر. فينبع البحر تعد مرفأ المدينة المنورة. والقوافل المتجهة إلى البلدة الطيبة تصل أولا إلى «بئر سعيد» ثم قرية «صفراء»، وعند هذه القرية يلتقي طريق ينبع البحر مع الطريق السلطاني؛ ومن ينبع حتى طيبة الطيبة خمس مراحل سيرا بقوافل الجمال. والمعروف أن المرحلة هي مسيرة يوم واحد بالجمال، أي مسيرة سبعة وعشرين ميلا. وتمر القوافل التي تسلك هذا الطريق بقرية بدر المباركة، ويقرأون الفاتحة على أرواح شهداء بدر الكبرى، وهذا الطريق سهل ومستوٍ مما يشجع القوافل على عبوره.

أشهر الطرق إلى مكة المكرمة

أما أشهر الطرق المؤدية إلى مكة المكرمة، وكانت تسلكها قوافل الحج القادمة من بلدان العالم الإسلامي فكانت سبعة طرق، وبيانها كالتالي:

١. طريق الشام

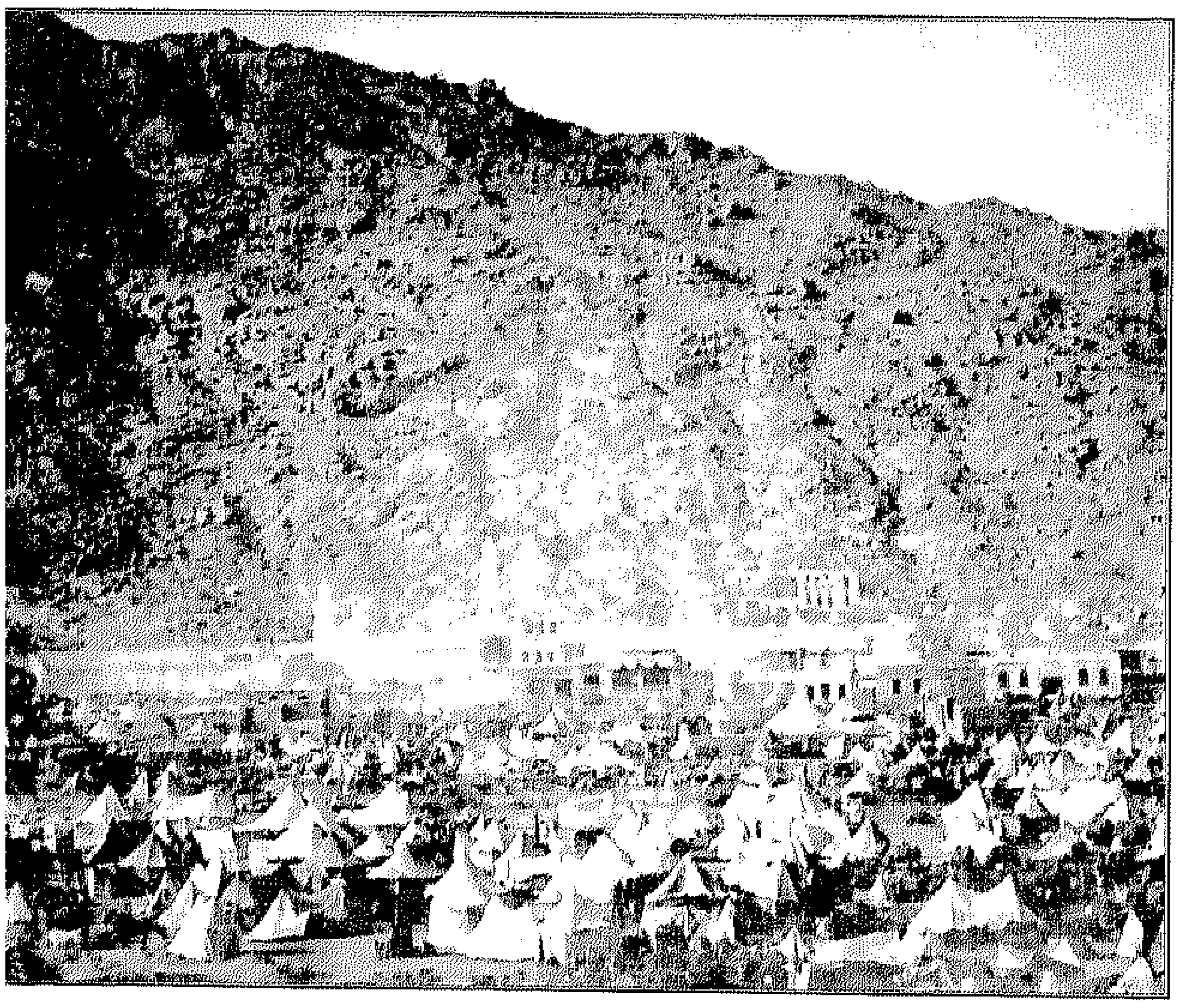
هو الطريق الذي كانت تسلكه قوافل الحج القادمة من الشام وكذلك قافلة محمل الشام. وكانت قافلة الشام تتحرك في أغلب المواسم في الخامس عشر من شوال تحت رئاسة أمير الحج، وكان يتولاها في العادة والي سوريا. وقبل التحرك يجري احتفال كبير ينظمه قائد الجيش الخامس، وبعد القيام بالتشريفات المعهودة في مثل هذه الأمور تخرج القافلة من الشام من «قبة الحاج»، التي كانت تعد نقطة البدء للقافلة، ومنها إلى الكسوة حيث ينضم إليها الحجاج الذين تجمعوا في «مزريب»، ثم تتجه مجتمعة إلى المراحل التالية.

ومن المناطق التي تمر بها القافلة عبر هذا الطريق منتزه مزريب في حوران، وبجوار عين مزريب أمر السلطان سليم الأول ببناء قلعة –مازالت أطلالها باقية حتى الآن– لحماية قافلة الحج، ثم الزرقاء فالبلقاء، ثم القطرنة حيث القلعة التي شيدها سليمان القانوني بجوار البركة التي أمر بإعادة تطهيرها بعد أن كانت قد تساوت مع الأرض. ومن القطرنة تتابع القافلة سيرها حتى الكرك، ثم عنيزة، فقلعة معان. وهذه المنطقة تسجل كتب التاريخ أنها كانت مقر إقامة بني أمية، وأمر السلطان سليمان القانوني بإقامة قلعة وحفر بئر فيها. ومن معان إلى ظهر العقبة نحو «ذات الحج»، وفي ذات الحج أو حجر هذه أمر القانوني بإقامة قلعة لحماية القوافل من غارات البدو والأعراب، وتشتهر بتمورها وثمارها الجيدة. ومنها إلى «قاع البسيط» فتبوك ثم أخيضر التي تقع في منتصف المسافة بين مكة والشام.

وقد كلف السلطان سليمان القانوني عند جلوسه على العرش سنة ٩٢٦هـ – ١٥٢٠م واليه على الشام مصطفى باشا ببناء قلعة أخيضر، وبعدها تصل القوافل إلى بركة المعظم، ثم جبل الطاق الذي عقرت فيه ناقة النبي صالح عليه وعلى نبينا الصلاة والسلام. ثم مبرك الناقة، ثم قرى صالح، ثم ديار ثمود، وهي تلك المنازل التي نحتت في الجبال، وفيها مسجد النبي صالح عليه السلام، ومنها إلى العلا التي تبعد عن المدينة المنورة بست مراحل، وهي من ملحقات المدينة المنورة؛ وأمر السلطان القانوني بتجديد قلعتها وحصنها لحمايتها من غارات الأعراب. ومنها إلى شعب النعام ومنزل فحلتين، ثم وادي القرى الذي تكثر فيه المياه والغابات، وأبيار علي رضى الله عنه، وفيها يحرم الحجيج جميعًا. ومنها تمر القوافل بقبور الشهداء، ثم الجديدة وقاع البرو وبلاد طارق وعقبة السويق؛ ومنها إلى عسفان حيث الآبار النبوية المأثورة، وبعدها تدخل القوافل إلى مكة المكرمة في أوائل ذي الحجة من كل عام، بعد أن تكون قد قطعت المسافة من المدينة في مائة وست ساعات.

٢. طريق مصر

وقد جرت العادة منذ القدم أن يصحب أمير الحج المصري المحمل وسط احتفال كبير من القاهرة متجها إلى بركة الحاج. وهناك يلتقي بجموع قافلة الحج المصرية، حيث يتجهون سويا إلى هدف البويب، ثم يتجه الموكب بعد ذلك إلى الحمرا، حيث أقامت السلطات المعنية آنذاك عدة أبنية وسقاية ماء ليتزود منها الحجاج؛ ومنها إلى بركة عجرود التي تقع تجاه السويس وتسمى أيضا «عيون موسى»، وكان بها خان كبير منذ زمن قانصوه



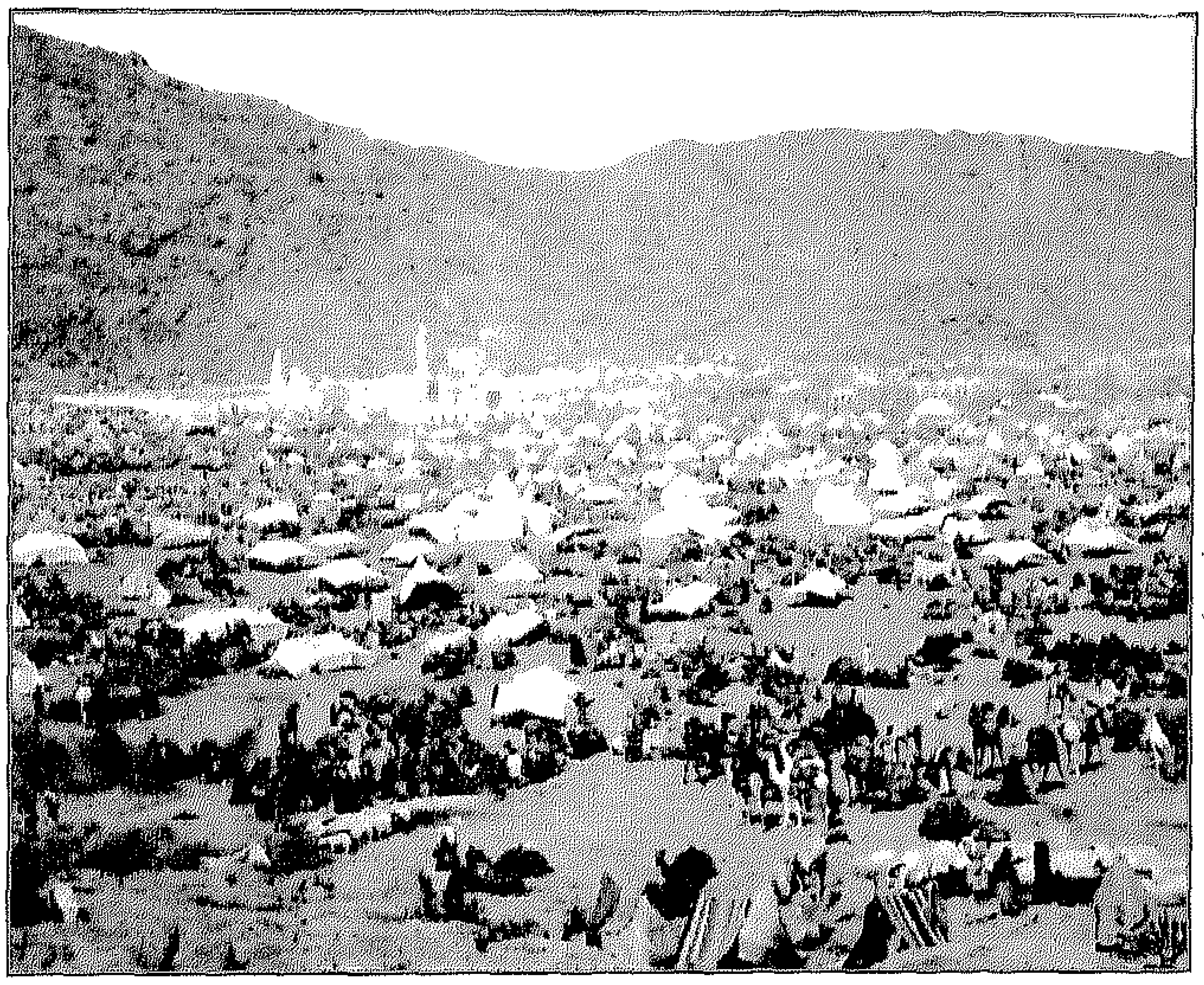
الغوري. ثم تتحرك القافلة إلى منصرف، وفيها بعض المنخفضات التي يظن أن ملوكا سابقين قد حفروها في العصور الغابرة للربط بين البحرين الأبيض والأحمر، وهي التي حفرت مكانها قناة السويس. ومنها إلى قبيبات، ثم أول التيه حيث على الجانب الأيمن جبل الطور والجانب الأيسر جبل العريش. وفي وادي النعمان قام والي مصر علي باشا بتوسيع الحصن والسقاية لخدمة الحجاج، ويقوم الحراس بملء حوض الفسقية قبل وصول الحجاج، وبعدها تتابع القافلة سيرها حتى مغارة شعيب وعيون القصب وشرم ومويلحة، وفيها دار قايتباي، ثم بطن كبريت فأزلم فالوجه فجبل الزيت حتى ينبع، وتستمر القوافل من العقبة حتى رابغ، ثم تواصل سيرها في الطريق المعروف حتى مكة.

٣. طريق عدن

تخرج القافلة وسط احتفال مشهود من لحج إلى يكرد، ثم تعز، ثم وادي الحسنا، ثم تنزل القوافل إلى «حيس». وكان المحمل اليمني يخرج من عدن عندما كانت تحت الإدارة العثمانية، ومنذ سنة ٩٦٣هـ بدأ الوزير مصطفى باشا والي اليمن في تنظيم موكب المحمل الشريف باسم محمل صنعاء اليمن على إثر صدور فرمان له بهذا الصدد.

يتحرك الموكب من حيس إلى زبيد فرفع، ومنها إلى بيت العقبة الصغير، ومنها إلى قطيع، ثم المنصورية، ثم يتابع الموكب سيره في الطريق المعهود.

أما حجاج شحر فإنهم يتجهون إلى حضرموت برا، ثم إلى صنعاء، ثم ينضمون هناك إلى قافلة صنعاء، ويتجهون سويّاً إلى



«منى» / من ألبوم السلطان عبد الحميد الثاني

مكة المكرمة، ومن شَحر إلى حضر موت خمسة منازل، ومنها إلى صنعاء أربعة منازل. وعلى حجاج ظفار الذين يودون الاتجاه إلى صنعاء براً أن يقطعوا خمس عشرة مرحلة سيرا، ثم ينضمون إلى جموع الحجيج التي احتشدت هناك لمواصلة السير سويا.

٤. طريق عمان

يمثل طريق عمان الطريق الرابع بين الطرق التي تسلكها قوافل الحج الإسلامية. ويتجه حجاج عمان بعد أن يخرجوا من حصن المدينة إلى «تروى»، ثم إلى «عجلة»، ومنها إلى «عصوه»، ثم بئر السلاح، وبعد ذلك تشد الرحال نحو مكة. والطريق من الحصن حتى مكة عشرون مرحلة، ولكن لصحراويته وندرة مياهه فإن حجاج عمان يفضلون التوجه والعودة بطريق البحر.

٥. طريق الحسا

وهو الطريق الذي كانت تسلكه جموع حجاج نجد والجزيرة مارين بالدرعية فشعرا ثم مرقب، ومن هناك مرورا ببعض المراحل، حتى ذات عرق حيث مكان إحرام سكان نجد فساحة الكعبة المشرفة.

٦. طريق البصرة

تتحرك القافلة من البصرة إلى الدرهمية، ثم إلى صفوان، ثم إلى منزل «جهر»، وتحط رحالها للتزود بالمياه والمؤن، ثم تتجه إلى حصن النبي موسى الموجود في «أضافا»، وبعدها تتحرك القافلة مارة بالعديد من المواقع والمنازل، حتى تصل أيضا إلى «ذات عرق»، التي تعد ميقات حجاج نجد والبصرة، حيث يحرمون فيها ثم يتجهون إلى بستان بني عامر، فمكة المكرمة حيث بيت الله الحرام.

٧. طريق بغداد

يتجمع حجاج فارس وأذربيجان وغيرها من هذه المناطق في بغداد، وتتحرك القافلة من بغداد حتى تنزل بهضبة (صرصران)، فينضم إلى الموكب جموع أخرى من الحجاج متجهين نحو هضبة (قراشر)، ومنها إلى شط الفرات، ثم إلى الكوفة، فمشهد علي المسمى (سد بيداء النجف)، ومنه إلى «متعب»، ومن هناك إلى «فرع» مرورا بكثير من المراحل، حتى يلتقي بقافلة واسط في المكان المسمى «ثعلب»، ثم تتابع القافلة سيرها.

ويزدان الطريق من بغداد إلى مكة المكرمة بالأبنية وأسبلة المياه والخانات وغيرها من الأبنية رفيعة المستوى، وخاصة تلك التي أمرت ببنائها السيدة «زبيدة» زوجة هارون الرشيد العباسي، والسلطان ملكشاه السلجوقي. وقد حافظ عليها وعني بها السلاطين العثمانيون جميعا.

حماية طرق الحج

ولحماية طرق هذه القوافل كانت الدولة العثمانية تقيم الحصون والقلاع والمخافر على طول الطرق، وتوفر لها القوات التي تقوم بالحراسة وكسر شوكة قطاع الطرق والبدو والخارجين عليها. وأقامت في المدينة المنورة قلعة كبيرة وفرت لها القوات اللازمة لحفظ الأمن في المنطقة. كما كان محافظ المدينة يختار من بين كبار الضباط الذين يستطيعون القيام بالمهام المنوطة بهم على أحسن وجه، وكان يجمع في يديه بين السلطتين المدنية

والعسكرية، وكان المحافظ يلقب أحيانا بشيخ الحرم النبوي. كما أنشأت الدولة العثمانية قلعة في مكان مناسب من مضيق الجديدة بناء على طلب من الأهالي لحفظ الأمن.

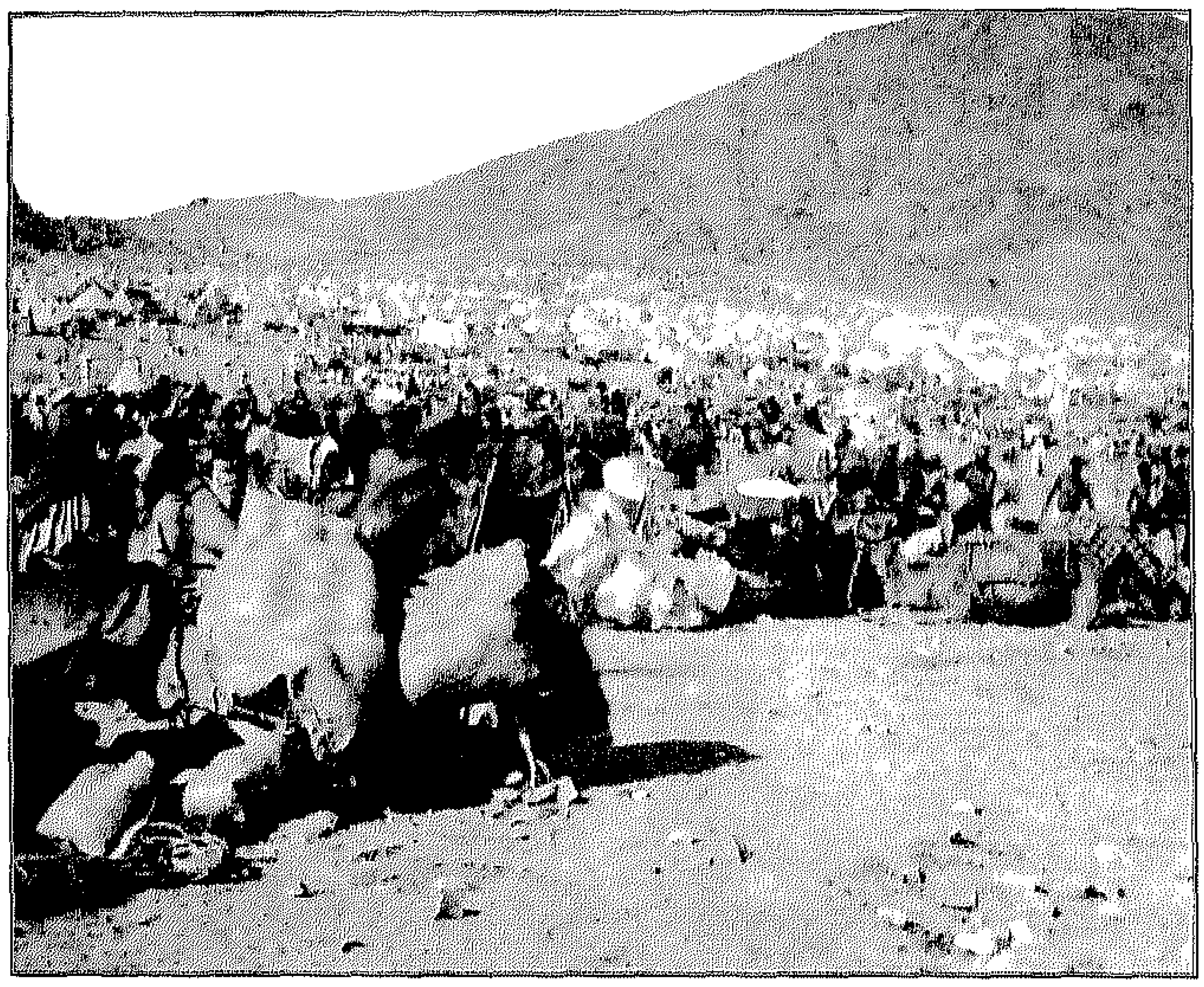
كما كان الجيش السابع الميداني خاصًّا بولاية اليمن، وكانت وحداته كلها تتألف من عساكر نظامية، وكانت فرقة الحجاز المرتبطة بهذا الجيش عبارة عن ثلاث آيالات مشاة ونصف آلاى خيالة وبطارية مدفعية. وقد حرصت الدولة على وضع محطات حراسة بجوار آبار المياه على طرق القوافل، وخاصة قافلتي الحج الشامي والمصري.

ولوقف التهديدات الخارجية لقوافل الحج والأماكن المقدسة قامت الدولة العثمانية بعمل حزام أمن حول الحجاز، يمتد هذا الحزام من سواكن وموانيء اليمن وخليج البصرة وجدة والسويس. ولقد وضعت الدولة في حسبانها أيضا حماية طرق التجارة الشرقية الوافدة من الهند.

وكانت الدولة العثمانية فيما بعد تسعى لتطوير وتنظيم موانيء جدة والحديدة وينبوع، وإقامة الأرصفة والمرافيء، وجعلت هناك أسطولا مقيما من السفن العثمانية للعمل بشكل منتظم بين السويس وعدن. وكانت هناك تقارير تقدم من حين لآخر إلى السلاطين العثمانيين تطالب بضرورة إصلاح وتنظيم وحماية الموانيء الممتدة من العقبة حتى باب المندب؛ كما كانت هناك سفن بريدية «بوسته» تعمل بانتظام بين إستانبول والحديدة، لنقل البريد والجنود بين موانيء البحر الأحمر والحجاز.

موكب الصرة السلطانية

ثم تم استحداث «صُرَّه آلايي»، وهي القوات التي كانت تقوم بالإعداد للاحتفال لخروج الصرة والمحمل وموكب الحج من أمام القصر السلطاني، ثم يناط بها الحفاظ على الصرة والمحمل وقافلة الحج، حتى تصل وتعود في أمن وسلام. وكانت هذه القوات دائما في رفقة هذه المواكب، وكانت تسير برا حتى سنة ١٨٦٤م مستخدمة الجمال والبغال والخيول. وبعد هذا التاريخ شرعت الدولة بإرسالها عن طريق السفن الحربية إلى بيروت أو السويس ومنها إلى جدة أو ينبوع، ثم تكمل رحلتها برفقة قوات الحجاز إلى أماكن الشعائر الدينية. وبعد افتتاح خط السكة الحديد الحجازي ١٩٠٨م كانت ترسل هذه القوات أيضا برفقة هذه المؤن والهبات والأوقاف، ولا تفارقها إلا بعد أن تصل إلى هدفها. وكانت هذه القوافل إذا ما خرجت برا تتحرك من إستانبول في الثاني عشر من رجب، ولكن بعد ما تقرر إرسالها عن طريق البحر أصبحت تخرج في الخامس عشر من شعبان من كل عام. كما كان أمين الصرة الهمايونية يُختار في معظم الأحيان من بين كبار العسكريين المشهود لهم بالتميز العسكري والتدين وحسن السير والسلوك والتقى والورع وطهارة اليد والعدل، حتى يشرف بنفسه على القوات المرافقة للمحمل، وقافلة الحج. كما يقوم بتسليم الفرمان الخاص بتوزيع أموال الصرة الهمايونية على الحرمين الشريفين وأوجه التصرف والصرف منها إلى شريف مكة ومشايخ الحرمين الشريفين، بحضور رجالات الدولة العلماء وقادة القوات الموجودة في كل من مكة والمدينة وجدة والطائف، وأمراء قوافل الحج. وكان



«عرفة» / من ألبوم السلطان عبد الحميد الثاني.

يشرف بنفسه باعتباره ممثلا للسلطان العثماني على أداء المناسك وحفظ الأمن والأمان خلال موسم الحج كله، إلى أن تغادر القوافل كلها المدينتين المباركتين عائدة إلى بلادها، فيعود أمين الصرة بعد أن يكون قد أشرف أيضا على توزيع الأوقاف والمخصصات على أهالي الحرمين، فيقدم تقريرا مفصلا إلى الصدر الأعظم وشيخ الإسلام في الآستانة، وبعدها يمثل بين يدي السلطان ليقدم تقريره عما أنجزه في موسم الحج ومرئياته ومقترحاته للموسم القادم. ■

*) جامعة عين شمس، كلية الآداب – مصر.

بسم الله الرحمن الرحيم

اقرأ باسم ربك الذي خلق

حراء شمس متجددة

أ.د. عبد الحليم عويس *

مع كل صباح تزحف أشعّة الشمس ببطء وهدوء مبدّدةً بَقايا الليل المظلم، معلنة عن مَولد نهار جديد.

وأكثر الناس لا يملكون الوقت، وليس لديهم الباعث ليراقبوا زحف أشعة الشمس، وهي تكتسح ركام السحب وجبال الغيوم؛ لأنهم يعلمون أن الشمس لا بدّ أن تنتصر، وأن النور لا محالة قادم. ولأنهم -كذلك- أَلِفوا تداولَ الليل والنهار خضوعا للسنّة الكونية في كل يوم.

وهكذا تمضي سنّة التداول في الزمان -دون فعْلٍ إنسانيّ- فيعقب الليل النهار، ويعقب النهار الليل، وهكذا الأمر في الظلام والنور، والشتاء والربيع.

وقد يطول ليل الشتاء، لكن مجيء الربيع حتميّةٌ كونية، وقد تسود جحافل الظلام في غياب «النور» لكنّ سنة الله الكونية لا تتخلف. فسرعان ما يعود «النور» إلى الظهور!!

وهنا يظهر الفيصل بين السنّتيْن «الطبيعية الكونية» و«الاجتماعية الحضارية»؛ فعلى الرغم من وحدة القانون، إلا أن الفعل الإنساني له دورُه المؤثّر في سنة التداول الاجتماعية الحضارية.

الربيع الحضاري

ففي حالة وجود الفعالية الإنسانية، والالتحام الإنساني الواعي بالسنة الطبيعية، والالتزام بثوابت الوحي وتوجيهاته العليا، في هذه الحالة ينجح الإنسان في إطالة فترة «الربيع الحضاري»؛ ربيع الازدهار والعطاء، وتمتدّ بالتالي مساحةُ النور عبْر الخريطة الإنسانية.

وعلى العكس، فعندما تُسيطر السكونية السلبية، ويُصبح الإنسان مجرد جزء من الزمان، يمتدّ الشتاء بقسوته وظلامه، وتنكمش مساحة النور، وتذبل سريعًا أزهار الربيع!

وهنا يتألق دور المؤمنين الفاعلين من خريجي مدرسة «حراء» التي هبطت عليها أشعة شمس القرآن الأولى ﴿اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ﴾ (العلق:١). إنهم مطالَبون بالتغيير والتعمير والحركة باسم الله، ومطالَبون برفض الجمود الذي يجعلهم كأنهم بعض الزمان وخارج الحضارة والتاريخ، ينتظرون -وهم قاعدون عاجزون- دورة السنّة الطبيعية في التداول، دون أن يعملوا على تحقيق التكامل بينها وبين السنّة الاجتماعية؛ سنّة التغيير الداخلي انطلاقا للتغيير الخارجي: ﴿إِنَّ اللَّهَ لاَ يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّى يُغَيِّرُوا مَا بِأَنْفُسِهِمْ﴾(الرعد:١١). إنهم -لو كانوا مؤمنين حقّا- أسمى من أن يصبحوا جزءًا من الصيرورة والزمان. إنهم في حقيقتهم محرّكو قطار التاريخ الحضاري، وقادة «النور». وهم القادرون قبل غيرهم على حمل مشاعل الوحي وأضواء العقل. وبالتالي هم الذين يستحقّون «الاصطفاء» ليحقّقوا «الشهادة» على الناس، ويبْلغوا مرتبة «العباد الصالحين الوارثين للأرض»... ﴿خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ﴾(آل عمران:١١٠).

وحتى لو عثرت بهم أحجار، عبْر مسيرتهم في التاريخ،

فهم -مع ذلك- المؤهَّلون للأوبة والبعث والإقلاع، مهما تطُلْ غيبتُهم عن مسرح الحضارة والتاريخ. إن لهم معالم يهتدون بها، ولهم ثوابت من الوحي -لا يأتيها الباطل- تأخذ بأيديهم إلى التي هي أقوم.

لقد غاب المسلمون حضاريًّا منذ عدة قرون، فتقدم الأوربيون -في الفراغ- وقادوا الدنيا بالعقل وحده، ونظروا بعين المسيح الدجال، وكالوا بمكاييله، وقاسوا الأمور بمعاييره المزدوجة، وزعموا أنّ لهم «جنّةً» هي حضارتهم المادية الشَّيئية، ولهم «جهنم» اخترعوا لها صورًا من الدمار!

وقد قدّموا -وهذا لا يُنكر- خدماتٍ علمية، لكنهم أتعسوا الإنسان بالدنيوية والعنصرية والحروب لأتفه الأسباب وباختراع قوانين الصدام ونظرياته المتهافتة (!) وتُوشِك البشرية التي حفروا لها القبور -حسْب مقولة «رجاء جارودي»- أن تنْتحر انتحارًا جماعيًّا عولميًّا، وتفقد ذاتها ودنياها وآخرتها.

فلا بدّ أن يستيقظ المسلمون، وأن ينفُضوا الغبار عن أجسادهم وعقولهم، وأن يخرجوا من الكهف... متلطِّفين في خروجهم، حُداةً على آمال الإنسانية، وحماةً لها من الانتحار والدمار، بالحكمة والقدوة والحوار.

ولا بدّ أن يعود معنى الصلة بين السماء والأرض... ذلك الذي تألق في «حراء» ذات يوم من سنة ٦١٠ م معلنًا عن ميلاد جديد للإنسانية. فما أحوج إنسانيتنا المعاصرة أن تُولَد من جديد وأن تقرأ من جديد ﴿بِاسْمِ رَبِّكَ﴾ لا بِاسم المادة أو الصراع أو العلم الذي لا ينفع، والذي لا يخشى علماؤه اللّهَ...

لقد عاش المسلمون أكثر من عشرة قرون منذ هبطت عليهم ﴿اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ﴾ سادة الحضارة -كما يقول أكبر مؤرخي القرن العشرين «ولْ ديورانت»- وبهم بدأت الحضارةُ دورةً إنسانية جديدة تخلصت فيها من ظلام استمرّ عشرة قرون هي «القرون الوسطى» -كما يقولون-، بل تخلصت من ظلام هيمن على الحضارة الإنسانية عشرات القرون قبل ظهور العصر القرآني، في ظل حضارات وثنيّة وأسطورية واستعلائية، لم تقدر اللّٰه حق قدره إلا في القليل النادر من الزمان. بينما اخترعت مئات الأصنام والأوثان وخضعت لها خضوع العبيد فاقدي الوعي والإحساس.

وعندما نزلت ﴿اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ﴾ في حراء كانت شمسًا جديدةً تطلّ على الكون، جامعةً في نسيجٍ واحد بين قراءة الوحي والعقل والكون. فتحقّق لأول مرة في تاريخ الحضارات رسم خريطةٍ تتناغم فيها الربّانية والإنسانية على امتداد إشعاعات الوعي الإنساني.

وما كان ممكنًا قبل هذا الحدث الفارق أن تكون هناك حضارة إنسانية تتصل فيها الأرض بالسماء من خلال وسائل تتحدد فيها العلاقة الواضحة بين «اللّٰه» المعبود الخالق وبين «الإنسان» العابد المخلوق.

لقد كان «الكون» قبل هذا الحدث الذي وقع في «حراء» معبودًا يخشاه الإنسان ويتقرب إليه بشتّى القرابين ووسائل التعبير الدالة على الخضوع والخوف والعبادة. فجاء «العصر القرآني» يضع الكون في مكانه الصحيح؛ كونًا مسخَّرًا للإنسان، ليستخدمه الإنسان لتحقيق العبودية للّٰه، وتعمير الأرض باسم اللّٰه، ولتسبيح اللّٰه. وبالتالي أصبح الكون الذي كان في الوعي الإنساني الوثني معبودًا «عابدًا» خاضعًا للبحث والاكتشاف والتسخير. ورجع الكون في الوعي الإنساني إلى حجمه الصحيح؛ مفْعولاً به، وليس فاعلاً، مطبعةً لا طابعًا، نقْشًا لا نقاشًا، متحفًا ومعرضًا لإظهار تجلّيات الخالق العظيم الذي استخلف الإنسان وعلّمه الأسماء كلها وزوّده بالوحي والعقل والإرادة.

الإسلام والتعامل مع الكون

وما كان ممكنًا قبل هذا التحول الذي قدّمه الإسلام في التعامل مع الكون، أن تكون هناك حضارة إسلامية تمثل منعطفًا جديدًا في تاريخ التمدّن الإنساني. وما كان ممكنًا -كذلك- أن تكون هناك حضارة أوربية أو رُقيٌّ إنساني. بينما الكون معطَّل عن التسخير، يحتلُّ

> عندما تُسيطر السكونية السلبية، ويُصبح الإنسان مجرد جزء من الزمان، يمتدّ الشتاء بقسوته وظلامه، وتنكمش مساحة النور، وتذبل سريعًا أزهار الربيع! فهنا يتألق دور المؤمنين الفاعلين من خريجي مدرسة «حراء»

> فلا بدّ أن يستيقظ المسلمون، وأن ينفُضوا الغبار عن أجسادهم وعقولهم، وأن يخرجوا من الكهف... متلطِّفين في خروجهم، حُداةً على آمال الإنسانية، وحماةً لها من الانتحار والدمار، بالحكمة والقدوة والحوار.

مكانةً «مقلوبة»، فتتعطَّل مع وضعه المقلوب ملكات الإنسان، وبالتالي لا يجد الإنسان عالم «الآفاق» الذي يحقق من خلاله شروط الاستخلاف.

لقد نجح المسلمون «السلف» خلال مدة تزيد على عشرة قرون –كما ذكرنا– في أن يقدموا حضارةً معتدلة الموازين والقيم، تتكامل فيها ثوابت الوحي مع حركة العقل مع الرؤية الرشيدة للكون والحياة.

فلما اختل الميزان في أيديهم وفقدوا مؤهلات القيادة الحضارية، وخَلَفَ من بعدهم خلف أضاعوا الصلاة واتبعوا الشهوات، وأهملوا العلم والعمل، وفقه السنة الكونية والاجتماعية، أخذ منهم الأوربيون القيادة فتحركوا بالعقل وحده، مؤلِّهين «المصلحة» و «المادّية» في إطار الفرد والمذهب الفردي طورًا، وفي إطار الجماعة والمذهب الجماعي طورًا آخر، وكانت الآخرةُ والروحُ والجوانبُ الدنيوية بعيدةً كل البعد عن التنظير والتخطيط والتطبيق هنا وهناك. فعادت سفينة البشرية تجنح إلى الغرق من جديد، وسيطرت «القوة»، ومع القوة «الظلم»، ومع الظلم «ازدواج المعايير»، ومع اختلال الموازين سيطرت «العنْصرية» و«الأنانية»... فارتفعت بالتالي رايات الصدام والشقاء، وانخَفضتْ رايات التعارف والسعادة.

وهنا، وعند هذا الْمَحاط، لم يبق إلا أن يعود المسلمون إلى القيادة من جديد، متجاوزين عصر الانحطاط، دخولا في دورة حضارية أخرى ووصولاً بعون الله إلى عصر الشهادة على الناس، والخيرية، والقيادة الحضارية للإنسانية!

وكما خرج «النور» من «حراء» عندما هبط الوحي معلنًا بداية العصر القرآني، «عصر تكامل القراءات السماوية والكونية والعقلية» كذلك ينبغي أن يتمثل المسلمون في دورتهم الحضارية الجديدة معاني البعث القائم على القراءات المتناغمة المتكاملة السابقة بلا تعارض أو خلل!

شمس القرآن

ومن هنا ينبغي النظر إلى شمس القرآن بعين جديدة «أصيلةٍ معاصرةٍ» لا تهمل الماضي ولا تتجاهل المستقبل. وفي هذا المقام قد نجد بين أيدينا عددًا رائعًا من الرؤى التي لا يمكن الغضُّ من قيمتها ولا الانتقاص من قدر أصحابها. هؤلاء الأعلام الذين حاولوا بعث الأمة من خلال الحياة في ظلال القرآن والحياة في فقه السيرة.

بيْد أننا نرى أن لـ«رسائل النور» لبديع الزمان سعيد النورْسيّ ريادة خاصة، كما نرى للمشروع الفكري السائر على درب «النورْسيّ» الذي يقدمه بآلياتٍ معاصرة عمْلاقة الداعية المصلح الشيخ «فتح الله كولن» ممثلاً في «النور الخالد» وفي نحو خمسين كتابًا معه ريادةً خاصة كذلك.

والمشروعان لا ينفصلان، وكلاهما قدَّم ما يستطيع في ظل الظروف المتاحة، وهما يصبّان في خندق واحد ويتّجهان إلى غاية واحدة.

إنها غاية إنقاذ الإنسانية والمسلمين، من خلال «القرآن» ومن خلال تطبيق النبيّ الكريم للقرآن على الواقع، وهو النبيّ الكريم الذي كان «قرآنًا» يمشي على الأرض والذي كان «خلقه القرآن» قولاً وفعلاً وتقريرًا، بعيدًا عن «المثالية» العاجزة عن التطبيق والتي حلم بها الفلاسفة الطوباويون. وأيضًا ارتفاعًا بمستوى «الواقعية» التي يهبط بها إلى «الحيوانية» الواقعيون.

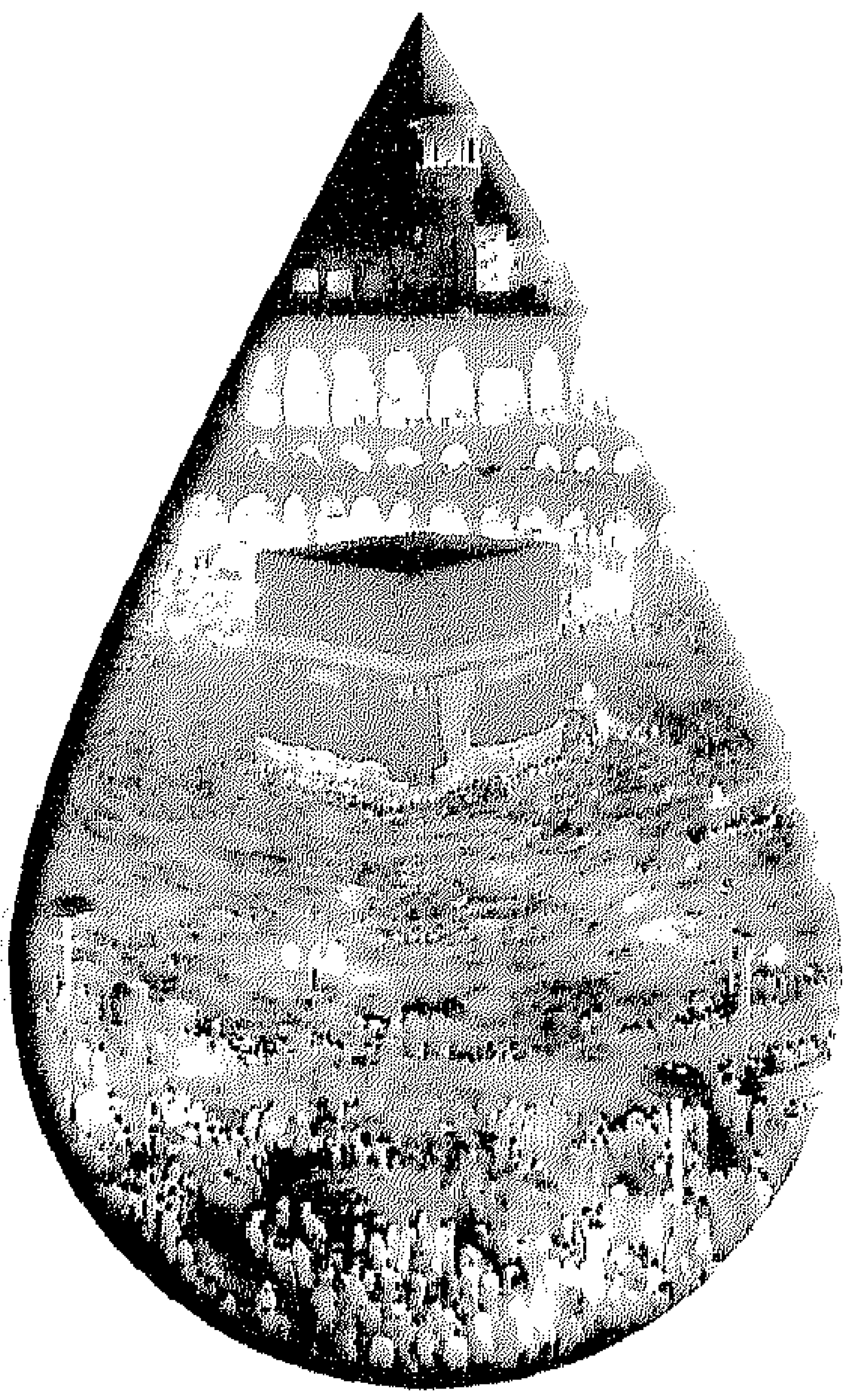
لقد قدم النبي ﷺ واقعيةً ترتفع إلى قريب من شمس «النور الخالد»... شمس المثالية الإنسانية التي لا يمكن أن يصنعها إلا كتاب الله فكرًا وتربيةً وتنظيرًا، وسيرة الرسول الكريم ﷺ فعلاً وحركةً وتطبيقًا.

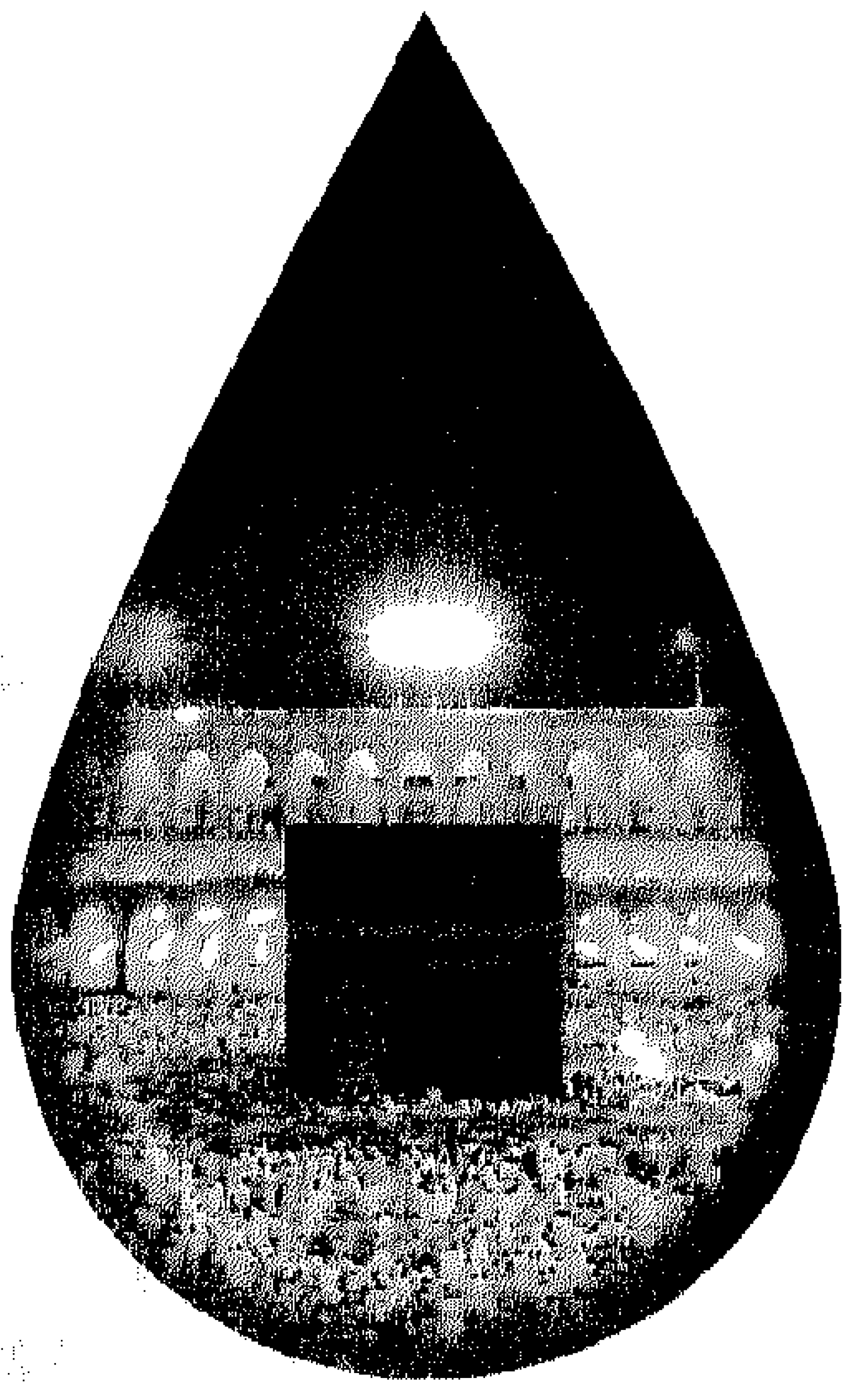
وبالفكر القرآني والتطبيق النبويّ تتحقق الحضارة الإنسانية التي انطلقت من «حراء»، بعد أن هبط بها جبريل عليه السلام من السماء. ﴿نُورٌ عَلَى نُورٍ يَهْدِي اللَّهُ لِنُورِهِ مَنْ يَشَاءُ﴾ (النور: ٣٥).

وعلى المسلمين استئنافها اليوم مستعينين بالله، وما ذلك على الله ببعيد! ■

*) أستاذ التاريخ والحضارة الإسلامية – مصر.

أم ما زلتَ ظمآنا ؟!





هل طفتَ بالبيت ، أم ما زلتَ ظمآنا؟! ... أم هيّج الشوق في جنبيك نيرانا؟!
وهل سعيتَ كما الأنفاسُ لاهثة ... بين الشهيقين تسبيحاً وتحنانا؟
أرحتَ ترمل بين الأخضرين كما ... تدفّقَ النبضُ في الأوصال ولهانا؟
وهل سمعتَ يمامَ البيت مبتهلاً ؟ ... وهل قرأتَ بذاك الفجر قرآنا؟
علّقتُ قلبي بخيط الفجر فانبعثتْ ... سجّادة الوصل في البيداء بستانا
كيف السجودُ الذي أرقاهُ يزرعني ... بغير ذي الزرع نسريناً وريحانا
لهجتُ بالحب حيث القول طاوعني ... تراهُ يعلن بعد اليوم عصيانا؟
يا جار بكّةَ طوبى للمقيم بها ... لقد سكنتَ أعزّ الأرض أوطانا
تُجاور البيت حين الأرضُ موحشةٌ ... لأنتَ آنسُ خلْق الله إنسانا
تُصافح الركنَ حين الناسُ في حرَدٍ ... فأنتَ أوفرهم أهلاً وخِلانا
ما زلتُ أسأل وعيي أهو في سِنةٍ ... من الأمانيّ أم هل باتَ يقظانا
أنا بمكةَ - إي والله- لا حلُماً ... ولا ادّعاءً ولا وهماً وبهتانا
عيني تعانق ما طافت شواهقَها ... وتلثمُ الأرضَ أنجاداً ووديانا
إني ألبّي وعين الله شاهدةٌ ... ومِن صدى الوجد قد صُدّعتُ وجدانا
تَجدّد العمرُ في عرفات وانغسلتْ ... بالطهر نفسي وفاض القلبُ إيمانا **
زُلفى إليكَ رجالاً، قد أفاضَ بنا ... فيضٌ من الشوق يحدونا، ورُكبانا
نرمي الجمار ويعلو الحقُّ منتصراً ... والنحرُ سِيقَ بيوم النحر قربانا
ذي كعبة الله كيف اليومَ أبرحها؟! ... وعشتُ أشتاقها عُمراً وأزمانا
يوم الوداع وداعِ العاشقين لها ... أطوفُ والدمع في خديّ طوفانا
أرجّعُ الطرفَ والخُطواتُ حائرةٌ ... مَن ذا يطيقُ لها بيناً وهجرانا؟!
يا رامة البيت قد أرمأتُ معتكفاً ... أرجو وقد رانت الآثامُ غفرانا
يا رب أنتَ وعدتَ التائبين، وإن ... ذنوبُهم بلغت كالموج إحسانا
اليومَ أُبنا وذُبنا ربنا خجلاً ... ألستَ يا ساتر الكبوات منّانا ؟
برحمةٍ منك يا مَن قبلَ تخلقنا ... سمّيتَ نفسك يا رحمانُ رحمانا ■

نبيلة الخطيب *

*) شاعرة وأديبة – الأردن.

**) تزامن يوم ميلاد الشاعرة ويوم عرفة في رحلة الحج الأولى لها، فكأنما وُلدت مرتين.



حين يتكلم النمل

أ.د. عرفان يلماز *

تحياتي أيها الإنسان!

لك الشكر لأنك أدركت وجودي ولم تسحقني تحت أقدامك. كم تقتل كل يوم من أبناء جنسي تحت أقدامك، هل فكرتَ بذلك؟ من المؤكد أنك تفعل ذلك دون قصد! حسناً. إن كل نملةٍ أو حشرة صغيرة مثلي إنما هي آية خارقة من آيات الفن والإبداع لن تستطيع الإتيان بمثلها. ربما تكون هذه الدلائل بديعة الصنعة مصدر إلهام لك. إن صنع ساعة صغيرة يتطلب من صانعها إرادة ومهارة فائقة في جمع وتركيب أدوات عديدة وأجزاء دقيقة حتى تستطيع حساب الوقت بدقة وكفاءة. أما أنا فأتفوق على هذه الآلة دقةً وكفاءة وأُعتبر أقوى حيوان على وجه الأرض، فإن خلقي لا يمكن أن يتم إلاّ بالعلم الواسع والقدرة اللامتناهية للخالق البارئ.

قد تتعجبون وتستغربون من قولي إنني أقوى مخلوق. ولكن هذا القول ليس بالغريب إذا ما نظرنا إلى الأمر من زاوية مبدأ التناسب. فأنتم تستطيعون حمل أثقال ضعف أوزانكم أو ثلاثة أضعافها. أما أنا فأحمل بأسناني خمسين ضعف وزني. هكذا أنا، تحفة ربانية وآية فنية رائعة.

إنني أشكل جمعاً غفيراً يُعدُّ أكبر مجموعة بين أجناس وفصائل الأحياء. كل أربعين ولادة جديدة عندكم يقابلها عندنا سبعمائة مليون ولادة. رغم عددنا الهائل هذا، لا نسبب أي إزعاج أو إفساد في هذا العالم، بل ننشغل بأداء الواجب الإلهي المقدّر لنا بكل همة وتنسيق وحُسن أداء بعيداً عن أنظاركم. تجدوننا في جميع أرجاء وبقاع الأرض ما عدا المناطق القطبية، لأننا نفضّل العيش في المناطق الدافئة.

نحن مخلوقات اجتماعية وجماهيرية النزعة. نعيش مع بعضنا ونؤدي واجباتنا المقسومة والمقدّرة لنا بكل حرص وطاعة متناهية مستهدين بالمعرفة والقدرة الربانية التي توجّهُنا. نؤسس مستعمرات سكنية كبيرة كالمدن العظيمة تعيش فيها ملايين منا؛ ولنا فيها مخازن لِقُوتِنا، وبيوت لتربية صغارنا وقلاع لجنودنا. نتوزع في فصائل تتجاوز تسعة آلاف، يتألف كل فصيل بحسب المنهاج المعدّ في خَلقه من الشغيلة العاملة في التنظيف، إلى المزارعين ومربي الحيوانات. وتتمتع كل فصيلة بصفات وميزات جسدية تؤهلها لأداء الواجب المحدد لها.

لعل ميزتنا الكبرى تتجلى في دقة التنظيم الاجتماعي الذي لم تستطيعوا أنتم البشر تحقيقه فيما بينكم حتى الآن. ورغم وجود الأنبياء والرسل بينكم، لم تصلوا إلى تأسيس مجتمع مثالي (عدا

فترات قليلة مثل عصر النبوة السعيد وفترات متفرقة على شاكلته). ورغم تجهيزكم بمميزات مثل العقل والإدراك والمشاعر، إلاّ أنكم تمتلكون أيضاً الأحاسيس السيئة والنفس الأمارة بالسوء كأدوات اختبار وامتحان تقف عثرة أمام وصولكم إلى تأسيس المجتمع المنشود.

نحن مع عجزنا وضعفنا، نستند إلى ما أوحاه لنا خالقنا، وما فصّله لنا من نمط الحياة، بطاعة تامة وتسليم مطلق دون تفسير أو تأويل. وبعملنا الدؤوب وهمّتنا المتواصلة استطعنا تأسيس نظام مملكة ودولة ومؤسسات بالغة الكمال والتنظيم.

حياتنا الاجتماعية

هذه الحياة التي تأسست بوحي الخالق تعتمد على مبدأ التفاني والتضحية. يقوم كل فرد بأداء ما يوكل إليه مِن واجبات، دون التدخل في أمور الآخرين، وتتقدم مصلحة المجموع على مصلحة الأفراد وصولاً إلى حياة اجتماعية قاعدتها الذهبية «التنظيم والتنسيق».

هذه التصرفات التي تعتبر صفة امتياز لكم أنتم بني البشر لا يمكن مطلقاً تفسيرها أو تأويلها استناداً إلى نظريات التطور والتغيير والانتخاب الطبيعي. إن أنصار نظرية التطور يدّعون أننا تطورنا قبل ثمانين مليون سنة من نحلة بريّة نتيجة عوامل التنازع على البقاء. أيْ كنا نعيش على شكل أفراد فأحسسنا بفوائد ومزايا العيش في مجموعات كثيفة لنحافظ على ديمومتنا فقلنا لبعضنا البعض: «لنكن حشرات اجتماعية، لأن العيش في مجموعة أفضل وأصلح لنا من نزاعنا على البقاء بين الأجناس والأنواع الأخرى». لنَقبل جدلاً أننا توصلنا إلى هذا المنطق والتفكير واتفقنا عليه، كيف إذن توصّلنا إلى خلق أصناف متعددة، وهذا التنوع في الوظائف، ثم هذا التقسيم في المهام وما يتطلبه من مميزات وآليات بدنية خاصة لكل صنف لكي يؤدي وظيفة محددة إلى جانب آليات التكاثر؟ ليس لدينا كل هذا العلم، كما لا نملك هذه القدرة.

الملكة – العاملة – الجندي

كيف بدأ تقسيمنا حسب متطلبات واجباتنا منذ بداية خلقنا ووجودنا إلى ملكات وعاملات وجنود، وكيف أتت كل هذه الفروق؟ من الذي أقنع عاملاتنا على التخصص والتفرغ لخدمة ورعاية الملكات؟ حسب نظرية التطور فإن كل فرد يفكر لنفسه فقط، وهو في نزاع وصراع دائم مع غيره للبقاء. مَن الذي أوكل لجنودنا مهمة الحراسة؟ مَنْ غيرُ صاحب «القدرة اللامحدودة» يمسكُ هذه الملايين من الأفراد ضمن مجموعة متعاونة ومتفانية؟!

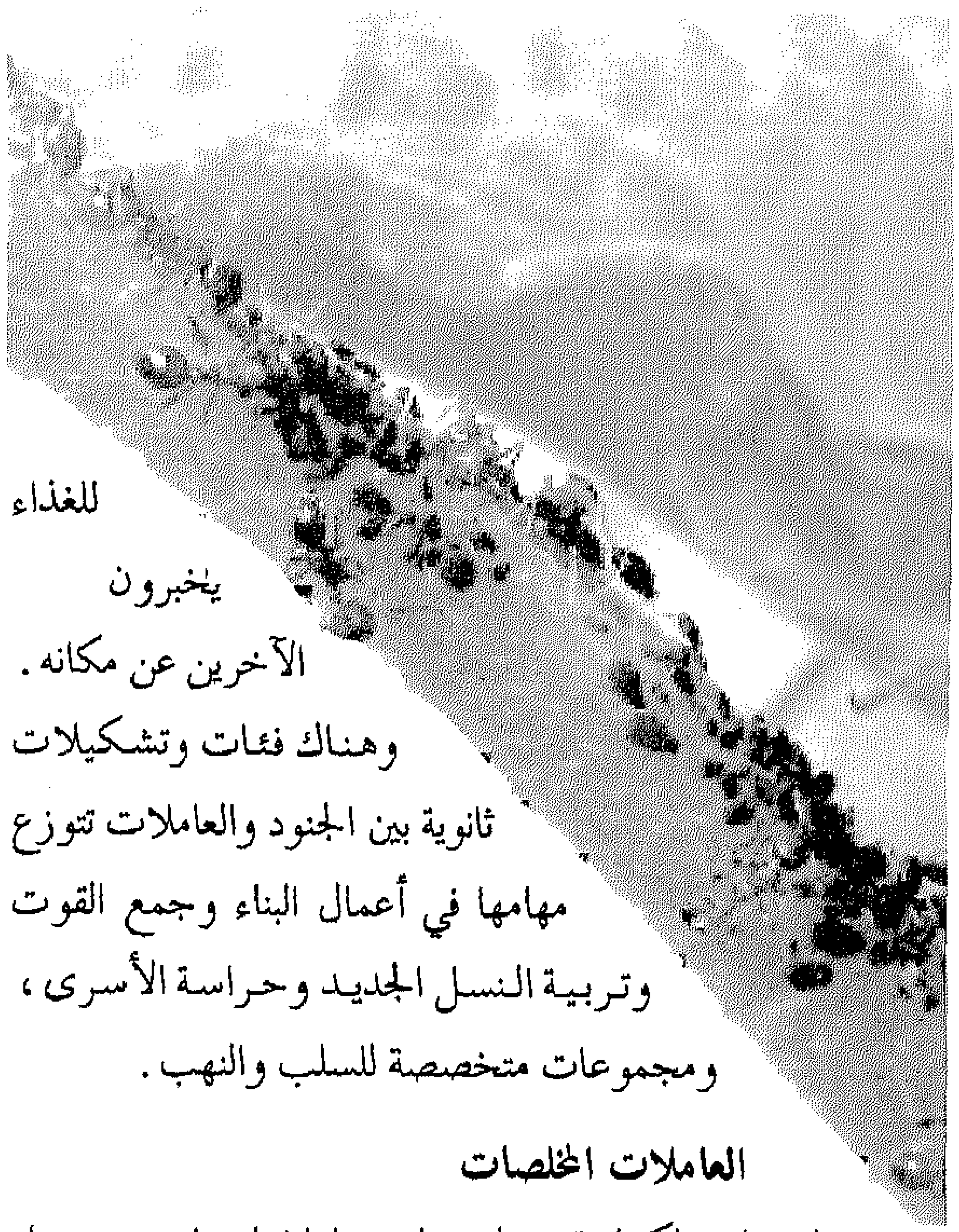
تمتد سيطرة بعض ممالكنا إلى حوالي ٢,٥–٣ كيلومتر مربع من الأرض. وتتشكل كل مملكة من أربعين إلى خمس وأربعين مستعمرة تترابط فيما بينها رغم وجود مليون من الملكات وأكثر من ثلاثمائة مليون من العاملات، تعيش في تناغم وتناسق دون حدوث أي اضطراب أو إزعاج.



ملكاتنا مكلّفات بوضع البيوض مدى الحياة لديمومة واستمرارية بقاء الخلية، وقد توجد أكثر من ملكة في كل خلية. واجبات الذكور المتميزين بكبر أحجامهم تنحصر في نقل الحيامن إلى الملكة خلال جولة قصيرة من الطيران، وتنتهي بعدها حياتهم إلى الفناء.

جنودنا مجهزون بأسلحة كيميائية خاصة، وواجبهم الحفاظ على أمن وسلامة الخلية بما زُوّدوا به من أسنان ورؤوس قوية. هؤلاء لا يفكرون مطلقاً بالقيام بانقلابات أو ثورات. ينحصر تفكيرهم في مستقبل دولتهم دون أن يخطر على بالهم الحصول على المنافع أو اللجوء إلى استخدام وسائل قذرة وتحت أستار الظلام. العاملات المسؤولات عن الحياة الاقتصادية لمملكتنا أناث عقيمات قاصرات عن الإنجاب.

يقوم قسم من العاملات بتغذية وخدمة الملكة والأجنّة بكل همة ونشاط. بينما تنهمك أخريات في تهيئة مساكن إضافية وحفر أنفاق للقادمين الجُدد، وتخرج أخريات في مهام الكشف والتفتيش عن مصادر الطعام، ومتى ما وجدوا مصدراً جديداً



للغذاء يخبرون الآخرين عن مكانه. وهناك فئات وتشكيلات ثانوية بين الجنود والعاملات تتوزع مهامها في أعمال البناء وجمع القوت وتربية النسل الجديد وحراسة الأسرى، ومجموعات متخصصة للسلب والنهب.

العاملات المخلصات

اقتصاد مملكتنا يقع على عاتق عاملاتنا. فهي تستعمل أفواهها المسلحة بفكوك متينة لتكسير وتفتيت حبات القمح رغم صلابتها، ومن ثم طحنها وتسليمها إلى مجموعة أخرى من العاملات لكي تقوم بعجنها ونشرها لتجف تحت الشمس على شكل أقراص رقيقة تُخزن مؤونة لموسم الشتاء.

تكييف الأجواء داخل الخلية

مئات الخلايا التي تشكل مملكتنا تمتاز بوجود معايير دقيقة جداً في تأمين الظروف المناخية الجيدة داخلها. نحن الذين لم ندرس أو نتعلم علم الأنواء الجوية والمناخ أو فيزياء التكييف، بل لا نعلم كيف يجب أن تكون شروط تهيئة الظروف المناخية الملائمة، نجد أنفسنا، وبتوجيه إلهي حكيم، قد هيأنا فعلاً أجواءً وظروفاً متوازنة عجيبة. إنّ بناء مداخل الخلايا باتجاه الشمس وضبطها اعتماداً على المجال المغناطيسي للأرض، وعزل منافذ التهوية، وخلق أجواء مناخية داخل الخلية بالمحافظة على الحرارة المناسبة طيلة ساعات النهار، كل هذه الأمور ليس لنا أي علم أو دراية بها. نحن لا نملك العلم الكافي لاتخاذ القرار الخاص بفتح منافذ جديدة للتهوية، ولا بالسيطرة على توازن الحرارة والبرودة عند توسيع مساحة الخلايا لاستيعابها أعداداً إضافية جديدة، ولا بتحديد حجم واتجاه التوسعات المطلوبة بشكل لا يحدث خللاً في أجواء المستعمرة... كلا فالاستقرار والسكينة يجري تأمينهما في مملكتنا بالإلهام المستند إلى التقدير الرباني الذي لا حدود لقدرته وعلمه. فحين يشح الغذاء -مثلاً- تبادر العاملات إلى تقديم خدمات وآلية تغذية خاصة. فهي تمتلك خاصية في معدّاتها الإضافية الاحتياطية حيث تتحول المادة الغذائية إلى حالة مركزّة عن طريق معاملتها بمواد كيميائية تتم بها تغذية الأفراد التي أصابها الضعف والهزال. وحالما تنتهي حالات نقص الغذاء، ترجع هذه العاملات إلى الأوضاع الطبيعية التي كانت عليها. كيف يتسنى لمملكة تعدادها خمسون مليون فرد أن تخلو تماماً من المصاعب والخلل لولا هذه التضحيات؟!

نحن نؤمن بمبدأ «الوصول إلى الهدف بأقصر طريق». نخرج للبحث عن الغذاء بنسق واحد ونعتمد في متابعة طريقنا على الروائح التي يتركها الآخرون.

إنّ مساكننا ليست دائما تحت الأرض. فبعض الأنواع منا تسكن فوق الأرض، وأخرى تبني أعشاشها على النباتات والأشجار. الأنواع التي تعيش تحت الأرض لا تملك أجنحة عادة. وإنما تتحول إلى أفراد قابلة للتكاثر وذات أجنحة عندما يحصل ازدحام كبير ويتقرر تشكيل مستعمرة جديدة فتغادر المستعمرة طائرةً، ويتم تلقيح الملكة من قِبَل الذكور قَبل أن تحط المجموعة على الأرض. وهنا ينتهي دور الذكور وتموت، بينما تستمر الملكة بإنتاج البيوض طيلة حياتها. هنا تسقط أجنحة الملكة لعدم الحاجة إليها، وتبني لها غرفة تضع فيها بيوضها في صفوف. وبعد ستة أو ثمانية أسابيع تفقس لتخرج منها العاملات البالغات التي تتغذى على ما تطرحها الملكة مِن إفرازات، وسرعان ما تبدأ العاملات ببناء وتشييد خلايا وأماكن جديدة.

كذلك نتمتع بذاكرة قوية جداً حيث نلتقط صوراً لكافة الأماكن التي نمرُّ بها ونحفظها ونخزّنها في ذاكرتنا، لكي نعود ثانية إلى أعشاشنا إذا ما ابتعدنا عنها. ونعتمد في ذلك على ما



وهبنا الخالق «الحافظ» من مكرمة الحفظ. نمتلك أيضاً موهبة نقلِ وإيصال المعلومات ومنظومات تبادل الأخبار فيما بيننا. وكما ورد في الآيتين (١٨-١٩) من سورة النمل كان نبي الله سليمان عليه السلام يفهم لغتنا. نعم إن لجميع الكائنات والموجودات لغاتها الخاصة، غير أنّ القرآن الكريم تحدث صراحةً عن لغة الطيور، وضمناً عن لغتنا. إن ربنا الذي أنزل القرآن لتقرأوه وتتدبروه وتفقهوه وتنظموا حياتكم ومعاشكم وفقه يكشف أمامكم حقائق ومعارف كثيرة تتوصلون إلى إدراكها لو أمعنتم النظر جيداً. إن الله جل جلاله سمى سورة مِن سور الكتاب الحكيم بـ«سورة النمل». هذا الكتاب الذي يعتبر بمثابة فهرست الكائنات والموجودات؛ أليس في تلك التسمية حكمة بالغة؟!

لماذا يا ترى سمّيت سورة كاملة باسمي، أنا المخلوق الصغير الذي لا يكاد يُرى بالعين عندما أمشي على الأرض فأتعرض للسحق تحت الأقدام أحياناً؟

لنتذكر معاني الآية الثامنة عشرة من سورة النمل ﴿حَتَّى إِذَا أَتَوْا عَلَى وَادِي النَّمْلِ قَالَتْ نَمْلَةٌ يَا أَيُّهَا النَّمْلُ ادْخُلُوا مَسَاكِنَكُمْ لاَ يَحْطِمَنَّكُمْ سُلَيْمَانُ وَجُنُودُهُ وَهُمْ لاَ يَشْعُرُونَ﴾(النمل:١٨)

سوف نتوصل إلى إدراك بعض النتائج انطلاقا من الآية الكريمة:
١. لنا لغتنا الخاصة بنا. ٢. تحكمنا وتديرنا سلطة موحدة تخطط وتفكر وتعمل لمصالحنا وتتبع سياسة حكيمة في إدارتنا. ٣. نتحرك تبعاً لأوامر تصدر إلينا ونتخابر فيما بيننا. ٤. نمتلك حياة اجتماعية منظمة وجماعية. ٥. عندنا المخابرون والمراسلون، ومَن يؤمّنون التنظيم والسيطرة.

لقد توصلتُ إلى هذه الحقائق من آية قصيرة رغم إدراكي المحدود. وأنتم كذلك بإمكانكم أن تتصوروا وتدركوا أنّ الأرض تهتز وتنقل أمواج الاهتزاز تحت أرجل جيش سليمان عليه السلام وتصلنا عبرها أخبارهم لو أمعنتم فقط النظر بعين عالم طبقات الأرض «الجيولوجيا» وعلوم الأحياء. لقد كنا نحسُّ وندرك أقل اهتزاز يحصل على وجه الأرض بما لدينا من وسائل وإمكانات للالتقاط والاستشعار في أرجلنا وانحناءات أجسامنا في وقت لم يكن أحد قد توصّل إلى معرفة ذلك أو حتى علم بها.

لقد أدرك علماء الأرض مؤخراً ومتخصصو الزلازل ومراقبو عالم الحيوان حقيقة خروجنا نحن النمل من أعشاشنا وتركنا لمستعمراتنا قبل وقوع الزلازل.

لقد كان أجدادكم أكثر انتباهاً منكم لهذه الحقائق. فلم يكونوا يشيّدون مبانيهم في أرض لم نكن بنينا عليها مستعمراتنا. لقد أدركوا أننا لا نبني أعشاشنا على تربة غير مستقرة وغير متماسكة. كما أدرك مؤخراً مهندسو العمارات العالية إلى ما توصلنا إليه نحن من وسائل رخيصة وعملية في تنظيم التهوية والمحافظة على الحرارة. ومن جهة أخرى بدأ علماء الحاسبات في إيجاد الحلول والتصاميم الخاصة بتأمين سلامة انتقال ونقل خزانات الوقود وإيجاد وسائل تحول دون تعرضها للحوادث، كل هذا استناداً إلى برنامج خاص سمي باسمنا، مستأنسين إلى ما تتبعها مملكتنا من وسائل خاصة في إدارة شؤونها.



إنّ ما يدعو إلى أسفنا ويحزُّ في نفوسنا عدم إدراككم هذه الحقائق، أنتم الذين تُسمَّوْن بأصحاب القرآن الحكيم رغم ما تؤكده آياته عليكم من ضرورة ووجوب قراءة كتاب الطبيعة والخلق والتفكرُ فيه. بينما يتوصل غيركم إلى إدراك تلك الحقائق على الرغم من أنهم لا يعرفون شيئا من القرآن.

إن جميع أنواعنا سواءٌ تلك التي تتغذى على البقايا الحيوانية أو النباتية تؤدي خدمة جليلة وهي خدمة التنظيف، فهي أثناء عملها تنظف وجه الأرض وتحول دون تحوّلها إلى مزبلة كبيرة مروعة. ولكي نستطيع تأدية هذه المهمة، زوّدَنا الخالق القدوس بزوجين من الفكوك في أفواهنا؛ الفك الخارجي أكبر حجماً ويفيد في حمل الطعام وحفر الأرض، بينما الفك الداخلي الأصغر يقوم بتفتيت الطعام وتقطيعه.

عزيزي ابن آدم!

وأنا أنهي كلامي، أتمنى أن تلاحظ مستقبلاً حينما تخطو على الأرض جمال هذا المخلوق الصغير وكيف أنه آية من آيات الفن الإلهي العظيم. كما أرجو منك ألا تَسحق إخواني، وأن تعاملهم كما عامل سليمان عليه السلام أجدادنا.. ولك مني خالص التحية والتقدير... والسلام... ■

*) جامعة ٩ أيلول – تركيا. الترجمة عن التركية: مأمون محمد عاكف.



صباح العيد في مسجد السليمانية

يحيى كمال بياتلي *

فاض النور في قلبي لحظة بعد لحظة...
إذ الفجر المهيب يسطع في «السليمانية»،
في ساعة العيد هذه، وتحت قبة السماء الزرقاء،
ترتفع ستارةُ الزمان المُغبَرَّةُ، آناً بعد آنٍ،
وترتسم صور للناس جميعاً، للبلاد كلها،
من تسعة قرون غابرة،

* * *

في هذه اللوحة الزرقاء...
فمنذ انحسار ظلمة الليل...
يُسمع صوتُ رفيف الأجنحة في السماء،
ووقْع الأقدام على الأرض
إنه قدوم، وما أعظمه من قدومٍ،
من عالمٍ مباركٍ وعجيب...
السماءُ مزدحمة بالأرواح من مداها إلى مداها...
قدومٌ ومواكبُ من الآفاق كلها،
من حملات النفير في الماضي،
من بلادٍ، يا لها من بلادٍ،
فُتِحَتْ في تلك الغزوات..
وإبّان امتزج الضياء بالظلام في هذا السكون...
يمشي بلا انقطاع خليط من البشر والأرواح!
يَرِفّون من الأرض، أو يهبطون من السماء..
يَلِجون من الأبواب صفوفاً إلى مسجد الله،
ويملؤون رحاب مسجد الله،
فتغدو «السليمانية» تاريخاً في هذه الساعة...

* * *

قد نَذَر هذا المعبدَ لله الودودِ شعبٌ كله جُندٌ...
أشدُّ الخلقِ قتالاً، وأقواهم شكيمةً،
جوهرُ آمال الخيال الذي صَوّر هذا المسجدَ،
أنْ يكون أجمل معبد للدين الأخير المبين...
واختار له تلاً مباركاً في أُفُق استانبول مكاناً،
ليشهد الآباد منه، من كل ركنٍ وصوبٍ...
حَمَل المجاهدون، ورؤساؤهم لَبِناته على أكتافهم،
وقَهَرَ صُلْبَ أحجارِه آلافُ الصُنّاع ومهندسُهم...
وإنّ معمارَ معبدِ النصر هذا جنديٌّ مقاتل،
فتح باباً من أبواب الآخرة،
من هنا نحو صفحة السماء،
نحو زمان الوطن الحر الوطيد، بليلهِ ونهارهِ،
لتدخلَ منه جيوشُ الأرواحِ إلى الرحمة الأزلية...

* * *

أيها المعبد العتيد: أنا لم أفهمك إلا هذا الصباح!
فخورٌ أنا بك الآن، لأني ممن ورثوك...
وكنتُ أظنك زماناً أثراً هندسياً عظيماً!
لكني، إذ أنظر الآن إلى هذا الحشدِ تحت قبتك،
أنتقل إلى إقليم الغفران للأجداد،
وكم كنت أحلم به ويتوق إليه شوقي!
هنا حشودُ البشر انصهرت،
في لسانٍ، وقلبٍ، وإيمانٍ واحدٍ،
تُحسُّ بوحدة وجودِها في مكان واحد،
إذ يذكرون الله الجليل بلسانٍ واحدٍ،
فيُسمَعُ التكبيرُ ألفَ موجٍ في صوتٍ وا...
يرتفع إيقاع أنغامهِ عالياً وزاخراً،
مختلطاً بألف رايةٍ، وهادراً في أعرافِ ...س.

* * *

ورأيت في الصف الأول جندياً عَرفتُهُ من لباسه،
منصتاً إلى تكرار التكبير في وَجْدٍ...
ما أنقى الصفاء في سيماء هذا الجندي المؤمن!
من ذا ؟
لعله الذي بنى هذا الصرحَ العُلوي ؟
لعله الذي صممه ؟
أم هو الجندي التركي،
القادمُ من سهل «مَلاز ْكِرْد» ؟
هذا الطافحُ بالعَبرةِ عينُه،
الناظرةُ من العمق،
هذا الذي وجهه أجمل وجوه الشجعان في الأرض،
هذا الذي يبدو على قَسَماته رَهَقٌ من عظائم الأمور...
هو قوتنا التي أقامت هذا الوطن العظيم، وحارسه...
هو وجودنا، ودمنا، ولحمنا...
هو الوارث الحي للوطن، هو صاحبه،
هو سلوى الشعب في هذا الزمان،

* * *

في أرضنا اليوم، في كل أرض بقيت لنا...
وفي كل أرض فقدناها منذ أمد بعيد!
حُمرةٌ كثيفةٌ تفصل الأرضَ عن السماء...
كأَنّ حدائقَ الوردِ تلتهب في الجبال التي أمامنا!
وثَمّ نداء التكبير كالمدافع في السماء،
تنفذ من الأعماق إلى الأعماق،
فهذه مئات المدن تنادي بعضها...
أهي قريبةٌ أم بعيدةٌ النداءاتُ؟
أَمِنْ «أُسكدار» ؟ أم من «الحصار» ؟ أم من «قواقلر» ؟
أَمِنْ «بورصة» ؟ أم «قونية» ؟ أم «إِزمير» ؟
من بعيدٍ إلى بعيد!
ثُم تتصادى أصواتنا
من جبَلٍ، إلى

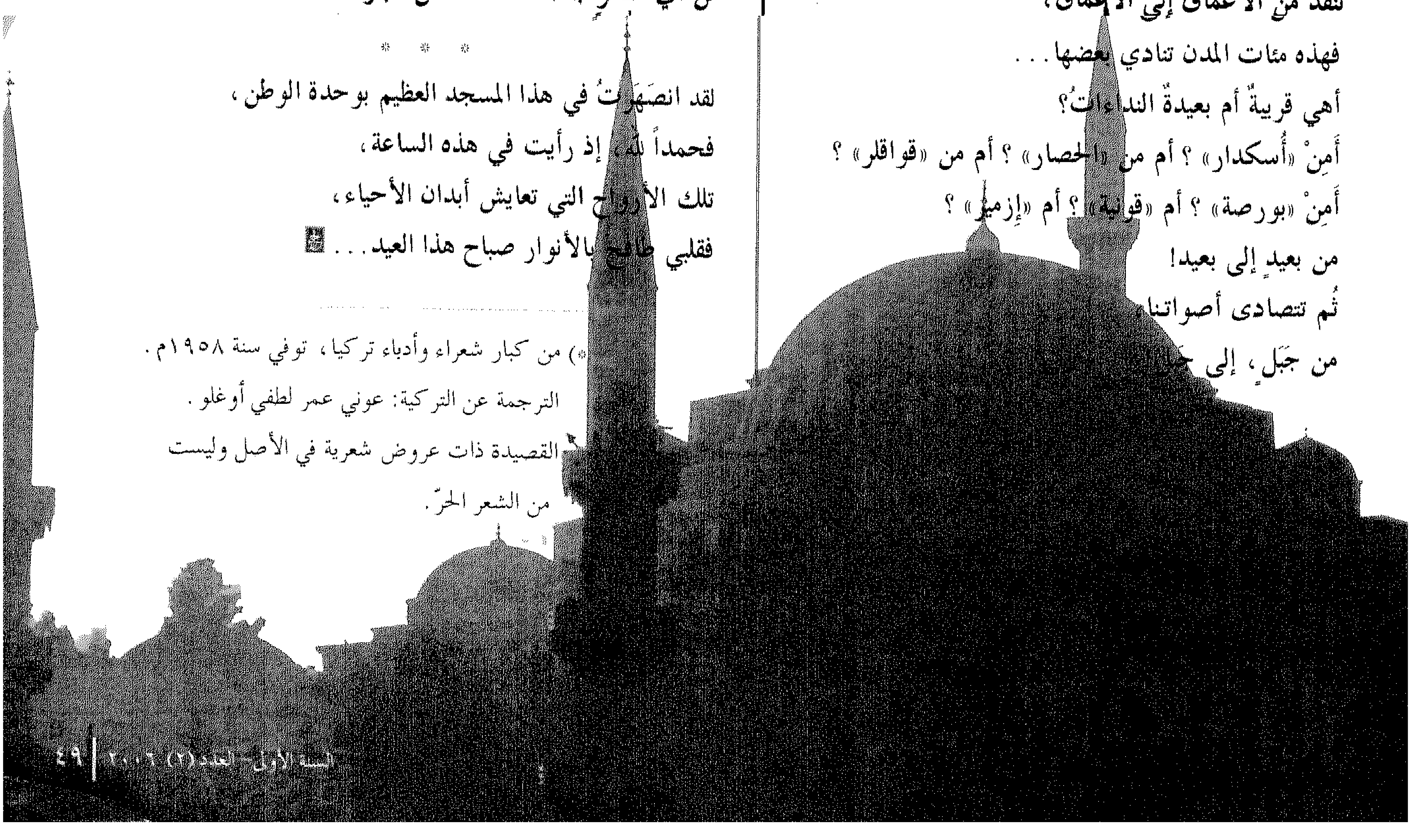
الآن ترتفع الأصوات تنادي من كل بُعْدٍ،
من «بايزيد»، من «وان»،
نداءً بعد نداءٍ، أصوات المدافع نفسها،
من كل مكانٍ...

* * *

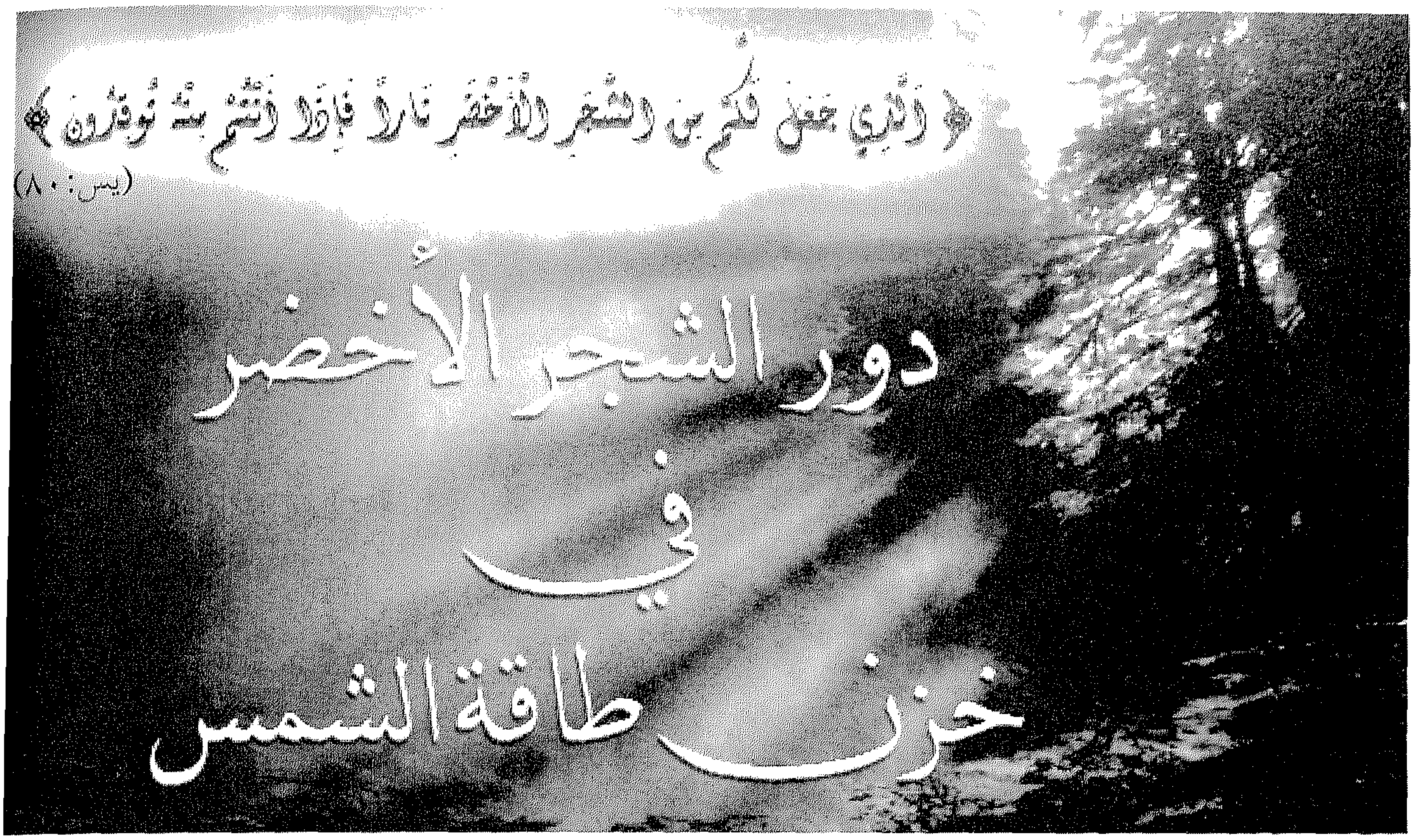
ما أعظمه من سَحَرٍ مباركٍ ووطيدٍ،
مشحونٍ بالمشاعر...
ورجال ونساءٌ وولدان،
قلوبهم طافحة في كل مكان...
كلهم يُنصتون لرياح الذكريات المجيدة هذه،
لمدافع «جالديران»، بعد مدافع «موهاج».
من أين هذه النداءات التي تملأ السماء بدَويّ المدافع؟
لا بد أن كل نداء يعلو من نصرٍ وظفر...
من «كوسوفا» و«نيغبولي» و«وارنة» و«إستانبول»...
كلُ نداء يتذكر في هياب وقعة من الوقائع...
من «بلغراد» و«بودين» و«اكري» و«ايوار»...
من سلاسل الجبال الشاهقة على الحدود الأخيرة!
ومن أين تنادي أصوات المدافع في آفاق البحار ؟
أهو «بربروس» يعود بأسطوله من حملة ؟
أَمِنَ «الجزر» ؟ أم من «تونس» ؟ أم من «الجزائر» ؟!
عادت مِئتا سفينة من الآفاق الحرة...
من حيث هَلَّ الهلال، من حيث يُحَدِّقُون!
من أيِّ سَحَرٍ جاءت هذه السفن المباركة؟

* * *

لقد انصَهَرتُ في هذا المسجد العظيم بوحدة الوطن،
فحمداً لله، إذ رأيت في هذه الساعة،
تلك الأرواح التي تعايش أبدان الأحياء،
فقلبي طافح بالأنوار صباح هذا العيد... ■



*) من كبار شعراء وأدباء تركيا، توفي سنة ١٩٥٨م.
الترجمة عن التركية: عوني عمر لطفي أوغلو.
القصيدة ذات عروض شعرية في الأصل وليست من الشعر الحرّ.



دور الشجر الأخضر في خزن طاقة الشمس

د. زغلول النجار *

الآيات السبع من خواتيم سورة يس تستدل على قدرة الله تعالى في الخلق بتلك القدرة المذهلة التي وضعها في الشجر الأخضر ومكنه من استخدام طاقة الشمس في تثبيت ذرات الكربون الموجودة في غاز ثاني أكسيد الكربون المكون للغلاف الغازي للأرض على هيئة مركبات عضوية تكوّن أهم مصادر الوقود على الأرض، حتى يمكن لكل من الإنسان والحيوان الاستفادة بها. واستخدمت الآيات هذا المثل في الاستدلال أيضا على أن الله تعالى الذي خلق هذا الكون قادر على إفنائه وعلى إعادة خلقه من جديد (أي بعثه). وفي ذلك تقول الآيات في ختام سورة يس: ﴿أَوَلَمْ يَرَ الْإِنْسَانُ أَنَّا خَلَقْنَاهُ مِنْ نُطْفَةٍ فَإِذَا هُوَ خَصِيمٌ مُبِينٌ * وَضَرَبَ لَنَا مَثَلاً وَنَسِيَ خَلْقَهُ قَالَ مَنْ يُحْيِ الْعِظَامَ وَهِيَ رَمِيمٌ * قُلْ يُحْيِيهَا الَّذِي أَنْشَأَهَا أَوَّلَ مَرَّةٍ وَهُوَ بِكُلِّ خَلْقٍ عَلِيمٌ * الَّذِي جَعَلَ لَكُمْ مِنَ الشَّجَرِ الْأَخْضَرِ نَارًا فَإِذَا أَنْتُمْ مِنْهُ تُوقِدُونَ * أَوَلَيْسَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ بِقَادِرٍ عَلَى أَنْ يَخْلُقَ مِثْلَهُمْ بَلَى وَهُوَ الْخَلَّاقُ الْعَلِيمُ * إِنَّمَا أَمْرُهُ إِذَا أَرَادَ شَيْئًا أَنْ يَقُولَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ * فَسُبْحَانَ الَّذِي بِيَدِهِ مَلَكُوتُ كُلِّ شَيْءٍ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾ (يس:٧٧-٨٣).

حقيقة علمية مبهرة

وهذه الآيات المباركات تشير إلى حقيقة علمية مبهرة، وواحدة من أهم العمليات الحيوية الأساسية، ألا وهي عملية البناء الحيوي التي يقوم بها النبات الأخضر والتي عرفت باسم عملية «التمثيل الضَّوئي» أو «عملية البناء الضوئي».

والنباتات الخضراء قد خصها الخالق سبحانه وتعالى بصبغ اليخضور (الكلوروفيل) الملوّن لأوراق وأنسجة النباتات ذاتية الاغتذاء باللون الأخضر؛ وأعطى هذا الصبغ وغيره من الأصباغ النباتية القدرة على اصطياد وتخزين جزء من طاقة الشمس التي تصل إلى الأرض، وهي طاقة كهرومغناطيسية تتركب من موجات ذات أطوال متعددة تتحرك من أشعة جاما، إلى الأشعة السينية، إلى الأشعة فوق البنفسجية، إلى الأطياف المرئية (أو أطياف النور الأبيض)، إلى الأشعة تحت الحمراء، إلى المَوجات الراديوية بمختلف أطوالها.

وهناك ثمانية أنواع من هذه الأصباغ الخضراء التي تشبه في تركيبها الكيميائي جزيء الهيموجلوبين (الذي يعطي لدم الإنسان ولدماء كثير من الحيوانات لونها الأحمر القاني) تماما، فيما عدا استبدال ذرة الحديد المركزية في جزيء «الهيموجلوبين» بذرة مغنيسيوم في جزيء اليخضور؛ ويشير ذلك إلى وحدة البناء كما يشير إلى وحدة الباني سبحانه وتعالى.

وتوجد الأصباغ الخضراء مادة الكلوروفيل في داخل جسَيمات دقيقة للغاية تعرف باسم البلاستيدات، ويوجد منها ثلاثة أنواع مميزة هي الخضراء والملونة بألوان أخرى والبيضاء.

ويبدأ تكون كل منها من أجزاء أبسط وأدق كثيرا في الحجم تعرف باسم «البلاستيدات الأولية».

و«البلاستيدات» هي جسيمات متناهية الضآلة في الحجم توجد في داخل الخلايا العمادية الطولية العمودية على جدار الأوراق النباتية، ولها حرية التحرك داخل الخلية لزيادة قدرتها على اصطياد أشعّة الشمس من أية زاوية تسقط بها على ورقة الشجر. والبلاستيدات جُسَيمات بوَيضية الشكل عادة، يحاط كل منها بغِشاءَين رقيقين، الخارجي منهما أملس، والداخلي متعرج على هيئة ثنيات داخلية تفصلها صفائح رقيقة جداً؛ وتحتوي الثنيات على الأصباغ الخضراء، بينما تفتقر إليها الصفائح الفاصلة بينها، وتحتوي البلاستيدات بالإضافة إلى الأصباغ النباتية على العديد من الأحماض الأمينية، والمركبات البروتينية الأخرى كالدهون المفسفرة وغيرها.

ويقوم الصبغ الأخضر (اليخضور) في هذه «البلاستيدات» بالتقاط الطاقة القادمة من الشمس واستخدامها في تأيين الماء إلى «الأوكسيجين» الذي ينطلق عبر ثغور ورقة النبات إلى الغلاف الغازي للأرض، و«الإيدروجين» الذي يتفاعل مع غاز ثاني أكسيد الكربون الذي يأخذه النبات من الجو لتكوين السكريات والنشويات وغيرهما من الكربوهيدرات؛ وغاز ثاني أكسيد الكربون الموجود في الغلاف الغازي للأرض لا تكاد نسبته تتعدي ٣٠٪.

عملية التركيب الضوئي

وتتم عملية البناء الضَّوئي التي تقوم بها النباتات الخضراء على مرحلتين؛ الأولى منهما تحدث في الضوء، والثانية تحدث في الظلام. والمرحلة الضوئية يتم فيها تأيين الماء إلى مكوناته من الأوكسيجين، ونوى ذرات الإيدروجين، وأعداد من الإليكترونات، وينطلق غاز الأوكسيجين فيها إلى الجو. وتستخدم كل من نوى ذرات الإيدروجين والإليكترونات الطليقة في المرحلة الثانية التي تتم في الظلام والتي من نتائجها تحويل غاز ثاني أكسيد الكربون إلى السكّريات والنشويات وغير ذلك من المواد الكربوهيدراتية. وعلى العكس من ذلك فإذا أحرق السكر أو أية مواد كربوهيدراتية في وجود الأوكسيجين فإنه يتحول إلى ثاني أكسيد الكربون والماء، وتنطلق الطاقة، وكأن عملية التمثيل الضَّوئي هي عملية تكوين السكر بخلط ستة جزيئات من الماء مع ستة جزيئات من ثاني أكسيد الكربون في وجود الطاقة الشمسية ومادة اليخضور، فينتج عن ذلك جزيء واحد من السكر وستة جزيئات من الأوكسجين.

وكما يأخذ النبات من طاقة الشمس بالقدر اللازم لنموه، فيحوّل تلك الطاقة الضوئية الحرارية إلى عدد من الروابط الكيميائية بتفاعلها مع كل من الماء وثاني أكسيد الكربون فيكون مختلف المواد الكربوهيدراتية (أي المكونة من الكربون والإيدروجين) التي يستخدمها النبات في بناء مختلف خلاياه وأنسجته، ويختزن الفائض عن حاجته على هيئة النشويات البسيطة والمركبة، والسكريات المتنوعة؛ فإن النبات يأخذ كذلك العديد من عناصر الأرض والماء الصاعدين مع العصارة الغذائية التي يمتصها النبات من التربة بواسطة جذوره، وتنتقل هذه العصارة الغذائية إلى كل من الساق والفروع والأوراق عبر أوعية خاصة تعرف باسم الأوعية الخشبية التي تمتد في كل ورقة من أوراق النبات على هيئة عرق وسطي له تفرعاته العديدة التي تنقل تلك العصارة الغذائية إلى كل خلايا الورقة الخضراء، حيث يعاد تشكيلها على هيئة العديد من المركبات العضوية التي يحتاجها النبات؛ وتعود المركبات المصنعة في الأوراق الخضراء عبر أوعية خاصة تعرف باسم أوعية اللحاء لتقوم بتوزيعها على جميع خلايا وأنسجة النبات حسب احتياج كل واحد منها.

ومن المركّبات العضوية التي تنتجها النباتات الخضراء البروتينات من مثل الزيوت والدهون النباتية، والأحماض الأمينية، والإنزيمات، والهرمونات، والفيتامينات التي تسهم في بناء مختلف الخلايا والأنسجة المتخصصة من مثل الألياف والأخشاب والزهور والثمار والبذور، والإفرازات النباتية المتعددة كالمواد الصمغية والراتنجية وغيرها.

وباستمرار عملية التمثيل الضوئي تركز بلايين البلايين من ذرات الكربون المكونة لثاني أكسيد الكربون الجوي في داخل خلايا النباتات الخضراء خاصة الأوراق. وبذلك فإننا نجد أن وزن المادة الحية النباتية في تزايد مستمر. ولما كان كل من الإنسان وأعداد من الأنواع في مملكة الحيوان يتغذي على المواد



النباتية ومنتجاتها، ويستخدم تلك الطاقة الكيميائية المختزنة فيها في تكوين مركبات كيميائية أخرى تختزن أجزاء من تلك الطاقة، وتحول أجزاء منها إلى طاقة حرارية وحركية وكهربائية؛ ولما كان كل من الإنسان وبعض أنواع الحيوان يأكل كلا من النبات والحيوان، فإن جزءً من طاقة الشمس ينتقل إلى هؤلاء الآكلين، وبذلك يزداد كم المادة الحية بتكرار تلك العمليات الحياتية والتي يلعب النبات الأخضر فيها دورا أساسيا، ويصل معدل الإنتاج السنوي من المواد العضوية النباتية إلى أكثر من أربعة آلاف تريليون طنّ.

وتقوم النباتات الخضراء بتثبيت أربعمائة مليار طن من الكربون المستخلص من غاز ثاني أكسيد الكربون الجوي في أجساد النباتات سنويا في المتوسط. وقد لعبت هذه العملية دورا مهما في تكوين بلايين الأطنان من الفحم الحجري عبر تاريخ الأرض الطويل خاصة في صخور العصر الفحمي (الكربوني).

والمنتجات النباتية هي مصدر الطاقة الحيوية في أجساد بني الإنسان وفي أجساد الحيوانات من آكلات الأعشاب. ومن فضلات كل من النبات والحيوان والإنسان تتكون جميع أنواع المحروقات، وذلك بعد تجفيفها أو دفنها وتحللها بمعزل عن الهواء.

فالمادة العضوية في كل من النبات والحيوان والإنسان تتكون أصلا من عناصر الأرض الأساسية، والماء والأوكسجين، والنيتروجين، وثاني أكسيد الكربون.

والنبات الأخضر بعملية التمثيل الضوئي يعطي الأوكسجين لكل من الإنسان والحيوان يبثه في جو الأرض، ويأخذ منهما ثاني أكسيد الكربون الذي يبثّانه إلى جوّ الأرض، وكل من النبات والحيوان يعطي الإنسان الغذاء والطاقة ويأخذ منه فضلاته.



الدورة في الطبيعة ومساهمة النباتات فيها

والأرض تعطي كل صور الحياة مختلف العناصر التي تحتاجها، والماءَ الذي يعين على إتمام كل العمليات الحيوية. والشمس تعطي كل هذه الصور الحياتية -من نباتية وحيوانية وبَشرية- كلّ صور الطاقة التي تحتاجها، والله يهب ذلك كله من فضله وكرمه وجوده ومنّه وعطائه وبديع صنعه وعظيم حكمته. فمركبات اليخضور تختزن الطاقة في خلايا الشجر الأخضر، ويقابلها في الخلايا الحيوانية جسيمات الميتوكوندريا التي تستهلك الطاقة المأخوذة من أي من النبات أو الحيوان أو منهما معا.

وعند جفاف الشجر الأخضر وغيره من النباتات الخضراء فإنها تتحول إلى أغلب مصادر الطاقة الطبيعية تقريبا ماعدا الطاقة النووية، وطاقة الرياح، وطاقة المدّ والجزر، والحرارة الأرضية، والطاقة الشمسية المباشرة. والطاقة في الشجر الأخضر أصلها من طاقة الشمس. فعند جفاف النباتات الخضراء تتحول بقاياها إلى الحطب أو القش، أو التِّبن، أو الخشب، أو الفحم النباتي إذا أحرق ذلك بواسطة الإنسان في معزل عن الهواء.

وإذا دفنت البقايا النباتية في البحيرات الداخلية أو في دالات الأنهار أو في الشواطئ الضحلة للبحار دفنا طبيعيا فإنها تتفحم بمعزل عن الهواء متحولة إلى الفحم الحجري. وإذا زاد الضغط والحرارة على الفحم الحجري في باطن قشرة الأرض فإنه يتحول إلى غاز الفحم الطبيعي.

وعندما تتغذى الحيوانات

البحرية، خاصة الدقيقة منها، على النباتات الدقيقة أو على فتات النباتات الكبيرة ومنتجاتها الدقيقة فإن طاقة الشمس المختزنة في تلك النباتات وفتاتها،تتحول في أجساد الحيوانات إلى مواد بروتينية من الزيوت والدهون الحيوانية التي تتحلل بمعزل عن الهواء إلى النفط والغاز الطبيعي المصاحب له. وكلما زادت الحرارة والضغط على النفط المخزون في قلب قشرة الأرض تحول بالكامل إلى الغاز الطبيعي. وكل هذه المواد من مصادر الوقود الذي يحرق طلبا للطاقة الحرارية الكامنة فيه، فيتحد أوكسجين الجو مع الكربون المتجمع في تلك المصادر من مصادر الوقود محولا إياه إلى غاز ثاني أكسيد الكربون الذي ينطلق عائدا مرة أخرى إلى الغلاف الغازي للأرض.



وبذلك فإن الطاقة التي استمدها الشجر الأخضر من أشعة الشمس الواصلة إلى كوكب الأرض، فانتزع بها ذرة الكربون من جزيئات ثاني أكسيد الكربون الموجود في الغلاف الغازي للأرض، هي نفس الطاقة التي تنطلق على هيئة اللهب الحار الناتج عن احتراق أي من مصادر الطاقة تلك في أوكسجين الغلاف الغازي للأرض (من مثل الخشب، أو الحطب، أو القش أو التبن أو الفحم النباتي أو الحجري أو الغاز الفحمي أو النفط أو الغاز الطبيعي، أو غاز الميثين الناتج عن تحلل الفضلات بصفة عامة) وبذلك تتحد ذرات الكربون المختزنة في تلك المصادر المتعددة للطاقة بذرات الأوكسجين الموجودة في الغلاف الغازي للأرض لتعود إليه على هيئة جزيئات ثاني أكسيد الكربون مرة أخرى وتنطلق الطاقة.

وعلى ذلك فإن عمليات الاحتراق على سطح الأرض هي عمليات أكسدة لذرات الكربون المختزنة في المواد العضوية بمختلف أشكال الوقود لتعود مرة أخرى على هيئة ثاني أكسيد الكربون الجوي كما كانت في أول الأمر؛ وهي تشبه عملية التنفس في كل من الإنسان والحيوان، حيث يستفاد بالأوكسجين الموجود في الغلاف الغازي للأرض في أكسدة ذرات الكربون الموجودة في المواد الغذائية لتتحول إلى ثاني أكسيد الكربون الذي انتزع أصلا من الغلاف الغازي للأرض بواسطة النباتات الخضراء.

مما سبق يتضح المضمون العلمي للآية الكريمة التي فهمها أهل البادية على عهد رسول الله ﷺ بالخشب أو الحطب، أو بكل من المرخ والعفار؛ ونفهمها اليوم في إطار كل صور الطاقة ذات الأصل العضوي من النفط والغاز المصاحب له، إلى الفحم الحجري والغازات المصاحبة له، إلى الفحم النباتي، والخشب والحطب والقش والتبن وغير ذلك من الفضلات النباتية والحيوانية التي يلعب الدور الرئيسي في تكوينها الشجر الأخضر وما وهبه الله تعالى من قدرة فائقة على احتباس جزء من طاقة الشمس يعينه على تأيين الماء، ثم اقتناص ذرات الكربون من غاز ثاني أكسيد الكربون الموجود بنسب ضئيلة جدًا في الغلاف الغازي للأرض لا تتعدي ٠٫٠٣٪، وذلك بواسطة أيون الإيدروجين الناتج عن تحلل الماء، وإطلاق الأوكسجين إلى الغلاف الغازي للأرض، وكأن حركة الطاقة على الأرض، أو بالأحرى حركة الحياة تتلخص في تبادل ذرة الكربون بين النبات والحيوان والإنسان؛ يأخذها النبات من الغلاف الغازي للأرض بعملية التمثيل الضوئي ويهبها لكل من الإنسان والحيوان والأرض، ثم يطلقها كل من الإنسان والحيوان إلى الغلاف الغازي للأرض بعملية التنفس. وبين العمليتين يختزن لنا ربُّنا عز وجل كمًّا هائلا من مختلف مصادر الطاقة تختزن فيه ذرات الكربون التي أخذها الشجر الأخضر من الجو وأعطاها للأرض إما مباشرة أو عن طريق راقات هائلة من الفحم أو مخزونا ضخما من النفط والغاز حتى يحرقه الإنسان فيرده مرة أخري إلى الغلاف الغازي للأرض.

فسبحان القائل: ﴿الَّذِي جَعَلَ لَكُم مِّنَ الشَّجَرِ الْأَخْضَرِ نَارًا فَإِذَا أَنتُم مِّنْهُ تُوقِدُونَ﴾ (يس:٨٠)، والقائل: ﴿أَفَرَأَيْتُمُ النَّارَ الَّتِي تُورُونَ * أَأَنتُمْ أَنشَأْتُمْ شَجَرَتَهَا أَمْ نَحْنُ الْمُنشِئُونَ * نَحْنُ جَعَلْنَاهَا تَذْكِرَةً وَمَتَاعًا لِّلْمُقْوِينَ * فَسَبِّحْ بِاسْمِ رَبِّكَ الْعَظِيمِ﴾ (الواقعة:٧١ – ٧٤). ■

---

*) أستاذ علم الأرض – مصر.

الأبعاد الروحية للصحوة الإسلامية المعاصرة



د. هدى درويش *

١ . البعد التصوفي

التصوف هو العلم القائم على النهج القرآني والاستنان بالسنة المحمدية، وهو أشرف العلوم وأرقاها، وهو التاج الذي تتزين به رؤوس رجاله أهل التقى السالكين إلى الله بقلوب مطمئنة ونفوس راضية مرضية وأفئدة سامية مدركة للحقيقة الإلهية.

وأهل التصوف هم المجتمعة على الله هممهم الذين ليس في بواطنهم لعباد الله إلا الشفقة والرحمة، الذين لا يطلبون لأنفسهم إلا ما كتب الله لها، الذين نقوا أخلاقهم حتى ذهبت عن الباطل إلى الحق، الذين يحثون الخلق على طاعة الله ويذكرون نعمه ويشكرونه كثيرا؛ هم الهينون، اللينون، المتسامحون، العافون عند المقدرة، أعزة الأنفس، المتذللون الخاضعون لله، المتعبدون، المتبتلون، أصحاب الهمم والعزيمة والإصرار والمشاعر الرقيقة والعواطف الشفيقة، المحقون الحق الرافضون للباطل، المؤتنسون بالله.

ويشهد التاريخ أن رجال التصوف هم الذين حملوا مشاعل التبليغ والإرشاد والدعوة إلى الإسلام باللين والمعاملة الحسنة والموعظة الخالصة، هم الذين صدقوا وأخلصوا فاستطاعوا بهممهم العالية تبليغ الإسلام إلى بقاع الأرض؛ وشاهد على ذلك منطقة آسيا الوسطى والتى كان يطلق عليها بلاد «ماوراء النهر» التى دخلها الإسلام بفضل رجال التصوف الذين دخلوا إليها واختلطوا بأهلها ونشروا الإسلام بالمعاملة اللينة والأسلوب المقنع، وكان أهل هذه البلاد من أشد المتعصبين للديانات السابقة.

كذلك تاريخ المغول الذين دخلت قبائلهم الإسلام الواحدة تلو الأخرى بفضل هداية رجال التصوف لأمرائهم حتى وصلوا إلى الصين، وواصلوا جهادهم فى نشر الإسلام في العصر الحديث عندما وقعت المنطقة في قبضة الروس، فاستطاعوا حماية المنطقة من الخطر الشيوعى. وتشهد الكتابات الروسية على الدور الرئيسي الذي قام به المتصوفة فى المنطقة.

ولن تكفي السطور والكتابات في حصر الأدوار التي قام بها رجال التصوف في أداء مهام رسالة الإسلام من مؤسسي الطرق ومريديها مثل الطريقة النقشبندية والقادرية والشاذلية واليَسَويّة وغيرها الذين كانت تكاياهم رمزا للنشاط والحركة تفتح أبوابها

لإيواء المجاهدين وإطعامهم ولقيامهم بحماية البلاد من المخاطر الخارجية، إلى جانب دورهم فى إصلاح البلاد والقضاء على أي ثورات داخلية. وكان مصدرهم جميعًا واحدًا هو: العمل بكلام الله تعالى والسير على النهج النبوي الشريف، فأقاموا الدين وحفظوه من كل باغ وعاد.

والتصوف من حيث سلوكه هو التأدب بالخلق الإلهي، وهو التعامل السامي مع الإنسانية بمفهومها الواسع الشامل الذي لا يحده دين ولا زمان ولا مكان، وهو التوجه بقلب سليم إلى طاعة الله، وهو التسامح ونبذ العداء والكراهية، وهو الحب بأوسع معانيه لبني الإنسانية. والتصوف حركة دائبة لا تعرف الخمول أو الكسل، وهو العمل والنشاط والتفاعل والاندماج في الكيان الإنساني وهو البذل والعطاء والإيثار.

هذا السلوك الصوفي وهذا الفكر وهذا التوجه الذي نجد معانيه واضحة في رجاله هو ما نطلبه في وقتنا الراهن للبرهان على عظمة الإسلام وعالميته أمام الكافة.

٢. الهوية الدينية ومواجهة التحديات

إن الحفاظ على الهوية الدينية للأمة الإسلامية ومسايرة التحولات العالمية يتطلب من أبنائها العمل الجاد المتواصل لمواجهة التحديات التى يعانيها المسلمون في العالم ودرء الاتهامات التى تصوب نحو الإسلام. هذه التحديات لها وجهان أساسيان يتمثلان في العالم الخارجي الغربي وآخر داخلي، ويتمثل في بعض المسلمين الذين فهموا الإسلام فهما خاطئًا فأساءوا إليه دون أن يشعروا نتيجة لاختلاف طبائعهم ودرجة تدينهم؛ فمنهم المتشدد والمتعصب ومنهم الوسط المعتدل، ومنهم اللين المتسامح المعطاء. فيتطلب من هؤلاء المسلمين التوحد على قلب رجل واحد ضد كل المفاهيم المغلوطة عن الإسلام.

فما يعانيه المسلمون من الغرب هو عدم فهمهم الصحيح للمبادئ والقيم التي يرتكز عليها الإسلام. فالتشدد والعنف والقتل والتعصب والكراهية والحقد وغيرها التى يلحقها الغرب بالإسلام من خلال كلمة واحدة وهي الإرهاب صفات يمقتها الإسلام ولا يقبلها. فالإرهاب لا دين له ولا وطن ولا علاقة له بالإسلام.

كذلك تأويل كُتّاب الغرب لآيات القرآن الكريم بشكل يرضي أهدافهم، فيفسرون قول الله تعالى: ﴿وَأَعِدُّوا لَهُمْ مَا اسْتَطَعْتُمْ مِنْ قُوَّةٍ وَمِنْ رِبَاطِ الْخَيْلِ تُرْهِبُونَ بِهِ عَدُوَّ اللهِ وَعَدُوَّكُمْ﴾(الأنفال: ٦٠) أنها تتضمن معاني استخدام الحرب والإرهاب بينما هي تعني الدعوة للاستعداد والتأهب الدائم لمنع أي اعتداء أو اغتصاب على الأرض، فتنعم البلاد جميعا بالحصانة والحماية والأمان ضد العدوان. ولكل بلد حقها في الدفاع عن أرضها وممتلكاتها وسلامها وأمانها في وطنها.

الإعلام الغربي وتشويه الإسلام

ويتخذ الغرب من وسائل الاتصال والإعلام المختلفة وسيلة هامة لترويج الأفكار المغلوطة عن الإسلام على كافة المستويات سواء الفكرية – التي يغزو بها عقول الشباب عن طريق نشر مفاهيم سياسية ودينية واقتصادية وأفكار غريبة تتبع أهدافهم في تشويه صورة الإسلام وبلبلة العقول غير الواعية لمبادئ الإسلام ومفاهيمه – أو الأخلاقية في محاولة لشغلهم بمواد تخرجهم عن دائرة الأخلاقيات الإسلامية، فتأخذ عقولهم وقلوبهم في مسائل لا يرضى عنها الله ورسوله بدعوى التمدن والتحضر.

كما يسخّر الغرب كل وسائله في تشويه التاريخ الإسلامي منذ عهد النبي ﷺ وخلفائه الراشدين، واستغلال الاختلافات الشكلية بين الفرق الإسلامية في خدمة أغراضهم، بالإضافة إلى تدخلاتهم في حرية المرأة المسلمة واتهامها بالسلبية والتأخر.

تلك العقبات والتحديات يجب على العالم الإسلامي التيقظ لها فيقف قلبا وقالبا في وحدة واحدة، بهدف واحد، يؤدي دورا حيويا في إيقاظ الوعي الصحيح بالإسلام.

مقترحات من أجل الفهم الصحيح للإسلام

ومن أهم الوسائل لتوصيل المفاهيم الصحيحة للإسلام هي:

- توحيد كلمة العالم الإسلامي بمساعدة أجهزة كل دولة إسلامية فى العمل على الرد على الادعاءات المضادة للإسلام عن طريق الأجهزة الإعلامية بأساليب حديثة متطورة تظهر الأخلاقيات الإسلامية السمحة والفضائل والقيم التي يدعو إليها الإسلام.

- التشجيع على تأسيس وحدة اقتصادية للعالم الإسلامي لمواكبة التكتلات الاقتصادية العالمية.

- بث قنوات وإذاعات ومواقع إلكترونية تشرح أسس الإسلام، وتوضح صحة المفاهيم المغلوطة لأمم العالم، وتظهر عظمة الإسلام في اعترافه بالأديان ومعاملته السمحة مع مختلف الديانات.

■ إقامة المؤتمرات والندوات التي يشترك فيها الدعاة المثقفون القادرون على التحدث بلغة الآخر بطلاقة والمتمكنين من الرد على الاستفسارات المتعلقة بالقضايا التي يختلط فهمها على الغير.

■ العمل على نشر الكتب والأبحاث المبسطة والمترجمة التي تنشر الوعي الصحيح بالإسلام، وتظهر روح الإسلام وجوهره ودعوته إلى السلام، وتشرح بأسلوب واضح الفضائل الاجتماعية والاقتصادية والسياسية والعلمية التي يحث عليها الإسلام.

■ إبراز دور المرأة المسلمة العملي والإيجابي في مختلف مجالات العمل والحياة مع احتفاظها بأخلاقيتها وسلوكها القويم وعدم تبرجها، وتلك السلوكيات للمرأة تنادى بها كافة الأديان.

■ أهمية بروز دعاة على مستوى عال من الهمة والمسئولية في حمل الأمانة فى تبليغ الدعوة بالمنطق الواعى والحجج والبراهين القوية الثابتة، يسايرون روح العصر، وعلى مستوى عال من الثقافة الدينية المتفهمة لكافة الأديان يتحدثون بلغتهم بأسلوب هادئ وواضح لا يدخل فيه التعصب أو التحيز.

دعاة غير تقليديين

والواجب على هؤلاء الدعاة أن يكونوا دعاة غير تقيلديين يحملون للعالم الفكر الإسلامي في ثوب عصري، يتعامل مع الآخر بثقافة عالية، ويقدم الأدلة والبراهين بروح عصرية جديدة، فيصبحوا سفراء للإسلام يؤثرون بكلمتهم ومنطقهم الراجح وعقليتهم الناضجة.

ومهمة هؤلاء الدعاة هو إبراز جوهر الإسلام العالمي الذي يؤمن بالرسالات السماوية جميعا. وذلك بإبراز مبدأ التسامح الإسلامي مع الأديان والبرهنة عليه ببعض الأحداث الإسلامية، ومنها معاملة رسول الله ﷺ لليهود؛ ومثال ذلك نجده في مسألة اليهودى الذي كان يضع الأقذار أمام بيت رسول الله ﷺ كل يوم، وعندما لم يجد الرسول الأقذار أمام بيته كالمعتاد سأل عنه فعلم أنه مريض، فعاده الرسول ليطمئن عليه.

كذلك قصة اليهودي الذي أساء إلى رسول الله ﷺ لأخذ دين عليه فقام عمر بن الخطاب بمنعه عن رسول الله بشدة، فعاتبه الرسول وأمر أن يدفع لليهودي أكثر مما له من دين تعويضًا عن ترويع عمر بن الخطاب له.

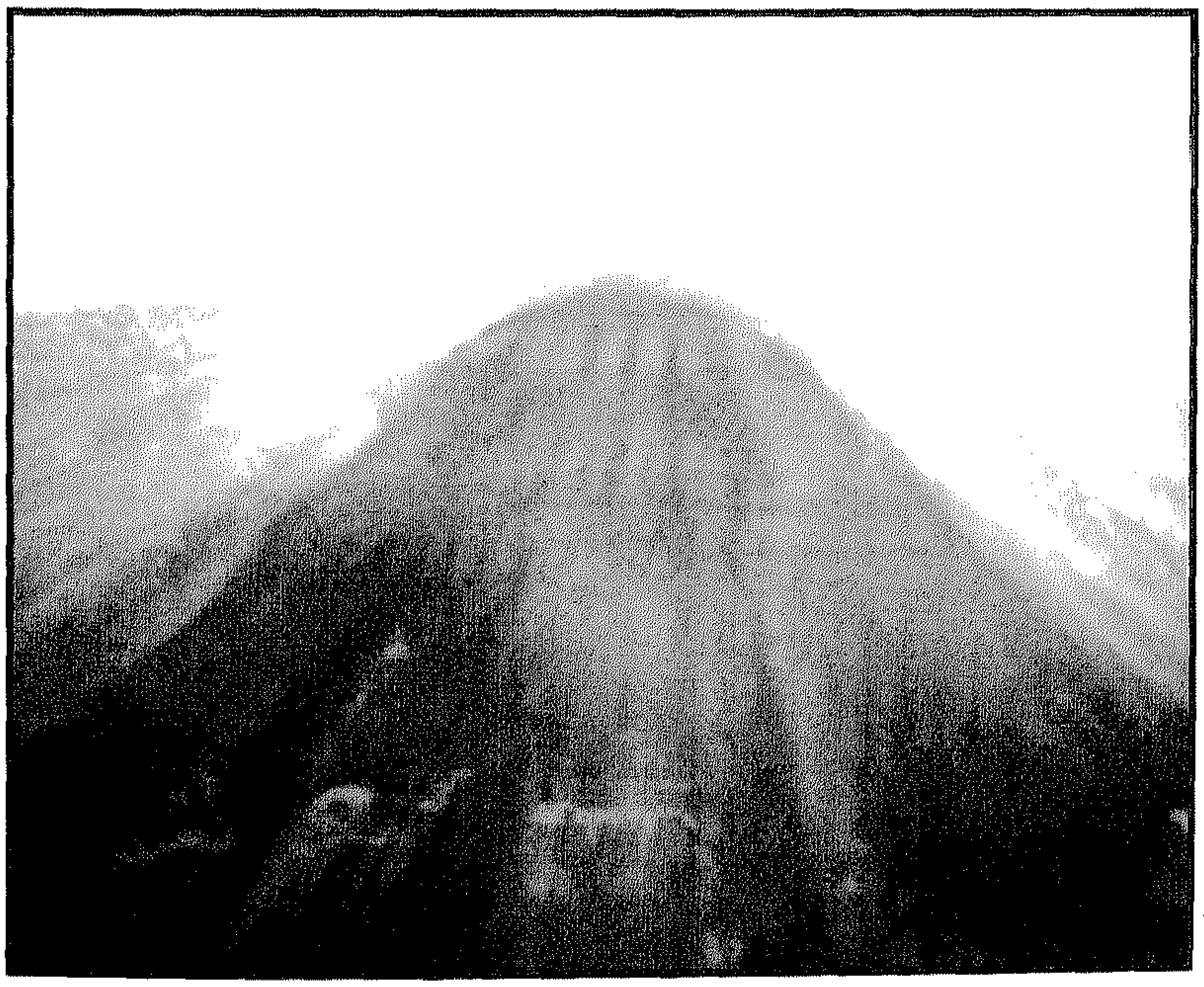
كذلك كانت معاملة الرسول ﷺ للنصارى، ويظهر ذلك من خلال رسالة الرسول الكريم إلى النصارى والتي أشهد عليها صحابته وكتبت في اليوم الثالث من المحرم في السنة الثانية من الهجرة وهذه الرسالة ورد فيها:

«متى كان راهب أو سائح مجتمعا في جبل أو واد أو مغارة أو معمور أو سهل أو كنيسة أو معبد فنحن من ورائهم وهم في ذمتنا. فلا يسلب أحد سياحهم، ولا يهدم بيتا من بيوت كنائسهم، ولا يتلفه، ولا يدخل شيئا منه إلى بيوت المسلمين... وإني أحفظ ذمتهم في البر والبحر والمشرق والمغرب والشمال والجنوب أينما كانوا. وهم في ذمتي وميثاق أماني من جميع ما يكرهون». كما ورد عنه ﷺ في هذه الرسالة قوله: «لا يكلفهم أحد بسفر، أو يلزمهم بحرب أو نقل سلاح، إنما المسلمون يحاربون عنهم ولا يجادلونهم إلا على أحسن وجه، فيعيشوا مرحومين، ويمنع عنهم ما يكدرهم أو يضيق عليهم أينما كانوا، وتحترم كنائسهم فلا يمنعون من تعميرها أو ترميمها، ولا أحد من الأمة يخالف هذا العهد إلى يوم القيامة».

تلك هي معاملة رسول الله ﷺ لليهود والنصارى، ولنا فى رسولنا أسوة حسنة.

الدولة العثمانية وروح التسامح

ومن مظاهر السماحة الإسلامية التى سارت على النهج القرآني والسنة النبوية الشريفة معاملة الدولة العثمانية لأهل



الديانات. تلك الدولة التى وصلت بالإسلام إلى مشارف فيينا في أوربا، كيف كانت معاملتها مع أهل الكتاب من نصارى وكاثوليك وأرثوذكس ويهود وغيرهم بسماحة وعدل لم يسبق مثيلها لأي دولة أخرى القيام به بشهادة الغرب والكتاب والمؤرخين الغربيين.

ومثال على ذلك السلطان محمد الفاتح الذى أدهش العالم الغربي بمعاملته واحترامه لأهل الديانات غير المسلمة بالعدل والرحمة والإكرام. إنها السماحة التي ضربت الأمثلة في كيفية معاملة الإسلام للأديان الأخرى.

■ تشجيع مراكز البحوث في العالم الإسلامي على نشر الكتابات التي تشرح أخلاقيات الإسلام مع عامة البشر، وسرد معاملة الرسول الكريم مع أهل الملل الأخرى، وصفاته الحميدة في معاشرته لأهله وأصحابه والناس جميعا، وعظيم تسامحه في معاملة الآخر.

■ قيام المفسرين والعلماء المسلمين والهيئات العلمية الإسلامية بإفراد مؤلفات خاصة تشرح الآيات القرآنية والسنة النبوية والأحداث الإسلامية التي حاول الغرب تشويه مفهومها وتلك التي تتحدث عن القيم الإنسانية النبيلة في الإسلام.

■ العمل على إشاعة الحب بين البشر، فرسالة الإسلام هي الحب والسلام.

■ نشر التاريخ الإسلامي الصحيح وحياة الرسول ﷺ وأقواله وأفعاله وأحواله وسير الصحابة الأجلاء والتابعين والسلف الصالح وسير علماء الإسلام الذين لهم إسهاماتهم في الدعوة الصحيحة.

■ الاقتداء بأفعال وأحوال ومعاملات أهل الطرق الصحيحة الواعية الذين يهبون حياتهم للعلم والعمل؛ وهم على اختلاف مسمياتهم مصدرهم واحد وثابت، فالكل من رسول الله ملتمس، وطريقهم القرآن يسيرون مع الله وبالله ولله.

تلك هي بعض الوسائل التي يمكن اتخاذها من أجل توضيح مبادئ وأخلاقيات الإسلام الشامل العالمي.

رسالة الإسلام العالمية

وعلى الرغم من محاولات الكثير من الدعاة والرجال الذين حملوا على عاتقهم هموم العالم الإسلامي، إلا أنه لا يزال التقصير سائدا في عدم تبليغ الإسلام بمفهومه السليم إلى العالم أجمع؛ ولا يزال كثير من الشعوب لم يصل إليها مفهوم الإسلام الصحيح على الرغم من أخذ العهد على كافة المسلمين من رسول الله ﷺ بتبليغ رسالة الإسلام، قال تعالى في سورة التوبة: ﴿وَإِنْ أَحَدٌ مِنَ الْمُشْرِكِينَ اسْتَجَارَكَ فَأَجِرْهُ حَتَّى يَسْمَعَ كَلَامَ اللَّهِ ثُمَّ أَبْلِغْهُ مَأْمَنَهُ﴾(التوبة: ٦).

إن تبليغ رسالة الإسلام العالمية لمهمة عظمى تقع على عاتق حاملي رايات النهضة والتنوير التي يغفل عنها الكثير. وقد قام كثيرون منهم على مدار التاريخ في إظهار عزة الإسلام مثل «الإمام شامل» الذي استطاع أن يضرب لنا مثال القائد الصوفي الذي قهر الروس وقت احتلالهم للشيشان، والإمام المجاهد «نصر الله الطرازي التركستاني» الذي استطاع بكتاباته وقلمه إظهار الدعوة الإسلامية الحقة.

والعالم الإسلامي الآن في حاجة ماسة إلى الدعاة المجددين لنشر الفكر الإسلامي الصحيح وتعميمه. ولا ننسى في هذا المضمار الأعمال الجليلة التي قدمها رجال الدعوة الإسلامية المجددون أمثال الإمام «سعيد النورسي» والإمام «سليمان حلمي»، ودعوة الإمام المجدد «فتح الله كولن» التي تعد نموذجًا للدعوة الإسلامية التجديدية المعاصرة.

والإسلام في حاجة لإبراز دور المتصوفة على مدار التاريخ وإزاحة كل ما يشوب التصوف من بدع أو انحراف أو اتهام بالخنوع أو الخضوع أو التراخي؛ فالتصوف الصحيح هو سلوك أخلاقي حركي فعّالي وصحيح إلى طريق الله؛ وعبر التاريخ أثبت التصوف الدور الإيجابي في الحفاظ على الهوية الإسلامية. ■

---

*) جامعة الزقازيق، معهد الدراسات الآسيوية – مصر.

المصادر:

- السيد محمود أبو الفيض، نهضة الإسلام، مطبعة حجازي، القاهرة/ ١٩٤٩م.
- هدى درويش، بحث دور جامعة المستقبل في توجيه خطاب ديني موحد، المؤتمر السنوي العاشر لمركز تطوير التعليم الجامعي، جامعة عين شمس، ٢٧– ٢٨ ديسمبر ٢٠٠٣م.
- هدى درويش، دور التصوف في انتشار الإسلام في آسيا الوسطى والقوقاز، عين للدراسات والبحوث، القاهرة/ ٢٠٠٤م.
- هدى درويش، الحجاب بين الأديان والعلمانية، عين للدراسات والبحوث، القاهرة/ ٢٠٠٥م.
- مجلة لواء الإسلام، مؤسسها السيد محمود أبو الفيض المنوفي، العدد الأول، مصر، ٣ يوليو ١٩٢٤، ص١٦، ١٧.

المنقذ المرتقب

نجيب فاضل *

لا أدري أين هو الآن . . . في صلب أيّ رجل . . . في رحم أي امراة . . . على كرسي أي دائرة . . . في صف أي مدرسة ابتدائية أو متوسطة أو عالية . . . على رأس أي فوج ، أي سرية ، أي فصيل . . . في أي زاوية هادئة من زوايا أي مسجد . . . في أي ركن هادئ من أي مكتبة . . . أين هو . . . أين؟ . . . لا أدري .

أيأتي عن طريق الانتخاب . . . أيظهر وهو يقود الجماهير . . . أم يصل بواسطة منظمة جديدة؟ . . . أيقفز من المظلة أم ينزل من صحن طائر؟ . . . كيف يأتي؟ . . . كيف؟ . . . لا أدري .

أيكون سلاحه القلم أم السيف؟ . . . إبرة التطعيم أم قنينة الدواء؟ . . . ما هو سلاحه؟ . . . ما هو؟ . . . لا أدري . . .

ولكن الذي أومن به كبديهية رياضية هو أن هذه الأمة ذات التاريخ العريق منذ آلاف السنين والتي وجدت أغلى شرفها وعزتها في الإسلام تنتظر وتبحث عن البطل الذي يجدد لها إيمانها وأشواقها؛ وإنها ستجد ما تبحث عنه بلا شك ودون ريب .

أجل! إن الشيء الذي أعلمه هو أن هذا الوطن بجماده ونباته وحيوانه وإنسانه . . . هذا الوطن بأجمعه ينتظر مُنقذه مثلما تنتظر السنبلة الملوحة بالشمس قطرات الماء . . . مثلما ينتظر المريض الدواء . . . مثلما ينتظر البريء العدالة . . . مثلما ينتظر العاشق الموله معشوقته . . . هكذا تنتظر هذه الأمة منقذها .

إن هذا انتظار من نوع آخر ، بحيث حتى إن لم يكن هناك من يأتي ، ولو لم يكن هناك من يتوقع مجيئه فإن هذا الانتظار من القوة بحيث يعطي له وجودا . . . يولده وينشئه ويربيه ويصقله .

أجل! نحن ننتظر هذا البطل . . . هذا البطل الذي ستشكله في رحم أمه شدة رغبتنا ولهفة انتظارنا له .

وبخلاف تيار السطحية والتعصب وجفاف القلب والروح ، وجفاف الشوق والوجد سيدافع هذا البطل عن معانٍ وعن روح المقاييس المقدسة بجميع جبهاتها ومفاهيمها الظاهرة منها والباطنة .

سيرفع هذا المنقذ ذراعيه صارخا : «لا . . » في وجه الجمود والتأخر ، وفي وجه التقليد الغربي الذي بدأ منذ عهد «التنظيمات» ووصل إلى ذروته في عهد «الجمهورية» . سيقول : «لا . . » في وجه إنكار واحتقار مقوماتنا وشخصيتنا ، وتسليم هذه الشخصية إلى الغرب بتقليد سطحي يتناول مظاهر الأشياء .

سيعرف هذا المنقذ العالم الغربي بكل جوانبه وبكل أزماته أفضل من أي مفكر غربي ، ويعرف العالم الشرقي بكل نقاط ضعفه وكل قواه الخفية ، ويعرف السر الموزون والمحسوب بين هذين العالمين ويرفعه في يده كشعلة وهّاجة .

سيقدم هذا المنقذ إلى هذه الأمة المقياس الذي تستطيع بواسطته تمييز الأبطال الزائفين الذين ظهروا في عهود الجمود والتأخر والانحطاط عن الأبطال الحقيقيين ، ويكشف بذلك خداع ونفاق الذين قدموا الزائف في صورة الحقيقي .

سيبحث هذا المنقذ وسيدافع عن حقوق الإيمان والأخلاق والتاريخ ، وعن حقوق مؤسسات الأمة ، وسيرسي قواعد البيت والعائلة ، وعلاقات وحقوق الرجل والمرأة والطفل ، والمدرسة والمزرعة والمصنع ، والدولة وكرسي العدالة والجيش على قواعدها الأصلية الحقيقية .

سيُظهر هذا المنقذ في أجلى صورةٍ ما فقده الذين انقلبت المفاهيم عندهم في «التقدّمية» ، وما خفي عنهم في «الرجعية» . سيرتفع هذا المنقذ بالروح ، وسيجمل ويزين المادة تحت إمرة الروح .

سيعلن بكل قوة أن ما يبحث عنه هو في الإسلام ، ولن يأخذ عن الغرب غير العلوم والمعارف المجردة ، وغير حق العقل في فحص المادة وتدقيقها؛ وبذلك يقدم أحسن أنموذج يشتاق إليه القرن العشرون . وبكلمة واحدة فإن هذا المنقذ سيكون الممثل الحقيقي للإسلام بكل ما فيه من أصالة وصفاء اليوم وغدا .

وبنسبة مأساة وسفالة انحطاطنا ستكون نسبة ارتفاعنا وصعودنا على يد هذا المنقذ البطل .

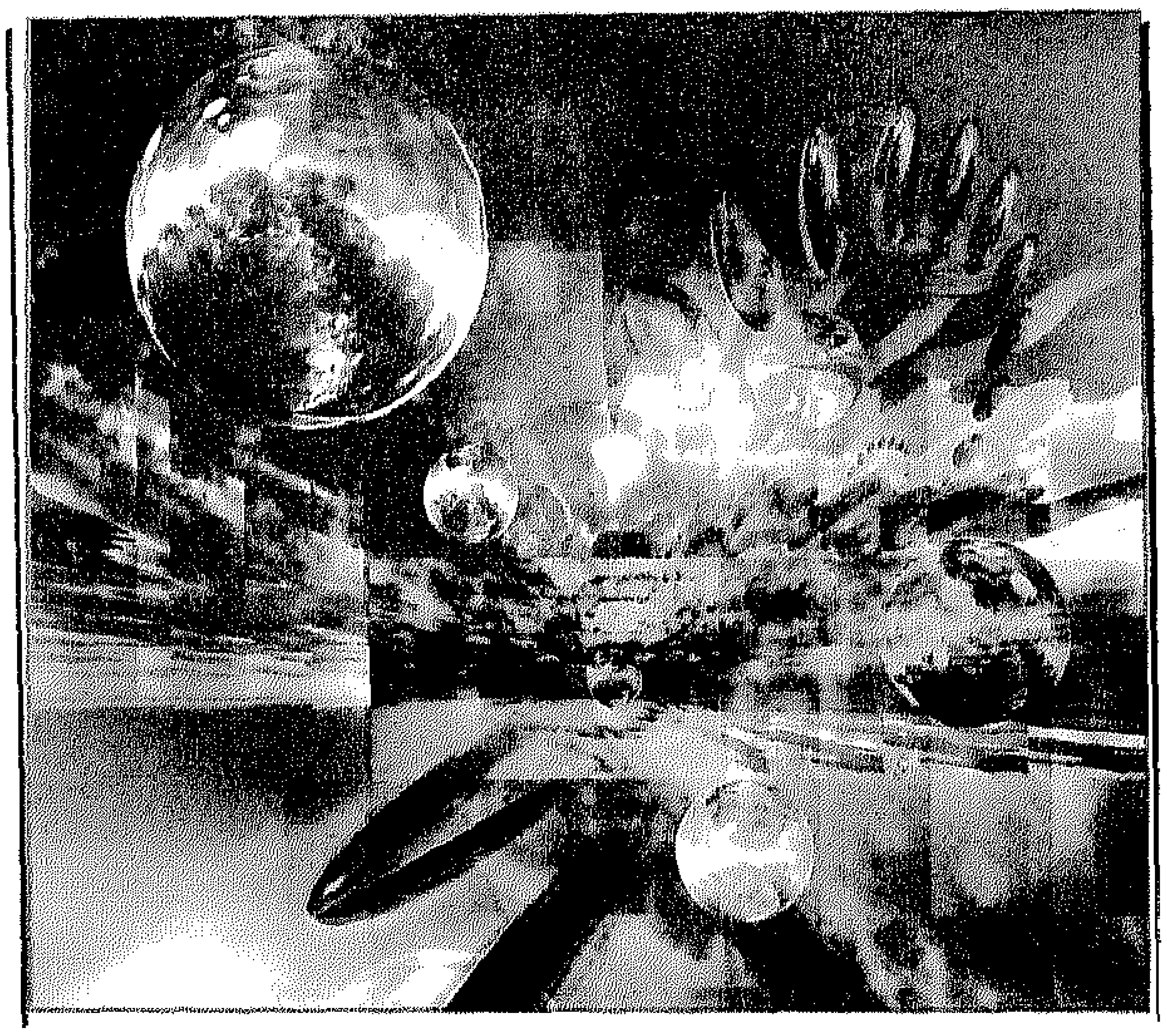
حسب السنن الإلهية وقوانينها . . .
لا بد أن يأتي هذا البطل . . .
بما أن هذه الأمة ستبقى . . .
إذن فهو آت لا محالة . ■

---

*) من كبار شعراء ومفكري تركيا . لُقّب بـ«سلطان الشعراء» توفي سنة ١٩٨٣م . الترجمة عن التركية: أورخان محمد علي .

رجل العلم الحقّ هو الذي يجمع بين أصدق ما نزل من السماء وأصدق ما على الأرض، فيورثه ذلك تمام الإطمئنان. أما النفوس المحرومة التي ترى بعين واحدة، فسرعان ما تُغير طريقها وتبدّل وجهتها وتقضي عمرها في إطلاق الحسرات والأنين لأنها تبقى حبيسة أوهام النظرة الواحدة.

الكون في قلب ذرة:
الهولوغرام



د. زينب جوناي أونالان *

ما هو الكون؟ كان البحث عن إجابة هذا السؤال الأساسي بمثابة نقطة ابتداء للفلسفة والعلوم، غير أن المؤمنين يلجأون للدين بحثا عن إجابة نهائية. وقد نظر معظم المفكرين المسلمين إلى أسماء الله الحسنى باعتبارها الأشياء الأولية التي ينبغي إدراكها، والتي نستطيع من خلالها اكتساب معرفة الكون. وعلاوة على ذلك هناك أعداد متزايدة من الناس يشيرون إلى الكون باعتبار أنه هولوغرام يقدم لنا صورا لحقيقة أعلى. وأول سؤال يتبادر إلى الأذهان هو: هل يمكن لتجليات أسماء الله -كما توضحه النصوص الصوفية- أن تكون مؤيدا لفكرة الكون الهولوغرافي؟

غير أن هذا المقال لا يهدف إلى الإجابة على هذا السؤال، بل يهدف إلى توضيح أن النموذج الهولوغرافي للكون قد يغذي تخيلاتنا بالشكل الذي يساعدها على تصور تجلي أسماء الله في كل شيء. ولهذا الغرض فسوف نركز أولا على الخصائص الرئيسية للهولوغرام، كما سنكشف ماذا نعني بكون هولوغرافي، ثم سنستخدم هذه الاستعارات في فهم الكون في علاقته بأسماء الله الحسنى.

ما هو الهولوغرام؟

الهولوغرافيا هي أسلوب تصوير يشبه الفوتوغرافيا كثيرا، إلا أن صورة الشيء تكون ثلاثية الأبعاد في الهولوغرافيا، والأداة الرئيسية وراء ذلك هي ضوء الليزر. هيا نرى كيف نحصل على هولوغرام لزهرة؛ لكي نحقق ذلك يجب فصل شعاع الليزر إلى شعاعين عن طريق فاصل للأشعة، ثم يسقط أحد الشعاعين مباشرة على فيلم حساس للضوء، بينما ينعكس الشعاع الآخر من الزهرة ثم يسطع على نفس الفيلم، وعندما يتداخل هذان الشعاعان سوف يشكلان نمطا متداخلا على الفيلم وهو ما يسمى بـ«الهولوغرام». وهذا النمط -الذي يشبه التموّجات التي تشكلها قطرات المطر على بركة من الماء- من الممكن رؤيته فور تحميض الفيلم، وتظهر صورة ثلاثية الأبعاد للزهرة بمجرد أن يُضاء الهولوغرام بضوء ليزر آخر، وذلك لأن الرسالة الكلية لجميع الجوانب البصرية للزهرة ملفوفة على سطح الفيلم ثنائي الأبعاد، وما يحدث في الحقيقة هو إظهار معلومات الزهرة كما هي مخزنة في النمط المتداخل.

إن السمة العجيبة هي أننا إذا قمنا بقطع الهولوغرام نصفين ثم قمنا بإضاءة إحدى القطعتين بالليزر، فإننا سنظل قادرين على إخراج الصورة الكاملة. وحتى إذا ظللنا نقوم بتقطيع الفيلم إلى قطع أصغر وأصغر فإن كل قطعة أخرى سوف تظل تمتلك جميع المعلومات الخاصة بالزهرة. وبالإضافة إلى هذا يمكننا أن نرى الجوانب المختلفة من الزهرة عندما ننظر إلى صورتها من زوايا مختلفة، حيث يعطينا هذا وهْما مقنعا لرؤية شيء ثلاثي الأبعاد.

الكون الهولوغرافي

إن فكرة أن الكون يمكن أن يكون هولوغراما جاءت من حقيقة أنه ليست أمواج الضوء فقط تستطيع أن تعرض سلوك التداخل، ولكن أمواج المادة أيضا تستطيع هذا. وقد ظهر مستوى أعمق من تفسير الكون الهولوغرافي من خلال النماذج النظرية التي تحاول أن تشرح الفعل المتناسق للقوى الأساسية الأربعة في الطبيعة. وهذه النظريات تقترح أحد عشر بُعدا من الزمكان (المكان–الزمان)، والذي يظهر عمليا رباعي الأبعاد على المستوى البشري؛ وهذا يمكن، بطريقة ما، أن يشير إلى أن معلومات الحقيقة في أحد عشر بُعدا يتم إسقاطها على أسس الزمكان الذي نعيش فيه. ومع هذا فإنه بمساعدة «المبدأ الهولوغرافي» الذي قال به (جيرارد هوفت) تظهر الطبيعة الهولوغرافية لكل النظم الفيزيائية؛ حيث إن هذا المبدأ يشرح كيف يمكن وصف نظام فيزيائي ثلاثي الأبعاد بواسطة نظرية مبنية على منطقة ذات سطح ثنائي الأبعاد. وبهذا فإن فكرة «الكون الهولوغرافي» خرجت إلى النور بمجرد أن تم تطبيق هذا المبدأ على الكون، وهو أكبر نظام فيزيائي نعرفه.

ومع النموذج الهولوغرافي للكون يأتي إدراك أن كل نقطة في الكون تحتوي على الكون بأكمله في ذاتها، وكل حبة رمل ترتبط بكل كوكب في الكون، تماما كما تتضمن الجزيئات الأصغر من الذرة شبكة من الترابطات تصبح بها متشابكة مع الخلية البشرية. و«ديفيد بوم» هو أحد علماء القرن العشرين المعروفين بإدراك هذه الكلية في الطبيعة. وقد جاء تفسير «بوم» للكون كهولوغرام في شرحه لتجربة عام ١٩٨٢ قام بها «ألاين أسبيكت» وفريقه، والتي كشفت مدى سرعة تواصل الجزيئات الأصغر من الذرة مع بعضها البعض. وفي الحقيقة أنه قد اكتُشف أن هذا الاتصال سريع للغاية، وأنه أسرع حتى من سرعة الضوء، كما لو كانت الجزيئات «تعرف مصائر بعضها». وقد أشار بوم إلى أن الجزيئات ليست في حاجة إلى أية إشارة من أجل التواصل مع بعضها، هذا ببساطة لأن الانفصال بينها هو مجرد وهم. والانفصال الظاهر هو تصور من مستوى أعلى للحقيقة، وهو ما يسميه النظام المتضمَّن، حيث كل شيء مرتبط، وتتصرف الجزيئة كما لو كانت تعرف مصير الجزيئة الأخرى؛ وذلك لأن لديها المعلومات الخاصة بالجزيئة الأخرى داخلها.

وثمة عالم آخر رأى أن الهولوغرافيا فعالة ومؤثرة وهو «كارل بريبرام» المتخصص في علم وظائف الأعصاب. وقد كان بريبرام يحاول التوصل إلى المواقع المحددة في المخ التي تقوم بتخزين ذاكرتنا، وقد كشفت تجاربه أنه لا توجد مركزية في هذا الأمر. ويزعم بريبرام أن النموذج الذي يشكله تداخل الإشارات الكهربية من كل خلية عصبية في المخ هو، في الحقيقة، المكان الذي يتم فيه «تخزين» الذاكرة.

تجليات الأسماء الإلهية والهولوغرام

وصف العديد من المفكرين المسلمين، من الغزالي إلى ابن عربي، الله –عزّ وجل– بأنه «النور»، كما عبروا عن كل الكيانات في الكون باعتبارها تجليات لهذا النور. ويؤكد القرآن هذا المدخل في آيات عديدة من أشهرها قوله تعالى: ﴿اللَّهُ نُورُ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ﴾ (النور: ٣٥). ومع هذا وبما أن الله – سبحانه وتعالى– ليس له مثيل ولا شبيه بين مخلوقاته، فإن هذا النوع من الوصف لا ينبغي أن يُعتَبر تشبيها بالنور الذي نعرفه، ولكن ينبغي فهمه باعتباره استعارة. ورمزية النور تُستخدم بشكل أساسي لشرح العلاقة بين الله –تعالى– وبين المخلوقات، ولكن ينبغي على المرء أولا أن يكون لديه علم عن الأسماء الحسنى لكي يفهم هذه العلاقة.

إن الآيات في القرآن بوجه عام تنتهي بذكر لبعض الأسماء الحسنى: المُحيي، المميت، الغفور، المُقيت، العليم، الخالق، وغيرها. ونحن ندعو الله عز وجل باسم الخالق –مثلا– بعد أن شهدنا آثار هذا الاسم في الخلق؛ كما أننا نشهد رحمته سبحانه بالخلق، ولهذا فنحن ندعوه «الرحيم». وكل شيء من الكائنات الطبيعية إلى العلوم يبرهن على أسماء الله تعالى بطريقة أو بأخرى؛ فكل أنواع السمع ناشئة من كونه «السميع» سبحانه وتعالى؛ واسمه «العدل» يُظهر في الطريقة التي وضعت فيها الكواكب في مداراتها؛ بينما يمكننا أن نرى اسمه «المُقيت» في الطريقة التي يقيت فيها سبحانه كل حيوان وكائن؛ ويعكس الطب اسمه «الشافي»، بينما تعكس الهندسة اسمه «المقدر».

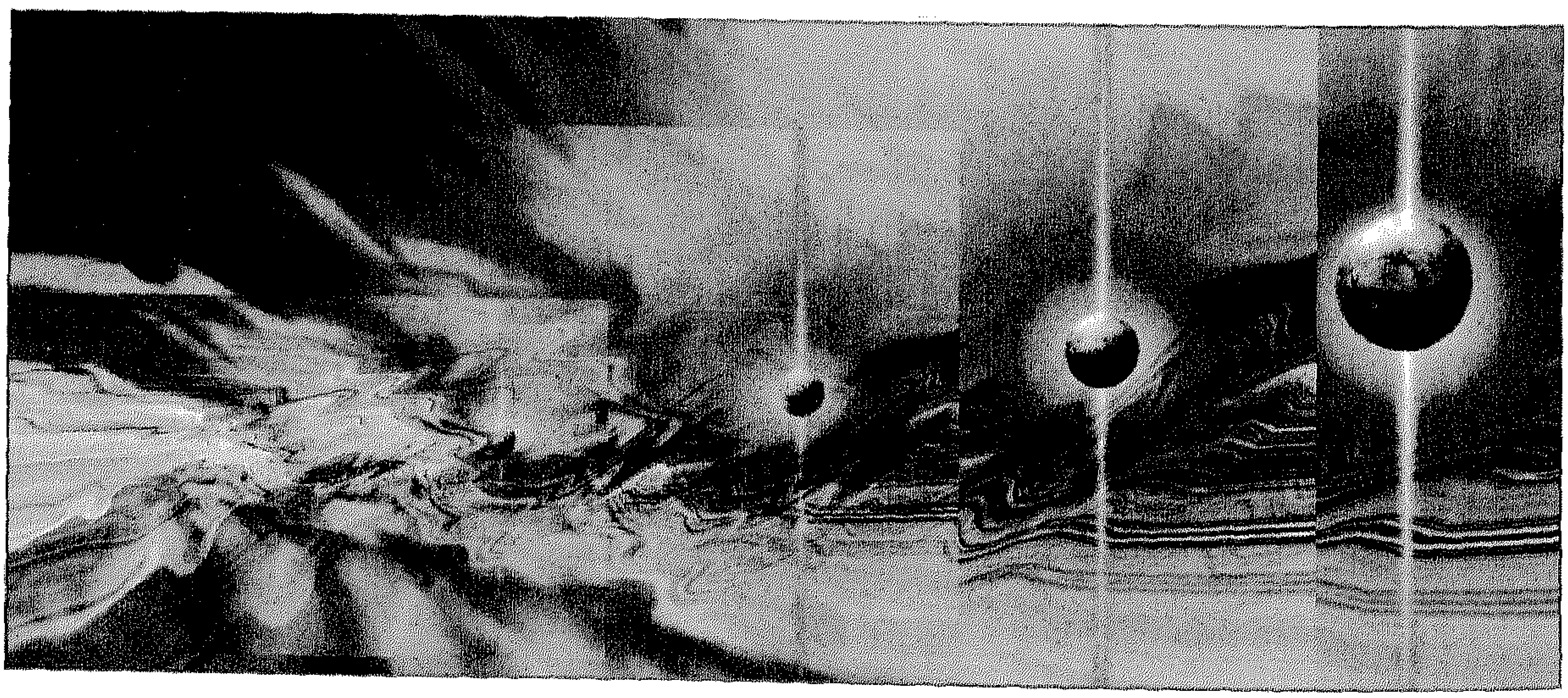
وفي شرحه لتجليات أسماء الله تعالى أعطى بديع الزمان سعيد النورسي مثالا بالشمس وضوئها في كلمته السادسة عشرة، حيث شبّه النور القادم من الشمس – ولله المثل الأعلى – بنور الله تعالى وصفاتها بصفات الله عز وجل. فمثلا يمكننا أن نمثّل حرارة الضوء الأبيض بقوة الله تعالى، وأن نمثل سطوعه بعلم الله، عز وجل. وعندما تنعكس الشمس، على مرآة مثلا، فإن

حرارتها وسطوعها موجودان أيضا بالإضافة إلى صورتها. وبالمثل -ولله المثل الأعلى- فإن الله عز وجل يتجلى في كل الكائنات بكل صفاته سبحانه، ومع هذا فإن هناك درجات لهذا التجلي، وهو ما يعتمد على قدرات الكائن ومنزلته. ويمكننا أن نستخدم القياس على الضوء لنرى كيف يمكن أن تعطي المنازل المختلفة ظهورا مختلفا؛ فالمرآة المسطحة لديها القدرة على إنتاج صورة الكائن بحجمه وشكله الطبيعي، بينما يمكن أن تتسبب المرايا في أماكن التسلية والمرح في إحداث تشوهات تعتمد على درجة الانحناء. وفي التصوف يتم تقديم حقيقة أن الأسماء الحسنى متعددة وأنها تتجلى بدرجات مختلفة باعتبارها السبب وراء التنوع في الكون وفي البشر. وبهذا فإن البشر، الذين خُلقوا ولديهم أكثر القدرات تعقيدا، يحتلون المرتبة العليا في هذا التدرج؛ بينما يُعتبر القلب، وهو القدرة الأكثر دقة في الإنسان، هو مركز هذا التجلي.

وباتخاذ القياس على الضوء مرة أخرى، وباستخدام الاستعارة الخاصة بالهولوغرام، يمكننا بشكل أفضل أن نتصور العلاقة بين الله والكون وفكرة تدرج تجلياته سبحانه. وفي هذا القياس الذي نقدمه -ولله المثل الأعلى- يمثل ضوء الليزر صفات الله تعالى، ويمثل (فيلم) الهولوغرام الزمكان رباعي الأبعاد، في حين أن نموذج التداخل يقابل التداخل مع أسماء الله عز وجل. وبهذا فإن كل شيء في الكون يمكن أن يُنظر إليه كنموذج لتجلي أسماء الله الحسنى مغطى خلال المكان والزمان. والنتيجة التي يمكن أن نخرج بها هي أن الأسماء الحسنى في الحقيقة تمثل أثرا لهذا التداخل، مثلما هو الحال مع ضوءين متداخلين. وصفات الله تعالى – ولله المثل الأعلى – هي التي ينتج عنها كل الأشياء الموجودة مثلما ينتج الهولوغرام عن تداخل ضوء الليزر. وهذا القياس يتسق مع النصوص الصوفية التي تقوم بالتمييز بين أسماء الله تعالى وصفاته. ويؤكد الإمام الرباني السرهندي، وهو عالم مشهور، على هذا التمييز في مكتوباته؛ فالصفات الإلهية (مثل الوجود، والقِدَم، والبقاء، ومخالفته تعالى للحوادث، وقيامه بذاته، والحياة، والعلم، والقوة، والكلام، والقدرة، والسمع، والبصر، والخلق) هي صفات لا يمكن أن تنفصل عن ذات الله عز وجل. وعندما يتجلى الله تعالى، فإن آثار الصفات العليا تظهر، ونسمّي هذه الآثار «الأسماء الحسنى»، وهذا يعني، باختصار، أن الصفات هي مصدر الأسماء، كما أن الضوء هو مصدر التداخل.

وبالإضافة إلى هذا، ومع قياس الزمكان على الهولوغرام، فإذا قمنا بقطع الزمكان إلى عدد لانهائي من القطع، فإن الكون بأكمله سوف يكون حاضرا في كل موقع. ويُعبّر «محمود سبستري» بشكل تام عن هذا التواصل والوحدة في كل الخلق في قصيدته «كولشن راز» (حديقة الزهرة الصوفية) حيث يقول:

اعلم أن العالم مرآة من رأسه إلى قدميه،
ففي كل ذرة مئة شمس مستعرة،
وإذا شققت قلب حبة ماء واحدة،
سيخرج منها مئة محيط نقي المياه،
وإن فتشت في كل حبة رمل،
ربما رأيت ألف آدم في قلبها،
والبعوضة في هذا العالم مثل الفيل،
وقطرة المطر تصبح في منزلة النيل. . .



إن قلب حبة الشعير قد يساوي حصاد المئات،

فالعالم يسكن في قلب حبة من ذُرة،

وعلى جناح بعوضة يرقد بحر الحياة،

وفي سواد العين تجد سماء ممتدة . . .

إن هذه الطريقة في النظر إلى كل الأشياء ربما تقود إلى الإيمان بوحدة الوجود، وهو ما ينتج عنه إنكار وجود العالم؛ بسبب الاعتقاد بأن الشيء الوحيد الموجود هو الله. وثمة ملاحظة ضرورية في هذه النقطة، وهي أن هذا ربما يبدو أشبه بمذهب الحلولية، ولكن هناك تمييز حاسم وهو أن ما يتم إنكاره في مذهب الحلول هو الله وليس العالم. وفي الواقع أن العديد من الناس، في محاولتهم لدمج منظور الكون الهولوغرافي بالتصوف، يتبنون الاعتقاد الصوفي في «هه مه أوست»، وهو اسم آخر لوحدة الوجود، ويعني أن «الكل هو».

ولكن الاستعارة الهولوغرافية، كما قدمناها آنفا، ربما تساعد أكثر في محاولتنا لفهم توحيد الله عز وجل، دون إنكار العالم. فالاعتقاد بأن كل الكائنات هي أثر لتداخل أسماء الله تعالى هو اعتقاد يتسق مع الإيمان بأن كل كيان هو مرآة للتجليات الإلهية. ومع ذلك فينبغي أن تلاحظ أننا فرقنا بين الأسماء الحسنى والصفات العليا، وكل مخلوق يظل في الوجود من خلال أسماء الله تعالى؛ فأسماء الله هي الحاضرة في كل بقعة من هذا الكون، وهو سبحانه مصدر هذا الكون. إن الله تعالى باقٍ، بينما الكون ينتهي وجوده بمجرد انقطاع اتصاله بالله تعالى، ويشار إلى وجهة النظر هذه في التصوف بـ«هه مه أز أوست»، والتي تعني «الكل منه». وفي وجهة النظر هذه لا يجري إنكار وجود العالم، ولكن يمكن التساؤل حول مستوى هذا الوجود. فإذا تم تعريف الوجود الحقيقي باعتباره الوجود المطلق لله تعالى فإن الكون ليس له وجود حقيقي، ولكنه لا يزال في شكل من الوجود المؤقت والطارئ. ويشرح المفكرون الإسلاميون هذا التحدي الوجودي من خلال ضرب أمثلة بالظل؛ فالعلاقة بين الخلْق والخالق تشبه تلك العلاقة بين الظل والشكل الحقيقي؛ وبالتالي فإن التشبيه الذي رأيناه في الظل وفي الهولوغرام هو تشبيه يمكن منه أن نبني فكرة عامة عن تجلي أسماء الله الحسنى، علماً بأنه سبحانه ليس محدودا بهذه الأبعاد.

الهولوغرام والكشف الروحي

وفي الحقيقة أن التشبيه الخاص بالهولوغرام يمكن أن يساعدنا على إدراك الكشف الروحي؛ فنماذج التداخل الناشئة عن كائنات مختلفة يمكن أن يتم تسجيلها على نفس الفيلم، من خلال إسقاط أشعة الليزر على زوايا مختلفة ومتغيرة. وفي هذه الحالة سوف تظهر صورة مختلفة ثلاثية الأبعاد، وهذا بناء على اتجاه وتردد الشعاع الذي نرسله من خلال الفيلم. وثمة نقطتان للتأكيد وهما أن استخدام ضوء الليزر ضروري لرؤية أعلى فيما يتعلق بالأبعاد، وأن المرء يستطيع أن يرى حقائق مختلفة.

وبطريقة مشابهة يحتاج السالك في رحلته الروحية إلى أن يكون لديه إشراق من نور الله ليكون قادرا على رؤية أبعاد أخرى. ومع نور الله تعالى يحدث الكشف الروحي وربما يرى السالك حالات مختلفة من الواقع، وهذا ينبني على مدى معرفته لله وقربه منه، وأي من الأسماء الحسنى يقوم بتأمله أو ذكره، وغير ذلك. وبهذا فإن المعلومات المعقدة التي تقول بأن كل عنصر في العالم يمكن أن يكشف عن كل كائن آخر، تعتمد على حقيقة أن أسماء الله الحسنى تدل على بعضها البعض. ويمكننا بالإضافة إلى هذا أن نستخدم فكرة التداخل لوصف مفهوم التدرج في تجلي أسماء الله تعالى. وفي نموذج التداخل لا يكون لكل النقاط نفس السطوع، وتعتمد درجة السطوع على موقع كل من الضوءين وطريقة تداخلهما، حتى أنه توجد نقاط لا يمكن ملاحظة أي ضوء عليها. ومع ذلك فإن هذا لا يعني أنه لا يوجد ضوء هناك، ولكنه ببساطة لا يمكن رؤيته لأسباب مختلفة.

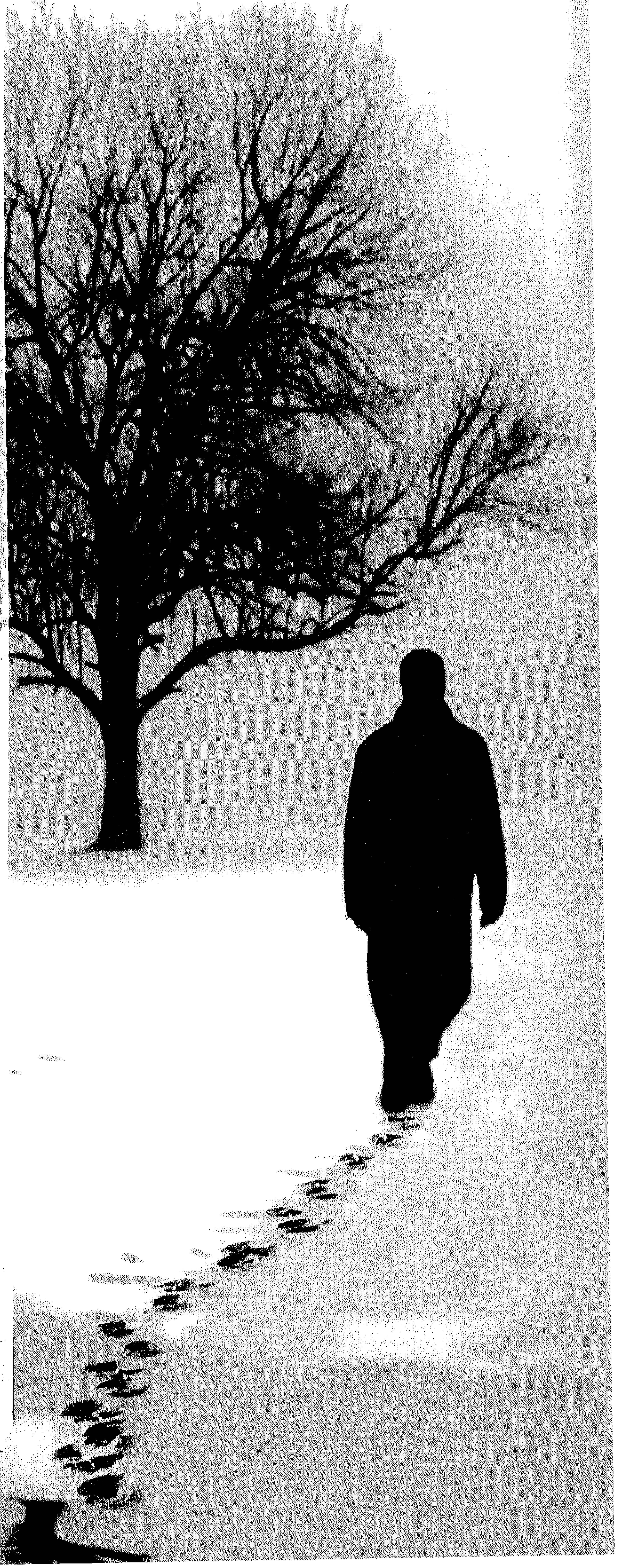
ولإيقاف هذا الحبل من الأفكار ينبغي علينا أن نجد إجابة لسؤال غامض وهو: إذا جاء كل شيء في الزمكان رباعي الأبعاد إلى الوجود بمجرد إسقاط حقيقة أعلى بواسطة نور الله على فراغ الظلام، فما هي إذن تلك الحقيقة الأعلى متعددة الأبعاد؟ إنها الحقيقة التي يمكن أن يشهدها فقط أولئك الذين يرون ما وراء ظاهر الأشياء، هؤلاء الذين يحررون أنفسهم من الدنيا المادية والشهوات الجسدية. إنّ هذا في النهاية سؤال لا يستطيع أن يجيب عليه إلا هؤلاء الذين طهّروا قلوبهم ويستطيعون أن يروا ما وراء الأشياء. ■

---

*) جامعة ميشيغن – الولايات المتحدة. الترجمة عن الأنكليزية: بهاء الدين إبراهيم نعمة الله.

الأثر والإنسان...!

كثيرٌ هُمُ الراحلون كُلّ يوم،
وقليلة هي آثارهم الباقيات بعد الرحيل،
منذ أزمان سحيقة،
رُسِمَ على الأرض آثار خطوات،
استعصت على رياح الزمن،
فما اندرس رسمها،
وما انْمَحَتْ.
التاركون على الأرض ظلالهم،
الراسمون على الأرض آثارهم،
كم من سالكٍ سلكها دون مَشَقّة،
وكم من عابر طريق مَرَّ فوقها بسلام.
أمّا المسالك الملتوية،
والآثار المعوجة،
ذات الفجاج الضيقة،
كم أضَلَّتْ من سالك،
وكم أهلكتْ من عابر...
وكم على الطريق من آثار،
عليها فَاسكُبْ العَبَرات،
وبترابها فَمَرِّغْ وجهك،
لأنها مَعْلَمُ هداية،
وآثار سلامة...
أيها المسافر إلى بعيد،
أيها الماضي من قريب،
تُرَى أيّ نوع من الآثار،
ستترك بعدك...؟



الغاية من العلم اتخاذه مرشدا وهاديا لتنوير طرق ارتقاء الفرد نحو الكمالات الإنسانية. فالعلوم التي لا تلتفت إلى الجانب الروحي للإنسان تكون عبئا على صاحبها. وكل معرفة لا تأخذ بيد الإنسان نحو الأهداف السامية ليست إلا عبئا على القلب والفكر لا تجدي نفعا.

ثلاثة أجيال أمام المحكمة

أورخان محمد علي *

ألقى رئيس المحكمة الإيطالي كارو تورللي نظرة ثاقبة على المتهمين الثلاثة الماثلين أمامه، شيخ وكهل وشاب في مقتبل العمر، كانوا يمثلون أجيالا ثلاثة متعاقبة. والغريب أنهم كانوا من عائلة عثمانية واحدة. . . كان الشيخ هو الجد والكهل ابنه والشاب حفيده.

كانوا آتين من مكان بعيد بعيد. . . من وراء آلاف الكيلومترات. . . من الأناضول إلى بنغازي في ليبيا. ما الذي دفعهم ليقطعوا كل هذه المسافة ليصلوا خفية إلى ليبيا؟! لم يكن رئيس المحكمة يجهل سبب مجيئهم. . . إنه داعي الجهاد الذي لا يزال المسلمون متمسكين به. . . داعي الجهاد هذا هو الذي دفع هذا الشيخ وابنه وحفيده وهو في ميعة الصبا إلى ترك مدينتهم وبيتهم ويقطعوا كل هذه المسافة ليصلوا إلى ليبيا من أجل معاونة إخواهم الليبيين والجهاد معهم ضد إيطاليا التي احتلت ليبيا.

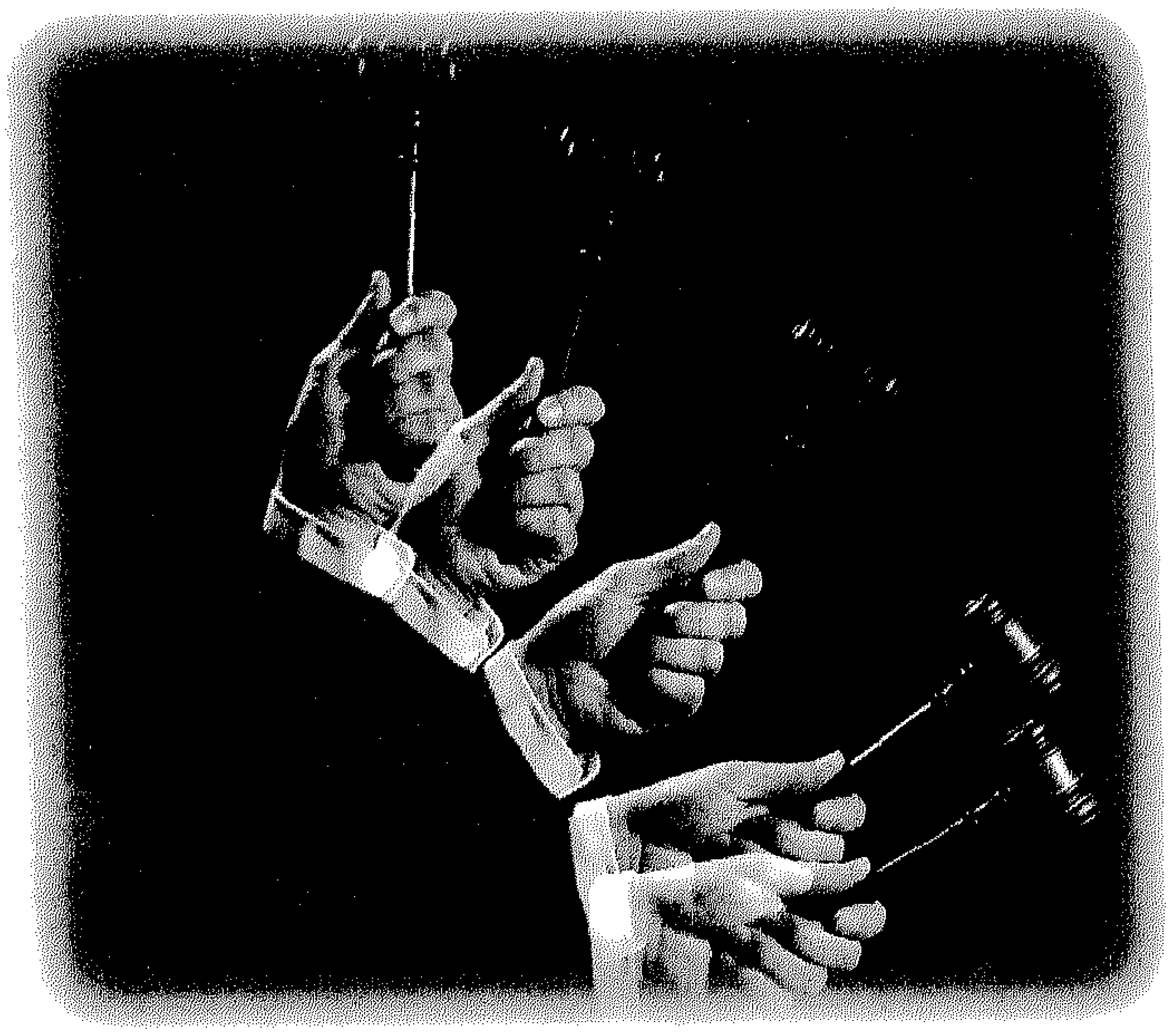
كان الشيخ هو الميرلواء (الجنرال) المتقاعد محمد باشا. . . وابنه الميرالاي أحمد علاء الدين محمد. . . والحفيد هو الشاب محمد. . . فما قصة هؤلاء المجاهدين من الجد والأب والحفيد؟

كانت طرابلس الغرب وبنغازي قد احتلتا من قبل إيطاليا، وكانت الدولة العثمانية في ضائقة مالية وعسكرية كبيرة، وهي تعاني من سيطرة حزب الاتحاد والترقي عليها بعد عزل السلطان عبد الحميد الثاني سنة ١٩٠٩. لم تكن الدولة العثمانية قادرة على مواجهة إيطاليا عندما قامت في ١٩١١م بغزو ليبيا فجأة ودون سابق إنذار. كل ما كانت تستطيعه هو إرسال بعض المجاهدين لمساعدة إخوانهم الليبيين. لم يتردد هؤلاء المجاهدون الثلاثة. . . الجد والابن والحفيد. . . تقدموا وسجلوا أنفسهم في المجموعة الفدائية التي أطلق عليها اسم «الضباط الفدائيون». وعلى الرغم من جميع الشروط والظروف القاسية، ومن قلة العدد، وقلة الأسلحة والمعدات، وقلة التمويل، وطول الطريق، فقد وصلوا سرا إلى ليبيا حيث التقوا رؤساء العشائر وأشراف البلد وبدأوا بتدريب البدو وأبناء العشائر على فن القتال. لم يكونوا يملكون أسلحة ثقيلة، لا مدافع ولا دبابات ولا رشاشات، بل مجرد بضع مئات من البنادق القديمة. كان عدد الضباط العثمانيين وكذلك المتطوعين من أفراد العشائر الليبية قليلين، وكان مطلوبا منهم القتال ضد جيش إيطالي مجهز بالأسلحة الثقيلة وبالطائرات، ويفوقهم بعشرات بل بمئات المرات في العدد والعدة. كانوا يعتمدون في الحصول على

الأسلحة على الهجوم المباغت الذي يشنونه على العدو ويحصلون على أسلحة الفارين والمقتولين منهم.

في إحدى الهجمات التي كبدوا فيها العدو خسائر كثيرة طُوقوا وحوصروا من قبل مدد جديد للجيش الإيطالي وأسروا. وها هم اليوم يمثلون أمام محكمة عسكرية إيطالية.

كانت أيديهم موثقة بالحبال بقوة بحيث أدمتها، كانوا يلبسون اللباس الليبي المحلي، وعلى رأس كل منهم طربوش عثماني. كانت التهمة ثابتة عليهم في نظر المحكمة، فقد أسروا وهم يقتلون ورائحة وأثر البارود لا يزال على أيديهم.



ولكن الشيء الوحيد الذي كان يزعج رئيس المحكمة هو وجود صحفيين أحدهما بريطاني والآخر فرنسي حضرا لمتابعة المحكمة. سألهم رئيس المحكمة:

– من أنتم؟

وقبل أن يقوم مترجم المحكمة بترجمة إلى المتهمين تقدم الكهل خطوة إلى الأمام وقال بلغة إيطالية سليمة:

– اسمي الميرالاي (العقيد) أحمد علاء الدين الضابط العثماني في خدمة مولاي السلطان... وهذا (مشيرا إلى والده) والدي الميرلواء (جنرال برتبة لواء) المتقاعد محمد باشا... وهذا (مشيرا إلى ابنه) ابني محمد الجندي المتطوع في الجيش العثماني.

استولى الذهول على أعضاء المحكمة وعلى الحاضرين في المحكمة وتبادل الصحفيان نظرة حائرة. جنرال متقاعد يتطوع في الجيش وتحت إمرة ابنه ويقاتل العدو كأي جندي آخر!! ثم أيّ عائلة هذه التي يجتمع فيها الجد مع الابن مع الحفيد في معركة يائسة بعيدة عن وطنهم؟!

أحس رئيس المحكمة أن الوضع أصبح أكثر حساسية فقد ظهر أن الماثلين أمامه عسكريون... ضابطان وجندي عثماني.

قرر رئيس المحكمة إلقاء الشبهة على هذا الأمر فقال مستجوبا العقيد:

– هل لديك أوراق رسمية تثبت ما تقول؟

بعد معاناة وألم شديد استطاع العقيد أحمد إخراج ورقة من طيات ثوبه بيديه الموثقتين:

– هذا هو الأمر الرسمي لتعييني.

أخذ الحاجب الورقة الرسمية من يد العقيد وسلمها إلى رئيس المحكمة الذي بدأ يفحصها بدقة بينما تابع العقيد كلامه:

– إن قام مترجمكم بترجمة هذه الورقة الرسمية لكم فسترون أنها أمر رسمي بتعييني قائدا للواء الثاني من الفدائيين العرب في ولاية طرابلس وهو صادر من السَّرْعَسْكَر العثماني (وزير الحربية العثماني).

كان من المفروض أن يؤدي هذا التطور الجديد في سير المحكمة إلى تغيير مجراها من محكمة تحاكم لصوصا هاجموا الجيش الإيطالي إلى محكمة عسكرية تتقيد بالقوانين الدولية حول محاكمة الأسرى العسكريين. ولكن مثل التقيد بالقوانين الدولية لمحاكمات العسكريين ومراعاتها كان أمرا بعيدا عن هذه المحكمة التي كانت قد أصدرت قرارها مسبقا وقبل بدء المحاكمة. وتظاهر رئيس المحكمة بأنه لا يصدق ادعاءات المتهمين، لذا فلم يكن يعدهم أسرى حرب، وكان دليله أنهم لم يكونوا يلبسون البزة العسكرية عند إلقاء القبض عليهم، بل كانوا بزيّ محلي.

ذكر رئيس المحكمة هذا الأمر للمتهمين نافيا كونهم عسكريين عثمانيين. أجاب العقيد العثماني:

– نظرا لكوني قائدا لمقاتلين لا يلبسون البزة العسكرية فإنني

فضلت أن ألبس مثلهم ولا ألبس البزة العسكرية لعقيد عثماني.

قرأ المدعي العسكري التهمة الموجهة إليهم وهي قيامهم في ٢٦ من شهر تشرين الأول من تلك السنة بمهاجمة الجيش الإيطالي وضربه من الخلف ضربة خائنة.

أنكر العقيد أحمد علاء الدين هذه التهمة:

– لم أضربكم من الخلف، بل هجمنا عليكم، هذا كل ما في الأمر، علماً بأننا كنا قلة قليلة.

– لم تكونوا قلة، بل هجمتم بأعداد كبيرة.

– بل كنا قلة، كل ما كنا نملكه كان عبارة عن ٤٠٠ بندقية.

– أين هذه البنادق الآن؟

– لا تزعجوا أنفسكم من هذه الناحية... ستجدون أن ٣٥٠ بندقية ستصوب إليكم في القريب. أما البنادق الباقية وهي ٥٠ بندقية فقد استشهد ١٥ مجاهدا من حامليها، وتم القبض على ٣٥ مجاهدا مع بندقيته وأعدموا من قبل محكمتكم هذه.

كان رئيس المحكمة يصر على أن هؤلاء المتهمين تابعون للحكومة الإيطالية ولكنهم أعلنوا العصيان عليها، لذا فهم مجرد شقاة عصوا دولتهم. وما دام الأمر هكذا فالحكم واضح. أما العقيد العثماني فقد أصر على موقفه قائلا:

– لم نكن نحن تابعين لكم في يوم من الأيام... ولم يكن المجاهدون العرب تحت قيادتي تابعين لكم... نحن جميعا مواطنون عثمانيون، لذا لا نعترف بكم.

ظهر الانزعاج واضحا في وجه رئيس المحكمة العسكرية، لذا حول مجرى الأسئلة إلى أسئلة قصيرة تتطلب أجوبة سريعة وقصيرة:

– هل شاركتم في الهجوم يوم ٢٦ من شهر تشرين الأول لهذه السنة (١٩١١م)؟

– لقد قدت أنا ذلك الهجوم.

– وهل اشترك هذان (مشيرا إلى والده وابنه) أيضا في ذلك الهجوم؟

– أجل! إن ابني جندي، ووالدي جنرال عثماني متقاعد تطوع في وحدتي جنديا!!

أطرق رئيس المحكمة بنظره وتظاهر بأنه يدقق بعض الأوراق. ثم استأنف أسئلته:

– وهل قاتلتم جميعا دون بزة عسكرية؟

– أجل! وقد شرحت السبب.

– هل اشركت تحت قيادتك أي أفراد من سكان طرابلس المحليين؟ وهل دربتهم؟

– إن ولاية طرابلس ولاية عثمانية، وسكانها مواطنون عثمانيون، وقد ألحقتهم بوحدتي ودربتهم وقدتهم.

– يكفي هذا.

انتهت المحكمة وصدر القرار فورا... الإعدام رميا بالرصاص.

قام رئيس الكتاب في المحكمة وهو من مدينة نابولي الإيطالية واسمه أنطونيو أوانكلي بقراءة قرار المحكمة الذي كان قد كتب قبل انعقاد المحكمة قائلا في الختام: «وصدر القرار الآنف وسجل في السجل ولا يوجد حق تمييز للمتهمين».

يقول أحد الصحفيين اللذين كانا في المحكمة: لم تبهت الابتسامة التي كانت مرسومة على شفاه المتهمين لدى سماع القرار بل هتف العقيد العثماني بصوت واثق:

– يحيا السلطان!

أما والده الجنرال العثماني المتقاعد فقد هتف: الله أكبر!

أما الحفيد الشاب فقد بقي صامتا احتراما لوالده وجده.

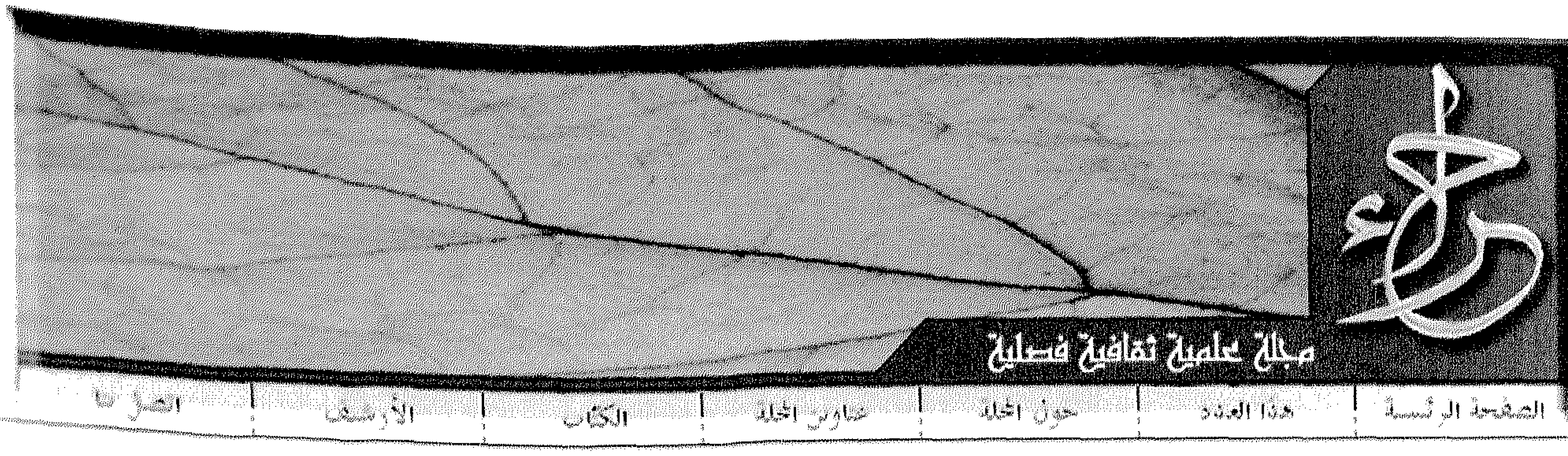
قاد الجنود المتهمين من قاعة المحكمة... وبعد فترة قصيرة سُمع أصوات طلقات أطلقها ثلة من الجنود، فقد نفذ الحكم فيهم بسرعة وبعد خروجهم من المحكمة مباشرة.

أما رئيس المحكمة فقد دمدم قائلا:

– أحضروا المتهمين الآخرين!

قال هذا وقد حول وجهه المحمر جانبا لكي لا يلتقي نظرات الصحفيين اللذين قاما تحية للمتهمين عندما مروا أمامهما إلى ساحة الإعدام وهما يحملان قبعتيهما في يديهما. ■

*) كاتب وباحث تركي. قصة مستلهمة من مجلة «سزنتي» التركية عدد ٣٠٨ سنة ٢٠٠٤.



www.hiramagazine.com

- اقرأ جميع أعدادنا...
- ساهم بقلمك وإبداعك...
- اكتب تعليقاتك واقتراحاتك...
- تابع كل ما يستجد حول المجلة...



لمسة زر



حراء
مجلة علمية ثقافية فصلية
www.hiramagazine.com

يا وردة الحرمين...



يا وردة حوّلت الصحراء القاحلة إلى جنان
أشرقي على قلبي بألوانك الساحرة
آن الأوان، لتكفكفي عيوني الدامعة
يا وردة حولت الصحراء القاحلة إلى جنان

مُلحق
مجلة حراء

حراء

مجلة علمية ثقافية فصلية

www.hiramagazine.com



تقرير مؤتمر

مستقبل الإصلاح في العالم الإسلامي

خبرات مقارنة مع حركة فتح الله كولن التركية

جامعة الدول العربية، القاهرة، ١٩-٢١ أكتوبر ٢٠٠٩

www.hiramagazine.com

المشاركون

أ.د. أحمد الطيب / مصر
أ.د. طارق البشري / مصر
د. مصطفى أوزجان / تركيا
د. محمد سليم العوا / مصر
د. نادية مصطفى / مصر
د. محمد عمارة / مصر
د. عالية المهدي / مصر
د. رضوان السيد / لبنان
د. محمد كمال إمام / مصر
د. أبو يعرب المرزوقي / تونس
د. سيف الدين عبد الفتاح / مصر
د. زينب الخضيري / مصر
د. إبراهيم البيومي غانم / مصر
د. أرجون جابان / تركيا
د. كمال المنوفي / مصر
أ. نوزاد صواش / تركيا
د. جيل كارول / الولايات المتحدة
د. سمير بودينار / المغرب
أ. محمد أنس أركنه / تركيا
د. محمود الكردي / مصر
د. رجب قيماقجان / تركيا
د. فتحي ملكاوي / الأردن
د. محمد صفار / مصر
د. فاتنة شاكر / السعودية
د. عمار جيدل / الجزائر
د. يوهان هانفر / ألمانيا
أ. أيمن شحاتة / مصر
د. ليونيد سكيانان / روسيا
أ. عبد الله عرفان / مصر
د. صلاح عرفة / مصر
د. باكينام الشرقاوي / مصر
د. حسن أبو طالب / مصر
أ. عصام سلطان / مصر
د. عبد الحميد مذكور / مصر
د. ناهد عز الدين / مصر
د. هبة رؤوف عزت / مصر
د. هدى درويش / مصر

حراء
مجلة علمية ثقافية فصلية
www.hiramagazine.com

مشاركون

حراء

مجلة علمية ثقافية فصلية

www.hiramagazine.com

مُلحَق
مجلة حراء

مستقبل الإصلاح في العالم الإسلامي

خبرات مقارنة مع حركة فتح الله كولن التركية

جامعة الدول العربية

القاهرة، ١٩-٢١ أكتوبر ٢٠٠٩


الإنسان
في قلب الإصلاح الإسلامي

أ.د. نادية مصطفى*

تابعتُ مجلة حراء منذ صدورها، تابعتُها شكلاً ومضمونًا، قريبًا أو بعيدًا عمّن كانوا وراء ميلادها ونموها. انجذبت إلى روحانية ووجدانية معانيها والمجدولة بعقلانية ورشادة إسلامية؛ مما جعل منها -في نظري- معينًا إيمانيًا وروحانيًا لكل عازم على المشاركة في إصلاح أمتنا. تمنيت أن أتمكن من المشاركة على صفحاتها... ولكن كيف وأنا أستاذة علوم سياسية وموضوعات حراء تبدو أنها بعيدة عن السياسة؟

ولكن كنت أعرف أنني يجب أن أشارك في هذه الصفحات؛ لأن الروحانية والوجدانية هي أساس تربوي يلزم كل عمل عام لصالح الجماعة والأمة والإنسانية. وهكذا يجب أن نفهم "السياسة". ومن ثم فالسياسة حاضرة هنا ولكن ليس بالمفهوم الحداثي الوضعي الواقعي، الذي يعكس كل أنماط الصراعات المادية منقطعةً الصلة عن الله وعن الإنسان ومجتمعه؛ لذا فإن السياسة المقصودة هنا إنما هي السياسة بالمفهوم الإسلامي الحضاري، الساعية للعمران من خلال الرعاية، فهي منتج لمنهج تربوي شامل، يبدأ بالإنسان ويصبّ في عافية الأمة كلها، وتشارك فيها الأمةُ كلٌّ بما يُسِّر له. إذن السياسة ليست الحكم والسلطة من أعلى فقط، كما دَرَجَ الناس على فهم

* رئيس برنامج حوار الحضارات، ومدير مركز البحوث والدراسات السياسية / مصر.



الأستاذ فتح الله كولن



السياسة باعتبارها فقط سلطة إدارة الحكم من أعلى.

وجاءتني الفرصة مع هذه الصفحات التي أقدم من خلالها خبرتي مع المؤتمر الدولي "مستقبل الإصلاح في العالم الإسلامي؛ خبرات مقارنة مع حركة فتح الله كولن التركية"؛ وهو المؤتمر الذي عُقِد في القاهرة في مقر جامعة الدول العربية في تاريخ ١٩-٢١ أكتوبر ٢٠٠٩، بالتعاون بين مركز الدراسات الحضارية وحوار الثقافات بكلية الاقتصاد والعلوم السياسية-جامعة القاهرة، وبين وقف أكاديمية البحوث والإنترنت، ومجلة حراء بإسطنبول.

وهو المؤتمر الذي شارك في جلساته عبر ثلاثة أيام ما يزيد عن ألفي مشارك من الشباب والإعلاميين وأساتذة الجامعات والناشطين المدنيين والسياسيين.

وعلى هذا النحو، من حيث نمط المشاركين ومكان الانعقاد ونطاق الحضور، فإن المؤتمر كان الأول من نوعه لتقديم هذه الخبرة الفكرية والحركية من الدائرة التركية في الحضارة الإسلامية إلى الدائرة العربية منها. ولقد بذل الأستاذ الدكتور إبراهيم البيومي والأستاذ الدكتور باكينام الشرقاوي المنسقان العلميان كافة جهدهما لتحويل فكرة المؤتمر إلى واقع ملموس.

فإذا كانت حِراء تقدم طاقات الإيمان والوجدان والروح اللازمة لتحريك وتفعيل العمل والحركة، فهي تعد منبرًا يجسد ويعكس أهداف حركة فتح الله كولن وفي قلبها فكر هذا المفكر المصلح المعاصر الذي خرج وحركته من قلب تركيا الحديثة، مولِّدًا آثارًا مهمة ليس على صعيد تركيا فقط ولكن على صعيد الأمة الإسلامية والعالم. وعلى نحو فجَّر الاهتمام بالتعرف على هذا الفكر وهذه الحركة.

ولقد كانت خبرة مركز الدراسات الحضارية مع حراء، من خلال لقاءات متبادلة في القاهرة وإسطنبول

(٢٠٠٥/٢٠٠٩) بمثابة التمهيد للطريق الذي قادنا إلى المؤتمر، وهو الطريق الذي انجدلت عبره أواصر التعارف الجميل بنماذج أعضاء الحركة وإسهاماتها، واكتشفنا خلالها موضع "الإنسان" وطبيعته في فكر "كولن" وحركته.

الإنسان والإنسانية ومذهب الإنسانية كلمات تتردد على ألسنة كثيرة، وتحمل معانيَ عدة: الإنسان الذي تماهى مع الطبيعة أو المادة، الإنسان الذي تلاشى في العدمية والوجودية، الإنسان العقلاني الرشيد، الإنسان الرومانسي الحالم .. وهكذا. ولكن الإنسان الذي نصبو إلى إصلاحه -باعتباره حجر الزاوية في عملية "إصلاح إسلامي" وفق مرجعية إسلامية وسطية تعارفية حضارية- هو الإنسان الذي يملأ فكر فتح الله كولن، وتجسده نماذج حركة فتح الله كولن والتي هي "نماذج من ذاتها". إنه الإنسان الجديد الذي وصفه كولن بأنه من "الجيل الذهبي" الذي يتربى بهويته الذاتية ويتزين بمقوماته التاريخية، إنه من أطباء الروح والمعنى، إنه المخ المدبّر يصل إلى جميع وحدات المجتمع ويمتد تأثيره إلى جميع خلايا جسم الأمة. إنه يمس شيئًا من الروح ومن المعنى، إنه من قادة أركان الروح ومهندسي العقل وعمال الفكر، إنه من أبطال يصونون مصير الوطن ويحمون تاريخ إنساننا ودينه وأعرافه وتقاليده ومقدساته كلها، إنه واحد من "حفنة المجانين" الذين يمكنهم إعادة تجديد الأمة...

هكذا تحدث الشيخ فتح الله كولن عن الإنسان؛ سواء على مستوى القيادة المطلوبة لإحداث الإصلاح أو على مستوى الشجرة وثمارها، هذا الإنسان هو الغاية والهدف، هو المنطلق والمبتدأ، وهو المآل والنتيجة. وما عدا ذلك هي وسائل آليات، سبل سعي وراء هذا الإنسان، ومن منظومة إيمانية إسلامية تجد جذورها ومصادرها في الإسلام، كما عاشه واحتواه فتح الله كولن عبر مسار حياته الممتدة.

وهذه المنظومة وهذه الجذور وهذه المصادر يتشارك فتح الله كولن وحركته قسمات منها مع أفكار وحركات إصلاحية إسلامية عبر أرجاء العالم الإسلامي وعبر مراحل تاريخه. فلم تغفل هذه الأفكار وهذه الحركات، على تنوعها وتعددها، أن الإنسان -في الرؤية الإسلامية- هو مكمن الصلاح أو مناط الفشل في هذه الأمة، مستدعيًا بعد ذلك بقية العوامل والمصادر الأخرى، أي المادية منها. ولكن ماذا عن جوانب التميّز في فكر وحركة الشيخ فتح الله كولن وماذا عن التمايز بينها وبين غيرها من الأفكار والحركات الإصلاحية الإسلامية المعاصرة والسابقة؟

سؤالان كان لابد من طرحهما في دائرة الفكر والحركة الإصلاحية الإسلامية في العالم العربي وهي تتفاعل وتتعارف مع فكر وحركة فتح الله كولن، ولكن بعد أن توطد تعارف الغرب وأرجاء أخرى من العالم مع الحركة وقائدها.

فلقد حظيت الحركة وفكرها اهتمام دوائر فكرية وأكاديمية وسياسية غربية، وانعقدت لها المؤتمرات وصدرت عنها الكتب والمقالات في الولايات المتحدة وأوروبا وروسيا. ولقد اعتبرت هذه اللقاءات في مجملها أن حركة فتح الله كولن من أهم الحركات الإصلاحية في العالم الإسلامي خلال النصف الثاني من القرن العشرين؛ ومن ثم اعتبارها من أكثر الحركات الاجتماعية والمدنية تأثيرًا على العالم في القرن الواحد والعشرين، ولقد قدمت هذه الأعمال الحركة من منظور اهتمامات الغرب بوضع العالم الإسلامي في العالم وبالتأثيرات الخارجية

والعالمية لحركة فتح الله كولن؛ انطلاقًا بالطبع من طبيعة الإطار الوطني التركي.

وفي المقابل كان لابد أن يكون لاقترابنا من حركة فتح الله كولن وفكره خصوصية، مقارنةً باقتراب المؤتمرات العالمية الأخرى التي عقدها الغرب.

ولذا فإن مؤتمر القاهرة، وسعيًا أيضًا للإجابة على السؤالين السابق طرحهما عاليًا عن أوجه تميز الحركة في مجال الإصلاح الإسلامي، قد حدد اقترابًا وهدفًا ورسم معمارًا لموضوعه وانعقد في سياق متميز وتوصل إلى نتائج ذات دلالة.

بدراسة الإشكاليات التي تثور أمام المهتمين بفكر وحركة رواد الإصلاح والتجديد الإسلامي بصفة عامة وفكر وحركة فتح الله كولن بصفة خاصة، سواء في إطارها التركي أو الإسلامي أو العالمي.

والأطروحة الفكرية الرئيسة التي ينطلق منها هذا المؤتمر هي: أن التنوع في نماذج الإصلاح يعتبر من أبجديات "المرجعية الإسلامية" التي يؤمن بها رواد الإصلاح والتجديد، ويسترشدون بمبادئها في اجتهاداتهم، ويسعون للتجديد والنهوض بمجتمعاتهم في ضوئها. بهذا المعنى يمكن القول إن التعدد



أولاً- هدف المؤتمر وفكرته ومنطلقاته

إن هدف المؤتمر يترجم خصوصية اقترابنا نحن في الدائرة العربية من خبرة تركية مثل التي نحن بصددها. فلقد كان اقتراب الإصلاح والتجديد في المجال الحضاري العربي والإسلامي في النصف الثاني من القرن العشرين هو المنطلق الذي تمت الموافقة عليه لعرض وتحليل فكر فتح الله كولن وخبرة حركته -داخليًا وخارجيًا- مقارنة بخبرات ورؤى إصلاحية أخرى في العالمَيْن العربي والإسلامي، خلال نفس الفترة الزمنية. وهذا الاقتراب يعكس فكرة أساسية ينطلق منها المؤتمر كما ينبثق عن أهداف عدة ترتبط

في إطار وحدة المرجعية ليس فقط مقبولاً؛ بل هو ضروري ولازم، وهو من مظاهر التعبير عن فهم الإسلام بوصفه نظامًا شاملاً. المنطلقات واحدة إلا أن تعدد جوانب الحياة والتنوع في المشكلات والقضايا وتغيرها من فترة لأخرى، ومن مكان إلى آخر؛ كل ذلك يقود إلى اختلاف الرؤى وتعدد برامج الإصلاح. هذا التنوع في الرؤى والبرامج الإصلاحية على أساس المرجعية الإسلامية؛ إنما يعبر عن أصل الأشياء، وينسجم مع حقائق الوقائع الاجتماعية والسياسية، ويعكس جوهر الفطرة الإنسانية التي تتأبى على التنميط والقولبة وتنزع دومًا للتنوع وتتآلف مع حقائق

التعدد في الكون وفي معطيات الحياة الاجتماعية. المرجعية الإسلامية ذاتها هي التي تفتح الأبواب المغلقة، وترحب بجميع الاجتهادات التي تشتبك مع الواقع وتهدف لإصلاحه وتطويره.

إن الوضع المثالي هو التعدد على أرضية واحدة وليس التقيد بخبرة واحدة بذاتها دون غيرها. ويرتبط ذلك بخصوصية الرؤية الإسلامية النابعة من شموليتها، حيث لا يمكن الفصل بين الديني وغير الديني، فالديني يغطي بطرق متفاوتة أبعاد الحياة الإنسانية على كثرتها، ومن بينها السياسي؛ خاصة إذا ما تم تبني تعريف شامل وواسع لماهية السياسي. وعندما تبدأ مراجعة حقيقية وجادة لأهمية الوصل وليس الفصل بين الديني وغير الديني - حيث لا توجد في الأصول المرجعية ما يدعم فكرة الفصل- ستكون خطوة مهمة قد أنجزت في سبيل رفع مستوى فعالية وإنجاز أي عملية إصلاحية في العالم الإسلامي.

وانطلاقاً من تنوع وتعدد نماذج الإصلاح المستندة للرؤية الإسلامية، يبرز سؤال المؤتمر الرئيسي: ما هي مداخل التغيير المتنافسة في سبيل الإصلاح والنهضة في مجتمعات العالم الإسلامي المعاصر؟ وأين موضع حركة فتح الله كولن منها؟

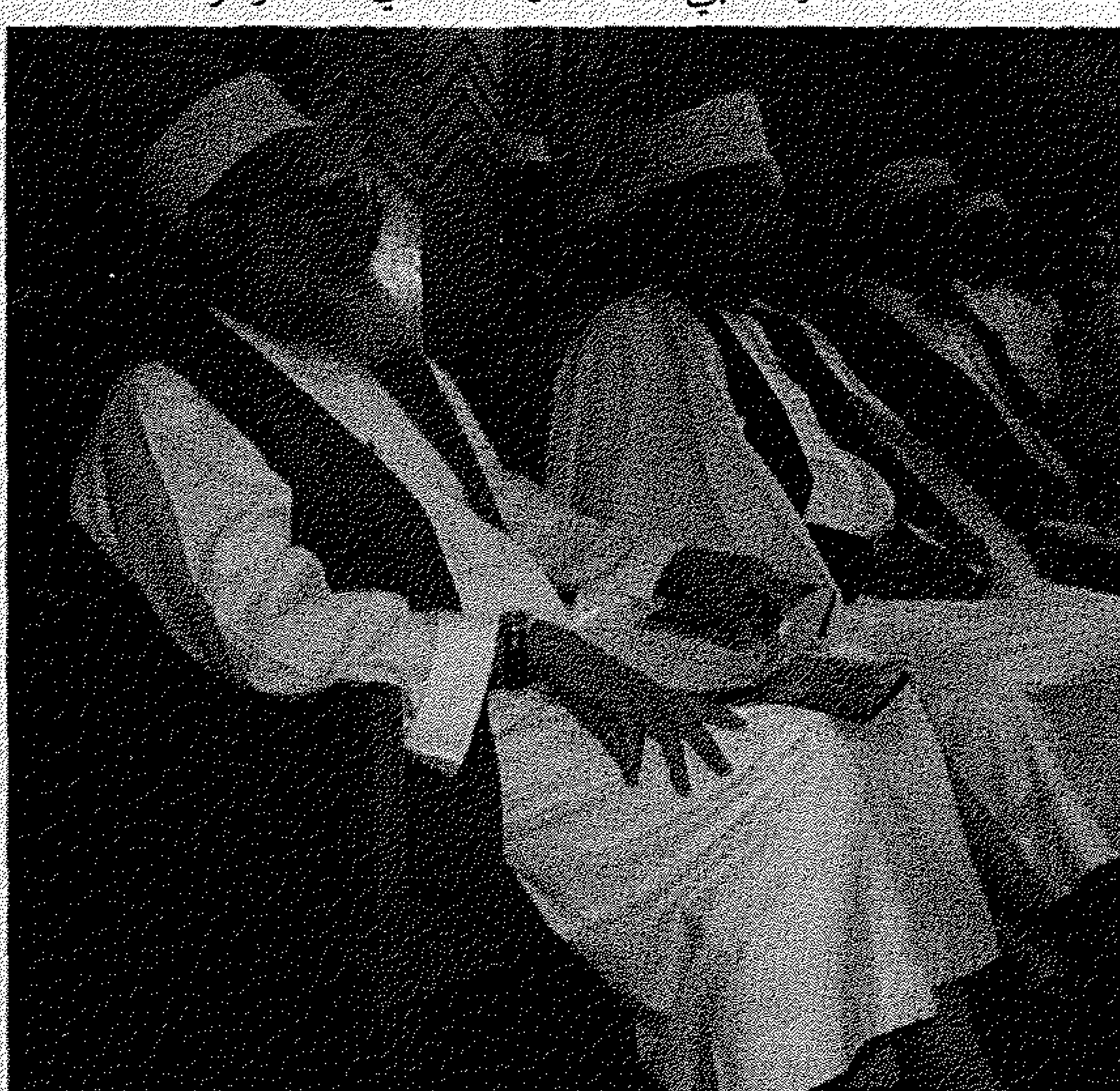
تشير تجارب الإصلاح والتجديد على امتداد العالم الإسلامي المعاصر إلى وجود عدد من الرؤى الاجتهادية، كما تشير إلى أن كلاً منها له زاوية اهتمام رئيسية تختلف عن زاوية اهتمام الرؤى الأخرى، وله مزاياه وإنجازاته، كما أن له نواقصه وإخفاقاته. من هذه الرؤى ما يركز على أن الإصلاح يبدأ من أعلى، وأن إصلاح السلطة السياسية مقدّم على الإصلاح الاجتماعي والتربوي، في مقابل رؤية أخرى تؤكد على أن البداية الصحيحة يجب أن تكون من القاعدة الاجتماعية، ويجب أن ترتكز على التربية والتنشئة والتنمية الروحية والأخلاقية. وهناك رؤية يعتقد أصحابُها أن الإصلاح رهنُ



أ. محمد أنس أركنه / تركيا



د. عمار طالبي، د. عمار مساعدي / الجزائر



الأستاذ مطيع الرسول / كينيا

استخدام القوة الخشِنة في مواجهة عوامل التأخر، وأسباب التدهور سواء كانت داخلية أم خارجية؛ أي إنه يجب أطْر الناس على الإصلاح أطرًا، في مقابل رؤية أخرى يعتقد أصحابها أن الإصلاح لا يؤتي ثماره إلا بالوسائل السلمية التدريجية طويلة النفس. هناك من يركز على إصلاح ما فسد من عقائد الناس، وهناك من يرى أن التركيز يجب أن يتجه إلى العلاقات والمعاملات والمؤسسات، وأن إصلاحها سيلقي بثماره على الجميع وإن بنسب متفاوتة. هناك أيضًا من يصبّ جل اجتهاداته في مقاومة ضغوط الخارج التي تعوق النهضة والإصلاح، وهناك من يقول له: لا... الأهم هو قهر عوامل التأخر الداخلي أولاً... وهكذا. وعلى أساس اختلاف الرؤى والاجتهادات وتباينها، تشكلت حركات وجماعات ومؤسسات، واكتسب كل منها طابعًا يعكس بؤرة اهتمامه، ويوضح نقطة انطلاقه، ويؤشر على منهجيته في الاجتهاد، وجميعهم في إطار ما تتيحه المرجعية الإسلامية الشاملة. أما الحكم على صحة وجدوى هذه الرؤية أو تلك، أو أفضلية هذا الاجتهاد وصحته وصلاحيته على غيره، فهذا متروك للتجريب في الواقع، ولتقدير ما تنتجه هذه الرؤية أو تلك من مصالح، وما تدفعه من مفاسد. والحَكمُ العدلُ في التقويم العملي هو رأي المواطنين الذين تتشكل منهم الأمة؛ نقصد رأيها العام، ورأيها العام لا يمكن أن يجتمع على إقرار الخطأ وإنكار الصواب، أو قبول الفساد ورفض الإصلاح.

وفي جميع الحالات يظل السؤال الأساسي مطروحًا، وهو: لماذا يعلو بُعد من أبعاد الإصلاح على غيره لدى بعض الإصلاحيين، ويحتل قمة أولويات تحركه؟ هل هذا اختيار قائم على نمط الاستجابة للتحدي؛ أهي مقتضيات الظرف، أم إنها من منطلق الاختيار الاجتهادي؟ أم نتيجة عوامل متعددة ولِما تفرضه هذه العوامل من أولويات للعمل، ولِما يحف بها من أسباب النجاح والفشل؟

إذا ألقينا نظرة عامة على بعض بلدان العالم الإسلامي المعاصر سنجد أن لكل منطقة، وأحيانًا لكل دولة، سماتٍ خاصة، وظروفًا معينة تجعلها مختلفة عن غيرها. "تركيا الحديثة" -على سبيل المثال- لها أكثر من خصوصية ناجمة عن ظروف انتقالها من دولة كبرى إلى دولة هامشية في النظام الدولي، ومن إرث عثماني/إسلامي إلى توجه علماني تغريبي طيلة ثمانية عقود. وقد فرضت هذه الخصوصيات تحدياتٍ مختلفةً على حركات الإصلاح الإسلامية التركية، وقدمت في إطارها بدائل متميزة ومسارات لها خصوصيتها تجعل من التركيز على الحالة التركية -ليس فقط عامل إثراء للأطروحات الإصلاحية في العالم الإسلامي- بل أيضا خبرة كاشفة ومفسرة لمحددات الفعالية وعناصر الديناميكية المفقودة في كثير من الخبرات المناظرة في الدائرة الحضارية الإسلامية.

ومن ثم فإن عملية البحث في الخبرة التركية، التي تقدمها حركة الشيخ والمفكر فتح الله كولن داخل تركيا، وبامتداداتها إلى خارجها، لن تحقق أهدافها بدون وضعها في سياق وإطار أوسع يتضمن حالات مقارنة تختلف من حيث سياقها الخارجي ومن حيث سياقها الداخلي، ومن حيث إنجازاتها الداخلية والخارجية مقارنةً بما حققه الصعود التركي خلال العقدين الماضيين، وما حاق بتوجه السياسات الداخلية والخارجية التركية من تطورات. وجميعها دفعت للتساؤل عن طبيعة وماهية رؤية هذا النموذج للإصلاح من منطلقات إسلامية.

وينطلق المؤتمر من إشكاليتين/تساؤلين أساسيين، توخينا أنهما يساعدان على الإجابة عن سؤالَيْ تميز الحركة في ذاتها ومقارنةً بغيرها.

التساؤل الأول عن العلاقة بين الفكر والحركة السياسية. هناك نمط شائع ويحتل الأضواء وهو ذاك الذي يتجه نحو الحركة السياسية المباشرة، وهناك من الفكر ما يقتصر على المجال الحركي الدعوي أو التربوي أو الاجتماعي.

ومن هنا نلحظ ما يذيع من معايير التمييز بين رواد



الإصلاح والتجديد، وأيضًا بين الحركات والتيارات الإسلامية على نحو يخلق استقطابًا ثنائيًا مصطنعًا بين ما هو سياسي وما هو غير سياسي في حركات وتيارات الإصلاح.

أما كيف تتحول طاقة المشروع الفكري إلى قوة حركة للتغيير الحضاري، وليس السياسي فقط، فهذا هو الحاضر الغائب في كل جهود الإصلاح الإسلامي عبر القرنين الماضيين، أو على الأقل هذا هو الحاضر الغائب في القراءات المقدمة عن هذه الحركات والتيارات وعن مآلها حتى الآن.

ولعلنا نستطيع أن نقول أيضًا إن من أهم ملامح التوافق بين الأدبيات التي قوّمت جهود الإصلاح والتغيير من أجل النهوض، والتي تعاقبت عبر قرنين، هو عدم تحول المشروع الفكري إلى برامج وخطط حركة، بل وإلى مؤسسات تقوم بأدوار متكاملة



في مجالات مترابطة تُشكِّل في مجموعها المنظومة الحضارية ابتداءً من منظومة قيم التربية والتعليم والثقافة والاقتصاد والإعلام والسياسة وصولاً إلى الهياكل والمؤسسات التي تهتدي بهذه المنظومات في برامج حركتها.

وإذا كانت الخبرة التركية مع فتح الله كولن تبدو أنها تقدم نموذجًا عن كيفية ملء هذه المنطقة الوسطى غير المملوءة عادة في مشروعات إصلاحية سابقة أو راهنة، ألا وهي المنطقة الوسطى بين الفكر التربوي وبين الحركة الاجتماعية وصولاً إلى الحركة السياسية، بعبارة أخرى، المنطقة الوسطى بين تربية الفرد ومنه إلى المجتمع ومنه إلى السياسة، فكيف تتحقق هذه العملية؟ وما شروطها؟ فبدون ادّعاء، بل مع تأكيد عدم الارتباط بالسياسة، فكيف كان لحركة الإصلاح التربوية الحديثة في تركيا مردودٌ اجتماعي واقتصادي وسياسي؟ ومن ثم فإذا كان جانبٌ من أعمال المؤتمر يحاول الإجابة عن هذا السؤال إلا أن استدعاء تجارب أخرى للمقارنة حول نفس الإشكالية سيمثل جانبًا آخر من هذه الأعمال.

التساؤل الثاني عن العلاقة بين عالمية الرسالة الإسلامية وإنسانيتها وبين خصوصيتها: فإلى أي حد اتجهت جهود واجتهادات رواد الإصلاح إلى ما هو أبعد من مجرد الإصلاح الديني أو الفقهي إلى الإصلاح المجتمعي، بل وإلى الإصلاح العالمي؛ أي إصلاح حال الإنسانية باعتبار أن المسلمين جزءٌ منها، وإن اختلف بالطبع مفهوم "الإنسانية" من فلسفة حضارية إلى أخرى. بعبارة أخرى، ما هي الامتدادات الخارجية لمشروعات الإصلاح الإسلامية، التي تأسست في أطر وطنية وإقليمية محددة؟ وما هي غايات وأهداف وآليات وأدوات هذا الامتداد؟ وهل اقتصرت على المناطق الإسلامية ومشاكلها فقط؟

إذا كانت الأدبيات -التي تزخر بها الساحة الأكاديمية والفكرية عن رواد وتيارات الإصلاح الراهنة والسابقة في العالم الإسلامي- قد اجتهدت لتصنيف هذه الجهود ودراسة محتوى ومضمون أفكار رموزها، فهل تمثل الإشكاليتان السابقتان جديدًا في هذا المجال؟ وخاصةً من حيث تعديلهما الخطوط الفاصلة بين الفكر والمجتمع والسياسة. وهذا ملمح من ملامح الدراسات الحضارية من مدخل العلوم السياسية، فهي ليست بالدراسات السياسية التقليدية أو الاجتماعية التقليدية أو الفلسفية والفكرية التقليدية، ولكن تحاول أعمال المؤتمر من خلال هاتين الإشكاليين

أن تقدم جديدًا. وتمثل حركة الخبرة التركية في ظل تأثيرات حركة فتح الله كولن وفكره ساحة أساسية لاختبار هاتين الإشكاليتين مقارنةً بالرؤى والخبرات الإصلاحية الأخرى.

ثانيًا- معمار المؤتمر؛ المحاور والموضوعات

وانقسمت محاور المؤتمر إلى ثلاثة، تناولتها أربع عشرة دراسة عبر سبع جلسات ثم جلسة ختامية.

المحور الأول عام وتمهيدي يرسم خرائط حركات الإصلاح في العالم الإسلامي عبر نصف القرن الأخير وامتداداتها التاريخية السابقة، ويتناول منظومة المفاهيم المتصلة: الاجتهاد، التجديد، الإصلاح.

ولقد أسهمت المحاضرة الافتتاحية للمؤتمر التي قدمها الدكتور أحمد الطيب رئيس جامعة الأزهر في هذا الجانب التأسيسي للمؤتمر والذي تبلور في موضوعات دراسات كل من الأستاذ الدكتور أبو يعرب المرزوقي والأستاذ الدكتور سيف الدين عبد الفتاح، والأستاذ الدكتور رضوان السيد، والأستاذ الدكتور محمد سليم العوا، وتعقيبات الأستاذ الدكتور محمد عمارة والأستاذ الدكتور محمد كمال إمام والأستاذ الدكتور عبد الحميد مدكور عليها.

ومن أهم الإشكاليات التي نوقشت على صعيد جلسات هذا المحور: إشكالية الثابت والمتغير، وإشكالية تصنيف حركات الإصلاح، وإشكالية آفات الإصلاح وشروطه ومقوماته، ونماذج الإصلاح بين الفكر والحركة، ومجالات الإصلاح.

المحور الثاني قدم تعريفًا بالشيخ "فتح الله كولن". وساهمت دراستيْ الأستاذ الدكتور أرجون جابان والأستاذ الدكتور إبراهيم البيومي غانم في التعريف بحياة الشيخ وانتماءاته الاجتماعية وبيئته ومصادر تكوينه الفكري وخبراته العملية وطبيعة النموذج الذي يقدمه باعتباره شيخًا ومفكرًا وقائد حركة مدنية ومصلحا اجتماعيًا وناشط سلام وأديبًا وشاعرًا. وبينت الدراستان ثُنائية مصادر تكوين الشيخ: الأصول الإسلامية والتراث الإسلامي، إلى جانب الاطلاع الواسع على الفلسفات والعلوم المعاصرة ناهيك عن التكامل بين الفكر والحركة. ولقد أبرزت الدكتورة أماني صالح في تعقيبها أهمية القيادة الإصلاحية وأهمية ما يميز الشيخ كولن عن غيره من مصلحي النصف الأخير من القرن العشرين، ألا وهو نقل فكره إلى الناس وتحويله إلى حركة دافعه في مجالات الإصلاح مؤكدًا على أهمية البعد الإيماني في الحركة ليس بوصفه مجرد دافع ولكن الغاية والهدف التي تكتمل بالخدمة.

ومن ثم فإن المحور الثاني من المؤتمر ما كان ليكتمل بدون بيان طبيعة نمط حركة فتح الله كولن للتغيير الاجتماعي، وباعتبارها ليست مجرد حركة تركية، ولكن حركة عبر قومية وعالمية للتربية ولعبور الجسور بين الأقوام والأديان تحقيقًا لنهوض الأمة الإسلامية وخير الإنسانية جمعاء. ومن ثم فإن بحوث هذا الجانب من المحور الثاني قدمت تعريفًا ببرنامج الحركة من حيث أهمية التعليم ومقاومة الجهل والفرقه والفقر، ومن حيث آليات ووسائل هذه الحركة ومجالات عملها داخل تركيا وعبر العالم (المدارس، الجامعات، الإعلام، رجال الأعمال، وقْف الصحفيين والكتّاب، مؤسسة أبانت للحوار، وقْف البحوث الأكاديمية والإنترنت).

ومن ثم أبرزت أيضًا هذه البحوث فلسفة الحركة ومفهوم الخدمة (العزيمة، الإخلاص، الهمة) في المجال العام. وهي الخدمة التي تستند إلى موارد بشرية بالأساس مدعومة بموارد الوقف والإنفاق من جانب "الأصناف".

وحيث لم تكن حركة فتح الله كولن إلا حركة تركية ابتداء، فإن فهم طبيعتها تزداد وضوحًا ببيان وضعها في الإطار السياسي-المجتمعي للإسلام في تركيا الحديثة. ومن ثم كانت دراسة الأستاذ علي بولاج بعنوان "الدين في تركيا والتغيير الاجتماعي وحركة فتح الله كولن"، وكذلك دراسة الأستاذ أنس أركنه "حركة فتح الله كولن بين الحركات التركية للتغيير".



وقدم كل من الأستاذ الدكتور محمود الكردي والأستاذ الدكتور أحمد زايد، وهما من رواد مدرسة علم الاجتماع في مصر، رؤاهما للحركة باعتبارها حركة تحديث إسلامية تجمع بين الحداثة والإسلام في ظل نظام علماني تطورت على صعيده العلاقة بين الدين والدولة التركية.

ولقد طرحت دراسات ومناقشات هذا المحور الثاني، حول فكر "كولن" ونمط حركته في إطارهما التركي إشكاليات أربع، وهي: إشكالية علاقة الحركة بالعمل السياسي، وإشكالية موقفها من العلمانية التركية التي تطورت منذ منتصف القرن العشرين ومدى كون الحركة تعبيرًا عن تعايش بين الدين والعلمانية، تلك الأخيرة التي يرى "كولن" أنها إطار يحقق التعايش بين التيارات المختلفة في وطن واحد، وإشكالية العلاقة بالغرب، وأخيرًا علاقة القيادة بالحركة ومدى أهمية التركيز على الحركة وليس فقط على شخص القيادة.

والمحور **الثالث** تناولت بحوثه مجالات العمل وخبرات الممارسة في التعليم وفي الحوار والتصدي للفرقة وفي مكافحة الفقر: من المحلية إلى العالمية، وهي مجالات ثلاثة يمتد إليها نشاط الحركة داخل تركيا وخارجها؛ مقدمة نموذجًا فريدًا من الحركات الإصلاحية الإسلامية ذات الامتدادات الخارجية والتي تكتسب ذاتيتها ليس فقط من داخل حدود وطنها الأم -تركيا- ولكن من خلال هذه الامتدادات نحو الأمة وفي العالم.

وتناولت دراستان قضية التعليم، قدمهما كل من الدكتور سمير بودينار بعنوان "فلسفة التعليم: السياحة في المجال الحيوي"، والدكتور رجب قيماقجان بعنوان "التعليم ومنظوماته المؤسسية: من المحلية إلى العالمية".

فقد أكد الدكتور سمير بودينار في ورقته على أن التعليم مثَّل المجال الأساسي الذي بدأت منه حركة كولن مسيرتها الإصلاحية. ذلك أن التعليم يمكن الحركة من بناء ما يسمى "النموذج الذاتي"؛ أي بناء الإنسان وتربيته على القيم التي تقوم عليها الحركة... كما يمكن الحركة من تحقيق "مهمة التبليغ"، التي يعتبرها كولن المهمة الأساسية لكل مسلم في الحياة.

ويحقق التعليم بناء ذلك النموذج الذاتي استنادًا إلى عناصر ثلاثة؛ أولها الإنسان الجديد، الذي يتسم بحرية التفكير والإرادة، الجمع بين الإيمان والعلم، استخدام وسائل الاتصالات الحديثة للوصول إلى عقول وقلوب الناس، عمق الجذور الروحية، حراسة القيم الإنسانية، الأصالة مع البعد عن التقليدية... أما العنصر الثاني الداعم لبناء النموذج الذاتي فيتمثل في قوة الإسلام ذاته، المستمدة من خصوصية رسالته، وتجاوزها لقوانين الزمان والمكان، والتكامل بين عناصره مع فعاليته لتحقيق مقاصده. وثالث تلك العناصر هو المرحلة الراهنة أو العصر، الذي أحسنت الحركة استغلاله والاستفادة من معطياته المتمثلة في العولمة والمناداة بحقوق الإنسان والحريات وغير ذلك.

وإذا كان الدكتور بودينار، ركز في كلمته على أهمية مجال التعليم في حركة فتح الله كولن، فقد جاءت كلمة الدكتور رجب قيماقجان لتركز بشكل أكبر على رؤية كولن حول التربية والتعليم، وأساسها رفض الرؤية الحداثية للتعليم، التي تركز على الجوانب المادية والعقلية في العملية التعليمية فحسب منكرة الجوانب الروحية. وفي المقابل يطرح كولن رؤية تعليمية بديلة تقوم على التزاوج والجمع بين الروح والمادة.

ومن ثم فإنه يرفض القول بوجود تناقض بين العلم والدين، بل إنه يحث -على العكس- على تشجيع البحث العلمي، ولكن مع عدم تجاهل القيم الروحية. وجاءت رؤية كولن تتوافق مع ظهور بعض الاتجاهات في الغرب ترفض الرؤية المادية البحتة للتربية، وتدعو إلى الرؤية الكلية للإنسان.

وعن كيفية تطبيق تلك الرؤية التربوية لفتح الله كولن في المدارس على أرض الواقع، أكد الدكتور قيماقجان أن ذلك لم يكن بصياغة مناهج مخصصة أو إضافة مناهج دينية إضافية، بل باتباع نفس المناهج المحلية في كل بلد، والتركيز بدرجة أكبر على تقديم رؤية قيمية من خلال تلك المناهج، وتقديم برامج تربوية موازية للمناهج الدراسية عن طريق المعلمين، والأنشطة المدرسية المختلفة.

هذا، وفي تعقيب الأستاذ الدكتور فتحي الملكاوي على مجال التعليم في حركة فتح الله كولن، أبرز الأمور المهمة التالية؛ من ناحية: أن الحركة وجدت في التغييرات العالمية فرصة وليس مجرد تحدٍّ، وأن التغيير على الساحة التركية الذي أفرز أزمة بين المجتمع والدولة قد ولَّد بدوره فرصة انتهزتها الحركة. من ناحية ثانية: اختار كولن خيار المدرسة المدنية وليس الدينية، وبالرغم من نقده للنمط المعاصر لكل منهما إلا أنه وضع شروطًا لتفعيل المدرسة المدنية. ومن ناحية ثالثة: الفلسفة التربوية الكلية قد فشلت نتيجة تغير وضع المدرسة في المجتمع، وفلسفة ما بعد الحداثة ليست بالفلسفة الكلية وكلا الفلسفتان الكلية وما بعد الحداثية لا يتواءمان مع أهداف مدارس كولن. ومن ناحية رابعة: أهمية المناهج الإضافية الضمنية في مجال القيم، ومن ثم فإن الثقافة المدرسية والبيئة المدرسية تحققان غرسًا أكثر فعالية للقيم.

المجال الثاني لحركة فتح الله كولن هو الحوار والتصدي للفرقة، وتناولت دراسة الدكتور ياسين أقطاي خبرات حوار الداخل والمواطنة التركية. ولقد مثلت تجربة وقف جمعية الكتاب والصحفيين إحدى هذه الخبرات، ولقد التف حول نداء فتح الله كولن جميع التوجهات السياسية والفكرية وقبلت به حكمًا في الحوار الداخلي، كذلك لعب الشيخ وحركته دورًا في تدشين الحوار مع الأقليات داخل تركيا.

كما مثل منتدى أبانت ملتقى يجمع أطيافًا فكرية وسياسية مختلفة تناقش قضايا تركيا والعالم والإنسانية. وتبين الدراسة جميع هذه الخبرات وتوضح مدى ما تمتلكه حركة كولن من رأسمال إنساني يستطيع أن يجمع به أطرافًا مختلفة لتجلس معًا وتتعارف وتتمكن من بلورة رؤى أعمق.

أما الحوار مع غير المسلمين، فلقد تصدت له دراسة الدكتور محمد صفار انطلاقًا من المقارنة بين سيد قطب وفتح الله كولن. فقد اشتركا في تشخيص الأزمة التي يمر بها الإنسان؛ فأرجعها سيد قطب إلى الانفصال النكِد بين العلم والدين، وهو نفس ما يشير إليه كولن حين يتحدث عن الانفصال المزدوج.

فمما يجمع بين كولن وقطب فكرة معايشة الوحي عبر تجاوز زمني لاستعادة عصر التنزيل في عصر التأويل، وهو ما يتمثل في فكرة الشجرة والظل عند قطب، والرسول الشجرة عند كولن. وأشارت دراسة الدكتور صفار إلى أن قطب يخاطب العصبة المؤمنة، أما كولن فيتحدث إلى براعم الإيمان. كما يجمع بين الاثنين عناصر توجه صوفي، يتمثل في الأدب مع الله، وحديثهما عن مهرجان التسبيح الكوني.

وتناولت الدراسة أيضًا جوانب الاختلاف بين المفكرَيْن، فأشارت إلى أن قطب رأى حتمية الصراع بين المجتمع المسلم والمجتمع الجاهلي، بينما يؤمن كولن بالحوار وقبول الآخر وقبول الاختلاف مع الحفاظ على الذات. كما أن لكل منهما تصورًا مختلفًا لشكل الزمان.

وفي تعقيبها على الورقتين، أكدت الدكتورة باكينام الشرقاوي على منهج التقارب الذي انتهجته حركة فتح الله كولن في حوارها داخل تركيا وخارجها. وأوضحت أن كلمة السر في نجاح الحركة هي فكرة

الموازنة بين ثنائيات كثيرة: العلم والدين، الشرق والغرب، القلب والعقل... إلخ.

وأشارت إلى أن هناك عدة أسباب لنجاح الحوار داخل تركيا:

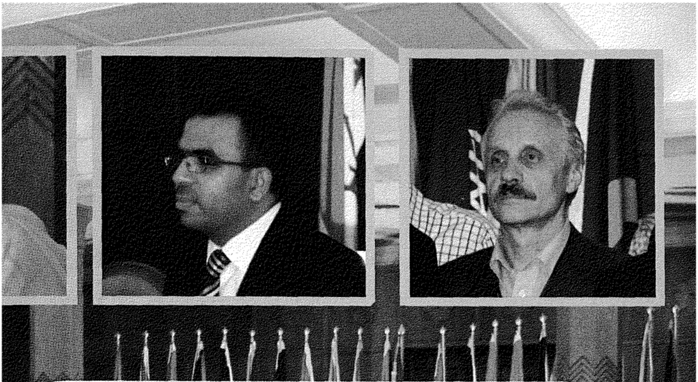
١- السياق الذي عملت فيه الحركة؛ حيث تتطور العلمانية في تركيا نحو مزيد من الليبرالية، كما أن التطور الديمقراطي رسخ دولة القانون في تركيا حيث الكلمة الفصل بين الحكومة والمعارضة هي للقانون، كما استخدمت الحركة البعد الخارجي بشكل نموذجي مما خلق بيئة دولية ترفع الداخل لإعطاء مجال أكبر للحركة مما أتاح لها فرصة للتطور.

٢- استجابة كولن؛ حيث ركز على إصلاح الفرد كمقدمة لإصلاح المجتمع، وفعّل المناخ الصوفي في تركيا وعمل على تنشيطه وإخراجه من الكسل وتحويله إلى فعالية حركية اجتماعية. كما امتلك كولن المؤسسات التي تحول رؤيته إلى حركة وفعل عبر التعليم والإعلام.

٣- ويقدم كولن، رؤية أشمل ويعتمد المفاهيم التي يتبناها الفرقاء ويعطيها مضامين جديدة مكملة. فالإسلام مكمل للديمقراطية، والحداثة تحتاج للدين في المجال العام.

هذا ولقد أثارت المداخلات حول دراسات هذا المحور مسألة موقف الغرب من حركة كولن وترحيبه بها؛ حيث رأى البعض أن خطاب كولن يتناول قضايا تهم الإنسانية





بأكملها، كما أن بياناته حول الإسلام والإرهاب لقيت اهتمامًا كبيرًا في الغرب.

ولقد تم التأكيد على أن الثقة بالذات شرط من شروط نجاح الحوار مع الآخر دون الجزع المبالغ فيه على الهوية والثوابت، وأن التصور الأمثل للإصلاح يصنعه أصحابه بأنفسهم.

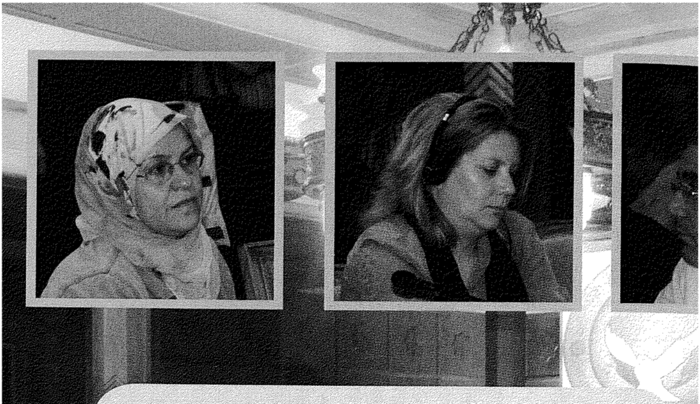
وكان لابد لموضوع الحوار مع غير المسلمين، مسيحيين ويهود، أن يستثير الأسئلة من جانب الحضور، حيث إن المواقف في الدائرة العربية -وخاصة المصرية- لا تتوافق حول ضرورة هذا الحوار وأهميته وخاصة مع اليهود، في حين أن حركة كولن تهتم بتفعيله وخاصة في توجهها الخارجي نحو الغرب.

أما المجال الثالث هو مجال مكافحة الفقر والإغاثة الإنسانية، وتناولته دراستان، الأولى قدمها الأستاذ الدكتور عمار جيدل، والثانية قدمها الأستاذ عبد الله عرفان والأستاذ أيمن شحاتة.

تناولت دراسة الدكتور عمار جيدل وعنوانها "محاربة الفقر: المنطلقات والغايات–حركة فتح الله كولن أنموذجا" الخلفية الفكرية والتربوية لمحاربة الفقر كما وضعها الأستاذ فتح الله كولن، والجوانب التطبيقية من فكرة محاربة الفقر كما جسّدها الذين امتلأت قلوبهم بفكرة "الخدمة الإيمانية".

أشارت الدراسة إلى أن الشيخ فتح الله كولن يرى أن الفقر الأخطر يكمن في عدم امتلاك العلم والفكر أو المهارة؛ لذا فالأغنياء الذين لا يملكون لا علما ولا فكرا ولا مهارة هم فقراء في الحقيقة، وبيّن في هذا السياق أنّه يعرض نمطين من الفقر: أولهما معنوي، والآخر مادي. من هنا اتخذت محاربة الفقر عند الأستاذ مسلكين أساسين: المسلك الأول، محاربة الفقر المعنوي، والمسلك الثاني، محاربة الفقر المادي. وهما يشتركان في اعتمادهما الكلي على أساس واحد، فلا يشيعان (الفقر المعنوي الفقر المادي) أو يعيشان إلا حيث يستقر الجهل وتغيب الخدمة الإيمانية. لهذا كان من أولويات الخدمة الإيمانية محاربة الفقر الأول الذي يعد أساس محاربة الفقر الثاني. وتناولت الدراسة جهود مؤسسات الخدمة في مجالات التعليم والإعلام والصحة والإغاثة والصناعة والتجارة داخل تركيا وخارجها.

وتناولت ورقة "برامج ومشروعات مكافحة الفقر في الداخل والخارج: نماذج مختارة"



التي اشترك في إعدادها الباحثان أيمن شحاته وعبد الله عرفان، برامج ومهامّ مكافحة الفقر في مصر وتركيا، مع مراعاة سياق كل تجربة من جهة البيئة الثقافية والاقتصادية والسياسية والمؤسسية المحيطة بهذه المشروعات والبرامج؛ حيث عرضت الدراسة أبعاد الرؤية التنموية لدى الشيخ محمد فتح الله كولن، والتي تظهر في أفكاره ونمط حركته والمشروعات المتنوعة التي تنبثق عنها. فإنها وإن كانت في بعض مؤسساتها متخصصة في محاربة الفقر، فإنها قبل ذلك وبعده تؤسس لتنمية إيمانية عمرانية مستدامة. ثم عرضت الدراسة بعض برامج ومشروعات مكافحة الفقر في تركيا ومصر، وركزت على جهود حركة فتح كولن في تركيا والجمعية الشرعية في مصر، فتناولت البرامج والأنشطة الخاصة بمحاربة الفقر لدى كل منهما سواء على المستوى المحلي أو الدولي، وكيفية تنفيذ هذه الأنشطة على أرض الواقع المحلي والعالمي. وتناول الباحثان أنشطة جمع التبرعات والتعرف على تنوعها وآلياتها، وجهود كل منهما للتعريف وبأنشطتهما بغرض جمع التبرعات.

ثالثًا- سياق انعقاد المؤتمر في جامعة الدول العربية: المغزى والدلالة

١- شهد المؤتمر إقبالاً شديدًا ممتدًا على مدى أيام انعقاده الثلاثة وأقبلت على جلساته فئات متنوعة من المصريين، وحظيت موضوعاته باهتمام شديد جسده عدد الأسئلة المكتوبة والتي وصلت إلى (٥٠٠) سؤال تقريبًا.

كذلك شارك في المؤتمر ما يقرب من مائة وخمسين مدعوًا من أفريقيا وآسيا وأوروبا والولايات المتحدة وروسيا، كما حظي المؤتمر بتغطية إعلامية واسعة.

وكما اتسمت جهود الإعداد للمؤتمر، عبر ما يقرب من الشهور الثمانية، بالتلاحم الشديد بين الأتراك والمصريين، وبالحوار الحي البناء الذي يفوق ما تطرحه الكلمات من دعاوى الحوار، فلقد شهدت أيام المؤتمر الثلاثة تلاحمًا وتفاعلاً آخر دعَم ما توطد من أواصر فكانت هي بذاتها منتجًا أساسيًا من منتجات المؤتمر، وتعبيرًا حيًا عن مرحلة جديدة نوعية في العلاقات بين الإخوة المصريين والأتراك.

ولهذا فلقد أضافت خبرة إعداد المؤتمر لخبراتنا في مركز الدراسات الحضارية مع إخوتنا

الأتراك في إسطنبول والممتدة منذ ٢٠٠٥، واتسمت دائمًا بالدفء وصدق النوايا وإخلاص العزيمة وابتغاء مرضاة الله؛ من خلال العمل الدؤوب لإعادة اللحمة بين شعوب الأمة الإسلامية التي فرقتها نوازل السياسة والتدخلات الخارجية.

٢- ليس من قبيل المصادفة أن يكون لكل من مكان انعقاد المؤتمر، وشعار المؤتمر والمحاضرة الافتتاحية مغزاه ودلالته، فبالنسبة لانعقاد المؤتمر في الجامعة العربية، فالإسلام والعروبة صنوان ومستقبل الإصلاح في العالم العربي يقع في قلب مستقبل الإصلاح في العالم الإسلامي، ولقد مثلت أركان الأمة (مصر وتركيا وإيران) عبر تاريخها أعراق وأقوام الأمة المتنوعة.

ومن ثم أنوه إلى أن القاعة الكبرى الرسمية في الجامعة تتصدر قمتها ثلاث آيات قرآنية تقدم الكثير بالنسبة لصميم موضوع المؤتمر. الآية الأولى هي: ﴿إِنَّ اللهَ لاَ يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّى يُغَيِّرُواْ مَا بِأَنْفُسِهِمْ﴾ وهي تتوسط الآية الكريمة: ﴿كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ﴾ وآية: ﴿وَاعْتَصِمُواْ بِحَبْلِ اللهِ جَمِيعًا وَلاَ تَفَرَّقُواْ﴾.

إن قيمة التغير ابتداء من النفس والذات إلى قيمة خيرية هذه الأمة ليس بمجرد إيمانها ولكن أيضًا بحضورها وشهودها، وإعلائها قيمة الوحدة والتضامن، ثلاث قيم أساسية ترتكن إليها فلسفة المؤتمر وهدفه. وتقدم لنا حركة فتح الله كولن -مقارنة بحركات الإصلاح الإسلامية الراهنة والسابقة- دلالات مهمة بشأن كيفية تفعيل هذه القيم الثلاث المتصلة بالذات وبالأمة.

أما شعار المؤتمر فيضيف أمورًا أخرى حول أهداف المؤتمر وموضوعاته. فإذا كان الإسلام رسالة ودعوة للعالمين فإن مستقبل إصلاح العالم الإسلامي يمثل مدخلاً مهمًا في مستقبل إصلاح العالم، بل هو أيضًا شرط له؛ وذلك على ضوء أوجه تميز النموذج المعرفي والحضاري الإسلامي (الوسطي التعارفي التعددي) في مقابل النماذج المادية الصراعية الاستئصالية.

كما أن حالة العالم وطبيعة من يقوده سياسيًا وفكريًّا تنعكس على درجة سلامة هذا العالم ورخائه واستقراره، بل ودرجة ما يعكسه من قبول التنوع والتعدد الحضاري. هذا ولقد كانت مصر وتركيا ركنيْن أساسيين في كافة مراحل تطور وضع العالم الإسلامي وموضعه من النظام الدولي، قوة أو ضعفًا، صعودًا وهبوطًا، ودائمًا كانت الرموز الفكرية والدعوية والسياسية من المصريين والأتراك تقوم بأدوارها القيادية في الحركات الإصلاحية. وها هو الشيخ فتح الله كولن، بما حققه وحركته من إنجازات خلال النصف القرن الأخير، ينضم إلى هذه السلسلة الذهبية من الأعلام والمجددين والمصلحين، الذين وإن اختلفت تجاربهم وتنوعت، إلا أنهم تركوا بصماتهم على مسار هذه الأمة.

وعلى ضوء ما سبق، يتضح مغزى حمامة السلام التي تتصدر شعار المؤتمر من ناحية محلقة فوق رمزين من أهم رموز مصر وتركيا، ومن ناحية أخرى؛ تنجلي من وراء أشعة الضوء ملامح الشيخ فتح الله كولن.

وأخيرًا، فإن مشاركة الأستاذ الدكتور أحمد الطيب بمحاضرة افتتاحية للمؤتمر تعكس ما يجب أن يكون للأزهر الشريف، جامعًا وجامعةً، من دور في عملية الإصلاح في العالم الإسلامي.

٣- كل هذا جرى في رحاب جامعة الدول العربية التي استضافت المؤتمر، وأحاط الأمين العام للجامعة السيد عمرو موسى ومدير مكتبه السفير هشام يوسف الإعداد للمؤتمر وانعقاده بكامل رعايتهم. كما قدم المسؤولون عن إدارة المؤتمرات في الأمانة العامة للجامعة كل التسهيلات الممكنة.

وفي الجلسة الافتتاحية التي شارك فيها كلٌ من الأستاذة الدكتورة عاليا المهدي عميدة كلية الاقتصاد والعلوم السياسية، والأستاذ الدكتور أحمد الطيب رئيس جامعة الأزهر، والدكتور مصطفى أوزجان مستشار وقف أكاديمية البحوث والإنترنت بإسطنبول، كان من قبيل المفاجأة السارة أن وجه الأستاذ فتح الله كولن كلمة طيبة إلى المؤتمر قرأها الأستاذ نوزات صواش.



وكان محور كلمة الشيخ فتح الله كولن هو الإنسان، ولذا ليس من قبيل المصادفة ما عنونت به مقالتي هذه.

يقول الشيخ كولن:

"الحمد لله رب العالمين، والصلاة والسلام الأتمان الأكملان على سيد المرسلين، وعلى آله وصحبه أجمعين.

أيها السادة الكرام.. أعضاءَ هذا المؤتمر العلمي المبارك، من باحثين وعلماءَ ودعاةٍ ومفكرين، أيها الأحبّة الأوفياء...

السلام عليكم ورحمة الله وبركاته..

إن مؤتمركم هذا جدير بأن تُشَدَّ إليه الرحال. ولولا ظروف صحية تمنعني من مغادرة إقامتي، لكنت أول الحاضرين معكم، ولتربعت جالسًا بين أيديكم، مستمعًا إلى عروضكم القيّمة، ألتقط درر أفكاركم وتوجيهاتكم. وما ذلك إلا لأن هذا الذي اجتمعتم اليومَ من أجله هو قضية الأمة الأولى، إنها قضية الإصلاح. هذا المفهوم الذي كان ولم يزل أكبر إشكال واجهه الفكر البشري بمختلف تصوراته ورؤاه. ورغم ما كُتب في موضوعه على المستوى الفكري الصرف؛ فقد بقيت كثير من أسئلته الفلسفية والاجتماعية معلَّقةً في أفق العقل المعاصر. والدليل على ذلك وضع العالم اليوم، المتخبطِ في متاهات الحيرة والاضطراب، بعد استهلاك كثير من نظريات الإصلاح هنا وهناك، ولكن دون جدوى.

أما بالنسبة لنا نحن معشرَ المسلمين، في عالمنا الإسلامي هذا، فإننا رغم ما نملك من رصيد تاريخي ضخم في هذا الشأن؛ إلا أننا ما زلنا نعاني في أغلب الأحوال من عدم وضوح الرؤية، وكثرة العثرات والانكسارات. وذلك لأسباب شتى، منها عدمُ ضبط مفهوم الإصلاح، كما ورد في الكتاب والسنة، وكما مارسه الأنبياء الكرام عبر التاريخ.

أيها الحضور الكريم..

إن نبينا محمدًا ﷺ كان إمام المصلحين، وقد بُعث رحمة للعالمين، ﴿وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلاَّ رَحْمَةً لِلْعَالَمِينَ﴾. ومن ثَمَّ كانت الرحمةُ هي أساسَ دعوته، وجوهرَ منهاجه الإصلاحي، حتى في أشد الظروف عنفًا وشدة. فإن الإصلاح الحق هو الذي يحمله رجال مخلصون، متعلقون بأشواق الروح، منكرون لذواتهم ومصالحهم الشخصية، ينظرون إلى مظاهر الانحراف في الآخرين بعيون الشفقة والرحمة، ويعالجون جراحات الآخرين، باعتبارها قروحًا تنزف في أجسامهم هم.

إن الإصلاح تربية وتعليم، وما كان ينبغي للمعلم إلا أن يكون رحيمًا حكيمًا. ومن ثَمَّ فإن التعليم بكل أبعاده الشمولية، هو الذي يمثل جوهر المنهاج الإصلاحي، وقد ثبت في الحديث الصحيح قولُ النبي ﷺ: "إنما بُعِثْتُ مُعَلِّمًا".

إن سر مركزية التعليم في العمل الإصلاحي، هو دورانه على الإنسان، مُعَلِّمًا ومُتَعَلِّمًا. ذلك أن المعلم المنخرط في مهنته بروح التعبد الخالص، يستطيع أن يصنع من تلميذه إنسانًا جديدًا، ينظر إلى مستقبل الأمة بعيون يملؤها الأمل، وقلبٍ ينبض بالمحبة والسلام. ومن ثم فإن إصلاح الأجيال، مرتهن بإصلاح التعليم، وإخراج فلسفته من ضيق المنطق الوظيفي الميت، إلى سَعَةِ العمل الإنساني النبيل، ألاَ وهو بناء الإنسان بكل أبعاده النفسية والفكرية. وإن التعليم بهذا المنطق النبوي الكريم، يستطيع أن يجدد البنى الاقتصاديةَ، والعلاقاتِ الاجتماعيةَ والسياسيةَ والثقافية في البلاد، ويحدوها برفق وهدوء، نحو التآلف والتكامل والنهوض.

إن أول خطوة في مشروع الإصلاح، هي إنتاج الإنسان، الإنسان الذي فَنِيَ عن نفسه في قضية أمته، وتعلق قلبه بأشواق الآخرة، ثم اتخذ مهمته التعليمية مسلكًا لمعرفة الله وعمارة الأرض.


وأخيرًا، بارك الله في مؤتمركم.. وزكّى حواراتكم.. وجعل كل كلمة من كلماتكم ﴿كَشَجَرَةٍ طَيِّبَةٍ أَصْلُهَا ثَابِتٌ وَفَرْعُهَا فِي السَّمَاءِ ۞ تُؤْتِي أُكُلَهَا كُلَّ حِينٍ بِإِذْنِ رَبِّهَا﴾. والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته".

رابعًا- نتائج المؤتمر

كيف استقبل "المصريّون" الحركة وفكرها؟

قالت "جيل كارول" في بداية الجلسة التي رأستها -وكانت عن الحوار- إن أحد أهم أسباب مشاركتها في المؤتمر هي التعرف على نمط استجابة المصريين لهذه التجربة التي تعرف عليها الغرب وأشاد بها قبل أن يتعرف عليها الجوار العربي لتركيا، ولقد أشاد بها الغرب باعتبارها توفيقًا بين الحداثة والديمقراطية والعلمانية وبين الإسلام. وإذا كانت اقترابات المؤتمرات الغربية من فكر "كولن" والحركة قد استدعت قضايا من قبيل الحداثة، الديمقراطية العلمانية، التعددية، المواطنة، الاندماج وما يرتبط بها من مفاهيم المجتمع المدني، المجال العام، التغيير المجتمعي، ومع إعطاء اهتمام خاص بقضايا العنف واندماج مسلمي الغرب والحوار الإبراهيمي ومكافحة الإرهاب والتطرف، فإن اقتراب مؤتمرنا في القاهرة، كان مختلفًا يبحث في غايات أخرى تتصل بمستقبل مسار حركات الإصلاح في العالم الإسلامي، كما سبق وأشرنا.

إن تشخيص الوضع الراهن المعاصر للمجتمعات والنظم العربية والإسلامية يبين كيف أن جهود الإصلاح والتجديد التي تمثل امتدادات لاتجاهات وحركات الإصلاح الحديث -ابتداءً من القرن التاسع عشر الميلادي- إنما تعاني من ضعف الانسجام والتنسيق بين المداخل الأساسية للإصلاح في العالم الإسلامي: المدخل السياسي، والمدخل التربوي-



أ. نوزاد صواش، المشرف العام لمجلة حراء / تركيا

الاجتماعي، ناهيك بالطبع عن المدخل العقدي. ومن ثم فإن تحديات الوضع الراهن من ناحية ودواعي التفكير الاستراتيجي في متطلبات الاستجابة الفاعلة لهذه التحديات، من ناحية أخرى، تفرض البحث في تفسير هذه الظاهرة؛ أي عدم الانسجام بين هذه المداخل والبحث في النماذج التي تجاوزت هذا الوضع، وكيف أدركها وعالجها الرواد والمصلحون المعاصرون خلال النصف قرن الأخير، وأين دلالة النموذج التركي في هذا السياق؟

ومن ثم باستدعاء ما حدده المؤتمر من غايات وأهداف، وما طرحته البحوث والمناقشات من قضايا وأفكار، حددت الجلسة الختامية مجموعة من النتائج طرحها تفاعل المصريين مع خبرة حركة فتح الله كولن (فكرًا وممارسة):

الإشكالية الأولى: العلاقة بين الفكر والحركة، حقيقة هناك قواسم مشتركة بين فكر "كولن" الراعي لإصلاح الإنسان وفكر أعلام آخرين انطلقوا من نفس المنطلق؛ نظرًا للاشتراك في مرجعية واحدة.

ولكن يظل الفارق هو أن كولن لم يكن مجرد مفكر ولكنه مصلح نقل الفكر إلى مجال الحركة وبطريقة مؤسسية منظمة ومتعددة المستويات ومتعددة المجالات، وعلى نحو يمثل شبكة من التفاعلات المتعاضدة التي يقوم بها وعليها "حفنة من المجانين" تقدم طاقاتها البشرية وليس المالية فقط، استجابة لفكر قيادة إيمانية. وفي هذا يقول فتح الله كولن في مقال "إنسان الفكر والحركية" (أكتوبر ١٩٩٤):

"إنسان الفكر والحركية هو رجل الانطلاقة والحملة، الحركي المخطط الذي يقوم ويقعد على خفقان شد العالم بالنظام مجددًا، ويمثل حركة إقامة صرح الروح والمعنى من جديد بعدما آل إلى السقوط ومنذ عصور، ويُفسر قيمنا التاريخية كرة أخرى، ويستخدم بمهارة مكوك الإرادة والمنطق في الفكر والحركة، وينقش على قماش روحنا ومعنانا زخارف مستظرفة وجديرة تناسبنا.

فهو في خط الحياة الممتد على مدى فصولها من الحس إلى الفكر، ثم إلى الحياة العملية، يتنفس النظام دومًا، وينشغل بحس البناء والإنشاء أبدًا. إنه وليّ الحق اللدني الذي يُعِدّ "قادة أركان" الروح ومهندسي العقل وعمال الفكر، بدلاً عن استخدام القوة المادية لفتح البلاد ودحر الجيوش".

وهذا الفكر الذي تنطلق منه الحركة ليس إلا فكرًا إسلاميًّا يبدأ من القلوب من داخل الإنسان ليشع الإيمان عملاً. وفي هذا يقول أيضًا محمد فتح الله كولن في مقاله "الخصوصيات الأساسية للفكر الإسلامي" (١٩٩٩):

"منذ أن نصب الإسلام سرادقه في الأرض، توجه إلى القلوب بأشد قوته، وسعى لفتح القلوب، ورسَمَ صورتَه في كل وجدان، ثم حَمَل على وحدات الحياة كلها. فثم تناسب دائم بين تعمقه في الصدور وتأثيره في فصول الحياة. فبقدر عمق تغلغله في الأرواح وتأصله فيها، يطفح فيضُ تأثيره في حياتنا وانعكاساته فيما حولنا. بل نستطيع القول بأن الآمال والأشواق ومسلمات القبول المستيقظة فيما حولنا باسم الإسلام، تتحقق تمامًا، بالتناسب مع عمق هذه الصورة الداخلية وسعة إحاطتها. فكلما تعمق القبول الابتدائي هذا في دواخل البشر، زادت قوة تأثيره في البيئة المحيطة، وتحددت الوجهة التي يوليها المجتمع في حياته الأخلاقية والاقتصادية والسياسية والإدارية والثقافية. ذلك في كل زمان وبقدر هذا الإذعان الداخلي. نعم، المجتمع -من كل الوجوه- يحمل في سيماه خطوطا مهمة منه، ويُظهر الفن والأدب على محياه ألوان هذا المحتوى الداخلي وزخارفه، ويُسمَع ويُستشعَر في كل مكان بين سطور الوجود والأشياء صوت هذا المحتوى الداخلي ونَفَسُه وأداؤه، ويشجي كل شيء مرئي أو خافٍ أسماعنا بأنغام رائعة يلحنها لسان هذا المحتوى الداخلي الصامت بلا صوت ولا كلام".

إذن المطلوب هو الفعل المقرون بالإيمان والإخلاص. وفي هذا يقول أيضًا الشيخ فتح الله

كولن: "لو أن المرء طلب الإخلاص واليقين في اليوم مائة مرة فما هو من المكثرين. لكن كيف ينبغي أن يكون الطلب؟ دعاءَ قول أم دعاءَ فعل؟ أرى أن دعاء الفعل هو الأصل، لكنه لا يمنع من دعاء القول. أما الأفضل فدعاء قول يلازمه دعاء فعل. وإذا كان لنصيحتي مكانة عندكم، فنصيحتي الأولى والأخيرة هي أن تطلبوا مرضاة الله تعالى. فقد تنسون طلب الجنة في دعواتكم أو الاستجارة من النار، لكن حذارِ أن تنسوا طلبَ الإخلاص واليقين بإلحاح؛ لأن الأمر لا يحتمل النسيان. إذا تلاشى الإخلاص وضاع اليقين لدى الفرد فقد تدحرج في فراغ مخيف؛ إذ أقواله لا تتجاوز حنجرته، وأفعاله لا تعبر عن أي معنى نبيل".

إذن مصدر الفكر التجديدي ومبدعه، الشيخ فتح الله كولن، يريد حركة مقرونة بإيمان وإخلاص ولا مفر أن يقوم عليها "حفنة من المجانين"، وفي هذا يقول أيضًا الشيخ فتح الله: "مجانينَ أريد، حفنةً من المجانين.. يثورون على كل المعايير المألوفة، يتجاوزون كل المقاييس المعروفة. وبينما الناس إلى المغريات يتهافتون، هؤلاء منها يفرون وإليها لا يلتفتون. أريد حفنة ممن نسبوا إلى خفة العقل لشدة حرصهم على دينهم وتعلقهم بنشر إيمانهم؛ هؤلاء هم "المجانين" الذين مدحهم سيد المرسلين؛ إذ لا يفكرون بملذات أنفسهم، ولا يتطلعون إلى منصب أو شهرة أو جاه، ولا يرومون متعة الدنيا ومالها، ولا يفتنون بالأهل والبنين... يا رب، أتضرع إليك... خزائن رحمتك لا نهاية لها، أعطِ كل سائل مطلبه، أما أنا فمطلبي حفنة من المجانين... يا رب يا رب...".

إن أهمية وتفرد هذه العلاقة بين الفكر والحركة في منظومة الشيخ فتح الله كولن (والتي محورها إعادة بناء "الإنسان الجديد") قد نوه إليها المستشار طارق البشري (المؤرخ والمفكر الإسلامي، ونائب رئيس مجلس الدولة المصري الأسبق) في المحاضرة الختامية للمؤتمر. حيث بدأها مؤكدًا أن الواقع هو مفتاح فهم المستقبل، وأن أسئلة الحاضر الممتد هي التي تصوغ رؤيتنا المستقبلية في الفكر والحركة. وأننا حين ندرس خبرات الإصلاح لا ندرسها لننسخها في بلادنا دون مراعاة لاختلاف السياقات الزمنية والمكانية والاجتماعية والثقافية، وإنما ندرسها للاستفادة منها مع مراعاة هذه الفروق الدقيقة؛ وأن مشكلة الأمة تتمثل في أن "أذرعنا لا تعمل جيداً، وأرجلنا لا تسير جيداً، وهي مشكلة حركية تتعلق بالقدرة على جعل أهدافنا تتوافق مع مصالحنا مادياً ومعنويًا".

وخلص المستشار البشري في نهاية محاضرته إلى أن مشكلتنا الحقيقية التي يعاني منها واقعنا الآن لا تكمن أبدًا في ضعف الأفكار، وإنما تكمن في ضعف التنظيم، وعلينا أن نواجهها بما يملك أصحاب القدرة على الحركة والتحريك من إمكانيات القيام بها.

الإشكالية الثانية: العلاقة بين الواقع والاجتهاد، الاستجابة لتحديات الواقع وإدراك ما يقدمه من فرص وما يفرضه من قيود وضغوط، دون التخلي عن الثوابت. وبينت حركة فتح الله كولن وفكره الارتباط الوثيق بالواقع المحيط ومن ثم عدم الاكتفاء بالأطروحات الفكرية والنظرية، ولكن التوجه إلى وضع خطط وبرامج عملية للالتحام بهذا الواقع من أجل تغييره وفقًا للمرجعية الإسلامية وباجتهاد وتجديد في الطرائق والسبل بما يستجيب للإطار الوطني والإطار العالمي ولا يبقى دعاوى الإصلاح حبيسة الآمال والأحلام أو فريسة الصدام والتصفية. وفي هذا يقدم فتح الله كولن في مقاله "الإنسان الجديد" (مارس ١٩٩١) تحليلاً واعيًا بمسيرة تاريخ الإنسانية منذ القرن الثامن عشر الميلادي، مبشرًا بأن القرن الواحد والعشرين سيكون قرن الإيمان والمؤمنين وعصر انبعاثنا ونهضتنا من جديد. كما يقدم في مقاله "نحو عالمنا الذاتي" (أكتوبر ١٩٩٣) تصوره عن كيف يمكن أن نفتح للعالم صفحة جديدة بالتوصل إلى تفسير جديد للكون من خلال الإحساس بالروح الإسلامي ومعناه. وهو يقول أيضًا في مقاله "نحو عالم الغد" (يوليو ١٩٩٣) "أن أساس حياتنا الروحية قائم على الفكر الديني... والذين

يختلقون صدامًا بين الدين وبين العلم والمحاكمة العقلية، هم بؤساء جهلوا روح الدين والعقل... لنضع جانبًا بلبلة التكوينات الجديدة في العالم، نحن لا نصدق بولادة شيء جديد من الكيان الرأسمالي القديم، أو أحلام الشيوعية أو تكسيراتها الاشتراكية أو هجينها الديمقراطية الاجتماعية، أو خرق الليبرالية التالية. الحقيقة هي أنه إنْ كان ثَمّ عالم مشرع الأبواب لنظام عالمي جديد فهو عالمنا نحن...".

إذن فإن "كولن"، ومنذ نهاية الحرب الباردة وسقوط الشيوعية ودخول العالم مرحلة تحولات جديدة، قد أدرك حقيقة هذا الواقع وتهاوي فلسفاته المادية ودخول المجتمع التركي من ناحية -والمجتمع العالمي من ناحية أخرى- مرحلة مراجعة تستشعر فراغًا يتطلب من يملأه، وقدم فتح الله كولن اجتهاده الإسلامي ليس لتركيا فقط ولكن للعالم كله.

الإشكالية الثالثة: العلاقة بين الداخلي (الوطن) والبيني (الأمة الإسلامية)، والخارج (العالم). فالإصلاح في العالم الإسلامي خلال المرحلة الراهنة من تطوره يواجه تحديات العولمة وتزايد اختراق الخارجي للداخلي؛ بحيث لا تنفصل معطياته الداخلية عن هذه التحديات، وقدمت حركة كولن استجابة لمتطلبات المجتمع التركي في علاقته بالدولة، كما مثلت وعيًا بأن الداخل التركي جزء من الأمة الإسلامية، وأن على تلك الأخيرة واجب نحو الإنسانية والعالم لإيجاد حل لأزمة الحضارة المادية؛ ومن ثم تقدم بديلاً للإنسانية من مرجعية إسلامية.

فباستقراء تاريخ حركات الإصلاح الإسلامي، وتيارات الفكر الإسلامي، خلال القرون الثلاثة الأخيرة، على الأقل، يمكن ملاحظة أنه كان لها امتداداتها خارج نطاق ظهورها، وأنه كان لها انعكاسات في دوائر ومستويات متداخلة، إلا أنه في ظل العولمة وثورة المعلومات وفي ظل التكالب الاستعماري الجديد على العالم الإسلامي، وفي ظل تدفقات هجرة المسلمين إلى الغرب وتبلور الوجود المسلم في مجتمعاته، أضحى للفكر الإصلاحي والحركات الإصلاحية الإسلامية امتداداتها الطبيعية في الغرب أيضًا، وليس في أرجاء العالم الإسلامي فقط.

وإذا كان الداخل التركي قد مارسَ تأثيره على ما تواجهه هذه الحركة من فرص وقيود، فمما لا شك فيه أن الاهتمام المتنامي في الغرب بفكر الأستاذ فتح الله كولن وحركته، وتصنيفها بأنها تعبير عن نمط من إسلام ليبرالي أو إسلام حداثي وعلماني يحقق الالتقاء بين العالم الإسلامي والغرب له دلالات أخرى.

هذا النمط من الاهتمام الغربي أثار تساؤلات، وأحيانًا شكوك واتهامات حول "الثابت والمتغير" في اجتهاد هذه الحركة التجديدية الإصلاحية، وهو أمر تكرر ظهوره مع جميع حركات الاجتهاد والإصلاح خلال قرون ماضية، وهذا ما نوّه إليه كلٌ من الدكتور محمد عمارة والدكتور محمد سليم العوا خلال المؤتمر.

الإشكالية الرابعة: مدى تحقيق الانسجام بين الأبعاد السياسية والاقتصادية والاجتماعية والتربوية لخبرات الإصلاح من أجل تحقيق هدف النهضة.

إن كان الغرب قد درَجَ على تصنيف حركات الإصلاح وتيارات فكره الإسلامي بقدر ابتعادها أو اقترابها من نموذجه، ومن هنا كانت تصنيفات المعتدل، الراديكالي، الحديث، السلمي، العنيف... فإن تصنيفات أخرى في العالم العربي والإسلامي قد درجت على التصنيف وفق مجال الإصلاح. ومن هنا برزت ثنائية ما هو سياسي، وما هو لاسياسي، وفقًا للمفهوم الحداثي الوضعي العلماني للسياسة، باعتبارها صراعًا من أجل السلطة والحكم بالأساس، كذلك برز الفصل بين جوانب الحياة، كما لو أن الإصلاح يمكن أن يتحقق على جانب تاركًا الآخر. في حين أن الحقيقة أمر آخر، ألا وهي أن جميع مجالات الحياة -وفق الرؤية الإسلامية- تتحاضن وتصب في بعضها البعض، وإن كان الأمر يقتضي اختيار منطلق للبداية. ويظل منطلق إعادة بناء الإنسان اختيارًا لابد أن يقود إلى الاختيارات الأخرى.



وإذا كان قد شاع عن الشيخ محمد عبده مقولته الشهيرة "لعن الله السياسة" فلابد وأن نستحضر أيضًا قوله –غير الشائع- أنه بدون تربية وتعليم ستتكرر الانقلابات والثورات بلا نتيجة. بعبارة أخرى، إذا كان قد ركز الغرب والمسلمون على الإسلام بوصفه قوة سياسية وجهادًا عسكريًّا، إلا أن تلك القوة لم تتحقق، ولن تتجدد بدون النهوض بالإنسان ابتداء؛ أي ما أسماه الشيخ فتح الله كولن "الجهاد المعنوي". ورأى أنه الأساس للإسلام الحضاري الشامل لكل جوانب الحياة وليس مجرد ما يسمى الإسلام السياسي أو الإصلاح التربوي أوغيرها من التصنيفات الجزئية.

فيقول الشيخ في مقال "الشعور بالمسؤولية" (يوليه ١٩٩٥):

"لقد كان لكل عصر كرامة. فولدت الإنسانية من جديد بالإسلام في القرن السادس الميلادي، وعاد كثير من أقوام الترك إلى الحياة كَرَّة أخرى بالإسلام في القرن العاشر الميلادي، وانشقت بالاستحالة شرنقة عن فراشة في "سوكود" في القرن الرابع عشر الميلادي. وأظن أن كرامة القرن الحادي والعشرين ستظهر بملء شعبنا والشعوب المرتبطة به مكانه اللائق في الموازنات الدولية. وسيدور هذا التكون الجديد الذي يغير وجهة تاريخ العالم ومسيرته، في أفلاك الروح والأخلاق والعشق والفضيلة. نعم، نؤمن أننا بهذا الجهاد المعنوي الذي يمكن تسميته بكفاح العلم والأخلاق والحق والعدل أيضًا، سنلم شعث أشلاء "أمتنا" المباركة الممزعة البئيسة والمشردة في أرجاء الأرض المختلفة، لتجتمع الأجيال التي ظلت بلا راعٍ ولا غاية حتى اليوم في ظل الفكر، فتعيش "الانبعاث بعد الموت" من جديد من نشوة الوصل بـ"لواء الحمد".

كذلك يقول الشيخ في مقال "الخصوصيات الأساسية للفكر الإسلامي" (أبريل ١٩٩٩):

"إن الهمم الفكرية والتخطيطية والفنية تولد ابتداءً في ذات الإنسان، ثم تتشكل صورها، ثم تتوسع وتنبسط إذا وجدت المناخ الملائم للنمو

والتطور. فكذلك أيضًا العبادات والأخلاق والحياة الروحية والثقافية والمناسبات البشرية الأخرى كافة يُستَشعَر بها بداية في عمق الإنسان إيمانًا وإذعانًا، ثم تنمو لتحيط بالحياة كلاًّ، وتسربل بصبغتها التصرفات البشرية كافة، فتكون مُعِينا ومُوَجِّها أساسيًا لكل همة وحملة وحركة وفعالية، مشعرًا بنفسه وبوجوده في كل الأحوال... ومن الحق أن حقيقة الإيمان المتأصلة في عالمنا الداخلي، إنما تديم وجودها بقدر تناميها وتوسيعها في الحياة الواقعية... فإذا بُذِرت بذور الإيمان وترعرعت واخضرّت في القلوب، ثم تحولت إلى استقامة ووثوق في التصرفات، وانقلبت إلى وقار وخشوع في الصلاة، ورفدت وازع الحقانية والعدل في علاقاتنا الاجتماعية؛ فذلك يعني أن الأفق منبسط أمامه إلى اللانهاية للتطور والتوسع".

خلاصة القول

لقد قدمتُ مجموعة النتائج العامة السابقة مقرونة باستشهادات من فكر الشيخ فتح الله كولن، وذلك ليس إلا لمجرد ضرب الأمثلة من الخريطة العميقة لفكر هذا الشيخ المصلح. حرصت على هذا لبيان أن المؤتمر، مهما كانت دلالاته، إلا أنه لم يستطع أن يقدم قراءة عميقة في خرائط فكر الإنسان، الشيخ، العالم، المفكر، الفقيه، المصلح، الناشط، الصوفي،... فتح الله كولن، وتجلياتها العملية في مجالات الحركة الإصلاحية، سواء داخل تركيا وخارجها، في أنحاء الأمة الإسلامية، وبقية أرجاء العالم. كما لم يستطع المؤتمر بالطبع أن يعكس حقيقة جهود المنتمين لهذه الحركة، ومدى ما يمثله الفكر والحركة من جديد أو من استمرارية مقارنة بخبرات إصلاحية أخرى في العالم الإسلامي.

ولقد أجمعت الشهادات التي قدمها في الجلسة الختامية للمؤتمر كلّ من الدكتور حسن أبو طالب، الدكتورة ناهد عز الدين، الدكتورة هبة رؤوف، الدكتورة هدى درويش، أستاذ عصام سلطان على هذا. حيث ركز الدكتور حسن أبو طالب على اهتمام الحركة بتقوية الروح والنفس، مع اهتمامها بالتنظيم وإقامة المؤسسات والابتعاد عن الشخصنة. أما الأستاذ عصام سلطان، فأشار إلى إيمان الحركة بشمولية الإسلام والتخصص في العمل. أما الدكتورة ناهد عز الدين، فأشارت إلى اهتمام الحركة بالشباب وتناولت مفاهيم أساسية في الحركة وهي: الخدمة، والهمة، ومفهوم "المتولي" الذي يقتدي به الطلاب. وأشارت الدكتورة هبة رؤوف إلى أن هناك "روحًا تسري" في الحركة تفسر ما يقوله البعض عن الحركة بأنها تنظيم ولا تنظيم. وركزت على "الأدب" الذي تتسم به الحركة وأعضاؤها حيث الحرص على استعادة البعد الأخلاقي في بناء الإنسان. كما استعرضت الدكتورة هدى درويش بعض المبادرات والأنشطة التي قامت بها الحركة. أما الدكتور يوهان (أكاديمي ألماني)، فركز على كيفية تعامل الحركة مع أسئلة: لماذا نصلح، وما الذي نصلحه، وكيف نصلحه؟ كذلك أبرزت هذه الشهادات الحاجة إلى مزيد من الانفتاح والتفاعل العربي التركي مع الأخذ في الاعتبار خصوصيات الأطر الداخلية لكل من الجانبين.

هذا ولقد ركزت محاضرة المستشار طارق البشري في ختام المؤتمر على مدلولات خبرة العلاقات العربية التركية التاريخية بالنسبة لواقع هذه العلاقات ومستقبلها. فلقد شدد البشري على أهمية التجربة العثمانية، ولفت الانتباه إلى أن فترة الحكم العثماني للدول العربية كانت المعوق الرئيسي لتجدد الحركة الصليبية في منطقتنا، لأنه على مدى التاريخ كان خط الدفاع الرئيسي لهذه المنطقة يتكون من نقاط ثلاث: دمشق، القاهرة، الحجاز، وما من دولة رمت إلى الوحدة والنهوض إلا وسعت إلى التكامل مع هذه النقاط التي تحولت إلى "سور الإسلام العظيم" بانضمام إسطنبول والأناضول، فأصبح هذا السور خطاً رادعاً لأية أطماع خارجية.

وعرض المستشار البشرى لبعض المحطات المهمة في علاقة مصر والحركة الوطنية المصرية بالدولة



العثمانية: فبمعاهدة لندن ١٨٤٠ صار لـ"مصر" تاريخ شبه مستقل عن الدولة العثمانية حيث ضعف التأثير المتبادل، لكن الصلات الحضارية لم تنقطع بين إسطنبول والقاهرة. وظلت الحركة الوطنية المصرية تستقوي معنويًا بالدولة العثمانية ضد الاستعمار حتى عام ١٩١٤. وبعد معاهدة "لوزان" ونجاح أتاتورك في تركيا تعاطف معه المصريون العلمانيون.

وبعد ثورة ٢٣ يوليو، اتجهت تركيا إلى حلف الأطلنطي لتأمين حدودها من الخطر الروسي الذي يهدد الأمن القومي لها، في حين كان الخطر الذي يواجه مصر هو إسرائيل مما أدى إلى توتر العلاقات مع الغرب الداعم لها. وأشار إلى أن الدرس المهم هنا هو أن تقسيم بلداننا إلى أقطار صغيرة أدى إلى تباين السياسات في حفظ أمن الجماعة الذي هو الوظيفة الأولى للدولة.

وفيما يخص مستقبل العلاقات العربية التركية، أكد المستشار البشري على ضرورة دراسة الأوضاع الأمنية العامة والمشتركة للخروج باستراتيجية واحدة جامعة.

تناول البشرى مشكلة التجزئة والتقسيم وأشار إلى أن الأمة كانت دولة واحدة في عهد النبي ﷺ، ثم تحولت إلى دولتين في العصر الأموي والعباسي، ثم إلى ثلاث في العهد العثماني والصفوي والمملوكي، ثم تناثرت إلى ما آلت إليه الآن، وأن هذا التقسيم لم يعكس مصالحنا، وإنما عكس مصالح الدول الغربية والاستعمارية

داخل بلادنا، حيث وضعت حدود مصر الحديثة في مؤتمر لندن ١٨٤٠، وحدود الشام في مؤتمر "سايكس بيكو"، وحدود إفريقية في مؤتمر "برلين". وأشار إلى وقوف كثير من الدول الغربية في وجه أي محاولة عربية للوحدة ولو بين دولتين إما بالمؤامرة أو بالغزو المسلح. ومشكلة التجزئة هذه تعاني منها أيضًا الحركات الإسلامية التي لابد أن تكون اندماجية وليست مفتتة. فحل مشكلة التجزئة يكون بالتآزر.

وإذا كان المؤتمر على هذا النحو بمثابة تعريف بالشيخ "كولن" والحركة وموضعهما من حركات الإصلاح في العالم الإسلامي الآن، إلا أن الأمر يستلزم متطلبات أخرى بعد المؤتمر، وذلك على ضوء القضايا الكامنة في البحوث وفي المناقشات والتي تهم جمهور المسلمين، وتثير خلافاتهم، كما تبرز طموحاتهم وهم يسعون إلى إصلاح أحوالهم من داخلهم ابتداء، وتحت ضغط وتأثير الخارج وتدخله. ومن أهم هذه القضايا: الشورى، تطبيق الشريعة، الدولة الإسلامية، الخلافة، الجهاد، وحدة الأمة. إن العلاقة بين جميع هذه القضايا وبين عملية التربية الإيمانية والوجدانية والفكرية التي تمثل المنطلق والأساس يشع آثاره على جميع مجالات الحياة، تلك العملية التي تقع في قلب فكر الشيخ "كولن" وحركته، وكيفية تأثيرها على المجتمع والدولة في تركيا، ما زالت تستدعي منا مزيد تدبر لنؤصل مفهومًا جديدًا من "السياسة" المأمولة في العالم الإسلامي؛ وهي السياسة التي يقع في قلبها "لإنسان الجديد" كما قدمه الأستاذ فتح الله كولن وكما تبذل الحركة "الخدمة" للوصول إليه، إحياءً وتجديدًا للأمة وللإنسانية.



د. سيف الدين عبد الفتاح / مصر



د. سمير بودينار / ا
د. ليونيد سكيانان /

مقتبسات

من أروقة المؤتمر

د. سمير بودينار، مدير مركز الدراسات والبحوث الإنسانية والاجتماعية بـ"وجدة" / المغرب

إن "حركة" الأستاذ فتح الله كولن ليست في الواقع حركة مركزية عضوية، ولا تنظيما ولا جماعة أو طريقة، حيث يفسر الأستاذ كولن نفسُه المسارَ الذي مضت عليه دعوتُه وتأسيسُ المؤسسات الكثيرة بتأثير من تلك الدعوة بأن ما فعله هو أنه اقترح على الناس فكرة وأنهم يطبقونها بناء على "معقولية الفكرة". والدليل الواقعي على ذلك هو أن الرابط بين كافة مؤسسات تلك الحركة -بما فيها مؤسسات التعليم- هو الفكرة وحدها مع استقلال كل مؤسسة منها بشكل كامل.

إن المنظور الذي يحكم المنهج الإصلاحي للأستاذ "كولن" يقدم إطارا فكريا لحقل التعليم، وذلك في مستويات ثلاث تمثل مفاتح في فهم خصائص المنظومة التربوية وعناصر نجاحها في عالم اليوم. وهذه المستويات الثلاث هي: خاصية الإنسان وبشكل أدق ما يسميه الأستاذ كولن "الإنسان الجديد"، وخاصية الإسلام، وخاصية المرحلة أو العصر. وتكمن أهمية هذه المستويات الثلاث في كونها العناصر الأساسية لفهم منظور الأستاذ "كولن" الإصلاحي الشامل، بما في ذلك مجال التعليم، وبالتالي فإن أي محاولة لفهم مشروعه الدعوي وتجلياته في حقل التعليم خاصة، لا يمكن إنجازها بمعزل عن إدراك تلك الأضلاع الثلاثة لمنظومة التغيير وفق ذلك المنظور.

أصبحت شبكة المدارس الواسعة التي أنشأها محبّو الأستاذ "كولن" في مختلف أنحاء العالم تحقق مستويات عالية في مستويات



د. عمار جيدل / الجزائر

التكوين والمردودية التربوية. وتبعا لذلك أصبحت السمعة العلمية لبعض هذه المؤسسات تضاهي في سمعتها الأكاديمية بعضا من أعرق المؤسسات التعليمية في العالم. وإذا كان هذا الأمر مفهوما في بعض الدول النامية من العالم الثالث (تم منذ ثلاث سنوات في "ليبريا" فتح مدرسة وفي السنة الثانية أصبحت أحسن مدرسة في البلد)، نتيجة لحمل خبرات في التعليم من مختلف دول العالم؛ فإن الأمر لم يختلف كثيرا في دول معروفة بسعة تجربتها في مجال التعليم بما في ذلك تركيا نفسها المعروفة بجودة بعض مؤسسات التعليم فيها بشكل عام. وحين تتم دراسة تجربة هذه المدارس عن قرب فإن أهم الخلاصات التي يخرج بها الباحث أن لهذا النجاح أسبابا لا أسرارا، بمعنى أن هذا النجاح فضلا عن النموذج الإنساني المتميز الذي يقف وراءه بجد واستماتة منقطعة النظير، فهو نجاح مستحق لجهد من الإعداد الفني والاستعانة بكل ما قد يساعد عليه من أسباب ووسائل وخبرات وتجارب، سواء منها ما يتعلق بالمستوى المادي من حيث البناء والتجهيز، أو ما يتصل بالأطر التربوية والإدارية، وخاصة معايير الاختيار ومسارات التكوين المستمر للمدرس، أو متطلبات العملية التعليمية من وسائل ومناهج.

د. عمار جيدل، كلية العلوم الإسلامية
جامعة الجزائر / الجزائر

حركة فتح الله كولن ليست تنظيما بالمعنى المشهور المتداول في الفضاء الحركي الإسلامي، ولكنّها في الواقع "فكرة" قوامها فلسفة واضحة بيّنة عمدتها تشجيع ثقافة "الخدمة الإيمانية"، وكلّ ما أُسِّس (مدارس، جامعات، أسواق، مصانع، شركات، مستشفيات، مؤسسات إعلامية...) بناء عليها وفي مختلف الحقول (التعليم، التجارة، الصناعة، الإغاثة، الطب، الإعلام..) لا يربطه بباعث الفكرة في المجتمع التركي رابط تنظيمي عضوي، بل لتلك المؤسسات في إطار فكرة "الخدمة" مطلق الحرية في التحرّك في الفضاء الذي تتحرّك فيه، وفق ما يسهل لها عملية التكيّف التنظيمي والقانوني مع المعطيات القانونية التي تحكم المكان والزمان الذي تتحرّك فيهما مؤسسات "الخدمة". تقوم حركة فتح كولن على فكرة مركزية تُعرَف في أدبيات الحركة بـ"الخدمة الإيمانية". والخدمة الإيمانية فلسفة حركية مهمة ودستور للحياة، تجعل المؤمن في حركية دائبة؛ فهو في حركة عندما يعمل، وفي حركة عندما يرتاح.. الخدمة دعوة حركية شاملة تستغرق الإنسانية والأسرة والمجتمع والفرد في تكامل دائب. لهذا من مظاهر الخدمة أن نرى في العالم كلّه، وقبل ذلك في قرانا وأريافنا وقصاباتنا عاملين على خدمة الخلق من منطلق إيماني. وإذا فرغنا مما بين أيدينا من خدمات، تعلّقت هممنا باكتشاف نوع أو مجال آخر للخدمة. لهذا فإن فكرة "الخدمة الإيمانية" حركية تتحرّك في شعاب الحياة؛ فهي فكرة للتحقق والتحقيق، وليست فكرة للتداول الأدبي أو الوعظي بقدر يطلب أن تكون في التفاصيل اليومية لحياة الناس.

إذن، هناك أفكار مفتاحية في الأستاذ "كولن" وهي أن الحركة ليست تنظيما، بل هي "فكرة". وعندما نقول فكرة، فهذه لها دلالاتها العميقة؛ فهي غير قابلة للاستنساخ، بدليل أن الرجل لا تربطه أي علاقة تنظيمية عضوية بينه وبين مجموع المدارس والمؤسسات المعبرة عن هذه الفكرة في فضاءات كثيرة، فكيف لنا أن نتحدث عن الحركة بالمعنى التنظيمي؟ إذن هي فكرة بالدرجة الأولى. لهذا فهو يعمل على إدخال الأمة جميعها في دائرة تسمى دائرة "الخدمة"، من دائرة فارغة إلى دائرة الخدمة. فإذا دخل الناس إلى رحاب دائرة الخدمة، فدائما يبحثون عن رحاب جديد من أجل أن يجسدوا الفكرة. عندما يمتلئ القلب بالخدمة الإيمانية يصبح فيها التعب كأنه مقصود، إذ عندما يكون الهدف عظيما جدا يخفف عليك التحمل، لذلك الأستاذ "كولن" يريد أن يربط الأمة بفكرة مركزية هي فكرة "الخدمة الإيمانية"، أي أن يتحرك كل إنسان في الفضاء الذي هو فيه من أجل الخدمة

الإيمانية. وإذا أردت أن تحصول فكرة الرجل لقلت فتح الله كولن يساوي الخدمة الإيمانية. فضلا عن ذلك، الأستاذ "كولن" يقر بأن الخدمة الإيمانية طريق عمومي، لذلك هو يشجع كل من سلك هذا المسلك، لأنه مسلك عام، ولا يريد أن يكون بديلا عن أحد، ولا بديلا لأحد.

د. أماني صالح / مدرّسة العلوم السياسية في جامعة مصر الدولية / مصر

إن سيرة الأستاذ فتح الله كولن تؤكد بما لا يدع مجالا للشك قضية محورية في المنظور الإسلامي وهي الصلة الوطيدة بين صلاح الفرد وصلاح الأمة. إن صلاح الأمة يبدأ بصلاح الفرد قائدا، وينتهي بصلاح الأفراد من آحاد الناس. ومدخل صلاح الفرد المؤدي إلى صلاح الجماعة هو درس إسلامي أصيل بدأ بسيرة الرسول ﷺ ويمر بعشرات السير الرائعة إلى سيرة الأستاذ "كولن" التي نتعرف عليها اليوم. سيرة الأستاذ "كولن" تثير قضايا تربوية عديدة في زمن صار فيه الجميع ينعى أجيالنا الصاعدة؛ ومن بين تلك القضايا محورية المثل الأعلى في بناء وجدان ونفسية وطموح الأطفال والشباب.

د. إبراهيم البيومي غانم، أستاذ العلوم السياسية في جامعة القاهرة / مصر

مبلغ القول أنني حاولت أن أرسم -بالكتابة- بعض الملامح العامة لرجل يلقبه الأتراك "خوجة أفندي" (السيد الأستاذ) تعبيراً عن عميق تقديرهم واحترامهم له، ونادراً ما يستخدمون لقبه العائلي "كولن"، الذي يعني بالعربي "البسّام"، وأكثر ما يثير الدهشة هو أنك ترى البسمات والضحكات لا تفارق محيّا تلامذته ومحبيه، وهم يعملون ليل نهار بجد وعزيمة لا تفتر؛ أما حضرة "خوجة أفندي البسّام" فلا يزال يبكي بعد أن جاوز السبعين بكاءه وهو في العشرين؛ يبكي أحوال أمته والإنسانية، ولا يزال يتضرع إلى الله تعالى ويسبح بحمده، وقد وهن العظم منه واشتعل الرأس شيباً.

يحرص تلامذة الأستاذ فتح الله كولن ومحبوه على إنكار ذواتهم عند الحديث عن "الإنجازات" التي يحققونها في شتى المجالات داخل تركيا وخارجها، ويرون أن الفضل بعد الله ﷻ، إنما يرجع إلى توجيهات وإرشادات "خوجة أفندي"، أي الأستاذ كولن. بينما يرى هو عكس ذلك، ويؤكد على أن الفضل لله أولاً وأخيراً، وأن من كرم الله عليه وعليهم، قيامهم (هو وهم) بالخدمة. وتشمل هذه الإنجازات عشرات، بل مئات "المؤسسات" والمشروعات والبرامج التي تغطي مجالات: تربية النشئ وتعليمه، والإعلام والفنون والتثقيف العام، والعلاج والرعاية الصحية، ومحاربة الفقر ومساعدة ذوي الحاجة، وأعمال الإغاثة والمساعدات الإنسانية، والحوار بين أتباع الديانات وأبناء الحضارات والثقافات المختلفة.

د. أحمد الطيب، رئيس جامعة الأزهر / مصر

الأمر الذي لا ريب فيه هو ضرورة التجديد، بحثاً عن الإجابة على أسئلة من قبيل مَن نحن؟ ومَن الآخر؟ وكيف نحاوره ونصمد أمامه؟ ولعل مركز الدراسات الحضارية وحوار الثقافات بكلية الاقتصاد والعلوم السياسية بجامعة القاهرة يجد متسعاً في رحابه لانطلاقة موفّقة في



أ.د. أحمد الطيب / مصر

مجال مستقبل الإصلاح في العالم الإسلامي، والبحث في حركة الأستاذ فتح الله كولن التركية، ولعله يجد فيها المفتاح الضائع لهذه القضية المغلقة التي قد ضلَّ مفتاحها.

د. محمد عمارة، المفكر والكاتب الإسلامي / مصر

لأن العقل -في حضارتنا الإسلامية- هو نور أودعه الله في القلب.. ولأن العلامة الأستاذ فتح الله كولن هو ثمرة طيبة من ثمرات هذه الحضارة، فلقد جمع بين حكمة العقل وبصيرة القلب...

ولأن القرآن الكريم هو الذي صاغ منهاجه في الفكر والحياة، فلقد صار كلمة طيبة، أصلها ثابت، وفروعها ممتدة، تؤتي أكلها كل حين بإذن الله...


ولأن الوحي القرآني قد قرن دائمًا بين الإيمان والعمل، فإن كلمات هذا العالم الربّاني قد تجسّدت -به وبإخوانه الكرام- أبنية شاهقة، وحياة خصبة، تزدهر بها كثير من بقاع هذا الكوكب الذي نعيش فيه. مدّ الله في عمره... وبارك في عطائه... ونفع به... آمين.

عبد الله محمد عرفان، كلية التجارة، جامعة الأزهر / مصر

يقترب الشيخ فتح الله كولن من معالجة قضية التنمية والفقر بمقتربات غير تقليدية من جهة شمولها وفعاليتها وحركيتها، فهو يقوم في البداية بإعادة تعريف الفقر بإدماج الأبعاد المعنوية والروحية والفكرية به، ليحقق التوازن بين الروح والمادة، ويصبح مثلما هناك فقر في المادة، يكون هناك فقر في الروح كما قد يكون هناك فقر في الفكر أيضًا. وكما أن فقر المادة بحاجة إلى مكافحة وتنمية، فإن فقر الروح والفكر بحاجة إلى تنمية أيضًا. ويحدد "كولن" المشكلة في الأفكار وفي علاقة الأفكار بالحركة، ولهذا فإنه يحاول أن يعيد جلاء أوجه الفعالية في المفاهيم الإسلامية التي ألهبت قلوب الصحابة الكرام وألهمت فكرهم وحرّكتهم فحققوا ما حققوه من مجد وعظمة خالدة، مثل مفهوم الاستخلاف والتدبر والفهم والجهاد والقدر والإرادة والمسؤولية والتضحية؛ فمن خلال شعور الإنسان بحقيقة استخلافه في الأرض وحقيقة دوره فيها وعلاقتها بالآخرة، تنضبط علاقته بالكون بكل مشتملاته من بشر وحيوان وجماد. كذلك، فإنه يشعر بالحاجة إلى التدبر والفهم لهذا الكون بغرض التعرف على الله ﷻ وبقصد التعمير في الأرض، ويتطلب هذا جهاد مستمرًا وواعيًا للنفس، ومجاهدة مستنيرة للصعوبات والمشاق ومحاربة للكسل والدعة بقوة الإرادة التي تتغذى دومًا بمزيد من الشعور بالمسؤولية تجاه النفس والعالم.

د. ناهد عز الدين، كلية الاقتصاد والعلوم السياسية، جامعة القاهرة / مصر

الحركة التي أسسها فكريا وحدد لها خط السير والمنطلق والمنهج والمرجعية الأستاذ فتح الله كولن، تتميز بدرجة رفيعة من التوازن. فهي تراعي بدقة وسلاسة معادلة الدين والدنيا، وتمزج بين الروحانيات والسمو الخلقي والمعنوي من جانب، والعقلانية والواقعية والمنطقية العلمية من جانب آخر، حتى يبدو كل من الجانبين وكأنهما جناحان متكاملان للحركة يجمعهما الانسجام والتآلف أكثر من التعارض أو التناقض. وكأن العلاقة بين الدين والعلم هي نفس


د. محمد عمارة / مصر

علاقة وجهي العملة الواحدة. والفضل في ذلك يعود إلى أسلوب الطرح ومنهجية التفكير وإعمال العقل التي اختارها المفكر المؤسس وأسهم في صياغتها من بين بدائل وخيارات أخرى عديدة كان من الممكن أن تقود من يأخذ بها لنتائج عكسية تماما.

على نفس المنوال، توازن الحركة -بعيار الذهب كما يقولون- بين الفرد والجماعة والمجتمع الأوسع. فكل يجد له مكانا ودورا، وكل يحمل أمانة؛ فلا فردية تذهب لحد الأنانية، ولا ترجيح لكفة الجماعة يقهر الفرد، ويلغي إبداعه، ويصادر على تميزه واستقلاليته وكرامته، ولا إغفال للمصالح العليا للسياق المجتمعي الأوسع الشامل والمحيط بكليهما. وقد تجلى ذلك عبر تسليط الضوء الكاشف عن الوجه الإنساني للإسلام، فهو إسلام الأمة وإسلام الجامع وإسلام الرسالة العالمية الموجِّهةِ خطابَها إلى البشرية بأسرها وإلى الجميع على السواء ودون استثناء، وقوامها الرحمة والعدل والتسامح ورحابة الصدر وسعة الأفق والعطاء والبذل بلا شروط ودون انتظار مقابل.

إجمالا، جاءت الحركة في وقتها المناسب والمثالي تماما لتملأ فراغا شاسعا، وتلبي احتياجا ملحا، وتطرح "البديل". والشاهد أنها تجربة حية، ومؤسسات تتحرك وتعمل كخلية النحل، وتوسع من دوائر ومساحات ورقعة حركتها لتغطي بقاع الأرض. وهي بذلك تحل عقدة غياب البديل الملائم، وافتقار البدائل المطروحة على الساحة للصلاحية والمواءمة والقابلية للتطبيق، والتي من شأنها أن تجعل تبنّي أي منها مخاطرة أو مغامرة غير محسوبة النتائج، فهي جميعها لم تغادر مرحلة كونها رهن الاختبار.

لفت أنظارنا كذلك مستوى النضج المؤسسي كملمح آخر مميز للتجربة وعلامة على تفوقها واجتيازها مرحلة التأسيس من أعلى والمبادرة الشخصية التي قام بها فرد أو مجموعة المحيطين به، وبلوغها محطة المأسسة بما يضفي عليها معالم الاستدامة والاستمرارية. فالمشروع الفكري أنجز استقلالية يعتد بها عن شخص الأستاذ المنتج له، وخرج عن نطاق الشخصانية (وهي مرض من الأمراض شبه المزمنة التي أصابت الحركات وعطلت المؤسسات في كثير من مجتمعاتنا العربية والإسلامية عن النمو والتطور فاختفت باختفاء الأب المؤسس) ليكتسب وجودَه وكيانه المستقل، ويستمد قوته من قوة الفكرة ذاتها، وليس من ذات المفكر. وعليه، لم يعد السؤال حول المآل مبعثا لكثير من اللغط، وليس ثمة غموض كبير يحيط باستمرارية التجربة وقدرتها على البقاء تحت أي ظروف أو مستجدات. فالمشروع ماض في طريقه ويزداد حضوره قوة أيا كان مصير الأشخاص، وهم في نهاية المطاف بشر زائلون.

د. عالية المهدي، عميد كلية الاقتصاد والعلوم السياسية، جامعة القاهرة / مصر

يشدد العديد من المفكرين والمثقفين من المنتمين إلى الدائرة العربية والإسلامية على أهمية مراعاة الخصوصيات الثقافية للمجتمعات التي تطبق فيها برامج الإصلاح، وذلك على ضوء برامج الإصلاح والتجديد التي يقدمها الفكر الإسلامي التراثي والمعاصر، وكذلك على ضوء خبرة الحركات الإصلاحية المتنوعة التي شهدها العالم الإسلامي عبر القرنين الماضيين، وتأثرت كل منها من حيث طبيعتها ونتائجها، بالزمان والمكان. وهنا مكمن التميز في دراسة حركة فتح الله كولن في النصف الثاني من القرن العشرين؛ فهي حركة اجتماعية ذات مرجعية إسلامية راعت مقتضيات الزمان والمكان، حيث نشأت في ظل نظام سياسي علماني، ولكن ساعدت الأطر القانونية والديمقراطية في تركيا في تحقيق فعالية هيئات المجتمع المدني باختلاف مرجعياتها. ومن ثم استطاعت حركة فتح الله كولن أن تقدم في هدوء وسلاسة أفكاراً عملية نجحت في تطبيقها داخل البلاد وامتد تأثيرها إلى الخارج؛ متحدية ومتخطية المعضلة الدائمة بشأن العلاقة بين الفكر والحركة، بين النظرية والتطبيق.



أ.د. طارق البشري / مصر

د. حسن أبو طالب، مستشار مركز الدراسات السياسية والاستراتيجية بالأهرام / مصر

عن حركة فتح الله كولن يمكن القول إنها تبدو كتنظيم وفي الوقت نفسه لاتنظيم. فمن شروط التنظيم الانضباط ووضوح القيادة، ومن علامات اللاتنظيم انفراط العقد وترهل القيادة، بل وغيابها. ففي حركة فتح الله كولن التركية لا يوجد تنظيم بحسب ما رأينا، بل حركة اجتماعية تقوم على مبادئ إيمانية نظّر لها وصاغها فتح الله كولن نفسه، واقتنع بها محبوه الذين أصبحوا مرجع النظام العام للحركة. إذن نحن أمام نظام متكامل فكري وسلوكي يتداخل مع درجة عالية من الانضباط ووضوح الدرجات في التعامل بين العناصر المشكلة للحركة والنظام معا. وفي أحد الأوصاف فهي شبكة علاقات ومؤسسات متداخلة ومستقلة في آن واحد.

جوهر الحركة في شقها السلوكي هو "الخدمة" -ذلك التعبير الذي صكّه الأستاذ كولن- والتي تستهدف تغيير أحوال البيئة المعاشة، وهي الجامع بين القادر والمحتاج، بين صاحب المال وصاحب الحركة وصاحب الفكرة. بهذا المعنى فإن الخدمة هي نظام التفاعل بين الفرد والجماعة والحركة؛ هي أساس التناغم بين الفرد كأحد أعضاء المجموعة وبين الهدف الأكبر وهو إصلاح حال الأمة الإسلامية على امتداد وجودها المكاني الجغرافي، كمقدمة لإصلاح حال الإنسانية. وكل من تعرفنا عليهم في "الخدمة" يشعرون بأنهم يؤدون رسالة إيمانية بالدرجة الأولى، واجتماعية مدنية بالدرجة الثانية، وأنهم جميعا أصحاب قدر واحد، ومن هنا حالة التضامن الشديدة بينهم.

في حركة "كولن" يعد مفهوم الحوار دعامة أساسية، ليس كلقاء عابر، بل كمنظومة عمل وحياة، وبما يعكس التعددية التي يحترمها الإسلام والتي هي سُنة من سنن الطبيعة التي خلقها الخالق سبحانه من أجل النظر والتدبر والتأمل في عظمة الخالق. ومن مؤسسات الحوار هناك "مؤسسة أبانت"، ووَقْف الصحفيّين والكتّاب، مع ملاحظة أن تركيا اعتادت لفترة طويلة العلمانية الإقصائية للدين، فكأن طرح الحوار كمبدأ ومأسسته هو من نوع التعامل مع العلمانية وتحييدها وصولاً إلى استيعابها في مرحلة لاحقة يحدث فيها التمكن، وهو ما نجد بشائره في المجتمع التركي الراهن.

كان يلح علينا أن نعرف هل تلعب الحركة في السياسة أو تتدخل في توجهات الناخبين، فقيل: "لا شأن لنا بالسياسة، نحن فقط نربي ونعلم ونتحاور ونترك الاختيار لكل فرد في "الخدمة" أن يصوت لمن يراه مؤمنًا وملتزمًا وقادرًا على خدمة الوطن والدين معًا". وتلك بدورها قمة السياسة لكن بلا استفزاز.

المستشار طارق البشري / مصر

إن المشكلة في عالم الإصلاح اليوم ليست عدم وجود الأفكار والمشروعات الإصلاحية، ولكن المشكلة في الحركة ذاتها، وتحويل هذه الأفكار إلى مشروعات عملية، وهذا ما يميز تجربة فتح الله كولن التركية.

د. فاتنة شاكر، أستاذة جامعية متخصصة في علم الاجتماع السياسي / السعودية

لا شك أن الأستاذ فتح الله كولن يدلنا على طرف الخيط... ولكن هل نحن مستعدون حقيقة أن نمسك به ونخوض التجربة... تجربة "التربية الوجدانية" و"الخدمة الإيمانية" كما يسميها هو؟

ويبدو دور التنشئة الاجتماعية واضحا وقويا في التكوين الإنساني والوجداني لشخصية الأستاذ "كولن".. كما وضحت أهمية التربية الوجدانية جنبا إلى جنب لدى الإعداد العلمي والفكري المنفتح على كل مجالات العلوم. هذا الإعداد وتلك التربية هي التي أنتجت إنسانا اتجهت كل مشاعره وحواسه ونبضاته فكرا وروحا صوب شخص "الإنسان الكامل". فتبدو شخصية الأستاذ كولن كشجرة طيبة.. ضاربة جذورها في أرض وزمن النبوة والصحابة، وممتدة إلى الفضاء الكوني الفسيح، تؤتي ثمارها لكل

من أمده الله بالاستعداد لتذوق هذه الثمار.

الدكتور محمد عمارة يرى في تجربة فتح الله كولن منعطفا تاريخيا مبشرا، وهي بالفعل كذلك. ولكن ما هو دورنا نحن الآن؟ هل سيقتصر على المؤتمرات والندوات؟ ما هي الخطوات التالية لهذا الملتقى الحيوي والملهم بالأفكار والمحرك للأمل الذي يكاد أن يطفأ في النفوس؟

إن الغرب يفتح ذراعيه لفكر وحركة الأستاذ "كولن" قبل العرب، لماذا؟ بعيدا عن نظرية المؤامرة التي نتخذها درعا للتقوقع، فلنجابه الواقع؛ إن الغرب يفتح ذراعيه لكل ما يمكن الاستفادة منه ماديا، علميا، فكريا، وأيضا روحانيا. والإنسان الغربي، وخاصة الأمريكي، يعاني من حيرة نفسية وفراغ روحاني كبير لم تشبعها المكاسب العلمية والمادية معا. ظل يبحث عما يملأ هذا الفراغ ويجلي هذه الحيرة. وقد وجدوا الكثير من الإجابات في عالم الأستاذ فتح الله كولن، كما وجدوها وما زالوا في فكر الإمام محمد عبده وغيره من العلماء ممن اجتمع لديهم العقل والوجدان معا. أرجو ألا نسجن أنفسنا في هذه الحركة والاكتفاء بوجودها، أو أن نرى فيها ردا لاعتبارنا الإسلامي المجروح. كما أرجو ألا نسجن هذه الحركة في جدود أطرنا الفكرية والنفسية المشبعة بالخوف والإحباط واليأس. أرجو أن تفجر الحركة فينا الطاقات، وتشحذ فينا الأمل واليقين بأن هذا القرن هو بالفعل قرن الإيمان. يجب أن يكون هذا القرن قرن إعادة اكتشاف الذات الإسلامية وابتكار رؤى مكملة للعمل والخدمة الإيمانية كمسلك خاص وعام.

د. جيل كارول، الولايات المتحدة

لقد أتيتُ من الغرب وأنا مهتمة للغاية بمعرفة كيف سيكون رد فعل العالم العربي لحركة الأستاذ "كولن" ومنظورهم عموما بشأن الغرب. لقد سمعت الأمس واليوم السابق كثيرا من المداخلات تعكس تشككًا من حركة "كولن" بسبب نجاحها في الغرب. وقد كنتُ شاهد عيان لعديد من المبادرات التي قامت بها الحركة في الولايات المتحدة، لأني كتبت كتابي الخاص بالأستاذ فتح الله كولن، وكان لي الشرف أن أتجول عبر الولايات المتحدة، وكندا، وأوروبا، وتركيا وأماكن مختلفة من العالم. ولكن خصوصًا فيما يتعلق بالمبادرات التي قامت بها الحركة في الغرب وفي ما يقارب (٤٠) مدينة بالولايات المتحدة وكندا وبعض أجزاء أوروبا. وعبر الأماكن المختلفة التي تنشط بها الحركة هناك، أود أن أوضح لماذا نجحت الحركة في الغرب.

أظن أن هناك تفسيرات تجيب على هذا التساؤل. وتلك التفسيرات تتعلق بمواقف الأستاذ "كولن" إزاء دور الدين وأهدافه، وكيف يحقق تلك الأهداف، باعتبارها أفكارا ذات أهمية مركزية لفكر الأستاذ "كولن". فهو يقول: إن الدين أيّ دين لابد أن يتوجه إلى الأبعاد غير المتغيرة من حياة الأفراد، تلك الأمور التي تتعدى حدود الزمان والمكان والخبرات البشرية النسبية. فهذا هو المجال الذي يتحرك فيه الدين ويتركز فيه. إن كل دين -بما في ذلك الإسلام- يقدم بالتأكيد خطوطا عامةً لكيفية أداء الدولة لأعمالها والهياكل السياسية بها، ولكنه لا يقوم بتقديم نموذج محدد وثابت للنظام السياسي يتعدى حدود الزمان ويصلح لكل المجتمعات، بل يقدم في المقابل خطوطا عريضةً، بناء على الطبيعة الأبدية وغير المتغيرة للخبرة الإنسانية. وهذا يوفر خلفية عامة من القواعد لعديد من الهياكل المجتمعية والسياسية تصلح لمختلف بقاع العالم ومختلف الأزمنة والمجتمعات البشرية، بحسب الظروف والملابسات والمحددات الثقافية النسبية التي نجد أنفسنا داخلها عبر الزمن.

وهذا ما يوضحه الأستاذ "كولن" بشكل صريح، فهو لا يتبنى بمحاضراته ومواعظه وكتبه المفهوم الغربي للفصل ما بين الدين والدولة، ولكنه مع ذلك، يتناسب فهمه لدور الدين مع نفس الأسلوب الذي يمارَس به في بعض المناطق بالغرب؛ فالغرب متنوع في داخله ولا يمثل كتلة واحدة صماء، كما هو الإسلام كذلك. فدور الدين في بعض المناطق



في أوروبا شديد الاختلاف عن الولايات المتحدة، فهناك أنواع متعددة لممارسة "العلمانية"، وليس هناك نوع واحد من العلمانية. نجد مثلاً في فرنسا وفي فترة من تاريخ تركيا نموذجا مختلفًا للممارسة العلمانية باعتبارها فلسفة تشكك في الدين ابتداء، وتنتهي بالعداء له. لكن هذا النموذج ليس الوحيد القائم في العلمانية الغربية، وليس النموذج المطبق في الولايات المتحدة. فنحن لا نمارس هذا، بل نراه في المقابل أمرًا مشكلاً. إن الجذور الفلسفية لمفهوم العلمانية في الولايات المتحدة تعود إلى كتابات الفكر الإنجليزي "جون لوك" في القرن السابع عشر، وهو يرى أن الدولة والدين يعملان في مجالين أو مملكتين مختلفتين؛ فالدولة تتمثل أهدافها في حماية الأفراد من الأضرار وتحصينهم ضد الأعداء، والتفاوض حول معاملات الأفراد المالية مثل تحويل الملكية والأعمال التجارية، فهذا هو دور الدولة. ودور الدين هو أن يرشدنا إلى كيفية تحقيق "الخلاص"، ولابد أن نبقي المجالين منفصلين ليحقق كل منهما أهدافه، ثم نترك كلا منهما يتفاعلان حين يحيد أي منهما عن الطريق الذي يؤدي من خلاله مهمته.

هذا المنحى الفلسفي مختلف تماما عما عليه الحال في فرنسا وأثناء فترة من تاريخ تركيا، وقد حققت حركة "كولن" قدرا كبيرا من النجاح في الغرب لهذا السبب؛ وهو أنها تفهم أن دور الدين هو تزكية للأفراد، وأن هذا يحدث فقط حينما يعيش الناس – جماعات وأفرادا- هذا الإيمان/الفضيلة بشكل فعال. ومن ثم يقوم هؤلاء "المجانين" كما وصفهم أحد المشاركين بالأمس نقلا عن الأستاذ "كولن"، بتأسيس مبادرات للمجتمع المدني، وتوحيد الناس جميعا على مبادئ هي بالتأكيد فاضلة. فهذا هو الشاهد الحقيقي للإيمان، وهو ما يحفز الآخرين لتبني تلك القيم الإنسانية العميقة في قلوبهم وأفكارهم.

د. باكينام الشرقاوي، كلية الاقتصاد والعلوم السياسية، جامعة القاهرة / مصر

يقوم الحوار عند فتح الله كولن بشكل كبير على إعلاء قيمة التسامح وتخطي العقبات، ونسيان الماضي الأليم إذا كان هناك خبرات تاريخية كبرى، وهذا منهج للتقارب. وقد ينظر البعض إلى هذا المنهج على أنه منهج تقل فيه المصارحة/المكاشفة/الشفافية، ولكن إذا ما نظرنا إليه في إطار البيئة التي ظهر فيها والضغوط والقيود التي يفرضها المناخ التركي وأيضًا العلاقة مع الغرب بشكل عام، نجده في النهاية محاولة لتقريب الفجوة ما بين أطرافٍ للحوار ليسوا في النهاية متساوين في القوة. أعتقد أن منهج الحوار نفسه، والتركيز على التسامي على الخلافات مع التكريس على القاسم المشترك حتى ولو كان ضئيلا.. أعتقد أن هذا منهج هام جدا، بالذات في سياق معيّن يكون فيه الأطراف غير متكافئين بحساب موازين القوة بشكل كبير. كما أنه فكرة قائمة على الدعوة، ودائما فكرة الدعوة لا تسعى لهزيمة الطرف الآخر المتحاور وطرحه أرضًا، بقدر ما تسعى لإحداث عملية تغيير مشتركة ما بين كافة الأطراف طويلة المدى. ربما أنا أنظر نظرةً أخرى لفكرة التعايش، وأعطيها بُعدًا أكثر إيجابية؛ فهي ليست فقط عملية تعايش بين الاختلافات، ولكن أراها عمليةً طويلة المدى تسعى لإدخال الأفراد في عملية تغيير مشتركة على هذا الأمد من خلال تغيير هذا الواقع. يعني قراءته في البداية قراءة واقعية سليمة من أجل إنزال الواقع على الفكر حتى يأتي الفكر مواكبًا مع الواقع قادرا على تغييره فيما بعد.

أعتقد أن كلمة السر في نجاح حركة الأستاذ "كولن" ليس فقط في تبنيها لقيم الإخلاص والتضحية.. إلخ، فهي في غاية الأهمية، ولكن أعتقد أنها أيضًا في فكرة الموازنة بين كثير من الثنائيات التي تحكم حياتنا المعاصرة في العالم العربي بشكل خاص والعالم الإسلامي بشكل عام، بين العلمي والديني، بين العلماني والديني، بين الشرقي والغربي، بين القلب والعقل، بين الوجداني والمنطقي.. فكرة التوازن ما بين هذه الثنائيات مع إعلاء قيمة العمل، أعتقد هذا هو مفتاح السر في تجربة "كولن"، وفكرة أن الحركية ربما تكون هي الدافعة للفكر، وأظن هذه نقطة تميز هذه الحركة بشكل أو بآخر.

طوال المؤتمر كثر الحديث عن أن هذه الحركة تبتعد عن السياسة، وأنها ترفض المنطق التفريقي النزاعي الصراعي الذي تمليه السياسة. هذا صحيح إذا ما تبنينا التعريف الضيق للسياسة باعتبارها الحكم، الدولة، الوصول إلى السلطة.. إلخ. ولكن إذا نظرنا إلى السياسة باعتبارها ما يرتبط بكل ما هو حياتي ويومي ويشكل النمط العام للحياة، فهذا هو ما أعتقد أنه السياسة، ولكن بمفهوم أشمل. ولو تبنينا هذا المفهوم، أرى أن هذه الحركة تتعامل بالسياسة. وفي النهاية إن التغيير يأتي من الفرد ثم المجتمع، ثم يخلق مناخا عاما؛ فالهدف ليس مخاطبة الدولة، ولا تغييرها، ولا تحديها، بقدر ما هو التأثير على المجال العام وتغييره بشكل تدريجي، وأنا في رأيي، هذه هي السياسة بمعناها الشامل والأوسع. عندما أقرأ الأخبار والتطورات في تركيا، أجد نفسي أمام سيمفونية رائعة، وكيف أن هذه الحركة توازن ما بين الواقع والفكر. في رأيي إنها ممازجة تقود إلى تغيير المناخ العام في تركيا، هي لا تطمح إلى أهداف صادمة أو طموحة أو راديكالية بقدر ما تسعى في هدوء وسلاسة وذكاء وحكمة وصبر إلى خلق مناخ جديد. ولا يجب أن نهوّن من فكرة خلق المناخ، فهو بداية لتغييرات هامة.

أيضًا تقديم الأستاذ "كولن" لرؤية أشمل؛ مثلاً يعتمد المفاهيم التي يتبناها الآخرون، ويبدأ في إعطائها مضامين جامعة بينه وبينهم؛ فكرة الديمقراطية، فكرة الحداثة، والتحدث عن الديمقراطية على أنها نظام رفيع، ولكنها في النهاية تحتاج إلى الإسلام، لأن الإسلام أقدر على تلبية الاحتياجات الروحية، فهو مكمل للديمقراطية؛ وفي الواقع السياسي أن الديمقراطية هي التي حمت الإسلام وحمت المشروع

الإصلاحي بشكل كبير؛ كذلك حديثه عن الحداثة وأنها تحتاج إلى الدين في المجال العام، وليس العكس كما يروّج العلمانيون، حيث يحرر الدينُ الإنسانَ من عبودية المادة.

نلاحظ أن علمانية الدولة التركية تسير في اتجاه تطور نحو الليبرالية، ويتوافق هذا التطور على أرض الواقع مع ما تروّج له الحركة بشأن العلمانية، وكيف أنها لابد أن تكون في النهاية ليبرالية تحمي الدين ولا تسيطر عليه أو تتدخل فيه. ففكرة المشترك حول العلمانية مع تقديم تفسير لها، أظن هذه نقطة هامة جدا؛ تضاف إلى أن العلمانية فعلا قد اتجهت من النموذج الفرنسي إلى النموذج الأمريكي أو البريطاني بشكل أوضح عن ذي قبل.

أزعم أني لم أتعرف بعدُ على نموذج آخر مثل النموذج التركي استطاع توظيف العامل الخارجي لدفع التطور الإيجابي في داخله؛ مشروع الانضمام للاتحاد الأوروبي، وربما اختلفنا حوله بين نظرة إيجابية أو سلبية، ولكن لننظر إلى ما حققه على الواقع، لقد خلق بيئة دولية وغربية خاصة دافعة لمزيد من الانفتاح والحريات السياسية والمدنية في الداخل التركي، وهذا أعطى لحركة "كولن" فرصة كي تستمر في التطور والتقدم في تؤدة واستقرار من أجل كسب المجال العام وتغييره.

أما عن تعامل حركة "كولن" مع السياقات الراهنة، فنجد الخطاب يتناول إسلام "الفرد". فهو لا يواجه الدولة، وليست من اهتماماته، لا يتحدث عن تطبيق الشريعة أو عن الدولة الإسلامية. هدفه الأول هو إصلاح الفرد كمقدمة لإصلاح الجماعة، وهما في النهاية نواة مؤسسات الدولة شئنا أم أبينا. ومن ثم نجده يبدأ من التغيير التحتي إلى الفوقي، ولا يتعرض مباشرة لمفهوم السلطة وللمفهوم الضيق للسياسي.

يضاف إلى ذلك تفعيله لمناخ الصوفية في تركيا. ومعروف أن نمط الإسلام التركي يميل بشكل كبير إلى الصوفية. وفي هذا الصدد نجده استطاع أن يحرك هذا المناخ الصوفي، ويخرجه من الكسل الذي نشهده في عالمنا العربي ليكتسب قدرًا من الحركية الاجتماعية والثقافية التي تعتبر بشكلها الأشمل تغييرا سياسيا على المدى الطويل.

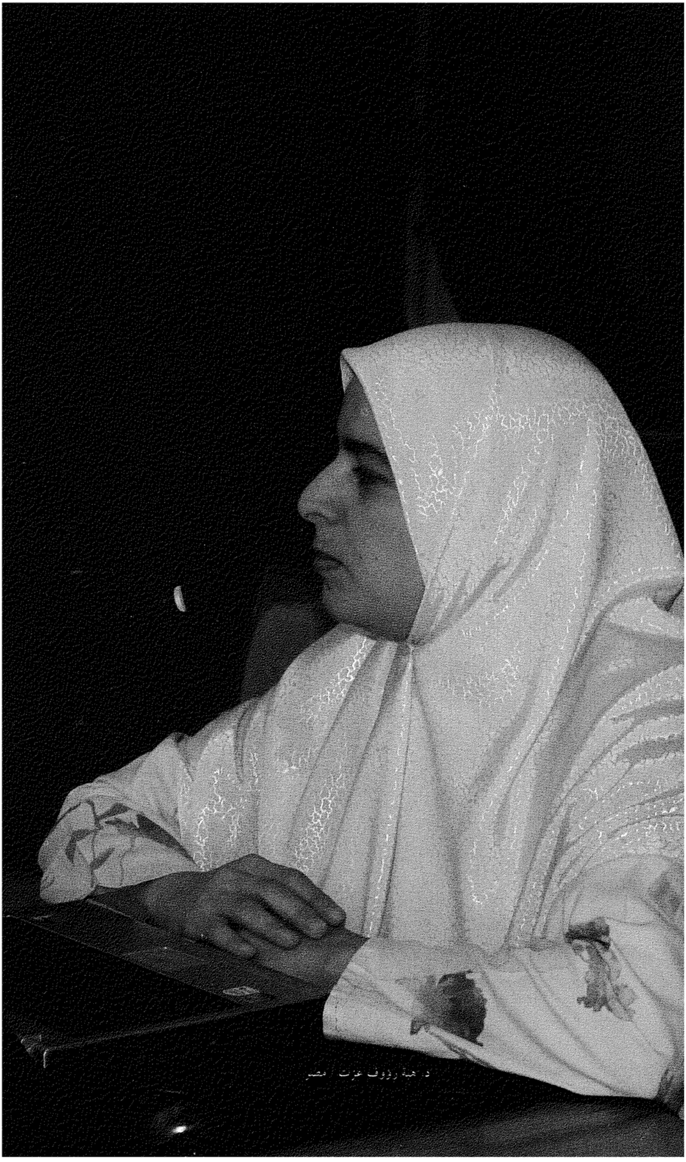
أما فكرة الحوار في خارج تركيا، فلديّ عينة لكلمة قالها "جون اسبيزيتو" منذ شهرين أو ثلاثة أشهر في مؤتمر في الولايات المتحدة الأمريكية، يتحدث فيها عن حركة الأستاذ "كولن"، فيخلص إلى أنها "أفضل حركة قادرة على إعادة هيكلة الشرق الأوسط، وأنها ربما تكون أفضل حركة إسلامية في القرن الماضي طوال مائة عام".

لماذا نجح الأستاذ "كولن" في الغرب مثلما لم تنجح أي حركة إسلامية



د. عبد الحميد مدكور / مصر

د. محمد سليم العوا / مصر


د. هبة رؤوف عزت / مصر

أخرى؟ لأن خطاب فتح الله كولن يخاطب مخاوف الغرب بلغة يفهمها، وفي نفس الوقت لا يتخلى عن الثوابت الإسلامية، وهذه براعة يجب أن تشهد له.

أضف إلى أنه امتلك المؤسسات والرؤية التي توصل فكره؛ وذلك لأن كثيرا مما طرحه الأستاذ "كولن" تم طرحه فيما بعد من قبل كتاب إسلاميين كثيرين، ولكن لماذا كان له هذا الصدى في الغرب؟ إنه نتيجة للبعد الحركي لفكره، لأن هناك المؤسسات، الطباعة، الفضائيات، الإصدارات، المدارس... كل هذا استطاع من خلاله أن يوصل فكره بشكل أقرب إلى الغرب. وفي النهاية أقول إن اختيار طريق الحوار، هو الاختيار الأصعب، لأنه يحتاج إلى تكامل الأدوات وتوظيفها في الواقع، واللعب على الفرص التي يطرحها الواقع، وتلافي قيوده؛ ورغم أنه الأصعب، يظل هو الخيار الأنجح لتحقيق أي مشروع إصلاحي في المستقبل.

أيمن شحاتة، باحث وممارس في مجال التنمية الاجتماعية والاقتصادية / مصر

في حوار مع أحد التجار الأتراك يتحدث أن الأستاذ فتح الله كولن عنده أهداف وأحلام ومشاريع تفوق الخيال، و"بعقلي السليم قررت أن أخوض هذه الأحلام معه، لأن هذه الأهداف هي أهداف إسلامية إنسانية عالمية، والمال في النهاية هو مال الله". هنا في صناعة الرجال، تم تحويل حلم هذا الفرد من مجرد جَني المال وإعطاء جزء منه في سبيل الله، إلى أن يحيا الحلم، وتحيا الفكرة. إذن وجد له من يعطيه حلما جامعا يجد من خلاله تحقيقا للذات، وأصبح تحقيق الذات ليس فقط جمع الأموال وإحراز المناصب، ولكن في أن يتبنى هذا الحلم. وحلم الأستاذ فتح الله كولن ليس إصلاح تركيا، ولكن حلمه هو مبني على روح بعثة النبي ﷺ "وما أرسلناك إلا رحمة للعالمين"، ووظيفة الإنسان البلاغ؛ فهي من ثم عالمية وأثرها عالمي. نجح الأستاذ في أن يقنع هؤلاء الناس أن يتلمسوا وأن يستشعروا هذا الحلم، وأن يقربه إلى أذهانهم ويحملهم على تصديقه. إذا استطاع أحد أن يبلور هذه الأحلام، يستطيع أن يحرك هؤلاء الرجال. فصناعة الرجال هي عصب هذه التجربة، وهي عصب أي تجربة، وليس المال والمؤسسات فحسب.

د. هدى درويش، جامعة الزقازيق / مصر

بعد الجولة التي أخذناها في منظومة حركة فتح الله كولن الموجهة إلى الإنسانية والإصلاح والتجديد في الفكر الديني المعاصر، أدركنا أن هدف الحركة الأسمى هو إنشاء إنسان جديد بفكر جديد يستطيع الموازنة بين العقل والقلب، والثابت والمتغير، وأن ذلك الهدف كان القاعدة الحصينة الراسخة وراء نجاح حركة المفكر الإسلامي فتح الله كولن في تكوين مدرسة إنسانية عالمية قائمة على أسس أخلاقية وقيم عليا.

د. عبد الحميد مدكور، كلية دار العلوم جامعة القاهرة / مصر

ما يحدث عادة هو أن الفكرة تتحول إلى شخص، وعندما يُضرَب الشخصُ تسقط الفكرة وينتهي الأمر. على عكس ذلك، ما حدث عند الأستاذ فتح الله كولن هو أن الشخص تحول إلى فكرة.. فحركة.. فواقع.. فحركة مؤسسية في مختلف نواحي الحياة تقدم تصورا صحيحا للإسلام بجوانبه المتعددة العملية، وليس التجريدية.

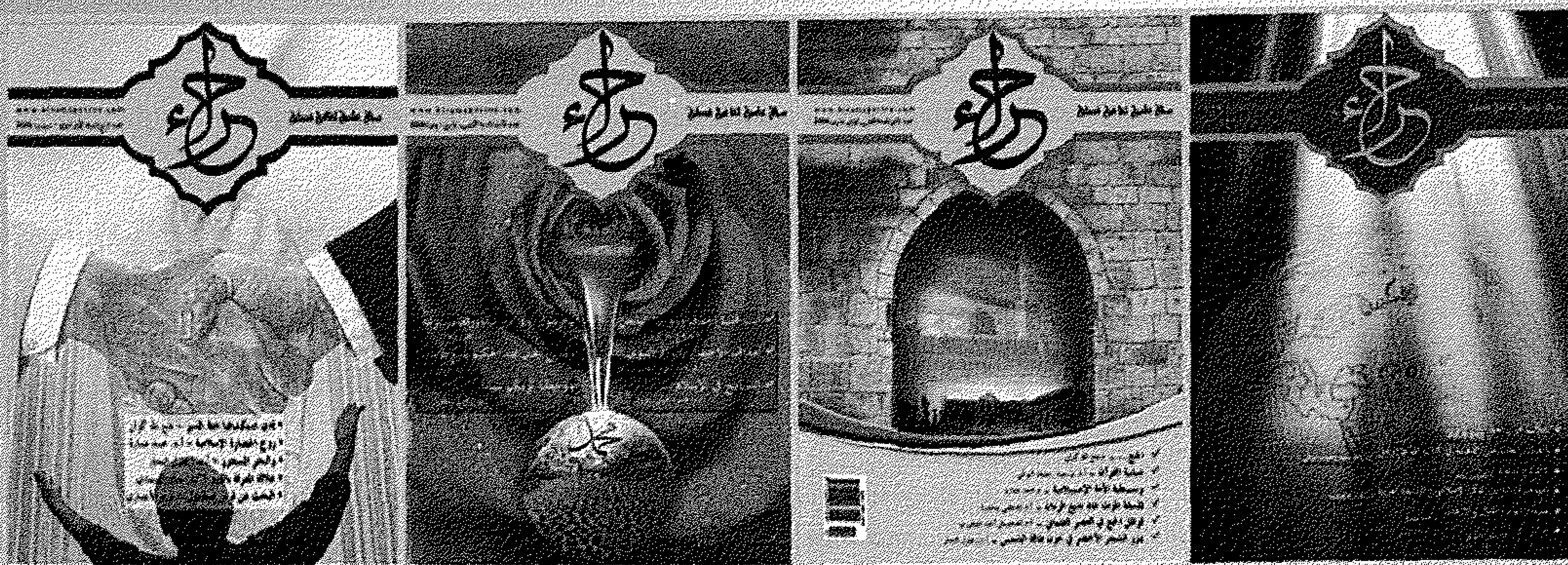
د. هبة رؤوف عزت، كلية الاقتصاد والعلوم السياسية، جامعة القاهرة / مصر

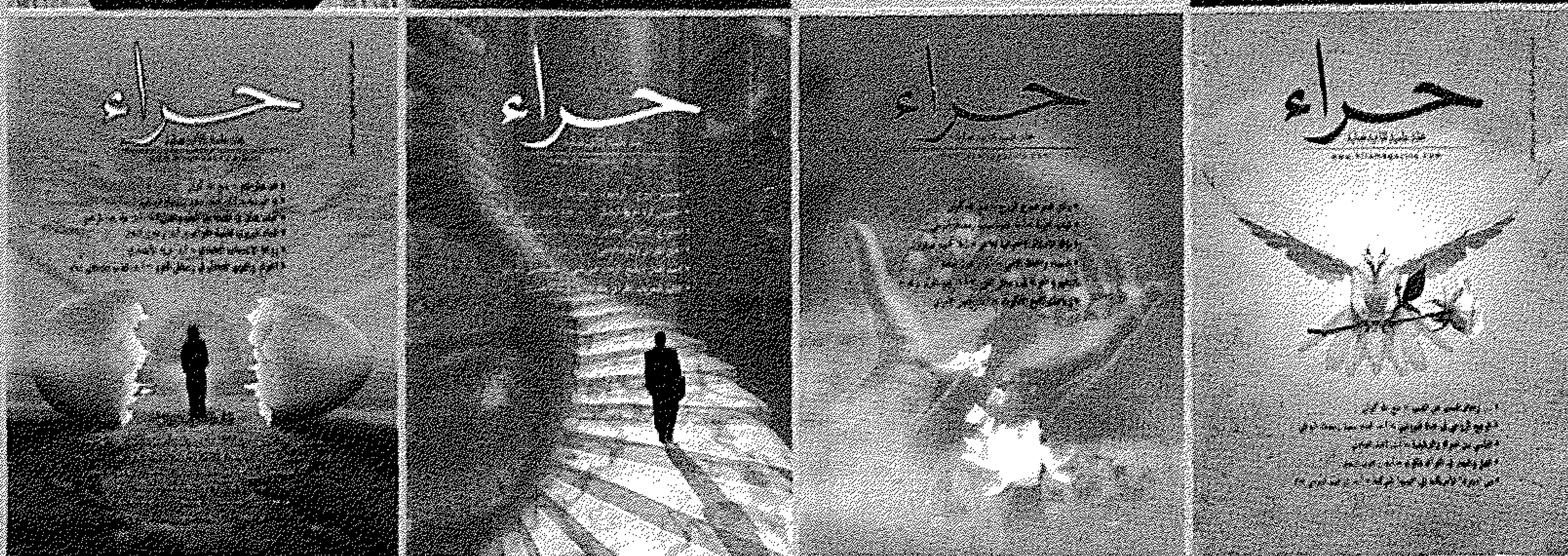
لقد لفت نظري في أسفار مختلفة ومن خلال التلاقي مع شباب من العالم التركي أمر أعتقد أنه هو جوهر حركة الأستاذ فتح الله كولن وما يميزها عن حركات كثيرة. ويمكن أن يوجز هذا الأمر في كلمة واحدة وهي "الأدب"، ويعني ذلك استعادة البُعد الأخلاقي الذي تتأسس عليه أي حركة اجتماعية أو حركة سياسية.. أي صياغة الإنسان صياغة تجعله نموذجا لكل المعاني التي يمكن أن يدركها الإنسان من القراءة متجسدةً في أفراد هذه التجربة، كل فرد على حدة؛

هذا التكامل الإنساني، هذه المصداقية، هذه الشفافية، هذه الدماثة، هذا التماسك النفسي والأخلاقي.. وفتح الله كولن تمكن من أن يستثمر ذلك في البناء ويكوّن أصنافا مختلفة من البشر.
أعتقد أن تجربة فتح الله كولن هي وريثة الحركات الإسلامية في العالم العربي التي أخفقت إخفاقا بينا في أن تحقق ما حاولت حركة "كولن" أن تفعله. فكيف نرى في هذه التجربة أخطاءنا أو تقصيرنا.. هذا ما نحتاج أن ندرسه لكي نخرج ببعض الدروس، ليس فقط على المستوى الفكري أو الثقافي أو التحاوري، وإنما بدءا من بناء الإنسان، إلى بناء الوجدان، إلى بناء مستوى العرفان، إلى بناء مستوى الجنان والعقل والفكر والثقافة، إلى بناء المؤسسات والبنيان، إلى الحركة من أجل صياغة نموذج العمران.

عصام سلطان، محامي / مصر

إذا سألتَ سؤالا مَن هم هؤلاء؟ ستجد كثيرا من العناوين، يمكن أن تقول عنهم صوفيين، تلامذة "كولن"، خدّام المجتمع.. إلخ. وإن دل ذلك فإنما يدل على أنهم لا يتمسكون بالأسماء، ولا يتمسكون بالعناوين، ولا يضعون المظاهر في أكبر من مكانها الطبيعي، بل يقدمون مصلحة أمتهم على مصلحة ذواتهم.. إنهم يتأخرون خطوة إلى الخلف ويضعون الأمة أولا ثم هم. لا يتمسكون باسم، ولا يتمسكون بتنظيم، ولا جماعة ولا حزب ولا هيئة ولا شيء من هذا؛ بل يذوبون في هذا المجتمع. هم "روح يسري في جسد هذه الأمة".. إنهم روح الأمة التركية، لا تجد لهم أسماء لامعة، ولا تجد لهم عناوين براقة، ولا شعارا واحدا في كل مؤسساتهم التعليمية والتربوية والعلمية والإعلامية والصحية.. لم أجد لهم شعارا واحدا، دلّوني على شعار واحد في هذا المؤتمر... لا يوجد شعار، وإنما توجد روح هي أكبر من كل شعار، وأقوى من كل شعار وأهم من كل شعار.









حراء..
أشواق أمة،
وحياة إيمان،
واستنهاض حضارة...



حراء..
كون إيماني عظيم،
يقطر من جميع أنحائه
ماء الجمال...

حراء
مجلة علمية ثقافية فصلية
www.hiramagazine.com

مركز التوزيع
٧ ش البرامكة - الحي السابع - م.نصر/القاهرة
تليفون وفاكس: 20222631551+
الهاتف الجوال : 20165523088+
جمهورية مصر العربية

المركز الرئيس
HIRA MAGAZINE
Kısıklı Mah. Meltem Sok. No:5 34676
Üsküdar İstanbul / Turkey
Phone: +902163186011 Fax: +902164224140

www.hiramagazine.com



حراء

مجلة علمية ثقافية فصلية

www.hiramagazine.com

العدد السادس عشر / السنة الرابعة / (يوليو - سبتمبر) ٢٠٠٩

إشكالات الحياة وغاية الوجود

إن القضية المضنية التي أضنت العقول، وأقضّت المضاجع هي قضية معنى الحياة وغاية الوجود، وقد كرّس لها الأستاذ "فتح الله كولن" العديد من كتبه ومقالاته، وراح يتأملها متجاوزا الحلول السطحية التي لا تلامس الوجدان البشري ولا تتعمق في طواياه.

فمطالب هذا الوجدان رفيعة جداً، وأشواقه ومطامحه عالية جداً، تتجاوز المحدوديات ولا تتوقف إلاّ عند اللامتناهي والمطلق الإلهيين... ومن هذه النقطة يأتي مقال الأستاذ "كولن" الموسوم بـ"الخصوصيات الأساسـية للفكر الإسـلامي" ذاهباً معه إلى جذوره في أزليته الأولى وأبديته اللانهائية. وفي هذا الفكر تكمن الأجوبة على كل التساؤلات التي يثيرها العقل ويشعر بها الوجدان.

وجـذور هذا الفكر الماورائي لا يعني بـأي حال من الأحوال أنه لا يحسـن معالجة إشكاليات الواقع الاجتماعي، فمقال الأستاذ "محمد عمارة" عن الفرد والطبقة والأمة، يأتي رداً على مَنْ يذهب به الوهم إلى حدّ اتهام الإسـلام بالقصور عن معالجة إشكاليات المجتمعات البشرية أفراداً وطبقات وأمماً، لأن "الوحي" بنظره الشمولي والجمعي لا يمكن أن يُغفِل الجوانب الاجتماعية وما تتردّى فيه من إشكاليات.. وكما للفرد أحلامه فإنّ للأمة كذلـك أحلامها، ولعلّ واحداً من أعظم أحلامها هو "سـكة حديد الحجاز"، هذا الخط الذي كرسـت الدولة لإنجازه والسلطان عبد الحميد الثاني نفسـه كل الإمكانات الفردية والشعبية من مال وجهد وعرق وتعب. وقد كتب الأسـتاذ "صالح كولن" عن هـذا الخط المهم، وكيف بدأ حلماً ثم انتهى واقعاً.. والدكتور "عمار جيدل" في مقاله الموسـوم "الطريق السريع، المسلك والسالك" يهدينا إلى أقصر الطرق كما هو عند الأستاذ النورسي لنفعم وجودنا الأرضي بالجهد والعرق وتجاوز العقبات بأسـرع مـا يمكن للوصول إلى ذلك الشعور المشتق من الإيمان كأفضل ملاذ للروح التي تناضل من الخروج من ظلمة الشرور الدنيوية إلى نور الأخروية الأبدية...

وفي باب "دراسات إسـلامية" يتحفنا الأستاذ "فريد الأنصاري" بمقاله الموسـوم "كلمة الله في معركة السلام" مبيناً فيه أنّ عصرنا عصر "الكلمة" وأنها مفتاح لكل المغاليق والإشكالات. فالكلمة فكر متحرك ووجدان مشع، فالكلمة القرآنية يمكنها أن تغذي روح الخليقة بأجمعها ومن جذوتها الخفية تتقد شـعلة الخلود والأبدية منيرة عوالم الإنسـان الفكرية والوجدانية وباعثة للسلام والأمان في أرجاء الروح...

وبعد، نرجو أن نكون قد وفقنـا في إعطاء قرائنا الأعزاء ملامح من موضوعات هذا العدد المتنوعة، مع الاعتذار للأخوة الأساتذة الذي لم يُتَح لنا التنويه بمقالاتهم على أهميتها، والله الموفق... ■

حراء

مجلة علمية ثقافية فصلية

www.hiramagazine.com

العدد السادس عشر – السنة الرابعة (يوليو – سبتمبر) ٢٠٠٩

التصور العام

- حراء مجلة علمية ثقافية فصلية تعنى بالعلوم الطبيعية والإنسانية والاجتماعية وتحاور أسرار النفس البشرية وآفاق الكون الشاسعة بالمنظور القرآني الإيماني في تآلف وتناسب بين العلم والإيمان، والعقل والقلب، والفكر والواقع.
- تجمع بين الأصالة والمعاصرة وتعتمد الوسطية في فهم الإسلام وفهم الواقع، مع البعد عن الإفراط والتفريط.
- تؤمن بالانفتاح على الآخر، والحوار البناء والهادئ فيما يصب لصالح الإنسانية.
- تسعى إلى الموازنة بين العلمية في المضمون والجمالية في الشكل وأسلوب العرض، ومن ثم تدعو إلى معالجة المواد بمهنية عالية مع التبسيط ومراعاة الجوانب الأدبية والجمالية في الكتابة.

شروط النشر

- أن يكون النص المرسل جديدا لم يسبق نشره.
- ألا يزيد حجم النص على ٢٠٠٠ كلمة كحد أقصى، وللمجلة أن تلخص أو تختصر النصوص التي تتجاوز الحد المطلوب.
- يرجى من الكاتب الذي لم يسبق له النشر في المجلة إرسال نبذة مختصرة عن سيرته الذاتية.
- تخضع الأعمال المعروضة للنشر لموافقة هيئة التحرير، ولهيئة التحرير أن تطلب من الكاتب إجراء أي تعديل على المادة المقدمة قبل إجازتها للنشر.
- المجلة غير ملزمة بإعادة النصوص إلى أصحابها نشرت أم لم تنشر، وتلتزم بإبلاغ أصحابها بقبول النشر، ولا تلتزم بإبداء أسباب عدم النشر.
- تحتفظ المجلة بحقها في نشر النصوص وفق خطة التحرير وحسب التوقيت الذي تراه مناسبا.
- النصوص التي تنشر في المجلة تعبّر عن آراء كُتّابها، ولا تعبّر بالضرورة عن رأي المجلة.
- للمجلة حق إعادة نشر النص منفصلاً أو ضمن مجموعة من البحوث، بلغته الأصلية أو مترجمًا إلى أي لغة أخرى، دون حاجة إلى استئذان صاحب النص.
- مجلة حراء لا تمانع في النقل أو الاقتباس عنها شريطة ذكر المصدر.

يرجى إرسال جميع المشاركات إلى هيئة تحرير المجلة على العنوان الآتي:

hira@hiramagazine.com

مجلة علمية ثقافية فصلية تصدر عن:

Işık Yayıncılık Ticaret A.Ş

İstanbul / Türkiye

صاحب الامتياز

مصطفى طلعت قاطرجي أوغلو

المشرف العام

نوزاد صواش

nsavas@hiramagazine.com

رئيس التحرير

هانئ رسلان

hraslan@hiramagazine.com

مدير التحرير

أشرف أونن

conen@hiramagazine.com

المخرج الفني

مراد عرباجي

marabaci@hiramagazine.com

المركز الرئيس

HIRA MAGAZINE

Emniyet Mah. Huzur Sok.

No:5 34676 Üsküdar

İstanbul / Turkey

Phone: +902163186011

Fax: +902164224140

hira@hiramagazine.com

مركز التوزيع

٧ ش البرامكة – الحي السابع – م.نصر/القاهرة

تليفون وفاكس: +20222631551

الهاتف الجوال: +20165523088

جمهورية مصر العربية

نوع النشر

مجلة دورية دولية

Yayın Türü

Yaygın Süreli

رقم الإيداع

١٣٠٦-١٨٧٩

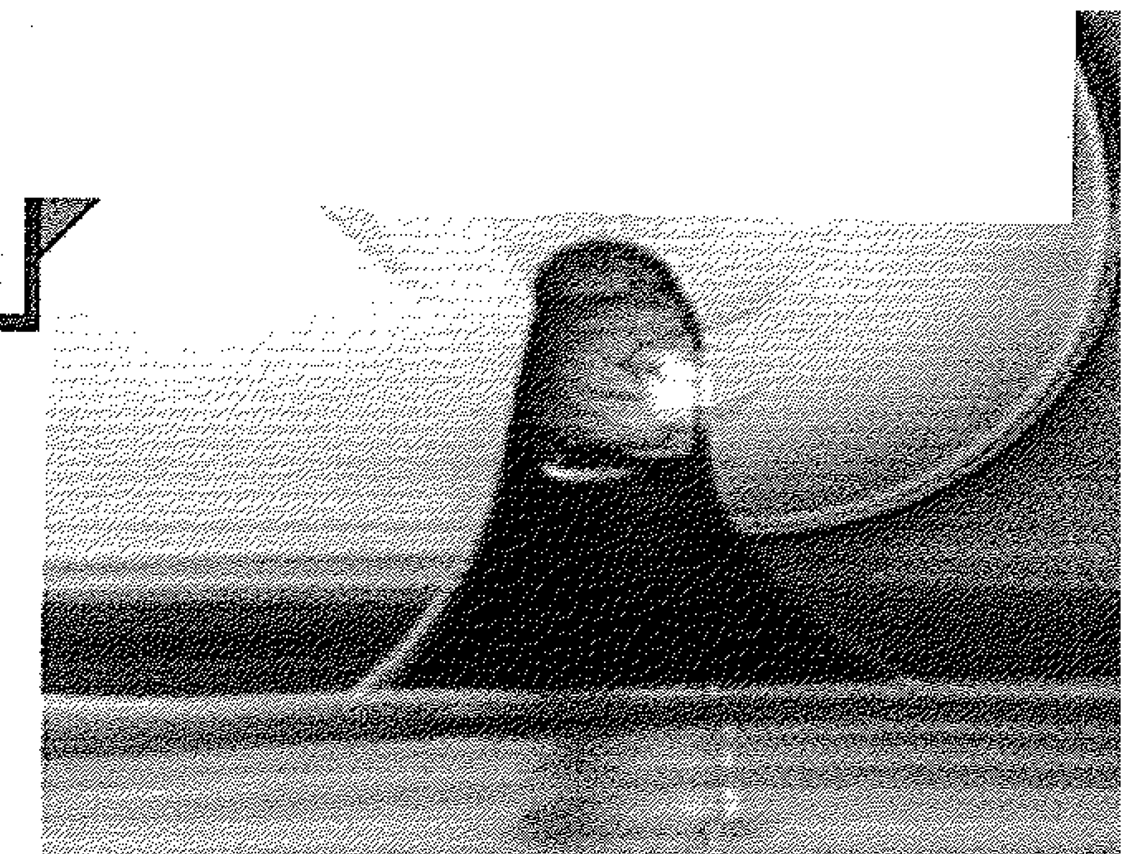
للاشتراك من كل أنحاء العالم

pr@hiramagazine.com

دار الجمهورية للصحافة

حراء
مجلة علمية ثقافية فصلية
www.hiramagazine.com

المحتويات



EGYPT
7, el-Barameka st, off al-Tayaran st. al-Hay al-Sa
Nasr City-Cairo/EGYPT
Tel-Fax: +20222631551 Mobile: +2016552308

TÜRKİYE
Emniyet Mahallesi, Huzur Sokak, No:5
34676 Üsküdar-İstanbul/TÜRKİYE
Phone:+90(216) 318 60 11 Fax:+90(216) 422 41

USA
The Light, Inc.
26 Worlds Fair Dr. Unit C Somerset,
08873 New Jersey, USA
Phone:+1 732 868 0210 Fax:+1 732 868 0211

SAUDI ARABIA
AL Watania Distribution الوطنية للتوزيع
P.O.BOX 8454 Riyadh Zip Code: 11671 Saudia
Tel: +966 1 4871414
GSM: +966 504358213

SYRIA
GSM: +963 944 355675

MOROCCO
الدار البيضاء ٧٠ زنقة سجلماسة
Société Arabo-Africaine de Distribution,
d'Edition et de Presse (Sapress)
70, rue de Sijilmassa, 20300 Casablanca / Morocc
Tel: +212 22 24 92 00

YEMEN
دار النشر للجامعات
لجمهورية اليمنية، صنعاء، الخط الدائري الغربي، أمام الجامعة القديمة
Tel: +967 1 440144
GSM: +967 711518611

ALGERIA
GSM: +213 770 625650

SUDAN
Tel: +249 918248388

JORDAN
GSM: +962 776 113862

UNITED ARAB EMIRATES
دار الفقيه للنشر والتوزيع
ص.ب. 6677 أبو ظبي
Tel: +971 266 789920



الخصوصيات الأساسية للفكر الإسلامي

فتح الله كولن

إن جذور الإسلام لانهائيةٌ فوق الزمان والمكان، والمخاطَبُ في الإسلام هو قلب الإنسان الذي يسع السموات والأرض بسعته المعنوية، وهدفُه السعادة الدنيوية والأخروية.

الإسلام، اسم الصراط المستقيم الممتد من الأزل إلى الأبد، وعنوان النظام السماوي المنزل لفتح مغاليق القلوب جميعاً؛ ابتداءً من قلب أشرف البشر في الأرض ﷺ، وانتهاء بقلب البشرية التواق إلى "الخلود".

منذ أن نصب الإسلام سرادقه في الأرض وظّف طاقاته كلها في مخاطبة القلوب، واستطاع أن يرسم صورتَه في كل وجدان، متفاعلا

مع وحدات الحياة كلها.. فثم تناسب دائم بين تعمقه في الصدور وتأثيره في مفاصل الحياة؛ فبقدر عمق تغلغله في الأرواح وتجذره فيها، يطفح فيضُ تأثيره في حياتنا وتزداد انعكاساته فيما حولنا.

بل نستطيع القول بأن ما نلاحظه في محيطنا من الشوق والرغبة والتلقي بالقبول نحو الإسلام إنما تتحقق متناسبة طرديا مع عمق هذه الصورة الداخلية المشرقة ومدى سعة إحاطتها، وهذا يعني أنه كلما كان هذا القبول المسبق ضاربا في أغوار أعماق الإنسان يقوي تأثيره في محيطه. وفي ضوء ما يمليه هذا الإذعان الداخلي يأخذ المجتمع وجهته في مسيرة حياته الأخلاقية والاقتصادية والسياسية والإدارية والثقافية.

نعم، إن المجتمع -من كل الوجوه- يحمل في ملامحه خطوطاً مهمة من هذا الوازع الداخلي، وينعكس الفن والأدب إلى الخارج حاملَين ألوان هذا المحتوى الداخلي ونقوشه، ويُسمَع ويُستشعَر في كل مكان بين سطور الوجود والأشياء صوتُ هذا المحتوى الداخلي ونَفَسُه وأداؤه، ويشجي كل شيء مرئي أو خافٍ أسماعَنا بأنغام رائعة يلحنها لسان هذا المحتوى الداخلي الصامت بلا صوت ولا كلام.

ومن هذا السر فإن أصحاب القلوب التي فُتحت بالإيمان ما يلفظون من قول إلا وتُسمَع منهم نغمات من الوجود السرمدي.. وهؤلاء كلما يلقون نظرة إلى ما حولهم يحسبون أنفسهم في ممرات زمردية تؤدي بهم إلى سفوح الجنة، وهم بذلك يمزجون وعثاء السفر بالسعادة التي سيلقونها في نهاية المطاف.. ففي كل مظان التأفف تراهم يسيحون قائلين: "مرحى... مرحى".

إن الكلمة المفتاحية لفتح القلوب هي "لا إله إلا الله، محمد رسول الله"، بحيث إن كل الخصائص الإيمانية -حسب الإسلام- تتأسس على هاتين الجملتين الوجيزتين اللتين هما تعبير عن حقيقة لها وجهان؛ أحدهما: غاية، والآخر: وسيلة. فالإيمان الذي هو كـ"شجرة طوبى" تنشأ من هذه البذرة فتغطي بما تؤتي من ثمار المعرفة سماءَ حس الإنسان وشعوره وإدراكه، ثم تستحيل العلوم والمعارف كلها إلى العشق والاشتياق والحرص بحملة داخلية وشعور وحس داخلي، ليحاصر ذاك الإنسانَ من كل جهة، فيصيّره إنساناً جديداً قائماً على محور الوجدان... فتنعكس هذه الحالُ على كل سلوكيات هذا الإنسان العاشق المشتاق. فتحمل عبادتُه وطاعته سماتٍ ترتسم بخطوط هذه العلاقة والرابطة، وذلك العشقِ والاشتياق، وتصير مناسباته البشرية انعكاساتٍ لهذه اللدنية... وتتمحور حملاته الاجتماعية والاقتصادية والسياسية والإدارية كلها، حول هذه القوة الجاذبة "إلى المركز"... فتتشكل فعالياته الفنية وأنشطته الثقافية بهذه المقومات الداخلية، وتتوسع بها، وتبرز بألوان القلب وأدائه الجميل تماماً. ولئن كان الحاصل الظاهر أثرا فنياً أو كتاباً أو رسماً أو شعراً أو لحناً، فإنه يهتف بمشاعرِ وأحاسيس القلب المتغذي بهذا الأنموذج والجوهر الداخلي... فيهتف معبّراً عن الهيجان أو الخفقان المرتشف من واردات القلب لصاحب الأثر، وعن عشقه، ووصاله أو هجرانه. وكذلك الحال حال الروح المشبع بالإيمان والمعرفة والمحبة والأذواق الروحانية، إذ تُبدي رسَمها الداخلي على الفن والثقافة والأنشطة الأخرى، وتهتف بمعاني (الإنسان - الكائنات- الله)، المتحولة في أعماق الروح إلى "خُلاصات" أو "عُصارات" رائقة وتسعى دوماً إلى "نظم" المعاني الغائصة في بواطنها العميقة.

قد لا يكون الإنسان في كل أحواله قاصداً هذا القصد أو متحريا هذا الأمر، إلا أن حركة النظم الإيمانية في قلبه تقود كل تصرفاته، بإرادته أو من غير إرادته إلى هدف معين. ومن طبيعة الحال أن تنعكس ألوان "حركيته" الداخلية وأداؤها على نوع حياته وأسلوبه وشخصيته ومناسباته الاجتماعية... وكذلك تبرز تلك اللهجة والأداء والأسلوب في أعماله الفنية وأنشطته الثقافية، لأن موقع الإنسان في الوجود، وغايةَ خلقه، ومقصودَ فعالياته، وتداعياتِ الفكر عن هذه الغاية وذلك المقصود، ووظيفته ومسؤولياته، ستحيط مع الزمان بكيانه وتحاصره، وتُوجّهه في كل ساعة نحو التميّز والفائقية إزاء الوجود الأوسع والأعلى بأشد المشاعر حيوية وتأثيراً.

هذا الفكر الأول الموجّه، يتمادى في تأثيره على أنشطته الذهنية والفكرية والعلمية... وبعد مدة، سيحقق حصول "جبلة ثانية" فيه. هذه الجبلة تلفت الأنظار إلى نفسها من البواطن في كل صفحات حياته: معتقداته وعباداته، وأخلاقه وعلاقاته الاجتماعية، وارتباطه بربه وسلوكياته. والحقيقة أن الإنسان يرسم حدود عالمه الحقيقي الذاتي بمقدار ما ينمي هذه الموهبة الأولى الموجِّهة.

وإن هذا الذي توجه وطمح إلى ذرى الحياة القلبية والروحية لهو على بصيرة من أمره؛ لذا فهو يعرف كيف يفكر ويتحرك ويعمل،

ومن أين يبدأ... فهو حساس في العبادات، ولديه استشعار عظيم بالأخلاق، وهو منفتح على المراقبة ومحاسبة النفس، ومنهمك في الشعور بالرهبة من الذنوب في مراقبة دائمة.

فمن استقر وتوطد شعوره وتفكيره بهذا القدر، فستكون الحياة بكل وحداتها بالنسبة له كأنها شلال وَجدَ مجراه، ينحدر موارًا أبداً ليبلغ البحر، وهو في هذا الشلال يعيش نشوة العشق والوصال أبداً. الإيمان -بمقدار توسعه وعمقه- مولّد الطاقة (الدّينامو) الأساسُ لإنسان الحركة هذا، والعبادة سنده ومحرّكه الحافظ، والأخلاق ومجموع العلاقات الإنسانية علامته الفارقة وفيصله المميّز. والثقافة غدت سجية من سجاياه. والفن بدا انعكاسا لاستطلاعه وتفحصه وحدسه الداخلي ومشاهداته الباطنة.

وأستطرد لأذكر موضوعا ليس مكانه هنا... لكن أقول عن الفن الإسلامي إنه يحتوي رحاباً واسعةً خصوصيةً بتحرّيه "التنوع في فَلَك التجريد". فهو إذ يؤكد على التوحيد، يتخذ موقفاً بيناً ضد التشبيه والتجسيم.. وبحكمة إبقاء باب التأويل مفتوحاً أبدا، يريد أن يُريَ بحراً في قطرة، ويصورَ شمساً في ذرة، ويشرحَ كتاباً في كلمة واحدة. أما الثقافة الإسلامية المتشكلة بتأثير هذا الدينامو الرئيسِ وهذه المقوماتِ الأساسيةِ -ولا ننبش الآن عن مقولةِ أن الثقافة ميراث الإنسانية عموماً-، فهي منفتحة على كل الأنشطة الفكرية والذهنية المرتبطة بواقع الإنسان، وخلاصةٌ وعصارةٌ للخلطة المشتركة لتلك الأنشطة. ونحن نستشعرها بكل شيء يخصنا بأمسنا ويومنا، وبكامل حيويته، فنعيشه، ونطوره، ثم نودعه أمانة لدى الوجدان الاجتماعي، العارف المتأهل لما يُقدَّر ويوقَّر.

لذلك، فإن الواجب علينا اليوم هو أن نكافح من أجل الحفاظ على ذاتيتنا بالارتباط بمنظومتنا العقدية والفكرية والتوجه نحو ثقافتنا ونتاجها.. وأن نقوم بتحقيق ألوان جديدة من الفكر والعرفان -إذا اقتضى الأمر- فوق أطلسنا الفكري.

إن الإسلام صوت كتاب الكائنات ونَفَسه وتفسيره وإيضاحه، كذلك هو رسم ماضي الكائنات وحاضرها ومستقبلها، وصورتُها وخارطتها، ومفتاح سرّيّ لأبوابها التي قد تظن أنها مغلقة. الإسلام "كلٌّ" يعبر عن هذه الأمور والشؤون جميعاً.

نعم، ينبغي أن نبذل قصارى جهدنا للالتزام بمصادرنا الذاتية أبداً، وأن نحصر الذهن في بلوغ البحر بمجرانا الذاتي، ونحرص على التطلع إلى الوجود من تحت قبة سمائنا، وقراءته ككتاب، وتفسيره إذ نقرؤه، واستنباط أفكار جديدة منه.

ومعلوم أن الإسلام منفتح على اقتباسِ ما يمكن اقتباسه من قيم الأمم الأخرى؛ فالإسلام يبحث عن كل فائدة ومصلحة حتى وإن كانت في أقصى بقاع الأرض، ويطلبها أنّى يجدها. وكما اقتبس في الماضي من علوم الفيزياء والكيمياء والرياضيات والفلك والهندسة والطب والزراعة والصناعة والتقنيات الأخرى أينما وجدها، ثم قوّمها وطوّرها وأودعها أمانة للأجيال الآتية، فاليوم أيضا يأخذ كل ما يمكن أخذه أينما وجده، وينميه ويطوره -إن استطاع- ويُودعه أمانة للوارثين الجدد.

وكون الإنسان خليفة الله في الأرض يستوجب على المسلم أن يكون عاشقا للحقيقة وحريصا على العلم والتحري وشغوفا بالبحث. لكن ينبغي أن يتقي المؤمن ويحذر من الاتكاء على المصادر الأخرى في الأمور المتعلقة بالنظم العَقَدية والفكرية، والموضوعاتِ المرتبطة بالكتاب والسنة وبكل ما يتعلق بالرسول ﷺ وسيرته، وطرائقِ التحليل والبحث في السيرة وتاريخ الإسلام، والفن والأدب ونحوها... ذلك، لأن الذين أقاموا بنياهم الفكري على معاداة الإسلام، والناظرين إلى الإسلام وكأنه خارج الوحي السماوي، لا يُرجى منهم التصرف بحسن النية وطلب الخير للمسلمين وتمنّي التقدم لهم. أما العلم والتكنولوجيا -وهما خارج إطار ما ذكرناه- فقد عهدناهما في أخذ وعطاء بين الأمم في الماضي، وستستمر المبادلة فيهما مستقبلاً، وتنتقل أمانة ووديعة في أيدي حائزيها. فالعلوم والتكنولوجيا ليست حكراً لدين أو أمة. لذلك، تستطيع كل أمة سليمة المشاعر والفكر والمعتقدات، ومنتصبة على ساقيها بثبات ورسوخ، أن تعتصر هذه العلوم الصرفة وتقطرها في روحها،

فتجعلها صوت قلبها ونَفَسَه، ووسيلةً توصل البشر إلى الله تعالى.

والمؤلم أن فلسفة العلم في أوروبا -وعلى نقيض المرونة في عالمنا الفكري- قد أوقعت الغرب كله في صراع دائم بين العلم والدين لأمور وأوضاع خصوصية، فخلّف ذلك انفصالاً بين العقل والقلب. هذا المشكل هو السبب الرئيس للمعضلات المتتابعة منذ عصور في النظم الغربية كلها. بل لقد تفاقمت الأزمة من مخاصمةِ جبهة العلم والفلسفة للدوغمائيات الكنسية، إلى مخاصمة "المفاهيم" الدينية كافة بمرور الزمان... فكأن العلم والفلسفة حامية ومدافعة عن الإلحاد. وقد أصاب -للأسف الشديد- الفكرَ الإسلاميَّ البريءَ شيءٌ من هذا العداء ضد الدين، إذ عُرِّض إلى أشنع ظلم وأبشع غبن، ووضع في قفص الاتهام مع الكنيسة التي هي المعنية في الأصل بهذه الخصومة.

انقلبت هذه الحركة المعادية لدوغمائيات الكنيسة، والقائمة أصلاً على حرية الفكر والعلم، إلى معاداة الله والدين والتدين... ثم إلى تحمس في أرجاء العالم كله لإسكات المتدينين وإحباطهم وتضييق الخناق عليهم، بل إزالتهم من الوجود تماماً. ولم يكن للعالم الإسلامي مشكلة البتة مع العلم أو حرية الفكر، ولكنّ زمراً من أعداء الدين تغاضوا عن هذه الحقيقة الفارقة، واتخذوه غرضاً لمراميهم العدائية الدنيئة مقايسين له على المسيحية الكنسية...

والحال أن الإسلام كان -ولم يزل- يقدم للإنسانية جمعاء نظاماً للحياة جديداً وفريداً... نظاماً لا نظير له في الماضي، ويبدو رمزاً للمثالية والتفرد في الآتي. فهو قد نظّم وينظّمُ بأسسه حياةً جديدة لنوع البشر، ويضع تفسيراً جديداً لعوالم الدنيا وما بعد الدنيا، والعالم المادي وما وراءه، ويرتب -من جديد- الوشائج بين الإنسان والكائنات والباري ﷻ... يرتبها من وجهة خصوصيات الظواهر وبشكل مميز وفريد، ويقطع دابر النقائض في "الإلهيات"، وتستجيب القيمُ التي أوجدها بإشباع كامل ومُطَمْئِن لكل متطلبات البشرية حول الموت والحياة، ويسد كل الثغرات العقلية والمنطقية والفكرية والحسية في قلوب المخاطبين وعقولهم. كان الإسلام -وما يزال- حيويا وحركيا من كل وجهة... يتوسع وينبسط في واقع الحياة، ولم يؤجل النظر إلى أي مشكلة واجَهَتْه. يدخل إلى أضيق المعابر في الحياة الفردية والعائلية والاجتماعية والاقتصادية والسياسية والثقافية، ويجول في وحدات الحياة كلها بصوت العصر الذي هو فيه، ويلفت النظر في كل وحدة من وحداتها بصورة أشد إحكاماً من أحكم شيء واقعي.

ولم يكن الإسلام "أيديولوجية مثالية" بمعناها المعروف في الغرب، ومحال عليه أن يكون؛ لأن هذا المعنى كان شمساً خيالية بزغت في السهوب المجهولة خلف جبل "قاف".. شمس لا ينعكس شعاعها قط في واقع دنيانا المعيش، ولا يمكنها الظهور حتى في أصغر وحدات الحياة. فهي بأضوائها الكاذبة تصطدم بالخيال وتتكسر عليه كمثالية غير واقعية، وترنو إلى الحياة وحقائق الحياة الواقعية، من أفق بعيد كنوع من أنواع الأحلام اللذيذة(!) -ووصفُها باللذيذة يعود لمن يتأولها-.

أما الإسلام، فقد وعد -ويعِدُ- البشرية بنظام فريد في نوعه، قابلٍ للتنفيذ في كل مجال، مالكٍ لوسائل تحقيقيه بديلة في التنفيذ. فيجد فيه الذين يلبون نداءه نشوةً وتلوُّنَ وأداءَ نظام قد نما في رحم واحدة متوافقة مع طباعهم وجبلّتهم. فهو بسعة العناية بكل شيء، ابتداءً من القبول المسبق في الوجدان إلى المسائل الأخلاقية في الحجرات النهائية للحياة، ومن أدق المسائل الفردية والعائلية إلى أعظم المعضلات الاجتماعية، يقدم حلولاً فريدة، ولا يخيّب رجاء المنتسب إليه مهما كان ضيّق الصدر أو قصير الشأو. الإسلام يبدأ بالعمل في الوجدان الفردي، وإذ يستقر فيه، يطفح منه بفائقيته الخاصة الذاتية، ويَفيض من محيطه وبيئته، ويجعل كل مكان حقل فسائل، فيصطبغ كل مكان بصبغة روحه، ويبدل أينما انتشرت جذوره لونَ الحياة وأداءها، ويُسمِع القلوب نداء الوجود الأبدي، وقد كان -ولا يزال- كل نداء منه ترنما للسلام العالمي، وتناغماً للانسجام الاجتماعي، ونَفَساً للتسامح والحوار. أما الصخب والوحشية والصلف والحقد والبغض، فهي من الغثيان المنعكس من البناء الروحي لخصومه في الخارج، وعسر هضم جهلة المنتسبين إليه. لكن هذا النور انكسف حينا بحائل من أحد خصومه، وانخسف أحيانا بتفريغ الفريقين معاً الظلمات فوقه.

ولو فتر العدو قليلا في الجفاء، وبذل الخليل قليلاً من الوفاء، لكان الإسلام قد محا وكنس أنواع الظلمات من الأرض مثل البغض والغيظ، بفَوَران "عن المركز" كالبراكين أو بحُزَم الضياء من أطياف النور، ولَجعل الأرض جنان اطمئنان تمتد حافاتها حتى تصل الجنة... ففي ظله يُنسى العراك والجريمة والإرهاب والاضطراب، وتُشمّ نسائم الحب والتوقير والانسجام والحبور في كل الأرجاء. وإن القلب الذي يتوطد فيه الإسلام، يمتلئ

بالحب والاهتمام والتسامح إزاء المخلوقات من أجل الخالق، والمصنوعات من أجل الصانع.

نعم، لن يجتمع في القلب إيمان وارتباط بالله مع الحقد والكره والغيظ. ولا يُحتمل مطلقاً أن يبقى بابُ القلب مفتوحا لتلقي العداوات خصوصا مع الحفاظ على جلاء روحه ورونقه بتجديد إيمانه وانتسابه للحق تعالى وميثاقه، كل يوم وأسبوع وعام، بأنواع العبادات. فإن كل تصرفاتنا الإسلامية تحفز فينا شعور التحرك المسلم، وتقودنا إلى الحياة الإيمانية. وبتواتر انعكاس مكتسباتنا الوجدانية وواردتنا القلبية على سلوكياتنا، تتكون خيوط أخلاقنا وتتلون بأبهى الألوان. وبدوام تدفقها من تصرفاتنا تتكون مرجعيات ثقافتنا، فتؤمّن لنا البقاء بذاتنا وشخصيتنا. وهكذا التكامل الإنساني المتوطد بالله والإيمان والاعتماد والاطمئنان في قلب الإنسان، يطفح إلى المحيط والبيئة حباً واهتماماً وإخلاصا وودا، فيخرج الفرد المسلم من الفردية بفضل هذه الجاذبية القدسية التي يحوزها، فيكاد يكون أمة.

إن الهمم الفكرية والتخطيطية والفنية تُولَد ابتداءً في ذات الإنسان، ثم تتشكل صورها، ثم تتوسع وتنبسط إذا وَجدت المناخَ الملائم للنمو والتطور. فكذلك أيضا العبادات والأخلاق والحياة الروحية والثقافة والعلاقات البشرية الأخرى كافة... يُستَشعَر بها بداية في عمق الإنسان إيمانا وإذعاناً، ثم تنمو لتحيط بالحياة كلاً، وتسربل بصبغتها التصرفات البشريةَ كافة، فتكون مُعيِّنا ومُوَجِّها أساسيا لكل همة وحملة وحركة وفعالية، حاضراً بنفسه وبوجوده في كل الأحوال.

يتميز الإسلام عن النظم الدينية والفلسفية الأخرى قاطبة، بأنه رسم للإنسانية صورة فكرية وحياتية ذاتَ بُعد عالمي، لكن بسيماء خاصة به في الوقت عينه... وحمّل المنتسبين إليه مسؤوليةَ أن يجعلوه حياة يَحيونها وأمرا ينفذونه. ولذلك يسعى كل مسلم يعرف هذه الحقيقة لكي يتصرف ضمن إطارها في أعماله وعلاقاته الفردية والعائلية والاجتماعية، ويخطط لمستقبله وفقاً لهذا الفهم، ويستجمع همته ما استطاع وسنحت له الأحوال للإيفاء بحق هذه المسؤولية. ولا يخفى أن الأفكار والغايات المأمولة تبقى أحلاما وردية رفرافة، ما لم تؤيَّد بحملات وأفعال حركية لوضعها موضع التنفيذ بقدر ما تسع الأحوال... فإن قصّرنا، فسوف تستمر كمّاشة الواقع الفعلي تسحقنا بين فكيها.

ومن الحق أن حقيقة الإيمان المتأصلة في عالمنا الداخلي، إنما تديم وجودَها بقدر تناميها وتوسعها في الحياة الواقعية... فإذا بُذِرت بذور الإيمان وترعرعت واخضرّت في القلوب، ثم تحولت إلى استقامة ووثوق في التصرفات، وانقلبت إلى وقار وخشوع في الصلاة، ورفدت وازعَ الحقانية والعدل في علاقاتنا الاجتماعية، فذلك يعني أن الأفق منبسط أمامه إلى اللانهاية للتطور والتوسع. وكما يكون إيمانٌ كهذا الإيمان في الإنسان مصدراً لا ينفد للقدرة والحيوية، كذلك يكون قاعدة ومنصة للارتقاء به باسم "خلافة الله في الأرض" إلى حق "التدخل في الأشياء"، وتشكيل صور البيئة المحيطة حسب مشاعره وأفكاره، والانفتاح على اللانهاية في محور التوحيد والتجريد بالملاحظات الجمالية والروح الفنية في طبيعتيهما الذاتية. ذلك لأن الإيمان يوجد روحاً فنية مكينة في الأرواح المنفتحة على الجمال يدعو إلى العَجب والانبهار. نعم، إن الفنان المؤمن يصل إلى الماهية المجردة في منشور الوجود اللانهائي، ويرسم ألوان الأبدية، برقوش وخطوط عديدة على اللوحة بضربة فرشاة من غير تعب أو رهق... حتى إن الناظر يحسب نفسه أمام أنموذج نقش مصغَّر للوجود في كل تأمل في اللوحة الفنية، فتأخذه نشوة مطالعة اللانهاية في المعطيات المحدودة، والبحر في القطرة، والكائنات في الذرة، في عالم الخطوط السحري، ضمن تصور ملاحظات التوحيد والتجريد بلسان الفن.

الإسلام يربط أحكامه وأوامره بمعطيات الحياة المعيشة وبإمكانية التطبيق، ولا يبني الأحكام في دنيا الأحلام. الإسلام متواجد وحركي في الحياة بكل مساحاتها، من المعتقدات إلى أنشطة الفن والثقافة.


ونحن لا نريد أن نفهم الفن الإسلامي بحصره في رفض موضوعات ذاتية أوموضوعية، أو إعلانا وإبرازاً للمهارات... بل تأليفاً -من جهة- بين الروح والمعنى والمحتوى فيما يشاهد من علائق الوجود والحوادث فيُستشعر، وما يتحسس منها فيفهم أو

ما يُتحسس وينبغي أن يُفهم، وبين لسان القلب والشعور والحس -من جهة أخرى-... فيتمكن -من ثم- أن يرشد على الدوام إلى الموجود الذي ليس كمثله شيء بالإيماء والإيحاء من مختلف المستويات والترتيبات -ولكن بلا حيدٍ عن خط مستقيم واحد تشير إليه بوصلة القبلة-، وفي مرونة تشعر بالحقيقة الواحدة الثابتة المطلوب فهمها -ولكن ببعد جديد مختلف في كل نظرة وتطلع-، فيشهر الوحدة في الكثرة، والكثرة في الوحدة بخطوط سحرية في هذا الإطار أو فيما يتجاوز هذا الإطار.

الحاصل أن الإسلام صوت كتاب الكائنات ونَفَسه وتفسيره وإيضاحه، كذلك هو رسم ماضي الكائنات وحاضرها ومستقبلها، وصورتُها وخارطتها، ومفتاح سرّيّ لأبوابها التي قد تظن أنها مغلقة. الإسلام "كلٌّ" يعبر عن هذه الأمور والشؤون جميعاً. "كلٌّ" يستحيل تَجَزّؤه، ويستحيل أن يُحمَّل جزؤه القيمَ المحمّلةَ على الكل. فإن تجزئته إلى أجزاء، ثم محاولة استنباط فهمٍ كامل وتام من الأجزاء، غلطٌ وخطل وإهانة لروحه. وسوف يبقى من يريد أن يفهمه أو يحصره في تفسير آيات وأحاديث معدودة بأسلوب وعظيّ، مهزوزَ الوجدان بأحاسيس نقص حقيقي، ومعانياً من خواء روحي دائم؛ مهما كدّ وسعى لسماع مجموعة الأنغام الرائعة هذه.

الإسلام إيمان، وعبادة، وأخلاق، ونظام يرفع القيم الإنسانية إلى الأعلى، وفكر، وعلم، وفن. وهو يتناول الحياة كلاً متكاملاً، فيفسرها، ويقوّمها بقيمه، ويقدم لمنتسبيه مائدة سماوية من غير نقص. وهو يفسر أداء الحياة دوماً ممتزجاً مع الواقع، ولا ينادي ألبتة بأحكامه في وديان الخيال بمعزل عن الحياة. يربط أحكامه وأوامره بمعطيات الحياة المعيشة وبإمكانية التطبيق، ولا يبني الأحكام في دنيا الأحلام. الإسلام متواجد وحركي في الحياة بكل مساحاتها، من المعتقدات إلى أنشطة الفن والثقافة... وذلك هو أهم الأمارات والأسس لحيويته وعالميته الأبدية. ■

(*) الترجمة عن التركية: عوني عمر لطفي أوغلو.





الفرد والطبقة والأمة

أ.د. محمد عمارة *

الإسلام دين الجماعة. أي الأمة، تلك خصيصة من خصائص المنهج الإسلامي.

وكون الأمة هي الجامعة الأساسية -في المنظور الإسلامي- لا يعني الإجحاف بحقوق "الفرد"، ولا الإنكار لوجود "الطبقة" -بالمعنى الاجتماعي- في إطار "الأمة"، وإنما هي العلاقات التي أقامتها الوسطية الإسلامية الجامعة بين "الفرد" و"الطبقة" و"الأمة" على نحو متميز وفريد.

فالمسؤولية في الإسلام في الكثير من التكاليف، وفي الحساب والجزاء عليها مسؤولية فردية، نَقَل الإسلام بها هذا الفردَ من وضع الذوبان الكامل في إطار القبيلة والعشيرة، لكن هذا الإنسان الفرد هو مدني بالجبلة، اجتماعي بالطبع، يستحيل عليه أن يحيا فردا وفي حدود النزعة الفردية.

نسق التكاليف الدينية

والتكاليف في الإسلام منها الفردي (فروض العين) ومنها الاجتماعي (فروض الكفاية)، وهي جميعا ينتظمها نسق واحد، هو نسق التكاليف الدينية، والرباط بينها عضوي، حتى لَيستحيل على الفرد -بسبب من مدنيته واجتماعيته- أن ينهض بتكاليفه الفردية (فروض العين) إذا أصاب الخللُ النظامَ الاجتماعي بتخلف الفروض الاجتماعية. فإذا انعدم الأمن في المجتمع أو عزّ فيه القوت، فأنّى للعابد أن يعبد الله ويؤدي فرائضه العينية؟! لقد قال الفقهاء: إن صلاة الخائف والجائع لا تصلح؛ لأن الحضور فيها -وهو شرط إقامتها- لا يتأتى إلا بالأمن الاجتماعي وتوافر الأقوات. ولقد أصاب الإمام الغزالي عندما حدد الضرورات الاجتماعية التي يستحيل بدون توافرها إقامةُ الدين، فقال: "إن نظام الدين لا يصلح إلا بنظام الدنيا؛ فنظام الدين بالمعرفة والعبادة، لا يُتوصل إليهما إلا بصحة البدن وبقاء الحياة وسلامة قدر الحاجات من الكسوة والمسكن والأقوات والأمن. فلا ينتظم الدين إلا بتحقيق هذه المهمات الضرورية. إن نظام الدنيا شرط لنظام الدين.."[1] ولذلك كانت فروض الكفاية (الاجتماعية) في المنهج الإسلامي آكدَ من فروض العين (الفردية)، للارتباط

العضوي بينهما في النسق التكليفي الواحد، ولترتُّب التمكن من أداء كثـــير من فروض العين على تحقيق كثير من فروض الكفاية.

مركزية دور الفرد

لكن تحقيق الفروض الاجتماعيـــة لا يغني عن ضرورة الفروض العينية؛ لأن مكانة الأمة والجماعة في التصور الإســـلامي لا تلغي دور الفرد ومكانته، فالمسؤولية والتكليف والحساب والجزاء فردي، ﴿وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَى﴾(الإســـراء:١٥) في التكاليف الفردية، لكن البلوى الاجتماعية إذا عمت طالت من لا يد له فيها. ولذلك دعانا الله إلى اتقاء الفتنة التي لا تصيب الذين ظلموا دون سواهم ﴿وَاتَّقُوا فِتْنَةً لَا تُصِيبَـــنَّ الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْكُمْ خَاصَّةً﴾(الأنفال:٢٥). إن النهوض بالمسؤوليات والتكاليف الفردية هو السبيل إلى إقامة التكاليف الاجتماعيـــة.. كما أن إقامة التكاليف الاجتماعية هو الـــذي يهيئ للفرد الوفاءَ بحقوق تكاليفـــه العينية. وهذا الترابط بينهما هـــو التعبير عن ارتباط الفرد بالأمة في منهج الإســـلام.

الفرد لبنة كيان الأمة

وفي ضوء هذه الحقيقة نقرأ صياغتها عند الماوردي عندما يقول: "واعلم أن صـــلاح الدنيا معتبر من وجهين: أولهما: ما ينتظم به أمـــورُ جملتها. والثاني: ما يصلح بـــه حال كل واحد من أهلها. فهما شـــيئان لا صلاح لأحدهما إلا بصاحبه؛ لأن من صلحت حاله مع فســـاد الدنيا واختلال أمورها، لن يعدم أن يتعدى إليه فسادها ويقدح فيه اختلالها؛ لأنه منها يَستمد ولها يستعد. ومَن فســـدت حاله مع صلاح الدنيا وانتظام أمورها لم يجد لصلاحها لذة ولا لاســـتقامتها أثرا؛ لأن الإنســـان دنيا نفسه، فليس يَرى الصلاح إلا إذا صلحت له، ولا يجد الفساد إلا إذا فسدت عليه؛ لأن نفسه أخص وحاله أمسّ، فصار نظره إلى ما يخصه مصروفا، وفكره على ما يمسه موقوفا.[٢]

فالفرد هو نقطة البدء، وهو بواسطة الأسرة والعشيرة يُعدّ لبنة في كيان الأمة، ولا مكان للفردية المغالية في المنهج الإسلامي؛ لأن صلاح اللبنة موقوف على كونها جزءاً من البناء الكبير.

الأمة في التصور الإسلامي

والأمة في التصور الإســـلامي ليست مجرد جمع "كمي" يساوي عدد الأفراد فيها، وإنما هي كيان جامع، له حالة (كيفية) جديدة تفوق كيفياتِ وقدراتِ أفرادهـــا متفرقين. إنها كيان متميز، له مـــا ليس للأفراد المتناثرين. إن الخيوط المتفرقة ليســـت لها القوة المتحصلة منها ذاتها إذا هـــي اجتمعت. وقطرات الماء المتفرقة لا تحدث الري الذي تحدثه عند الاجتماع. والأفراد المتفرقون ليست لهم حصافة الرأي ورجاحة العقل وكياســـة النظر التي تتأتى لهم بشورى الاجتماع. ولذلك لم يَمنع جوازُ الضلال على كل فرد من أفراد الأمـــة، أن تكون لهذه الأمة العصمـــةُ عند الاجتماع والإجماع. ويشـــهد على هذه الحقيقة الموضوعية حديث رسول الله ﷺ: "إن الله وعـــدني في أمتي وأجارهم من ثلاث: لا يعمهم بسنة، ولا يستأصلهم عدو، ولا يجمعهم على ضلالة" (رواه الدارمي).

فللأمة في الإسلام مقام فريد، يعلو بها عن مجرد الجمع العددي والتراكم "الكمي" لما لدى أفرادها وآحادها. ولقد أبصر الماوردي وهو يتحدث عن مذاهب الأمم في "الشورى" كيف أن الحضارات التي مالت كفتها لحساب "الفرد" قد حبذت "الشورى الفردية"، بينما حبـــذت الحضارات التي مالت كفتها لحســـاب المجموع "شـــورى الاجتماع". ثم أضاف الجديد الذي تميزت به حضارة الإسلام وشـــوراه، عندما جمعت بين الاثنين (الفرد والمجموع) فقال: إن مذهب الإســـلام في "الشورى" هو الجمع بين "شورى الفرد" و"شـــورى الاجتماع"، فحيث تكون القضايا مما تحتاج إلى الاجتهاد وإعمالِ الفكر واســـتنباطِ الأدلة تكون شـــورى الانفراد؛ لأنها شورى الاجتهاد. وحيث يكون المراد هو الكشف عن ثمرات الاجتهاد الفردي، فإن الاجتماع والمواجهة (شـــورى الاجتماع) تكون هي الســـبيل القـــويم.[٣] فللارتباط بين الفرد والمجموع كان جمع الشورى الإسلامية بين نمطي شوراهما جميعا.

التمايز الطبقي

وكما أن دار الإســـلام تتألف من أوطان وأقاليم يجمعها جامع الإسلام: العقيدة والشريعة والحضارة؛ فكذلك أمة الإسلام تتألف من الشـــعوب والقبائل التي تعارفت بالإسلام وعليه، فغدت أمة الإسلام التي لا تمزّق وحدتَها التمايزاتُ القومية والعرقية والبيئية؛ لأنها تمايزات الواقع الذي لا يناقضه الإسلام، وإنما يهذبه فينظمه في نسق العقيدة الواحدة والحضارة الواحدة.

وإذا كانت مكانة الفرد في المنهج الإســـلامي قد شـــهدت بتميزها المسؤولية الفردية، والتكاليف الفردية.. وإذا كان القرآن الكريم قـــد أبرز مكانة الأمة ﴿إِنَّ هَذِهِ أُمَّتُكُـــمْ أُمَّةً وَاحِدَةً وَأَنَا رَبُّكُمْ فَاعْبُدُونِ﴾(الأنبيـــاء:٩٢) ﴿كُنْتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ﴾(آل عمران:١١٠) ﴿وَكَذَلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطًا﴾(البقرة:١٤٣).. فإن المنهج الإســـلامي لا ينكر وجود "الطبقة" ولا التمايز الطبقي في إطار الأمة وفي داخلها؛ فالتفاوت الاجتماعي -بنظر الإســـلام- حقيقـــة من حقائق الواقع، نابعة مـــن تفاوت الحوافز والقدرات

والجهد المبذول والذكاء الذي يستخرج الثمرات.. والإسلام لا يقفز على حقائق الواقع ولا يتجاهلها ولا يعاديها، ولكنه يهذبها ويضبطها كي تظل في إطار "المشروع" ونطاق "العدل" الذي لا يعني المساواة التامة وإنما يعني "التوازن" بين فرقاء متفاوتين.. التوازن (الوسط) العدل، الذي ينكر الظلم ويقترب بالتفاوت إلى حيث درجة التوازن ولحظة العدل، التي يكون فيها التفاوت مؤسسا على ما هو ضروري ومشروع وطبيعي من العوامل والأسباب. ﴿وَاللهُ فَضَّلَ بَعْضَكُمْ عَلَى بَعْضٍ فِي الرِّزْقِ فَمَا الَّذِينَ فُضِّلُوا بِرَادِّي رِزْقِهِمْ عَلَى مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُمْ فَهُمْ فِيهِ سَوَاءٌ أَفَبِنِعْمَةِ اللهِ يَجْحَدُونَ﴾(النحل:٧١). فإذا تأسس التفاوت والتمايز الاجتماعي والاقتصادي على ما هو مشروع من الأسباب، وإذا أحدث هذا التفاوت تمايز الأمة إلى طبقات اجتماعية متميزة، فإن الإسلام لا يرى في وجود الطبقات إخلالا بالأمة، ولكنه كما أقام علاقات الترابط بين الفرد وبين الأمة، كذلك يهذب من حدود التمايز والتفاوت الطبقي ويضبط جموحه ويرسم آفاقه، على النحو الذي يجعل علاقات الطبقات الاجتماعية في لحظة التوازن ودرجته ومستواه؛ لأن هذا التوازن الذي يجمع بروابط التساند الطبقات المتعددة هو العدل الوسط في منهج الإسلام.

أما إذا اختل هذا التوازن الاجتماعي بين الطبقات في أمة الإسلام؛ فإن الخيوط الجامعة بين الطبقات تخلي مكانها لعوامل التناقض والصراع بين هذه الطبقات. وتلك هي الأخرى حقيقة موضوعية، وواقع اجتماعي، لاينكره المنهج الإسلامي ولا يستنكره ولا يتجاهله ولا يقفز عليه. لكنه يضع أيضا لهذا الصراع الضوابطَ، ويحدد له الغاياتِ والآفاقَ؛ فالهدف منه هو العودة بالعلاقات الطبقية إلى درجة التوازن ولحظة العدل الوسط. وليس الهدف منه أن يَنفي قطبٌ القطبَ الآخر تماما، وأن تُلغي طبقةٌ الطبقةَ النقيض كلية وتقتلعها من الوجود؛ فهذا المفهوم للصراع الطبقي هو خصيصة غربية، لأن لهم مفهومهم الخاص لآفاق حرية الطبقة في التمايز والامتياز.. وهي آفاق قد لا تعرف الحدود. فالبرجوازية سعت إلى نفي الإقطاع، والبروليتاريا سعت وتسعى إلى نفي البرجوازية. وما حديث "الشمولية-الشيوعية" عن المجتمع اللاطبقي إلا حديث عن المجتمع الذي تنفرد فيه طبقة واحدة بسلطات الفكر والحكم والمال.. لكنهم يكتشفون أن التمايز الطبقي الطبيعي حقيقة موضوعية من حقائق التوازن الاجتماعي (أي العدل الاجتماعي) وضرورة من ضروراته. فما ظنوه اقتلاعا للبرجوازية، لم يكن أكثر من استبدال الطرف الذي يتمتع بامتيازاتها؛ فبدلا من الملاك الرأسماليين حل "الحزب" و"التكنوقراط" (أي الدولة) التي امتلكت سلطات الفكر والحكم والمال بدلا من ملاكها السابقين. تغيرت الأسماء، ولم تلغ الطبقية في المجتمع الذي ظنوه لا طبقيا، حتى لَيتحدثون عن حاجة مجتمعهم هذا إلى ثورة لإزالة ما به من تناقضات.

الإسلام لا يتجاهل الواقع

لكن الإسلام الذي لا يقفز على الواقع ولا يتجاهل حقائقه -ومنها التمايز الطبقي النابع من التفاوت الاجتماعي الطبيعي- يجاهد لإبقاء هذا التفاوت في حدود الأسباب المشروعة، ويعمل على أن لا تتجاوز آفاقه لحظة التوازن، التي هي درجة العدل (الوسط).. فإذا تجاوز هذه الآفاق واختل التوازن وحل الظلم الاجتماعي محل العدل الاجتماعي، فلا حرج في الإسلام أن يشهد المجتمع دفعا طبقيا، بل لقد رآه الإسلام سنة من سنن الله في المجتمعات، تقود الظاهرة الاجتماعية من درجة الخلل ولحظة الظلم إلى درجة التوازن ولحظة العدل بين الطبقات؛ ﴿وَلَوْلاَ دَفْعُ اللهِ النَّاسَ بَعْضَهُمْ بِبَعْضٍ لَفَسَدَتِ الأَرْضُ وَلَكِنَّ اللهَ ذُو فَضْلٍ عَلَى الْعَالَمِينَ﴾(البقرة:٢٥١)،[٤] و"من أريد ماله بغير حق فقاتل فَقُتِل فهو شهيد" (رواه الترمذي).

فهذا الدفع الاجتماعي الذي هو سنة من سنن الله في المجتمعات هو أداة العودة بالعلاقات -إذا هي خرجت من دائرة التمايز المشروع والطبيعي في الرابطة الجامعة إلى دائرة التناقضات العدائية والممزِّقة لجامع الأمة وتضامنها- هو أداة العودة بالعلاقات الطبقية من إطار الخلل والظلم إلى إطار التوازن والعدل؛ لتظل الأمة هي الجامعة، حاملة رسالة الإسلام: العقيدة والشريعة والحضارة. وليست الطبقة هي حاملة الرسالة البرجوازية -ورسالتها "الليبرالية-الرأسمالية"، والبروليتاريا -ورسالتها "الشمولية-الشيوعية".

علاقة الطبقة بالأمة

ثم إن هذا الموقف المتميز للمنهج الإسلامي من علاقة الطبقة بـ"الأمة"، هو الآخر مؤسس على مفهوم متميز لمعنى "الطبقة" في منهج الإسلام؛ فإذا كانت "الطبقة" هي الشريحة المتميزة اجتماعيا في إطار الشعب أو الأمة، وإذا كان هذا التعريف لها هو مما يمكن الاتفاق عليه في مختلف المذاهب والحضارات، فإن خلاف المنهج الإسلامي مع المناهج الغربية يأتي في العامل والمعيار الذي يميز هذه الشريحة فيجعلها طبقة اجتماعية متميزة عن غيرها من الطبقات.

ففي الحضارة الغربية نجد أن الوضع المادي (الاقتصادي) هو الأساس الأول والمعيار الأعظم في تمييز الطبقة اجتماعيا. وما نوع العمل في ذلك المنهج إلا سبيل لتحديد مستوى هذا الوضع المادي والاقتصادي.. أما في المنهج الإسلامي فإن معايير تمايز الطبقات

متعددة ومتنوعة، ولا تقف عند العامل المادي وحده. فنوع العمل ووظيفته في المجتمع ومكانته في الهيئة الاجتماعية يثمر تميز الطبقة اجتماعيا حتى مع غيبة التماثل المادي والاقتصادي داخلها، لأن شرف العمل أو وضاعته، وخطره أو ثانويته، تثمر رباطا يصنع ويميز الطبقة اجتماعيا عن غيرها من الطبقات، وابن الفلاح الذي ينفلت من طبقة الفلاحين مهنيا طبيبا أو مهندسا أو عالما أو رجل دولة أو قائدا عسكريا، إنما يدخل في طبقة اجتماعية جديدة تميزه اجتماعيا، حتى ولو لم يتجاوز ماديا المستوى الاقتصاديَ الذي يوجد عليه أبوه الفلاح، وحتى مع بقائه عضوا في أسرة فلاحية. فليس بالعامل المادي والاقتصادي وحده تتمايز الطبقات. كما أن هذا التمايز، لأنه في إطار الجامعة الأعظم جامعة الأمة، لا يعرف الفواصل الحادة، على النحو الذي عرفته الحضارة الغربية في العلاقات ما بين الطبقات.

مفهوم العدل في الإسلام

هكذا أقام المنهج الإسلامي ويقيم العلاقة بين الفرد والطبقة.. وبين الطبقات -في إطار الأمة- على النحو الذي يحقق فيه الكلُّ ذاتَه ورسالته، وعندما يكون التوازن والعدل والوسط هو ميدان الاجتماع والالتقاء. فإذا اختل الأمر كان الدفع الاجتماعي والجهادُ لإعادة العلاقات إلى صحتها، ونفيِ عوامل المرض وجراثيمه منها، وليس لينفي طرف من الأطراف الطرفَ الآخر حالماً بالانفراد والاستغناء. إن الاجتماع والاشتراك (الأمة) والتأليف والتساند بين الفرقاء المتميزين هو العدل.. أما الانفراد -من الفرد أو من الطبقة في السلطة السياسية أو بسلطان المال- فهو عين الظلم وذات الطغيان. وصدق الله العظيم حين يقول: ﴿كَلَّا إِنَّ الإِنْسَانَ لَيَطْغَى ۞ أَنْ رَآهُ اسْتَغْنَى﴾(العلق:٦-٧).

إن هناك حدا أدنى للعدل لابد أن يتوفر للفرد هو الإنصاف في القانون والحكم، والإنصاف في أمور المعاش. وفي كتاب عمر بن الخطاب ﷺ حول القضاء إلى أبي موسى الأشعري ﷺ، يقول: "وبحسب المسلم الضعيف من العدل أن ينصف في الحكم والقسم".(٥) هذا هو الحد الأدنى من العدل للفرد الضعيف في منهج الإسلام.

وفي العهد الذي كتبه الإمام علي بن أبي طالب ﷺ إلى واليه على مصر (الأشتر النخعي) حديث عن التمايز الطبيعي والواقعي بين طبقات الأمة، وعن واجب الدولة الإسلامية حيال هذا الواقع الطبقي، وعن السبيل لإبقاء العلاقات في درجة التوازن ولحظة العدل. يقول الإمام علي ﷺ لواليه: "واعلم أن الرعية طبقات، لا يصلح بعضها إلا ببعض، ولا غنى ببعضها عن بعض، فمنها: جنود الله، ومنها: كُتّاب العامة والخاصة، ومنها: قضاة العدل، ومنها: عمال الإنصاف والرفق، ومنها: أهل الجزية والخراج من أهل الذمة ومسلمة الناس، ومنها: التجار وأهل الصناعات. ومنها: الطبقة السفلى من ذوي الحاجة والمسكنة (أي العاجزون عن الكسب والتحصيل).. فالجنود حصون الرعية، وسبل الأمن. ثم لا قوام للجنود إلا بما يخرج الله لهم من الخراج. ثم لا قوام لهذين الصنفين إلا بالصنف الثالث من القضاة والعمال والكتاب. ولا قوام لهم جميعا إلا بالتجار وذوي الصناعات".(٦)

فالمطلوب لتحقيق العدل ليس الصراع الذي تنفي فيه طبقةٌ بقيةَ الطبقات، بزعم أن العدل مرهون بالمجتمع اللاطبقي. وإنما العدل المطلوب سبيله إقامة التوازن بين الطبقات التي تُعد وظائفُها ضروراتٍ اجتماعية تحقق للمجتمع ثمرات من الكسب المادي والفكري، والكسبِ الحافظ على المجتمع قدرته وحركته ومنعته. لأن هذه الطبقات -كما يقول الإمام علي-: "لا يصلح بعضها إلا ببعض، ولا غنى ببعضها عن بعض".

ولعل هذا التساند الطبقي، والارتفاق الذي لا غنى عنه بين الطبقات، لعله ان يكون التفسير الأدق لقول الله ﷻ: ﴿نَحْنُ قَسَمْنَا بَيْنَهُمْ مَعِيشَتَهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَرَفَعْنَا بَعْضَهُمْ فَوْقَ بَعْضٍ دَرَجَاتٍ لِيَتَّخِذَ بَعْضُهُمْ بَعْضًا سُخْرِيًّا وَرَحْمَةُ رَبِّكَ خَيْرٌ مِمَّا يَجْمَعُونَ﴾(الزخرف:٣٢). فالتمايز والتفاوت الطبقي والمحدد بأنه درجات، هدفه -وهذا هو المعنى المناسب لـ﴿سُخْرِيًّا﴾- هو التساند والارتفاق، وأن تكون كل طبقة هي للأخرى مرفق وسند وعماد. وليس المراد سخرة الاستعباد والإذلال التي هي عين الظلم الذي تَنزه اللهُ عن فعله وعن إرادته للناس. فالطبيعة وظواهرها وقواها قد سخرها الله للإنسان يرتفق بها ويستعين على عمارة الأرض وتزيينها. وكذلك التمايز الطبقي ضرورة للتساند والارتفاق، عندما تكون العلاقات الطبقية في لحظة التوازن ودرجة العدل؛ لتكون الأمة بأدائها الاجتماعي كالفريق وكالجسد الواحد، الذي وإن تكن من أعضاء متمايزة إلا أن العلاقات والروابط الصحيحة بين أعضائه المتعددة تُحقق له -بتنمية الحوافز وإثارة الهمم- أداء موحدا لجسد واحد، حتى إذا اشتكى منه عضو تداعى له سائر الأعضاء بالسهر والحمى.

ولأن هذه هي "فلسفة الإسلام الاجتماعية" وجدنا القرآن الكريم يجعل "المال" مال الله ﷻ في ذات الوقت الذي يجعله مال الناس بحكم خلافتهم فيه عن الله، فلقد قال خالقه وواهبه لخلفائه فيه: ﴿وَأَنْفِقُوا مِمَّا جَعَلَكُمْ مُسْتَخْلَفِينَ فِيهِ﴾(الحديد:٧). فجعل ملكية الرقبة الملكية الحقيقية له سبحانه، وجعل للإنسان

فيـــه ملكية المنفعة للملكية المجازية المحقّقة لمقاصد الاســـتخلاف في هذه الأموال، وذلك حتى ينفتـــح الباب -دائما وأبدا- أمام حركة الدفـــع الاجتماعي وأنصار العدل الاجتماعي كي يعيدوا أوضـــاع الامتلاك والاختصاص والحيـــازة في الأموال إلى درجة التـــوازن ولحظة العدل التي تنفي الخلـــل والظلم وتُحقق مقاصد الاســـتخلاف. فإذا غدا المال ﴿دُولَةً بَيْنَ الأَغْنِيَاءِ﴾(الحشر:٧) جاز -بل وجب- إعادة التوازن بين الفرقاء، بتأسيس التفاوت بينهم على المشروع من الأسباب والحلال من الثمرات.

وفي نطاق المستخلفين وجدنا القرآن الكريم يضيف مصطلح "المال" إلى ضمير "الجمع" في ســـبع وأربعين آيـــة ﴿أَمْوَالَكُمْ﴾ و﴿أَموَالَهُمْ﴾ وإلى ضمير الفرد في سبع آيات ﴿مَالَهُ﴾ ﴿مَالِيَهْ﴾، فلا ينفرد جانب دون الآخر بحق الاستخلاف.

ولعل في تأمـــل الآية الكريمة التي تشـــرّع لنوع العلاقة بين المستخلَف في المال وبين الله الذي استخلفه، ثم بينه وبين أصحاب الحقوق في هذا المال -وهي علاقة الواسطة والسبب بين الواهب وبين أصحاب الحقوق-.. لعل في تأمل الآية التي تشـــرّع لذلك فتقول: ﴿وَآتُوهُمْ مِنْ مَالِ اللهِ الَّذِي آتَاكُمْ﴾(النور:٣٣) ما يجســـد هـــذا المعنى الذي نلح على إبـــرازه. فالمال مال الله، وهو قد آتاه حائزة ليؤتى منه أصحاب الحقوق. فالحائز "واســـطة"، والحيازة وظيفة اجتماعية واقتصادية لمصلحة المجموع.

ثم لنتأمـــل صنيع عمر بن الخطاب ﷺ مـــع الصحابي بلال بـــن الحارث ﷺ، و"الإقطاع" الذي أقطعه إياه رســـول الله ﷺ: لقد ســـأل بلال الرسول أن يقطعه أرضا واســـعة، فأقطعها له، وكان ذلك سبيلا لإحياء الارض الموات أو زراعة الأرض التي لا صاحب لها، ولكن بلالاً حجز هذه الأرض دون أن يزرعها بحجة أنه صاحبها يفعل فيها ما يريد. لكن عمر رأى أن في ذلك إخلالا بالتوازن والعدل الذي يجب أن يحكم علاقات الملكية والحيازة في الأموال كي لا تكون دولة بين الأغنياء، يحوزون أكثر مما يطيقون ويحتاجون، بينما لا يجد الآخرون ما يحتاجون. فأراد عمر العودة بهذه العلاقة بين بلال والأرض من درجة الخلل إلى درجة التوازن والعدل، وذلك بأن تقتصر حيازتـــه على ما يطيق زراعته، وأن يعطى الزائد لمن يحييه ويســـتثمره. ولما جادل بلال في ذلك قسره عليه عمر، بل وسَـــنَّ قانونا ينظم أمر هذه الإقطاعات، ويَضمن إعادة العلاقة بالأموال -إذا هي اختلت- من درجة الظلم والخلل إلى درجة العدل والاتزان.

لنتأمل صنيع عمر هذا من خلال كلمات الحوار الذي دار عنيفا بينه وبين بلال ابن الحارث ﷺ، والذي بدأه عمر ﷺ فقال لبلال: إنك استقطعت رسول الله أرضا طويلة عريضة، فقطعها لك. وإن رسول الله ﷺ لم يكن يمنع شيئا يُسأله، وأنت لا تطيق ما في يدك.

– أجل.

– فانظر ما قويت عليه فأمسكه، وما لم تقدر عليه فادفعه إلينا نقسمه بين المسلمين.

– لا.. لا أفعل، هذا شيء أقطعنيه رسول الله.

– إن رسول الله لم يقطعك لتحتجزه عن الناس، وإنما أقطعك لتعمل، فخذ منها ما قدرت على عمارته ورُد الباقي.

– لا أفعل.

– والله لتفعلن.

وأخذ عمر من بلال ما عجز عن عمارته فقسمه بين الناس. ثم خطب الناس: "من أحيا أرضا ميتة فهي له.. ومن عطل أرضا ثلاث سنين لم يعمرها فجاء غيره فعمرها فهي له".[٧]

فنحن هنا أمام تطبيق خلّاق لفلســـفة الإسلام في استخلاف الناس في الأموال عن الله، وتحديـــد آفاق ملكيتهم وحيازتهم لها بحدود عهد الاستخلاف. وأمام تجسيد لمذهب الإسلام في الإقرار بالتمايز الاجتماعي والطبقي، مع الحرص على أن تكون علاقات المتمايزين طبقيا عند لحظة التوازن والعدل (الوسط). فإذا حدث الخلل والظلم عاد المنهج الإســـلامي بهذه العلاقات -كما صنع عمر مع بلال بن الحـــارث- إلى درجة التوازن والعدل. فهو لم يلـــغ حيازة بلال للأرض إلغاء كاملا، وإنما وقف بها عند حدود التوازن العادل. "خذ منها مـــا قدرت على عمارته، ورد الباقي إلينا نقسمه بين المسلمين".

هنا تنشأ وتصح العلاقات بين الفرد، والطبقة، والأمة، وتظل الوسطية الإســـلامية الجامعة المعيار الذي يرشّد هذه العلاقات، ويضمن لها البقاء في درجة التوازن ولحظة العدل، وصدق رسول الله ﷺ إذ يقول: "الوســـط: العدل، ﴿وَكَذَلِـــكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطًا﴾(البقرة:١٤٣)" (رواه أحمد).

(*) كاتب ومفكر إسلامي / مصر.

الهوامش

(١) الاقتصاد في الاعتقاد، للغزالي، مطبعة صبيح، القاهرة، ضمن مجموعة، بدون تاريخ.

(٢) أدب الدنيـــا والدين، للماوردي، دار الكتب المصرية، القاهرة، ١٩٧٣م، ص: ١٣٤.

(٣) أدب الدنيا والدين، ص: ٢٩٣.

(٤) وقال تعالى: ﴿وَلَوْلاَ دَفْعُ اللهِ النَّاسَ بَعْضَهُمْ بِبَعْضٍ لَهُدِّمَتْ صَوَامِعُ وَبِيَعٌ وَصَلَوَاتٌ وَمَسَاجِدُ يُذْكَرُ فِيهَا اسْـــمُ اللهِ كَثِيراً وَلَيَنْصُرَنَّ اللهُ مَنْ يَنْصُرُهُ إِنَّ اللهَ لَقَوِيٌّ عَزِيزٌ﴾(الحج:٣٩-٤٠).

(٥) تاريخ الطبري، لابن جرير الطبري، دار المعارف، القاهرة، ٤/ ٢٠٣

(٦) نهـــج البلاغـــة، للإمام علي بـــن أبي طالب، دار الشـــعب، القاهـــرة، ص: ٣٣٧.

(٧) الخراج ليحيى بن آدم طبعة القاهرة، ١٣٧٤م، ص: ٩١-٩٣؛ الأموال لأبي عبيد القاسم بن سلام، طبعة الشروق، القاهرة، ١٩٨٩، ص: ٣٨٢-٣٨٤.



منهجية الاستمداد التكاملي لمعارف الوحي

أ.د. سعيد شبار *

إن التفريق في الاستمداد بين مصادر المعرفة (نصا وعقلا وواقعا) باعتماد بعضها دون الآخر ينتج على الفور نزعات فكرية أكثر مما ينتج معرفة متكاملة. وهذا سبب من أسباب الفرقة والخلاف والنزاع بين طوائف وتيارات الفكر الإسلامي ذات النزوع النصي الحرفي، أوالعقلاني الصرف أو الدهري الواقعي جدا، ومثلها الباطني الغالي وهكذا. فالأصل في المعرفة أن تنال حظا من هدايةِ وإرشاد الوحي، وحظا من اجتهادِ ونور العقل، وحظا من حاجاتِ ونوازل العصر والواقع. تلك وَحْدها المعرفة القابلة للاستمرار والمقبولة عند ذوي العقول والفطر السليمة.

نجد العلامة النورسي رحمه الله يدافع عن هذا الاختيار التكاملي بين مصادر المعرفة، باعتباره موحّدا لفكر الأمة من جهة، ومحققا شرطَ كسبها الاجتهادي لزمانها من جهة أخرى، ومحققا لثمرات وجودها الواقعي من جهة ثالثة. يقول -رحمه الله- معبرا عن امتزاج نظره العقلي بيقينه القلبي ومشهودات الواقع الحسي: "اعلم أن عقلي قد يرافق قلبي في سيره، فيعطي القلبُ مشهوده الذوقي ليد العقل، فيبرزه العقل على عادته في صورة المبرهَن التمثيلي". لذا فهو يرى "أن أعظم سببِ سَلَب منا الراحةَ في الدنيا وحَرَمَ الأجانبَ من سعادة الآخرة وحجب شمسَ الإسلام وكَسفَها، هو سوء الفهم وتَوهُّم مناقضةِ الإسلام ومخالفته لحقائق العلوم. فيا للعجب كيف يكون العبد عدو سيده، والخادمُ خصم رئيسه، وكيف يعارض الابن والده! فالإسلام سيد العلوم ومرشدها ورئيس العلوم الحقة ووالدها".

فالإنسان -حسب النورسي رحمه الله- مزود بقدرات مهمة وإن لم تكن نهائية، وتوظيفُها بتوازنٍ في النظر والاستنباط للتحقق بواجباتٍ وتكاليفِ الدين هو المطلوب، إذ الإنسان مسؤول عن كل أجهزته وموازينه المنعَم بها عليه من فاطره، والتي تحيله على عوالمَ لا متناهية في التعرف على خالقه وعلى نفسه وعلى الكون المحيط به، كما يدل على ذلك صريح الآية ﴿إِنَّ السَّمْعَ وَالْبَصَرَ وَالْفُؤَادَ كُلُّ أُولَئِكَ كَانَ عَنْهُ مَسْئُولاً﴾(الإسراء:٣٦).

ولهذا كما كان النورسي رحمه الله مدمن النظر في آيات النص المسطور، كان كذلك في آيات الكون المنظور. وكما يقول عنه تلامذته كان دائم المطالعة والقراءة لكتاب الكون، له تعامل خاص مع سائر المخلوقات والموجودات. وكان يسألهم: "أتقرؤون كما

أقرأ؟". يقول في "الآية الكبرى": "مشاهدات سائح يسأل الكون عن خالقه" في بيان قوله تعالى: ﴿تُسَبِّحُ لَهُ السَّمَوَاتُ السَّبْعُ وَالأَرْضُ وَمَنْ فِيهِنَّ وَإِنْ مِنْ شَيْءٍ إِلاَّ يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِ وَلَكِنْ لاَ تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ إِنَّهُ كَانَ حَلِيمًا غَفُورًا﴾(الإسراء:٤٤). "إن آيات كثيرة في القرآن الكريم -أمثال هذه الآية العظمى- تَذكر في مقدمة تعريفها لخالق هذا الكون "السماواتِ" التي هي أسطع صحيفة للتوحيد، بحيث ما يتأمل فيها متأمل إلا تغمره الحيرة ويغشاه الإعجاب فيستمتع بمطالعتها بكل ذوق ولذة".

ولا يخفى أن الجمع بين القراءتين محدد منهاجي أساس في التعامل مع آيات الكتابين فهمًا واستنباطا وتعرفا واستكشافا، باعتبارها دلائل متجانسة متناسقة على الخالق سبحانه. وعلى امتداد رسائل النور نجد الشواهد حاضرة وقوية من الكتابين معا وهو ما أضفى عليها خصوصية الجدة والتفرد والإقبال الكبير.

مَلاحظ منهجية

وللنورسي رحمه الله ملاحظ منهجية كثيرة من خلال القرآن الكريم تمهد السبيل أمام هذا الضرب الجامع من القراءة، نذكر منها مسألة مهمة جدا تتعلق بهيمنة الجزئي على الكلي، والفروع على الأصول، والحاجيات على الضروريات؛ إذ بذلك تشعبت الآراء واختلفت وتمايزت وتعددت حتى لا تكاد تلمس بينها أصلا ناظما يوحدها. ومن هنا كان إلحاحه على الانتباه إلى القرآن الكريم في عرضه للأصول وللكليات الشاهدة والمسدِّدة لحركية الفروع والجزئيات الضابطة لتغيرها وتبدلها زمانا ومكانا؛ فـ"إن هناك خطرا عظيما في مزج الضروريات الدينية مع المسائل الجزئية والفرعية والخلافية وجعلها كأنها تابعة لها". ولهذا يرى أنه "لو كان قد بُيّن القرآن الكريم ضمن بيان الضروريات الدينية مباشرة، لكان الذهن ينتقل انتقالا طبيعيا إلى قدسيته ولأثارت الشوق إلى الاتباع ولنبهت الوجدان إلى الاقتداء، وعندها تنمو ملكة رهافة المشاعر لدى المخاطب بدلا من صممها أمام حوافز الإيمان وموقظاته". وعلى الكتب الفقهية في هذا السياق: "أن تكون شفافة لعرض القرآن الكريم وإظهاره، ولا تصبحَ حجابا دونه كما آلت إليه بمرور الزمان -من جراء بعض المقلدين- وعندئذ تجدها تفسيرا بين يدي القرآن وليست مصنفات قائمة بذاتها".

وهذه ملاحظة منهجية مهمة توضح أمرين أساسين:

١-كون كتب الفقه والتفسير وغيرها من الكتب الدائرة حول القرآن الكريم يجب أن تكون شفافة؛ معناه أن تنعكس فيها وعليها حقائق القرآن وخصائصه، وأن لا تحجب شيئا من ذلك فتبرز أجزاء دون أخرى. وهذا ما حدث للأسف، إذ نجد الأحكام المستنبطة من القرآن ما هي إلا جزء يسير منه، فلم يُنظر إلى كون كل آية فيه حُكم وحكمة ودلالة واعتبار وتصديق وإيمان.. ولهذا لم تتبلور أحكامُ علوم كثيرة أخرى أهمها علوم الإنسان وعلوم العمران رغم حضورهما القوي في القرآن الكريم، بل نُظر إليها وكأنها شيء آخر خارج نطاق الإيمان والأحكام بل والقرآن.

٢-الشفافية تقتضي ألا يتحول الفرع المبيِّن إلى أصل متَّبع بدل الأصل، بل ينبغي أن يكون دالا على عليه كاشفا عن مكنونه ومحيلا قارئه عليه.

يوضح النورسي منهجية القرآن الكريم أكثر في عرض هذه الحقائق التي ينبغي أن تكون دليلا مساعدا للمستنبِط والمستمد من القرآن عموما، بالشكل الذي لا يقرأ به هذا الكتاب قراءة عضين، فتبقى أصول المعرفة مهيمنة على فروعها ويبقى أصل الوحدة ضابطا لمظاهر التجزيء بقوله: "اعلم أن من مزيات القرآن إيرادَ مذكرات الوحدة خلف مباحث الكثرة، والإجمال عقيب التفصيل، وترديفَ بحث الجزئيات بدساتير الربوبية المطلقة ونواميس الصفات الكمالية العامة الشاملة، بذكر فذلكات كالنتائج والتعديلات في آخر الآيات، لأجل ألا يتغلغل ذهنُ السامع في ذلك الجزء المذكور، فينسى "عظمة مرتبة الألوهية المطلقة" حتى يخل بلوازم آداب العبودية الفكرية لذي العظمة والهيبة والكبرياء. وكذا ليبسط ذهنك من ذلك الجزئي إلى أمثاله وأشباهه. وكذا يريك القرآن بهذا الأسلوب ويفهمك أن في كل جزئي -ولو حقيرا وزائلا- سبيلا واضحا وصراطا مستقيما ومحجة بيضاء إلى معرفة سلطان الأزل والأبد وإلى شهود صلوات أسماء الأحد والصمد".

تكامل العلوم وانتظامها المنهجي في الوحي

وهذا المبحث فرع تابع للمبحث السالف لأنه بتكامل مصادر المعرفة تتكامل العلوم والمعارف، إذ لكل مصدرٍ علومٌ تنبثق عنه وتدور حوله بيانا وتوضيحا وبناءً وتأسيسا، والأصل فيها التداخل والتكامل، لوحدة الغاية والمصدر، وليس التقابل والتنافر والانحباس في دوائر خاصة لا تطل على غيرها ولا تتواصل معها. وهذا الذي حدث تاريخيا -كما ألمحنا سلفا- من حيث التأطر في المذاهب والفرق والطوائف، إنما هو من التحيزات والأفهام الخاصة التي

جعلت كل طائفة تستقل عن الأخرى دون القدرة على التكامل معها. وكان لعاملِ تصنيفِ العلوم وتمييز بعضها عن بعض -تسهيلا لتلقينهـــا والتعرف على أحكامها- أثر كذلك في هذا الانقطاع. إذ تَحــول هذا الاعتبــار المنهجي إلى واقــع موضوعي يصعب الانفكاك عنه بالممارسة والتداول التاريخي، خصوصا بين العلوم المســماة "عقلية ونقلية"، "عبادية وعادية"، "حكمة وشريعة".. وتطــور هذا التمييز ليأخذ أشــكالا أخــرى في فكرنا الحديث والمعاصر في ثنائيات من قبيــل: "حديث/قديم"، "ديني/مدني"، "شرعي/عقلي"، "أصيل/معاصر".. وكأنه لا علاقــة لأحدها بالآخر.

أدرك النورســي -رحمه الله- هــذا الواقع، ولهذا ســعى جاهدا ومجاهدا إلى الدعوة إلى بناء جامعة علــى غــرار الأزهر، يكــون لها من السمعة والإشــعاع والتكوين والتعليم في القارة الآسيوية، ما له في مصر والقارة الإفريقية. جامعة كما يقول: "تتصافح فيها العلوم النابعة من الفلســفة مع الدين، وتتصالح الحضارة الأوربية مع حقائق الإسلام مصالحة تامة، وتتفق المدارس الحديثة وتتعاون مع المدارس الشرعية". مدرســة يتم فيها "مزج العلوم الكونية الحديثة ودرجها مع العلوم الدينية؛ [فــ]ضياء القلب هو العلوم الدينية، ونور العقل هو العلوم الحديثة، فبامتزاجهما تتجلى الحقيقــة فتتربى همة الطالب وتعلو بــكلا الجناحين، وبافتراقهما يتولد التعصب في الأولى والحيل والشبهات في الثانية".

وبهذا تتكامل دوائر العلوم الحديثة وتثمر، كما يصبح محصِّلها متحققــا بالعلم والمعرفة على حقيقتها وليس بصور متوهمة منها. كما يكون التعرف على الخالــق أكمل والارتباط به أوثق، من خلال الحبال المتعددة الممدودة إلى أصل واحد، وهو قانون سنني سارٍ في الكون، مَن أخذ به قام ومن أهمله نام.

وبخصوص تكامل العلوم وإمكان استيعابها فهو يقرر من جهة "أن علوما كثيرة تتزاحم في كتاب واحد، فبسبب تعانقها وتجاوبها بإمداد بعضها بعضا وإنتاجِ بعضها بعضا يحصل تشــابك إلى حد

لا يخفى أن من أهم الحوافز المساعدة على عمق وسعة الاستمداد الإيمانُ بقدسية الكتاب وكونه بلسمًا شافيا، والإيمان بأن النظر فيه تدبرا وتفكرا تكليف شرعي كسائر التكاليف تترتب عليه جزاءات.

كبير، بحيث لا تكون نســبةُ مســائل العلم الذي ألف الكتاب فيه إلا زكاةَ محتواه". ويقرر مــن جهة أخرى أن: "من الحقائق التاريخية، أن الشــخص الواحد لا يستطيع أن يتخصص في أربعة أو خمســة من العلوم ويكون صاحب ملكة فيها"، وإنما "[يتخذ] المرء أحد العلوم أساسا وأصلا و[يــ]جعل سائر معلوماته حوضا تخزن فيه". فــ"كما لا تشــتري لوازم البيت المتنوعة من صَنَّاع واحد فقط، بل يجب مراجعة المتخصص في صنعة كل حاجة من الحاجــات، كذلك لابد من توفيق الأعمال والحركات مع ذلك القانون الشامخ بالكمالات (قانون الفطرة)، أَلاَ يشاهَد أن من انكسرت ســاعته، إذا راجع خياطا لخياطتها فلا يقابل إلا بالهزء والاستخفاف".

أكثر من هذا، نجد عند النورسي رحمه الله تفاؤلا كبيرا بخصوص هذه العودة المحمــودة إلى هذا الأصل التكاملــي، إذ يــراه انتصارا للحق وبرهانا عليه وســبيلا من ســبل عودته للظهــور. يقول: "ولما كان المهيمن هو الحــق والبرهان والعقل والشورى في خير القرون وعصور الســلف الصالح، لم يكن للشكوك والشــبهات موضع. كذلك نرى بفضل انتشار العلوم في الوقت الحاضر وهيمنتها بصورة عامة، وفي المستقبل هيمنةً تامةً إن شاء الله ﷻ، سيكون المهيمن هو الحق بدلا من القوة، والبرهان بدلا من الطبع، والهدى بدلا من الهوى"، فــ"من محاسن سلطان الفكر أن تخلصت شمس الإســلام مما كان يحجبها مــن غيوم الأوهام والخيالات. بل أخذت كل حقيقة منها بنشر نورها، حتى المتعفنين في مستنقع الإلحاد أخذوا يستفيدون من ذلك النور". و"ما جعل الإســلامَ يتجلى دوما وتنكشف حقائقه وتنبسط بنسبة انبساط أفكار البشــر، إلا تأسُّسُه على الحقيقة وتقلدُه البرهانَ ومشاورته العقلَ واعتلاؤه عرش الحقيقة ومطابقتُه دساتيرَ الحكمة المتسلسلة من الأزل إلى الأبد ومحاكاتُه لها. أفلا يشــاهَد كيف يحيل القرآن الكريم في فواتح أكثر الآيات وخواتمها البشرَ إلى مراجعة الوجدان واستشارةِ العقل بقوله تعالى: ﴿أَفَلَا يَنْظُرُونَ﴾(الغاشية:١٧)".

استثارة الجوانب المكنونة في النص

لا يخفى أن ثمة خللا كبيرا في قضية استمداد الأحكام من الوحي، إذ نُظِر إلى الأحكام من خلال دائرة ضيقة، لا تكاد تتجاوز قضايا المكلف الفرد والجماعة. ولهذا نُظر إلى آيات الأحكام منحصرة في بضع مئات على الأكثر (حوالي ٥٠٠)، أو في بضع عشرات على الأقل (حوالي ٨٠). وما تبقـى من القرآن هو للأخبار والوعظ والتذكير.. إلخ. في حين أن كل آية هي حُكْمٌ ناطق وحكمة بالغة ووعظ واعتبار وهداية وإرشاد.. سـواء كانت حكما تكليفيا مباشرا أو خبرا اعتباريا أو غير ذلك.

تبتدئ المسـألة عند النورسي باسـتعداد القارئ نفسه وقوة إرادته وعزيمته في النظر والاسـتمداد. أي أن ينظر كل في مجال اختصاصه وأهليته حيث بإمكانه الإبداع والعطاء. فعنده أنّ "ترك المستعد لما هو أهل للقيام به وتشبثَه بما ليس أهلا له، عصيانٌ كبير وخرقٌ فاضح لطاعة الشريعة الكونية (شريعة الخلقة)، إذ من شأن هذه الشريعة انتشار استعداد الإنسـان ونفوذ قابليته في الصنعة واحترام مقاييس الصنعة ومحبتها وامتثال نواميسها والتمثل بها".

توسيع دائرة الاستمداد

وفي توسيع دائرة الاستمداد والنظر في القرآن الكريم وأهلية الإنسان لاسـتثارة جوانبه المختلفة يقول: "إن في القرآن الحكيم حوادث جزئية، لكن وراء كل حادث يكمن دسـتور كلي عظيم، وإنما تذكر تلك الحوادث لأنه طرف من قانون عام شامل كلي وجزء منه. فالآية الكريمة ﴿وَعَلَّمَ آدَمَ الْأَسْمَاءَ كُلَّهَا﴾(البقرة:٣١) تبين أن الأسماء معجزة من معجزات سيدنا آدم عليه السلام تجاه الملائكة إظهارا لاستعداده للخلافة. وهي وإن كانت حادثة جزئية إلا أنها طَرَف لدستور كلي وهو: أن تعليم الإنسان -المالك لاستعداد جامع- علوما كثيرة لا تحد، وفنونا كثيرة لا تحصى، حتى تستغرق أنواع الكائنـات، فضلا عن تعليمه المعارف الكثيرة الشـاملة لصفات الخالق الكريم سبحانه وشؤونه الحكيمة.. إن هذا التعليم هو الذي أهّل الإنسان لينال أفضليةً، ليس على الملائكة وحدهم، بل أيضا على السموات والأرض والجبال في حمل الأمانة الكبرى".

فالنظـر إلى القرآن إذن نظر كلي مسـتوعب وإن تعددت الجزئيات، يطول كلَّ الكائنات ويستوعبها، يؤسس لكل العلوم ويرشـدها، يعرّف بالخالق ويُظهر جليلَ وجميلَ صنعته. يضيف في هذا الاتجاه موضّحا: "أن في كل مصنوع وجهين: وجه ينظر إلى ذاتـه وصفاته الذاتية، ووجه ينظـر إلى صانعه وإلى ما تجلى إليه من أسماء فاطره. والوجه الثاني أوسـع مجالا وأكمل مآلا، إذ إن كل حرف من كتاب يدل على نفسـه بمقدار حرف وبوجه واحد، ويدل على كاتبه بوجـوه كثيرة، ويعرف كاتبه ويصفه للناظـر بمقدار كلمات كثيرة.. كذلـك إن كل مصنوع الذي هو حرف من كتاب القدرة، يدل على وجوده ونفسـه بمقدار جرمه وبوجه واحد هو وجوده الصوري. لكن يدل على نقّاشه الأزلي بوجوه متنوعة كثيرة، وينشد من أسمائه المتجلية على ذلك المصنوع بمقدار قصيدة طويلة (...) فمن هذا السـر تَرى كتب الفلاسفة أحكمَ فيما يعود إلى الكائنات في أنفسها، مع أنها أوهن من بيت العنكبوت فيما يعود إليها بالنسـبة إلى صانعها. وكلام المتكلمين مثلا لا ينظر إلى المسـائل الفلسفية والعلوم الكونية إلا بالمعنى الحرفي التبعي والاستطرادي للاستدلال فقط".

فالقرآن الكريم عند النورسـي "خطاب إلهي شـامل لجميع طبقـات الجن والإنس ولـكل العصور والأحـوال والظروف كافة". و"ذكرُ القرآن لبعض الغايات الراجعة إلى الإنسـان إنما هو للإخطار لا للانحصـار، أي لتوجيه نظره إلى الدقة في فوائد نظام ذلك الشـيء ذي الغاية في انتظامه الدال على أسماء صانعه، إذ الإنسـان إنما يهتم بمـا له علاقة ما به، فيرجّـح ذرة ما إليه على شمس ليسـت إليه؛ مثلا في قوله تعـالى: ﴿وَالْقَمَرَ قَدَّرْنَاهُ مَنَازِلَ﴾(يس:٣٩)، ﴿هُوَ الَّذِي جَعَلَ الشَّـمْسَ ضِيَاءً وَالْقَمَرَ نُورًا وَقَدَّرَهُ مَنَازِلَ لِتَعْلَمُوا عَدَدَ السِّنِينَ وَالْحِسَابَ﴾(يونس:٥)، هذه غاية من ألـوف غايات تقدير القمر وليس المـراد الانحصار. أي إنما خلق ذلك لهذا. بل إن هذا هو المشـهود لكم من ثمرات ذلك".

فالقرآن المجيد إذن معطاء عطـاءً غير مجذوذ، لا يخلق على كثـرة الرد ولا تنقضـي عجائبه، يحيل الجزء منـه على الكل، والكل على الجزء في علاقة نسـقية بديعة. وإنما يتطرق القصور والإهمال من جهة نسـبيةِ ومحدوديةِ النظر الإنسـانيّ، خصوصا إذا عمـد هذا الناظر إلى وضع سـياجات وحدود حول النص لا تسـمح بأن يفهم منه إلا ما فهمـه هو. فبدلَ أن يبقى النص رسـالة مفتوحة للعالمين تسـتوعب الزمان والمـكان، تتحول بأفهام قاصرة إلى دوائر مغلقـة لا تكاد تعبر عن آراء طائفة من الناس. وقد كان النورسـي -رحمه الله- شديد النكير على هذا الصنف من المضيّقين واسـعا والمعترضين على غيرهم بما فهموه.

كما يُرجع النورسـي هذا الإهمال لشمول الأحكام في الفقه إلى الاهتمام بالقضايا الفرعية والخلافية وترك الأركان والكليات التي هي الأعمدة والأصـول. وهو تنبيه منه -رحمه الله- إلى أن

الرجوع إلى العزة والمنعـــة، ومقوماتِ النهضة والتوحد في الأمة، إنما يكون بالاستمساك بالأصول والأركان وجَعْلها مدارَ حركة الإنسان والعمران، بدلَ الإيغال في الفروع والجزئيات غيرِ المنضبطة إلى ضابط أصل يستوعبها ويرشد حركتها. فالجزئية الشاردة عن مجموعتها كالجندي الشارد عن فريقه، كلاهما خارج نظام العمل الجماعي النسقي المتكامل.

يلفت النورسي كذلك النظر إلى مسألةٍ غاية في الأهمية بخصوص علاقة الإنسان بالقرآن وهي قدسية هذا الكتاب الحاملةُ على الانقياد له، فــ"الذي يســوق جمهــور الناس إلى الاتبــاع وامتثالِ الأوامر هو ما يتحلى به المصدر من قدســية، هذه القدســية هي التي تدفع جمهــور الناس إلى الانقيــاد أكثر من قوة البرهــان ومتانة الحجة".

خلاصة

نخلص مما تقدم إلى أن منهج الاســتمداد مــن الوحي منهج تتكامل وتتداخل فيه عناصر متعددة، على رأســها التزود بالعلوم المساعدة، وعلى رأسها -كما قال الشاطبي مختصرا من غير تطويل- العلم باللغة العربية وبمقاصد الشــريعة، لكنه يحتاج مــع ذلك إلى إخلاص ونية وتجرد، وإقبال بمشكلات وهموم التماسا لحلولها، وبحث عن المكنون وامتداداته. كما لا يخفى أن من أهم الحوافز المساعدة على عمق وسعة الاستمدادِ الإيمانُ بقدسية الكتاب وكونه بلسما شافيا، والإيمان بأن النظر فيه تدبرا وتفكرا تكليف شــرعي كسائر التكاليف تترتب عليه جزاءات. ففي القرآن الكريم معالمُ منهاج استمدادي متكامل هو الذي درجت عليه السنة النبوية في بيانها، وكان عليه الصدر الأول. لكن ما جاء بعد من تراكم في العلوم والمعارف الدائرة حول هذا الأصل، وإن شــكلت إبداعا متفردا للأمة بين سائر الأمم، فإنها -أو جانب منها على الأقل- شــكّل عوائق وموانع حالت دون استمرار الاستمداد على منهاج القرآن والســنة. وهذا الذي حاولنا فيما تقدم الكشف عن بعض جوانبه، باعتبارها مشكلات تحتاج إلى مراجعة وإعادة بناء. ســواء تعلق الأمر بمصادر المعرفة في تكاملها، أو تكاملِ دوائر العلوم وإمســاكِ بعضها ببعض وارتباطها بالأصــل، بما يحقق أصل الوحدة والتوحد على مســتوى الفكر والثقافة ويدرأ آفة الجزئية والتجزيء فيهما، التي طالــت واقع الأمة الاجتماعي والسياســي كذلك. ■

(*) جامعة السلطان مولاي سليمان، كلية الآداب، بني ملال / المغرب.

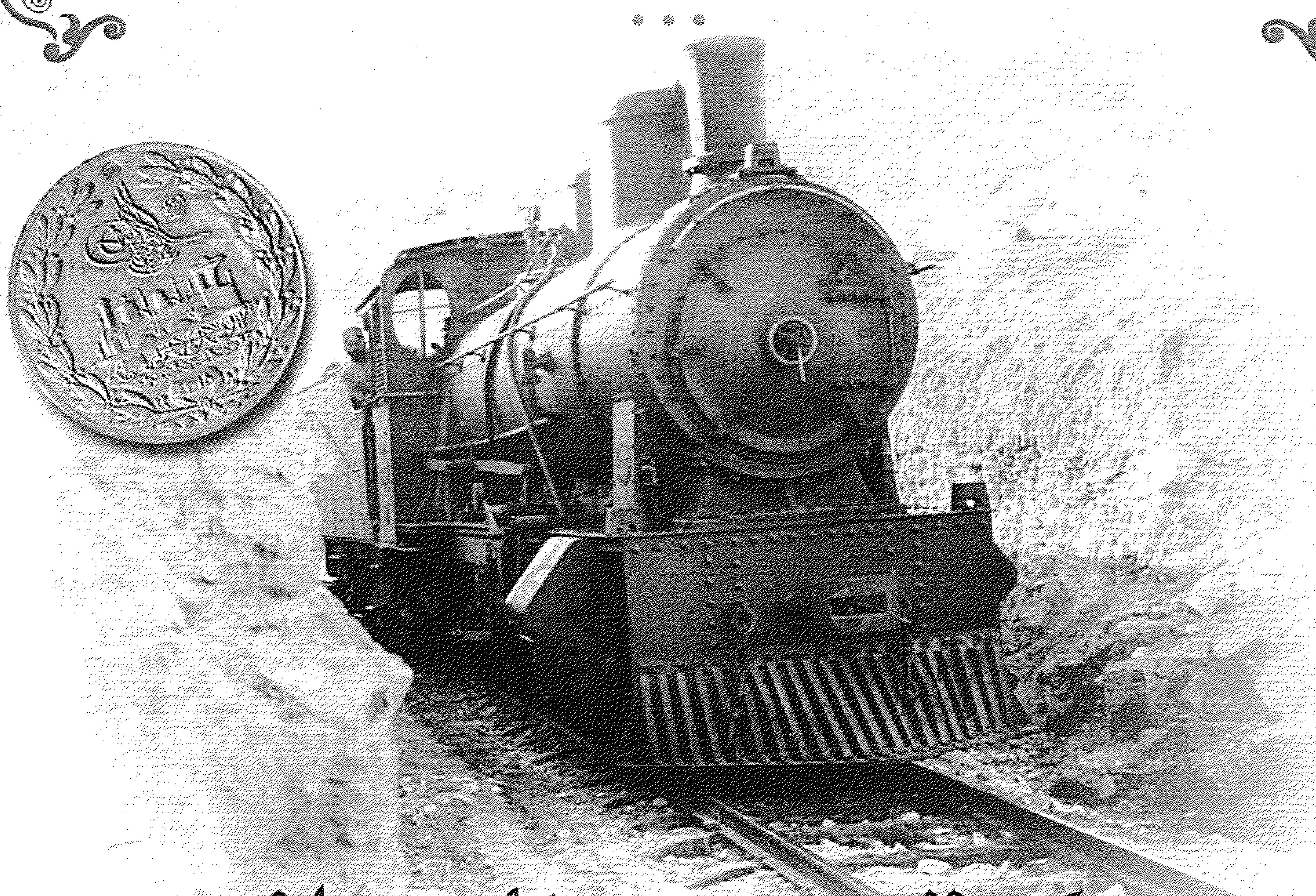
المصادر

(١) كليات رسائل النور، لبديع سعيد النورسي. ترجمة: إحسان قاسم الصالحي، الأجزاء: ١- الكلمات، ٤- الشــعاعات، ٦- المثنوي العربي النوري، ٨- صيقل الإسلام، ٩- سيرة ذاتية.



الايمان وجيب قلب، وهزة جنان، وعقيدة في تلافيف دماغ، وإقرار باللسان، ومعرفة بالله وقرآنه، ورسوله وسنته... مرآته العبادات، على الجوارح تنعكس، وفي الضمائر تستقر...

* * *



سكة حديد الحجاز

صالح كولن *

قبل قرن كامل مضى، وبالتحديد عام ١٩٠٨م، كانت القطارات البخارية تنطلق من محطة قطار "حيدر باشا" بإسطنبول إلى المدينة المنورة، معلنة أن حلماً صعب المنال قد أضحى حقيقة تدركها الأبصار والأسماع.

فقد كان الأول من سبتمبر عام ١٩٠٨م، هو يوم اكتمال خط حديد الحجاز وانطلاق رحلته الأولى بعد ثمانية أعوام من عمل شاق متواصل أسفر عن خط سكة حديدية تجاوز طوله ١٤٠٠ كم. فاستحال به خريف عام ١٩٠٨م -مع ما فيه من الأزمات والمشكلات- مسرحا تزاحمت فيه آمال المسلمين وطموحاتهم في شتى ربوع الأرض مستبشرين ببعث جديد. وأضحى حلم مشاهدة سحب الدخان الكثيفة وهي تنبعث من القطار البخاري المنطلق من إسطنبول إلى الأراضي الحجازية، حقيقة قد تجسدت على أرض الواقع بعد أن كان ضربا من الخيال.

فكرة المشروع

عُرف خط حديد الحجاز في السجلات العثمانية باسم "خط شمندفر الحجاز"، أو "خط حديد الحجاز الحميدي"، وامتد بين الشام (دمشق) والمدينة المنورة. حيث ينطلق الخط من الشام ماراً بعمّان ومعان ثم بتبوك ومدائن صالح وصولا إلى المدينة المنورة. وكان في خطة المشروع الحجازي أن يمتد بعد ذلك إلى مكة المكرمة ومن هناك إلى جدة، بيد أن أياً من ذلك لم يتحقق.

وإن تكن فكرة إنشاء الخط الحجازي قد طُرحت أول ما طُرحت في عهد السلطان عبد العزيز، إلا أنها تحققت في عهد السلطان عبد الحميد الثاني. ولما كانت جهود السلطان عبد الحميد الثاني منصبة على العمل من أجل إيقاف تمزق الدولة العثمانية وانهيارها أو تعطيله على الأقل، فقد أخذ على عاتقه إنجاز مشروع الخط الحجازي.

أوكل السلطان عبد الحميد الثاني مهمة تنفيذ هذا المشروع العملاق لـ"أحمد عزت باشا العابد" والمعروف في التاريخ باسم "عزت باشا العربي". ويتضمن المشروع، إنشاء خط سكة حديد الحجاز ليربط بين خط سكة حديد الأناضول وخط سكة حديد بغداد، وكذلك تأسيس شبكة اتصال تلغرافية بمحاذاة ذلك الخط الحديدي؛ حيث كان السلطان عبد الحميد الثاني يؤمن بأن هذا سيحقق له سهولة وسرعة في عمليات الاتصال والمتابعة بين مركز الدولة العثمانية وولاياتها في الشام والحجاز.

البواعث والأهداف

ثمة مجموعة من البواعث والأهداف دفعت السلطان عبد الحميد الثاني لإنشاء الخط الحجازي والشبكة التلغرافية. وتنوعت هذه الأهداف بين دينية وعسكرية واقتصادية وحضارية وسياسية. ويأتي الهدف الديني في مقدمة هذه الأهداف، حيث استهدف مشروع الخط الحجازي خدمة حجاج بيت الله الحرام من خلال توفير وسيلة سفر يتوفر فيها الأمن والسرعة والراحة، وحماية الحجاج من غارات البدو ومخاطر الصحراء التي كانوا يتعرضون لها في الطريق البري ومن هجمات القراصنة في الطريق البحري، إضافة إلى توفير إمكانات وفرص أكبر للراغبين في أداء فريضة الحج نتيجة انخفاض تكلفة الحج الذي سيحققها ذلك المشروع، مما سيزيد من عدد حجاج بيت الله الحرام.

ويحتل الهدف العسكري مكانة متميزة بين أهداف الخط الحجازي، إذ كان يستهدف تسهيل التحركات العسكرية وحشد الجيوش بُغية التصدي لأية هجمات خارجية قد تتعرض لها مناطق الحجاز والبحر الأحمر واليمن، وإحكام السيطرة على البقاع الجغرافية ذات التوتر السياسي الدائم. وبهذه الكيفية تشعر المنطقة بقوة الإدارة المركزية للدولة العثمانية.

أما الهدف التجاري فتمثل في إنعاش الاقتصاد الراكد بالمنطقة من خلال تحقيق نهضة تجارية واقتصادية لمدن الحجاز وكافة المدن الواقعة على امتداد الخط، وإحداث عملية رواج للمنتجات التجارية والزراعية من خلال نقلها نقلاً سريعا بالقطار إلى المناطق الأخرى، بل وكان من المخطط له مد الخط الحديدي تجاه أحد موانئ البحر الأحمر؛ ما يؤدي إلى زيادة الأهمية الاقتصادية والتجارية للخط زيادة واضحة. وبهذه الكيفية كانت طرق التجارة ستنتقل من قناة السويس إلى خط حديد الحجاز.

ومع إنجاز هذا المشروع العملاق بتمويل وكوادر عثمانية، كان سيثبت للدول التي تطمع إلى تفريق الدولة العثمانية وتريد التهامها وعلى رأسها الدول الأوربية، أن ثمة منجزات حضارية عظيمة يمكن للعثمانيين تحقيقها دون الحاجة إلى اللجوء إليها.

وكان للسلطان عبد الحميد الثاني أهدافٌ سياسية مهمة وراء إنشاء الخط الحجازي. إذ اعتقد بأن إنجاز هذا المشروع يعني تحقيق قدر من الاستقلالية للدولة العثمانية عن أوربا، عسكريا وسياسيا واقتصاديا وتقنيا. فالسلطان عبد الحميد الثاني والذي عُرف بتميزه عن سابقيه بحرصه على بقاء الخلافة العثمانية وحمايته لها، كان يبذل ما بوسعه بُغية توحيد صفوف المسلمين وتشكيل "اتحاد إسلامي" لمواجهة الأطماع الأوربية الاستعمارية وهجماتها الغاشمة على الدولة العثمانية، إضافة إلى دعمه لحركة "الجامعة الإسلامية" التي دعت إلى تكتيل جميع المسلمين داخل الدولة العثمانية والمناطق المختلفة من العالم خلف راية الخلافة العثمانية. ولعل خط حديد الحجاز يعتبر من أروع إنجازات السلطان عبد الحميد الثاني الرامية إلى الحفاظ على وحدة أراضي الدولة العثمانية.

الإنشاء والتنفيذ

يتحدث السلطان عبد الحميد الثاني عن الخط الحجازي في مذكراته بقوله: "أخيراً تحقق الخط الحجازي؛ ذلك الحلم الذي طالما راود مخيلتي. فذلك الخط الحديدي لم يكن فقط مصدرا اقتصاديا للدولة العثمانية، بل كان في الآن ذاته يمثل مصدراً بالغ الأهمية من الناحية العسكرية من شأنه تعزيز قدرتنا العسكرية على امتداده".

وقد أصدرت الإدارة السلطانية الخاصة قراراً بالبدء في إنشاء خط حديد الحجاز في الثاني من مايو عام ١٩٠٠م، وفي الأول من سبتمبر عام ١٩٠٠م، والذي يوافق العام الخامس والعشرين لجلوس السلطان عبد الحميد الثاني على عرش الدولة العثمانية، تم تدشين العمل في خط الحديد بين الشام ودرعا في احتفال رسمي مهيب.

ووصل خط الحجاز إلى عمّان عام ١٩٠٣م، وإلى معان عام ١٩٠٤م. وفي الأول من سبتمبر عام ١٩٠٥م اكتملت المرحلة الأولى من خط الحجاز، وانطلقت أولى رحلات القطار بين الشام ومعان لنقل الركاب والبضائع.

وفي الأول من سبتمبر ١٩٠٦م وصل الخط إلى مدائن صالح، ثم في ٣١ أغسطس ١٩٠٨م وصل إلى المدينة المنورة. وخلال الثمانية أعوام التي جرى فيها تنفيذ خط الحجاز وصل طول الخط إلى ١٤٦٤ كم. ومع إضافة الخطوط الفرعية الأخرى في المراحل اللاحقة بلغ طول الخط ١٩٠٠ كم عام ١٩١٨م.

وكان الجيش العثماني هو المصدر الرئيسي للقوة العاملة في



إنشـــاء خط حديد الحجاز. وســـاهم أيضاً في إنشاء هذا الخط عمـــال توافدوا من مناطق جغرافية مختلفة من العالم الإســـلامي في مقدمتها ســـوريا والعراق. ولما كانـــت أعداد أولئك العمال الوافديـــن محدودة، فقد تحمل الجنود العثمانيين معظم أعباء ذلك المشروع. وكان الجنود يتقاضون أجوراً ضئيلة خلال فترة عملهم في المشروع، في مقابل السماح لهم بالانتهاء من الخدمة العسكرية قبل عام من موعدها المحدد.

تولى منصب كبير مهندسي الأعمال الفنية، مهندس ألماني يُدعى "مايسنر باشا"، وعمل تحت قيادته أربعة وثلاثون مهندسا، سبعة عشر منهم عثمانيون والآخرون كان معظمهم من الألمان، بالإضافة إلى مهندســـين من إيطاليا وفرنسا والنمســـا وبلجيكا واليونان.

وبعد وصول الخط الحديدي إلى محطـــة مدائن صالح أصبح الجزء المتبقي من الخط داخل حيـــز المنطقة الحرام. ولما كان من المحظور شرعاً دخول غير المسلمين إلى هذه المنطقة، فقد جرى إنشـــاء الخط الواقع بين مدائن صالح والمدينة المنورة كله بأيدي مهندسين وعمال مسلمين.

ومع تقدم العمل في المشروع ازدادت خبرة العثمانيين، وعليه قلت أعداد المهندسين الأجانب في المراحل المتقدمة منه أمام أعداد المهندســـين المسلمين التي كانت تزداد يوما بعد يوم. ومن ثم تميز خط حديد الحجاز بوصفه مشروعا عمل فيه الكثير من المهندسين المسلمين، قياسا بخط حديد الأناضول وخط حديد بغداد.

تضحيات بطولية

استغرق إنشاء الخط الرئيسي لطريق الحجاز ثمانية أعوام، وعمل فيه نحو خمســـة آلاف عامل معظمهم مـــن الأتراك وبعضهم من العرب وبعضهم من أجناس مســـلمة أخرى. ولا شـــك أن قيام الجنود العثمانيين بالعمل في هذا المشـــروع قد خفض كثيراً من النفقـــات. وهو ما يأتي في مقدمة العوامـــل المهمة في إنجاز هذا الخـــط الحديدي. كما كان لتدين الجنود العثمانيين وحبهم للنبي ﷺ دوره البالـــغ في إنجاز هـــذا العمل في فترة تُعد قصيرة، حيث قاموا بشق الطرق عبر الفيافي والقفار والجداول والوديان. ولعل الفضل في إنشـــاء هذا الخط الحديدي يرجع إلى أولئك الشجعان البواسل الذين قدموا من الأناضول لإنشاء وتركيب تلك الخطوط الحديدية في صحاري شبه الجزيرة العربية.

وإذ يقوم أولئك البواســـل بنصب قضبان السكك الحديدية وأعمدتها وتشـــييد محطاته، كانوا ينصبون أيضاً الشواهد لقبور شـــهدائهم؛ حيث استشهد خلال إنشـــاء خط السكة الحديدية الكثير من الجنود العثمانيين، إما عطشاً تحت نيران الشمس الحارقة بسبب نقص المياه، وإما من سوء التغذية، فضلاً عمن استشهدوا بســـبب حوادث العمل أو غارات البدو. ولقد انتشرت شواهد قبور هؤلاء الشـــهداء العثمانيين البواسل على امتداد خط السكة الحديدية حـــتى المدينة المنورة جنباً إلى جنب مع محطات القطار. وإن تكن آثار وبقايا هذا الخـــط الحديدي لا تزال موجودة إلى اليوم، فإن قبور معظم أولئك البواسل وأسماءهم قد طوتها صفحة النســـيان و لم يعد لها وجود. فيكفـــي أن نعلم أن عام ١٩٠٨م وحده قد شهد أكثر من ١٢٦ غارة من غارات البدو على خط حديد الحجاز، فضلاً عن مشـــكلات نقص المياه وظهور بعض الأمراض وتدخلات الدول الأجنبية.. وهو ما يعطي لنا مؤشـــراً مهماً لفهم أسباب البطء في تنفيذ المشروع.

الموقف الأوربي

تلقت أوربا الإعلان عن الخط الحجازي بدهشة بالغة، واعتبرت إقدام الدولة العثمانية على مشـــروع مثل هذا ضرباً من الخيال، حيث كانـــت الدولة العثمانية آنذاك في وضع اقتصادي متدهور أوشكت فيه على الإفلاس بســـبب ديونها الخارجية والداخلية؛ حتى أن بعض الصحف الأوربية آنذاك قد تطاولت عبر صفحاتها

على المشروع والسلطان عبد الحميد الثاني بالاستهزاء والسخرية، وخصصت لذلك أخباراً مطولة ورسوما كاريكاتيرية بذيئة.

ومع التقدم في إنشاء الخط وإظهار القائمين عليه لتضحيات كبيرة، أخذت الدول الأوربية تضع العراقيل للحيلولة دون إكمال العثمانيين لهذا المشروع. وكانت بريطانيا وفرنسا في مقدمة هذه الدول. فأسرعت تلك الدول ولا سيما بريطانيا للحيلولة دون مساندة الشعوب التي تخضع للاستعمار البريطاني لهذا المشروع، حيث قامت بنشر الشائعات بين المسلمين الهنود الذين يقومون بالتبرع لإقامة الخط الحجازي، وأطلقت شائعات مثل أن "التبرعات لا تُستخدم في إنشاء الخط الحجازي". بيد أن هذه المحاولات قد باءت بالفشل التام، واستمر المسلمون الهنود في جمع التبرعات وإرسالها إلى الدولة العثمانية. كما حظر الاستعمار البريطاني على مسلمي الهند تعليق "وسام خط حديد الحجاز" الذي يُمنح لكبار المتبرعين.

وقد سعت بريطانيا إلى استعمال شتى الطرق من أجل انسحاب العثمانيين من الأراضي المقدسة بعد الحرب العالمية الأولى. ومما يلفت النظر هنا أن تعطيل خط حديد الحجاز كان أول ما قامت به بريطانيا بعد انسحاب العثمانيين من مكة والمدينة المنورة؛ إذ كانت تنظر إلى الخلافة العثمانية باعتبارها التهديد الأكبر ضد طموحاتها الإمبريالية في الشرق الأوسط والشرق الأقصى، ومن ثم فقد شعرت بارتياح شديد بعد أن قامت بقطع الروابط بين الأناضول وشبه الجزيرة العربية من خلال تعطيل الخط الحجازي. أما فرنسا فقد سعت لفرض القيود والعقبات أمام إنشاء خط حديد الحجاز من خلال الموانئ التابعة لإدارتها؛ حيث فرضت ضرائب جمركية باهظة على مستلزمات خط الحديد، وعطلتها داخل الموانئ فترات طويلة.

وإن تكن كل هذه العقبات قد أبطأت من معدل إنجاز الخط، إلا أنها لم تستطع أبداً إيقاف عجلة التقدم نحو الانتهاء من تنفيذ المشروع. واكتمل خط حديد الحجاز رافعاً راية العصيان والتحدي في وجه الاستعمار الأوربي، ومعلناً أن قلب "الرجل المريض" لا يزال ينبض بالحياة.

المصادر المالية

كان فترة سلطنة السلطان عبد الحميد الثاني من أصعب فترات الدولة العثمانية من الناحية الاقتصادية. ولم يأل السلطان عبد الحميد جهداً من أجل سداد الديون الخارجية الضخمة التي ورثها عن أسلافه. ورغم أنه قد اضطر للحصول على قروض خارجية ضئيلة في بعض الأوقات، إلا أن ما قام بسداده كان يفوق بكثير ما اقترضه. وكان يدرك أن الديون الخارجية تزعزع هيمنة الدولة، والديون الداخلية تزعزع سلطتها. ومن ثم لم يفكر في الحصول على أي قروض خارجية لتمويل إنشاء خط حديد الحجاز.

وكانت التبرعات -وللمرة الأولى في تاريخ الدولة العثمانية- هي المصدر الأول لتمويل هذا المشروع الضخم. فكان تمويل خط حديد الحجاز من تبرعات المسلمين في شتى أنحاء العالم دون أن تشوبه أي مساهمة من الدول الأجنبية على النقيض من خطي سكة حديد الأناضول وبغداد اللذين أقيما بتمويل أجنبي.

وكانت الدولة العثمانية قد خصصت ١٨٪ من ميزانيتها لإنشاء هذا الخط، بيد أن تلك النسبة اعتُبرت ضئيلة للغاية عندما تم الإعلان عن أن إنشاء الخط سيتكلف نحو ثمانية مليون ليرة عثمانية. ومن ثم برز الاحتياج الشديد للأموال اللازمة لتنفيذ المشروع. ذلك المشروع الذي اعتبره المسلمون بمثابة "مسألة عزة وكرامة" أمام أوروبا. وأراد السلطان عبد الحميد أن يجنب دولته المزيد من الاستدانة، وأن يكون تمويل المشروع الحجازي بأموال إسلامية تماماً. فوجه نداءً إلى العالم الإسلامي من أجل التبرع للمشروع، ليدشن بذلك حملة تبرعات قلّ أن نجد لها نظيراً في تاريخ العالم.

وبدأت حملة التبرعات الأولى في مايو عام ١٩٠٠م، بأن تبرع السلطان عبد الحميد الثاني من جيبه الخاص بخمسين ألف ليرة عثمانية، ودعا المسلمين كافة للمشاركة في هذه الحملة، سواءً كانوا ممن يعيشون في الأراضي العثمانية أو في غيرها. ومن بعد السلطان تبرع الباشاوات العثمانيون، ثم أقبل موظفو الدولة والتجار والبائعون والجنود والشعب على المشاركة في هذا التنافس الخيري. ولقي نداء السلطان عبد الحميد استجابة تلقائية وفورية بين كافة المسلمين في شتى بقاع العالم، حيث اقتطع المسلمون من أقواتهم ومدخراتهم للمساهمة في تمويل الخط الحجازي.

بل إن دولة ذات صراع تاريخي مع الدولة العثمانية مثل إيران قد جمعت أيضاً مقداراً من التبرعات -وإن كان ضئيلاً- وأرسلته إلى إسطنبول. وانهالت التبرعات التي جاءت من مناطق مترامية الأطراف مثل الهند وأفغانستان، ومن دول أخرى مثل الجزائر والسودان وتونس وليبيا وإندونيسيا وماليزيا. وتدفقت التبرعات من كافة أرجاء العالم؛ فجاءت التبرعات من الشعوب التركية في آسيا الوسطى، ومن مسلمي أوربا وأفريقيا وأمريكا. وذلك رغم كل المحاولات التي قامت بها الدول الأوربية لصرف

هذه الشعوب المسلمة عن هذا المشروع وإقناعهم بعدم جديته. وأصبحت التبرعات التي تم جمعها من الضخامة ما تكفي لإنشاء ثلث الخط الحجازي.

وحرصت الدولة العثمانية على تكريم المتبرعين من خلال منحهم نياشين وأوسمة مصنوعة من الذهب والفضة تخليداً لذكرى الخط الحجازي. وإضافة إلى ما تم جمعه من تبرعات، فقد اضطرت الدولة العثمانية إلى الاقتطاع الإجباري من مرتبات موظفي الدولة من أجل الإسهام في إنشاء الخط. وجدير بالذكر هنا أننا لا نكاد نجد شكوى واحدة من أولئك الموظفين بسبب هذا الاقتطاع الإجباري من رواتبهم. وهو ما يُعد إشارة واضحة على أن الأمة التي تلتف حول هدف واحد، قادرة على التضحية بكل غالٍ ونفيس في سبيل تحقيق ذلك الهدف. وتاريخ الأتراك في الفترات اللاحقة يشهد على أحداث مشابهة لتلك التضحيات، تجلت فيها هذه الروح والفكرة والعقدية دون أن يعتريها خلل أو عطب.

كما حرصت الدولة أيضاً على اقتطاع جزء من دخلها العام لتمويل المشروع الحجازي، فأصدرت طوابع تمغات متعددة الفئات المالية في كافة دوائرها الحكومية والبيروقراطية، وجمعت جلود الأضاحي وباعتها وحملت عائداتها إلى ميزانية المشروع. إضافة إلى أن نظام البدء الفوري في تشغيل رحلات الركاب والبضائع في الأجزاء التي اكتملت من الخط الحديدي، كانت مصدراً آخر من مصادر التمويل.

ورغم الانتهاء من إنشاء المشروع الحجازي، وانسحاب العثمانيين من المنطقة مع حلول عام ١٩١٨م، وتخريب الخط ونسف جسوره وانتزاع قضبانه مع نشوب الثورة، إلا أن التبرعات لم تتوقف وظلت تتدفق من مختلف أنحاء العالم. ولا ريب أن هذه الهمة العالية والتنافس في فعل الخيرات قد أظهر للعالم كله مدى عمق الأخوة الإسلامية وقوتها ورحابتها.

حركة القطار

في الأول من سبتمبر عام ١٩٠٨م والموافق للعام الثاني والثلاثين من جلوس السلطان عبد الحميد الثاني على عرش الدولة العثمانية، قام بافتتاح خط حديد الحجاز وسط مراسم رسمية مهيبة. وكانت قبل ذلك "لجنة خط حديد الحجاز" قد قامت نيابة عن السلطان بافتتاح المحطات الممتدة على خط سكة الحديد في احتفالات رسمية أيضاً.

وكان لغير المسلمين أيضاً الحق في استخدام المحطات البينية الموجودة على خط حديد الحجاز، غير أنه لم يكن من المسموح لهم الوصول بالقطار إلى المدينة المنورة، وكان للخط دور في نقل الأموال. وأسدى قطار الحجاز خدمات جليلة لحجاج بيت الله الحرام، واستُخدم أيضاً في بعض الأغراض العسكرية مثل نقل الجنود من منطقة إلى أخرى. كما قام القطار بنقل البضائع بين المناطق المختلفة، وهو ما أحدث انتعاشة في الحياة الاقتصادية والتجارية.

وتحددت أوقات تحرك القطارات وفقاً لمواقيت الصلاة. فكانت القطارات تتحرك على نحو لا يخل بأوقات الصلاة. فإذا ما دخل وقت الصلاة توقف القطار وتوجه الركاب لأداء الصلاة في العربة المخصصة لذلك.

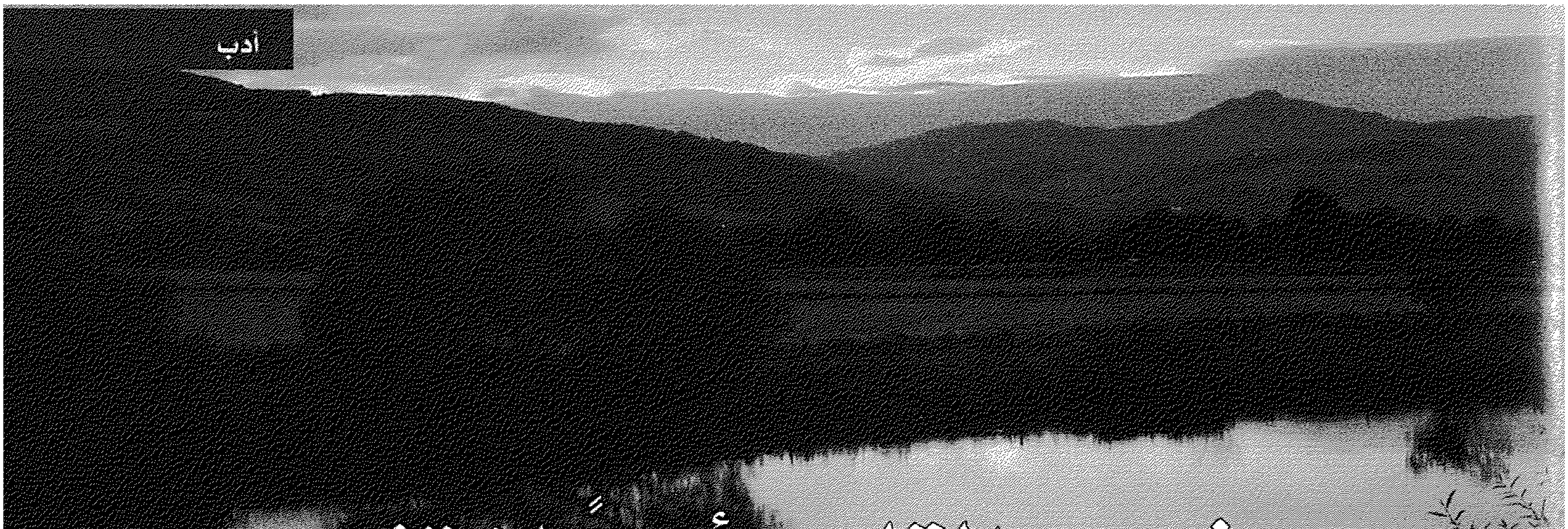
الدلالة الدينية

قد تكون نظرتنا قاصرة إذا نظرنا إلى البعد الديني للخط الحجازي في نقله للحجاج فحسب. فالقطار الحجازي كان يؤدي في الوقت ذاته مهمة عريقة، ويحافظ على تقليد يضرب بجذوره في التاريخ وهو إرسال "الصرة السلطانية" إلى الحجاز. وكان السلاطين العثمانيون كلهم تقريباً يقومون بتجهيز قدر كبير من الأموال عُرف بـ"الصرة السلطانية" وإرسالها إلى الحجاز. وهو تقليد يرجع بجذوره إلى العباسيين ثم إلى العثمانيين اعتباراً من السلطان العثماني "يلديرم بايزيد".

وكانت "الصرة السلطانية" قديما تبدأ رحلتها في بداية كل ثلاثة أشهر عبر الطريق البري. وعرفت الطريق البحري مع استخدام السفن البخارية منذ عام ١٨٦٤م، ثم أصبح لها مكانها الخاص في القطار الحجازي بعد عام ١٩٠٨م. وكانت أموال "الصرة السلطانية" مخصصة للإنفاق على كافة الخدمات في مكة المكرمة والمدينة المنورة، مثل شؤون الإعمار والإصلاح وغيرهما، ودفع رواتب العاملين هناك. كما كانت أيضاً مصدراً من مصادر توفير الراحة وتيسير مناسك الحج لزوار بيت الله الحرام. إضافة إلى أن القطار الحجازي قد وفر لوفد "الصرة السلطانية" رحلة سريعة ومريحة وآمنة.

وأخيرًا وبهذه المناسبة نتوجه بخالص العرفان بالفضل والدعاء بالرحمة لأولئك الذين عملوا على إنشاء خط سكة حديدية الحجاز، وأولئك الذين سقطوا شهداء خلال أداء واجبهم فيه، وأولئك الذين اقتطعوا من أقواتهم ومدخراتهم للمساهمة فيه، وأولئك الذين بذلوا النفس والنفيس بكل تجرد وإخلاص لذلك المشروع. ■

(*) كاتب وباحث تركي. الترجمة عن التركية: د. طارق عبد الجليل.



شمس القلوب أبداً لا تغيب

السنوسي محمد السنوسي*

مع نسمات الصباح وجلال الغروب يحلو للمسلم أن يرطب فؤاده بأذكار الصباح والمساء. يستفتح يومه بميلاد فجر جديد فينطلق لسانه بالذكر، وجوارحه بالصلاة والتسبيح رجاءَ أنْ يكون يومه خيرًا من أمسه، وشاهداً له لا عليه.

إن المسلم حين يلهج لسانه بذكر الله صباحاً ومساءً، فإنه بذلك يقرّ لله بالربوبية ويشهد له بالعبودية، وينضم لقافلة المسبّحين في أرجاء الكون الفسيح.. من الشجر والحجر والطير والدوّاب: ﴿تُسَبِّحُ لَهُ السَّمَوَاتُ السَّبْعُ وَالأَرْضُ وَمَنْ فِيهِنَّ وَإِنْ مِنْ شَيْءٍ إِلاَّ يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِ وَلَكِنْ لاَ تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ إِنَّهُ كَانَ حَلِيمًا غَفُورًا﴾(الإسراء:٤٤).

ثم حين يذهب إلى السوق أو عمله، فهو صورة صادقة لما يحمل من منهج، وما يعتنق من مبادئ.. فلا غشّ ولا كذب، بل صدق ووفاء وحسن خلق وأمانة.. يتوكل على الله.. يأكل من رزق الله، وينفق فيما أحل الله.. وبين الحين والحين يدلف للمسجد.. يجدد إيمانه ويضاعف نشاطه ويلتمس في جنباته زاد الحياة ورحيقها.

إن ذكر الله -عند طلوع الشمس وغروبها- يُشعر المرءَ دائماً بلحظات الميلاد والموت، البدء والانتهاء، للكون واليوم والإنسان والحياة.. وضرورة أن يكون البدء والانتهاء وما بينهما لله، وبالله، ومن الله.. فهو سبحانه خالق الحياة، ومبتدئ الأشياء، وإليه المرجع والمآب ﴿قُلْ إِنَّ صَلاَتِي وَنُسُكِي وَمَحْيَايَ وَمَمَاتِي لِلهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ ۞ لاَ شَرِيكَ لَهُ وَبِذَلِكَ أُمِرْتُ وَأَنَا أَوَّلُ الْمُسْلِمِينَ﴾ (الأنعام:١٦٢-١٦٣).

مَنْ حافظ على أذكار الصبح والمساء كانت له نوراً وبرهاناً في الدنيا والآخرة، وفرّج الله همّه وأذهب عنه حزنه وسدّ دينه ورزقه من حيث لا يحتسب.. وفوق ذلك، جعله من الذاكرين والذاكرات الذين أعدَّ الله لهم مغفرةً وأجراً عظيماً.

وما يزال المؤمن بأذكاره يتقلب في روضة من رياض الجنة، يشم رائحتها الزاكية، ويقطف من ثمارها اليانعة، ويركن إلى ظلها الوارف، وينعم بمعيّة الله؛ فهو لا ينفك في أحواله -وإنْ اختلفت أو تقلبت- ذاكراً شاكراً صابراً محتسباً.. فهو مع الله، والله معه، وهذا ما يومئ إليه الحديث القدسي: "أنا جليس من ذكرني".

فإذا أحب الله عبدًا، ألهمه شكره وشغله بذكره آناء الليل وأطراف النهار.. ولعمري، إن هذا التوفيق من الله نعمة تستحق الشكر، وجزاءٌ -على الذكر- كفى به جزاءً.. ينبهنا ابنُ عطاءِ الله السكندري بحسٍّ مرهف إلى هذا المعنى اللطيف فيقول: "كفى من جزائه إياك على الطاعة، أنْ رضيك لها أهلاً؛ كفى العاملين جزاءً، ما هو فاتحُه على قلوبهم في طاعته، وما هو مورِدُه عليهم من وجودِ مؤانسته".

ولذلك، كان ذكر الله نوراً تستضيء به القلوب ويغمر الجوارح، فيسكب عليها سكينة وطمأنينة وخشوعاً.. ولئن غابت الشمس فأظلم الكون بغيابها، وافتقر الناس إلى وجودها.. فإن ذكر الله "شمس القلوب" لا يغيب بحال عن المؤمن، وهو ينير قلبه ما تحركت به شفتاه، وسكنت جوارحه لأمر ربها:

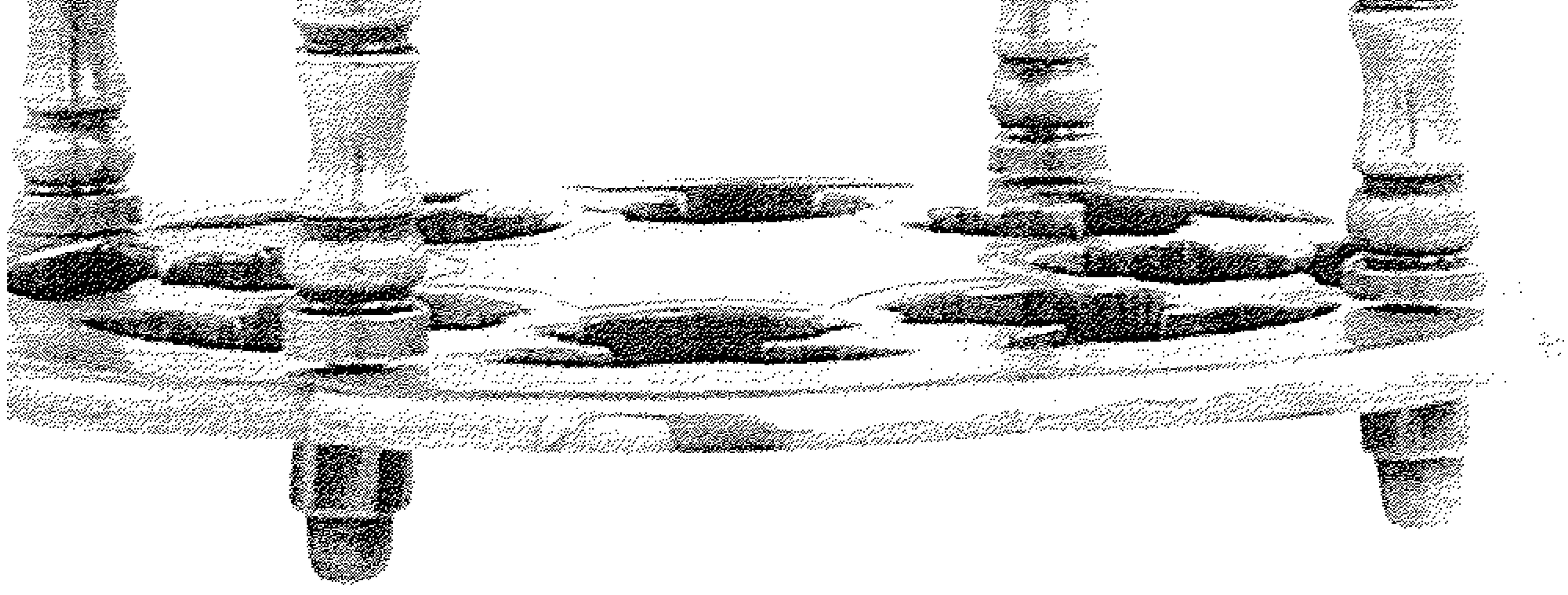
إنَّ شمسَ النَّهارِ تَغْـرُبُ باللَّيْـ
ـلِ، وشمسُ القلوبِ ليستْ تَغيبُ. ■

(*) كاتب مصري.



البيروني
رائد علم الجيولوجيا

أ.د. بركات محمد مراد *



ازدهرت الحياة العقلية والروحية في عصر البيروني ازدهارا بالغا. فكان انطلاق مفكري الإسلام وعلمائه في كل ساحات الفكر وميادين العقل غير عابئين بالعراقيل والتقاليد القديمة بعد أن أعطاهم الإسلام حرية فكرية خصبة، وحرر عقولهم من كل قيد إلا قيد الحقيقة والتزام الصدق والموضوعية. وبعد أن ترجموا كل ما ورثوه عن الحضارات الهندية والفارسية واليونانية، أخذوا يعملون عقولهم في كل ما ترجموه ونقلوه بعد أن مزجوه بالروح الإسلامي. فجاءت كتاباهم ومؤلفاهم دليل خصب على حضارهم وتميزها عن كل ما جمعوه من السابقين، وتمثلوه من الحضارات المعاصرة لهم، فأثبتوا بذلك أنهم واسطة العقد في حضارات الإنسانية.

ومن هنا أقبل العلماء المسلمون على التأليف والكتابة في مختلف فروع المعرفة العلمية، حيث تكلموا في التطور، وإن نسب إلى "دارون" في القرن التاسع عشر. وتحدثوا في الجاذبية بين السرعة والثقل والمسافة وإن نسب كل ذلك إلى "نيوتن" دون سواه، وقد ثبت أن "الخازن" وغيره كتبوا في ذلك قبل نيوتن بمئات السنين. وتحدثوا في أثر البيئة على الأحياء قبل "لامارك". كما شرح ابن النفيس الدورة الدموية الصغرى قبل "هارفي" ببضعة قرون. وكذلك الحال في طبيعة الضوء وسرعته وانكساره، والذي أثبته ابن الهيثم في مؤلفاته قبل علماء أوربا. كذلك قاسوا محيط الأرض وسجلوا الاعتدالين، وقدروا حجم الكواكب وما بينها من مسافات قبل "جاليليو" و"كبلر" و"كوبرنيق"، وأضافوا إلى المعارف الفلكية الشيء الكثير، وهذا واضح عند علماء من أمثال البيروني والبتاني والفرغاني والكندي والخوارزمي والصوفي وغيرهم..

العلماء المسلمين ومناهج البحث العلمي

ويرجع كل ذلك إلى استلهام علماء المسلمين لروح حضارهم التجريبية والتي خالفت الروح اليونانية. يقول "جورج سارتون" أعظم مؤرخي العلم في القرن العشرين في اعتراف بفضل المسلمين على رواد المنهج العلمي الحديث: "عند نهاية القرن الثالث عشر، استعدت عقول بعض أعاظم حكماء العالم النصراني، منهم "ألبرت الكبير" و"روجر بيكون" و"ريمون لال" إلى الاعتراف بتفوق الثقافة الإسلامية، وربما كانت المأثرة الأساسية التي تمخض

عنها الجهد في العصور الوسطى هي تربيب الروح التجريبية. وترجع هذه المأثرة بديا إلى جهد المسلمين حتى آخر القرن الثاني عشر ثم انتحلها النصارى".

هذه الروح التجريبية والتي تمثل "المنهج" تجسدت في "الاستقراء" (Induction) الذي أصبح حجر الزاوية في "المنهج العلمي" الحديث. ومن هنا فلم تعد قضية العلم عندهم قضية تأمل فلسفي أو استدلال منطقي ينطلق منهجيا من فكرة الاتساق الداخلي ويعتمد على قانون الهوية، ولكنها أصبحت قضية ملاحظة نشطة ومشاهدة واقعية وتجارب تجرى على مختلف الظواهر الجزئية، تعتمد على قوانين العلية وتستقرأ المواد الطبيعية والكونية فتصل إلى التفسير العلمي الصحيح.

البيروني، العالم الطبيعي الموسوعي

وقد كان البيروني أنموذجا لذلك العالم التجريبي المسلم، الذي يعتمد الملاحظة والمشاهدة العلمية أساسا منهجيا ويتوسل بالاستقراء طريقا إلى معرفة قوانين الطبيعة ونواميس الكون. وتؤكد مؤلفاته المتنوعة ذلك، حيث كتب في كثير من العلوم الطبيعية، وبحث في مختلف الظواهر الكونية. فنجد مؤلفه "الصيدنة في الطب" يؤسس به علم الأدوية والعقاقير أو الفارماكولجي، ونجده في كتابه "الجماهر في معرفة الجواهر" يؤسس لعلم المعادن والبلورات ويحدد الأوزان النوعية لكثير من الجواهر والأحجار والمعادن، ونجده في كتابيه "القانون المسعودي" و"الآثار الباقية" يؤسس لكل من الرياضيات الفلكية وعلم الجيولوجيا والطبقات الرسوبية. وكما كان مؤسسا لعلم مقارنة الأديان ومنهج البحث العلمي التاريخي بكتابه "تحقيق ما للهند من مقولة مقبولة في العقل أو مرذولة" نجده يؤسس بكتبه "تحديد نهايات الأماكن" و"إفراد المقال" و"التفهيم لأوائل التنجيم" لعلم المساحة أو الجيودسيا. ويتمكن بوضعه لقانون رياضي فلكي من قياس محيط الأرض.

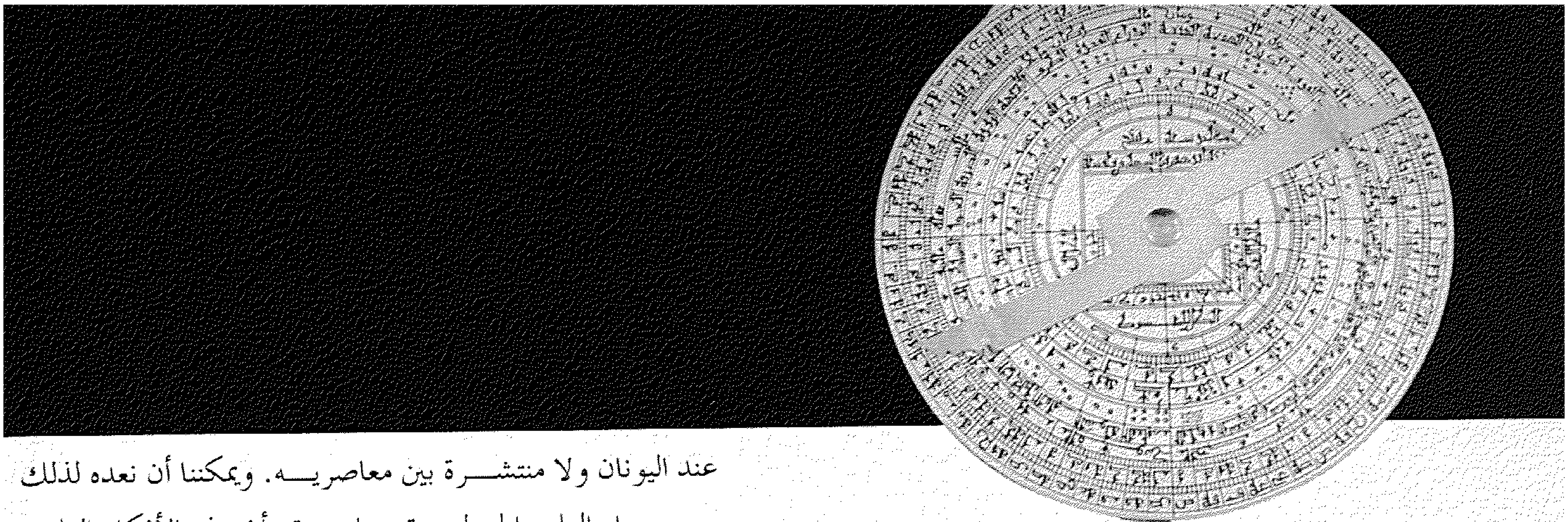
وأتيحت للبيروني، إضافة إلى علاقاته الشخصية مع العديد من الباحثين والحكماء المسلمين والنصارى والهندوس المعاصرين له، فرصة الاطلاع على العديد من النصوص العلمية اليونانية والبابلية والمانوية والزرادشتية القديمة. وفي الحقيقة لا يمكن النظر على كتاب "القانون المسعودي" على أنه مرجع للفلك الإسلامي فقط، بل هو مصدر أيضا لكثير من العلوم اليونانية والكلدانية القديمة التي لم يعثر على نصوصها الأصلية. ثم إن البيروني كان قد قرأ أيضا عددا لا بأس به من الملفات التي لها علاقة "بالفلسفة الطبيعية" والتاريخ إلى جانب معرفته الكاملة بالنصوص الفلكية-الرياضية كالمجسطي والعناصر ومختلف أشكال السند هند وغيرها من المصادر الهندوسية الأخرى. وتضمن كتاب "الجماهر في معرفة الجواهر" الذي هو من أكثر المصادر الإسلامية شمولية في تناوله لعلم المعادن، أسماء علماء مسلمين مثل الكندي والجاحظ ومحمد زكريا الرازي وجابر بن حيان، وأسماء شخصيات أدبية وتاريخية وجغرافية مثل نصر بن يعقوب الدينوري وأبي العباس العماني، إضافة إلى أسماء مؤلفين يونان مثل أرسطو، وأرخميدس، وأبولونيوس، وديسكوريدس، وبلوتارخوس، وجالينوس، وبولس ديمقرايطس، وأفلاطون، وهير فليدس، وديوجينيس.

ويستشهد البيروني أيضا بالشعر العربي-الإسلامي والجاهلي- وبالمصادر الفارسية والهندية والسريانية والإسكندرية. وهو كثيراما يورد في كتاب"الجماهر" وغيره من المؤلفات نصوصا من الكتب المقدسة كالعهدين القديم والجديد والأفيستا والقرآن الكريم الذي كان -بالطبع- على معرفة كاملة به. وبالجملة، لم يدع البيروني علما من علوم عصره فيما خلا عددا ضئيلا منها إلا وتعرض له ودرسه. غير أنه وبسبب صدف الترجمة، لم يكن معروفا في الغرب اللاتيني أو لم يكن له ذات التأثير الذي كان لمعاصره ابن سينا. يقول الباحث سيد حسن نصر: "فقد بقي البيروني سيد علوم الفلك والنجوم والجغرافية والرياضيات في العالم الإسلامي بلا منازع".

جيولوجي العصور الوسطى

إذا كان علم الجيولوجيا هو العلم الذي يبحث في الأرض من حيث نشأتها وهيأتها وتركيبها وما يحيطها وما يظهر عليها من أنواع الحياة وما أثر فيها من عوامل، فقد جاءت علوم الأرض الحديثة في أوربا امتدادا لإسهامات المسلمين في هذا الحقل. وهو ما يظهر واضحا عند ليونارد دافنشي، وجوهان شذلر، ونيكولاس ومسينو، وروبرت هول، الذين اهتموا بتقسيم الصخور إلى طبقات لها معنى زمنيا، ووضعوا نظريات لتفسير نشأتها وتكونها. ولم تكن علوم الأرض أو الجيولوجيا منفصلة عند البيروني عن العلوم الطبيعية الأخرى كالفلك والجغرافيا والفيزياء، بل كانت مرتبطة بها، يتناولها خلال دراساته لتلك العلوم. لأن علم الجيولوجيا لم يتميز عن بقية هذه العلوم إلا حديثا.

وقد احتوت مؤلفات البيروني العلمية أبحاثا عميقة حول موضوع تكون القشرة الأرضية، وما طرأ على اليابسة والماء من



تطورات خلال الأزمنة والأحقاب الجيولوجية المتطاولة. وكانت له نظريات في قدم الأرض وغيرها، وما اعتراها من ثورات وبراكين وزلازل وعوامل تعرية غيرت من وجهها الطبيعي على مر العصور. وهذه النظريات وتلك الآراء لم تكن معلومة في عصره أو سائدة في زمانه، وهي مما يُعد اليوم من دعائم علم الجيولوجيا.

وقد أشار البيروني في كتابه "الجماهر في معرفة الجواهر" إلى أن "الحصاة قد ينحتها جريان الماء"، وتناول بالشرح والتحليل لتقطع الجبال بالجرفات وإسالة السيول إلى السفوح. كما أشار إلى تكون السهول الرسوبية وضرب لها أمثلة بأرض مصر وبراري السودان، وأنها كانت بحرا ثم انحسر عنها البحر، حيث قال: "وبراري السودان كلها، فإنها في الأصل من حمولات السيول المنحدرة من جبال القمر والجبال الجنوبية عليه منكبسة كانكباس أرض مصر بعد أن كانت بحرا، وتلك الجبال مذهبة وشديدة الشهوق".

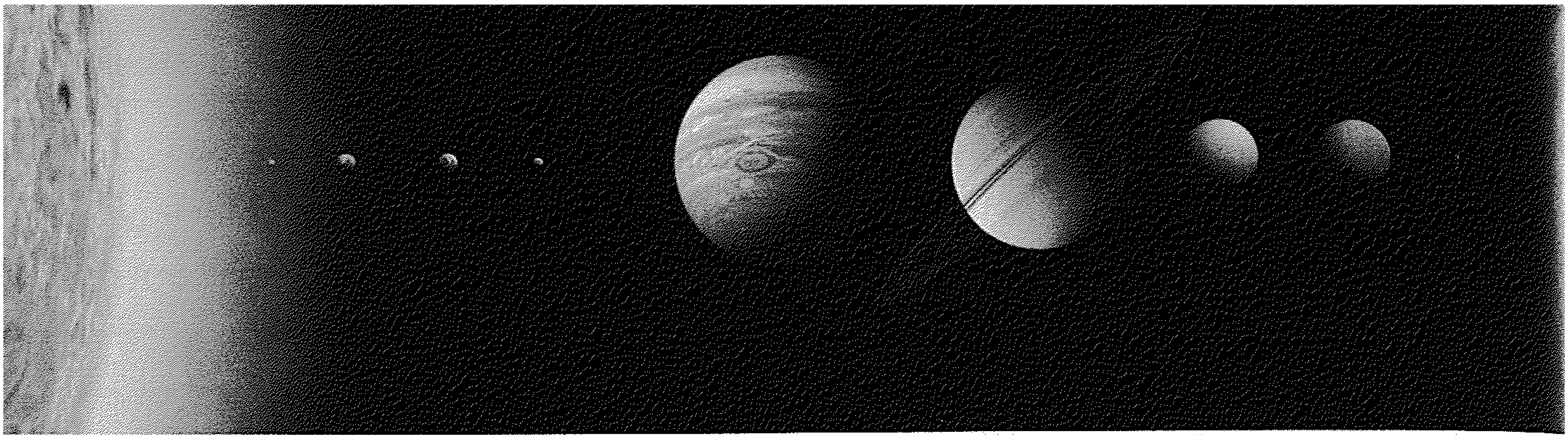
وقد سمى البيروني ظاهرة الترسب وانحسار ماء البحر "انكباسا" كما مر. وقد عدد أحد الباحثين المتخصصين في الجيولوجيا، العلوم التي تحتويها أبحاث البيروني الجيولوجية فشملت "علم التضاريس" و"علم الطبقات" و"كيمياء الأرض" و"المعادن والبللورات" و"الجيولوجيا التاريخية".

نظريات البيروني الجيولوجية

للبيروني نظريات في علم الطبقات والأزمان الجيولوجية، أو ما يطلقون عليه حديثا "علم الطبقات" (Stratigraphy) و"علم الأحافير" (Paleontology) و"الجيولوجيا التاريخية" (Historical Geology). وتقترب نظرياته في هذه العلوم من النظريات الحديثة، حيث إن له آراء صائبة حول موضوع تكوين القشرة الأرضية، وما طرأ على اليابسة والماء من تطورات وتغيرات خلال الأزمنة والأحقاب الجيولوجية المختلفة. ولم تكن هذه النظريات معروفة عند اليونان ولا منتشرة بين معاصريه. ويمكننا أن نعده لذلك من رواد العلوم الجيولوجية، خاصة وأن هذه الأفكار العلمية الصائبة لم تنتشر في أوربا وتأخذ طريقها إلى أبحاث علماء النهضة كليونارد دافنشي وأمثاله إلا بعد وفاة البيروني بعدة قرون.

في كتابه "تحديد نهايات الأماكن" يقول البيروني عن ظاهرات تلك الرسوبيات التي تكونت خلال العصور الجيولوجية الطويلة: "ولا نعلم من أحوالها إلا ما يُشاهد من الآثار التي تحتاج في حصولها إلى مدد طويلة وإن تناهت في الطرفين، كالجبال الشامخة المتركبة من الرضراض الملس المختلفة الألوان المؤتلفة بالطين والرمل المتحجرين عليها". ثم يشرح لنا بتفسير علمي دقيق العملية الجيولوجية التي تكونت عبرها تلك الرسوبيات، مركّزا تفسيره على عوامل التعرية التي هي المؤثر الرئيس في تلك التكوينات التي تشكل على مر العصور البيئة الجغرافية للأرض. وهي عمليات الانصداع والانصدام وجريان الماء الذي يسببه تحرك الرياح واحتكاكها، وقوة إذابة الماء وجريانه، وهي العوامل الأساسية في التعرية.

ثم يفسر لنا البيروني التراكمات الرسوبية التي تتكون على مر العصور تفسيرا علميا قريبا مما نعلمه الآن من علم الرسوبيات (Sedimentalogy) من خلال كتابه السابق، ويشرح لنا بوضوح، أن تلك العمليات الجيولوجية تحتاج إلى أزمان طويلة جدا، كما أن كيفية تكونها ترجع في أساسها إلى تأثير الجاذبية من باطن الأرض على المكونات الخارجية للغلاف في القشرة الأرضية. ولا ينسى أن يبين تأثير التكوينات الرسوبية على عمارة الأرض أو ظهور الصحاري وما يعرف الآن بانجراف التربة وتصحر الأراضي الخصبة، مما يؤدي إلى سيطرة الصحراء وطغيانها على العمران والتربة الزراعية. كما يقدم لنا البيروني تفسيرا علميا دقيقا لتلك الظواهر الجيولوجية التي تنتاب القشرة الأرضية، ويعطي تعليلا صحيحا لتكون البحار والبحيرات وظهورها واختفاؤها. وهذا يظهر واضحا في تفسيره لأصل سهل الهندستان وتكونه.



وهو تفسير علمي دقيق في نظر علماء الغرب، حيث يتصل بعلم التضاريس أو الجيومورفولوجيا، حيث كان في مكان هذا السهل -في نظر البيروني- قاع بحر، ثم اخذت تتخلف فيه رواسب طمى حتى سوت منه سهلا.

كما يتناول البيروني ظاهرة الهوابط والصواعد ورواسب ماء البحر، حين يتناول تلك الرسوبيات المعدنية التي يجدها في مناطق انحسر عنها الماء، وبقيت فيها الرواسب معدنية متحجرة حلت محل الرواسب العضوية للكائنات البحرية. كما يحدثنا في كتابه "الصيدنة في الطب" عن أصل تحجر المعادن والتي كانت في نشأتها سائلة، ثم تجمـدت حين يتحدث عن حجر "الدهنج" الذي أكثر ما يكون وجوده في معادن النحاس، كما يكون الزبرجد في معادن الذهب.

الثورات الجيولوجية

والبيروني كثيرا ما يتحدث عـن الثورات الجيولوجية التي تنتاب القشرة الأرضية، وما كانت تفعله فيها من التواءات وارتفاعات وانخفاضـات، كونت سلاسـل الجبال، أو حفـرت فجوات البحـيرات، كما في بحـيرات الأردن وبحـيرات مصر. ويذكر البيروني كثيرا في مؤلفاتـه حقائق علم الجيولوجيا ونظرياته فيما يخص تكون الحفريات للكائنات الحية، سواء حفظ الكائن بجميع أجزائه، كحفريات النمل والبعوض وبعض الحشرات والحشائش الـتي توجد متحجرة ومحفوظة في مادة الكهرمان، أو تكون بقايا الأجزاء الصلبة الهيكلية فقط كأصداف المرجان وعظام الحيوانات، أو تفنى مادة الحيوان الأصلي وتستبدل مادتها بمادة معدنية أخرى، أو تكـون الحفرية أثرا لبقايا الكائن الحي في الصخور التي يعيش فيها، وعندما تتصلب تحتفظ بهذه الآثار.

أما ما يخص شـرح عمليات التحفر بالتحجر (Petrifaction) والتحفر بالاسـتبدال المعدني، فنجد للبيروني إشارات كثيرة إلى أصول هذا العلم، حين يتحدث عـن الأحجار الكريمة كالبلور الـذي كان في أصله سـائلا ثم تحجر لاحتـواء كثير من مواده رواسب الخشب والحشـيش المخالفة لطبيعة ذلك المعدن نفسه. وما يذكره البيروني هنا هو تفسير علمي صحيح لا تخلو منه كتب الجيولوجيا في العصر الحديث.

ويبني البيروني دراسـته للتغيرات الجيولوجية على ما حفظته طبقـات الصخر من سـجلات. فهو كثيرا مـا يكتب حول التغيرات البطيئة للأحوال التي حفظـت الصخور وآثارها. ولا نعلم من أحوالها إلا ما يشـاهد من الآثار التي يحتاج في حصولها إلى مدد طويلة وإن تناهت في الطرفين كالجبال الشـامخة المتركبة من الرضراض الملـس المختلفة الألوان المؤتلفـة بالطين والرمل المتحجرين عليها. وكل تلـك الأحوال بالضرورة ذوات أزمان مديدة غير مضبوطة الكمية.

ونظرا لدقة التغيرات، فقد تمكن خلال أسـفاره المتعددة من مشاهدة عدة مناطق ذات تراكيب جيولوجية مختلفة. كما أدرك التغيرات الهائلة التي حدثت قبل خلق الإنسان وبعده وحتى الآن. حتى إنه لاحظ وجود طبقات التوائية مزاحة في بعض الجبال. وقد عزى ذلك إلى حركات باطنيـة اندفاعية حديثة. وهناك الكثير من مثل هذه الملاحظات المثيرة للاهتمـام، إحداها تدور حول اكتشافه للمسـتحاثات التي يعرفها -مثل إخوان الصفاء- بأنها بقايا حيوانات بحرية عاشـت فيما مضى في الموضع الذي تحول الآن إلى يابسـة. وكما يخبرنا عن ذلك: "وعلى مثله ينتقل البحر إلى البر والبر إلى البحـر في أزمنة، إن كانت قبل كون الناس في العالم فغير معلومة، وكانت بعده فغير محفوظة لأن الأخبار تنقطع إذا طال عليها الأمر وخاصة في الأشـياء الكائنة جزءً بعد جزء وبحيث لا يفطن لها إلا الخواص".

فهـذه بادية العرب وقد كانت بحـرا فانكبس حتى أن آثار ذلك ظاهرة عند حفر الآبار والحياض فإنها تبدي أطباقا من تراب ورمال ورضـراض، ثم يوجد فيها من الخزف والزجاج والفطام مـا يمتنع أن يحمل على دفن ذلك قاصـدا إياها هناك، بل يخرج منها أحجار إذا كسرت كانت مشتملة على أصداف وودع وما

يسمى بآذان السمك إما بقايا على حالها، وإما بالية قد تلاشت وبقي مكانها خلاء متشكلا بشكلها. كما يوجد بباب الأبواب على ساحل الخزر، ثم لا يذكر لذلك وقت معلوم ولا تاريخ البتة.

ومن الملاحظات المتميزة للبيروني تلك التي تتعلق بتحديده لطبيعة سهل الغانج في الهند حيث اكتشف أن هذا السهل هو من النوع الرسوبي. وبالرغم من تأكيده على الطبيعة التدريجية للعوامل المؤثرة في سطح الأرض، فإن البيروني يؤمن، مثل معظم علماء العصور الوسطى، بالجوائح التي تصيب الأرض من وقت لآخر. وناقش البيروني علاقة هذه الجوائح بتواتر التاريخ العام وقيام الدول وسقوطها فكتب يقول: "إن الآفات التي تنبتاها (أي الأرض) من فوق ومن تحت مختلفة في الكيفية وفي الكمية، وأنه ربما غشيها منها ما يفرط في إحداها أو كليهما، فلا ينفع معه حيلة ولا عنه مهرب واحتراس، فيأتي عليها ذلك كالطوفان المغرقة والرواجف المهلكة بالخسف أو التغريق والتحريق بما يفور منها من المياه أو يرمي به من الصخور المحماة والرماد، ثم الصواعق والهدات والعواصف، ثم الأوبئة والأمراض والموتان وما أشبه ذلك.. فإذا خلت بقعة عريضة عن أمتها ثم انتعشت بعد هلكتها عند انكشاف تلك الآفة عنها اجتمع إليها قوم متفرقون، كأمثال الوحوش المعتصمين قبل ذلك بالمخابئ ورؤوس الجبال، وتمدنوا متعاونين على الخصم، سواء كانوا من السباع أو كان من الأنس ومساعدين بعضهم بعضا على تزجية العيش في أمن وسرور إلى أن يكثروا فينغص التنافس المرفوف عليهم بجناحي الغضب والحسد طيبة عيشهم". وهكذا يمكننا استنتاج بأن هناك ترابطا وثيقا بين واقع المجتمع الإنساني وبين المحيط الكوني يشبه إلى حد كبير الترابط القائم بين الإنسان والعالم.

وتقود مناقشة الأمور الجيولوجية بشكل طبيعي إلى دراسة التقسيمات الجغرافية للأرض. وما تقسيم العالم إلى سبعة أقاليم الوارد ذكره في القرآن الكريم والمعروف عند كل من اليونان والفرس في فترة ما قبل الإسلام، إلا انعكاس لصورة الأفلاك السماوية السبعة على الأرض. و لم يكن ذلك اعتباطا بل عبر على الأصح عن حقيقة كونية معينة، مثله في ذلك مثل جميع جوانب الجغرافية المقدسة، ولا يختلف البيروني أحد أعظم جغرافي الإسلام، عن الكثير من معاصريه في تبنيه التقسيم السباعي للأقاليم. وقد اتبع في مصطلحاته التقسيم الفارسي القديم للعالم.

وفي سؤاله الرابع الذي وجهه إلى ابن سينا حول الطبيعيات، يقدم البيروني سؤالا حير الجيولوجيين المحدثين تماما، كما حير العديد من مؤرخي العصور الوسطى الطبيعيين. والسؤال هو "لماذا ذلك الربع من الأرض هو مكان الزراعة والعمران بينما يبقي الربع الشمالي الآخر، وكذلك الربعين الجنوبيين غير مأهولة. بالرغم من أن القوانين الفلكية للربعين الجنوبيين تماثل تلك التي للربعين الشماليين؟". غير أنه يقر بوجود تناسق في تصميم العالم، إذ نراه يقول أنه "من الممكن، لا بل من المرجح، أن كل زوج من أرباع الأرض يشكلان وحدة متماسكة ومتصلة أحدهما، هو القارة، والآخر هو المحيط". وقد أورد في كتابه "تحديد نهايات الأماكن" مخططا جمع فيه جغرافية العالم التي عرفها مسلمو العصور الوسطي في شكل واحد معقول.

يقول "إيرو بوب" إن من المستحيل أن يكتمل أي بحث في تاريخ علم المعادن (Mineralogy) دون الإقرار بمساهمة البيروني العظيمة، خاصة وأن البيروني سيتمكن من معرفة الوزن النوعي لعدد كبير من المعادن بدرجة عظيمة من الدقة، وقد أثبت معرفته التجريبية والعلمية في هذين الكتابين، أي كتب "الجماهر في معرفة الجواهر"، ورسالته في المعادن.

إيمانه بقوانين الطبيعة المطردة

ولا ننسى إيمان البيروني -وهو العالم الطبيعي الدقيق- بقوانين الطبيعة المطردة. فقد كان يؤمن إيمانا عميقا بوجود قوانين طبيعية ثابتة، قد بثها الله تعالى في الكون وجعل الخليقة تسير بمقتضاها وهي مسخرة في ذلك دائما لا تتخلف. وهو ما يتضح مثلا في قوله: "العلل التي ليست بأجسام كالأشياء التي يسميها الفلاسفة "الطبيعة" و"العقل" و"العلة الأولى" لا تنقل النظام إلى اللانظام، بل شأنها أن تنقل اللانظام إلى النظام، أو تمسك النظام على النظام".

ولذلك يقول أحد المتخصصين في هذا العلم: "إن العلماء المسلمين قد أضافوا لعلوم الأرض مواد علمية وآراء جديدة في الظواهر الجيولوجية من قرون عديدة قبل "جيمس هاتون" و"وليم سميث" رواد الجيولوجيا الغربية، وأن الباحث المتأمل لأقوال العلماء المسلمين مثل البيروني ولأقوال "سميث" و"جيمس هاتون" في علم الطبقات مثلا، يرى التقارب بين الرأيين، مما يبعث على الشك في أن علوم المسلمين كانت بين أيدي الأوروبيين إبان نهضتهم العلمية". ■

(*) رئيس قسم الفلسفة والاجتماع، كلية التربية، جامعة عين شمس / مصر.



الطريق السريع
المسلك والسالك

أ.د. عمار جيدل *

حدد الشارع الحكيم معالم الطريق السريع للعروج إلى رباط العبودية لله تعالى، المسلكِ المحقّق للمعاني الإنسانية المعايَنة في التصرفات قولا و عملا وخلقا؛ فليست كلماتٍ للتباهي في المجالس واستعراض ألفاظ وفقراتٍ مستلة من كلام الغير دون إسنادها إلى أهلها -وفي هذا التصرف ما فيه من الناحية الأخلاقية-، لأجل ابتزاز أهل الجاه والمال المتعلقين بأهل الفضل بالتماس مع أهلهم -أهل الفضل- كأن التماس بهم مصيدة لأهل الفضل والمتعلقين بهم. فكم من متماس مع أهل الفضل لا فضل له ولا فضيلة، يَعرِف تصنعَه أقربُ الناس إليه، وخاصة في الأماكن التي لا يتقنع فيها (الأسرة، الجيران، والإخوة، والطلبة، من هم تحت سلطته...) رغبة في الهيمنة على بصائر وأبصار الملتفين طمعا في رغيف إضافي أو وظيف.

معلوم أن شخصا بالمواصفات الآنف ذكرها يُعدَم المطية التي تبلّغه المقصد المدّعَى (المشيخة والقطب والمربي والمسلك)، لهذا يضطر أن يترجل في طريق سريع لأنه لا يملك من الخصال ما يخوّل له نيلَ فضل الله في اكتساب مطية سريعة.

تُلتمس السعادةُ في الدارين من الطريق السريع المتميز عن سائر الطرق بمواصفات التجدد الذاتي المستمر المعبر عن الإيمان والإسلام والإحسان في الوقت نفسه، وذلك وفق الدلالات الاجتماعية المثمرة لتصرفات منضبطة بالشرع قابلة للمعاينة.

طلب أحد السالكين من الإمام الرباني-مجدد القرن الثاني عشر الهجري- طريقا سريعا في الاسترشاد، فقال الشيخ كلمته المشهورة: "وحّد القبلة". ومعناها اجعل القرآن الكريم أستاذك الحقيقي، على قول الأستاذ بديع الزمان، الذي يقر في مقام آخر أن شعاع السنة المطهرة هو الإكسير النافذ. فالسنة المطهرة كافية ووافية لمن يبتغي الطريق السريع طريق النور، فلا داعي للبحث عن نور في خارجها.

ميزات الطريق السريع

يتميز الطريق السـريع بانتظام الموجودات، وهو طريق حري بأن يكون أساس النظرة الإسـلامية والإيمانية والإحسانية للكون في عناصره المادية والمعنوية. فيعم التصورُ والتعامل الإحساني العوالَم كلها، وهو -زيادة إلى ما سلف- طريق الفطرة واليسر والواقعية، فليس طريـق نخبة. ولهذا لا تعقيد فيـه، طريق قصير واضح لا يزيغ عنـه إلا هالك، جالب للسـعادتين الدنيوية والأخروية.. جامع بين القلب والعقل، مؤسـس لفكرة التمحيص والمراجعة المستمرة للمكاسـب الروحيـة والمعرفيـة والعملية على حد سواء. فليس من مسالكه إسـلام القلوب والعقول لآخريـن، إنما إسـلامها لله تعالى، وخوّلت له هذه الصفةُ اسـتحضار المضامين الاجتماعية للإحسـان.

معرفة الطريق السريع لا يجدي نفعا ما لم يكن السالك راكبا مطية وقودهـا العجز والفقر والشـفقة والتفكر. ولا يذهبن بك سوء الفهم إلى الخطأ؛ فالمقصود بالعجز والفقر والتقصير إنما هـو إظهار ذلك كله أمام الله سبحانه، وليس إظهاره أمام الناس، كما قال الأستاذ بديع الزمان: "الإحساس بالعجز مفتاح رئيس لفعالية العبادة في حياة المؤمن، وهي إضافة إلى ذلك أساس الدعاء، واكتشاف الإنسان ذاته العاجزة".

العجز بمعزل عن الإيمان موت مسـتمر وداء ملازم، علاجه وباعثُ الحياةِ فيه بـإذن الله الإيمانُ. ذلك أن أقصر طريق لبلوغ ذلك العلاج هو الإطلال من نافذتي "العجز والفقر" اللتين تتفتحان بتمزيق المرض المادي لحجاب الغفلة، واللتين جُبلَ الإنسان عليهما.

يؤسِّـس العجز والفقر في الطريق السريع للشفقة على خلق الله، وكلما تزايدت تنبسـط الروح، وتدفع إلى الاسـتكثار من الخير، وينعش نموها خدمة البشـر وتدفع إلى التعاون والتعارف؛ وأما الشفقة الناشئة من الغفلة والمبنية على توهّم المالكية فبتزايدها ينقبض الروح ويتألّم القلب.

تربط الشفقةُ القلبَ بالله سبحانه ليوصل صاحبَه إلى الله جل وعلا بأقصر طريق وأصفى شكل، وبلا مشكلات، مؤسسا على التفكّر الإيماني؛ فالإنسان بالتفكّر المتعبّد يصبح إنسانا حقا، يذيب الغفلة به ويظهر الكون أمام بصره وبصيرته شاهدا واحدا موحدا دالا على حقيقة تعرف بوحدة الشهود في الدلالة على الطريق السريع.

الطريق السـريع مسلك قصير وسبيل سـوي، بشرط تزود راحلة (قلب) السـالك بوقود العجز الموصـل إلى "المحبوبية" بطريق العبودية، والفقر الموصل إلى اسـم الله "الرحمن"، والشفقة الموصلـة إلى اسـم الله "الرحيم"، والتفكر الموصل السالك إلى اسم الله "الحكيم". قـال بديع الزمان مرددا لما قاله أحد الصالحين: "لقد رأيت أحد المتقين من أهل القلب في زاوية "التكية" يزاول السـير والسلوك، ولكن بعد مضى بضعة أيام شاهدته في المدرسـة بـين طـلاب العلوم الشرعية، فسألته: لِمَ تركت الزاوية التي تفيـض الأنوار وأتيت إلى هذه المدرسـة؟ قال: هؤلاء النجباء ذوو الهمم العالية يسعون لإنقاذ الآخرين مع إنقاذهم لأنفسـهم بينما أولئك يسـعون لإنقاذ أنفسهم وحدها إن وُفقوا إليهـا. فالنجابة وعلو الهمة لدى هؤلاء والفضيلة والهمـة عندهم"، وهؤلاء يصدق فيهم ما قاله أسـتاذنا محمد الهادي الحسني نقلا عن العلامة محمد المبارك في قولته المشهورة: "تصويف السلفية وتسليف الصوفية"، بشرط أن يكون لكل منهما مطية (قلب) يسـعفه في نيل المراد، لأن من افتقـد الراحلة لم يبلغ المراد مهمـا بالغ في مدحه، ولا يمكن أن يرى عليه التواضع والتلطف الحقيقي المؤسس على الشفقة بالخلق وعلى رأسهم المخالفين في الملة فضلا عن الموالفين فيها، وإن تحلى بها فهي لضرورات اقتضتهـا حيلة التعلق بالدنيا بعنوان الآخرة، مخالفا بها مسـلك الصالحين، في قولهم: "الحيلة في ترك الحيل". ■

الطريق السريع مسلك قصير وسبيل سوي، بشرط تزود راحلة (قلب) السالك بوقود العجز الموصل إلى "المحبوبية" بطريق العبودية والفقر الموصل إلى اسم الله "الرحمن"، والشفقة الموصلة إلى اسم الله "الرحيم" والتفكر الموصل السالك إلى اسم الله "الحكيم".

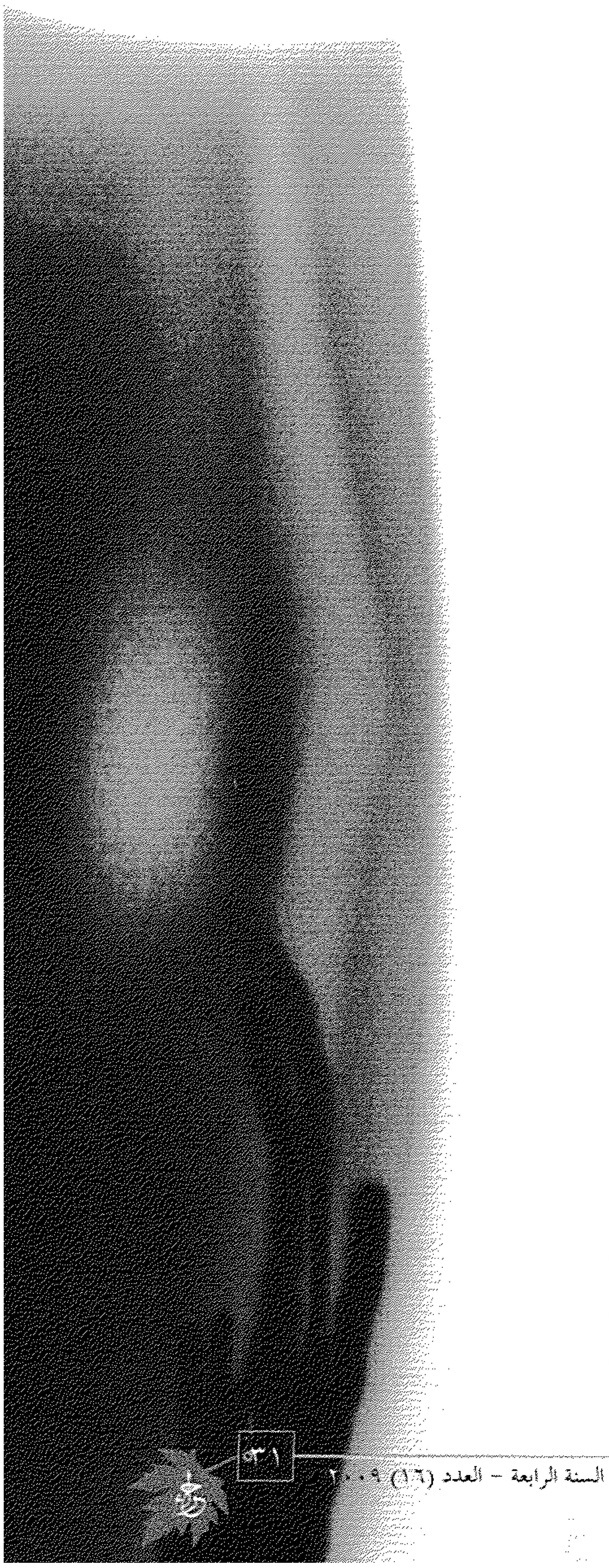
(*) كلية العلوم الإسلامية، جامعة الجزائر / الجزائر.

القرآن... نوره في سماء القلوب يتوهج، وعليه الأرواح تحوم، وبه تهتدي... حقٌ وحقيقة كله، لا يُسْبَرُ غورُه، ولا يدرَك وسْعُه... من يعشه يرَ جمال الوجود في زهرة، وطوفان الأرض في قطرة..

* * *

كلمات الله في معركة السلام

أ.د. فريد الأنصاري *



لا تحرير للأمة اليوم في معركة هذا العصر إلا بالقرآن، لأن طبيعة المعركة الجديدة قائمة على "الكلمة"، والقرآن العظيم هو الكلام القاهر فوق كل كلام. ولكن بعد أن نفهم السؤال الإشكالي: ما حقيقة "الكلمة"، وما دورها في معركة العصر الجديدة؟

إن "الكلام" ليس "قولا" وحسب؛ إذ "القول" دال على كل ملفوظ، سواء أفاد معنى أم لم يفده، كما هو معلوم من تعريفات النحاة، بينما "الكلام" لا يكون إلا لفظا مفيدا لمقصودٍ مراد للمتكلم، سواء أفاد خيرا أم أفاد شرا، على وزان قول ابن مالك: كلامنا لفظٌ مفيدٌ كاستقمْ.

ومن هنا ننطلق من هذا التقعيد النحوي المدرسي البسيط لنجزم بعد ذلك بأن الكلام -على هذا المعنى المؤصل في قواعد العربية- لا يكون إلا فعلا جاريا في الواقع، وحدثا جالبا لأثرٍ في التاريخ.

إن الكلمة -أيّ كلمة- إنما هي فعل من الأفعال، هذا على المستوى الوجودي. وتأمل كيف أن الخطاب مهما يصدر من منتجه فإنه لابد يؤثر في الواقع ولو على المستوى النفسي ابتداء، ثم يكون له بعد ذلك أثر فعلي. وأقل الأثر أن يعود على صاحبه بالخير أو بالشر. ولا يتصور في الواقع والعادة الجارية في الخلق كلام بلا أثر مطلقا ألبتة. وهذا يبدأ من مستوى الخلق والإنشاء والتكوين، مما ينسب إلى الله ﷻ من الأفعال والأقدار، إلى مستوى الفعل الإنساني والإنجاز البشري في الواقع والتاريخ.

فمثال الأول: قول الله تعالى فيما عَرَّف به حقيقةَ نبيه عيسى عليه السلام، واصفا إياه بأنه ﴿كَلِمَتُهُ﴾ قال ﷻ: ﴿إِنَّمَا الْمَسِيحُ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ رَسُولُ اللهِ وَكَلِمَتُهُ أَلْقَاهَا إِلَى مَرْيَمَ وَرُوحٌ مِنْهُ﴾(النساء:١٧١). فكان عيسى ههنا هو "كلمة الله" جل علاه، أي إنه راجع إلى أمره القدري التكويني. إنه إذن خَلْق الله لأن "الكلمة" راجعة إلى فعله تعالى المتعلق بتدبير شؤون الربوبية خلقا

وتقديرا وقَيُّوميَّةً. وهذا المعنى شامل في كل خلق أو تصرف إلهيّ، وفي كل قضاء وقدر. لا شيء من ذلك كله يخرج عن "كلمة الله".

ومما يدل عليه أيضا أن "الكلمة" في القرآن أمرٌ واقعٌ حتما قولُه تعالى: ﴿وَلَوْلاَ كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِنْ رَبِّكَ لَقُضِيَ بَيْنَهُمْ وَإِنَّهُمْ لَفِي شَكٍّ مِنْهُ مُرِيبٍ﴾(هود:١١٠)، وقوله سبحانه: ﴿وَتَمَّتْ كَلِمَةُ رَبِّكَ لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنَ الْجِنَّةِ وَالنَّاسِ أَجْمَعِينَ﴾(هود:١١٩). ومثْلُ هذا في القرآن كثير لمن شاء أن يتتبعه. فكل ذلك ونحوه مما تضمن ضميمة ﴿كَلِمَةُ رَبِّكَ﴾ دال على معاني الخلق والإنشاء والتكوين والتصيير، وسائر أفعال القضاء والقدر الإلهيين. وليست "الكلمة" قولا يقال لمجرد القول وكفى، بل هي إنجاز حتمي لا يتخلف توقيعه أبدا. فمتى قيلت "الكلمة" -بهذا السياق- كان معناه أنها فُعِلَتْ. ومن هنا لم تخرج "كلمة الله" عموما عن معنى فعل الله جل وعلا، وهو ﷻ لا يخلف القول ولا الميعاد.

أساس الناطقية والاستخلاف

ومثال الثاني قول الله تعالى: ﴿وَعَلَّمَ آدَمَ الأَسْمَاءَ كُلَّهَا﴾(البقرة:٣١). فالأسماء -مهما اختُلف في تفسير معناها- فإنه لا اختلاف في أنها "كلام" بالمعنى الشرعي والوجودي للكلمة، ولا يمكن أبدا أن تتصور "الأسماء" على أنها لغو أو عبث. فهي أساس الناطقية التي فُطِر عليها الإنسان، والتي تُشكل جوهرا أساسيا من ماهيته الوجودية ووظيفته الكونية، والتي كانت -بعد ذلك- أساس الاستخلاف له في الأرض. ومثلها قوله تعالى: ﴿خَلَقَ الإِنْسَانَ ۞ عَلَّمَهُ الْبَيَانَ﴾(الرحمن:٣-٤). ومن هنا كانت مسؤوليته عما يتكلم به كبيرة جدا، وهي مسؤولية لا تخرج عن عموم الأمانة التي أنيطت بالإنسان في قول الله جل وعلا: ﴿إِنَّا عَرَضْنَا الأَمَانَةَ عَلَى السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ وَالْجِبَالِ فَأَبَيْنَ أَنْ يَحْمِلْنَهَا وَأَشْفَقْنَ مِنْهَا وَحَمَلَهَا الإِنْسَانُ﴾(الأحزاب:٧٢). فالكلام البشري كله محصيّ عليه كلمةً كلمةً، يستوي في ذلك إنشاؤه وخبره، لأنه كله يوزن بميزان التحقيق بين الصدق والكذب.

وعليه؛ فتعريف البلاغيين "الخبر" في الدرس البلاغي بأنه "ما احتمل الصدق والكذب" -بزعمهم- تعريف غير مانع أبدا، بالمعنى الوجودي لكلمة "خبر"، لا بالمعنى اللغوي العادي. فتعاريف البلاغيين راجعة إلى موازين المنطق الأرسطي الصوري، وقد عُلِمَ ما فيه من خلل منهجي في تحديد المفاهيم والتصورات، إذ هو قائم على تحديد الماهيات بحدود عقليات خاضعة لمنطق العقل المجرد عن معطيات الوحي، ولا يمكن لمثل تلك الموازين إلا أن تكون "صورية" فعلا كما عبروا هم أنفسهم. فإلى أي حد تطابق الصورة الحقيقة؟ تلك هي المشكلة. ومن هنا فحد "الخبر" عندهم هو وإن جَمع المقصودَ فإنه لا يمنع دخول غيره فيه، أي معنى "الإنشاء"؛ أرأيت لو أن شخصا نادى غيره، أو أمَرَهُ، أو نهاه، وهو لا يقصد ذلك ألا يكون كاذبا؟ بلى والله! فإنما الكذب مخالفة العبارة لمقتضى الواقع، وهذا منه؛ لأن المنادِي، أو الداعي، أو النادب، أو المستغيث، أو الآمر، أو الناهي.. إلى آخر ما صنفوه في معنى الإنشاء؛ كل ذلك إذا لم يصادِف إرادةً في نفس المتكلم وقصداً فهو كذبٌ محض. فالإنشاء إذن -بهذا المعنى الوجودي- يحتمل الصدق والكذب أيضا. وهل يتوجع المتوجع لغير وَجَع؟ وهل يستغيث المستغيث لغير فَزَع؟ فإن قصد به معنى آخر من مجاز وغيره، كان ذلك المعنى الجديد المعدول إليه هو أساس الصدق والكذب بعد ذلك، وإنما العبرة بالخطاب قصدُ المتكلم وإرادتُه. فلا شيء من الإنشاء إلا وهو يحتمل الصدق والكذب أيضا.

حظ اللسان في الأحكام

وأزعم أنه لا شيء من الكلام الطبيعي للإنسان إلا وهو يحتملهما، ومن هنا قول الله تعالى الجامع لكل ذلك: ﴿مَا يَلْفِظُ مِنْ قَوْلٍ إِلاَّ لَدَيْهِ رَقِيبٌ عَتِيدٌ﴾(ق:١٨).(١) وقوله تعالى: ﴿وَوُضِعَ الْكِتَابُ فَتَرَى الْمُجْرِمِينَ مُشْفِقِينَ مِمَّا فِيهِ وَيَقُولُونَ يَا وَيْلَتَنَا مَالِ هَذَا الْكِتَابِ لاَ يُغَادِرُ صَغِيرَةً وَلاَ كَبِيرَةً إِلاَّ أَحْصَاهَا وَوَجَدُوا مَا عَمِلُوا حَاضِرًا وَلاَ يَظْلِمُ رَبُّكَ أَحَدًا﴾(الكهف:٤٩). ويدخل في ذلك قطعا كل ما تلفظوا به من قول. ولذلك فقد نال اللسان الحظ الأوفر في الاعتبار في أحكام الشريعة؛ فكانت العقود كلها سواء كانت عقود الإيمان والإسلام، من بيعة شرعية، أو تعهد ومعاهدة، أو نكاح أو طلاق، أو كانت من المصارفات المالية من بيوع وإجارات وأكرية وغير ذلك مما يمكن أن يتصوره الذهن كلها إنما هي عند التحقيق "كلام" وليست مجرد لعب أو لهو من الأقوال، لأنها قائمة على معنى "مفيد"، أي مقصود مراد للمتخاطبين؛ بما فيها من إيجاب وقبول وما جرى مجراهما من معاني التراضي والإقرار. ومن هنا قول الله تعالى في محكم كتابه: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَوْفُوا بِالْعُقُودِ﴾(المائدة:١)، وقوله سبحانه في سياق بيان أن الإنسان محاسب على كل ما يصدر منه من الأقوال، مما أوردناه قبل قليل: ﴿مَا يَلْفِظُ مِنْ قَوْلٍ إِلاَّ لَدَيْهِ رَقِيبٌ عَتِيدٌ﴾(ق:١٨). وفي

الحديث: "إن العبد ليتكلم بالكلمة من رضوان الله لا يلقي لها بالا يرفعه الله بها درجات. وإن العبد ليتكلم بالكلمة من سخط الله لا يلقي لها بالا يهوي بها في جهنم" (رواه البخاري). ومن ثَمَّ لم يكن جِدُّ رسول الله ولا مزاحه ﷺ إلا حقا وصدقا، ولم يكن فيه كذب قط، حاشاه، عليه الصلاة والسلام.

إن الكلام مؤثر جدا في إنتاج الفعل الإنساني بل هو عين الفعل الإنساني، ولا شيء من فعله إلا وهو حاصل بالكلام مباشرةً أو نتيجةً أو توجيها أو تفاعلا، وإنما بدء التكليف الإلهي للإنسان كَلِمَةٌ، وآخره كَلِمَة، منذ قال له: ﴿كُنْ فَيَكُونُ﴾(آل عمران:٥٩)، إلى أن علَّمَهُ ﴿الأَسْمَاءَ كُلَّهَا﴾ إلى أن أنزل عليه "كلامه" القرآن الكريم.

وأول الوزن وزن الكلام

فالذي لا يعير للكلام -أي كلام- الخطورةَ التي يستحقها فهو جاهل بحقائق الدين وحقائق الوجود معا. وكثير من العقوبات في الإسلام والحدود والتعازير والآثام.. إلخ إنما ترتبت شرعا عن مجرد "كلام" يتكلم به الإنسان باطلا، بدءا بكلمة الكفر إلى كلمة القذف، إلى ما شابه ذلك من كلمات الغيبة والنميمة وعبارات السخرية والتنابز بالألقاب وهلم جرا.

كما أن بدء الخير كله "كلمة" انطلاقا من كلمة الإخلاص: "لا إله إلا الله"، وما يتممها من "شهادة أن محمدا رسول الله"، إلى أبسط كلمات الإيمان والإحسان، كإفشاء السلام، وتشميت العاطس، وإرشاد السائل... وما بين هذا وذاك من كليات الكلام وجزئياته؛ فإنه جميعا يَؤُول -في النهاية- إلى بناء عمران الحياة الإنسانية، القائمة على العدل والسلام؛ لأن ذلك كله هو الذي ينتج فعل الخير بمعناه المطلق، ويحقق غاية الوجود البشري في الأرض. ومن هنا كانت أول نعمة امتن الله بها على الإنسان بعد نعمة الخلق أنه علمه البيان. ولذلك كان القرآن بين يديه -وهو كلام الله- الأداة الكلامية الفاعلة لإقامة الحياة في الأرض بالقسط والميزان. فتدبَّرْ قولَه تعالى: ﴿الرَّحْمَنُ ۞ عَلَّمَ الْقُرْآنَ ۞ خَلَقَ الإِنْسَانَ ۞ عَلَّمَهُ الْبَيَانَ ۞ الشَّمْسُ وَالْقَمَرُ بِحُسْبَانٍ ۞ وَالنَّجْمُ وَالشَّجَرُ يَسْجُدَانِ ۞ وَالسَّمَاءَ رَفَعَهَا وَوَضَعَ الْمِيزَانَ ۞ أَلاَّ تَطْغَوْا فِي الْمِيزَانِ ۞ وَأَقِيمُوا الْوَزْنَ بِالْقِسْطِ وَلاَ تُخْسِرُوا الْمِيزَانَ﴾(الرحمن:١-٩). وأول الوزن وزن الكلام، الذي هو حقيقة "البيان"، فإذا خسر خسرت كل الموازين بعده بدءا بموازين السياسة -بمعناها العام- وما تتضمنه من موازين الإدارة والاقتصاد، إلى موازين التجارة وسائر المصارفات المالية والاجتماعية الجزئية والكلية... إلى كل طبائع العمران وتجليات الحضارة البشرية، إلى كل ما يمتد إليه ذلك من فقدان توازن الحياة الإنسانية والبيئية والكونية.

اللغة وصناعة الحياة

إن اللغة تصنع الحياة أو تدمرها. ومن هنا كانت مسؤولية الكلمة في الإسلام جسيمة جدا، والإعلام اليوم هذا الذي يسمونه "السلطة الرابعة" ليس في واقع الأمر إلا السلطة الأولى، لأن المتسلط على الخلق، الحاكم أمرهم بالحق أو بالباطل، إنما وصل إلى مبتغاه من التسلط والتحكم بالكلمة. فحتى عندما يكون الأسلوب المتبع في التسلط قهريا فإنما صنع الطاغية أدوات قهره وتجبره في البداية بالكلمة، ولا شيء يبدأ قبل الكلمة، فَبَدْءُ الوجود والخَلْق والتكوين في القرآن الكريم إنما هو كلمة، إنها كلمتُهُ ﷻ: ﴿كُنْ فَيَكُونُ﴾ قال جل شأنه: ﴿أَوَلَيْسَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضَ بِقَادِرٍ عَلَى أَنْ يَخْلُقَ مِثْلَهُمْ بَلَى وَهُوَ الْخَلاَّقُ الْعَلِيمُ ۞ إِنَّمَا أَمْرُهُ إِذَا أَرَادَ شَيْئًا أَنْ يَقُولَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ ۞ فَسُبْحَانَ الَّذِي بِيَدِهِ مَلَكُوتُ كُلِّ شَيْءٍ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾(يس:٨١-٨٣).

إن الكلمة هي التي تصنع الصورة وتنتجها، بل هي جوهرها وحقيقتها؛ فلا يغرنك أن الإعلام اليوم صار يرتكز أساسا على الصورة، فإنما هذه -رغم خطورتها- بنت تلك في نهاية المطاف. ولولا الكلمات لما كانت الصور في الوجود أصلا. أضف إلى ذلك أن الصورة تُعْرَضُ حينما تُعْرَضُ في العادة الغالبة مسبوقةً بالكلمة أو مقرونة بها أو ملحقة بها أو كل ذلك جميعا. فلا تأتي إذن إلا من خلالها. وحينما نتوهم أننا نتلقى صورا بغير كلمات، فإنما هي لعبة الكلمة المتخفية خلف الصورة. إنك لا تسمعها، نعم؛ ولكنها تتدفق إلى خواطرك في صمت، وتسكن اعتقادك بقوة. ومن ذا الذي قال إن الكلمة هي الصوت فقط؟ إنما الكلمة "مفهوم" يتواصل به الإنسان عبر اللغة الطبيعية، الصوتية أو الإشارية أو الصورية أو السيميائية، إلى غير ذلك مما في الوجود من رموز وأشكال نُصِبَتْ للدلالة على معنى. كل ذلك كلام.

الكلمة هي الوجود

إن الكلمة هي الوجود وما سواها صُوَر. ومن هنا ترى عمق الآية الكريمة: ﴿وَعَلَّمَ آدَمَ الأَسْمَاءَ كُلَّهَا﴾(البقرة:٣١)؛ فانظر -في ضوء ذلك- إلى هذا الكلام الإلهي العظيم، كم هو فعلا يضرب في

عمق الحقيقة، وإلى أي حد هو يوغل في مجاهيل الوجود...

إن الإعلام اليوم كما كان من قبل في التاريخ -رغم اختلاف الأشكال والتجليات- ليعتبر أخطر وسائل التحكم، وأرهب أدوات الصراع الحضاري، وأقوى آليات التدافع العمراني في الأرض.

إن الذين قهروا الناس في الأرض عبر التاريخ لم يكونوا بشرا فوق البشر في أبدانهم ولا في عقولهم، ولا كانوا "آلهة" في واقع الأمر، وإنما هم "متكلمون" فقط. أسسوا أسطورة من الكلام في أذهان الناس وسحروهم بها، أو ورثوا رصيدا كلاميا عن آبائهم وأجدادهم واستمروا في إنتاجه وتجديده حتى تعيش الأسطورة في شعوبهم إلى الأبد؛ فكان منهم "ابن الشمس" و"حفيد الرب"، و"وكيل الآلهة"، وغير ذلك من سائر أنواع الكلام مما يدخل في قوله تعالى: ﴿قَالَ أَلْقُوا فَلَمَّا أَلْقَوْا سَحَرُوا أَعْيُنَ النَّاسِ وَاسْتَرْهَبُوهُمْ وَجَاءُوا بِسِحْرٍ عَظِيمٍ﴾(الأعراف:١١٦).

وما كان طغيان فرعون في الأرض واستذلال أهلها إلا من بعد أن أوهمهم بأنه هو ربهم الأعلى؛ فلم يكن يريهم إلا ما يرى ﴿فَحَشَرَ فَنَادَى ۞ فَقَالَ أَنَا رَبُّكُمُ الأَعْلَى﴾(النازعات:٢٣-٢٤) ومن هنا لما خالفه قائل الحق من رجاله نطق بقوة فقال، كما حكى الله تعالى عنه: ﴿قَالَ فِرْعَوْنُ مَا أُرِيكُمْ إِلاَّ مَا أَرَى وَمَا أَهْدِيكُمْ إِلاَّ سَبِيلَ الرَّشَادِ﴾(غافر:٢٩). فكان بذلك مثالا لكل طغيان وتأله وتجبر! ﴿إِنَّ فِرْعَوْنَ عَلاَ فِي الأَرْضِ وَجَعَلَ أَهْلَهَا شِيَعًا يَسْتَضْعِفُ طَائِفَةً مِنْهُمْ يُذَبِّحُ أَبْنَاءَهُمْ وَيَسْتَحْيِي نِسَاءَهُمْ إِنَّهُ كَانَ مِنَ الْمُفْسِدِينَ﴾(القصص:٤).

إنه قهر القوة والسلطان الباطل، الذي يصنعه -فقط- سحر الكلام. وانظر إن شئت إلى هذا البيان السحري الرهيب الذي ألقاه فرعون على قومه من بعد ما زلزلت عرشه آياتُ موسى عليه السلام؛ قال تعالى: ﴿وَنَادَى فِرْعَوْنُ فِي قَوْمِهِ قَالَ يَا قَوْمِ أَلَيْسَ لِي مُلْكُ مِصْرَ وَهَذِهِ الأَنْهَارُ تَجْرِي مِنْ تَحْتِي أَفَلاَ تُبْصِرُونَ ۞ أَمْ أَنَا خَيْرٌ مِنْ هَذَا الَّذِي هُوَ مَهِينٌ وَلاَ يَكَادُ يُبِينُ ۞ فَلَوْلاَ أُلْقِيَ عَلَيْهِ أَسْوِرَةٌ مِنْ ذَهَبٍ أَوْ جَاءَ مَعَهُ الْمَلاَئِكَةُ مُقْتَرِنِينَ ۞ فَاسْتَخَفَّ قَوْمَهُ فَأَطَاعُوهُ إِنَّهُمْ كَانُوا قَوْمًا فَاسِقِينَ﴾(الزخرف:٥١-٥٤). وتأمل جدا ما أعقب الله به خطاب فرعون: ﴿فَاسْتَخَفَّ قَوْمَهُ فَأَطَاعُوهُ إِنَّهُمْ كَانُوا قَوْمًا فَاسِقِينَ﴾ فهو إنما استخف في الواقع عقولهم.

ولقد قرأت قصة طريفة مترجمة عن الكتابة الفرعونية القديمة رواها أحد أطباء فرعون. وذلك أنه تسلط ذات يوم على أحد الأغنياء فأراد أن ينتزع منه ضيعته، فلما أبى أن يتنازل عنها نكل به فرعون تنكيلا، فقطع أيديه وأرجله من خلاف، وألقاه على حافة الطريق، فصادف أن كان الطبيب مارا بعربته فوجده يئن في الظلام، فلما عرفه رَقَّ لحاله وحمله إلى بيته، ثم عالجه من آثار جروح البتر. ثم انقطعت صلته به بعد ذلك إلى أن مات فرعون. ولما كان يوم مراسم التحنيط والدفن على -عادة قدماء المصريين- والكاهن يلقي كلماته في رثاء فرعون، بما يصبغه عليه من رداء الربوبية المزيفة والألوهية المدعاة والعظمة المكذوبة، ويذكر من شيمه ما لا قِبَلَ للبشر به، إذا بالطبيب يجد من بين الحاضرين الرجل الغني الذي نكل به فرعون من قبل، وقطع أيديه وأرجله من خلاف، وجده يبكي بحرارة ويقول: ما كنتُ أعلم أن فرعون كان إلها مقدَّسا إلى هذا الحد، وكأنما يبكي ندما على ما فرَّط في جنب فرعون، ولم يكن له من الطائعين ومن عباده الصاغرين.


إن الإنسان لمّا يتوهم أنه مغلوب على أمره، أو أنه لا يستحق أن يكون حرا يخضع بصورة تلقائية لمن غلبه بهذه الأكذوبة.

من هنا كانت معجزة هذا العصر هي القرآن، القرآن بما يملكه من قوة خارقة في تحرير الإنسان من عبودية الشهوات التي تثقله إلى التراب، وتملي عليه تقديس الحياة الفانية، وتخضعه لمن يهدده بالقتل والتشريد فيها. القرآن بما يملكه من سلطان رباني على النفوس يجعلها تبصر حقيقة أنه لا إله إلا الله الواحد القهار حركة حية أبدية في الكون وفي التاريخ، وأن كل استكبار من دونها هو محض افتراء وهراء. القرآن بما له من خاصية التحويل الوجداني العميق لمسار الإنسان؛ من جِرْمٍ جزئي ضئيل يدور في فَلَكٍ قصير من متاع الدنيا الشهواني؛ إلى كائن كوني كبير يدور في فَلَكِ الملكوت الرباني الفسيح، في سيره العظيم إلى الله.. حيث يرى بعين القرآن واستعلاء الإيمان كيف أن كيد الشيطان كان ضعيفا حقَّ ضعيف، وكيف أن المعركةَ كونيةٌ، يقودها الله رب العالمين. ■

(*) جامعة مولاي إسماعيل، ورئيس المجلس العلمي بـ"مكناس" / المغرب.

الهوامش

(١) قوله تعالى: ﴿مَا يَلْفِظُ مِنْ قَوْلٍ إِلاَّ لَدَيْهِ رَقِيبٌ عَتِيدٌ﴾(ق:١٨) هو من العام الذي أريد به الخصوص، إذ عُلِـم في الدين أن القول غير المبني على قصد لا يدخل في دائرة المحصي على ابن آدم، ولذلك فالقول المقصود هنا هو الكلام المفيد قصداً ومعنىً.



أنتَ للإحسانِ أهلٌ

أنس إبراهيم الدغيم *

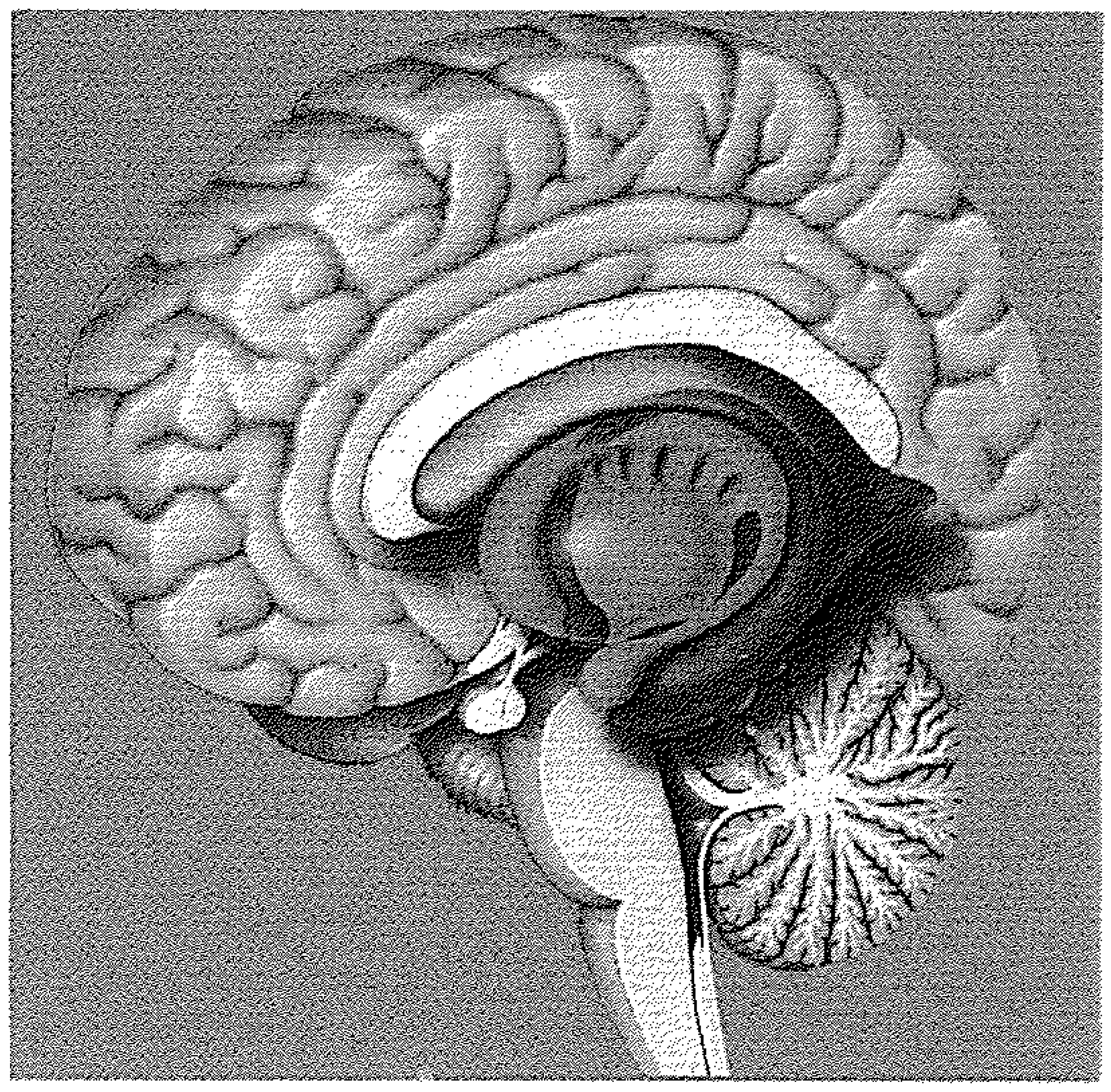
تُبْ على قلبي فإنّي ... غارقٌ في حسن ظنّي
طالما أنأى وتدنو ... فعساكَ اليوم تُدني
كلّما جئتَ إليّا ... عاد قفرُ القلبِ ريّا
وسمعتُ الرّوحَ تشدو ... (طلع البدرُ عليّا)
ما شدا القُمريُّ إلا ... هاجَ دمعي فاستهلّا
ليس "قيساً" كلُّ من لم ... يحترقْ في نار "ليلى"
كمِ تجلّيتَ عليّا ... واحتواني منك نورُ
قائلاً لي في عتابٍ ... (يا حبيباً لا يزورُ)
كلّما النور تجلّى ... قابَ قلبي وتدلّى
طار قلبي في سناهُ ... هاتِفاً أهلاً وسهلا
كلّما آنستُ نارا ... طار نحو النّور قلبي
جذوةٌ تحيي فؤادي ... إنْ تكنْ من طُورِ ربّي
زادَ يا مولايَ وَجدي ... من تسابيحي وحمدي
لا تدعْني يا حبيبي ... بينَ إقبالٍ وصَدِّ
يا حبيباً لا يراني ... حيث يرجو أنْ أكونْ
فاحفظِ اللّهمّ نفسي ... من ضلالٍ وفتونْ
كلُّ ما أبغيهِ وصلٌ ... منكَ يُدنيني إليْكْ
أكبرُ الآمالِ عندي ... أنْ أُرى بينَ يديْكْ
بينَ بُعدي واقترابي ... ما يشاءُ العاذلونْ
إنْ تكنْ حسبي فإنّي ... غالبٌ في كلِّ حينْ
غُلِّقتْ كلُّ المسالكْ ... غيرَ بابٍ ما يزالْ
قلتُ يا مولايَ خُذني ... قال يا عبدي تعالْ
كلُّ ما أخشاهُ قربٌ ... منكَ يُنسيني أنيني
في طويّاتِ اللّيالي ... واحتراقي وحنيني
أغنِني يا ربُّ بالحُسـ ... لى و جمِّلني بفضلكْ
أنتَ للإحسانِ أهلٌ ... وأنا من بعض أهلكْ

(*) شاعر سوري.

تعرّف إلى ذاتك، وبنورها استنر، فإن عرفتها عرفت ربك.. أما سيئو الحظ، فلا أعماقهم لمسوا، ولا جوهرهم أدركوا، ولا ربَّهم عرفوا... مثلهم كمثل حمّال على ظهره كنز ينوء بحمله لكنه لا يعرف قيمة ما يحمله... ففقيراً يبقى وتعيسا يظل وشقيا يموت.

***

الجهاز العصبي يتكلم



أ.د. عرفان يلماز*

عزيزي عبد الله...

أنا من أروع الأنظمة والأعضاء التي شرحتْ لك نفسها؛ فأنا الذي أؤمّن الارتباط بين جميع الأنظمة والأعضاء لتكمل وظائفها. فكما تنتشر الأوعية الدموية في جميع أجزاء الجسم لنقل الأُكسجين؛ كذلك أقوم أنا بتغطية جميع أجزاء جسمك كشبكة لكي تكون على علم بكل ما يحدث. وإذا أُصبتَ بأي خلل أو مرض في أي عضو داخلي قمتُ بإخبارك حالا، بل بحثّك على السعي للعلاج.

و"النظام العصبي" شبكة من الخلايا العصبية، ولكن هذه الشبكة مخلوقة ومرتبة بشكل معقد جدا. فأهم المراكز الرئيسية موضوعة داخل القحف قريبة من بعضها البعض على شكل كتل كبيرة. أما امتدادات النظام العصبي والمراكز الفرعية الأخرى فمنتشرة وموضوعة في مناطق مختلفة من الجسم.

ولكي تفهم هذا النظام بشكل أسهل وأفضل فمن المفيد تقسيمه إلى قسمين. فالقسم الأول هو المركز العصبي الذي يتكون من المهاد البصري، وما تحت المهاد البصري، والمخيخ، والنخاع الشوكي. أما القسم الآخر فهو النظام العصبي المحيط والشبيهة بكوابل الألياف الضوئية.

والدماغ يتكون من قسمين كرويين كبيرين، بالإضافة إلى ساق الدماغ. وكما أن المركز يكون أهم شيء في جميع الأنظمة، فكذلك المركز العصبي في جسمك الذي يتكون من فصي الدماغ والمخيخ وساق المخ مهم جدا. ويأتي بعد ذلك في الأهمية الحبلَ الشوكي الذي يعتبر أيضا من النظام المركزي للجهاز العصبي، ولكنه لا يوجد داخل القحف، بل ضمن القناة الداخلية للسلسلة الفقرية. وإذا أصاب الحبلَ الشوكي أيُّ ضرر فهذا يكون مهما، لقربه من المركز العصبي. وأي ضرر أو جرح يصيب الأقسام المتكونة من الأعصاب الخارجة من المركز إلى الخارج يؤدي إما إلى شلل أو إلى عطل في وظيفتها، ولكنه لا يؤدي إلى خطرِ فقد الحياة.

أرقام مذهلة

عزيزي عبد الله... والآن سأعطيك بعض الأرقام التي ستذهلك؛ إن مجموع طول الشرايين الدموية يبلغ ١٢٠ ألف كم (أي يبلغ هذا الطول ما يكفي للدوران حول محيط الكرة الأرضية ثلاث مرات)، بينما يبلغ مجموع طول الأعصاب عندي ٧٨٠,٠٠٠ كم، وهذا الطول يبلغ ضعف المسافة بين الأرض والقمر. و٤٠٠,٠٠٠ كم من هذا الطول هو مجموع طول الأعصاب المنتشرة في أجزاء الجسم. أما الباقي (أي ٣٦٨,٠٠٠ كم) فهو مجموع الأعصاب العائدة إلى المركز العصبي. ويقرب عدد

المعلومات الواصلة من خلية واحدة مائتي ألف معلومة. وهذا يعني أن مئــات الآلاف بل الملايين من المعلومات تمر من داخل خليتي من المركز إلى المحيط، ومن المحيط إلى المركز. وأنا أملك ثلاثين مليار خلية؛ عشرة مليارات منها في محيط القشرة، وعشرة مليارات تقريبا منها في قشرة المخيخ، أما الباقي فيشكل أجزائي الأخرى. ومن أجل الإيضاح أقــول: يملك دماغ البعوض مأة ألف خلية، ودماغ الفأر عشرة ملايين خلية. ولكي يتم تبادل المعلومات بين خلاياي البالغة ثلاثين مليار خلية هناك نقاط اشــتباكات عصبية يبلغ عددها مائة تريليون نقطة. أما عدد المخابرات والاتصالات التي يمكن لهذه الاشــتباكات العصبية إجراؤها مع بعضها البعض فيزيد على عدد ذرات الكون.

في المرحلة الأولى لأي فعالية ذهنية تدخل ما بين ١٠-١٠٠ مليون خلية في النشــاط الذهني، فإذا استمرت الفعالية وتعمقت طفر هذا العدد إلى أرقام كبيرة. ويتم تبادل التنبيهات والرســائل بين فصي الدماغ بعدد ٤ مليار تنبيه في الثانية الواحدة.

وبينمــا كنتَ جنينا بعمر بضعة أســابيع كانت بنيتي عبارة عن ماء بنسبة ٩٢٪، وعندما ولدتَ أصبحتْ هذه النسبة ٩٠٪ وعندما تصل إلى سن النضوج تصبح النسبة ٧٧٪، فــ ٧٧٪ من الماء والباقي عناصر مختلفة.

إن الله تعالى بقدرته وضعني في رأســك، وبواســطتي تقوم أنت بإنشاء الحضارات وبالاكتشــافات، وبالتفكر في خالقك، وتــدرك معنى الكون والحياة. وأنا الوســيلة لــك في إدراكك وشــعورك لمختلف المناظر والأصوات والروائح والطعوم، وذلك بتقييم الموجــات الكهربائية التي تَرِد إليّ بأطوال وترددات مختلفة من حواســك. فكل شــيء تعمله يمر أولا من عندي، وأنت لا تحس ولا تشــعر به؛ فعندما تمشي أو تأكل أو تتكلم أو تنام تأتي لي رســائل ومعلومات من كل نقطة في جسمك. وبتقييم هذه المعلومات أعطي أجوبة مناسبة لها.

عزيزي عبد الله... إن ما تعرفونه عني ليس إلا شــيئا يسيرا؛ فكل قسم من أقســامي له وظائف حيوية وواسعة جدا، ودعني أخبرك بأهم الوظائف التي يقوم بها كل منها بشكل موجز:

المخيخ

هو المركز الذي يؤمّن التوازن وتَناغُمَ الحركات دون أي خطأ أو انحراف. علاوة على أن هذا القســم لا يملك شعورا إراديا، فإن تغيير وظائفه بشــكل إرادي غير ممكن. إن بَصَلة الحبل الشوكي (النخاع المســتطيل) التي تشــبه الهرم تصل القسم الأوسط من الدماغ. وهي تشــكل مع جسر "فارول" ســاقَ الدماغ الذي يدخل من الثقب الخلفي الموجود في القحف إلى السلسلة الفقرية. توجد هنا مراكز عديدة تقوم بضبط نبض القلب وتنظيم التنفس وضبط فترات الهضم وغيرها من الفعاليات المســتقلة للأعصاب. إن الســيطرة على ردود الفعل، وتنظيم الجو الداخلي للأعضاء والســيطرة على الحركات تكون بالمخيخ، وترتيب الأحاسيس الآتية من الأعضاء الداخلية والسيطرة على بعض الوظائف المهمة كالانفعالات والنوم يتم بالاستعانة بالمهاد البصري.

المهاد البصري

يقــع المهاد البصري بين بصلة الحبل الشــوكي وفصي الدماغ، ويقوم بمهمة مثل مهمة محوِّلة اتجاه القطارات في السكك الحديدية أو مهمة المحطات الثانوية. وتقوم هذه المنطقة بجمع كل التنبيهات الآتية إليها من الحواس ما عدا الشم، وتنقل المعلومات إلى "القشرة الدماغية العلوية" لكي تنعكس إلى المســتوى الشــعوري، مثل التمييز بين الإحساس باللمس والألم والأصوات حيث يتم تقييم هذه الأحاسيس بشكل شــعوري. ويُعتقَد أنه يقوم أيضا بتنظيم حــالات الصحو واليقظة والنوم، وأنــه يلعب دورا في التغيرات الشعورية التي تظهر.

ما تحت المهاد البصري

هــو مركز مهم يقع تحت المهاد البصري ويقوم بالســيطرة على الأحاسيس الجنسية والآلام ومشاعر الاستحسان والجوع والظمأ وضغــط الدم وحرارة الجســم والعديد مــن وظائف الأعضاء الداخلية. وله وظيفة هامة في تنظيم إفراز الهورمونات. والألياف العصبية المتشــابكة التي تأتي إلى هذا المركز من فص الشم عندي ومن المهاد البصري ومن فص الجبهة تصل إلى المراكز التي تسيطر على الفعاليات المستقلة وإلى البنية الشبكية الشكل.

ومع أن فصّي المخ يتشابهان تماما في منظرهما إلا أن هناك بعض الفروق بين وظائفهما؛ فمثلا المراكز المسؤولة عن النطق عند أكثر الناس في الفص الأيسر، بينما المناطق التي تسيطر على الإحساس بالمكان في الفص الأيمن. وعندما تحتاج إلى إجراء عمليات منظمة (مثل الجمع والطرح أو عند تزرير قميصك) تقوم باستعمال الفص الأيسر. أما إن كنت تفكر بالاستعانة بالرسم فتستعمل الفص الأيمن. ولولا الألياف العصبية الغليظة التي تربط بين فصي المخ لاستطعت قراءة كلمة "السمكة" ولكنك كنت ستعجز عن تمثل السمكة أمام عينيك. لذا لابد من استعمال الفص الأيمن.

المادة السنجابية

هي القشرة التي تغطي فصي المخ وتحتوي على تلافيف والتواءات كثيرة. والقشرة تحتوي على القسم الأكبر من خلاياي. أما المادة الموجودة تحتها فلونها أفتح، ويطلق على المنطقة التي توجد فيها امتدادات خلاياي اسم "المادة البيضاء". ومنطقة القشرة (اللحاء) تتكون من ست طبقات، وخلاياها مختلفة. وتشكل مركزا يقوم بتقييم وتحليل التنبيهات الواردة إليها من الحواس، وبالسيطرة على الحركات الإرادية للعضلات وبالتفكير والتذكر والتعلم. والفصان اللذان يشكلان المخ الرئيسي (الكبير) يشكلان ٨٥٪ من جميع الدماغ.

نمو النظام العصبي

عندما ولدتَ كان وزني أربعمائة غم، وفي سنة واحدة وصلتُ إلى ثمانمائة غم. وعندما بلغتَ سن الرابعة كان وزني ١٢٠٠ غم. وتباطأ نموّي بعد السابعة. وعندما بلغتَ العشرين أصبح وزني ١٣٧٩-١٤٣٤غم. أما في النساء فيكون أقل قليلا، وأصل إلى وزني النهائي عند النساء في وقت أبكر مما أصله عند الرجال (المتوسط عند النساء ١٢٣٠-١٣٠٦ غم). وبعد سنوات الشباب أتقلص كل سنة بمقدار غم واحد في المتوسط. وعندما تبلغ الخامسة والسبعين من عمرك أكون قد تقلصت بنسبة العشر بالمقارنة مع وزني عندما كنتَ في سن العشرين. وسبب هذا أن خمسين ألف خلية عصبية تقريبا تموت كل يوم أو تصبح غير ذات فائدة بعد العشرين.

ومع أن خلايا الجسد تملك قابلية تجديد نفسها بعمليات الانقسام وزيادة أعدادها إلا أن الخلايا العصبية ما إن تبلغ العدد المكتوب في قَدَرك بعد مراحل التطور الأولى في الرحم حتى تفقد خاصية التكاثر. ولكن عدد الارتباطات بين الخلايا يزداد، لذا يزداد وزني. وذلك بسبب ما يَرِد إلى هذه الرابطات من الغذاء من الخارج. وعندما يتقدم العمر يقل عدد هذه الرابطات. وفي مرحلة الشباب عندما تَقرأ أو تشاهد أيَّ شيء أو تمر بأي تجارب.. كل هذه الأمور تزيد من عدد هذه الارتباطات. وهذا يؤدي إلى زيادة قابليتي في التفكير. واذا داومت في مرحلة الشيخوخة على هذه الفعاليات الذهنية من قراءة ومطالعة وكتابة، ولم تنقطع عن فعالياتك الاجتماعية استمرت الزيادةُ في عدد هذه الارتباطات.

مناطق الدماغ ووظائفها

عندما نقوم برسم خريطة للقشرة التي تغطي المخ الرئيسي نرى أن هناك مناطق مختلفة للحواس وللفعاليات الأخرى تتكاثف فيها بؤر معينة لها حدود معلومة بمقياس لا بأس به. فمثلا قسمي الموجودُ في المنطقة القذالية الواقعة خلف رأسك تماما هو قسم الرؤية، أما أقسامي الموجودة في منطقة الجبهة فهي للسمع. وعلى اليسار توجد منطقة التكلم (هذا في الأغلب)، وفي منطقة الجبهة (الفص الأمامي) يوجد في الجدار الأمامي للأخدود الوسطي المركز الأول المسؤول عن تخطيط حركات الإنسان، ففي القسم العلوي من المنطقة الأمامية مركز مسؤول عن الحركات المعقدة، وخلفه مباشرة وفي وسط المنطقة الجانبية مركز مسؤول عن الحركات البسيطة. أما المنطقة الموجودة خلفه والمجاورة لحاسة السمع والتي تمتد إلى الأعلى فمسؤولة عن حاسة اللمس. ولكن جميع هذه الساحات والمناطق ليست محددة بشكل قاطع، بل هي في وضع مبعثر وتملك شبكة من الارتباطات المعقدة. أما الساحات الموحدة القريبة من هذه المناطق فمسؤولة عن تحويل التنبيهات الآتية من الحواس إلى معانٍ وصور.

النخاع الشوكي

يمتد النخاع الشوكي بعد خروجه من القحف في العمود الفقري، وهو المركز الذي ترتبط به التنبيهات الآتية من مناطق الجسم الموجودة تحت الرقبة. ومع أن المادة السنجابية تكون في الخارج (القشرة) والمادة البيضاء في الداخل، إلا أن المادة السنجابية تكون داخل النخاع الشوكي في الداخل في شكل فراشة، أما المادة البيضاء فتكون في الخارج وتشكل غلافا يحيط بالمادة السنجابية، ويؤمّن هذا المركزُ جميعَ ردود الأفعال في الحبل الشوكي بواسطة التنبيهات الآتية من المحيط -ولا سيما من الجلد والعضلات-

بواسطة عُقَد الاتصال (الخلايا الرابطة) الموجودة بين الخلايا العصبية. وبينما يقوم قسم من الخلايا الرابطة بالإجابة على ردود الأفعال يقوم القسم الآخر بنقل هذه التنبيهات إليّ. وهكذا تظهر القرارات الإرادية.

يخرج من الحبل الشوكي ٣١ زوجا من الأعصاب يسارا ويمينا. أما من المنطقة داخل القحف فيخرج ١٢ زوجا. وجميع هذه الأعصاب تخرج من مركز الجهاز العصبي وتتوزع على مختلف الأعضاء، فهي إذن منظومة عصبية لمحيط الجسم. وباستثناء العصب العاشر الذي يخرج من المخ وهو "العصب التائه" تقوم جميع الأعصاب الخارجة من المخ بالسيطرة على فعاليات الحركة والإحساس لمنطقة الرأس والعنق. أما الأعصاب الخارجة من الحبل الشوكي فيخرج كل عصب من الثقب الموجود في جانب كل فقرة من العمود الفقري. ولكل عصب من هذه الأعصاب جَذرانِ: أحدهما جذر عصب الإحساس ويقوم بإيصال التنبيه، والآخر عصب الحركة ويقوم بنقل أمر الحركة. وما إن يخرج هذان الجذران من فقرة العمود الفقري حتى يتحدا في الخارج. وهكذا تظهر الألياف العصبية المجدولة التي تنقل الأحاسيس وتنقل أوامر الحركات أيضا. ومن هذه الألياف العصبية تنتقل فروعٌ نحوَ كل عضو من الأعضاء؛ فمثلا إن غرست إبرة في يدك قامت الخلية العصبية التي تنقل التنبيهات والأحاسيس بإيصال هذا التنبيه إلى الحبل الشوكي عن طريق ذراعك. والجواب الوارد من الحبل الشوكي هو رد فعل يجعلك تسحب يدك حالا. ورد الفعل هذا يصل إلى عضلات الذراع وعضلات اليد.

عناية ربانية

تنقسم هذه الخلايا في المنظومة العصبية العائدة إلى محيط الجسم إلى مجموعتين: المنظومة الجسدية المنتشرة في عضلات العمود الفقري، والمنظومة العصبية المنتشرة في الأعضاء الداخلية. ومعظم فعاليات المنظومة الجسدية تكون إرادية وشعورية، أما الأخرى فمعظم فعالياتها تكون لاإرادية ولاشعورية. وأما الفعاليات اللاشعورية فهي تسيطر دون أن نشعر على العضلات المستقيمة التي تنظم ضربات القلب وإنتاج عصارات الغدد وإفرازها وعضلات الشرايين الدموية وعضلات التنفس والهضم والإفراغ والتناسل.

عزيزي عبد الله...

لو أعطي كل شيء تحت إمرتك وسيطرتك هل كنت تستطيع تدبير كل هذه الأعمال العديدة وإنجازها؟ إن إرادتك تعمل حتى حين قيامك بوضع لقمة في فمك. ولكن جميع عمليات إفراز الغدد الهضمية وجميع حركات المعدة والأمعاء، وجميع فعاليات الإفراغ تجري كلها خارج إرادتك بشكل آليّ. فحركة تنفسك لا تتوقف عندما تنام، ولا تتوقف كليتاك عن فعالياتها لكونك نائما، ولا يقوم قلبك بالتوقف عن عمله وأَخْذِ قسط من الراحة عندما تنام، ولا يتوقف كبدك عن نشاطه، ولا يتوقف البنكرياس عن إفراز الأنسولين. وجميع أعضائك الداخلية وشرايين دمك مستمرة في أداء أعمالها بالتعاون مع العضلات المستقيمة في كل وقت ومكان. وتجري كل هذه الفعاليات والأنشطة دون أن تشعر بها، والحقيقة أنك لو قمت بأدائها شعوريا لتعبت بعد خمس دقائق فقط، إذ لا تستطيع الاستمرار في التركيز فيتشتت انتباهك.

الألياف العصبية

تنقسم الألياف العصبية في المنظومة العصبية في الإنسان إلى قسمين: أولهما القسم السمبثاوي، والثاني نظير السمبثاوي. وقد خُلق هذان القسمان بحيث يجيب أحدهما الآخر بشكل متقابل وتمتد بشكل سائب. ويقوم أحدهما بتحفيز العضو للعمل السريع وللإنتاج الكثير، بينما يقوم القسم الآخر بتهدئة العضو وتبطيئه وتقليل الناتج. وبين هذين التنبيهين يقوم العضو —حسب ظروفه وأوضاعه- بأنسب إيقاع عمل وأفضله. والقسم السمبثاوي يهيئ الجسم في الأغلب لمواجهة الظروف المتوترة وظروف الصدمات. فمثلا تعود زيادة ضغط الدم وزيادة مستوى السكر في الدم وزيادة التعرق وتوسّعُ حدقتَي العين وسرعة جريان الدم في العروق إلى تأثير الألياف العصبية السمبثاوية. أما القسم نظير السمبثاوي فيعمل على إعادة الأحوال الهادئة للأعضاء الداخلية وإلى تخفيض ضغط الدم لكي تستطيع هذه الأعضاء القيام بوظائفها.

الخلايا العصبية

تحدثتُ منذ البداية عن أقسام وتنبيهات مختلفة، ولكني لم أتحدث عن خليتي العصبية التي تعد الأساس في المنظومة العصبية ولا عن كيفية عملها. فالخلايا العصبية التي يبلغ عددها ٣٠ مليار خلية هي الوحدات الأساسية التي تعمل في جميع أقسام المنظومة العصبية. والخلية العصبية تتكون من جسم الخلية ومن الامتدادات العديدة التي تخرج من جسم الخلية مثل الأغصان المتشابكة للشجرة. ونحن نطلق اسم "المحور العصبي" على جسم الشجرة وعلى امتداده الوحيد والغليظ. أما أغصان الشجرة وتفرعاتها الدقيقة فتدعى

"الزائدة الشـــجرية". والتنبيهات التي تسير بشكل تيار كهربائي تنتقل من المحـــور العصبي نحو هذه الزوائد الشـــجرية. ونقطةُ الارتباط بين محور خلية عصبية والزائدة الشـــجرية لخلية عصبية أخرى يتم عن طريق إفراز مادة كيميائية تدعى "نوروترأنسميتر" إلى الفراغ الموجود في نقطة الاشتباك. وما إن تصل هذه المادةُ إلى جدار الخلية الموجـــودة تجاهها حتى يحصل تيار كهربائي. وكما يحدث في أحجار الدومينو حيث تســـقط هذه الأحجار بالتتابع، أو كمـــا يحدث في بعض المباريات عندما يرفع المتفرجون أيديهم بالتتابع محدِثين حركة تماوجية، كذلك تنتقل الرسائل التي يحملها التيار الكهربائي بسرعة كبيرة من طرف الخلية إلى الطرف الآخر، ثم تنتقل إلى الخلايا المجاورة. وبينما تملك الخلية في حالة سكونها (-٧٠mv) طاقة مدخرة يمكن بتيار كهربائي شدته (+٣٠ إلى +٤٠ mv) نقل جميع المعلومات المطلوبة. وكل خلية تســـتطيع نقل ألف إشارة في الثانية الواحدة.

الذاكرة

أمـــا الذاكرة التي لا نعرف تماما ماهيتهـــا حتى الآن، فهي تقوم بخزن مئات التجارب كل يوم وتســـتطيع إرجاعها إلى ذاكرتنا. وهناك عدة نظريات تحاول تفسيرها وتفسير كيفية عملها. ولكننا نعلم أن جواب هذا الســـؤال لابد وأنـــه يكمن داخل خلاياي العصبية. وبالنســـبة للذاكرة فمن الصعب تحديد مركزها تحديدا قاطعا. وربما كانت هناك علاقة لجميع المراكز العصبية بالذاكرة. والذكريات المخزونة تكون على أنـــواع: فمنها صوتية، ومنها صور ومَشاهد، وبعضها تتعلق بالروائح، وبعضها تتعلق بالخيال، وأخرى بأحاسيس الغضب أو الفرح.

وأنت لا تســـتطيع حتى تخيُّل مدى سعة الذاكرة عندي؛ فأنا أملك نوعين من الذاكـــرة؛ أحدهما على المدى القصير، والآخر على المدى البعيد. ففي المدى القصير أســـتطيع في كل مرة حفظ تسعة أشياء مختلفة كحد أقصى. ومعظم الناس لا يستطيعون حفظ أكثر من سبعة أشياء في ذاكرتهم. وفي الذاكرة على المدى القصير لا يبقى شيء أكثرَ من بضع دقائق. وما تتذكره للمُدد التي تزيد على هذا يعود إلى الذاكرة على المدى البعيد حيث يسجل هناك، فيبقى هناك أياما وأســـابيع وشهورا بل ربما لسنوات. وما تتعلم أو تعلم من شـــيء إلا وهو محفوظ في الذاكرة على المدى البعيد. وما إن تبلغ الثامنة من عمرك حتى يبلغ حجم المعلومات المخزونة في ذاكرتك ما يساوي المعلومات المدونة في مليون مجلد من دائرة المعارف. ومع ذلك فهذا المقدار يعد شـــيئا ضئيلا، لأن ذاكرتك على المدى البعيد تملك سعة غير محدودة ولا يمكن ملئها؛ فحتى لو تجاوز عمرك المئة عام فإن ذاكرتك مستعدة لحفظ أشياء جديدة علـــى الدوام. إن فعاليات التعليـــم في الصغر (مثل حفظ القرآن الكريم أو تعلُّم لغة) تكون أسهل، وتتحقق بشكل سهل ورصين. ومثل هذه الفعاليات التعليمية في الصغر تقوّي الذاكرةَ.

اللاشعور

أما تذكُّر حادثة فهو تكرار الشفرة الكهربائية التي سَجلت تلك الحادثةَ في أثناء حدوثها. فأحيانا تُحاول تذكرَ اســـم شخص فلا تســـتطيع، مع أنك تشعر أن الاسم على طرف لسانك، ثم تيأس وتترك محاولـــة التذكر. ولكن ما إن يمر يوم أو يومان حتى يخطر ذلك الاســـم على بالك فجأة فتفرح. فهل تعرف كيف يحدث هذا؟ عندما تحاول جاهدا تذكرَ الاسم فأنت في الحقيقة تستعرض جميـــع خلاياي العصبية للتوصل إلى الملف الذي خزنت فيه ذلك الاسم، ولكنك لا تجده عند بحثك واستعراضك لمليارات الخلايا العصبية؛ لأنك إما لم تســـتعمل ذلك الملف كثيرا، أو لم تضعه في مكان أمين لعدم أهميته بالنســـبة لك. ولكنك لا تنسى أبدا اسم والدك، لأنك تعدّه شيئا مهما وتستعمله بكثرة، لذا فهو موجود في ملف أمام عينيك.

ولكن عندما تيأس وتتخلى عن محاولة التذكر تبدأ آلية أخرى بالعمل يطلق عليها اســـم اللاشـــعور، وهي آلية حافلة بأسرار أكثـــر. تبدأ هذه الآلية بالعمل دون أن تشـــعر بها، وتُخرج لك ذلك الملف وتضعه أمامك فتذهل وتتعجب. فاللاشـــعور مكان محفوف بالأســـرار ويؤثر في جميع جوانب حياتك. ولا يسجَّل في اللاشعور سوى المشـــاعر الصادقة والحقيقية الخالية من الرياء والأفكار الحقيقية. ثم هناك الذكريات الأليمة وذكريات الذنوب التي تهزك من أعماقك.. ومثل هذا الشـــعور بالذنب الموجود في اللاشعور وعقدة النقص تنعكس في العديد من سلوكك. ولكن مثل هذه المشـــاكل نتيجة لا يمكن للإنسان الهرب منها، ولكن الخلاص منها بيدك. فإن كنت رجل إرادة وشغلت نفسك بصبر بأعمال الخير نجحت في تغليب فطرتك الســـليمة فلا تعود تلك الذكريات القبيحة مؤذية لك، فتنجح في إصلاح هذا الأمر. ■

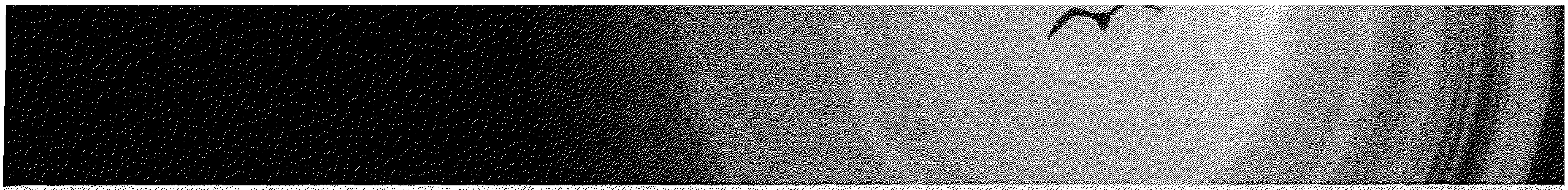
(*) جامعة ٩ أيلول / تركيا. الترجمة عن التركية: أورخان محمد علي.

المسلمون
بين الشدائد والبشائر

أ.د. الشاهد البوشيخي*

لابد من الثمن لأي سلعة، وبما أن سلعة الله الجنة فثمنها غال جدا، لأن الجنة هي مستقر الرحمة، قال رسول الله ﷺ: "إن لله مائة رحمة. فمنها رحمة بها يتراحم الخلق بينهم. وتسعة وتسعون ليوم القيامة" (متفق عليه). فبقسمة واحدة يتراحم جميع الخلائق منذ كانت الدنيا حتى تفنى، جميع مظاهر الرحمة التي ترى في علاقة الآباء بالأبناء، والمومنين بعضهم ببعض، والوالد بولده، والوالدة بولدها، وعلاقة جميع الكائنات، وجميع مظاهر الرحمة والرأفة والحنان كلها تدخل في قسمة واحدة، وهي مَجْلَى صفة الرحمن ﴿وَرَحْمَتِي وَسِعَتْ كُلَّ شَيْءٍ﴾(الأعراف:١٥٦)، وتسعة وتسعين للرحيم ﴿فَسَأَكْتُبُهَا لِلَّذِينَ يَتَّقُونَ﴾(الأعراف:١٥٦). شاع بين الناس أن الله رحمن الدنيا ورحيم الآخرة وذلك له شواهده ومنها هذا. الرحيم لشدة الرحمة، والرحمن لسعتها، والرحمة لسعتها يدخل فيها جميع الخلائق كفارا كانوا أم مومنين، أحياء كانوا أم غير أحياء، أم جمادات، أما اسمه الرحيم، فهو للمومنين ﴿وَكَانَ بِالْمُؤْمِنِينَ رَحِيمًا﴾(الأحزاب:٤٣)، تلك الرحمة تتجلى أساسا في الجنة، وفيما أعد الله لأهل الجنة، ﴿لِلَّذِينَ أَحْسَنُوا الْحُسْنَى وَزِيَادَةٌ﴾(يونس:٢٦)، ﴿وَلَدَيْنَا مَزِيدٌ﴾(ق:٣٥)، هذا الثواب العظيم جدا الذي نقيس الغائب فيه على الشاهد؛ فإذا كانت الرحمة الواحدة من المائة من رحمة الله قد غرق فيها جميع الخلائق فكيف هي هذه الرحمة؟

ومن ثم فالفرح أساسا بفضل الله وبرحمته ﴿قُلْ بِفَضْلِ اللهِ وَبِرَحْمَتِهِ فَبِذَلِكَ فَلْيَفْرَحُوا﴾(يونس:٥٨)، "ما من أحد يدخله عمله الجنة" فقيل: ولا أنت يا رسول الله؟ قال: "ولا أنا، إلا أن يتغمدني ربي برحمة" (رواه مسلم). ومن تغمُّده برحمته التوفيق إلى فعل ما يوجب رحمته ﷻ ﴿تِلْكُمُ الْجَنَّةُ أُورِثْتُمُوهَا بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ﴾(الأعراف:٤٣). فإذا هذه السلعة عظيمة الشأن جدا، شيء لا يتخيله الذهن حتى إذا أراد تخيله لا يستطيع تخيله، فلابد أن يكون ثمنه كذلك مرتفعا، لابد أن يكون عاليا "ألا إن سلعة الله غالية، ألا إن سلعة الله الجنة" (رواه الترمذي). المومنون ما كان يحركهم وما يحركهم ولن يحركهم حق التحريك إلا مثل هذه السلعة، فهم عن الدنيا وفيها زهدوا، لأنها



فانيـــة بكل ما فيها، فكيف يمكن التعويل على أي شـــيء فيها. تدبرتُ في الأمر فوجدتهـــا تتلخص في هذا: لابد من ثمن يكافئ المُثمَن، يكافئ السلعة التي ستشترى، وبما أن هذه السلعة هي الجنة فتحتاج إذا إلى ثمن باهظ، ولكنه أيضا يســير على من يسره الله عليه، كما في الحديث الصحيح (رواه الترمذي).

التربية بالأخطاء

البشـــائر بالنســبة للمؤمنين كثيرة جدا، فيها العام وفيها الخاص وفيها القريب وفيها البعيد. وأعظمها هذه البشرى، بشرى الجنة، ورضـــوان الله ﷻ؛ فالله وعد المومنـــين بالنصر وجعله حقا عليه ﴿وَكَانَ حَقًّا عَلَيْنَا نَصْرُ الْمُؤْمِنِينَ﴾(الروم:٤٧)، وقال: ﴿إِنْ تَنْصُرُوا اللهَ يَنْصُرْكُمْ﴾(محمد:٧) في أي لحظة تاريخية وأي بيئة وأي وســـط ﴿إِنْ تَنْصُـــرُوا اللهَ يَنْصُرْكُمْ﴾، إذا لم تجد جواب الشـــرط فاعلم أن الشـــرط فيه خلل، أما جواب الشـــرط فلا يمكن أن يتطرق إليه خلل مع وجود الشـــرط. فإذا رأينا في الخارج ما لم يعجبنا، فلنتامل جميعا قول الله تعالى: ﴿أَوَلَمَّا أَصَابَتْكُمْ مُصِيبَةٌ قَدْ أَصَبْتُمْ مِثْلَيْهَـــا قُلْتُمْ أَنَّى هَذَا قُلْ هُوَ مِنْ عِنْدِ أَنْفُسِـــكُمْ﴾(آل عمران:١٦٥) ليـــس من جنس خارجي، ليس من اليهود ولا من النصارى كما يحدث عادة في التحليل لأوضاع وأحوال المسلمين، الكل لا أصل له، التعليل والتحليل الصحيح القرآني الســـنني دائما داخلي. وما أصاب المســـلمين في السيرة النبوية لا في أُحُد، ولا في حنين، ولا في أي وقت إلا بما كسبت أيديهم، وذلك لظروف عظيمة تنبني على ذلك. فالتربية بالأخطاء هي وجه من وجوه التربية العظيمة، لأن الإنســـان قبل أن يصيبه جزاء الخطأ تقريبا قد يكون سكران ســـاهيا، ولا يصحو إلا بعد نزول الصفعة، إذ ذاك يتهيأ نفســـيا للتلقي. صحيح كما قال ﷺ "السعيد من وعظ بغيره" (رواه مسلم)، ولكن هذه درجة عالية، ومن أجلها قص القصص ﴿لَقَدْ كَانَ فِي قَصَصِهِمْ عِبْرَةٌ لِأُولِي الْأَلْبَابِ﴾(يوسف:١١١)، لأن في القصص وفي غير القصص، في أمـــور الكون التي يفكر فيها، ما يكفي للدلالة والإرشاد، لكن لمن كان فيه ما يلزم من الاستعداد. أما إذا لم يكن ذلك الاســـتعداد فإنه لابد من تهييء ظروف الاستعداد بأشكال من الصفع والضرب والركل وما أشبهها، تتجلى بأشكال مختلفة لتُهيئ الجـــو للتلقي، وإن ما حدث للمســـلمين بصفة عامة في القرنـــين الأخيرين هو من النقم التي في طيها كثير من النعم، فهي نقم فيها عدل الله وفضله؛ ﴿وَمَا رَبُّكَ بِظَلَّامٍ لِلْعَبِيدِ﴾(فصلت:٤٦) لأن ما أصابنا فيها كان على السُنّة ﴿وَمَا أَصَابَكُمْ مِنْ مُصِيبَةٍ فَبِمَا كَسَبَتْ أَيْدِيكُمْ﴾(الشورى:٣٠). فظاهرة الاستعمار جملة في العالم الإسلامي، كل ذلك بما كسبت أيدينا. وبما أن الذين كلفوا بحمل الأمانة ووكل إليهم أمر الشـــهادة علـــى الناس، ما حملوا الأمانة وفرطوا فيها، وأخلـــدوا إلى الأرض واتبعوا هواهم فابتلاهم الله بأشكال من الابتلاءات. وأقول: فيه عدل الله ﷻ، وفضله، ومن ذلك الفضل هذا الوجه الثاني للأمر، وهو أن هذا السكر بالدنيا لا سبيل إلى إيقاظ المسلمين منه إلا بمثل هذه الصواعق المحرقة، وهذه الكوارث، لأنه لولا مثل هذه الصواعق ما استطعنا أن نستيقظ، ومـــا كان ما يتحدث عنه اليوم بالصحوة الإســـلامية التي نرجو أن تَرشُـــد وأن تتسع وأن يمكّن الله لها في الأرض بجوده وكرمه.

فـــإذاً الله وَعَد ووعده صادق، ولكـــن ما وعد الله وعدا إلا مشـــروطا، وعوده بالنصر العام، أو بالتخصيص بالنصر في الدنيا مثل ﴿إِنَّا لَنَنْصُرُ رُسُـــلَنَا وَالَّذِينَ آمَنُوا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَيَوْمَ يَقُومُ الْأَشْـــهَادُ﴾(غافر:٥١) و"الذين آمنوا" حتى ولو لم يكونوا الرســـل ﴿فِـــي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَيَـــوْمَ يَقُومُ الْأَشْـــهَادُ﴾ "في الحياة الدنيا" بالتحديـــد، و"إن" و"لننصر" كلها توكيدات. ثم جمع هذا الأمر في صورة السُنة الماضية الكونية في صورة ﴿وَلَقَدْ كَتَبْنَا فِي الزَّبُورِ مِـــنْ بَعْدِ الذِّكْرِ أَنَّ الْأَرْضَ يَرِثُهَا عِبَادِيَ الصَّالِحُونَ﴾(الأنبياء:١٠٥) سواء كانت "الأرض" بمعنى صغير كما ذهب بعض العلماء بأنها بمعنى "فلســـطين" فقط ﴿ادْخُلُوا الْأَرْضَ الْمُقَدَّسَةَ الَّتِي كَتَبَ اللهُ لَكُمْ﴾(المائـــدة:٢١)، أو كانت الأرض هـــذه الدنيا الكرة الأرضية كلها، أو كانت الأرض هي الجنة ﴿وَقَالُوا الْحَمْدُ لِلهِ الَّذِي صَدَقَنَا وَعْدَهُ وَأَوْرَثَنَا الْأَرْضَ نَتَبَوَّأُ مِنَ الْجَنَّةِ حَيْثُ نَشَاءُ﴾(الزمر:٧٤) المعاني لا يوجد لها مخصـــص في الآية ولا داعي للتخصيص، بل ما جاء من الآيات بعدُ جاء موضحا لأشـــكال الأرض، فهي سابقة على الأولى، وسابقة على الثانية، وسابقة على الثالثة.

العبادة بالاختيار

فالله وعــد في الذكر الأول وفي الزبور وفيمــا جاء مما نزل من الكتب، وحــتى نزول الكتــاب كله وهو القــرآن، وعد بأن الأرض يرثهــا عباد الله الصالحون، قال الله: ﴿وَلَقَدْ كَتَبْنَا﴾ هذا أمر قد كُتب وفرغ منه، ولكن الشــرط دائما حاضر ﴿عِبَادِيَ الصَّالِحُونَ﴾ ﴿عِبَادِيَ﴾، إن هذه اللفظة - لفظة عبد الله- ليست لفظة عادية، لفظة فيها كثير من الأهمية والخطورة، فالله سبحانه حــين أراد أن يمدح محمدا ﷺ سماه "عبد الله" ﴿سُبْحَانَ الَّذِي أَسْرَى بِعَبْدِهِ﴾(الإسراء:١) ما قال: "برسوله"، ولا قال: "بنبيه"، بل قال" "بعبده". فلفظة "عبادي"، وليس "عبيدي" أيضا فيها سر، لأن هناك "العبادة بالاضطرار"، وهناك "العبادة بالاختيار"، ولفظ "العبيد" في الغالب، إلا في بعض السياقات يذهب عادةً إلى العبادة بالاضطرار فالكل ﴿آتِي الرَّحْمَنِ عَبْدًا﴾(مريم:٩٣) ولكن العابد لله بالاختيار هو الذي جعل من نفســه عبدا، هو اختار من نفســه عبدا لله، هو عبد الله بطبيعــة الحال، ولكن بمعنى الاختيار جعل نفســه عبدا لله، "عبد الله" هذا يجمع على "العباد"، على "عباد الله"، و"عبــاد الرحمن"، ليس و"عبيد الرحمن"، هذا من "العبادة" وليس من "العبدية". فالعبادة ببساطة أن تجعل من نفسك عبدا لله باختيارك، إذا جعلت من نفســك باختيارك عبدا لله فأنت عابد لله، وأنت من هؤلاء: "عبادي" الذين يرثون.

الصالحون المصلحون

شــرط آخر: ﴿الصَّالِحُونَ﴾ هذا مزيد من البيان، وإلا فعباد الله فيها كل شــيء، تماما مثلما يقــول الله ﷻ: "الله"، ثم يأتي بعد ذلك بالأسماء الحســنى، وكلها مضمنة في "الله". فعباد الله فيهم صفــات كثيرة، لخص تلك الصفات ههنــا في "الصالحين" فمَن هــم الصالحون؟ ﴿وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُــوا الصَّالِحَاتِ لَنُدْخِلَنَّهُمْ فِــي الصَّالِحِينَ﴾(العنكبوت:٩). فالصالحون هم الذين آمنوا وعملوا الصالحــات، و"الباقيات الصالحات" هي كل شــيء، الباقيات الصالحات جميع الأعمال، فهــذا الوعد كبير وعام، كوني لكن يحتاج إلى شرطين:

١-شرط الإيمان. ٢-شرط الصلاح والأهلية.

الصلاح في هذه الأمة متمثل أساسا في إصلاحها للناس، لأنها أخرجت أساسا للناس، إذ لها خصوصية لكن الآية عامة.

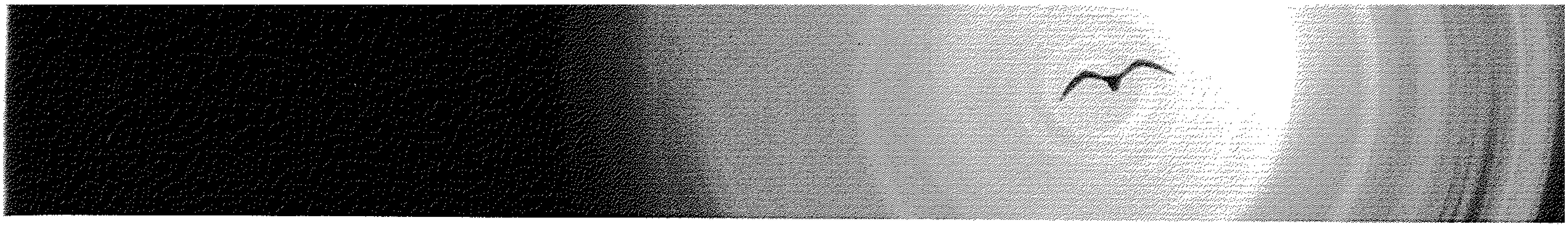
صناعة التوحيد والإيمان

ثم البشرى في الآخرة بالجنة وردت في أماكن ﴿أَلاَ إِنَّ أَوْلِيَاءَ اللهِ لاَ خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلاَ هُــمْ يَحْزَنُونَ ۞ الَّذِينَ آمَنُوا وَكَانُوا يَتَّقُونَ ۞ لَهُمُ الْبُشْــرَى فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَفِي الآخِرَةِ﴾(يونس:٦٢-٦٤). وفي سورة الصف جاءت البشرى ﴿وَبَشِّرِ الْمُؤْمِنِينَ﴾(البقرة:٢٢٣)، حين نسمع لفظ ﴿الْمُؤْمِنِينَ﴾ في القرآن مستقلا عن أي شرط، نعلم علم اليقين أن ما سواه يدخل فيه، وما يأتي بعده كله داخل فيه، لو قال الله: ﴿وَالْعَصْرِ ۞ إِنَّ الإِنْسَانَ لَفِي خُسْرٍ ۞ إِلاَّ الَّذِينَ آمَنُوا﴾(العصــر:١-٣) فقط وســكت، فاعلم علم اليقين أنه يدخل فيها: ﴿وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَتَوَاصَوْا بِالْحَقِّ وَتَوَاصَوْا بِالصَّبْرِ﴾. فحين يذكر الإيمان وحده فهو يشمل العمل، لأنه لا يتصور إيمان بــدون عمل، إنما في أذهان الناس وفي عقل المتكلمين، أي الذين اشتغلوا بصناعة التوحيد لا في صناعة الإيمان، إذ كان رسول الله ﷺ مشتغلا بالإيمان فيمارس الإيمان ويتكلم بالإيمان وعن الإيمان وفي أهل الإيمان، وجاء الناس بعدُ وتكلموا في التوحيد وتكلموا في الكلام، وبقي الكلام مع الكلام وصارت الأمة إلى ما صارت إليه.

فالإيمان بالتعبير القرآني يستلزم العمل إلزاما، ويستلزم العمل الصــالح، إلا أنه نظــرا إلى أن الناس يحتاجــون دائما إلى مزيد مــن البيان والتكرار والتوضيح فــالله ﷻ بيّن ووضّح حتى قطع الحجة، ومن أجل ذلك أرســل الرسل، وضرب الأمثال، وقص القصص، بيّن كل شــيء ﴿لِئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَى اللهِ حُجَّةٌ بَعْدَ الرُّسُلِ﴾(النساء:١٦٥). وانقطاع الحجة بالرسل باعتبارهم يعطون المثل البشــري للتطبيق الشــرعي؛ تراه أمامك ماثلا يمشي على رجليه، ها هو مطبق، وتطبيقه له لا من جهة كونه رسولا، وإنما من جهة كونه بشرا، بمعنى أنه أطاق ذلك وهو بشر، لم يطقه لأن فيه قوة خاصة جاءته وهــو ملك، لا، وإلا ما صار قدوة للناس ﴿لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُــولِ اللهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ﴾(الأحزاب:٢١) لأنه فعل ما يفعله البشر ويطيقه البشر، والله كلف البشر بما في وسعهم ﴿لاَ يُكَلِّفُ اللهُ نَفْسًا إِلاَّ وُسْعَهَا﴾(البقرة:٢٨٦).

المحن والمنح

فالبشــائر كثيرة ووعد الله عظيــم للمؤمنين في أي فترة وفي أي



مرحلــة، ولكن تلك الوعود جميعا لا نفــاذ لها، ولن تكون إلا إذا وجدت شــروطها وأثمنتها. والأثمنــة عندما ندخل إلى الثمن يبتــديء المفهوم الآخر وهو الذي يبتــدئ بقوله تعالى في آيات تم الكلام عنها: ﴿الم ۞ أَحَسِــبَ النَّــاسُ أَنْ يُتْرَكُوا أَنْ يَقُولُوا آمَنَّــا وَهُمْ لاَ يُفْتَنُونَ ۞ وَلَقَدْ فَتَنَّا الَّذِيــنَ مِنْ قَبْلِهِمْ فَلَيَعْلَمَنَّ اللهُ الَّذِيــنَ صَدَقُوا وَلَيَعْلَمَــنَّ الْكَاذِبِينَ﴾(العنكبــوت:١-٣)، والفَتْن في العربيــة: وضع المعدن (الذهب أو الفضة) على النار الشــديدة حتى يذوب وتطفو الشــوائب فيصفى من تلك الشوائب ويبقى المعدن ذهبا خالصا أو فضة خالصة. فإذن المؤمن فيه شوائب قبل تصفيته بالفتن، فالفَتن ضروري وســنة ماضية، وبه يتميز الناس.

ما أشبه الإيمان بمنحة ربانية يعطاها الناس الذين أكرمهم الله دون سابق عمل؛ فليس منح الإيمان منحة خالصة لا يسبقها عمل هي جزاء لهم؛ فقد يكون الإنسان كافرا ثم يصبح مومنا، لم يفعل عملا صالحا قبل، لأنه لا قبول للعمل الصالح دون وجود الإيمان، فهي منحة. تصور أن أبا -ولله المثل الأعلى- عنده أبناء متعددون أعطاهم دفعة واحدة مليــون درهم ثم قال لهم اذهبوا، تصرفوا؛ فبعضهم نمى ذلك المال، وبعضهم أكله من ليلته قامر به، وبعضهم لهى عنه حتى سرق له. كلٌّ له تصرف فيه، فكذلك الناس-و لله المثل الأعلى- يُمنحون الإيمان، ويمنحون القدر الضروري الذي إن نمّوه زكت نفوســهم ووصلوا إلى أعلــى الدرجات مصداقا لقولــه تعالى: ﴿يَرْفَعِ اللهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنْكُــمْ وَالَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ دَرَجَاتٍ﴾(المجادلــة:١١)، ولكن هناك نــاس لا يزكون ذلك ولا ينمونه فيتناقص حتى يذهب. فكم من ناس كانوا مؤمنين فكفروا وارتدوا. حتى في زمن رســول الله ﷺ وقع هذا، وفي كل زمان يقع هذا ويمكن أن يقع. وإن كل نعمة هي في الحقيقة منحة، انظر إلى قولــه تعالى: ﴿وَلَوْلاَ فَضْلُ اللهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُ مَا زَكَا مِنْكُمْ مِنْ أَحَدٍ أَبَدًا وَلَكِنَّ اللهَ يُزَكِّي مَنْ يَشَــاءُ﴾(النور:٢١)، ولذلك قال رسول الله ﷺ "اللهم آت نفســي تقواها وزكيها أنت خير من زكاها أنت وليها ومولاها" (رواه مسلم) رغم أنه قال لنا: ﴿قَدْ أَفْلَحَ مَنْ زَكَّاهَا ۞ وَقَدْ خَابَ مَنْ دَسَّاهَا﴾(الشــمس:٩-١٠) وأنه أعطانا التصرفَ ولكن التوفيق منه ﷻ. فكل نعمة هي في أصلها منحة، وتحتــاج إلى تنمية أيضا، بالتزكية، بالزكاة. وبالزكاة تربو النعمة وتزداد، ﴿أَمْ حَسِــبْتُمْ أَنْ تَدْخُلُوا الْجَنَّــةَ وَلَمَّا يَأْتِكُمْ مَثَلُ الَّذِينَ خَلَوْا مِنْ قَبْلِكُمْ مَسَّتْهُمُ الْبَأْسَاءُ وَالضَّرَّاءُ وَزُلْزِلُوا﴾(البقرة:٢١٤) مثل الزلزلة التي تحدث عنها القرآن ﴿هُنَالِكَ ابْتُلِيَ الْمُؤْمِنُونَ وَزُلْزِلُوا﴾(الأحــزاب:١١) وقولــه: ﴿إِذَا زُلْزِلَــتِ الأَرْضُ زِلْزَالَهَا﴾(الزلزلة:١) زلزلــت القلوب من شــدة الرعب، والهــول والضيق، ولكن مع الإيمان القــوي تثبت والله المثبت، ﴿يُثَبِّــتُ اللهُ الَّذِينَ آمَنُوا بِالْقَــوْلِ الثَّابِتِ فِي الْحَيَــاةِ الدُّنْيَا وَفِــي الآخِرَةِ﴾(إبراهيم:٢٧).

﴿أَمْ حَسِبْتُمْ أَنْ تَدْخُلُوا الْجَنَّةَ﴾ هذه التي تحدثنا عنها أن فيها تسعة وتسعين من الرحمة التي رأينا نموذجا واحدا، التي نحس بواحد على ما لا نهاية بالتعبير الرياضي تقريبا من سعة هذه الرحمة وعظمة هذه الرحمة الموجودة في الكون الآن. فهي مجرد قسمة، فتلك التسعة والتسعين مثل وضعف لذلك الضعف، ﴿حَتَّى إِذَا اسْتَيْئَسَ الرُّسُلُ وَظَنُّوا أَنَّهُمْ قَدْ كُذِبُوا جَاءَهُمْ نَصْرُنَا﴾(يوســف:١١٠) اشتدي أزمة تنفرجي. فإذا سنة البلاء سنة كونية حياتية حين قال الله: ﴿خَلَقَ الْمَوْتَ وَالْحَيَاةَ﴾ ثم لحق ﴿خَلَقَ الْمَوْتَ وَالْحَيَاةَ لِيَبْلُوَكُمْ﴾(الملك:٢) ليســت فقط في الحياة، بل حتى الموت نحن مع الفتنة ﴿وَنَبْلُوكُمْ بِالشَّــرِّ وَالْخَيْرِ فِتْنَةً﴾(الأنبيــاء:٣٥). فالإنسان حين يكون في عافية لا يظنــن أنه ليس في فتنة أو ليــس مبتلى، بل هو مبتلى إذ ذاك، حين يكون مبتلى بتلك العافية هل يشكر نعمة الله أو لا يشكر؟

تمييز الخبيث من الطيب

وههنا نقطة أحســبها في غاية الأهمية وهي أن الله أســس الأمر على البلاء والفتن، وعلى أساســه تكــون الرتب عند الله وفي الدنيا، ﴿لِلْفُقَرَاءِ الْمُهَاجِرِينَ الَّذِينَ أُخْرِجُوا مِنْ دِيارِهِمْ وَأَمْوَالِهِمْ يَبْتَغُونَ فَضْلاً مِنَ اللهِ وَرِضْوَانًا وَيَنْصُرُونَ اللهَ وَرَسُولَهُ أُولَئِكَ هُمُ الصَّادِقُونَ﴾(الحشر:٨). ووسام الصدق أعلى وسام، ولذلك طلب الله مــن جميع المومنين أن يكونوا مع هؤلاء ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللهَ وَكُونُوا مَعَ الصَّادِقِينَ﴾(التوبة:١١٩).

سنة البلاء هذه -بصفة عامة- تقوم على الفتن، والفتن يؤدي إلى تمييز الخبيث من الطيب، وإن في المؤمنين الخبيث والطيب؛ كما

قـــال الصحابة بعد نزول الآية: ﴿مَا كَانَ اللهُ لِيَذَرَ الْمُؤْمِنِينَ عَلَى مَا أَنْتُمْ عَلَيْهِ حَتَّى يَمِيزَ الْخَبِيثَ مِنَ الطَّيِّبِ﴾(آل عمران:١٧٩)، قالوا: ما كنا نظن أنه يوجد خبيث وطيب في المومنين. فإذاً فينا خبيث وطيب، والخبث يحتاج إلى نار الفتن لحرقه في الدنيا رأفة بالمؤمن حـــتى لا يحرق في الآخرة، لأن كل خبيث في المومن بعد لقيا الله ﷻ لابد من أن تحرقه النار إلا أن يشـــاء الله شيئا بفضله وكرمه. السُّـــنة العادية أنه لا يدخل الجنة إلا من يقال له: ﴿سَلَامٌ عَلَيْكُمْ طِبْتُمْ﴾(الزمر:٧٣)، و"إن الله طيب لا يقبل إلا طيبا" (رواه مسلم). ولا يدخل داره دار السلام إلا الطيبون، أولئك يقال لهم: ﴿فَادْخُلُوهَا خَالِدِينَ﴾(الزمـــر:٧٣)، أما قبـــل أن تطيبوا لا دخول، أما إذا وجد في المؤمـــن جوانب طيبة وجوانب خبيثـــة، فلا يخلوا من أمرين:

- إما أنه في هذه الدنيا ينقى بالفتن بأشكال يختارها الله.
- وإما أنه -لا قدّر الله- يؤخر ذلك إلى يوم القيامة وينقى بعذاب جهنـــم ثم يدخل الجنة بعد. لكن لابد أن يطهر، لابد أن يطيب.

الأشباح في يد الأرواح

هـــذا الفَتْن ضروري في عملية التصنيف هنا وهنالك، وهو رحمة بالمؤمنين، وتنقية لصفوفهم وقلوبهم، وتزكية لأرواحهم، وتقوية لهم أيضا، لأنهم كلما طابوا خفت أجسامهم وأرواحهم، فخفت أجسامهم، لأن الأشباح في يد الأرواح؛ لماذا يحس الإنسان بالثقل إذا طلـــب منه أن يجاهد بماله أو بوقته أو بنفســـه؟ أو إذا قيل له جاهدْ بدرهم يعطيه بيسر، بعشـــرة دراهم، ربما يعطيه ربما يبدأ في الإحساس بالثقل، خمسين درهما، البعض ما زال يحس بالخفة، البعـــض بدأ يحس بالثقل، حتى ربما يثقل الجميع فـــ﴿مَا لَكُمْ إِذَا قِيلَ لَكُمُ انْفِرُوا فِي سَبِيلِ اللهِ اثَّاقَلْتُمْ إِلَى الْأَرْضِ﴾(التوبة:٣٨)، هذا الثقل سببه ما في النفس مما ليس بطيب، فالروح حين تزكوا تخف وتصبح كالطائر، وتســـهل عليه أن تطير إلى الله ﷻ، فحين قال ﷺ للأنصار: "إنكم لتكثرون عنـــد الفزع وتقلون عند الطمع" (رواه العســـكري في الأمثال)، لأنهم ربطوا أنفســـهم بالآخرة، يكثرون عنـــد الفزع لأنه فيه البلاء، فكأنهم يرغبون فيما عند الله مما تكره النفس، أما حين يكون الأمر أمرا دنيويا خالصا، فهم يقلون.

وهذا الفتن له صورتـــان: صورة وهي أن العبد تنـــزل عليه بلايا نزولا، وصورة أنه هو يطلبها.

أنواع البلايا

والبلايـــا أنواع؛ فيها ما يطلب وفيها ما لا يطلب. نحن لا نطلب المرض مثلا، "فاســـألوا الله العافية" (رواه الطبراني)، وهناك نوع من البلاء يطلب، كبلاء الجهاد بجميع صوره، طُلب منا أن نطلبه وهو بلاء. الاستشـــهاد آخر صور الجهاد، فأن تجاهد نفسك في ذات الله، وأن تجاهد شهوتك وولدك وتجارتك... حتى تجاهد روحك التي بين جنبيك في ســـبيل الله وتعطيها راضيا في سبيل الله وابتغاء مرضـــاة الله، إن قدّمتَ هذا برغبـــة منك في ذلك، هذا عوّضك النـــوعَ الآخر، وإلا طُهّرت بالنوع الآخر، والله الذي يختار ﷻ، فقد يختار من هـــذا وهذا، وقد يختار من هذا دون هذا ﴿وَرَبُّكَ يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ وَيَخْتَارُ مَا كَانَ لَهُمُ الْخِيَرَةُ﴾(القصص:٦٨)، لكن إن تأملنا حال الصحابة، وتأملنا عددا من الأحوال نجد أن الإنســـان بفضل الله تعالى إن صدق الله ورسوله وأخلص، ولا يكون ذلك إلا ببذل، ليس الصدق أمرا نفسيا خالصا وكفى، لأن الصدق دليله في الجهاد، دليله في الواقع، في التضحية، إن حدث ذلك الله يدفع بذلك إداية أخرى من نوع آخر، وها هو يقول "ولا يزال البلاء بالعبد المومـــن حتى يلقى الله وما عليه خطيئة" (رواه الترمذي)، حتى يطيب، يصير طيبا، يعني قد تهيأ تماما لاستقبال الملائكة له، فيقال له: ﴿سَلَامٌ عَلَيْكُمْ طِبْتُمْ فَادْخُلُوهَا خَالِدِينَ﴾(الزمر:٧٣). والمقصود أن نكون عبيدا لله بالاختيار لا بالاضطرار وأن نختار نحن أن نقدم مـــا أعطانا هو راضين برغبة منا بدل أن ينتزع ذلك منا اضطرارا وكرها وهو يجرنا إلى الله ﷻ كما قال ﷺ: "عجب ربك من قوم يقادون إلى الجنة بالسلاســـل" (رواه البخاري) يعني يجرنا إليه جرا إلى رضوانه بطريقة أخرى، حين أراد سبحانه بنا الخير. ولا أعلم في الصيغ التي استعملها رسول الله في أمر الإصابة والخير إلا صيغتين:

- "من يرد الله به خيرا يفقهه في الدين" (متفق عليه).
- "من يرد الله به خيرا يُصبْ منه" (رواه البخاري).

فهما متكافئتـــان؛ مَن فقه في الدين يطلب هذا الذي أمر الله به راضيا مختارا، ومن يرد الله به خيرا يصب منه، من طلب ذلك راضيا مختارا نتج عنه أجور، والأجور ينتج عنها تكفير للخطايا. ■

(*) الأمين العام لمؤسسة البحوث والدراسات العلمية (مبدع) / المغرب.

مظاهر جلال الربوبية في القرآن



أ.د. محمد سعيد رمضان البوطي*

إن الصفات التي يتميز بها كتاب الله (القرآن) عن سائر الكتب السماوية كثيرة ومتنوعة. ولكني أحب أن ألفت النظر إلى مزيتين اثنتين، هما من أبرز مظاهر إعجازه، لم يرق على شأوهما أي كتاب آخر.

أما أولى هاتين المزيتين؛ فما نعلمه جميعا، من أنه وصل إلينا من فم رسول الله ﷺ ضمن سلسلة متصلة من التدوين الكتابي الدقيق، والتلقي الشفهي السليم، سارا جنبا إلى جنب إلينا في تطابق واتفاق، واستمر ذلك إلى هذه الساعة من يومنا هذا، لا نرى على طول هذه السلسلة الممتدة حلقة مفقودة أو ثغرة ينفذ منها الشك أو اختلافا يبعث على الريبة. فلكأننا من هذا الكتاب الرباني أمام شمس واضحة مشرقة تسير أمام أعيننا في قبة السماء الصافية، ليس في طريقها مزقة سحاب تفشي عليها، وليس بيننا وبينها أي زوبعة أو ضباب يمكن أن يحجب شيئا من ضيائها عنا.

والحديث هنا لا يتسع للتذكير بالكتابة الأولى التي عكف عليها كتاب الوحي بأمر ومراقبة من رسول الله ﷺ، ثم بالكتابة الثانية التي قام بها زيد بن ثابت بأمر من سيدنا أبي بكر وكان الهدف منها جمع القرآن لأول مرة بين غلافين، ثم بالكتابة الثالثة التي أمر بها سيدنا عثمان بن عفان وعهد بذلك إلى أربعة من كبار قراء القرآن وحفاظه وهم زيد بن ثابت وعبد الله بن الزبير وسعيد بن العاص وعبد الرحمن بن حارث بن هشام ﷺ، فكتبوا سبع نسخ ملتزمين بكتابة زيد بن ثابت الذي التزم بكتابة كتاب الوحي، واعتمد فيما كان يكتب على السماع من شاهدين اثنين من حفظة القرآن، بالإضافة إلى اعتماده على ما كان قد كتبه كتاب الوحي في بيت النبوة. فوزع عثمان النسخ السبعة على أمهات الأمصار آنذاك: الكوفة، والبصرة، والشام واليمن ومكة والبحرين، واستبقى عنده المصحف الإمام وهو ذاك الذي كتبه زيد بن ثابت في خلافة أبي بكر.

فأي خبر أو كتاب سار خلال القرون في مثل هذا النفق

العجيب من الحفظ والوقاية ثم لم تستطع أي يد أن تدنو بأي عبث غليه أو تغيير لكلمة منه، على الرغم من كثرة من ابتغى ذلك. اللهم إن العقل لا يدرك أيّ موجب لهذه الوقاية إلا أن المصداق الدقيق الذي أعلنته القرون لقوله تعالى: ﴿إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ﴾(الحجر:٩) ولقوله تعالى: ﴿وَإِنَّهُ لَكِتَابٌ عَزِيزٌ ۞ لاَ يَأْتِيهِ الْبَاطِلُ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَلاَ مِنْ خَلْفِهِ تَنْزِيلٌ مِنْ حَكِيمٍ حَمِيدٍ﴾(فصلت:٤١-٤٢).

وأما المزية الثانية، فهي تلك التي ينبغي أن تُسمّى "مظهر جلال الربوبية" في القرآن.

وإنها لأبرز مظهر من مظاهر إعجاز القرآن. إنه المظهر الذي يسري الشعور به إلى العامة الذين لا يتمتعون بدراية واسعة للغة العربية، بل يسري الشعور به حتى إلى نفوس كثير من الأعاجم الذين لا يملكون من الثقافة القرآنية إلا إيمانهم العميق بالله ﷻ.

إن مظهر جلال الربوبية في القرآن، يعني خلوه من الطبائع والصفات البشرية كلها، إنك إن تأملت في الآيات التي تقرؤها أو تصغي إليها من القرآن، رأيتها مرآة لجلال الربوبية وصفات الألوهية. ومهما تأملت، فلن تجد في شيء منها إلا ما يضاد الطبيعة والحاجات البشرية ومظاهر الضعف الإنساني التي يفيض بها كلام الإنسان أيا كان، وأيا كان نوع الحديث الذي يتناوله.

إن من المعلوم أن الكلام مرآة دقيقة لطبيعة المتكلم وصفاته واحتياجاته، وما تتجلى الأغوار النفسية لشخص ما على شيء، كما تتجلى على ما يكتبه أو يقوله. لذا فإن من العسير أن يقلّد كاتب كاتبا آخر في أسلوبه إذا كتب.. لقد حاول كثيرون أن يقلدوا أسلوب الجاحظ مثلا، فلم يتأت لهم ذلك، لأن الأسلوب ليس طريقة معينة في صوغ العبارة فقط، بل الأسلوب -قبل ذلك- مرآة دقيقة لنفسية صاحبه، فلئن استطاع أحدهم أن يقلّد الآخر في صوغ العبارات، فهيهات أن يستطيع تقليده في خصائصه النفسية وطبائعه البشرية.

فإذا كان هذا واضحا، فأحرى -في باب البداهة والوضوح- أن لا يستطيع الإنسان -أيا كان- أن يتجرد عن بشريته وصفاته الإنسانية، ثم يجعل من نفسه إلهاً يتصف بكل ما لا بدّ أن يتجلى في ذات الله من مظاهر الربوبية المضادة للطبيعة البشرية، ثم ينطق بكلام تبرز فيه هذه الألوهية بكل ما فيها من كبرياء وجلال.

إن هذا مستحيل بلا شك، لأن الطبيعة البشرية لا يمكن أن تتخلّى عن صاحبها لحظة من حياته.

براءة القرآن من المظاهر البشرية

ولكن القرآن مبرّأ من سائر مظاهر البشرية والضعف الإنساني وحاجاته الفطرية. إنه الكلام العجيب الذي يشعّ بجلال الربوبية ومظاهر الألوهية من خلق وإيجاد وإحياء وإماتة وسيطرة وإحاطة.. وإنه لشعاع بيّن يخترق إلى السامع والقارئ حواجز اللغة وفوارق ما بينها.

عندما يهيمن القرآن، ويأخذ بمجامع النفس، ويملأ الفؤاد هيبة وتعظيما له، فإن الذي يبعث ذلك كله في النفس، إنما هو مظهر جلال الربوبية فيه، وهو من أجلى مظاهر إعجازه.

إليكم هذه النماذج من الآيات التي تتنزل من علياء الربوبية، وليسأل كل منا عقله: أفيمكن أن تكون هذه الآيات مما يستطيع أن ينطق به بشر من الناس؟!

﴿فَوَرَبِّكَ لَنَحْشُرَنَّهُمْ وَالشَّيَاطِينَ ثُمَّ لَنُحْضِرَنَّهُمْ حَوْلَ جَهَنَّمَ جِثِيًّا ۞ ثُمَّ لَنَنْزِعَنَّ مِنْ كُلِّ شِيعَةٍ أَيُّهُمْ أَشَدُّ عَلَى الرَّحْمَنِ عِتِيًّا ۞ ثُمَّ لَنَحْنُ أَعْلَمُ بِالَّذِينَ هُمْ أَوْلَى بِهَا صِلِيًّا ۞ وَإِنْ مِنْكُمْ إِلاَّ وَارِدُهَا كَانَ عَلَى رَبِّكَ حَتْمًا مَقْضِيًّا ۞ ثُمَّ نُنَجِّي الَّذِينَ اتَّقَوْا وَنَذَرُ الظَّالِمِينَ فِيهَا جِثِيًّا﴾(مريم:٦٨-٧٢) ﴿إِنَّنِي أَنَا اللهُ لاَ إِلَهَ إِلاَّ أَنَا فَاعْبُدْنِي وَأَقِمِ الصَّلاَةَ لِذِكْرِي﴾(طه:١٤) ﴿وَإِنْ كَادُوا لَيَفْتِنُونَكَ عَنِ الَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ لِتَفْتَرِيَ عَلَيْنَا غَيْرَهُ وَإِذًا لاَتَّخَذُوكَ خَلِيلاً ۞ وَلَوْلاَ أَنْ ثَبَّتْنَاكَ لَقَدْ كِدْتَ تَرْكَنُ إِلَيْهِمْ شَيْئًا قَلِيلاً ۞ إِذًا لَأَذَقْنَاكَ ضِعْفَ الْحَيَاةِ وَضِعْفَ الْمَمَاتِ ثُمَّ لاَ تَجِدُ لَكَ عَلَيْنَا نَصِيرًا ۞ وَإِنْ كَادُوا لَيَسْتَفِزُّونَكَ مِنَ الأَرْضِ لِيُخْرِجُوكَ مِنْهَا وَإِذًا لاَ يَلْبَثُونَ خِلاَفَكَ إِلاَّ قَلِيلاً ۞ سُنَّةَ مَنْ قَدْ أَرْسَلْنَا قَبْلَكَ مِنْ رُسُلِنَا وَلاَ تَجِدُ لِسُنَّتِنَا تَحْوِيلاً﴾(الإسراء:٧٣-٧٧) ﴿نَبِّئْ عِبَادِي أَنِّي أَنَا الْغَفُورُ الرَّحِيمُ ۞ وَأَنَّ عَذَابِي هُوَ الْعَذَابُ الأَلِيمُ﴾(الحجر:٤٩-٥٠) ﴿وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالإِنْسَ إِلاَّ لِيَعْبُدُونِ ۞ مَا أُرِيدُ مِنْهُمْ مِنْ

رِزْقٍ وَمَا أُرِيدُ أَنْ يُطْعِمُونِ﴾(الذاريات:٥٦-٥٧) ﴿إِنَّا نَحْنُ نُحْيِي وَنُمِيتُ وَإِلَيْنَا الْمَصِيرُ ۞ يَوْمَ تَشَقَّقُ الأَرْضُ عَنْهُمْ سِرَاعًا ذَلِكَ حَشْرٌ عَلَيْنَا يَسِيرٌ ۞ نَحْنُ أَعْلَمُ بِمَا يَقُولُونَ وَمَا أَنْتَ عَلَيْهِمْ بِجَبَّارٍ فَذَكِّرْ بِالْقُرْآنِ مَنْ يَخَافُ وَعِيدِ﴾(ق:٤٣-٤٥)

فلنتأمل في هذه الآيات وأمثالها، ولنتبين ما يشعّ فيها من جلال الربوبية والسطوة الإلهية، ثم دعونا نتساءل: أفيمكن أن يكون هذا الكلام مما يمكن لبشر من الناس أن يصطنعه اصطناعا، وأن ينطق به تمثيلا أو أن يتحلّى به تزويرا؟

أَمَا إن الطبع لغلاّب، وليقم أي فرعون من الفراعنة المتألهين أو المتجبرين، ثم ليجرب أن ينطق بمثل هذا الكلام الذي يتنزل من علياء الربوبية، ويغمر نفس السامع والقارئ بمشاعر الهيمنة والجلال، فإن لسانه سيدور في فمه على غير هدى، مهما حاول، فسيأتي بكلام يكشف بعضه بعضا، فيه محاولة التمثيل، ولكن بشريته ومظاهر ضعفه الإنساني تعرّيه وتكذّبه.

وعندما يهيمن القرآن، ويأخذ بمجامع النفس، ويملأ الفؤاد هيبة وتعظيما له، فإن الذي يبعث ذلك كله في النفس، إنما هو مظهر جلال الربوبية فيه، وهو من أجلى مظاهر إعجازه.

صفحة مشرقة

وإليكم هذه الصورة التي تبرز هذه الحقيقة في هذا الواقع المشاهد الذي سجله التاريخ:

نزل عثمان أرطوغرل جد الخلفاء العثمانيين، ضيفا على قريب له في "بورصة"، ولما حان وقت رقاده، ودخل عثمان الغرفة التي هيئت له لينام فيها، رأى شيئا معلقا على أحد جدرانها، فدنا منه ليتبينّه، وإذا هو مصحف يزيّن الجدار، فاتخذ منه موقف الجندي من قائده، وأثبت كفا على أخرى ملصقتين بصدره، وبقي كذلك واقفا لا يتحرك إلى الفجر.

ذلك هو سلطان جلال الربوبية، تجلّى أثره في شخص عثمان أرطوغرل، وفعل فعله في كيانه. أما ثمرة ذلك على شخصه الإيماني وكيانه الوجداني، فقد برزت في سلالته الطاهرة التي أورثها الله مقاليد الخلافة الإسلامية، وجدد بها عهد الازدهار الإسلامي في بقاع الدنيا. ■

(*) كلية الشريعة -جامعة دمشق / سوريا.

لا مستحيل مع الإيمان

حدِّدْ هدفَكَ، وارسمْ خطتك،
واجْتَزْ أعالي الجبال،
واعلُ فوق التلال،
فلا وَعْرَ يَصُدُّك،
ولا شاهق يمنعك...
تزود لطريقك...
فلا زاد أغنى من الإيمان،
ولا هتاف أعذبُ من الابتهال،
وفي الطريق إياك أنْ تسهو،
وعن قراءة الكون حذار أن تَغفُل...
* * *

الأستاذ فتح الله كُولَن وإنشاء حدائق الإبداع الحضاري

أ.د. عبد الحليم عويس*

قال الراوي:

كانت خريطة الأرض يوشك أن ترسم بريشة الألحاد.

ونظر "خوجه أفندي" حوله وتساءل أليست وراثة الأرض للصالحين؟

واتخذ قراره لن نترك الأرض لظلمة الإيمان... وراح يغوص في جهود أبطال الإحياء، والبعث بالإيمان..

قرأ إحياء علوم الدنيا في تراث الأسلاف، وقرأ إحياء علوم الدين للغزالي، وحجة الله البالغة للدهلوي، وأبحر في عالم المعاصرين المجددين في تركيا والشام والهند والجزائر... وأسعدته تللك القراءات المعاصرة للقرآن، تلك التي جمعت بين التفسير، والتربية والفقه والتذكير... قرأ التحرير والتنوير لابن عاشور، ومجالس التذكير لابن باديس، وقرأ الظلال، وقرأ -قراءة عميقة- "رسائل النور" لأنها الأقرب إلى نفسه، في الزمان والمكان والتحديات.

وقد أتيح لصاحب رسائل النور -نتيجة ظروفه- أن يعيش مع الطبيعة، وأن يتصل بالكون، وبخالق الكون، من خلال كلمات الله الكونية... فجاءت رسائل النور كأنها تنزيل من التنزيل.. ونفذت أشعتها -مع أشعة الشمس- إلى قلوب الناس وكياهم وعقولهم... فتأصلت... وحملت العناية الربانية كلمات الرسائل وبذورها الإيمانية مع الرياح السائرة هنا وهناك، لتسقط منها حبة هنا، وحبات هناك.

قال الراوي:

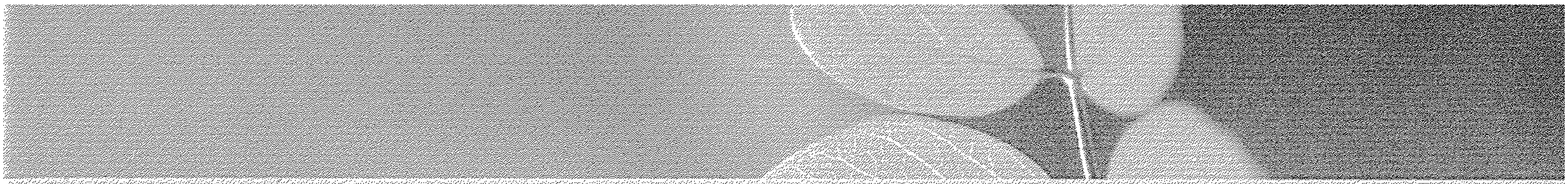
والآن ياصاحب الرسائل، يا سعيدنا الجديد!

ها أنت تودع الأصحاب، وملايين الطلاب، بعد أن واجهت -بالأمل في مستقبل الإسلام- وبالثقة الكاملة في وعد الله ﴿لِيُظْهِرَهُ عَلَى الدِّينِ كُلِّهِ﴾(التوبة:٣٣).. وبانتصار عالم القرآن على كل فلسفات الإلحاد والمادية.

والآن، يا كل دعاة الإيمان، يا أفغاني، يا محمد عبده، يا رشيد رضا، يا أرسلان، لينم كل منكم في قبره مأجورا، مسرورا!

وأنت يا صاحب الرسائل:

والآن، بعد ذهاب القرن الأسود.



نَمْ مسرورا في قبرك وتنعّم،
فالوعد الحق سيجعل قبرك إشـــعاعا من فكرك، قبرا محفورا في الأعماق.
فرسائل نورك مصباح لك في دنياك وأخراك،
في ساعة يُسرك أو عُسرك!
ياصاحب الرسائل، يا زارع البذور في حقول الإيمان!
ها أنت هنا مسرّحا من وظائف الفناء،
كما علّمتنا في رسائل الضياء.
ها أنت هنا تعيش ناعماً في عالم البقاء،
عابراً دونما إبطاء ودونما انقطاع،
مُبْحِرا من عالم الشقاء والصراع.

أحلام قبورية

ياصاحب الرسائل! إخلاصك حتى في قبرك نورانية...
ذات ليلة — ياسيدي،
يوم كنت تغوص في رسائل الإمداد،
تكتب بالعين والسمع والفؤاد،
تنقل من عالم العطاء والإسعاد،
غفوت والنور في راحتيك.
رحلت بروحك من عالم الأشياء.
ورحت تكلم الموتى مع الأحياء..
لا جسم لك..
لا جرمَ لك، لا نسمة من الهواء.
ها أنت هنا تعيش في عالم القبور...
قبرك من نور.
وفؤادك يرنو للبيت المعمور
يرنو للّوح المحفوظ المسطور.
يسأل في لهفة حب وسرور
وأنت تهرول حول اللوح، وتجري وتدور:
يالوح الكون ويا قلم القُدرة، يا مخزن أسرار الكون المستور.
ترفع صوتك في قبرك، في الملأ الأعلى، وتنادي:
أخبرني عن أهلي، عن مليار مقهور
يؤمن بالله ويشهد بالتوحيد، ويصلي، ينتظر البعث المقدور
يؤمن بالنّصر الآتي. لكن، لا يعرف كيف يسير؟!
أخبرني يا لوح الغيب الأعلى، عن يوم النصر المبرور.

في الغفوة وبإحساس القلب المقهور.
في تلك الومضة واللحظة،
ظهرت في القبر ملامح عصر يأتي، يُبعث الإنســـان المسلم، إنسان النور.
– ها هي –يا سبحان الله– مظاهر أحلامك.
أقوى من كل الأحلام...

رسالة من القبر

وهتفت بأنشودة آمال رمزية...
وتقول لإنسان الإيمان المنتظر الأعلى:
يا من يختفي خلف عصر شاهق.
لما بعد ثلاثمائة ســـنة يســـتمع إلى كلمات النـــور بصمتٍ وسكون.
يا من تتسمون بسعيد وبحمزة، وعمر
وتُدعون بعثمان وطاهر أو يوسف أو أحمد.
إني أتوجه بالخطاب إليكم:
ارفعوا هاماتكم وقولوا:
"لقد صدقت"... وليكن هذا التصديق دَيْنا في أعناقكم.
إنني أتكلم معكم عبر أمواج الأثير
الممتدة من الوديان السحيقة للماضي المسمى بالتاريخ.
إلى ذرى مستقبلكم الرفيع..

ما حيلتي..

لقد استعجلت وشاءت الأقدار،
أن آتي خضم الحياة في شتائها..
أما أنتم فطوبى لكم وألف طوبى..
ستأتون إليها في ربيع زاهر كالجنة.
إن ما نزرعه الآن يُستنْبت من بذور النور،
فتتفتح أزاهير يانعة في أرضكم.
نحن ننتظر منكم لقاء خدماتنا،
أنكم إذا جئتم لتعبُروا إلى سفوح الماضي،
عرّجوا إلى قبورنا، واغرسوا بعض هدايا ذلك الربيع
على قمة "القلعة" المستضيفة لرفاتنا وعظامنا...
سنوصي الحارس ونذكره.. نادونا..
ستسمعون صدَى "هنيئا لكم" ينطلق من قبورنا..
لقد كانت هذه الكلمات "الأخروية" أنشـــودة نورانية ذات

وقع خاص، وكان لها تأثيرها الكبير في النفوس طلاب الآخرة، طلاب الإيمان، البارزين الزارعين الزاهدين العابدين لله...

كولن، وحدائق الإبداع الحضاري

قال الراوي:

كانت كلماتك -يا صاحب الرسائل- آمالا علوية.

كانت أدعية خاشعة ترشح بالإخلاص.

في قبرك لم تنس الأمة. فتقلّب وجهك في الأفق الأعلى...

تدعو بلسان الروح،

لسان القلب المجروح...

فتقبلها الله، وحققها في أرض الناس.. ليس بعد ثلاثمائة سنة، لكن في سنوات خمسين..

أجل..فقط، في سنوات خمسين..

منحة رحمن وكريم!

هّبت ريح الإيمان،

وظهر الفيض الرباني، وتجلىّ في "فتح الله"...

منحة رب رحمن، لإمام يحيا في "النور الخالد"...

يعشق أعظم إنسان، معجزة الإنسانية...

أحلامه أكبر من كل الأحلام،

أقوى من كل الآلام.

يعرف كيف يجيب على "أسئلة العصر"، ويحل الألغاز السحرية...

جاء يخاطب كل الناس...

ويحاور عقل العالم، بوسائله العملاقة..

فالعقل المسلم قادر..-يأخذ بالألباب- لو عرف "الموازين" و"أضواء الطريق"، وتسلح بـ"النور الخالد" وبـ"طرق الإرشاد في الفكر والحياة" العملية.

وهناك تألق "فتح الله" يبني ويقيم صروحا للروح، في كل الأيام وكل الأعمال...

يصعد بالقانعين السفوح، إلى عالم "التلال الزمردية" ليعيشوا بالكلمة والعقل: حياة القلب والروح معا، في توازن غابت معالمه منذ عقود!

بناء إنسان النور الخالد

ولما كان الناس قد اختلطت لديهم حقيقة الجهاد وروحه، وجروا الإسلام إلى معارك فوضوية، حتى في داخل البيت المسلم نفسه، وأعطوا الفرصة لتعاون الداخل مع الخارج في تشويه الإسلام والتربص بالعاملين له..

فقد كتب الأستاذ الواعظ الإنسان كتابه عن "روح الجهاد وحقيقته في الإسلام" مبينا وظيفته الحضارية وأطره الإنسانية ودفاعه عن المقهورين ونشر المعاني الواسعة له، جهاداً بالعلم والمال والفكر والبناء الحضاري...

وهكذا عمد الأستاذ الواعظ "خوجه أفندي" "العالم الإنساني" إلى العمل على بناء إنسان جديد من خلال عدد كبير من الدراسات التي ترجم أقلها إلى العربية ومازال أكثرها حبيس اللغة التركية، مع أن العرب أحوج من غيرهم إليها ليدركوا- من خلالها- كيف تكتشف "أضواء القرآن في سماء الوجدان" ويدركوا حقيقة الخلق الإلهي، ودحض "نظرية التطور" التي سيطرت على العرب عدة عقود...

وليعرفوا -كذلك- أبعاد مشكلة "القدر والقضاء، في ضوء الكتاب والسنة"، وكيف أنه لا يسلب الإرادة الإنسانية، ولا تفتر بالعقل عن إرادة البناء الحضاري...

وكيف أن الإيمان الحق به عنصر فاعل إيجابي، يدفع إلى الكسب والأخذ بالأسباب دون عبادة الأسباب أو نسيان قدرة مسبب الأسباب، الذي لو شاء لأوقفها لحكمة يريدها ولإظهار تجليات قدرته ﷻ.

عبور الفجوة وملء الفراغ

كان العالم قد انتهى بنهاية الحرب العالمية الثانية (١٩٣٩-١٩٤٥م) إلى وضع مأساوي، وسيطر اليأس على العالم.

وبدلاً من أن يلجأ إلى العدل والرحمة توحشت لديه معاني القوة، وأصبحت فلسفة نيتشة و(الفاوستية) -القائمة على البقاء للأقوى- هي المسيطرة..

وضاع معنى الحق أمام القوة، ومعاني العدل والرحمة أمام الجشع الذي أقبل عليه المنتصرون.

وسحبت كل الوعود الخداعة (بالعدل والمساواة والحرية) التي بذلت أثناء الحرب وقبيلها للشعوب المغلوبة على أمرها والقوى المستضعفة -بالطبع- لاعتبارات مصلحية توجبها الحرب. وانفجر الموقف العالمي، وعمت الثورات، بعد أن خدع

العالم باتفاقيات سلام.. لكن الأمركان تقسيماً للتركة العالمية بين الأقوياء والمنتصرين على حساب المقهورين الذين عدّوا ذلك خيانة وغدرا ونكثا للعهود. فأصيبت الأخلاق الإنسانية في الصميم..

وهنا وجد الأستاذ "فتح الله كولن" أن البشرية لم تعد مرشحة لإنشاء قوى تعمل على العدل والرحمة. لقد فقدت الإنسانية عقلها وقلبها ورشدها.

مقاومة الغارة على الإنسانية

ونظر الأستاذ فلم يجد أمامه إلا الفكر الإنساني التربوي النبوي الشريف وأفكار السائرين في الطريق نفسه. ورأى أنه في مواجهة هذه القوى العالمية لا معنى للصدام أو الثورات أو الصراع، بل لابد من طريقة إنسانية نبوية لمخاطبة الإنسان نفسه.. قلبه وروحه وما بقي يقظا من عقله.

ووجد الأستاذ أن العالم المنتصر بعد أن هزم المقهورين بقوته العسكرية بدأ يغزو كل إنسان وكل بيت، فلم تعد كتائب المستشرقين، ولا قوافل المنصرين، ولا قوى النفاق الداخلية كافية لتحقيق "عولمته" والعبث بالعالم كله، بكل رجل وكل امرأة وكل شاب، كما يشاء، يصوغهم كما تصاغ التماثيل المنحوتة على النسق الذي يهواه فنانها.

وفي هذا السياق انتشرت أجهزة التلفاز والقنوات الداخلية والفضائيات الموجهة.

وانتشرت الإذاعات والصحافة عابرة القارات ودور النشر العملاقة. وانتشر ما هو أخطر من كل هذه على الحياة وهو "الإنترنت".

ولم ييأس الأستاذ، بل قرر أن يكون مصباحا يجوب العالم، وينافس الظلام في كل مواقعه. وبارك الله له في نياته، وفي رجال الخدمة والأقوال والأعمال. فسخر الجميع كل جهودهم لتنمية بذور الإيمان. وانطلقوا إلى العمل في كل المجالات؛ فهذه جريدة يومية مليونية، وهذه مجلات أسبوعية بالتركية وغير التركية.

وهذه قنوات تلفازية قادرة على إنتاج تمثيلياتها وبرامجها.

كانت خريطة الأرض بين يده وهو يعالج أمراضَ إنسانية عجزت عن وجود من يهتم بإنسانيتها، ويضع الدواء لأمراضها الأخلاقية والحضارية، ويعيد للإنسان "الموازين" الصالحة لتحقيق حياة أفضل يتعانق فيها الإيمان مع التقدم مع الأخلاق.

وهناك جامعات ومدارس مبثوثة في العالم التركي وخارجه. وتتميز بالعصرية وبالأصالة التي تقرها القوانين. وهذه مدن جامعية. وهذه مستشفيات على أفضل وجوه عرفتها الحضارة الحديثة.

وكانت خريطة الأرض بين يده وهو يعالج أمراضَ إنسانية عجزت عن وجود من يهتم بإنسانيتها، ويضع الدواء لأمراضها الأخلاقية والحضارية، ويعيد للإنسان "الموازين" الصالحة لتحقيق حياة أفضل يتعانق فيها الإيمان مع التقدم مع الأخلاق، ويتم فيها التكامل بين الحق والقوة.

كان الأستاذ-بيقين- قد قرأ أحلام دعاة التغيير والتمكين، التي كل منهم أمل أن يرى استجابتها الحية في حياته أو في قبره، ويهنئ أصحابها الذين استحقوا من الله التمكين، والذين سيمّرون أمامه ويشاهدهم من قبره فيرى بشائر انتصار الإسلام على وجوههم.

وعندها يطلب منهم الدعاء، لأنه وتلامذته هم الذين بذروا البذور. وعاشوا شتاء الحياة في ظل الإلحاد وعانوا الكثير.

وها هم الحاصدون للزرع القادمون الوارثون للأرض الذين يعيشون ربيع الإيمان.. يمرون أمامهم ويشاهدونهم وهم في قبورهم، فيفرحون، ويسعدون بهم، ويقولون لهم: هنيئا لكم... اذكرونا، اسألوا الله لنا الرحمة والفردوس الأعلى؛ فنحن السابقون الزارعون للبذور في الشتاء القاسي، وأنتم اللاحقون الوارثون للأرض في ربيع الإيمان...

فالنور يلد نورا.. وصدق ربنا:

﴿وَلَقَدْ كَتَبْنَا فِي الزَّبُورِ مِنْ بَعْدِ الذِّكْرِ أَنَّ الْأَرْضَ يَرِثُهَا عِبَادِيَ الصَّالِحُونَ﴾(الأنبياء:١٠٥).

﴿إِنَّ فِي هَذَا لَبَلَاغًا لِقَوْمٍ عَابِدِينَ﴾(الأنبياء:١٠٦)

﴿وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا رَحْمَةً لِلْعَالَمِينَ﴾(الأنبياء:١٠٧). ■

(*) أستاذ التاريخ والحضارة الإسلامية، ورئيس تحرير مجلة التبيان / مصر.



أنموذج جديد
الأكوان المتعددة

صالح آدم*

هـ هناك نقاط تحولات كبيرة في تاريخ علم الفيزياء في صدد فهم الألغاز المحيطة بخلق الكون. فهناك الآن نقطتا انطلاق لإيضاح الكون الذي خرج من العدم إلى الوجود، وهما تحتويان على جميع زوايا النظر في هذا الصدد:

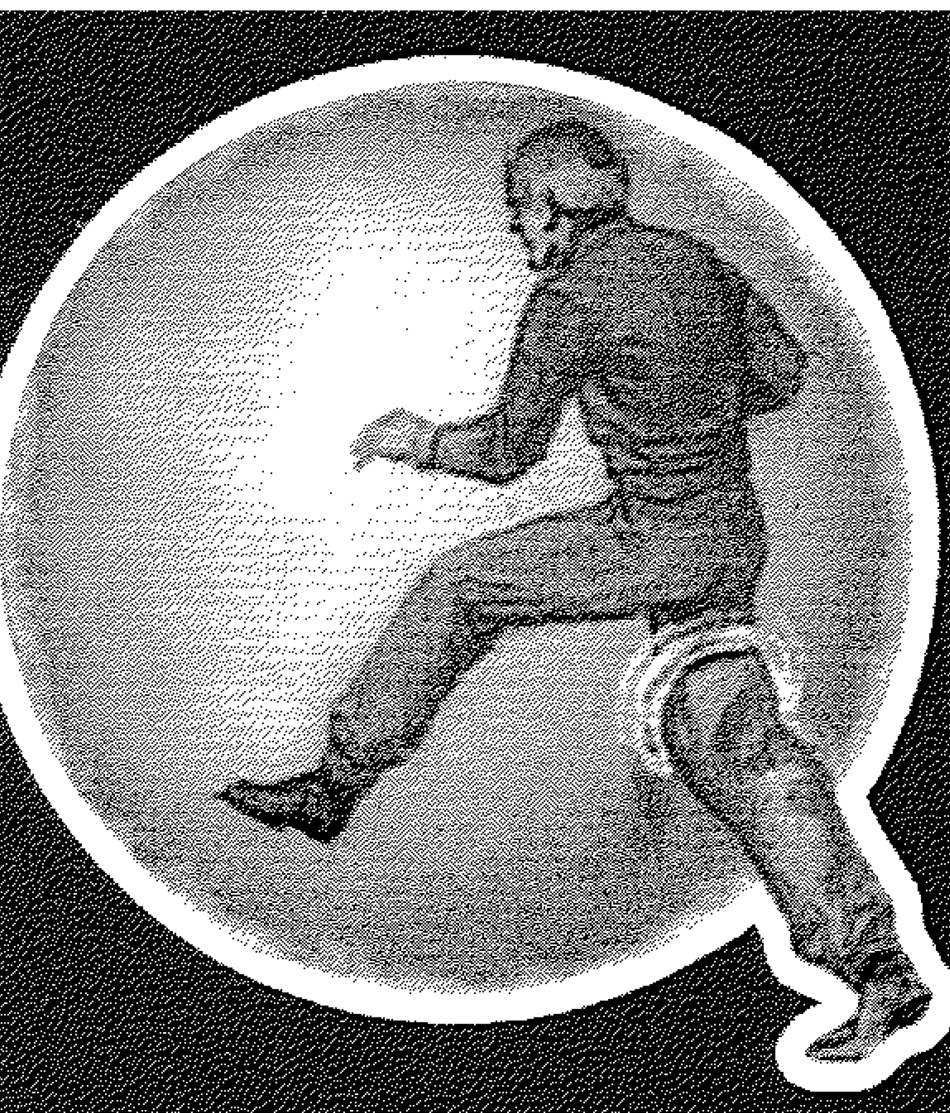
الأولى: أن هذا الكون ظهر إلى الوجود من قِبل خالقٍ له قدرة وعلم وإرادة محيطة بكل شيء.. والثانية: تشير إلى أن الكون ظهر نتيجة مصادفات عشوائية، أو تدّعي أن الكون نفسه أزلي وأبدي، فهو لا يحتاج إلى خالق. وهذه هي نظرةُ من ينكر وجود الخالق.

إن علم الفيزياء الذي يتم تدريسه في المدارس فيزياء نيوتن. والكون حسب هذه الفيزياء مثل الساعة، أي هو جهاز يعمل حسب معادلات رياضية معينة، ويطلق عليها اسم "قوانين الفيزياء". ويستند عمل الكون إلى قواعد معينة، لذا لا مكان هنا لاي احتمالات أو مصادفات. والفضاء والزمن حسب فيزياء نيوتن مسطحان ولانهائيان. فإذا كانت الساعة عندنا ١٠,٣٤ مثلا، فهي أيضا ١٠,٣٤ في المشتري وفي مجرة أندروميدا. والزمن في فيزياء نيوتن يشبه نهرا يسيل بتدفق منتظم.

النظرية النسبية

أما حسب النظرية النسبية الخاصة والعامة التي وضعهما ألبرت أنشتاين فالفضاء والزمان نسبيان. فإذا كانت هناك حادثة تستغرق ساعتين حسب مُراقبٍ، فهي قد تستغرق في نظر مراقب آخر ثلاث ساعات أو ثلاث ساعات ونصف. وإذا كانت هناك حادثتان حدثتا في مكانين مختلفين (أحداهما في إسطنبول والأخرى في أنقرة مثلا)، وكان هناك مراقب في منتصف المسافة تماما بينهما، ولنفرض أن الحادثتين تقعان في اللحظة نفسها، فالحادثتان لن تكونا في وقت واحد لمراقب يتحرك؛ فإن كان المراقب يتحرك نحو الحادثة على يمينه، أي يبتعد عن اليسار فسيرى أن الحادثة في يمينه تتحقق قبل الحادثة الموجودة على يساره. وإذا كان العكس، أي إن كان المراقب يتحرك نحو اليسار ويبتعد عن اليمين، فسيرى أن الحادثة في يساره تقع قبل الحادثة في يمينه. إذن فالزمن يختلف في الفضاء حسب موقع المراقب.

وحسب النظرية النسبية العامة (التي قال عنها أنشتاين بأنها أكثر نظرياته إسعادا له) فإن للمادة تأثيرا معينا على الفضاء والزمان.



وتقوم المادة -حسب الكتلة التي تملكها- بالتأثير على هندسة الفضاء وعلى سرعة الزمن الجاري. فمثلا يكون تحدب الفضاء حول الثقوب السوداء -التي تملك مادة كثيفة جدا- لانهائيا. وهذه النظرية التي لها مثل هذه النتائج الغريبة تملك بنية رياضية مدهشة، وهي تتوافق حتى الآن مع جميع المشاهدات والتجارب. أما الجواب على سؤال: هل الكون نهائي أم غير نهائي؟ فهو يتوقف -حسب هذه النظرية- على مدى كثافة المادة التي يملكها الكون.

الفيزياء الكمية

ومع أن نظريات أنشتاين تبدو كاملة، إلا أنها لا تستطيع وحدها تفسير كيفية نشأة الكون ففي اللحظة التي حدث فيها "الانفجار الكبير" لم تكن القوانين الفيزيائية سارية. لذا تبقى الأسئلة حول تلك اللحظة وما قبلها دون جواب. فلماذا حدث الانفجار الكبير؟ وكيف حصل؟ وماذا كان يوجد قبل الانفجار؟ للإجابة على مثل هذه الأسئلة، أو في الأقل التخلص من لغز الكون وذِكرِ بعض الأشياء عن نشوئه فنحن نحتاج إلى الفيزياء الكمية.

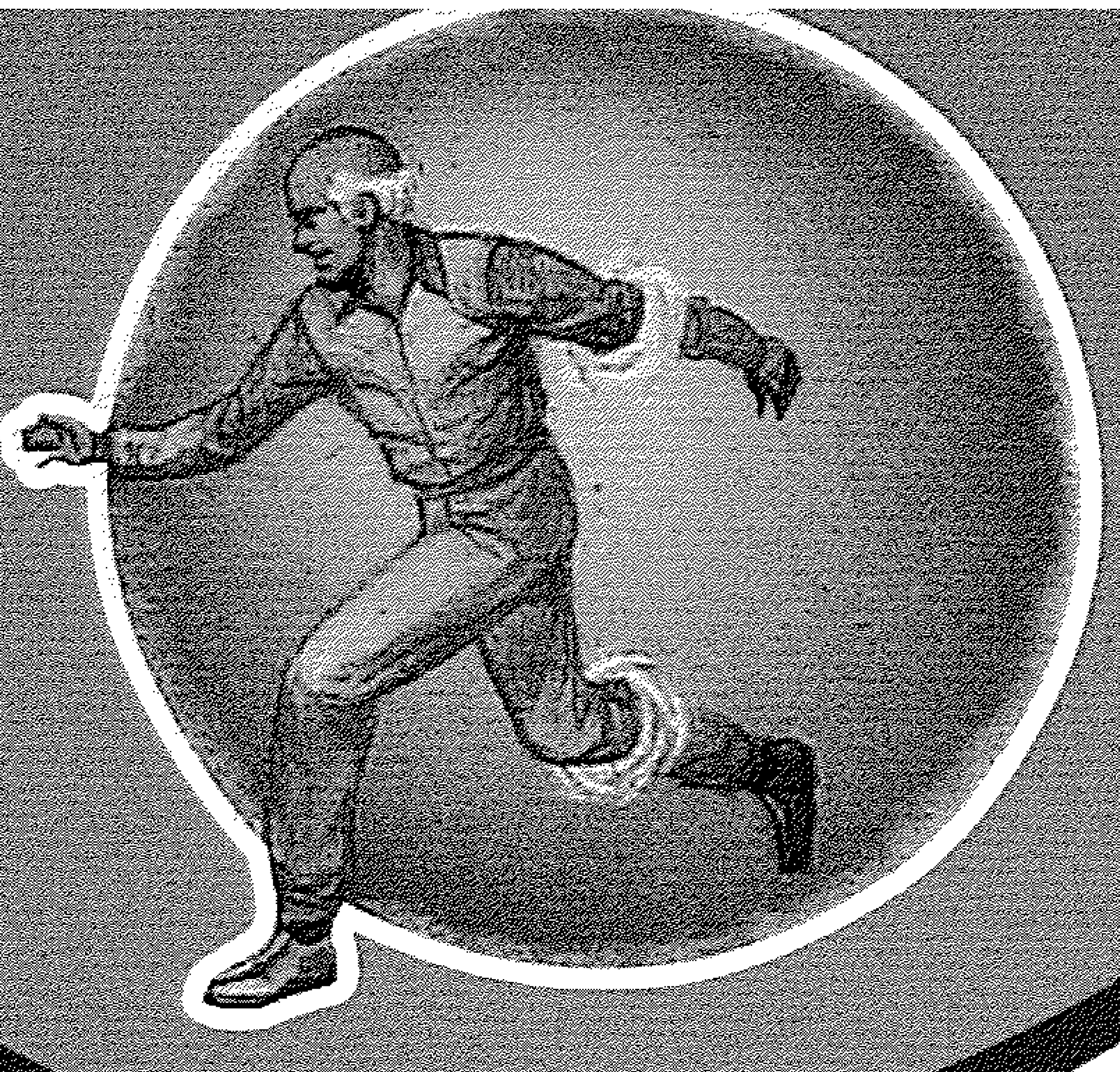
يستمر وجود أنموذج الساعة في فيزياء نيوتن في نظريات أنشتاين، وكذلك يستمر وجود السببية، أي العلاقة بين السبب والنتيجة، أو أن لكل حادثة سببا. ولكن الفيزياء الكمية التي تبحث عن طبيعة الذرة وعن طبيعة أجزائها، تمثل تغييرا جذريا أكثر. فهي تُدخل المُشاهد أو المُراقب في العملية، وتربط الأحداث بالاحتمالات. والظاهر أنه لكي نؤسس نظريات موثوقا بها حول بداية الكون فلابد من الاستعانة بالفيزياء الكمية، كما يستعان بهذه الفيزياء في فهم ما يجري في مستوى أجزاء الذرة. ولكن كيف يمكن التأليف والتوفيق بين النظرية النسبية والنظرية الكمية، فهو غير معروف حتى الآن. هنا تبدو نظرية "الأكوان المتعددة" وكأنها تشكل بديلا. فالعديد من الألغاز والمسائل التي لم يكن لها حل أصبح في الإمكان إيضاحها في إطار منطقي.

ما هي "الأكوان المتعددة"؟

في سنوات الخمسينيات قام الفيزيائي "إفرت" (Evertt) وبعض الفيزيائيين الآخرين بتقديم نظرية "الأكوان المتعددة" لإزالة الألغاز والتناقضات التي فتحتها الفيزياء الكمية في دنيا الفكر والمنطق، وطرح نظرة جديدة لكيفية حدوث الحوادث في الكون. فالكون الموازي لكوننا يحمل صفات مشابهة له، وهو (أي الكون الموازي) يتكون أيضا من الفضاء والزمن والمادة والمجرات والنجوم والإنسان.. بل يمكن القول بأن هذين الكونين متداخلان ويشغلان الفضاء نفسه. والمواد الموجودة في هذين الكونين تتبع قوانين الفيزياء الكمية، أي هناك أكوان عديدة مثل كوننا. فمثلا بينما تقرأ هذه المقالة الآن ربما أنت تتنزه في غابة في كون مواز آخر.

التواريخ البديلة

والتواريخ البديلة تشكل مثالا جيدا في فهم الأكوان المتوازية بشكل أفضل. فلو كان الجيش العثماني قد نجح في فتح مدينة "فيينا" فكيف كان التاريخ سيتغير؟ ولو استطاع محمد الفاتح فتح روما كيف كانت الدنيا ستتغير؟ أو لو كسب هتلر الحرب العالمية الثانية فماذا كان سيحدث؟ كل احتمال من هذه الاحتمالات تحقق في كون مواز، وكل عالم مختلف ترد صورته على الذهن، وكل ما يخطر على البال من تواريخ مختلفة فهو موجود في مكان ما وفي كون ما. وعندما نفكر فيما نقوم به من اختيار وترجيح بإرادتنا نفهم الأكوان المتعددة. فمثلا من رجح واختار دراسة الطب وقدم امتحانا ونجح في الجامعة أصبح طبيبا. ولو اختار دراسة علم الأحياء لأصبح عالما في البيولوجيا. ولو



أن رجلا اختار الزواج من امرأة لمجرد حسـنها وجمالها لفشل في حياته الزوجية ولَمَا اسـتطاع التفاهـم معها. بينما لو اختار امرأة متدينة ومناسبة ويمكن التفاهم معها لعاش حياة سعيدة. لذا فالاختيارات المختلفة التي نقوم بها تتحقق في أكوان أخرى مختلفة.

الخيال العلمي والأكوانُ المتوازية

وقـد تناول العديـدُ من أفلام وكتب الخيـال العلمي موضوع الأكوان المتوازية؛ فمثلا نرى في مسلسلة "ستارترك" (startrick) أنه بينما كان الكابتن كيرك وكادره يتهيؤون للانتقال من إحدى الكواكب إلى سفينتهم الفضائية بعملية "التآين" الروتينية، صادف دخولهـم إلى غيمة غاز متأين. فوجد الكابتن كيرك وكادره أنهم في سفينة مشابهة تماما لسـفينتهم ولكنها مختلفة عنها إلى درجة مدهشة؛ فمثلا وجد أن "مسترسبوك" هنا مع أنه يشبه نظيره في السفينة الأخرى، ولكنه شخص شرير تماما مع أنه رجل منطقي. وعلى عكس أفراد سـفينة "إنتربرايز" فإن أفراد هذه السـفينة الفضائية "إنتربرايز" الجديدة كلهم أشـرار. وفي هذه الأثناء كان الكابتن "كيرك" الشـرير وطاقمه قد نقلوا إلى سفينة "إنتربرايز" القديمة وتم سجنهم هناك من قِبل "مستر سبوك". وبعد وقت قصير سيفهم كل من سبوك الشـرير وسبوك الخيّر ما حدث. فعندما تعرضت السفينة الفضائية "إنتربرايز" إلى عاصفة متأينة من الغاز صادف وجود هذه السفينة مع نظيرها أو مع نسختها الأخرى في كون موازٍ. وعملية الاستنساخ عملية فائقة الدقة إن صرفنا النظر عن أن عملية الاستنساخ أبدلت الأشخاص الخيرين إلى أشخاص شريرين، وعدا ذلك فالاستنساخ دقيق وقريب من الكمال، ولو لم تقم العاصفة الأيونية بإنشاء علاقة زمانية ومكانية لما علم أفراد كلا الكونين أيّ شـيء عن وجود الآخرين. لقد تم تبديل مكان الكابتن كيرك مع نسخته السيئة ووجد الكابتن كيرك السيء نفسه سجينا في السـفينة الفضائية إنتربرايز للكادر الجيد. أما الكابتن كيرك الخيّر فقد وجد نفسه في سفينة إنتربرايز السيئة وضمن طاقمه الشرير. وفهم بعد وقت قصير بأن عليه أن يتظاهر بأنه أيضا من الطاقم الشرير، وذلك لكي يستطيع القيام بإصلاح بعض الأمور.

وفي مغامرة من مغامرات أحد أفلام سلسلة "غبش الظلام"، نشاهد امرأة تنتظر في موقف الحافلات، فإذا بها تواجه نسختها أو نظيرتهـا الأخرى التي تركت كونها وأتت إلى هذا الكون. ونرى أن هذه المرأة الآتية من كون آخر تريد أن تحل محل المرأة الأصلية، وتنجح في هذا، بينما يكون مصير المرأة الأصلية قضاء عمرها في مستشفى المجاذيب.

وفي قصة "لقاء ليلة أغسـطس ٢٠٠٢ " وهي إحدى قصص "من يوميات مريخي" (أي شـخص يعيـش في المريخ) نرى أن شـخصا من هذه الدنيا اسمه "توماس كوماز" سـكن في المريخ وصادف هناك كونا موازيا. وبينما كان يعبئ سيارته بالبنـزين تمهيدا لسـفر سمع شـخصا يقول له: "إن وجـدت صعوبة في قبول المريخ كما هو تسـتطيع الرجوع إلى الدنيا، فكل شـيء هنا مختلف؛ التربة.. الهواء.. القنوات.. السـكان الأصليون" أنا لم أر أيـا منهم حتى الآن ولكني سمعت أصواتهم"السـاعات... حتى سـاعتي تعمل بشـكل غريب، هنا حـتى الزمن مختلف".

وعندما كان توماس يسير في الطريق رأى آلة غريبة تشبه فرس النبي وبلون أخضر -أزرق- يقودها مريخي ذو عيون ذهبية فقال له: مرحبا. وأجابه المريخي بلغته: مرحبا. لم يفهم أي واحد منهما الآخر. جاء المريخي ولمس توماس، ولكن توماس لم يشعر بلمسه، ولكن بدءا يتحدثان بلغة واحدة. وعندما أرادا ان يتصافحا دخل يد كل منهما في داخل جسم الآخر وكأنهما لا يملكان يدا. يرى أحدهمـا الآخر ولكن لا يسـتطيع أي منهما لمس الآخر، فعلما أنهما يوجدان في كونين متوازيـين متقاطعين، كل منهما يحس بجسمه، ولكنه يرى الآخر كشبح، وحاولا أن يفهما السبب في

أن دنيا كل منهما تؤثر في الآخر تأثيرا متقابلا، ولكنهما مع هذا لا يستطيعان التّماس، ولا يصلان إلى نتيجة. عندما ينظر المريخي حواليه يرى مدينة جميلة حافلة بأشياء خارقة. أما توماس فهو لا يرى حواليه سوى بقايا مدينة متهدمة تحولت إلى صحراء صامته. صـــاح بالمريخي: "هذه القنوات فارغة كلها" أجابه المريخي: "إنها مملوءة بشـــراب أرجواني اللون". لقد أدركا أن ما صادفهما في لقائهما يعود إلى ســـبب متعلق بالزمن، ولكنهما لم يســـتطيعا الوصـــول إلى قرارِ أيّ منهما بقـــي في الماضي وأي منهما هو في المستقبل. ويتصور كل منهما أن عالمه هو العالم الحقيقي وأن عالم الآخر هو عالم الخيال. وهذه القصة التي تبدو غريبة يمكن إعطاؤها بعض الصحة من زاوية الفيزياء الحديثة.

الفيزياء الحديثة والأكوان المتعددة

تعـــد تجربة "الشـــقين" مـــن أهم التجـــارب التي توضـــح الصفات المميزة للفيزيـــاء الكمية. يوجد في التجربة مصـــدر يَبعث أجزاءً دون ذرية (مثـــلا يبعـــث فوتونات أو ألكترونات). وأمـــام هذا المصدر لوحة فيها شـــقان متقاربان لمرور هذه الفوتونـــات أو الألكترونات، وهناك خلف هذه اللوحة شاشـــة تصطدم بها هـــذه الفوتون. فعندما يكون الشقان مفتوحين تتكون على الشاشة زخرفة معينة هي عبارة عن مناطق مظلمة وأخرى مضيئة بشكل متعاقب. ولكن إنْ وضعنا الزخرفة التي تتكون عندما نسد أحد الشـــقين فوق الزخرفة التي تتكون عندما نسد الشق الآخر لا نحصل على الزخرفة الأولى، أي على المناطق المظلمة والمضيئة المتعاقبة، أو عندما نقوم بعملِ قياسٍ لمعرفةِ من أي شق تمر منه هذه الفوتون نرى أن هذه الفوتونَ تبدو وكأنها تمرّ من أحد الشـــقين، وهذا يؤدي إلى إفساد شكل الزخرفة الأولى. والنتيجةُ التي نحصل عليهـــا هي أن حركة هذه الفوتـــون تتغير وتختلف عندما يكون أحد الشـــقين مســـدودا عن حركتها عندما يكون كلا الشقين مفتوحين.

وتفسّـــر الفيزياء الكمية هذه الحادثةَ الغريبة بالتأثير المتقابل الذي يُحدثه احتمالُ مرور هذه الفوتون من أحد الشـــقين على احتمال مرورها من الشق الآخر؛ أي إن الفوتون تبدو وكأنها تمر من الشقين في آن واحد مع أنها فوتون واحدة. والتفسير المنطقي الوحيد هو أن هذه الفوتون تمر من أحد الشـــقين في كوننا هذا، وتمر من الشـــق الآخر في كونٍ آخر. هذه هي الأكوان المتوازية التي حاولنا حتى الآن إيضاحهاً بشكل تدريجي. وعندما تصطدم بالشاشة تتحد هذه الأكوان وترجع كونا واحدا.

> **إن وجود أكوان متعددة ينير الطريق أمام علماء الكونيات الذين يهتمون بخلق الكون وببنيته.**
> **ومن أهم المسائل التي تحتاج إلى إيضاح في علم الكونيات هي مسألةُ أن بنية الكون قائمة على توازنات دقيقة وحساسة جدا.**

قطة شورودنجر

ومثـــال آخـــر يُظهر لنـــا الأكوان المتوازية هو تجربة اسمها تجربة "قطة شورودنجر". صممت هذه التجربة كما يأتي: هناك غرفة مغلقة وبداخلها قطة، وهناك في الغرفة مادة مشـــعة مع مادة سامة. ولنفرض أن احتمال تحلل المادة المشعة هو ٥٠٪ حسب الفيزياء الكمية، وأن هناك آلية تقوم باطلاق المادة السامة حالما تبدأ المادة المشـــعة بالتحلل، وهـــذا يؤدي إلى موت القطـــة. والآن هناك احتمال بنسبة ٥٠٪ بأن المادة المشعة تتحلل فتموت القطة، وهناك احتمال بنسبة ٥٠٪ أن المادة المشعة لا تتحلل، أي تبقى القطة سالمة ولا تموت. والآن -حســـب الفيزياء الكمية- فالقطة (حتى فتح باب الغرفة والنظر إلى وضع القطة) تكون ميتة بنســـبة احتمال ٥٠٪، وحية بنســـبة ٥٠٪. أي هي في وضع مركـــب فيها الحياة مع الموت. وهذا طبعا وضع لا يتماشـــى مع المنطق ولا يمكن إيضاحه، أما في أنموذج الأكـــوان المتعددة فنقـــول: إن القطة حية في كون، وميتة في كون آخر، أي يقـــوم هذا الأنموذج بحل هذه المعضلة.

الثقوب السوداء وعلم الكونيات

إن نظرية النســـبية العامة التي طورها أنشـــتاين هي التي طرحت موضوع الثقوب الســـوداء في الساحة العلمية. وتتكون الثقوب

السـوداء عندما ينهار نجم كتلته ثلاثة أضعاف كتلة الشـمس في الأقـل بعد أن ينفد وقوده. وهي تملـك بنية زمانية ومكانية تقوم بابتلاع كل شـيء حتى الضوء، إذ لا يستطيع حتى الضوء الخروج منها. وعندما يقترب شـيء من ثقب أسـود تتغير بنيته الزمانية والمكانية نتيجة قوة الجاذبية الهائلة للثقب الأسود. ويرى بعض علماء الفيزياء أن الثقوب السوداء ممر مفتوح نحو الأكوان المتوازيـة، وهم يقولون بأننا لو اسـتطعنا المرور من خلال ثقب أسود لوجدنا أنفسنا في كون آخر.

إن وجود أكوان متعـددة ينير الطريق أمام علماء الكونيات الذين يهتمون بخلق الكون وبنيته. ومن أهم المسـائل التي تحتاج إلى إيضاح في علم الكونيات هي مسألةُ أن بنية الكون قائمة على توازنات دقيقة وحساسة جدا بحيث ساعدت على وجود الأحياء ووجود الأحياء العاقلة والمدركة؛ أي تم اختيارُ كون واحد من بين العديد من الأكوان المحتملة ليكون مهدا ومقرا للأحياء العاقلة. ولو كانت خـواص الكون مختلفة لما كان هناك أي احتمال ولا أي إمكانيـة لعيش الأحياء العاقلة فيـه. فمثلا تكاد الجاذبية في الكون تكون مساوية لطاقة التوسع الكوني، كما أن هناك معايير دقيقة جدا في الثوابت الكونية. ولو دققنا هذا الموضوع لعلمنا بأن الكون قد تم تهيئته وتحضيره ليكون مناسبا وملائما لنا ولوجودنا.

إن نظرية الأكوان المتعددة تقول بأن جميع احتمالات الأكوان موجودة. وفي هذا المضمار هناك أكـوان لا توجد فيها أحياء، وإن سبب مشـاهدتنا بأن كل شيء مضبوط بدقة يعود إلى أننا نعتقد بعدم وجـود أيّ كون (أو أكوان) لا يقوم على توازنات دقيقة؛ بينما تدل الشـواهد على وجـود أكوان وعوالم أخرى مختلفة. وقد أشار القرآن الكريم إلى مثل هذه العوالم عندما أشار إلى وجـود الملائكة والجن وهم مخلوقـات لا تُرى بالعين. كما وصف القرآن المؤمنـين بأنهم يؤمنون بالغيب. إن وجود مراتب مختلفـة للحياة يحياها بعض الناس، وكذلـك وجود العديد من المعجـزات والكرامات والرؤى الصادقة التي تخبر عن المسـتقبل تدل على وجـود عوالم أخرى غير عالمنا هـذا، فنحن مثلا لا نعـرف أبعادَ وخواصَّ عوالم أخرى كعـالم القبر والبرزخ، ولا عوالم الجنة والنار. فهذه العوالم موجودة في الوقت نفسـه ولكن في أبعاد زمانية ومكانية مختلفـة، وهذه الأبعاد الزمانية والمكانية هي خارج الوجود المادي الـذي نعرفه وخارج تصوراتنا، مثلا قد تكون في عالم الأثير أو عالم الفوتونات والأجزاء دون الذرية. أو حتى في عالم لا ندرك ماهيته أبدا، وهناك عوالم سـنلقى فيها الحساب ثوابا أو عقابا. مثلُ هذه العوالم أصبحت قريبة حاليا من أذهاننا بواسـطة علم الفيزياء الحديث. والحقيقة أن أسس العديد من مواضيع العقيدة تعتمد على الإيمان بالقدر، والموت، والآخرة، والبعث، والنشـور، ويوم الحساب. هذه الأسس لا يمكن للوجه البارد لعلم الفيزياء الوضعي تفسـيرها أو التدليل عليها، وهي لا تحتاج إلى مثل هذا التأييد والتدليل أصلا.

نشأة هذه الفكرة

إن فكرة الأكوان المتوازيـة بدأت أولا في كتب الخيال العلمي، ثم أصبحت موضوعا للفيزياء الكمية، وهذه إشـارة مهمة؛ ففي السابق كان العديد من الحوادث التي كنا نجد صعوبة في تفسيرها أصبحت الآن في عالمنا الحقيقي شـيئا عاديـا. مثلا خَزْن جميع الصور والأصوات في حاسبات عملاقة، ثم وَضْعها كشاهدة أمام الإنسان، أي أصبح من السهولة فهمُ وتصورُ إمكانية حفظ جميع أعمالنا في حياتنا، وتسجيلها في عالم آخر خارج عالمنا هذا. إذن فما كان خيالا في السابق أصبح حقيقة. فكل ما يخطر على البال أو لا يخطر يكون ممكنا، لأن قدرة الله تعالى الذي خلق كل شيء قدرة لانهائية وعلمه لانهائي ويسـتطيع فعل كل شيء. وعندما يخبرنا الله تعـالى بهذا في كتابه المحفوظ الذي لم يتغير فيه حرف واحد لا يبقى عندنا أي تردد أو شك. وسنرى عندما يأتي أجلنا كيف أن روحنا ينتقل من هذا العالم إلى عالم آخر بكل سـهولة وكأننا انتقلنا من غرفة إلى أخرى. على أننا يجب ألا ننسـى بأن سهولة هذا الانتقال أو صعوبته متعلقة بما سنواجهه في ذلك العالم الآخر من مَواقفَ ومَناظر، وذلك حسب أعمالنا في هذه الدنيا. وسـنعلم عندما نواجه الحقائق في ذلك العـالم كيف أن قولنا: "الحمد لله" بعد تناولِ تفاحة ينقلب في كونٍ آخرَ وفي عالم آخر إلى شجرة أو إلى قصر منيف. ■

(*) باحث في جامعة الفاتح / تركيا. الترجمة عن التركية: أورخان محمد علي.



سجناء الوجود

أديب إبراهيم الدبّاغ*

نحن البشر مكبَّلون بالوجود، ومشدودون إليه، ومقيَّدون بأحكامه، لا نستطيع أَنْ نَفُكَّ أنفسنا عنه، أو أنْ نتحرَّر منه، وحتى لو أردنا أنْ نعود -كما كُنَّا- عدما محضا فما من وليجة في جدار الوجود نلج منها إليه. ومنذُ قُدِّرَ لنا أنْ نرتدي الوجود، أو أنْ يرتدينا الوجود ونحن سجناؤهُ أردنا أم لم نرد، وحبيسو إرادته وفعله فينا أردنا أم لم نرد. فنحن في علم الله تعالى موجودون قبل أنْ نوجد، وما دمنا موجودين في علمه تعالى فنحن إذن مسكونون بالوجود من قبل وجودنا ومن بعده، غير أنَّ هذه "الموجودية" تتشكل بأشكال مختلفة، وتتظاهر بصور متعددة، فنحن موجودون قبل الحياة وبعد الحياة، وفي الموت وبعد الموت، ومهما ارتقت صور "وجودنا" من أدنى درجاته الترابية إلى ذروته الأخروية، فهو واحد لا يتغير ولا يزول ولا يعتريه العدم، لأنه مرصود بالأساس للبقاء والخلود.

هذه القضية من توكيدات النورسي رحمه الله، تناولها بقلمه من زوايا فكرية متعددة في أكثر من مكان من رسائله "رسائل النور" وهي تشكل -بالقطع- واحدا من أعمدة فكره العملاق، حيث استطاع من خلالها أن يحلَّ إشكالات الوجود عامةً ووجود الإنسان خاصةً ويجيب على سِرّ الخلق والإيجاد.

فسرُّ الخلق -عند النورسي- الحبُّ والجمال؛ ففي الحب قوة الخلق، فهو تعالى فياض بالحب والخلق معا. ولأنه تعالى أحبَّ الإنسان خَلَقه، واصطفاه لنفسه ليكون مرآة صافية تتشرب جماله الأقدس في أسمائه الحسنى وتعكسه إلى الآخرين من المشاهدين، وهذه المدركات العميقة للجمال الإلهي الأقدس تمنح الإنسان السيادة على نفسه، ثم السيادة على العالم.

السقوط في المحدودية

إنَّ أشدَّ ما يخافه "النورسي" على الإنسان السقوط في المحدودية

في الوقـــت الذي أهّلَهُ خالقه لكي يحوم فوق آفاق المطلق الإلهي. فالإنســـان البطولي لا يذهلنا ويثير إعجابنـــا ومحبّتنا إلاَّ إذا رأيناه مَعْكسَـــا لجلال الخالق وجماله، وهذا هو الإنسان الذي ينبغي أن نحرص على رؤيته والتقرّب منه، لأنَّ النظر إلى وجهه عبادة كما يقول علماؤنا.

إنَّ حرصنا على كشـــف الجوهر الجمالي في تكوينة الإنسان يقودنا إلى عوالم الجمال الماورائية، والتعرُّف على أمداء عمقها في النفس والكون. وهذا الجوهر الجمالي لا يكشف عن نفسه إلاّ من خلال ما يخوضه الإنسان من تجارب إيمانية مركزة تصهر طبيعته الطينية في أتونها لتخرج بعد ذلك مبرأةً من شوائبها.

فإنسان من هذا النوع هو قوة للحياة يزيد في عمقها وغناها، أو قل هو الحياة بقوتها واتساعها. فأي حياة إذا خَلتْ من خطوة جديدة في سلّم الإيمان فهي حياة خاوية غير جديرة بأنْ يحياها الإنسان.

إنَّ النضال الروحي الممتدّ امتداد حياته هو شكل من أشكال الوجود المركز ينتج عنه حبٌّ فهيم لكونية الإنسان ولعظمة قواه الوجودية المتجذرة في أعماق الوجود، ويظلُّ الإنسان محرابا يتعبَّدُ فيه الوجود خالقَهُ ما لم ينكص على عقبيه فَيُعْمِل معْوَلَهُ هدما في المعبد والمحراب في ساعة من ساعات جنونه ليتحول هو نفسه إلى أنقاض إنسان، وشظايا مخلوق لا معنى له ولا هدف.

فالإنسان فكرة سامية في ذهن الوجود قبل أن يكون أيَّ شيءٍ آخر. فلا يستطيع داهمُ الفناء أنْ يدهمه، ولا عناصر العدم أن تطاله. فإذا ما أدرك الإنسان حقيقة وجوده، وعرف أنه مصون الوجود، محفوظ للخلود شعر بأهمية وجوده، وأحسَّ بأنه راسية من رواسي الأرض الشامخات، تنهار الأرض إذا انهار وتتهاوى الدنيا إذا تهاوى.

فالوجود بقدر ما هو ثوب إلهي أُلبِسَـــهُ الإنسان، وإكرام له، وإنعام عليه، فهو كذلك مســـؤولية عظمى توجب على الإنسان صيانة "موجوديته" والحفاظ على طهارتها وقدســـيتها. فلا يأتي من الســـلوكيات والمعتقدات ما يتنافى وشرفَ هذه "الموجودية" حتى يَلقى بها بارئها كما كانت في أول تلبُّســـها به، وهذا هو ما تســـعى إلى تحقيقه كافة الأديان. ويُحذِّرُ "النورسي" الإنسان من أن يعيش محصور الذهن بـــ "هنا، والآن"، ويأبى أن يعرف شيئا عن "هناك" وعمَّا بعد "الآن" تاركا "ما ورائيات" هذا العالم وراء ظهره، مستهينا بكونه حبيس الوجود، ومرصودا للخلود ومأمورا بالخلاص من إسار الزمن لينطلق حُرًّا نحو الآماد الموغلة في بعدها الأخروي فيحظى بالقرب والمشاهدة.

فالجمالية السرمدية تأبى أنْ تُشاهَد بعين زمنية محدودة الرؤية، وقاصرةٍ عن الإحاطة والإدراك، فتنشـــئُ في الإنســـان نوعا من السرمدية لكي يكون قادرا على استشعار هذه الجمالية وتشرُّبها كِفاءَ أشواقه الملتهبة إليها كما يشير "النورسي".

الانتحار الوجودي

مـــرة وعلى حين غِـــرَّة صرخ مفكر غـــربي في حومة من اليأس البئيس: "لو كنتُ موجودا فأخبرني مَنْ أنا؟ ولماذا أنا موجود؟".

إنَّ هذه الصرخة المفزعة تكاد تكون لســـان حال جمهرة لا يستهان بهم من مفكري الغرب المعنيين بشؤون الإنسان الفكرية والروحية. إنها إشارة غير مقصودة إلى تدهور حضاري بدأ يأخذ أبعادا مختلفة في شتى مناحي الحياة. وهو شعور غامض بالانفصال عن دورة الحياة وعجلة الفاعلية الوجودية، وانحدار سريع للعقل نحو ظلمات "اللاجدوى" وانتحار عقلي مخيف. وكلُّ ذلك بسبب المحدودية الزمانية والمكانية التي وضع فيها نفسه والانكفاء على "هنا، والآن" وغياب الأخروية عن الحضور لدى عامَّة البشـــر. وهذه هي مأساة العالم اليوم.

المرعوبون

إنَّ مثالية الإنسان وألمعيته وعنصره الكريم يوجب على كلِّ مُحِبٍّ له أن يســـارع ليحجز بينه وبين السقوط في مهاوي محدوديات فكرية ونفســـية تمنعه من الانداياح الروحي والفكري نحو آفاق المطلق الإلهي على الرغم من أنَّ الاستشراف الفطري في دواخله يهيـــب به في كلِّ مَرَّةٍ أن ينهض من تحت قهر محدودياته ليلامس قِممَ المعاني العظيمة التي يعلي الدينُ من شأنها في النفس والكون.

أمَّا المرعوبون من وجودهم، والمنســـحقون تحت ثقله وتبعاته أولئك الســـوداويون المكتئبون المساطون على الدوام بشواظ من جحيم كيانهـــم الداخلي، كيف ننتظر منهـــم فكرا جادا يثري الإنسان ويغني حياته، وأنّى لهم القدرة على الإتيان بجديد روحي قادر على التأثير بمســـارات العالم الماديـــة...؟ بينما يبقى إيمان الإنسان بخلود وجوده يعزز قوى روحه، ويشحذ طاقات فكره، ويفجر ينبوعا دائم التدفق من الغبطة الجذلى بالحياة.

إنَّ الترابيين الذين لا يجدون في المصير الترابي الذي سيؤولون إليه -في زعمهم- ما يوجب الرعب، ولا يرون في ضياع أفكارهم وأحلامهـــم وآمالهم بالحق والعدل والخير والجمال ما يبعث على الاحتراق أسفا، ولا تهمهم أشواق أرواحهم ولا أفكار أفئدتهم...

أولئك المبشـــرون بالفناء، والمترنمون بالعـــدم... كم جلبوا على البشرية من خطايا، وأتوا على الإنسان من عذابات، وجرّعوا العالم مـــن ويلات... فكم من مظهر من مظاهر قوة الله وعظمته مَرّوا عليها بعيونٍ عُمي، وكم من ينبوع من الجمال الأقدس لم يرشفوا منه -على شدة ظمأهم- ولو رشفة واحدة، وكم من سطور على صحيفة الكون خطّها القلم العلوي لكنهم لا يحســـنون القراءة.

الجدب الروحي

إنَّ خطـــورة "الجدب الروحـــي" أنه لا يتوقـــف عند حد، بل يمتـــدُّ في تصحره حتى يأتي على منابـــع الفكر والإدراك، ويجتاح بسُـــمُومه حديقة الوجـــدان. وعند ذلك لا يأتي من الإنســـان شـــيء ذو بـــال، بل لا يمكننـــا أنْ نتصـــور إلى أيِّ دَرَك يمكن أن يتـــردَّى إليه مثل هذا الإنســـان المجدب مـــن كل مكان.

بل ما جدوى ما أنجزه الإنســـان من عظائم الأمور، وحققه مـــن جلائل الأعمال، إذا كان مصير ذلك الزوال والعدم؟! ومن ثَمَّة فما جدوى وجوده هو بالذات؟ وما جدوى الوجود بأســـره الذي يبـــدو -من غير الحياة الآخرة- فارغا من المعنى والمغزى؟!

فالموت عندنا نحن المســـلمين، هو تلك النقطة من الحياة التي يصل إليها الإنسان لسبب ما وينعدم عندها وزن الزمن الدنيوي عليه، فينفلت مـــن جاذبيته، وينفك من قيده، ليلج فضاء الزمان الأخروي الأبدي والســـرمدي، مَثَلُهُ مثل الفضائي الذي لا بُدَّ له مـــن المرور في نقطة "انعدام الوزن" قبل أن يتيســـر له الانطلاق منفلتا نحو الأعماق من أمداء الكون المهول.

لقد كان هـــذا المفهوم عن "الموت" حاضرا دائم الحضور في أذهان المســـلمين الأوائل، وكانوا في أَوْج حسهم الأخروي يوم خرجوا على الدنيا بحضارتهم الزاهية التي أَثْرَتْ الروح الإنساني، وأمدَّتْ شـــجرة الحضارة بالحياة والرواء قرونا عِدَّة، ولم يجدوا أنفســـهم أبدا في حاجة إلى خنق هذا الحِسّ، وإيقاف نبضه من أجل أنْ يحســـنوا التفكير، ويجيدوا الإبداع، ويزيحوا الأستار عن أسرار الأشياء، بل كان الأمر على العكس من ذلك تماما، حيث غدا هـــذا الحسُّ دافعا ومحفزا لرغبات المســـلمين في الخلود عَبْرَ أعمالهم وأفكارهم ومعارفهم، ما دامتْ ستكتســـب شرف رضا الله وقبوله والثواب عليها في حياتهم الأخروية.

الانعتاق من أسر المحدود

وقد اســـتطاع "النورســـي" رحمه الله تعالى أنْ يشـــخص أزمة المســـلمين منذ البدايات الأولى للقرن العشرين وعزاها إلى فقدان القابليـــة الحضارية فيهم على التواصل ومواكبة الزمن، بســـبب تعطل المحرك لهذه القابلية بخمود لهب التوق للانعتاق من أســـر "المحدود" والامتداد بأفكارهم وأعمالهم في "اللامحدود" وبخمود حماسهم في كســـر قيد الزمن الدنيوي عن أفكارهم وأعمالهم، بحيث تكتســـب شرف الامتداد في الزمان الأخروي الذي تَصُبُّ في حافظته جميع الأعمال والأزمان، ولم يعد "الخلود" هاجسهم الأول ومحركهم الدائم في العمل والفكر، فلم يبدعوا مثلما كان يبدع أوائلهم، ولم يستطيعوا أن يضيفوا في الفكر أو العمل شيئا مهما يمكن أن يسجل باسمهم خلال ذلك القرن.

"والنورسي" يرى أنَّ خلق الإنســـان وإلباسه لباس الوجود كرم إلهي، وعطاء رحماني، لا يمكن عقلا وحدســـا أن يَســـتردَّ الكريم هباته، أو يســـترجع عطاياه، فطالما أعطانا الوجود -جَلَّ شأنه- فلن يسلبه مِنَّا.

والنورســـي لا ينِي يؤكد على طهر الحياة وقدســـيتها، وأنها أصل الخلق والوجود، بينما "المـــوت" خَلْقٌ عارض ليس له قوة إلغـــاء الحياة، أو إيقاف مَدِّها الزخَّـــار إلى بحر الأبدية والخلود، فالموجود له صورة معنوية في علم الله تُمثل مُقدَّراته الحياتية، وهي تُلازم صورته المادية وتنتقل معها في مراحل نموها، ثم تتبدل تلك الصورة والمقادير مع مســـيرة حياته تبدلا يلائم الحكمة في خلقه، وينسجم كليا مع المصالح المركبة عليه.

فبقدر ما في نفوسنا من توق وحنين فطري إلى مشاهدة الجمال والأنس به والانجذاب إليه، فإنَّ الجمال نفســـه يبادلنا هذا التوق والشوق، ويطلب لنفســـه صفوة من المشاهدين الذواقين الذين يحســـنون المشاهدة، ويتأنقون في حضرته، ويطهرون أحاسيسهم ويهذبونها بين يديه. وإنه ليفرح بانشداه أرواحهم ورعشة أفئدتهم بإزاء ما يلمسونه من فخامة جماله وعظمة معناه، ويدعوهم لكي يصغوا إلى نغم ألوانه وأضوائه، ونبل لغته.

وفي تعمقه في سِـــرِّ الجمال والجميل يكتشف "النورسي" سِرَّ الخلود الموعوديـــن به في عالم الغيب، فيلخص هذا السِـــرَّ بهذه العبارة الوجيزة: "أبدية الجمال تستلزم أبدية المحبِّ المشتاق". ■

(*) كاتب وأديب عراقي.

ترجم إيمانك إلى عمل واجمع بينهما تكن مؤمنا حقا... روّض نفسك على ذلك، وارفع مشاعرك إلى آفاق السرمدية... إنّ فعلت ذلك، أتاك العالم متطامنا بين يديك تحركه كيف تشاء...

* * *

مدرسة تركية في مصر

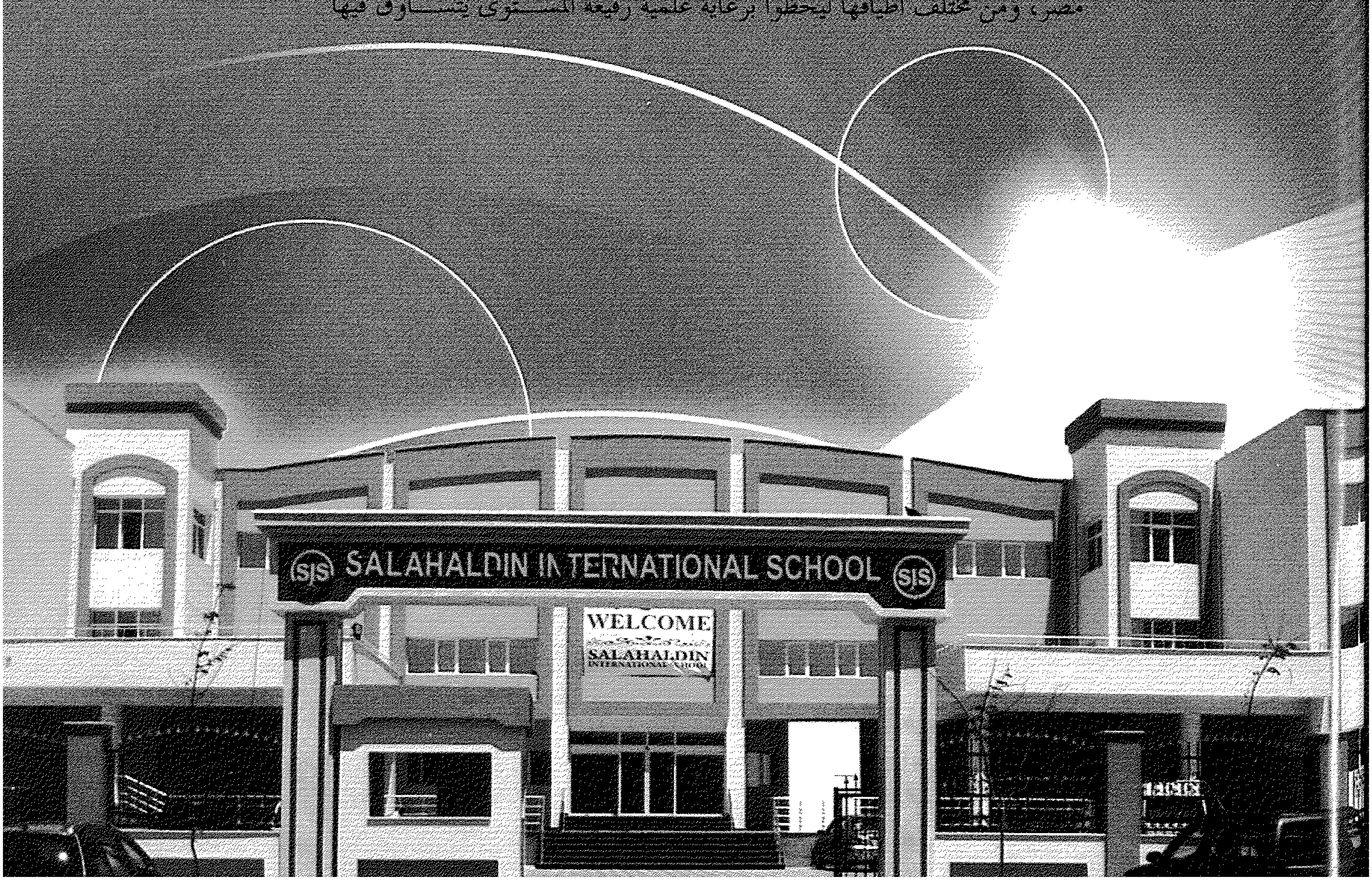
مدرسة صلاح الدين الدولية

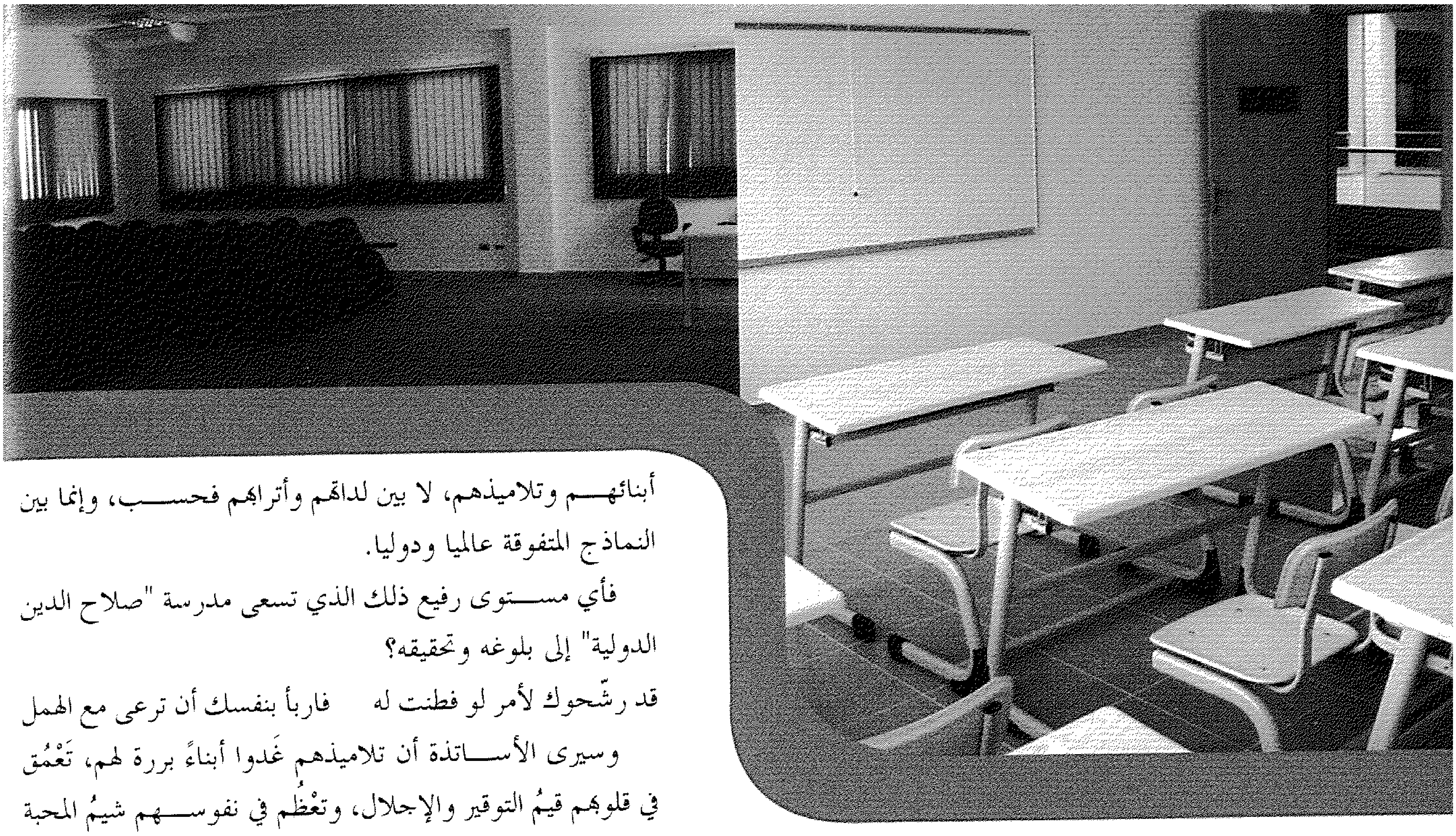
أ.د. محمد الأحمدي أبو النور*

هذه باقة نضرة يانعة، وتحية عطرة يافعة، نهديها للذين أحبوا مصر وآثروها بهذا الصرح العملاق "مدرسة صلاح الدين الدولية" فبنوا بذلك في قلب كل مصري صرحا من الحب الوثيق، والتقدير العميق، للشعب التركي الشقيق، قمة ووسطا وقاعدة.

نحن بإزاء ركائز ثلاث: ١-المدرسة. ٢-صلاح الدين. ٣-الدولية.

تمثل هذه المدرسة قيمة حضارية باسقة، تعني المجال المهيأ والملائم للتربية والتعليم، وسط مجتمع نموذجي يضم الطلاب الذي سيفدون إليها من شتى ربوع مصر، ومن مختلف أطيافها ليحظوا برعاية علمية رفيعة المستوى يتساوق فيها





شحذ الهمّة، بتوقد العزيمة، باكتشاف الموهبة، باستثمار هذا وذاك في تنمية علاقات التنافس العلمي، والتآخي الإنساني والتعاون العالمي، والذي ينشأ في مراحل هذه المدرسة ليتساوق مع طموحات أبنائها حتى بعد أن يتخرجوا فيها مهما تناءت بهم الأقطار، أو تنوعت فيهم التخصصات، أو تفاصل بينهم الزمن.

أساتذة وطلاب

وأحسب أن مجتمع المدرسة سيمثل بأطيافه الدولة مصغرة:،ويوجه إلى نهج التعاطي والتفاعل الذي ينبغي أن تكون عليه العلاقات بين المواطنين؛ الأمر الذي سيراه الطلاب مطبقا في هذه المدرسة ذات السمات المتميزة، والتي سيرون فيها اختلاف المواد، وتنوع التخصصات، بيد أنهم سيعلمون عن أساتذتهم قوة التلاحم بين أصول هذه المواد، وعمق التآخي بين غاياتها. وذلك لتكوين المواطن الصالح أسريا ومجتمعيا، والطالب النموذج علميا وأخلاقيا، والتلميذ الإنسان محليا ودوليا.

وأحسب أن الأساتذة -هنا- سيمثلون بآفاقهم الثقافية الرحبة وبأخلاقهم الإنسانية السمحة مُثُلا عليا يجد فيها الطلاب نعم الأسوة ونعم المثل! كما أحسب أن عاطفة الأبوة ستكون صاحبة القدح المعلىّ في المدرسة لدى مدرسيها. وسيلمس الطلاب مدى حرص أساتذتهم على إفادتهم علميا، وعلى تزكيتهم أخلاقيا، بل سيرون هؤلاء المدرسين أشد ما يكونون حرصا على تفوق أبنائهم وتلاميذهم، لا بين لداتهم وأترابهم فحسب، وإنما بين النماذج المتفوقة عالميا ودوليا.

فأي مستوى رفيع ذلك الذي تسعى مدرسة "صلاح الدين الدولية" إلى بلوغه وتحقيقه؟

قد رشّحوك لأمر لو فطنت له   فاربأ بنفسك أن ترعى مع الهمل

وسيرى الأساتذة أن تلاميذهم غَدوا أبناءً بررة لهم، تَعْمُق في قلوبهم قيمُ التوقير والإجلال، وتعْظُم في نفوسهم شيمُ المحبة والإكبار لمعلميهم الآباء، وآبائهم المعلمين الذين أعطوا المثل في الثقافة الواسعة، والعلم الغزير والأبوة الحانية.

وأكاد أوقن أنه سيكون لهذا وذاك ردّ فعل حميد بل ودود لدى السادة المدرسين؛ يدفعهم إلى مضاعفة الجهد، وبذل أقصى ما يستطيعون لتنمية مهارات أبنائهم، يغمرهم الرضا ويحدوهم الأمل، ويحتويهم مزيج من السعادة والثقة.

وعندئذ سنرى كيف ستعود للمدرس هيبته، وكيف ستعظُم مكانته الأثيرة في نفوس تلاميذه وبنيه.

أجل، وسيلمس المدرس -وهو في المدرسة- كأنما هو في بيته يحوطه بنوه بما يجب عليهم نحوه من بر وتوقير لقاء ما يلقيهم -هو- من عطف ومرحمة، وتعليم وتربية، وحرص حريص على أن يبلغ بهم أرفع مستوى علمي وأخلاقي معا.

أبوة الأستاذ وبنوة التلميذ

هذا وذاك، أعني الأبوة من الأستاذ والبنوة من التلميذ هما مفتاح النجاح والتطور والإبداع في العملية التعليمية.

وقد اصطفى الله تعالى نبيه محمدا ﷺ معلما للدين، ومزكيا للخلق كما قال تعالى ﴿لَقَدْ مَنَّ اللهُ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ إِذْ بَعَثَ فِيهِمْ رَسُولاً مِنْ أَنْفُسِهِمْ يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِهِ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَإِنْ كَانُوا مِنْ قَبْلُ لَفِي ضَلَالٍ مُبِينٍ﴾(آل عمران:١٦٤)

وإذًا فقد بعث الله نبيه ﷺ معلمًا، كما بعثه متمما لمكارم الأخلاق؛ وفي الأمرين عز الدنيا وسعادة الآخرة.





بيد أن نجاح المعلم يكمن في حرصه الحريص على هداية من يعلمهم ثم في رأفته بهم وحنوه عليهم، ولا يتم ذلك إلا بالأبوة الحانية التي ينبئ عنها قوله ﷺ " إنما أنا لكم مثل الوالد، أعلمكم" (رواه أحمد).

وبالتَّناغم بين الأبوة والتعليم فيها تُجسِّد لنا المدرسة أمرًا من أمد بعيد:

كان حُلْمًا، فخاطرًا، فاحتمالا ثم أضحى حقيقة لا خيالا

أعني ما سبق أن تَغَنَّى به الشعراء، وتَمنى تحقيقَه الآباء، عرفانا بحق المعلم، وتوخيا لحسن الإفادة منه، وقياما بما يجب له من حق؛ حيث قال قائلهم:

قـم للمعلـم وفِّـهِ التبجيـلا كاد المعلم أن يكون رسولا
أَعَلمتَ أشرف أو أجلّ من الذي يبني وينشئ أنفسا وعقولا

وسندرك بعدئذ أن المواءمة بين المحلية والدولية، وبين الدين والدنيا، وبين العلم والخلق، وبين التربية والتعليم، وبين الأبوة والتدريس... إلى آخر ما تتميز به هذه المدرسة... سندرك أن هذه المواءمة هي التي ستُظْفِرُنَا من الطلاب بالنموذج الفريد في بيته، والمتميز في ثقافته، والبار بآبائه في بيته ودراسته، والصديق النافع لمجتمعه وبيئته، والسفير بعلمه وإبداعه إلى العالم -بعدئذ- من حوله.

وهذا النموذج الفارد من الطلاب، هو الذي يرى فيه القاصي والداني: أن يكون منه بمشيئة الله وعونه: العبقري والمبتكر والمفكر والمخترع، مع نبل في النفس، وزكاء في الخلق، وسمو في السلوك.

وهذا النموذج الفريد هو الذي سيتجدد لنا به خطاب الدين متسقا مع العقل والعلم والحكمة مبشرا بحاضر مشرق وغد واعد مصداقا لنحو قوله تعالى: ﴿مَنْ عَمِلَ صَالِحًا مِنْ ذَكَرٍ أَوْ أُنْثَى وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهُ حَيَاةً طَيِّبَةً وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَجْرَهُمْ بِأَحْسَنِ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾(النحل:٩٧). ذلك وقد أحطنا بالركيزة الأولى خبرا.

إيحاءات من اسم "صلاح الدين"

أما الركيزة الثانية فهو أنها مدرسة صلاح الدين. وهو يوسف بن أيوب المظفر صلاح الدين الأيوبي، الملك الناصر (٥٣٢-٥٨٩هـ/١١٣٧-١١٩٣م).

أصله من أذربيجان، وولي أبوه أعمالا في بغداد والموصل ودمشق ،هذه المدينة التاريخية التي كانت حاضرة الخلافة الأموية، وبها نشأ صلاح الدين، وترعرع بين أفيائها العلمية وتفقه وارتوى من الأدب، وروى الحديث بها والإسكندرية، فبينه وبين كل شاد في الفقه والأدب والحديث صلة حميمة، وآصرة وثيقة، ووشيجة تاريخية.

نذكر له بكل الفخر والاعتزاز أنه رغم قساوة الظروف السياسية -آنئذ- وتجمُّع الغرب كله على الشرق ما وهن ولا ضعف ولا استكان، وبفضل الله عليه ثم بعمق إيمانه، وصدق يقينه، وريًا ثقافته الفقيهة والحديثية والأدبية استطاع أن يقود الأمة ويعبر بها من الفرقة إلى الوحدة ومن الضعف إلى القوة ومن اليأس إلى الأمل، وكوّن القوة العلمية والإيمانية والعسكرية، كما شحذ عزائم الجيوش، وجنّد طاقات الشعوب حتى دانت له البلاد من آخر حدود النوبة جنوبا إلى برقة غربا، ومن بلاد الأرْمن شمالاً إلى الجزيرة والموصل شرقا، فرد الأعداء على أعقابهم حتى ولّوا مدبرين، واسترد عكا وطبرية ويافا والساحل الشمالي إلى ما بعد بيروت، كما حرر بيت المقدس.

وكم لذكرى صلاح الدين من حقوق، وكم لصلاح الدين علينا من واجبات: أن ندرس تاريخ المشرق، وإباءه المشرّف لنتملى دروسه وما فيها من عبرة.

أيضا نأخذ من صلاح الدين العلم والعمل لتكون كلمة الله هي العليا وكلمة الذين يعتدون على المسلمين هي السفلى والله عزيز حكيم.

صلاح الدنيا بصلاح الدين

بيد أننا نأخذ "صلاح الدين" بمفهوم الكلمة المركبة وليس فحسب بمفهوم أنها عَلَم على الملك الناصر... صلاح الدين، أي صلاحية

الدين لسياسة الدنيا في كل زمان ومكان.. صلاح الدين، أي إصلاح الدين لدنيا الناس بالحكمة وحسن الموعظة وبالنصيحة لله ولكتابه ولرسوله ولأئمة المسلمين وعامتهم.وليس بأي سلوك آخر؛ فقد أمر الله أن نقول للناس حسنا، وقد نهى الله أن نجادل أهل الكتاب إلا بالتي هي أحسن.

وحين يتذاكر أبناء المدرسة هذه المعاني فسيترجمونها عزائم متقدة، وإرادات فاعلة، وآمالا لا تخبو لتحقيق ما يصبون إليه من غاية، وما يرنون إليه من تخصص، وتفعيل كل منهم ما آمن به من أنه كمؤمن ينبغي أن يأمنه الناس على دمائهم وأموالهم وأعراضهم، ومن أنه كمسلم يلزمه أن يَسلم الناسُ من أذى لسانه ويده، ومن أنه كمهاجر إلى الله ينبغي أن يهجر ما نهى الله عنه، ومن أنه كطالب ودارس للعلم ينبغي أن يُعدّ نفسه ليتفوق في تخصصه ثم ليكون سفيرًا لمبادئه وقيمه، فيكون عنوانا للأمن والعدل والسلام في مجتمعه خادما للثقافة والمعرفة أنى كان، تطبيقا منها للسماحة والتآخي والرحمة والتكافل والتعاون على البر والتقوى حيثما كان، لا على الإثم والعدوان.

عالمية الرسالة

إن رسالة الطالب في مدرسة صلاح الدين الدولية والتي يُعدّ نفسه لها بالعلم والتفوق فيه، وحسن الخلق والتطبيق له.. إن رسالته ليست محلية، إنه بعد فترة سيكون -بإذن الله- خريج هذه المدرسة الدولية، وهذه هي الركيزة الثالثة التي تقوم دليل صدق كل من أسهم وخطط وبنى وشيّد.

إن طابع العالمية واضح وطابع الإيثار بالخير للغير أكثر وضوحا، وطابع حب الإنسان لأخيه الإنسان أنى كان أوضح من أين يحتاج إلى برهان.

ثم إن طابع العمل لإسعاد الناس مهما نَأَتْ بهم الدار أو اشتط بهم المزار غدا أوضح من الشمس في رابعة النهار.

الأخوّة التركية-المصرية

فماذا نقول في الإخوة الأعزة أشقائنا الأتراك الذين تمكنوا من سويداء القلوب، وتربعوا على عروش النفوس حبا لهم وإكبارا لمكانهم وإعزازا لمكانتهم.. إنهم فتية آمنوا بربهم، وأنكروا ذواتهم، وضحّوا كثيرا وكثيرا من أجل إسعاد غيرهم...

إنهم فتية آمنوا بربهم وزادهم الله هدى وآتاهم تقواهم. ولا غرو فقد تخرجوا في حراء، بدءا من النجم الأول: ﴿اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ ۞ خَلَقَ الإِنْسَانَ مِنْ عَلَقٍ ۞ اقْرَأْ وَرَبُّكَ الأَكْرَمُ ۞ الَّذِي عَلَّمَ بِالْقَلَمِ ۞ عَلَّمَ الإِنْسَانَ مَا لَمْ يَعْلَمْ﴾(العلق:١-٥)، ثم أخذوا يدرسون يحفظون القرآن والسنة، ويتفقهون في الدين ويعملون بما حفظوا وفقهوا وعلموا إلى آخر نجم أنزل الله سبحانه فيه: ﴿الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ الإِسْلاَمَ دِينًا﴾(المائدة:٣).

ومنذ النجم القرآني الأول كان العلم والعمل والتعليم؛ فكانت الربانية علما وعملا، ثم تبوءوا الدار عن بعد والإيمان عن قرب، فأحبوا كل من هاجر إلى الله وكل من يهاجر إلى الله، وأعادوا السيرة العطرة للأنصار فأحبوا وآثروا وصبروا وصابروا وآووا ونصروا وكفلوا وآزروا كل طالب علم مهما كان لونه أو لسانه أو فكره أو قطره، ونشروا الإيواء لطلاب العلم أينما كانوا، ونصروا التقدم العلمي حيثما همم به ذووه، وأحبوا كل محب لله ورسوله وبذلوا دون مقابل، وتكلفوا دون توقف على كافل، ولا تكاد تطلع منهم على قيادة أو قاعدة كأنما كلهم قادة أو كأنهم كلهم قاعدة لا رئيس فيهم ولا مرءوس، أذاب الحب في الله الفوارق وأبدلهم بها حبا وتفانيا وإيثارا وعملا لله لا للنفس، فأي إحسان بعد هذا الإحسان، وأي إيثار بعد هذا الإيثار؟ وأي حب لله ورسوله، وأي حب في الله ورسوله اتسم به هذا الفريق التركي في شمله النظيم وأمره الجميع، وتضحياته الفريدة؟! لمثل هذا فليعمل العاملون، وفي ذلك فليتنافس المتنافسون.

اللهم أيدهم بأيدك، وشُدَّ أزرهم بجندك، وهيئ لهم ولنا من أمرهم وأمرنا رشدا. لقد قلتَ وقولك الحق: " ﴿وَمَنْ يُطِعِ اللهَ وَالرَّسُولَ فَأُولَئِكَ مَعَ الَّذِينَ أَنْعَمَ اللهُ عَلَيْهِمْ مِنَ النَّبِيِّينَ وَالصِّدِّيقِينَ وَالشُّهَدَاءِ وَالصَّالِحِينَ وَحَسُنَ أُولَئِكَ رَفِيقًا﴾(النساء:٦٩)، وأذنت لنبيك محمد ﷺ أن يقول:" المرء مع من أحب"(متفق عليه).

اللهم آتهم تقواهم، اللهم أسعدهم بثمار أعمالهم هذه الصالحة في دنياهم ثم في أخراهم. اللهم إنا نحسب أنهم ممن علموا فأحسنوا، وأبلوا كذلك فأحسنوا. اللهم اجعلهم من الذين قلت في جزائهم: ﴿لِلَّذِينَ أَحْسَنُوا الْحُسْنَى وَزِيَادَةٌ﴾(يونس:٢٦)، وممن قلت فيهم: ﴿وَقِيلَ لِلَّذِينَ اتَّقَوْا مَاذَا أَنْزَلَ رَبُّكُمْ قَالُوا خَيْرًا لِلَّذِينَ أَحْسَنُوا فِي هَذِهِ الدُّنْيَا حَسَنَةٌ وَلَدَارُ الآخِرَةِ خَيْرٌ وَلَنِعْمَ دَارُ الْمُتَّقِينَ﴾ (النحل:٣٠)، وتقبل عنهم أحسن ما عملوا، وأنعم عليهم بمعية النبيين والصديقين والشهداء والصالحين وحسن أولئك رفيقًا. ■

(*) عضو مجمع البحوث الإسلامية ووزير الأوقاف الأسبق / مصر.



إن الواجب علينا اليوم هو أن نكافح من أجل الحفاظ على ذاتيتنا بالارتباط بمنظومتنا العقدية والفكرية والتوجه نحو ثقافتنا ونتاجها.. وأن نقوم بتحقيق ألوان جديدة من الفكر والعرفان فوق أطلسنا الفكري.

* * *

ISSN 1306-1879
16
www.hiramagazine.com

حراء

مجلة علمية ثقافية فصلية

www.hiramagazine.com

العدد الرابع/السنة الأولى/(يوليو - سبتمبر) 2006



بسم الله الرحمن الرحيم

القلم المبدع

«الكلمة» -مسموعةً أو مقروءةً- طاقة محركة لقوى الإنسان الفكرية والوجدانية، تعمل في صمت وخفاء، وتؤثر في الإنسان أيًا كان نوع هذا التأثير. وعلى قدر ما تشعه من روح الصدق والحق يظلُّ هذا الأثر قائمًا وقلّما يغادره.

فالإنسان -في الحقيقة- ابن الكلمة... هي التي تبني فكره وتُهَندس وجدانه، وتثير مخيّلته... و«الكلمة الصدق» فيها من روح صاحبها شعاع نافذ إذا سرى فليس له من دون الإنسان دافع أو مانع.

و«الكلمة» لا تكون عظيمة التأثير في المتلقي إلاّ إذا أشاعتْ من حوله أجواء إيحائية تستدعي معاني جديدة تتجاوز معناها القريب الذي يتبادر إلى الذهن لأول وهلة. فقوة «الكلمة» ليست بالكلمة نفسها بل بما توحيه للمتلقي من أفكار، وبما يتناسل منها من معانٍ أكثر سعة وأكبر أثرًا.

والقلم المبدع الذي يتفجر فكرًا إبداعيا جديدا هو ما تسعى إليه «حراء» وترغب أن تراه فيّاضًا بإبداعاته على صفحاتها. و«حراء» باستقطابها لمثل هذه الأقلام المبدعة ستتحول مع الزمن إلى مدرسة فكرية مرموقة إن شاء الله، تحمل على عاتقها مهمة إثراء القارئ الكريم بلون جديد من الفكر.

فمقالات هذا العدد من «حراء» تكاد تصبُّ في هذا الاتجاه، غير أنَّ الطريق للوصول إلى هذا الهدف المرجُوّ لا زالت بعيدة، وتحتاج إلى مزيد من الوقت، وقد وصفها الأستاذ «فتح الله» في مقاله الموسوم «لدى استكشافنا خط السير»، وعلّم معالم، ووضع إشارات، وحدَّد حدودًا كي لا يتيه عنها الرواد الراغبون في سلوكها.

وإنّ عملاقا كبيرا من أمثال «الشيخ البوطي» في مقاله «الإسلام بين العقل والقلب» يفتح طريقًا جديدة لفهم الإنسان من خلال الإسلام، وهل الإنسان أكثر من عقل وقلب؟! أما المفكر الكبير وفيلسوف المغرب الشهير الأستاذ الدكتور طه عبد الرحمن فمقاله القيم عن «فلسفة البشر وحكمة القرآن»، فهو فريد في بابه، ويسعدنا أن يتحفنا في كل عدد بواحدة من درره الفكرية المتألقة. وأما الكاتب الإبداعي الذي هو ملء الفكر في العالم العربي والإسلامي فضيلة الأستاذ الدكتور «محمد عمارة» فيتحفنا بمقاله الخطير المبين عن روح الحضارة الإسلامية، هذه الروح التي تكاد تختفي معالمها. علاوة على ما سيطالعه القارئ الكريم من لمسات أدبية وشعرية... وإلى دراسة جديدة في أسلوب تذوق الفن الإسلامي، إلى غير ذلك من المقالات الابتكارية في الشكل والمضمون.

إن هذه المجموعة المباركة من كُتّاب هذا العدد من «حراء» تبعث في القارئ الأمل بأنّ عالمنا الإسلامي لا زال يزخر بطاقات فكرية هائلة في شتّى صنوف المعرفة، وإنّ التقاءهم على صفحات «حراء» مسألة قدرية ذات مغزى عميق قد يأتي تفسيره في القابل من الزمن، وما ذلك على الله بعزيز.

حراء

العدد الرابع / السنة الأولى

(يوليو – سبتمبر) ٢٠٠٦

التصور العام

• حراء مجلة علمية ثقافية فصلية تعنى بالعلوم الطبيعية والإنسانية والاجتماعية وتحاور أسرار النفس البشرية وآفاق الكون الشاسعة بالمنظور القرآني الإيماني في تآلف وتناسب بين العلم والإيمان، والعقل والقلب، والفكر والواقع.

• تجمع بين الأصالة والمعاصرة وتعتمد الوسطية في فهم الإسلام وفهم الواقع، مع البعد عن الإفراط والتفريط.

• تؤمن بالانفتاح على الآخر، والحوار البناء والهادئ فيما يصب لصالح الإنسانية.

• تسعى إلى الموازنة بين العلمية في المضمون والجمالية في الشكل وأسلوب العرض، ومن ثم تدعو إلى معالجة المواد بمهنية عالية مع التبسيط ومراعاة الجوانب الأدبية والجمالية في الكتابة.

شروط النشر

• أن يكون النص المرسل جديدا لم يسبق نشره.

• ألا يزيد حجم النص على ٢٠٠٠ كلمة كحد أقصى، وللمجلة أن تلخص أو تختصر النصوص التي تتجاوز الحد المطلوب.

• يرجى من الكاتب الذي لم يسبق له النشر في المجلة إرسال نبذة مختصرة عن سيرته الذاتية.

• تخضع الأعمال المعروضة للنشر لموافقة هيئة التحرير، ولهيئة التحرير أن تطلب من الكاتب إجراء أي تعديل على المادة المقدمة قبل إجازتها للنشر.

• المجلة غير ملزمة بإعادة النصوص إلى أصحابها نشرت أم لم تنشر، وتلتزم بإبلاغ أصحابها بقبول النشر، ولا تلتزم بإبداء أسباب عدم النشر.

• تحتفظ المجلة بحقها في نشر النصوص وفق خطة التحرير وحسب التوقيت الذي تراه مناسبا.

• النصوص التي تنشر في المجلة تعبّر عن آراء كُتّابها، ولا تعبّر بالضرورة عن رأي المجلة.

• للمجلة حق إعادة نشر النص منفصلاً أو ضمن مجموعة من البحوث، بلغته الأصلية أو مترجمًا إلى أي لغة أخرى، دون حاجة إلى استئذان صاحب النص.

• مجلة حراء لا تمانع في النقل أو الاقتباس عنها شريطة ذكر المصدر.

يرجى إرسال جميع المشاركات إلى هيئة تحرير المجلة على العنوان الآتي:

hira@hiramagazine.com

مجلة علمية ثقافية فصلية تصدر عن:
Işık Özel Eğitim Tic. Ltd. Şti.
İstanbul / Türkiye

صاحب الامتياز
أنس أركنه
mergene@hiramagazine.com

المشرف العام
نوزاد صواش
nsavas@hiramagazine.com

رئيس التحرير المسؤول
حسام الدين السيد
hosam@hiramagazine.com

مدير التحرير
أشرف أونن
eonen@hiramagazine.com

وحدة البحوث والتنمية
أجير إيشي يوق
eisiyok@hiramagazine.com

الإخراج الفني
أسيد إحسان الصالحي
usalihi@hiramagazine.com

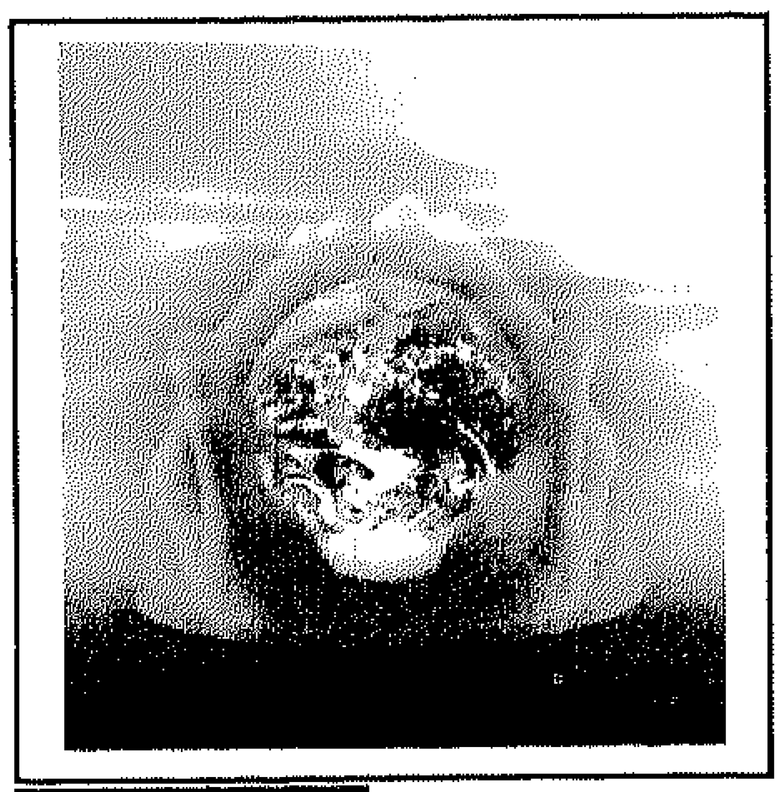
المركز الرئيس
HİRA MAGAZİNE
Emniyet Mah. Huzur sok.
No:5 34676
Üsküdar - İstanbul/Turkey
Phone: +902163186011
Fax: +902163184202
e-mail:
hira@hiramagazine.com

الإشتراكات/مركز التوزيع
٧ ش البرامكة - الحي السابع - م.نصر/القاهرة
تليفون وفاكس: +2022619204
المحمول: +20127874552
جمهورية مصر العربية
sub@hiramagazine.com

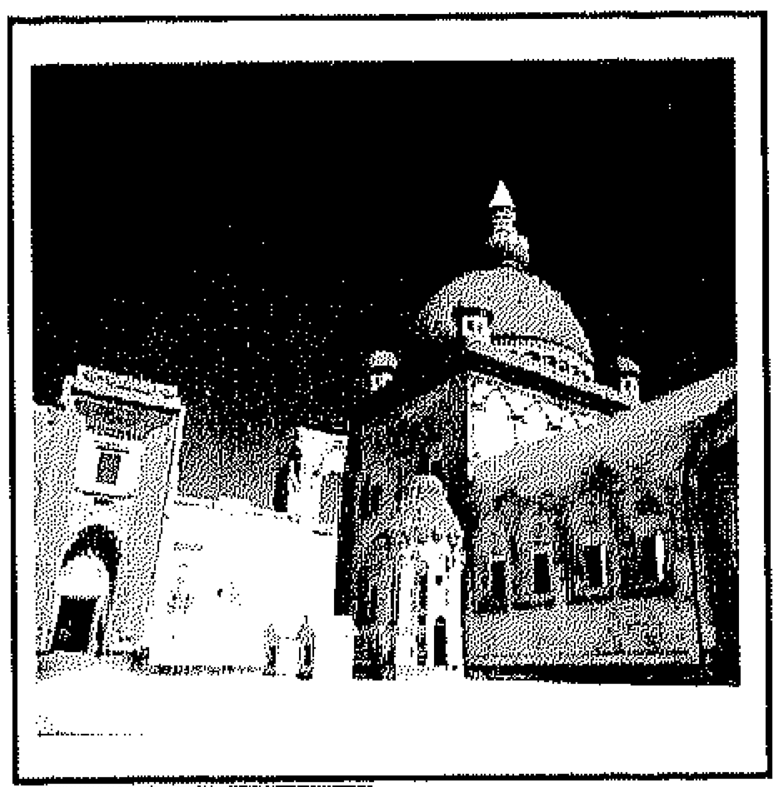
الطباعة
Bediralp Mat. Tic. San. AŞ.
Litrosyolu No: 4/1 Blok
Topkapı/İstanbul
Tel: 02126124359

رقم الإيداع
1306-1879
Yayın Türü: Yaygın süreli yayın

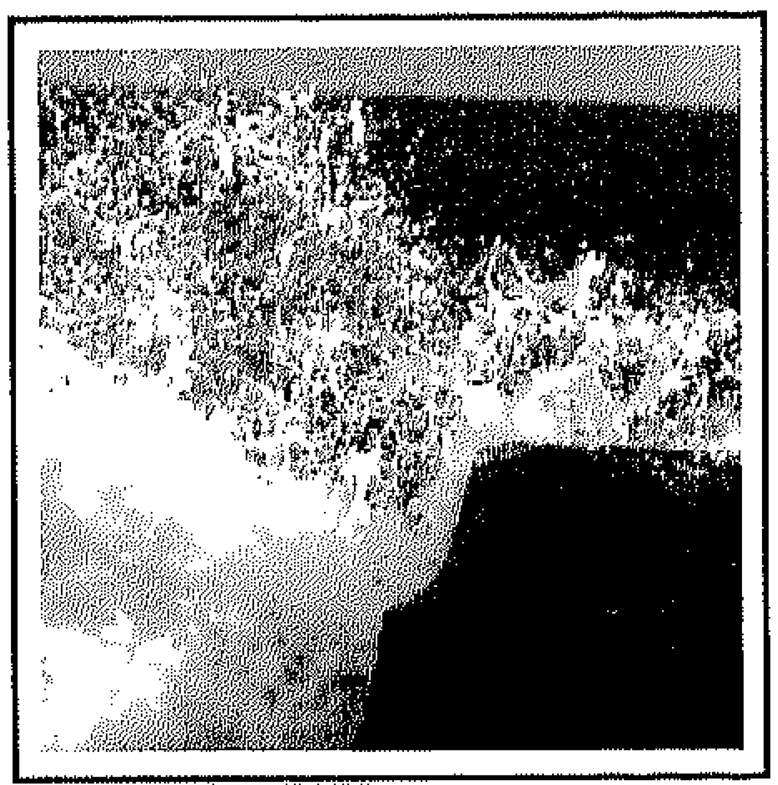
المحتويات



٤ المقال الرئيس



٢٣ دراسات إسلامية



٣٠ علوم



٦٤ شعر



لدى استكشافنا خط السير

فتح الله گولن

تعرض الإسلام منذ حرماننا من إرث الأرض إلى معاملة يتفطر لها القلب في برزخ ضعف المنتسبين إليه وتعدي خصومه وعدم إنصافهم. وليس مستغرباً أن يكون الظلم والغدر شعار الطرف الآخر، لكن ضعف المسلم لا يحتمل ولا يطاق. ولعل رسول الله ﷺ يشير إلى هذا، حين يستعيذ بالله من جلادة الفاجر وعجز المتقي.

لا ينكَر أن اهتزاز الفكر المسلم والمنطق المسلم، وتباطؤهما، وجمودهما، بل تكدرهما وفسادهما، قد أبعد المسلمين عن الصراط المستقيم ذي الهدف القرآني والفَلَك النبوي... وحجَب ضوء الشمس عن عالمية الإسلام، وعطّل أداء وظيفة الدين المحيط بالعالم. ويبدو واضحاً أن إزالة واقعة الانحراف هذه، المزمنة والمستقرة بهذه الدرجة المشهودة في مسلمي القرون الأخيرة، وفي المرشدين المسلمين خاصة، لن يتحقق بافتتاح بضع مدارس، أو عقد بضع مؤتمرات وندوات، ولا بمواعظ ونصائح مسكينة.

إن إزالة هذا الانحراف الهرِم، المادّ جذوره إلى عصور خلت، المُمَدّ بالعلم والتكنولوجيا في عصرنا، بحاجة إلى اكتشاف أنفسنا من جديد، والعثور على ذاتنا، وإثارتنا للشعور الإسلامي من جديد بمنطق إسلامي وعقل إيماني، وإلى جهد متواصل وهمّة أصيلة وزمان كاف وصبر غير نافد وأمل حيوي وإرادة صلبة وتأنٍّ بعد تأنٍ. وبخلاف هذا، إن لم نجد أسلوبنا الذاتي، و لم نبرح تخبطنا في البحث عن سبل الخروج من الحفرة التي سقطنا فيها في غير مظانها، فإننا نخدع أنفسنا ونعرض الأجيال القابلة إلى الانكسار مرة أخرى.

إحياء الفكر الإسلامي

لذلك، لا مناص من إحياء الفكر الإسلامي والتصور الإسلامي من أجل الاقتراب من فهم الوجود بنظر إسلامي، وتقييم الأشياء كلها بالمنطق نفسه. ويلزم لذلك؛

أولاً: الاستشعار، فالتعقّل، بالكائنات والإنسان والحياة بمعلومات سليمة، مناسبة لنفس الأمر، ثابتة المحور في مبدئها وغايتها، متساندة بعضها مع بعض، منفتحة الأجزاء فيما بينها، فكأنها نغم مسبوك من أصوات متنوعة بأسلوب واحد تعبيراً عن طابع معين، أو نقش مركزي تحيط به نقوش أخرى لا بد لها من روابط معنوية تشدها إلى المركز.

ثانياً: أن يحمل الإنسان العقل والفكر إلى تفهم المناسبات بكلية وجمعية في عموم الأشياء وعموم الوقائع المعروضة لمطالعتنا، بمعانٍ ومحتويات وحكم لا تحصى، ككتاب لمنظومة حِكم غير متناهية... أو كأثر فني يعكس ملايين الألوان للشؤون الإلهية فيغرق العيون ببريقه وتلألئه، وبرؤية وبصيرة ثاقبة تُبصر من خلال الجزئيات ما وراء ستار الكليات، من

غير أن تتعثر بحوادث جزئية ومنفردة منها؛ ومن خلال الكليات تبصر الامتداد إلى أبعد تجمعات الجزئيات. ذلك، كيلا ينقض، أو يُذوي، أو يضاد، قسم من جهدنا لقسم آخر منه، أو جزء من فكرنا لجزء آخر، أو مدة من زماننا لمدة أخرى.

ولا ينبغي أن يظن بهذا الكلام أننا لا ندعو إلى التخصص أو التفرع. فالخير في أن يتخصص امرؤ في فرع من الفروع، ثم يرتقي إلى ذروة عرش الكمال فيه، ويسعى إلى نيل أرقى المنى في تلك الساحة... لكن مع العناية بمعنى الكل ومحتواه وحاله، بل بمقصده وغايته، في أثناء سعيه وجده. ولا بد أن يتحقق هذا، سواء بالشعور التضامني المشترك، أو بسائق العلم والحس، أو بعمل منسق متكامل، أو بالدهاء العقلي. فلا شبهة ولا شك في حاجتنا الماسة إلى هذا النظر الكلي والشمولي، والتقييم العمومي والموضوعي.

الحاجة إلى العقل الموضوعي

نعم، الحاجة ماسة في أيامنا إلى عقلٍ موضوعي يتصور الأمس واليوم معاً، قادرٍ على التمعن في الكائنات والإنسان والحياة دفعة واحدة، موهوبٍ في الموازنة والمقارنة، منفتحٍ على بُعد أسبابِ الوجود وعلله، محيطٍ بظهور الأمم والجماعات واضمحلالها، حَكَمٍ فيما يغلط فيه علم الاجتماع وعلم النفس أو يصيب، رقيبٍ على تحول أحوال الحضارات بالولادة والموت والتقهقر، مقتدرٍ في التمييز بين الغاية والوسيلة، مالكٍ لسلامة الوجدان واستقامة الفكر، محترمٍ للمقصد، خبيرٍ بحكمة التشريع ومراد صاحب الشريعة، عالمٍ بالأسس المحضة لأحكام الدين، مُستَقْبِلٍ للواردات الإلهية.

إن أبطال الإدراك الذين يؤدّون وظائف مثل فتح الآفاق أمام نظامنا الفكري المنغلق... ويشغّلون تبلّدنا في المحاكمة العقلية المتقادمة المبتعدة عن السماوية بتدويرها في الفَلَك القرآني... ولا يغفلون أثناء ذلك عن المناسبة المفعمة بالسر بين الكائنات والإنسان والحياة... ويمثلون أنموذجا للدين بجسد إحياء الأوامر الدينية وتحقيقها بحرص بالغ، إلى جانب مراعاتهم أصلاً مهمًّا من أصول الدوام والتمادي في السبل المسلوكة، وهو التوافق مع آفاق صاحب الشريعة في التيسير والمواءمة والمسامحة، حتى تكون سمته فيضان التبشير وترك التنفير... وإنهاء العقم المزمن منذ قرون بتسليم قوة العلم والتفكر لإمرة الإسلام وتفسيره... وتحويل كل مكان، مدرسةً أم معبداً، شارعاً أم مسكناً، إلى مراصد ترصد الحقيقة الكامنة خلف الوجود والحياة والإنسان... وتشغيل منافذ الرؤية المتأملة في اللانهاية، والتي يمتد زمان تعطلها إلى قرون، بل إلى ردح أبعد من قرون... وتقديم أجندة حضور الإسلام في مراتب النظر دوماً وفي وحدات الحياة كلها... وتحكيم الحساسية في قضية السبب والنتيجة حسب مبدأ تناسب العلّية، والتصرف الرياضي والعقلاني... هؤلاء، هم مَن يعينوننا في التجدد، ويعلّموننا أركان الحضور والوجود الدائم الأبدي.

الاهتمام بالأسباب

وقد يستنكر ويكره بعضهم هذا الاهتمام بالأسباب المُوفي إلى مباهاتها بنفسها وسوء أدبها. وأنا أشارك في هذا الذهاب والتوجس شيئاً ما. ينبغي على الإنسان أن يقوم بوظيفته وواجبه، ولا يتدخل في لوازم شأن الربوبية. الوظيفة مسؤولية تقع علينا، والتوسل بالأسباب هو مراجعة في حكم الدعوات المرفوعة إلى أبواب الحق تعالى. إن قبول هذه المسألة على هذا الوجه من لوازم الصفات الإلهية الجليلة وأننا مخلوقون وهو الخالق. لكن الوجه الآخر للمسألة هو أن الله تعالى قد أمر بقبول شيء يرجع إلينا، شبيه بأمر اعتباري،(1) كداعية إلى إرادته ومشيئته، وجعلَ لها أهمية، ووعد بتحقيق أعظم الأعمال بناء على هذا المخطط، وحققها... وقد خلق هذا الشيء الاعتباري وسيلة للإثم والثواب، وجعله أساساً للجزاء عقاباً ومكافأة، وقَبِله فاعلاً في إسناد الخير والشر... ومع أن هذا الأمر الاعتباري ليس مُعَبّراً عن أي قيمة في ذاته، لكنه سبحانه وتعالى أرجع إليه -باعتبار

> إن الإسلام طرح عناصر منسوجاته المهمة على العقل والوجدان والروح والجسد، فغزل ذاك القماش الزاهي ذا البعد الدنيوي والعقبوي الغائر في الأعماق. ولئن تقدم واحد منهم على غيره في مستوى معين أحياناً، فليس في قدرة أي منهم أن يصور الإسلام وحده أو يمثله أو يُعبّر عنه.

النتائج المترتبة عليـــه- قيَما فوق قيَم. ولو لم يكن كذلك، لتوقفت الحياة تماماً، وســـقط الإنسان إلى درك الجماد، وبطل التكليف وذهب كل شـــيء انجراراً إلى العبث. فلا بـــد من إيلاء الاهتمام به، ومراعاة متطلباته. فـــإن الله تعالى يُظهر بُعدا خفيا من أسرار قدرته بجعل ذلك شرطاً عاديا في إعمار الدنيا والعقبى، ووسيلة مرعية وشبيهة بزر سحري لعملية كهربية تضيء العوالم، فيوجد بحراً في قطرة، وشمساً في ذرة وعالما من عدم.

إن حكم الأســـباب أو أي شيء آخر لا يجري على الله تعالى، ولا يقيّد إرادته ومشـــيئته الإلهية. الله يحكم كل شيء. الله هو الحاكم الأحد المطلق. ومراعاة الأســـباب وَعَدُّ العلل وسائل صغيرة ليس إلاّ بأمر الله تعالى. فنؤمن بهذا الاعتبار بأن الإنسان سيعاقَب إن خالف الشريعة الفطرية المعروفة بسُنّة الله عقاباً معظمُه في الدنيا وقســـمُ منه في الآخرة. وما أحكم جواب الخليفة العادل عمر بن الخطاب ﷺ: «نَفـــرّ من قدَر الله إلى قـــدَر الله»،[٢] حينما استشكل توافق امتناعه عن دخول مدينة انتشر فيها الوباء مع الرضا بالقضاء والتسليم للقدر!

فالأصـــل أن برمجة الجهـــود والعمل الحركي حســـب النتيجة، وتحويلها إلى غاية المنى، والوقوع تحـــت عبئها، يورّث قلقاً وعذاباً، ويبعد عن توقير الله تعالى -حاشـــاه- وكأنها عملية مساومة معه. وإن تعطيـــل الإرادة والاختيـــار، وانتظار النتيجة بسلســـلة من الخوارق في عـــالم لا يأبه بالمعتاد هو قناع للأحلام والمســـكنة. ألا ينذرنا القرآن الكريم مراراً وتكراراً ﴿جَزَاءً بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ (السجدة: ١٧) ﴿جَزَاءً بِمَا كَانُوا يَكْسِـــبُونَ﴾ (التوبة: ٨٢) وأن ما يلقاه الإنســـان من خير وشـــر هو بعمله وفعله وتصرفـــه؟! ألا يُعلمنا أعظم أنموذج لموازنة القلب والعقل والوجدان وصورة فخر الإنســـانية وسيد الأنام ﷺ، بالارتباط الوثيق والتناســـب الخفي بين الســـبب والنتيجة والعلة والمعلول والسعي والثمرة حينما يذكرنـــا قائلا: «لا تزول قدما ابن آدم يوم القيامـــة من عند ربه حتى يســـأل عن خمس: عن عمره فيم أفناه، وعن شبابه فيم أبلاه، وماله من أين اكتسبه وفيم أنفقه، وماذا عمل فيما علم».[٣]

ينبغي على الإنسان أن يقوم بوظيفته وواجبه، ولا يتدخل في لوازم شأن الربوبية. الوظيفة مسؤولية تقع علينـــا، والتوســـل بالأسباب هو مراجعة في حكم الدعوات المرفوعة إلى أبواب الحق تعالى. إن قبول هذه المسألة على هذا الوجه من لوازم الصفات الإلهيـــة الجليلة وأننـــا مخلوقون وهو الخالق.

الإسلام والعقل

إن الإسلام، إذ ينظم بالكتاب والسنة حياة الدنيا والعقبى للمؤمن، وحـــال اعتقاده وعمله، وكيفية عبادته وأخلاقه، يهمس في الوقت نفسه من خلال الأسطر بأشياء أخرى من عالم الامتداد إلى الأبعاد، في أذن دنيا الإنســـان الروحيـــة والعقلية والقلبية والوجدانية والحســـية، مولّداً في أغوار ذاته أنساماً أخروية ومشـــاعر لاهوتية التلون، ليحييه في كل آن مرة أخرى في بُعد آخر. يحييه، ليجد الإنســـان نفسه في موقع خلافة الله تعالى، وحال المداخلة في الأشياء، ومقام الفهم والاستقراء لأسرار سنة الله. ثم يرى ويستشـــعر في كتاب الكائنات النابع من مصدر الإرادة والمشـــيئة، وبيانه المبين المترشح من نبع كلامه تعالى، كأنهما وجهان لواحد... ويوازن تصوّره وفكره، وحياتـــه وتصرفاته، وملاحظات دنياه وأخراه، بالموازنة التي في الأرض والسماء.

نعم، إن الإسلام طرح عناصر منسوجاته المهمة على العقل والوجدان والروح والجسد، فغزل ذاك القماش الزاهـــي ذا البعد الدنيوي والعقبوي الغائر في الأعمـــاق. ولئن تقدم واحد منهم على غيره في مســـتوى معين أحياناً، فليس في قدرة أي منهم أن يصور الإسلام وحده أو يمثله أو يُعبّر عنه.

من الممكن أن ينتقل الإسلام الذي هو أعمّ عطية من الخالق للكل، إلى منظومة فعالة بواسطة إحسان آخر مما يُعدّ من أوائل إحســـاناته، وهو الفهرست المعنوي للوجود كله، المتشكل من العقل والوجدان والروح والجســـد واللطائف. وسوف نشرح هذه المسائل في مواضعها.

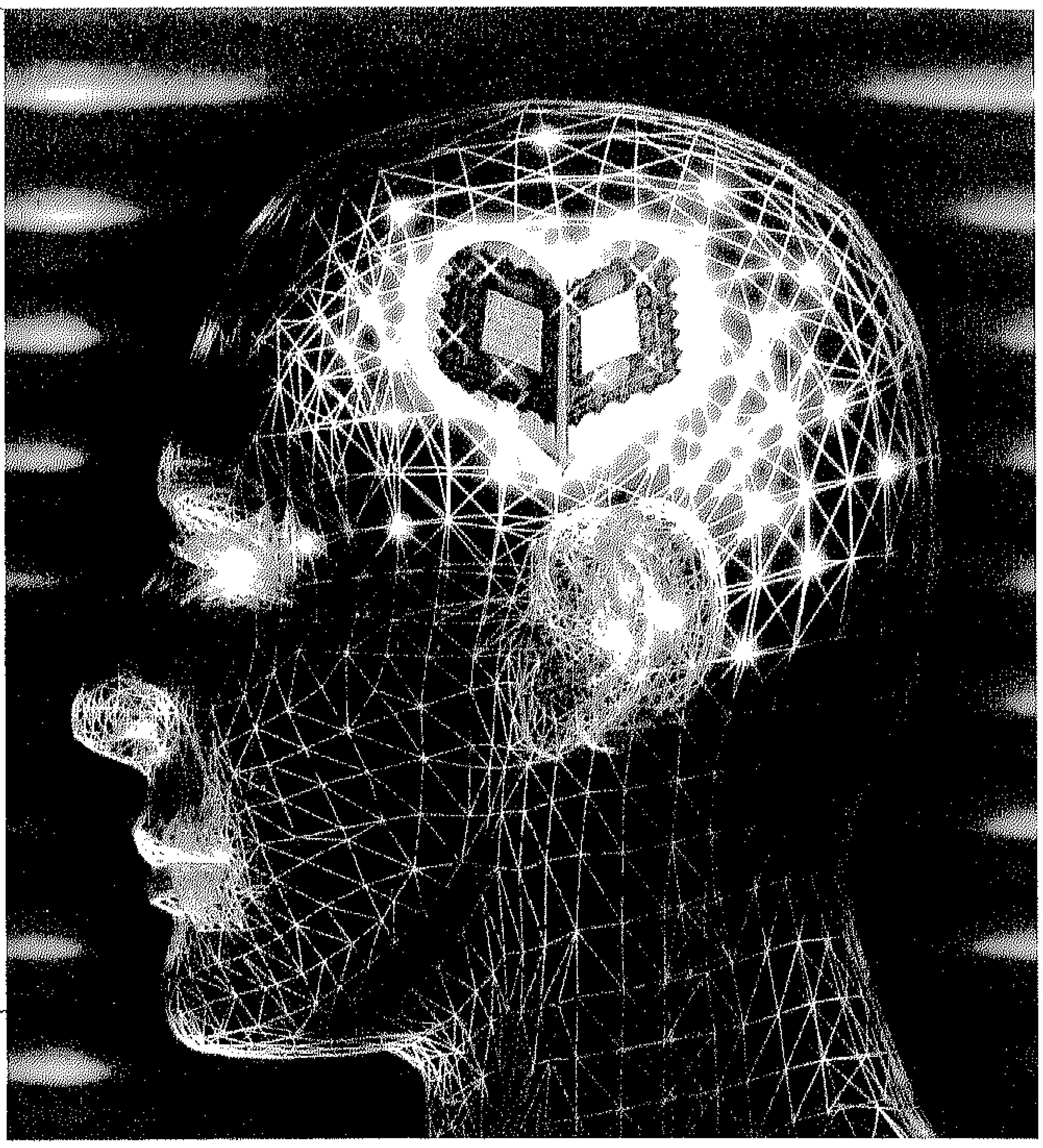
(*) الترجمة عن التركية: عوني عمر لطفي أوغلي.

الهوامش:

(١) المقصود هنا هو الإرادة الجزئية الموكلة إلى الإنسان. وهو أمر اعتباري لا وجود له خارج العقل. (المترجم)

(٢) البخاري، الطب، ٣٠؛ مسلم، السلام، ٩٨

(٣) الترمذي، كتاب صفة القيامة.



الإسلام بين العقل والقلب

أ.د. محمد سعيد رمضان البوطي *

خلق الله الإنسان، وجهّزه بحقيقتين عظيمتين، هما: العقل والقلب، وأقام كلاًّ منهما على وظيفة لا يتأتّى أن يقوم بها غيره، ولا يصلح من دون تحقيقها شيء من أمر الدنيا أو الآخرة.

أمّا العقل، فوظيفته أن يُقبل على الأشياء فيدركها على حقيقتها، وأن يستدلّ بظواهر الأمور على ما وراءها، وأن يتوصّل من وراء ذلك إلى معرفة الله ﷻ، وإلى الإيمان بوحدانيّته وربوبيّته المُطلقة.

وأما القلب، فوظيفته أن يسير من وراء هدي العقل، فيحبّ الخير الذي أثبت العقل أنه خير، ويكره الشرّ الذي أثبت العقل أنه شر، ويجعل ملاك ذلك كله في سبيل مرضاة الله ﷻ واتّباع شرعه.

ولا بدّ لعمارة الكون وتحقيق النظام فيه من عمل كلّ من هذين الجهازين، فلولا العقل لامتزجت نزواتُ النفس وأهواؤها بخفقات القلب وعواطفه، وتلاقى السّفل والعلو على إيقاد شرّ مستطير من شأنه أن يفسد كل شيء: ﴿وَلَوِ اتَّبَعَ الْحَقُّ أَهْوَاءَهُمْ لَفَسَدَتِ السَّمَوَاتُ وَالأَرْضُ﴾ (المؤمنون: ٧١). ولولا القلبُ، لما وجد الخير إلاّ في دنيا الوهم والخيال، ولظلّ بنيان الفضائل والمُثل العليا مجرّد رسومٍ وخطوطٍ على الورق، أو كلماتٍ وجملٍ حلوة على الشّفاه.

فالعقل إذن هو القدرة الكاشفة والمخطّطة، والقلب هو القوّة الدافعة والمحركة. ولا بدّ في كلّ عملٍ أو بناءٍ من التّخطيط المنظّم له أولاً، ثم الأداة المنفذّة له ثانياً. ونظراً إلى أن الإسلام هو جامع الفضائل كلّها، فقد كان لا بدّ للقيام بعمله هذا من الاعتماد على كلا هذين الجهازين العظيمين. فمن أجل ذلك جاء الإسلام يخاطب العقل والقلب معاً: يخاطب العقل ليدرك ويتدبّر، ويخاطب القلب ليحبّ ويتأثر. وإنك لتجد آيات الكتاب المبين تتّجه إلى تحريك نياط القلب في الوقت الذي تتّجه فيه إلى إيقاظ مدارك العقل، وذلك لينهض كلٌّ بعمله، وليُسهم كلٌّ منهما في تحقيق إنسانيّة الإنسان، ثمّ في إقامته على صعيدٍ من العبوديّة التّامة لله ﷻ.

وإنك لتجد ذلك أيضاً في أحاديث رسول الله ﷺ. فقد كان يأبى عليه الصلاة والسلام دائماً إلاّ أن يقرن الإيمان العقلي بالمحبة القلبية. ألم تسمعه يقول في الحديث المتفق عليه: «لا يؤمنُ أحدكم حتى أكون أحبَّ إليه من ماله وولده والناس أجمعين». وفي الحديث الآخر المتفق عليه أيضاً: «ثلاثٌ مَن كُنّ فيه وجد حلاوةَ الإيمان: أن يكونَ اللهُ ورسُولهُ أحبَّ إليه ممّا سواهما. وأن يحبَّ المرءَ لا يحبّه إلاّ لله، وأن يكره أن يعودَ في الكفرِ، بعدَ أن أنقذهُ اللهُ منه، كما يكره أن يُقذفَ في النار».

حقيقة الإيمان

ثمّ إنك تجد هذا المعنى أيضاً ممثّلاً فيما اتّفق عليه جمهور علماء المسلمين من أنّ الإيمان يزيد وينقص، وأنّ المسلم مطالبٌ

بالعمل على تقوية إيمانه وزيادته. وبدهيّ أن مجال هذه الزّيادة لا يمكـــن أن يكون العقل؛ ذلك لأن العقل إذا ارتقى في إدراك الشيء إلى درجة التصديق والإذعان، فقد وصل إلى النهاية التي لا يمكن أن يتجاوزها، إذ الإدراك للشـــيء لا يعدو أن يكون تصوراً أو تصديقاً، والتصديق نهاية عقلية عليا لا تقبل التفاوت والتشـــكيك. لا جـــرم إذن أن التصديق العقلي غير قابلٍ لأي زيـــادة أو نقصان؛ ولكن مجال هذه الزيادة إنما هو القلب. ففي القلب سُـــلّمٌ من العواطف لا تكاد تتناهى درجاته، وفيه وَقود هائل من الأشواق العارمة لا يقوى على وصفه أيّ قلم أو بيان. ففي هذه البوتقة ينضج الإيمان ويترعرع، وفيه تتوالد معجزات الإيمان التي طالما سمعنا بها قديماً وأجدبت منها حياتُنا حديثاً.

وانظر إلى البيـــان الإلهي، كيف يصوّر هـــذا المجال القلبي لتقوية الإيمان وزيادته، وتأمّل في قوله تعالى: ﴿وَاعْلَمُوا أَنَّ فِيكُمْ رَسُولَ اللهِ لَوْ يُطِيعُكُمْ فِي كَثِيرٍ مِنَ الأَمْرِ لَعَنِتُّمْ وَلَكِنَّ اللهَ حَبَّبَ إِلَيْكُمُ الإِيمَانَ وَزَيَّنَهُ فِي قُلُوبِكُمْ وَكَرَّهَ إِلَيْكُمُ الْكُفْرَ وَالْفُسُـــوقَ وَالْعِصْيَانَ أُولَئِكَ هُمُ الرَّاشِـــدُونَ﴾ (الحجرات: ٧) وأنت خبيرٌ أنّ كلمتي: «حبّبَ» و«زيّنَ» إنما يعرفهما قاموس القلوب، فهما يأتيان من وراءِ العقل وإذعانه.

حقيقة المحبّة

ثمّ إن هـــذه المحبّة ليس معناها الحقيقي الاتباع والسّـــلوك العملي، كما قـــد يتصوّر بعض الناس، بل هي مســـتعملة في معناها الحقيقي نفسه، فليس الاتباع إلاّ أثراً من آثارها. وكيف تكون محبّة الله ورسوله هي الاتباع العملي؟! إنّ الاتباع نفسه يحتاج من وراءِ اليقين العقلي إلى محبّة قلبية دافعة. ومن البداهة بمكان أن شيئاً من صور التّضحيات الرّائعة التي قدّمها الصّحابة بالنفس أو المال لم يكن المحبّة نفســـها، وإنما كان أثراً من آثار المحبّـــة العارمة التي فاضت بها قلوبهم، وإلاّ كان مجرد التصديق بشـــيءٍ ما هو وحده ســـرّ التّضحية في سبيله، وإذن لكان من اللاّزم العقلي أن يتساوى المســـلمون كلّهم في صفة البـــذل والتّضحيـــة والفداء. ومَن الذي يقول هـــذا؟ ومَن الذي زعم أن المســـائل العقلانية وحدها من شـــأنها أن تؤثر في العواطف والقلوب؟ وهل سمع أحدٌ من الناس أن رجلاً ضحّى بحياته إيماناً منه بقاعدةٍ رياضيّةٍ أو مسألة من مسائل الجبر؟!

الفضيلة والرذيلة

وكم كان «جان جاك روســـو» على حقّ يوم أخذ يسخر ممّن يظنّ أنّ الإيمـــان المجرّد بالفضيلة يُعتبر انتصاراً لها وتحقيقاً لمبادئهـــا. إنّه يقول: «كم قيل وأُعيد القول عن الرّغبة في إقامة الفضيلة على العقل وحده، ويا له من أســـاسٍ متين. أيّ أساس هذا؟! إنّ الفضيلة كما يقولون هي النظام، ولكن هل يستطيع الإيمان بالنظام أن يتغلّب على مســـرتي الخاصّة؟ إن هذا المبدأ المزعوم ليس إلاّ لعباً بالألفاظ، فالرذيلة هي حبّ النظام بشكل مختلف».

وانظر، فلقـــد أدركت أمريكا يوماً مـــا، ما في الخمر من الأضرار الجســـيمة المختلفة، وآمنتْ بذلك إيماناً عقلانياً قائماً على مختلف الأدلة التجريبية والعلمية القاطعة، وأقدمت الحكومة الأمريكية بناءً علـــى ذلك على إصدار قانون بتحريم الخمر... ولكن ما الذي تمّ بعد ذلك؟ لم تمض فترةٌ حتى أخذت رؤوس أولئك المقننين أنفســـهم تتمايل من ألم الحرمان.. ثم ما هو إلاّ أن عادوا فنكصوا على أعقابهم، ومزّقوا القانون الذي كانوا قد أصدروه، وراحوا يعكفون على أقداحهم يترعونها من جديد.. أما في المدينة المنورة، وقبل أربعة عشـــر قرناً، حيث جماعة من الأمّيّين قامت حياتهم منذ أمد طويل على الخمر والشمس والماء والهواء، يقتاتون دنان الخمر كما يقتات الناس زكائب الحنطة، فقد وقعت المعجزة هناك بســـر آيـــة واحدة لم تزد على بضع كلمات.

ما كاد أولئك المؤمنون يسمعونها، ويسمعون قول ربهم جَلَّ جَلَالُهُ في ختامها: ﴿فَهَلْ أَنْتُمْ مُنْتَهُونَ﴾ (المائدة: ٩١) حتى أريقت الدنان، وحُطمت الأقداح، وتعالت الصّيحات: «انتهَينا يا رب!». وفي ساعة واحدة تحوّلت الخمر من عنصر من عناصر الحياة -كانت ضرورتها من ضرورة الشمس والماء والهواء- إلى رجس مستقذر شـــنيع. وفي ساعة واحدة نُسخت عادة متمكّنة أصيلة، كأن لم تكن بالأمس، وكأن لم تكن لها جذور بعيدة راسخة.

فما الفرق بين أمريـــكا التي آمنتْ عن تجربة ودراية وعلم، وبين أصحاب رسول الله ﷺ الذين استقبلوا الأمر تلقيّاً وآمنوا به غيباً؟!

هنالك يقين فكري أعزل لا تشايعه النفس ولا يؤيّده الهوى. وهنا شيءٌ وقَر في القلب بعد أن استقرّ في الفكر. والقلب سيد هذا الكيان الإنســـاني كلّه، يقوده كما يحب، وفي السبيل التي يريد.

ثم إن القلب كالمرآة، لا يمكن أن يخلو من صورة تظهر على صفحتها.. فإمّا أن تثبت فيه صـــور من عكر الدنيا وأهوائها،

وإمّا أن يشــرق بالمحبّة الإلهية الصادقة، وإذا فاض القلب بعكر الشـهوات والأهواء، فهَيهات أن يصبح الاعتقاد وحده حاملاً لصاحبه على أيّ عملٍ من أعمال التضحية أو الفداء.

المحبّة الإلهية

فما هو الســبيل إلى تزكية القلب وغرس المحبّة الإلهيّة فيه حــتى يزداد بذلك الإيمان، وتتوفّر مقوّمــات التضحية والبذل والجهاد؟

والجواب: إن لك إلى ذلك ســبلاً كثــيرة. فمن أهمّ هذه السبل أن تخلو إلى نفسك بين كل فترةٍ وأخرى مدةً من الزمن، تتأمل فيها بنفســك وحقيقتها ومنشــئها، ومدى حاجتها إلى عنايــة الله وتوفيقه، في كل لحظة من لحظات الحياة، وفي النعم المتنوعة الكثيرة التي يُكرمك الله بها في سائر أحوالك وتقلباتك؛ ثم في النــاس، ومدى ضعفهم أمام الخالق ﷻ، وعدم أي فائدة مــن وراءِ مدحهم أو قدحهم أو الاعتماد عليهم؛ ثم أن تتفكّر في مدى عظمة الخالق ﷻ، وفي مظاهر آلائه ورعايته المختلفة التي لا تُحصى، وكيف أســبغ عليك رداء ستره، فحجز عن الناس عيوبك، وأبقاها سرّاً بينه وبينك، ثم أشاع فيهم مناقبك وفضائلك دون قصد منك إلى ذلك؛ ثم أن تُتبع ذلك بالإكثار من ذكره، وتســبيحه بالقلب واللســان، والإكثار من تلاوة القرآن.

ومن أهم هذه الســبل أيضاً أن تُكثر من التأمل في ســيرة المصطفــى ﷺ، وأخلاقه، وطريقة حياته، ومعاملته للناس. فإن ذلك كله جزء من مظهر نبوته ﷺ، ومن شــأن التأمل في ذلك تقوية الإيمان وترسيخه في القلب.

ثم إن القلب من شأنه أن يخفق بحبّ الفضائل، والمُثل العليا. ومهمــا بحثتَ فإنك لن تجد الفضيلة والمثل العليا ومظاهر الرّقّة والجمال النفســي والخلقي مجتمعةً كلّهــا في كيان واحد، إلاّ كيان أفضل المخلوقات محمــد ﷺ. فلا غرو أن يكون مهوى أفئدة المفكّرين والمتأملين، وقدوة جميع العقلاء المنصفين.

ومن أهم هذه الســبل أيضاً، الإكثار مــن العبادات عامّة والصلوات خاصة، والاستقامة عليها في خشيةٍ وحضور؛ فذلك هو الغذاء الــذي يُبقي على العقيدة وينمّيها، ويقوي جذورها في النفس والقلب. ولا والله لن تتســاقط الآفات المختلفة التي تتعلق بالنّفس، ولن يحيا القلب بنور المحبّة والعرفان إلاّ بعد أن يزداد التعبّد والتبتّل في حياة المسلم، حتى يمتدّ أثرهما إلى النفس والقلب فيهزهما هزّاً، ويدفعهما مدّاً وجزراً، بين طرفي الخوف والرّجاء؛ فعند ذلك تتســاقط تلك الآفــات العالقة بالنفس، وتتبدّد تلك الغاشية العكرة الممتدّة على صفحة القلب.

فإذا ســار المسلم في هذا السبيل، وتهيأ له القيام بهذه المهام، نبتت له من ذلك في قلبه محبةٌ إلهية عارمة، تجعله لا يخشــى أي عظيم، ويحتقر كل مغرية من المغريات، ويســتهين بكلّ إيذاءٍ وعذاب، ويستعلي فوق كلّ إذلال أو استهزاء. ولعمري تلك هي العدة الكبرى التي جهّــز الله بها حبيبه محمداً عليه الصلاة والسلام، للقيام بأعباء الدعوة الإسلامية، وهي العدّة التي ينبغي أن يتسلّح بها من بعده كلّ مسلم.

أريد أن أضع يدك بعد هذا الذي ذكرت، على مكمن الدّاء العُضال في حياتنا الإسلامية اليوم:

الداء العضال

إنّ داءنا المستحكم العضال، أننا مسلمون بالفكر والعقل، لا بالحبّ والقلب، أي إننا نمارس إسلاماً عقلانياً مجرداً بعيداً عن جواذب القلب ومؤثراته. ومثل هذا النوع من الحياة الإسلامية قد يُثمر ثروةً فكرية عظيمة، أو مكتبة إســلامية واسعة، ولكنه لن يُثمر أبداً السعادة الإسلامية المنشودة.

إنّ أقلّ تجســيد لهذه الحقيقة التي أقولها، أنك قد تجتمع مثلاً بجماعة من المســلمين لهم مركز الصّدارة في الفكر والقيــادة الإســلامية في المكان الذي يوجدون فيه، ويبدأ الحديث بينهم عن الإســلام، وكيفيّة الدّعوة إليه، والنهوض بــه، وواجب المســلمين في هذا العصر؛ ويغوصون في هذا الحديث في نشاط ولــذّة وحماس، ويتعالى صوت مؤذن على مقربة منهم يؤذن للصّلاة، والحديث لا يزال موصــولاً! وينتهي صوت الأذان، ويذوب في ضوضاءِ الحديث وصخبه!

ويمتد وقت طويل بعد ذلك والقوم مشغولون عن الاستجابة للأذان، والقيام إلى الصلاة، بالحديث عن الإســلام والاهتمام بشأنه.. ويوشــك وقت الصلاة أن يخرج والقوم لا يزالون في شــغلهم وحديثهم. وأخيراً يقترح أحدهم استراحة دقائق ليقوموا إلى الصلاة.. وتبدأ صلاة ســـريعة، قد لا تزيد على ركعات الفرض وحده، وتتأمل في مظهر صلاتهم، فلا تشــك أنّ كل واحــدٍ منهم منصرف بتفكيره إلى الحديث الذي قاموا لتوّهم عنه!

وما هو إلاّ أن يســلّموا يمنةً ويســرة، حتى يلتفتوا، بعضهم

إلى بعـض مرةً أخرى وقد تذكّر هـذا في الصّلاة ما كان قد نسـيه أثناء الحديث، وقام في ذهن الآخر إشكال تصوّره عند قراءة الفاتحة.. ويَعُود الحديث بينهم عن الإسـلام ومشكلاته، وما يتعلق به، وقد نسـوا أن من وراءِ الصلاة التي فرغوا منها تسـبيحاً وذكراً ودعاءً، وأنّ لها تتمّة مـن الرّواتب والنّوافل، وأن كل هذا الذي يخوضون فيه من الحديث إنما هو وسيلة إلى هذه الغاية العظيمة! وهكذا دواليك.. وقس على هذه الصورة غيرها من أشباهها.

غير أن الذي هو أهم من هذه الصورة نفسها، أن الكثيرين من المسلمين اليوم يدافعون عنها، ويتفلسفون في الدعوة إليها، ويقتنعون ويُقنعون أن الإسـلام ليـس إلاّ هذا المظهر الحركي الذي ينطبع شـكله في البحوث الفكرية، والمناقشات النظريّة، والتنظيمات الشكلية؛ ويظلّون يقلّلون من أهمية العبادة، والتبتّل والأذكار، ويوهمون أنها بضاعة العامة والجهال الذين لا شـغل لديهم حيث يملؤون بها فراغ وقتهم.

وإني لأذكر حفلاً حاشـداً في إحدى بلادنا العربية، كنتُ أحـد الحاضرين فيـه، وأذكر أن أحد المفكريـن من العلماء الفضلاء خطب في ذلك الحفل، فكان مما قال: «إن مشـكلة كثير من المسلمين اليوم ما يحسبونه من أن الإسلام هو أن يُكثر الإنسـان من الصلاة، أو أن يُكثر من التعبد.. مع أن الإسلام هو العمل والبناء».

ولقد أخذتُ ألتفتُ إذ ذاك عن يميني ويساري أنظر في وجوه الحاضرين، ثم رحتُ أتأمل في نفسـي طبيعة أهل تلك المدينة كلّها، فما هدتني عيناي ولا أرشدني خاطري إلى أنّ ثمة أقواماً انقطعوا عـن الحياة الدنيا في كهوف قاصية للعبادة والصلاة.. وتأمّلـت، فوجدتُ أنّ أعظم متعبّد فيهم هو ذاك الذي يحافظ على فرضه يؤدّيه جماعة في وقتـه، وقد يُتبعه بركعات خفيفة من نوافلـه المتمّمة.. فما وجه الحاجة إلى هـذا الكلام، وما الضـرورة الدّاعية إلى التّكريه بالصلاة أو الدّعوة إلى التخفيف من العبادات، وما في الحاضرين كلّهم والبلدة بأسرها إلاّ مقصّر عن الحدّ الأدنى في ذلك؟

والعجيـب أن ندعو بعد ذلك إلى العمل والبناء والتضحية. فما الـذي ينهض بالمسلمين إلى القيـام بذلك كلّه، وهـم مقيّدون بأثقال وأغـلال من الشـهوات والأهـواء والمطامع الدنيوية المختلفة! ما الـذي يحملني على اسـتدبار شـهواتي وأهوائي، وإنّ قلبي ليخفق بحبّها والتعلّق بـها ؟

إن الأمر يحتاج ولا ريب إلى مسـاعد ومعين، فأيـن هو المسـاعد والمعين وما هو؟ لقد أجاب البيان الإلهي على هذا، ووضع بين أيدينا المسـاعد والمعين، وذلك في قوله جل جلاله: ﴿وَاسْتَعِينُوا بِالصَّبْرِ وَالصَّلاَةِ وَإِنَّهَا لَكَبِيرَةٌ إِلاَّ عَلَى الْخَاشِعِينَ﴾ (البقرة: ٤٥) وطالما وضع الباري ﷻ هذا الدّواء المساعد بين يدي حبيبه المصطفى ﷺ، كلّما حزبه أمر، أو أطبقت عليه شدة، أو استيقظت في نفسه بعض المشاعر البشرية؛ تأمل مثلاً قوله تعالى لنبيّه عليه الصلاة والسـلام: ﴿فَاصْبِرْ عَلَى مَا يَقُولُونَ وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ قَبْلَ طُلُوعِ الشَّمْسِ وَقَبْلَ الْغُرُوبِ ۞ وَمِنَ اللَّيْلِ فَسَبِّحْهُ وَأَدْبَارَ السُّجُودِ﴾ (ق: ٣٩-٤٠).

وأمعن النظر في هذه الآيات الأخرى: ﴿فَاصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ وَلاَ تُطِعْ مِنْهُمْ آثِمًا أَوْ كَفُورًا ۞ وَاذْكُرِ اسْمَ رَبِّكَ بُكْرَةً وَأَصِيلاً ۞ وَمِنَ اللَّيْلِ فَاسْجُدْ لَهُ وَسَبِّحْهُ لَيْلاً طَوِيلاً﴾ (الإنسان: ٢٤-٢٦)

ومعاذ الله أن يكون أسلافنا من المسلمين الذين شادوا صرح هذا الدّين ببطولاتهم وجهادهم وتضحياتهم، قد نجحوا في شيء من ذلك إلاّ أن أزاحوا عن أنفسـهم أثقال الشهوات، وأغلالَ الأهواء، بسلاح من العبادة والتبتّل، والوقوف على الأقدام بين يدي ربهم السّـاعات الطّوال، في جُنح الليل، يسـكبون دمعاً ساخناً ويناجونه في دعاء خاشع، ويذكرونه بقلبٍ واجف.

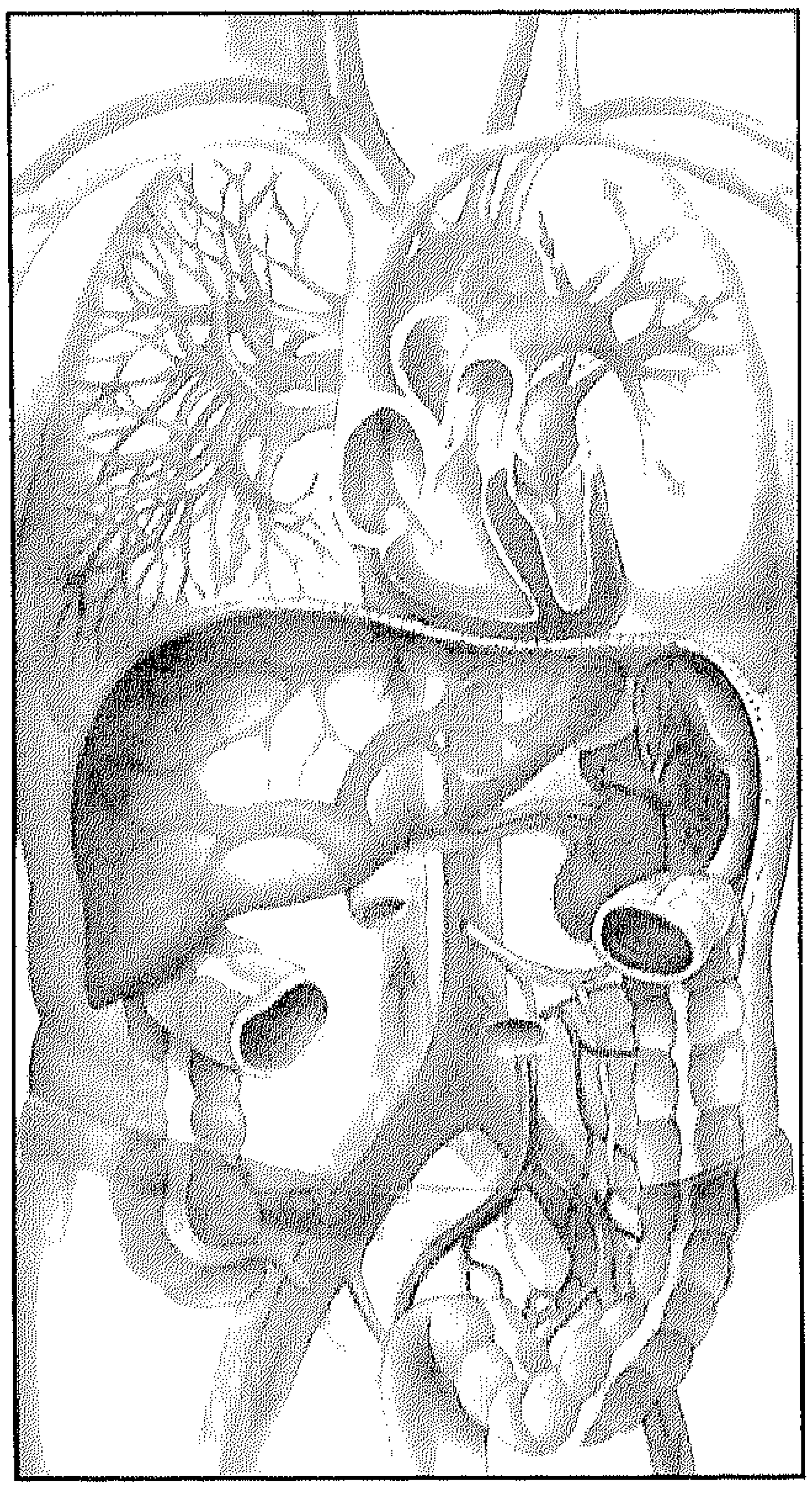
ولا والله، لن يسـتطيع مسلمو اليوم أن يسيروا وراء خُطى أجدادهم بالأمـس، إلاّ إذا غمرت اللّوعـة قلوبهم، وتلظّت الأشـواق الإلهية بين جوانحهم، وملؤوا أكوابهم بتلك الخمرة العُلويّة التي تنشلهم من قتام هذه الشهوات والأهواء، وتساموا بوجدانهم إلى مستوى الحقيقة العليا.

إنّ لوعة الحبّ وحدها هي السّوط السائق، والتيّار المحرّك. والمحبّ هـو وحده الذي يبذل الجهد شـوقاً إلى المحبوب؛ فيسـهل بذلك عليه الصّعب، ويقرب لـه البعيد، وتفنى لديه القُـوى، وتذوب فيه الحياة، ولا يرى أنّه قد أوفى بعهد المحبة، أو قام بواجب شكر النّعمة.

ويوم يعمر هذا الحبُّ قلوب المسلمين اليوم، يتكامل البنيان كلّه، ويتوفّر العمل جميعه، وتتجلّى معجزات التضحية والبذل والجهاد، وتتنـزل معجزات النصر والعزّة والتّأييد.

(*) كلية الشريعة، جامعة دمشق – سوريا.

التوازن العجيب في جسم الإنسان



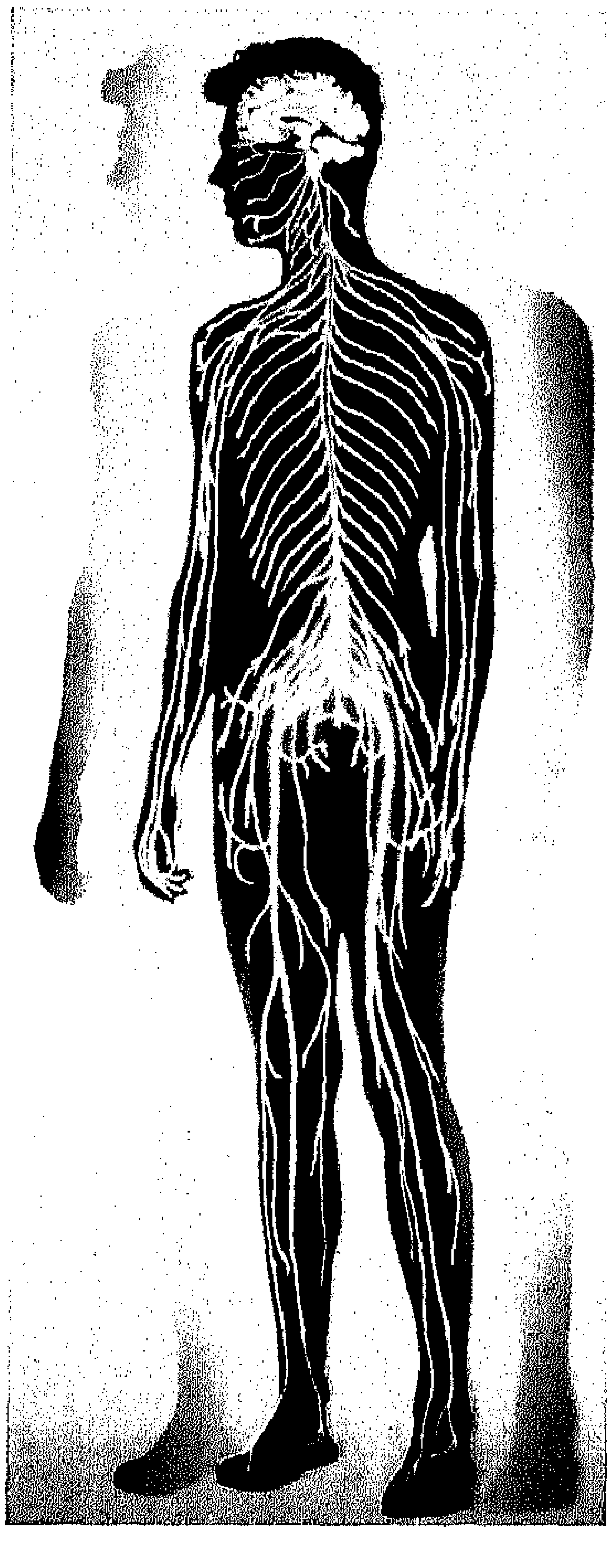
أ.د. عمر عارف آغا أوغلي*

نُدْرك من البَيان المُعْجِز للقرآن الكريم الذي يُعلن أنه خلق كل الأحياء من الماء، مدى أهمية الماء للحياة ﴿وَجَعَلْنَا مِنَ الْمَاءِ كُلَّ شَيْءٍ حَيٍّ﴾ (الأنبياء: ٣٠). وكذلك فإن ٦٠٪ من أجسامنا تقريباً ماءٌ. عندما نعلم أن كل الأحداث الحيوية والكيميائية والفسيولوجية التي في جسمنا تجري في وسط مائي، وعندما نرى تعطل وفساد ردود الأفعال في الخلايا ما لم يكن هناك ماء... إذا ما أدركنا ذلك، فهمنا حكمة البيان الإلهيّ؛ لو فرضنا أن الشخص البالغ يزن ٧٠ كيلو جراماً، فإن مجموع الماء الموجود في جسمه يبلغ ٤٢ لتراً تقريباً؛ منها ٢٨ لتراً داخل الخلايا، وأما الـ ١٤ لتراً فموجودة خارج الخلايا. إن جسم الإنسان البالغ يحتوي على ١٠٠ تريليون خلية تقريباً. وجميع هذه الخلايا محاطة من جميع جوانبها بوسط سائل، وأطراف كل هذه الخلايا التي تبدو وكأنها ملتصقة ببعضها البعض في الأنسجة مُحاطة بسائل رقيق جدّاً. وإن محتويات هذه السوائل الداخلية هي نفسها في كل أطراف البدن. بمعنى أن كثافة المواد الموجودة داخل هذه السوائل من فتيامين وأوكسجين أو جليكوز أو غيرها من المواد هي الكثافة نفسها سواء أكانت هذه السوائل تحيط بخلايا الكبد أو خلايا المخ. وربما يخطر على البال في الوهلة الأولى أن سائل الدم والمخ والنخاع الشوكي، والسوائل الموجودة في فراغات الأمعاء والمعدة وإفرازات كيس الصفراء وغيرها تقوم بتغيير الوضع الداخلي لهذه السوائل؛ ولكن كل هذه السوائل الموجودة خارج الخلايا قد خُلقت من أجل أداء وظائف ومهام معينة في الأعضاء التي ترتبط بها. لذا فإن تركيب الوسط الموجود داخل الخلايا متجانس ويمتلك الخاصية نفسها. وينطبق هذا على كل الخلايا. ومن أجل استمرار حياة الخلايا في هذا الوسط، توجد كميات معينة من الأوكسجين والمواد الغذائية والأيونات والفيتامينات والهرمونات.. الخ.

إن كثافة المواد الأخرى التي بداخل الماء الذي يُشكل المادة الأساسية للوسط الداخلي للسوائل (مثل الأملاح والجلوكوز) وثبات تلك الكثافة من ناحية الظروف الفيزيائية الموجودة في هذا الوسط أو استمرار وضع السكون، يُطلق عليه عملية الاتزان البدني، أي الاتزان بين عناصر الكائن الحي المختلفة. ولكن لا يمكن أن نقيس حال ذلك السكون بالأوضاع الثابتة والتي لا تتغير قط للموجودات الجامدة أي الجمادات. إن حالة السكون أو الاستقرار الموجودة في الأحياء هو سكون أو استقرار ديناميكي ووضع يتغير داخل حدود معيَّنة في كل آن. إن أي نقص أو زيادة في المقادير الصغيرة التي تدور حول المعدَّل الذي يمكن أن نُسميه عاديّا أو في المتوسط لا بد من استمراره في حالة مثالية بالمراقبة المستمرة في كل آن للمعدَّلات الواجب مراعاتها واتخاذها كأساس. ومن هذا المنطلق فإن هذا الاتزان البَدَني مهم جدّاً، لأن بقاءنا أحياءً مرتبط باستمرار هذا التوازن حول المعدَّلات الثابتة المحدَّدَة. وعند اختلال التوازن الديناميكي الحساس هذا في الوسط الداخلي لأسباب شتى، وإذا ما زادت كثافة المادة الموجودة في المحيط الداخلي أيضاً، فإن ذلك يُسَبِّب المرض. فمثلاً؛ عند زيادة كثافة الأوكسجين الذي يُعد غاز الحياة، عن الحد المعتاد، فإن الخلايا تموت بالتسمم الأوكسجيني. أما على العكس من ذلك، لو انخفض عن المقدار اللازم توافره، فلا يمكن إنتاج طاقة من الأغذية، وتموت الخلايا أيضاً. ومن ثم فإن اختلال التوازن البدني، يمكن أن يكون سبباً

في ظهور أمراض تنتهي بالموت.

إن كل الخلايـــا والأنْسجة والأعضاء والأنظمة، تعمل من أجل اســـتمرارية التوازن والاتزان بين العناصر المختلفة للكائن الحي. وليس هناك أي عضو قط، يدور في فلك العمل الطبيعي، يمكن أن يثـــور على الأســـس والقواعد التابع لها منذ خلقه، ويســـعى إلى إفســـاد التوازن والاتزان البدني. ولو أوكل إلينا ضبط عيار الوسط الداخلي لخلايانا لتحولت الحياة إلى شيء لا يطاق، حيث يتوجب علينا احتساب كل مـــا نأكله أو نشربه من مواد حتى أصغر وأدقّ مقاديرها، وإرســـال كل ذرة منها



إلى مكانها المناسب، ولـــو حـــدث أي خطأ -مهما كان صغـــيراً في التوزيع أو أخطـــاء مليجرامية في المقادير- لســـوف يكون ذلك ســـبباً لإنهاء حياتنا. ولكـــن دون أن نـــدري تحفـــظ هـــذه التوازنات وتُسَيَّر بدون أي تعويق في كل الخلايا والأنسجة.

إن الأغذيـــة الطبيعية تســـاعد على اســـتمرار التوازن البدني، بينما التي فقدت خواصها الطبيعية بالتصفيـــة أو بتعريضها لعمليـــات مختلفـــة أو الكحوليات أو الســـجائر أو الإفـــراط في الأكل، هذه كلها يفسد التوازن بين عناصر الكائن الحي. وينبغي تشـــغيل ثلاث آليات بشكل جيد للحفاظ على هذا التوازن.

١- التجانس الداخلي

إن تأمين التجانس في الوســـط الداخلي أمر واجب. فمثلاً عندما نطبخ طبقاً من الشـــوربة فما لم يتم التقليب فلن يكون هناك تجانس؛ فيحترق أســـفلها ويتجمع الماء أعلاها، والدهن في ناحية، والدقيق في ناحية مكوناً تكوُّرات من العجين. مثل هذا تماماً، فمن أجل تأمين التجانس داخل الوســـط الداخلي للخلية يلزم استمرارية التقليب. ومن أجل تشغيل هذا التقليب واســـتمراره فقد تم تكليف نظام القلب والشرايين بذلك. وإن هناك أخذًا وعطاء مستمراً فيما بين السائل النسيجي الموجود فيما بين الخلايا والشعيرات الشريانية التي هي وسيلة لحمل كل أنواع الأغذية والمياه والأملاح المعدنية والأوكسجين والسائل الدموي. إن هذا الأخذ والعطاء التبادلي في الشعيرات الشريانية يتم بســـرعة مذهلة، حـــتى إن ذرّات المياه خلال فترة مرورها من الشعيرات الشـــريانية تدخل وتخرج ثمانين مرة إلى الخلايا الموجودة في أي نسيج.

٢- تخزين المواد الغذائية الزائدة

إن الأوكسجين والمواد الغذائية الموجودة في الوسط الخارجي للخلية، تُستخدم بصفة مســـتمرة من قِبل الخلايا. وفي النهاية لكـــي لا يحدث نقص أو تقليل في مقـــدار هذه المواد، فيجب تأمين الأوكســـجين والغذاء بصفة مســـتمرة للوسط السائل خارج الخلية. ولمّا كانت كل الخلايا تحت الســـيطرة المستمرة لدوام هذا التشـــغيل، ففي حالة حـــدوث أي خلل أو نقص، فيتـــم أولاً إعلام النظام وإخباره. وفيما بعد تصدر الأوامر إلى الأعضاء المختصة مثل المعدة والأمعاء والرئة للتحرك الفوري، ويتم تأمـــين القيام بعملية دفع الغذاء والأوكســـجين اللازم. ولعدم الإخلال أو إفساد الاتزان بين العناصر المختلفة في الكائن الحي يتم إعطاء الأوكســـجين اللازم للوسط الخارجي للخلية بالتشغيل المســـتمر للرئتين، وتُكلَّف الأمعاء أيضاً بتقديم المادة الغذائية للوسط الداخلي. ومن هذا المنطلق فقد تم تحميل الكبد بمهام ومســـؤوليات مهمة جداً. ففي خلال فترات الشبَع يتم تخزين المواد الغذائية الزائدة الكمية في الكبد، وهكذا لا يُسمح بإخلال الاتزان البدني، وتُرفع المواد الغذائية في الدم إلى حالتها القصوى. بالإضافة إلى ذلك فإن المواد الغذائية التي تم تخزينها في الكبد عند الشبَع تُقَدَّم إلى الدم كنوع من السيطَرة في حالات الجوع، ولا يُسمح قط بانخفاضه إلى ما دون المقدار المحدد.

٣- طرح الفضلات

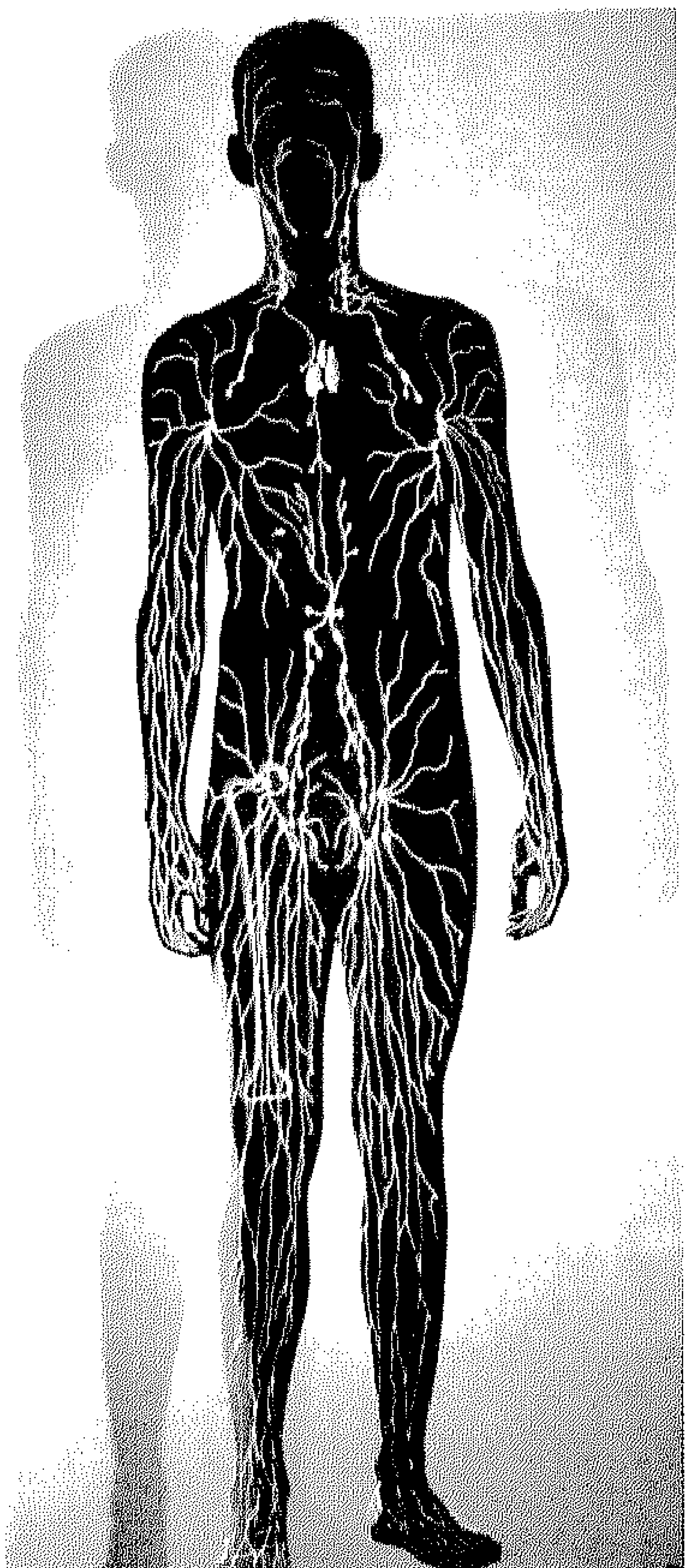
إن من أهـــم وظائف الخلايا ومســـؤولياتها، -بعد أن يتم اســـتنـــزاف المواد الغذائية- هو إرسال ثاني أكسيد الكربون والمواد الغذائية الزائدة الأخرى إلى الوسط السائل خارج الخلية. فكما أننا لا نســـتطيع استخدام المدفئة التي نُشْعلها بالخشب أو الفحم في منازلنا إذا لم نتخلص من أتربتها، فإننا كذلك، إذا لم

نتخلص من المواد الزائدة الموجودة في خلايانا، فإنها ستتراكم، وتكون سبباً رئيساً في الإخلال بالاتزان بين العناصر المختلفة في أبداننا. فمثلاً لو تراكم البول الذي هو إخراج نيتروجيني، لظهر الخلل الذي يُسمّى «مرض تَبَوُلن الدم». والرئتان في الكائنات الحيَّة تقومان بوظائف إخراج نفس الغاز النيتروجيني بصفة مستمرة، ذلك الغاز الذي يخرجه جسمنا بشكل يُشبه إخراج ثاني أكسيد الكربون من مَدْخنة مدفئتنا، وهكذا.. فبينما يتم إخراج قسم كبير من المواد الزائدة من الجسم بواسطة الكلَى، فإن القسم الأقل يتم إخراجه إلى خارج الجسم عن طريق المصارين بعد أن تمر ببعض العمليات التي تقوم بها الكبد.

نظام التغذية المرتجعة السالبة

من أجل الحفاظ على الاتزان بين عناصر الكائن الحي المختلفة، فإن هناك آلية مهمة جدّاً قد استقرت في جسمنا، ألا وهي نظام التغذية المرتجعة السالبة. هذه الآلية يمكن تَشْبيهها بعمل الترموستات في أجهزة التكييف؛ فعند انخفاض حرارة غُرفتنا عن المستوى المطلوب، فإن النظام الآلي يُعيد تشغيل المكيف ويبدأ في تدفئة غرفتنا من جديد. وعلى نفس المنوال لو حدث أي خلل في عيار مقدار أي مادة موجودة في الوسط الداخلي لخلايانا، فإنه يتم تصحيح الخلل بنظام خارق للعادة. فإذا تم تجاوز الحد الأعلى لأي مادة في الوسط الداخلي لجسمنا، فعَلى الفور يتم تنبيه نظام آخر يعمل في محتوى عكسي، ويتم البدء في التشغيل آلياً بهدف إزالة هذا المقدار الزائد. فلو زاد السكّر في البيئة الخارجية للخلية، فإن هذه الزيادة في السكر، تكون هي الوسيلة لتحفيز غدة البنكرياس لإفراز هرمون الإنسولين اللازم، وذلك للحيلولة دون ارتفاع السكر بزيادة دخول السكر للخلايا. في هذا الوضع يظهر الامتلاء عند الشبع، والامتلاء يزيد إفراز الإنسولين. لهذا السبب يُطلق على الإنسولين «هرمون الشبَع». وإذا لم يعمل هذا النظام، عند ارتفاع السكر، و لم يُفْرَز الإنسولين، يرتفع السكر، ويظهر مرض السكري. أما في حالة الجوع فإن سكر الدم ينخفض، ويكون ذلك سبباً في إفراز هرمون «الجلوكاجون». وبهذا الهرمون تتم الحيلولة دون انخفاض السكر. وذلك بتأمين تقديم السكر إلى الوسط الخارجي للخلية من مخازن السكر، وفي مقدمتها الكبد. وفي الوسط السائل خارج الخلية، فإن السكر الزائد كما أنه يفتح الطريق أمام الوفاة كنتيجة مباشرة لإغماءة السكر فإن انخفاض السكر، يفتح الطريق أمام إغماءة السكر المنخفض، ويمكن أن يكون سبباً لموت المريض. كما هو واضح، فإن آلية التغذية المرتجعة السالبة تلعب دوراً مهما في تأمين الاتزان البدني بين عناصر الكائن الحي.

من أجل حماية الاتزان البدني، أي الموازنة الداخلية الحساسة في البدن الإنساني فهناك حاجة ماسة لحماية تنظيم وتثبيت الغازات الموجودة في الجو لتتناسب معنا. فمثلاً، لكي نحتفظ بنسبة الأوكسجين الموجود في الوسط الداخلي بشكل ثابت، يجب أيضاً الحفاظ على نسبة الأوكسجين الموجود في المناخ ثابتة أيضاً. هذا النظام الحساس يُشير إلى سلطة واسعة جداً. سلطة حاكمة ومسيطرة بحيث تستطيع أن تتحكم في كل الذرات والجزيئات الموجودة في جسم الإنسان لتأمين الاتزان البدني بين كل عناصر الكائن الحي من ناحية، ومن ناحية أخرى تُؤمن السيطرة على التفاعلات الذرية الجارية في الشمس والتي توفر توهجها واشتعالها ملايين الأعوام. إذن فإن الخالق ﷻ الذي خلق كل هذه الموجودات، لا بد وأنه حاكم ومسيطر على الشمس وعلى الكائنات الحيَّة بل وعلى الخلايا الموجودة في تلك الكائنات من ناحية، ومن ناحية أخرى حاكم ومسيطر على الجزيئات والذرات الكائنة داخل تلك الخلايا أيضاً. ولا يمكن القبول أبدًا أن تكون هذه العمليات الخارقة والحساسة والمتوازنة تحدث مصادفة أو بشكل تلقائي.



إن المصادفات يمكن أن تتولد عنها بالكاد مصادمات ومفاسد واختلالات. ومن أجل تأمين هذه الموازنة الحساسة فيشترط أن تكون كل الجزيئات والذرات التي تدور في المحيط الداخلي تحت أمر من يقول للشيء ﴿كُنْ فَيَكُونُ﴾ (يس: ٨٢).

(*) كاتب وباحث تركي. الترجمة عن التركية: أ.د. الصفصافي أحمد القطوري.

٢

فصل المقال

فيما بين فلسفة البشر وحكمة القرآن من الانفصال

عند الحكيم بديع الزمان

أ.د. طه عبد الرحمن *

ولننعطف الآن على الضرب الثاني من الوصل بين الفلسفة والحكمة، وهو الضرب التصاحبي، فنبين كيف مارس عليه بديع الزمان هذا النقد المثلّث، مع العلم بأن هذا الضرب يقوم على مبادئ ثلاثة هي: «مبدأ الاندهاش» و«مبدأ الاستشكال» و«مبدأ الاستدلال».

٢,١,٢. نقد التصاحب بين الفلسفة والحكمة

أ- **النقد المنطقي**: فبالنسبة لمبدإ الاندهاش الفلسفي، الصواب أن الفلسفة لا تصدر عن الشعور بالعجيب الخارق، وإنما عن الشعور بالغريب الشاذ؛[١] وشتان بين الشعورين، فالأول مداره على كمال الخلقة الذي في الأشياء، بينما مدار الثاني على نقص الخلقة الذي فيها؛ والدليل على ذلك أن الفلسفة لا تتأمل المألوفات، بل تحسب كل مألوف معلوما، بل إن أكثر معلوماتها مبنية على المألوف والعادي، وليس على المعجز والخارق.[٢]

وأما عن مبدإ الاستشكال الفلسفي، فالصواب أنه غير مضبوط في مقاصده المتعلقة بالكائنات، فيقع في الخبط والانتشار في كل اتجاه؛ كما أنه غير مشفوع بالجواب المطلوب، فيقع صاحبه في الحيرة البالغة، بل في العذاب الشديد.[٣]

وأما عن مبدإ الاستدلال الفلسفي، فالصواب أنه سلسلة من القضايا التي يتهددها الوهم على الدوام؛ فلو فرضنا أننا نريد أن ندفع عنها هذا التهديد، فحينئذ يلزم أن نستدل على كل قضية من هذه القضايا بسلسلة أخرى من القضايا يتهددها بدورها الوهم، وهكذا دواليك؛ فلا نكاد ندفع الوهم عن سلسلة حتى نجلبه إلى سلاسل من دونها بلا انقطاع.[٤]

ب- **النقد الأخلاقي**: لما كان الاندهاش الفلسفي في أصله استغرابا، و لم يكن أبدا استعجابا، أوقع المتفلسف في محذورَين:

أحدهما، **سد طريق الاعتبار**: إذا كانت الفلسفة لا تتعجب من العاديات والمألوفات، فإنها لا تمكِّن صاحبها من استخراج العِبر والعظات منها.

والثاني، **فتح طريق النكران**: إذا كانت الفلسفة تُلقي بغطاء الإلفة على الأشياء، فإنها تحول دون معرفة القدرة الإلهية والإقرار بأفضالها غير المتناهية.

ولما كان الاستشكال الفلسفي تساؤلا غير منضبط، أفضى إلى أمرين كلاهما حرمان هالك:

أحدهما، **فقدان سر التوحيد**: إن كثرة الأسئلة بدون مقاصد موجِّهة ولا أجوبة مُرْضية تدل على أن صاحبها محروم من سر التوحيد، إذ إنه لو كان متحققا بهذا السر، لدارت أسئلته على مقاصد محددة، وظفر بالأجوبة عليها ضمن هذه المقاصد التوحيدية.[٥]

والثاني، **فقدان الشعور بالسعادة**: إذا لم يجد المتفلسف أجوبة على أسئلته المتفرقة ولا استجابة لمطالبه المتباينة، فلا بد من أن يشقى شقاء عظيما.[٦]

ثم لما كان الاستدلال الفلسفي سلسلة مهددة بالوهم، أفضى إلى أمرين كلاهما شر بالغ:

أحدهما، **التعلق بالأسباب دون المسبِّب**: تقتصر الفلسفة في استدلالاتها على الكائنات دون المكوِّن سبحانه، أي باصطلاح بديع الزمان تأخذ بالنظر الاسميّ، لا الحرفي؛[٧] يلزم على ذلك أنها تُوقِع المشتغل بها في عبادة الأسباب.[٨]

والثاني، **التعلق بالذات دون غيرها**: كما ينظر المتفلسف من الكائنات إلى أسبابها الطبيعية، فكذلك ينظر إلى نفسه نفس النظر الاسمي؛[٩] يلزم من ذلك أنه يقع في عبادة النفس.[١٠]

جـ- **النقد الإشاري**: إن مَثَل الفيلسوف القائل بالتصاحب بين الفلسفة والحكمة عند بديع الزمان كمَثَل من يسلك طريقا على وجه الأرض في صحراء شاسعة، فتأتيه الأهوال من كل جانب بين غضب البحر وتهديد العاصفة وظلمة السماء، فتصيِّره أشلاء مبعثرة على حافة الطريق، وتكون منزلته في القرآن الحكيم منزلة «المغضوب عليهم».[١١]

وإذا قارنا بين هذا النقد الإشاري للتصاحب والنقد الإشاري السابق للتداخل، تبيَّن أن القائل بالتصاحب أسوأ حالا من القائل بالتداخل، ذلك أن في سلوك الأول لطريق فوق الأرض، أي طريق تحت السماء -التي هي رمز الوحي- وتحت الشمس -التي هي رمز النور-، إشارةً إلى أن تحديه لربوبية الحكيم يزيد درجات عن غرور الثاني؛ فهذا لا يسلك إلا طريقا تحت الأرض، لا يرى فيه شمسا ولا سماء؛ كما أن في إلقاء البحر أشلاء الأول على جانب الطريق إشارةً إلى أن عمله أشبه بعمل فرعون، فاستحق أن يلقى نفس المصير موتا واعتبارا،[١٢] بينما لا نظفر من الثاني إلا بشبح، فلا يكون عبرة للناس ببدنه، وإنما بآثاره وحدها.

من ثمَّ، يصبح الفيلسوف المشائي الكبير الذي لم يرد اسمه على لسان بديع الزمان إلا قليلا، وهو: ابن رشد، معدودا عنده في زمرة المغضوب عليهم،[١٣] إذ كان يقول بالتصاحب بين الفلسفة والحكمة ويعمل على مقتضاه، وهو عمَلٌ فَسق به فسوقا أشبه بتمرد اليهود؛[١٤] ولما كان بديع الزمان قد انخدع بدهائه هو الآخر -على حد تعبيره- واعتقد الصحة في رأيه، كاد أن يتعرض هو نفسه لغضب الله لولا أن الله تجلى عليه باسمه «الرحيم»، فهداه الصراط المستقيم.

وعلى هذا، فإن العمل بمبدإ تصاحب الفلسفة والحكمة يُنتج إنسانا غير بصير ولا معتبِر ولا معترف ولا سعيد ولاناج.

وبعد أن أنهينا الكلام عن الجانب النقدي في الموقف الانقلابي الذي اتخذه بديع الزمان من العلاقة بين الفلسفة والحكمة، نمضي إلى بيان عناصر الجانب البنائي في هذا الموقف الجديد.

٢,٢. انقلاب بديع الزمان والقول بالفصل بين الفلسفة والحكمة؛

يتمثل الجانب البنائي من هذا الانقلاب الفكري في كون بديع الزمان يستبعد كلا الجمعين المذكورين بين الفلسفة والحكمة -أي جمع التداخل وجمع التصاحب- ويأخذ **بضده**، أي يأخذ بفصل أو تفريق مخصوص بينهما، متوسلا في ذلك بآلية خطابية محددة.

٢,٢,١. الفصل الاستتباعي بين الفلسفة والحكمة: يستبعد بديع الزمان جمع التداخل الذي يُنزل الفلسفة والحكمة رتبةً واحدة ما لم تتعارضا، ويأخذ **بتفريق** -أو **فصل- في الرتبة** بينهما ولو لم تتعارضا، ممارسا **آلية القلب** على المبدأين اللذين يتقوَّم بهما هذا الجمع، أي «مبدإ التأسيس العقلي للنقل» و«مبدأ التوسل بالعقل في النقل»؛ ومقتضى القلب، كما هو معروف، تغيير الرتبة، فإن كان الشيء مقدَّما، صيَّره مؤخَّرا، وإن كان مؤخرا، صيّره مقدما؛ وحينئذ، يصبح المبدآن اللذان ينبني عليهما هذا الفصل هما بالذات: «مبدأ التأسيس النقلي للعقل» و «مبدأ التوسل بالنقل في العقل»؛ وبيان ذلك كما يلي:

أ- مبدأ تأسيس العقل على النقل: يذهب بديع الزمان إلى أن العقل -أي العقل الدائر بين الناس- والنقلَ -أي النقل في معناه الأعم- كليهما يحتاج إلى التأسيس، ولا يمكن أن يأتي التأسيس من هذا العقل الناقص كما لا يمكن أن يأتي من النقل العام، بل لا بد من طريق ثالث لا يكون فيه نقصان العقل ولا عموم النقل، بل يجمع إلى العقل الأكمل النقل الأخص؛ وليس هذا الطريق الثالث إلا القرآن الحكيم، ففيه من أسباب كمال العقل ما يؤهله لتأسيس العقل الدائر بين الناس، وفيه من أسباب خصوصية النقل ما يؤهله لتأسيس النقل عامة.[١٥]

ب- مبدأ التوسل بالنقل في العقل: يذهب بديع الزمان إلى أن العقل -وتمثله الفلسفة البشرية خير تمثيل- لا يقدر على أن ينفع الناس وأن يحقق لهم السعادة حتى يتوسط بالنقل -ويمثله الوحي الإلهي أفضل تمثيل-؛ وبدون هذا التوسط، لا يخلو العقل من أسباب النفع والإسعاد فحسب، بل ينقلب بالضرر على الإنسان ويبلغ فيه هذا الضرر أقصاه،[١٦] لأنه لا مفر من أن يضل الطريق ويتعرض لغضب الله.

وبهذا، يصير النقل -ممثَّلا بحكمة القرآن- هو الأصلَ، والعقلُ -ممثَّلا بفلسفة البشر- هو الفرع متى ثبتت موافقته لما جاء به النقل؛ لذا، جاز أن نسمي التفريق -أو الفصل- في الدرجة بين الحكمة والفلسفة الذي قابل به بديع الزمان الوصل التداخلي بينهما باسم «**التفريق** - أو **الفصل** - **الاستتباعي**»، حيث

إن الفلسفة تصبح تابعة للحكمة وخادمة لها؛[١٧] وهذا بالذات ما يستفاد من تمييز بديع الزمان بين الفلسفة النافعة والفلسفة الضارة في رسالة موجهة إلى طلاب الفلسفة الحديثة[١٨] الذين أقبلوا على رسائل النور؛ فبصرف النظر عن الاعتبارات الظرفية التي قد تدعوه إلى مثل هذا التمييز كرغبته في استمالة هؤلاء الطلاب المتفلسفة وتشجيعهم على المضي في قراءة هذه الرسائل واتقاءِ شر الخصوم، فإنه يجعل الفلسفة النافعة خادمة لحكمة القرآن كما لو كانت متفرعة عليها، نظرا لأنها «تخدم الحياة الاجتماعية البشرية، وتعين الأخلاق والمثل الإنسانية، وتمهد السبل للرقي الصناعي».[١٩]

ومن شأن العمل بهذا الفصل الاستتباعي أن يُخرج لنا إنسانا راسخ الإيمان قوي الحجة ناكرا لذاته غير متعلق بالظاهر ولا تائها عن الطريق، أو قل بإيجاز **إنسانا مَهديا**.

٢,٢,٢. الفصل الاستبدالي بين الفلسفة والحكمة: يستبعد بديع الزمان أيضا جمع التصاحب بين الفلسفة والحكمة، ويأخذ **بتفريق -أو فصل- في النوع** (أو الطبيعة) بينهما، ممارسا **لآلية الاستبدال** عليهما؛ ومقتضى الاستبدال هنا هو جعل الشيء بدلا من غيره، بحيث يصير البدل قائما بوظائف المُبدَل منه على أحسن وجه؛ وحينئذ، تصبح الحكمة عند بديع الزمان بديلا عن الفلسفة، ناهضة على أفضل وجه بالمبادئ الثلاثة التي تدعي الفلسفة الاختصاص بها، أي «مبدأ الاندهاش» و«مبدأ الاستشكال» و«مبدأ الاستدلال»؛ وتوضيح ذلك كما يلي:

أ- **مبدأ الاندهاش**: يرى بديع الزمان أن الصورة الأبلغ والأكمل لمبدإ الاندهاش تتحقق في حكمة القرآن المبين، وذلك من وجهين:

• أن القرآن يخرق ستار العادة المسدول على الأشياء في أنفسنا وفي الآفاق من حولنا، فيجعلنا نتعجب من الأسرار المودعة فيها ونكتشف ما تنطوي عليه من خوارق القدرة الإلهية وعجائبها العظيمة.

• أن القرآن كلام معجز، ومعلوم أنه لا صفة أبلغ من «الإعجاز» في إثارة الاندهاش، فما بالك إذا كان إعجازا من قبيل الإعجاز القرآني! فعندئذ، لا بد أن يبلغ اندهاش المرء نهايته.

وعلى هذا، فإذا كان التفلسف، كما قيل، يبدأ بالاندهاش، فإن الاندهاش الذي هو بداية الحكمة ليس فوقه اندهاش، حيث إنها تحظى به في تأمل إعجاز القرآن الداعي إلى منتهى الاندهاش، بما أنه هو مَجْلى اسم الحكيم من أسماء الله الحسنى؛ ومن هنا، ندرك لِمَ بدأ بديع الزمان مساره في الحكمة بالاشتعال ببيان إعجاز القرآن، عملا بالرؤية الصادقة التي رآها، وهي رؤية انفلاق الجبل المذكورة أعلاه، إذ جاءه فيها شخص عظيم بِأمر مخصوص، قائلا: «بيِّن إعجاز القرآن».[٢٠]

ب- **مبدأ الاستشكال**: يرى بديع الزمان أن الصورة الأصح والأتم لمبدإ الاستشكال تتحقق هي الأخرى في حكمة القرآن، وذلك من وجهين هما:

• أن القرآن يحدد أفضل نطاق يمكن أن توضع فيه الأسئلة، ذلك أن السؤال لا يستقيم إلا إذا دار على مقصد مخصوص، والقرآن له مقاصد أصلية هي: «التوحيد» و«الوحي» و«الآخرة» و«الاستقامة» أو بتعبير بديع الزمان، «إثبات الصانع» و«النبوة» و«الحشر» و«العدالة»؛[٢١] فما من آية من آياته البينات إلا وتتعلق بمقصد واحد أو أكثر من هذه المقاصد الأربعة، بل إن الآية الواحدة، على قِصَرها، قد تشتمل عليها جميعها، نازلة بذلك منزلة القرآن كله؛ وأما ما جاء فيه من مقاصد أخرى تتصل بالكائنات وخصائصها، فهو تابع لهذه المقاصد الأربعة وخادم لها؛ وعلى هذا، ينبغي أن تدور أسئلة الحكيم على هذه المقاصد وحدها، ولا تخرج إلى التساؤل عن الخواص الطبيعية للموجودات إلا أن يكون ذلك بغرض تبيُّن هذه المقاصد الأصلية من ورائها.

• أن القرآن يجيب على أفضل وجه عن الأسئلة الموضوعة، فقد تقدم أن هذه الأسئلة ينبغي أن تتعلق بالمقاصد الأربعة المذكورة، أي أن تكون كالتالي: «من أين؟ وبأمر من تأتون؟ مَن سلطانكم ودليلكم وخطيبكم؟ وما تصنعون؟ وإلى أين تصيرون؟»؛[٢٢] والقرآن هو وحده القادر على إيراد الأجوبة الصحيحة على مثل هذه الأسئلة والتي تكون شفاء لما في الصدور.

جـ- **مبدأ الاستدلال**: يرى بديع الزمان أن الصورة الأشمل والأيقن لمبدإ الاستدلال تتحقق هي الأخرى في القياس التمثيلي الذي تأخذ به حكمة القرآن، وذلك من الوجوه الآتية:

• أن هذا القياس يفيد في إقناع كافة الناس ولا يقتصر على فئة معدودة منهم، كما أنه يتسع لفنون مختلفة ولا ينحصر في فن واحد منها،[٢٣] نظرا لأنه يُلْبس الحقائق المخبَر بها لباس مألوفات الجمهور ومتخيلاته، ولا يكلفه إدراكَها على صورتها المجردة.[٢٤]

• أنه يُمكِّن من تحصيل منظــور تقريــبيّ لِما يجاوز طور العقل المجرد من الحقائق الإلهية وشــؤون الربوبية،[٢٥] فيكون أقدر من هذا العقل.

• أنــه يؤمِّن طاعة الخيــال للعقل، فيحُدُّ من تشــكيكاته وتمويماته التي تتهدد عادة اســتدلالاته غير التمثيلية،[٢٦] فيكون أقوى من هذه الاستدلالات.

• أنــه يجمع بين الطريقين الإدراكيين المتقابلين للإنســان، وهما: طريق العقل وطريــق الوجدان،[٢٧] فيكون اســتدلالا متكاملا.

• أنه يُثبِت قانونــا كليا بإظهار حالة خاصة منه في صورة مثال جزئي؛[٢٨] ومعنى هذا أن المثال عند بديع الزمان ليس مجرد شيء مشابه للشيء المُمَثَّل، بل يحكمه نفس القانون الذي يحكم هذا الشيء، بحيث يكون التمثيل عنده أقرب إلى الاستقراء منه إلى الاستنباط (أو القياس الجامع).[٢٩]

ومما تقدم، يتبين أن الحكمة لا يمكن أن تجتمع مع الفلسفة، لأن الخير والحق يصــيران كلُّهما في جانب الحكمة والشــرّ والباطلَ يصيران كلُّهما في جانب الفلسفة، فتكونان متباينتين تباين النوعين؛ لذا، صح أن نســمي هذا الفصل النوعي بينهما باسم «الفصل الاستبدالي»،[٣٠] إذ تصبح الحكمة البديل الذي لا غنى عنه.

ومن شــأن العمل بهذا الفصل الثاني أن يُخرج لنا إنســانا متبصرا ومعتبرا ومعترفا وســعيدا وناجيا، أو قل **إنسانا مَرْضيا عليه**.

وإذا اجتمعت للإنسان الهداية والرضى، كان إنسانا منعَما عليــه؛ فإذن الحكيم الذي يختص بكونه يجعل الحكمة تســود الفلسفة، بل يجعلها تستغني كليا عن خدمة الفلسفة يكون حقّا من أولئك الذين أنعم الله عليهم.

وخلاصة القول من هــذا التحليل لموقف بديع الزمان من العلاقة بين الفلســفة والحكمة هي أن بديع الزمان **انقلب** من **حال الفيلسوف** الذي يوافق فلاسفة الإسلام في القول بالوصل بين الفلســفة والحكمة، إما وصْل تداخــل يجلب الضلالة أو وصْل تصاحب يجلب غضب الله، إلى **حال الحكيم** الذي يقول بضرورة الفصــل بينهما، إما فصلا اســتتباعيا يجلب الهداية، فتكون الفلســفة في خدمة الحكمة، أو فصلا استبداليا يجلب رضى الله، فتكون الحكمة بديلا عن الفلسفة.

وواضــح أن هذا الانقلاب انقــلاب «كوبيرنيكي» بحق؛ فبعد أن كانت الفلســفة تُعَدّ موصولة بالحكمة، صارت تُعَدّ مفصولة عنها؛ وبعد أن كانت الفلسفة تستتبع الحكمة في حالة الاختلاف بينهما، أصبحت الحكمة هي التي تستتبع الفلسفة في حالة الاتفاق بينهما؛ وبعد أن كانت الفلسفة تضاهي الحكمة وجــودا، أضحت لا تضاهيها في هــذا الوجود، بل أضحت تفقده بوجود الحكمة.

وحينئذ، لا نســتغرب أن يلح بديع الزمان أيما إلحاح على وجود طورين متضادين في حياته: سعيد القديم وسعيد الجديد؛ ولذا، نعتقد أن العناصــر التي تفرِّق بين هذين الطورين ينبغي البحث عنها في الموقفين المتعارضين اللذين وقفهما من العلاقة بين الفلســفة والحكمة، بحيث يكون الوصل بينهما هو المعيارَ الذي نحدد به فكر ســعيد القديم ويكــون الفصل بينهما هو المعيار الذي نحدد به فكر سعيد الجديد.

لكن هذا الانقــلاب «الكوبيرنيكي» هو نقيض للانقلاب «الكوبيرنيكي» الذي قام به «كانــط»؛ فإذا كان «كانط» قد جعل الحكمة تابعة للفلســفة في حال اتفاقهما، فإن بديع الزمان، على العكس من ذلك، يجعل الفلســفة تابعة للحكمة في الحال ذاته؛ وإذا كان «كانط» قد جعل الفلسفة بديلا عن الحكمة في حــال تعارضهما، فإن بديع الزمان، على العكس من ذلك، يجعل الحكمة بديلا عن الفلسفة في الحال ذاته.

ومــن هنا، يظهر جليّا أن البعد الذي يكتســبه إنتاج بديع الزمــان لا ينحصر في تركيا حيث آثار الفلســفة «الكانطية» قد فعلت فعلهــا وبدَّلت قِيَم أهلها تبديلا، ولا هو ينحصر في الأمة الإســلامية التي تفككت أوصالها وفقدت وِجهتها، وإنما يتعدى ذلك إلى العالم بأسْــره ليُنقذ الإنسان، خاصيَّه وعاميَّه، من سلطان فكر فلسفي أضرَّ بوجوده في هذا العالم؛ ومن كان هــذا عمله، فما أجدر به أن يُعدَّ في حكماء العالم الذين رفعوا همة الإنســان إلى الاضطلاع بأمور روحه كاضطلاعه بأمور جســمه، ومهّدوا الطريق إلى تجديده، **فاستوى إنسانا آخر في عالم آخر.** ■

(*) كلية الآداب، جامعة محمد الخامس - المغرب.

الهوامش:

(١) يقول: «إن الفلسفة التي توصَّل إليها الإنسان تحجب معجزات القدرة الإلهية وخوارق رحمته تعالى بستار العادات، فلا ترى دلائل الوحدانية المضمرة تحت تلك العاديات وتلك النعم الجليلة، ولا تبينها ولا تدل عليها، بينما إذا ما رأت ما هو **خارج عن العادة من جزئيات خاصة**، تتوجه إليه وتهتمّ به»، الملاحق، ص ٣٥٨.

(٢) يقول: «أما حكمة الفلسفة، فهي **تخفي** جميع معجزات القدرة الإلهية **وتسترها** تحت غطاء الإلفة والعادة»، الكلمات، ص ١٥٠.

(٣) يقول: «إذا تخبط ذلك العقل في وحل الضلالة والكفر، فإنه يصبح **آلة تعذيب** ووسيلة إزعاج، بما يجمع من آلام الماضي الحزينة ومخاوف المستقبل الرهيبة»، الشعاعات، ص ١٩.

(٤) يقول: «إن الفرق بين طريقي في «قطرة» المستفادة من القرآن وطريق أهل النظر والفلاسفة هو أني أحفر أينما كنت، فيخرج الماء؛ وهم تشبثوا بوضع ميازيب وأنابيب لمجيء الماء من طرف العالم ويُسلسلون سلاسل وسلالم إلى ما فوق العرش لجلب ماء الحياة، فيلزم عليهم بسبب قبول السبب وضع ملايين من حفظة البراهين في تلك الطريق الطويلة لحفظها من تخريب **شياطين الأوهام**»، المثنوي العربي النوري، ص ١٧٠.

(٥) يقول: «وبسر التوحيد [...]، ينكشف السر المغلق للأسئلة المحيرة: من أين يأتي سيل الموجودات وقافلة المخلوقات؟ وإلى أين المصير؟ و لم جاء؟ وماذا يعمل؟...»، الشعاعات، ص ١٤.

(٦) «فلولا التوحيد لأصبح الإنسان **أشقى** المخلوقات وأدنى الموجودات وأضعف الحيوانات وأشد ذوي المشاعر حزنا وأكثرهم عذابا وألما.»، الشعاعات، ص ١٨.

(٧) يقول: «فالنظرة القرآنية إلى الموجودات تجعل الموجودات حروفا، أي أنها تعبر عن معنى في غيرها، بمعنى أنها تعبر عن تجليات الأسماء الحسنى والصفات الجليلة للخالق العظيم المتجلية في الموجودات؛ أما نظرة الفلسفة -المادية- الميّتة فتنظر في الأغلب **بالنظر الاسمي** إلى الموجودات، فتزل قدمها إلى مستنقع الطبيعة.»، الملاحق، ص ٩٠.

(٨) «أما الفلسفة، فإنما تنظر من الموجودات إلى وجوهها الناظرة إلى أنفسها **وأسبابها**»، المثنوي العربي النوري، ص ٧٧.

(٩) الكلمات، ص ٦٤٦.

(١٠) «إن أهل الضلالة في هذا العصر قد امتطوا «أنا»، فهو يجوب بهم في وديان الضلالة؛ فأهل الحق لا يستطيعون خدمة الحق إلا بترك «أنا»، وحتى لو كانوا على حق وصواب في استعمالهم «أنا»، فعليهم تركه، لئلا يشبهوا أولئك، إذ يكونون موضع ظنهم أنهم مثلهم **يعبدون النفس**»، المكتوبات، ص ٥٤٩.

(١١) «والطريق الثاني المشار إليه بـ ﴿الْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ﴾، فهو مسلك عبدة الأسباب والذين يحيلون الخلق والإيجاد إلى الوسائط ويسندون إليها التأثير، ويريدون بلوغ حقيقة الحقائق ومعرفة واجب الوجود ﷻ عن طريق العقل والفكر وحده كالحكماء المشائين»، الكلمات، ص ٦٥٠.

(١٢) وذلك مصداقا للآية الكريمة: ﴿فَالْيَوْمَ نُنَجِّيكَ بِبَدَنِكَ لِتَكُونَ لِمَنْ خَلْفَكَ آيَةً وَإِنَّ كَثِيرًا مِنَ النَّاسِ عَنْ آيَاتِنَا لَغَافِلُونَ﴾ (يونس: ٩٢).

(١٣) تحاشى بديع الزمان أن يذكر ابن رشد باسمه -على خلاف ما فعل مع الفارابي وابن سينا- ولكنه نبه عليه بالصفة التي اشتهر بها، وهي «المشائي»، إذ هو شارح «أرسطو» الأكبر؛ ولا نريد أن نخوض هنا في الأسباب التي تكون قد دعته إلى هذا التكتم، وإنما يكفي أن نقول بأنه يجوز أن يفعل ذلك، إشفاقا عليه ورفقا بأتباعه المعاصرين.

(١٤) إشارات الإعجاز، ص ٣٦.

(١٥) يقول: «القرآن المبين أسمى وأغنى من أن يفتقر إلى تزكية العقل والنقل اللذين ألقيا إليه المقاليد، لأنه إن **لم يزكهما**، فشهادتهما لا تُسمَع»، صيقل الإسلام، ص ٣٦.

(١٦) يقول: «فمتى استجارت الفلسفة بالدين وانقادت إليه وأصبحت في طاعته، انتعشت الإنسانية بالسعادة وعاشت حياة اجتماعية هنيئة؛ ومتى انفرجت الشقة بينهما وافترقتا، احتشد النور والخير كله حول سلسلة النبوة والدين وتجمعت الشرور والضلالات كلها حول سلسلة الفلسفة»، الكلمات، ص ٦٣٩.

(١٧) لتلاحظ أن الفصل الاستتباعي بين الحكمة والفلسفة، لما كان فصلا في الدرجة فحسب، جاز أن تجتمع فيه الحكمة والفلسفة اجتماع التابع مع المتبوع، بحيث يكون وضعه المنطقي أشبه بوضع ما يُسمى بـ«رابط الفصل الجامع»، وهو الفصل الذي يمكن أن يصدق فيه الطرفان المفصولان معا؛ ولا ينفع الاعتراض بأنه نوع من الوصل التداخلي، ذلك لأنه لا يشارك هذا الوصل إلا في هذه الحال من حالات الصدق، ويختلف عنه في إمكان أن يصدق بصدق أحد المفصولين دون الآخر، أو قل بإيجاز إن الجمع الذي يكون مع تخيير ليس كالجمع الذي لا تخيير معه.

(١٨) يرى بديع الزمان أن الفلسفة الحديثة أقل ضررا من الفلسفة القديمة، لأنها أكثر منها أخذا بأسباب العقل والنقد والعلم؛ انظر صيقل الإسلام، ص ٤١، وأيضا ص ٣٥-٣٦.

(١٩) الملاحق، ص ٢٨٦-٢٨٧.

(٢٠) المكتوبات، ص ٤٧٥؛ الملاحق، ص ١٨٣.

(٢١) إشارات الإعجاز، ص ٢٤؛ صيقل الإسلام، ص ١٢٠.

(٢٢) صيقل الإسلام، ص ٢٩؛ وأيضا، إشارات الإعجاز، ص ٢٣.

(٢٣) صيقل الإسلام، ص ٣٢٠.

(٢٤) صيقل الإسلام، ص ٥٩.

(٢٥) المكتوبات، ص ٣٧٦.

(٢٦) يقول: «ولقد أكثر القرآن الكريم من التمثيلات إلى أن بلغت الألف، لأن في التمثيل سرا لطيفا وحكمة عالية، إذ به يصير **الوهم مغلوبا للعقل والخيال مجبورا للانقياد للفكر**...»، إشارات الإعجاز، ص ١١٣.

(٢٧) إشارات الإعجاز، ص ١٢٦.

(٢٨) الكلمات، ص ٧٣٥-٧٣٦.

(٢٩) معلوم أن فقهاء العلم اختلفوا كثيرا في تحديد البنية المنطقية لقياس التمثيل، فبعضهم جعلها بنية مستقلة وبعضهم جعلها أشبه ببنية الاستقراء في حين جعلها غيرهم أشبه ببنية الاستنباط، ورأينا أنها بنية كبرى مركبة من بنيتين فرعيتين: بنية استقرائية وبنية استنباطية، انظر التفاصيل في كتابنا: **تجديد المنهج في تقويم التراث**، المركز الثقافي العربي، بيروت، ص ٦٥-٦٦.

(٣٠) لتلاحظ أن الوضع المنطقي للفصل الاستبدالي أشبه بوضع ما يُسمى بـ«رابط الفصل المانع» (أو «الفصل الاستبعادي»)، ومعلوم أن هذا الرابط لا يصدق إلا بصدق أحد المفصولين دون الآخر.



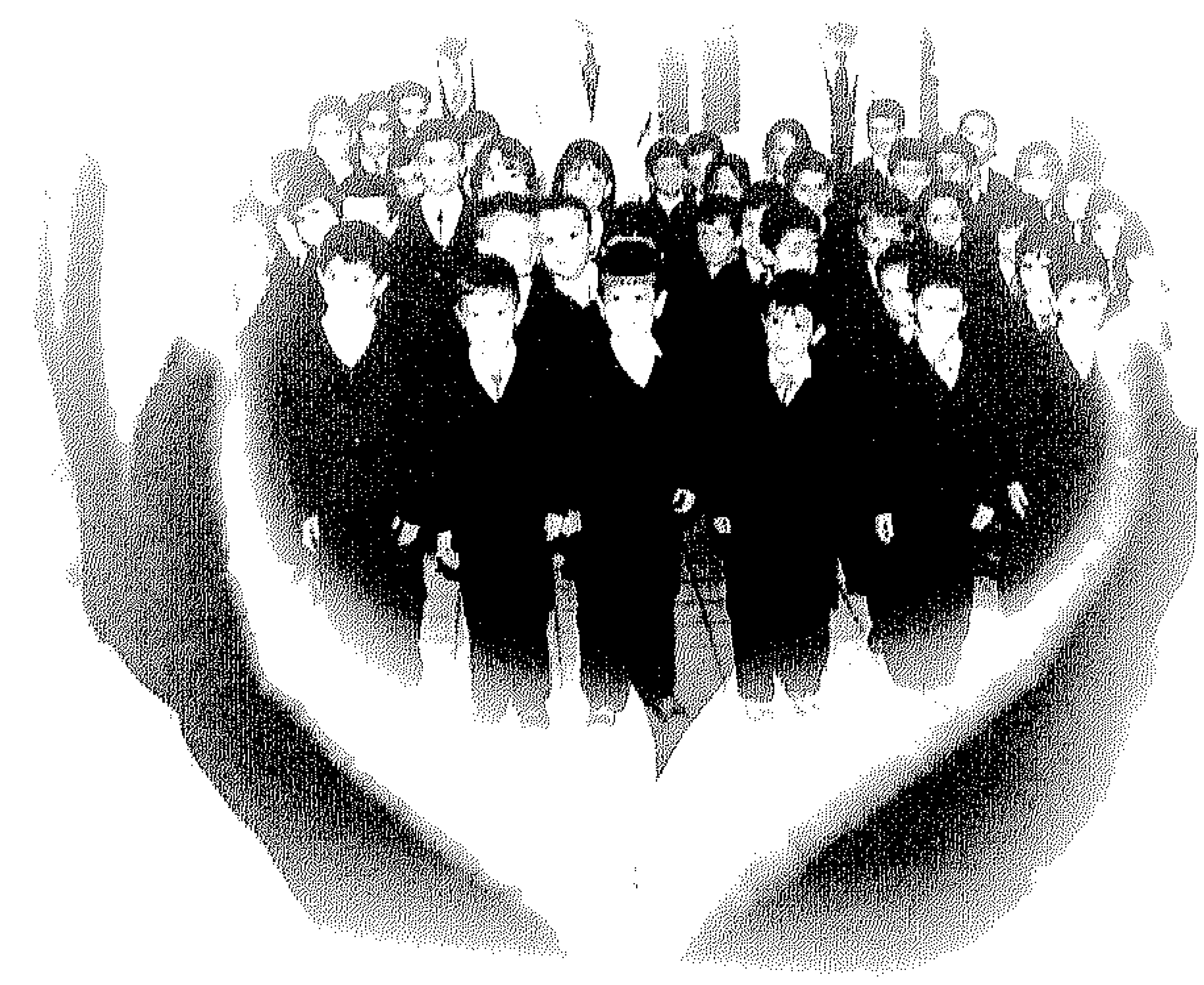
إليك سآوي

نبيلة الخطيب *

إليكَ سآوي
إذا ما تخففتُ
من كل هذا الأديم
كما السّهم..
من بؤرة القوس
أرنو لميعاد عهدٍ قديم.. قديم،
فأنتَ الفضاءُ
إذا ضاقت الأرضُ
أنت الرفيقُ
إذا سافر العمرُ
ثمّ إذا خلت الدارُ
أنت النديم،
إليك أفرّ
ولستُ بخائفةٍ غير منك
لديكَ أقرّ..
أجِرْني..
فإني نفضتُ عن القلبِ
وهْمَ العذاباتِ
والذكريات التي لا تليق
وأدركتُ أني غَفوتُ طويلاً
على نمرُقٍ من سَديمٍ عتيق
أجِرْني..
لقد عدتُ يا سيّدي
بين جنبيّ وهَجٌ
يُذيبُ صقيعَ الذوائب
كي يُشعلَ الروحَ شوقا
يسَربلُ قلبي هوىً سرمديّ
وإني وقد فرّقتني المسافاتُ
أمسيتُ أهفو إليّ
فأين تُرابي
إذا لم أجدْني سأغدو
وقد أنهكتني الأعاصيرُ ليّا؟!
حُفاةً أتينا
ونمضي حُفاةً
فما بالنا بين هذا وذاكَ
نطيلُ السباتا؟!
ألم يُدرك القومُ
من عهد قارونَ
أنّ الذين يروحونَ
لا يأبهونَ بما يهجرون؟!
وأنّ المسافرَ
يستدبرُ الدارَ عند الرحيل
ويستقبلُ الفيء عند الْمَقيل؟!
هنيئاً لمن مكّنوا الحرْثَ
قبلَ انهمارِ السماء
وبالزّيت طفّتْ قناديلهم
حينما أغمضَ الليلُ جفنَ الضياء
أيا سيد النفس!
تشتاقكَ النفسُ
تهفو إليك
فإما يؤذّنُ في الروح لحنٌ رَخيم
سأنفكّ عن صفحةَ الطّين عجلى
وآتي..
فدعني جوارَكَ
في روضةٍ
من نعيمٍ مُقيم.

(*) شاعرة وأديبة – الأردن

التربية ودفء المشاعر



محمد حسين محمد *

إنّ صياغة عقل التلميذ وتشكيل وجدانه الإنساني منوطان بالسنوات الأولى من حياته المدرسية. فما لم يكن المعلم دافئ المشاعر ورقيق الأحاسيس، ومفعم الوجدان بحب الإنسان وعشق الطفولة، فإن العملية التربوية برمتها يمكن أن تتعرض للإخفاق. فالمعلم والتلميذ قطبا العملية التربوية.

أولا: المعلم ودفء المشاعر

«المعلم هو حجر الزاوية في العملية التعليمية»، هذه مقولة يرددها ويؤكد عليها التربويون. وذلك لأن المعلم الفعال الناجح هو القادر على تحويل المناهج الصلدة إلى مواقف تعليمية وأنشطة مؤثرة تهيّئ المجال لنمو الطفل في جميع النواحي: الوجدانية والمعرفية والنفسية والحركية. ومهما كانت الإدارة المدرسية ناجحة، ومهما كان نمو المناهج والبيئة المعرفية في تطور واستمرار دائم، وكان ذلك في وجود معلّم ليس على قدر من الإيمان بالعملية التربوية والحنكة (الخبرة) الفنّية؛ فإن العملية التعليمية لن يكتب لها النجاح ولن تحقق الهدف المرجو منها.

المربّون جميعا متّفقون على أن المعلم المتّصف بـ«دفء المشاعر» هو مؤسس الأمم. فالحب عامل هام في تكوين العلاقات السليمة بين الناس، وهو الذى يؤلف بينهم، ويدفعهم إلى التفاعل والتماسك والتكافل. والمعلم الممتلئ بالمحبة لتلاميذه يقوم بالدور الأساسي في تكوين شخصيتهم. وإحاطة المعلم للطفل بمشاعر المحبة والحنان والعطف يبثّ في نفسه الشعور بالأمن والطمأنينة التي هي أساس الحاجات النفسية الأخرى من رغبة في النجاح وتقدير الآخرين وإثبات الذات...

فإذا حرم الطفل هذا الحب والإحساس بالأمان لأي سبب من الأسباب فإنه يصيبه القلق وتضطرب شخصيته ويصبح عرضة فيما بعد للإصابة بالخوف والتوتّر الذي قد يؤدي إلى المرض النفسي. وقد حثّ الرسول ﷺ الناس جميعهم على الحب والمودة، وذلك أن نبدأ بحب الله ورسوله؛ وقد كان من دعائه ﷺ: «اللهم ارزُقني حبّك وحبَّ مَن ينفعُني حبُّه عندك، اللهم ما رزَقتَني ممّا أُحبُّ فاجعَلْه قوّةً لي فيما تُحبُّ، اللهم وما زوَيتَ عنّي ممّا أُحبُّ فاجعَلْه لي قوة فيما تُحبُّ» (رواه الترمذي).

إن حب الإنسان لله تعالى هو المنبع الرئيسى لكل مشاعر الحب التي يشعر بها الإنسان لكل شيء آخر في الوجود؛ فمِن حب الإنسان لله تعالى ينبعث حبه لرسول الله ﷺ ثم حبه لتلاميذه بل لجميع مخلوقاته وحبه لفعل الخير وحب كل من يقربه إلى الله تعالى. ويظهر هذا بوضوح في قول الرسول ﷺ: «مـن أَحبَّ للهِ وأَبْغضَ للهِ وأَعطَى للهِ ومنَعَ للهِ فَقَد استَكمَلَ الإيمانَ» (رواه أبو داوود).

وإذا أحب المعلم المؤمن تلاميذه وحَنا عليهم وأحاطهم بحبه وأشعرهم به، فربّتَ على كتف هذا، وابتسم في وجه هذا، ولم يعنف هذا، وشجّع هذا، وعزّز أداء هذا، فإن رد الفعل لتلاميذه أنهم يطيعونه؛ فالمحب يطيع محبوبه ويحترمه ويقدّر دَوره في حياته، وإذا استشعر التلميذ بأن حب المعلم له نابع من حبه لله ورسوله زاد في سلوكياته السوية وزاد في إخلاصه لمعلمه ولزملائه. وبهذا يصبح الطلاب أفراداً يتمسكون بتعاليم دينهم ومبادئه، ويلتفّون حول معلمهم يتعلمون منه ويقتدون

به، ويأتمرون بأمره، مما يجعلهم في المستقبل صفاً واحداً وقلباً واحداً في مواجهة تكاليف الحياة.

أ- كيف يحب المعلم تلاميذه وكيف يجعلهم يحبونه؟

- أن يكون على طبيعته وسجيته، وأن يُفصح عن شخصيته وما يحب وما يكره، وأن يعبر عن آرائه.
- أن يشجّع التلاميذ على الاقتراب منه، وعلى الصراحة والوضوح معه، مع حرصه على أن يحافظ على أسرارهم.
- أن يؤثّر فيهم ويسهم في علاج مشكلاتهم.
- أن يستخدم الاقتراب الفيزيقي للتلاميذ غير المهدّد، ويمكن استخدام الاقتراب من التلاميذ كوسيلة للتعبير عن الإحساس بالثقة والانفتاح.
- أن يستخدم روح الدعابة مع التعبير عن الإحساس بالثقة والانفتاح.
- أن يشجّعهم على إبداء آرائهم والتعبير عن مشاعرهم وأفكارهم.
- أن يكون قدوة حسنة لهم في كل أعماله وسلوكه مقلّلاً من الإرشادات العلاجية والانتقادات.
- أن يستخدم حواسّه كلها في التقرب إليهم.
- أن يحرص على زيارة تلميذه إذا مرض.
- أن يكون مستمعاً جيّداً لتلاميذه ويشجّعهم على الكلام وإبداء آرائهم.
- أن يُشْعر الطالب بأهميته عنده.

ب- اختلاف جنس المعلم حسب المرحلة التعليمية

في مرحلة ما قبل المدرسة التي تعرف باسم الروضة المرأة هي الأنسب لهذه المرحلة (٤-٦ سنوات)، فهي امتداد لدور الأم في عملية التنشئة الاجتماعية، حتى لا يشعر الطفل بأي فرق في حياته المنزلية وحياته المدرسية الجديدة. فالإشباع النفسي وبث الطمأنينة وشعوره بالأمن يجعله بعيداً عن الخوف والقلق والتّوتر كما يجعله يشعر بالرضا والغبطة والسعادة، لأن تكوينها الجسمي والنفسي مؤهّل لذلك؛ فهي تسعى إلى تحقيق الطمأنينة لأفراد في حاجة إلى الأمن والطمأنينة. وفي هذا الجو الآمن تبدأ العلاقات الاجتماعية للطفل فيكتسب الشعور بقيمته وبذاته، وفي هذا الجو تتكون خبراته الأولى بالحب والحماية والأمن والطمأنينة، كما يزداد تفاعله مع جماعة الفصل، وهكذا تتبَلْور شخصية الطفل في جو صحي.

أما في المرحلة الثانوية سواء البنين أم البنات فالطالب في حاجة إلى صديق يثق فيه ويستمع إليه ويوجهه.

جـ- التصرفات التي يجب أن يتجنّبها المعلم حتى يحبّه التلاميذ

يأتي على رأس التصرفات التي يجب أن يتجنبها المدرس التفرقة في المعاملة وذلك أن أساس المعاملة في الإسلام هو العدل، يستوي في ذلك الصغار والكبار على السواء، لذا أكّد النبي ﷺ على ضرورة مراعاة العدل بين الأبناء فقال: «اعْدِلُوا بين أبنائكُم، اعْدِلُوا بين أبنائِكُم» (رواه النسائي).

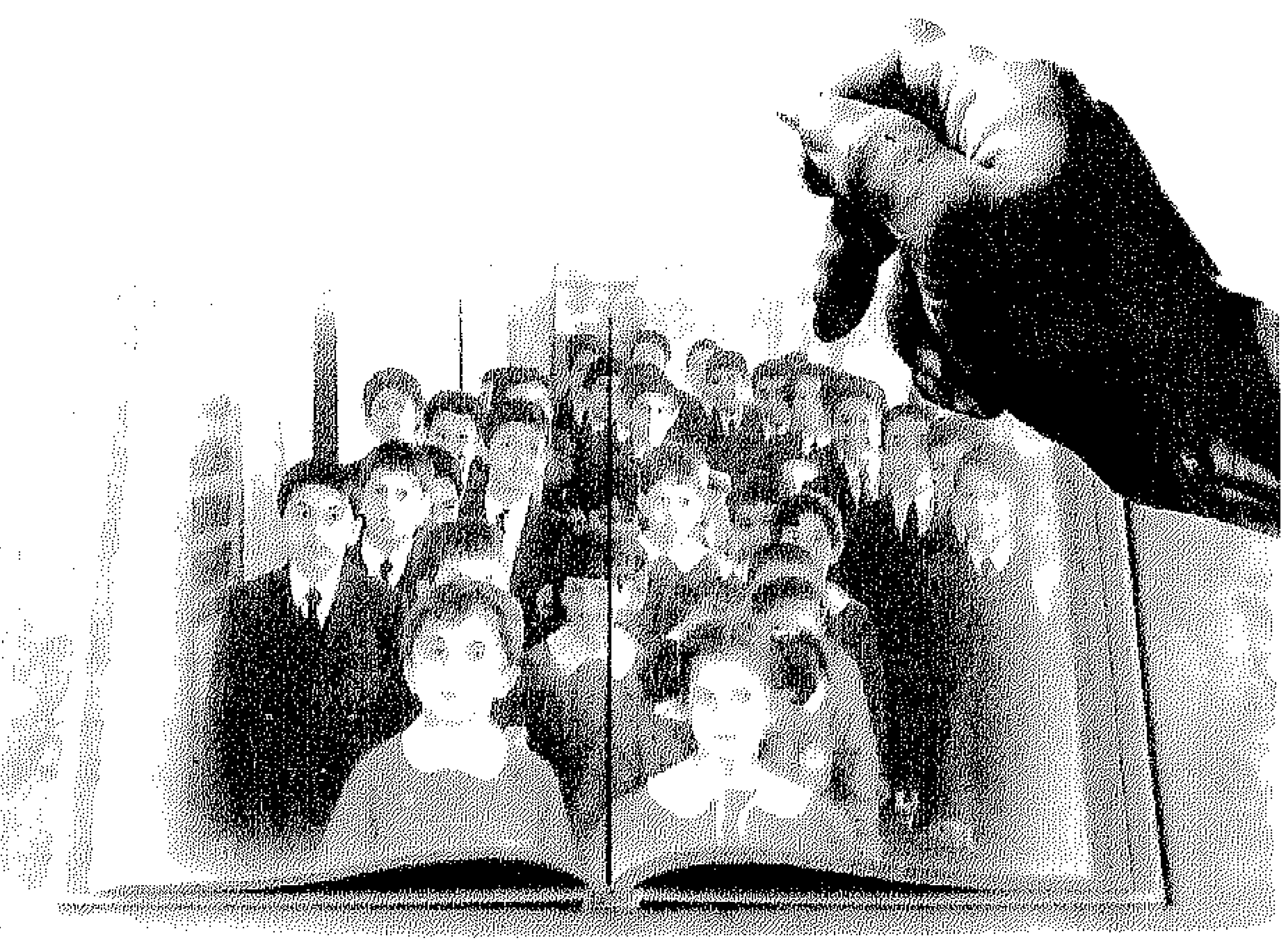
وقد يُفرط المدرس في معاملة تلميذه، ويدلّله كثيراً ولا يظهر الحزم في المواقف التي تحتاج إلى حزم، أو يثير الغيرة بينه وبين غيره من تلاميذ فصله؛ فيكثر من الموازنات بينهم أو خَلْق جو يشعر التلاميذ بالتفرقة فيما بينهم في التقدير والمعاملة.

كما يجب على المعلم ألا يُشعر أيّ تلميذ في الفصل بأنه يتجاهله؛ فالإنسان يكره أن يهمله أحد أو يتجاهله. ففي مشاعر كل إنسان رسالة صافية تقول: «مِن فضلك زكّني! من فضلك تقبل وجودي، لا تمر عليّ غير آبه بي، أرجوك الاعتراف بكياني».

ثانيا: دفء المشاعر عند الوالدين واستكمال المعلم لهذا الدور

حب الطفل لأمه هو أول حب يشعر به عند ميلاده، وذلك لارتباط الأم بإشباع جميع حاجاته الأساسية وما يصاحب إشباعها من شعور بالمتعة واللذة. ثم يتكون بعد ذلك حبه للآخرين المحيطين به كالأب والإخوة والأصدقاء والأقارب والجيران والناس عامة.

وكما يشعر الطفل بحبه لوالديه ولأفراد أسرته، فإنه يشعر كذلك بحبهم له وعطفهم وحنانهم عليه واهتمامهم به ورعايتهم له. وهذا الجو المشبّع بالحب المتبادل الذي ينشأ فيه الطفل عامل



هام في تكوين شخصيته السوية وشعوره بالأمن النفسي والثقة بالنفس والسعادة.

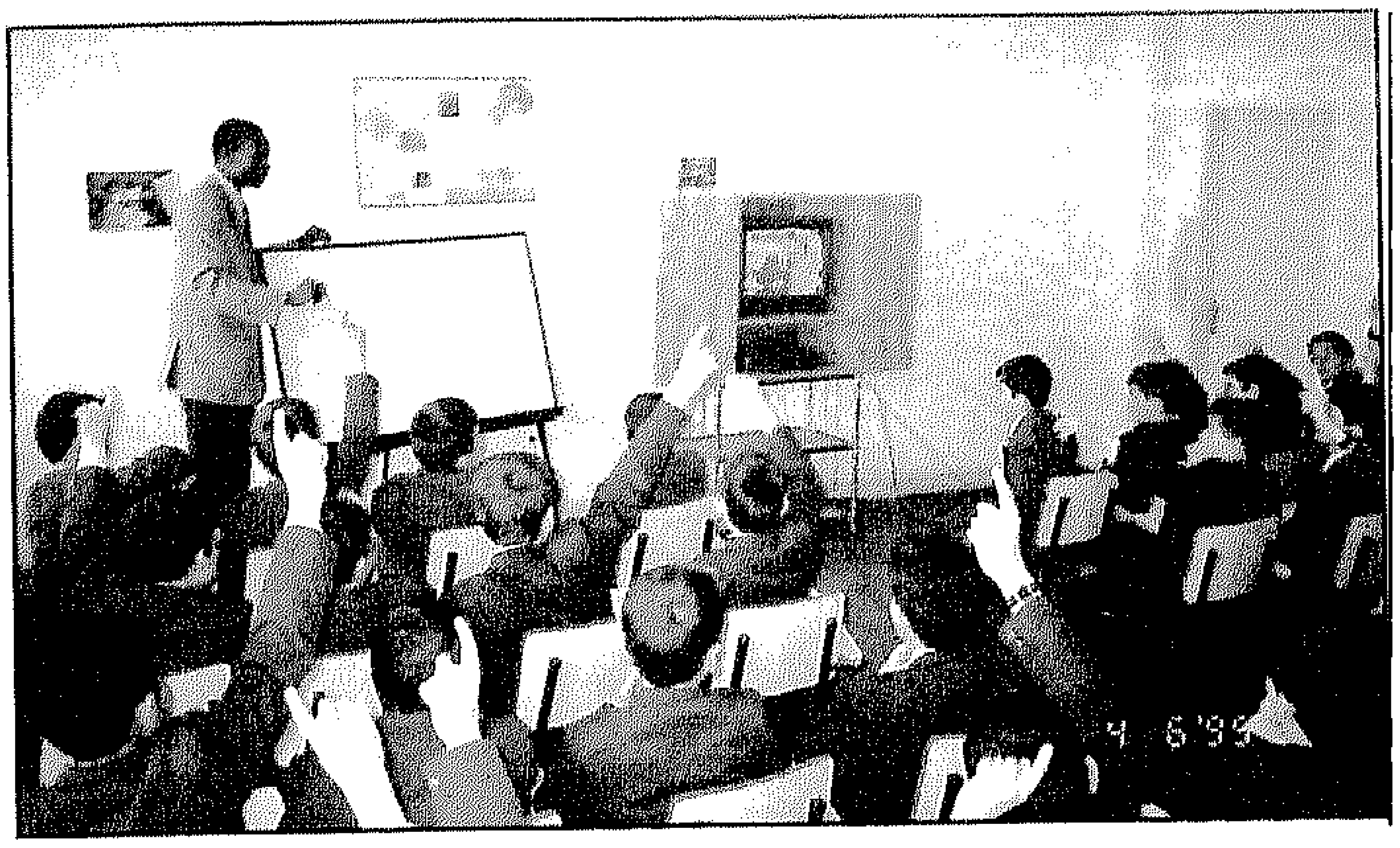
ويلعب المعلم دور الأب أو الأم في المدرسة، فهو باقترابه من الطفل والإحساس به والشعور بالحب نحوه تكمّل المسيرة في عملية التربية، بل ويؤكد للطفل استمرارية الجو المشبّع بالحب في الحياة.

والطفل الذي ينشأ هذه النشأة السوية يَشعر عادة بمحبته للناس جميعهم ويتودد إليهم، ويحسن معاملتهم ويعطف على من يحتاج منهم إلى عطف، ويقوم بمد يد العون إلى من يحتاج منهم إلى عون أو مساعدة. ومحبة الإنسان للناس ومساعدتهم ومدّ يد العون إليهم من العوامل الهامة التي تجعل الإنسان يشعر بالانتماء إلى المجتمع وبأنه عضو نافع فيه. وإن من شأن ذلك أن يجعله يشعر بالرضا عن نفسه وبالغبطة والسعادة. وقد أدرك المحللون النفسيون المحدثون أهمية العلاقات الإنسانية في الصحة النفسية للإنسان.

ثالثا: دفء المشاعر في الجو المدرسي

لا يكفي المعلم وحده في إشاعة جو المحبة في المدرسة، بل لا بد من تضافر جهود الجميع لتحقيق ذلك. فالحب مسؤولية جميع العاملين، ولكي يسود الجوّ المدرسيّ الحبُّ والألفة والمحبة يمكن الأخذ بالتوصيات الآتية:

- أن يكون المعلمون قدوة حسنة في أفعالهم وأقوالهم.
- أن يشعر العاملون بالمدرسة بأن روح الحب والألفة والمودة تنتشر بينهم، وقد علّمنا رسول الله ﷺ أن نخبر من نحبه بحبنا له فقال: «إذا أَحبَّ الرجُلُ أخاه فَلْيُخبِرْه أنّه يُحبُّه» (رواه أبو داود).
- الابتسامة والملاطفة بين كل العاملين تُدخل السرور على قلب كل من يعمل في المدرسة، فهكذا كان خلق رسول الله ﷺ. قال جَريرُ بن عبد الله ﷺ: «ما حَجَبَني رسول الله ﷺ مُنذُ أَسلمتُ ولا رآني إلا ضَحِكَ» (رواه مسلم). وما قاله عبد الله بن الحارث ﷺ: «ما رأيتُ أحدًا أكثَرَ تبَسّمًا من رسول الله ﷺ» (رواه الترمذي). فالابتسامة هي انفراج الأسارير عن انفعالات صادقة داخل النفس تحرّك الوجدان، وتعبيرات الوجه تتكلم بصوت أعمق أثراً من صوت اللسان.
- أن يكون شعار كل العاملين: «إذا أردت أن يحبك الناس فازهد فيما عند الناس»
- البعد عن سوء الظن والبغضاء امتثالا لقوله ﷺ: «إيّاكُمْ وَالظَّنَّ فإن الظَّنَّ أَكْذَبُ الحديث، ولا تَحَسَّسوا ولا تَجَسَّسوا ولا تَنافَسوا ولا تَحاسَدوا ولا تَباغَضوا ولا تَدابَروا، وكُونوا عِبادَ الله إخوَانًا» (رواه مسلم).

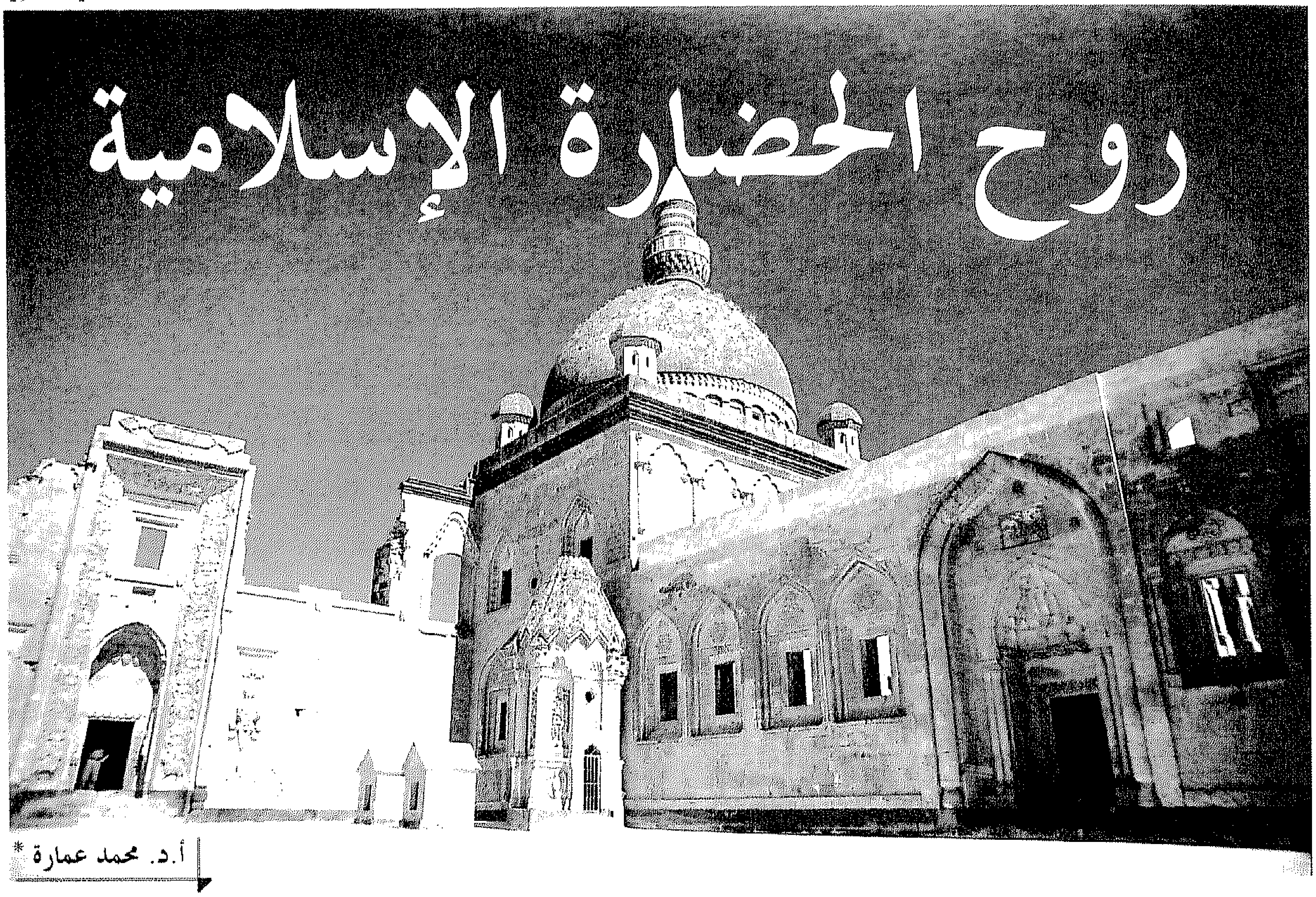


- أن يحرص العاملون على التزاور، فعن أبي هريرة ﷺ عن رسول الله ﷺ قال: «من عَادَ مَريضًا أو زَارَ أخًا له في الله نَاداهُ مُنادٍ أَنْ طِبْتَ وطابَ مَمْشاكَ وتَبَوَّأْتَ من الجنّة مَنْزِلاً» (رواه الترمذي). فالزيارة وسيلة لزيادة الصلات ولزيادة المودة والتآلف بين القلوب.
- أن يسود الجوّ المدرسيّ التسامحُ. فالواجب على المسلم أن يتخلق مع الناس بخلق الحلم والعفو والتسامح. فإن الصدود وإضمار الانتقام وانتظار الرد بالمثل تزيد حرارة القلب حتى تدعه قلقاً مضطرباً. وكان ﷺ يغرس في نفوس المسلمين دوماً خلق العفو والتسامح وإن قوبل بالصد والإعراض والقطيعة قال تعالى: ﴿وَلْيَعْفُوا وَلْيَصْفَحُوا أَلاَ تُحِبُّونَ أَن يَغْفِرَ اللهُ لَكُمْ وَاللهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ (النور: ٢٢).
- أن يضع كلُّ من يعمل في المدرسة نفسه في خدمة أخيه وزميله، ويمد له يداً مخلصة نافعة مجردة من الأنانية والمصلحة الذاتية. والنبي ﷺ يقول: «المسلِمُ أخو المسلم لا يَظْلِمُه ولا يُسلِمُه، من كان في حاجَة أخيه كان اللهُ في حاجَته، ومَنْ فَرَّجَ عن مُسلم كُرْبَةً فَرَّجَ اللهُ عنه بها كُرْبَةً من كُرَبِ يوم القيامة، ومَنْ سَتَرَ مُسْلمًا سَتَرَهُ اللهُ يومَ القيامة» (رواه مسلم).
- أن يظلّل تعاملَنا مع أولياء الأمور وغيرهم من زائري المدرسة الآيةُ الكريمةُ: ﴿خُذِ الْعَفْوَ وَأْمُرْ بِالْعُرْفِ وَأَعْرِضْ عَنِ الْجَاهِلِينَ﴾ (الأعراف: ١٩٩).

وبعد، هذا ما حضرني من أفكار حول العمل التربوي الإسلامي والإنساني، آمل أن أكون قد أسهمتُ ولو بقسط لا بأس به في رسم معالم العلم التربوي المطلوب. هذا وفوق كل ذي علم عليم.

(*) مستشار البحوث التربوية بوزارة التربية والتعليم بمصر سابقا، والمستشار التربوي لجمعية مصر المحروسة.

روح الحضارة الإسلامية



أ.د. محمد عمارة *

لقد كانت الصناعة الثقيلة التي بدأت الدعوة الإسلامية فأقامتهـا، منذ المرحلة المكية، هي صناعة الصياغة الإسلامية للإنسان الذي تدين بدين الإسلام..

وكانت «دار الأرقم بن أبي الأرقم» في مرحلة سرّية الدعوة الإسلامية، أي منذ فجر تلك الدعوة هي أولى المؤسسات التربوية التي أقامها رسول الإسلام عليه الصلاة والسلام.

وقبل فتح المسلمين للمدائن والأمصار والأقطار، وقبل إقامة الدولة، وتغيير الواقع وتطبيق القانون وبلورة العلاقات الدولية كان الفتح الإسلامي للقلوب والعقول بهدي القرآن الكريم. ذلك الذي أصبح خُلق سلوك وممارسات، وسجية للحياة التي يحياها المسلمون، بل إن أولى المدن التي فتحها المسلمون قبل الهجرة النبوية وقبل الدولة الإسلامية -وهي المدينة المنورة- قد فتحها المسلمون بالقرآن الكريم.

وبعد إنجاز الصياغة الإسلامية -بالتربية- للإنسان، جاءت كل الإنجازات والفتوحات، في ميادين الحضارة وعلومها والثقافة وآدابها وفنونها، فكانت تجسيداً لهذا الذي سبق وتم إنجازه في نفس الإنسان.. جاءت جميعها مصاغة بمعايير الإسلام، التي سبق وصاغت نفوس وعقول وقلوب الذين اهتدوا بهدْي الإسلام.

إن الدعوة الدينية في الإسلام لم تقف عند حدود تدين الإنسان، وتحقيق عبوديته لله بالشعائر المعبِّرة عن الإيمان القلبي، والمفصحة عن علاقته بالسماء.. وإنما امتدت هذه الدعوة لتحقق ائتلاف هذا الإنسان بالأمة والمجتمع والكون، فتوحدت في نفس هذا الإنسان عوالم الغيب والشهادة، وائتلفت فيها وتوازنت علاقات الفرد بالمجموع، والخاص بالعام؛ فتدينت الدنيا، مع بقائها دنيا، عندما صاغ الإسلام نفس الإنسان المسلم ووجدانه وعقله تلك الصياغة التي ائتلفت فيها وتوازنت آيات الله في الوحي السماوي بآياته في الأنفس والآفاق.

إن دين الإسلام لا يقوم ولا يقام بالتبتل الفردي والخلاص الذاتي، وإنما لا بد لإقامته وتحقيق كامل فرائضه من أمة ووطن واجتماع ومجتمع، وفروض اجتماعية، يتوجه الخطاب فيها والتكليف بها للأمة. وهذه الفروض الاجتماعية أهم وآكد من الفروض الفردية، بدليل أن إثم التخلف عن الفريضة الفردية يقع على الفرد وحده، بينما إثم التخلف عن الفريضة الاجتماعية يقع على الأمة جمعاء.

وفي دين الإسلام، اقترنت الهجرة في سبيل الله بتأسيس الدولة، وإقامة المجتمع، وتطبيق القانون، وإقامة نسيج اجتماعي بين الرعية يحقق المؤاخاة، لا في الحقوق الدينية المجردة فقط، وإنما في أمور المعاش الدنيوية أيضاً؛ بل لقد امتد هذا النسيج

بمعايير المواطنة، وحق الاختلاف حتى في الدين، إلى حيث ضم هذا النسيج غير المسلمين مع المسلمين.

فالهجرة إلى الله ليست رهبانية، تخلص فيها وبها الذات، بمعزل عن الحياة والناس.. بل إن رهبانية الأمة الإسلامية هي الجهاد، الذي هو فريضة اجتماعية تستلزم وجود الأمة والوطن والاجتماع.

لقد أحدثت الدعوة الدينية الإسلامية أثراً تكوينياً تربوياً في شخصية الفرد المسلم، أصبح عاملاً نفسانياً، حقق ائتلاف العناصر الفردية في المجتمع الإسلامي، الطبيبعي منها والشرعي، المدني منها والديني، العقلي منها والنقلي، المادي منها والمجرد.. فكان ذلك الائتلاف حضارة إسلامية، أبدعها الإنسان الذي صاغته الدعوة الإسلامية. وتلك خصيصة من خصائص الدين الإسلامي والحضارة الإسلامية؛ فالرسالات الدينية التي سبقت رسالة الإسلام الخاتمة، إما أنها تزامنت مع حضارات غير متدينة، فتعايشت معها، دون أن تغيرها وتصبغها بصبغتها؛ بسبب وقوف تلك الرسالات عند حدود خالص الدين، وإما أن تلك الحضارات السابقة على الحضارة الإسلامية قد عاشت في أزمنة الفترة التي خلت من رسالات الدين..

بينما تميز الإسلام بكونه ديناً فجّر حضارة، وصاغ مدنية، وأثمر اجتماعاً إنسانياً، وألّف في نفس الإنسان -بالمنهاج التربوي الشامل- ذلك الائتلاف المتوازن، الذي جعل هذا الإنسان يبدع الحضارة المصطبغة بصبغة الدين. لقد حقق الدين الإسلامي الائتلاف والتوازن والأمن في نفس الإنسان المسلم، فجاء الإبداع المدني لهذا الإنسان -أي الحضارة الإسلامية- ثمرة مجسدة لهذا الذي أحدثه الدين في نفس هذا الإنسان.. فلما حدث وبعدت هذه الحضارة وثقافتها عن هذه الصبغة كان هذا الخلل الذي نشكو منه، والذي حدث منذ قرون، والذي تطبّ لدائه كل دعوات وحركات الإصلاح في أمة الإسلام

وإذا كان الإسلام هو سبب تقدم المسلمين، ونهوضهم الحضاري، وازدهارهم الثقافي.. فما سبب التخلف الذي أصاب المسلمين، مع بقاء الإسلام كما هو، على حاله الذي كان عليه عندما فجر ينابيع التقدم في الحياة الإسلامية؟!

إن السبب هو غيبة «الروح» (روح الدين الإسلامي) عن الحضارة (الحضارة الإسلامية)، هو انقطاع الاتصال بين الإسلام وحضارة المسلمين.. هذه الروح التي جعلت الحضارة إسلامية، بل والتي فجرتها وصبغتها بصبغة الإسلام..

لقد جلس الحسن البصري إلى واعظ من الوعاظ، فلم يتأثر قلبه بموعظته، فسأل الحسنُ الواعظ: «يا أخي، أبقلبك مرض أم بقلبي؟». إن انقطاع الاتصال، لغيبة الروح، هو سبب المرض والمأزق الحضاري، الذي تطب له وتبحث عن علاجه مختلف مدارس الإصلاح.

فما هذه الروح التي جعلت الإسلام -دون الديانات الأخرى- يصنع حضارة وثقافة، ولايقف عند مجرد الدين؟! وأين موطن الخلل الذي عطل الفعل الإسلامي في الحضارة والثقافة؛ فتراجعت الحضارة الإسلامية، وضمرت الثقافة الإسلامية، مع بقاء الإسلام «الدين» كما هو، وبقاء الإيمان به والاستمساك بعراه؟!

لقد عرض الشيخ محمد الفاضل بن عاشور لهذه القضية المحورية عندما تحدث عن الأمور التالية:

بناء الحضارة والثقافة

تميز الإسلام «الدين» بإفراز الحضارة، وبناء الثقافة: «فإذا كان الإسلام، باعتباره ديناً، يشترك مع غيره من الأديان في القضايا التي هي موضوع الديانات عامة، فإن للإسلام نواحي ينفرد بها عن تلك الديانات، التي اشترك معها في القضايا الدينية بصفة عامة، إذ تكون له جهات اتصال بالثقافات والحضارات ليست لغيره من الأديان الأخرى.. فهذه التي نسميها الحضارة الإسلامية، أو تلك التي نسميها الثقافة الإسلامية، إنما هي سلاسل من الأحداث والأوضاع والكيفيات الاجتماعية والذهنية، كان الإسلام مبدأ نشأتها وسبب تكوينها. فلم يقف الإسلام عند التعايش مع العلم، وإنما أصبح كل موضوع علمي ذا صلة بالعقيدة الدينية، وصار الارتباط بين الدين والمعرفة العقلية، أو بين علم الطبيعة وعلم ما وراءها ارتباط التفاعل والتمازج. ونشأ من ذلك اتجاه نحو الحياة والسلوك فيها، يدفع به العامل الديني الاعتقادي في كل وجه من وجوهه، وسبيل من سبله؛ فصار الداعي الديني يتجلى فيما يصنع العالم، وما ينتج الأديب، وما يصوغ صاحب الفن. وصارت المعرفة العلمية سنداً لكلام المتكلم، وفقه الفقيه، وتصوف الصوفي، على الصورة التي ربطت عناصر المعرفة، وأخرجت كتب العقيدة الإسلامية جامعة للمعارف الطبيعية والرياضية والإنسانية، مع الحقائق الاعتقادية؛ يتجانس فيها العلم مع الدين، ويتساند العقلي والنقلي. لقد تكوّن المجتمع

الإسلامي بإثر دعوة دينية، إنه مجتمع ديني بالمعنى الأخص، كان الدين فيه العامل الأول المباشر. ومن دعوة الدين، والإيمان بها، اكتسب الشعب الذي استجاب لتلك الدعوة وامتاز بذلك الإيمان خلالاً نفسية جديدة. لم يستفد علماً ولا صناعة ولا قوة مادية، ولكن الذين اكتسبه من الخلال طوّع العلم والصناعة والقوة المادية؛ فكانت المدارك الدينية وحدها هي التي فتحت أمام نظر المسلم آفاق الكون للتأمل والاعتبار، والمعرفة والإيمان. فالحقيقة الاعتقادية الإلهية، هي الأساس لكل ما بنت الحضارة الإسلامية من هياكل حسية ومعنوية. وإنسان هذه الحضارة، بالدين فكّر، وبالدين تحضّر، وبالدين أنتج آثار حضارته، وبالدين أقام الدولة الصائنة للمجتمع وحضارته. وكذلك استمرت مظاهر الحضارة متصلة في نفسه بالدين، وعوامل الدين فعالة في مظاهر الحضارة.»

التوازن والانسجام

كذلك امتازت هذه الحضارة الإسلامية وثقافتها بالتوازن والانسجام؛ لأنها ثمرة لامتياز الإسلام بتحقيق التكامل والتوازن والانسجام في مصادر المعرفة الإنسانية: «فكل الحقائق، المتصلة بالمادة والمتصلة بما وراءها، هي في متناول الإنسان، يستطيع أن يتوصل إليها بمداركه العديدة المدرّجة، المستند بعضها إلى بعض، في غير تنافر ولا تدابر ولا تناشز. فالمدركات الغريزية، وراءها المدركات الحسية. ثم المدركات الحسية، وراءها المدركات العقلية. ثم المدركات العقلية، تؤدي إلى المقدمات المفضية إلى تلقي المدركات الغيبية، الآتية من طريق الوحي، وإلى التسليم بها، والإذعان لها. وتبقى هذه المدركات كذلك متعاونة متساندة، لا يمكن أن يحصل بطريق واحد منها ما يتناقض مع الحاصل من طريق مدرك آخر، إلا أن بعض ما يقصر عن الإحاطة به أحد هاتيك الطريق، يمكن أن يتصل به طريق آخر منها، حتى تنتهي إلى الإذعان للمدركات الحاصلة بالطريق الخارق للعادة، وهو طريق الوحي. فعقل الإنسان وعقيدته، وحسه المادي، وعواطفه الغريزية، كلها متجانسة متعاونة، لا يخشى بعضها بعضا، ولا يقطع أحد سبيل الآخر. لقد كانت الحضارة الإسلامية من أثر إنسان اكتسب وضعاً منسجماً في ذاته، آمنا إلى نفسه، فصنع على مثال نفسه حضارة أكسبها مما اكتسب، وأفاء عليها مما أفاء الله عليه، حتى فاقت بما فيها من انسجام غيرها من الحضارات.»

ما أسباب التخلف؟

لكن ما الذي حدث حتى تخلفت الحضارة الإسلامية وتهلهلت ثقافتها، مع بقاء الإسلام -الذي صنعهما وحقق لهما الازدهار الذي دام لعدة قرون، كانا فيه منارة للعالمين- على ما هو عليه؟! «لم يكن المصاب العزيز هو الإسلام، وإنما كان الثقافة الإسلامية والحضارة الإسلامية. وكانتا تتطلعان إلى الإسلام بذاته، تحنان إليه، وترجوان شفاءهما عنده. وكان القريب والبعيد يدركون أن ما نزل بالمجتمع الإسلامي، في حضارته وثقافته، ليس إلا أمراً آتيا من انحراف عن الأصل، وانقلاب في الوضع، وانفلات عن العامل التربوي الأصلي الذي لزم الأصول، وأحكم الأوضاع؛ فلقد أصاب الحضارة والثقافة ما عزلها عن صدق الاستمداد من الإسلام، ومتين الاعتماد عليه، حتى مال عمادها، واضطربت أوتادها..»

فالخلل لم يحدث في ذات الإسلام؛ وإنما في توقف عقيدة الإسلام عن أن تكون روح الحضارة، وانكماش الإرادة الاعتقادية البناءة للحضارة، وغربة الحضاري عن الديني، وتفكيك الدين عن الدنيا: «وإن تبيّن الناحية التي أصابتها العلة من العقيدة، هو الذي يكشف عن الأسباب التي قضت بضعف الحضارة وتهلهلها. إن الذي حدث في العقيدة الدينية، وقضى بتضعضع الحضارة، إنما هو انكماش صدّها عن أن تخلع من روحها على الحضارة، فأصبحت الحضارة خائرة جامدة، لا تتقدم. وما كان ذلك الانكماش إلا أثراً من آثار الضعف، الذي أصاب العقيدة في جوهرها. إن الإرادة الاعتقادية البناءة هي التي خارت وضعفت؛ فأصبحت الأوضاع الاجتماعية، والآثار المدنية تصدر عن غير ما كانت تصدر عنه، فصارت هي في واد والعقيدة الدينية في واد. وبقي المسلم وفيّاً لعقيدته الدينية، غيوراً عليها، من جهة، متقبلاً لحياته العملية، مطمئنّاً إلى واقعها من جهة أخرى. حتى أصبح المبدأ النظري والواقع العملي عنده متباينين، وتولدت من ذلك نظرية تفكيك الدين عن الدنيا، باعتبار أن الدين خيرٌ غير واقع، والدنيا شر واقع، وأن العبد المسلم يحمل بين جنبيه ديناً لا يؤثر فيه إلا لماماً، ويعيش في دنيا لا يعرف فيها إلا كل ما يبعد به عن الدين. ثم هجمت عليه في حياته العملية مدنيات أجنبية عنه، فيها العلم، وفيها الصناعة، وفيها القوة، وفيها الحكمة؛ فلم يجد من إرادته الدينية ما يتناول به هذه المدنية، كما تناول المدنيات التي احتك بها من قبل، يوم كانت إرادته الدينية قوية سليمة، فوقف أمامها

جامداً، واعتبرهـــا من جملة صور الحياة التي كان من قبل آمن بانفكاكها عن الدين..».

ذلـــك هو موطن الخلل الذي كان ابن خلدون من أفضل من أدركه، وحلله.. «لقد حلل ابن خلدون المشـــكلة تحليلاً دقيقاً، عندما جعل شؤون السياسة والعمران والصناعة والعلم في الدولة الإسلامية، تبعاً لشأن الدين. وجعل الحقيقة الأولى للدين، التي هي العقيدة الفردية أصلاً وأساساً لذلك كله، فأخذ يدرس مشكلة فساد الدولة، وركود العمران -في عصور الإسلام اللاحقة عن عصوره الســـابقة- وانتقاص الصنائع، وتلاشي ملكات العلوم، واختلال طرائق التعليم في الأمصار الإسلامية لعهده، جاعلاً ذلك كلـــه راجعاً إلى اختلال الحقيقة الأولى للدين، التي هي أســـاس العمران الناشـــئ به، والدولة القائمة عليه، أعني العقيدة الدينية، فردّ ذلك كله إلى صورة تكـــوّن الفرد تكوّناً إيمانياً، يرتبط من جهة بالدين الإسلامي في عقيدته، ويسري منه إلى كل ما انبثق عـــن تلك العقيدة من مظاهر عمرانيـــة وصناعية وفكرية. وإذا كان الناس يكتفون بأن يمثلوا ما بدا في حياة المجتمع الإسلامي وحضارته من إخلال، بما يرجع إلى نظم الحكم، وصور الدول، وما شاع من فساد الخلق، وتفكك الروابط الاجتماعية، فإن ابن خلدون يطلب لهذه العلل عللاً، ويرد هذه الأسباب إلى أسباب وراءها. فانقلاب الخلافـــة إلى ملك ليس العلة، وإنما هو عَرض لعلـــة تغيّر الوازع الديني إلى مقاصد التغلّب والقهر، والتقلّب في الشهوات والملاذ، وحلول عصبية الدولة محل عصبية الدين. لقد أرجع ابن خلدون الحضارة الإسلامية إلى أصلها وأساسها، أو بالأوضح روحها، وهو العقيدة الدينية».

حجم المشكلة

وإذا كانت هذه هي المشـــكلة، فما هو حجمها؟ وما هو عمرها؟ إن حجم هذه المشـــكلة ليس بالهـــين، وعمرها ليس بالقصير. «وإذا كنا لا ننكر أن الحضارة الإسلامية قد تقاصرت وتراجعـــت وتخلخلـــت، وأن الثقافة قد ذوتْ وانكمشـــت واصفرت، وأوشـــكت أن تصير حطاماً، فإن ذلك ليس وليد الأمس، ولا أمســـه. ولكنه الأدواء التي استفحلت في القرون الأخيرة، حتى أعضلت، وعز دواؤها، ثم لم تزل تنمو وتشـــتد وتتفاقم آلامها وأخطارها حتى انتهت إلى الوضع المفزع، الذي ضج قرننا الحاضر منه بالشكوى..»

ما هو الحل؟

وأخيراً وبعد تحديد روح الحضارة الإســـلامية، وتشخيص موطن الخلل الذي أصاب حضارتنا وثقافتنا؛ فما هو الحل الحقيقي لهذه المشكلة؟ والمخرج من هذا المأزق الذي يأخذ بخناق الأمة؟

إن الحل هـــو في العودة إلى الروح الـــتي صنعت الحضارة المزدهرة والثقافة المتألقة. إنه عودة الروح الدينية لتصوغ النهضة الحضارية المتميزة والمســـتقلة. وهذا هو المعنى الحقيقي لمقولة: لـــن يصلح آخر هذه الأمة إلا بما صلح به أولها. «فلولا التكوّن الفـــردي المكّي، والتكوّن الاجتماعي المـــدني، لما كانت آثار الحضارة التي تبدت في عواصم الإســـلام. فإذا كان الناس اليوم يحنّون إلى عهود ذهبية، ازدهرت بها تلك العواصم، ويتحرقون إلى إحيائها وتجديدها، فأجدر بهم أن يعودوا إلى العامل الأصلي الذي ولّـــد تلك العصور الذهبية، والذي بدونه لن تعود زهرة تلك العصور وينعتها، ألا وهو العامل التربوي الإسلامي، الذي كوّن الفرد قبـــل أن يكوّن المجتمع، ومهد للثقافة طريقها قبل أن يتناول عناصر المعرفة التي ألّفت كيانها».

أما إذا وقفنا عند «اســـتقلال العَلَم والنشيد»، دون حقيقة «الاســـتقلال الحضاري»، الذي هو ثمرة للصبغة الإســـلامية المتميزة، فلن نخرج من هذا المأزق الذي نعيش فيه. «لقد خرج العالم الإسلامي من تحت حكم الغير، واسترجع سيادته الذاتية، لكن هل هو مســـتطيع أن يعاود حضارتـــه، ليضطلع بأعبائها من جديد، وليمثل للناس صورة جديدة من الثقافة والحضارة، منطبعة بطابع شخصيته الإسلامية، ومنبثقة عن المبادئ الاعتقادية الإسلامية، التي انبثقت عنها الصورة الماضية التي عرفها التاريخ من ثقافة الإسلام وحضارته؟ إن نهضة اليابان ليست بوذية، ولا نهضة الصين نهضة كونفوشية، ولا نهضة اليونان نهضة بيزنطية، ولا أفلاطونية، ولا أرسطوطاليســـية، بل ولا هي يونانية على الحقيقة بأي حال من الأحوال. فهل ســـيكون شـــأن الإسلام مقصـــوراً على هذا الوضع؟ أو أن حضارة إســـلامية الروح، وثقافة إســـلامية الطابع، ستبدوان من بين ذلك القدر المشترك المؤلف بين شعوب الأمة الإسلامية، الناهضة المستقلة؟ إن روح تلك الحضارة هي الموقع الرئيسي للمشكلة».

تلك بعض من قضايا وأفكار ومحاور المعضلة التي حار ويحار فيها المصلحون، روح الحضارة الإسلامية، التي صنعت وميزت الحضارة والثقافة في عصور النشـــأة والازدهار، وموطن الخلل الذي جعل الحضارة تتراجع، والثقافة تتهلهل. والحل والمخرج من هذا المأزق الحضاري الذي تعيشه أمة الإسلام.

(*) كاتب ومفكر إسلامي - مصر.

انتصار القيم الإنسانية في الفتوح الإسلامية

وثيقة «غَلَطه» أنموذجًا



عوني عمر لطفي أوغلو *

سطعت شمس الإسلام على الأرض عدلاً وسماحةً ورحمةً لينقل البشـرية نقلة نوعية من مرحلة إلى مرحلة؛ فما كان من «الوجدان الإنساني والمفاهيم العقلية والقيم البشرية» قبل الإسـلام وبعده أمران مختلفان! فقد ارتقى النوع الإنساني من حال الانحطاط والتدهور أسـفل فأسفل، إلى حال التعالي والتسامي أعلى فأعلى. ولما أشرعت جيوش الإسلام في المشرق والمغرب أسـنة رماحها، وأشهرت سيوفها، لم تخرج أشَراً ولا بطراً؛ بل ترسيخاً للقيم والمثل، ونشراً للرحمة والنبل والتسامح. فلم تشع السيوف بشهوة المطامع، و لم تقعقع من أجل معارك جوفـاء، بل لإعلاء كلمة الله، الذي أنـزل علينا كتاباً يأمرنا فيه بإطلاق حرية الضمير، والتعايش مع هذه الحرية، بشـرط توقير حرية المسـلم ومعتقده. فلم يزين لنا ديننا سفك الدماء بغريزة الحقد على الباطل، أو حتى الثأر من المعتدي. ومشهورٌ ذاك الخيار (متى لزم القتال) بالإسـلام، ليخلّي إرادة الإنسان حين تقبله القلوب بفطرتها؛ أو بالجزية، إقراراً لتوقير هذا الدين الذي يطلق العدل من عقالاتـه؛ أو القتال حتى لا تكون فتنة تمسك بتلابيب الضمائر البشرية. إذن القتال في الإسلام ينبض بنبضات حرية الضمير وانطلاق العدل وضمان المعتقدات على نقيض ما شهدت البشـرية في الحروب، وحتى في هذا العصر الموصوف بالتنوير!

ديننـا لا ينهانا عن أن نَبَرَّ مـن لم يقاتلنا -فيكون قد قاتل العقل والحرية والقيم الإنسـانية- وإن كان مشركاً. فغاية ما

يريده المسلم أن يُوَقِّر هذا الدين، ويُوَقَّر إيمانه، وحريته في الدعوة إليه. هذا هو شرطه ليعايش الملل والنحل. ولا يقلقن غير المسلم على معتقداته، إذ يضمن المسلم شرط توقير دينه. ذلك بأن حقوق غير المسلم مكفولة في دينه بقواعد يتعبد بها المسلم ولا يملك دونه فكاكاً، على خلاف ما عند غيره! وإذ يسعى المؤمن لإعلاء كلمة الله وتوقير دينه، يملأ فراغاً لا يمتلكه غيره. فغيره مضمون بضمان دين المسلم، وليس العكس صحيحاً! وضمان المسلم لحرية معتقدات الملل الأخرى محكوم بقواعد شرعية مرعية في الحرب والسلم. ومهما كان حكمه عقيدياً في تلك المعتقدات، فهو مأمور بالتعايش معها، والتسامح والوفاء والحسنى في الأخذ والعطاء وإقرار حرية العبادة حتى من موقع التحكم والقوة، وإن كان يرى بطلانها وشططها وزيغها. فالقوة والمكنة لا تبيح له التسلط على الضمائر والإكراه في الدين. والإسلام ضمان لذلك، وليس للمسلم في غير الإسلام ضمان لدينه. فمن هنا يتولد شرط توقير الإسلام والسعي في ذلك بمختلف الوسائل.

وهذه الوثيقة التي تنشر بالعربية -لأول مرة حسب علمي- واحدة من الشواهد على ما قلتُه آنفاً. فهي عهد من محمد الفاتح لذميّي «غَلَطَه». وغلطه حي على الضفة الشمالية لخليج القرن الذهبي في مواجهة أسوار إسطنبول القديمة، على مرمى حجر منها. ويقوم بين ضفتيها جسر في الموقع معروف. وهي التي ذكرت باسم (غلاطية) في رسالة بولص الرسول في العهد الجديد -السفر الرابع- الإصحاح السادس عشر. وكانت حائزة على أهمية تجارية وعسكرية منذ عهد البيزنطيين. فقد سورها قسطنطين الأول (٣٢٤-٣٣٧م) بسور. وسماها ثيوبودرس الثاني (٣٧٩-٣٧٥م) بهذا الإسم نسبة إلى سكانها في أرجح الآراء. وقد أقام الجَنَويّون برجها الشاخص حتى اليوم في عهد تباروس (٥٧٨-٥٨٢م). وتناوب الجَنَويّون والبنادقة الهيمنة على تجارتها وأسواقها. وكانت بينها وبين العثمانيين اتفاقات لتسهيل شؤون التجارة قبل الفتح ومنذ سنة ١٣٨٧م. وتدل المصادر على أن الجَنَويّين أرادوا حماية مصالحهم بلزوم الحياد، وأظهروا هذه الإرادة إبان فتح إسطنبول سنة ٨٥٧هـ/١٤٥٣م. ومن أجلها ضمنوا عهد الأمان هذا من السلطان محمد الفاتح.

حول مضمون الوثيقة

ومن المفيد أن نقدم الوثيقة بملاحظات وجيزة تتعلق بشيء من شؤونها:

١-إنها وثيقة مهمة تبرز مباديء في القانون الدولي الإسلامي وحقوق الحرب. وتبرهن أيضاً على ثبات العمل بهذه المباديء والإلتزام بها على مرّ العصور. نقول ذلك استناداً إلى المقارنة بين نصوص هذا العهد وبين نصوص عهد الأمان لأهل إيلياء (القدس) التي أعطاها عمر بن الخطاب ﷺ. فمعاني كلا العهدين متماثلة إلى درجة إقتران نص بنص، مع تفاوت الزمان بينهما. فتاريخ الوثيقة العُمَرية في سنة ١٥ هـ، وتاريخ هذه الوثيقة في سنة ٨٥٧هـ. وبينهما ٨٤٢ سنة هجرية! لكن مبادئ القانون النافذة منذ فجر الإسلام إلى هذا التاريخ واحدة لم تتبدل، وملتزَم بها ومرعية، وليست سطوراً مسطورة في الكتب، بل واقعاً قائماً وحياة شاخصة. وأحسبها اليوم أيضاً جديرة بالإحياء بالتأمل في حاجة البشرية إلى الوجدان الصادق الذي تتولد من هذه المبادي.

٢-إنها وُقِّعَت في أحوال الحرب، والحرب تثير نوازع النفس إلى العدوان والتجاوز. فرعاية الحقوق والالتزام بالمبادئ أشق في هذه الأحوال. إذ إن القائد المنتصر في أوج الشباب وفي سنّه الثالث والعشرين، وعلى رأس جيش جرار من مائة ألف مقاتل شديد البأس صار أسطورة في التاريخ، واستحق هو وقائده مديح النبي ﷺ وبشارته، وأسقط أمنع مدينة في عالم ذلك الزمان بعد كفاح مرير دام أشهراً، فهو ينتظر عطاءات النصر الذي يدوّخ الرؤوس ويطيش بالعقول. وغلَطه أو (غلاطية) يسيرة المنال أمام هذا القائد وجيشه الذي قوض في حياته إمبراطوريتَين وأربع ممالك وإحدى عشرة إمارة ودوقية، وهي الضيعة الغنية بالأموال والأنفس. لكن القائد أمسك بزمام نفسه، ولم يهتز أمام الهوى والطمع، وآثر لزوم مبادئ الدين الحنيف الذي يأمر بالعدل والإحسان. فهذا العهد يكتسب قوة معنوية أعظم في الدلالة على خُلُق الإسلام وسماحته وعمقه في ضمير المسلمين.

٣- إنها كتبت بالرومية -وليس بالتركية- في أصلها. وقد ختم السلطان بختم توقيعه على أصلها الرومي تسكيناً لخواطر أهل «غَلَطه» الهائجة. فكأنهم لا يصدقون أن يعامَلوا بمثل هذا السماح والعدل في تلك الأهوال من الأحوال. فزادهم محمد الفاتح بالتوقيع على الأصل الرومي تطميناً لهم. ولذلك تجد في هذا العهد ألفاظاً من القسَم هي أقرب إلى ألفاظهم ومفاهيمهم للتغليظ عليه في اليمين. ولم يجد الفاتح بأساً فيها -مع فهمه للرومية في قولٍ- ما دام القصد تسكين خواطرهم.

وهذه ترجمة الوثيقة:

عهد إلى ذميّي «غَلَطَه» (١)

هذا عهد ذميي «غَلَطَه». أُعطي العهد لـــمّا فتح أبو الفتح السلطان محمد خان إسطنبول. كُتِب بالرومية وختمه السلطان بالطغراء.

أنا السلطان الكبير والشاه العظيم السلطان محمد خان بن السلطان مراد. أُقسم بالله خالقِ السموات والأرض، وبحقّ روحِ حضرةِ الرسول عليه الصلاة والسلام الطاهرة المنورة المطهرة، وبحق المصاحف السبع، وبحق روح جدي، وبحق روح أبي، وبحق حياتي، وبحق حياة أولادي، وبحق الســـيف الذي أتمنطقه، إذ يُرسل أهل «غَلَطَه» وناسُـــها مفتاحَ القلعة المذكورة طلباً للسلم، إلى عتبتِي العُليا، مع «بابلان براويزين» و«ماركيز ده فرانكو» وترجمانهم «نيكوروز بابوهو» معلنين الطاعة والانقياد لي، فإني:

١. قبلت أن يقيموا عباداتهم (طقوســـهم) وأركانهم على الوجه الجاري حسب الأسلوب القديم القائم في عاداتهم وطقوسهم، وأن لا أُهاجمهم لهدم وتخريب قلعتهم.

٢. وأَمَرتُ أن يُقرّ في أيديهم أموالُهم وأرزاقُهم وأملاكُهم ومخازنُهم وبساتينُهم وطواحينُهم وســـفنُهم وقواربُهم وعمومُ أمتعتهم ونساؤهم وأولادُهم وعبيدُهم وإماؤهم، ولا أتعرّض إلى شيء، ولا أُكرِهُهُم على شيءٍ في ذلك.

٣. وعليهم أن يعملوا، ولهم أن يســـافروا برّاً وبحراً مثلما في سائر ممالكي، فلا يَمنَعهم أو يزاحمهم أحد، وأن يُؤَمّنوا ويَسْلَموا.

٤. وأنْ أَضـــع عليهم الخـــراج يؤدونه عاماً بعد عام مثل غيرهـــم. وأن أرعاهم بنظري الشريف فأحميهم مثل ممالكي الأخرى.

٥. وأن تكون كنائسهم مُلكَ أيديهم ويقرأوا حسب طقوسهم، ولكن لا يَدُقّوا جرساً أو ناقوساً، وألاّ أستولي على كنيسةٍ لهم لأجعلها مسجداً، وهم لا يبنون كنيسةً جديدة.

٦. وأن يُقبِـــل أو يغادر تجارٌ جَنَوة بحراً وبرّاً، ويدفعوا جُمركهم على العادة الجارية، ولا يعتدي عليهم أحدٌ.

٧. وأمرت ألا يُشـــغّل دُورهم صقّارٌ أو خادم، وأن يَســـلَم ويُعفى أهلُ القلعة المذكورة وتجارها من عملِ السخرة.(٢)

ليعلموا على هذا الوجه ويعتمدوا علامتِي الشريفة.

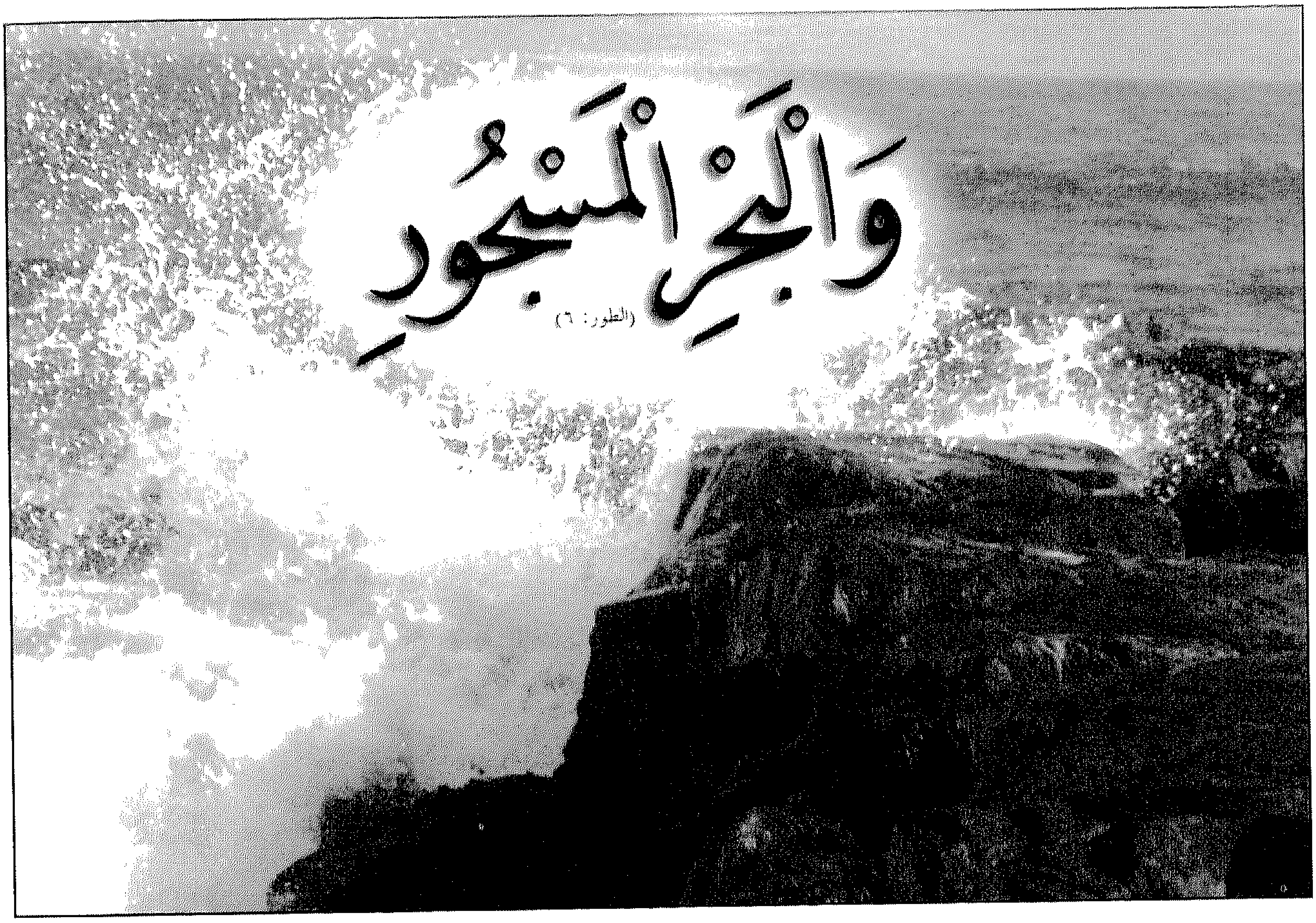
تحريراً في أواخر جمادى الأولى سنة سبع وخمسين وثمانمائة.

(*) كاتب وباحث تركي.

الهوامش:

(١) متون القوانين العثمانية وحكم الشرع فيها، أحمد آق كندوز، ١/٤٧٨.

(٢) الصقـــارون: صنف من الجيش العثماني. والمقصود بالخادم أو العبد في المصطلحات العثمانية: الموظف المكلف بخدمات الدولة في درجات الوظائف كافة مدنية وعســـكرية. وعمل السخرة من الأعمال المفروضة لإنجاز بعضِ المصالح العامة للدولة من غير أجر، كضريبة مالية مقررة لغرض سد احتياجات الدولة والجيش، وتخفيفاً للعبء المالي عن كاهل الرعية في البلاد المفتوحة، وبدلاً عنها.



وَالْبَحْرِ الْمَسْجُورِ

(الطور: ٦)

أ.د. زغلول النجار *

من المعاني اللغوية للبحر المسجور هو المملوء بالماء، والمكفوف عن اليابسة، وهو معنى صحيح من الناحية العلمية صحة كاملة كما أثبتته الدراسات العلمية في القرن العشرين. ومن المعاني اللغوية لهذا القَسَم القرآني المبهر أيضا أن البحر قد أوقد عليه حتى حمي قاعه فأصبح مسجورا، وهو كذلك من الحقائق العلمية التي اكتشفها الإنسان في العقود المتأخرة من القرن العشرين، والتي لم يكن لبشر إلمام بها قبل ذلك أبدا، وهذا ما نفصّله في الأسطر التالية:

البحر المسجور: المملوء بالماء والمكفوف عن اليابسة

الأرض هي أغنى كواكب المجموعة الشمسية بالماء الذي تقدر كميته بحوالي ١٣٦٠ إلى ١٣٨٥ مليون مليون كيلو متر مكعب، وهذا الماء قد أخرجه ربنا ﷻ كله من داخل الأرض على هيئة بخار ماء اندفع من فوهات البراكين، وعبر صدوع الأرض العميقة ليصادف الطبقات العليا الباردة من نطاق التغيّرات الجوية والذي يمتد من سطح البحر إلى ارتفاع حوالي ستة عشر كيلو مترا فوق خط الاستواء، وحوالي العشرة كيلو مترات فوق قطبي الأرض، وتنخفض درجة الحرارة في هذا النطاق باستمرار مع الارتفاع حتى تصل إلى ستين درجة مئويّة تحت الصفر في قمته.

وهذا النطاق يحوي حوالي ثلثَي كتلة الغلاف الغازيّ للأرض والمقدرة بأكثر قليلا من خمسة آلاف مليون مليون طن، وهو النطاق الذي يتكثف فيه بخار الماء الصاعد من الأرض، والذي تتكون فيه السحب، وينزل منه كلّ من المطر والبرد والثلج، وتتم فيه ظواهر الرعد والبرق، وتتكون العواصف والدوامات الهوائية وغير ذلك من الظواهر الجوّية. ولولا تبرد هذا النطاق مع الارتفاع ما عاد إلينا بخار الماء الصاعد من الأرض أبدا. وحينما عاد إلينا بخار الماء مطرا وثلجا وبردا، انحدر على سطح الأرض ليشقّ له عددا من المجاري المائية، ثم فاض إلى منخفضات الأرض الواسعة ليكوّن البحار والمحيطات. وبتكرار عملية التبخر من أسطح تلك البحار والمحيطات ومن أسطح اليابسة بما عليها من مختلف صور التجمّعات المائية والكائنات الحية بَدَأت دورة المياه حول الأرض، من أجل التنقية المستمرة لهذا الماء وتلطيف الجوّ وتفتيت الصخور وتسوية سطح الأرض وتكوين التربة وتركيز عدد من الثروات المعدنية، وغير ذلك

من المهام التي أوكلها الخالـــق لتلك الدورة المعجزة التي تحمل ٣٨٠,٠٠٠ كيلو متر مكعب من ماء الأرض إلى غلافها الجوي سنويا، لتردها إلى الأرض ماءً طهورا؛ منها ٣٢٠,٠٠٠ كيلو متر مكعب تتبخر من أسطح البحار والمحيطات، و ٦٠,٠٠٠ كيلو متر مكعب من أســطح اليابسة؛ يعود منها ٢٨٤,٠٠٠ كيلو متر مكعب إلى البحار والمحيطات، ٩٦,٠٠٠ كيلو متر مكعب إلى اليابسة التي يفيض منها ٣٦,٠٠٠ كيلو متر مكعب من المـــاء إلى البحار والمحيطات، وهو نفس مقدار الفارق بين البخار والمطر من وإلى البحار والمحيطات.

هذه الدورة المحكمة للميـــاه حول الأرض أدّت إلى خزن أغلب ماء الأرض في بحارها ومحيطاتها حوالي ٩٧,٢٪، وإبقاء أقله على اليابســـة حوالي ٢,٨٪. وبهذه الـــدورة للماء حول الأرض ملحت ماء البحار والمحيطات، وبقيت نســـبة ضئيلة على هيئة ماء عذب على اليابســـة (٢,٨٪ من مجموع كم الماء على الأرض)؛ وحتى هذه النسبة الضئيلة من ماء الأرض العذب قد حبس أغلبها (من ٢,٠٥٢٪ إلى ٢,١٥٪) على هيئة سُمك هائل من الجليد فوق قطبَـــي الأرض وفي قمم الجبال، والباقي مختزَن في الطبقات المسامية والمنفذة من صخور القشرة الأرضية على هيئة ماء تحت سطحي (حوالي ٠,٢٧٪ إلى ٠,٥٪)، وفي بحيرات الماء العـــذب (حوالي ٠,٣٣٪)، وعلى هيئة رطوبة في تربة الأرض (مـــن٠,٠١٪ إلى ٠,١٨٪)، ورطوبة في الغلاف الغازي للأرض تتراوح بين (٠,٠٠٠١٪ إلى ٠,٠٣٦٪)، وما يجري في الأنهار والجداول (حوالي ٠,٠٠٤٧٪).

وتوزيع ماء الأرض بهذه النســـب الـــتي اقتضتها حكمة الله الخالق قد تم بدقـــة بالغة بين البيئات المختلفـــة بالقدر الكافي لمتطلبات الحياة في كل بيئة من تلك البيئات، وبالأقدار الموزونة التي لو اختلّت قليـــلا بزيادة أو نقص لغمرت الأرض وغطت ســـطحها بالكامل، أو انحسرت تاركة مســـاحات هائلة من اليابسة، ولقصرت دون متطلبات الحياة عليها.

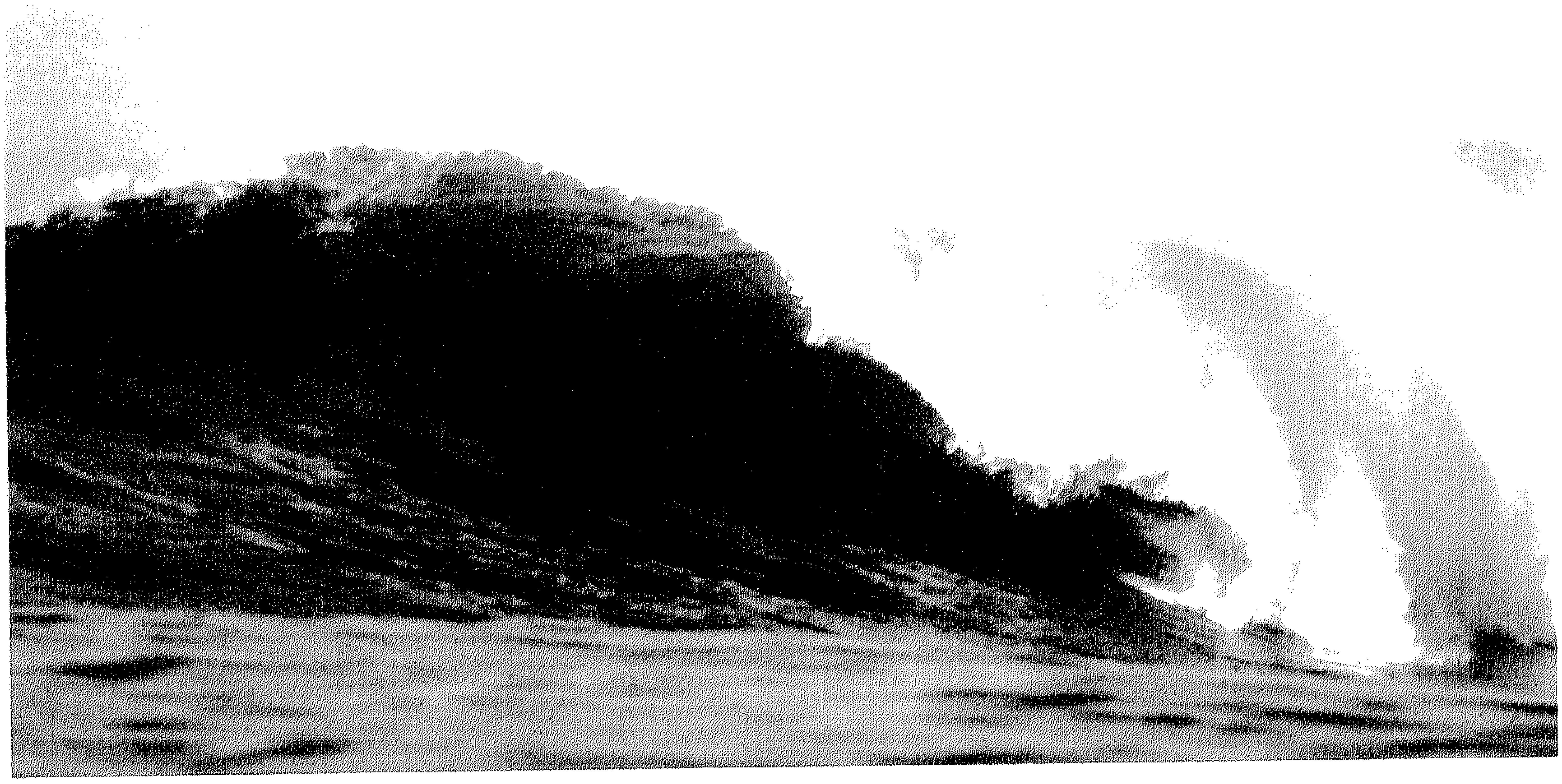
ومن هذا القبيل يحسب العلماء أن الجليد المتجمّع فوق قطبَي الأرض وفي قمم الجبال المرتفعة فوق سطحها إذا انصهر (وهذا لا يحتـــاج إلا إلى مجرّد الارتفـــاع في درجة حرارة صيف تلك المناطق بحوالي خمس درجات مئوية) فإنّ كم الماء الناتج سوف يؤدي إلى رفع منسوب المياه في البحار والمحيطات إلى أكثر من مائة متر فيغرق أغلب المناطق الآهلة بالســـكان والممتدة حول شواطئ البحار والمحيطات. وليس هذا من قبيل الخيال العلمي، فقد مرت بـــالأرض فترات كانت مياه البحار فيها أكثر غمرا لليابســـة من حدود شواطئها الحالية، كما مرت فترات أخرى كان منســـوب الماء في البحار والمحيطـــات أكثر انخفاضا من منســـوبها الحالي مما أدى إلى انحسار مساحة البحار والمحيطات وزيادة مساحة اليابســـة. والضابط في الحالين كان كمّ الجليد المتجمع فوق اليابســـة، فكلما زاد كمّ الجليد انخفض منسوب الماء في البحار والمحيطات فانحســـرت عن اليابســـة التي تزيد مساحتها زيادة ملحوظة، وكلما قلّ كمّ الجليد ارتفع منسوب المياه في البحار والمحيطات وطغت على اليابســـة التي تتضاءل مساحتها تضاؤلا ملحوظا.

من هنا كان تفسير القَسَـــم القرآني بـــ«البحر المسجور» بـــأن الله تعالى يمن علينا -وهو صاحب الفضل والمنة- بأنه ملأ منخفضات الأرض بماء البحار والمحيطات، وحَجز هذا الماء عن مزيد من الطغيان على اليابسة منذ خلق الإنسان، وذلك بحبس كمّيـــات من هذا الماء في هيئات متعددة أهمها ذلك الســـمك الهائل من الجليد المتجمع فوق قطبي الأرض وعلى قمم الجبال، والذي يصل إلى أربعـــة كيلومترات في قطب الأرض الجنوبي، وإلى ثلاثة آلاف وثمانمائة من الأمتار في القطب الشمالي، ولولا ذلك لغطّى ماء الأرض أغلب ســـطحها، ولَما بقيت مساحة كافية من اليابســـة للحياة بمختلف أشكالها الإنسانية والحيوانية والنباتية وهي إحدى آيات الله البالغة في الأرض، وفي إعدادها لكي تكون صالحة للعمران.

من هنا كان تفسير القَسَم بـــ«البحر المسجور» بمعنى المملوء بالماء المكفوف عن اليابســـة ينطبق مع عدد من الحقائق العلمية الثابتة التي تشـــهد للقرآن الكريم بأنه كلام الله الخالق، وتشهد لسيدنا محمد بن عبد الله ﷺ بالنبوة وبالرسالة.

البحر المسجور: القائم على قاع أحمته الصهارة الصخرية المندفعة من داخل الأرض

في العقود المتأخرة من القرن العشرين تم اكتشاف حقيقة تمزق الغلاف الصخري للأرض بشبكة هائلة من الصدوع العملاقة المزدوجة والتي تكون فيما بينها ما يعرف باسم أودية الخسف أو الأغـــوار، وأن هذه الأغوار العميقـــة تحيط بالكرة الأرضية إحاطة كاملة، ويُشـــبّهها العلماء باللحام على كرة التنس (مع فارق التشبيه)، وتمتد هذه الأغوار في كافة الاتجاهات لعشرات الآلاف من الكيلو مترات، ولكنها تنتشـــر أكثر ما تنتشـــر في قيعان محيطـــات الأرض، وفي قيعان عدد من بحارها، ويتراوح عمق الصدوع المشكلة لتلك الأغوار بين ٦٥ كيلومترا، و ٧٠



كيلومترا تحت قيعان البحـار والمحيطات، وبين ١٠٠ و ١٥٠ كيلومترا على اليابسة (أي في صخور القارات)، وتعمل على تمزيق الغلاف الصخري للأرض بالكامل، وتقطيعه إلى عدد من الألواح الصخرية التي تطفو فوق نطاق من الصخور شبه المنصهرة يسمّيه العلماء باسم نطاق الضعف الأرضي، وهو نطـاق لَدن، عالي الكثافة واللزوجـة، تتحرك بداخله تيارات الحمل من أسفل إلى أعلى حيث تتـبرد وتعاود النـزول إلى أسـفل، وهي بتلك الحركة الدائبة تدفع بكل لوح من ألواح الغلاف الصخري للأرض إلى التباعـد عن اللوح المجاور في أحد جوانبه (في ظاهرة تسـمي ظاهرة اتسـاع قيعان البحار والمحيطات)، ومصطدمـا في الجانب المقابل باللوح الصخري المجاور ليكون سلسلة من السلاسـل الجبلية، ومنـزلقا عن الألواح المجاورة في الجانبين الآخرين.

وباسـتمرار تحرك ألواح الغلاف الصخري للأرض تتّسـع قيعان البحار والمحيطات باسـتمرار عند خطوط التباعد بينها، وتندفع الصهـارة الصخرية بملايين الأطنان في درجات حرارة تتعدى الألف درجة مئوية لتسـاعد علـى دفع جانبي المحيط يمنة ويسرة، وتملأ المسافات الناتجة بالصهارة الصخرية المندفعة من باطن الأرض على هيئة ثورات بركانية عارمة، تحت الماء، تسجر قيعان جميع محيطات الأرض، وقيعان أعداد من بحارها، وتجدد مادتها الصخرية باستمرار.

وقد أدى هذا النشـاط البركاني فوق قيعان كل المحيطات، وفوق قيعان عدد من البحار النشـطة إلى تكون سلاسـل من الجبال في أواسـط المحيطات تتكون في غالبيتها من الصخور البركانية، وقد ترتفع قممها في بعض الأماكن على هيئة أعداد من الجزر البركانية من مثل جزر كل من أندونيسـيا، ماليزيا، الفلبين، اليابـان، هاواي، وغيرها.. وفي المقابل تصطدم ألواح الغلاف الصخري عند حدودها المقابلة لمناطق اتسـاع قيعان البحـار والمحيطات، ويؤدي هذا التصـادم إلى اندفاع قيعان المحيطات تحت كتَـل القارات وانصهارها بالتدريج مما يؤدي إلى تكون جيوب عميقة عند التقاء قاع المحيط بالكتلة القارية تتجمع فيها كميـات هائلة من الصخور الرسـوبية والنارية والمتحولة التي تطوى وتتكسر لترتفع على هيئة السلاسل الجبلية على حوافّ القارات من مثل سلسـلة جبال الإنديز في غربي أمريكا الجنوبية، وهنا يسـتهلك قـاع المحيط بالتدريج تحت الكتلة القارية، وإذا توقفت عملية توسـع قاع المحيط فإن هذا القاع قد يسـتهلك بأكمله تحت القـارة مما يؤدي إلى تصادم قارتين ببعضهما. وينشأ عن هذا التصادم أعلى السلاسل الجبلية من مثل جبـال الهيمالايا التي نتجَتْ عن اصطدام الهند بالقارة الأسيوية بعد اسـتهلاك قاع المحيط الذي كان يفصل بينهما بالكامل في أزمنة أرضية سحيقة.

ويصاحب كلاً من عمليتَي توسـع قـاع المحيط في محوره الوسَـطي، واصطدامه عند أطرافه عددٌ من الهزّات الأرضية، والثورات والطفوح البركانية.

ويبلغ طول جبال أواسـط المحيطات أكثر من أربعة وستين ألفًا من الكيلومترات في الطول، بينما يبلغ طول الصدوع العميقة التي اندفعت منها الطفوح البركانية لتكون تلك السلاسل الجبلية في أواسط المحيطات أضعاف هذا الرقم. وتتكون هذه السلاسل

أساســا من الصخور البركانية المختلطة بالقليل من الرسوبيات البحرية، وتحيط كل سلسلة من هذه السلاسل المندفعة من قاع المحيط بواد خسيف (غور) مكوّن بفعل الصدوع العملاقة التي تمزق الغلاف الصخريّ للأرض بعمق يتراوح بين خمسة وستين كيلو مترا وسبعين كيلو مترا ليخترق الغلاف الصخري للأرض بالكامــل ويصل إلى نطاق الضعف الأرضــي الذي تندفع منه الصهارة الصخرية بملايين الأطنان في درجة حرارة تزيد عن ألف درجة مئوية لتسجر قيعانَ كل محيطات الأرض، وقيعانَ عدد من بحارها النشطة باستمرار.

وهذه الصــدوع العملاقة التي تمزق قيعــان كل محيطات الأرض، وقيعــان عدد من بحارها (مثــل البحر الأحمر) توجد أيضا على اليابســة، ولكن بنسب أقل منها فوق قيعان البحار والمحيطــات. وتعمل على تكوين عدد مــن الأغوار (الأودية الخسيفة) والبحار الطولية (من مثل أغوار شرقي أفريقيا والبحر الأحمر) التي تعمل على تفتيت الكتل القارية باتساعها التدريجي لتتحول تلك البحار الطولية مثــل البحر الأحمر إلى بحار أكبر ثم إلى محيطــات تفصل بين الكتلة القاريــة التي كانت متصلة على هيئة قارة واحدة. وتحاط تلك الخســوف القارية العملاقة بعدد من القمم البركانية الســامقة من مثل جبل «أرارات» في شــرقي تركيا، ومخروط بركان «إتنا» في شمال شرقي صقلية، ومخروط بركان «فيزوف» في خليــج نابولي بإيطاليا، وجبل «كيليمنجارو» في تنجانيقا (٥٩٠٠ متر)، وجبل «كينيا» في جمهورية كينيا.

بذلك ثبت لكل من علماء الأرض والبحار -بالأدلة المادية الملموســة- أن كل محيطات الأرض (بمــا في ذلك المحيطان المتجمدان الشــمالي والجنوبي)، وأن أعــدادا من بحارها (من مثل البحر الأحمر)، قيعانها مسجرة بالصهارة الصخرية المندفعة بملايين الأطنان من داخل الأرض عبر شبكة الصدوع العملاقة التي تمزق الغلاف الصخري للأرض بالكامل وتصل إلى نطاق الضعف الأرضي، وتتركز هذه الشــبكة من الصدوع العملاقة أساســا في قيعان البحار والمحيطــات، وأن كمّ المياه في تلك الأحــواض العملاقة -على ضخامته- لا يســتطيع أن يطفيء جذوة الصهــارة الصخرية المندفعة مــن داخل الأرض إطفاء كامــلا، وأن هذه الجذوة على شــدة حرارتها (أكثر من ألف درجة مئوية) لا تســتطيع أن تبخر هذا الماء بالكامل، وأن هذا الاتزان الدقيق بين الأضداد من الماء والحرارة العالية هو من أكثر ظواهر الأرض إبهارا للعلماء في زماننا، وهي حقيقة لم يتمكن الإنسان من اكتشافها إلا في أواخر الستينات وأوائل السبعينات من القرن العشرين.

ومن الغريب أن رســول الله ﷺ -هذا النبي الأمي الذي لم يركب البحر في حياته الشريفة مرة واحدة، فضلا عن الغوص إلى أعماق البحار- قال في حديث شريف: «لا يَركب البحر إلا حاج أو معتمر أو غاز في ســبيل الله، فإنّ تحتَ البحر نارا، وتحت النار بحرا» (سنن أبي داود). وجاء الحديث في مصنف ابن أبي شيبة بالنص التالي: «إن تحت البحر نارا، ثم ماء، ثم نارا».

ويعجب الإنسان المتبصر لهذا السبق في كل من القرآن الكريم والأحاديث النبوية الشــريفة بالإشــارة إلى حقيقة من حقائق الأرض التي لم يتوصل الإنسان إلى إدراكها إلا في نهايات القرن العشرين. هذا السبق الذي لا يمكن لعاقل أن يتصور له مصدرا غير الله الخالــق الذي أنزل هذا القرآن الكريم بعلمه على خاتم أنبيائه ورســله، وعلّم هذا النبي الخاتم والرسول الخاتم ﷺ من حقائق هــذا الكون ما لم يكن لأحد من الخلــق إلمام به قبل العقــود الثلاثة المتأخرة من القرن العشــرين، لكي تبقى هذه الومضات النورانية في كتاب الله، وفي سنة رسوله ﷺ شهادات مادية ملموسة على أن القرآن الكريم هو كلام الله الخالق الذي حفظه ﷻ على مدى أربعة عشر قرنا أو يزيد، وإلى قيام الساعة بنفــس لغة الوحي (اللغة العربية) كلمة كلمة، وحرفا حرفا في صفائه الرباني، وإشراقاته النورانية، دون أدنى تغيير أو تبديل أو تحريف، وأن هذا النبي الخاتم والرسول الخاتم عليه أفضل الصلاة وأزكى التســليم كان موصولا بالوحي ومعلّما من قِبَل خالق السماوات والأرض.

فســبحان الذي أنزل في محكم كتابــه من قَبْل ١٤٠٠ من الســنين هذا القسَــم القرآني بــ«البحر المسجور»؛ وسبحان الذي علم خاتم أنبيائه ورسله بهذه الحقيقة فقال قولته الصادقة: «إن تحت البحر نارا، وتحت النار بحرا»؛ وســبحان الذي أكد على صدق القرآن الكريم، وعلــى صدق هذا النبي الخاتم ﷺ في كل مــا رواه عن ربه، فأنزل في محكــم كتابه قوله الحق: ﴿سَــنُرِيهِمْ آيَاتِنَا فِي الآفَاقِ وَفِي أَنفُســهِمْ حَتَّى يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ الْحَقُّ أَوَلَمْ يَكْفِ بِرَبِّكَ أَنَّهُ عَلَى كُلِّ شَــيْءٍ شَــهِيدٌ﴾ (فُصِّلَت: ٥٣).

(*) أستاذ علم الأرض – مصر.

الإنسان محور التنمية

في المنهج القرآني

أ.د. محمد بن موسى باباعمي *

أوّل ما يتبادر إلى ذهن الباحث وهو يعيد النظر في «مناهج التنمية في القرآن الكريم»، أهمية الموضوع وخطورته، ثم شموليته لجوانب الحياة جميعها، ولتخصصات العلوم دون استثناء، من جهة؛ وهو من جهة أخرى موضوع دقيق ومركّز؛ وبخاصة إنّه يتناول «الشكل والمنهج» لا «الموضوع والمحتوى»، وبالذات في القرآن الكريم، دون غيره من مصادر التشريع الإسلامي، مثل السنة والإجماع.

الإسلام والتنمية

ولسائل أن يسأل: «ما الحكمة من كون مناهج التنمية في القرآن الكريم ومفاهيمها الأساسية وصيغها وأسباب انعدامها وكلّ المحاور المرتبطة بها، غيرَ مبينة في سورة واحدة، أو تحت عنوان واحد، بل هي مبثوثة في كامل القرآن الكريم، بصيغ مختلفة، وصور متباينة؟».

لا شكّ أنّ القرآن الكريم كتاب «حياة»، وليس من طبيعة الحياة التجزؤ ولا الانحياز، فالحديث عن التنمية حديث عن جوانب «الحياة» كلها. التربوية منها والاقتصادية والفكرية والاجتماعية والسياسية. ومجرّد حشر التنمية تحت عنوان واحد أو سورة واحدة خروج عن المنهج الأمثل في التعامل مع هذا الموضوع الخطير.

وبالتالي، فإنّ «شمولية التنمية وتكاملها» هي أبرز سمة من سمات التنمية في القرآن الكريم. فمنهج معالجتها ينبغي أن يكون بالتبع منهجا شموليا متكاملا، ولا يفهم من هذا -بالطبع- أن يغرّق الموضوع في عموميات لا نهاية لها، ولا أن ينظر إليه على أنه مرادف لكلّ المواضيع؛ يأخذ منها ويرجع إليها، حتى وإن كانت بعيدة؛ ذلك أنّ مثل هذا التعميم كفيل بتضييع المنهج والمبنى، وإفساد المقصد والمعنى.

والقرآن في عرضه لمختلف مجالات التنمية وأنواعها «دقيق» كلّ الدقّة، «واضح» غاية الوضوح، لا لبس فيه ولا إبهام، فمن ذلك مثلا قوله تعالى، في الحديث عن التنمية الزراعية: ﴿وَآيَةٌ لَّهُمُ الأَرْضُ الْمَيْتَةُ أَحْيَيْنَاهَا وَأَخْرَجْنَا مِنْهَا حَبًّا فَمِنْهُ يَأْكُلُونَ ۞ وَجَعَلْنَا فِيهَا جَنَّاتٍ مِّن نَّخِيلٍ وَأَعْنَابٍ وَفَجَّرْنَا فِيهَا مِنَ الْعُيُونِ ۞ لِيَأْكُلُوا مِن ثَمَرِهِ وَمَا عَمِلَتْهُ أَيْدِيهِمْ أَفَلَا يَشْكُرُونَ﴾ (يس: ٣٣-٣٥) فالآية أبرزت حدود عمل الله تعالى، ولم تُلغ عمل الإنسان وجهده وعلمه، شأنَ بعض الفهوم الخاطئة لسنن الكون؛ ذلك أنّ نتاج الإنسان من أسباب الازدهار المنشود، وأنّ عملَه من مقدّمات التنمية الحقّة؛ فقوله تعالى: ﴿وَمَا عَمِلَتْهُ أَيْدِيهِمْ﴾، أي ليأكلوا مما عملت أيديهم وهو الغروس والحروث التي تعبوا فيها.

ثم إنّ «الشكر» كذلك سبب من الأسباب ومقدّمة من المقدّمات، وبالتالي؛ فإنّ الشطر الأول -أي العلم والعمل- مفهوم وواضح لدى كلّ الشعوب والمجتمعات، حتى وإن كانت كافرة أو ملحدة، أمّا الشطر الثاني فيحمل إضافة بارزة وبديعة، ألا وهي: «شكر النعمة»، وهنا يتضح الفرق الجوهري بين المنهج القرآني والمناهج الفكرية الأخرى.

قال تعالى: ﴿وَإِذْ تَأَذَّنَ رَبُّكُمْ لَئِن شَكَرْتُمْ لَأَزِيدَنَّكُمْ وَلَئِن كَفَرْتُمْ إِنَّ عَذَابِي لَشَدِيدٌ﴾ (ابراهيم:٧) وقال: ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّا خَلَقْنَا لَهُم مِّمَّا عَمِلَتْ أَيْدِينَا أَنْعَامًا فَهُمْ لَهَا مَالِكُونَ ۞ وَذَلَّلْنَاهَا لَهُمْ فَمِنْهَا رَكُوبُهُمْ وَمِنْهَا يَأْكُلُونَ ۞ وَلَهُمْ فِيهَا مَنَافِعُ وَمَشَارِبُ أَفَلَا يَشْكُرُونَ﴾ (يس:٧١-٧٣). وما غاص باحث في آية من آيات التنمية في القرآن الكريم إلاّ وبهرته هذه «الدقة» وذلكم «الوضوح»، فهذه سمة ثانية من سمات منهج القرآن في معالجته لموضوع التنمية.

من هنا نسجّل أنّ أبرز السمات في المنهج القرآني للتنمية أربعة، هي: «الشمولية» و«التكامل» و«الدقة» و«الوضوح».

و«التنميـــة» من مدخلها الاقتصـــادي مرحلة متطوّرة تأتي بعد مرحلة النمو الاقتصادي، الذي يعني ارتفاع النســـبة المئوية للإنتاج العام مقاســـاً بالأســـعار الثابتة، أي الارتفاع الحقيقي للدخل القومي. إذن يمكن للبلد الذي يعتمد اقتصاده على إنتاج وتصدير النفط والغاز والفحم والقهوة أو الحديد، أن يحقق نمواً اقتصادياً عن طريق رفع إنتاج هذه المواد (طبعاً شـــريطة أن لا تنخفض أسعار هذه المواد في الأسواق العالمية). لكنَّ هذا النموَّ السريع، وغير الثابت لا يؤدّي بالضرورة إلى التنمية الاقتصادية، التي تعرَّف من خلال ثـــلاث مصطلحات: «الخطّة، والدخل القومي الحقيقي، والأجَل الطويل».

فـ«التنمية الاقتصادية» لا ينبغـــي أن تُفهم على أنها تغيّر كماليّ ســـطحي مرحليّ عابرٌ يقتصر علـــى عنصر معين من عناصر التنمية، إنما هي «خطّة» معقدة ومتشـــابكة تستهدف تغييرا جوهريا في البنيان الاقتصادي، يمتد ليمسَّ كافة العلاقات الاقتصادية، ويســـفر عن رفع معدل الإنتاجيـــة بقدر كفاءة استخدام الموارد القومية والعالمية والمستوى التكنولوجي المتاح.

عناصر التنمية في القرآن الكريم

يصعب حصر جميع عناصر التنمية الواردة في القرآن الكريم، لكنَّ عملية مسحية أولية تُبرز لنا عددا منها، ولعلّها هي الأهم، وهي على التوالي: رأس المـــال، والثروات الطبيعية والآلية (أو التكنولوجيا كما تعرف اليوم) والإنســـان والشـــكر والوقت والغيب والإدارة والتخطيط والعلم والعمل وتوجيه الطاقة.

لا شكَّ أننا لو حاولنا تصنيف هذه العناصر تصنيفا منهجيا، فسنجد أنها تنقسم إلى محاور ثلاثة هي:

الموارد: وتتمثل في رأس المال، والثروات الطبيعية، والوقت.

الغيب: ويتمثل في مشيئة الله تعالى وقدرته، وفي شكر نعمه.

الإنســـان: ويندرج ضمنه كلٌّ مـــن الإدارة، والتخطيط، والعلم، والعمل، وتوجيه الطاقة.

نركّز هنا على «محورية الإنســـان في التنمية، بناء على المنهج القرآني»، وسننطلق من نماذج بلغت الذروة في التنمية، ونستنبط منها هذه العناصر، حســـب السياق، مع مراعاة أصول التفسير وقواعده. وبنفس الطريقة يمكن أن يتم التعامل مع نماذج أخرى: والعناصر هي كالآتي:



عناصر التنمية في قصة ذي القرنين

في قصـــة ذي القرنين التي جاءت مفصَّلة في أواخر ســـورة الكهف، نجد عناصر التنمية الأساسية واردة بصيغ مختلفة، وهي من أفضل النماذج التي تلج بنا إلى هذا الموضوع. فمن ذلك أنَّ ذا القرنين لما بلَغ ﴿بَيْنَ السَّدَّيْنِ﴾ (الكهف: ٩٣) أي بين الجبلين، وجد قومًا ﴿لاَ يَكَادُونَ يَفْقَهُونَ قَوْلاً﴾ (الكهف: ٩٣) وهو الذي مكّن الله تعالى له، وآتاه من كلِّ شيء سببا.

وهنـــا نلاحظ التقابل بين قوم ينتمـــون إلى مجتمع غير نام، ورجل عظيم جـــاء من محيط نام، فالقـــوم متصفون بصفات الضعف والوهـــن، والتخلف والجهل، ولم يقـــدروا على ردّ يأجوج ومأجوج الذين تســـلّطوا عليهم وأفسدوا أرضهم. أمّا ذو القرنين فقد بلغ ذروة التنمية، فمكّن الله تعالى له في الأرض، وآتاه من كلِّ شـــيء سببا، أي «سلطانا وطيد الدعائم، ويسّر له أسباب الحكم والفتح، وأســـباب البناء والعمران، وأسباب الســـلطان والمتاع... وسائر ما من شأن البشر أن يمكّنوا فيه في هذه الحياة».

﴿ثُمَّ أَتْبَعَ سَبَبًا﴾ (الكهف: ٨٥) أي سخّر ما وُهب له من النعم في خدمـــة غايته وهدفه، ولم يضيع ذلك هباء. ومن المؤكد في

علم الإدارة أنّ توجيه الطاقة وضبط الغاية وتحديد الأهداف هي أهمُّ مراحل التخطيط والتخطيط الاستراتيجي، من أجل تنمية مستدامة وشاملة.

والملفت للنظر أنّ هؤلاء القوم كانوا يملكون المال، والدليل على ذلك قولهم ﴿فَهَلْ نَجْعَلُ لَكَ خَرْجًا﴾ (الكهف: ٩٤)، وكانوا يملكون اليد العاملة، لذلك أمرهم ذو القرنين بقوله ﴿فَأَعِينُونِي بِقُوَّةٍ﴾ (الكهف: ٩٥)، ثم قال لهم أوان بناء السد ﴿آتُونِي زُبَرَ الْحَدِيدِ﴾ (الكهف: ٩٦)، ثم قال ﴿انْفُخُوا﴾ (الكهف: ٩٦)، ثم قال ﴿آتُونِي أُفْرِغْ عَلَيْهِ قِطْرًا﴾ (الكهف: ٩٦). غير أنّهم يفتقرون إلى أهمّ أسباب التنمية على الإطلاق؛ يفتقرون إلى تمكين الله تعالى وإلى العلم والتكنولوجيا والتخطيط وإلى وضوح الغاية والأهداف.

وقراءة أولية لواقع المسلمين اليوم، وتخلفهم عن سُلّم الحضارة، وواقع الغرب وتمكنه، تجعلنا نفهم هذه الآيات فهما عميقا، وتُجلّي لنا المنهجَ القرآني في بناء تنمية شاملة، أساسها الإنسان الكفء والفعال، حتى وإن كان غير مالك للمادة والوسائل.

وهذا ما نقرؤه في المقارنة التي عقدها ذو القرنين بين «رأس المال المعبّر عنه بالخرج» وبين «التمكين»، فقال: ﴿مَا مَكَّنِّي فِيهِ رَبِّي خَيْرٌ﴾ (الكهف:٩٥). فرغم اختيار بعض المفسّرين أنّ هذا التمكين يقصد به المال واليسار إلاّ أنّ الصواب -والله أعلم- في توجيه معنى التمكين هو تقديمه للروح الإيمانية، والقدرة العلمية، وكذا التمكين التكنولوجي.

إذن، فـ«الإنسان» بكلّ أبعاده هو محور التنمية في هذه الآيات.

عناصر التنمية في قصة سليمان عليه السلام

لقد بلغ سليمان عليه السلام من التطور الحضاري، والتنمية في جميع المجالات، مبلغا لم يرْتقِ إليه أحد قبله، ولن يرتقي إليه أحد بعده؛ وما ذلك إلاّ للعلم الذي آتاه الله تعالى، وامتنّ به عليه، حتى برَّ أباه، قال تعالى: ﴿فَفَهَّمْنَاهَا سُلَيْمَانَ وَكُلًّا آتَيْنَا حُكْمًا وَعِلْمًا﴾ (الأنبياء: ٧٩)، وقال: ﴿وَوَرِثَ سُلَيْمَانُ دَاوُودَ وَقَالَ يَا أَيُّهَا النَّاسُ عُلِّمْنَا مَنْطِقَ الطَّيْرِ وَأُوتِينَا مِنْ كُلِّ شَيْءٍ﴾ (النمل: ١٦).

ولقد برز سليمان عليه السلام في مجالات العلم والمعرفة، مثل السرعة، وفهم لغة الطير، والقتال والحرب، وفنون الإدارة، والحوار والجدل، والسياسة، والعفو والصفح، والعدل والحكم... أي في كلّ ما من شأنه أن يصنع حضارة مثالية شاملة متكاملة الجوانب، تفوق واقع الدول المتطورة اليوم بأشواط؛ ذلك أنّها تملك التقنية والآلية، وتفتقر إلى العدل والروح والشكر والأخلاق، وتعدم القيم الحضارية غير المادية.



فالغرب يبني أسس تنميته على العلم وحده، ويعتقد أنّ «من يملك العلم يملك القرار، هذا هو المستقبل، ومن تنقصه المعرفة تنقصه القدرة على اتخاذ القرار». أمّا من حيث افتقاد الغرب للأسس القيمية فيقول المفكر مهاتير محمد: «وحسب تقييمنا، فإنّ أية دولة لا تصبح دولة متقدّمة إذا كانت غنية، ولديها التكنولوجيا، ولكن تنقصها القيم الأخلاقية. وهناك مجتمعات غربية كثيرة على سبيل المثال متفسخة أخلاقيا».

لكن المؤسف من جهة أخرى، أنّ الدول الإسلامية تفتقر إلى جميع القيم الحضارية التي تعلي من شأن الإنسان، وهذه الأمم تناقض دينها وتسير في غير هدى؛ فلا هي تمتلك التكنولوجيا والعلم، ولا هي تتحكم في الأبعاد الإيمانية والأخلاقية؛ وسوف لن يغنيها نقل مناهج الغرب في التنمية حرفيا، لكن عليها أن تفرّق بين الروح والشكل.

ولعلّ السؤال المحير بحقٍّ هو «ما الذي دفع بسليمان عليه السلام إلى أن يسأل الله تعالى ملكا لا ينبغي لأحد من بعده؟ أليس هذا من قبيل حرمان الناس من عطاء الله؟! والحقُّ أنّ قول سليمان عليه السلام: ﴿رَبِّ اغْفِرْ لِي وَهَبْ لِي مُلْكًا لَا يَنْبَغِي لِأَحَدٍ مِنْ بَعْدِي

إِنَّكَ أَنْتَ الْوَهَّابُ﴾ (ص: ٣٥)، يتجاوز حدوده البشرية، ويأتي ضمن المقاييس العليا؛ يأتي من العزيز الوهاب. ولعلَّ الحكمة من ذلك أنَّ الله تعالى جعل أعلى قمّة في التمكن والرقي والملك، هي قمّة شـاكرة للنعم، غير كافرة بالله تعالى، ولا متنكرة لنعمائه وآلائه؛ حتى لا يقول أحد بعد ذلك: «ما دمت أنا الأفضل والأقوى والأغنى... فإني لا أرى مبررا لأن أشـكر أحدا أو أعترف بإله». أما وإن سـليمان قد بلغ ما بلغ، وهو من الشاكرين، فإنَّ الحجّة قد قامت على جميع الناس، دون استثناء.

من هنا نستنتج أنَّ السبب الأقوى من أسباب التنمية الحقّة هو «الشـكر»، ولقد قال تعـالى عن آل داود: ﴿اعْمَلُوا آلَ دَاوُودَ شُـكْرًا وَقَلِيلٌ مِنْ عِبَادِيَ الشَّكُورُ﴾ (سـبأ: ١٣) كما كان أبسـط موقف في الحياة يدفعه إلى الشـكر. وهذا ما حدث في قصّة النملـة: ﴿حَتَّى إِذَا أَتَوْا عَلَى وَادِي النَّمْلِ قَالَـتْ نَمْلَةٌ يَا أَيُّهَا النَّمْلُ ادْخُلُوا مَسَـاكِنَكُمْ لاَ يَحْطِمَنَّكُمْ سُـلَيْمَانُ وَجُنُـودُهُ وَهُمْ لاَ يَشْعُرُونَ ۞ فَتَبَسَّمَ ضَاحِكًا مِنْ قَوْلِهَا وَقَالَ رَبِّ أَوْزِعْنِي أَنْ أَشْـكُرَ نِعْمَتَكَ الَّتِي أَنْعَمْتَ عَلَيَّ وَعَلَى وَالِدَيَّ وَأَنْ أَعْمَلَ صَالِحًا تَرْضَاهُ﴾ (النمل: ١٨-١٩).

هذه نماذج من عناصر التنمية في المنهج القرآني، وهي جميعا مؤسسـة على محورية الإنسـان. والقرآن طافح بنماذج أخرى، تحتاج إلى دراسات وتحليل عميق؛ فمن ذلك مثلا: التخطيط، في قصة يوسـف عليه السلام، والتفاني والعمل في قصة موسى عليه السلام، واستثمار الوقت في مراحل السيرة النبوية الطاهرة لنبينا محمد ﷺ.

(*) مدير معهد المناهج، الجزائر العاصمة - الجزائر.

المصادر:

١- الإسلام بين الشرق والغرب، علي عزت بيجوفيتش (ترجمة محمد عدس)، مؤسسة بافاريا، ١٩٩٧م ألمانيا.

٢- الإسلام والتنمية الاقتصادية، محمد علي الحسيني، مقال في مجلة النبأ، عدد ٥٨.

٣- في ظلال القرآن، سيد قطب.

٤- التعليم العلمي والتكنولوجيا في إسرائيل، صفا محمود عبد العال، الدار المصرية اللبنانية، ٢٠٠٢م القاهرة.

٥- صوت آسيا، مهاتير محمد، نشر دار الساقي، ١٩٩٨م لبنان.

جدول تقديري حول عناصر التنمية

ثمّة مفارقة محيِّرة هي:

- كون «الإنسان القرآني» إنسانا حقق جميع متطلبات الحضارة، حتى وإن ضعف أحيانا في الجانب الماديّ، إلاّ أنّه لا يتأثّر، بل يؤسّس على الجانب الأهم.

- أنّ «الإنسان المسلم» اليوم رغم كون القرآن يتلى بين ظهرانيه، إلاّ أنّه متخلف من جميع الجوانب، و لم يستفد من كتابه في بناء حضارة عالمية مشهودة.

- أنّ «الإنسـان الغربي» اليوم حقّـق انتصارات متوالية في الجانب المادي، وبنى مدَنية عالمية، غير أنّه يفتقر إلى الأخلاق، والقيم، والشكر.

من هنا يجب أن تفكر البشرية اليوم في تنمية شاملة، وحضارة متكاملة، لا تشبه النمط الغربي كلية، بل يجب أن تبني على النموذج القرآني بأن يستفيد مما أنتجه الغرب من رقي، وتضيف إليه الروح والعمق.

	الإنسان في الغرب	الإنسان المسلم المعاصر	الإنسان القرآني
الأخلاق	+ −	+ −	+++
الإدارة	++	+ −	+++
البحث العلمي	++	−	+++
التخطيط	++	−	+++
التخطيط الاستراتيجي	+	−	+++
التكنولوجيا	+++	+ −	+++
توجيه الطاقة	+	−	+++
رأس المال	+++	++	++
الشكر	−	+	+++
العلم	++ −	−	+++
العمل	++	+	+++
استثمار الوقت	++	−	+++
الموارد الطبيعية	+	+++	++
المجموع	+٢٢ -٣	+١٠ -٩	+٣٦

رغم أنّ هذا الجدول تقديـري قِيَمي، يمكن مراجعته وتصحيحه؛ إلاّ أنّه يظهر مدى اكتساب الغرب للعناصر المادية والعلمية في التنمية، وتبين مدى افتقاره إلى الأسـباب الأخلاقية والإيمانية؛ أمّا المسلمون اليوم فيضعفون في جميع الجوانب، غير أنّ الإنسـان القرآني إنسـان متكامل الجوانب، قويٌّ ماديا، ومكين روحيا وأخلاقيا. فالذي تعدمه البشـرية اليوم هو هذا التوازن المفقود بين المادة والروح، بين الدنيوي والأخروي، بين العاجل والآجل.

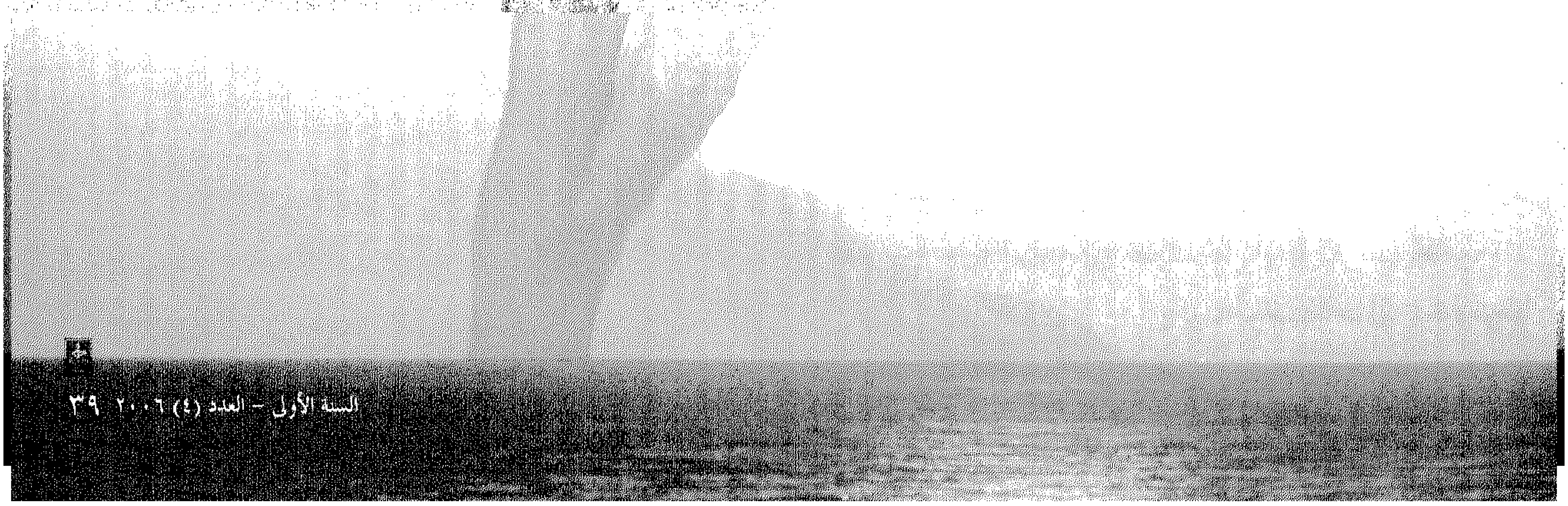
نمنمات على بوّابة العشق

حسن الأمراني *

شمس تبريز أشرقت في كياني ... فتجلّت عرائس في الجنان
أيُّ شمس أبهى وأعلى مقاماً؟ ... لا تقل: «والظلام ليس بفان»
فعلى الأفق من دماء الشهيدين ... بقايا.. فالأفق أحمر قان
سبّحِ اللهَ، مَنْ من الشجر الأخضر ... أذكى اللّظى مهيب الدخان
مسّت النايَ نارُ عشق فغنّى ... وبكى، فانتشى به الخافقان
كان قلبي من قبلِ مسّ لظاه ... حطباً يابساً جَلِيَّ الهوان
فاستوى كالشهاب يخترق الأفق ... ويدنو.. ويا نعيم الدّاني
وجع الناي شهقة ليس تبلى ... قد تلتها من عاشق زفرتان
هو صحو وسكرة.. وظلال ... ولهيبٌ مقدّس الهيجان
إن برق الحجاز هيّج قلبي ... فهوى في قرارة الأحزان
فأقِلّوا العتاب يا أهل نجدٍ ... ما لنا في دفع الهموم يدان
قلتُ والحبُّ خير زاد المُعَنّى ... وجرت فوق وجنتي دمعتان
دُلّني! من أين الطريق إلى النور، ... فإني مشتّت الأذهان
قال: «إن الله اشترى» قلت: قلبي ... رضي البيع، قال: خذ عنواني
ومشى خطوة.. فلما تجلّى ... خرّ موسى.. هل يدرك الثقلان؟

صعقة العشق زلزلت من سناها ... أضلع الطور فهو في خفقان
هو إن غصت فيه شلال نور ... وعطايا وجْد، ووحي بيان
أيّ كأسٍ سقت عروق المعنّى ... فهو في نشوة بديعُ المعاني
ألف ليلى جُنّتْ.. وألف سعادٍ ... ليس تدري الذي بجوف الدّنان
«أنت تغلو يا قيس» كلا! عيوني ... ما رأت غير بارئ الأكوان
وجه ليلى إشارة، وسناها ... قبسٌ فاض عن يد الرحمن
وأنين التّوبَاد ليس سوى تكبير ... عبدٍ أفضى بغير لسان
أوّبي يا جبالُ، فالطير حنّت ... وكؤوس الحنين صنو الحنان
وعلى درب العاشقين دماءٌ ... ودم العشق قبلة الحيران
حرّكتْ أوتارَ المحبة في الروح ... يدٌ جالت من وراء الجنان
والفراشات لم تزل تعشق النور ... وترضى الإبحار في النيران
حجبتني الأوزار عن رؤية النور ... وهدّت مسحاتها أركاني
والضعيف الضعيف من كان مثلي ... مثقل القلب، موهن البنيان
طاف قلبي دهراً فلما تداعى ... سقت رحلي إلى «بديع الزمان»
سيقول الغلاة إنك تغلو ... كيف يدري الخليّ فكّ المعاني؟
هيه يا نفسيَ الذليلة هوناً ... وخذي الحُكم من يد الحرمان
لا تمدّي عينيك.. رُبَّ خوان ... عرضَتْه.. يكون شرّ خوان
واهتفي: إنني ظمئت إلى النور ... فجدّد يا بارئي إيماني
أين من همة المحب إذا ما ... همتِ الكأس وانتشت شفتان
أين منها بيارق السلطان ... خافقاتٍ وصولة الصولجان
كل شيء يفنى وليس بباقٍ ... غيرُ نور المهيمن الدّيان ■

(*) رئيس تحرير مجلة المشكاة – المغرب.



الفنّان المسلم

بين النافع والجميل والأخلاقي

أ.د. بركات محمد مراد *

الفن بالمعني العام هو جملة من القواعد المتبعة لتحصيل غاية معينة، جمالا كانت أو خيرا، أو منفعة، فإذا كانت هذه الغاية هي تحقيق الجمال سمي بالفن الجميل، وإذا كانت تحقيق الخير سمي بفن الأخلاق، وإذا كانت تحقيق المنفعة سمي الفن بفن الصناعة.[1]

وإننا نجد من خلال تعريف الفن وتصنيف الفنون والعلوم في العصور القديمة والوسطى أن التصور العام للفن ينطبق على الفن التطبيقي والفن الجميل، وكان معنى «فن» تندرج تحته مجموعة كبيرة من الحرف والمهن والعلوم التي تتسم بسمة تطبيقية وعملية واضحة، وأنها وسيلة لمنفعة أو فائدة.

وهذا كان واضحا جدا في الفنون والحرف الإسلامية عبر كثير من عصورها. ورغم تباين المواقع الجغرافية فيها، فإننا لا نجد فيها تمييزا بين كل من الفنون الجميلة والفنون التطبيقية، حيث كان كل منهما يؤدي وظيفة جمالية واضحة، ويقوم بتحقيق منافع عملية وحياتية لا تنكر بالنسبة للفرد والأمة على السواء.

الفن الجميل والفن النافع

ونجد أن «جويو»[2] يرى أن الفن نشاط «جدي وثيق الصلة بالحياة، فلا يمكن أن تكون الأعمال الفنية مجرد مظاهر ترف أو موضوعات كمالية، بل هي ضرورات حيوية وأنشطة جادة وموضوعات نافعة، والموضوع النافع يولد بعض المشاعر الجمالية ليس لأنه نافع، بل لأنه في الوقت نفسه موضوع جميل».

وهذا ما دفع «جون ديوي» إلى الربط بين النظر والتطبيق وبين الفن الجميل والفن النافع؛ إذ رأى أن أي فلسفة أو فهم للفن محكوم عليها بالفشل إذا شيدا على أساس من الثنائيات الزائفة بين الفن والطبيعة أو الفن والعلم، والفن الجميل والفن النافع.

ولكي يكشف هذه الثنائيات الزائفة رأى ضرورة المضي نحو فهم حقيقي للفن يدمج هذه الثنائيات في وحدة. وقد كان حرصه علي ربط الفن بالخبرة هو الذي جعله يقيم هذه العلاقة (أو الوحدة) بين النافع والجميل علي أساس أنهما يمثلان مظهرين من مظاهر النشاط الإنساني الواحد. فالفنون الجميلة ذات أهمية عملية، من وجهة نظر «ديوي» لا تقل عن بعض الصناعات التكنولوجية.

إذن فالفرق بين العمل الفني والعمل الصناعي لا يرجع إلى خصائص محددة في العمل الفني أو العمل الصناعي وإنما يرجع إلي نظرتنا نحن أو إلى موقفنا تجاهه، فقد يكون موقفا عمليا تارة وموقفا



تأمليا جماليا تارة أخرى. وهذا يفضي بالطبع إلى أنه قد يمكن للآنية التي نشرب فيها أو الحذاء الذي نلبسه أن يتحولا إلي عملين فنيَين بمجرد أن نجعل منهما موضوعا للنظرة التأملية الجمالية.(٣)

الفنون الإسلامية

وفي الحقيقة لم تعرف الفنون الإسلامية تلك التفرقة بين فنون جمالية وأخرى تطبيقية، فقد كانت كل الفنون في الحضارة الإسلامية تُراد لمنفعتها مثلما تراد لتحقيق غايات جمالية تساعد على تحقيق متعة بريئة للإنسان في مختلف تجليات حياته، تمثل هذا في صفحات المصحف الصغير الذي يقرأ فيه قرآنه أو في ذلك المسجد الكبير الذي يضمه للعبادة.

ولذلك عاش الإنسان المسلم فنونه، وتمثل هذه الفنون في كل وسائله الحضارية وأدواته اليومية، بل في أسلحته التي يستخدمها للحرب والقتال، ومسكوكاته المعدنية التي بواسطتها يحيا حياته الإقتصادية. ولا أَدلّ علي صحة هذا وصدقه من أننا نجد الطابع الجمالي والعبقرية الفنية واضحة وجلية في كل مقتنيات الإنسان المسلم في الحضارة الإسلامية، تجلى هذا واضحا في عمارة مدينته وبناء قصوره وحدائقه، وفي المنسوجات التي كان يرتديها، وفي السجاجيد التي كان يفترشها أو يلصقها على حوائط غُرفاته، أو في القوارير والآواني الزجاجية والفخارية التي كان يستعملها في حياته اليومية.

وقد تنوعت الفنون الإسلامية، وتغلغلت في كل مناشط الحياة المختلفة، ما بين تصوير وزخرفة ونسيج ونقش على الخشب، وتشكيل في الزجاج والخزف والفسيفساء وغيرها؛ فضلا عن الموسيقى. وهذا التنوع يعكس تعاظم المد الفني واتساقه مع المد الثقافي والاقتصادي، وتغلغل الفن في الصناعات المعروفة بالفنون الصغرى في الحضارة الإسلامية.

فاللباس والفرش والبسط والتحف والمشكاوات وأواني الطعام والشراب وغيرها كانت تكتسي قيمة جمالية أبدعتها قريحة الفنان المسلم؛ إذ لم تكن الزخرفة مجرد وسيلة لملأ الفراغ أو تغطية أشكالها، إنما هي أصول جوهرية لدقة الصناعة ومهارة الصنّاع، بدونها يعد الأثر الفني ناقصا.(٤)

الفنون الحرفية

ومن المعروف أن الفنون الإسلامية أقرب إلى الحرف منها إلى الفنون المجردة، لمحاولتها تحقيق وظيفة إنشائية ونفعية في المقام الأول، إضافة إلى الصبغة الجمالية التي تسعى إلي تحقيقها في نفس الوقت، هذا من ناحية؛ ومن ناحية أخرى اكتسبت هذه الصبغةَ بسبب طريقة إعداد الفنان، وهي في جوهرها لا تختلف كثيرا عن الوسيلة التي تتبع في إعداد الصناع الفنيين التقليديين، ويعتمد فيها علي تتلمذ عدد من الأطفال والصبيان على يد صانع ماهر يتدربون تحت إشرافه وإرشاده علي الأعمال الفنية مبتدئين من أبسطها ومنتهين بأكثرها صعوبة وتعقيدا.

كذلك كان الشأن في تعليم المصورين إذ يلتحق عدد من الصبيان بمَرسم مصور ماهر ويتعلمون منه كيفية تحضير الألوان وتجهيز الورق، ويتمرنون في نفس الوقت على نقل نماذج معينة من رسوم يعدها لهم، وعليهم أن يحذقوا رسمها من الذاكرة قبل الانتقال إلى رسم ما هو أصعب منها، وهكذا ينتقل التلميذ من رسم الخطوط إلى الأشجار إلى الحيوانات إلى الأشخاص.

وكان لهذه الطريقة أثرها الواضح في التصوير؛ فهي أولا تعوّد المصوّر الناشئ على رسم نماذج معينة، فضلا عن أنه كان يتعلم تكوين الصورة عن أستاذه بواسطة الورق المخرّم، ولذلك نلحظ المحافظة على تكوينات معينة تستمر من عصر إلي عصر، وتنتقل من مصور إلي آخر، مما أكسب التصوير الإسلامي شيئا من الجمود، بل إن هذه الطريقة كانت أحيانا تقتل المواهب عند الناشئين، وهذا هو الأثر الثاني لها، ولذلك فالذي يمتاز منهم عن غيره إنما يمتاز بفضل إتقانه مزج الألوان وتفوقه في إكساب صوره مسحةً من الجمال والرقة، أو حفظ النسب بين الأشياء بعضها بعضا أو صدق تمثيل الطبيعة أو التوفيق في التعبير عن الحركات، ولكن كل هذا داخل الإطار العام للعصر.(٥)

ولم يكن عمل المصور الإسلامي -مثلا- بالأمر الهين، بل كان عملا شاقا مضنيا، يستلزم منه وقتا طويلا ويستنفد مجهودا عظيما، إذ لم يكن مقصورا على الرسم فقط، بل كان عليه أن يحضّر بنفسه أدواته كالفرشاة والألوان، والأصباغ والورق المزخرف، وكل ما هو في حاجة إليه في عمله.

وما يحدث في التصوير يحدث مثله تقريبا في كل الفنون الإسلامية التطبيقية مثل صناعة السجاد والزجاج والخزف وحتى صناعة المسكوكات المعدنية. ومن الملاحظ أن بعض الفنانين كانوا يسجّلون أسماءهم علي قطعهم الفنية.

اختلاف الألسنة

إن اختلاف الألسنة يحول بيننا وبين أفكار الفلاسفة والمفكرين والشعراء في لغة غير لغتنا، أو في بلد غير بلدنا، إلا عن طريق

الترجمة. وإن هذه الأفكار حتى بعد ترجمتها لا تستغني عن التفسير التوضيحي الطويل؛ أمـــا مبتكرات المعماري والمصور والخزّاف والنسّاج والخطاط وغيرهم من أرباب الفن، فهي على اختلاف بلادها سهلة النطق والفهم لإشباع حاسة الجمال فينا.

والفن مطلب ضروري للإنســـان يندفع إلى تحقيقه، ســـواء جلب له منفعة عاجلة، أم عجز عن أن يجلبها له، وهو كالمعرفة الخالصة في التفســـير. وإذا كانت غاية المعرفة هي «التفســـير العقلـــي للظواهر» فغاية الفن هي اســـتبطان الشـــعور الحي وتجسيمه، و«المشـــاركة الحيوية» التي هي ضرب من التماس الوجداني والتفاعل مع الصور الحيوية. وإذا كان العالِم لا يخلع ذاته على الظواهر التي يحاول تفسيرها لتحقيق الموضوعية، فإن الفنان على العكس منه، يجعل ذاته نقطة انطلاق ومحطة وصول. فالإبـــداع الفني ينبع من ذات الفنـــان، ليحتكّ بعد هذا الجهد الحيوي العام، فيكشف عن صور الحياة في تماسها مع ذاته.

اليد المعجزة

وإذا كان التراث الفني الإســـلامي قد اندفع إلى الوجود عن طريق «العقل» و«الوجدان»، فقد سبقتهما في ذلك «اليد» التي أبدع الله تكوينها وصاغ شكلها، وأودع أطراف أصابعها سرَّ الوجود وحقيقة الحياة ومستقبل الإنسان. وهذه اليد كالقلب والعقل، ذكرها الله في محكم آياته في مائة وعشرين آية، جاءت متفرقة في العديد من السور القرآنية.

وتأخـــذ حقيقة «اليد» كما خلقهـــا الله فيما تأخذ لتكون صانعةً لاستمرار الإنســـان ودوامه، ومكوِّنةً لحضارته وممهدة لوجوده ومثبتةً لحياتـــه على هذه الأرض، كأرقى المخلوقات، وهي وحدها لا العقل والوجدان التي عبرت عن حقيقته الأولى، حيث استطاع إشـــعال النار واستعمال الأدوات المستمدة من الأحجار والعظام وفروع الأشـــجار. وفي عصور لاحقة حيث عملت يده في أعمـــال فنية، كصناعة الفخار والرســـم على جدران الكهوف. هذه قصة «اليد».

و«الخط» لسان اليد، فهي التي كتبت وأبدعت، وشكلت الفنون. ولذلك فلا غرابة أن يصبح «الخط العربي» وبخاصة حين يأخذ مادته من القرآن الكريم هو الفن الســـائد في المجتمعات الإســـلامية خلال كثير من العصور. وقد استطاع الخط العربي مثل الأرابيســـك أن ينقل البيئة الأساسية للفهم المنطقي -أعني الرمـــوز الفكرية الأبجدية- إلى مادة فنية تصويرية، إلى بيئة فنية يصبح الوعي الجمالي فيها أصليا لا ثانويا، قائما بذاته لا بغيره.

الفن والجمال

لقد استُخدم الفن دائما للتعبير عن «الجمال» في كل مجاليه ومظاهره، وخاصة في الحس والشـــعور الإسلامي، وبالضرورة حـــين يكون عنصر الجمال عميقا في هـــذا الوجود ومقصودا لذاتـــه يتبدى واضحا في كل كائناته «الجامدة» وغير الجامدة، والإنسان -وهو خليفة الله في الأرض- مُطالَب بأن يفتح حسه لهذا الجمال ليلتقي أجمل ما في نفســـه -وهو حاسة الجمال- بأجمل ما في الكون، ويُنتج من هذا اللقاء تلك الألوان المتنوعة مـــن الفنون والإبداع، فتصير تلك الفنون أنواعا من التعبير عن ذلـــك الجمال. ومن هنا كان التلازم بـــين الجمال والفن؛ فلا تصور للفن بلا جمال ولا تصور للجمال بلا فنّ.

وســـواء أكان الفنان بإزاء لوحة تشكيلية، أم بإزاء مقطوعة موســـيقية، أم بإزاء قصيدة غنائية فإنه في كل هذه الحالات إنما يقدم لنا «موضوعا جماليـــا»، عيانيا، مكتملا، متينا، متحددا. والفنان الحقيقي يقدم لنا إعجازا فنيا، يجعل الفكرة تتجسّـــد في الطبيعة لكي تستحيل إلى فكرة باطنية تنبع من أعماق وجودنا. فإذا بنا نستشعر نضارة الربيع ونشوة الحياة، وكأن جسدنا نفسه قد أخذ يتراقص على سحر تلك الفكرة التي مسنا بها الفنان.

ولقد مارس الفنان المســـلم عمله بحرية مطلقة، كما يقول المستشرق «غرابار»، هذه الحرية المطلقة التي جعلت أي عنصر قابلا للتطور في أي اتجاه: «وهكذا كانت للفن العربي الإسلامي في بداية الإســـلام إمكانيةُ نموٍّ جديـــدة لا توجد لها، وإمكانية تطور كبير، تشـــهد عليها واجهة «قصر المشتى» بوضوح، مما يعطي فكرة عن خاصة مميزة للفن الإســـلامي في عهد تكونه، وهي «الحرية». فليس هناك نهاية وليست هناك حدود أخرى سوى إرادة الفنان».

وتجلت عبقرية الصانع المبدع في الفن الإســـلامي المجرد في تزيـــينٍ أغنى بها القطع الاســـتعمالية المصنوعة من الخزف أو من الخشب أو الزجاج أو السجاد. ولقد بدأ هذا التزيين الذي تجمعـــت فيه حصائل لا حد لها في متاحـــف العالم، والمقتنيات الخاصة، بأشكال وطرق تختلف باختلاف المادة التي صُنع منها.

العلاقة بين القيمة الجمالية والقيمة الأخلاقية

فإذا ساءلنا الفن الإسلامي، هل من علاقة بين القيمة الجمالية والقيمـــة الأخلاقية؟ أو بعبارة أخرى هل يمكن اعتبار «الخير» صورة من صور «الجمال»؟

فإننا نجد الفن الإســـلامي يرى أن الفلسفة التقليدية كانت

على حق حينما جعلت من القيمة الأخلاقية شكلا من أشكال الجمالية. حقا إن «الجميل» مكتف بذاته، لأنه يملك في ذاته تعبيرا قويا لا حاجة به إلى ترجمة أخرى، سواء أكان ذلك بلغة الأخلاق أم لغة الدين. ولكن من المؤكد مع ذلك أن للجميل طابعا دينيا هو الذي جعل حقائق الدين المقدسة تَلتمس في شتى الفنون أسمى تعبير عنها. ولن يتناسى الإنسان هذا الطابع الديني للجمال إلا حينما ربط الفن بأهوائه وانفعالاته وعواطفه، وكأن الفن مجرد أداة للمتعة أو اللذة، في حين أن الفن قد ارتبط من قديم الزمان بأقدس عقائد الإنسان وأسمى أفكاره وأرفع قيمه.

وقد أدرك ذلك منذ زمن مبكر كثيرٌ من المفكرين والفلاسفة، وعلى رأسهم أرسطو بنظرية في «التطهير» أو «الكاثرسيس»؛ فنراه يقرر أن للفن مضمونا أخلاقيا يتمثل في التسامي بأرواحنا، ومساعدتنا على مقاومة أهوائنا. ومعنى هذا أن للفن صبغة تطهيرية تجعل منه أداةً فعالة لتنظيم البدن، وتصفية الأهواء، وتنقية الانفعالات. ويضرب أحد فلاسفة علم الجمال مثلا بالموسيقى فيقول: «إن النغم صورة مهذّبة من الصياح، بحيث إن الموسيقى لتبدو بمنزلة تنظيم تلك الأصوات التي يصدرها الإنسان حين يئن أو يصيح، أو يتأوه، أو ينتحب». وهكذا الحال أيضا بالنسبة إلى الغناء، والرقص، وغيرها من الفنون، فإن الإنسان لا يتخذ من التعبير الفني -في كل هذه الحالات- سوى مجرد أداة لتنظيم انفعالاته.

الفن والشعور بالذات

إن من شأن الفنون أن تساعدنا على الشعور بذواتنا، والتعرف على حقيقة مشاعرنا، فهي أشبه ما تكون بمرآة حقيقية للنفس، تنعكس على صفحاتها كلّ أهوائنا وعواطفنا وانفعالاتنا وأفكارنا. والواقع أنه إذا كانت هناك علاقة وثيقة بين الفن والأخلاق، فما ذلك إلا لأن الفنون الجميلة تطهر أهواءنا وتنقي انفعالاتنا، وتحقق ضربا من التوافق بين أحاسيسنا وأفكارنا، أو بين رغباتنا وواجباتنا، إننا نشعر بضرب من السعادة العميقة حينما نرى الشيء الجميل. لأننا نستشعر عندئذ توافقا عجيبا هو الذي ينتزع من نفوسنا كل إحساس بالصراع أو التمزق، وكأن الإحساس بالجمال يقترن في نفوسنا بإحساس أخلاقي هو الشعور بالسلم أو الطمأنينة أو التوافق النفسي.

وقد حققت الفنون الإسلامية كل تلك الأبعاد الأخلاقية متجسدة في مختلف الصور، بل أكثر من هذا، فقد مزجت أيضا بين الجميل والنافع، و لم تفصل بينهما كما فعلت بعض فنون الغرب، والتي دعت إلى «الفن للفن» أو الجمال لذات الجمال، مفرقة بين الفن والصنعة.

إن كلمة «الفن» المتداولة اليوم تحمل معنى الصناعة نفسه في كتب المؤلفين العرب والمسلمين، ومع ذلك لم تكن الصناعة عند المسلمين نوعين، رفيعة وصغرى، بل إن جميع الصنائع هي آثار فنية. فلم يكن ثمة تمييز في قيمتها على أساس المنفعة، لأنها كانت نافعة وممتعة بطرافتها ودقتها وجمالها؛ وعلى العكس



مما يبدو في آثار الفن التشكيلي الغربي (اللوحات والتماثيل) التي لا يُقصد من ورائها الاستعمال النفعي، بل التمتع فقط. وينحرف العمل الفني عن الفن إذا اقتصر الهدف منه على المنفعة. ولكن الفن الإسلامي -وكما أدرك ذلك بحق الباحثُ الكبير عفيف البهنسي- يوّحد بينهما فتبدو السجادة والمُنمنمة والفسقية والإناء، ليست مجرد أشياء استعمالية يتحكم في صنعها الغرض النفعي والاستعمال، ولكن أكثرها آيات يتحكم في تنميقها ورقشها أو نقشها وتلوينها حس جمالي، أي إن الأثر الإسلامي كان فنا ومتاعا في وقت واحد، و لم يتعارض في يوم من الأيام مع القيم الدينية والأخلاقية.

(*) أستاذ الفلسفة الإسلامية، جامعة عين شمس، كلية التربية - مصر.

الهوامش:

(١) المعجم الفلسفي، د. جميل صليبا، دار الكتاب اللبناني، ١٩٦٩م بيروت، ٢ /١٦٥.

(٢) الفنان والإنسان، د. ذكريا إبراهيم، مكتبة غريب، ١٩٧٧م القاهرة، ص ١٣.

(٣) مقدمة في علم الجمال، د. أميرة مطر.

(٤) تراث الإسلام في الفنون الفرعية والتصوير والعمارة، كرستي (الترجمة العربية)، ١٩٨٤م دمشق، ص ١٢.

(٥) التصوير الإسلامي ومدارسه، د. جمال محمد محرز، ١٩٦٢م مصر، ص ٨١ -٨٣.

تهافت نظرية التطور

أورخان محمد علي *



كانت الفلسفة في بداية نشـوئها وتطورها تبحث في كل شيء وتهتم بكل شيء ومن ضمنها العلوم المختلفة، أي كانت العلوم ساحة من ساحات الاهتمام الشامل للفلسفة؛ فمثلاً نرى أن «أرسـطو» -بجانب اهتمامه بإرسـاء قواعد المنطق- يهتم بجميع العلوم المعروفة في عهده بدءً من الرياضيات وانتهاءً بعلوم الأحياء؛ ونرى «أفلاطون» -أسـتاذ أرسطو- يكتب على مدخل مدرسـته: «من لا يعرف الرياضيات فلا يدخل إلى هنا».

وعندما اتسـعت العلوم اتساعاً كبيراً وتشعبت، لم يعد هذا ممكناً ولم يعد في وسـع أحد أن يحيـط بجميع العلوم إضافة إلى اشتغاله بالفلسفة، فانفصلت سـاحة العلم عن ساحة الفلسفة تدريجياً. أي إن علوم الطبيعة والنفس والرياضيات والفلك كانت فصولاً من مبحث واحد هو الفلسفة. فلما اكتمل نموها أصبحت علوماً مستقلة كما نراها اليوم.[1] وقد اشتغل أرسطو وألف في الأخلاق والسياسة والمنطق والبلاغة والفلك وعلم الحيوان. كما كان الفلاسفة المسلمون أمثال «الفارابي» و«ابن سينا» من هذا النمط الموسوعي، فلم يقتصر نشاطهم في ساحة الفلسفة والمنطق بل تعداها إلى الرياضيات والفلك والموسيقى والطب واللغة.

علاقة الفلسفة بالعلم

ولكن العلوم والنظريات العلمية مع كونها منفصلة منذ قرون عن الفلسفة إلا أنها تعد -كما ذكرنا- أهم عامل وموجّه لجميع المدارس الفلسفية، بل سـبباً في نشوء مدارس فلسفية عديدة؛ فمثلاً نرى أن القوانين التي اكتشـفها «نيوتن» أثّرت في جميع فلاسـفة عهده وفيمن جاء من بعدهم بقرون، حيث أصبحت صورة العالم بعد اكتشـاف هذه القوانين كأنها آلة ضخمة في كون سـاكن ولانهائي بثلاثة أبعاد تسير حسب قوانين محددة ومعلومة، وتَرسَّـخ مبدأ «السبب - النتيجة» ترسخاً كاملاً، حتى قال بعضهم: «أعطني جميع المعلومات وأنا أسجل لك سير الكون حتى نهاية عمره».

وبعـد اكتشـاف «النظريـة النسـبية» من قِبـل «أنشـتاين»، و«النظرية الكمية» مـن قبل «ماكس بلانك» و «هايزنبرغ» وغيرهمـا من العلماء، اضمحلت تلك المدارس الفلسـفية وظهرت مدارس فلسـفية أخرى حسـب المنظور الجديـد لكون ذي أبعاد أربعـة (بُعده الرابـع هو الزمان)، وتزلزل المبدأ السـابق في «الحتمية» واختلفت النظرة إلى العالم في مقياسـه الصغير (أي الذرة) وفي مقياسه الكبير أيضاً (أي

الكون)؛ أي إن العلم أصبح يقود الفلسفة ويوجهها.

ومن هنا تأتي الأهمية الفائقة للنظريات وللقوانين العلمية من الناحية الفكرية والفلسفية إضافة إلى أهميتها في التقدم التكنولوجي الذي يساهم في زيادة رفاهية الإنسان وتقدمه في مضمار المدنية.

تأثير نظرية التطور

وكذلك من هنا تأتي أهمية «نظرية التطور» لـ«دارون». ذلك لأنها أثرت تأثيراً بعيداً في جميع المناحي الفكرية للإنسان؛ أثّرت في الفلسفة وفي علم الاجتماع وفي علم النفس وفي السياسة. وقال عنها «كارل ماركس»: «إن هذه النظرية هي تطبيق فلسفتنا في صراع الطبقات في الطبيعة» مشيراً بذلك إلى فكرة «الانتخاب الطبيعي» في نظرية دارون، فأثر هذه النظرية واضح في العديد من المدارس الفلسفية. فبعد انتشار هذه النظرية وذيوعها نرى أن العديد من الفلاسفة بدأوا بسحب هذه النظرية من إطارها في عالم الأحياء ليطبقوها على مستوى الكون. لذا نرى ولادة تعابير فلسفية جديدة بعد ظهور هذه النظرية وشيوعها مثل «التطور الانبثاقي» للفيلسوف البريطاني «لوي مورجان» و«التطور الخلاق» للفيلسوف الفرنسي «هنري برغسون».

والشيء نفسه نلاحظه عند الفيلسوف الأسترالي صمويل ألكساندر. الذي قال بأن هناك تطور على مستوى الكون، وأن المادة كانت في صورة بسيطة في أول أمرها ثم تطورت إلى مادة لها خواص معينة كاللون والرائحة، ثم ظهرت الحياة وبعدها العقل، وأن الله يمثل المرحلة النهائية للعقل؛ أي إن الله - تعالى الله علوّاً كبيراً - ليس إلا نتيجة هذا التطور الذي بدأ منذ الأزل في هذا الكون الذي عدوه قبل عقود من الزمن لانهائيّاً من ناحية الزمان والمكان. هذا عند طائفة من الفلاسفة المؤمنين بوجود الله، أما المنكرون والملحدون من الفلاسفة فقد قالوا بالمصادفة؛ أي إن المادة وهي تتقلب في أدوار وأطوار وحالات مختلفة أنتجت هذا النظام الرائع المشاهَد في الكون وفي الحياة وهذا يخالف قانون «الاحتمالات الرياضية».

كما استندت كثير من النظريات السياسية كالنازية والفاشية إلى نظرية التطور مستخدمة إياها كسند علمي لأيدولوجياتها البعيدة عن الإنسانية، فما دامت الحياة صراعاً يبقى فيها الأقوياء ويزول من مسرحها الضعفاء، فمن حق العناصر القوية (كالعنصر الجرماني في النازية وكالرجل الأبيض عند العنصريين البيض) أن تملي إرادتها على العناصر الأخرى وأن تفعل بها ما تشاء إلى حد الإبادة.

كما كانت هذه النظرية خلف ظاهرة الإباحية الأخلاقية أو ما سميت بـ«الثورة الجنسية» التي اجتاحت العالم الغربي والعديد من بلدان العالم. لأن الإنسان ما دام سليل حيوانات فما عليه إلا اتباع غرائزه وعدم كَبتها، وما الخُلق والضمير إلا قشور زائفة صنعها المجتمع، وهي لا تستحق الالتفات إليها أو الاهتمام بها.

لقد شهد القرن التاسع عشر ميلادَ ثلاث نظريات أثّرت في الحياة الإنسانية تأثيراً خطيراً وسلبياً وهي: «النظرية الماركسية» و«نظرية دارون» في التطور و«نظرية فرويد» في التحليل النفسي. ولعل نظرية التطور لدارون هي أخطر هذه النظريات، لأنها حاولت البرهنة على «حيوانية الإنسان». وعندما يتم إثبات هذه الصفة الحيوانية في الإنسان ويدمغ بها فمن السهل قبول النظرية الماركسية التي ترى أن الهم الوحيد للإنسان هو حاجاته المادية وما يشبع بطنه. وكذلك يسهل قبول نظرية فرويد التي أرجعت جميع نشاطات الإنسان وغاياته إلى غريزته الجنسية.

تحول النظرية إلى أيدولوجية، وعمليات التزوير

وهناك ظاهرة تلفت النظر في موضوع نظرية التطور، وهي أن هذه النظرية خرجت من كونها نظرية علمية قابلة للصواب أو الخطأ، إذ تحولت إلى «أيدولوجية» يدافع عنها أنصارها، ولا يترددون حتى في القيام بعمليات تزوير مشينة من الناحية العلمية والأخلاقية، وهذا ما لا نراه في النظريات العلمية الأخرى؛ فلا نرى عالماً في الفيزياء أو في الكيمياء أو في أي علم من العلوم يقوم بعملية تزوير لإثبات صحة نظريته أو صحة القانون الذي اكتشفه، لأن غاية العلم هي الوصول إلى الحقيقة. بينما نرى أن عمليات التزوير العلمية منحصرة في موضوع نظرية التطور فقط.

وأُولى عمليات التزوير هذه قام بها العالم الألماني «أرنست هيجل» وكان من أنصار نظرية التطور. ولما رأى أن صور الأجنة لا تتطابق تماماً مع هذه النظرية قام بعمليات رُتوش وحذْف في صور الأجنة البشرية لكي تتطابق مع نظرية «التلخيص» (وهي إحدى النظريات السابقة التي قُدّمت كبرهان على نظرية التطور ثم نفض العلماء أيديهم عنها بعد ثبوت خطئها). ولكن أحد العلماء اكتشف عملية التزوير هذه وأعلنها في إحدى الصحف، وتحدى فيها «أرنست هيجل» الذي لم ير بدّاً من الاعتراف بجريمته العلمية والأخلاقية بعد فترة صمت وتردّد، فاعترف في مقالة كتبها في ١٤/١٢/١٩٠٨ وقال فيها: «إن ما يعزّيه هو أنه لم يكن الوحيد الذي قام بعملية تزوير لإثبات صحة نظرية التطور، بل إن هناك المئات من العلماء والفلاسفة قاموا بعمليات

تزوير في الصور التي توضّح بنية الأحياء وعلم التشريح وعلم الأنسجة وعلم الأجنة لكي تطابق نظرية التطور».

إذن فهناك مئات من عمليات التزوير -وليست عملية واحدة أو عدة عمليات- تمت في علم الأحياء وفي علم التشريح وعلم الأنسجة وعلم الأجنّة قام بها العلماء من أنصار التطور.

أجل! على مثل عمليات الغش والتزوير هذه قامت نظرية التطور وانتشرت، وتمت بها أيضاً عملية غسيل دماغ الجماهير في هذا الموضوع، وأصبح من لا يؤمن بها رجعياً وجاهلاً!!.

وهناك حادثة «إنسان نبراسكا» فقد عثروا على سن واحدة ليعلنوا أن صاحب هذه السن هو الحلقة المفقودة التي يبحثون عنها، ونشروا صوراً خيالية لهذا الإنسان، بل حتى عن حياته العائلية، وقدّم علماء التطور هذه السن كدليل في محكمة «سكوبس»(٢) عام ١٩٢٥. وعندما اعترض الطرف الآخر سخروا من جهله! ومع أن المحكمة أصدرت قرارها بإدانة السيد «سكوبس» إلا أن الضجّة التي أثارها أنصار التطور في الصحافة وفي المحافل العلمية جلبت عطفاً كبيراً على المتهم، وغضباً على المحكمة.

وفي هذه المحكمة قدّم علماء التطور هذه السن كدليل لا ينقض على صحة التطور، لأنهم اخترعوا من هذه السن الواحدة إنساناً أسموه «إنسان نبراسكا» وأطلقوا عليه اسماً لاتينياً رنّاناً ليسبغوا عليه صبغة علمية.

ولكن تبيّن فيما بعد أن هذه السن لا تعود لإنسان، ولا لقرد، بل لخنزير بري! نعم خنزير! إذن تأملوا مدى المبالغات الموجودة في تفسيرات علماء التطور للمعطيات العلمية أو للمتحجرات التي يعثرون عليها، ومدى انحرافهم عن النهج العلمي الذي يجب أن ينطلق من مبدإ «الموضوعية» في تفسير المعطيات والظواهر العلمية والطبيعية، بينما ينطلق هؤلاء العلماء من فكر مسبق، وهو أن نظرية التطور صحيحة. لذا يقومون بليّ عنق هذه الظواهر والمعطيات العلمية لكي تتوافق مع ما يعتقدونه من فكر مسبق. ولا يترددون -كما رأينا- حتى من القيام بعمليات تزوير معيبة ومشينة أخلاقياً وعلمياً في هذه السبيل. وهناك أمثلة أخرى كثيرة في هذا الصدد لا نوردها هنا خشية الإطالة.

لقد خرجت نظرية التطور من كونها نظرية -أو فرضية- علمية يمكن دراستها ووضعها على المحك مثل النظريات العلمية الأخرى، وأصبحت «أيدولوجية» عند علماء التطور يدافعون عنها حتى ولو تطلب الأمر القيام بعمليات تزوير مشينة.

ولكن لماذا أصبحت نظرية التطور أيدولوجية؟ لأنها النظرية العلمية الوحيدة التي يمكن أن تؤدي إلى الإلحاد، لكونها تدعي القيام بتفسير الكون والحياة دون الحاجة إلى الخالق. فإذا ظهر أن كل نوع من أنواع الأحياء خلق على حدة، وأن الحياة لم تظهر نتيجة مصادفات عشوائية، لأن هذا أمر مستحيل، وأن الأحياء لم تتطور عن بعضها البعض فلا يبقى هناك أي مجال أمام جميع العلماء سوى الإيمان بالله تعالى.

شواهد علمية على تهافت هذه النظرة

وإذا أردنا الإشارة باختصار إلى بعض الشواهد التي تقف ضد نظرية التطور قلنا:

١- عجز النظرية: إن كل نظرية علمية تسعى إلى تفسير كل أو معظم الظواهر المتعلقة بها. فمثلاً عندما تضع نظرية حول الجاذبية الأرضية فيجب أن تقوم هذه النظرية بتفسير جميع الظواهر المتعلقة بها. وعندما تضع نظرية حول ماهية الضوء وخصائصه يجب أن تقوم هذه النظرية بتفسير كل ما يتعلق بالضوء وبخصائصه. وعندما تشذ أي ظاهرة من الظواهر عن النظريات الموضوعة لتفسيرها تتم محاولة اكتشاف نظرية أخرى أكثر شمولاً من النظرية السابقة.

إذا نظرنا إلى نظرية التطور من هذه الزاوية نرى أنها نظرية قاصرة جداً في هذا الصدد. وندرج أدناه بعض المواضيع التي لم تقم هذه النظرية بتقديم أي تفسير لها:

أ- أصل الحشرات: لا تقدم هذه النظرية أي تفسير لأصل الحشرات مع أنها تمثل ٨٠ ٪ من مجموع الحيوانات.

ب- أصل وتطور القوارض غير معروف، مع أن أعدادها هائلة وتزيد على أعداد الثدييات الأخرى.

جـ- أصل الطّيران بجميع أشكاله غير معروف تماماً. فكما هو معلوم فهناك أربعة أنواع من الحيوانات الطائرة: الحشرات، الطيور، بعض اللبائن (كالخفاش)، بعض الزواحف الطائرة (انقرضت). لا تقدم نظرية التطور أي جواب حول سؤال: كيف ظهر الطيران عند هذه الحيوانات؟

إذن ما بالك بنظرية لا تقوم بتفسير ٩٠ ٪ من الظواهر التي من المفروض تناولها ولا تستطيع تسليط الضوء عليها؟ وما دامت هذه النسبة الكبيرة من الظواهر غير معروفة وغير مفسرة من قبلها فكيف يمكن عدّها نظرية صحيحة؟ وهل هناك نظرية علمية أخرى غير هذه النظرية أبدت عجزها عن تفسير ٩٠٪ من الظواهر التي تصدّت لتفسيرها؟ وهل يمكن أن تقبل الأوساط العلمية مثل هذه النظرية؟

٢- الحياة في الخليـــة الأولى: كيفية ظهور الحياة في الخلية الحية الأولى غير معروفة، والقول بالمصادفة ليس جواباً علمياً، بل جواباً يصـــادم العلم؛ لأنه كلما زادت معلوماتنا عن الخلية الحية ومدى تعقيدها تأكد لنا أكثر وأكثر اســـتحالة ظهورها مصادفـــة. ويكفي أن نعلم أن جزيئات D.N.A الموجودة في الإنســـان تحتوي على معلومات لو قمنا بتسجيلها على الورق لاحتجنا لـــ ٩٠٠ ألف صفحة تقريباً، وهذا يعادل ٣٤ ضعف المعلومات الواردة في دائرة المعارف البريطانية. فكيف يمكن إذن أن تظهر الخلية إلى الوجود مصادفة؟ وقد عُلم من تطبيق قوانين الاحتمالات الرياضية استحالة تكوُّن جزيئة واحدة من البروتين عن طريـــق المصادفة خلال أضعاف عمر الكون، فكيف يمكن ظهور خلية واحدة حيّة بطريق المصادفة؟

٣- الحلقـــات المفقودة: تدعي هذه النظرية أن الأحياء قد تطورت من خليـــة واحدة إلى أحيـــاء ذات خلايا متعددة ثم تشعّبت مســـاراتها في التطور حتى ظهرت الأحياء الحالية التي تبلغ أعدادها عدة ملايين. لذا فحسَـــب هذه النظرية لا بد من وجود عشرات الحلقات الوسطى أو الحلقات الانتقالية بين كل نوعين، أي إن أعداد الحلقات الوسطى يجب أن تزيد بعشرات المرات على عدد الأحياء الموجودة حالياً. أي إن أحياء الحلقات الوســـطى يجب أن تبلغ عشرات ومئات الملايين، ولكن لم يتم العثور حتى الآن على أي حلقة وسطى. و لم يصح الزعم القائل بأن طائر «الأركيوباتريكس» يمثل الحلقة الوسطى بين الزواحف والطيور، لأنه تم العثور على متحجرة طائر في نفس العهد الذي عاش فيه «الأركيوباتريكس» وهو العهد الجوراسي (أو العهد الطباشـــيري) من قبل البروفسور «جون أرستروم» من جامعة «يالا»، وكتب مقالة مفصلة عـــن هذا الطائر في مجلة الأطبّاء العلمية (المجلد رقم ١١٢ في ٢٤ أيلول/١٩٧٧). لذا لا يمكن أن يكون طائر «الأركيوباتريكس» جَدّاً وسلَفاً للطيور، بينما كانت هناك طيور حقيقية تعيش معه.

كمـــا قـــدّم التطوريون بعض الجماجـــم التي تعود لقرود -كانت تعيش سابقاً ثم انقرضت- وكأنها الحلقات المفقودة بين الإنسان والقرد. وكل هذه الجماجم مدار شكّ ونقاش حتى من قبل علماء التطور أنفسهم. ولو كانت نظرية التطور صحيحة لـــكان المفروض أن نعثر على مئـــات الآلاف من متحجرات الأحياء التي تمثل الحلقات الوسطى الانتقالية بين الأنواع؛ لأنه تم العثور على مئات الآلاف، بل ربما الملايين من المتحجرات في المائة والخمسين سنة الأخيرة وامتلأت بها المتاحف الطبيعية.

وهذا الفشل الذريع في الحصول على هذه المتحجرات (لأنها غير موجـــودة أصلاً) هو الذي دفَع بعـــَض علماء التطور إلى البحـــث عن مخرج من هذه الورطة الكبـــيرة التي تهدد بإعدام نظرية التطور، لذا قام هـــؤلاء بوضع نظريات مختلفة. ومجمل هذه النظريات الأخيرة هو أن التطور حصل فجأة ودون مراحل انتقاليـــة (مثلاً حدث أن زاحفاً وضع بيضة خرج منها طائر!) و لم يســـتطيعوا أن يقدموا لهذه الفرضية الخيالية البعيدة عن كل قسطاس علمي أي دليل يمكن أن يكون له وزن. وبهذا دخلت نظرية التطور في طريق مسدود.

٤- الزمن عامل هدم لا عامل بناء: وفي السنوات الأخيرة بدأ نقاش حاد بين أنصار التطـــور وأنصار الخلق حول قانون فيزيائي يرى أنصار الخلق أنه ينقض نظرية التطور من أساسها وهو القانون الثاني من «الديناميكية الحرارية».

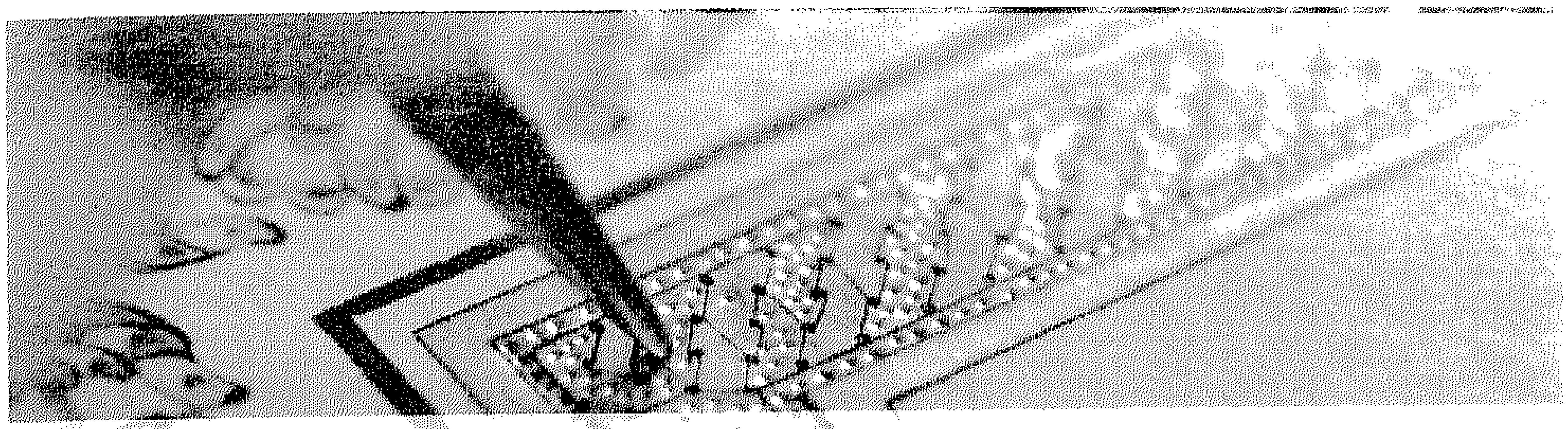
فهذا القانون يشير إلى أن الكون منذ خلقه يسير نحو الانحلال ونحو التدهور ونحو الموت الحراري، فالنجوم تبعث طاقة حرارية وضوئية وإشعاعية ووقودها ينفد، ونحن نرى أن كل شيء يترك لحاله ينحل ويفسد؛ فإذا تركنا قطعة لحم أو فاكهة نراها تفسد بعد مدة. وإذا تركت بيتاً أو ســـيارة لحالها دون عناية وخدمة أســـرع إليها البلى... وهكذا. أي لا يوجد هناك شيء يتطور أو يتحسن حاله إذا تركته لحاله و لم تتدخل بعلمك وإرادتك في تحسين وضعه؛ مثلاً تستطيع القيام ببناء بناية أو صنع آلة، ولكن العملية هنا عملية مقصودة تدخل فيها العلم والإرادة الإنسانية، وليســـت عملية تلقائية. أي إن الزمن عامل هدم وليس عامل بناء، لأن الأشياء إن تركت لحالها مالت إلى الانحلال والانهدام والتفتـــت، ولا تتطور ولا يزداد تعقيدها أو درجة نظامها. لذا ففي مثـــل هذا الكون، وفي ظل هذا القانون الفيزيائي لا يمكن أن يكون هناك تطور تلقائي مســـتند إلى المصادفات، لأن هذا الكون متوجه للانحلال وليس للتطور.

(*) كاتب وباحث تركي.

الهوامش:

(١) قصة الفلسفة اليونانية، لأحمد أمين وزكي نجيب محمود، ص ٦.

(٢) محاكمة «سكوبس» عقدت في مدينة دايتون، في ولاية «تنسي» الأمريكية في صيـــف ١٩٢٥ وثارت حولها ضجة كبـــيرة حتى أن عدد الحاضرين إلى المحكمة زاد عن عشـــرين ألف مستمع. وخلاصة القضية أن حكومة ولاية تنســـي أقامت الدعوى على أستاذ يدعى «ســـكوبس» لأنه عارض صحة الإصحاح الأول من ســـفر التكوين عن خلق الانسان، وقدّم نظرية التطور لدارون كتفسير بديل لقضية الخلق.



تذوق الفن الإسلامي من الناحية التقنية

د. جواد محمد مصباحي *

في سبيل بناء الفكرة التذوقية للتحف الفنية ضمن إطار الفنون الإسلامية تحضرني إشكالية الاستقراء من خلال الإجابة على السؤالين التاليين:

١- هــل كل فن يتوجب إخضاعــه للمرجعية الدينية التي يعتقد بها المجتمع المبدع لهذا الفن؟

٢- خضوع مجتمع ما لدين جديد، هل يســمح باستقراء ممارساته الفنية داخل إطار هذا الدين؟

من خلال مقاربة بســيطة يتّضح أن الإجابة على الإشكال الأول تكون في مجملها بالإيجاب؛ فبــدءً بالمجتمعات البدائية ومرورا بالحضارات المتمدنة يــبرز الخضوع الإجمالي للمبادئ والمرتكزات العقائدية / الدينية بشكل لا يحتاج لتمحيص.

أما فيما يخص الإشــكال الثاني، فقد تبقــى الأعمال الفنية بمقوماتها ومفاهيمها الـــ«ما قبل خضوع المجتمع للدين الجديد»، لكن هذا الأخير قد يؤطرها بنظرياته فيخضعها للتحوير الكلي أو التجديد، وقد يتركها على ما هي عليه إذا كانت لا تتعارض مــع مبادئه العقائدية. وعليه تصبح هــذه الإبداعات مصهورة في بوتقته ولا يســع القارئ إلا ركوب الفكر الديني للاستقراء الصحيح والتأويل المضبوط للطرح الفني لهذه الإبداعات.

فيمـــا يخص الفن الإســـلامي، ففكرة التســـامح والتعايش الاجتماعي من صلب العقيدة الدينية، طَبعت الممارسات الفنية بميــزة التحويط؛ أي تأطير العمل الفني -حتى إذا كان بأيد غير مسلمة- بمســلّمات العقيدة ومرتكزها الأساسي (التوحيد). وبهذا المبــدإ تتجلى فكرة الوحدة في الفنون الإســـلامية رغم شساعة الرقعة الجغرافية للامتداد الإسلامي الشيء الذي كذلك طبع هذه الفنون بطابع التنوع.

والعمل الفني كليةً، هو إبداع إنســـاني تتوارثه الإنســـانية بغض النظر عـــن معتقدات الإيمان أو درجات التطور والرقي، كل حســـب منظوره. وبهذا لا يمكن التخصيص في الأشكال والنماذج الزخرفية الفنية، وربطها بحضارة أو دين ما. وكمثال على هذا قد نجد أن النجمة السداســـية أو الثمانية اســـتعملت بشكل ما في الممارسات الفنية لحضارات قبل ظهور الإسلام، ولا زالت تســـتعمل في إبداعات الفن الإســـلامي الذي انفرد وتميز بسلوك نمط التجريد التخيلي (الزخارف النباتية أو التوريق كما يطلق عليها في المغــرب) أو التجريد العقلاني (الزخارف الهندســـية أو التسطير كما يطلق عليها في المغرب) وكذا الخط العربي بحكم أنه الشـــكل المنظور للغة القرآن، في ترسيخ فكرة التوحيد، بخلاف فنون الحضارات الســـابقة التي كان تركيزها بالأساس على نمط التجسيم لإيصال الفكر الديني.

فالفنان المسلم ومن خلال التوجهات الفنية الإسلامية المنبنية على الأنماط التالية بتأويلاتها:

- **الزخارف النباتية (التوريق)**: الإسقاط التأويلي للعناصر النباتية من أوراق وأغصان وأزهار وثمار في تشكيلات إبداعية.
- **الزخارف الهندسية (التسطير)**: الإسقاط التأويلي لتكوينات ومواقع النجوم والكواكب، والقراءة الهندســـية للمعادلات الرياضية.
- **الخط العربي (الكتابة)**: ركوب الحرف العربي (هو رسم للغة القرآن) لتبليغ عبارات الشكر والتبجيل أو المدح والتذكير.

الفنان المسلم يُخضع دائما إبداعاته للقناعة الدينية، بالتركيز على التدليل وإثبات أبدية وسرمدية الوجود الإلهي الواحد الأحد، مبتعدا عن فكرة مضاهات الخالق في الخلق، متقربا إليه من خلال تواصلية الخط وعدم انقطاعه كيفمـــا كان، مُنحنيا (الزخارف

الـــنباتية) أو مُستقيما (الزخارف الهندسية). فالناظر لأي إبداع من النمطين الســـالفين تسرح عينه في الشـــكل التواصلي لبنية التكويـــن النابع من خلال مرتكز «التكرار والتماثل»، وكذلك «الرؤية الجمالية الشاملة» للخط المؤسس لهذا الإبداع.

هذان المرتكزان في الإبداع هما أساس كل نتاج فني تتمحصه العين على امتداد الرقعة الجغرافية من أقصى الشـــرق إلى أدنى الغرب، ما يثبت التواجد المتكرر والرؤية المتماثلة لدلائل الفن الإسلامي (مبدأ الوحدة) مع اختلاف التقنيات (مبدأ التنوع).

وقد حرص الفنان المســـلم على التزامه وركونه لخط جمالي موحـــد أخذت فيه تمثيل ثنائية الوجـــود (الظل والنور) المركز الأساسي. ففي مســـار استقراء التذوق الجمالي للفن الإسلامي غالبا ما تَلَبس المتأملَ أحاسيسُ مشحونة بمتعة التعرف واكتشاف رمزية كنه المنظور من خلال لعبة الظل والنور، الأبيض والاسود، الكتلة والفراغ.. هذه المفاهيم التي تطلبت لترســـيخها وجعلها كائنا ملموسا في الإبداع، الارتكاز إلى ما يلي:

١. **المعرفة**: وتنقسم إلى ثلاث تصورات:

أ- التصـــور الفني الكلـــي: المعرفة التامة بمادة الاشـــتغال، والتقنيات الضرورية لها، وكذلك المعرفة القبلية للشكل النهائي للتحفة المبدعة. فهناك على طول خطوط الإبداع والخلق الفني وجود حتمي لمفهوم التوازن.

بـــ- التصـــور الاحتياجي: المعرفة التامـــة بالحاجة النفعية للقطعة الفنية. وعليه بناء التصور الجمالي مراعاة لذلك.

جـــــ- التصور الجمـــالي: المعرفة الكليـــة بارتباط التحفة والمكان. وعليه الاشتغال ضمن مساق إبداعي متكامل.

٢. **حَيثيّات الاشتغال**: وهي على مرتكزين:

أ- المادة المشـــتغل عليها: نظرا لشســـاعة الرقعة الجغرافية للوجود الإسلامي ألم الفنان المسلم ومنذ البدايات الأولى بمعرفة التركيبات المفردة أو الكلية للكثير من المواد سواء كانت أرضية أو بحرية، واســـتطاع أن يستشف من الخامات بنيات تشكيلية زخرفيـــة ممتطيا صهوة الرمزيات الدينية في كيفية الاســـتعمال وتراتبية التكوين الإبداعي.

بـــ- النماذج الزخرفية: بالدخول في بنية التراكيب الزخرفية للفن الإسلامي لا يجد المتأمل نفسه إلا وكأنه في متاهة لا حدود لها، ففي هذا الفن الذي يؤسس له بمطلع القرن الثاني الهجري / الثامن الميلادي وإلى الوقت الحالي وما شاء الله من الزمن، هناك وحدةٌ في العناصر البنيوية للزخرفة وتنوعٌ في التراكيب المظهرية للنماذج / الأشـــكال الزخرفية، تطبع هذا الفنّ بطابع الديمومة والتميز، وتعطيه دفعا ذاتيا متواترا.

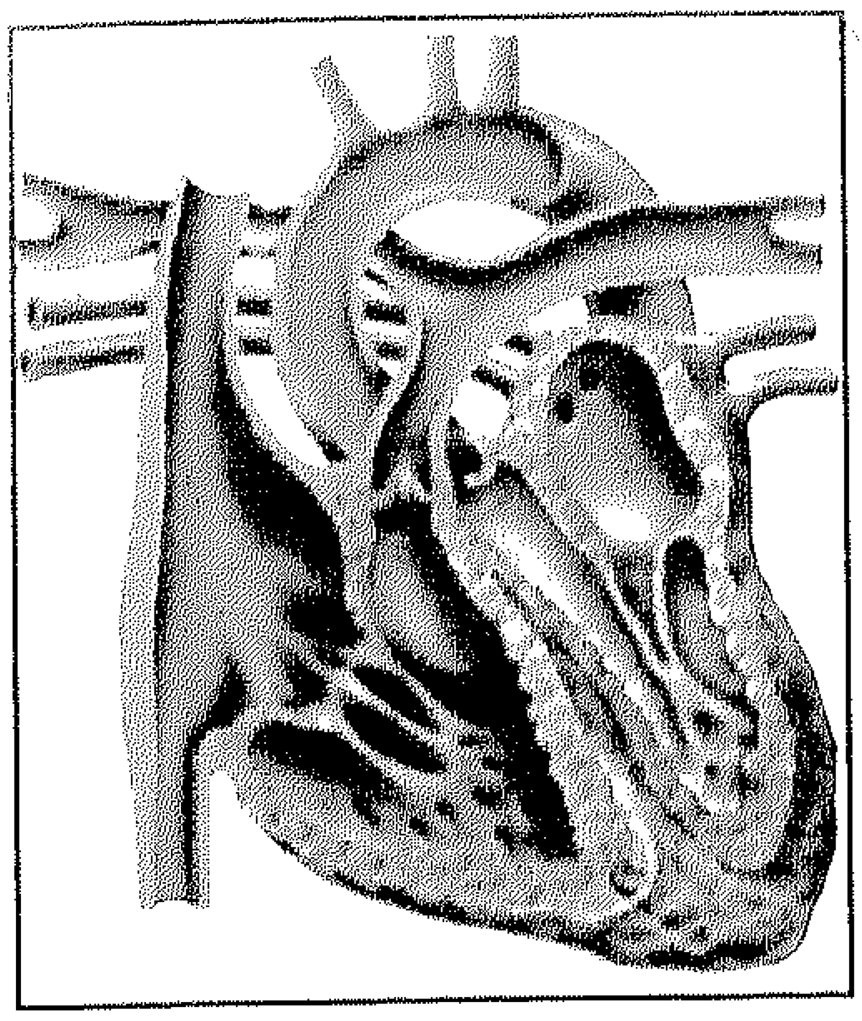
٣. **التمكّن التقني**: وهي ثقافة مكتسبة يتمكن منها الفنان بالتعلم والممارسة، دافعه الداعم دعوة الدين الحنيف وحثه على العلم والتعليم، وكذا تقدير اليد العاملة المجدة والمتقنة للعمل.

٤. **الأدوات الرمزية**: للتعبير عن قناعات المتخيَّل الداخليّ، وللوصول إلى أرقى درجات السمو الروحي في محاولة لإدراج العطـــاء / الإبداع ضمن مقومـــات التقديس والتبجيل للذات الإلهية، وعلاقـــة الدنيوي بالأخـــروي، وكذلك علاقة الخلق بالخالق، جاء الارتكاز على مجموعة مفاهيم رمزية لتأويل كل مكون من مكونات الجملة الإبداعية، ســـواء كان الفعل عطاء (الابتكار والإبداع الفني) أو تلقيا (التذوق والاستقراء).

فبخلاف ارتباط الممارســـات الفنية لما قبل الإسلام بالذات الإنسانية ومخاطبة الغرائز في البعض منها، وكذلك الارتكاز على العقل فقط في الاستقراء والتأويل، الفن الإسلامي له ارتباط وثيق بالتوحيد، والفعـــل ورد الفعل لهما نفس المنطلق ونفس المرجع (الوحدانية والتوحيد) ضمن توصيف مبني على:

- **الإطار**: محاولة التقرب من الخالق بالخلق في احترام النســـب الجمالية والتأويل الرمزي.
- **السند**: كل مقومات الفكر الديني للوصول قدر الإمكان إلى قمة التوحيد والتبجيل للذات الإلهية.
- **المادة**: البحث والتمحيص للرقي بمادة الاشتغال من البساطة (الحالة الدنيوية) إلى الكمال (الحالة الأخروية).
- **التقنية**: مجموعة الأفعال وردالها على كل إشـــكالية تعترض العملية الإبداعية.
- **التاريخ**: جدلية الخلق والابتكار، وعدم الخصوصية، فالقطعة الفنية هي ملك للتاريخ وليس للشخص المبدع.
- **الفكرة الأساسية**: طريقة التعبير عن التعبد والتوحيد وإلزامية اليقين بـــ «لاإله إلا الله».
- **العمل الفني**: قطعة إبداعية رغم تحديدها وتأطيرها هي انفتاح على اللانهاية للدلالة على السرمدية والأبدية.
- **الإشكالية**: تشخيص ثنائيات الوجود، وأخُصّ بالذكر -كما سلف- الظل والنور، البياض والسواد، الكتلة والفراغ لإلزامية ذلك في خلق التوازن الجمالي داخل الوحدة الصغيرة (القطعة الفنية) لتكون امتدادا للوحدة الكلية (الكون) دون نشاز.

(*) جامعة البلقاء التطبيقية، كلية الفنون الإسلامية - الأردن.



أنا قلب عبد الله

أ.د. عرفان يلماز *

لقد بدأتُ بالعمل قبل أن تولد أنتَ بشهور. ولا أدري هل فكّرت واستمعتَ لي وقلت: «ما هذا الذي ينبض في صدري على الدوام دون أن يرتاح دقيقةً واحدة؟» إنني عضو في صدرك وأُعَد محرِّك جسدك وقد سمّوني بـ«القلب».

لقد أحسستُ الآن وأدركتُ بعد مضيّ سنوات عديدة أنك لم تقم فيها بالاستماع إليّ، و لم تحمل فضولاً وشوقا لمعرفتي. لذا رأيتُ أن هناك حاجة لقيامي بنصيحتك.

بعد مضيّ ١٩ يوما فقط على كونك جنينا في رحم الأم بدأ خلقي من كومة خاصة من الخلايا. كنتُ في أوّل الأمر شبيها بأنبوبة، ثم بدأت ألتفّ شيئا فشيئا، وبدأت عملية خلق خلاياي والأوعية الدموية المجاورة لي. والحقيقة أننا خُلقنا مع سائر خلايا الجسم تدريجيا من خلية واحدة، ثم بدا ظهورُ الاختلافات بَين الخلايا والتخصّصات فيما بينها. وتغير أصدقائي من الخلايا الأخرى وهي ولا زالت بعمر بضعة أيام، لكي تقوم كلٌّ منها بوظائف مختلفة ولتتحول إلى جلود وغضاريف وعضلات... الخ. أما خلاياي فقد تمت بَرمَجتها بشكل خاص، وعندما بلغَتْ في اليوم الثاني والعشرين إلى عدد معين وصارَتْ كتلة معينة تلقينا أمرا بالبدء في عمل لا نعرف متى ينتهي. وأنتم تُطلقون اسم «النّبض» أو «ضربات القلب» على الصوت الناتج من الحركة الجماعية لانْكماش خلاياي.

صحيح أن عبد الله لا يلتفت ولا ينتبه لنبضنا هذا. ولكنني أضطر إلى زيادة هذه النبضات أو الضربات عندما يركض عبد الله، لكي أوفّر لعضلات رجليه كمية أكبر من الدم. عند ذلك فقط ينتبه عبد الله إليّ، ولكنه لا يُعير أي اهتمام لهذه المسألة، ويَخال -لغفلته- أنني سأقوم بهذه الوظيفة إلى الأبد وكأنني لا أتعب. لِنقُلْ إن هذه غفلة بسيطة نتيجة حداثة سنه وشبابه، ولكنَّ غفلته الكبرى هي أنه لا يفكر: كيف وجدني؟ ومن وهبني له؟ أي عدم تفكيره في الخالق تعالى الذي خلقني وأهداني إليه. وهذه هي الغفلة التي لا أستطيع قبولها، مع أنه يدرس الآن في المدرسة الثانوية ويتلقى هناك بعض المعلومات عني في درس علم الأحياء (البيولوجيا). والذي يغيظني أكثر أن هذه الدروس تصورني وكأنني مجرد مضخّة اعتيادية، علما بأنه لولا قيامي بضخ الدم إلى دماغه لَما استطاع أن يحرك إصبعا من أصابعه. ولكني سأقوم اليوم بدعوة عبد الله إلى التفكير وإعلامه بأنني لست مجرد قطعة لحم، وأدعوه للتعرف على خالقه وإلى الاهتمام بجانبَي المادية والمعنوية كذلك، وإلا فإن نهايته ستكون وخيمة؛ لأنني صديقه، وقد يكون كلام الصديق مؤلما في بعض الأحيان، ولأنني أريد أن يلم نفسه ويستجمعها وهو لا يزال في مقتبل العمر ونضارة الشباب.

متى أتوقف

إن جميع الخلايا (وهى تبلغ ١٠٠ تريليون خلية تقريبا) يجب أن تقوم بعمليات التغذية والتنفّس والهضم وبطرح الفضلات والقيام بوظائف خاصة. كل هذه الخلايا في حاجة إليّ، تُرى لماذا؟ لأن كل هذه الحاجات تُلبّى بفضل عملي الدائب. لذا أقوم بالعمل قبل جميع الأجهزة والأنظمة الأخرى الموجودة في الجسم منذ المرحلة الجنينية؛ أي منذ كون الإنسان جنينا في بطن أمه. ولا أدري مقدار المدة التي سأعمل فيها؛ لأنني -وإن كنت في صحة وعافية- فإن المَلَكَ الذي يأتي بالأمر من ربّه إن قال لي: «قف!» اضطررت إلى الوقوف والتخلي عن القيام بوظيفتي. ولكن ملك الموت لا يوقفني عن العمل في العادة دون سبب، فلا بد من وجود سبب.

وهناك أسباب عديدة جدا لتوقفي، ولاسيما في هذا العصر. والحقيقة أنني أيضا مذهول من كيفية عملي. وهناك بعض التدابير التي أدخلت في البرنامج الذي تم وضعه في داخلي ضد

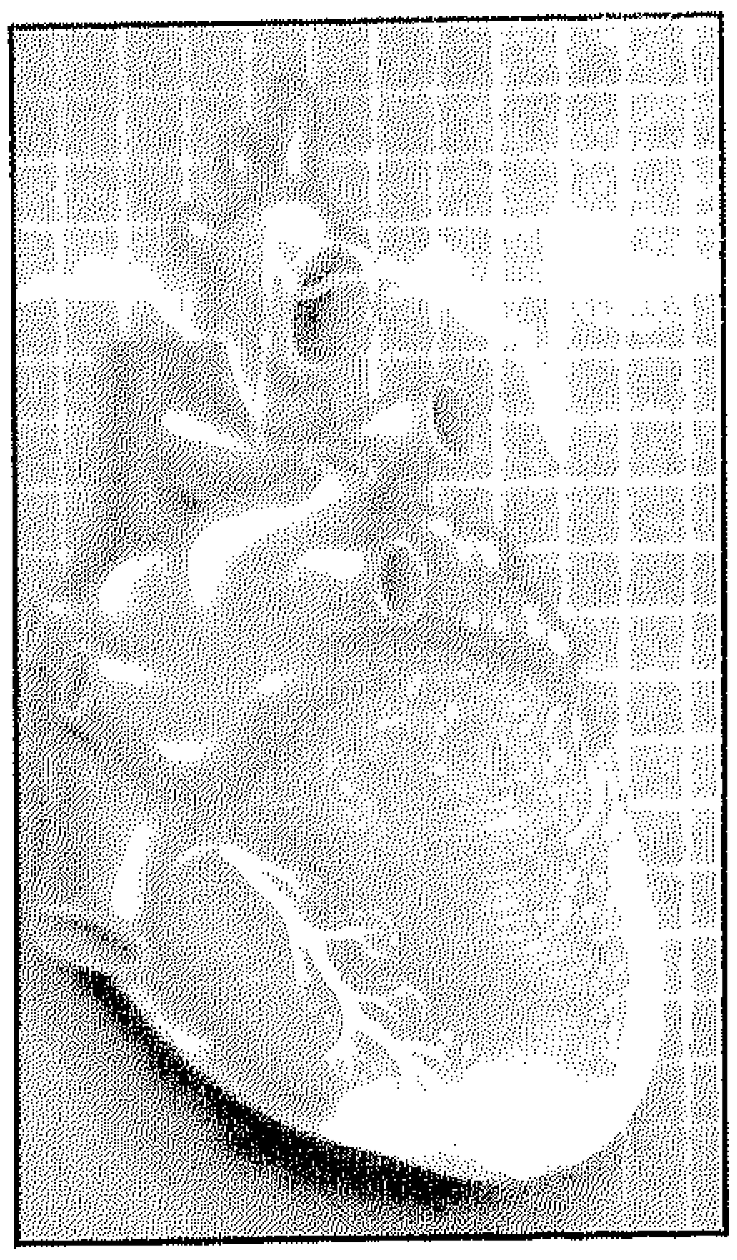
فقـد الدم في حوادث المرور أو عنـد حصول الجروح أو عند انقطاع بعض الشـرايين. ولكن إن لم يتم تعويض الدم المفقود بعد مدة من حصول الجرح ولم يتم سد هذه الجروح فإنني قد أتعب وأتخلى عن القيام ببعض وظائفي.

انتبه يا عبد الله! أقول لك مرة أخرى، إن أكبر إسـاءة إليّ تصـدر منك. وعندما أتعب في يوم من الأيام وأتوقف عن أداء عملي فلا يحق لك أن تشتكي مني أو تعاتبني. أنت مشغول على الدوام بأكل الأغذية الدهنية، لذا فإن جارتي المعدة تشكو منك علـى الدوام، لأنك تملؤها كثـيراً. وعندما تنتفخ المعدة تتقدم بطلب المساعدة مني وهذا يُتعبني. ولا أدري ألم تسمع الحديث النبوي «ما ملأ آدمي وعاء شـرا من بطن، بحسـب ابن آدم أكلات يقمـن صلبه، فإن كان لا محالـة فثلث لطعامه وثلث لشـرابه وثلث لنفَسه» (رواه الترمذي). أنا لا أعترض على تناولك الخضراوات. ولكـن ما هذا النهم للمعجنـات، وللحلويات الدَّسِمة، وللمقليات ولأنواع الكباب؟! انتبه وكن حذرا! وإلا فإنني سأضع قائمة طويلة من نقاط المحاسبة أمامك. ولكن قد يكون الآوان قد فات آنذاك. أجل! إنني أتفهم أن تأخذ نصيبك من متع الدنيا، ولكن لكل شيء حدود وضوابط. ولو واصلت على هذا المنوال لصعب على صمامـاتي القيام بالحركة نتيجة تراكم الدهون عليها، ولانسـدّت أوعية الدم الرئيسية عندي. ونظرا لأن الشريان التاجيّ عندي رقيق فهو معرَّض للانسداد في مدة قصيرة، وهذا سيؤدي إلى أنني سأواجه أزمة نتيجة عدم –أو قلة– وصول الأغذية إليّ. وهذا تنبيه هام لك.

تنبيهات هامة

أنت تجلس يا عبد الله أمام التلفزيون من الصباح إلى المساء، أي إن حركاتك قليلـة ومحدودة، ولولا خجلك ممن حواليك لذهبت إلى البقال بالسـيارة. وأنا أنصحك أن تقوم كل يوم وفي ساعات محددة ببعض التمارين الرياضية. وهناك بعضٌ من أصدقائك عندما يقومون بعبادة خالقهم يقومون بحركات تحفظ صحتي وعافـتي، وإن كانت في حدها الأدنى. أي إنهم يؤدّون وظيفـة العبودية لخالقهم بـروح مطمئنة من جهة، ومن جهة أخرى يجعلونني في وضع أفضل. ونظرا لقيامهم في شـهر معين من شهور السـنة بالامتناع عن الطعام والشراب في ساعات معينة من اليوم، فإنني أجد فرصة للراحة، حيث يتيسـر آنذاك حرق بعض الدهون كذلك.

ونظراً لأن الألياف العضلية التي تشـكّل معظم جسـدي



موجودة في كل اتجاه بشـكل كرة من نسيج معقَّد، فإنني أقوم بحركات الانكماش والانتفاخ بسهولة ودون أن يتغير شكلي بصورة كبيرة. وهكذا أستطيع العمل في مـكاني الموجود في التجويـف الصـدري براحة ويسر. ولكي تتم الحيلولة دون تهرُّؤ وتآكل سـطح جدراني –في أثناء حركاتي– بسـبب احتكاكها بالقسـم الداخلي من القفص الصدري الذي يقوم بحمايتي وينحني عليّ مثل سـقف حافظ، فقد تم تغليف هذه الجدران بنسيج ذي طبقتين، ووضع سائل بين هاتين الطبقتين. وهكذا يقل تأثير الاحتكاك إلى الحد الأدنى، وتتم الحيلولة دون تآكل هذه الجدران. وأنشـدك الله يا عبد الله! فكِّر قليلاً وقل لي: من يستطيع أخذ كل هذه التدابير؟

كيف أعمل

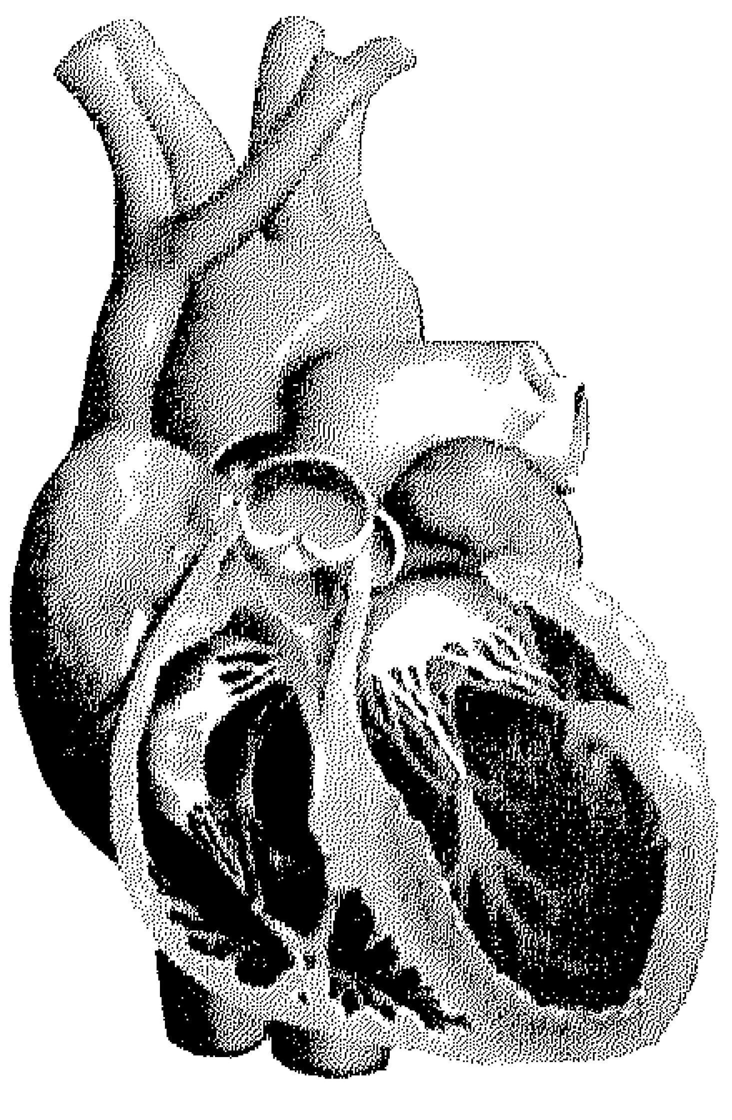
وعلى غرار السـيارة التي تعمل بمحركات أربع فإنني أعمل كمضخّة فيها أربع غرف، ويطلق اسم «الأذَين» على الغرفتين العلويتين. ويدخل إلى الغرفة اليمنى منهما الدم الفاسـد الآتي من الجسـم، بينما يدخل إلى اليسـرى الدم النظيف الآتي من الرئة. وقابلية الضخ لعضلات هاتين الغرفتين ضعيفة ولا تكفي إلا لدفـع الدم إلى الغرفتين السـفليتين. أما عضلات جدران الغرفتين في الأسفل (ويطلق عليهما البطَين) فهي قوية وسميكة، وتسـتطيع التقلص بقوة كبيرة وتوليدَ ضغط كبير، علماً بأن قوة تقلص الغرفة الموجودة على اليسار أكبر وجدرانها أسمك. وعندما تتقلص هذه الغرفـة تَدفع كل الدم الموجود فيها بقوة كبيرة وتُرسـله إلى جميع أنحاء الجسم. وأنا أرسل الدم بواسطة الشريان الرئيسي الكبير ذي الجدران السميكة (ويدعى الشريان الأبهر) إلى جميع أعضاء الجسـم بالكمية وبالسرعة اللازمتين. ومن المهم جداً تقلص هذه الغـرف الأربع الواحدة منها تلو الأخـرى في وتيرة زمنية ملائمة، وانتفاخُ الصمامات الموجودة بينهما في هـذه الأثناء بالضبط واندفاع الدم بين هذه الغرف، أو اندفاعها إلى الشـريانين الرئيسيين في الوقت المناسب تماما، كما أنه يجب انغلاق الصمامـات في الوقت الملائم تماما كي لا يعـود الدم من الأماكن التي أرسـل إليها. ويتم تنظيم هذه

التوقيتات بواسطة عقدة عصبية تعمل بشكل آليّ وهي موجودة على سطحي، وتعمل هذه العقدة على إنتاج تيار كهربائي منظم. ولو حدث أي خطأ في توقيت فَتْح وغَلْق هذه الصمامات، أوْ إذا لَمْ تفتح أوْ تنغلق هذه الصمامات بشكل جيد نتيجة تراكم وزيادة الكلس أو الدهون وتم تهريب بعض الدم. فهذا يعد أحد أمراض القلب، أي أحد أمراضي.

ولمنع تراجع الصمامات الموجودة بين الأُذَين والبطين إلى الخلف نتيجة الضغط المسلَّط عليهما رُبطت هذه الصمامات بحبال ملصقة بأسفلها بالقسم أو الوجه الداخلي لجدران البطين بشكل قوي ومتين. وطبعاً أنت لا تدري شيئاً عن هذا. وأنا أستمر في العمل حتى في أوقات نومك. ومن الطبيعي أنني أغيّر من حين لآخر سرعة عملي (أي سرعة نبضي) حسب العمل الذي تقوم به. فعندما تكون نائماً تكون هذه السرعة منخفضة، وعندما تستيقظ أو تتناول الطعام تزداد هذه السرعة. أمّا إن عَدَوْتَ أو مارست رياضة عنيفة فالسرعة تزداد أكثر فأكثر لكي أرسل الدم إلى كل أعضائك.

وقد تسأل عن الوَقود الذي أحرقه في عملي فأقول بأنني أستعمل في غالب الأحوال بعض الأحماض الدهنية مثل حامض اللاكتيك والسكريات. وبفضل عمليات الأيض الخاصة بي فإنني لا أشعر بالتعب.

وبين كل عملية تقلص وانبساط أرتاح لمدة عُشْر الثانية. وهي مدة قصيرة جداً كما ترى. ولكي أستطيع القيام بتوليد ضغط فعّال يجب تقلص ألياف العضلات جميعها في وقت واحد ثم انبساطها كذلك، وهذا يستدعي ورود أوامر التقلص والانبساط في دورات زمنية محسوبة بدقّة شديدة. والحقيقة أنني أيضاً لا أعرف بالضبط كيفية إنجاز هذه العملية الدقيقة. فلكي تقوم الخلايا الموجودة في المركز الصغير المودَع فيَّ بإنتاج الإشارات الكهربائية، يجب وجود فرق في توازن الأيونات بين خارج وداخل خلاياي، ثم إعادة تشكيل هذا التوازن مرة أخرى. وتتم هذه الأنشطة والتفاعلات في زمن قصير جداً يبلغ واحدا من ألف من الثانية. ومع أن هذه الخلايا تقوم بإنتاج الكهرباء وبتشغيلي فإنني لا أُعدّ حراً تماماً، لأن من العوامل المهمة التي تؤثر على عملي وجودَ بعض الأعصاب المرتبطة بالدماغ. لذا فعندما تخاف أو تغضب أو تحزن يصاب نظام عملي بالخلل.



ورغم أن الحزن والغضب يحصلان في الدماغ إلا أن تأثيرهما يظهران عندي وهذا هو -في الغالب- السبب وراء ظن الناس السابقين بأن مراكز العديد من الأحاسيس موجودة في القلب.

مسك الختام

سأسألك يا عبد الله سؤالاً بسيطاً: «أهناك مهندس قام بصنع التلفزيون الذي تجلس أمامه؟ وهل هناك أناس كتبوا المقالات في المجلة التي تمسكها بيدك ونضّدوا كتابتها ورسموا رسومها ووضعوا كلا في مكانها الصحيح؟ هم موجودون أليس كذلك؟ إذن ألا يستدعي هذا وجود من خلقني وخلق الشرايين والأوردة المتصلة بي بصورة تلبي جميع حاجاتك وهو أمر أكثر تعقيداً وكمالاً بآلاف المرّات من التلفزيون؟

مَرْحَى لك يا عبد الله! فكما أقوم أنا بإيفاء وظيفتي دون خلَل لكي تستمر في الحياة، قم أنت الآن بإغلاق هذا التلفزيون وخصّص عشر دقائق لخالقك الذي خلقك في أكمل صورة. وهكذا أستطيع أن أبَدّد عني بعض الضيق الذي أصبتُ به من جراء توترك النفسي، وأرتاح قليلاً.

لم أستطع يا عبد الله في هذه الصفحات القليلة إلا شرح واحد بالألف من دقّة خلقي ومن النظام الدقيق لبنيتي، ومن خطورة المهمة التي أقوم بأدائها. أما الشرح الكامل والمفصل فلا أستطيعه ولا يكفي لذلك علم الأطباء والحكماء. ولكن جزاهم الله خيرا فهم يحاولون شرح الأسرار الموجودة عندي.

والآن هيا يا عبد الله وقُم بمطالعة دروسك وكن في المستقبل عالماً مرموقاً، وحاول اكتشاف بعض أسراري المجهولة، وقم بنصح الناس حول أفضل الطرق للتعامل معي واستعمالي. ولكن قبل هذا، عليك أن تملك فضولاً وفكراً ورغبة في معرفة الحقائق، ثم التفكير الصحيح، وأن تتعلم النية الصحيحة والنظر الصحيح. أي عندما تقوم بتدقيقي، عليك أن تتعود قول: «ما أجمل خلقه!!» بدلاً من: «كم هو جميل». وبدلاً من التوقف عند ملاحظة النقوش والفنون الجميلة الموجودة فيّ، عليك أن تصل إلى أفق التفكير في سؤال: «من الذي صنع كل هذه النقوش؟». فعند ذلك سيَتيسّر كل شيء، وسيكون لكل شيء في الحياة معنى خاصّ، وستتذوّق حلاوة هذا الأمر وتصل إلى الطمأنينة وتكتسب قوة وقدرة تستطيع بها تحدي الكون كله.

(*) جامعة ٩ أيلول – تركيا. الترجمة عن التركية: أورخان محمد علي.

موازين

أيها الشاب! توقف لحظة... استمع إلى نبضات قلبك وأنفاس وجدانك، وتهيأ لمحاسبة نفسك. انهض واستقم بنور الإيمان المشع في أعماقك، وسر في طريق النور المنبثق من روحك والممتد إلى حضرة الحق سبحانه. فهذا الطريق الذهبي يتجاوز الزمان والمكان. ولن تعرف الحقيقة التي تحتضن روحك أو الغاية المقدسة التي تتلألأ في قلبك إلا في هذا الطريق.

* * *

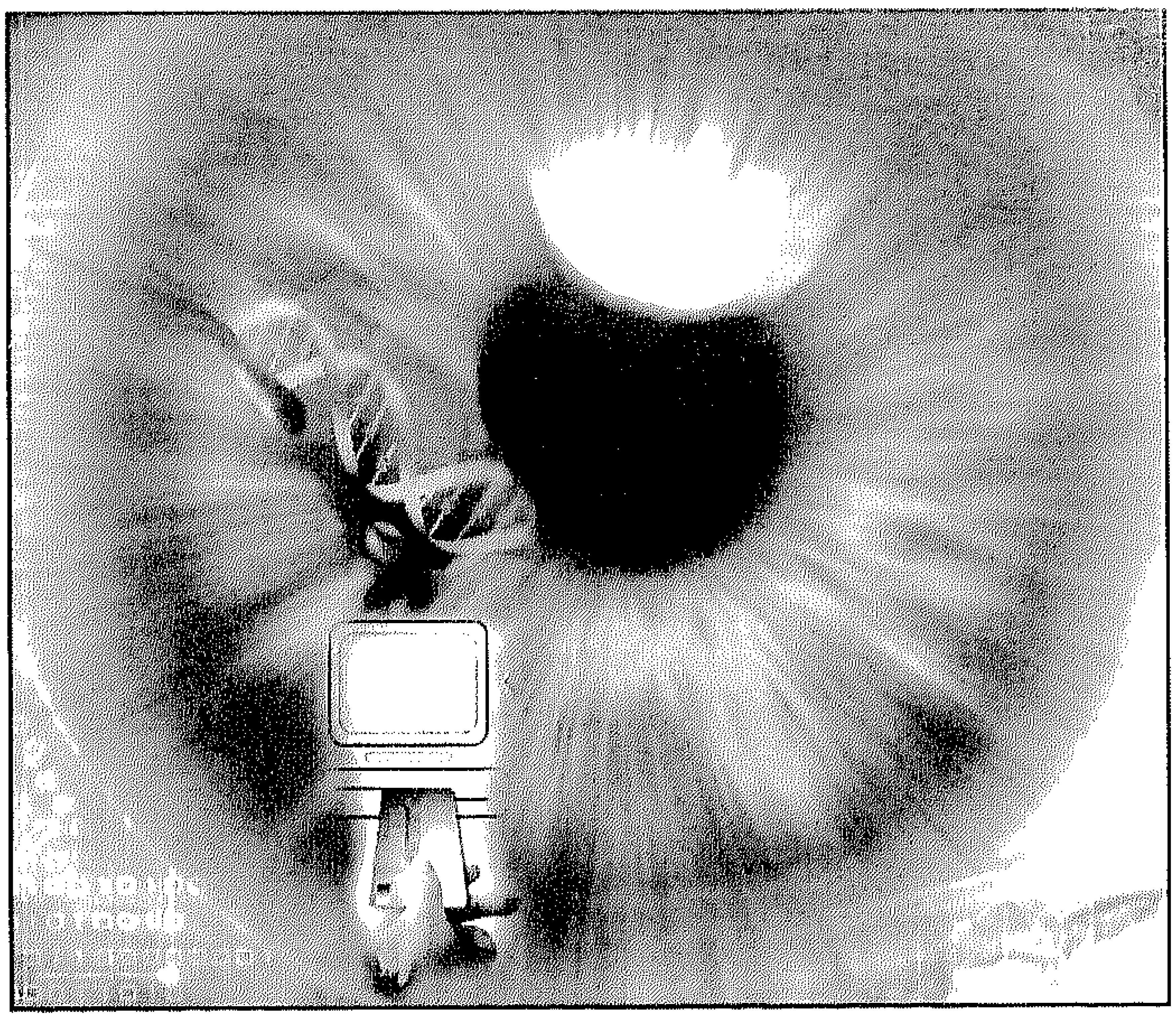
أيها الشاب! لتكن خطوتك الأولى في هذا الطريق اكتشاف حقيقتك... اعرِفْ من أنت ومن تكون، ثم سِرْ على بركة الله ولا تتراجع قيد أَنملة... إنّ كل جهد في هذا الطريق يبعث في قلبك أمجادا نسيتها، ويكشف عن حقائق تراكمت عليها الرمال، وترى في ضوء الإيمان المشع في قلبك أن أرجاء الزمان والمكان قد استضاءت بأمواج الأنوار الساطعة من الآفاق البعيدة.

* * *

أيها الشاب! إذا عزمت على سلوك هذا الطريق الشاق اللذيذ فحدد هدفك أولا. وتبين طبيعة عملك جيدا، وضع لنفسك نظاما محكما، ثم امضِ بجد لا نكوص بعده، وثبات لا تهاون فيه. آنذاك لن تحار أثناء السير ولن تتوه أبدا، ولن تثبط العقبات عزيمتك، ولن يجد اليأس إلى قلبك سبيلا.

* * *





تأملات جديدة في علاقة المعرفة بالقيم

أ.د. خالد الصمدي *

من حكمة الخالق البالغة أن بدأ رسالة الإسلام باختبار القيم في سلوك أول جيل من أجيال البشرية (ابنَي آدم) قال تعالى ﴿وَاتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ ابْنَيْ آدَمَ بِالْحَقِّ إِذْ قَرَّبَا قُرْبَانًا فَتُقُبِّلَ مِنْ أَحَدِهِمَا وَلَمْ يُتَقَبَّلْ مِنَ الآخَرِ قَالَ لأَقْتُلَنَّكَ قَالَ إِنَّمَا يَتَقَبَّلُ اللهُ مِنَ الْمُتَّقِينَ ۞ لَئِنْ بَسَطْتَ إِلَيَّ يَدَكَ لِتَقْتُلَنِي مَا أَنَا بِبَاسِطٍ يَدِيَ إِلَيْكَ لأَقْتُلَكَ إِنِّي أَخَافُ اللهَ رَبَّ الْعَالَمِينَ﴾ (المائدة: ٢٨).

ولم تكن القرابين إلا نتيجة المعرفة المكتسبة لكل من الأخوين، والتي ارتبطت عند الثاني بالقيم حين قال ﴿إِنَّمَا يَتَقَبَّلُ اللهُ مِنَ الْمُتَّقِينَ﴾. فالتقوى عاصمة من تحويل العلم والمعرفة إلى سلطة شر، وانفصلت عن القيم عند الأول الذي قال لأخيه ﴿لأَقْتُلَنَّكَ﴾ معتبرا أن الخبرة المعرفية كافية لقبول العمل دون اعتبار قيمة التقوى والخوف من الله.

وقد طبع النموذجان مسيرة البشرية إلى قيام الساعة، ولذلك لم تفتأ الرسالات السماوية تعمل على ترسيخ النموذج الذي يربط المعرفة بالقيم عن طريق التربية، وتحذر من النموذج الذي يفصل بينهما لما له من آثار سلبية في الحال والمآل، ولذلك ختمت هذه الرسالات، برسالة محمد ﷺ التي كانت أول آية نزلت فيها قوله تعالى ﴿اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ﴾ (العلق: ١). وهذا الربط في الرسالة الخاتمة بين القراءة واسم الله (الربّ) الذي يرتبط في البعد الاصطلاحي بالتربية، يجعل الإسلام لا يقر بفائدة أي علم منفلت عن القيم.

ومن هنا ارتبطت العلوم بشتى فنونها كإنتاج للمعرفة في المنظور الإسلامي بالقيم، وتكون فائدتها في تدبير شؤون الحياة أكثر فائدة حين تتجاوز منطق السيطرة على الكون وإخضاعه لسلطة الإنسان، إلى العلم بالخالق وخشيته. وبذلك تضع نتائجُ المعرفة الباحثَ (الإنسان) على سكة الترقي نحو القيم المطلقة من الإسلام إلى الإيمان إلى الإحسان.

وحين تقف نتائج العلوم عند حدود سيطرة الإنسان على الكون بمعزل عن القيم، فإن هذه السلطة تتحول إلى توهم السيطرة، وتوهُّم السيطرة تجلى في عقلية قارون حين قال مزهوا بممتلكاته ﴿إِنَّمَا أُوتِيتُهُ عَلَى عِلْمٍ عِنْدِي﴾ (القصص: ٧٨). فكان التعقيب الإلهي ﴿فَخَسَفْنَا بِهِ وَبِدَارِهِ الأَرْضَ فَمَا كَانَ لَهُ مِنْ فِئَةٍ يَنْصُرُونَهُ مِنْ دُونِ اللهِ وَمَا كَانَ مِنَ الْمُنْتَصِرِينَ﴾ (القصص: ٨١). فالعلم الذي اكتسبه ضخّم أنانيته فتوهم القدرة والسيطرة، فتحول العلم في هذه الحالة من مدرج مفتوح للترقي نحو القيم المطلقة، والمحبس في كنف المادة مما ينافي طبيعة العلم ذاته. والمادة وسيلة للعلم وليست غايته ومقصده، ومن طبيعة العلم الانطلاق نحو السباحة في الملكوت، وهو يتجاوز الإنسان إلى

سائر ملكوت الله، ولا يملك الإنسان من العلم المطلق إلا مقدار الماء العالق بالمخيط إذا أدخل البحر.

والخلاصة أن العلم وسيلة لتدبير شؤون الحياة، وهو في الآن اللازم وسيلة لمعرفة الخالق. والترابط بين الوسيلتين يجعل العلم في خدمة الإنسان، والانفصال بينهما يؤدي إلى انتكاسات تغرق البشرية في حمآت من الكوارث. والنماذج تترى في مسيرة البشرية، ويكفي أن نذكر في عصرنا الحديث باستخدام نتائج البحث العلمي في إنتاج أسلحة الدمار الشامل وإلقائها على الأبرياء في هيروشيما ونكزاكي وفلسطين والعراق والشيشان وأفغانستان وغيرها من بؤر التوتر في العالم. ولا يزال العالم يتوقع أمثال هذه الممارسات في وقت تزداد الهوة فيه اتساعا بين المعرفة والقيم ولا يقام فيه وزن للأخلاق والتربية، بل ويعتبر البعض كل ذلك معيقا لحرية المعرفة، في حين نرى أن حصر مقاصد المعرفة في تلبية غريزة السيطرة لدى الإنسان يعتبر أكبر معيق في وجه تطورها وانطلاقها.

ومما يتفرع عن هذه النظرة من نتائج أن كل علم من علوم تدبير الحياة بما فيها ما يصطلح عليه بعلوم الشريعة الإسلامية، ترتقي درجته ويرتب في سلّم الأولويات بالنسبة لحاجة البشرية بقدر ما يسهم في تيسير سبل الحياة، ويسعى في نفس الآن إلى الترقي في سلم القيم المطلقة في رحلة العودة من الأرض إلى السماء، وتلك رسالة التربية ودورها كما سنوضح بتفصيل في رؤيتنا الجديدة لفلسفة التربية الإسلامية كمساحة لحركة المفاهيم بناء وممارسة.

الإطار الفلسفي للتربية الإسلامية

معلوم أن النظرية التربوية الإسلامية من حيث أسسها ومبادئها العامة أسهمت بشكل كبير في صياغة نظرة الإنسان إلى نفسه ومن ثم إلى الكون والحياة والمصير، سواء أكان مسلما مؤمنا بأصول هذه النظرية ومنقادا لأحكام الإسلام بفهم سديد ورأي رشيد، أو مستفيدا من هذه النظرية من باب الاطلاع على التجارب والخبرات المختلفة كما نجد عند كثير من المفكرين والكتاب المهتمين بالتربية المنتمين إلى مختلف المدارس الفكرية وخاصة المنفتحة والمنصفة منها. ونجد أنفسنا في هذه التأملات نثير تساؤلات نتلمّس معالم الإجابة عنه في مقاصد الشريعة الإسلامية فنقول:

- ما علاقة القيم الإسلامية بالأحكام الشرعية؟ وهل يمكن الاتصاف بالقيم دون الالتزام بالأحكام؟
- لماذا شرعت الأحكام وكلف الإنسان بها؟ وهل المقصود شرعا هو إتقانها والالتزام بها في حياة الإنسان فقط أم أن هناك مقصدا أسمى؟
- هل تستهدف التربية الإسلامية تربية النشء على أداء الشرائع والأحكام في بعدها المعرفي والتطبيقي، أم إن الشعائر والأحكام ليست إلا وسائل قد تحقق التربية إن قدمت بمنهج يمزج بين المعرفة والوجدان والسلوك وقد لا تحققها إن قدمت بالمنهج المعرفي الصرف؟
- إذا كانت إعادة التربية هي الوسيلة التي تعيد الإنسان إلى مركز الفلاح (الجنة) الذي تبوأه قبل هبوط آدم من الجنة، فما هي المحطات الأساسية لمسيرة العودة وما دور الأحكام الشرعية فيها؟ وهل دعوة الرسل كانت إلى الأحكام كمقاصد أم كوسائل للترقي نحو القيم؟

للمساهمة في الجواب عن هذه الأسئلة نسوق هذه التأملات.

فلسفة إعادة التربية من الاختبار إلى المصير

إن هذه السؤالات وما يمكن أن يتفرع عنها يعيد من جديد سؤال التربية إلى الواجهة وفق سلّم يقتضي كثيرا من التفكير والتحليل ثم إعادة البناء بما يمكن أن يعيد تشكيل العقل المسلم ويرتب أولياته ويركز مجهودات الإصلاح على الأهم فالأهم.

وتفسير ذلك أن الإنسان نزل من الجنة لخلل أصاب جهازه التربوي عند الاختبار (مخالفة سلوكية) رغم قوة التكوين المعرفي، قال تعالى ﴿وَعَلَّمَ آدَمَ الأَسْمَاءَ كُلَّهَا﴾ (البقرة: ٣١) وغاية نزوله إلى الأرض إعادة تصفية جهاز القيم عن طريق التربية وغسل درن المخالفة بالهدى، قال تعالى ﴿فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُمْ مِنِّي هُدًى فَمَنِ اتَّبَعَ هُدَايَ فَلاَ يَضِلُّ وَلاَ يَشْقَى﴾ (طه: ١٢٣) ليعود مَن تفوق في اختبار إعادة التربية إلى مكانه الأصلي الطبيعي (الجنة) وقد صفت قيمه، وتنفي النار درن المخالفة عن المخطئين في تطبيق وصفة العلاج (الأوامر والنواهي الشرعية)، كما تنفي الصدأ عن الحديد، ليعودوا بعد مغفرة الله ومنّه إلى الجنة، لأن نظام القيم لدى المخطئ يظل متماسكا وإن أصابه درن مخالفة بعض الأحكام، أما الخاطئ المنكر لها ﴿فَلَيْسَ لَهُ الْيَوْمَ هَاهُنَا حَمِيمٌ ۞ وَلاَ طَعَامٌ إِلاَّ مِنْ غِسْلِينٍ ۞ لاَ يَأْكُلُهُ إِلاَّ الْخَاطِئُونَ﴾ (الحاقة: ٣٥-٣٧)، خالداً مخلداً مادام نظام القيم قد انهار لديه و لم يعد قابلا للترميم، وذلك هو مصداق قوله تعالى ﴿أُولَئِكَ الَّذِينَ طَبَعَ اللَّهُ عَلَى قُلُوبِهِمْ وَسَمْعِهِمْ وَأَبْصَارِهِمْ﴾ (النحل: ١٠٨).

وهكذا بعث الله الرسل مبشرين ومنذرين يملكون أمهر الوسائل وأرقى درجات الحكمة مزوّدين بتوجيهات وأوامر إلهية تقرب من القيم وتنهى عن سلوكات ومخالفات تبعد عن القيم. وقد بعث الله تعالى لكل أمة رسولا وجعل الرسل تترى في الزمان، وختمهم برسالة محمد ﷺ حين نضجت وسائط التواصل بين البشر وأصبحت المجموعات البشرية أكثر احتكاكا وقربا، فناب العلماء عن الرسل في القيام بواجب التوجيه والإرشاد.

و لم تكن الشرائع والأحكام إلا وسائل للتربية وليست مقصودة لذاتها، ولذلك علم رسول الله ﷺ الناس الصلاة وقال «صلوا كما رأيتموني أصلي» (رواه البخاري)، ولكنه قال للمصلين «مَن لم تنهه صلاته عن الفحشاء والمنكر لم يزدد من الله إلاّ بعدا» (رواه الطبراني في «الكبير»). وأمر الناس بالزكاة وبين لهم أنصبتها ومقاديرها وأوجه صرفها ثم قرأ عليهم قوله تعالى ﴿خُذْ مِنْ أَمْوَالِهِمْ صَدَقَةً تُطَهِّرُهُمْ وَتُزَكِّيهِمْ بِهَا وَصَلِّ عَلَيْهِمْ إِنَّ صَلاَتَكَ سَكَنٌ لَهُمْ وَاللهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾ (التوبة: ١٠٣)، وعلّمهم الصيام وفرائضه وسننه ثم قال لهم «من لم يدَع قول الزور والعمل به فليس لله حاجة في أن يدع شرابه وطعامه» (رواه الإمام أحمد في المسند) وقس على ذلك.

وقد يقول قائل: ما دامت الأحكام والتشريعات وسائل للتربية على القيم وليست مقصودة لذاتها، أفلا يمكن أن تكون وسائل أخرى قد تكون اجتهادية بشرية محققة لهذا المقصد؟ وهنا يفتح باب الاجتهاد على مصراعَيه ما دام الأمر يتعلق بقيم إنسانية عالمية كالعدل والصدق والأمانة والوفاء وغيرها لخوض تجارب إنسانية متعددة قد توجد في الكنفشيوسية أو البوذية أو لدى عبّاد الأصنام أو الصابئة أو حتى الذين يدينون بديانة الإلحاد ما دام التدين ضرورة بشرية لا يتخلف عنها أي إنسان.

والجواب عن هذا التساؤل واضح من خلال القرآن الكريم؛ فقد أقرّ بوجود كل الديانات والمذهبيات، واحترم حق الاختلاف وفسح المجال أمام الإنسان ليختار معتقده ومسيرته، قال تعالى ﴿لَكُمْ دِينُكُمْ وَلِيَ دِينِ﴾ (الكافرون: ٦) وقال تعالى للرسول ﷺ ﴿أَفَأَنْتَ تُكْرِهُ النَّاسَ حَتَّى يَكُونُوا مُؤْمِنِينَ﴾ (يونس: ٩٩)، وقال تعالى ﴿فَمَنْ شَاءَ فَلْيُؤْمِنْ وَمَنْ شَاءَ فَلْيَكْفُرْ﴾ (الكهف: ٢٩).. وبذلك وضع الخالق ﷻ الإنسان أمام اختبار الاختيار وذكر القرآن الكريم كثيرا من الديانات الوضعية وناقشها بقوة العقل وحجة المنطق، وبين أنها وصفات دواء لا تمكن الإنسان من الترقي نحو القيم المطلقة المفضية إلى الجنة.

وبناء على ذلك يمكننا أن نقسم سعي الإنسان نحو القيم إلى قسمين:



قسم يسعى إلى قيم «العاجلة» النسبية، فهو ينال حظه ونصيبه منها من غير ظلم ولا بخس، قال تعالى ﴿وَمَنْ كَانَ يُرِيدُ حَرْثَ الدُّنْيَا نُؤْتِهِ مِنْهَا وَمَا لَهُ فِي الآخِرَةِ مِنْ نَصِيبٍ﴾ (الشورى: ٢٠)؛ فمن ابتغى العدل كقيمة في بعدها الإنساني النسبي نال نتيجة سعيه في الدنيا وما له في الآخرة من نصيب مادام لا يؤمن بها ولا يسعى إليها بمحض اختياره.

وقسم يسعى إلى قيم «الآخرة» المطلقة ويعلم أن الدنيا مزرعة للآخرة فهو يرقى في سلّم القيم إلى ما هو أسمى من قيم «العاجلة»، وبذلك يكون تمسكه بقيمة العدل مثلا أقوى وأبقى أثرا، لأنه يعلم أن الفائدة المادية حاصلة في الدنيا من انتشار العدل وهي خطوة للفوز والفلاح في الآخرة، وهو هدف أسمى لدى المؤمن.

ثم إن الترقي في سلم القيم المطلقة للعودة إلى الجنة لن يكون إلا وفق ما أمر الله تعالى في القرآن الكريم وبيّن رسوله ﷺ، ومن ثم كانت شريعة الإسلام الوسيلة الوحيدة للرقي نحو هذه القيم المطلقة، وباقي الوسائل الاجتهادية الأخرى تقف عند سقف قيم «العاجلة»، قال تعالى ﴿مَنْ كَانَ يُرِيدُ الْعَاجِلَةَ عَجَّلْنَا لَهُ فِيهَا مَا نَشَاءُ لِمَنْ نُرِيدُ ثُمَّ جَعَلْنَا لَهُ جَهَنَّمَ يَصْلاَهَا مَذْمُومًا

مَدْحُورًا ۞ وَمَنْ أَرَادَ الآخِرَةَ وَسَعَى لَهَا سَعْيَهَا وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَأُولَئِكَ كَانَ سَعْيُهُمْ مَشْكُورًا ۞ كُلاًّ نُمِدُّ هَؤُلاَءِ وَهَؤُلاَءِ مِنْ عَطَاءِ رَبِّكَ وَمَا كَانَ عَطَاءُ رَبِّكَ مَحْظُورًا﴾ (الإسراء: ١٨-٢٠).

وغاية الشريعة الإسلامية أن توضح هذا السبيل ولا تلزم الناس به ولا تنفي باقي السبل، فالله تعالى يقول ﴿وَلاَ يَزَالُونَ مُخْتَلِفِينَ ۞ إِلاَّ مَنْ رَحِمَ رَبُّكَ وَلِذَلِكَ خَلَقَهُمْ﴾ (هود: ١١٨-١١٩). وتلك هي عظمة الاختيار في الإسلام، لأن صقل القيم بالتربية لا يكون قسرا غير عرض النموذج الواحد، وإنما يكون بوضع الخيارات المتعددة مع توضيح وبيان أنجح الطرق وأفضل الخيارات بقوة العقل والبرهان؛ وللإنسان أن يختار ويتحمل بعد ذلك مسؤولية اختياره.

وحين يصل الإنسان بالحكمة والموعظة الحسنة إلى الالتزام بالأحكام والتشريعات الإسلامية كوسيلة للترقّي نحو القيم يصل إلى التزكية، وهي الخطوة الأخيرة في مسيرة العودة إلى مقر الفلاح (الجنة) المقر الأصلي الطبيعي للإنسان ذي القيم الصافية، قال تعالى ﴿قَدْ أَفْلَحَ مَنْ زَكَّاهَا ۞ وَقَدْ خَابَ مَنْ دَسَّاهَا﴾ (الشمس: ٩-١٠).

مفهوم الأمر والنهي في ضوء فلسفة القيم

إن منظورنا لعلاقة الأحكام بالقيم وهي -كما قررنا- علاقة السبب بالمقصد، تُحيلنا إلى تحليل بنية الأحكام الشرعية إلى جزئيات الأوامر والنواهي كما وردت في القرآن الكريم وفي سنة وسيرة الرسول الأكرم ﷺ والنظر إليها في سلم الترقي نحو القيم.

أما الأوامر الإلهية فهي توجيهات على طريق الوصول إلى القيم تسدد الخطى وتسرعها بقدر درجة الالتزام بها؛ فالحريص على الفرائض منها فقط أقل سرعة وحركة من الحريص على الفرائض والنوافل، ومعلوم أن السرعة مطلوبة للوصول إلى المقصد في أقل وقت ممكن ما دام العمر محدودا وساعة كل فرد علمها عند ربي في كتاب، ولا شك أن العاقل سيختار الوسيلة الأسرع. وفي هذا السياق نفهم قوله تعالى ﴿لاَ يَسْتَوِي الْقَاعِدُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ غَيْرُ أُولِي الضَّرَرِ وَالْمُجَاهِدُونَ فِي سَبِيلِ اللهِ بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ فَضَّلَ اللهُ الْمُجَاهِدِينَ بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ عَلَى الْقَاعِدِينَ دَرَجَةً وَكُلاًّ وَعَدَ اللهُ الْحُسْنَى وَفَضَّلَ اللهُ الْمُجَاهِدِينَ عَلَى الْقَاعِدِينَ أَجْرًا عَظِيمًا﴾ (النساء: ٩٥).

أما النواهي فهي لدرء المحرمات والتي تعتبر في سياق الترقي نحو القيم معيقات تضيع على الواقع في شراكها الجهد والوقت، ولذلك سماها الله تعالى بالسبل حين قال في محكم التنزيل ﴿وَأَنَّ هَذَا صِرَاطِي مُسْتَقِيمًا فَاتَّبِعُوهُ وَلاَ تَتَّبِعُوا السُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَنْ سَبِيلِهِ﴾ (الأنعام: ١٥٣) والدخول إلى السبل الضيقة الصغيرة قد يكون سببا في التأخر في انتظار التوبة والعودة إلى الطريق المستقيم، وقد يكون سببا في الضياع فينتهي الزمن المقدر لحركة الإنسان نحو القيم (العمر) وهو عالق في السبل كسفينة جانحة في الصخور لم تتمكن طواقيم الإغاثة من انتشالها فعلاها الصدأ وتآكلت ألواحها وهوت إلى قاع البحر.

وهكذا يعتبر النهي عن المحرمات في سلم الترقي نحو القيم ترشيدا لمسيرة الإنسان وليست قضاء على شهوة أو تكليفا بما لا يطاق، فمن نظر إلى المحرمات بهذا المنظور تجلّى له بلا شك نعمة الخالق في النهي عنها، وسارعت نفسه إلى اجتنابها، لأن المعادلة الواضحة في ذهنه تدعو إلى ضرورة تجنب كل معيقات الوصول إلى القيم في صراع حقيقي مع الزمن المحدود.

ميزان الأعمال في ضوء فلسفة القيم

ويتفرع عن هذا التصور وضع ميزان للأعمال الصالحة والطالحة انطلاقا من فلسفة القيم، ذلك أن العبرة في هذا الميزان بنوعية العمل لا بكثرته، ولنوعية العمل دور حاسم في الدلالة على نضج القيم في نفس الإنسان. ولذلك كان الفعل الصغير من الأوامر قوة هائلة دافعة نحو القيم وعلامة بارزة على نضجها في النفس، وكان الفعل الحقير من النواهي علامة كبرى على ضمور القيم في النفس وسببا في السقوط في الهاوية والعودة إلى نقطة الانطلاق مما يعني ضياع كل الجهود السابقة.

ويتضح هذا من التأمل في قول رسول الله ﷺ «إن رجلا رأى كلبا يأكل الثرى من العطش فأخذ الرجل خفه فجعله يغرف له به حتى أرواه فشكر الله له فأدخله الجنة» (رواه البخاري) وأن «امرأة دخلت النار في هرة ربطتها فلا هي أطعمتها ولا هي أرسلتها تأكل من خشاش الأرض» (متفق عليه).

ونستنتج من هذا أن الغاية ليست هي طبيعة العمل، فالرجل حين سقى الكلب قام بحركة بسيطة والمرأة ربطت الهرة لساعات، ولكن كل عمل من العملَين دليل على درجة الترقي في سلم القيم؛ فالرجل الذي سقى الكلب لم يدفعه لذلك -وقد كان لوحده في الصحراء- إلا نضج قيمة الرحمة وقيمة ابتغاء مرضاة الله في نفسه، فدفعه كل ذلك إلى الإحسان فعبد الله كأنه يراه، وذلك

أرقى صور نضج القيم وسلامتها، وفي المقابل انمحت من نفسه رذائل القسوة والرياء والاحتقار وغير ذلك مما يكون عادة سببا في العزوف عن القيام بالكثير من الأعمال الجليلة القدر البسيطة الشكل.

وأما سلوك المرأة فدل على ضعف قيمة الرحمة في نفسها وحضور القسوة والجفاء مكان ذلك، وقوة دافعية البخل على قيمـة البذل والكرم، والأخطر من كل ذلك أنها لم تستحضر رقابة الخالق سبحانه وتعالى في فعلها فهـي لا زالت تعتقد أن لا رقيب يحاسـبها على عملها ذلك، وهـذا أكبر خلل في منظومة القيم وعلامة خطيرة على انهيارها.

منهج الترقي نحو القيم من المعرفة إلى العمل

العلـم وسـيلة لتدبير شؤون الحياة، وهو في الآن اللازم وسيلة لمعرفة الخالـق. والترابط بين الوسـيلتين يجعل العلم في خدمـة الإنسـان، والانفصـال بينهمـا يؤدي إلى انتكاسـات تغرق البشرية في حمآت من الكوارث.

إذا كنـا قد عرفنا أن نوعيـة العمل هي العملة الوازنة في ميزان القيم فكيف يتوصل الإنسـان إلى اختيار العمل النوعي؟ وكيف يرتب أولويات عمله في ضوء ذلك؟

نتصور أن هذا المنهج ينبني على أربع قضايا كبرى هي: البحث عن المعرفة، وطرق اكتسـابها ونشرها، وانعـكاس أثرهـا تطبيقا في السـلوك، ومقومات الاستمرار والثبات على هذا السلوك. وكل قضية لها وجهان فقد تكون دافعة في اتجاه الترقي نحو القيم كما قد تكون في الوجه الآخر معيقا ومثبطا. ونكتفي ببيان الوجه الأول لأنه دال على الثاني بالضدية والتقابل.

فأما المعرفة فقد تكون دافعة حين تكون موثوقة المصـدر تجمع بين قـراءة الوحي وقـراءة الكون معتمدة على كتاب الله وما صح من سـنة رسول الله ﷺ واجتهادات العلماء العاملين المشـهود لهم بالورع والتقوى وسـعة الإطلاع. ولذلك يطلب من الإنسـان أن يبني معرفته عـن طريق التحري والسؤال، وهو مسؤول عن المعرفة الصحيحة التي يكتسبها ويترجمها إلى سلوك دافع نحو القيم، وهذا هو سياق تفسير الإمام البخاري لقوله تعالى ﴿فَاعْلَمْ أَنَّهُ لاَ إِلَهَ إِلاَّ اللهُ﴾ (محمد: ١٩) في ترجمته لكتاب العلم في صحيحه قـال «باب العلم قبل القول والعمل» وتلك هي المعرفة الدافعة نحو القيم.

أمـا في طرق اكتسـاب ونشـر المعرفة فهي: تلك المسـلكيات اللفظية والمادية الـتي يعتمدها العالم والمتعلم في نقل واكتسـاب المعرفة، فالحكمة والموعظة الحسـنة والمجادلة بالتي هي أحسن هي أنجح الوسـائل التي ترغّب النـاس في تقبل المعرفة والتوجه نحو الطريق السوي وهم راضون مطمئنون تدفعهم الرغبة في السلوك، وذلك هو منهج القرآن الكريم في حفز الهمم نحو القيم.

أما العمل والتطبيق فهو بدوره قوة دافعة للترقي في سـلم القيم إن كان صالحـا، أو معيق إن كان طالحـا؛ فأما الصالح فميزانه الاعتدال والوسـطية اقتداء بسنة رسول الله ﷺ وتكليف النفس بما تطيق، والمداومة على العمل الصالح والترقي فيه بتدرج.

أما مقومات الاسـتمرار والثبات فهي الجانب الوجداني والنفسي والعاطفي بما يوفره من شحنات قوية تغـذي الدافعية نحو القيـم، فكثيرا ما كان الحمـاس الفياض والعاطفة الجياشـة والغيرة الحية دافعا نحـو التضحية من أجل المبدأ، شـريطة أن تكون مبنية بناء سليما متدرجا وفق المنهج السالف الذكـر. فالوجدان والتعاطف المبـني على معرفة صحيحة مستقيمة، وسيلة وطريقة حكيمة، وعمل وسـطي، فيؤدي إلى التمازج والاندماج ويصبح قناعة راسخة غير قابلة للتغيير، ولذلك كان أحب الدين إلى الله أدومه وإن قلّ.

وبهذا يكـون تقوية الجانب الوجداني والعاطفي على أسـس متينـة وَقُودا للسـالكين طريق الحق ومحفزا للثبات عليه، ويكـون ضعف هذا الجانب أو بناؤه على أسس غير سليمة، مثبطا ومنفرا يخلق الاضطراب والاغتراب.

إن بناء هذه الدعائـم الأربعة لمنهج الترقي نحو القيم (المعرفة السليمة، والطريقة الحكيمة، والتمثل العملي الوسـطي، والوجدان المحفز) هي صميم المجال النظري والتطبيقي للنظرية التربوية الإسلامية التي تربط بين المعرفة والقيم من أجل تنمية إنسانية شاملة ومتكاملة تضمن سعادة الدارَين.

(*) رئيس المركز المغربي للدراسات والأبحاث التربوية الإسلامية بالمدرسة العليا للأساتذة بتطوان -المغرب.

عودة الغريب...!

أديب إبراهيم الدباغ *

«بدأ الإسلام غريباً وسيعود غريباً كما بدأ فطوبى للغرباء» (حديث نبوي)

آت أَنَا يا صُراخَ الإنسان المتوجع من أعماق هاوية الظلام؛ قادمٌ أنا يا أَنَّاتِ الروح الإنساني المحترق بأتون العذاب؛ مُقْبِلٌ أنا يا عويلَ النَّفسِ المصلوبة على أعمدة الأسى، والمعلقة على أعواد شجر هذا الخريف الحضاري الرهيب؛ عائدٌ أَنا يا نزيف الجرح المفتوح في ضمير الإنسان على أشواك الشك والحيرة والقلق؛ مُتَسَاكِبُ أَنَا -كأنداء الفجر- على صحارى النفوس، وظمأ الأرواح يا لهاث الإنسانية الراكضة وراء مفاوز السراب والضياع!

لقد استفزّني صُرَاخُكُمْ -يا أبناء الأرض- واستثارَ هُتافكمُ الحار اللهيف مكامنَ الشوق إليكم في مطاوي نفسي؛ وآلمني نضوبُ النُّورِ في أرواحكم، وجفافُ الينبوع في قلوبكم؛ وأحزنني ما اجتاحَ نُفوسكم من نوازل، وما عصفَ في جَنَباتها مِنْ عاصفات كاسحات اجتَثَّتْ بِقَسوَةٍ أَصالَةَ الإنسان فيكم، وَخَنَقَتْ بوحْشية صوتَ الفطرة في أعماقكم، وَعَطَّلَتْ بِغَدرٍ مِشْكَاة الإيمان في قلوبكم... فسَادَ الظلامُ، وانْسَرَبَ مَوْجُهُ الحالكُ إلى أغوار النفوس؛ فإذا الإنسان ضائعٌ في مجاهل نفسه، تَائِهٌ في صحَارى قلبه، ضَالٌّ في ليل روحه؛ يتعالى صوتُ حزنه، ويرتفع أنين وجدانه، وتمتدُّ يَدُ يَأْسِه تقرعُ كل باب، وتَنْقُرُ كُلَّ نافذةٍ بِعَطَشٍ شديدٍ إلى قَطْرَةٍ من نورٍ، وغرفة من ينابيع الضياء.

فَهَا أَنَاذا -يا إنسانَ الضياع- تَهُزُّني آلامُكَ، وتشجيني أحزانك، ويحركُ صُرَاخُكَ الأليم عقْرَبَي ساعتي، ليقتربَ زمني ويُطِلَّ يومي. أنا إنسان القرآن والإيمان، أعود إليكم يا إخوةَ إنسانيتي بعد أنْ أَنْضَجَت المِحَنُ ذاتي، وأصلبتْ صروف الأيام عُودي، وتركتْ الأحداثُ الضخام في نفسي وروحي جراحاتٍ ظلَّتْ تروي جنبات أرضكم من دمي، وتسقي ثراكم بعصارات قلبي النَّازف... فيا روعة القلب المثخن بجروحه كيف يسمو على عمود من أنوار دمائه ليزرع الفرحَ في كلّ قلب؛ ويا عظمة الروح المُخَضَّب بالنجيع كيف يتعالى على سُلَّم من وَهَجِ آلامِهِ ليمسحَ أوجاعَ الحزانَى، ويواسي آلام البائسين والحَيَارى.

خائفون أنتم مني يا أشقَّاءَ روحي، صادُّونَ أنتمْ عني يا إخوةَ فؤادي، ولكنَّ شوقي إليكم يتدفق هُتَافاً حَاراً: «أنا ينبوع النور يا كُلَّ المظلمين، أنا نهر الضياء يا كُلَّ الظامئين، أنا أَنداء الفجر يا زهرات البشرية المُصوِّحَة، أنا سماء الشروق يا ليل الإنسان المحتضر، أَنا أقباس الحقيقة النيّرة يا ركام الأباطيل، أنا ربيع الإيمان يا أشتاء الحضارات، أنا أصداء القرآن يا أَصمَّاء.»

غريب أنا بينكم يا أبناء أُمّي؛ إنسانٌ، يلفني الغموض في زعمكم، ويلفعني الضباب في ظَنِّكم، أُسطورة كبرى تملأ خيالكم، وترهبُ أحلامكم. صوتي غريبٌ بينكم لأنه ليس كما تعودتم سماعه من أصوات، نبرة صوتي مبرأة من كل مَسْخٍ وزيف، حتى لكأَنَّ الحياة بكل أصالتها وعمقها وقداستها هي التي تهتف بلساني، وتتحدَّرُ من بين شفتيَّ شلاَّلَ نشيد علويّ يغسل القلوب من أدرانها، ويطهّر الأرواح من أوصابها. وفي صوتي إرعادٌ كإرعاد قلب السماء المشحون بالأضواء في طيَّات الغيوم، وفيه إبراقٌ كألسنة الوميض المندلعة على حواشي الليل المحلَولك السواد.

إني أتلألأ -يا إخوتي- بنور الله، إني أحترق باللهب الأنوس الذي تُفَجِّرُهُ كُلُّ كلمة تتوهج على شغاف قلبي من كَلِمِ الله.. أنَا عبد الله؛ تَوَقَّلْتُ قِمَمَ الحكمة بقلبي الجريح المتعب، وارتقيتُ بجَناحيَّ الكسيرَين سلالم المعرفة، وتسلقتُ بدمي النازف خيوط الشمس المعلقة بقلب السماء، ودخلت كهف الضياء كهف الغربة الروحية والربيع الإلهي الضحيان، بحرقة قاتلة، وبظمأ مميت؛ لأنهلَ من منابع القرآن، وأترشّف من جداول ضيائه، وأَعُبَّ من عيون أنواره، ثمّ أنحدر بذات متوحّدة لا تعرف الانقسام، وبنفس يُظلُّها سلامُ الله فلا تعرف الاحتراب، وبكيانٍ متساوق لا يعرف النشاز؛ لكي أضعَ يدي على نبض العالم المريض، وأسكُبَ في قلبه بروق الوحي، وأصُبَّ في روحه المدنف إرعادَ القرآن؛ لينتفض العالم من غفلته، وتصحوَ البشريةُ من أوهامها على جلجلة صوتي الذي لن يصمت بعد اليوم؛ لأنَّ في صمته موتاً للحقيقة في قلبي، وموتاً لقلبي الذي تقتله الحقيقة المحبوسة بين جدرانه.

ومع هدأة الصفاء في صوتي، ومع موج النُّور المتساكب من أغوار كُلِّ كلمة يطلقها لساني، ومع الحرف الذي يتحدّر إلى سماء القلب المظلم ليتألق فيه كنجمة الصباح، مع صوت الصدق والأصالة والعمق، يرتفع صوت ألف «مسَيلمة» من أنبيائكم الكذَبة هاتفاً في جموعكم الحَيْرى: «طاردوا الغريب، أبعدوه، ارجموا هذا الطارئ على عالمنا بالحجارة، املأوا فمه تراباً، وحَصِّنوا أبواب قلوبكم دون كلامه، وسُدُّوا منافذ نفوسكم بصفائح الظلام، واملأوا مساربَ أرواحكم أمامه بمذاب الليل من أوهامكم، واحذروا من أنْ تقع كرة أرضكم -مرة أخرى- بين ذراعيه فيلهب أشواقها الخامدة إلى السماء من جديد.»

أعيروني أسماعكم أيها المتشوقون لصواعق الحق المحرقة، فأنا سماء الحق التي تمطر أرض أباطيلكم بجمراتها، وتلهب غابات أوهامكم بحرائق من شفق أصباحها.

انتبهوا! فإنَّ الروح الذي يخاطب أرواحكم مرصود للهَيمَنة على الروح الإنساني العام، ليعيد إليه نضارته، ويَسْتَنبتَ فيه من جديد شجرة الشوق إلى الله، وليرتفع بهذا الروح إلى القِمَم الشاهقة من الوعي المتفتح على عوالم الإنسان العميقة الشاسعة أو على آفاق الفكر الكوني الملتهب بشمس محبته لله ربِّ العالمين.

أَنْصِتوا جيداً -يا بني أُمّي- فإنني أنشر على الأرض فجر حضارة جديدة تصحّح النفس الإنسانية؛ وتضيء ما أظلَم من معاني الحياة؛ وتصل بشريانٍ نورانيٍّ بين نبض العالم ونبضات الوحي؛ وتسكب في قلب الأرض المتحجر القاسي دفقاً رحيماً من خفقان قلب سيدنا محمد ﷺ الأمين على أصالة الحياة وكرامة الإنسان. ■

(*) كاتب وأديب -العراق.

موازين

أيها الشـــاب! عندما نريد قراءة كتاب مـــا، نبدأ بفصول ســـهلة، وأجزاء مثيرة تساعدنا على الاستمرار. فإذا اعترضتك جبال شـــاهقة، وتلال متعاقبة، ومفاوز شاسعة في الطريق، فأنصحك أن تقسّمها إلى أجزاء صغيرة يســـهل اجتيازها؛ وإلا فسوف يبدو لك الطريق ممتدا إلى لانهاية، فيدب اليأس في قلبك، وتضعف عزيمتك، وتخور قواك، فتستسلم لهزيمة مريرة.

* * *

أيها الشـــاب! اعلم أن إحيـــاء كياننا الفـــردي والاجتماعـــي الـــذي تداعت أركانه على مر العصور، لن يتحقق بقفزة واحدة أبدا. فذلك سراب ضائع. والحل أن نبـــدأ عملية الإحيـــاء خطوة فخطوة إلى أن تتكامـــل الأركان، فتعود حيوية الروح والجسد إلى سابق عهدها. وذلك سيبعث الأمل الخامد في القلوب، ويقوي العزائم المكنونة في النفوس، وسنرى فجأة أننا قد قطعنا مســـافات شاسعة، وبلغنا نهاية الطريق، فتنطلق ألســـنتنا بالحمد لله سبحانه.

* * *

أيها الشـــاب! إياك أن تسير في طريق بلا غاية، فذلك جهد ضائع في ســـبيل لا شـــيء، وخطر عظيم يؤدي بصاحبه إلى مهاوٍ مظلمة. إنّ غياب الغاية في الســـير يطفـــئ الأمل، ويميت الهمـــم، ويصيب العقيدة في صميمها.

* * *

في الطريق إلى الحياة الأبدية



نورالدين طوبجو *

أنتم تعلمون يا أصدقائي بأنني عندما مت كنتم مجتمعين حول فراشي، كانت نظراتكم مسمرة عليّ كما لو كنتم تشاهدون لأول مرة إنسانا يموت، ولكن الحقيقة هي أنكم كنتم تحبونني لأول مرة. أما أنا فقد كنت سعيدا إذ أرى حولي أول اجتماع مفعم بالحب الخالص؛ هذه اللحظة التي لا يحصل عليها الإنسان إلا عندما يكون في طريقه إلى الموت.

كنت عطشا إلى حياة مثالية عندما فارقتكم، ولكنني مع ذلك كنت قد مللت دنياكم المملوءة بالألم والشقاء. كنت تعبا إلى درجة أنني كنت أحس بحاجة إلى أن أنسلخ من الوجود وأن استريح في حضن اللانهاية ألوف السنين. وفي المساء بعد ثلاثة أيام عندما حسبت الأنوار الخافتة حولي نجوما في السماء، وبعد أن ودّعتكم كلكم واحدا واحدا ابتسمتُ للملك الذي حضر ليأخذني.

ومع أنني فارقت بدني إلا أنني حملت معي بعض أحواله. أما أنتم فقد فعلتم بجسدي ما لم يفعل به عندما كنت حيا؛ انحنيتم عليه وبكَيتم، ثم حملتموه على أكتافكم. لم تكونوا ترونني ولكنني كنتُ أراكم. وعندما دفنتموه في التراب الذي جاء منه، أحسست أنه يلقى حياة جديدة لا مثيل لها، كنت أحس بأن جسدي الذي اختلط بالتراب لا يزال يحمل مني أشياء وأشياء، كان يحس من هذا اللقاء لذة لم يتذوقها أبدا في الحياة. أما أنتم فقد كنتم تبكون عليّ لأنكم لم تكونوا تعلمون إلى أين ذهبت، أما أنا فقد عشت في الحياة لمثل هذا الموت، وقد وصلت إلى أملي. عندما كنت بينكم كنت مثلكم أخشى الموت لأنني كنت أحبكم وكنت أكره أن أفارقكم جميعا. وعندما انحنى عليّ ملك الموت لم تلاحظوا الابتسامة التي ارتسمت على وجهي، وبدوري لم أستطع أن أقول لكم شيئا عن حالي.

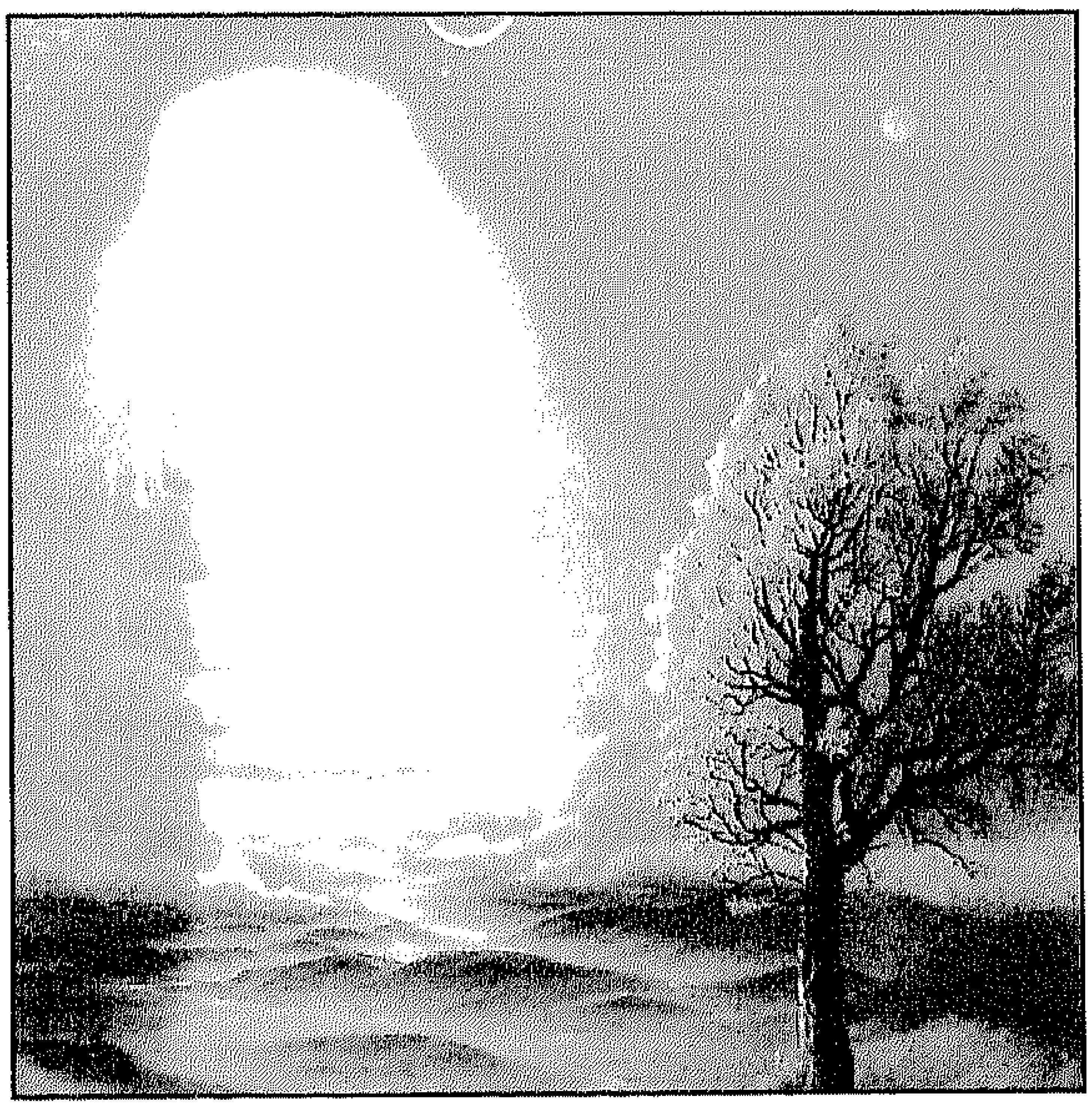
لقاء الأحبة

و لم يستغرق انتقالي من دنياكم إلا لحظة قصيرة، وبعد أن دفن جسدي قلت للرسول: «إلى أين نحن ذاهبون؟» لم يقل لي: «إلى حيث تريد» وإنما أجابني قائلا: «إلى حيث كنتَ قد أردتَ» ثم أضاف: «إن الحياة التي عشتها لم تكن إلا تهيئة لك لحياتك الحقيقية هنا، وما ستلقى هنا إلا الأشياء التي طلَبتها في تلك الحياة». سألته: «وهل أجد كل ما كنت أطلبه؟» قال: «ستلقى كل ما كنت تطلبه بإيمان وحبّ ووجد، كل ما كنت تطلبه بحق». فرغبت أن أكون مع والديّ ومع روحين عزيزين توفيا قبلي. كيف بلّغتُ وأفهمتُ هذه الرغبة؟ لستُ أدري. غير أنه أجابني في التو: «ولكنك معهم الآن». ملكتني الحيرة، لم أكن أصدق عيني، لقد كنت معهم. نعم كانوا هم أنفسهم. إن الوسائل التي تأكدت وعرفتهم بواسطتها كانت أقوى من الوسائل الدنيوية ألف مرة؛ كانوا في أجمل وأحب أحوالهم، في الصورة

التي لا يمكن رؤيتها إلا في الأحلام. ولكن أكنت أرى بالعين وأسمع بالأذن وألمس باليد؟ كلا. إن وسائل معرفتي أصبحت مَلَكَةً وقابلية عندي؛ بهذه الملكة كنت أرى أقوى من رؤية العين، أسمع أقوى من سماع الأذن، ألمس أقوى من لمس اليد.

المحكمة الكبرى

سألت رفيقي: «ومتى سنقف أمام المحكمة الكبرى؟» قال: «نحن الآن هناك. انظر حواليك!». كنا في ميدان كبير ليست له نهاية، وكانت القوافل الإنسانية بمختلف هوياتها وأحوالها تملأ جوانبه، وفي الوسط كانت فسحة كبيرة حيث كانت جميع القوافل الإنسانية وجميع الأفراد يأتون هناك ويحاسبون فردا فردا. كان ينادى على كل فرد عندما يحين دوره للمثول أمام المحكمة حيث كان يعترف بلسانه وبوجهه وبلحمه وبجلده ما اقترفه في



الحياة الدنيا. لم تكن هناك حاجة إلى شهود، إذ إن كل شيء وكل ذرة كانت تنطق عندما يحين وقت الكلام، بل إن الحادثة نفسها والفعل نفسه كانا ينطقان. وعندما جاء دوري دُعيت إلى مكان الحساب الذي كنت أرقبه برهبة وإشفاق. تكلمت ذنوبي نفسها، أما أنا فقد خجلت، وأحاط بي جميع الذين كنت قد أسأت إليهم، وكان أكثر خجلي من الذين ظلمتهم. آه! كم كنت ظالما دون أن أدري. لقد كنت أحسب نفسي رحيما رقيق القلب. كم كنت مقترفا الظلم بلساني إن لم يكن بيدي، وبقلبي إن لم يكن بلساني. ومن حسرتي وقسوة شعور الخجل الذي أحسست به في حضور الذين ظلمتهم. تمنيت لو أنني ظُلمت في الدنيا و لم أظلِم، أو لو أنني قُطعت إربا إربا و لم أظلم. أما صاحب المحكمة الكبرى فقد كان يرى ويشاهد حالي. وضع ذنوبي في كفة الميزان، ووضع وجدي ورحمتي في الكفة الأخرى، فرجحت الأخيرة ونالتني المغفرة الكبرى.

عالَم الأبدية

وعندما بدأت رحلة الحياة الأبدية في جنان الخلود رأيت الجميع هنا يعيشون في أجمل وفي أحب الأحوال إلى قلبي. كان الإنسان يتكلم مع جميع الأشياء، وجميع الأشياء تتكلم مع الإنسان. هناك إنسان متمدد وهو يعانق جبلا، وآخر يسيل مع الماء ويتأمله في الوقت نفسه. بعضهم ملتحفون بألوان الشفق الورديّ، وقافلة أخرى فتحت أجنحتها نحو السحاب جالسة على عين كبيرة نابعة من حضن غابة عبقة الأرجاء، يشاهدون جميع الوجوه الجميلة ويستنشقون عبير الزهور جميعها أمام المياه الباردة النابعة من الأعماق وكأنها أنوار تفور. أمامهم جميع الوجوه التي حلموا برؤيتها، فحققوا آمالهم بالصحبة الكريمة التي تمنوها طوال حياتهم، فوصلوا إلى اللذة الأبدية لجميع الأشياء التي أحبوها وتمنوها والتي ذاقوا منها -ولو قليلا- ورغبوا فيها في الحياة الدنيا. لقد استطاعوا في الدنيا أن يجدوا طريقا لنقل أجسادهم إلى دنيا الروح، وأن ينظروا إلى عالم الحقائق وإن كان من كوة ضيقة. كان هؤلاء أرواح الذين لم تكن عبادتهم عن خوف ولا عن عادة، وإنما كانت عن تأمل وعن حب وعن وجد وعشق. قد هيأوا أنفسهم لهذا اليوم عن علم، فجميع أفعالهم وحركاتهم في الدنيا كانت عبادة. والحقيقة أن الحياة الأبدية نتيجة ضرورية للتهيؤ المستمر الدائم في الحياة الدنيا، وليست منظرا ينكشف في لحظة واحدة خاطفة من وراء الأستار. والإنسان يستمر على الوتيرة نفسها التي انتقل بها من هناك. إن الآثار التي أنجزناها حتى موتنا ما هي إلا جذور للشجرة التي ستستمر بعد الموت، أما أغصان وثمار هذه الشجرة فتابعة لنوع هذه الشجرة التي زرعناها في الحياة. ويستمر الروح في النضوج من النقطة التي كان قد وصل إليها قُبيل الموت؛ والعبرة هي في الوصول الصحيح إلى الموت، أو بتعبير أحد الحكماء: «معرفة كيفية الموت».

أما الاشياء والأمور التي رأيتها في عالم الأرواح التي وصلتْ إلى شاطئ السلامة فهي تَجلُّ عن الوصف. رأيت الرجال والجبال يتسامرون. رأيت الجداول وهي تتكلم مع الناس وتهب لهم مذاق جميع الأشربة دون أن تكون هناك حاجة إلى الشرب. رأيت الأرواح التي بلغت أمنياتها تسبح في أودية واسعة برذاذ المياه التي كانت كتل الثلوج الناصعة ترشها عليهم. رأيت

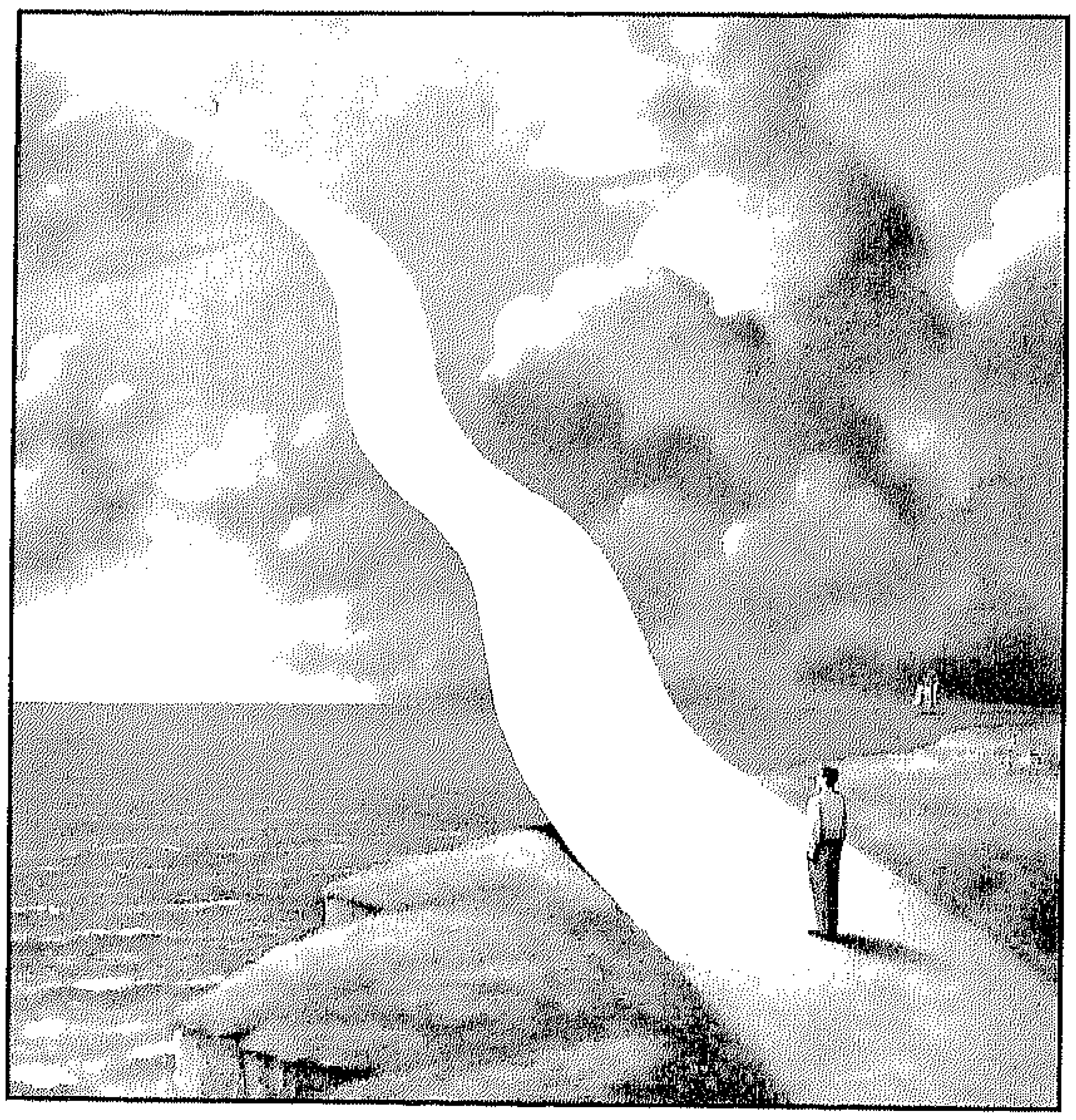
الغابات التي لم تطأها من الأزل أقدام الآثمين تتماوج في أرجائها وتمتزج ببعضها أنوار الشموس الخضراء والوردية مستغرقة في تأمل آلاف العوالم. رأيت الشموس التي تذكر كل واحدة منها روحا صالحا يعيش في عوالم ثملة من الوجد والعشق، في عوالم لها وضوح العلم وحرارة الحب وسعة الأمل.

عجائب الجنة

أحيانا كانت رؤية جمال وجه تُغرق هذا العالم بأجمعه في الجمال، وأحيانا كان ميلاد ذكرى جليلة يغمر جميع الأرجاء بضياء الشموس؛ إذ إن أي عبادة في الدنيا تجعل كل شيء أبديا. وعالم الجنة هذا مكان للذين كانوا يجدون الطمأنينة وراحة البال في أقل الأشياء، وليس للذين تكثر مطاليبهم ولا تنتهي. رأيت الصابرين يتبوأون هنا أعلى الدرجات. وكنت قد تذوقت نماذج من هذا الجمال -وإن كان بمقياس أقل- في الحياة الدنيا. والحقيقة أن أسعد لحظات حياتي كانت لحظات التأمل الذي كان مظهرا خارجيا للطمأنينة الروحية عندي. رأيت هنا الرحمة المنهمرة من الأعالي التي لا نهاية لها إلى الأرض التي لا نهاية لها. حضرت مجالس الصحبة بين الأنبياء والأولياء. شاهدت حكمة قوانين الكون التي كانت المعجزة الوحيدة التي تعرفونها في دنياكم، وشاهدت توزيع العدالة الإلهية هنا في ميدان القدَر. ومع أنكم كنتم غافلين عنها فإن هذه العدالة كانت مقسّمة بأكمل وجه في الدنيا. تأملت بكل شوق ولذة وجه «الخير» الذي هو وراء كل عمل حق. علمت أنّ الدنيا -التي كنتم تحسبونها دارا للشقاء والألم- ما هي إلا ممر للبصيرة وللحكمة. استرحت على الجسر الموصل من الروح إلى الله. تخلصت من الوحدة القاتلة. تخلصت من هذه الوحدة التي كانت أكبر عذاب لي في الحياة الدنيا، والتي كانت تمزقني بين كل شيء وبين كل موجود، والتي كانت تفصلني عن نفسي. لم يكن لي هناك من بينكم صديق حقيقي. عشت وحيدا بينكم، أسيرا لهذا العذاب. كنت وحيدا في الليل وفي النهار، في طفولتي وعلى فراش الموت، في غرفتي وبين الناس. عندما خُدعت وعندما مُدحت، في الغربة وبين أحبّائي. كانت الوحدة هي الداء الذي لم أجد له دواء في الدنيا، لكأنني عشت لها وتمنيت الموت دائما للخلاص منها. هذا هو الداء الذي تخلصت منه هنا.

الشوق إلى الله

وأخيرا اشتقت إلى «الرب» الذي مكنني من المثول بين يديه مرات في الدنيا دون عذاب ولا انتظار. سألت رفيقي الملَك الذي ظهر بجانبي في تلك اللحظة: «أين هو؟» قال: «ولكن ألا تراه؟» قلت: «إن هذه الموجودات التي أراها هي نفسها التي كنت أراها في الدنيا ولكنها الآن في وضع الكمال وفي أشكالها الأبدية المطلقة، ولكن أين صاحبها؟ إنّ لكل مُلك صاحبًا، وأنا الآن أبحث عن صاحب هذا الملك». ولكن دليلي أسكتني -وكأنه قلب تعرض لإهانة- بلسان تمتزج فيه الرحمة مع الحيرة والتهديد قائلا: «أأنت مجنون!!... أيمكن أن يكون هناك شيء «سواه»؟ وأمام هذا التنبيه رجعت إلى نفسي: أجل! في كل شيء هو هو هو، لم أكن منتبها من قبل. ففي كل موجود كانت تطل أعين قدرته. لقد كنت في الحضرة العظمى، اهتززت بعنف قائلا: «يا رب!»، قيل: «تكلم!»..



ليس بكلمات، ليس كإنسان، بل كشعور لانهائيّ وكقدرة لانهائية، لا زمان عنده ولا مكان لسواه؛ لا جديد ولا قديم، لا مولود ولا ميت، لا غير ولا شبيه، لا بادئ ولا منتهي، لا سبب ولا نتيجة، لا «لا»، ولا شك. كنت في سعادة وفي فرحة كفرحة من يولد ولادة أبدية، فرحة لا يوجد مثلها أبدا في الدنيا. بلا صوت وبلا اهتزاز وبلا سبب، كأن جميع المخلوقات كانت تُخلق في تلك اللحظة، وكأن كل فرحة هذا الخلق تملأ وتفيض من نفسي. في أي حال كنت؟ أين كنت؟ نسيت كل هذا، لأن جميع الأشياء كانت قد انمحت. كنت قد غبت عن نفسي. في هذا العالم الذي انمحى فيه الزمان والمكان. كان هناك شيء واحد... شيء حقيقي واحد فقط: «هو».

(*) من كبار المفكرين والأدباء في تركيا، توفي سنة ١٩٧٥. الترجمة عن التركية: أورخان محمد علي.

البحث عن فرس إسطنبول

فريد الأنصاري *

إلى وارث السر الأستاذ «فتح الله گولن»

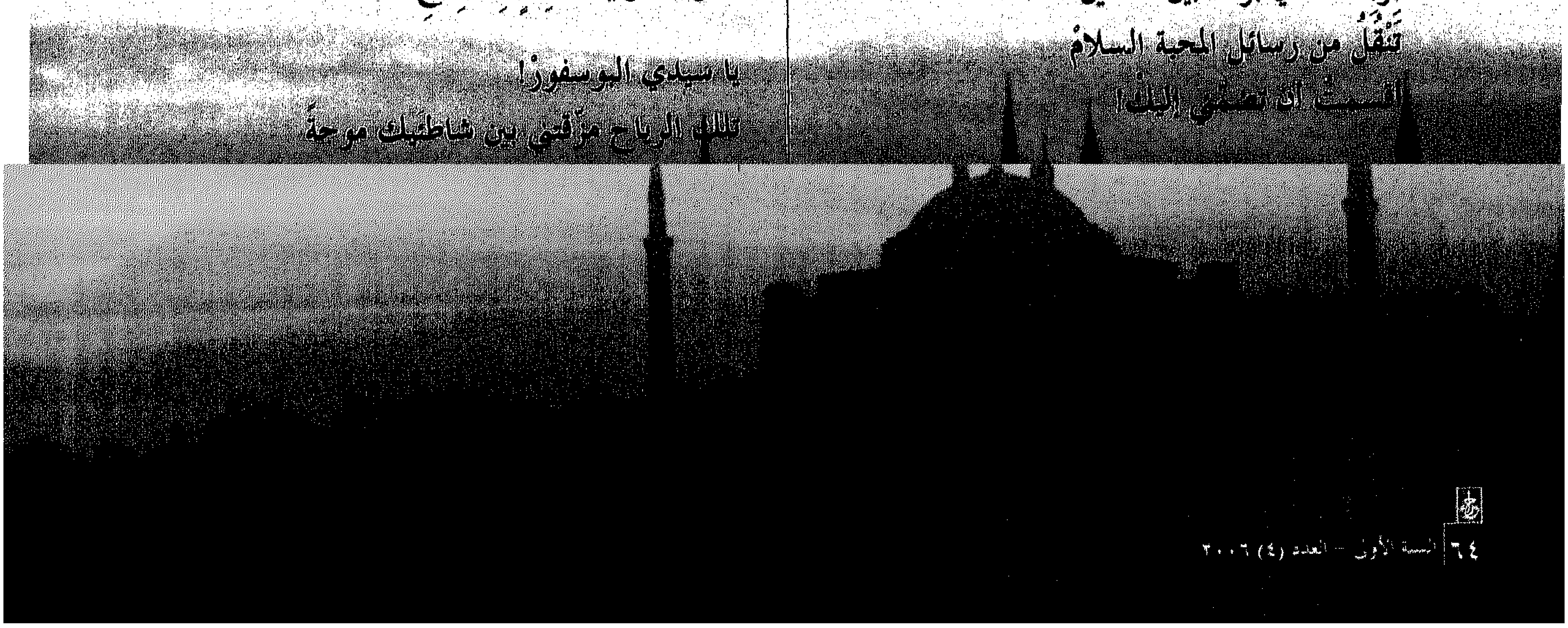
هل غادر الغديرُ نبضَ صخره؟
أم هل جفاه غاضبا سناءُ برقهِ؟
فأينَها.. تلك التي كانت هنا
ما بَين مائه وعطره؟
تشرب من أشعّة الندى...
وتلثم الثّمر..!
أليس ههنا رأيتُها تسكن في معابر الشّجر؟
وذات غفوةٍ.. تبددتْ أطيافُها خلف الرّبى..
كأنما امتطتْ شعاعَ الشمس ثم غربت
فأصبحت أفئدة الأشجار فارغة!
وأرسل الغديرُ بينها أغرودةَ الحَزَنْ!
قيل لي: مرّت بها الخُيول عند بابة السُّرى
وركضت يسكنها الصهيلْ!

وقيل لي: قد رُئيَتْ عند المساء عارية
تدخل بحر «مَرمَرَة»،
وتركتْ على الرمال حافراً مُرَقَّماً
وأثرا يشبه غصن شَجَرة..

يا سيدي البوسفور!
برَبّكَ الذي بَرَاكَ بَين خافقَين!
تَنَقَّل من رسائل المحبة السلامْ
أقسمتُ أن تصلني إليكَ!

مرجانةً من نورْ
أو صَدْفَةً تُخرِج من لُؤلُئها
هديةً لها؛ لعلها تعرفني
فتشرق «إستطنبول» من جديد!
وقيل لي: قد خرجت من متحف قديمْ
واخترقت -يا عجبا- كلَّ العيون
وأنشدت على «أبي أيّوب» حزنَها
حتى بكى الحمامُ حولَها
واصَّدَّع السورُ القديم!
فلم يُعزِّهَا أحدٌ بعضَ الأسى..! ثم اختفتْ!
وقيل لي: قد رحلتْ.
وزعموا أن فتىً شاهدها تركض في «إِزمِيرْ»
ثم اختفت بين الكرومْ!
وَيْحي، أنا المعذب المجنونْ!
أَكُلَّمَا التقطتُ من أخبارها خيطَ السّنَا
خطفه الظلامْ..؟
«وَلِي كَبدٌ مَقْرُوحَةٌ من يبيعني
بها كَبداً لَيْسَتْ بذَات قُروحِ؟»
«أبَاهَا عَلَيَّ النّاسُ لا يشترونَها
ومَنْ يشتري ذا عِلّةٍ بِصَحِيحِ؟»

يا سيدي البوسفورْ!
تلك الرياح مزّقتني بين شاطئَيك موجةً



أو حيرةً من رجفة الخريفْ...
فأخْبرَنّي عن سفينةٍ
قد قيلَ لي: مرت هُنا تحمل غابةً صنوبريةً
فلم تزل تمخر حُزْنَ البحرْ
حتى رست على مساء «التلّة العليا»
ثم ارتقت معراجَ ريحٍ عابرٍ..
واندثرتْ!
وقيل لي: بل غادرت إلى غروب «الدَّرْدَنيلْ!»
حيث الشموسُ لا تنام أبداً..!
وإنني أَذْكرُ من غرامها حبَّ الشعاعْ
فلم تزل تقطف من سنائه وَرْدَ الصباحْ
حتى أضعتُ طيفَها وَاحَسرتي..!
بغفوتي!
يا سيدي البوسفور!

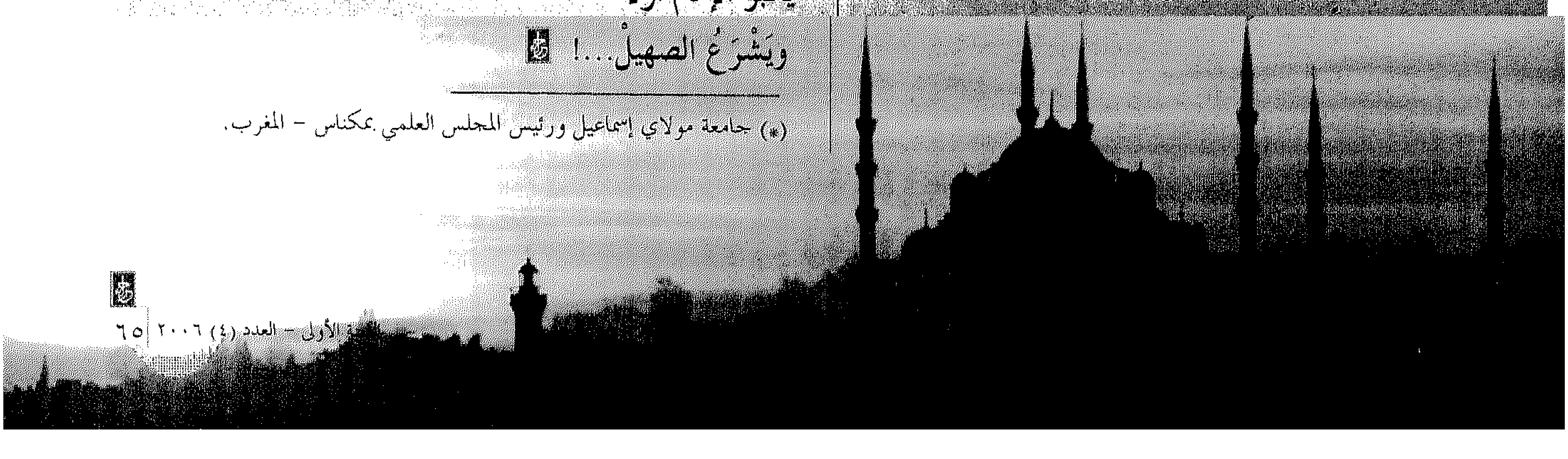
وذات ليلة رأيتها تصلّي فَجْرَهَا..
فقمتُ كالحصان راكضاً
حَتى أتيتُ حيَّ «فاتح»
وقلت للإمام: سيّديَ أنا المريدُ دُلَّني!
فقال لي: أفي الصلاة؟
يا سيدي! قلبي الذي قد كان وحدةً
مزّقه حُبُّ البحار خفقةً فخَفقةً!
يا سيدي أنا المريضُ دلّني!
فقال لي: وَيْحك يا وجه الردى!
أأنت من يجيء من «فاسٍ» مهاجرا؟
يحمل في عينيه مَهْرَها؟
قلت: نعم؛ فأينَها؟
فقال لي: قدَرُكَ الأسفارُ تَتْرَى دونها يا ولدي..!
مآذنُ «إسطنبولَ» أيقظتْ دموعهَا...
فرحلتْ..!
وما لنا من أثرٍ سوى الذي ترى!

فاركبْ خيولَ الحزن إنها هناكْ
تعيش في «بَارْلاَ» وتشدو وَجْدَها
على غصون القَطْرَانْ
فلم تزل بخلوة الأشجارْ
تَشْهَدُ ذَوْبَ الشمسِ في بحيرة الأسرارْ!

وقيل لي لربما تكون غادرتْ سرّاً إلى «إزميرْ»
لتقرأ الحروفَ خُفْيَةً
على سنَا الأقمارْ
في أسطر الكُرومْ
والتين والزيتون
يا سيدي الإمام دُلّني!
فإنني أنا الحيرانُ بين أنجم السَّفَرْ!

وقيل لي -يا سيدي البوسفور- ربما تجيء من طريق «وَانْ»
تحمل من عبيرها ذكرى انجذاب الرُّوحْ
وتنثر الأزهار في الطريق للرياحْ
وقيل: بَلْ لغَابَة «إسْبَارطا» جمالٌ يجذب الأطيارَ والأمطارْ..
فاركبْ لهاتَ القلب نحوها
فربما لَيْلاَكَ في سفوحها تحوطها الغزلانْ
مخطوفةَ الأبصارِ من جمالها..
وقيل لي: بل هي في «بُورْصَه»
تلتقط النجومَ والحجارةَ الكريمةْ
تَخُطُّ فوقَ قمّة الثلوج ﴿نُون
وَالْقَلَمِ وَمَا يَسْطُرُونَ﴾

يا سيدي البوسفور!
ها غيمُك الجليلُ يزدهي بدُرِّه الجميل
فاقْرَأْ سلاَمَ البرق للشطآنَ في مدائن الأحزانْ،
وقل لهم: سنلتقي بموعد الأذانْ!
إذا تحرك الحجيجُ في مسيرة النخيلْ
يُكَبّرُ الإمامُ أولاً
ويَشْرَعُ الصهيلْ...!



(*) جامعة مولاي إسماعيل ورئيس المجلس العلمي بمكناس - المغرب.



واحة القراء

إلى كل القلوب الحزينة، إلى كل الأرواح الحائرة إلى الإنسانية... هاهو ميلاد نور جديد ينير لنا معالم الطريق والطريقة المحمدية. ببركاتكم تستمر أعمالكم والله خير موفقا وحافظا .

محمد الحسيني / مصر

كنت في غاية الفرح والسرور لما اطلعت على العدد الثاني من مجلة حراء، والتي تعد تجديدا في الصحافة الإسلامية. وكم سرني أن تكون بهذه الموضوعات الشيقة والإخراج المميَّز. وإن شاء الله تكون إضافة جديدة في عالم الصحافة وأرجو أن أراها في كل الأسواق العربية.

خليل محمود الصمادي / فلسطين

أصحاب المعالي «حراء».. جزى الله خيرا القائمين عليك وأثابهم خيرا بخير. أما بخصوص ما نشر في صفحاتكِ فهو شيء يبشّر بخير ونجاح، ويسد ثغرا لم يكن لأحد أنْ يقف عليه، ويساهم في غلق باب كان مفتوحا أيضا. نتمنى المسارعة في إصدارات أعداد جديدة.

منير أديب / مصر

أيها الإخوة الكرام

ما أشد فرحتي أن يبادر إخواننا الأتراك بمد جسور للتواصل بين إخوانهم في الدين عن طريق مجلتكم الكريمة. لقد كنت أتمنى أن تمد الجسور من زمن بعيد، وأسال الله أن يوفقكم إلى ما يحب و يرضى.

أحمد / مصر

لقد حظي العددان الأول والثاني من مجلة حراء باهتمام كبير منا. إنهما بحق مثار إعجاب وتقدير لدى أوساط المثقفين الذين أعرفهم. متمنياتي لمجلة حراء بالتوهج الدائم، مع رجائي لفريق التحرير كله بدوام العافية والطمأنينة.

د. الحسن الغشتول / المغرب

حراء، ذلك الغار الذي آوى سيدنا رسول الله ﷺ وهو يتحنث فيه... وهذه المجلة شعرت بها ملاذا لكل مسلم فكرا وعلما وصفاء... أشكر أسرة التحرير على جهودها وجزاهم الله خيرا..

خالد قنطش / سوريا

شاءت الأقدار أن أرى عددا من مجلتكم الغراء «حراء» في أنواكشوط. وقد أعجبت به كثيرا، نظرا لما تضمنه من مواضيع جمعت بين المتعة والإفادة بأسلوب ربّاني رصين يسمو بالقلوب إلى محبة المصطفي عليه أفضل الصلاة والسلام. فجزاكم الله خيرا عنا. وهي في الحقيقة تمثل إضافة كبيرة للمجتمع الموريتاني المحب لنهج المصطفي وسيرته العطرة المرتبط بالدين الأسلامي وتاريخ وأمجاد هذه الأمة.

محمد إبراهيم / موريتانيا

ربما تكون تلك هي المرة الأولى التي تُصدر فيها مؤسسة تركية مجلة موجهة للجمهور العربي بعد انقطاع طويل عن اللغة العربية التي تم محاربتها منذ عام ١٩٢٤.

يأتي صدور مجلة «حراء» بسماتها الإيمانية في وقت تشتد الحاجة فيه إلى التمسك بالإيمان، حيث تعصف أنواء أخلاق السوق والعولمة بخيام الإيمان والأخوة. ووقت ارتفع فيه منسوب التدين الشكلي الظاهري وانخفض فيه منسوب حقيقة الإيمان وأخلاقه في نفوس أبنائه. كما يأتي أيضا صدور المجلة متزامنا مع محاولات يقوم بها العقلاء من أبناء الأمة الإسلامية لمد جسور التعارف والتفاهم والتقارب.

ومن ثم فإن المجلة تأتي وكأنها استجابة لشعور متبادل على ضفاف الأمة بالشوق إلى اللقاء عبر تلك الجسور، وبقي أن يرد العالم العربي بخطوة وخطوات على الجسر في الاتجاه المقابل.

فالسوق الثقافية فوق الجسر تشكو من فقر في المترجمات العربية إلى التركية فضلا عن المترجمات التركية إلى العربية، كما أنها تشكو فقر الإطلالات الثقافية العربية على القارئ التركي من خلال صحف أو مجلات أو مواقع موجهة إلى القارئ باللغة التركية.

مجدي سعيد / إسلام أون لاين نت - مصر

قراءات في رسائل النور
النورسي أديب الإنسانية

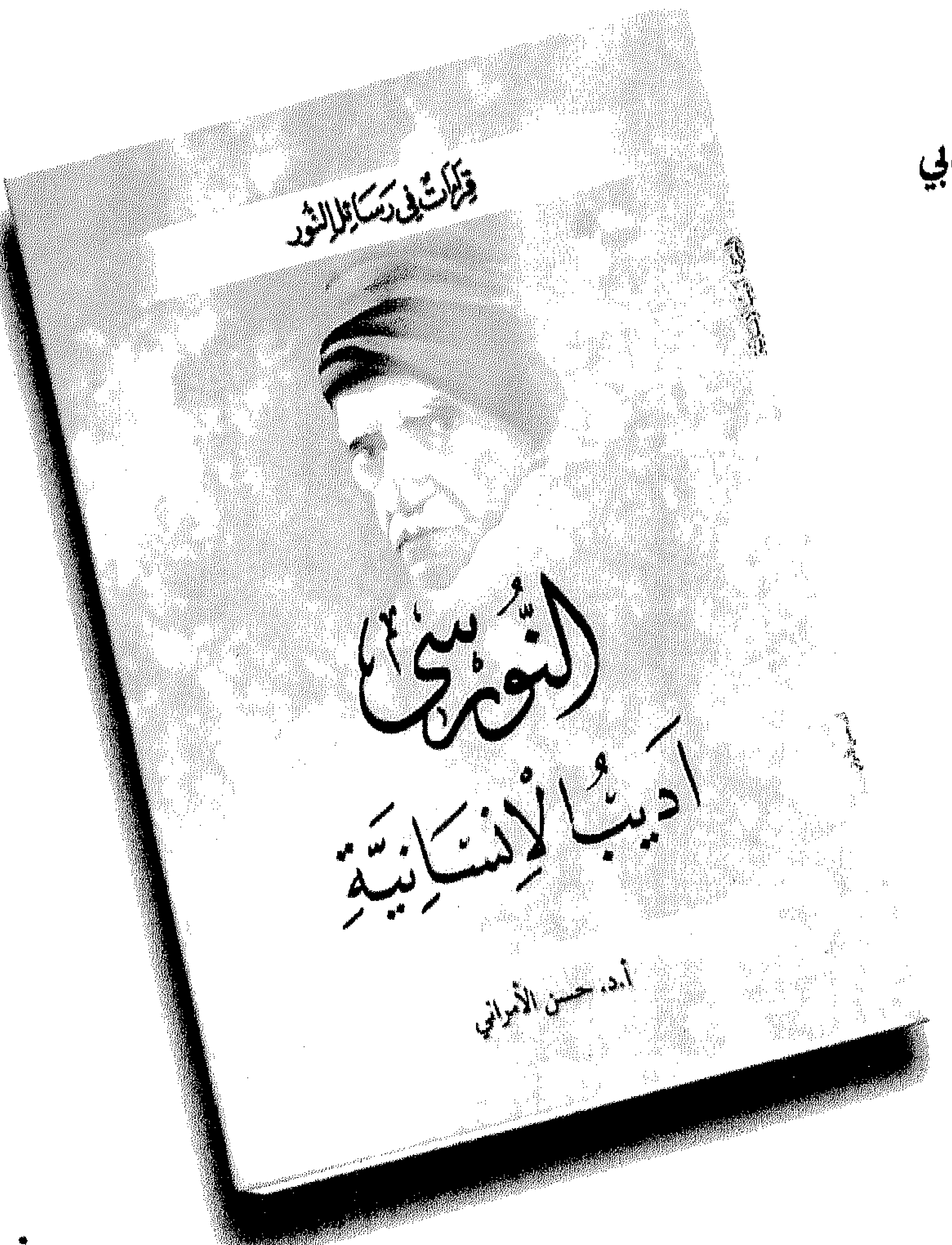
تأليف: أ.د. حسن الأمراني

- أهو مفكر قبل أن يكون أديباً؟

  أم هو أديب قبل أن يكون مفكراً؟

- التوحد الكامل بين النازع الديني والأدبي في وجدان "النورسي".

- فكر مصاغ بقالب أدبي وشعري .


دار النيل

دار النيل للطباعة والنشر والتوزيع

مركز التوزيع فرع القاهرة: ٧ ش البرامكة - الحي السابع - م نصر - القاهرة/جمهورية مصر العربية

تليفون وفاكس: 002022619204


حراء
مجلة علمية ثقافية فصلية
www.hiramagazine.com
شتان بين ناظر وناظر
كل شيء غني عن البيان
فالكل رسالة من الرحمن
آه !.. كم من محروم من هـذا العرفان
يلهث وراء الغير وهو عن الخالق غفلان
ISSN 1306-1879

العدد العاشر / السنة الثالثة / (يناير - مارس) ٢٠٠٨

حراء

مجلة علمية ثقافية فصلية

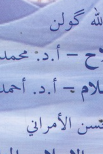
www.hiramagazine.com



مظلماً كان العالم، في الديَاجير غائصاً،

حتى إذا وُلدتَ ملأ نورك الآفاقَ، وأثار الأشواق، وأشعل مصابيح الأفهام...

****



- **الأجيال المثالية** – فتح الله گولن
- **سنة التدرج في الإصلاح** – أ.د. محمد عمارة
- **مفهوم الواجب في الإسلام** – أ.د. أحمد عبادي
- **شوقا إلى الله** – أ.د. حسن الأمراني
- **المضمون الفكري للأدب الإسلامي المعاصر** – أ.د. عماد الدين خليل

الآتون من وراء الغيب

لا أحد يشـك بأننا أصحاب آلام وأوجاع تهزّ كياناتنا الفكرية والنفسية من الداخل، وتكاد تجهز على البقية الباقية مـن حياتنا الروحية. وعلى الرغم من قتامة هذه الصورة لواقعنا الفكري والروحي، غير أننا لا نزال نضع آمال خلاصنا في أجيالنا القادمة كما يصورها لنا الأستاذ فتح الله كولن في صدد هذا العدد.

فالأستاذ في هذا المقال ينقش في أذهاننا صور هذه الأجيال المثالية المنتظرة ومواصفاتها وما هو مناط بها لتؤديه بكفاءة عالية للانبعاث الحضاري والفكري لهذه الأمة المنكوبة. إنه يستدعي أشواقنا إلى المجد الضائع، ثم يودعها عقل رجل الفكر ويأتمنه عليها. إنه يرفع ضوءاً ساطعاً في قلب تلك الظلمة المهلكة، ويرسم ملامح رجل الفكر بمهابته وبمزاجه المصابر العنيد وهو يشق الطريق ويزيح من أمامه العوائق والسدود، فقواه العقلية والروحية قادرة على تحريك الجبال والإتيان بالخوارق والمعجزات. وهذا الهدف السامي والواعد سيظلّ نصبَ أعيننا وأعين أصحاب الأقلام من كتّاب المجلة.

ولعل أستاذنا الفاضل الدكتور محمد عمارة في مقاله عن "سنة التدرج" يرسم طريق الوصول إلى هذا الهدف بالدعوة إلى التدرج في العمل الفكري والدعوي. فكل محاولة للقفز من فوق مراحل التدرج محكوم عليها بالفشل. ولا زالت "حراء" تجد في السنن الكونية مصداقاً لهذه التدرجية.

فمقالة الأستاذ الدكتور فريد الأنصاري هي الأخرى تصبّ في الاتجاه نفسه حيث يرى الأنصاري أن القرآن هو روح الكون وأن المعرفة القرآنية هي سبيل معراج المؤمن لمعرفة الله تعالى والتعرف عليه سبحانه من خلال سننه ونواميسه.

أما الأديب والمؤرخ والناقد الأستاذ الدكتور عماد الدين خليل فإن مقاله الموسوم "المضمون الفكري للأدب الإسلامي المعاصر" إسهام في تأصيل المضامين الفكرية في النتاجات الأدبية للأدباء المسلمين. أما شاعر المغرب الكبير الأستاذ حسن الأمراني فإنه يتحفنا بقصيدة من روائع قصائده "شوقاً إلى الله". فهو يرسم في هذه القصيدة طريقاً عروجياً لأشواق المسلم إلى الله تعالى.

وبعدُ، فما دامت النية قد انعقدت على هذا الأمل الواعد فإننا في حاجة إلى المزيد من الأقلام التي تكرس نفسها لمقاربة هذا الأمل والتمهيد له. فما من صفحة من صفحات البطولة أجدر بالاحترام من صفحات البطولة التي تحرزها الأقلام وتتنافس فيها لكي تحرز قصب السبق إلى الإنسان المسلم الجديد.■

م دار «الجمهورية» للصحافة

حراء
مجلة علمية ثقافية فصلية
www.hiramagazine.com

العدد العاشر – السنة الثالثة (يناير – مارس) ٢٠٠٨

التصور العام

- حراء مجلة علمية ثقافية فصلية تعنى بالعلوم الطبيعية والإنسانية والاجتماعية وتحاور أسرار النفس البشرية وآفاق الكون الشاسعة بالمنظور القرآني الإيماني في تآلف وتناسب بين العلم والإيمان، والعقل والقلب، والفكر والواقع.
- تجمع بين الأصالة والمعاصرة وتعتمد الوسطية في فهم الإسلام وفهم الواقع، مع البعد عن الإفراط والتفريط.
- تؤمن بالانفتاح على الآخر، والحوار البناء والهادئ فيما يصب لصالح الإنسانية.
- تسعى إلى الموازنة بين العلمية في المضمون والجمالية في الشكل وأسلوب العرض، ومن ثم تدعو إلى معالجة المواد بمهنية عالية مع التبسيط ومراعاة الجوانب الأدبية والجمالية في الكتابة.

شروط النشر

- أن يكون النص المرسل جديدا لم يسبق نشره.
- ألا يزيد حجم النص على ٢٠٠٠ كلمة كحد أقصى، وللمجلة أن تلخص أو تختصر النصوص التي تتجاوز الحد المطلوب.
- يرجى من الكاتب الذي لم يسبق له النشر في المجلة إرسال نبذة مختصرة عن سيرته الذاتية.
- تخضع الأعمال المعروضة للنشر لموافقة هيئة التحرير، ولهيئة التحرير أن تطلب من الكاتب إجراء أي تعديل على المادة المقدمة قبل إجازتها للنشر.
- المجلة غير ملزمة بإعادة النصوص إلى أصحابها نشرت أم لم تنشر، وتلتزم بإبلاغ أصحابها بقبول النشر، ولا تلتزم بإبداء أسباب عدم النشر.
- تحتفظ المجلة بحقها في نشر النصوص وفق خطة التحرير وحسب التوقيت الذي تراه مناسبا.
- النصوص التي تنشر في المجلة تعبّر عن آراء كُتّابها، ولا تعبّر بالضرورة عن رأي المجلة.
- للمجلة حق إعادة نشر النص منفصلاً أو ضمن مجموعة من البحوث، بلغته الأصلية أو مترجمًا إلى أي لغة أخرى، دون حاجة إلى استئذان صاحب النص.
- مجلة حراء لا تمانع في النقل أو الاقتباس عنها شريطة ذكر المصدر.

يرجى إرسال جميع المشاركات إلى هيئة تحرير المجلة على العنوان الآتي:
hira@hiramagazine.com

مجلة علمية ثقافية فصلية تصدر عن:
Işık Özel Eğitim Tic. Ltd. Şti.
İstanbul / Türkiye

صاحب الامتياز
أنس أركنه
mergene@hiramagazine.com

المشرف العام
نوزاد صواش
nsavas@hiramagazine.com

رئيس التحرير المسؤول
هانئ رسلان
hraslan@hiramagazine.com

مدير التحرير
أشرف أونن
eonen@hiramagazine.com

المخرج الفني
مراد عرباجي
marabaci@hiramagazine.com

المركز الرئيس
HIRA MAGAZINE
Emniyet Mah. Huzur Sok.
No:5 34676 Üsküdar
İstanbul / Turkey
Phone: +902163186011
Fax: +902164224140
hira@hiramagazine.com

الاشتراكات/مركز التوزيع
٧ ش البرامكة – الحي السابع – م.نصر/القاهرة
تليفون وفاكس: 20222631551+
الهاتف الجوال: 20165523088+
جمهورية مصر العربية
sub@hiramagazine.com

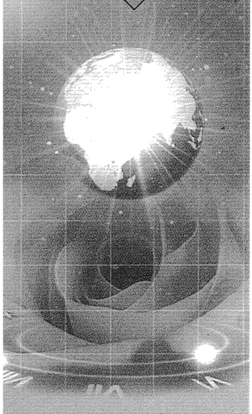
نوع النشر
مجلة دورية دولية

Yayın Türü
Yaygın Süreli

رقم الإيداع
١٨٧٩-١٣٠٦

حراء
مجلة علمية ثقافية فصلية
www.hiramagazine.com

المحتويات





الأجيال المثالية

فتح الله كولن

في هذه الأيام المطلة على أيام الحبور، إذ يستنشق فجرها أنفاس العيد، نجد في الواقع نوبات مرض ومعضلات تبدو مستعصية على الحل. وإن العلل الاجتماعية وأمراض الأمة الجسيمة، والآفات الطبيعية، وما يشبه هذه الأزمات التي تستشري في جسد المجتمعات لا تعالج بتدابير يومية قصيرة الباع. فإن معالجة أزمات واسعة الآثار كهذه منوطة بشيوع البصيرة والعلم والحكمة في المجتمع. وعلى نقيض ذلك، الاشتغال بمعالجتها بسياسات المناورة اليومية التي لا غاية لها ولا أفق فيها ليس إلا هدراً للزمن. ونعلم من أمسنا ويومنا أن رجال الروح والمعنى والبصيرة قد حلّوا عُقَد أعصى المعضلات والأزمات بيسرٍ لا يستوعبه خيالنا، وذلك بسعة آفاقهم وعلو هممهم، وبتحريك قسم من مصادر قوة اليوم لحساب المستقبل.

وكثيراً ما حسبنا تدابيرهم الفذة فوق قدرة البشر وأصابنا الدهش والشَّدَه منها. والواقع أن ما قاموا به هو ما يقوم به كل موفق من الرجال... ألا وهو استنفاد كل الطاقات والقدرات التي وهبها لهم الحق تعالى وبأحسن وجه مفيد.

التحرر من قيود الزمان

نعم، أولئك ينشغلون بحساب الغد مع اليوم ليل نهار، ويستعملون الإمكانات والحركيات الحاضرة أحجاراً لإنشاء الجسور الموصلة إلى الغد، ويجدون في حناجرهم غصص نَقْل الأيام الحاضرة إلى الأيام القابلة... يبتلعون حسابات هذا النقل غصة بعد غصة، لأن حل عقدة المعضلة مرتبط بتجاوز الزمن الحاضر، بل بالتحرر من قيود الزمان... إلى درجة النظر إلى الماضي والحاضر والقابل،

والقدرة على تحليله وتقويمه، بالصفاء والنقاء نفسه. هذا الفكر الرحيب الذي يعني احتضان الغد منذ الآن، وفهمَ محتوى المستقبل روحاً ومعنى، يجدر أن نسَمّيه بغاية المنى والمثالية التي نتوق إليها، إذ لا يُتصور أن يتغلب من لا تتسع آفاقه هذا الاتساع على معضلات ومشاكل كهذه، ولا أن يَعِدنا بشيء ذي بال لبناء المستقبل. إن الفخامة والعظمة والحياة الصاخبة لفرعون ونمرود ونابليون وقيصر وأمثالهم لم تقدم شيئاً باسم المستقبل -مهما كبرت أعمالهم في عيون قوم يحسنون الظن بلا تمحيص- بل إن ذلك محال، لأنهم وضعوا الحق تحت إمرة القوة، وشدوا الروابط الاجتماعية حول المنافع، وقضوا أعمارهم عبيداً للنفسانية عبودية لا ترتضي عتقا.

والحال أن الذين جعلوا الأناضول وطناً -وابتداءً من الخلفاء الراشدين- خلفوا آثاراً تجتاز باعتبار نتائجها الدُّنَى لتصل إلى العقبى وتتحدى العصور، في نظر الذين لا ينخدعون بالخسوف والكسوف المؤقت. نعم، عاش هؤلاء عمراً زاخراً ثم رحلوا، ولكن لن يغادروا الصدور التي يحيون فيها بذكرى مآثرهم الجميلة. وما زالت أرجاء بلادنا تعبق بروح ومعاني "آلب أرسلان" و"ملك شاه" و"الغازي عثمان" و"محمد الفاتح"، وتسيل الآمال والبشرى من غايات خيالهم وأملهم إلى أرواحنا.

لقد سحق القيصر حلم روما من أجل هواه ورغبته، وحبس نابليون آمال فرنسا الكبرى في شباك أطماعه فقتلها، وافترس هتلر أحلام ألمانيا الكبرى بمغامراته فقضى عليها بالموت. لكن فكر هذه الأمة المتفتحَ على الديمومة والتمادي، والمتّصفة بطولاتُه بالتكامل والاستمرارية، بقي مصاناً من كل إسفاف، ومعززاً كراية تُفدَى بالأرواح، سواء في الانتصار أو الانقهار. محمد الفاتح فتح إسطنبول تحت تلك الراية ودَوّى صرخة في آفاق الغرب. وسليمان القانوني رحل إلى "الأبعاد" مالئاً عينيه من خفقات ذلك اللواء الوارف على سفوح الغرب. وأبطال "جناق قلعة" كتبوا بدمائهم ملحمة مثل ملحمة "بدر" باسمه، ووفّى ابن الأناضول دَيْن الوفاء الأخير له، وهو محاصَر بألف قحط وقحط، فَزَأَرَ كرة أخرى زئير قلبِ تاريخنا المجيد: "أبدية المدة!.."(١).

سمات رجل الفكر

يَبْلُغُ الفكرُ على يد رجل الفكر مقاماً فوق المقامات، ويصير سحراً للظفر بعد الظفر، وللنجاح بعد النجاح. فإن لم يكن ممثلو الفكر أهلاً لحمله، فيَبْعُد ذلك الفكر أن يكون راية، ويغدو رمزاً صغيراً يجمع حوله سفسافَ صيحاتِ المطامع الدنيئة. إن رموزاً صغيرة كهذه قد تجمع حولها أولاد الأزقة وتقودهم إلى أهداف وغايات من لُعَب. لكنها لن تروي غليل المشاعر في أعماق أمتنا المجيدة.

إن رجل الفكر بطل للحب قبل كل شيء. فهو يحب الله حباً كحب مجنون، فيحس في ظل أجنحة الحب هذا بوشائج وثيقة تربطه مع الكائنات. فيحضن بشفقةٍ كلَّ إنسان، وكل شيء... ويضم إلى صدره وطنه وابن وطنه بحب يبلغ حد العشق... ويداعب ويشم الأطفال كبراعم للمستقبل... ويبعث في الشباب روح الاستحالة إلى إنسان مثالي، إذ يحثهم على بلوغ الغايات السامية... ويُكرم ذوي الشيبة بأخلص التوقير والاحترام... وينقب عن سبل للحوار مع الجميع... ويقارب بين شرائح المجتمع المختلفة بمدّ جسور مبتكرة فوق المهاوي السحيقة الفاصلة بينها، ويضطرم حراً من أجل الملاءمة التامة بين الشرائح المتوافقة نسبياً.

ورجل الفكر الحقيقي هو من أهل الحكمة أيضاً. فهو من وجهةٍ يستوعب كل شيء بدُنيا عقلِه المحيطة سائحاً ومستطلعاً، ومن وجهة أخرى يزن كل شيء بموازين القلب المقدِّرة حق التقدير، ويمررها عبر مقاييس المحاسبة والمراقبة، ويعجنها في معجنة المحاكمة، ويصورها، ويقارن في كل وقت بين ضياء العقل ونور القلب كفرسي رهان في المضمار.

ورجل الفكر أنموذج للشعور بالمسؤولية إزاء مجتمعه. يضحي بكل ما وهبه الله، ومن غير تلكؤ وتذبذب، في سبيل أهدافه، وأول أهدافه كسب رضاء الله... ولا يخاف ولا يخشى من شيء، ولا يهب قلبه إلا لله وحده... و لا يبالي برغب إلى السعادة، ولا بقلق من شقاء. لأنه بطل أسطوري للمعنى إلى درجة لا يأبه فيها بالاحتراق في نار جهنم، ما دام فكره وطنه سامقاً وعاليا.

ورجل الفكر الراقي يستشعر التوقير للقيم التي وَهب لها قلبه استشعاراً عميقاً كعمق المراقبة، ويمارسه بنشوة كنشوة العبادة، ويعيش دائماً رجل عشق وحماس لا يفتران. ويعلم كيف يضحي في سبيل فكره بالنفس والحبيب، والمال والجاه، والأهل والعيال، واليوم والغد، في آن كلمح البصر ومن غير توان، ويرجح دائماً وجهة فكره السامي مع مراعاة الحق والحقيقة بتدقيق يشطر الشعرة أربعين شطراً. وهو حاكم على نفسه، ومحكوم بيد الحقيقة، وغير مبالٍ بالمقام والمنصب، وخائض في كفاح مستمر

في أعماق قلبه معتبرا الشهرة والطمع وحب النفس والرغب إلى الراحة وأمثال هذه الأمور سماً قاتلاً. ولذلك يفوز أبداً في ميادين الظفر، ويحول مواقع الهزيمة ساحات تدريب فني للفوز والنجاح.

وهو في سلوكه طريقَ السامقين مشدود شداً وثيقاً بموازين الحق تعالى... حتى إذا صدمته عواصف الرغبات استقوى واشتد فيه حب الحق، وإذا توجه إليه طوفان الحقد والبغض، أثار في روحه فوارات الحب والشفقة... وكم نعمةٍ يهفو إليها عامة البشر يتجاوز هو عنها ماضياً في سبيله، وكم نقمةٍ يتصدى لها بصدره. وإذ نتخيله بآفاقه الحقيقية التي تذهل العقول، يطوف أمام عيوننا أطياف العزائم النبوية، وتنهمر على أحاسيسنا صور بشر فوق البشر من وَلَجات الأبواب التي تُفَرِّجها التداعياتُ، ويفعم بيت خيالنا بالبطولات التاريخية... يطفح ويفيض، فيرتعش بوفاء وإخلاص عقبة بن نافع في صحارى أفريقيا، ويذهل لشجاعة وحماس طارق بن زياد الذي يخلف وراءه "برج هرقل"[٢] أثراً بعد عين، ويتطلع دهشاً إلى عزم وإقدام محمد الفاتح، ويُقَبِّل السيف الذي أبى الاستسلام في "بَلَونة"، ويسلم —تعظيماً— على أُسود "جناق قلعة" الذين استقبلوا انفلاق المدافع والقنابل فوق رؤوسهم بالبشر والسرور.

عظماء القلب والروح

ولسنا بحاجة اليوم إلى هذا وذاك، بل إلى أمثال هؤلاء من رجال الأفق الرحيب المثاليين بشخصياتهم السامقة. وسيتحقق في السنوات القابلة انبعاث أمتنا وبناؤها من جديد على يد هؤلاء من أهل الروح والمعنى ورجال الفكر السامق. هؤلاء الشجعان الذين خميرة وجودهم هو الإيمان والعشق والحكمة والبصيرة، لم ينحنوا أبداً أمام زخم الهجمات الداخلية والخارجية على مر القرون التسعة أو العشرة الأخيرة، ولم يتزعزعوا. ربما انكمشوا شيئاً قليلاً أو ضاقوا، لكنهم اكتسبوا صلابة البنية، فتماسك قوامهم إلى درجة كافية لتصفية الحساب مع المستقبل. وهم اليوم جاهزون لاستلام "النوبة" بقوة الروح الخارقة للعادة، يتطلعون إلى العصر بأبصارهم في ترقب نشط.

نعم، في القرون الأخيرة، شهد العشق والحكمة والبصيرة وحس المسؤولية ضموراً وانكماشاً، وجاءت المسائل اليومية الطفيفة لتقعد في مكان فكر "الأمة". فلا يمكن الادعاء —بداهة— بحصول "تجديد" في هذه المرحلة. وما طرح في الساحة باسم "التجديد" في هذه المرحلة لا يتجاوز التقليد الوضيع والدبلجة. هذه النمطية التي تلبست بسببها فكرة "القومية" بلباس الفسق وقدمت روح "الأمة" كاملة قد أضرت أكثر مما نفعت. وبينما كانت الأمة تنزف بسبب التخريب والهدم الواقع في جسمها لم يُعرف الداء الحقيقي، ولم تُكتشف طرق المداواة، وأصابت المعالجات الخاطئة جموع الناس بالشلل. ولا زالت آثار نوبات الحمّى لمرض القرون الأخيرة تشعرنا بدوام العلة، لاستمرار فورانه الدافع "عن المركز".

لذلك، سنقع اليوم أيضاً كما في أمسنا في خطأ بعد خطأ ونحن نبحث عن دواء، وسنصاب بنوبات أشد خطرا، وسنعجز عن الانفلات من دائرة الأزمات الفاسدة، ما لم نتبصّر في الأسباب الحقيقية للمعضلات، ولم نعالج عللنا الفردية والعائلية والاجتماعية بحذاقة الحكيم، ولم نخرج من مستنقع اللوثيات الذي نضطرب فيه منذ عصور.

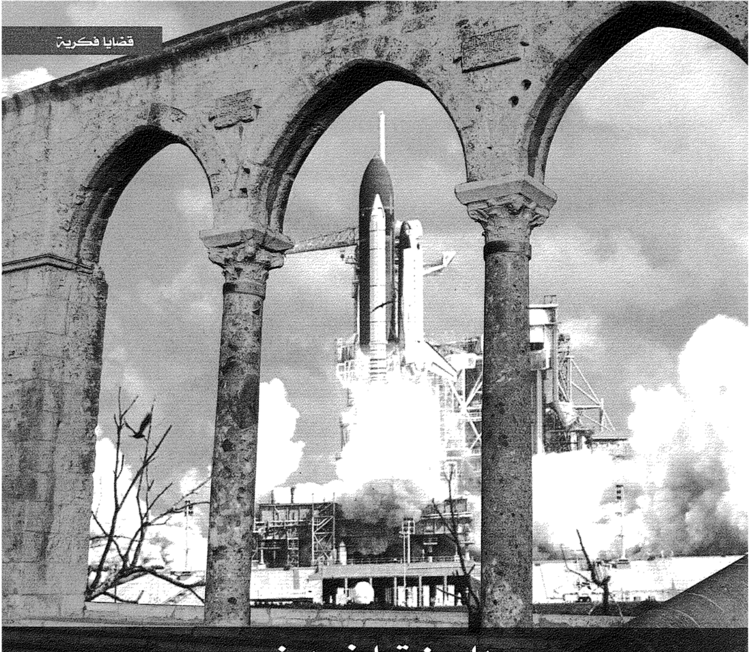
ولئن أصَرّ الذين يمسكون بالعنان على عنادهم الدائم عدة قرون، فنحن نؤمن يقينا بأن أجيال الفكر المثالية المتوجهين نحو المستقبل بحسهم وفكرهم وعملهم الحركي، المحبين لرسالتهم ووطنهم وإنسانهم بدرجة العشق، المتوترين كوتر القوس في انشدادهم إلى الخدمة والشعور بالمسؤولية، ستجتاز العقبات كلها وتنشئ تكوينات جديدة. فلا بد أن يسري العشق الذي في جنباتهم وحبُّهم للخدمة، إلى شرائح مجتمعهم كلها، فتشب براعم أينما سرى. وإذ يلغي هذا الفكر الواقعَ المادي والجسماني القائم، ويطرحه جانباً، لا بد أن ينقش كرة أخرى ديباج روحه الذاتي، حسب رؤيته الخاصة إلى العالم، وبرنامج حركته الذاتي.■

(*) الترجمة عن التركية: عوني عمر لطفي أوغلو.

الهوامش

(١) يومئ المؤلف بـ"أبدية المدة" إلى معان ثرة مكنونة أو ظاهرة، ذات أبعاد عديدة. ولعلنا نفيد في إيضاح بُعد من الأبعاد إن نبهنا إلى أن دول الإسلام العظمى في التاريخ كالدولة العباسية نعتت بدوام العز والسعد إلى يوم القيامة. وكانت الدولة العثمانية تنعت بـ"الدولة العَلِيّة الأبدية المدة". فهنا إشارة إلى هذا البُعد، زيادة على إيماءات أخرى مثل أن الأمل في النهضة لم ينفد، وأن الدين خالد، وأن طبع الفداء لن ينقطع، ولعل النهوض يبدأ من هذه البلاد. و"جناق قلعة" موضع شهد هذه المعركة الشهيرة في التاريخ، سطر فيها الجيش العثماني ملاحم فذة ورد جيش الحلفاء على أعقابه في الحرب العالمية الأولى، وذلك كان في ١٨ مارس ١٩١٥. (المترجم)

(٢) المقصود جبل طارق. (المترجم)



هل مِن تعارض بين الإسلام والتقدّم الحضاري؟

أ.د. أحمد عمر هاشم*

الإسلام هو دين العلم والمعرفة ودين التقدم الحضاري والعمران؛ ولا يأبى على أتباعه أن يصنعوا لأنفسهم وحياتهم ما يدفعهم قدماً إلى الأمام، بل إنه أمَر بإعداد القوة ليكون المسلمون أقوى وأقْدر على دفع كل عدوان يتربّص بهم الدوائر. قال الله تعالى: ﴿وَأَعِدُّوا لَهُمْ مَا اسْتَطَعْتُمْ مِنْ قُوَّةٍ﴾(الأنفال:٦٠). كما أمر الإسلام أتباعه بالسير والنظر في ملكوت السماوات والأرض وما بثّ الله في ملكوته من آيات.

ومعلوم أن الحضارة الإسلامية التي تبوّأت مكانتها العالمية على ظهر الأرض لم تكن وليدة الصّدفة ولم تنبعث من فراغ، وإنما أخذت وضعها في المجتمعات الإنسانية، لأنها قامت على فكر مستنير استمدّ رشده وهداه من ينابيع الإسلام الأصيلة.

فقد منح الله تعالى الإنسان عقلاً مفكراً يميّز به بين الحق والباطل وبين الخير والشر، وليفكر ويتدبر ويبحث وينقّب ويكتشف ويتقدم في هذا الكون الفسيح.

المنهج التجريبي عند المسلمين

وإلى جانب هذه المنحة الربانية -وهي العقل- منح الله سبحانه وتعالى الإنسان سمعًا وبصراً وفؤاداً وجعله مسؤولاً عما منحه إياه فقال تعالى: ﴿إِنَّ السَّمْعَ وَالْبَصَرَ وَالْفُؤَادَ كُلُّ أُولَئِكَ كَانَ عَنْهُ مَسْئُولاً﴾(الإسراء:٣٦).

وقد اضطلع رجال أفذاذ من أمّتنا الإسلامية بمهمّة البحث والاكتشاف، وكانت لهم مناهجهم التجريبية التي اعترفت بها أوروبا ولا تزال مَدينةً لهم حتى الآن، ومن هؤلاء: الرازي وابن سينا في الطب، والكندي في الرياضيات، وجابر بن حيّان في الكيمياء، وابن الهيثم في الطبيعة.

ويقول الأستاذ بريفولت في كتابه "بناء الإنسانية": "ليس لروجيه باكون ولا لفرانسيس باكون الذي جاء بعده الحقّ في أن يُنسب إليهما الفضل في ابتكار المنهج التجريبي؛ فلم يكن باكون إلا واسطة من وسطاء العلم والمنهج الإسلاميين إلى أوروبا، وهو نفسه لم يملّ قط من التصريح بأنّ تعلُّم معاصريه في أوروبا اللغة العربية وعلوم المسلمين هو الطريق الوحيد للمعرفة الحقة".

تلك كانت نظرتهم، وذلك اعترافهم، وإلى أي مدى أدركوا أهمية اللغة العربية كطريق للمعرفة الحقة. أين هذا من إهمال الكثير من العرب للغتهم، وأين هذا من أولئك الذين يدعون للعامية؟! بل ويتحدثون بها ويهجرون اللغة العربية في الكثير من الأحاديث في وسائل الإعلام المختلفة؟ وأين هذا من الأمّية التي فشَتْ في بعض المواقع ولا تزال؟!

نعمة العقل

لقد آن الأوان أن يقضى على الأمية وأن يأخذ المسلمون طريقهم إلى العلم والمعرفة وإلى الثقافة الأصيلة والحضارة الإسلامية العريقة التي أسّسها أسلافُنا.

إن المسلمين إذا تأخروا فهذا نتيجة إهمالهم وتفريطهم في تراثهم وليس الذنب ذنب الإسلام؛ فالإسلام هو دِين العلم، حثّهم عليه وأمَرهم بالبحث والنظر. وأولى آياته: ﴿اقْرَأْ﴾(العلق:١) دعوة للعلم والمعرفة، وقد جعَل الله تعالى لهم الأرض مَهدا وسلك لهم فيها سُبلاً. ولطالما تفشت دعاوى زائفة أثارها أعداءُ الإسلام في القديم وفي الحديث بأن الإسلام يتعارض مع التقدّم الحضاري وأن المسلمين متأخّرون. وقد وضح لنا مما سبق كيف حثّ الإسلامُ أتباعَه وجعلهم مسؤولين عمّا منَحهم به من نعمة العقل والسمع والبصر والفؤاد.

وكم انطلقت دعاوى أخرى تقول بضرورة أخذ الحضارة الحديثة بحذافيرها، ودعوات ينادي أصحابها برفض الحضارة الحديثة، وآخرون يرون أنهم معتدلون فيأخذون منها الصالح ويتركون غيره. ولكنها آراء إذا طرحت على بساط البحث والمناقشة لا يبقى منها شيء؛ فالقول بأخذ الحضارة الحديثة جملةً مرفوض، لأن فيها ما ليس بصالح. ولأن فيها ما يتعارض مع روح أمة لها شخصيتها ومكانتها.

والقول بتركها جملةً لا يتفق أيضا بحال، إذ إن هناك أشياء في تلك الحضارة أصبحت من ضرورات الأفراد والمجتمعات. والقول بأخذ الصالح منها أيضا لنا عنده وقفة، لأن تحديد الصالح وغير الصالح سيختلف من عقل لعقل ومن فكر لفكر ومن بيئة لبيئة. نقف بعد ذلك لنقول: فما الحلّ؟

والإجابة على هذا أن في الإسلام -كما سبق- نهوضا وتقدما، وأن العقل الإسلامي يدين له العالم الحديث بحضارته، فلْيَسِرْ الفكر الإسلامي المستنير بعلمائه وخبرائه، وليأخذ مسيرته الموفقة موصولة من الخلَف بالسلف. وليس في الإسلام تعارض بحال من الأحوال مع الحضارة والتقدم والنهوض، بل إنه أمَر بالسير والنظر والعلم والمعرفة كما سبق. فالحضارة المادية والحياة المعملية بمخابرها وأدواتها وكل أجهزتها ومعاملها وصناعتها لا تتنافى مع الإسلام بل تتفق معه ويدعو إليها.

الحضارة الإسلامية ومصادرها الثقافية والفكرية

وأما ما يتصل بالفكر والثقافة فإن لنا أصول ثقافتنا التي ترتكز على الوحي الإلهي فيما يتصل بالشؤون الدينية. والوحي الإلهي مصون من أيّ زلَل أو شطط لأنه معصوم، وأما الفكر البشَري فهو قابل للخطأ والصواب؛ فمَن حاول أن يأخذ من غير أصول الإسلام ضلَّ، وما تسرّب الغزو الفكري إلى البيئة الإسلامية إلا في فتَرات الضعف التي انتابت الأمة فترات وفترات.

وواضحٌ أن القرآن الكريم دستور حياة وتبيان لكل شيء وهدًى ورحمة للعالمين، كفل للبشرية سعادتها دنيا وأخرى؛ فمَن حاول التقدُّم عن غير طريقه ضلَّ ضلالا مُبينا. وفي الحديث: "ومن ابتغى الهدى في غيره أضلَّه الله" (رواه الترمذي). وللسنّة النبوية المشرّفة فضلها؛ فهي مفصّلة لمجمَل القرآن وموضّحة لمبهمه

ومقيّدة لمطلقه ومخصّصة لعامه وشـارحة لأحكامه. وفيهما معًا الأمانُ مـن الفتن ما ظهر منها وما بطن، والأمانُ من الانحراف والضلال، كما قال الرسـول ﷺ: "تركت فيكم ما إن تمسكتم به لن تضلوا بعدي أبدا: كتابَ الله وسـنّتي" (رواه الحاكم).

وإن في القرآن والسنة غناء للفكر الإسلامي وللثقافة الإسلامية، يقول الله تعالى: ﴿أَوَلَمْ يَكْفِهِمْ أَنَّا أَنْزَلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ يُتْلَى عَلَيْهِمْ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَرَحْمَةً وَذِكْرَى لِقَـوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾(العنكبوت:٥١). وقد حذّر الرسـول ﷺ من الخروج عن دائرة الكتاب والسنّة وأرسى مناهج الحياة الثقافية الإسلامية الصحيحة حتى لا يتخبّط أحد في دياجير الظلمات الفكرية أو التيّارات المغرضة.

عـن جابر بن عبد الله ﷺ أنّ عمر بن الخطّاب ﷺ أتى النبي ﷺ بكتاب أصابه من بعض أهل الكُتب، فقرأه النبي ﷺ فغضب فقال: "أمتهوّكون [أي متشـكّكون] فيها يـا ابن الخطّاب؟! والّذي نفسـي بيده لقد جئتكم بها بيضاءَ نقية، لا تسألوهم عن شـيء فيخبروكم بحق فتكذبوا به أو بباطل فتصدّقوا به. والذي نفْسي بيده لو أن موسى ﷺ كان حيا ما وسعه إلاّ أن يتّبعَني" (رواه أحمد). هذا فيما يتعلق بالدين والعبادة وأمر الثقافة الإسلامية.

الابتكار والتقليد

أما ما يتعلق بعالم الصناعات والمكتشفات الحديثة، فالإسلام حثّ على أخذ العلم والتقدم والحكمة حيث وُجدتْ؛ "فالحكمةُ ضالّة المؤمن أنّى وجدها فهو أحـقّ بها" (رواه الترمذي)، لا يعنيه من أيّ وعاء خرجَت. وقد أمَرنا دينُنا أنْ نأخذ النّافع وأن نطرح الضارّ، وقال رسـول الله ﷺ: "لا يكن أحدكم إمّعة يقول: إن أحسن الناسُ أحسنتُ وإن أساؤوا أسـأتُ، ولكن وطّنوا أنفسكم إن أحسن الناس أن تُحسنوا وإن أساؤوا فلا تَظلموا" (رواه الترمذي).

ومِن أهمّ ما يتميز به التقدّم الحضاري في ظل الإسلام هو أنه يعمل على الاسـتقرار والأمان والتواصل والتعارف بين الجميع. قال الله تعالى:

﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُمْ مِنْ ذَكَرٍ وَأُنْثَى وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوبًا وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللهِ أَتْقَاكُمْ﴾(الحجرات:١٣). والتقدم الحضاري في ظل الإسلام لا ينحو إلى الصراع أو الصدام، بل إلى التعـاون والتدافع، قال الله تعالى: ﴿وَلَوْلاَ دَفْعُ اللهِ النَّاسَ بَعْضَهُمْ بِبَعْضٍ لَفَسَدَتِ الأَرْضُ﴾(البقرة:٢٥١).

ويسـعى التقدم الحضاري في ظل الإسلام إلى البناء والتعمير وليـس للهـدم أو التدمـير، لأن الحضارة الإسـلامية لم تَقُم كالحضارات الأخرى على الجانب المادي فحسـب، بل قامت على الجانب الروحي والديني والقيمي مع الجانب الماديّ في توازن واتّفاق وانسجام ودون أن يطغى جانبٌ على جانب آخر.

ولذا يشـهد التاريخ أن المسلمين لم يكونوا طرَفا في الحروب العالمية، لأن الإسلام هو دين السلام ويدعو الناس أن يدخلو في السّلم عامّة.

التعايش السلمي والحضاري

ومما لا شك فيه أن للقيم الدينية والمبادئ الإسلامية الروحية أكبر الأثـر في صيانة الحضارة من أيّ شـطط، وإنما الدعوة بالحكمة والموعظة الحسـنة والمجادلة بالتي هي أحسـن والعمل من أجل الصالح العام؛ لأن الرسالة التي تسير في ضوئها هي رسالة الرحمة، ولأن الرسول ﷺ جاء بالرحمة، بل هو نفسه رحمةٌ مُهداة ونعمةٌ مُسداة مَنّ الله ﷺ به على المؤمنين وبَعَثه رحمةً للعالمين، وقال رب العزة جلّ شأنه: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلاَّ رَحْمَةً لِلْعَالَمِينَ﴾(الأنبياء:١٠٧).

وإذا كانت عظمة الحضارة الإسـلامية على هذا النحو، فإن سـيادة هذه الحضارة وريادتها فيها الأمان الحقيقي للعالم المفزع بالحروب، وفيها التعايش السّـلمي والحضاري، حتى لا يخدعنا الانبهار بغَيرنا.

إنّ لدى أمّتنا مخزونا ثقافيا ومشـروعا حضاريا يتضمن كل خصائص الثبات والاستقرار على هُويتنا وعدم الذوَبان في الآخَر، ولكـن المهمّ هو العمل والإخلاص ومضاعفـة الإنتاج والتقدمُ العلمي والحضاريّ الذي حثّ عليه الإسـلام؛ لأن الأنسـاق الثقافية لحضارتنا تتميّز بأنها إنسـانية وعالَمية، جوهرها الرحمةُ والبرّ والتعايش والتسـامح والأخوّة التي تَحمي حقوقَ الإنسان وتصون كرامةَ كلّ آدميّ، كما قال الله تعالى: ﴿وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِي آدَمَ وَحَمَلْنَاهُمْ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ وَرَزَقْنَاهُمْ مِنَ الطَّيِّبَاتِ وَفَضَّلْنَاهُمْ عَلَى كَثِيرٍ مِمَّنْ خَلَقْنَا تَفْضِيلاً﴾(الإسراء:٧٠).■

(*) رئيس جامعة الأزهر السابق / مصر.

لولا القمر



نوري بالطه*

ماذا كان يحدث لو لم يكن القمر موجوداً؟ وما التأثير المتوقع لغياب القمر وعدم وجوده على الأرض وعلى المناخ وعلى ملايين أنواع المخلوقات التي تعيش على سطح الأرض؟ وماذا كان يحدث لو أن كتلة القمر كانت أكثر أو أقل من كتلته الحالية؟ وهل هو مجرد كتلة من الصخر وضع عشوائيا في مدار حول الأرض؟

من الممكن طرح المزيد من الأسئلة في هذا الصدد. لذا قام الباحث الفلكي "نايل كومنس" (Neil Comins) من جامعة (Main) في الولايات المتحدة الأمريكية بوضع كتابٍ شرح فيه مصير الإنسان لو لم يكن القمر موجوداً! وهذا الفلكي يرى أن من بين ملايين العوامل التي ساعدت على ظهور وإدامة الحياة في هذا الكوكب الفريد الذي يبدو حتى الآن أنه الوسط والبيئة الوحيدة التي ظهرت فيها الحياة هو وجود توازن دقيق بين الأرض والقمر. وكما لا تقع أي حادثة في الكون نتيجة مصادفات عشوائية، كذلك فإن القمر خلق كعنصر توازن دقيق إلى درجة أنه يمكن القول بأنه لو لم يكن موجوداً لاستحال ظهور الحياة في الأرض. وجاء في القرآن: ﴿الشَّمْسُ وَالْقَمَرُ بِحُسْبَانٍ﴾(الرحمن:٥).

والقمر الذي ليس له جو غازي عبارة عن كرة من الصخر يعلوها التراب وفوهات البراكين، وهو التابع الوحيد للأرض.

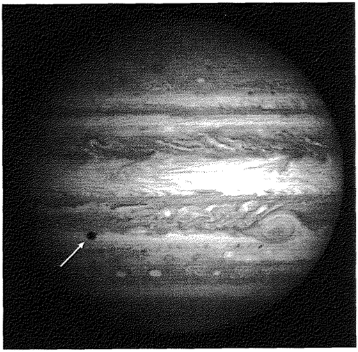
ويبلغ نصف قطره ربع نصف قطرها تقريباً، وحجمه ١/٥٠ من حجمها تقريباً، وكتلته ١/٨٠ من كتلتها تقريباً ويبعد عن مركزها مسافة ٣٨٥ ألف كم. ويتم دورة كاملة حولها في ٢٩,٥ يوماً. ومع أن الغموض يكتنف وجوده وخلقه فإن النظرية المقبولة حوله هو أن كوكباً سماه الفلكيون كوكب "ثيا" (Theia) تبلغ كثافته عُشر كثافة الأرض اصطدم بها. ونتيجة لهذا الاصطدام انفصل جزء من ذلك الكوكب وانقذف إلى الفضاء. وعادت هذه الكتلة المنقذفة التي استطالت وتغير شكلها بعد الاصطدام واصطدمت بالأرض مرة أخرى بعد أن دارت حول الأرض.

في هذا الاصطدام الأخير ترسب لب كوكب "ثيا" الذي كان عبارة عن عنصر الحديد إلى مركز الأرض، أما غلافه الخفيف الذي كان عبارة عن صخور خفيفة فقد انقذف إلى الفضاء. وبمرور الوقت اجتمعت هذه القطع الصخرية وكونت القمر. كان القمر في بادئ الأمر على محور يبعد عن الأرض ٢٢ ألف كم فقط. وبمرور الوقت ابتعد هذا المحور حتى وصل إلى بعده الحالي الذي هو في المتوسط ٣٨٥ ألف كم.

المد والجزر

إن أهم تأثير يجريه القمر على الأرض هو في مسألة "المد والجزر". وحسب قانون الجاذبية العام فإن كل كتلتين تتجاذبان بقوة طردية مع مقدار حاصل ضرب الكتلتين وعكسيا مع مربع المسافة بينهما. وتؤدي قوة الجاذبية الموجودة بين الأرض والقمر إلى مد في مياه البحار والمحيطات ثم في انخفاضها، وذلك لأن قوة التلاصق الموجودة بين البحر والبر ضعيفة (قوة التلاصق الموجودة مثلا بين القدح والماء الموجود فيه هي التي تؤدي إلى بقاء مقدار قليل من الماء في القدح بعد سكب الماء منه). ويحدث هذا المد والجزر حسب موضع القمر. ويعود ثلث المد والجزر إلى تأثير جاذبية الشمس، والباقي إلى تأثير جاذبية القمر.

نتيجة لحادثة المد والجزر يبتعد القمر عن الأرض كل عام بمقدار ٤ سم تقريباً. ولكي يتم الحفاظ على نفس مقدار العزم الزاوي (Angular Momentum) في نظام (الأرض- القمر) تزداد فترة دوران الأرض حول نفسها بمقدار ٠,٠٠٢ ثانية كل عام. وتبين الحسابات العلمية أن الفترة الحالية لإكمال الأرض دورة واحدة حول نفسها تساوي ٢٤ ساعة تقريباً، بينما كانت هذه الفترة عند بداية خلق القمر ٨ ساعات فقط، ثم استطالت هذه الفترة بمرور الزمن حتى وصلت إلى قيمتها الحالية. ولولا القمر لبقيت فترة الدوران ٨ ساعات بسبب عدم وجود المد والجزر. وهذا يعني دوران الأرض حول محورها بسرعة تبلغ ثلاثة أضعاف سرعتها الحالية.



القمر وقوة تأثيره

إن دوران أي كوكب بسرعة حول محوره يؤدي إلى شدة هبوب الرياح على سطحه. مثلا نرى أن كوكب المشتري وكوكب زحل يكملان دورة واحدة حول نفسيهما في مدة ١٠ ساعات تقريباً، لذا تتولد هناك عواصف قوية تبلغ سرعة هبوبها ٥٠٠ كم/ساعة في الاتجاه "الشرقي - الغربي". ومن شدة هذه العواصف فإننا نستطيع مشاهدة غيوم الغبار المثار في جوهما نتيجة هذه العواصف الشديدة بالمنظار المقرب (التلسكوب).

النقطة السوداء التي نشاهدها في الصورة أعلاه التي أخذت لكوكب المشتري من التلسكوب الفضائي "هوبل" هي ظل أقرب تابع له وهو تابع "إيو". وعندما يدور المشتري حول نفسه ويتم دورة كاملة في ١٠ ساعات فإنه يسحب غلافه الجوي معه. ونتيجة هذا السحب تتولد عواصف في اتجاه الخط الموصل بين

الشــرق والغرب. أما الحُزم الداكنة والحزمة البيضاء الظاهرة في الصورة فهي تبين اتجاه الرياح في كوكب المشتري.

لو لم يكن القمر موجوداً لزادت سرعة دوران الأرض حول محورها وزاد بالتالي مقــدار الفروق في درجة الحرارة بين البحر واليابســة، ولزادت نتيجة لهذا ســرعة الأعاصير التي ستهب في اتجاه الخط الموصل بين الشرق والغرب حتى تصل إلى ١٦٠ كم/ساعة. وهذا يعني ظهور ظروف غير مواتية للإنسان وللحيوانات التي تملك تركيباً معقداً.

فمثلاً ســتتعذر نشاطات إنسانية مهمة مثل المحادثة. ونظراً لأن اليوم ســيتقلص إلى ٨ ساعات فقط فإن الساعة البيولوجية للإنســان وللعديد من الأحياء ستتشــوش وتتعقد نتيجة الفرق بين هذه الســاعة وســاعات اليوم آنذاك، ويظهــر العديد من الاضطرابات شيئاً فشــيئاً. ونظراً لعدم وجود القمر يصبح المد والجزر ضعيفاً جداً، وتنعدم بالتالي الظروف الملائمة والضرورية للعديد من الأحياء المائية.

يســاهم القمر أيضاً في كــون دوران الأرض حول محورها بزاويــة قدرها ٢٣,٥ م°. وكما هو معلــوم فإن هذا الميل هو الذي يســاعد على ظهور المواسم الأربعة، وعلى استلام المنطقة الاستوائية والمنطقتين القطبيتين مقادير متوازنة من أشعة الشمس. وهكذا يســاهم القمر في تأمين الشروط المناخية الملائمة للأرض ولاستمرار الحياة.

وظائف أخرى للقمر

التأثير الآخر للقمر على الأرض هو قيامه بعكس الضوء الآتي إليه من الشــمس إلى الأرض. وهذا يؤدي إلى زيادة حرارة الأرض بمقــدار ٠,٢ م°. كما يقوم القمر بوظيفــة درع واقٍ للأرض من النيازك والشــهب. فلو لم يكن موجــوداً لزاد عدد النيازك والشهب التي تقع على الأرض.

يقوم المجال المغناطيسي الذي يحيط بالأرض برد معظم الأشعة الكونية القاتلة المنهمرة نحو الأرض. أما الجزء القليل الذي يصل إلى الأرض فيســاعد في لعب دور مهم في التفاعلات الكيميائية الجارية على الأرض وفي الغلاف الجوي.

ولولا القمر لزادت سرعة دوران الأرض كما ذكرنا ولزادت سرعة دوران الكرة الســائلة الموجودة في مركز الأرض بالنسبة للغــلاف الخارجي للأرض ولتغيرت بنيــة الغلاف الجوي وقوة المجال المغناطيسي له. وهذا يؤدي إلى نتائج سلبية بالنسبة للعديد من المخلوقات التي تســتخدم هذا المجال المغناطيسي مثل بعض البكتريات والطيور والأسماك المهاجرة وسلاحف البحر وأسماك السلمون، أي لاختلف العديد من النظم المناخية والحياتية.

القمر تقويم زماني وحسابي

وكما هو معلوم فقد لعب القمر والشمس دور التقويم في التاريخ الإنســاني، وقد ورد في القرآن الكريم ﴿وَجَعَلْنَــا اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ آيَتَيْنِ فَمَحَوْنَا آيَةَ اللَّيْلِ وَجَعَلْنَا آيَــةَ النَّهَارِ مُبْصِرَةً لِتَبْتَغُوا فَضْلاً مِنْ رَبِّكُمْ وَلِتَعْلَمُوا عَدَدَ السِّــنِينَ وَالْحِسَابَ وَكُلَّ شَيْءٍ فَصَّلْنَاهُ تَفْصِيلاً﴾(الإســراء:١٢)، أي إن الله تعــالى يلفت أنظارنا إلى هذه الوظيفة التي يقوم بها القمر والشمس.

يعد القمر أكبر تابع معروف للكواكب في المنظومة الشمسية، إذ تبلــغ كتلته ١,٢٣٪ من كتلة الأرض، فهو يلعب دوراً مهماً في تحقيق التوازنات الدقيقة الموجودة للأرض وفي تأمين ظروف ملائمة لظهور الحياة ودوامها. وإذا دققنا النظر في دوره وتأثيره على الأرض ظهر لنا أنه خلق خصيصاً لحياتنا على الأرض.

والحاصــل أن القمر قد كلف بمهــام ووظائف مهمة نتيجة حســابات دقيقة من قِبل مــن قال: ﴿وَالسَّــمَاءَ رَفَعَهَا وَوَضَعَ الْمِيزَانَ﴾(الرحمن:٧). ■

(*) كاتب وباحث تركي. الترجمة عن التركية: أورخان محمد علي.

المصادر

(1) Neil Comins, "What If the Moon Didn't Exist? Voyages to Earths That Might Have Been", New York, Harper Collins, 1993.

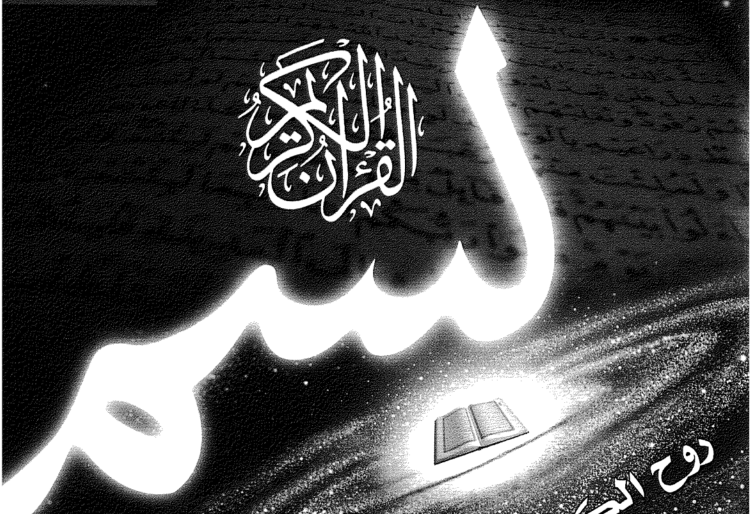
(2) Marcus Chown, "The Planet That Stalked the Earth", New Scientist 14 Augst 2004.

(3) Paul D. Spudis, "Moon", World Book Online Reference Center, NASA, 2004.

(4) Tony Phillips, "What Neil & Buzz Left on the Moon", Science, NASA 2004.

(5) Richard Ray, "Ocean Tides and the Earth's Rotation", IERS, 2001.

(6) John Gribbin, "A Mysterious Monthly Temperature Cycle," New Scientist, 28 January 1995.



روح الكون ومعراج التعرف إلى الله

أ.د. فريد الأنصاري

إن هذا الكتاب المرسوم بالقرآن كتابٌ غير عادي تماماً. إنه كلام من طبيعة أخرى، وخطابٌ من عالم آخر. ولكن العادة تضعف الحس البشري؛ فليس لنا معشر البشر إلا الوقوف على ضفافه الفسيحة، وتَلَقّي أمواجه بصدورنا، نتذوق من خلالها مواجيد الإيمان، ونشاهد سُبُحات الجلال والجمال.

إن هذا القرآن الكريم ينبئ عن نفسه ويعرف بطبيعته وماهيته. إنه يتكلم إلى الإنسان من خلال بعده الكوني، ومصدره الرباني. ومن هنا فإنه أعمق من أن يحيط به الإدراك المادي المجرد: ﴿وَمَا كَانَ لِبَشَرٍ أَنْ يُكَلِّمَهُ اللهُ إِلاَّ وَحْيًا أَوْ مِنْ وَرَاءِ حِجَابٍ أَوْ يُرْسِلَ رَسُولاً فَيُوحِيَ بِإِذْنِهِ مَا يَشَاءُ إِنَّهُ عَلِيٌّ حَكِيمٌ﴾(الشورى:٥١) ولذلك فإن أسرار آياته ترتبط جميعا بحقائق الكون. فهو فهرست الوجود، والكشاف الجامع لكل موجود، إذ هو ينتمي إلى عالم "الأمر" ﴿وَكَذَلِكَ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ رُوحًا مِنْ أَمْرِنَا﴾(الشورى:٥٢). إنه يمثل في حقيقته وفي وجدان المتبصر لبصائره روحَ الحقائق كلها، فلا حياة لها إلا به.

إن عظمة القرآن تتمثل أساسا في أنه "كلام الله رب العالمين".

إن ما يبهر الإنسان من ذلك ويفيض مشاعره أن القضية هي من العظمة والرهبة بحيث يستحيل على القلب البشري تحمل مواجيدها، بدءاً بالتفكر في هذا الكون الشاسع الممتد من فضاءات لا يحدها بصر ولا تصور ولا خيال، وما يسبح فيه من نجوم وكواكب ومجرات وسدم غائرة بعيدة بملايين السنوات الضوئية، وما يحيطها من سماوات بعضها فوق بعض، وما يعمرها من خلائق نورانية مما لا يُدرك له شكل ولا صورة، إلى ما بين هذا وذاك من طبقات الزمان المختلفة عدّاً وتقديراً، من الأيام والسنوات، قد يختزل اليومُ الواحد منها ﴿أَلْفَ سَنَةٍ مِمَّا تَعُدُّونَ﴾(السجدة:٥)، إلى ﴿خَمْسِينَ أَلْفَ سَنَةٍ﴾(المعارج:٤). وربُّ هذه العوالم جميعاً، الخالق لها، والمحيط بأزمنتها وأمكنتها كلها، المدبر شؤون حياتها ومماتها وأرزاقها، بقيوميته الممتدة من الأزل إلى الأبد، المالك زمام أحوالها بأنوار أسمائه الحسنى وصفاته العلى ﷻ، هذا الرب الرحمن الرحيم والملك العظيم المتنزه في مطلق علوه وسموه وجلاله وكبريائه؛ يقدر برحمانيته ورحمته أن يكرم الإنسان هذا المخلوق الضعيف القابع في الأرض، هذا الكوكب الضئيل السابح في بحر عظيم زاخر بأمواج السدم والمجرات، فيكون من أعظم مقامات هذا التكريم أن يخاطبه بهذا الكلام الإلهي العظيم: القرآن الكريم!

فكيف للنسبي الفاني إذن أن تتحمل مواجيدُه كلام المطلق الباقي؟! كيف للقلب المحكوم بالزمان والمكان أن تستوعب خفقاتُه المعدودة وأنفاسُه المحدودة وقْعَ الكلام الخارق للزمان والمكان؟!

وإن الله إذا تكلم سبحانه تكلم من علٍ، أي من فوق؛ لأنه العلي العظيم ﷻ، فهو فوق كل شيء، محيط بكل شيء علما وقدرة، إنه رب الكون: ﴿أَلاَ إِنَّهُمْ فِي مِرْيَةٍ مِنْ لِقَاءِ رَبِّهِمْ أَلاَ إِنَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ مُحِيطٌ﴾(فصلت:٥٤). ومن هنا جاء القرآن محيطاً بالكون كله، متحدثاً عن كثير من عجائبه، قال تعالى في سياق الكلام عن عظمة القرآن: ﴿فَلاَ أُقْسِمُ بِمَوَاقِعِ النُّجُومِ ۞ وَإِنَّهُ لَقَسَمٌ لَوْ تَعْلَمُونَ عَظِيمٌ ۞ إِنَّهُ لَقُرْآنٌ كَرِيمٌ ۞ فِي كِتَابٍ مَكْنُونٍ ۞ لاَ يَمَسُّهُ إِلاَّ الْمُطَهَّرُونَ ۞ تَنْزِيلٌ مِنْ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾(الواقعة:٧٥-٨٠).

وهذا المقال يرمي إلى إبراز قضيتين:

الأولى: كون القرآن خطاباً كونياً بما هو روح من أمر الله.

والثانية: بيان أنه بذلك معراج للتعرف إلى الله جل علاه.

الأولى: كونية القرآن الكريم

إن معنى "كونية القرآن" لازم من لوازم كونه "كلام الله رب العالمين". فالربوبية قاضية بكل معاني الشمول والامتلاك والسلطنة؛ ذلك أن "القرآن" من حيث هو كلام رب العالمين، متضمن لمعنى الربوبية الجامعة لكل عناصر الكون امتلاكا وقهراً. كما أن الكائنات من خلاله تدور جميعها حول هذا المعنى، سالكة إلى الله خالقها، منجذبة إلى نوره تعالى. ولذلك كان القرآن -وهو خطاب الله إلى الإنسان- خطاباً كونياً أيضاً. ويمكن بيان "كونية القرآن" من خلال الخصائص الثلاث الآتية:

أ-القرآن قراءة لكتاب الكون، وكشف لأسراره: ومعنى ذلك أنه كتاب كاشف للغز الحياة بصورة بسيطة. فهو يقدم الصعب المعقد تقديماً سهلاً ميسراً، فسهل على العامة والخاصة قراءة مقاصده من خلال أبعاده الكونية؛ إذ يلفت انتباه الإنسان إلى مظاهر الكون وحقائقه ليتفكر في خلق السموات والأرض، كل على حسب طاقته وسعة إدراكه. فيكون القرآن الكريم بكونيته هذه خطاباً لجميع الناس بجميع مستوياتهم الثقافية واختلافاتهم اللغوية والعرقية. وهو ضرب من ضروب الإعجاز. ومن هنا كان القرآن بحقٍ مفسرَ كتاب العالم.

ب-القرآن روح الكون: ومعنى ذلك أنه ما دام المتكلم به هو الله رب العالمين -بالاعتبار الذي ذكرنا- أي "خالق كل شيء" سبحانه، فإنه لا شيء إلا وهو راجع في حقيقة وجوده إلى حقائق القرآن الكونية. وما علمنا ذلك كله إلا من خلال القرآن الكريم الذي هو كلام رب العالمين الخالق لكل شيء. فالقرآن يمثل -من حيث حقائقه- حقائق الكون كله، بدءا بقصة الخلق إلى غاية الإعادة من يوم القيامة ﴿كَمَا بَدَأْنَا أَوَّلَ خَلْقٍ نُعِيدُهُ﴾(الأنبياء:١٠٤)، ثم البعث والنشور، فالمصير. فلو تُصُوِّر عدم حقائق القرآن -وهو فرض محال- لاستحال تصور وجود العالم الكوني كله.

ثم إن حقائق القرآن التي هي التفسير السليم لنظام الكون، هي وحدها القادرة على الحفاظ على ذلك النظام الكوني في العقل. ولو افترضنا تفسيراً غيرها، لعمت الفوضى تصورات العقول، ولاختل التوازن في الفكر، بتصورات لا يمكن إلا أن تؤدي في النهاية إلى افتراضات تقضي في المنطق العقلي إلى اختلال الكون كله في التصور. وبهذا المعنى كان القرآن هو روح الكون.

جـ-القرآن محيط بمفهوم الزمان الكوني: إذا كان القرآن كلام الله رب العالمين، فإنه صفة له سبحانه؛ لأن الكلام صفة للمتكلم. وقد عُلم أن الله ﷻ محيط بالزمان والمكان. فهو فوق كل شيء ومحيط بكل شيء، لأنه تعالى خالق كل شيء. من هنا إذن كان

القرآن محيطاً بالزمان الكوني: الماضي والحاضر والمستقبل جميعاً، ثم بالزمان الأرضي، وهو الزمان بالتقدير البشري الدنيوي مما نعد به التاريخ والأعمار، وكذلك بالزمان المعراجي بنوعيه: الأمري والملائكي. فالزمان الأمري هو المشار إليه في قوله تعالى: ﴿يُدَبِّرُ الأَمْرَ مِنَ السَّمَاءِ إِلَى الأَرْضِ ثُمَّ يَعْرُجُ إِلَيْهِ فِي يَوْمٍ كَانَ مِقْدَارُهُ أَلْفَ سَنَةٍ مِمَّا تَعُدُّونَ﴾(السجدة:٥)، والزمان الملائكي هو المشار إليه في قوله سبحانه: ﴿تَعْرُجُ الْمَلائِكَةُ وَالرُّوحُ إِلَيْهِ فِي يَوْمٍ كَانَ مِقْدَارُهُ خَمْسِينَ أَلْفَ سَنَةٍ﴾(المعارج:٤). وكذلك الزمان العندي وهو المشار إليه في قوله تعالى: ﴿وَإِنَّ يَوْمًا عِنْدَ رَبِّكَ كَأَلْفِ سَنَةٍ مِمَّا تَعُدُّونَ﴾(الحج:٤٧).

ثم الزمان الأخروي وهو الزمان الخالد السرمدي الذي لا ينتهي أبداً مما يكون بعد إعادة الخلق، حيث قيام يوم الدين، من بعث وحشر وحساب وجنة ونار. فحديث القرآن عن ذلك كله حديث جامع مانع. ومن هنا كان محيطاً بكل الزمان، مما ينتسب إلى عالم الغيب أو إلى عالم الشهادة.

ذلك هو القرآن... كلام من أحاط بمواقع النجوم خلقا وأمرا وعلما وقدرة وإبداعاً. فجاء كتابه بثقل ذلك كله، أنزله على سيدنا محمد ﷺ، من بعدما هيأه لذلك وصنعه على عينه سبحانه جل وعلا، فقال له: ﴿إِنَّا سَنُلْقِي عَلَيْكَ قَوْلاً ثَقِيلاً﴾(المزمل:٥).

ومن هنا لما كذب المنكرون بالقرآن للقرآن، نعى الله عليهم ضآلة تفكيرهم وضحالته وقصور إدراكهم وضعف بصرهم عن أن يستوعبوا بعده الكوني الضارب في بحار الغيب، فقال تعالى: ﴿وَقَالُوا أَسَاطِيرُ الأَوَّلِينَ اكْتَتَبَهَا فَهِيَ تُمْلَى عَلَيْهِ بُكْرَةً وَأَصِيلاً ۞ قُلْ أَنْزَلَهُ الَّذِي يَعْلَمُ السِّرَّ فِي السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ إِنَّهُ كَانَ غَفُورًا رَحِيمًا﴾(الفرقان:٥-٦) وإنه لرد عميق جداً. ومن هنا جاء متحدثاً عن كثير من السر في السماوات والأرض؛ قال ﷻ: ﴿وَلَقَدْ صَرَّفْنَا فِي هَذَا الْقُرْآنِ لِلنَّاسِ مِنْ كُلِّ مَثَلٍ وَكَانَ الإِنْسَانُ أَكْثَرَ شَيْءٍ جَدَلاً﴾(الكهف:٥٤)، وقال جل وعلا: ﴿سَنُرِيهِمْ آيَاتِنَا فِي الآفَاقِ وَفِي أَنْفُسِهِمْ حَتَّى يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ الْحَقُّ أَوَلَمْ يَكْفِ بِرَبِّكَ أَنَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ ۞ أَلاَ إِنَّهُمْ فِي مِرْيَةٍ مِنْ لِقَاءِ رَبِّهِمْ أَلاَ إِنَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ مُحِيطٌ﴾(فصلت:٥٣-٥٤).

الثانية: القرآن معراج التعرف إلى الله

إن أول مقاصد القرآن الكريم إنما هو تعريف الناس بالله، المتكلم بالقرآن. ولذلك جاء تعريف الله لذاته سبحانه بأسمائه الحسنى مباشرة بعد التنبيه على عظمة هذا القرآن -كما جاء في سورة الحشر- كأنه قال: اعرف القرآن أولاً تعرف الله. أوَليس هو تعالى المتكلمَ بالقرآن؟ قال جل وعلا: ﴿لَوْ أَنْزَلْنَا هَذَا الْقُرْآنَ عَلَى جَبَلٍ لَرَأَيْتَهُ خَاشِعًا مُتَصَدِّعًا مِنْ خَشْيَةِ اللهِ وَتِلْكَ الأَمْثَالُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ﴾(الحشر:٢١)، فقال بعدها مباشرة: ﴿هُوَ اللهُ الَّذِي لاَ إِلَهَ إِلاَّ هُوَ عَالِمُ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ هُوَ الرَّحْمَنُ الرَّحِيمُ ۞ هُوَ اللهُ الَّذِي لاَ إِلَهَ إِلاَّ هُوَ الْمَلِكُ الْقُدُّوسُ السَّلاَمُ الْمُؤْمِنُ الْمُهَيْمِنُ الْعَزِيزُ الْجَبَّارُ الْمُتَكَبِّرُ سُبْحَانَ اللهِ عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾(الحشر:٢٢-٢٣).

إن الذي ينصت إلى خطاب الفطرة في نفسه يسمع نداء عميقا يترجم الرغبة في معرفة من أسدى إليه نعمة الوجود، ذلك الإنسان مفطور على شكر من وصله بمعروف. ومن هنا نخلص إلى نتيجة وهي "حق الخالقية" هو مفتاح التعرف إلى الله.

وهذه حقيقة قرآنية كبرى تترتب عليها أمور كبيرة في حياة الإنسان. ذلك أنه كلما نادى الله الناس في القرآن بالاستجابة لأمره التعبدي ناداهم من حيث هو خالقهم، هكذا، بهذه الصفة دائماً، وهو أمر مهم فيما نحن فيه من طريق المعرفة بالله، أي إنه تعالى يسألهم أداء "حق الخالقية"، هذه الصفة العظيمة لذاته تعالى، التي بها كنا نحن الناس هنا في الأرض نتنفس الحياة. قال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ اعْبُدُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُمْ وَالَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ۞ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الأَرْضَ فِرَاشًا وَالسَّمَاءَ بِنَاءً وَأَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجَ بِهِ مِنَ الثَّمَرَاتِ رِزْقًا لَكُمْ فَلاَ تَجْعَلُوا للهِ أَنْدَادًا وَأَنْتُمْ تَعْلَمُونَ﴾(البقرة:٢١-٢٢)، وقال سبحانه: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ نَفْسٍ وَاحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالاً كَثِيرًا وَنِسَاءً﴾(النساء:١).

هاتان آيتان كليتان من القرآن العظيم، تعلق الأمر فيهما بالعبادة والتقوى، وما في معناهما من الانتظام في سلك العابدين، وفلك السائرين إلى الله رب العالمين، إثباتاً لحق الله من حيث هو خالق للبشر. ولا يفتأ القرآن يذكّر بهذه الحقيقة باعتبارها مبدأً كليا من مبادئ الدين والتدين، وأنها العلة الأولى منه، وذلك نحو قوله تعالى: ﴿وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالإِنْسَ إِلاَّ لِيَعْبُدُونِ﴾(الذاريات:٥١) إنها آية كونية عظمى.. إنها مفتاح من مفاتيح فهم القرآن العظيم، وباب من أبواب معرفة الربوبية العليا.. قال تعالى في سياق الحجاج: ﴿مَا لَكُمْ لاَ تَرْجُونَ للهِ وَقَارًا ۞ وَقَدْ خَلَقَكُمْ أَطْوَارًا﴾(نوح:١٣-١٤). إنه تعالى ربط حقه سبحانه على عباده بمبدإ خلقهم أطوارا.. فكلما ازداد المنكرون تعنتا ازداد القرآن إفحاما في بيان تفاصيل الخلق. فتلك حجة الله البالغة إجمالا وتفصيلاً.

وكما كانت تلك هي حجة القرآن في الدعوة إلى العبادة،

وإثبات "حق الخالقية" لله الواحد القهار؛ كانت هي عينُها حجته في الدعوة إلى التوحيد ونفي الحق الوهمي للشركاء، وذلك كما في قوله تعالى: ﴿اللهُ الَّذِي خَلَقَكُمْ ثُمَّ رَزَقَكُمْ ثُمَّ يُمِيتُكُمْ ثُمَّ يُحْيِيكُمْ هَلْ مِنْ شُرَكَائِكُمْ مَنْ يَفْعَلُ مِنْ ذَلِكُمْ مِنْ شَيْءٍ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾(الروم:٤٠). وبهذا المنطق أيضا رد الله على المشركين، كما في قوله تعالى: ﴿أَيُشْرِكُونَ مَا لاَ يَخْلُقُ شَيْئًا وَهُمْ يُخْلَقُونَ﴾(الأعراف:١٩١). وقوله سبحانه: ﴿أَفَمَنْ يَخْلُقُ كَمَنْ لاَ يَخْلُقُ أَفَلاَ تَذَكَّرُونَ﴾(النحل:١٧). فما كان هذا البيان والتفصيل لقضية الخلق ليكون؛ لولا أنها قضية كونية كبرى، ينبني عليها ما ينبني من مصير وجودي في حياة الإنسان، هذا المخاطب بها ابتداء.

إن "قضية الخلق" تمثل مفتاح فهم الربوبية، إنها المبدأ الكلي الذي على أساسه خاطب الله الإنسان بكل أمر ونهي، بل إنها تمثل البنية الأساس لخطابه، الذي عليه يتفرع كل شيء، مما قرره في العقيدة والشريعة على السواء. نعم، "حق الخالقية" إذن هو مفتاح التعرف إلى الله جل وعلا.

إن إحساس الإنسان بوجوب هذا الحق عليه يخرجه من التيه الوجودي، أو بعبارة قرآنية يخرجه ﴿مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ﴾(البقرة:٢٥٧). وأيّ ظلام أشد من التصور العبثي للحياة! فبأي نفسية يعيش الإنسان هذه الحياة وهو يرى أنما غايتها إلى العدم المطلق والفناء الرهيب، الذي ما بعده حياة؟!

إن السالك حينما يذوق من معرفة الله لمعات وأنوارا يتعلق قلبه بحب الله تعالى، لأنه هو الذي أوجده وخلقه، وإنما يجد الجمال الحق في تلك المعرفة.. وإنما نرى جمال الله ﷻ في شعورنا القوي بجمال خالقيته تعالى وكمال قيوميته وحسن إجابته وكرم رعايته، وقرب رحمته وأنسه.

فلم يكن عبثاً إذن أن يتوارد ذكر الأسماء الحسنى والصفات الإلهية العلا عبر كل فصول القرآن. فهي كالنجوم الدرية تتلألأ بالنور الرباني العظيم في تلك المسافات جميعاً، ما بين السوابق واللواحق والقرائن، بما يجلي للعبد الذاكر جمال الله وجمال المعرفة به، فيعبّد له طريقها سالكة جلية. ولكن كل ذلك إنما يكون على قدر شهود القلب وصفاء البصيرة وصدق الإقبال على الله عند الدخول في مشاهد الذكر والتلاوة للكتاب.

إن العبد الذي أيقن بمعرفة الله يفيض قلبه بالمحبة، محبة كل شيء، إذ يجد أخوة إيمانية في وجدانه مع كل شيء من الكائنات، عدا من تولّى. فالكل مستغرق في عبادة الله سائر إليه عبر مسالك المحبة ﴿تُسَبِّحُ لَهُ السَّمَوَاتُ السَّبْعُ وَالأَرْضُ وَمَنْ فِيهِنَّ وَإِنْ مِنْ شَيْءٍ إِلاَّ يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِ وَلَكِنْ لاَ تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ إِنَّهُ كَانَ حَلِيمًا غَفُورًا﴾(الإسراء:٤٤). ولقد جعل الله لنبيه داود معجزةَ كشفٍ لبعض ذلك، فكانت الجبال والطير تسبح بتسبيحه وتدعو بدعائه، في مجالس تفيض بالنور والجمال، تلتقي على موعد بالغدو والآصال، كما في قوله تعالى: ﴿إِنَّا سَخَّرْنَا الْجِبَالَ مَعَهُ يُسَبِّحْنَ بِالْعَشِيِّ وَالإِشْرَاقِ * وَالطَّيْرَ مَحْشُورَةً كُلٌّ لَهُ أَوَّابٌ﴾(ص:١٨-١٩). إن الكون كله في وجدان المسلم مثل طيور داود عليه السلام، مجالس أنس وذكر تشعره بالأخوة الكبرى في السير إلى الله عبر أفلاك العبودية: ﴿كُلٌّ فِي فَلَكٍ يَسْبَحُونَ﴾(الأنبياء:٢١)، فالمعرفة طريق لا تنفد تجلياتها، ولا تنتهي إشراقاتها إلا بلقاء الله، حيث ينكشف سر السير إلى الله: ﴿وَاعْبُدْ رَبَّكَ حَتَّى يَأْتِيَكَ الْيَقِينُ﴾(الحجر:٩٩)، ويرى العبد هناك بعين اليقين حقيقة الوجود الدنيوي من خلال وجوده الأخروي: ﴿لَقَدْ كُنْتَ فِي غَفْلَةٍ مِنْ هَذَا فَكَشَفْنَا عَنْكَ غِطَاءَكَ فَبَصَرُكَ الْيَوْمَ حَدِيدٌ﴾(ق:٢٢).

إن المعرفة بالله تملأ القلب أنسا بالله، ثم أنسا بالحياة، وأنسا بالكون والكائنات، وأنسا حتى بالموت الذي لن يرى فيه العبد المحب -إذ يقف عليه- إلا موعدا جميلا، للقاء جميل، مع رب جميل. فذلك ذوق الإحسان في قمة المشاهدات الإيمانية. وإنما "الإحسان أن تعبد الله كأنك تراه فإن لم تكن تراه فإنه يراك" (متفق عليه).

وعليه فإن هذا الإنسان بما هو مخاطب بهذا القرآن أساسا بأبعاده "الأمرية" المذكورة هو إنسان "كوني" بامتياز. فهو لا يسكن الأرض إلا بقدر ما يسكن الكون كلّه حقيقة. وبما أن البشر شتى خلقا وتقديرا وسعيا وتدبيرا، فقد كان هذا القرآن على نفس تلك السعة والشمول من الإمكانات المتصورة للنشاط الإنساني في الأرض على الإطلاق. ولذلك جاء جامعا لكل معارج الكتب السماوية السابقة بدون استثناء؛ ففيه معارج إبراهيم ومعارج موسى ومعارج داود ومعارج عيسى ثم فيه معارج أخرى فُضِّل تفرد بها القرآن الكريم لم تفتح قبله قط في التاريخ. وكل ذلك جميعه كان معارج لنبي هذه الأمة الرسول الجامع المانع سيدنا وحبيبنا محمد ﷺ.

إن هذا القرآن بعمقه الكوني هذا، المطلق عن الزمان والمكان يحقق أخوة إنسانية كبرى، لا يمكن أن تتحقق على هذا الوزان بسواه؛ لأنه شبكة اتصال وجودية ذات أنسجة أفقية وعمودية، فيها مداخلُ لا حصر لها للإمكانات البشرية. ولذلك فهو يتيح

لكل إنســـان مهما كانت ميوله وإمكاناتـــه الطبيعية والفطرية والاجتماعية والثقافية أن يتصـــل بحقائق الوجود الحق: ﴿وَإِنَّكَ لَتَهْدِي إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ ۞ صِرَاطِ اللهِ الَّذِي لَهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الأَرْضِ﴾(الشورى:٥٢-٥٣). وبما أن شبكته موئلها -في نهاية المطـــاف- واحد، فهي تصل في الختم إلى الحق الواحد ﴿أَلاَ إِلَى اللهِ تَصِيرُ الأُمُورُ﴾(الشـورى:٥٣)، وهنالك يجد المؤمن لذة التعرف إلى الله جل وعلا.

بناء على ما تقرر من أن غاية الخلق الإلهي للإنســـان إنما هي التعـــرف إلى الله جل علاه، فقد جعل له ﷻ وســـيلة من أعظم الوســـائل التعبدية، ألا وهي التعارف. فالإنســـان بما هو مفطور خلقة على ســـنة الاجتماع البشـــري -إذ خلق من ذكر وأنثى وجعل شعوبا وقبائل- فقد خلقت أرواح الناس لتلك الغاية على ائتلاف واختلاف بقصد إنتاج التكامل المعرفي في طريق الســـير إلى الله تعالى. وهذا من أعجب الســـنن الإلهية في الخلق البشري وألطفها، وهو مفهوم من آية قرآنية وحديث نبوي شريف. فأما الآية فقوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّـــا خَلَقْنَاكُمْ مِنْ ذَكَرٍ وَأُنْثَى وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوبًا وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللهِ أَتْقَاكُمْ إِنَّ اللهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ﴾(الحجرات:١٣). وأما الحديث فهو قوله عليه الصلاة والســـلام: "الأرواح جنود مُجنَّدة، فما تعارف منها ائْتلف، وما تناكر منها اختلف" (متفق عليه).

إن التعارف العمراني ضروري للإنســـان، ليس فقط لأنه لا يمكن أن يعيش بصورة انفرادية اعتزالية، فهذا أمر بديهي، ولكن ليكون ذلك مقدمة لإنتـــاج حوار في المجال الروحي، والتداول المعرفي بحقيقة المعرفة بالله في طريق السير إلى الله.

إن العلاقات الأفقية على المستوى البشري العمراني في شبكة الاتصال المعرفيـــة إذا أتيحت لها ظروف الحوار الهادئ الصادق، والتعارف البناء الواثق، تفضـــي في النهاية إلى علاقات عمودية متوازنة ترتفع بالإنســـان إلى السماء في طريق معرفة الله، بل في طريق التكامل في تلك المعرفة.

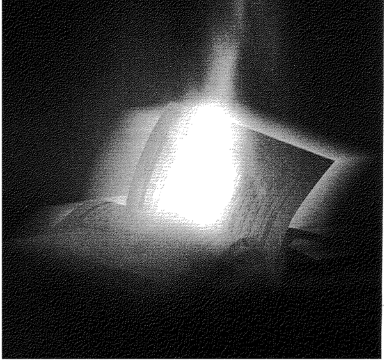
إن هذا القرآن محفـــوظ بحفظ الله محروس بقدرته جل علاه، كما نص عليه القرآن بآيه المحكم وكما رسخته حقائق التاريخ الطويـــل. ومن هنا فـــإن كل من تعلق بمحفـــوظ فهو محفوظ بالضرورة. ■

(*) جامعة مولاي إسمعيل، ورئيس المجلس العلمي بـــ"مكناس" / المغرب.

حراء
مجلة علمية ثقافية فصلية
www.hiramagazine.com

النور والانتظار

افتح منافذ النور فقد طال الانتظار،
دعه يتدفق فيغمر الآفاق،
ويملأ الشِّعَاب،
فالكل إليه توّاق،
والكل إليه شوّاق،
انظر! هذي الجموع،
تريد إليك الوصول،
مرّةً تكبو، ومرّةً تحبو،
ثمَّ تنهض وتسير،
وإيَّاكَ تريد،
وإلى نورك تنجذب،
وبه تريد أنْ تطهر وتغتسل...
* * *





تطوير الذات أم حل ألغاز الشخصية؟

د. سليم أيدين*

أصبح تعبير "تطوير الذات" تقليعة السنوات الأخيرة، فهل كان الناس منذ آلاف السنين من تاريخنا يعيشون حياة غير متطورة؟ وبتعبير آخر هل نظرة السنوات العشر الأخيرة أصبحت تتحدى ما تم تراكمه خلال آلاف الأعوام؟

لا يمكن الجواب طبعًا على هذا السؤال بـ"نعم". بل على العكس من هذا، فإن الناس في العهود السابقة أسسوا توازنًا -بمقياس كبير أو صغير- بين عالمهم الداخلي والخارجي طوال حياتهم. أما العالم الغربي اليوم، فهو على الرغم من نجاحه نجاحًا باهرًا في السيطرة على العالم الخارجي، إلا أنه يعيش مشاكل كبيرة في صدد العالم الداخلي للإنسان. فالتوازن "الداخلي-الخارجي" قد اختل تمامًا ضد الإنسان. لذا يبدو "التطوير الذاتي" نوعًا من قيام الثقافة والفلسفة الغربية بالبحث عن حل.

لقد تأسست مدنيات وحضارات عديدة طوال التاريخ الإنساني، وكانت لكل حضارة من هذه الحضارات عهود أزمات وعهود صعود من زاوية تحقيق الذات الإنسانية.

وفي السبعينات أصبح تطوير الذات إحدى القنوات التي حاولت الحضارة الغربية استخدامها لحل مشاكلها والوصول إلى تأمين سعادة الفرد وإزالة سلبيات الفلسفة السائدة في الغرب، وكتب الشيء الكثير في هذا الصدد وألقيت محاضرات عديدة. وأما في بلادنا فقد بدأ الاهتمام بهذا الموضوع في تسعينات القرن الماضي، وفي عام ٢٠٠٠ م وما بعده انتشر ودخل كل ميادين الحياة.

جوانبه السلبية

وكما في الأمور الأخرى يحتوي قطاع "تطوير الذات" على تناقضات وازدواجيات. فهو في الحقيقة وسيلة لبحث الإنسان عن جوهر ذاته وعما يفتقده، غير أنه يُستغَل من قِبل الفئة التي تملك القوة والرأسمال والقدرة الاقتصادية؛ فهؤلاء يوجهون هذا البحث نحو قنوات مفيدة لهم ولمصالحهم الشخصية، إذ لتطوير الذات جوانب مؤثرة في ساحة عمل العمال والإنتاج وفي العلاقات الاجتماعية كذلك.

إن المعلومات التي تُنتَج في هذا المجال مختلفة جدا وذات أهداف شتى. هناك العديد من العقائد والثقافات والمدارس

الفلسفية التي تحاول نشر أفكارها تحت يافطة "تطوير الذات". ولما كانت الطبيعة لا تتحمل الفراغ، فإن الذين يقعون في فراغ معنوي وروحي نتيجةَ بُعدهم عن التربية المتوازنة والثقافة الدينية وعن الثقافة الفلسفية المنضبطة والفنون الجميلة لا بد أن يبحثوا عمّا يملأ هذا الفراغ. واليوم يحاول قطاع تطوير الذات ملء هذا الفراغ.

وكما يتم استعمال قطاع تطوير الذات كبديل للدين عند الذين نشأوا بعيدين عنه، كذلك يمكن استعماله لعرقلة توجه الناس إلى الدين للحصول على الزاد الروحي الضروري للإنسان وتمييع معلوماتهم الدينية. وهناك جماعات تنظم المناهج والبرامج التربوية القائمة على خلط عقائدِ وأديان بلدان الشرق الأقصى ببعض العقائد والفلسفات القديمة وتقديمها تحت عنوان "تطوير الذات" من أجل إفساد الأديان السماوية وتلويث صفائها ولاسيما الدين الإسلامي.

والجانب السلبي الآخر الملاحظ في تطوير الذات هو قيامه بتضخيم أنانية الأفراد وتوجيههم لمزيد من الإنتاج والاستهلاك ولمزيد من اللهو، وذلك انطلاقًا من الزعم القائل بأنه "لكي تنتج كثيرًا عليك أن تستهلك كثيرًا، ولكي تستهلك كثيرًا عليك أن تلهو كثيرًا". وهكذا يرومون تشجيع المجتمع الاستهلاكي.

جوانبه الإيجابية

من القنوات الإيجابية الموجودة في قطاع تطوير الذات الدعوة إلى المحافظة على حقوق الإنسان وكيف أنه ليس سلعة للاستهلاك. كما يمكن لهذا القطاع أن يكون داعيًا للتأكيد على أهمية الفرد وعلى مسؤوليته ومساعدته على توسيع قابلياته. كما لا يمكن إنكار أنه يمكن استخدامه في حل المشاكل العائلية ومشاكل الطلبة واستغلالُه إيجابيا في ساحات وميادين عديدة. لذا بدلاً من رد جميع أوجه تطوير الذات دفعة واحدة نستطيع أن نختارالنواحي الإيجابية ونفرزها عن غيرها ونصفّيها ونغَربلها وننتقي منها ما يلائم ثقافتنا وهويتنا وعقائدنا. لذا نؤكد هنا على أن من لم يحصل على إرشاد ومساعدة من المختصّين في هذا القطاع -الذي يختلط فيه النافع بالضار- لا يستطيع الاستفادة منه الاستفادة الصحيحة والمفيدة.

الإنسان الكامل

كما ذكرنا تمتد جذور تطور الذات إلى المشاكل الإنسانية والمشاكل الاجتماعية التي ظهرت في الغرب في عهد الثورة الصناعية، ثم إلى عصر المعلومات والحداثة وما بعد الحداثة وإلى الجهود المبذولة في الوصول إلى حل هذه المشاكل. وهو قطاع عُدّ في المجتمعات التي بعدت عن هويتها وثقافتها وعقائدها وكأنه يقدم الحلول لكل المشاكل. والأنموذج الذي يستهدفه ويتناوله هو التعريف الغربي الناقص لأنموذج الإنسان. وهو تعريف لا يتطابق ولا يتلاءم مع مفهوم الإنسان في عقيدتنا وحضارتنا وثقافتنا. ومفهوم الإنسان عِندنا يستند إلى مفهوم عميق للوجود وللعلاقة بين الإنسان والكون المماثلة للعلاقة بين البذرة والثمرة. ويصل هذا المفهوم إلى الذروة بأنموذجه في "الإنسان الكامل"، وهو أنموذج كوني لا يحتاج إلى أي نماذج إنسانية أخرى. ونستطيع القول بأن العديد من المواضيع التي يتطرق إليها تطوير الذات تجد عمقها الحقيقي في عالم ثقافتنا وعقيدتنا.

رؤيتان مختلفتان

يمكن أن تتوافق رسالة الأديان مع النظريات والنوايا المتداولة في قطاع تطوير الذات أو تتناقض معها حسب زاوية نظر هذه النظريات ونياها. ولكن إذا تناولنا هذه المسألة بنظرة شاملة ومن حيث قواعدها وأسسها، رأينا أن نظرة الأديان السماوية إلى الإنسان تختلف عن نظرة قطاع تطوير الذات إليه، فلكل نظرةٍ أنموذجُها الإنساني المختلف. فمثلا بينما يتم النفخ في أنانية الفرد ويوجَّه كل اهتمام لها ولتضخيمها في قطاع تطوير الذات، نجد أن الأديان السماوية تَعد "النفس الأمارة" أكبر عدوّ للإنسان، لأن للنفس ماهية تحتاج إلى التربية والتزكية. فبدلاً من تضخيمها يجب تربيتها وتوجيهها لطاعة الله تعالى وتنفيذِ أوامره. فالمهم هنا هو أنه كيف يتم استخدام الأفكار التي تجول في هذا القطاع وما النية الموجودة وراءها، ولأي غاية تستخدم؟ فهل نستخدمها لتقوية أنانية النفس أم لمعرفة النفس وتربيتها وجعلها مرآة صافية تتجلى فيها أسماء الله الحسنى؟

إن تطوير الذات يربي الفرد على اتباع شهوات نفسه ويجعله أسيرًا لها دون أن يدري، بينما توضح الأديان السماوية للإنسان كيف يستطيع لجم شهواته وكيف يسيطر عليها وكيف يزينها بالفضائل، وتريه الطرق الموصلة إلى الإنسان الفاضل. فالنظرة الأساسية لقطاع تطوير الذات للإنسان تختلف عن نظرة الأديان السماوية، ولكن إن كانت نظرتنا لها نظرة تجزيئية فسنشاهد كثيرًا من الأجزاء المتشابهة بينهما.

الفراغ الروحي ورواج الفكرة

هناك عوامل عديدة في زيادة الاهتمام بـ"تطوير الذات".

- إننا لا نعرف العديد من القواعد المهمة في ثقافتنا وفي عالم عرفاننا وحضارتنا، ولم نحصل على أغذية كافية منها ولم ندرك أعماقها.
- نظرًا لأن الآثار المهمة لعالمنا وحضارتنا لم تقدّم لنا في صورة عصرية، فهي لا تبدو جذابة ولا تصل إلى قطاعات واسعة من الجماهير.
- هناك شعور بمركب النقص تجاه قيَمنا، وعدمُ ثقة بها. وقد لعبت الأفكار المسبقة التي تقول بأن كل ما جاء من الغرب فهو صالح وجيّد دَورًا مهمًّا في هذا الصدد.
- يبدو تطوير الذات بديلاً لملء الفراغ الموجود عند الذين لم يتلقوا تربية دينية صحيحة، لذا فهو يرى تأييدًا وتشجيعًا من قبل بعض البؤر والأوساط المعلومة.
- يقوم تطوير الذات بإيهام الناس بجنّة دنيوية خادعة وزائلة دون الإشارة إلى القيم الاجتماعية التي يؤكد عليها الدين وإلى دورها في هذا الميدان وإلى الروابط الروحية للإنسان.
- أخذ قطاع تطوير الذات على عاتقه مهمة إكساب الفرد القدرةَ والقوة دون أن يهتم بأي حدود أخلاقية، وذلك بنقل الثقافات والعقائد والقيم المعنوية والحاجات النفسية والثقافية للإنسان إلى السُوق الاقتصادية كسلعة من السلع. وأخطر ما في هذا الأمر أنه يحوّل الحاجات المعنوية والروحية للإنسان إلى سلعة من سلع الاستهلاك.
- إن العديد من الأغنياء الذين لم يسعدوا في ظل طراز الحياة المادية المفرطة في الغرب بدأوا يبحثون عن الراحة النفسية في أديان الشرق الأقصى. وفي ظل شعار "كلُّ شيء قابل للشراء"، تُعطى في قطاع تطوير الذات طرقُ الاتصال والبيع والشراء للوصول إلى النتائج دون الاهتمام بأي نية حسنة، بحيث ينقلب الأمر إلى مجرد فن لخداع الناس والدفاع عن النفس. لذا نرى أن طرق الحصول على القوة والقدرة عن طريق الشهرة والشهوة قد تحولت في هذا القطاع بطرق التعليم المعطاة إلى حرفة.

وأخيرًا فإن توجيهات ومحتوى تعاليم تطوير الذات المقدمة إلى الناس بطرق محبّبة إلى الإنسان وبطرق اللهو تؤدي إلى زيادة الطلب في السوق.

التوترات النفسية

في هذه الأيام هناك زيادة متسارعة في الاضطرابات النفسية. وحسب تقارير منظمة الصحة العالمية يُنتظر أن تصل نسبة الذين يعانون من الاضطرابات النفسية إلى ٢٠٪ خلال السنوات العشر القادمة. وسيزداد التوتر النفسي والقلق والخوف والأمراض العصبية والنفسية الأخرى. ففي المجتمعات التي لا تكون مهيأة للتغيرات والتحولات السريعة تزداد أمراض ازدواج الشخصية وتحطم الشخصية وجنون الاضطهاد وجنون العظمة والأمراض العصابية والميل إلى العدوانية. لذا فإن التدابير المتّخذَة لصيانة الصحة النفسية والعقلية ستزداد أهمية في السنوات القادمة. والمشاكلُ الموجودة حاليا هي زيادة الأمراض النفسية مثل الأنانية والنرجسية (عبادة الذات) والماسوشتية (أي التلذذ بالتعذيب الواقع عليه) والجري وراء الملذات والميل لاستعمال العنف.

وتقوم بعض قنوات قطاع تطوير الذات بتشجيع الأنانية والنرجسية وعبادة الشهرة والصيت والنفخ فيها، وزيادة نماذج الرياء والنفاق في المجتمع. وكما قال العالم النفسي البروفسور "راسم أداصال": "لقد أدّى خلق النجوم في الفن والسينما وكرة القدم والموسيقى إلى خلخلة التوازن النفسي للإنسان ونسف توازن علاقاته الداخلية والخارجية. فإن لم تتم السيطرة على أهواء الإنسان ونزواته وحبه الشديد للشهرة وللنجاح في مهنته، فإن تعاليم تطوير الذات التي تشجع هذه الميول ستؤدي إلى صعوبة المحافظة على صحته العقلية والروحية". وفي هذه الأيام التي اشتدت فيها سرعة التحول والتغير في الثقافة والقيم والعقائد وزادت فيها غربة الفرد عن قيمه ومُثُله وثقافته الأصلية سيظهر بالتأكيد العديد من الخلل النفسي في المجتمع.

الفروق الفردية

كل إنسان يأتي إلى هذا العالم بقابليات مختلفة، فإن لم يعرف الإنسان نفسه تمامًا وبدأ بتجارب عشوائية حولها جَرَّها إلى الفراغ وإلى الهاوية، لأن الوصفة الطبية الواحدة لا تؤدي إلى نفس النتيجة عند الجميع. لذا فإنّ كتُب تطوير الذات وتعليماته والمحاضرات التي تلقى حوله لا تصلح للجميع ولا تكون ذات فائدة للكل. لأن الفائدة لا تحصل إلا عندما يتم أخذ الفروق الشخصية واختلاف الأمزجة والقابليات عند الناس بنظر الاعتبار. فيجب تقديم

خدمات شـــخصية خاصة لكل فرد. فمن الخطأ القولُ لشخص: "خذ هذا الكتاب واقرأه فهو حل لجميع المشـــاكل". وهو شيء غير صحي وغير مشبع. كما أنه لا يمكن لإنسان أن يطور نفسه بمجـــرد قراءة كتاب أو كتابين أو أخْذ توجيه لبضع ســـاعات. فمعرفة الإنســـان لنفســـه ولقابلياته وبذلُ الجهد لتطوير نفسه وتعميق إنسانيته يستغرق سنوات عديدة. والكتب الموجودة حاليا في الأسواق كتب تحتوي على توصيات عامـــة وتقدم نماذج غربية، والمعلومات التي تقدمها معلومات سطحية. وأمر آخر مهم وهو وجود صفات عامة مشتركة عند الأشخاص الذين يـــبرزون في هذا القطاع، فهم عادة أشخاص نشطون مغرمون بالشهرة ومهيأون لتقبل أنواع الإيحاءات والتلقينات ومهتمون بالمظاهر.

الفكر المستورد ومدى نجاحه

يجب معرفة الآليات التي تلعب دوراً مهماً في وجود الإنسان وبقائـــه معرفـــة صحيحـــة. فللإنسان ناحية فردية وأخرى اجتماعية. وهو يأتي إلى الوجود بميراث جيني وميراث ثقافي ويتشـــكل حسبهما ويكتسب هوية معينة. والآليات الرئيسية للثقافة هي الدين واللغة والتقاليد. هذه العوامل الثلاثة هي التي تشكل هوية الإنسان ولاشعورَه وماهيته سواء أشعر بها أم لم يشعر. وتشكيل هوية الإنسان له نواح محلية وعالمية. فإن استطاع الإنسان تشكيل هويته بالعوامل والتأثيرات المحلية والعالمية كان عملـــه هذا إيجابيا وهويته متوازنة. فالأفراد -وكذلك المجتمعات- يحملـــون مميزات خاصة بهم. ولا يمكن استنســـاخ ثقافة مجتمع آخر وتفصيل ملابس ملائمة منها. فإن شوهد وجود أجزاء منها مناسبة جاز استعمالها بعد ملاءمتها مع التقاليد المحلية؛ وإلا حدث هنا ما يحدث عند نقل عضو إلى جسم آخر من رفض للجسم للعضو الغريب عنه. فإن نقلت ثقافة غربية أدى هذا إلى تشكيل هوية غير صحية. واليوم نشاهد مثل هذا الأمر في مجتمعاتنا من أزمة الهوية نتيجة هذا النقل والتقليد العشـــوائي.

هويتنا وحلّ مشاكلنا

نستطيع القول بأن هويتنا تكفي من الناحية النظرية وتزيد. ولكن يجب هنـــا الانتباهُ إلى مقدارِ غِنى وعمـــقِ ميراثنا الثقافي وتقديمُه بأســـلوب عصـــري. فنحن نعيش عهد استهلاك وتعودنا على تغليب الاستهلاك على الإنتاج، واللهو على القراءة، والنقل والحفـــظ على إنتاج فكر جديد. فإن اســـتطعنا التخلـــص من هـــذه العادة الضـــارة اســـتطعنا النجاة. إذ يكفينـــا المـــيراث الثقافي الذي وصـــل إلينا من مئات الشـــخصيات الفكريـــة من أمثال الإمـــام الغزالي، وعبد القـــادر الكيـــلاني، والإمام الرباني، وابن ســـينا، وبديع الزمان سعيد النورسي. فمثلا كتاب "المثنوي" لجلال الدين الرومـــي و"رســـائل النور" لسعيد النورسي في موضوع تطوير الذات إن تم تفسيرهما تفسيرًا صحيحًا، فهما خزينة ثمينة في هذا المجال. فإن استطعنا نقل قيم ثقافتنا وعقيدتنا إلى أطفالنا وشبابنا بلغةِ ونكهةِ العصر فنحن على يقـــين بأن الطلب على قطاع تطوير الذات -الذي ولد بســـبب فراغ في مجتمعنا- سيقل. وما سيجدّ من الطلب سيغطّى وسيؤمن من منابعنا ومصادرنا الأصلية ومن عالَم قيمنا الذاتية، وســـيظهر آنـــذاك "تطوير الذات الخاصُ بنا". وقـــد لا يكون اسمه "تطوير الذات" بل "الطريق إلى فهم أسرار النفس". ■



(*) كاتب وباحث تركي. الترجمة عن التركية: أورخان محمد علي.

شوقا إلى الله[1]

أ.د. حسن الأمراني*

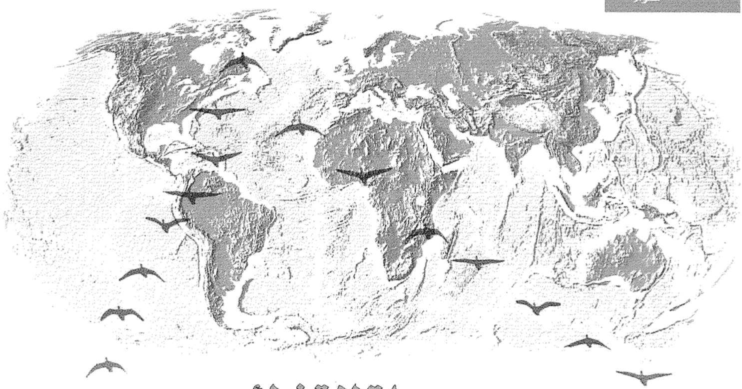
شوقا إلى الله طيري واهتكي الحجبا ... النور يدنو وطيب الجنة اقتربا
شوقا إلى الله طيري مقلة عبرت ... تسابق الريح والأفلاك والشهبا
شوقا إلى الله وثبا غير وانية ... فليس من سار وهنا كالذي وثبا
شوقا إلى الله، لا خوفٌ ولا حَزَنٌ ... هل يعرف الحزن مَنْ مِنْ ورده شربا؟
شوقا إلى الله يا أبهى محجّبة ... من سبيبك العذب ماء الشعر قد عذبا
يا رند فاس، ويا بلقيس أندلس ... يا نسمة الأطلس الجبّار عن وهبا
لم نبن للعشق غيما نستظلّ به ... إلا تدفّق من أجفاننا قِربا
فأرسلي الدّمع من جفن أضرَّ به ... ذنب تعاظم حتى قرّح الهدبا
وقد تصاغر في عفو الإله إلى ... أن صار بعد بكاء الرّوح محض هبا
خضنا وخاضت مطايانا الهوى فهوت ... صواعق الموت تبغينا الهوى حربا
خضنا إلى أن تلقتنا لطائفه ... فاستفرغ القلب دمعا عز فاحتجبا
للشّوق أجنحةٌ خضراء سابحة ... تلامس الغيب، ليست تحذر الرقبا
فاستحلبي من سماء الغيب درّها: ... السّعد والرّشد والإيمان والأدبا
تبارك الله، إنَّ الله أنزلنا ... دارا مكرّمة لا تعرف النّصبا
السعد ينشر في أفيائها خيما ... والرّشد يضرب في أرجائها طنبا
والحسن يجعل من جفنيكِ متكأ ... كوني إذا ما همى أمًّا له وأبا
صرنا سويا إلى دار الهدى فهمى ... نور الهدى في حواشي القلب نبع ربى
وهبت الرّيح تبغي نسف خيمتنا ... فكنت أصلب مني عزمة وإبا





يا همة تبتني في النجم منزلة ... عزّت، وتقطع مما تحمل القضبا
سوّاك ربّك من أنوار حكمته ... ومن يسوّي بقلب الدرّة الخشبا؟
تبيت راكعة لله خاشعة ... الأرضُ تأكل منها الكفّ والرّكبا
كم زفرة في ضمير الليل ترسلها ... والدّمع في النحر بالآلام قد ذهبا
كم كحلت من نشيج القلب مقلتها ... لا كحل، لا قرط تبغيه، ولا قلبا
شوقا إلى الله يا أبهى مجاهدة ... إن الشّهادة دربٌ يُبلغ الأربا
أضحت سمية في عليائها ابتسمت ... لما رأتك شهابا يرجم النصبا
وتلك خولة قد ضمّت جوانحها ... من عزمك الفذ ما تحيي به الحقبا
ما غابت الشّمس، والأنهار ما فتئت ... ريًّا، ولم يبرح الإيمان منسكبا
ولم تزل هذه الصّحراء حاملة ... سرّ الحياة، ونبع النَور ما نضبا
تمدّ للمرتضى كفا مبايعة ... وللحسين إذا حمّ القضا نسبا
ومن ندى السّبط تروي حرًّ وقدها ... طوعا، وزينب للخُلد انتضت سببا
من أبصر الحُرّة الحسناء عزمتَها ... ترد عند اللقاء الجحفل اللجبا
ما تلك؟ برعم حبٍّ في تفتُّحه؟ ... أم إنها قدر يسعى؟ فوا عجبا!
شوقا إلى الله طيري، غير عابئة ... بمن غدا يزرع الأقطار حقل ظبى
وزلزلي تحت أقدام الطّغاة ثرى ... كم ضجّ من بطشة الباغي وكم ندبا
لا تسألي عن فتى الفتيان في حلب ... فلست تلقين لا سيفا ولا حلبا
لا تطلبي من دمى صارت محنَّطة ... للنّصر سيفا ولا رمحا ولا نشبا
شوقا إلى الله طيري، أنت مرشدتي ... وفي يديك لمست النّصر والغلبا

(*) رئيس تحرير مجلة "المشكاة" / المغرب.



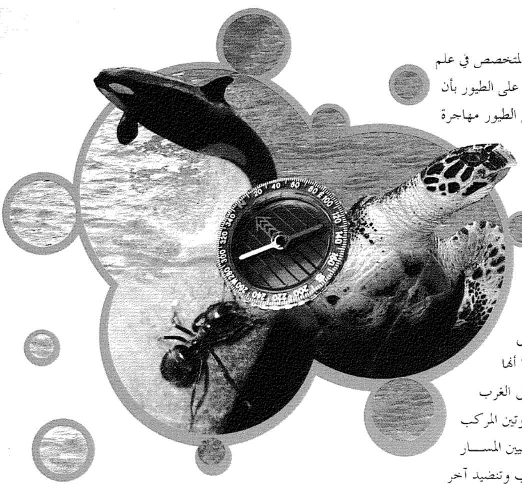
بوصلة لا تخطئ
تعيين الاتجاه لدى الحيوانات

شفق أوزتورك*

بينما يجد الإنسان صعوبة في الوصول إلى الأماكن التي يقصدها على الرغم من وجود الطرق الجيدة واللوحات على هذه الطرق ووجود الأجهزة التي تساعد على الملاحة، تستطيع الطيور أن تصل إلى أهدافها البعيدة عنها بعشرات الآلاف من الكيلومترات دون أي خطأ أو انحراف، وهذا الأمر خارق يُدهش الإنسان. إن الأجهزة التي تعين محاور أي مكان مثل جهاز (GPS: Global Positioning System) لم تظهر إلا نتيجة تراكم التجارب عند الإنسان طوال آلاف السنين. ولكن بعض الحيوانات وُهبت منذ خلْقها نظماً حساسة مثل نظام (GPS). وبينما تتوازن الحواس الموهوبة للإنسان فيما بينها، نرى أن هناك حواساً معينة للحيوانات تكون في المقام الأول عندها، وتسبق حواسها الأخرى، وذلك حسب أوضاع التغذية والصيد عندها. فمثلاً نرى أن حاسة السمع عند البوم، وحاسة البصر عند النسر، وحاسة الشم عند كلب البحر تكون أقوى مما هي عند الحيوانات الأخرى. وهناك حيوانات تقوى عندها قابلية تعيين الاتجاهات والمسارات.

الطيور وتعيين الاتجاه

لكي تستطيع الطيور تعيين اتجاه طرق الوصول إلى أهدافها فقد وُهب لها نظام (GPS) أي نظام دقيق لتعيين طرق الوصول إلى أهدافها. ففي بحث أجري على طائر الحناء (Erithacus Rebecula) تبين أن عنده صفة لم نكن نعرف عنها شيئاً حتى الآن، حيث إن العين اليمنى لهذا الطائر مزودة بشيء يشبه البوصلة تعمل حسب المجال المغناطيسي للأرض، تُعيّن له اتجاه طيرانه. فهناك مركب بروتيني معقد (Cryptochrome) في العين اليمنى له يدخل في تفاعل كيميائي بشكل متوازٍ مع خطوط المجال المغناطيسي للأرض. ثم يتحول هذا التفاعل الكيميائي الحاصل في العين إلى تفاعل ضوئي، وبنتيجة هذا التفاعل يستطيع الطائر مشاهدة المجال المغناطيسي للأرض ويستفيد منه.



وقد أثبت البروفسور "بيتر بيرتولد" المتخصص في علم الطيور بالتجارب الناجحة التي أجراها على الطيور بأن الجينات هي التي تعين كون أيّ طير من الطيور مهاجرة أو غير مهاجرة. وكذلك هي التي تعين مسار هذه الهجرة وزمانها. وطائر أبو قلنسوة (Sylvia Atricapilla) يدخل في صنف الطيور نصف المهاجرة. فقسم منه يهاجر نحو الغرب (إلى شمالي إفريقيا) وقسم منه إلى الشرق (إلى قبرص وفلسطين). وفراخ هذه الطيور المهاجرة إلى اتجاهات مختلفة على الرغم من كونها تعود إلى النوع نفسه إلا أنها -لكونها هجينة- لا تهاجر مثل أبويها إلى الغرب أو إلى الشرق، بل إلى الجنوب؛ لأن البروتين المركب (Cryptochrome) الذي يقوم بوظيفة تعيين المسار في الهجرة في هذا الطائر يكون له تركيب وتنضيد آخر جديد، وله خواص مختلفة. وهذه النتيجة التي تَوصَّل إليها العلم تُبين أن الفطرة التي فطر الله هذه الطيور عليها تكون متلائمة مع الظروف الطبيعية المحيطة بها.

ونظراً لاختلاف تركيب هذا البروتين من الناحية الجينية في هذا الطائر وكونه مختلفاً عن أبويه فيمكن إهمال تأثير الفروق البيئية هنا، لأن التغيير هنا موجود في الجينات. لذا نرى أن علماء الطيور من أنصار نظرية التطور يجدون صعوبة كبيرة في إيضاح هذه المسألة. وبعبارة أوضح فمن المستحيل قيام الطيور عن قصد وعن تخطيط بتغيير جيناتها حسب مصلحتها وفائدتها. فهذا أمر واضح لا جدال فيه. والعلماء من أنصار نظرية التطور عندما يفترضون أن الصفات الجينية تَنتج من عمليات تنضيد عشوائي للجينات، إنما يسندون عمليات مستحيلة للطفرات الوراثية. وهم يقعون في تناقض صارخ عندما يزعمون أن جميع خواص وقابليات الطيور المهاجرة تظهر نتيجة طفرات عشوائية، ثم يسندون العقل والتدبير لهذه الطفرات التي تختار أفضل سبل الهجرة وإمكانها للطيور، ويتناسون عن عمدٍ الحكمةَ والقصدَ الإلهي القادر على كل شيء.

سلاحف البحر

لقد وُهبت سلاحف البحر قابلية متطورة جداً في تعيين اتجاهها؛ فهذه الأحياء التي تقضي أكثر من عشرين سنة في المحيطات لا تجد أي صعوبة في الاهتداء إلى الساحل الذي ولدت فيه. فالتجربة التي عاشها صياد سمك من فلوريدا أظهرت بشكل واضح مدى روعة هذه القابلية عند سلاحف البحر. ففي عام ١٩٥٠ أبحر صياد سمك من فلوريدا إلى مياه "نيكاراغوا" لصيد سلاحف البحر. وحسب القوانين المرعية حفر على ظهور السلاحف التي اصطادها ختمه وتوقيعه. وبينما هو في طريق الرجوع مع السلاحف التي اصطادها هبت عاصفة قوية عند اقترابه من فلوريدا. ومع أنه نجح في الحفاظ على قاربه من الانقلاب، إلا أن السلاحف التي اصطادها وقعت في البحر. وبعد شهر من هذه الحادثة ذهب مرة أخرى لصيد السلاحف البحرية في مياه نيكاراغوا. وكم كانت دهشته عندما رأى توقيعه على ظهر إحدى السلاحف. إذ كيف تمكنت هذه السلاحف في ظرف شهر واحد من قطع مسافة تزيد عن ألف كيلومتر دون أن تضل طريقها؟

ثعابين البحر

كانت هناك مشكلة شغلت أذهان علماء الأحياء المائية عدة سنوات، لأن البحوث العديدة التي أجروها أظهرت لهم عدم وجود صغار ثعابين البحر. لأن هذه الصغار تملك شكلا وبنية تختلف عن الثعابين البالغة، أي تختلف عنها مورفولوجياً. لذا فقد

أطلق على هذه الصغار اسم آخر هو (Leptocephalus). أما الآن فالعلمـــاء أدركوا بأن هذه الثعابـــين لا تضع بيوضها إلا في بحر "ساركاسو" الذي يقع على بعد ٦٠٠٠ كم عن سواحل أوروبا. والصغـــار التي تخرج من هذه البيوض ما إن تصل إلى قدرة وقوة معينـــة حتى تترك هذا البحر وتبـــدأ رحلة تمتد من المحيطات إلى الأنهار الجارية. ويرجح العلماء أن هذه الثعابين تســـتعمل المجال المغناطيســـي للأرض في تعيين مســـار هجرتها مثلها في هذا مثل الطيور المهاجرة. وهي تقضي ٦-٢٠ ســـنة من عمرها في المياه الجارية، ولكنها تترك هذه المياه بسوق من الإلهام الإلهي متوجهة إلى موطـــن مولدها لكي تتكاثر هناك. وهذه الرحلة تســـتغرق ثلاث ســـنوات. وبعد أن تصل إلى بحر "ساركاسو" تقوم بأهم وظيفة لها وهي التكاثر، وبعدها تنتظر الموت، فلا تخرج أبداً عن الإرادة الإلهية الملهمة لها.

الخُلد، أخصائي في علم الزلازل

نظراً لأن الخلد يتغذى بجذور النباتات فهو يعيش ويتحرك تحت الأرض بعمق ٢٠-٤٠ سم. وتتطلب الحركة تحت الأرض طاقة كبيرة. لذا كان على الخلد الوصول إلى الجذور عن أقرب طريق، واجتيـــازُ العوائق المحتملة، وذلك بصنـــع زلزال صغير. أي إنه يتصرف تحت الأرض كأخصائي في علم الزلازل. ويقوم الخلد بهذا بضرب رأسه سقف الأنفاق التي يصنعها تحت الأرض لإحداث هـــزة أو رجة أي زلزال صغير، ويســـتمع إلى صدى الزلزال في محيطه ويقيمه ويتوصل بذلك إلى أقصر طريق في شق النفق وأقله صرفاً للطاقة. لذا فهل يمكن أن يتم تفسير هذا الأمر الذي يحتاج إلى حسابات دقيقة من مخلوق محروم من العقل والشعور كالخلد وإسناد الفضل إليه أو هل يمكن تفسيره بالطبيعة ومصادفاتها؟

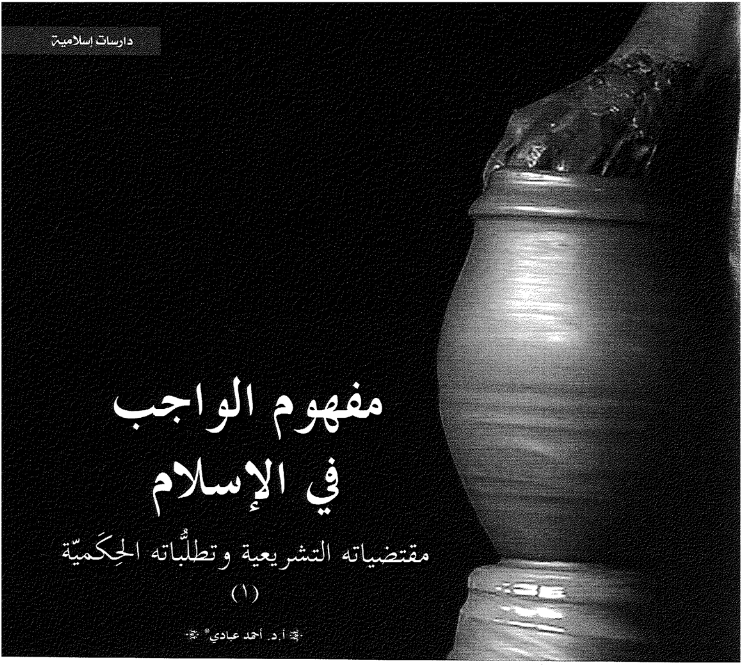
الحيتان والموجاة الصوتية

منذ ســـنوات عديدة والعلماء يعلمون أن الحيتان تســـتطيع أن تتخاطب فيما بينها على مســـافات تبلـــغ آلاف الكيلومترات، وذلك بالأصوات المختلفة التي تطلقها. وقد سجل علماء الأحياء هـــذه الأصوات وصنفوها، فتوصلـــوا إلى معرفة أن هذه الحيتان تجـــد بهذه الأصوات طريقها في المحيطات، لأن الأمواج الصوتية التي تبعثها عندما تصطدم بجســـم وترتـــد إليها تعرف -بالفطرة الإلهية المركوزة فيها- طبيعة هذا الجســـم وبُعده بل حتى سرعته. فالموجات الصوتية الراجعة إليها بشـــكل متوالٍ تكوّن في دماغها ما يشـــبه صورة ذلك الجسم. ومع أن الإنســـان أيضاً يستطيع التمييز بين صوت القطار والســـيارة، إلا أنه لا يســـتطيع معرفة سرعة القطار أو سرعة الســـيارة ولا بعدها عنه بشكل واضح. ويقوم حوت العنبر بعد تعيين موقع فريسته بزيادةِ وتكثيفِ إطلاق الأصوات ثم يقبض عليها ويلتهمها.

نملة الصحراء عالمة رياضية

كنا حتى الآن نعلم أن النمل تســـتطيع استقطاب ضوء الشمس (Polorization) وتســـتدل على طريقها بواســـطة هذه القابلية. وقد رُشح البروفيســـور الدكتور "رودكر وانر" مدير معهد علم الحيوانات في جامعة زويورخ لجائـــزة نوبل تثميناً لبحوثه حول آليات النظـــم العصبية لنمل الصحراء. فقد خطر ببال هذا العالم أن نمل الصحراء تستطيع الرجوع إلى مسكنها بعدِّ وإحصاءِ عدد خطواتها، لأن هذا العدد مـــع معرفة طول كل خطوة هو الذي يعين مسافتها عن مســـكنها. وللتأكد من هذا قام بتطويل أقدام النمل، وذلك بلصق شـــعرات صلبة في أرجلها عند رجوعها إلى المســـاكن فرأى أن النمل بعد أن طالت أرجلها -أي زاد طول خطواتها- لم تقف عند مســـكنها بل وقفت بعد مسافة تجاوزت المسكن. لأن النمل عندما خرجت كانت خطواتها أقصر. ثم قام بقص الجزء الســـفلي من أقدام النمل فرأى أن النمل وقفت قبل الوصول إلى مسكنها. هنا كانت خطواتها عند الخروج أطول من خطواتها عند الرجوع. وكانت النتيجة التي تَوصّل إليها بعد هذه التجارب أن النمل تعد عدد خطواتها عند الخروج من مسكنها، ولا تنســـى هذا العدد، بل تتذكره عند رجوعها، لذا تســـتطيع الرجوع إلى المســـكن دون أي خطـــأ. علماً بأن عدد الخطوات كبير يبلغ عشرات الآلاف. والغريب أن النمل التي طالت أرجلها أو قصـــرت تتعود بعد فترة على هذا فلا تجد صعوبة في الرجوع إلى مسكنها. فكيف تســـتطيع النمل القيام بهذا العد والإحصاء مـــع أن حجم دماغها يبلغ ١/١٠ ملغـــم فقط؟ إذن فمثل هذه المنظومـــات الخارقة الموجودة في الأحياء تشـــير إلى أنها لم تظهر نتيجة مصادفات عشوائية وعمياء.■

(*) كاتب وباحث تركي. الترجمة عن التركية: أورخان محمد علي.



مفهوم الواجب في الإسلام

مقتضياته التشريعية وتطلُّباته الحِكَميّة (١)

أ.د. أحمد عبادي*

يحظى اليوم موضوع الواجب باهتمام واسع في حلبات النقاشات النظمية والحقوقية والاجتماعية والسياسية وحتى الاقتصادية، لكون مبحث الواجب يتموقع من هذه المجالات جميعا في المنطلق والمبتدأ والبؤبؤ والسويداء؛ ففي مجال حقوق الإنسان مثلا يجري النقاش على أشدّه حول كيفية زرع مفهوم الواجب ضمن البنية الحقوقية ولاسيما حقوق الجيل الثالث (الحقوق التضامنية) كالحق في البيئة السليمة والحق في السلام والحق في التنمية. وهي حقوق يحضر فيها بجلاء -إلى جانب المكون الحقوقي- مكونُ الواجب ومسؤولية الفرد. فالبيئة السليمة لا يمكن ضمان وجودها إن لم يتحمل الأفراد مسؤولياتهم ويقوموا بواجباتهم تجاهها، وكذا ضمانُ التنمية والاسترواح بالسلام؛ فكل ذلك يحتاج إلى أن يقوم الأفراد بواجباتهم إزاءه، مما أدى إلى انبعاث مفهوم الواجب من جديد في النقاشات الحقوقية بعد أن كان الجيل الأول من الحقوق (المدنية والسياسية) والجيل الثاني (الحقوق الاقتصادية والاجتماعية والثقافية) مرتكزين على النموذج المعرفي القائم على الحقوق وليس الواجبات، وذلك بسبب ما نبه إليه الباحث (Ben Saul) في قوله: "بما أن النضالات التي قامت بها حركة حقوق الإنسان ضد استبدادات الكنيسة والنبلاء الفيوداليين في مرحلة أولى، وفي مرحلة ثانية ضد النفاقات الاجتماعية والإقصاء ونقائص النضالات السالفة، كلها ارتكزت على مواجهة ما كان يفرضه المتنفذون من واجبات ظالمة على الأفراد، فقد بلورت حركة حقوق الإنسان حذرا تلقائيا تجاه كل لغة فيها الواجبات والإلزامات مما يبقى بالنظر إلى ماضي هذه الحركات

حذرا وتشككا مبررين". ومن ثم معاناة المنظرين لتنـزيل الجيل الثالث من الحقوق (الحقوق التضامنية) والتي ضمن بنيتها ضرورة الارتكاز على الواجبات، وهي معاناة لا وجود لها في النماذج المعرفية التي يمنحها الإسلام.

أما في المجالين الاجتماعي والسياسي فيجري اليوم في أكثر دول العالم تقدّما نقاش مستحرّ حول كيفية إحياء ثقافة الواجب دون إحياء الدولانية والديماغوجية، وكما قال (Don. E. Eberly): "إعادة اختراع المواطنة ليس كنموذج شاعري بل كعقد اجتماعي يشتمل على العمل الجادّ والتضحيات، ومهما كان ما تفعله الحكومة أو لا تفعله فإن مهمة الإصلاح والتجديد ستقع على كاهل المواطنين. إذ ثمة أمل ضئيل في التغيير الذي يعتمد على الإستراتيجيات الفوقية أو على النظريات المجرّدة دون إدماج المواطنين في تولّي مسؤوليات إنعاش المؤسسات والاتّسام العملي أمامهم بالصفات التي ينبغي أن يقتدى بها". وهذا التوق ما بعد الحداثي هو ما تجسده سنة المصطفى ﷺ الذي كان سباقا للواجبات، فعن أنس رضي الله عنه قال: كان النبي ﷺ أَحسن النَّاس وأجود الناس وأشجع الناس، ولقد فزع أهل المدينة ذات ليلة فانطلق الناس قِبَل الصوت فاستقبلهم النبي ﷺ قد سبق الناسَ إلى الصوت وهو يقول: "لن تُراعوا لن تُراعوا" وهو على فرس لأبي طلحة عُرْي ما عليه سرج في عنقه سيف فقال: "لقد وجدته بحرا" (لفرس أبي طلحة) (متفق عليه). وكل ما سلف من عوامل يجعل الحديث في موضوع الواجب في هذه الظرفية بالذات يكتسي أهمية خاصة. فالواجب لحمة وسدى النسيج العلائقي في المجتمعات والمؤسسات. وهو المحور الذي يتمحور حوله إنجاز الدول والحضارات.

التأسيس القرآني لموضوع الواجب

ويمكن التأسيس للحديث في موضوع الواجب في الإسلام انطلاقا من عدد من آيات الذكر الحكيم يبقى من أبرزها في هذا السياق قوله تعالى: ﴿وَضَرَبَ اللَّهُ مَثَلاً رَجُلَيْنِ أَحَدُهُمَا أَبْكَمُ لاَ يَقْدِرُ عَلَى شَيْءٍ وَهُوَ كَلٌّ عَلَى مَوْلاَهُ أَيْنَمَا يُوَجِّههُّ لاَ يَأْتِ بِخَيْرٍ هَلْ يَسْتَوِي هُوَ وَمَنْ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ وَهُوَ عَلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ﴾(النحل:٧٦).

أورد الطبري رحمه الله في تفسيره عن ابن عباس رضي الله عنهما رواية بالغة الدّلالة على قدرة حَبر الأمة على تبين مراد الله من كلامه. فقد قال رضي الله عنه: "وهذا المثل في الأعمال" وهذا لب الآية الكريمة.

فالآية فيها الإشارة إلى مقومات القيام بالواجب من الأعمال كلّها، وهي "القدرة" و"الإرادة" و"الإنجاز".

والقدرة قدرتان فهمية ومادية. وإلى انعدام القدرة الفهمية تمت الإشارة بقوله تعالى: ﴿أَبْكَمُ﴾، قال الراغب الأصفهاني رحمه الله: "وكل أبكم أخرس وليس كل أخرس أبكم، يقال بكِم عن الكلام إذا ضعف عنه لضعف عقله. فصار كالأبكم". وهو ما ذهب إليه ابن الجوزي في تفسيره إذ قال: "والبكَم عيب في الفؤاد يمنعه أن يعي شيئا فيُفهِّمه، فيجمع بين الفساد في محل الفهم وفي محل النطق"[١]. قال الأزهري: "وبين الأبكم والأخرس فرق في كلام العرب، فالأخرس الذي خُلق ولا نطق له، والأبكم الذي للسانه نطق وهو لا يعقل الجواب ولا يحسن وجه الكلام".

وأما "القدرة المادية"، فإلى انعدامها أشار قوله تعالى: ﴿لاَ يَقْدِرُ عَلَى شَيْءٍ﴾.

أما قوله تعالى: ﴿وَهُوَ كَلٌّ عَلَى مَوْلاَهُ﴾ فالكلّ هو الثقيل على وليه وقرابته والذي "لا إرادة له"، فانعدم بهذا المقوم الثاني من مقومات القيام بالواجب وهو الإرادة. ونظرا لما للإرادة من أهمية ومركزية في الفلاح فقد اشتهر في العرف الصوفي تسمية السالك: "المريد" إذ أول ما يربّى فيه هو ضبط هذه الإرادة وذلك بتزكية منابعها الباطنية وتصفية مقاصدها ومناطاتها الظاهرية وتوجيهها وجهة الخير. والإرادة تتفرع من عاملين هما: العلم والمحبة، فحتى يراد شيء لا بدّ أن يعلم، ثم لا بد أن يحب البلوغ إليه. وهذا المقوم هو الأساس الذي تقوم على توظيفه علوم التسويق إذ يصاغ العلم بالسلعة على نحو جاذب وتُنشأ في نفس المستهلك محبة البلوغ إليها.

أما قوله تعالى: ﴿أَيْنَمَا يُوَجِّههُّ لاَ يَأْتِ بِخَيْرٍ﴾ فهو دلالة على انعدام الإنجاز والجدوى في العمل إذا أُجبر هذا الكَلُّ على القيام به بتوجيه مولاه له، وبذلك ينعدم المقوم الثالث الذي هو الإنجاز.

أما الذي يأمر بالعدل وهو على صراط مستقيم فأمره بالعدل دال على فهم عنده يمكّنه من إدراكه. وقد عرّفوا العدل بكونه الحق والصواب الموافق للواقع وأنه ضد الظلم؛ والظلم هو وضع الأمور في غير مواضعها. وعين أمره بالعدل دالّ على قدرته، وأما طيّب إنجازه فيدل عليه قوله تعالى ﴿وَهُوَ عَلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ﴾. فأمامنا هنا إنسان قادر على تبيّن مواطن العدل وعلى الأمر به بحكْمة مواجها في سبيل ذلك ما قد يعترض من عقبات، كما أنه قادر على تبين العلامات التي تمكّن من التعرف على الصراط المستقيم والثبات عليه.

وهذا الأمر بالعدل والثبات على الصراط المستقيم لا يكون بدون إرادة، فهي إذن مقومات القيام بالواجب الثلاث: "القدرة" و"الإرادة" و"الإنجاز"، وأي إنجاز أعظم من الاتصاف بالعدل والأمر به على صراط مستقيم.

والآية الكريمة من آيات وعلامات سورة النحل. وهي سورة ومنذ مطلعها تبين مؤقتية هذا الوجود وتُذكر بيوم الحساب ﴿أَتَى أَمْرُ اللهِ فَلاَ تَسْتَعْجِلُوهُ﴾(النحل:١) وتبين للإنسان أن لا حجة ولا عذر بعد البيان الذي جاءت به الرسل ﴿يُنَزِّلُ الْمَلاَئِكَةَ بِالرُّوحِ مِنْ أَمْرِهِ عَلَى مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ أَنْ أَنْذِرُوا أَنَّهُ لاَ إِلَهَ إِلاَّ أَنَا فَاتَّقُونِ﴾(النحل:٢).

وبعد امتنانه تعالى وتذكيره بكل المقومات والمؤهلات التي سخرها للإنسان ينتقل السياق إلى تجلية وبيان معالم أوجب الواجبات وهو توحيد الله تعالى وإفراده بالعبودية المبني على الاستحقاق الأمكن، بسبب الخلق والهداية والتسخير والإحسان ﴿وَإِنْ تَعُدُّوا نِعْمَةَ اللهِ لاَ تُحْصُوهَا إِنَّ اللهَ لَغَفُورٌ رَحِيمٌ﴾(النحل:١٨). في مقابل ما تردّى إليه الضالون من عبادة ما لا يستحق ﴿وَالَّذِينَ يَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللهِ لاَ يَخْلُقُونَ شَيْئًا وَهُمْ يُخْلَقُونَ﴾(النحل:٢٠).

ليخلص السياق بعد ذلك إلى بيان -وعلى لسان من قاموا بواجب طلب العلم- أن الجزاء من جنس العمل. وَوَفْقَ القيام بالواجب أو عدمه ﴿ثُمَّ يَوْمَ الْقِيَامَةِ يُخْزِيهِمْ وَيَقُولُ أَيْنَ شُرَكَائِيَ الَّذِينَ كُنْتُمْ تُشَاقُّونَ فِيهِمْ قَالَ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ إِنَّ الْخِزْيَ الْيَوْمَ وَالسُّوءَ عَلَى الْكَافِرِينَ ۞ الَّذِينَ تَتَوَفَّاهُمُ الْمَلاَئِكَةُ ظَالِمِي أَنْفُسِهِمْ فَأَلْقَوُا السَّلَمَ مَا كُنَّا نَعْمَلُ مِنْ سُوءٍ بَلَى إِنَّ اللهَ عَلِيمٌ بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ﴾(النحل:٢٧-٢٨). فلا يجيب أهل الظلم والتفريط والكلالة، للـ"بكم" الذي فيهم، بل يجيب أهل العلم والعدل في مقابل الذين أحسنوا عملا الذين يجيبون عن أنفسهم لأنهم كانوا -وهم بعد في الدنيا- محسنين آمرين بالعدل وهم على صراط مستقيم ﴿وَقِيلَ لِلَّذِينَ اتَّقَوْا مَاذَا أَنْزَلَ رَبُّكُمْ قَالُوا خَيْرًا لِلَّذِينَ أَحْسَنُوا فِي هَذِهِ الدُّنْيَا حَسَنَةٌ وَلَدَارُ الآخِرَةِ خَيْرٌ وَلَنِعْمَ دَارُ الْمُتَّقِينَ﴾(النحل:٣٠) إلى أن يقول سبحانه: ﴿كَذَلِكَ يَجْزِي اللهُ الْمُتَّقِينَ ۞ الَّذِينَ تَتَوَفَّاهُمُ الْمَلاَئِكَةُ طَيِّبِينَ يَقُولُونَ سَلاَمٌ عَلَيْكُمُ ادْخُلُوا الْجَنَّةَ بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ﴾(النحل:٣١-٣٢) ليبين بعد ذلك سفه وبكم منظومة الشرك واختلال معتقدهم ﴿وَيَجْعَلُونَ لِمَا لاَ يَعْلَمُونَ نَصِيبًا مِمَّا رَزَقْنَاهُمْ تَاللهِ لَتُسْأَلُنَّ عَمَّا كُنْتُمْ تَفْتَرُونَ ۞ وَيَجْعَلُونَ لِلهِ الْبَنَاتِ سُبْحَانَهُ وَلَهُمْ مَا يَشْتَهُونَ﴾(النحل:٥٦-٥٧). وهو موقف سوف يصير في السنوات القليلات التاليات لزمن نزول الآيات عنه مؤشرا على بيان النقلة البعيدة التي قام بها الوحي مع الإنسان وذلك في قوله تعالى ﴿وَإِذَا بُشِّرَ أَحَدُهُمْ بِالأُنْثَى ظَلَّ وَجْهُهُ مُسْوَدًّا وَهُوَ كَظِيمٌ ۞ يَتَوَارَى مِنَ الْقَوْمِ مِنْ سُوءِ مَا بُشِّرَ بِهِ أَيُمْسِكُهُ عَلَى هُونٍ أَمْ يَدُسُّهُ فِي التُّرَابِ أَلاَ سَاءَ مَا يَحْكُمُونَ﴾(النحل:٥٨-٥٩). فشتان بين هذا الموقف وبين الريادة العلمية لأم المومنين عائشة رضي الله عنها.

وذلك بعد أن بين سبحانه مركزية الوحي في حياة الكائنات عموما وأن فلاحها رهين باتباع هادياته إن طوعا أو كرها. ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ إِلاَّ رِجَالاً نُوحِي إِلَيْهِمْ فَاسْأَلُوا أَهْلَ الذِّكْرِ إِنْ كُنْتُمْ لاَ تَعْلَمُونَ ۞ بِالْبَيِّنَاتِ وَالزُّبُرِ وَأَنْزَلْنَا إِلَيْكَ الذِّكْرَ لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ وَلَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ﴾(النحل:٤٣-٤٤).

كما بين سبحانه أن استقامة الكون وما فيه من كائنات إنما هي نتاج اتباع الوحي ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا إِلَى مَا خَلَقَ اللهُ مِنْ شَيْءٍ يَتَفَيَّأُ ظِلاَلُهُ عَنِ الْيَمِينِ وَالشَّمَائِلِ سُجَّدًا لِلهِ وَهُمْ دَاخِرُونَ ۞ وَلِلهِ يَسْجُدُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الأَرْضِ مِنْ دَابَّةٍ وَالْمَلاَئِكَةُ وَهُمْ لاَ يَسْتَكْبِرُونَ ۞ يَخَافُونَ رَبَّهُمْ مِنْ فَوْقِهِمْ وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ﴾(النحل:٤٨-٥٠)، في مقابل ﴿وَيَجْعَلُونَ لِلهِ مَا يَكْرَهُونَ وَتَصِفُ أَلْسِنَتُهُمُ الْكَذِبَ أَنَّ لَهُمُ الْحُسْنَى لاَ جَرَمَ أَنَّ لَهُمُ النَّارَ وَأَنَّهُمْ مُفْرَطُونَ﴾(النحل:٦٢)، رغم هاديات الوحي ﴿تَاللهِ لَقَدْ أَرْسَلْنَا إِلَى أُمَمٍ مِنْ قَبْلِكَ فَزَيَّنَ لَهُمُ الشَّيْطَانُ أَعْمَالَهُمْ فَهُوَ وَلِيُّهُمُ الْيَوْمَ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ۞ وَمَا أَنْزَلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ إِلاَّ لِتُبَيِّنَ لَهُمُ الَّذِي اخْتَلَفُوا فِيهِ وَهُدًى وَرَحْمَةً لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾(النحل:٦٤).

بيد أن الكائنات الكونية تنتفع بوحيها وتنتج ما خلقت له عن طريق القيام الطوعي بالواجبات التي يهدي إليها الوحي ﴿وَأَوْحَى رَبُّكَ إِلَى النَّحْلِ أَنِ اتَّخِذِي مِنَ الْجِبَالِ بُيُوتًا وَمِنَ الشَّجَرِ وَمِمَّا يَعْرِشُونَ ۞ ثُمَّ كُلِي مِنْ كُلِّ الثَّمَرَاتِ فَاسْلُكِي سُبُلَ رَبِّكِ ذُلُلاً يَخْرُجُ مِنْ بُطُونِهَا شَرَابٌ مُخْتَلِفٌ أَلْوَانُهُ فِيهِ شِفَاءٌ لِلنَّاسِ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ﴾(النحل:٦٨-٦٩).

لتنتهي بنا السورة الكريمة إلى بيان معالم المجتمع السليم مجتمع الواجبات الذي يكون لأفراده إنجازهم المنتج المتنافس المتكامل "المعتبر بمجتمع النحل وأدائه المتناسق" ﴿إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ﴾(النحل:٦٩). وذاك قوله تعالى: ﴿وَلَوْ شَاءَ اللهُ لَجَعَلَكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً وَلَكِنْ يُضِلُّ مَنْ يَشَاءُ وَيَهْدِي مَنْ يَشَاءُ وَلَتُسْأَلُنَّ عَمَّا كُنْتُمْ

تَعْمَلُونَ ۞ وَلاَ تَتَّخِذُوا أَيْمَانَكُمْ دَخَلاً بَيْنَكُمْ فَتَزِلَّ قَدَمٌ بَعْدَ ثُبُوتِهَا وَتَذُوقُوا السُّوءَ بِمَا صَدَدْتُمْ عَنْ سَبِيلِ اللهِ وَلَكُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ ۞ وَلاَ تَشْتَرُوا بِعَهْدِ اللهِ ثَمَنًا قَلِيلاً إِنَّمَا عِنْدَ اللهِ هُوَ خَيْرٌ لَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ ۞ مَا عِنْدَكُمْ يَنْفَدُ وَمَا عِنْدَ اللهِ بَاقٍ وَلَنَجْزِيَنَّ الَّذِينَ صَبَرُوا أَجْرَهُمْ بِأَحْسَنِ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾(النحل:٩٣-٩٦). وذلك في دقة متناهية ترسم معالم مجتمع الواجب لِيُنْصَب، تتويجا لهذه المعاني وتجسيدا لها، مثال أبي الأنبياء سيدنا إبراهيم عليه السلام الذي تجلت كلها فيه بامتياز وذلك في قوله سبحانه: ﴿إِنَّ إِبْرَاهِيمَ كَانَ أُمَّةً قَانِتًا لِلَّهِ حَنِيفًا وَلَمْ يَكُ مِنَ الْمُشْرِكِينَ ۞ شَاكِرًا لِأَنْعُمِهِ اجْتَبَاهُ وَهَدَاهُ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ﴾(النحل:١٢٠-١٢١) والشكر عمل وقيام بالواجب لقوله تعالى: ﴿اعْمَلُوا آلَ دَاوُودَ شُكْرًا وَقَلِيلٌ مِنْ عِبَادِيَ الشَّكُورُ﴾(سبأ:١٣).

لتختم السورة بإيقاع نابض تتجلى من خلاله حركة الإنسان الآمر بالعدل ﴿وَهُوَ عَلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ﴾(النحل:٧٦) لإقامة صرح مجتمع الواجب في دفق إنجازي لا يوقفه خلاف المخالفين ولا صدّ الصادّين أو مكر الماكرين ولا كل الصعوبات التي تعترضه ولكن لا تعيقه. وذاك قوله سبحانه: ﴿ادْعُ إِلَى سَبِيلِ رَبِّكَ بِالْحِكْمَةِ وَالْمَوْعِظَةِ الْحَسَنَةِ وَجَادِلْهُمْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِمَنْ ضَلَّ عَنْ سَبِيلِهِ وَهُوَ أَعْلَمُ بِالْمُهْتَدِينَ ۞ وَإِنْ عَاقَبْتُمْ فَعَاقِبُوا بِمِثْلِ مَا عُوقِبْتُمْ بِهِ وَلَئِنْ صَبَرْتُمْ لَهُوَ خَيْرٌ لِلصَّابِرِينَ ۞ وَاصْبِرْ وَمَا صَبْرُكَ إِلاَّ بِاللهِ وَلاَ تَحْزَنْ عَلَيْهِمْ وَلاَ تَكُ فِي ضَيْقٍ مِمَّا يَمْكُرُونَ ۞ إِنَّ اللهَ مَعَ الَّذِينَ اتَّقَوْا وَالَّذِينَ هُمْ مُحْسِنُونَ﴾(النحل:١٢٥-١٢٨).

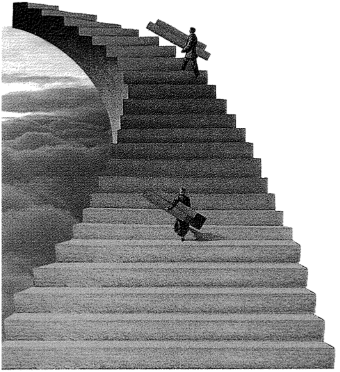
مما يجعل سورة النحل سورة تتجلى فيها مقومات الواجب كلها، من بواعث قائمة على الشكر الدافع للإحسان بسبب التسخير والهداية. وكذا وعي مؤقتية اللّبث في هذه الحياة وحتمية مجيء يوم الحساب والعبرة بمصائر المخالفين والعمل بمقتضى كل ذلك في اتزان على صراط مستقيم.

فما هو الواجب في الإسلام وما هي أسسه الاعتقادية والتصورية؟ وما هي مقتضياته الشرعية وتطلباته الحكمية؟

تعريف الواجب

الواجب لغة: من وَجَبَ الشيء يَجِبُ وجوبًا، أي لزم لزوما، وثبت ثبوتا، والموجبة من الأعمال الكبيرة، الحسنة أو السيئة الموجبة للثواب أو العقاب.[٢]

وقبل الانتقال للحديث عن الواجب شرعا يحسن المهد لذلك



بالحديث عن المقومات والأسس الاعتقادية والتصورية التي يرتكز عليها هذا المفهوم في الإسلام. فالاعتقادات والتصورات دعامة الواجب وعماده في هذا الدين.

الأسس الاعتقادية والتصورية المؤطرة للواجب في الإسلام

يبرز الإنسان في منظومة الإسلام الاعتقادية والتصورية باعتباره الجسر الكوني المؤهَّل الذي تعبر منه القيم والأخلاق والتشريعات الحاملة لمراد الله التكليفي من الإنسان تجاه نفسه ومحيطه الكوني إلى البعدين الزماني والمكاني لتصبح جزءا من التاريخ والحياة، ويبرز التكليف الملقى على عاتق هذا المخلوق (الأمانة) ﴿إِنَّا عَرَضْنَا الْأَمَانَةَ عَلَى السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَالْجِبَالِ فَأَبَيْنَ أَنْ يَحْمِلْنَهَا وَأَشْفَقْنَ مِنْهَا وَحَمَلَهَا الْإِنْسَانُ إِنَّهُ كَانَ ظَلُومًا جَهُولاً﴾(الأحزاب:٧٢). باعتباره تكليفا لا يعرف حصرا ولا حدودا، إذ الكون كله في هذه المنظومة مسرح لفعل الإنسان وعتاد له. فالنوع الإنساني كله موضوع فعله الأخلاقي كما الكون كله. وقد تجلى هذا الوعي بعمق في قول عمر رضي الله عنه: "لو أن بغلة عثرت في طفّ العراق لخشيت أن يسألني الله لِمَ لَمْ تعبّد لها الطريق يا عمر". أما زمانيا فإن هذا التكليف لا ينتهي إلا يوم القيامة، قال رسول الله ﷺ: "إن قامت الساعة وفي يد أحدكم فسيلة، فإن استطاع أن لا تقوم حتى يغرسها فليغرسها"[٣].

وتبرز مقومات القيام بالواجب في هذه المنظومة الاعتقادية والتصورية على الشكل الآتي:



١- تزويد الإنسان بالعقل وجعله مناط التكليف: ﴿وَاللهُ أَخْرَجَكُمْ مِنْ بُطُونِ أُمَّهَاتِكُمْ لاَ تَعْلَمُونَ شَيْئًا وَجَعَلَ لَكُمُ السَّمْعَ وَالأَبْصَارَ وَالأَفْئِدَةَ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾(النحل:٧٨). ﴿وَلَقَدْ ذَرَأْنَا لِجَهَنَّمَ كَثِيرًا مِنَ الْجِنِّ وَالإِنْسِ لَهُمْ قُلُوبٌ لاَ يَفْقَهُونَ بِهَا وَلَهُمْ أَعْيُنٌ لاَ يُبْصِرُونَ بِهَا وَلَهُمْ آذَانٌ لاَ يَسْمَعُونَ بِهَا أُولَئِكَ كَالأَنْعَامِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ أُولَئِكَ هُمُ الْغَافِلُونَ﴾(الأعراف:١٧٩).

٢- المواءمة بين الإنسان والكون من جهة، وبين الإنسان والوحي من جهة ثانية: وارتكاز المواءمة في الإنسان يقوم على قدرته على الفهم عن طريق الألباب/النُّهى/الأفئدة/العقل، وهي الوظائف التي تمكن الإنسان من الإدراك والتعقل والتفكيك والاستنباط والتخيل والحدْس والاستشراف ﴿وَعَلَّمَ آدَمَ الأَسْمَاءَ كُلَّهَا ثُمَّ عَرَضَهُمْ عَلَى الْمَلاَئِكَةِ فَقَالَ أَنْبِئُونِي بِأَسْمَاءِ هَؤُلاَءِ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ ۞ قَالُوا سُبْحَانَكَ لاَ عِلْمَ لَنَا إِلاَّ مَا عَلَّمْتَنَا إِنَّكَ أَنْتَ الْعَلِيمُ الْحَكِيمُ ۞ قَالَ يَا آدَمُ أَنْبِئْهُمْ بِأَسْمَائِهِمْ فَلَمَّا أَنْبَأَهُمْ بِأَسْمَائِهِمْ قَالَ أَلَمْ أَقُلْ لَكُمْ إِنِّي أَعْلَمُ غَيْبَ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ وَأَعْلَمُ مَا تُبْدُونَ وَمَا كُنْتُمْ تَكْتُمُونَ﴾(البقرة:٣١-٣٣). أما في الكون فترتكز المواءمة على تسخيره ﴿وَسَخَّرَ لَكُمْ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الأَرْضِ جَمِيعًا مِنْهُ﴾(الجاثية:١٣). وترتكز في الوحي على تيسيره ﴿وَلَقَدْ يَسَّرْنَا الْقُرْآنَ لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِنْ مُدَّكِرٍ﴾(القمر:٤٠)، مما يجعل الإنسان قادرا على استبانة الآيات والعلامات سواء كانت في الكون أو في الوحي. ونظراً لمطواعية الكون واستجابة الوحي فإن الإنسان يصبح قادرا على الفعل في الأول بهاديات الثاني.

٣- قصدية الخلق: ﴿وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالإِنْسَ إِلاَّ لِيَعْبُدُونِ ۞ مَا أُرِيدُ مِنْهُمْ مِنْ رِزْقٍ وَمَا أُرِيدُ أَنْ يُطْعِمُونِ ۞ إِنَّ اللهَ هُوَ الرَّزَّاقُ ذُو الْقُوَّةِ الْمَتِينُ﴾(الذاريات:٥٦-٥٨). وارتكازا على الأسس السالفة يصبح الإنسان قادرا على إدراك هذه القصدية ويصبح من ثم مسؤولا عن تحقيقها.

٤- بنائية الشرع والعقيدة ووحدهما ومفهوميتهما: وهذا يثمر وضوح الواجبات التي توجهان إليها، فمقاصدُهما، وأوامرهما، ونواهيهما واضحة قابلة للتعقل، ومتكاملة تحرر تماسكا يُمكّن من تحديد الأولويات وتبيُّن مراتب الأعمال.

٥- المسؤولية والمحاسبة: إذ برز أن على الإنسان مسؤولية العمل في ذاته وفي محيطه وفق قيم الوحي الحاكمة وشرائعه الموجِّهة. وقد زوِّد بالقدرات التي تمكنه من الاضطلاع بذلك، وكان الكون قابلا لفعله مسخرا له، وكان الوحي مُيَسَّرًا له متستجيبا لتساؤلاته ﴿وَنَزَّلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ تِبْيَانًا لِكُلِّ شَيْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً وَبُشْرَى لِلْمُسْلِمِينَ﴾(النحل:٨٩). فإن ذلك يستتبع المحاسبة التي يُجزى بمقتضاها المحسنون عن إحسانهم، والمسيئون عن إساءتهم. وهذا البناء هو الذي يحرر الشعور النبيل المتسامي بالواجب وهو شعور انزرع في نفوس المسلمين فأثمر المسلكيات والممارسات التي رفعت في جمالية صرح الحضارات والثقافات الإسلامية الشامخة.

التعريف الشرعي للواجب

الواجب شرعا هو: "ما طلب الشارع فعله من المكلف طلبا حتما بأن اقترن طلبه بما يدل على تحتيم فعله، كما إذا كانت صيغة الطلب نفسها تدل على التحتيم، أو دلّ على تحتيم فعلٍ ترتيبُ العقوبة على تركه، أو أيةُ قرينة شرعية أخرى"(٤).

تجدر الإشارة هنا إلى أن الواجب عند جمهور الأصوليين لا فرق بينه وبين الفرض، وقد انفرد علماء الحنفية بالتمييز بينهما فقسموا الحكم التكليفي إلى سبعة أقسام عوض خمسة عند الجمهور، أولها الفرض، وميزوا بين الفرض والواجب بقولهم: "ما طلب الشارع فعله طلبا حتما وكان دليل طلبه قطعيا بأن كان آية قرآنية أو حديثا متواترا، فهو الفرض، كالأركان الخمسة مثلا، أما إن كان دليل طلب الفعل ظنيا بأن كان حديثا غير متواتر أو قياسا فهو الواجب"، ولهذا التفريق وجه من جهة إسعافه

في التمييز بين الواجبات المنصوص عليها في العبادات وغيرها والأخرى المرسلة التي ينفسح فيها المجال للاجتهاد والتقدير، فيكون بذلك هذا التفريق في غاية الوظيفية. ويقترب من معنى الواجب في العلوم السلوكية: (Devoir, Duty).

وقد قسم علماء الأصول الواجب إلى أقسام أربعة كل منها يستند إلى اعتبار:

القسم الأول: الواجب من جهة وقت أدائه: ويكون مؤقتا أو مطلقا، ومثال المؤقت الصلاة، لقوله تعالى: ﴿إِنَّ الصَّلاَةَ كَانَتْ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ كِتَابًا مَوْقُوتًا﴾(النساء:١٠٣)، ومثال المطلق الحج والكفارة. والواجب المؤقت حين يوقع في وقته كاملا مستوفيا أركانه وشروطه يسمى ذلك أداء، وإذا فعله المكلف في وقته غير كامل ثم فعله داخل الوقت كاملا سمي ذلك إعادة، أما إذا فُعل خارج وقته فيسمى قضاء.[٥]

القسم الثاني: من جهة المقدار المطلوب: حيث ينقسم الواجب بهذا الاعتبار إلى محدد وغير محدد، فالواجب المحدد ما عين له الشارع مقدارا معلوما لا تبرأ ذمة المكلف إلا إذا أداه، كالصلوات الخمس والزكاة والديون. والواجب غير المحدد، هو ما طلبه الشارع من المكلف بدون تحديد، كالإنفاق في سبيل الله، وإطعام الجائع، وإغاثة الملهوف.

القسم الثالث: من جهة تعيين ماهيته وصيغته وكيفيته: حيث ينقسم الواجب بهذا الاعتبار إلى معيّن ومخيّر، فالمعيّن ما طلبه الشارع بعينه كالصلاة والصيام وثمن المشترى وأجر المستأجر وردّ المغصوب. والواجب المخير ما طلبه الشارع واحدًا من أمور معينة؛ كأحد خصال الكفارة لمن حنث في يمين مثلا، فعليه إما أن يطعم عشرة مساكين أو يكسوهم أو يعتق رقبة أو يصوم ثلاثة أيام، وتبرأ ذمة المكلف بالقيام بأحدها، وهو معنى التخيير.

القسم الرابع: الواجب من جهة المطالب بأدائه، (هل هو مكلف بعينه أم عموم المكلفين): وبهذا الاعتبار يكون الواجب إما عينيا أو كفائيا.

فالواجب العيني: هو ما طلب الشارع فعله من فرد من أفراد المكلفين، ولا يجزئ قيام مكلف به عن آخر، كالصلاة والصيام والوفاء بالعقود.

والواجب الكفائي: هو ما طلب الشارع فعله من مجموع المكلفين لا من كل فرد منهم بحيث إذا قام به من يكفي من المكلفين أجزأ ذلك وسقط الإثم عن الباقين. قال الشافعي رحمه الله في الرسالة: "وهكذا كل ما كان الفرض فيه مقصودا به قصد الكفاية فيما ينوب، فإذا قام به من المسلمين من فيه الكفاية خرج من تخلّف عنه من المأثم، ولو ضيعوه معا خفت ألا يخرج واحد منهم مطيق فيه عن المأثم". ويدخل في هذا القسم من الواجب كل ما يلزم الأوطان من خدمات عامة لا تتعلق بذمة مكلف بعينه كالتطبيب وبناياته ومستلزماته وصناعاته ومدارسه وإيجاد العدد الكافي للأمة من الأطباء والصيادلة ومؤسسات تكوينهم وأماكن عملهم وخدمتهم ومصانع الأدوية والمعدات، وكحراسة الأوطان وحمايتها، وبناء المساكن والطرقات والقيام بواجب التعليم والقضاء والإفتاء. وغير ذلك مما لا يكاد يُحصر إذ تتجدد حاجات الأمم في كل حين.

والحاصل أن هذه الفئة من الواجبات هي مناط التكليف العام، وهو تكليف لا تبرأ ذمة الأمة إن لم تقم به على وجه الكفاية، بمعنى أن الجماعة جميعَها تأثم في هذه الحالة قادريها وغيرُ قادريها وهو قول الإمام الشاطبي المالكي الأندلسي رحمه الله في موافقاته: "القيام بهذا الفرض قيام بمصلحة عامة، فهم مطلوبون بسدها على الجملة، فبعضهم هو قادر عليها مباشرة وذلك من كان أهلا لها، والباقون وإن لم يقدروا عليها قادرون على إقامة القادرين. فالقادر مطلوب بإقامة الفرض، وغير القادر مطلوب بتقديم ذلك القادر، إذ لا يتوصل إلى قيام القادر إلا بالإقامة، من باب ما لا يتم الواجب إلا به فهو واجب"[٦]. أي إنه في حالة عدم القيام بهذه الواجبات على وجه الكفاية يأثم القادر لإهماله واجبا قدَر على أدائه إذ يكون متعيّنا عليه، ويأثم غير القادر لإهماله ما تعيّن عليه من حثّ القادر وحمله على القيام بالواجب المقدور له، وهذا هو البعد التضامني في القيام بالواجب.

وقد كان هذا الوعي متجذّراً عند علمائنا عامة وعند علماء هذه الربوع خاصة، ومن تمظهراته ما روي عن الإمام أبي عبد الله محمد بن علي المازَري المالكي نزيل المهدية رحمه الله المتوفى سنة ٥٣٦هـ، وكان إذا أطلق لقب الإمام في إفريقية لا ينصرف إلى غيره لنبوغه وتمكنه في العلوم الشرعية. فحين علم رحمه الله أن الحاجة ماسة إلى الأطباء في هذه الأوطان خاف لفقهه من المأثم، إذ لمس في نفسه القدرة على القيام بهذا الواجب الكفائي، فتوجه إلى طلب علم الطب إلى أن صار وكما قيل عنه رحمه الله تعالى: "يفزع إليه في فتوى الطب كما يفزع إليه في فتوى الفقه".[٧]

إن هذا البناء التشريعي قد ألزم الأمة بامتياز ومنذ وقت مبكر جدا بالولوج إلى آفاق الهندسة الاجتماعية والإستراتيجيات العملية للبراءة من الإثم والفوز بالرضوان. وهو ما انتبه إليه الباحث الأمريكي (Jason Morgan Foster) حين قال: "ولأن الواجبات لها مركزية في الاعتقاد والتطبيق الإسلاميين، فإن لغة وبنية الواجبات تطورت في الشريعة الإسلامية، وهما إلى حد بعيد أكثر تركيبا من الإحالات البسيطة إلى الواجبات التي نراها في الإعلانات العالمية لحقوق الإنسان، فالشريعة الإسلامية عبارة عن مخطط عمل اجتماعي عقلاني المعنى لكل أفعال المسلمين والتي قد أُطّر مجملُها من مدخل الواجب"(٨).

وفي تراثنا العلمي عيون وذرر تؤكد ما انتبه إليه هذا الباحث. فقد جاء عن إمامنا مالك ﷺ أنه سئل عن طلب العلم أفرض هو؟ فقال: "أما على كل الناس فلا" يعني به الزائد على ما لا يسع المسلم جهله من أركان وغيرها. وقال أيضا: "أما من كان فيه موضع للإمامة فالاجتهاد في طلب العلم عليه واجب، والأخذُ في العناية بالعلم على قدر النية فيه"(٩).

وللعلماء تفصيلات مشرقة في رسم إستراتيجيات تدبير الملفات الحيوية للأمة من هذا المدخل، ومن ذلك مثلا ما خطه الإمام الشاطبي في موافقاته عن الملف التعليمي، إذ قال: "فإذا فرض مثلا واحد من الصبيان ظهر عليه حسن إدراك وجودة فهم ووفور حفظ لما يسمع -وإن كان مشاركا في غير ذلك من الأوصاف- ميلَ به نحو ذلك القصد، وهذا واجب على الناظر فيه من حيث الجملة مراعاةً لما يرجى فيه من القيام بمصلحة التعليم، فطُلب بالتعلم وأُدّب بالآداب المشتركة بجميع العلوم، ولا بد أن يُمَال به منها إلى بعض، فيؤخذَ به ويعان عليه، ولكن على الترتيب الذي نصّ عليه ربانيو العلماء، فإذا دخل إلى ذلك البعضِ فمال به طبعه إليه على الخصوص وأحبه أكثر من غيره تُرِك وما أحبّ وخُصّ بأهله. وهكذا الترتيب فيمن ظهر عليه وصف الإقدام والشجاعة وتدبير الأمور، فيُمال به نحو ذلك ويُعلَّم آدابه المشتركة ثم يصار به إلى ما هو أولى فالأولى من صنائع التدبير كالنقابة أو الجندية أو الهداية أو الإمامة أو غير ذلك مما يليق به وما ظهر له فيه نجابة ونهوض". وبذلك يتربى لكل فعل هو فرض كفاية قوم، لأنه يسير أولا في طريق مشترك، فحيث وقف السائر وعجز عن السير فقد وقف "في مرتبة محتاجٍ إليها في الجملة"، وإن كان به قوةٌ "زاد في السير إلى أن يصل إلى أقصى الغايات في المفروضات الكفائية". وبذلك تستقيم أمور الدنيا وأعمال الآخرة"(١٠).

وفي الجانب الاجتماعي يقول رحمه الله في "وجوب الصدقاتِ المطلقةِ وسَدِّ الخَلاَّت ودفعِ حاجات المحتاجين وإغاثة الملهوفين وإنقاذ الغرقى والجهاد والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ويدخل تحته سائر فروض الكفايات، فإذا قال الشارع: ﴿وَأَطْعِمُوا الْقَانِعَ وَالْمُعْتَرَّ﴾(الحج:٣٦) أو أمر بكسوة العاري أو قال ﴿وَأَنْفِقُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ﴾(البقرة:١٩٥) فمعنى ذلك طلبُ رفعِ الحاجة في كل واقعة بحسبها من غير تعيين مقدار؛ فإذا تبيّنت حاجة تبيَّن مقدارُ ما يُحتاج إليه فيها بالنظر لا بالنص، فإذا تعين جائع فهو مأمور بإطعامه وسدّ خلّته بمقتضى ذلك الإطلاق، فإن أطعَمَهُ ما لا يرفع عنه الجوع فالطلب باق عليه ما لم يفعل من ذلك ما هو كاف ورافعٌ للحاجة التي من أجلها أُمر ابتداء، والذي هو كاف يختلف باختلاف الساعات والحالات في ذلك المعيّن، فقد يكون في الوقت غير مفرط الجوع فيحتاج إلى مقدار من الطعام فإذا تركه حتى أفرط عليه احتاج إلى أكثر منه، وقد يطعمه آخرُ فيرتفع عنه الطلب رأسا، وقد يطعمه ما لا يكفيه فيُطلَب هذا بأقلّ مما كان مطلوبا به.

فإذا كان المكلف به يختلف باختلاف الأحوال والأزمان لم يستقرّ للترتيب في الذمة أمر معلوم يطلب ألبتة. فلا يكون معلوما إلا في الوقت الحاضر "بحسب النظر، لا بمقتضى النص". فإذا زال الوقت الحاضر "صار في الثاني مكلّفا بشيء آخر لا بالأول" أو سقط عنه التكليف إذا فُرضَ ارتفاع الحاجة العارضة"(١١).■

(*) الأمين العام للرابطة المحمدية للعلماء / المغرب.

الهوامش

(١) زاد المسير، لابن الجوزي، ٤١/١.

(٢) لسان العرب لابن منظور، مادة "وجب"؛ تاج العروس للزبيدي، مادة "وجب".

(٣) الأدب المفرد، للبخاري، ص ١٤٦.

(٤) أصول الفقه، لعبد الوهاب خلاف، ص ١٠٥.

(٥) انظر: المستصفى، للغزالي، ص ٥٣؛ أصول الفقة، لعبد الوهاب خلاف، ص ١٠٥-١٠٧.

(٦) الموافقات، للشاطبي، ٢٨٤/١-٢٨٥

(٧) انظر: ترجمته في شجرة النور الزكية في طبقات المالكية.

(8) Yale Human Right and Development Vol.8 p.106.

(٩) الموافقات، للشاطبي، ٢٨٢/١.

(١٠) الموافقات، للشاطبي، ٢٨٦/١.

(١١) الموافقات، للشاطبي، ٢٤٧/١-٢٤٨.

بالقلب لا بالجسد أنت إنسان، وبالروح لا بالطين علوتَ الأرضَ، وتسلقتَ أسبابَ السماء.
فيا ويح من ظنك جسدا وطينا، وفما لوّاكا وبطنا أكولاً،
وأدار للقلب ظهرا وأشاح عن الروح وجها.

* * *



لمسات الجمال في شواهد القبور العثمانية

طلحة أوغرلوايل*

إن لم تكن تفهم لغة شـواهد القبـور العثمانية عند دخولك إلى المقبرة، فلن ترى سـوى أعمدة من الرخام متشـابهة. ولكن ما إن تتفحص هذه الشواهد بدقة حتى ترى أن لكل منها سمة تميزها عن الأخرى. فإن لكل شـاهد غطاء أو قلنسوة مختلفة. فهناك إشارات عديدة كل منها تدل على صفة من صفات الشـخص المتوفى. وهذه القبور وشواهدها -بالنسبة لمن يفهم لسانها- مراقد لأشخاص من مهن ومشـارب مختلفة. لأنك حيثما التفت رأيت سمات أشـخاص مألوفـين عندك، فتجد أشـخاصاً من جميع المهن والمشـارب والطبقات الاجتماعية يرقدون هناك.

الشاهد وجنس الراقد

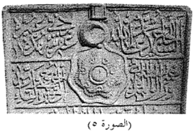
يدل الشـكل الخارجي لشاهد القبر وأنواع الزينة الموجودة عليه على جنس الراقد؛ فبينما يكون على شـاهد الرجل ما يشـبه القبعة أو العمامة، فإنّ شـاهد قبر المرأة مزين بإكليل من الزهر. وهذه الزينات محفورة على شكل "مزهرية" أو على شكل زهور مختلفة كزهور السوسن وزهرة النجمة أو النرجس أو القرنفل أو

الشقائق أو الفوشية أو الزنبق أو أزهار الخوخ أو اللوز أو مع شكل أغصان لشجيرات هذه الزهور (الصورة ١).

وعلى أشكال هذه الزهور نرى فناً رفيعاً يهتم بالعديد من التفاصيل، فكأن كل زهرة على هذه النصب والشواهد الحجرية تريد أن تقول شيئاً بلسان حالها لزائر المقبرة؛ فمثلا نرى في كثير من هذه الأماكن نقش زوج من الزنبق بخمس أوراق وكأنها يد ضارعة ممتدة للدعاء. وفي عهد "لَاله" (الزنبق)[1] تحولت هذه الزنابق إلى أشكال مجسمة، فأصبحت تحفر بثلاثة أبعاد. وبمرور الوقت بدأت هذه الزهور ترسم ضمن زهرية أو أصيص الزهور. ونرى زينة الزهور موجودة إلى حد مّا على شواهد قبور الرجال. إذ كان شيخ الإسلام يضع زهرة أو وردة على طرف عمامته الكبيرة، وكان الكاتب يضع ريشة على عمامته. وبعد انتشار الطربوش استمر تزيين أطراف غطاء الرأس فكان أسفل الطربوش يزين بصور الزهور. فانعكس هذا الاهتمام بالجمال وامتد حتى إلى القبور وإلى شواهدها فنتجت ألوان من الجمال المثير للإعجاب.

الشاهد ومهنة الراحل

وكما أن الأشكال والرموز المنقوشة على القبور تشير إلى جنس الراقد، فإنها تشير إلى مهنته أيضاً. فإن كان بحاراً فلا بد من وجود إشارة أو رمز أو شكل حول مهنته هذه على شاهد قبره. فقد يكون الرمز صورة ساريةٍ أو شراع أو مرساة أو شارة البحرية العثمانية (الصورة ٢)... وهناك لحود بحارين تشبه السفن



(الصورة ٥)



(الصورة ١)



(الصورة ٢)



(الصورة ٣)

وتحاط جوانبها بحبال غليظة أو بسلاسل حديدية تستعمل في السفن.

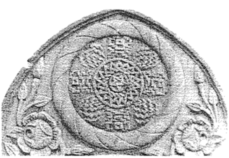
وأما إن كان المتوفى كاتباً ويعيش على قلمه فلا بد أن تجد إشارة ترمز إلى هذا، مثل شكل لفائف الورق أو ريشة كتابة أو قلم من القصب. وإن كان رساماً فتجد شارة الريشة أو المَلْوَن(الصورة ٣). وإن كان عسكرياً فسترى على شاهد قبره إشارة إلى مهنته إما سيفاً أو مدفعاً أو خنجراً أو قذيفة مدفع أو منظاراً مقرباً. وأما الضباط الذين وصلوا إلى رتب عالية في الجيش فهناك تفاصيل كثيرة على شواهد قبورهم، من صور لأسلحة، إذ يمكن القول، إنها تشكل مخزن ذخيرة حربية. ولا توضع هذه الصور والأشكال بشكل عشوائي، بل حول شارة الدولة العثمانية وحول طبل الحرب، حيث تتراص حول الشارة صور المدفع والسيف والكنانة وصَوْلجان الحرب والبوق... والأسلحة المختارة في هذا الطراز من التزيين تكون مما كان المتوفى يستعمله عندما كان حيًّا. كما تتم الإشارة إلى رتبته العسكرية على جانبي شاهد القبر.

كثيراً ما كان العسكري يختار شارة الدولة العثمانية لتزيين شاهد قبره (الصورة ٤). وقد وضعت شارة الدولة العثمانية لأول مرة في عهد السلطان سليم الثالث. ونظراً لكون هذه الشارة تَحمل -إلى جانب الرموز العسكرية- رموزاً دينية ووطنية، فقد أحبها الشعب وتبناها. لذا استعملت هذه الشارة بشكل كبير في تزيين شواهد القبور وبخاصة في العهود التي تلت عهد السلطان سليم الثالث.



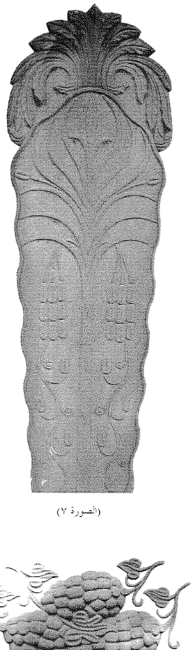
(الصورة ٤)

ووضعت تحت شـــارة الدولة العثمانية الأوسمة والميداليات التي حصل عليها المتوفى. فالعديد من شواهد باشوات الدولة العثمانية مزينة بوسام المجيدي أو الحميدي (الصورة ٥).


(الصورة ٦)

الشاهد ومشرب المتوفى

وهناك بعض الأشكال والرموز في شاهد القبر تشير إلى مشرب المتوفى. فإن كان مولوياً يعمل في الزاوية حفر على شاهد قبره شكل عمامة مولوية، أما المنتسب الاعتيادي فيكتفى بحفر سكة مولوية على شاهد قبره. وإن كان من مريدي الطريقة القادرية فنجد على الشاهد زخرفة تسمى "زهرة القادرية". وتتغير الزخارف المحيطة بالشكل الرئيسي حسب فروع هذه الطرق الصوفية. فمثلا يُرمز للفرع الرومي للقادرية بشكل تاج ذي ثمانية رؤوس في وسطه زهرة الطريقة القادرية (الصورة ٦). وفي شـــاهد مريد لفرع آخر من هذه الطريقة نجد نجمة ذات ثماني عشرة زاوية. وقد تحفر هذه النجمة عند شـــواهد بعضهم ضمن تاج حوله عمامة. أما على شواهد أتباع الطريقة "البَيرامية" الذين كانوا يلبســـون قلنسوة سداسية فنجد شـــكل هذه القلنسوة. بينما نجد على شواهد أتباع الطريقة النقشبندية تاجاً ذا أهداب. وأما أتباع الطريقة السنبلية التي أسسها الشيخ "ســـنبل سنان" فتحفر على شواهد قبورهم شكل السنبلة كرمز لطريقتهم الصوفية. ولا يقتصر التعريف بمشـــرب الراقد برموز طريقته الصوفية، بل أيضاً بالأشياء التي كان أتباع تلك الطريقة يكثرون من استعمالها. فنجد مثلاً في شواهد قبور أتباع الطريقة البكتاشية أشكال الكشكول[٢] والفأس وحجر التسليم[٣] ذي اثنتي عشرة زاوية.


(الصورة ٧)

غربيون تأثروا بالشواهد

عند الولوج إلى مقبرة عثمانية لا يداخل الإنســـان أي ضيـــق أو اكتئاب، لأن الرموز المختلفة والزخارف المتنوعة على كل شـــاهد من شـــواهدها، تُطْلع الإنسان على معان عميقة وتبين له الوجـــه الجميل للموت. وهذا الجمال المثير جلب انتباه الأجانب مثلما جلب انتباهنا. فنرى أن العديد من السياح الأجانب الذين زاروا الدولة العثمانية تأثروا بمنظر قبورها حيث نرى السائح "أدموندو أميك" الذي زار هذه البلاد قبل مئات السنين يقول:

"حول الجامع، تحت ظلال الأشجار الباسقة، بين الأزهار المتنوعة المتلونة، ارتفعت أضرحة السلاطين والوزراء وكبار رجال القصر. ارتفعت الأضرحة الرخامية التي زُينت بالنقوش البديعة المجســـمة. إنها مدينة أضرحة أخاذة، ساد الهدوء فيها واحتضن البياض تربتها وأورف شجرها وأظل.. أو إنها حي أرســـتقراطي قد لفه جمال أخروي حزين وألقى في قلب الزائر أحاســـيس التوقير والاحترام والمهابة. هنا في حديقة المقبرة ترى الأكاليل الخضراء المتدلية بشـــكل باقات، والجدران البيضاء التي ترتفع عليها أغصان أشـــجار الخرنوب والبلوط والرياحين، وتدخل من مشـــبّكات الضريح الحديدية المزخرفة ومن نوافذها القوسية الشكل ضمن حُزَم ناعمة من نور الشمس حيث تتلون هذه القبور الرخامية بالظلال الخضراء للأشجار. لا تجد في أي مكان آخر في إســـطنبول مثل هذه الأناقة والرقة للفن الإسلامي الذي يُحمّل صورة الموت ويجعلك تتأمله دون خوف. لذا فهذا الضريح الجميل الأنيق هو في الوقت نفســـه حديقة وقصر ومعبد يجعلك تردد الأدعية من جهة، وتبتسم ابتسامة حزن وأسى من جهة أخرى".


(الصورة ٨)

ويقول أحد الغربيين المشـــهورين المختصين بالمقابر العثمانية إن التجول في هذه المقابر يعد

من أكثر الأمور إثارة ويضيف: "عندما أتسلق الطريق نحو مقبرة أبي أيوب الأنصاري أحس وكأنني قد اكتشفت قمة لم يكتشفها أحد قبلي في جبال هملايا".

ولم يقتصر هذا الإعجاب على هذين الباحثين، فهناك العديد من الكتاب والسياح الأجانب منهم "بارلت" و"سباتير" و"لوتي" و"باردو" و"نرفال" وغيرهم تأثروا بعمق من هذه المقابر وذكروها بإعجاب في كتبهم.

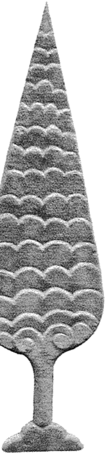


(الصورة ٩)

والحقيقة أن شواهد القبور العثمانية لم تكن أبداً مجرد أحجار تعطي معلومات عن هوية الشخص المتوفى، بل كانت تشير إلى مستوى الرسم البديع والفن الرفيع اللذين أنجزهما العثمانيون منذ قرون، ولم يكن الغرب هو وحده الذي أوجد هذا الفن كما يدعي.

الشاهد وأشكال معبرة

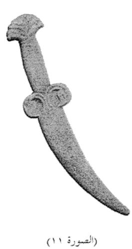
ولم يتم الاكتفاء هنا برسم العناصر والمواد فقط، بل تم تحميلها بمعانٍ عميقة. فمثلاً إن أهم شيء يمكن عمله للميت هو الدعاء له. وهذا الدعاء نجده قد تحول إلى شيء مادي ملموس معروض لأنظار جميع زوار المقبرة. وإن أهم دعاء للميت وأكثره شيوعاً هو "جعل الله قبره روضة من رياض الجنة". وإذا ما أمعنا النظر في شواهد القبور العثمانية رأينا أن الدعاء قد انقلب إلى رسوم وأشكال. فأصحاب هذا الفن قد نجحوا في ترجمة الدعاء برسمهم فواكه الجنة على الشاهد. فلسان حالهم يقول: "لقد نحتنا هذه الفواكه على شاهد قبر المتوفى داعين الله أن يهبها إياه في الجنة". ومن ثم نرى أن الفواكه التي ذكرت في القرآن الكريم نحتت على هذه الشواهد، لا سيما التمر، والنخيل المثقلة بهذا التمر (الصورة ٧). وعادة ما تغطي أشكال ونقوش سعف النخل سطح الشاهد وتنتشر فيه بأكمله. وفي القسم الأسفل من الشاهد تتدلى عذوق النخل وسعفها. فنرى في العديد من الشواهد، الأشكال والنقوش لعناقيد العنب والنخل والتمر والرمان وأشجار الزيتون (الصور ٨-٩). فأمام هذا الفن وهذه الزخارف لا نملك إلا سؤال الله تعالى أن يرزق صاحب هذا القبر هذه الثمار ويطعمه منها.



(الصورة ١٠)

ومن أكثرما نحت على الشواهد شجرة السرو (الصورة ١٠). وذلك لحكَم دقيقة مثل كونها شجرة دائمة الخضرة في الصيف والشتاء، ولها عطر خاص بها. وبسبب هذا العطر لا تقربها الحشرات ولا تتكاثر فيها. كما أنها بقامتها المستقيمة أصبحت في نظر البعض رمزاً لحرف الألف الذي هو الحرف الأول من كلمة الجلالة "الله"، كما أنها ترمز إلى التوحيد، وبقامتها المديدة والمستقيمة ترمز إلى الاستقامة والحقيقة أيضاً.

ومن أكثر الأشكال التي تلفت أنظارنا على الشواهد هو القنديل. وقد نحت بأشكال متعددة بلغت الأربعين. وكل هذه القناديل تبدو معلقة بسلسلة حديدية. تُربط هذه السلسلة بفم القنديل تارة، وبالحلقات الثلاث الموجودة في جانبه تارة أخرى. والمقصود من رسم القنديل على شاهد القبر هو التنوير، أي التنوير الإلهي لقبر المتوفى. وأحياناً ينقش اسم الجلالة على القنديل.



(الصورة ١١)

ومن الأشكال الأخرى التي تجلب النظر في شواهد القبور هي نقش الخنجر (الصورة ١١). فالخنجر هو السلاح المستعمل في القتال القريب، وله نصل مقوس أو مستقيم، وهو سلاح حاد الطرف يوضع في قراب محمول على جانب الإنسان. وفي شواهد القبور العثمانية المفتوحة يرسم الخنجر على جانب اللحد. وفي القبور المغلقة يرسم فوق اللحد. وصور الخنجر وأشكالها واحدة، فرأس قبضة الخنجر يكون مروحي الشكل، أما القبضة نفسها فمنتظمة قليلاً. وترسم الخناجر وهي في جرابها، مما يعني أن صاحب الخنجر

قد مات. وينتهي الخنجر بنهاية منحنية، ويتجه الجزء الحاد منه نحو قدم صاحب القبر.

أكثر الرسوم والنقوش والزينات التي تأخذ محلها في شواهد القبور العثمانية، هي القبور التي لها لحود. ففيها نرى أن أوجه اللحد تكون كلها مغطاة بهذه النقوش وكأنها حديقة من الأزهار والورود (الصورة ١٢).

وأحياناً نجد في القسم الأمامي أو الوسطي من لحد القبر زخرفةَ وردة على جانبيها مزهريتان فيهما الورود وأزهار النجمية أو الزنابق والقرنفل. وفي بعض اللحود نشاهد نقوش حراشف السمك في إطار يلتف حول الجزء العلوي من اللحد أو نقوش زهرة اللوتس (النيلوفر). وفي اللحود الحجرية نرى في قسم الرأس والقدم نقوشاً لشموس نصفية مقسمة إلى شرائح تقترن بشاهد القبر. وتوجد عادة في داخل نقش الشمس في القسم العلوي بعض الكتابات. ويتصل القسم العلوي للّحد على صورة سقف مثلث الشكل. وعادة ما يتزين القسم العلوي من اللحد بنقوش وأنواع من الزينات، بحيث يبدو وكأنه قماش مزين.

وقد شيدت القبور اللحدية في القرنين التاسع عشر والعشرين، ولكن يمكن مشاهدة قبر قديم ذي لحد في مقبرة أبي أيوب الأنصاري في قبر بنت السلطان أحمد الثالث الأميرة "صالحة"، حيث نرى النقوش على جميع أوجه اللحد بشكل أعمدة صغيرة متصلة بعضها ببعض بالأقواس. وفي وسط كل قوس نرى وجود صدَفة مَحار. وفي بعض لحود القبور نرى نقوشاً لأعمدة على شكل الساعة الرملية. وتغطى الرموز الموجودة على وجوه بعض اللحود بنقوش لأوراق الحرشف البري. كما تغطي أشكال هذه الأوراق جهة القدم وجهة الرأس في بعض اللحود. وتوجد أحياناً مشكاة في الأوجه الضيقة من اللحد. أما نقوش القمر والنجمة المجسمة والموجودة فوق كل مشكاة وبين الأعمدة المنقوشة فيها (الصورة ١٣)، فتعود في معظمها إلى ما بعد عهد المشروطية الثانية.



(الصورة ١٢)



(الصورة ١٣)

ولما كان الغرض من شواهد القبور هو تعريف صاحب القبر إلى الأحياء، وطلب قراءة الفاتحة على روحه، فإن أوجه اللحود المتوجهة إلى الطريق تكون أكثر زينة لجلب الأنظار إليها. لذا فإن الرموز الخاصة توضع عادة على الجانب المطل على الطريق.

لا يمكن إيفاء حق وصف الزينات والنقوش لهذه المقابر التاريخية التي هي بمثابة متاحف مفتوحة عامة لفن الرخام والتي جلبت أنظار العالم بأكمله. ومن يفهم لغة هذه النقوش والرموز فسيجد في كل شكل وفي كل نقشة معلومة حول صاحب القبر. إن كل شاهد قبر يقول بلسان حاله "إن الموت ليس عدماً، وهو يحمل معاني دقيقة وعميقة"، ثم يعرض هذه المعاني بفن رفيع ونقش بديع تتمتع به الأنظار وتستروح القلوب.■

(*) كاتب وباحث تركي. الترجمة عن التركية: أورخان محمد علي.

الهوامش

(١) عهد لاله (١٧١٨-١٧٣٠م): وهو عهد اهتم فيه الخاصة والعامة في الدولة العثمانية بزرع زهرة الزنبق التي تدعى في التركية لاله. (المترجم)

(٢) الكشكول: وعاء من قشرة جوز الهند كان الدراويش يستعملونه كوعاء أكل وكان يدعى آنذاك "وعاء الفقير". (المترجم)

(٣) حجر التسليم: حجر على شكل نجمة ذات اثنتي عشرة زاوية كان دراويش البكتاشية يحملونه في أعناقهم. (المترجم)



سنن التدرج في الإصلاح

أ.د. محمد عمارة*

التدرّج سُنّة من سنن الله تعالى، وقانون من القوانين الكونية التي لا تبديل لها ولا تحويل. هو سنة من سنن الخلق الإلهي للكون والعالم بسماواته وأراضيه ﴿إِنَّ رَبَّكُمُ اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ﴾(الأعراف:٥٤). فتدرَّج خلقُ الله لها في ستة أيام -من أيامه سبحانه- وهو القادر على أن يقول لها في جزء من اللحظة كن فتكون. والتدرج سنة من سنن الله في خلقه للإنسان الأول آدم عليه السلام. وبعد المراحل الخمسة (التراب فالماء فالطين فالحمأ المسنون فالصلصال) كانت مرحلة النفخ الإلهي في "مادة" هذا الخلق من "روح الله". فكان أن استوى هذا المخلوق "إنساناً"، هو آدم عليه السلام. ﴿إِنَّ مَثَلَ عِيسَى عِنْدَ اللَّهِ كَمَثَلِ آدَمَ خَلَقَهُ مِنْ تُرَابٍ﴾(آل عمران:٥٩) ﴿الَّذِي أَحْسَنَ كُلَّ شَيْءٍ خَلَقَهُ وَبَدَأَ خَلْقَ الْإِنْسَانِ مِنْ طِينٍ﴾(السجدة:٧)، ﴿وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَائِكَةِ إِنِّي خَالِقٌ بَشَرًا مِنْ صَلْصَالٍ مِنْ حَمَإٍ مَسْنُونٍ ۞ فَإِذَا

سَوَّيْتُهُ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِنْ رُوحِي فَقَعُوا لَهُ سَاجِدِينَ﴾(الحجر:٢٨-٢٩).

وبسنة التدرج عبر الأطوار والمراحل كان خلق الله وتكوينه لكل مخلوق من ذرية آدم عليه السلام ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ مِنْ سُلَالَةٍ مِنْ طِينٍ ۞ ثُمَّ جَعَلْنَاهُ نُطْفَةً فِي قَرَارٍ مَكِينٍ ۞ ثُمَّ خَلَقْنَا النُّطْفَةَ عَلَقَةً فَخَلَقْنَا الْعَلَقَةَ مُضْغَةً فَخَلَقْنَا الْمُضْغَةَ عِظَامًا فَكَسَوْنَا الْعِظَامَ لَحْمًا ثُمَّ أَنْشَأْنَاهُ خَلْقًا آخَرَ فَتَبَارَكَ اللَّهُ أَحْسَنُ الْخَالِقِينَ﴾(المؤمنون:١٢-١٤).

فكان التدرج سنة كونية مطردة في خلق الله للعالم وللإنسان الأول ولكل إنسان. كذلك شاء الله ﷻ أن يكون التدرج والتطور سنة مطردة في مسيرة الشرائع السماوية التي جعلها سبحانه "لطفاً" لهداية الإنسان. فمع وحدة الدين عبر حقب وأمم النبوات والرسالات كان تدرج وتطور الشرائع مع واقع هذه الأمم ومع نمو المستوى العقلي لأمم هذه الرسالات.

عصر النبوة وسنة التدرج

وحتى في الشريعة الإسلامية كان التدرج سنة مطردة ومرعية. فهذه الشريعة الخاتمة والخالدة قد بدأت -في المرحلة المكية التي استغرقت ثلاثة عشر عاماً- بإعادة صياغة الإنسان والجماعة المؤمنة والجيل الفريد وفق معالمها ومنظومة قيمها، أي بدأت بالدرجة الأولى في سُلّم التغيير الكبير والجذري والشامل والعميق.. تغيير النفس الإنسانية كي تصبح قادرة على تغيير الواقع وفق المنظومة القيمية الإيمانية ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّى يُغَيِّرُوا مَا بِأَنْفُسِهِمْ﴾(الرعد:١١). وكذلك كان الحال "التدرج" في المرحلة المدنية التي استغرقت عشر سنوات. فامتلاك الجماعة المؤمنة (الأمة) للحضارة وأركانها، لم يجعل "الطفرة" تحل محل "التدرج"، ولا "الثورة" تحل محل "الإصلاح" في استكمال التشريع واكتمال التطبيق لشريعة الإسلام. فمع تدرج الوحي "المنجّم" واكب التشريع والتطبيق للتشريع تطور التغيير المتدرج للإنسان الذي سيقيم كامل الشريعة، وللواقع الذي لابد من تهيئته لتقبل كامل الشريعة.

فنظام المواريث طبّق في السنة الثالثة للهجرة، أي بعد ستة عشر عاماً من بدء الوحي. والنظام الإسلامي للأسرة من الزواج والطلاق والنفقة وسائر أحكامها اكتمل تشريعه وتطبيقه في السنة السابعة للهجرة، أي عبر عشرين عاماً من بدء الوحي. والقوانين الجنائية تدرج تشريعها وتطبيقها مادة مادة، حتى اكتملت في السنة الثامنة للهجرة، أي عبر واحد وعشرين عاماً من عمر الوحي الخاتم. وتدرجت أحكام الخمر من الذم لها والتحذير منها إلى التحريم القاطع والنهائي لها في السنة الثامنة للهجرة، أي في العام الواحد والعشرين من بدء الوحي. وكان تحريم الربا في السنة التاسعة للهجرة، وذلك بعد أن تخلّق في الواقع الإسلامي للمجتمع الجديد والأمة الوليدة اقتصاد إسلامي بديل حلّ محل الاقتصاد الجاهلي القديم. وعند ذلك أصبح تطبيق الفلسفة الجديدة للنظام اللاربوي ومعاملاته أمراً ممكناً.(١)

بل إن هذا التدرج قد كان سنة مرعية ومطردة أيضاً في الشعائر والعبادات -بما فيها الكثير من أركان الإسلام- وليس فقط في أحكام الواقع والمعاملات. فالصلاة بصورتها التامة والحالية اكتملت فريضتها ليلة الإسراء والمعراج في السنة الثانية قبل الهجرة، الحادية عشرة من البعثة. والصوم فرض بالمدينة وكذلك الزكاة والحج إلى بيت الله الحرام.

وإذا كان الله ﷻ قد خلق كل شيء بقدَر وقدَّره تقديراً، وجعل السنن والقوانين حاكمة لكل عوالم الخلق والوجود والاجتماع الديني والإنساني ﴿سُنَّةَ اللَّهِ الَّتِي قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلُ وَلَنْ تَجِدَ لِسُنَّةِ اللَّهِ تَبْدِيلًا﴾(الفتح:٢٣)، فلقد شاء سبحانه أن تكون سنة التدرج حاكمة في كل ميادين التغيير. فالحديث عن "الطفرات" و"الثورات" و"الانقلابات الفجائية" لا يعدو أن يكون حديثاً عن "هبّات" مفارقة لسنن التدرج، تقف عند حدود الغضب والهياج أو الأماني والأحلام. فحتى الجراحات لا تتم إلا بعد تدرج المرض وتطوره ولا تؤتي ثمارها في الشفاء إلا بعد تدرج في العلاج.

وإذا كنا قد أشرنا إلى سنن التدرج في الإصلاح الديني، فإن لرسول الله ﷺ حديثاً أراه من جوامع الكلم التي عبرت عن فلسفة السنّة الحاكمة لكل ألوان التغيير الذي يصيب الاجتماع الإنساني عبر التاريخ، وحتى يرث الله الأرض ومن عليها. فالتغيير الذي يصيب الاجتماع الإنساني هو "دورات متواليات" وليس خطا مستقيماً، صاعداً نحو الصلاح أو هابطاً نحو الفساد.. هو "دورات" يتعاقب فيها العدل والجور والصلاح والفساد، مع التدرج والتطور في هذا التغيير نحو الصلاح أو الفساد.

وفي هذا الحديث النبوي الشريف الذي جاء نبوءة حاكمة لكل ألوان التغير وعوالمه في الاجتماع الإنساني يقول رسول الله ﷺ: "لا يلبث الجور بعدي إلا قليلا حتى يطلع، فكلما طلع من الجور شيء ذهب من العدل مثله، حتى يولد في الجور من لا يعرف غيره، ثم يأتي الله تبارك وتعالى بالعدل، فكلما جاء من العدل شيء ذهب من الجور مثله حتى يولَد في العدل من لا يعرف غيره" (رواه الإمام أحمد).

فدورات العدل والجور وحقب الصلاح والفساد هي السنة التي تحكم سير الاجتماع الإنساني. والتغيير في هذه الدورات

محكوم بسنة التدرج، فبقدر الجور والفساد الذي يظهر وينمو يكون قدر العدل والصلاح الذي يتوارى، وكذلك الحال في الدورات العكسية، حتى لكأننا أمام التدرج في ظاهرتي الشروق والغروب للشمس مثلاً دونما "طفرة" أو "انقلاب فجائي". بل إن ما يحسبه البعض "طفرة" أو "فجأة" إنما هي لحظة في سلك التدرج وتوالي التطور والتغيير.

التاريخ الإسلامي وسنة التدرج

والذين يفقهون حقيقة التغيرات التي أصابت الاجتماع الإسلامي بعد عصر النبوة، سواء منها التغيرات السلبية أو الإيجابية، والفساد الطارئ منها أو الإصلاح الذي غالَب الفسادَ وتدافع معه سيجدون المصداق والتصديق لهذه السنة -سنة التدرج في التغيير- التي تحدث عنها هذا الحديث الشريف لرسول الله ﷺ. فالتغيرات التي أصابت نموذج العصر النبوي والعصر الراشدي، والتي جاءت من وافد مواريث البلاد المفتوحة وثقافات الشعوب التي دخلت في إطار الرعية والأمة بأسرع مما غيرت نفوسها قيم الإسلام، والتي جاءت أيضاً من النفوس التي تغيرت عندما ابتعدت عن وهج النور الرسالي للعهد النبوي.. هذه التغيرات التي أصابت قيم ونظم الشورى والعدل الاجتماعي أكثر من سواها وقبل سواها لم تحدث فجأة ولا طفرة، وإنما حكمتها سنة التدرج في الاتجاه نحو الجور والظلم والفساد.

وكذلك الحال مع التغيرات التي جسدها حقبة الراشد الخامس والمجدد الأول عمر بن عبد العزيز ﷺ والتي أحلّت العدل محل الجور، والصلاح محل الفساد، وردت المظالم إلى أصحابها، والتي مثلت ملحمة من ملاحم التجديد والتغيير العادل في الاجتماع الإسلامي. هذه التغيرات العادلة والصالحة لم تتم فجأة ولا طفرة، وإنما تدرجت عندما بدأها الخليفة بنفسه فزوجه فأمراءِ بني أمية وصولاً إلى كل الذين اغتصبوا ما ليس لهم من مال الأمة وبيت مال المسلمين.

ولقد عبر عمر بن عبد العزيز عن تلك التغييرات التي تدرجت بالاجتماع الإسلامي نحو الجور والمظالم والتي ورثها الخليفة عن الذين سبقوه من خلفاء بني أمية، عبّر عنها الخليفة العادل عندما وصف الواقع الاجتماعي في ميدان الثروات والأموال، والتغييرات المتدرجة التي نقلته من العدل إلى الجور، فقال: "إن الله تبارك وتعالى بعث محمداً ﷺ رحمة -لم يبعثه عذاباً- إلى الناس كافة، ثم اختار له ما عنده فقبضه إليه، وترك للناس نهراً شربهم فيه سواء. ثم قام أبو بكر فترك النهر على حاله. ثم ولي عمر فعمل على عمل صاحبه. فلما ولي عثمان اشتق من النهر نهراً. ثم ولي معاوية فشق منه الأنهار. ثم لم يزل ذلك النهر يشق منه يزيد ومروان وعبد الملك والوليد وسليمان حتى أفضى الأمر إليّ وقد يبس النهر الأعظم. ولن يروى أصحاب النهر حتى يعود إليهم النهر الأعظم كما كان عليه"(٢).

وكما تمت التغييرات السلبية من العدل إلى الجور بالتدرج، بدأ عمر بن عبد العزيز ملحمة التغيير من الجور والظلم إلى العدل والصلاح بالتدرج أيضاً، فبدأ بنفسه عندما جعلها القدوة الصالحة والعادلة، وعندما رد جميع المظالم التي ورثها عن أسلافه إلى بيت مال المسلمين وقال وهو يرد "إقطاع فَدَك": "إن أهلي أقطعوني ما لم يكن لي أن آخذه ولا لهم أن يعطونيه"(٣).

لقد جعل عمر بن عبد العزيز من عامَي خلافته سلسلة متدرجة ومتصلة من "رد المظالم" انتقلت بالاجتماع الإسلامي من الجور إلى العدل ومن الفساد إلى الصلاح حتى لقد قالوا: "إنه ما زال يرد المظالم منذ يوم استخلف إلى يوم مات"(٤). كما عبر عن وعيه بضرورة التدرج في هذا التغيير الإصلاحي رغم شوقه للعدل وحماسه الشديد للإصلاح واستعداده لأن يبذل روحه في سبيل هذا الإصلاح. فمع قوله: "لو كان كل بدعة يميتها الله على يديّ وكل سُنّة ينعشها الله على يديّ ببضعة من لحمي حتى يأتي آخر ذلك على نفسي كان في الله يسيراً"(٥). إلا أن حماسه للإصلاح واستعداده للفداء والاستشهاد في سبيله لم يدفعه إلى محاولة إتمامه فجأة وطفرة، وإنما سلك إليه سبيل التدرج ودافع عن هذا المنهاج في التغيير في حواره مع ابنه عبد الملك الذي كان يتعجل التغيير والإصلاح فقال لأبيه: "يا أبت، ما لك لا تنفذ في الأمور؟! فوالله لا أبالي في الحق لو غلت بي وبك القدور!"، فرد عليه عمر بن عبد العزيز، بحكمة رجل الدولة وخبير الإصلاح والفقيه في سنة التغيير التدريجي قائلاً: "لا تعجل يا بني! فإن الله تعالى ذم الخمر في القرآن مرتين وحرّمها في الثالثة وأنا أخاف أن أحمل الناس على الحق جملة فيدَعوه وتكونَ فتنة"(٦).

فلقد كان هذا الراشد العادل واعياً بسنة الله في التدرج بالإصلاح والتغيير العادل وعارفاً بضرورات التعايش مؤقتاً مع مقادير من الجور والظلم والفساد حتى يحين الحين فيحل بالتغيير التدريجي محلها بدائل العدل والإصلاح، بل لقد تحدث صراحة عن هذه الحقيقة من حقائق سنة التغيير، فقال: "إني لأجمع أن أخرج للمسلمين أمراً من العدل فأخاف ألا تحتمله قلوبهم، فأخرج معه طمعاً من طمع الدنيا، فإن نفرت القلوب من هذا سكنت إلى هذا"(٧). فهو هنا يتجاوز هذا المستوى إلى الحديث عن مستوى آخر، وهو "تغليف" العدل

بشـــيء من "طمع الدنيا" كـــي تتقبله النفوس الـــتي "تغلفت" بقيم الاجتماع الفاســـد والجائر الذي طرأ علـــى حياة الناس.

وتلك -لعمري- عبقرية في فقه التدرج بالتغيير جسدتها تجربة الراشـــد الخامس والمجدد الأول عمر بن عبـــد العزيز، وعبّرت عنها كلماته الراشـــدة الحكيمة في فلسفة هذا المنهاج، وجسدتها تجربته العملية التي لا زالت مضيئة في تاريخ الإصلاح الإسلامي، تستحث خطا المصلحين على هذا الطريق.

مرتكزات أساسية في الدعوة

تلك هي سنة التدرج كما تجلت في السنن الإلهية الكونية في خلق العالم وخلق الإنسان، والسنن الإلهية التاريخية في الوحي بالشرائع الســـماوية الهادية للإنسان، والتطبيقات النبوية لسنة التدرج هذه في الاجتماع الإســـلامي بالدولة الإســـلامية الأولى، والإصلاح الإســـلامي الراشـــد كما تمثل في تجربة الراشد الخامس والمجدد الأول عمر بن عبد العزيز ﷺ.

إن إعمال هذه السنة الإلهية الكونية في ميدان الإصلاح والتغيير للواقع الإســـلامي الراهن الذي أفسد التغريب الكثير من نواحي فكره وثقافته وإعلامه ومنظومة قيمه لا بد وأن يعني سلوك طريق التدرج في هذا التغيير المنشود. فبقدر ما تتكون الكتيبة التي تبدع البدائل الإسلامية المحكومة بالقيم الإسلامية في الثقافة والإعلام، وبقدر ما تطل هذه البدائل الإســـلامية على الواقع المعيش، بقدر ما تكون بدايـــات التغيير للواقع الاجتماعـــي للثقافة والإعلام وتوجه هذا الواقع نحو الانضباط بمنظومة القيم الإسلامية. وبقدر التغيرات الجزئية والتدريجية التي يحدثها الإبداع الثقافي والإعلامي الإسلامي في الواقع الاجتماعي بقدر ما تتزايد المساحات المحكومة بالقيم الإســـلامية في الإبداع الفكري والثقافي والمادة الإعلامية.

وعلينا أن ندرك في صراحة ووضوح أن سنة التدرج هذه إنما تعني مصاحبة الصلاح الإسلامي الجديد حينا من الدهر لكثير أو قليل من الفســـاد التغريـــبي الوافد والموروث. وأن نتذكر جيداً ودائماً منهاج الراشد الخامس والمجدد الأول عمر بن عبد العزيز في التدرج الإصلاحي والإصلاح المتدرج الذي لم يقف فقط عند التعايش مؤقتاً مع مقادير من الجور الموروث، وإنما ســـلك سبيل "تغليف" العدل ببعض طمع الشهوات في زينة الحياة الدنيا وصولاً إلى إحلال العدل الخالص محل الجور والطمع والشهوات.

تلك هي سنة التدرج، وهذا هو قانونها الحاكم في كل عوالم الخلـــق والإصلاح والتغيير، وذلك هو منهاجها في الخروج بأمتنا من واقعها الفكري والثقافي والإعلامي الراهن إلى حيث الإصلاح الإسلامي المنشود، مع ضرورة:

• صدق النية في الإصلاح الكامل قدر الطاقات والإمكانات وليس مجرد "الترقيع" والاكتفاء بسياســـة مجاورة الصلاح للفساد والتعايش بينهما بدعوى وضع النمـــاذج المختلفة أمام الأذواق المختلفـــة. فإصلاح الأذواق هو هدف من الأهداف الرئيســـية للإصلاح. وعلينا أن نميز بين صدق النوايا في التدرج الإصلاحي وبين النوايا الكاذبة التي تتحدث عن "التدرج" بينما يضع أصحابها النموذج الإسلامي في "الأدراج". فبالنية الصالحة وبالعزم الصادق وبالتخطيط الراشد والتنفيذ الواعي وفق سنة التدرج تتحقق آمال المصلحين في الإصلاح.

• وعدم الاكتفاء بالنوايا الصادقة في الإصلاح الكامل، وإنما العمل المتواصل على تقـــديم النماذج الثقافية والإعلامية الصالحة (تقديم المثال الإســـلامي)، وتنمية مساحة هذا "المثال" باستمرار ليتوارى مع نموه النموذجُ الفاسد والسلبي في الثقافة والإعلام.

• وتقديـــر الضرورات بقدرها. وذلك حتى لا تنفلت معايير الضرورات في التعايش مع نماذج من الثقافة الســـلبية. والحرص على أن تكون هناك موازنات بين الســـيئ والأسوأ والأقل سوءاً في المادة التي يتم التعايش معها مؤقتاً.

• وكما يجب إعمال قاعدة "ســـد الذرائع" إلى الأسوأ فإن بالإمكان إعمال قاعدة "فتح الذرائع" إلى الأقل سوءاً إذا أفضى التعايش المؤقت معه إلى الصلاح الأكثر والأعم.

• مع الحرص على أن تكون هناك منابر ثقافية وإعلامية خالصة الإسلامية تمثل مراكز للتوجيه والتعريف بالنموذج الإسلامي ودائمة الإشـــعاع على سائر الساحة الثقافية والفضاء الإعلامي. فضرب الأمثال وانعطاف قطاعات واسعة من الجماهير نحو هذه النماذج هو من أفعل الوسائل في تنمية الإصلاح بميادين الثقافة والإعلام. ■

(*) كاتب ومفكر إسلامي / مصر.

الهوامش

(1) القانون الإسلامي، لأبي الأعلى المودودي، ترجمة: محمد عاصم الحداد، بيروت، ١٩٧٥م، ص ٥١، ٥٢.

(2) كتاب الأغاني، للأصفهاني، تحقيق: إبراهيم الإبياري، دار الشـــعب، القاهرة، ٩/ ٣٣٧٥، ٣٣٧٦.

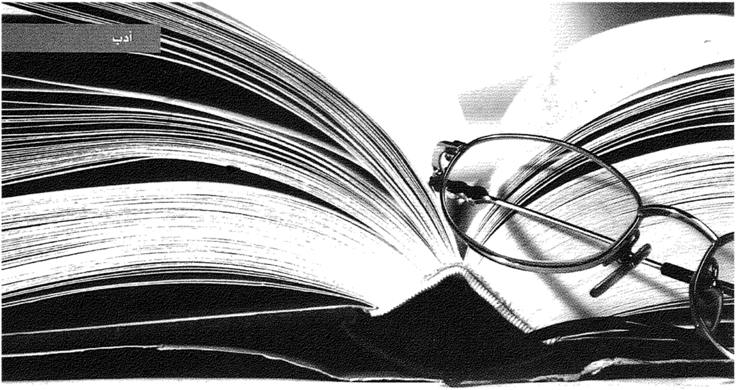
(3) فتوح البلدان، للبلاذري القاهرة ١٣١٩هـــ، ص ٢٩؛ الكامل في التاريخ، لابن الأثير، القاهرة ١٣٠٣هـــ. ص٢٤.

(4) كتاب الطبقات، لابن سعد، دار التحرير، القاهرة، ٥/ ٢٥١.

(5) عمـــر بن عبد العزيز: ضمـــير الأمة وخامس الراشـــدين، د. محمد عمارة دار الوحدة، بيروت ١٩٨٥م، ص ٢٢٦.

(6) العقد الفريد، لابن عبد ربه، القاهرة ١٩٢٨م، ٤/ ٤٠.

(7) المصدر السابق، ٢/ ٢٣٢.



المضمون الفكري
للأدب الإسلامي المعاصر

أ.د. عماد الدين خليل*

ابتداء يتحتم التأكيد على أن أي حديث عن المضمون الفكري للأدب الإسلامي المعاصر، يجب ألاّ يَغفل لحظة عن التقنيات الفنية الملتحمة بالمضمون والحاملة لهمومه، والقديرة -وظيفياً- على توصيله إلى المتلقي بأكبر قدر من "التأثير". تلك هي مهمة الأدب على إطلاقه وعبر أجناسه كافة. وأي اختلال في التناسب بين الشكل والمضمون، سيميل بالميزان صوب "المضمونية" التي تضعف العمل الإبداعي، وربما تخرج به عن أن يكون أدباً.

فإذا ما عرّفنا الأدب الإسلامي بمفاهيمه المعاصرة، بأنه "تعبير جمالي مؤثر بالكلمة عن التصوّر الإسلامي للوجود"، وجدنا أنفسنا أمام العنصرين الأساسيين للعمل الأدبي، وهما: "التصوّر" و"الجمال". هذه المسألة لا يكاد يختلف فيها اثنان في العالم كله، وإن كان بعض أدبائنا ونقادنا الإسلاميين لا يزالون يرمون بثقلهم صوب المضمونية ويمارسون نوعا من التهميش، بدرجة أو أخرى، للقيم الجمالية التي يتحتم أن تلتحم بالمضمون.

المضامين الفكرية

فإذا ما جئنا إلى المضمون الفكري وجدنا المذاهب الأدبية كافة (فيما عدا البرناسية بطبيعة الحال)، تحمل وتبشّر بمنظومة من القيم التصوّرية، كل وفق الشبكة التي تؤسس لذلك المذهب. وإذا كان الأمر غائماً بعض الشيء في الكلاسيكية، والكلاسيكية الجديدة وربما الرومانسية، فإنه واضح تماماً في الواقعية، والواقعية الاشتراكية والرمزية والوجودية والمذاهب التالية؛ كالسريالية والعبثية (الطليعية)، وتيارات الحداثة المتدفقة التي يضرب بعضها بعضاً ولا يزال.

في حالة كهذه، ألا يحق للأدب الإسلامي أن ينطوي على مضمونه الفكري بما أنه ينبثق عن العقيدة الأوسع فضاء، والأغنى خبرات، والأغزر مفردات وعطاء باعتبارها إضاءة متفردة يلتقي فيها الوحي بالوجود، وتتلقى تعاليمها من الله سبحانه، الذي لا يخفى عليه شيء في الأرض ولا في السماء، وتفتح جناحيها على الإنسان والعالم والكون والمصير؟

إن الخبرة الإسـلامية في أعمق مجاريها الإيمانية خفاءً، وأكثر تجلياتها الفكرية إشـراقاً، تضع بين يـدي الأديب والفنان ثروة هائلـة من المفردات، وشـبكة عريضة من التجـارب والرؤى والتأسيسات، التي يمكن للأديب أن يستمد منها مِدماكه في هذا الجنس الأدبي أو ذاك. وإن المسـاحات التي تنسج فيها المضامين الفكريـة للمذاهب الأدبية كافة لتتضاءل أمام الفضاء الواسـع والسـماءِ الكبيرة والمفتوحة للمعطى الرؤيوي الإسـلامي الذي لا حدود لشـواطئه.إن المرء ليتذكر هنـا عنوان كتاب للمفكر الفرنسي "رجاء غارودي" بعنوان "واقعية بلا ضفاف".

وإن المضمون الفكري للأدب الإسـلامي الذي يتعامل مع الواقع، ولا ينفصل عن همومه وقضاياه بحكم ضرورات الالتزام، لا يأسره الواقع الضيّق الذي تعارف عليه الناس، ولكنه ينطلق إلى فضاءات الخبرة والرؤية اللتين لا أوّل لهما ولا انتهاء.

إن الخصوصية الإسلامية التي هي وليدة الزمن والمكان، والتي ينسـجها لقاء العقيدة بالإنسان في هذه البيئة (المحلية) أو تلك، لا تتعارض مطلقاً مع التوجه (العالمي) أو الإنسـاني، خارج قيود الزمن والمكان والبيئة والتاريخ. لأن الإسلام -في الوقت نفسه- توجه أبدي صوب الإنسـان في كل زمـان ومكان، ولأن من أهدافه أن يصنع عالماً سـعيداً لبني آدم جميعاً، وأن يعينهم على تجـاوز متاعبهم وآلامهم، وإزالة الجدران والمتاريس التي تقف في دروبهم صوب أهدافهم المشروعة.

بل إن الإسـلام، برؤيته الكونية، واستشـرافه بعيد الآفاق، ونزوعه الشمولي، وتوازن الثنائيات في نسيجه بين ما هو منظور وغيـبي، وطبيعي وميتافيزيقي، ومادي وروحي، وثابت ومتغير، ومحدود ومطلق، وفانٍ وخالد.. الإسـلام بهـذا كله أقدر -إذا تهيأت له الأدوات الفنية المتمرسـة والخبرة العميقة- على إبداع أدب عالمي يهمّ الإنسـان في إطار المعمـورة، ويمكن أن يفرض ترجمته إلى كل لغة حية.

ولكن -وكما تقـول القاعدة النقدية المعروفة- إن العمل الأدبي الكبير، لا يحقق عالميته وانتشـاره إلا من خلال أصالته وخصوصيتـه، أي من خلال تحركه مـن الخاص المحدّد إلى العـام المفتوح، كـي لا يغدو عملاً تجريدياً، وكي يكتسـب ملامحـه وتكوينه الحيوي، ونسـيجه ذا اللحم والدم والملامح المتفردة.

وظائف الأدب الإسلامي

إن إحدى وظائف الأدب الإسلامي، بل وظيفته الأم، إلى جانب وظائفه السياسية والاجتماعية والنفسية والتاريخية والتربوية، هي الوظيفة العقدية التي تسـتهدف إيصال الخطاب الإسـلامي إلى المتلقّـي بأكبر قدر من التأثير. إن الأديب ها هنا يحمل سـلاح الكلمة لكـي يقف في صف الدعاة واحداً مـن أكثرهم قدرة على الفاعلية والكسب والامتداد. إنه يقوم بتوصيل رؤية الإسلام للكون والحياة والعالم والإنسـان، لا بمفاهيـم تجريدية وأفكار صارمة ومقولات قاطعة كالسـكين، ولكن بالصورة المشخصة والتجربة المعيشـة والخبرة التي يجري الدم في خلاياها وشرايينها فيبعث فيها الحياة.

إنه مـن خلال التجربـة الحيوية، وبموازاة مقـولات الفقه واستنباطاته، يقول للناس هذا حلال وهذا حرام، وبواسطتها يخرج بهـم من الطرق الملتوية إلى الصراط. إن معطيات هذا الدين -بما تنطوي عليه من مضامين فكرية- يمكن أن تركَب إلى الناس ألف مركـب في كل زمان ومكان. ولكن ليس كمركب الفن المؤثر الجميل، من يقدر على فتح منافذ الوجدان البشري لكي تستقبل هبة اليقين الذي جاء به الإسـلام. هنالك حيث يتوحد الإنسان وينسـجم ويتوافق مع الموجودات على مدى الكون الفسـيح.

إن الأديب وهو يمارس عملية تشـكيل الكلمات وصياغتها وهندسـتها للتعبير عن هذا الجانب أو ذاك من الحياة الإسلامية، ولتوصيل هـذا المضمون الفكري أو ذاك من عقيدة الإسـلام للآخرين، إنما يمـارس وظيفة من أخطـر وظائف الأدب على الإطـلاق. ولنتذكر كيف أن التواصل لن يتحقق بصيغته الفاعلة المرجـوة إن لم يضـم جناحيه على طرفي الإبـداع: "الجمال" و"التأثير"، وإلا وقع في مستنقع المباشرة والتقرير.

كل الوظائف الأخرى المشار إليها يمكن أن تندرج تحت ظل هذه الوظيفة الكبرى ما دام أنها روافد تتجمع لكي تصب في نهاية المطاف في بحر العقيدة الواسـع العميق. ولن يكون من المحتوم على الأديب المسلم أن يقصر همومه على عرض القيم والمضامين الفكرية في معطياته، بل يكفي أن يهدم عقائد الوضّاعين ومذاهبهم وتصوّراتهم.. يكفي أن يكشـف عما تتضمنه من كذب وزيف والتواء.. يكفي أن يحكي عن مردودها على الإنسان ألماً وتعاسة ونكدا وشقاء، لكي ما يلبث أن يتضح للناس أن البديل الوحيد.. البديل الحق، هو الإسلام وحده.

الأدب والتصور الإسلامي

إن وظيفة الأدب العقدية تمتد وتتسع لكي تنفسح على مدى رؤية الإسلام وتصوره الشـامل للكون والعالم والإنسان. وهو تصور يتفرد بامتداده وعمقه وانتشـاره فيمـا يمنح الأديبَ ألف فرصة وفرصة للتعبير المؤثر الجميل. إنه تصور يسعى للتحقق بأكبر قدر من الوفاق والتناغم بين الإنسان والوجود، وإنشاء إيقاع موحد بين سائر الأطراف التي يحتويها الكون ويضم جناحيه عليها. إن الأديب يجد نفسه هنا في ساحته الحقيقية المترعة المشحونة، وهي -بحق- أكثر السـاحات قرباً من حقيقة الإبداع الجمالي، وبعداً -في الوقت نفسه- عن المباشرة والتسطح والتقرير.

إن قلم الأديب المسـلم يمكن أن يتحدث عن كل شـيء، ويكتب عن كل تجربة، ويعبر عن كل صغيرة أو كبيرة في مجرى الحسّ والشعور والوجدان، أو في شـبكة العلاقات الاجتماعية والبشرية، أو في سـاحة الطبيعة والعالم، أو في منظومة الأفكار عـبر مضامينها كافة. إن تحديد أو وضع قائمة بالموضوعات التي يمكن أن يتحدث عنها الأدب الإسلامي أو يلامسها ويعيشها أمرٌ في غاية الصعوبة، بل إنه لموقف مفتعل يسـعى إلى قولبة التجربة الكبيرة في إطارات تضيق عليها الخناق.

في ضوء ذلك كله تبدو "أسلمة الأدب" أو "التأصيل الإسلامي للأدب" التزامَ مبدعٍ بمنظومة الخبرات والقيم الفكرية للإسـلام، وتقديمها للناس بأشـد وتائر المَقدِرة على التأثير، يوازيها سـعي مرسوم لهدم القيم الوضعية المضادة في الفكر والأدب والحياة.

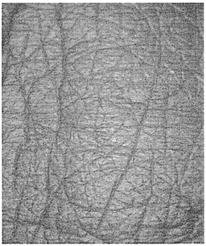
ولكن بما أن الإبداع الأدبي في أجناسه كافة ينطوي على بعد آخـر يلتحم بالبعد الفكري، ويمكنه من التأثير في المتلقي، وذلك هو منظومة القيم الجمالية، فإن التأصيل الإسلامي للأدب يتحتّم ألاّ يغفل عن إيلاء الاهتمام البالـغ بهذا الجانب، وأن يبحث ما وسعه الجهد عن بدائل إسـلامية للقيم الفنية الشائعة في الآداب العالمية، رغم إقرارنا -مسبقاً- بأن معظم هذه القيم يحمل وجهاً محايداً يمكن توظيفه في هذا المذهب أو ذاك.

ومع المضمون الفكري والقيم الجمالية، لا بد للأدب الإسلامي -وهو يسعى إلى المزيد من التأصيل- من أن يشكل منهجه المتميز في النقد والدراسة الأدبية، أسـوة بما فعلته وتفعله جل المذاهب والمدارس النقدية في العالم.■

(*) كلية الآداب، جامعة الموصل / العراق.

إذا كنت ثاويا في قعر الجسد، وعالقا بوحل الشهوات،
فمتى إذن تخضرُّ سفوح قلبك وبوشي الزمرد تكتسي روحك!؟

***



أنا جلد عبد الله

أ.د. عرفان يلماز*

عزيزي عبد الله... منذ أشهر وأعضاؤك في بدنك تتكلم عن مدى إعجاز خلقها ومدى أهميتها الحياتية، وتشرح أنفسها لك. وكانت الغاية الأساسية من شرحها الإشارة إلى القدرة اللانهائية للخالق الكريم وإلى حكمته. واليوم ما رأيك أن تفتح نافذة من بدنك إلى العالم الخارجي فتصغي إليّ، أي إلى جلدك؟

إن جميع مسؤوليات حدود بدنك مع العالم الخارجي قد ألقيت على كاهلي، لأنني أنا الذي أحس بجميع التغيرات الخارجية من حرارة وبرودة ورطوبة وضغط، وبالأنواع العديدة من الإشعاعات وبجميع التأثيرات الكيمياوية والميكانيكية الخادشة، وأقوم بتنبيه الأعضاء الداخلية للقيام بما يجب تجاه هذه الظروف والشروط المتغيرة. لذا يعدّني الجميع عضواً وظيفته الإحساس ويصنفونني كآخر عضو من الحواس الخمس.

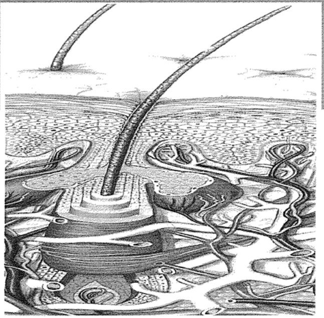
من زاوية الجمال

والحقيقة أن لي وظائف عديدة أخرى غير وظيفة الإحساس. ولو قمت بتعدادها كلها لما وسعت صفحات المجلة لمثل هذا الشرح والتعداد. فلو نظرت إليّ من زاوية الجمال لعرفت مدى جمالي. وإذا أردت فهم ما أعنيه فادخل مع أحد طلاب كلية الطب إلى مختبر التشريح، وحاول النظر إلى جثة لم تُقطع بعد بل نُزع عنها جلدها فقط، وأمعن النظر فيها إن استطعت وتحملت. فلولا وجودي أنا لَفَقَد الجسد الذي يُعد آية في الفن كلَّ جماله ومنظره البديع، ولأصبح منظره قبيحاً ومرعباً، ولزال جمال كل عضو من الأعضاء التي شرحتْ نفسها لك عن مدى فائدتها وضرورتها وجمالها.

لقد خلقني الله تعالى لباساً ملائماً يغطي كلَّ مناطق جسدك. وأنا أغطي أخمص قدميك وكذلك راحة يديك بمادة متقرنة لأسهل عليك المشي واستعمال الآلات اليدوية العديدة. وفي مناطق المفاصل أكون قابلاً للطي مثل آلة أكورديون أو مثل المنفاخ لكي أسهل حركة أصابعك ويديك ورجليك.

أنا والشَّعر

ولكي أحافظ على رأسك من الشمس والبرد تغيرتْ بعض خلاياي هناك وتحولتْ إلى شعر وأُعطيتْ قابليةَ النمو على الدوام. ومن أجل المحافظة على عينيك وُهبت لك الرموشُ والحواجب مع تحديد لمدى طولهما، ولولا ذلك لاضطررت كل يوم إلى قصهما لكي تستطيع الرؤية. وحتى في مداخل ثقوب أنفك وأذنيك شعرات خاصة وضعت لالتقاط الأتربة ولمنع دخول الحشرات وما شابهها. وقد تقول في نفسك: وهل هذا شيء مهم؟ كل ما في الأمر بضع شعرات. ماذا لو كانت موجودة أو غير موجودة، إذ لا أهمية حيوية لها!؟ أجل، ولكن الحياة ليست البقاء "حيًّا" فقط،



بل لها أبعاد جمالية أيضاً. وأنت تستطيع فهم هذا عندما تنظر إلى شخص تساقطت أهدابه وحواجبه. أجل، عندما خلق الله الإنسان خلقه جميلاً وأعطى أهمية لكل شعرة وجعل لها دوراً في الجمال. والله تعالى عندما يخلق شيئاً يخلقه بحكمة من جميع الجوانب.

نبذة عن مهامي الحيوية

إنني أحافظ على جسدك من عدة نواحٍ: إن أراد إنسان اعتيادي أن يلف جسده كما ألفه أنا فهو يحتاج إلى ١,٨م٢-٢م٢ من الغطاء. ومهمتي الحيوية هي قيامي بمنع سوائل الجسم من الانسياب إلى الخارج وضياعها، لأن كثافة سوائل الجسم الداخلية والأملاح المعدنية الموجودة فيها مهمة جداً للجسم، ولولاي لما استطاعت كليتاك وحدهما تنظيم كثافة هذه السوائل. لذا فإن الشخص الذي أصابت الحروقُ ٢/٣ من جلده بشكل عميق يموت بسبب ضياع سوائل جسده. وعلى الرغم من محاولات المراكز المختصة بعلاج الحروق وباستخدام أجهزة حساسة جداً للمحافظة على كثافة سوائل الجسم وعدم فقدها، إلا أنها لا تكون ناجحة في هذا الأمر عند الحروق الكبيرة.

ومن مهامي محافظة الجسم من دخول الفيروسات والبكتريات والفطريات وكل ما يضر به ويسبب له الأمراض. وأنت تعلم أنه إن دخلت شوكة صغيرة في يدك دخلت الجراثيم إليها والتهبت، فإن تعرضتُ إلى جروح في مساحة كبيرة تعرضتَ أنت إلى التهابات شديدة، لأنني عندما لا أكون موجوداً في منطقة دخلتْ إلى جسمك الملايين من الأحياء المجهرية ومرضتَ.

لقد خُلق جسمك حساساً للحر وللبرد، ويجب أن تكون حرارة جسمك في الداخل ٣٦,٧ م°. ويجب ألا تتغير هذه الدرجة بسبب تغير الحرارة في الخارج، بل يجب أن تبقى ثابتة. فإن تعرضتَ للبرد مدة طويلة وانخفضتْ حرارة جسمك قليلاً تمرض العديد من أعضائك الداخلية وفي مقدمتها الرئتان والمعدة والكليتان، حيث لا تكون قادرة على إيفاء وظائفها على الوجه الصحيح. فإن استمرت درجة حرارة جسمك بالانخفاض توفيتَ. وبالمقابل إن تعرضتَ لحرارة شديدة مدة طويلة وبدأتْ حرارة جسمك بالارتفاع بدأت عوارض خطرة بالظهور في جهازك العصبي الحساس وفي مقدمته دماغك، ثم يبدأ الخلل بالظهور في أعضائك الأخرى وفي مقدمتها القلب، والموت هو المصير المحتوم أيضاً في هذه الحالة. هذا مع العلم أن الناس يعيشون في جميع المناطق في الأرض بدءاً من الصحارى وانتهاء إلى منطقة القطبين، ومع ذلك تضبط حرارة أجسامهم وتثبت في حوالي ٣٧ م°. وأنا من أهم أجزاء المنظومة التي تقوم بحفظ توازن حرارة جسم الإنسان في هذه الدرجة. ومع أن مركز السيطرة في هذه المنظومة هو الدماغ، إلا أنه يقوم بعملية التوازن هذه نتيجة للتنبيهات الصادرة مني.

بنيتي وتركيبتي العجيبة

وقبل أن أشرح لك مهامي المهمة أود أن أحدثك قليلاً عن بنيتي التي تبدو من الخارج وكأنها بُنية بسيطة؛ والحقيقة أنني لست كما تظن مثل غطاء بسيط من النايلون. فأنا أولاً عضو حيّ مرن ينمو ويتغذى، ويمكن تصليحه وتعميره، وبينما يطرح الأجزاء الميتة منه يعوضها بخلايا جديدة. وهو على اتصال بالعالم الخارجي. وإذا تركنا التفصيل أقول بأنني أبدو كطبقتين، والجزء الخارجي الذي تراه هو طبقة "البشرة" أو الأدمة، التي تكوّن الخلايا المتقرنةُ الميتة التي أتمت أعمارها جزأها العلوي. وهذه الخلايا الميتة تتساقط كل يوم وهي التي تتساقط كوسخ عندما تستحم. كما تتخلص آنذاك من العديد من البكتريا والفطريات وغيرها من الطفيليات الملتصقة بي من الخارج. والقسم الأسفل من الطبقة العلوية من الجلد تملك خلايا لها قابلية كبيرة على الانقسام وعلى النمو وهي

"الطبقة النامية"، وهي تنشـئ على الدوام خلايا جديدة وتدفعها إلى الأعلى. وهذه الخلايا عند تكونها تكون أسـطوانية الشكل وكلما ارتفعت إلى فوق أصبح شكلها مكعباً ثم تصبح مسطحة. ونظراً لتكون المواد المتقرنة في داخلها فهي تبدأ بالتصلب شـيئاً فشـيئاً وتفقد حياتها. وعندما تصل إلى فـوق تكون قد ماتت تماماً. وقسـم منها لا تتساقط بل تلتحم مع بعضها مكونة طبقة متقرنة مثل الأظافر. وتظهر كذلك في الأماكن المتعرضة للتآكل وذلـك للحفاظ عليها. الحياة البيولوجية لهذه الطبقة حياة طويلة إلى درجة محيرة. فبعد موت الإنسـان لا تموت طبقتي هذه يومين أوثلاثة أيام بل تستمر في الانقسام. لذا فإن مات شخص كان قد حلق لحيتـه وقص أظافره قبل الموت نرى أنه في حالة تأخر دفنه عدة أيام قد نبتت لحيته وطالت أظافره. وهذا يعود إلى استمرار نشاط الطبقة السفلى من الجلد.

تحت طبقة البشـرة أو الأدمة توجد طبقة أكثر سمكا. في هذه الطبقـة توجد العديد من آثار الصنعة والفن التي تكون وسـيلة لحيويتي ولوني ولقوة التوتر عندي. وصلب هذه الطبقة مؤلف من نوع من البروتين يدعى "الكولاجين" يعمل على تكوين نسـيج ليفـي رابط. وكلما تقدم الإنسـان في العمر بدأت هذه الطبقة بالجفاف والتيبس وبفقد بروتين الكولاجين. وكلما قلت الألياف قل توتري وظهرت التجاعيد عليّ. وفي داخل الطبقة السـفلى من الجلد توجد الغدد العرقية بشـكل خطـوط ملتفة، وجذورُ الشـعر، والغددُ الدهنية التي تغذي الشعر وتعطيه بريقه ولمعانه، و"الخلايا الصبغية" التي تعطي لون بشـرتي، وكذلك العضلات الموجودة حول جذور الشـعر والتي تسـتطيع إيقاف الشعر أو إعادته إلى حالته الطبيعية، وشـعيرات الدم التي تغذيني، وأخيراً توجد أنـواع عديدة من الخلايا العصبية التي تسـتقبل المنبهات كالألم والضغط.

دور الخلايا الصبغية في لوني

الأوصاف التي تطلقونها على بعضكم مثل: هذا أسمر أو أشقر أو أبيض تنبع من الخلايا الصبغية الموجودة في الطبقة السـفلى مني والقريبة والمجاورة لطبقة البشـرة. ولهذه الخلايا النجمية الشكل أذرع وامتدادات وتقـوم بتحريك هذه الامتدادات ببطء؛ فتارة تطولها وأخرى تقصرها وذلك حسـب شـدة الضوء. وكذلك تسـتطيع تجميع الجزيئات الصبغية (القتامين) في مركز الخلية أو توزيعهـا في داخلها. وهكذا يبدو لوني قاتمـاً أو فاتحاً، وذلك حسب المواسم وحسب طول أو قصر ساعات النهار. أي حسب شدة أشعة الشـمس وطول المدة التي أتعرض فيها لهذه الأشعة. فكما تعلم فإن الذين يعيشون في شمالي أوروبا وفي أمريكا الشمالية يكونون شقراً وتكون بشرتهم بيضاء أكثر من الذين يعيشون في الجنوب، لأنهم يتعرضون لأشـعة الشـمس مدة أقل، فالجو هنا مغيم في أكثر الأحيان، بينما لأشعة الشمس دور مهم في تركيب فيتامين «D». فمادة الهيدروكلسترول التي تدخل إلى جسمك مع الغذاء لا تتحول إلى فيتامين «D» في جسـدك إلا بأشعة الشمس. وهذا الفيتامين مهم جداً لعظامك ولتكوين الكالسيوم، ويذوب في الدهن. وبغياب أشـعة الشمس لا يمكن صنع هذا الفيتامين. علما بأن نقص هذا الفيتامين يؤدي إلى العديد من أمراض العظام، وإلى تشوه في الهيكل العظمي.

ولكن أشعة الشمس سيف ذو حدين، لأن نقصها يؤدي إلى المرض، كما أن زيادتها أيضاً تؤدي إلى أمراض من أهمها سرطان الجلـد وبعض أمراض العين. ولا شـك أن ربنا الذي ملأ جميع أرجاء الأرض بالناس أعطى بحكمته وعلمه اللانهائيين للخلايا التي تحمل مادة القتامين خاصية بحيث يستطيع جميع الناس الاستفادة من أشعة الشمس في جميع أرجاء الأرض سواء أ كانوا يتعرضون لأشعة الشمس كثيراً أم قليلاً. ففي البلدان التي يقل فيها التعرض للشـمس تقوم الخلايا الصبغية بصنع مادة القتامين بكمية قليلة. وتنتشـر هذه المادة داخل الخلية أو تنـزل هذه الخلايا إلى عمق الجلد، لذا تبدو بشرتي بيضاء. وهكذا تنفذ من خلالي كمية أكبر من أشعة الشمس لاستعمالها في صنع فيتامين «D». أما في الأماكن المشمسة فيتعرض الناس إلى الأشعة فوق البنفسجية بشكل كثيف وإلى إشعاعات أخرى. لذا فهناك خطر تعرض خلاياي لطفرات ضارة ولخطر الإصابة بالسرطان.

لـذا يتم تركيب كمية أكبر من مادة القتامين في جلود الذين يعيشـون في هذه المناطق المشمسـة وتتجمع في مركز الخلية،

ولهذا السـبب تبدو بشرتي قاتمة أو سمراء. ويتم امتصاص الكمية الزائدة من أشـعة الشمس من قبل التركيب الخاص للمادة الملونة والخضاب الموجودة في الخلايا الصبغية لخلايا البشرة. وهكذا تتم الحيلولة دون إصابة الخلايا الأخرى الحساسـة بالسرطان. فهل أدركت الآن الحكمة من خلق الخلايا الصبغية عندي؟

لكـي لا تزداد الحرارة الداخلية للجسـم في الأجواء الحارة تتوسـع شرايين الدماء الآتية إليّ فأتزود بكمية كبيرة من الدماء. وأقوم بنقل الماء الموجود في الـدم إلى الخارج عن طريق غددي العرقية. وينتشـر هذا العرق الحار فوقـي ويتبخر، وبذلك يتم نقـل كمية كبيرة من الحـرارة إلى الخارج، وهكـذا لا ترتفع حرارة الجسـم. كما يتم مع إفراز العرق طرد بعض الفضلات النتروجينيـة، وهذا يريح كلْيتيك. وعندما يكون الجو بارداً تقل عملية التعرق وتضيق شـرايين الدماء الآتية إليّ فيقل الدم الوارد إليّ، إذ يتوجه إلى الأعضاء الداخلية الحيوية لكي لا تبرد. وتتقلص عضلات الشعر عندي فتقف ويزداد سمك الغطاء الشعري، كأنني غطيت ببطانية. فإن قلّت حرارة الجسم أكثر قامت الخلايا المنبهة عنـدي بتنبيه العضلات الموجودة تحـتي فترتجف هذه العضلات مولـدة الحرارة. وهذا هو السـبب في الارتجاف عند الشـعور بالبرد. وقد يخطر على بالك أن النساء مظلومات في هذا الصدد، لأنهن لا يملكن شعراً على أجسادهن كالرجال. كلا، أبداً، لأن أجسـادهن تقوم بخزن مقدار كبير من الدهن في طبقتي التحتية. وهذه الطبقة الدهنية المخزونة تحت الجلد لدى النسـاء تقوم من جهة بحفظهن مـن البرد، ومن جهة أخرى تعمل كمخزن غذاء احتياطي للمرأة عندما تقوم بإرضـاع طفلها. كما تقوم بحفظ عضلات المرأة وعظامها من الضربـات أو الصدمات الخارجية أكثر من الرجل، فتقوم هذه الطبقة الدهنية بوظيفة العزل الحراري ووظيفة امتصاص الصدمات.

علاقتي بالأمراض الداخلية

النظرة التي تقول بأنني مرآة الجسـد نظـرة محقة نوعاً ما. لأنني بسـبب كوني معروضاً أمام العين فإن الأمراض التي تصيبني تبدو أماراتهـا واضحة، وأعد أول عضو يتمتع بهـذه الميزة. ومظاهر الخلل التي تبـدو عندي تكون عادة إشـارة إلى خلل في بعض عمليات الأيض في الجسـم، وإشارة إلى حدوث أمراض خبيثة، أو أمراض تتعلق بالغدد في الجسـم. فمثلاً إن كان الكبد يتعرض للتسـمم من قبل مادة سامة ظهرت لطخ حمراء في اليد. كما أن الحالة النفسية والروحية تؤثر عليّ. والعكس صحيح أيضاً، فهناك أمراض خاصة تصيبني وهي تؤثر على أعضاء الجسم الأخرى.

لقد ذكـرت في البداية أنني أملك قابليـة كبيرة على ترميم نفسي. فأنا أسـتطيع بإذن الله ترميم وإصلاح الحروق والجروح التي تحدث عندي في الظـروف الطبيعية. ولكن إن كان الجرح عميقاً ونفذ إلى طبقتي السفلى بقي له أثر طفيف. وعند الإصابة بمرض السـكري تقل قابليتي على الترميم والتجديد مع الأسف، فلا أستطيع معالجة الجرح بسرعة. وفي هذه الحالة عليك الاعتناء بي وبنظافتي وبعدم إصابتي بأي التهاب.

لا أريد في الختام أن أحدثك كثيراً عن الأمراض التي تصيبني مثل أمراض الحساسـية والحكة ومرض تناثر الجلد والالتهابات وعن مظاهرها وعلاماتها، ولكـني أكتفي هنا بالقول بأن بعض هـذه الأمراض وراثية، ويحدث بعضها بسـبب نقص في المناعة وبعضها بسبب البكتريات أو الفطريات. وأنا أستطيع أن أعد لك مائة من أنواع الأمـراض التي تصيبني، ولكني لا أريد أن أقلقك أو أن أسبب لك الوساوس. فكما ترى فإن معظم الناس يعيشون بصحة جيدة على الرغم من كل شـيء. فالله تعالى قد خلق آلية المناعة والدفاع.

لقد أردت أن أشـرح لك مدى الدقة والحكمة التي خلقني الله بهـا. والحقيقة أنك عندما تعيش حسـب ما يرضاه الله لك صانـك من العديد من الأمراض. وحتى إن مرضت –كنوع من الامتحان– فستتحمل المرض. وعندما تُشفى ستحمد الله أكثر. وإذا كنت واثقاً بأنك لن تفقد شهيتك ولن يضيق صدرك فانظر إلى صور مرضى الجلد في أي كتاب يتحدث عن هذه الأمراض، وعندها سـتحمد الله أكثر وتدرك مدى قيمة نعمة الصحة التي تتمتع بها.■

(*) جامعة ٩ أيلول / تركيا. الترجمة عن التركية: أورخان محمد علي.

فجّر -أيها الإنسان- منابع العقل يأتك العلم واثبا، وفجّر منابع البصيرة تأتك المعرفة متواثبة. فكلّ عقل كبير فهو للبصيرة مدين، وعقل بلا بصيرة لا يزكو غرسه ولا يتسع فهمه. فإن التقيا على صعيد الإنسان، حصل المطلوب، وبان كل ظاهر ومحجوب.

* * *



إحياء الأخلاق
في الممارسة السلوكية عند الأستاذ النورسي

د. سعاد الناصر*

لا تنبع قيمة الاشتغال بموضوع الأخلاق من كونها تحتل رؤية مركزية في المنظومة الإسلامية فقط، ولكن ولربما بدرجة أعمقَ لأنها مجال خصب لتقليب النظر وانتهاج منهجيات متعددة في التناول والتحليل، وهي مناسبة لإبراز المفارقات المهولة بين رؤية القرآن والسنة وبين مآلاتِ تمثُّل الأخلاق والاهتداء بهديها في واقع المسلمين. وإذ إنه من العسير أن يتم تناول موضوعِ الأخلاق في شموليته وتعدد منهجياته خلال مقال مختصر في الزمان والأهداف والأفكار فلا بأس أن يصار إلى منطق الأولويات فيُشرعَ في إبراز الرؤية الفلسفية للأخلاق عند الأستاذ النورسي ومدى إسهامه في تنزيلها على الواقع والممارسة السلوكية وجعلها بنيانا مرصوصا يتيح إمكانات التحليل والمقارنة.

مصادر الأخلاق عند النورسي

لقد حاولت تتبعَ مواردِ حديثِ النورسي عن الأخلاق في العديد من رسائله، فلاحظت استقراءً أن نظريته الأخلاقيةَ تقوم على مصدرين أساسيين:

١- القرآن الكريم: باعتبار أن القرآن الكريم الحقيقةُ المطلقة والمركزية عند المسلمين التي تحتوي رسالةَ الله المتميزةَ بدلالات قيمتها الثابتة والدائمة، من مرتكزاتها منظومةٌ أخلاقية متكاملة تعقد الصلة بين الإنسان وخالقه، وبينه وبين الكون من حوله ابتداء من ذاته إلى مجتمعه إلى أخيه الإنسان أينما كان إلى الطبيعة من حوله يلخصها النورسي في قوله بأنها "نظام الأخلاق الذي يطبع صورةَ الروح الإنسانية بماهيتها، ويسلك بها مدارجَ التربية والمجاهدة لاكتساب معناها الكوني"، أي إن الأخلاق نظام ونسق كلي تقوم عليه تصرفات الإنسان وعلاقاته في هذا الكون.

٢- السنة النبوية: باعتبارها القدوةَ الحسنة أو التطبيق العملي لكل الأخلاق الإنسانية المتضمنة في القرآن الكريم بحيث يمثل ﷺ واقعا حيا وسلوكا طبيعيا يزاوج بين القول والفعل. يقول النورسي: "إن أعظم معجزة للرسول الكريم ﷺ بعد القرآن الكريم هو ذاته المباركة، أي ما اجتمع فيه ﷺ من الأخلاق السامية والخصال الفاضلة. وقد اتفق الأعداء والأولياء على أنه أعلى الناس قدراً وأعظمهم محلاً وأكملهم محاسن وفضلا".

ولعله من الطبيعي أن يُعتمد هذان المصدران من قبل النورسي، لكن خصوصيةَ النورسي هنا لا تنحصر في الاستشهاد بنصوص القرآن والسنة، وإنما يتجاوز ذلك إلى جعل هذين المصدرين حاكمين في قراءةِ مختلف القيم الأخلاقية وخلفياتها الفلسفية عند الغرب وغيره. فمصدرية القرآن والسنة في النظرية الأخلاقية النورسية مصدريةٌ حاكمة وليست مصدرية شاهدة. وهي بذلك تنفي أن تكون القيمُ الأخلاقية شخصيةَ المنشأ، وإنما مصدرها الله تعالى، لأنه تعالى لم يخلق الإنسان ويلقِ به في محيط الأوامر والنواهي، وإنما غرس فيه استعدادا فطريا لاستقبالها وتوجيهِ تصريفها خيرا أو شرا، وزوده بقوى مختلفة ليؤدي وظيفة القصد من خلقه. يقول مشبها له بالبذرة: "فقد أُودعتْ في ماهيته أجهزةٌ مهمة من لدن القدرة الإلهية ومنح برامجَ دقيقةً وثمينة من لدن القدر الإلهي، فإذا أخطأ هذا الإنسانُ التقديرَ والاختيار وصرف أجهزته المعنوية تحت ثرى الحياة الدنيا وفي عالم الأرض الضيق المحدود إلى هوى النفس فسوف يتعفن ويتفسخ كتلك البذرة المتعفنة. (...) أما إذا ربى الإنسان بذرة استعداده وسقاها بماء الإسلام وغذاها بضياء الإيمان تحت تراب العبودية موجها أجهزتَها المعنوية نحو غاياتها الحقيقية بامتثال الأوامر القرآنية، فلا بد أنها ستنشق عن أوراق وبراعمَ وأغصان تمتد فروعها وتتفتح أزاهيرُها".

ونتيجةً لحاكمية هذين المصدرين في النظرية الأخلاقية النورسية صار النورسي لا يتحدث عن خلق ولا يفسر خلقا ولا يربط خلقا بخلق ولا يجعل خلقا سببا لخلق ولا نتيجةً له إلا وهو يستحضر نصوصَ القرآن والحديث مما يعني أن هذه النصوصَ لا تقدم له شهادة عن دلالات الأخلاق فحسب وإنما تعطيه منهجَ التعامل مع الأخلاق وفلسفتِها وطبيعتها ودورِها في ضبط السلوك وتوجيهه.

من هنا كان حديثُه عن الأخلاق طويلا ومتشعبا يستوعب الرسائلَ كلَّها، فكانت كأنها ترجمة معبرة لقول رسول الله ﷺ: "إنما بُعثتُ لأتمم مكارم الأخلاق" (رواه البيهقي).

الأصول الأخلاقية عند النورسي

ويبدو أن أحسن وسيلةٍ إلى تمثل مفاهيمه الأخلاقيةِ وطبيعتها ودورها هو أن تسلكَ في صِنافةٍ تعتمد الأصول الأخلاقية الكبرى وتُلحق بها فروع الأخلاقِ في منهجية تعتمد الأصل والفرع، والسبب والنتيجة، والمقدمة والغاية. وهكذا تمدنا هذه المنهجية بأن الأصول الأخلاقية عند النورسي هي:

العدالة: وهي أصل يضم الأخلاقَ الآتية: الصدق والوفاء والصبر والصفح والشجاعة والتسامح والتساند.

المحبة: وهي أصل أخلاقي يضم الأخلاق الآتية: الأمل والإخاء والتواضع والإخلاص والحلم والنصح.

أولا: العدل (باعتباره خلقا سلوكيا أصليا ينتج عنه مجموعةٌ من الأخلاق السلوكية الفرعية): يعتبر النورسي أن مقاصد القرآن الأساسيةَ وعناصرَه الأصلية المبثوثة في كل جهاته أربعةٌ: إثباتُ الصانع الواحد والنبوةُ والحشر الجسماني والعدل. والناظم لرسائل النور هو روح الإسلام التي تشع بدلالات العدل واحتشاد معانيه في الآيات القرآنية والأحاديث النبوية، من أجل إصلاح الذات الإنسانية ومراجعة نسقها القِيمي الذي يتحكم في أفعالها وفي الفعل الاجتماعي بشكل عام. لذا كان الأمر بالعدل ومقاومةِ

الظلم صريحا لا يحتاج إلى تأويل في قوله تعالى: ﴿إِنَّ اللهَ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ﴾(النحل:٩٠). فالعدل مفهوم شامل يعبر عن روح الإسلام ومقاصده ويستغرق جميعَ مناحي الحياة الفردية والاجتماعية بكل مساربها وتشعباتها ويشملُ الكونَ والإنسان وسائرَ الكائنات ويصبغها بصبغة الحق. من هنا كان مفهوم العدالة عند النورسي يقتضي المساواةَ في الحقوق والواجبات في حقِّ الخالق والخلق. ويفرق بين المفهوم القرآني للعدالة ومساواتها للناس وحمايتها لكل فرد من أفراد المجتمعات الإنسانية وبين من تمكنت الأنانية من نفسه، فيقول: "العدالة القرآنية المحضة لا تهدُر دم بريء ولا تزهق حياته حتى لو كان في ذلك حياةُ البشرية جمعاء (...) ولكن الذي تمكن فيه الحرص والأنانية يصبح إنسانا يريد القضاء على كل شيء يقف دون تحقيق حرصه حتى تدميرَ العالم والجنس البشري إن استطاع".

فالذي لا يتخلق بقيم العدل إنسان تتحكم فيه الأنانية والظلم والعداء، ويصبح لزاما عليه إصلاحُ نفسه، لأنه "منبعُ الشرور الأخلاقية، وبالتالي وجب عليه إصلاحُ أنانيته التي هي مصدرٌ لمصائبَ ومعاصيَ كثيرةٍ أشنعها وأكثرها سوءًا المصيبة الدينية والتي تتمثل في الكفر سببِ كل الشرور".

وأي أخلاق أو تنظيم أو جمال في المجتمع فهو يرجع بالأساس إلى خلق العدالة وروحها المستمدة من تجليات الأسماء الحسنى: "وقد ثبت ببراهين دامغةٍ في أغلب أجزاء رسائل النور أن فعل التنظيم والنظام الذي هو تجل من تجليات الحكم والحكيم، وأن فعل الوزن والميزان الذي هو من تجليات العدل والعادل، وأن فعل التزيين والإحسان الذي هو تجل من تجليات اسم الكريم والجميل، وأن فعل التربية والإنعام الذي هو تجل من تجليات اسم الرب الرحيم، كل فعل من هذه الأفعال هو فعلٌ واحد وحقيقة واحدة تشاهد بوضوح في آفاق الكون كلِّه".

وإذا لم نستطع الإحاطة بكل الأخلاق المتفرعة عن العدل التي ركز عليها النورسي يمكن أن نتوقف عند خلق الصدق، يقول: "الصدق هو أسّ أساس الإسلام وواسطة العقد في سجاياه الرفيعة ومزاج مشاعره العلوية. فعلينا أن نحيي الصدق الذي هو حجر الزاوية في حياتنا الاجتماعية في نفوسنا ونداوي به أمراضنا المعنوية".

ثانيا: المحبة (باعتبارها أصلا أخلاقيا ثانيا يتفرع عنه مجموعة الأخلاق): يقول النورسي مخاطبا نفسَ الإنسان: "يا نفسيَ المحبةَ لنفسها، ويا رفيقتي العاشقَة للدنيا! اعلمي أن المحبة سببُ وجود هذه الكائنات والرابطةُ لأجزائها وأنها نور الأكوان وحياتها. ولما كان الإنسان أجمع ثمرةٍ من ثمرات هذا الكون فقد أُدرجت في قلبه الذي هو نواة تلك الثمرة محبةٌ قادرة على الاستحواذ على الكائنات كلها".

الإنسان
إذا ربى بذرة استعداده وسقاها بماء الإسلام، وغذاها بضياء الإيمان، تحت تراب العبودية، موجها أجهزتَها المعنوية نحو غاياتها الحقيقية بامتثال الأوامر القرآنية، فلا بد أنها ستنشق عن أوراق وبراعمَ وأغصان تمتد فروعها وتتفتح أزاهيرُها.

إن النورسي ينظر إلى خُلق المحبة بصفته قيمةً محورية تكون أساسا لاستقرار الإنسان النفسي وارتقائه الروحي، كما تكون نواةً تنبت مجموعةً من القيم الأخلاقية الأخرى كالإخلاص والإخاء والحلم وغيرها، ويستهدفه بوصفه أسلوبا ناجعا من أساليب التربية والسلوك الذي يصلح النفسَ ويسعى بها إلى إصلاح المجتمع وتغليب الخير فيه. ولعل أحسنَ الثمرات التي تنضج في قلب محب ونفس تواقة إلى المحبة خُلقُ الإخلاص؛ فالإنسان الذي تشع المحبة الحقيقية منه يتجرد من أنانيته ومن غروره وإعجابه بنفسه ومن ريائه ومن حسده وغيرته ومن مختلف الأمراض التي تسري منه إلى المجتمع فتنخره وتفتك به. وقد حدد النورسي تسعة عناصر يستطيع بها الإنسان أن يظفَر بالإخلاص، وهي تدور حول غايتين اثنتين: العدالة والمحبة.

فالأصل في العلاقات الاجتماعية والإنسانية أن تكونَ علاقاتٍ قائمةً على المحبة والمودة والتآلف حتى ولو تباينت الأفكار والمواقف، بل إن هذا التباين هو الذي يؤكد ضرورة الالتزام بهذه القيم والمبادئ، يقول: "لا تجد في القرآن آيةً إلا توحي بمحبة

شديدة لله. وفيه حث كبير على الفضيلة خلا تلك القواعد الخاصة بالسلوك الخلقي، وفيه دعوة كبيرة إلى تبادل العواطف وحسن المقاصد والصفح عن الشتائم وفيه مقت للعجب والغضب، وفيه إشارة إلى أن الذنب قد يكون بالفكر والنظر، وفيه حض على الإيفاء بالعهود حتى مع الكافرين وتحريض على خفض الجناح والتواضع وعلى استغفار الناس لمن يسيئون إليهم لا لعنهم. ويكفي جميعُ تلك الأقوال الجامعة المملوءة حكمة ورشداً لإثبات صفاءِ قواعد الأخلاق في القرآن. إنه أبصر كلَّ شيء".

أركان النظرية الأخلاقية النورسية

يستوحي النورسي نظريته من المنظومة الأخلاقية المبثوثة في القرآن الكريم المتميزة بمخاطبتها للإنسان في أبعاده كلها والمطبقة بنوع من الكمال والجمال في شخصية محمد ﷺ بوصفه مربيا ومرشدا ومثلا وقدوة. من هنا كان خطاب النورسي يتضمن الكلياتِ الأخلاقيةَ ويتميز بشموليته وواقعيته وكليته، فيتجه إلى كل إنسان ابتداء من نفسه وتقديمها قدوة. فالأخلاق عنده ليست مثالية أو نظرية، وإنما هيَ أخلاق عملية، أي تنبني على العمل وتنتج عملا تجعل المسلم يعيش متوازنا، ينسجم إيمانه واقتناعه وتصوره مع ممارساته السلوكية والعملية. لذا تنقسم الأخلاق عنده إلى أخلاق قلبية كالمحبة، وأخلاق سلوكية كالعدل تصب كل منهما في الأخرى. فالأخلاق القلبية تطهر النفس وترتقي بها، فلا يصدر عنها إلا أفعالٌ منضبطة بالأخلاق السلوكية باعتبارها الضابطة. ويرى أن أس أساس الفساد والظلم كلمة واحدة: "إن شبعتُ فلا عليّ أن يموت غيري من الجوع"، وأن منبع الأخلاق الرذيلة كلمة واحدة أيضا: "اكتسب أنت لآكل أنا، واتعب أنت لأستريح أنا"، وهي دلالات سارية في المجتمع الإنساني تدفع إلى الحقد والحسد والصراع.

ولعل التحديداتِ التالية تكشف عن أركان النظرية الأخلاقية عند النورسي:

الأخلاق بين الذاتية والإلزامية: إن "ممارسة الأخلاق قد تتبع أحد طريقين: إما طريق الإلزام الذي هو عبارة عن جملة من الأوامر والنواهي التي تُفرض من الخارج على إرادة الإنسان، وإما عن طريق الاعتبار الذي هو عبارة عن جملة من المعاني والقيم التي يستنبطها الإنسان تلقائيا مما يشهده من أفعال ويتلقاه من أقوال". وقد وثّق القرآن الصلة بين التوق الذاتي للتخلق والاستجابة للخطاب الإلهي من خلال الإتيان بالأوامر والنواهي في سياق المحبة وكسب رضا الله عز وجل، وذلك من قبيل قوله تعالى: ﴿وَأَحْسِنُوا إِنَّ اللهَ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ﴾(البقرة:١٩٥)، وقوله: ﴿بَلَى مَنْ أَوْفَى بِعَهْدِهِ وَاتَّقَى فَإِنَّ اللهَ يُحِبُّ الْمُتَّقِينَ﴾(آل عمران:٧٦)، وهذا يكشف أن المنظومة الأخلاقية الإسلامية ليست سيفا مصلتا على الرقاب وضعت لإلزام الخلق وإرهابهم، وإنما من أجل جعلها سماتٍ أساسيةً في شخصية المسلم ومقوما لسلوكياته ومحفزا لها. وقد كان النورسي مستوعبا العلاقة القائمة بين حقيقة الإيمان والتخلق. فالمسلم لا يأتي الأخلاق ملزما أو مكرها عليها لأنه لا خيار لديه، وإنما لأن نفسه متشبعةٌ بها، فتصدر عنه في كل سلوك يسلكه أو عمل يقوم به. يقول: "إن القرآن يجد الحلول لجميع القضايا، ويربط ما بين القانون الديني والقانون الأخلاقي، ويسعى إلى خَلق النظام والوحدة الاجتماعية وإلى تخفيف البؤس والقسوة والخرافات. إنه يسعى إلى الأخذ بيد المستضعفين ويوصي بالبر ويأمر بالرحمة. وفي مادة التشريع وضع قواعد لأدق التفاصيل للتعاون اليومي ونظم العقود والمواريث، وفي ميدان الأسرة حدد سلوك كلِّ فرد تُجاه معاملة الأطفال والأرقاء والحيوانات والصحة والملبس..." فهذه ممارسات خلقية وليست مجرد قوانينَ ملزمة.

الأخلاق بين الفردية والكونية: يشترك جميع البشر في الفطرة، يقول تعالى: ﴿فِطْرَةَ اللهِ الَّتِي فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْهَا لاَ تَبْدِيلَ لِخَلْقِ اللهِ﴾(الروم:٣٠). فالإنسان بفطرته يميز بين ما هو خير وما هو شر، من هنا يمكن اعتبار الأخلاقِ كونيةً. يقول النورسي: "إذا كانت الأخلاق فطرة فطر عليها الإنسان فإن دور الدين يتمثل في تثبيت هذه الفطرةِ وتكميلها وتهذيبها". والبناء الأخلاقي للإنسان يتطلب الحرية الفردية والتي هي حرية القرار. والمسلم يمارس حريته الفردية من خلال عبوديته الخالصة لله عز وجل، ويتحمل مسؤولية وجوده الإنساني، ويسعى إلى آفاق الكون من خلال ارتباطه الخلقي به؛ يقول النورسي: "إن لكل أحد علاقات بالمحبة والشفقة مع أقاربه ثم مع أفراد عشيرته ثم مع أفراد ملته ثم مع أفراد نوعه ثم مع أبناء جنسه ثم مع أجزاء الكائنات، بحيث يمكن أن يتألم بمصائبهم ويتلذذ بسعادتهم وإن لم يشعر". وهي رؤية كونية ترفع الإنسان بمعراج الخُلق ليرتبط بعلاقات المحبة والشفقة مع جميع الكائنات في هذا الكون الفسيح. فتمتد أخلاقه بذلك لتسع الكون كلَّه.

الأخلاق بين العمومية والنسبية: وتطبيق الأخلاق عمليا مسألة نسبية، قد يختلف تطبيقها من شخص إلى آخر ومن موقف إلى آخر. يقول: "إن الفضائل والأخلاق وكذا الحسن والخير أغلبها أمور نسبية (...) فمثلا الشجاعة والكرم في الرجل تدفعانه إلى النخوة والتعاون، بينما تسوقان المرأة إلى النشوز والوقاحة وخرق حقوق الزوج. ومثلا إن عزة النفس التي يشعر بها الضعيف تجاه القوي لو كانت في القوي لكانت تكبرا، وكذا التواضع الذي يشعر به القوي تجاه الضعيف لو كان في الضعيف لكان تذللا. ومثلا إن جدية ولي الأمر في مقامه وقار بينما لينه ذلة، كما أن جديته في بيته دليل على التكبر ولينه دليل على التواضع". ويقول أيضا: "عليك أن تصدُق في كل ما تتكلمه، ولكن ليس صوابا أن تقول كل صدق، فإذا ما أدى الصدق أحيانا إلى ضرر فينبغي السكوت، أما الكذب فلا يسمح به قطعا".

نقد النورسي للازدواجية الأخلاقية

يعتبر النورسي أن استناد الحضارة على الأساس المادي المصلحي انحرف بها عن القصد من الخلق وصادم توجه الفطرة الإنسانية وجنح بها نحو الظلم والاستغلال. ولذا يقدم طبيعة الفرق بين تربية القرآن وتربية الفلسفات المادية. ولعل هذا النص -على طوله- يقدم الفرق بين النظرية الغربية والنظرية الإسلامية: "حكمة الفلسفة ترى القوة نقطة استناد في الحياة الاجتماعية، وتهدف المنفعة في كل شيء، وتتخذ الصراع دستورا للحياة، وتلتزم بالعنصرية والقومية والسلبية رابطة للجماعات. أما ثمراتها فهي إشباع رغبات الأهواء والميول النفسية التي من شأنها تأجيج جموح النفس وإثارة الهوى. ومن المعلوم أن شأن القوة هو الاعتداء، وشأن المنفعة هو التزاحم إذ لا تفي لتغطية حاجات الجميع وتلبية رغباتهم، وشأن الصراع هو الجدال والنزاع، وشأن العنصرية هو الاعتداء إذ تكبر بابتلاع غيرها وتتوسع على حساب العناصر الأخرى. أما حكمة القرآن الكريم فهي تقبل الحق نقطة استناد في الحياة الاجتماعية بدلا من القوة، وتجعل رضا الله سبحانه ونيلَ الفضائل هو الغايةَ بدلا من المنفعة، وتتخذ دستور التعاون أساسا في الحياة بدلا من دستور الصراع، وتلتزم برابطة الدين والروح والوطن لربط فئات الجماعات بدلا من العنصرية والقومية والسلبية، وتجعل غاياتها الحد من تجاوز النفس الأمارة ودفع الروح إلى معالي الأمور وإشباع مشاعرها السامية لسَوق الإنسان نحو الكمال والمثل الإنسانية. إن شأن الحق هو الاتفاق، وشأن الفضيلة هو التساند، وشأن دستور التعاون هو إغاثة كل الآخرين، وشأن الدين هو الأخوة والتكاتف، وشأن إلجام النفس وكبح جماحها هو إطلاق الروح وحثها نحو الكمال وسعادة الدارين".

يكشف لنا هذا النص المعطيات التالية: القوة مقابل الحق، العدل مقابل الظلم، المنفعة مقابل رضا الله، الصراع مقابل التعاون. وهذه الازدواجية طبعت الوجدان الفلسفي المادي وحكمت عليه بالمنفعة الذاتية.

رسالية الأخلاق عند النورسي

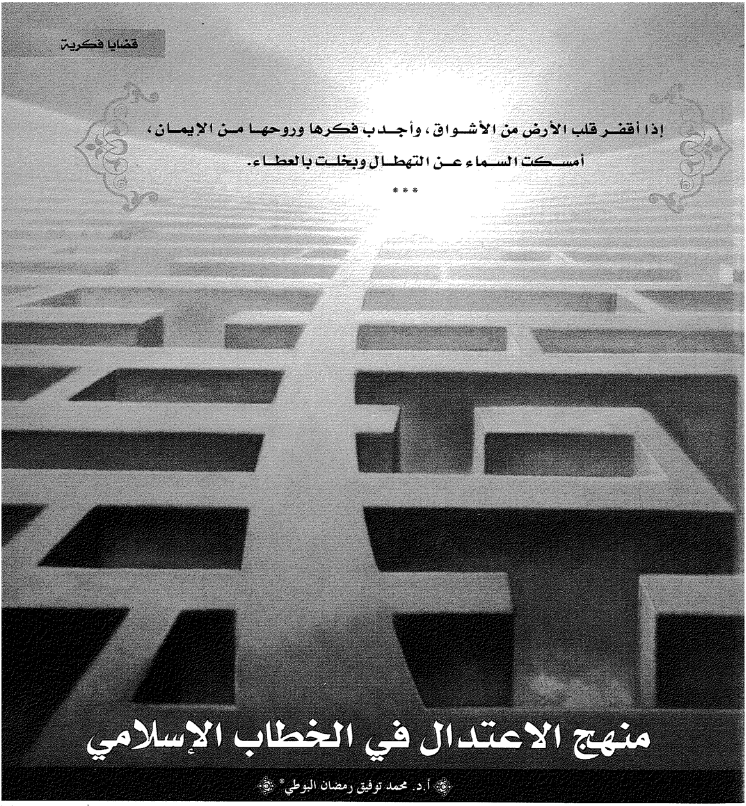
إن النورسي يقدم بعدا جديدا لمفهوم رسالة الدين؛ ويتمثل ذلك بتأكيده أن رسالية الأخلاق معطى سلوكي قبل أن يكون قوليا، بل إنه يجعل من هذه الرسالية الأخلاقية محفزا ودافعا لدخول الناس إلى الإسلام. يقول: "لو أننا أظهرنا بأفعالنا وسلوكنا مكارم أخلاق الإسلام وكمال حقائق الإيمان لدخل أتباع الأديان الأخرى في الإسلام جماعات وأفواجا".

إن حسن الخلق والتعامل الأخلاقي والحضاري مع الآخرين قد يحولهم من موقع العداوة والخصومة إلى موقع الولاء والانسجام. والشخصية المطلوبة التي تمثل الإسلام وقيم القرآن هي المتخلقة بأخلاق القرآن التي يمكن لها أن تعيد بناء حضارة إنسانية تتناغم فيها الأخلاق بين التصور والسلوك. و"إن مقام الإنسان الراقي وتفوقه على سائر الأحياء وامتيازه عليها إنما هو لسجاياه السامية".■

(*) جامعة عبد المالك السعدي، تطوان / المغرب

المصادر

(1) المثنوي العربي النوري، بديع الزمان سعيد النورسي.
(2) الكلمات، بديع الزمان سعيد النورسي، ترجمة: إحسان قاسم الصالحي.
(3) الشعاعات، بديع الزمان سعيد النورسي، ترجمة: إحسان قاسم الصالحي.
(4) الملاحق، بديع الزمان سعيد النورسي، ترجمة: إحسان قاسم الصالحي.
(5) اللمعات ، بديع الزمان سعيد النورسي، ترجمة: إحسان قاسم الصالحي.
(6) المكتوبات، بديع الزمان سعيد النورسي، ترجمة: إحسان قاسم الصالحي.
(7) صيقل الإسلام، بديع الزمان سعيد النورسي، ترجمة: إحسان قاسم الصالحي.
(8) سؤال الأخلاق، طه عبد الرحمن، المركز الثقافي العربي.
(9) الخطبة الشامية، بديع الزمان سعيد النورسي.



إذا أقفر قلب الأرض من الأشواق، وأجدب فكرها وروحها من الإيمان، أمسكت السماء عن التهطال وبخلت بالعطاء.

* * *

منهج الاعتدال في الخطاب الإسلامي

أ.د. محمد توفيق رمضان البوطي*

إن الأمة اليوم بأشد الحاجة إلى قراءة تأمل لواقعها الأليم وإعادة النظر في طريقة طرح الخطاب الدعوي. لعل في ذلك ما يمكنها من النهوض والعودة إلى الموقع الصحيح الذي يجب أن تتبوأه.

تؤثر في الخطاب الإسلامي عوامل عدة، من أهمها:

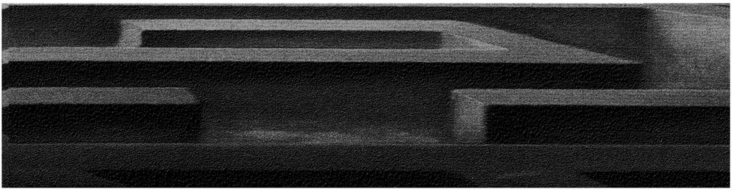
١-مضمون الخطاب. ٢-شخصية الداعية. ٣-المخاطَب.

٤-الظروف والأوضاع التي يصدر فيها الخطاب.

أمّا مضمون الخطاب فلن يختلف ولن يتبدل، لأنه دعوة إلى ما قد اكتمل وتمّ عقيدةً وتشريعاً وأخلاقاً. وهذا المضمون شكل من أشكال الثوابت الكونية، هو كنظام الشمس والقمر ونظام الخلية والتكاثر.

مقومات شخصية الداعية.

أما الداعية أو الشخص الذي يوجه الخطاب، فهو في نظر الإسلام



مبلّــغ يحمل الإرث النبوي العظيم ويتحمل مســؤولية نقل هذا الخطــاب إلى العالم، بدءاً من العالم الضيق الذي يحيط به وانتهاءً عند أبعد فرد من هذه المعمورة.

حامــل الخطاب إلى الآخرين يجــب أن يحمله فكرة يترجمها خلقه وســلوكه وتصرفاته. فالإسلام لا تتقبل مبادئه أن ينشرها من لا يمثلها عقيدةً يؤمن بها وشــريعةً ينضبط بأحكامها وأخلاقاً يصطبــغ بها. ألم يقل ربنا جل شــأنه: ﴿أَتَأْمُرُونَ النَّــاسَ بِالْبِرِّ وَتَنْسَوْنَ أَنْفُسَــكُمْ وَأَنْتُمْ تَتْلُونَ الْكِتَابَ أَفَلاَ تَعْقِلُونَ﴾(البقرة:٤٤). وفي الحديث الصحيح: "يؤتى بالرجل يوم القيامة فيلقى في النار، فتندلق أقتاب بطنه، فيدور بها كما يدور الحمار بالرحى، فيجتمع إليه أهل النــار فيقولون: يا فلان مالَك؟ ألم تكن تأمر بالمعروف وتنهــى عن المنكر؟ فيقول: بلى قد كنت آمر بالمعروف ولا آتيه وأنهى عن المنكر وآتيه" (رواه مسلم). والداعية المسلم يمكن أن يحمل خطابه إلى الآخرين بلســانه وقلمه، ولكن الأجدى والأقوى في نشر دعوته -مع لســانه وقلمه- أن ينشرها بسلوكه وأخلاقه، فلسان الحال أبلغ من لسان المقال.

وحامل الخطاب الدعوي يجب أن يكون مخلصاً لله في دعوته لا يبتغــي بها غير رضوان الله تعالى، فالدعوة ليســت مجرد عمل حركي ونشاط اجتماعي أو سياسي يجمع المرء من خلاله الأتباع والمعجبين بكلمته وأســلوبه؛ بل الدعوة عبــادة يتقرب بها المرء إلى الله ويرجو بها منه القبول التزاماً بقوله تعالى: ﴿وَمَنْ أَحْسَــنُ قَوْلاً مِمَّنْ دَعَا إِلَى اللهِ وَعَمِلَ صَالِحًا وَقَالَ إِنَّنِي مِنَ الْمُسْلِمِينَ﴾(فصلت:٣٣)، وقوله ســبحانه: ﴿ادْعُ إِلَى سَــبِيلِ رَبِّكَ بِالْحِكْمَةِ وَالْمَوْعِظَةِ الْحَسَنَةِ وَجَادِلْهُمْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِمَنْ ضَلَّ عَنْ سَــبِيلِهِ وَهُوَ أَعْلَمُ بِالْمُهْتَدِينَ﴾(النحل:١٢٥). إنه يرى نفسه مجرد خادم لدين الله، فإن لقيت دعوته استجابة فهو فضل الله تعالى أنار به قلوب المســتجيبين، و"من تمام فضله عليك أن خلق فيك ونســب إليك" (ابن عطاء الله في الحكم). أما قال الله تعالى: ﴿إِنَّكَ لاَ تَهْدِي مَنْ أَحْبَبْتَ وَلَكِنَّ اللهَ يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ وَهُوَ أَعْلَمُ بِالْمُهْتَدِينَ﴾(القصص:٥٦)؟ أمّا إن وجد إعراضاً وصداً فإن عليه أن يصبر كما صبر رسول الله ﷺ، ألم يقل رسول الله ﷺ: "إنما مثلي ومثل أمتي، كمثل رجل استوقد نارًا، فجعلت الدواب والفراش يقعن فيها، فأنا آخــذ بحجزكم عن النار، وأنتم تقتحمون فيها" (رواه مســلم)؟ ألم يرقّ قلب رسول الله ﷺ على الشاردين حتى قال له الله تعالى: ﴿فَلاَ تَذْهَبْ نَفْسُكَ عَلَيْهِمْ حَسَرَاتٍ﴾(فاطر:٨).؟

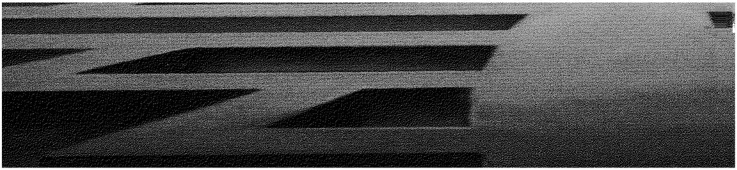
إن قلب الداعية يجب أن يكون نقياً عن مشاعر الغيظ والحقد أياً كان موقف المدعــو. إن عليه أن يدعو ويرجو الله أن يهدي قومه ﴿فَذَكِّرْ إِنَّمَا أَنْتَ مُذَكِّرٌ﴾(الغاشــية:٢١). فالله تعالى هو الذي سوف يتولى حسابه وعقابه، أما الداعية فإن واجبه أن يبلغ الدعوة بالحكمة والموعظة الحسنة.

ثم إن علــى الداعية أن يكون على دراية وعلم بما يدعو إليه، بحيث يستطيع أن يحسن عرض ما يدعو إليه وإبراز حقائقه مؤيدة بالحجــة البينة والبرهان القوي. عليه أن يكون على علم بالعقيدة وبالأخلاق الفاضلة وبأحكام شــريعته. ويجب أن يكون الداعية على جانب مــن الوعي والثقافة بحيث يعيــش في واقع عصره ومســتجداته ويدرك ما يحيط بدعوته من مشــكلات ومكائد وشبهات.

ضرورة فهم شخصية المدعو

وأيــاً ما كان المدعو فإن على الداعية أن يفهم شــخصية المدعو جيداً بصورة تساعده على حسن عرض دعوته عليه. فالمخاطب الذي توجه إليه الدعوة فهو أحد ثلاثة:

أ-مســلم مقصر: وإنه في الحقيقة أولى بدعوتنا اليوم. أجل، نحــن أحوج إلى من يدعونا وينصحنا، فكلنا مقصر، وإن تفاوت التقصير بين مسلم وآخر. الدعوة إلى أن يقرأ كلٌ منّا ذاته وسلوكه وأخلاقــه وحاله مع ربه، ثم يضع ذلك كله أمام ميزان حكم الله وكتابــه. أن يدرك كلٌ منّا أنه مقصــر وغافل عن حقيقة حاله. إن كلاً منّا متجه إلى أجله، وكلُ ساعة تمضي تبعدنا عن مولدنا وتدنينــا إلى آجالنا، إن علينا أن نتذكر أننا كما يقول الحســن البصري: "إنما نحن أيام وكلما مضى يوم نقص بعضنا، ويوشك



أن تنتهي أيامنا لنقف بين يدي الملك الديان". والله تعالى يقول: ﴿يَوْمَئِذٍ تُعْرَضُونَ لاَ تَخْفَى مِنْكُمْ خَافِيَةٌ﴾(الحاقة:١٨).

ب–مسلم مخالف: أما المسلم المخالف فإن مخاطبته يجب أن تستند إلى الالتزام بأدب الحوار الذي أمرنا ربنا أن نلتزم به مع غير المسلم فضلاً عن المسلم الذي قد يختلف معنا في قليل أو في كثير. ألم يقل ربنا تبارك وتعالى: ﴿ادْعُ إِلَى سَبِيلِ رَبِّكَ بِالْحِكْمَةِ وَالْمَوْعِظَةِ الْحَسَنَةِ وَجَادِلْهُمْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ﴾(النحل:١٢٥)؟ إذا كان ربنا سبحانه يقول لنا: ﴿قُلْ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ تَعَالَوْا إِلَى كَلِمَةٍ سَوَاءٍ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ﴾(آل عمران:٦٤) فأجدر أن تكون الكلمة السواء القائمة بيننا وبين المسلم المخالف مرتكزاً للتلاقي، ومنطلقاً لقبول الحوار النابع عن احترام الرأي الآخر.

لقد جاء النص الشرعي في الكتاب والسنة سواء كان قطعي الثبوت أم ظنيه –وأكثر نصوص السنة ظنية الثبوت– على وجهين اثنين:

أ–منه ما كان قطعي الدلالة على معناه فكان نصاً لا يحتمل التأويل. ويمثل هذا النوع الجزءَ الأقلَّ من نصوص الشرع.

ب–ومنه ما كان ظني الدلالة ظاهراً ولكنه يحتمل التأويل. وقد جاءت معظم نصوص الشريعة مجالاً للبحث والاجتهاد والتأويل، مما دفع بالمجتهدين من العلماء إلى شحذ الهمة وبذل الجهد في فهم دلالاتها. ولما كانت محتملة الدلالة فقد تباينت تأويلاتهم وفهومهم لها، وإذ كانت مرنة الدلالة فقد كان في تفسيرها بأكثر من معنى سعةٌ. وهذا الاختلاف والتباين يحمل في طياته تحريضاً لذوي الكفاءة والعلم لبذل الجهد في فهم النص، مما يجعل اختلافهم –وهم المتفقون– مظهر ثراء وغنى وحركة في الذهنية الفقهية تغني فقهنا الإسلامي.

وإننا اليوم لنشعر بمدى الحكمة الإلهية في ذلك، إذ صار فقهنا بهذا الثراء والتنوع مجالاً رحباً لاختيار ما ينسجم مع مستجدات العصر والنوازل. واجتماعاتُ المجامع الفقهية التي تمثل أطيافاً متعددة للمذاهب الإسلامية المختلفة والتي تتمخض في نهاية المطاف عن رؤية واحدة لحلول عملية تتآزر في وضعها مختلف المذاهب مظهرٌ لهذا الثراء والحيوية.

ولا بد من الإشارة إلى أن على فئات المسلمين أن تجعل من الحوار المخلص القائم على سعة الفهم وقبول الاختلاف الناجم عن ظنية الدلالة في مختلف النصوص اجتهادات توطد الروابط وتزيد في تعاون الأمة على حل قضاياها. إننا نعيش اليوم في مواجهة يجب أن تجمع ولا تفرق، وأن توحد لا أن تمزق.

جـ–غير مسلم: أما الفئات غير المسلمة، فإن علينا أن نتذكر أننا نتعامل في دعوتنا لهم مع "الإنسان" الآخر بكل ما تحمله كلمة "الإنسان" من خصائص ومعان. إنه يحمل "الفطرة" التي نحملها وإن غطيت بكثيرٍ من الشوائب. وينعم بـ"العقل" الذي ننعم به. والعقل هو ذلك الميزان الدقيق الذي يمكن الاحتكام إليه. إنه الحكم العدل عندما يكون حراً. إنه وحدة قياس لا تتباين أحكامها ما دام حراً وصحيحاً وما دامت المقدمات التي قدمت إليه صادقة. ولذلك نجده يبحث عن ذاته ويبحث في قصة الكون والحياة. وسوف يصل إلى الحقيقة في يوم من الأيام.

إن غير المسلم الذي نوجه دعوتنا إليه "إنسان" يحمل العواطف الإنسانية، وإن أُصيبت بشيء من التبلد والتشوه، إلا أنه يحمل تلك العواطف التي يمكن أن تستيقظ وتنتبه يوماً ما. يمكن أن تستيقظ فيه مشاعر الرحمة ومعاني الحياء والمحبة للخالق المنعم. يمكن أن تحرض فيه معاني الحب والحنان حتى وإن رانت عليها كثافات المادية. إن هذه المشاعر موجودة ولكنها في حالة رقاد، ويمكن أن تستيقظ لتغدو ساحة استقبال أسمى المؤثرات الإيجابية، بل إنها عندئذ تتعطش لغذائها الذي تحتاج إليه.

إن أساس العلاقة بيننا وبين غير المسلم هو كون كل منّا إنساناً كرمه الله بالإنسانية قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِي آدَمَ﴾(الإسراء:٧٠)، وأنه المستخلف في الأرض والذي عهد الله إليه بأن يحقق عدالة الله في هذه الأرض، وأن يكون مظهراً لحكمته ورحمته وعدالته من خلال تطبيق شريعته. أجل، كلٌّ منّا "إنسان" يتمتع بمقومات الاختيار من عقلٍ وفهم وإرادة تمنحه القدرة على

اتخاذ "القرار"، ولذلك فإنه مسؤول بين يدي الله تعالى.

فقد أقام كتاب الله تعالى لتعاملنا مع غير المسلم أُسساً تتمثل فيما يلي:

• الاحتكام دائماً إلى موازين العقل والعلم في كل ما نقدمه إلى الآخرين أو ما يقدمه الآخرون إلينا.

وقد ألزمنا كتاب ربنا سبحانه بعدم اتباع ما لا يقوم على أساس علمي فقال: ﴿وَلاَ تَقْفُ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ﴾(الإسراء:٣٦). وأداة العلم موجودة لدى الإنسان من خلال ما حباه ربه من حواس وعقل؛ قال تعالى: ﴿إِنَّ السَّمْعَ وَالْبَصَرَ وَالْفُؤَادَ كُلُّ أُولَئِكَ كَانَ عَنْهُ مَسْئُولاً﴾(الإسراء: ٣٦). وحذرنا من العصبية والتمسك بالمواقف من غير دليل أو بينة، سواء كان ذلك على وجه التبعية للآباء والأجداد، فقال ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ اتَّبِعُوا مَا أَنْزَلَ اللهُ قَالُوا بَلْ نَتَّبِعُ مَا أَلْفَيْنَا عَلَيْهِ آبَاءَنَا أَوَلَوْ كَانَ آبَاؤُهُمْ لاَ يَعْقِلُونَ شَيْئًا وَلاَ يَهْتَدُونَ﴾(البقرة:١٧٠)، أم كان على وجه الانقياد وراء نزوة النفس واتباع الهوى: ﴿وَلاَ تَتَّبِعِ الْهَوَى فَيُضِلَّكَ عَنْ سَبِيلِ اللهِ﴾(ص:٢٦). ويوضح كتاب الله تعالى أن الإيمان رؤية علمية فيقول: ﴿وَيَرَى الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ الَّذِي أُنْزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ هُوَ الْحَقَّ وَيَهْدِي إِلَى صِرَاطِ الْعَزِيزِ الْحَمِيدِ﴾(سبأ:٦)، ويطالب لكل دعوى بالبرهان ﴿قُلْ هَاتُوا بُرْهَانَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ﴾(البقرة:١١١)، ويرفض تعطيل ملكات المعرفة والفهم ويعدّ ذلك هبوطاً عن مستوى الإنسانية ﴿وَلَقَدْ ذَرَأْنَا لِجَهَنَّمَ كَثِيرًا مِنَ الْجِنِّ وَالإِنْسِ لَهُمْ قُلُوبٌ لاَ يَفْقَهُونَ بِهَا وَلَهُمْ أَعْيُنٌ لاَ يُبْصِرُونَ بِهَا وَلَهُمْ آذَانٌ لاَ يَسْمَعُونَ بِهَا أُولَئِكَ كَالأَنْعَامِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ أُولَئِكَ هُمُ الْغَافِلُونَ﴾(الأعراف:١٧٩).

• رسم المسلمون بناءً على ذلك منهجاً للوصول إلى الحقيقة، ألزموا أنفسهم به واحتكموا إليه في حوارهم مع الآخرين. فقالوا: "إذا كنت ناقلاً فالصحة، وإذا كنت مدعياً فالدليل"، ودليل الحكم المادي مادي يخضع للتجربة والمشاهدة. ودليل الحقيقة العقلية برهان عقلي. أما الغيبيات التي لا سبيل للعقل أن يستقل بمعرفتها ولا تخضع للدليل الحسي فإنه الخبر الصادق الذي دلت البراهين العقلية على صدقه.

• وقد أمرنا في الحوار أن نلتزم مبدأ ﴿وَجَادِلْهُمْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ﴾(النحل:١٢٥)، ورسم معالم أدب الحوار الذي لا يلزم الآخر بأحكامنا واعتناق معتقداتنا، بل نطرح فكرتنا ملتزمين بحكم الدليل مفترضين ثبوت حكمنا أو بطلانه ليتيح للآخر أن يدلي برأيه ﴿قُلْ مَنْ يَرْزُقُكُمْ مِنَ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ قُلِ اللهُ وَإِنَّا أَوْ إِيَّاكُمْ لَعَلَى هُدًى أَوْ فِي ضَلاَلٍ مُبِينٍ ۞ قُلْ لاَ تُسْأَلُونَ عَمَّا أَجْرَمْنَا وَلاَ نُسْأَلُ عَمَّا تَعْمَلُونَ﴾(سبأ:٢٤-٢٥)؛ أثار الدعوى وأدلى بحكمه الذي يعتقده ثم أتاح مجال الحوار واضعاً أمام الآخر الفرصة لإثبات العكس وتقبله لما يثبته الدليل فقال: ﴿وَإِنَّا أَوْ إِيَّاكُمْ لَعَلَى هُدًى أَوْ فِي ضَلاَلٍ مُبِينٍ﴾، ثم قطع الطريق بلطف على دعاوى والاتهامات توجه إلينا، فأوضح أن كل نفس بما كسبت رهينة. ولكنه جاء بأسلوب فيه منتهى الرقة واللطف فقال: ﴿قُلْ لاَ تُسْأَلُونَ عَمَّا أَجْرَمْنَا﴾ أي مما تتهموننا به ﴿وَلاَ نُسْأَلُ عَمَّا تَعْمَلُونَ﴾ و لم يقل عما تجرمون.

إن هذه الدعوة الهادئة اللطيفة والدافئة إلى الحوار بحثاً عن الحقيقة لا تحمل أي معنى من معاني القهر والإرغام، إنما هي إثارة للأذهان والعقول للبحث عن الحق. ويأتي التحذير بعد ذلك ليحمل العقل مسؤولية البحث، والتحذير من الحكم المجازف بعيداً عن حرية القرار العقلاني الفطري ﴿وَقُلِ الْحَقُّ مِنْ رَبِّكُمْ فَمَنْ شَاءَ فَلْيُؤْمِنْ وَمَنْ شَاءَ فَلْيَكْفُرْ إِنَّا أَعْتَدْنَا لِلظَّالِمِينَ نَارًا أَحَاطَ بِهِمْ سُرَادِقُهَا﴾(الكهف:٢٩). على أنه ليس من حقنا أن نكره الآخر على الإيمان إكراهاً ﴿لاَ إِكْرَاهَ فِي الدِّينِ قَدْ تَبَيَّنَ الرُّشْدُ مِنَ الْغَيِّ﴾(البقرة:٢٥٦).

ومهمة الداعية في دعوته أن يذكر ويدعو، وهذا مما يجعلنا نميز بين أمرين:

١-دور الداعية في دعوته، وأنه ليس من حقه أن يكره الآخرين على اعتناقها.

٢-مسؤولية الإنسان عن البحث عن الحقيقة والتزامها.

وهذا بالتالي يلزم الداعية في خطابه بالمنهج الحكيم الذي عرضناه، من حيث افتراض أيّ من الطرفين صاحب الحق وعدم توجيه الحكم سلفاً ببطلان دعوى الآخر. إن محاورة الآخر بمنطق الحجة والبرهان انسجام مع احترام إنسانية الإنسان وارتقاء بالذات وبالآخر إلى السدة اللائقة بكل منهما.

أعود فأكرر القول بأن المسؤول عن إبراز صورة الدعوة والخطاب الإسلامي عند الآخرين إنما هم "نحن". فإن برزت

الصورة حسنة فإن ذلك لحسن عرضنا لها، وإن برزت الصورة مشوهة فإننا نحن المسؤولون عن تشويهها.

إن الجالية الإسلامية الموجودة في العالم الغربي أو في خارج العالم الإسلامي اليوم هي الصورة التي تترجم في نظر الآخرين حقيقة الإسلام في مختلف جوانب سلوكها وتصرفاتها. وإن الأضواء مسلطة عليهم قطعاً لعرض الإسلام من خلال أوضاعهم وتصرفاتهم.

والحق يقال: إن كثيراً من مشكلات العالم الإسلامي وأمراضه التي يعاني منها في بلاده تبرز في خارج العالم الإسلامي بصورة مجهرية وبألوان فاقعة. وإن من أخطر هذه المشكلات مشكلة التفرق والتشرذم والتي يعدّها الآخرون حجة مفحمة في تشويه ديننا والإساءة إلى مفاهيمه. بل لعلهم يثيرون أسباب الخلاف ليراقبوا ردود الفعل، ثم يسلطون الأضواء على ردود الفعل تلك، ليقولوا: هذا هو الإسلام!..

ومن أخطر هذه المشكلات جهل المسلمين بدينهم. وإذا كان عامة المسلمين جهلة بدينهم بصورة من صور الجهل فإن المسلمين في خارج العالم الإسلامي مشكلتهم هذه أكبر. إذ هم أفقر إلى وجود الحد الأدنى من المرجعية التي يمكن أن تصحح بعض أخطائهم. لذلك فإن الكثير من تصرفاتهم تعكس مدى الحاجة إلى معرفة حقائق الإسلام، وتبرز صورة سيئة جداً غريبة عن حقائق الإسلام ورحمته وعظمته.

أساليب الدعوة ومستجدات العصر

إن مستجدات العصر قد حملت إلينا أمرين متناقضين:

أحدهما سلبي: وهو ردود الفعل غير الصحيحة من قبل بعض الذين لم يتعرفوا على دينهم، وانطلقوا من ردود الفعل تجاه بعض المواقف السلبية نحو الإسلام عقيدةً وتشريعا وعبادة. فبدلاً من أن يمثلوا التربية الإيمانية التي وجهنا إليها نبينا ﷺ في أسلوب التعامل مع غير المسلمين والحوار معهم بالتي هي أحسن، وأن بعثة النبي ﷺ إنما كانت رحمة بالعاملين.. بدلاً من ذلك كله واجهوا الناس بالعنف والشدة والقسوة، والنبي ﷺ يقول: "بَشِّروا ولا تنفروا" (متفق عليه)، فمضى هؤلاء ينفرون ولا يبشرون. فحققوا بذلك هدف الحاقد الذي يصد عن الحق ويمنع انتشاره.

والآخر إيجابي، وهو يتمثل في أكثر من عنصر:

- الوعي العلمي لدى المجتمع الغربي المعاصر والذي جعله أكثر استعداداً لفهم حقائق الإسلام.
- الظمأ الروحي الذي يعاني منه الإنسان الغربي والذي لم يجد ما يطفئ ظمأه.
- سهولة الاطلاع على الإسلام من خلال كثرة أبناء الجالية الإسلامية في العالم الخارجي، ومن خلال وسائل الاتصال والثقافة والتواصل الثقافي بين الشعوب التي سهّلت إمكانية الحوار عن بعد، أو من خلال الملتقيات العلمية والثقافية التي تتم هنا أو هناك، والتي أتاحت الفرصة للتعرف بصورة من الصور على بعض معالم فكر الآخر ومفاهيمه.
- التردي الخطير الذي يعاني منه المجتمع المعاصر، ولا سيما في الغرب، حيث انهارت الأسرة وتفكك المجتمع وشاعت الأمراض النفسية والاجتماعية وأعيت أوضاعُهم الباحثين الاجتماعيين والمفكرين عن وضع حل نافع يعالج أمراضهم.

شروط نجاح الخطاب الإسلامي في الغرب

إن الخطاب الإسلامي يجب أن يحمل في طياته معاني الفكر الواضح بحقائقه الاعتقادية والمرتكز على أدلته العلمية، وأن يحمل المعنى الإنساني الذي يقدم للعالم كله العلاج الذي يداوي جراحه، ويحل مشكلاته الاجتماعية والنفسية والاضطرابَ الفكري الذي يجعله يشعر بنوع من الفصام في شخصيته والكآبة في نفسيته.

لقد قدم لنا الغرب الكثير من الخير والكثير من الشر. ولقد آن الأوان أن نخاطبه بأننا نملك أن نقدم له مقابل المعروف معروفاً لا غنى له عنه، وأننا نملك أن نقدم له مقابل الفكر فكراً واعياً وقلباً يقظاً.

ولكننا لن نستطيع أن نقدم إلى الغرب الصورة الواضحة القوية إلا بمقدار ما نترجمها في واقعنا وفي فكرنا وسلوكنا وعلاقاتنا وفي صلتنا مع ربنا ﷻ.

فنحن بحاجة إلى الغرب، والغرب بحاجة إلينا، فلماذا لا نلتقي معه على الإصلاح؟

ونحن والغرب بحاجة إلى مراجعة ذواتنا بجرأة قبل أن نراجع الآخرين.■

(*) جامعة دمشق، كلية الشريعة / سوريا.



أنت عزائي إذا عَزّ العزاء..!

أديب إبراهيم الدباغ*

إذا الحبيب جفاني، وغاب عني وخلاَّني، وإذا القريب سَلاني، ورفيق الدَّرب للدرب رماني، وتولّى عني وما وفّاني، والشوق للأحباب أضناني، والتِّيهُ نـاداني، وَقَفْرُ الغربـةِ أضواني.. فأنت العـزاء، والموئل والرجاء... حضورك دائم، وقربك ماثل، إليك ألتجي، وكهفَ رحمتك أرتجي...

يا قِفار الليالي! يا سَرابات الزَّمن! يا مَتاهاتِ القلوب! إلى أينَ المسير..؟ تاه خَطوي، وكلَّتْ قدمي، وَجَفَّ دمعي، وَخَبَت شمسي، وأظلمَ قَمَري، أجدَبتْ كأسي... قتلني العطش، ومضّني الظما...

فيا سَـاقي العطَاش... إليك أشـكو، وبك أستجير، وإليك أتضرَّع... ألا قطرةٌ من رَحَماتك تَبُلُّ شـفاهَ قلبي... ألاَ لَفْتَةٌ من لَفَتَات لطفكَ تُؤْنِسُ دَربي وَتَقود خَطوي؟!

يَا حُزنِيَ الخلاّق، يَا خياليَ الدَّفاق، يا مُضنَى يا مشتاق... متى تكسـر الأطواق، وتَحطِمُ نِيرَ الأعناق... ومن جحيم الزمن تَفِرُّ وتطير، وسرمدياً تصير... وإلى رَبِّك تجري، وإليه تأوي... ومِنهُ تدنو، وله تُسَبِّحُ وتشدو؟!

أخذوني، غَلُّوني، وبحبال الزمان قيـدوني، وبأوتاد الأرض أوثقوني... غيّبوني، وبرقعاً أسودَ ألبسوني، وعن السماء حجبوني، ثم قالوا وأعادوا: أنت يا ابن الأرض للأرض خدين، ويا سليل التُّرب في التُّرب سجين... فانتفضتُ وَصَرختُ وتَمَرَّدت وتضرَّعت: يا قريباً غير بعيد، ويا حاضراً غير غائب، يا ذا القوة التي لا تُرَام، ويا ذا العرش المجيد، يا فعّالاً لِمَا يريد! حَطِّم سجني، اكسر قيدي... حرِّرني، شُـدّ أزري... أنت عزائـي، وكُلُّ أملي وَرجائي...!

يا ندى الروح، يـا بَليلَ القلب، يا طَلَّ الفؤاد، يا سـاكن أعماقي، يا حاضرَ وجداني، يا سَـارِياً في الضمير، يا جارياً مع الأنفاس، يا محمودَ لساني، وخفق قلبي وجَنَاني، ونزيلَ كياني... كيف يخاف قلبٌ أنتَ نزيله، وكيف يزيغ ضميرٌ أنت سَـكينُهُ، وكيف يَفرُقُ امرؤٌ أنت أمينه؟!

لتتساقط السماءُ كِسَفاً، ولتحتدم الأكوان، ولتنهر المجرات، ولتنطفئ الشموس والأقمار، وليحترق الكون حتى الرماد، وليعُمَّ الفناء، ولتعصف عواصف الهبـاء، وليحصد الموتُ كلّ حيّ... فلَن ترتعد فرائصـي، لأني معك... فأنت الوجود كلّ الوجود، والحضور كلّ الحضور، والحياة كل الحياة، والبقاء كل البقاء... فأنت كفائي، سَتري وغِطائي..!

علـــى باب الغيب توالت طرقاتي... بيمين العقل مرّة ويســـار القلب مرّات، وبالنّفس والآفاق كرّةً وكرّات... فلا البابُ انفرَج، ولا الفجرُ انبلج... غير أن صوتاً من وراء الباب آتٍ: أيها الطارق هـــذا الطرق لا يجدي... عُدْ إلى القرآن فالقـــرآن مفتاحُ، للقلب والأكوان والغيـــب فتّاحُ... فتعلّم كيف ترقى، ومن رحيق الغيب بالقرآن تُســـقى وتُروى... فإذ ذاك تغدو للغيب علامةً وشـــارة، وصوتاً وبشـــارة... فإذا الغيب شـــهود، وحضورٌ لا يَحُور، قوامه الإنسان، وآيةُ الروح والوجدان...

مُدنفٌ أنا هلاّ عُدتَني، ظاميءٌ أنا هلاّ سقيتني، خضيبُ الروح، دامي القلب... هلاّ واسيتني وضَمّدتني؟!

في بحـــار الوَجدِ يجري زورقي، شـــراعُهُ ذوبُ حنين، ومجدافهُ صوتُ أنين... يا خارقَ الســـفين! أيها العبد الصالح! يا يدَ الأقدار ويمينَ رب العالمين! لماذا أتيتَ، وزورقي خَرقْتَ، وفي لُجَجِ الأشواقِ أَغْرَقتَني، ثم مَضَيتَ وخَلّيتني؟! هلاّ أنقذتني، وإلى شاطئ الأحباب أوصلتني، وبأسبابهم وصَلتني؟! أم تُرَاكَ قصدتني، ولهذا الغرقِ أردتني.

ســـادتي! دقّت ســـاعتي، وجاءت صحوتي، ومن نوم غفلتي استيقظت أرتجي، لحاقاً بكرام أمتي... أولئك السبّاقون، على المكارم يتنافســـون، ويتواثبون... "كُن أَبا ذرّ" فكان... صدق حدسك يا رســـول الله... ها هو يحث الخطى وحيداً، يســـابق الأرض، طيّاً يطويها... جمرات الحصـــى أكلت نعليه، وأحرقت قدميه... حتى إذا انكشفت الغَبرَة، وبدَت الضحوةُ إذا بأبي ذرٍّ قائماً بين يديك... "رحمك الله أبا ذرّ... في أرض فلاة، وحيداً تُقبض، ووحيداً تُقبر، ووحيداً تُبعثُ وتُحشر". رحم الله المتفردين... إذ هم على أبواب الجنة ملوكاً قائمين... يهنئون ويُسلّمون، وعلى أيدي المؤمنين يشُدُّون..!

أيهـــا الضيـــاء الحنون! يا نـــوراً على نور! خـــذني من جُبّ غُربتي، وأطلِقني من أصفاد مِحنـــتي، قُدْني إلى حيث إخوتي، فقد أضاءت روحي، وأشـــرق قلبـــي، فكيف أطيق المكوث، ساكناً كالموت، صامتاً كالقبر، بارداً كالثلج، وبين أضلاعي نارٌ وقيدُها القلب، وفي الروح ضَرامٌ ما خبـــا أُجاجه، وما انطفأت جمراتهُ؟!

يـــا صحابي... يا مصابيح النُور... يا قناديل الهدى... عندكم لقيت بُغيـــتي... وحظيتُ بطلبتي... وللخدمة أوقفتُ همّتي... فما أنا بمزكّيكم على الله تعالى... غير أني أحسب أنّكم من القوم الذين لا يشقى جليسهم.■

(*) كاتب وأديب عراقي.



يا ورد ابتسم..!

لسعادتي –يا ورد– ابتسم،
ناغِ –يا ورد– آمال قلبـــي،
لامِسْ شغاف روحي بعطر أنفاسك،
وموجُ عطرك في أذني يقول:
على رِسْلك يا صديق،
فأنتَ واصل للحبيب،
ومن معين محبته ستشرب،
وفي أفياء وصاله ستتفيأ...

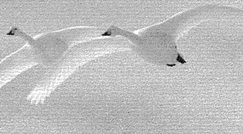
* * *

أعراس الوصول

جمال أمين*

القبر معبرُ راحلٍ   من عمره لغد بديل
من طينه الكاسي إلى   عشّ الثرى يفد النزيل
في برزخ يقف الزما   ن ببابه عجزا ذليل
هو فاصل الغيب البهيـ   ـم وخاتم السعي الطويل
هو آخر المضمار في   خَبب البرايا والذميل
هو صبحنا ينشق عن   فجرٍ إلهيّ كحيل
هو عرسنا للناسجيـ   ـن صلاحهم خلْداً جزيل
هو بؤسنا للحاطبيـ   ـن شقاءهم تعساً وبيل
هو بسمة هو دمعة   خطان في ترب مهيل
والقبر هو خلاص دنـ   ـيانا من الظلم الثقيل
هو بسمة المستضعفيـ   ـن تحيط بالبغي النّكول
في ليلنا المسفوح يسـ   ـكر من شقانا والذبول
هو كِلْمة الصدق المؤ   مَّل في تخاليط تهول
يقد المنار من الثرى   صوب الشعيلة للضليل
هو –ظاهرا– زمن الفظيـ   ـعة يرتدي البصر الكليل
مزقا وتقطيعا لأجـ   ـساد وأوصال تزول
فتًّا ودكًّا للجما   جم قد غدت ذَرّاً ذلول
محوا لأزمان الهنا   ء بعالم خرب أكول
هو –باطنا– زمن الوصو   ل إلى الهناءة والحلول
زمن المجادة والعزا   زة والمباءة للقفول

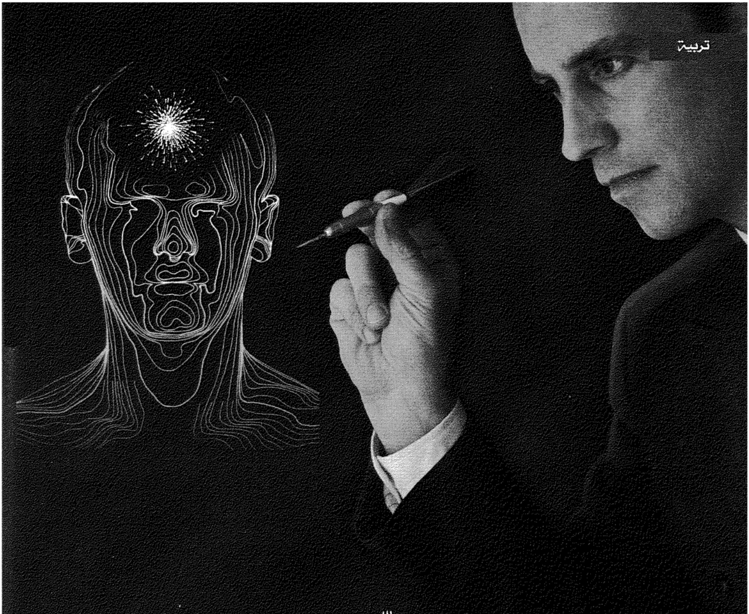




زمـن اخضـرار الأفـق يـو　　رق في الجنـان وفي السـهول
زمـن الشـروق مـن الأفو　　ل يـزف أعـراس الوصـول
والـقبـر فـزعة بـاطش　　نسـجت على قـرع الطبول
كتبـت علـى لـوح الثرى　　وخطابها يضـني العقـول
فـشـتيتـها سطـر علـى　　طـرس الوجـود بـلا مثيل
وجـواره سـطـر الـحيا　　ة معانقـا مثـل الخليـل
نـهـران مـن أزل إلـى　　أبـد علـى ثبـج السـيول
يتسـاوقـان وفـي ضفـا　　ف الغيـب لقيـا للمسـيل
ووراء دولاب الـوجـو　　د أصابـع خلـف السـدول
فـي قبضـة الـقيـوم تـنـ　　ـداح العـوالم للرحيـل
نـشـوى تسـير بطـاعـة　　سـكرى ترقّصها الشـمول
حـب يعـرّش في المسـا　　لـك والممالـك لا يـدول
فاقبـس مـن الحـب العظيـ　　ـم شـفاعة تذكـي الفتيل
فالحـب قبس من جـوى الـ　　أكـوان والفيـض الأثيـل
والحـب كشـف للمسيـ　　ـر وللمصـير إلى الجليـل
والـحـب لـحـن تـوافق　　في معـزف الكـون الجميـل
والـحـب نـفـي للـنفـا　　يـات الدخيلـة والوحـول
فاكرع مـن الـكأس الرويـ　　ـة والتفـع فرحـا أصيل
طيـرا يـجـاوب جذبه الـ　　ـعلـوي نحـو المسـتحيل

(*) أديب وشاعر مغربي.





ركِّز على انتباهك!

د. حسن أيدنلي*

الانتباه هو قدرة التوجه نحو حادثة أو أمر، ثم تركيز الطاقة الذهنية حوله. وإن توجيه أذهاننا إلى شيء أو إلى حادثة وتركيز انتباهنا عليه يساعد على تنظيم العديد من الفعاليات الحيوية، وهو وظيفة من وظائف أدمغتنا. إن الانتباه هو تكثيف لطاقتنا الذهنية، وهو يساعدنا على فهم الأمور وإدراكها. وبتعبير آخر فإن الطاقة الذهنية لشخص مّا تتمركز وتتكثف على البؤرة التي جلبت انتباهه. والإنسان إنما يتعلم الأمور والحوادث التي يركز طاقته الذهنية عليها ويستطيع التفكير فيها. واللحاء الجبهي (Frontal Cortex) الموجود في القسم الأمامي من الدماغ يقوم بدور فعال في عملية الانتباه. وقابلية الانتباه تعد من النعم المهمة المهداة لنا والتي نحتاج إليها في كل أمر من أمور معاشنا وحياتنا. ومهما اختلفت مهننا أو أعمارنا فالانتباه ضروري للجميع.

في المرحلة الجنينية فإن سماع الجنين للأصوات الآتية إليه من الخارج نتيجة لنعمة السمع ونعمة الانتباه. ومع الولادة وبتوجيه الانتباه نحو العالم الخارجي تتطور هذه القابلية الفطرية. وبواسطة الحواس الخمس يستطيع الإنسان بشكل إرادي أو آلي تكثيف انتباهه نحو شيء أو أمر من الأمور.

والانتباه ضروري في تنظيم الحياة اليومية وتحقيق التعلم وتنظيم العلاقات بين الأفراد وأداء المهام والمسؤوليات وتعقب القراءة والاستماع وفهم التعليمات والتركيز على التفاصيل.

الانتباه في الحياة اليومية

لنفرض هنيهة بأن مدة تركيزنا وانتباهنا أصبحت قصيرة. في هذه الحالة لا نستطيع أن نكون مثمرين ومنتجين في العديد من الساحات في حياتنا اليومية، وبالأخص عندما نقرأ أو نكتب أو نستمع أو نعمل. ويصعُب علينا آنذاك أداء وظائفنا بشكل وافٍ وكامل؛ فلا نستطيع متابعة كلام شخص نستمع إليه على الرغم من تركيز انتباهنا على كلامه. وعندما نشكو من ضعف الانتباه نقع في أخطاء بسيطة ونعجز عن رؤية التفاصيل. وقد لا نرى المانع الموجود أمامنا فنتعثر، وقد نسقط على الأرض، ونجد صعوبة في الذهاب إلى المدرسة أو في القراءة أو في أداء وظائفنا الروتينية.

وما نطلق عليه تعبير "تكثيف الانتباه" أو "التركيز" فهو قابليتنا في تعميق انتباهنا. وهو مهم وضروري في تأملنا للأشياء وللحوادث وإدراكنا أيّ موضوع وفي تفكرنا بكتاب الكون وقراءتنا له بشكل أفضل، كما يغنينا عن تلقي التحذيرات والتنبيهات. والقرآن الكريم يدعو الإنسان بشكل متكرر إلى التفكر والتأمل، تأمُّلِ هذا التناغم المدهش في الكون وتأمل تجليات أسماء الله الحسنى فيه. فتركيز الفكر والتأمل يلعب دوراً مهماً في تكامل الإيمان.

لو كنا نسمع جميع الأصوات ونتنبه لها لسمعنا أو رأينا أشياء مزعجة كثيرة. فمحدودية السماع وعدم سماعنا الأصوات خارج هذه الحدود وسيلة مهمة لراحة الإنسان، كما أن عدم تشتت انتباهنا في كل صوت نسمعه من النعم الكبيرة المهداة لنا. ولولا هذا لكان أقلُّ صوت نسمعه أثناء العمل كافياً لتشتيت انتباهنا وقطع تركيزنا عن عملنا. وكذلك الأمر بالنسبة للرؤية. فلو كنا نبصر كل جسم يقع في ساحة رؤيتنا عندما نعمل لتشتت انتباهنا وقلت إنتاجية عملنا. إذن فمن النعم الكبيرة المهداة لنا أن انتباهنا لا يتشتت نتيجة كل التنبيهات الواردة إلينا من الخارج.

إن تركيز انتباهنا بشكل كافٍ يساعدنا على فهم أفضل وعلى اتخاذ قرار أحسن وفي زيادة إنتاجنا في حياتنا اليومية. إن خزن ما يقال لنا في الذاكرة وفهم الموضوع الذي نعمل عليه فهماً جيداً وتذكرنا له فيما بعد متعلق بمدى تركيز انتباهنا آنذاك على ذلك الموضوع. وفي لحظات تعرضنا لأي خطر لا نرى ولا نسمع أي شيء خارج أنفسنا وخارج الخطر الذي تعرضنا له، وهذا يشير إلى أن الإنسان يستطيع التركيز على شيء إن أراد ذلك.

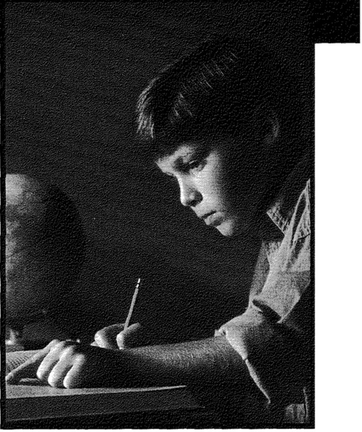
يعرض عارض يشتت الانتباه عند كل إنسان بدرجة ما، ويشكل الانتباه عند التعرض للخطر أمراً في غاية الأهمية. وعندما ننظر إلى الحوادث التي يتعرض لها الإنسان في حياته اليومية نرى أن بعضها حوادث طفيفة وبعضها حوادث خطيرة قد تودي بحياته. وتقع معظم هذه الحوادث نتيجة عدم الانتباه. ويتعرض الأشخاص الذين يشْكون من السهو ومن قلة الانتباه إلى حوادث أكثر في حياتهم اليومية؛ فكثيراً ما نسمع: "لم أكن منتبهاً، لم ألاحظ ذلك الشيء". ويجب ألا ننسى أن العديد من الأطفال يتعرضون لمشاكل كثيرة وحوادث خطرة ومشاكل صحية، وحوادث تنتهي بالموت نتيجة عدم الانتباه.

عوامل إفساد الانتباه

هناك أمراض بيولوجية ونفسية وعوامل تفسد الانتباه وتشتته. من أهمها عارض "النشاط المفرط". والأشخاص الذين يعانون من هذا المرض ومن عدم التركيز نرى أن المدة التي تتطلبها المواضيع التي تُعرض لهم -والتي تستلزم انتباهاً وتركيزاً ذهنياً- تكون قصيرة جداً. كما أن حالات التوتر والكآبة والقلق والإجهاد تؤدي إلى نقص في التركيز. والأشخاص الذين يعانون من هذه الحالات يصعب عليهم فهم ما يقرؤون وإن أعادوا القراءة عدة مرات مع أنهم كانوا يستطيعون فهمه سابقاً بقراءة واحدة. وهؤلاء لا يستطيعون إنجاز المهام التي تتطلب تركيزاً لمدة كبيرة.

وتظهر حالات عدم التركيز في الأشخاص الذين يعانون من أمراض عصبية كالخرف والصرع. كما أن هناك أدوية لها تأثيرات جانبية سلبية تؤدي إلى عدم التركيز.

وفي حالة قلة المحفزات وعدم وضوح الأهداف أو قيام شخص بمهمة تفوق طاقته أو بمهمة دون قابلياته أو عند زيادة الانفعال أو القلق... في مثل هذه الحالات تظهر مشاكل الانتباه. وعندما تتلقى حاسة البصر أو حاسة السمع تنبيهات كثيرة جداً يظهر عند الإنسان مشاكل في منظومة الانتباه وفي مدة الاستيعاب والفهم. وتظهر هذه الحالة كثيراً لدى الأطفال الذين يقضون مدة طويلة أمام التلفزيون أو أمام جهاز الحاسوب. ففي



أثناء هذه المدة تنخفض قابلية انتباههم من ناحية السمع والبصر. والتنبيهات التي يتلقونها تفوق سعة أذهانهم، لذا تظهر هنا مشاكل عدم التركيز. فعلينا الحذر من كل ما يبعث تنبيهات كثيرة لكي نتجنب قلة التركيز وما تنتجه من مشاكل ومحاذير.

وصايا للحفاظ على الانتباه

وتلعب قابلية الانتباه دوراً أساسياً في تحقيق القيام بمهمة التنظيم والتصنيف والتخطيط. ويجب تأمين هذه الخواص والصفات عند الدراسة والبحث وعند تنفيذ التعليمات. فإن جُوبه أحد بالفشل في هذه الساحات فعليه البحث عما إذا كانت عوامل الانتباه عنده طبيعية أم لا.

والانتباه يشكل أهم عامل في نجاح الطلاب، حيث يلعب عامل الانتباه للدرس ومداه وقوته عند أي طالب، أو مدى تشتت انتباهه دورا أساسيا في موضوع نجاحه أو فشله. فالطالب الذي لا ينتبه إلى أستاذه في الصف والذي يتشتت انتباهه على فترات متقاربة يُلاحظ انخفاض في نجاحه. ومهما بدا الطالب في الظاهر منتبها لأستاذه في الدرس فإن من المهم مدى انتباهه فعلاً وحقيقة.

يمكن برعاية الوصايا أدناه رفع درجة الانتباه، فهي تساعد كل شخص على تركيز الانتباه، وتزداد بالتالي القدرة الذهنية له:

- تأمين الاطمئنان النفسي والروحي.
- تناول الفيتامينات بشكل متوازن.
- تأمين مكان مريح وملائم للتكيف معه.
- مطالعة الكتب بشكل كاف.
- القيام بتمارين ذهنية لتقوية الذاكرة، منها تمارين الحفظ عن ظهر قلب.
- محاولة تطويل فترة الانتباه منذ مرحلة الطفولة. ويتم هذا بالاهتمام بتنظيم فعاليات التعليم واللعب والراحة حسب عمر الطفل.
- الابتعاد عن التعرض للتوتر والإرهاق.
- الابتعاد عن الأجواء المريحة جداً التي تبعث على الكسل والتي تقلل الحوافز.
- الابتعاد قدر الإمكان عن الملوثات (دخان السجاير، الهواء الملوث، منتجات النفط، المواد الحافظة للأغذية...)
- الابتعاد عن الضوضاء في أوساط العمل.
- تقليل التعرض للتلوث في ساحة العمل.
- الابتعاد عن التعرض للمنبهات الصوتية والبصرية واللونية القوية، أو التقليل منها.
- عدم الإفراط في الأكل.

قد لا تكون هذه الوصايا كافية عندما يكون تشتت الانتباه في مستوى عالٍ. لذا يستطيع المبتلَون بهذا مراجعة الأطباء أو ممارسة أنواع من التدريب والمران في هذا المجال.

والنتيجة التي نخلص إليها هي أن على الإنسان ألا يبذر نعمة التركيز والانتباه الموهوبة له في أمور لا تعود عليه بالفائدة في عمره الذي يعيشه مرة واحدة، ولا يجعلها هباءً منثوراً. فهذه القابلية ضرورية له في سعادته في الدنيا وفي الآخرة. ولكي نستغل قابلياتنا وطاقاتنا كما يجب فعلينا الحرص والحفاظ على ما عندنا من قابلية التركيز والانتباه.■

(*) كاتب وباحث تركي. الترجمة عن التركية: أورخان محمد علي.



حراء

مجلة علمية ثقافية فصلية

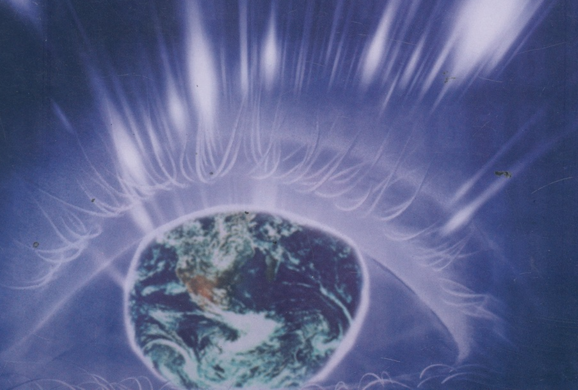
www.hiramagazine.com

تركيا: ٥ ليرات • أوروبا: ٣ يورو • أمريكا: ٤,٥ دولار

العالم والنور

شمس الحقيقة من بعيد تتراءى، وهي آتية لا محالة،
وبأضوائها سيغتسل العالم، ونورها سيغمر الظلمات،
والبشرية الظامئة للنور، ستدير أقداح الفرح والسرور،
لكل عطشان من بني الإنسان...

***



ISSN 1306-1879
9771306187009 10
www.hiramagazine.com

حراء

مجلة علمية ثقافية فصلية

www.hiramagazine.com

العدد الثالث عشر / السنة الرابعة / (أكتوبر - ديسمبر) ٢٠٠٨

اهجر النوم وهاجر،
اشحذ زناد إرادتك وهاجر،
احمل شعلة النور وهاجر،
وفي كل مكان
اغرس فسيلة روحك،
ففيها تختفي حدائق الكون،
وأسرار الوجود،
والأمل المنشود،
والعالم الموعود..

***



القوى الذاتية

الإنسان قوة واعية، وأعظم الوعي أن يعي الإنسان نفسه، ويعي ما انطوى عليه من قوى روحية خلاقة قادرة على أن تتشكل خارج النفس فكرًا أو سلوكًا وطاقات عمل..

ومن هنا ظلت الأقلام الشريفة الجادة تؤكد على الجانب الذاتي من الأمة، هذا الجانب الزاخر بالطاقات والإمكانات.. فاستنهاض هذه القوى الذاتية للأمة مضافا إليها قوى عصرية جديدة وفتية، تزيد في قدرتها على امتلاك ناصية النموذج الأرقى من دواخلها من دون الحاجة إلى تلمسه في مواطن أخرى... فمقال فضيلة الأستاذ "فتح الله كولن" يدور حول هذه المحاور التي ذكرناها آنفًا.

أما جوهر الإنسان، ومجال التدافع الحضاري فيمكن استشفافه من خلال منظومة القيم الإسلامية وحاجة الواقع المعاصر لها كما يقول الدكتور "الصمدي" في مقاله الموسوم بالعنوان نفسه.. وقد كتب العالم الكبير الأستاذ "زغلول النجار" فقال: "هذه الدقة البالغة في التفريق بين الضوء المنبعث من جسم ملتهب، مشتعل مضيء بذاته، وبين سقوط هذا الضوء على جسم مظلم بارد وانعكاسه نورا من سطحه لا يمكن أن يكون لها مصدر من قبل ألف وأربعمائة سنة إلا الله الخالق..."، وهذه الفقرات تكاد تكون تلخيصا لمقاله "ضوء الشمس ونور القمر". وللروح في هذا العدد من "حراء" أغنية يغنيها وينظمها الشاعر المبدع "عبد العزيز المقالح" من اليمن وهي تنمّ عن شاعرية شفافة الأردان، رقيقة الإهاب.

ونحو استئناف التأسيس للمؤسسات المدنية في المجتمع الإسلامي المعاصر، يكتب الأستاذ الدكتور "أحمد عبادي" مقالا في غاية الأهمية يعزو فيه أسباب زهد المسلمين الأوائل في ضبط المؤسسات وبلورة فقه خاص بها إلى البعد العقيدي في التقوى الذي يكاد يكون بحد ذاته نوعا من أنواع الضبط المؤسساتي للمجتمع، غير أن استئناف العمل التأسيسي اليوم وبلورة فقه خاص به أمر تقتضيه حياة المجتمع في العصر الحديث.

أما شيخنا الجليل الأستاذ الدكتور "محمد سعيد رمضان البوطي" فيطرق في مقاله قضية مهمة في حياة الفكر والوجدان، وهي قضية "محبة الله" والنتائج التي تحققها في حياة الفرد والمجتمع.. والأستاذ الدكتور "محمد عمارة" يلتفت في مقاله الموسوم "المنهاج النبوي في المداعبة والمزاح" إلى جانب من جوانب الشخصية المحمدية الحبيبة قلما التفت إليها كتاب السير، ألا وهي المداعبة والمزاح، ويسرد لنا صوراً من مزاحه الشريف والعفيف عليه الصلاة والسلام. والشاهد "البوشيخي" عملاق "المصطلح" في المغرب العربي، فهو يحدثنا في مقاله عن "مفهوم الأمن في القرآن الكريم" في عمق واستيعاب كما هو في كل ما يكتب من أبحاث أو مقالات. ■

م دار «الجمهورية» للصحافة

حراء
مجلة علمية ثقافية فصلية
www.hiramagazine.com

العدد الثالث عشر – السنة الرابعة (أكتوبر – ديسمبر) ٢٠٠٨

التصور العام

- حراء مجلة علمية ثقافية فصلية تعنى بالعلوم الطبيعية والإنسانية والاجتماعية وتحاور أسرار النفس البشرية وآفاق الكون الشاسعة بالمنظور القرآني الإيماني في تآلف وتناسب بين العلم والإيمان، والعقل والقلب، والفكر والواقع.
- تجمع بين الأصالة والمعاصرة وتعتمد الوسطية في فهم الإسلام وفهم الواقع، مع البعد عن الإفراط والتفريط.
- تؤمن بالانفتاح على الآخر، والحوار البناء والهادئ فيما يصب لصالح الإنسانية.
- تسعى إلى الموازنة بين العلمية في المضمون والجمالية في الشكل وأسلوب العرض، ومن ثم تدعو إلى معالجة المواد بمهنية عالية مع التبسيط ومراعاة الجوانب الأدبية والجمالية في الكتابة.

شروط النشر

- أن يكون النص المرسل جديدا لم يسبق نشره.
- ألا يزيد حجم النص على ٢٠٠٠ كلمة كحد أقصى، وللمجلة أن تلخص أو تختصر النصوص التي تتجاوز الحد المطلوب.
- يرجى من الكاتب الذي لم يسبق له النشر في المجلة إرسال نبذة مختصرة عن سيرته الذاتية.
- تخضع الأعمال المعروضة للنشر لموافقة هيئة التحرير، ولهيئة التحرير أن تطلب من الكاتب إجراء أي تعديل على المادة المقدمة قبل إجازتها للنشر.
- المجلة غير ملزمة بإعادة النصوص إلى أصحابها نُشرت أم لم تنشر، وتلتزم بإبلاغ أصحابها بقبول النشر، ولا تلتزم بإبداء أسباب عدم النشر.
- تحتفظ المجلة بحقها في نشر النصوص وفق خطة التحرير وحسب التوقيت الذي تراه مناسبا.
- النصوص التي تنشر في المجلة تعبّر عن آراء كُتّابها، ولا تعبّر بالضرورة عن رأي المجلة.
- للمجلة حق إعادة نشر النص منفصلاً أو ضمن مجموعة من البحوث، بلغته الأصلية أو مترجمًا إلى أي لغة أخرى، دون حاجة إلى استئذان صاحب النص.
- مجلة حراء لا تمانع في النقل أو الاقتباس عنها شريطة ذكر المصدر.

يرجى إرسال جميع المشاركات إلى هيئة تحرير المجلة على العنوان الآتي:

hira@hiramagazine.com

مجلة علمية ثقافية فصلية تصدر عن:
Işık Yayıncılık Ticaret A.Ş
İstanbul / Türkiye

صاحب الامتياز
مصطفى طلعت قاطرجي أوغلو

المشرف العام
نوزاد صواش
nsavas@hiramagazine.com

رئيس التحرير
هاني رسلان
hraslan@hiramagazine.com

مدير التحرير
أشرف أونن
eonen@hiramagazine.com

المخرج الفني
مراد عرباجي
marabaci@hiramagazine.com

المركز الرئيس
HIRA MAGAZINE
Emniyet Mah. Huzur Sok.
No:5 34676 Üsküdar
İstanbul / Turkey
Phone: +902163186011
Fax: +902164224140
hira@hiramagazine.com

مركز التوزيع
٧ ش البرامكة – الحي السابع – م. نصر/القاهرة
تليفون وفاكس: +20222631551
الهاتف الجوال: +20165523088
جمهورية مصر العربية
sub@hiramagazine.com

نوع النشر
مجلة دورية دولية

Yayın Türü
Yaygın Süreli

رقم الإيداع
١٣٠٦–١٨٧٩

المحتويات

حراء

مجلة علمية ثقافية فصلية

www.hiramagazine.com

EGYPT
7, el-Barameka st, off al-Tayaran st. al-Hay al-Saabi
Nasr City-Cairo/EGYPT
Tel-Fax: +20222631551 Mobile: +20165523088

TÜRKİYE
Emniyet Mahallesi, Huzur Sokak, No:5
34676 Üsküdar-İstanbul/TÜRKİYE
Phone: +90(216) 318 60 11 Fax: +90(216) 422 41 40

USA
The Light, Inc.
26 Worlds Fair Dr. Unit C Somerset,
08873 New Jersey, USA
Phone: +1 732 868 0210 Fax: +1 732 868 0211

SAUDI ARABIA
AL Watania Distribution الوطنية للتوزيع
P.O.BOX 8454 Riyadh Zip Code: 11671 Saudia
Tel: +966 1 4871414
GSM: +966 504358213

SYRIA
GSM: +963 944 355675

MOROCCO
الدار البيضاء ٧٠ زنقة سجلماسة
Société Arabo-Africaine de Distribution,
d'Edition et de Presse (Sapress)
70, rue de Sijilmassa, 20300 Casablanca / Morocco
Tel: +212 22 24 92 00

YEMEN
دار النشر للجامعات
الجمهورية اليمنية، صنعاء، الخط الدائري الغربي، أمام الجامعة القديمة
Tel: +967 1 440144
GSM: +967 711518611

ALGERIA
GSM: +213 770 625650

SUDAN
Tel: +249 918248388

JORDAN
GSM: +962 776 113862

UNITED ARAB EMIRATES
GSM: +971 509605303

حركة نماذجها من ذاتها



❁ فتح الله گولن ❁

في هذا المقال أحـــب أن أتحدث عن موضوع يقتضي خُلُقُ الوفاء تناوله، وهو في الوقت نفســـه موضوع يصعب الحديث عنه لأنه يشـــبه قصص البطولة القريبة من الأساطير. ولا أدري في الحقيقة هل تستطيع مقالة أن تحيط في إطارها حركة البعث والإحياء التي بدأت فسائلها ونبتاتها الصغيرة تـــورق في أرجاء المعمورة؟.. لا أظن هذا... فمعلوماتي في هذا الموضوع منحصرة فيما شـــاهدته في أفلام الفيديو، وشـــهادتي هنا بمسموعاتي، وقلمي أســـير لقريحتي، ولا أدري متى تتجلى حقيقة ما تم ومعاني ما جرى.. أيا ليت شعري ماذا يمكن أن نقول في هذه الحال؟! لذا فكل ما يمكنني في هذا الأمر هو القيـــام بتصوير زهرة أو وردة واحدة تمثل جميـــع الأزاهير والورود. فكيف يمكن بصورة ميتة لزهرة واحدة تصوير جمال بسْـتان بأكمله... بستان بزهوره ووروده، مـــع أن لكل زهرة لونها، ولكل وردة جمالها الخاص بها؟.. من الواضح

اســـتحالة هذا الأمر. ومع هذا فإنني أعتقد بضرورة إظهار مثل هذه الجرأة لدعوة أرباب القلوب والعلم كي يســـجلوا ملحمة العصر هذه ويشـــرحوها. فإن استطاعت محاولتنا هذه دفع بعض أرباب الهمـــة إلى البدء في هذه المهمة، فـــإن محاولتنا تكون قد وصلت إلى هدفها.

إذن فمهما كان الأسلوب ومهما كان مستوى التعبير فيجب شرح هذه الملحمة، لإيداعها في ضمير التاريخ أولاً، ثم لأداء حق ودَيْن الوفاء للأبطال الذين نذروا أنفسهم لها وأنجزوها وحققوها. فإن لم يتم شرح هذا النسيم الرقيق الذي هب في أرجاء الأرض في وقت قصير و لم تتم الإشادة بهذا الهواء الدافئ، وبهذا الفكر النضر، وبموجات الحب وقبول الآخر التي تموجت بها أرجاء الأرض... فإن هذا يكون جحوداً وقلة وفاء، وضعفاً في الشـــهامة، وعدم احترام وتوقير لمثل هذه الخصال السامية.

إن هذه الحركة ظاهرة يجب أن تُشـــرح ويتم الوقوف عندها بشـــكل جدي، فَقَدْ قررت فئة قليلة ملك الحب قلبها أن تنطلق لنيل رضاه تعالى إلى المشرق وإلى المغرب وإلى أرجاء الأرض جميعاً في وقت لم يخطر فيه هذا بخاطر أحد.. انطلقت دون أن تهتم بآلام الغربة وبفراق الأحبة، ملؤها العـــزم والثقة... طوت في أفئدتها بعشـــق خدمة الإيمان لواعجَ الفراق، وَحُبَّ الوطن، وآلامَ فراق الأهل والأحبة... قليل من الناس شـــعروا مثلهم وعاشوا الجهاد في ســـبيل الله مثلهم وقالوا وهم ينتشرون في المغرب وفي المشرق مثلما قال حواريو الرسل "خضنا دروب الحب فنحن مجانين..." (الشـــاعر نيكاري)... ذهبوا وهم في ميعة الشباب يحملون آمالاً وأشواقاً دنيوية تشتعل في قلب كل شاب والتي لها جاذبية لا تقاوَم فضلا عن هذه الفترة النضرة من مرحلة الشاب، ذهبوا في عصر طغت فيه المادية والأحاســـيس الجسمانية على المشاعر الإنسانية، وهم يكبتون تلك المشاعر والآمال المشتعلة في صدورهم باشتياق إلى وصال آخر أقوى منها وأكثر التهاباً وتوهجاً وهم ينتشرون في مشـــارق الأرض ومغاربها ويسيحون حاملين في أفئدتهم تلك الجذوة المشتعلة من نشـــوة الرعيل الأول. لم تكن هذه السياحة من ذلك النوع الذي يهيم به الشـــاب في مرحلة مراهقته خلف حلم ملكة جمال مزيفة ويعيش طوال عمره بســـذاجة في أوهام وخيالات آلام الفراق، مبتعداً عن ذاتيته ولا يستطيع الوصول أبداً إلى مبتغاه. أما سياحة هؤلاء الأفذاذ فسياحة واعية ملؤها المشاعر الصادقة والإرادة الحازمة والإخلاص الصادق العميق... ويمكنكم أن تعبروا عن هذا، بأنهم المســـتعلون على كل حب سواه تعالى، المجاهدون في سبيل دعوتهم، ديناميكيتهم الإيمان دوماً، وأحوالهم الطبيعية العشق، ومبتغاهم نذر أنفسهم لله تعالى، وأسوتهم النور الخالد ﷺ. أجل!.. لم يتعثر هؤلاء لطبع أنفســـهم و لم يستسلموا أمام العراقيل. الحب الوحيد الذي لم يبهت في أفئدتهم كان حب الله ومحاولة كســـب رضاه، والوصول إلى الحق تعالى. لذا شدوا رحالهم إلى أبعد زوايا العالم. ســـاروا في هـــذا الطريق، فافتخر بهم الطريق، وسعد بهم الربانيون، وشقي بهم الشياطين.. ساروا دون خيل ولا عربة، لا ســـلاح لهم ولا ذخيرة... الإيمان العميق الذي كان يعمر قلوبهم ويتفجـــر فيها كالحمم كان منبع قوتهم وقدرتهم... وهدفهم المرسوم في آفاقهم سعادة الإنسانية ورضوان الله تعالى... حظوظهم كحظوظ الحواريين والصحابة... وصلوا في عفتهم وطهرهم إلى عفة الملائكة الأطهار، وسجلوا ذكريات ملاحم لا تنسى ولا تمحى.

وأســـالوا في كل مكان وصلوا إليه نـــورا دفّاقا من الأزل.. أشـــعلوا المواقد في كل جانب في لهيبهـــا وجمرها ودخانها الأمنَ والطمأنينة.. تهاوى ســـحر الظلم والظلام.. طار نوم خفافيش الإلحاد.. تعالت شكايات واحتجاجات الظلام كله.. تصاعدت موجـــات الكذب والافتراء والزور.. وارتفع ضجيج الفكر الفج والتعصب.. توجهت السهام نحو الفكر الحر، ووضعت المصائد المميتة للإيمان. ولكن جميع هذه المحاولات اليائسة كانت سدًى، فقد انتشـــر النور في كل الأرجاء، ولـــف النور الآتي من الأزل بأكملهـــا. لقد أصبح العهد عهـــد الأرواح النيرة وصار الزمان زمانهم.. صحيح أنه بقي بعض آثار الغبار والدخان، وكان الأفق مضبباً، ولكن كان سحر الظلام والفكر الفج قد زال وانقضى.

لقد أصبحت الكلمة الآن لأصحاب الأرواح النيرة. ستكتشف الإنسانية بهم نفسها من جديد، وستأخذ مكانها الصحيح في كيان الوجود. لذا كان هؤلاء هم الجيل المرتقب. هم المنتظرون من قبل الإنسانية في كل مكان.. أما هم كانوا بخلقهم الرفيع وبتواضعهم الجـــم وبعبوديتهم لله وتعظيمهم له، وبتوقيرهم للناس واحترامهم لهم، ينتظرون من خلال فرجة باب رحمة الرحمن الرحيم واللحظة التي ســـينهمر فيها النور الإلهي عليهم. إنهم جيل المستقبل وأبناءَهُ أيا كان تقييم الناس إياهم، فالمستقبل المنوّر حامل بأسرارهم. كل فرد من هؤلاء الســـعداء حواري الإحياء والإنقاذ ضمن طاقته،

حاملين بأيديهم باقات من ورود الصداقة، وعلى شفاههم أناشيد الأخوة. أقوالهم الفاصلة -كالفيصل المهنّد- تغذّى من شلّال القرآن، أحاديثهم ذات أبعاد أخروية. كلماتهم وأحاديثهم كانت تبيد الظلام وتزيله دون أن تجرح أحداً. إنها كانت تطبع صوت خرير ماء الكوثر في الآذان، دون أن تترك أثر حسرةٍ عند أحد.

والحقيقة أن هؤلاء لا يحتاجون لا إلى يد ولا إلى لســان، لأن وجوههم المتلألئة كالمشاعل تُذكر بالله أينما حلوا وأينما وجدوا وأينما أقاموا، وأن السحر المترشح من سيماهم الطاهرة والمعاني الناضحة من أحوالهم كان من القوة بحيث تخرس كل بيان أمامه، وتدفع الألســن إلى مراقبة صامتة. لم يكــن ضياؤهم، بل حتى ظلالهم تحرق الفراشات الحوامة حولهم، أو نورهم يبهر عيون من يقترب من منازلهم ويعشــيها. وكما في المثل: "لسان الحال أبين من لسان القال". كان هؤلاء هم الممثلين لصحة هذا القول. لقد وجد في هذه الدنيا في كل عهد أناس خيّرون وأبرار، إلا أن أداء هؤلاء وأسلوبهم كان شيئاً مختلفاً تماماً. ولا أستطيع أن أقول أن ليس لهم مثيل أو نظير. ولكن إن قيل لي: "إذن فهات" لم أستطع الرد حالاً، بل ربما قلت: "إن هؤلاء يشبهون الملائكة الأطهار".

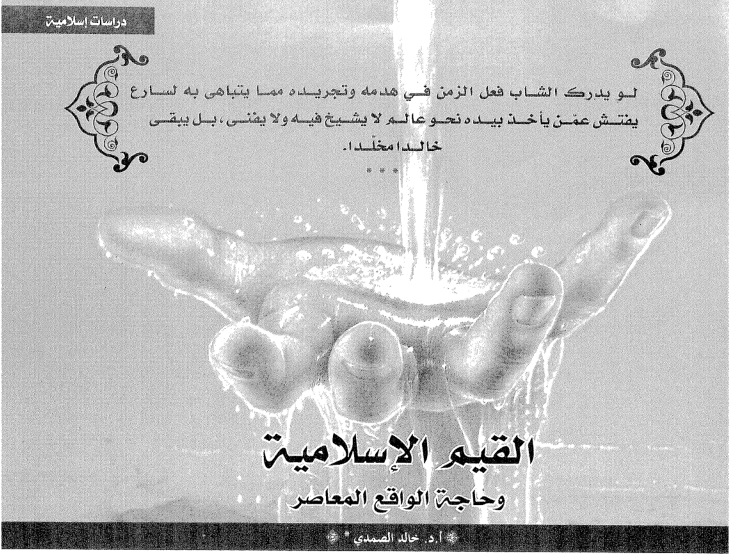
لا يهم بمن نشــبه أصحاب هذه الأرواح النيرة، فقد قامت الأنوار التي نشروها بتحويل الصحارى القاحلة إلى جَنّاتِ عدن، وتحول كثير من أصحــاب الأرواح المظلمة كالفحم إلى أرواح شــفافة ومضيئة كالألماس، والجبلات والأمزجة والطبائع الخشنة والغليظــة والهابطة ارتفعت وسمت. لذا فقــد كان من الطبيعي أن يتحدث الجميع عنهــم الآن، وينتظروا ويترقبوا تحقق الأخوة والمسامحة التي وعدوا بها وسعوا من أجلها. ولا يوجد من يعاديهم ويثيروا الأقاويل والشبهات حولهم ســوى الذين لا يميزون بين الظلام والنور، الذين قضوا كل حياتهم في سجن الجسد ومطالبه. الخفافيش منــزعجة منهم. الذئاب والوحوش تكشــر لهم عن أنيابها. الذين فقدوا رشــدهم وصوابهم في ضيق وانزعاج منهم. وأنا أرى -من جهة- هذا أمراً طبيعياً، وأقول: ﴿كُلٌّ يَعْمَلُ عَلَى شَاكِلَتِهِ﴾(الإسراء:٨٤).

ومهمــا كان من أمر قيام بعضهم بإطفاء الشــموع هنا أو هناك، فهم ينيرون القلوب الظامئة أينما حلوا أو ارتحلوا، وينبهون الفطر الســليمة والطاهرة إلى ما وراء أستار الأشياء والحوادث، ويسقون السجايا السليمة القيم الإنسانية.

إنــي على يقين بأنه بعد أن تم تجــاوز العراقيل الموجودة بين القارات بفضل القرآن وتحقق حوار مستند إلى الحب وإلى التوقير تأسست وستتأسس أرضية لتفاهم جديد بفضل هؤلاء الربانيين. لقد عرفت الإنسانية في الماضي أمتنا بأنها أمة مستبشرة قد ضحك لها حظها، فما المانع أن تكــون اليوم أيضاً كما كان الحال من قبل؟ بينما نرى أن شــلالاً من الحب بدأ يهدر فعلاً بين الناس في كل مكان وصل إليه هؤلاء المهاجرون في سبيل غايتهم. ففي كل مكان، وفي كل موضع يهب نسيم من الطمأنينة والسكينة يشعر بــه الجميع. والأكثر من هذا فقد تكونت في كل ناحية وجانب ما نطلق عليه وصف جزر الســلام والمحبة على أسس مستقرة ومتينة.

من يــدري فقد يتحقق في المســتقبل القريب بفضل هؤلاء المخلصين الناذرين أنفسهم لفكر البعث والإحياء تأسيس الصلح بين العقل والقلب مرة أخرى. فيكون كل من الوجدان والمنطق أحدهمــا بُعداً مختلفاً للآخر، وتوضــع نهاية للنــزاع بين ما هو مادي وما هو ميتافيزيقي، حيث ينســحب كل منهما لساحته ويجري كلَ شــيء في طبيعته وماهيته، ويجد إمكانية التعبير عن نفســه وعن صور جماله بلسانه. ويتم اكتشاف التداخل الموجود بين الأوامر التشريعية والأسس التكوينية من جديد، ويشعر الناس بالندم على مــا جرى بينهم من خصام وعــداء لا موجب له، وسيسود جو من الســكينة والهدوء -الذي لم يتحقق تماماً حتى الآن- في الشــارع وفي الســوق وفي المدرسة وفي البيت، وتهب نسائمه على جميع البشــرية. لن يُنْتَهَكَ عرض، ولن يُداسَ على شرف، بل سيســود الاحترام القلوبَ، فلا يطمع إنسان في مال إنســان آخر، ولا ينظر نظرة خيانة إلى شــرف آخر. سيصبح الأقوياء عادلين. وســيجد الضعفــاء والعاجزون فرصة في حياة كريمة. لن يُعْتَقَلَ أحد لمجرد الظن. لن يتعرض مســكن أحد ولا محل عمله لهجوم. لن تُــرَاقَ دَمُ أي بريءٍ. لن يبكي أي مظلوم. سيبجل الجميعُ اللهَ تعالى وسيحبُّ الناسَ. حينذاك فقط ستكون هذه الدنيا التي هي معبر للجنة فردوساً لا يُمَلُّ العيشُ فيه. ■

(*) الترجمة عن التركية: أورخان محمد علي.



لو يدرك الشاب فعل الزمن في هدمه وتجريده مما يتباهى به لسارع يفتش عمن يأخذ بيده نحو عالم لا يشيخ فيه ولا يفنى، بل يبقى خالداً مخلّداً.

* * *

القيم الإسلامية

وحاجة الواقع المعاصر

أ.د. خالد الصمدي *

حين نتحدث في عالم اليوم عن منظومة القيم، فإننا نمس مباشرة جوهر الإنسان من جهة، ومجال التدافع الحضاري الحقيقي من جهة ثانية. ولئن كان المسلمون يفتخرون عبر تاريخهم الفكري والحضاري بامتلاكهم لمنظومة قيم متكاملة ذات مرجعية صلبة تستند إلى الوحي وجدت تجلياتها في صياغة الإنسان وصناعة محطات مهمة من تاريخ الإنسانية، فإن هذه المنظومة بقيت مغمورة في أصولها النظرية بل وحتى في تفصيلاتها العملية.

مجالات القيم الحضارية في القرآن والسنة

إن سمة "الحضارية" التي نسم بها القيم الإسلامية تستند إلى معايير أربعة قد لا تجتمع في غيرها؛ فهي شاملة لكافة مناحي الحياة، وهي مستندة إلى عقيدة إسلامية تنبني على الثواب والجزاء الأخروي وتتجاوز النفعية المادية الظرفية، وهي مطبقة في الواقع، وبواسطتها بنيت الأمة الإسلامية عبر التاريخ، وفائدتها تطال العالمين دون تمييز على أساس العرق أو اللون أو الدين، اللهم ما كان من ثواب جزيل أعده للمؤمنين برسالة الإسلام وبثواب الآخرة، أما ثواب العاجلة فللمتمسك بالقيم من جميع الملل والنحل وفقا للسنن الإلهية الكونية، قال تعالى: ﴿مَنْ كَانَ يُرِيدُ الْعَاجِلَةَ عَجَّلْنَا لَهُ فِيهَا مَا نَشَاءُ...﴾(الإسراء:١٨-٢٠).

أ-القيم الاعتقادية والتعبدية

إن ما يميز المنظور الإسلامي للقيم على سائر المنظومات الأخرى، ترسيخه لمفهوم العبودية والاستخلاف أولا. ولم يكن من المستغرب أن يقضي رسول الله ﷺ ثلاث عشرة سنة في ترسيخ قيم العقيدة في النفوس لأنها الأساس المتين الذي ستُبنى عليه باقي مكونات منظومة القيم الحضارية للأمة الإسلامية، ثم ينزل أول ما ينزل من أحكام العبادات، الصلاة. فالمنطلق إذن في بناء منظومة القيم يبدأ بربط الخالق بالمخلوق، وما سيأتي بعد ذلك من أوامر ونواه ستجد طريقها الطبيعي إلى التنفيذ بناء على ذلك.

وتهدف القيم الاعتقادية والتعبدية إلى تركيز مفهوم وحدانية المعبود، يقابل ذلك تحرير الإنسان من كل مظاهر العبودية لأي مخلوق أو كائن مهما عظم، فهو مخلوق على كل حال يحمل سمات النسبية والضعف ومواد الفناء والاندثار. وتعزز شعائرُ العبادات الخمس هذه الصلةَ بالله، وتعمّق القيمَ الإسلامية في المجتمع من خلال التنفيذ الجماعي لهذه العبادات لانسجام وحدة العبادة مع وحدة المعبود في كامل صور الإبداع والاتساق، ويجد كلٌّ ذلك أثره في سلوك الإنسان اليومي في كل مجالات الحياة. قال تعالى: ﴿فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًا فِطْرَةَ اللهِ الَّتِي فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْهَا لاَ تَبْدِيلَ لِخَلْقِ اللهِ ذَلِكَ الدِّينُ الْقَيِّمُ﴾(الروم:٣٠)، وعن أبي هريرة ﷺ قال: قال رسول الله ﷺ: "ما من مولود يولد إلا على الفطرة؛ فأبواه يهوّدانه أو ينصّرانه أو يمجّسانه" (رواه البخاري). والعقل مناط التكليف، ومكمن المحافظة على صفاء الفطرة، قال تعالى: ﴿إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ...﴾(البقرة:١٦٤).

ب-القيم العلمية والمعرفية

العلم باب الإيمان ومدخله. لذلك ركز الإسلام على قيم التفكر والتدبر والتأمل والاستبصار وأخذ العبرة، فبنى لذلك منهجا للاستدلال على وجود الخالق وعظمته، قال تعالى: ﴿إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ وَاخْتِلاَفِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ لَآيَاتٍ لِأُولِي الأَلْبَابِ﴾(آل عمران:١٩٠) وربط في أول آية نزلت من القرآن الكريم بين المعرفة والربوبية، قال تعالى: ﴿اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ ۞ خَلَقَ الإِنْسَانَ مِنْ عَلَقٍ ۞ اقْرَأْ وَرَبُّكَ الأَكْرَمُ ۞ الَّذِي عَلَّمَ بِالْقَلَمِ ۞ عَلَّمَ الإِنْسَانَ مَا لَمْ يَعْلَمْ﴾(العلق:١-٥). وبيّن أن العلم بالخالق مدخل لخشيته وطاعته، قال تعالى: ﴿إِنَّمَا يَخْشَى اللهَ مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَاءُ﴾(فاطر:٢٨)، وجعل الحفاظ على العقل من ضروريات الإنسان الخمس التي لا تقوم الحياة بدونها، وهو طريق الحصول على الزاد المعرفي والمنهجي الذي يمكّن المتعلم من معرفة الذات وبناء الحضارة، كما يمكنه من غربلة الفكر الإنساني بمختلف مشاربه بمقياس القيم الإسلامية، فينتفع ويترك ويتفاعل ويؤثر في إطار سنة التدافع الإلهية. قال تعالى: ﴿وَلَوْلاَ دَفْعُ اللهِ النَّاسَ بَعْضَهُمْ بِبَعْضٍ لَفَسَدَتِ الأَرْضُ﴾(البقرة:٢٥١). وقد خص رسول الله ﷺ العلم والعلماء بالمكانة المتميزة المحفزة على الطلب الدائم للعلم، قال: "إن الملائكة لتضع أجنحتها لطالب العلم رضا بما يطلب" (رواه الترمذي).

وهكذا تتجلى قيمة القيم العلمية والمعرفية؛ فهي التي تنظم تصورات الإنسان للكون والحياة والمصير، مما يجعل حراكه على هدى ورضوان، وهي مناط التكليف والاستخلاف في الأرض، فإذا انفصل الإنسان عنها أفسد في الأرض وأهلك الحرث والنسل. وهي حصيلة قراءة ومصاحبة ومجالسة، ولذلك كان علماؤنا ﷺ، يحثون على مجالسة العلماء ومرافقتهم ليس للسماع منهم فقط، وإنما للتزود منهم برحيق العلم الذي هو الخُلق الرفيع، قال الشعبي رحمه الله: "جالسوا العلماء فإنكم إن أحسنتم حمدوكم، وإن أسأتم تأولوا لكم وعذروكم، وإن أخطأتم لم يعنفوكم، وإن جهلتم علّموكم، وإن شهدوا لكم نفعوكم".

جـ-القيم الأُسَرية والاجتماعية

وهو مجال لتمثل القيم الإسلامية الموجهة للسلوك العام داخل المحيط الصغير (الأسرة) أوّلا من حيث تنظيم العلاقة بين الأزواج وبين كل واحد منهم والأبناء، ثم بين كل هؤلاء وذوي الأرحام، ثم تتوسع الدائرة إلى الجار الجنب والصاحب بالجنب، فإلى المحيط الاجتماعي الواسع. وتحكم كلَّ هذه العلاقات قيم الاحترام والتوقير والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر والتناصح وحب الخير للناس، والتضحية من أجل الصالح العام، والإحسان والتكافل والتآزر والتزاور وغيرها.

ففي القيم الناظمة للأسرة، علّمنا الإسلام أن المودة والسكينة أساس استقرارها، وأن القانون والأحكام الشرعية المنظمة لها لا تعدو أن تكون علاجا لآفات استفحلت وتعذر علاجها بالموعظة الحسنة والتذكير بالميثاق الغليظ، ولذلك وجدنا الآيات التي تتحدث عن نظام الأسرة في الإسلام وخاصة عن نظام العلاقة بين الزوجين تختم في العادة بقوله تعالى: ﴿إِنَّ اللهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيبًا﴾(النساء:١)، ﴿إِنَّ اللهَ كَانَ عَلِيًّا كَبِيرًا﴾(النساء:٣٤)، ﴿إِنَّ اللهَ كَانَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدًا﴾(الأحزاب:٥٥)، للدلالة على الدور الكبير للقيم والرقابة الداخلية في نظام الأسرة، قال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُمْ...﴾(النساء:١). وجعل الإسلامُ مسؤولية القيام بأعباء الأسرة مسؤولية مشتركة، فعن ابن عمر رضي الله عنهما قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: "كلكم راع وكلكم مسؤول عن رعيته، والمرأة راعية في بيت زوجها ومسؤولة عن رعيتها، والخادم راع في مال سيده ومسؤول عن رعيته" (رواه البخاري). ونظم العلاقة بين أفراد الأسرة

الواحدة على أســـاس قيم احترام الكبير، وتوقير الصغير، والتودد للأطفـــال والعدل بينهم، وحماية حقهـــم في التربية على مكارم الأخـــلاق وتعليمهم العلم النافع وغير ذلـــك، كما ألزم الأبناء بـــرد الاعتبار لمجهود الآباء عند الكـــبر، فأمر بطاعتهما والنفقة عليهمـــا عند الحاجة والعوز، والدعاء لهمـــا بعد الوفاة، وإكرام وصلـــة أصدقائهما، لأن ذلك من برهما، قـــال تعالى: ﴿وَقَضَى رَبُّكَ أَلاَّ تَعْبُدُوا إِلاَّ إِيَّاهُ وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا...﴾(الإســـراء:٢٣-٢٤).

أما القيم الناظمة للعلاقات الاجتماعية فقد نبّه الإســـلام إلى أن مخالطة الناس والصبر على أذاهم، والنصيحة لهم والعفو عنهم، والمســـارعة إلى فعـــل الخير المفيد للأمة حيـــث كان من مكارم الأخلاق، قال تعالى: ﴿وَسَـــارِعُوا إِلَى مَغْفِـــرَةٍ مِنْ رَبِّكُمْ...﴾(آل عمـــران:١٣٣-١٣٤). ودعـــا إلى تجنب كل ما يســـيء إلى نظام العلاقـــات الاجتماعيـــة بين أفـــراد المجتمع، مـــن غيبة ونميمة وظلـــم واعتداء علـــى الأنفس والأموال وقطيعـــة رحم وغرور وكبر، قال تعـــالى: ﴿يَا أَيُّهَـــا الَّذِينَ آمَنُوا لاَ يَسْـــخَرْ قَوْمٌ مِنْ قَوْمٍ...﴾(الحجـــرات:١١-١٢). كل تلك الأوامر والنواهي تشـــكل العقد الناظم للعلاقات الاجتماعية التي أرســـى الإسلام دعائمها بنصوص قرآنيـــة وحديثية جامعة، والمتأمـــل في هذه النصوص يجد أن حســـن الخلق مفتاح القيم الاجتماعية، قال ﷺ: "إن من خياركم أحاسنكم أخلاقا" (رواه مسلم). والإيمان بالله في كل ذلك قوة دافعة لفعل الخير ورادعة عن الشـــر، قال تعالى: ﴿لَيْسَ الْبِرَّ أَنْ تُوَلُّـــوا وُجُوهَكُمْ قِبَلَ الْمَشْـــرِقِ وَالْمَغْرِبِ...﴾(البقرة:١٧٧).

وقـــد فصل رســـول الله ﷺ -قولا وفعلا- قيم التماســـك الاجتماعي ورغب فيها، ومن ذلك قوله ﷺ: "حق المســـلم على المسلم خمس: رد الســـلام وعيادة المريض واتباع الجنائز وإجابة الدعوة وتشـــميت العاطس" (رواه البخـــاري)، وقال ﷺ: "أطعموا الجائع وعودوا المريـــض وفكّوا العاني" (رواه البخـــاري). ونهى ﷺ عـــن كل ما يضر بالعلاقات الاجتماعيـــة فقال: "والله لا يؤمن والله لا يؤمـــن والله لا يؤمن"، قيل: ومن يا رســـول الله؟ قال: "الذي لا يأمن جارُه بوائقَه" (رواه البخاري). وقال: "لا تحاســـدوا ولا تباغضوا ولا تقاطعوا، وكونوا عباد الله إخوانا" (رواه مســـلم).

إن هذه النصـــوص الجامعة تدل دلالة قاطعـــة على الأهمية الكبرى التي أولاها القرآن الكريم والسنة النبوية لتماسك المجتمع ووحدته بناء على منظومة قيم جامعة ترسّـــخ كل سلوك إيجابي خير، وتنفي كل سلوك مناقض لقيم التساكن والأخوة والوفاق، ولذلك ليس من الغريب أن يشـــبّه رسول الله ﷺ المجتمع المؤمن بالبنْيان حين قال: "المؤمن للمؤمن كالبنْيان يشدّ بعضه بعضا" ثم شبك بين أصابعه (رواه البخاري). وسر هذا الرص القيمُ الاجتماعية، وعلامة ســـلامة منظومة القيم الاجتماعية أنين الجســـم من كل سلوك مشين مخالف ومناقض؛ قال ﷺ: "ترى المؤمنين في تراحمهم وتوادهم وتعاطفهم كمثل الجســـد؛ إذا اشتكى عضوا تداعى له سائر جسده بالسهر والحمى" (رواه البخاري).

د- القيم الإعلامية والتواصلية

يحتاج العالم اليوم إلى منظومة قيم جامعة ناظمة لنقل الخبر تنهل من مرجعية مرتبطة برقابة الخالق ﷻ، قبل أن تضبطها تشريعات وضعيـــة قلما تحترم. والناظر في الكتابـــات القليلة المتخصصة في إبراز خصائص النظام الإعلامي من منظور إسلامي يجدها تؤصل نظرتها من آي الذكر الحكيم ومن التفصيلات العملية التي جاء بها خير البرية محمد ﷺ؛ فقد بدأ الإســـلام أول ما بدأ بالحديث على ضرورة حفظ الإنسان لحواس التواصل التي متعه الله بها، قال تعالى: ﴿وَلاَ تَقْفُ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ...﴾(الإســـراء:٣٦). ثم ركب على ذلك حفظ أعراض الناس من القول الســـيئ والباطل، قال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنْ جَاءَكُمْ فَاسِقٌ بِنَبَأٍ فَتَبَيَّنُوا...﴾(الحجرات:٦). ونهى عن نشـــر الفواحش بكل إشـــكالها المســـموعة والمرئية، قـــال تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يُحِبُّونَ أَنْ تَشِـــيعَ الْفَاحِشَـــةُ فِي الَّذِينَ آمَنُوا...﴾(النور:١٩). ثم حث على القول الحسن ونشر الخير، قال تعالى: ﴿وَقُلْ لِعِبَادِي يَقُولُوا الَّتِي هِيَ أَحْسَنُ...﴾(الإسراء:٥٣).

ثم وضع الإسلام ضوابط لنقل الخبر ونشره واستعمال وسائل الإعلام في ما ينفع الناس ويمكث في الأرض، مع تجنب الإشـــاعة والخبر الكاذب وما ســـوى ذلك مما ينافي قيم الإســـلام في مجال الإعلام والتواصل. وفي ذلك قواعد عظيمة سطرتها السنة النبوية، وأولهـــا: تحري الصدق في الخبر، يقول ﷺ " عليكم بالصدق فإن الصدق يهـــدي إلى البر وإن البر يهدي إلى الجنة، ومازال الرجل يصدق ويتحرى الصدق حتى يكتب صديقا، وإن الرجل يكذب ويتحرى الكذب حتى يكتب كذابا" (رواه مسلم). وثانيها: الدعوة إلى الهدى والخير مع ربط ذلك بالثواب الذي لا ينقطع، قال ﷺ: "مـــن دعا إلى هدى كان له من الأجـــر مثل أجور من تبعهم لا ينقص ذلك من أجورهم شـــيئا. ومن دعا إلى ضلالة كان عليه

من الإثم مثل آثام من تبعهم لا ينقص ذلك من آثامهم شيئا" (رواه مسلم). وثالثها: النهي عن انتهاك الحرمات والأعراض، لما يترتب على ذلك من أذى لا يمكن جبره، ومن ذلك قوله ﷺ: "ليس المؤمن بالطعان ولا اللعّان ولا الفاحش ولا البذيء" (رواه الترمذي).

هـ-القيم الاقتصادية والمالية

حينما يعرض الإسلام نظريته الاقتصادية فإن ما يميزه عن غيره من النظريات يكمن في منظومة القيم الموجهة للفعل الاقتصادي للمسلم وأساسها قيمة الاستخلاف، قال تعالى: ﴿آمِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَأَنْفِقُوا مِمَّا جَعَلَكُمْ مُسْتَخْلَفِينَ فِيهِ...﴾(الحديد:٧) وقال ﷺ: "إن الدنيا حلوة خضرة وإن الله تعالى مستخلفكم فيها فينظر كيف تعملون" (رواه مسلم). وانطلاقا من هذه القيمة رسم الإسلام نظاما متماسكا للتصرف في المال كسبا وإنفاقا، فأحل الله البيع، ودعا إلى الكد في كسب الرزق الحلال، فرخص في المساقاة والمزارعة وعقود الاستصناع والشركة والتجارة المبنية على التراضي الشرعي، وغير ذلك من ضروب الكسب، قال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لاَ تَأْكُلُوا أَمْوَالَكُمْ بَيْنَكُمْ بِالْبَاطِلِ...﴾ (النساء:٢٩).ونظم الهبات والصدقات الواجبة والتطوعية؛ وحرم الربا والغش والتطفيف في المكاييل وغيرها من ضروب الكسب الحرام، قال تعالى: ﴿وَيْلٌ لِلْمُطَفِّفِينَ...﴾(المطففين:١-٣).

كل ذلك دليل على أن المال مال الله والناس فيه مستخلفون فيه، وسيُسألون عن تصرفهم فيه حفظوا أم ضيعوا، قال ﷺ: "لا تزول قدما عبد يوم القيامة حتى يسأل عن أربع: عن عمره فيما أفناه، وعن علمه ما عمل به، وعن ماله من أين اكتسبه وفيم أنفقه، وعن جسمه فيما أبلاه" (رواه الترمذي). وهذه نظرية تخالف النظريات المادية التي تعتبر المال ملكا للإنسان وهو حر في التصرف فيه. وانطلاقا من نظرية الاستخلاف ركز الإسلام قيم حفظ الأمانة، وجعل الخيانة من آيات النفاق، قال رسول الله ﷺ: "آية المنافق ثلاث: إذا حدث كذب وإذا وعد أخلف وإذا اؤتمن خان" (متفق عليه). ورسم للمجتمع سياسة مالية تنفي الجشع والطمع والظلم والقهر وتضمن للناس توازنا في الكسب والإنفاق، قال تعالى: ﴿وَالَّذِينَ إِذَا أَنْفَقُوا لَمْ يُسْرِفُوا وَلَمْ يَقْتُرُوا...﴾ (الفرقان:٦٧). وأقر صورا للتداول في المال حتى لا يكون فقط بين الأغنياء، ومن ذلك نظام الإرث والزكاة والوقف والهبة والصدقة، قال ﷺ: "إذا مات ابن آدم انقطع عمله إلا من ثلاث: صدقة جارية أو علم ينتفع به أو ولد صالح يدعو له" (رواه الترمذي). ونظم الوصايا حتى تحقق مقصدها وغايتها، فعن سعد بن أبي وقاص ﷺ قال: قلت: يا رسول الله! أنا ذو مال ولا يرثني إلا ابنة لي واحدة أفأتصدق بثلثي مالي؟ قال: "لا"، قلت" أفأتصدق بشطره؟ قال: "لا"، قلت: أفأتصدق بثلثه؟ قال: "الثلث، والثلث كثير، إنك إن تذر ورثتك أغنياء خير من أن تذرهم عالة يتكففون الناس" (متفق عليه). ونهى عن الاحتكار والتبذير والإسراف وأكل مال اليتيم، قال تعالى: ﴿وَلاَ تَقْرَبُوا مَالَ الْيَتِيمِ إِلاَّ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ...﴾(الأنعام:١٥٢). وقال ﷺ: "من احتكر فهو خاطئ" (رواه مسلم). ورغب في العمل المقرون بالعفة، قال ﷺ: "لأن يأخذ أحدكم حبله فيأتي بحزمة الحطب على ظهره فيبيعها فيكف الله بها وجهه خير له من أن يسأل الناس أعطوه أو منعوه" (رواه البخاري). ودعا إلى تكافؤ الفرص في الكسب وتحفيز القادرين على العمل، قال ﷺ: "من كانت له أرض فليزرعها أو ليمنحها أخاه، فإن أبى فليمسك أرضه" (متفق عليه).

و-القيم الوقائية والصحية

الصحة نعمة إلهية وهي "تاج على رؤوس الأصحاء لا يراها إلا المرضى" كما يقال، و"المؤمن القوي خير وأحب إلى الله من المؤمن الضعيف وفي كل خير" (رواه مسلم). وهي "تشمل جوانب الإنسان كلها: الجسمية والنفسية والروحية، فإذا أحسن الإنسان الاستفادةَ من نعمة الصحة والحفاظ عليها وعمل على تعزيزها وتقويتها فقد استمسك بالعروة الوثقى واستمتع بخيرات العافية وبركاتها، ونعم بالنجاة من عامة الأمراض والأسقام، وإنما يفلح في ذلك إذا سلك في حياته سلوكا يعزز صحته، واتبع في معاشه أسلوبا يزيد رصيده الصحي، ولجأ إلى الوقاية التي هي خير من قناطير العلاج".

ويمتلك الإسلام منظومة من القيم الحضارية الناظمة للسلوك الوقائي والصحي تبدأ بقواعد حفظ النسل كضرورة من الضروريات الخمس في الشريعة الإسلامية، فقد حددت الشريعة الإسلامية مقررات وقواعد لتنظم الصحة الإنجابية للأسرة بدءا باختيار الزوجين ورسم قواعد لتنظيم الأسرة عن طريق المباعدة بين الأحمال بالوسائل المشروعة، ودعت إلى رعاية الأم الحامل والمرضع وعلاج كل أسباب العقم وغير ذلك من التعليمات الإسلامية الشرعية المتعلقة بالصحة الإنجابية. وكلُّ ذلك تدعو الشريعةُ إلى نشره والتربية عليه وفقا للقيم الأخلاقية وأساليب

الحكمة المحقِّقة للوعي الكامل بهذه القضايا لدى أجيال المراهقة والشباب والأزواج حتى يكون تصرفهم سليما ومتوازنا يستهدف صرف الشهوة الجنسية الطبيعية في مصرفها الطبيعي لتحقيق الغرض من بقاء النسل واستمرار الحياة والاستجابة لأمانة الاستخلاف.

كما نهى الإسلام عن كل ما يضر بالصحة الجسمية والنفسية من مخدرات وخمر وكافة المهلكات، ودعا إلى ممارسة الرياضة البدنية كالسباحة والرماية وركوب الخيل وغيرها، لأن الأمة بأبنائها ولن تسود أمة تخترقها الأمراض وتنهكها الأوبئة. فقد مر الرسول ﷺ بمجموعة من الشباب يتدربون على الرمي، فقال لهم مشجعا: "ارموا يا بني إسماعيل، فإن أباكم كان راميا" (رواه البخاري).

وحث على التداوي والتماس كل وسائل الاستشفاء، ودل الإنسان على صور من ذلك تجمع بين المادة والروح، قال تعالى: ﴿وَأَوْحَى رَبُّكَ إِلَى النَّحْلِ أَنِ اتَّخِذِي مِنَ الْجِبَالِ بُيُوتًا...﴾(النحل:٦٨-٦٩). وعن عبد العزيز قال: دخلت أنا وثابت على أنس بن مالك فقال ثابت: يا أبا حمزة اشتكيت، فقال أنس: ألا أرقيك برقية الرسول ﷺ؟ قال بلى، قال: "اللهم رب الناس، مذهب البأس، اشف أنت الشافي، لا شافي إلا أنت، شفاء لا يغادر سقما" (رواه البخاري). ونجد أن الإسلام سن قواعد في الحجر الصحي حتى لا تنتشر الأمراض والأوبئة، قال ﷺ: "الطاعون رجز أرسل على طائفة من بني إسرائيل، أو على من كان قبلكم، فإن سمعتم به بأرض فلا تدخلوا عليه، وإذا وقع بأرض وأنتم بها فلا تخرجوا فرارا منه" (رواه مسلم). وسن منظومة من الآداب والاحتياطات الصحية التي تكون وقاية وحصنا من انتقال العدوى والأمراض، قال ﷺ: "إذا ولغ الكلب في الإناء فاغسلوه سبع مرات وعفروه الثامنة في التراب" (رواه مسلم).

والخلاصة أن القيم الصحية والوقائية قائمة في مجملها على الوقوف عند حدود الله في الحلال والحرام وتقوية الجانب النفسي والروحي بالطاعات والنوافل وذكر الله والإيمان بقضائه وقدره، وكل هذه التوجيهات قيم إسلامية أصيلة تستهدف من بناء المسلم السوي القوي القادر على القيام بمهام الاستخلاف.

إن الرصد المعرفي والعلمي الذي بينا من خلاله شمولية القيم الحضارية من منظور إسلامي لكل مجالات الحياة يحتاج إلى منهجية للتنزيل من أجل تربية الأجيال المتعاقبة على إدراك أهمية القيم في العمران من جهة، وأهمية استناد هذه القيم الحضارية إلى المرجعية الإسلامية القائمة على مبادئ الاستخلاف والتسخير والمسؤولية من جهة أخرى.

ز–القيم الحقوقية

خطاب حقوق الإنسان في التداول الفكري والثقافي المعاصر أصبح أكثر رواجا وذيوعا، والتوعية بالقيم الضامنة لحقوق الإنسان مثل العدل والمساواة والحرية والإنصاف وتكافؤ الفرص وغيرها من القيم أصبحت الشغل الشاغل للمنظمات الدولية والأهلية على حد سواء، بل وأصبحت مؤشرات التنمية البشرية في أي بلد تقاس بمدى احترامه لحقوق الإنسان.

ولسن نضيف جديدا إلى كتابات المفكرين المسلمين الذين فرغوا جهدهم وطاقتهم للدفاع عن المنظور الإسلامي في حماية الحقوق في منشوراتهم ومناظراتهم وندواتهم ومشاركاتهم الإعلامية، إلا أن الجهد الكبير من الناحية المنهجية ينبغي أن ينصب على ما يميز النظرية الإسلامية عن غيرها، والتمايز حاصل بالذات في أن نظرة الإسلام إلى حماية الحقوق لا تنحصر في حقوق الإنسان، وإنما يجعل هذا الجانب من الحق مندرجا ضمن منظور متكامل، فنحن حين نتحدث عن حقوق الإنسان انطلاقا من المرجعية المستندة إلى أحكام الإسلام وما ينسجم مع مقاصده من اجتهادات عالية، فإنما نفعل ذلك من منظور يبدأ أولا بالتربية على احترام حقوق الله، لأن من لا يحترم حقوق الله لا يمكن أن يحترم حقوق غيره، ثم التربية على احترام حقوق الإنسان، وبعد ذلك تأتي حقوق المحيط على الإنسان من حيوان ونبات باعتبارها كائنات مسخرة لا تقبل العبث ولا الإسراف وإنما تستغل بالعدل والقسط والإحسان، وبذلك كان تنظيم القيم الإسلامية لمجال الحقوق أوسع وأشمل وأكمل.. ويبرز هذا المنظور الشمولي في سؤال رسول الله ﷺ لمعاذ ﷺ حين قال له: "يا معاذ، أتدري ما حق الله على العباد؟" قال: الله ورسوله أعلم، قال: "أن يعبدوه ولا يشركوا به شيئا، أتدري ما حقهم عليه؟" قال: الله ورسوله أعلم، قال: "ألّا يعذبهم" (رواه البخاري).

وانطلاقا من هذا المنظور جاءت الشريعة الإسلامية لتحمي حق الإنسان في الحياة، قال تعالى: ﴿وَلاَ تَقْتُلُوا النَّفْسَ الَّتِي حَرَّمَ اللهُ إِلاَّ بِالْحَقِّ﴾(الأنعام:١٥١)، وقال ﷺ: "لا يحل دم امرئ مسلم يشهد أن لا إله إلا الله وأني رسول الله إلا بإحدى ثلاث: الثيب الزاني، والنفس بالنفس، والمارق من الدين التارك للجماعة" (رواه البخاري).

ودعت إلى سياسة الناس بالعدل، قال تعالى: ﴿إِنَّ اللهَ يَأْمُرُكُمْ أَنْ تُؤَدُّوا الأَمَانَاتِ إِلَى أَهْلِهَا وَإِذَا حَكَمْتُمْ بَيْنَ النَّاسِ أَنْ تَحْكُمُوا بِالْعَدْلِ﴾(النساء:٥٨)، وقال ﷺ: "إنما أهلك الذين قبلكم أنهم كانوا إذا سرق فيهم الشريف تركوه وإذا سرق فيهم الضعيف أقاموا عليه الحد، وايم الله لو أن فاطمة بنت محمد سرقت لقطعت يدها" (رواه البخاري). ونظرت إلى الناس على اختلاف أعراقهم وأجناسهم نظرة مساواة في الإنسانية والوجود؛ قال ﷺ: "يا أيها الناس، إن ربكم واحد، كلكم لآدم وآدم من تراب، إن أكرمكم عند الله أتقاكم، ليس لعربي فضل على عجمي ولا عجمي على عربي و لا أحمر على أبيض ولا لأبيض على أحمر فضل إلا بالتقوى" (رواه احمد).

إن هذه القيم الرئيسة الحامية للحقوق بنظرة الإسلام الشاملة، لا تنظر إلى الإنسان نظرة اعتبار وتقدير إلا بقدر اعتباره وتقديره لحقوق الآخرين في علاقته مع خالقه ونفسه والناس والبيئة من حوله.

ثم إن الإسلام جعل من حماية الحقوق مقصده الأسمى حتى يتفرغ الإنسان للقيام بمهمة الاستخلاف بعد أن كرمه الله بنعمة التسخير. وفي ذلك يقول أبو حامد الغزالي رحمه الله: "إن مقصود الشرع من الخلق خمسة: وهو أن يحفظ عليهم دينهم ونفسهم وعقلهم ونسلهم ومالهم. فكل ما يتضمن حفظ هذه الأصول الخمسة فهو مصلحة، وكل ما يفوت هذه الأصول فهو مفسدة ودفعها مصلحة، وتحريم تفويت هذه الأصول الخمسة والزجر عنها يستحيل ألا تشتمل عليه ملة من الملل وشريعة من الشرائع التي أريد بها إصلاح الخلق".

حـ- القيم الفنية والجمالية

إن النظرة الجمالية الاستبصارية جزء لا يتجزأ من المنظور الحضاري الإسلامي، إذ إن في كل نسمة خلقها الله مسحة من الفن والجمال تقتضي التأمل والاعتبار، والإنسان الذي خلق في أحسن تقويم مُطالَب بأن ينظر إلى كل المخلوقات من حوله ليقف على دقة الصنعة الإلهية. وفي القرآن الكريم آيات بقدر ما تدعو إلى النظر والاعتبار تبرز في المشاهد المختلفة وبأسلوب رائع مكامن الجمال في الكون قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ جَعَلْنَا فِي السَّمَاءِ بُرُوجًا وَزَيَّنَّاهَا لِلنَّاظِرِينَ﴾(الحجر:١٦).

إن القيم الإسلامية قد جعلت من الفن والجمال سلما يرتقي للوصول إلى الله الخالق المتقن المبدع الجميل. ووسائلُ إدراك ذلك التأملُ في الكون وتوجيهُ طاقات الإنسان الإبداعية إلى ما يرسخ القيم الفاضلة، ويحفظ ذاك التناسق العجيب بين روعة التقويم في الخلق وسمو الروح، وقد كان ﷺ المثل الأعلى في ترسيخ مفاهيم الجمال الحقيقي للإنسان، فقد نقلت كتب السيرة عنه ﷺ صورا من العناية بلباسه وترجيل شعره وولعه بالطيب، كما نقلت كثيرا من توجيهاته للصحابة ﷺ من حوله بالحرص على نظام المسجد وارتياده بثياب حسنة عملا بقوله تعالى: ﴿يَا بَنِي آدَمَ خُذُوا زِينَتَكُمْ عِنْدَ كُلِّ مَسْجِدٍ﴾(الأعراف:٣١)، ونقل عنه ﷺ أنه كان يشجع ويتذوق أعذب الشعر الداعي إلى القيم الفاضلة، قال ﷺ: "الشعر بمنزلة الكلام؛ حسنه كحسن الكلام وقبيحه كقبيح الكلام" (رواه البخاري في الأدب المفرد).

إن القيم الإسلامية قد جعلت من الفن والجمال سلما يرتقي للوصول إلى الله الخالق المتقن المبدع الجميل. ووسائل إدراك ذلك التأمل في الكون وتوجيه طاقات الإنسان الإبداعية إلى ما يرسخ القيم الفاضلة، ويحفظ ذاك التناسق العجيب بين روعة التقويم في الخلق وسمو الروح.

وصحح رسول الله ﷺ بعض المفاهيم الخاطئة المرتبطة بالجمال حين قال ﷺ: "لا يدخل الجنة من كان في قلبه مثقال ذرة من كبر"، فقال رجل: إن الرجل يحب أن يكون ثوبه حسنا ونعله حسنة فقال: "إن الله جميل يحب الجمال" (رواه مسلم). وكان ﷺ يحب أن يسمع القرآن من غيره ويدعو إلى تلاوته بصوت جميل حسن، قال ﷺ: "الماهر بالقرآن مع الكرام البررة وزينوا القرآن بأصواتكم" (رواه البخاري).

وهكذا يبدو أن القيم الفنية والجمالية في المنظور الإسلامي تذهب بالإنسان إلى ما هو أسمى من التلذذ برؤية العين لمشهد جميل في الكون أو سماعه لصوت شجي، إلى إدراك أسرار الوجود القائم على الإتقان قال تعالى: ﴿إِنَّا كُلَّ شَيْءٍ خَلَقْنَاهُ بِقَدَرٍ﴾(القمر:٤٩). فتلك الرسالة الحقيقية التي تحملها هذه القيم، كما أن الإسلام لا يهتم في مجال الفن والجمال بالمظهر الخارجي بل لابد من التلازم بين جمال الظاهر والباطن والمحيط، فتلك هي الصورة النموذج التي يُنتظر من المسلم أن يرسخها في أذهان الناس، يقول الأستاذ محمد قطب: "والفن الإسلامي ليس بالضرورة هو الفن الذي يتحدث عن الإسلام؛ إنما هو الفن الذي يرسم صورة الوجود من زاوية التصور الإسلامي للوجود، هو التعبير عن الكون والحياة والإنسان من خلال تصور الإسلام للكون والحياة والإنسان. هو الفن الذي يهيئ اللقاء الكامل بين الجمال والحق، فالجمال حقيقةٌ في هذا الكون، والحق هو ذروة الجمال، ومن هنا يلتقيان في القمة التي تلتقي عندها كل حقائق الوجود".

ط-القيم البيئية

إن العالم اليوم في حاجة في هذا المجال بالذات إلى قيم حضارية نابعة من مرجعية صلبة تجعل الإنسان مسؤولا عن كل ما يمكن أن يقترف من أفعال تضر بالبيئة، والنظرة الحضارية الإسلامية لهذا المجال تكشف عن وجود قيم سامية ناظمة للتعامل مع خيرات الكون من منظوري التسخير والاستخلاف والمسؤولية عن كل تصرف مخل بالتوازن البيئي، وترتكز القيم الحضارية الناظمة للسلوك البيئي في التصور الإسلامي على هذه الأبعاد الثلاثة؛ قال تعالى: ﴿وَسَخَّرَ لَكُمْ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الأَرْضِ جَمِيعًا مِنْهُ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ﴾(الجاثية:١٣). ونبه الإسلام إلى أن هذه الكائنات المسخرةَ هي في خدمة الإنسان إلى أن يأمر الله بفنائها، وأنها أمم وخلائق كأمة الإنسان تشترك معه في عبادة الخالق؛ قال تعالى: ﴿وَلِلَّهِ يَسْجُدُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الأَرْضِ مِنْ دَابَّةٍ وَالْمَلاَئِكَةُ وَهُمْ لاَ يَسْتَكْبِرُونَ﴾(النحل:٤٩). {س}

وإذا كانت هذه القيم الحضارية وردت في القرآن الكريم مجملة من الناحية النظرية، فقد حولها رسول الله ﷺ إلى سلوكات تفصيلية تطبيقية، فرغب في الغرس والعناية بالنبات في غير ما حديث، ومنه قوله ﷺ: "ما من مسلم يغرس غرسا أو يزرع زرعا فيأكل منه طير أو إنسان إلا كان له به صدقة" (رواه البخاري).

ودعا إلى الاقتصاد في استعمال الماء، فعن ابن عمر أن رسول الله ﷺ مر بسعد وهو يتوضأ فقال: "لا تسرف"، فقال: يا رسول الله أَوَفي الماء إسراف؟ قال: "نعم وإن كنت على نهر" (رواه أحمد).

ونهى عن تلويث الماء بالقاذورات، كما نهى عن التخلي في الظل وفي الطرقات، فعن أبي هريرة ﷺ قال: قال رسول الله ﷺ: "لا يبولن أحدكم في الماء الراكد ثم يغتسل فيه" (رواه البخاري). وعنه ﷺ أنه قال: "اتقوا الملاعن الثلاث: التبرز في الماء وفي الظل وفي طريق الناس" (رواه أبو داود). وشدد ﷺ الوعيد في حق من يعبث بالحيوان ويتخذه هدفا، حين قال: "ما من إنسان يقتل عصفورا فما فوقها بغير حق إلا يسأله الله ﷻ عنها، قيل: يا رسول الله وما حقها؟ قال: "أن يذبحها فيأكلها ولا يقطع رأسها ويرمي به" (رواه النسائي).

وأمر بالإحسان إلى الذبائح والانتفاع بها على قدر الحاجة، فعن شداد بن أوس قال: قال ﷺ: "إن الله كتب الإحسان على كل شيء؛ فإذا قتلتم فأحسنوا القتلة وإذا ذبحتم فأحسنوا الذبحة وليحد أحدكم شفرته وليرح ذبيحته" (رواه مسلم). كما حث ﷺ على العناية بالبيئة العامة؛ فأمر بإماطة الأذى عن الطرقات وأبواب المساجد والأماكن التي يرتادها الناس لقضاء مصالحهم ومآربهم، حيث قال: "الإيمان بضع وستون أو بضع وستون شعبة؛ فأفضلها قول لا إله إلا الله وأدناها إماطة الأذى عن الطريق، والحياء شعبة من الإيمان" (رواه مسلم). وحرص رسول الله ﷺ على أن تبدو المظاهر العامة للمسلمين وقد طبعها النظام والنظافة، قال ﷺ: "إن الله جميل يحب الجمال، طيب يحب الطيب، نظيف يحب النظافة، فنظفوا أفنيتكم ولا تتشبهوا باليهود" (رواه الترمذي).

إن الرصد المعرفي والعلمي الذي بيّنّا من خلاله شمولية القيم الحضارية من منظور إسلامي لكل مجالات الحياة، يحتاج إلى منهجية للتنزيل من أجل تربية الأجيال المتعاقبة على إدراك أهمية القيم في العمران من جهة، وأهمية استناد هذه القيم الحضارية إلى المرجعية الإسلامية القائمة على مبادئ الاستخلاف والتسخير والمسؤولية من جهة أخرى، كما أننا في حاجة إلى تلمس هذه المنهجية في السنة والسيرة النبوية حتى نستخدمها في إبلاغ العالمين بأهمية المنظور الإسلامي في ترسيخ القيم، وحل الإشكالات والأزمات التي يعيشها الإنسان في عصرنا الحاضر كلما وجد نفسه بعيدا عن الله.. ■

(*) رئيس المركز المغربي للدراسات والأبحاث التربوية الإسلامية / المغرب.



السنوات الذهبية

أيام ما قبل المدرسة

أ.د. هارون أوْجي *

تعرف السنوات بين (٠-٦) بأنها التعلم الذهبية قبل المدرسة، لأن سبعين بالمائة من المعلومات المؤثرة على تصرفات الفرد تؤخذ في هذه المرحلة، وتترسخ أسس شخصيته فيها.

إن بعض ما يتعلق بالتصرفات تنتقل عن طريق الوراثة وتكون موجودة منذ الولادة، وبالتالي فليس الطفل عجينة سهلة التشكيل والتغيير في يد الوالدين ولا في يد المربين، إلا أن للبيئة الاجتماعية دورا مهما في تشكيل وتطوير شخصية الطفل، ومن خلالها تتعرض المميزات والخواص التي ورثها الطفل للتغير. ومرحلة الطفولة هذه هي مرحلة "تغذية اللاشعور"، لذا فإن التعليم والتوجيه قبل مرحلة الدراسة هي أُولى وأهم مرحلة في الحياة التعليمية.

من يعطي التعليم قبل الانخراط في المدرسة؟

في ثقافتنا وتقاليدنا كان الطفل ينشأ في حجر أمه وجدته وجده ومع القصص التي يسمعها منهم، وكذلك في جو اللعب مع أخيه أو إخوانه أوأطفال الجيران، مقلدا تصرفات الكبار ومتخذا إياهم قدوة له في جميع تصرفاته، وهكذا يكتسب شخصيته. ولكن لم يَعُد هذا الطراز من التعليم والتوجيه ممكنا ومتاحا في الظروف الحالية إلا للقليل من الأطفال. لأن بنية العائلة -ولاسيما في المدن- قد تغيرت، وضعفت العلاقات مع الأقارب والجيران. وأصبحت الأسرة وحدة صغيرة مؤلفة فقط من الأب والأم والطفل. فأصبح الطفل وحيدا لا يجد من يلعب معه، إما لعدم وجود إخوة له، أو بسبب فارق السن. كما انعدمت ساحات اللعب. أما التلفزيون الذي بدأ يَعرض برامج ومناظر جذابة -وقد تكون ضارة- بمجرد الضغط على زر فقد احتل بيوتنا.

ومع أن هذا الأمر يقلق العديد من العوائل، إلا أنها تضطر للرضوخ أمام الأمر الواقع لأنها لا تجد بديلا آخر لتلهية الطفل. فإذا أضفنا إلى هذا عدم مبالاة الوالدين، ونقصَ معلوماتهم حول تربية الطفل، إضافة إلى كونهم مرهقين بالعمل، فليس من الصعب حدس ما يُنفث إلى لا شعور الطفل من أمور. إذن، فمن الذي سيتولى

توجيهَ الأطفال وتعليمَهم وإرشادهم في مرحلة ما قبل المدرسة؟ وكم من أمّ تملك المعلومات التربوية الكافية التي تساعدها في تنشئة أطفالها النشأة الصحيحة من الناحية الاجتماعية والذهنية والروحية؟

ففي هذه الظروف السلبية التي ذكرناها من قبل هل تقوم الأم بهذه المهمة إن لم تكن عاملة أو موظفة؟ أم تقوم بها إحدى ربات البيوت إن كانت الأم عاملة؟ أم يجب إيداع هذه المهمة إلى حضانة الأطفال؟ وما هي التطبيقات الجارية في هذا الخصوص في العالم؟ وما هو التطبيق الحالي لهذا الأمر في بلادنا؟ وأي نتائج تم الحصول عليها من هذه التطبيقات المختلفة؟ إن الأجوبة التي سنحصل عليها عن هذه الأسئلة وما شابهها ستقودنا -على الأرجح- إلى فهم جديد وتناول جديد في هذا الصدد.

البيئة الاجتماعية والطفل

من الحقائق المعروفة أن أعدادا كبيرة من الأطفال في العالم ينشؤون في بيئة لا تساعدهم على تطوير وتنمية قابلياتهم. صحيح أنه لا يمكن عمل شيء يُذكر في صدد تغيير العوامل الجينية المؤثرة سلبا على الطفل، ولكن يمكن تصحيح وتعديل مؤثرات البيئة السلبية بمقياس كبير. والحقيقة أن الأفراد يملكون قابليات أكثر مما يستطيعون تقديمها وتحقيقها حاليا. ويمكن تطوير القابليات بمساعدة ومعونة البيئة المحيطة بالفرد. وفي هذا الصدد تكتسب التربية والخدمات المقدمة للطفل قبل دخوله المدرسة أهمية كبيرة.

التطبيقات الموجودة في العالم

وفي السنوات الأخيرة زادت العناية -ولاسيما في الغرب- بالنظريات وبالتطبيقات المختلفة لهذا الموضوع وبتطوير البرامج حولها، وبدؤوا يستعملون مصطلح "العناية والتعليم المبكر للطفل" في وصف هذه الخدمات المقدمة للطفل. وهذه الخدمات متنوعة؛ فبعضها تركز على الناحية الصحية، وبعضها على التغذية، وبعضها على الناحية التربوية والتعليمية المبكرة. كما توجد هناك برامج تقوم بتقديم خدمتين أو ثلاث خدمات معا. وتطلق أسماء مختلفة على هذه البرامج؛ منها: "نهضة المجتمع" أو "التربية والتعليم المساند المقدم للأبوين"، أو "رعاية الطفل وتعليمه المبكر" أو "البرامج الموضوعة للمؤسسات التي تقدم تعليما مبكرا للطفل قبل مرحلة الدراسة في المدرسة".

البرامج الموضوعة في هذه المؤسسات المركزية تقدم خدماتها للأطفال في إطار مؤسسة. ونظراً لقيام هذه المؤسسات بدفع رواتب عالية للمربين المحترفين، وتوفير ألعاب غالية للأطفال وبرامج مكْلِفة ودفع مصاريف كبيرة لإيجار البناء وتدفئته وللضرائب ولغيرها من المصاريف الأساسية، فإن أجور هذه المؤسسات تكون عالية بحيث لا تستطيع العوائل الفقيرة الاستفادة من خدماتها. وفي الدول الضعيفة اقتصاديا يكون عدد مثل هذه المؤسسات قليلا، وهي تقدم خدماتها إلى العوائل التي تكون إيراداتها عالية أو أكثر من المتوسط، وتُحرَم منها الطبقة التي من المفروض أن تقدم لها هذه الخدمات أوّلا. وبعض هذه المؤسسات تقتصر على تقديم خدمات محددة فقط، كالعناية بأطفال العاملين في مؤسسات معينة.

دور الدولة في تطوير التعليم المبكر

ولكي تنتشر خدمات التربية والتعليم للأطفال قبل سن المدرسة يجب على الدولة ألا تعد هذه المؤسسات مؤسسات تجارية، فلا تأخذَ منها الضرائب، بل ربما عليها مساعدتها ماليا، لكي تستطيع هذه المؤسسات -التي تضطلع بأداء وظيفة مهمة جداً- تقديم خدماتها بأسعار منخفضة وللطبقات الفقيرة ذات الدخول المحدودة. وفي السنوات الأخيرة بدأت بعض المدارس الابتدائية بفتح مدارس حضانة في سن السادسة داخل المدرسة، وعادةً ما تكون أجور خدماتها أرخص من تلك المؤسسات الخاصة. ولكن هذه المدارس عندما أهملت الأطفال في سن ٣-٥ تكون قد أبقت هذه المشكلة دون حل. كما أن وجود أطفال بعمر ست سنوات تحت نفس السقف مع صبيان بعمر ١٣-١٤ سنة وتَلَقّي التعليم نفسه واشتراكهم معهم في ساحة اللعب نفسها أو الحديقة نفسها لا يكون شيئاً صحيحاً.

إن نسبة الاستفادة من برامج الرعاية والتعليم المبكر في تركيا اعتبارا من سنة ٢٠٠٠م حتى الآن هي ٩,٨٪ فقط. بينما تبلغ هذه النسبة في أوروبا ٦٧,٨٪ وفي الولايات المتحدة الأمريكية ٦٢,٧٪، وفي الدول النامية ٢٠٪ تقريباً.

ويجب أن تكون من أهداف الدولة القيام بنشر وتوسيع التعليم قبل المرحلة الدراسية، وتقليل الفروق بين المؤسسات التي تعطي هذا النوع من التعليم، ووضع معيار معين في هذا الصدد، وتهيئة برامج تعليمية مقروءة ومرئية ومسموعة. غير أن النشاطات المبذولة في هذا الصدد ليست كافية.

من جهة أخرى بدأت بعض دور النشر وبعض الشركات بتهيئة منشورات وأفلام وبرامج حول التعليم قبل المرحلة الدراسية. والآن توجد في الأسواق حكايات مشوقة للأطفال حول البطولات والتضحيات والحب دون مقابل، وحول الاستقامة وحب الطبيعة وحب الله ورسوله. ومع أن أعداد هذه الكتب ليست كبيرة إلا أنها موجودة وأعدادها ومستوياتها في ارتفاع مستمر. وتقوم القصص المصورة وبرامج الأقراص المدمجة المقروءة والمرئية بلعب دور إيجابي في تطوير الناحية الاجتماعية والذهنية للطفل، إلا أن على الأبوين القيام بمعاونة الأطفال في استعمال هذه البرامج. فالأطفال يقومون بطرح أسئلة عديدة وهم يشاهدون هذه البرامج أو يقرؤون هذه القصص، وعليهما الإجابة على هذه الأسئلة بشكل صحيح ودون ضجر أو ملل. فهذه الأجوبة ستطور ذهن الطفل وفكره وروحه. فإن لم يخصصا وقتا خاصا للطفل، لم يستطع الاستفادةَ الكاملة منها. ولكن المؤسسات المختصة بتربية الطفل تستطيع الاستفادة من هذه البرامج بشكل أفضل ضمن خطة معينة تُعين الطفل على الاستفادة الكاملة منها.

نتائج التعليم قبل المرحلة الدراسية

إن وضع معايير معينة لتقييم نتائج التعليم قبل المرحلة الدراسية يعد مشكلة مهمة. ومع هذا فقد استعملت معايير عديدة في هذا الصدد؛ منها مدى نجاح الطفل في المرحلة الدراسية فيما بعد، وكذلك مدى نجاحه في الحصول على عمل أو مدى بعده عن ارتكاب المخالفات القانونية. فقد أجريت مثلاً في الولايات المتحدة الأمريكية تجارب على آلاف الأطفال الذين مروا من مثل هذه البرامج. وأثبتت هذه التجارب أن الأطفال الذين تلقوا هذا التعليم واشتركوا في هذه البرامج، كانوا أسرع تكيفا مع المدرسة وأكثر نجاحا في المرحلة الأخيرة للدراسة الثانوية. بالإضافة إلى أن تكيفهم الاجتماعي كان أفضل، ونسبة حصولهم على العمل بعد التخرج أكبر، ونسبة اقترافهم الجرائم أقل. كما أن دوافع الحصول على نجاح أكبر وعلى وظائف رفيعة في مهنهم أكسبتهم شخصية مستقرة وأكثر إيجابية، أي حصلوا على مكاسب نفسية أيضا. وقد تم عزو كل هذه النتائج الإيجابية إلى آثار هذه البرامج في تطوير قابلياتهم في التعلم وإلى عوامل عديدة أخرى، مثل عوامل المعلم والعائلة والبيئة والتفاعلات المتقابلة لهذه العوامل. ولوحظ أن الأطفال الذين تلقوا هذه البرامج التعليمية المساندة قبل المرحلة الدراسية تطورت لديهم منذ البداية، الرغبةُ في التعلم، ونمت قابلياتهم في هذا الصدد بسرعة، إلى جانب زيادة اقترابهم من معلميهم، وقيامهم بأداء واجباتهم المنزلية برغبة ودقة أكبر. كما نمت عندهم القابلية للعمل الاجتماعي.

إننا لا نملك معلومات ولا تقييمات حول مدى تأثير هذه البرامج التعليمية قبل المرحلة الدراسية على توجيهِ وتشكيلِ المشاعر الإنسانية والمعنوية لدى الطفل كالاستقامة والتضحية وحب الخير وحب المساعدة والوفاء. ولكن هناك اعتقاد سائد بأن هذه المرحلة القصيرة هي أكثر المراحل قابلية، على التأثير وعلى تشكيل شخصية الطفل.

وفي السويد -التي تعد من أفضل الدول التي تعطي للأطفال هذا التعليم المبكر وفي أرقى مستوى- ظهر أنه كلما قُدمت خدمات هذا التعليم بشكل مبكر للأطفال، كانت النتائج إيجابية، وإيجابيةُ النتائج تتناسب طرديا مع مدى جودة مستوى المؤسسة التي تقوم بهذه الخدمة.

التعليم المبكر وآثاره الاجتماعية

لكل مجتمع غايةٌ مختلفة في تنشئة الأطفال؛ فاليهود -مثلا- لكي يديموا وجودهم في مجتمعاتهم وفي العالم، اهتموا بتنمية مواهب الاقتحام -ولاسيما في عالم التجارة والمشاريع- واللينِ وتحقيق التفوق في العلاقات الإنسانية، لذا يسعون إلى تنشئة أطفالهم بهذه المواصفات. أما الذين يعيشون في القرى والأرياف فيحاولون تنشئة أطفالهم بحيث يتكيفون بسرعة مع الظروف الطبيعية. أما الأقوام المحاربة فترى في خصال الشجاعة والتضحية والارتباط بالوطن أهم الخصائص والقيم التي يجب أن ينشأ عليها الأطفال.

أما في تركيا فإن أهم الأولويات الخلقية الاجتماعية التي تهتم بها العائلات في تربية الأطفال هي إطاعة الوالدين والاتزان والوقار وإظهار المحبة للآخرين وسهولة التفاهم معهم. وبعد هذه الصفات وبجانبها تهتم العائلات بأوصاف أخرى كتنمية القابلية الفكرية والذهنية، والارتباط بالقيم الخلقية الوطنية والثقافية، وحرية التفكير وسهولة التعبير عن الرأي والشعور بالمسؤولية.

وهناك عائلات تهتم في مرحلة ما قبل المدرسة بتطوير الناحية

التعليمية في الطفل، كسرعة تعلمه الأعداد وتمييزه للألوان، وسرعة تعلمه لبعض المصطلحات والأسماء. والحقيقة أن هذا مجرد جزء من التوجه الإنساني عند الفرد. بينما يجب تناول قضية تربية الطفل وتعليمه بشكل كلي وشامل. إن الاقتصار على إعطاء الأهمية لتنمية ذكاء الطفل سيؤدي إلى تناسي الآثار الإيجابية للأمور الضرورية الأخرى؛ مثلا إن نقص ثقة الطفل بنفسه قد يفتح الطريق إلى نقص في الدوافع للتقدم في الناحية الثقافية، مما يؤدي في المطاف الأخير إلى تقليل درجة الذكاء وإلى هبوط في النجاح المدرسي وإلى فشل في مستقبل حياته. لذا يجب ألا يُجبر الطفل في هذا السن على حفظ أشياء معينة، وألا يوضع في مقارنة أو مباراة مع غيره.

تطوير الثقة بالنفس لدى الطفل

لكي يطور الطفل ثقته بنفسه ويتعود على المبادرة والتصرف بشكل مستقل، على أقرب محيط اجتماعي إليه -ولاسيما أمه- مساندته ومساعدته في هذا الأمر. فإن كان الطفل يتلقى التعليم في مؤسسة تعطي التعليم المبكر، يجب إعطاء هذه المساندة والمعاونة للطفل من قِبَل هذه المؤسسة بالتعاون مع عائلته. فإن لم يكن في استطاعته الاستفادة من مثل هذه المؤسسة التعليمية، فيمكن إعطاء الأمهات البرامج التعليمية المبكرة لأطفالهن. ولكن لا يوجد في بلادنا مثل هذا التطبيق. أما المتوفر حاليا فهو اشتراك الأمهات في الندوات والاستماع إلى محاضرات تتناول هذا الأمر، أو مشاهدة البرامج التلفزيونية أو الاستماع إلى برامج في الإذاعة تتناول هذه الناحية، وتعطي -بمقياس معين- الإرشادات للأمهات حول كيفية التصرف مع أطفالهن. ولكن لا يمكن عد هذا الأمر برنامجا من برامج التعليم.

بعد أن يبلغ الطفل السنة الثالثة من عمره يشعر بحاجة إلى تجربة أشياء جديدة. لذا يحتاج إلى اللعب مع أطفال في سنه أو أكبر من سنه. فعندما يبلغ الطفل هذا العمر، يكون الأساس البيولوجي له قد تكامل عنده للّعب مع أقرانه وتحمّل خيبة الأمل عندما يردّه أحدهم أو يرفض اللعب معه. كما أنه يصل في هذه المرحلة العمرية إلى تحمل الأثر النفسي عند البعد عن منزله لفترة. وفي المؤسسات التعليمية التي تنظم كل شيء حسب حاجة الأطفال يجد بسهولة من يلعب معه، لأن المؤسسة تيسر وتنظم هذا الأمر. وفي أثناء اللعب مع أقرانه يستطيع أن يقيس مقدرته وما يستطيع فعله وإنجازه، ويكتسب عادةَ البقاءِ لمدة طويلة مع غيره والانشغال معهم في اللعب. وعندما يلعب مع غيره سيدرك أهمية قواعد اللعب، ويشعر بمدى ضرورة التعاون والتساند مع الآخرين. وعندما يرى أنه لا يستطيع في كل مرة أخْذ اللعبة التي تبدو جذابة له، يتعلم الصبر والتحمل. وعندما يقوم بصيانة حقوقه يتعلم ضرورة صيانة حقوق الآخرين ويتعلّم مبدأ المشاركة. كما يتعلم من مراقبة أصدقائه، كيف يأكل وحده وكيف ينجز عمله بنفسه، ويكتسب هذه العادات. وهكذا ينجح الطفل في التصرف بشكل مستقل وهو في بيئة لها قواعد اجتماعية، وتزداد قابليته في التعبير عن نفسه، ويثرى مخزونه من الكلمات.

وتنجح هذه المؤسسات التعليمية في جعل الأطفال الخجولين أطفالا واثقين من أنفسهم وفعالين. ومن جهة أخرى يتحول الأطفال المدللون كثيرا والوقحون، إلى أطفال أقل أنانية وأكثر رغبة في المشاركة، أي أكثر اجتماعيا.

النتيجة

تقوم الأمهات العاملات بإيداع أطفالهن في ساعات عملهن إلى آخرين للعناية بهم. والمهم هنا ليس رعايتهم فقط، بل تعليمهم وتربيتهم. لذا فإنه بدلا من إيداع الطفل عند عائلة، يكون من الأفضل -من ناحية تطوير قابلياته من جميع النواحي- إيداعه في مؤسسة تعليمية ذات مستوى جيد يمكن الوثوق بها. وحتى الأمهات غير العاملات في حاجة إلى مثل هذه المؤسسات. وليس من الصحيح قيام المجتمع بتأنيب هذه الأم على أساس أنها لا تستطيع العناية بطفل واحد، وأنها لا تشعر بالمسؤولية تجاهه ولا تقوم بنفسها بتربيته وتعليمه بل تدع هذا الأمر إلى مؤسسة. مثل هذا اللوم غير صحيح ولا معنى له. لأن الطفل عندما يلعب مع أقرانه ضمن نظام معين وضمن حرية بمقياس معين وضمن حب، تتطور قابلياته. والمهم هنا ليس البقاء بجانب الطفل طوال اليوم، بل حصر الاهتمام والعناية به ولو لمدة عشرين دقيقة، وإظهار الحب له وتلبية حاجاته. ومثل هذه المدة الزمنية -التي يجب تخصيصها له لإبداء وإظهار شوقك ومحبتك له- متوفرة لديك دون شك. ■

(*) كاتب وباحث تركي. الترجمة عن التركية: أورخان محمد علي.



ضوء الشمس ونور القمر

أ.د. زغلول النجار *

الضوء (الضياء): هو الجزء المرئي من الطاقة الكهرومغناطيسية (الكهربية/المغناطيسية) والتي تتكون من سلسلة متصلة من موجات الفوتونات التي لا تختلف عن بعضها البعض إلا في طول موجة كل منها، وفي معدل ترددها. (الفوتون: هو الجسيم الأولي المسؤول عن الظواهر الكهرومغناطيسية).

وتتفاوت موجات الطيف الكهرومغناطيسي في أطوالها بين جزء من مليون مليون جزء من المتر بالنسبة إلى أقصرها وهي أشعة "جاما"، وبين عدة كيلومترات بالنسبة إلى أطولها وهي موجات الراديو (المذياع أو الموجات اللاسلكية)، ويأتي بين هذين الحدين عدد من الموجات التي تترتب حسب تزايد طول الموجة من أقصرها إلى أطولها: الأشعةُ السينية، والأشعة فوق البنفسجية، والضوء المرئي، والأشعة تحت الحمراء.

وعين الإنسان لا تستطيع أن تلتقط من هذه الموجات سوي الضوء المرئي -أطوال تتراوح بين٤٠٠٠ ,٧٠٠٠ أنجستروم- (والأنجستروم يساوي جزءا من عشرة بلايين جزء من المتر) وطول الموجة يتناسب تناسبا عكسيا مع ترددها (أي عدد مرات ارتفاع الموجة وانخفاضها في الثانية الواحدة)، وحاصل ضرب هاتين الكميتين يساوي سرعة الضوء (حوالي ٣٠٠,٠٠٠ كيلومتر في الثانية) وموجات الضوء المرئي أسرع من موجات الراديو بحوالي بليون مرة، وبالتالي فإن أطوال موجاتها أقصر ببليون مرة من أطوال موجات الراديو.

الضوء الأبيض والأطياف

والضوء الأبيض هو عبارة عن خليط من موجات ذات أطوال محددة عديدة متراكبة على بعضها البعض، ويمكن تحليلها بإمرارها في منشور زجاجي أو غير ذلك من أجهزة التحليل الطيفي، وقد أمكن التعرف على سبع من تلك الموجات، أقصرُها هو الطيف البنفسجي (ويقترب طول موجته من ٤٠٠٠ أنجستروم)، وأطولها هو الطيف الأحمر (ويقترب طول موجته من ٧٠٠٠ أنجستروم)، وبينهما البرتقالي، والأصفر، والأخضر، والأزرق، وغير ذلك من الألوان المتدرجة في التغير فيما بين تلك الألوان السبع، وإن كانت عين الإنسان لا تستطيع أن تميز منها سوى هذه الألوان السبعة.

الضياء وتركيبة الشمس

وتنتج طاقة الشمس من عملية الاندماج النووي والتي يتم فيها اتحاد أربعة من نوى ذرات الأيدروجين لتنتج نواة واحدة من نوى ذرات الهيليوم، وينطلق الفرق بين مجموع كتلة الأربع نوي لذرات الإيدروجين وكتلة نواة الهيليوم على هيئة طاقة (تساوي ٠,٠٢٨٢ وحدة ذرية لكل تفاعل)، وهذه الطاقة الناتجة عن تلك العملية يكون أغلبها على هيئة أشعة جاما (حوالي ٩٦٪) وجزء قليل على هيئة النيوترينونات (Neutrinos) (في حدود ٤٪)، وسرعان ما تتحول أشعة جاما إلى حرارة بينما تهرب النيوترينونات في الحال وتفقد.

وتشير الدراسات الشمسية إلى أن هذا النجم المتواضع قد بدأ بتركيب كيميائي يغلب عليه عنصرا الإيدروجين (حوالي ٩٠٪)، والهيليوم (حوالي ٩٪) مع آثار طفيفة من عناصر أخرى مثل الكربون النتروجين والأوكسجين (في حدود ١٪).

وبالتركيز التجاذبي لتلك الكتلة الغازية بدأت درجة حرارتها في الارتفاع، وعند وصول الحرارة إلى المليون درجة مئوية بدأت عملية الاندماج النووي في التفاعل وانطلقت الطاقة النووية للشمس التي رفعت درجة حرارة لبها إلى أكثر من ١٥ مليون درجة مئوية، ورفعت درجة حرارة سطحها إلى ٦٠٠٠ درجة مئوية.

وعملية الاندماج النووي في داخل الشمس عملية معقدة للغاية، ولا داعي للدخول في تفاصيلها هنا حتى لا يغيب عنا الهدف من هذا المقال، ولكن محصلة هذه العملية هي الارتفاع بنسبة الهيليوم في قلب الشمس من ٩٪ إلى حوالي ٣٠٪، وإنتاج طاقة الشمس المتمثلة في الطيف الكهرومغناطيسي، الذي زود الأرض وغيرها من أجرام المجموعة الشمسية بأغلب الطاقة التي تحتاجها.

والطيف المرئي من مجموعة أطياف الطاقة الكهرومغناطيسية المنطلقة من الشمس هو المعروف باسم ضوء الشمس، وعلى ذلك فالضوء عبارة عن تيار من الفوتونات المنطلقة من جسم مشتعل، ملتهب، متوقد بذاته، سواء كان ذلك بفعل عملية الاندماج النووي كما هو حادث في داخل الشمس وفي داخل غيرها من نجوم السماء، أو من جسم مادي تستثار فيه الإليكترونات بعملية التسخين الكهربائي أو الحراري، فيقفز الإليكترون من مستوى عال في الطاقة إلى مستوى أقل، والفارق بين المستويين هو كمية الطاقة المنبعثة (QuantumEnergy) على هيئة ضوء وحرارة، وتكون سرعة تردد موجات الضوء الناشئ مساوية لسرعة تحرك الشحنات المتذبذبة بين مستويات الذرة المختلفة من مثل الإليكترونات.

وعلى ذلك فإن مصادر الضوء هي أجسام مادية لها حشد هائل من الجسيمات الأولية المستثارة بواسطة رفع درجة الحرارة من مثل الإليكترونات وغيرها من اللبنات الأولية للمادة. وأهمُّ مصادر الضوء بالنسبة لنا (أهل الأرض) هي الشمس ووقودها هو عملية الاندماج النووي.

والمصابيح الكهربائية تنتج الضوء عن طريق تسخين سلك من معادن الإشعاع، وكلما ارتفعت درجة الحرارة زادت كمية الضوء المشع وارتفعت معدلات تردد موجاته. وبنفس الطريقة يحترق فتيل السراج بإشعاله بواسطة احتراق الزيت (من مثل زيت الزيتون) أو النفط (الكيروسين) أو الكحول فيشع بواسطة الترددات التي يمتصها، وكلما ارتفعت درجة حرارته زادت قدرته على إشعاع الضوء، وذلك بزيادة كمية الضوء الصادر منه، وارتفاع معدلات تردده.

وعلى ذلك فإن الجسم المادي عندما يسخن فإنه يشع بمقدار الطاقة التي يمتصها برفع درجة حرارته بأية واسطة متاحة.

وتختلف الصفات البصرية للمواد في درجات الحرارة الفائقة، وذلك لأن ذبذبة أيٍّ من الفوتونات أو الإليكترونات تتم بعنف شديد فتتداخل موجات الطيف الكهرومغناطيسي -ومنها موجات الضوء المرئي- مع بعضها البعض تداخلا كبيرا مما يؤدي إلى حدوث الكثير من الظواهر غير المتوقعة، وذلك لأن الموجات الكهرومغناطيسية مرتبطة ارتباطا وثيقا بمصادرها وكواشفها.

وضوء الشمس عند مروره في الطبقات الدنيا من الغلاف

الغازي للأرض يتعرض للعديد من عمليات الامتصاص والتشتت والانعكاس على كل من هباءات الغبار، وقطيرات الماء وبخاره، وجزيئات الهواء الموجودة بتركيز عال نسبيا في هذا الجزء من الغلاف الغازي للأرض فيظهر بهذا اللون الأبيض المبهج الذي يميز فترة النهار.

الدقة البالغة في التفريق بين الضوء المنبعث من جسم ملتهب، مشتعل، مضيء بذاته، وبين سقوط هذا الضوء على جسم مظلم بارد وانعكاسه نورا من سطحه لا يمكن أن يكون لها مصدر من قبل ألف وأربعمائة سنة إلا الله الخالق، فهذا الفرق الدقيق لم يدركه العلماء إلا في القرنين الماضيين، ولا يزال في زماننا كثير من الناس لا يدركونه.

نور القمر

كذلك يتعرض ضوء الشمس للعديد من عمليات التشتت والانعكاس عندما يسقط على سطح القمر المكسو بالعديد من الطبقات الزجاجية الرقيقة والناتجة عن ارتطام النيازك بهذا السطح، والانصهار الجزئي للصخور على سطح القمر بفعل ذلك الارتطام. فالقمر -وغيره من أجرام مجموعتنا الشمسية- هي أجسام معتمة باردة لا ضوء لها ولكنها يمكن أن تُرى لقدرتها على عكس أشعة الشمس فيبدو منيرا، وهذا هو الفرق بين ضوء الشمس ونور القمر. فنور القمر ناتج عن تشتيت ضوء الشمس على سطحه بواسطة القوى التي يبذلها الحقل الكهرومغناطيسي على الشحنات الكهربية التي تحتويها كل صور المادة. فالحقل الكهرومغناطيسي المتذبذب لضوء الشمس الساقط يحدث قوة دورية ضاغطة على كل شحنة إليكترونية مما يجعلها تقوم بحركة متناسقة مع تردد موجات الطيف الأبيض.

ومن الثابت علميا أن شحنة متذبذبة تشع في جميع الاتجاهات -فيما عدا اتجاه حركتها- مما يبرر عمليات تشتت الضوء، وهي عمليات تعتمد على عددِ وحجمِ وبنيةِ وهيئةِ واتجاهاتِ وتفاعلِ كل من الجسيمات القائمة بمثل هذه العمليات من التشتت مع بعضها البعض، والصفاتِ الحرارية/الديناميكية للوسط الذي تتشتت فيه. ومن المعروف أن تردد الضوء الساقط يتفق تماما مع تردد الشعاع الساقط مع تباعد قليل بين خطوط الأطياف المختلفة بسبب حركة الجسم المشتت للضوء الساقط عليه، ولذلك تأتي خطوط أطياف الشعاع المشتت بشكل أضعف من خطوط أطياف الشعاع الساقط من أشعة الشمس.

التعبير القرآني

انطلاقا من هذه الحقائق العلمية التي تمايز بين الضوء الصادر من جسم مشتعل ملتهب مضيء بذاته، في درجات حرارة عالية -قد تصل إلى ملايين الدرجات المئوية كما هو الحال في قلب الشمس-، وبين الشعاع المنعكس من جسم بارد يتلقى شعاع الضوء فيعكسه نورا، ركز القرآن الكريم على التمييز الدقيق بين ضياء الشمس ونور القمر، وبين كون الشمس سراجا وكون القمر نورا فقال عز من قائل: ﴿هُوَ الَّذِي جَعَلَ الشَّمْسَ ضِيَاءً وَالْقَمَرَ نُورًا وَقَدَّرَهُ مَنَازِلَ لِتَعْلَمُوا عَدَدَ السِّنِينَ وَالْحِسَابَ مَا خَلَقَ اللَّهُ ذَلِكَ إِلَّا بِالْحَقِّ يُفَصِّلُ الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ﴾(يونس:٥). وقال تبارك اسمه: ﴿أَلَمْ تَرَوْا كَيْفَ خَلَقَ اللَّهُ سَبْعَ سَمَاوَاتٍ طِبَاقًا ۞ وَجَعَلَ الْقَمَرَ فِيهِنَّ نُورًا وَجَعَلَ الشَّمْسَ سِرَاجًا﴾(نوح:١٥-١٦). وقال سبحانه: ﴿تَبَارَكَ الَّذِي جَعَلَ فِي السَّمَاءِ بُرُوجًا وَجَعَلَ فِيهَا سِرَاجًا وَقَمَرًا مُنِيرًا﴾(الفرقان:٦١).

وقابل الظلمات بالنور وليس بالضياء في آيات كثيرة من مثل قوله تعالى: ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَجَعَلَ الظُّلُمَاتِ وَالنُّورَ ثُمَّ الَّذِينَ كَفَرُوا بِرَبِّهِمْ يَعْدِلُونَ﴾(الأنعام:١).

ووصف الشمس بأنها "سراج" وبأنها "سراج وهاج" فقال ﷻ: ﴿وَجَعَلْنَا سِرَاجًا وَهَّاجًا﴾(النبأ:١٣).

وحينما وصف خاتم أنبيائه ﷺ بأنه سراج (بمعنى أنه مضيء بذاته) وأضاف إلى وصف السراج أنه منير فقال عز سلطانه: ﴿يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ إِنَّا أَرْسَلْنَاكَ شَاهِدًا وَمُبَشِّرًا وَنَذِيرًا ۞ وَدَاعِيًا إِلَى اللَّهِ بِإِذْنِهِ وَسِرَاجًا مُنِيرًا﴾(الأحزاب:٤٥-٤٦).

وحينما وصف النار وصفها بالضياء ووصف أشعتها الساقطة

على من حولها بالنور فقـــال عز من قائل: ﴿مَثَلُهُمْ كَمَثَلِ الَّذِي اسْتَوْقَدَ نَارًا فَلَمَّا أَضَاءَتْ مَا حَوْلَهُ ذَهَبَ اللهُ بِنُورِهِمْ وَتَرَكَهُمْ فِي ظُلُمَاتٍ لاَ يُبْصِرُونَ﴾(البقرة:١٧).

ووصف أشعة البرق بأنها ضوء فقال -وهوأصدق القائلين- ﴿يَكَادُ الْبَرْقُ يَخْطَفُ أَبْصَارَهُمْ كُلَّمَا أَضَاءَ لَهُمْ مَشَـوْا فِيهِ وَإِذَا أَظْلَمَ عَلَيْهِـــمْ قَامُوا﴾(البقرة:٢٠)، ووصف ﷻ الزيت بأنه يضيء، ووصف ســقوط ضوئه على ما حوله بالنور، فقال تعالى: ﴿اللهُ نُورُ السَّـــمَاوَاتِ وَالأَرْضِ مَثَـلُ نُورِهِ كَمِشْـكَاةٍ فِيهَا مِصْبَاحٌ الْمِصْبَــاحُ فِي زُجَاجَةٍ الزُّجَاجَةُ كَأَنَّهَـــا كَوْكَبٌ دُرِّيٌّ يُوقَدُ مِنْ شَجَرَةٍ مُبَارَكَةٍ زَيْتُونَةٍ لاَ شَرْقِيَّةٍ وَلاَ غَرْبِيَّةٍ يَكَادُ زَيْتُهَا يُضِيءُ وَلَوْ لَمْ تَمْسَسْهُ نَارٌ نُورٌ عَلَى نُورٍ يَهْدِي اللهُ لِنُورِهِ مَنْ يَشَاءُ وَيَضْرِبُ اللهُ الأَمْثَالَ لِلنَّاسِ وَاللهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ﴾(النور:٣٥). وقال عن غيبة الشـــمس: ﴿قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ جَعَلَ اللهُ عَلَيْكُمُ اللَّيْلَ سَرْمَدًا إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ مَنْ إِلَهٌ غَيْرُ اللهِ يَأْتِيكُمْ بِضِيَاءٍ أَفَلاَ تَسْمَعُونَ﴾(القصص:٧١).

هذه الدقة البالغة في التفريق بين الضوء المنبعث من جســم ملتهب مشتعل مضيء بذاته، وبين سقوط هذا الضوء على جسم مظلم بارد وانعكاســه نورا من ســطحه لا يمكن أن يكون لها مصدر من قبل ألف وأربعمائة ســنة إلا الله الخالق، فهذا الفرق الدقيــق لم يدركه العلمـــاء إلا في القرنين الماضيين، ولا يزال في زماننا كثير من الناس لا يدركونه.

فســبحان الذي أنزل القرآن الكريم، أنزله بعلمه، على خاتم أنبيائه ورسله ﷺ وتعهد بحفظه فحفظ على مدى أربعة عشر قرنا أو يزيد بنفس لغة الوحي (اللغة العربية) دون زيادة حرف واحد، أو نقص حرف واحد، وأبقــى فيه تلك الومضات النورانية من حقائق الكون وسنن الله فيه شاهدة على صدقه، وحجة على أهل عصرنا وأهل كل عصر يأتي من بعده إلى قيام الســـاعة. فاعتبروا يا أولي الألباب! والحمد لله على نعمة الإســـلام، والحمد له على نعمة القرآن، والحمد لله على إرسال النبي الخاتم والرسول الخاتم ﷺ شـــاهدا ومبشــــرا ونذيرا وداعيا إلى الله بإذنه وسراجا منيرا. فصلى الله وســلم وبارك عليه وعلى آله وصحبه ومن تبع هداه ودعا بدعوته إلى يوم الدين. ■

(*) أســـتاذ علوم الأرض ورئيس لجنة الإعجاز العلمي بالمجلس الأعلى للشـــوون الإسلامية / مصر.

جيل الربيع

يا جيل الربيع،
يا زهراً فواحاً،
من بعيد أنتَ آتٍ،
ناشدتُكَ الله،
هلاَّ أسرعتَ،
وإلينا أتيتَ،
وصحارانا سقيتَ،
وحقولنا رويتَ..

* * *



أغنية للروح

عبد العزيز المقالح *

مَدَدْ، مَدَدْ، مَدَدْ...
غيرُكَ في الوجود لا أحدْ،
الأزلُ القديم أنتَ والأبدْ،
يا سيدَ الزمانِ
والمكانِ!
لا شريكَ، ولا ولَدْ،
أنتَ الجمالُ والكمالُ
والسلامُ
والصَّمَدْ.

* * *

مَدَدْ، مَدَدْ، مَدَدْ...
حينَ تضيقُ الروحُ في الجسدْ،
وينهضُ العدوُّ منْ عَباءةِ الحبيبِ
ناشراً صحائفَ الحسدْ،
تنهدمُ القبابُ في ندى الروحِ
وتعتري الحياةَ رعشةٌ
وظلمةٌ منَ الكَمَدْ،
ومثلَما تنكسرُ المياهُ في النَّهرِ
وتطرحُ الزَّبَدْ
ولا أحدْ.

* * *

مَدَدْ، مَدَدْ، مَدَدْ...
يا حاديَ الشُّجونِ،
أشجاني كثيرةٌ..
فلا عَدَدْ
ولا أَمدْ،
وكلَّما ترنَّمَ الضوءُ على الأفْقِ،
طواهُ الصَّمتُ وارتعدْ
وجفَّ صوتُ النَّايِ
في ضميرِ اللَّيلِ
وارتختْ أوتارُ نجمٍ
عنْ مدارِهِ شَرَدْ.

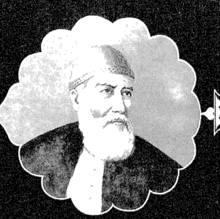
* * *

مَدَدْ، مَدَدْ، مَدَدْ...
الناسُ في كَبَدْ،
والأرضُ -يا سيِّدَها- تبدو وحيدةً
بلا سندْ،
وليسَ للحبِّ مكانٌ في صَحارانا،
ولا بلدْ..
الياسمينُ راحلٌ
وليسَ غيرُ القحطِ والبَدَدْ،
يا سيِّدي..
مَدَدْ، مَدَدْ، مَدَدْ...

(*) أستاذ الأدب العربي في قسم اللغة العربية، جامعة صنعاء / اليمن.

إنْ أردتَ إنسانا فابحث عنه تحت لسانه، أما إنْ أردتَ صاحبا فاصحب الله يغنك عن كل صاحب، واتخذ القرآن رفيقا يغنك عن كل رفيق..

* * *



عملاق الأدب العثماني "فضولي"

عوني عمر لطفي أوغلو *

أ

الشاعر، هو محمد بن الملا سليمان البياتي المنسوب إلى بغداد، حيث قضى ردحا من عمره. والمشهور أنه عاش بـ"كربلاء" ومات بها ودفن فيها. وكان مشتغلا بإشعال القناديل والشموع في الصحن الحسيني. فقد عاش حياة متواضعة مع اشتهاره في الآفاق وهو حي. ولادته تسبق سنة (١٤٨٠م)، بدليل قصيدة بالفارسية نظمها للأمير "ألوند"، من أمراء دولة "أَقْ قُويُنْلُو" التركمانية في بلاد العراق وما جاورها. وإذ إن وفاة هذا الأمير كانت في سنة (٩١٠هـ/١٥٠٤م)، فلابد أنه كان شابا عندئذ في سنه العشرين، لأن نظمه بالفارسية متأخر عن نظمه بالتركية. فسنة ولادته تقدر كما مرّ آنفا. أما وفاته ففي عام الطاعون سنة (٩٦٣هـ/١٥٥٥-١٥٥٦م) مصابا بها. فاستظل بظل ثلاث دول عاصرها هي دولة "أَقْ قُويُنْلُو" والدولة الصفوية ثم الدولة العثمانية. وقد عين السلطان سليمان القانوني راتباً له، وله مراسلات مع السلطنة بشأنه.

و"فضولي" هو مَخْلَصه الشعري على عادة شعراء الترك في اتخاذ مَخْلَص لهم. يقول الشاعر إنه تلقب بهذا المخلص حتى ينفرد به لانصراف الشعراء عنه لدلالته المتواضعة. فإن مفهومه بالتركية هو: الزائد الذي لا نفع منه. ولكن للاسم معنى بالضد يدل على زيادة الفضائل والمكارم، وهي مما يحوزه الشاعر بجدارة. فإنه كان متواضعا في حياته، منصرفا عن بهارج الدنيا وترف الحياة وحب المقام، مع اكتسائه بفضائل العلوم النقلية والعقلية من فقه وكلام وحديث وطب وفلك، زيادة على إمارته للشعر بالتركية والفارسية.

ومن منظوماته ديوانه بالتركية، وديوانه بالفارسية، وديوان ليلى ومجنون (بالتركية) الذي يزيد على ثلاثة آلاف بيت، وديوانٌ مثنويٌّ بالتركية من ٤٤٤ بيتاً، وديوان "ساقي نامَه" من ٣٢٧ بيتاً من الشعر التصوفي، وترجمة شعرية لأربعين حديثا. ومن تآليفه "حديقة السعداء" في واقعة كربلاء، و"مطلع الاعتقاد في معرفة المبدأ والمعاد" في العقائد (بالعربية).

هو من أعظم شــعراء الترك والعجم. كما يعَدّ من شــعراء العرب. وأزعم أن شـــعره بالعربية يشوبه التكلف والاصطناع، وهو دون شـــعره التركي والفارسي بأشـــواط. فقد بلغ فيهما الذروة، حتى عده العلامة "حســين مجيب المصــزي" في كتابه "فضولي البغدادي"، أميرا على الشــعر التركي وفوق الشــاعر "باقي". و"فضولي" شاعر ملتزم، يسند شعره بالعلم والفن. يقول في مقدمة ديوانه الفارســي: "إن الشعر بغير علم جدارٌ من غير أســاس، وغايته ألاّ يُعتَدَّ به". ويقــول في بيت له: "إن من يرفع كلامه يرفعه بالصدق. وإن قَدْر الكلام بقَدْر أهله". شعره عابق بالتصوف، ومعمور بالعلم، ومشحون بالعشق والعاطفة وخطاب القلب. مضطرب بالهجر والجفــاء وغير متنعم بالوصل واللقاء. يرفع العشــق في أحاسيسه الإنســانية إلى مدارج تصوفية راقية، حتى يَعُدّ بعض الباحثين ديوانه في "مجنون ليلى"، شــعرا صوفيا. إن المعاني وأســلوب التعبير عنها، متلازمان في الأدب وفي الشعر خاصة. ومن قوة الشــعر، التعبير عن معنى رائق، بإفادةٍ موجزة وبليغة، في صور من الكلام مبتدعة ومركبة. و"فضولي" خير من جمع هذه الشؤون في شعره. بل يكاد أن يرفع المعاني إلى العلياء في كل بيت من أبيات شعره. فمِثلُه قليل وعزيز في التاريخ.

القصيدة المائية

هذه القصيدة عروضية و"نعتيــة". و"النعت" غرض من أغراض الشــعر التركي، يعني مدح النبي ﷺ. وقد ألزم الشاعر فيها نفسه بحــرف الراء رَوِيًّا، يتبعه كلمة "صُــوْ" (الماء). فالتزم بصعب لا يُلزمــه، ليصعد بقوة القصيدة. فإن تكرار كلمة الماء في قافية كل بيت، يحصر الشــاعر في معنى لا يرتبط بالمدح بطبعه. لقد اتخذ من "الماء" محورا وغرضاً للقصيدة. ثم ســخّر المشاعر والإيحاءات الحائمــة حول "المــاء"، ليهيّجها ويقودها إلى عشــق النبي ﷺ السلســبيل الطاهر. فدل ذلك على روح التحدي عند "فضولي" في خوض أمر شديد يحجم عنه غيره. فتمكن في زج معان وطيدة "بالماء"، في صور بديعة بلســان بليــغ، في غرض المديح. (تمعن في البيت الثالث والعشــرين ملياً، وجمعــه لعصي المعاني وجَمّها في بيت واحد). ولعل التزامه بقافية الماء بعد الراء جاء لمناســبة الماء مع مقام النبي ﷺ من عدة أوجه. فالماء عزيز وشــهي، وقوام الحياة ومــدد الظمآن ورمز الطهارة ولهفــة الصادي... ولفظه التركي "صُوْ" يســير اللفظ، نغمه يطرب الأذن. وتكرار صوته يقرب من هسهســة الماء. وكأني بسامع القصيدة حاسا بالعطش وباحثا عن المــاء، لتكراره في آخر كل بيت، مع نعومة النغم في "صُوْ" بعد الراء المفتوحة. هذا، ماعدا قوة المعاني وبراعة التصوير وبلاغة اللسان. وقد وَضَعْتُ "الماء" في الترجمة في أول كل جملة، لضرورات اللســان، ولاستحضار شيء ضئيل من روح الأصل.

إن معاني العشق والهجر والشوق بإيحاءاتها ورموزها الصوفية ظاهــرة في القصيدة. حتى لا تكاد تفطــن في الأبيات من مطلع القصيدة إلى البيت الخامس عشــر: "هل المقصود ذات النبي ﷺ بزخم صوفي المباني؟ أم إن الشــاعر ينحو منحى شــعراء العرب بافتتاح قصائدهم بالنســيب... ليجاري "البردة" مثلاً؟" وأزعم أنــه اتخذ طريقه ســربا بين الأمرين بأســلوب فريد في "النعت النبوي ﷺ". فإن نَقُل بأنه جارى الأقدمين من شــعراء العرب في أسلوبهم، مخالفا تقاليد شــعراء الترك، فقد فعل. وإن نقُل أنه لم يخرج عن أصول وأســاليب الترك، فقد فعل. فإنّ دمعه الذارف شــوقٌ إلى الحبيب الذي يهفو إلى لقائه ووقوع بصره عليه، غير مبــالٍ حــتى إنْ كان وصاله كتلقي حدائد الســيوف وثواقب النبــال، ما دام في حَدّها وصلٌ بــه. فهو يجوب في هذه الأبيات الأولى من القصيدة في عالم من العشق العُلوي الوجداني المجرد. ولكن زخما من الاستعارات والإشــارات مستَخدَمةً في الأدب الصوفي، تومئ إلى النبي ﷺ في تلــك الأبيات الأولى... كالنبيه والســكران، والزاهد والكوثر، والعندليب والوردة الحمراء، بل الــورد في الأدب الصوفي قرين رمزي للنــبي ﷺ. غير أن هذه الإيماءات لا تســتلب من تلك الرموز والإشارات معاني العشق الوجداني الإنســاني في معالجة الشاعر لهذه المعاني. ومما يشد من أزر "ثنائية الانتقال" بين النعت النبوي وبين العشــق الوجداني، أن اللســان التركي لا يميز في قواعد خطابه بين المذكر والمؤنث.

فالواقــع أن "فضولي" انتهج طريقا اقتــرب فيه من "البردة" وأسلوب شعراء الجاهلية في الافتتاح، ولكنه لم يتطابق معهم ولم يغادر تقاليد الشــعر التركي أيضا. وإنه زاد على انتهاجه أسلوبا وسطا مبتدعا بين الأسلوبين، بأنه أعدّ مناخا عاطفيا خفيا وعشقا وجدانيا ســاميا، يتجهز به المرء في تولية وجهه نحو الحبيب محمد ﷺ والشــوق والحاجة واللهف إليه في البدايــات. ثم انتقل إلى الأصل المقصود الصريح ابتداء من البيت السادس عشر، في وحدة نفسية للقصيدة، وإعداد حسي متسق، وانسجام روحي ونفسي منصهــر في بودقة واحدة، قوامها الشــوق والتوق إلى المحبوب العزيز على الوصال، بأسلوب يوحد بين الحسي والعلوي.

فالتصاعد في وتيرة العشق والشوق، الثنائي الانتقال إلى الذهن

بين الحسي والنعتي، المحافظ على الوحدة النفسية، يستل السامع من واقع مادي أصم إلى فضاء الوجد والهيام العلوي الفنسيح، مهيئا النفس للارتقاء في المدارج إلى أجواء المشاعر النقية العلوية في العشق، صعودا إلى الأصل، وهو العشق المحمدي والشوق إلى النبي ﷺ في لهف كلهف صريع في هجير الصحارى إلى قطرة ماء... في أحوال شعورية ونفسية موحدة ومتماسكة ومنتظمة كحبات المسبحة بالخيط. إن معاني القصيدة كلها تحوم في أجواء وجدانية علوية واحدة من العشق والشوق والتوق إلى الوصال، وترفع الإنسان إلى مراتب عشق النبي ﷺ في حال محسوس بها في المشاعر القريبة، ولكن بالتحليق السامي في فضاء النقاء والصفاء والبهاء.

إن الشاعر يرقى بنا إلى ذرى المعاني للعشق الصوفي المجرد... ثم يمسك بزمام قيادنا نحو العشق النبوي ونحن في أرق أحواله الدافقة بالحيوية. عشق ملتهب في حنايا النفس، لكنه شهي ولذيذ تهفو إليه النفس وتتوق. وتسعد بلهيبه الذي يحرك ولا يحرق. وهو لشدة أواره النوري يستعصي أن يذوي أو يخمد بالماء الذي يغمر الكون والأفلاك كلها. بل النفس تأبى وتكره أن يخمد فيها هذا اللهيب أو يستكين. الماء هنا يفقد طبعه في إخماد حر اللهيب، فليس من شأنه في هذا الحال تسكين لوعة العشق. وله أن يكون دمعا ذارفا ونازفا في اللهف إلى الوصل، وطهرا يسري في النسغ ليزدهر ورداً لأجمل وجه، وريًّا يروي الصادي الظمآن الذي تشقق شفتيه رمضاء فيافي الحب، ورضابا للحبيب يروي الغليل، ونورا في جِبِلّة الطينة النبوية الطاهرة يزخ الحياة بالاقتداء بهديه. فهو السلسبيل الدفاق الذي تهفو إليه النفوس في رخائها ومَحْلها. وكذلك، هو مظهر معجزات الحبيب حين يطفئ نار الشر في الكون، ويتدفق زلالاً من بين أصابعه ﷺ ليغيث بالنضرة والحياة، ويتقلب بين يدي معجزاته الباهرات سماً للشر وعسلاً سرمدياً للخير.

ولئن كان الماء في القصيدة معينا دفاقاً، لذيذا وعزيزاً، ووسيلة ومحرّضا، يحض على المضي في سبل الشوق إلى الحبيب بلا فتور ولا ونى، فإنه يستحيل إلى عاشق بذاته، يسعى حثيثا في الدروب الموصلة إلى النبي المعشوق ﷺ، مجذوبا وغائباً عن الشعور إلا الحب، يضرب برأسه الأحجار في السفوح إذ يسيل، عساه أن يسعد بلقاء التراب الذي داسته قدم الحبيب، لا يكل ولا يمل وإن تشابكت الأعصر عليه. ولنقل إنه خاب في الوصول إلى تراب قدميه، فلا رجوع ولا عودة!.. يذوب إذن ويذوي، ويتفتت، سعيداً، لأنه يعاود الكرة بعد الأخرى، عمرا بعد عمر. فلا شكوى ولا ملل. بل ما أجدى السعي في هذه الدروب، ما دام الشوق إلى الحبيب أشهى حتى من الوصل نفسه؟!.

وهذه المعاني السامية والصور الزاخرة أسلوب بديع في النعت (المدح) المحمدي ﷺ. نسيح بها في هيام العشق النبوي الذي هو قوام الحياة الحقة في آفاقها الروحية المنسابة من الأزل الغابر إلى الأبد السرمد، كالماء... عشقٍ رقراقٍ وحيٍّ، كالماء. قصيدة "الماء"، شعر مفعم بأفياء معان للعشق رفرافة لا أشك في عجزي عن نقل ظلال البلاغة والعلو فيها، وعن استحضار رونق عواطفها وتلألؤ جواهرها، وقد آثرت ألا أبتعد عن معانيها القريبة حتى أضع بين يدي القارئ نصاً ملتزماً بالأصل. فلعل ذلك يجعل دراسة القصيدة أيسر للباحث. وعسى أن يكون الالتزام بأصل المعاني في الترجمة أجدى في تصور ظلالها الدائرة في محور الأدب الكلاسيكي وعلى إتمام المعنى في البيت الواحد، وفي الاستلهام بآثار أدبية تنطلق منها، وفي الحث على تراجم لها، شعرية أو نثرية أدبية، أبلغ وقعاً في النفس وأعظم إثارة للضمير والشعور من هذه الترجمة التي أحسب أنها الأولى إلى العربية..

ترجمة القصيدة المائية

١- الماء، دع الماء لا تهرقه دمعاً على نيران قلبي. الماء، كل الماء، يقصر عن هذا اللهيب.

٢- والماء، هل لونه هو الذي في القبة الدوارة، أم الذي في الأفلاك بحر من ماء عيني؟

٣- والماء يشقق الصخر شروخاً بمر الزمان... فهل عجبٌ إن تفتت قلبي بسيوف نظرك، نشواناً؟

٤- والماء يشربه الجريح متوجساً حذراً. وقلبي الجريح متوجس حذر، أن ينطق ببنت شفة عن سنان أهدابك.

(يشفق الشاعر أن ينطق بشيء عن أهداب عين الحبيب وإن كانت أسنتها الجارحة كالماء له، وهو الجريح. كخشية الجريح أن يشرب الماء حتى لا يزيد نزفه فيهلك).

٥- والماء إن سقى ألف جنة، ما تفتحت عن وردة كوجهك، فلا تَشْقَ يا زارع عبثاً، ودع الرياض غرضاً للسيول!

(يعني لا جدوى من سقاية الزرع وإن سالت سيولاً إن كان القصد مضاهاة الجمال في الزهور، وقد تفتحت أجمل الورود طراً).

٦- والماء الأسود حتى إن تَقَطّر على عين المحرر (فأعماها) لطول تأمله في خطوطك، كما يتقطر (الحبر) في القلم، فإن خطه الغباري الدقيق يستعصي أن يضاهي دقيق ملامحك.

(الماء الأسود الذي يذهب البصر. والخط الغباري هو نوع من أدق الخطوط كتابة).

٧- والماء ما ضاع سدى، حتى إن سقى الشوكَ رجاءَ الوردِ. فلست أبالي، إذن، مهما بلت جفوني لعارض من خاطرك.

(يعني أن البكاء على الحبيب ليس هباءً، وإن لم يبلغ الباكي المراد. كما أن الماء لا يذهب سدى ما دام الورد رجاء).

٨- والماء إن يرو العليل في ظلمة الليل، تكن صدقة. فتصدق ولا تحرم قلبي العليل في يوم الغم من سيف نظرك.

(يحسب الإنعام بالنظر، وإن كان حديدا كالسيف، ريًّا يروي ظمأه في بلوى الفراق، كما يرتوي العليل الظامئ الساهر بأوجاعه).

٩- والماء، ما ضرك -يا قلبي- أن تطلبه لي مرة في هذه الصحراء؟! فاستدع -يا قلب- في الهجر نباله، فيسكن شوقي إلى وصله!

(هنا أيضاً، يستجلب نبال الحبيب في الهجر ويطلبها، كالماء في هجير الصحارى).

١٠- والماء يستسيغه النبيه، والخمر يستسيغه السكران. وإن الزهاد طلاب الكوثر، وأنا مشتاق إلى شفاهك!

١١- والماء ينساب في مسالكه إلى ربوع رياضك بلا كلل.. فأظنه عاشقاً لذاك السرو البهي القويم.

١٢- والماء هذا غريمي، فلأكنْ تراباً في طريقه مانعاً إياه عن تلك الربوع. (حتى أحوزها حصراً).

١٣- والماء، قدّموه إلى (يد) الحبيب في جرة، تصنعوها من ترابي، إن مت يا أخلائي، فمرادي أن أقبل يديه، إذ لم أبلغ مرادي!

(حين يمس الحبيب الجرة).

١٤- والماء تراه مُقبّلاً أذيال ثوب السرو، واقعاً على أقدامه، متوسلاً به... لأن السرو زاه وشامخ، لتوسل القُمريّ به.

(هنا يسمو بالحبيب ويجعله عزيزا عن الوصول، مهما توسل القمري. ففي عزه لتوسل المحبين إليه، يقبّل الماء أذيال أثوابه ويسيل ذائبا تحت قدميه ويتواضع له).

١٥- والماء عساه أن ينقذ البلبل، إذ يختلط بمزاج غصن الورد... فإن الورد يهوى امتصاص دم البلبل في لونه.

(يعني أن الماء قد يخفف من غلواء الورد المستمد لونه من دم العندليب بالسريان في مزاج الغصن).

١٦- والماء في طهر طينتك نورٌ لأهل العالم، واقتداءٌ لطريق الأحمد المختار ﷺ.

١٧- والماء أغرق نار الشر بمعجزات سيد البشر وبحرِ دُرِّ الاصطفاء.

١٨- والماء تفجر من جلمود الصخر بمعجزة، ليخلّد نضارة روضة النبوة.

١٩- والماء أكفأ ألف ألف بيت نارٍ للكفار، إعجازه في العالم بحر محيط مديد.

٢٠- والماء تفجر من بين أصابعه ﷺ للأنصار يوم الشدة، في إعجاز من يسمع به يعض الأصابع عجباً.

٢١- والماء إن يذقه عدوٌ له، يكن سم أفعى، وإن يرتشف خليلٌ له سُمّ أفعى يكن ماء السرمدية وإكسير الحياة.

٢٢- والماء المرفوع إلى وجهه بكف الوضوء، كل قطرةٍ منثورةٍ منه ألفُ بحرٍ للرحمة، متلاطم الأمواج.

٢٣- والماء هيمانٌ، لا يفتأ يَسيح في الأرض أعماراً متواصلةً، يرطم رأسه بالأحجار، حجراً حجراً، متلهفاً لتراب أقدامك.

(مع عموم المعنى، فقد ينصرف إلى نهرَي دجلة والفرات النابعين من فجاج الجبال في تركيا. ثم يسيحان حتى يلتقيان في شط العرب الذي يصب في الخليج. فكأنهما يريدان أن يبلغا تراب جزيرة العرب، موطيء قدم الرسول ﷺ، فلا ينالان المرام، مع إصرارهما في السيلان آماداً طويلة. ويعزز البيت الذي يليه هذا المعنى).

٢٤- والماء لن يرجع القهقري عن مأواك وإن فُتّتَ فَتاتاً. فمرامه أن يشع نوراً في كل ذرة من تراب مأواك.

٢٥- والماء يشربه السكران دواءً يعالج ذهول عقله. كذلك يداوي الخطاة آثامهم بذكر نعتك (مناقبك) ورداً لهم.

٢٦- والماء لهف الصادي، المتشقق شفتاه عطشاً. كذاك لهفي إليك يا حبيب الله، يا خير البشر.

٢٧- والماء الفياض من قطر نداك، يا بحر الكرامة، أوفت الثوابت والسيارات في ليلة معراجك.

٢٨- والماء إن ابتغاه للتجديد معمار مرقدك، ففيض الزلال يصب أبداً من معين نورك.

٢٩- والماء رجائي أن يُرش من غمام إحسانك، على نارٍ يلهبه خوفُ الجحيم حريقاً من الغم، في قلبي المشتعل.

٣٠- والماء في مطر نيسان يغدو لآلئ. كذلك صارت كلمات "فضولي" جواهر بيمن نعتك (مدحك).

٣١- والماء، أرجو أن يهبه عين وصلك لهذا الظمآن. فإن رجائي ألا أُحرم يوم الحشر. (استلهاما من أسطورة تقول بأن قطرة مطر الربيع تغدو لؤلؤة). ■

(*) كاتب وباحث تركي.

المصادر

(١) موسوعة الأدب التركي خارج تركيا، الأدب التركي في كركوك، للدكتور صبحي ساعتجي، ص ٣٠٢.

(٢) تاريخ الأدب العربي في العراق، لعباس العزاوي، ص: ٢٥٥.

(٣) د. مني منكي، بحث في ملتقى "فضولي" في عامه الخمسمائة المنعقدة بإسطنبول سنة ١٩٩٦م.



الشهيدة

رمضان جاقير *

لم تشرق الشمس بعدُ في أفق موسكو.. رفع رأسه عن فراشه وفي صدره ضيق لا يعرف مصدره. حاول أن يستجمع ذهنه ولكن.. نهض ببطء واتجه إلى حيث المغسلة يريد الوضوء.. ولما قُضيت الصلاة انصرف زملاؤه إلى غرفهم إلا هو، إذ كان دوره في الطبخ وإعداد الطعام. دخل المطبخ.. أمسك سكينا وجعل يقشر بها البطاطة، والضيقُ مازال يلازم نفسه.. وإذا بنواقيس كنيسة "سانت باسيل" تدق من بعيد.. فقد لمعت في رأسه صورة جامع السلطان أحمد.. ذكر الأذان الشجي الذي يعلو في سماء إسطنبول كل صباح.. ذكر صوت المؤذن "صاريجا حافظ"، الصوت الندي الذي يجعل الإنسان في قمة الخشوع.. مرت في رأسه الصور واحدة تلو الأخرى.. الناس يجيبون الدعوة الربانية ويدخلون المساجد أفواجا أفواجا.. فسرعان ما اختلط الضيق بشوق ملتهب.. تنهدات أخرجها من أعماق صدره.. آه أيها الوطن الحبيب!.. ما أجملك.. وما أجمل تلك اللحظات فيك!.. وفجأة تبادر إلى ذهنه صورة العجوز "ألِينا" التي ساعدها البارحة.. كم كانت سعيدة عندما فارقها، إذ كانت بادئ اللقاء حزينة مغمومة.. وكيف هي الآن يا ترى؟.. قرر أن يزورها ويطمئن عليها.. ترك تأملاته وأعد مائدة الفطور ثم أيقظ زملاءه.. وبعد أن ذهب الكل إلى جامعاتهم.. التفت إلى صديقه أحمد وقال برفق:

– ما رأيك أن تزور معي عجوزا روسية تعرّفت إليها البارحة؟..

...

المدينـــة تزدحم بالضوضـــاء والحركة.. أبواق الســـيارات والحافلات وأجراس الترام.. لا يكاد أحد يلتفت إلى الآخر، كل في عالمه الخاص به.. وامرأة عجوز بين هذه الحركة والضوضاء، تتوكأ على عصا بيد وتحمل أكيـــاس خضروات وفاكهة بيدها الأخرى.. تمشي بصعوبة وتترنح موشكة على السقوط، تلتفت بين الحين والآخر يمنة ويســـرة باحثة عن من يساعدها.. فألفت شـــابا جميل الهيئة يبدو على ســـيماه الإشـــراق والطيب، يجري صوبها.. ولما اقترب منها قالت:

– هلا ساعدتني يا بني..

ابتسم ابتسامة لطيفة حنونة وحمل عنها الأكياس على الفور.. أخذ يسير معها الهوينا على الرصيف.. وعندما وصلا إلى حديقة صغيرة طلبت منه أن يســـمح لها بالاســـتراحة.. ألقت بجسدها المكدود على مقعد من مقاعد الحديقة.. لمح ســـيماء الألم يرتسم على وجهها النحيل الشاحب، وعيناها المبللتان تعبران عن الحزن الدفين في صدرها.. بعد لحظات..

– ما اسمك يا بني، ومن أي بلد أنت؟

– اسمي مصطفى، من تركيا..

– من تركيا!.. وما الذي جاء بك إلى هنا؟!

– جئت لأكمل دراستي في إحدى جامعاتها..

– ألم تجد في غير هذه البلاد بغيتك؟

– القدر يا عمة، القدر..

وإذا به يبتدرها بالكلام:

– وأنت يا عمة؟..

كأن هذا السؤال أهاج مكنونات صدرها.. فقالت والأسى يقطر من نبراتها الحزينة:

– أنـــا يا ولـــدي.. اسمي "ألينا" أقاوم الحياة بكل قســـاوتها ومتاعبها كما ترى.

صمتت هنيهة ثم بدأت تقص له حكايتها المأســـاوية المرة.. كان ابنهـــا الكبير وزوجته يظلمانهـــا ويهددانها دائما بالطرد إن لم تقم بتنظيف المنـــزل وغســـل الملابس وجلي الأواني وتذهب إلى البازار لشراء الفاكهة والخضروات وما سواهما.. مس الحزن شغاف قلبه وشعر بألم شديد يعتصر فؤاده:

– هوني عليك يا عمة..

قالها مصطفى ولم يجد كلمة يردف بها.. أطرق رأسه، وأخذ يجول ببصره الأرض.. فرأى قطعة خبز ملقاة على الأرض، فمد يده ورفعهـــا ثم قبلها ووضعها جانبا.. كانـــت العجوز صامتة تراقب حركاته باســـتغراب ولم تستطع تفسير ما ترى!.. التفتت إليه وقالت وقد نسيت آلامها وهمومها:

– أيها الشاب.. واضح أنك إنسان طيب.. ولكن قل لي، ما الـــذي دفعك إلى رفع قطعة الخبز عن الأرض وتقبيلها ثم وضعها في مكان مناســـب!؟.. ثم ما الذي دفعك إلى مســـاعدة امرأة لم تكن تعرفها ولم تكن التقيت بها من قبل؟!.. وأبناؤنا يرمون ليس الخبز فحســـب، بل آباءهم وأمهاتهم في الشوارع بلا رحمة ولا شفقة!؟..

ابتسم مصطفى ابتسامة باهتة:

– المحافظـــة على النعمة أمر له قدســـيته في ثقافتنا يا عمة.. ومســـاعدة الآخرين واجب لابد أن يقوم به كل إنسان.. وقد حثنا ديننا الحنيف على ذلك..

– دينكم الحنيف! وما هو دينكم؟

– إنه الإســـلام يا عمة؟ الدين الذي يأمرنا بالحب والصفاء والرحمة والتسامح..

...

وراح يقـــص لها كل ما لديه من معلومات عن الإســـلام.. كلمات لم تسمع بها من قبل أبداً.. سألته وقد بدا الاهتمام على ملامحها:

– وماذا يقول دينكم عن كباركم وآبائكم وأمهاتكم؟..

– يقول ما قاله لنا معلّمنا ومربّينا..

– معلمكم ومربيكم!؟..

– نعم يا عمة، إنه محمد رســـول الله ﷺ خاتم النبيين، الذي بشر به موسى وعيســـى والأنبياء أجمعين.. يقول: "لولا شيوخ ركـــع، وصبية رضع، وبهائم رتع، لصـــب عليكم البلاء صبا". فأنذرنا وفي الوقت نفســـه حضّنا على الطاعة والاحترام لكبارنا وشيوخنا وعلى الحب والعطف والحنان على صغارنا..

كانت "ألينا" تصغي إليه بدقة متناهية.. وتحاول فهم ما يقوله من كلمات.. استطرد مصطفى:

– ثم ربنـــا ﷻ يأمرنـــا في كتابنـــا المقدس بـــبر الوالدين؛ أن لا نقـــول لهمـــا حـــتى "أف" ولا ننهرهمـــا، وأن نقول لهما قولا كريمـــا، ونخفض لهما جناح الذل مـــن الرحمة، وأن ندعو لهمـــا بـــ "رب ارحمهما كما ربيـــاني صغـــيرا".. تربّينا على

هـــذه الثقافة يا عمـــة.. ثقافة: "رضى الـــرب برضى الوالدين، ســيما رضى الأمهات الـــتي جُعلت الجنة تحـــت أقدامهن"..

الجنة!؟.. كلمة أخرى لم تكن تدري معناها..

- وما هي الجنة؟..

- الجنة هي الرياض والبســاتين والحدائق التي أعدها الله ﷻ لعباده المؤمنين.. فيها العنب والزيتون والرمان وكل ما تشــتهيه الأنفــس من الثمرات.. هي دار الخلود والكرامة، فيها من النعيم المقيم الأبدي ما لا عين رأت ولا أذن سمعت ولا خطر على قلب بشر..

امتلأت عينا مصطفى بالدموع فجأة إلا أنه استجمع نفسه.. تنهد بهدوء ثم تابع..

- نعم يا عمـــة، الجنة.. فكما أن بعد كل ظلام نورا، وبعد كل ليل صبحا، وكما أن كل ضيق وحزن يتبعهما رخاء وفرح، فكذلك الحياة الدنيا، فإنها ســـوف تنتهـــي وتزول يوما بمتاعبها وهمومها، وتنتهي إلى الراحة والرخاء والخلود..

خفق قلبها خفقات حلوة النغم وشعرت بلذة عارمة.. كأن الأيام التعســـة بكل ما فيها من يـــأس وعذاب تحولت إلى راحة واطمئنان..

- وكيف يمكنني أن أعتنق هذا الدين يا ولدي؟..

- يكفي أن تقولي "أشـــهد أن لا إله إلا الله وأشهد أن محمدا عبده ورسوله"..

راح مصطفى يكررها و"ألينا" تحرك شفتيها بعده، طلبت منه أن يكتبها على ورقة بالأحرف الروســية حتى تحفظها.. ابتلعت ريقها بدأت تحاول قراءتها:

- أشهد أن لا إله إلا الله وأشهد أن محمدا عبده ورسوله..

شـــعرت بنور الإيمان ولذته في قرارة نفســـها فجأة، وتهلل وجهها فرحـــا.. تدحرجت الدموع البـــاردة على خديها دون إرادتهـــا.. هاهي السـعادة التي كانت تبحـــث عنها ليل نهار.. اعتصمت بالصمت لفتـــرة طويلة.. ثم نهضت وحملت الأكياس بنشاط وهمت بالذهاب..

- لا أعرف كيف أعبر لك عن شكري وامتناني يا ولدي.. فأنا مدينة لـــك.. أعدتَ إليّ حلاوة الحياة الـــتي افتقدتها زمانا طويلا.. أشـــعر وكأني ولدت من جديد يا ولدي.. أنتَ قمتَ بالواجب وساعدتني بما فيه الكفاية شكرا جزيلا.. والآن اذهب ولا تتأخر عن جامعتك.. بيتي خلف هذا المبنى، لا بد أن تزورني.. لا تنساني أرجوك.. إلى اللقاء..

...

هاهو ذا يســـير وأحمد في صمت على نفس الطريق التي سار عليها البارحة.. ولكنه بشـ عور غريب مختلط هذه المرة، وما زال الضيق الذي انتابه في الصباح يلازمه خطوة خطوة. أراد أن يشغل أفكاره بشيء يبدد به هذا الضيق فدخل دكان أزهار واشترى باقة ورد ليقدمها إلى عمتـــه "ألينا".. وقف مع صاحبه أمام منـــزلها وراح يجول بنظراته في جنبات المبنى.. عاودته اللحظات القصيرة الـــتي أمضاها مع العجوز "ألينا".. اللحظات التي كانت أغلى ما في الدنيا وما عليها.. تذكر حديث أسوته ﷺ "لأن يهدي الله بك رجلا خير لك من الدنيا وما فيها"..

...

وضع مصطفى باقة الورد على القبر وراح يقرأ سورة الفاتحة فاتحا يديه إلى الســماء، وفي جانبه صاحبه أحمد و"أوليك" حفيد العجوز "ألينا".. وبينما هو يدعو شرع "أوليك" يحكي عن حادث السيارة الذي أدى إلى وفاة جدته "ألينا" والدموع تنساب من عينيه:

- قيـــل لي، إنها عندما كانت تقطع الشـــارع حاملة أكياس الفاكهة والخضروات، ضربتها ســـيارة هوجـــاء وقذفت بها إلى الجانب الآخر من الشـــارع.. فسارع مَن سارع لطلب النجدة، وأُخذت إلى المستشـــفى.. كنت إلى جانبها طوال الليل، كانت تـــردد اسمك يا مصطفى دائماً وتكرر كلمات لم أكن قد سمعتها من قبل ولم أدرك معناها.. وقبل شروق الشمس..

تعقدت الكلمات في فم "أوليـــك" وأجهش بالبكاء.. تنهد مصطفى ثم قال في صوت خافت لا يكاد يُسمع متذكراً الكلمات التي قالتها "ألينا" عند فراقه: "أشعر وكأني ولدت من جديد يا ولدي"..

- رحمـــك الله يا عمة "ألينا" وأســـكنك جنانه.. حقا إنك وُلدتِ من جديد، فطوبى لك!..

فلم يستطع يتمالك نفســـه أكثر وترك دموعه تنفجر بغزارة بللـــت تربة القـــبر.. وإذا بـــ"أوليك" يمد إليـــه ورقة ويقول..

-وجدتُ هذه الورقة بيدها، قابضة عليها بشدة..

إنها الورقة التي كتبها لها: "أشـــهد أن لا إله إلا الله وأشهد أن محمدا عبده ورسوله".. ■

(*) كاتب وأديب تركي، الترجمة عن التركية: نور الدين صواش. وهي قصة حقيقية وقعت في روسيا.

فقه المجتمع
نحو استئناف التأسيس

أ.د. أحمد عبادي *

فقه المجتمع في أمتنا لم ينل من الحظ تنظيرا وبسطا ما ناله فقه الأفراد، فتراثنا الفقهي يشهد بأن الثاني كان الاهتمام به ضافيا، بخلاف الأول، مما جعل البعد التنظيمي للمشاركة في هموم المجتمع وتحمّل مسؤولياته يكون ضامرا، الأمر الذي ترك هذه الممارسة لأريحية الأفراد دون أن يضبطها ضابط من تنظيم وتقنين يجعلها أكثر فاعلية واستمرارية.. وهذا أمر وراءه أسباب متعددة، منها:

١- أن المجتمع المسلم الأول كان بسيطا في تركيبته؛ فقد كان الناس قبل الإسلام ينتظمون في أسرهم وعشائرهم وقبائلهم، وهي مؤسسات تقوم على أعراف قديمة مستقرة ومألوفة تُرْضَع مع حليب الأمهات وتُتَنَفّس مع الهواء، فلا يستوي الفرد إلا وقد تعلمها مع المشي والكلام، وانضبط لها كما ينضبط لقوانين الجاذبية والنمو، بل أكثر من هذا، فالذين انفلتوا من هذا النظام معلومون معروفون باسم "الصعاليك"، ولا يزال بعض أعيانهم معروفين عند الأمة إلى الآن.

من هنا، فإن الضبط المباشر الذي جاء في التشريع الإسلامي لهذه المؤسسات كان كافيا، ولم يتم بالتالي تلقي الإشارات الكثيرة الموجودة في الكتاب والسنة، والتي تؤصل لبلورة فقه المجتمع والدولة من مختلف التوجيهات، كالأمر بالشورى، والحض على الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، والتكافل، والانتصار من بعد الإصابة بالبغي...إلخ.

وهي توجيهات تحتاج إلى هيئات وقوانين من أجل تنـزيلها على واقع الناس، والحفاظ عليها وتنميتها، مما يحتاج إلى جهد مستأنف لاستدراك النقص الذي فيه.

٢- الاعتماد على البعد العقيدي في النفوس أزهد المسلمين في ضبط المؤسسات وبلورة فقه خاص لها يُستنبط من الأحكام التي تؤطرها، فاحتلت الثقة مكانا أكبر مما ينبغي. فلما ضعف الوازع العقيدي وكثرت الكوارث طفت الأزمة على السطح وبحدة كبيرة، مما جعل المسلمين يقبلون في العصر الحديث كثيرا من القوانين والتنظيمات الدخيلة عليهم، لسد الفراغ الذي تركه قصورهم وقعودهم عن الاجتهاد، لبلورة فقه المجتمع ومختلف مؤسساته.

٣- شهد عهد الخلافة الراشدة تطورا في المجتمع الإسلامي وفي فقهها، فكتاب عمر لأبي موسى الأشعري رضي الله عنهما في القضاء -مثلا- شاهد على ذلك، إذ فيه توجيهات إلى الفهم والاستشارة، كما فيه دعم وتأصيل للمؤسسة القضائية،[1] التي كانت مؤسسة مجتمعية محضة مستقلة عن الدولة قائمة بذاتها، وماتِحَة مباشرة من المرجعية العليا للأمة (أقصد القرآن والسنة) مضافا إلى ذلك اجتهاد القضاة وفهمهم، وهو ما ألحّ عليه عمر ﷺ في كتابه إلى أبي موسى ﷺ سالف الذكر.

وقد شهد عصر عمر ﷺ أيضا اقتباس نظام الدواوين، كما شهد ضبط مؤسسة الجند وتنظيمها، فقد بدأ عمر فعلا ببلورة فقه خاص بها، من ذلك على سبيل المثال: جعله المدة القصوى التي يبقاها الجندي بعيدا عن أهله هي أربعة أشهر، بناء على سؤال سأله ابنتَه أم المؤمنين حفصة رضي الله عنها عن صبر المرأة على زوجها، حيث أجابته بأن المرأة لا تصبر على زوجها أكثر من أربعة أشهر.

الانحراف التاريخي

غير أن انحرافا كبيرا في هذا المسار يسجل بعد تقلص ظلّ الرشد عن الدولة الإسلامية، فقد طغى على الانشغال بالمجتمع وقضاياه انشغالُ المسؤولين بإخماد الثورات، والتمكينِ للدولة القائمة على أنقاض دولة، وتتبع بقايا الدولة المسقطة وجذورها، وبناء الهيبة، وجمع الخراج، والسقوط في وِهاد مشاريع وهمية منحرفة، ثم انشغال جهاز الدولة من الداخل بالمؤامرات، والمؤامرات المضادة، كمؤامرة البرامكة، والبويهيين، والانشغال بفتنة قيام الدولة الفاطمية في مصر... وحين تمزقت الدولة العباسية وترهلت الدولة الفاطمية، جاء دور المماليك، وهلم جرا.

الشأن نفسه في المغرب، حيث كان الأمويون في الأندلس، إلى حين عهد المؤامرات، فالمؤامرات المضادة بين ملوك الطوائف، ثم انطفاء الجذوة، والدول المتعاقبة في المغرب الأقصى وإفريقيا بشكل عام.

وباختصار، لم يكن همُّ الاشتغال بالمجتمع هو الهم المركزي، وإنما الاشتغال بالدولة أو لنقلْ: "بالذات"، وأُسْلِمَ المجتمع إلى نفسه، بخلاف الشأن حين كان الرشد معانقا للدولة، فقد كان الاهتمام "بمجال التشريع، وتأصيل الشريعة الإسلامية، وتنظيم الشورى، وإعلان قراراتها، والتخطيط، والإحصاء، والرقابة، ووضع السياسات التي تراقب معاملات المجتمع وتوجه المناشط الاقتصادية فيه"[2].

ليس هذا يعني أن الدولة الإسلامية كان تاريخها مجردا من الوضاءة والإشراق -وإن ركزنا ههنا على جانب له صلة بموضوعنا- وإلا فلا يخفى عطاء المسلمين خلال التاريخ، وهذا أمر لا ينكر، وكان يمكن أن يكون أحسن لولا ما ذكرنا وأمور أخرى لا يتسع المقام لذكرها.

العزوف عن النهج الشوري

وخارج فترات الرشد كانت جهود الفقهاء منصبة على تطوير فقه الأفراد وتفصيله، لأن الدولة انتهجت بعد الفترة الراشدة نهجا غير شوريّ، محيّدا لعموم المسلمين عن تحمل مسؤولياتهم في النصح والتسيير... وإن التسيير لعبء ينوء بالعصبة أولي القوة... فبرز أنموذج للمواطن الصالح، بعيد كل البُعد عن الأنموذج القرآني، فأَصلَحُ الناسِ أنآهم عن تحمل المسؤوليات وأبعدُهم عن الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، وبكلمة مختصرة: صار أصلح الناس أكثرَهم انحسارا وإقبالا على خويصّة نفسه، وهذا تجانف صارخ عن قيم الإسلام الذي جعَل هذه الأمةَ ﴿خَيْرَ أُمَّة أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ﴾(آل عمران:١١٠) لأنها أمة تأمر بالمعروف وتنهى عن المنكر وتؤمن بالله... ورسول الله ﷺ يقول في الحديث الصحيح: "من رأى منكم منكرا فليغيره بيده، فإن لم يستطع فبلسانه، فإن لم يستطع فبقلبه، وذلك أضعف الإيمان" (رواه مسلم).

فلما ســـاد هذا الوضع، بعد مقاومة أطيح فيها برؤوسٍ خيِّرةٍ من المؤمنين، كالحســـين بن علي رضي الله عنهما، وعبد الله بن الزبير رضي الله عنهما، وســـعيد بن جبير رحمه الله، وغيرهم.. وأُسلم المســـؤولون لأنفســـهم ولغرائزهم وأهوائهم... أسلموا لسكرة السلطة، فتسلطوا.

ونشـــأ إذن فقه المجتمع ومؤسســـاته بعيدا عـــن المجتمع، وانطلاقا من الرأي الواحـــد، والفهم الواحد، فُقه الدولة، وفُهم الدولة، فلم يُبْرَد ويشحذ بالمناظرات والحوارات والرسائل، شأن فقه الأفراد (فقه العبادات بشـــكل عام)؛ إذ لم يكن همُّ التنظير للحياة في المجتمع، والممارساتِ -بشتى أنواعها- التي تجري فيه، وهمُّ اســـتنباط الأحكام الخاصة بذلك همَّ المجتمع وفقهائِه، بل بقي همَّ الدولة وفقهائها فقط.

وهذا سبب هام من أســـباب فقر هذا الفقه وضموره، وقلة مصداقيـــة ما هو موجود منه، مما ينبغي أن يتجاوز ويســـتدرك، وإنني لأميل إلى الاعتقاد بأن هذا التجاوز وهذا الاســـتدراك لا يمكن إطلاقا أن يتم خارج المعترك السياسي، وخارج إطار تحمل أمانات ومسؤوليات حقيقية -قلَّت أم كثُرت- من مسؤوليات الأمة، من قِبَل مؤمنين بهذا الدين، معتقدين بصلاحية شـــريعته لتأطير حيـــاة الناس في كل مصر وعصر، حـــتى تكون المواكبة لمستأنفات الأحوال بكل الكسب الفقهي اللازم موازنة وتسديدا وتقريبـــا وتغليبا. وإلا فلن تعدو الاجتهـــادات أن تكون نظرية عُلويـــة مطلقة، متجانفة عن الإشـــكالات الحقيقية الموجودة في المجتمعات المشـــخصة والعينية التي تحتاج إلى اجتهادات خاصة بها... وهي اجتهادات لا غرو سوف تكون أيضا عقب سَيْرٍ في الأرض، ونظر في تجارب الآخرين واستفادة منها.

والله الـــمستـــعان. ■

(*) الأمين العام للرابطة المحمدية للعلماء / المغرب.

الهوامش

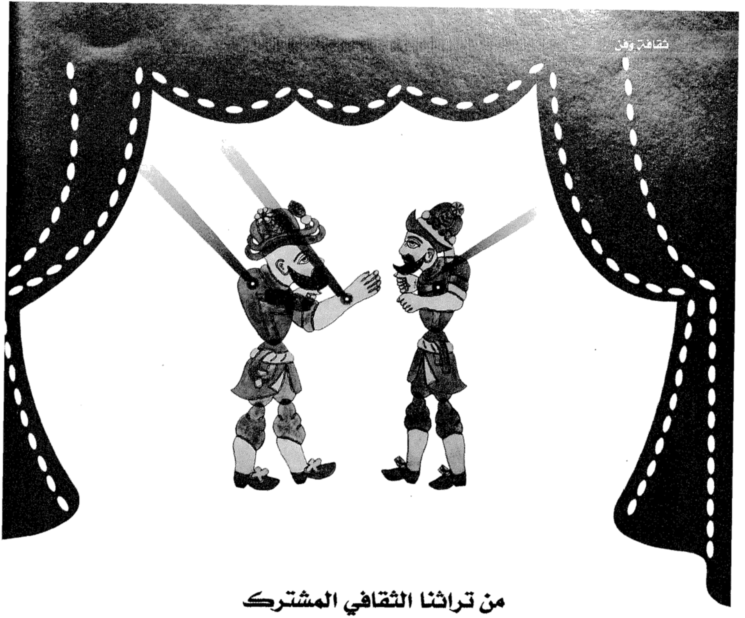
(١) انظر، أعلام الموقعين لابن القيم، ١/١٦٤.

(٢) د. حسن الترابي، مجلة قراءات سياسية، العدد الثالث، صيف ١٩٩٢، ص: ٧.

مفتاح النور

صدأُ السنين يفتت حياتنا،
وعَفَنُ الظلام يسربل أرواحنا،
وعلى قلوبنا أقفال،
ولكن مفتاح النور يدور ويدور،
وفي الأقفال يصول ويجول،
بالحب نفتح الأبواب،
ونحطّم الأقفال...
فإذا العزائم تتواثب،
والإرادات تتسابق،
فما من قفل على مفتاح الحب يستعصي،
وما من ظلام على نور الصباح يستعلي..
* * *





من تراثنا الثقافي المشترك

خيال الظل

أ.د. الصفصافي أحمد القطوري *

خيال الظل أو "قَرَه كُوزْ" مسرح ظلي ضارب في أعماق التاريخ. يمثّل بأشكال منعكسة على ستارة بيضاء مشدودة أمام ضوء مثبت خلف هذه الستارة. ومعظم الشخوص البشرية أو الحيوانية هنا مصنوعة من جلد الحيوان وخاصة الجمل، حيث تنعكس على الستارة تلك الأشكال البديعة بألوانها الساحرة.

ولاعب "قَرَه كُوزْ" أو الخيالي، هو الذي يحرك هذه الشخوص ويجعلها تتحادث وتتصارع وتقوم بحركة متمايلة وملتوية معكوسة مفصلية، حيث إن هذه الحركات توقظ في نفس المشاهد أحاسيس ورغبات دقيقة وخيالات جذابة.

وأثبتت الدراسات أن مسرح خيال الظل قد تطرق إلى جميع التراجيديات والكوميديات في حياتنا. وبنظرة أكثر عمقا، نجد أن مسرح "العرائس" و"قَرَه كُوزْ"، يرمز كل منهما إلى عنصر الخيال الذي تتسم به حياة الإنسان، وأن خيال الظل يؤكد هذا التشابه الواهم بينه وبين جوانب حياتنا المترعة بأطياف الخيال.

منشأ خيال الظل

هناك وجهتا نظر حول منشأ خيال الظل؛ الأولى: أن هذا الفن ظهر في آسيا وانتقل منها إلى الغرب. والأخرى: أنه ظهر في

الغرب ومنه انتقل إلى الشـرق وآسـيا. ولوجهـة النظر الأولى ثلاثـة آراء: الأول: أن هذا الفن ظهر في جاوه، وأن خيال الظل الجاوي ومصطلحاته موجودة في اللغة الجاوية القديمة. وكما أن مسـرحيات هذا النوع ممتدة إلى ألف سنة قبل الميلاد، فإنها تُعد نوعا مسـتقلا بذاته. والرأي الثاني: يُحـدد مكان ظهور خيال الظـل "قَرَه كُوزْ" في الهند بدلا مـن "جاوه"، وأن اسمه في اللغة السنسكريتية "جاينا طاقه" ومدلولها هو نفس مدلول خيال الظل، ولكن هذا ليس بالأمر المقطوع به.

وهناك رأي ثالث يقول بـأن خيال الظل يرجع إلى الصين. ويستند هذا الرأي إلى أسطورة صينية تعود إلى سنة (١٢١ ق.م)، حيث تحكي أن "الإمبراطور "ويو" قد سـيطر عليه حزن عميق إثر وفاة زوجته التي كان يحبهـا حبا ملك عليه كل جنانه، و لم تفلح كل المسـاعي التي بُذلت لتسليته والترفيه عنه. وقد حاول فنان صيني أن يرفه عن الإمبراطور باختياره لسيدة شديدة الشبه بالإمبراطـورة المتوفاة، وجعلها تمر أمام سـتارة بيضاء على بُعد مناسب من الإمبراطور، وادعى له أن هذا هو طيف الإمبراطورة الحبيبة. وقد نجح بذلك في الترفيه عن الإمبراطور بهذا الشكل".

أما وجهة النظر الأخرى فهي تُعارض خروج فن "قَرَه كُوزْ" من "جاوه" أو الهند أو الصين أو آسـيا عامـة، مدعية أن هذا الفن قد ظهر أولاً في الغرب وانتشـر منه إلى الشـرق، وتزَعّم الباحثون الألمان هذا الرأي. وإن كنت أوضح، إن هذا الرأي قد خلـط بين خيال الظل وبين فن العرائس الذي ظهر عند اليونان، وتكلم عنه أفلاطون وأرسطو ومعظم فلاسفة اليونان. وذلك لأن كل النماذج التي يضربها أصحاب هذا الرأي تنتمي إلى مسـرح العرائس المحرك بالخيوط، وليس إلى مسرح خيال الظل المعكوس على الستارة البيضاء. و لم يشر أصحاب هذا الرأي إلى أي دليل قاطع أو نص متوارث يدل على ظهور هذا الفن عند الغرب.

ولما كان التراث الشعبي لكل من الهند والصين وجاوه يحتوي على العديد المتنوع من المسرحيات الظلية التي وصلت إلى أيدي الباحثين، فإن الرأي القائل بأسبقية آسيا والشرق لهذا الفن يكون أكثر مصداقية وإقناعا.

الأسطورة التركية

يروى أن السـلطان العثماني "أورخان غازي" الذي تولى العرش سـنة (١٣٢٦م)، أمر ببناء جامـع في مدينة بورصة. وكان بين العمال الذين يعملون في البناء عاملان يُدعى الأول منهما: "قَرَه كُوزْ" والثاني "حاجي واد"، وكلاهما يملك من خفة الدم والمرح والفكاهة ما يجعلهما يقومان بحركات طريفة وفكاهات هزلية تجعل العمال يلتفون حولهما لمشـاهدة ما يقومان به من ألعاب مُسَلّية تاركين العمل، وعندما سأل السلطان عن سبب التأخر في إنجاز العمل، أخبروه عن "قَرَه كُوزْ" و"حاجي واد"، فأمر أن يقوما بما يقومان به أمامه، فسـعد بما رأى، حيث إنهما مثّلا أمامه "محاورة الحمـام" ولكنه أمرهما أن يعدلا عن هـذا حتى لا يتعطل البناء.

وكان هناك في مدينة "بورصة" رجل يدعى "الكشتري" أراد أن يُسري عن السـلطان ويذهب عنه الحزن. فعكس خيال كل من "قَرَه كُوزْ" و"حاجي واد" على ستارة بيضاء، ونجح في تسلية السـلطان. هذا من ناحية، ومن ناحية أخرى كان "الكشتري" أول رائد لفن "قَرَه كُوزْ" في بلاد الأناضول.

ومَدْفَـن "قَرَه كُوزْ" موجـود في مدينة "بورصة"، ولكن لم يستدل أي باحث على مدفن "حاجي واد" في المدينة حتى الآن.

وهكذا قام أرباب هذا الفن بتشـخيص هاتين الشخصيتين بمحاوراتهم الشيقة بهذه اللعبة الظلّية.

وعلى كل حال، فإن التعبيرات المستخدمة في تركيا -كغيرها من دول العالم الإسلامي- للتعبير عن هذا الفن، فهي "قَرَه كُوزْ" و"خيال الظل" و"ظل الخيال" و"طيف الخيال" وما شابه ذلك.

وهناك دليل قاطع على أن مسرح خيال الظل كان معروفا في مصر في العصر المملوكي، وأنه وفد من مصر إلى بلاد الأناضول بعد الفتح العثماني لمصر والشـام. فنرى مسـرحيات ابن دانيال (١٢٤٨-١٣١١م) سارت على درب سابق لعروض ظلية قبلها، وهو ما يتضح من مستواها الفني والأدبي الناضج نسبيا.

مسرح ابن دانيال

بين أيدينا ثلاث مسـرحيات لـ"محمد بن دانيال بن يوسـف" ما بين شـعرية ونثرية وزجلية. وهي "طيف الخيال" و"عجيب وغريب" و"المتيم".

وتبدأ "طيف الخيال" بحمد الله والصلاة على النبي ﷺ والدعاء للسـلطان، ثم يقدم الراوي بمقدمة تُشير إلى حملة السلطان على الشر وتخريبه أماكن الفسق والفساد.

أما أبطال المسـرحية الخيالية فهم: الأمير وصال، أحد أمراء الجند، ومجموعة من الشـخصيات المعروفة في المجتمع المصري المملوكـي. ويدور الموضوع حول رغبـة وصال في الزواج من

امرأة ذات حسب وجمال. ولكن الخاطبة "أم رشيد" تُوقعه في عروس شديدة القبح، فيغضب ويتوعد، ولكنه يقتنع في النهاية بأن الله أوقعه في شَرَك بما قدم من أفعال الشر. فأعلن التوبة وغسل معاصيه بالحج لبيت الله الحرام وزيارة مسجد الرسول ﷺ.

والمسرحية الثانية "عجيب وغريب" فهي استعراض لأنماط ونماذج معينة من واقع الحياة الشعبية، في الشارع والسوق حيث مصدر المعرفة والتكسب والتحايل على الرزق بشتى الحيل؛ ففيها النصب والاحتيال والسلب والمراوغة والمساومة. فهي بهذا معرض لكثير من مظاهر الحياة اليومية للمجتمع وعيوبه.

أما "المتيم" فتدور قصتها حول الحب والهيام وحيل المحبين في عصر الكاتب، حيث يتعقب فيها واحداً منهم هو "المتيّم" ويعرض محاولاته وصنوف حيله لبلوغ مأربه من محبوبته. وتكاد تكون هذه البابية مبنية على حلقات المصارعة بين القطط والكلاب والديكة والخرفان والثيران الخاصة برقباء "المتيّم" حيث يتغلب عليهم جميعا.

والتراث العربي يسجل لنا أن الشاعر العربي عمر بن الفارض تكلم بشكل مسهب عن خيال الظل، وله بابية شعرية نطالع فيها مرور الجمال وعبور السفن للبحار، وجيوشا تخوض المعارك في البر والبحر، ومرور الجُند، سواء أكانوا مشاة أو خيالة. وكذا الصياد وهو يلقي شباكه، والوحوش وهي تُغرق السفن في البحار، والسباع وهي تفترس صيدها من الحيوانات الأخرى.

ففي المسرحية الأولى تمثل شخصية "وصال" الخاطئ التقليدي في العمل الدرامي الكلاسيكي الذي لابد أن تنتهي القصة بأن يلقى جزاء ما اقترف، ويرسم المؤلف صورة الفساد الذي يعيشه وصال بمجرد ظهوره، ويمدحه بما يُشبه الذم، وتدور مشاهد البابة وأحداثها بين كلام الراوية "طيف الخيال" وتسلسل المشاهد وتتابعها مع البطل ومن يلقاهم ويحادثهم حتى خاتمتها. أما عجيب وغريب، فكلاهما نقيض للآخر؛ فغريب ماكر وفقير بينما عجيب ممن يشكر الله على خلقه ويدعو كل الشحاذين والمتسولين إلى الجد والنشاط ليحصلوا على المال عدّا ونقدا.

وبقية الشخوص في هذه البابة والبابة الثالثة كلها أنماط مستقاة من البيئة الشعبية المصرية، حيث نرى بينهم الحاوي والجراح المتطبب وقارئ الطالع والساحر والداعر، ونرى مدربي الحيوانات كالقردة والقطط والسباع والكلاب.

المضامين الاجتماعية

والجدير بالذكر أن كل هذه الأنماط البشرية والحيوانية نصادفها في مسرحيات "قَرَه كُوزْ" التي عرضت في مدينة إسطنبول خلال القرن السادس عشر الميلادي. نرى دائما في المسرحية أن "قَرَه كُوزْ" يملك شخصية بسيطة طاهرة الروح، تستخرج الحكم من الأحداث بشكل مضحك، ذكي بالرغم من أميته البادية. ليس عالما ولكنه صاحب معرفة ونفاذ بصيرة، يسعد بالخير والجمال وبكل ما هو حسن وطيب وجميل، سواء أكان ذلك في اللغة أو في الأخلاق أو السلوك. ويسخر دائما من كل تزييف أو تقليد ممسوخ لهذا الخير والجمال، كما يسخر من كل دخيل على مجتمعه.

أما "حاجي واد" فهو على النقيض تماما، يملك شخصية مصطنعة في المجتمع، تلقى قسطا من التعليم، يتشدق بمصطلحات علمية وفقهية دون أن يعي مدلولها، يسعد بكل ما هو عجيب أو غريب أو أجنبي، سواء في اللغة أو الفكر أو الموسيقى. يملك شخصية مادية نفعية صرفة، ومن هنا كان يتولد الصراع الساخن بينه وبين "قَرَه كُوزْ".

كما أديت بمهارة فائقة على ستارة خيال الظل التركي، شخصيات الأقوام التي امتزجت ببعضها البعض وكونت المجتمع العثماني، كالترك والفرس والعرب والروم والأرناؤوط واللاظ والأكراد والشركس واليهود بكل السمات المميزة لكل قوم من هذه الأقوام.

كما أن شخصيات الترياقي والحشاش والمتطفل والمتسكع والمتلهفة على الزواج والخاطبة والراقصة والأطرش والمتلعثم والأبله والسكير والمجذوب كلها من الأنماط الشعبية التي عرفت طريقها إلى ستارة المسرحيات الظلية والتي تُعد مع ما يحيط بها من مناظر ومظاهر متعددة وثيقةً تاريخية لدراسة الناحية الاجتماعية للمجتمع التركي في تلك الحقبة.

وقد استمد خيال الظل أيضاً موضوعات من الأدب الكلاسيكي سواء العربي أو الفارسي أو التركي كـ"ليلى ومجنون"، "قيس وليلى"، و"خُسْرَوْ وشِيرِين"، و"فرحات وشِيرِين"، و"يوسف وزليخا"، ولكن لابد من الإشارة هنا إلى أنها قد غيرت بما يتلاءم مع روح الفن الفكاهي الساخر.

اللغة

وكانت تركية "قَرَه كُوزْ" كعربية "طيف الخيال" و"عجيب" المصري، لغة صافية شعبية أصيلة خالية من أي دخيل، منغمة بعيدة عن كل تعقيد. هي تركية أهالي إسطنبول، كما كانت لهجة القاهرة هي السائدة في بابات خيال الظل المصري، تتكرر

فيها من حين لآخر الأمثلةُ الشعبية والحكم والأقوال المأثورة والمناظرات والتوريَة المحببة إلى نفوس الشعب بكل طبقاته.

والموضوعات التي تناولها مسرح "قَرَه كُوزْ" التركي عن طريق كتاب "قَرَه كُوزْ" التي جمعها "خيالي كُوجُوكْ علي" من الواضح أنها تناقلت من الأجداد إلى الآباء فالأبناء. وعلى الرغم من أنه من الصعوبة بمكان أن نعثر على انطباع صادق ومحدد لمحتويات بذاتها لأي مسرحية قره كوزية، إلا أننا استنادا إلى الكتاب السابق وكتاب "دراسات في المسرح والسينما عند العرب" للمستشرق "لنداو" نستطيع أن نقرر أن أحب الموضوعات التي تطرق إليها هذا الفن الشعبي كانت كما يلي:

- "قَرَه كُوزْ" جاهل و"حاجي واد" يحاول أن يعلمه كيفية التصرف في المواقف الصعبة.
- "قَرَه كُوزْ" يبحث عن عمل وفي صحبته صديقه "حاجي واد" الذي يغمره بنصائحه وإرشاداته وهو يظهر افتقاده القدرة على العمل.
- "قَرَه كُوزْ" يحاول أن يأتي بالممنوع من الأشياء بدافع حب الاستطلاع، أو شوقا لرغبات معينة، أو بسبب طمعه في شيء ما.. وفي تلك المواقف لا ينقذه غير رفيقه "حاجي واد"، وذلك بعد أن يحصل منه على وعد بأن يكف عن صفعه، وأن يقدم في الليلة القادمة عرضا أكثر بهجة.
- "حاجي واد" يدرب "قَرَه كُوزْ" على بعض الحِرَف والألعاب التي يسيء فهمها.
- "قَرَه كُوزْ" يأتي من الأفعال التي تعرّضه إلى بعض المتاعب، ثم يجد نفسه في موقف حرج.

هذا بالإضافة إلى الموضوعات الكلاسيكية المستمدة من الأدب العربي والفارسي والمترجمات عن الآداب الأخرى، كقصص ألف ليلة وليلة، وكليلة ودمنة والبخلاء وما شابه ذلك من الطرائف.

فصول المسرحية

وبدراسة التراث الذي وصل إلى أيدينا، نجد أن المسرحية الظلية في شتى منابعها قد انقسمت إلى أربعة فصول:

١-المقدمة: وكانت عبارة عن افتتاح ثم الغناء ثم ابتهال إلى الله ﷻ ودعاء للحاكم وشكر للمتفرجين وتمنيات لهم بالمتعة والعبرة.. وكل هذا عن طريق الراوي الذي يقوم بدوره "حاجي واد".

٢-المحاورة: وهي في الغالب الأعم تدور بين "قَرَه كُوزْ" و"حاجي واد"، وتعتمد على اللفظ اعتمادا كليًا، وهدفها تسليط الأضواء على الفوارق الواضحة بين شخصيتي "قَرَه كُوزْ" و"حاجي واد" التي تمثل كل منهما نمطا معينا من البشر.

٣-الفاصلة: وهي المسرحية نفسها، وتشتمل على كل الأحداث التي تتكون منها البابة وتشترك فيها بقية الشخصيات والشخوص الموجودة.

٤-الخاتمة: وفيها إذا كان "حاجي واد" هو الذي قدم المقدمة فإن "قَرَه كُوزْ" هو الذي يقدم الخاتمة؛ وفيها يتمنى للمشاهد أن يصيبه ما أصاب البطل من خير، ويجنبه ما وقع فيه من مآزق، ويعتذر عن أي قصور بدر منهما في هذا العرض متمنيا تلافيه في العرض القادم الذي يعلن عنه.

التأثير والتأثر

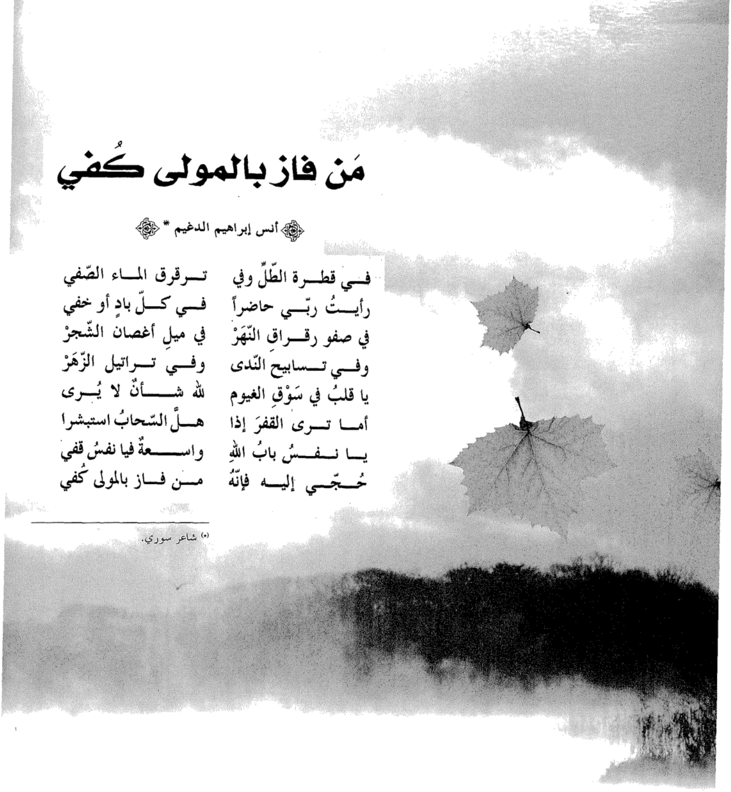
هكذا يتضح مدى التأثير المتبادل بين منابع هذا الفن الشعبي الشرقي الأصيل، الذي كان للموسيقى الشرقية الأصلية دور بارز أيضا فيه.

وكان البطل الرئيسي في بابات هذا الفن يطرب للموسيقى الشرقية الأصيلة مفصلا إياها عن موسيقى اللاظ المتأثرة بالموسيقى البيزنطية أو موسيقى الروم المتأثرة بالموسيقى اليونانية القديمة.

وكما هو معروف فإن الترك منذ أن كانوا في أواسط آسيا، قد واءموا بين حركاتهم والموسيقى ودمجوها في كل أعمالهم، وإنهم منذ القرنين الثاني عشر والثالث عشر الميلاديين، قد وحدوا بين الموسيقى والعادات الشعبية. كما أن شعراء التكايا والمعسكرات في الأناضول وأواسط آسيا، هم أول من أنشد شعرا دينيا بمصاحبة الدف والناي. ومن هنا كان توظيف الموسيقى في مسرحيات خيال الظل عملا مهما وتقليدا متوارثا.

وفي بداية هذا القرن قامت تجربة مثيرة في مدينة إسطنبول، تمثلت في تقديم مسرحيات ظلية حية. ففي عام (١٩١٠م)، قدمت على "مسرح الشرق" الواقع في حي "شَهْزَادَه باشي"، و"مسرح أوديون" في حي "بَيْ أُوغْلُو" أوبريتات ظلية حية بممثلين حقيقيين. كما أن الممثل الكوميدي المشهور "ناشد أُوزْجان" قد لعب أدوارا ظلية في مسرحيات من مسرحيات "قَرَه كُوزْ" وحمّلها العديد من المضامين الاجتماعية والعرفانية تتفق مع متطلبات العصر. ■

(*) جامعة عين شمس / مصر.



مَن فاز بالمولى كُفي

أنس إبراهيم الدغيم *

فــي قطــرة الطّلّ وفي ... تــرقرق المــاء الصّفي
رأيــتُ ربّــي حاضراً ... فــي كــلّ بادٍ أو خفي
في صفو رقــراقِ النّهَرْ ... في ميلِ أغصان الشّجرْ
وفــي تــسابيح النّدى ... وفــي تــراتيل الزّهَرْ
يا قلبُ في سَوْقِ الغيوم ... لله شــأنٌ لا يُــرى
أمــا تــرى القفرَ إذا ... هــلَّ السّحابُ استبشرا
يــا نــفــسُ بابُ اللهِ ... واســـعةٌ فيا نفسُ قفي
حُــجّــي إليــه فإنّهُ ... مــَن فــاز بالمولى كُفي

(*) شاعر سوري.



أ.د. محمد سعيد رمضان البوطي *

محبة الله وثمارها

من الحقائق الثابتة والمعروفة عن الإنسان أنه – إن تجاوزنا هيكله الجسدي– كيان ذو حقيقتين: أولاهما الإدراك ومحله الدماغ، الثانية الوجدان ومكانه القلب. ونعني بالإدراك الوظائف التي ينهض بها العقل، ونعني بالوجدان العواطف الدافعة والرادعة والممجدة، وهي عاطفة الحب والكراهية والتعظيم والانبهار. والإنسان إنما يتعامل مع الحياة وشؤونها بهاتين الملكتين؛ أولاهما، ترسم وتخطط، والأخرى تحرك وتدفع إلى التنفيذ. وبعبارة أجلى وأوضح نقول: أما ملكة العقل والوعي فإنما تؤدي عملها بشكل آلي ووظيفة محدودة لا تزيد على كشف الحقائق الخفية وإزاحة الحجب عن القضايا الغامضة. ثم إنها لا تملك بعد ذلك أي سلطان على السلوك، إنها أشبه ما تكون بالمصابيح المثبتة في مقدمة السيارة تبصّر صاحبها بطبيعة الطريق الذي يُسلَكُ إليه، ثم لا تزيد على ذلك. وأما ملكة الوجدان فهي قوة دافعة بل وقودٌ محرك، إنها أشبه ما تكون بالوقود والمحرك داخل السيارة. إذن، فالحياة السلوكية للإنسان تنهض على هاتين الملكتين: إحداهما، تبصّر وتكشف، والأخرى تقود وتدفع.

ثم إن ملكة الوجدان (أي العواطف) في حياة الإنسان يتجاذبها عاملان اثنان: أحدهما: الرعونات النفسية المتمثلة في الأهواء والشهوات وحب الذات ومشاعر الاستكبار، ثانيهما: القرارات العقلية التي يكشف عنها العقل ويضعها أمام صاحبه مجلوّة بعد جهالة أو غموض. والغلبة إنما تكون في أكثر الأحيان للرعونات النفسية، فهي التي تسبق العقل إلى ملكة الوجدان لكي تجندها لحسابها. ومن هنا، ولهذا السبب، نجد كثيرا من الناس يستجيبون

في تصرفاتهم السلوكية لهاجس الغرائز النفسية معرضين عما تمليه عليهم قراراتهم العقلية، إذ تفوز غرائزهم وجموحاتهم النفسية بالسبق إلى مكمن العواطف في كيان صاحبها فيصبح القرار لها لا للعقل وأحكامه.

وقد أدركت المجتمعات الإنسانية منذ أقدم العصور المشكلة التي تنبثق من هذه الظاهرة، فسعت إلى حلّها عن طريق اللجوء إلى ما يسمى بـ"التربية" وأخذ الأجيال بها، وهي تعني العمل على إخضاع غرائز النفس لما تمليه قرارات العقل، ولكن المشكلة بقيت في جملتها قائمة، لأن معظم الوسائل التربوية كانت -ولا تزال- وسائل عقلانية تخاطب الوعي والفكر، والمشكلة لا تكمن في عجز العقل عن الإدراك، وإنما تكمن في هيمنة الغرائز النفسية على العواطف والوجدان. وإنما يكمن الحل في هذا الذي سنقوله هنا.

العقل والوجدان وأثرهما في سلوك الإنسان

الآن.. وقد عرفنا أن الإنسان كيان ذو حقيقتين: العقل الذي يكون به الإدراك، والوجدان الذي هو مصدر الحب والكراهية والتعظيم. فلنعلم إذن، أن هاتين الحقيقتين هما الجناحان اللذان لا يرقى الإنسان إلا بهما إلى مرضاة الله ﷻ. أي فلا يتحقق بلوغ مرضاة الله تعالى بالعقل وحده ولا بالحب وحده، وإنما يتحقق ذلك باجتماع كل منهما على النهج الذي رسمه بيان الله في محكم تنزيله. كثيرون هم الذين عرفوا الله بعقولهم واستدلوا على وجوده ووحدانيته بعلومهم، ولكن عواطفهم القلبية بقيت مستلبة لصالح الرعونات والغرائز النفسية، فلم تفدهم عقولهم وعلومهم شيئا ولم يتقربوا إلى الله بذلك كله شروى نقير. وكثيرون هم الذين توجهت عواطفهم بالحب إلى الله ﷻ، ولكن عقولهم ظلت بحاجة إلى معرفة حقائق الدين وأحكامه وضوابط السلوك في حياة المؤمنين، فلم تفدهم عواطفهم الإسلامية شيئا بل تحولت في حياتهم السلوكية إلى عواصف وسلوكات خاطئة شاردة عن ضوابط الدين وأحكامه. ولنعلم أن الوظيفة التي حمّل الله عباده مسؤولية النهوض بها تتلخص في أن على الإنسان أن يجعل عواطفه من حب وكراهة وخوف وتعظيم تابعة لقرارات العقل وأحكامه، بأن يحب ما يدعو إليه العقل وأن يكره ما يحذّر منه العقل.

وليس في العقلاء من لا يدّله عقله على وجود الله وعلى أنه متصف بكل صفات الكمال، منزه عن كل صفات النقصان، ومن ثم فإنه ليس في العقلاء من لا يبصّره عقله بهويته عبدا مملوكاً لله، ولكن عواطف الإنسان تكون في الغالب مجندة لرغائب النفس ورعوناتها وأهوائها. ومن ثم فإن ذلك يحول دون الاعتراف بقرارات العقل وأحكامه. إذن، فمشكلة توجه الإنسان بفكره وسلوكه إلى الله لا تكمن في العقل ووعيه، بل إن مشكلته محلولة، لأن إدراك العقل للحقائق عملية آلية لا اختيار له فيها. إن العقل لا يملك أن يختار عدم الإدراك للقضايا الموضوعة أمامه ما دامت موضوعة تحت بصيرته وإن كان صاحب العقل يملك أن يتجاهل القرار الذي وصل إليه عقله.

فأين تكمن إذن مشكلة توجه الإنسان إلى الله؟

إنها تكمن في أن العاطفة التي هي الوقود المحرك لأنشطة الإنسان، تكون في الغالب مستلبة لصالح الرعونات والأهواء النفسية. ما فائدة أن يؤمن العقل بالله إذا كانت محبة القلب لرغائب الشهوات النفسية وملذاتها الحيوانية؟ وقد علمنا قبل قليل أن العقل ليس أكثر من مصباح كاشف، أما الدفع والتحريك فلعواطف الحب والخوف والتعظيم.

عوامل الحب ثلاثة

والسؤال المترتب على هذا هو: فكيف السبيل إلى أن تتحرر العواطف الإنسانية من أسر الرعونات والأهواء النفسية وأن تتحول فتصبح مجندة لمحبة الله والخوف منه والتعظيم له؟ أي كيف السبيل إلى أن نكون ممن قال الله عنهم: ﴿فَسَوْفَ يَأْتِي اللهُ بِقَوْمٍ يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُ﴾(المائدة:٥٤). ونلاحظ أنه ﷻ لم يقل: "فسوف يأتي الله بقوم لا يرتابون في وجوده ووحدانيته"، لأن المشكلة لا تكمن في الارتياب أو عدم الارتياب العقلي، وإنما تكمن في الحب إذ يكون متجها إلى الله أو إلى غير الله ﷻ.

والجواب يحتاج إلى تفصيل طويل الذيل، ولكنه يتلخص فيما يلي:

• عوامل الحبّ في حياة الإنسان ثلاثة لا مزيد عليها: إحسان يأسر القلب، أو جمال يأخذ بمجامع النفس، أو عظمة تبهر الوجدان. وهذه العوامل الثلاثة موجودة في ذات الله ﷻ، غير أن الغفلة التي تحيق بالإنسان تجعله يتيه عن ذلك.

ونحن هنا إنما نتحدث عمن آمن بالله ﷻ إيمانا حقيقيا بمقتضى الدلائل العقلية والعلمية؛ من هو المحسن الذي تفد إلى الإنسان في كل لحظة منائحه وإنعامه؟ لا يرتاب ذو عقل آمن بألوهية الله بأن المحسن الأوحد إلى الإنسان في الكون إنما هو الله؛ هو الذي ينيمك إذا تمددت على سريرك في انتظار نعمة الرقاد، وهو الذي يوقظك إذا أخذت حظك الكافي من هذه الإجازة الربانية،

وهو الذي ينقيك من شوائب السموم ويطهرك من أوضارها إذا دخلت الحمام، وهو الذي أنجدك بالماء الذي تحققت فيه عوامل التطهير، وهو الذي إذا جلست إلى مائدة الطعام أنعم عليك بكل ما لذ وطاب فوقها، إن جميع ذلك ليس إلا حصيلة سماء أمطرت وأرض أنبتت وأنعام سخر الله لك لحومها والألبان التي في ضروعها، وهو الذي يمدك بالعافية ومقومتها لحظة فلحظة. فإذا تذكرت هذه النعم وأضعافها التي تفد إليك وربطتها بالمنعم المتفضل ﷻ، تفجرت في قلبك من هذه المشاعر محبة عارمة لهذا الذي يتوالى إليك إكرامه ولا تنقطع عنك مننه.

ثم من هو الجميل الذي لم تتفرع صور الجمال كلها إلا من جماله؟ لا يرتاب أيضا ذو عقل سبق أن آمن بألوهية الله في أن مصدر الجمال كله بشتى صوره وأنواعه إنما هو الله ﷻ. فمن كان من شأنه أن تأسر صور الجمال المتنوعة لبه وأن تأخذ بمجامع نفسه، وكان ممن عرف الله وآمن به، لابد أن تهيمن عليه محبة خالق الجمال في الكون ومبدع الرائحة في العطر، ومفجر العبق في الزهر ومنسق الألوان في الورد. وهل هو إلا الله ﷻ؟ هل من خالق غير الله؟ أما الذين تأسرهم مظاهر العظمة والهيبة والكبرياء، فلن يجدوا بعد الله عظيما لا تخرج الأكوان كلها عن قبضته ولا يفتر ملكوته عن التسبيح بحمده والدينونة لسلطانه، هو المسيّر لنواميس العالم كلها، أعطى كل شيء صورته التي أفرغه فيها، ثم أقامه على الوظيفة التي هداه إليها.

إذن فعوامل الحب الثلاثة لابد أن تسوق إلى محبة الله. لا يستثنى من هذا القرار إلا من لم يهتد إلى معرفة الله بعد.

نتائج محبة الله

والآن ما هي النتائج التي تحققها محبة الله في كيان الإنسان؟ إنها تحقق أولا طهارة النفس من آفة الضغائن والأحقاد ومشاعر الحسد والإستكبار على الآخرين. إن من توهج قلبه بمحبة الله ﷻ، لا يبقى في جوانبه أي مكان لرعونات النفس وأهوائها الغريزية كالضغائن والشحناء ودوافع الظلم ونحوها. لأن هذه الرعونات إنما تثور في النفس بدافع من حب الذات والعصبية للـ"أنا" فإذا هيمنت محبة الله على النفس غابت محبة الذات وحل محلها الانشغال بمراقبة الله وذكره ومحاسبة النفس على ما يصدر عنها من سوء أو تقصير.

وإنها ثانياً تحقق معنى الأخوّة مع الآخرين من أفراد الأسرة الإنسانية. وبيان ذلك: أن الذي يحول دون مدّ جسور هذه الأخوّة بين أفراد الأسرة الإنسانية حواجزُ الضغائن والحقد والحسد والتنافس على المصالح والاستكبار على الآخرين. فإذا ذابت هذه الحواجز في ضرام محبة لله ﷻ فلابد أن تتجلى في مكانها مشاعر الأخوة التي كانت غائبة عن الأذهان والمشاعر تحت تأثير تلك الرعونات والآفات النفسية.

أما النتيجة الثالثة التي تحققها محبة الإنسان لله، فهي شيوع صلة التراحم لاسيما بين الذين يتمتعون بوهج هذا الحب لله تعالى بين جوانحهم. عندما يتلاقى القلبان على معين صاف من محبة الله تعالى، فلابد لهذين القلبين أن يتآلفا وأن يتراحما، كيف لا وقد جمعهما الارتشاف من كأس واحدة هي محبة الذات الإلهية؟ تأملوا في هذا الذي وصف الله به رسوله محمدا ﷺ إذ قال له: ﴿فَبِمَا رَحْمَةٍ مِنَ اللهِ لِنْتَ لَهُمْ وَلَوْ كُنْتَ فَظًّا غَلِيظَ الْقَلْبِ لاَنْفَضُّوا مِنْ حَوْلِكَ﴾(آل عمران:١٥٩)، إنها الرحمة التي كان يعامل بها الآخرين وهي -فيما تقرره الآية- منحة له من رب العالمين، ولكن من أي طريق وصلت إليه هذه المنحة؟ إنها وصلت إليه عن طريق الحب الرباني المهيمن على قلبه، وهو حب متبادل بينه وبين مولاه ﷻ. فبهذا الحب كان يعامل الناس أيا كانوا باللين واللطف، ولم يُعهد عنه أنه واجه أحدا من الناس بالغلظة أو الفظاظة.

والنتيجة الرابعة التي تثمرها محبة الإنسان لله الاندفاع إلى الموعظة والنصح والدعوة بعامل الشفقة والرحمة والغيرة. ذلك لأن حبه لله تعالى يدعوه إلى الانقياد لأوامره واتباع وصاياه وهو يقرأ فيما يقرأ من وصاياه وأوامره قوله: ﴿ادْعُ إِلَى سَبِيلِ رَبِّكَ بِالْحِكْمَةِ وَالْمَوْعِظَةِ الْحَسَنَةِ وَجَادِلْهُمْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ﴾(النحل:١٢٥)، ولأنه يقرأ فيما يقرأ قرار تكريم الله للإنسان وأمره الملائكة بالسجود له متمثلا في شخص أبيه آدم. إذن، لابد أن يقوده حبه لله ﷻ إلى تكريم من كرّمه الله وتبجيله، فإذا قام بواجب نصحه ودعوته إلى الحق وتحذيره من التوجه إلى الباطل، فإنما يقوم بذلك بدافع من حبه له وغيرته عليه والرحمة به. وهيهات أن يجتمع الحب الحقيقي لله مع الدعوة إلى الله بدافع من التعالي على من يلاحَقُون بالدعوة ويواجهون بأمرهم بالمعروف ونهيهم عن المنكر، أو بدافع الانتقاص من مكانتهم أو التشهير بهم أو ابتغاء الوصول إلى مصالح شخصية أو مكاسب مادية لأنفسهم. وإن لنا في سيرة رسول الله ومواقفه من المشركين وأذاهم له واستكبارهم عليه، ما يجسد لك هذه الحقيقة ويضعنا أمام المزيد من نتائج محبة الإنسان لله ﷻ.

محبة الله للإنسان أسبق من محبة الإنسان له

وبعد، فلنتساءل أيهما أسبق من الآخر: حب الله للإنسان أم حب الإنسان لله؟

والجواب أن مما لا ريب فيه أن محبة الله للإنسان أسبق من محبة الإنسان لله. والدليل الأول على ذلك قول الله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا مَنْ يَرْتَدَّ مِنْكُمْ عَنْ دِينِهِ فَسَوْفَ يَأْتِي اللَّهُ بِقَوْمٍ يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُ﴾ (المائدة:٥٤) فقد قرر البيان الإلهي محبته لهم قبل محبتهم له، أي فهم يحبونه بحبه ﷻ لهم.

والدليل الثاني يتمثل في التكريم الذي أضفاه الله على الإنسان، إذ نسب روحه السارية في كيانه إلى ذاته العلية، وفي أمره الملائكة بالسجود له متمثلا في شخص أبيه آدم، وفي إعلانه البياني عن هذا التكريم بقوله: ﴿وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِي آدَمَ وَحَمَلْنَاهُمْ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ وَرَزَقْنَاهُمْ مِنَ الطَّيِّبَاتِ وَفَضَّلْنَاهُمْ عَلَى كَثِيرٍ مِمَّنْ خَلَقْنَا تَفْضِيلاً﴾(الإسراء:٧٠)، والتكريم لا يكون إلا أثرا من آثار الحب. إذن، فقد كان حب الله للإنسان سابقا على حبه له. ثم إن مآل هذا التكريم إلى ما يقرره الإنسان ويصنعه بحق نفسه. فمن الناس من ازدادت مكانتهم عند الله علوا وتكريما، ومنهم من تدنّت بشكل جزئي، ومنهم من تحولت بهم إلى النقيض، فردهم الله -كما قال- أسفل السافلين. والمهم أن الإنسان -أيا كان- مكرّم في أصل نشأته عند الله، وذلك دليل على حبه السابق له.

ومما لا ريب فيه أن كل مسلم صادقٍ في إسلامه لابد أن يكون له نصيب من محبة الله له. وأقل ذلك ما يدل عليه إسلامه وإيمانه بالله ﷻ. إذ لو لم يكن له عند الله من المنزلة ما يستدعي انجذابه إلى الإسلام وتوجُّهَ قلبه إلى الإيمان، لما تمتع مظهره بتعاليمه، ولما سرت عقائده إلى قلبه. وصدق الله القائل: ﴿وَلَكِنَّ اللَّهَ حَبَّبَ إِلَيْكُمُ الإِيمَانَ وَزَيَّنَهُ فِي قُلُوبِكُمْ وَكَرَّهَ إِلَيْكُمُ الْكُفْرَ وَالْفُسُوقَ وَالْعِصْيَانَ﴾(الحجرات:٧). ثم إن المسلم تزداد منزلته عند الله علوًّا، كلما ازداد صدقاً مع الله في إسلامه والتزاماً بأحكامه وأوامره.

وإذا علم أحدنا أن ما يشعر به من حب وتعظيم لله تعالى ليس إلا ثمرة محبة الله له ورحمته به وفضله عليه، فإن علمه هذا سيحول دون دخول شيء من التباهي أو العجب في نفسه، بل يشعر بمزيد من منة الله وفضله عليه. والشأن في هذا الشعور أن يزيده حبا لله وتعظيماً له وتعلقاً به. لقد أحبك الله فجذبك إليه وعرّفك على ذاته وحبب إليك الانقياد لأوامره، أفلا تنبعث في نفسك نشوة قدسية من هذا الشعور؟ ومن ثَمَّ أفلا تُلهِبُ هذه النشوة فؤادك بمزيد من الحب له؟ هذه النشوة هي التي دفعت امرأة صالحة كانت تخدم في دار رجل ثريّ أن تناجي ربها ليلا في سجودها قائلة: "أللهم إني أسألك بحبك لي أن ترحمني وتكرمني". فسمع الرجل دعاءها وانتقدها قائلا: "ما أدراك أنه يحبك؟ أفلا قلت: أسألك بحبي لك؟" فقالت: "يا سيدي لولا حبه لي ما أيقظني في هذه الساعة، لولا حبه لي ما أوقفني بين يديه، لولا حبه لي ما أنطقني بهذه النجوى".

فإذا عاد أحدنا إلى نفسه، وشعر بأن شعاعا من محبة الله يسري إلى قلبه، ونظر فوجد أن الله قد أقامه من شؤون الحياة ووظائفها فيما يرضيه وصرفه عما لا يرضيه، فلترقص الفرحة بين جوانحه، إذ كان -وهو التافه الحقير- مكانا لعناية الله به والتفاته إليه، وإقامته له مقام الوداد والقرب منه. أما إن عاد إلى نفسه فرآها محجوبة عن شمس الهداية، غارقة في ظلمات الأوهام، وعاد إلى سلوكه فرأى نفسه سجينا في أودية المعاصي والآثام، شاردا عن ساحة الطاعات والعبادات، فليعلم إذن، أن هذا هو عنوان منزلته عند الله، وليعلم أنه إن طال به الوضع على هذه الحال، فإنما هو نذير شقاء دائم لا مردّ له ولا رجوع عنه. فإذا كانت ذاته عزيزة عليه، و لم تكن قد هانت عليه إلى درجة اللامبالاة، فليتدارك شأنه اليوم ولينتهز الفرصة التي لا تزال سانحة أمامه. سبيلُ هذا التدارك أن يدخل على الله من باب الفاقة والذل، وأن يشكو إليه حاله، وأن يعتذر إليه بضعفه وعجزه، وليناجه قائلا: "لئن طردتَني يا رب عن منازل تكريمك وعن مدارج توفيقك، فحاشاك أن تطردني من أبواب رحمتك المفتّحة أمام جميع عبادك. وها أنا يا سيدي قد وفدت إليك من بابك هذا، وارتميت بنفسي في أعتاب كرمك، وكلّي ضعف وعجز وذل وهوان، فاجعل من ضعفي المتهالك وذلي المنكسر شفيعاً لي بين يديك".

ألا ولنعلم أننا إن تداركنا أمرنا فدخلنا على الله من هذا الباب، فلسوف يستجيب دعاءنا ويقبل رجاءنا ويذيقنا بَرْدَ ألطافه الخفية ومغفرته الواسعة. وصدق من قال: "الصلح بلمحة".

أسأل الله تعالى أن يقينا من جنون الاستكبار عليه، وأن لا ينسينا مملوكيّتنا وعبوديتنا له، وأن يجعلنا دائما على ذكر من حالنا ساعة الرحيل عن هذه الحياة الدنيا. ■

(*) كلية الشريعة، جامعة دمشق / سوريا.

الرؤية التكاملية
وطب المستقبل

أ.د. خالد عمارة *

لا يزال الكثيرون ينظرون للإنسان كنسخة متطورة من الحيوان، أو -في تصور آخر- كحيوان ذكي جعله ذكاؤه أكثر قدرة على السيطرة على الطبيعة وما حوله. كما جعله ذكاؤه أكثر طموحا وطمعا في المزيد من الشهوات والرغبات قياسا بباقي الحيوانات التي لا تجاريه في هذا الطموح. فطموح الحيوان هو السيطرة على قطيع أو منطقة من الغابة، بينما طموح الإنسان السيطرة على شعوب وقارات وكواكب. وبالتالي فالرغبة دافعها واحد والشهوات مصدرها واحد ولكن التعبير عنها يختلف حسب قدرة وذكاء الحيوان. والهدف من هذا هو المتعة الحسية والشعور بالسعادة. والطريق إلى هذه السعادة هو إشباع الغرائز. فهذا الكائن هو ماكينة تبحث عن العمل والنوم والمتعة الحسية ثم المزيد من العمل والإنتاج والتراكم المادي للممتلكات.

ومع هذه النظرة التي تقدم الإنسان كمصارع للطبيعة بدلا من أن يكون جزءا منها، نجد الكثيرين يفترضون أن قهر وتدمير الطبيعة هو شرط لتقدم الإنسان المادي وسعادته.

إشباع الجسد والروح معا

لكن هناك الكثير من العلامات التي تتعارض مع هذا التصور، وتنفي هذا التفسير للسلوك الإنساني في سعيه وراء السعادة والأمان. إذ لا يعقل أن هذا الحيوان المتعطش لإشباع غرائز التملك والمتعة يضحي بوقته في التعبد، أو مشاهدة لوحة فنية، أو الاستماع إلى موسيقى... فهذا لا يتماشى مع منطق الكائن المنتج الساعي وراء القوة والسيطرة فقط. بماذا نفسر وجود من يحرم نفسه من الطعام، أو يدفع المال لمساعدة فقير أو طفل أو ضعيف، رغم أن هذه الأفعال لن تزيد من ممتلكات هذا الإنسان أو من سيطرته؟ لماذا تدعو المجتمعات للعطف على كبير السن



والضعيف والمريض رغم كون هؤلاء يُعتبَرون -بالمقاييس المادية- معوقــات للإنتاج والعمل؟ لماذا ظل الإنســان على مر العصور يضيــع وقته في الصــلاة لمعبود أو في بناء مباني جميلة أو رســم لوحات فنية أو تأمل الطبيعة أو عمل مقطوعات موســيقية تمس المشــاعر والأحاســيس، وهو ليس مجبرا على هذا، بل في أغلب الحالات هو يجد متعة في فعل هذا، ويتباهى به؟

إذن الإنســان ذو الجسد الحيواني، ذو الشــهوات والغرائز والرغبات له وجه آخر روحاني لا يمكن إنكاره. وهذا الإنســان كي يصل إلى السـعادة المنشــودة لابد أن يُرضي الشق المادي والشق الروحي معا.

العلوم وفلسفة الحضارة

فروع العلم كلها -بما فيها الطب- تتأثر بفلسفة المجتمع المحيط بهــا ومتطلباته؛ فنجد مثلا الحضارة الإســلامية برعت في علوم الهندسة والحســاب والفلك، وربما كان هذا لاحتياج الناس إلى تنظيم صلواهم وصيامهم. ونجد علما مثل علم الأجناس وتصنيف الشــعوب يتطور وينمو مع حكم الدول العنصريــه، مثل ألمانيا النازية، وأثناء غزو الأوروبيين للأمريكتين وإفريقيا... وفي المقابل نجد فلســفة المجتمع تتأثر بما تجده مناســبا لها من العلوم؛ فنجد نظرية مثل نظريــة داروين في الانتخاب الطبيعي والبقاء للأقوى -رغم وجود الكثير من الأدلة المضادة لهذه النظرية- إلا أن هذه النظرية تجد من يؤازرها ويضعها في محل التطبيق على المســتوى الاجتماعي والحضاري، وليس فقط على المســتوى البيولوجي، ويجد فيها المبرر الأخلاقي لقهر الشعوب ونهب الثروات وتلويث البيئة وتدمير الطبيعة.

في الطــب كان من الطبيعي أن ينظر الطبيب إلى الإنســان كوحدة متكاملة من جسد وروح، هكذا كانت النظرة منذ أقدم العصور. فكنا نجد حكيم القبيلة المســؤول عن علاج الأمراض هو نفس الشــخص الذي يســتعين به أفراد القبيلة لاتخاذ قرار صعب أو في التعبد والصلاة. وكان هذا الشخص يجمع بين العلم والروحانية والسحر والشعوذة والطقوس الموروثة.

ولقد تطور الأمر في بعض الحضارات، فوجدنا في الحضارة اليونانية فلاسفة وأطباء في نفس الوقت. ومع الحضارة الإسلامية وجدنا هذا التطور في أبدع صوره تكاملا، لقد رأينا العالم والطبيب والكيميائي هو نفس الإنســان الشاعر والفقيه والفيلسوف. لقد رأينا صورا من الإبداع في العلــوم المادية التجريبية صدرت من الفقيــه صاحب الإبداعات الفنية والفلســفية. من أمثلة هذا في الطب ابن سينا (٩٨٠-١٠٣٧م) والرازي (٨٦٤-٩٢٣م) وابن النفيس (١٢١٠-١٢٨٨م)...إلخ.

طب الجسد وطب الروح

ولكن مع ظهور الحضــارة الغربية الحديثة حدث تحول عن هذا الاتجاه في العلم والطب. فكان أن أخذت أوروبا عن المســلمين العلــوم التجريبية منفصلة عن الروحانيات. وقامت نهضه أوروبا على فصل العلوم التجريبية عن الروحية. ولقد حدث هذا نتيجة اضطهاد الكنيســة في تلــك العصور للعلــم والعلماء وللمنهج التجريــبي ممــا أدى إلى رد الفعل بفصل الديــن عن الدولة، والروحانيات عــن العلوم المادية، والأخلاقيــات عن التجارة، وطب الجسد عن طب الروح. وكانت النتيجة شعار: "الغاية تبرر الوسيلة" في السياســة والحكومات، ومجتمعات تنفق على علوم تخترع أسلحة الدمار الشامل أكثر مما تنفق على التعليم أو الغذاء، وتجارة رأسمالية تستغل الشــعوب ويزيد معها غنى الأغنياء وفقر الفقراء، وإنســان يقهر ويدمر الطبيعة في سبيل المزيد من المال، وطب ينظر إلى الإنســان كمجموعة مــن التفاعلات الكميائية والوصلات الكهربية والعلاقات الهندسية دون أن يرى الروح التي نفخها الله في هذا الإنسان، وإبداع الخالق من وراء كل ذلك.

ومما يدعو للحزن أن هذا النهم والإشباع المادي الذي تحصل عليه قلة من أهل الأرض على حساب باقي الشعوب لم يفلح في أن يعطي هذه القلة الشــعور بالسعادة أو الاطمئنان، وظل هناك سعي محموم وراء السعادة بمحاولةِ تملّكِ المزيد وإشباعِ المزيد من الشهوات، وهكذا استمرت الحلقة المفرغة دون سقف أو شاطئ مأمون. وظهرت هناك زيادة في الكم دون الكيف؛ فوجدنا الإنسان يعيش أعواما أكثر ولكن مع تعاســة واكتئاب. ووجدنا أمراضا تتم الســيطرة عليها ولكن دون أن تتحسن نوعية حياة المريض أو قدرته على الشــعور بالسعادة والأمان، أو الاستمتاع بالحياة.

بشائر الأمل

ولكن بشائر الأمل قد بدأت في الظهور، ففي أثناء العقد الأخير بدأت تظهر توجهات -رغم بســاطتها- على أن العلم والطب سوف يعود إلى ســابق عهده في رؤية متكاملة للمادة والروح. وللنظــرة التي تعي الطبيعة ومــا وراء الطبيعة. نظرة ترى الكون والخلق، وتشــعر بعظمة الخالق، وتستشــعر روح الكائنات ولا تكتفي بما تســتقبله حواسنا الخمس البسيطة من سمع وبصر وشم

ولمـــس...إلخ، تلك الحواس التي وهبنا الله إياها لتســـاعدنا على الإدراك وليس لتكون منتهى إدراكنا للكون. والنظر للإنســـان كجزء من البيئة المحيطة يجمعه معها مصالح مشتركة وليس كعدو أو مصارع لها.

أمثلة من جراحة العظام

كانت نظرة الأطباء إلى الإنســـان كمجموعـــة من التفاعلات الكميائية والكهربيات، وإلى العظام كروافع هندسية. كانت هذه النظرة هي العامل المحرك في تطور علاج أمراضِ وكسور العظام، وبخاصة في النصف الثاني من القرن العشرين؛ ففي علاج الكسور كان الأسلوب الغالب هو تثبيت الكسر بأقوى الوسائل وأشدها صلابة من شرائح معدنية أو مسامير. وكان التنافس بين العلماء هو في اكتشاف مواد أكثر تحملا للضغوط المتكررة على جسم الإنسان، وفي الوصول إلى تصميمات أكثـــر متانة كي تعيش أطول عمر ممكن داخل جسم الإنسان وكي يتقبلها الجسم مدة أطول قبل أن تنهار تحت ضغط التحريك المتكرر والاحتكاك والتآكل التدريجي للمعادن، وتآكل العظام والأنســـجة المحيطة بالجســـم الغريب.

وفي علاج المفاصل المريضة أو علاج الأورام انتشرت طريقة تعتمد على إزالة الورم أو المفصل المريض واستبداله بمفصل صناعي من سبائك معدنية وبلاستيك. وظل نفس التحدي هو الحصول على مادة تعيش فترة كافية ويتقبلها الجســـم، وتتحمل الضغوط والاحتكاك كي تقوم بالعمل داخل جســـم الإنسان مثل المفصل والعظام الطبيعية، وتسمح لمن أجريت له هذه الجراحة بالعودة إلى حياته الطبيعية أو أقرب ما يكون إلى ذلك.

ولكن محاولات الأطباء والعلماء لم تصل حتى الآن إلا إلى نجاح محدود نسبيا؛ فالعمر الافتراضي لأغلب هذه المفاصل الاصطناعية يتراوح بين عشـــرة وخمسة عشر عاما، في حين أن متوسط عمر الإنسان يتراوح بين ثمانين وتسعين عاما. وهذه المفاصل لا تعطي مجـــال الحركة الطبيعي أو القوة الطبيعية أو الليونة أو القدرة على المنـــاورة التي يمنحها المفصل الطبيعي، حيث إنها تفتقد إلى الكثير مـــن التفاصيل الدقيقة التي تحتويها العظام الحية. ثم إن مضاعفات هذه الجراحات عالية نسبيا، حيث إن وجود جسم غريب بحجم كبير مثل المفصل الصناعي يجعل المريض أكثر عرضة واســـتعدادا لحدوث تلوث صديدي، وللعدوى بالميكروبات، حيث إن مناعة المنطقـــة التي يتم إجراء الجراحة بها تكون أقل من باقي الجســـد، وذلك لأن الدورة الدموية -بما تحملـــه من كرات الدم البيضاء والمواد المسؤولة عن الدفاع عن جسم الإنسان ضد الميكروبات- لا تكون متواجدة داخل هذا الجســـم الغريب، وبالتالي فإن هذا المفصل الصناعي أو الجسم الغريب يكون مَخْبأ ممتازا للميكروبات التي تختبئ فيه من أجهزة المناعة لدى الجســـم. وعند انتهاء العمر الافتراضي للمفصل وتآكله أو تآكل العظام والأنســـجة المحيطة به يحتاج المريـــض إلى جراحات أخرى أكثر تعقيدا، وأقل بكثير في نسبة النجاح.

ولكل هذا -ولأسباب أخرى- ينصح الأطباء بتأخير تركيب هذا المفصل الصناعي، وقَصر تركيبه على الموغل في السن، ليس فقط لقصـــر عمره الافتراضي، ولكـــن لأن تحمل هذه المفاصل محدود، ولا تتحمل نشـــاطَ أو حركةَ شـــاب رياضي أو جندي أو عامل في حقـــل، فينصح الأطباء مثل هؤلاء بالتقاعد والتقليل من الحركة قبل إجراء الجراحة وبعد إجرائها، كي يعيش المفصل الصناعي أطول وقت ممكن.

وبالطبع هذه المفاصل لا تنمو، فلا يمكن تركيبها في الأطفال إلا في حالات خاصه.

العودة إلى النظرة التكاملية

لكل هذه الأســـباب بدأ الإنســـان يبحث عن بديل حي للعظام المريضه، وبدأ يعرف أن أســـرار الحياة المعقدة لا يمكن استبدالها ببعض السبائك والأجهزة البسيطة، فبدأ في البحث عن بدائل حية في صورة زرع العظام من المريض نفسه (وهذا كميته محدودة ولا تكفي لتعويض نقص كبير بالعظام)، أو عن طريق ما يسمى ببنك العظام، وهو بنك يحفظ عظاما من أشخاص متوفّين أو متبرعين. ولكن قدرة التئام هذه العظام المنقولة من شـــخص غريب تكوّن محدودة جدا، إما نتيجة رفض الجسم لها ومهاجمة جهاز المناعة لها لكونها أنسجة غريبة، أو لعدم احتوائها على ما يكفي من الخلايا الحية التي يحتاجها الجســـم أو المكان المصاب، وذلك نتيجة موت أغلب الخلايا أثناء عملية التبريد والحفظ أو التعقيم بالبنك.

وهنا ظهرت بـــوادر مرحلة جديدة من العلاج وهي العلاج بخلايا حية من جســـم الإنسان نفسه، ولكن لها القدرة على بناء أنسجة جديدة تحل محل الأنسجة المصابة.

ومن هذه الطرق ما يسمى طريقة إعادة تكوين الأنسجة عن طريق الإطالة التدريجية، وهي طريقة وصفها عالم روســـي يدعى "أليزاروف" في الستينيات من القرن العشرين، ولكن بدأت تنتشر حول العالم مع أوائل التسعينيات من القرن العشرين. وهي عبارة

عن عمل شق بالعظام بطريقة جراحية معينة ينتج عنه بعد عشرة أيام من الجراحة ما يشبه مركز النمو لدى الأطفال. ثم يتم توجيه النمو عن طريق أجهزة تثبيت داخلية أو خارجية في الاتجاه المطلوب، وبسرعة مليمتر واحد في اليوم. أي، إذا كان المطلوب إطالة ساق قصيرة مسافة ثلاثة سنتيمترات فتتم الإطالة على مدى ثلاثين يوما، بعدها ينتظر الطبيب المعالج بعض الوقت حتى يتم نضج الأنسجه الجديدة ثم يُزيل جهاز التثبيت الداخلي أو الخارجي ويعود الإنسان إلى حياته الطبيعيه. ونلحظ هنا أن هذه الطريقة يَنتج عنها ليس فقط خلايا من عظام جديدة بل وعضلاتٌ وأعصاب وشرايين وجلد...إلخ.

ومع هذه المرحلة الجديدة ظهر العلاج بالخلايا الجذعية -ولكن لا يزال في مراحل التجربة الأولى ولم يتم استعماله على مجال واسع بعد- وهي خلايا جنينية في مراحل التطور الأولى، ويتم التحكم في تطورها ونضجها إلى النسيج المطلوب والذي يحتاجه المريض. فإذا كانت هناك مشكله بغضاريفِ أحد المفاصل فيمكن تعويض الخلايا المريضة بخلايا جديدة يتم توجيه نشاطها بحيث تتحول إلى خلايا غضروفية يتم زرعها بالجسم في المرحلة المناسبة.

وهناك العلاج بالهندسة الوراثية والجينات، وهو أيضا محل بحث في المراحل الأولية، وبه يمكن التحكم فيما تفرزه الخلايا من مواد وما تقوم به من تفاعلات عن طريق تغيير ترتيب الجينات والأحماض الأمينية بنواة الخلايا، بحيث يمكن تشجيع الخلايا على إنتاج مادة ناقصة من جسم الإنسان المريض، أو التوقف عن إنتاج مادة أو نوع من الخلايا التي قد تكون هي سبب المرض.

مما سبق، نجد أن العلم الإنساني قد بدأ يعود ثانية إلى التعامل مع الحياة كمجموعة متكاملة متداخلة من التفاعلات. منها ما هو مادة ومنها ما هو روح، قد يكون هذا التعامل في مراحل أولية، وقد يستمر هذا الاتجاه أو ينتكس، قد يصل إلى ما نحلم به بعد عدة سنوات أو عدة قرون، ولكن على المدى الطويل نتمنى أن نعود إلى النظرة المتكاملة للصحة والمرض وللجسد والروح، والتكامل -بدلا من التضاد- بين الإنسان والكون. ■

(*) أستاذ جراحة العظام، جامعة عين شمس / مصر.

حراء
مجلة علمية ثقافية فصلية
www.hiramagazine.com

رحمة الرحمن

أصغِ يا إنسان..
ففي يبس التراب حنين،
وفي قلب الماء حرقة وأنين،
وفي الهواء نَوْحٌ ولوعةٌ ودمعٌ سخين،
والخالق الرحمن،
إليهنّ ينظر،
وعليهن يشفق،
ولضراعاتهنّ يستجيب،
فإذا شآبيب الرحمة تتهاطل،
وغيوث السماء تنهمر،
والأرجاء تخضر،
والآفاق بالنور تنهلّ..

* * *



الكون والطبيعة
في فكر الإمام النورسي

أ.د. فاروق حمادة *

هبت رياح صرصر عاتية على العالم الإسلامي من جهات العالم الأربع في نهاية القرن الماضي للميلاد، تحمل بذورا على الإنسانية مشؤومة، تنبت الزندقة والإلحاد، وتنكر الغيب وتؤمن بالحس والمادة وتهزأ مما سواهما. وطاشت تحت وطأتها عقول الراشدين الأسوياء، إلا من رحم الله، فمن موافق ومن متجاهل ومن ملفق، وقليل ما هم الذين واجهوا الأعاصير هذه وتصدوا لها بحواجز الإيمان ومعارف القرآن وبما تسلم به عقول الأسوياء من بني الإنسان. ومن هؤلاء النخبة المصطفاة والخيرة المجتباة النابغةُ المتميز، بديع الزمان سعيد النُّورْسِي الذي كان تحطيم مركز وجوده هو المقصود، ومركز الدائرة وسرها المرصود.

لقد كرع هذا من حياض القرآن وهديه، وأصاخ السمع للمعارف الجديدة بعقله وقلبه، فشرح الله منه الصدر والفؤاد، وبدأ يجابه المادة بنفس ما تستعمله من سلاح وعتاد، ألا هو المادة والطبيعة والكون والإنسان فأجاد في ذلك أيما إجادة، وأفاد فوائد تربو على الحصر والزيادة. وفي تقديري أن استعماله لهذا السلاح الذي كان يمسك به الخصم هو الذي جعل الشباب يقبلون على رسائله وينتظرون أبكار أفكاره، وواضح أدلته. فثبت الله به الجم الغفير، وكتب لعمله وعطائه البقاء، غضا طريا، تستهديه الأجيال وتستنير به القلوب الظامئة الطامحة إلى أحسن الأحوال.

لقد كان للكون والطبيعة أثر بالغ في نفس النورسي، ويرى في ذلك أدلة حق قاطع، وشهادات صدق ساطع، ﴿لِيَهْلِكَ مَنْ هَلَكَ عَنْ بَيِّنَةٍ وَيَحْيَا مَنْ حَيَّ عَنْ بَيِّنَةٍ﴾(الأنفال:٤٢). ففي كل صفحة من رسائله وكتبه يرى قراؤه الكون والطبيعة، فكيف كان أثر هذه الرؤية على نفسه أولا؟

النورسي والكون

إن ظروف وحدته في سجونه وتنقلاته، فتحت على الكون عين بصره وبصيرته، فأصبح يرى ما لا يراه المغمورون في





خضم الحياة. وبحكم ما تكنه حناياه ومشـــاعره من آي القرآن، تولّد لديه إحســـاس مرهف بهذا الكون من حوله، ففجر طاقات عظيمة جدا، واقتبس نزرا من النماذج الكثيرة الوفيرة التي تبين لنا مدى تأثـــره وتفاعله بهذا من حوله. يقول رحمه الله: "في إحدى الليالي كنت على ارتفاع عظيم في وكر منصوب على قمة شجرة القطران المرتفعة على قمة من قمم جبل "جام"، نظرت من هناك إلى وجه الســـماء الأنيس الجميل بمصابيح النجوم، فرأيت أن في القَسَـــم الوارد في الآية الكريمة: ﴿فَلاَ أُقْسِمُ بِالْخُنَّسِ ۞ الْجَوَارِ الْكُنَّسِ﴾(التكوير:١٥-١٦) نورا ساميا من أنوار الإعجاز، وشاهدت فيه سرا بليغا لامعا من أسرار البلاغة".

ويقول: "لقد بقيت منذ شهرين أو ثلاثة وحيدا فريدا، وربما يأتيني ضيف في كل عشـــرين يوما أو ما يقرب من ذلك، فأظل وحيدا في سائر الأوقات، ففي هذه الجبال الموحية بالغربة، وعندما يرخي الليل ســـدوله، فلا صوت ولا صدى إلا حفيف الأشجار الحزين، رأيتني وقد غمرتني خمسة ألوان من الغربة...".

ويقول: "كنت جالسا ذات يوم في الطابق العلوي من فندق "شهر" عقب إطلاق سراحنا من سجن "دنيزلي" أتأمل فيما حولي من أشجار الجور والصفصاف الكثيرة في الحدائق الغناء والبساتين الجميلة، رأيتها جذلانة بحركاتها الراقصة الجذابة تتمايل بجذوعها وأغصانها، وتهتز أوراقها بأدنى لمسة من نسيم، فبدت أمامي بأبهى صورها وأحلاها وكأنها تسبح لله في حلقات ذكر وتهليل. مست هذه الحركات اللطيفة أوتار قلبي المحزون من فراق إخواني، وأنا مغموم لانفرادي وبقائـــي وحيدا، فخطر على البال فجأةً موسَمَا الخريفِ والشـــتاءِ وانتابتني غفلة، إذ ستتناثر الأوراق وسيذهب الرواء والجمال، وبدأتُ أتألم على تلك الصور الجميلة، وأتحســـر على سائر الأحياء التي تتجلى فيها تلك النشوة الفائقة تألما شديدا حتى أغرورقت عيناي واحتشـــدت على رأســـي أحزان تدفقت من الزوال والفراق تملأ هذا الســـتار المزركش البهيج للكائنات.

ويقـــول: "بينما كنت على قمة جبل في "بارلا" أيام منفاي، أسرح النظر في أشـــجار الصنوبر والقطران التي تغطي الجهات، وأتأمل في هيبة أوضاعها وروعة أشكالها وصورها، إذ هب نسيم رقيق حوّل ذلك الموضع المهيب الرائع إلى أوضاعِ تسبيحات وذِكر جذابة، واهتزازات نشوة شوق وتهليل، وإذا بذلك المشهد البهيج السار يعتصر عبرا أمام النظر، وينفث الحكمة في السمع، وفجأة خطرت ببالي الفقرة الآتية بالكردية لأحمد الجزري ترجمتها:

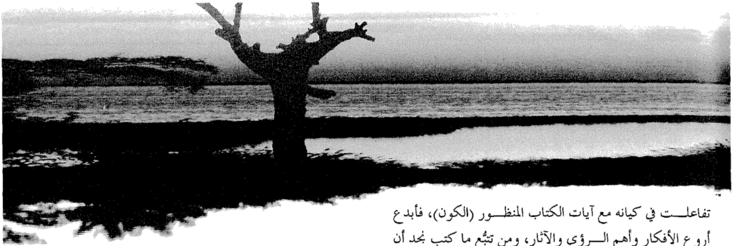
لقد أتى الجميع مسرعين من كل صوب لمشاهدة حسنك.
إنهم بجمالك يتغنجون،
وتعبيرا عن معاني العبرة بكى قلبي على هذه الصورة،
يا رب إن كل حي يتطلع من كل مكان،
فينظرون معا إلى حسنك،
ويتأملونه في روائع الأرض التي هي معرض صنعك،
فهم كالدعاة الأدلاء ينادون من كل مكان...
من الأرض ومن السماوات العلى إلى جمالك...إلخ.

ويقول في الكلمات: "كنت سارحا في رفقة غربتي أسوح مع الفكر، وأجول مع الخيال والتأمل. فقادتني قدماي إلى سفح رابية مزدانة بالخضرة فرنت إليّ على اســـتحياء من وسط هذا البساط الأخضر زهرةٌ صفراء ســـاطعة النضرة، وألوت جيدا إليّ تناغيني بود ومحبة، فأثارت مشاعري وأشواقي إلى زهرات مثلها التقيتها في ربوع بلدتي "وان" وفي سائر المدن الأخرى التي كانت تحتضن غربتي مرة بعد أخرى، فانهال هذا المعنى فجأة على قلبي...".

النورسي بين الكتابين

لقد كان النورسي رحمه الله مرهف الإحساس رقيق المشاعر يقظ الفؤاد نبيه الفكر، رأى الكون والطبيعة من حوله فتأمل فيها بهذا الإرهاف والنباهة. فعكس ذلك علـــى قلبه أفكارا عميقة الغور بعيدة المدى. إنه يرى كل شيء في هذا الوجود من حوله صغيرا وكبـــيرا، فينظر إلى موضعه وغايته وهـــدف وجوده ويفجر منه الأحاسيس والأفكار، وقد نثر ذلك في كتابه بما يضيق المقام عنه.

إن القارئ ليشعر أن آيات الكتاب المسطور (القرآن الكريم)



تفاعلت في كيانه مع آيات الكتاب المنظور (الكون)، فأبدع أروع الأفكار وأهم الرؤى والآثار، ومن تتبَّع ما كتب نجد أن أكثر ما أثر فيه منظر الربيع بما يضمه ويبتدئ فيه من حياة، ومنظر الخريف، وكيف يتغير فيه وجه الأرض ويستعد للموت، لذلك أكثر جدا من وصف هذا المنظر المؤثر البليغ. علما بأنه تأمل في صغير المخلوقات وكبيرها، من الأرض والسماء انتهاء إلى صغيرها كالأرضة والبعوضة والنحلة والذباب، وتأمّلَ في النافع والضار، وبيّن حكمة هذه الأضداد في مخلوقات الله وضرورتها وفائدتها.

وإنه في سياحته الكونية، وتقلبه في أحضان الطبيعة في ليلها ونهارها، وفي ظاهرها وباطنها في صغيرها وكبيرها، كان يرى أن هذا الكون مع تباعد أرجائه، واختلاف مادته وأحيائه هو شجرة متناسقة، تؤدي وظيفتها بدقة وإتقان، وتدل على الكبير المتعال. وبهذا الكون أنكر الماديون الخالق ونفوا عالم الغيب وتبلد فيهم الإحساس، فهو بنفس السلاح يحاربهم وبمظاهر هذا الكون وأرجاء الطبيعة يقرعهم ويوقظهم من غفلات جهلهم.

الأرض قصر ضيافة

وكان يرى كذلك أن هذا الكوكب الأرضي قصر منيف، لضيافة الإنسان، يأتيه رزقه رغدا من كل مكان، يقول: "رحمتُك المطلقة التي صيرت الكون في حكم قصر منيف لذوي الأرواح وبخاصة الإنسان".

ويقول: "إن تجدد المصنوعات الجميلة، وتبدل المخلوقات اللطيفة ضمن الغروب والشروق، وباختلاف الليل والنهار، وبتحول الشتاء والصيف، وتبدل العصور والدهور، كما أنها تدل على وجودِ ذي جمال سرمدي رفيع الدرجات دائم التجلي، وعلى بقائه سبحانه ووحدته، فإن موت تلك المصنوعات وزوالها بأسبابها الظاهرة يبين تفاهة تلك الأسباب وعجزها وكونها ستارا وحجابا ليس إلا، فيُثبت لنا هذا الوضع إثباتا قاطعا أن هذه الخلقة والصنعة وهذه النقوش والتجليات إنما هي مصنوعات ومخلوقات متجددة للخالق ﷻ الذي جميع أسمائه الحسنى مقدسة بل هي نقوشه المتحولة ومراياه المتحركة، وأختامه المتبدلة بحكمة".

إنه كرر مرارا في رسائله وأفكاره أن هذا الكون فيه أربعمائة ألف نوع من شعوب النباتات وأمم الحيوانات، يقول في الكلمات: "لو أن جيشا عظيما يضم تحت لوائه أربعمائة ألف نوع من الشعوب والأمم لكل نوع جنس طعامه المستقل عن الآخر، ونمط تدريباته وتعليماته يباين الآخر، ومدة عمله وفترة رخصته هي غير المدة للآخر... فقائد هذا الجيش الذي يزودهم وحده بالأرزاق المختلفة والأسلحة المتباينة والألبسة المتغايرة دون نسيانه أيا منها ولا التباس ولا حيرة لهو قائد ذو خوارق بلا ريب، فكما أن هذا المعسكر العجيب يرينا بداهةً ذلك القائدَ الخارق، بل يحببه إلينا بكل تقدير وإعجاب كذلك معسكر الأرض، ففي كل ربيع يجند مجددا جيشا سبحانيا عظيما مكونا من أربعمائة ألف نوع من شعوب النباتات وأمم الحيوانات، ويمنح لكل نوع ألبسته وأرزاقه وأسلحته ورخصه الخاصة به من لدن قائد عظيم واحد جل وعلا بلا نسيان ولا اختلاط ولا تحير، وفي منتهى الكمال وغاية الانتظام".

ويقول في تفسير قوله تعالى: ﴿إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ وَاخْتِلاَفِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ﴾(البقرة:١٦٤): "ما من جرم في الأجرام السماوية إلا ويشهد شهادة على ربوبيتك وإشارة إلى وحدتك بسكونها في أداء وظيفتها بلا ضوضاء وبقائها بلا عمد. وما من نجم إلا ويشهد على عظمة ألوهيتك ويشير إلى وحدانيتك بخلقته الموزونة وبوضعه المنتظم وبتبسمه النوراني وبمماثلته ومشابهته للنجوم كافة. فهذه السماوات الصافية الطاهرة الجميلة تدل دلالة ظاهرة على هيبةِ وعظمة قدرتك المبدعة، وتشير إشارة قوية إلى سعة حاكميتك المحيطة بالسماوات الشاسعة، وإلى رحمتك الواسعة المحتضِنة لكل ذي حياة، وتشهد بلا ريب على شمول حكمتك لكل فعل وعلى إحاطة علمك بكل شيء المنظِّمين في قبضتهما جميعَ شؤونِ وكيفيات جميع المخلوقات السماوية بأجرامها التي هي في غاية الضخامة وفي غاية السرعة، وبإظهارها أوضاعَ جيش منظم ومهرجان مهيب مزين بمصابيح وضاءة،

فتلك الشهادة والدلالة ظاهرتان جليتان، كأن النجوم كلماتُ شهادة للسماوات الشاهدة ودلائلها المتجسمة النورانية. أما النجوم السابحة في بحر السماوات وفي فضائها فإنها تُظهر شعشعةَ سلطانِ ألوهيتك بأوضاعها المماثلة لجنود منصاعين وسفن منتظمة وطائرات خارقة ومصابيح عجيبة، ورفيقات شمسنا التي هي نجمة من ذلك الجيش ترنو إلى عوالم الآخرة، وليست معطلة بدلالة وظائف الشمس سياراتها وفي أرضها ولربما هي شموس عوالم باقية.

ويقول في تفسير ﴿حَسْبُنَا اللهُ وَنِعْمَ الْوَكِيلُ﴾(آل عمران:١٧٣): "إنك تستند بهوية الانتساب الإيماني إلى سلطان عظيم ذي قدرة مطلقة بحيث يجهّز بانتظام تام في كل موسم ربيع على سطح الأرض جميعَ جيوش النباتات والحيوانات المتشكلة من أربعمائة ألف من الأمم والطوائف بالأعتدة والأجهزة اللازمة، فيجدّد ملابسَ جيشه العظيمة وهي الأشجار والطيور ملابسَ جديدة مبدّلا أنواطهما وشاراتهما حتى إنه يبدل لباس الجبل ونقاب الصحراء مثلما يبدل فساتين الدجاج اللطيفة وأثواب الطيور الجميلة ويوزع جميع أرزاق الجيش الهائل للأحياء، وفي مقدمتها الإنسان".

الجندية الكونية

إنه كان يقيم من كل ذرة من ذرات هذا دلائل على التوحيد وعظمةِ الخالق وبديع صنعه وكريم عنايته بالإنسان سيد هذا الوجود، وأن أسماءه الحسنى المقدسة تتجلى في هذا الكون، ويشرح ذلك بتطويل وتفصيل ويتحدى المادية والماديين ومذهبهم.

ويقول في بيان الحاكمية المطلقة: "إن من ينظر بنظرة واسعة فاحصة إلى الكون يرى أنه بمثابة مملكة مهيبة جدا في غاية الفعالية والعظمة، وتظهر له كأن مدينة عظيمة تتم إدارتها إدارة حكيمة وذات سلطنة وحاكمية في منتهى القوة والهيبة، ويجد أن كل شيء وكل نوع منهمكٌ ومسخر لوظيفة معينة، فالآية الكريمة: ﴿وَلِلَّهِ جُنُودُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾(الفتح:٤)، تشعر بمعاني الجندية في الموجودات التي تتمثل ابتداءً من جيوش الذرات وفرق النباتات، وأنواع الحيوانات إلى جيوش النجوم كل أولئك جنود ربانية مجندة لله، فنجد في جميع أولئك الموظفين الصغار جدا وفي جميع هؤلاء الجنود المعظمة جدا سريانَ الأوامر التكوينية المهيمنة، وجريانَ الأحكام النافذة وقوانينَ الملك القدوس مما يدل دلالة عميقة بالبداهة على وجود الحاكمية المطلقة والآمرية الواحدة الكلية".

وفي تفسير قوله تعالى ﴿فَسُبْحَانَ اللهِ حِينَ تُمْسُونَ وَحِينَ تُصْبِحُونَ﴾(الروم:١٧) يقول: "إن عقارب الساعة التي تَعُد الثواني والدقائق والساعات والأيام كل منها يناظر الآخر ويمثل الآخر ويأخذ كل منها حكم الآخر، كذلك في عالم الدنيا الذي هو ساعة إلهية كبرى، فإن دوران الليل والنهار الذي هو بحكم الثواني للساعة والسنوات التي تعد الدقائق، وطبقات عمر الإنسان التي تعد الساعات، وأدوار عمر العالم التي تعد الأيام كل منها يناظر الآخر ويماثله ويذكر كل منها الآخر ويأخذ حكمه. ووقت الفجر إلى طلوع الشمس يشبه ويذكّر ببداية الربيع وأوله، وبأوان سقوط الإنسان في رحم الأم... وأما وقت الظهر فهو يشبه ويشير إلى منتصف الصيف وإلى عنفوان الشباب وإلى فترة خلق الإنسان في عمر الدنيا... وأما وقت العصر فهو يشبه موسم الخريف وزمن الشيخوخة... وأما وقت المغرب فإنه يذكّر بغروب أغلب المخلوقات وأفولها نهاية الخريف ويذكّر أيضا بوفاة الإنسان... وأما وقت العشاء فيذكر بغشيان عالم الظلام وستره آثارَ عالم النهار بكفنه الأسود... وأما وقت الليل فإنه يذكر بالشتاء وبالقبر وبعالم البرزخ فضلا على أنه يذكر روح الإنسان بمدى حاجتها إلى رحمة الرحمن... وأما التهجد في الليل فإنه يذكر بضرورة ضياء ليل القبر، وظلمات عالم البرزخ وينبه ويذكر بنعم غير متناهية للمنعم الحقيقي عبر هذه الانقلابات، ويعلن عن مدى أهلية المنعم الحقيقي للحمد والثناء... وأما الصباح الثاني فإنه يذكر بصباح الحشر... نعم، كما أن مجيء الصباح لهذا الليل ومجيء الربيع لهذا الشتاء معقول وضروري وحتمي، فإن مجئ صباح الحشر وربيع البرزخ هي بنفس القطعية والثبوت".

ويقول: "لقد أحصيتُ ذات يوم عناقيد ساق نحيفة لعنب متسلق بغلظ أصبعين -تلك العناقيد التي هي معجزات الرحيم ذي الجمال في بستان كرمه- فكانت مائة وخمسين عنقودا، وأحصيت حبات عنقود واحد منها فكانت مائة وعشرين. فتأملت وقلت: لو كانت الساق الهزيلة خزانة ماء معسل وكانت تعطي باستمرار، لما كانت تكفي أمام لفح الحرارة ما ترضعه لمئات الحبات المملوءة من شراب سكر الرحمة، والحال أنها قد لا تنال إلا رطوبة ضئيلة، فيلزم أن يكون القائم بهذا العمل قادرا عن كل شيء. فسبحان من تحير في صنعه العقول".

الطبيعة مطبعة مثالية لا طابعة

إن الطبيعة عند الإمام النورسي مطبعة مثالية وليست طابعة، هي نقش لا نقّاش، قابلة للانفعال لا فاعلة، مسطر لا مصدر، نِظام لا نظّام، قانون لا قدرة، شريعة فطرية لا حقيقة خارجية. وإن رؤيتها

غيرَ ذلك جُموحٌ ومادية، والفلسفة المادية طاعون معنوي، حيث سبّب في سريانِ حمىً مدهشةٍ في البشرية، وعرّضها للغضب الإلهي، وكلما توسعت قابلية التلقين والنقد توسع ذلك الطاعون أيضا.

أفكار جديدة لم يسبق إليها

إن الإمام النورسي قد فتح الله عليه بأفكار جديدة ورؤى سديدة لا يجدها الباحث عند سواه، و لم يسبقه إليها أحد ممن نحا منحاه؛ فمـــن ذلك إبرازه لحكمةِ وإعجازِ قَرن الأرض بالســـماوات في القرآن الكريم إذ يقول: "إن الإنسان الذي هو ألطفُ ثمرة العالم، ومعجزة جامعة من معجـــزات القادر الحكيم وأبدعُ المخلوقات وأعزها وألطفها، مع أنه أعجزها وأضعفها، هذا الإنســـان يعيش على هذه الأرض. فالأرض إذن مهد لهذا الإنســـان -مع صغرها وحقارتها قياســـا إلى السماوات- عظيمةٌ وجليلة من حيث المعنى والمغـــزى والإبداع، حتى أصبحت -بالمنظـــور القرآني- موضعَ تجلي الأسماء الحسنى كلها، حتى إنها البؤرة الجامعة لتلك الأنوار، ومحشـــر الأفعال الربانية المطلقة ومرآتها، وسُـــوق واسع لإبراز الخلاقية الإلهية المطلقة، ولاسيما إيجادها الكثرةَ الهائلة من النباتات والحيوانات الدقيقة بكل جود وكرم، ونموذج مصغر لمصنوعات عالم الآخرة الواسعِ الفسيح، ومصنع يعمل بسرعة قصوى لإنتاج منتوجات خالـــدة، وموضع عرض لنماذج المناظر الســـرمدية المتبدلة بســـرعة فائقة، ومزرعة ضيقة مؤقتة لاســـتنبات بُذَيراتٍ تربى بسرعة للبساتين الخالدة الرائعة. لهذا كلّه يجعل القرآن الكريم الأرضَ صنوا للسماوات من حيث عظمتها معنىً وأهميتها صنعة، وكأنها ثمرة صغيرة لشـــجرة ضخمة، وكأنها قلب صغير لجســـد ضخم فيذكُرها القرآن الكريم مقرونة بالسماوات، فهي في كفة والسماوات كلها في كفة، فيكرر الآية الكريمة ﴿رَبُّ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ﴾(ص:٦٦)".

حول مفهوم الموت والعدم

ومـــن ذلك رؤيته أن الموت والاندثـــار الذي يصيب في الخريف مخلوقاتِ الربيع والصيف الجميلة ليست فناء نهائيا، وإعداما أبديا، وإنما هو إعفاء من وظائفها وتســـريح منها، وهو إفســـاحُ مجال وتخلية مكان لما سيأتي في الربيع الجديد من مخلوقات جديدة، فهو تهيؤ وتهيئة لما سيحل من الموجودات المأمورة الجديدة، وهو تنبيه رباني لذوي المشاعر الذين أنْستهم الغفلة مهامهم، ومنعهم السكر عن الشكر. والدنيا شجرة رائعة ترسل ثمارها إلى سُوق الآخرة.

لقد كان النورسي يرى تجدد الربيع -وهو في غربته وتأمله- أطباقَ كرم إلهي تأتي الإنســـان بما فيه بقاؤه واستمراره. يقول في الشـــعاعات: "فما إن يحل الربيع حتى ترى الرحمة تزين الأشجار والنباتاتِ المثمرة وتُلبسها ثيابا خضراء كأنها حور الجنة، وتسلم إلى أيديها أنواعا مختلفة من ثمار شـــتى وتقدمها إلينا قائلة: "هاكم كلوا وتفكهوا" وتراها تطعمنا عســـلا مصفى شافيا لذيذا تصنعه حشرة سامة، وتُلبسنا حريرا ناعما تنسجه حشرة بلايد، وتدخر في حفنة من بذيرات وحبوب آلافَ الأطنان من الغذاء وتُحوّلها إلى كنوز احتياطية لنا. انظر إلى قافلة مهيبة تنطلق من الغيب مقبلةً علينا، فهي قافلة تحمل صحون أرزاق الأحياء، قافلة النباتات في الربيع... ثم انظر إلى ذلك المصباح الوضيء المعلق في قبة المملكة فهي تنير الجميع وتنضج المأكولات بخيط دقيق والمعروضة أمامه بيد غيبية (إشارة إلى أغصان الأشجار وثمارها). ألا تلتفت معي إلى هـــذه الحيوانات النحيفة الضعيفة العاجزة كيف يســـيل إلى أفواهها غذاء لطيف خالص من مضخات متدلية فوق رؤوســـها (الأثداء) وحسبها أن تلصق أفواهها بها".

إنـــه بعد أن تحدث طويلا وتفصيلا بتـــؤدة وتأن عن الكون والطبيعة في رسائله وكلماته وشعاعاته وغيرها كان يقول: "لذا فـــإن جميع الآثار والمخلوقات والمصنوعـــات في هذا الكون كله تدل بوجودها غير المحدود دلالة قاطعة على وجود أفعالِ خالقها وصانعها وفاعلها وعلى وجود أسمائه وعلى وجود أوصافه وعلى وجود شـــؤونه الذاتية وعلى وجوب وجود ذاته المقدسة ﷻ. يتجلى عنوان من عناوين اسم من الأسماء الحسنى في كل عالم من عوالم الكون وفي كل طائفة من طوائفه ويكون ذلك الاسم حاكما مهيمنـــا في تلك الدائرة، وبقية الأسماء تابعة له بل مندرجة فيه".

الإنسان الانسجامي

وإذا عرف الإنســـان ربه بدلائل التوحيد وبديع الصنع، فما هي الغاية من ذلك؟ إن الإمام النورســـي يأخذ بيد العارفين رويدا، فكمـــا أقام لهم الأدلة من المادة والكـــون على الله تعالى وأسمائه وصفاته يدلف إلى ضرورة الانســـجام مع تعاليم الخالق وأوامره ونواهيه. يقول رحمه الله: "الأمر في الشجرة المسماة بالكون التي تمثل العناصرُ أغصانَها، ومـــا في نهايات تلك العناصر من أوراق وأزاهير تمثل النباتات والحيوانات، وما في قمم تلك الأغصان وفي ذروة تلك الأزاهير والأوراق من ثمرات تمثل الإنســـان، فإن أجلّ نتائج سعي تلك الثمرات البديعة ونتيجة خلقته، هي العبودية لله وتقديمُ الشـــكر والحمدِ لله وحده، ولاســـيما ما ينطلق من تلك

النـــوى الجامعة لتلك الثمرات، تلك هي قلوب البشـــر وقواهم الحافظة المسماة بظهر الغيب، لا يمكن بأي حال من الأحوال أن يدعها سبحانه لاغتصاب الأغيار فيهون من شأن عظمة ربوبيته وعزتها مخلا به معبوديته، تعالى الله عن ذلك علوا كبيرا".

ويخاطب الغافلين الســادرين بقوله: "يا هذا! ارفع رأســك وانظر إلى غرائب الصنعة وبدائع الخلقة للفعال القدير الذي يريد أن يعرّف نفسه لعباده، فكما أنك لست طليقا سائبا مفلت الزمام في هذا الوجود، فلن تكون هذه الحوادث سدى ولا عبثا، بل كل منها تشـــتاق إلى وظائف حكيمة بخضوع واستسلام، وكل منها يُستخدم من لدن رب حكيم".

الأسباب ليست إلا ستائر

إنـــه ينعى على الماديـــين الذين ركنوا إلى المـــادة وتوجهوا إليها بإجلال وعبادة فيقول: "أيها الغافل الغارق في عبادة الأســباب! اعلم أن الأسباب ليســـت إلا ستائر أمام تصرف القدرة الإلهية، لأن العزة والعظمة تقتضيـــان الحجاب، أما الفاعل الحقيقي فهو القدرة الصمدانية، لأن التوحيد والجلال يتطلبان هذا، ويقتضيان الاستقلال".

لقـــد أقام الدلائل من الموجـــودات على أن هذه الموجودات -غير الإنس والجن- خاضعة مسبحة لله تعالى لا تخرج عن أمره وإرادته، فلهذا يرى أن هـــذا العاقل خلاصة الكون يجب أن لا يكون أقل من باقي المخلوقات طاعة وخضوعا وشكرا وعبادة لله، ولهذا خلق الجن والإنس ليجعلوا الأرض مسجدا ومكانا للتهليل والتقديـــس في كل حركة من حركاهم وتصرف من تصرفاهم.

يقول رحمه الله: "يا رب الأنبياء والصديقين! إن أولئك جميعا مســـخرون وموظفون في ملكك أنت، وبأمرك وقدرتك أنت، وبإرادتك وتدبيرك أنت، وبعلمك وبحكمتك أنت، وقد أظهروا الكرة الأرضية بالتقديس والتسبيح والتكبير والتحميد والتهليل في حُكم أعظم مكان لذلك، وأبرزوا الكون في حكم أكبر مسجد للعبادة".

ويعرّض بالجاحدين الملحدين، وأن الإنسان خلق لغاية سامية وحكمة عالية فيقول: "فيا نفســـي الغافلة! إن كنت تريدين أن تفهمي شيئا من غاية حياتك فإن مجملها تسعة أمور:

أولها: القيام بالشـــكر الكلي، ووزنُ النعم المدخرة في خزائن الرحمة الإلهية بموازين الحواس المغروزة في جسمك.

ثانيها: فتح الكنوز المخفية للأسماء الحســـنى بمفاتيح الأجهزة المودعة في فطرتك، ومعرفة الله جل وعلا بتلك الأسماء الحسنى.

ثالثهـــا: إعلان ما رَكبت فيك الأسماءُ الحســـنى من لطائف وتجليات وبدائع صنع، وإظهارُها أمام المخلوقات بعلم وشعور.

رابعها: إظهار عبوديتك أمام عظمة ربوبية خالقك بلســـان الحال والمقال..." إلى أن يقول: "تاسعها: إدراك درجات القدرة الإلهية والثـــروة الربانية المطلقتين بموازين العجز والضعف والفقر والحاجة المنطوية في نفسك...". ويطيل الحديث في ذلك رحمه الله.

وأختم بنظراته للحياة الدنيا وعلاقة الإنسان بها وقد كررها في عديد من مكتوباته: "... واعلم أنها دار ضيافة وأنت فيها ضيف مكرم، فكلْ واشرب بإذن صاحب الضيافة والكرم، وقدّم له الشكر ولا تتحرك إلا وفق أوامره وحدوده، وارحل عنها دون أن تلتفت إلى ما وراءك، وإياك أن تتدخل بفضول بأمور لا تعود عليك ولا تفيدك بشـــيء، فلا تغرق نفسك بشؤونها العابرة التي تفارقك".

وختاما فقد كان الإمام النورسي رحمه الله متفاعلا مع الكون بكل أبعاده، متأثرا شـــديد التأثر بمظاهـــره وأحيائه، يرى المنظر فيترك في فكره ونفسه أعظمَ الأثر.

وكانت شدة التأثر للكون والطبيعة تريه يد القدرة الإلهية في كل شيء، وجمالُ الوجود يُظهر له حكمةَ الخالق وجماله وجلاله في كل شيء، فجَعَل الكونَ والطبيعة شهبَ أدلةٍ للملحدين وأنوارَ هداية للراغبين، فكان في هذا الباب مجدِّدا فذا، وإماما متميزا رائدا يقـــود الظامئين لتحقيق العبودية بين يدي رب العالمين، وإن أدلة التوحيد التي ســـاقها حَريَّة بالدرس والبحث، لأنها لا تزال بنت عصرنا وحاجة دهرنا، فرحمه الله رحمة واسعة في جنان الخلد مع النبيين والصديقين والشهداء والصالحين وحسن أولئك رفيقا. ■

(*) كلية الآداب والعلوم الإنسانية، جامعة الرباط / المغرب.

المصادر

(1) الكلمات، لبديع الزمان ســـعيد النورسي، ترجمة: إحسان قاسم الصالحي، دار سوزلر للنشر، القاهرة، ٢٠٠٣م.

(2) المكتوبات، لبديع الزمان ســـعيد النورسي، ترجمة: إحسان قاسم الصالحي، دار سوزلر للنشر، القاهرة، ٢٠٠٣م.

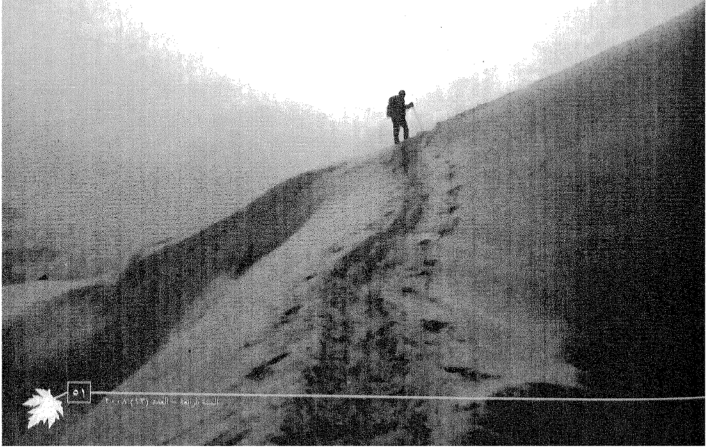
(3) الشـــعاعات، لبديع الزمان سعيد النورسي، ترجمة: إحسان قاسم الصالحي، دار سوزلر للنشر، القاهرة، ٢٠٠٣م.

رجال ولا كأي رجال

أ.د. فريد الأنصاري *

لولا أني رأيتُهم لقلت إنه مجرد وهمٍ أو هُراء أو خيال.. ظلال نورية لجيل الصحابة الكرام، جمعوا بين خصلتين عظيمتين من خصالهم الكبيرة: الهجرة والنصرة. فلم يكن منهم مهاجرون وأنصار، بل كانوا مهاجرين أنصارا.

والهجرة إلى الله ﷻ ورسوله ﷺ كلمات تتلفظ بها الأفواه ولكن قلّما تعيها القلوب. فأن يترك الفتى حياة الراحة والدعة وبريق المدينة الجذاب، ثم يضرب في الأرض ليغوص في غربة بعيدة، يحمل في يده قنديلا من نور؛ بحثًا عن المستضعفين في بقاع الأرض، من أجل إطعامهم جرعة من رحيق الحياة، فيتحمّل في سبيل ذلك فناءَ نفسه وذوبان ذاته ونسيان دنياه. فتلك تجربة روحية لا يعرفها حقًّا إلا من عاناها، وإنها لعقبة دونها عقبات، تنتصب في مدارج المجاهدات.



من بلاد الأناضول تشرق شمسهم، ثم تتدفق أشعتها نحو كل العالم خيوطا بلورية وهّاجة، تصل الأرحام القديمة وتذكي الحنين الجريح.. مهاجرون تركوا خلفهم كل شـيء وانطلقوا كالخيول العارية، يفتحون الأبواب والنوافذ للمحاصَرين في كل بقاع الأرض، ويعلّمونهم كيف يستنشقون من جديد هواء الفضاء الفسيح، بعدما فقدوا إحساسهم بالحياة منذ قرون.

مهاجرون، هجروا هذا الذي تذل لـه القلوب الميتة: متاع الحياة الدنيا وزينتها، رغم تدفقه عليهم من كل الجهات، وانطلقوا سائرين إلى الله، يوزّعون كلمات النور ويبشرون العالم بالأمن والسلام ويبعثون في قلوب الفقراء الأمل العظيم. كانت جحافلهم تتفرق بين الصحارى والجبال والأدغال والمحيطات... وقد تكْبُو فرَسٌ هنا أو هناك، ولكن الطليعة أبدا تصِل إلى غايتها، وترفع راية النور فوق أعالي القمم الشامخة، فيشمخ الدين بهم ويعتزّ..

ظلال من جيل الصحابة أو نُسخ أخرى لستُ أدري.. ولقد رأيتهم وما كذبت عيني. فمنهم من قضى نحبه ومنهم من ينتظر، وما بدّلوا تبديلا.. فلله درّهم.. أيّ رجال هم!؟

أنصار.. فلقد نَصروا الخير فكانوا أنصار العصر الجديد.. كلما رأوْا شمعةَ نور تضطرب في عاصفة الريح في أي بقعة من العالم، أسرعوا إليها غير مبالين بالصعاب واحتضنوها بمشكاة من زجاج بلوريّ، فتصير كأنها كوكب درّي، ينبُض بالجمال والبهاء..

جاعوا ليأكل غيرهم، وعَرُوا ليلبس فقراؤهم، وعَدِمُوا ليملك مستضعفوهم، وبكوا ليضحك إخوانهم... فكانوا حقًّا يؤثرون على أنفسهم ولو كان بهم خصاصة.

أنصار.. اقتبسوا نصرتَهم استمدادا من نور المدينة المنورة، بُعَيد هجرة الرسول عليه الصلاة والسلام إليها مباشرة، ولمّا يزل فرحُ أهل يثرب جديدا يتفجّر طربا.. من هناك أخذوا حقيقة نصرتهم، نديّة طريّة كغُصنٍ رطيب، يَنثر النّدى والثمارَ اللذيذة.

هاجروا ونصروا، فأعطوْا من ذاتهم لسِفار الهجرة، وأعطوا من ذاتهم لدافة النصرة، فما بقي لهم في هذه الأرض من شيء! ولكنهم في عالم الروح يملكون كل شـيء، استنادا إلى لله الغنيّ الحميد.

مجانين.. يعشقون الخدمة اغترابا، من قَرِّ "سيبريا" إلى حَرِّ جنوب إفريقيا.. ولا تركوا جزيرة أو مغارة أو سهلا أو جبلا من كل قارّات العالم إلا دخلوه، ووزّعوا فيه شُعاعات الصبح القريب.. يبتسمون للَسع الآلام، ويسعدون بعبور حقول الشوك الجارح فتسيل الدماء من أقدامهم، وتسيل الدموع من عيونهم، والقلب مسرور بالله!..

رجال.. لو تحدث عنهم كتاب قديم، لقلنا إنها مبالغة من مبالغات كتب القصص والطبقات والمناقب.. لكنهم يعيشون "الآن" في الحاضر والمستقبل، فهاهم أولاء أمامك نماذج حية من الشوق الملتهب والفاعلية العظيمة.. فأكرِمْ بهم وأنعِمْ من شباب وكهول.. أحيَوْا فينا أمل الحياة، ومدّونا بيقين الشروق الجديد.. فكانوا مصداقا لكلمات النبوة، في أنّ الله سينصر هذا الدين نصرا عالَميًّا، حتى لا يبقى بيتُ وَبَر ولا مدَر إلا دخله بعز عزيز أو ذل ذليل..

ولقد رأيتُ أنوار الأسماء الحسنى تنعكس على عيونهم، وتتدفق من بين أيديهم.. فيتبعون هُداها منجذبين بقوتها إلى تحقيق قدر الله العظيم، في إحياء الأرض بعد موتها بالغنى والكرم والجود. ترى الواحد منهم أمّة في رجل أو رجلا في أمة.. قد تنبهر إذ تقع عيناك على أي طيف منهم فتقول: "وَيْ كأن ليس له مثيل"، فإذا رأيتَ الآخر أنساك جمالُه بهاءَ الأول. جمعوا أخلاق الخير والفضيلة كلها. نظرة واحدة فيهم تغنيك عن قراءة كتب الفلسفة والأخلاق وخيالات المدينة الفاضلة. فهؤلاء لا يتكلمون عن الأخلاق، بل هم الأخلاق نفسها تمشي على الأرض، في زمن صار الخلق الكريم فيه قطعة مهملة في متحف التاريخ.

هل تريد أن تكون منهم؟.. فكِّرْ، فكّر! قبل أن تقول "نعم".. فإنما هي كلمة تقولها، وإنها لدعوى عريضة، دونها اقتحام العقبة.. وما أدراك ما العقبة؟! أن تبيع نفسك لله كاملة، فلا يبقى منك لك شـيء، أيّ شيء.. تستسلم لمراد الله حيث ما سارت بك مقاديره، حتى تُدفن بذرتك في أيّ نقطة من العالم، بعيدا بعيدا عن وطن الأنس والأهل والأحباب.. زادك الوحيد، وغذاؤك الفريد "ذكر الله" و"الاستمداد من نوره العظيم".

أن تكون منهم معناه أن ينساك الناس كلهم، ويذكرك الله وحده، وأن تخرج من الدنيا وأنت ما تزال حيًّا تعيش فيها، تأكل الطعام وتمشي في الأسواق، فلا ترى في نفسك ولا لنفسك شيئًا.. وترى أقرانك من معارفك القريبين، ممن تضخّمت عندهم ذواتهم، ولم يستطيعوا أن يتخلصوا من أغلال التراب، ولا أن يُفْلتوا من شباك الأسباب، يرتقون في درجات الوهم الدنيوي، فيُطِلّون عليك من أبراجهم العالية، بما يملكون من مناصب وألقاب! وأنت تمشي على التراب حافي القدمين، فقيرا من كل شيء، إلا من مدد الله العظيم.. ﴿وَجَعَلْنَا بَعْضَكُمْ لِبَعْضٍ فِتْنَةً أَتَصْبِرُونَ﴾(الفرقان:٢٠).

أتريد أن تكون منهم؟.. "نعم"، تلك كلمة سهلة النطق، لكنها تجربة مريرة.. ومَن قال: "إن النار ليست لها خاصية الإحراق"، فليَمُدَّ إليها يدَه.. فهل أنت مستعد لأن تحترق حتى يصير جسمك رمادا؟ فتذروه الرياح في كل قارات العالم، ذرّاتٍ متناثرة هنا وهناك، ما سقطت منها واحدة على تربة قاحلة إلا جعلَتها تخضرّ، وتُنْبِت من كل زوج بهيج..

هؤلاء هم عماليق العصر، ونماذج الإنسان الحق الذي ينتظره العالم منذ زمان بعيد.. فهل آن الأوان لتستعيد الأرضُ أمالها الذي أودعه فيها سيد الخلق محمد عليه الصلاة والسلام؟!.

حاصَروا ظُلْمَ البنادق المتارس بالمعاهد والمدارس، وأطفؤوا نيران الفتن والحروب بالكلمات والحروف.. فكل مدرسةٍ يَبنونها هنا أو هناك تغدوا شجرةً خضراء، ما تزال تفرّخ حولها فسائل منها تَنمو ثم تنمو، حتى تصير البلاد أشجارا وأشجارا، فإذا بغابة الخير تَخنُق صوتَ الرصاص البغيض، وتقضي على رائحة البارود النتة..

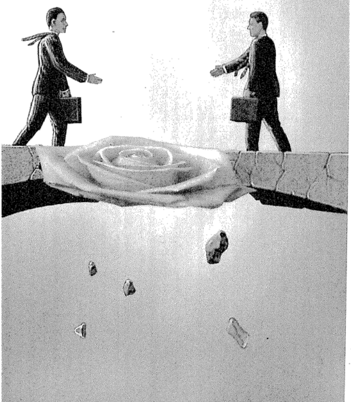
معلّمون.. انتشروا في كل مكان، يعلّمون أطفال العالم منطق الطير وتراتيل العصافير، ويرسمون على السبّورات الخضراء أمامهم أحلامَ الغد الجميل ومعالم الطريق إلى الجنة. فللطفولة المتخرّجة من بين أحضانهم -عَبر كل قارّات الأرض- نشيد واحد، يبشر الأمة بالخير والسلام..

ملائكةُ الذكر تحبُّهم، فلطالما استمعت إلى أهازيجهم الشجيّة.. وملائكة العلم تعرفهم، فلطالما حملت بأجنحتها طلائعهم، وهي تضرب في الأرض نحو غابات أستراليا أو صحارى آسيا أو أدغال إفريقيا أو نحو ضباب الغرب البعيد.. ليطلقوا شعاع النور من فوق ناطحات السحاب.. معلّمون عُزّل، إلا من سلاح التربية والتعليم! يغامرون باقتحام المخاطر في كل مكان، فيرحلون بصدورٍ عارية، ووجوه تبتسم أمام فُوّهات الموت! ولربّما خرقت بعضَها رصاصةُ غدرٍ أو نائبةُ دهرٍ، فلا يرجعون القهقرى أبدا!..

سادتي!.. أنتم المجاهدون حقّا، فعليكم من الله السلام. ■

نداء الأمة

لأحضاني فليأتِ الجميع،
ومن ينبوع قلبي فليشربوا،
ومن سلسبيل ديني العظيم فليرتووا،
أنا الحب والسماح،
ورسول السلام،
كما كان الأولون،
من أمتي..
* * *



(*) جامعة مولاي إسماعيل، ورئيس المجلس العلمي بـ"مكناس" / المغرب.

يظل العلم جائعا ما لم يغذه الوحي، فإن اغتذى به قطع المسافات
وجاوز الأبعاد وغدا قيمة لا أنفس منها ولا أغلى.

* * *



المنهاج النبوي
في المداعبة والمزاح

أ.د. محمد عمارة

الإسلام دين الوسطية، ولقد شاء الله سبحانه وتعالى أن تكون هذه الوسطية "جَعْلاً إلهيًا"، وليس مجرد خيار من خيارات المؤمنين بالإسلام، فقال تعالى: ﴿وَكَذَلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطًا لِتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ وَيَكُونَ الرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيدًا﴾(البقرة:١٤٣). ونحن نلاحظ أن هذه الآية الكريمة قد جعلت الوسطية علة وسببا يترتب عليه اتخاذ الأمة الإسلامية موقع "الشهود" على العالمين، بما في هذا العالمين من أمم وشعوب وملل ورسالات وثقافات وحضارات.. وذلك التعليل وثيق الصلة بمعنى "الوسطية" ومعنى "الشهود".. فالوسط -كما علمنا رسول الله ﷺ- هو العدل. والعدل هو الشرط المؤهل للشهادة والشهود على العالمين. ولأن هذه الأمة الخاتمة قد آمنت بكل النبوات والرسالات والكتب السماوية، كانت وحدها المؤهلة عدالتُها بالشهادة على العالمين، بما في ذلك الشهادة على تبليغ كل الرسل رسالاتهم إلى أمم هذه الرسالات.

تحديد المصطلحات والمفاهيم

وإذا كان العلماء قد أجمعوا على أنه "لا مُشاحّة في الألفاظ والمصطلحات"، فإن انتفاء هذه "المشاحة" واقف فقط عند استخدام هذه الألفاظ وهذه المصطلحات، أما المضامين والمفاهيم المقصودة من وراء استخدام هذه المصطلحات فإن فيها الكثير والكثير جدا من المشاحات، وخاصة عندما تتعدد -وأحيانا تتناقض- المفاهيم المرادة من وراء المصطلح الواحد؛ بسبب تعدد الثقافات والحضارات والفلسفات والمواريث.

فمصطلح "الدين"، تستخدمه وتردده كل الأمم والشعوب، لكن مفهومه ومضمونه عند أهل "الديانات الوضعية" غيْره عند أهل الديانات السماوية. ومفهومه ومضمونه في الفلسفات المادية يعني: الإفراز الخرافي والأسطوري للعقل الإنساني في مرحلة الطفولة من تطور الإنسان؛ بينما يعني "الدِّين" في النسق الرباني: الوضع الإلهي الذي نزل به الوحي الأمين على الأنبياء والمرسلين، لسَوْق ذوي العقول باختيارهم المحمود إلى الهداية والخير في الدينا والآخرة.

ومصطلح "السياسة"، تستخدمه وتردده كل الأمم والشعوب والثقافات، لكنه يعني في الحضارة الوضعية الغربية: فن الممكن من الواقع تحقيقاً للقوة، وذلك بصرف النظر عن علاقة هذه التدابير السياسية بالقيم والأخلاق؛ بينما يضبط النسق الإسلامي -في فلسفة السياسة- هذه التدابير السياسية بالقيم والأخلاق. فالسياسة -في هذا النسق- هي "التدابير التي يكون الناس معها أقرب إلى الصلاح وأبعد عن الفساد". وفارق جوهري بين هذا المفهوم للسياسة، وبين مفهومها وفلسفتها الغربية عند "ميكيافيللي"، ذلك الذي شاع في فلسفة السياسة بالحضارة الوضعية الغربية ولا يزال شائعا وحاكما حتى هذه اللحظات.

"والإقطاع"، مصطلح تردده كل الأمم والشعوب، لكنه يعني في الحضارة الغربية: ملكية الأرض ومن وما عليها؛ بينما هو في النسق الإسلامي: تمليك منفعة، لإحياء الأرض الموات، واستثمارها والانتفاع بها، وفق الضوابط التي وضعها -في الشريعة- مالك الرقبة في كل الأموال والثروات ﷻ.

مع مصطلح الوسطية

وكذلك الحال مع مصطلح "الوسطية"، الذي يعني -في "الفكر السُّوقي"- التَّميُّع وانعدام التحديد، وافتقار الموقف "الوسطي" إلى اللون والطعم والرائحة! والذي يعني في الفكر الأرسطي وفلسفة "أرسطو": الفضيلة بين رذيلتين، أي الموقف الثالث الذي هو بمثابة نقطة رياضية ثابتة بين قطبين، مع المغايرة الكاملة بين هذا الموقف الثالث (الوسطي) وبين هذين القطبين. ولكن المفهوم الإسلامي للوسطية ليس كذلك، فهي وسطية جامعة، تمثل موقفا ثالثا بين القطبين المتقابلين والمتناقضين، لكنها لا تغاير هذين القطبين مغايرة تامة، وإنما هي تَجمع منهما عناصرَ الحق والعدل لتكوِّن منها وبها هذا الموقف الوسطي الجديد. فهي في حقيقتها رفض للغلو الذي ينحاز إلى قطب واحد من هذين القطبين (غلو الإفراط أو غلو التفريط).

فوسطية الإسلام الرافضة للغلو المادي والغلو الروحي هي وسطية لا تغير المادة والمادية ولا الروح والروحانية كلية، وإنما هي الوسطية الجامعة لعناصر الحق والعدل من المادية والروحانية جميعا، على النحو الذي يوازن توازن العدل بينهما. ولذلك فإنها (هذه الوسطية الإسلامية الجامعة) تصوغ الإنسان الوسط: راهب الليل وفارس النهار، الجامع بين الفردية والجماعية، بين الدنيا والآخرة، بين التبتل للخالق والاستمتاع بطيبات وجماليات الحياة التي خلقها الله وسخرها لهذا الإنسان.

الرسول القدوة

ولأن النموذج والقدوة والأسوة تنهض بالدور الأول في ميدان التربية والتزكية والصياغة للإنسان والمجتمع والثقافة والحضارة، فلقد شاء الله ﷻ أن تكون القدوة والأسوة للأمة الوسط ذلك النبي الأمي الذي جسدت حياته أكمل نموذج لوسطية إسلامية جامعة يمكن أن يتحقق في دنيا الناس. لقد صنعه الله على عينه ليكون نموذج هذه الوسطية الإسلامية وقدوتها وأسوتها. فهو بشَر يوحَى إليه، بشر تجوز عليه كل عوارض البشرية، يولد ويمرض ويألم ويموت. وهو يأكل الطعام ويمشي في الأسواق. ولا يأتي من الخوارق إلا ما آتاه الله. وفي ذات الوقت -ولأنه يوحى إليه- فلقد مثَّل رباط وارتباط الأرض بالسماء، وحلقة الوصل بين عالم الشهادة وعالم الغيب. وبعبارة الأستاذ الإمام الشيخ محمد عبده: "فإن روحه ﷺ ممدودة من الجلال الإلهي بما لا يمكن معه لنفس إنسانية أن تسطو عليها سطوة روحانية. فهو يشرف على الغيب بإذن الله، ويعلم ما سيكون من شأن الناس فيه، وهو في مرتبته العُلوية على نسبة من العالمين، نهاية الشاهد وبداية الغائب، فهو في الدنيا كأنه ليس من أهلها، وهو وفد الآخرة في لباس من ليس من سكانها. يتلقى من أمر الله ويحدّث عن جلاله بما خفي عن

العقول من شؤون حضرته الرفيعة بما يشاء أن يعتقده العباد فيه. معبرا عنه بما تحتمله طاقة عقولهم ولا يبعد عن متناول أفهامهم. ثم هو بعد ذلك بشر يعتريه ما يعتري سائر أفراد البشر"، مما لا يقدح في مقتضيات رسالته.

لقد أدّبه ربه فأحسن تأديبه، فكان على خلق عظيم، وجمعت حياته وسياساته بين الاجتهاد الإنساني وبين الوحي المسدِّد للاجتهاد، والحاكم فيما لا يستقل به الاجتهاد. هو ﷺ العابد المتبتّل الذي يقف بين يدي مولاه حتى تتورم قدماه. وهو الذي جعل رهبانيته ورهبانية أمته الجهاد في سبيل الله، حتى لقد كان الفارس المقاتل الذي يحتمي به الفرسان إذا اشتد القتال وازداد البأس وحمي الوطيس واحمرت الحدق، فلا يكون أحد أقرب إلى الأعداء منه عليه الصلاة والسلام. ومع ذلك كان أشد حياء من العذراء في خدرها، ولقد جعل الحياء في شريعته شعبة من شعب الإيمان. كان أشجع الناس وأحلم الناس، كانت عبادته مجاهدة وجهادا، وكان جهاده عبادة وتقربا إلى الله.

وفي قدوته وأسوته جمعت الوسطية بين قوة الصبر والمصابرة وبين ذروة الخشوع والخضوع في الصلاة ﴿وَاسْتَعِينُوا بِالصَّبْرِ وَالصَّلاَةِ وَإِنَّهَا لَكَبِيرَةٌ إِلاَّ عَلَى الْخَاشِعِينَ﴾(البقرة:٤٥).

وكذلك جمعت قدوته وأسوته بين الرفق الرفيق بالإنسان -مطلق الإنسان- والحيوان والنبات والبيئة -بما في ذلك الجماد- لأنها جميعها حية تسبح بحمد خالقها -حتى وإن لم نفقه تسبيحها-، وبين الغضب الشديد لدين الله وحرمات الله وحدود الله. كما جمعت قدوته وأسوته بين زهد الغَنِيّ في متاع الدنيا وبين عشق الجمال الذي خلقه الله وبثه زينة في هذا الكون الجميل. فكانت وصاياه باختيار الاسم الحسن والاستمتاع باللهو الحلال والاستعاذة بالله -في دعاء السفر- من كآبة المنظر، ودعائه ربه في صلاة الاستسقاء: "اللهم أنزل علينا في أرضنا زينتها" (رواه الطبراني في الأوسط). كما جمعت وسطيته بين تفضيل الحياة مع المساكين -لا الملوك الجبارين والمترفين- وبين الرقة والزينة، حتى لقد جاء في صفاته وشمائله أنه "لم تكن يد ألين من يده ولا ريح أطيب من ريحه أطيب رائحة من المسك. فكان وجهه يبرق من السرور. وكأن عرقَه اللؤلؤ" (رواه الإمام احمد). كما جمعت وسطيته بين تبتل العابد عندما يعتكف بالمسجد وبين الزينة حتى أثناء الاعتكاف، فكان يناول رأسه لعائشة رضي الله عنها وهي في حجرها لترجّل له شعره، عليه الصلاة والسلام.

وهكذا جسدت القدوة والأسوة النبوية بهذه الوسطية الإسلامية الجامعة نموذج الإنسان الكامل الذي امتاز وتميز عن غلو الإفراط والتفريط.

وهذا النبي الأميّ الذي نهض لتغيير العالم في شؤون الدين والدنيا، وتقدم لتحويل مجرى التاريخ، ومفهوم الثقافة والحضارة، ومعنى إنسانية الإنسان. والذي كابد ما كابد -ثلاثة عشر عاما في المرحلة المكية- وبنى الدولة وبلور الأمة وقاد من الغزوات والسرايا والبعوث ما زاد على الستين -في تسع سنوات من المرحلة المدنية-، هو الذي جمعت وسطيته بين هذه المجالدة والمكابدة وبين الترويح عن النفس لتجديد ملكات وطاقات هذه النفس؛ كي تستطيع النهوض بتبعات المجالدة والمكابدة والمجاهدة، وكي تستمتع بما خلق الله في هذه الحياة من ألوان الجمال وعوامل المتاع والاستمتاع.

حول مفهوم الملحة والطرفة والنكتة والمزح

وبين يدي هذه الإشارات واللمحات عن هذا الجانب من سيرة المصطفى ﷺ لابد من تحديد المعاني والمفاهيم لمصطلحات "المُلحة" و"الطرفة" و"النُّكتة" و"المزح" في اصطلاح العربية وثقافة الإسلام.

فالمُلْحَةُ: هي القول والفعل الذي فيه ظُرف. وفي أساس البلاغة: ".. ومن المجاز: وجه مليح، ووجوه ملاح، وما أملح وجهه وفعله، وما أُمَيْلِحَه، وله حركات مستملَحة. وحدثتُهُ بالمُلح. وفلان يتظرف ويتملّح". وفي لسان العرب: "عن ابن عباس رضي الله عنهما، قال رسول الله ﷺ: "الصادق يعطى ثلاث خصال: المُلحة، والمهابة، والمحبة". فالمُلحة: هي القول أو الفعل أو الحركات الظريفة التي تُكسِب الحديث أو الموقف مُلحة وظُرفاً. وهو قصد زائد على الضروري من الأقوال والأفعال. والوسط فيها هو المحمود؛ لأنه بمثابة الملح للطعام؛ وسطه مفيد والإسراف فيه مفسد لأصل الطعام.

والطُّرفة -وجمعها الطُّرَف- هي المُستحدَث المُعْجِب المُتْحِف، وكل شيء استحدثتَه فأعجبك. فهي القول أو الحركة أو الفعل الظريف الذي يضيف إلى المعنى ما يُعجب ويسر نفوس السامعين والمشاهدين.

والنُّكتة -وجمعها نُكت ونِكات- في معناها اللغوي: هي النقطة البيضاء في السواد أو النقطة السوداء في البياض. ومن معانيها: المسألة الدقيقة التي أُخرجت بدقة نظر وإمعانِ فكر.

وهي في المجـــاز: المعنى غير المألوف والجملـــة اللطيفة، تؤثر في النفس انبساطا. ونُكتُ الكلام أسراره ولطائفه.

والمَزْح: هو الدعابة. ونقيـــض الجد. والمُزّاح من الناس: هم الخارجـــون من طبع الثُّقلاء والمتميزون من طبع البُغَضَاء. فالمزاح هو تلوين الكلام أو الحركات بالدعابة التي تُكسبه ظُرْفاً يُخرجه عـــن صرامة الثقلاء وجفاف البُغَضاء. هذا عن التعريف بمضامين ومفاهيم هذه المصطلحات.

الإنسان الكامل

ولأن رسول الله ﷺ كان النموذج الأعظم للإنسان الكامل الذي تكاملت في صفاته وشمائله وأفعاله الوسطيةُ الجامعة والتوازن العدل، فإن حياته وأسوته وقدوته لم تخلُ من المُلح والطرائف والنكات التي نهضت بمهام الترويح عن النفس وتجديد ملكات وطاقات القلوب، والإعانة على جد الحياة وصعابها مع التزام الحق والصدق والعدل أي الوسط والوســـطية المتميزة عن الغلو إفراطا كان أو تفريطا.

إننا نطالع في الســـنة النبوية: أن رسول الله ﷺ كان يمزح أي يداعب أصحابه رجالا ونساءً ولكنه لا يقول إلا حقا. حتى لقد قال له صحابته ﷺ: يا رسول الله، إنك تداعبنا! فقال: "إني وإن داعبتكم لا أقـــول إلا حقا" (رواه الترمذي والإمـــام أحمد). وفي صفاته وشمائلـــه -من حديث علي بن أبي طالب ﷺ-: "كان رســـول الله ﷺ دائم البشـــر، سهل الخُلق، ليّن الجانب" (رواه البيهقي). ومن حديث عبد الله بن الحارث بـــن جزء ﷺ: ما رأيت أحدا أكثر تبسما من رسول الله ﷺ" (رواه الترمذي).

وكان ﷺ يرى اللعب المباح ولا يكرهه. ولقد أفســـح لفرقة من الأحباش تلعب وترقص -تَزْفِن- وتغني بمسجد المدينة، وسأل زوجه عائشـــة رضي الله عنها إن كانت تشـــتهي أن تشاهدهم وتســـتمتع بألعابهم ورقصاتهم وأغنياتهم، فوقفت خلفه وخدها علـــى خده [في منظر إنســـاني رقيق] حـــتى اكتفت وانصرفت عنهـــم. وعندما دخل عمر بن الخطاب ﷺ المســـجد وهمّ بنهر الأحباش، أوقفه رسول الله ﷺ وشـــجّع الأحباش على مواصلة اللعب قائلا: "دونكم بني أرفدة، لتعلم يهود أن في ديننا فسحة، وأني أُرســـلت بحنيفية سمحة" (رواه مســـلم). ومن حديث جابر بن سمرة ﷺ: أن صحابة رســـول الله ﷺ كانوا يتناشدون الشعر بين يديه أحيانا ويذكرون أشياء من أمر الجاهلية فيضحكون ويتبسم، ولا يزجرهم إلا عن حرام (رواه مســـلم). ومن حديث عبد الله بن مسعود ﷺ: ولربما ضحك ﷺ حتى تبدو نواجذه (متفق عليه). ومن حديث كعب بن مالك ﷺ: كان ﷺ إذا سُرّ استنار وجهه حتى كأنـــه قطعة قمر (متفق عليـــه). ومن حديث أنس بن مالك ﷺ أن النبي ﷺ كان من أفكه الناس مع نسائه (رواه ابن أبي شيبة).

ولقد روت عائشة رضي الله عنها فقالت: كان عندي رسول الله ﷺ وســـودة بنت زمعة، فصنعتُ حريـــرة (عصيدة، تصنع من الدقيق واللبن والدســـم) وجئت به، فقلت لسودة: "كلي". فقالت: "لا أُحب". فقلتُ: "والله لتأكلن أو لألطخن به وجهك". فقالت: "ما أنا بذائقته". فأخذتُ بيدي من الصحفة شـــيئا منه فلطّختُ به وجهها ورســـول الله ﷺ جالس بيني وبينها، فخفض رســـول الله ركبتيه لتســـتقيد مني، فتناولتُ من الصحفة شيئا، فمســـحتْ به وجهي، وجعل رسول الله يضحك" (رواه أبو يعلى).

وعن عائشة رضي الله عنها: سابقني رسول الله ﷺ فسبقته، فلما حملتُ اللحم سابقني فسبقني، وقال "هذه بتلك" (رواه أبو داود). وعن أبي هريرة ﷺ: أن الضحاك بن سفيان الكلابي كان رجلا دميما قبيحا، فلما بايعه النبي ﷺ قال: إن عندي امرأتين أحسن من هذه الحميراء -وكانت عائشة حاضرة، قبل أن تنـــزل آية الحجاب- أفلا أنزل لك -يا رسول الله- عن إحداهما فتتزوجها؟ فقالت عائشة: أهي أحسن أم أنت؟!. فقال: بل أنا أحسن منها وأكرم. فضحك رســـول الله ﷺ من سؤالها إياه -لأنه كان دميما- (رواه الدارقطني).

صور من مزاحه ﷺ

عن الحســـن ﷺ: أتت عجوز إلى النبي ﷺ فســـألته أن يدعو الله لهـــا بالجنة، فقال: "لا يدخل الجنة عجوز". فبكت، فقال: "إنك لســـت بعجوز يومئذ"، قال الله تعالى: ﴿إِنَّا أَنْشَأْنَاهُنَّ إِنْشَاءً ۞ فَجَعَلْنَاهُنَّ أَبْكَارًا ۞ عُرُبًا أَتْرَابًا﴾(الواقعة: ٣٥-٣٧)" (رواه الترمذي).

وعن زيد بن أسلم ﷺ قال: إن امرأة يقال لها أم أيمن، جاءت إلى النبي ﷺ فقالت: إن زوجي يدعوك. فقال لها: "من هو؟ أهو الـــذي في عينه بياض؟" قالت: والله ما بعينه بياض. فقال: "بلى، إن بعينـــه بياضا". قالت: لا، والله. فقال: "ما من أحد إلا وبعينه بيـــاض" (ذكره الزبير بـــن بكار). وعن أنس بـــن مالك ﷺ أن رجلا اســـتحمل رســـول الله ﷺ فقال: "إني حاملك على ولد الناقة". فقال: يا رســـول الله ما أصنع بولد الناقة فقال رســـول الله ﷺ: "وهـــل تلد الإبل إلا النوق" (رواه الترمـــذي). ومن حديث أنس بن مالك ﷺ: كان لأبي طلحة ابن يقال له أبو عمير، وكان رسول الله ﷺ يأتيهـــم ويقول: "يا أبا عمير، ما فعل النُّغَيْر؟"، -والنُّغَيْر: فرخ العصفور، كان يلعب به الغلام-. (متفق عليه).

ومن رواية زيد بن أسلم ﷺ، عن خوات بن جبير الأنصاري، أن خوات كان جالسا إلى نسوة من بني كعب بطريق مكة، فطلع عليه رسول الله ﷺ فقال: "يا أبا عبد الله، ما لك مع النسوة؟!". فقال: يفتلن ضفيرا لجمل لي شرود. قال: فمضى رسول الله ﷺ لحاجته ثم عاد فقال: "يا أبا عبد الله، أما ترك ذلك الجمل الشرّاد بعد؟!" قال: فسكتُّ واستحييتُ. وكنتُ بعد ذلك أتفرّرُ منه كلما رأيته حياء منه، حتى قدمتُ المدينة، فرآني في المسجد يوما أصلي، فجلس إليّ فطوّلتُ، فقال: "لا تُطوِّل، فإني أنتظرك".. فلما سلّمتُ قال: "يا أبا عبد الله، أما ترك ذلك الجمل الشّراك بعد؟!". فقلت: والذي بعثك بالحق ما شرد منذ أسلمت. فقال: "الله أكبر، الله أكبر، اللهم اهد أبا عبد الله". قال -الراوي- فحسن إسلامه وهداه الله" (رواه الطبراني).

وروي أن نعيمان الأنصاري ﷺ كان رجلا مزّاحا، وكان لا يدخل المدينة رسل ولا طُرفة إلا اشترى منها، ثم أتى بها إلى النبي ﷺ فيقول: يا رسول الله، هذا قد اشتريته لك، وأهديته لك. فإذا جاء صاحبها يتقاضاه الثمن، جاء له إلى النبي، وقال: يا رسول الله، أعطه ثمن متاعه. فيقول له الرسول ﷺ: "ألم تهده لنا؟!". فيقول: يا رسول الله، إنه لم يكن عندي ثمنه، وأحببت أن تأكل منه. فيضحك النبي ﷺ ويأمر لصاحبه بثمنه" (ذكره الزبير بن بكار وابن عبد البر). وعن أبي هريرة ﷺ أن الأقرع بن حابس ﷺ أبصر رسول الله ﷺ يلاعب ويداعب الحسن بن علي رضي الله عنهما فيريه لسانه ويقبله، فكأنما استغرب الأقرع بن حابس ذلك من رسول الله ﷺ فقال: إن لي عشرة من الولد ما قبلتُ واحداً منهن، فقال ﷺ: "من لا يرحم لا يُرحم" (رواه مسلم).

تلك نماذج وإشارات من سيرة المصطفى ﷺ وصفاته وشمائله، ومن سنته القولية والفعلية مع أهله، ومع صحابته -من الرجال والنساء- شاهدة على البعد الأصيل في المنهاج النبوي، والذي يجهله أو يتجاهله الكثيرون، وذلك عندما يحسبون الإسلام خشونة وتجهما، وعندما يريدون من النموذج الإسلامي ومن رجالات العلم الديني أن يكونوا نماذج للصرامة والتخويف، غافلين -أو متغافلين - عن الصورة القرآنية لنموذج القدوة والأسوة: ﴿فَبِمَا رَحْمَةٍ مِنَ اللهِ لِنْتَ لَهُمْ وَلَوْ كُنْتَ فَظًّا غَلِيظَ الْقَلْبِ لَانْفَضُّوا مِنْ حَوْلِكَ فَاعْفُ عَنْهُمْ وَاسْتَغْفِرْ لَهُمْ وَشَاوِرْهُمْ فِي الْأَمْرِ﴾(آل عمران:١٥٩)، بل وحتى مع الأعداء، أمر الله ﷻ صاحب الخلق العظيم برفق التدافع مع هؤلاء الأعداء -ناهيا عن عنف الصراع- لأن هذا المنهاج هو السبيل لتأليف القلوب وإحداث التحولات في هذه القلوب ﴿ادْفَعْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ السَّيِّئَةَ نَحْنُ أَعْلَمُ بِمَا يَصِفُونَ﴾(المؤمنون:٩٦)، ﴿وَمَنْ أَحْسَنُ قَوْلاً مِمَّنْ دَعَا إِلَى اللهِ وَعَمِلَ صَالِحًا وَقَالَ إِنَّنِي مِنَ الْمُسْلِمِينَ ۞ وَلاَ تَسْتَوِي الْحَسَنَةُ وَلاَ السَّيِّئَةُ ادْفَعْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ فَإِذَا الَّذِي بَيْنَكَ وَبَيْنَهُ عَدَاوَةٌ كَأَنَّهُ وَلِيٌّ حَمِيمٌ﴾(فصلت:٣٣-٣٤).

لقد كان ﷺ نموذجا للإنسان الكامل، العابد المتبتل، والفارس المقاتل، والرحيم الرفيق، والغاضب لحرمات الله وحدود الله، والباشّ المداعب والمفاكه لأهله وأصحابه بالمُلح والطرائف والنكات، وصولا إلى مفاتيح القلوب، وفقه النفوس والعقول، لتحقيق سعادة الإنسان في هذه الحياة وفيما وراء هذه الحياة.

ففي البشاشة والدعابة والمزاح والملح والطرائف -إذا استقامت وأعانت على تهذيب القلوب وتجديد الملكات وتأليف النفوس- رحمة يكتبها الرحمن في حسنات الرُّحماء. ■

(*) كاتب مفكر إسلامي / مصر.

المصادر

(١) إسلامية المعرفة.. ماذا تعني؟ للدكتور محمد عمارة، دار المعارف، القاهرة ١٩٩٩م.

(٢) الكليات، لأبي البقاء الكفوي، تحقيق: د. عدنان درويش، محمد المصري، دمشق ١٩٨٢م.

(٣) إعلام الموقعين، لابن القيم، بيروت ١٩٨٣م.

(٤) المصطلحات الاقتصادية في الحضارة الإسلامية، للدكتور محمد عمارة ، دار الشروق، القاهرة ١٩٩٣م.

(٥) معالم المنهج الإسلامي، للدكتور محمد عمارة، دار الرشاد، القاهرة ١٩٩٧م.

(٦) الأعمال الكاملة للإمام محمد عبده، دراسة وتحقيق: د. محمد عمارة، دار الشروق، القاهرة ١٩٩٣م.

(٧) الإسلام والفنون الجميلة، للدكتور محمد عمارة، دار الشروق، القاهرة ١٩٩١م.

(٨) الغناء والموسيقى حلال أم حرام، للدكتور محمد عمارة، دار نهضة مصر، القاهرة ١٩٩٩م.

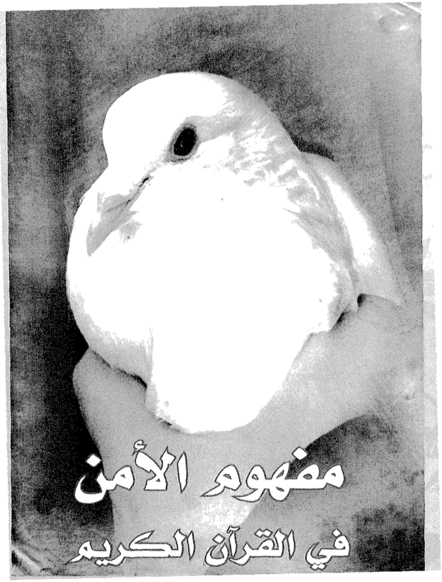
(٩) لسان العرب، لابن منظور، دار المعارف، القاهرة ١٩٨١م.

(١٠) أساس البلاغة، لمحمود الزمخشري.

(١١) قاموس المنجد، للويس معلوف، بيروت ١٩٨٦م.

(١٢) إحياء علوم الدين، لأبي حامد الغزالي، طبعة مصورة، دار الشعب القاهرة. ولقد خرج العراقي ما أورده الغزالي من أحاديث في هذا الجانب -جانب الدعابة والملح والطرائف والنكات- من سنة وسيرة رسول الله ﷺ- وكتابه "المغني عن حمل الأسفار في الأسفار، في تخريج ما في الإحياء من الأخبار" مطبوع بهامش هذه الطبعة من الإحياء.

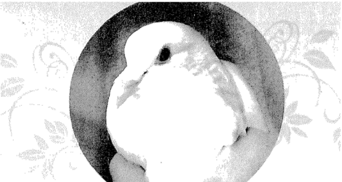
(١٣) الرحيق المختوم، لصفي الرحمن المباركفوري، دار الوفاء، مصر، ١٩٩٩م.



مفهوم الأمن في القرآن الكريم

أ.د. الشاهد البوشيخي *

ا المصطلح في كتاب الله ﷻ هي ألفاظ هذا الدين، عليها المدار، والقرآن نفسه بيّنها في مواطن كثيرة، ورسول الله ﷺ بيّنها أيضا في مواطن كثيرة، والراسخون في العلم عبر القرون اجتهدوا أيضا في بيانها في مواطن كثيرة، ولكن حال زماننا هذا بما هو عليه من قدر غير يسير من البعد عن كتاب الله ﷻ: بُعد لغوي وبعد إيماني وبعد مفهومي وبعد مصطلحي... هذا البعد يجعل الاهتمام وتركيز الاهتمام على هذه الألفاظ اليوم من أوجب الواجبات، وهذه الألفاظ لا نستطيع اليوم أن نقترب وأن نلج عالم القرآن وأن نغلغل في أعماقه إلا بعد الاقتراب منها ومحاولة التمكن من مضامينها ومن مفاهيمها، وهي لا تتأثر بالعصور، فهي ثابتة في كتاب الله ﷻ وفي سنة رسوله ﷺ، وإن هذا الكتاب يحمل معجمه ويحمي معجمه، فلو حاولنا ما حاولنا، وحاول المحاولون ما حاولوا أن يُحدثوا التغيير في أي مفهوم لكتاب الله ﷻ، فلن يستطيعوا ذلك، وذلك من حفظ الله ﷻ لكتابه مما ينص عليه قوله تعالى: ﴿إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ﴾(الحجر:٩).



ومن تلك الألفاظ المهمة جدا في كتاب الله ﷻ -والتي نحتاج إلى فهمهـا وتبيّن المراد منها لنعرف كيف نكسب مضمونها، ونتصف بمفهومها- لفظ "الأمن". وهذا اللفظ، حاجة البشرية إليه اليوم شديدة جدا، فالقلق مسيطر على البشرية اليوم في كل مجال، الاضطراب والحيرة وقلق البال واضطراب الحال، حال القلوب خاصة، هذا الأمر متمكن غاية التمكن من البشرية اليوم، وذلك شيء طبيعي، لأن الشيء الذي به يسكن القلب البشري ويطمئن ويرتاح، والذي به تسعد الروح البشرية في هذه الدنيا وفي الآخرة أيضا، ليس هو الذي له السيادة اليوم وليس هو الذي منه تقتات البشرية، وإليه ترجع، فالمرجعية اليوم لغير كتاب الله ﷻ، بينما هو الروح -روح البشرية حقيقة- كما قال تعالى: ﴿وَكَذَلِكَ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ رُوحًا مِنْ أَمْرِنَا مَا كُنْتَ تَدْرِي مَا الْكِتَابُ وَلاَ الإِيمَانُ وَلَكِنْ جَعَلْنَاهُ نُورًا نَهْدِي بِهِ مَنْ نَشَاءُ مِنْ عِبَادِنَا وَإِنَّكَ لَتَهْدِي إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ﴾(الشورى:٥٢).

فالقرآن هو الروح الذي يجمع هذه القطع المتناثرة من أمة الإسلام ليجعل منها -بإذن الله تعالى- جسدا واحدا له كل مظاهر الحياة التي أشار إليها رسول الله ﷺ في الحديث الصحيح المشهور: "مثل المومنين في توادهم وتراحمهم وتعاطفهم كمثل الجسد الواحد إذا اشتكى منه عضو تداعى له سائر الجسد بالسهر والحمى" (رواه مسلم).

فبغير روح القرآن لا يكون هذا الجسد، ولن تجتمع هذه القطع في كيان واحد حي يرى ويسمع ويفقه، له أعين يبصر بها وله آذان يسمع بها وله قلوب يفقه بها. بغير هذا القرآن لن تكون حياة، ولن يكون اجتماع، لنحظى برؤية الأمة من جديد، أمة الإسلام، فما أكثر الحواجز كما نرى اليوم بين أطرافها جغرافيا وتاريخيا ومذهبيا وفكريا وسلوكيا وغير ذلك، ولكن إذا وقع الاجتهاد لإعادة روح القرآن وإحلالها في كيان الإنسان في كل مكان من أرض الإسلام، فإن هذه القطع وهذه الأجزاء ستجتمع بإذن الله ﷻ ليتخلق منها جسد واحد حي له كل خصائص الحياة. وليحدث هذا فنحن بحاجة إلى أن نتبين المداخل إلى هذا القرآن الكريم. ومن تلك المداخل: مفهوم الأمن في كتاب الله ﷻ، وسننظر إليه من زوايا متعددة:

الأمن لا يقبل التبعيض

مما يثير الانتباه في كتاب الله ﷻ أن هذا اللفظ (أي الأمن) لم يَرِدْ إلا في خمسة مواضع: ثلاثة منها ورد معرّفا في الصورة المطلقة وذلك في قوله تعالى: ﴿وَإِذَا جَاءَهُمْ أَمْرٌ مِنَ الأَمْنِ أَوِ الْخَوْفِ أَذَاعُوا بِهِ وَلَوْ رَدُّوهُ إِلَى الرَّسُولِ وَإِلَى أُولِي الأَمْرِ مِنْهُمْ لَعَلِمَهُ الَّذِينَ يَسْتَنْبِطُونَهُ مِنْهُمْ﴾(النساء:٨٣)، وقوله تعالى: ﴿وَحَاجَّهُ قَوْمُهُ قَالَ أَتُحَاجُّونِّي فِي اللهِ وَقَدْ هَدَانِ وَلاَ أَخَافُ مَا تُشْرِكُونَ بِهِ إِلاَّ أَنْ يَشَاءَ رَبِّي شَيْئًا وَسِعَ رَبِّي كُلَّ شَيْءٍ عِلْمًا أَفَلاَ تَتَذَكَّرُونَ ۞ وَكَيْفَ أَخَافُ مَا أَشْرَكْتُمْ وَلاَ تَخَافُونَ أَنَّكُمْ أَشْرَكْتُمْ بِاللهِ مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِ عَلَيْكُمْ سُلْطَانًا فَأَيُّ الْفَرِيقَيْنِ أَحَقُّ بِالأَمْنِ إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ ۞ الَّذِينَ آمَنُوا وَلَمْ يَلْبِسُوا إِيمَانَهُمْ بِظُلْمٍ أُولَئِكَ لَهُمُ الأَمْنُ وَهُمْ مُهْتَدُونَ﴾(الأنعام:٨٠-٨٢)، ومرتين ورد منكرا، منها قوله تعالى: ﴿وَعَدَ اللهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنْكُمْ وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِي الأَرْضِ كَمَا اسْتَخْلَفَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمْ دِينَهُمُ الَّذِي ارْتَضَى لَهُمْ وَلَيُبَدِّلَنَّهُمْ مِنْ بَعْدِ خَوْفِهِمْ أَمْنًا﴾(النور:٥٥). وورد على غير الصورة الاسمية أضعاف ذلك سواء بصيغة الماضي أو صيغة المضارع أو في صيغة المشتق كاسم الفاعل المفرد أو الجمع. وقد ورد اللفظ بعدة أشكال لكنه لم يرد مقيدا بشيء لا بوصف ولا بإضافة، ومعنى ذلك أنه غير قابل للتبعيض، فالأمن شيء كلي شامل لا يقبل التبعيض، فهذه نقطة مهمة وهو أن الأمن نعمة يتنعم بها الناس إما أن تكون وإما أن لا تكون، ولا يمكن أن تكون مبعضة، بمعنى ينعمون بنوع من الأمن ولا ينعمون بأنواع أخرى ولا سيما بالنسبة لأهل الإيمان، لأن المنطق الذي يحكم دائرة الإيمان بعد سيدنا محمد ﷺ هي دائرة التكليف ودائرة الشهادة على الناس، بينما الدائرة الأخرى ليست مكلفة، ولذلك إذا تمت الاستجابة للتكليف تكون النتائج وتكون الآثار الطيبة وتكون الثمرات وتكون الخيرات، وإذا لم تتم الاستجابة تكون العقوبات. بينما في دائرة غير الإيمان قد يتم التنعم الدنيوي حتى يرتحل الناس

ولا يكون إشكال لأنهم ليسوا مكلفين بهذه الأمانة.

والأمر عندنا جميعا واضح فلا نبي بعد محمد ﷺ، وأمتُه من بعده هي حاملة للأمانة، ولذلك إذا لم تقم بها تحاسَب على ذلك أفرادا وأمة، تحاسب على ذلك حسابا عسيرا في الدنيا وفي الآخرة، والفسادُ الذي يحدث في غير المسلمين هو في الحقيقة بسبب تقصير المسلمين، لأن شرطة الأرض المنظمة للسير في الكرة الأرضية هي الأمة الإسلامية، هذا موقعها لا واقعها، ولكنها للأسف لم ترتق الآن إلى الموقع وهي الآن في واقع نعرفه جميعا، فلذلك إن مفهوم الأمن بالنسبة لهذه الأمة لا يتبعض لأن مقره القلب كما سنرى في النظرة الموالية.

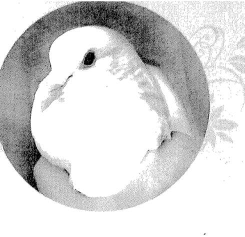
الأمن سكينة القلب

إنْ تتبعنا لمفهوم الأمن يوصلنا إلى حقيقة مفادها أنه مستقر في القلب، ومدار مادة "أمن" في اللسان العربي على سكينة يطمئن إليها القلب بعد اضطراب، وأنقل هاهنا قول الراغب الأصفهاني فإنه يكاد يكون جامعا لما في غيره مع تدقيق، يقول رحمه الله: "أصل الأمن: طمأنينة النفس وزوال الخوف... و"آمن" إنما يقال على وجهين: أحدهما متعدّيا بنفسه، يقال: آمنته أي جعلت له الأمن، ومنه قيل لله مؤمن؛ والثاني: غير متعدّ، ومعناه صار ذا أمن... والإيمان هو التصديق الذي معه أمن". كأن الإمام الراغب رحمه الله لا يتصور أن يكون هناك مؤمن وليس عنده أمن، أي سكينة واطمئنان، أي استقرار لا اهتزاز ولا اضطراب ولا قلق ولا حيرة، لأنه مطمئن إلى ربه ﴿أَلاَ بِذِكْرِ اللهِ تَطْمَئِنُّ الْقُلُوبُ﴾(الرعد:٢٨). ﴿هُوَ الَّذِي أَنْزَلَ السَّكِينَةَ فِي قُلُوبِ الْمُؤْمِنِينَ لِيَزْدَادُوا إِيمَانًا مَعَ إِيمَانِهِمْ﴾(الفتح:٤). فالمدار إذن على وجود سكينة في القلب في جميع ما دارت فيه المادة سواء في صورة "أمن" أو "آمن" المتعدي واللازم، المدارُ على هذه السكينة وعلى هذه الطمأنينة التي تأتي في حقيقتها بعد نوع من القلق والاضطراب، وتأتي بعد قدر من الخوف، وهذا الخوف عبر عنه بالخوف نفسه، وعبر عنه بالبأس، وعبر عنه بالفزع ﴿وَهُمْ مِنْ فَزَعٍ يَوْمَئِذٍ آمِنُونَ﴾(النمل:٨٩)، وعبر عنه بألفاظ أخرى غير هذه الألفاظ، ولكن مؤداها جميعا هي أنها تُحدث لدى الإنسان ضربا من الخوف، فإذا جاء الأمن أزال ذلك الخوف، هذا الأصل وهذا المدار الذي تدور عليه المادة يجعلنا نتجه إلى أن المعنى الذي للأمن هو أنه حال قلبية تجعل المتصف بها في الدنيا يرتاح ويطمئن، والموصوف بها في الآخرة يسعد وتحصل له السعادة الأبدية.

هذه الحال هي نعمة من الله ﷻ، وإذا ربطنا الكلام ببعضه، فإننا نجد من أسماء الله الحسنى "المؤمن"، وقد فهم الراغب الأصفهاني -كما مر في نصه السابق- أن معنى اسم الله المؤمن: الذي يمنح الأمن ويعطيه، فهذه الحال -التي هي نعمة من الله ﷻ- هو الذي يعطيها: ﴿لإِيلاَفِ قُرَيْشٍ ۞ إِيلاَفِهِمْ رِحْلَةَ الشِّتَاءِ وَالصَّيْفِ ۞ فَلْيَعْبُدُوا رَبَّ هَذَا الْبَيْتِ ۞ الَّذِي أَطْعَمَهُمْ مِنْ جُوعٍ وَآمَنَهُمْ مِنْ خَوْفٍ﴾(قريش:١-٤)، ومعنى ﴿آمَنَهُمْ مِنْ خَوْفٍ﴾ أي أعطاهم الأمن، وللمكان طبيعته الخاصة، وسره الخاص، وقد وصف القرآن الكريم ذلك المكان في مواطن متعددة بأنه "آمن" ﴿وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّ اجْعَلْ هَذَا بَلَدًا آمِنًا﴾(البقرة:١٢٦)، ﴿وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّ اجْعَلْ هَذَا الْبَلَدَ آمِنًا﴾(إبراهيم:٣٥)، ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّا جَعَلْنَا حَرَمًا آمِنًا﴾(العنكبوت:٦٧). ذلك سر جعله الله في ذلك المكان تفضلا منه ﷻ، وإنا لنرى ذلك حتى الساعة، إذ كيف نفسر -على سبيل المثال- انداياح موجة الاستعمار الغربي على جميع ديار الإسلام -تقريبا- ولكن لم يحدث هذا الأمر بالنسبة للبلد الحرام، لا لأن تلك المنطقة كانت قوية، فعسر على الاستعمار أن يحتلها، ولكن هناك سر الله ﷻ في هذا الأمر، جعله آمنا ﴿وَمَنْ دَخَلَهُ كَانَ آمِنًا﴾(آل عمران:٩٧)، هذا شيء نراه عبر التاريخ، وهذه الملحوظة بالتحديد تلفت النظر بقوة، فالجزيرة تنقصت من أطرافها واحتلت شوائطها الشرقية وجنوبها وغربها وشمالها وبقي وسطها. والأمر كذلك بالنسبة للفُرس والروم زمن رسول الله ﷺ وقبله، فالمكان له وضعيته وله حال خاصة هبة من الله تعالى لا تزال مستمرة، لكن بالنسبة للإنسان حصول تلك الحال مرتبط بأسباب وشروط. وهنا نقف في النظرة الثالثة على أسباب وجود الأمن وشروط استمراره.

الأمن ثمرة من ثمرات الإيمان

السبب الأول لوجود الأمن في هذه الأمة -وهو شرط في نفس الوقت- هو الإيمان. والأمر في غاية الوضوح، هناك علاقة بين الإيمان والأمانة والأمن، وهذه الألفاظ الثلاثة تنتمي لنفس المادة. والأصل الذي يتفرع منه كل شيء هو الإيمان، والإيمان يعطي الأمانة ويعطي أداء الأمانة و"لا إيمان لمن لا أمانة له" (رواه الإمام احمد)، والله أمر بأداء الأمانات وحرم خيانة الأمانات ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لاَ تَخُونُوا اللهَ وَالرَّسُولَ وَتَخُونُوا أَمَانَاتِكُمْ وَأَنْتُمْ



تَعْلَمُونَ﴾(الأنفال:٢٧)، وكل المسؤوليات أمانات، فما نسميه اليوم بالمسؤولية هو أمانة.

وهناك الأمانة العظمى التي أشارت إليه الآية الكريمة بالنسبة لآدم وبنيه (أي للإنسان) في الآية المشهورة ﴿إِنَّا عَرَضْنَا الأَمَانَةَ عَلَى السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ وَالْجِبَالِ فَأَبَيْنَ أَنْ يَحْمِلْنَهَا وَأَشْفَقْنَ مِنْهَا وَحَمَلَهَا الإِنْسَانُ إِنَّهُ كَانَ ظَلُومًا جَهُولاً﴾(الأحزاب:٧٢). هذه أمانة الاستخلاف العامة، فالأمانة العامة هكذا على إطلاقها هي أمانة الاستخلاف في الأرض، فبنو آدم غيرُهم مسخر لهم، وكل ما سواهم يخدمهم، وهم عليهم أن يخدموا الله ﷻ وأن يعبدوا الله ﷻ. هذه الأمانة (أمانة الاستخلاف) تليها أمانة أخرى أعظم منها وهي أمانة "الشهادة على الناس" بالنسبة لهذه الأمة خاصة؛ لأن الأمم السابقة ما حمّلت تبليغ الدين فرضا، نعم، كان نفلا وكان مطلوبا من المسلمين قبل مجيء الرسول الخاتم، لأن جميع من مضى من المؤمنين كانوا مسلمين أنبياء وغير أنبياء، لكن لم يكونوا مكلفين فرضا بالتبليغ إلا في هذه الأمة فقد انتهى إرسال الرسل وانتهت النبوات، وصارت الأمة كلها مكلفة بما كان مكلفا به رسول الله ﷺ. ولذلك جعلها الله في مستوى معين ﴿وَكَذَلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطًا لِتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ وَيَكُونَ الرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيدًا﴾(البقرة:١٤٣)، هذه الأمانة إلى جانب الأمانة الأخرى، كلها إنما تؤدى على حقيقتها بالإيمان، إذا وجد الإيمان أُدّيت، وإذا لم يوجد لا تؤدى هذه الأمانات، وهذه الأمانة على عمومها تحتها أمانات: فالصلاة أمانة والزكاة أمانة وتربية الأولاد أمانة... وكل تكليف من تكاليف الشرع أمانة من الأمانات، والله يأمر بأداء الأمانات بصفة عامة، وكلها مسؤوليات -بتعبير اليوم- يجب أن تؤدى، وإنما تؤدى على وجهها الصحيح بسبب الإيمان، فالهدف من الإيمان أن تؤدى الأمانات على أحسن وجه، وفي الحديث "لا إيمان لمن لا أمانة له" (رواه الإمام أحمد).

وعندما يوجد الإيمان وتؤدى الأمانة يأتي الأمر الثالث بصورة طبيعية وهو حال: يجد المؤمنون أنفسهم فيها، قلبا وقالبا: قلبا من حيث ما يشعرون به هم من طمأنينة وسكينة وراحة بال، ويشعرون بالراحة الكاملة نتيجة الإيمان وأداء الأمانة أو بالتعبير الآخر: الإيمان والعمل الصالح، ومن حيث القالب يجدون ما يسمى بـ"السلم" -وهو نوع من الأمن-؛ فالأمن محله القلب أساسا، والصورة التي ينتجها ما في القلب في الخارج هي "السلام". فالأمن إذن نتيجة وليس فعلا يمكن أن نفعله، وإنما هو نتيجة طيبة ونعمة من الله ﷻ يتفضل بها علينا إذا آمنا وهو الشرط الأول، وإذا عملنا الصالحات وهو الشرط الثاني، وذلك ما نص عليه الوعد السابق ﴿وَعَدَ اللهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنْكُمْ وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِي الأَرْضِ كَمَا اسْتَخْلَفَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمْ دِينَهُمُ الَّذِي ارْتَضَى لَهُمْ وَلَيُبَدِّلَنَّهُمْ مِنْ بَعْدِ خَوْفِهِمْ أَمْنًا﴾(النور:٥٥). فيأتي الأمن نتيجة ما سبق، ويأتي نتيجة أسباب معينة، ويأتي نتيجة حصول شروط معينة على رأسها الإيمان الصحيح والعمل الصالح، فإذا وجد هذا بالنسبة للفرد وبالنسبة للجماعة جاءت هذه النتيجة وإلا اختفت.

ولا بأس من الإشارة في هذا المقام إلى سبب آخر من أسباب الاستمرار تشير إليه الآية الأخرى في سورة النحل، قال ﷻ: ﴿وَضَرَبَ اللهُ مَثَلاً قَرْيَةً كَانَتْ آمِنَةً مُطْمَئِنَّةً يَأْتِيهَا رِزْقُهَا رَغَدًا مِنْ كُلِّ مَكَانٍ فَكَفَرَتْ بِأَنْعُمِ اللهِ فَأَذَاقَهَا اللهُ لِبَاسَ الْجُوعِ وَالْخَوْفِ بِمَا كَانُوا يَصْنَعُونَ﴾(النحل:١١٢)، حين اختفى الإيمان واختفى العمل الصالح واختفى الشكر وحل محله شيء آخر سماه القرآن ﴿كَفَرَتْ بِأَنْعُمِ اللهِ﴾، وهذا الأمر سنفصل فيه الحديث بعد قليل عندما نتحدث عن موانع حصول الأمن، لكن هاهنا الإشارة إلى أن كفران النعمة يسلب نعمة الأمن، فالله ﷻ يعطي الأمن لكن عندما لا يقع الشكر على هذه النعمة فإنها تنقطع.

فالأمن يأتي بشروط محددة تفضلا من الله على كل حال، ويأتي بالإيمان وبالعمل الصالح، لكن هل يستمر أو لا يستمر؟ والجواب عن ذلك هو أن الأمن يستمر بشكر النعمة وينقطع بكفران النعمة، وهنا نأتي إلى النظرة الأخرى التي هي في موانع الأمن فما الذي يمنع الأمن أن يكون بالقلوب وفي الحالة العامة للأمة.

موانع الأمن

في الحقيقة من خلال آية سبأ يمكن أن نتلمس ثلاثة موانع هي تفصيل لكفران النعمة، ولا شك أن النعمة العظمى هي نعمة

الأمن فيقع كفرانها، وعندما نأتي إلى آية سورة الحجرات، عندما يقول ﷻ: ﴿وَلَكِنَّ اللهَ حَبَّبَ إِلَيْكُمُ الإِيمَانَ وَزَيَّنَهُ فِي قُلُوبِكُمْ وَكَرَّهَ إِلَيْكُمُ الْكُفْرَ وَالْفُسُوقَ وَالْعِصْيَانَ﴾(الحجرات:٧). فهذه الأنواع الثلاثة كلها كفران لأنعم الله على رتب متفاوتة: الرتبة الأولى: والخطيرة: هي رتبة الكفر الصراح، وتأتي بعدها رتبة ثانية خطيرة أيضا ولكنها دون الأولى، وهي الخرق المستمر للطاعة ورفض الامتثال مطلقا ليس إنكارا لله ﷻ، فهناك إيمان واعتراف بوجود الله، ولكن صاحب هذا النوع يرفض طاعته نهائيا. ولو تأملنا حال كفر إبليس وإلى أي نوع من أنواع الكفر ينتمي، يتبين أنه من هذا النوع، قال ﷻ: ﴿كَانَ مِنَ الْجِنِّ فَفَسَقَ عَنْ أَمْرِ رَبِّهِ﴾(الكهف: ٥٠) أي رفض أن يطيع. لكن معصية آدم عليه السلام قبل أن يتوب الله عليه كانت من نوع آخر قال ﷻ: ﴿وَعَصَى آدَمُ رَبَّهُ فَغَوَى ۞ ثُمَّ اجْتَبَاهُ رَبُّهُ فَتَابَ عَلَيْهِ وَهَدَى﴾(طه:١٢١-١٢٢)، فمعصيته نتيجة خطأ ونتيجة زلل، وكانت معصية عارضة فقط، وليس معها إصرار على رفض الطاعة مطلقا، بينما معصية إبليس معها رفض لأصل الطاعة مطلقا، فهي فسق والفسوق درجة عليا في المعصية، ولم يكن إبليس ينكر وجود الله ﷻ؛ بل بالعكس كان دائما يعتبره ربه ويدعوه ويرجوه أن ينظره إلى يوم البعث، ولكنه رفض مبدأ الطاعة، وطعن في نفس الأمر وأنه ليست فيه حكمة ﴿قَالَ أَنَا خَيْرٌ مِنْهُ خَلَقْتَنِي مِنْ نَارٍ وَخَلَقْتَهُ مِنْ طِينٍ﴾(ص:٧٦)، فإذن كيف يسجد له! هذا ليس بمنطق! وهذا ليس عدلا! ولا ينبغي أن يكون الأمر هكذا! هذا تصرف إبليسي متى حدث، لأنه يطعن في أسماء الله ﷻ وصفاته: في حكمته وعدله. هذا هو الفسوق، وهو أيضا نوع خطير من كفران النعم كما بينت، ويأتي بعده العصيان وهو يكون ممن يطيع أحيانا ويعصي أحيانا، مع هذا إذا كانت المعصية موجودة فإنها كذلك تمنع -بقدر وجودها- حصولَ الأمن عند العاصي سواء كان فردا أو جماعة أو أمة، ويصير مانعا من حصول حال الأمن، وهذه النقطة في غاية الأهمية لأنها تشير تلقائيا إلى كيف نكتسب الأمن، وكيف نقي أنفسنا من خطر انعدام الأمن.

معيات الأمن

إنه حين يوجد الأمن توجد أشياء أخرى معه، وترافقه خيرات وبركات، نجد آيات تتحدث عن هذا المعنى منها قوله تعالى: ﴿وَضَرَبَ اللهُ مَثَلاً قَرْيَةً كَانَتْ آمِنَةً مُطْمَئِنَّةً يَأْتِيهَا رِزْقُهَا رَغَدًا مِنْ كُلِّ مَكَانٍ﴾(النحل:١١٢)، وقوله ﷻ: ﴿أَوَلَمْ نُمَكِّنْ لَهُمْ حَرَمًا آمِنًا يُجْبَى إِلَيْهِ ثَمَرَاتُ كُلِّ شَيْءٍ رِزْقًا مِنْ لَدُنَّا وَلَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لاَ يَعْلَمُونَ﴾(القصص:٥٧). فمع وجود الأمن في قلوب الأفراد وفي المجتمع، تأتي خيرات ويقع ازدهار اقتصادي وتقع حركة نشيطة في التجارة. واليوم نرى -على سبيل المثال- أن الأماكن والمناطق التي يضطرب فيها الأمن يفر المقاولون الكبار بأموالهم منها، ولا يستثمرون فيها، بينما إذا حدث العكس فإنهم يطمئنون على أموالهم ويتحركون بأمان. فهذا الازدهار الاقتصادي والراحة النفسية التي تكون للناس، تجعلهم يمارسون حياتهم في اطمئنان كامل، آمنين على أموالهم وعلى أعراضهم وعلى أنفسهم ويقع السلم الاجتماعي العام.

إذن، هذه النعمة التي اسمها "الأمن" هي نعمة مشروط وجودها بوجود الإيمان وبوجود العمل الصالح، وترتفع تلقائيا إذا وجد العكس، إنه لا يتبعض، وهو في القلب. وحينما نقول: "في القلب" فهو تلقائيا يمتد إلى باقي الجوارح وإلى جميع الجسد على القاعدة المشهورة التي أشار إليها رسول الله ﷺ بقوله: "ألا وإن في الجسد مضغة إذا صلحت صلح الجسد كله، وإذا فسدت فسد الجسد كله، ألا وهي القلب" (متفق عليه).

وما حدث في زماننا هذا، من الحديث عن أنواع كثيرة من الأمن، جعله كتاب الله ﷻ حالة واحدة إما أن تكون، وإما أن يكون عكسها وهو الخوف والفزع والقلق والاضطراب والحيرة والبأس... وغيرها مما ذكر الله تعالى في كتابه. فيمكن إذن أن نخلص إلى أمر عام هام هو أن هذه النعمة العظيمة التي هي الأمن، إذا أردنا أن ننعم بها حقيقة فإن علينا أن نتوب توبة نصوحا أفرادا وجماعات في مختلف أقطار الأمة، أن نعود إلى القرآن ونتوب إلى الله ﷻ، ونشتغل بما كان يشتغل به رسول الله ﷺ، أي نمارس حياتنا في إطار شرع الله ﷻ... إذا كان ذلك كذلك جاءت العزة بالاستخلاف في الأرض، وجاء ما يعقبها من التمكين في الأرض، وجاءت النعمة الكبيرة الأخيرة الثالثة وهو تبديل الخوف القائم الآن في جميع أنحاء الأمة الإسلامية، تبديل ذلك أمنا.

نسأل الله تبارك وتعالى أن يكرمنا بهذه النعمة، ويكرمنا بأسباب وجودها، ويكرمنا بسبب استمرارها. ■

(*) الأمين العام لمؤسسة البحوث والدراسات العلمية (مبدع) / المغرب.

واحة القراء

مجلة حراء تعني صلة الأرض بالسماء، نعني أنكم أحسنتم اختيار هذه الكلمة الجامعة، وأنكم عضدتم لغة القرآن الكريم، واخترتموها لغة للتخاطب، ونشر هذه المجلة في عالمنا العربي والإسلامي، ونحمد الله أننا حظينا بهذا المناخ من حيث أنه مدخل خير لعالمنا العربي والإسلامي الذي يبشر بمستقبل زاهر للإسلام.

د. أحمد علي الإمام
مستشار رئيس الجمهورية السودانية لشؤون التأصيل

السلام عليكم ورحمة الله وبركاته..
أبصرت عيناي "حراء" إذ كنت في رحلة بين ربوع أراضي منشأها تركيا.. وكان العدد الأول، ومن ثم التاسع، ولسوء في حظي لم أُدرك ما بينهما!.. لكني أدركتُ أن النور يُشع من "حراء"!.. تجذبني إلى نورها تلك الأقلام النيرة ذات الفكر الإسلامي العميق، والأسلوب الراقي حد الذهول!.. لله دُر أرواحكم!.. إذ تبعث الأمل فينا جليا بين حنايا الفؤاد!.. جزاكم الباري الفردوس الأعلى وأعالي الجنان.

شيماء القره داغي / قطر

السلام عليكم ورحمة الله وبركاته..
لقد أصبحت أسيراً في قبضة جمال "حراء"، ومتيما في بهاء "حراء". لقد أضفيتم إلى الجمال جمالا وإلى البهاء بهاء، حتى أضحت "حراء" وأهلها أغنيتنا المفضلة وأملنا الكبير.. وفقكم الله وأعانكم..

د. عبد الله محمد الخياري / اليمن

السلام عليكم ورحمة الله وبركاته..
حراء... حوّلت صحراء نفوسنا إلى حدائق ذات بهجة وسرور.. فقد مزجت بين العلم والدين والتاريخ والحضارة والشعر والأدب والفكر والحياة... أشكر جميع قراء ومشتركي المجلة وأسأله سبحانه النجاح والتوفيق في الأعمال. نحن بانتظار الأعداد الجديدة بكل سرور..

أبو أسامة / العراق

السلام عليكم ورحمة الله وبركاته..
لست أدري كيف أبداً، لكني أصبحت من المعجبين بمجلة حراء التي تضم كل العلوم وتعبر عن حضارة أمة كانت، هي السباقة في ازدهار وتطوير كل العلوم. فالمجلة تجعل القارئ يفكر ملياً في مبدع الكون وفي المانح للإنسان أهم شيء في الوجود وهو العقل والروح الذي يتفرد بها الإنسان عدا سائر المخلوقات.. وشكراً.

د. أمة الغفور الأمير / اليمن

السلام عليكم ورحمة الله وبركاته..
بالفعل إنجاز حضاري عصري رائع، مليء بالكثير من تلك المعلومات الأدبية والإبداعية الجميلة التي تستحق كل الشكر والتقدير. وتفضلوا بقبول أسمى أيات العرفان وشكرا..

د. هاشم إبراهيم / السعودية



حراء

مجلة علمية ثقافية فصلية

www.hiramagazine.com



تتبع آثاره ﷺ

امضِ خلف بصمات قدميه الشريفتين،
وإلا تهتَ في قِفار الحياة،
وابتلعتك صحارى الهلاك،
منفرداً لا تمش،
وعن آثار دليلك لا تنكص،
فسرْ حيث سار،
واجعل طريقه
لك طريقا..

* * *

تركيا: ٥ ليرات • أوروبا: ٣ يورو • أمريكا: ٤،٥ دولار

ISSN 1306-1879

www.hiramagazine.com

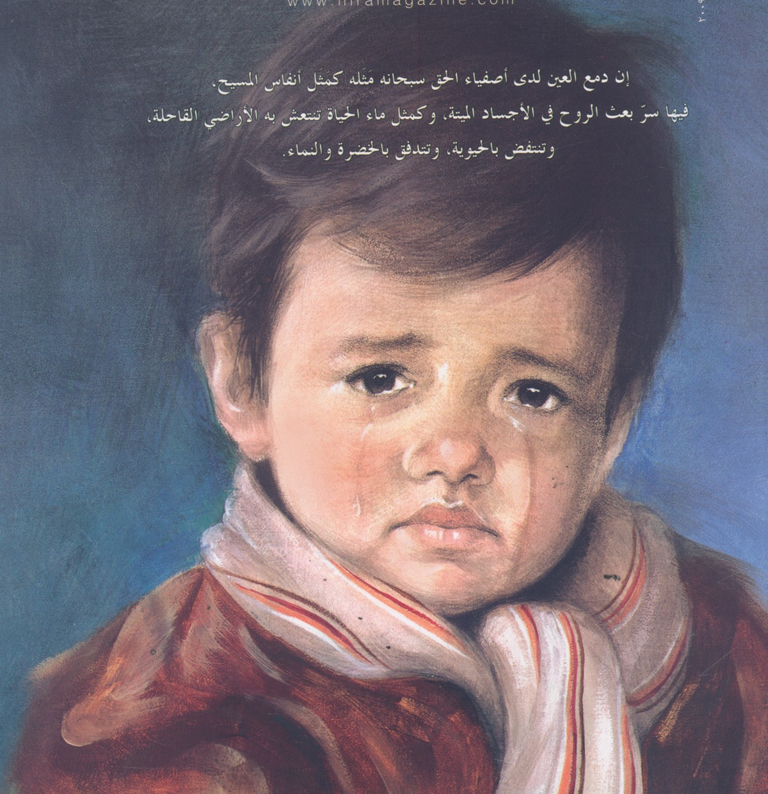
حراء

مجلة علمية ثقافية فصلية

www.hiramagazine.com

العدد الخامس عشر / السنة الرابعة / (أبريل - يونيو) ٢٠٠٩

إن دمع العين لدى أصفياء الحق سبحانه مَثَله كمَثَل أنفاس المسيح،
فيها سرّ بعث الروح في الأجساد الميتة، وكمثل ماء الحياة تنتعش به الأراضي القاحلة،
وتنتفض بالحيوية، وتتدفق بالخضرة والنماء.



بسم الله الرحمن الرحيم

حين يبكي الرجال..

هل يبكـــي الرجال؟ نعـــم، يبكي الرجـــال إذا ما آدتهم الأحزان وســـحقتهم الآلام واعتصرتْ دموعَهم الفواجعُ والنـــوازل... ويبكي الرجال إذا شـــفّهم الوجد، وعلَتْ صراخـــات أرواحهم، وصدقـــت تضرعاتهم إلى الله تعـــالى في محاريبهم وصلواتهـــم... فهـــذا البكاء لا ينقص شـــيئاً من رجولـــة الرجال، ولا هو ممـــا يعيب إذا كان صادقا طاهراً لا تشـــوبه شـــائبة رياء أو سمعة.

ومثل هذه الدموع تتفجّر عن فرط قوة خزينة في النفس ورحمة مزجاة في الضمير، وعن رهافة في الحس ورقة في الشـــعور.. فهي شديدة التأثر بالخطب اليسير، ناهيك عن الخطب الجسيم، فلا عجب إذا ما رأينا كاتب القلب الحزين والروح الجريح، الأستاذ "فتح الله كولن" وهو يفتح موسم الأحزان بمقال رئيس يعلن فيه أنّ لابد لأصحاب الرســـالات الكبرى من مواســـم بين وقت وآخر، يعودون فيها إلى نفوسهم، ويستخرجون من كوامنهم ما تراكم فيها من أحزان وآلام لمزيد من التطهر النفسي والروحي، فلا شيء يطهر النفس من خطاياها وأخطائها كما تطهرها الدموع والآلام.

ولا عجب كذلـــك إذا ما رأينا "حراء" في هـــذا العدد وقد أظلّتها سحابة حزينة، وغشيتها ظلال من كآبات بعض الأقلام. فعلى الرغم من التكريم الإلهي العظيم للإنســـان كما يقول الدكتور "البوشيخي"، إلا أن هذا الإنسان يدير ظهره لله وينحدر غير آبه إلى أسفل دركات الانحطاط بوعي منـــه أو بغير وعي... وفي "روح الأمة" حزن آخر يغشـــانا ويملأ جوانحنا كما يجليه لنا الأستاذ "فتح الله" في قصيدة رائعة ترجمها إلى العربية مشكورا الأســـتاذ "نوزاد صواش".. أما "الإنسان بين الشيطان والقرآن" للأســـتاذ "أديب الدباغ"، فتصور مأساة الإنسان المعاصر الذي فقد قلبه وروحه وهو يحاول العثور عليهما.. وفي "الأقصى" مســـجدنا الحزين لا زال للعثمانيين الأشاوس بصمات واضحات تشي بعمق الإيمان لديهم.. وعن الفروسية في الإسلام يحدثنا الدكتور "محمد عمارة" فإنها بحق صفحة من صفحات تاريخنا المؤثل المشرق، وإلى هذه الفروسية الأخلاقية يعزى ما نَعِمَ به معظم أطراف الكرة الأرضية من سلام وأمان إبان حضارة الإسلام.

فـــ"السّـــلم في الإســـلام" للدكتور "رمضان البوطي" وكأنه رديف ومتمم لمقال "الفروسية الإسلامية" فهو يتحدث عن هذا السلام مصدره وضماناته بشيء من الإســـهاب... و"السنن الإلهية في المنظومة الكونية" للدكتور "علي جمعة" إشـــارة إلى سنن التوافق الكوني والتعاون والتساند بين أجزاء الكون وكلياته... وعن الحوار بين الحضارات يكتب الدكتور "أحمد عبادي" مبيناً أهمية "الوحي" في حياتنا الفكرية والوجدانية وضرورة العـــودة إلى "الوحي" واســـتمدادنا منه، فهو يمنحنا مـــن القوة والثقة ما نستطيع معهما خوض التحديات التي تواجهنا دون خوف أو وجل.. ■

حراء

مجلة علمية ثقافية فصلية

www.hiramagazine.com

العدد الخامس عشر – السنة الرابعة (أبريل – يونيو) ٢٠٠٩

التصور العام

- حراء مجلة علمية ثقافية فصلية تعنى بالعلوم الطبيعية والإنسانية والاجتماعية وتحاور أسرار النفس البشرية وآفاق الكون الشاسعة بالمنظور القرآني الإيماني في تآلف وتناسب بين العلم والإيمان، والعقل والقلب، والفكر والواقع.
- تجمع بين الأصالة والمعاصرة وتعتمد الوسطية في فهم الإسلام وفهم الواقع، مع البعد عن الإفراط والتفريط.
- تؤمن بالانفتاح على الآخر، والحوار البناء والهادئ فيما يصب لصالح الإنسانية.
- تسعى إلى الموازنة بين العلمية في المضمون والجمالية في الشكل وأسلوب العرض، ومن ثم تدعو إلى معالجة المواد بمهنية عالية مع التبسيط ومراعاة الجوانب الأدبية والجمالية في الكتابة.

شروط النشر

- أن يكون النص المرسل جديدا لم يسبق نشره.
- ألا يزيد حجم النص على ٢٠٠٠ كلمة كحد أقصى، وللمجلة أن تلخص أو تختصر النصوص التي تتجاوز الحد المطلوب.
- يرجى من الكاتب الذي لم يسبق له النشر في المجلة إرسال نبذة مختصرة عن سيرته الذاتية.
- تخضع الأعمال المعروضة للنشر لموافقة هيئة التحرير، ولهيئة التحرير أن تطلب من الكاتب إجراء أي تعديل على المادة المقدمة قبل إجازتها للنشر.
- المجلة غير ملزمة بإعادة النصوص إلى أصحابها نشرت أم لم تنشر، وتلتزم بإبلاغ أصحابها بقبول النشر، ولا تلتزم بإبداء أسباب عدم النشر.
- تحتفظ المجلة بحقها في نشر النصوص وفق خطة التحرير وحسب التوقيت الذي تراه مناسبا.
- النصوص التي تنشر في المجلة تعبّر عن آراء كُتّابها، ولا تعبّر بالضرورة عن رأي المجلة.
- للمجلة حق إعادة نشر النص منفصلاً أو ضمن مجموعة من البحوث، بلغته الأصلية أو مترجمًا إلى أي لغة أخرى، دون حاجة إلى استئذان صاحب النص.
- مجلة حراء لا تمانع في النقل أو الاقتباس عنها شريطة ذكر المصدر.

يرجى إرسال جميع المشاركات إلى هيئة تحرير المجلة على العنوان الآتي:

hira@hiramagazine.com

مجلة علمية ثقافية فصلية تصدر عن:

Işık Yayıncılık Ticaret A.Ş

İstanbul / Türkiye

صاحب الامتياز

مصطفى طلعت قاطرجي أوغلو

المشرف العام

نوزاد صواش

nsavas@hiramagazine.com

رئيس التحرير

هانئ رسلان

hraslan@hiramagazine.com

مدير التحرير

أشرف أونن

eonen@hiramagazine.com

المخرج الفني

مراد عرباجي

marabaci@hiramagazine.com

المركز الرئيس

HIRA MAGAZINE
Emniyet Mah. Huzur Sok.
No:5 34676 Üsküdar
İstanbul / Turkey
Phone: +902163186011
Fax: +902164224140
hira@hiramagazine.com

مركز التوزيع

٧ ش البرامكة – الحي السابع – م.نصر/القاهرة
تليفون وفاكس: +20222631551
الهاتف الجوال : +20165523088
جمهورية مصر العربية

نوع النشر

مجلة دورية دولية

Yayın Türü

Yaygın Süreli

رقم الإيداع

١٨٧٩-١٣٠٦

للاشتراك من كل أنحاء العالم

pr@hiramagazine.com

دار الجمهورية للصحافة

حراء

مجلة علمية ثقافية فصلية

www.hiramagazine.com



EGYPT
7, el-Barameka st, off al-Tayaran st. al-Hay al-Sa
Nasr City-Cairo/EGYPT
Tel-Fax: +20222631551 Mobile: +2016552308

TÜRKİYE
Emniyet Mahallesi, Huzur Sokak, No:5
34676 Üsküdar-İstanbul/TÜRKİYE
Phone: +90(216) 318 60 11 Fax: +90(216) 422 41

USA
The Light, Inc.
26 Worlds Fair Dr. Unit C Somerset,
08873 New Jersey, USA
Phone: +1 732 868 0210 Fax: +1 732 868 0211

SAUDI ARABIA
AL Watania Distribution الوطنية للتوزيع
P.O.BOX 8454 Riyadh Zip Code: 11671 Saudia
Tel: +966 1 4871414
GSM: +966 504358213

SYRIA
GSM: +963 944 355675

MOROCCO
الدار البيضاء ٧٠ زنقة سجلماسة
Société Arabo-Africaine de Distribution,
d'Edition et de Presse (Sapress)
70, rue de Sijilmassa, 20300 Casablanca / Morocc
Tel: +212 22 24 92 00

YEMEN
دار النشر للجامعات
الجمهورية اليمنية، صنعاء، الخط الدائري الغربي، أمام الجامعة القديمة
Tel: +967 1 440144
GSM: +967 711518611

ALGERIA
GSM: +213 770 625650

SUDAN
Tel: +249 918248388

JORDAN
GSM: +962 776 113862

UNITED ARAB EMIRATES
دار الفقيه للنشر والتوزيع
ص.ب. 6677 أبو ظبي
Tel: +971 266 789920

هذا موسم البكاء



فتح الله كولن

"ذهني" من صروف الدهر يبكي،
البستانُ يبكي... والبستاني...
صَوّح الزهرُ، وراح الوردُ يبكي دمهُ،
مُذ هجر البلبلُ الوَلهانُ روضتهُ... (ذهني)

عندما تجيش بعض العواطف في أعماق القلب من حزن وأسى، وفرح وسرور، ورحمة ورأفة، وتَهيج فتغدو سُحبا متراكمة؛ فإنها لا تلبث أن تنهمر بوابل من الدمع عبر العيون. فالآلام والهموم، والفراق والوصال والحب والأشواق، والآمال والتطلعات.. جميعها تثير شَجَنَ البكاء عند أولي المشاعر المرهَفة ممن سعدوا بمحبة الرفيق الأعلى في رياض القلب وآفاقه، وتستدرّ دموعهم، ولكن ما من شعور تجود له عيونهم بغزير دمعها كمثل الشعور بالخوف من الله ومهابته، وإجلاله وتوقيره. أما الدموع الأخرى، فهي تنحدر من ماهية الإنسان الجامعة لجانبي الجسد والروح؛ فهي طبْعية، شائعة، لا تَمُتّ إلى أنّات الضمير وأشجانه بصلة، ولا تبلغ مرتبةَ الدمع السامي أبدا.

دموع السعداء

فإذا كنت تروم دموعا انبثقت من أرض الإيمان والعرفان، وهاجها الحبُّ والوجد والشوق، فهذا يقتضي معرفة بالحق جل وعلا، وإحساسا به عند كل كائن، وتشوُّقا لوصالٍ مجهولِ الأوان ليلا ونهارا، ووَجَلا من مخافته وارتعادا من مهابته، وتخشُّعا عميقا بين يدي حضرته العلية. وهذا اللون من الدموع نادر عزيز، لم يحظَ بمثله إلا ثلة من السعداء.. كما أن استمراره منوط بأن تقرأ آثاره تعالى في كل شيء، وتحس به في كل شيء، وتبحث عنه في كل شيء، وتعرفه لدى كل شيء، ويذكره لسانُك عند كل شيء.

إن المرء إذا عرف شيئا تعلّق به.. فإذا ازداد التعلق انقلب حبّاً ثم وجداً وولَعاً يسلب فؤادَه، ويأخذ بمجامع قلبه. وإنّ عاشقا في مثل هذه الحال لا يقرّ له قرار ولا يهدأ له بال، يتيه من صحراء إلى أخرى، يئنّ ويبكي على "ليلاه". فهو في عمل دؤوب وتعبئة لا تني لكي يتسامى على حالة "البعد" التي تخيم عليه.. ومن ثم يتتبع الآثار التي تتحدث عنه سبحانه، ويتدبر العلامات دون سآمة أو إعياء، يناجي كتاب الكون حينا، ويحنو على الأشياء والأحداث حينا آخر، يقرؤها على أنها رسائله جلّ وعلا، يتنسم

أريجهـــا، ويكحل عينيه بجمالها.. وفي أحيـــان أخرى يخفق قلبه لسماع عبارة من بيانه العجيب فيروّح عن قلبه ببعض العَبَرات، وأخيرا يقف عند إيماءات تشـــير إليه ودلاّلين يَدعون إليه، متأملا فيها مستغرقا في معانيها، موصولا بدقيق أسرارها بوجد عميق، متنسما نسمات الحب في كل لحظة وحين.

هذه حال السعداء الذين يسعون متلمسين يد الصانع في صنعته العجيبة، منتبهين إلى الجميل المتعالي في كل بديعة من بدائع الحسن والجمال، مرهفين أسماعهم بدقة متناهية إلى كل همسة من همسات الكون التي تحدثهم عنه، عاطفين على كل كائن في الوجود بحب عميق وعناية فائقة لأنه من صنعه وأثره سبحانه، ومن ثم ناسجين كل فقرة من قصيدة حياتهم على لُحمة العشـــق وسَدَى الحب.

هذا، وإن من طبيعة القلوب أن يهيّجها الحزن، ومن شـــأن العيون أن تفيض بالدمع لـــدى مفارقة الأحبة أو وصالهم.. غير أن منـــزلة الدموع في عالم الغيوب تقدّر بحســـب عمق المشاعر، واتســـاع التصورات، وسموّ النوايا التي يحملها صاحب النحيب والأنين. فإن من يذرف الدمع ويئن بلواعج قلبه خشـــية وتخشّعا ومراقبة وتبصّرا؛ أو من يكظم أمواج العواطف المتلاطمة في قلبه، ويخفي غلَيان المشاعر المتأججة في ضميره، فيدفنها في غَور أعماقه مقتفيا أثر القائل:

إذا ألَمّ بـــك الهمّ، فحذارِ من التـــأوّه حذارِ،
أُكتمْ آهاتك في صدرك، ولا تُفشِها للأغيار..

أجل، إن هؤلاء أرقّاءُ بابِ الحبيـــب بصدق، كَحِيلُو الطّرْف[1] والأجفان، أوفياء له بحقّ، يصونون سِرّهم كما يصونون عِرضهم، ويغارون عليه ولوْ مـــن عيونهم. وإن حال هؤلاء تعبر عن معان عميقة دوما، سواء أجهشوا بالبكاء أو لاذوا بصمت طويل.

وبالمقابل فـــإن التباكي الذي لا ينبعث مـــن صميم القلب عـــذاب للعيون وإهانة للدموع وخديعـــة للناس كافة. ومن هنا فإن تصنّع البكاء لا يُفرح إلا إبليس، بل ويلوّث إكســـيرا عجيبا صنعه الخالق ليطفئ نيران جهنم، ويُبطِلُ مفعولَه الخارق بما يحمل من آفة الرياء. إن الدموع التي تنم عن الاعتراض والإنكار وعدم الرضا في أوقات المصيبة والبلاء محرّمة ألبتة، وإن الارتعاد بهواجس القلق والاضطراب مما يخفيه المستقبل، ما هو إلا لوثة نفسية وداء عُضال؛ كما أن التلهف والشكوى على ما ضاع في الماضي عبث في عبث وهدر للدموع.

لقد ذرفـــت عينا يعقوب عليه السلام دموعا ســـاخنة على ولديه العزيزين بدافـــع من حنين الوالد إلى فِلـــذتيْ كبده، وبدافع من عاطفةٍ شفقةٍ ارتعش لها قلبه. ولعل النبي الكريم عليه السلام قد سكب غزير الدمع عليهما لما توســـم فيهما من أمارات الأمل المشرق في المســـتقبل، ولما عَرف لهما من مكانة سامية لدى الباري جل جلاله. فإذا صح هذا التفســـير -ونحن نؤمن بصحته- فلا حرج في هذا اللون من البكاء. أما الدموع الزائفة التي انحدرت من عيون إخوة يوســـف عليه السلام عند والدهم الكريم، فما هـــي إلا كذبة فاضحة وخديعة مشـــينة واجههم بها ســـيدنا يوسف حينما كتب الله له لُقياهـــم قائلا: ﴿لاَ تَثْرِيبَ عَلَيْكُمُ الْيَوْمَ يَغْفِرُ اللّهُ لَكُمْ وَهُوَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ﴾، فحمدوا له صنيعه قائلين: ﴿تَاللّهِ لَقَدْ آثَرَكَ اللّهُ عَلَيْنَا﴾.

إن قطـــرات الدمع التي تنهمر لوجـــه الله جل جلاله، هي أصدق أنات القلب الذي يمور بالحب الإلهـــي مورا. وإنّ من تأججت أضلاعـــه بنيران الوجد تلألأت عينـــاه بالدموع، أما من أقفرت عيناه وتصحرت فلا أثر للحياة في جوانحه.

نبي الأحزان ﷺ

إن الحزن والبكاء من أبرز الخصال التي اتســـم بها الأنبياء الكرام، فقد كان لآدم عليه السلام أنين متصل مدى الحياة، وها هي دموع نوح عليه السلام قد تحولت إلى طوفان غمر ســـطح الأرض. أما مفخرة بني الإنسان عليه أفضل الصلاة والســـلام فقد نظم قصيدة لواعجه وأحزانه بالدموع، ولذلك فلعلنا لا نخطئ إذا سميناه "نبيّ الدموع والأحزان". ألا تذكر يـــوم بكى بحرقة حتى الصباح تاليا الآيتين الكريمتين مرة بعد أخـــرى: ﴿إِنْ تُعَذِّبْهُمْ فَإِنَّهُمْ عِبَادُكَ وَإِن تَغْفِرْ لَهُمْ فَإِنَّكَ أَنتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾(المائدة:١١٨)، ﴿رَبِّ إِنَّهُنَّ أَضْلَلْنَ كَثِيرًا مِنَ النَّاسِ فَمَنْ تَبِعَنِي فَإِنَّـــهُ مِنِّي وَمَنْ عَصَانِي فَإِنَّكَ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾(إبراهيم:٣٦). فلما أخبر جبريلُ عليه السلام ربَّ العزة جل جلاله بسبب بكائه -وهو أعلم- زفّ إليه بشـــرى أثلجت صدره، وسكّنت خفقـــان قلبه وأنين وجدانه: "يا جبريل، اذهب إلى محمد وقل إنا سنرضيك في أمتك ولا نسوءك". (صحيح مسلم).

لقـــد كان دائم الفكرة متواصل الأحـــزان (الترمذي)، إذ كان في كثير من الأوقات يســـتغرق في تأملاته التي تنتهي إلى دموع حارّة تتحدر على خديه المباركين. صحيح أن وجهه الحزين كان يشـــرق فرحا حينما تصله بعض البشائر، إلا أنه كان في أغلب الأحيان يبكي ويئن أنـــين البلبل الجريح. إن البلبل لا ينقطع عن النواح والأنين حتى وإن حـــطّ على الورد، فكأنه قد خلق لكي

يصدح بنغمات الهم الدفين والحزن المتصل. أما الغربان فلا يحمل نعيقها أدنى معنى من ذلك الهم والحزن، وأما نعيب البوم فهو أبعد ما يكون عن مثل هذه المعاني النبيلة.

أنين الأصفياء

إن الحزن والبكاء حال الأصفيـــاء دائما، وإن أنين الليل والنهار أقصر طريق إلى الله سبحانه. ومن عاب العاشق في بكائه فقد فضح نفسه وأبان عن رعونته. ومن لم يفهم حقيقة النفوس التي احترقت وجدا وتأججت شوقا، فسوف يصبح متقلبا بالحسرات ويمسي مكتويـــا بآلام البعد والهجران يوم يقـــوم الناس أمام رب العباد.

وإن القرآن الحكيم لَيلفت الأنظار باســتمرار إلى أصحاب القلوب المضطرمة والعيون الملتهبة مُشـيدا بذكرهم نماذجَ مثالية يجدر التأسـي بها وتمثّل سلوكها. فهو ينوه بهؤلاء الربانيين أنقياء الروح أصفياء القلــب يقِظي الفؤاد، ويثني علــى الدموع التي انحدرت من أعينهم، خوفا من جلال الله، وهيبة من جبروته، أو شــعورا بثقل الذنوب وتعاظمها: ﴿إِنَّ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ مِنْ قَبْلِهِ إِذَا يُتْلَى عَلَيْهِمْ يَخِرُّونَ لِلْأَذْقَانِ سُـــجَّدًا ۞ وَيَقُولُونَ سُبْحَانَ رَبِّنَا إِنْ كَانَ وَعْدُ رَبِّنَا لَمَفْعُولاً ۞ وَيَخِرُّونَ لِلْأَذْقَانِ يَبْكُونَ وَيَزِيدُهُمْ خُشُوعًا﴾(الإسـراء:١٠٧-١٠٩)، فيعد الدموع التي تقاطرت حبا لله هدية صدقٍ قدّمت بين يدي نجواه سبحانه.

وكذلك حينما يثني على الأنبياء واحدا تلو الآخر بميزاتهم التي تميزوا بها، ومحامدهم التي تفردوا بها، ينبه إلى الجامع المشترك بينهم، أي البكاء والأنين، إذ يقول: ﴿إِذَا تُتْلَى عَلَيْهِمْ آيَاتُ الرَّحْمَنِ خَرُّوا سُجَّدًا وَبُكِيًّا﴾(مريم:٥٨). وتأكيدا لمكانة الدموع لدى الباري ﷻ نقرأ في الكتاب المبين آية ﴿وَإِذَا سَمِعُوا مَا أُنْزِلَ إِلَى الرَّسُولِ تَرَى أَعْيُنَهُمْ تَفِيضُ مِنَ الدَّمْعِ مِمَّا عَرَفُوا مِنَ الْحَقِّ﴾(المائدة:٨٣)، وذلك في معرض تبجيل المؤمنين قديما والموقنين حديثا ممن استيقظوا على النور من خلال الكتب المنـزلة والرســالات السابقة، ثم التقوا بالرسول الخاتم عليه الصلاة والسلام، فسمعوا منه رسالة السماء غضة طرية، فتقلبوا في أحضان الإيمان من حال إلى حال.

وها هو القرآن مرة أخرى يشيد بأبطال الدموع، يهدّئ من روعهم، ويعزّي قلوبهم المنكسرة، ويخفف من وطأة أحزانهم بثناء سماوي، إذ لم يجدوا العدّة المطلوبة التي تساعدهم على الجهاد في ســبيل الله بســبب ضيق ذات اليد فيقول: ﴿وَلاَ عَلَى الَّذِينَ إِذَا مَا أَتَوْكَ لِتَحْمِلَهُـــمْ قُلْتَ لاَ أَجِدُ مَا أَحْمِلُكُمْ عَلَيْهِ تَوَلَّوْا وَأَعْيُنُهُمْ تَفِيضُ مِنَ الدَّمْعِ حَزَنًـــا أَلاَّ يَجِدُوا مَا يُنْفِقُونَ﴾(التوبة:٩٢). وبينما يذكّر القرآن بأن البكاء من سمات الربانيين التي لا تفارقهم، يحذر هؤلاء الطائشين الذين يعدّون الحياة لعبا ولهوا فيقضون أعمارهم ضاحكين عابثين قائـــلا: ﴿فَلْيَضْحَكُوا قَلِيلاً وَلْيَبْكُوا كَثِيرًا جَزَاءً بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ﴾(التوبة:٨٢)، وبالتالي فإنه ينوه بمكانة الدموع من باب آخر. أجل، إن القرآن يستميل أنظارنا إلى الحقيقة نفسها بأساليب شتى وبعشرات من الآيات، ويرشدنا إلى أن نقف موقفا يليق بمكانتنا الكونية.

هذه تنبيهات القرآن الملحة في هذا الشأن، وإليك نفحات من الحياة السنيّة للنفس الزكية والروح الطاهرة مبلّغ وحي السماء عليه الصلاة والسلام الذي سارت حياته مستقيمة على هذا النهج القويم؛

فقد كان يقول لأصحابه الأوفياء من حين إلى آخر "طوبى لمن مَلَكَ نفسَه، ووسِعه بيتُه، وبكى على خطيئته" (الطبراني)، فيدلّهم على معراج ذي ثلاثة مدارج يســتدرجهم من خلالها إلى الآفاق الســامية التي يعيش فيها، ثم يلفت أنظارهم إلى ما يقع في عوالم الغيب من شؤون جسيمة تهز القلب هزا فيقول: "واللهِ لو تعلمون ما أعلم لضحكتم قليلا ولبكيتم كثيرا" (البخاري).

كما كان يوقظهم دوما إلى أهميـــة البكاء والأنين، وينبههم -وينبهنا معهم- إلى أن قطرات الدمع النقية التي فاضت خشـــية من الله تشـــكل حجابا إزاء عذاب النار ما لم تتلوث بزيف الرياء وكذبه، "عينان لا تمسهما النار، عين بكت من خشية الله، وعين باتت تحرس في سبيل الله" (الترمذي). وتأكيدا للمعنى نفسه وتنويها بقيمة الدمع لدى الحق تعالى كان يســتخدم أســاليب مختلفة في حديثه إذ يقول: "لا يَلِجُ النارَ رجلٌ بكى من خشية الله حتى يعود اللّبنُ في الضَّرْع" (الترمذي).

فما بالك إذا انســكبت هذه الدموع، وتعالت تلك الآهات في خلـــوات محجوبة عن العباد مكشـــوفة علـــى رب العباد.. الحقيقـــة أنني لا أعرف ميزانا يســـتطيع أن يـــزن قدرها. أجل، كان نـــبيّ الحزن ﷺ يصدح بهذه المعاني وينبـــه إليها حيثما نزل وأينمـــا حلّ، مع العلـــم بأنه لم يتخلف عما أشـــاد به من مُثل عليا قطّ، ولم يبطئ الســـير نحو الآفاق البعيدة التي أشـــار إليها أبدا، بل كان متجاوزا لها بمســـافات شاسعة، فعندما كان يقوم أمام الباري ﷻ للصلاة يُســـمَع في صدره أزيـــز كأزيز المِرْجَل من البكاء (أبو داود). وعن ابن مســـعود ﷺ قال قال لي النبي ﷺ "اِقرأ عليّ"، قلت يا رســـول الله أقـــرأ عليك وعليك أُنزل؟ قال

"نعم". فقرأت سورة النساء حتى أتيت إلى هذه الآية ﴿فَكَيْفَ إِذَا جِئْنَا مِنْ كُلِّ أُمَّةٍ بِشَهِيدٍ وَجِئْنَا بِكَ عَلَى هَؤُلَاءِ شَهِيداً﴾، قال "حسبُكَ الآن"، فالتفتُّ إليه فإذا عيناه تذرفان (البخاري).

أجل، كانت الدموع تسيل من عينيه سيلا، فهل كان أصحابه الأنقياء الأطهار يشهدون دموعه وهم واجمون؟ كلا، بل كانوا يجهشون معه بالبكاء، فيتحول المشهد إلى بكّائين يتغنون بأناشيد البكاء ويترنمون بأنات الدموع. وذات مرة ما إن تلا عليهم قوله تعالى: ﴿أَفَمِنْ هَذَا الْحَدِيثِ تَعْجَبُونَ ۞ وَتَضْحَكُونَ وَلاَ تَبْكُونَ﴾(النجم:٦٠-٦١) حتى علت أصواتهم بالبكاء وارتجّت السماء بالأنين، فلما رأى رسول الله ﷺ بكاءهم طفق يبكي معهم بدموع حرّى، فما كان ذلك إلا أن أثار شجونهم ولمس شغاف قلوبهم فطفقوا يذرفون دموعا أكثر من ذي قبل (البيهقي). فقد كان بكاء الليل وأنين النهار دأبهم؛ إذ كانوا يشعرون بحلاوة الإيمان ولذة العرفان فيبكون، وتثور نيران الحب والشوق لديهم فينتحبون، ويراقبون عملهم فيحذرون من أن يكون قد خالطه شيء من الذنب فيستعبرون، وتلوح لهم مشاهد الآخرة فيرتعشون خوفا ويئنون، وتغطي الغيوم آفاقهم فتحجبهم عن الرؤية فيضطربون، ويعاودون الكرّة فيبكون.. تلك حالهم ما بين بكاء وأنين يُزْجَى بأخلص عبارات التضرع والابتهال إلى عرش الرحمن.

إن أسرع الأدعية وصولا إلى الله ما صدر منها مصحوبا بدمع العين وأنين القلب، إذ ما من شيء يمكن أن يترجم حرقة الفؤاد ولوعة الضمير بأقصى سرعة وأسمى نقاء مثل العَبَرات والدموع. وما رَفعت دموعُ القلب رايتها في ساحة من الساحات إلا تبددت جيوش الإثم أمامها مقهورة مخذولة. وإن النفوس المرهفة حينما تحس بهذا النوع من نسمات القبول تلامس أوتارها، تهدأ ثورة نيرانها، وتنتشي بلحظات من البرد والسكينة والسلام.

إن الأوّاهين الذين عاشوا في بكاء وأنين متصل هم بلابل الحب الصادق عند أهل السماء. فإذا انطلقت أصواتهم بالتغريد أنصت سكان الملإ الأعلى، وراحوا يصغون إلى ترانيمهم بسكون عميق. فإذا بلغ البكاء هذا المبلغ من الوفاء والنقاء، وكان ترجمة صادقة لما يمور ويهدر من شلالات في القلب، فعلى المرء أن يوجهه ناحية "الأبد"، ويقدمه إلى "سلطان الأبد" في منتهى السرّية والكتمان، وأن يحذر من تلويثه بشائبة الرياء، وإلا تحول ذلك الشلال المطفئ للنيران إلى سم زُعاف.

إكسير الدموع

إننا نعيش في عالم فَقَد النورَ الذي يهتدي به، فادلهمّت الأرض وأظلمت السماء، وخيمت الفوضى على كل مكان... هلمّ بنا إذاً، نَذُبْ ذوَبانَ الشمعة الملتهبة ونحن رؤوسنا انحناءها وهي تشتعل وتذوب، ونتأمل مئات الذنوب وآلاف المعاصي التي اقترفتها أيدينا، ثم نطلق أناتنا كالبلابل المفجوعة حتى ينتفض أهل السماء يلحَظون، فيهبّوا مسرعين يحملون مشاعل النور في أيديهم لكي يشهدوا مهرجان البكاء العظيم. إنني أرى أن هذه الفترة التي شبّت فيها ألسنة النار في الهشيم، لَهِي أنسب الأوقات لكي نُفتّق سحائب عيوننا بشلالات من الدموع. وإذا كان دمع العين إكسيرا عجيبا يبطل سحر كل مؤامرة شيطانية -وهو كذلك- فما علينا إلا أن نتخلى عن مشاهد الابتهاج الفجة حيثما حللنا وارتحلنا، ونلجأ إلى الاسترواح بغيوث البكاء، ونسعى إلى إخماد نيران الأنين بإكسير الدموع.

إن أسرع الأدعية وصولا إلى الله ما صدر منها مصحوبا بدمع العين وأنين القلب، إذ ما من شيء يمكن أن يترجم حرقة الفؤاد ولوعة الضمير بأقصى سرعة وأسمى نقاء مثل العَبَرات والدموع.

إن دمع العين لدى أصفياء الحق سبحانه مَثَله كمَثَل أنفاس المسيح عليه السلام فيها سرّ بعث الروح في الأجساد الميتة، وكمثل ماء الحياة تنتعش به الأراضي القاحلة، وتنتفض بالحيوية، وتتدفق بالخضرة والنماء. وإن السعداء الذين أووا إلى خلوات الليل المحجوبة عن العباد المكشوفة على رب العباد، فزادوها عمقا ببكائهم، وشفافية ورقة بنحيبهم، وأسمعوا مكامن أرواحهم ترانيم من الأنين ونغمات من الحنين، سوف يُمنَحون سر البعث حتما، إنِ اليومَ أو غدا، ويبثون الروح والحياة أينما نزلوا وحيثما ساروا.

منذ سنين وسجاداتُ الصلاة ظمأى إلى الارتواء بأنداء

الدمـــوع.. ومنذ عقود وآذاننا متشـــوّفة إلى أنـــين القلوب.. اكفهرّت سماؤنا وتصحرت أوديتنا.. بتنا لا نشعر بلهيب النيران التي تضطرم في أحشـــاء أهل المكابدة فينا.. فكأن وجوهنا قطع من الجليد، وأنظارنا خِلْوٌ من أي معنى نبيل.. لا أثر للهمّ المضني والمعاناة المبرّحـــة في الأفئدة.. ونظراتنا لا تعبر عن الصدق الذي يبعث الإيمان في القلوب. وإنه لمـــن المحال بمكان أن ننطلق نحو المستقبل، وأن يكون لنا وزن في لاحقِ الأيام بهذا العبء من الغفلة.

ومنذ أن أحجمت عيوننا عن الدموع، جفّت ينابيع السـماء من خيراتها، وأمســكت أنــوار التجليات وغيــوثُ الإلهام عن الهطول.. فلا ورد ينبت ولا زهـــر.. وباتت الأنوار تنحدر من السماء متعثرة، والنسيم يهب بين الحين والآخر منهَكا.. سكان السماء لَهْفى إلى أنّات أهل الأرض ونحيبهم.. والرحمة التي تريد أن تتحول إلى سحائبِ بُشْرَى، تستغيث الأجفانَ دموعَها. كما بكى "ذهني" قائلا:

كأنّ رياضَ الورد اشـتعلتْ فيهــا النيرانْ،
واســتلبتْ الحيّةُ الســوداء عرشَ سليمانْ،
واستعرتْ بالأنين حتى ذابت أحشاءُ العاشقينْ،
وتحولتْ أيام الوصال إلى غـــم وهجرانْ...

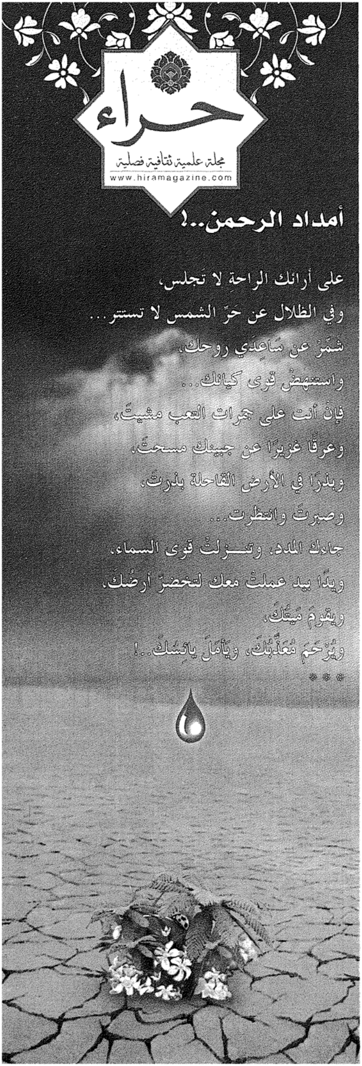
ومن يدري، فلعل الأرواح الطاهرة التي ترفرف في الســماء، تترقب تدفق الدموع من عيوننا لكي تناجي الغيوم وتستحثها على الهطول. ومن يدري، فلعل عيوننا تفيض بحارا من الدموع إزاء ما ألمّ بنا من نوازل ومهمّات، فتمتلئ للتوّ آفاق الملكوت بسحائب محمّلة بالرحمة الواســعة، وتنتبه السحائب إلى أخطائنا ومعاصينا تجرفها أمواج الدمع المتدفقة من أجفاننا، فإذا بها تهلل فرحا، وتتألق ابتهاجا، وتغني أناشيد الربيع، ثم تنهمر علينا بالرحمة والبركات.

ومن يدري، فلعل سكان الســماء، شأنهم في ذلك كشأننا حينمـــا نأخذ ماء الورد فنضمّخ بـــه وجوهنا وعيوننا في ذكرى الميلاد النبوي الســعيد.. من يدري؟ فلعلهم يســتبقون قطرات الدمع التي تســتروِح بها النفوسُ الملتهبة بالهجران، يمســحون بها وجوههـــم، ويكحلون بها عيونهم، ويضمونها إلى صدروهم على أنها أعز هديــة قدمت إليهم. إن أخطاءنـــا وذنوبنا قد طاولت الجبال في تعاظمها.. وإنّ حالة الأســف ودموع الندم التي تبدو علينا أحيانا، يغلب عليها غُلْواء الرياء والسمعة.. فلا أثر للمعاناة المؤرِّقة في نفوســنا.. وأغلب بكاءاتنا ذات طابع دنيوي ومشوبة بالعصيان. ومن ثم فنحن لا نحتاج اليوم إلى شـــيء قدر احتياجنا إلى دموع من الندم تُذرَف لِتنقّينا من الأدران التي علقت بنفوسنا منذ قرون. فعســى أن نطرق باب التوبة بها، ونعود لنبني سنواتنا البائدة من جديد.

إن آدم عليه السلام لمـــا ضخّم "عثرته" في عينيه وكبّرها حتى بلغت ضخامة قمة "إفيرســـت"، لم يلجـــأ إلا إلى الدموع لكي يذيبها ويدمّرها عن بكرة أبيها. لقد كان مثل شـــجرة "العود" تحترق رويدا رويدا لتغمر المكان رائحة شذية، إذ لم يلبث أن اضطرمت النيران في أحشـــائه، فراح ينتحب بدموع حرّى، ويتلوّى بأنّات الندامة حتى ارتقى إلى سماء القبـــول، وصار محط أنظار الملائكة والملإ الأعلى. وعندما انقشعت الغمة وانتهت "المكابدة"، أصبح كل يوم جديد يشرق عليه بأبهى بشائر العفو وأزهى تهاني الغفران.

بعـــد أن اجترحت أيدينا ما اجترحـــت من الآثام، وبعد أن عانينا ما عانينا من الجفوة والحرمان، أرى أنه لا يبدو لنا ســـوى مخرج واحد؛ وهو أن نترصد شـــواطئ الخلـــوات المتفتحة على التجليات، ونسبل ستائر الليالي السوداء على رؤوسنا، ثم نخرّ على جباهنا ساجدين منتحبين، لا يرانا أحد ولا يسمعنا سوى السميع البصير. تعالوا بنا نبكِ ونتلهف على نقضنا لعهدنا، وانهدام وفائنا، وعجزنا المتصل عن إخلاص أعمالنا، وشرودنا ذات اليمين وذات الشمال أثناء سلوكنا، والتواء خطنا، وانحراف استقامتنا، وعدم توفيتنا حقَّ المقام الذي بوّأنا الباري جل جلاله، وحقَّ المكانة التي تَوّجَنا بها، وعدم وقوفنا موقفا مشـــرّفا قويا يوازي المنن والأيادي التي كُرِّمنا بها.. أجل، دعونا نبكِ أيضا على كل من أســـاء التصرف مثلنا.. بكاء لم يشـــهد بمثله الأولـــون والآخرون، حتى يعجب أهل الســـماء الذين كان البكاء ديدنهم، فيسكبوا دموعهم إغاثة لدموعنا، ويرفعوا أنينهم استجابة لأنيننا منذ اليوم.

أجل، نحن لم نَقدُر المكانة السامية التي كُرِّمنا بها حقّ قدرها، ولم نصمـــد في مواقعنا بعزم صادق ووعي نافذ وإخلاص عميق. لقد انحلّت الأيدي المتماســكة، وهجر الحبيب ديارنا، وعصفت رياح الخريف برياض الورود فأبادتها، واكتوت أحشـــاء البلابل بلهيب الفاجعة، وأخذت تشـــدو بآهات محرقة، وتبكي بأنات ملتاعة... أجل، غاضت الينابيع، وجفت الجداول، وباتت الأشواك تنـــذر بالهول في كل مكان، ونعيب البـــوم يمزق أرجاء الأرض والســـماء. آنَ الأوان لكي نتحدث بلسان قلوبنا، وننثر قطرات



من إكسير الدمع على وحشتنا وغربتنا، فننهي عهد التصحر المميت.

لقد مـنّ الله علينا بألطاف جليلة مثـل الوجود والحياة والحس والشعور والإدراك.. ورسم لنا آفاقا ومسالك للحياة تتناسب مع ما جهّزنا به من مواهب وطاقات. بيد أننا بددنا كل شيء وأسرفنا في ذلك إرضاء لأهوائنا الطائشة ورغباتنا الجامحة، فأخذنا نتدحرج القهقرى، ونتراجع عن المرتقى الذي شُرّفنا به، ونهوي إلى قاع النزوات، وإذا بنا ننحطّ بالمستوى الإنساني الرفيع، ونلوّث الكرامة الإنسانية، ونلوّث أنفسنا معها. بعد هذا المنحدر السحيق، ألا ينبغي على الأقل، أن نبذل الغالي والنفيس لكي نمضي قُدُما فيما تبقّى من أعمارنا على خط القلب الذي لا ينحرف ولا يحيد؟!

مناشدة حرّى

إذن، تعالوا نَهجُرْ أيام البؤس التي قضيناها ضاحكين عابثين، تعالوا نعزف على أوتار الدموع مترنمين بنغمات البكاء والأنين. هلُمّوا نودّع حياة اللهو والهوى، ونتدثر بدثار الهمّ والمعاناة حتى نكتشف أبعادا أخرى من الحياة ونستشعر بها في أعماقنا. تعالوا نصغِ إلى ألوان من الهموم، ونستهدِ السبل التي تقرّبنا إلى عظماء المكابدة ممن يقاسمون الأوّاهين آلامهم ويشاطرونهم أحزانهم.

لقد اندثرت أيام عمرنا الخصيبة في ضياع مخيف، وولّى ربيع الحياة دونما رجعة. وباتت طلائع الليل البهيم تلوح في الأفق الغربي تنذر بانتهاء نهار العمر الوضيء. فلم يبق لنا -والحال هذا- إلا أن نوقد مصباحا ساطعا لا يخمد نوره استعدادا لذلك الليل الطويل. فلا أقلّ من أن ننتفض -منذ الساعة- فنؤوب إلى رشدنا، ونلملم شعثنا، ونعود إلى جوهرنا، فنرطّب حرقة أكبادنا بقطرات من دموعنا.. إذ لم يقطر على وجه الأرض شيء أعزّ وأكرم من الدمع عند الخالق ﷻ، وإنّ تلك القطرات التي تناثرت على وجه التراب ستحوّل أرجاء البسيطة كلها إلى جنّات زاهرة في عهدٍ ليس ببعيد.

ناشدتكم الله أن نهبّ معا لنكون سقّائي دموعٍ في هذه الصحراء المترامية الأطراف، المتآكلة من الجفاف، فنقيم موائد زاهية حديثة العهد بالسماء، تقدم للرائح والغادي فواكه غضّة طريّة نضيرة، كلماتها شبوب شوق ولهيب أشجان، ونغماتها أنين قلب ونحيب وجدان. ■

(*) الترجمة عن التركية: نوزاد صواش.

(1) كحيلـو الطرف في الأدبيات التركية: الأصفياء أصحاب القرب الإلهي الذين حباهم الله بحدّة البصر ونفاذ البصيرة. (المترجم)

مظاهر التكريم الإلهي لبني الإنسان

أ.د. الشاهد البوشيخي*

الحديث عن تكريم القرآن للإنسان هو حديث عن موقع الإنسان في هذا الكون، وعن أصل الإنسان، وعن منهج تكريم الإنسان. الحديث عن تكريم الله ﷻ حديث عن ربنا الكريم وكيف أفاض من كرمه على هذا الإنسان فجعله مكرما، مكرم الأصل، ومكرم الفرع، فقال ﷻ: ﴿وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِي آدَمَ وَحَمَلْنَاهُمْ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ وَرَزَقْنَاهُمْ مِنَ الطَّيِّبَاتِ وَفَضَّلْنَاهُمْ عَلَى كَثِيرٍ مِمَّنْ خَلَقْنَا تَفْضِيلاً﴾(الإسراء:٧٠). الكرم جماع الخير كله، فالكرم ليس هو الجود كما هو شائع، ولكنه ضد اللؤم. الكرم جماع الصفات الحميدة كلها، والكريم هو المتصف بتلك المحامد اتصافا يجعلها ظاهرة فيه ظهورا جليا، هكذا يحدد أهل اللغة الكرم. فهو ضد اللئيم، وليس ضد البخيل كما هو شائع؛ وإكرام الله ﷻ لعباده من الملائكة أو من الناس هو إنعام عظيم من وجوه لا عدّ لها ولا حصر على هذه الكائنات.

والتكريم جعل الشيء المكرم كريما في ذاته ليس منعما عليه إنعاما عاما بصفة من الصفات أو بمجموع من الصفات، ولكنه جعله في حد ذاته كريما أي نفيسا. فكل شيء شُرف في بابه فقد كُرم، والتكريم جعل الشيء كريما فعلا، والله ﷻ حين قال: ﴿وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِي آدَمَ﴾ خاطب "الإنسانية" بتعبير اليوم، و"بني آدم" بتعبير القرآن، فأفاد أمرين: أفاد تكريما لهؤلاء الذين تناسلوا من آدم عليه السلام إلى قيام الساعة، ذكورا كانوا أم إناثا، وأفاد أن من تكريمهم أيضا أنهم قد تناسلوا من آدم، وآدم قد كرم قبل في الانطلاق، في انطلاق الإنسانية منه، وذلك ما جاء على لسان إبليس نعوذ بالله منه حين قال: ﴿قَالَ أَرَأَيْتَكَ هَذَا الَّذِي كَرَّمْتَ عَلَيَّ لَئِنْ أَخَّرْتَنِ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ لَأَحْتَنِكَنَّ ذُرِّيَّتَهُ إِلاَّ قَلِيلاً﴾(الإسراء:٦٢)، ﴿هَذَا الَّذِي كَرَّمْتَ عَلَيَّ﴾ إشارة إلى آدم عليه السلام حين أمر الله ﷻ الملائكة أن يسجدوا له. فآدم بنص هذه الآية قد كرم أيضا، وبنص الآية الثانية كُرمت ذريته، ومن تكريم ذريته إشعارهم وتذكيرهم بأنهم أبناء آدم. فما هي مظاهر تكريم آدم عليه السلام؟

مظاهر التكريم الإلهي لآدم عليه السلام

آدم عليه السلام قال الله ﷻ فيه: ﴿مَا مَنَعَكَ أَنْ تَسْجُدَ لِمَا خَلَقْتُ بِيَدَيَّ﴾(ص:٧٥)، فأول تكريم لآدم أن خلقه الله بيده، وهذا فيه تنبيه على أن هذا الخلق ليس خلقا عاديا من قبيل "كن فيكون"، ولكنه خلق له خصوصية، هي أن الله باشره بيده، فهذا تنويه بنفاسة هذا الإنسان وهذا المخلوق، ثم إنه ﷻ بعد ذلك قال: ﴿يَا أَيُّهَا الإِنْسَانُ مَا غَرَّكَ بِرَبِّكَ الْكَرِيمِ ۞ الَّذِي خَلَقَكَ فَسَوَّاكَ فَعَدَلَكَ﴾(الانفطار:٦-٧)، ﴿إِنِّي خَالِقٌ بَشَرًا مِنْ طِينٍ ۞ فَإِذَا سَوَّيْتُهُ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِنْ رُوحِي فَقَعُوا لَهُ سَاجِدِينَ﴾(ص:٧١-٧٢). هذه التسوية ترشد إليها آية أخرى بعبارة أخرى توضح معنى هذه التسوية حين يقول الله ﷻ: ﴿لَقَدْ خَلَقْنَا الإِنْسَانَ فِي أَحْسَنِ تَقْوِيمٍ﴾(التين:٤). هذه هي التسوية والتعديل الأول، والتسوية والتعديل اللاحق في كل مخلوق، أن يفطر الناس جميعا على الفطرة

الأولى: ﴿فَأَقِـمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًا فِطْـرَةَ اللهِ الَّتِي فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْهَا﴾(الروم:٣٠)، هذه التســوية أيضا مظهر من مظاهر التكريم لآدم عليه السلام.

ثم بعد ذلك الله عز وجل نفـخ في هذا المخلوق من روحه ﴿إِنِّي خَالِقٌ بَشَرًا مِنْ طِينٍ ۞ فَإِذَا سَوَّيْتُهُ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِنْ رُوحِي فَقَعُوا لَهُ سَـاجِدِينَ﴾(ص:٧٢). ففي هذا الإنسان في الأصل الأول شيء من روح الله عز وجل، به سـيصلح بعد لتلقي هذه المهمة الكبيرة التي أنيطت بالإنسان، مهمة الخلافة، به سيصلح بعد أن يكون عابدا لله عز وجل، به سـيصلح بعد لتلقي الهـدى النازل من عند الله عز وجل، الـذي هو أيضا من جنس ما نفخ في آدم عليه السلام، أي إنه أيضا من روح الله كما قال الله عز وجل: ﴿وَكَذَلِـكَ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ رُوحًا مِنْ أَمْرِنَا مَا كُنْتَ تَدْرِي مَـا الْكِتَابُ وَلاَ الإِيمَانُ وَلَكِنْ جَعَلْنَاهُ نُورًا نَهْدِي بِهِ مَنْ نَشَـاءُ مِنْ عِبَادِنَا﴾(الشـورى:٥٢). فهذا القرآن وكل الهـدى النازل من عند الله عز وجل، هو من جنـس ما نفخ في آدم عليه السلام؛ وبهذا النازل يقع الالتحام مع هذا القسـم في الإنسـان، فيكرم الإنسان ويشرف ويسمو. إذ هذا النفخ من روح الله عز وجل فيه هو من مظاهر تكريم آدم عليه السلام.

ثم أمر الله عز وجل ملائكته -وهم عباد مكرمون- بأن يسجدوا لآدم عليه السلام، وهذا أيضا مظهر مـن مظاهر تكريم هذا المخلوق، وفيه إشـعار بأن جميع هـؤلاء الملائكة -وهـم جنود مجندون للقيـام بوظائف لا عد لها ولا حصر في ملك الله- سـيخدمون هذا الكون الذي هو أيضا خادم لهذا الإنسـان، ليعبد الله عز وجل.

ثم هذا التعليم للأسماء كلها وهو مناط الخلافة، فالملائكة حين أخبرهم الله عز وجل قبل خلق آدم بأنه جاعل في الأرض خليفة قالوا مسـتغربين: ﴿أَتَجْعَلُ فِيهَا مَنْ يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ الدِّمَاءَ وَنَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَ قَالَ إِنِّي أَعْلَمُ مَا لاَ تَعْلَمُونَ ۞ وَعَلَّمَ آدَمَ الأَسْمَاءَ كُلَّهَا ثُمَّ عَرَضَهُمْ عَلَى الْمَلاَئِكَةِ فَقَالَ أَنْبِئُونِي بِأَسْمَاءِ هَؤُلاَءِ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ ۞ قَالُوا سُبْحَانَكَ لاَ عِلْمَ لَنَا إِلاَّ مَا عَلَّمْتَنَا إِنَّـكَ أَنْتَ الْعَلِيمُ الْحَكِيمُ ۞ قَالَ يَا آدَمُ أَنْبِئْهُمْ بِأَسْـمَائِهِمْ فَلَمَّا أَنْبَأَهُمْ بِأَسْـمَائِهِمْ قَالَ أَلَمْ أَقُلْ لَكُمْ إِنِّي أَعْلَمُ غَيْبَ السَّـمَاوَاتِ وَالأَرْضِ وَأَعْلَمُ مَا تُبْدُونَ وَمَا كُنْتُمْ تَكْتُمُونَ﴾(البقرة:٣٠-٣٣). فهذا التعليـم لآدم هو محض موهبة وفضل من الله عز وجل منّ به على أبينا الأول آدم عليه السلام الذي هو أصل الإنسـانية ذكورا وإناثا، ثم من بعده كان إشعار بهاته النعمة نفسها على آخر صفوة خلقه كذلك محمد صلى الله عليه وسلم حين قال له: ﴿اقْرَأْ وَرَبُّكَ الأَكْرَمُ ۞ الَّذِي عَلَّمَ بِالْقَلَمِ ۞ عَلَّمَ الإِنْسَانَ مَا لَمْ يَعْلَمْ﴾(العلق:٣-٥)، هذا جاء بعد صفة الأكرم نفسها التي منها صدر التكريم لهذا الإنسان. ومظهر هذا التكريم الأول هنا هو تعليم الإنسان ما لم يعلم، وهذا التعليم هو الذي ميز الله به آدم عليه السلام عن ما سواه بأن أودع فيه القابلية للتعلم، وهذا يعني منة أخرى أنه جعل له فؤادا أو قلبا أو عقلا يستقبل به هاته المعلومات ويحصل له به التعلم، ﴿قُلْ هُوَ الَّذِي أَنْشَـأَكُمْ وَجَعَلَ لَكُمُ السَّـمْعَ وَالأَبْصَارَ وَالأَفْئِدَةَ قَلِيلاً مَا تَشْـكُرُونَ﴾(الملك:٢٣)، هاته المصادر التي تدخل المعلومـات إلى هذا القلب وهذا العقل الذي يسـتقبل، به تعلم هذا الإنسان وبه حصلت له منة أخرى.

حرية الاختيار

ومظهر آخر من مظاهر التكريم هو أنـه مُنح الحرية والاختيار، ومعهما تكون -طبعا- المسؤولية؛ وهذا أيضا بالنسبة لآدم أيضا في اللحظة الأولى حين قال له ولزوجه: ﴿فَكُلاَ مِنْ حَيْثُ شِئْتُمَا وَلاَ تَقْرَبَا هَذِهِ الشَّـجَرَةَ﴾(الأعراف:١٩) هذا أمر، وهذا نهي: لكما الحرية كل الحرية ولكما الاختيـار التام بأن تفعلا هذا أو هذا، لكن إذا حدث هذا فلا إشـكال ولكما الأجر؛ وإذا حدث هذا فهناك إشـكال ولكما الوزر، فتنبني على الحرية دائما المسؤوليةُ، وعلى المسـؤولية الثواب أو العقاب، فهذا أيضا من مظهر تكريم الله عز وجل لهذا الإنسان، أنه منحه عقلا به هو حر يختار، عقل مميز، يميز به بـين الصالح والطالح، بين ما ينفع وما يضر، بين الطيبات والخبائـث، وأصدر له الأمر على ضـوء ذلك، عكس الملائكة الذين هم مسخرون لما هم مسخرون له، وعكس الشياطين الذين هم مصدودون عن الطاعة ولا يعرفون إلا المعصية، هذا الإنسان كان مسؤولا عن الحرية التي أعطيت له.

ثم إن مـن مظاهر التكريم المرتبطة بهذه الحقيقة نفسـها هو أن الله علم هذا الإنسـان كيف يصلح خطأه إذا أخطأ، وكيف يعود إليه مكرما إذا أهان نفسـه بالخطأ، وكيف يمحو السـيئة بالحسـنة ﴿فَتَلَقَّى آدَمُ مِنْ رَبِّهِ كَلِمَاتٍ فَتَـابَ عَلَيْهِ﴾(البقرة:٣٧)، هي كلمات الاسـتغفار، وصارت هذه دائمة في بنيه مسـتمرة ﴿وَمَا كَانَ اللهُ لِيُعَذِّبَهُـمْ وَأَنْتَ فِيهِمْ وَمَا كَانَ اللهُ مُعَذِّبَهُمْ وَهُمْ يَسْتَغْفِرُونَ﴾(الأنفال:٣٣). بعد ذلك كانت هاته المنحة الكبيرة التي مـن أجلها خلق آدم، هي منحة الخلافـة، هي منة الخلافة؛ بعد كل هـذا وبعد هذا التدريب في هاته الصور اسـتخلف آدم في الأرض؛ إذ في الأمـر الأول قال الله عز وجل للملائكة: ﴿إِنِّي جَاعِلٌ فِي الأَرْضِ خَلِيفَةً﴾(البقرة:٣٠) وكل ما سبق ذلك من صور التكريم الأولى ومـن التداريب التي أجريت عليـه في مرحلة الجنة، كل ذلـك تحضير للمنة الكبرى التي هي الخلافة، التي من أجلها خلق

آدم ومـــن أجلها كان ما كان من بعده من ذريته؛ فهذا أيضا من تكريم الله ﷻ له؛ وما معنى هاته الخلافة؟ معناها أن هذا الإنسان في موقع النيابـــة عن الله ﷻ، ولكن لا ينوب أحد عن الله ﷻ، فالله ﷻ وضع هذا الإنسان في موقع أعطاه فيه الحرية والاختيار وزوده باللوازم الضرورية للقيام بالمهمة وجعله في الأرض وسخر له كل ما سواه، هذا لا يظهر في التكريم الأول لآدم عليه السلام ظهورا واضحا، ولكنه سيظهر بعد في مظاهر تكريم ذريته من بعده.

تكريم آدم تكريم لذريته أيضا

فإذاً مظاهر تكريم الله ﷻ لآدم عليه السلام كثيرة ومتنوعة، وهي تجعله في موقع عليّ جدا، وحسبنا أنه في موقع الخليفة وأنه حين أهبط إلى الأرض واستخلف فيها زُود بالهدى والاجتباء ﴿ثُمَّ اجْتَبَاهُ رَبُّهُ فَتَابَ عَلَيْهِ وَهَدَى﴾(طه:١٢٢) فحصلت له هاته الهداية التي جعلت لا يصدر منه إلا ما ينســـجم مع تكـــريم الله ﷻ. وهاته الهداية ستستمر قانونا عاما في ذريته من بعده.

فهذا التكريم لهذا الإنسان الأول الذي هو آدم عليه السلام ستصبح الإشـــارة إليه في حد ذاتها مظهر من مظاهر تكريم بني آدم، أي إن الله ﷻ حـــين قال: ﴿وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِي آدَمَ﴾(الإسراء:٧٠) و لم يقل "ولقد كرمنا الناس" أو "البشـــر" أو "الإنسان"، فهو إشعار لهـــم بأنهم أبناء ذلك المخلوق الأول ذي النعم المذكورة، والموقع الذي هو موقع النبوة والرســـالة، الراشد المهدي، والعبد الصالح المصلح، والإنســـان السيد وســـط كائنات متعددة متنوعة كلها جُعلت خادمة له وخُلقت من أجله، وخُلق هو لشـــيء آخر هو العبادة.. فهاته الإشارة: ﴿بَنِي آدَمَ﴾ في حد ذاتها تكريم للإنسان خصوصا في زماننا هذا، حيث أرجع من أرجع أصل الإنســـان إلى القرد.. إلى كائنات هي في الأصل خادمة للإنســـان وخلقت مسخرة له. فمن امتهان الإنسان وإهانته أن يُجعل خادما لغير الله ﷻ، ومن تكريم هذا الإنسان ألا يجعل عبدا إلا لله ﷻ. فما هي مظاهر تكريم بني آدم بعد آدم عليه السلام؟

مظاهر التكريم بعد آدم عليه السلام

مما نص عليه القـــرآن الكريم في مواضع كثيرة أن هذا الخلق كله لاسيما مخلوقات الأرض، ما خلقت إلا لبني آدم ﴿هُوَ الَّذِي خَلَقَ لَكُمْ مَا فِي الأَرْضِ جَمِيعًا﴾(البقرة:٢٩). ثم أيضا من تكريم الله ﷻ لبني آدم أنه سخر لهم ما في السماوات وما في الأرض ﴿أَلَمْ تَرَوْا أَنَّ اللهَ سَخَّرَ لَكُمْ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الأَرْضِ﴾(لقمان:٢٠). هذا التســـخير فيه ما يدخل ضمن الإرادة البشـــرية، بمعنى أننا نكتشف سننه ونكتشف مفاتيح تســـخيره، فهو داخل في قوله تعالى ﴿سَنُرِيهِمْ آيَاتِنَا فِي الآفَاقِ وَفِي أَنْفُسِهِمْ حَتَّى يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ الْحَقُّ﴾(فصلت:٥٣). وفيه ما هو فعلا يمدنا بعطاء مســـتمر دائم لا حد له ولا حصر، لا يملك حتى القدرة الإحصائية، وقد أشار الله تعالى في آيات متعددة أنه ســـخر لنا الشمس والقمر، وسخر لنا الليل والنهار والبحر والفلك والأنعام... وما لا نعلم ﴿وَإِنْ تَعُدُّوا نِعْمَةَ اللهِ لاَ تُحْصُوهَا﴾(إبراهيم:٣٤). فالله ﷻ سخر لنا كل شيء، هذا لنشـــعر نحن بجليل نعمة الله ﷻ علينا، فنشكر المنعم الكريم، ونتجه إلى أن نعبده بكل ذلك الذي ســـخر لنا، ونحسن تسخير ذلك في عمارة أرضه وفي نفع عبـــاده كما في الحديث: "الخلق كلهم عيال الله وأحبهم إلى الله أنفعهم لعياله" (رواه أبو يعلى والطبراني).

إنزال الهدى الرباني

ومن هاته المظاهر إنزال الهدى الربـــاني إليهم، وتزويدهم بمنهج يحفظ لهم كرامتهـــم، ويحافظ على ذلك التكريم الأول الذي لهم في الأصل أي آدم الذي منه تناســـلوا، وعلى التكريم الأول الذي هو الفطـــرة التي خلقوا عليها. إذ من الـــولادة إلى البلوغ تعرو الإنســـان حالات متعددة تؤثر فيه، حالات كســـبية قد تطمس فطرته تماما، ذلك أن إبليس حين قال الله ﷻ: ﴿قَالَ أَرَأَيْتَكَ هَذَا الَّذِي كَرَّمْتَ عَلَيَّ لَئِنْ أَخَّرْتَنِ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ لَأَحْتَنِكَنَّ ذُرِّيَّتَهُ إِلاَّ قَلِيلاً﴾(الإسراء:٦٢). منذ تلك اللحظة يئس من آدم خصوصا بعد الاجتباء، ولكنه قطع وعدا على أن يعترض ذريته من كل الوجوه ﴿لَأَقْعُدَنَّ لَهُمْ صِرَاطَكَ الْمُسْتَقِيمَ ۞ ثُمَّ لَآتِيَنَّهُمْ مِنْ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ وَمِنْ خَلْفِهِمْ وَعَنْ أَيْمَانِهِمْ وَعَنْ شَمَائِلِهِمْ﴾(الأعراف:١٦-١٧)، هم خلقـــوا حنفاء كما قال الله ﷻ: "خلقـــت عبادي حنفاء" (رواه مسلم)، أي على الفطرة المستقيمة كأبيهم آدم عليه السلام، ولكن إبليس هـــذا الذي لم يرض أن يكرم آدم عليه، قطع وعدا على أن يضل أبناء آدم، ويقعد لهم في الطريق نفسه، في الصراط، حتى أنه حذف الخافضة لم يقل: "في صراطك المستقيم". ونظرا لهذا الأصل الأول الذي يشير إليه قوله تعالى: ﴿إِنَّ الشَّيْطَانَ لَكُمْ عَدُوٌّ فَاتَّخِذُوهُ عَدُوًّا﴾(فاطر:٦)، هو عـــدو لكم في الأصل، من لحظة الانطلاق، وقطع على نفســـه أن يعاديكم باســـتمرار، لا يعرف كللا ولا مللا، وليســـت له وظيفة ولا مهمة غير هاته، فاتخذوه يا بني آدم عدوا، أقول: إبليس وجنده وأتباعه من شـــياطين الإنس والجن يجتهدون على أبناء آدم في أن يخرجوهم عن الصراط المســـتقيم، أن يخرجوهم من النـــور إلى الظلمات ﴿وَالَّذِينَ كَفَرُوا أَوْلِيَاؤُهُمُ الطَّاغُوتُ يُخْرِجُونَهُمْ مِنَ النُّورِ إِلَى الظُّلُمَاتِ﴾ (البقرة:٢٥٧)؛ عملية الإخراج هاته التي قد تأتي تجعل الإنســـان بعد أن يصير مسؤولا

ويتأهل لحمل الأمانة بعد أن يبلغ ويرشد، يواجه الأمانة مباشرة، في هاتـه المرحلة يأتيه الهدى، يأتيه المنهج الرباني الذي يرشده إلى الكيفية التي بها يعـود إلى كرمه الأول، والتي بها يحافظ على تكريم الله ﷻ له، والتي بها يكرم سـواه أي يعامله معاملة كريمة، هذا المنهج هو الرسـالات كلها، من أجل هذا الأمر جاء الرسل وأنزلت الرسـالات، بتعبير آخر: إن الله ﷻ من تكريمه لبني آدم أنـه منحهم هدية منه رحمة بهم وتفضلا منه تعالى. هي منهج إذا صاروا عليه ظلـوا كرماء كأبيهم آدم بعد أن اجتباه الله وهداه، وحافظوا على هذا الكرم وعاملوا بعضهم بعضا بما يناسـب هذا الأصل الأول الـذي هو التكريم. إذاً فكل خروج عن منهج الله ﷻ فيه إهانة لهذا الإنسـان، وفيه تدنيس له، لأن الكرم يضاده اللؤم، فالذي يخرج في تعامله فردا كان أو جماعة عن منهج الله ﷻ هـو في الحقيقة يصير بذلك لئيما غير كريم، ويعامل الآخر معاملة لئيمة ليست كريمة. وبما أن ضد الكرم الإهانة ﴿وَمَنْ يُهِنِ اللهُ فَمَا لَهُ مِنْ مُكْرِمٍ﴾(الحج:١٨)، كل خروج عـن منهج الله ﷻ فيه إهانة للنفس نفسـها وإهانة للآخر الإنسان المعامَل ومخالفة للأصل الأول ولمقتضى الفطرة، ولتكريم الله لآدم وبني آدم.

ما هي الأسـس الكبرى لهذا المنهج؟ نكتفـي بأمرين فقط، مظهران كبيران لتكريم الله ﷻ للإنسان في المنهج النازل لهذا الإنسان:

ميثاق الخلافة

الأمر الأول: أنه طلب منه أن يعبده هو وحده لا شـريك له، وجعـل الهدف من خلقه هو هذا ﴿وَمَا خَلَقْـتُ الْجِنَّ وَالإِنْسَ إِلاَّ لِيَعْبُدُونِ﴾(الذاريـات:٥٦)، وجعل شديد العقوبة بل أشد العقوبة على الإطلاق أن يعبد هذا الإنسـان غير الله ﴿إِنَّ اللهَ لاَ يَغْفِرُ أَنْ يُشْـرَكَ بِهِ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَلِكَ لِمَنْ يَشَاءُ﴾(النسـاء:٤٨)، لِمَ؟ لأن عبادة الإنسـان لغير الله فيها إهانة عظمى لآدم الذي ننتسب إليه والذي أسـجد له الملائكة وجعل خليفة وسيدا على سواه فيهينه هذا العابد لغير الله بعبادة شـيء أدون من هذا الإنسـان، فكأن الإنسان ينتكس تماما ويُدسى ويحط من قيمته، فبدل أن يتجه إلى فوق بأن يكرم ويشرف يدنى ويتجه إلى تحت، لأنه يعطي العبادة للأقل منه بدل أن يعطيها للأكـبر منه الذي هو الله ﷻ. ومثل ذلك إذا أعطاها لمثله لماذا؟ لأنه وضع الشـيء في غير موضعه، إذ من ميثاق الخلافة أن هذا الإنسـان لا يعبد إلا الله وفق ما أنزل الله وهـدى الله ﴿قُلْنَا اهْبِطُوا مِنْهَا جَمِيعًا فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُمْ مِنِّي هُدًى فَمَـنْ تَبِعَ هُدَايَ فَلاَ خَوْفٌ عَلَيْهِـمْ وَلاَ هُمْ يَحْزَنُونَ﴾(البقرة:٣٨) فأن يعبد غـير الله -كيفما كان هذا الغير- هو وضع للشـيء في غـير موضعه ومخالف للتكريم، لأن أمـره بعبادة الله ﷻ هو مـن تكريم الله ﷻ له، أن يتجـه إلى الأعلى إلى الله ﷻ، وحين ينصـب مخلوق مـا في مقام المعبود كذلك يضع نفسـه في غير الموضع الذي وضع فيه، وذلك أيضا خلاف التكريم لهذا الإنسان.

فإذاً هاته النقطة التي هي عبادة الله ﷻ وحده لا شريك له، وتعبيد الناس لله وحده لا شـريك له هي أكبر مظهر لتكريم بني آدم، وعكسها هو أكبر إهانة وتدنيس لهذا الإنسان، لأن في التكريم تزكية وتطهرا ﴿وَإِذَا مَرُّوا بِاللَّغْوِ مَرُّوا كِرَامًا﴾(الفرقان:٧٢) أي لم يتدنسـوا بذلك اللغو وكانوا متطهرين. فكلُّ وضـعٍ فيه غيرُ وضـع العبادة هـو وضع فيه إهانة للإنسـان، وهو مخالف لتكريم هذا الإنسـان كيف ما كان هـذا الوضع، ولذلك عبر الله ﷻ بقوله: ﴿إِنَّ الشِّـرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ﴾(لقمان:١٣). والظلم في العربية هو وضع الشـيء في غير موضعه. فلا يوجد خلل بدرجة هذا الخلل، فما خُلق الإنسانُ له أساسا يقع فيه الخلل، ويُعكس تماما.

> **هذا القرآن وكل الهدى النازل من عند الله ﷻ، هو من جنس ما نفخ في آدم؛ وبهذا النازل يقع الالتحام مع هذا القسم في الإنسان، فيكرم الإنسان ويشرف ويسمو. إذ هذا النفخ من روح الله فيه هو من مظاهر تكريم آدم عليه السلام.**

إقامة القسط بين الناس

الأمر الثاني: يَتْبَعُ هذا وينتج عنه وله كذلك جاءت الرسـالات كلها، وله نزل هذا الهدى من عند الله ﷻ، هو إقامة القسط بين الناس: ﴿لَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا بِالْبَيِّنَاتِ وَأَنْزَلْنَا مَعَهُمُ الْكِتَابَ وَالْمِيزَانَ لِيَقُومَ النَّاسُ بِالْقِسْطِ﴾(الحديد:٢٥). فكل ما حدث قبلُ هو من أجل هذا الأمر، هذا القسط الذي تشير إليه هذه الآية هو الذي يحفظ لكل ذي حق حقه، أي هو الذي يجعل الإنسـان في نفسه يعامل نفسه بكرم ويحافظ على تكريم نفسه كأصل خلقتها الأولى وهو الذي يجعله حين يتجه بسلوكه نحو الآخر، كذلك يعامله بكرم.

ومـن هاهنا كانت كل النواهي تعني أن المنهي عنه فيه إهانة

للإنسان، وإضرار بالإنسان، وفيه خلاف تكريم هذا الإنسان.. وكل الأوامر عكس ذلك؛ فيها تكريم لهذا الإنسان، وفيها فعل ما يجعله كريما وما يناسب كرمه، لأنها تجر إليه المنفعة، وتدرأ عنه المفسدة. فإذاً كل الصفات الخبيثة وكل الأفعال القبيحة هي في هذا الميزان إهانة للإنسان وليست إكراما له، فهي مناقضة لتكريم الإنسان.

وعلى ضوء هذا نستطيع القول بأن الإنسان اليوم في وضع لا يحسد عليه؛ الإنسان في العالم الإسلامي وفي غير العالم الإسلامي لا يحظى بهذا التكريم لسبب بسيط واضح أنه لا يسير وفق هذا المنهج الذي هو وحده يضمن تكريم هذا الإنسان ويضمن معاملته بكرم، وهو وحده الذي يقوم الناس فيه بالقسط، لأن من الذي يعرف القسط أولا؟ هل يستطيع الإنسان أن ينصبّ نفسه في موقع المشرّع لهذا الإنسان؟ هل يستطيع الإنسان أن ينصبّ نفسه في موقع يخطط فيه لهذا الإنسان بمعزل عن هدي الله لهذا الإنسان؟ كلا ثم كلا؛ هل يستطيع هذا الإنسان بمحض عقله فقط، وبمحض إمكاناته الشخصية التي ليس لها مدد من الله ﷻ الماثل في الرسالات وهي هنا في زماننا القرآن الكريم؟

هل يستطيع الإنسان اليوم بغير القرآن أن يهتدي إلى طريقة على جميع المستويات: في المستوى الاقتصادي والسياسي والتعليمي والإعلامي والحقوقي والمادي والروحي...؟ هل يستطيع الإنسان بمحض إنتاجه الشخصي معزولا عن الله مستقلا عن هدى الله مبتعدا عن منهج الله؟ هل يستطيع فعلا أن يرسم لبني آدم طريقة بها يعيشون مكرمين كما خلقهم الله ﷻ؟ كلا ثم كلا؛ إنه لا تكريم لهذا الإنسان في ديارنا هاته وفي غير ديارنا، وفي دار الأرض كلها التي وُعد بوراثتها الصالحون ﴿وَلَقَدْ كَتَبْنَا فِي الزَّبُورِ مِنْ بَعْدِ الذِّكْرِ أَنَّ الأَرْضَ يَرِثُهَا عِبَادِيَ الصَّالِحُونَ﴾(الأنبياء:١٠٥)، وعباد الله الصالحون يشرحهم الآية بوضوح، قوله تعالى ﴿وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَنُدْخِلَنَّهُمْ فِي الصَّالِحِينَ﴾(العنكبوت:٩)، والإيمان عنوان على كل ما يدخل إلى عقل ابن آدم من المعلومات التي مأتاها الوحي أساسا، و"عمل الصالحات" هو عنوان على كل ما يلزم لخلافة الله ﷻ في الأرض وفق شرع الله، وفق هدى الله، حسب ميزان الله، فلا صلاح لعمل إلا من بعد أن يأذن الله في هذا العمل ويرضى عنه. ■

أشعل شمعتك..!

شمعتَكَ فأشعل،
والليلَ فاهزم،
والظلمةَ فاخترق...
إذا انطفأ كُلُّ ضوء، وغار كل نور،
فَصُنْ أنت شمعتك،
وخُض بها مُخلَوْلِكات الليالي،
واجعلها منارًا للغارقين في اللُّجات المعتِمات،
واجعل قلبَك بالأمل يخفق،
ونبضَك بالحياة ينبض..!

* * *



(*) الأمين العام لمؤسسة البحوث والدراسات العلمية (مبدع) / المغرب.

ملاحظة: لقد تم تحرير هذا المقال من إحدى محاضرات الدكتور البوشيخي والتي ألقاها في ١٢ مايو ١٩٩١ بمكناس-المغرب.



أسماك ترصد الزلازل

جمال الحوشي

في مساء السادس من أيار لعام ١٩٧٦م وفي مدينة "فريولي" الإيطالية ارتفعت أصوات الحيوانات فجأة ودونما سبب ظاهر؛ الكلاب تنبح وتجري هنا وهناك، القطط مذعورة، الفئران تملأ الأزقة، الجياد والأبقار هائجة وعصبية، ويحاول أكثرها أن يسحب أربطته، الطيور تسعى ضاربة بأجنحتها ومطلقة صرخات تبدي منها الفزع، وكأن شيئا ما يستثير هذه الحيوانات ويدفعها لهذا التصرف العجيب.

لم يصدق سكان المنطقة ما رأوه بأعينهم، وصار ذلك محور حديثهم تلك الليلة، وتمضي الساعات بطيئة، وما إن حلّت الساعة التاسعة من تلك الليلة حتى شعر السكان بالأرض تميد من تحت أقدامهم، وما هي إلا ثوان معدودات حتى ضرب زلزال عظيم المنطقة مخلّفا وراءه ما يزيد على ألف قتيل من السكان!

وحادثة أخرى مماثلة في "سان فرناندو" حيث اطّلع المحللون على تقرير سبق الكارثة هناك وفيه: "جيوش من الجرذان تملأ شوراع بلدة "سان فرناندو" -بالقرب من لوس أنجلوس الأمريكية- مع أن الناس كانوا يفترضون أنّ بلدتهم تخلو تماما من الجرذان. وفي اليوم التالي تصيب هزة عنيفة وادي "سان فرناندو" وتؤدي إلى كارثة بيئية.

وفي زلزال تسونامي الأخير في الجزر الأندنوسية وما جاورها لاحظ السكان حركة مريبة للحيوانات قبل حصول المد بقليل ونزوحا جماعيا باتجاه الأعالي.

نظرة علمية نحو هذه الظاهرة

لقد أثارت هذه الحوادث وأمثالها اهتمام ودراسة عدد من العلماء، خاصة وأنهما تتكرر بين فترة وأخرى، لقد أصبح الأمر جليا واضحا في حتمية وجود غرائزَ خفية للحيوانات تزوّدها

بنوع استشعار لا يدركه البشر بحواسهم المحدودة وأجهزتهم المعقدة الحديثة.

من أولئك العلماء الذي اهتموا بهذه الظاهرة في السبعينيات "هلموت تريبوش" الأستاذ بجامعة برلين الذي قام باستثارة الاهتمام بهذا الموضوع قديمًا -في عام ١٩٧٦م- وأخذ يجمع ما تناثر هنا وهناك من أحداث مماثلة وقعت عبر التاريخ، وما سبق بعض الكوارث الزلزالية -أمثال زلزال "هيليس" اليونانية، وزلزال "لشبونة" المدمّر- من ردود فعل "غريزية" للحيوانات تشبه إلى حد كبير ما حدث قبيل كوارث معاصرة ومماثلة كزلزال مصر الأخير ١٩٩٢م، عندما اضطربت الحيوانات في حديقة الحيوان بالجيزة قبل عشرين دقيقة من الزلزال المدمّر، وما شابه تلك الحالات في "سان فرانسيسكو" وغيرها.

بعد ذلك بقليل -وبالتحديد في عام ١٩٧٧م- عقد في الولايات المتحدة الأمريكية مؤتمر علمي اشترك فيه عدد من العلماء من مختلف التخصصات وأهمها علوم الأرض والحياة، لدراسة إمكانية استخدام الحشرات والحيوانات في التنبؤ عن قرب وقوع الزلازل. وقد تمّ رصد الحالات التي سجّلت أثناء المتابعة فلم يحدث أن سجلت حالة واحدة لم يصدق فيها إنذار تلك الحيوانات عبر تصرفها الملحوظ قبل الكارثة، وبالفعل أقيمت أول مستعمرة من نوعها في التاريخ تضم العديد من الحيوانات والحشرات. والهدف الذي أنشئت من أجله هو دراسة تصرف هذه الحيوانات وردود أفعالها كإشارات لكوارث قريبة قادمة.

لقد بات اليابانيون يدركون -بعد تعرّض اليابان للعديد من الهزات الأرضية- أنّ تصرف "سمك الزينة" يفوق في هذا المجال أكثر آلات الرصد دقة؛ فقبل وقوع الزلزال بساعات يصاب هذا النوع من الأسماك بحالات غريبة من اضطراب في السلوك وذعر، ثم تأخذ بالدوران والاندفاع داخل أحواضها اندفاعا جنونيا.

وكلما قرأتُ عن هذه الحقائق العلمية الواضحة وغيرها أظل أتفكر مليا فيما سطرتْه كتب سلفنا الصالح حول هذا الأمر أو رووه من أحاديث ومشاهدات؛ ومن ذلك ما روي عن عائشة رضي الله عنها حين قالت: "دخلَتْ عليّ عجوزان من عُجُز يهود المدينة، فقالتا لي: إن أهل القبور يعذبون في قبورهم. فكذّبتهما ولم أنعم أن أصدقهما، خرجتا، ودخل عليّ النبيّ ﷺ فقلت: يا رسول الله، إن عجوزين....، وذكرت له الخبر، فقال: "صدقتا، إنهم يعذّبون عذابا تسمعه البهائم كلها"، فما رأيته بعدُ في صلاة إلا يتعوذ من عذاب القبر (رواه البخاري).

وكم قرأنا عن حوادث عجيبة تحكي جفول بعض الحيوانات عندما تجاوز بعض القبور التي يعذب أصحابها، تماما كما كان يشاهد من تصرفاتها قبل وقوع مثل هذه الكوارث البيئية.

الملائكة دنت لصوت أسيد ﷺ

وفي السياق ذاته تطالعنا حادثة نادرة من أعجب ما كتب في هذا الباب، وتحكي قصة اضطراب فرس عربي أصيل كان يملكه الصحابي الجليل أسيد بن الحضير ﷺ حدث ذلك ذات ليلة صافية من ليالي المدينة النبوية -حرسها الله-. لقد كان أسيد ﷺ في تلك الليلة يقرأ القرآن خارج بيته -كعادته- بصوت ندي خاشع، وكان بقربه ابنه الصغير يحيى نائما، لكن العجيب في تلك الليلة بالذات أنه لاحظ تصرفا عجيبًا للفرس، إذ كلما قرأ القرآن جالت فرسه وتحركت واضطربت، فإذا سكت سكنت، ثم إذا أعاد القراءة اضطربت أشد من الأولى، وهكذا، حتى تكرر ذلك منه ومن الفرس ثلاث مرات. يقول ﷺ: فانصرفت عن القراءة مشفقا على ابني يحيى أن تصيبه الفرس، فلما قرّبته مني رفعت رأسي إلى السماء فإذا أنا بمثل الظُّلّة البيضاء فيها أمثال المصابيح عرجت إلى السماء حتى توارت عني. لقد اكتشف أن اقتراب تلك الظُّلة البيضاء بلا شك كان السبب في اضطراب الفرس وتحرُّكها، فلما أخبر رسول الله ﷺ عما حدث له البارحة قال له ﷺ: "أو تدري ما ذاك؟" قال: لا، قال: "تلك الملائكة دنت لصوتك" الحديث (رواه البخاري).

بل لقد صرّح ﷺ في حديث آخر أن لدى بعض الحيوانات مقدرة خارقة على رؤية ما لا يستطيع البشر رؤيته بحواسهم حيث قال ﷺ: "إذا سمعتم أصوات الديكة فسلوا الله من فضله فإنها رأت مَلَكًا، وإذا سمعتم نهيق الحمير فتعوّذوا بالله من الشيطان، فإنها رأت شيطانًا" (رواه مسلم). إن هذه التصرفات بلا شك تنم عن وجود غرائز كامنة مركّبة في هذه الحيوانات، وهي التي تدفعها إلى استشعار ما قد يعجز البشر عن إدراكه بحواسهم الضعيفة، ولقد تباينت آراء العلماء المتخصصين عند دراسة أمثال هذه السلوكيات والغرائز التي تنم عن قدرات "خارقة".

سر عظيم من أسرار الوجود

فهناك رأي مفاده أن هذا السلوك يعود إلى التقلبات في الحقول المغناطيسية، ووجود استجابة قوية عند بعض الحيوانات في هذا المجال. ولكن ثبت بالمشاهدة والمتابعة المستمرة عدم استقرار هذا العامل كمعيار ثابت يمكن أن تفسر به سلوكيات بعض

الحيوانــات في ظروف مماثلة، كما حدث مثــلا داخل عربات قطار في محطة للشــحن بإيطاليا؛ كانت هذه العربات مصنوعة من صفائح فولاذية رقيقة يوجد بداخلها حيوانات محتجزة، ومع ذلك لم يؤثر ذلــك على مقدرتها بالرغم من كون المكان محكما ومعزولا ضد التقلبات المغناطيسية والموجات الكهربائية.

ويُرجِعُ البعض الآخر هذه الغريزة إلى قوة خارقة في حاســة السمع لدى هذه الحيوانات والحشرات، بحيث تسمع التحركات التي تسـبق الزلــزال في باطن الأرض، ويرجّــح البعض نظرية الحساسية المفرطة لدى هذه الحيوانات لمعرفة التغيير الذي يحدث على الصخور قبل الزلزال. بينما يفضل البعض ببساطة أن ينسب هذه التصرفات الذكية الخارقة إلى "الغريزة العمياء"! وكثيرًا ما يعلّق -بعد سرد شواهد حية في الموضوع- بقوله: "لاشك بأن هذه الغرائز عمياء، وهي قوى توجّه سلوك هذه الحيوانات"! وهذا يتطلب من القارئ البصير وقفة متأملة ناقدة لدحض مثل هذا التفســير الــذي يفضل صاحبــه الهروب مــن الحقائق الثابتة بمثل هذا الكلام بدلا من التأمل فيها، وإدراكِ سر عظيم من أســرار الوجود حوله تزيده إيمانا وثباتــا. والدليل على ذلك أن هذه السلوكيات الغريزية وأمثالها غير قاصرة عند حد استشــعار الزلازل ونحوها من الكوارث البيئية فحســب، بل تتجاوزها إلى ســلوكيات أخرى فذة وغريبة لا تتصل البتة بالظروف البيئية أحيانا!

إن جميع ما في الكون يشهد على وجود الله ﷻ ويدلّ على قدرته وعظمته، وعندما نقوم نحن العلماء بتحليل ظواهر هذا الكون ودراستها، حتى باستخدام الطريقة "الاستدلالية"، فإننا لا نفعل أكثر من ملاحظة آثار أيادي الله وعظمته..

لا عشوائية في الكون

أما دعوى "العشــوائية" و"العمى" الذي لا هدف من ورائه، ولا محرك له في وصف هذه الغرائز، فإنها دعوى يردها النظر البسيط في روعة مثل تلك التصرفات السلوكية التي تقوم بها تلك الكائنات. ولو تأمل فقط في طريقة بناء الطائر الصغير لعشــه الرائع لتساءل طويلا عن القوة المحركة لهذه الغريزة الواعية! فمن الذي علّم هذا الطير ذلك الفن الرفيع؟ ولماذا تتشــابه جميع الأعشاش التي تبنيها الطيور من هذا النوع؟ إذا قلت: إنها الغريزة -المجردة- فإن ذلك قد يُعَدّ مخرجا من الســؤال، غير أنها في الواقع تعد إجابة مريحة، ولكــن قاصرة. فما هي هذه الغرائز؟ ومن محركها الحقيقي؟ وما هي ماهيتها، ومعالمها؟ أفليس من المنطق ومن الإنصاف أن نرى آثار قدرة الله تعالى تتجلّى في سلوكيات هذه الكائنات التي خلقها فسوّاها وفقا لقوانين وسنن خاصة لا نكاد ندرك من كنهها شيئًا؟

إنه الله القدير الذي تظهر آثار قدرته، ومعالم حكمته، ومظاهر رحمته من حولنا، إنه الله الذي خلق الكون وحفظه، وسخره لهذا المخلوق البشــري الذي كرمه من بين سائر المخلوقات، أفليس هذا الجواب المريح إذن أَوْلَى وأحرى بهذا الإنســان الجاحد؟ إن ذلك هو ما توصل إليه كثير من العلماء المتخصصين في سلوكيات الكائنــات الحية، ممن آمنوا بالله العظيم ســبحانه من خلال هذا النظر المجرد الذي يوقد شــعلة الإيمان ويحرك كوامن الفطرة في نفوســهم. إذا كان هذا الإيمان العميق بالله سبحانه يتولد في أعماق هؤلاء العلماء الماديين من جرّاء تتبع السلوك العجيب لهــذا الطائر الصغــير، بل من خلال دراسة سلوك واحد متواضع من سلوكياته ألا وهو طريقته في بناء عشه التي لا تكاد تختلف من طائر إلى آخر من النوع ذاته، بل قــد يؤخذ هذا الطائر صغيرا من عشه، لا يدرك شيئا مما يحيط به، ثم عندما يعزل تماما عن كل المؤثرات البيئية المحيطة ويكبر يصنع لنفســه عشا على نمط نوعه تمامًا! فــأي قدرة عليمة تكمن خلف تلــك الغرائز الواعية؟! إذا كان هــذا الإيمان العميق بالله الخالق العليم سبحانه يشرق في قلوبنا من خلال التأمل في هذا السلوك العجيب من هذا الطائر الصغير، فدعونا إذن نقوم بجولة إيمانية أكثر إثارة، نتأمل فيها آثار قدرة ربنا سبحانه عبر النظر في ســلوكيات الكائنات الحية من حولنا، عســى أن نتأدب معه ونحن نفسر هذه الغرائز الحيوانية الواعية مرة أخرى.

العنكبوت وأعمالها الهندسية

لقد زوّد الخالق الحكيم ســبحانه هذه الكائنات بمثل تلك الغرائز بطريقة تبعث على الدهشــة والإعجاب معا، حتى إنك لتنظر في تصرّف العنكبوت مثلا وهو يقيم عملا هندســيا يحار العقل في فهم خطواته، ثم تتعجب بعــد ذلك من متانته وصموده بالرغم من رقته وخفته! إن هذه الحشرة الصغيرة تنسج خيوطها بصورة تختلف كل مرة مع الوضع الذي تجد نفسها فيه، وبيوتها مصنوعة



بدقة متناهية تأخذ بالألباب، ذلك أنها تتقيد بالمسافات البينية، وتراعي انفراج الزوايا في شكل هندسي رائع عبر نسيج من الحرير يبلغ قطره ثلاثة أعشار الميكرون (جزء من ألف من الملليمتر)، وهو أدق وأرق وأخف وأمتن من حرير دودة القز، ويخرج من مغازل العنكبوت التي فيها عدد كبير من الأنابيب الغازلة قد يصل في بعض العناكب إلى ألف أنبوب؟! ونظرًا لأنه أدق خيط عرف في تاريخ البشرية فإنه يُعَدّ حاليا للاستخدام في صنع الأجهزة البصرية وخياطة جراحاتها.

الطيور المهاجرة

وتضرب لنا أسراب الطيور المهاجرة مثالا فريدا آخر لا يقل بهجة وروعة عن ذكاء تلك الغرائز التي ركبها الله تعالى في هذه الطيور؛ ذلك أنها تبدأ في هجرتها الجماعية عندما تستشعر اقتراب موسم البرد -وبخاصة طائر السنونو- فتبدأ هذه الطيور رحلتها الطويلة من البلاد الباردة إلى البلاد الحارة على هيئة أسراب جماعية تحلّق معا في السماء، وقد تقطع في غالب الأحيان نحو ألف ميل فوق عرض البحار، ولكنها مع ذلك لا تضلّ طريقها أبدا مهما كانت قسوة الظروف الجوية، بل إن طائر السنونو يحركه شعور خفي بضرورة هذه الهجرة، ويلازمه ذلك الشعور حتى عندما يُحبَس في مكان دافئ في موسم هجرته المعتاد، وكأن هناك دافعا من الداخل يشعره باقتراب موسم البرد.

هجرة ثعابين الماء

وهناك لغز أعجب من هذا حيّر العلماء طويلا هو ما يتكرر سنويّا مع ثعابين الماء التي تسلك طريق هجرتها الطويل عند اكتمال نموها واقتراب موسم التزاوج؛ فتراها في وقت محدد من العام تتجمّع من مختلف البرك والأنهار لتهاجر معًا قاطعة آلاف الأميال في المحيط قاصدة إلى الأعماق السحيقة، وهناك تبيض ثم تموت!! ولا يزال هذا اللغز يدور في أذهان المهتمين بهذه الظاهرة، إذ ما هو المحرّك لها في سلوك هذا التصرف الغريب الذي يدفعها جميعًا في وقت واحد لتموت في مكان ناء عن موطنها الأصلي، بعد أن تضع بيضها؟! ولم يعثر على جواب يفسّر هذه الظاهرة حتى الآن.

وتتجلى الحكمة والقدرة العظيمة -لكن بوضوح أكثر وبصورة مدهشة لا يدرك كنهها العقل البشري القاصر في سلوك الصغار فيما بعد؛ ذلك أن هذه الصغار -بعد أن تخرج من البيض- لا تملك أي وسيلة لتعرف بها أي شيء من حولها سوى أن تعود أدراجها، وتسلك الطريق نفسه الذي جاءت منه أمهاتها، فتقاوم في سبيل ذلك التيارات القوية والأمواج العاتية المتلاطمة وتقطع كل هذه المسافات الطويلة التي تعجز عن تحملها أجسامها الصغيرة، ثم تتوزع إلى كل نهر أو بحيرة أو بركة صغيرة في موطنها الأصلي، ولهذا يظل كل جزء من الماء آهلاً بثعابين البحار! فمن أودع فيها تلك الرغبة والعزيمة، ومن هداها لسلوك هذا الطريق الطويل حتى تعود إلى بيئتها الأصلية؟ إن الغرائز "العمياء" بذاتها تعجز عن هذا السلوك الباهر بلا ريب.

التوقيت الزمني العجيب

ولك أن تتفكر في خصيصة أخرى تتميز بها تلك السلوكيات الغريزية لدى هذه الكائنات؛ ألا وهو "التوقيت الزمني" العجيب الذي يحكم سلوكياتها الرائعة، إنه أمر باهر حقا يدعو للنظر والتأمل؛ فلو نظرت إلى الطيور المهاجرة بأسرابها الكثيرة لأدركت أن لها وقتا محددا من العام للطيران إلى وجهتها المحددة مسبقا إلى الشمال أو إلى الجنوب، وكل فرد منها عندما تحين ساعة الهجرة ينضمّ إلى سربه، ثم تهاجر جميعا في يوم واحد يكاد أن يكون معينا كل سنة!

بل إن دقة هذا التوقيت وروعته تبدو جليا في حياة الجراد؛ وهو أمر أعجب يحار منه العقل في إدراك تلك الدقة المتناهية التي تبدو لأول وهلة وكأنها ضرب من الخيال إذ لا يكاد موعد خروج الصغار من البيض -بعد سنوات طويلة من الظلمة في جوف الأرض- يتقدم أو يتأخر!.

وقد قرأت أنه وجد في ولاية إنجلاند الأمريكية -وبعد دراسة لموسم التكاثر عند الجراد- أن الجراد البالغ من العمر سبع عشرة سنة يغادر شقوقه تحت الأرض -حيث عاش في ظلام دامس مع تغير طفيف في درجة الحرارة- ويظهر فجأة بالملايين في شهر مايو من سنته السابعة عشرة، وقد يتخلف بعض المتعثر عن رفاقه



-بطبيعة الحال- ولكن الكثرة الساحقة تنضج بعد سنوات الظلام تلك، وتضبط موعد ظهورها باليوم تقريبا دون سابقة ترشدها!

صرّار الليل ودرجة الحرارة

وليس هذا هو كل ما يتعلق بذلك التوقيت الدقيق الذي يُسَيِّر تلك الغرائز، بل إن هناك سلوكيات متكررة قد لا تدرك بمجرد النظر العابر؛ بينما تكمن من ورائها معادلات ثابتة لا تتغير باستمرار، ولعل أروع مثال لذلك السلوك الغريزي يتمثل في تصرف نوع من صرّار الليل الذي يصر عدة مرات في الدقيقة الواحدة تختلف دائمًا باختلاف درجة الحرارة المحيطة! ولما أُحصيَت مرّات صريرها وجد أن هناك سرا مذهلا يكمن وراء ذلك الاختلاف في مرّات الصرير، ذلك أنها تسجل درجة الحرارة بالضبط مع فارق درجتين فقط! ومع تكرار المتابعة والرصد كانت النتيجة التي تم التوصل إليها ثابتة دائما على مدار ثمانية عشر يومًا! إنها قدرة الله تعالى تظهر لكل من تأمل وتفكر في الكون من حوله.

الاتصال اللاسلكي بين الحيوانات والحشرات

وإذا جاوزنا هذا السر العظيم من أسرار التوقيت الزمني لدى تلك الكائنات وتأملنا في طرائق الاتصال والالتقاء بين كثير من الحيوانات والحشرات لوجدنا نظامًا دقيقا آخر يحكم تلك السلوكيات الغريزية التي لا تختلف بحال من الأحوال، ويعجز البشر عن مشاهدتها فضلاً عن وصفها وتحليلها.

إن أظهر لغة للتفاهم بين بني البشر -كما نعلم- هي لغة الكلام التي لابد من تعلّمها منذ الصغر ليسهل التفاهم ويحصل الاتصال الاجتماعي فيما بعد، ولكن هذه اللغة تختفي تماما عند غير بني البشر من الحيوانات و الحشرات المختلفة ليحلّ محلها قدرات أخرى "خارقة" تساعد تلك الكائنات على التفاهم والتخاطب. وتختلف لغة التفاهم هذه باختلاف النوع والصنف والطائفة في الأجناس الواحدة، فالنمل العادي مثلا يقوم أفراده بنقل انفعالاتهم إلى رفاقهم بواسطة تلامس قرون الاستشعار! بينما في عالم النحل نجد لغة أخرى لكنها أعقد وأدق في التفاهم بين الأفراد داخل الخلية وخارجها، فإذا اكتشفت النحلة أزهارًا متميّزة برائحتها وألوانها فإن لها طريقة أخرى للتخاطب ونقل الانفعالات غير النمل العادي، فهي ترشد بقية أفراد مملكتها عن طريق رقصات معينة تصدرها هذه النحلة يدرك مغزاها ومدلولاتها باقي النحل في الخلية لأنها مزوّدة بمقدرة هائلة على فك الشفرات الحركية وإدراك معانيها وأرقامها ووجهتها وما يتعلق بها، والتي يحتاج الإنسان إلى أن يفصح عنها بلغة الكلام في أسلوب هندسي أحيانًا كأن يقول لرفيقه -مثلا-: "طِر في خط مستقيم، بانحراف عشرين درجة على يسار الشمس، وبعد مائتي متر ستجد مساحة من أزهار البرتقال".

ومعلوم أن النحلة مهما ابتعدت عن خليتها فإن بإمكانها أن تعثر عليها مهما اشتدت الريح في هبوبها؛ ذلك أن النحل لا يرى الأشياء كما نراها نحن فهو لا تجذبه الأزهار الزاهية التي نراها، ولكنه يراها بالضوء فوق البنفسجي الذي يجعلها أكثر جمالاً في نظره، ولهذا فقد يعيش النحل في مناطق يكسوها السحاب معظم شهور السنة ولا يؤثر ذلك في عمله إطلاقا.

الاتصال بين أفراد البعوض والفراش

أما أسلوب الاتصال بين أفراد البعوض فيختلف نوعا ما، لقد أكّد العلماء الدارسون لحياة البعوض أن قرون الاستشعار المثبّتة على رأس كل بعوضة والمزوّدة بعدد هائل من الشعيرات الدقيقة الممتدة من رأس الذكر يمكنها التقاط الذبذبات الصوتية التي تحدثها الأنثى من مسافات بعيدة، لتفوق في ذلك أدق الأجهزة

اللاسلكية التي اخترعها الإنسان على مدار تجاربه البشرية، والعجيب أن هذه الشعيرات لا تلتقط سوى إشارات أنثى البعوض فقط على الرغم من وجود أصوات عديدة أخرى في الجو تختلط فيها أصوات البشر بأصوات الطيور ومكبرات الصوت وغيرها! علما بأن الخالق -جل وعلا- قد زوّد قرنَي الاستشعار اللذَين تمتلكهما البعوضة بمَقدرة هائلة، ويكفي أن نعلم أن ذلك الطنين الذي نسمعه وتصدره البعوضة يحدث نتيجة ما يقارب ثلاثمائة ذبذبة في الثانية عن طريق اهتزاز قرني الاستشعار!

أما الفراشة فمهما حملتها الريح فإنها لا تلبث أن ترسل إشارة خفية يستجيب لها باقي الأفراد على مسافة بعيدة، وتصل الرسالة مهما أحدثت من روائح في سبيل تضليلها.

الإحساس والرؤية في الظلام

وكما تختلف طريقة التفاهم والتخاطب عند هذه الكائنات تختلف مواقع السمع والإحساس فيها كذلك، تبعا لأنواعها وطوائفها، فقد توجد في أماكن غريبة من الجسم كأن تكون في رِجْل الحشرة أو في منطقة البطن منها، وهكذا فالجندبة الأمريكية تحكّ ساقيها أو جناحيها معا فيسمع صريرها الحاد في الليلة الساكنة على مسافة نصف ميل، وذلك عن طريق هزّها لكمية هائلة من الهواء من أجل إخراج ذلك الصوت القوي!

من جهة أخرى تستخدم بعض الحشرات التي تنشط ليلا وسائل أخرى عن طريق إشارات ضوئية ذات تردد معين -كما هو الحال في بعض الحشرات المضيئة- وهذه الإشارات ذات دلالة يفهمها أفراد النوع نفسه.

إن الإنسان ليصاب بالعجز تماما عن الإبصار إذا ما حلّ الظلام الدامس، ولكنه لو كان على ظهر حصانه العجوز فإنه بإمكانه أن يصل إلى منزله بسلام مهما اشتدت ظلمة الليل؛ لأن ذلك الحصان يتمكن من الرؤية في ذلك الليل البهيم عن طريق ملاحظة اختلاف درجة الحرارة في الطريق وعلى جانبيه بعينين تأثرتا قليلا بالأشعة الحمراء في الطريق، وكذلك البومة التي تستطيع أن تبصر الفأر الدافئ وهو يجري على الشعب البارد مهما تكن ظلمة الليل.

أما الخفاش فهو جندي الظلام الذي ينشط في الليل وينام في النهار ولا يسكن إلا الكهوف والأقبية المظلمة؛ إذ إنه ضعيف البصر وسريع الطيران، ومع ذلك لا يصطدم بأي عائق أمامه، سواء أكان جدارا أو عمودا أو غيره. ونتيجة للتجارب والملاحظات فقد وجد أن هذا الحيوان يُصدر أصواتا على شكل نبضات ذات ذبذبات عالية تقارب مائة ألف ذبذبة في الثانية، وهذه الأصوات فوق مستوى سمع الإنسان. وهذه النبضات الصوتية -التي يرسلها الوطواط (الخفاش)- إذا اصطدمت بشيء عاد رجعها إلى سمعه فأدرك أن أمامه ما يصطدم به مع الشعور بمقدار سطحه، فينعطف عنه بسرعة ولا يصطدم به.

لا شك بعد كل هذا أن مثل تلك السلوكيات الفذة ليست عمياء تحركها العشوائية والعبث؛ لأن من أخص خصائصها الدقة والتوقيت والانضباط، على الرغم من تتابعها في الصنف ذاته، وفي النوع من الجنس المشترك على مدار الحياة.

إن قدرة الله العليم الحكيم تتجلّى بوضوح من خلال النظر في هذه السلوكيات "الغريزية" ولا تزال -حتى الآن- تقدّم لها الفرضيات العلمية المبنية على المشاهدة والتجربة في سبيل العثور على تفسير علمي دقيق يحكم هذه الغرائز التي أودعها الخالق -جلت قدرته- في هذه الكائنات وتتوارثها جيلا بعد جيل!

وهذا ما يدعونا حقاً إلى التأمل في آثار قدرة الله العظيم من حولنا، عبر النظر في مخلوقاته وآياته المسطورة في صفحات هذا الكون الفسيح، وعندها ندرك الحكمة من أمر الله تعالى لعباده بمتابعة النظر، والتفكر في مخلوقاته وآياته، وأخذ العبرة من ذلك، قال ﷻ: ﴿إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ وَاخْتِلاَفِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ لآيَاتٍ لأُولِي الأَلْبَابِ ۞ الَّذِينَ يَذْكُرُونَ اللهَ قِيَامًا وَقُعُودًا وَعَلَى جُنُوبِهِمْ وَيَتَفَكَّرُونَ فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ هَذَا بَاطِلاً سُبْحَانَكَ فَقِنَا عَذَابَ النَّارِ﴾(آل عمران:١٩٠-١٩١).

ولهذا تجد كثيرا من العلماء الماديين المتخصصين في دراسة علوم الحياة والطبيعة يصرّحون بإيمانهم العميق بالله العظيم بعد أن يروا آثار رحمته وعلمه وقدرته ماثلة أمامهم.

يقول "ميريت ستانلي كونجدن" -وهو عالم طبيعة حاصل على الدكتوراه من جامعة بورتون-: "إن جميع ما في الكون يشهد على وجود الله ﷻ ويدلّ على قدرته وعظمته، وعندما نقوم نحن العلماء بتحليل ظواهر هذا الكون ودراستها، حتى باستخدام الطريقة "الاستدلالية"، فإننا لا نفعل أكثر من ملاحظة آثار أيادي الله وعظمته، ذلك هو الله الذي لا نستطيع أن نصل إليه بالوسائل العلمية المادية وحدها، وليست العلوم إلا دراسة خلق الله وآثار قدرته". وصدق الله القائل: ﴿سَنُرِيهِمْ آيَاتِنَا فِي الآفَاقِ وَفِي أَنْفُسِهِمْ حَتَّى يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ الْحَقُّ أَوَلَمْ يَكْفِ بِرَبِّكَ أَنَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ﴾(فصلت:٥٣). ■

(*) مدير تحرير مجلة "مكة" / المملكة العربية السعودية.

محاور البعد الأخروي في فكر النورسي



أ.د. عبد المجيد النجار*

لا يخفى أن الناس المخاطَبين يختلفون في اســتعداداتهم للقَبول، لاختلاف طبائعهم أو ثقافاتهم أو أزمانهـــم، فيكون لكلّ مدخل يدخل منه اليقين، وتلك هي الداعية التي دعت النورســي إلى التنويع في مســالك الاستدلال على عقيدة البعث، ومن أهم تلك المسالك نورد ما يلي:

١- مسلك الأنفس

استجابة للدعوة القرآنية التي توجه إلى أن تكون النفس الإنسانية منطلقا للاستدلال على حقائق العقيدة، فإن النورســي كان دائم الرجوع إلى هــذه النفس للتأمل فيها، والتعمق في أغوارها، ليتخذ من مشــاهدها مقدمات اســتدلالية على حقيقة البعث، مستضيئا في ذلك بالبيانات القرآنية في حقيقة النفس الإنسانية حينا، ومســتعينا حينا آخر بالمكتشفات العلمية المسجلة في علم النفس، ومستكشفا حينا ثالثا أحوال النفس بتجربة اســتبطان ذاتي، وهو في كل ذلك يسلك مســلكا واحدا يبتغي فيه إثبات عقيدة البعث، وهو مسلك الأنفس كما جاء في التعبير القرآني. ومما بناه من الأدلة في سلوكه هذا المسلك ما يلي:

أ-دليل الاستعدادات الإنسانية

إن المتأمل في البنية النفســية للإنســان يجد أنه وإن كان هذا الكائن محدودا في طاقاته وقدراته الجســمية،

إلا أنه في طاقاته واستعداداته النفسية غير محدود، فهو يحمل من الآمال والتصورات ومن الميول والرغبات ومن القدرات والاستعدادات أقدارا غير متناهية، وفي ذلك يقول النورسي: "يرى العلماء المحققون أن أفكار البشر وتصوراته الإنسانية التي لا تتناهى، المتولدة من آماله غير المتناهية، الحاصلة من ميوله التي لا تحد، الناشئة من قابلياته غير المحدودة، المدرجة في جوهر روحه كل منها تمد أصابعها فتشير وتحدق ببصرها فتتوجه إلى عالم السعادة الأبدية وراء عالم الشهادة هذا". وما ذلك إلا لأن هذه الحياة الدنيا القصيرة المدى غير كافية لأن تتحقق فيها تلك الميول والآمال والرغبات، وغير كافية لأن تمتد فيها تلك القدرات والاستعدادات لتنفيذ متطلباتها، إذ "جميع لذائذ الدنيا لا تشبع الخيال الذي هو أحد خدام الماهية الإنسانية". وإذ قد تبين بالدرس أن الكون كله خلق على غير إسراف، فما من موجود كوني إلا وقدرت طاقاته بما يستوفيها في حياته، وهذا القانون الكوني قانون "عدم الإسراف" الثابتَ -حسب علم وظائف الأعضاء- في الفطرة جميعها ومنها الإنسان لَيبين لنا أنه لا يمكن أن تذهب هباء فيكونَ إسرافا جميعُ الاستعدادات المعنوية والاستعدادات غير النهائية والأفكار والميول؛ ولذلك فإن هذه الآمال والطاقات الإنسانية التي لا يمكن أن تتحقق في الحياة الدنيا لابد أنه قد هُيئ لها وجود آخر تستكمل فيه آمالَها واستعداداتها توافقا مع قانون عدم الإسراف، وتلك هي الدار الآخرة التي تتحقق فيها كل آمال الإنسان وقدراته واستعداداته ورغباته.

ب-دليل الشوق إلى الأبدية

في فطرة الإنسان حب شديد للبقاء، وشوق جارف إلى السعادة الأبدية "حتى إنه يتوهم نوعا من البقاء في كل ما يحبه، بل لا يحب شيئا إلا بعد توهمه البقاء فيه، ولولا توهم البقاء لما أحب الإنسان شيئا". وكل فطرة إنسانية يقابلها واقع موجود؛ ففطرة الجوع والعطش يقابلها وجود الطعام والماء، وفطرة الخوف يقابلها وجود الأعداء، وفطرة المحبة يقابلها وجود من يُحب، ولو لم يكن الماء موجودا ما وجدت في الإنسان فطرة العطش، وكذلك الأمر في كل مكونات الفطرة الإنسانية. فهل يكون الأمر كذلك في كل مكونات هذه الفطرة، ويتخلف في فطرة حب البقاء وعشق الأبدية؟

إن الاستنتاج العقلي يقضي بأن ذلك غير ممكن، وأنه إذا امتدت كل فطرة في الإنسان إلى ما يقابلها في الوجود، فإن فطرة حب البقاء يقابلها أيضا امتدادُ الإنسان في البقاء في حياة أخرى بعد هذه الحياة، وأن في ذلك الامتداد تُشبع الأشواق إلى السعادة الأبدية، وهو ما عبر عنه النورسي في قوله: "الفطرة التي لا تَكذب أبدا والتي فيها ما فيها من ميل شديد قطعي لا يتزحزح إلى السعادة الأخروية الخالدة، تعطي للوجدان حدسا قطعيا على تحقق الحياة الأخرى، والسعادة الأبدية"، وهو ما عبر عنه أيضا في موضع آخر بقوله: "إن دار الدنيا القصيرة هذه لا تكفي -كما أنها ليست ظرفا- لإظهار ما لا يحد من الاستعدادات المندمجة في روح الإنسان وإثمارها، فلابد أن يرسَل هذا الإنسان إلى عالم آخر. نعم، إن جوهر الإنسان عظيم، لذا فهو رمز للأبدية ومرشح لها". لقد كانت الأنفُس مسلكا للاستدلال على حقائق العقيدة عند علماء العقيدة، وهو ما تضمنته مؤلفاتهم عبر العصور، استجابةً في ذلك للقرآن الكريم. ولكن الاستدلالات في هذا الخصوص كان معظمها يتعلق بالاستدلال على الألوهية، ولكن الاستدلال بالأنفس لإثبات المعاد لم يكن له رواج في التراث العقدي إلا أن تكون إشارات متناثرة وواردة في سياقات مختلفة. أما النورسي فقد أورد الاستدلال بالأنفس على المعاد في مواضع عديدة من مؤلفاته، حتى غدا ذلك مسلكا أساسيا من مسالك استدلاله على عقيدة الآخرة.

٢- مسلك الآفاق

لعل هذا المسلك في الاستدلال على البعث هو أوسع المسالك التي دخل منها النورسي ليثبت هذه العقيدة، وليوجه المخاطَبين إليها كي تكون مداخل اليقين بالآخرة إليهم. وبالإضافة إلى أدلة كثيرة بناها بصفة أساسية على مشاهد الآفاق، فإن أدلة كثيرة مما أدرجه ضمن مسالك أخرى كانت لها صلة على نحو أو آخر بآفاق الكون. وقد أدرج النورسي ضمن هذا المسار جملة كبيرة من الأدلة نذكر منها على سبيل التمثيل ما يلي:

أ-دليل الانهيار الكوني

إنما يتم البعث بعد انهيار هذا النظام الكوني الذي يحيا فيه الإنسان الحياة الدنيا، فهذا الانهيار هو إذن مقدمة من مقدمات الحياة الأخرى، أو هو جزء من أجزائها؛ ولذلك فإن الاستدلال على عقيدة الآخرة يتوقف بالضرورة على ثبوت أن هذا النظام الكوني آيل إلى الزوال، وإن لم يثبت ذلك أو ثبت عكسه فإن كل

الاستدلالات على عقيدة الآخرة سوف لن يكون لها معنى.

وإذا كانت نصوص الوحي تخبر بأن نظام الكون آيل إلى انهيار كما في قوله تعالى: ﴿إِذَا الشَّمْسُ كُوِّرَتْ ۝ وَإِذَا النُّجُومُ انْكَدَرَتْ ۝ وَإِذَا الْجِبَالُ سُيِّرَتْ﴾(التكوير:١-٣)، فإن هذه النصوص لا تقنع إلا مؤمنا، أما غير المؤمن فيحتاج إلى أدلة أخرى من العقل الفلسفي أو من القوانين العلمية، وهو ما سعى فيه النورسي ببيان أن الموجودات الكونية إذا نُظر إليها أفرادا، وجد كل فرد منها مفطورا على عمر مقدر ينتهي بعده إلى زوال في نظامه الذي يكون عليه. فالكون في جملته يكون كذلك أيضا، وتلك هي بداية اليوم الآخر. لقد شرح النورسي هذا المعنى في قوله: "هناك [في الكون] نشوء ونماء، وإن النشوء والنماء هذا يعني أن له عمرا فطريا في كل حالة، وإن العمر الفطري يعني أن له على كل حالة أجلا فطريا، وهذا يعني أن جميع الأشياء لا يمكن أن تنجو من الموت، وهذا ثابت بالاستقراء العام والتتبع الواسع. نعم، فكما أن الإنسان هو عالم مصغر لا خلاص له من الانهيار، كذلك العالم فإنه إنسان كبير لا فكاك له من قبضة الموت". وإذا كان هذا الانهيار الكوني لم يحدث بعد فإنه بالحساب العلمي قادم لا محالة، وذلك ما شرحه في قوله: "لئن لم تحدث للدنيا قبل أجلها الفطري وبإذن إلهيٍّ حادثةٌ مدمرة أو مرض خارجي، أو لم يخلَّ بنظامها خالقُها الحكيم، فلا شك بحساب علمي أن سيأتي يوم يتردد فيه صدَى ﴿إِذَا الشَّمْسُ كُوِّرَتْ﴾، عندئذ تظهر معاني هذه الآيات وأسرارها".

ب-دليل الاستمرار

إذا كان البعث تستصعب تصوّرَه بعضُ العقول، فإن ذلك إنما هو بسبب ما يستصعبه العقل من استمرارية بقاء الإنسان حيا بعد موته المشهود للعيان، وذلك من أجل أن يتم حسابه ثم جزاؤه، فهذه الاستمرارية في حقيقة الإنسان -التي سيتم في مرحلتها الثانية الحساب- بالرغم من زوال مظاهره هي التي كانت مناط الإنكار من قِبل أكثر المنكرين للبعث؛ ولذلك فقد كرس النورسي جهدا كبيرا للاستدلال على أن استمرارية الحقائق مع زوال المظاهر أمر ممكن تشهد به مظاهر كثيرة من مشاهد الكون.

إن موجودات كثيرة من موجودات الكون تقضي مدة من وجودها لتقوم بدورها على كيفية مشهودة، ثم تختفي ليُظن أنها قد انقطعت عن الوجود وعن القيام بأي دور، ولكنها في الحقيقة وإن تكن قد اختفت في الظاهر فما زال لها نوع من البقاء تقوم فيه بدور وإن يكن دورا غير ظاهر للعيان، ولكنه مؤثر في الواقع، دال على استمرارية البقاء في حياة من نوع آخر غير نوع الحياة الأولى، وإذا كان ذلك ممكنا بل واقعا في هذه المشاهد الكونية، فإن استمرارية الإنسان في حياة أخرى بعد هذه الحياة ليقوم بدور آخر غير الدور الذي يقوم به في هذه المرحلة من الحياة الدنيا هو أمر ممكن أيضا.

ولشرح ذلك، ولبيان كيف أن الشيء يفنى من جهة إلا أنه يبقى من جهات كثيرة يقول النورسي: "تأمل في هذه الزهرة وهي كلمة من كلمات القدرة الإلهية، إنها تنظر إلينا مبتسمة لنا في فترة قصيرة، ثم تختفي وراء ستار الفناء، فهي كالكلمة التي نتفوه بها، التي تودع آلافا من مثيلاتها في الآذان، وتبقى معانيها بعدد العقول المنصتة لها، وتمضي بعد أن أدت وظيفتها وهي إفادة المعنى، فالزهرة أيضا ترحل بعد أن تودِع في ذاكرة كلِّ مَن شاهَد صورتها الظاهرة، وبعد أن تودع في بذيراتها ماهيتَها المعنوية، فكأن كل ذاكرة وكل بذرة بمثابة صور فوتوغرافية لحفظ جمالها وصورتها وزينتها ومحل إدامة بقائها"، وإذن فإن الصورة قد تزول، ولكن نوعا من وجودها يكون له بقاء.

في فطرة الإنسان حب شديد للبقاء، وشوق جارف إلى السعادة الأبدية "حتى إنه يتوهم نوعا من البقاء في كل ما يحبه، بل لا يحب شيئا إلا بعد توهمه البقاء فيه... ولولا توهم البقاء لما أحب الإنسان شيئا"

وليس نشر الأعمال للحساب في يوم آخر غيرِ هذا اليوم الدنيوي بأمر مستغرب، إذ شواهده قائمة في هذه الحياة الدنيا، وهي شواهد دالة على إمكانه، فلو تأملت في هذا الكون فإنك سوف تجد بقانون الوراثة نفسه أنه "لكل ثمر ولكل عشب ولكل شجر أعمال، وله أفعال وله وظائف وله عبودية وتسبيحات بالشكل

الذي تظهر به الأسماء الإلهية الحسنى، فجميع هذه الأعمال مندرجة مع تاريخ حياته في بذوره ونواه كلها، وستظهر جميعها في ربيع آخر ومكان آخر، أي إنه كما يذكر بفصاحة بالغة أعمالَ أمهاته وأصوله بالصورة والشكل الظاهر فإنه ينشر كذلك صحائف أعماله بنشر الأغصان وتفتح الأوراق والإثمار". وكذلك الأمر بالنسبة للإنسان، فإنه وإن قد زالت صورته الظاهرة فسيكون له يوم تنشر فيه أعماله كما نشرت أعمال النبتة بفعل بذرة البقاء.

٣- مسلك الإيمان بالله

أشرنا سابقا إلى أن النورسي كان منهجه في الاستدلال على العقيدة هو منهج الوصل بين الأدلة على مفرداتها المختلفة؛ ولذلك فإننا نجده في الاستدلال على حقيقة البعث كثيرا ما يستثمر أدلة قد تقررت في مفردات عقدية أخرى، وخاصة منها تلك الأدلة التي انتهت إلى إثبات عقيدة الألوهية، وبالأخص منها ما تعلق بإثبات الصفات الإلهية، فانطلاقا من تلك الأدلة وما انتهت إليه من إثباتات في شأن تلك الصفات ينطلق لبناء أدلة تثبت حقيقة البعث، وقد تكرر ذلك كثيرا في مؤلفاته، وتحصلت منه جملة من الأدلة نذكر منها على سبيل المثال ما يلي:

أ-دليل القدرة الإلهية

ومقتضاه أن كل من يؤمن بإله يتصف بصفة القدرة، فإن إيمانه هذا من شأنه أن يقوم له مقام الدليل على إمكان البعث؛ ذلك لأن هذه القدرة التي تبدت آثارها جلية في المخلوقات الكونية العظيمة فإن بعث الإنسان حيا ليُحاسَب ويجازى ثوابا أو عقابا سيكون داخلا في مجال تلك القدرة، فيثبت إذن إمكان هذا البعث لوقوع ما هو أعظم منه بفعل القدرة الإلهية.

وعلى سبيل المثال فإن قدرة الله تعالى خلقت الإنسان خلقا ابتدائيا، وهو الأمر المسلّم به، وذاتُ هذه القدرة يمكن بها إعادة الإنسان بعد موته، بل ذلك أهون كما جاء في القرآن الكريم: ﴿كَمَا بَدَأْنَا أَوَّلَ خَلْقٍ نُعِيدُهُ﴾(الأنبياء:١٠٤)، "وحيث إنه ليست هناك مراتب قط في القدرة الإلهية الأزلية، لذا فالمقدرات هي حتما واحدة بالنسبة إلى تلك القدرة، فيتساوى العظيم جدا مع المتناهي في الصغر، وتتماثل النجوم مع الذرات، وحشر جميع البشر كبعث نفس واحدة، وكذا خلق الربيع كخلق زهرة واحدة سهل هين أمام تلك القدرة".

وإذا كانت هذه القدرة الإلهية في هذا العالم المشهود تَصنع النقيض من نقيضه كما جاء في قوله تعالى: ﴿الَّذِي جَعَلَ لَكُمْ مِنَ الشَّجَرِ الأَخْضَرِ نَارًا﴾(يس:٨٠)، فإنها يمكن أن تصنع من الموت حياة فيكون البعث. وبهذا المعنى يقول النورسي للمخاطَبين لإقناعهم بإمكان البعث: "إنكم ترون إحياءَ واخضرار الأشجار الميتة، فكيف تستبعدون اكتساب العظام الشبيهة بالحطب للحياة ولا تقيسون عليها؟". إن من يؤمن بقدرة الله إذن يترتب عليه أن يؤمن بإمكان بعث الأموات أحياء، كما يرى بشهادة الحواس أن القدرة الإلهية تحيي الإنسان ابتداء، وتخرج الحي من الميت والميت من الحي.

ب-دليل الحكمة والعدل

لقد خلق الله تعالى هذا الكون على أساس من العدل والحكمة، فكل شيء فيه قائم على حكمة، ومبني على توازن، وهي حكمة لا يشوبها خلل، وتوازن لا يداخله تفاوت، وهذا النظام البديع في الكون شاهد على ذلك، سواء في تركيب الموجودات أو في حركاتها أو في علاقاتها ببعضها، وما زالت العلوم الكونية تكشف عن ذلك يوما بعد يوم، حتى أصبح هذا الأمر أمرا مسلّما من قِبل جميع الناس، بل إن هذه المَظاهر من الحكمة والعدل التي يتقوم بها الوجود الكوني من أصغر الموجودات إلى أعظمها ما زالت يوما بعد يوم تجتذب العلماء المحققين في أسرار الطبيعة إلى دائرة الإيمان بالله تعالى، وذلك من خلال الوقوف على مظاهر حكمته وعدله.

ولكن بالنسبة للإنسان الذي خُلق على حرية في الاختيار وحُمّل أمانةَ التكليف، فإننا نرى حياته بمقتضى هذه الحرية لا يتحقق فيها العدل والحكمة، إذ كثيرا ما نرى ظالمين مجرمين يعيشون في الدنيا عيشة هنيئة ولا يلقون في حياتهم عقابا على ظلمهم وإجرامهم، ونرى آخرين مظلومين ومحسنين ولكنهم يعيشون حياة صعبة ويتعرضون لابتلاءات شديدة، ولا ينالون في مقابل إحسانهم جزاءً ولا مقابلَ مظلوميتهم عدلا، وذلك ما هو مُشاهَد في الحياة الاجتماعية.

ولو انتهى أمر الحياة على هذا النحو، فيذهب الظالم بظلمه دون عقاب ويذهب المحسن بإحسانه دون ثواب، لكان ذلك خرقا لما بُني عليه الكون من الحكمة والعدل، ولَمّا كان الله تعالى متصفا بهما، والحال أن ألوهيته تقتضي الاتصاف بهذه الصفات، فالإيمان بهذه الصفات يقتضي إذن أن تكون حياة الإنسان ممتدة إلى مدى أبعدَ من هذا المدى الدنيوي، وهو مدى أخروي يتم فيه العقاب للظالم المعتدي والثوابُ للمحسن المظلوم، وحينئذ يتم

التوازن والعدل وتتحقق الحكمة.

لقد ردد النورسي هذه المعاني في مواقع متعددة، ومن ذلك قوله: "يظل الإنسان دون جزاء في هذه الدنيا لما يرتكبه من وقائع الظلم وما يقترفه من إنكار وكفر وعصيان تجاه مولاه الذي أنعم عليه ورباه برأفة كاملة وشفقة تامة، مما ينافي نظام الكون المنسق ويخالف العدالة والموازنة الكاملة التي فيها ويخالف جماله وحسنه، إذ يقضي الظالم القاسي حياته براحة، بينما المظلوم البائس يقضيها بشظف من العيش، فلا شك أن ماهية تلك العدالة المطلقة التي يُشاهَد آثارُها في الكائنات لا تَقبل أبدا ولا ترضى مطلقا بعدم بعث الظالمين العتاة مع المظلومين البائسين الذين يتساوون معا أمام الموت"، وإذن فإن الإيمان بعدالة الله تعالى وحكمته يمكن أن يُستدل بها على ضرورة البعث في اليوم الآخر.

٤- مسلك المنفعة

كثيرا ما كان القرآن الكريم يعرض العقيدة الإسلامية في سياق الدعوة إلى الإيمان بها عرضا استدلاليا ببيان ما تحقّقه تلك العقيدة للإنسان من نفع في حياته الدنيا قبل حياته الأخرى، ومن ذلك قوله تعالى: ﴿أَلاَ بِذِكْرِ اللهِ تَطْمَئِنُّ الْقُلُوبُ﴾(الرعد:٢٨)، وقوله تعالى: ﴿وَمَنْ أَعْرَضَ عَنْ ذِكْرِي فَإِنَّ لَهُ مَعِيشَةً ضَنْكًا﴾(طه:١٢٤)، ففي الآيتين دعوة إلى الإيمان بالله في سياق استدلالي ببيان ما يؤدي إليه ذلك الإيمان من منفعة اطمئنان القلوب، وما يؤدي إليه عدم الإيمان من شقاء المعيشة، ولا غرو فإن الدين كله -والعقيدة على رأسه- لم يكن إلا من أجل تحقيق النفع للإنسان.

وقد كان النورسي متقفيا لهذا المنهج القرآني في استدلاله على الآخرة، إذ كثيرا ما كان يعرض هذه العقيدة لإقناع المخاطَبين في سياق الاستدلال عليها بما تحققه من نفع دنيوي، فاتخذَ إذن من المنفعة الحاصلة من الإيمان بالبعث دليلا على أن هذه العقيدة جدير بالإنسان أن يؤمن بها، وإذا كان هذا الضرب من الاستدلال يتجه إلى إقناع المخاطَب بالإيمان بالبعث بما هو خارج عن حقيقته الذاتية وهو المنفعة التي تحصل منه، وليس بما هو متعلق بذات تلك الحقيقة، فإنه استدلال مشروع، لأنه يفضي إلى ذات النتيجة، إذ ما تتحقق به منفعة حقيقية للإنسان لا يمكن أن يكون إلا حقا في ذاته، فتثبت إذن أحقيتُه الذاتية من خلال نتائجه؛ ولذلك فقد صاغ النورسي جملة من الأدلة على عقيدة البعث من خلال ما تُحققه من منافع. ومن تلك الأدلة ما يلي:

أ-دليل المنفعة الفردية

بيّن النورسي في مقامات عديدة من مؤلفاته كيف أن الإيمان باليوم الآخر تترتب عليه منفعة نفسية بالغة الأهمية، وتنبثق منه للمؤمن سعادة غامرة، وتكسبه صفات حميدة ترشد أداءه فيما قُدر له من وظيفة خُلق من أجلها، وكذلك تزول به أمراض كثيرة تغشى النفوس وتسبب لها آلاما قد تبلغ بها مبلغ اليأس والقنوط، بل قد تبلغ درجة السعي للتخلص من الحياة، أو تُحْدث فيها قصورا وعاهات تقعد بها عن أداء المهام المطلوب من الإنسان أداؤها في مجمل حياته أو في تصرفاته اليومية.

> **إن دار الدنيا القصيرة هذه لا تكفي كما أنها ليست ظرفا، لإظهار ما لا يحد من الاستعدادات المندمجة في روح الإنسان وإثمارها، فلا بد أن يرسَل هذا الإنسان إلى عالم آخر. نعم، إن جوهر الإنسان عظيم، لذا فهو رمز للأبدية ومرشح لها.**

ومن ذلك على سبيل المثال أن "ما يقلق الإنسان دوما وينغص حياته هو تفكيره الدائم في مصيره وكيفية دخوله القبر، مثلما انتهى إليه مصير أحبته وأقاربه. فتوهُّم الإنسانِ أن آلافا بل ملايينَ الملايين من إخوانه البشر ينتهون إلى العدم بالموت ذلك الفراقِ الأبدي الذي لا لقاء بعده سيذيقه هذا التصور ألما شديدا [ولكن حينما يؤمن بالآخرة فإنه] يكسب لذة روحية عميقة تنبئ بلذة الجنة، بما يشاهده من نجاة أحبته وخلاصهم جميعا من الموت النهائي والفناء والبلى والاندثار، ومن بقائهم خالدين في عالم النور الأبدي منتظرين قدومه إليهم". إن عقيدةً تُحقق هذه المنفعة العظيمة لا يمكن إلا أن تكون حقا جديرة بأن يؤمن بها الإنسان.

وعلى سبيل المثال أيضا: فإن الإنسان في خريف العمر -وقد وهنت قواه وانقطع عطاؤه- قد يشيع فيه ذلك الشعور بأنه أصبح عالة على أهله ومجتمعه، وبأن حياته قد استنفدت أغراضها،

وذلك ما من شأنه أن يجعله في حال من اليأس والقنوط والقلق النفسي البالغ، فتضيق عليه الدنيا بما رحبت، وتنقلب الحياة إلى عذاب أليم، وليس من منقذ من ذلك سوى الإيمان باليوم الآخر الذي يجعله يشعر بأنه مقبل قريبا على سعادة أبدية ولقاء بالأحبة، وكلما تقدم به العمر اقترب من ذلك المصير السعيد، فتزداد نفسه قوة يغذيها الأمل، وسعادةً يصنعها الشوق إلى المصير السعيد.

من ثمرات الإيمان بالآخرة

ومما يثمره الإيمان بالآخرة من منفعة ما يحدثه هذا الإيمان في النفس من الصبر وقوة التحمل، إذ لما تصيب الإنسان المصائب، فإن الإيمان بالآخرة هو الذي يقوي من عزمه، ويشد من أزره، إذ يعتقد أن ما أصابه يمكن أن يكون له ذخرا في دار الجزاء، ولا يمكن بحال أن يذهب سدى. وفي هذا الصدد يضرب النورسي مثلا بتجربته الشخصية فيما حصل له من مصائب بتعرضه للسجن والقهر والإهانة والاعتداء على ممتلكاته وبالأخص منها مؤلفاته، ويقول في ذلك: "أتحمل كل هذا الحزن والأسى بذلك الإيمان بالآخرة، رغم أنني ما كنت أتحمل أية إهانة وتحكّم من أي أحد مهما كان؛ إن نور الإيمان بالآخرة وقوّته قد منحني صبرا وجلدا وعزاء وتسلية وصلابة وشوقا للفوز بثواب جهاد عظيم"، ومثل هذا يحصل بالنسبة لكل مكروب وكل مضطهد ومظلوم وكل مصاب بإحدى مصائب الدنيا، فهؤلاء جميعا "ما إن يمدهم الإيمان بالآخرة بالعزاء والسلوان إلا وينشرحون فورا ويتنفسون الصعداء لما يزيل عنهم من الضيق واليأس والقلق والاضطراب".

ب—دليل المنفعة الاجتماعية

إن أول ما يثمره الإيمان بالمعاد من منفعة اجتماعية هو ما يتمثل في ترشيد العلاقات الأسرية، فهذه العلاقات كثيرا ما تتعرض إلى توترات شديدة بسبب التنازع على المكاسب الدنيوية، ورغبةِ كل طرف في الاستئثار بالمنافع على حساب الأطراف الأخرى، وذلك واقع مشهود عبر الزمن، فإذا ما استنار أفراد الأسرة بنور الإيمان بالمعاد والحساب فإن ذلك ما إن يحل بالبيت الأسري "حتى ينور أرجاءه مباشرة ويستضيء؛ لأن علاقة القربى والرأفة والمحبة التي تربطهم لا تقاس عندئذ ضمن زمن قصير جدا، بل تقاس على وفق علاقات تمتد إلى خلودهم وبقائهم في دار الآخرة والسعادة الأبدية، فيقوم عندئذ كل فرد باحترام خالص تجاه الآخرين".

وعلى نفس هذا النحو يفعل الإيمان بالآخرة فعله في العلاقات الاجتماعية العامة، سواء تلك العلاقات بين أبناء المدينة الواحدة، أو العلاقات بين أبناء البلد بأكمله، أو العلاقات بين الإنسانية جمعاء، "فإن كل مدينة هي بحد ذاتها بيت واسع لسكنتها، فإن لم يكن الإيمان بالآخرة مسيطرا على أفراد هذه العائلة الكبيرة، فسيستولي عليهم الحقد والمنافع الشخصية والاحتيال والأنانية والتكلف والرياء والرشوة والخداع بدلا من أسس الأخلاق الحميدة التي هي الإخلاص والمروءة والفضيلة والمحبة والتضحية".

والبلاد بأكملها ليست إلا بيتا واسعا جدا، والوطن بأكمله هو بيت عائلة الأمة، فإذا ما شاع فيها الإيمان بالآخرة، فإن ذلك الإيمان سيفعل فعله الذي فعله في العلاقات الأسرية، وإلا طغت الأنانية التي تزن الأشياء بميزان دنيوي قصير، فتكون معاني الإرهاب والفوضى والوحشية حاكمة ومسيطرة تحت اسم النظام والأمن والإنسانية، وحينئذ تتسمم الحياة الاجتماعية، فيتصف الأطفال بالوقاحة والإهمال، والشباب بالسكر والعربدة، والأقوياء بالظلم والتجاوز، وتصبح حياة الجماعة حياة مضطربة بائرة، ولو وُزنت الأشياء بميزان أخروي طويل لكان لهذه العلاقات الاجتماعية شأن آخر من الاستقرار والإثمار.

ولا شك أن هذا المنهج الذي ارتآه النورسي في الاستدلال يستوجب على الدارس من العدل ما يجعله لا يقتصر في التقييم على القياس بمقاييس العقل المجرد الصارم في موازينه المنطقية، إذ هو قد وسع الاستدلال ليشمل مناطق القوى الروحية أيضا، وإلا فإننا قد نجد في استدلالات النورسي ما يستحق التعقيب والمراجعة، وكفى هذا المنهج حكمة أن يجد فيه كل مسلم طلبته مهما كان حظه من العلوم العقلية والمنطقية، وليس الأمر كذلك في الكثير إن لم يكن في الأكثر مما أُلف في العقائد الإسلامية. ■

(*) الأمين العام لمجلس الإفتاء الأوروبي - باريس / فرنسا.

المصادر

(١) الكلمات، بديع الزمان سعيد النورسي، ترجمة: إحسان قاسم الصالحي، دار سوزلر للنشر، القاهرة.

(٢) المكتوبات، بديع الزمان سعيد النورسي، ت: إحسان قاسم الصالحي، دار سوزلر للنشر، القاهرة.

(٣) الشعاعات، بديع الزمان سعيد النورسي، ترجمة: إحسان قاسم الصالحي، دار سوزلر للنشر، القاهرة.

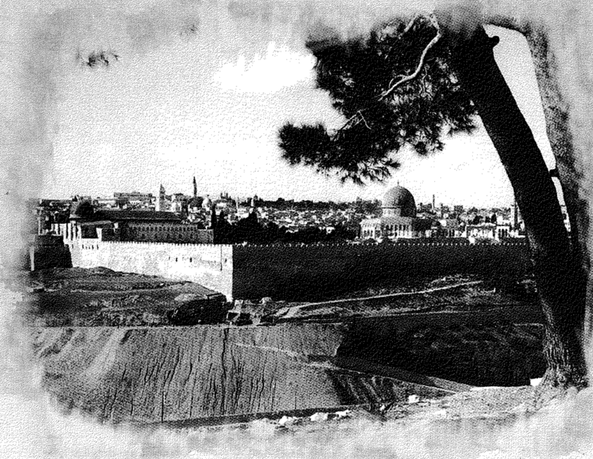
(٤) اللمعات، بديع الزمان سعيد النورسي، ترجمة: إحسان قاسم الصالحي، دار سوزلر للنشر، القاهرة.

(٥) عبد المجيد عمر النجار، دار الغرب الإسلامي الإيمان بالله وأثره في الحياة، ١٩٩٧.

(٦) العلم يدعو للإيمان — مجموعة من المؤلفين، دار الكتاب العربي.

بصمات عثمانية على الأقصى الشريف

أحمد مروات*

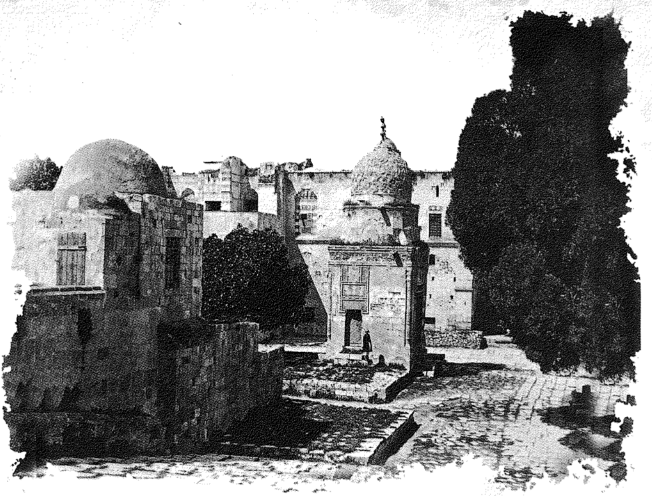


القدس، أولى القبلتين وثالث الحرمين الشريفين بعد مكة المكرمة والمدينة المنورة. مسرح النبوات وزهرة المدائن وموضع أنظار البشر منذ أقدم العصور.

تاريخ بناء القدس يعود إلى اسم بانيها وهو إيلياء بن أرم بن سام بن نوح عليه السلام -إيلياء أحد أسماء القدس- وقيل إن "مليك صادق" أحد ملوك اليبوسيين -وهم أشهر قبائل الكنعانيين- أول من اختط وبنى مدينة القدس وذلك سنة (٣٠٠٠ ق.م) والتي سميت بـ"يبوس". وقد عرف "مليك صادق" بالتقوى وحب السلام حتى أُطلق عليه "ملك السلام"، ومن هنا جاء اسم مدينة "سالم" أو "شالم" أو "أور شالم" بمعنى دع شالم يؤسس، أو مدينة سالم. وبالتالي فإن أورشليم كان اسماً معروفا وموجودا قبل أن يغتصب الإسرائيليون هذه المدينة من أيدي أصحابها اليبوسيين. وسماها الإسرائيليون أيضا "صهيون" نسبة لجبل في فلسطين، وقد غلب على المدينة اسم "القدس".

الدور التمهيدي في العمارة العثمانية

وقسّم العلماء تاريخ العمارة الإسلامية العثمانية إلى أدوار واضحة المعالم أعقبت الدور التمهيدي. أما الدور التمهيدي فيعُم الفترة الزمنية السابقة على أيام السلطان "أورخان" الذي تسلطن (١٣٢٥م). ويشمل الدور التمهيدي المنشآت التي أنشأها الأمير "أَرطغرل بن سليمان شاه" (١١٩٨-١٢٨١)، حيث امتدت في زمنه رقعة الإمارة العثمانية بالفتوحات من مدينة "أَسْكِيشَهِر" إلى "كُوتَاهْيا". وبعد وفاته حكم الإمارة ابنه عثمان الأول (١٢٥٨-١٣٢٦)، حيث اتخذ من المدينة الجديدة "يَنِي شَهِرْ" عاصمة



للدولة العثمانية. وتطورت العمارة الإسلامية العثمانية في "يني شهر"، ثم مرّت بأدوار عدة فشكل عهد أرطغرل وخليفته عثمان الأول مرحلة الدور المعماري العثماني التمهيدي الذي استمر حتى نهاية عهد عثمان الأول.

وبعد وفاة السلطان عثمان الأول خلفه ولده السلطان "أورخان". فبدأ دور معماري جديد، فتطورت العمارة الإسلامية العثمانية حين فُتحت مدينة "بورصة"، فاتخذها السلطان أورخان عاصمة للدولة العثمانية بعد العاصمة الأولى في مدينة "يني شهر". ثم فتح السلطان أورخان مدينة "إزْنيك" المسماة "نيقيا المقدسة" عند الروم. واستطاع السيطرة على سواحل البحر الأسود وبحر مرمرة.

ومع امتداد السلطنة العثمانية إلى المدن المفتوحة اتسع نطاق العمارة الإسلامية، وازدهرت فنونها، وأصبحت مدينة بورصة نموذجا رائعا للمدينة الإسلامية بكل مكوناتها المتطورة. وبعدما حقق السلطان أورخان انتصاراته في آسيا، قرر التوجه غربا نحو أوروبا لمتابعة الفتوحات، ونشر الحضارة الإسلامية بكل ما فيها من حسنات تحقق المصالح الإنسانية وتدفع المفاسد، حيث حقق آماله بفتح مدن الضفة الغربية لمضيق الدردنيل الذي يصل بين بحر مرمرة شمالا وبحر إيجة جنوبا.

القدس في ظل الدولة العثمانية

أبدى العثمانيون عناية فائقة بتطوير مدينة القدس، ابتداء بالتعميرات الضخمة التي أنجزها السلطان سليمان القانوني وانتهاء بالمباني التي شُيدت في عصر السلطان عبد الحميد الثاني. ورغم محاولات بعض المؤرخين طمس هذه الحقيقة فإنّ تلك المنشآت ما زالت قائمة حتى اليوم.

إن أقدم معلم تاريخي في القدس الشريف هو أسوار المدينة التاريخية التي تم بناؤها من قبل السلطان سليمان القانوني عام

(١٥٢٦م)، ويليها الأوقاف والمؤسسات الخيرية التي بنيت في أماكن مختلفة من القدس وأبرزها الوقف الخيري "خاصكي سلطان" أو "التكية". وهي من أعظم المؤسسات الخيرية في القدس والتي قامت بإنشائها زوجة السلطان سليمان القانوني. والتكية تقدم الطعام لفقراء القدس والمحتاجين إلى يومنا هذا، حيث تقع على طريق الواد وفي الزقاق الممتد بين خان الزيت وعقبة التكية حيث تكية خاصكي سلطان كما عرفها أهالي فلسطين والقدس من مئات السنين.

في أول شهر كانون الأول من عام (١٥١٧م) وصل السلطان العثماني سليم الأول أسوار القدس ولم تكن هناك مقاومة. وخرج العلماء للقاء السلطان وأهدوه مفاتيح الأقصى وقبة الصخرة، فقفز السلطان سليم من على فرسه وسجد سجدتين ثم قال: "الحمد لله الذي جعلني خادما لحرم أولى القبلتين".

وتعتبر فترة السلطان سليمان القانوني نجل السلطان سليم الأول، الفترة الذهبية بالنسبة لأسوار القدس، حيث أمر هذا السلطان بإعادة بناء أسوار المدينة من جديد. وكانت تلك خطة طموحة استلزمت مهارة عالية ونفقات باهظة. ولم يقم العثمانيون ببناء استحكامات معقدة كتلك سوى في أماكن قليلة أخرى. وبلغ طول السور الذي ما زال موجودا إلى الآن ميلين بارتفاع قرابة أربعين قدما. وأحاط المدينة إحاطة تامة وكان به أربعة وثلاثون برجا وسبع بوابات. وحينما انتهى بناء السور عام (١٥٤١م) أصبحت القدس محصنة لأول مرة منذ أكثر من ثلاثمائة عام.

وأنفق سليمان القانوني أيضا مبالغ كبيرة في نظام المياه بالمدينة فبنيت ست نافورات جميلة وشقت القنوات والبحيرات، وتم تجديد بحيرة السلطان جنوب غربي المدينة وأصلحت قنواتها. وشهدت المدينة أزدهارا جديدا حيث تم تطوير الأسواق وتوسيعها.

وفي النصف الثاني من القرن السادس عشر تم تحويل القدس إداريا إلى متصرفية وضمت إليها "نابلس" و"غزة"، لزيادة عدد سكانها ولأهميتها الدينية. وكانت سلطة قاضي القدس ذات مدى متسع يشمل المناطق من غزة إلى حيفا.

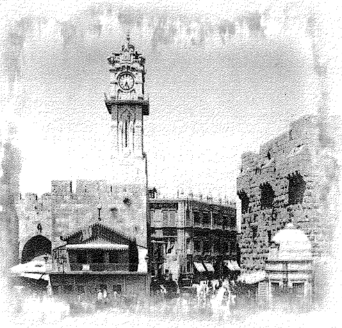
لم يهمل السلطان سليمان الحرم فرممه بالفسيفساء خاصة الجزء الأعلى من الحائط الخارجي لقبة الصخرة وغلف الجزء الأسفل بالرخام. وتمت تغطية قبة السلسلة بزخارف جميلة. كما بنى سليمان القانوني نافورة بديعة للوضوء في الفناء الأمامي



للمسجد الأقصى وكما أيد بناء أوقاف الحرم وبعض المدارس. وتنازل السلطان عن حقه في رسوم دخول الحجاج لصالح تمويل قراءة القرآن في قبة الصخرة لمدة عام واحد. وأصبحت الأوقاف التي تم إصلاحها مصدر عمل ودخل للأعمال الخيرية. وأنشأت زوجة السلطان القانوني تكية في القدس عام (١٥٥١م)، ومجمعا كبيرا يشمل مسجدا ورباطا ومدرسة وخانا ومطبخا يخدم طلبة العلم والمتصوفين والفقراء ويقدم لهم وجبات طعام مجانية. وقد شملت أوقاف التكية عدة قرى حتى وصلت منطقة رام الله.

فقد تم إعادة ترميم قبة الصخرة في عهد السلطان محمد الثالث والسلطان أحمد الأول والسلطان مصطفى الأول. وأصدر السلاطين فرمانات عديدة خاصة بالأماكن المقدسة. وكان الباشاوات ملزمين بحفظ النظام في منطقة الحرم والتأكد من سلامة الأماكن الدينية ونظافتها. وكانت الوقف تستغل في عائدات أعمال الصيانة وكانت الحكومة أيضا على استعداد لاقتسام النفقات إذا استدعى الأمر. وظلت المدينة في القرن السابع عشر تستحوذ على الإعجاب. وساد الأمن والسلام في كل أرجاء بلاد القدس الشريف. وقد زار الرحالة التركي "أوليا جلبي" القدس

عام (١٦٤٨م) ووجد -كما قال- أن هناك ثمانمائة إمام وواعظ يعملون في الحرم والمدارس المجاورة ويتقاضون مرتبات، وكان هناك أيضا خمسون مؤذنا وعدد كبير من مرتلي القرآن الكريم، كما وجد أن الزائرين المسلمين ما زالوا يسيرون مواكبهم حول الحرم ويؤدون الصلاة في المواقع المختلفة. وقال إن أروقة الحرم امتلأت بالدراويش من الهند وفارس وآسيا الصغرى، حيث كانوا يرتلون القرآن طوال الليل ويعقدون حلقات الذكر ويتغنون بأسماء الله الحسنى على ضوء مصابيح الزيت الوامضة المتواجدة على طول الممرات ذات الأعمدة. وبعد صلاة الفجر كانت تعقد حلقات الذكر مرة أخرى في مسجد المغاربة في الركن الجنوبي الغربي من الحرم. وكان هناك خمسمائة جندي تحت إمرة باشا القدس وكانت أهم مهامهم الرئيسية مرافقة قافلة الحج الذاهبة من دمشق إلى مكة المكرمة كل عام.



وقد نصّبت الدولة العثمانية على القدس حكاما من أهلها مما زاد في الاهتمام بتعميرها وترميم ما تلف من مساجدها وخاصة المسجد الأقصى وقد تم تعيين أربعة مفتين.

وحافظت القدس في العهد العثماني على مكانتها المرموقة وظلت مركز جذب للمتصوفين والعلماء. والجدير بالذكر أنه كان عدد العلماء في المدينة في القرن الثامن عشر أكبر من عددهم في القرن السابع عشر كما اقتنى بعض العلماء مكتبات خاصة مهمة.

القدس وفن العمارة الإسلامية

العمارة الإسلامية في القدس هي امتدادٌ للعمارة الإسلامية العثمانية، والعمارة العثمانية حلقة مهمة من حلقات العمارة الإسلامية عموما. نشأت العمارة الإسلامية -زمنيا- مع الهجرة النبوية وبناء المسجد النبوي في المدينة المنورة، وتمتد حتى العصر الراهن، كما أن للعمارة الإسلامية امتدادا جغرافيا واسعا يمتد من بلاد الملايو والبنغال وتايلاند والفيليبين شرقا إلى الأندلس غربا وهذا الامتداد قديم.

وفي العصر الراهن تنتشر المنشآت الإسلامية في كافة أنحاء المعمورة. ولكن وجود بعض المنشآت لا ينمّ عن هوية إسلامية ما لم ترافقها العادات والأذواق والثقافات الإسلامية. بدأ نشوء المدن الإسلامية ببناء المسجد وما يحيط به من مساكن ومنشآت؛ كالقلعة وسبيل الماء والحمام والقناطر والجسور والمدارس والبيمارستانات والخانات والأسواق.

أصبحت المدينة الإسلامية مميزة المعالم، واضحة الهوية بعد الهجرة النبوية، ثم تكاملت في عهود الخلفاء الراشدين، وازدهرت العمارة الإسلامية في عهد الأمويين حيث استفاد البناؤون المسلمون من التطور العمراني الرومي البيزنطي، وتجلى ذلك المزج بين الفنّ المعماري الإسلامي والفن المعماري البيزنطي في الجامع الأموي بمدينة دمشق، والجامع الأموي بمدينة حلب، وقبة الصخرة والمسجد الأقصى في القدس. ثم تطورت الفنون المعمارية الإسلامية في عهد العباسيين حيث انتشرت المدارس النظامية التي شيدها الوزير نظام الملك السلجوقي، ثم شُيدت المدرسة المستنصرية في بغداد في بداية القرن السابع الهجري، فبلغت بغداد آنذاك درجة رفيعة معبرة عن محتويات العاصمة الإسلامية التي استفادت من المؤثرات المعمارية البيزنطية والساسانية والسلجوقية والهندية.

وبعد ذلك انتقلت عاصمة الخلافة العباسية إلى القاهرة التي أصبحت رمز العاصمة الإسلامية، واستمرت على تلك الحال حتى فتحها السلطان سليم الأول ونقل عاصمة الخلافة الإسلامية إلى مدينة إسطنبول سنة (١٥١٧م). فتطور فن العمارة الإسلامية العثمانية حيث جمع بين فنون العمارة الإفريقية والآسيوية والأوروبية، وتطورت العمارة الإسلامية العثمانية في شكل متلازم مع تطور الدولة العثمانية واتسع نطاقها مع اتساع رقعة الدولة العثمانية. ■

(*) باحث وكاتب متخصص بالتاريخ العثماني / فلسطين.

في الأسحار، وبين المحاريب، فَتّشْ عن رجال الطريق... هؤلاء لا يخذلون، ولا ينكصون... وإذا ما توعَّرَتْ الطريق وطالتْ واستوحشتْ، فهم المؤنسون المساندون، وعنك يذودون، ومعك كلّ صعب يقهرون..!

***

أمام الفروسية الإسلامية

أ.د. محمد عمارة *



في مكة ظهر الإسلام سنة ١٣ ق.هـ سنة ٦١٠ م. ولأنه ﴿لاَ إِكْرَاهَ فِي الدِّينِ﴾(البقرة:٢٥٦).. فلقد كان المسلمون -دائما- يتركون لمن عداهم حتى من المشركين -فضلا عن الكتابيين- حرية الاختيار، ويعلنون قول الله ﷻ: ﴿لَكُمْ دِينُكُمْ وَلِيَ دِينِ﴾(الكافرون:٦)، ﴿فَمَنْ شَاءَ فَلْيُؤْمِنْ وَمَنْ شَاءَ فَلْيَكْفُرْ﴾(الكهف:٢٩).. لأن الإكراه يثمر "نفاقا" لا "إيمانا"!

ومع هذا.. فعلى امتداد ثلاثة عشر عاما -هي عمر الدعوة النبوية بمكة- صب المشركون الوثنيون، بقيادة ملأ قريش وصناديد الشرك فيها، كل ألوان العذاب على الذين اهتدوا إلى الإسلام، وخاصة المستضعفين والفقراء والأرقاء.

ولقد عزل المشركون القلة التي آمنت -مع أهليهم- وحاصروهم في "شعب بني هاشم"، وقاطعوهم اقتصاديا واجتماعيا حتى أشرفوا على الهلاك، فاضطر عدد من المسلمين إلى الهجرة -مرتين- إلى الحبشة، خلال تلك السنوات، فرارا بدينهم وأنفسهم من الاضطهاد والتعذيب.

ولقد تصاعد الحصار للدعوة، وزاد الاضطهاد للمؤمنين بها، حتى دُفعت القلة المؤمنة دفعا إلى الخروج من ديارهم بمكة.. فأخذوا يتسللون إلى المدينة المنورة (يثرب) بعد أن اهتدى نفر من أهلها (الأنصار) إلى دين الإسلام.

وعندما قرر ملأ قريش، وصناديد الشرك فيها توجيه الضربة القاصمة إلى رسول الإسلام وإمام دعوة التوحيد محمد بن عبد الله ﷺ... وأخذوا في المكر والتآمر.. وتقليب الخيارات: أيقتلونه؟ أم يحبسونه؟ أم يخرجونه من مكة؟! ﴿وَإِذْ يَمْكُرُ بِكَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِيُثْبِتُوكَ أَوْ يَقْتُلُوكَ أَوْ يُخْرِجُوكَ وَيَمْكُرُونَ وَيَمْكُرُ اللَّهُ وَاللَّهُ خَيْرُ الْمَاكِرِينَ﴾(الأنفال:٣٠).. أذن الله ﷻ لنبيه

ورسوله بالهجرة من مكة إلى المدينة بعد أن تعاقد سنة ١ ق.هـ مع الأنصار على إقامة الدولة الإسلامية الأولى بالمدينة المنورة.. فهاجر إليها سنة ١ هـ سنة ٦٢٢م، وأقام الدولة، التي ضمنت للدعوة وطنا، والتي تُساس بالدين، وتحرس هذا الدين.

لكن المشركين من قريش، وحلفائهم العرب واليهود لاحقوا المسلمين في مهجرهم الجديد، يريدون القضاء على دعوة الإسلام وعلى الدولة التي أقامها المسلمون لحراسة الإسلام.

وهنا.. أذن الله ﷻ للمؤمنين الذين فُتنوا في دينهم، وسُلبت منهم أموالهم، وأُخرجوا من ديارهم.. أذن لهم في القتال، ردا للعدوان المتواصل، ودفاعا عن الدين والوطن والدولة.. ﴿أُذِنَ لِلَّذِينَ يُقَاتَلُونَ بِأَنَّهُمْ ظُلِمُوا وَإِنَّ اللهَ عَلَى نَصْرِهِمْ لَقَدِيرٌ * الَّذِينَ أُخْرِجُوا مِنْ دِيَارِهِمْ بِغَيْرِ حَقٍّ إِلاَّ أَنْ يَقُولُوا رَبُّنَا اللهُ وَلَوْلاَ دَفْعُ اللهِ النَّاسَ بَعْضَهُمْ بِبَعْضٍ لَهُدِّمَتْ صَوَامِعُ وَبِيَعٌ وَصَلَوَاتٌ وَمَسَاجِدُ يُذْكَرُ فِيهَا اسْمُ اللهِ كَثِيرًا وَلَيَنْصُرَنَّ اللهُ مَنْ يَنْصُرُهُ إِنَّ اللهَ لَقَوِيٌّ عَزِيزٌ﴾(الحج:٣٩-٤٠).

وعلى امتداد سنوات الدعوة الإسلامية في حياة النبي ﷺ بالمدينة المنورة اضطر المسلمون إلى خوض العديد من المعارك والمواقع والغزوات، بعد أن فَرض عليهم المشركون هذا القتال -الذي هو كره لهم-.. والذي لم يكونوا يتمنون اللقاء فيه!.. "لا تتمنوا لقاء العدو، واسألوا الله العافية، فإذا لقيتموهم فاثبتوا، وأكثروا ذكر الله" (رواه الدارمي).

ومع عدالة "القتال الدفاعي" الذي اضطر إليه المسلمون.. ومع وقوفهم -في هذا القتال- عند حدود رد العدوان ﴿وَقَاتِلُوا فِي سَبِيلِ اللهِ الَّذِينَ يُقَاتِلُونَكُمْ وَلاَ تَعْتَدُوا إِنَّ اللهَ لاَ يُحِبُّ الْمُعْتَدِينَ﴾(البقرة:١٩٠).. مع ذلك، فلقد وضع الإسلام لهذا "القتال الدفاعي" الضوابط والأخلاقيات التي صاغها رسول الله ﷺ "دستورا للفروسية الإسلامية" ظهر إلى الوجود، ووضع في الممارسة والتطبيق لأول مرة في تاريخ الحروب والقتال قبل أربعة عشر قرنا من الزمان:

فلا يجوز قتال قوم إلا بعد إعلامهم ﴿وَإِمَّا تَخَافَنَّ مِنْ قَوْمٍ خِيَانَةً فَانْبِذْ إِلَيْهِمْ عَلَى سَوَاءٍ إِنَّ اللهَ لاَ يُحِبُّ الْخَائِنِينَ﴾(الأنفال:٥٨).

ولقد طبق المسلمون هذا التشريع القرآني.. "فما قاتل رسول الله ﷺ قوما حتى يدعوهم" (رواه أحمد والطبراني). والقتال -فقط- ضد المقاتلين.. ولا يتوجه إلى المسالمين غير المقاتلين من الكفار والأعداء.. ولذلك "نهى رسول الله ﷺ عن قتل النساء والولدان" (رواه مالك).

وسَنّ الإسلام والمسلمون "دستورا" لأخلاقيات الحروب والقتال قبل أربعة عشر قرنا؛ فحرّم الخيانة في المغانم، والسرقة من أموال المحاربين، وحرم الغدر حتى بالأعداء، أثناء القتال وحرم التمثيل بجثث القتلى، احتراما لكرامة جثث القتلى الأعداء! وجاءت أوامر الرسول ﷺ للمقاتلين تقرر معالم هذا الدستور: "اغزوا باسم الله، في سبيل الله، تقاتلون من كفر بالله، لا تَغُلُّوا (تخونوا) ولا تغدروا ولا تَمْثُلوا ولا تقتلوا وليدا" (رواه مسلم).

كما أعطى هذا الدستور -دستور الفروسية الإسلامية- الأمن والأمان للرهبان والنساء والصبيان والشيوخ.. أي لكل من لا ينخرط في قتال المسلمين. بل أعطى هذه الحرمة حتى للبيئة والمزروعات، أي لكل ألوان "العمران".

ولقد صاغ أبو بكر الصديق ﷺ -الخليفة الأول- الوصايا العشر لهذا الدستور، عندما قال لأمير جيشه "يزيد بن أبي سفيان" وهو ذاهب إلى الشام لتحريره من الغزاة الرومان:

"إنك ستجد قوما زعموا أنهم حبّسوا أنفسهم لله، فذرهم وما زعموا أنهم حبّسوا أنفسهم له.. وإني موصيك بعشر:

١. لا تقتلن امرأة،

٢. ولا صبيا،

٣. ولا كبيرا هرما،

٤. ولا تقطعن شجرا مثمرا،

٥. ولا تخرّبن عامرا،

٦. ولا تعقرن شاة ولا بعيرا إلا لمأكلة،

٧. ولا تحرقن نخلا،

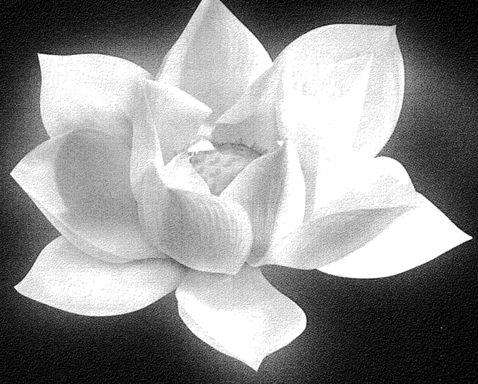
٨. ولا تفرقنّه،

٩. ولا تغلل،

١٠. ولا تجبن" (رواه مالك).

ولأن المسلمين قد جعلوا الحرب "جراحة مفروضة.. ومكروهة" ﴿كُتِبَ عَلَيْكُمُ الْقِتَالُ وَهُوَ كُرْهٌ لَكُمْ﴾(البقرة:٢١٦).. فلقد وقفت حصيلة قتلى كل الغزوات -على عهد رسول الله ﷺ- تلك التي هُزم بها العدوان.. وانتصر بها الإسلام -عند ٣٨٦ قتيلا- منهم ١٨٣ شهيدا مسلما.. و٢٠٣ هم قتلى المشركين..!! بينما أحصى الفيلسوف الفرنسي "فولتير" (١٦٩٤-١٧٧٨م) ضحايا الحروب الدينية النصرانية بين الكاثوليك والبروتستانت -أي داخل النصرانية الأوروبية- فقال: إنهم عشرة ملايين أي ٤٠٪ من شعوب وسط أوربا. ■

(*) كاتب ومفكر إسلامي / مصر.



الأبعاد الإنسانية في الأعمال الخيرية

أ.د. إبراهيم البيومي غانم*

أهم ما يميز العمل الخيري الإسلامي هو أنه "إنساني" يتوجه إلى جميع بني آدم ليسهم في تحقيق معنى عالمية الرسالة الإسلامية، ويبرهن بالفعل -وليس بالقول فقط- على أن خاتم الأنبياء محمد ﷺ أرسله الله "رحمة للعالمين".

ولهذا فإن العمل الخيري الإسلامي مقصد عام وثابت من مقاصد الشريعة، وأعلى مراحله هي العالمية التي هي أيضا أعلى مراحل تحقق المقاصد العامة للشريعة.

هناك رؤى تختزل العمل الخيري الإسلامي في صيغة مساعدات إغاثية وقتية، وتقصره على فئة من الناس دون غيرها. ولكن هذه الرؤى غير صحيحة، والصحيح هو ما توضحه مقاصد العمل الخيري في إطار النظرية العامة للمقاصد الشرعية. هنا نقدم محاولة لبيان مقاصد العمل الخيري التي تنقله إلى حيز التطبيق العملي، بعد أن أوضحنا في المقال السابق بمجلتنا الغراء "حراء" كيف أن العمل الخيري مقصد عام وثابت من المقاصد العامة للشريعة.

مقاصد الخير الإسلامي

للعمل الخيري الإسلامي أربعة مقاصد هي: الحرية، والتمدين، والسلم الأهلي، ومحاربة الفقر. وإليك فيما يلي بعض التفصيل لكل مقصد من المقاصد الخمسة للعمل الخيري التي اجتهدنا في استنباطها، وبيان صلة كل منها بالعمل الخيري ذاته باعتباره

مقصـــدا عاما، وبيان صلـــة العمل الخيري بمقاصـــده هو ذاته.

١- مقصد الحرية

هو أول مقاصد العمل الخيري الإسلامي وأعلاها منـــزلة. ففي مقدمـــة الأهداف التي يتوجه إليها العمل الخيري أن يســـهم في "تحرير" النفس الإنســـانية من الأغلال التي قد تكبلها لسبب أو لآخر، وتعوق حركتها، وتهدر طاقاتها. بعض هذه القيود معنوي ينتج عن ارتكاب الذنوب والآثام، وبعضها مادي ينتج عن حب المال وتمكن شـــهوة التملك من الإنسان، وبعضها سياسي ينتج عن الحروب وصراعـــات القوة . ونتيجة لتلك الأســـباب فإن بعض بـــني آدم تقضي عليهم الظروف الاجتماعية والسياســـية والاقتصادية التي يعيشونها أن تكون حريتهم مقيدة معنويا ومنهم العصـــاة والمذنبون، أو مقيدة ماديا، ومن هؤلاء: الرقيق والفقراء واليتامى والمســـاكين والأسرى والجهلة والمرضى والمدينون؛ وفي جميع هذه الحالات يجب شرعا المساعدة في تحريرهم ورفع الإصر عنهـــم وتحطيم الأغلال التي وضعت عليهـــم؛ كي يكونوا محلا صحيحا للإيمان، وكي يكونوا قادرين على اســـتقبال التكاليف الشرعية وأداءها كما يريد الله ﷻ؛ لأن غير الحر يكون غير قادر قدرة الحر على إقامة التكاليف الشـــرعية -أو هو ليس مثله على الأقل- ولهذا يريد الإسلام أن يكون الإنسان حرا أولاً، ثم يخاطبه بالأحكام الشرعية ويكلفه بها.

ولسائل أن يسأل: كيف يكون مقصد الحرية من مقاصد العمل الخيري؟ وكيف يسهم العمل الخيري في تحقيق هذا المقصد؟ ونجيب فنقول: دلت آيات القرآن الكريم على أن من أعظم القربات تحرير الأرقاء، ومن ذلك ما جاء النص عليه في ســـورة البلد وعبرت عنه بـــ"فك رقبة". ولسنا مع قصر معنى فك الرقبة على " تحرير الرقيق" أو "عتق العبيد والإماء" كما ذهب أغلب المفسرين. فسورة البلد مكية، ومن الأهداف العامة للسور المكية أنها تمهد لاستقبال العقيدة الجديـــدة، وتهيئ النفوس كي تثبت فيها هذه العقيدة على صفحة نقية. وضمن هذه الغاية نعت آيات السورة على بعض كفار مكة الذين أنفقوا أموالهم الكثيرة للمباهاة والمفاخرة ﴿يَقُولُ أَهْلَكْتُ مَالاً لُبَدًا﴾(البلد:٦)، ظنا منهم أن مجرد إنفاق المال الوفير يضمن لهم الفوز والنجاة. ولكن لما لم يكن هذا الإنفاق متضمنا "فك الرقاب" خاب ســـعيهم. وعبر القرآن عن هكذا إنفاق بـــ"الإهلاك" إظهارا لعدم الاكتراث. والنتيجة هي أن من أنفق ماله دون أن يخصص جزءا منه للمشـــاركة في فك الرقاب؛ أي تحريرها، فلن يكون من الناجين.

يقول الإمام محمد عبده في تفسيره: "ورد في فضل العتق ما بلغ معناه حد التواتر، فضلا عما ورد في الكتاب، وهو يرشد إلى ميل الإسلام إلى الحرية، وجفوته للأسر والعبودية".

فكّ الرقبة بالمعنى الشامل

ونضيـــف إلى ما ســـبق أن عموم دلالة "فـــك الرقبة" لا يقتصر على تحريرها من أســـر العبودية والرق بالمعنى الاصطلاحي الذي قصده أغلب المفســـرين والفقهاء -وكان أكثر الرق قديما بسبب الحروب- وإنما يشمل أيضا فك الرقبة من كل ما يقيدها؛ فكها من قيد الجهل؛ فالجهل يقيد حرية الإنسان، كما يقيد الرق حريته. وفك الرقبـــة يكون أيضا من قيد المرض؛ فالمرض قيد على حرية الإنســـان وحركته، وقد يقعده أو يمنعه من الاستمتاع بكثير من الحريات التي لا تكتمل إنسانية الإنسان إلا بها. ويكون فك الرقبة من قيد الديون؛ فالديون تقيد الحرية أيضا وتستذل المدين. وأخيرا وليس آخرا: يكون فك الرقبة من قيود الاســـتبداد التي تمارسها السلطات الطاغية؛ سواء كانت سلطة التقاليد والآباء الأولين أو الحكام المتجبرين أو الخرافات والأوهام والأســـاطير؛ التي تستذل الكبير وتســـترذل الصغير. وتلك هي أهـــم الحالات الاجتماعية التي يكون بعض بني الإنســـان عرضة لها في كل زمان ومكان.

وقد صنفت آيات ســـورة البلد الأعمال التي تستهدف فك الرقاب ضمن "أعمال الخير" الطوعية التي يقوم بها الإنسان باختياره وفطرته، وهذا هو معنى قوله تعالى: ﴿وَهَدَيْنَاهُ النَّجْدَيْنِ﴾(البلد:١٠)؛ أي طريق الخير الذي يشمل مثل الأعمال المذكورة، وطريق الشر المقابل لذلك. ولما كان الإســـلام متشوفا إلى الحرية، فقد جعل المســـارعة في "فك الرقبة" بالمعنى الواسع الذي ذكرناه من أفضل الأعمال الخيرية الطوعية؛ ولهذا أكثر المســـلمون على مر التاريخ من بذل الصدقات، وتخصيص قســـم معتبر من ريوع الأوقاف للإنفاق على التعليم والعلاج وعتق الرقيق وافتداء الأسرى من يد الأعداء حتى لا يصيروا رقيقا، ومساعدة أصحاب المغارم والديون.

ونجـــد في آراء واجتهادات علماء الســـلف الكبار من أمثال الإمـــام أبي حنيفة ما يدل على إدراكهم العميق للحرية باعتبارها جوهر الرسالة الإسلامية إلى الإنسانية كلها؛ فمن غير الجائز عند أبي حنيفة -مثلاً- الحجر على الســـفيه، والحجر نوع من أنواع تقييد حرية الإنســـان في التصرف. ويعلـــل أبو حنيفة ذلك بأن الحجر إهدار لآدمية هذا السفيه! ويقول: إن الحجر عليه "إلحاق له بالبهائم"، والضرر الإنســـاني الذي يترتب نتيجة الحجر عليه

أكبر بكثير من الضرر الذي يترتب على سوء تصرفه في أمواله، ولا يجوز دفع الضرر الأقل بضرر أكبر منه.

٢- مقصد التمدين وعمارة الأرض

يسهم العمل الخيري في تحقيق درجة أرقى من التمدن الإنساني ورفع كفاءة المجتمعات في إعمار الأرض. ويأخذ إسهام العمل الخيري في تمدين المجتمعات صورا متعددة: منها ما هو مادي في شكل تبرعات ومساعدات تعين غير القادرين على تحسين مستوى معيشتهم، ولا تتركهم نهبا للمرض أو للجهل أو للفاقة والعجز، ومنها ما هو غير مادي في شكل مساهمات معرفية وعلمية تهدف إلى تنوير المجتمع ورفع قدرات أبنائه بصفة عامة، وغالبا ما كان تمويل إنتاج العلم والمعرفة على حساب العمل الخيري تحديداً في الاجتماع السياسي الإسلامي إلى ما قبل نشوء الدولة الوطنية الحديثة.

ويمكننا القول باطمئنان: إن أغلبية صور الأعمال الخيرية التي أسهمت في "تمدين" المجتمعات الإسلامية، وفي بناء حضارتها الشامخة، قد تجلت في "نظام الوقف" في معظم مراحل تاريخ هذه المجتمعات. فمن خلال الأوقاف وبتمويل منها نشأت أغلبية مؤسسات العلم والثقافة؛ داخل المساجد وخارجها في صورة مدارس ومعاهد، وكليات جامعية للمتخصصين، ودروس ومكتبات عامة. ومن بين أولئك الذين تلقوا تعليمهم في تلك المؤسسات الخيرية تخرج رواد كثيرون في مجالات علمية وتطبيقية متنوعة، شملت الطب والهندسة والكيمياء والزراعة والصناعة والفلك والصيدلة، إلى جانب مختلف الفنون والآداب والمعارف النظرية الأخرى.

العمل الخيري الإسلامي ليس "مرحلة أولية" من مراحل تطور العمل الاجتماعي الطوعي المعني بالشأن العام، وإنما هو ركن أصيل في بناء المجتمع وفي تمدينه وبناء تقدمه العلمي والمعرفي، كما أنه يتسع معناه لمختلف المراحل التي يشيرون إليها. وقد أثبتت التجربة التاريخية أن تطبيقاته تشمل مختلف مجالات الحياة، بما في ذلك الأعمال الإغاثية -ولها أهميتها التي لا يجادل فيها أحد- والأعمال التنموية، وأنشطة التأهيل والتمكين، والدفاع عن الحقوق، وتحصيل الحقوق الأساسية، والدفاع عنها. وثمة العديد من الأدلة والبراهين التي تثبت صحة ما نذهب إليه. فالمدارس والمستشفيات والمشاغل ومراكز التدريب المهني، ودور الإيواء، وكثير من الأشغال العامة (الطرق والقناطر وقنوات المياه والإضاءة...إلخ) كل ذلك أسهمت الأعمال الخيرية الإسلامية في تشييده وتحول العمل الخيري في هذه المجالات وفي غيرها إلى نظام مؤسسي متكامل الأركان إداريا واقتصاديا وقانونيا، وتجسد في "نظام الوقف".

٣- مقصد السلم الأهلي

يعزز العمل الخيري حالة السلم الأهلي بين الفئات الاجتماعية المختلفة بطرق متعددة، لعل من أهمها أن حصيلة المبادرات الخيرية تشكل شبكة من العلاقات التعاونية، وتدعم روح الأخوة والتراحم والتعاطف في الاجتماع السياسي الإسلامي بصفة عامة. وإلى ذلك أشار العلامة ابن عاشور حيث يقول: "عقود التبرعات قائمة على أساس المواساة بين أفراد الأمة، الخادمة لمعنى الأخوة؛ فهي مصلحة حاجية وتحسينية جليلة، وأثر خُلُق إسلامي جميل؛ فبها حصلت مساعفة المعوزين وإغناء المقترين وإقامة الجم من مصالح المسلمين".

وإذا كان الإنسان "ذئبا" لأخيه كما يرى بعض فلاسفة النهضة الأوربية الحديثة مثل "توماس هوبز" مثلا، فهو أخ للإنسان في الرؤية الإسلامية؛ يسعى لإسعاده ويتعاون معه على عمل الخير، ومحرمٌ عليه أن يتعاون معه على الشر أو الإضرار بالغير. قال تعالى: ﴿وَتَعَاوَنُوا عَلَى الْبِرِّ وَالتَّقْوَى وَلاَ تَعَاوَنُوا عَلَى الإِثْمِ وَالْعُدْوَانِ﴾(المائدة:٢).

وقد تكررت وصايا الرسول ﷺ التي تحض على فعل الخير لنفع الناس -مطلق الناس- قال ﷺ: "خير الناس، أنفعهم للناس" (رواه الطبراني والضياء). وقال: "كل معروف صدقة" (رواه البخاري). كما حض النبي على المبادرة بفعل الخير ولو كان شيئا بسيطا جدا، ومن ذلك قوله ﷺ: "لا تحقرن من المعروف شيئاً ولو أن تلقى أخاك بوجه طليق" (رواه مسلم)، وقوله: "اتق النار ولو بشق تمرة"(متفق عليه)، واعتبر الرسول ﷺ أن من الصدقات التبسم في وجه

مقصد الحرية هو أول مقاصد العمل الخيري الإسلامي وأعلاها منزلة. ففي مقدمة الأهداف التي يتوجه إليها العمل الخيري أن يسهم في "تحرير" النفس الإنسانية من الأغلال التي قد تكبلها لسبب أو لآخر، وتعوق حركتها، وتهدر طاقاتها.

الآخر، فقال: "تبسمك في وجه أخيك لك صدقة" (رواه الترمذي)، وغير ذلك كثير من الأحاديث الشريفة التي تركز على المبادرة بعمل الخير بشكل عام، وتنبّه إلى ضرورة أن ينتشر على أوسع رقعة ممكنة من النسيج الاجتماعي عبر المبادرات التي يستطيع أن يقوم بها كل إنسان مهما بلغ ضيق ذات يده؛ إذ أرشد ﷺ إلى كثير من المبادرات الخيرية قليلة التكلفة (شق تمرة)، أو التي لا تكلف شيئا ماديا يذكر (وجه طلق) أو (البسمة الصدقة)؛ وذلك لما لهذه المبادرات الخيرية المتنوعة في قيمها المعنوية والمادية من تأثير كبير في إشاعة جو من الطمأنينة والسلام والأمن بين أعضاء المجتمع مهما اختلفت مواقعهم الوظيفية، ومهما تباينت مراتبهم الاجتماعية. ومن ذلك ومن مثله عرفنا أن من مقاصد العمل الخيري الإسهام في تعزيز السلم الأهلي، وتقوية شبكة العلاقات التعاونية بين أبناء المجتمع.

ويسهم العمل الخيري في تحقيق مقصد "السلم الأهلي" بصور أخرى متعددة، منها: المسارعة إلى إزالة نقاط التوتر من المجتمع، ودفع الحراك الاجتماعي.

بالنسبة للمسارعة إلى إزالة نقاط التوتر من المجتمع، نجد أن العمل الخيري يسهم فيها بشكل مباشر؛ وذلك في أوقات الأزمات التي قد يتعرض لها المجتمع، أو عند وقوع الكوارث والأوبئة التي قد تصيب فئة أو أكثر من فئات المجتمع. وهنا تظهر أهمية الأعمال الخيرية الإغاثية التي تقدم المساعدات العاجلة من كساء وغذاء ومأوى وإسعافات أولية وما شابه ذلك.

ويحدث العمل الخيري أثره الإيجابي ليس فقط في الوسط الاجتماعي الذي يقدم له الفرد مبادرته الخيرية، وإنما على معنويات فاعل الخير نفسه؛ إذ يكون عمل الخير سببا من أسباب سعادته في الحياة، وتزكية نفسه وانشراح صدره وتقوية حبه للآخرين، والسعي في جلب النفع لهم، ودفع الأذى عنهم.. إلى جانب أن عمل الخير يشعر فاعله بمكانته ودوره في محيطه الذي يعيش فيه، ويدعم إحساسه بأن لديه مقدرة -حتى وإن كانت محدودة- على مواجهة مشكلات مجتمعه والإسهام في إصلاحه.

وأما عن أثر العمل الخيري في دفع الحراك الاجتماعي، فيتجلى بشكل واضح في نظام الوقف. وقد كشفت التجربة الحضارية الإسلامية عن أنه كلما زاد العمل الخيري وتشعبت موارده وتعددت مؤسساته والخدمات العامة التي توفرها، قل نطاق الاستبعاد الاجتماعي لبعض الفئات بسبب الفقر أو العجز، وتراجعت بالتالي فرص القلاقل والنزاعات الأهلية والانقسامات الأهلية، وتعزز الاستقرار، وتهيأت فرص الإبداع والابتكار.

٤- مقصد محاربة الفقر

العمل الخيري بمختلف صوره هو أحد السياسات الاجتماعية التي تستهدف القضاء على الفقر، وتسعى بشكل دائم ومستمر لتجفيف منابعه، وإخراجِ من يدخل في دائرته، وإعادةِ إدماجه في دورة العمل والإنتاج؛ كي يصبح معتمِدا على ذاته، مسهما في بناء مجتمعه وفي مساعدة غيره، خاصة أن علة الفقر تصحبها علل أخرى كثيرة مثل الجهل والمرض والبطالة والجريمة. وهي علل ذات آثار سلبية، تدمر قدرات المجتمع، وتعوقه عن التطور والنمو.

ويسعى النظام الإسلامي عامة إلى اجتثاث الفقر من المجتمع بوسائل متعددة، وكلما نبتت بوادر جديدة للفقر -وهذا أمر يتكرر ولا يمكن تحاشيه- أسرع إلى محاصرته وتجفيف منابعه. والمثل الأعلى للمجتمع الإسلامي من هذه الزاوية هو أن لا يكون فيه فقراء.

إن أول مصرف للزكاة المفروضة هم "الفقراء والمساكين" بنص قوله تعالى: ﴿إِنَّمَا الصَّدَقَاتُ لِلْفُقَرَاءِ وَالْمَسَاكِينِ﴾(التوبة:٦٠). ووردت الزكاة في ٣٢ موضعا في القرآن الكريم، منها ٢٧ موضعا جاءت مقرونة بالصلاة، ووردت في أكثر من ٨٠ موضعا إذا أضفنا إلى ذلك المصطلحات الأخرى التي تشترك معها كليا أو جزئيا في المعنى مثل النفقة والصدقة التي استعملت للحض على معالجة مشكلة الفقر على وجه التحديد.

إلى جانب الزكاة المفروضة حثت شريعة الإسلام على المبادرة بالأعمال الخيرية الطوعية للإسهام في مواجهة مشكلة الفقر، ومن أهم صور هذه الأعمال الخيرية: الصدقة التطوعية والوقف والهبة والانتفاع بفائض رؤوس الأموال والمنح التي تعطى لغير القادرين

> **العمل الخيري الإسلامي ليس "مرحلة أولية" من مراحل تطور العمل الاجتماعي الطوعي المعني بالشأن العام، وإنما هو ركن أصيل في بناء المجتمع وفي تمدينه وبناء تقدمه العلمي والمعرفي.**

بدون تحصيل فوائد منهم (القرض الحسن). ومن ذلك كله عرفنا أن محاربة الفقر مقصد أساسي من مقاصد العمل الخيري. وتتجلى في ميدان مكافحة الفقر الجدوى الاجتماعية والاقتصادية للعمل الخيري الذي يثاب فاعله بالأجر الجزيل من رب العالمين.

ويمتلئ تراثنا الفقهي بمطارحات عميقة حول مشكلة الفقر المسائل والمشاكل التي ترتبط به؛ بدءا بتعريف الفقر ما هو؟ مرورا بكيفية قياسه وما أهم مؤشراته، وكيفية مواجهته، وصولا إلى مناقشات فلسفية عميقة حول المفاضلة بين الغنى والفقر، وأيهما بحاجة إلى الآخر: الغني إلى الفقير، أم الفقير إلى الغني؟ أم إن كلا منهما بحاجة إلى الآخر؟

ومن الملفت للانتباه أن ما تتناوله البحوث والدراسات الاقتصادية الحديثة تحت عنوان معضلة قياس الفقر، وكيفية تحديد "خط الفقر"، قد تناولها فقهاء الإسلام منذ قرون طويلة خلت. فالحسن البصري وأبو عبيدة مثلا كانا يحددان ما نسميه اليوم "خط الفقر" برصيد نقدي مقداره أربعون درهما، واستدلا على ذلك بقوله ﷺ: "لا يسأل رجل أوقية أو عدلها إلا سأل إلحافا" (رواه أحمد والنسائي). وذهب الحنفية إلى أن الفقير هو من يملك أقل من نصاب الزكاة؛ ربع أو خمس النصاب كما قال البصري وأبو عبيدة، والمسكين عندهم هو من لا يملك شيئا. أما الطبري فيرى أن الفقير هو المحتاج المتعفف. وجمهور المالكية والشافعية والحنابلة يقولون: إن معنى الفقر مرتبط بمستوى الكفاية، ومدى تلبية احتياجات الإنسان الأساسية.

وثمة من قدماء العلماء من اهتم بتحليل ظاهرة الفقر تحليلا اجتماعيا واقتصاديا؛ بل ونجد في كتب التراث بحوثا شبه ميدانية تتضمن معلومات وآراء تساعد على فهم الأبعاد المختلفة التي تنطوي عليها مشكلة الفقر، وكيف تؤثر على بعض الفئات وخاصة العلماء والمثقفين، وكيف تؤثر أيضاً على مجمل العلاقات الاجتماعية والاقتصادية.

وسائل محاربة الفقر

وللفقر صلة وثيقة بالقهر، وليس فقط بالجهل وبالمرض. ولهذا كان "التصدي للفقر" في مقدمة أولويات العمل الخيري في الممارسة الاجتماعية في الاجتماع السياسي الإسلامي، وتجلى ذلك بأوضح ما يكون في نظام الوقف الإسلامي عبر أغلب مراحله التاريخية. وبفضل تراكم الخبرات الاجتماعية في ممارسة العمل الخيري تبلورت أربع وسائل لتنظيم إسهام العمل الخيري في محاربة الفقر، واختصت كل وسيلة بشريحة أو أكثر من شرائح الفقراء.

١-المساعدات النقدية التي تقدم للفقراء موسميا، وخاصة في الأعياد والمناسبات الدينية، أو تقدم لهم في أوقات حاجتهم إليها.

٢-المساعدات العينية التي تشمل: الطعام، والماء، والكساء، وبعض أدوات الإنتاج البسيطة، والدواء، والمأوى أحيانا، وهي تقدم للفقراء والمعوزين موسميا أيضا أو في أوقات حاجتهم إليها؛ شأن المساعدات النقدية.

٣-المساعدات المؤسسية؛ ونقصد بها تلك المساهمات التي يقوم بها فاعلو الخير من أجل دعم أو تمويل أو إنشاء مؤسسات تقدم خدمات عامة مثل: المساجد والمدارس والمستشفيات ومستوصفات العلاج ودُور الرعاية الاجتماعية التي تقدم خدماتها للأيتام والعجزة والأرامل وذوي الاحتياجات الخاصة.

٤-المساعدات الفنية، وتشمل ما يتطوع به فاعلو الخير من خبرات واستشارات ومشاركات يقدمونها بدون أجر مادي، ويسهمون بها في تدريب وتأهيل الراغبين في العمل ولكنهم غير قادرين على تحمل نفقات التأهيل المهني اللازم لدخولهم سوق العمل.

وجرى تمويل هذه المنظومة الخيرية عبر طرق متعددة منها: الزكاة والوقف والوصايا والهبات الخيرية والنذور، والكفارات، والصدقات التطوعية الأخرى. ■

(*) أستاذ العلوم السياسية، جامعة القاهرة / مصر.

المصادر

(١) الأعمال الكاملة، للإمام محمد عبده، تحقيق وتقديم محمد عمارة، دار الشروق، القاهرة، ط٢، ٢٠٠٦.

(٢) مقاصد الشريعة الإسلامية: دراسات في قضايا المنهج ومجالات التطبيق، لمحمد سليم العوا (محرر)، مؤسسة العرفان للتراث الإسلامي، لندن، ٢٠٠٦.

(٣) الأوقاف والسياسة في مصر، لإبراهيم البيومي غانم، دار الشروق، القاهرة.

(٤) أعمال ندوة "مؤسسة الأوقاف في العالم العربي والإسلامي"، بغداد، معهد البحوث والدراسات العربية، المنظمة العربية للتربية والثقافة والعلوم، ١٤٠٣هـ-١٩٨٣م.

(٥) إسهام الوقف الإسلامي في الإدارة المتكاملة لمصادر المياه، في: المجلة الاجتماعية القومية، إبراهيم البيومي غانم، االقاهرة ، العدد:٢، المجلد: ٤٤، مايو ٢٠٠٧.

(٦) مقاصد الشريعة الإسلامية، لمحمد الطاهر بن عاشور، مكتبة الاستقامة، تونس، ط:١، ١٣٦٦هـ.

(٧) الحرمان والتخلف في ديار المسلمين، لنبيل صبحي الطويل، كتاب الأمة، قطر، ط٢، ب ت، ٧٥.

(٨) شبهات حول الإسلام، لمحمد قطب، دار الشروق، القاهرة، ١٤٠٣هـ-١٩٨٣م.

(٩) الاكتساب في الرزق المستطاب، لمحمد بن الحسن الشيباني، تلخيص محمد بن سماعة، هدية مجلة الأزهر - جمادى الأولى ١٤١٦هـ-١٩٩٥م.

(١٠) الفلاكة والمفلوكون، لشهاب الملة والدين أحمد بن علي الدلجي، تقديم: زينب محمود الخضيري، الهيئة العامة لقصور الثقافة، القاهرة، ٢٠٠٣.



السِّلم في الإسلام
مصدره وضماناته

أ.د. محمد سعيد رمضان البوطي*

يقول الله ﷻ في محكم كتابه: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا ادْخُلُوا فِي السِّلْمِ كَافَّةً وَلاَ تَتَّبِعُوا خُطُوَاتِ الشَّيْطَانِ إِنَّهُ لَكُمْ عَدُوٌّ مُبِينٌ﴾(البقرة:٢٠٨)

هذه دعوة صريحة واضحة من الله ﷻ، موجهة إلى عباده المؤمنين أن يقيموا علاقاتهم بعضهم مع بعض على أساس من البر والسلم. وجاء التعبير عن ذلك بكلمة ﴿ادْخُلُوا﴾ الدالة على الأمر بالتوجه إلى هذا المبدأ الإنساني الشامل، بطواعية ورغبة ذاتية وقناعة داخلية.

ولكن لماذا جاء الأمر موجَّها إلى المؤمنين دون غيرهم؟ لماذا لم يقل مثلا: يا أيها الناس ادخلوا في السلم كافة؟

والجواب: أن الإنسان -بمقتضى ما رُكّب فيه من الرعونات والأنانية وحب الأَثَرة والخضوع للأهواء- ميّال إلى التنافس مع الآخرين وإلى الأثرة وحب الانتصار للذات. وهي في مجموعها طبائع تبعث على التصادم، وتوتّر العلاقات، والخصام وسفك الدماء، بدلا من التآلف والمسالمة والسير في طريق التعاون والإيثار. وهو ما قد تنبأت به الملائكة عندما قالوا لله ﷻ، فيما قص علينا البيان الإلهي من كلامهم: ﴿أَتَجْعَلُ فِيهَا مَنْ يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ الدِّمَاءَ﴾(البقرة:٣٠)

فما الذي يذيب في كيان الإنسان هذه الرعونات، وما الذي يحيل مشاعر الأنانية في كيانه إلى غيرية، ويحيل الأثرة إلى إيثار، والخصام إلى ألفة، والتصادم إلى مسالمة وتعاون؟

إن الذي يقضي على ذلك كله في كيان الإنسان، يقظةُ الفطرة الإسلامية بين جوانحه، ولن تستيقظ هذه الفطرة بين جوانحه ولن تعمل عملها في القضاء على تلك الطباع إلا بنور من الهداية الإسلامية. فمن لم يكن قد استضاء كيانه العقلي والوجداني بعدُ بقبس وهاج من هذا النور، هيهات أن ينقاد لمن يدعوه إلى الدخول في ساحة السلم مع الآخرين، متخليا عن رعوناته وعصبيته وأهوائه.

فمن أجل ذلك توجه الخطاب الرباني الآمر بالدخول مع الآخرين في ساحة السلم هذه، إلى المؤمنين بالله دون غيرهم. ومن المعلوم أن الإيمان بالله أخص من الإسلام. فكل من آمن بالله تعالى لابدّ أن يكون مسلما له، ولكن ليس كل من كان مسلما لله في ظاهره مؤمناً بالله -بالضرورة- في باطنه، إذ قد يكون منافقا.

غير أن فينا من قد يسأل: فما هو مصدر تأثير الاستسلام الداخلي لسلطان الله ووحدانيته في النفس، على مدّ رواق السلم الخارجي بين الناس بعضهم مع بعض؟

والجواب: أن من عرف الله إلهاً واحدا متصفا بكل صفات الكمال منـها عن كل صفات النقصان، عرف نفسه عبدا مملوكا له ﷻ.

فإذا استقرت هذه المعرفة في وعي الإنسان ووجدانه، تهذب كيانه وغاضت رعوناته وغابت أنانيته في ضرام خشيته وتعظيمه لمن هو عبده ومملوكه.. وتلك هي التزكية التي يركز عليها كثيرا البيان الإلهي في القرآن، بأسلوب الأمر آناً، وبأسلوب المدح لمن اشتغلوا بتزكية نفوسهم آناً آخر.

إن صاحب هذه المعرفة المستقرة في عقله والمهيمنة على وجدانه، يصبح رباني التصرف والسلوك، فلا يقوم ولا يقعد ولا يعطي ولا يأخذ ولا ينطق ولا يسمع إلا بالله ﷻ، لأنه على يقين تام بأنه كتلة ضعف وعجز وذل وفقر، لا يتأتى منه شيء، ولكنه بالمدد

الإلهي يغدو قادرا على كل شيء، وبالمدد الإلهي يتقلب في أعمال السوق وتجاراتها وصناعاتها، وبالمدد الإلهي يعقل وينطق ويبصر ويسمع. ولعل هذا من بعض معنى كلام الله في الحديث القدسي: ".. وما يزال عبدي يتقرب إليّ بالنوافل حتى أحبه، فإذا أحببته كنت سمعه الذي يسمع به، وبصره الذي يبصر به، ويده التي يبطش بها، ورجله التي يمشي بها، ولئن استعاذ بي لأعيذنه" (رواه البخاري).

فلنتأمل في حال هذا الإنسان الرباني ونظره إلى عباد الله وطريقة معاملته لهم، وهو يقرأ قول الله ﷻ: ﴿وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِي آدَمَ وَحَمَلْنَاهُمْ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ وَرَزَقْنَاهُمْ مِنَ الطَّيِّبَاتِ وَفَضَّلْنَاهُمْ عَلَى كَثِيرٍ مِمَّنْ خَلَقْنَا تَفْضِيلاً﴾(الإسراء:٧٠)، وهو يقرأ أو يسمع حديث أنس ﷺ عن رسول الله ﷺ أنه قال: "الخلق كلهم عيال الله فأحبهم إلى الله أنفعهم لعياله" (رواه أبو يعلى والبزّار). لا ريب أنه ينظر إلى المؤمنين المستقيمين من عباد الله نظرة توقير وحب، ويعطيهم من نفسه وإمكاناتها كل عون، وينظر إلى الفاسقين والتائهين والضالين -على اختلاف فئاتهم- نظرة إشفاق ورحمة، ويذهب في نصحهم بدافع من الرحمة بهم والغيرة عليهم كل مذهب. فإن هم استجابوا فرح باستجابتهم، وإن هم أعرضوا عنه وركبوا رؤوسهم دعا الله بالهداية لهم.

ولقد كان أول وفد وَفَدَ إلى رسول الله من الحبشة ليعلن أفرادُه تجديدَ إيمانهم بالله ووحدانيته ورسله، من هؤلاء الربانيين الذين ينظرون إلى عباد الله -أيا كانوا- هذه النظرةَ.. فقد أقبل إليهم المشركون بعد خروجهم من عند رسول الله، ساخرين شاتمين، وقال لهم أبو جهل: ما رأينا ركبا أحمق منكم، أرسلكم قومكم تعلمون خبر هذا الرجل فلم تطمئن مجالسكم عنده حتى فارقتم دينكم! فقالوا: "سلام عليكم لا نجاهلكم، لنا ما نحن عليه ولكم ما أنتم عليه، لم نأل أنفسنا خيراً" (رواه ابن إسحاق). ولو أن رجال هذا الوفد تلقَّوا سخرية المشركين وشتائمهم، بطبائعهم ومشاعرهم البشرية بعيداً عن الاصطباغ بحقيقة العبودية لله، لبادلوهم الشتائم بمثلها بدلاً من السلام الذي قابلوه به. ولتحكمتْ بهم حظوظ النفس وعوامل الانتصار للذات.

الخلق عيال الله

ولقد ذكروا في سيرة العالم الرباني الجليل سيدي الشيخ معروف الكرخي، أنه كان يسير ذات يوم مع ثلة من تلاميذه على شاطئ دجلة، فرأى أحدهم في داخل نهر دجلة سفينة عليها ثلة من الشباب يقصفون ويلهون، فقال للشيخ: يا سيدي ألا ترى إلى هؤلاء الفاسقين الضالين، ادع الله عليهم. فرفع الشيخ يده قائلا: اللهم كما أدخلت السرور على أفئدتهم في الدنيا فأسألك أن تدخل السرور على أفئدتهم في الآخرة أيضا. إنه لم يكن ينظر إلى أولئك الذين كانوا يمارسون المجون واللهو، بعين بشريته التي من شأنها أن تخلط الانتصار لدين الله بالانتصار للنفس ورعوناتها وأنانيتها، ولكنه كان ينظر إليهم بمنظار عبوديته لله خالصة عن الشوائب.. وحقيقة العبودية لله رَحِمٌ بينه وبين الناس جميعا على اختلاف توجهاتهم، فكان الشأن في هذه الرحم أن تبعثه على الرحمة بهم والشفقة عليهم، ومن ثم توجه إلى الله لهم بهذا الدعاء. وهو -كما نلاحظ- دعاء لهم بالهداية والمغفرة، لأن الله لن يدخل على أفئدتهم السرور في الآخرة إلا لأنه قد هداهم وعفا عنهم في الدنيا.

أرأيتم إلى هذا السّلم الذي انبثق من إيمان المؤمنين الصادقين بربوبية الله الفرد الصمد لهم، ومن ثم بعبوديتهم لله ﷻ، فنظروا إلى الأسرة الإنسانية كلها من خلال قول رسول الله في الحديث الذي سبق ذكره: "الخلق كلهم عيال الله، فأحبُّهم إلى الله أنفعُهم لعياله"، فطهرت قلوبهم بذلك من الشحناء والبغضاء والعصبية للذات، وغدت بذلك وعاء لمحبة الله ﷻ، ثم تفرعت عن جذع هذه المحبة القدسية فروع لا حصر لها من محبة عباد الله والشفقة عليهم والرأفة بهم... أقول أرأيتم إلى هذا السّلم الذي انبثق سلطانه من إيمان هؤلاء المؤمنين بالله ﷻ، أفكان من الممكن انبثاقه من نفوس أناس لم تهيمن عليها حقائق الإيمان بالله، ومن ثم لم تصطبغ بعد بصبغة العبودية لله؟ إن الخطاب الرباني مهما توجه إلى هؤلاء الناس آمرا لهم بالدخول في السلم، فإن الاستجابة لن تكون للأمر الصادر من لدنه، وإنما تكون الاستجابة لرغائب أهوائهم وعصبياتهم، ولوحي استكبارهم على الآخرين. وهي في مجموعها رعونات لا يذيبها إلا مشاعر العبودية لله ﷻ.

لماذا شرع الجهاد القتالي

لعل في الناس من يقول: فإذا كان الإيمان بالله هو المدخل الذي لا بديل عنه إلى السلم، وإذا كان الإسلام إنما جاء لمدّ رواق السلم في العالم، فلماذا شرع الجهاد القتالي إذن؟ ولماذا توجهت جيوش المسلمين بأسلحتها إلى كل جهات العالم؟

والجواب: لماذا كان القصاص هو الشرعة التي لا بدّ منها لحماية الحياة؟ لماذا كان العقاب هو السبيل الذي لا بدّ منه

للقضاء على الجريمة؟ رواق السلم العالمي ممتد بأمر من الله ﷻ، وضمانات بقائه ورسوخه مشروعة، صدر الأمر الإلهي برعايتها والسهر على تنفيذها. وإن من الضمانات لبقائه الضرب على يد كل من أراد بهذا الرواق سوءا وتوجه إلى العبث به.

إن الجهاد القتالي الذي شرعه الله ﷻ، لم يُقصد به يوما ما التضييق من الحريات التي يتمتع بها الناس، و لم يقصد به جرّهم عنوة إلى معتقد لا يريدونه، أو نظام لا يستسيغونه، وإنما شرعه الله تحصينا لساحة السلم أن لا تمتد يد العبث بها، وأن لا ينتقص من أطرافها، أليس في الدنيا طغاة يطمعون بحقوق الآخرين ويستعملون إمكاناتهم وقوتهم في اقتناصها، كم من أوطان لمستضعفين احتلت، وكم من أموال لهم اغتصبت، وكم من أعراض انتهكت، وكم من حريات صودرت. فما هي العين الساهرة التي لابد منها لحراسة الأوطان والأموال والأعراض والحريات؟ إنها الشريعة الإسلامية الغراء التي ابتُعِثَ بها خاتم الرسل والأنبياء. لقد فتحت بلاد الشام ومصر وغيرها، ولكن هل كان معنى فتح كل منهما إلا طرد المستعمر المحتل الذي جاء من وراء البحار يحتل أرض مصر والشام ويبسط سلطان قهره وعتوه على أصحاب تلك الأوطان؟ وهل عرفت الدنيا أناسا أسعد من أهل مصر والشام بذلك الفتح الإسلامي الذي حرر رقابهم وأرضهم من طغيان الاحتلال الروماني، وأعاد إليهم حرياتهم الضائعة؟

ولكن أفكان من الممكن استعادة الحقوق إلى أربابها وطرد العدو المحتل، إلا عن طريق القهر الجهادي؟ إنها شرعة العقاب والقصاص، هي الضمانة التي لا بدّ منها لحماية الحقوق وحراسة الحريات. وهذا معنى من معاني قول الله تعالى: ﴿وَلَكُمْ فِي الْقِصَاصِ حَيَاةٌ يَا أُولِي الأَلْبَابِ﴾(البقرة:١٧٩).

لقد أنزل عمر بن الخطاب رضي الله عنه -وهو أمير المؤمنين- العقاب الصارم، على ابن عمرو بن العاص رضي الله عنه، لأنه حاول أن يستهين بحرية شاب من أقباط مصر، وأصاب برشاش ذلك العقاب والده أيضا قائلا: "متى استعبدتم الناس وقد ولدتهم أمهاتهم أحرارا؟" أفكان عمله هذا حماية للسلم الذي جاء الإسلام لرعايته وتحصينه، أم كان انتهاكا للسلم وانتقاصاً من أطرافه؟

إن البيان الإلهي ينهى في القرآن عن الإفساد في الأرض، ويحذر من الإفساد فيها، ويأمر بالضرب على يد المفسدين في الأرض، ويكرر هذا التحذير والبيان في كل مناسبة. من ذلك قوله تعالى خطاباً لقارون: ﴿وَلاَ تَبْغِ الْفَسَادَ فِي الأَرْضِ إِنَّ اللهَ لاَ يُحِبُّ الْمُفْسِدِينَ﴾(القصص:٧٧). وقوله: ﴿ظَهَرَ الْفَسَادُ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ بِمَا كَسَبَتْ أَيْدِي النَّاسِ﴾(الروم:٤١). وقوله: ﴿وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يُعْجِبُكَ قَوْلُهُ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَيُشْهِدُ اللهَ عَلَى مَا فِي قَلْبِهِ وَهُوَ أَلَدُّ الْخِصَامِ ۞ وَإِذَا تَوَلَّى سَعَى فِي الأَرْضِ لِيُفْسِدَ فِيهَا وَيُهْلِكَ الْحَرْثَ وَالنَّسْلَ وَاللهُ لاَ يُحِبُّ الْفَسَادَ﴾(البقرة:٢٠٤-٢٠٥).

فما هو المراد بالفساد في الأرض؟ إن المراد به -باختصار، وبكلمة جامعة- العبث بمقومات السلم وضماناته في المجتمع. وصور ذلك كثيرة ومتنوعة، وكلها يندرج تحت معنى الظلم وانتهاك قدسية الحقوق.

أليس من مقتضى حراسة السلم والسهر على تحقيق عوامله ومقوماته، الضرب على أيدي العابثين به، والمستمرئين لحقوق الآخرين والممعنين في إهلاك الحرث والنسل كما قال الله؟

ثم أليس من أعجب ما يُذهل العقل أن تسمى حراسة السلم العالمي عن طريق حراسة العدالة والضرب على أيدي المتربصين بمقومات السلم، تطرفا وإرهابا؟ وأن يسمى إلهاب البلاد المطمئنة الآمنة بنيران الحروب الكيدية المصطنعة والعمل على الإيقاع بين الإخوة المتآلفين المتعاونين حماية للسلم ومقاومة للإرهاب؟!

وحصيلة القول

أن الإنسان لو لم يكن منذ أقدم العصور يحمل داخل كيانه أثقالا من الرعونات النفسية، المتمثلة في العصبية والأنانية والرغبة في اقتناص حقوق الآخرين ما وسعه ذلك، لما حمّله الله أمانة الإيمان بالله واليقين بعبوديته ومملوكيته لله، وأمانة الالتزام بالشرعة التي فرضها عليه، لتكون الأداة التي تمكنه من التحرر من تلك الآفات والرعونات النفسية، ومن ثم تيسر له سبيل السعي إلى مدّ رواق السلم العالمي محصناً بسور العدالة وحماية الحقوق.

وأن حب الطغيان واقتناص الحقوق والإفساد في الأرض لو لم يكن الطبع الملازم لكثير من الناس في كل عصر، لما شرع الله الجهاد القتالي، لعدم وجود الحاجة إليه، بل لما شرع الله القصاص في القتلى، ولما رسم العقوبات والحدود التي ينبغي أن يلاحق بها المجرمون. ولكنا قد علمنا أن الظلم من شيم كثير من النفوس البشرية، وأنه يتم على الغالب خلال تيار من الوحشية، نظلم الحيوانات المفترسة عندما نشبه وحشية هذه النفوس بها. فكان لابد من سطوة عادلة تحطم أنياب الظالمين ومخالبهم. و لم يكن من سبيل إلى هذه السطوة إلا الجهاد.

حراء
مجلة علمية ثقافية فصلية
www.hiramagazine.com

وأن الجهـــاد الذي شـــرعه الله لمنع الفســـاد في الأرض ولحماية رواق الســـلم أن لا يســـاء إليه وأن لا ينتقص من أطرافه لم يســـخّر يومـــاً ما للإجبار على اعتناق معتقـــد في مكان معتقد آخر. إن الإله الذي شـــرع الجهاد هو القائل في القرآن لنبيه ﷺ: ﴿فَذَكِّرْ إِنَّمَا أَنْتَ مُذَكِّرٌ ۝ لَسْـتَ عَلَيْهِمْ بِمُسَيْطِرٍ﴾(الغاشـية:٢١-٢٢)، وهو القائل له: ﴿وَلَوْ شَـاءَ رَبُّكَ لَآمَنَ مَنْ فِي الْأَرْضِ كُلُّهُمْ جَمِيعًـا أَفَأَنْتَ تُكْرِهُ النَّاسَ حَتَّـى يَكُونُـوا مُؤْمِنِينَ﴾(يونس:٩٩). ولقد حـــذر إله الكون الذي شـــرع هذا الجهاد من أن يســـتعمل للعـــدوان على الآخرين أو للاعتداء علـــى أي من حقوقهم. فقال: ﴿وَقَاتِلُوا فِي سَـبِيلِ اللهِ الَّذِينَ يُقَاتِلُونَكُمْ وَلاَ تَعْتَـدُوا إِنَّ اللهَ لاَ يُحِبُّ الْمُعْتَدِينَ﴾(البقرة:١٩٠).

الفرق بين السلام والاستسلام

وأخيرا فإن من الأهمية بمكان أن لا ننسى -ونحن نتحدث عن السلام ومصدره وأهميته- الفرق الكبير بين الســـلام والاستسلام. لقد بات من المعروف أن هناك من يغرينا بالســـلام ويتحدث عن أهميته ومدى الحاجة إليه، وهو إنما يخطط لتغييب الســـلام وإحلال الاستسلام محله.

إن السلام بين الشـــعوب بل بين أفراد الأسرة الإنسانية إنما يعني الألفة التي تشـــيع فيما بينهم، فيتواصلـــون بدافع من تبادل الخدمات والقدرات المتنوعة فيما بينهم، دون إجحاف أو بغي من فئة منهم على أخـــرى. وقد علمنا أن جذوة الإيمان بالله إذ تهيمن على العقل إدراكا وعلى الوجدان تعظيما ومهابة وحبا، هي التي تبعث على رســـم هذه العلاقة وتمد بين الأفئدة جسور الأخوة والسلام.

أما الاستســـلام فهو نتيجـــة لمكيدة يخططها القـــوي متربصا بها الضعيف، مستغلا عجزه وضعفه. فإذا تمت الخطة وتحققت الغاية كان على الضعيف أن يرضى بالمصير الذي سيق إليه، وأن يتجاهل حقوقه التي جردت منه. فإن هو أبى وراح يتوثب للمطالبة بحقه مستنجدا بمن يطمع في عونه وإنصافه، غدا بذلك عدوا للسلام، مجندا لحساب الإرهاب.

إن الإسلام بمقدار ما يدعو إلى السلام ويشرع ضمانات وجوده، يحذر من الاستســـلام ويربأ بالإنسان الذي كرمه الله أن يهون أو يذل لســـلطان غير ســـلطان الله. وصدق الله القائل: ﴿قُلْ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ تَعَالَوْا إِلَى كَلِمَةٍ سَـوَاءٍ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ أَلاَّ نَعْبُدَ إِلاَّ اللهَ وَلاَ نُشْرِكَ بِهِ شَيْئًا وَلاَ يَتَّخِذَ بَعْضُنَا بَعْضًا أَرْبَابًا مِنْ دُونِ اللهِ فَإِنْ تَوَلَّوْا فَقُولُوا اشْهَدُوا بِأَنَّا مُسْلِمُونَ﴾(آل عمران:٦٤). ■

(*) كلية الشريعة -جامعة دمشق / سوريا.

الطفولة البريئة..

مطمئنًا تنام..
لحافك البراءة،
ووسادك الطهارة،
والدنيا من حولك في صخب وضجيج..
والماكرون الخادعون يخطّطون،
كيف البراءةَ منك يسرقون،
وكيف الطهارةَ يدنّسون،
والطفولةَ يغتالون،
والبسمةَ الحلوة على شفتيك يمسحون...
فإلى الله نتضرع،
والعون منه نطلب...

* * *



كم من فكر عبقري ولد تحت أجنحة الليل. وكم من أفكار عالية ومبادئ سامية انشقت عنها رحم الليل... فالبشرية لليل مدينة... ولرجالات الليل، القاهرين النوم، يُعزَى كلُّ ما وصلت إليه البشرية من تقدم ورقي.

* * *

السنن الإلهية في المنظومة الكونية

أ.د. علي جمعة*

إذا نظرنا للقرآن الكريم على أنه كتاب هداية، بمعنى أننا نتأمل ما فيه من القوانين والمبادئ نجد أنه يحتوي على سنن إلهية. وتتسم سنن الله ﷻ بثباتها وباطرادها عبر الزمان والمكان، فهي لا تتغير ولا تتبدل. وتلك السنن الإلهية بذلك الثبات والاستقرار كونت فطرة الله التي فطر الناس عليها، وكانت جزءا من مكونات عقل المسلم تساعد في التعامل مع الكون وفهمه. وتتضح تلك السنن الإلهية من مطالعة كتاب الله المسطور (القرآن الكريم)، كما أننا يمكن أن نعدها دليل التعامل مع كتاب الله المنظور (الكون). وكتاب الله المنظور هو بيئة تطبيق الإيمان بكتاب الله المسطور، فكلا الكتابين لا غنى عنهما في الوصول إلى رب العالمين وبلوغ سعادة الدارين.

فما اتضح لنا سمات سنن الله وأشكالها، يجعلنا نؤكد على أن دراسة السنن الإلهية بل واستقلال علم بدراستها وبيان علاقتها مع المبادئ العامة القرآنية أصبح واجبا يمكن أن يفيد الإنسان والإنسانية بنظرة جديدة لمجموعة العلوم الاجتماعية والإنسانية ويمكن بهذه النظرة أن تتهيأ لتجديد علمي واع للخطاب الديني.

وإذا ذهبنا نفصل القول في كل السنن الإلهية لاحتجنا إلى مجلدات، ولكننا نضرب مثالا لهذه السنن بالحديث ثلاث سنن منها وهي: ١- سنة التكامل، ٢- سنة التدافع، ٣- سنة التوازن.

١- سنة التكامل

والتكامل يعني أمورا:

الأول: أن المخلوقات بها نقص جبلي، فيحتاج كل مخلوق إلى باقي المخلوقات في منظومته حتى يحقق الوظائف التي به معاشه وسعادته.

والثاني: أن الله تنزه عن الاحتياج إلى زوج يكمله، وتفرد بالقيومية، وجعل خلقه أزواجا في حاجة في الظاهر إلى بعض، وفي الباطن في فقر دائم وحاجة مستمرة له سبحانه، فقال تعالى: ﴿سُبْحَانَ الَّذِي خَلَقَ الْأَزْوَاجَ كُلَّهَا مِمَّا تُنبِتُ الْأَرْضُ وَمِنْ أَنفُسِهِمْ وَمِمَّا لَا يَعْلَمُونَ﴾(يس:٣٦).

والثالث: أن أساس العلاقة بين الإنسان وأخيه الإنسان هي التعاون وليس العداء، بل إن أساس العلاقة بين الإنسان والكون هي التفاعل والصلاح والتكامل، مما يؤكد على ما استقر في عقلية المسلم من أن الصراع طارئ، وأن الأساس التكامل.

والرابع: أنه ما دام الأمر كذلك فعلى المسلم مسؤولية كبيرة في هذه الأرض، وهي عودة الاستقرار والسلم إليها، وإنهاء حالة الصراع والنزاع، فتلك المفاهيم التي تترتب على سنة التكامل لو اطلع عليها من يهاجم الإسلام بغير علم، لاعتذر للأمة في تراثها وفي تاريخها، واهتدى بها في سيره لإصلاح العالم بأسره.

الخامس: أن يتواضع الإنسان لخالقه سبحانه، حيث يدرك الإنسان نقصه واحتياجه لكل ما حوله، فهو في حاجة دائمة للهواء الخارجي للتنفس، وللماء للشرب وللطعام للأكل وللنوم، ولقضاء الحاجة وللزوجة وللأبناء وللأصدقاء، والله هو الذي يغني الإنسان بتوفير كل ذلك له، فيتواضع لعظمة الله ويتيقن من فقره، ويعلم أنه غير قادر على الاستقلال بعيدا عن الله وفضله.

والله قد خلق الأكوان مختلفة في ظاهرها، لكنها متحدة في الهدف والغاية. فهذا الخلاف والاختلاف إنما هو للتنوع وليس للتضاد. فالليل والنهار يشكلان يوما واحدا، لكل منهما خصائص، والذكر والأنثى لكل منهما خصائص، ولكل منهما وظيفة، والحاكم والمحكوم لكل منهما وظيفة، والغني والفقير، وأغلب الثنائيات خلقية أو قدرية. فالخلقية كالليل والنهار والذكر والأنثى، والقدرية كالحاكم والمحكوم والغني والفقير. وسميناها قدرية لنفرقها عن الخلقية، وإن كان فيها سعي للإنسان واختيار وكسب، إلا أنها من فضل الله وقدره أيضا.

نحتاج إلى فهم عميق لسنة التكامل، فإن في فهمها الخير الكثير، وفي ترك فهمها وعدم القدرة على استكشافها الشر الكثير، فإنّ فهم سنة التكامل يجعل أصل الخلق عند المسلم هو التكامل وليس الصراع، ولذلك يفهم العلاقة بين الذكر والأنثى على أنها خلقت للتكامل، بخلاف التوجه الذي يدعو إلى أن الأصل هو الصراع، وأنه يجب على المرأة أن تصارع الرجل لتحصل على حقوقها، وأن المحكوم يجب أن يصارع الحاكم للحصول على حقوقه، وأن الإنسان يجب أن يصارع الكون حتى يحصل منه منفعته، على ما استقر في الفكر الإغريقي من فكرة صراع الآلهة وانتصار الإنسان في النهاية عليها.

وفهم سنة التكامل لا ينفي حدوث الصراع أو إمكانية حدوثه ووقوعه، ولكن هناك فرق بين أن نجعله أصلا للخلقة لا يمكن الفرار منه، وبين أن نجعله حالة عارضة يجب أن نسعى لإنهائها حتى تستقر الأمور على الوضع الأول الذي خلقه الله.

هذا التكامل هو الذي يفرق عند فهمه بين المعنى الروحي للجهاد في سبيل الله وبين الحرب التي تشن هنا وهناك لأجل المصالح والهيمنة والاستعلاء في الأرض والفساد فيها أيضا.

قال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ نَفْسٍ وَاحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالاً كَثِيرًا وَنِسَاءً وَاتَّقُوا اللهَ الَّذِي تَسَاءَلُونَ بِهِ وَالأَرْحَامَ إِنَّ اللهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيبًا﴾(النساء:١)، وقال سبحانه: ﴿وَجَعَلْنَا اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ آيَتَيْنِ فَمَحَوْنَا آيَةَ اللَّيْلِ وَجَعَلْنَا آيَةَ النَّهَارِ مُبْصِرَةً لِتَبْتَغُوا فَضْلاً مِنْ رَبِّكُمْ وَلِتَعْلَمُوا عَدَدَ السِّنِينَ وَالْحِسَابَ وَكُلَّ شَيْءٍ فَصَّلْنَاهُ تَفْصِيلاً﴾(الإسراء:١٢)، وقال تعالى: ﴿قُلِ اللَّهُمَّ مَالِكَ الْمُلْكِ تُؤْتِي الْمُلْكَ مَنْ تَشَاءُ وَتَنْزِعُ الْمُلْكَ مِمَّنْ تَشَاءُ وَتُعِزُّ مَنْ تَشَاءُ وَتُذِلُّ مَنْ تَشَاءُ بِيَدِكَ الْخَيْرُ إِنَّكَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾(آل عمران:٢٦)، وقال تعالى: ﴿وَرَفَعْنَا بَعْضَهُمْ فَوْقَ بَعْضٍ دَرَجَاتٍ لِيَتَّخِذَ بَعْضُهُمْ بَعْضًا سُخْرِيًّا وَرَحْمَةُ رَبِّكَ خَيْرٌ مِمَّا يَجْمَعُونَ﴾(الزخرف: ٣٢).

نتائج التكامل

وهذا التكامل هو الذي يجعل العلاقة بين الرجل والمرأة مآلها إلى السكن والسكينة وإلى المودة والرحمة وإلى التعاون وعمارة الأرض بالنسل الصالح القوي، يقول تعالى: ﴿وَمِنْ آيَاتِهِ أَنْ خَلَقَ لَكُمْ مِنْ أَنْفُسِكُمْ أَزْوَاجًا لِتَسْكُنُوا إِلَيْهَا وَجَعَلَ بَيْنَكُمْ مَوَدَّةً وَرَحْمَةً إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ﴾(الروم:٢١).

ذلك التكامل الذي يجعل الحاكم والمحكوم في

خندق واحد أمام كيد الكائدين، ويجعل الحاكم رفيقا رحيما بالمحكومين، راعيا لشئونهم، قائما بمسئوليته على أكمل وجه، حيث يتمثل كل حاكم وصية الإمام علي بن أبي طالب ﷺ لمالك بن الأشتر ﷺ حين ولاه مصر، عندما قال له: "وأشعر قلبك الرحمة للرعية والمحبة لهم واللطف بهم، ولا تكونن عليهم سبعا ضاريا تغتنم أكلهم، فإنهم صنفان إما أخ لك في الدين أو نظير لك في الخلق، يفرط منهم الزّلل وتعرض لهم العلل، ويؤتى على أيديهم في العمد والخطأ، فأعطهم من عفوك وصفحك مثل الذي تحب أن يعطيك الله من عفوه وصفحه". والتكامل يجعل المحكوم متعاونا متفهما لحاكمه، معرضا عما لا فائدة من ذكره، مقبلا على صالح بلاده ونمائها.

إنه التكامل الذي يجعل صاحب العمل يتعاون مع العمال، وصاحب رأس المال يتكامل مع القوة البشرية التي تدير المشروع، فلا يكون هناك بين صاحب المال بحيث يطمع ويستغل ظروف سوق العمل، ولا يكون هناك ضغط من العمال لأخذ ما لا يستحقون، بل يتعاون الجميع على تنمية اقتصاد البلاد وصالح أحوالهم المعيشية بما يرضي الله.

إنه التكامل الذي يجعل صاحب البناء متعاونا ومتفاهما مع المستأجرين، فيتعاون الجميع على نظافة وجمال بناياتهم، فيصبح الحي كله نظيفا جميلا، ومن ثم تكون البلد كلها متحضرة عنوان على نظافة المسلمين وتعاونهم.

ذلك التكامل هو الذي يجعل الغني يساعد الفقير، ويجعل الفقير منتجا ويتخلص من فقره، ويجعل الشعور السائد بين الأغنياء والفقراء الحب والتعاون، فلا يرى الغني في نفسه فضلا على الفقير، ولا يرى الفقير في نفسه دناءة.

هذا التكامل الذي إذا ما تم في كل تلك المجالات، يتحقق فينا وصف المصطفى ﷺ إذ يقول: "ترى المؤمنين في تراحمهم وتوادهم وتعاطفهم كمثل الجسد، إذا اشتكى عضوا تداعى له سائر جسده بالسهر والحمى" (متفق عليه). هذا التكامل الذي أراده الله لصلاح الناس وإصلاح الأرض وإعمارها.

٢- سنة التدافع

سنة التدافع، وهي سنة مأخوذة من قوله تعالى: ﴿وَلَوْلَا دَفْعُ اللهِ النَّاسَ بَعْضَهُم بِبَعْضٍ لَّفَسَدَتِ الأَرْضُ وَلَكِنَّ اللهَ ذُو فَضْلٍ عَلَى العَالَمِينَ﴾(البقرة: ٢٥١).

وهذا التعبير القرآني يبين حقيقة علو القرآن على التفاسير التي خطها البشر، فهو لم يحصر هذا في القتال أو النزاع والخصام -كما ورد في التفاسير- عبر بالتدافع ليشمل كل أنواع التعاون والاختلاف بل والصراع والصدام للوصول بكل وسيلة إلى الاستقرار وتحقيق مراد الله من خلقه: عبادة، وعمارة، وتزكية.

فالتدافع سنة إلهية تبين أن الإنسان قد خلقه الله ﷻ اجتماعيا يحتاج إلى الآخرين، وهم يحتاجون إليه، فلم يخلقه منعزلا قادرا على البقاء وحده حتى يحقق مراد الله من خلقه، بل إنه لابد أن يعمل في فريق ليصل إلى هدفه، وعمله في الفريق وحراكه الاجتماعي ونشاطه الذاتي يحتاج إلى إدراك سنة التدافع. وإدراك هذه السنة يتولد منها قوانين كثيرة لضبط هذا النشاط والحراك، وعليه فإن عمليةً فكريةً لابد أن تسبق النشاط، وهو ما قد يكون الإنسان العصري قد افتقده حيث سبق النشاط الفكر، وكان ينبغي أن يسبق الفكر النشاط ويسبق حديث القلب أيضا الفكر ولهذا موضع آخر يشرح الفرق بين الآمرين.

وتكون سنة التدافع بمدافعة أهل الخير وجند الله، لأهل الشر والإفساد في الأرض؛ وذلك لتحقيق الصلاح والاستقرار على الأرض، فقد أوضح ربنا ﷻ أن من آثار هذه السنة الإلهية منع الفساد في الأرض ﴿وَلَوْلَا دَفْعُ اللهِ النَّاسَ بَعْضَهُم بِبَعْضٍ لَّفَسَدَتِ الأَرْضُ﴾(البقرة: ٢٥١). وأوضح سبحانه أن هذا التدافع الذي جعله الله تعالى بين جنده القائمين بالصلاح والإصلاح وإعمار الأرض، وبين أعدائه الفاسدين المفسدين القائمين بتخريب الأرض من أعظم نعم الله على البشرية، إذ لو تُرك الفاسد يشيع الفساد في الأرض ويستضعف الصالحين، وهم لا قوة لهم لتهدمت كل القيم وكل الأشياء الجميلة في هذا الكون، حتى أماكن عبادة الله ﷻ، كما أخبر الحق تعالى بذلك فقال: ﴿الَّذِينَ أُخْرِجُوا مِن دِيَارِهِم بِغَيْرِ حَقٍّ إِلاَّ أَن يَقُولُوا رَبُّنَا اللهُ وَلَوْلَا دَفْعُ اللهِ النَّاسَ بَعْضَهُم بِبَعْضٍ لَّهُدِّمَتْ صَوَامِعُ وَبِيَعٌ وَصَلَوَاتٌ وَمَسَاجِدُ يُذْكَرُ فِيهَا اسْمُ اللهِ كَثِيراً وَلَيَنصُرَنَّ اللهُ مَن يَنصُرُهُ إِنَّ اللهَ لَقَوِيٌّ عَزِيزٌ﴾(الحج: ٤٠).

وسنة التدافع ليست أمرا شرعيا بقدر ما هي حالة

تحدث لتطهير الأرض ونقاءها، فإن الله لا يبقي الخبيث يقود ويسود حياة الناس أبدا، حتى وإن مكنه من ذلك قليلا، قال تعالى: ﴿أَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَسَالَتْ أَوْدِيَةٌ بِقَدَرِهَا فَاحْتَمَلَ السَّيْلُ زَبَدًا رَابِيًا وَمِمَّا يُوقِدُونَ عَلَيْهِ فِي النَّارِ ابْتِغَاءَ حِلْيَةٍ أَوْ مَتَاعٍ زَبَدٌ مِثْلُهُ كَذَلِكَ يَضْرِبُ اللَّهُ الْحَقَّ وَالْبَاطِلَ فَأَمَّا الزَّبَدُ فَيَذْهَبُ جُفَاءً وَأَمَّا مَا يَنْفَعُ النَّاسَ فَيَمْكُثُ فِي الْأَرْضِ كَذَلِكَ يَضْرِبُ اللَّهُ الْأَمْثَالَ﴾(الرعد:١٧).

فإن حق قيادة الناس يكون دائما للأصلح الذي يحقق الخير والنماء والرخاء لهم، بما يحقق حضارة الإنسان، التي تعلو فيها القيم الأخلاقية على الشهوات، ولذا كتب الله ﷻ ذلك في الرسالات السابقة قبل القرآن، قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ كَتَبْنَا فِي الزَّبُورِ مِنْ بَعْدِ الذِّكْرِ أَنَّ الْأَرْضَ يَرِثُهَا عِبَادِيَ الصَّالِحُونَ ۞ إِنَّ فِي هَذَا لَبَلَاغًا لِقَوْمٍ عَابِدِينَ ۞ وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا رَحْمَةً لِلْعَالَمِينَ﴾(الأنبياء:١٠٥-١٠٧).

ومن أجل تحقيق ذلك كتب الله في كونه تلك السنة التي بينا معناها وأشكالها، وموقف أهل الخير منها وأهل الفساد.

٣- سنة التوازن

وهي سنة قد أشار الله إليها كونيا، قال تعالى: ﴿وَأَنْبَتْنَا فِيهَا مِنْ كُلِّ شَيْءٍ مَوْزُونٍ﴾(الحجر:١٩)، وقيميا قال تعالى: ﴿وَأَقِيمُوا الْوَزْنَ بِالْقِسْطِ وَلَا تُخْسِرُوا الْمِيزَانَ﴾(الرحمن: ٩)، وقال سبحانه: ﴿اللَّهُ الَّذِي أَنْزَلَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ وَالْمِيزَانَ﴾(الشورى:١٧)، وقال تعالى: ﴿لَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا بِالْبَيِّنَاتِ وَأَنْزَلْنَا مَعَهُمُ الْكِتَابَ وَالْمِيزَانَ لِيَقُومَ النَّاسُ بِالْقِسْطِ﴾(الحديد:٢٥).

ونرى مرة ثانية أن الاستقرار هو الأساس الذي يجب أن ينتهي إليه النشاط الإنساني بعد التوتر الذي يبدأ به، وإذا تحدثنا عن مثل هذه السنة لرأينا أنها سنة كونية وسنة قيمية، ونأخذ منها موقفنا من قضايا البيئة وموقفنا من قضايا الفكر، وموقفنا من مفهوم العدل خاصة إذا رأيناها تمتد إلى الآخرة والحساب وتمثل دالا على عدل الله سبحانه، قال تعالى: ﴿وَنَضَعُ الْمَوَازِينَ الْقِسْطَ لِيَوْمِ الْقِيَامَةِ﴾(الأنبياء:٤٧)، وقال سبحانه: ﴿وَالْوَزْنُ يَوْمَئِذٍ الْحَقُّ﴾(الأعراف:٨).

والذي لابد للإنسان أن يتمثل به ثم يأتي التكليف على وفق هذه السنة مشيرا إلى أن التكليف بالأحكام مرتبط ارتباطا تاما بالسنن الإلهية المحيطة بنا، وأن تطبيق هذه الأحكام من خلال فهمنا للسنن وتفاعلنا معها هو الضامن لتحقيق هدفها والوصول إلى مقاصدها يقول تعالى: ﴿فَأَوْفُوا الْكَيْلَ وَالْمِيزَانَ وَلَا تَبْخَسُوا النَّاسَ أَشْيَاءَهُمْ وَلَا تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ بَعْدَ إِصْلَاحِهَا ذَلِكُمْ خَيْرٌ لَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ﴾(الأعراف:٨٥).

فالتوازن هو التوسط بين الإفراط والتفريط في كل الأمور، وهذا التوسط هو من خصائص هذه الأمة المحمدية الخاتمة، يقول تعالى: ﴿وَكَذَلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطًا لِتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ وَيَكُونَ الرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيدًا﴾(البقرة:١٤٣). والوسط هو الأجود والمختار والأعلى كذلك، يقول ابن كثير في تفسيره "والوسط هنا: الخيار الأجود، كما يقال: قريش وسط العرب نسبا ودارا، أي: خيرهم، وكان رسول الله ﷺ وسطاً في قومه، ولما جعل الله ﷻ هذه الأمة وسطاً خصها بأكمل الشرائع، وأقوى المناهج، وأوضح المذاهب".

الوسطية أو التوازن تساهم في بناء المسلم متوازنَ النفس، متزن العقل، سليم الصدر، النافع لمجتمعه ووطنه، ولقد قامت وزارة الأوقاف والشئون الإسلامية بدولة الكويت في عهد وزيرها الأستاذ الدكتور عبد الله معتوق المعتوق بعمل أمانة لمشروع الوسطية، وجعلت عليه أمينًا عاما هو المفكر الإسلامي والعالم الكبير أ.د عصام البشير وزير الأوقاف السابق بدولة السودان، وهذه الوسطية كمنهج حياة، وكفكر ديني، هي التي ينبغي أن تشيع في الفكر الإسلامي الآن، وهي التي من خلالها صدر بيان عمان الذي اعترف بالمذاهب الإسلامية كلها، والذي كان بيانه الافتتاحي من فضيلة الإمام الأكبر شيخ الأزهر، والذي تأكد وتأيد في اجتماع منظمة المؤتمر الإسلامي في مكة المكرمة في شعبان سنة ١٤٢٦هـ الماضي، والذي وقعه أكثر من مائتي عالم ومرجع من مراجع الفقه الإسلامي في العالم.

فالتوازن إذن سنة إلهية نتعلم منها الكثير؛ نتعلم منها الإنصاف وقول الحق في الغضب والرضا، ونتعلم منها التفكير المستقيم، ونتعلم منها بناء العقلية العلمية، وترك عقلية الانطباعات. ■

(*) مفتي الديار المصرية.



لا تذهب يا أبت..

كامل عون *

١

الشاحنات تخترق أمواج الرمال في الصحراء المحرقة مخلّفة وراءها غيوما غبارية صفراء... أرض المخيم في وسط هذه الصحراء ممتلئة بأجساد أناس كالأشباح حاصرهم الفقر والجوع والمرض من كل جانب، وقذفت بهم رياح اليأس إلى دهاليز مجهولة المستقبل... وإذا بشاحنة تقف بفرملة مزعجة على أرض المخيم، وتندفع منها امرأة شابة بيضاء البشرة وبين يديها طفل أسمر مغشي عليه، تلتفت يمنة ويسرة بذعر، وتطلق صيحات وتوسلات تتعالى وتطغى على أي صوت آخر: "النجدة!.. ساعدونا أرجوكم ساعدونا!.."

فلا أحد يبالي بها ولا أحد يبادر لمساعدتها، كأن الناس هنا اعتادوا على مثل هذه الحالات وعلى مثل هذه الصيحات... وعلى الأثر أُخرجت من الشاحنة أم الطفل في حالة أسوأ من ابنها بكثير يحملها رجلان إلى مستشفى الصحراء... مشهد مرعب.. المستشفى تعج بالمرضى وليس هناك سرير شاغر للمرأة وابنها، فألقيا على الأرض في إحدى الزوايا تحت حر الشمس الحارق لفترة من الزمن.. وبعد وقت قصير حضر الطبيب الوحيد في هذه الصحراء وراح يفحص الأم وابنها الممدودَين على الرمال اللاهبة... هز رأسه وقال دون اكتراث: "لا فائدة.. إنهما يموتان.." ثم همّ بالعودة إلى حيث أتى.. كان لهذه الكلمات القليلة وقع الصاعقة على المرأة البيضاء.. فجمدت في مكانها وشحب وجهها وارتعشت أناملها وقالت بصوت واهن مرتجف: "أتوسل إليك ساعدهما.." فردّ دون أن يلتفت إليها: "إنهما يموتان.. ليس بوسعنا أن نفعل شيئا، إنها مضيعة للوقت"... ساد السكون لحاظات.. ثم انفجرت بصرخة غاضبة في وجه الطبيب الذي راح يبتعد عنها شيئا فشيئا: "لستَ أنت الذي تقرر موتهم!.." وأجهشت بالبكاء... كلمات سمّرت قدميه في الأرض فتوقف برهة ثم أشار

بيده إلى مساعده بأن ينقل المرأة وابنها إلى الخيمة. وبعد بضع ساعات أُخذت الأم إلى خيمة العمليات الجراحية...

صرخات استرحام تصمّ الآذان.. ما كادت تطمئن المرأة البيضاء في مكانها حتى دخلت إلى الخيمة في لهفة وقلق... يا لهول المشهد... المرأة الأم ممددة على طاولة من خشب والذباب ملتفّ عليها.. بطنها مشقوق، وقد تدلت حبال أمعاؤها يمينا وشمالا، وجسدها كله يهتز ورجلان يمسكانها بكل ما لديهم من قوة حتى لا تتحرك من شدة الألم... لم تعد المرأة البيضاء تسمع إلا أنفاسها اللاهثة، ولم تشعر إلا بصدرها الذي يعلو ويهبط رعبا.. قالت وعيناها تدوران في قلق ودهشة: "يا إلهي! ماذا فعلتم بالمرأة؟! إنكم تقتلونها؟!"

انتفض الطبيب حدّة واحتقن وجهه بالغضب.. ألقى نظرة إلى المرأة التي شُقّ بطنها دون مخدّر ثم ركز نظراته في وجه المرأة البيضاء وهتف: "أين ظننت نفسك يا امرأة! في مستشفى خمس نجوم!؟ نفد كل شيء، لا أدوية ولا مخدر.. الناس يموتون هنا من الجوع!".

....

مشاهد مثيرة على شاشة التلفاز. أجل، كان إبراهيم يشاهد هذه اللقطات المثيرة من فيلم يعرض على التلفاز... إنه سمع عن إفريقيا الشيء الكثير ورأى عنها شتى الصور من الكتب المجلات والجرائد.. غير أن هذه المشاهد التي رآها قبل قليل حزّت في نفسه ورسمت على جبهته سطور ألم ناطق... نكس رأسه وغاب في تفكير عميق.. وإذا بصوت زوجته: "هيا، الطعام جاهز".. ظل إبراهيم واجما في مكانه مكروبا مهموما شاعرا بالذنب.. كيف يحلو له طعام أو يستسيغ له شراب بعد أن رأى ما رأى؟! أراد أن يروّح عن نفسه فتوجه مستأذنا زوجته إلى الشرفة.. جلس على كرسيه الهزاز.. تنهدات أخرجها من الأعماق ثم قال في نفسه؛ "يا إلهي ما هذا الذي يجري في هذه الدنيا!.. أيعقل أن يعيش الناس هنا حياة رخاء ونعمة، ويعيش أولئك المساكين هناك تحت قيود الفقر والجهل والمرض والجوع.. لا.. سأذهب إلى تلك البلاد..". لحظات كأنها تحدد مصير حياته.. كان يحب مساعدة الفقراء أينما كانوا، ويمد يد العون إلى كل محتاج بلا تردد، حتى إنه كان يرسل كل عيد أضحى عشرات الأضاحي إلى مختلف أرجاء العالم، ويساهم بجمع الأخرى مع المنظمات الخيرية التي نذرت نفسها إلى خدمة الإنسانية.. ولكن هذه المرة قرر أن يذهب بنفسه..

قام من مكانه وتوجه نحو الغرفة حيث المكتبة.. تناول كتابا بعنوان "ونحن نقيم صرح الروح".. فتح الكتاب وبدأ يقرأ: "الشعور بالمسئولية هي أول وسيلة لتحقيق رؤانا وأحلامنا.. ينبغي ربط جهودنا بالمسئولية.. طريقنا طريق الحق، وقضيتنا حمل الحق، وغايتنا تحري رضا الله في كل رفّة عين.. ينبغي أن نشعر بالمسؤولية لأنها صدَفةُ كينونةِ الإنسان وحكمة وجود الإرادة..". وكأن هذه الكلمات تؤيد قرارَه وتشد عزمه وتدفعه إلى تحقيقه...

....

مكبرات الصوت تذكّر الركاب المسافرين بالتوجه إلى بوابة "كونغو". ألقى بنظراته الأخيرة على زوجته وأولاده الذين لم يكن يتصور الحياة بدونهم.. ثم ضمهم إلى صدره واحدا واحدا وقبلهم مرات ومرات.. الكل يبكي.. التفت إلى زوجته التي كانت تمسح دموعها وقال في رقة: "أستودعكم الله، اعتنوا بصحتكم جيدا.. وادعوا لي بالتوفيق".. "أبت لا تذهب.. لا تتركنا أرجوك!"..

ما إن سمع هذه الكلمات حتى لمعت في رأسه صورة أمّنا هاجر وولدها إسماعيل عليهما السلام عندما تركهما إبراهيم عليه السلام في صحراء مكة القاحلة وجبالها.. في صحراء لا زرع فيها ولا ماء، ولا أنيس ولا جليس.. دوّى في رأسه صراخ الطفل إسماعيل عليه السلام الذي كان يتردد صداه في أجواء هذه القفراء، ونداء الأم الذي كان يشق عنان السماء: "يا إبراهيم! أين تذهب وتتركنا في هذا الوادي؟.." وإبراهيم يغيب عن الأنظار رُويدا رويدا دون أن يلتفت إلى الوراء.. فتنادي الأم مرة أخرى: "آلله أمرك بهذا؟!". فيهتف:"نعم." عندها ترتاح أمّنا هاجر وتقول في غير تردد وقلق: "إذن فلن يضيعنا".. يا لها من ثقة بالله عظيمة.. ثم تساءل: "هل كانت الكعبة المباركة تقام ويأتي الناس إليها من كل فج عميق لولا ترك إبراهيم الخليل عليه السلام أمّنا هاجر في هذه الصحراء؟.. هل يسعى الناس بين الصفا والمروة، وهل يشربون من ماء الزمزم؟!. أجل، كل هذه الأشياء لهي لحكمة إلهية"..

ثم التفت إلى ابنته الصغيرة التي كانت تنادي من صميم قلبها.. نظر إلى عينيها المبللتين بالدموع ثم اقترب منها واحتضنها وراح يقبّلها بحرقة قلب ويكلّمها بلطف: "أبوكِ لن يغيب طويلا إن شاء الله، بضعة أشهر ستمر سريعا بإذنه يا حبيبتي..". شعر أن الأرض تميد به وأنه لم يعد يقدر على مقاومة مشاعره الجياشة.. مسح دمعة أفلتت من بين أهدابه ونظر إلى زوجته نظرة المستغيث وكأن لسان حاله يقول: "أرجوكِ ساعديني.." فتناولت منه طفلته الصغيرة ولو بصعوبة.. حمل حقيبته وأخذ يمضي نحو البوابة بسرعة دون الالتفات إلى الوراء خشية أن يعدل عن رحلته ويرجع، وصغيرته تنادي "أبت.. أبت.. لا تذهب..".

ألقى برأسه على حاجز المقعد في الطائرة وشرد بنظراته إلى

بعيد.. رنّت في أذنه كلمات أستاذه التي قالها يوما: "كالشمعة.. عليكَ أن تشتعل وتذوب لتنير الدروب للآخرين..". وهل سيستطيع أن يكون شمعة تذوب من أجل إحياء الآخرين؟ توجه إلى مولاه ﷻ ضارعا: وما توفيقي إلا بك، ولا اعتمادي إلا عليك.. يا رب يا الله! عليكَ توكلتُ وإليك أنبتُ، فيسّر لي أمري، وثبت أقدامي..".

....

الوجوه متشابهة في ملامحها وسمرتها في "كونغو".. النظرات مصوبة إليه وكأنها سهام ترشقه.. كان أبناء هذه المدينة يتوجسون خوفا من الرجل الأبيض، لأنه أذاقوهم هوانا ما بعده هوان وسامهم ظلما ما بعده ظلم... فالرجل الأبيض في نظرهم شيطان أمرد، ولابد أن هذا الرجل الأبيض الغريب واحد من إخوانه. حاولوا في المطار أن يُرجعوه من حيث أتى، حتى إن بعض المتعصبين منهم كان يكور قبضته ويزم شفتيه ويشير بإصبعه إلى عنقه ويقول: "الموت للبيض".

مضت الأيام بسرعة.. هاهو عيد الأضحى على الأبواب.. شرع بتنظيم قائمة أسماء أصحاب الأضاحي وفي مقدمتهم اسم الرسول ﷺ حسبما طلب منه أصحابه الأتراك الذين آزروه ماديا ومعنويا في مهمته هذه.. اشترى ٦٣ كبشا وراح ينتظر يوم العيد بفارغ الصبر..

....

استلقى إبراهيم على فراشه ليأخذ قسطا من الراحة.. تناهى إلى سمعه التكبيرات والتهليلات من مكبرات المآذن المتناثرة القليلة في المنطقة.. إنه صباح العيد.. الساحة تغص بالناس ذوي الوجوه السمراء والأبدان النحيفة. وإذا برجل يشع وجهه نورا يتقدم نحوه بخطوات رزينة... إنه أشرف خلق الله عليه الصلاة والسلام وبيده قائمة.. فهبّ إبراهيم مسرعا لاستقباله بفرح جم وسعادة غامرة ووقف إلى جانبه باحترام واستحياء... أخذ الرسول ﷺ يقرأ الأسماء واحدا تلو الآخر: أويس، صادق، أحمد، عبد الرحمن... حتى أكمل العدد ٦٣...

أفاق إبراهيم من نومه وجبينه ينضح بالعرق، فوجد الدموع تتخذ لها مسارا فوق خديه.. كان يبكي.. همست شفتاه بصوت خافت وقلبه يرفرف بين أضلاعه من الفرح: "إنه هو!..". أحس كأن يد الرسول ﷺ تمسح رأسه... قال في شوق: "يا رسول الله، يجهلك الناس في هذه البلاد النائية ولا يعرفك حق المعرفة!"..

....

لم يصدق أهل هذه المنطقة ما رأوه بأعينهم!.. كيف لرجل أبيض يحسن إلى أسود ويذبح الذبائح من أجله، هذا شيء عجاب!.. كل شيء من حوله يوحي بالسعادة والرضى، وكأن هؤلاء المساكين لم يعانوا أو يشقوا طوال حياتهم!.. وكان إبراهيم يتشرب هذه الفرحة في استمتاع ونشوة غامرة.. كلٌّ يتناول كيس لحم يمضي به نحو بيته بوجه طلق مشرق... فلمح إبراهيم غلاما صغيرا منفردا، يقف بعيدا عن الناس وكأنه يتحرّج من الاقتراب.. دنا منه وراح يمسح على رأسه بحنان ثم حمله إلى حضنه، لاطف شعره المجعد وقبّله... تذكّر أولاده فغمغم في نفسه: "ما الفرق بين الأبيض والأسود، أليسوا كلهم أولادنا وفلذات أكبادنا.. أليسوا كلهم أملنا ومستقبلنا". ثم أعطاه كيسا من اللحم.. فهرول الغلام الصغير إلى أمه بفرحة عارمة وراح يحدثها.. فظن إبراهيم أنه سعدَ بكيس اللحم.. ولكنه علم فيما بعد أن الغلام يقول لأمه: "مسح الرجل الأبيض رأسي وأحبّني يا أماه"... جاشت عواطفه وأطلق صراخات صامتة من أحشاء قلبه: "الحمد لله ملء السماوات والأرض أن كرّمني بخدمة هولاء المساكين."". وبعد إنهاء مهمته هنا ولّى وجهه شطر منطقة أخرى..

....

وصل هو ورفاقه إلى قبيلة تبعد عن المدينة بأربع ساعات بعد رحلة شاقة عبر النهر على قارب صغير. تعجّب رئيس القبيلة وأهلها من قدوم رجل أبيض إلى قبيلتهم، إذ لم يأتهم زائر أبيض من قبل أبدا.. فأراد رئيس القبيلة أن يلتقي بالضيف.. وما إن علم غايتَه حتى رحب به واستقبله بحفاوة بالغة.. فعمّ الفرح في جميع أطراف القبيلة... إذن، جاء إليهم رجل أبيض ليساعدهم لا ليستعبدهم.. رجل أبيض يرى الناس جميعهم سواسية كأسنان المشط لا فضل فيهم لأبيض أو أسود.. يا لها من أخلاق فاضلة!.. لعله هو الإنسان الذي يجب أن يقتدوا به ويسيروا على نهجه... فحاولوا أن ينهلوا كل ما عنده من الأخلاق والعلم والفضيلة في ساعات معدودات..

وعندما آن أوان الفراق قال رئيس القبيلة لإبراهيم وعواطفه تجيش بالحزن والأسى تارة، وبالفرح والسرور والرحمة تارة أخرى: "سر على بركة الله، فقد بعثت الروح في أجسادنا الميتة، وأيْقَظتنا على النور الخالد والرسالة السمحاء فأحييتَ بها قلوبنا.. علّمتنا معنى الحياة وعلمتنا الحب والإخلاص والعطاء..." ■

(*) كاتب وأديب / اليمن.

روح مشتعل، ووجدان ملتهب، بالدمع أطفئه... فعينك إذا اغرورقت
بالدموعِ هي صنو العين إذا الماء عنها تفجَّر، ولهبَ الصحراء أطفأ وسقا..!



بالقرآن تسعد القلوب وتأنس النفوس

د. عصمت محمود أحمد*

تُعنى فلســفة الأخلاق بصورة جوهرية بدراسة مبادئ السلوك الإنساني وغاياته، وتجيء السعادة كواحدة من أهم غايات ذلك السلوك. لهذا تعد قضية الســعادة الإنسانية من القضايا التي شغلت الفكر الإنساني منذ القدم، وما يزال البحث الفلسفي عن حقيقتها حتى الآن بذات الحيوية التي كانت قبل أزمان عتيقة، ولهذا فإن إشــكالية البحث النظري حول السعادة تلج في نطاق طائفة من الإشكالات الفلسفية الحية والمعاشة التي تستمر كذلك حاضرة ومرافقة الوجودَ الإنساني.

لقد ظلت القضية الأخلاقية المتمثلة في تحديد الطريقة الحكيمة والمثلى للســلوك تمثل مرتكزا أساســيا لخطاب القرآن الكريم، فالقارئ المتدبر لآيات القــرآن الكريم يجد البعد الأخلاقي بارزا محتلا موقع الصدارة في التعاليم والآداب الإسلامية، وهذا يفضي بنا ليس إلى تأكيد التناول القرآني للمسألة الأخلاقية فحسب؛ بل إلى تقرير أن نصوص القرآن الكريم قد عمدت في شطرها الغالب

إلى معالجة تلك المسألة.

وهـذا الأمر كان حاضرا في فكـر الإمام أبي حامد الغزالي؛ فهـو إذ يحلل في مؤلفه القيم: "جواهر القرآن"، نجده يرد جواهر القرآن إلى عنصرين أساسـيتين، يتصل أحدهما بالمعرفة ويتصل الأخر بالسـلوك. وبذلك فإنه يجدر بنـا إعمال النظر في القرآن الكريم بحسبانه رسـالة أخلاقية، أنزلت على من وصفه الله ﷻ بقوله: ﴿وَإِنَّكَ لَعَلى خُلُقٍ عَظِيمٍ﴾(القلم:٤)، وهو الموصوف بالخلق العظيم أبان عن الهدف المحوري للرسالة المحمدية بقوله ﷺ: "إنما بعثت لأتمم مكارم الأخلاق" (رواه مالك).

بيـد أن المتأمل في آيات القرآن الكـريم يلحظ أن نصوص الوحي القرآني قد خلت من مفردة "السـعادة"؛ إذ لم ترد تلك المفردة في آية قرآنية قط؛ بل وردت كلمتا سـعيد وسـعدوا في موضعين متقاربين من سـورة هود في قوله تعالى: ﴿يَوْمَ يَأْتِ لاَ تَكَلَّمُ نَفْسٌ إِلاَّ بِإِذْنِهِ فَمِنْهُمْ شَقِيٌّ وَسَعِيدٌ ۞ فَأَمَّا الَّذِينَ شَقُوا فَفِي النَّارِ لَهُمْ فِيهَا زَفِيرٌ وَشَـهِيقٌ ۞ خَالِدِينَ فِيهَا مَا دَامَتِ السَّمَوَاتُ وَالأَرْضُ إِلاَّ مَا شَـاءَ رَبُّكَ إِنَّ رَبَّكَ فَعَّالٌ لِمَا يُرِيدُ ۞ وَأَمَّا الَّذِينَ سُعِدُوا فَفِي الْجَنَّةِ خَالِدِينَ فِيهَا مَا دَامَتِ السَّمَوَاتُ وَالأَرْضُ إِلاَّ مَا شَـاءَ رَبُّكَ عَطَاءً غَيْرَ مَجْذُوذٍ﴾(هـود:١٠٥-١٠٨). ولعل النص القرآني في سياق هذه الآيات لم يكن معنيا في المقام الأول بإبراز رؤية وتصور قرآني حول السعادة؛ بل كانت الإشارة هنا مصوبة نحو بيان مآل العباد في اليوم الآخر ما بين شقي وسعيد.

ومن هنا وعلى خلفية عدم ورود مفردة السـعادة في أية آية في القرآن الكريم برز سـؤال ظل يطرحه عدد ممن تناولوا قضايا فلسفة الأخلاق في الإسلام فتساءلوا حول اشتمال وتضمن القرآن الكريم لرؤية أخلاقية حول السـعادة، وتمدد هذا التساؤل حول مساهمة المفكرين المسلمين في الفكر الأخلاقي بصفة عامة.

ويجدر أن نشـير هنا إلى أن التعامل مع مثل هذه الأسئلة التي تمس قضايا ذات أبعاد جوهرية في الخطاب القرآني يجب التعامل معها بمزيد من الإقبال على القـرآن الكريم تدبرا وتأملا، وبذل مزيد من الدرس لتلمـس المفاهيم والتصورات القرآنية، كما أنه ينبغي ألا نبحث عن رؤيـة أخلاقية قرآنية وفق مرجعية معيارية تنتمي لنسـق أخلاقي آخر، خاصة إذا كان هـذا الآخر مباينا في منطلقاتـه ومرتكزاته للرؤية القرآنيـة حول الكون والوجود الإنساني، مثلما فعل رواد الفلسفة الإسلامية في انسياقهم خلف النموذج الأفلاطوني والأرسـطي، وهما يصدرون في تصوراتهم الأخلاقية عن رؤية كلية تجاه الوجود والإنسـان مفارقة لما عليه الرؤية القرآنية، وهذا ما حال بين أولئك الفلاسفة وبين الانتهاء إلى نسق قرآني متكامل صادر عن الآيات القرآنية ومتوافق معها.

وفق هذا السـياق فإن الأوفق عند تنـاول قضايا الأخلاق القرآنية التنبه إلى أن الرؤية القرآنية تنطوي على نسـق أخلاقي متكامل؛ يتسـم بالثبات ويرتكز على ركائز وكليات نابعة من تصور كلي للوجود والإنسان يتسم بالصفاء والنقاء.

كليات التصور القرآني للوجود والإنسان

كما سبق الإشارة إليه فإن فلسفة الأخلاق عبر مدارسها وتياراتها المختلفة تبحث في مبادئ السـلوك الإنساني وغاياته، فإن ذلك يعني بالضرورة أن تغدو قضية السـعادة محـورا هاما في التفكير الأخلاقي باعتبارها تلج في نطاق غايات السـلوك؛ ومن هنا فلا مجال لاستبعاد تصور قرآني أخلاقي حول السعادة الإنسانية؛ بيد أن المفهوم القرآني للسعادة يستند كما أشرنا في المقام الأول على نقاء وصفاء كليات الرؤية الإسـلامية للوجود والإنسان. ويمكن الإشارة إلى هذه الكليات على النحو التالي:

أ-التوحيد حقيقة الوجود

أولى تلـك الكليات التي تجيء كركائز للتصور القرآني ماثلة في إثبات وجود الله جل شـأنه، الخالق المتفرد بالخلق والإنشـاء والتقدير، المتصرف في مقادير السموات والأرض بسطا وقبضا، وإثبات ما يليق بجلاله من صفات الكمال والجلال.

بـ-الخلافة غاية الوجود الإنساني

من ركائز التصور الإسـلامي التي يقررهـا القرآن الكريم بجلاء تام عـبر طائفة من الآيات نفيُ عبثية الوجود الإنسـاني، وهـذا ما يتواتـر في أكثر من موضع في القـرآن الكريم كقوله تعالى: ﴿أَفَحَسِـبْتُمْ أَنَّمَا خَلَقْنَاكُمْ عَبَثًا وَأَنَّكُمْ إِلَيْنَا لاَ تُرْجَعُونَ﴾(المؤمنون:١١٥). ونفيُ العبثية عن الوجود الإنسـاني يستلزم الإبانة عن غاية ودور ووظيفة الوجود الإنساني؛ وهذا ما تجيء الإشارة إليه في ثنايا الحوار العُلـوي في ثنايا قوله تعالى: ﴿وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلاَئِكَـةِ إِنِّي جَاعِلٌ فِي الأَرْضِ خَلِيفَةً﴾(البقرة:٣٠)، ومن ثم فإن هذا المبدأ القرآني -مبدأ الخلافة- يجعل للإنسـان وظيفةً ودوراً وتكليفا، وللوجود الإنساني غاية ومطلبا، وهذا الدور يمثل الهدف الأساس للوجود الإنساني، وهو الذي أعطى ذلك الوجود صفة مائزة عن سائر المخلوقات، وبمقتضى هذا التكليف يتنسم الإنسان وظيفةً ومسؤولية كونية ذات أهمية وجودية هائلة.

جـ-البعث والجزاء الأخروي

بطبيعة الحال فإن التكليف والمسـؤولية يقتضيان الحسـاب

والجزاء، ومن هنا فإن حقيقة البعث والحساب الأخروي تمثل ركيزة هامة من ركائز التصور القرآني. وحقيقةُ البعث والجزاء ذات أثر مباشر في تشكيل منظومة الفكر الأخلاقي الإسلامي، فالإيمان بالبعث والنشور والجزاء كلية هامة وأساسية، "وما تستقيم الحياة البشرية على منهج الله الرفيع ما لم تتحقق هذه الكلية (أي الحساب والجزاء) في تصور البشر، وما لم تطمئن قلوبهم إلى أن جزاءهم على الأرض ليس هو نصيبهم الأخير، وما لم يثق الفرد المحدود العمر بأن له حياة أخرى يستحق أن يجاهد لها".

د- المسؤولية الفردية تجاه الحساب والجزاء

يتصل بمبدأ البعث والجزاء الأخروي حقيقةُ فردية ذلك الحساب والجزاء ﴿أَلاَّ تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَى * وَأَنْ لَيْسَ لِلإِنْسَانِ إِلاَّ مَا سَعَى ۞ وَأَنَّ سَعْيَهُ سَوْفَ يُرَى ۞ ثُمَّ يُجْزَاهُ الْجَزَاءَ الأَوْفَى﴾(النجم: ٣٨-٤١)، وهذه الحقيقة ذات صلة وثيقة وانعكاس مباشر على صعيد الشعور الأخلاقي لدي الفرد، عندما يوقن أنه مجزيٌّ بعمله ولا يستطيع الفكاك من كسبِ نفسه، فيعمل على محاسبتها والتخلي عن كل أمل يخادع في أن يناله آخر -مهما كان- بنفع أو يحمل عنه تبعة. إن الله ﷻ لا يحاسب الناس جملة بالقائمة، إنما يحاسبهم فردا فردا؛ كلٌّ في حدود واجباته ومسؤولياته.

وعند إعمال النظر في تلك الركائز التي يقوم عليها التصور القرآني في مجالي الدنيا والآخرة نجد أن الفكرة القرآنية تخلص بنا إلى نتيجة هامة وهي أن الإنسان يمثل الكائن الوجودي الأوحد الذي جُعِلَ في مركز الحياتين: الدنيا المحدودة الفانية، والآخرة الممتدة الباقية.

بين مفهومي الفلاح والطمأنينة

لقد انشغل المفكرون منذ القدم بالبحث في ماهية السعادة؛ فقدموا أطروحات متباينة، ونريد أن نشير إلى أن الرؤية القرآنية للسعادة تتمحور حول مفهومي الطمأنينة والفلاح، مع نظرة خاصة لمفهوم الطمأنينة باعتبار أن الوصول إلى طمأنينة القلب تمثل جوهر السعادة القرآنية ومنتهى السير الإنساني في سبيله المتسامي نحو الله ﷻ.

هكذا فإن هذين المفهومين -أعني الطمأنينة والفلاح- يُراد لهما أن يحلا محل سائر المفاهيم التي طرحها الفلاسفة من لذة ومنفعة وواجب وغير ذلك. وقبل أن نجيء على تناول هذين المفهومين فثمة أهمية تدعونا للإشارة إلى قضية أساسية في البناء الأخلاقي القرآني وهي مسألة وحدة السعادة الإنسانية:

وحدة السعادة الإنسانية

تتواتر آيات القرآن الكريم نحو تأكيد الطبيعة الغائية للوجود؛ فهي تنفي في غير ما موضع أن يكون هذا الوجود جاء حدوثه صدفة عارضة، أو عبثاً بغير قصد ولغير غاية، بل على النقيض من ذلك تشير إلى أن الله تعالى أوجد الوجود في أحسن وأكمل هيئة وصورة ﴿الَّذِي أَحْسَنَ كُلَّ شَيْءٍ خَلَقَهُ﴾(السجدة:٧)، وهو ﷻ من بعد إحسان الخلق لم يترك الوجود هملاً، إنما يتعهده بالرعاية والتربية وبهذا يلهج المسلم بالمناجاة في كل وقت: ﴿الْحَمْدُ للهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾(الفاتحة:٢). فالرب مشتق من التربية، وهو المالك المتصرف للإصلاح، ومن هنا كانت ربوبيته مطلقة شاملة كاملة لا تغيب عن الوجود لحظة. فالصلة بين الخالق والخلائق دائمة وممتدة في كل وقت وحال، فالوجود جميعه يتجه إلى رب واحد، له السيادة المطلقة عليه، وهو يتعهده بالرعاية الدائمة غير المنقطعة.

ونسير في رحاب هذا المعنى الشفيف لنجد أن التصور القرآني يؤكد أن ثمة هداية ربانية عامة وشاملة لكل الخلائق تقودها وتسوقها سوقا رفيقا نحو كمالاتها وغاياتها وسعادتها. وهو ما نقرأه في طائفة من الآيات نحو قوله تعالى: ﴿رَبُّنَا الَّذِي أَعْطَى كُلَّ شَيْءٍ خَلْقَهُ ثُمَّ هَدَى﴾(طه: ٥٠)، وقوله تعالى : ﴿سَبِّحِ اسْمَ رَبِّكَ الأَعْلَى ۞ الَّذِي خَلَقَ فَسَوَّى ۞ وَالَّذِي قَدَّرَ فَهَدَى﴾(الأعلى:١-٣)، ﴿إِنَّا كُلَّ شَيْءٍ خَلَقْنَاهُ بِقَدَرٍ﴾(القمر:٤٩)، فهذه الآيات تشير إلى أن المولى ﷻ قد أوجد الخلائق على مقادير مخصوصة وحدود معينة في ذواتها وصفاتها وأفعالها وغاياتها، وأوفاها حقها بما يناسب ما قدر لها، فهي محاطة في مسيرها نحو ما قدره الله لها بهداية ربانية تكوينية، وهكذا فإن الإنسان هو كائن قد وهبه الله بَعد استواءِ وتمام خلقه هدايةً ربانية يهتدي بها صوب مقاصدِ وجوده وكمالات ذاته أي سعادته.

ولما كانت هذه الهداية الربانية على المستوى الإنساني تُرسِّخ لمفهوم "وحدة السعادة الإنسانية"؛ فإننا نجد مظاهر تلك الهداية ماثلة ومشاهَدة في طائفة من السنن العامة المركوزة في مسيرة الجنس الإنساني. ولهذا نجد أن آيات القرآن الكريم تتخذ من هذه السنن أدلةً تقود إلى الإيمان بوحدانية الله ﷻ، وهذا الاستدلال يضفي على هذه السنن صفة الاستمرارية والرسوخ، وإلا لبطل وجه الاستدلال ﴿وَمِنْ آيَاتِهِ أَنْ خَلَقَكُم

مِنْ تُرَابٍ ثُمَّ إِذَا أَنْتُمْ بَشَرٌ تَنْتَشِرُونَ ۞ وَمِنْ آيَاتِهِ أَنْ خَلَقَ لَكُمْ مِنْ أَنْفُسِكُمْ أَزْوَاجًا لِتَسْكُنُوا إِلَيْهَا وَجَعَلَ بَيْنَكُمْ مَوَدَّةً وَرَحْمَةً إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ۞ وَمِنْ آيَاتِهِ خَلْقُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاخْتِلَافُ أَلْسِنَتِكُمْ وَأَلْوَانِكُمْ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِلْعَالِمِينَ ۞ وَمِنْ آيَاتِهِ مَنَامُكُمْ بِاللَّيْلِ وَالنَّهَارِ وَابْتِغَاؤُكُمْ مِنْ فَضْلِهِ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَسْمَعُونَ﴾(الروم:٢٠-٢٣).

فهذه الآيات تشير إلى أن هناك هداية فطرية ظاهرة في خلق الإنسان وتكوينه، وفي خلق قواه الفعالة التي تقوده إلى السعي والانتشار في طلب الرزق، وفي إيجاده على زوجين بحيث جهز كلا منهما ليتمم الآخر، وفي أن أودع الرحمة والمودة والحب بين هذين الزوجين ليسكن كل منهما إلى الآخر؛ فتنتقل هذه الرحمة والمودة إلى من يليهما من أطفال وضعفاء ومساكين. وكل ما ذكر هنا يدل على أن ثمة هداية تكوينية فطرية عامة تهدي الإنسان إلى ما يحقق غايةَ ومقصد وجوده أي سعادته.

مفهوم الفلاح

يذهب فلاسفة المسلمين ومتكلموهم إلى أن النفس الإنسانية لها قوتان: أولاها: القوة النظرية، وكمالها في المعرفة، وأعز تلك المعرفة وأشرفها معرفة المولى ﷻ. والثانية: هي القوة العملية، وكمالها في فعل الخيرات والطاعات وخدمة المولى ﷻ.

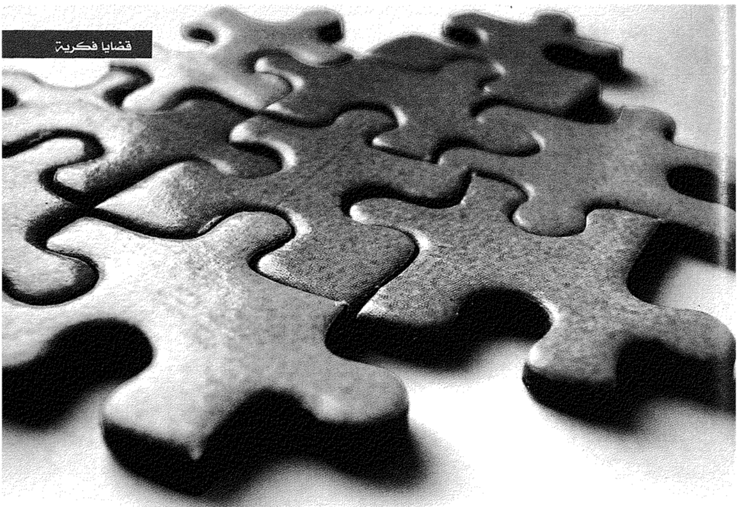
ترد كلمة الفلاح بمشتقاتها المتباينة في عدد من نصوص القرآن الكريم موصولة ومتعلقة، أي في سياق سلوك إنساني يقع في دائرة الأخلاق العملية، وبما يتضمن الأفعال الإرادية المحمودة كقوله تعالى: ﴿قَدْ أَفْلَحَ الْمُؤْمِنُونَ ۞ الَّذِينَ هُمْ فِي صَلَاتِهِمْ خَاشِعُونَ ۞ وَالَّذِينَ هُمْ عَنِ اللَّغْوِ مُعْرِضُونَ﴾(المؤمنون:١-٣). وهكذا إذا تتبعنا الآيات نجدها قد خصت الفلاح والفوز لمن اتصفت أخلاقه العملية بهذه الطائفة من الآداب القرآنية، وكذلك في قوله تعالى ﴿لَا تَأْكُلُوا الرِّبَا أَضْعَافًا مُضَاعَفَةً وَاتَّقُوا اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾(آل عمران:١٣٠)، ﴿وَأْتُوا الْبُيُوتَ مِنْ أَبْوَابِهَا وَاتَّقُوا اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾(البقرة:١٨٩). وبصفة عامة فإن صفة الفلاح تجيء في القرآن موصولة بهذه الأخلاق العملية سعيا للسمو بالسلوك الإنساني.

مفهوم الطمأنينة

الطمأنينة تعني السكون والاستقرار؛ فقوله تعالى: ﴿قُلْ لَوْ كَانَ فِي الْأَرْضِ مَلَائِكَةٌ يَمْشُونَ مُطْمَئِنِّينَ لَنَزَّلْنَا عَلَيْهِمْ مِنَ السَّمَاءِ مَلَكًا رَسُولًا﴾(الإسراء:٩٥) أي مستقرين. وتستعمل في سكون القلب، فالقلب المطمئن ساكن بإيمانه بالله ﷻ، يجري على قرار من النفس وسكون من الفكر. ولقد أخبر القرآن الكريم عن مقام النفس المطمئنة، وهي التي أشار إلى كونها تمثل غاية سمو النفس الشريفة في مسيرها وقصدها نحو الله ﷻ ﴿يَا أَيَّتُهَا النَّفْسُ الْمُطْمَئِنَّةُ ۞ ارْجِعِي إِلَى رَبِّكِ رَاضِيَةً مَرْضِيَّةً ۞ فَادْخُلِي فِي عِبَادِي ۞ وَادْخُلِي جَنَّتِي﴾(الفجر:٢٧-٣٠)، وهذا التسامي والترقي يجيء في منحى كمالات قوى النفس النظرية التي هي غاية كمالها ورقيها على صعيد المعرفة. وأعزُّ تلك المعارف -كما أشرنا- وأشرفها معرفة الحق ﷻ، وهي المعرفة الربانية أو اللدنية كما يسميها الإمام أبو حامد الغزالي، التي تبدأ من حيث ملاحظة عجائب آثار الحق ﷻ لتقود إلى نقاء وصفاء تصورات النفس الكلية تجاه الوجود والحياة، ومن ثم الترقي في مدارج المعرفة سموا لبلوغ كمالات قوى النفس النظرية. ونلمح هذا المعنى في سياق قوله تعالى: ﴿وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّ أَرِنِي كَيْفَ تُحْيِي الْمَوْتَى قَالَ أَوَلَمْ تُؤْمِنْ قَالَ بَلَى وَلَكِنْ لِيَطْمَئِنَّ قَلْبِي﴾(البقرة:٢٦٠). فالإيمان الصادق يحرك أشواق الروح وتطلعاته لمعاينة أسرار القدرة الإلهية؛ مما يحيل الإيمان لتجربة شخصية ذاتية مباشرة يحياها الوجدان ويفيض الحس ويطمئن بها القلب، فلا تتم للنفس الإنسانية سكون أو اطمئنان إلا في ظل الإيمان الراسخ بالله والرقي إلى مقام المعرفة الربانية الحقة، ويؤدي هذا المقام بالمؤمن إلى تقوية الإحساس بالله والأنس بجواره، وهذا هو غايةُ ومقصد المعرفة الربانية، وذلك قوله تعالى: ﴿أَلَا بِذِكْرِ اللَّهِ تَطْمَئِنُّ الْقُلُوبُ﴾(الرعد:٢٨). ■

لا تتم للنفس الإنسانية سكون أو اطمئنان إلا في ظل الإيمان الراسخ بالله والرقي إلى مقام المعرفة الربانية الحقة، ويؤدي هذا المقام بالمؤمن إلى تقوية الإحساس بالله والأنس بجواره، وهذا هو غايةُ ومقصد المعرفة الربانية.

(*) جامعة الخرطوم، قسم الفلسفة / السودان.



الحوار بين الحضارات

مقاربة تصنيفية، ومقترحات منطلقية

أ.د. أحمد عبادي*

تعيش البشرية فوق كوكب صغير يسمى الأرض، وهو على شساعته لا يعدو كونه نقطة زرقاء سابحة في الفضاء. وكوكبنا بحكم اكتشاف سكانه عددا من الإمكانات الهائلة التي تقرب المسافات وتطوي الزمان وتيسّر التأثير والتأثر قد أضحى أشبه بخلية النحل الهائجة المائجة، وأضحت عليه هذه المجموعة البشرية أشبه بالبويضة الملقّحة التي يمكن أن يتولّد عنها كائن إنساني سوي وخيّر، كما يمكن أن يتولد عنها مارد مدمر لذاته وللحياة من حوله.

وبناء على هذا الإدراك فإن الحوار اليوم قد تجاوز بمراحل كونه مجرّد اختيار إلى صيرانه ضرورة؛ ولاسيما أن البشرية اليوم قد أصبحت أفعل وأقدر في مجالات التدمير منها في كل العصور التي مضت. فنحن نمتلك من القنابل النووية والذّرية والهيدروجينية وغيرها، ما نستطيع به تدمير الأرض آلاف المرات وليس مرة واحدة. ويكفي تسلل قناعة مظلمة لواذا إلى عمق الإنسان فتستقر فيه لكي يدمر هذا الكويكب الذي ليس لنا ملجأ سواه؛ فلا أرض -راهنا- سوى هذه الأرض يمكن أن تُقلّ النوع البشري.

وقد أثبتت تجربتنا التاريخية المشتركة أن الرشد الذي برهنا عليه مجتمعين لم يبلغ درجة الكفاية، حتى في إطار تديناتنا المتنوعة، فالقراءة للتاريخ تثبت أن تعاطينا مع الوحي وهداياته لم يكن فيه -في الأغلب- التوجّه لهذا الوحي لنستمد منه أجوبة عن

سؤالاتنا، وإنما كان تعاملنا معه -على الأعمّ- تعاملا استعماليا من أجل أن ننصر به قضايا ضيقة، أو أن نقضي به أغراضا زائلة، وقد يقارف هذه القضايا وهذه الأغراض في كثير من الأحيان إضرار بالذات أو بالمحيط، أو بهما معا.

وقد كانت الفترات -على قلّتها- التي سلّم فيها الإنسان فعلا للوحي ولهدايته وأنواره بتوجه وفهم سليمين عبر التاريخ البشري أكثرَ الفترات سلاما وعطاء ورشادا وتعاونا على البر والتقوى.

إننا في هذه المرحلة أحوج ما نكون إلى فتح الأبواب على الواقع كما هو، لنتمكّن من إدراكه على ما هو عليه، لنكون أقدر على تصييره ذلك الواقعَ الذي نحلم به، فكلنا نحلم بالتسامح وبالجمال وبأن تكون البشرية متعاونة على البر والتقوى فوق هذا الكوكب، ولكن الواقع يُثبت أن ثمة سوابق معرفية وبرديغمات تؤطر الأذهان، ومن خلال هذا التأطير تُوجّه الواقعَ وسلوكَ الإنسان. وبالتالي فإنه لا بد من فتح هذه المنطقة ودخولها لاستكشافها وتنقيتها وإعادة ترتيبها؛ وهي خمسة أمور لا يمكن تصوّر تحققها بدون اعتماد مستلزماتها ومقتضياتها، وفي طليعتها الأساس المعرفي البحثي العلمي.

كلنا نحلم بالتسامح وبالجمال وبأن تكون البشرية متعاونة على البر والتقوى فوق هذا الكوكب، ولكن الواقع يُثبت أن ثمة سوابق معرفية وبرديغمات تؤطر الأذهان، ومن خلال هذا التأطير تُوجّه الواقعَ وسلوكَ الإنسان.

ففتح رمّانة المعتقدات والتصورات والسوابق المعرفية والبرديغمات والقيم والمعايير، وإحصاءُ حبّاتها عددا، وقياس تأثيراتها، وتتبع تجلياتها في حياة الناس أفرادا وجماعات، أمر لا يمكن بدون ركوب مَركب المعارف المساعِدة، والتشمير للقيام بالبحث العلمي اللازم بالمناهج الملائمة، مراعاة للسياقات التاريخية والحضارية والثقافية المتنوعة.

كما لا يمكن تصور دخول هذه المجالات المركّبة دون الاستثمار الزمني والنفسي والذهني والمادّي الملائم، إذ هو دخول لا يمكن أن يتم دون التعاطي الميداني التفاعلي المباشر مع أهلِ ومكونات الحضارات المختلفة.

أما الاستكشاف، فلا يمكن تصوّر وقوعه بدون ما يلزم من آليات منهاجية ولغوية للتعايش مدخل الاستكشاف، وكذا يلزم من مهارات ومقتضيات مادّية لدراسة العلوم والآداب والفنون والصنائع والشرائع والنظم، والتي هي جميعا مُتجلّى المعتقدات والتصورات والسوابق المعرفية والبرديغمات المؤطرة والقيم والمعايير، مع ضرورة مواكبة ذلك كله بالانتباه المتوفّز للفروق بين مختلف الحقول العلمية والعملية، والتفاوتات التاريخية، ومع الملاحظة الدقيقة والجمع المستوفي للمعطيات مع دراستها وتحليلها بالمناهج الملائمة، وهي مناهج يضطر المستكشف في كثير من الأحيان أن يبنيها بناء.

كما لا يمكن تصور القيام بتنقية، دون امتلاك ناصية المعرفة الدقيقة بالأصول والمنطلقات، إذ لا تعدو التنقية في نهاية المطاف تصفية الأمور ممّا يشوبها عبر الزمن وردّها إلى أصول نشأتها الأولى دون تمحّل ولا تكلّف، كسحاً للألغام المفاهيمية، والإعاقات التصورية التي قد تتسرّب إلى هذه الأنساق خلال مساراتها التاريخية وتقلباتها الاجتماعية، فتحجمها وتلجمها أو تفتحها على سراديب الكلّيانية والعنف الحضاري والدمار المدني.

أما إعادة الترتيب، فلا يجوز أن تكون خارج الثوابت تنصيصا وتقصيدا في مراعاة تامة للواقع وتطلباته، واعتبارٍ لمختلف المآلات التي قد تنجم عن هذا الترتيب أو ذاك.

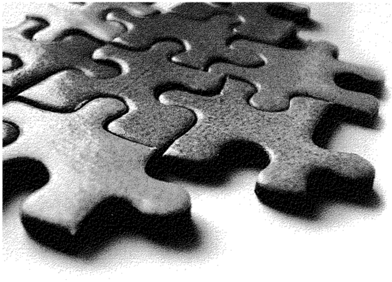
أنواع المحافل الحوارية

غير أننا حين ننظر إلى المحافل الحوارية في عالمنا اليوم فإننا لا نجدها تتجاوز خمسة أنواع رئيسة من المحافل؛ معظمها في منآة عن هذا الكدح الخماسي المشار إليه آنفا:

١ – المحافل التوظيفية

في هذا النوع من المحافل يتم توظيف الحوار من أجل الإبقاء على أمور معينة، أو من أجل الوصول إلى أغراض محددة.. كما يغلب على المقولات والأفكار التي تروَّج في هذه المحافل كونُها صدى لما يحمله المنظِّمون من قناعات؛ إذ يتم البحث في دائرة "الآخر" عمن سوف يتكلم بما في أذهان المنظمين وعما يشتهون، وليس عمن يحمل أفكارا وقناعات "أخرى"!

وهذا المنحى التوظيفي تندرج ضمنه جلُّ الدراسات التي تم



القيام بها خدمةً للمنظور الاستعماري، أو خدمةً لأغراض ومنافع تجارية واقتصادية صرفة. وهو ما قامت به الدول عبر التاريخ مرورا بالفراعنة ووصولا إلى يومنا هذا؛ حيث تدرس المعتقدات والقناعات ضمن هذه المقاربة التوظيفية بغرض التسلل إلى المعمار الذهني للآخر بغية تأطيره والتحكم فيه.. ومن هنا فإن المحافل التي تنحو هذا المنحى توظيفية بامتياز.

٢– المحافل الدعوية التبشيرية

وهناك منحى ثان، يمكن أن نصطلح على تسميته بـ"المنحى الدعوي أو التبشيري". وهو منحى لا تكاد تبرأ منه ملة من الملل؛ ويمكن أن نجده في المسيحية كما يمكن أن نجده في الإسلام، أو في الهندوسية أو البوذية أو في كل الديانات ذات النزوع التبشيري، ومن ثم فإن الحوار في هذه المحافل لا يكون تعارفيا استكشافيا بقدر ما يكون مستهدفا ضم الآخر بل أحيانا هضمه.

٣– المحافل الأكاديمية

الضرب الثالث من المحافل يمكن أن نصطلح على تسميته بـ "الأكاديمي"، حيث يُعنَى فيه الباحث بمعرفة الأمور والوقائع والمعطيات كما هي، يكشف عنها ويتركها بحياد متاحة للتوظيف من طرف أي من المحافل الأخرى. وهو محفل له إيجابياته ويحتل المنزلة بين المنزلتين: التوظيفية والتعارفية.

٤– المحافل التوليفية المستهدفة لتحقيق التعايش

هذا النمط الرابع من المحافل الحوارية يسعى إلى البحث عن نقاط الالتقاء والقواعد المشتركة مع "الآخر" من أجل وضع حد للصراعات العدمية؛ فهو بهذا يمارس التوظيف، لكن بطريقة إيجابية تروم حقن الدماء، وصيانة الأرواح، واستبقاء المصالح وعيا بضرورة الإبقاء على التوازنات بشكل أو بآخر دون الغوص في معرفة الآخر ومحاولة فهمه فهما عميقا صادقا وصحيحا وإفادته والاستفادة مما عنده.

٥– المحافل المعرفية التعارفية

وهي أكثر هذه المحافل ندرة، إنما المحافل التي تريد أن تستفيد من الحكمة أينما كانت؛ إذ الحكمة ضالة الباحث المحاور فأينما وجدها فهو أحق الناس بها. ونحن لا نتحدث هنا عن النص أوعن العلاقة الإيمانية به ولا عن تصديقه أو هيمنته، وإنما نتحدث عن الحكمة التي تبلورت من خلال التعامل مع النصوص في كل الديانات.

والحاصل أن المرء يمكن أن يتعلم الكثير ضمن هذه الخانة كما يمكن أن يتعلم منه الناس. وثمة حاجة ماسة للعمل ضمن هذه المحافل حتى يُرَقّى فيها الحوار نحو أن يصبح تعارفيا؛ يتأسس على البراديغمات التي تشجع على العبور نحو الآخر والإفادة منه، مثل براديغم وحدة البشرية أو الأسرة الآدمية الممتدة، وبرديغم مؤقتية الوجود الإنساني ومؤقتية الكون كله، وبرديغم نسبية الإنسان ونسبية معارفه وبرديغم التكامل وغيرها من البرديغمات المؤسسة. وهذا النموذج المعرفي التعارفي نموذج مستوعِب متجاوز مقارنة مع "نموذج التسامح" السائد. والذي يعتريه قصور؛ لأن التسامح (Tolérance) يفيد أنني أسجل عليك أشياء أتحفظ عليها ولا أقبلها فأتفضل وأتغاضى عنها من أجل أن أصل إلى خانة التوظيفية أو التبشيرية أو ربما التوليفية.. ومن ثم فإن التسامح يبقى محدودا ليس بإمكانه تجاوز هذا المستوى. أما النموذج التعارفي فهو أكثر قابلية للتعاطي والإثراء الإيجابيين.

وهو نموذج نجد التعبير عنه والتوجيه إليه بصيغ متعددة ومختلفة في جل الديانات، ومن أجلى التعبيرات عنه عندي، ما نجده في القرآن الكريم ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُمْ مِنْ ذَكَرٍ وَأُنْثَى وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوبًا وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللهِ أَتْقَاكُمْ إِنَّ اللهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ﴾(الحجرات:١٣). وعند التأمل فإننا نجد في كل الديانات تدريبات على التعارف تختلف في شموليتها واستيعابيتها على التعارف.

والنموذج التعارفي ينطلق من حقيقة أن كل طائفة من بني آدم قد عاشت في سياقات مختلفة حَررت فيها كفاءات معينة وأطلقتها، بحيث إن التحديات التي تفرضها هذه السياقات تضغط أزرارا في الكينونة الإنسانية، فتنشئ أضربا من المعرفة ومن الحكمة عادة ما لا تكون عامة، وبشكل يجعل باقي بني آدم محتاجين للاستمداد منها. إن هذا النموذج يعترف بأن كل طائفة من الآدميين قد بلورت في مجالاتها حكمة خاصة واستثنائية يمكن –من خلال تشغيل نموذج التعارف– أن يتم تقاسمها مع الآخرين

وتعديتها إليهم، كما يمكن من خلال هذا التشغيل ذاته أن يؤخذ عنهم ما بلوروه هم أيضا من الحكمة ومن المعارف.

وفي النموذج الإسلامي يوجد هذا بقوة وإشراق كبيرين في عبادة الحج، ففي قوله تعالى لنبيه إبراهيم ﴿وَأَذِّنْ فِي النَّاسِ بِالْحَجِّ يَأْتُوكَ رِجَالاً وَعَلَى كُلِّ ضَامِرٍ يَأْتِينَ مِنْ كُلِّ فَجٍّ عَمِيقٍ﴾(الحج:٢٧)، يعني يفدون لكي يتجمعوا حول نقطة معينة هي الكعبة. وهذه الكعبة سميت كذلك لأنها مكعبة، لا أقل ولا أكثر، وحين تصل إلى هذه النقطة تجد أن الصف ليس صفا مستقيما وإنما هو دائري، وهذه الدوائر يصطف وفقها المسلمون وينظرون من مواقعهم فيها إلى الكعبة التي لا تعدو كونها سهما مؤشرا على جلال الله وقدرته، وحضوره وعنايته.

والزاوية التي تراها أنت من الكعبة؛ حجرا أسود كانت أم ركنا يمانيا، أم ركنا شاميا... لا يستطيع غيرك رؤيتها؛ لأنك تنظر من نقطة لو تزحزحتَ عنها بقدر أنملة فسوف تتغير الرؤية والبانوراما كلها، ولذلك فأنت مدعو ضمن هذه الشعيرة / الركن، التي هي الحج، إلى أن تطوف، وأن تنظر إلى الزوايا الأخرى من النقط والمواقع التي يقف عندها الآخرون... وطوافك لن يكون في نقطة رؤية واحدة، بل سوف تجتمع في أشواطك السبعة كثير من النقط التي تكون ضمن المطاف. غير أن هذا يستدعي النباهة؛ إذ لا تعارف دون انتباه لما تراه، وبعد ذلك يتم الصعود إلى عرفة. و لم يُسمَّ ذلكم الموقف عرفة من عبث، وإنما لوجود التعارف فيه. وشعيرة عرفة لا يحل إبانُها إلا وقد تشابهت الأشكال والملامح وتمازجت الروائح؛ إذ لا حق لك بعد يوم التروية في استعمال الطيب، ولا حق لك في الحلق، كما أنك تجتنب لبس أمور الزينة والتميّز وتمتزج مع غيرك من الحجاج الذين جاؤوا من كل فجّ عميق كأنك وُضعتَ معهم كلهم في قِدْرٍ واحدة تَمَّ تحريكها لكي تمتزج فيها التوابل وتكون الطبخة من ثم طبخةً واحدة!

حين ننظر في النصوص التي فيها حديث عن ما بعد مرحلة التعارف بعرفة نجد شيئا اسمه "الإفاضة"، ونجد أن الناس يُفيضون ﴿فَإِذَا أَفَضْتُمْ مِنْ عَرَفَاتٍ فَاذْكُرُوا اللَّهَ﴾(البقرة:١٩٨). والإفاضة توحي بأن ثمة قوةً تُذلل العقبات التي في طريقها: كجمرة العقبة التي ليس رجمها رجما لإبليس، وإنما هو تذليل للعقبات التي تحول دون الناس والتعارف فيما بينهم ومن ثم التعاون على البر والتقوى سواء من باطن أم من ظاهر.

وفي هذا رسالة للبشرية جمعاء لتحقيق الامتداد النابض لنفَس التعارف ذهابا إلى الكعبة وإيابا منها، حيث يلتقي الناس من كل فج عميق فيتعارفون، ويتشاطرون أضرب الحكمة المتعالية، ثم يعودون بها لأقوامهم ويأتي آخرون... وهكذا دواليك، في حركة تحاكي نبض الفؤاد.

الواقع البحثي في مجال الأديان المقارنة

ويحق لنا من خلال هذا النموذج المعرفي أن نسائل الواقع البحثي في مجال الأديان المقارنة... فلنذهب مثلا إلى مكتبة موريال، أو مكتبة كمبريدج أو مكتبة جامعة محمد الخامس ولنبحث عن صورة الآخر في الديانات المختلفة، فسوف نجد أنها تندرج جميعها -إلا ما استثني- ضمن الخانات الثلاثة الأولى؛ كما سوف نجد أن البحوث التي تندرج ضمن الخانة الرابعة قليلة، أما الخانة الخامسة فحدث عن الندرة ولا حرج.

مما يعني أن صورة الآخر في الكتابات التي تدرّس في مقررات تاريخ الأديان تكون في أغلبها إما توظيفية، أو تبشيرية، أو تقريرية؛ تقرر الواقع وترصده كما هو. وفي حالات نادرة جدّا تكون توفيقية؛ ولذلك فإن الباحثين الجادين الذين يريدون بالفعل البحث عن تجليات هذا النموذج المعرفي التعارفي في الدراسات والأبحاث والكتابات المختلفة سيجدون فراغا كبيرا.

كيف يمكن إذن أن نطمح للقيام بهذه التأسيسات ضمن الخانة التعارفية في المقررات التي تدرس للطلبة، وفي التكوينات التي تعطى للقساوسة أو تعطى للأئمة أوللحاخامات، أولأهل الديانات الأخرى؟ كيف يمكن أن نوصل البعد التعارفي إلى هذه التكوينات لكي لا يبقى بُعدا شعاراتيا، ويصبح واقعا حيا معيشا؟

إن هذا يصعب أن يتأتى بغير المقاربة البرهانية المخلصة سعيا إلى استخلاص وتحرير البحث العلمي من الشواهدية (أي طلب الشهادات)، ومن البراغماتية الجامدة وكذا من التوظيفية؛ فالمقاربة الشواهدية للدراسة والبحث قد جنت على البحث العلمي ما جنت، وهذه قضية تحتاج للعلاج من النواحي المنهجية والتوجيهية وكذا التشريعية.

أما القضية الثانية التي تستدعي العلاج فهي النفعية؛ فالمعاهد العلمية تحتاج -من أجل البحث- إلى تمويل، غير أن هذا التمويل غالبا ما يكون مشروطا؛ فالمؤسسات الداعمة تقول للباحث، بطريقة أو بأخرى: إذا أردت أن أعطيك هذا الدعم أو هذه المنحة البحثية فيجب أن يستجيب بحثك لجملة من المواصفات

البراغماتية التي أتوخاها "أنا"، ومن ثم فإن الأبحاث والأعمال التي تنتج في هـــذه الإطارات تدخل ضمن الخانة التوظيفية بامتياز. وهو الأمر الذي يجب تجاوزه بإدخالِ بُعد العمل الاجتماعي في العمل البحثي.

إن كثيرا من الناس لا يتصورون العمل الاجتماعي خارج الأمور المتعلقة بالمجاعات والكوارث وقضايا اجتماعية كالصحة على سبيل المثال، بيد أن العمل الاجتماعي في المجال البحثي محوري أيضا وبالغ الأهمية.

واعتماد المقاربة البرهانية يقوم على ركنين:

الركن الأول: وهو عود على مـــا ذكرناه في مطلع هذا المقال، ومفـــاده: وجوب إدراك أن هذا الكوكب الأرضي كوكب محدود، وأن محدوديته تفرض التعايش، وأن هذا التعايش يجب أن يكون تعايشا مســـتداما، ولكي يكون كذلك فلا بد أن تكون لدينا القدرة على معرفة الآخر وفهمه، وأن نعينه أيضا على معرفتنا وفهمنا من خلال التواصل معه حتى نستطيع التعامل والتعاطي والتعاون الإيجابي على البر والتقوى.. فحينما نستطيع بحثيا أن نبرهن على أن هذا الخيار لا يمكن التخلي عنه، وأنه أمر ضروري وشرط لا محيد عنه من أجل كل تعايش إيجابي وبنّاء لنا مجتمعين فوق كوكبنا، فسوف نكون قد برهنا بالفعل على ضرورة القيام بالبحث والدراسة والحوار ضمن الخانة التعارفية.

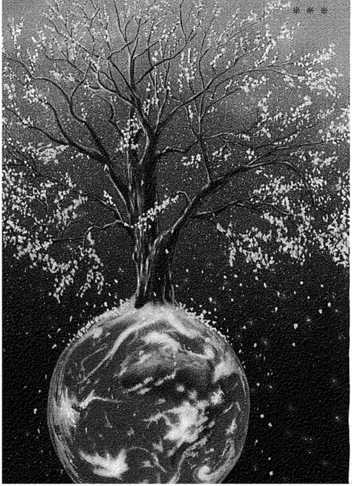
أما الركن الثاني: فهو الركـــن الوظيفي؛ والذي يدرس التاريخَ ســـوف يجد الشواهد المتعددة على وظيفية المقاربة التعارفية؛ فحينما سادت هذه المقاربة في بغداد كان فيها من الازدهار ما كان، وكذا حين ســـادت هذه المقاربة التعارفية في قرطبة وفي أصفهان وشيراز وسمرقند ودلهي وغيرها... وجلي أن الانتصار لنجاعة هذه المقاربة لا يحتاج إلى كثيرِ مرافعة، فنحن إن لم نتعايش سوف نفوت فرصا ضخمة للبناء المشترك، وإن لم نحذر فقد يدمر بعضنا بعضا.. في حين أننا إن تعايشنا ازدهرنا جميعا، واستفاد بعضنا من بعض، ونفع بعضنا بعضا...

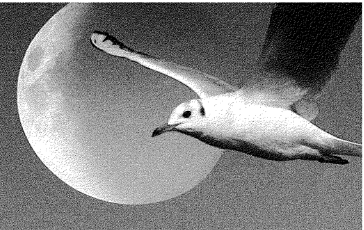
وإن صـــحّ لنا -انخراطا في اســـتمرار البحـــث في هذه القضية المحورية- أن نختم بسؤال، فليكن هو الآتي: كيف السبيل إلى تعميم هذه المقاربة التعارفية في الجوانب البحثية والتكوينية؟ وتجاوزِ العادات والممارسات الستاتيكية أو السلبية التي لا تزال بهذا الصدد تسود في محافلنا الحوارية وفي جامعاتنا. ■

(*) الأمين العام للرابطة المحمدية للعلماء / المغرب.

يا دنيانا العجوز

إلى العجز ركنتِ، وفي الموت رغبتِ..!
لكنَّ بطنكِ لا زال وَلاَّدًا،
ورَحِمكِ لا زالتْ معطاءً..!
فالشجر الباسق، والنور الرائق،
من جوف الظلام آتٍ...
فالظلم إذا اشتدَّ انفرج،
والبذر إذا أترب أثمر...
ودورة الحياة عليكِ ستدور،
وبأنفاسها من جديد ستقومين،
ورسالتَكِ العمرانية ستؤدّين..!
* * *





بياض اليقين

عبد العزيز المقالح*

أفوّضُ أمري إلى اللهِ
أصعدُ معراجَ روحٍ رأتْ موتَها
قبلَ أنْ يستحمَّ غبارُ المدينةِ
في الجفنِ،
يختارُها زمنٌ
ومكانٌ بلا رغبةٍ،
ويكونَ لها جسدٌ
ولسانٌ وعينانِ،
كانتْ ترى،
وتنوحُ وتشكو؛
رأتْ كائناً يتحرَّكُ فوقَ هديرِ الترابِ،
ويحملُها بينَ جنبيهِ..
يجري بها تارةً في حريرٍ منَ الضوءِ
مغمورةً بظلالٍ منَ العطرِ،
يجري بها تارةً في كهوفٍ منَ الرُّعْبِ
مبتلَّةً بصقيعٍ منَ الخوفِ،
شاردةً ذاهلةً.
أفوّض أمري إلى اللهِ
أصعدُ منتشياً في ارتعاشِ القصيدةِ،
أخلعُ عنّيَ —في عَجَلٍ—
جسداً أرهقَتْني مخاوفُهُ
ونوازِعُهُ،
أوجعَتْني انطفاءاتُهُ
حينَ يعشقُ أبّهةَ الحزنِ
حينَ يُداري مغامرةً لا تليقُ بِهِ،
يا رفيقَ طفولتِنا
وصِبانا
ومأوى الكهولةِ،
يا أنتَ يا جسدي..
كيفَ أغلقتَ نافذةَ الرُّوحِ
أطفأتَ أعذبَ ما فيكَ،
أغمضتَ قلبَكَ،
في خندقٍ مفعمٍ بالغوايةِ،
ألقيتَ كَنْزَ هواكَ
وفي غسقٍ لا قناديلَ في سقفِهِ،
تتخبَّطُ،
تقتاتُ أحلامَكَ الفاشلَةْ؟
أفوّضُ أمري إلى اللهِ،
أسألُهُ عنْ عدوٍ منَ الناسِ
كانَ صديقي،
وأسألُهُ عنْ صديقٍ منَ الناسِ
كان عدوّي،
وعن كتبٍ كنتُ أقرأُها،
فيزيدُ بفضلِ القراءةِ جهلي،
وعن بلدٍ كنتُ أحسبُهُ وطني
وأرى فيهِ أهلي،
وجدرانِ بيتٍ عتيقٍ
يُسَيّجُهُ الشوقُ والحزنُ،
عن طفلةٍ
كنتُ أعشقُ عطرَ جدائلِها
وأرى في ابتسامتِها عالَماً
فاتنَ القَسَماتِ،
وأسألُهُ..
أينَ بعدَ الذُّبولِ
يروحُ الجمالُ؟
وأينَ مصيرُ العيونِ
التي كانَ في طَرْفِها حَوَرٌ
يقتلُ العاشقينَ؟
وماذا جرى عندَ سقفِ الزّمانِ
لنرجسِ أحلامنا
وعواطِفنا الذابلَةِ؟!
أفوّضُ أمري إلى اللهِ
لم يبقَ ظِلٌّ، ولا طللٌ،
كانتِ الأرضُ ساقطةً
والفضاءُ غريباً،
ولا نبضَ للكائناتِ..
كأني الوحيدُ الذي نسيتْهُ قرونٌ
منَ الموتِ،
أخفتْهُ في كهفِها الكلماتُ،
ولم يدرِ أنَّ القيامةَ قامتْ،
وأنَّ جميعَ الخلائقِ في قبضةِ الأبديّةِ..
ويلاهُ..
إني أفوّضُ أمري إلى اللهِ
أقرعُ أبوابَهُ
بدموعٍ تكسَّرَ مرمرُها
في محيطٍ منَ الظلمةِ القاتلَةِ.

(*) أستاذ الأدب العربي في قسم اللغة العربية، جامعة صنعاء/اليمن.

الإنسان
بين الشيطان والقرآن

أديب إبراهيم الدبّاغ*

الإنسان

من قاع الهوّة سُمِع صوت إنسان صارخًا مستنجدًا..

ضاع قلبي، مَنْ على قلبي يَدُلُّني؟

تاهَ روحي، مَنْ على روحي يرشدني؟

وعلى نفسي بكتْ نفسي، فَمَنْ يمسح دمع نفسي؟

وعلى لوعتي ناحَتْ لوعتي، فَمَنْ يُهَدْهِدُ نَوْحَ لوعتي؟

وكُرْبَتي هَاجَتْ أَنّتي، فَمَنْ يسمع أَنّتي ويُفَرِّجُ كربتي؟

ويَومي لَقيط بين الأيام لا هوية ولا نَسَـب، فَمَنْ إليَّ يردُّ هويتي وإلى نسبي يَنْسُبُني؟..

نومي أرق، وليلي قلق، وفي جنبيَّ واخزات محرقات جائحات... وأنا شبح شاحب تطويني العواسق، والليالي الكوالح، تائهًا كملاّح يقود حُطَامَ سفينته إلى شاطئٍ بعيد المنال يغشاه الضباب والسراب والتوجس والخوف!..

الشيطان

ويحك يا إنسان.. ما أشقاك وأتعسك.. صوت عذابك صَكَّ سمع الأرضين السبع، وعويلك هزَّ -في الأسافل- الظلمات من تحت أبينا المبَجّل "إبليس".. ما خَطْبُك؟! وأيُّ داهية دهياء حلَّتْ بك وقلبتْ كيانك؟!

تلتمس قلبك فلا تجده.. حسنًا لا تفزع.. هو عندي وبمعيّتي، ناديتُه، أغريتُه، فأتاني على عجـل.. وعلى عجل أبحرتُ به إلى عوالمي الشيطانية لأُسَلّيَهُ وأُنسِيَهُ هَمَّ نفسه.. فسقَيتُه من كؤوسي، وأَكْرَعْتُهُ من شـرابي.. حتى دار عقله، وانتشى لُبُّه، وغاب عن نفسه، وضلَّ عن ذاته.. ولقد اقتحمتُ جُمجُمَتَهُ وهالني ما تزدحم به من عظيم الأفكار.. وبنفخة واحدة طار كل شـيء وصارتْ فارغة تعصف بها الأهواء.. لقد مررتُ بكل الأزمنة، والْتقيتُ "الإنسـان" في كل مكان، ولم أدهشْ لشـيءٍ دهشَتي للفكر المستولي على القلب البشـري كيف يتحول إلى شعلة متوقدة في دم الحضارات، وكيف يغدو معراج ارتقاء وسُلَّم سُمُوٍّ للإنسان.. فحزَّ ذلك في نفسي، فشققتُ الأرض عويلاً وصراخًا، وأسرعت أطوي بحار الظلمات حتى لحقتُ به، وسلبتُه كُلَّ فكرٍ مُضِيء، وأبدلته عن ذلك حَشْوًا هائلاً من ترهات الأفكار التي لا تشـحذ ذهنًا، ولا تضيء وجدانًا!.. فبَعد كُلِّ هذا الذي فعلتُه لقلبك -يا إنسان- تتهم محبتي لك، وإخلاصي من أجلك؟.. فما أَقَلَّ وفاءَك، وأكبر غدرك!..

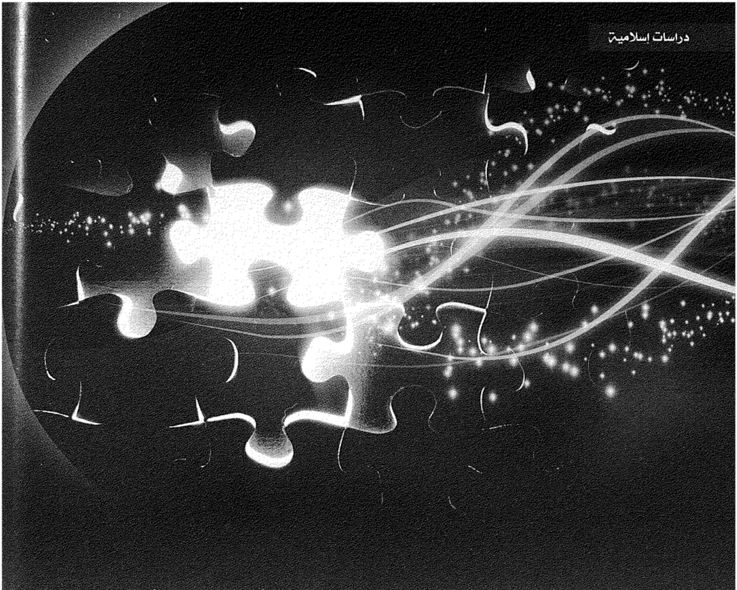
القرآن

يا إنسـان!.. يا موضع نظر آياتي، يا قطعةً من روح كلماتي، يا قلبًا نازلاً من فوق سبع سموات، يا مأوى حكمتي، يا نجم سمائي، يا مقيمًا في ثنايا ضميري.. باسمك دعوتُ، وأبوابي لك فتحتُ، والأبديةَ إليكَ أَزْجَيْتُ، وأقباسًا من روحي في روحك أشعلتُ، ولغتي لك ضَوَّأْتُ، وأزليتي لك أقْرَأْتُ!..

مَحَضْتُكَ قلبي ليخفق في قلبك، وأَعَرْتُكَ عيني لتنير في عينك.. فاسْتُرْ شَجْوَكَ، وَاكْتُمْ وجَعَكَ.. فقلبكَ السليب آيب، وروحك الشريد إليك عائد.. لا تخفْ، ولا تَذُبْ أَسًى وحسرةً، فَلَنْ تموتَ روحك ولو باتَتْ تتعذّبُ ألفَ سـنة في جحيم الشيطان.. ولن تصهر النيران جوهر ذاتك ولو سلَّطَ عليه الشيطانُ كُلَّ شواظات ذهنه الجهنّمـي.. يخطئ اللعين إذا هو ظنَّ أَنَّ الهلاكَ مقدور لك ولا مناص لكَ منه!..

عُدْ إليَّ -يا إنسـان- فأغمرك بنـوري، وأجلببك بحبوري، وأنشـر عليك رحمتي، وأرتفع بروحك، وأسمو بعقلك، وأُرْهِف حِسَّك، وأُهذِّب شعورك، وأحرّرك من قَيْدَي زمانك ومكانك، وأنقذك من الفناء، وأصِل حَبْلَك بحبل البقاء، وأَسْتلّكَ من العدم، وأهديك الوجـود، وأخلّصك من الزوال، وأدفعك إلى الخلود.. وأجعلك كونيَّ السَّعَة عَالَـمي النظر، إنسانـيَّ النـزوع، عظيم النفس، أخلاقي السلوك، مُتَجَدِّد الذّات، لا تَتَعَتّق أبدًا، ولا تتقادم سرمدًا.. شبابك دائم، وروحك لا تشيخ، وقلبكَ لا يَبْلَى!.. ■

(*) كاتب وأديب عراقي.



القرآن العظيم وقضية الأمة

أ.د. فريد الأنصاري*

إن السلام العالمي لن يكون إلا وليد النور الإلهي، النور الذي يشرق في قلوب المؤمنين بالخير والجمال؛ بما يسكبه القرآن في وجداهم، من معاني الحق والعدل والحرية! ودون ذلك معركة يخوضها القرآن بكلماته ضد كلمات الشيطان، وإلا بقيت البشرية اليوم تغص حلاقيمها بفاكهة آدم إلى يوم الدين. والقرآن وحده يكشف شجرة النار ويتلف فاكهتها الملعونة.

إن هذا القرآن كلام غير عاد تماما، إنه كلام خارق قطعا، ليس من إنتاج هذه الأرض ولا من إنتاج أهلها، وإن كان عليهم تنزل ومن أجلهم تلي في الأرض. إنه كلام الله رب العالمين، الذي قال: ﴿وَمَا قَدَرُوا اللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِ وَالْأَرْضُ جَمِيعًا قَبْضَتُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَالسَّمَاوَاتُ مَطْوِيَّاتٌ بِيَمِينِهِ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾(الزمر:٦٧). إنه الكلام الذي لم يملك قَبِيلُ الجن إذ سمعوه إلا أن: ﴿قَالُوا أَنْصِتُوا فَلَمَّا قُضِيَ وَلَّوْا إِلَى قَوْمِهِمْ مُنْذِرِينَ ۞ قَالُوا يَا قَوْمَنَا إِنَّا سَمِعْنَا كِتَابًا أُنْزِلَ مِنْ بَعْدِ مُوسَى مُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيْهِ يَهْدِي إِلَى الْحَقِّ وَإِلَى طَرِيقٍ مُسْتَقِيمٍ﴾(الأحقاف:٢٩-٣٠). وقالوا: ﴿إِنَّا سَمِعْنَا قُرْآنًا عَجَبًا ۞ يَهْدِي إِلَى الرُّشْدِ فَآمَنَّا بِهِ وَلَنْ نُشْرِكَ بِرَبِّنَا أَحَدًا﴾(الجن:١-٢).

قوة غيبية أقوى مما يتصوره أي إنسان

إن كلمات هذا القرآن -لو تعلمون- قد تنزلتْ من السماء

محملة بقوة غيبية أقوى مما يتصوره أي إنسان؛ لأنها جاءت من عند رب الكون، تحمل الكثير من أسرار الملك والملكوت، وهي جميعها مفاتيح لتلك الأسرار؛ بما فيها من خوارق وبوراق لقوى الروح القادمة من عالم الغيب إلى عالم الشهادة. وتدبر قول الله تعالى: ﴿وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا إِنْ هَذَا إِلاَّ إِفْكٌ افْتَرَاهُ وَأَعَانَهُ عَلَيْهِ قَوْمٌ آخَرُونَ فَقَدْ جَاءُوا ظُلْمًا وَزُورًا ۞ وَقَالُوا أَسَاطِيرُ الأَوَّلِينَ اكْتَتَبَهَا فَهِيَ تُمْلَى عَلَيْهِ بُكْرَةً وَأَصِيلاً ۞ قُلْ أَنْزَلَهُ الَّذِي يَعْلَمُ السِّرَّ فِي السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ إِنَّهُ كَانَ غَفُورًا رَحِيمًا﴾(الفرقان:٤-٦).

إن الذي يظن أنه عندما يقرأ القرآن يقرأ كلاما وكفى، تمضي كلماته مع الهواء كما تمضي الأصوات مع الريح؛ فإنه لا يقرأ القرآن حقا ولا هو يعرفه بتاتا.. وإنما الذي يقرؤه ويتلوه حق تلاوته إنما هو الذي يرتفع به، ويعرج عبر معارجه العليا إلى آفاق الكون، فيشاهد من جلال الملكوت ما لا عين رأت، ولا أذن سمعت، ولا خطر على قلب بشر، وهنالك يتكون ومن هنالك يتزود. فآه ثم آهٍ لو كان هؤلاء المسلمون يعلمون! وصدق الله جل وعلا إذ قال: ﴿يَا حَسْرَةً عَلَى الْعِبَادِ مَا يَأْتِيهِمْ مِنْ رَسُولٍ إِلاَّ كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ﴾(يس:٣٠). نعم؛ يا حسرة على العباد!

أوَليستْ كلمات الله هي التي امتدت من هذه العبارات التي نتلوها إلى أعمقَ مما يمكن أن يتصوره الخيال، وأبعد من أن يحيط به تصور بشري من مجاهيل الوجود؟ ألا تقرأ في كتاب الله ذلك صريحا رهيبا؟ فاقرأ إذن: ﴿وَلَوْ أَنَّمَا فِي الأَرْضِ مِنْ شَجَرَةٍ أَقْلاَمٌ وَالْبَحْرُ يَمُدُّهُ مِنْ بَعْدِهِ سَبْعَةُ أَبْحُرٍ مَا نَفِدَتْ كَلِمَاتُ اللهِ إِنَّ اللهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾(لقمان:٢٧). ﴿قُلْ لَوْ كَانَ الْبَحْرُ مِدَادًا لِكَلِمَاتِ رَبِّي لَنَفِدَ الْبَحْرُ قَبْلَ أَنْ تَنْفَدَ كَلِمَاتُ رَبِّي وَلَوْ جِئْنَا بِمِثْلِهِ مَدَدًا﴾(الكهف:١٠٩).

من اليقين إلى التمكين

فأين ينتهي هذا القرآن إذن؟ إنه لا ينتهي أبدا. ويحك يا صاح! أليس تعلم أن كلام المتكلم صفة من صفاته؟ ومتى كانت صفات الله لها نهاية؟ وهو جل جلاله، وعزّ سلطانه رب العالمين، المحيط بكل شيء. فكيف إذن بمن تخلّقَ بهذا القرآن وتحقق به في نفسه ووجدانه، وصار جزءا حقيقيا من حركة القرآن في الفعل الوجودي، وهذا القرآن تلك صفته وحقيقته؟ أوَليس حقا قد صار جزءا من القَدَر الإلهي، الذي لا يتخلف موعده أبدا؟ أوَليس قد صار جنديا بالفعل من جنود الله، ممدودا بسرِّ ملكوت الله في السماء وفي الأرض؟ يحمل وسام النصر المبين من اليقين إلى التمكين. وهذا عربونه بين يديه الآن: ﴿وَلَقَدْ سَبَقَتْ كَلِمَتُنَا لِعِبَادِنَا الْمُرْسَلِينَ ۞ إِنَّهُمْ لَهُمُ الْمَنْصُورُونَ ۞ وَإِنَّ جُنْدَنَا لَهُمُ الْغَالِبُونَ﴾(الصافات: ١٧١-١٧٣).

وتَدبرْ كيف أن "كلمته" تعالى هي فعله القَدَريّ النافذ حتما، الواقع أبدا. ذلك أن كلام الله فوق كل كلام، إن كلامه تعالى خلقٌ وتكوينٌ وإنشاء. إنه صُنعٌ فِعْليٌّ للموجودات والكائنات جميعا.. من المفاهيم إلى الذوات، ومن الذرات إلى المجرات. وتأمل قوله تعالى: ﴿إِنَّمَا أَمْرُهُ إِذَا أَرَادَ شَيْئًا أَنْ يَقُولَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ ۞ فَسُبْحَانَ الَّذِي بِيَدِهِ مَلَكُوتُ كُلِّ شَيْءٍ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾(يس:٨٢-٨٣). إنه -جل وعلا- يأمر العدم فيكون وجودا، فيكفي أن تتعلق إرادته بوجود الشيء ليوجد بالفعل. وإنما كل فعله تعالى في الخلق والصنع والتكوين مجرد "كلمة"، إنها فعل الأمر: ﴿كُنْ﴾ الآمر بالتكوُّن والتكوين، والتجلي من العدم إلى الوجود.

إن كلماته تعالى لا تذهب سدى في الكون، إنها بمجرد ما تصدر عنه -جل شأنه- تنشأ عنها ذوات وحركات في تدبير شؤون المُلك والملكوت. إن كلامه تعالى إذَنْ خَلقٌ وتقدير، وأمرٌ وتدبير.[1]

ومن هنا كان وصف الله لعيسى عليه السلام -كما سبق بيانه- بأنه "كلمة الله": ﴿إِنَّمَا الْمَسِيحُ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ رَسُولُ اللهِ وَكَلِمَتُهُ أَلْقَاهَا إِلَى مَرْيَمَ وَرُوحٌ مِنْهُ﴾(النساء:١٧١). وإنما جاء ذلك في سياق الرد على الذين زعموا أنه عليه السلام ابن الله -تعالى الله عن ذلك علوا كبيرا- فقوله: ﴿كَلِمَتُهُ﴾ دال على أنه تجلي إرادة الله من الخلق والتكوين! وهو ما بيّنه تعالى في الآية الأخرى: ﴿إِنَّ مَثَلَ عِيسَى عِنْدَ اللهِ كَمَثَلِ آدَمَ خَلَقَهُ مِنْ تُرَابٍ ثُمَّ قَالَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ﴾(آل عمران:٥٩). ومن هنا كانت البشرى لمريم "كلمةً" كلمة غيرت مجرى التاريخ، وبنَتْ صرحا شامخا في تاريخ النبوة! قال تعالى: ﴿إِذْ قَالَتِ الْمَلاَئِكَةُ يَا مَرْيَمُ إِنَّ اللهَ يُبَشِّرُكِ بِكَلِمَةٍ مِنْهُ اسْمُهُ الْمَسِيحُ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ وَجِيهًا فِي الدُّنْيَا وَالآخِرَةِ وَمِنَ الْمُقَرَّبِينَ﴾(آل عمران:٤٥). فكان المسيح عليه السلام هو الكلمة! القضية إذن هي في: ﴿كُنْ فَيَكُونُ﴾ إنها "كلمة الله".[2]

فكلام الله تعالى هو التعبير عن إرادة الخلق والتكوين، والتعبير عن قضائه الرباني وقَدَره الوجودي، وإن هذا القرآن العظيم هو ترجمانه الأزلي، ودستوره الأبدي!

المتخلق بالقرآن من جنود الله

وعليه؛ فإنك إذ تتخلق بالقرآن وتتحقق بمعانيه؛ تنبعث أنت نفسك جنديا من جند الله؛ بل أنت آنئذ جزء من قَدَر الله! وتدبر كيف جعل الله من أتباع موسى عليه السلام أداة قدرية شق بها البحر! تأمل هذا جيدا: ﴿وَإِذْ فَرَقْنَا بِكُمُ الْبَحْرَ فَأَنْجَيْنَاكُمْ وَأَغْرَقْنَا آلَ فِرْعَوْنَ وَأَنْتُمْ تَنْظُرُونَ﴾(البقرة:٥٠). فالله جل جلاله فرق البحر ببني إسرائيل لما كانوا مؤمنين، ولم تكن عصا موسى إلا أداة للفرق، أما العامل الفاعل - بإذن الله - فإنما هو عزائم الإيمان التي استبطنها كثير من أتباع موسى فكانوا جزءا من الخارقة نفسها ولم يكونوا غيرها! فتأمل: ﴿وَإِذْ فَرَقْنَا بِكُمُ الْبَحْرَ﴾ هكذا: ﴿بِكُمْ﴾ وليس "لكم"! وإن كان معنى هذه متضمَّنا في الأولى، ولكنَّ القصد بيانُ أن العبد إذا صار وليا لله كان أداة بين يدي الله -سبحانه- في تنفيذ قدَره في التاريخ! واقرأ إن شئت ما ورد في الحديث القدسي: "من عادى لي ولياً فقد آذنته بالحرب" إلى قوله عنه: "فإذا أحببتُه كنتُ سمعَه الذي يسمع به، وبصرَه الذي يبصر به، ويدَه التي يبطش بها، ورجله التي يمشي بها، وإن سألني لأعطينه، ولئن استعاذني لأعيذنه" (رواه البخاري).

ألا يا حسرة على العباد حقا! وعلى هؤلاء المسلمين بشكل خاص!

وإذن؛ فإن هذا القرآن لو صرَّفه أهلُه حركةً في الأرض لكان أقوى من أن تثبت أمامه كلمات الشيطان وسحر الإعلام، بل هو الحق الذي قال فيه الحقُّ جل جلاله: ﴿بَلْ نَقْذِفُ بِالْحَقِّ عَلَى الْبَاطِلِ فَيَدْمَغُهُ فَإِذَا هُوَ زَاهِقٌ وَلَكُمُ الْوَيْلُ مِمَّا تَصِفُونَ﴾(الأنبياء:١٨). لا طاقة لكهان السياسة ببرهانه! ولا قِبَلَ لدجاجلة الإعلام بسلطانه! ولا ثبات لطاغوت الأرض أمام رجاله! ﴿لَوْ أَنْزَلْنَا هَذَا الْقُرْآنَ عَلَى جَبَلٍ لَرَأَيْتَهُ خَاشِعًا مُتَصَدِّعًا مِنْ خَشْيَةِ اللهِ وَتِلْكَ الْأَمْثَالُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ﴾(الحشر:٢١). وكيف لا؟ وهو قد جاء بفهرست الوجود كله! كيف وقد تنزَّل بديوان الكون كله! وإن ذلك لَقولُ الحق جل علاه: ﴿مَا فَرَّطْنَا فِي الْكِتَابِ مِنْ شَيْءٍ﴾(الأنعام:٣٨). قال: ﴿مِنْ شَيْءٍ﴾ يعني: ﴿مِنْ شَيْءٍ﴾ وإنما جاءت الآية في سياق الخَلْق والتكوين لا في سياق التشريع كما توهم بعضهم! فهو شمول أوسع من مجرد الأحكام والحدود بكثير، شمول يسع العمران البشري كله، بل يسع عالم الملك والملكوت بما امتد إليه من غيب مجهول!

الدلالات الرمزية لقصة موسى عليه السلام

إن القرآن عندما يأخذه الذين ﴿يَتْلُونَهُ حَقَّ تِلَاوَتِهِ﴾(البقرة:١٢١) يكون بين أيديهم نورا يبدد ظلمات الضلال، وزلزالا يخسف بحصون الإفك والدجل أنى كانت، ومهما كانت! واقرأ قصة موسى مع سحرة فرعون فإن فيها دلالة رمزية عظيمة على ما نحن فيه، في خصوص زماننا هذا! ذلك أن "كلمة الباطل" كانت تمثلها آنئذ زمزمات السحرة، فتجردوا لحرب كلمة الحق التي جاء بها موسى، وخاضوا المعركة على المنهج نفسه الذي يستعمله الباطل اليوم، إنه منهج التكتلات والأحلاف! تماما كما تراه اليوم في التكتلات الدولية التي تقودها دول الاستكبار العالمي ضد المسلمين في كل مكان!

> **إن الذي يظن أنه عندما يقرأ القرآن تمضي كلماته مع الهواء كما تمضي الأصوات مع الريح؛ فإنه لا يقرأ القرآن حقا ولا هو يعرفه بتاتا.. وإنما الذي يقرؤه ويتلوه حق تلاوته إنما هو الذي يرتفع به، ويعرج عبر معارجه العليا إلى آفاق الكون.**

اقرأ هذه الكلمات مما حكاه الله عن سحرة فرعون لما قالوا: ﴿فَأَجْمِعُوا كَيْدَكُمْ ثُمَّ ائْتُوا صَفًّا وَقَدْ أَفْلَحَ الْيَوْمَ مَنِ اسْتَعْلَى﴾(طه:٦٤).. إنه إجماع على الكيد، كهذا المسمى في السِّحر الإعلامي المعاصر: بـ"الإجماع الدولي" و"الشرعية الدولية" والمواجهة لا تكون إلا بعد جمع كلمة الأحلاف وصنع الائتلاف؛ لمحاصرة الحق من كل الجوانب ﴿ثُمَّ ائْتُوا صَفًّا﴾ ثم يكون توريط المشاركين وتورطهم في الغزو بصورة جماعية، ولو بصورة رمزية! وذلك للتعبير عن "الصف" في اقتراف الجريمة، فيتفرق دم المسلمين في القبائل! قالوا: ﴿وَقَدْ أَفْلَحَ الْيَوْمَ مَنِ اسْتَعْلَى﴾ وتلك والله غاية دول الاستكبار العولمي الجديد، التي يصرح بها تصريحا: السيطرة على العالم بالقوة! والتحكم في مصادر الخيرات والثروات!

ولكن أين أنت أيها الفتى القرآني؟

أنت هنا!.. اقرأ تتمة القصة وتأمل: ﴿قَالُوا يَا مُوسَى إِمَّا أَنْ تُلْقِيَ وَإِمَّا أَنْ نَكُونَ أَوَّلَ مَنْ أَلْقَى ۞ قَالَ بَلْ أَلْقُوا فَإِذَا حِبَالُهُمْ وَعِصِيُّهُمْ يُخَيَّلُ إِلَيْهِ مِنْ سِحْرِهِمْ أَنَّهَا تَسْعَى ۞ فَأَوْجَسَ فِي نَفْسِهِ خِيفَةً مُوسَى ۞ قُلْنَا لاَ تَخَفْ إِنَّكَ أَنْتَ الأَعْلَى ۞ وَأَلْقِ مَا فِي يَمِينِكَ تَلْقَفْ مَا صَنَعُوا إِنَّمَا صَنَعُوا كَيْدُ سَاحِرٍ وَلاَ يُفْلِحُ السَّاحِرُ حَيْثُ أَتَى﴾(طه:٦٥-٦٩). إن القرآن الذي بين يديك أشد قوة من عصا موسى قطعا! فلا تبتئس بما يلقون اليوم من أحابيل ثقافية وإعلامية وسياسية حَذَارِ حَذَارِ! وإنما قل لهم: ﴿بَلْ أَلْقُوا﴾.. وَتَلَقَّ عن الله كلماته بقوة، أعني قوله تعالى: ﴿قُلْنَا لاَ تَخَفْ إِنَّكَ أَنْتَ الأَعْلَى﴾ وبادر إلى إلقائها بقوة، كما تلقيتها بقوة: ﴿وَأَلْقِ مَا فِي يَمِينِكَ تَلْقَفْ مَا صَنَعُوا إِنَّمَا صَنَعُوا كَيْدُ سَاحِرٍ وَلاَ يُفْلِحُ السَّاحِرُ حَيْثُ أَتَى﴾ إنّ كلمات القرآن عندما تُتَلَقَّى بحقها تصنع المعجزات! فإذا أُلْقِيَتْ بقوة أزالت الجبال الرواسي، من حصون الباطل وقلاع الاستكبار! ولذلك قال الله لرسوله محمد بن عبد الله ﷺ: ﴿وَإِنَّكَ لَتُلَقَّى الْقُرْآنَ مِنْ لَدُنْ حَكِيمٍ عَلِيمٍ﴾(النمل:٦). وأمره بعد ذلك أن يجاهد الكفار بالقرآن جهاداً كبيراً! وهو قوله تعالى: ﴿فَلاَ تُطِعِ الْكَافِرِينَ وَجَاهِدْهُمْ بِهِ جِهَادًا كَبِيرًا﴾(الفرقان:٥٢). والمقصود بمجاهدة الكفار بالقرآن: مواجهة الغزو الثقافي والتضليل الإعلامي بمفاهيم القرآن وحقائق القرآن.

إن تلك الثقافة وذلك التضليل هما اللذان يجعلان الشعوب تقبل أن تكون حقولا لتجريب أحدث أسلحة الدمار والخراب! إن العبد لا يكون عبدا تحت أقدام الجـلاد؛ إلا إذا آمن هو أنه عبد! ووطن نفسَه للعبودية! مستجيبا بصورة لاشعورية لإرادة الأقوياء. وذلك هو السحر المبين. والقرآن هو وحده البرهان الكاشف لذلك الهذيان، متى تلقته النفس خرجت بقوة من الظلمات إلى النور. فيا له من سلطان لو قام له رجال!

إن المشكلة أن الآخرين فعلا يلقون ما بأيمانهم، فقد ألقوا اليوم "عولمتهم"، لكننا نحن الذين لا نلقي ما في أيماننا، ويقف المشهد -مع الأسف- عند قوله تعالى: ﴿فَإِذَا حِبَالُهُمْ وَعِصِيُّهُمْ يُخَيَّلُ إِلَيْهِ مِنْ سِحْرِهِمْ أَنَّهَا تَسْعَى ۞ فَأَوْجَسَ فِي نَفْسِهِ خِيفَةً مُوسَى﴾(طه:٦٦-٦٧)، ثم لا يكتمل السياق، وتلك مصيبتنا في هذا العصر.

كلمات القرآن تصنع الرجال

نعم، إن كلمات القرآن -عندما تؤخذ بحقها- تصنع رجالا لا كأي رجال، إنها تصنع رجالا ليسوا من طينة الأرض. ذلك أنها تصنع الوجدان الفردي والجماعي والسلطاني للإنسان، على عين الله ووحيه؛ فيتخرج من ذلك كله قوم جديرون بأن يسموا بـ"أهل الله وخاصته"، وبهذا يتحولون إلى قَدَر الله الذي لا يرده شيء في السماء ولا في الأرض، فَيُجْرِي الله ﷻ بهم أمره الكوني في التاريخ. أولئك الذين تحققوا بمعية رسول الله ﷺ تعلُّما وتزكيةً: ﴿مُحَمَّدٌ رَسُولُ اللهِ وَالَّذِينَ مَعَهُ أَشِدَّاءُ عَلَى الْكُفَّارِ رُحَمَاءُ بَيْنَهُمْ تَرَاهُمْ رُكَّعًا سُجَّدًا يَبْتَغُونَ فَضْلاً مِنَ اللهِ وَرِضْوَانًا سِيمَاهُمْ فِي وُجُوهِهِمْ مِنْ أَثَرِ السُّجُودِ ذَلِكَ مَثَلُهُمْ فِي التَّوْرَاةِ وَمَثَلُهُمْ فِي الإِنْجِيلِ كَزَرْعٍ أَخْرَجَ شَطْأَهُ فَآزَرَهُ فَاسْتَغْلَظَ فَاسْتَوَى عَلَى سُوقِهِ يُعْجِبُ الزُّرَّاعَ لِيَغِيظَ بِهِمُ الْكُفَّارَ وَعَدَ اللهُ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ مِنْهُمْ مَغْفِرَةً وَأَجْرًا عَظِيمًا﴾(الفتح:٢٩).

إن كلمات القرآن هي السلاح الأوحد لمواجهة تحديات هذا العصر، إنها تتحدى اليوم -بما تزخر به من قوى غيبية- العالَمَ كله، فهل من مستجيب أو هل من مبارز؟ ﴿قُلْ لَئِنِ اجْتَمَعَتِ الإِنْسُ وَالْجِنُّ عَلَى أَنْ يَأْتُوا بِمِثْلِ هَذَا الْقُرْآنِ لاَ يَأْتُونَ بِمِثْلِهِ وَلَوْ كَانَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ظَهِيرًا﴾(الإسراء:٨٨). إنها كلمات تصنع كل ما يدور بخيالك من أسباب القوة والمَنَعة، من الإنسان إلى السلطان. ذلك أنها إذا تفجر نورُها ببصيرة العبد المتخلق بالقرآن، المتدبر لآيه العظيم، والمتحقق بحِكَمِه؛ جعل منه هو نفسه سلاحا يسحق ظلمات العصر ويكشفها كشفا، وبرهانا يدمغ باطل هذا الوابل الإعلامي الذي يهطل بالمصطحات المغرضة، والمفاهيم المخربة للمخزون الوجداني والثقافي للأمة، بما يبني من الوجدان الفردي للإنسان ما لا طاقة لوسائل التدمير المادية والمعنوية معا -مهما أوتيت من قوة- على تغييره أو تفتيته. ثم هو -في الوقت نفسه- يبني النسيج الاجتماعي للأمة، ويقويه بما لا يدع فرصة لأي خطاب إعلامي مضاد أن ينال منه، ولو جاء بشر الخطاب وأشد الخراب، كلمةً وصورةً وحركة!

القرآن سر الكون ومعجزة القضاء والقدر

إنه القرآن، سر الكون ومعجزة القضاء والقدر، ﴿وَمَا قَدَرُوا اللهَ حَقَّ قَدْرِهِ وَالأَرْضُ جَمِيعًا قَبْضَتُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَالسَّمَاوَاتُ مَطْوِيَّاتٌ بِيَمِينِهِ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾(الزمر:٦٧). هذا الرب العظيم -لو أنت تعرفه- إنه يتكلم الآن، ويقول لك أنت،

نعم أنت بالذات؛ لو أنت تستقبل خطابه: ﴿إِنَّا سَنُلْقِي عَلَيْكَ قَوْلاً ثَقِيلاً﴾(المزمل:٥) فافتحْ صناديق الذخيرة الربانية بفتح قلبك للبلاغ القرآني وكن منهم: ﴿الَّذِينَ يُبَلِّغُونَ رِسَالاَتِ اللهِ وَيَخْشَوْنَهُ وَلاَ يَخْشَوْنَ أَحَدًا إِلاَّ اللهَ وَكَفَى بِاللهِ حَسِيبًا﴾(الأحزاب:٣٩)، إذن تتحول أنت بنفسك إلى خَلْق آخر تماماً، وتكون من "أهل القرآن" أوَ تدري من هم؟ إنهم "أهلُ الوَعْدِ" وما أدراك ما "أهلُ الوَعْد"؟ إنهم بَارِقَةٌ قَدَرِيةٌ مِن: ﴿بَعَثْنَا عَلَيْكُمْ عِبَادًا لَنَا أُولِي بَأْسٍ شَدِيدٍ فَجَاسُوا خِلاَلَ الدِّيَارِ وَكَانَ وَعْدًا مَفْعُولاً﴾(الإسراء:٥).. أولئك "أهل الله وخاصته"(رواه أحمد والنسائي وابن ماجه). وأولئك أصحاب ولايته العظمى، الذين ترجم لهم رسول الله ﷺ بقوله فيما يرويه عن الله ذي العظمة والجلال: "من عادى لي وليًا فقد آذَنْتُه بالحرب!" (رواه البخاري)، ذلك؛ وكفى.

وليس من مصدر لهم إلا كلمات الله.. هي المعمل، وهي الزاد، وهي قوت الحياة، وهي المنهاج، وهي البرنامج، وهي الخطة، وهي الإستراتيجيا. وما نستهلك دونها من الكلام إلا ﴿زُخْرُفَ الْقَوْلِ غُرُورًا﴾(الأنعام:١١٢). وليس عبثا أن العرب لما سمعتها تتلَى فزعت، فصاحت: ﴿لاَ تَسْمَعُوا لِهَذَا الْقُرْآنِ وَالْغَوْا فِيهِ لَعَلَّكُمْ تَغْلِبُونَ﴾(فصلت:٢٦). إنه المنهج نفسه الذي يتعامل به المغرضون اليوم مع القرآن، وهو الأسلوب المخادع عينه الذي تستعمله كل وسائله الإعلامية، بما فيها تلك الأشد فتكا وضراوةً: الفضائيات المباشرة الكبرى! وإنه لخطأ كبير ذلك الذي يمارسه بعض المخلصين للإسلام، من بعض دعاته؛ عندما يفتون بتحريم صحون الاستقبال الفضائي، أو بطرد جهاز التلفزيون من البيت أو تكسيره! وما كانت محاربة الوسائل حلا ناجعا لدفع البلايا قط في التاريخ، وإنما كان أَولى بأولئك أن يدعوا إلى إدخال القرآن إلى البيت، وأن يجاهدوا لجعل تلك الصناديق مجالس قرآنية مفتوحة في كل بيت؛ إن البيت الذي يسكنه القرآن لا يدخله الشيطان أبدا!

أعط الشعوب فرصة لاستماع القرآن

وكأنما يبدو -عندما أقرأ لبعضهم أو أستمع له، وهو يحرم جهاز التلفزيون، أو يحظر وسائل التلقي الأخرى من الفضائيات إلى الأنترنيت- أننا في حاجة إلى تجديد الثقة بالله أولا! عجبا! ومتى كان شيء أمضى من حد القرآن؟ نعم، فيا من تلعن الظلام في الظلام! إنما كان يكفيك أن تشعل زر النور فقط.. أَشْعِلْه من حرارة قلبك ووجدانك، ومن تباريح إيمانك! أَدْخِل القرآنَ إلى البيت بقوة تَرَ بنفسك غطرسة الإعلام -هذا الغول الذي أفزع العالم وثبط عزائمه- تتحطم بين يديك، كما تحطمتْ من قبلُ أوهامُ سحرة فرعون تحت عصا موسى، وتَرَ كيف أن نور القرآن يبتلع حبالهم وعصيهم، وتَرَ بعينك أنهم: ﴿إِنَّمَا صَنَعُوا كَيْدُ سَاحِرٍ وَلاَ يُفْلِحُ السَّاحِرُ حَيْثُ أَتَى﴾(طه:٦٩) أَدْخِلِ القرآنَ نصًا يُتلى، وآياتٍ تُتدارَس، وحركةً حيةً تملأ كيان الأسرة كلها، وتعمر وجدانَها، رجالا ونساءً وأطفالا، اِصْنَعْ ذلك تَرَ عجبا! تَرَ كيف أن الأطفال الصغار -من أسرة القرآن- يرفعون راية القرآن عاليةً، عاليةً في السماء.

وإن ذلك لعمري هو عين التحدي الذي جاء به هذا القرآن، لمن كان يؤمن حقا بالقرآن. وما يزال اليقين الذي يعرض به القرآن خطابه الغلاب يرفع التحدي منذ عهد رسول الله ﷺ إلى اليوم، بل إلى يوم القيامة. إنه يقول لك: أعطني -فقط- فرصة لأخاطب الناس.. أو بالأحرى: أعط الشعوب فرصة للاستماع لهذا القرآن؛ قال جل وعلا: ﴿وَإِنْ أَحَدٌ مِنَ الْمُشْرِكِينَ اسْتَجَارَكَ فَأَجِرْهُ حَتَّى يَسْمَعَ كَلاَمَ اللهِ ثُمَّ أَبْلِغْهُ مَأْمَنَهُ ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لاَ يَعْلَمُونَ﴾(التوبة:٦). نعم، "ليسمع" فقط، ألا إن هذا لهو عين التحدي! ذلك أن كلماته كفيلة بإخراج الحياة متدفقة بقوة من ظلمات الموات. ذلك أنه أقوى حقيقة راسخة في هذا الكون كله، ذلك أنه القرآن كلام الله رب العالمين! وتلك حقيقة لها قصة أخرى.

فلا غَلَبَة إذن لمن واجهه القرآنُ المبين، لا غلبةَ له البتة، وإنما هو من المهزومين بكلمة الحق القاضية عليه بالخسران إلى يوم

إن كلمات القرآن عندما تؤخذ بحقها تصنع رجالا لا كأي رجال، إنها تصنع رجالا ليسوا من طينة الأرض. ذلك أنها تصنع الوجدان الفردي والجماعي والسلطاني للإنسان، على عين الله ووحيه؛ فيتخرج من ذلك كله قوم جديرون بأن يسمّوا بـ"أهل الله وخاصته".

القيامة، ﴿قُلْ لِلَّذِينَ كَفَرُوا سَتُغْلَبُونَ وَتُحْشَرُونَ إِلَى جَهَنَّمَ وَبِئْسَ الْمِهَادُ﴾(آل عمران:١٢). وقل لفتى الإيمان حامل راية القرآن: ﴿لاَ يَغُرَّنَّكَ تَقَلُّبُ الَّذِينَ كَفَرُوا فِي الْبِلاَدِ * مَتَاعٌ قَلِيلٌ ثُمَّ مَأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ وَبِئْسَ الْمِهَادُ﴾(آل عمران:١٩٦-١٩٧). فكل أساطيل الظلمة، وما يمارسونه من غطرسة وتقلب في البلاد من أرض إلى أرض تشريدا وتقتيلا.. كله، كله يرتد مذموما مخذولا؛ لو -ويا حسرةً على "لو" هذه!- لو يرفع المسلمون راية القرآن، فيكون مصير النفقات والإعدادات الاقتصادية الضخمة التي يحشدونها؛ لإبادة الشعوب المسلمة المستضعفة، والتي تعد بملايين المليارات؛ إلى خسار محتوم. واقرأ هذه الآية الصريحة القاطعة: ﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا يُنْفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ لِيَصُدُّوا عَنْ سَبِيلِ اللهِ فَسَيُنْفِقُونَهَا ثُمَّ تَكُونُ عَلَيْهِمْ حَسْرَةً ثُمَّ يُغْلَبُونَ وَالَّذِينَ كَفَرُوا إِلَى جَهَنَّمَ يُحْشَرُونَ﴾(الأنفال:٣٦).

لكن الأمر بقي بيني وبينك الآن، أنا وأنت! هل أخذنا الكتاب بقوة؟ تَلَقِّياً وإِلْقَاءً..! وهل حملنا معاً راية التحرير، تحرير ذواتنا نحن المسلمين من هذه الوثنية الجديدة، أو هذا الدِّين الوضعي الجديد: العولمة! بأصنامها الثلاثة: الأول صنم الإعلام الممجِّد للشيطان. والثاني: صنم التعليم العلماني، الذي يربي الأجيال على التمرد على الله، وينتج ثقافة الجسد، المقدِّسة للغرائز والشهوات البَهِيمِيَّة. والثالث: صنم الاقتصاد الاستهلاكي المتوحش، المدمر لكل شيء.

الأمر بقي بيني وبينك الآن، أنا وأنت! هل أخذنا العهد معا من القرآن؟ على العمل بمفاهيم القرآن، ومقولات القرآن؟ أم أننا لا نزال مترددين؟ نرزح تحت تأثير السِّحر الإعلامي والدجَل السياسي، نؤله الأصنام الوهمية التي صنعتها لنا ثقافة الآخر وبرامجه التعليمية، وننبطح متذللين تحت أقدام إغراءات ثقافة الاستهلاك نلتهم كل ما يطعموننا من نجاسات.

مدرسة القرآن، لتحرير الإنسان

الأمر بقي بيني وبينك الآن، أنا وأنت! فهذا القرآن -عهد الله- يفتح أبواب مجالسه للمؤمنين، الذاكرين، المطمئنين، أهل السِّيمَاء النبوية، الرُّكَّع السُّجَّد، السالكين إلى الله عَبْرَ مسالك اليقين، متدرجين بالغدو والآصال، ما بين نداءات الصلوات ومجالس القرآن، مُرَتِّلين للآيات، متدارسين ومتعلمين؛ حتى يأتيهم اليقين. تلك مدرسة القرآن؛ لتحرير الإنسان، وفكِّ إسَاره العتيد من أغلال الأوثان، ومفاهيم الشيطان.

فيا فتية القرآن! ألم يأنِ لكم أن توحِّدوا القبلة؟.. فإنما كلمة القرآن عهدُ أمانكم، لم يزل نورُها يخرق الظلمات إلى يوم الدين: ﴿قَالَ مُوسَى لِقَوْمِهِ اسْتَعِينُوا بِاللهِ وَاصْبِرُوا إِنَّ الأَرْضَ لِلَّهِ يُورِثُهَا مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ وَالْعَاقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ﴾(الأعراف:١٢٨).

ثم ألقى الله -جَلَّ ثناؤه- العهدَ إلى رسوله محمد بن عبد الله ﷺ ﴿قُرْآنًا عَرَبِيًّا لِتُنْذِرَ أُمَّ الْقُرَى وَمَنْ حَوْلَهَا وَتُنْذِرَ يَوْمَ الْجَمْعِ لاَ رَيْبَ فِيهِ فَرِيقٌ فِي الْجَنَّةِ وَفَرِيقٌ فِي السَّعِيرِ﴾(الشورى:٧) قرآنا يتدفق عمرانه الرباني على الأرض، فيملأ العالَم أمنا وسلاما، ينطلق متدرجا مثل الفجر؛ من تلاوة الذاكرين الخشَّع إلى صلاة العابدين الركع.. ينطلق حركةً قرآنية شعارها: ﴿اتْلُ مَا أُوحِيَ إِلَيْكَ مِنَ الْكِتَابِ وَأَقِمِ الصَّلاَةَ إِنَّ الصَّلاَةَ تَنْهَى عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنْكَرِ وَلَذِكْرُ اللهِ أَكْبَرُ وَاللهُ يَعْلَمُ مَا تَصْنَعُونَ﴾(العنكبوت:٤٥). فمن ذا قدير على سماع خطاب الله ثم يخلد إلى الأرض، ويرضى أن يكون مع الْخَوَالِفِ، ويقعد مع القاعدين؟.. كيف وذاك عهد الله، عهد الأمان، فمن ذا يجرؤ على خرق أمانه؟

ويحك يا صاح!.. تلك الأيدي تمتد إلى يَد رسول الله ﷺ مستجيبة لتوثيق العهد، وهاتيك: ﴿يَدُ اللهِ فَوْقَ أَيْدِيهِمْ فَمَنْ نَكَثَ فَإِنَّمَا يَنْكُثُ عَلَى نَفْسِهِ وَمَنْ أَوْفَى بِمَا عَاهَدَ عَلَيْهُ اللهَ فَسَيُؤْتِيهِ أَجْرًا عَظِيمًا﴾(الفتح:١٠).. إنها مجالس الرضوان، تحت شجرة رسول الله ﷺ، تشرق أنوارها الخضراء على زمانك هذا عبر "مجالس القرآن"، مجالس الخير المفتوحة على وجدان كل مَنْ ﴿كَانَ لَهُ قَلْبٌ أَوْ أَلْقَى السَّمْعَ وَهُوَ شَهِيدٌ﴾(ق:٣٧).

فاستمع يا صاح!.. ذلك نداء الله يتنزل عليك! وتلك يد رسول الله تمتد إليك! ولكنَّ الزمن يَتَفَلَّت من بين يديك..! فإلى متى أنت لا تمدّ يدك؟!. ■

(*) جامعة مولاي إسماعيل، ورئيس المجلس العلمي بـ"مكناس" / المغرب.

الهوامش

(١) فانظر كم كان خطأ المعتزلة شنيعا لما زعموا أن القرآن -وهو كلام الله- مخلوق!

(٢) الجامع لأحكام القرآن، للقرطبي، ١٠٣/٤.



روح الأمّة

فتح الله كولن

فارسٌ كان هنا.. في ذلك السفح دفنوه،
نزعوا قميصَهُ، والكفنَ مزّقوه،
قالوا احْذَرُوا..! قد ينهض من جديد..!
فأثقلوا قبره بالصخور..
فارسٌ كان هنا.. في ذلك السفح دفنوه..

أيا فارسي! هلاّ حدثتني عمّا جرى..
أنت مَهمومٍ، والوطَنُ مغموم، فاجْلِسْ ولْنَبْكِ معا..
لنَبكِ ولْنَكوِ قلوبَنا بالنّار..
أيا فارسي! هلاّ حدثتني عمّا جرى..

إليَّ بصوتٍ منك يا فارسي! ألاَ تَسمعني؟
منذُ سنينَ وأنا أتسلّى بطَيفك دَوما،
أعيش على أمَلٍ أن تُقبِلَ يوما،
إليَّ بصوتٍ منك يا فارسي! ألاَ تَسمعني؟

أَرتدي قميصًا من الخجل، ومن وَبَالِ السنينَا،
قلبي المتوهج بالأمل، ينتظرك،
إلى السماوات يعلو حيناً، ويحبو على الأرض حينًا،
أرتدي قميصًا من الخجل، ومن وَبَالِ السنينَا..

كل مكان منقوض مهدوم.. هذا عيد البوم!
تحطمت الجسور فلا عابرَ للسبيل..
جفت عيون الماء، وانقطع العبور، فليس لها سقاء!
كل مكان منقوض مهدوم.. هذا عيد البوم!

إرادةٌ مُزعْزَعَةٌ.. وأنْفُسٌ مَصْدُومَةٌ مُرَوَّعَةْ!
عصابةُ الأشقياء سلبوا التاريخ حقائقه، نهبوه!
أخلاقنا، فيمنا تمشي على عَطَبِ،
قد انقلبتْ رأساً على عَقِبِ..
فما للمقدّسات من راعٍ ولا مجير،
إرادةٌ مُزعْزَعَةْ.. وأنْفُسٌ مَصْدُومَةٌ مُرَوَّعَةْ!

فيَا فارسيَ انبعثْ! تماما كما في حديث الرؤى..
ثم أَقْدِمْ على صهوة الفَرَسِ الأبيضِ!
ذاتَ فَجرٍ، عند بَدْءِ البُكور،
إنني أغمضُ الآنَ عَيْني فتبصرك الروح،
أيا فارسي! فانبعثْ وتعالَ!
تماما كما في حديث الرؤى..!

(*) الترجمة عن التركية: نوزاد صواش.



تركيا: ٥ ليرات • أوروبا: ٣ يورو • أمريكا: ٤,٥ دولار

إن السعداء الذين أووا إلى خلوات الليل المحجوبة عن العباد المكشوفة على رب العباد، فزادوها عمقا ببكائهم، وشفافية ورقة بنحيبهم، وأسمعوا مكامن أرواحهم ترانيم من الأنين ونغمات من الحنين، سوف يُمنَحون سر البعث حتما، إنِ اليومَ أو غدا، ويبثون الروح والحياة أينما نزلوا وحيثما ساروا.

* * *

ISSN 1306-1879
9 771306 187009 15
www.hiramagazine.com

حراء

مجلة علمية ثقافية فصلية

www.hiramagazine.com
العدد الأول/السنة الأولى (أكتوبر-نوفمبر-ديسمبر) 2005



كلمة التحرير

مع شهر القرآن نبدأ

بسم الله نستهل مسيرتنا. . . كان «الإنسان» ما قبل «حراء» عائمًا في خواء روحي رهيب، ذاهلاً عن نفسه، مجدبَ الجوانب، ممحل الوجود، خامد الجذوة، مقفر الروح، طافيًا على سطح الحياة غير معني بجوهرها؛ إنه لا يحيا إنما يعيش، حتى لكأن حياته خلو عن الحياة، فأسلمه ذلك كله إلى نوع من الشلل العقلي والروحي.

وفجأةً وفي لحظة زمنية هي أضوأُ لحظات الزمن، تحرك التاريخ سراعاً ليأتي «حراء» ويقف على بابه، منتظراً خروج الرجل المتحنث فيه، ليضع بين يديه روح الإنسان وعقله ويأتمنه عليهما. ولم يكن الرجل غير محمد صلّى الله عليه وسلم، ذاك الأمين المصطفى المختار الذي لم يجد الحقُ أطهرَ من قلبه ليتنزل عليه ويقيم فيه. ومنذ تلك اللحظة الوضاءة في جبين البشرية، تجرد «حراء» من مكانيته وزمانيته، وغدا روحاً عظيماً محلقاً فوق الزمان والمكان، فخالط دم كل مسلم وسرى في وجدان كل مؤمن.

إنّ الآيات التي استهلّ القرآنُ نزولَهُ بها في غار «حراء» رسمت المنحى الفكري والروحي للمسلم كما يريده الله سبحانه وتعالى. فـ«اقرأ» هذا الأمر الإلهي يعطي دفعة قوية للكسل الذهني، ويستفزُّ العقل لكي يقرأ ويتدبر.

فالإنسان إذا شئنا أن نصفه بكلمة واحدة لقلنا إنه «مخلوق قارئ». فالأمر الإلهي شامل لكل أنواع القراءات؛ فللقرآن قراءة، وللسنة قراءة، وللكون والطبيعة قراءة، وللتاريخ قراءة، وللنفس الإنسانية قراءة، ولكل ما يتحسسه الإنسان بحواسه الخمس قراءة، وإنْ لم يفعل أصيب بالعسر العقلي وتبلد إحساسه وشعوره.

فالكون والكائنات كتاب مفتوح سطره قلم القدرة، غير أنه مكتنف بالكثير من الغوامض والأسرار. وعلى الإنسان أن يستوحي قلم القدرة فيما يكتب، وأنْ يسعى لفتح أبواب تلك الأغوار السحيقة من المعميات. فإنشاء الأفكار وبناء صروح المعارف من مهمات هذا القلم الذي ربما يستطيع أن يهيمن في وقت ما على ثقافات العصر.

إنّ كثيراً من الغشاوات التي تمنعنا من الرؤية العميقة النافذة تنتظر هذا القلم القدير لكي يزيحها عن أعيننا لنرى بشكل أوضح وأعمّ وأشمل. ولهذا أقسم ربُّ العزة بالقلم في أمكنة أخرى من القرآن، وعَلَّمَهُ الانسانَ. وكل قلم بيد الإنسان هو ظلٌّ من ظلال قلم القدرة، وقبس من أقباسه، ومن هنا تقدس القلم، وعَظُمَ مَن يمسك به، ومن هنا كذلك يجيء احترامنا وانحناؤنا للأقلام النزيهة الملتزمة بالحق والحقيقة.

ولهذه الإيحاءات الروحية والفكرية التي يستثيرها اسم «حراء» في ذهن المسلم ووجدانه، ارتأينا أن يكون «حراء» اسماً لمجلتنا، نستوحي منه –كُتّاباً وَقُرّاءً– المعاني العظيمة في رسم الطريق إلى المعرفة الإيمانية التي نريدها لمسلم هذا اليوم. وهذه المعرفة –كما نرى– لا تستوي على عرشها، ولا تؤتي ثمارها إلا إذا قامت على القرآن والكون والإنسان. فالإنسان المسلم كوني لا يكبح تطلعه، ومعرفي لا يقف عند حدّ، وقرآني الكينونة والوجود؛ فهو بين العقول صاحب العقل الأرقى وبين الفهوم صاحب الفهم الأوسع، وبين المدركات صاحب المدرك الأعم والأشمل. وهذا هو ما تسعى هذه المجلة أن تكرس نفسها له، وهو ما نحب من أصحاب الأقلام أن يعينونا عليه. وقد حاولنا –جهد المستطاع– في مستهل هذا العدد الأول من المجلة أنْ نختار من المقالات والأبحاث ما يتفق مع خطة المجلة وأهدافها المذكورة آنفاً، وقد شاء الله أن يكون عددنا الأول في شهر رمضان المبارك، شهر حراء شهر القرآن، فنسأل الله السداد والتوفيق.

والله تعالى من وراء القصد.

إهــــــداء 2006
دار النيل للطباعة و النشر
القاهرة

العدد الأول السنة الأولى

(أكتوبر–نوفمبر–ديسمبر) ٢٠٠٥

شهر رمضان المبارك ١٤٢٦

التصور العام

- حراء مجلة علمية ثقافية فصلية تعنى بالعلوم الطبيعية والإنسانية والاجتماعية وتحاور أسرار النفس البشرية وآفاق الكون الشاسعة بالمنظور القرآني الإيماني في تآلف وتناسب بين العلم والإيمان، والعقل والقلب، والفكر والواقع.
- تجمع بين الأصالة والمعاصرة وتعتمد الوسطية في فهم الإسلام وفهم الواقع، مع البعد عن الإفراط والتفريط.
- تؤمن بالانفتاح على الآخر، والحوار البناء والهادئ فيما يصب لصالح الإنسانية.
- تسعى إلى الموازنة بين العلمية في المضمون والجمالية في الشكل وأسلوب العرض، ومن ثم تدعو إلى معالجة المواد بمهنية عالية مع التبسيط ومراعاة الجوانب الأدبية والجمالية في الكتابة.

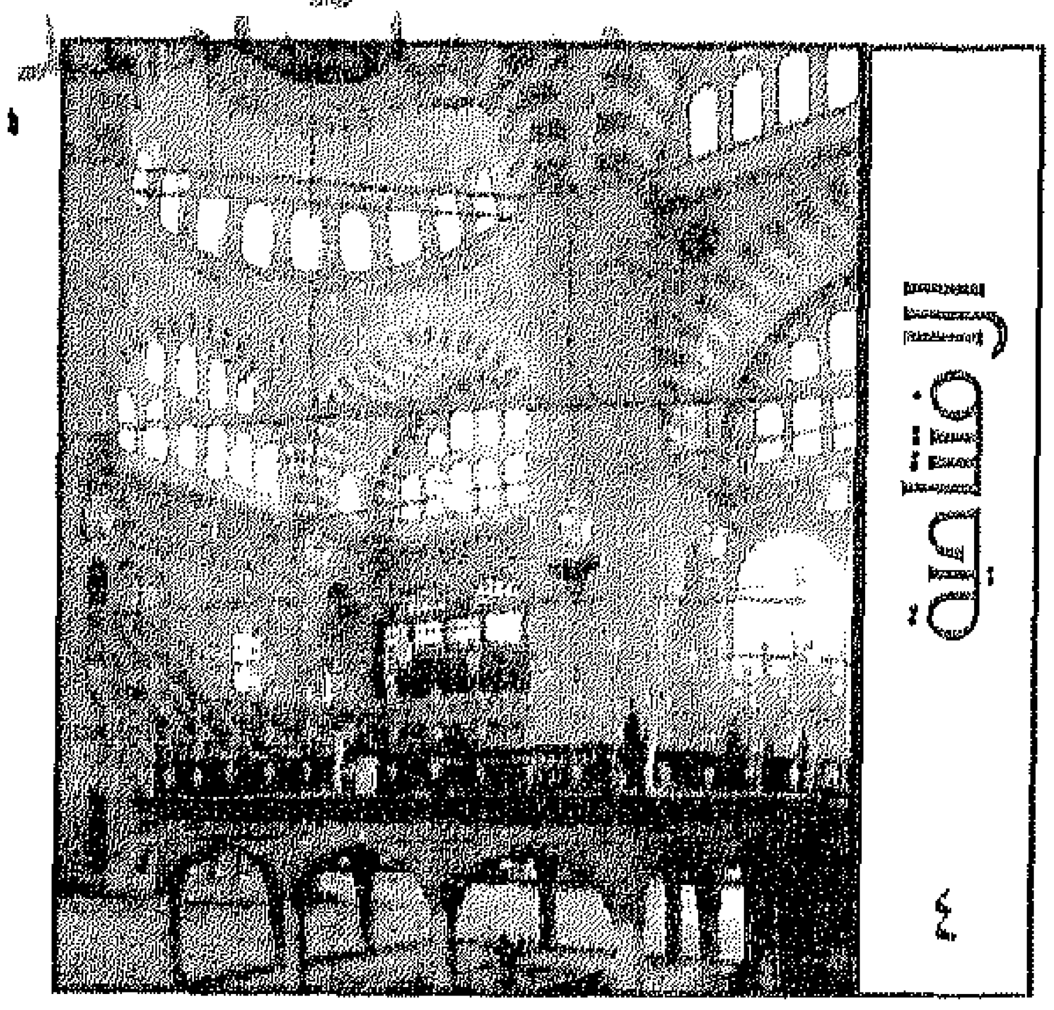
شروط النشر

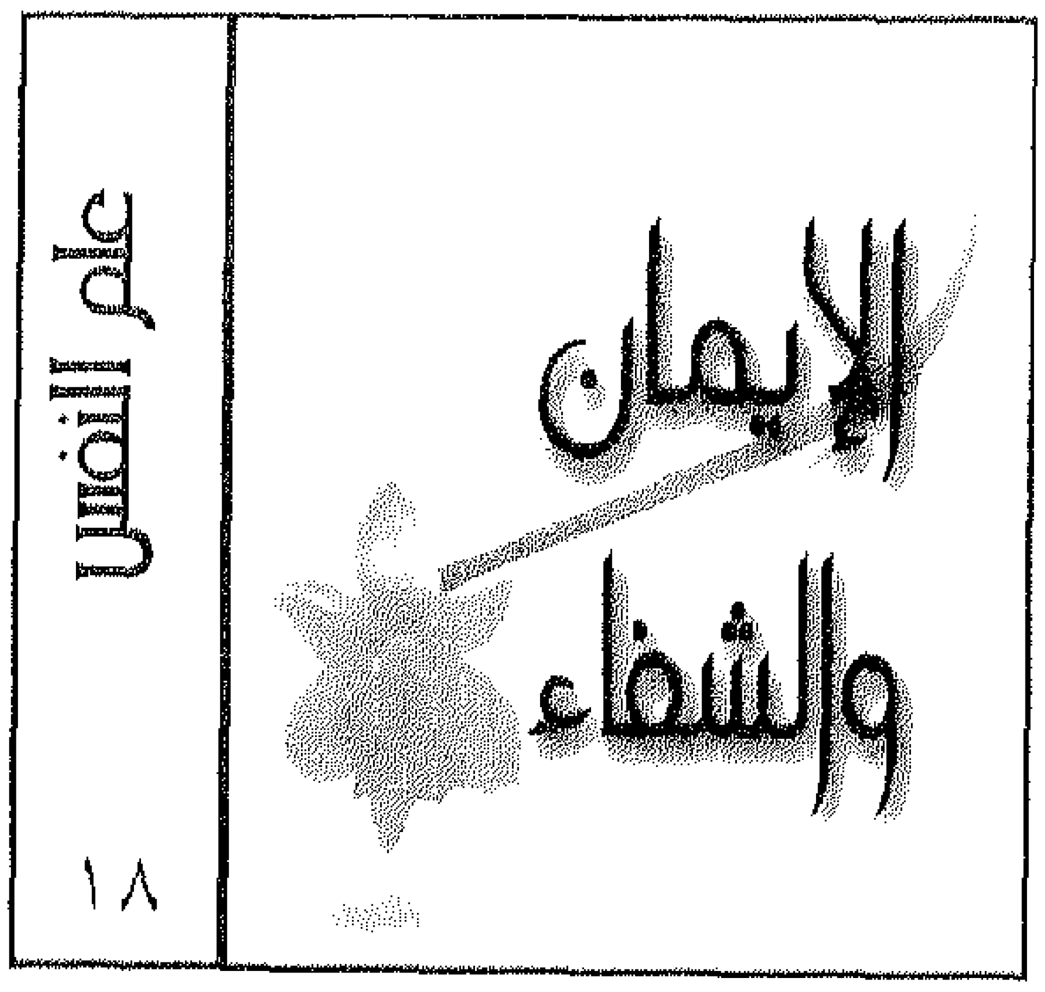
- أن يكون النص المرسل جديدا لم يسبق نشره.
- ألا يزيد حجم النص على ٢٠٠٠ كلمة كحد أقصى، وللمجلة أن تلخص أو تختصر النصوص التي تتجاوز الحد المطلوب.
- يرجى من الكاتب الذي لم يسبق له النشر في المجلة إرسال نبذة مختصرة عن سيرته الذاتية.
- تخضع الأعمال المعروضة للنشر لموافقة هيئة التحرير، ولهيئة التحرير أن تطلب من الكاتب إجراء أي تعديل على المادة المقدمة قبل إجازتها للنشر.
- المجلة غير ملزمة بإعادة النصوص إلى أصحابها نشرت أم لم تنشر، وتلتزم بإبلاغ أصحابها بقبول النشر، ولا تلتزم بإبداء أسباب عدم النشر.
- تحتفظ المجلة بحقها في نشر النصوص وفق خطة التحرير وحسب التوقيت الذي تراه مناسبا.
- النصوص التي تنشر في المجلة تعبِّر عن آراء كُتّابها، ولا تعبِّر بالضرورة عن رأي المجلة.
- للمجلة حق إعادة نشر النص منفصلاً أو ضمن مجموعة من البحوث، بلغته الأصلية أو مترجمًا إلى أي لغة أخرى، دون حاجة إلى استئذان صاحب النص.
- مجلة حراء لا تمانع في النقل أو الاقتباس عنها شريطة ذكر المصدر.
- يرجى إرسال جميع المشاركات إلى هيئة تحرير المجلة على العنوان التالي:

hira@hiramagazine.com

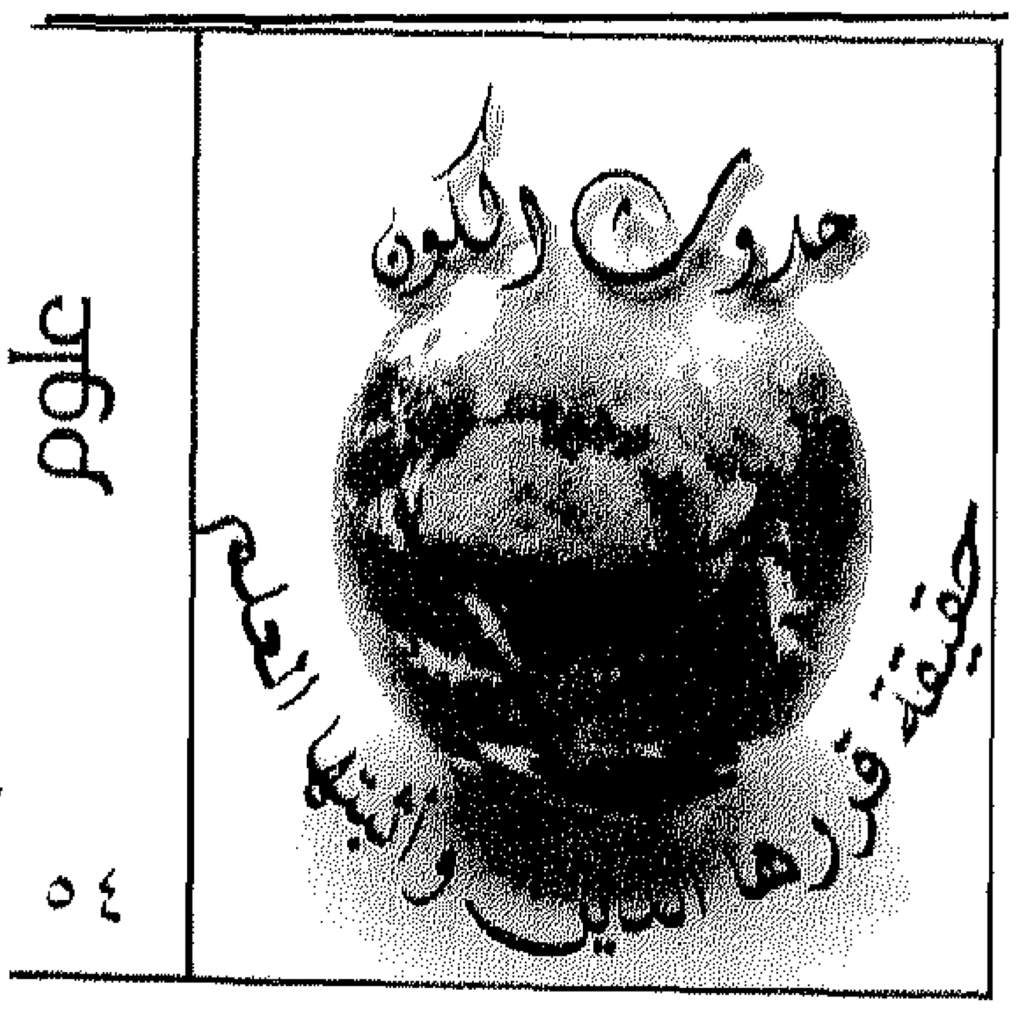
سعر النسخة: مصر (١٠) جنيهات. المغرب (١٥) درهما. الأردن (١,٥) دينار. الإمارات (١٠) دراهم. البحرين (١) دينار. السعودية (١٠) ريالات. سلطنة عُمان (١) ريال. السودان (٣٥٠) دينار. قطر (١٠) ريالات. الكويت (١) دينار. ليبيا (٢) دينار. الجزائر (١٥٠) دينار. سوريا (١٠٠) ليرة. لبنان (٣٠٠٠) ليرة. تونس (٢,٥) دينار. اليمن (٣٥٠) ريال. العراق (٢٠٠٠) دينار. تركيا (٤) ليرة. أوروبا وأمريكا (٤) دولار.

المحتويات









www.hiramagazine.com

ه ٤٠٦

مجلة علمية ثقافية فصلية تصدر عن:
Işık Özel Eğitim Tic. Ltd. Şti.

صاحب الإمتياز
أنس أركنه
mergene@hiramagazine.com

رئيس التحرير
نوزاد صواش
nsavas@hiramagazine.com

مدير التحرير
أشرف أونن
eonen@hiramagazine.com

شارك في الترجمة
أ.د. صفصافي أحمد القطوري
أورخان محمد علي
بهاء الدين إبراهيم نعمة الله
مصطفى السنيتي

الإخراج الفني
أسيد إحسان الصالحي

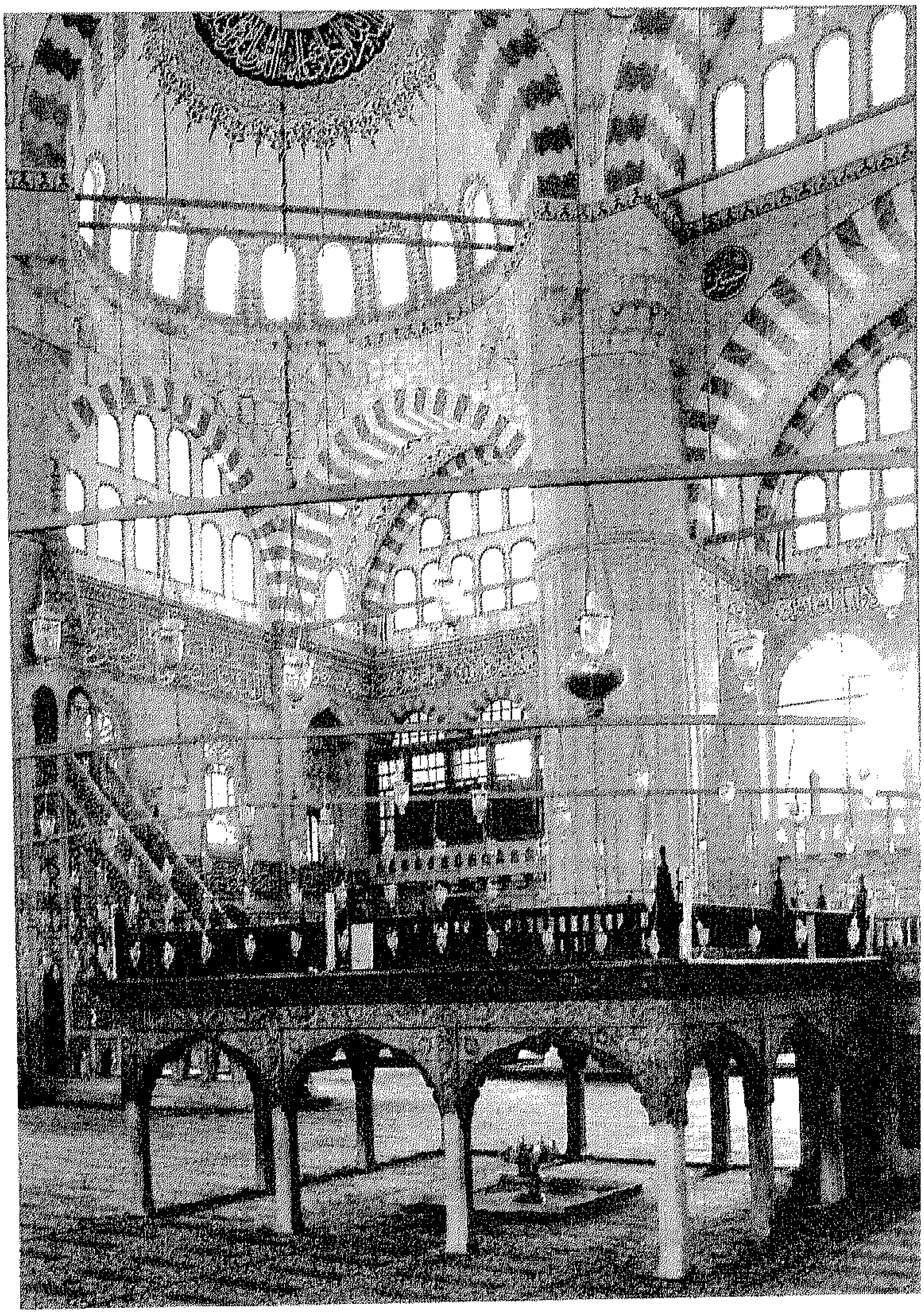
عنوان المراسلة
Kaynak Publishing Group
Emniyet Mah. Huzur Sok. No:5
34676 Üsküdar-İstanbul/Turkey
Phone: +902163186011
Fax: +902163188314
e-mail: info @ hiramagazine.com

الإشتراكات/مركز التوزيع
٧ ش الراسكة - حي السابع - م. نصر القاهرة
تليفون وفاكس: ٢٠٢٢٢٦١٩٢٠٤٠
المحمول: ٢٠١٢٢٣٧٨٥١٩٢٠
جمهورية مصر العربية
sub@hiramagazine.com

الطباعة
International printing house
P.O BOX 312
Public Free Zone, Nasr city
Tel: 0202 2240740
Heliopolis - Cairo
Egypt

رقم الإيداع
١٨٧٩-١٣٠٦

تأملات حول العيد



م. فتح الله كولن

الأشهر المباركة التي تتقدم على رمضان وتبشرنا بإشراقه هي بمثابة مؤشرات وعلامات صامتة وهادئة على قدوم أيام مباركة وظهور بشائرها في الأفق. . . أيام مليئة بفيوضات تقبل كالسيل الهادر وتحتضن القلوب. ومع اليوم الأول من هذه الأشهر المباركة يحس صاحب كل قلب مؤمن أنه مغمور في جو رمضان. فتجده من اليوم الأول مستعرضا جميع مشاعره المتعلقة بعبوديته مدققا لها لكي يستفيد من بركة الشهر الكريم الذي أصبح منه قاب قوسين أو أدنى حق الاستفادة ويستثمره حق الاستثمار. فكأنه نهض من غفوة فأثر النعاس لا يزال في عينيه، وكلمات من بقايا لحلم على لسانه، فيستجمع جهده لتركيز انتباهه وتجميعه حول هذا الموضوع، وتصيّد النغمة القدسية المتآلفة مع هذا التوجه ومع هذا القصد.

عندما تمتلئ القلوب بالمشاعر، وتبلغ الأرواح قوامها، يولد شهر

رمضان من رحم الهلال، ولكن بقوة ضياء البدر من خلف البشائر المتعاقبة لهذه الأيام. ويهبّ كألطف نسيم، ويحيط بقلوبنا ويلاطف أرواحنا وأجسادنا برقّة الحرير، ويملأ أعيننا بصور الجمال الشبيهة بجمال سفوح الربيع، ويثير في أفئدتنا رغبة التسامي، ويدع في صدورنا انتفاضة حلوة كانتفاضة عصفور بلّله القطر.

وأخيرا تنتهي هذه الضيافة التي تدوم شهرا، ويودعنا شهر رمضان الذي قدم بعطاياه الكثيرة... يودعنا ولكن الأرواح التي وصلت إلى حياة جديدة والتي اقتبست من نوره، والقلوب التي استغرقت خلاله في التأمل والتفكر، والتي ارتجفت من خشية الله، والقلوب الهائمة التي خرجت تبحث عن مسالك وطرق الوصال؛ تحتضن بدفء أيام العيد هذه المرة. وكما يرى الإنسان المبحر بعد قليل أن المياه تحيط به من كل الجوانب، نجد أنفسنا في العيد بعد انقضاء الأشهر الحرم الثلاثة في جو من الاطمئنان والسكينة... نحس هذا في أعماقنا، وبكل كياننا، وبكل ماهيتنا الإنسانية.

تبدو صلوات العيد وأصوات التهليل والتكبير وصدقات الفطر لأصحاب القلوب المؤمنة كمنافذ إلى عالم خيالي رائع، فينطلقون كقوارب أطلقت أشرعتها للرياح. أجل، إن الجو العام في العيد، والسحر الذي يحيط به وبكل التصرفات والأصوات والحديث يجعل الإنسان يشعر وكأنه يرتفع نحو السماء ببطء ويبتعد عن محله ومكانه الذي انطلق منه، ويعيش في مثل هذا الجو الساحر الذي تنهمر فيه الأضواء والأنوار.

في العيد نعيش الماضي والحاضر والمستقبل معا. يهيأ إلينا وكأن هناك سحرا غريبا في الأصوات المرتفعة من المعابد وفي المنازل التي نزورها وفي الأيدي المباركة التي نقبلها... سحرا ما أن نلمسها حتى تتفتح أمامنا منافذ عديدة للماضي. فنجد أنفسنا داخل مسجد قديم نجلس في صف واحد مع أجدادنا وأجداد أجدادنا. وحينما تلتقي شفاهنا بالأيدي الطاهرة نشعر وكأننا قد قبّلنا مئات الأيادي المباركة فننتشي بفرحة غامرة. وعندما نهنّئ أصدقاءنا وأحبابنا ونضمهم إلى صدورنا نحس وكأننا نضم أحبابنا الذين عاشوا قبلنا وقبل هؤلاء في عهود سابقة. كل حركة في العيد وكل فكر وكل تصور وكل كلمة أو حديث وكل تصرف يبعث شريطا زمنيا من أشرطة الماضي، ويحيا ويحيط بكياننا، ويملأ أفقنا، ويصبح ملْكنا، ويهب -حسب درجة ووسعة خيال كل منا- أنموذجا للبعث بعد الموت.

الأعياد في الحقيقة ترانيم قادمة إلينا من أمجاد أجدادنا ومن جذورنا المباركة. بسحر هذه الترانيم نصل في كثير من الأحيان إلى عوالم ما كنا لنصل إليها من قبل، إذ ندخل إلى كل مكان بسهولة الأحلام، ونتجول في كل الأماكن بسرعة الخيال طاوين الزمان الذي نعيشه بأزمنة متداخلة بعضها في بعض. أجل، إن الماضي يعود إلينا بكل مجده السابق بدرجة تعايشنا مع سحر شهر رمضان، ويعود كل ما فقدناه من قبل، ونتنفس من جديد رائحة تلك الأيام النقية ونستنشقها بعشق لتمتلئ بها صدورنا، ونرتشف من الينابيع الفياضة الماضية، فنحسب أنفسنا في عالم آخر. وقد يبلغ بنا الاستغراق مبلغا نخال وكأن جميع من في القبور قد بُعثوا، وكل شيء ممزق ومبعثر هنا وهناك أشلاء قد تجمع وتوحد من جديد، ويرجع شتات الزمن الذي انقضى من أعمارنا ليحتضن أرواحنا، ونعيش -بجانب ما نعيشه اليوم وما عشناه بالأمس في أعمق الأذواق وأوسعها- في ذكريات لذائذ روحية ساحرة، حتى إن عناصر اللذة والأذواق في هذه النقطة -كما هي في الأحلام- تكون متغيرة على الدوام حسب نياتنا وأفكارنا وميولنا، وتتجدد على الدوام حسب رغباتنا، وتلبس الحال التي نريدها، وبينما كانت هناك رغبة واحدة إذا بها تنقلب إلى ألف. فكل ما شاهدناه وكل ما سمعناه وكل ما أحسسنا به نراه يتغير -بفضل سحر خارق- من شكل إلى شكل. وبذلك نديم حياتنا بتلونات عديدة من حس لحس، ومن فكر لفكر ومن لذة للذة أخرى.

عندما ينشق فجر يوم العيد تنطلق أصوات التسبيح والتمجيد من المآذن، وفي الدقائق التي يبلغ الجو الروحاني الذروة في كل مكان نشعر بأحاسيس غامضة وسرية تثير خيالنا وتأخذنا إلى الأعماق، بل إلى أعماق

عندما ينشق فجر يوم العيد تنطلق أصوات التسبيح والتمجيد من المآذن، وفي الدقائق التي يبلغ الجو الروحاني الذروة في كل مكان نشعر بأحاسيس غامضة وسرية تثير خيالنا وتأخذنا إلى الأعماق، بل إلى أعماق الأعماق، وتهمس لقلوبنا بمشاعر لم يفصح عنها من قبل، ولا يمكن بحال من الأحوال التعبير عنها بأي كلمات ولا بأي لغة.

الأعماق، وتهمس لقلوبنا بمشاعر لم يفصح عنها من قبل، ولا يمكن بحال من الأحوال التعبير عنها بأي كلمات ولا بأي لغة.

أجل! .. إن نغمة وصوت الأذان عندنا، النابع من عواطف وأفكار الموسيقيين السابقين الكبار أمثال «العِطْري» و«دَدَه أفَنْدي»، وأصوات التكبير والتمجيد والتهليل وأسلوبها وطعمها وجمالها، هو اللسان الخاص لهذه الأمة، ولغتها ذات الأبعاد المتنوعة الكثيرة السارية في عروقها. هذه الموسيقى التي تهز عواطفنا وتعبر عن مشاعرنا كأنها نغمات تهبّ على أرواحنا من آفاق ما وراء الزمن.

المؤذن بهتافه المتلاحق وكأنه يصدر أوامر، والإمام الذي يرتجف صوته ويئن بكلمات سماوية، وجماعة المصلين الذين يهدرون معا مثل أوركسترا... كل هذا يجري بدرجة من الأصالة والمهابة ويبعث القشعريرة في الأجساد. وعندما نتمتم بهذه الأصوات المرتفعة من المعابد ونهمس بها نحس من جديد بماض طويل مجيد، بل أكثر من هذا بحقيقة عالمية شاملة، ونظرة تمتد من الأزل إلى الأبد، فنغرق في جو من السعادة.

إن المعبد -ولا سيما في أيام العيد- يمثل بجوّه الرقيق الناعم كالحرير، والدافئ دفء عش الطير، والمملوء حيوية... يمثل صفاء المشاعر، وراحة الوجود والاطمئنان، وغاية العيش، ومغامرة الحياة، وجذور المعاني لأمّتنا، وأسس ثقافتنا وخلود ديننا، وموسيقى لغتنا، ونظرتنا للحياة، ورأينا في الدنيا وأسلوبنا ولهجتنا، ويهمس لنا ليرينا الطرق المؤدية إلى الإنسان الحقيقي.

إننا نشعر على الدوام بهذه الأصوات التي تتردد في جوانب المعبد، ونجد في هذه الأصوات الدافقة انحناء السماء نحو الأرض، وتكامل الأرض مع السماء، وغمز النجوم لزهور الأرض وورودها، وبسمة الورود لأهل السماء، ونحس بالتواصل السري والسحري الدائم بين السماء والأرض ونكاد نراه رأي العين.

هذا الصوت وهذا المنظر وهذا الهمس الذي ينقل كل شخص -حسب قابلية روحه وعمق خياله- إلى عالم آخر يبعث في القلوب المؤمنة صورا رائعة من الجمال ترتعش لها الأفئدة وترق لها العواطف. وعندما تنتهي الصلاة وتختتم السياحة السماوية، ويودع المسجد مؤقتا، يعود الإنسان إلى الناس من جديد كأنه آتٍ من ضيافة الرحمن بعد أن اكتسب بُعدا وعمقا جديدين، ويحتضنهم ويبادلهم التهاني، ويتقاسم مع كل من يصادفه في السوق والشارع، وفي البيت ومكان العمل، وفي المدرسة والمعسكر هذه الهبات والأعطيات التي أخذها واستلمها وامتلأ بها. وهكذا تكتسب أجزاء الزمان المحدودة ضمن بضع ساعات، بدرجة سعة القلب وعلو الروح، صفة فوق الزمان، فكأنه اكتسب خلودا. ويتوضح لدى الإنسان كيف أنه وهو في الدنيا قد أسس علاقات عميقة مع الأبدية وما وراء هذا العالم.

وعندما تنتهي الصلاة وتختتم السياحة السماوية، ويودع المسجد مؤقتا، يعود الإنسان إلى الناس من جديد كأنه آتٍ من ضيافة الرحمن بعد أن اكتسب بُعدا وعمقا جديدين، ويحتضنهم ويبادلهم التهاني، ويتقاسم مع كل من يصادفه في السوق والشارع، وفي البيت ومكان العمل، وفي المدرسة والمعسكر هذه الهبات والأعطيات التي أخذها واستلمها وامتلأ بها.

ولا أدري كيف كان من الممكن وما الزمان المطلوب أو النظام الذي يمكن الاستعانة به لكي يحس المسلمون صغيرهم وكبيرهم بكل هذه المشاعر وهذه الأحاسيس والخيالات، وبكل هذه العواطف المتأججة، وتنعكس كل هذه الأصداء في أرواحهم، لو استعانوا بطرق أخرى أو سبل غير هذه السبيل. وأنا لا أعتقد إمكانية هذا الأمر ولا نجاحه في الوصول إلى كل هذه الروحانية الشفافة. لأن بهجة الأعياد وفرحتها وسعادتها ولذّتها لا تنبع فقط من هذه الحياة المعاشة، بل من أبعاد الحياة التي سوف نحياها في دار العقبى. فكل من يعش في خيال البرج العاجي لقلبه، يلقه هناك سحر سيحسّه وسيذوقه في المستقبل إلى جانب ما ذاقه اليوم. ويتجول في عالم رؤى المستقبل الأكيدة التي تبدو لعالمه الداخلي أكثر ملاءمة ودفئا ونعومة. والإنسان في الحقيقة مجبول على التطلع والانتظار، يقضي معظم عمره في انتظار عوالم الأمل وأخيلته. ومعظمنا في انتظار جنة مرتبطة بمعنى لصيق بماهيتنا وذاتنا. وليس هذا الانتظار نابعاً عن عدم استحساننا أو عدم قبولنا ورضانا عن الحياة التي نعيشها، بل انتظار لمفاجآت إلهية لا تستوعبها خيالاتنا كبَشَر، ولا خطرت ببالنا، ولا على أسماعنا، ولم نذقها. والأعياد ألسنةٌ بليغة تهمس بصواب هذا الأمر من منافذ قلوبنا إلى أعماق أرواحنا. ■

من فهم القرآن حق الفهم تصبح البحار الواسعة كقطرة ماء أمام ما يرد إلى صدره من إلهام. من يصله صوت القرآن دبت فيه الحياة وكأنه سمع صور إسرافيل. والقلب الذي يصغي إلى معانيه يتوثب حركة وكأنه سمع نغمات جبريل.



ظاهرتان تبعثان على الدّهشة في كتاب الله عزّ وجلّ

أ.د. محمد سعيد رمضان البوطي *

إن للأستاذ بديع الزمان سعيد النورسي رحمه الله سياحة واسعة وعميقة في خضم القرآن وبحره. بل إن رسائله كلها، المعروفة برسائل النور، إنما كان يستبينها على ضوء القرآن ويستوحي حقائقها من نوره.

وإنك لتنظر فتجد أن الحقائق التي استخرجها رحمه الله من كنوز هذا الكتاب الرباني المبين، كثيرة ومتنوعة شتى، تتصل بسائر المعارف والعلوم والثقافات والفلسفات على اختلافها.

ولقد وجدتني من هذه الحقائق التي يستخرجها رحمه الله ويجلّيها من كتاب الله عز وجل، أمام فيض كبير بعثني على الحيرة فيما ينبغي أن أختاره منها، لأجعل منه متناً أشرحه أو شرحاً أهمش عليه

وأزيــده جلاء أمام بصائر الباحثين والمتدبريـن .

غير أني تحررت من هذه الحيرة عندما قررت أن أنتقي من هذه الحقائق القرآنية الكثيرة التي يستخرجها ويلفت النظر إليها ، تلك التي لم يُسبق إلى بيانها من قبل ، أو تلك التي كان نصيبها من الدراسة والبحث لدى العلماء والباحثين المتقدمين مقتضباً أو غير ناضج ومتكامل .

ولقد وقعت من هذا الذي بحثت عنه على حقيقتين قرآنيتين هما من الأهمية بمكان:

أولاهما جديدة على سمع الدارسين والباحثين ، لا أعلم أن في السابقين من العلماء والباحثين من تنبه ولفت النظر إليها .

والثانية نالت كلاماً مقتضباً من بعض الباحثين السابقين الذين عكفوا على دراسة علوم القرآن وجوانب الإعجاز فيه ، ولكن يعوزه مزيد من البيان والدعم بالأدلة والبراهين .

وها أنا أضع أمامكم ما يقوله رحمه الله في بيان كل منهما ، بنصه مترجماً إلى اللغة العربية . ثم أجعل منه ، كما قلت ، متناً أشرحه بما يزيده جلاء ، وبما يكشف عن مصداقه في واقع عصرنا اليوم وفي بحوث الكاتبين اليوم على اختلاف مشاربهم وتنوع عقائدهم من مؤمنين وجاحدين .

الحقيقة الأولى: تلك التي يسميها محافظة القرآن على التوازن الموجود بين الحقائق الإلهية السامية كلها . يقول في بيان هذه الحقيقة بأن هذه المحافظة والموازنة والجمع ، خاصية لا توجد قطعاً في أي أثر من آثار البشر ، ولا في نتاج أفكار أعاظم المفكرين كافة ، ولا توجد قط في آثار الأولياء الصالحين ، ولا في كتب الإشراقيين الموغلين في بواطن الأمور ، بل كل فريق من أولئك قد تشبث بغصن أو غصنين فحسب ، من أغصان الشجرة العظمى للحقيقة ، فانشغل كلياً مع ثمرة ذلك الغصن وورقه ، دون أن يلتفت إلى غيره من الأغصان ، إما لجهله به أو لعدم التفاته إليه ، وكأن هناك نوعاً من تقسيم الأعمال بقصد الاختصاص فيما بينهم .

نعم ، إن الحقيقة المطلقة لا تحيط بها أفكار محدودة مقيدة . إذ لا بدّ لها من نظر كلّي كنظر القرآن الكريم ليحيط بها . فكل ما سوى القرآن الكريم ، لا يرى تماماً بعقله الجزئي المحدود إلا طرفاً أو طرفين من الحقيقة الكلية ، فينهمك بذلك الجانب ويعكف عليه وينحصر فيه ، فيخلّ ذلك بالموازنة التي بين الحقائق ، ويزيل تناسقها إما بالإفراط أو التفريط .

ثم يضرب الأستاذ رحمه الله المثل لذلك بكنز عظيم يحوي جواهر شتى عثر عليه الغواصون في قعر أحد البحار ، ونظراً إلى أن كل واحد منهم تعرّف على جانب صغير من ذلك الكنز الواسع الكبير ، منفصلاً عن الجوانب الأخرى منه ، فقد تخالفت بل تناقضت تصوراتهم له . ثم يقول: «فالقرآن الكريم الذي هو بحر الحقائق ، آياته الجليلة غواصة كذلك في البحر تكشف عن الكنز ، إلا أن عيونها (أيْ عيون الآيات القرآنية) مفتحة بصيرة تحيط بالكنز كله وتبصر كل ما فيه» .

أعتقد أن هذه الحقيقة العظمى التي يلفت بديع الزمان بصائرنا إليها في هذه السطور ، تحتاج إلى شيء من الشرح والبسط ، لا سيما وقد تجلى مصداق هذا الذي يقوله الأستاذ تماماً ، في الحيرة البالغة التي غدت اليوم جامعاً مشتركاً لدى سائر العلماء الغربيين بل سائر الباحثين الشاردين عن هدي القرآن وضيائه ، تجلى في اعترافات متكررة ظهرت في ثنايا كتاباتهم أو محاوراتهم ، كما سنجد بعد قليل .

اسمحوا لي إذن ، أن أشرح هذا الكلام الجامع المركز ، وأبسطه في البيان التالي:

كثيرون هم الذين يتصورون أن هذا الكون الذي نعيش فيه ، يغور بحقائق متنوعة شتى . والواقع أن هذا التصور وهمٌ باطل ، فالكون لا يحتضن أكثر من حقيقة واحدة . وإنما المتعدد والمتنوع أجنحة هذه الحقيقة وزواياها .

أي إن الذي ينصرف إلى دراسة الأنواء والفلك ، والذي يعكف على دراسة طبقات الأرض ، والذي يتتبع علوم الحياة الحيوانية ، والذي يختار دراسة التاريخ أو التاريخ الطبيعي ، والذي يتفرغ لدراسة علم النفس والفلسفة والأخلاق . . . كل هؤلاء إنما يتفرقون في جوانب شتى من جسم الحقيقة الكونية الواحدة . ولكن عظم هذه الحقيقة بما لها من جوانب وجهات مترامية الأطراف ، يخيل لكثير من الناس بمن فيهم كثير من المثقفين والعلماء المتخصصين أنها حقائق علمية متعددة ومستقلة بعضها عن بعض . لذا يجيز كل منهم لنفسه أن لا يُعنى بما انصرف إليه الآخرون ، وأن يحصر همه في دنيا الحقيقة المستقلة التي تخيلها .

ومن هنا تأتي معلومات هؤلاء الناس عنها مبتورة ، لا بل مضلّلة أيضاً ، ثم إنها لا تروي لهم ظمأ ولا تشبع لهم تطلعاً ، بل تزيدهم في شأنها حيرة واضطراباً ، لأنهم كلما ازدادوا فيها تعمقاً فاجأتهم منها عروق وخيوط تتجاوز بهم دائرة بحثهم ومجال دراستهم ، وكلما تتبعوا منها مجهولاً أسلمهم إلى نطاق أوسع وخيوط أكثر تشابكاً وتعقيداً .

إن هذه المعارف الجزئية التي تبدو حقائق مستقلة بعضها عن بعض داخل هذا البنيان الكوني المتماسك ، أشبه ما تكون بفصول متعددة

كثيرة من كتاب كبير ذي موضوع علمي واحد. فماذا عسى يفيد من وقع على أحد فصوله تلك، ثم عكف على دراسته في تأمل ودقة؟ بل ماذا عسى أن يفقه منه من درس فصوله كلها، ولكن على غير ترتيب وتناسق، ودون الرجوع إلى أي رابطة بين الواحد منها والآخر؟! من الثابت يقيناً أن هذا الإنسان لن يعود من دراسته تلك، مهما كانت دقيقة معمقة، إلا بمفاهيم مهشمة ومعارف مبتورة. وهي في مجموعها ليست إلا لوناً من أسوأ ألوان الجهل المركب وإن بدا أنها معلومات جزئية صحيحة.

فكذلك هذا الكون، إنه كتاب علمي واحد، ذو فصول مترابطة ومتناسقة شتى، وإن بدت لدى النظرة العجلى أنها مستقلة متباعدة من بعضها.

وآية هذا الذي أبرزه بديع الزمان في كلماته مركزاً موجزاً، ونحاول أن نحلّله وأن نبسطه هنا مشروحاً مبيناً، ما نعرفه جميعاً من أن جلّ العلماء والفلاسفة الذين ملأت أسماؤهم وشهرتهم الدنيا، عادوا في أيامهم الأخيرة يشكون الجهل وينشدون المعرفة ويتبرمون بالحيرة ويعانون من الاضطراب.

لقد رأينا «برتراند رسل» يشكو فيما يقصه علينا من سيرته الذاتية، أنه على الرغم من كونه حقق كثيراً مما كان يحلم به ويسعى للوصول إليه، ومن ذلك الحب والسلام، إلاّ أنه لم يعد من سعيه وراء أمنيته الأولى، وهي المعرفة، إلا بأوكس الحظوظ.

كما رأينا من قبله «أنشتاين» –وهو الذي ابتدع نظرية النسبية وحدد قوانين الفضاء والزمن والجاذبية– يشكو المعضلة ذاتها، ويعلن لصديقه الكاتب الأمريكي «جورج فيرك» أن معلوماته التي جمعها عن الكون لم تستطع أن تقدم له إلا لغزاً مقفلاً يستعصي على الحلّ. قال له ذلك عندما سأله «جورج فيرك» عن الموت، فقال: لا أدري!!.

ويعبر «أنجلز» في كتابه «أنتي دوهرنغ» عن حيرته في قضايا الكون بكلام طويل، يقول فيه: «كم هي زهيدة معرفتنا بأصل الكريات الدموية..! وكثيراً ما تحدث بعض الاكتشافات، كاكتشاف الخلية مثلاً فتضطرنا إلى مراجعة كاملة لسائر الحقائق الأخيرة والنهائية المقررة من قبل، في مجال علم الحياة، وإلى وضع أكوام كاملة منها في سلة المهملات دفعة واحدة..!». ثم يضيف فيقول: «وإن الحقائق الأبدية تعاني مأزقاً أشد حراجة من ذلك في المجموعة الثالثة من العلوم، وهي المجموعة التاريخية. وهكذا فإن معرفتنا في مجال التاريخ الإنساني لأشدّ تخلّفاً أيضاً منها في ميدان علم الحياة. وأغلب الظن أن الذين سيأتون من بعدنا سيصححون معارفنا أكثر مما يفيدون منها».

بل إني لعلى يقين بأن ظهور المذاهب الفلسفية المتطرفة، من مثالية ووجودية وذرائعية ونحوها، ليس إلا ثمرة اضطراب نتج عن معرفة مقطعة مجزأة عن تصور الهيكل الكلي لهذا الوجود، هذا مع افتراض أنها جاءت معارف جزئية صحيحة.

إذن، فالمعرفة لا تكون صحيحة بحيث تقنع العقل وتطمئن إليها النفس، إلا إن جاءت على أعقاب معرفة كلية شاملة تحيط ببنيان هذا الوجود كله، متمثلاً في كل من الإنسان والكون والحياة ووجه العلاقة السارية فيما بينها. وليس المهم في هذه المعرفة الكلية أن تكون عميقة دقيقة، لاسيما في بادئ أمرها. إنما المهم جداً أن تكون صحيحة وشاملة.

وأذكركم في هذا الصدد بالقاعدة العلمية التي يجب أن تسترعي انتباهنا، كبرهان على ما نقول، وهي أن دراسة ٢٠٪ من كتلة ذات أجزاء متراكبة، ليس من شأنها أن تؤدي بالضرورة إلى معرفة صحيحة لـ ٢٠٪ من حقائق تلك الكتلة. بل إن مثل هذه الدراسة لا تؤدي حتى إلى معرفة ١٪ من تلك الحقائق على وجه صحيح، أو قد توصل إلى تصورات مشوشة عن مجمل تلك الكتلة. ولا عبرة بما قد يعود به هذا الباحث من أوهام يحسبها معارف وعلوماً، وإلاّ فأخبرني كم هي نسبة المعارف الصحيحة التي يعود بها ذاك الذي أقبل إلى خارطة، فوضع منظاراً مكبراً على رقعة منها، ثم راح يحصر نظره وفكره في دائرة ذلك المنظار، ويتأمل في الألوان الساطعة والخطوط الكبيرة التي تحت عينيه، أي قبل أن يتعرف على الخارطة بمجموعها الكلي وقبل أن يتبين خطوط الطول والعرض فيها؟! نعم إنه قد يعود من ذلك بما يسمى في اللغة معرفة، عندما يدرك الألوان على حقيقتها، ويقرأ أسماء المدن التي تبدو تحت منظاره قراءة صحيحة، ويلاحظ تعاريج الخطوط ما هي، ولكنها تسمى في هذا المقام معرفة ميتة، إذ لا صلة لها بشيء من المعارف التي تتضمنها تلك الخارطة في مجموعها الكلي.

فتلك هي حقيقة المعارف التي يعود بها من قد حصر فكره من بيان هذا الوجود الكوني في زاوية من زواياه أو جزء من أجزائه. إنها بكل تأكيد معارف ميتة، لا صلة لها بشيء مما توحي به المجموعة الكونية كلها من المعارف والمعلومات. وهي لذلك أعجز من أن تمدّ صاحبها بشيء مما ينشده الباحث من طمأنينة اليقين العلمي.

والآن، ما السبل إلى هذه المعرفة الكلية الشاملة؟ وبتعبير آخر، أين يمكن العثور على تلك الخارطة التي تصور لنا المنظور الشامل لبنيان هذا الهيكل الكوني كله، وتكشف لنا نوع العلاقة السارية بين جوانبه وأركانه الكبرى؟

من الثابت يقيناً أننا لن نعثر على هذه الخارطة إلا في القرآن، كما يؤكد بديع الزمان رحمه الله. بل هي المهمة الأساسية الكبرى التي

تنزل القرآن من أجلها، والتي يتوقف عليها تعرف الإنسان على ذاته وإمكان نهوضه بالمسؤوليات التي كلف بها وخلق من أجلها.

وبوسعنا جميعاً أن نعلم بأن القرآن لو لم يكن كلام صانع هذا الكون ذاته، لما أمكن أن يحوي بين دفتيه الصورة الكاملة الشاملة لوحدة هذه المصنوعات المترابطة والمتشابكة في تناسق عجيب.

فمن عكف على دراسة القرآن بتدبر وتجرد وإمعان، وجد أن هذا الكتاب يبدأ فيعرّف الإنسان على ذاته وخصائصه ومهامّه في هذه الدنيا التي خلق فيها. ثم يعرّفه على حياته التي يتمتع بها وعلى ما فيها من جوانب التفاهة والأهمية معاً، ويبصّره بمبدئها ومنتهاها، وعلاقتها بما وراءها، ثم يعرّفه على المظاهر الكونية التي تموج من حوله وعلى صلة ما بينه وبينها بشكل شمولي وإجمالي، وهو ينبهه من خلال ذلك إلى ما في تلك المظاهر من السنن الراسخة التي لا تخضع لأي تطوير أو تغيير، وإلى ما فيها من الرموز المتطورة المسخرة لمصالح الإنسان.

وتلك هي العناصر والأركان الكلية الكبرى لبنيان هذا الوجود: الإنسان، الحياة، الكون، أي سائر المكونات الأخرى، وإذن فتلك هي ينابيع المعرفة كلها.

وهكذا يتمثل الهيكل الكوني أمام بصيرة الإنسان، من خلال تدبّره لهذا الكتاب الرباني العجيب، كما تتمثل شجرة باسقة عظيمة أمامك، عندما تنظر إليها على أرض مستوية ليس بينك وبينها أي حجاب أو سحاب، فهي جلية أمام العين في هيكلها وفي ضخامة جذعها واتساع فروعها، وفيما تحمله من ثمر بين أوراقها.

فإذا أقبل الإنسان بعد هذه المعرفة الشمولية الكلية التي استقاها من القرآن إلى يمّ هذا الوجود الكوني، يتعمق في فهم ما يشاء فهمه من الجوانب والأجزاء التي يجب أن يتعمق في معرفتها وأن يتخصص بدراستها، فإنه لن يضيع عندئذ في المتاهات، ولن تخدعه ألوان الطيف المتكسّرة التي كانت تنبعث من جراء انحصار النظر في زوايا ضيقة ومقطعة بعضها عن بعض، بل سيكون له من الاعتماد على تلك الخارطة الشاملة التي انطبعت في بصيرته، ما يردّه عن كل ضلالة ويبعده عن كل خدعة. ولسوف يكون له من ذلك ما ينبهه إلى الرابطة القائمة بين الأجزاء التي قد تبدو متنافرة أو مستقلة بعضها عن بعض.

وهذا هو المقصود بالعلم الذي يظل القرآن ينوّه بأهميته وشرفه في كثير من الآيات. وعن الذين تحلوا بهذه البصيرة العلمية، دون غيرهم، يتحدث القرآن قائلاً: ﴿إِنَّمَا يَخْشَى اللهَ مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَاءُ﴾ (فاطر: ٢٨).

أما أولئك الذين شأنهم أن يبدأوا فيضعوا المكبرات الضخمة على رقعة صغيرة، في قلب خارطة كونية كبيرة، ثم أن يحلقوا في تلك الرقعة، وهم عن الخارطة ذاتها غافلون، فهم الذين قال الله عنهم ﴿يَعْلَمُونَ ظَاهِرًا مِنَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا﴾ (الروم: ٧). وقد يخيل إلى أحدنا أن كلمة «ظاهراً» في الآية إنما تعني المدارك السطحية للشيء بالمعنى المتعارف عليه عند الناس، ولكن الحقيقة أن المعرفة السطحية للشيء تتمثل أول ما تتمثل في المعرفة التي يزهى بها من لم يعلم بعدُ حجم ذلك الشيء وحقيقته، وإنما انطلق بادئ ذي بدء يعوص بأجهزته وتأملاته في إحدى زواياه التائهة الضئيلة وسط حجمه الكبير الفسيح.

بقي أن نسأل على أعقاب هذا الكلام الذي يبرر للقرآن دوراً معرفياً لا يغني عنه -كما قال بديع الزمان رحمه الله- أي فلسفة أو فن من فنون المعارف والعلوم على اختلافها: هل بلغك أن واحداً ممن انطلقوا إلى معارفهم الكونية من دراسة كتاب الله أولاً، وقف من الموت أمام لغز كوني محيّر، كما كان من شأن «أنشتاين»؟ أم هل سمعت أن واحداً ممن بدأ فأمعن في الخارطة الكونية التي تتجلى في هذا الكتاب الرباني، زجته معارفه وعلومه عن الدنيا التي يعيش فيها، في مجهلة محيرة أو ظلمات موحشة، كما هو شأن أولئك العلماء أو الفلاسفة الذين انطلقوا إلى سياحاتهم العلمية، بعيداً عن البوابة القرآنية الكبرى التي تبصّر الإنسان بمجمل هذه الكتلة الكونية وعلاقاتها الشمولية العامة؟

أمعن ما شئت في تاريخ العلماء الغابرين أو العلماء المعاصرين، ممن اتخذوا من القرآن منهج معرفة لهم، ومفتاحاً لسياحاتهم الفكرية في أرجاء هذا الكون، فلن تجد فيهم من زجته معارفه في حيرة، أو أقحمته اكتشافاته العلمية في مخافة أو وحشة. والعكس دائماً هو الصحيح، كما قد مثلت لك من قبل.

* جامعة دمشق، كلية الشريعة - سوريا.
** نكتفي بنشر الحقيقة الأولى في هذا العدد.

المصادر

١. الكلمات، لبديع الزمان سعيد النورسي، ترجمة: إحسان قاسم الصالحي.
٢. سيرتي الذاتية، لبرتراند رسل.
٣. مجلة العلوم اللبنانية، السنة الرابعة، العدد الثالث.
٤. أنتي دوهرنغ، لأنجلز.



قيثارة البعوضة

أ.د. عرفان يلماز *

"ويين . . . ويين . . . ويين" ها أنذا قد جئتُ . . ! هيا انهض . . . نِمْت كثيراً! إن النوم طوال الليل لا يليق بك ، فما أطال النوم عمراً .

فانهض . . ! انهض يا ابن آدم . . ! انهض وفكر . . ! فهل هناك مدعاة للتفكير أحسن مني . . ؟ لا تُؤاخذني إن كُنت قد أَحْمَرْتُ جلدكَ قليلاً أو لَسَعْتك راغبًا ، فهذا يحدثُ إلى حد ما . . ! فها أنا ذا أعرض فنوني الرائعة التي منحني ربي إياها لكي أُوقظك من ناحية ، ولكي أجعلك تفكر وتمعن الفكر من ناحية أخرى . ماذا يضير لو مَصَصت من دمك رَشْفَة لكي أُشْبع نَهَمِي . . ؟ فعلى أي حال فأنت دَوماً تُنْتج دماً . . . فَرَشْفَة مِنْ دمك من حيوان ضئيل مثلي لن تضيرك في شيء . . !

عزيزي ابن آدم؛

إن رب الكائنات وخالقها قد تفضل في إحدى آيات القرآن الكريم مخاطباً إياك قائلاً:

﴿إِنَّ اللَّهَ لا يَسْتَحيِي أَنْ يَضْرِبَ مَثَلاً مَا بَعُوضَةً فَمَا فَوْقَهَا فَأَمَّا الَّذِينَ آمَنُوا فَيَعْلَمُونَ أَنَّهُ الْحَقُّ مِنْ رَبِّهِمْ وَأَمَّا الَّذِينَ كَفَرُوا فَيَقُولُونَ مَاذَا أَرَادَ اللَّهُ بِهَذَا مَثَلاً يُضِلُّ بِهِ كَثِيراً وَيَهْدِي بِهِ كَثِيراً وَمَا يُضِلُّ بِهِ إِلاَّ الْفَاسِقِينَ﴾ (البقرة: ٢٦) . كما ترون فإن الله يلفت الأنظار إلى ضعفي وضآلة حَجْمِي وقد عبَّر عن حقيقة كُبرى .

ففي كل مرحلة من مراحل حياتي أمتلك آلات خاصة ، وأستخدم من التقنيات ما كل واحدة منها –في حد ذاتها– مُعْجِزَة كُبْرى . لشرحها وتوضيحها بالشكل الكافي لا بد من نسبتها إلى الله تعالى صاحب القدرة والعلم اللامتناهي .

أولاً؛ أود أن أُصحح شهرتي السيئة التي لديكم عني؛ نحن لسنا حيوانات شريرة تمص الدماء طوال حياتنا . كل ما في الأمر أن إناثنا تشعر بالحاجة إلى كمية من الدماء لتغطية البروتينات التي تحتاجها في مراحل وضع البيض . ذكورنا لا تمص الدماء على الإطلاق؛ فَيَكْفيها امتصاص الرحيق الحلو من النباتات . إن إناثنا مُدَانة بسبب الدور الذي تَلْعَبه في حمل ونقل بعض أمراضكم دون وعي منها حين مص الدماء . ولكن يجب أن تتصفوا بالعدل قليلاً وأنتم تدينونها . . !

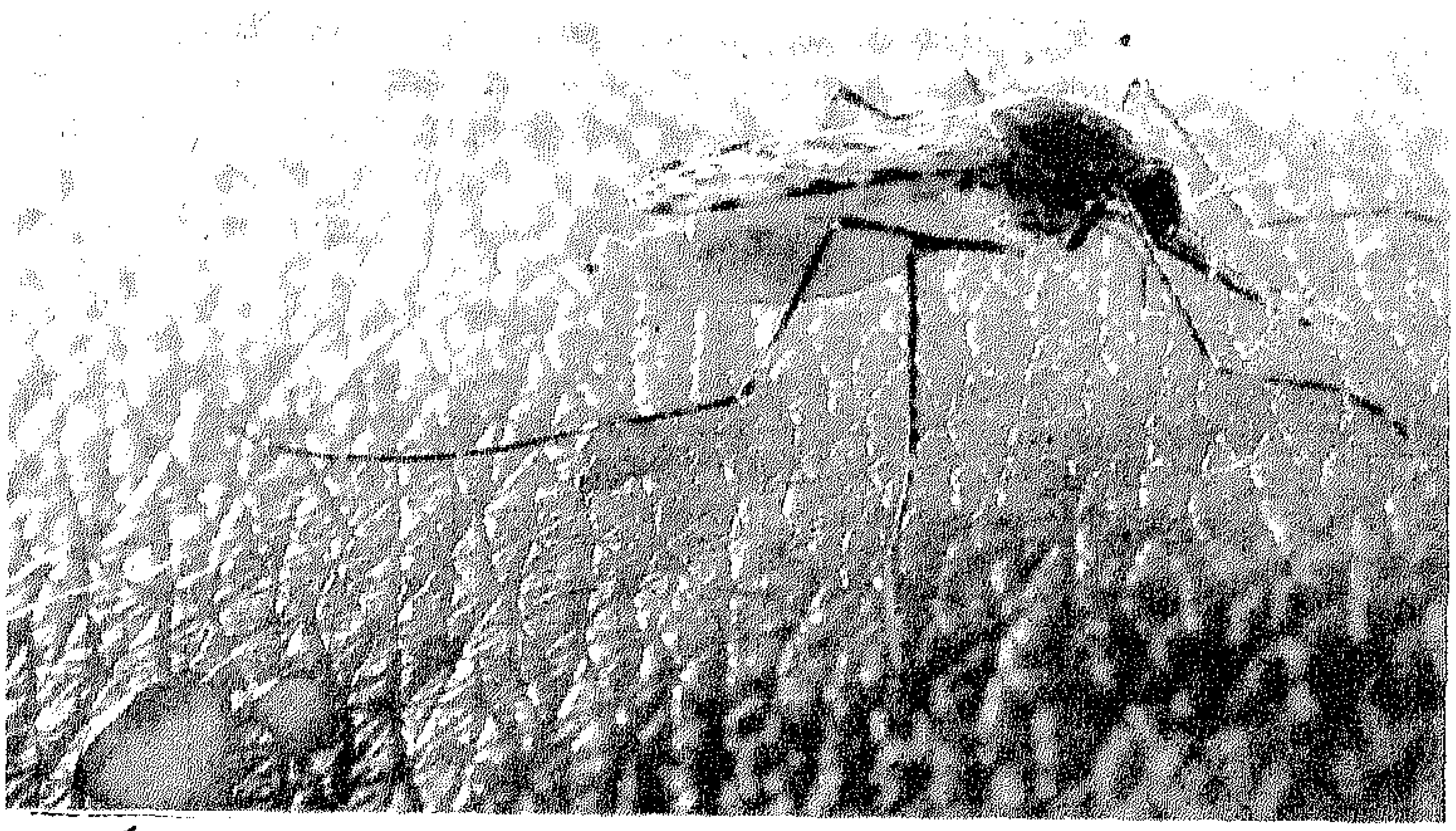
نحن عائلة تتكون من حوالي ٢٥٠٠ نوعاً . وسط هذا الجمع الغفير يجب ألاَّ نُدان جميعاً بسبب ما يرتكبه البعض منا من تورط في بعض الأعمال القذرة ظاهرياً . كل ما هنالك أن بعض أنواعنا كذلك النوع الذي يُسمى ببعوضة الملاريا (Anophel) ، فإن البعض منه يُسبب مرض الحمى ، ونوعنا المسمى بَرْغَشَة (Gulex) يُصِيبُ بالفلاريوز (Filaryoz) والإنسفاليته (Ensefalite) . كما أن جنس بعوض الحمى الصفراء ، فكل ما يفعلونه هم أيضاً ، هو رَشْفَة من الدماء لإشباع بطونهم من ناحية وحفظ النوع من ناحية أخرى . من أين لهم أن يَعْلَموا أن الإنسان الذي يمصُّون دمه صحيحاً أم عليلاً؟ وحتى أنتم يا بني البشر ، بالرغم من مراقبة البَيْطار في مذابحكم ومجازركم ، فإنه يمكن أن تأكلوا اللحوم الملوثة بالجَمْرَة الخَبيثَة أو دَاء الكَلَبْ ، وتدفعون بالأجبانِ العَفِنَة المَسْلُولَة إلى الأسواق متسببين في إضرار وإمراض بني جلدتكم .

ولَمَّا كان رفاقنا هؤلاء لا يمكنهم فحص بني البشر الذين

يمتصون دماء بعضهم، فإنهم ينقلون إلى البعض الدماء الملوثة بالميكروبات التي امتصوها من شخص يحمل الفيروس أو الحمى البلازمية. مرة أخرى نحن حيوانات، نتصرف هكذا حسب البرنامج الذي استوْدَعه ربنا فينا. والحال هكذا... فإن عَمَلِيَّة التَّلويث الميكروبي الذي قام بها رفاقُنا، هذا في الظاهر عَمَلٌ شرير، لم يكن بمحض إرادتهم. أما الوجه الحقيقي للحادثة فيمكن أن يُبين عن نفسه بنتائج حكيمة للغاية. فإن كنت في الماضي قد صرت سبباً للأوبئة الفتَّاكة، فإن هذه الأمراض كالحمى وغيرها قد تضاءلت بفضل الأدوية التي اكتشفتموها. فإذا لم يبق أي إنسان مَحْمُوم، فكذلك لن يكون هناك احتمال لحملي مِيكْرُوب الحمى. وبينما أنا أمص الدماء منكم، فما هي إلاَّ بُرْهَة حتى تشعر أجسادكم بذلك، وترد الصاع بإفراز المضادات الحيوية الواقية من الأمراض. ما أدراكم..! لَمَّا كنت سبباً في الحساسية التي تتولد لديكم، ألم يجعل ذلك نظامكم المناعي متيقظاً..؟ ربما تتوهمون أن هذا ادعاء مني، ولكنكم إن أجريتم أبحاثاً دقيقة في معاملكم ومراكز أبحاثكم فإنكم ستجدون أن لدغاتي هي التي تدفع جهازكم المناعي إلى الحركة. ربما ولكي لا تظهر أمراض أكثر خطورة مثل السرطان، فبسببي ستظل أجهزتكم المناعية في يقظة تامة. إنني على قناعة ويقين بأنكم سوف تصْغُون لتوصية هذا المخلوق البسيط الذي هو عبارة عن أثر فني صغير لربي العظيم، وسوف تُكَثِّفون أبحاثكم في هذا الاتجاه. في وقت ما كنتم تشنون هجوماً ضارياً ضد الذباب! وها هي الآن قد أصبحت يَرَقَانَاتها وخادِراتها غنغرينة تستخدمونها في علاج الجروح.

منذ قليل وأنا أُدافع عن نفسي، لم أستطع أن أجد الفرصة لكي أتحدث عن الأجهزة الحساسة التي أحملها بين جَنَبَاتي، بينما أنا معجزة الخالق الحكيم. وإلاَّ فلماذا يتحدث عني ربي في القرآن الكريم..؟ معنى ذلك أنه أراد أن يُعطي لكم بعض الرسائل بذي روح صغير مثلي. كما تعلمون فإن صناعة ساعة كبيرة أسهل كثيراً من صناعة ساعة صغيرة. فإن التروس في الساعة الصغيرة والبراغي وغيرها من القطع لما كانت صغيرة جداً، فإن جمعها وجعلها ساعة تعمل لَمِنْ الأمور الصَّعْبَة. إن السُّهُولة والصُّعُوبة ليست موضوع بحث بالنسبة للخالق جل جلاله، ولكنني أردت فقط بهذا المثال أن أوضح المسألة لكم. الآن أغلقوا أعينكم، وتخيلوا..! فلي أنا أيضاً معدة وأمعاء ومصارين ومخ وقلب وأعضاء وأجهزة إخراج وتفريغ..! وقد جُعِلت هذه الأعضاء خدماً لي، تعمل وتكد بدون أدنى اعتراض. من الطبيعي أن شكل أعضائي وتكوينها وبناءها وعملها يختلف عما هي لديكم. لأن ربنا، لما كان يعلم الوسط الذي سيعيش فيه كل ما يخلقه، لذا فقد منحه الأعضاء الموائمة ونمط الحياة والأغذية المناسبة. وجعل كل ذلك في شكل مثالي. وقد جعل كل ما لدي أيضاً من أجهزة في موضعها الأمثل وخلقها على أكمل وجه.

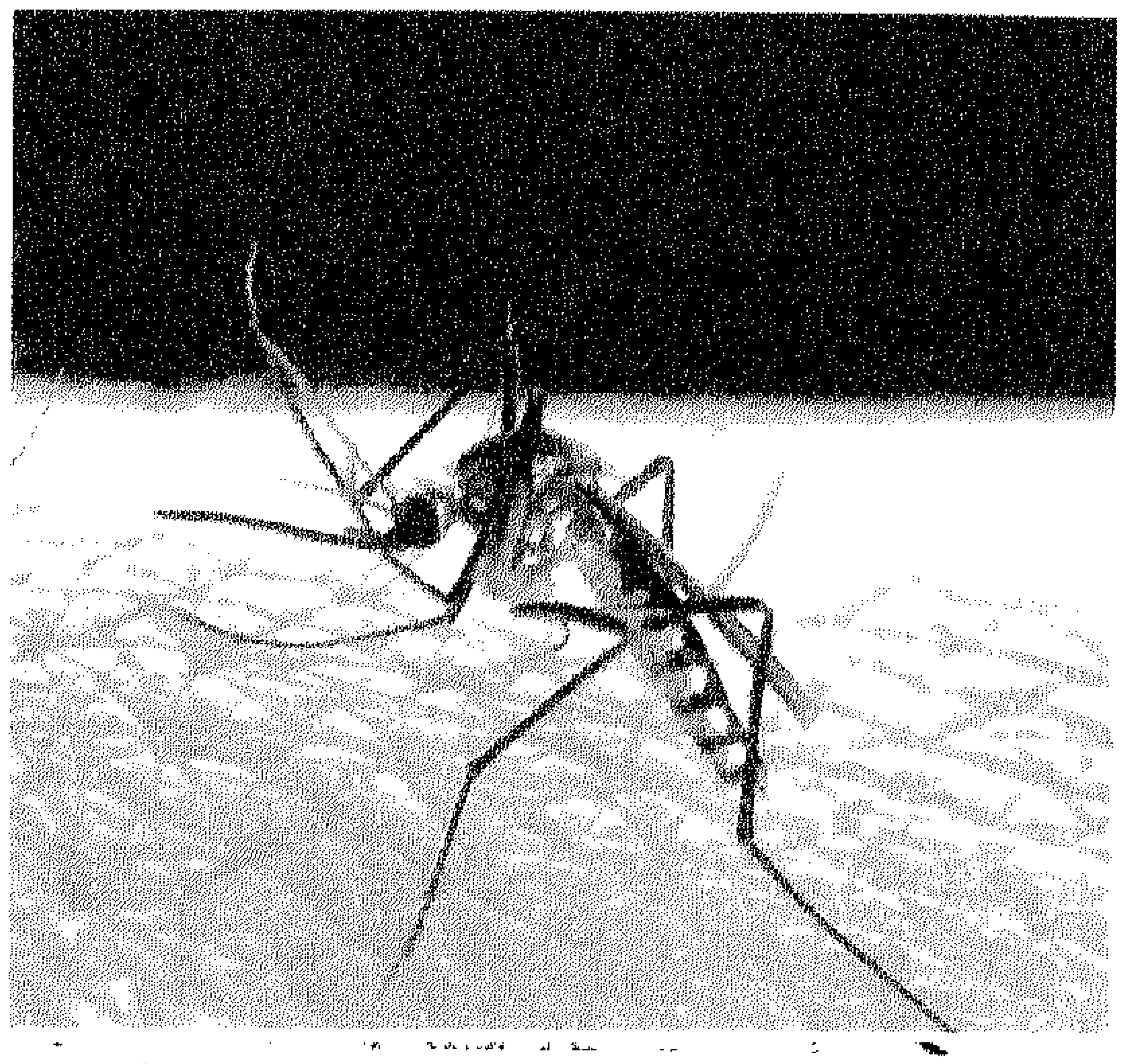
إن أهم آلاتي هي تلك الخراطيم التي مُنِحتها لكي أُشبع نَهَمي. هذه القطعة التي أُضيفت إلى فمي من أجل مَصِّ الدماء أستخدمها مثل التكون الأرتوازي. إن خُرْطُومي الفاحص هذا قد تشكل من أربع سكاكين حادة ونِصفَي ميزاب، أي أُخدود، وقد استقر داخل غلاف (شكل ١). أحط هذا الخرطوم فوق أدْمَى مكان من جلدكم بهدف مص الدماء. أشق الغلاف، أستل سكاكيني، وهي مُصَنَّعة



(الشكل ١)

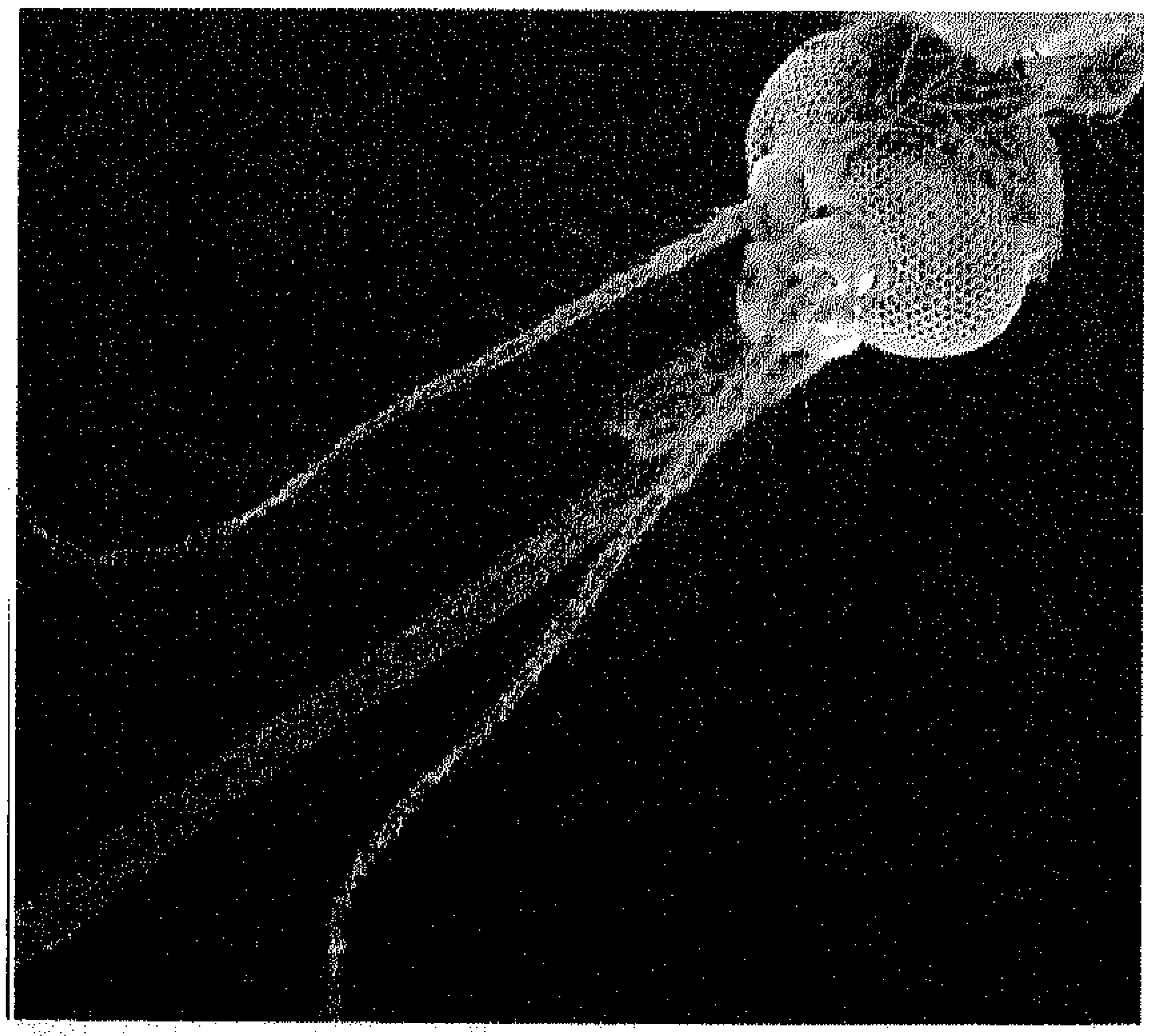
بشكل حاد يُمَكِّنها من قطع الجلد بسهولة. ولكي لا تَشْعُرون بي أقوم بعمل تخدير موضعي بمادة خاصة تفرزها إحدى سكاكيني. وأفرز أنا مادة في تركيب خاص حتى لا تتخثَّر الدماء أو تتجمد وتفقد سيولتها وتدفقها. لو لم تكن هذه المادة، لقام الدَّم الذي أمتصه بِسَدِّ خرطومي أثناء عملية المصِّ، وكنت سوف أموت ولن أستطيع امتصاص الدماء مرة أخرى. إذا ما قمت بالتخدير بشكل جيد أو إذا كان الشخص الذي لدغته نائماً ولم يشعر، فمعنى هذا أن هناك وليمة لي. فأنا أستطيع أن أرضع كمية من الدم تبلغ ٢,٨ ملجم في المرة الواحدة. وهذا يزيد حتى عن وزني الذي يبلغ ٢,٥ ملجم. ولما كان جلد معدتي مرن وقابل للتمدد، ففي ظرف دقيقتين أو ثلاث يمتلئ بطني بالدماء. ولما كان هضم الدماء التي في بطني يَستمر طويلاً، فيمكنني البقاء ما بين ٣ – ٤ أيام دون أن آكل أي شيء.

إن بعض أنواعنا يمكنها أن تمص ثلاثمائة ميكرولتراً من الدماء خلال ١٥ دقيقة، وهذا يُماثل ستة أضعاف جسمها. أنا لا أعيش مشكلة رضاعة (شكل ٢). إن الفراغات الداخلية في رأسي قد جُهِّزت بالعضلات. وفيما بين انقباض هذه العضلات وانفراجها هناك فرق



(الشكل ٢)

ضغط جوي ما بين ١ - ٢ (ضاغط رضاعة). ودماء الشخص الذي لدغته يرتفع داخل خرطوم المص بسرعة خمسة أمتار في الثانية. لا تخافوا ولا تقلقوا، فإن هذا الضغط لن يفجر خرطومي، لأن الله قد خلق جهازي الحياتي هذا في تركيب خاص (شكل ٣).



(الشكل ٣)

مَنْ هو الإنسان الذي أمص دمه أكثر..؟ إن الجواب على هذا السؤال فيه إفشاء للسر. ولكن أبوح بما يلي؛ فأنا أستطيع أن أجد الإنسان الذي سأمص دمه في الظلام الدامس. ولكي أحصل على صيدي، فقد وضع ربي في وسط أقدامي الأمامية تماماً أجهزة استقبال حراري حساسة. وبواسطة هذه الأجهزة الحرارية أُحدد على أجسادكم أكثر الأماكن حرارة وأكثرها تشبعاً بالدماء تحت الجلد. هذا بالإضافة إلى وجود أجهزة استكشاف حساسة للغاية فوق جسدي بحيث إن عقولكم أو خيالكم لا يتصورها. أنا أعرف بني البشر من رائحة عرقهم ودرجة حرارتهم. إنني بمعدَّاتي التي تحدد نسبة الرُّطُوبة والأمين في نَفَسِكم وحامض اللاكتيك والأحماض الدهنية وزيت الآمون وأحماض الأمينو وأكاسيد الكربونات في عرقكم، أجدُ أنسبَ الأماكن للثقب في جلدكم، مثلما تفعل الطائرات التي تهبط في المطارات بطيار آلي. إن المؤشرات والعدادات الموجودة في كبائن الطائرات التي تُرشد الطيَّار وتُنبِّهه وتُقدم له المعلومات اللازمة عن وضع الطائرة، هذه كلها بجوار مُعَدَّاتي لا تصلح حتى لكي تكون لعباً للأطفال.

إن الإناث فيما بيننا مضطرة لإيجاد كل الظروف المواتية وأنسب المياه من أجل أن تضع بيضها. لذلك فهي تُشَغِّل وبشكل حساس جهاز البحث عن الرطوبة الموجود في بطونها. وبواسطة هذا الجهاز، فإن الأنثى التي هي صاحبة معارف ومعلومات عن تكوين ورطوبة الأرض التي تمر من فوقها خلال الطيران، ما أن تجد مياهاً مناسبة وغنية بالنباتات حتى تضع بيضها فوراً.

إن جهاز جوهنستون الموجود في هوائياتنا هو جهاز استماع حساس. ولما كانت هناك فوارق بين سرعة ضربات أجنحة الذكور والإناث، فهناك فرق أيضاً فيما بين اللحن أو النغمات الصادرة عن الأصوات التي تُصدرها الأجنحة عند الطيران. ولما كانت الإناث تضرب أجنحتها بشكل أسرع، فإن الذكور -الذين سيكونون معها، وفي حالة فاعلية ونشاط من أجل الحفاظ على النسل والنوع- بفضل هذا الجهاز الذي وهبه ربي يمكنهم إيجاد رفيقاتهم. هل يمكن أن تُخمن مدى الكمال الذي يحدث من مثل رفرفة الأجنحة التي تبلغ ٥٠٠ مرة في الثانية الواحدة..؟ إنكم تستطيعون بالكاد أن تحركوا أذرعتكم وتفتحوها وتغلقوها مثل الجناح مرة واحدة في الثانية على أحسن تقدير. فلا عضلاتكم ولا مفاصلكم قد خُلِقت لتوائم هذا العمل. فروابط مفاصلي وعضلاتي أقوى مما هي عندكم.

يجب ترك البيض في متراكمات مائية مناسبة للتطور. لقد اتخذت التدابير اللازمة من قبل صاحب القدرة اللانهائية حتى لا يغوص بيضنا في الماء. فبعض أجناسنا تُثَبِّت حُجَيْرات هوائية فوق بيضها حتى تحول دون غَوْصِه في الماء، بينما يوجد لبعض أنواعنا

ميزابات وأخاديد مليئة بالهواء فوق بيضها. كما أننا نلصق أعداداً غفيرة من البيض بمادة لاصقة خاصة ونجعلها كالصال أي الرمث العائم فوق الماء. ولما كانت الأخاديد مثل الوسائد الهوائية، فهي تحول دون غرق بيضنا.

بعض الأنواع الأخرى تترك بيضها في الماء بعد أن تكون قد غلّفته بمادة جيلاتينية هولامية لتحميها، مستفيدة من قانون جاذبية سطح الأرض. نحن لم نكن على علم بضغط الأرض وجاذبيتها، كما أننا لم نكن نعرف شيئاً عن قوة الرفع للمياه. ولكن الذي رحمته بلا نهاية، بناء على فقرنا وعجزنا، فقد تكفّل بحماية بيضنا على أجمل هيئة.

إن اليرقات التي تخرج من البيضة في طول يتراوح ما بين ١ – ١,٥ ملم تكبر بسرعة لاستمرار أكلها. ولها أجهزتها الخاصة جداً والتي تُمَكِّنها من التغذية دون أن تختنق تحت الماء. إنها تستخدم أنابيب الهواء الخاصة بها والتي على شكل شُعَيْرات ممتدة فوق المياه وبشكل أفضل من تلك التي تخص الغواصين. ولما كانت هذه الشعيرات مصنوعة من مادة الهيدروفوبك، يَعْني لما كانت لا تتبلل بالمياه، فإن الماء لا يتسرب إلى الداخل. ولكن إذا ما وُضِع مازوت في الماء أو خُلِط بسائل زيتي، فإن خاصيّة هذه الشعيرات تَفْسُد، وتملأ المياه داخل الأنابيب مع أقل تَمَوُّج على سطح الماء. ومن الطبيعي أن ينتج عن هذا الوضع الموت المحقق لليرقات. ولمّا اكتشفتم ذلك، فإنكم تلقون بالمازوت إلى التجمعات المائية في صراعكم معنا. ومن أجل إعدام يرقاتي فقط فإنكم تقضون على الطبيعة مُلَوِّثين الماء. بينما الأمر أنكم لو لم تتدخلوا فإن الكثير من صِغار الأسماك والضفادع تلتهم يرقاتي. إنها بهذا الصنيع ستكون قد ملأت بطونها من ناحية. ومن ناحية أخرى أمَّنت السَّيْطَرة على نسبة أعدادنا. وبالطبع لن تكون قد لَوَّثَت البيئة الطبيعية، بل حافظت على توازن البيئة. ولما كنتم لا تفكرون في شيء آخر غير قتل وإعدام يرقاتي، فإنكم لا تفقهون التوازن الكامل الذي أودعه ربي في الطبيعة. وتلقون جانباً حق الآخرين في الحياة، مستمرين في نهب دنياي الجميلة، مدفوعين بالحرص والطمع والأنانية إلى آخر المدى. والخلاصة فالخاسر أيضاً هو أنتم.

إن كان حديثي مؤلماً إلى حد ما، فلقد انصرفت عن الحديث حول إبداع ربي وشرعت في شكواكم لأنفسكم. فلنكتف بهذا القدر. فلقد قال أجدادكم الذين كانوا يهتمون أكثر منكم بالتوازن البيئي؛ «لِمَنْ يَفْهَم تَكْفيه رَبَاب بَعُوضَة، أمَّا المنكر فلا يُجْدِي معه طبلٌ أو زمرٌ». وما أصدقه من قول..!!

* جامعة ٩ أيلول–تركيا

نظر الفجر إلينا

نَظَرَ الفجرُ إلينا . بابتسام وانشراح

فسقانا من صفاء وَجُدِنا كأس الصباح

قال: كونوا يا صِحابي أوفياءَ للضياء

واسكنوا الآفاقَ حُبا إنكم أهلُ الوفاء

اطلبوا المجد دَواماً بافتخار واقتدار

وارسُمُوا الآمالَ زَهراً لِصغارٍ وكبار



مولاي الحسن الحسيني - المغرب



كيف نكوّن الحسّ الديني لدى الأطفال؟

صدر الدين أيدر *

إنّ السّؤال المتمثّل في «ماذا نعلّم الطّفل ومتى نعلّمه وكيف نعلّمه ومن يعلّمه؟» يشغل بال الآباء والأمّهات والمربّين منذ القديم. وعندما يتعلّق الأمر بالمواضيع الدّينيّة يصبح هذا السّؤال أكثر أهمّية. واليوم تقال أشياء مختلفة في هذا الموضوع، بل إنّ بعض الأشخاص الّذين تُعرف نواياهم يصرّون على عدم تلقين الأطفال أي تربية دينيّة حتّى سنّ الحادية عشرة، وهذا الأمر يلقي بضغوطه باستمرار على الأسر في بعض البلاد الإسلامية.

لم يلاحظ في زمن من الأزمان أنّ الإنسان عاش خلوا من الدّين. ولقد وجد «الدّين» بلا شكّ في جميع فترات التّاريخ بغضّ النّظر عن اسمه وشكله. فالإنسان الّذي تسكن بين جوانبه ميول مادّيّة وتتنازعه جوانب روحيّة ويسعى جاهدًا من أجل مواصلة وجوده المادّي، يبحث من جانب آخر عن الأجوبة المُقنعة بواسطة «معرفة دينيّة» سليمة بشكل خاصّ. فالتّربية الدّينيّة الّتي يتلقّاها الإنسان في مرحلة طفولته تترك آثارها العميقة في نفسه طوال حياته. ولذلك ينبغي أن تقدّم له هذه المعرفة منذ الطّفولة.

وينبغي ألاّ ننسى أن الغصن إنما يُلوى وهو لا يزال غضّا طريّا. يقول الإمام الغزالي: «إنّ قلب الطّفل فارغ، صاف، له ميل فطري لتلقّي كلّ شيء، والميل إلى كلّ شيء». وأمّا ابن مسكويه فيقول: «إنّ الطّفل في هذه المرحلة جاهز لتقبّل كلّ التّعاليم والتّلقينات الّتي توجّه له». وكما يقول ابن سينا: «عند ولادة الطّفل تولد معه جملة من

القدرات، بيد أنّه يتعيّن تطوير هذه القدرات»، بمعنى أنّ هذه القابليات إذا وجّهت نحو الخير والدّين نشأ الطّفل مؤمنا، أمّا إذا وجّهت نحو الشّر والإلحاد فإنّ الطّفل ينشأ غير مؤمن.

ويقول بديع الزّمان: «إنّ الطّفل إذا لم يتلق في طفولته دروسا إيمانيّة حيّة فإنّ نفسه بعد ذلك يصبح من العسير عليها تقبّل الإسلام وأركان الإيمان، بل إنّ هذه الصّعوبة تصل إلى درجة أن يصبح الواحد في علاقته بتقبّل الإسلام شأنه شأن غير المسلم».

وعند النّظر في المراجع المتعلّقة بنفسية الطّفل يلاحظ أنّ مرحلة الطّفولة تنقسم إلى ثلاثة أقسام. وهذه الأقسام الثّلاثة هي بشكل عام على النّحو التّالي:

مرحلة الرّضاعة: بين سنّ ٠ - ٣ سنوات.

مرحلة الطّفولة الأولى: بين ٣-٦ سنوات.

مرحلة الطّفولة الأخيرة: بين ٦-١١ سنة للإناث وبين ٦-١٣ سنة للذّكور.

وتعتبر المرحلتان الأوليان الأكثر تأثيرا في مستقبل الطّفل.

مرحلة الرّضاعة

في هذه المرحلة الّتي تمتد من الولادة إلى سن الثالثة لا يلاحظ لدى الطّفل أيّ تعبير عن أي إحساس أو تفكير ديني. فالطّفل في وضعيّة سلبيّة تماما، وهو يحتاج في كلّ الأمور إلى الوالدين، غير أنّه من جانب آخر ليس معزولا بشكل تامّ عن العالم وعن محيطه. فالطّفل وإن كان لا يمارس أيّ نشاط بدني أو اجتماعي بالمعنى الحقيقي، إلاّ أنّه حسّاس إزاء الأحداث التي تقع في بيئته. فقد أثبتت الأبحاث أنّ الطّفل قد خلق مزوّدا بقابليات «روحيّة» إزاء التّلقينات الدّينيّة الّتي ترد إليه من الخارج. وقد عبّر عن ذلك العلامة حمدي يازر بقوله: «إنّ كلّ فرد قد ركّز في روحه إحساس بالحقّ، وغُرزت في داخله قوّة لمعرفة الله تعالى».

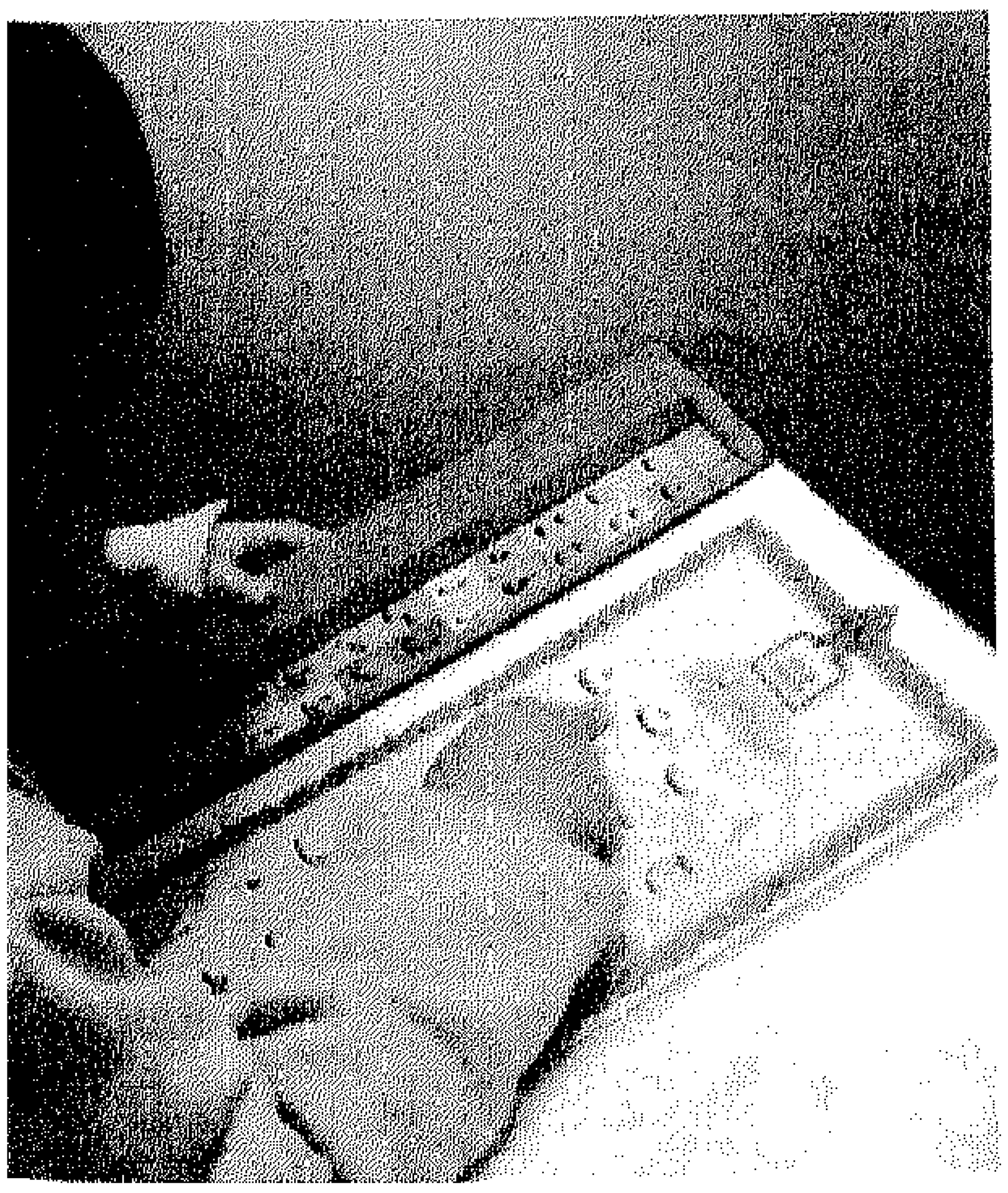
ويقول عالم النّفس الألماني هولنباخ: «يمتلك الطّفل إحساحا شديدا بالرّغبة في المعرفة والبحث عن قدرة غير محدودة تساعده وتحميه. وهي لا تزال غير ظاهرة، ولم يتمّ التّمكّن من شرحها إلى حدّ الآن. والشّيء الّذي يجعل من الطّفل شخصا متديّنا هو هذا الشّوق والرّغبة في الاكتشاف إزاء اللاّمحدود، وهذه الرّغبة كامنة في داخله. بيد أنّه من الضّروري أن تشجّع هذه الرّغبة ويُغذى هذا الحماس ويُوجّها من قبل العائلة».

مرحلة الطفولة الأولى (مرحلة التقليد)

بداية من سنّ الثّالثة يبدأ الطّفل بالاهتمام بمحيطه بشكل مكثّف، ويحاول أن يلعب بكلّ ما يقع في يده، ويحاول كذلك أن يتعرّف عليه. وفي هذه المرحلة تبدأ مشاعر مثل الإحساس بالأمان والحبّ والإحساس بحبّ الآخرين في التكون بشكل كبير. ويريد الطّفل أن يبيّن أنّه ليس في حاجة إلى الآخرين من أجل تلبية هذه الاحتياجات. ونتيجة لذلك يعمل الطّفل على امتلاك كلّ ما يوجد في محيطه، ويسعى إلى كسره أو تمزيقه، وبهذه الصّورة يعمل على إثبات وجوده. والأطفال الّذين هم في هذا العمر يتصرّفون أساسا انطلاقا من عواطفهم. ويكون اهتمامهم أقوى إزاء الأشياء الّتي تخاطب عواطفهم. وبالإضافة إلى ذلك، فذكاء الطّفل ليس بوسعه إدراك جميع المفاهيم بعد، ولا يعرف كيف يتفاعل مع الأحداث الّتي تواجهه. ونتيجة لذلك فالتّقليد هو السمة التي تميّز الأطفال بشكل خاصّ في هذا العمر.

والأطفال الّذين هم في هذا العمر يشعرون بالحاجة إلى اتّخاذ نموذج لهم يتّبعونه. والأشخاص الّذين يمكن للطّفل اتّخاذهم قدوة هم أفراد العائلة. وقد كشفت الأبحاث أنّ بيئة الطّفل (الأسرة) هي العامل الأكثر تأثيرا عليه، في طبيعة تصرّفاته ومواقفه الدّينيّة. عن أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: «كل إنسان تلده أمه على الفطرة، وأبواه بعد يهودانه وينصرانه ويمجسانه، فإن كانا مسلمين فمسلم»(رواه مسلم). فإذا كان الوالدان مسلمين يكون مسلما. فالحديث يشير بذلك إلى أهميّة الأسرة، وبشكل خاصّ إلى الوالدين في تكوين الإحساس الدّيني والفكري لدى الطّفل.

والأطفال في هذه السّنّ يستقبلون بكلّ تلقائيّة العبارات والسّلوك الدّيني وجميع العناصر الدينية الّتي يلاحظونها في أفراد العائلة ويعملون على تقليدهم باعتبارهم يمثّلون «النّموذج المثالي» بالنّسبة إليهم. وهذا الميل الفطري للتقليد لدى الطفل مصدره نفسية «تقليد المحبوب»، وهذا مهمّ جدّا فيما يتعلّق بتشكيل الحياة الدّينيّة لدى الطّفل. ومن هذا المنطلق على الأشخاص الّذين يتّخذهم الأطفال «نماذج» أن يكونوا حذرين إزاء ما يصدر عنهم من كلمات ومن تصرّفات. فالوالدان اللذان يوجّهان النّصح لأطفالهم بغاية تغذية المشاعر الدّينيّة فيهم، ينبغي أن لا يتعارض كلامهم مع حياتهم العمليّة، بل وينبغي أن يؤكد الكلام بالعبادات مثل الصّلاة والصّيام



والدعاء والحج والإنفاق. فعندما لا يكون كلامهم الجميل متوافقا مع سلوكهم، وعندما تكون أعمالهم غير منسجمة مع أقوالهم فإنّ ما يصدر عنهم من كلام سوف لن يتجاوز آذانهم، بل إنّه في بعض الأحيان يصبح لهذا الكلام تأثير عكسيّ.

حسنا، كيف ينبغي أن يكون سلوك هذا النّموذج (الأسرة)؟

إنّ الأبوين اللّذين يريدان أن يكون لكلامهما وقع في نفوس أطفالهم، عليهما أوّلا أن يطبّقا ما يقولانه بصدق، ثمّ يطلبا بعد ذلك من أطفالهم الالتزام به.

القدوة الصالحة

إنّ استماع الطّفل للأدعية الّتي يدعو بها الأشخاص (القدوة) الموجودون في محيطه ورؤيته للعبادات والمعاملات الدّينيّة الّتي يقومون بها تمثّل أهميّة قصوى بالنّسبة إليهم. فما يسمعونه منهم يترسّخ في اللاشعور لديهم، ثمّ يبدأ الطّفل بعد ذلك شيئا فشيئا في تقبّله. فمثلا، يشاهد الطّفل الّذي هو في سنّ الثّالثة أو الرّابعة من العمر أحد والديه وهو يؤدّي الصّلاة ثمّ يتابع سلوكه ثمّ يحاكيه بعد ذلك. وكذلك عندما يلاحظ الطّفل أنّ والديه يبدآن بالاستعداد للصّلاة مع سماع الأذان، فبعد فترة من الزّمن ما إن يُرفع الآذان حتّى يسارع الطّفل إلى القيام، ويقول لهما «حيّ على الصّلاة»، وهو بتلك الحركة يريد أن يثبت ذاته.



كما أنّ كلمات الأدعية وعبارات الشّكر الّتي تقال في البيت بصوت مرتفع تصبح محلّ محاكاة وتقليد من قبل الطّفل بعد فترة من الوقت. كما ينبغي أن نقول للطّفل بأنّه يتعيّن عليه أن يدعو الله تعالى من أجل تحقيق حاجاته. وعلى هذا النّحو يترسّخ في ذهنه أنّ الله تعالى هو ملجأه الوحيد. ومن ناحية أخرى يجب أن نعلّم الطّفل الإيمان بالله وفوائد العبوديّة لله تعالى ونشرح له مساعدة الله لعباده المؤمنين.

وعند القيام بهذه العمليّة علينا أن نستعين في ذلك بالحكايات والقصص الّتي تشدّ انتباه الطّفل. فالحكايات والمناقب التي لها صلة بالإيمان تسرع من تطوير الأفكار لدى الطّفل، حيث تدل على أنّ وراء الأشياء المادّيّة قوة أخرى. ولهذا السّبب يتعيّن أن نقصّ على الأطفال قصص الأنبياء الموجودة في القرآن، وكذلك حياة النّبي ﷺ، إضافة إلى مشاهد البطولة والصّبر الّتي ميّزت حياة الصّحابة الكرام، والعزم والجهد الّذي أبدوه. وعلى هذا النحو يتشكّل في أذهان الأطفال النّموذج المثالي.

كيف يجب أن تكون اللّعب الّتي نقتنيها للطّفل؟

في هذه المرحلة لا يستطيع الطّفل أن يستوعب المفاهيم المجرّدة، لذلك يهتمّ بالرّموز أكثر. ولهذا السّبب ينبغي أن تكون اللّعب الّتي تعطى للطّفل قادرة على التّعبير عن الحياة الدّينيّة. فمن اللّعب التي تعطى للأطفال والّتي تحتوي على عناصر دينيّة نجد «ألعاب التّركيب» والكلمات المتقاطعة وسيديهات الأفلام الكرتونيّة وغيرها.

وإلى جانب ذلك، هناك أسلوب آخر في التّعليم يتمثّل في الهدايا الّتي تقدم من قبل الأشخاص الّذين اتّخذهم الطفل قدوة ونموذجا. وهذه الهدايا يمكن أن تكون سجّادة أو مسبحة وما شابه ذلك من الأشياء. فالحسّ الدّيني لدى الأطفال لا يمكن أن يُزرع في نفوسهم إلاّ بواسطة الحب ومن قبل من يحبّون من النّاس. فربط الأطفال بالله تعالى عن طريق الأمل والحبّ، أمر مهمّ من حيث جعل ملكاتهم العقليّة والذّهنيّة في صلة بهذه الأمور مستقبلا. فالتّربية الإيمانيّة القائمة على حبّ الله تعالى تلتحم بالشّعور بالأمل والارتباط بالله تعالى، وهذان العنصران يعدّان من المشاعر الأساسيّة لدى الطّفل. وبذلك تتكوّن قواعد إيمانيّة قويّة وصلبة.

وأخيرا هناك عبارتان مختلفتان، إحداهما لطفل عمره خمس سنوات والآخر عمره ستّ سنوات، تلخصان التّربية الدّينيّة الّتي تلقّياها:

مراد (خمس سنوات): «عندما نقيم الصّلاة، ونحسن إلى النّاس يحبّنا الله تعالى. وعندما نخطئ فهو يغفر لنا. وهو يحبّ الأمّهات والآباء والإخوة والجدّات والأصدقاء ويحبّ جميع النّاس، ويحبّ الأطفال الصّغار بوجه خاص».

علي (ستّ سنوات): «إذا عصيت والديك فالله يعذّبك بالنّار... وإذا عصيْت والديْك وضربتهما فكأنّما عصيت الله تعالى. ولذلك فالله يلقي بك في جهنم ويحرقك فيها. أمّا إذا تفوّهنا بكلام سيء فالله يشوي أبداننا بالنّار الحارقة».

ولا داعي هُنا لنقول أيّ الحديثين أكثرُ رشدا؟

* باحث متخصص في علم التربية – تركيا

الايمان والشفاء



د. ألفونس ويليمز *

ظلت العلاقة بين الايمان والشفاء محل نظر وجدل ولا تزال. فمعظمنا سمع عن أناس برءوا من أمراض مزمنة بسبب إيمانهم، وقد ظل استكشاف تلك العلاقة أمرا يثير السخرية بين أوساط العلماء والأطباء قرونا عديدة. ووصل الأمر في الخمسة عشر عاما الأخيرة أن اعتبر انتحارا أكاديميا أن يقدم أحد الباحثين دراسة يلمح فيها لأمر كهذا.

غير أن هذا المفهوم آخذ في التغيير، فقد بدأ المتخصصون في معاهد كبرى إجراء أبحاث علمية حول أثر الايمان في الشفاء. ويمكننا تبين ذلك من المؤتمرات الحديثة المنعقدة في هارفارد وفي عيادة مايو وفي الجمعية الأمريكية لتطوير العلوم المعروفة اختصارا بـ (AAAS).

وفيما يلي أمثلة لهذه الدراسات العلمية والقائمين بها وما توصلوا إليه من نتائج:

د. ديفيد لارسون

الطبيب النفسي ديفيد لارسون هو رئيس المعهد القومي لبحوث العناية بالصحة ومؤلف الكتاب التعليمي «العنصر المنسي» الذي قام بتأليفه بالاشتراك مع زوجته سوزان.

ويناقش في كتابه هذا العلاقة بين الصحة والدين. وتقول الأرقام التي وردت في كتابه عن طريق استطلاع «جالوب» أن ٩٥ بالمائة من الأميركيين يؤمنون بالله، وعلى الرغم من أن النصف يؤمنون بوجود النار فهناك ٨٠ بالمائة يثقون بأن الله غفور رحيم ولا يعذب بها، وهناك ٤٠ بالمائة يحضرون القداس الأسبوعي.

وأثناء عمله كطبيب نفساني مقيم في جامعة ديوك سأل لارسون أستاذا جامعيا عن كيفية إدماج الايمان في الممارسة الطبية النفسانية،

وكانت الإجابة: «أأنت من النوع الذي يحب أن يؤمن الناس كما تؤمن أنت؟» وعلى الرغم من أن إجابة لارسون كانت بالنفي إلا أن الأستاذ الجامعي استمر قائلا: «يبدو أنك ستضر بمرضاك». ويقول لارسون إن أي أحد يثير أمرا كهذا سيُدمَغ بأنه أصولي، غير أن أبحاثه الواسعة ومنشوراته جذبت له الأنظار مما ساهم في تمويل المعهد القومي لأبحاث العناية بالصحة. فبرنامج الإيمان في الطب الذي يموله المعهد يعطي منحا قدرها عشرة آلاف دولار لمدارس الطب لدراسة مناهج حول الدين والصحة.

وكانت جامعتا جونز هوبكنز وجورج واشنطن من بين أحد عشر مدرسة تلقت تلك المنح.

د. هارولد كونيج

يعد هارولد كونيج -الذي يعمل أستاذاً مساعداً للطب النفسي ومديرا لمركز دراسة الدين والروحانية والصحة التابع لمركز جامعة ديوك الطبي- من بين رواد دراسة قدرات الإيمان الشفائية.

لاحظ كونيج لأول مرة أهمية الإيمان كعنصر مساعد للشفاء حين كان طبيب عائلة مبتدئ. فقد عرضت عليه حالة مريضة أدخلت إلى المستشفى لمدة شهر على إثر جراحة في الفخذ. مات زوج تلك المرأة من جلطة فجائية وسقطت المرأة على الجليد أثناء سيرها في جنازته وأصيبت بشرخ في الفخذ. أما طبيبها فقد حذر كونيج بأن المرأة منهارة عاطفيا. وفي الحقيقة واجهت المرأة أحداثا تؤدي بطبيعتها إلى الاكتئاب، وعليه تقوض عملية الشفاء.

من أجل هذا أصيب كونيج بالدهشة حين رأى تلك العجوز منبسطة الأسارير حين دخل غرفتها وسمعها تقول له: «هل من شيء أؤديه لك أيها الطبيب؟»

ولاحظ كونيج عدم وجود أي علامة ظاهرة تدل على الاكتئاب أو التعب أو حمرة العينين من الدموع أو صعوبة التركيز عند هذه السيدة. وبمحادثتها اكتشف كونيج أنها احتفظت بهذا المرح والرضا بقراءتها للكتاب المقدس، وانبرت المرأة قائلة له: «إذا استيقظت فوجدت نفسي وحيدة أو مذعورة فإنني أقرأ الكتاب المقدس أو أتحدث إلى الرب، فهو دائما معي حتى حين يتركني الأحباب، وهذا أهم شيء يبعث الأمل في جوانحي».

وتعجب كونيج، وحين شفيت المرأة، وجد نفسه مدفوعا لدراسة الأثر الطبي لهذا الإيمان العميق. ومنذ ذلك الحين أخبره مرضى كثيرون كيف استطاعوا بإيمانهم التواؤم مع ما هم فيه وعجّل هذا الأمر شفاءهم.

بل وجمع فريقُه الطبي الذي درس حالات آلاف الأميركيين منذ عام ١٩٨٤ أدلة دامغة على أن الإيمان الديني لا يحسن الصحة العامة فقط ولكنه يساعد المرضى على الشفاء من الأمراض المزمنة.

يقول كونيج: «حين يصلون لله يكتسب المرضى نوعًا غير مباشر من التحكم في عللهم وهم يوقنون أنهم ليسوا وحدهم في كفاحهم ضد المرض، فالله معهم بنفسه. ويساعدهم هذا اليقين على التغلب على الإحساس بالوحدة الشعورية والذي يؤذي الكثير من المرضى». وفي دراسته لـ ٤٥٥ حالة من مرضى مستشفى العجائز وجد كونيج أن الأشخاص الذين يحضرون إلى الكنيسة أكثر من مرة أسبوعيا يقضون ٤ أيام فقط في المستشفى، بينما يقضي أولئك الذين لا يذهبون إلى الكنيسة أو يذهبون إليها نادرا حوالي ١٠ إلى ١٢ يوما حتى يتم شفاؤهم.

ديل ماثيو

ديل ماثيو يعمل أستاذًا مساعدًا للطب النفسي بالمركز الطبي التابع لجامعة جورج واشنطن بواشنطن. أثناء عمله كطبيب داخلي مبتدئ في أوائل الثمانينات قابل ماثيو مريضًا على قدر كبير من الإيمان ترك أثرًا كبيرًا على حياته. وقبل أن يسمح له بالشروع في علاجه قال الرجل له: «أنا مسيحي صالح، فإن كنت تريد أن تصبح طبيبي فإني أريد منك أن تصلي معي». لم يتحدث ماثيو من قبل عن إيمانه مع مرضاه، ولذا فقد كان متمنعا في البداية. ولكنه وضع يده في يد الرجل الذى أمل أن يظل الأمر سرا بينهما، فهو لا يريد أن يصمه الناس.أنه «غير علماني»، غير أنه انتبه على صوت الرجل الذي دوى في غرفة الكشف، لكنه تبين أن مريضه كان كلا متكاملا وليس أعراضا تجمعت وشكلت حالة معينة. وقد دفعه هذا إلى أن يصبح حساسا لأي إشارة تبين أن الإيمان هام للمريض. فإذا ما خاطبه أحد قائلا: «أتمنى من الله ألا يظهر شيئا سيئا

جمع فريق د. كونيج الطبي الذي درس حالات آلاف الأمركيين منذ عام ١٩٨٤ أدلة دامغة على أن الإيمان لا يحسن الصحة العامة فقط، ولكنه يساعد المرضى على الشفاء من الأمراض المزمنة.

في هذه الاختبارات» أجابه ماثيو قائلا: «أخبرني عن صورة الله في عقلك». ويقول ماثيو: «قد لا يمكننا أن نثبت علميا أن الله يشفي، لكنني أعتقد أن بإمكاننا أن نثبت أن الإيمان بالله يترك آثارًا طيبة». ولذا ضمّن ماثيو كتابه الأخير «عنصر الإيمان» حكما دينية وأبحاثا علمية وقصص المرضى حتى يثبت العلاقة بين الإيمان والصحة.

نتائج إحصائية

بدأت معاهد الرعاية الصحية في الاهتمام بالعلاقة بين الإيمان والصحة. فقد قامت مدرسة الطب بهارفارد، عيادة مايو، والجمعية الأمريكية لتطوير العلوم برعاية مؤتمرات حول الصحة والروحانية، بل إن ما يقارب نصف كليات الطب الأمريكية تدرس مناهج دراسية في هذا المجال.

وفيما يلي نتائج بعض الدراسات المنشورة في هذا المضمار:

◆ في استطلاع تم توزيعه على ٢٦٩ طبيبا عام ١٩٩٦ في أحد اجتماعات الأكاديمية الأمريكية لأطباء العائلات قال ٩٩ بالمائة إنهم يعتقدون أن المعتقدات الدينية يمكن أن تساهم في الشفاء. وحينما سئلوا عن تجاربهم الشخصية أجاب ٦٦ بالمائة من الأطباء أن الله تدخل وحسن أحوال مرضاهم، بل وبدا الحماس على المرضى بشدة وهم يبينون أن الصلاة أداة فعالة في الشفاء.

◆ كما أظهرت استطلاعات الرأي المنشورة في التايم وسي إين إين أن ثمانين بالمائة من الأمريكيين يرون أن الإيمان والصلاة يمكن أن يساعدا الأفراد على الشفاء من المرض أو الإصابة، وأكثر من ٦٠ بالمائة يعتقدون أن على الأطباء أن يتحدثوا إلى المرضى حول الإيمان بل ويصلون مع من يطلبون ذلك.

◆ طبقا للباحثين في جامعة كولومبيا فالأطفال أبناء الأمهات الملتزمات دينيا أقل عرضة للاكتئاب في المراحل المتأخرة من حياتهم. وفي الدراسة تمت متابعة ٦٠ أما و ١٥١ طفلا لمدة ١٠ سنوات لتحديد ما إذا كان هناك علاقة بين التزام الأم دينيا وتعرض طفلها للإصابة بالاكتئاب. وأظهرت الدراسة أن الإناث –وليس الذكور– اللائي ولدن لأمهات ملتزمات دينيا كنّ أقل عرضة للاكتئاب بنسبة ٦٠ بالمائة خلال متابعة دامت طيلة ١٠ سنوات. وكان ثاني العناصر أهمية في وجود الإصابة بالاكتئاب هو مدى اعتناق الطفل لدين الأم؛ فحين اتحد مذهب الأم وابنتها تبين أن الاكتئاب يقل بنسبة ٧١ بالمائة بينما تصل النسبة في الذكور إلى ٨٤ بالمائة.

◆ أحد أبرز النتائج أيضا هو أن الأمهات الملتزمات هم أنفسهم أقل عرضة للاكتئاب. فقد أظهرت متابعة ١٠ سنوات أن الأمهات اللاتي يجعلن جل اهتمامهن هو الدين يقل تعرضهن للاكتئاب بنسبة ٨١ بالمائة. وتوافقت هذه النتيجة مع الدراسات الأخري التي بينت العلاقة العكسية بين الإيمان والاكتئاب، وتوجد تفسيرات متعددة لهذه النتائج. كما بين أولئك الباحثون أن الأمهات الملتزمات دينيا أقل عرضة للطلاق ويقل فيهن فقر الأداء الاجتماعي والذي يؤدي وجود أي منهما إلي إصابة الأطفال بالاكتئاب. كما أثبت تعليل آخر أقرته دراسة في كلية الطب بفرجينيا أن الدين يحمي الناس من الاكتئاب بتخفيف رزايا الحياة عنهم.

◆ أظهرت دراسة أجريت بكلية طب دارتموث أن عدد الموتى من بين مرضى القلب الذين يجرون جراحة يزيد ١٤ ضعفا إن لم يشتركوا في أنشطة جماعية ولم يتلمسوا الراحة في الدين. فقد مات ٢١ مريضا خلال ستة أشهر بينما لم تمت أي حالة من بين ٣٧ شخصًا آخرين قالوا جميعا إنهم ملتزمون دينيا.

◆ أظهرت دراسة تمت في جامعة ييل على ٢٨١٢ من كبار السن أن أولئك الذين لم يذهبوا إلى الكنيسة أو ذهبوا نادرا إليها كانت نسبة إصابتهم بالسكتة ضعف نسبة الإصابة بين الذين داوموا على الذهاب.

◆ كما أظهر استطلاع تم توزيعه على ٥٢٨٦ مواطن بولاية كاليفورنيا أن معدلات الوفاة بين أعضاء الكنيسة أقل من معدلاتها بين غير الأعضاء بغض النظر عن عناصر الخطر مثل التدخين والشرب والسمنة وعدم النشاط.

◆ تقل الأعراض وتحسن النتائج الصحية عند المرضى المتدينين بنسبة ٧ من بين كل ٨ مصابين بالسرطان، ٤ من بين كل ٥ مصابين بضغط الدم و ٤ من بين كل ٦ مصابين بأمراض القلب، و ٤ من بين كل ٥ مصابين

واكتشف هؤلاء الباحثون أن الدين يمكن أن يساعد الناس على الشفاء من الاكتئاب، بل إن الحقيقة أنه كلما ارتفعت إيمانيات المريض كلما زادت سرعة شفائه.

بأمراض صحية عامة. وطبقا لأحد التحليلات البحثية فإن المرضى المتدينين أقل ميلا للاكتئاب والانتحار وشرب الخمر وغيرها من أنواع الإدمان.

◆ هل تنفعنا صلاة الآخرين؟ في دراسة أجراها طبيب باطني يدعى راندولف بيرد عام ١٩٨٨ تم تقسيم ٣٩٣ من مرضى القلب بمركز المستشفى الطبي العام بسان فرانسيسكو إلى فريقين، صُلي من أجل الفريق الأول بينما لم يُصَلِّ أحد من أجل الفريق الثاني ولم يَعرف المرضى لأي جماعة ينتمون. وظهر أن المجموعة التي صُلي لها عانت من مضاعفات أقل، والتهاب رئوي أقل، وأزمات قلبية أقل، وكانت حاجتهم للمضادات الحيوية أقل.

◆ قام باحثون بإجراء دراسة على عينة من السكان عددهم ٢٧٣٠ في مشروع دراسي بحثي طويل الأمد يعرف باسم دراسة ضاحية ألاميدا. وتبين لهؤلاء الباحثين أن الأفراد الذين يحضرون المراسم الدينية ويشاركون في الأنشطة الأخرى التي تتم من خلال مكان عبادتهم ينالون حماية من ضغوط الأعباء المالية والمسائل الصحية والمشاكل الأخرى.

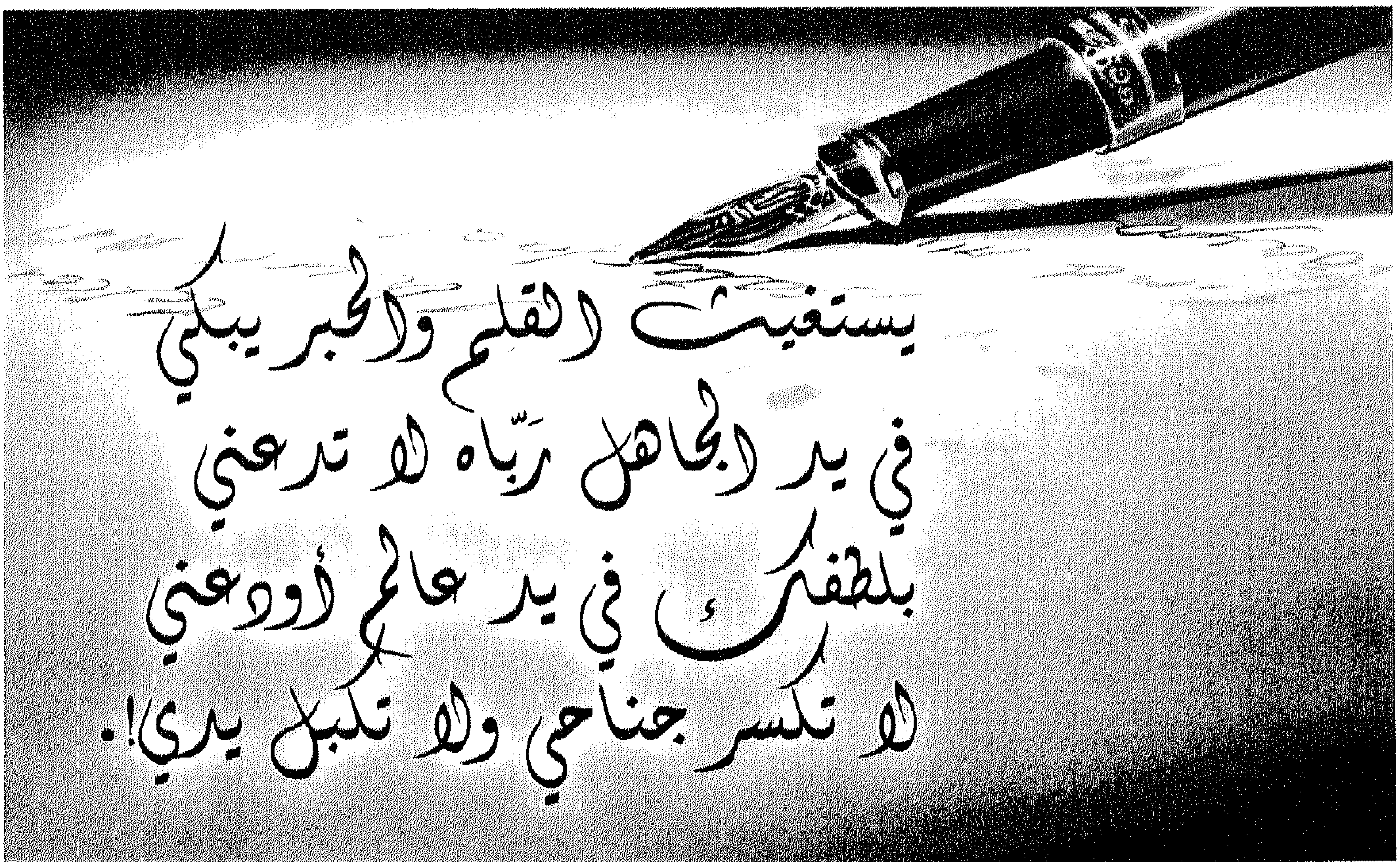
◆ وفي دراسة أجريت على ٦٠٠ شخص من بين مرضى المستشفيات المختلفة تتراوح أعمارهم بين الخامسة والخمسين وما فوقها قاس الباحثون ٤٧ طريقة للتوافق. وتبين لهم أن المرضى الذين التجأوا إلى الله وطلبوا العون الروحي من القس وأعضاء الكنيسة كانوا أقل عرضة للاكتئاب وعاشوا حياة أفضل حتى بعد أن أخذوا في الاعتبار شدة مرضهم؛ كما اتضح للباحثين أن المرضى الذين أعطوا دعما روحيا لغيرهم عن طريق الصلاة لهم أو تشجيع إيمانهم تحسنت أحوالهم.

◆ وأظهرت دراسة حديثة أخرى تمت في جامعة ديوك نتائج مذهلة؛ ففي أول دراسة لاختبار دور الدين في علاج الاكتئاب تابع الباحثون ٨٧ مريضا تزيد أعمارهم عن الستين، وشخصت حالتهم على أنها اضطراب اكتئابي بعد إدخالهم إلى المستشفى على إثر أمراض جسدية. واكتشف هؤلاء الباحثون أن الدين يمكن أن يساعد الناس على الشفاء من الاكتئاب بل إن الحقيقة أنه كلما ارتفعت إيمانيات المريض كلما زادت سرعة شفائه.

خاتمة

هل يمكن للإيمان حقا أن يشفي؟ بعض الباحثين يرون أن الإجابة بالطبع نعم؛ غير أن دراسة العلاقة بين الإيمان والشفاء الجسدي ما زالت ناشئة، لكن هناك علامات هامة أن للإيمان أثرا إيجابيا على الصحة تكمل أثر الدواء والجراحة. ويوما بعد يوم تتزايد نسبة المهتمين –في معاهد لها مكانتها– الذين يدرسون العلاقة بين الإيمان والشفاء بالطرق العلمية. تلك العلاقة التي اعتبرت دراستها أمرا مستهجنا في يوم من الأيام أصبحت تؤخذ اليوم مأخذ الجد في الدوائر العلمية. وبغض النظر عن النتائج فمجرد وجود هذه الجهود يبشر بتوسع احتمالات التعاون بين الإيمان والعلم ويؤدي إلى فهم أفضل للطبيعة البشرية.

* كاتب وباحث أمريكي.



مفهوم "الجمالية" بين الفكر الإسلامي والفلسفة الغربية

أ.د. فريد الأنصاري *

«الجمالية» أو «علم الجمال» مصطلح يستعمل في الفكر المعاصر؛ للدلالة على تخصص من تخصصات العلوم الإنسانية التي تُعْنَى بدراسة «الجمال» من حيث هو «مفهوم» في الوجود، ومن حيث هو «تجربة» فنية في الحياة الإنسانية.

«فالجمالية» إذن؛ علم يبحث في معنى «الجمال» من حيث مفهومه وماهيته ومقاييسه ومقاصده. «والجمالية» في الشيء تَعْني أن «الجمال» فيه حقيقة جوهرية وغاية مقصدية، فما وُجِدَ إلا ليكون جميلا![1] وعلى هذا المعنى انبنت سائر «الفنون الجميلة» بشتى أشكالها التعبيرية والتشكيلية.

ومصطلح «الجمالية» أو «علم الجمال» ترجمة لكلمة «استطيقا»، وهي كلمة ولدت في رحم الفلسفة الغربية من الناحية الاصطلاحية خلال القرن الثامن عشر الميلادي. فقد كان الفيلسوف «باومجارتن» سنة ١٧٥٠م أول من سك هذا اللفظ، ثم انتقل استعماله إلى سائر الثقافات والعلوم الإنسانية كالأدب والفن.

إلا أن «الجمالية» من حيث هي مفهوم قديمة قدم الإنسان نفسه، وصاحبت الحضارات البشرية كلها بدون استثناء، واتخذت لها طابعا خاصا مع كل حضارة، كما كانت لها تجليات خاصة ومتميزة مع كل تجربة إنسانية مختلفة.[2] ولم تكن الحضارة الإسلامية بدعا من الحضارات الإنسانية جملة. ذلك أن «الجمال» في الإسلام أصل أصيل، سواء من حيث هو قيمة دينية: عَقَدِيَّةٌ وتشريعية، أو من حيث هو مفهوم كوني، وكذا من حيث هو تجربة وجدانية إنسانية. ومن هنا كان تفاعل الإنسان المسلم مع قيم الجمال ممتدا من مجال العبادة إلى مجال العادة، ومن كتاب الله المسطور إلى كتاب الله المنظور! مما خلد روائع من الأدب والفن التي أنتجها الوجدان الإسلامي في قراءته الراقية للكَوْنَيْن وسياحته الرائعة في العالَمَيْنِ: عالم الغيب وعالم الشهادة!

ولقد قاد الجهلُ بالتراث الإسلامي أو العمى الصليبي بعضَ فلاسفة الغرب إلى حصر التجربة الجمالية الإسلامية في مجال «الإدراك العقلي» دون «الإدراك الوجداني العاطفي»؛ واتهم التجربة الإسلامية بالفقر الفني والجمالي! فأقل ما يقال عن مثل هذا الاتهام أن صاحبه جاهل بحقيقة الإسلام وقيمه الجمالية من جهة، وبتجربة الأمة الإسلامية من جهة أخرى. أعني على المستوى الجمالي، في كل



تجلياتها العربية وغير العربية: فارسيةً وهنديةً وتركيةً ثم مَالَوِيَّةً!

ولقد انبرى الفيلسوف الفرنسي المعاصر «إتيان سوريو» فيلسوف «الجمالية» وأستاذ علم الجمال في جامعة السربون بباريس[٣] للدفاع عن هذه الحقيقة، ردا على بعضهم، لكنه مع ذلك لم يكن موفّقا كل التوفيق بسبب نقص المعطيات عنده عن قيم الجمال في الإسلام وعن تجربة المسلمين في ذلك المجال. يقول محيلا على اتهامات «بلزاك» في كتابه «الابن الملعون»: «لطالما قيل - وعلى غير وجهٍ من حق - إن الفن العربي قد كان فنا إدراكيا، لا يتوجه إلا إلى الفكر النظري المحض وليست له أية قدرة على الإثارة العاطفية!».[٤] ثم يستطرد بعد ذلك مدافعا عن الجمالية الإسلامية، بشواهد من جمالية العمران وفن العمارة بالبلاد العربية والإسلامية، لكن - مع الأسف - بتحليلات هي أقرب إلى الخرافة منها إلى المقاييس العلمية للجمال!

يقول: «إن هذا الرأي هو خاطئ تماما! والحقيقة هي ما ذهب إليه من قبل «غايي: Gayet» عندما تحدث في كتابه: «الفن العربي» عن المشاعر التي تثيرها - من وجهة نظر الجمالية العربية - المعطيات

الجمال في التجربة الإنسانية الإسلامية! فأنكرها بعضهم، وبقي البعض الآخر أسير الجدران والأسوار يحاول فك رموز النقوش وأشكال الزخارف، كما يحاول العالم الأركيولوجي فك رموز بدائية، في قطعة حجرية من عصور ما قبل التاريخ.

إن الجمالية الإسلامية تنبع أولا من حقائق الإيمان، إذْ تَشَكَّلَ الوجدانُ الإنساني فيها مما تلقاه من أنوار عن رب العالمين، الرحمن الرحيم، وما انخرط فيه بعد ذلك؛ سيرا إلى الله تعالى عبر أشواق الروح، مبدعا - باتباع تعاليم نبيه ﷺ - أروع ألوان التعبير الجمالي، من سائر أشكال العبادات والمعاملات والعلاقات، انطلاقا من حركته التعبدية في جمالية الصلوات ولوحاتها الحية الراقية وما يَنْظِمُهَا من عمران روحي ومادي، إلى هندسة المدائن الإسلامية بما تحمله من قيم روحية سامية، وقيم حضارية متميزة جدا، إلى سائر النشاط الإنساني الذي أبدعه المسلمون في علاقتهم بربهم وعلاقتهم بأنفسهم وبغيرهم، إلى علاقتهم بالأشياء المحيطة بهم، بدءً بالمسخَّرات من الممتلكات والحيوان، إلى المحيط الكوني الفسيح، الممتد من عالم الشهادة حولهم

إن الروحية الإسلامية تحترس على الأخص من مخاطر الفن التجسيمي، وتجد لها ضمانات كبرى في استعمال الفن التجريدي. من هنا، ومن هذه الوجهة خصوصا، يجب تفسير الوضع الجمالي للفن الإسلامي من الناحية التجريدية.

الهندسية لذلك الفن بتفاصيلها وأشكالها. ولذا فهو يقول بأن الدوائر الهندسية إذا كانت زواياها المتعددة مزدوجة، فإنها «توقظ في النفس مشاعر عميقة مطبوعة بطابع الصفاء العذب»، أما إذا كان عدد زواياها مفردا فإنها تبعث على «الحزن المبهم والقلق والاضطراب».

ويقول أيضا: «إن الصورة المتكونة من الجمع بين المربعات والمثمنات تبعث على فكرة السكون الأبدي، أما تلك التي تنبثق من الأشكال ذات الزوايا التسع فإنها توقظ الإحساس بسر مبهم مضطرب!»[٥] كذا..!! والعجيب حقا هو كيف فهم «غايي» أن هذا التفسير الغريب للأشكال الهندسية هو «من وجهة نظر الجمالية العربية»، ثم كيف قبل منه الأستاذ «سوريو» هذا الهذيان ونقله على سبيل التبني في كتابه! لقد كان الأولى بغايي هذا أن يعرض أحواله المترددة ما بين «الصفاء العذب، والحزن المبهم، والقلق، والاضطراب» على طبيب نفسي خير له وللعلم من أن يفسر به أشكالا هندسية في صومعة، أو قبة مسجد، أو زوايا قلعة! لقد ضل كثير من مؤرخي الجمالية الغربيين الطريقَ إلى معالم الجمال الحق في الإسلام، وأخطؤوا مواطنَ علم

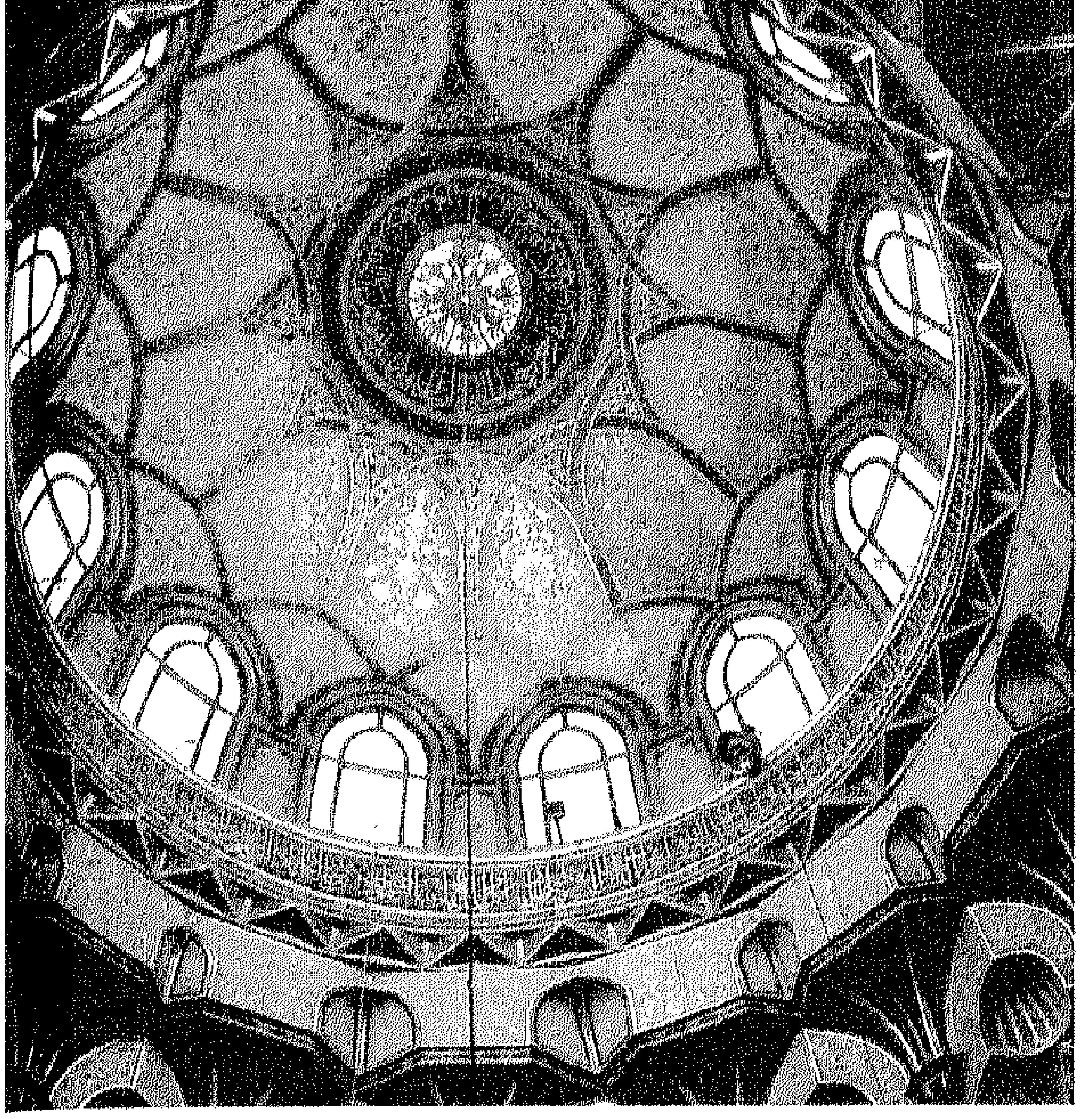
إلى عالم الغيب فوقهم... كل ذلك تفاعل معه المسلم؛ فأنتج أروع الأدبيات التعبيرية والرمزية، مما لا تزال تباريحه المشوقة بالمحبة، من الترتيل إلى التشكيل تفيض على العالَم بالجمال والجلال أبداً.

إن العمارة الإسلامية - رغم ثرائها الجمالي الرفيع - هي آخر ما ينبغي الاشتغال به لمن أراد أن يدرس الجمالية الإسلامية في مصادرها الأولى. لأن حصون المدائن وجدرانها إنما هي التجليات المادية المعبرة عن أشواق الروح، الفياضة عبر القباب والمآذن مندفعة بقوة نحو السماء. وإنما هي صورة التعبير الرمزي عن معاني الاحتضان العاطفي وقيم الأخلاق الاجتماعية والحنان الرَّيان بما امتازت به من حياء وتستر وانحناءات، تتلوى أضلاعها الخفاقة بالمحبة بين الدروب، تسلك بالرجال والنساء مسالك الحشمة الرقيقة والوقار العالي، إلى المساجد وإلى الغرفات والشرفات الكاشفة الساترة... ثم تنشر أسرارها نقوشا وزخرفة تتبادل الأدوار مع أحرف الخط العربي بشتى أشكاله، في كلمات ناطقة حينا، وناظرة أحيانا أخرى... كلها تتدلى مثل العناقيد من بين الأقواس، تستقبل مواجيد المحبين وترد سلام

المتبتلين، لتتوحد معهم في صلاة أبدية خالدة.

ولقد دبَّجَ المسلمون في مصنفات المحبة والسلام تباريحَ الأشواق أنى مرساها، ووصفوا مقامات النور كيف مجراها، ورسموا كلمات الجمال بما لا قِبَلَ به لأحد من العالمين.[٦]

وكأنما الفرق في «الجمالية» بين مفهوميْها الغربي والإسلامي كالفرق بين الطبيعة والتمثال أو بين الحقيقة والخيال. ولم تكن الصورة التي يبدعها المسلم ثابتة قارة يأكلها البلَى في متحف «اللوفر» أو غيره من متاحف العالم، ولكنها صورة حية يشكلها بإبداعه اليومي بين ركوع وسجود، وطواف وسعي، أو بين صوم وتبتل، وانقطاع يصله كليا بالملأ الأعلى... ثم مواجيد يتنفسها بعد ذلك كلماتٍ وكتاباتٍ ذات صور الجمالُ فيها له روح، صور لا تبلى أبد الزمان: ﴿مُحَمَّدٌ رَسُولُ اللَّهِ وَالَّذِينَ مَعَهُ أَشِدَّاءُ عَلَى الْكُفَّارِ رُحَمَاءُ بَيْنَهُمْ تَرَاهُمْ رُكَّعًا سُجَّدًا يَبْتَغُونَ فَضْلاً مِنَ اللَّهِ وَرِضْوَانًا سِيمَاهُمْ فِي وُجُوهِهِمْ مِنْ أَثَرِ السُّجُودِ ذَلِكَ مَثَلُهُمْ فِي التَّوْرَاةِ وَمَثَلُهُمْ فِي الإِنْجِيلِ كَزَرْعٍ أَخْرَجَ شَطْأَهُ فَآزَرَهُ فَاسْتَغْلَظَ فَاسْتَوَى عَلَى سُوقِهِ يُعْجِبُ الزُّرَّاعَ لِيَغِيظَ بِهِمُ الْكُفَّارَ وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ مِنْهُمْ مَغْفِرَةً وَأَجْرًا عَظِيمًا﴾ (الفتح:٢٩).



تلك صورهم الحية، فأين منها بسمة «الجوكاندا» المصطنعة الشاحبة، أو وجوه «بيكاسو» المتداخلة المتنافرة! هذه صور الجمال في الأدبيات الإسلامية ما تزال تتجدد عبر التاريخ أبدا، ولا يزال القارئ لها في كل مكان يشارك بمخيلته في إبداع الأشكال كما هو يريد، بحرية تتحدى آخر الصيحات في عالم الرسم والتشكيل. وليس عندهم صور ميتة يفرضها فنان على الناس فتستعبد مُخَيِّلَةَ الأجيال وتقتل إبداعهم. ومن هنا توجه الفن الإسلامي حضاريا – في الأعم الغالب – إلى الإبداع ضمن جمالية «التجريد». والتجريد في الحقيقة إنما هو لغة الروح، وريشة الوجدان. يقول «إتيان سوريو»: «والحقيقة التي لا بد من التنويه بها كذلك، هي أن الروحية الإسلامية تحترس على الأخص من مخاطر الفن التجسيمي، وتجد لها ضمانات كبرى في استعمال الفن التجريدي. من هنا، ومن هذه الوجهة خصوصا، يجب تفسير الوضع الجمالي للفن الإسلامي من الناحية التجريدية. أضف إلى ذلك أن الفن التجريدي هو بالضبط الفن الذي يستجيب في العالم العربي لما تقتضيه الحاجة الجمالية اقتضاء شديدا ودقيقا».[٧]

إن لغة التجريد في الفن الإسلامي هي التي تصنع حركة الحياة الفعلية في المجتمع، حيث تتفتق جماليتُها المتجددة سلوكا حضاريا راقيا، وعلاقات اجتماعية مفعمة بالود والمحبة والسلام،

إن الجمالية الإسلامية تنبع أولا من حقائق الإيمان، إذْ تَشَكَّلَ الوجدانُ الإنساني فيها مما تلقاه من أنوار عن رب العالمين، الرحمن الرحيم، وما انخرط فيه بعد ذلك؛ سيرا إلى الله تعالى عبر أشواق الروح، مبدعا – باتباع تعاليم نبيه ﷺ – أروع ألوان التعبير الجمالي، من سائر أشكال العبادات والمعاملات والعلاقات.

تتضافر جميعها في نسيج عمراني يرقى إلى درجة المثال، وذلك بما يفيض من وجدان الإنسان المسلم من تباريح الإيمان وأشواق الروح.

وما قتل الفن الغربي شيء مثل الولع بسجن الإبداع في الصور الجامدة الثابتة، ولو في حركتها الوهمية الاصطناعية. وعليه فإن الوضع الفني في أوروبا قد وصل فعلا إلى الباب المسدود. يقول فيلسوف الجمالية المعاصر: «إذا أخذنا الفن أداة للحكم على الحاجات الجمالية لوقتنا الحاضر، نجدها قد أصيبت بتغييرات جذرية منذ نهاية القرن التاسع عشر حتى اليوم. فالزائر الذي يتجول في أرجاء متحف للفن الحديث، لو انتقل من قاعة تضم لوحات انطباعية إلى قاعة أخرى تضم لوحات حديثة من الفن التجريدي أو التجسيمي، لاجتاحه – ولا ريب – شعور بالانتقال من عالم إلى عالم آخر، وإحساس بالغربة عميق. ولنقابل المسألة هنا بكل حدتها، فلا نتردد بالقول بأن هذا الزائر نفسه (...) قد تسول له نفسه أن يتحدث عن خط انحداري ومسيرة تقهقرية في الفن»،[8] إلى أن يقول – بعد وصف مآل بعض أنواع الفن الأخرى – بحدة نقدية شديدة: «ولا شك في أن من يراقب هذا التبديل المفاجئ سيجد نفسه مدفوعا إلى القول بأن ما يسمعه ويشاهده ليس إلا رجعة إلى حالة من البدائية والتوحش».[9]

إلا أنه لا بد من البيان أن معاني الجمال في الإسلام، من صفاء الروح، ومنازل الإيمان، وأحوال الإحسان، لم يستفد منها جمهور كبير من أبناء الصحوة الإسلامية المعاصرة لأسباب شتى، منها اشتهار نسبة بعض مفاهيمها وألفاظها إلى المتصوفة؛ فكان أن زهد كثير من الناس فيها بسبب ما خالط بعض كتبهم من شطحات.[10] وإنما هي عبارات قرآنية أو نبوية محضة. نعم، ربما اكتسبت في سياق الاستعمال التاريخي دلالات منحرفة في بعض الأحيان، فيكون الواجب هو تحريرها منها، لا إلغاءها والتنكر لها.

إنه ما ينبغي لذلك أن يعمينا عن جمال الدين، وإنما خاطبنا الله تعالى بالجمال، وأمرنا أن نرحل إلى منازله العليا، ونسير إليها سيرا لا يفتر ولا ينقطع حتى يدركنا اليقين. لا ينبغي للمؤمن الكيِّس الفَطِن أن تعميه غلطات بعض الناس – مهما قبحت – عن محاسن الدين، فيقنع في دينه بظواهر الألقاب ويرمي بعيدا باللباب. إذن يكون من الجاهلين، كيف والجمال هو الدين؟!

إن الصحوة الإسلامية المعاصرة لفي أشد الحاجة إلى تربية ذوقية فنية، ترهف حسها بمواطن الجمال، الموجِّهة لكل شيء في هذا الدين، عقيدةً وشريعة. ولقد انتبه السابقون إلى ذلك وانبهروا به فسارعوا إلى الالتحاق بقوافل المحبين. وكان منهم مُصَنِّفون ذَوَّاقون، نبهوا إلى هذه المعاني، من أمثال الحسن البصري والإمام المحاسبي والإمام الجنيد وابن الجوزي والإمام عبد القادر الجيلاني والإمام ابن القيم والإمام أبي عبد الله الساحلي المالقي والإمام الشاطبي والإمام أحمد زروق المغربي وغيرهم كثير، رحمهم الله أجمعين.

ألا ما أحوجنا اليوم إلى إعادة القراءة للدين، في مصادره العذبة الصافية الجميلة، قراءة تصل المسلم بالله، قبل أن تكون قراءة ينتقم بها لنفسه، من الظلم الاجتماعي، والطغيان السياسي، فيكون بتدينه عدوا للدين من حيث يدري أو لا يدري.

﴿رَبَّنَا لا تُزِغْ قُلُوبَنَا بَعْدَ إِذْ هَدَيْتَنَا وَهَبْ لَنَا مِنْ لَدُنْكَ رَحْمَةً إِنَّكَ أَنْتَ الْوَهَّابُ﴾(آل عمران: ٨) ﴿رَبَّنَا اغْفِرْ لَنَا وَلإِخْوَانِنَا الَّذِينَ سَبَقُونَا بِالإِيمَانِ وَلا تَجْعَلْ فِي قُلُوبِنَا غِلاً لِّلَّذِينَ آمَنُوا رَبَّنَا إِنَّكَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ﴾(الحشر: ١٠).

ذلك، وإنما الموفق من وفقه الله، وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم.

* جامعة السلطان المولى إسماعيل– المغرب

الهوامش

(١) يقول ولترت ستيس: «لقد نظر الاستطيقيون إلى الجمال على أنه الهدف الوحيد للفن. وهم على حق في ذلك. ولا يصح ذلك إلا إذا استخدمت كلمة "الجمال" بمعنى واسع إلى أقصى حد.» (معنى الجمال: نظرية في الاستطيقا، ص:٩٤. ترجمة إمام عبد الفتاح إمام. نشر المجلس الأعلى للثقافة، مصر: ٢٠٠٠. طبع بالهيئة العامة لشؤون المطابع الأميرية.)

ثم استعمل مصطلح «الجمالية» في الأدب الحديث للدلالة على أن "الجمال" هو القيمة الأولى للنص، وأنه لا عبرة بما لم يُبْنَ على ذلك؛ إذ الوظيفة الأولى للنص هي أن يكون جميلا. (جمالية الأدب الإسلامي للأستاذ محمد إقبال عروي: ص ٩٤–٩٥، نشر المكتبة السلفية، الدار البيضاء، المغرب، ط: الأولى: ١٩٨٦م.)

(٢) تلك هي القضية التي انبنى عليها موضوع كتاب البروفسور إتيان سوريو «الجمالية عبر العصور»، ترجمة د. ميشيل عاصي، منشورات عويدات، بيروت/باريس، ط. الثانية: ١٩٨٢.

(٣) كان ذلك خلال سنوات الستينات من القرن الميلادي الماضي.

(٤) الجمالية عبر العصور، ص ١٧٩.

(٥) الجمالية عبر العصور، ص ١٨٠.

(٦) مثل كتاب كشف المحجوب للإمام الهجويري، ومنطق الطير لفريد الدين العطار، وهذا من الناحية الجمالية قطعة فنية رائعة. ومثله مدارج السالكين لابن القيم، وكتابه حادي الأرواح، ونحو ذلك كثير. ومن أهم الموسوعات الجمالية في الفكر الإسلامي الحديث مجموعة: كليات رسائل النور لبديع الزمان سعيد النورسي رحمه الله، ويتلوه في ذلك وارث سره الأستاذ فتح الله كولن في أغلب كتبه وعلى رأسها: «التلال الزمردية» وديوانه الشعري: «المضرب الكسور».

(٧) الجمالية عبر العصور، ص ١٧٩.

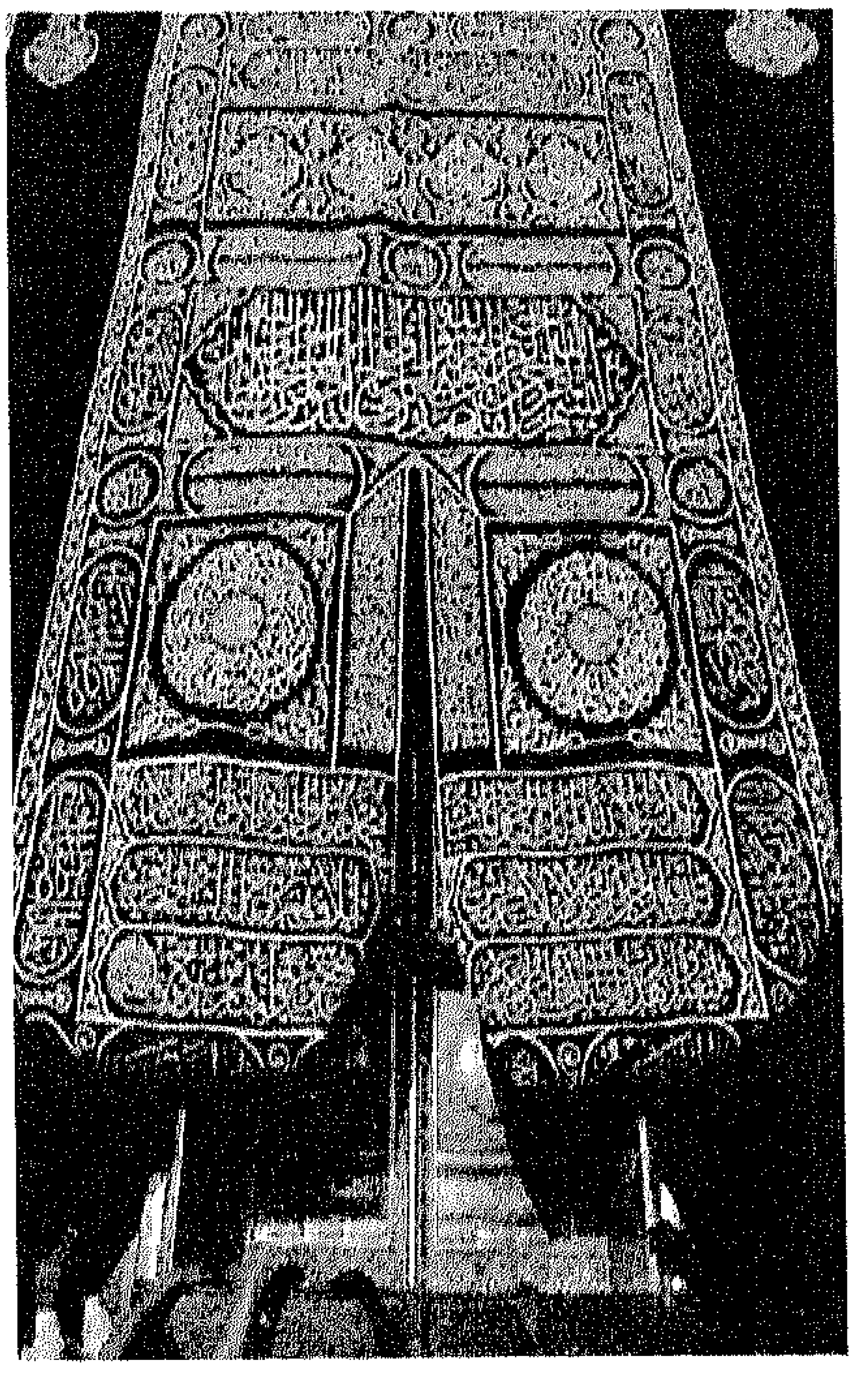
(٨) الجمالية عبر العصور، ص ٢٧٣–٢٧٤.

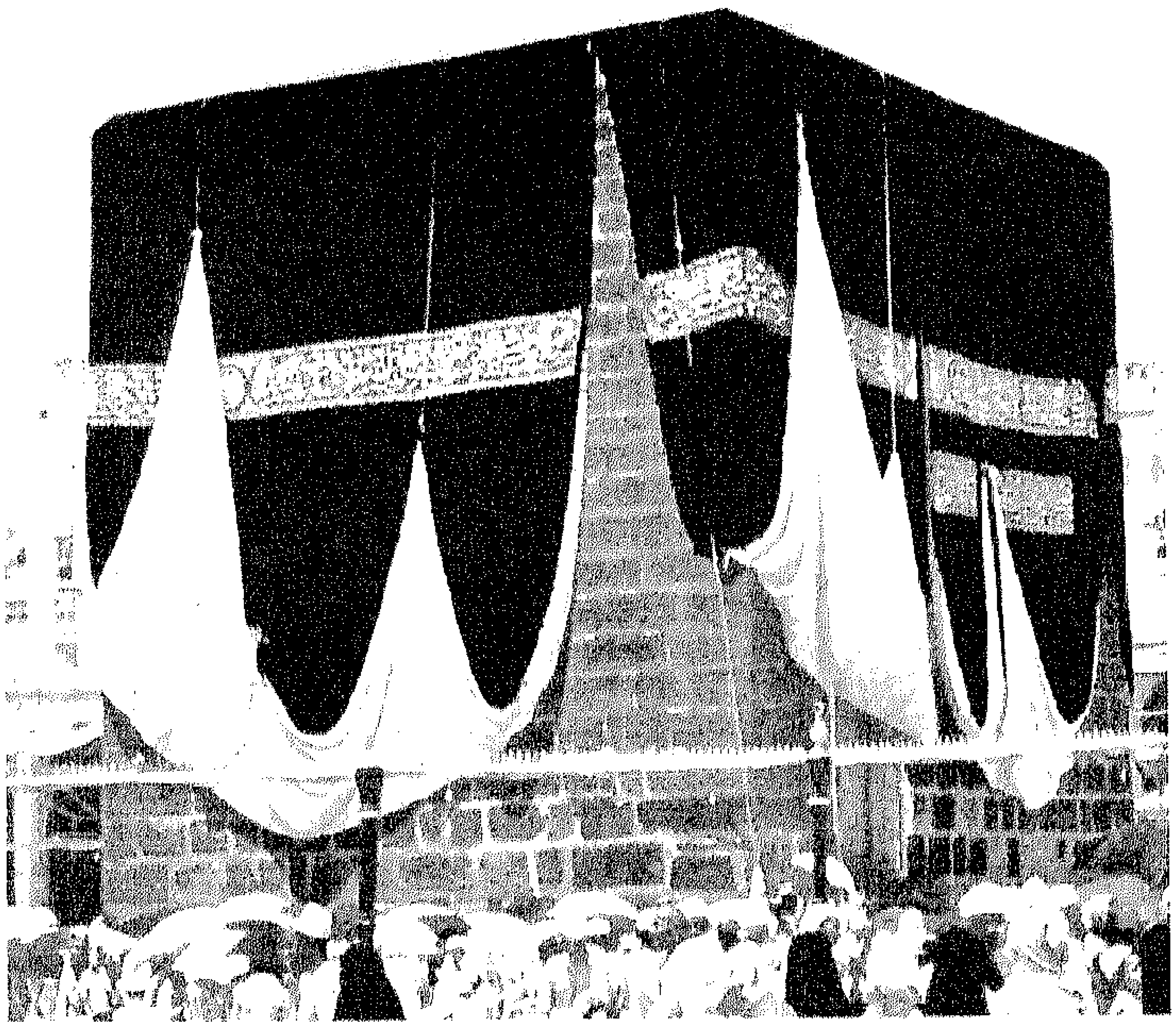
(٩) الجمالية عبر العصور، ص ٢٧٥–٢٧٦.

(١٠) لقد غالى بعضهم في الهجوم على التصوف، ولم يفرقوا في أقوال القوم بين حق وباطل.

هنا تتوقف الأفكار وتصمت، وتدخل الأرواح تحت ظلال الأحاسيس، ويلف القلوب الشوق إلى الوصال.
هنا تتفتح خيالات كالورود في أعماق الإنسان لا تقبل دخول حريمها... خيالات يكاد يذوق منها صاحبها أذواق حدائق الجنة، وأذواق أصحاب الجنة واطمئنانهم ونشوتهم.

المَحمل الشريف...
أشواق إلى ديار الحبيب ﷺ





نوزاد صواش*

ما إن يهل شهر رجب حتى تشمل الحركة جميع أنحاء إستانبول، لأن موعد إرسال المحمل النبوي الشريف إلى مكة المكرمة قد اقترب، ولأنه يحمل كسوة الكعبة الجديدة، ولأنه يحمل الصرة السلطانية التي تحتوي على هدايا إلى مدينة الرسول ﷺ رمزا للولاء والحب

والإخلاص. فترى المساجد وقد تزينت بأضواء براقة، وأقيمت حولها السرادقات مع موائد الطعام، وإحياء الليالي بتلاوة القرآن والدروس الدينية والأناشيد في مدح المصطفى، كما يتحدث الأئمة في المساجد عن حب الرسول ﷺ فينبعث الشوق والحنين إلى ديار الحبيب في قلوب المستمعين.

هذا، ولو دخلت قصر الخلافة أي «قصر طوب قابي» لشاهدت نفس الشعور ونفس الحيوية والنشاط حيث تُزيَّن كل أرجاء القصر، وتقام الخيام العظيمة، وتُبسط السجاجيد والبُسط، وتعلق الستائر المذهبة، وتنثر الأزهار والورود الزاهية في أنحائه حتى يتحول إلى عروس رائعة الجمال. فالقصر يستقبل اليوم الذي يتحرك فيه موكب المحمل إلى مدينة الرسول عليه الصلاة والسلام. وتستمر الاحتفالات حتى الثاني عشر من شهر رجب حيث تمضي الأيام باستقبال الضيوف من أعيان وعلماء أتوا من بلاد مختلفة، وإكرامهم أحسن إكرام، وإلقاء الدروس الدينية، وتلاوة القرآن الكريم والأناشيد النبوية. فالقصر في مهرجان دائم وعيد سعيد حتى ذلك اليوم.

إستانبول تودع المحمل

يدخل السلطان إلى صالة الديوان، فيقوم له الحاضرون بإجلال عظيم، ويُتلى القرآن الكريم، ويأتي أغوات الحرم بأكياس ممتلئة بسجلات الصرة السلطانية ليتم تسليمها إلى أمين الصرة الذي يختاره السلطان من العلماء أو الجند أو الأشراف، كما يتم الإعلان عما تحتويه الصرة أمام السلطان والحاضرين، ويخرج الجميع إلى ساحة القصر الكبيرة حيث يكون الموكب جاهزا للانطلاق، وهو يتألف من مئات الجمال المحملة بالهدايا، ومئات من الفرسان المدججين بالسلاح، وعلى رأسهم «جمل المحمل»، وهو جمل جميل الشكل مهيب البنية لا يستخدم لأي عمل سوى الحج، ويحمل كسوة الكعبة المعظمة والصرة السلطانية.

وتبدأ الحركة، ويبدأ صوت رخيم بتلاوة القرآن، ويمشي جمل المحمل بخطوات وئيدة فيمر من أمام السلطان، ويتبعه الموكب الكبير. ويثور الحنين إلى الأراضي المقدسة في القلوب، إذ لم يستطع أي منهم أن يزور تلك الأراضي، فيجد السلطان وأتباعه أنفسهم يسيرون خلف الموكب، ويخرج الموكب من حديقة القصر متجها إلى المرفأ.

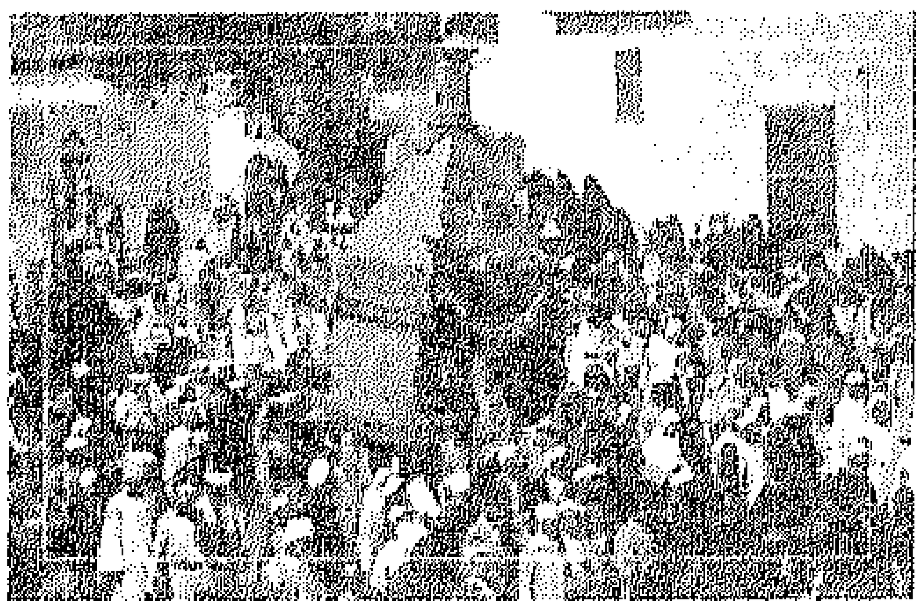
الطريق تغص بالجماهير الذين حضروا ليعيشوا هذه اللحظات العظيمة، ويودعوا ذلك الحمل العزيز الذي يسافر إلى قرية الحبيب. وترتفع الأصوات بالأناشيد والأدعية، وتسيل الدموع على الخدود، ويبلغ الشوق إلى الحرم الشريف أقصاه. وبعد لحظات تتضاءل صورة الموكب وسط مياه البسفور على المراكب الشراعية كلما ابتعد عن الضفة الأوروبية واقترب من منطقة أسكدار في الضفة المقابلة... ويغيب تماما بعد قليل، وتعود الوجوه المودعة إلى منازلها وهي في شوق إلى اليوم الذي سيعود فيه.

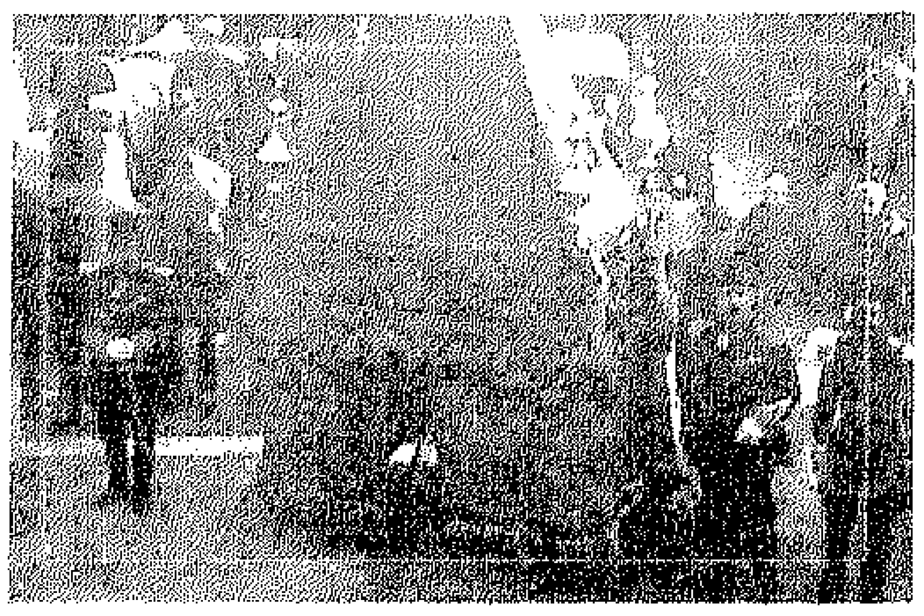
وما أن يصل موكب المحمل إلى أُسكدار حتى يمم وجهه شطر ديار الشام مجتازا أراضي الأناضول مدينة تلو أخرى. أما استقبال أهل الأناضول الأوفياء للمحمل فلا تسأل عن روعته ودفء اللقاء فيه. فالموكب يسير على طريق تناثرت عليها أزاهير الحب للحبيب المصطفى ﷺ. وكلما مر على مدينة انضم إليه المزمعون على الحج من الأهالي مودعين الأحباب بدموع ملؤها الشوق والود.

«الشام الشريف» يستقبله

أخيرا يصل الموكب بحمله العزيز ومرافقيه الأوفياء إلى «الشام الشريف»، وهو الاسم الذي أطلقه العثمانيون على أراضي الشام. وتحط القافلة رحالها في دمشق الحبيبة، ملتقى قوافل الحجاج من كل أنحاء العالم. فإليها يتقاطر الحجاج من دول آسيا وجنوبي أوروبا وأفريقيا وأماكن أخرى من بلاد الإسلام، ومنها تسير الأفواج إلى الأراضي المقدسة.

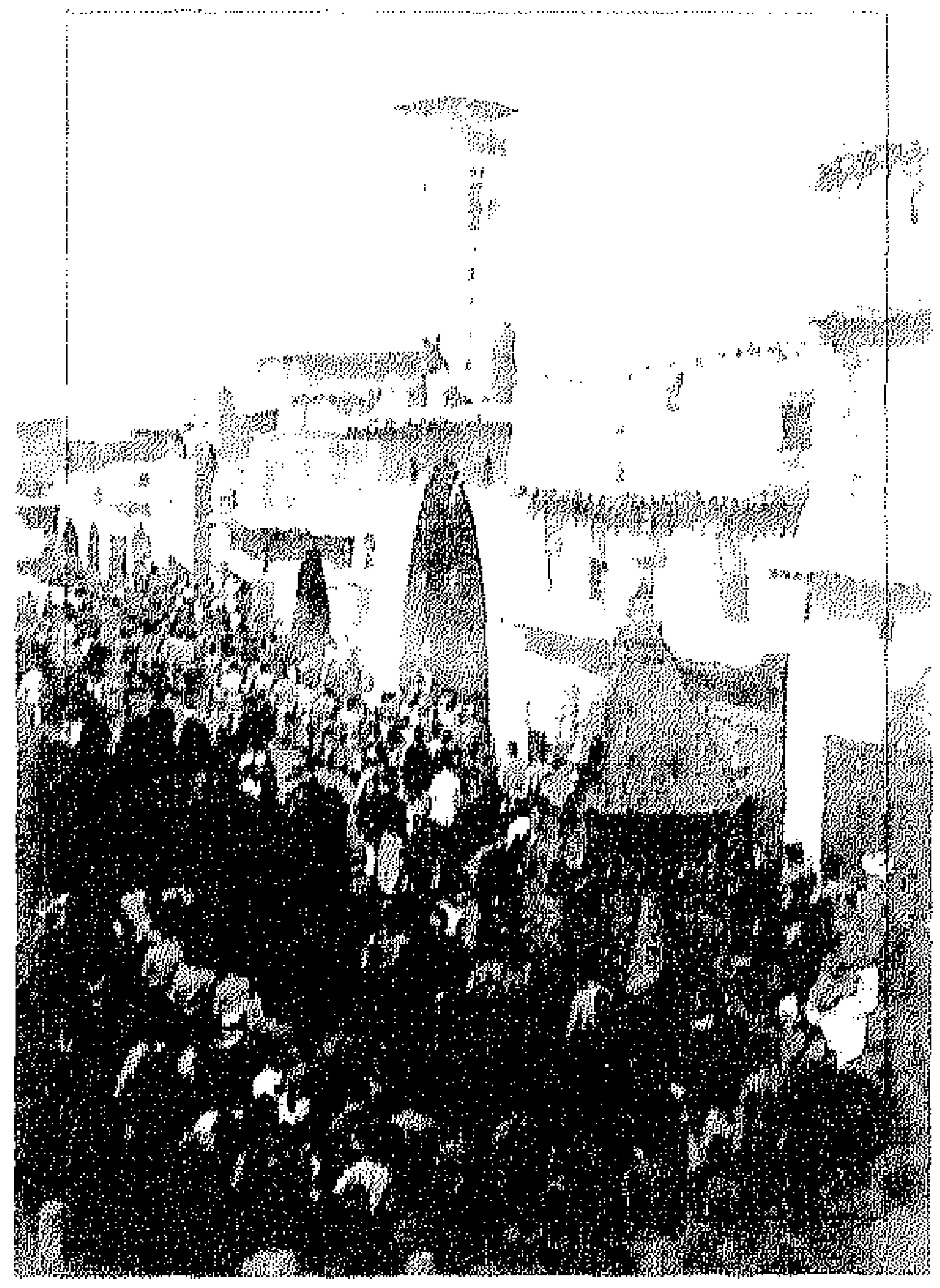
مع فرحة اليوم الأول من عيد الفطر يبدأ الشوق

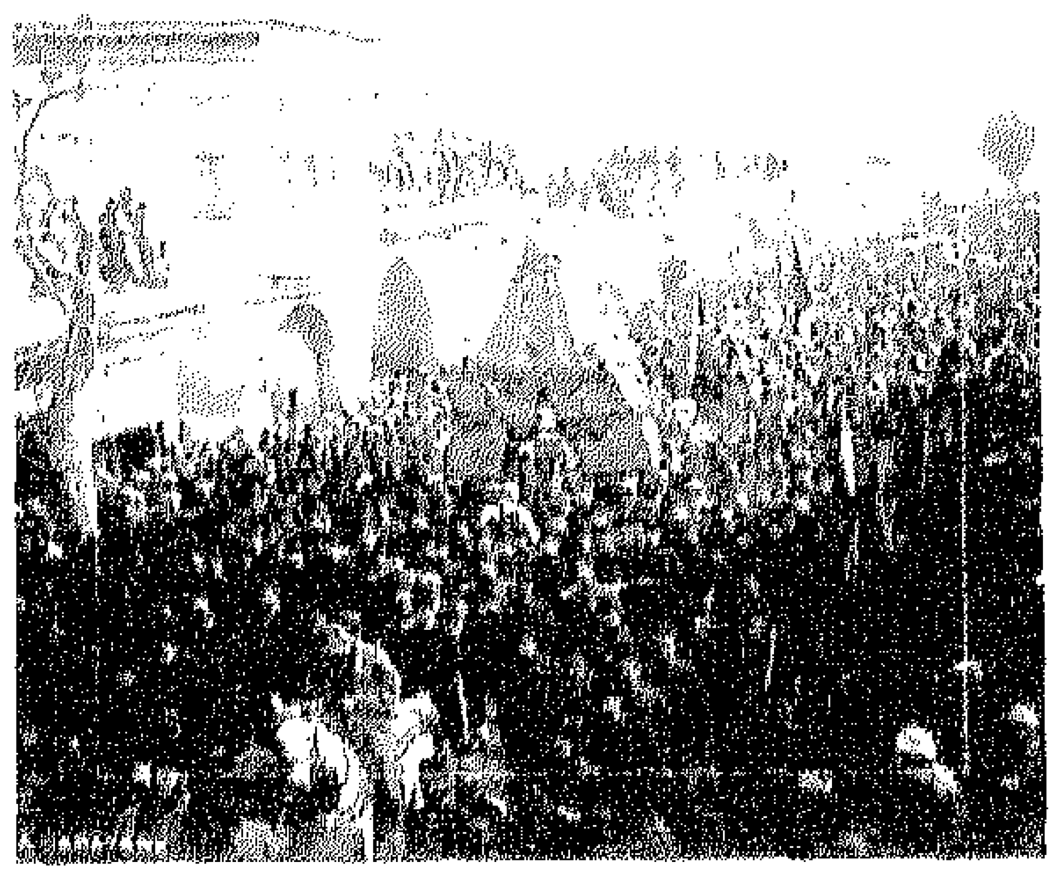


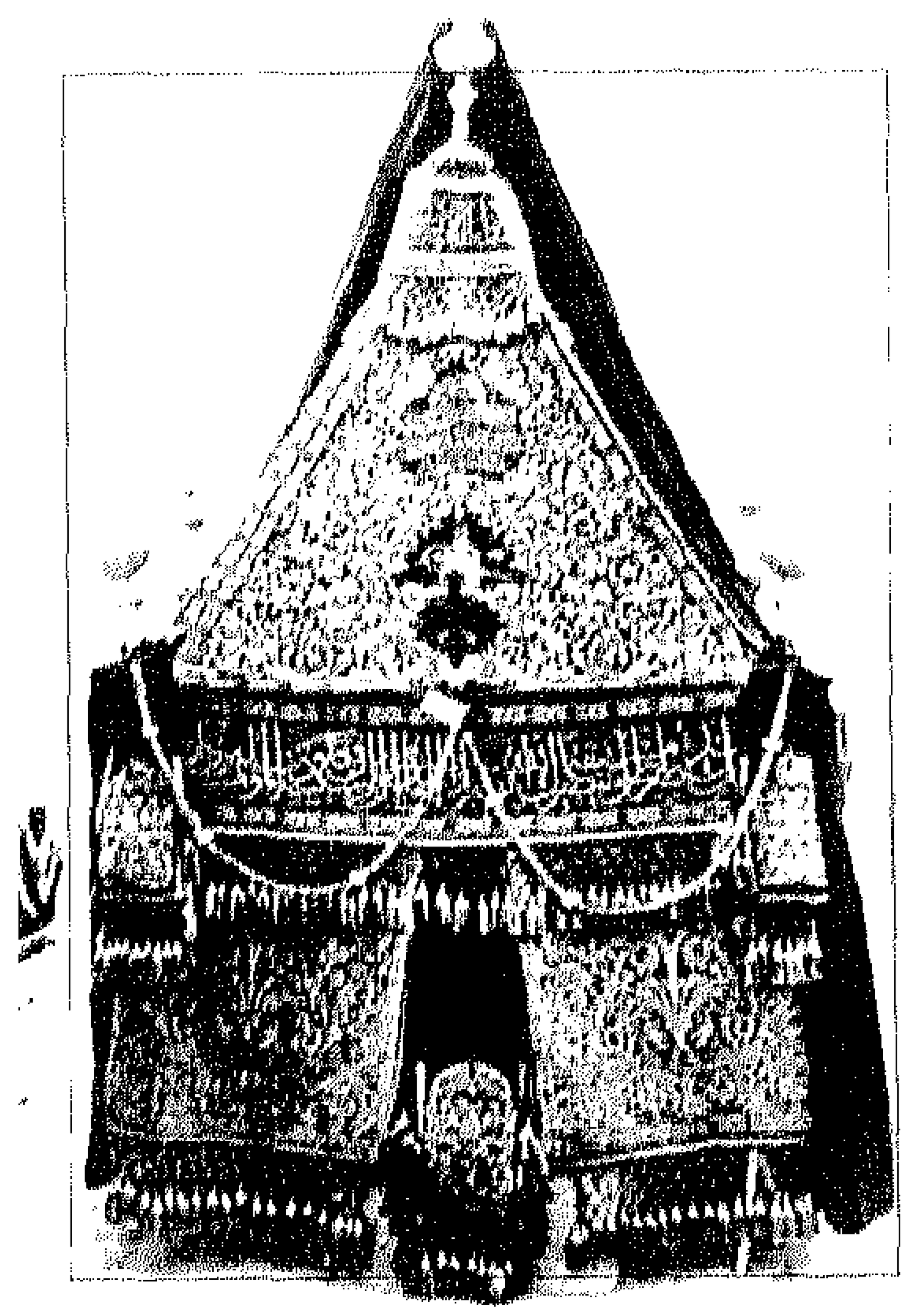




تصل القافلة المباركة إلى مكة المكرمة يوم عيد الأضحى المبارك. وليست احتفالات استقبال المحمل النبوي الشريف في مكة المكرمة بأقل ابتهاجا من احتفالات تشيعه من إستانبول و«الشام الشريف».







إلى لقاء عيد الأضحى في الأراضي المباركة، وتبدأ مراسم المحمل حيث تصطف الفرق العسكرية أمام الجامع الأموي وتؤدي التحية لوالي المدينة وقائدها العسكري، وتخرج الشموع والزيوت المهيأة لإرسالها مع موكب الحج إلى الحرمين الشريفين وسط احتفال كبير.

وفي الأيام التالية يتجه الجميع إلى القلعة حيث اللواء النبوي الشريف القريب من ضريح الصحابي الجليل أبي الدرداء رضي الله عنه، ويخرج اللواء باحترام كبير ويحمل إلى قصر الوالي في انتظار يوم الانطلاق.

ويأتي اليوم الموعود وهو اليوم الرابع من شهر شوال حيث يخرج المحمل الشريف مع اللواء السعيد والهدايا الكريمة الأخرى. ويعطي أمير الحج إشارة الانطلاق، فتبدأ الحركة ويسير المحمل الشريف وسط حشد كبير من المسؤولين والمرافقين والمودعين. يمر الموكب العظيم من باب الميدان ثم باب مصر متجها نحو قرية القدم، بينما يتهافت الناس من كل صوب يملأون الشوارع مهللين مكبرين مودعين، وأصوات المنشدين وقراء القرآن الكريم تضفي على سماء المدينة جوا روحانيا رفيعا وتثير في القلوب عواطف شجية رقيقة.

وفي قرية القدم، وهي المحطة الأخيرة قبل الإقلاع ينتظر الموكب أن تكتمل عدة السفر عشرة أيام، كما يوضع المحمل الشريف وكسوة الكعبة المعظمة والصرة السلطانية في صناديقها الخاصة وسط احتفالات كبيرة. وأخيرا تشد القافلة رحالها باسم الله ناحية الأراضي المقدسة.

الأضحى عيد الوصال

تصل القافلة المباركة إلى مكة المكرمة يوم عيد الأضحى المبارك. وليست احتفالات استقبال المحمل النبوي الشريف في مكة المكرمة بأقل ابتهاجا من احتفالات تشييعه من إستانبول و«الشام الشريف». ولم لا، وهو قادم من مقر الخلافة -وقتها-، ويحمل كسوة الكعبة وهدايا السلطان وأشواق القلوب التي لم تتمكن من زيارة بيت الله الحرام هذا العام.

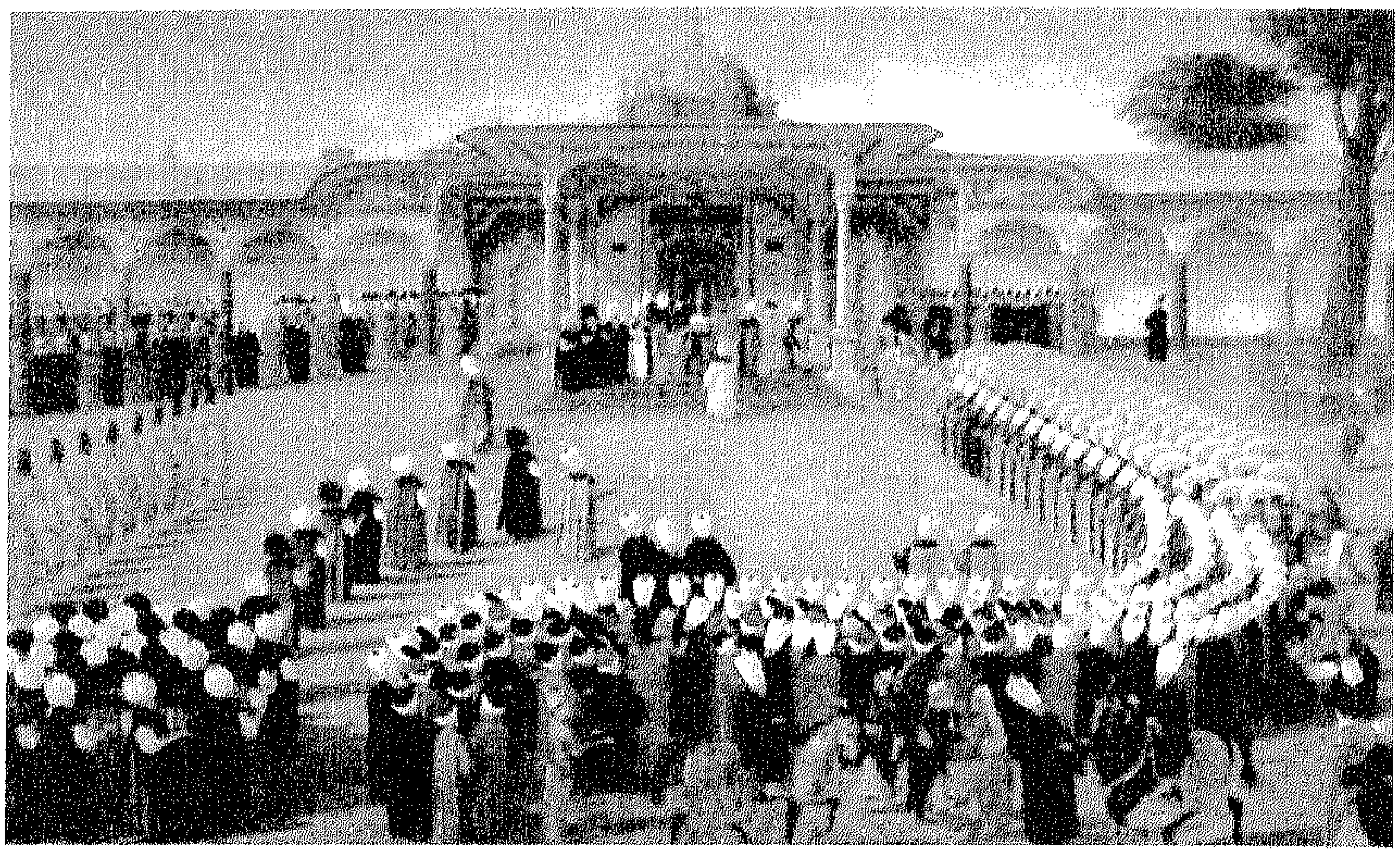
وبعد أن يتم توزيع الصرة السلطانية على أماكنها المخصصة يرسل شريف مكة خطاب شكر ودعاء إلى السلطان يحمله إليه شخص يُدعى «حامل البشارة».

ولا بد أن نشير إلى أهم قطعة في هذا الموكب، ألا وهي كسوة الكعبة حيث يتولى السلطان صنعها، ويتم تبديل الكسوة الجديدة بالقديمة وسط احتفالات كبيرة، ويعود الموكب بالقديمة إلى إستانبول، وتستقبل هي الأخرى بإجلال بالغ، وتوزع قطعها على المساجد السلطانية الكبيرة وعلى العلماء والأعيان وأشراف القوم.

الصرة بدايتها ونهايتها

لقد أولى السلاطين العثمانيون مكة المكرمة ومدينة الرسول ﷺ اهتماما بالغا، ولا شك أن أكبر دليل على ذلك مواكب المحمل النبوي الشريف، أو مواكب الصرة -كما عُرفت في التاريخ العثماني-. وهو محمل كان يرسله السلطان إلى الحجاز كل عام في موسم الحج في موكب عظيم تحمله مئات الجمال، وتحيط به كتائب كثيرة من الفرسان المدججين بالسلاح مع أستار الكعبة، وهدايا ذات قيمة عالية، وصرة سلطانية كبيرة تحتوي على قطع ذهبية كثيرة ومجوهرات كريمة توزع على أهل تلك البلاد، وتصرف على إصلاح طرق الحج، وإعمار مكة المكرمة والمدينة المنورة، ومرافق الحرم الشريف.

لقد بدأت عادة إرسال الصرة إلى الحرمين الشريفين في عهد الخليفة العباسي المقتدر بالله (٩٠٨-٩٣٢م). والوثائق تشير إلى أن الفاطميين والمماليك كانوا يرسلون صرة إلى الحجاز أيضا.



وقد درج السلاطين العثمانيون على إرسال الصرة منذ بداية تأسيس الدولة العثمانية، إلا أن أول صرة تم العثور على وثيقتها في الأرشيف العثماني تعود إلى تاريخ ١٣٨٩م، وهو عهد السلطان «بيازيد الأول»، وتنص الوثيقة قائلة: «لقد صدر الأمر السلطاني بإرسال صرة بمقدار ٨٠ ألف قطعة ذهبية تنفق في مرافق الحرمين الشريفين، وتوزع على فقرائها وأشرافها وساداتها وعلمائها...».

وقد أرسل السلطان محمد الملقب بـ«محمد شلبي» ١٤ ألف قطعة ذهبية عام ١٤١٣م، وصرة أخرى تحتوي على أكياس لم يحص عددها عام ١٤٢١م.

أما السلطان «مراد الثاني» فكان قد أمر بصرف ألف قطعة ذهبية إلى السادة الأشراف المقربين إليه في إستانبول، كما وقف موارد منطقة «باليق هصار» الواقعة قرب مدينة أنقرة على أهل مكة المكرمة والمدينة المنورة والقدس الشريف، إضافة إلى إرساله صرة تحتوي على ٣٥٠٠٠ قطعة ذهبية كل عام. وفي وصيته العائدة لسنة ١٤٤٦م أمر بوقف ثلث أملاكه الموجودة في «مانيصا» لخدمة الحرمين الشريفين، وذلك يعني ١٠ آلاف قطعة ذهبية كل عام.

وقد أمر السلطان «محمد الفاتح» بإرسال تسعة آلاف قطعة ذهبية مع مرسوم سلطاني إلى الحجاز قام شريف مكة بقراءته على الجماهير أمام الكعبة المعظمة، وأرسل له ماء زمزم وعددا من حمائم الكعبة ردا على معروفه. وحدد السلطان بعد ذلك كمية تزيد على ٢٠٠ ألف قطعة ذهبية لخدمة الحرمين الشريفين كل سنة.

ولما أصبحت الحجاز ضمن حدود الأراضي العثمانية عام ١٥١٧م على يد السلطان «سليم الأول» أمر بتخصيص ٢٠٠ ألف قطعة ذهبية كل عام للحرمين الشريفين مع هدايا ثمينة ومواد غذائية متنوعة.

أما أكثر السلاطين إرسالا للصرة بين «آل عثمان» فهو السلطان «سليمان القانوني». ومن اللافت للنظر أنه قد أُنشئت مؤسسة جديدة في هذا العهد باسم «وراثة الصرة» حيث يرث الشخص حصة مورثه من الصرة. وإذا مات صاحب الحق ولم يكن له وارث وزعت حصته على الفقراء والمساكين.

والجدير بالذكر أن الدولة العثمانية لم تتخلَّ عن إرسال الصرة السلطانية حتى في أصعب أيامها اقتصاديا وسياسيا. فخلال الحرب العالمية الأولى في عام ١٩١٥ تم إرسال ١٠٧ حقائب تحتوي على ٢٤ ألف ليرة و٨٤٧ قرشا إلى أهل مكة، إلى جانب ١٩٧ حقيبة تشتمل على ٣٢ ألف ليرة و٨٨٢ قرشا مع حقيبة أخرى إلى أهل المدينة المنورة.

وعندما قام «الشريف حسين» بثورة في العام التالي انفصلت الأراضي المقدسة عن الدولة العثمانية، ورغم ذلك أصدر السلطان «وحيد الدين» مرسوما بإرسال «صرة كالماضي تُنفق على أهل مكة والمدينة وعربان الحجاز». وكانت آخر صرة في عام ١٩١٧ حيث أرسلت عبر الشام في أثناء الحرب العالمية الأولى، ولكن عندما انتهت الحرب بهزيمة الدولة العثمانية عادت القافلة أدراجها إلى إستانبول، ومن ثم كانت نهاية قوافل المحمل الشريف أو ما عرف بمواكب الصرة.

رحلة المحمل الشريف، رحلة بدأت من قصر طوب قابي وانتهت في الأراضي المقدسة. سفر طويل شاق، ولكن في سبيل الحبيب تهون المشاق. وديعة كريمة حملها الكرام على محامل قلوبهم تلبية للعهد ولمشاعر الوفاء. بداية عن طريق البر، ثم عن طريق البحر، ثم عبر السكة الحديدية. رغم مرور السنين لا نزال نتسمع في خيالنا وقع خطوات جمل المحمل رتيبة هادئة مطمئنة...

* كاتب وباحث تركي.



العثمانيون والأماكن المقدسة في القدس الشريف

أ.د. الصفصافي أحمد القطوري*

ما بين حِرَاء والأقْصى، ما بين مكة والقدس علاقات روحانية حَميمَة وطيدة في بناء صرح الحضارة الإسلامية. ففي الأولى كان التَّعبُّد وكان الوحي، وفي الثانية كان مهبط موكب الإسراء من المسجد الحرام إلى المسجد الأقصى. في الأقصى كانت محطة الانطلاق نحو «سدرة المنتهى» في العروج إلى السماوات العُلاَ. فالأقصى أُولى القبلتين وفيه كانت إمامة محمد ﷺ لكل الأنبياء. في مكة أول الحرمين، وأول ما يُشد إليه الرحال، وفيها حراء أول مهابط الوحي. من هنا كان الربط عند المسلمين بين كل هذه الأماكن المقدَّسة والاهتمام بها كلها على حد سواء.

الفتح العثماني

والقدس ظلت عَرَبيَّة حتى إبان العهد العثماني الذي استمر منذ سنة ٩٢٣هـ - ١٥١٧م إلى انهيار الدولة العثمانية نهائياً في بدايات القرن العشرين. فقد كانت خاضعة للحكم المملوكي. ولما أنهى السلطان سليم الأول حكم المماليك في مصر سنة ٩٢٣هـ - ١٥١٧م دخلت القدس بدورها تحت إدارة العثمانيين. وما أن استقرت الأمور للسلطان سليم في كل من سوريا ومصر ومعهما الحرمين الشريفين والقدس الشريف حتى أصدر فرماناته وأوامره بألا تُبْنَى كنائس أو معابد جديدة في المدن والقَصَبات والقرى التابعة لهذه المناطق، بل يُحَافظ على القائم منها فعلاً، وتُمْنَح الرعاية والصيانة اللازمة لتأمين قيامها بالمهام المنوطة بها. وكان يُسمح بهدم القديم القائم منها وإعادة البناء في نفس المكان وبنفس الطراز المعماري المستخدم. وقد تمثل في ذلك بما فَعلَه سيدنا عمر الفاروق بن الخطاب في السنة الخامسة عشرة الهجرية حيث اعترف بكل الحقوق المَرْعِيَّة لكل الرعايا غير المسلمين بتعهد مكتوب. وما كان من السلطان العثماني إلاَّ أن فعل نفس الشيء حيث أصدر فرماناً عقب ضم القدس يَحْفَظ لكل الرعايا من المسيحيين واليهود حقوقهم الدينية، وأَمَّن لهم بكل مذاهبهم وطوائفهم حق ممارسة الشعائر بدون أية عوائق. وقد حدد في هذا الفرمان الذي سَطَّره قاضي القدس بخطه كل حقوقهم وطُرُق حماية هذه الحقوق ومنع أي تجاوز عليها. وهذا الفرمان موجود في «خزينة أوراق» البطريركية الأرمنية في القدس الشريف. وقد قام سركيز قاراقو الأرمني بنسخه عن الأصل الموجود في مكتبة البطريركية الأرمنية في القدس. وفيما يلي نص الترجمة عن النص التركي حيث تعذر الحصول على نصِّه العربي:

فرمان القدس الشريف

«فليعمل بموجب النيشان الهمايوني . . .

إن النيشان الشريف، عالي الشأن للسلطان السامي، حامل الطغراء الخاص بخاقان العالم، وبالعون الرباني والمن السبحاني، فالحكم بما يلي:

بعون الله تعالى ورسوله قد جئنا إلى القدس الشريف، وفُتح بابها في يوم ٢٥ من شهر صفر الخير، وقد قدِم الراهب المسمى سركيز الذي هو بطريك الطائفة الأرمنية وفي مَعيَّته سائر الرهبان والرعايا والبرايا. وقد سألنا العطايا وتمنى الإنعامات، وأن تظل تحت تصرفهم ورعايتهم كما هو سابق وسائد لبطارقة طائفة الأرمن الذين تولوا الضبط والإشراف من القديم لما هو تحت عُهْدَتهم من الكنائس والأدْيِرَة وأماكن الزيارة وكذا الكنائس الأخرى الواقعة في الداخل والضواحي وكذا المعابد ومنذ العهد العمري رضي الله عنه. وكذا معاهدة حضرة السلطان المرحوم الملك صلاح الدين والأوامر الشريفة المعطاة تجعل الضبط والتصرف على كنيسة القيامة، ومغارة بيت لحم، وبابها الواقع في الجهة الشمالية، والكنائس الكبرى، وماريعقوب ودير الزيتون، وحبس المسيح ونابلس بما فيهما من كنائس تخص سائر الأمم كالحبش والقبط والسريان للبطريرك الأرمني القائم والقاطن في كنائس ماريعقوب.

وينص النيشان الهمايوني على عدم تدخل أي فرد من الملل الأخرى، وقد مَنَحْتُ هذا النيشان الهمايوني مقرونا بالسعادة وأمرت بما هو آت يعمل بموجبه: أن تكون السيطرة والتصرف في الكنائس الكبرى المذكورة، والكنائس الواقعة في ضواحي وداخل البطريركية الأرمنية الكائنة في ماريعقوب، وكذا المعابد وسائر أماكن الزيارة والأديرة التي تتبع طوائف أخرى كالحبش والقبط والسريان. فلهم ممارسة مراسمهم الدينية فيها، وضبطها ورعايتها بأنفسهم. ولا يحق لأي مَنْ كان أن يتدخل في تنصيب أو تعيين أو عزل من يقومون بالشؤون الدينية والإشراف على الرهبان والقساوسة، والميتروبوليد، والبيسكوبوس وسائر الأمور الدينية متروكة لهم ممثلة في البطريركية الأرمنية وما يتبعها من كنائس ومعابد وأديرة وسائر أماكن الزيارة عندهم، ولا يحق لأي فرد من غيرهم التدخل في أمورهم.

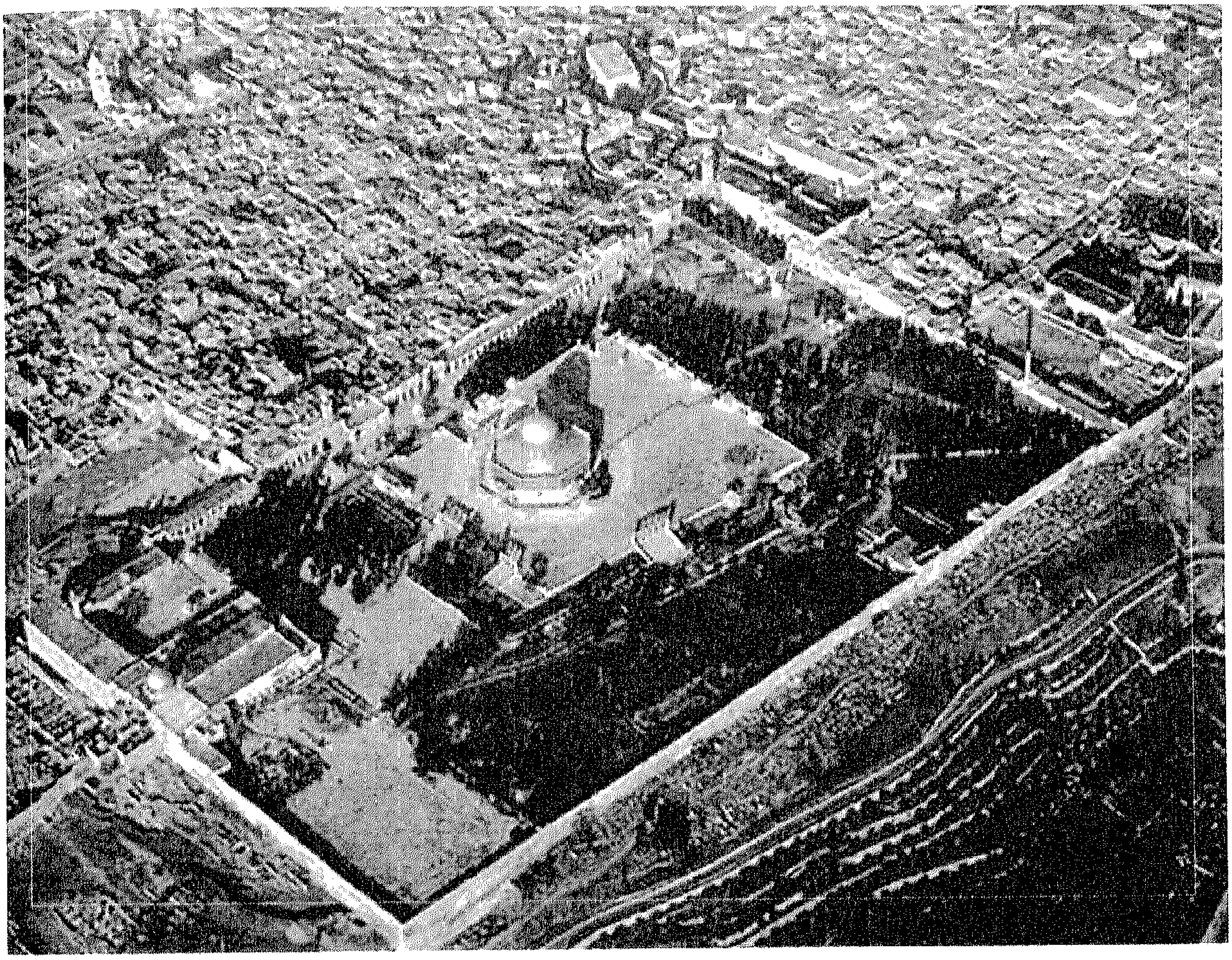
ويحق لسائر الأمم أن يدخلوا إلى كنيسة القيامة والتربة الواقعة وسطها، وإلى مقبرة السيدة العذراء الأم مريم الواقعة في ضواحي القدس الشريف، وإلى المغارة التي ولد فيها السيد المسيح عليه السلام في بيت لحم، وحفظ مفتاح بابها الشمالي، والشمعدانان الموجودان في داخل كنيسة القيامة والقناديل، وكذا القناديل الموجودة في داخل المقبرة وعلى بابها، والشموع التي توقد، والبخور. والحفاظ على المراسم والعبادات التي تتم داخل كنيسة القيامة وفقاً للعنعنات والمعتقدات حتى ظهور نار الشمع المقدَّس.

فيحق لجميع الأمم الدخول والدوران حولها، وزيارة الباب، ورؤية الذهب والأحجار الغالية على نافذتيها، ورؤية وزيارة المعبد الكائن بالداخل، وزيارة كل آبار الماء ومزارات ماريوحنا الكائنة في فناء كنيسة القيامة، وزيارة حبس المسيح الواقع بالقرب من مار يعقوب في الضواحي، وزيارة غرف يعقوب في الضواحي، وزيارة الغرف والمضيفات الواقعة بالقرب من مغارة بيت لحم وأضرحتها.

كما يحق للبطريركية المذكورة لطائفة الأرمن الإشراف ورعاية كافة الحدائق والبساتين ومزارع الزيتون، وبالجملة جميع الكنائس والمعابد والأديرة والمزارات التابعة لهم، وكل الأملاك والأوقاف الخاصة بهم، وكل توابعهم وما يتبعهم. ولا يتم التعرض لأي شخص من الطائفة الأرمنية قادماً لزيارة الكنيسة أو بئر المياه المسمى زمزم، ولا يتعرض أي أحد لمزارعهم أو معابدهم أو مزاراتهم ولا يمنعهم عن ذلك أي أحد.

ويعمل وفقاً لهذا النيشان السلطاني من بعد اليوم على الوجهة المشروحة، ولا يُسمح لأي شخص من ملة أخرى التدخل في شأنهم. وعلى أولادي الأماجد أو وزرائي الأعاظم ومشايخي الكرام والقضاة والقادة وأمراء الإمارات وقادة السناجق وأمير الأمراء وضباط الانضباط والأمن ورجال بيت المال والقسَّام ومديري البلدية والزعماء وأرباب التيمار والمتصرفين وسائر حرس بابي وغيرهم، والخلاصة على الجميع كائناً من كان ألا يتعرض لأي فرد منهم كائناً من كان ومهما كانت الأسباب، ولا يتم التبديل أو التغيير في أي مما ذكر. وإذا ما قام أحد ما بالتدخل أو التعرض أو التبديل أو التغيير فإنه يُعَد عند الله من زمرة المجرمين والعصاة.

وليعلموا أن أوامري ونيشاني الحامل لطغرائي أنا فاتح العالم ستكون مصدَّقة، وليعمل بفحوى ما جاء بها، وليكن هذا علامة شريفة معتمدة. كتب في سنة ثلاث وعشرين وتسعمائة».



ها هو السلطان سليم الأول الذي وصل إلى بيت المقدس في القدس الشريف في اليوم الخامس والشعرين من صفر سنة ٩٢٣ هـ - ١٥١٧م، ما أن مثل بين يديه البطريرك الأرمني ومرافقوه من القساوسة والرعيَّة حتى أمَّنهم وأحسن إليهم وأجزل العطاء لهم وجدد لهم العهد العُمَري ومعاهدة القائد الفذ صلاح الدين الأيوبي.

ولم يكن هذا وقفاً على القدس وحدها لقدسيتها ومكانتها، بل امتدت هذه الرعاية والعناية إلى غيرها من الأماكن. فها هو نفس السلطان، سليم الأول يصدر نفس الفرمان تقريباً لرهبان دير سانت كترين في سيناء المصرية. فما أن استقر به المقام في القاهرة حتى أصدر لهم في أواخر شهر جمادى الآخر سنة ٩٢٣ هـ - ١٥١٧م فرماناً يعطيهم نفس الحقوق التي منحها للبطريركية الأرمنية وللحبش والأقباط السريان في القدس. ولما كان هذا الفرمان يخرج من نطاق القدس فقد اكتفيت بالإشارة إليه.

لم يثبت التاريخ ولو لمرة واحدة أن حَاصر قائد مسلم كنيسة أو معبداً، أو أطلق ناراً، أو منع ماءاً أو طعاماً عمن هو في داخل الكنيسة أو المعبد. لم تطارد قوات الجيش أو الشرطة أو الأمن من يلجأ إلى بيت من بيوت الله.

إن هذه الوثيقة وغيرها ظل مَعْمُولاً بها طوال فترات التاريخ، وما زال فرمان سليم الأول محفوظاً في دير سانت كترين في سيناء. كان ذلك قبل الإحتلال الإسرائيلي لسيناء، ولست أدري مصيره الآن.

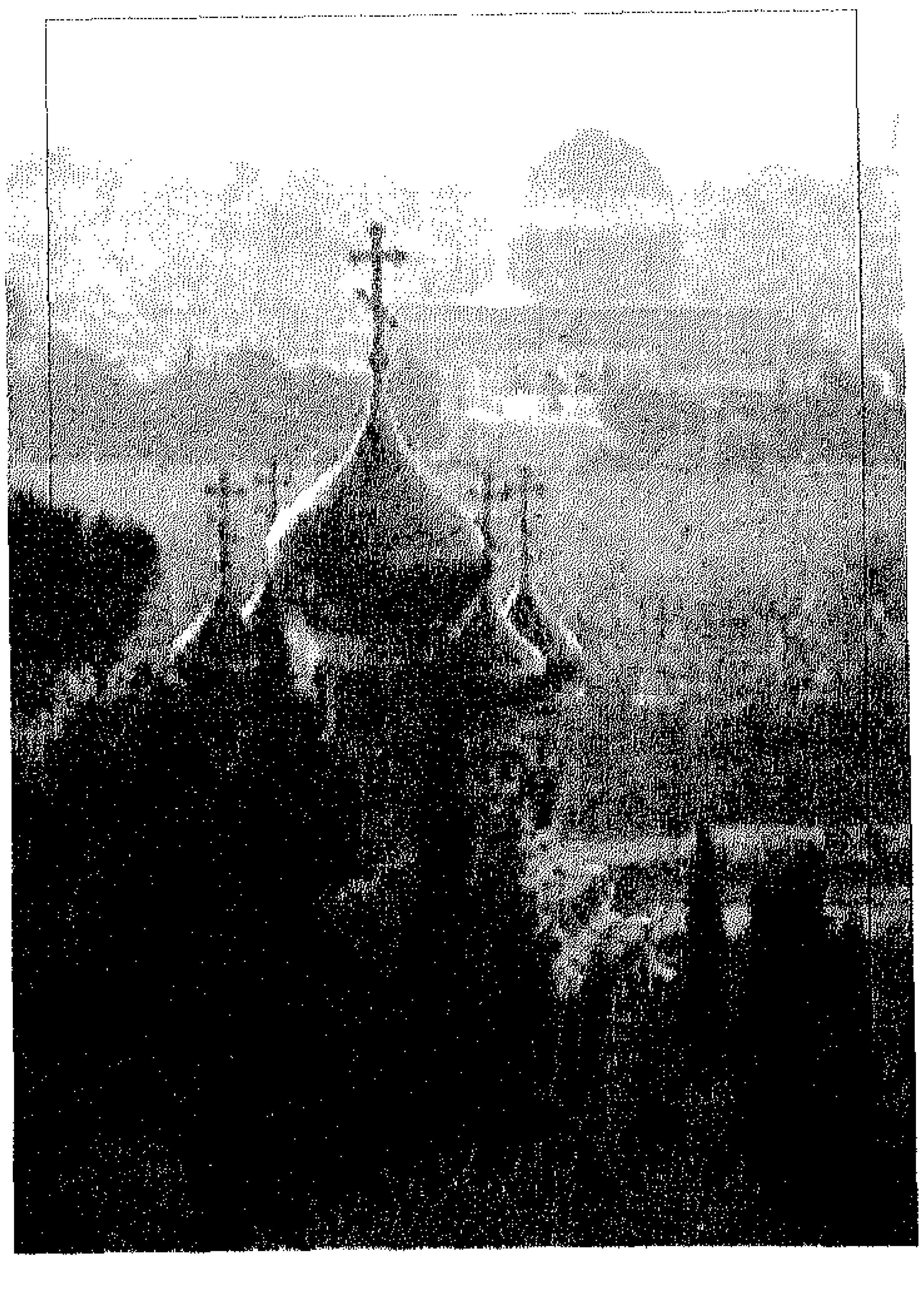
العهد الذهبي سليمان القانوني

وما أن اعتلى السلطان سليمان القانوني (١٥٢٠-١٥٦٦م) عرش السلطنة العثمانية حتى أبدى تفوقاً ملحوظاً في ميادين البناء والتشييد بنفس القدر من المهارة في ميادين سن القوانين. فما هي إلاَّ خمس وخمسون سنة حتى كانت البلاد العربية كلها حتى تلمسان المغربية ضمن حدود الدولة العثمانية.

وقد أغدق من غنائمه على الحرمين الشريفين والقدس الشريف الشيء الكثير، فغطى الجدران الخارجية لجامع قُبَّة الصخرة من جديد بالبلاطات الخزفية الفاخرة بدلاً من الموزاييق الذي كان يحتاج إلى الترميم من حين لآخر، وكانت هذه التغيطة الخزفية الزرقاء بدلاً من الخليط بين الأخضر والأصفر، مما أعطى الجامع رونقاً وبهاء ظل قروناً عديدة. وكسا القسم الأسفل من الجدران بالرخام بدلاً من الموزاييق أيضاً. وأحاط المبنى من أعلى بحزام من الخزف الأزرق الغامق الذي تتخلله كتابات بالحروف البيضاء. وأمر بتركيب زجاج ملوَّن على







النوافذ التي استقرت داخل تجاويف من الجبس والجص الأبيض الناصع . كما أمر سليمان القانوني بترميم كل أسوار المدينة ، وأعطاها الشكل الذي ما زال هو السائد حتى العهد القريب . وبهذا فقد ترك قسماً من التبة الغربية خارج الأسوار . ولقد كانت كنيسة مرقد عيسى عليه السلام تخلو من الأجراس حتى سنة ٩٥٢هـ– ١٥٤٥م ، فأمر السلطان سليمان بأن تُعلق بها الأجراس . وفي سنة ٩٦٣هـ– ١٥٥٥م كان هناك بناء صغير فوق الضريح في القسم الدائري من كنيسة القيامة ، فأمر بإقامة مبنى آخر منتظم ويليق بالمقام بدلاً من القديم .

وكانت الكنيسة مقسمة فيما بين المذاهب المسيحية التي لم تكن على اتفاق أو وفاق فيما بينها . وكانت هذه التقسيمات تحول دون إجراء الترميمات والدعامات اللازمة التي تمكن من إقامة برج للأجراس فوق قبة المبنى ، ولم يتم ذلك إلا سنة ١١٣٢هـ– ١٧١٩م . وبأمر من الحكومة تم الحفاظ على الرسوم والأشكال والطرز الموجودة على ما هي عليه أثناء أعمال بناء البرج والترميمات اللازمة . وخوفاً من التشويه تم صرف النظر عن التجديدات التي كانت ستجرى في كنيسة القيامة . وفي سنة ١٢٢٣هـ– ١٨٠٨م اندلع حريق في الكنيسة الأرمنية مما أدى إلى تخريب القسم الغربي من الكنيسة بالكامل . وتمت الموافقة على أن يقوم الأرمن بأنفسهم بأعمال الترميم والتجديد اللازم . وقد أصدر السلطان محمود الثاني (١٨٠٨ – ١٨٣٩م) فرماناً للأرمن بهذا الصدد . وطبقاً لكتابات موجودة ، فقد تم تجديد التذهيب الموجود في جامع قبة الصخرة ، وأمر السلطان بترميم الجامع من الخارج . ولولا الخلافات المذهبية بين الطوائف المسيحية لتم تجديد كنيسة مرقد عيسى ، ولتم إزالة المباني العشوائية ، ولجددت الزخارف التي على جدرانها منذ أمد بعيد ، ولأمكن استخدام الأجزاء المتبقية وأعيدت الكنيسة إلى ما كانت عليه أثناء الحروب الصليبية .

لقد شهد القرن التاسع عشر أحداثاً وقلاقل أخرجت فلسطين عامة والقدس خاصة من الهدوء والسكون الذي كان يعمها . فإن نابليون بونابرت (١٧٦٩ – ١٨٢١م) الذي ظل محاصراً في مصر ، قام بالهجوم على فلسطين . وكما أنه حاصر عكا فقد زج ببعض من القوات الفرنسية لمهاجمة القدس ، وتقاتلت القوات العثمانية والفرنسية أمام يزرائيل ، أي أمام مرج بن عامر . واضطرت القوات الفرنسية إلى التراجع . ثم تعرضت فلسطين عامة والقدس خاصة إلى استيلاء جيوش محمد علي باشا سنة ١٨٣١م . ودخلت هذه المدينة تحت الحكم المصري حتى تم حل المسألة المصرية . وعقب جلوس السلطان عبد الحميد الأول على العرش ، مارست الدول العظمى آنذاك ضغوطاً . وفي النهاية انضمت فرنسا إلى هذه الدول ، وتم عقد معاهدة سنة ١٢٥٦هـ– ١٨٤٠م أجبرت مصر بموجبها على إخلاء فلسطين . ومارست إنجلترا والنمسا ضغوطاً ملموسة لإعادة القدس تحت الحكم العثماني . واستمر الوضع على هذا المنوال حتى نهاية الحرب العالمية الأولى . ولكن خلال المرحلة الأخيرة من هذه الحرب أي في الثامن من كانون الأول سنة ١٣٣٣هـ– نهاية ١٩١٧م احتُلَّت القدس من قبل الإنجليز . وهكذا انتقلت هذه المدينة المقدسة التي كانت مركزاً لمتصرفية مستقلة خلال العصر العثماني إلى الإدارة الإنجليزية ، وظلت هكذا حتى سنة ١٣٦٨هـ– ١٩٤٨م .

* جامعة عين شمس – مصر .

وردة المدينة المنورة

م.فتح الله كولن

يا وردة روحي... يا ندى قلبي... يا حبّة فؤادي
أنا الذاكر العميد... والهائم الشريد...
قلبي مزار طيفك... وروحي ملعب سرابكِ
إنّه ما زال يهدهد شجوني... ويكفكف دموعي
ذكراكِ يمسح من ذاكرتي كُلّ شيءٍ سواك...
فليغبْ كُلُّ شيءٍ إلاّكِ

أنا مذاب عشق... أتقلب في عشقي...
في قيامي وقعودي... ويقظتي ومنامي...
أنا روح هائم في أفق العلاء أحلق
كيف الوصول إليك وأنتَ فوقَ الفوق
ووراء الوراء...؟
حبذا العشق لو يستطيع

سيدي ومولاي... التفتْ إليّ...
لمحة منك تكفيني... قلبي بلظى الفراق
يتحرق... أنينه ملأ الدنيا... وحنينه
جاوز السبع الطباق... جُدْ عليَّ...
بالوصولِ جُدْ عليّ... متى يا سيدي...؟
متى...؟

كقلب الطير قلبي... ما أن يَذكر اسمك
حتى يبدأ بالخفقان
فامنن عليّ بريشة من جناحك
لكي أطير إليك... وأحلق وراءك أبدا
كقلب الطير قلبي... ما أن يذكر اسمك
حتى يبدأ بالخفقان

يا وردة حوّلت الصحراء القاحلة إلى جنان
أشرقي على قلبي بألوانك الساحرة
آن الأوان، لتكفكفي عيوني الدامعة
يا وردة حولت الصحراء القاحلة إلى جنان

مجنونك أنا، آه، خادمك أنا
إن رميتَ بجمرة عشق في قلبي
أججتْ جوانحي وكياني
وأنقذْتني من هذه الرؤيا السوداء
الفارغة من محياك الوضيء
مجنونك أنا، آه، خادمك أنا

عقلي يذكرني بأيام الفراق
فيسبل على روحي سدف الظلام
سيدي متى تكشف عن وجهك الصبوح؟!
فالشمس تميل إلى الغروب،
عقلي يذكرني بأيام الفراق...

آه في الفصل الأخير من كتاب حياتي
آهِ لو غدا غروبي شروقاً
وقلبي مفعماً بأزهى ألوان عالمك المضيء
حيث ترتفع أصوات الدفوف وترانيم الناي
في كل مكان...
آه، لو غدا غروبي شروقا...

* * *

• تستعمل الوردة في الأدب التركي رمزا للرسول ﷺ.
• من ديوان «المضرب المكسور» للأستاذ محمد فتح الله كولن. ترجمة: نوزاد صواش، أديب إبراهيم الدباغ.

رمضان وفلسفة الصوم



أديب إبراهيم الدباغ *

إنَّ الجانب السطحي من الزمن هو جزءه الميت الخالي من أية فاعلية إنسانية خلاّقة، في حين أنَّ جُزءَهُ الثاني الأكثر عمقاً هو المعنيُّ باهتمامات المسلم الجادّ الذي يؤرقه أنْ تمضي لحظات الزمن من دون أنْ يُودِعَهَا شيئاً من آثارِهِ التَّعَبُّدِيةِ الخَلاّقة.

ومن هنا جاء هذا الارتباط الخفي المتين بين الزمن والعبادات التي يقدمها المسلم بين يدي الله تعالى. فالصلوات الخمس، صلوات مرتبطة بخمسة مفاصل زمانية في اليوم والليلة، وكذلك الزكاة يرتبط فعلها التعبُّدي بالحَوْلِ الذي يحول على المال الذي يُرادُ تزكيته، أمّا الحجُّ فهو شعيرة تعبدية زمانية ومكانية في الوقت نفسه، وأما الصيام فزمانه شهر رمضان الذي أُنزل فيه القرآن.

فرمضان هو العمق الزماني الذي تشتَدُّ فيه القوى الحيّة في نفس الإنسان المسلم. ولا طريق إلى نفسه أقصر من رمضان لكي يشتَدَّ غَوْصُه في خوالجها الدفينة، والتعرُّف على منابع القوة والضعف فيها. إنَّه يزيدنا استنارةً وفهماً وإدراكاً؛ ولم يودع رَبُّ العالمين من أسراره المكنونة في العبادات ما أودعه منها في الصيام. وقد أشار تعالى إلى ذلك في الحديث القدسي: «الصوم لي وأنا أَجزي به».

ولئن كان لكل شيء روح يرتعش بالحياة مهما كان خفياً وصامتاً ﴿وإنْ مِنْ شَيْءٍ إلاّ يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِ﴾ (الإسراء: ٤٤) فَإِنَّ للزمن كذلك روحه، وروح الزمن هو «شهر رمضان». ولأنه روح الزمن فقد اختاره الله تعالى زماناً لنزول القرآن فيه، هذا القرآن الذي هو روح الوجود، فالقرآن رُوحٌ من رَوْحِ الله، نزل به الروح الأمين، على روح هو أنزه الأرواح وأشرفها هو روح محمد ﷺ، –أو إنْ شئتَ قلتَ «قلبه»– في شهر هو روح الأزمنة والشهور. فهو –أي القرآن– نور من نور، نزل به النور، على قلب هو نور، في شهر النور.

ومن حق هذا الشهر النوراني أن يحفز المسلم لكي يستبق نفسه روحياً، وأنْ يَمُدَّ يده للقوى الإيمانية الموجودة في أعماقه ليساعدها على النهوض به، وأنْ يكون يقظاً للقوة الدافعة فيه من أجل أن يلحق بها ويلازمها في رؤاها وتدافعها نحو الأعلى والأنزه من الحياة، والأذكى من العقل، والأعمق من التَّعَبُّدِ، ليصبح الاستثناء في هذا العالم المائج بالغفلة عن الله الذي يزداد تدحرجه من قمة إنسانيته نحو قاع من حيوانية الشهوات، ومن ضلالات القلب والوجدان، ومن عدميات الشرور والآثام.

وبديهي أن صوم رمضان هو عمل تعبُّدِيٌّ يبتغي المسلم من ورائه تزكية نفسه ورضى رَبِّهِ، غير أنه يمكن أن يكون بمثابة صيحةِ احتجاج صامت يطلقها المسلم في وجه فساد العالم وضلاله، وجبروته وقهره، وانحرافه عن جادَّة الحق والحقيقة، وصرخة تنبيه لتلك الأرواح الضالّة والجافّة التي يمكن أنْ تشتعل كالهشيم عند أقلِ شرارة.

إن رمضان وحده هو القادر على أنْ يبدد جَهَامَةَ الزمن المتراخي الكسول، ويغير الأزمان والفصول، فتغدو كُلُّهَا ربيعاً إلهيّاً عطِراً يفوح منه رَوْحُ الله وريحان رسوله ﷺ.

فرمضان كَوْنٌ نورانيٌ يدور في سماء الصائم مُولِّداً فيه أضْوَأَ الخواطر، وأَنْزَهَ الأفكار. أما ذلك الشيء الدموي الذي يبدو ملازماً لبعض العقول فسرعان ما تغسله التَّقوى، وتمحوه التَّوْبَةُ.

وكما أن الكون يرفض الفراغ في أجزائه ومفاصله، فهو يرفض كذلك الفراغ في روح الإنسان، لكونه جزءً لا يتجزأ من الكون.

فما لم تمتلئ النفس بتاريخ عظيم من صور كفاحها الارتقائي في سلالم المعرفة الإلهية، فإنَّ تاريخ هذه النفس سيكون مفجعاً ومأساوياً، وربما ظلَّت تعاني من المرض والوهَن حتى تموت في قَفْرٍ بوار من الفراغ.

فرمضان بحد ذاته – زماناً وتاريخاً – هو عالَم مفعم بأعظم صور التجارب الكفاحية الارتقائية لمعرفة الله وتوحيده وعبادته. وأكاد أجزم أنَّ ما من نصر عرفه المسلمون على مدى تاريخهم الطويل إلاَّ وهو صنيع رمضاني، حيث يحفل بصور رائعة من بطولات المسلمين الأوائل منذ «بدر» إلى «فتح مكة» إلى آخر الانتصارات الأخرى.

فرمضان زمن البطولات الإيمانية أينما كان موضع هذه البطولات سواء في النفس أو خارج النفس، فهو –رمضان– سلسلة مترابطة من هذه اللحظات الكفاحية التي تكاد تكون «لازمانية» لأنها فوق كل منطق زماني أو مكاني.

وتظلُّ روح الصائم مترعة بأخيلة «العالم الآخر»، حتى لكأنها بغيوبها أقرب إليه من الدنيا بشهودها.

فدقَّات دقائق العمر في رمضان ليست كدقَّاتها في غير رمضان، فالصائم يتلقى مع هذه الدقات؛ دقة من بعد دقَّة، دَفعةَ نورٍ من بعد دفعة، من قنوات غيبية «ماورائية»، تفرغ تيارها فيه فتزيده شفافية وتبصرة وتقرباً من مولاه. فيا لمعين رمضان، كم من قلبٍ مظلم اغتسل به فعاد نقياً كالثلج، وكم من ضمير موقور بكل بوائق الدنيا انغمس فيه فعاد طاهراً خالصاً كيوم ولدته أُمُّهُ.

فالمسلم الذي لا يخرج من رمضان بزَخَّارٍ من المدارك الروحية الجديدة عليه أَنْ يعلن –خجلاً– عن إفلاسه الروحي، وينكفئ على نفسه يبكيها دماً، وينوح عليها نواح الثكلى، لأنه الوتر النشاز الأكثر قبحاً ونشوزاً في موسيقية رمضان الصافية الجمال، والمتاكفُ الأشدُّ عناداً للمشيئة الكونية الانسجامية التوافقية بين جزئيات الأشياء وكلياتها. فما من أحد سوى رمضان كان قادراً على أنْ يَحِدَّ بصيرته ليرى أعمق وأشمل وأبعد.

إنَّ إنساناً يستعصي على رمضان فلا يتأثر به هو إنسان صعب وصلد مثيرٌ للإشفاق، سُرعان ما يسقط بين شدقي الدنيا التي تلتهم كُلَّ يوم كتلاً جديدة من البشر.

وعجباً لإنسان لا يثير رمضان فضوله الفكري، وعجباً لإنسان لا يقوى رمضان أنْ يقدح شرارة في وعيه الباطني، وعجباً لإنسان لا يستفز رمضان عقله وحِسَّه وشعوره... !

يا عشاق الليل... يا واجدون.. يا مشتاقون...

يا متفردون... يا متوحدون... يا شعراء...

يا نُسَّاك... يا زهاد... يا عُبَّاد...

هيَّا... تعَالَوا... أقْبلوا...

هذه ليالي رمضان البهية..

تَعَالَوا املأوا كؤوسكم من أنوارها...

ترشفوا رحيق الوصال...

وَبلُّوا حُرْقة الفؤاد...

وَاسْقُوا ظَمَأَ الروح... !

يا ليالي رمضان... يا دُرَّة الليالي...

يا لألاءةً يا وَضَّاءَةً... يا ضحيانة...

يا شلاَّل نور... يا سَنى القلب...

يا نَدى الفؤاد... يا ينبوع إيمان...

ودفْق رحمة وحنان...

ما نام عنكِ إلاَّ ميت...

وما سَهَى عنكِ إلاَّ محروم...

وما عَافَ شرابَكِ إلاَّ مجنون...

يا ليلة القدر.. يا خيراً من ألف شهر...

حنانيك يا ليلة القدر...

ضُمينَا إليك... عانقينا بقوة...

خذينا من أنفسنا إلى نفسكِ...

اكنفينا بكَنَفَكِ... واسدلي أستار سرادقك علينا...

امسحي الجراح عن أرواحنا... وآسي آلام قلوبنا...

وافتحي لنا طاقة الدعاء في السماء ليمُرَّ منها دُعَاؤنا...

ويمضي من خلالها تضرُّعُنَا.. !

أنتِ – يا ليلة القدر – والقرآن قرينان...

ما ذكرناكِ إلاَّ ذكرنا القرآن...

وما تلونا القرآن إلاَّ ذكرناك...

شَرُفْتِ بالقرآن... وعَلاَ قَدْرُكَ بنزوله فيكِ...

وإننا لنطمع أن نكون عتقاء ليلتك هذه من النار.

فأول رمضان رحمة... وأوسطه مغفرة... وآخره عِتْقٌ من النار، كما جاء في الحديث الشريف.

اللّهم –يا حبيب التوابين– اعتقنا من النار، ويا مجير الخائفين باعِدْ بيننا وبين النار كما باعدتَ بين المشرق والمغرب، يا ربُّ يا الله.

* كاتب وباحث عراقي.

حقيقة

الجهاد... والقتال... والإرهاب

د. محمد عمارة *

هناك خلط كبير وشديد بين مضامين هذه المصطلحات الثلاثة: الجهاد. . . والقتال. . . والإرهاب.

وهذا الخلط هو أشد ما يكون في هذه الحرب السياسية والفكرية والدينية والإعلامية الكبرى التي تشنها دوائر غربية متنفذة ضد الإسلام وأمته وحضارته وعالمه، ليس فقط منذ «قارعة» ١١ سبتمبر سنة ٢٠٠١م التي وقعت بأمريكا، وإنما قبل هذه القارعة بعقود وربما بقرون. لكن هذه القارعة قد تصاعدت بهذه الحملة، ومن ثم بهذا الخلط بين مفاهيم هذه المصطلحات تصاعداً غير مسبوق في تاريخ علاقات الغرب بالشرق، والغربيين بالشرقيين.

ولأن النظر إلى «الآخر» من خلال «الذات» هو عيب شائع في الدراسات المقارنة بين الديانات والثقافات والحضارات، لأنه يؤدي إلى صب «الآخر» في قوالب «الذات»، وتجاهل -ومن ثم- إلغاء الفروق بين الديانات والثقافات والحضارات، وذلك بدلاً من التمييز بين «الأشباه والنظائر» التي تجمع النماذج الثقافية في موضوع الدراسة، وبين «الفروق» التي تمايز بينها. . كان هذا المنهاج الأحادي الجانب السبب في كثير من الخلط الذي يصيب مضامين العديد من المصطلحات.

صحيح أنه لا مشاحة في استخدام المصطلحات من قِبل أهل الحضارات المختلفة والديانات المتعددة والثقافات المتمايزة، لكن هناك مشاحة أكيدة في المضامين والمفاهيم والمحتويات التي تُفهم لدى كل فريق من ذات المصطلحات. فالمصطلحات بمثابة الأوعية يستخدمها ويتداولها الجميع، لكن محتويات هذه الأوعية (مضامين المصطلحات) تتفاوت وتتغاير وتتمايز بل وقد تتناقض لدى أصحاب الأنساق الفكرية المختلفة رغم وحدة المصطلحات. كذلك الحال مع مصطلحات الجهاد والقتال والإرهاب.

الحرب الدينية المقدسة

باستثناء قطاع محدود من العلماء الغربيين الذين درسوا الإسلام وحضارته وتاريخه وفق موضوعية الدراسات المقارنة، والذين تحررت ضمائرهم من قيود المقاصد «الإمبريالية» الغربية، فإن الكثيرين من الذين قاموا بدراسة الحضارة الإسلامية وتاريخ المسلمين -سواء بسوء فهم أو سوء نية- قد وقعوا في خطإ النظر إلى «الذات الإسلامية» من خلال منظار «المعايير» التي حكمت مسيرة الحضارة الغربية، والكهانة الكنسية للنصرانية الغربية، والتاريخ الحضاري الغربي، وما شهده من صراعات.

فإذا ذُكرت الخلافة الإسلامية -وهي دولة مدنية مرجعيتها الشريعة الإسلامية- قفز إلى مخيلتهم كهانة الدولة الكنسية الأوربية التي حكمت بالحق الإلهي والتفويض السماوي. وإذا ذُكر الحق في المواطنة، لم يتصوروه إلا قائماً على أنقاض الدين وشريعته وفي ظلال العلمانية واللادينية. وإذا ذُكر الدين، لم يتصوروه إلا علاقة فردية بين الإنسان وخالقه تقف عند خلاص الروح ومملكة السماء، لا علاقة لها بهذا العالم، لأنها تدع ما لقيصر لقيصر، مكتفية بما لله لله.

وانطلاقاً من النظر إلى «الآخر الإسلامي» من خلال منظار «الذات الغربية» حسب هؤلاء الغربيون -ومعهم مثقفونا المتغربون- الجهاد الإسلامي «حرباً دينية مقدسة» ضد أصحاب الديانات الأخرى تكون معايير البراء والعداء والصراع فيها هي الاختلافات في المعتقدات.

وانطلاقاً من هذا النموذج «الحضاري والتاريخي»، ومن خلال هذا المنظار الغربي نظر كثير من المستشرقين الغربيين إلى الجهاد الذي تحدث عنه القرآن الكريم والذي جعلته السنة النبوية ذروة سنام الإسلام.

حقيقة الجهاد الإسلامي

إن الجهاد الإسلامي ليس حرباً دينية مقدسة، لأن الإسلام ينكر ويستنكر أي حرب دينية. فالإيمان الإسلامي تصديق قلبي يبلغ مرتبة اليقين، وهو سر بين المؤمن وبين خالقه لا يتأتى إلا بالفهم والعلم والإقناع والاقتناع، ولا يمكن أن يكون ثمرة لأي لون من ألوان الإكراه فضلاً عن أن يكون هذا الإكراه عنفاً قتاليا. ولذلك قرر القرآن الكريم القاعدة المحكمة والحاكمة: ﴿لاَ إِكْرَاهَ فِي الدِّينِ﴾(البقرة: ٢٥٦) والتي لا تعني فقط «النهي» عن الإكراه في الدين، وإنما تعني أيضاً «نفي» أن يكون هناك دين أو تدين عن طريق الإكراه. إذ الإكراه يثمر «نفاقاً» وهو أخطر من «الشرك» الصراح و «الكفر» البواح، ولا يمكن أن يثمر «إيماناً» بحال من الأحوال. ولذلك شاعت في القرآن الكريم الآيات التي تقول للمخالفين: ﴿لَكُمْ دِينُكُمْ وَلِيَ دِينِ﴾ (الكافرون: ٦)، ﴿فَمَن شَاءَ فَلْيُؤْمِن وَمَن شَاءَ فَلْيَكْفُرْ﴾ (الكهف:٢٩) والتي تحدد مهمة الرسالة في الاعتقاد: ﴿مَا عَلَى الرَّسُولِ إِلاَّ الْبَلاَغُ﴾ (المائدة:٩٩)، ﴿فَذَكِّرْ إِنَّمَا أَنتَ مُذَكِّرٌ * لَسْتَ عَلَيْهِم بِمُسَيْطِرٍ﴾ (الغاشية: ٢٢).

وإذا كان الخلط بين الجهاد الإسلامي وبين الحرب الدينية المقدسة هو أثر من آثار سوء الفهم للإسلام، أو سوء النية في تصوير الإسلام، فإن هناك خطأ آخر يقع فيه الذين يختزلون الجهاد الإسلامي في القتال الذي تحدث عنه القرآن الكريم ومارسه المسلمون في عصر النبوة وعلى امتداد تاريخ الإسلام.

ذلك أن الجهاد الإسلامي الذي هو فريضة إسلامية أعم من القتال الذي شرعه الإسلام. فكل قتال جهاد وليس كل جهاد قتالاً، إذ القتال هو الجانب العنيف من الجهاد وليس كل الجهاد.

إن الجهاد في اصطلاح العربية كما جاء في «لسان العرب» لابن منظور هو: «استفراغ ما في الوسع والطاقة من قول أو فعل». فهو لا يقف عند «الفعل» فضلاً عن أن يكون هذا «الفعل» فقط هو «الفعل العنيف» (الحرب) دون سواه.

والجهاد في الاصطلاح القرآني: «هو بذل الوسع في المدافعة والمغالبة» في كل ميادين المدافعة والمغالبة، أي في كل ميادين الحياة، وليس فقط في ميادين القتال. وأكثر ما ورد الجهاد في القرآن الكريم ورد مراداً به بذل الوسع في نشر الدعوة الإسلامية والدفاع عنها. وسبيل الدعوة الإسلامية هو الحوار بالحكمة والموعظة الحسنة والجدال بالتي هي أحسن، وليس بالقتال والإكراه والحرب الدينية المقدسة. فميادين الجهاد الإسلامي -الأكبر والأعظم والأغلب- هي عوالم الأفكار والحوار.

فبذل الوسع واستفراغ الطاقة والجهد في ميادين العلم والتعلم والتعليم هو جهاد؛ وبذل الوسع واستفراغ الطاقة والجهد في عمران الأرض نهوضاً بأمانة الاستخلاف الإلهي للإنسان هو جهاد؛ بل إن الرفق بالإنسان والحيوان والنبات والجماد -الطبيعة- هو جهاد؛ وكذلك البر والإحسان إلى الوالدين والأقربين وأولي الأرحام هو جهاد. كما أن الخشية لله ومراقبته وتقواه والتبتل إليه هي قمة من قمم الجهاد الذي فرضه الإسلام؛ والكلمة الصادقة جهاد.

بل لقد جعلت السنة النبوية -وهي البيان النبوي للبلاغ القرآني- من أفعال القلوب -وليس فقط الأيدي والألسنة- ميدانا من ميادين الجهاد الإسلامي: «فمن جاهدهم بيده فهو مؤمن، ومن جاهدهم بلسانه فهو مؤمن، ومن جاهدهم بقلبه فهو مؤمن». (رواه مسلم)

ومثل ذلك حراسة الوطن والمرابطة على ثغور دار الإسلام -كل الثغور- هي جهاد يكون أصحابها أول من يدخل الجنة من خلق الله.

كذلك جعلت السنة النبوية الحج إلى بيت الله الحرام -وفيه التجرد من الدنيا وقوّتها، بل وزينتها- والتعايش السلمي حتى مع الهوام، وكل أنواع الأحياء والنباتات . . . جعلت السنة النبوية هذا الحج ميداناً

من ميادين الجهاد الإسلامي.

تلك هي حقيقة الجهاد الإسلامي الذي هو بذل الجهد واستفراغ الوسع والطاقة في أي ميدان من ميادين الجهاد على امتداد هذه الميادين واتساعها وتنوعها، وليس فقط هو القتال، فضلاً عن أن يكون الحرب الدينية المقدسة.

ولهذه الحقيقة كان الجهاد الإسلامي فريضة لازمة على كل مسلم ومسلمة، لأنه مستطاع لكل المكلفين وفق القدرات التي امتلكها ويمتلكها هؤلاء المكلفون، وفي أي ميدان يستطيع المكلف أن يبذل جهده فيه بسائر ميادين العبادات والمعاملات؛ بينما كان القتال الذي هو شعبة من شعب الجهاد مشروطاً بشروط، وله ميادين محددة، ضبطها القرآن الكريم في الآيات التي تحدثت عن القتال.

تلك هي حقيقة الجهاد الذي فرضه الله وجعله ذروة سنام الإسلام، والذي جاهده المسلمون -ولا يزالون- على امتداد تاريخ الإسلام، والذي يكون جهاداً كبيراً عندما يكون فقهاً ووعياً وحواراً بالحكمة والموعظة الحسنة انطلاقاً من القرآن الكريم: ﴿وَجَاهِدْهُم بِهِ جِهَاداً كَبِيراً﴾ (الفرقان:٥٢).

حقيقة القتال في الإسلام

وإذا كان الجهاد في الإسلام أعم من القتال، فإن القتال الذي هو الجهاد العنيف، والذي هو شعبة واحدة من الشعب السلمية التي لا تُحصى للجهاد، متميزة ثمرته -وهي القتل- عن الموت الطبيعي. فالموت: هو فوْتُ الحياة، بينما القتل: هو إزالة الروح وإزهاقها، وفوت الحياة بفعل فاعل من الخارج يتولى هذا الإزهاق.

وليس هناك شك -بل ولا غرابة- في أن نجد في الإسلام تشريعاً مضبوطاً يجوّز القتال أو يوجبه في بعض الحالات، ذلك أن الإسلام دين ودولة، وأمة ووطن، واجتماع ونظام، فالدين في الإسلام لا بد لإقامته من وطن يقام فيه، لأن هذا الدين الإسلامي ليس مجرد تكاليف فردية، يستطيع المكلف بها أن يقيمها بمعزل عن الناس، أو بإدارة الظهر للناس، وإنما فيه -إلى جانب التكاليف الفردية- تكاليف اجتماعية لا تؤدى إلا في أمة، وجماعة، ونظام، ومؤسسات، وسلطة، واجتماع؛ أي لا بد له من وطن ودولة. وهذه التكاليف الاجتماعية -والكفائية- هي آكد وأهم من التكاليف الفردية، لأن الإثم في التخلف عن التكليف الفردي يقع على الفرد فقط، بينما إثم التخلف عن التكليف الجماعي والاجتماعي -الكفائي- يقع على الأمة جمعاء. بل إن أغلب التكاليف الفردية في الإسلام تُؤدّى وتقام في جماعة، وثوابها في الجماعة أضعاف أضعاف إقامتها خارج الجماعة.

ولهذه الحقيقة -أيضاً- رفع الإسلام قيمة الحفاظ على حرية الوطن واستقلاله وسيادته، وحق المواطن - بل واجبه- في أن يعيش حراً في وطن حر... رفع هذه القيمة إلى مقام الحياة.

ولأن هذا هو مقام الوطن وضرورته لإقامة دين الإسلام، كان الجهاد القتالي وارداً، وأحياناً واجباً، للحفاظ على الوعاء -الوطن- الذي بدونه لا يُقام كامل الإسلام.

فلا بد لإقامة الإسلام من وطن، الأمر الذي يجعل القتال لحماية حرية هذا الوطن -التي هي حرية مواطنيه- وارداً في شريعة الإسلام. فالحفاظ على الدين هو ذروة سنام مقاصد الشريعة الإسلامية. والحفاظ على حرية الوطن الإسلامي هو الشرط لإقامة الدين والقيام بأمانة العمران التي هي المهمة العظمى من وراء استخلاف الله لجنس الإنسان ولذلك وقف الإسلام بالقتال -إذناً وأمراً وتحريضاً- فقط عند:

١- الحفاظ على الدين، وحرية الدعوة إليه، وتحرير ضمائر المؤمنين به من الفتنة والإكراه.

٢- الحفاظ على الوطن، وصيانة حريته وحرية أهله من العدوان.

فالقتال في الإسلام هو الاستثناء الذي لا يجوز اللجوء إليه إلا لمدافعة الذين يفتنون المسلمين في دينهم، أو يخرجونهم من ديارهم. ولقد كان منهاج الدعوة الإسلامية التجسيد لهذا المنهاج.

ففي البداية وبعد ما تعرض له المسلمون من أذى في عقيدتهم، وفتنة عن دينهم، واضطهاد تصاعد حتى اقتلعهم من وطنهم (مكة)، وجعلهم يهاجرون إلى يثربَ (المدينة)، بعد هجرة العديدين منهم إلى الحبشة؛ أذن الله -مجرد إذن- للمؤمنين في القتال. (الحج: ٣٨-٤٠) ولقد كان الإخراج من الديار، والفتنة في الدين الأسباب التي ذكرها القرآن الكريم في كل الآيات التي شرعت لهذا القتال.

وعندما تطور الحال من «الإذن» في القتال إلى «الأمر» به، جاء القرآن الكريم ليضع الإخراج من الديار سبباً لهذا الأمر. فهو قتال دفاعي ضد الذين أخرجوا المسلمين من ديارهم، وفتنوهم في دينهم لتحرير الوطن الذي سلبه المشركون من المسلمين ﴿وَأَخْرِجُوهُمْ مِنْ حَيْثُ أَخْرَجُوكُمْ﴾ (البقرة:١٩٠-١٩٢).

ذلك لأن منهاج الشريعة الإسلامية في الدعوة إلى الله وإلى دينه ليس القتال، وإنما هو الحكمة والموعظة الحسنة والجدال بالتي هي أحسن.

بل قد تميز الإسلام في هذا الميدان برفضه فلسفة «الصراع»، لأنه يؤدي إلى أن يصرع القوي الضعيف فيزيله وينهي التنوع والتعدد والتمايز والاختلاف، التي هي سنة من سنن الله في سائر عوالم المخلوقات. رفض الإسلام فلسفة «الصراع»، وأحل محلها فلسفة «التدافع» الذي هو حراك يعدّل المواقف، ويعيد التوازن، مع بقاء التعددية والتعايش والحوار والتفاعل بين مختلف الفرقاء.

إن الإسلام لا يريد «الصراع» الذي ينهي «الآخر»، وإنما «التدافع» الذي هو حراك يحل التوازن محل الخلل الذي يصيب علاقات الفرقاء المتمايزين.

كذلك يرفض الإسلام الفلسفات التي اعتبرت القتل والقتال وإزهاق الأرواح جبلّة جُبل عليها الإنسان وغريزة من غرائزه المتأصلة فيه. وفي مواجهة هذه الفلسفات التي ذهبت إلى حد اعتبار الحرب طريقاً من طرق التقدم والتطور(!) يقرر الإسلام أن القتال هو الاستثناء المكروه وليس القاعدة. إنه ضرورة تُقدر بقدرها: ﴿كُتِبَ عَلَيْكُمُ الْقِتَالُ وَهُوَ كُرْهٌ لَكُمْ﴾(البقرة: ٢١٦)، وليس هناك «مكتوب» و«مفروض» وصف في القرآن الكريم بأنه «كُرْهٌ» سوى القتال.

ولقد بينت السنة النبوية وأكدت هذه الفلسفة الإسلامية إزاء القتال. فقال رسول الله ﷺ: «لا تتمنوا لقاء العدو، واسألوا العافية، فإذا لقيتموهم فاثبتوا وأكثروا ذكر الله» (رواه الدارمي).

وحتى هذا القتال الذي كتب على المسلمين وهو كُره لهم والذي وقف به الإسلام ودولته عند حدود القتال الدفاعي لحماية حرية العقيدة وحرية الدعوة من الفتنة -التي هي أكبر من القتل المادي- ولحماية حرية الوطن الذي بدونه لا يُقام الإسلام... حتى هذا القتال -الاستثناء والضرورة- قد وضع الإسلام ودولته له «دستوراً أخلاقياً» تجاوز في سموه كل المواثيق الدولية التي تعارف عليها المجتمع الدولي نظريا (!) بعد أربعة عشر قرناً من ظهور الإسلام، وتطبيق المسلمين لقواعد الدستور الأخلاقي لهذا القتال.

ولقد صاغ أبو بكر الصديق رضي الله عنه وهو رأس الدولة قواعد هذا الدستور الأخلاقي للقتال والحرب في وثيقة إسلامية عندما أوصى قائد جيشه يزيد بن أبي سفيان وهو يودعه أميراً على الجيش الذاهب لرد عدوان البيزنطيين في الشام، فقال في وثيقة الوصايا العشر: «إنك ستجد قوماً زعموا أنهم حبّسوا أنفسهم لله (الرهبان) فدعهم وما زعموا أنهم حبّسوا أنفسهم له (...) وإني موصيك بعشر: لا تقتلن امرأةً ولا صبيّاً، ولا كبيراً هرماً، ولا تقطعن شجراً مثمراً، ولا تخرّبن عامراً، ولا تعقرن شاة ولا بعيراً إلا لمأكلة، ولا تحرقن نخلاً، ولا تفرقنه، ولا تغْلُل، ولا تجْبُن»(رواه مالك في الموطأ).

فمعيار الإسلام ودولته في السلم والسلام أو الحرب والقتال ليس «الإيمان» و«الكفر» ولا «الاتفاق» و«الاختلاف»، وإنما هو التعايش السلمي بين الآخرين وبين المسلمين، أو عدوان الآخرين على المؤمنين بالفتنة في الدين أو الإخراج من الديار. وعن هذا المعيار للعلاقة بين الإسلام وبين الكافرين به والمنكرين له يقول القرآن الكريم: ﴿لاَ يَنْهَاكُمُ اللهُ عَنِ الَّذِينَ لَمْ يُقَاتِلُوكُمْ فِي الدِّينِ وَلَمْ يُخْرِجُوكُم مِن دِيَارِكُمْ أَن تَبَرُّوهُمْ وَتُقْسِطُوا إِلَيْهِمْ إِنَّ اللهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ * إِنَّمَا يَنْهَاكُمُ اللهُ عَنِ الَّذِينَ قَاتَلُوكُمْ فِي الدِّينِ وَأَخْرَجُوكُم مِنْ دِيَارِكُمْ وَظَاهَرُوا عَلَى إِخْرَاجِكُمْ أَنْ تَوَلَّوْهُمْ وَمَنْ يَتَوَلَّهُمْ فَأُولَئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ﴾(الممتحنة: ٧ - ٩).

ولقد طبق المسلمون هذا المعيار في العلاقات مع المخالفين، فكان اليهود -بدولة المدينة المنورة- جزءً من الرعية والأمة. ونص دستور هذه الدولة الإسلامية الأولى على أن «لليهود دينهم وللمسلمين دينهم، ومن تبعنا من يهود فإن لهم النصر والأسوة، غير مظلومين ولا مُتَناصر عليهم، وأن بطانة يهود كأنفسهم، وأن اليهود ينفقون مع المؤمنين ما داموا محاربين؛ على اليهود نفقتهم، وعلى المسلمين نفقتهم، وأن بينهم النصر على من حارب أهل هذه الصحيفة، وأن بينهم النصح والنصيحة والبر المحض من أهل هذه الصحيفة دون الإثم، لا يكسب كاسب إلا على نفسه، فيهود أمة مع المؤمنين». وبالنسبة لعموم النصارى قررت المواثيق النبوية في هذه الدولة الإسلامية الأولى: «أن لهم ما للمسلمين، وعليهم ما على المسلمين، وعلى المسلمين ما عليهم حتى يكونوا للمسلمين شركاء فيما لهم وفيما عليهم».

تلك هي حقيقة النظرة الإسلامية إلى القتال. إنه الاستثناء لا القاعدة، وهو الاستثناء المكروه ولا يجوز اللجوء إليه إلا دفاعاً عن حرية الاعتقاد والضمير وحرية الوطن الذي بدون حريته يستحيل إقامة الاعتقاد الديني على النحو الذي أراده الله في شريعة الإسلام. تلك هي حقيقة القتال في الإسلام وتلك هي مقاصده.

إنه مجرد شعبة من شعب الجهاد، وهو الاستثناء لا القاعدة، والضرورة التي تُقَدَّر بقدرها، وهو الفريضة المكروهة وليس الجِبلة التي تقود إلى التقدم كما زعمت فلسفات وثقافات خارج نطاق الإسلام.

حقيقة الإرهاب

إن المفهوم الغربي لمصطلح «الإرهاب»، والذي يعني استخدام العنف غير المشروع لترويع الآمنين ولإكراههم على قبول ما لا يريدون، وخصوصاً عندما يكون هذا الإرهاب تمارسه السلطة الحاكمة ضد المحكومين، أي إرهاب الدولة الذي يبث الرعب في نفوس المحكومين... إن هذا المفهوم الغربي للإرهاب هو أبعد ما يكون عن مفهوم المصطلح في لغتنا العربية وفي القرآن الكريم الذي هو كتاب العربية الأول وديوان شريعة الإسلام. بل إن الإسلام يبرئ سائر الديانات السماوية من أن يكون الإرهاب والعنف والإكراه والترويع للآمنين سبيل أي منها في الدعوة إلى شريعة أي دين من تلك الديانات. فمنهاج الدعوة إلى اليهودية في شريعة موسى عليه السلام هو «القول اللين»، وليس العنف أو الحرب والقتال والإرهاب: ﴿فَقُولاَ لَهُ قَوْلاً لَيِّناً لَعَلَّهُ يَتَذَكَّرُ أَو يَخْشَى﴾(طه: ٤٢-٤٧).

ولأن موسى عليه السلام لم يقم دولة ولم يقد جيشاً ولم يخض حرباً ولا قتالاً، وإنما ولد ونشأ وبعث في مصر، فلقد ظلت شريعته الحقيقية بريئة من أي إكراه أو عنف أو إرهاب.

وكذلك الحال مع النصرانية التي جاء بها عيسى بن مريم عليه السلام. فهي شريعة الصوفية المسالمة والسلام الصوفي التي بلغت في السلام والمسالمة حدوداً ومثلاً ربما عَزَّتْ على التطبيق في نطاق هذا العالم. ولذلك قال المسيح عليه السلام إن مملكته ليست في هذا العالم. فبراءة النصرانية -ومنهجها في الدعوة- من العنف والإكراه والإرهاب الذي يروّع الآمنين براءة لا تحتاج إلى كثير حديث.

وكذلك الحال مع منهاج الدعوة الإسلامية في الدعوة إلى الله، فلقد جاءت مؤكدة على المنهاج الإلهي في الدعوة إلى الإيمان الديني... منهاج الحكمة والموعظة الحسنة والجدال بالتي هي أحسن، لأن هذا المنهاج هو الوحيد الذي يثمر إيماناً وتصديقاً قلبياً يبلغ مرتبة اليقين؛ بينما الإرهاب بمعنى ترويع الآمنين وإكراههم على ما لا يريدون هو سبيل النفاق الذي هو أشد سوء من الشرك الصراح والكفر البواح، وليس سبيل الإيمان بأي حال من الأحوال.

أمَّا أولئك الذين يستندون إلى ورود الإشارة في القرآن الكريم -بسورة الأنفال- إلى الإرهاب، فإن خطأهم القاتل -هذا إذا حسنت النوايا، وساء الفهم- هو في وقوفهم عند المصطلح مغفلين تميز مفهوم هذا المصطلح في القرآن الكريم واللغة العربية عن مضمونه الغربي الذي شاع ويشيع الآن في دوائر الفكر والثقافة والسياسة والإعلام. ولو أنهم فهموا سياق الآيات القرآنية التي ورد فيها هذه المصطلح -بسورة الأنفال- ثم جمعوا إلى آيات الأنفال كل الآيات التي ورد فيها هذا المصطلح ومشتقاته بالقرآن الكريم، ثم فسروا هذه الآيات، وفقهوا هذا المصطلح وفق مضمونه العربي وسياقه القرآني، لَمَا تطرق إلى ذهن أحد أن هناك أدنى علاقة بين الإسلام وبين الإرهاب، بمعنى ترويع الآمنين بالعنف والعدوان والإكراه.

إن آيات سورة الأنفال تتحدث عن المشركين الذين يقاتلون المسلمين، بفتنتهم في دينهم، وإخراجهم من ديارهم؛ وتخص بالحديث قوماً من هؤلاء المشركين المقاتلين احترفوا الخيانة للعهود، وأخذ المسلمين على غرة رغم ما بينهم من عهود للسلم والأمان. فتطلب هذه الآيات القرآنية من المسلمين أن يعدوا من العدة، ويتخذوا من القوة ما يرهب ويخيف -أي يردع- هؤلاء الذين مردوا على الخيانة ونقض العهود والغدر والعدوان ما يردعهم عن هذه الخيانة.

يخاطب الله رسوله في هذه الآيات فيقول: ﴿وَأَعِدُّوا لَهُمْ مَا اسْتَطَعْتُمْ مِن قُوَّةٍ وَمِنْ رِبَاطِ الْخَيْلِ تُرْهِبُونَ بِهِ عَدُوَّ اللهِ وَعَدُوَّكُمْ﴾ (الأنفال:٥٨-٦٣).

فمعنى الإرهاب هنا هو التخويف لردع الخونة والمخادعين والغادرين كي لا يغدروا بالمسلمين المعاهدين. وهو تخويف يوجب إعداد القوة الرادعة وليس تخويف العدوان والعنف والإكراه، أي أنه التخويف الذي ينفي العنف والإكراه والقتال. فهو كالعقوبة الرادعة؛ إعلانها يمنع ويردع عن الجريمة، ومن ثم يمنع تطبيقها. ولا علاقة لهذا الإرهاب بهذا المعنى بترويع الآمنين وإكراههم بالعنف والقتال والإكراه الذي هو معنى مصطلح الإرهاب في الفكر الغربي.

إن امتلاك الاتحاد السوفيتي إبان الحرب الباردة في منتصف القرن العشرين للسلاح -الرادع- النووي والهيدروجيني، هو الذي أرهب وردع أمريكا وأخافها من العدوان الذري على السوفيت، فتحقق الأمن والأمان للعالم من هذه الكارثة النووية.

ويشهد على هذه الحقيقة المفاهيمية مع السياق الذي وردت به آيات سورة الأنفال معنى مصطلح الإرهاب في العربية لغة القرآن الكريم.

ونحن عندما نعود إلى «الراغب الأصفهاني» في كتاب «المفردات في غريب القرآن» نجد أن معنى الإرهاب في القرآن ولغته العربية هو على الضد من العنف الذي يروّع الآمنين ويرعبهم. فهو من «الرهبة» بمعنى المخافة مع «تحرّز واضطراب». وليس هناك عاقل يمكن أن يفسر المخافة والرهبة والخشية بالعنف الذي يروّع الآمنين ويرعبهم. وتشهد على ذلك كل الآيات القرآنية التي وردت فيها إشارات إلى هذا المصطلح وتصريفاته اللغوية.

فالرهبان هم الذين يبالغون في الخوف من الله وفي خشيته. والرهبانية هي المبالغة في الخشية من الله. وليس في أي من مضامين هذه المصطلحات القرآنية -يرهبون، فارهبون، تُرهبون، استرهبوهم، الرهْب، الرهبة، الرهبان، الرهبانية- ما يشير من قريب أو بعيد للمعنى الغربي للإرهاب، بمعنى العنف الذي يروّع الأبرياء والآمنين ويرعبهم.

إن إخراج الناس من ديارهم وأوطانهم وتحويلهم إلى لاجئين، هو عنف وإرهاب وترويع للأبرياء والآمنين. وإن نظرة على تاريخ العلاقات بين الغرب والشرق، لتضع أيدينا وأبصارنا وبصائرنا على قرون الغزو والعنف والقهر الثقافي والسياسي والديني والحضاري الذي مارسه الغرب ضد الشرق أغلب قرون ذلك التاريخ.

تلك هي حقيقة الجهاد والقتال والإرهاب في مصطلح العربية والقرآن والإسلام. ■

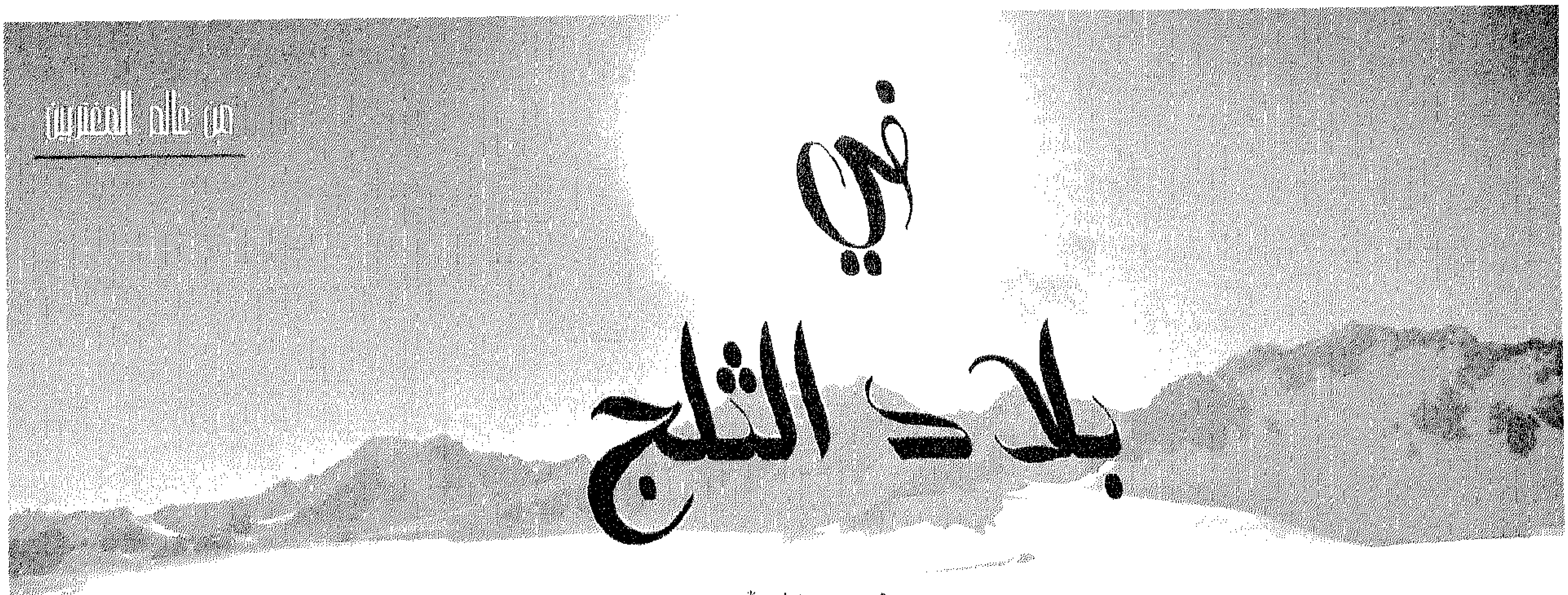
* كاتب ومفكر إسلامي – مصر.

المصادر

١. مجمع اللغة العربية، (معجم ألفاظ القرآن الكريم) طبعة القاهرة سنة (١٣٩٠هـ - ١٩٧٠م).

٢. د. محمد حميد الله الحيدر آبادي، محقق (مجموعة الوثائق السياسية للعهد النبوي، والخلافة الراشدة)، ص ١٦- ٢١، طبعة القاهرة سنة ١٩٥٦م.

٣. مجمع اللغة العربية، (معجم العلوم الاجتماعية) طبعة القاهرة، سنة ١٩٧٥م.



في بلاد الثلج

محمد سداد *

الفصل شتاء. . . المكان بلد من بلدان روسيا الشهيرة بجبالها الشاهقة وبردها القارس وثلوجها التي لا تذوب حتى نهاية الربيع. مضى على مغادرته لتركيا بضعة أشهر. حين ودع الأهل والأصدقاء كان يوما من أيام الخريف حيث أخذت أوراق الأشجار الصفراء تتساقط منذرة بنهاية الأيام الجميلة. إنه الآن في بلاد بعيدة تقع في أقاصي الأرض، ولا يعرف عنها شيئا سوى ما قرأ في كتب القصص والأساطير.

شاب في السادسة والعشرين من عمره. تخرج في إحدى الجامعات الراقية بإسطنبول. يتقن اللغة الإنكليزية كلغته الأم. نعم، إنه الآن بعيد عن الوطن، في أرض لا يعرف لغتها ولا ثقافتها. دفعه إلى هنا صوت انطلق من أعماقه «امض يا أخي، فهناك ظمآى يترقبون النور الذي تحمله إليهم». أتى إلى هذه البقعة النائية من روسيا مدرسا للإنكليزية في ثانوية فتحها متطوعون من تركيا قبل عدة سنوات لنشر رسالة الحب والسلام. البرد قارس والجبال يكللها الضباب والثلوج تغطي كل مكان. . . المفروض ألا يتأثر بالبرد لأنه قد اعتاد على مثله في مدينة «أرضروم» الشرقية الشهيرة ببردها وتساقط ثلوجها. غير أن الوضع هنا يختلف تماما. فهو يقسم أن جسده لم يشهد طوال حياته مثل هذا البرد. الفترة القصيرة التي انقضت ما بين نزوله من الطائرة وركوبه السيارة بدت له كأنها عام كامل. الموت تجمدا أمر سهل للغاية هنا.

وصل المدرسة. . . كوكبة من الشباب في انتظاره رغم البرد القارس. كلهم أتوا من تركيا. أحدهم معلم إنكليزية والآخر معلم كيمياء، والثالث معلم فيزياء. . . كلهم خريجو أرقى جامعات تركيا. غير أنهم اختاروا هذه البلاد الباردة على وطنهم الدافئ والعروض المغرية. حملتهم نفس الغاية السامية. أثناء تجواله في الممرات والفصول تحدث مدير المدرسة عن ضيق الإمكانيات والمواقد المعطلة ومشكلة الكهرباء التي لا يعلم إلا الله متى تعمل وأمورا أخرى كثيرة. تساءل الشاب بينه وبين نفسه «أيمكن العيش هنا؟»

تعلقت نظراته على زملائه وهم يطوفون حوله بحماس. . . هذا يصلح جانبا من البناء المتداعي وذاك يدهن الجدران وآخر يحمل خزانة. . . لمح النور الذي يتلألأ في عيونهم. امتلأ قلبه بالغبطة لهؤلاء الشباب الذين نذروا أنفسهم لرسالة الحب والتسامح والإخاء. من أين يجدون هذه الطاقة من الصبر؟ أنى لهم هذه القوة من الشوق والعزم الذي لا ينفد؟ كان يعمل كل واحد منهم كأنه جذوة متقدة. . . الأمل يتألق في محيا الجميع. . . بسمة الفرح تعلو جميع الوجوه؟ ما سر هذا يا ترى؟

عندما بدأت العتمة تسري في الجو علم أن الشمس مالت إلى المغيب. أين هو السعيد الذي يحظى برؤية الشمس؟ الغيوم الرمادية تغطي الآفاق هنا أكثر من ستة أشهر. ذهبوا به إلى منزل أحد تلاميذ المدرسة. خلافا للبرودة المجمدة احتضنته حرارة حنون في الداخل. بعد قليل لاح التلميذ يحمل صينية أكواب من الشاي الساخن. توقع أن يكون في الخامسة عشر من العمر، قامته تميل إلى الطول، شعر أصفر يميل إلى الحمرة، عيناه زرقاوان في وجه مستدير أبيض تعلوه ابتسامة الترحاب. أثناء تقديمه الشاي قال التلميذ للضيف الجديد بلغة تركية جيدة «أنا أجيد اللغة التركية». حاول الضيف أن يغطي حيرته بابتسامة متكلفة «قل شيئا بالتركية إذن؟»

حدق الفتى في عينيه وقال بصوت رخيم وبسمة واسعة وكأنه اكتشف تساؤلاته التي تصطرع داخله منذ النهار «أما ترضى. . . أن تكون لهم الدنيا ولنا الآخرة. . .»

أصيب بصدمة. . . فوجئ. . . لم يكن يتوقع هذا الرد. . . أحس بالخجل يجري في عروقه بسبب الأفكار التي راودته أثناء تجواله في المدرسة. يا إلهي! ها هو السر؟ إنه اكتشف سر الصبر والعزم والشوق الذي شد قلوب زملائه إلى هذه البقاع النائية. . . ها هو السر يقف أمامه بوجهه الطلق المتبسم. فأحس بصوت ينطلق من أعماقه «بل هنا الحياة الحقيقية التي تستحق العيش». أحس بارتياح عميق في قلبه. زالت جميع الآلام والأحزان. شعر أنه وجد وطنه الحقيقي.

* كاتب تركي. وهي قصة حقيقية وقعت في إحدى مناطق روسيا.

جمالية المضمون العلمي في رسائل النور

أ.د. محمد الروكي*

إن المتأمل في رسائل النور، المتمعن في مضامينها ومقاصدها، يجد أنها حقا رسائل نور، فهي تفيض بمعاني النور، وتتدفق فيها أفكار النور، وتشقق منها سيول الهدى، وتنساب منها فيوض الندى. إنك إذا قرأتها في نسقها العام، ونظرت إليها وهي في منظومتها الشاملة المتكاملة، أدركت أنها قد نبعت من قلب متفجر بالإيمان، متشبع بالقرآن، وعلمت أنها قد سالت من فكر شمولي عميق، قوامه السعة والتنوع وقوة التحليل والتعليل. إنك إذا قرأت رسائل النور وأمعنت النظر في فقراتها وفتحت البصيرة في محتوياتها رأيت رأي العين من خلالها سعيد النورسي القديم والجديد وما بعد ذلك، وأيقنت أنه بجانبك يحاورك ويناجيك، ويلقي عليك بخالص ذهبه، ولباب أدبه، ويحبك لك ببالغ نصائحه، ويسبك لك أجود مواعظه، ويصوغ لك لآلئ فكره، وحلال سحره، ولم يسعك أمام ذلك كله إلا أن تنحني إجلالا، وتطأطئ رأسك امتثالا، وتقف إكبارا لهذا الرجل الرباني الذي يحق لنا أن نصفه بأنه المجدد المصلح المربي القدوة الإمام الذي وهب قلبه وعقله لعصره، ووقف حياته لدينه، وبذل رحيق عمره للدعوة والتربية وبناء الأجيال المسلمة المؤمنة، وتقديم مادة الإسلام لهم ينبوعا صافيا، ودواء شافيا من أسقام الأوهام الفكرية، وعلل الاختلالات التي ابتلتهم بها الحياة المعاصرة وما حملته من شظايا المدنية الغربية، وما رشحت به من رذاذ حمأتها الآسنة.

إن رسائل النور في الحقيقة لا يدرك قيمتها ولا يذوق حلاوتها ولا يقدرها حق قدرها إلا الذين عايشوها وتلقوها مباشرة من معينها الصافي، ومنبعها الرقراق، وكانوا رجالها وناسها، فيهم حُررت، وفي وقائعهم كُتبت، وبأيديهم نُسخت ووُزعت، وفي بيوتهم ومجالسهم قُرئت. فهم أسباب ورودها، وعناصر مادتها ومقومات محتوياتها. ومن ثم فإن قارءَها يجب أن يستحضر ذلك كله حتى تفهم حق الفهم. يجب أن يقرأها القارئ وقد أخذ حظه من معرفة ملابساتها الزمانية والمكانية والإنسانية. يجب أن يقرأها القارئ وقد أخذ زاده من معرفة أصولها ومصادرها ومدرستها ومنهاجها، وتعرف على محررها ورائدها وقائدها وموقد نورها الشيخ العالم الرباني بديع الزمان سعيد النورسي الذي نحتها من ذاته، وفجر ينابيعها في قلبه الوضاء، وأوقد مصباحها من فكره الثاقب وبصيرته الساطعة. لا بد لقارئ رسائل النور أن يستعين في فهمها وفقه مضامينها بالتعرف على حياة هذا الرجل الإمام وفكره وجهاده وفلسفته في الدعوة والتربية والبناء والتغيير، ومنهجه في خطاب العقل والقلب، وطريقته في مناظرة الأقربين ومحاورة الأبعدين.

إن رسائل النور مدرسة قائمة بذاتها، لها أسسها المحكمة، ومعالمها الواضحة، ومنهاجها التربوي البين. إنها مدرسة مبنية على ركنين مضمنين في رسمها نفسه المركب تركيبا إضافيا «رسائل النور».

فالركن الأول النور. ومعنى ذلك أن تراث النورسي ورصيده الفكري، وأعماله العلمية التي بين أيدينا، كل ذلك قائم على أساس صياغة أفكار الهدى ومضامين النور المستمدة من أصول الإسلام والقرآن والسنة. نعم إن تراث النورسي هو اقتباس من نور القرآن وإشراقة السنة، فهو نور على نور ﴿وَمَنْ لَمْ يَجْعَلِ اللَّهُ لَهُ نُوراً فَمَا لَهُ مِنْ نُورٍ﴾(النور:٤٠). وهذا التفسير لا يتنافى مع ما ذكره النورسي في تعليل تسمية أعماله بـ«رسائل النور» من قوله في كتاب الملاحق: «إن سبب إطلاق اسم رسائل النور على مجموع الكلمات وهي ثلاث وثلاثون كلمة، والمكتوبات وهي ثلاثة وثلاثون مكتوبا، واللمعات وهي إحدى وثلاثون لمعة، والشعاعات وهي ثلاثة عشر شعاعا، هو أن كلمة النور جابهتني في كل مكان طوال حياتي، منها:

- قريتي اسمها نورس
- اسم والدتي المرحومة: نورية
- اسم أستاذي في الطريقة النقشبندية: سيد نور محمد
- وأحد أساتذتي في الطريقة القادرية: نورالدين
- وأحد أساتذتي في القرآن: نوري
- وأكثر ما يوضح كتبي وينورها هو التمثيلات النورية.
- وأكثر ما حل مشكلاتي في الحقائق الإلهية هو اسم «النور» من الأسماء الحسنى.
- ولشدة شوقي نحو القرآن، وانحصار خدمتي فيه، فإن إمامي الخاص هو سيدنا عثمان ذو النورين رضي الله عنه». (١)

وأقول: هذا لا يتنافى مع التفسير العام الذي ذكرت، والتعليل الكلي الذي بينت، بل إنه يبينه ويؤكده ويقرره، لأنه كان يستحضر كلمة النور ودلالاتها ومقاصدها وأسرارها التي جابهته فيها كلمة النور. فالذي يعنينا نحن الآن هو النظر إلى رسائل النور بعد صياغتها وتحريرها، وتقويمها في ضوء مضمونها ومنهجها وآثارها التربوية الإيمانية. فهي من هذه الجهة العامة تحمل قيم النور وفكرته وسره وإشعاعه. وحتى أسماء بعض مجموعات الرسائل جاءت مطبوعة بذلك دالة عليه، مثل اللمعات، الشعاعات، صيقل الإسلام... الخ.

والركن الثاني الرسائل. ومعنى ذلك أن هذه الأعمال العلمية تحمل رسالة لأبناء الإسلام ورجاله ونسائه وشبابه. فهي أعمال ومحررات ليس المقصود منها هو مجرد المعلومات والمتعة الفكرية، بل إنها أعمال رسالية توجيهية تربوية وظيفية. القصد منها إيصال المضامين الإسلامية حية إلى العقل، وإرسال المعاني الإيمانية الناصعة إلى القلب، وتوجيه المقاصد والأسرار القرآنية إلى النفس والوجدان والشعور.

وإذن فتراث الأستاذ النورسي بناء شامخ سامق، قائم على ترجمة نور الإسلام وهدى القرآن إلى رسائل ومكتوبات ومحررات وظيفية رسالية، يمكن أن تُتخذ نبراسا في الحياة، ودليلا مرشدا على السير في دربها. وهاهنا يكمن جمال هذه الرسائل، وتظهر روعتها. إن جمالها في نوريتها ورساليتها. إن جمالها في مضمونها ومقاصدها ودلالاتها التربوية الإيمانية.

فما هي أصول هذه الجمالية؟ إن الجواب عن ذلك هو كالآتي:

أصول جمالية رسائل النور

إن جمالية رسائل النور نابعة من جودة مضمونها العلمي. وجودة مضمونها العلمي قائمة على أصول كثيرة كان الأستاذ النورسي راسخا فيها، مشبعا بمادتها، متفيئا في ظلالها، ويمكن إجمالها في الأمور الآتية:

١. القرآن والسنة

إن الطابع العام الذي يطبع رسائل النور أنها رسائل مستمدة قوتها من القرآن، ومقتبسة أنوارها من القرآن، وآخذة ماءها ورونقها وحياتها من القرآن. فهي رسائل قرآنية استخلص الأستاذ النورسي مادتها ومقوماتها من القرآن الكريم الذي تشبع بقيمه وحكمه ومضامينه، ورأى بنوره، وسار على هداه، وملأ به قلبه، وسرى تياره في وجدانه، فصار بذلك رجلا قرآنيا يفكر بالقرآن، ويكتب بالقرآن، ويعلم بالقرآن. لقد جاء في كتاب الملاحق هذا التصوير لرسائل النور:

«إن رسائل النور برهان باهر للقرآن الكريم، وتفسير قيم له، وهي لمعة براقة من لمعات إعجازه المعنوي، ورشحة من رشحات ذلك البحر، وشعاع من تلك الشمس، وحقيقة ملهمة من كنز علم الحقيقة، وترجمة معنوية نابعة من فيوضاته.

إن رسائل النور ليست كالمؤلفات الأخرى التي تستقي معلوماتها من مصادر متعددة من العلوم والفنون. فلا مصدر لها سوى القرآن، ولا أستاذ لها إلا القرآن، ولا ترجع إلا إلى القرآن، ولم يكن عند المؤلف أي كتاب آخر حين تأليفها. فهي ملهمة مباشرة من فيض القرآن الكريم، وتنزل من سماء القرآن ومن نجوم آياته الكريمة». (٢)

وجاء في نفس الكتاب أيضا:

«إن رسائل النور كذلك ليست نورا مقتبسا وبضاعة مأخوذة من معلومات الشرق وعلومه، ولا من فلسفة الغرب وفنونه، بل هي مقتبسة من العرش الرفيع السماوي لمرتبة القرآن الكريم الذي يسمو على الشرق والغرب. فرسائل النور التي هي ضياء معنوي، وعلم في منتهى العلو والعمق معا، لا تحتاج دراستها والتهيؤ لها إلى تكلف، ولا داعي لأساتذة آخرين لتعلمها، ولا الاقتباس من أفواه

المدرّسين، حيث إن كل شخص يفهم حسب درجته تلك العلوم العالية دونما حاجة إلى إشعال نار المشقة والتعب للحصول عليها، فيفيد نفسه بنفسه، وربما يكون عالما محققا». (٣)

وهذه الخاصية في رسائل النور المشار إليها في الفقرة الأخيرة من هذا الكلام، هي أيضا مقتبسة من القرآن الكريم. فالقرآن لا يحتاج الآخذ منه إلى تكلف ولا إلى أستاذ أو مدرس، بل يكفيه الإقبال الصادق عليه، والتدبر الجاد في آياته، والنظر الواعي في بصائره. فكل من أخذ بهذه الأسباب نال حظه من كنوز القرآن، يصدق ذلك قول الله عز وجل: ﴿وَلَقَدْ تَرَكْنَاهَا آيَةً فَهَلْ مِنْ مُدَّكِرٍ﴾ (القمر: ١٧ و ٢٢ و ٣٢ و ٤٠).

والفكر القرآني عند النورسي معزز بالسنة، ومدعم بتفسيرها وبيانها. يقول في توضيحه لقوله تعالى: ﴿قُلْ إِن كُنتُمْ تُحِبُّونَ اللهَ فَاتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ اللهُ﴾ (آل عمران:٣١) تعلن هذه الآية العظيمة إعلانا قاطعا عن مدى أهمية اتباع السنة النبوية ومدى ضرورتها:

«نعم إن هذه الآية الكريمة أقوى قياس وأثبته من قسم القياس الاستثنائي ضمن المقاييس المنطقية، إذ يرد فيه على وجه المثال: «إذا طلعت الشمس فسيكون النهار»، ويرد مثالا للنتيجة الإيجابية: «طلعت الشمس فالنهار إذن موجود»، ويرد مثلا للنتيجة السلبية: «لا نهار فالشمس إذن لم تطلع». فهاتان النتيجتان –الإيجابية والسلبية– ثابتتان وقاطعتان في المنطق، وكذلك الأمر في الآية الكريمة، فنقول: إن كان لديكم محبة الله فلا بد من الاتباع لحبيب الله، وإن لم يكن هناك اتباع فليس لديكم إذن محبة الله، إذ لو كانت هناك محبة حقا فإنها تولد حتما اتباع السنة الشريفة لحبيب الله». (٤)

٢. العلوم الشرعية وغيرها

الناظر في رسائل النور لا يسعه إلا أن يدرك غزارة مضمونها العلمي. وقارئها الفاحص المتمعن يجدها حافلة بالمادة العلمية، قوية الإفادة، عظيمة النفع. ومرد ذلك إلى ضلاعة صاحبها النورسي بالعلوم الشرعية واللغوية والعقلية، وتبحره في مباحثها وقواعدها. فالقرآن الكريم هو أستاذه الأول، ومدرسته الأولى؛ والسنة النبوية هي منهاجه الذي سار عليه في حياته ورسائله. وقد أودع في رسائله مكنون فهومه لآيات القرآن وكنوزه ومعارفه التي استمدها منه مستعينا بما لديه من حصيلة واسعة في علوم القرآن التي هي مفاتيح معانيه وأحكامه وقيمه. كما أودع فيها جواهر فهمه المشرق للأحاديث النبوية مستعينا بما يملكه من قواعد فقه الحديث وعلومه التي هي مفاتيح لمضامينه ودلالاته الشرعية والتربوية.

وإلى جانب علوم القرآن والسنة فقد أودع النورسي في رسائله مئات المسائل والفوائد في علم التوحيد والفقه وأصوله والمنطق والبلاغة والفلسفة والتاريخ والأدب واللغة... وغيرها من العلوم والفنون، وألوان الثقافة الشرعية والفكر الإسلامي. ومن ثم كانت هذه الموسوعة العلمية أصلا آخر لجمالية المضمون العلمي عند النورسي ينضاف إلى القرآن والسنة من حيث مادتها. فكما أن رسائل النور قوامها القرآن، ومنهاجها السنة، فكذلك جاءت ترشح بمختلف العلوم والفنون وأصناف الثقافة التي استقاها من مادة الإسلام وفكرته، وصاغها صياغة حية محركة موجهة.

٣. القيم الإسلامية

إن استفادة النورسي من العلوم الشرعية والعقلية واللغوية وتوظيفه إياها في رسائله، لم تكن من قبيل العلم للعلم، ولا من باب الفن للفن، بل كان ذلك من باب خدمة الدين وإذكاء روح الإيمان، وأداء رسالة الإسلام. لقد كتب النورسي رسائله وحررها مفعمة بأخلاق الإسلام، مشبعة بقيمه ومكارمه، حافلة بفضائله. لقد جاءت رسائل النور تحمل لواء أخلاق الإسلام، وتصوغ قيمه في فقراتها الناصعة، وتترجم لقرائها مبادئه ومثله العليا في لغة حية وأسلوب محرك مؤثر. فكان هذا أصلا من أصول جمالها الفكري وروعتها المضمونية، يتكامل مع سابقه، ويسير معه جنبا إلى جنب. والعلم والأخلاق ما اجتمعا في شيء إلا زاناه وجملاه، بل إن العلم في ميزان القرآن لا ينفك عن ثمرته التي هي الأخلاق والفضائل. فالعلم الحق بميزان القرآن هو الذي يقود إلى قيم الخير، ويجر إلى فضائل الأعمال ومحاسن السلوك، يصدق ذلك قول الله تعالى في معرض المقارنة بين الصالح المستقيم وعكسه:﴿أَمَّنْ هُوَ قَانِتٌ آنَاءَ اللَّيْلِ سَاجِداً وَقَائِماً يَحْذَرُ الْآخِرَةَ وَيَرْجُو رَحْمَةَ رَبِّهِ قُلْ هَلْ يَسْتَوِي الَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَالَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُولُوا الْأَلْبَابِ﴾ (الزمر:٩).

٤. الربانية

إذا كانت الأخلاق هي ثمرة العلم النافع، وأن كلا منهما أصل من أصول جمالية المضمون العلمي لرسائل النور. فإن الأخلاق ثمرتها الربانية؛ فتمثل أخلاق الإسلام وقيمه، والتزام فضائله، والتربية على مكارمه ينتج في الشخص الربانية ويورثه إياها. ولقد كان النورسي ربانيا، وأستاذا في الربانية، ومعلما للربانية، وداعيا إلى الربانية، وجاءت رسائله مطبوعة بطابع الربانية. وقد تعلم هذه الربانية من القرآن الكريم، واكتسبها منه، متمثلا في ذلك قول الله تعالى: ﴿مَا كَانَ لِبَشَرٍ أَن يُؤْتِيَهُ اللهُ الْكِتَابَ وَالْحُكْمَ وَالنُّبُوَّةَ ثُمَّ يَقُولَ لِلنَّاسِ كُونُوا عِبَاداً لِي مِن دُونِ اللهِ وَلَـكِن كُونُوا رَبَّانِيِّينَ بِمَا كُنتُمْ تُعَلِّمُونَ الْكِتَابَ وَبِمَا كُنتُمْ تَدْرُسُونَ﴾ (آل عمران: ٧٩). وبهذا كانت ربانية النورسي التي ترشح بها رسائله أصلا من أصول جمالها الفكري وبهائها العلمي. ومن القرآن استمدها واقتبس أنوارها.

٥. الإيمان برسالة الإسلام

لقد كتب النورسي رسائله وأخرجها لطلاب النور انطلاقا من إيمانه برسالة الإسلام ويقينه بأنها الحق، وأن سبيلها هو سبيل الرشاد، وثقته بأن الجولة لها والعاقبة لأصحابها، قال يقرر ذلك:

«أعلن بلا تردد أن الذي دفعني وشجعني إلى مبارزة أفكار العصور الخوالي والتصدي للخيالات والأوهام التي تقوت واحتشدت منذ مئات السنين، إنما هو اعتقادي ويقيني بأن الحق سينمو نمو البذرة النابتة وإن تسترت تحت التراب، وأن أهله سينتصرون وإن كانوا قلة وضعفاء بظلم الأحوال. واعتقادي أن حقيقة الإسلام هي التي تسود قارات العالم وتستولي عليها. نعم إن الإسلام هو الذي سيعتلي عرش الحقائق والمعارف فلا يكشفها ولا يفتحها إلا الإسلام... الأمارات تبدو هكذا».(٥)

وبمثل هذه الثقة وهذا الإيمان جاءت رسائل النور صادقة اللهجة، جميلة المضمون، رفيعة المحتوى، نافعة هادية.

٦. الثقة بالنفس

هذا الأصل متعلق بسابقه تعلق الثمرة بأمها، والنتيجة بمقدمتها، وذلك أن إيمان النورسي برسالة دينه، ولد فيه ثقته بنفسه، فكانت كل فقرة كتبها في رسائله، وكل جملة وكل كلمة تنبض بالصدق والقوة، وتنضح بالحرارة والجدية والتأثير في المخاطب. لقد اكتسب ثقته بنفسه من إيمانه برسالته. والثقة بالنفس مأتاها الثقة بالله عز وجل. ولقد كان النورسي واثقا بربه جل وعلا، واثقا بوعده الذي وعد به عباده من النصر في الدنيا والجنة في الآخرة، وحاش لله تعالى أن يخلف وعده، لقد طبع بهذه الثقة كل كلمة من كلمات رسائله، فجاءت أجمل وأروع في مضمونها العلمي ومحتواها التربوي.

٧. الصدق ونبع الكلام من القلب

من أصول جمال المضمون العلمي لرسائل النور صدق لهجتها، وانفلاق معانيها وخطابها من أعماق قلب صاحبها ومحررها. لقد كان صادقا في كل ما يكتبه، مؤمنا بكل ما يقوله ويحرره، وكان لسانه دليل قلبه، وقلمه رسول فكره، وظاهره مترجم باطنه، وصدق الكلام عنوان جماله.

٨. غزارة الأفكار

لقد استفاد النورسي من كثرة العلوم التي درسها، وكثرة الكتب التي قرأها، فتكون لديه من ذلك فكر واسع ومعلومات غزيرة استطاع أن يجلو بها الحقائق ويعرض المفاهيم الإسلامية ويحرر المقولات العلمية. كما استطاع بها أن يجيب عن كل ما يعرض عليه من الأسئلة، ويحل ما يلقى إليه من المسائل والمشاكل.

لقد كتب في علوم الدين، وفي الآداب، والاقتصاد والسياسة والتاريخ، وفي الفلسفة والمنطق وعلم الكلام... وغيرها من العلوم والفنون. وكل ذلك يكتبه بإتقان، ويحرره بإحسان... فكانت هذه الغزارة في أفكاره أصلا من أصول جمال المضمون العلمي في رسائله.

٩. سعة الخبرة والحنكة وطول المباشرة

لقد جمع النورسي إلى جانب سعة علمه، وغزارة أفكاره، ولطيف شمائله مصدرا آخر اكتسبه من الحياة، هو خبرته الواسعة، وحنكته البعيدة، وطول مباشرته وتدبيره لشؤون طلابه وملازميه. فجاء ذلك واضحا في رسائله، بينا في فقراتها، مطبوعا في كلماتها، فزادها جمالا على جمال، ونورا على نور، حيث يستفيد منها قارئها العلم والعمل والخبرة والتجربة الحية التي تشخص العلم وتنزله على أرض الواقع، وتيسر الانتفاع به في الحياة.

١٠. سلامة المنهج وجودته

إلى جانب ما تقدم من أمور المضمون العلمي لرسائل النور، فقد صيغ هذا المضمون وأفرغ في قالب جديد، ومنهج سديد، لم يتبع فيه النورسي طرق التأليف المعروفة، ولا مناحي الكتابة المألوفة، بل اعتمد طريقة فريدة وأسلوبا شيقا متميزا. فهو يعتمد التنويع في عرض الأفكار، والعمق في تحليلها، والسعة في ضرب الأمثال، والشمولية في بسط المضامين العلمية، والوظيفية في إيراد النصوص وسوقها، والتدرج بالقارئ من العام إلى الخاص ومن الخاص إلى العام، ومن الكل إلى الجزء ومن الجزء إلى الكل، ومن الأعلى إلى الأدنى ومن الأدنى إلى الأعلى. وهكذا صيغ مضمون الرسائل في منهج محكم لا يصدر إلا عن خبير متبصر متمرس. فكان هذا أصلا آخر من أصول جمال الفكر النورسي في رسائله.

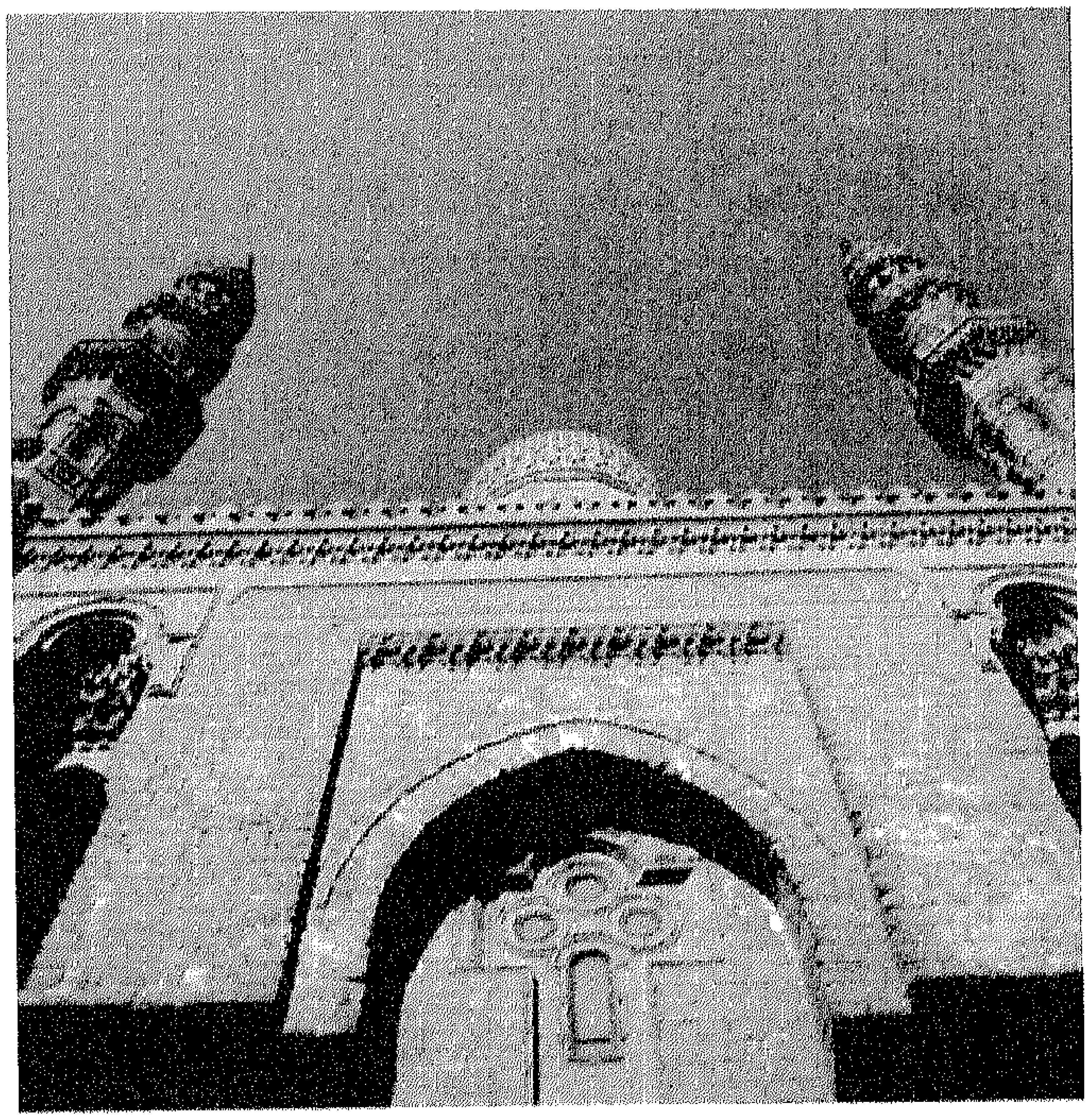
تلك -إذن- عشرة كاملة من الأصول التي قام عليها جمال مضمون رسائل النور، وأمثلة ذلك وتطبيقاته ترشح به الرسائل، وتنطق صفحاتها وفقراتها وجملها، فارجع إلى حيث شئت من هذه الرسائل تجد ذلك أوضح وأجلى في سطورها، وأما ما وراء السطور فإنه أكثر وأقوى. ☐

* جامعة محمد الخامس – الرباط / المغرب.

الهوامش:

١. الملاحق، ملحق بارلا ص٧٠-٧١.
٢. الملاحق، ملحق قسطموني ص٢٢٠-٢٢١.
٣. الملاحق، ملحق قسطموني ص٢٢٢-٢٢٣.
٤. السنة النبوية، مرقاة ومنهاج ص١٣-١٤.
٥. صيقل الإسلام، محاكمات عقلية ص٢٢-٢٣.

الأمة الإسلامية... مفهوماً وخصائص



د.سمير بودينار *

إذا قدر لنا أن نسأل مجموعة من الأفراد في مجتمعنا عن «الأمة الإسلامية اليوم» فإن المتوقع أن تكون الإجابات أسئلة حائرة تقابل السؤال بالسؤال، من نوع: «وأين هي الأمة الإسلامية؟! هل بقي لها وجود؟!» أو تكون تقريرا يائسا: «إن الأمة الإسلامية ممزقة متفرقة. . . الأمة الإسلامية تعاني من حالة ضعف وهوان. . . الأمة الإسلامية واقعة تحت سيطرة أعدائها. . . الأمة الإسلامية لم يعد لها وجود، لأن المسلمين ما عادوا متشبثين بدينهم، موحَّدين في ظل مبادئه. . .» وهي عبارات لا يمر يوم إلا ونقرأها فيما يكتب ونسمعها في وسائل الإعلام وعلى ألسنة الناس في ملتقياتهم، يعبرون بها عن قلة أملهم في واقع الأمة الإسلامية اليوم، يؤكدون سوء حالها وخطورة مبلغ استشراء الداء في أوصالها. وقد لا نختلف كثيرا عن بعض هذه الآراء التي تبلغ مبلغ الإجماع في مستوى معين من مستويات قراءة الواقع، إلا أن ملاحظة ثانية لا تقل أهمية، تكاد تغيب بصورة مطلقة عن النقاش وعن التفكير وبالتالي عن الوعي العام، وهي أن أزمتنا في إدراك معنى الأمة الإسلامية ومعاني الولاء لها والانتماء إليها وواجبنا تجاهها، لا تقل عن الأزمة التي تعيشها هذه الأمة اليوم، بل يمكن القول إن هناك علاقة سببية لا يخطئها النظر تصل بين الأمرين.

فما هي الأمة الإسلامية ابتداء؟ مم تتشكل؟ ما هي مادتها؟ أليس كل مسلم على ظهر الأرض هو اللبنة الأصغر في بنائها؟ ألا يفترض هذا استحضار العلاقة المباشرة -عند الحديث عن الأمة الإسلامية ومشاكلها- بين الفرد والجماعة، بين حال المسلم وواقع أمته، بين الجزء والكل؛ كما يفترض حرصا على معرفة هذه الأمة من حيث أسس بنائها وخصائصها المتفردة، والتي قد تكون -بشكل ما- أحد العوامل التي جلب لها هذه التحديات الهائلة التي تصارعها، يماثل الحرص على إبداء الحسرة على حالها.

إن مثل هذه المنطلقات هي في تصورنا المداخل التي على إجاباتها



تترتب الحلول المقترحة، بل الأسئلة البديلة، المدعو كل واحد للمساهمة في طرحها، ونعتبر أن هذه الأسئلة ينبغي لها أن تظل الحافز للمعرفا والبحث في خيارات المستقبل المطروحة على أمتن أي علينا أولا، من موقع الانتماء المبدئي والفعلي والدائم للأمة الإسلامية.

١. أسس بناء الأمة في الإسلام

يقوم مفهوم الأمة الإسلامية على أسس ثلاث لا يتيسر إدراكها إلا بالوقوف عندها، ليس بوصفها القواعد التي يقوم عليها بناء الأمة في مجالي التفكير والتجربة التاريخية فحسب، بل لأن هذه الأسس جزء لا يتجزأ من ماهية الأمة نفسها وعناصر بنائها ماضيا وحاضرا، واستمرارها مستقبلا، وهي:

ا) الأساس الثقافي

وهو الذي يمثل قاعدة بناء الأمة الإسلامية، فانطلاقا منه تتحدد ماهيتها ومرجعيتها وضوابط وحدتها، وهو الذي يبين رسالة الأمة الإسلامية، اعتمادا على مصادر الثقافة الإسلامية الأصيلة التي تحدد العقيدة والشريعة ومنظومة القيم والأخلاق والسلوك. وبالرجوع إلى هذه المصادر ندرك أن الأمة الإسلامية مفهوم أسسه القرآن الكريم ﴿وَإِنَّ هَـٰذِهِۦٓ أُمَّتُكُمْ أُمَّةً وَٰحِدَةً وَأَنَا۠ رَبُّكُمْ فَٱتَّقُونِ﴾ (المؤمنون:٥٢)، وانتقل في السنة النبوية إلى مستوى الواقع الذي يمثل «النموذج التأسيسي». فقد أسس رســول الله ﷺ نواة الأمة الإسلامية في مكة من مجموعة الصحابة الذين صدقوا واتبعوا قبل أن يأتي النموذج العملي من خلال «التوثيق الدستوري» في «العهد النبوي أو صحيفة المدينة» والتي جاء فيها: «هذا كتاب من محمد النبي بين المؤمنين والمسلمين من قريش ويثرب، ومن تبعهم فلحق بهم وجاهد معهم، أنهم أمة واحدة من دون الناس»، ثم من خلال الأفعال والأقوال النبوية التي أعطت للجماعة المسلمة في المدينة بعد الهجرة سمات الأمة الواحدة المترابطة بروابط العقيدة والتصور ووحدة القيم والرسالة والمشروع الحضاري، والمنفتحة في امتداد لا يحده جنس ولا لون ولا لغة ولا رقعة جغرافية، إلا ما كان من إيمان بمبادئ هذه الأمة والتزام بمرجعيتها المؤسسة على الشريعة، بما يحقق وحدة الإدراك لكل ما يتصل بهذه المرجعية، كأساس لاحترام ما ينبثق عنها من مبادئ وأحكام تمثل نظاما متكاملا للسلوك الفردي والجماعي على السواء. وعلى هذا القدر من الجلاء كانت الإشارة النبوية في «الصحيفة» «. . . وأنكم مهما اختلفتم فيه من شيء فإن مرده إلى الله عز وجل وإلى محمد ﷺ» تأسيسا لوحدة المرجعية والتي تمثل أهم عناصر وحدة الأمة الإسلامية التي «تؤمن بالله ربا وبالإسلام دينا وبمحمد ﷺ نبيا ورسولا، وبالقرآن كتابا. . .».

والواقع أنه لهذا الرابط العقدي الثقافي دوره التأسيسي في هذه الوحدة كما سبق، إلا أن هذا الأساس نفسه لو بقي عقيدة مشتركة في قلوب عدد من الناس أو فكرة في عقولهم تمنحهم أجوبة وجودية على أسئلة الكون والحياة والإنسان، دون أن تمتد إلى الجانب العملي من حياتهم وفق آليات ثابتة ودائمة، أسستها الشريعة لتبقى عناصر الوحدة وقوة الروابط والصلات بين الأفراد داخل الأمة، لربما كان قد وقع بين المسلمين في إطار العقيدة الواحدة من التباعد والجفاء ما لا يمكن تصوره إلا باستحضار سير أمم ومجتمعات أخرى وردت إليها النبوات وتتابع إليها المرسلون حاملين رسالة التوحيد، ثم إذا هي بعد مدة طالت أو قصرت تفقد المبررات المادية العملية للوحدة، وتدب إليها الفرقة وتختلف بل تتقاتل حتى حول الفهوم المتباينة للعقيدة المشتركة. والحال أن الأمة الإسلامية تجد في مصدرها الأصيل ما يمكن أن نسميه «إعادة إنتاج مستمرة» لعناصر التوحد في مستوياتها المختلفة، بدءا من النواة الاجتماعية (الأسرة)، وصولا إلى مستوى الأمة الإسلامية الكبرى، مرورا بمستويات الاجتماع الإنساني كافة. ولعل هذه الآلية الموحدة باستمرار تبدو أجلى ما يكون في الأساسين الاجتماعي والاقتصادي لبناء الأمة.

ب) الأساس الاجتماعي للأمة الإسلامية

إذا كانت العلاقات الإنسانية هي التي تؤسس المجتمع، فإنه لا يتكون على الحقيقة بالأعداد الكبيرة من الأفراد مهما بلغوا، إلا في ظل شبكة العلاقات المعقدة بينهم، والتي تمثل شرط بناء المجتمع وحقيقته في آن. وبناء على هذا الأساس مثلت جملة الأحكام الشرعية المتصلة بالجانب الاجتماعي والمؤسسة لاستمرار ودوام الصلات بين الفرد المسلم وبين غيره من أفراد المجتمع الإسلامي الذي يوحده الإيمان المشترك بالمقومات الأساسية للإسلام (وحدة المرجعية) سواء اتخذ هذا الإيمان بعدا عقديا ثقافيا بالنسبة للمسلم أو بعدا حضاريا بالنسبة لغير

المسلم داخل المجتمع الإسلامي. وعلى هذا كانت حقوق المسلم على المسلم من الاتساع، بحيث تمتد إلى كافة صور الحياة الاجتماعية، ومن ثم فإن فرص بقاء الصلة بين أفراد المجتمع الإسلامي أكبر من أي فرص أخرى في ظل قيم مخالفة. ذلك أن طبيعة الالتزام الديني في الإسلام نفسه تفرض دوام اللقاء مما يسمح بتوطيد الصلات: «الصلوات الخمس في المسجد، السلام آخر كل صلاة، على مستوى الجوار؛ الاجتماع الأسبوعي في صلاة الجمعة على مستوى الحي؛ الاجتماعان السنويان في صلاة العيدين بالمصلى على مستوى المدينة أو القرية؛ اجتماع الحج العالمي الذي يجب على القادر حضوره ولو مرة واحدة في حياته على مستوى الأمة الإسلامية».

وكلما ضاقت الدائرة الاجتماعية إلا وكان الحرص على توطيد العلاقة أكبر. فالبناء الاجتماعي في الإسلام مؤسس على قواعد الرحم والقرابة والجوار. وهي العلاقات القاعدية في أي بناء اجتماعي مترابط وسليم، «الجيران ثلاثة، جار له حق واحد، وجار له حقان، وجار له ثلاثة حقوق. فالجار الذي له ثلاثة حقوق، الجار المسلم ذو الرحم، فله حق الجوار وحق الإسلام وحق الرحم. وأما الذي له حقان فالجار المسلم له حق الجوار وحق الإسلام. وأما الذي له حق واحد فالجار المشرك» الحديث. (رواه البزار وأبو نعيم)

هذا إلى جانب ما هو ملقى على المجتمع من مسؤوليات الإصلاح بين المتخاصمين في شتى المستويات، كما هو الحال مثلا في «الإدارة الاجتماعية» للخلاف الزوجي عبر الحكمين ﴿وَإِنْ خِفْتُمْ شِقَاقَ بَيْنِهِمَا فَابْعَثُوا حَكَمًا مِنْ أَهْلِهِ وَحَكَمًا مِنْ أَهْلِهَا إِنْ يُرِيدَا إِصْلاَحًا يُوَفِّقِ اللهُ بَيْنَهُمَا﴾ (النساء: ٣٥). وتأسيسا على ما سبق من اتساع مفهوم الانتماء للأمة الإسلامية ليشمل معنى «الانتماء الحضاري» الذي تؤسسه الحياة والقيم الاجتماعية المشتركة، ووحدة التجربة التاريخية للأفراد داخل مجتمع واحد حتى وإن كان من بينهم أقلية لا تدين بدينهم، فإن انتماءها للأمة يكون بصلة الثقافة والحضارة الإسلامية التي مثلت إطارا للحياة المشتركة بينها وبين الأغلبية المسلمة، ولئلا تستدرجنا الأمثلة التاريخية المتراكمة لسيل من المواقف التي جسدت الأساس الاجتماعي المتين لحياة هؤلاء جميعا، ضمن إطار الأمة الجامع... فإننا نعتصم بالأصل «الثقافي» للحياة الاجتماعية على هذا الصعيد، من خلال ميزان التعامل الإنساني المقرر بجلاء في القرآن الكريم: ﴿لاَ يَنْهَاكُمُ اللهُ عَنِ الَّذِينَ لَمْ يُقَاتِلُوكُمْ فِي الدِّينِ وَلَمْ يُخْرِجُوكُمْ مِنْ دِيَارِكُمْ أَنْ تَبَرُّوهُمْ وَتُقْسِطُوا إِلَيْهِمْ إِنَّ اللهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ﴾ (الممتحنة:٨). ودلالة اللفظين: «تبروهم» (البر: قمة الإحسان في المعاملة) و «تقسطوا إليهم» (القسط: قمة العدل) مؤكدة للمعنى الذي نشأت عنه التجربة العامة في واقع المسلمين، والتي لا تمثل الاستثناءات والشذوذ عن الحالة العامة إلا تأكيدا لأصليتها.

ج) الأساس الاقتصادي

يرى أكثر المنصفين من مؤرخي الحضارة الإسلامية أنه لو لم تبدع هذه الحضارة سوى نظام «الوقف» كنظام يحقق هدفا مزدوجا يتجلى في الأمن الاقتصادي البعيد المدى لقطاعات معينة في المجتمع من خلال ريع الأوقاف من جهة، وضمان حد أدنى من استقلالية المجتمع، لو لم تبدع الأمة الإسلامية انطلاقا من أصول ثقافتها سوى هذا النظام لكان ذلك كافيا للحديث عن القاعدة الاقتصادية الصلبة في البناء الإسلامي.


إلا أن نظام الوقف ليس نظاما وحيدا في هذا الباب، ففي الشريعة الإسلامية واجبات وأحكام تعبدية -أي أنها شديدة الارتباط بأصل التدين عند المسلمين- لا تتم إلا عبر الإنفاق المادي، أي المساهمة الاقتصادية في توطيد أسس البناء الاجتماعي. وهنا تأتي أهمية الزكاة بوصفها ركنا إسلاميا وواجبا تعبديا ذا أبعاد اقتصادية واجتماعية، والكفارات عن طريق الإطعام أو العتق في حالات الصيام والأيمان والظهار وغير ذلك.

إن الأساس الاقتصادي في بناء الأمة الإسلامية شديد الارتباط بطبيعة هذه الأمة لجهة قيامه على قاعدة دينية تربط الإنفاق بالجزاء الأخروي حتى لو كان من صميم الواجب، ولما تتسم به منظومته في الأحكام المالية من نزعة اجتماعية ظاهرة، فالمجتمع الإسلامي هو بالضرورة مجال الإنفاق والفرد المسلم وغير المسلم ممن يعيش في مجتمع المسلمين هو من يقطف في النهاية ثمرة هذه المبادئ الاجتماعية التي توجه الفعل المالي والسلوك الاقتصادي في الإسلام.

٢. خصائص الأمة الإسلامية

يفرض التأسيس العلمي لمفهوم الأمة الإسلامية تلمس الخصائص المميزة لها، والتي يخلص إليها من خلال الأساس الثقافي في علاقته بعقيدتها وقيمها، ولعلها من التعدد بما يناسب تطور تجربة الأمة التاريخية المؤسسة على هذه العقيدة وتلك القيم، غير أن أهم هذه الخصائص أربعة هي:

أ) أنها أمة التوحيد الخالص: توحيد الألوهية لله تعالى وتوحيد الربوبية الذي يجرد الناس من خصائص الألوهية. وتوحيد الأسماء والصفات الذي يتيح للإنسان التطلع إلى آفاق الجمال في الأخلاق والصفات (صفات الجمال)، فيستزيد منهما دون أن يتجاوز طبيعته البشرية التي تقصر به عن مسؤولية الاتصاف بصفات الجلال. وهذا التوحيد الخالص لا ينفذ إليه إلا بدوام القراءة في كتاب الله المسطور (الوحي) وكتاب الله المنشور (الكون).



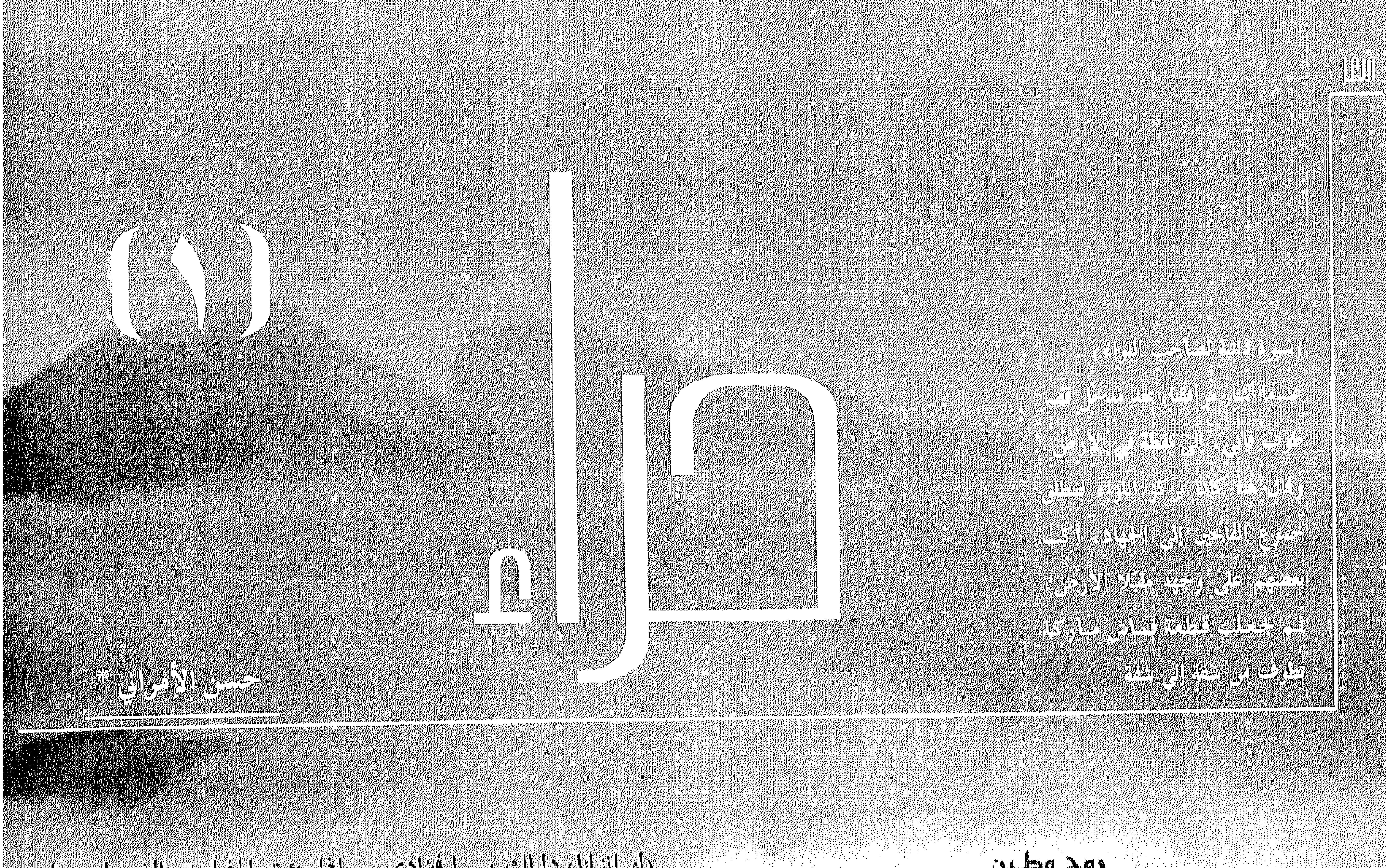
ب) أنها أمة العلم: بدليل أن أول ما نزل من القرآن على النبي ﷺ لم يكن: «اعمل» ولا «جاهد» بل ولا حتى «أسجد» أو «اعبد»، إنما كان قول الله تعالى: ﴿اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ﴾ (العلق:١). فالقراءة هي مبتدأ الوحي والمدخل إلى إدراك قيم الأمة وتصورها والوسيلة التي تتجدد بها معاني الدين في نفس الإنسان وعلاقته به (قراءة القرآن). ولأنها كذلك فقد أجمل القرآن رسالة النبي ﷺ في قوله سبحانه ﴿هُوَ الَّذِي بَعَثَ فِي الْأُمِّيِّينَ رَسُولاً مِنْهُمْ يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِهِ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَإِنْ كَانُوا مِنْ قَبْلُ لَفِي ضَلَالٍ مُبِينٍ﴾ (الجمعة:٢).

جـ) أنها الأمة الحافظة لتراث النبوات: انطلاقا من المعنى القرآني الذي يشير إلى القرآن كمصدق لرصيد الوحي في الرسالات السابقة، ﴿وَالَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ مِنَ الْكِتَابِ هُوَ الْحَقُّ مُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيْهِ إِنَّ اللهَ بِعِبَادِهِ لَخَبِيرٌ بَصِيرٌ * ثُمَّ أَوْرَثْنَا الْكِتَابَ الَّذِينَ اصْطَفَيْنَا مِنْ عِبَادِنَا فَمِنْهُمْ ظَالِمٌ لِنَفْسِهِ وَمِنْهُمْ مُقْتَصِدٌ وَمِنْهُمْ سَابِقٌ بِالْخَيْرَاتِ بِإِذْنِ اللهِ ذَلِكَ هُوَ الْفَضْلُ الْكَبِيرُ﴾ (فاطر ٣١-٣٢).

د) أنها أمة الحوار: فطبيعة المرجعية التي توجهها طبيعة حوارية، ذلك أن القرآن الكريم هو في أحد وجوهه كتاب منهج الحوار بامتياز، ليس لأنه أورد حوارات الأنبياء مع أقوامهم كعناصر عبرة وتدبر فحسب، بل لأنه اتسع لذكر القول المخالف، وهو قول يحكم المنطق القرآني عليه بالتهافت دون أن يكون ذلك مانعا من إيراده على لسان أصحابه قبل الجواب بالدليل الناصع والحجة البالغة، وفي القرآن نماذج كثيرة لهذا الخطاب «سيقول السفهاء...، ويقول الذين كفروا...، إذا جاءك المنافقون قالوا...». ثم إن مبدأ الإقرار لكل بما عنده من الحق كائنا من كان قائله سمة أخرى من سمات الخطاب القرآني. وعلى هذا كانت الأمة الإسلامية مدعوة إلى أن تجادل غيرها بما هو فوق المنهج والأسلوب الحسن (بما هو أحسن) ﴿ادْعُ إِلَى سَبِيلِ رَبِّكَ بِالْحِكْمَةِ وَالْمَوْعِظَةِ الْحَسَنَةِ وَجَادِلْهُمْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ﴾ (النحل:١٢٥).

لا شك أن تلك الخصائص وتلك الأسس قد ضمنت للأمة قابلية عجيبة للبقاء عبر مراحل التاريخ، رغم إرادات الإفناء والاقتلاع الهائلة التي قوبلت بها، وهجمات الإبادة التي قل أن عرف التاريخ لها مثيلا وليس آخرها الهجمة الاستعمارية الشاملة على كل مقومات حياتها مادية كانت أم معنوية. ومن هنا تبدو الأهمية الحاسمة لتلك الأسس والخصائص بالنسبة للأمة الإسلامية اليوم في ظل التحديات الجسام التي لا زالت تواجهه، بل التي باتت اليوم تتخذ منحى تصاعديا، لا يضمن معه نجاح التحدي إلا بإعادة إنتاج القيم التي ضمنت لهذه الأمة البقاء ماضيا وحاضرا، وهي كفيلة بأن تضمن لها الخلود مستقبلا.

* مركز الدراسات والبحوث الإنسانية والاجتماعية – وجدة / المغرب.



حراء (١)

حسن الأمراني *

(سيرة ذاتية لصاحب اللواء)

عندما أشار مرافقنا، عند مدخل قصر طوب قابي، إلى نقطة في الأرض، وقال: هنا كان يركز اللواء لينطلق جموع الفاتحين إلى الجهاد، أكب بعضهم على وجهه مقبلا الأرض، ثم جعلت قطعة قماش مباركة تطوف من شفة إلى شفة

روح وطين

لقد لثمت شفاههم التّرابا   ويلثم قلبيَ النّورَ المذابا

لقد لثمت شفاههم التّرابا   ويلثم قلبيَ النّورَ المذابا
رحلتُ إلى الضياءِ وقد أقاموا   ومن رضي الهدى اجتاز السحابا
وما سيّانِ قلبٌ مطمئنٌ   وقلبٌ راح يضطرب اضطرابا
ولي بالمصطفى نسبٌ عريقٌ   ولا آلو بحبّيه انتسابا
إذا ما جئتَ روضته بقلبٍ   مشوق يسكب الدمع انسكابا
ونار العشق تستعر استعارا   وقد عذب المقام بها وطابا
فقد بُلّغتَ إربك دون شكّ   ونلت مراد قلب قد أنابا
فيا قلبي الحزينَ إذا ادلهمّت   خطوب تسرق الذلق الصوابا
فيمّمْ شطْرَ نور أحمديّ   تدفّقَ من حراءٍ مستطابا
إذا اعتزلت جوانحنا الخطايا   على التقوى فقد وعت الخطابا
ولولا ما تلألأ من (حراءِ)   فجلّل نوره شعَفاً ذؤابا
لما طُرد الظّلامُ عن الحيارى   وكان الظّلم للدنيا قِرابا
فنوّر يا إلهي من سناه   سراديبي فإنّ القلبَ آبا
وخلّفَ ما تقدّم من خطايا   وجاءك يرتجي منك المتابا
وإن تكن الذّنوب تكتّفتْه   فذاك بحرٌ جاحمها العَذابا
فمنك برحمة وجميل فضلٍ   يصير البحر أنهارا عِذابا

كؤوس الحزن

أنا في مجمَع البحْرين أتلو   من الفرقان آيات عِجابا
وقلبي في (حراءَ) له أزيز   يُفتّت رجعُه الصمّ الصلابا
(لو انزلنا) دليلك يا فؤادي   إذا جئت المفاوز والشعابا
وللعشق الحجازيّ التهابُ   يقدّ جوانحا، ويسدّ بابا

وللعشق الحجازيّ التهابُ   يقدّ جوانحا، ويسدّ بابا

وللبرق الحجازيّ اصطخابُ   يُحلّ القلبَ أوديةً رغابا
وللحُسْن الشرازي انتسابُ   إلى البطحاء ما كان اجتلابا
وقد طرقتْ يدُ الألطاف قلبي   وما أحرى المجيبَ بأن يجابا
يزلّ العبْدُ ثمّ له مآبُ   فما لك قد أطلت له العتابا ؟
وقدْ صيّرتَ دمع القلب بحراً   وللإبحار أعْددْت الركابا
هيا رباه أنضيتُ المطايا   وطفت مفاوزاً، وقطعت غابا
فما أدركت من وطري نقيرا   ولا ألفيت في دربي صحابا
كأني كنت أحرث في بحارٍ   وأودع بذرة العمر العبابا
ألم تر أنني أنفقت عمري   مع الأهواء أستسقي السرابا؟
فكم ليلى اصطفيتُ وكم سعاد   رجعت بها الطفولة والشبابا
فلما صوّح الوردُ استبانتْ   ملامحُ هذه الدنيا خرابا
وقلت لمن بسطتُ لها يميني: قطعت العمر شوقا واغترابا
فلما جئت ورْدكِ لم يزدني   سوى ظمأ .. ولم أملك خطابا
أإقبالا وإدبارا، وبردا   ونارا، وابتعادا واقترابا؟
ويا نفسي التي أترعت حزنا   وذقت مرارة الهجر انتحابا
كؤوس الحزن أعذب من كؤوس   تورّثك العذاب والارتيابا
ولسع السّيف أهون من جحيمٍ   تقدّ الهام أو تفرى الذنابى
وما الحسراتُ إلا في المعاصي   وإن أوتيتَ جنّاتٍ نصابا
وفي الطاعات نور ليس يفنى   وكأسُ الموت بالطاعات طابا



طرقتُ ببادر الدنيا اختــلاسا   وذقت طعامــها شهدا وصابا
فلم أر مثل ذخرك أنت ذخراً   ولم أر غير بابــك ـ ربّ ـ بابا
أنلني يا عظيم العفــو عفــوا   فإنّ الذنب أوســعني عقابا
تقر الشامخات ولا قــــراراً   لعبد خاف من غـده الحسـابا

سرحة مالك

أنا بمـــدارج العشّـاق فذّا   كهمْس المُـزن ينصبّ انصبابا
أرى العُشّاق يصطرخون حولي   ســكارى ما تحير لهم جوابا
ولي من نشوة الصّحو احتراق   أذاب القلب واصطلم الإهابا
كأنّ هدير أوقيانوس وجـــدي   تغلغل في الحشـا لمّا أهابـــا
أتاني من شميم عـــرار نجـد   خطاب، يفتدي دميَ الخطابا
له من أبجديات المعـــاني   حروف تمنح القلب الشبــابا
أتاني والصواعـق مرســلات   كأنّك شاحذ ظفـــرا ونـابا
وعصف الريح يقتـلع البـرايا   كمـا أعددت للحـرب الحرابا
أتاني فالربيع لـه انطــــلاق   يغنّيــك (الليالي) و(العتــابا)
فيـا أكرومة الحيّين رفقـــا   وقاك اللّه سهمـاً قـد أصابا
وبلّغــك المكارم سابغــاتٍ   ولـقّاك النعيم المســـتطابا
خُلقتِ أميـرةً تطـأ الثريّـا   محـاســنُها منعّمةً كعـابا
لماذا أنت هادئة شـــهـــودا   لماذا أنـت عاصفـة غيــابـا؟
فهل أشتط يوما في دعــائي   وأستسقي رحيقك والملابا؟
وأطمع في ثيـابك سندسيّـــا   ومن بستانك الخضر الرطـابا؟
وتلك الكأس تشرق في يمـيني   ســنا الإيمان يعلــوها حبـابا
وما لي حين أهتف باسم ليلـى   يقـول الناس شيخ قد تصابى؟
كأنْ لم يهتـــف العبّاد قبـلاً   وقـسّ لم يــر العشق اللّبابا

لئن كنّـسيت قد كنّى ابن ثور   وسرحة مــالك برزت كـعابا
وإن صرّحت فالمجنون قبــلي   أفــاض، ومن أفاض فقد أنـابا
ومن شرف الهوى أني صريحٌ   بوقّع شاعــرٌ ليس ارتيـابا
أخاف يزلّ إن أنطقْ لســاني   وإن أصمتْ يكن صمتي انتحابا
بذلت الروح في الغمرات حبّا   ولم أطلب على الحبّ الثـوابا

فجاء دعاؤك المـوفور سيبــا   نديّا يبعث الأرض اليبــابا
لماذا جئتِني والقــلبُ عارٍ   وثوب العمر ينتهب انتهــابا؟
يذكّرني جمالكِ حيــن يبدو   جِنان الخلد مونقة رحــابا
وضوء الشمس خلف الغيم أبهى   وأعذب وهو يسكب انسكابا
ويحملني سناك إلى سنــاها   ويكشف دونَ غَرفتها النقابا
تحدّر مزنك الفـوّاحُ طيبـــا   سماويّا ولـم يعرف سحـابا
وشمس الحقّ من فوديك راحت   تضــيء بأمر باريها الهضـابا
كطيف يمامةٍ عبرتْ قـــرونا   إليـكَ ممالك العشــق انسيابا
لئن آنستُ عند حِـماك وردا   لقـد لاقيت من نصَبي نِصـابا
فقل لابــن الملوّح وهو يتلــو   مـن الصبوات شعرا مستطابا
إذا ما العشقُ لم يُبْلغْك داراً   منــعّمةً غـدا عشقا كِذابا
وقل للعامريّة حيــث حلّت   وقـد لبست من التقوى ثيابا
سبيلُ النور أنت بدون شـكّ   ومن يبْصر حقائقه استجابا
فسبْحان الذي سوّاك ســرّاً   عـن الخطرات والأذهان غابا
خديجة كانت الـدّرع الموقّى   وكـان لمرْيمَ التقوى حجابا
وللزهـــراء ســرّ أحمديّ   دم السّبطين صـار لـه جرابا
وكـان مدينـةً للعلم طـــه   وكـان المرتضى للعلـم بابا ﷺ

إستانبول: ٣١ يوليوز ٢٠٠٥/٢٥ جمادى الآخرة ١٤٢٦.

* رئيس تحرير مجلة المشكاة – المغرب.

حدوث الكون

حقيقة قررها الدين وأثبتها العلم



أورخان محمد علي *

هـذا الـكـون الشـاسـع والـواسـع الـذي لا يـرى الإنسـان لـه حدودا . . . هذا الكون المثير كان محط تساؤل الإنسان وإعجابه وفضوله وإجلاله منذ القديم. وكانت الأسئلة المثارة في ذهنه حوله كثيرة وصعبة:

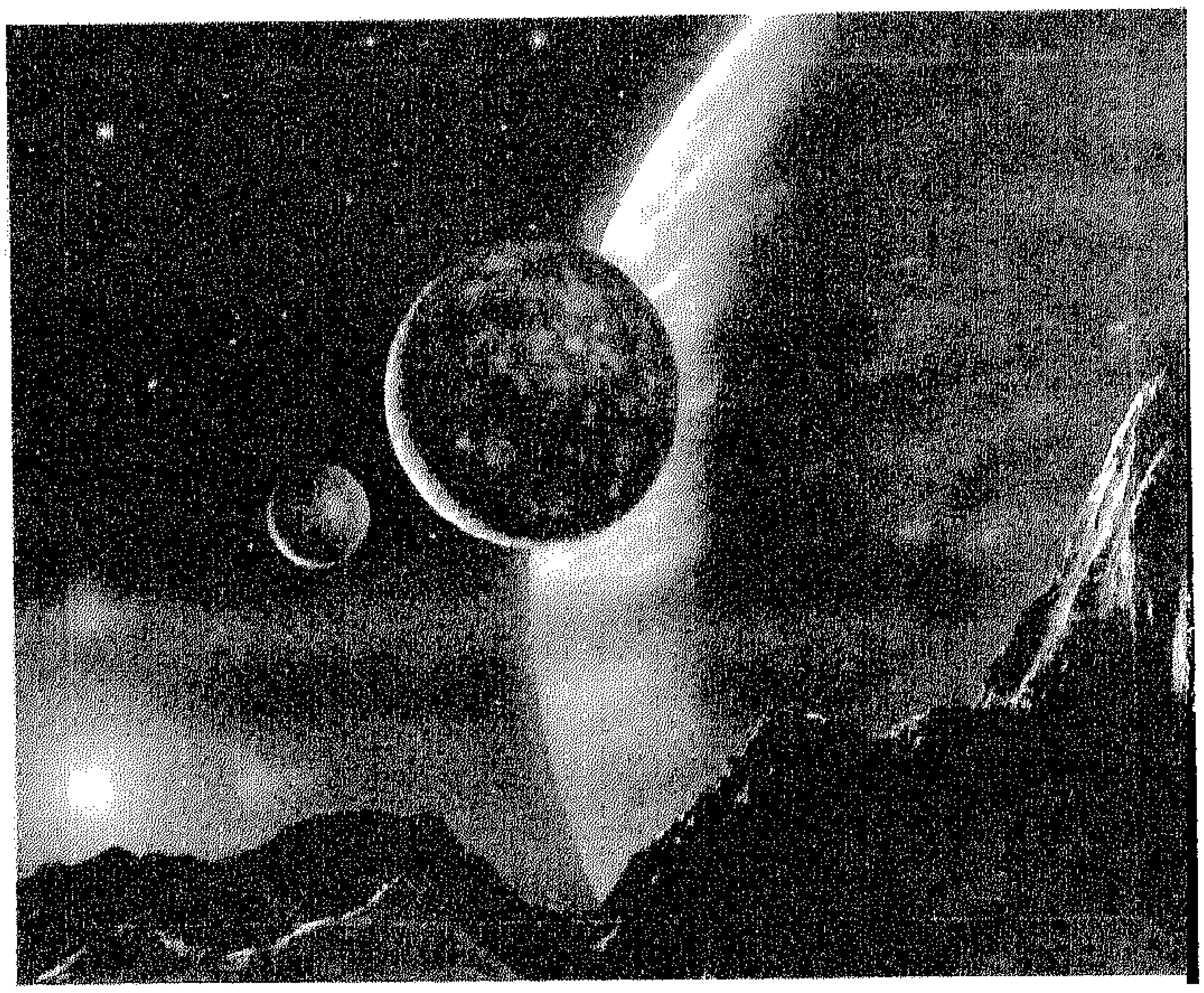
فكيف ظهر هذا الكون إلى الوجود؟ وما عمره؟ أحادث هو أم قديم وأزلي؟ وهل يمكن أن يكون هناك أزليان: خالق أزلي وكون أزلي؟ وهل تقدم الخالق على الكون تقدم في الزمان أم تقدم في العلية أي تقدم العلة على المعلول؟

هذه بعض الأسئلة التي كانت محل نقاش بين الفلاسفة المؤمنين مئات الأعوام. أما الفلاسفة الملحدون فكانوا يدعون أن الكون لا يحتاج إلى خالق لأن المادة أزلية، أي وجدت من القديم، أي كانوا يضيفون إلى المادة إحدى صفات الخالق وهي صفة الأزلية. لذا كان من ضمن قوانينهم الفيزيائية: «لا يمكن خلق المادة من العدم، كما لا يمكن إفناء المادة».

ولكن الإمام أبو حامد الغزالي رحمه الله كان أول من حل مشكلة قدم العالم وأجاب على جميع المشاكل المثارة حول مدة الترك، أي الفرق الزماني بين الأزل وبين بدء خلق الكون، فقال بأن الكون حادث وأنه لم يكن قبله زمان، أي أن الزمان والمكان بدآ بعد خلق الكون، لأن الزمن مرتبط بالحركة، ولو تصورنا أن كل شيء في الكون قد سكن وتوقف إذن لتوقف الزمن، أي لم يعد هناك زمان. وهكذا فمن الخطإ توهم وجود زمان قبل خلق الكون. وقد كان هذا الحل حلا عبقريا يشير إلى القدرة العقلية الكبيرة للغزالي رحمه الله. وعندما أشارت نظرية النسبية إلى أن الزمن بعد رابع كان من البديهي عدم وجود الزمن في عالم لم تخلق بعد أبعاده الأخرى.

لا نريد هنا أن ندخل في تفاصيل فلسفية قد يسأم منها القارئ الاعتيادي ولا يستسيغها. ولكننا نريد أن نشير هنا إلى آخر نظرية علمية حول مولد الكون وكيف أنها أثبتت بأدلة علمية بأن الكون حادث وأنه ولد قبل كذا مليار سنة.

والحقيقة أن اكتشاف الإنسان لظاهرة الإشعاع كان أول ضربة لنظرية أزلية المادة. فما دامت الشمس وجميع النجوم الأخرى مشتعلة



وتبعث الإشعاعات، إذن فلا بد من وجود بداية لها، لأنها لو كانت أزلية لنفد وقودها منذ مليارات السنوات. ولكن العلماء الملحدون تناسوا هذه الحقيقة الظاهرة لكل عين واستمروا في الدفاع عن كون أزلي لا يحتاج إلى خالق... كون نشأ في كل هذا النظام والدقة الرائعة وصور الجمال عن طريق صدف عشواء وعمياء. وكانت نظرية الكون المستقر التي كانت هي النظرية المقبولة في الأوساط العلمية حتى منتصف القرن العشرين تقول بأن الكون ساكن وهو لانهائي في الزمان والمكان.

كان هذا الأنموذج للكون يريح الفلاسفة الملحدين ويقدم لهم سندا علميا، أو في الأقل لا ينقض أهم دعوى عندهم وهي أزلية المادة.

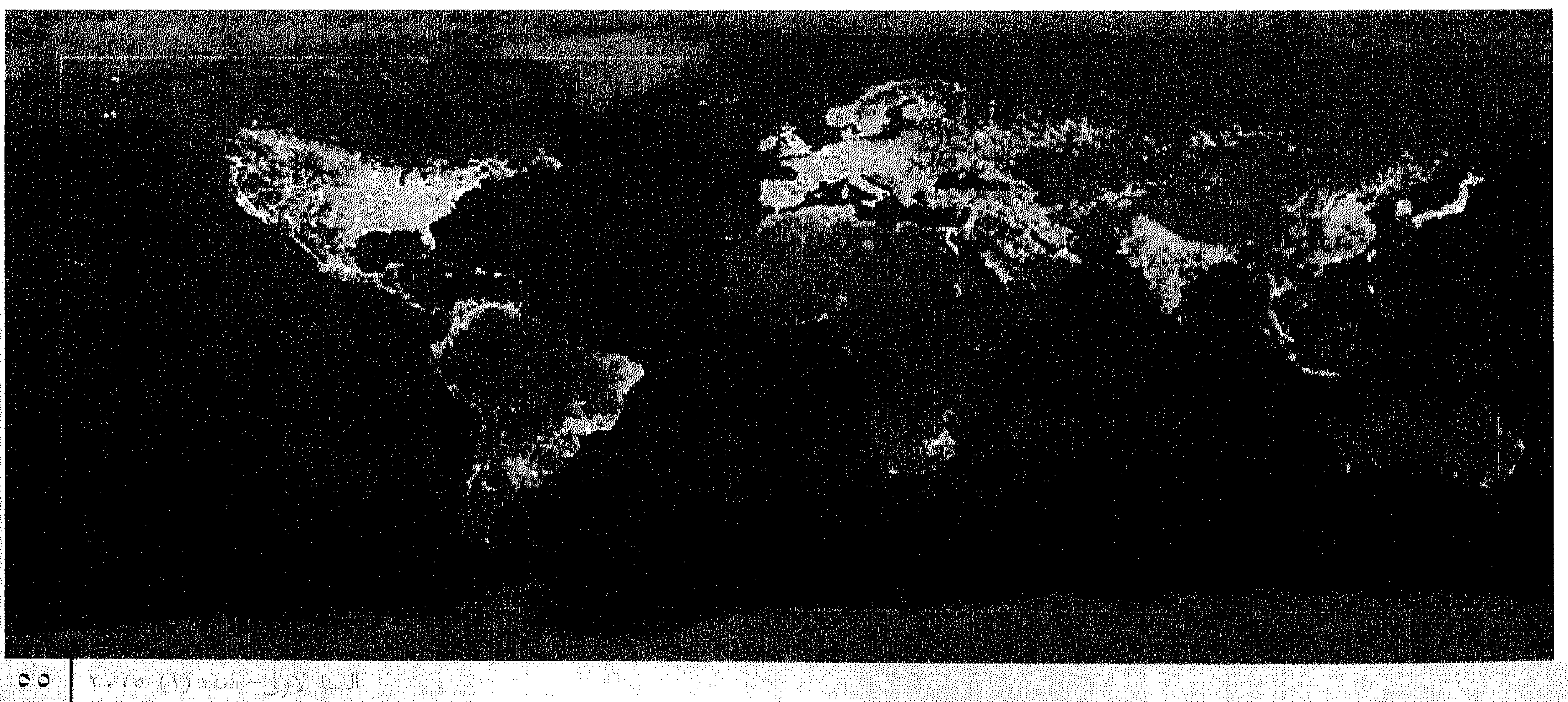
ولكن علم الفيزياء كان يقدم وسيلة مهمة في معرفة العديد من خصائص الأجرام السماوية والنجوم بواسطة تحليل طيف الأضواء المنبعثة من هذه النجوم. ومن هذه المعلومات أن طيف ضوء النجم المبتعد عنا ينزاح نحو اللون الأحمر، أما طيف النجم المقترب إلينا فينزاح نحو الأزرق. وقد كشف «فاستو مالفن سليفر» عام ١٩١٣م أن بعض الأجسام التي كان يعتقد سابقا أنها غبار كوني تبتعد عنا بسرعة ١٨٠٠ كم/ ثانية. وكان هذا الاكتشاف مفاجأة كبيرة للعلماء، ولم تكن تلك الأجسام إلا مجرات بعيدة عنا. ثم أعلن «أدوين هوبل» عام ١٩٢٩ قانونه المعروف: «إن المجرات تبتعد عنا بسرعة تتناسب طرديا مع بعدها عنا».

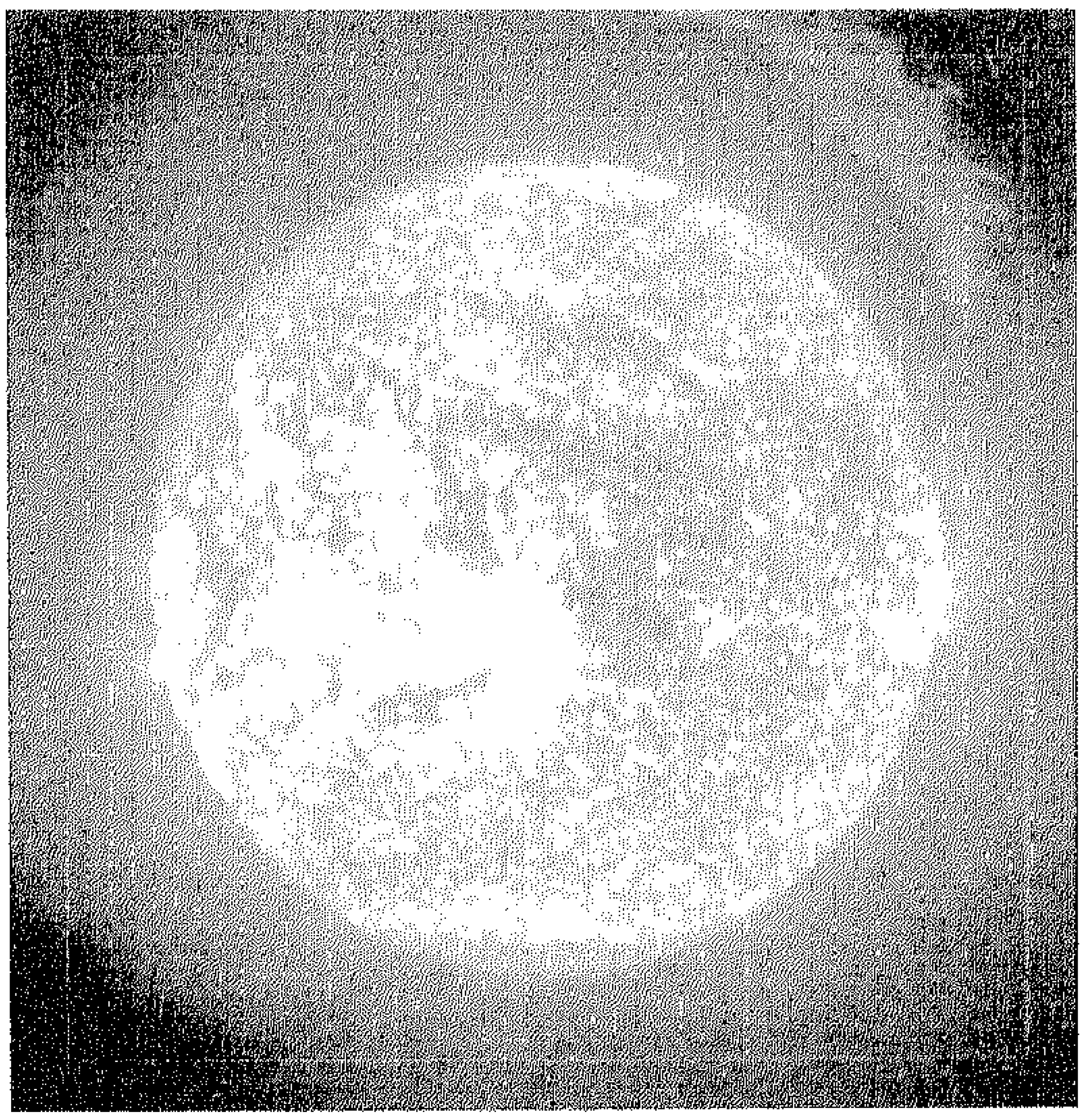
وقد تبين فيما بعد أن المجرات لا تبتعد فقط عنا، بل هي تتباعد فيما بينها كذلك. وكان هذا يعني أن الكون يتوسع على الدوام مصداقا لقوله تعالى: ﴿وَالسَّمَاءَ بَنَيْنَاهَا بِأَيْدٍ وَإِنَّا لَمُوسِعُونَ﴾ (الذاريات: ٤٧).

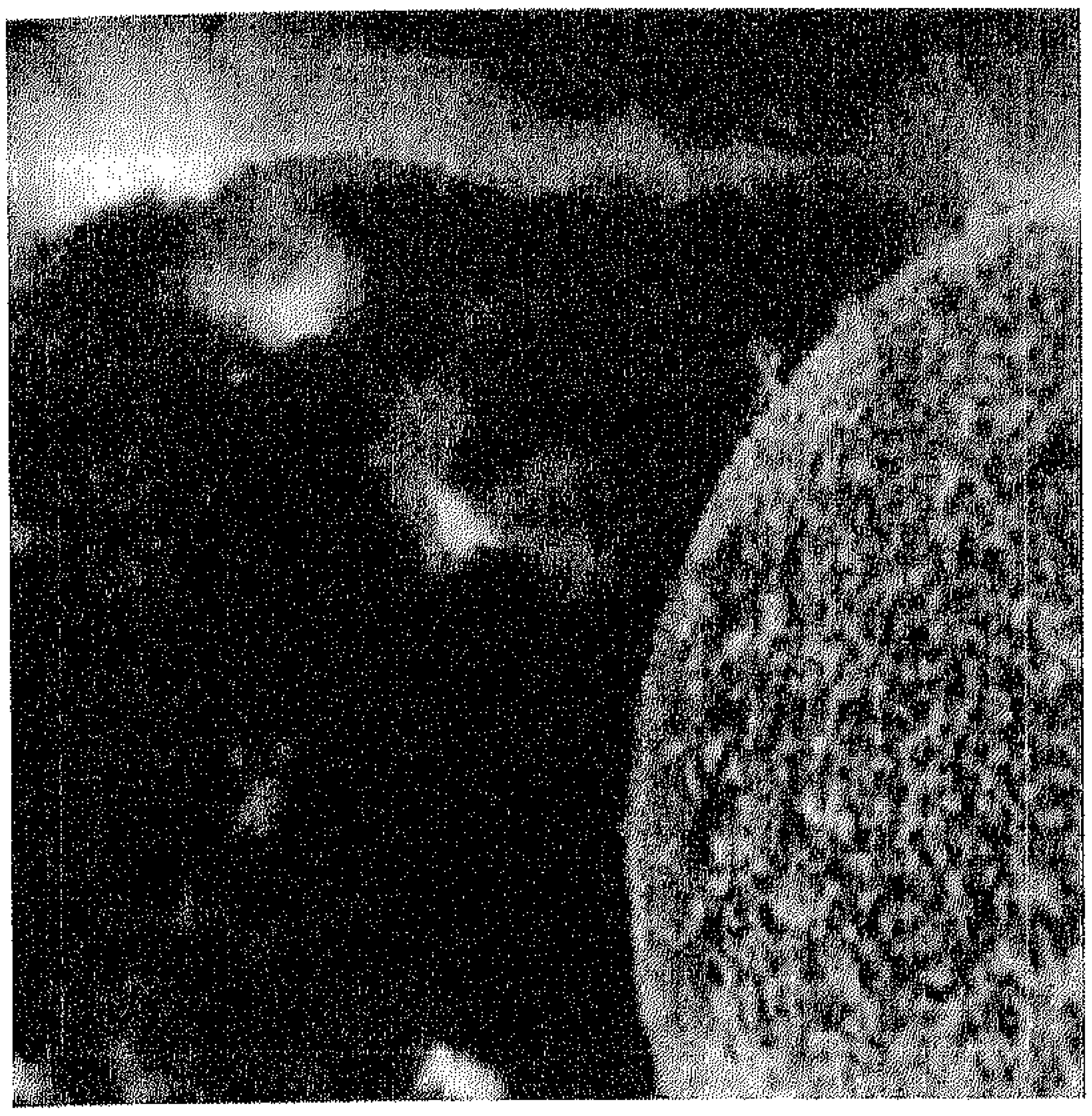
إذن فقد تغيرت صورة الكون عن الصورة السابقة التي كانت تقدمها نظرية «الكون المستقر». وما دام الكون في توسع دائم، إذن لو شغلنا الفيلم عكسيا، أي إلى الوراء، فمن الضروري أن الكون كله كان متمركزًا في السابق في نقطة واحدة أطلق عليها العلماء اسم «الذرة البدائية» أو «الحساء الكوني».

ولكن أي قوة تقوم بقذف مائة مليار مجرة بسرعة جنونية مبعدة الواحدة عن الأخرى وموسعة الكون نتيجة هذا التباعد السريع؟ لا يمكن أن تكون قوة الجاذبية أو قوة التنافر الكهربائي بين الأقطاب المتشابهة هي هذه القوة. فقوة الجاذبية قوة تحاول جذب الأجرام السماوية نحو المركز وليس إبعادها نحو الخارج. كما أن قوة التنافر الكهربائية أضعف بكثير من القيام بمثل هذه العملية. ونظرا لوجود تعادل كهربائي في الكون، فمثل هذه القوة لا وجود لها تقريبا بين الأجرام السماوية.

إذن فلا بد أن انفجارا هائلا حدث عند ميلاد الكون هو الذي أدى إلى توسع الكون. وقد أطلق العلماء على هذا الانفجار اسم «الانفجار الكبير». وبعد إجراء بعض التعديلات على نظرية الانفجار الكبير فإن الصيغة الحالية لها باختصار هي: «إن انفجارا هائلا وقع في







هذه الذرة البدائية التي كانت تحتوي على مجموع المادة والطاقة. وفي اللحظات الأولى من الانفجار الهائل ارتفعت درجة الحرارة إلى عدة تريليونات حيث خلقت فيها أجزاء الذرات، ومن هذه الأجزاء خلقت الذرات، ومن هذه الذرات تألف الغبار الكوني الذي نشأت منه المجرات فيما بعد».

والحقيقة أن وجود «الذرة البدائية» أو «الحساء الكوني» تخمين قدمه بعض العلماء، بينما قال علماء آخرون بأن بداية الكون كانت نقطة حجمها صفر وكتلتها لانهائية. وليس مفهوم «كتلة حجمها صفر» إلا تعبيراً آخر عن العدم، أي أن الكون خلق من العدم.

متى حدث الانفجار الكبير؟

لا يوجد رقم قطعي في هذا الخصوص. ولكن إذا تذكرنا أن «ثابت هوبل» لمليون سنة ضوئية هو ١٥,٣ كم/ ثانية حصلنا على رقم ٢٠ مليار سنة. ولكن علينا ألا ننسى بأن سرعة توسع الكون وتباعد المجرات ليست ثابتة وأنها كانت في السابق أسرع، لذا فإن تاريخ الانفجار في الأغلب كان قبل ١٥ مليار سنة تقريبا. وهذا هو الرأي المرجح حاليا.

من الأدلة المهمة على نظرية الانفجار الكبير هو وجود الإشعاع الكوني. فقد قال العلماء بأنه لو كان هناك مثل هذا الانفجار لكان من الضروري أن يخلف وراءه إشعاعا. وفعلا تم العثور على هذا الإشعاع عندما أرسلت مؤسسة «ناسا» الأمريكية لأبحاث الفضاء قمرا صناعيا لغرض التثبت من هذا الإشعاع عام ١٩٨٩م وزودته بأحدث الأجهزة الحساسة. واحتاج هذا القمر الصناعي لثماني دقائق فقط للعثور على هذا الإشعاع وقياسه.

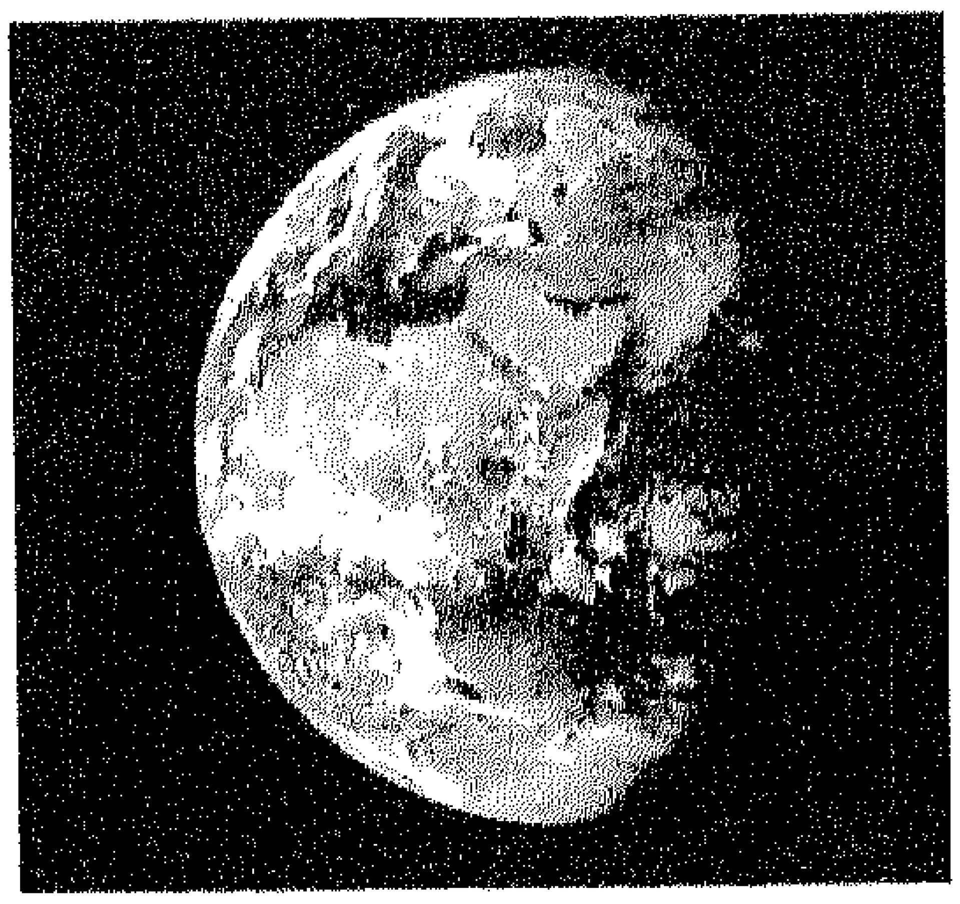
دليل آخر على هذه النظرية هو أن مقادير ونسب وجود غازي الهيدروجين والهليوم في الكون تتطابقان مع حسابات هذه النظرية. ولو كان الكون أزليا لاحترق جميع الهيدروجين وتحول إلى غاز الهليوم.

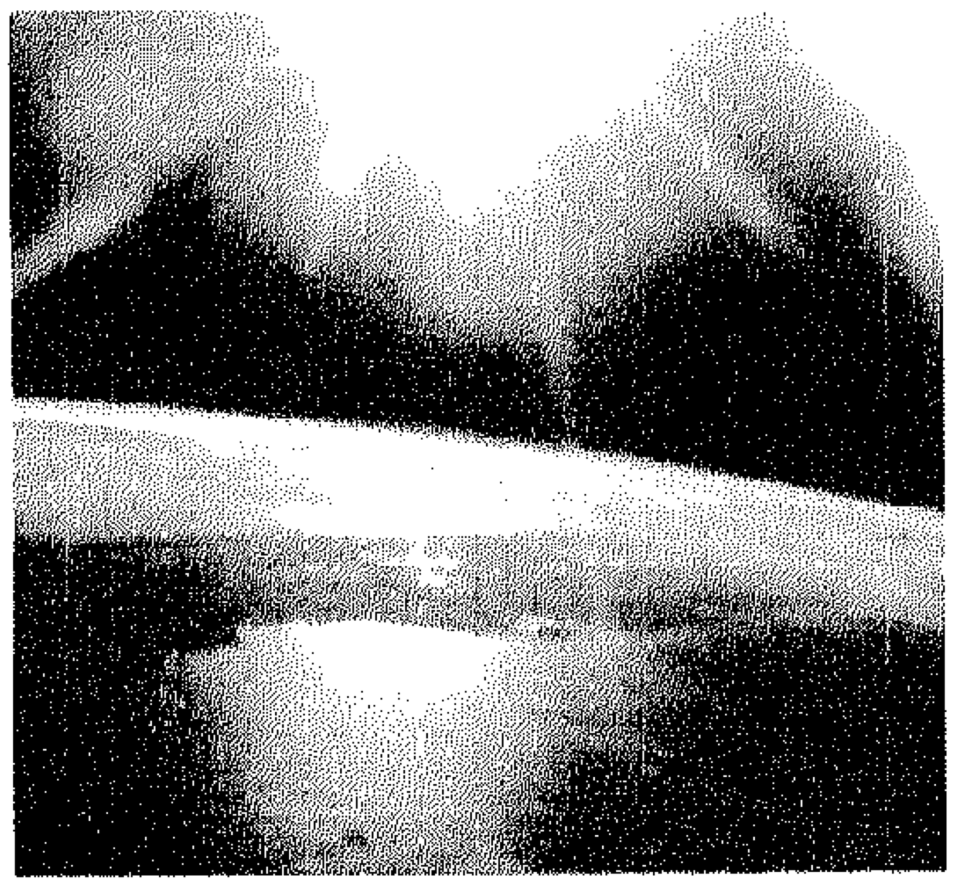
ولا تكمن أهمية نظرية الانفجار الكبير في الجانب العلمي والفلكي فقط، بل لها تداعيات وإشارات فلسفية مهمة جدا يمكن أن تكون أكثر أهمية من الناحية العلمية والفلكية. فهذه النظرية سحبت سلاحا أو قل عذرا قويا كان يستند إليه الفلاسفة والمفكرون والعلماء الملحدون، لأنها أنهت أسطورة «أزلية المادة وأزلية الكون». فللكون بداية وله عمر محدد يقوم العلماء بحسابه. لقد نبذت فكرة أزلية المادة وأزلية الكون من الأوساط العلمية أخيرا.

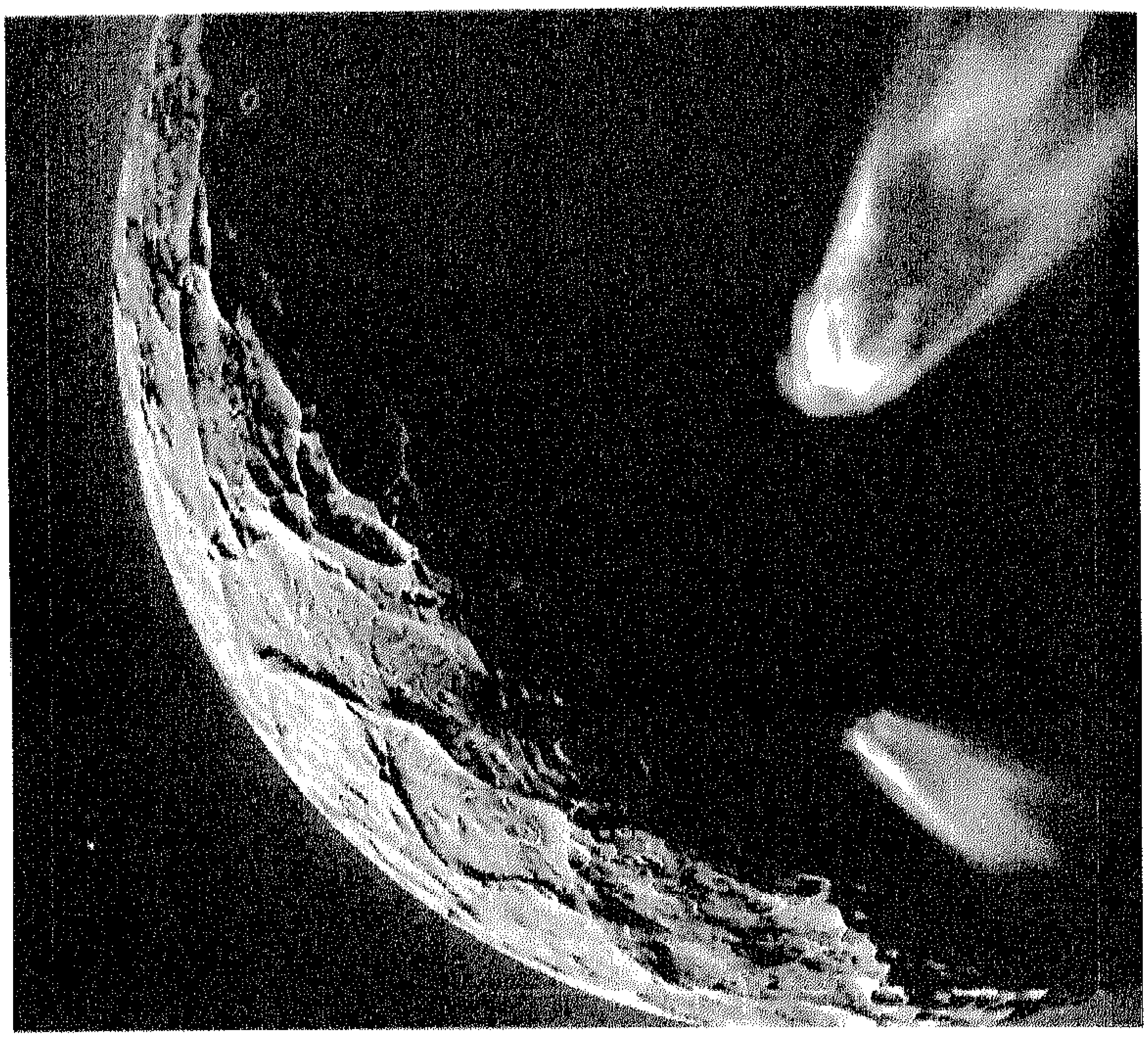
وقد امتعض العديد من العلماء والفلاسفة الملحدين من هذه النظرية. فمثلا يقول الفيلسوف الملحد «أنطوني فلوف»: «يقولون إن الاعتراف يفيد الإنسان من الناحية النفسية. وأنا سأدلي باعتراف؛ إن أنموذج الانفجار الكبير شيء محرج جدا بالنسبة للملحدين، لأن العلم أثبت فكرة دافعت عنها الكتب الدينية... فكرة أن للكون بداية».

ويقول العالم «دونيس سكايما» -وكان من أشد أنصار نظرية الكون المستقر- وهو يبدي أسفه على انتصار نظرية الانفجار الكبير: «لم أدافع عن نظرية الكون المستقر لكونها صحيحة، بل لرغبتي في كونها صحيحة. ولكن بعد أن تراكمت الأدلة فقد تبين لنا أن اللعبة قد انتهت، وأنه يجب ترك نظرية الكون المستقر جانبا».

نعم، المادة حادثة وغير أزلية والكون له بداية. إن ثبوت هاتين الحقيقتين يدل على الخلق وأن الكون خلق من قبل الخالق، إلا أن طبيعة هذا الانفجار الكبير أضاف أدلة أخرى على أن الكون خلق بتقدير دقيق ونظام رائع. ذلك لأن أي انفجار لا يكون إلا مخربا وهادما ومشتتا ومبعثرا للمواد، ولكن عندما نرى أن انفجارا بهذا العنف وبهذا الهول يؤدي إلى تشكيل وتأسيس كون منظم غاية النظام، فإن هناك إذن وراءه يد قدرة وعلم وإرادة وتقدير لانهائي فوق الطبيعة. ولم يقتصر عمل الانفجار الكبير على تكوين المجرات







بكل ما تحتويها من مليارات النجوم والكواكب والأقمار والمذنبات والأجسام الكونية الأخرى السابحة في الفضاء بكل نظام، بل عمل أيضا على تشكيل كوكب وهو أرضنا هذه التي توفرت فيها مئات بل آلاف العوامل الدقيقة والمتداخلة بعضها مع البعض الآخر لكي تكون صالحة لحياة الملايين من الأحياء وعلى رأسها الإنسان. وإلى هذا يشير العالم البريطاني المشهور «فرد هويل» عندما يقول: «تقول نظرية الانفجار الكبير بأن الكون نشأ نتيجة انفجار كبير. ولكننا نعلم أن كل انفجار يشتت المادة ويبعثرها دون نظام. ولكن الانفجار الكبير عمل عكس هذا بشكل محفوف بالأسرار، إذ عمل على جمع المادة معا لتشكيل المجرات».

من أهم أسرار هذا الانفجار الكبير هي السرعة الحرجة التي وُهبت لهذا التوسع الكوني عقب هذا الانفجار. وإلى هذا يشير العالم البريطاني المعروف «بول ديفز» عندما يقول: «لقد دلت الحسابات أن سرعة توسع الكون تسير في مجال حرج للغاية. فلو توسع الكون بشكل أبطأ بقليل جدا عن السرعة الحالية لتوجه إلى الانهيار الداخلي بسبب قوة الجاذبية. ولو كانت هذه السرعة أكثر بقليل عن السرعة الحالية لتناثرت مادة الكون وتشتت الكون. ولو كانت سرعة الانفجار تختلف عن السرعة الحالية بمقدار جزء من مليار × مليار جزء لكان هذا كافيا للإخلال بالتوازن الضروري. لذا فالانفجار الكبير ليس انفجارا اعتياديا، بل عملية محسوبة جيدا من جميع الأوجه وعملية منظمة جدا».

ماذا نستنتج من كل هذه الشواهد والمعلومات العلمية؟

يشرح «بول ديفز» النتيجة الحتمية لهذه الدلائل والتي لا تقبل النقاش فيقول: «إن من الصعب جدا إنكار أن قوة عاقلة ومدركة قامت بإنشاء بُنية هذا الكون المستندة إلى حسابات حساسة جدا. إن التعبيرات الرقمية الحساسة جدا والموجودة في أسس الموازنات في الكون دليل قوي جدا على وجود تصميم على نطاق الكون».

أما العالم الفيزيائي المشهور «ستيفن هوفكن» فهو يتناول في كتابه «التاريخ المختصر للزمن» الدقة المذهلة الموجودة لسرعة توسع الكون في الثانية الأولى الحرجة من الانفجار الكبير فيقول: «إن سرعة توسع الكون سرعة حرجة جدا إلى درجة أنها لو كانت في الثانية الأولى من الانفجار أقل من جزء واحد من مليون × مليار جزء لانهار الكون حول نفسه قبل أن يصل إلى وضعه الحالي».

إذن هذا هو مبلغ الدقة المذهلة في تنظيم هذا الانفجار الكبير وفي تصميم سرعته. والنتيجة الحتمية التي يصل إليها عالم الفلك الأمريكي «جورج كرنشتاين» في كتابه «الكون التكافلي» هي: «كلما دققنا الأدلة واجهتنا على الدوام الحقيقة نفسها، وهي أن هناك قوة عاقلة فوق الطبيعة تدخلت في نشوء الكون».

﴿قَالَتْ رُسُلُهُمْ أَفِي اللهِ شَكٌّ فَاطِرِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾(إبراهيم: ١٠) ﴿سَنُرِيهِمْ آيَاتِنَا فِي الْآفَاقِ وَفِي أَنْفُسِهِمْ حَتَّى يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ الْحَقُّ﴾ (فصلت:٥٣).

* كاتب وباحث تركي.

لفح النار

أشرف أونن *

كان حكمت عاملا مجتهدا في مخبز البلدية، وكان آخر من يغادر المخبز غالبا. كان فرن المخبز كبيرا يحتاج في بعض الأحيان إلى تنظيف، وكثيرا ما يقوم حكمت بهذا العمل.

كان اليوم الأخير لأحد الأعياد. غدًا تنتهي العطلة الرسمية وتعود البلدية لبيع الخبز من جديد. ذهب حكمت في ساعة متأخرة من الليل إلى المخبز لينظف الفرن الرئيسي. دخل المخبز وقفل الباب الخارجي، سينظف الفرن ويعود إلى منزله فورا، وعندما يأتي العمال في الساعة الرابعة فجرا سيجدون الفرن نظيفا، فيضغطون على الزر الكهربائي لإيقاده، وما هي إلا دقائق حتى تحصل الحرارة المطلوبة بينما يكونون هم قد انتهوا من العجين وأعدوه للخبز.

كان حكمت في الفرن الرئيسي مستسلما لعمله منفصلا عما حوله تماما. وفي تلك الأثناء بالضبط دخل المخبز زميله راغب ليأخذ ملابسه المتسخة للغسل. فتح الباب الخارجي في حيرة، وتمتم قائلا: «عجيب! أبلغ الإهمال إلى هذا الحد ليتركوا الأنوار مفتوحة في الداخل؟» تناول ملابسه واتجه نحو الباب الخارجي فوجد باب الفرن مفتوحا، فدفعه برفق، ولم يهمل إطفاء الأنوار.

وما كادت الأنوار تنطفئ حتى هرع حكمت إلى باب الفرن بارتياع، لكن دون جدوى إذ كان الباب مقفلاً. أخذ يصرخ بما لديه من قوة صوت، وضرب بقبضتيه الباب بشدة ومرات متكررة بلا فائدة. لا أحد يسمع صوته ولا أحد يشعر بأنينه وصراخه. اقشعر جلده واعترته رجفة عنيفة وأخذته دهشة رهيبة.

لم يصح من الصدمة لمدة طويلة... نظر إلى الساعة... الحادية عشرة وخمس دقائق... لم يبق سوى خمس ساعات فقط. خمس ساعات بينه وبين الموت. الموت يقف ماثلا محددا أنظاره النارية إليه مكشرا عن أنيابه المرعبة. ها هو سيلقى في نار جهنم قبل أن ينتقل إلى دار الآخرة.

أخذ يتخيل ما سيحدث، ستزداد حرارة الفرن رويدا رويدا، وسيشعر أولا بالعرق يبلل كل جسده، ثم ينفد الهواء النقي وتطبق عليه الجدران حتى تخنقه، وتكثر الحرارة وتتلظى النيران ويتميز المكان غيظا وحدة، ويأخذ دهن جسده يذوب ببطء، وتلفح ألسنة النار لحمه فتشويه. ومن يدري فقد يموت قبل أن تحدث كل هذه الأمور بسكتة قلبية، أو قد يفقد عقله ويصرخ كالمجنون. آه ليته يجن، الجنون أفضل شيء في مثل هذا الموقف، إذن ينجو من عذاب نار التفكير المتأججة في دماغه.

وتذكر لذع الحرارة عندما كان يخرج الأرغفة من الفرن المضطرم، ذلك القدر من الحرارة فقط لم يكن يطيقه فيلقي بالأرغفة من يديه فورا. ولكن ها هو سيشوى الآن حياً.

قبل بضعة أيام بينما كان يغلي شايا على موقد صغير مع زملائه مست يده طرفا من الحديد المحمر كالجمر، يا إلهي، كم كان الألم فظيعا وكيف انتفخت أصابعه بسرعة، فأسرع بوضعها في الماء البارد لمدة طويلة عله يخفف من آلامه. أما الآن، فلن يحترق أصبع أو أصبعان بل كل جسده وكل ذرة في جسده. تمثلت أمام عينيه مشاهد من بعض الأفلام، رجال وقد اشتعلت فيهم النار تأكلهم وهم يتلوون يمنة ويسرة ويسقطون على الأرض دون جدوى ويصرخون بجنون ويستغيثون حيث لا مغيث.

كأن الحرارة ارتفعت... هل ضغط الرجل على مفتاح الفرن حين أغلق الباب يا ترى؟ وإلا لماذا ارتفعت حرارة المكان هكذا؟ يا إلهي! هل حانت اللحظة الفظيعة؟! نظر إلى ساعته مرة أخرى، النصف بعد الواحدة ليلا... كيف مضت ساعتان بهذه السرعة؟ مضت الدقائق كالريح الجارية، كالعمر تماما. مد يده إلى الجدران الحديدية بخوف ولمسها بأنفاس متلاحقة وقلب يكاد يفر من مكانه. تنفس الصعداء... ما زال الحديد باردا.

حملته خواطره إلى المنزل، لا شك أن زوجته وولده الوحيد قلقان الآن بشأنه. لماذا صرخ بوجه زوجته قبل أن يغادر المنزل، هل استحقت ذلك يا ترى؟ كان عليه أن يكون أكثر رقة لرفيقة حياته. ليته لم يضرب ولده الوحيد. لا ريب أنه مسؤول عنهما أمام الله وسيؤدي حسابهما أيضا. ليته فعل ما أشارت إليه زوجته حين قالت له: «أتوسل إليك أن تصلي يا عزيزي» لكنه رفض محتجا: «دعينا نستمتع بالحياة، ما لنا وللصلاة في ربيع حياتنا؟» كأن الإنسان سيحاسب عن مرحلة الشيخوخة فقط وليس عن العمر كله. لماذا لم يذهب إلى المسجد الذي يقع على طريقه؟ ألم يسمع مرات ومرات المؤذن وهو يعلن من

أعماق قلبه عظمة الخالق ويدعو الناس إلى سبيل النجاة؟ لو أنه استجاب إلى داعي الصلاة هذه الليلة لتمكن من أداء صلاة وقت على الأقل، وإن كانت أول وآخر صلاة. ومن يدري، لعل الله يشفع له بفضل هذه الصلاة فيغفر له ذنوب الأوقات الأخرى التي أهملها طوال حياته. أما الآن فهو ذاهب إلى الله بوجه خال من نور السجود. ليتني كنت ممن تتلألؤ وجوههم بنور الصلاة.

ماذا عن ولدي؟! إنه في السابعة من عمره. لماذا لم أهتم بتكوين قلبه وروحه بقدر ما اعتنيت بإشباع بطنه وإلباسه الملابس الجميلة؟ لماذا لم أوجهه توجيها سليما ينير له طريق الحياة؟ لماذا لم أنقش في قلبه حب الله ورسوله، بل لماذا نسيتهما أنا وأسلمت نفسي إلى غفلة أنستني أنني لست مخلدا في الحياة وقد أفارقها في أية لحظة؟ لماذا؟

ثم شردت به خواطره إلى صباه ثم إلى أيام شبابه، واستعرض فصل الشباب يوما بعد يوم، فلم يجد سوى الذنوب والأخطاء التي يستنكرها كل قلب سليم ويستحيي منها كل عقل بصير. مرت جميع أخطائه أمام عينيه، يا إلهي، هل أحاسب على كل هذه الأخطاء؟ رباه...

لمعت في خاطره فكرة كالبرق؛ أن يتيمم في الفرن ويصلي، ولكن أين التراب؟ ليكن، ذلك أفضل من أن أذهب مسود الوجه إلى ربي، ورحمة الله واسعة. ضرب بيديه على مكان في الفرن وتيمم ووقف للصلاة. أليس هو الملاذ الوحيد الذي يلجأ إليه كل مضطر في اللحظات التي تسد فيها جميع الأبواب؟

لأول مرة في حياته يحس بأنه يتحدث إلى خالق السماوات والأرض بينما المفروض أن يرتشف الإنسان من هذا النبع في كل صلاة. ولأول مرة يدرك بعمق معنى الالتجاء إلى الله والاستعانة به وحلاوة مناجاته. وسجد حكمت لمبدع الزمان والمكان بجميع كيانه، وناجاه بصوت ملؤه الإخلاص شاعرا بعجزه اللانهائي: «يا أعظم من كل عظيم يا أرحم من كل رحيم...»

بعد أن أدى صلاة العشاء أخذ يقضي ما فاته من الصلوات. أجل إنا لله... وإنا إليه راجعون... إنه الآن يدرك هذه الحقيقة بكل ذراته. ليته لم ينس أبدا أن المصير إليه. ولما شعر بالتعب جلس وأخذ يستغفر الله بصوت حزين ودموع صادقة، وكلما أفاق من استغراقه العميق وذكر أنه مسجون في هذا المكان الضيق شعر بأن الجدران تصب عليه نارا سوداء.

أما راغب فقد ذهب إلى بيته واستغرق في نوم عميق. لكنه فجأة انتفض من نومه، نظر إلى ساعته، الثالثة والربع. أعوذ بالله، رؤيا مرعبة، صديقه حكمت يحترق في الفرن وسط نيران متأججة ويصرخ بصوت يمزق الأحشاء «راغب! راغب النجدة! النجدة! راغب!» ما هذه الرؤيا؟

فجأة برق في ذهنه خاطر رهيب... رباه! هل أغلق باب الفرن على حكمت يا ترى؟! هرع إلى الشارع كالريح خشية أن يكون قد فات الأوان.

أدخل المفتاح بارتباك، فتح الأنوار وأسرع نحو الفرن، فتح الباب وصاح: «حكمت!» لم يسمع سوى صدى صوته. هتف عدة مرات أخرى...

كان حكمت في نفس اللحظة يصلي وسط دموع غزيرة حارة وقد غرق في عوالم علوية سماوية. فانتفض على أثر صوت راغب. كلا هذا مستحيل، لا شك أنه سمع خطأ. فدوى نفس الصوت في أركان الفرن. أجل هناك شخص ما يهتف باسمه مرة بعد أخرى: «حكمت، حكمت، حكمت...» وها هي أنوار المخبز تضيء المكان.

قام من الصلاة بفرحة غامرة وخرج من الفرن مبتهجا فرأى صديقه. انتفض راغب ذعرا وجمد في مكانه مشدوها كأنه رأى شبحا مروعا، كان يرتعد وجلا: «من أنت..؟» فتح حكمت ذراعيه ليحتضن صديقه، غير أن يديه ظلتا فارغتين، قال ودموعه تسيل: «أنا حكمت، حكمت يا رجل، ألا تراني؟ دخلت الفرن ليلا ولا أدري من أغلق علي الباب.» «كلا هذا مستحيل، لا يمكن أن تكون أنت حكمت...»

ماذا يقصد؟ ما معنى هذا التصرف الغريب؟ ما هذا الكلام، أهو وقت مزاح؟ وفجأة خطرت بباله فكرة رهيبة، هرع إلى المرآة ونظر إلى وجهه... لا، لا، لا يمكن أن يكون هذا الوجه وجهه، وهذا الشعر شعره! أخذ يتحسس وجهه الشاحب المتجعد وشعره الأشيب.

يا إلهي، لقد هبطت عليه الشيخوخة في ليلة واحدة.

كان كل جسده ينتفض بنشيجه وبكائه. لم يجرؤ على النظر إلى المرآة مرة أخرى. فقد أخافه منظره الذي رآه.

لو أحس الإنسان بحقيقة الاحتراق في النار لشاخت نفوس كثيرة في لحظة واحدة. وظل حكمت هكذا ممسكا برأسه بين يديه مستغرقا في تساؤلاته...

* كاتب وباحث تركي، وهذه القصة حقيقية وقعت في إحدى مدن تركيا.

كيف يفشل الاختيار الطبيعي في التصميم

رؤية عالم رياضيات لنظرية النشوء والارتقاء عند داروين

د. آلب أرسلان دوغان*

«لا بد لكل قرية من رئيس، ولكل إبرة من صانع. بل يجب أن يكون لكل حرف كاتب، فكيف بمملكة منتظمة في النظام المحكم أن تكون بلا حاكم؟!»
(بديع الزمان سعيد النورسي)

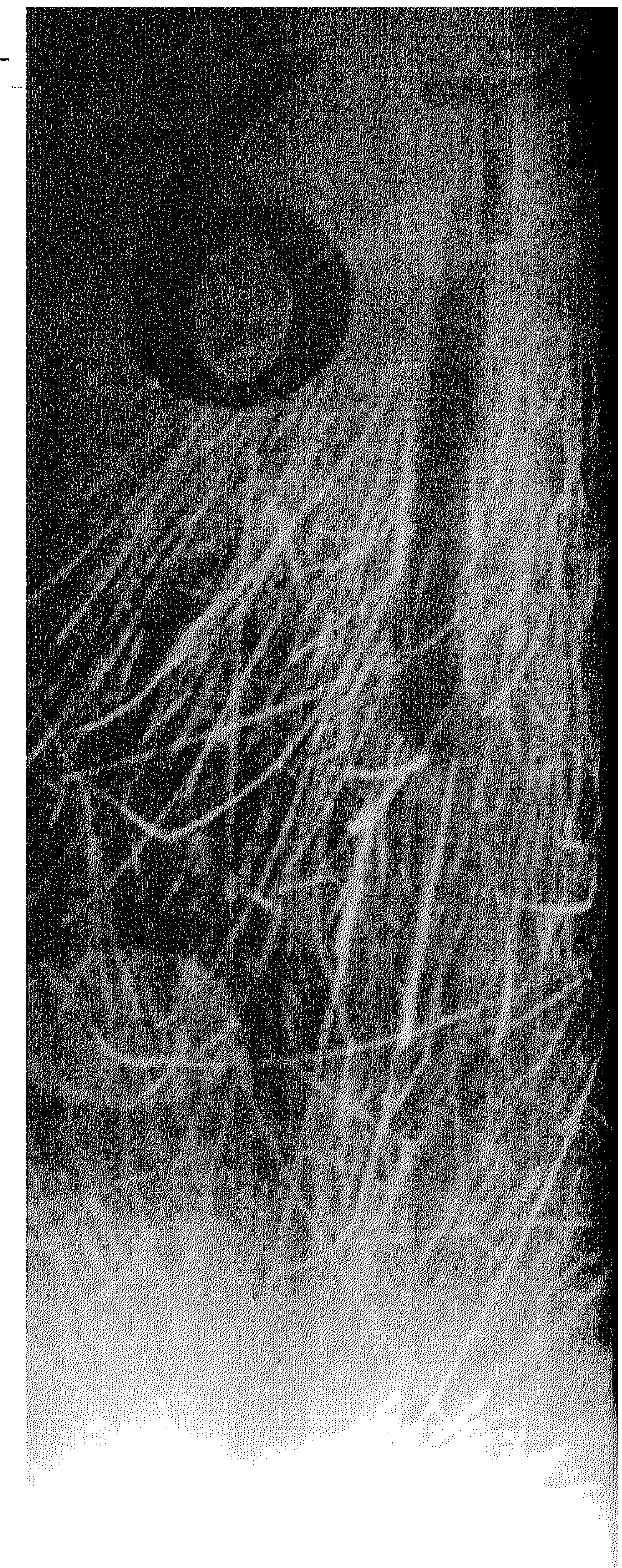
تعطي نظرية النشوء والارتقاء القائمة أصلا على أفكار داروين تفسيراً للحياة على وجه الأرض؛ فلا مكان في هذه النظرية لخالق مقتدر حيث تقوم ميكانيكا التطور من مادة غير عضوية إلى أول شكل من أشكال الحياة ثم إلى أنواع مختلفة من الحيوات التي تنتشر على الأرض وتقوم على الصدفة المحضة واختيار الطبيعة (محو الذرية غير المناسبة).

ويقول «داروين» في كتابه إلى «آسا جراي» -وهو عالم أمريكي متدين- أنه بسبب عدم إيمانه بأن هذا الكون وهذه الحياة قد أبدعتهما يد القادر الرحيم، وذلك لأسباب عقدية محضة وليس لأسباب علمية، فإن عليه أن يعتمد القول بأنّ أصل الحياة هو نتاج ما نطلق عليه الصدفة المحضة.

وبينما تمت صياغة النسخ الحديثة من نظريه النشوء تأسيسا على أفكار داروين الأصلية، فما يزال هناك جانب واحد لا يختلف في جميع النسخ وهو الغياب التام لأي إشارة لخالق بديع أوجد هذا الخلق، والواقع أن أي ظاهرة يمكن أن يكون لها تفاسير متعددة، وهذه الميكانيكية القائمة على الصدفة ما هي إلا تفسير واحد من جملة تفاسير.

وفي العادة نميل إلى أن نربط بين الصدفة وعدم وجود غاية أو هدف واضح، بينما ترتبط الإشارة لخلاق مبدع بالهدف من هذا الخلق، فإذا ظهر لنا أن ميكانيكة ما لا تهتم أو لا تدري ما النتيجة الممكنة للعمل فنحن نطلق عليها أنها قائمة على أساس الصدفة أو الميكانيكا العشوائية، بمعنى آخر نستعير الصدفة حيث لم يبدُ لنا تفضيل أي نتيجة معينة على النتائج الأخرى. وبينما تعد الميكانيكية القائمة على الصدفة تفسيرا واحدا لظاهرة ما فإننا نضعها في الاعتبار فقط حين تكون فرضية تلك الميكانيكية ذات قيمة.

أما إذا كانت الفرضية التي تضعها تلك الميكانيكية غير ذات مغزى فعلينا أن نمحوها ونبدأ في أخذ المتغيرات الأخرى في الاعتبار، وإلا



فسنقع ضحية لما يسميه الرياضي الفيلسوف دمبسكي «صدفة الفجوات»: «إن التفكير الإحصائي يجب أن يكون قادرًا على إزالة الصدفة حينما يظهر أن إمكانية حدوث الحدث قليلة جدًا، وإلا فستكون الصدفة هي التعليل الذي يُلْتَجأُ إليه لتفسير كل شيء. والعلماء يقاومون بشدة استدعاء ما فوق الطبيعة في التفسيرات العلمية خوفًا من ارتكاب شيء يسمى «إله الفجوات» (وهي نظرية باطلة تستخدم الإله لتغطية الجهل بالشيء). ومع ذلك فلولا وجود قدر من التقييد على استخدام الصدفة لواجه العلماء خطر ارتكاب أمر لا يقل بطلانا من الناحية المنطقية عن سابقه وهو ما يسميه «صدفة الفجوات» حيث يحدث أن تصبح الصدفة كالإله يتم استخدمها لتعليل الجهل.» (دمبسكي: ٩٨).

ولتوضيح هذا المبدأ هيا ندرس أمثلة ثلاثة:

الأول: مقتبس من فيلم يرويه لنا مؤلفه: والحادثة هنا تتعلق بالاختناق المحتمل لشخص ما؛ ففي فيلم «النقر الحلزوني» يلفت المغني الرئيسي النظر إلى أن عازف الطبلة السابق في الفرقة الموسيقية مات مختنقا، ويمكن لأي واحد منا أن يشهق ويبدأ في الكحة إذا غلبنا معظم الهواء المتحرك بسرعة داخل صدورنا، بيد أن حادثة كهذه ليست من الأهمية بمكان ولا نفكر فيها للحظة.

الثاني: آثار الأقدام في الصحراء: حين يرى البدوي آثار الجمل في الصحراء، لا يعزوها إلى الصدفة ولا يعتقد أن الريح شكلت تلك الآثار بالصدفة. ولكن على العكس فهو يفسر تلك الآثار أنها آثار أرجل الإبل التي مرت لتوها في هذا الطريق. وهنا احتمالية أي تفسير قائم على الصدفة ضئيلة جداً، وذلك لأن الآثار التي تسببها الرياح معلومة للأعرابي، لذا فالأعرابي يكاد يكون متأكدا أن تفسير أقدام الإبل هو الأصح حتى ولو لم يرها بنفسه.

الثالث: رواية بجانب الناسوخ (الآلة الكاتبة): تخيل أنك وجدت رواية موضوعة إلى جانب ناسوخ ويجلس بجانبه قرد. إن أحد التفاسير التي يمكن أن تقال هنا أن القرد هو الذي كتب القصة أو أن هذه الكلمات والجمل ذات المعاني هي نتائج الصدفة المحضة. ويمكننا أن ننظر إلى هذا التفسير الذي يقوم على الصدفة من خلال فكرة أنه لم يحدث حتى الآن أن رأينا قردا يقدر الأدب الإنساني؛ ولنعط تفسيرا يجعل من هذا التفسير أكثر احتمالية، فلنتخيل أن القرد كلما أكمل صفحة ينظر شخص فيها، وإن لم يكن لها أي معنى يلقيها بعيدا. إذا افترضنا وجود كمّ لا نهائي من الحبر والورق وافترضنا أن القرد قد استبدل بآخر عندما مات فربما يتوقع المرء بعض أسطر من الكتابة التي لها معنى بعد آلاف الأجيال من القرود. وأثناء عملية الكتابة تتوقع أن ترى جبالا من الورق الذي يحوي أحرفا متتابعة لا معنى لها. فإذا ما استبان لك أن القرد ليس بإمكانه أن يعيش حتى يكتب رواية، وإذا اتضح لك أنه لا سبيل للقرد أن يحصل على ورق كاف، وإذا لم تجد أي ورقة ملقاة. ستحذف هذا الفرض على التو، وستبدأ في اختبار فروض أخرى مثل وجود شخص كان قادرا على كتابة عمل أدبي وأن هذا الشخص كتب الرواية وتركها إلى جانب الآلة الكاتبة. إذن ففكرة أن القرد بإمكانه كتابة قصة عن طريق النقر العشوائي دون العناية بالمحتوى (أي عن طريق الصدفة) احتمال نادر الوقوع ولا يستحق الالتفات إليه.

تظهر هذه الأمثلة مبدأ عاما وهو أن النماذج مستحيلة الاحتمال، والمختارة لا يمكن أن تنتجها ميكانيكية قائمة على الصدفة. فآثار الأقدام في المثال الثاني تبين الأحداث بعيدة الاحتمال، وتوضح كيف يصل المرء إلى نتيجة عن طريق التفضيل أو القصد (أي تفضيل واحد من الأهداف أو قصده دون غيره من البداية).

وطالما أن النشوء والارتقاء كما يقدمه داروين يعتمد على الصدفة، فهناك سبيل واحد ممكن أن تحدث من خلاله عملية التنوع الحياتي على ظهر الأرض؛ ويمكن القيام بهذا عن طريق استفراغ نسبة لا بأس بها من الاحتمالات أو إنتاج كائنات عديمة الجدوى وترك بقايا الكائنات غير الناجحة، وأخيرا إنتاج وإيجاد الكائنات النافعة بعد استهلاك جزء من الوقت والمادة والمكان.

أعمى أم بصير؟

يجادل بعض القائلين بالنشوء أن «لوغاريتم النشوء» يختلف عن البحث الأعمى، لأنهم يضمنونه وظيفة تناسبية تفضل بعض النتائج على بعض. ومن ناحية أخرى تقوم وظيفة التناسبية المتخيلة هذه بتقييم أي من الكائنات أكثر ملائمة أو يعقد عليها الأمل في كل جيل.

ولفهم مفهوم وظيفة التناسبية هذه علينا أن ننظر إلى عملية توليد الحيوانات التي تقوم على أساس انتقائي حيث يقوم الأشخاص باختيار للجينات التي تحوي خصالا مرغوبة أكثر ويستمرون في توليدها، فربما يولدون فقط من الدجاج الأكثر خصوبة أو الغنم الأكثر صوفا وينجحون في تغيير صفات تلك الحيوانات. لذا فمعيار الاختيار عند هؤلاء ربما يعتبر وظيفة التناسبية أو الملاءمة. وعلى الرغم من هذا فمسألة التوليد الانتقائي للحيوانات يقوم فيها العنصر البشري بتحديد وتطبيق هذه الوظيفة. أما في حالة التطور الدارويني فلا مكان لكائن ذكي، لذا فوظيفة التناسبية المتخيلة هذه لا بد وأن تكون نتيجة القوانين المادية للكون ولا بد أن تكون نتيجة لظروف أرضية.

وما تقوم به لوغاريتمات النشوء هذه عبارة عن استغلال المعلومات المشفرة أصلا داخل وظيفة التناسبية أو الملاءمة؛ وعليه فإن «لوغاريتم النشوء» يحول المشكلة أو القضية بكل بساطة إلى مجال مختلف. وإذا افترضنا أن وظيفة الملاءمة هذه هي نتيجة للظروف الأرضية فعلينا أن نتذكر أن هذه الظروف الأرضية غير محتملة وغير واضحة بدرجة كبيرة. لذا فإذا افترضنا أن وظيفة الملاءمة قادرة على التشكيل فعلينا أن نبين سبب كونها العامل الأول الذي يعول عليه.

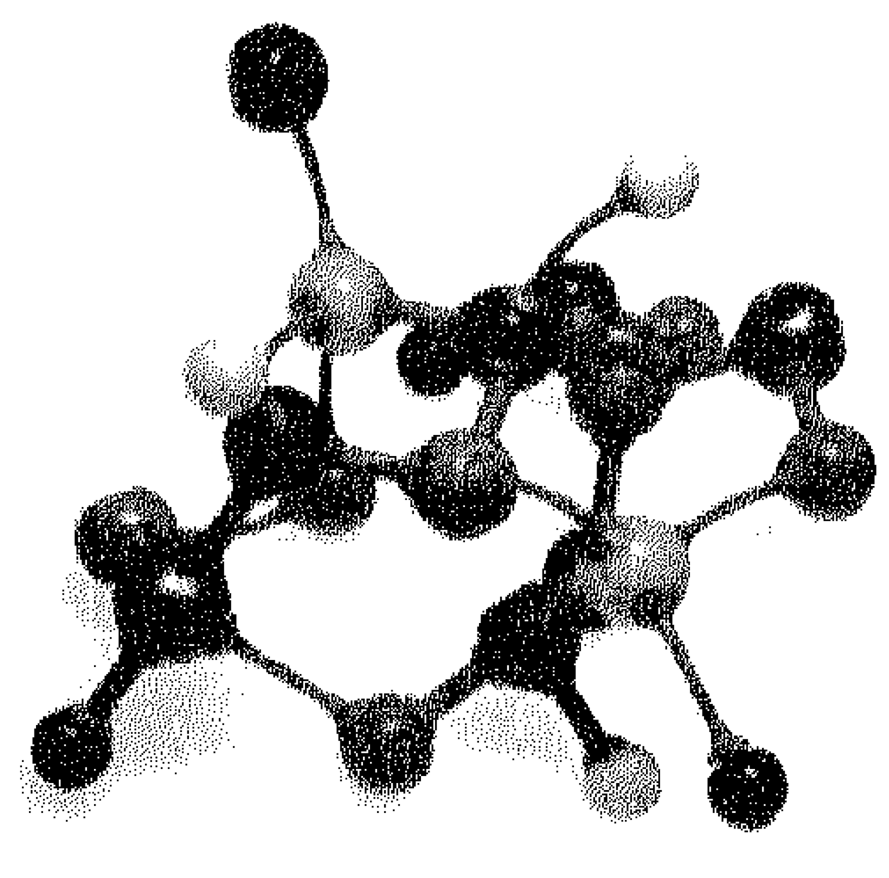
ثانيا لا يمكن بحال وضع تعريف لتلك الوظيفة، وحتى أصحاب القول بالنشوء أنفسهم يجدون صعوبة في وضع تعريف لتلك الوظيفة ووصف طريقة عملها، بل إن المحاولات المبذولة من قبل القائلين بالنشوء ذهبت إلى التكرار من أجل تبريرها.

«بهذه الصورة تتنبأ النظرية أن الكائنات الأصلح ستكون أكثر إنتاجا للذرية، وتعرف الكائنات الأصلح (الأكثر ملاءمة) على أنها الكائنات الأكثر إنتاجا.» (جونسون: ٩١)

تعليقا على هذا التوجه يقول الفيلسوف والعالم المشهور كارل بوبر: "يصوغ بعض كبار القائلين بالنشوء (الداروينيين) النظرية بطريقة تجعلها تنتهي إلى القول بأن الكائنات التي تترك خلفها أكثر نسبة من الذرية تترك لنا أكثر كمية من النسل"، ولما كانت وظيفة الملاءمة غير واضحة التعريف كان من غير الممكن بيان كيفية عمل تلك الوظيفة لإنتاج ذلك الرقم الهائل من الحيوات سواء بطريقة علمية أو حسابية. وبينما يفضل المختبرون البساطة في التجارب التي تختبر فيها ميكانيكيات النشوء والارتقاء، نرى نحن التعقيد المتزايد في الحياة.

حدود الكون

قال الفيزيائي الشهير «كارل ساجان» مشيرا إلى عملية النشوء والارتقاء: «إن الصدفة تصنع المعجزات إذا أعطيت وقتا كافيا».



وبينما يصح هذا القول على المستوى النظري فعلى المرء أن يضع في الاعتبار أن الصدفة إن أعطيت الوقت لتأخذ في العمل ستنتج لنا نسبة عالية من النتائج عديمة الفائدة وغير مرتبة قبل أن تتكشف لنا عن معجزة. وفوق هذا فالكون الذي نعرفه له عمر محدود ويحوي كمية محدودة من المواد، لذا فالوقت الذي تستخدمه الصدفة هو وقت محدود. يدفعنا هذا إلى أن نثير سؤالا هو: إذا وضعنا في اعتبارنا عمر الكون المحدود وكمية المادة المحدودة وكل النتائج الممكنة وتغيراتها، فما مدى إمكانية إنتاج خلية بشرية واحدة عن طريق الصدفة؟

والإجابة عن هذا السؤال هامة جدا حيث إنها ستحدد ما إذا كانت فرضية الصدفة تستحق انتباهنا أصلا.

ويوضح «دمبسكي» أن أي أمكانية داخل الكون المنظور تقل عن حدود الإمكانية الكونية تظل غير ممكنة حتى ولو افترضنا أننا استهلكنا كل المصادر المتاحة لاختبار كل الإمكانيات. وتفصيل هذه المسألة كما يلي:

الموارد المحتملة في الكون المنظور تعطينا تزويدات محدودة، ويوجد في هذا الكون الحسي المعلوم حوالي ١٠^٨٠ من المواد الأساسية. فوق هذا فخصائص المادة مثل الانتقال من حالة مادية إلى أخرى لا يمكن أن تحدث بمعدل أكبر من ١٠^٤٥ مرة في الثانية.

وتتوافق هذه السرعة مع زمن «بلانك» والذي يمثل أقل وحدة مادية معتبرة للزمن. وفي النهاية فالكون كله في مجمله $١٠^{٢٥}$ ثانية (على فرض أن عمر الكون ما بين أصغر بليون مرة من ١٠ إلى ٢٠ بليون سنة).

وإذا افترضنا الآن أن أي تخصيص لحادثة تقع داخل هذا الكون المادي المعلوم يتطلب مادة واحدة على الأقل لتخصيصه ولا يمكن أن يتم في زمن أسرع من زمن «بلانك» فستعني لنا هذه القيود الكونية أن مجموع الأحداث المخصصة خلال التاريخ لا يمكن أن تزيد بحال عن $١٠^{٨٠} \times ١٠^{٤٥} \times ١٠^{٤٥} = ١٠^{١٥٠}$؛ ويلي هذا أن أي إمكانية مخصصة أقل من ١ في $١٠^{١٥٠}$ ستظل غير ممكنة وحتى ولو جمعنا لها كل مصادر الإمكان المعروفة في الكون المنظور.

لذا فإمكانية ١ في $١٠^{١٥٠}$ هي قيد الإمكانية الكونية؛ ومن الأمور المتضمنة داخل هذا القيد ١٠/١٥٠– أن الكون مكان صغير جدا لتوليد تعقيد مخصص عن طريق استنفاد كل الأمور الممكنة.

يفصل «شتاورت كاوفمان» هذا المفهوم في كتابه «بحوث» حيث يضع في اعتباره عدد البروتينات الممكنة ذات طول ٢٠٠ (يعنى $٢٠^{٢٠٠}$ أو $٨٠^{٢٦٠}$ تقريبا) وأقصى عدد للصدامات الزوجية على مدى تاريخ الكون (هو يقدر عدد الصدامات بـ $١٠^{١٩٣}$ على اعتبار أن معدل رد الفعل الخاص بالتصادم يمكن قياسه بالفيمتو ثانية). وينتهي كاوفمان إلى القول بأن الكون المعلوم لنا لم يجد وقتا وزمنا كافيين منذ الانفجار العظيم كي ينتج البروتينات التي طولها ٢٠٠ ولو لمرة واحدة.

ولكي يؤكد هذه الفكرة يقول: «يحتاج الكون إلى $١٠^{٦٧}$ ضعف مدة حياته الحالية كي يتنج كل البروتينات الممكنة من تلك التي طولها ٢٠٠ ولو لمرة واحدة على الأقل.» (دمبسكي: ٩٨)

بيد أن من المهم أن نوضح أن القيمة المضبوطة لحدود الإمكانية الكونية ليست حاسمة، وحتى القيمة التقديرية كافية للحكم على توضيح ظاهرة محسوسة تقوم على الصدفة.

ويقدر «كارل ساجان» نفسه إمكانية الكائنات البشرية الناشئة عن خلية حية وحيدة بأنها صدفة واحدة من بين ١٠٢.٠٠٠.٠٠٠.٠٠٠ صدفة.

وبوضع هذا التقدير إلى جانب حدود الإمكانية الكونية التي تمت مناقشتها سلفا إضافة لاستخدام الحس العام، يمكن لنا أن نرفض فرضية الصدفة كأصل للحياة أو تنوعها على الأرض.

إذا وضعنا في اعتبارنا عمر الكون المحدود وكمية المادة المحدودة وكل النتائج الممكنة وتغيراتها فما مدى إمكانية إنتاج خلية بشرية واحدة عن طريق الصدفة؟

قضية السجل الأحفوري

تأتي مشكلة السجل الأحفوري –والتي لم نناقشها بعد في هذا المقال بالتفصيل– مرتبطة بفرضية الصدفة هذه. فلو صح فرض الصدفة لكان عدد المحاولات العملية العمياء الفاشلة أكبر بكثير من عدد المحاولات الناجحة. وهو ما يعني أن السجل الأحفوري كان لا بد وأن يحوي عددا هائلا من أحفوريات لكائنات وأنواع فاشلة وظيفيا أو غير ملائمة مقارنة بعدد ضئيل من الأنواع الناجحة.

ومثلما يجب أن تزيد التجارب الفاشلة في عددها عن التجارب الناجحة، يجب أن تعكس الأحفوريات النسبة ذاتها.

وبينما توجد علائم أنواع منقرضة في السجل الأحفوري فلا يوجد عدد كبير من الأحفوريات التي تسجل التنوع الكبير الذي نتوقعه من الطفرات العمياء عند فرض وجودها.

وعلى الرغم من أن أسباب انقراض أنواع من الحيوانات مثل الديناصورات لا تزال محل جدل، فمن المتفق عليه أن الديناصورات كانت كائنات حية ناجحة في زمانها.

خاتمة

وفي الجملة حين يقوم أحد علماء الرياضيات بحساب إمكانية الفرض القائل بأن الصدفة هي التي أوجدت الحياة على ظهر الأرض سيجد أن من السهولة بمكان عليه أن يرفض هذا الفرض للمشاكل والإيرادات السابقة. فالحياة أعمق وأعقد من أن تؤخذ بهذه البساطة، فعمر الكون وكمية المواد المتوفرة فيه لا يكفي بحال من الأحوال لاستهلاك كل الإمكانات والوصول إلى صور حياتية متنوعة كتلك التي نراها أمام أعيننا على وجه الأرض. كما أن السجل الأحفوري لا يعكس لنا نسبة للتجارب الفاشلة مقارنة بالتجارب الناجحة كما نتوقع في حالة صدق فرض الصدفة. ولذا فلو تقدمنا لأحد علماء الرياضيات الموضوعيين بنظرية النشوء والارتقاء هذه لصاح في وجوهنا قائلا: «إما أنكم تريدون مني إغلاق عقلي وإما أن أرفض هذا الفرض كلية. فالحياة لا بد لها من صانع بديع حكيم عليم قدير يَدري ما يفعل.»

ومن هنا يصل عالم الرياضيات إلى النتيجة التي توصل لها ذلك الأعرابي الأمي الذي –برغم أميّته– يحسن النظر والفكر حين قال: «البعرةُ تدل على البعير، وآثار السير تدل على المسير؛ فسماء ذات أبراج وأرض ذات فجاج وبحر ذو أمواج أفلا يدل ذلك على اللطيف القدير، الحكيم العليم الخبير؟».

* كاتب وباحث تركي.

من وحي حراء
الرمز والدلالة

أ.د. عمار جيدل *

بسم الله كانت البداية، وبعونه يستمر العمل، وبتوفيقه تحقق المقاصد وتنال المعالي.

وبعد، يحتفل البشر بأزمنة معينة احتفالا كبيرا، ويحيون ذكراها كلما أزف موعدها، وهم بذلك يعبرون عن جلالة ذلك التاريخ، وأهميته بالنسبة لحاضرهم ومستقبلهم. ونلاحظ ذات الاهتمام بالأماكن، إن لم يكن أكبر فلا يختلف الاهتمام به عن احتفائهم بالأزمنة، إذ كلما قرأوا اسم المكان أو ذكر على مسامعهم، تحركت فيهم السواكن. فهل يعود احتفاؤهم بالزمان والمكان لأنهما كذلك في حقيقة الأمر؟ أم يعود إلى ما ارتبط بهما أو بأحدهما من وقائع مثلت منعطفات مهمة في تاريخ المحتفى بهما أو بأحدهما، ومسار حركة أمتهم فيما تستقبل من الأيام.

اختيار الأماكن عناوين لأعمال أدبية أو تربوية أو إعلامية يعبر بنفسه عن استحضار ذلك المكان -لا بوصفه مكانا- بوصفه رمزا له دلالات عظيمة في التربية والاجتماع وصناعة الحضارة.

وفق القائمون على هذا العمل التربوي والأدبي والاجتماعي والحضاري إلى جعل «حراء» عنوانا لمجلتنا. فما الذي استحضروه في اختيار هذا العنوان؟ وماذا يمثل هذا الاختيار؟ وما هي أبعاده؟

العنوان يعبر عن خط فكري وتربوي ورؤية حضارية نافذة؛ حراء الرمز يوحي بمعانٍ كثيرة لها دلالاتها العميقة في حياتنا بتشعباتها الفكرية والتربوية والاجتماعية والحضارية، الفردية والاجتماعية.

حراء الجبل المعروف بمكة، والغار -غار حراء- الذي نسب إليه هوة في ذلك الجبل، وهو من هذا الوجه مكان عادي، ولكنه ليس مكانا عاديا من جهة كونه محل تحنث النبي الخاتم محمد بن عبد الله ﷺ، لهذا احتفى المسلمون بذكره، واختاره القائمون على المجلة عنوانًا لمشروعنا.

لعله من أبرز أسماء الأماكن التي استهل بها ظهور البوادر الأولى للسيرة العطرة لأستاذ الإنسانية وخاتمة الرسل، سيدنا محمد ﷺ.

وعندما يسمع المسلمون اسم هذا المكان أو يقرأ على مسامعهم يوحي ذكره برموز لها دلالات وحضور قوي في شحذ هممهم وتنشيط عزائمهم. فما أبرز ما يوحي به المكان «حراء» وإلى ماذا يرمز وما هي دلالات هذا الرمز في حياتنا المعاصرة؟ هذا ما نعمل على التعرف عليه في هذه المقالة.

ورد في صحيح السنة المطهرة ذكر غار حراء مرتبطا بحياة سيدنا محمد ﷺ، ومن ذلك ما رواه الإمام البخاري في صحيحه في كتاب بدء الوحي: «عن عائشة أنّها قالت أول ما بدئ به رسول الله ﷺ من الوحي الرؤيا الصالحة في النوم، فما كان يرى رؤيًا إلا جاءت مثل فلق الصبح، ثم حبب إليه الخلاء، وكان يخلو بغار حراء فيتحنث فيه -وهو التعبد- الليالي ذوات العدد، قبل أن ينزع إلى أهله ويتزود لذلك، ثم يرجع إلى خديجة فيتزود لمثلها، حتى جاءه الحق وهو في غار حراء...»

كما ذكر في سيرة ابن هشام نقلا عن ابن إسحاق قال: «وحدثني وهب بن كيسان، مولى آل الزبير، قال: سمعت عبد الله بن الزبير وهو يقول لعبيد بن عمير بن قتادة الليثي: حدثنا يا عبيد، كيف بدء ما ابتدئ به رسول الله ﷺ من النبوة، حين جاءه جبريل عليه السلام؟ قال: فقال: عبيد وأنا حاضر يحدث عبد الله بن الزبير ومن عنده من الناس كان رسول الله ﷺ يجاور في حراء من كل سنة شهرا، وكان ذلك مما تحنث به قريش في الجاهلية، والتحنث التبرر.... وكان رسول الله يجاور ذلك الشهر من كل سنة، يطعم من جاءه من المساكين...»

تلك بعض النصوص التي ورد فيها ذكر غار حراء، تدل وغيرها من النصوص على أن لهذا الرمز دلالات عميقة، يفرض استحضارها في وضع مضامين الخط الحضاري والفكري والتربوي لمجلتنا الغراء «حراء»، وباختصار غير مخل يمكن أن نؤكد على ما يأتي:

١- كان غار حراء موضع تحنّث النبي ﷺ. واستحضار هذه

المعاني يرمز إلى وجوب العمل في مجلتنا «حراء» على التحقق بالتعبد لله وتحقيقه، وذلك لما يمثله من مدد أساسي في صناعة الوعي بالكون وإنشاء الفاعلية فيه؛ فالعبادة الجامعة تستغرق جميع مجالات الحياة المادية والمعنوية الخاصة والعامة. وما استحضار العناصر الإنسانية في التصرفات إلا بقدر استحضار التعبد لحظة المزاولة الاجتماعية للعبادة؛ فهي متناسبة معها وجودا وعدما زيادة ونقصانا، إذ كلما زاد التعبد زادت العبادة، وكلما زادت العبادة نمت العناصر الإنسانية في الإنسان المتعبد نفسه. هذا ما نطمح إلى جعله مقصدا رئيسا في خط مجلتنا، أي التحنث من أجل الفعالية الإيمانية بأبعادها الاجتماعية لا من أجل التباهي والزهو و. . .

٢- التجمل بالصبر مقصد آخر يوحي به المكان «حراء». ومجلة تقوم على تحقيق هذا المقصد حري بها أن تنشر ثقافة صناعة الصبر على المستوى الاجتماعي والتربوي. ويتعين للقيام بهذه الوظيفة معرفة دقيقة -وفق الطاقة البشرية- بضغوط الزمان والمكان، دون الوقوع في شراكهما، بغرض تحديد المبتغى في لحظة التبليغ والتربية، وتيسيرا للقيام بهذه المهمة يتعين تحصيل معرفة جيدة بعقلية المتلقي وحاجاته النفسية والاجتماعية.

٣- يرمز عنوان مجلتنا إلى التأسيس لثقافة الاستعداد للتلقي، وما يفرضه من تحرير وتحرر من المكبلات الأيديولوجية التي تحرم كثيرا من الخلق من رؤية الحق والإذعان له. وتأسيسا لهذه الثقافة يجب النظر إلى المخالف والموالف على حد سواء بعين الشفقة والرحمة والإخاء، والابتعاد عن لغة الإقصاء والزهو بالإيمان تحضيرا لقبول الحق والإذعان له. فيتعين -حسب تقديرنا- أن يكون من مقاصدنا الرئيسة في المجلة التلطف مع الخلق وإسعافهم لتهيئة أنفسنا وأنفسهم لقبول الحق والتصرف وفق ما يفرضه الخضوع له.

٤- تحقيق المقاصد السابقة، يفرض طاقة نفاثة لا تنضب، ولا تكون كذلك إلا إذا كانت عملية التجدد الإيماني حيوية مستمرة تستغرق جميع الوقت، فيكون التزود بالطاقة الإيمانية مستمرا، ذلك أن الطريق إلى الحق مسلك طويل وشاق وممتع في ذات الوقت، زيادة إلى الترغيب والترهيب المسلط على الثابتين على خط الرسالة وما يفرضه من طاقة متجددة باستمرار. إن صح (وهو محض فرض) أن نتصور رجلا بلغ تمام الرضا في العبادة؛ فإن الثبات على المكان يفرض جهدا أكبر من الجهد المبذول في بلوغ تلك الرتبة، هذا الشخص أشبه بمن بلغ النهاية العظمى على بكرة دائرية دوارة (متحركة)، البقاء على ذروة تلك البكرة المتحركة يفرض جهدا مستمرا، إذ بمجرد الغفلة عن الحركة -بذل الجهد- يسقط فيتحول من القمة إلى القاع.

٥- أرى أن تجعل المجلة «حراء» المراجعة المستمرة ركنا ركينا في مشروعنا، ولا يتأتى تحقيقه إلا إذا كانت محاسبة النفس تمرسا ومزاولة تستغرق جميع ميادين الحياة وتطال جميع الأفعال مهما كانت صغيرة ومراجعة المكاسب بغرض الاستدراك على ما فات. نجاح هذا المسعى وجعله غاية يفرض قبول النقد العلمي الموضوعي، والتأسيس له على المستوى العلمي والتربوي بل وحتى الاجتماعي.

٦- كان رسول الله ﷺ وهو في غار حراء، وفق ما ورد في السيرة العطرة، يطعم من جاءه من المساكين. ومجلة اختارت «حراء» عنوانا لها، ينبغي أن تكون ملاذ الجائعين معنويا وتربويا، تطعمهم لوجه الله لا تريد منهم جزاء ولا شكورا، تتبنى قضاياهم الفكرية والتربوية، وتسعى جاهدة إلى تقديم أجوبة شافية عنها، تقدمها مسربلة بالرفق والشفقة والحب. ولعلها بذلك تكون سببا في هدايتهم ومن ثم إسعافهم في الكشف عن القوة المستودعة فيهم، ليكونوا فاعلين بالإيمان في حياتهم الاجتماعية والتربوية.

٧- يرمز «غار حراء» إلى الأمن والاطمئنان، وفق ما ذكره العلامة بديع الزمان النورسي في المكتوبات (ص:١٧٧) نقلا عن أهل القلب والصلاح.

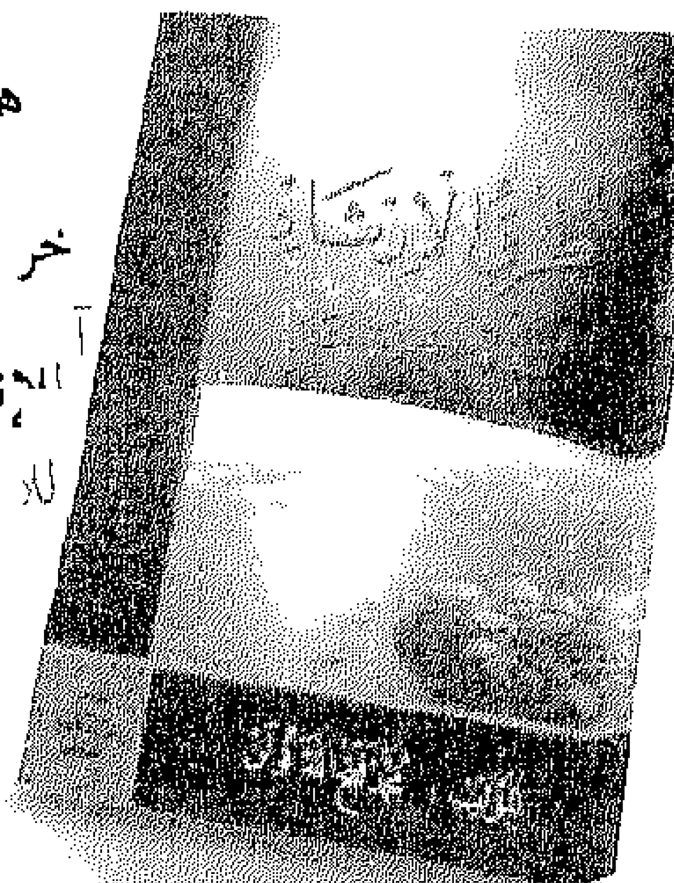
ومجلة اختارت خطا فكريا يرمز إليه اسم «حراء» يفترض أن يكون من مقاصدها الرئيسة تحقيق الأمن والاطمئنان بكل معانيه وأبعاده. وهي في ذات الوقت ينبغي أن تكون أمنا واطمئنانا في مواضيعها ومعالجاتها ومقاصدها.

والله من وراء القصد وهو يهدي السبيل. ■

* جامعة الجزائر المركزية - الجزائر.

العنوان يعبر عن خط فكري وتربوي ورؤية حضارية نافذة؛ حراء الرمز يوحي بمعانٍ كثيرة لها دلالاتها العميقة في حياتنا بتشعباتها الفكرية والتربوية والاجتماعية والحضارية، الفردية والاجتماعية.

طرق الإرشاد في الفكر والحياة

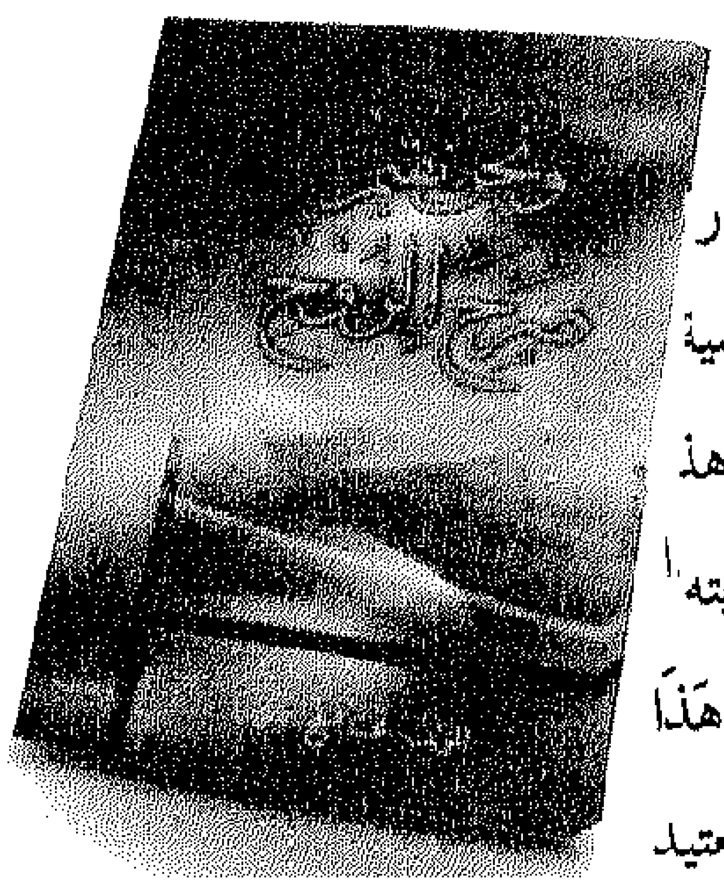


هذا الكتاب فريد في نوعه، إذْ هو ليس كما قرأنا من كتب في الموضوع نفسه بل يمكن أن نطلق عليه عنواناً خر فنقول إنه كتاب في «فقه المعاناة والألم» من أجل الدعوة، بالإضافة إلى كونه قدحةً تضيءُ الجوانيَّة العميقة الإنسان، وما تطفح به من نازع إيماني فطري عميق.

والكتاب يكاد كله يكون عملية تحريكية لهذه الفطرة المدركة، وترجمة رؤاها والتعبير عن أهدافها ومقاصدها، كما أنَّهُ ضِدّ الفوضوية الروحية والفكرية التي تعاني منها بعض الدعوات. والكتاب – بعد لك – يهدف إلى إرساء قواعد أساسية منظمة في العمل الدعوي تحول بين الداعية والتفلت إلى مجالات خرى غير ملتزمة وغير منضبطة، وبذلك تحتفظ الدعوة بقواها وتمنعها من الإنفلات والتبدّد في غير ما جدوى.

المؤلف: محمد فتح الله كولن -المترجم: إحسان قاسم الصالحي – عدد الصفحات: ٢١٦- دار النيل للطباعة والنشر/فرع القاهرة: ٢٠٢٢٦١٩٢٠٤+

ونحن نقيم صرح الروح



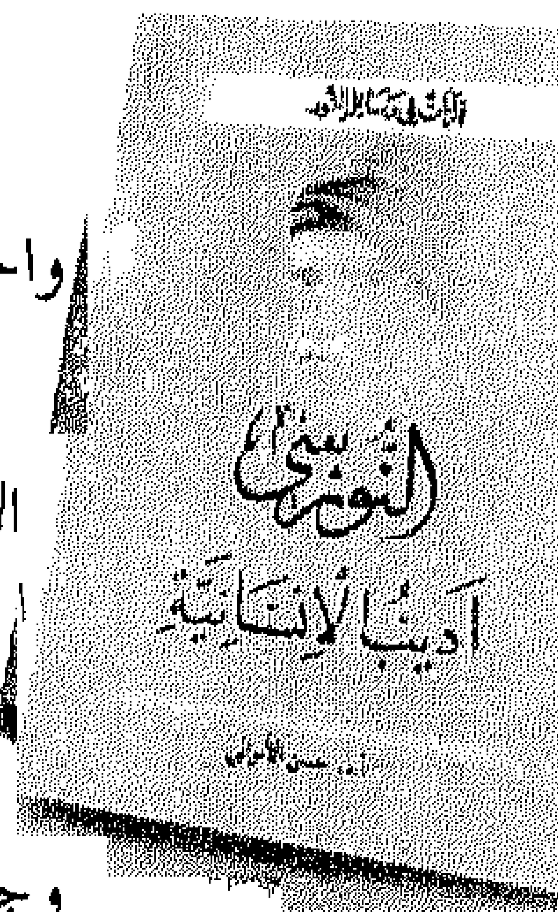
يعاني المسلمون تفككاً روحياً رهيباً، وهذا التفكك هو سبب مشاكلهم الإيمانية وأزماتهم الحضارية.

وهذا الكتاب القيم يشخص عِلَّةَ هذا التفكك، ويبين أسبابه وتداعياته. فعلَّةُ العلل في ذلك هو انهيار صرح الروح وسقوط مناراته العالية الذي أحدث دوياً سمعه العالم كله، وأحدث اضطراباً هائلاً في شخصية المسلم وفي أُسس إيمانه. والكتاب دعوة مخلصه للأيدي الطاهرة والنظيفة لتتكاتف بينها في محاولة إقامة هذ الصرح المتهاوي على قدميه من جديد فيعود المسلم التائه في صحارى الاغتراب لولوجه والاحتماء به من غربته ويَؤوب عقل المسلم المشتّت بين تيارات الأفكار ليلتقي نَفْسَهُ فيه، ويلتقي كُلٌّ أصله، وجوهر حقيقته. إنَّ هَذَا الكتاب النفيس الذي لم نقرأ مثيلاً لـه يرسم خارطة دقيقة وتفصيلية للكيفية التي يمكن بها إقامة هذا الصرح العتيد من وهدته، إنه يجوب القلب البشري ويأتي بلبنات البناء من مقالعه، ويجوس خلال الروح ويعود بفلذاتها لتكون الحجر الأساس فيه، ولكي يعلو شامخاً بحيث يراه العالم كله من أي جهة نظر إليه، ويجد في ظله الأمن والأمان. وخير من يقوم بهذه المهمة الإيمانية الحضارية هو جيل الطهر والإيمان الذي لم تتلوث روحه، ولم يتنجَّسْ قلبه.

والكتاب طافح بالأمل في مستقبل قيام هذا الصرح، وهو حين يقوم فسيكون أعجوبة من أعاجيب هذا العصر، يعلو على كل صرح ويسمق فوق كل حضارات القلب والروح في الماضي والحاضر.

المؤلف: محمد فتح الله كولن – المترجم: عوني عمر لطفي اوغلو– عدد الصفحات: ١٧٦ – دار النيل للطباعة والنشر/فرع القاهرة: ٢٠٢٢٦١٩٢٠٤+

النورسي أديب الإنسانية


هذه بحوث كان كتبها الأستاذ «الأمراني» في أوقات مختلفة، وتحت عناوين مختلفة، غير أن موضوعها واحد، وهو المنحى الأدبي والشعري عند الإمام «النورسي» رحمه الله في رسائله «رسائل النور».

والأستاذ «الأمراني» أديب وشاعر وناقد معروف، فتقويمه للإمام النورسي، وعَدّه واحداً من كبار الأدباء والشعراء يأتي ضمن دراسة نقدية مُعَمَّقة يمكن الاطمئنان إليها، والوثوق بها.

وإلى ذلك فإن هذه البحوث تكتسب أهمية خاصة لدى المعنيين بالأدب لكونها محاولة جادّة في الكشف عن الصلة والنسب بين العبقرية الشعرية والعبقرية الدينية، فالعبقريتان كلتاهما تنبعثان من رهافة وجدانية عميقة الغور في النفس الإنسانية.

المؤلف: أ.د.حسن الأمراني – عدد الصفحات:١٦٢ – دار النيل للطباعة والنشر/فرع القاهرة: ٢٠٢٢٦١٩٢٠٤+



حراء

مجلة علمية ثقافية فصلية

www.hiramagazine.com

الشروق

الغروب ميناء للضوء الراحل...
الغروب وقت حزن على الدوام...
ما أن يحين الأوان،
حتى تشرق الشمس،
مثلما غربت،
هي تجري حسب نظام دقيق...
دقيق...

ISSN 1306-1879

حراء

مجلة علمية ثقافية فصلية

www.hiramagazine.com

العدد السادس / السنة الثانية / (يناير - مارس) 2007



الهدم والبناء...

الإنسان البنَّاء عمودٌ من أعمدة الحضارات، تحرص الأمم على أن تستكثر منه بين ظهرانيها... ومن البداهة بمكان أن نقول إنّ معاول الهدم والتخريب في الأمم والحضارات لا تطال أول ما تطال إلاّ صروح الروح، لأنّ هذه الصروح حصن الإنسان الحصين التي تقيه عواصف الهدم والتخريب، وهي الحِمَى الذي يأوي إليه وجوده الأفضل، فإذا ما تهدمت تيتَّمت الأمم وضاعتْ وأجدب روحها ومات قلبها، وصارت نهبًا مشاعًا لكل طمَّاع دسَّاس.

ومن هنا جاء مقال أستاذنا فتح الله كولن الموسوم "ونحن نقيم صرح الروح"؛ فقد عالج فيه الكيفية والآلية العملية التي تساعدنا على إقامة صرح الروح المتهدم، وبنائه من جديد على أسس سليمة وقواعد رصينة.

وأما غياب الهوية الإسلامية وخطر هذا الغياب على الأمة كما يرى الدكتور البوطي فيكاد هو الآخر يصبُّ في السياق نفسه من وجهة نظر أخرى. وأمّا الأستاذ النورسي مبدع "رسائل النور" فلا يكاد يخلو عدد من أعداد المجلة عن مقال يدور عنه وعن بعض جوانب فكره كما نشاهد ذلك في مقالَي الدكتور محمد عبد النبي من الجزائر والدكتور عبد العزيز برغوث من ماليزيا. وعن الطاقة الاحتوائية للثقافات الأخرى التي يتميز بها الإسلام يحدثنا فضيلة الدكتور محمد عمارة في شيء من التفصيل والدقة كما هو شأنه في كل ما يكتب. وأمّا باب المجلة العلمي فيتحفنا العالم الجليل الأستاذ زغلول النجار بمقال يحدثنا عن الحفيظية الإلهية للسماء.

وللقصة كذلك كما للشعر مكانها المناسب من المجلة، فقد صاغ لنا الأستاذ نور الدين صواش بقلمه البديع المتأنق قصة واقعية مؤثرة عن واحد من مديري إحدى المدارس في آسيا الوسطى. أما أديب الدباغ فإنه يكتب عن "الاغتراب الحضاري لدى المسلم المعاصر". ومن المغرب الشقيق يهدينا العالم والأديب الأستاذ الدكتور فريد الأنصاري مقالاً يكاد يكون دراسة عن "جمالية التفكير الإيماني". وأما الشاعر والأديب الكبير الأستاذ حسن الأمراني فيهدينا إحدى رائعاته الشعرية "وباسمك أفتح الملكوت"، إلى جانب مقالات قيمة أخرى.

وبعد، فإنّ "حراء" وهي تقدم هذه الإضمامة من المقالات بأقلام جمهرة من الأساتذة الكرام للقارئ العربي لامسةً حسّه الفكري المرهف لا تريد أن تنتحل سيادة فكرية ميسرة على أفكار الآخرين بقدر ما تريد أن تكون إحدى المساهمات إلى جانب أخواتها من المجلات العربية في مواجهة النَّوء القاسي الذي يتعرض له عالمنا الإسلامي.

إن السؤال الذي يفرضه علينا واقعنا المفتقر إلى معرفة إيمانية شاملة هو كيف نستطيع أن نبني هذه المعرفة وأن نغنى بها إلى حد الامتلاء. وهذا الغناء هو ما تسعى إليه حراء بجهدها المتواضع، سائلين الله تعالى التوفيق والسداد والسلام. ■

حراء
مجلة علمية ثقافية فصلية
www.hiramagazine.com

العدد السادس – السنة الثانية (يناير – مارس) 2007

التصور العام

- حراء مجلة علمية ثقافية فصلية تعنى بالعلوم الطبيعية والإنسانية والاجتماعية وتحاور أسرار النفس البشرية وآفاق الكون الشاسعة بالمنظور القرآني الإيماني في تآلف وتناسب بين العلم والإيمان، والعقل والقلب، والفكر والواقع.
- تجمع بين الأصالة والمعاصرة وتعتمد الوسطية في فهم الإسلام وفهم الواقع، مع البعد عن الإفراط والتفريط.
- تؤمن بالانفتاح على الآخر، والحوار البناء والهادئ فيما يصب لصالح الإنسانية.
- تسعى إلى الموازنة بين العلمية في المضمون والجمالية في الشكل وأسلوب العرض، ومن ثم تدعو إلى معالجة المواد بمهنية عالية مع التبسيط ومراعاة الجوانب الأدبية والجمالية في الكتابة.

شروط النشر

- أن يكون النص المرسل جديدا لم يسبق نشره.
- ألا يزيد حجم النص على ٢٠٠٠ كلمة كحد أقصى، وللمجلة أن تلخص أو تختصر النصوص التي تتجاوز الحد المطلوب.
- يرجى من الكاتب الذي لم يسبق له النشر في المجلة إرسال نبذة مختصرة عن سيرته الذاتية.
- تخضع الأعمال المعروضة للنشر لموافقة هيئة التحرير، ولهيئة التحرير أن تطلب من الكاتب إجراء أي تعديل على المادة المقدمة قبل إجازتها للنشر.
- المجلة غير ملزمة بإعادة النصوص إلى أصحابها نشرت أم لم تنشر، وتلتزم بإبلاغ أصحابها بقبول النشر، ولا تلتزم بإبداء أسباب عدم النشر.
- تحتفظ المجلة بحقها في نشر النصوص وفق خطة التحرير وحسب التوقيت الذي تراه مناسبا.
- النصوص التي تنشر في المجلة تعبّر عن آراء كُتّابها، ولا تعبّر بالضرورة عن رأي المجلة.
- للمجلة حق إعادة نشر النص منفصلاً أو ضمن مجموعة من البحوث، بلغته الأصلية أو مترجمًا إلى أي لغة أخرى، دون حاجة إلى استئذان صاحب النص.
- مجلة حراء لا تمانع في النقل أو الاقتباس عنها شريطة ذكر المصدر.

يرجى إرسال جميع المشاركات إلى هيئة تحرير المجلة على العنوان الآتي:

hira@hiramagazine.com

مجلة علمية ثقافية فصلية تصدر عن:
Işık Özel Eğitim Tic. Ltd. Şti.
İstanbul / Türkiye

صاحب الامتياز
أنس أركنه
mergene@hiramagazine.com

المشرف العام
نوزاد صواش
nsavas@hiramagazine.com

رئيس التحرير المسؤول
حسام الدين السيد
hosam@hiramagazine.com

مدير التحرير
أشرف أونن
eonen@hiramagazine.com

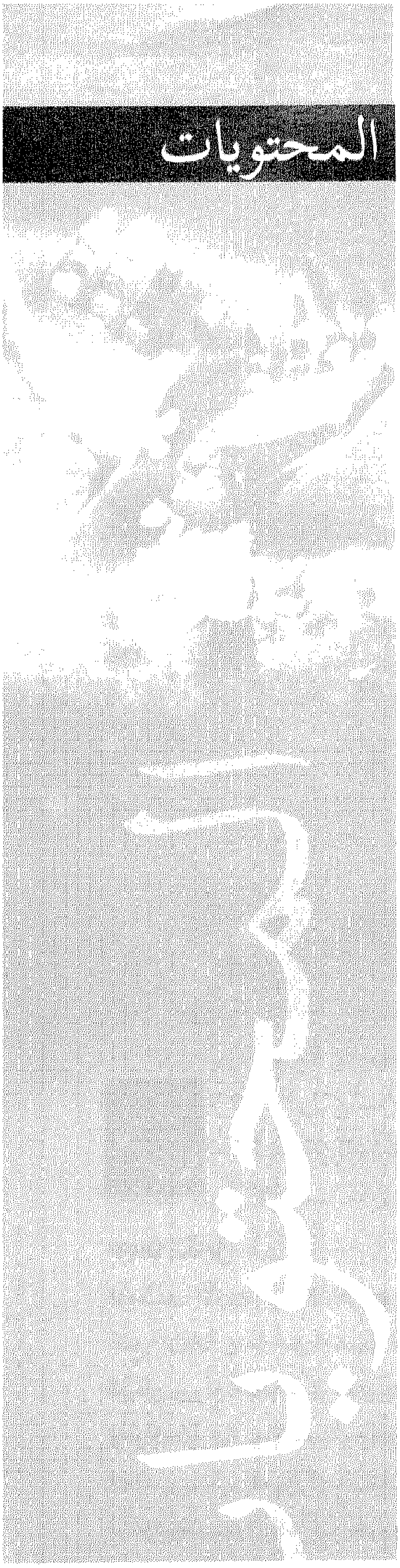
المخرج الفني
مراد عرباجي
marabaci@hiramagazine.com

المركز الرئيس
HİRA MAGAZİNE
Emniyet Mah. Huzur Sok.
No:5 34676 Üsküdar
İstanbul / Turkey
Phone: +902163186011
Fax: +902163184202
hira@hiramagazine.com

الإشتراكات/مركز التوزيع
٧ ش البرامكة – الحي السابع – م.نصر/القاهرة
تليفون وفاكس: +2022619204
المحمول: +20127874552
جمهورية مصر العربية
sub@hiramagazine.com

الطباعة
مطابع الأهرام التجارية / قليوب
جمهورية مصر العربية

رقم الإيداع
١٨٧٩-١٣٠٦



المحتويات



ونحن نقيم صرح الروح

فتح الله كولن

سبق أن أشرنا إلى صفات "ورثة الأرض" إجمالاً.(١) ونريد الآن أن نوضّح فيها بشيء من التفصيل:

الإيمان الكامل

الوصف الأول لوارث الأرض هو الإيمان الكامل. فالقرآن العظيم يضع "الإيمان" هدفا لخلق الإنسان؛ ذلك الإيمان المشتمل على الأفق العرفاني وروح المحبة وبُعدَي العشق والشوق وألوان لانهائية من الأذواق الروحية. والإنسان مكلَّف ببناء عالمه الإيماني والتفكري بمد الدروب من ذاته إلى أعماق الوجود حينًا، وبالتقاط شرائح من الوجود وتقييمها في ذاته حينًا آخر. ويعني هذا في الوقت عينه ظهور الحقيقة الإنسانية الكامنة في روحه. فالإنسان لا يستطيع أن يستشعر ذاته، والأعماق في ذاته، ومقاصد الوجود وغاياته، ويطلع على كنه الكائنات والحوادث وما وراء ستار الأشياء... إلاّ في ضياء الإيمان. وبعد الاطلاع يحيط فهماً بالوجود في أبعاده الذاتية.

إن الكفر نظام منغلق وخانق. ففي نظر الكافر: بدأ الوجود بفوضى، وتطور في المجاهل المخيفة للصُّدف، وينزلق متسارعًا إلى نهاية رهيبة. وفي هذا السير المتدحرج والمنزلق، ليس لنا مكان ضيّق بل ولا موطئ قدم فيه نفحة رحمانية ينشرح بها الروح، أو نسيم أمان يحتضن آمالنا الإنسانية.

أما إنسان الإيمان المستشعرُ بمنشئه وخط حركته، وتوجهاته: إلى أين وإلى ماذا، ووظائفه، ومسؤولياته... فإنه يرى كل شيء نورًا وضياء، ويطأ قدمه من غير قلق أينما يطأ، ويسير نحو هدفه بلا خوف وفي ثقة. وإذ يسير، يُنَقّب خمسين ألف مرة عن الوجود وما وراء ستار الوجود، ويرشّح الأشياء والحوادث خمسين ألف مرة في الإنبيق، ويصر على طرْق كل باب، ويبحث عن وشائج المناسبة مع كل شيء... وحين يَقصر ما علمه وما وجده، يكتفي بالحقائق التي رآها وعرفها في وجه التحقيقات التي استحصلها هو أو غيره حتى ذلك الحين، ثم يواصل المسير.

في إطار هذه الموازين، يُعد ســائح الإيمان مكتشفًا لمصدر مهم للقوة. هذه الخزينة والذخــيرة التعبوية، العائدة للأبعاد الأخرى، والمرموز لها بــ"لا حول ولا قوة إلا بالله"، لتبلغ من الأهمية موقعًا يلغي حسّ الحاجة إلى مصدر غيره عند من يحوز على هذا المصدر للقـــوة، وهذا النور. فإنه لا يرى إلا "هو" ســبحانه، ولا يعرف إلا "هـــو"، ولا يفر إلا إليه "هو"، ولا يحيا إلا متوجها إليه "هو"؛ فيســـتطيع تحدّي كل القوى الدنيوية بقدر عمق معرفته واعتماده على الله، ويعيش في شوق، ولا يقع في التشاؤم والسوداوية حتى في أشد المواقف سلبية، مع أمل القدرة على النجاح في كل شيء.

وأكتفي هنا بهذا القـــدر عن هذا الموضوع مُحيلاً إلى تراث ضخم من الآثار تعالجه، وفي مقدمتها كليات رسائل النور.

العشق والبعث من جديد

الوصف الثاني للوارث هو العشـــق الذي يُعد أهم إكسير للحياة في الانبعـــاث من جديد. إنّ من يُعَمِّر ويجهِّز قلبه بالإيمان بالله وبمعرفته، يحس حسب درجته بمحبة عميقة وعشق أصيل لكل البشر، بل لكل الوجود... يحس فيعيش عمره كله وسط حالات المد والجزر للعشق والمواجـــد والجذَبات والانجذابـــات والأذواق الروحانية التي تحتضن الوجود كله جمعًا. وكما في كل مرحلة زمنية، نحن بحاجة في الحاضر إلى أن تفيض القلوب عشقًا، وأن تتعبأ شوقًا، في فهم جديد وطريّ، لتحقيق انبعاث عظيم؛ فما من حركة أو حملة تثمر وتبقى بمعزل عن العشـــق... وخصوصًا إن كانت الحركـــة أو الحملة ذات امتدادات إلى العقبى وأبعاد ما وراءها. إن العشـــق الإلهي الذي يمكن أن نعرّفه في إطار تعيين موقعنا من الله ســـبحانه بصفته الخالقَ المتعالي وصفتنا العبدَ العاجز الضعيف؛ واستشـــعارِ نشوة الخلق باعتبار وجودنا ظلاًّ لضياء وجوده "هو"؛ والإيمان بأن نيل مرضاته غاية الخلق ومقصده، والسعي لتصيّدها بلا توان أو وهن، هو مصدر للقوة مكنون بالسر، وسرمد لا ينضب. ولا ينبغي أن يُهمِل ورثة الأرض هذا المصدر، بل ينبغي أن يَحْيَوه جيّاشًا وفوارًا.

لقد تعرف الغرب على العشق في أبعاده المادية على يد الفلاسفة وفي أجواء الفلســـفة الضبابية التي يكتنفهـــا الغموض؛ فذاق طعمه وعاش الشـــبهات والتذبذبات على طول الطريق. أما نحن فننظر إلى الوجود، ومصدر الوجود، بعدَســـة الكتاب والســـنة، ونحقق حبَّ الخالق الذي نُذكي جذوته ولهيبـــه في قلوبنا، وحبَّ المخلوقات من أجل الخالق سبحانه، باللجوء إلى الموازين الدقيقة لهذَين المصدرين مع الانفتاح على أبعادهما الماورائية الفســـيحة. ذلك لأن منشأ الإنسان، وموقعه في الكون، وغاية وجوده، والصراط الذي يســـير فيه، ونهاية هذا الصراط في هذين المصدرين، منســـجم انسجامًا عجيبًا مع فكر الإنســـان وحسه وشـــعوره وتوقعاته؛ فلا نملك دونه -إذ نحس بهذا الانسجام- إلا الإعجاب والاندهاش. هاتان المحجّتان البَيضاوان، هما لأرباب القلوب منبع العشق والشوق ومَنْجَم الجذب والانجذاب. فلن يعود خاليًا من يراجعهما بصفوة الحس وحافز الاحتياج، ولن يموت أبـــدًا من يلجأ إليهما. والمفيد أن يلجـــأ اللاجئون بتعمق وإخلاص الإمام الغزالي والإمام الرباني الســـرهندي والشـــاه ولي الله الدهلوي وبديع الزمان النورســـي، وأن يقتربوا بحمـــاس مولانا جلال الدين الرومي والشيخ غالب ومحمد عاكف، وأن يتوجهوا بإيمان وحركية خالد بن الوليد وعقبة بن نافع وصلاح الدين ومحمد الفاتح وسَليم... نعم، وخطوتنا الثانية هي أن نمزج عشـــقهم وشوقهم العجيب -غير المقيَّد بالأزمنة والأمكنة كلها- بأساليب عصرنا ومناهجه ووسائله، في بيدر واحد، لنصل إلى روح القرآن الذي لا يحده زمان ولا يبلى، وبالتالي إلى ميتافيزيقية كونية.

العلم وثلاثية العقل والمنطق والشعور

الوصـــف الثالث للوارث هو الإقبال إلى العلم بميزان ثلاثية العقل والمنطق والشعور. وهذا الإقبال يأتي في أوانه إذ يشكّل استجابة لمطلب بشـــري عام في وقت انجرفت فيه البشرية وراء فرضيات غامضة مظلمة وإنها لخطوة خطيرة نحو خلاص الإنســـانية عامة. ولقد أشـــار بديع الزمان النُّورْســـي إلى أن البشرية ستتوجه في آخر الزمان بكل طاقتها إلى العلم والفن؛ فتســـتمد كل قوتها من العلـــم، ويمتلك العلم مرة أخرى الحكم والقوة، وتصير الفصاحة والبلاغة وقوة الإفادة موضوعا في ســـبيل قبول الجمهور للعلم، وموضع اهتمام الجميـــع... ويعني هذا عودة عصر العلم والبيان من جديد.[٢] ولا نرى ســـبيلاً غير هذا، يبعدنا من أجواء دخان الأوهام وضبابها المحيط ببيئتنا، ويوصلنا إلى الحقيقة، بل إلى حقيقة الحقائق. إن اســـتدراكنا للنواقص والفجـــوات التي ألمت بنا في القرون الأخيرة، وبلوغنا حدّ الإشباع في المعرفة، وإثبات وجودنا وثقتنا بأنفسنا مرة أخرى بتعمير خراب حس الانسحاق المزمن في شعورنا الباطن... كل ذلك يتطلب منّا إمرار العلم من منشور الفكر الإسلامي، وتمثيله عمَليا والإفادة عنه بشتّى الوسائل.

وقد شـــهدنا في تاريخنا القريب خللاً ملموسًا في الفكر العلمي وتزلزلاً في توقير رجال العلم يصعب تعميره، بســـبب تشـــتت

التوجهات والأهـــداف حينا، أو اختلاط المعلومة بالعلم، والعلم بالفلسفة حينًا آخر. واســتفاد الأجانب المقيمون في بلادنا من هذا الفراغ فائدة جمة، فافتتحوا المدارس بنشاط في كل زاوية من زوايا الوطن، ولقّحوا أجيالنا باللّقاح الأجنبي من خلال أعشاش التعليم. وتطوعت شــريحة منا لتمكين خير أبناء الوطن استعدادًا وقابلية، من شــغل مقاعد الدارسة فيها، بل حتى بتقبيل الأيدي والأرجل، ليزيدوا في السرعة المطردة للتغريب. ثم بعد مدة، ضاع الديــن وضاع الإيمان، فالدين خــراب والإيمان تراب عند هذه الأجيال الغرّة المخدوعة. ضــاع، فوقعنا كأمة في ابتذال الذات فكرًا وتصورًا وفنًّا وحياة. وهل نعجب من النتيجة، ما دامت هذه المدارس التي سلّمناها الأدمغة الطرية بلا توجّس أو قلق، تضع في اعتبارها من غير اســتثناء وفي كل وقت، تقديم الثقافة الأمريكية والأخلاق الفرنســية والعادات والأعراف الإنكليزية، على العلم والتفكير العلمي. ولذلك، بدأ شــبابنا يتسلى بألعاب الماركسية والدوركهمية واللينينية والماوية، منقسمين إلى معسكرات شتّى، بــدلاً عن اللحاق بالعصر بعلمهم وفنهــم وتقنيتهم. فمنهم من واسى نفسه بأحلام الشــيوعية ودكتاتورية البروليتاريا، ومنهم من انغرز في عقدة فرويد، ومنهــم من ضيّع عقله في الوجودية مشدودًا إلى ســارتر، ومنهم من أسال ماركوس رضابه، ومنهم من أهدر عمره لاهثًا خلف هذيان كامو...

لقد عشنا هذا كله، وتولى ما يسمى بموائل العلم دَوْر الحاضن لذلك. وفي مرحلة الأزمة هذه، لم تن أصوات القتام وأفواه السواد من تلطيخ اسم الدين وأهل الدين، وتشهير أنواع الجنون الغربي أمام الأنظار. من العسير علينا أن ننسى تلك المرحلةَ ودُماها الرخيصة. إن من هيأوا تلك الأرضية ضد إرادة إنســاننا ووطننا، سيُذكرون دائمًا في وجدان المجتمع على أنهم مجرمون تاريخيًّا.

والآن، نريد أن ندع مهندسي تلك الأيام السوداء في خلوة مع مساوئهم، وفينا منهم آلام في أنفسنا وأنين في قلوبنا، ونتحدث عن عمال الفكر الذين يكدّون لبناء مستقبلنا.

أجل، لا بد من تحقيق تجددنا الذاتي ونهضتنا (Renaissance) عن طريق تلقيح عقول شــبابنا بالتفكير العلمي، وذلك سيؤدي إلى تفاعلهــم واندماجهم مع الفكر والعلم، كما فعَلنا ذلك قبل الغــرب بقرون مديدة. إن القلق المحســوس به في الوجدان العام لسيرنا المنحوس، واضطراب القلوب بسبب العيش تحت الوصاية سنين وســنين، ورد الفعل لدى إنساننا بسبب استغلال الغير لنا قرونا، أورثنا اليوم شهقةً كشــهقة النبي آدم، ونشيجًا كنشيج النبي يونس، وأنينًا كأنين أيوب عليهم السلام. وقد بلغ بنا الأمر أننا بدافع هذه الأفكار والمشــاعر وعلى ضوء التجارب التاريخية نشــعر اليوم وكأن المسافات قد انكمشت ولم يبق للوصول إلى الهدف سوى خطوات.

قراءة الكون والإنسان والحياة

الوصف الرابع للوارث هو إعادة النظر في قراءته للكون والإنسان والحيــاة، وبالتالي مراجعة تصوراته الصحيحــة منها والخاطئة. ونذكّر بما يأتي في هذا الشأن:

١- إن الكــون كتاب فتحه الله تعالى أمــام العيون ليراجَع باستمرار، والإنسان منشــور بلّوري مؤهّل لرصد الأعماق في الوجود وفهرست شــفاف للعالمين جميعًا.. والحياة تَرَشُّحُ هذا الكتاب وهذا الفهرست، وَتَمَثُّلُ المعاني في انعكاس صدى البيان الإلهي. وما دام الكون والإنســان والحياة باعتبار تلوّناتها أوجُهًا متنوعــة لحقيقة واحدة فإن تفريقها عــن بعضها وتقطيعها ظلم وازدراء للوجود والإنسان، لما فيه من إخلال بانسجام الحقيقة.

وكما أن قراءة بيان الله سبحانه النابع من صفة الكلام الجليلة، وفهمه، وإطاعته، والانقياد له واجب؛ فكذلك معرفة الحق تعالى وإدراكه بدلالة الأشــياء والحوادث جميعًا، التي صورها سبحانه بعلمه وأوجدها بقدرته ومشــيئته تعــالى، ثم رؤية طرق التوافق بينهما، أساسٌ لا يمكن التخلي عنه. فإن الفرقان العظيم من صفة كلامــه هو، وهو روحُ الوجود كله والمصدرُ الأوحد لســعادة الدنيــا والعقبى. وإن كتاب الكائنات هو جســدُ تلك الحقيقة، وحركية مهمة مؤثرة في حياة الدنيا مباشــرة، وفي حياة العقبى بالوســيلة، باعتبار تمثيلها لفروع العلم المتنوعة واحتوائها عليها. فالله ﷻ يكافئ مَن يدرك كلا الكتابين ويحوّل ذلك الإدراك إلى واقع عمَلي، ثم ينسج حياته كلها على هذا المنوال؛ بينما يعاقب مَن يهملهما ويتغاضى عنهما بل ولا يفســرهما تفسيرًا صحيحًا ولا يحولهما إلى واقع.

٢- إن قيمة الإنســان الحقيقية وثيقــة الصلة بعمق عواطفه ورقيّ فكره وتكامل شــخصيته. وإن لهذه الأوصاف دورا كبيرا



في تعيين مكانة الإنسان لدى الحق تعالى والخلق أجمعين. فإن الخصال الإنسانية السامية وعمق المشاعر والفكر وسلامة الشخصية بطاقةُ اعتماد مطلوبة دائمًا وفي كل مكان. ومن يكدّر إيمانه وإذعانه بأوصاف وأفكار كفرية، ويُثير القلَق والشبهة في محيطه بشخصيته، لن يكون مظهرًا لتجلي تأييد الحق تعالى وعنايته. وكذلك لا يمكن أن يحافظ على احترام الناس له وثقتهم به. فإن الحق تعالى، والناس، يقيّمون الإنسان بخصاله الإنسانية وشخصيته الرفيعة ويكافئونه على ذلك. وبناء عليه، لا يتصور أن يتحقق نجاح عظيم أو الحفاظ على نجاح قد تحقق، على يد أناس فقراء في قيمهم الإنسانية وضعفاء في شخصياتهم، وإن ظهر عليهم مظاهر المؤمنين الصالحين. كما لا يتصور أن يفشل فشلا ذريعًا أناسٌ يتقدمون خطوات في سلامة شخصياتهم وخصالهم الإنسانية السامية وإن لم يظهر عليهم مظاهر المسلمين الصالحين. فإن تقدير الله تعالى ومكافأته تنظر إلى الخصال والصفات، وكذلك حُسن قبول البشر يقوم عليها بدرجة ما.

٣- ينبغي أن تكون الوسائل إلى الهدف المشروع والحق، شرعيةً وحقًّا. إن السائرين في الخط الإسلامي يتحرّون في كل عمل مشروعية الحق في آمالهم وغاياتهم كلها. والتزام مشروعية الوسائل إلى ذلك الحق أيضًا واجب عليهم؛ فلا يمكن تحصيل رضا الحق تعالى من غير الإخلاص والصدق الذاتي، ولا يمكن خدمة الإسلام وتوجيه المسلمين إلى مراميه الحقيقية بوسائل شيطانية ألبتة. ولعلّنا نرى حينًا إمكانية ذلك، لكن المستهلك لرصيده من الاعتبار والاحترام في سبل الباطل، والفاقد لرعاية الحق تعالى والتفات الناس إليه، لن يدوم نجاحه أمدًا بعيدًا يقينًا.

حرية التفكير

الوصف الخامس للوارث هو أن يكون حرًّا في التفكير وموقّرًا لحرية التفكير. إن التحرر وتذوق حس الحرية عمقٌ مهم لإرادة الإنسان وباب سحري ينفتح على أسرار الذات. ومن العسير أن نصف بـ"الإنسان" مَن لم ينطلق في ذاك العمق ولم يلج من ذاك الباب. ومنذ سنين وسنين ونحن نلتوي ألَمًا في طوق الأسر الخارجي والداخلي الرهيب. ولقد ضيقوا علينا وسلطوا أثقالهم أنواعًا وألوانا على مشاعرنا وأفكارنا ونحن في طوق الأسر الذي يخنقنا... فدَع عنك التجدد والتطور في هذا التحديد للقراءة والتفكير والإحساس والحياة، واسألْ إنْ كان في قدرة الإنسان البقاء بملَكاته ومواهبه الإنسانية في هذا الوسط. فإنّ حماية المستوى الإنساني البسيط في هذه الأرضية عسير، فكيف بإنضاج بشر يسمقون إلى العُلى بروح التجديد ويمدّون البصر إلى اللانهايات؟! فلا تنتظرْ في هذا الوسط إلا أناسًا ضعاف الشخصية وأرواحًا هزيلة ضاوية ومشاعر مشلولة. ونعرف من تاريخنا القريب أنّ الأسرة والشارع ومؤسسات التعليم وأوساط الفنون قد نفخت في أرواحنا الأفكار الشاذّةَ والموازين الفاسدة، فقلبتْ رأسًا على عقب كل شيء، من المادة إلى الروح، ومن الفيزياء إلى ما وراء الفيزياء. في هذه المرحلة المذكورة، كنّا نبدي انحرافا إذ نفكر، ونخطّط لكل شيء على محور الأنانية، ولا نَحسب حسابًا لوجود معتقدات وقناعات أخرى غيرِ معتقداتنا وقناعاتنا، ونلجأ إلى القوة باستمرار كلما سنحت الفرصة. وإذ نلجأ إلى القوة، نخنق أنفاس الحق والإرادة والفكر الحر ونجثم على صدور الآخرين. والمؤلم أن هذه الأمور لم تنته بعدُ، ولا نجزم بانتهائها في المستقبل. لكن الواقع يقتضي -إذ نمضي في طريق التجديد أمةً- أن نعيد النظر في الحركات التاريخية لألف سنة مضت، وأن نستجوب "التغيرات" و"التحولات" المختلفة لمائة وخمسين سنة مضت. هذا ضروري، لأن الأحكام والقرارات تُقَوْلَب في الحاضر حسب مقدسات (!) مصطنعة. والقرارات المنبثقة من تحت ثقل الفهم السائد المعلوم معلولة... وغير ولودة... وعاجزة بديهةً عن الإعداد للمرحلة المشرقة المأمولة. ولئن أَعدّت لشيء، فإنها تُعدّ للتصارع بين الحشود المنحشرة في شِباك غرائز الحرص القاتلة، والخصام بين الأحزاب، والعراك بين الشعوب، والصدام

بين القوات. وإنها اليوم هي سبب تضارب شريحة مع أخرى، وتحول التنوع إلى تخاصم، وحتى الوحشية المشهودة في الأرض! فربما كان العالَم يختلف عما عليه الآن اختلافًا بعيدًا، لو أن البشر لم يكونوا أنانيين ومنساقين للرغبات وقساة إلى هذه الدرجة.

علينا إذن أن نكون أفسح في حرية الفكر وحرية الإرادة في مسيرتنا نحو عوالم مختلفة، سواء في سلوكنا مع الآخرين، أو من زاوية أنانيتنا الذاتية وتمسكنا برغباتنا. فالحاجة ماسة اليوم إلى صدور متسعة تحيط بالتفكير الحر وتنفتح على العلم والبحث العلمي وتستشعر التوافق بين القرآن وسنّة الله على الخط الممتد من الكائنات إلى الحياة. ولن يقتدر على ذلك في هذا الزمان إلا جماعةٌ تتحمّل دورا لا يمكن أن يحمله إلا أولو العزم من العباقرة. وفي الواقع كانت هذه الأمور العظام تُمثَّل من قِبل عباقرة في الماضي. لكن كل شيء اليوم توسع في التفريعات توسعًا يعجز الفرد الفريد عن حمل العبء، فحلت الشخصية المعنوية والتشاور والشعور الجمعي محل الدهاء. وهذا هو خلاصة الخطوة السادسة لورثة الأرض.

والحقيقة أنه لم يمكن غرس هذا الفهم في المجتمع الإسلامي في تاريخنا القريب؛ ذلك لأن التعليم التقليدي لم يزد على ترداد مسلماته الثابتة، والمدرسة التقليدية أطلّت على الحياة من حافاتها وأطرافها، والتكيّة (الزاوية) دفنت نفسها في الوجدانيات تمامًا، والثّكنة أظهرت القوة وحدها وزمجرت بالقوة وحدها. فكيف يمكن نشر هذا الفهم في المجتمع، وهل يتوقع أن تكون هذه المبادئ جزءً من الحياة؟!

في تلك المرحلة، هيمنت الفلسفة المدرسية (Scholastic) على التعليم التقليدي و لم يتنفس إلاّ هواءها، وعاشت المدرسة التقليدية مشلولة لغلق أبوابها بوجه العلم والفكر والحرمان من قوة الإبداع والإنشاء، وسَلَّتْ التكية والزاوية نفسَها بقراءة المناقب بدلاً عن العشق والشوق، واستحكمت في ممثلي القوة عقدةُ إثبات الذات والتذكير بالنفس بصورة متكررة لظنّهم أنهم قد أُهمِلوا... وفي خضم ذلك، انقلب كل شيء رأسًا على عقب، وانقلعت شجرة الأمة لتهوي على الأرض... ويبدو أن هذه الزلازل لن تسكن حتى يأتي يومٌ يتهيأ فيه السعداء الذين يمهّد القدر دروبهم لاستخدام هذه الحركيات استخدامًا أمثل، ولتنفيس الاختناقات بين القلب والعقل وفتح ممرات الإلهام والتفكر في أعماق الإنسان النفسية.

التفكير الرياضي

الوصف السابع للوارث هو الفكر الرياضي. لقد حقق الأوائل في آسيا في الزمن الماضي، ثم الغربيون، نهضتهم بفكر القوانين الرياضية. ولقد كشفت الإنسانية في تاريخها كثيرًا من المجاهيل والمغلقات بعالَم الرياضيات المفعمة بالأسرار. فإذا تركنا التصرف المفرط للحروفية جانبًا، فإنه لولا الرياضيات لَما توضحت المناسبات بين البشر ولا بين الأشياء... فهي -كمصدر نور- تُضيء طريقنا في الخط الممتد من الكون إلى الحياة، وتُرينا ما بعد أفق الإنسان، بل أعماقَ عالَم الإمكان الذي يعسر إعمال التفكير فيه، وتوصلنا إلى غاياتنا.

لكن العلم بالأشياء المتعلقة بالرياضيات لا يعني أن العالِم بها رياضي. الرياضي يجمع بين الرياضيات وقوانينها فكريًّا، ويصاحبها دائمًا في الطريق الممتد من الفكر الإنساني إلى أعماق الوجود. يصاحبها دائمًا من الفيزياء إلى ما وراء الفيزياء، ومن المادة إلى الطاقة، ومن الجسد إلى الروح، ومن الشريعة إلى التصوف. إننا مضطرون إلى قبول الأسلوب المزدوج لفهم الوجود فهما شاملاً: وأعني الفكر التصوفي والبحث العلمي. لقد أرهق الغرب نفسه لملء فراغ جوهر لم يعرفه أساسًا، فحاول سد الحاجة نسبيًّا بالالتجاء إلى الروحية (Mysticism). أما نحن، فلسنا بحاجة إلى التفتيش عن شيء أجنبي أو اللجوء إلى أي شيء لعالمنا المتمازج بروح الإسلام على مدى الزمان. إن مصادر طاقتنا موجودة في منظومتنا الفكرية والإيمانية. فالمفيد أن نحيط فهمًا بهذا المصدر والروح كما هو في ثَرائه الأوّل... فنشهد عندئذ شيئًا من المناسبات الخفية في الوجود والحركات المنسجمة لهذه المناسبات، ونبلغ إلى تطلع مختلف، وعرفان ذوقٍ مغاير، في النظر إلى كل شيء.

بعد تقديم خلاصة قصيرة عن الفكر الرياضي قد تبدو غامضة وإسرافًا في الكلام، لكنّي أثق بدويّ أصدائه في المستقبل، أريد أن أنوّه إلى الوصف الثامن وهو رؤيتنا الفنيّة. لكني بناء على ملاحظات معيّنة، أكتفي هنا بقول جولفر: "بعض الأوساط ليست على استعداد حتى الآن للانخراط في هذه المسيرة بمقاييسنا". ■

(*) الترجمة عن التركية: عوني عمر لطفي أوغلو.

الهوامش

(١) انظر كتاب: ونحن نقيم صرح الروح، فتح الله كولن، دار النيل، ص ١٤.

(٢) انظر: الكلمات لبديع الزمان سعيد النُّورْسي، ص ٢٩٢.

من قطرات الماء تتكون البحار. ولكن كم من الوقت تحتاج هذه القطرات لتصنع بحرا؟! فمن الحماقة أن نتعجل القطرات كي تقتصر الزمن، لأن سنن الكون لا تغير عاداتها من أجل سواد عيوننا!



مقاصد التربية في الفكر الإسلامي

وقدرتها على التكيف مع حاجات المجتمع



أ.د. خالد الصمدي*

إن الناظر في كتاب الله الحكيم وسـنة نبيه الكريم لا يكاد يحيد نظره عن البعد المركزي للمقاصد والغايات، فهي جليّة وظاهرة في كل المواقف والأقوال والأفعال. قال تعالى: ﴿تَبَارَكَ الَّذِي بِيَدِهِ الْمُلْكُ وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ۝ الَّذِي خَلَقَ الْمَوْتَ وَالْحَيَاةَ لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلاً وَهُوَ الْعَزِيزُ الْغَفُورُ﴾(الملك:٢) وقال تعالى: ﴿وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالإِنْسَ إِلاَّ لِيَعْبُدُونِ﴾(الذاريات:٥٦). وقال رسول الله ﷺ: "إنما بعثت لأتمم مكارم الأخلاق". (رواه الإمام أحمد)

مقاصد التربية والتكوين في التصور الإسلامي

إن هذا الأسلوب في بناء الفكر المنهجي والمقاصدي لدى الإنسان يلغي من ذهنه العبثية والصدفة، ويربيه على رسم الأغراض الذاتية الواضحة في سياق الغايات المتوافق عليها في المجتمع المسلم، في ضوء أحكام الشريعة الإسلامية ومقاصدها. قال تعالى: ﴿أَفَحَسِبْتُمْ أَنَّمَا خَلَقْنَاكُمْ عَبَثًا وَأَنَّكُمْ إِلَيْنَا لاَ تُرْجَعُونَ﴾(المؤمنون: ١١٥).

وفي هذا السياق العام نقرأ دعاء إبراهيم عليه السلام لأمته حين قال: ﴿رَبَّنَا وَابْعَثْ فِيهِمْ رَسُولاً مِنْهُمْ يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِكَ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَيُزَكِّيهِمْ إِنَّكَ أَنْتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾(البقرة:١٢٩). فكانت المقاصد الكبرى لإخراج الأمة للناس ملخصة في ثلاث:

المعرفة: ﴿يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِكَ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ﴾، والأولى أعم من الثانية، لأن الآيات تشمل كتاب الله المنظور والمسطور بما يضمان من سائر العلوم.

الحكمة: وهي كل مهارات التواصل والخطاب والتصرف التي تمكن الفرد والجماعة من إقناع الناس بالحق وللحق، وإذا كان الله تعالى يعطي المعرفة لمن يحب نعمة ولمن لا يحب امتحانا ونقمة، فإن الحكمة لا يؤتيها إلا لصفوة ممن يشاء من خلقه ﴿يُؤْتِي الْحِكْمَةَ مَنْ يَشَاءُ وَمَنْ يُؤْتَ الْحِكْمَةَ فَقَدْ أُوتِيَ خَيْرًا كَثِيرًا وَمَا يَذَّكَّرُ إِلاَّ أُولُو الأَلْبَابِ﴾(البقرة:٢٦٩).

التزكية: وهي تمازج الإيمان بالوجدان، يدلّ على ذلك تمسك الفرد بمنظومة القيَم الأخلاقية الفردية والجماعية في أرقى مستوياها، قال تعالى: ﴿قَدْ أَفْلَحَ مَنْ زَكَّاهَا ۞ وَقَدْ خَابَ مَنْ دَسَّاهَا﴾(الشمس:٩-١٠).

ونجد الربط بين طلب المعرفة، ومهارة القراءة والكتابة، والتربية الإيمانية، في أوّل آية نزلت من القرآن الكريم، قال تعالى: ﴿اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ ۞ خَلَقَ الإِنْسَانَ مِنْ عَلَقٍ ۞ اقْرَأْ وَرَبُّكَ الأَكْرَمُ ۞ الَّذِي عَلَّمَ بِالْقَلَمِ ۞ عَلَّمَ الإِنْسَانَ مَا لَمْ يَعْلَمْ﴾(العلق:١-٥). فالقراءة والربّ والقلم الواردة في الآية واضحة في الدلالة على المراد.

ومن منهج القرآن والسنة المزج بين هذه المقاصد الثلاثة في كل الأحوال التي يتحدث فيها عن الإنسان فصلاً ووصلا؛ فالفاصل بينها شقي والواصل سعيد، وهما صورتان بارزتان في القرآن الكريم، أولاهما صورة قارون الذي اغترّ بعلمه حين انفصل عن القيم فقال مزهوا بعد التمكن المعرفي الذي أكسبه أموالا ما إن مفاتحها لتنوء بالعصبة أولي القوة ﴿إِنَّمَا أُوتِيتُهُ عَلَى عِلْمٍ عِنْدِي﴾(القصص:٧٨)، قال تعالى: ﴿فَخَسَفْنَا بِهِ وَبِدَارِهِ الأَرْضَ فَمَا كَانَ لَهُ مِنْ فِئَةٍ يَنْصُرُونَهُ مِنْ دُونِ اللهِ وَمَا كَانَ مِنَ الْمُنْتَصِرِينَ﴾(القصص:٨١). وقال الذين اغترّوا بمظهره ومكانته قبل قليل ﴿يَا لَيْتَ لَنَا مِثْلَ مَا أُوتِيَ قَارُونُ إِنَّهُ لَذُو حَظٍّ عَظِيمٍ﴾(القصص:٧٩). ولكنهم قالوا بعد الخسف: ﴿لَوْلاَ أَنْ مَنَّ اللهُ عَلَيْنَا لَخَسَفَ بِنَا وَيْكَأَنَّهُ لاَ يُفْلِحُ الْكَافِرُونَ﴾(القصص:٨٢). لأن العلم في هذه الحال ما زاد قارونَ إلا علوا واستكبارا، إذ هو في هذه الحال علم مدمّر، ألا ترى أتباع قارون في عصرنا وقد صنعوا أسلحة الدمار الشامل ومحوا بها أقواما من البسيطة، ولعبوا بالجينات في غياب الأخلاق؛ فخلطوا الأنساب واستغلوا الصناعات الفضائية للجاسوسية وقهر الشعوب، فكشفوا بذلك عن الوجه البشع للعلم حين ينفصل عن القيم.

وصورة ذي القرنين الذي نجح في بناء سد من زُبَر الحديد وقطر النحاس، وجعله حائلا بين إفساد يأجوج ومأجوج والقوم الصالحين من الموحّدين ﴿فَمَا اسْطَاعُوا أَنْ يَظْهَرُوهُ وَمَا اسْتَطَاعُوا لَهُ نَقْبًا﴾(الكهف:٩٧)، وحين عجب الناس من صنيعه وعلمه قال: ﴿هَذَا رَحْمَةٌ مِنْ رَبِّي فَإِذَا جَاءَ وَعْدُ رَبِّي جَعَلَهُ دَكَّاءَ وَكَانَ وَعْدُ رَبِّي حَقًّا﴾(الكهف:٩٨). فربط المعرفة بقيم التوحيد وإجلال العالم الجليل، فكان صنيعه حائلا بين الحق والباطل إلى أن يشاء الله.

وفي ضوء هذين النموذجين المذكورين في القرآن الكريم، على واضعي المناهج التعليمية في البلدان الإسلامية أن يحدّدوا غاياهم من أنظمة التعليم، فإن اختاروا النموذج الأول، فإن المآل لن يكون إلا الخسف بمفهومه الحضاري الواسع، وإن اختاروا النموذج الثاني كان علمهم رحمة بالبشرية وإنقاذا لها.

مقاصد التربية في الفكر الإسلامي

نكاد نجزم أن علماء التربية المسلمين استوعبوا المقاصد التربوية النظرية النابعة من أصول التربية الإسلامية كما حددناها في الفقرات السابقة، وصاغوا غاياهم التربوية في ضوئها، إلا أن البارز من تحليل كتاباهم التربوية هو قدرهم على تكييف غايات التربية مع متطلبات الزمان والمكان؛ فابن سحنون في القيروان، هو غير ابن عبد البر وابن حزم والقاضي عياض في الأندلس والمغرب، وهؤلاء غير الإمام الغزالي في المشرق، وإن كان الجميع ينهل من حوض واحد. والمستفاد من هذا المنهاج هو إقرار الجميع بضرورة تكييف المناهج التعليمية مع متطلبات العصر ومتغيراته وحاجاته.

وتعكس النماذج التالية هذا التنوع المحكوم بالخلفية الفكرية لكل عالم ومتغيرات عصره السياسية والاجتماعية. فالعلم عند أبي عمر يوسف بن عبد البرّ (الفقيه المحدّث المالكي القرطبي المولود سنة ٣٦٨ هـ والذي عاصر زمن الطوائف الأول بعد سقوط الخلافة وقبل عصر المرابطين) يهدف إلى إرضاء الله وخشيته وحسن العلاقة به في العبادة وتكوين علاقة طيبة بعباده، كما يهدف إلى نفع المسلمين في دنياهم عقليا ووجدانيا وماديا. فالرجل ركز على الإخلاص ونبذ حظوظ النفس لما عايشه من خلافات ذاتية عصفت بمصير الخلافة الإسلامية بالأندلس، ولا سبيل لإعادة العزة

للمسلمين إلا بهذا المسلك الذي ينبغي أن تربّى عليه الأجيال.

وحدد بدر الدين بن جماعة (ت: ٧٣٣هـ) الفقيه الشافعي الشامي الذي عاصر فترة أهوال سقوط بغداد في يد المغول والصراع مع الصليبيّين، المقاصد العامة لطلب العلم في: ١- فهم الدين ومعرفة أصوله وأحكامه وقواعده. ٢-حمل العلم عن السلف. ٣-الدفاع عن الدين وعلومه الصحيحة ضد التحريف والانتحال والتأويل.

ولا شك أن حملات التشكيك التي بثّها الصليبيون والفرق المنحرفة عن الإسلام وتاريخه وحضارته وثقافته اقتضت أن يركز الرجل في المقاصد الكبرى للتعليم على تجديد فهم الدين وفق رؤية سلفية متأصلة والدفاع عن الدين الذي هُددَت حياضه وتداعت عليه الأمم.

وقد جعل ابن سينا (ت: ٤٢٧هـ) مقصد التربية والتعليم تنمية القوة المدركة، ولَفت النظر إلى أهمية الحكمة فقسمها إلى ثلاثة أقسام:

القسم الأول: ما يرتبط بأخلاق المرء وأعماله حتى تكون حياته الأولى والأخرى سعيدة.

القسم الثاني: يرتبط بتدبير المرء لمنزله المشترك بينه وبين زوجه وولده ومملوكه حتى تكون حاله مؤدّية إلى كسب السعادة.

والقسم الثالث: أصناف السياسات والرئاسات والاجتماعات المدنية الفاضلة والرديئة، فيعرف وجه استيفاء كل واحد منها وعلة زواله.

قال الدكتور هشام نشابة، محقق كتاب السياسة لابن سينا "وهذه التوجيهات تصلح أن تكون أساسا لوضع منهاج دراسي لمختلف مراحل التعليم".

والأثر الفلسفي في رؤية الرجل لمقاصد التربية والتعليم نابعة من اطلاعه على مقومات تكوين الإنسان في الفلسفة اليونانية بوجه خاص، والسعي إلى تكييف هذه الرؤية مع التصور الإسلامي، مما يجعل الإنسان قادرًا على تدبير شؤون الحياة الفردية والجماعية مع الحرص على كسب السعادة في الدارَين.

ومن قراءته المعمقة في الفكر التربوي عند ابن خلدون (عالم الاجتماع والعمران المولود سنة ٧٣٢ هـ بـ"تونس"، والذي جاب أقطار المغرب والأندلس زمن بني الأحمر، واحتكّ بنصارى قشتالة، وعاصر ضعف المسلمين وصراعاتهم بالأندلس) يستنتج الدكتور عبد الأمير شمس الدين أن المقاصد التربوية عند الرجل تتمثل في: ١-تربية الملكات، ٢-اكتساب الصناعة، ٣-البناء الفكري السليم.

وهي المقومات الكبرى للعمران، وهي نظرة بعيدة تلخّص علاج مشكلات الانحطاط في العالم الإسلامي في العصور الوسطى، والتي تحتاج إلى فهم السنن الكونية في قيام الحضارات وسقوطها، وهي رؤية يقصد ابن خلدون إلى ترسيخها لدى الأجيال الصاعدة، لأن تغيير مصير ومسار الأمم يبدأ بتغيير التصورات وتنمية المهارات والقدرات.

وبذلك يظهر جليًّا أن هذه الآراء التربوية التي أنتجها الفقيه والمحدث والفيلسوف وعالم الاجتماع في ظروف مختلفة لم تخرج عن المقاصد الكبرى للتربية في الإسلام، لكنها أصبحت أكثر إجرائية حينما حكمتها الخلفية الفكرية لكل عالم، والبيئة المعرفية والسياسية التي حكمت عصره، ورؤيته لسبل التصحيح والتغيير التي ستقوم بها الأجيال بعده، وهي الفكرة المركزية التي يمكن استنتاجها والاستفادة منها لتكييف مقاصدنا التربوية المعاصرة مع متطلبات واقعنا ومتغيراته وحاجاته.

إننا نعتقد أن بناء مناهج التعليم وكذلك العمليات الفرعية المرتبطة بها في أي بلد حَسَم خياراته الدينية والمذهبية باعتماد المرجعية الإسلامية النصية، والاجتهاد المقاصدي، واستلهام التجارب الإنسانية التي لا تتعارض مع ذلك، ينبغي أن تبنى مناهجه التعليمية وفق أسس أربعة:

١- الأساس الفلسفي: وينبني على الخصوصيات العقائدية للأمة ونظرتها إلى الكون والحياة والمصير باعتبارها محدّدات رئيسة لتكوين رؤية الإنسان لمبررات وجوده وحياته ومصيره.

٢- الأساس الاجتماعي: ويرتكز من جهة على الإمكانات المتاحة في كل مجتمع لتنفيذ نظام متجدد للتربية والتكوين، ومن جهة ثانية حاجاته التنموية على المدى القصير والمتوسط.

٣- الأساس النفسي: ويرتكز على ضرورة مراعاة النموّ النفسي والإدراكي للمتعلمين في مختلف الأعمار، ومسايرة تطوره لتوسيع دائرة التفاعل مع برامج ومناهج التعليم في انسجام وتناغم، مما يُنتج دافعية أكبر نحو التعلم.

٤- الأساس المعرفي: فيراعي طبيعة المفاهيم التي تقدّم للتلاميذ، وكيفية إسهامهم في بنائها في شكل خرائط معرفية متسلسلة

بأسلوب منهجي لا يقتصر فيه دور المتعلم على التلقّي، بقدر ما يشارك في بناء المعرفة وفق نسق يمكنه من الأدوات المعرفية الضرورية للتنمية، ويؤهّله لإدراك المقاصد الكبرى للعلم الموصلة إلى معرفة الخالق وتقديره حق قدره.

وحين نتحدث عن النظام التربوي والتعليمي بهذه الصيغة المركبة فإننا نرسخ بذلك مبدأين أساسيين:

١- أنه لا فصل بين التربية والتعليم، وإن كان هذا الفصل موجودًا في الواقع اليومي المدرسي الذي أصبح الشأن التعليمي يهيمن فيه على الشأن التربوي والأخلاقي.

٢- أن النظام التربوي التعليمي شبكة من العلاقات والخطابات والوسائل يتداخل فيها سلوك المعلم، وفضاء القسم، والمحتوى التعليمي، والأنشطة التعليمية، وجماعة المتعلمين، والإدارة المدرسية وغيرها.. فلكل طرف سلطته التي يمارسها، والمستهدف واحد طبعًا هو المتعلم الذي نعتقد أنه ينبغي أن يتوفر على مواصفات وكفاءات ثلاث تجعل منه عنصرًا نافعًا لنفسه ومجتمعه:

أ- القدرة على الإسهام في عملية بناء المعارف بمختلف أنواعها، وعدم اقتصاره على تلقيها واستيعابها، وامتلاك آليات تجديد التكوين الذاتي المستمر مدى الحياة.


ب- امتلاك المهارات العقلية (التحليل - النقد - التعليل - التصنيف - الاستدلال - التمييز - الاستشراف - الحوار) والتقنية (امتلاك القدرة على الإنتاج العلمي والتقني المهني واستثمار تكنولوجيا الإعلام والاتصال في التكوين والبحث والتواصل).

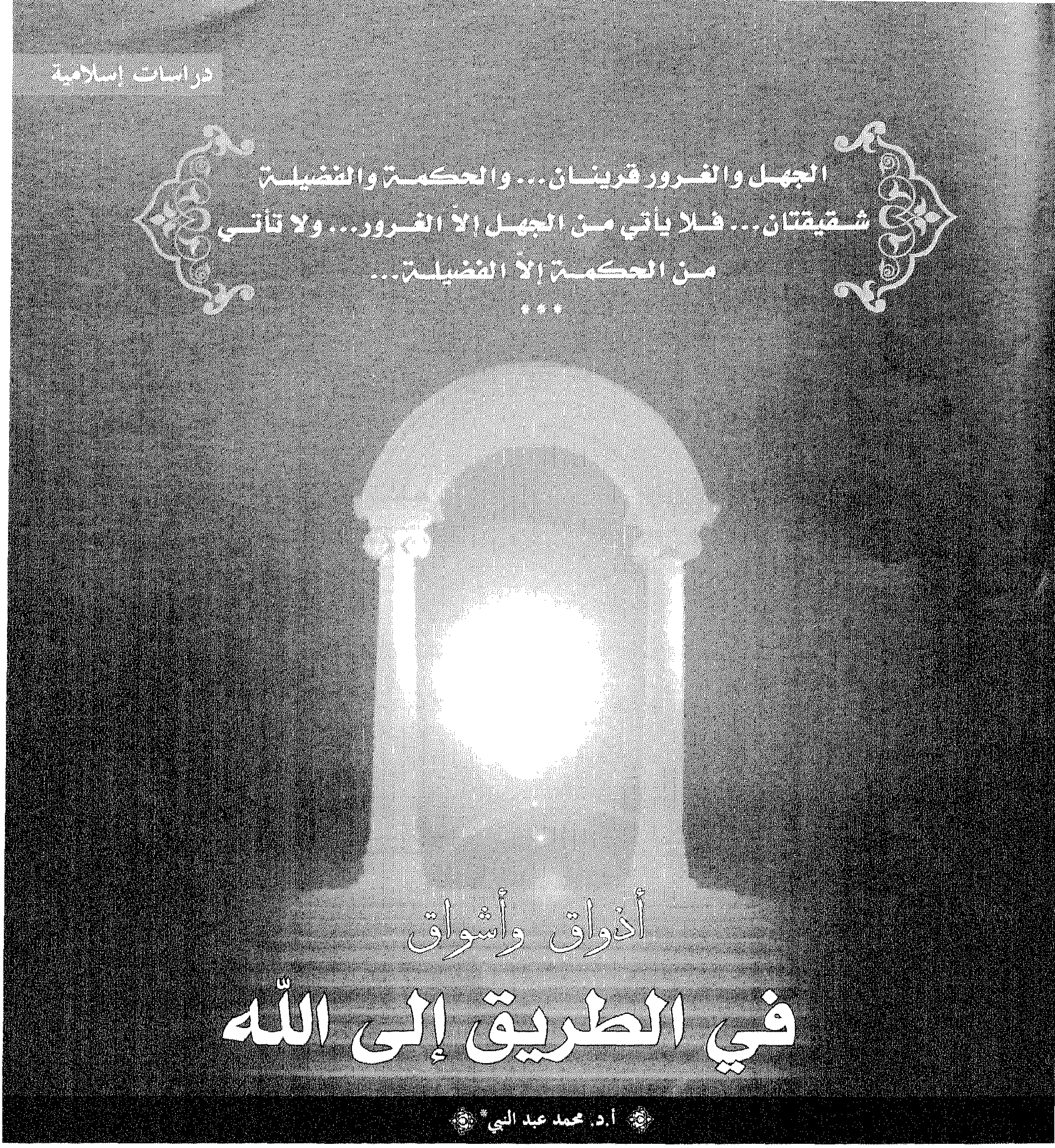
جـ- ترسيخ القيم التي تحكم علاقاته مع خالقه ومجتمعه ونفسه؛ وهي قيم مثلى تؤهله للقيام بمهمة الاستخلاف.

فإلى أي حد استجابت مقاصد أنظمتنا التربوية الإسلامية المعاصرة لهذه القواعد والمبادئ وحاجات واقعنا المعاصر يا تُرى؟! ■

(*) رئيس المركز المغربي للدراسات والأبحاث التربوية الإسلامية بالمدرسة العليا للأساتذة بتطوان / المغرب.

المصادر
(١) الفكر التربوي في الأندلس، عبد البديع الخولي، دار الفكر العربي، ١٩٨٥م.
(٢) دور الفقهاء في الفكر التربوي الإسلامي، محمد طابخ الحسين بنعزوزة - عبد السلام السقالي، المغرب.
(٣) التراث التربوي الإسلامي في خمس مخطوطات، هشام نشابة، دار العلم للملايين، ١٩٨٨م.
(٤) موسوعة التربية الإسلامية: الفكر التربوي عند ابن خلدون وابن الأزرق، عبد الأمير شمس الدين، دار اقرأ، ١٩٨٤م.





الجهل والغرور قرينان... والحكمة والفضيلة شقيقتان... فلا يأتي من الجهل إلا الغرور... ولا تأتي من الحكمة إلا الفضيلة...

أذواق وأشواق
في الطريق إلى الله

أ.د. محمد عبد النبي*

حين نـــزعم بأن دعوة بديع الزمان النورسي يهيمن عليها الخطاب التربوي والمنـــزع السلوكي، فليس هذا انتقاصًا من شمول لم يُدّع، بل هو شرف يحرص على التفاخر به تلميذ وتابع، وتزلّ قدم من يحصر النهج كله فيه خضوعًا لظرف طارئ، أو اغتنامًا لهامش يُحرص عليه.

سعى بديع الزمان إلى التركيز على خلال العبودية اختيارا "لأنها شرف عظيم، وفيها من اللذة وراحة الوجدان ما لا يوصف". وهذا يعني أن ممارسة وظائفها نعمة في حدّ ذاتها، والذين يترقبون الجزاء على التكليف واهمون، بغفلتهم عن كونها ثوابا و"نتيجة لنعمة سابقة، وليست مقدمة لثواب لاحق". وهذا يتفق مع اعتبارها المقصد الأسمى والغاية القصوى من خلق الكون ولا يمكن للمكلّف أن يقوم بحقّها إلا إذا وقف على حقيقتها وأداها بإخلاص وتذلّل "مظهرًا عجزه مع عدم التدخل في إجراءات ربوبيته، أو الاعتراض عليها، ومسلما للأمر والتدبير كله إليه وحده مع الاعتماد على حكمته دون اتهام لرحمته ولا القنوط منها".

العجز والعشق.. أو طريق العبودية

وفي لفتة تنمّ عن ذوق ومكابدة يزيد سبيل العجز تأكيدًا للوصول: "إن العجز كالعشق طريق موصل إلى الله". ثم يستدرك على هذه التسوية بأن الوسيلة الأولى " أقرب وأسلم" مبررا ذلك بأنه "يوصل إلى المحبوبية بطريق العبودية" والآخر تتّحد فيه الوسيلة بالغاية، وتنزع منه اللذة في المكابدة ذلة تُبتغى وانكسارًا يُراد، فضلاً عن كونه طريقًا لا تصفو دلاؤه، وقد يسلكها من لا يرجو للشريعة قدرا. وبإشهار العجز المطلق تتفجّر عطايا العبودية، "فالإنسان بقوة ضعفه وقدرة عجزه أقوى وأقدر بمراتب؛ إذ يُسخَّر له بالدعاء والاستمداد ما لا يقدر على عشر معشاره باقتداره، فهو كالصبي يصل ببكائه إلى ما لا يصل إليه بألوف أضعاف قوته، فيتفوّق بالتسخير لا بالغلبة. فعليه أن يعلن عجزه وضعفه وفقره وفاقته بالاستمداد والتضرّع والعبودية".

ولما كانت حياة بديع الزمان تطبيقا حيا لما يعلنه من حكم وحقائق، فإنه يقول -تأكيدا للإكرام الملازم للعجز-: "عرفتُ بالعجز والفقر غير المحدودين الكامنين في حياتي القدرة المطلقة لخالقي ورحمته الواسعة، من حيث إزالة حاجاتي التي لا تنتهي، ودفع أعدائي الذين لا يُعدّون، فعلمت وظيفة العبودية، وتزودت بالسؤال والدعاء والالتجاء والتذلل".

وحتى لا تذهب بعيدا ظنون من يتلقف الكلام ولا يحققه، أو من يتشوق لسماع ما يميل إليه ويبتغيه، أو من يستسهل الأشكال والرسوم وتُعييه المقاصد والمعاني ينبه النورسي إلى "أن المقصود بالعجز والفقر والتقصير إنما هو إظهار ذلك كله أمام الله سبحانه، وليس إظهاره أمام الناس".

وفي التشبيه السابق للعجز بالعشق إشعار ضمني باللذة التي تصاحبه، صرّح بها في موضع آخر -حين ربطها بالخوف والرجاء حكمة تلازم التذلل نفَسا في مسلك العبودية- فقال: "إن العارف بالله يتلذّذ من عجزه وخوفه من الله سبحانه؛ وحقا إن في الخوف لذّة، فلو تمكّنا من الاستفسار من طفل له من العمر سنة واحدة، مفترضين فيه العقل والكلام: ما أطيبُ حالاتك وألذُّها؟! فربما يكون جوابه هو: عندما ألوذ بصدر أمّي الحنون، بخوفي ورجائي وعجزي... ومن هنا وجد الذين كمُل إيمانهم لذّة تفوق أية لذّة كانت في العجز ومخافة الله، حتى إنهم تبرّؤوا إلى الله براءة خالصة من حولهم وقوتهم، ولاذوا بعجزهم إليه تعالى، واستعاذوا به وحده، مقدمين هذا العجز والخوف وسيلتين وشفيعين لهم عند البارئ الجليل".

الخوف اللذيذ.. أو طريق المحبوبية

إن الشعور بالمعية والرعاية يولّد في النفس ما يسمّيه بديع الزمان بـ"الخوف اللذيذ" الذي يقود إلى المحبة واتخاذ الوضع الجميل حسبما يحبه الله ويرضاه. والخوف أيضا "سوط تشويق يدفع الإنسان إلى حضن رحمته تعالى. ولئن كان للخوف من الله لذّة إلى هذا الحد فكيف بمحبة الله سبحانه؟!" فيكون بإشهار العجز والخوف لذة في العلاقة مع المحبوب، تنشأ عنها المحبة، التي تقود إلى الانصياع والطاعة والإخبات.

إن الذي يستشعر عظمة الله ويخشاه في الغيب والشهادة تهون أمامه المصائب، أو تخفّ وطأتها على قلبه، وبما يُرزَقه أيضا من رجاء يَقوى أمَلُه في الله، ويدفعه للطمع في رحمته، فيلجأ مخبتا للدعاء ليرتفع البلاء أو يُقضى باللطف فيه، و"يتحصّن من كل مصيبة مستندا إلى التوكل، فيمنحه إيمانه هذا الأمان التام والاطمئنان الكامل" ثم يضرب لأثر الإيمان مثلا فيقول: "فلو أصبحت الكرة الأرضية قنبلة مدمّرة وانفجرت، فلربما لا تخيف عابدا لله ذا قلب منوّر، بل قد ينظر إليها أنها خارقة من خوارق القدرة الصمدانية، ويتملاّها بإعجاب ومتعة، بينما الفاسق ذو القلب الميت -و لو كان فيلسوفا ممن يعد ذا عقل راجح- إذا رأى في الفضاء نجما مذنّبا يعتوره الخوف ويرتعش هلعا ويتساءل بقلق: ألا يمكن لهذا النجم أن يرتطم بأرضنا؟" بل إن انعدام الاطمئنان والأمان أدّى ببعض كبار العلماء والأدباء في نهاية حياتهم إلى الانتحار.

إن الشفاء من ألم الخوف الذي يزيل لذّة الحياة الدنيوية "أن ينصت الإنسان بالتسليم لدعوة القرآن، فينقلب العجز تذكرة دعوة للاستناد إلى القدير المطلق، والاتصال بسر التوكل بنقطة استناد فيها أمْن وأمان من الأعداء". وكان قد ذكر "أنّ التداوي بالقرآن يحيل الفقر المطلق الأليم شوقا لذيذا إلى ضيافة الرحمة، واشتهاء لطيفا لتناول ثمرات رحمة الرحمن، فتزداد لذة الفقر والعجز بمراتب على لذة الغناء والقوة".

التسليم وخفايا الابتلاء

تتأرجح حياة الإنسان بين معاقد الأمل، تراوده في الحقيقة تارة وفي الخيال تارة أخرى، وبين فترات ألم قد تسلمه -إذا طالت- إلى يأس يُقعده أو تبرم يضيره، ولا ينجيه إلاّ التسليم بسنة الابتلاء يقدّر، واعتقاد في حكمة البلاء يتنزّل، يُفتتن بخيره وشره مَن يدين لله بالوحدانية، تنمو به بذرة الخوف في النفس حينا، وتزهر به نبتة الرجاء حينا آخر، ولذلك ينبغي اعتبار الآلام والأوجاع

الروحية "أسواطا ربانية تحثّ على المجاهدة والصبر، إذ تقتضي الحكمة الحيلولة دون الوقوع في اليأس، وكذلك دون البقاء في الاطمئنان والأمان، وذلك بالموازنة بين الخوف والرجاء، مع التجمل بالصبر والتحلي بالشكر".

والموت باعتباره بلاء يحيق بالإنسان من كل جانب، لا يمكن تجاوز القلق الذي يحدثه إلاّ بالاستسلام والتسليم بوجود حكمة في كل ما يفعله الله، ومنها أن يبقى القلب معلقا بين الخوف والرجاء. ولو كان العمر معلوما لكان القلق أشد، فمن رحمة الله -عند المقارنة- أن يؤثر نفسه بمعرفة الآجال، وإلاّ "لقضى هذا الإنسان المسكين نصف عمره في غفلة تامة، ونصفه الآخر مرعوبا مدهوشا، كمن يساق خطوة خطوة نحو حبل المشنقة، بينما تقتضي المحافظة على التوازن المطلوب بين الدنيا والآخرة ومصلحة بقاء الإنسان معلقا قلبه بين الخوف والرجاء: أن تكون في كل دقيقة تمر بالإنسان إمكان حدوث الموت، أو استمرار الحياة، وعلى هذا يرجّح عشرون سنة من عمر مجهول الأجل، على ألف سنة من عمر معلوم الأجل".

ويذكر النورسي سرا آخر من أسرار الإخفاء، فلو كان يوم القيامة معلوما "لدخل قسم من الحقائق الإيمانية ضمن البدهيات، أي يصدق بها الجميع، سواء أرادوا أو لم يريدوا، ولاختلّ عندئذ سر التكليف وحكمة الإيمان المرتبطان بإرادة الإنسان واختياره".

الرزق.. أو طريق الإذلال

لقد ذكر بديع الزمان سبب إبهام الرزق وإخفائه فقال: "لو كان الرزق معيّنا كشروق الشمس وغروبها.. لكانت أبواب الرجاء ومنافذ التضرع ومعارج الدعاء الملفعة كلها بالشكر الجميل والرضى الحسن قد انسدّت عن آخرها، بل لكانت أبواب العبودية الخاشعة الضارعة قد انغلقت نهائيا".

والحديث عن الرزق قد أولاه النورسي عناية خاصة من حيث تعلقه بالعبودية والتوكل تحقيقا أو انتقاضا، والكلام السابق جزء من تلك العناية، أما الجزء الذي قد يفوقه أهمية فهو الاعتقاد الشائع بتلازم سببيّ بين السعي وبين الكسب والتحصيل، تُسند فيه العطايا إلى الساعي، وتذوي به رسومُ عبادة تعلن، فضلا عن عبودية تقوّض أركانها أنفاس زهو مكتوم بتحصيل كسب أو تحقيق ظفر.

ويعالج هذا الأمر وغيره بالقول: "الإنسان مغرم بالرزق كثيرا، ويتوهم أن السعي إلى الرزق يمنعه عن العبودية، فلأجل دفع هذا التوهم، ولكي لا يتخذ ذريعة لشرك العبادة تقول الآية الكريمة: ﴿وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالإِنْسَ إِلاَّ لِيَعْبُدُونِ﴾(الذاريات:٥٦) وتحصر الغاية من الخلق في العبودية لله، وأن السعي إلى الرزق -من حيث الأمر والنهي- عبودية لله أيضا... والرزق أنا به زعيم، فواجبكم الأساس هو العبودية، والسعي على وفق أوامري للحصول على الرزق هو بذاته نوع من العبودية".

ولا تظنن أن التوكل هو رفض الأسباب وردّها كليا، وإنما هو عبارة عن العلم بأن الأسباب هي حُجب بيد القدرة الإلهية، ينبغي مراعاتها ومداراتها... أما التشبّث أو الأخذ بها فهو نوع من الدعاء الفعليّ.

وبسبب الغفلة عن عقيدة الرزق، وخلو القلب من معانيها ينشأ الحرص بديلا، تنمو بوادره شيئا فشيئا، فيحيله التكاثر إلى طمع يذل صاحبه، وإذا غلبت هذه الطباع على المجتمع يغدو التنازع على الحطام مسلكا يقود إلى إفساد العلائق وخراب الذمم، يقول بديع الزمان: "الحرص داء كالعداء، بل هو أضر على الحياة الإسلامية وأدهى عليها. نعم، الحرص بذاته سبب الخيبة والخذلان، وداء وبيل ومهانة ومَذلّة، وهو الذي يجلب الحرمان والدناءة". ثم يربط بين ذلك وبين التوكل فيقول: "والحرص يظهر تأثيره السيّء بدءً من أوسع دائرة في عالم الأحياء، وانتهاء إلى أصغر فرد فيه، بينما السعي وراء الرزق المكلل بالتوكل مدار الراحة والاطمئنان، ويبرز أثره النافع في كل مكان".

وكعادة الرجل في ضرب الأمثلة لتأكيد المعنى يلفت الأنظار إلى مفارقة عجيبة بين النبات والحيوان، حيث تساق الأرزاق سوقا إلى من لا يبرح مكانه، ويُعيي الحراكُ من عُرف بالعدو فلا يبلغ بعض غايته إلاّ بالجهد الجهيد يبذله "فالأشجار.. تُهرع إليها أرزاقُها سريعة وهي منتصبة في أماكنها متسمة بالتوكل والقناعة، دون أن يبدو منها أثر للحرص. أما الحيوانات فلا تحصل على أرزاقها إلاّ بعد جهد ومشقة، وبكمية زهيدة ناقصة، ذلك لأنها تلهث وراءها بحرص".

وقد يُثار ههنا على بديع الزمان سؤال مهمّ مفاده: "ألا يوحي تأكيد معاني العبودية بأنه لم يترك للحرية مجالاً تسيح فيه؟" أو بعبارة أخرى: "ألا يمكن القول بأن ترسيخ معانيها على وفق الرؤية النورية تجعل العبد ذليلاً مستكينًا أمام الله وأمام الناس أيضًا، فيصاب بعطالة على مستوى حياته الدنيا لا ينقذه منها إلاّ شعار في الجهة الأخرى يتفلّت به من كلّ عقال؟"

ويمكن القول جوابًا على هذا السؤال: إن العبودية التي يريدها الرجل هي تلك الحالة التي تجعل المسلم يستسلم لله وحده، ويسلم قياده له لا شريك له، ليخرج من قلبه كل الأرباب، ولتفقد كل الربوبيات بريقها أو سطوتها، فيغدو القلب العامر بذكر الله خاليًا من كل خوف أو رجاء إلا منه سبحانه، "فمن كان عبدًا لله لا يكون عبدًا للعباد"، ومن "أراد العبودية الخالصة لربّ العالمين لا ينبغي له أن يذلّ نفسه فيكون عبدًا للعبيد، وإنّ جني فوائد الحرية الحقة والاستفادة منها استفادة كاملة منوط بالاستمداد من الإيمان"، و"المؤمن حرٌّ في ذاته، فالذي هو عبد لله رب العالمين لا ينبغي له أن يتذلل للناس، بمعنى: كلّما رسخ الإيمان قويت الحرية"، ومفهوم هذه القاعدة عند بديع الزمان أنه كلما قلّ الإيمان كلّما ازدادت فرص الوقوع في الأسر، أو كلّما آنستْ طبائع الاستبداد فراغًا في القلوب ملأته بالدّينونة للربوبيات التي تنشئها، وفي عبارة رائعة يؤكد فيها الترابط السابق فيقول: "فبِمقدار قوّة الإيمان تتلألأ الحرية وتسطع".

التوكل والتواكل.. أو محاذير الأسباب

تعرّض مفهوم التوكّل من قِبل طوائف وجماعات إلى تفسيرات أسلمته إلى مسلك التواكل الذي عُدّ من قِبل بعض المصلحين والدعاة من أهمّ أسباب الوهن الذي يعصف بالأمة، باعتبار أن المفاهيم المغلوطة تؤثر سلبًا على وعي المجتمع، فيستقرّ في روعه أنه على الجادّة، ولا يسعى إلى تغيير يقلع به عن أسباب التخلّف، وهذه من أخطر حالات المرض حين يعتقد العليل سلامته فلا يبحث عن شفاء.

ومن الكتابات التي تألّق فيها بديع الزمان -بالرغم من ظروف الموقع زمانًا ومكانًا- موضوعُ التوكّل تحقيقًا وممارسة. والمتعلّقون بالظاهر قد يصدرون حُكمًا على الرجل يضعونه به ضمن التصنيف التقليدي المعروف، فيهضمونه حقه وحق الأجيال في المعرفة والوفاء، وكأنه خشي أن يُفهم خطأً بتركيزه على معاني العبادة والعبودية، فراح يُسرع إلى وضع الأمور في نصابها، تارة بتقييد كلامه في إطلاق سبق، وتارة بإلحاق التقييد والاستدراك في الموضع نفسه، وهذا هو الذي سلكه مع مفهوم التوكل، حيث يربطه بمفاهيم عديدة يأخذ بعضها بحجز بعض: "فالإيمان إذن يقتضي التوحيد، والتوحيد يقود إلى التسليم، والتسليم يحقق التوكل، والتوكل يسهّل الطريق إلى سعادة الدارين". ويوضّح سعادة الدنيا بالتوكل فيقول: "نَيل مقام التوكل ودرجة الرضى ومرتبة التسليم، هذه المقامات هي السبيل إلى تذوّق السعادة الحقيقية، والتسلية الخالصة، واللذة التي لا يشوبها حزن، والأنس الذي لا تقربه وحشة"، ويوضّح سبل الوصول إلى هذه السعادة فيقول: إن المتوكل "يسلّم أعباءه الثقيلة أمانة في يد القدرة للقدير المطلق، ويقطع بذلك سبيل الدنيا مطمئن البال في سهولة وراحة حتى يصل إلى البرزخ ويستريح، ومن ثمّ يستطيع أن يرتفع طائرًا إلى الجنة للدخول إلى السعادة الأبدية، أما إذا ترك الإنسان التوكل فلا يستطيع التحليق والطيران إلى الجنة فحسب، بل ستجذبه تلك الأثقال إلى أسفل سافلين".

وبعد التقرير والتأكيد يستدرك قائلاً: "ولا تظنّن أن التوكل هو رفض الأسباب وردّها كليا، وإنما هو عبارة عن العلم بأن الأسباب هي حُجب بيد القدرة الإلهية، ينبغي مراعاتها ومداراتها، أما التشبّث بها أو الأخذ بها فهو نوع من الدعاء الفعليّ؛ فطلب المسبَّبات إذن وترقب النتائج لا يكون إلا من الحقّ ﷻ، وأن المنة والحمد والثناء لا ترجع إلا إليه وحده".

ولا يكتفي بما سبق حتى يزيد التواكل توضيحًا والتوكل بيانًا وجلاء، والعلاقة الدقيقة بينهما كما ينبغي لها أن تستقرّ، فيقول عن التواكل: "هو تكاسل في ترتيب المقدمات، وهو في حكم التمرّد على النظام القائم بين الأسباب التي هي مقتضى مشيئة الله تعالى، والآخر (أي التوكّل): هو توكّل إيماني في ترتب النتائج، وهو من مقتضيات الإسلام، والذي يقود صاحبه إلى التوفيق حتى في النتائج شريطة عدم التدخّل في التقديرات الإلهية". ■

(*) جامعة الجزائر / الجزائر.

المصادر

(1) المثنوي العربي النوري، بديع الزمان سعيد النورسي.
(2) الكلمات، بديع الزمان سعيد النورسي، ترجمة: إحسان قاسم الصالحي.
(3) الشعاعات، بديع الزمان سعيد النورسي، ترجمة: إحسان قاسم الصالحي.
(4) الملاحق، بديع الزمان سعيد النورسي، ترجمة: إحسان قاسم الصالحي.
(5) اللمعات ، بديع الزمان سعيد النورسي، ترجمة: إحسان قاسم الصالحي.
(6) المكتوبات، بديع الزمان سعيد النورسي، ترجمة: إحسان قاسم الصالحي.
(7) صيقل الإسلام، بديع الزمان سعيد النورسي، ترجمة: إحسان قاسم الصالحي.
(8) سيرة ذاتية لسعيد النورسي، إعداد: إحسان قاسم الصالحي.



ليست المشكلة غياب الحداثة

إنما المشكلة غياب الهوية

أ.د. محمد سعيد رمضان البوطي*

من شـــأن الإنسان في كل زمان ومكان أن يملّ من القديم، وأن تهفو نفسه إلى الجديد. ولكن من واجبه أيضًـــا أن يلازم إنســـانيته، وأن يتقيد بمعانيها وأن يتعامل مع مســـتلزماتها، وأن لا يملّ مـــن الارتباط بذلك مهما تقادمت صحبة الإنسان لمعاني إنســـانيته، بل إنه لا يستطيع أن يعيش إلا بهذا الالتزام، وإلا من خلال أداء هذا الواجب.

بين القديم والجديد

إذن، فالارتباط بالهوية الإنسانية، هو المنطلق والأساس. أما التوجه إلى التفسير والتطوير واستحداث الأنماط الجديدة للحياة، فيجب أن يتم داخل هذه الهوية، وأن يكون من أجل خدمتها وحمايتها.

غير أن مشـــكلة إنسان الحضارة الحديثة، أنه يتطلع دائمًا إلى أي جديد تركن إليه النفس، ولو تجاوز في سبيل ذلك ذاته وتنكر لهويته، فيقع من جراء ذلك في تشـــاكس مع إنسانيته، وفي ثنائية مهلكة ما بين مستلزمات هويته الثابتة وأهوائه المتجددة.

ولكي نعالج هذه المشـــكلة، لا بـــدّ أن نجعل أولى خطوات المنهج المرســـوم لتجديد حياتنا وتطويرها، التعرف على هويتنا، ومن ثم تجديد الارتباط بها والتمسك بمقتضياتها.

الحداثة والأصالة

ونظرًا إلى أن ميزان حديثي عن علاقة الإنســـان بقطبَي الحداثة والأصالة، إنما هو الإسلام، فالهوية التي ستكون محل اعتبار لي في معالجة هذا الأمر، إنما هي عبودية الإنسان لله.

غير أن ثمة جامعًا مشتركًا بين المسلمين وغيرهم، للتعاون في حلّ هذه المشكلة، ألا وهو الهوية الإنسانية. ذلك لأن الله لم يعرّف عباده على هذا الدين منذ فجر الوجود الإنساني ولم يلزمهم به، في أصوله الاعتقادية وأحكامه السلوكية، إلا ليكون وقاية للمعاني وللقيم الإنسانية التي تميز بها الإنسان عن سائر المخلوقات.

ولو علم الله أن في الفلسفات والأنظمة الاجتماعية ما يغني عن التعليمات الإسلامية التي شرفنا الله بها، لحماية الإنسانية من العبث بها والظلم لها، إذن لأمَرنا بالتوجه إلى تلك الأنظمة والفلسفات.

إذن، فحديثي الآن عن الإسلام وما قد يكون فيه من ثوابت ومتغيرات، ليس إلا حديثًا عن السور الذي يحفظ المعاني الإنسانية من العبث بها ومحاولة القضاء عليها..

إنني لم أجد داخل بنيان الحقائق الإسلامية، التي تتألف من المعتقدات العلمية والأحكام السلوكية إلا الثوابت التي لا تتغير. ذلك لأن كل ما فيه حقائق، والحقائق لا تقبل -من حيث المنطق- أي تطور أو تغيير.

غير أن وظيفة هذه الحقائق الثابتة، أنها تبعث الإنسان المسلم على أن يمارس حياته الفكرية والحضارية والاقتصادية عمومًا بطريقة متجددة، طبق نظام ثابت معين تحكمه تلك الحقائق التي لا تقبل التغيير.

ومن المهم أن نعلم أن هذه المتغيرات الفكرية والحضارية ليست داخلة في شيء من تلك الحقائق، وإنما هي من آثارها وثمارها. ومن حِكَم الله الباهرة أن الإسلام لا يمكن أن يبعث المسلمين على التجدد المستمر في حياتهم، إلا إن كان هو بحدّ ذاته -أي متمثّلاً في حقائقه- ثابتًا مستقرًا يتسامى على التطوير والتغيير.

وإن هذا الموجز الذي أضعه أمام القارئ لا يتسع -في إيضاح هذه الحقيقة- إلا لطائفة يسيرة من الأمثلة التطبيقية، أرجو أن تكون وافية ببيان هذه الحقيقة الهامة.

إليكم أولاً هذا المثال: إن من أجلّ مبادئ الإسلام، دوران أحكامه على رعاية مصالح الناس على أن يراعي في ترتيبها سلّم الأولويات على الشكل التالي: رعاية مصلحة الدين أولاً، فالحياة ثانيًا، فالعقل ثالثًا، فالنسل أو الأسرة رابعًا، فالمال خامسًا.

إن مما لا ريب فيه أن هذا المبدأ ترجمة لحقيقة ثابتة تستعصي على أي تطوير أو تغيير له. غير أنه يبعث على سلسلة من التطورات لا نهاية لها في نطاق التعامل مع الحياة. إنه يتطلب منا رعاية مصلحة العقل كلما كان ذلك متّسقًا مع مصلحة الحياة، ولكن المبدأ ذاته يفرض علينا تجاوز مصلحة العقل إذا كان في ذلك تهديد لمصلحة الحياة.

وكذلك مصلحة المال؛ إن هذا المبدأ يتطلب منا رعاية المال كسبًا وتنمية وحفظًا، بكل الوسائل والوجوه الممكنة، ما دام التنسيق قائمًا بين متطلبات هذه الرعاية، ورعاية المصالح الأربع التي تسبقها في الأولوية والاهتمام. فإذا قام التعارض بين متطلبات رعاية المال، وأيٍّ من تلك المصالح الأخرى وجب علينا تجاوز مصلحة المال بالقدر الذي يحقق التنسيق بينها وبين ما عارضها من المصالح الأخرى.

إن هذا المبدأ الثابت، يبعث على حركة مستمرة في تجديد العلاقات التنسيقية بين هذه المصالح، كلما قام فيما بينها أي خلل أو اضطراب. ومن الواضح جدًا أن هذا التحرك المطرد، إنما هو ظل لذلك المبدأ الثابت، وليس هو المبدأ ذاته كما قد يتوهم بعض السطحيين.

وإليكم مثالا آخر: من المبادئ والأحكام الثابتة حرمة الغش والخداع في المعاملات المالية، وحرمة التعاملات التي تؤدي إلى استيلاد النقود من النقود دون ربط لها بالمنافع (أي الربا). إن الانضباط بهذا المبدأ الثابت، من شأنه أن يفتح السبيل إلى بدائل متنوعة كثيرة في أوجه التعامل المالي، مثل عقد المرابحة، والمضاربة، وأنواع كثيرة من الشركات وكل ما قد يستجدّ من أوجه المعاملات المالية البعيدة عن المراباة والغش والخداع.

إنه مبدأ ثابت بحدّ ذاته، ولكنه يدفع إلى استحداث ألوان وأطوار جديدة من المعاملات الاقتصادية والمالية.

وإليكم مثالا آخر: من المبادئ الثابتة اشتراط العدالة في الأشخاص الذين يتولون المناصب الحساسة كالقضاء ونحوه، وفي الأشخاص الذين يدلون بشهاداتهم في المحاكم. والعدالة في الشخص أن لا يرتكب جهرًا ما قد يخلّ بالمروءة، ويثابرَ على ذلك.

ولكن ما هو الشيء الذي يخلّ بالمروءة؟ إنه المثابرة على ارتكاب أحد المحرّمات، أو مخالفة المألوف والأعراف الدارجة بين الناس.

إنه مبدأ وحكم ثابت في الشرع لا يتبدل، ولكنه كما ترون مربوط بتقلبات الأعراف الاجتماعية. فقد كان من مقتضى هذا المبدأ أن تسقط مروءة من يرتدي مثلاً البنطال الضيق ويمشي حاسرًا بين الناس في الشوارع العامة قبل عدة قرون لمخالفته الأعراف الدارجة آنذاك. ولكن هذه الثياب نفسها منسجمة اليوم مع المروءة كل الانسجام، فلا تمنع من شهادة ولا من تولّي

منصب حساس. ويقول الإمام الشاطبي -وهو كما تعلمون من أبرز علماء غرناطة- إن خروج الشخصية الإسلامية إلى الشوارع والمحافل العامة في المشـــرق حاسر الرأس، يســـقط المروءة ويردّ شـــهادته، ويمنع من تبوء مناصب القضاء ونحوها. ولكن ظهور هذه الشخصية الإســـلامية عندنا في المغرب بهذا المظهر لا يسيء إلى المروءة ولا يؤثر في صحة شهادة ولا يمنع من تبوء منصب.

وهكذا فقد جعل الإســـلام من العرف الاجتماعي الدارج يزانًا للياقة التي يجب أن يتحلّى بها المســـلم بل كل إنسان، والتي كســـبه المروءة حسب الاصطلاح الفقهي. على أن لا يتعارض لعرف مع ثابت آخر من ثوابت المبادئ الإسلامية.

حاجات الإنسان والإسلام

ذن، فالمبادئ والأحكام الإسلامية كلها ثابتة لا تنسخها تيارات لحداثة. وسبب ثباتها أنها تتجاوب مع الحاجات الإنسانية الثابتة. ولو تطورت إنسانية الإنســـان لتطورت هذه الأحكام والمبادئ معها. ولكن ســـبل تنفيذ هذه الأحـــكام والمبادئ تخضع -كما رأينا- للجدة وللتطور دائمًا. وللأعراف الاجتماعية الســـليمة سلطان مستمر على ذلك.

وحصيلـــة القول أن الأحكام التي يتضمنها الإســـلام كلها ثوابت لا تتبدل. ولكن صدق التمســـك بأحكامه، يبعث على التطور الدائم على أن يتم ذلك برقابة دائمة من تلك الأحكام.

والبرهان الجليّ على ذلك أن المسلمين الذين اعتنقوا الإسلام في عصـــر خاتم الأنبياء محمد ﷺ، والذيـــن كانوا مجموعات من قبائـــل البادية العربية، تطوروا خلال نصف قرن في معايشـــهم وأســـاليب حياتهم كلها، أكثر مما تطوره المسلمون المتنورون في هذه القرون الأربعة الأخيرة دون أن يدفعهم ذلك التطور السريع إلى تطوير حكم واحد من أحكام الإسلام، بل كان سرّ تطورهم شدّة ثباتهم واستمرار تمسكهم بتلك الأحكام.

إذن، فالمسلمون بمقدار ما يخلصون لمبادئ إسلامهم ويثابرون على التمســـك بها، تفتح لهم تلك المبادئ آفاق التطور والحداثة وتدفعهم سريعًا إليها ضمن خطة ونظام.

أرأيتم إلى العربة التي نركبها، إن الإسلام كهذه العربة. بمقدار ما تحافظ على دخائلهـــا ونظامها تنقلك وتوصلك إلى غاياتك، فإن تبرّمتَ بها ومللتَ من مظهرها ونظامها وأخذتَ تعبث بها، توقفت وأوقفتك وخلفتك عن بلوغ آمالك. ■

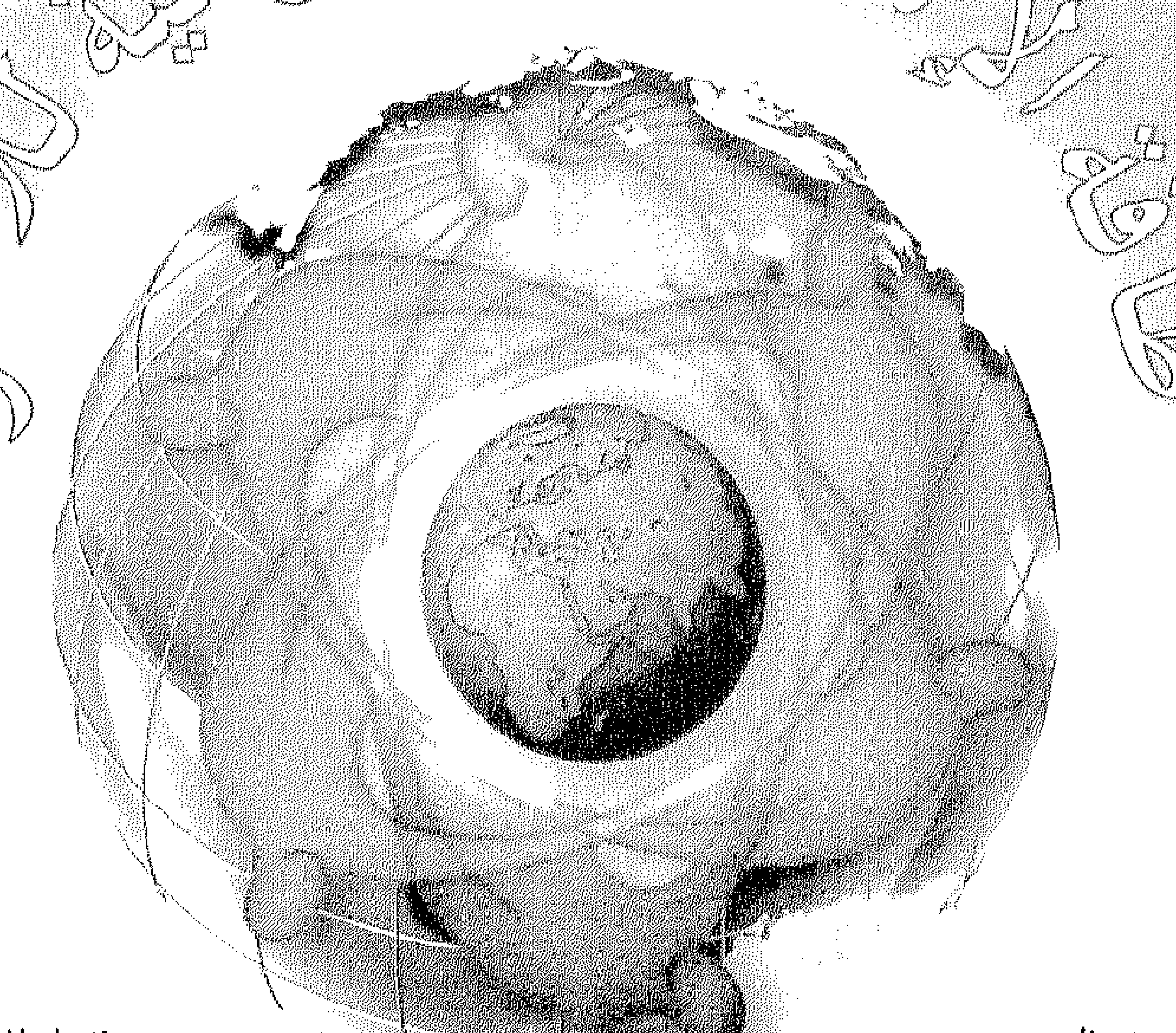
(*) كلية الشريعة، جامعة دمشق / سوريا.

الحرائق

قلوب فتية تحترق...
أرواح ندية تتآكلها ألسنة النيران...
ها هم فتية الإنقاذ قادمون...
وبالنيران يحيطون...
وسياجًا من قلوبهم ينصبون...
وبُسُطَ الإنقاذ على الأرض يفرشون...
إنهم قادمون.. وبجوارحهم كلها يفتدون..
أولئك الذين في قلب النيران يُسجَرون..
إنهم قادمون.. إنهم قادمون..



سماحة الإسلام الاحتوائية للآخر



أ.د. محمد عمارة*

إن السماحة التي تعني المساهلة واللين في المعاملات، والعطاء بلا حدود، ودونما انتظار مقابل، أو حاجة إلى جزاء.. إن هذه السماحة في النسق الإسلامي ليست مجرد كلمة تقال، ولا شعار يرفع، ولا حتى صياغةَ نظرية تأملية ومجردة؛ كما أنها ليست مجرد فضيلة إنسانية يمنحها حاكم ويمنعها آخر. وإنما هي دين مقدّس، ووحي إلهي، وبيان نبوي لهذا الوحي الإلهي، وتجسيد وتطبيق لهذا الدين في دولة النبوة وفي دولة الخلافة الراشدة، وفي التاريخ الحضاريّ للشرق الإسلامي منذ ما قبل أربعة عشر قرنًا، وحتى هذه اللحظات، بل لأن هذه السماحة هي ثمرة للدين الخالد والشريعة الخاتمة، فإنها ستظل منهاجًا للإسلام والمسلمين إلى أن يرث الله الأرضَ ومن عليها.

التأسيس القرآني للسماحة الإسلامية

لقد بدأ القرآن الكريم فأسس السماحة الإسلامية على قاعدة الرؤية الفلسفية الإسلامية للكون والوجود. ففي هذا الوجود هناك "حقّ" هو الله ﷻ، و"خلْق" يشمل جميع عوالم المخلوقات. هناك واجب الوجود، وهناك الوجود المخلوق لواجب الوجود. وفي هذا التصور الفلسفي الإسلامي تكون "الواحدية والأحدية" فقط للحق، لله ﷻ واجب الوجود؛ بينما تقوم كل عوالم الخلق المادية والنباتية والحيوانية والإنسانية والفكرية، (أي كل ما عدا الذات الإلهية) على التعدد، والتنوع والتمايز والاختلاف باعتبار هذا التنوع والتعدد والتمايز والاختلاف قانونًا إلهيًا تكوينيًا، وسنة من سنن الله التي لا تبديل لها ولا تحويل. الأمر الذي يستلزم -لبقاء هذه السنة الكونية قائمة ومطردة- تعايشَ كل الفرقاء المختلفين، وتعارف جميع عوالم الخلق، أي سيادة خُلق السماحة في العلاقات بين الأمم والشعوب والثقافات والحضارات والمذاهب والفلسفات والشرائع والملل والديانات والأجناس والألوان واللغات والقوميات. فبدون السماحة يحل "الصراع" الذي ينهي ويلغي ويفني التعددية محلَّ التعايش والتعارف، الأمرُ الذي يصادم سنة الله ﷻ في الاختلاف والتنوع بكل عوالم المخلوقات.

على هذه الرؤية الفلسفية الإسلامية للكون والوجود أقام الإسلام مذهبه في السماحة، باعتبارها فريضة دينية، وضرورة حياتية، لتكون جميع عوالم الخلق على هذا النحو الذي أراده الله.

وفي التأسيس القرآني لهذه الرؤية الفلسفية الإسلامية للكون والوجود نقرأ في آيات الذكر الحكيم: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُمْ مِنْ ذَكَرٍ وَأُنْثَى وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوبًا وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ

اللهِ أَتْقَاكُمْ إِنَّ اللهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ﴾(الحجرات:١٣). فالإنسانية تتنوع إلى شعوب وقبائل، والسماحة هي السبيل إلى تعايشها وتعارفها في الإطار الإنساني العام.

وهذه الأمم والشعوب والقبائل تتنوع أجناسها وألوانها وألسنتها ولغاتها ومن ثم قومياتها كآية من آيات الله. والسماحة هي السبيل لتعايش الأجناس والقوميات في إطار الحضارات الجامعة لشعوب هذه القوميات.

وهذه الأمم والشعوب تتنوع دياناتها وتختلف مللها وشرائعها، وتتعدد مناهجها وثقافاتها وحضاراتها، باعتبار ذلك سنةً من سنن الابتلاء والاختبار الإلهي لهذه الأمم والشعوب، وحتى يكون هناك تدافع وتسابق بينها جميعًا على طريق الحق وفي ميادين الخيرات ﴿لِكُلٍّ جَعَلْنَا مِنْكُمْ شِرْعَةً وَمِنْهَاجًا وَلَوْ شَاءَ اللهُ لَجَعَلَكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً وَلَكِنْ لِيَبْلُوَكُمْ فِي مَا آتَاكُمْ فَاسْتَبِقُوا الْخَيْرَاتِ إِلَى اللهِ مَرْجِعُكُمْ جَمِيعًا فَيُنَبِّئُكُمْ بِمَا كُنْتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ﴾(المائدة:٤٨). وبدون السماحة يستحيل تعايش هذه التعددية، التي هي علة الوجود، وسر التسابق في عمران هذا الوجود.

وانطلاقًا من هذا الموقف القرآني الذي جعل هذا التنوع سنة إلهية وقانونًا كونيًا، كان "العدل" الذي هو معيارُ النظرة القرآنية وروح الحضارة الإسلامية هو أساس السماحة الإسلامية في التعامل مع كل الفرقاء المختلفين. ففي التأسيس لهذه السماحة العادلة يطلب القرآن الكريم منا العدل مع النفس والذات: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُونُوا قَوَّامِينَ بِالْقِسْطِ شُهَدَاءَ للهِ وَلَوْ عَلَى أَنْفُسِكُمْ أَوِ الْوَالِدَيْنِ﴾(النساء:١٣٥)، بل ويوجب الله ﷻ علينا العدل حتى مع مَن نكره ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُونُوا قَوَّامِينَ للهِ شُهَدَاءَ بِالْقِسْطِ وَلاَ يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَآنُ قَوْمٍ عَلَى أَلاَّ تَعْدِلُوا اعْدِلُوا هُوَ أَقْرَبُ لِلتَّقْوَى﴾(المائدة:٨).

كذلك يوجب الإسلام علينا العدل في النظر إلى المخالفين لنا في الاعتقاد الذي هو سنة إلهية، ونحن مدعوون وفق منهاج القرآن ألا نضع كل المخالفين لنا في سلّة واحدة، وألا نسلك طريق التعميم الذي يظلم عندما يغفل الفروق بين مذاهب هؤلاء المخالفين ومراقفهم. وإقامةً لهذا المنهاج رأينا القرآن الكريم لا يعمم أبدًا في حديثه عن أهل الكتاب وأصحاب العقائد والديانات، وإنما يميّز بين مذاهبهم وطوائفهم، فيقول: ﴿لَيْسُوا سَوَاءً مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ أُمَّةٌ قَائِمَةٌ يَتْلُونَ آيَاتِ اللهِ آنَاءَ اللَّيْلِ وَهُمْ يَسْجُدُونَ﴾(آل عمران:١١٣).

فالقاعدة القرآنية الحاكمة في التمييز العادل بين الفرقاء المخالفين لنا هي أنهم ﴿لَيْسُوا سَوَاءً﴾. صنع القرآن ذلك عندما ميز فرقاء اليهود فلم يعمم في الحكم على مجموعهم، وصنع ذلك أيضًا في الحديث عن النصارى عندما ميّز بين مَن هم أقرب مودة للمسلمين: ﴿الَّذِينَ قَالُوا إِنَّا نَصَارَى ذَلِكَ بِأَنَّ مِنْهُمْ قِسِّيسِينَ وَرُهْبَانًا وَأَنَّهُمْ لاَ يَسْتَكْبِرُونَ ۞ وَإِذَا سَمِعُوا مَا أُنْزِلَ إِلَى الرَّسُولِ تَرَى أَعْيُنَهُمْ تَفِيضُ مِنَ الدَّمْعِ مِمَّا عَرَفُوا مِنَ الْحَقِّ يَقُولُونَ رَبَّنَا آمَنَّا فَاكْتُبْنَا مَعَ الشَّاهِدِينَ﴾(المائدة:٨٢-٨٣).

والمنطلق الإسلامي لهذا التمييز المؤسس للعدل والسماحة هو العدل الإلهي الذي هو فريضة إسلامية جامعة. فالله ﷻ رب العالمين جميعًا ﴿الْحَمْدُ للهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾(الفاتحة:٢) وليس رب شعب بعينه دون سائر الشعوب. والتكريم الإلهي شامل لكل بني آدم ﴿وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِي آدَمَ﴾(الإسراء:٧٠). ومعيار التفاضل بين البشر المكرمين هو التقوى ﴿إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللهِ أَتْقَاكُمْ﴾(الحجرات:١٣)، وليس معيار التفاضل لونًا أو جنسًا أو سلالة أو أية صفة من الصفات اللصيقة التي تستعصي على الاختيار والكسب والتغيير. ولذلك قال الله ﷻ ﴿إِنَّا لاَ نُضِيعُ أَجْرَ مَنْ أَحْسَنَ عَمَلاً﴾(الكهف:٣٠).

وتأسيسًا على هذا العدل الإلهي، أسس القرآن الكريم سماحة الإسلام في النظر إلى مواريث النبوات والرسالات التي سبقت رسالة محمد بن عبد الله ﷺ؛ فالقرآن الكريم لم يأت نافيًا لما سبقه من كتب، وإنما جاء مصدّقا لها، ومهيمنًا عليها، أي مشتملاً على ثوابتها ومستوعبًا لأركان العقائد فيها، ومضيفًا إليها، ومصححًا لما طرأ عليها. فعلى حين كانت اليهودية تنكر النصرانية وكانت النصرانية تنكر اليهودية جاء القرآن الكريم مصدقًا لما بين يديه من الكتب السماوية السابقة ﴿وَهُوَ الْحَقُّ مُصَدِّقًا لِمَا مَعَهُمْ﴾(البقرة:٩١)، ومؤكدًا على أن ما أصاب بعض مواضع هذه الكتب لم يمح ما أودعه الله فيها من هُدى ونور ﴿اللهُ لاَ إِلَهَ إِلاَّ هُوَ الْحَيُّ الْقَيُّومُ ۞ نَزَّلَ عَلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ مُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيْهِ وَأَنْزَلَ التَّوْرَاةَ وَالإِنْجِيلَ ۞ مِنْ قَبْلُ هُدًى لِلنَّاسِ وَأَنْزَلَ الْفُرْقَانَ﴾(آل عمران:٢-٤)، فالتوراة ﴿فِيهَا هُدًى وَنُورٌ﴾(المائدة:٤٤)، وكذلك الإنجيل ﴿وَقَفَّيْنَا عَلَى آثَارِهِمْ بِعِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ مُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ التَّوْرَاةِ وَآتَيْنَاهُ الإِنْجِيلَ فِيهِ هُدًى وَنُورٌ﴾(المائدة:٤٦).

ذلك هو التأسيس القرآني للسماحة الإسلامية على الرؤية

الفلسفية للكون والوجود، المحكومة بسنة التعدد والتنوع والتمايز والاختـــلاف كقانون تكويني (أزلي أبـــدي)؛ الأمر الذي يجعل الســـماحة ضرورة لازمـــة وفريضة واجبة لبقـــاء قانون التنوع والاختلاف عامـــلاً ومرعيًا في عوالم المخلوقات والفلســـفات والشرائع والديانات والثقافات والقوميات والحضارات.

التطبيق النبوي للسماحة الإسلامية

ولأن الإســـلام هو الجامع والوارث لكل مواريث النبوات، فلقد تفرد بالســـماحة التي جعلته وحده المؤمن بكل الرسل والأنبياء، وبجميع الكتب والصحف والألـــواح، دون تفريق بين أحد من رسل الله عليهم الصلاة والسلام ﴿آمَنَ الرَّسُولُ بِمَا أُنْزِلَ إِلَيْهِ مِنْ رَبِّهِ وَالْمُؤْمِنُونَ كُلٌّ آمَنَ بِاللهِ وَمَلاَئِكَتِهِ وَكُتُبِهِ وَرُسُـــلِهِ لاَ نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِنْ رُسُلِهِ﴾(البقرة:٢٨٥).

ولأن الســـنة النبوية هي التطبيق النبوي للبلاغ القرآني، رأينا احتفاء رســـول الله ﷺ بكل الرسل والأنبياء. فالوحي الذي جاء بـــه في عقائد دين الله الواحد هو ذاته الوحي الذي أوحاه الله إلى الخالين من أصحاب الرسالات.

وانطلاقًـــا من هذا البلاغ القرآني جـــاء التطبيق النبوي الذي يحتضن بالإيمان كل الرســـل والأنبياء، فهم جميعًا أبناء دين واحد، وشـــرائعهم (أمهاتهم) شـــتى: "الأنبياء إخوة من علاّت، وأمهاتهم شتى، ودينهم واحد"(متفق عليه). ولذلك خاطب الرسول ﷺ اليهود فقال: "نحن أحقّ وأولى بموســـى منكم"(متفق عليه). وقال عن عيسى عليه السلام: "أنا أولى بعيسى بن مريم في الأولى والآخرة"(متفق عليه).

و لم يقف هذا التطبيق النبوي للســـماحة القرآنية عند حدود الســـنة القولية، بل تحولت هذه السماحة في التطبيق النبوي إلى واقع معيش، وأخلاق وسجايا، قنّنها وقعدها دستور دولة النبوة في المدينة المنورة وفي العهود والمواثيق التي قطعها وكتبها رســـول الله ﷺ لغير المسلمين.

ففي دســـتور دولة المدينة (الصحيفة، الكتاب) أصبح الآخر الديـــني (اليهود) جزءً من الـــذات (ذات الرعية الواحدة والأمة الواحدة) مع حرية الاعتقاد بالعقيدة الجاحدة لشـــريعة الإسلام. ونص هذا الدستور على أن "لليهود دينهم وللمسلمين دينهم.. ومن تبعنا من يهود فإن لهم النصر والأســـوة، غير مظلومين ولا مُتناصر عليهم".[١]

وعندما جاء وفد نصارى "نجران" ســـنة ١٠ هـــ / ٦٣١ م إلى مدينة رســـول الله ﷺ فتح لهم أبواب مسجد النبوة، فصلّوا فيه صلاة عيد الفصح، مولّين وجوههم إلى المشـــرق، ثم تركهم وما يدينون.[٢] وعقد لهم عهدًا عامًّا دائمًا لهم ولسائر من يتدين بالنصرانية عبر الزمان والمكان.

في الخلافة الراشدة

ولقد امتدت هذه الســـماحة بامتداد الفتوحات الإسلامية التي أقامت "الدولة"، وتركت الناس أحرارًا في "الدين"؛ فرأينا أبا بكر الصديق رضي الله عنه يوصي أمير الجيش الذاهب إلى الشـــام يزيدَ بن أبي سفيان "إنك ستجد قومًا زعموا أنهم حبسوا أنفسهم لله، فذَرهم وما زعموا أنهم حبسوا أنفسهم له"(رواه مالك في الموطأ).

ووجدنا الراشد الثاني عمر بن الخطاب رضي الله عنه يكتب عهد الأمان (العهد العمري) لأهل القُدس (إيليا) عند فتحها ســـنة ١٥ هـــ / ٦٣٥م الذي قرر فيه: "الأمان لأنفسهم وأموالهم، ولكنائسهم وصلبانهم، وسقيمها وبريئها وسائر ملّتها، وأنه لا تُسكن كنائسهم ولا تُهـــدم، ولا يُنتقص منها ولا من حيزها، ولا من صليبهم ولا من شـــيء من أموالهم، ولا يُكرهون على دينهم، ولا يُضارّ أحد منهم. ولا يســـكن بإيليا معهم أحد من اليهود (وفق ما طلبوا)، وعلى أهل إيليا أن يُخرجـــوا منها الروم واللصوص؛ فمن خرج منهم فإنه آمن على نفســـه وماله حـــتى يبلغوا مأمنهم، ومن أقام منهم فهو آمن؛ ومن أحب من أهل إيليا أن يسير بنفسه وماله مع الروم، ويخلى بيَعهم وصلبهم، فإنهم آمنون على أنفســـهم وبيعهم وصلبهـــم، حتى يبلغوا مأمنهم. وعلى ما في هذا الكتاب عهد الله وذمة رسوله، وذمة الخلفاء، وذمة المؤمنين".[٣]

بل لقد امتدت هذه الســـماحة الإســـلامية من إطار التعامل مع أهل الديانات الســـماوية (اليهـــود والنصارى) إلى أهل كل العقائد والديانات، فشملت المتدينين بالديانات الوضعية من أهل البلاد التي دخلت في الدولة الإســـلامية. وعندما فتحت فارس -وأهلها مجوس عبدة للنار- ســـأل عمر بن الخطاب رضي الله عنه مجلس الشورى (مجلس السبعين) عن الموقف من أهل هذه الديانات غير السماوية: "كيف أصنع بالمجوس؟" فوثب عبد الرحمن بن عوف رضي الله عنه فقال: أشـــهد على رســـول الله ﷺ أنه قال: "سُنّوا بهم سنة أهل الكتاب".[٤]

والإســـلام لم يفرض على منكريـــه وجاحديه والكافرين به عقوبة دنيوية، وإنما أعلن أن حِسابهم على الله يوم الدين. ولذلك قال الإسلام حتى للمشركين الذين أشركوا الأوثان والأصنام مع الله ﷺ: ﴿وَلاَ أَنَا عَابِدٌ مَا عَبَدْتُمْ ۝ وَلاَ أَنْتُمْ عَابِدُونَ مَا أَعْبُدُ ۝ لَكُمْ دِينُكُمْ وَلِيَ دِينِ﴾(الكافرون:٤-٦).

ولم يقم رسول الله ﷺ حدًّا ولا عقوبة دنيوية على الذين آمنوا ثم كفروا ثم آمنوا ثم كفروا، ولا على الذين آمنوا وجه النهار وكفروا آخره. فـ﴿لاَ إِكْرَاهَ فِي الدِّينِ﴾(البقرة:٢٥٦)؛ لأن الإكراه يثمر نفاقًا، ولا يثمر إيمانًا، إذ الإيمان تصديق قلبي يبلغ مرتبة اليقين، فاجتماعه مع الإكراه مستحيل.

ولم يُقم رسول الله ﷺ وهو رأس الدولة حدًّا على مرتدّ إلا في الحالة الواحدة التي لم يقف فيها الأمر عند الردة عن الدين، وإنما بلغ الأمر مرتبة الحرابة والخروج المسلح على الأمة والدولة؛ فالنفر الذين اغتصبوا إبل الصدقة (مال الدولة) وقتَلوا الغلمان الذين كانوا يرعون هذه الإبل (عمّال الدولة) ومثّلوا بجثثهم، وارتدوا عن الإسلام، قد ارتكبوا جريمة مركبة، صنفها الإسلام تحت حد الحرابة، وليس في باب الردة، وذلك عندما نزل في هؤلاء النفر قول الله ﷻ: ﴿إِنَّمَا جَزَاءُ الَّذِينَ يُحَارِبُونَ اللهَ وَرَسُولَهُ وَيَسْعَوْنَ فِي الأَرْضِ فَسَادًا أَنْ يُقَتَّلُوا أَوْ يُصَلَّبُوا أَوْ تُقَطَّعَ أَيْدِيهِمْ وَأَرْجُلُهُمْ مِنْ خِلاَفٍ أَوْ يُنْفَوْا مِنَ الأَرْضِ ذَلِكَ لَهُمْ خِزْيٌ فِي الدُّنْيَا وَلَهُمْ فِي الآخِرَةِ عَذَابٌ عَظِيمٌ ۞ إِلاَّ الَّذِينَ تَابُوا مِنْ قَبْلِ أَنْ تَقْدِرُوا عَلَيْهِمْ فَاعْلَمُوا أَنَّ اللهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾(المائدة:٣٣-٣٤).

ولأن هذا هو موقف السماحة الإسلامية من المخالفين في الاعتقاد، فلقد جاء حديث القرآن الكريم عند الإذن بالقتال والتحريض عليه دائمًا وأبدًا في سياق الحديث عن صدّ عدوان الذين اعتدوا على المؤمنين ففتنوهم في دينهم، وأخرجوهم من ديارهم، وظاهروا على إخراجهم من أوطانهم، لا لشيء إلا لإيمانهم بالإسلام ﴿أُذِنَ لِلَّذِينَ يُقَاتَلُونَ بِأَنَّهُمْ ظُلِمُوا وَإِنَّ اللهَ عَلَى نَصْرِهِمْ لَقَدِيرٌ ۞ الَّذِينَ أُخْرِجُوا مِنْ دِيَارِهِمْ بِغَيْرِ حَقٍّ إِلاَّ أَنْ يَقُولُوا رَبُّنَا اللهُ﴾(الحج:٣٩-٤٠). فحرية الدعوة والضمير، وحرية الوطن الإسلامي هما معيار "الولاء" و"البراء"، و"السلم" و"الحرب" بين المسلمين وغير المسلمين. وفي التقعيد لهذه القاعدة الكلية جاءت آيات القرآن الكريم: ﴿لاَ يَنْهَاكُمُ اللهُ عَنِ الَّذِينَ لَمْ يُقَاتِلُوكُمْ فِي الدِّينِ وَلَمْ يُخْرِجُوكُمْ مِنْ دِيَارِكُمْ أَنْ تَبَرُّوهُمْ وَتُقْسِطُوا إِلَيْهِمْ إِنَّ اللهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ ۞ إِنَّمَا يَنْهَاكُمُ اللهُ عَنِ الَّذِينَ قَاتَلُوكُمْ فِي الدِّينِ وَأَخْرَجُوكُمْ مِنْ دِيَارِكُمْ وَظَاهَرُوا عَلَى إِخْرَاجِكُمْ أَنْ تَوَلَّوْهُمْ وَمَنْ يَتَوَلَّهُمْ فَأُولَئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ﴾ (الممتحنة:٨-٩).

وفي التاريخ الإسلامي

وإذا كان المسلمون قد فتحوا في ثمانين عامًا أوسع مما فتح الرومان في ثمانية قرون، فإن كل معارك الفتوحات الإسلامية قد وقفت عند تحرير الشرق من قهر القوى الاستعمارية وخاصة الروم الذين استعبدوا الشرق وقهروه، ومن قبلهم الإغريق عشرة قرون من الإسكندر الأكبر في القرن الرابع قبل الميلاد وحتى هرقل في القرن السابع بعد الميلاد.

وقفت كل معارك الفتوحات الإسلامية، عند تحرير الشرق من هذا القهر السياسي والديني والثقافي والحضاري، ولم تحدث معركة واحدة بين الجيوش الإسلامية وبين أهل البلاد الشرقية التي شهدت معارك تلك الفتوحات. بل لقد حارب أهل تلك البلاد وساعدوا جيوش الفتوحات الإسلامية ضد الفرس والروم وهم على دياناتهم القديمة. حدث ذلك بمصر والشام والعراق.

وعندما تم تحرير هذه البلاد، تركت الدولة الإسلامية شعوب تلك البلاد وما يَدينون، حتى إن الذين دخلوا في الإسلام من أهل مصر والشام وفارس بعد قرن من الفتح لم يزيدوا على عشرين بالماءة من السكان.(٥) فكانت الدولة الإسلامية حارسة للأرض المحرَّرة من الروم المتربصين الذين ظلوا يجيّشون الجيوش لإعادة اختطاف الشرق حتى فتح القسطنطينية، كما ظلت هذه الدولة الإسلامية حارسة لحرّية الضمير والاعتقاد الديني، الذي سبق وقهره الرومان عشرة قرون.

ولقد شهد بهذه الحقيقة -حقيقة سماحة الإسلام مع ديانات شعوب البلاد التي دخلت في دولة الإسلام- التاريخُ والمؤرخون، وغير المسلمين منهم قبل المسلمين.

فهذا الفتح الإسلامي هو الذي أنقذ المسيحية الشرقية من الإبادة والزوال، حتى ليمكن أن نقول -دون مبالغة- إنّ بقاء هذه المسيحية الشرقية حتى الآن إنما هو هبَةُ الإسلام وسماحة الإسلام.

فعمرو بن العاص ﷺ هو الذي أمّن البطرك المصري "بنيامين" على حريته، وأعاده إلى شعبه بعد ثلاثة عشر عامًا من الهرب والاختفاء عن أعين الرومان.. وهو الذي حرر كنائس نصارى مصر وأدْيرتهم من الاغتصاب الروماني، لا ليجعلها مساجد، وإنما ليردها لأصحابها النصارى يتعبدون فيها بحرية، للمرة الأولى في تاريخ النصرانية المصرية. ومع تحرير الأرض والكنائس والأديرة حرر عمرو بن العاص ﷺ -لأنه مسلم- ضمائر الشعوب التي أدخلتها الفتوحات في دولة الإسلام، لأول مرة في تاريخ نصرانية تلك الشعوب بعد أن كان الرومان يقدمونهم طعامًا للنيران والأسود!..

وشهد شاهد من أهلها

وإذا كانت نجاة النصرانية الشرقية من الإبادة الرومانية هي الشاهد الماديّ الأصدق على حقيقة السماحة الإسلامية، فإن المؤرخين النصارى -من الشرق والغرب، القدماء والمحدثين- قد شهدوا هم أيضا لهذه السماحة الإسلامية.

ففي أقدم كتب التاريخ النصرانية حديث عن سماحة عمرو بن العاص ﷺ مع نصارى مصر، وكيف أن تحرير الإسلام لهم من قهر الرومان، وهزيمة الاستعمار الروماني بمصر على يد الجيش الإسلامي الفاتح إنما كان انتقامًا إلهيًا من ظلم الرومان لمصر واضطهادهم لنصارى مصر.. ففي تاريخ "يوحنا النقيوسي" -وهو معاصر للفتح وشاهد عليه-: "إن الله الذي يصون الحق لم يهمل العالم، وحكم على الظالمين، ولم يرحمهم لتجرّئهم عليه، وردهم إلى يد الإسماعيليين (العرب المسلمين) ثم نهض المسلمون وحازوا كل مدينة مصر.. وكان هرقل حزينًا.. وبسبب هزيمة الروم الذين كانوا في مدينة مصر، وبأمر الله الذي يأخذ أرواح حكّامهم مرض هرقل ومات.. وكان عمرو بن العاص ﷺ يقوى كل يوم في عمله، ويأخذ الضرائب التي حددها، ولم يأخذ شيئًا من مال الكنائس، ولم يرتكب شيئًا ما، سلبًا أو نهبًا، وحافَظ عليها (الكنائس) طوال الأيام".(٦)

إنها شهادة شاهد عيان نصراني على هذه السماحة الإسلامية التي تجسدت على أرض الواقع. ومتى؟ قبل أربعة عشر قرنًا من الزمان. وهي سماحة نابعة من الدين الإسلامي، وليست كحقوق المواطنة التي لم تعرفها المجتمعات العلمانية إلا على أنقاض الدين.

وبعدما استقبل عمرو بن العاص ﷺ البطرك القبطي "بنيامين"، وأمّنه على نفسه وكنائسه ورعيته وحرية عقيدته بل وطلب منه أن يدعو له، أخذ "بنيامين" في زيارة كنائسه وفي إعادة افتتاحها. وكان الناس يستقبلونه فرحين، مرددين العبارات التي تشهد على أن هذا الفتح الإسلامي إنما هو عقاب إلهي للرومان جزاء الظلم الذي أوقعوه بالنصارى المصريين.

ولقد عبّر الأنبا "بنيامين" عن الأمان الذي أحلّته سماحة الإسلام بمصر، على أنقاض القهر والاضطهاد اللذين مارسهما الرومان (النصارى) ضد نصارى مصر. فقال وهو يخطب في دير "مقاريوس": "لقد وجدتُ في الإسكندرية من النجاة والطمأنينة اللتين كنتُ أنشدهما، بعد الاضطهادات والمظالم التي قام بتمثيلها الظلمة المارقون".(٧)

تلك شهادات شهود العيان ورجال الدين النصارى تقول: إن الفتوحات الإسلامية كانت "الإنقاذ" لشعوب تلك البلاد ودينهم من القهر الروماني، وإن سماحة الإسلام كانت آية من آيات الله، انتقم الله بها من مظالم الرومان. حتى لقد اعتبروا مرض هرقل وموته -وزوال الإمبراطورية الشرقية للرومان- و"سيادة الإسلام" في مصر والشرق آية من آيات الله.

بل لقد زحف رهبان النصرانية المصرية من الأديرة والمغارات التي كانوا هاربين فيها من الاضطهاد الروماني.. زحفوا للقاء عمرو بن العاص ﷺ، حتى "ليُروى أنه خرج للقائه من أديرة وادي النطرون سبعون ألف راهب، بيد كل واحد عكاز، فسلموا عليه. وأنه كتب لهم كتابًا (بالأمان) هو عندهم".(٨)

وحتى يحافظ الأقباط على نعمة هذا التحرير وهذه السماحة الإسلامية، فلقد هبّوا عندما عاد الرومان إلى احتلال الإسكندرية سنة ٢٥ هـ / ٦٤٦م، في عهد الراشد الثالث عثمان بن عفان ﷺ، هبّوا إلى القتال مع الجيش المسلم ضد الرومان النصارى، وطلبوا من الخليفة إعادة عمرو بن العاص لقيادة المعركة. فعاد إلى مصر، واستخلص الإسكندرية ثانية من أيدي الرومان.

تلك هي السماحة الإسلامية.. كما تجلّت في القرآن الكريم.. وفي البيان النبوي للبلاغ القرآني.. وكما تجسدت في المواثيق الدستورية.. وفي الحياة العملية والواقع المعيش للدولة الإسلامية في العهد النبوي والخلافة الراشدة، وعبر تاريخ الإسلام والحضارة الإسلامية.. وكما شهدت بها المصادر التي كتبها المؤرخون الثقات من النصارى الشرقيين والغربيين.. القدماء منهم والمحدثين والمعاصرين، والذين تعمدنا الاعتماد على شهاداتهم هم وحدهم، دون شهادة المؤرخين المسلمين. وذلك عملاً بمنهاج ﴿وَشَهِدَ شَاهِدٌ مِنْ أَهْلِهَا﴾ على هذه السماحة الإسلامية، التي تفرّد بها الإسلام، والتي لا نظير لها خارج إطار الإسلام. ■

(*) كاتب ومفكر إسلامي / مصر.

الهوامش

(١) مجموعة الوثائق السياسية للعهد النبوي والخلافة الراشدة، جمع وتحقيق: د.محمد حميد الله الحيدرآبادي، القاهرة ١٩٥٦م، ص ١٧-٢١.

(٢) سبل الهدى والرشاد لمحمد بن يوسف بن صالح الشامي، ٦٤٢/٦.

(٣) الوثائق السياسية، د.محمد حميد الله، ص ٣٤٥-٣٤٦.

(٤) الوثائق السياسية، د.محمد حميد الله، ص ٣٤٥-٣٤٦.

(٥) المسيحيون واليهود في التاريخ الإسلامي العربي والتركي، فيليب فارج، يوسف كرباج، ترجمة: بشير السباعي، القاهرة ١٩٩٤م، ص ٢٥.

(٦) تاريخ مصر ليوحنا النقيوسي، القاهرة ٢٠٠٠م، ص ٢٠١-٢٠٢.

(٧) تاريخ مصر ليوحنا النقيوسي، ص ٢٢٠.

(٨) تاريخ مصر في العهد البيزنطي، ص ١٩٤.



﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللهَ سَخَّرَ لَكُمْ مَا فِي الأَرْضِ وَالْفُلْكَ تَجْرِي فِي الْبَحْرِ بِأَمْرِهِ وَيُمْسِكُ السَّمَاءَ أَنْ تَقَعَ عَلَى الأَرْضِ إِلاَّ بِإِذْنِهِ إِنَّ اللهَ بِالنَّاسِ لَرَءُوفٌ رَحِيمٌ﴾(الحج ٦٥).

السماء والحفظ الإلهي

أ.د. زغلول النجار*

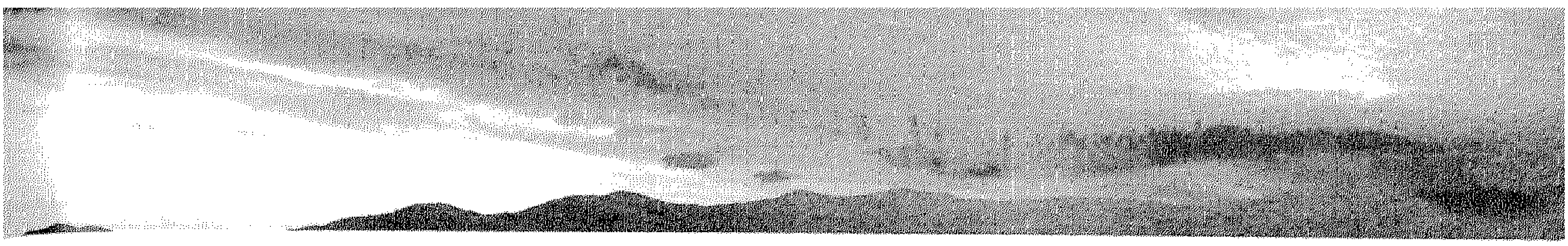
تتضمن هذه الآية الكريمة معاني علمية دقيقة، فالسماء -وهي كل ما علانا- تبدأ بغلاف الأرض الهوائي؛ فالفضاء، فأجرام السماء، المشع منها بذاته مثل النجوم، فالمجموعات النجمية والسدم والمجرّات، وغير المشع بذاته كالأقمار والكواكب والمذنبات والنيازك والجزيئات والذرات والغبار الكوني.. وجميع هذه العوالم تحتفظ بكيانها وتماسكها تحت تأثير عدة قوى أهمها الجاذبية والقوى الناشئة عن الحركة. ولقد تجلّت مشيئة الله ورأفته بالعباد بأن هيّأ للأرض غلافا جوّيا يحتوي على العناصر الغازيّة التي لا غنى للحياة عنها، كما أنه يحمي سكّان الأرض من الإشعاعات الكونية، وأسراب الشهب، والنيازك التي تهيم في الفضاء والتي عندما تدنو من الأرض تحترق في جوها العلوي (احتراقا جزئيا أو كليا) قبل أن تصل إلي السطح (العلوي للأرض).

ومن إرادته تعالى ورحمته أنّ سقوط النيازك التي تدمّر سطح الأرض نادر الحدوث جدًا، وهو يتم في الأماكن الخالية من السكان، وهذه الظاهرة تدل على عناية الله تعالى ورحمته بعباده. وفي هذا تأييد وتصديق لقوله تعالى: ﴿وَيُمْسِكُ السَّمَاءَ أَنْ تَقَعَ عَلَى الأَرْضِ إِلاَّ بِإِذْنِهِ إِنَّ اللهَ بِالنَّاسِ لَرَءُوفٌ رَحِيمٌ﴾(الحج:٦٥) أي ويمسك بقدرته السماء كي لا تقع علي الأرض فيهلك من فيها، ﴿إِلاَّ بِإِذْنِهِ﴾ أي إلا إذا شاء، وذلك عند قيام الساعة.

مع القمر

إن أقرب أجرام السماء إلينا هو القمر الذي تقدر كتلته بنحو سبعين مليون مليون مليون طنّ، ويدور في مدار حول الأرض يقدر طوله بنحو ٢.٤ مليون كيلومتر بسرعة متوسطة تقدر بنحو كيلومتر واحد في الثانية، وهي نفس سرعة دورانه حول محوره، ولذلك يُرى منه وجه واحد لأهل الأرض.

ومدار القمر حول الأرض، وكذلك مدار الأرض حول الشمس بيضاويّ الشكل (أي إنه على شكل قطع ناقص). ومن قوانين الحركة في المدار البيضاوي (أو مدار القطع الناقص) أنّ



السرعة المحيطية فيه تخضع لقانون تكافؤ المساحات مع الزمن؛ وهذا القانون يقتضي احتلاف مقدار السرعة على طول المحيط، فتزداد نسبيا بالاقتراب النسبي من الأرض، وتزداد بزيادتها قوة الطرد المركزيّ على القمر فتدفعه بعيدا عن الأرض، وإلا اصطدم القمر بالأرض فدمّرها ودمّرته. وتقلّ السرعة المحيطية للقمر كلّما بعُد نسبيّا عن الأرض، فتقلّ القوة الطاردة المركزية على القمر لئلا يخرج عن نطاق جاذبية الأرض، فينطلق إلى فسحة السماء أو تبتلعه الشمس، وأعلى مقدار لسرعة سبح القمر في مداره حول الأرض يقدّر بما قيمته ٣٨٨٨ كيلومترا في الساعة؛ وأقل مقدار لتلك السرعة يقدر بنحو ٣٤٨٣ كيلومترا في الساعة، وهذا يجعل السرعة المتوسطة لسبح القمر في مداره حول الأرض تقدر بنحو ٣٦٧٥ كيلومترا في الساعة.

ونفس القانون (قانون الجري في القطع الناقص) ينطبق على سبح الأرض حول الشمس، وسبح باقي أجرام السماء كل في مداره حول الجرم الأكبر، أو التجمع الأكبر.

ويؤكد علماء الفلك أن أبعد كواكب مجموعتنا الشمسية يبعد عن الشمس بمسافة متوسطة تقدّر بنحو ستة آلاف مليون كيلومتر، وأنّ مجرتنا تحوي قرابة تريليون نجم.

كذلك يحصي علماء الفلك أن بالجزء المدرك من الكون أكثر من مائتي بليون مجرة تتفاوت في أشكالها وأحجامها وكتلها وسرعة دوران كل منها حول محورها، وسرعة جريها في مدارها، وسرعة تباعدها عنا وعن بعضها البعض (كما تتباين في أعداد نجومها) وفي مراحل تطور تلك النجوم، فمن المجرات البيضاويُّ والحلزونيُّ وغير ذلك من الاشكال؛ ومنها المجرات العملاقة التي يصل قطر الواحدة منها إلى ٧٥٠ ألف سنة ضوئية، وتصل كتلتها إلى تريليون مرة قدر كتلة الشمس، ومنها المجرات القزمة التي يكاد يتعدّى طول قطرها ٣,٢٠٠ سنة ضوئية، وتكاد كتلتها تتعدى مليون مرة قدر كتلة الشمس؛ وتقدر كتلة مجرّتنا (سكة التبانة أو درب اللبانة أو الطريق اللبني) بنحو ٢٣٠ بليون مرة قدر كتلة شمسنا (المقدرة بنحو ألفي مليون مليون مليون مليون طنّ).

وتتجمع المجرات في وحدات تضم العشرات منها تُعرف باسم المجموعات المحلية، وتتجمع تلك في وحدات أكبر تضم المئات إلى عشرات الآلاف من المجرات وتعرف باسم التجمعات المجرّية، وتلتقي هذه في تجمعات أكبر تعرف باسم المجموعات المحلية العظمى التي تلتقي بدورها في التجمعات المجرية العظمى، ثم تجمعات التجمعات المجرية العظمى، إلى نهاية لا يعلمها إلا الله.

وفي كل الأحوال يدور الصغير حول الكبير في مدار بيضاوي على هيئة قطع ناقص، تحكمه في ذلك قوانين الحركة في مثل هذا المدار.

والتجمع المجري الأعظم الذي تنتمي إليه مجرتنا يضم مائة من التجمعات المجرية ينتظمها قرص يبلغ قطره مئة مليون من السنين الضوئية وسمكه عشر ذلك (وهي نفس أبعاد مجرتنا مضروبا في ألف).

وهذه الأعداد المذهلة مما قد علمنا من أجرام الجزء المدرك من السماء الدنيا لا تمثل إلا نحو عشرة بالمئة من مجموع كتلة ذلك الجزء المدرك، وهي ممسوكة بشدة إلى بعضها البعض، وإلا لزالت وانهارت.. ولذلك قال ربنا تبارك وتعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللهَ سَخَّرَ لَكُمْ مَا فِي الأَرْضِ وَالْفُلْكَ تَجْرِي فِي الْبَحْرِ بِأَمْرِهِ وَيُمْسِكُ السَّمَاءَ أَنْ تَقَعَ عَلَى الأَرْضِ إِلاَّ بِإِذْنِهِ إِنَّ اللهَ بِالنَّاسِ لَرَءُوفٌ رَحِيمٌ﴾(الحج:٦٥). وقال عزّ من قائل: ﴿إِنَّ اللهَ يُمْسِكُ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضَ أَنْ تَزُولاَ وَلَئِنْ زَالَتَا إِنْ أَمْسَكَهُمَا مِنْ أَحَدٍ مِنْ بَعْدِهِ إِنَّهُ كَانَ حَلِيمًا غَفُورًا﴾(فاطر:٤١). وقال ﷻ: ﴿اللهُ الَّذِي رَفَعَ السَّمَاوَاتِ بِغَيْرِ عَمَدٍ تَرَوْنَهَا ثُمَّ اسْتَوَى عَلَى الْعَرْشِ وَسَخَّرَ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ كُلٌّ يَجْرِي لأَجَلٍ مُسَمًّى﴾(الرعد:٢). وقال سبحانه: ﴿أَفَلاَ يَنْظُرُونَ إِلَى الإِبِلِ كَيْفَ خُلِقَتْ ۞ وَإِلَى السَّمَاءِ كَيْفَ رُفِعَتْ﴾(الغاشية:١٧-١٨).

وقد تمكنت العلوم المكتسبة من التعرف على عدد من القوى التي تمسك بأجرام السماء على النحو التالي:

١- قوة الجاذبية

وهي أضعف القوى المعروفة على المدى القصير، ولكن نظرا لطبيعتها التراكمية فإنها تتزايد باستمرار على المسافات الطويلة حتى تصبح القوة الرابطة لكل أجزاء السماوات والأرض بإرادة الخالق ﷻ حيث تمسك بمختلف أجرام السماء الدنيا على الأقل، وتجمّعاتها من الكواكب وأقمارها، والنجوم وتوابعها، وتجمعاتها على كل المستويات إلى نهاية لا يعلمها إلا الله.. ولولا هذا الرباط المحكم الذي أوجده الخالق ﷻ لانفرط عقد الكون.



ويفترض وجود قوة الجاذبية على هيئة جسيمات خاصة في داخل الذرة لم تكتشف بعد، واقترح لها اسم الجسيم الجاذب، أو الجرافيتون الذي يعتقد بأنه يتحرك بسرعة الضوء، ليربط بين مختلف أجزاء الكون حسب قانون محكم دقيق تزداد فيه قوة الجاذبية بزيادة الكتلة للجرمين المتجاذبين، وتتناقص بزيادة المسافة الفاصلة بينهما. وقد لعبت الجاذبية دورا مهمّا في تكثيف الدخان الكوني الذي نشأ عن واقعة الانفجار العظيم، على هيئة كل صور المادة الموجودة في السماء الدنيا (على أقلّ تقدير)، كما لعبت ولا تزال تلعب دورا مهما في إمساك الأرض بغلافَيها الغازي والمائي، وبكل صور الحياة والهيئات الصخرية من فوقها.

٢- القوة النووية الشديدة

وهي القوة التي تقوم بربط الجسيمات الأولية للمادة في داخل نواة الذرة، والتي تعمل على التحام نوى الذرّات الخفيفة مع بعضها البعض لتكون سلاسل من نوى الذرات الأثقل في عمليات الاندماج النووي. وهي أشد أنواع القوى المعروفة لنا على الأبعاد المتناهية الصغر، ولكنها تضعف باستمرار عبر المسافات الطويلة. وعلى ذلك فدَورها يكاد يكون محصورا في داخل نوى الذرات، وبين تلك النوى ومثيلاتها. وتحمل هذه القوة على جسيمات تسمّى باسم القوة اللاحمة أو الجليون.

٣- القوة الذرية الضعيفة

وتحمل على جسيمات تسمى باسم اليوزونات، وهي إمّا سالبة أو عديمة الشحنة. وتربط الإليكترونات الدائرة في فلك النواة. وهي لضعفها تؤدّي إلى تفكك تلك الجسيمات الأولية للمادة كما يحدث في تحلل العناصر المشعة.

٤- القوة الكهرومغناطيسية

وتحمل على هيئة فوتونات الطاقة أو ما يعرف باسم الكمّ الضوئي. وهذه الفوتونات تنطلق بسرعة الضوء لتؤثر على جميع الجسيمات التي تحمل شحنات كهربائية. ومن ثم فهي تؤدي إلى تكون الإشعاع الكهرومغناطيسي وتؤثر في جميع التفاعلات الكيميائية.

وكما تم توحيد قوّتي الكهرباء والمغناطيسية في قوة واحدة، يحاول العلماء جمع هذه القوة مع القوة الذرية الضعيفة، فيما يعرف باسم القوة الكهربائية الضعيفة، لأنه لا يمكن فصل هاتين القوتين في درجات الحرارة العليا.

وفي نظريات التوحيد الكبرى يحاول عدد من العلماء جمع القوة الكهربائية الضعيفة مع القوة النووية الشديدة في قوة كبرى واحدة، بل ضم تلك القوة الكبرى مع قوة الجاذبية فيما يسمى باسم "الجاذبية العظمى" التي تربط كل صور المادة في الكون اليوم، والتي يعتقد أنها كانت القوة الوحيدة السائدة في درجات الحرارة العليا عند بدء خلق الكون، ثم تمايزت إلى القوى الأربع المعروفة لنا اليوم والتي تعتبر وجوها أربعة لتلك القوة الكونية الواحدة التي تشهد لله تعالى بالوحدانية المطلقة فوق كل خلقه.

ومن هنا ظهرت نظرية الخيوط فائقة الدقة التي تفترض تكوّن اللبنات الأساسية للمادة من خيوط فائقة الدقة تلتفّ حول ذواتها فتبدو كما لو كانت نقاطا متناهية الضآلة في الحجم مشابهة بذلك شريط الحمض النووي في داخل نواة الخلية الحية الذي يتكدس على ذاته في حيز لا يزيد على الواحد من مليون من المليمتر المكعب ولكنه إذا فرد يبلغ طوله قرابة المترين يضمان ١٨,٦ بليون قاعدة كيميائية في ترتيب غاية في الإحكام وغاية في الإتقان. وتقترح نظرية الخيوط فائقة الدقة، وجودَ مادة خفية تتعامل مع المادة الظاهرة بواسطة قوة الجاذبية.

وهنا تتّضح روعة النص القرآني المعجز الذي نحن بصدده، والنصوص الأخرى المشابهة له في التعبير عن العديد من الحقائق العلمية التي لم يصل إليها إدراك الإنسان إلا بعد مجاهدة استغرقت آلاف العلماء وعشرات العقود حتى وصلوا إلى إدراك شيء منها في السنوات المتأخرة من القرن العشرين.

ووُرود تلك الحقائق في كتاب الله الذي أنزله بعلمه على خاتم أنبيائه ورسله ﷺ من قبل ألف وأربعمائة سنة، في مجتمع سادته أمّيّة القراءة والكتابة، وأمّية العلم لَما يقطع بالشهادة للقرآن الكريم بأنه لا يمكن أن يكون صناعة بشرية، بل هو كلام الله الخالق، ويشهد للنبي والرسول الخاتم الذي تلقاه بالنبوة وبالرسالة. ■

(*) أستاذ علوم الأرض ورئيس لجنة الإعجاز العلمي بالمجلس الأعلى للشؤون الإسلامية / مصر.

وباسمك أفتح الملكوت

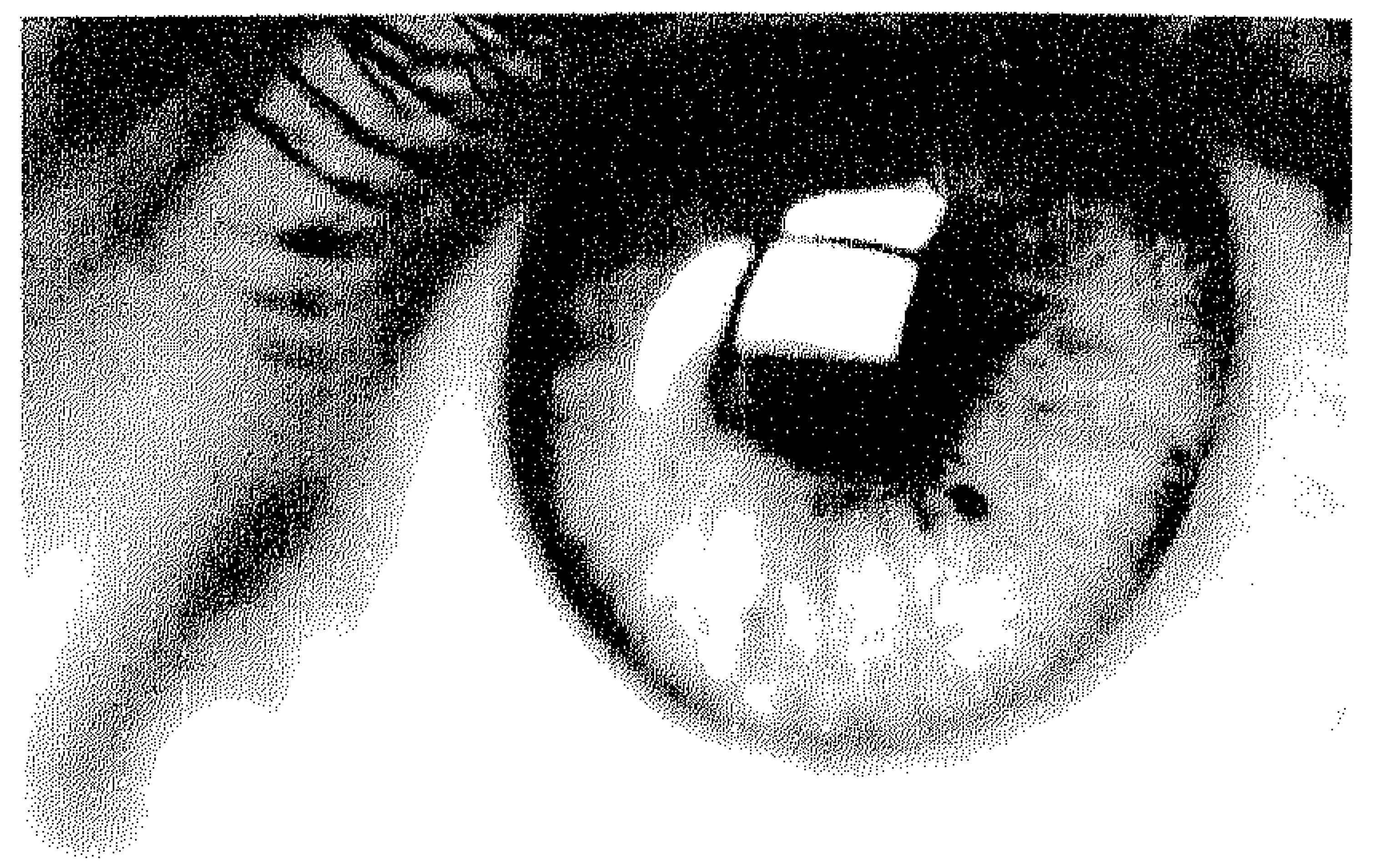
أ.د. حسن الأمراني (*)

يقرّبني من الرحمن،
هواك فكيف أجحده؟
يزمّلني،
يدثّرني،
وينشر لي بساط الحبّ والتقوى،
فكيف يدقّ بابي ثم أطرده؟!
وفي يمناه أطباق من السلوى،
وفي اليسرى أباريق الهوى الفتّان،
وظلّ وارفٌ فينان؟
أنا ما قلت:
"أوشك يا خليّ القلب أعبده"،
وكيف وجنّة المأوى،
حبيبي أننا في حضرة الرّحمنْ،
سويًا نسكب الآهات..
نعبده؟
يقرّبني نداؤك،
من جنان الخلْد والرضوانْ،
ويمنحني عطاياه،
فكيف يردّ هذا القلبُ،
ما أعطاه مولاه؟!
يُنصّبني حنانُك،
فوق عرش الحبّ سلطانًا،
تدور بأمره الأفلاكْ،
يُزيّنُ تاجيَ الذهبيّ نورُ سناكْ،
لسوف أغيظ باسمكِ،
ما يزخرفُ شاعر الطّاغوتْ،
وأجعل وجهك الوضّاحَ،
مفتاحًا إلى الملكوتْ،
فِدًى لوِشاحك الخفّاق،
كلَّ زخارف الدنيا،
تنزّل باسم خالقه،
على قلب الفتى وحيا،
أرشّ حروفك الخضراء باسم الله،
فوق مروج أحزاني،
وينطلق الحداءُ:
"الرائدُ الميمونُ لا يكذبْ"
فتغدو النونُ فُلكًا صاحبته الريحْ،
رخاءً نحو غايته،
وأهتف باسم منْ حلّى جبينك،
بالسّنا القدسيّ تجّاجا،
وأعطاك الهوى العذريّ وهّاجا..
وأعطاني،
وأعلى شأن هذا الطينْ،
وأكرمه ونعّمه،
وأسْبغَ من هواكِ،
على الظلال بهيَّ أردانٍ،
سأتلو سورة الرحمنْ،
﴿رَبُّ الْمَشْرِقَيْنِ وَرَبُّ الْمَغْرِبَيْنِ ۝ فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ﴾
وأهتف: يا حبيب القلب!
سبحان الذي أسرى بقلبَينا،
من المشرق والمغربْ،
ليلتقيا على عتبات مولانا (جل جلاله)،
نُسبّحه،
نقدّسه ونعبده،
ويغدو كلُّ حرف من قصائدنا،
فمًا للحمد والتّسبيحْ..

(*) رئيس تحرير مجلة المشكاة / المغرب.

اصبر لتنجح... وعلى الحق فاثبت...
فالصبر والثبات مفتاحا كلّ الأبواب الموصدة...
***

أنا عين عبد الله



أ.د. عرفان يلماز*

حبيبي عبد الله! إن القلب والمعدة والأمعاء والكلية والرئة والبنكرياس وغيرها من الأعضاء التي وُهبت لك وجُعلت أمانة لديك تبدو عليها آثار صنعة حكيمة وزخارف جميلة وفنّ راقٍ. كل هذه الأعضاء قد وُضعت في تجاويف جسدك. وأرجو ألا تحسب أنني أستهين بها وأستصغرها، فهي جميعًا أعضاء مذهلة وهي ضرورية لكي تستمر أنت في حياتك دون مشاكل ومنغصات. ولكن جميع علماء الفيزيولوجيا الحديثة وجميع أطباء القرون الوسطى المشهورين يذكرون أن الوظائف التي تؤدّيها هذه الأعضاء وظائف نباتية مما يعني أن الوظائف الأساسية التي تقوم بها هذه الأعضاء هي وظائف تقوم النباتات بأدائها أيضًا.

الوظائف النباتية والحيوانية للأعضاء

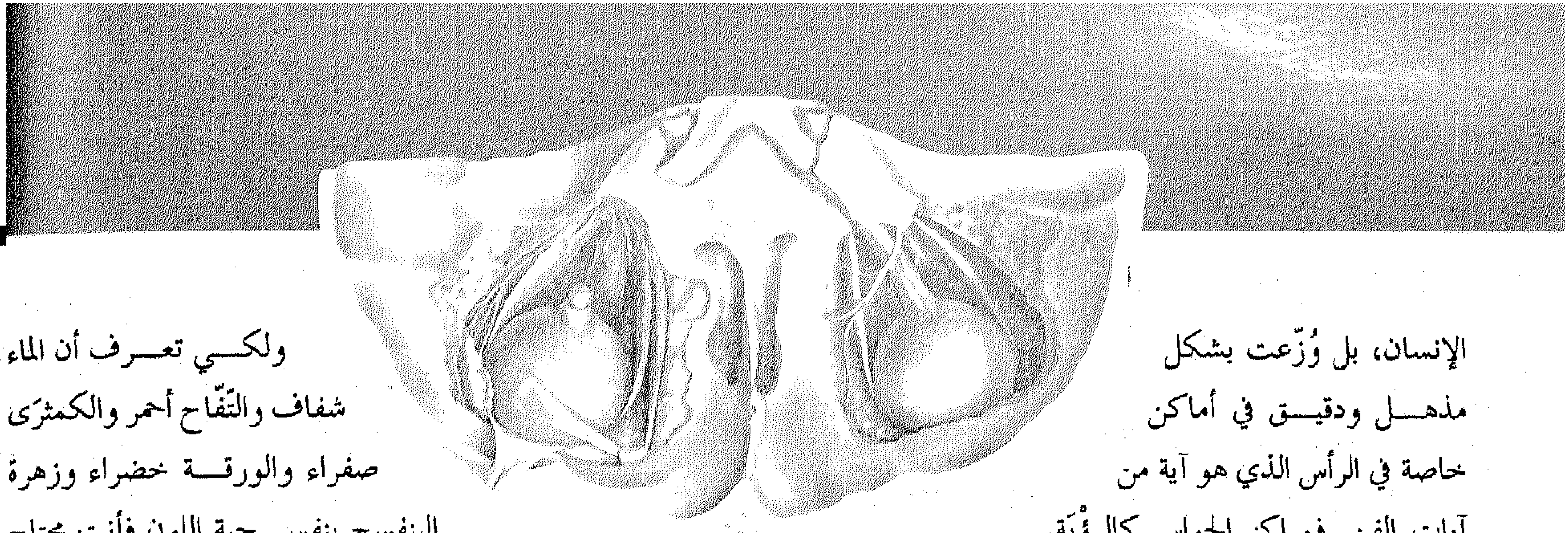
إن العمليات والوظائف الضرورية الأربع لبقاء الحياة واستمرارها -وهي عمليات الهضم والتنفّس والدوران وطرح الفضلات- عمليات ووظائف تقوم بها النباتات كذلك، ولكن بأعضاء مختلفة. وإذا غابت هذه الوظائف أو توقفت، ظهَر الموت؛ أي غاب ما نسميه بـ"جوهر الحياة". وبسبب هذه الوظائف المشتركة مع النباتات سميت هذه الوظائف التي تقوم بها هذه الأعضاء الموجودة في جسدك بـ"الوظائف النباتية". فإذا كانت هذه الوظائف الأربع تعمل، فمعنى هذا أن ذلك المخلوق الحي مستمر في الحياة، ولكن هذه الحياة في مستوى النبات. ولكي يمكن الارتقاء إلى مستوى الحياة الحيوانية يجب -علاوة على هذه الوظائف- وجود وظائف إضافية أخرى مثل الوظائف العصَبية والحركية والحسية.

فإذا لم تكن هذه الوظائف الحيوانية موجودة فإن ذلك الحي يكون في مرتبة النباتات. وأنت كثيرًا ما تقرأ في الصحف "أن الشخص الفلاني دخل في حياة نباتية"، والمقصود بالدخول في حياة نباتية أن ذلك الشخص فقَدَ الوظائف الحيوانية؛ أي فقَدَ أعضاء الحس والمنظومة العصبية وقابلية الحركة، وأصبح مثل النباتات عاجزًا عن الحركة، ولكن استمرت عمليات التنفّس والدوران والهضم وطرح الفضلات عنده في العمل دون شعور منه.

وهناك العديد من اللطائف الخاصة بالإنسان وَحده مثل العقل والإدراك والإرادة والشعور التي وهبت للإنسان علاوة على الوظائف الحيوانية. ولا يمكن إرجاع هذه اللطائف إلى عضو معيّن إرجاعًا تامًّا. فهي لطائف خاصة، وهي تظهر مرتبطة بالوظائف الحيوانية من جهة، وبروح الإنسان من جهة أخرى.

منطقة الرأس وخطورتها

ولا توجد مراكز الأعضاء التي تقوم بالوظائف الحيوانية في جذع



الإنسان، بل وُزِّعت بشكل مذهل ودقيق في أماكن خاصة في الرأس الذي هو آية من آيات الفن. فمراكز الحواس كالرؤية والسمع واللمس والتذوّق والشمّ، وكذلك مراكز السيطرة على الحركة موجودة في رأسك. وقد تم ربط هذه المراكز الموجودة في رأسك داخل الدماغ الذي يعد أعقد جهاز نعرفه في الكون، بجميع أعضاء الجسم الأخرى من خلال منظومة عصبية. لذلك فإن منطقة الرأس منطقة في غاية الأهمية. ولكونها تحمل تحفًا نفيسة وغالية فهي مثل دكان مملوء بالتحف والجوهَرات وهي منطقة حساسة ومعرضة للأذى وللخطر. فإن دخل مسمار في رجلك فستتألم، ولكنك تستطيع معالجة هذا الجرح دون أن تصاب بضرر كبير؛ أما إن دخل مسمار في أي عضو من أعضاء الرأس فسيولد نتائج خطيرة تتراوح بين فقد ذلك العضو لوظيفته والموت.

نعمة البصر

وكما فهمتَ من هذه المقدمة فإن منطقة الرأس هي مركز الوظائف الحيوانية ومركز اللطائف الإنسانية المقامة على هذه الوظائف. وعند ذكر منطقة الرأس أتبادر أنا (العين) إلى الذهن في الوهلة الأولى. لماذا؟ لأنك لا تستطيع قراءة هذه السطور أمامك إلا بواسطتي، ولا تستطيع رؤية ومشاهدة جميع أنواع الجمال التي يحفل بها الكون إلا بفضلي.

فلو لم يخلقني الله تعالى ويضعني في تجويفَين في الرأس لما عرفت شيئًا لا عن الضياء ولا عن الألوان ولا عن الأزهار والورود ولا عن جمال البلابل. ولولاي لخفت من المشي خطوة واحدة، لأنك لا تستطيع رؤية الأرض التي تطؤها. فعملية الرؤية لا تصل إلى دماغك ولا تتم إلا بواسطتي. ولو لم يخلقني الله تعالى ويخلق أعضاء الحس الأخرى لما وصلت الإنسانية إلى المستوى الحاليّ للعلم، بل لبقي دون هذا المستوى بكثير، لأن أهم طريق للحصول على العلم يمر من خلال الأعضاء السليمة للحواس، ولا يمكن الوصول إلى معرفة خصائص الأشياء وتسميتها إلا بواسطتها، حيث يمكن آنذاك تسجيلها وتثبيتها ووضعها في صيغ معادلات وقوانين.

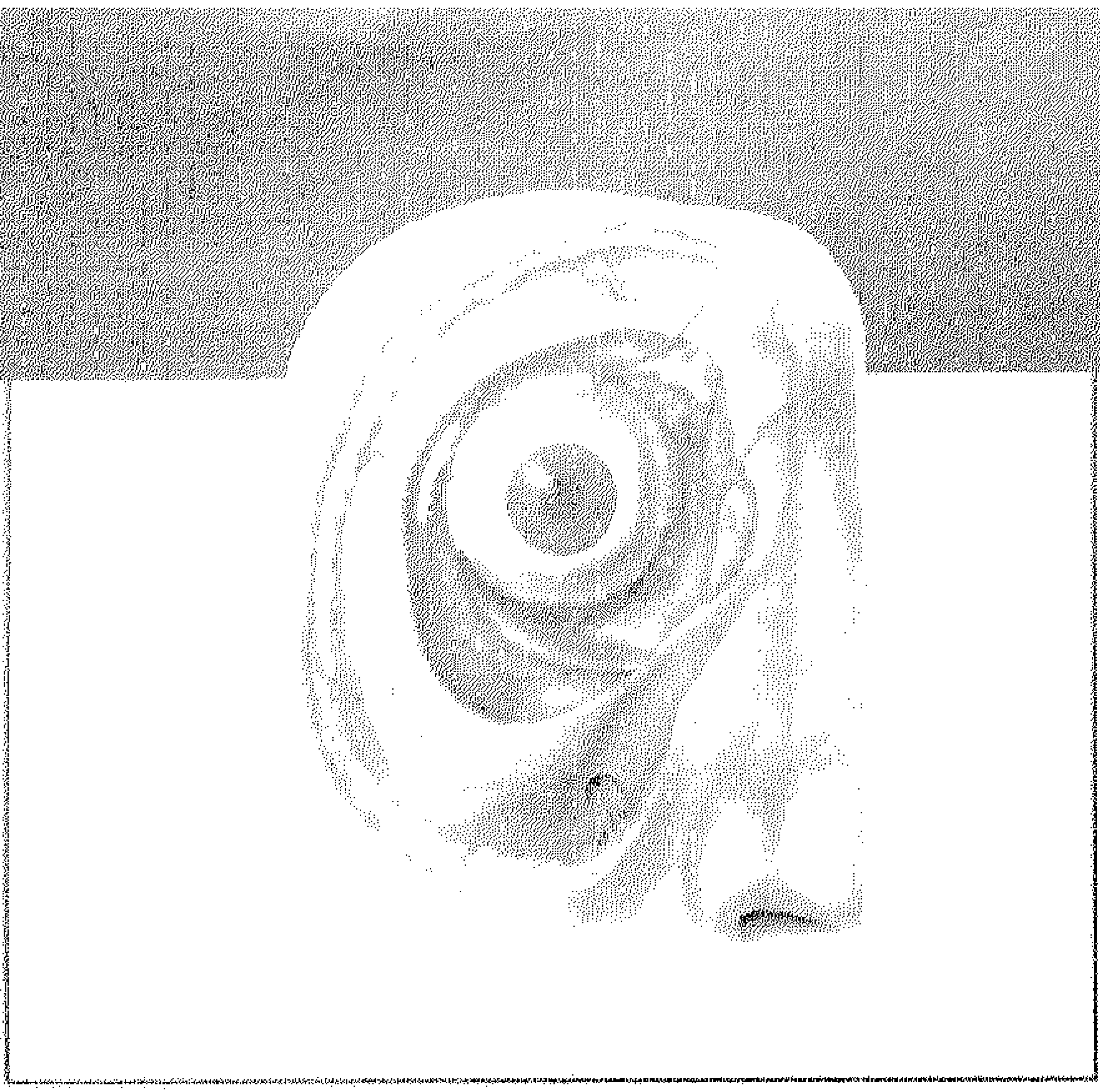
ولكي تعرف أن الماء شفاف والتّفّاح أحمر والكمثرى صفراء والورقة خضراء وزهرة البنفسج بنفسجية اللون فأنت محتاج إليّ أولاً. ولكي لا تصطدم بالجدران عند مشيك، ولكي تميز وجه أمّك وأبيك وأصدقائك فأنت في حاجة إليّ. أنت في حاجة إليّ عندما تأكل، وعندما تشرب وعندما تكتب وعندما تقرأ. وجرّب محاولة المشي في الطريق لمدة عشر ثوان وأنت مغمض العينين فماذا سيحدث آنذاك؟ سيكون الأمر صعباً عليك، أليس كذلك؟! سيلفّك الخوف من الاصطدام بشيء أو من السقوط.

يا عبد الله! تنفَّسْ عميقًا واشكر الله تعالى ربنا من أعماق قلبك وأنت مغمض العينين. فأنت لا تصبر على الظلام عشر ثوانٍ، فما بالك لو لم تعرف الضياء والنور طوال حياتك؟ وفكّر من حين لآخر في إخوانك الذين فقدوا نعمة البصر (بناءً على حِكَم عديدة وامتحانا لهم) واشكر ربك لأنه ما ابتلاك بمثل هذا، وتضرَّع إليه وادعه لكي يهب الصبر لهم لكونهم محرومين منّي.

بعض التفاصيل عني

والآن سأشرح بعض خواص بُنيتي ودقائقها... واعلم أن "جارلس داروِن" عندما شاهد بدائع صنع الله فيَّ أدرك أن من المستحيل ظهوري تلقائيا أو عن طريق المصادفات العشوائية في الطبيعة التي لا عقل لها ولا شعور، فما تمالك أن قال: "أكاد أُجَنُّ لأنني لا أستطيع تفسير ظهور مثل هذه الأعضاء المعقدة التركيب عن طريق المصادفات".

إن الجمال والدقة الموجودة في تركيبي لا نظير لها في أي آلة تصوير.. إن نظام عملي مرتبط بالخصائص التي وهبها الله ربنا للضوء وبقوانينه. لذا فقد درستم ودققتم كيفية عملي والمقاييس الموجودة عندي وقمتم بصنع أجهزة تصوير (كاميرات) بسيطة في البداية ثم نجحتم في صنع كاميرات جيدة وممتازة. ولكن إياكم ومقارنتي بهذه الكاميرات لأن النتيجة ستكون مخجلة لكم، فإن أفضل كاميراتكم تُعدُّ لعبة أطفال بسيطة بالنسبة إلي. وكانت الكاميرا الأولى البسيطة التي صنعتموها عبارة عن صندوق خشبي



مغطاة بقماش أسـود، وانقضت ١٧٥ سـنة على هذه الكاميرا البسـيطة، وعمل مئات وآلاف الفنيين والمهندسـين في تطوير الكاميرات طوال هذه السنوات. وأخيرًا نجحتم في صنع كاميرات جيدة ومعقدة مثل الكاميرات التلفزيونية والكاميرات الرقمية.

فهل يسـتطيع أحد أن يدّعي بأن تلك الكاميرا البسيطة التي كانت عبارة عن صندوق بسيط وعدسة تطورت تلقائيًا وانقلبت إلى كامـيرا حديثة متقدمة؟ وهل يمكـن عزو جهود المئات من العلماء الذين اسـتعملوا تراكمهم العلمي والفني لهذا الغرض إلى المصادفات العشوائية؟ وهل يمكن أن تتطور عيون حيوان رخوي أو عين حشرة إلى عين إنسان؟ طبعًا يستحيل هذا. ولكي تدرك هذا جيداً وتفهمه، عليك أن تملك بعض المعلومات عن تركيـبي وطبيعة بُنيتي على المستوى المجهري.

تركيبتي العجيبة

أنا على شـكل كرة وأملك بنية قويـة ومتينة ومرنة في الوقت نفسه ومركبة من طبقات عدة وأُشْـبِه كبسولة مسدودة. يبلغ قطري ٢.٥ سم. وفي قسمي الخارجي يوجد غشاء صلب أبيض (sclera). ويتـم حفظي ووقايتي بطبقة متينـة مركبة من ألياف رابطـة كثيفة. ويوجد تحت هذه الطبقة غلاف العين المشـيمي (choroid) وهو عبارة عن طبقة تنتشـر فيها كشـبكة الأوعية الدموية التي تقوم بتغذيتي. وفي نهاية القسم الداخلي توجد شبكية العين (retina) وهي من أهم مكوناتي. وتحتوي على المستقبلات الضوئية. وتحتـوي كل طبقة من هذه الطبقـات على طبقات فرعيـة ولكل منها وظيفة خاصة، ولكـني لا أريد هنا الدخول إلى التفاصيل.

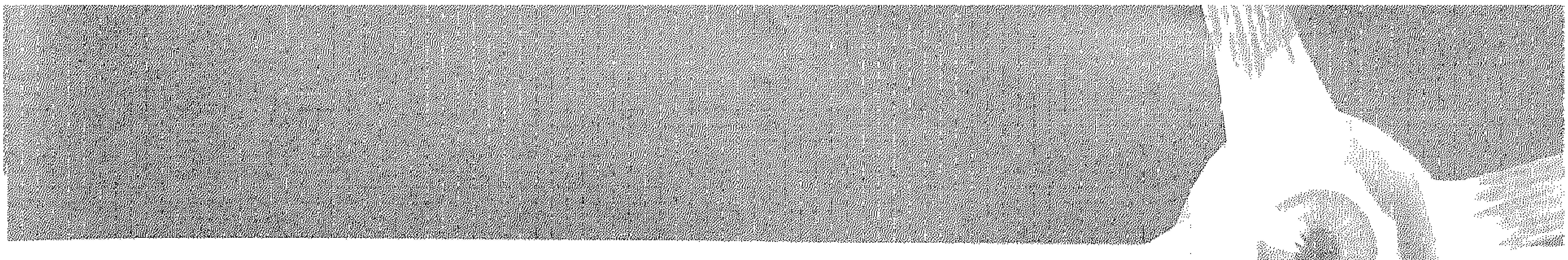
والطرف الأمامي من بُنيتي الكروية محدَّبة بعض الشـيء نحو الأمام والقسـم الوسَـطي من الطبقة الصلبة الموجودة في الأمام جُعل شـفافًا لكي يسمح بمرور الضوء من خلاله ويدعى القرنية (cornea). وتغلف طبقة من غشـاء مخاطـي (mucosa) الجزء الخارجي من هذا القسـم الشفاف لكي تمنع جفافي وهو غشاء مخاطي موجود في باطن الجفن.

ولكي يتيسـر جمع أشـعّة الضوء في بؤرة واحدة فقد زيد في تحدب القرنية في القسـم الأمامي منها أكثر من المناطق الأخرى.

ويوجد خلف هذا القسم المحدب غرفة صغيرة وعدسة تقوم بفصل هذا القسـم عن الغرفة الأصلية الكبيرة. وهناك سائل شفاف في الغرفة الصغيرة الموجودة بين العدسة والقرنية، يضفي عليّ اللون. وهو القزحية أو حدقة العين التي تبدو كثقب أسـود. وتتركب قزحية العين (الحدقة) من عضلة خاصة تستطيع التمدد والانكماش لتضبط بذلك مقدار الضوء الداخل من خلال الثقب الموجود في وسطها. فعند اشتداد الضوء تنكمش لمنع دخول ضوء أكثر من المطلوب للحيلولة دون تضرر الشـبكية وخدشها، وعندما يقل الضوء تنفتح وتتوسع للسـماح بمقدار أكثر من الضوء الساقط على الشبكية لكي تتم عملية الرؤية بشكل أفضل.

تقع الأربطة التي تمسـك بالعدسة في مكانها وكذلك العضلة -التي تقوم بتغيير شكل العدسة لتغيير مساحة البؤرة وضبطها- أمام الطبقة التي توجد فيها الشعيرات الدموية. وعندما تنظر إلى القريب أو إلى البعيد فإن أحد العوامل التي تضبط مسـافة البؤرة بشكل صحيح هو تغيير سمك العدسة، وتقوم بهذا العمل الأربطة الماسكة بالعدسة حيث تنكمش وتنبسط حسبما يتطلب الأمر.

وتوجد خلف العدسة الغرفة الكبيرة (الغرفة المظلمة) المملوءة بسائل حليـبي نصف شفاف. وبفضل كثافة السائل الزجاجي نصف الشفاف الذي يملأ هذه الغرفة وبفضل الضغط الذي يولده هذا السـائل يأخذ شـكلي الكرويُّ متانة وقوة أكثر. وتوجد في الطبقة الشـبكية خلف هذه الغرفـة المظلمة خلايا العُصيّات الحساسة للضوء وهي بشـكل أنابيب ومخاريط. وتسقط الصور التي يشكلها الضوء الداخل من خلال القرنية والعدسة -الموجودة في الأمام- بشـكل معكوس على الشبكية. وتوجد المستقبلات الضوئية (الخلايا الضوئية) بشـكل كثيـف في النُقرة أو الحفيرة



المركزية حيث تتشكل أوضح الصور هنا.

وتَشَكُّل صور الأشياء هنا لا يعني رؤية تلك الأشياء بعد، لأن إدراك الصور ومشاهدتها فعليًا لا تتم إلا بعد وصول هذه إلى المركز البصري في الدماغ، وإثارتها لمجموعة الخلايا الخاصة. ونحن نطلق اسم "الرؤية" على هذا الإحساس أو الإثارة المتولدة هناك.

إنّ سرعة التفاعلات الكيماوية والكهربائية التي تجري في هذه الخلايا نتيجة لتأثير الضوء سرعةٌ كبيرة جدًّا بحيث يندهش العقل منها. إنّ الإشارات الكهربائية المتولدة في خلايا المستقبلات الضوئية (نتيجة لتأثير الضوء) تنتقل بواسطة العصب البصري إلى الدماغ حيث تتم عملية الرؤية هناك. لذا فإنني أُعَدّ واسطةً فقط في عملية الرؤية.

التدابير المتخذة لحمايتي

ونظرًا لأنني عضو حساس لا أتحمل أي ضرر فقد حفظني الخالق ووضعني في تجويفين موجودين في جمجمتك؛ أي وضعني ضمن علبة صلبة وأمينة جدًّا، تتألف من الفك الأعلى، والعظم الوجني، والقسم الأسفل من العظم الجبهي، والعظم الدمعي، والعظم المصفوي (عظم تجويف الأنف)، والعظم الكُرواني. ولا تقتصر الإجراءات المتخذة لوقايتي على هذا فقط، فقد جهزني الخالق بجفنين؛ الجفن الأعلى والجفن الأسفل. وهما ينغلقان بشكل آلي عند ظهور أي خطر من جهتي الأمامية. وبفضل انفتاح جَفنيَّ وانغلاقهما في فترات معينة تتم عملية تنظيف طبقتي الشفافة الأمامية (القرنية). ويشبه هذا قيام منظفات الزجاجة الأمامية لسيارتكم بعملية التنظيف لها. وأجفاني ليست عبارة عن جلد اعتيادي ذي طيات، فهناك منظومة كبيرة من الغدد تقوم بترطيب القسم الداخلي للأشفار على الدوام وتدهينه ولصق ذرات التراب ببعضها وتنظيفها. وعندما تحزن وتتأثر كثيرًا تقوم الغدد الدمعية الموجودة بيني وبين الأنف بإفراز الدموع التي تملأ في بادئ الأمر كِيس الدموع، ثم تندفع بواسطة قناتين وتقوم بغسلي جيدًا. وعندما تبكي كثيرًا يقوم كيس الدموع بإرسال الدموع الفائضة عن طريق قناة ثالثة إلى الأنف، وهكذا يتم تنظيف هذه المنطقة كذلك.

وكلما زاد عدد أجزاء أي آلة أو جهاز كلما زاد احتمال عطبه. فإذا علمت أنني أتكوّن من عشرات الأجزاء، وكل جزء منها مكوّن من ملايين الخلايا، وهذه الأجزاء تكوّن منظومة تعمل بتلاؤم تام وبديع، علمت أنه من الممكن وقوع عطب في أي جزء من هذه الأجزاء احتمال وارد. ولكن خالقنا تعالى صاحبَ القدرة اللانهائية وضعنا في رؤوس الملايين من بني الإنسان لتنوير عالمهم دون أن يظهر أي عطب عندنا في أغلب الأحيان.

أحيانا تظهر بعض الأعطاب والأمراض عندنا لكي يرينا الله تعالى مقدار عجزنا وضعفنا. ولي نصيب أيضاً من هذه الأعطاب، ومن ذلك العطَب الذي يصيبني في موضوع انكسار الضوء وفي مجال رؤية البعيد أو القريب. وتستطيعون أنتم الآن تعديل هذه الأعطاب ببعض العدسات، ولكن من الصعب في معظم الأحيان شفاءُ أو علاج معظم الأعطاب التي تصاب بها خلايا مستقبلات الضوء.

ويجب أن يكون ضغط السائل الموجود في الغرفة الكبيرة متوازنًا أيضًا. فإن زاد هذا الضغط حصل صداع شديد ويطلق أطباؤكم على هذا اسم "كلوكوم". فإن فقدت العدسة شفافيتها فهذا يعني حصول "عتمة عدسة العين (cataract)". ثم هناك أمراض عديدة تصيبني من جراء الالتهابات التي تسببها بعض البكتريات والفيروسات، ولكن خلايا منظومة الدفاع الموجودة عندك تستطيع -بإذن الله تعالى- التغلب على هذه الجراثيم. وهناك أمراض أخرى مثل مرض السكري ونقص فيتامين A، تؤثر فيّ تأثيرًا سلبيًّا وتصلب الشرايين، وتؤدي إلى الإخلال في وظائفي، ويؤدي هذا إلى مشاكل كبيرة لك في حياتك.

يا عبد الله! أستطيع أن أحدثك عن نفسي بصفحات وصفحات، ولكني لا أود أن أشغل ذهنك بمعلومات عميقة في التشريح والفيزيولوجيا؛ لأن غايتي الرئيسية هي إظهار الصنعة الإلهية البديعة الموجودة في كل عضو من أعضائك، وإظهار حكمته الدقيقة، ومساعدتك في الوصول إلى مستوى من الفكر بحيث تقوم بشكره وحمده. وما أسعدني إن نجحت في هذا!.. ■

(*) جامعة ٩ أيلول / تركيا. الترجمة عن التركية: أورخان محمد علي.

وا ابناه...
لتكن أنت الفداء!

نور الدين صواش*

جلس على مقعده وراء المكتب وراح يفكّر بالشخصيات التي سيدعوها إلى حفل التخرّج للمدرسة؛ ينبغي أن يكون حفلا رائعًا يترك في نفوس الحاضرين أثرا لا يُنسى.. شرع بكتابة أسماء المدعوين على بطاقات الدعوة: "السيد رئيس الوزراء الموقر"، ثم كتب أسماء أصحاب المناصب الأخرى واحدًا بعد الآخر. ليس بالأمد البعيد، بل منذ بضعة أشهر فقط فاز تلاميذه بميدالية ذهبية في مسابقة الفيزياء الدولية. منح نفسه فترة استراحة قصيرة ليشرب كوبا من الشاي، وما لبث أن اجتذبته أطياف من الذكريات.

كان قد تخرّج من الجامعة بتقدير ممتاز. كم كانت أمُّه سعيدة بنجاحه، أمه التي انتظرت ذلك اليوم بفارغ الصبر منذ سنوات ليقف إلى جانبها ويخفف عنها آلام الوحدة. فمنذ أن ارتحل والدُه إلى الرفيق الأعلى وهي تعاني من قسوة الوحدة في منزل ولدها الأكبر بسبب المعاملة السيئة التي تلْقاها من زوجته. لكنها دفنت آلامها في قلبها واعتصمت بالصبر الجميل منتظرة اليوم الذي تزول فيه كل هذه المآسي. "ولدي مثال للوفاء، وسوف أزوّجه بفتاة جميلة ومؤدَّبة، بعدها نعيش معا حياة سعيدة هنيئة". كل شيء سيتغير بعودة ولدها. لن تتساقط براعم الأمل مبكرا بعد اليوم، ولن تنحدر دموع الحزن من عينيها، ولن تناديها نجوم الغربة في السماء كل ليلة، ولن تسمع النغمات الحزينة في المذياع. ستهبّ نسمات السعادة والأمل على ربوع قلبها بعد قدوم ولدها العزيز.

....

سمع دقات خفيفة على الباب. ها هو الشاي قد حضر. ارتشف رشفة. ثم عاد إلى ذكرياته الحبيبة، ارتسمت صورة أمه أمام عينيه. كم كانت سعيدة عندما قدّم لها شهادة الجامعة، ترقرقت عيناها بدموع الفرَح، وضمّته إلى صدرها بحنان "أخيرا عدت إلى أمك يا ولدي".

لكن كيف يقول لها إنه عُيّن مدرسا في إحدى دول آسيا الوسطى التركيّة. ألن يحطم ذلك كل أحلامها؟ عليه أن يخبرها، ولكن كيف؟ وهل يحتمل قلبُها الرقيق المجروح؟ إلا أنه لا بد من ذلك. لا بد أن يُقنع والدته بأنّ آلاف الأعين تنتظره في تلك الأراضي البعيدة. عليه أن يسرع لسَقي تلك البقاع الظامئة مع من ذهبوا قبله من الشباب التربويين الأطهار.. عليه أن يذهب حاملا معه رسالة الرحمة والحب ليغرسها في القلوب الضائعة الحائرة... عليه أن يذهب حاملا معه القلَم والكتاب والإيمان والفضيلة. لا بد من تلبية نداء "الأستاذ المربّي" الذي تشبَّع بأفكاره النبيلة. كم سكب "الأستاذ المربّي" من الدموع من أجل أن يبعث الروح من جديد في تلك الأراضي الميتة، وكم



أُغمي عليه وهو يدعو إلى الهجرة لنشر نور الحياة في تلك الديار المظلمة. لا بدّ من الهجرة... ألم يهاجر أصحاب رسول الله ﷺ إلى أرجاء العالم لنَفْس الغاية النبيلة؟!

استغرق في تفكيره ثلاثة أيام. كيف يقول ذلك لأمه يا تُرى؟ حاول مرّات ومرات، ولكن بدون جدوى. الأيام مرّت بسرعة وموعد السفر أصبح وشيكا. غدًا يسافر إلى إسطنبول ومنها إلى آسيا الوسطى. جلس إلى جانبها برفق، ونظر إليها بحنان مشوب بشيء من القلَق. أحسّت بأنّ شيئا خطيرا سيقوله، أطرق إلى الأرض وقد اغرَورقت عيناه بالدموع وعلقت كلماته في حلقه، ثم ارتمى في حجرها مجهشا بالبكاء "أمي الحبيبة، يا أعزّ إنسان في الوجود...أُمّاه..." رفع رأسه ونظر إليها مليا ثم تمتم بعبارات متقطّعة "عليّ أن أذهب يا أماه... عليّ أن أذهب إلى آسيا الوسطى..."

لم يستطع أن يقول سوى هذه الكلمات... خيّم على الغرفة صمت كئيب، بدَت الأم مذهولة غير مصدقة... لكن بعد لحظات صحَت من ذهولها، وربّتت على كتفه بحنان وسط دموع ساخنة تنحدر على خدّيها. كانت "صَبريّة هَانم" من الذين يعرفون معنى الرسالة التي يؤديها ولدها ورفاقه. فقالت وهي تمسح دموعها "صَحِبتْك السلامة يا ولدي، وسأصبر على فراقك وعلى إساءة زوجة أخيك، فاطمئنّ بالاً".

في المساء الذي ودعت فلذة كبدها إلى إسطنبول سكبت دموعا غزيرة. كانت قد جهزت حقيبته بنفسها، وأعدت له شيئا من الطعام ليأكله أثناء الطريق. لقد تركها وديعة عند الله وليس عند زوجة أخيه. ظلّت تُلوّح له يدها حتى غاب في الأفق البعيد.

وفي صباح اليوم التالي وقبل أن يركب الطائرة اتصل بها لآخر مرة. كانت تبكي... لكن من الفرح هذه المرة "اذهب يا بني رافقتك السلامة، لقد حدَث شيء لا يصدق! هذا الصباح جاءتني زوجةُ أخيك وارتمت بين يدي باكية تعتذر إليّ وتطلب مني السماح: أرجوكِ سامحيني يا أمي سامحيني... قالت أتاها الليلة الحبيبُ المصطفى ﷺ في المنام وحذّرها بشأني وطلب منها ألا تُحزنني... فلا تقلق بشأني يا بنيّ، اذهب صحبَتك السلامة..."

....

وبعد بضع سنوات عاد لزيارة أمه فزوّجته من فتاة تناسبه وتُسعده. قالت "حسبي أن رأيتُك سعيدًا يا ولدي.. ولكن إذا رزقكما الله ولدًا فلا تَحرماني من رؤيته، لأن قلبي لن يصبر على فراقكما وفراق حفيدي بعد الآن". وفي العام التالي جاؤوا لزيارتها وقد بلغ الطفل شهرين من العمر.

مضت الأيام بسرعة... بأفراحها ومآسيها... قضى أعواما طويلة في البلاد التي اعتبرها وطنه الثاني... تعلّم في هذه الأراضي النائية معنى الحياة، ومعنى خدمة الإنسانية، ومعنى غاية الوجود، ومعنى العمل لكسب مرضاة الخالق سبحانه؛ أحبّ الناس في الله وخفق قلبه لله.. وبعد أن أصبح مديرًا عمل بجدّ، وسهر على تعليم تلاميذه وتربيتهم. لقد كانوا كل شيء بالنسبة له في الحياة، فنال ثقة أهل البلد، وحصلت مدرسته على جوائز عديدة... تنفّس الصعداء... "الحمد لله، كل ذلك من فضل ربّي".

كان التلاميذ يلعبون بمرَح في ساحة المدرسة وأصواتهم الجميلة تملأ الفضاء. ولكن... ما لتلك الأصوات المرحة تحولت فجأة إلى صرخات مدوية!..

سمع طرَقات قلقةً على الباب مع صوت مذعور لتلميذ خائف "أستاذ!.. النجدة!.." انتفض من مكانه، "أستاذ!.. أستاذ!.. أحد التلاميذ... سقط من الطابق الثاني!..."

أظلم العالم في عينيه، شعر كأن الدنيا تدور، انحلت مفاصله وكاد يقع على الأرض، لكنه استجمع قواه وخرج من الغرفة مسرعا يرتطم بجدران المدرسة. أخذت هواجس الرحمة والقلق تصطرع في داخله. "يا إلهي!.. كيف حدث ذلك؟ ماذا لو مات الولد!؟ يا رب، لقد وثق الناس بنا ومنحونا حبهم وائتمنونا على أبنائهم فلم نخيّب ظنهم. ماذا لو أصاب المسكين مكروه؟ ماذا أفعل لو أوقفوا عمل المدرسة بحجة الإهمال... يا رب احفظنا..."

أسرع ناحية المكان الذي تجمّع فيه التلاميذ. وما إن رأوه حتى أفسحوا له الطريق، وإذا ببَدَن صغير وقد ارتمى على الأرض دون حَراك وسط دماء تسيل من رأسه. مدّ يديه المرتعشتين ببطء، واحتضن الطفل بحنان، ورفع رأسه بعناية... فعرفه... "الحمد لله!.."

انحدرت الدموع على خدّيه بلا إرادة منه.. شعر كأن شيئا ما يعتصر قلبه... ضمّه إلى صدره بحرقة وتَمتم بألم "ولدي!.." نعم... إنه ابنه وفلذة كبده... جس نبضات قلبه الصغير ولكن...

في تلك اللحظة كانت صبرية هانم مشغولة بخياطة ثوب لحفيدها المحبوب... لم تكن تعرف بأفول نجمه المتلألئ في سماء الغربة... كانت شاردة الذهن... وفجأة وخزت الإبرة إصبعها فصرخت بأنين صامت "آه...". ■

(*) كاتب تركي. قصة حقيقية وقعت في إحدى دول آسيا الوسطى. وهي مترجمة عن مجلة "سيزينتي" التركية بتصرف.



الاغتراب الحضاري لدى المسلم المعاصر

أديب إبراهيم الدباغ*

لا أودُّ أن أخدش حسّ التفاؤل والأمل في نفوسكم الكريمة بحديثي عن غربة المسلم واغترابه الحضاري في هذا العصر العصي الذي يبدو وكأنه مدسوس على الدنيا في حين غِرّة من أهلها، ليهدم بمعاوله كلّ منارات الهدى، ويطمس على كلّ ما يمكن للجنس البشري أنْ يسترشد به من معالم الحق والعدل والخير؛ فالتفاؤل والأمل هو ينبوع قوة المسلمين، وسرُّ استعصائهم على ضربات الزمن الوجيعة. وهو النور المسكوب من وجدان الغيب ليشرق بسنائه فوق ليالي اليأس والحزن والألم، لذا أبادر فأقول: إنّ اغتراب المسلم وغربته ليسا دليلَ ضعفٍ دائما، وليسا دليل رغبة بالانكفاء والانفصام عن عالمه المحيط به، بل هما -في كثير من الأحيان- علامة على الصحة والقوة، وآية على الائتلاف الحميم بينه وبين إيمانه وعقيدته.

فكلما زادت غربة المسلم، وعمق اغترابه، كان ذلك إشارة إلى حياة إيمانية سليمة، إن كانت اليوم مستعصية على الفهم بعض الشيء، إلاّ أنها توشك غدًا أن تصبح الروح الذي يحيي مَواتَ الإنسان، ويوقظ قلبه وينير عقله.

والغربة في روح المسلم وعقله، إنما هي نتاج مصارعته للتمزق والانشطار بين الوجود والنفي، بين وجوده الإيماني وعدمية هذا الوجود، بين سلبيات الدنيا ولاشيئيتها وإيجابيات الآخرة ويقين حقيقتها. وهي ثمرة ذلك القلق الممض بين أن يكون أو ألاّ يكون، وهو -بعد ذلك- قلق يخصب الفكر، ويغني الوجود، ويفتح منافذ الخيال والوجدان على حقيقة الإنسان، وهو قمين بنفوس المتميزين من رجال العقيدة والإيمان.

هاجس مقيم

وتظل هذه الغربة هاجس المسلم الدائم، وقدره وقضاؤه، يلازمه ولا ينفك عنه ما دام يدرج فوق أديم هذه الأرض... صحيح أنه

يسكن الأرض ويدرج فوقها، إلاّ أنها ليست المحطّ الذي يمكن أن يحط رحاله عليها إلى الأبد، ولا المكان الذي تنتهي إليه آماله، ولا الوطن الذي يملأ عليه خياله، أو يحتوي عظمة روحه.

إنه يمكن أن يملك الأرض، وأن يعمرها، ويحكمها بالعدل، ويقيم فوقها شرع الله... غير أنها تبقى مُلك يمينه؛ يأخذها إلى الأقوم والأحسن والأفضل بينما يظلّ قلبه مغلقًا دونها، فلا يخلد إليها، ولا يطمئن لها، بل يحسُّ بالوحشة والخوف منها، لأنها موطن الفناء والموت والعدم. ففي كيانه، وفي كلّ ذرّة من دمه نزوع إلى عالم هو الوجود كله، ووطن هو الخلود كله، وأرض هي الحياة كلها، لا يتهددها موت ولا يكتنفها زوال أو عدم... إنه ذلك العالم القدسي الذي أُبعدَ عنه أبوه آدم عليه السلام. ومحال أن تُستَنْبَتَ بذرة الموت والعدم فوق أرض الحياة والوجود، فنزل الأرض أُمَّ الموت والعدم، لأنّ شبيهَ الشيءِ منجذبٌ إليه، فصارت الأرض دار غربته، ووطن وحشته، لا يسكن إليها ولا يطمئن بها.

وقد أورث أبناءه من خاصية ذاته مرارة الغربة، ولوعة الحنين إلى الوطن الأول. فذاكرة الإنسان الباطنة وحافظة وجدانه، تخفي في تلافيفها جذور ذلك الاغتراب الآدمي، وأصول ذلك النزوع إلى عالم الأب الأول. ومما يثير الدهشة أن يغدو تَوق "آدم" عليه السلام وزوجه إلى البقاء الدائم والخلود الأبدي -وهما في دار الخلود والبقاء- المنفذ الذي نفذ منه الشيطان إليهما بوسوسته: ﴿مَا نَهَاكُمَا رَبُّكُمَا عَنْ هَذِهِ الشَّجَرَةِ إِلاَّ أَنْ تَكُونَا مَلَكَيْنِ أَوْ تَكُونَا مِنَ الْخَالِدِينَ﴾(الأعراف:٢٠)، مما يدل على أنّ الآدمية مفطورة على هذا التّوق، وأنّ في أصل خلقة كلّ آدمي نزوعًا عارمًا إلى البقاء والخلود، ففعلت وسوسته معهما فعلها، ففقدا بذلك سر الخلود، وسُلبا إكسير الحياة.

التوق إلى الخلود

إن ما يعتلج في نفوسنا من توق إلى الخلود والبقاء، ونفور من الموت والعدم، دليل على وجود البقاء والخلود خارج عالمنا -أكبر من كل دليل وأعظمه- لأن الانسان -كما هو معلوم ومشهود- لا يشتاق إلى عدم لا وجود له، ولا يرتبط معه بسبب من الأسباب. وسيظلّ القلق الحادّ يعتور "النفس الإنسانية" ويؤرّق وجودها، بسبب ذلك الإحساس المبهم بالوحشة، والشعور الغامض بالاغتراب في هذا العالم. وهو حسٌّ عميق الغور في النفوس لا يسهُل الخلاص منه أو الانفكاك عنه، لأنه يشكل جانبًا مهمًّا من جوانب الوجدان البشري. غير أن الشعور بالاغتراب الفكري والروحي وعلى الرغم مما يخلفه من آلام وأحزان، يشكل عامل تحريك لقوى النفس، وتنشيط لخلايا الفكر والروح. فالإبداعات الفكرية الإيمانية مدينة إلى هذا الشعور بالاغتراب عند المبدعين، وإحساسهم بأنهم غرباء في أوطانهم وأزمانهم بغربة ما يملكون من فكر لم تتهيأ الأوطان والأزمان بعدُ لقبوله والتواصل معه، إلاّ أنهم يمضون في أداء رسالتهم على أمل أنْ يأتي ذلك الزمان الذي يُحسِنُ الفهم عنهم والتلقي منهم.

الشتاء الحضاري

غير أنه ومنذ دخول العالم الإسلامي شتاءَه الحضاري القاسي، وعقل المسلم لم يعُد عقلاً فاعلاً؛ إنه في حالة استرخاء دائم، ولم يعد العقل المستوفز المشدود اليقظ، والمستعد دومًا لالتقاط إيماءات الكون، واستلام إشارات الطبيعة.. لم يعد عقلاً مغامرًا يستهويه المجهول، ويفتنه المستور، حتى لكأنه يخاف الحقائق ويستهولها. فيتحاشاها ويهرب منها، وبذا لم تعد حياتنا الإيمانية وحدها مهدّدة باليبس والنضوب، بل غدا إدراكنا نفسه مهددًا بالشلل والجمود.

إن دم إسلامنا الطيب الطهور يسري في عروقنا، ولكنه دم خامل هامد، به حاجة إلى "عملية فصد" لكي يتجدد ويستعيد حيويته ونشاطه. ولن يقدم على عملية الفصد هذه إلا واحد من مفكرينا، يمتشق قلمه، ويجعل منه مشرطًا حادًّا يغوص عميقًا في عقل المسلم وروحه ليحرك سكونهما، ويستنفر همودهما، وهذه السبيل التي لا مناص منها لكي تنشط عقولنا، وتتجدد قلوبنا وأرواحنا. وهذا المفكر آتٍ لا أشك بمجيئه، لأن زلزالاً فكريًّا رهيبًا يعصف اليوم بعقول مفكري هذه الأمة، ويوشك أن ينجلي عن منجم فكري عظيم يمدُّ المسلمين بكل نفيس وجديد من الأفكار.

الدين والحضارات

فمن المعلوم أنّ "الدين" هو الذي يقود مسيرة الحضارات في فجرها الصادق، ويهيمن عليها، ويعمر ضميرها، ويرسي قواعد سلوكياتها وأخلاقياتها، حتى إذا قويت واشتدّ ساعدها وعلا ضحاها ودلفت إلى ظهيرة عمرها، جاء دور العقل لينشر سلطانه فوقها، ويستحكم فيها، ويتحكم بها، وربما صار وثنًا يتعبّدُ له الناس من دون الله تعالى.

وقد فجّر الغرب اليوم حسّيّات الإنسان إلى آخر مداها

وطاقاتها، وفجّر مع ذلك حسّ الأرض والسماء، وأثار خفايا الأرض بترابها ومائها وهوائها، فإذا بها تتزلزل وتلقي بأثقالها وأسرارها بين يديه لتبتني من عناصرها مدنية الحسّ المفتقرة في بعض جوانبها إلى دفء الروح، وشفافية الدين والإيمان.

حضارة الإسلام

أما حضارة الإسلام فهي وحدة واحدة، تبدأ بالعقيدة وتنتهي إليها. فالروح والعقل والحسُّ يتداخل بعضها في بعض، وتمشي جميعها جنبًا إلى جنب في جميع مراحل تطورها. فالسمع والبصر والفؤاد والعقل، كلُّ هؤلاء موضع الخطاب القرآني، وهي مناط التكليف في الدنيا، والمسؤولية في الآخرة. فحضارة هذا شأنها وإن غابت اليوم عن حسّ المسلم، ولم يعد يتلمس وجودها في واقع حياته، إلاّ أنها حاضرة قائمة في عقله وروحه، شاخصة في خياله وذاكرته، لم تقفر سماء ذاته من خفقات نجومها، وومضات كواكبها. وعلى الرغم من أنه يعاني اليتم، وكوالح الاغتراب، إلا أنه سيبقى متشبثًا بها، متعلقًا بأمراسها. ولن يغريه أحد بالتنكر لها، والانسلاخ عنها، لأنها تمتزج بأجزاء نفسه، وتجري في مجاري روحه.

قوة الفكر

إن قوة الفكر الذي تحتاجه هذه الحضارة لتنهض من جديد، قمين بعقول عظماء الرجال ممن عانوا الاغتراب الفكري، ووقفوا على مشارف الخطر المحدق بها من خلال البنى الفكرية التقليدية المكرورة، والتي فقدت وهجها وحرارة تأثيرها. فظهور هذا الفكر بين ظهرانَينا هو منعطف تاريخي مهم في حياة الإسلام والمسلمين، والسعي إليه فرضُ عين على كل صاحب قلم يحرص على وجودها كما يحرص على ماء عينيه. وإذا كنّا نصرُّ على أن يكون للفكر الإسلامي مكان مرموق في عالم اليوم، فلا بُدّ أن ينجم من بين فحول مفكرينا فكر قوي جديد يتسم بالأصالة والعنفوان، ليغزوَ كيان المسلم المعاصر وهو على أبواب العقود المتبقية من القرن الخامس عشر الهجري.

إنّ التجديد الذي تحدث عنه الأثر النبوي الشريف والقائل بأنّ الله تعالى يبعث على رأس كل مئة سنة مَن يجدد هذا الدين، هو أحد مفاخر ديننا، بل أعظم مفاخره. ففيه إشارة إلى ذلك الالتحام الأبدي بين ديننا وصيرورتَي الزمان والمكان، وهو سرُّ خلود هذا الدين وبقائه ما بقي الزمان والمكان.

خصائص هذا الفكر

وليس من همي هنا أن أستطرد في وصف هذا الفكر وما ينبغي أن يكون عليه، إلاّ أنني لا أرى ما يمنع من الإشارة إلى بعض ما نريده منه، لاسيما وإنه قد وَمَضَت منه ومضاتٌ عند البعض من مفكري الإسلام وعلمائه المحدثين؛ فنريده كالعاصفة المنطلقة من سجنها يوقظ هاجع الأفكار في جميع الأذهان، ويعصف بقبور العقول ومدافن النفوس لتقذف بأموات أفكارها وظلمات أرواحها بعيدًا عنها... ونرجوه فكرًا كونيًّا شموليًّا يربط ربطا محكمًا بين حقائق الدنيا وحقائق الآخرة، ويصل ما بين قلب الكون وقلب الإنسان... ونتمناه حارًّا دافقا يهدر بالأفكار كما تهدر شلاّلات الطبيعة، ليس فيه برودة "الأكاديمية" وجفافها، ولا ضبابية الإنشائية وتمويماتها، وإنما هو مزيج من فيض الروح ودفقه، ووقدة القلب وضرامه، وحرارة العقل وجلاله. إنه باختصار فكر قرآني يمنح الإنسان القدرة على فضّ أختام العالم، وحلّ لُغز الوجود، وتمزيق ما تحجبتْ به الحياة من قُمُط النواميس والسنن وقوانين الأسباب والمسببات؛ فيأخذ بيده مخترقًا مفازات هذه الحجب ليوقفه بين يدي خالقه وبارئه، تاركًا العوالم كلها وراء ظهره في عبودية خالصة مخلصة لرب العالمين.

محمد ﷺ الهادي والدليل


والله ﷻ قد دلّ على وجوده بجموع هائلة من الآيات الآفاقية والأنفسية. إلاّ أنّ أعظم آياته، وأكثرها ظهورًا، وأبهرها إعجازًا بعد القرآن الكريم، إنما هو سيدنا محمد ﷺ، بصفاء جوهره، وكريم عنصره، وعظم خلقه. فهو المعنى الجليل الذي انتُدِبَت البشرية إلى فهمه، وهو القلم الذي علّمَ الإنسانَ ما لم يعلم من معاني الإيمان والتوحيد، ووضع النقاط المضيئة فوق حروف الوجود لكي يمكن قراءته والتعرّف على معناه ومغزاه. فما من قلم في يد مسلم إلاّ وهو يستمدّ فكره من هذا النبي الأمي عليه أفضل الصلاة والسلام، ويتعلم منه، ويسترشد به، لأنه مرآة القرآن الكبرى، يعكس على العالم أفكاره وآياته ومعانيه عبرَ حركة الزمن المتجدد. وهو ﷺ بين الأنبياء والرسل أعظم مجدديهم، وأكثرهم نجاحًا فيما انتدبوا له من مهام؛ فقد جَدّد ما رثّ من تعاليمهم، وخَلِق من أفكارهم، وحُرِّف من رسالاتهم، وهو الذي أحيا عقيدة التوحيد الخالص وبعثها من رمسها، وأناط بها خلاص الجنس البشري من الشقاء الأبدي.

فالاسلام -قرآنًا وسنّة- وإن كان قد نسخ شرائع ما قبله، إلاّ أنه -بحد ذاته- تجديد لأصول هذه الشرائع وأساسياتها التي هي محور كل دين إلهي. فالتجديد إذن قد بدأ في تاريخنا بنبيّنا محمد ﷺ ولا ينبغي أن يتوقف في أمته إلى أن يرث الله الأرض ومَن عليها.

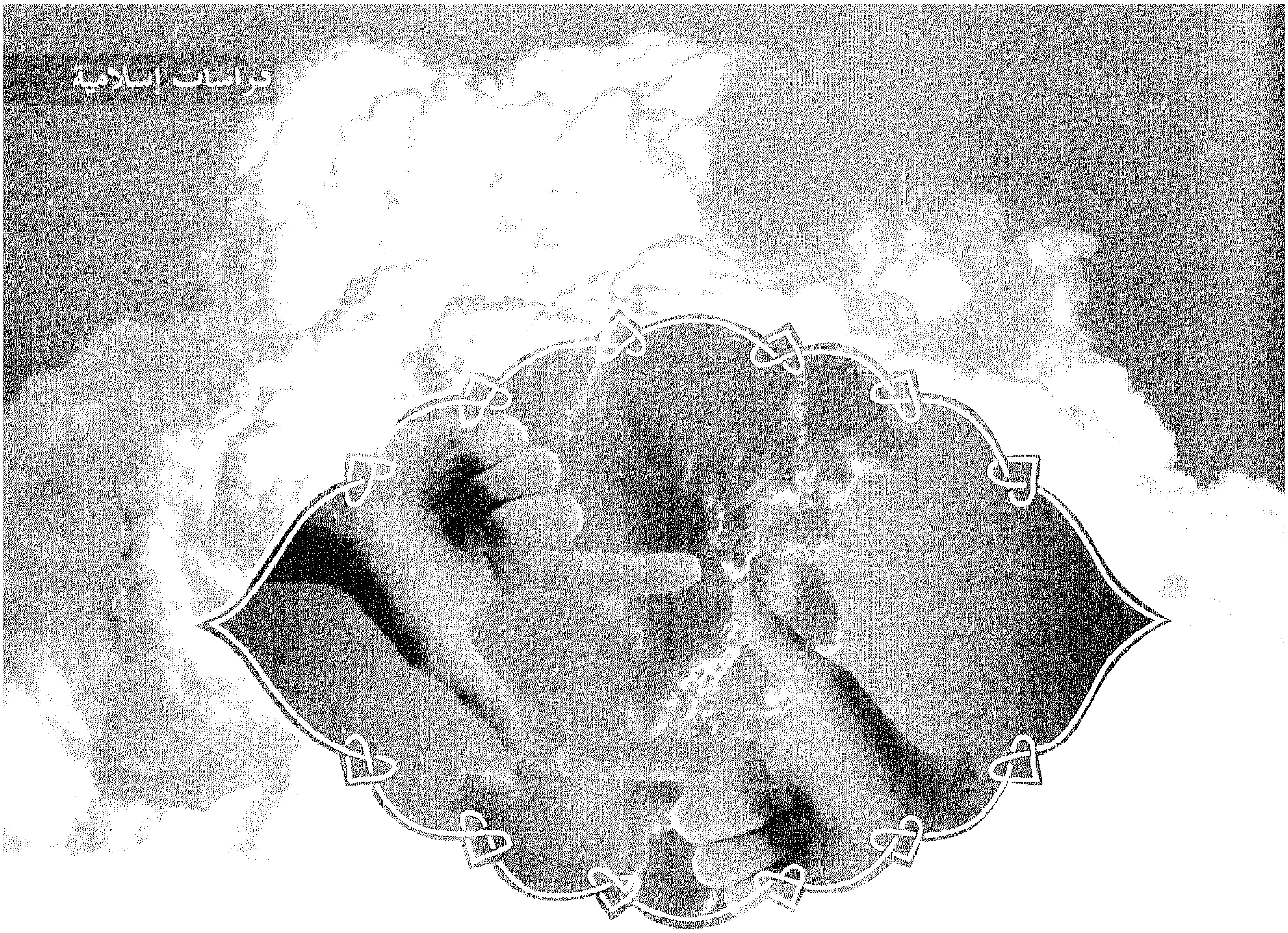
الجامدون الخائفون

وكل ما هو غير مطروق، ولا مألوف من الأشياء والأفكار الجديدة يتوجس منه الجامدون خيفة، وكلُّ مجدِّدٍ غريبٌ في قومه ووطنه، منكر بينهم لا يكادون يفقهون عنه أو يسمعون منه. وقد عاش رسولنا الكريم عليه أفضل الصلاة والتسليم غريبًا في قومه بمكة ثلاث عشرة سنة، لأنه جاءهم بما لم يألفوا أو يعرفوا من الدين والإيمان. ومن هنا بات المسلم رهين غربتين، غربة مكانية حسّية ورثها عن جَده آدم عليه السلام، وغربة فكرية إيمانية ينزع فيه إليها عِرْقٌ روحي تمتدُّ جذوره عميقًا إلى غربة رسوله المكية الأولى، وبين طوايا هاتين الغربتين في وجدان المسلم، تتشكل بصمت قواه الروحية، وتستكمل شخصيته عناصر تفردها وتميزها، ليصبح من بعدُ نوعًا إنسانيًّا متفردًا قبالة الكم البشري العادي. وهو وإن كان غريبًا في نظر هذا الكم ولغزًا مبهمًا لا يعرف كيف يفسره ويفهمه، غير أنه مع ذلك يحسُّ بأنه يضرب بعِرقٍ في كل نفسٍ، ويَمُتُّ بصلة إلى كل قلب، وربما رأى فيه تكفيرًا واعتذارًا عن تخلفه وعجزه عن التفرد والتميز.

فهو غريب لكنه مستطاب الغربة، بعيد لكنه أقرب ما يكون من الأرواح الحبيسة المعذّبة في سجون أجسامها، وأسمع ما يكون إلى أنين الإنسان وصراخه المفجع في دياجير الضلال، وأندى ما يكون على النفوس العطشى في بَلاقِع الهوى الرهيب، وهو حاسّة الأمة السادسة التي تتلمس من خلالها دربها إلى الصراط المستقيم، وهو بُعدُها الرابع الذي تنفذ من خلاله إلى أغوار روحها المِوار بخوالج الإيمان الدفينة، وهو عقلها الذي يفكر لها إذا ما اعتلّ عقلها، وداءت نفسها. كلُّ ذلك في إطار من جمال الروح، وجلال الفكر، وهيبة النبل والطهر، حتى لكأنه بصفاته هذه أثقل من أن تتحمله طينة الأرض، وأوسع من أن تحتويه دنيا الناس، وأشدّ تماسكا وقوة من أن يجرفه زَبدُ سيل العالم. ■



(*) كاتب وأديب / العراق.



جمالية التفكر الإيماني

أ.د. فريد الأنصاري*

من أسرار هذا الدين ولطائفه أن باب عقيدته هو التفكر. قال عز وجل في مخاطبة المنكرين عبر رسوله الكريم: ﴿قُلْ إِنَّمَا أَعِظُكُمْ بِوَاحِدَةٍ أَنْ تَقُومُوا لِلَّهِ مَثْنَى وَفُرَادَى ثُمَّ تَتَفَكَّرُوا﴾(سبأ:٤٦). آية في غاية الجمال والسمو. وإني أشهد أني مذ ذقتها وجدت أن بها بحرا من الأسرار التربوية لا يعلم مداه إلا الله. وإن لها لذوقا وجدانيا خاصا.

التفكر

أرأيت كيف أن الله تعالى يخاطب هؤلاء، بالقيام له، والتفرغ لشأنه، قبل الإيمان به؟ وذلك حتى يمكنهم من الوصول إلى حقيقة الإسلام، هذا الدين الذي هم له منكرون. وقد شرط الله عليهم شرطا في كيفية القيام له: وهو الخلوة به وحده سبحانه. والعدد الوارد في الآية: ﴿مَثْنَى وَفُرَادَى﴾ على حقيقته، إذ ليس هناك في السياق ما يصرفه عن هذه الحقيقة. لكن لماذا التنصيص على الفردانية، أو الثنائية، بالضبط؟ لماذا كان ذلك شرطا لتوقيع "التفكر"؟ إنه أمر عجيب.

العقل آلة تلتقط الحقائق، وتعقلها، ولكنها لا تتخذ القرار. وإنما الذي يتخذ القرار هو القلب بمعناه القرآني الخاص: ﴿أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ الْقُرْآنَ أَمْ عَلَى قُلُوبٍ أَقْفَالُهَا﴾(محمد:٢٤)، ومنه قوله تعالى: ﴿لَهُمْ قُلُوبٌ لَا يَفْقَهُونَ بِهَا﴾(الأعراف:١٧٩). فإذا كان القلب محجوبا بحجب المادة والكثرة عجز عن الوصول إلى ما يعرضه عليه العقل من صور معقولات. فلا يتخذ القرار المناسب في الوقت المناسب. ومن هنا كان جوهر التفكر في القرآن قلبيا. ولذلك فقد وجدناه ينتج عنه شعور قلبي هو الخوف نظرا لرهبة القلب مما يحلله له العقل ويعرضه عليه من صور. وذلك نحو

ما في الآية السابقة من سورة سبأ، إذ قال سبحانه في تتمتها: ﴿مَا بِصَاحِبِكُمْ مِنْ جِنَّةٍ إِنْ هُوَ إِلاَّ نَذِيرٌ لَكُمْ بَيْنَ يَدَيْ عَذَابٍ شَدِيدٍ﴾(سبأ:٤٦)، وأظهر منه آية التفكر في سورة آل عمران: ﴿وَيَتَفَكَّرُونَ فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ هَذَا بَاطِلاً سُبْحَانَكَ فَقِنَا عَذَابَ النَّارِ﴾(آل عمران:١٩١). إنه شعور الوجدان بهول الحقيقة وعظمتها، ولذلك قلت "إن التفكر فعل وجداني في العمق".

وهو لذلك لا يقع من الناس إلا آحادا، وإن حكي عنهم بضمير الجماعة، كما في الآية الأخيرة، فإنما المقصود أنه يحصل ذلك منهم فرادى لا مجتمعين، كما يدل عليه أول الآية: ﴿الَّذِينَ يَذْكُرُونَ اللهَ قِيَامًا وَقُعُودًا وَعَلَى جُنُوبِهِمْ وَيَتَفَكَّرُونَ فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ﴾(آل عمران:١٩١). فهذه صور تحيل على الناس وهم في شؤونهم الخاصة، بين منازلهم وأفرشتهم ونومهم وقيامهم. وأغلب ذلك كله أحوال فردية. والآية الأولى ﴿قُلْ إِنَّمَا أَعِظُكُمْ بِوَاحِدَةٍ أَنْ تَقُومُوا للهِ مَثْنَى وَفُرَادَى ثُمَّ تَتَفَكَّرُوا﴾(سبأ:٤٦) نص في فردانية فعل التفكر. أما الثنائية "مثنى" فهي ملحقة من حيث الفائدة بالفردانية. والمثنى في العربية ملحق بالمفرد. وإنما يبدأ الجمع في اللغة بالثلاثة. ثم إن التفكر بين اثنين "نجوى"، وهي أشبه ما تكون بتحديث الفرد نفسه. أما فائدة ذلك فهي أن التفرغ لله عز وجل في خلوة، لا يكدر صفوها عليك أحد من الخلق، يتيح للقلب أن يتفاعل في صفاء مع معطيات الفكر، ويتواجد متلذذا بمواجيد الشعور بمعية الله، وحقائق الكون الكبرى. ومثل ذلك لا يحصل في لغط النقاش الجماعي، وضوضاء الجدل المتعدد.

رفيق النجوى

نعم رفيق النجوى، وهو الثاني (مَثْنَى)، يكون معك على موجدة واحدة في التأمل، وتبادل المشاعر والمواجيد. تماما كما كان النبي ﷺ يخلو لربه فردا، أو مع صاحبه أبي بكر الصديق ﷺ أحيانا، أو غيره من الصحابة الكرام. فإذن تكون أبواب القلب أكثر انفتاحا لتقبل ما يلقى عليها من واردات الحب، والشوق، والمعرفة الربانية.

ومما يزيد هذه الآية دقة فيما نحن فيه التعبير بـ"ثم" التي تفيد الترتيب. فكأنه تعالى جعل شكل التفكر ﴿مَثْنَى وَفُرَادَى﴾ هو الكفيل وحده بنجاح عملية التفكر، ولذلك قال سبحانه: ﴿ثُمَّ تَتَفَكَّرُوا﴾.

﴿قُلْ إِنَّمَا أَعِظُكُمْ بِوَاحِدَةٍ﴾ فعل واحد لا ثاني له، كفيل بأن يقود الإنسان إلى الحقيقة: التفكر. هل خلوتَ بنفسك يوما؟ أو ناجيت رفيقا لك في أمر الكون والحياة والمصير؟ عندما يمتد الفكر سائحا في أقاصي الكون يضل ويتيه. وأنّى له أن يهتدي في دروب ومسالك ينتهي الخيال ولا تنتهي منافذها؟! إذن يرجع الفكر منكسرا عاجزا. وإن ذلك لعمري هو الإسلام؛ الخضوع للعظمة المطلقة فوق الزمان والمكان، والاعتراف بالقصور عن الإحاطة؛ ولا بأي طرف من أطرافها. ﴿مَا تَرَى فِي خَلْقِ الرَّحْمَنِ مِنْ تَفَاوُتٍ فَارْجِعِ الْبَصَرَ هَلْ تَرَى مِنْ فُطُورٍ ۞ ثُمَّ ارْجِعِ الْبَصَرَ كَرَّتَيْنِ يَنْقَلِبْ إِلَيْكَ الْبَصَرُ خَاسِئًا وَهُوَ حَسِيرٌ﴾(الملك:٣-٤). الرجوع إلى الصف الآدمي للانضمام إلى سلك "العادة الطبيعية"، رجوع في العمق إلى مقام الخدمة والعبودية. موجدة ليست في حاجة -حينئذ- إلا إلى الإفصاح والتعبير: "لا إله إلا الله".

وهنا يكمل جمال الدين، الدفء الحاصل عند الشعور بالانسجام مع سائر الخلق السيار، كل في سربه وفلكه: ﴿تُسَبِّحُ لَهُ السَّمَاوَاتُ السَّبْعُ وَالأَرْضُ وَمَنْ فِيهِنَّ وَإِنْ مِنْ شَيْءٍ إِلاَّ يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِ وَلَكِنْ لاَ تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ إِنَّهُ كَانَ حَلِيمًا غَفُورًا﴾(الإسراء:٤٤). هذا التوحيد الكوني في التعبير، بل هذا التناسق الكلي في نفث المواجيد، عبر شتى ألوان العبادة، له ذوق "الأنس" الذي يملأ القلب نشاطا وحبا للحياة الممتدة طولا وعرضا.

التنافس في طريق المحبة

التنافس هنا إذن هو في طريق "المحبة". الكل يحب، والمحبوب واحد. تلك هي القضية. إذن أيّنا يبذل أكثر؟ وأيّنا يشكر أكثر؟ فهذا مجال الإفصاح عن مواجيد الذلة لملك القلوب ومالكها. وكلما كان الحب أصدق كان أكثر إذلالا لصاحبه. ولكنها ذلة اللذة والمتعة العليا، والشعور بالراحة في سبيل رضى المحبوب، وينطلق السباق... وتلك لذة أخرى، لها قصة أخرى.

الله! هذا المعنى العظيم الذي ننطلق منه لنُقِرَّ أنه "لا إله إلا هو". تدخل إلى ملكوته من باب "التفكر" بوجدان المحبة الكبرى. ولكن كيف؟

لطالما كنت أقرأ عن رواد الحب الإلهي، فكنت أتعجب كيف يجدون هذه الموجدة، بهذا الشوق كله!؟ فتفكرت دهرا، فإذا الباب ينفتح بمفتاح "الربوبية": الله، هذا السيد العظيم هو الخالق لكل شيء من الجلائل والدقائق. وما أنت أيها العبد في ملك الله العظيم، الممتد بلا حدود، إلا ذرة من البلايين التي لا يحصرها

خيال، من الذرات السائرة في متاهة الكون الفسيح. ألم يكن ممكنا في قدر الله وقدرته تعالى ألا تكون أصلا؟ إنها نعمة الخلق إذن، فأعظم بها من نعمة لا تحصى حمدًا ولا تحاط شكرا، ولو عشت أعمار الخلائق جميعا حامدا وشاكرا. ﴿هَلْ أَتَى عَلَى الإِنْسَانِ حِينٌ مِنَ الدَّهْرِ لَمْ يَكُنْ شَيْئًا مَذْكُورًا﴾(الإنسان: ١). لمسة "الحياة" هي النعمة الكبرى بعد الخلق.. ألم يكن ممكنا أن تكون جمادا؟ ثم إنها حياة الروح أكبر هبة إلهية للإنسان.

تأملات تملأ القلب حَيرة وعجبا. أن يكون بين الناس في ظل هذه الحقائق الرهيبة منكرون... عجبًا.. عجبا! ولا يملك المتفكر في آلاء الله ونعمائه العظمى إلا العجب.

أن تتفكر في جمال الإحسان الرباني، يعني أن تقع أسير أنواره، وجلال كماله، مؤمنا خاشعا متبتلا. ذلك هو سر المحبة، وهو المعراج السري لقافلة المحبين السائرين إلى منازل الحبيب. قال بديع الزمان النورسي رحمه الله: "ما دام ذلك الحكيم المطلق سلطانًا ذا جلال بشهادة جميع إجراءاته الحكيمة، وبما يظهره من آثار جليلة.. وربًّا رحيمًا واسع الرحمة بما يُبديه من آلاء وإحسانات.. وصانعًا بديعًا يحب صنعته كثيرًا بما يعرضه من مصنوعات بديعة.. وخالقًا حكيمًا يريد إثارة إعجاب ذوي الشعور وجلب استحسانهم بما ينشره من تزيينات جميلة وصنائع رائعة... فإنه يُفهَم مما أبدعه من جمال يأخذ بالألباب في خلق العالم أنه يريد إعلام ذوي الشعور من مخلوقاته ما المقصود من هذه التزيينات؟ ومن أين تأتي المخلوقات وإلى أين المصير؟"[1] فهو إذن "يعرّف نفسَه ويودّدها، بمخلوقاته -غير المحدودة- ذات الزينة والجمال.. ويُوجب الشكر والحمد له، بنعمه -التي لا تحصى- ذات اللذة والنفاسة.. ويشوّق الخلق إلى العبادة نحو ربوبيته؛ بعبودية تتسم بالحب والامتنان، والشكر إزاء هذه التربية، والإعاشة العامة، ذات الشفقة والحماية".[2]

فعلا... إن الذي يشعر بالنعمة المسداة إليه يجد نفسه مطوقا بحقها في الشكر، ولكنها نعمة أكبر بكثير من أن تحصى أو تحصر. فكيف تشكر إذن؟ هنا يمتلك القلبَ الشعورُ بالعجز والذلة والخضوع التام، وتلك هي "لا إله إلا الله".

"الله".. هذا الاسم الجميل كلمة تدل على الحياة العليا والنعمة الكبرى.. منه سبحانه نستمد الكينونة والحياة. وعطاؤه تعالى لا ينقطع أبدا، ولا يحصى عددا. أن تملأ قلبك بمعرفة الله، يعني أنك تملؤه بالحياة. أن تملأ قلبك بمعرفة الله، يعني أنك تملؤه بالحب. وأن تعبر عن ذلك كله، يعني أن تقول: "لا إله إلا الله"، أي لا مرغوب ولا مرهوب إلا الله، ولا محبوب إلا الله، ولا يملك عليك مجامع القلب والوجدان إلا الله.. هذا السيد الجميل، والملك الجليل، والرب العظيم الرحيم.

إن العبد المسكون بحقيقة "لا إله إلا الله" لا يملك إلا أن يتدفق منجرفا إلى الله.. تماما كما تتدفق الأنهار سارية وساربة إلى مالكها.. فأنى له إذن أن يتخلف إذا سمع داعي الله ينادي أنْ "حي على الصلاة"، أو "حي على الفلاح"؟!

طُيُوبُ الْحُبِّ إنْ مَسَّتْ فُؤَادًا
جَرِيحَ الْوَجْدِ كَانَ لَهَا نُشُوبُ!
وَهَلْ فِي الْعَاشِقِينَ الْغُرِّ غُصْنٌ
يُنَادِيهِ الْحَبِيبُ وَلاَ يُجِيبُ؟

يتخلف؟ كيف؟ والمسلم، إنما هو ذلك العبد الذي يحمل جمرة الشوق إلى الله.. يُسبغ الوضوء على المكاره، وينقل الخطى إلى المساجد يسري في الظُّلَم، ويسرب في الهجير، متقلبا بين حَرٍّ وقرٍّ، ويجاهد في سبيل الله.. ينثر روحه أزهارا على الثرى، طمعا في رضى المحبوب، الذي تعلقت به القلوب. والمسلم هو ذلك العبد الذي فاض قلبه بحب الله؛ فلا تجد من سلوكه إلا مسكا، ولا ترى من خطوته إلا كياسة وفطنة، ولا يلقاك إلا بالكلمة الطيبة والسريرة الحسنة.

الإسلام، هذا الجمال الإلهي العالي، دين ليس كأي دين. لكن... لو كان له ذوّاق... ذلك هو "الإسلام" دين المحبة. وذلك هو المسلم السالك مَدارِجَ المحبين. وأنّى لمن خفق قلبه بلمسة الحب أن يكون شريرا؟ الحب، هذا الشعور الفياض بالجمال، إذا خالط قلبا أحاله جداول من الإيمان واليقين. وامرؤ كان ذلك شأنَه لا يتصور فيه أن يؤذي أحدا أبدا، لأنه لا يملك من المواجيد في قلبه إلا الحب. وكل إناء يرشح بما فيه. إنه لا يملك إلا أن يملأ المكان بمواجيد المحبة، ورياحين الشوق في سيره الوجودي إلى الله. ■

(*) جامعة مولاي إسماعيل؛ ورئيس المجلس العلمي بمكناس / المغرب.

الهوامش

(1) الكلمات لسعيد النورسي، ترجمة: إحسان قاسم الصالحي، ص ٦٧٧.

(2) المكتوبات لسعيد النورسي، ترجمة: إحسان قاسم الصالحي، ص ٢٨٥.



مفهوم العولمة وتحليلها
في ضوء الفلسفة الأخلاقية لرسائل النور

أ.د. عبد العزيز برغوث*

إن البشرية بأكملها تعيش اليوم أوضاعا محرجة ومنذرة بكثير من المخاطر، ومؤذنة بمستقبل غامض في كثير من جوانبه إن لم يُتدارك الأمر بسرعة وحكمة. وهذه المخاطر المحدقة بالإنسانية جميعا، وهذا المستقبل الغامض غير نابع في أصله من عدم وجود المنظور الكوني القادر على توجيه خطى الإنسان، ولكنه أساسا متأتّ من بعض التحكمات الإنسانية المتعسفة التي تحاول فرض مقولاتها وأيديولوجياتها على باقي الإنسانية، وسائر الثقافات البشرية وخاصة المغلوبة على أمرها مثل عالمنا الإسلامي المعاصر. وقد عبر الإمام النورسي عن هذا المنطق مشيرا إلى مخاطر المدنية الغربية غير المتوازنة بقوله: "إن دهاءك المظلم قد قلب نهار البشرية ليلا، ذلك الليل البهيم بالجور المظلم، ثم تريدين أن تنوري ذلك الظلام المخيف بمصابيح كاذبة مؤقتة... هذه المصابيح لا تبتسم لوجه الإنسان، بل تستهزئ به، وتستخف من ضحكاته التي يطلقها ببلاهة وهو متمرغ في أوحال أوضاع مؤلمة مُبكية"(١). فهذا التعامل غير المتوازن مع الإنسانية ومع البشرية عموما أدى إلى فوضى كبيرة انعكست على حياتنا المعاصرة وعلى واقعنا وحاضرنا وستنعكس على مستقبلنا.

تضارب الرؤى حول العولمة

والعولمة، هذه الظاهرة الجديدة القديمة تحاول اليوم أن تضع أسئلة محرجة ومهمة وخطيرة على مصير الحضارة الإنسانية عامة ومصير حضارة الإسلام بصورة خاصة. ومما لا شك فيه أن المقولات حول العولمة متعددة، ومتنوعة، ومتغايرة، ومتمايزة بصورة كبيرة. فمن الموالين والذائدين عنها إلى الرافضين والمعارضين لها، ومن الإيجابيين حولها إلى السلبيين، ومن الموضوعيين في تصورها إلى الذاتيين في معالجتها، ومن المركزين على جوانبها المتعددة إلى الحاصرين لها في جانب واحد، ومن الناهين والمستفيدين من خيرها والتاركين لشرها إلى الغافلين والتائهين بين شرها وخيرها، ومن أهل الخبرة فيها إلى المتحدثين فيها بغير علم ولا وعي ولا منهج ولا نظام، ومن العارفين بمفهومها وحقائقها وآلياتها إلى الخالطين لها بين المفاهيم.

وقد يقال ما علاقة الأستاذ النورسي ورسائل النور بموضوع

العولمة؟ فلا النورسي ولا رسائل النور تحدثت عن موضوع العولمة؟ وما عساه أن يقوله في موضوع جديد لم يُعهد بهذا المصطلح والمعنى في زمانه؟

ولكن قبل القيام بهذا التحليل ينبغي أن نجيب عن سؤال مبدئي أولي وهو "ما هو مفهوم العولمة في الأدبيات القائمة حاليا وما مخاطرها على العالم الإسلامي؟" حتى يتسنى لنا تمييز موقف ورأي ومقولة رسائل النور في الموضوع. فيتحصل من هذا الكلام أن نركز في موضوعات ثلاث هي:

أولا: مفهوم العولمة ومخاطرها على العالم الإسلامي المعاصر؟

ثانيا: كيف ينبغي أن نفهم العولمة في رسائل النور؟

ثالثا: الرد النوري على مخاطر العولمة والقيمة الحضارية للنسق الأخلاقي في رسائل النور.

الدور المستقبلي لرسائل النور

ومما تجدر الإشارة إليه قبل البدء بتحليل هذه النقاط الثلاثة فكرة مهمة جدا أوردها الإمام النورسي في رسائل النور عندما كان يتحدث عن القيم الحضارية والتاريخية والكونية العامة لرسائل النور، حيث يبدو وكأنه يتوقع دورا حضاريا ضخما وفعالا لرسائل النور في مستقبل الأيام، ويعتقد أن رسائل النور ستتحول إلى بؤرة تركيز عالمي تجذب العلماء والمفكرين والحكماء في زمن تعيش فيه الإنسانية أخطر مراحل تطورها وأعقد مشكلاتها. فيقول الإمام النورسي رحمه الله: "إن أجزاء رسائل النور قد حلّت أكثر من مائة من أسرار الدين والشريعة والقرآن الكريم، ووضحتها وكشفتها وألجمت أعتى المعاندين الملحدين وأفحمتهم، وأثبتت بوضوح كوضوح الشمس ما كان يظن بعيدًا عن العقل من حقائق القرآن كحقائق المعراج النبوي والحشر الجسماني.. أثبتتها لأشد المعاندين والمتمردين من الفلاسفة والزنادقة حتى أدخلت بعضهم إلى حظيرة الإيمان. فرسائل هذا شأنها لا بد أن العالم -وما حوله- بأجمعه سيكون ذا علاقة بها، ولا جرم أنها حقيقة قرآنية تشغل هذا العصر والمستقبل، وتأخذ جل اهتمامه، وأنها سيف ماسيّ بتّار في قبضة أهل الإيمان".(٢)

إن هذا الكلام يبين لنا بما لا يدع مجالا للشك الدور الحاسم الذي ستؤديه رسائل النور في النقاش العالمي الذي يدور حول حاضر البشرية ومستقبلها، ويبين لنا كيف أن هذه الرسائل لها استيعاب خاص لواقعنا الحضاري المركب والمعقد. وسنحاول إبراز بعض ما تستطيع أن تقدمه الرسائل لإنقاذ إيمان الأمة في عصر العولمة التي يعبر عنها النورسي بقوله: "أما الآن فقد تطورت وسائل النقل إلى درجة كبيرة بحيث أصبح العالم كالمدينة الواحدة، وغدا أهله في مداولتهم الأمور كأنهم في مجلس واحد."(٣)

أولا: مفهوم العولمة ومخاطرها على العالم الإسلامي

ينبغي لنا أولا وقبل كل شيء أن نحدد ولو بصورة عامة مفهوم العولمة، لكي نتبين حقيقتها وأبعادها ومخاطرها على الفرد والمجتمع والحضارة والثقافة الإسلامية والإنسانية بصورة عامة. ومما ينبغي التنبيه عليه هو أن تعاريف العولمة متعددة جدا، ومتنوعة بصورة تكاد لا تحصر. ويمكن أن تعرف العولمة بصورة عامة على أنها تلك الظاهرة التي برزت مع الأفكار الأساسية التي يبشر بها النظام العالمي الليبرالي الجديد، وتعني رفع الحواجز الجغرافية والثقافية والاجتماعية، وانفتاح الثقافات والحضارات الإنسانية على بعضها البعض بسبب تأثير الثورة التقنية والتكنولوجية والاتصالية والمعلوماتية؛ بحيث تزداد كثافة وسرعة وحجم الاتصالات والتعاملات والنشاطات الإنسانية بصورة تؤدي إلى عولمة الواقع البشري، وجعل البشرية كلها تعيش في ظروف نفسية وثقافية واجتماعية وحضارية توحد مصيرها وتعولم مشكلاتها. ففي ظل هذا التعريف العام للعولمة ذات الأبعاد السياسية والاقتصادية والاجتماعية والثقافية والبيئية والجغرافية والعمرانية يصبح المجتمع الإنساني وحدة واحدة أو كما يسمونه بـ"قرية الكرة الأرضية".

فإذا كان هذا التحديد للعولمة سليما بصورة عامة، فإنه لا يستطيع أن يفسر لنا بعض الأبعاد والآفاق التوسعية الفوضوية الخطيرة التي كثيرا ما لا تأخذ بعين الاعتبار مصالح وهموم الإنسان غير الغربي. وهذا الأمر يجعلنا نزيد في توضيح بعد مهم من أبعاد العولمة، وهو الذي يمكن نعته بالبعد الأيديولوجي الاستراتيجي التوسعي الذي يخدم مصالح دعاة العولمة بصورة خاصة.

فإذا ما أخذنا هذه التحديدات بعين الاعتبار فإننا نستطيع أن نرى الصورة الحقيقية للعولمة، ونستطيع أن نميز بين ما هو لا إنساني وسلبي فيها، وبين ما هو إنساني وإيجابي. ولكن يبقى الأمر الهام والذي ينبغي أن نؤكد عليه جيدا وهو أن العولمة في عمقها المعرفي والتاريخي والسوسيولوجي والأخلاقي والمادي هي بلا شك فعلٌ حضاري ثقافي غربي يحاول إعادة صياغة الكيان الحضاري للبشرية جميعا وصبغه بالصبغة الغربية، وجعل النموذج الحضاري الثقافي الاجتماعي الغربي قانونا يحكم حياة الإنسان، ويصوغ له أقداره ومصائره وتوجهاته، ويعيد ترتيب نظام القيم والعلاقات والمعرفة والسلوك على وفق الرؤية الكونية الغربية.

ثانيا: مدخل النورسي لفهم العولمة وإدراك مخاطرها

من الأهمية أن نكتشف مفهوم العولمة وحقيقتها ليس عن طريق البحث في صفحات رسائل النور عن هذه اللفظة أو المصطلح، ولكن عبر التحليل للوحدة المنهجية والعضوية للنص النوري في كليته. وعلى هذا الأساس سنحاول كشف أهم مدخل من مداخل فهم العولمة وأبعادها وأسبابها وآثارها ومخاطرها على الإنسان المعاصر عامة. ويمكن أن نختصر هذا المدخل فيما يسميه عالمنا الجليل النورسي "المعنى الحرفيّ والمعنى الاسميّ". وبعد التعرف على هذين المفهومين يمكن تقديم صورة للعولمة كما تعبر عنها رسائل النور.

أ- المعنى الحرفيّ والمعنى الاسميّ في فهم العولمة

يتحدث الأستاذ النورسي رحمه الله عن مسألة المعنى الاسميّ والمعنى الحرفي ويجعلهما من أهم الأفكار في رسائل النور. ونحن نستطيع أن نستخدم مفهومَي المعنى الاسمي والحرفي للدلالة على أهم وأخطر بعد من أبعاد العولمة باعتبارها منتوجا إنسانيا نابعا عن تطور الذهنية الإنسانية وتوجهها وجهة معينة أوصلتها إلى الوضع الحالي من التأزم والفوضى والاختلال العام. وقبل أن نربط بين مفهوم المعنى الحرفي والاسمي ومفهوم العولمة نحاول ذكر تعريف النورسي لهما.

فالمعنى الحرفي يعني النظر إلى الكون والأسباب، والمعجزات، والحوادث، والوقائع، والسنن، والآيات الإلهية الآفاقية والأنفسية "والموجودات التي -كل منها حرف ذو مغزى- بالمعنى الحرفي، أي من حيث دلالتها على الصانع. فيقول'ما أحسن خلقه'، 'ما أعظم دلالته' على جمال المبدع. وهكذا يكشف أمام الأنظار الجمال الحقيقي للكائنات".(٤)

فالمعنى الحرفي إذن دال على غيره وليس على ذاته، وإنما ذاته ونفسه ما هي إلا مرآة عاكسة لشيء أعظم من النفس وأعظم من الوجود وأعظم من الدنيا "أي أنّ 'أنا' لا يحمل في ذاته معنى، بل يدل على معنى في غيره كالمرآة العاكسة، والوحدة القياسية، وآلة الانكشاف".(٥) فالإنسان والمجتمع الذي ينظر إلى الدنيا وإلى الحياة وإلى الحضارة بالمعنى الحرفي فإنه سيرى الأشياء والأمور على حقيقتها، وبالتالي تنسجم خطاه مع مراد الله، وتتناغم أعماله وأقواله مع سنن الله وقوانينه، لأنه ينظر إلى الوجود على أنه دليل على خالقه عز وجل.

وأما إذا نظرنا إلى الأمور وعالجنا المشكلات الإنسانية بمنظور ونسق المعنى الاسمي، فإننا نكون أمام وضع مختلف تماما عن وضع المعنى الحرفي. ففي المعنى الاسمي نؤلّه الأسباب، ونخلد إلى الدنيا، ونتثاقل إلى الأرض، ونعتبر أن الحياة الدنيا هي خلاصة كل شيء وأن التطور المادي والترقي العمراني هو غاية الوجود كله. وبهذا ننظر إلى أنفسنا (أنا) على أنها كل شيء ومصدر كل خير، ونجعل من العقل إلهًا نحكّمه ومن الفلسفة معارف عليا كلية توصلنا إلى كل ما نريد معرفته. فلا نرى وراء العقل ووراء الفلسفة شيئا مفيدا.

فإذا ما نظر الإنسان إلى الحياة والكون والوجود بالمعنى الاسمي، فإن نظرته وأفقه ينحصر في ذاته، ويدور حول أَناه مهما حققت من الرقي المادي، ومهما تفجرت أمامه من عيون الحضارة وخيراتها، وإنه يبقى دائما مسلوب الوعي الصحيح، فاقد الرشاد والهداية غارقا في الملذات والشهوات لا يكاد يرى وراءها شيئا. وبهذه الكيفية يجعل المعنى الاسميُّ الإنسانَ تائها في نفسه لا يكاد يدرك حقيقته وحقيقة رسالته الوجودية.

ب- العولمة كنتاج للمعنى الاسمي

فإذا ما أخذنا بعين الاعتبار فكرة المعنى الحرفي والمعنى الاسمي وأردنا تطبيقها على مسألة العولمة، فإننا سندرك حقيقتها وجوهرها بصورة جلية. فالعولمة في جوانبها السلبية ما هي إلا تجلٍّ لاستحكام المعنى الاسمي والفلسفة الاسمية والرؤية الكونية الاسمية في الثقافة، والنفسية، والعقلية الغربية التي تقود الحضارة المعاصرة. فعملية الاستبدال للمعنى الحرفي بالمعنى الاسمي في الواقع الإنساني هو الذي أدّى إلى نشوء هذه الثقافة والنفسية والشخصية التي تحمل راية العولمة وتتبنى مشروعها ونهجها في الهيمنة على البشرية. فعندما تبنّت المدنية الغربية هذا المنظور تشكلت ثقافتها، واصطبغت نفسيتها بعدة خصائص جعلت منها منبتا ومنشأً خصبا للفوضى والاختلال والظلم الذي تعانيه البشرية اليوم من جراء أفكار العولمة ومخاطرها.

يقول الأستاذ النورسي واصفا حقيقة المنظور الاسمي الذي تبنته الحضارة الغربية المعاصرة: "إن أسس المدنية الحاضرة سلبية، وهي أسس خمسة، تدور عليها رحاها. فنقطة استنادها: القوة بدل الحق، وشأن القوة الاعتداء والتجاوز والتعرض، ومن هذا تنشأ الخيانة. هدفها وقصدها: منفعة خسيسة بدل الفضيلة، وشأن المنفعة: التزاحم والتخاصم، ومن هذا تنشأ الجناية. دستورها في الحياة: الجدال والخصام بدل التعاون، وشأن الخصام: التنازع والتدافع، ومن هذا تنشأ السفالة. رابطتها الأساس بين الناس: العنصرية التي تنمو على حساب غيرها، وتتقوى بابتلاع الآخرين وشأن

القومية السلبية والعنصرية: التصادم المريع، وهو المشاهد، ومن هذا ينشأ الدمار والهلاك. وخامستها: هي أن خدمتها الجذابة، تشجيع الأهواء والنوازع، وتذليل العقبات أمامها، وإشباع الشهوات والرغبات. وشأن الأهواء والنوازع دائما: مسخ الإنسان، وتغيير سيرته، فتتغير بدورها الإنسانية وتمسخ مسخا معنويا".(٦)

فبهذا الوصف الدقيق للرؤية الكونية الغربية وخصائصها الثقافية نجد الأستاذ النورسي قد حدد المدخل الأصيل والصحيح كذلك لإدراك حقيقة العولمة باعتبارها منتوجا لهذه الثقافة والرؤية والحضارة. ومن هذه التحديدات يقدم لنا النورسي صورة عميقة ومعبرة عن حقيقة العولمة وطبيعة العقل الذي أنتجها ونوعية الثقافة التي تقف وراءها، كما يقدم لنا أمثلة واقعية لما تفرزه هذه الظاهرة وما تتركه في واقع الناس. يقول الأستاذ النورسي: "إن المدنية الغربية الحاضرة لم تلق السمع أبدا إلى الأديان السماوية، لذا أوقعت البشرية في فقر مدقع، وضاعفت من حاجاتها ومتطلباتها، وهي تتمادى في تهييج نار الإسراف والحرص والطمع عندها بعد أن قوضت أساس الاقتصاد والقناعة، وفتحت أمامها سبل الظلم وارتكاب المحرمات".(٧)

فما لم ندرك مسألة العولمة في إطار ما أسماه الأستاذ النورسي بالمعنى الاسمي فإننا سنبقى دائما ننظر إلى المسألة بصورة سطحية لا نرى من خلالها عمق الأزمة وعمق المشكلة الخطيرة التي تواجهها البشرية. فكل المآسي المشار إليها ما هي إلا نتاج مباشر للشخصية والعقلية التي تتبنى النظرة الاسمية للحياة والدنيا والعالم والحضارة. وفي هذا السياق نجد النورسي ينعى على هذا التوجه ويتوقع نهاياته وفساده لأنه لا ينسجم مع سنن الله ولا مع نواميس الكون. ومن الأهمية بمكان أن نؤكد أنّ تحليل النورسي لأزمة الحضارة الإنسانية والمدنية الغربية بصورة خاصة إنما تتم ضمن ما أسماه بالنظرة الاسمية أو المعنى الاسمي للوجود. فبهذا العمق والنظرة إذن تقدم لنا رسائل النور المدخل الأصيل والصحيح ليس فقط لفهم العولمة ولكن كذلك لفهم مشكلات الإنسانية عموما.

وبعد أن بيّنا بصورة مختصرة مدخل رسائل النور في النظر إلى مسألة العولمة، وأوضحنا ما لفكرة المعنى الاسمي والحرفي من فائدة في إدراك حقيقة المشكلة الإنسانية والأزمة الحضارية التي تواجهها البشرية في عصر العولمة يبقى لنا أن نبين ما هو المدخل الأساسي لعلاج هذه الأزمة والرد على تحدي العولمة الذي يكاد يطبق على البشرية جميعا بتياره المتعاظم.

والذي يقرأ جيدا رسائل النور ويتعمق فيها ويكتشف منهجها العام يستطيع أن يدرك أن أي مدخل لمواجهة مسألة العولمة أو غيرها من المشكلات التي تواجه الإنسانية ينبغي أن يدور حول "المسألة الأخلاقية". فسؤال الأخلاق في نسق رسائل النور ووجهتها العامة هو المدخل الأساسي لمعالجة أدواء وأسقام الإنسان المعاصر. ولكن حين نتحدث عن المسألة الأخلاقية عند النورسي فإننا لا نتحدث عنها وفق منطق الفلسفة الوضعية أو المادية أو الطبيعية. ولكن نتحدث عن الأخلاق وفق ما أسماه النورسي بالمعنى الحرفي. وحين ننظر إلى المسألة الأخلاقية على وفق المعنى الحرفي فإننا نجدها وبدون منازع هي المدخل الصحيح لمعالجة المشكلات الإنسانية.

وفيما يأتي بيان لمفهوم ودور المسألة الأخلاقية في مواجهة تحدي العولمة والرد على تيارها السلبي المتعاظم الذي حوّل حياة الملايين إلى يأس، وأصبح الكثير من الناس لا يشعرون بالأمان أمام هذه الأوضاع المتردية. وقد عبر النورسي عن مثل هذه النتيجة الأخلاقية المؤسفة بقوله: "فلا جرم أننا نعاني نتيجة هذا الخطأ الفادح غلظة القلب وقسوته، وانقباض الروح وظلمتها، المؤدية بمجموعه إلى تعكير صفو الأخلاق، وتلوث نقاوة الروح.. وفوق هذا تمضي حياتنا رتيبة مملة يائسة خاوية المعنى".(٨)

ثالثا: القيمة الحضارية للنسق الأخلاقي في رسائل النور

لا شك أن الذي يطلع على رسائل النور بقلب مخلص وعقل منفتح وبصيرة نافذة سيصل إلى حقيقة أساسية وجوهرية هي أن رسائل النور في مجملها وكليتها وشموليتها وجامعيتها "درس أخلاقي إيماني كوني استخلافي إنساني عميق". وعندما يلج هذا القارئ المخلص والواعي مسالك رسائل النور، ومداخلها النورانية القرآنية المعنوية سيتأكد تماما أن "المسألة الأخلاقية" تمثل المحور المركزي والمركز المحوري للدرس النوري وخطابه بصورة عامة.

وليس من قبيل المصادفة أو الرجم بالغيب أو الارتجال الفوضوي أن تتموقع المسألة الأخلاقية في هذا الموضع الخطير والمتميز ضمن اهتمامات الخطاب النوري، ولكن طبيعة الدرس النوري، وصلته الوثيقة بالقرآن الكريم، وبالنموذج النبوي الأخلاقي العظيم قد فرضا على رسائل النور أن تتجه هذه الوجهة الأخلاقية، وأن ترفع بقوة ثقل المسألة الأخلاقية مبينة دورها في البناء الحضاري للبشرية، وفي الصيرورة العامة للحضارة الإنسانية.

فقد أكدت لنا الخبرة الإنسانية، والمعارف الحضارية البشرية أن المسألة الأخلاقية هي أس أساسات الأفعال الحضارية والتاريخية

المتوازنة في المسيرة الإنسانية، التي كان قادتها الحقيقيون هم الأنبياء والمرسلون من أول نبي عليه الصلاة والسلام إلى آخر الأنبياء محمد ﷺ الذي كانت أعظم معجزاته المشهودة على المستوى التاريخي والحضاري والاجتماعي هو أخلاقه التي جعلت منه رحمة لعالمين. والذين يسيرون في مسار النبوة وأخلاقها، ويتبنون المعنى الحرفي في حياتهم إنما يرون أن للحياة غايات أخلاقية عظيمة، وأن الأخلاق هي أساس الحياة الصالحة، أو كما يقول النورسي: "بينما الذين هم في مسار النبوة، فقد حكموا حكما ملؤه العبودية لله وحده، وقضوا أن الغاية القصوى للإنسانية والوظيفة الأساسية للبشرية هي التخلق بالأخلاق الإلهية، أي التحلي بالسجايا السامية والخصال الحميدة التي يأمر بها الله سبحانه".[9]

فإذن ليس من العبث أن تشغل المسألة الأخلاقية هذا الحيز والموقع في الدرس النوري. فالقيمة الخلقية، والبناء الأخلاقي، والتوجيه الأخلاقي أصبح مع رسائل النور لازمة جوهرية من لوازم الإنقاذ الحضاري لإيمان البشرية، ولخدمة الإيمان والدين والحقيقة القرآنية.

ومن هذا المنطلق نلفي رسائل النور ترسم لنا صورة أخاذة وعميقة وصادقة عن الحقيقة الأخلاقية للعالم الإسلامي، فتبرز لنا البعد الإيماني الإحساني للأخلاق الإسلامية ليس باعتبارها أخلاقا نظرية فلسفية مادية وضعية، ولكنها أخلاق إيمانية شرعية عملية اجتماعية مؤثرة في الصلة بين العبد وربه، وبين العبد وأخيه، وبين العبد والكون المحيط به.

ورسائل النور حين ترسم لنا الصورة الآخذة للجانب الأخلاقي في حياة الأمة والعالم الإسلامي لا تنزع منزعا فلسفيا نظريا، ولكنها تتوجه نحو القلب والبصيرة والوعي والسلوك والنفس لتحرك الوجدان كله والوعي كله لتلقي الحقيقة القرآنية الإيمانية النورانية كما هي في الخطاب القرآني. فالأمة الإسلامية الحقة أمة أخلاقية، لأنها تتبنى النظرة الحرفية في الحياة والاعتقاد والفكر والسلوك والعمل. وعلى هذا الأساس فإن الحضارة والمدنية التي تشكلها الشريعة المحمدية الحرفية هي مدنية متوازنة ومتناغمة مع طبائع الفطرة ومنسجمة مع سنن التاريخ.

وفي هذا السياق يصف لنا النورسي طبيعة المدنية التي تنشأ عن النظرة الحرفية الأخلاقية فيقول: "أما المدنية التي تتضمنها الشريعة الأحمدية وتأمر بها، فإن نقطة استنادها: الحق بدلا من القوة، والحق شأنه: العدالة والتوازن. وهدفها: الفضيلة بدلا من المنفعة، والفضيلة شأنها: المودة والتجاذب. وجهة الوحدة فيها: الرابطة الدينية والوطنية والصنفية بدلا من العنصرية والقومية، وهذه الرابطة شأنها: الأخوة المخلصة والمسالمة الجادة والدفاع فقط عند الاعتداء الخارجي. ودستورها في الحياة: التعاون بدلا من الجدال والصراع، والتعاون شأنه: الاتحاد والتساند. وتضع الهدى بدلا من الهوى، والهدى شأنه: رفع الإنسان روحيا إلى مراقي الكمالات".[10]

والأمة الإسلامية والعالم الإسلامي في عمقه الأخلاقي ينبغي أن يكون هو التجسيد العملي لهذا الدرس الأخلاقي الذي لخصته رسائل النور تلخيصا عميقا مستنبطا من الدرس الأخلاقي القرآني والدرس الأخلاقي التطبيقي النبوي؛ إذ تبين لنا رسائل النور أن المسألة الأخلاقية لا تأخذ حيزها وموقعها وموضعها ضمن الحياة الإنسانية إلا إذا عشناها وطبقناها وتذوقنا آثارها وثمراتها، حين تتحول الأخلاق إلى الطاقة والقوة التي تبني الإنسان والمجتمع والأمة والإنسانية التي تتصف بصفتي الإحسان والاستقامة باعتبارهما من أهم معايير الصلاح الإنساني.

فنحن إذن لا نستطيع أن نفهم ونعالج المسألة الأخلاقية ضمن نسق رسائل النور إلا إذا خلّصنا مناهج دراسة الأخلاق من الأطروحات الفلسفية والوضعية والمادية وربطناها بما يسميه الأستاذ النورسي بالمنظور الحرفي التوحيدي؛ إذ بهذا المنظور تصبح المسألة الأخلاقية جوهرية لارتباطها بالإيمان والتوحيد والشريعة والاستخلاف والكون والإنسان من جهة، وتجسدها في شخص النبي عليه الصلاة والسلام وظهورها في عمق معانيها في حياته وأعماله وأفعاله وأقواله ومنهجه وسنته وسائر أحواله.

وبهذا ينقذ المنهج النوري قضية دراسة الأخلاق من التجريد والفوضى المعرفية إلى العمل الصالح والارتقاء بالوعي والعقل إلى حقائق الإيمان وتجلياتها النفسية والكونية. وبهذا كذلك يقدم لنا النورسي الأخلاق باعتبارها الحل السليم والعميق لما تعانيه الإنسانية من مشكلات. ■

(*) الجامعة الإسلامية العالمية / ماليزيا.

الهوامش

(1) اللمعات لسعيد النورسي، ترجمة: إحسان قاسم الصالحي، ص ١٨١.
(2) الملاحق لسعيد النورسي، ترجمة: إحسان قاسم الصالحي،ص ٢٤٨.
(3) صيقل الإسلام لسعيد النورسي، ترجمة: إحسان قاسم الصالحي، ص ٥٧.
(4) الكلمات لسعيد النورسي، ترجمة: إحسان قاسم الصالحي، ص ١٤٣.
(5) الكلمات لسعيد النورسي، ترجمة: إحسان قاسم الصالحي، ص ٦٣٧.
(6) الكلمات لسعيد النورسي، ترجمة: إحسان قاسم الصالحي، ص ٨٥٥.
(7) الملاحق لسعيد النورسي، ترجمة: إحسان قاسم الصالحي، ص ٣٨٠.
(8) الشعاعات لسعيد النورسي، ترجمة: إحسان قاسم الصالحي، ص ٢٤٢.
(9) الكلمات لسعيد النورسي، ترجمة: إحسان قاسم الصالحي، ص ٦٢٤.
(10) المكتوبات لسعيد النورسي، ترجمة: إحسان قاسم الصالحي، ص ٦٠٦.



شيخ علماء الإسلام
محمد زاهد الكوثري

أ.د. عمار جيدل*

نبذة عن حياته

يعد محمد زاهد بن حسن الحلمي الكوثري أبرز علماء الأحناف في العصر الحديث، وقد ولد يوم الثلاثاء ٢٧ أو ٢٨ من شوال ١٢٩٦هـ الموافق لسنة ١٨٧٨م. تلقى علوم العربية والشريعة في وطنه تركيا. فبعد التتلمذ لوالده انتقل إلى "دُوزْجه" متعلما ثم الآستانة. كما استفاد من علماء زمانه في مختلف فنون المعرفة، وظل مواظبا على التحصيل رغم الرتب العلمية التي نالها؛ فأخذ كما هي عادة علماء عصره الإجازات عن كثير من أعلام زمانه. وبعد أن ضاق المكان عن الاحتمال انتقل -مستصحبا الرغبة في التحصيل والإصلاح- في رحلات متتالية إلى الإسكندرية ثم القاهرة ومنها إلى الشام، ومنها إلى بيروت ثم دمشق، ثم استقر به المقام بمصر التي وصلها عبر فلسطين، وقد لاقى في تلك الرحلة كثيرا من العناء.

ظهرت عليه علامات النبوغ منذ المراحل الأولى للتحصيل؛ فقد اشتغل بعد نيل الإجازة العلمية (العالمية) سنة ١٩٠٧م بالتدريس في جامع الفاتح وعمره أقلّ من الثلاثين عاما، واستمر على هذا العمل مدرسا في مدرسة المتخصصين بدار الخلافة ثم بجامعة إسطنبول، وجمع إليها التدريس في المعاهد والمدارس المسائية. أخذ عنه كثير من فضلاء زمانه، من أمثال أحمد خيري (ت: ١٩٦٧م) وحسام القدسي (ت: ١٩٧٩م)، وعبد الفتاح أبو غدة العالم الزاهد (ت: ١٩٩٩م)... وغيرهم كثير.

كان لعالمنا آثار محمودة في شتى أنواع العلوم (بعضها ما زال مخطوطا، وبعضها ضاع)، وما طبع منها جاوز العشرين مؤلفا، كما علق على كثير من المؤلفات النافعة، وكان إضافة إلى ذلك يكتب المقالات التي عرفت بـ"مقالات الكوثري"، ضمّنها الحديث عن كثير من ميادين الإصلاح كالعلوم والتعليم والاجتماع والتربية والعمران، ووضع المرأة... وحذّر من أمراض أصابت الأمة من نحو التحلل والتفسّخ وهيمنة التشرذم وعادات الجاهلية، والرضا بالذل على كل الأصعدة، واللامبالاة بما حل بالأمة من تخاذل ينذر بالسقوط، والتي سمّاها الكوثري بعلّة "أنا مالي"، فهي على وجازتها علة العلل في الخلل الذي طرأ على شؤون الأمة في كل زمن.

يفرض وضع هذا شأنه -برأي الكوثري- العملَ على إصلاح الأفراد بالتربية الدينية الراشدة، لأن الفرد هو النواة الأولى للأسرة، ولأن الأسرة هي الخلية الأولى لإصلاح المجتمع.. ويفرض كذلك إنجازَ دراسات جادة شاملة عن أمراض المجتمع بغرض تشكيل جماعات متصاعدة تقوم بواجب إرشاد الأسر والمجتمعات والبلدان والدول. ويقتضي نجاح هذا العمل جهودا جماعية في إطار مؤتمرات تعقد لهذه الغاية، مع السعي المستمر نحو تعارف الشعوب الإسلامية لتتمكن الجامعة من تقويم العود أو رد التعدي على الأمة بالتشاور والتآزر، وإصلاح ما يحتاج إلى الإصلاح منها بعناية فائقة تركّز على التضامن الاجتماعي الذي يرمي إليه وجوب الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر في الشرع الإسلامي، ثم العمل على إصلاح عالم الأفكار ببعث الأبعاد الاجتماعية والسياسية والفكرية للعقيدة الإسلامية. ورأس الإصلاح في عالم الأفكار بعد التوحيد، إبطال فلسفة "أنا مالي"

التي تعبّر عن اللامبالاة وتعطيل وظائف التوحيد. فيعتقد المسلم حين يرفض التسليم بهذه الفكرة أنه من الواجب عليه أن يحب لأخيه ما يحب لنفسه مصداقا لقول النبي ﷺ "لا يؤمن أحدكم حتى يحب لأخيه ما يحب لنفسه".

وقد عُرف إضافة إلى ما سلف بصفات أخلاقية قلّ نظيرها، فقد عرف بالزهد والتعفف والصبر وحسن المعاملة وعدم قبول أجر العلم. وحليت تلك الصفات الأخلاقية بصفات علمية سهلت له مأمورية التعليم والتربية؛ فقد كان محيطا بعلوم الشريعة ووسائلها، متمكنا من علوم الآلة وخاصة اللغات العربية والفارسية والتركية والجركسية، إضافة إلى قوة ذاكرة يسّرت له ضبط الأسماء مع حفظها، وبلغ فيها درجة سامية جعلته مضرب الأمثال في الحفظ والدقة.

تمكنه من العلوم

القراءة المتأنية لمجموع ما صنّفه الرجل من مؤلفات ومقالات وتعليقات وتحقيقات تدل على تمكّنه من علوم العربية أولا والشريعة ثانيا وفنون الحكمة ثالثا واللغات الشرقية رابعا.. فقد كان فارسا لا يبارى في تلك المعارف والفنون.

يبيّن التحليل الموضوعي لمجموع مضامين مؤلفاته أننا أمام طود شامخ، أخذ من الأوّلين قوّة الذاكرة وسعة الاطلاع وطول النفَس والصبر على التحصيل والتحليل والتحقيق مع جرأة في الحق يغبط عليها.

كتب وصنّف في جلّ علوم الشريعة والعربية، فمع الفقهاء كان فقيها متضلّعا، ومع الأصوليين كان نحريرا يحرر المسائل بدقّة متناهية، ومع المتكلمين كان متكلّما نظّارا، ومع المؤرخين محققا مدققا، أما في الحديث وعلومه فهو فارس مجالاته وشيخ تخصصاته من غير منازع... وحيد عصره وفريد زمانه نسيج وحده كما قال أحد تلاميذه. وتتبيّن تلك الحقيقة بعرض يسير لأسماء الأعلام الذين ناقشهم؛ فقد تتبّع أقوال الفقهاء والمتكلمين والمحدّثين والمفسرين والمؤرخين والفلاسفة والمستشرقين...

مكانته العلمية

ناقش أقوال المالكية والشافعية والحنابلة فانتصر لهم أحيانا وورفض أقوالهم أحيانا أخرى واضعا نصب عينيه في كل ذلك الانتصار للإمام أبي حنيفة، ووفق ذلك الجهد ناقش أقوال المحدّثين كابن خزيمة والدارمي وابن الصلاح والخطيب البغدادي وابن حزم وابن تيمية وابن القيّم وخلقا كثيرًا.

وناقش في المفسرين ابن جرير الطبري والزمخشري والرازي، كما ناقش المتكلمين وأتباع الفرق الأخرى؛ فحلل وناقش آراء الأشاعرة وأعلام الشيعة كالنوبختي، وجاوز ذلك إلى رد مفتريات المستشرقين والمتغربين من أبناء أمّتنا الإسلامية.

وعلّم بهذه السعة في التأليف لا يعدم نقّادا ومناوئين. والموازنة بين أقوال المناوئين والمناصرين يحتاج كتابا موسعا، لا يسع بيان أطرافه مقال، لهذا سنقف في هذه العجالة مع من ناصر آراءه الفقهية والأصولية والحديثة والعقدية.

فقد قال عنه محمد أبو زهرة (ت: ١٩٧٤): "لا أعرف عالما مات فخلا مكانه في هذه السنين كما خلا مكان الإمام الكوثري، لأنه بقية السلف الصالح الذين لم يجعلوا العلم مرتزقا ولا سلّما لغاية"..

وورد عن أبي زهرة في وصفه ما يبيّن معرفته بالرجال ومنازلهم، اخترنا في هذا المقام نتفا من تلك الخلال التي وصفه بها: "إنه تحقق فيه القول المأثور "العلماء ورثة الأنبياء"، وما كان يرى تلك الوراثة شرفا يفتخر به ويتسلط به على الناس، بل كان يراه جهادا في إعلان الإسلام وبيان حقائقه وإزالة الأوهام التي لحقت جوهره". يؤكد هذا المعنى، قوله أيضا: "لم يكن الكوثري من المنتحلين لمذهب جديد أو داعيا إلى مذهب لم يُسبق إليه، لهذا كان ينفر ممّن يسميهم العامة وأشباه المثقفين بسمة التجديد، ومع ذلك فقد كان من المجددين بالمعنى الحقيقي للتجديد والذي هو إعادة رونق الدين وجماله وإزالة ما علق به من الأوهام. إنه لمن التجديد أن تحيا السنة وتموت البدعة ويقوم بين الناس عمود الدين، لقد كان عالما حقا. (...) وقد عرف العلماء علمه وقليل منهم من أدرك جهاده. ولقد عرفته سنين قبل أن ألقاه، عرفته في كتاباته التي يشرق فيها نور الحق، وعرفته في تعليقاته على المخطوطات التي قام على نشرها. وما كان -والله- عجبي من المخطوط بقدر إعجابي بتعليق من علّق عليه. (...) إنه لم يرض بالدنية في دينه، ولا يأخذ من يذل الإسلام وأهله بهوادة، ولا يجعل لغير الله والحق عنده إرادة،

وإنه لا يعيش في أرض لا يستطيع فيها أن ينطق بالحق ولا تتعالى فيها كلمة الإسلام".

لهذا يتباهى الإمام أبو زهرة بذكر الكوثري له في بعض مؤلفاته، حيث يقول معلّقا على ذكره له: "وما كنت أحسب أن لي في نفس ذلك العالم الجليل مثل ما له في نفسي، حتى قرأت كتابه "حسن التقاضي في سيرة الإمام أبي يوسف القاضي" فوجدته رضي الله عنه قد خصّني عند الكلام على الحيل المنسوبة لأبي يوسف بكلمة خير. وأشهد أني سمعت ثناء من كبراء وعلماء فما اعتززت بثناء كما اعتززت بثناء ذلك الشيخ الجليل، لأنه وسام علمي ممن يملك إعطاء الوسام العلمي".

هذه شهادة ثقة يحق لنا أن نباهي بها ونقدمها بل ونجعلها العمدة في معرفة منزلة الشيخ محمد زاهد الكوثري، إنها شهادة عالم متبحر شهد له الداني والقاصي بسعة الاطلاع ورحابة الصدر والبعد عن التعصّب المقيت.

ويرى الأستاذ محمد بن يوسف البنوري (كان أستاذا للحديث بدار العلوم بباكستان) أنه يحق في الكوثري ما ذكره مسروق بإسناد صحيح في حق عبد الله بن مسعود ﷺ حيث قال: "لقد جالست أصحاب محمد ﷺ فوجدتهم كالإخاذ (الغدير)، فالإخاذ يروي الرجل، والإخاذ يروي الرجلين، والإخاذ يروي العشرة، والإخاذ لو نزل به أهل الأرض لأصدرهم، فوجدت عبد الله بن مسعود ﷺ من ذلك الإخاذ". إنما تصدق هذه الكلمة في محقق العصر، الجهبذ الناقد البحاثة الخبير. فكان رجلا تتجلى فيه هذه المزية بأجلى منظرها، رجل جمع بين غاية سعة العلم والاستبحار المدهش ودقة النظر، والحافظة الخارقة، والاستحضار المحيّر، والجمع بين علوم الرواية على اختلاف فروعها وشعبها، وعلوم الدراية على تفنن مراميها. لقد كان الكوثري عالما محيطا بنوادر المخطوطات في أقطار الأرض وخزانات العالم، مع الغيرة على حفظ سياج الدين، أو إبداء وجه الحق إلى الأمة ناصع الجبين".

وورد عنه في سياق بيان منزلته قوله: "إن القوم لم يقدّروا الكوثري بما يستحقه من تقدير وإجلال. ذلك المحقق، وذلك البحاثة الناقد، وذلك الخلق الجميل... العالم المتثبّت المحتاط في النقل، المتيقّظ لكل كلام، المستغني عن الاستدلال بالأمور الذوقية أو الوجدانية في المحاججة، متصلّب المعتقد، منتصر



محمد زاهد الكوثري وتلميذه عبد الفتاح أبو غدة

إلى الحق غاية الانتصار، حارس متيقظ، منافح عن الحنفية ضد كل حملة شنعاء".

كما أيّده وناصره ناشر علمه وجامع مقالاته "أحمد خيري"، وفي ذلك قال عنه: "كان ذا ذاكرة فذة ولاسيما في حفظ الأسماء؛ فكان إذا سمع شيئا أو رأى أحدا مرة واحدة ذكره ولو بعد سنوات. وهيأ له ذلك مع اطلاعه على المخطوطات النادرة في الآستانة ومصر والشام إلى أن أصبح حجة لا يبارى في علم الرجال. وجمع إلى براعته في الحديث ورجاله مهارة فائقة في علم الكلام وتنزيه الله ﷻ. كما كان أستاذ العصر في علمي الأصول والفقه، وكان على عبقريته المدهشة يحب أن يتعقّبه العلماء".

ويقرب من تلك المقالات ما نقلت عن العلامة يوسف الدجوي والشيخ عبد الرحمن خليفة وعزت العطار الحسيني وشيخ الأزهر مصطفى عبد الرازق ومحمد بخيت المطيعي وعبد الجليل عيسى وحسام القدسي ومحمد زكي مجاهد وسلامة القضاعي ونجم الدين الكردي وغيرهم كثير.

ويقول عنه سلامة القضاعي: "العلامة المحقق والمحدث الفقيه المحقق الأستاذ الأجل الشيخ زاهد الكوثري شفي به صدر السنة ونصر به الحق الذي عليه الأمة".

أما نجم الدين الكردي فيقول عنه: "المحقق الفهامة البارع، أعلى الله درجته في المهديين نظرا لما متّع به من تعليقات نفيسة على كتاب البيهقي "الأسماء والصفات"، تعليقات بما فيه من رجال الأسانيد وما لا بد منه".

وبالإضافة إلى كل ما سلف فقد اهتم به الباحثون في الدراسات الإسلامية والفلسفية. وقد وصفه الأستاذ الدكتور علي سامي النشار بأوصاف لم يصف بها غيره من أقرانه، فقال: "عالمنا الكبير المعاصر"، "عالم الإسلام الكبير"، "العلامة"، وذهب إلى ما يقرب من هذا محمود محمد عويس في كتابه "ابن تيمية ليس سلفيا".

وهكذا يتبيّن لنا أنّ الكوثري محدّث فقيه أصولي متكلم ومفسر

وأديب لا يشــق له غبار، وسجى تلك العلوم بسجايا وأخلاق عالية اعتبر بموجبها وبحق بقية السلف الصالح.

تفسيره لإشكاليات العالم الإسلامي

يرى الشــيخ الكوثــري أن أزمة عالمنا الإســلامي في العصر الحديث تتلخّص في الخلل الطارئ على عرض المســألة الفقهية والعقدية أكثر مما ترجع إلى أسباب أخرى.

يتصوّر الشــيخ أن من أهم أسباب بعد المسلمين عن عقائدهم في العصــر الحديث ظهور بدعة التجســيم. وقد ظهر الاحتفال بهذا الاتجاه في العصــر الحديث بطبع مؤلفات بعيدة عن العقيدة الإسلامية الصافية وفق تصوره، وبهذا الصدد حمل على طبع كثير من الكتب وكل ما من شــأنه الانتصــار إلى ذلك الاتجاه على حساب الاتجاهات الغالبة في البيئة الإسلامية منذ أمد بعيد.

ويرى أن الخلل الطارئ في الفقه سببه اللامذهبية التي ستؤول إن تمادى بهــا الزمن إلى اللادينية وفق رأيه. فقد شــقّ عليه أن يرى التطاول على العلماء الأعلام من فقهاء ومحدّثين ومفسّرين وغيرهم... لهذا أفرغ وســعه من أجل المرافعــة عنهم ومدافعة المتطاولين عليهم.

أمــا الخلل الطارئ على التعليم فســببه الابتعــاد عن مناهج المتقدمين في التمحيص والتثبّت مما ســبب فقدان ملكة البحث العلمي الجاد لدى الناشئة. أما الفساد الجديد في السياسة فأرجعه إلى إبعاد الإسلام عن ميدان الحكم وتعويضه بالنماذج الغربية في السياســة والحكم، مما سبّب للمسلمين غربة في بلدانهم، وأرجع فســاد وضع المرأة إلى هيمنة الفكرة الغربية التي يراد تجسيدها في المجتمع وقضية المرأة على الخصوص؛ وإذا تمّ لهم ذلك سيعمدون إلى تغيير كل ما يحمل بذرة الانتماء إلى هذه الأمة، فتتغيّر العمارة وشكل المدينة والعلاقات الاجتماعية.

تشــخيص الكوثري للأزمة صحيح في مجمله؛ فالأزمة ثقافية بالدرجة الأولى، ولعل من بين التيارات المساهمة في تأزيم الوضع أتباع الاتجاهات الظاهرية في العصر الحديث. فقد كانت بسبب تصرفاتها عاملة على تكريس الإقصاء المتشــرّع بين المسلمين، لا لشيء سوى الاقتناع بصحة رأي وبطلان ما سواه. وقد ولّدت هذه القناعات فكرا لا يقبل الحوار، فكرا إطلاقيًّا اســتبداديا لا يقبل الأخذ والرد. والفكر الاستبدادي سواء كان دينيا أو لادينيا -كمــا هو معلوم- فكر يعمل على اغتيال الفكرة المخالفة بكل الوسائل المشروعة شرعا أو قانونا. فإذا أعيته الوسائل المشروعة ركب غير المشــروعة للأسف الشــديد، وأول مراحله الإقناع بالضغط الأدبي والمالي والســلطاني. وإذا عجزت تلك الوسائل انتقل إلى ما هو أشــنع. وقد وصل ببعض المتبنّين لهذا الفكر أن أصبحــوا كالمجانين لا همّ لهم غــير إذلال المخالفين. وما ذلك حسب تقديرنا إلا بســبب اختصار الإسلام والفكر في مسائل ظاهرية لا صلة لها بالقلب. ولهذا فالمسألة تربوية بالدرجة الأولى مبناها وأساسها ثقافي طبعا. لهذا لا بد من بذل المجهود من أجل إصلاح ولائنا لله تعالى في إطار البعد الإنســاني في تصرفاتنا المبني أساسا على بعث الروح في الالتزام بأحكام الشريعة.

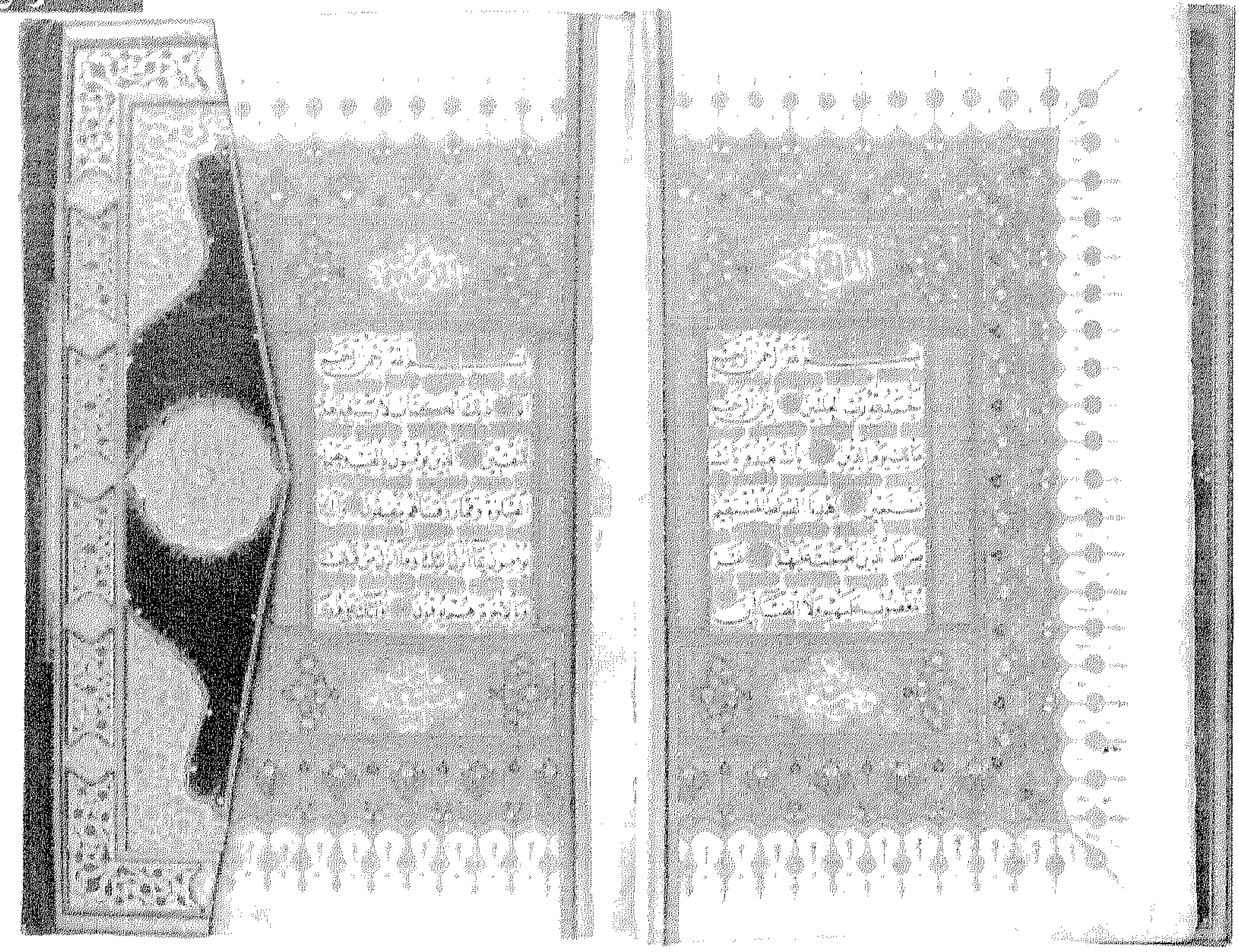
ولقد غلب على عمل الشــيخ وجهــوده العمل الفدائي أكثر من العمل المؤسساتي، بل يكاد يغيب هذا النمط من التفكير من خلال ما لمســناه من جهود الرجل. لهذا كانت جهوده تنبيهية أكثر مما هي تأسيسية طبعا في إطارها الكلي لا في إطارها الجزئي، وهو المسلك الذي يختاره جل الفدائيين في الميدان الفكري.

ومن ثم فإننا في حاجة إلى استثمار توجيهاته في ميدان إصلاح التعليم والجو المحيط به، كما أننا في حاجة إلى النسج على منواله في التربية الروحية الراشدة من أجل نفي النفي وإقصاء الإقصاء؛ تربية ننمّيها ونغذيها ببعث الروح في التزاماتنا الشرعية المؤسسة للهمّ الحضاري في أنفسنا ومجتمعنا في إطار السؤال الوظيفي الذي يؤرق كل مفكر رســالي جاد يهمــه أمر أمته، ويتمنى أن تخرج في غدها القريب مــن التخلّف إلى التقدم، ومن التبعية إلى قيادة العالم، نحو الإنسانية التي أراد الإسلام تكريسها في العلاقات بين الدول والشعوب والمجتمعات والأفراد.

توفي رحمه الله تعالى بتاريــخ ١٩ من ذي القعدة ١٣٧١هــ الموافق ١٥ أغسطس ١٩٥٢عن خمس وسبعين سنة، وأمّ صلاة الجنازة الشــيخ عبد الجليل عيسى شيخ اللغة العربية، ودفن قرب قبر أبي العباس الطوسي في قرافة الشافعي.

هذا هو الرجل الذي فقده الإسلام وخسره الأحناف ورزئ فيه العلم وثكلته المروءة واســتوحش لغيابه الزهد وشغر مكانه بمصر رضي الله عنه وأرضاه وأعلى في جنان الخلد منازله ومثواه. ■

(*) كلية العلوم الإسلامية، جامعة الجزائر / الجزائر.



إبداعات الفنان المسلم في الأشكال الزخرفية

أ.د. بركات محمد مراد*

المنمنمات هي صور إيضاحية لتزيين الكتب ذات الأهمية، وكثيرا ما تحدد معاني الموضوعات الواردة في الكتاب، وهو فن أبدع الفنان المسلم وأظهر براعته الإبداعية في دمجه بين الخط والصورة في علاقة تبعث شعورا سارا بالمتعة تجاه "المصوَّر" و"المجرَّد" في آن معا.

بين المصوَّر والمجرَّد

وفي عصرنا الحاضر لا يخلو كتاب يدرس في الكليات العلمية من الرسوم العلمية التوضيحية لتبسيط العلم وشرحه للطلاب. ومن المدهش حقا أن يكون المسلمون أول من ابتدع فن الرسوم التوضيحية في التاريخ. وقد نقلته أوربا عنهم في حضارتها المعاصرة، فهذا الفن لم يكن معروفا عند الإغريق، وفي كتب الطب الإسلامي وفي المخطوطات القديمة نجد الكثير من الرسوم التي تبين لطالب العلم مهمة القضية التي تشرح له.

وهذه الرسوم تشمل كل ذي روح من إنسان أو حيوان أو طيور؛ فهناك رسوم تظهر الطبيب والمريض وغرفة الفحص الطبي، وطريقة الكشف على المرضى أو ما يسمى بالفحص السريري الذي ابتدعه الأطباء المسلمون وعلموا أوربا فيه أحدث الطرق لاكتشاف المرض ومعرفة أحوال المريض. أيضا هناك صور لعلم جبر العظام والخطوات التي يتبعها الطبيب لعلاج الكسور والخلع وغيرها. وصور أخرى لعلم الكيّ وأخرى لجراحة العيون وجراحة الدوالي، بل وأيضا صور لخطوات الولادة العسرة والجراحة القيصرية. وبعض هذه المخطوطات يعود إلى القرن الثالث والرابع الهجري، وهي عصور ازدهار العلوم الإسلامية، مما يدل على أن المسلمين بعد أن بعدوا عن عصر الجاهلية الذي كانت "الصورة" فيه للعبادة والشرك بالله.. فقد انطلقوا يستفيدون من فنون النحت والتصوير لتطوير حضارتهم العلمية.

أشهر المنمنمات

ومن أشهر المنمنمات القديمة، رسومات "الواسطي" على مقامات الحريري؛ حيث تظهر تلك الرسومات التعديل الذاتي الذي قام به الفنّان المسلم على الأصل البيزنطي لهذا الفن، إذ ابتعد عن رسم

الهالات المقدسة للأشخاص، وتحولت إلى حواف ملونة. وكذلك اهتمامه بالتفاصيل المميزة لكل شخصية مرسومة من حيث الحركة والإيماءة، بالإضافة إلى أن اختيار الواسطي للألوان واستخدامه لها استخداما ملائما من حيث كونها قيمة شكلية في ذاتها مما دعا المستشرق "بابا دوبلو" أن يقول: "ليس من قبيل المبالغة القول أن كل مصوري الإسلام كانوا فائقي البراعة في استخدام الألوان".

وقد أتقن يحيى بن محمود الواسطي رسوم الجموع في مخطوطته، كما تمكن من التعبير عن خلجات النفوس، وأن يكون واقعيا في تمثيله للمناظر. وقد رسم الواسطي مقامات الحريري (٦٣٤هـ/ ١٢٣٧م)، وتُعرف هذه النسخة باسم "مقامات شيفر" وهي محفوظة بالمكتبة الأهلية بباريس. كذلك نرى نزوعا نحو المنظور وإن كان غير تام، وأيضا اهتماما بعناصر الصورة من حيث حجم الأشخاص وتعبيراتهم المختلفة على وجوههم وحركاتهم مما يعلي من شأن الصورة في تدرجها في سلّم القيم واحتوائها على أكبر قدر من القيم، أي الانتقال من القيم التشكيلية إلى الاهتمام بالقيم التمثيلية والروحية.

وقد وصلنا العديد من المخطوطات الإسلامية لموضوعات أدبية وأسطورية أو علمية وألبومات شخصية كلها كانت تعكس في مجال التصوير والزخرفة مدارس فنّية ازدهرت في العصور الإسلامية المتتالية. ويتّضح في معظمها محاولات جادة للمصور لإبهار المشاهد من خلال تكوينات لا علاقة لها بالواقع من حيث الجمع بين الليل والنهار في الصورة الواحدة، أو الجمع بين الداخل والخارج، أو التعبير المتأنق عن العمارة الإسلامية في التصاوير من خلال رسم دقائق الزخارف أو التعبير عن قوة الحاكم أو نبله وثرائه في صور.

الفنّان والأشكال الزخرفية الظريفة

إن المنمنمات (Miniature) كتصوير عربي وإسلامي استعارت تكوينها من الأشكال الزخرفية والخطية؛ فاللّولب الذي اعتبره "بابا دوبولو" أرضية التأليف الفني لكل المنمنمات العربية والإسلامية استعمل كثيرا وبترداد ملفت للنظر في الزخرفة العربية، ودخل في الكثير من أنواع الخط العربي. أما المربّع السحري أو ما سمي بالأوفاق السحرية فعدّ أيضا قاعدة تأليفية للعديد من الموتيفات الزخرفية والكوفية. أما الثياب والأشجار وحتى السماء، فهي عبارة عن خطوط مشابهة لذؤابات الخط النسخي وتعرجاته. ويعد ذلك عاملا مساعدا على اللامحاكاة بوجهها الأول ولاوقعيّتها بالقياس إلى الموضوع الطبيعي أو اقترابها من الأشكال الهندسية في محاولة لإعطائها بعض السمات الروحية، وفي ذلك مجاراة للشريعة. فإن ذلك يعطي بعضا من المشروعية، حيث يجد الناظر في هذه الرسوم بواطن كتابية أو خطوطية وزخرفية قد تكون حائلا آخر دون الاعتراض على هذه الرسوم.

ومن هذه الوجهة فقد كان هذا الموقف فاعلا في تمايز تصور المسلمين للمفهوم الجمالي؛ فعلى الرغم من قيمة الرسم والتصوير عندهم، فإنه لم يكن الرد الكافي على الاحتياجات النفسية لديهم، وخاصة الدينية منها. فقد فضل الفنانون تزيين المساجد والكتب الدينية والأماكن المقدسة بالخط والزخرفة العربيين، جاعلين منهما نتاجا متمايزا لفهمهم الجمالي ومُمَحورين حولهما كافة الفنون التشكيلية الأخرى.

العناية بالخط العربي

لذا فقد شكلت مسألة موقف الإسلام من الرسم والتصوير التشبيهي تأكيدا آخر على انصراف الفنانين العرب والمسلمين نحو العناية الجمالية والتشكيلية بالخط العربي، وتأكيد وبلورة حضوره الفني في كافة المستويات الحياتية. ولا شك أنه كان للنهضة العلمية الإسلامية تأثير كبير في ازدهار الفنون. فقد أفادت الزخرفة من علم الهندسة أيما إفادة؛ إذ تحولت من التسطيح والسذاجة إلى التعقيد والعمق، وترجمت النظريات الهندسية والرياضية عموما إلى فن راق أصبح بدوره شاهدا على ارتقاء الهندسة العملية. نفس الشيء يقال عن تطور زخرفة الخط العربي؛ لقد تحول إلى "خط هندسي" يشي بالدلالات الثرية، ويعكس طابع الأرستقراطية والازدهار في المجتمع الإسلامي. هذا فضلا عن دلالته على الارتباط بتطور الصناعات عموما خلال عصر الصحوة.

وكان تطور الخط الهندسي بمثابة ترسيخ لإحدى القواعد الهامة في علم الجمال حتى حكم أحد الدارسين بأنه ارتقى بالفن الزخرفي إلى ما يشبه تشكيلات موسيقية. كان الخط الهندسي -في المحصلة النهائية- شكلا مهمّا من أشكال الذ[illegible] الجمالي، كما كان محاولة لرفع الفن إلى مستوى المُناخات الروحية دون أن تنتزع منه النَّكهة الحسية الحية لل[illegible] والتخيل.

وينبغي الانتباه إلى أن مقولات الحكم الجمالي، فيما يتعلق بالمصورين كما ذكرها "ميرزا حيدر دوغلات" (٩٥٨هـ/ ١٥٥١م) هي الرقّة والتناسق، اللتان تضمان قيَما أخرى كالنعومة والطلاوة والرقة والوقع اللطيف والنظافة والصفاء والصقل والمتانة،

في حين أن مصطلحات مثل "غير متناسق" (لاتماثلي) أو "فج" هي التي تعبر عن ضآلة "قيمة العمل الفني".

وقد كان الرقش أو الأرابيسك والخط والزخرفة هي وسائل الفنان المسلم إلى تحقيق كل المفاهيم الجمالية اللانهائية التي يصبو إلى تحقيقها. ونجد الرقش العربي في نقطة التقاء الخط العربي بالتصوير. والخط العربي هو تجديد في رسم الحروف والكلمات التي تحمل معاني معينة، أما التصوير فهو رسم أشكال ووجوه تمثل حدثا أو مشهدا واقعيا أو خياليا. أما الرقش فهو رسم لا يحمل معنىً بيانيا أو لفظيا وإنما ينقل الشكل الهيولاني والجوهر لأشياء كانت واقعية.

الرقش والخط

وهنا يتضح أن الرقش كان –وكما توصل إلى ذلك الباحث الكبير "عفيف بهنسي"– مثل الخط من جهة والصورة من جهة أخرى. لقد اتجه الخط العربي من شكله البدائي إلى شكل فني لم يعدله حد في التفنن والتعبير. ومع أنه لم يتخل عن وظيفته فإنه أصبح صيغة فنية مجردة لا ترتبط بالمعنى بذاته، بل بصفته القدسية التي أصبحت جمالية تبعا لجمال الخط ذاته. وتزداد مكانة الخط الفنية كلما يزداد بُعده عن وظيفته البيانية، وتصبح الصيغ المجردة التي هي من توابع الخط، مستقلة تحيطه بالمزيد من التزويق أو تنفصل عنه لكي تصبح رقشا بذاته. وعندما انتقل هذا الخط إلى لوحات منقولة تلاقى بقوة مع الرقش الهندسي حيث لم نعد نميز أيهما الأصل وأيهما الأثر. واتسع استعمال الخط العربي التشكيلي خارج فن العمارة فمشت به ريشة المزخرفين على الخزف، وحفره إزميل النجارين في الخشب، وطرزته الإبر بأسلاك الذهب والفضة وخيوط الحرير على الرايات والعصائب والملابس والخيام، وصممته أصابع صناع السجاد إطارا للبسط والسجاجيد، وتوزيعا هندسيا في داخل الزخرفة المركزية لها. ولم يقتصر التفنن



في ذلك على آي الذكر الحكيم بل تعداه إلى الحديث الشريف والأمثال السائرة والحكم البليغة والشعر الرقيق.

سلطان الزخرفة

وبلغ من سلطان الزخرفة الخطية العربية أنها فرضت نفسها على كثير من مزخرفي الخزف والسجاد الأوربيين ممن تتلمذ على هذا النشاط من الحضارة الإسلامية. فظهرت من تحت أيديهم زركشات فيها ملامح الخط الكوفي النسخي دون أن تقول شيئا أو تمكن قراءتها.

أما الزخرفة فهي كل رسم يُعمل على مسطح بقصد ملء الفراغ بهيئات جملية متناسقة تستريح إليها العين. والزخرفة تكون خطوطا أو هيئات هندسية أو نباتية أو حيوانية. وجمالها يعتمد أولا وآخرا على ذوق صانعها ودرجة سيطرته على المادة التي يزخرفها أو يزخرف بها. ويتأتى أكبر جانب من جمال الزخارف من التكرار؛ فإن هيئة ورقة العنب شكل جميل، فإذا رسمنا هيئات ورق عنب متجاورة في صورة متماثلة –على أي هيئة كانت– حصلنا على زخرفة. وكذلك يقال عن زهرة اللوتس أو الأكانتوس أو الليق أو أي زهرة أخرى.

وقد وصل الفنان المسلم في إبداعه للزخرفة، حيث جعلها ميدان إبداعه، ووصل بابتكاراته في هذا المجال إلى ما لم يصل إليه غيره من أهل الفن في أي نطاق حضاري آخر، حيث اعتمد الفنان المسلم على عنصري "التكرار" و"التوازن"؛ فالتكرار المتوالي لأي هيئة يحدث أثرا زخرفيا جماليا. والتوازن كذلك له نفس الأثر. وهذا التوازن يبدأ من خطين أو منمنمين متماثلين، ويستطرد إلى صور هندسية ونباتية وحيوانية لا نهاية لها ولا حد لجمالها. والزخارف قد تكون مجرد رسوم وقد تحفر بارزة، وقد تكون ذات لون واحد أو أكثر. وقد ابتكر الفنانون المسلمون من تقاطع ما يسمى بالطبق النجمي، وهي زخارف مستديرة الهيئة تصنع خطوطها نجما في وسطها، وتفننوا في ذلك تفننا يحار فيه العقل.

وأبدعوا كذلك في استعمال ورقة العنب، وفروع النخيل، والحبيبات (وهي كل هيئة متخذة من أشكال حبوب النبات) والأقراص والزيتون وسنبلة القمح والفصوص والورد والقرنفل والصنَوبر واللبلاب وعباد الشمس، والمشبكات أي الخطوط والدوائر المتشابكة والخطوط المنكسرة والجدائل والخطوط المتعرجة، أو المنحنية، وما إلى ذلك. ونستطيع أن نقول إن الفنان المسلم لم يغادر هيئة يمكن أن تخطر بالبال كعنصر زخرفي إلا استعملها بنجاح.

ومن الملاحظ أن الأشياء غير المزخرفة نادرة بحق في الفن الإسلامي، حتى أن الفخار الرخيص غير المزجج (الخالي من الطلاء) يتضمن دائما شيئا من الزخرفة. وقد لاحظ ذلك بحق المستشرق "إتنجهاوزن" في بحوثه عن الزخرفة الإسلامية. وقد استعملوا الزخارف على شكل إزارات متوازية، أو في صورة أطباق نجمية عند اتساع المساحات، واستعملوا الألوان بنجاح كبير. وكانوا يفضلون الألوان التي ورد ذكرها في القرآن الكريم، كالأخضر والأحمر والأصفر ولون الذهب والفضة. واستخرجوا معاني خاصة للألوان، فقالوا إن السُندس هو الأخضر الفاتح، والإستبرق عند الرسامين والمزخرفين هو الأزرق، وفضلوا الأحمر على غيره وسموه المرجان لورود اللفظ في القرآن الكريم. ومن هذا القبيل سموا اللون الأبيض باللؤلؤ، أما الأحمر القاني فقد سمَّوه بالياقوت، واللفظ قرآني أيضا.

ارتباط الفنانين بالإسلام والقرآن

ومعنى ذلك أن الفنانين المسلمين ظلوا في أعمالهم دائما مرتبطين بالإسلام والقرآن، مما أضفى على أعمالهم جمالا وسحرا روحيا لا يخطئه من يتأمل أعمال أولئك الفنانين الموهوبين. ولهذا السبب أيضا استخدموا الكتابة كعنصر زخرفي، وخاصة آي القرآن الكريم، وبعض الأحاديث الشريفة، بل استعملوا أسماء الرسول ﷺ، وأسماء الخلفاء الأربعة كعناصر زخرفية، وأبدعوا في ذلك أيما إبداع. وهم في الكتابة الزخرفية يفضلون أن يكتبوا بالذهب على أرضية زرقاء داكنة أو إستبرق كما يقولون، ومن مصطلحاتهم: "خط الذهب على بحر الاستبرق".

ولا ينبغي أن ننسى تأثير الصناعات الشعبية في الفنون الإسلامية وزخرفتها. والصناعات الشعبية ليست عملا يدويا تلقائيا، بل هي خبرة فنية متوارثَة، ومهارة يدوية توارثها الإنسان ليجعل من كل شيء حوله شيئا نافعا له قيمة إنسانية.

وقد تتداخل أشكال من الفنون التقليدية مع أشكال من الفنون الشعبية، حتى لا نستطيع أن نحدد ما هو تقليدي -أي قديم وثابت إلى حد ما- وبين ما هو شعبي ومتغير إلى حد ما أيضا.. ولقد كان فن الزخرفة الإسلامية قادرا دائما على الاستفادة من الفن الشعبي الشائع، وهو "الفن الذي لم يتمكن في كثير من الأحيان البقاء، نظرا لاستخدامه مواد هشة، لا يمكنها البقاء مُددا طويلة".

لذا فإنه من الصعب تحديد كيف ومتى عضد الفن الشعبي الفنون الجميلة، ومع ذلك فإننا نلاحظ الظهور المفاجئ لأشكال وأساليب عتيقة في الزخرفة الهندسية، ويتضح لنا ذلك إذا تأملنا مجموعة شبابيك القلل التي يضمها المتحف الإسلامي بالقاهرة، وكيف أن هذه الشبابيك تجمع بين روعة التعبير وتواصله مع الفنون الإسلامية التقليدية.

وأيضا ينبغي أن لا ننسى تأثير رعاية الحكام للفنون الصغرى. فهارون الرشيد يأمر باستدعاء الفنانين لزخرفة قاعة شيدها في حديقة قصره ببغداد، فزينت بزخرفة ورسوم على نمط الرسوم الساسانية. ومعروف أن هؤلاء الخلفاء قد أنشأوا مجالس طليت جدرانها بالزخرفة والصور، وصنع الفنانون لهارون الرشيد مجموعة من الكئوس نُقشت على كل واحد منها اسْمُه.

ولم يقتصر رعاية الفن على الحكام وحدهم بل راح يقلدهم في ذلك وزراؤهم وكتّابهم وكبار موظفيهم في الدولة؛ فهؤلاء كانوا يكلفون الفنانين بأعمال فنية كتزويق جدران دورهم أو الحمامات التي تشيد لهم. وكشفت الحفائر الأثرية التي أجريت في العديد من مواضع عواصم العباسيين عن عمائر قاموا بإنشائها وزخرفتها، منها بقايا قصور الخلفاء في سامرّاء وما وجد عليها من رسوم ومناظر تصويرية. ولا شك في أن الفنان في العصر العباسي كان يجتهد في تفهّم ذوق راعي الفن ورغباته والامتثال لها. وهكذا وجدناه في كثير من العصور. ■

(*) أستاذ الفلسفة الإسلامية، كلية التربية، جامعة عين شمس / مصر.

المصادر

(1) وحدة أواصر الفنون، د. عفيف بهنسي، مجلة الوحدة، العدد ٣٩، بيروت ١٩٨٧م.

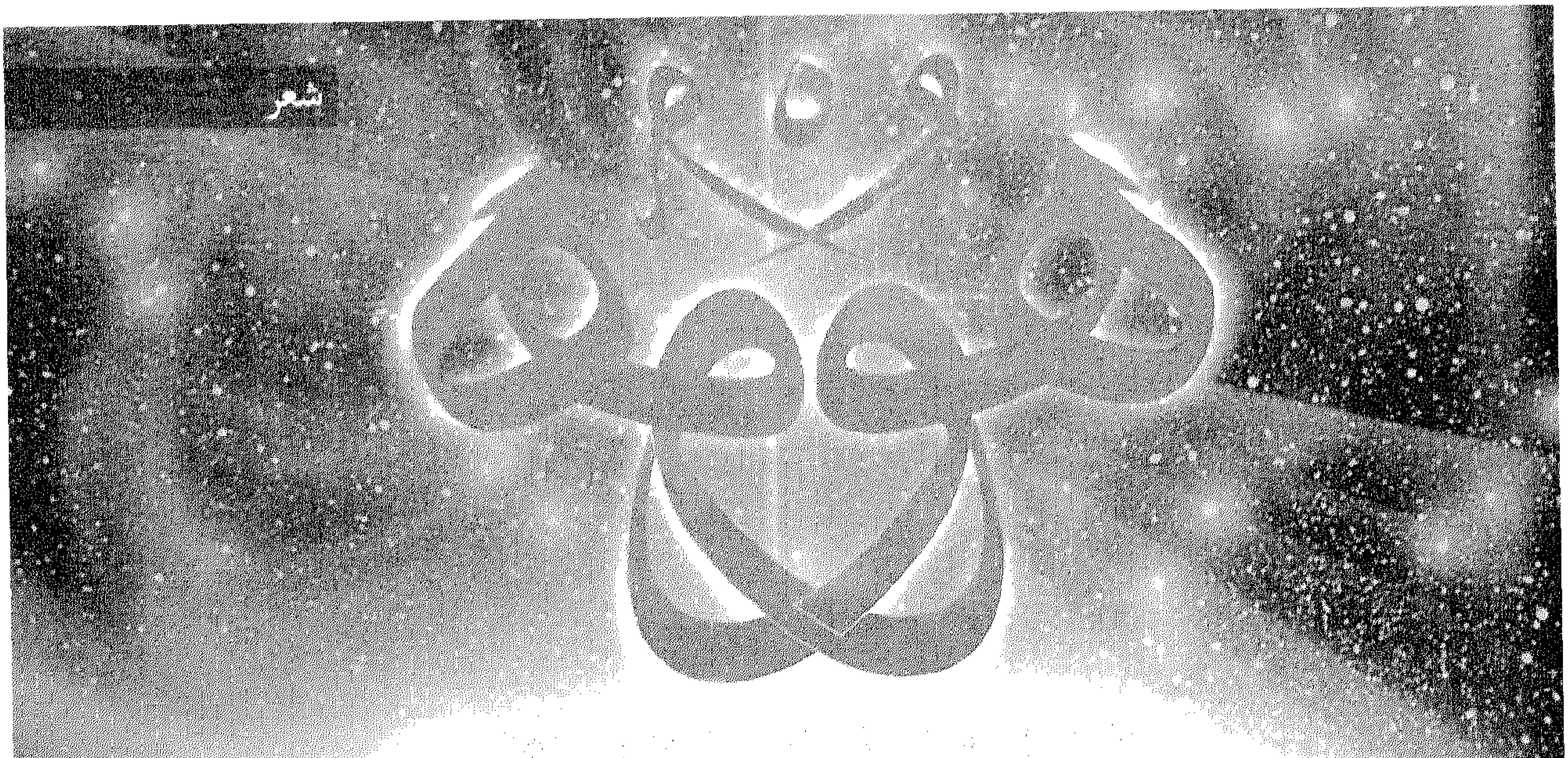
(2) فلسفة الجمال، د.أميرة مطر، الهيئة المصرية العامة للكتاب، ١٩٨٥م.

(3) نظرية الفن الإسلامي، د. إسماعيل الفاروقي، المسلم المعاصر، العدد ٢٥، الكويت ١٩٨١.

(4) فلسفة الجمال، د. عبد الفتاح الديدي، الهيئة المصرية العامة للكتاب، ١٩٨٥م.

(5) فلسفة فن التصوير الإسلامي، د. وفاء إبراهيم، الهيئة المصرية العامة للكتاب، ١٩٩٦م.

(6) الفنون والآثار الإسلامية، ريتشارد إتنجهاوزن، ت: محمد مصطفى زيادة، الأنجلو ١٩٣٥.



هو الحاضر...

نجيب فاضل*

خبره تبشير طري في كل كرة، مهما كُرّر وأُعيد،
هو الحاضر!
في كل مرة، به من الغفلة إلى الوجد، عبور جديد،
هو الحاضر!
لا أنا ولا الحبيب ولا أحد له بقاء،
هو الحاضر!
إذا ما ضاع الأحبّاء،
هو الحاضر!
إذا ما تفرق الأخلاّء،
هو الحاضر!
أقرب إليك من حبل الوريد،
هو الحاضر!
فلا تبحث عن دواء عند الطبيب،
هو الحاضر!
في السبب و العلة و المقصود،
هو الحاضر!
الفرح الإلهي وشوق الخلود،
هو الحاضر!
المُعين القوي، السند المتين الشديد،
هو الحاضر!
أوحد من الواحد، واحدٌ أحد، بذاته الأحد الوحيد
هو الحاضر!

(*) من كبار شعراء ومفكري تركيا. لقب بـ"سلطان الشعراء"، توفي سنة ١٩٨٣م. الترجمة عن التركية: عوني عمر لطفي أوغلو. وإن عنوان القصيدة "هو الحاضر" يفيد في أصله التركي الحضور، والوجود، والاستمداد، في آن واحد.

عمالقة النظافة

الكائنات المجهرية

د. ولي قارابوغه*

لو لم يتم تحويل أجساد موتى الإنسان والحيوان والنباتات التي على سطح الكرة الأرضية وإعادتُها إلى التربة ولو لعدة سنوات فقط -بَلْهَ المدة المديدة- وبقيت كما هي؛ ماذا كان يحدث؟!

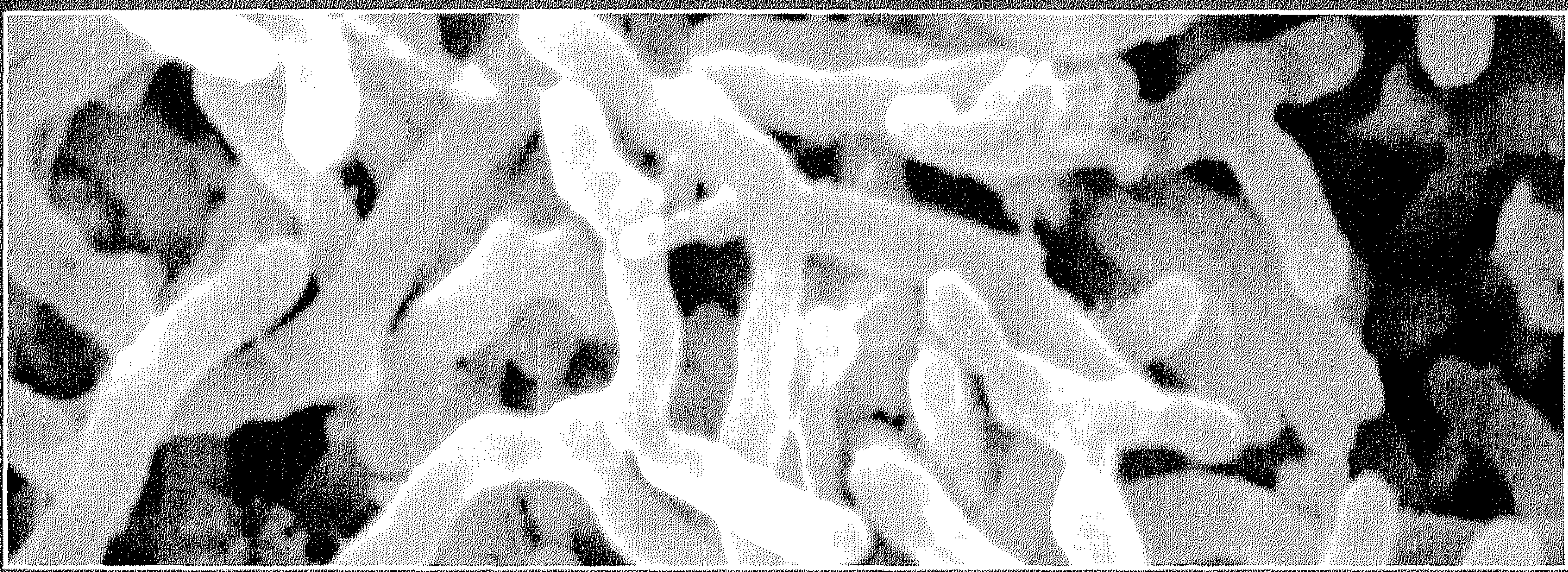
حكمة تحلل الأجساد بعد الموت

إذن لامتلأ سطح الأرض بالمخلّفات والقاذورات، ولما وجد بنو البشر مكانا حتى للسير عليها، ولغُطّيت الساحات الزراعية بالكامل بالأنقاض، ولما بقيت تربة للزراعة، ولهلكنا من الجوع. في الواقع إن تنظيف الكرة الأرضية من بقايا النباتات والحيوانات وموتى البشر، وإعادتها إلى تربة، وتغذية النباتات وتسميدها بها من جديد، لَتُعتبر من أهم الأحداث وأخطرها.

إذن كيف تم تحقيق هذه الأعمال الخارقة واستمرارها بدون أي تقصير لمئات السنين، أمام أعيننا جميعًا؟!

إن ربنا صاحبَ العلم والقدرة اللامتناهية قد أعدّ الأرض لكل مخلوقاته -وفي مقدمتها الإنسان- لتصبح مكانًا تستطيع أن تعيش عليه... وبناء على ذلك نظم آليات تنظيف هذه المنظومة الكونية؛ حيث تقوم مخلوقاتٌ بوظيفة حماية وجه الكرة الأرضية من أن تتحول إلى مزبلة وكأنها أجهزة تصفية وتنقية، وذلك يتجلّى لاسم الله "القدُّوس".

تُرى كم يتطلب تنظيف منزلنا الصغير وحارتنا المحدودة من الجهد والمال للحفاظ عليهما نظيفة كل يوم وكل ساعة؟ إن البلديات تقوم بجهود ومصاريف باهظة من أجل تنظيف شوارعنا. فالنظافة أمر صعب، وسيّدات البيوت يعرفن تمامًا كم تستغرق عملية التنظيف من الجهد يوميًّا، وكم هي عملية مرهقة. نحن والبلديات نترك الفضلات التي نجمعها في أماكن محدَّدة فقط، وحتى إنه لا يخطر على بالنا ماذا يحدث لها هنالك. كل ما نفعله؛ هو أن نتركها ونعود أدراجنا.. هذه الجبال من القمامة، تُرى كيف تُحوَّل إلى تُراب؟ ومن ينظف لنا ما وسّخناه، ويقدمه لنا من جديد نظيفا ونقيًا؟ وكيف يحقّق ذلك؟ هذا بالإضافة إلى أنه لا يَطلب أيّ أجر مقابل ذلك؟



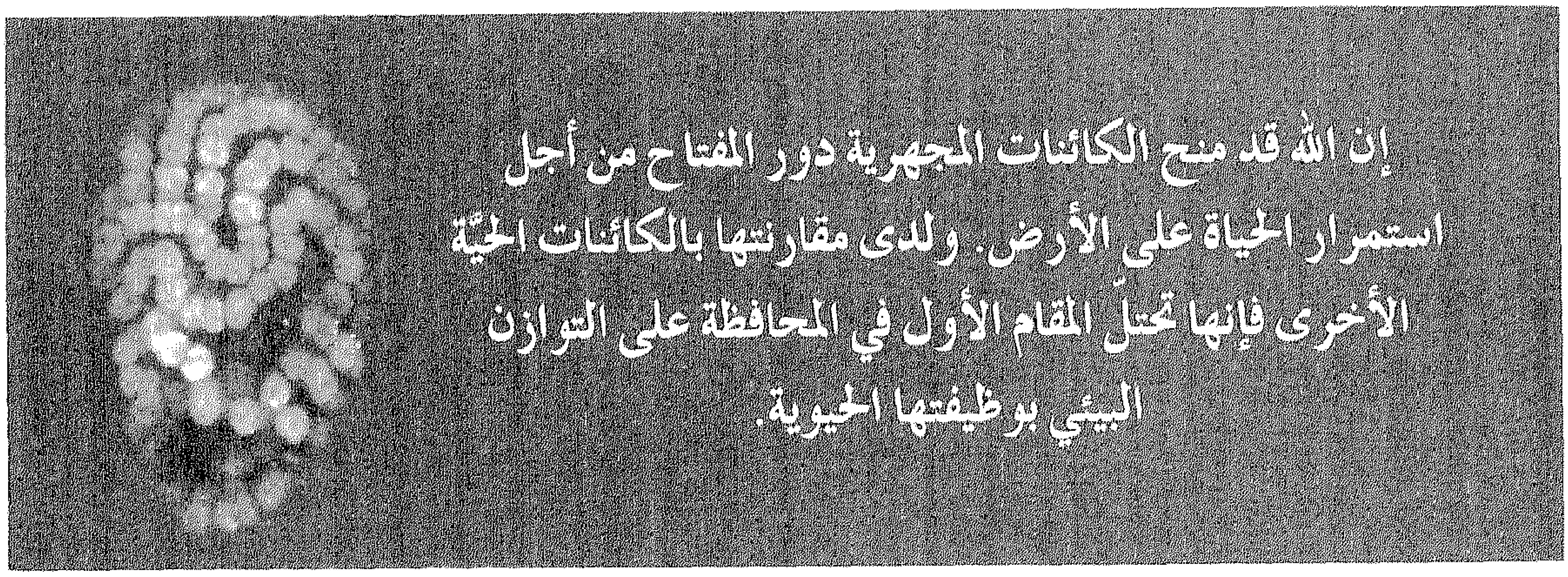
الكائنات المجهرية ودورها في التنظيف

فمن أجل تقديم إجابة على هذه الأسئلة وأمثالها، يجب التعرف على عالم المُتعضّيات المجهرية أي الكائنات الدقيقة. إن الكائنات الدقيقة هي كائنات حيّة متناهية الصغر، لا يمكن رؤيتها بالعين

المجردة؛ ولكن بعد اكتشاف الميكروسكوب (المجهر) أمكن التعرف على هذه الأحياء الصغيرة، وتمكّن عالم الإنسانية من اكتساب بعضٍ من المعارف عن تلك المخلوقات الصغيرة جدًّا خلال ١٥٠ سنة الأخيرة. وقبل هذا التاريخ لم يكن البشر على دراية أو علم بأنهم يتعايشون مع تلك الأحياء الدقيقة التي لا تُرى بالعين المجردة. إن مجموع الكثافة العددية لهذه المخلوقات التي لا تُرى بالعين المجردة تزيد عن مجموع كثافة البشر والحيوانات التي على وجه الكرة الأرضية بخمس وعشرين مرة. فكان الإنسان يرى أصناف الحيوانات التي تشغل جزءً قليلا من الأرض، ولكنه كان غافلا عن هذا الكم الهائل من الكائنات المجهرية الدقيقة.

وكما توجد آلاف الأصناف من الفيلة والحمام والأرانب والحيتان والنمل في عالم الحيوانات، فكذلك هناك أنواع كثيرة جدًّا من الكائنات المجهرية الدقيقة.

إن الكائنات المجهرية الدقيقة غير مرغوبة أو محبوبة، لأن بني البشر يتذكرونها ويقْرنونها دائماً بالأمراض والأوبئة القاتلة التي أحْدثتها طوال التاريخ. بينما الواقع؛ أن الغالبية العظمى من الكائنات الحيَّة الدقيقة لا علاقة لها ألبتّة بالأمراض. ففي مقابل الآلاف من البكتريا، فإن قسما ضئيلا جدًّا من هذه الكائنات المجهرية الدقيقة هي التي تضر بالإنسان. فالقسم الذي يسبب المرض للإنسان من هذه الكائنات الدقيقة كلها ربما لا يمثل واحدًا في المليار من بين كل هذه المتعضيات المجهرية. ففي حالة مراعاة البشر لقواعد النظافة وتطبيقها؛ فإن هذه الكائنات الدقيقة -وحتى التي تُحدث الأمراض-، ستسهم في الحفاظ على التوازن الطبيعي بدلاً من أن تُحدث المرض. وليست الكائنات المجهرية الدقيقة هي السبب في الأمراض بل السبب هو الإنسان الذي لا يراعي أو يهتمّ بالنظافة.



ويمكن دراسة الكائنات المجهرية الدقيقة تحت أربعة أنواع رئيسة: ١-البكتريات، ٢-الفيروسات، ٣-الفطريات، ٤-الحيوانات الطفيلية ذات الخلية الواحدة أو المتعددة الخلايا.

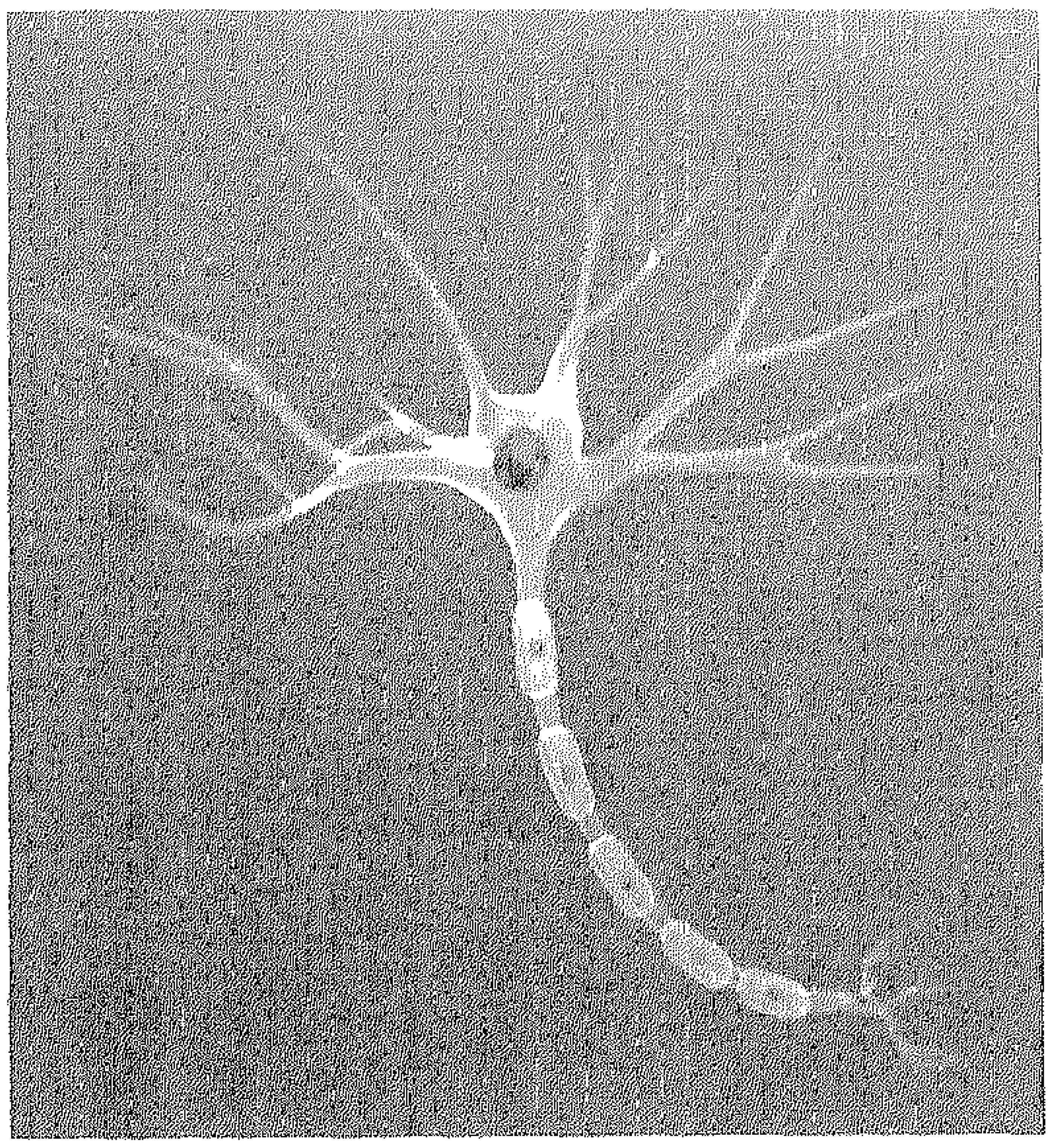
إن الكائنات المجهرية الدقيقة موجودة في كل مكان؛ فهي تعيش في التربة والماء وعلى النباتات وعلى أجساد الحيوانات. وتحملها التيارات الهوائية من على سطح الأرض إلى الطبقات العليا من الجو ومن قارة إلى أخرى. وفي ملعقة واحدة من التراب توجد الملايين من البكتريا. كما أن الحيوانات وبني البشر يحملون الكثير جدًّا من الكائنات المجهرية الدقيقة؛ ففي مقابل كل عشرة تريليونات من الخلايا في الإنسان توجد مائة تريليون من الكائنات الدقيقة، بحيث إن كل خلية بشرية يقابلها عشر من الكائنات المجهرية.

علاوة على ذلك لو سلّمنا أن الكائنات المجهرية الدقيقة هي السبب في المرض، فالمضادات الحيوية التي تستخدم في علاج الأمراض هي أيضًا مستخلصة من الكائنات الدقيقة؛ فالقدرة التي أوجدت المرض وضعت الدواء في ثنايا الداء. أما الكائنات المجهرية الدقيقة التي تلعب دورًا مهمًّا في صناعة العديد من موادنا الغذائية اعتبارًا من الزبادي إلى الأجبان والخبز وحتى الخل فهي عالم آخر. ولهذا السبب، فعند تقييم المخلوقات يجب أن نُقيّمها ليس من زاوية واحدة، بل في نطاق الوظائف الكليّة الموجودة في النظام البيئي بشكل عام.

إن الله قد منح الكائنات المجهرية دور المفتاح من أجل استمرار الحياة على الأرض. ولدى مقارنتها بالكائنات الحيّة الأخرى فإنها تحتلّ المقام الأول في المحافظة على التوازن البيئي بوظيفتها الحيوية،

رغم حرمانها من ميّزات عدة مثل العقل والشعور والمخ والنظام العصبي.

فمن أجل تغذية النباتات وتسميدها تُستخدم المخلفات الحيوانية والزراعية، ولكن هذه المخلفات هي جزيئات عضوية يجب أن تحول وتفتت إلى جزيئاتها اللاعضوية، أي إلى حالتها الأصلية. وإذا لم يحدث ذلك، فإن جذور النباتات لا تستطيع أن تمتص هذه الـذرات. فالكائنات المجهرية هي التي تنفّذ عملية تحويل موتى الحيوانات والنباتات إلى تراب بحيث يمكن للنباتات أن تمتصها.



ولا بد لتحويل كل عنصر كيميائي مِن عناصرِ ذوات الروح الميّتة، وتغييرها إلى حالة لاعضوية في التربة؛ من صنف خاص من الكائنات المجهرية. ولكي يقوم كل عنصر في التربة بتقديم خدمة للنبات، فإن المشاركة بين الكائنات المجهرية المتنوعة أمر ضروري لا يمكن الاستغناء عنه لاستمرار الحياة. والحقيقة أن هذه العمليات هي أكثر تعقيدًا من العمليات التي تجري أثناء الإنتاج في مصنع للسيارات.

الكائنات المجهرية وتوازن الكربون

إن الكائنات المجهرية الدقيقة المختلفة الأنواع مكلّفة بوظائف في عملية تحويل كل عنصر من عناصر الفوسفور والحديد والزنك وكل عنصر من العناصر الأخرى إلى أشكال لاعضوية. إن ما يربو على ٨٠ نوعا من العناصر توجد في الأحياء في حالة مركبات عضوية، فتفتيت كل عنصر من هذه العناصر من قبل مجموعة مختلفة من الكائنات المجهرية الدقيقة، وتقديمها لعالم الأحياء لهو تنظيم مُحَيّر ومدهش.

إن كلا منا مُحاط من الداخل ومن الخارج بكائنات مجهرية دقيقة لا تُحصى ولا تُعد، تجعل الحياة تستمر بشكل مشترك وتتغير بشكل مطرد ومتوازن معنا ومع بعضها البعض.

وعندما اكتشف سنة ١٨٥٠ أن الكائنات المجهرية الدقيقة كانت سببًا في أمراض مُهلكة ومعدية، أعلن الإنسان عداوته الضارية لهذه المخلوقات الدقيقة. وفي الحقيقة لم تكن هذه الكائنات هي المذنبة بل كان الإنسان هو المدان. فخلال الحرب التي بدأها القادة الظلَمة الذين لا يقيمون وزنًا أو حقًّا للإنسان والإنسانية بسبب أنانيتهم الذاتية، ولعدم اهتمام الكتل العسكرية بالنظافة، والاستخدام الأخرق لمصادر ومواد الغذاء في الدول الفقيرة من قبل الدول الأخرى، وعدم إعطاء العناية الكافية لنظافة البيئة وأجسام البشر... بسبب هذه العوامل كلها أصيبت البشرية بأوبئة الفتاكة التي أودت بحياة ثُلث سكّان القارات طوال التاريخ.

لو استطعنا نحن كعقلاء أن نستوعب الحكمة من خلق هذه الكائنات الحيَّة؛ ولو بذلنا جهودنا من أجل منع تطور الأوساط المسببة للأوبئة الفتاكة؛ ولو فكّرنا أن المضادات الحيوية التي تستعمل لبعض الأمراض التي تظهر من حين لآخر إنما هي من الكائنات المجهرية الدقيقة أيضًا، وأننا إنما نأكل أغذيتنا بدءً من الخبز حتى الأجبان بواسطة الكائنات الدقيقة التي يُسمى جزء منها الخميرة؛ والأهم من كل ذلك لو استطعنا أن نُمْعن النظر والتفكير في كمون هذه الكائنات الحيَّة التي لا تُرى بالعين المجردة تحت هذا التوازن البديع المتكامل... لو فكّرنا في ذلك كله لأمكننا أن ندرك الرحمة والشفقة التي أولانا إياها ربنا صاحبُ القدرة اللانهائية.

إن الكائنات المجهرية الدقيقة التي تجعل وجه هذه الأرض الشاسعة لامعةً ناصعة، والتي تستحق أن تسمّى "عمالقة النظافة" بما تقوم به من أعمال... لتُظهر حكمة الخلق الباهرة ونظام الكون المتكامل العجيب، وتجليات اسم الله "القدوس" التي تشمل كل الوجود. ■

(*) كاتب وباحث تركي. الترجمة عن التركية: الصفصافي أحمد القطوري.



خصائص السرد القصصي في القرآن الكريم

أ.د. محمد مشرف يوسف خضر*

القصة القرآنية هي قصة لها أهدافها التي ترجع إلى طبيعة الكتاب الكريم؛ فهو كتاب دعوة، والقصص فيه كذلك وسيلة من وسائل الدعوة. فدائما تأتي القصة فيه لأهداف تحققها، وغايات تسعى إليها ﴿فَاقْصُصِ الْقَصَصَ لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ﴾(الأعراف:١٧٦)، ﴿وَكُلاًّ نَقُصُّ عَلَيْكَ مِنْ أَنْبَاءِ الرُّسُلِ مَا نُثَبِّتُ بِهِ فُؤَادَكَ﴾(هود:١٢٠)، ﴿لَقَدْ كَانَ فِي قَصَصِهِمْ عِبْرَةٌ لأُولِي الأَلْبَابِ﴾(يوسف:١١١).

وقد كثر القول حول القصص القرآني كثرة توهم بانتهاء القول حوله، وتشكك في احتمال تقديم جديد في هذا الصدد؛ ولكن القرآن كتاب متجدد لا يَخلق على مر الدهر، وهو صالح لكل جيل؛ ومن هنا كانت المحاولة دائما مأجورة، وأقرب الأجر جديد يشعر المرء أنه وصل إليه، أو قدمه، وهل شيء أشرف من خدمة القرآن!

وهنا نتتبع خصائص القصص القرآني تتبعا نرى فيه مظنة تقديم الجديد، من حيث إن المنهج الذي سنتناوله منهج جديد؛ هو المنهج السردي الذي يبدأ بتقسيم إجرائي للعمل القصصي إلى قسمين هما المعنى والمبنى، أو المتن الحكائي والمبنى الحكائي بتعبير الشكلي الروسي "توماشفيسكي". وحديثنا عن الخصائص هو حديث عن نتائج دراسات طويلة لا نرى داعيًا لذكرها، لدلالة المذكور عليها، ونبدأ بالمتن الحكائي:

خصائص المتن القصصي في القرآن الكريم

إن متتبع القصة في الكتاب الحكيم يجد أن ثم قصصا يرد أكثر من مرة في مواضع مختلفة، وآخر يرد ذكره مرة واحدة فقط، وأن النوع الأول يأتي في كل مرة يذكر فيها بشكل مختلف، كما نرى في قصص: آدم ونوح وهود وصالح ولوط وشعيب وموسى عليهم السلام... وفيها جميعا نجد نواة وظيفية تتكرر، فيما عدا قصص آدم عليه السلام الذي يمثل مقدمة وسببا في وجود هذه النواة. نقرأ في ختام قصة آدم عليه السلام قوله تعالى ﴿قُلْنَا اهْبِطُوا مِنْهَا جَمِيعًا فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُمْ مِنِّي هُدًى فَمَنْ تَبِعَ هُدَايَ فَلا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلا هُمْ يَحْزَنُونَ ۞ وَالَّذِينَ كَفَرُوا وَكَذَّبُوا بِآيَاتِنَا أُولَئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ﴾(البقرة: ٣٨-٣٩). ثم تتوالى القصص بعد ذلك: يأتي الهدى من الله، فيتبعه الناجون، ويكذّب به الهالكون. ومن ثم كانت تلك النواة الوظيفية التي انبنى عليها جميع القصص التالي:

١ - الدعوة إلى عبادة الله وحده.

٢ - الرفض والاستكبار.

٣ - نجاة المؤمنين، وإهلاك الكافرين.

هذه البنية تقابلنا في كل مرة في القصص المذكور، تتغير الشخصيات، بينما تظل وظائفها ثابتة؛ تظلّ الدعوة، ويظلّ التكذيب، وتظل العاقبة... وكأنها قصة واحدة تتكرر حلقاتها على الصورة نفسها، كلما كانت فترة نسي فيها الإنسان عداوة الشيطان ووعيده القديم.

غـــير أن الهدف الذي تأتي من أجله القصة -من قصص النبي الواحد- يجعلها تختلف في كل مـــرة في بنيتها الوظيفية؛ فيكون التركيز على وظائف دون غيرهـــا، ويكون بحضور وظائف أو غياب أخرى، مما يؤثر في متتالية الوظائف، فيجعلها بالتالي قصة جديدة في كل مرة.

خصائص البنية الزمَنية في القصص القرآني

وإن مراجعة ســـريعة للبنية الزمنية في القصص القرآني من خلال ملاحظة الإيقاع الزمني، المتمثل في الحركات الســـردية الأربع: الحذف، والوقفة الوصفية، وبينهما وسيطان هما: المشهد والمجمل؛ وكذلـــك من خلال ملاحظـــة المفارقات الزمنيـــة أو علاقات الترتيب... إن مراجعة سريعة تُرينا مَدى هيمنة المشهد الحواري علي السرد القصصي القرآني. ومن خصائص المشهد أننا فيه نجد التحام الزمن القصصي بالزمن الســـردي، ويصير حاضر السرد هو حاضر الأحداث، فيتحول المتلقي إلى مشـــاهد يعاين الوقائع بنفســـه، ينفعل بها، ويتفاعل معها كأنه واحد من شـــخصيات المشـــهد. ويتناوب الحذف، والإيجاز، والمشـــهد كثيرا؛ الحذف يتخطى أحداثا لا يحتاجها الموقف القصصي، وهو يتراوح بين أن يكون حذفا ضمنيا، يستدل عليه من ثغرة في التسلسل الزمني، أو انحلال للاستمرارية السردية كما نجد مثلا في قوله تعالى: ﴿فَإِذَا سَـــوَّيْتُهُ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِنْ رُوحِي فَقَعُوا لَهُ سَـــاجِدِينَ ۞ فَسَجَدَ الْمَلَائِكَةُ كُلُّهُمْ أَجْمَعُونَ﴾(ص:٧٢-٧٣)، وجُلّ حذوف القصص القرآني من هذا النمط. وفي مواطن كثيرة نســـتطيع الاستدلال على الحذف من مواضع أخري في سياقات مختلفة، ومرة واحدة فقط نجد حذفا محدود المدة، في قوله تعالى من قصص نوح عليه السلام في ســـورة العنكبوت: ﴿وَلَقَدْ أَرْسَـــلْنَا نُوحًا إِلَى قَوْمِهِ فَلَبِثَ فِيهِمْ أَلْفَ سَـــنَةٍ إِلَّا خَمْسِـــينَ عَامًا فَأَخَذَهُمُ الطُّوفَانُ وَهُمْ ظَالِمُونَ﴾(العنكبوت:١٤).

والإيجاز يعرض للأحداث عرضا سريعا مجملا لأهمية ذكرها في السياق ولكن في غير تفصيل، كما في وظيفة الإهلاك والنجاة، في قصص الأنبياء، التي تأتي -غالبا- موجزة؛ فتدل من ناحية على هـــوان الهالكين على الله عز وجل، ومن ناحية أخرى على قدرة الله تعالى المطلقة. والمشـــهد يعرض الأحداث الرئيسية المشكلة للعمـــود الفقري للنص، وهو يأتي غالبا على هيئة حوار خارجي أو مونولوج داخلي. والمشهد، كما يقول "عبد العالي بو طيب"، يعطي القارئ إحساسا بالمشاركة الحادة في الفعل، إذ إنه يسمع عنه معاصرا وقوعه كما يقع بالضبط، في لحظة وقوعه نفســـها. ولا يفصل بين الفعل وسماعه ســـوى البرهة التي يستغرقها صوت الروائي في قوله، لذلك يســـتخدم المشهد اللحظات المشحونة، ويقدم الراوي دائما ذروة سياق من الأفعال وتأزمها في مشهد.

ويرى "ويليام هاندي"، بحق، أن المشـــهد في العمل السردي يمكن أن يُنظـــر إليه على أنه مماثل للصورة في الشـــعر، ومن ثم يضيف أن "كلا من المشهد والصورة يمتلك الخصائص الأساسية نفسها:

١-كلاهما يعرض أكثر مما يوحي.
٢-كلاهما يشكل مظهرا مفردا لمعنى مضاعف.
٣-كلاهما يقصد إلى صياغة الخصوصية أي نسيج التجربة.
٤-كلاهما موجه أولا إلى الحس، وليس إلى الفكر المجرد.
٥-كلاهمـــا يتخطى المفهوم في احتوائه معنى أكبر مما يســـتطيع المفهوم أن يصوغه من خلال طبيعته الأصلية."

إنها اللحظات الأكثر توترا في القصة يعرضها المشهد الحواري (غالبـــا) في القصة القرآنية، كما نـــرى مثلا في قصص الأنبياء، حيث تأتي دائما وظيفتَا "الدعوة" و"التكذيب" على صورة مشهد حواري. وهما الوظيفتان الأكثر أهمية في القصص القرآني بوصفه وسيلة دعوة. والوصف يكاد لا يوجد في القصص القرآني، اللهم إلا في مواضع معدودة، أظهرهـــا ما نراه من وصف لقارون في سورة القصص ﴿فَخَرَجَ عَلَى قَوْمِهِ فِي زِينَتِهِ﴾(القصص:٧٩) وكأنه دمْية تمثل زينة الحياة الدنيـــا، تُعرض في صمت ليفتن الناس بها. وكذلك وصف صاحب الجنّتين في سورة الكهف حين ضاعت جنّتاه ﴿وَأُحِيطَ بِثَمَرِهِ فَأَصْبَحَ يُقَلِّبُ كَفَّيْهِ عَلَى مَا أَنْفَقَ فِيهَا وَهِيَ خَاوِيَةٌ عَلَى عُرُوشِهَا﴾(الكهف:٤٢).

أما بالنسبة لعلاقات الترتيب بين زمني القصة والسرد فكثيرا ما تبدأ القصص باستباق، يهيّئ نفس المتلقي، ويوجه توقعاته، على نحو ما نجد في قصص آدم عليه السلام حيث هناك الاســـتباق الإعلاني الذي يتصدر أكثـــر القصص. وفيه يخبر المولى عز وجل الملائكة بأنه ســـيخلق بشـــرا من طين، وما يلي بعد ذلك يترتب بوجه من الوجوه على هذا الاســـتباق، كما في رفض إبليس السجود لمخلوق طيني. وحين تبدأ قصة آدم في سورة طه باستباق داخلي عن نســـيان آدم عليه السلام، فإن السرد يســـير من ثم على هذا النحو ليذكر قصة نسيان آدم. ومثل هذا نراه كذلك في قصص سورة

القمر، التي تبدأ جميعها باستباق يحدد موضوع القصة، الذي كان دائما تكذيب قوم نبي من الأنبياء.

والاستباق المختلط في القصص القرآني له خصوصيته التي تتمثل في انفتاحه على المستقبل البعيد المتمثل في القيامة، كما في قصة آدم عليه السلام: ﴿وَمَنْ أَعْرَضَ عَنْ ذِكْرِي فَإِنَّ لَهُ مَعِيشَةً ضَنْكًا وَنَحْشُرُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ أَعْمَى ۝ قَالَ رَبِّ لِمَ حَشَرْتَنِي أَعْمَى وَقَدْ كُنْتُ بَصِيرًا ۝ قَالَ كَذَلِكَ أَتَتْكَ آيَاتُنَا فَنَسِيتَهَا وَكَذَلِكَ الْيَوْمَ تُنْسَى﴾(طه:١٢٤-١٢٦). أو كما نرى في قصة ذي القرنين: ﴿قَالَ هَذَا رَحْمَةٌ مِنْ رَبِّي فَإِذَا جَاءَ وَعْدُ رَبِّي جَعَلَهُ دَكَّاءَ وَكَانَ وَعْدُ رَبِّي حَقًّا ۝ وَتَرَكْنَا بَعْضَهُمْ يَوْمَئِذٍ يَمُوجُ فِي بَعْضٍ وَنُفِخَ فِي الصُّورِ فَجَمَعْنَاهُمْ جَمْعًا﴾(الكهف:٩٨-٩٩).

والاسترجاع كذلك يقابلنا في القصص القرآني، ولكن بصورة أقلّ من الاستباق الذي يبدأ به أكثر القصص؛ فنجد الاسترجاع مثلا مختلطا باستباق العليم في قصة هود عليه السلام: ﴿وَأُتْبِعُوا فِي هَذِهِ الدُّنْيَا لَعْنَةً وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ أَلَا إِنَّ عَادًا كَفَرُوا رَبَّهُمْ أَلَا بُعْدًا لِعَادٍ قَوْمِ هُودٍ﴾(هود:٦٠) وهذا الاستباق خاص بالقصة القرآنية؛ وهذا راجع أولا لطبيعة صاحب الخطاب عز وجل عالم الغيب والشهادة؛ وثانيا لطبيعة القصة القرآنية التي هي وسيلة رئيسية من وسائل الدعوة. وربما تركّز الاسترجاع في قصص نبي من الأنبياء، كما في قصص لوط عليه السلام من سور القمر والشعراء والحجر والعنكبوت؛ ففي سورة القمر يأتي الاسترجاع للتذكير بأن ما حل بقومه إنما كان جزاء وفاقا لما قابلوا به دعوته لهم وإنذاره من تجاهل وتكذيب. ومثل ذلك في سورة الشعراء؛ بينما في سورتَي الحجر والعنكبوت، يأتي استرجاع جانب من قصص إبراهيم عليه السلام. وفي قصة موسى والعبد الصالح نجد الاسترجاع أربع مرات متتالية.

وتجدر الإشارة إلى أن القصة القرآنية، لوجودها في فضاء النص القرآني، تخضع لزمنيتين مختلفتين: الأولى تتعلق بزمن القصة القرآنية، وتتعلق الثانية بزمن النص القرآني. زمن القصة يبدأ مع الدخول الفعلي في عالمها، وزمن النص القرآني يحيط بزمن القصة، ويحتويه. ويمكن أن نعده زمنا حاضرا للسرد، أو زمنا أولا تقاس المفارقات الزمنية الكبرى بالنسبة إليه. فالقصة بكاملها تكون استرجاعا أو استباقا حين تتعلق بهذا الحاضر الزمني للنص، كما نرى مثلا في قصة أصحاب الجنة: ﴿إِنَّا بَلَوْنَاهُمْ كَمَا بَلَوْنَا أَصْحَابَ الْجَنَّةِ إِذْ أَقْسَمُوا لَيَصْرِمُنَّهَا مُصْبِحِينَ﴾(القلم:١٧)، أو في قصص سورة القمر: ﴿كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ فَكَذَّبُوا عَبْدَنَا وَقَالُوا مَجْنُونٌ وَازْدُجِرَ﴾(القمر:٩) وفي غيرها.

خصائص الصيغة السردية في القرآن الكريم

في القصص القرآني يتجلى من صيغ الخطاب صيغة المنقول المباشر التي تهيمن على الحكي، وتطبعه من ثم بطابع أمانة النقل للقول الوارد، وبهذه الصيغة ترد الوظائف المهمة في القصص. ففي قصص آدم عليه السلام، تأتي الوحدة السردية الأولى -وهي إخبار الله تعالى الملائكة بخلق آدم- دائما في صيغة الخطاب المنقول المباشر، التي تحمل إلينا حوار الله والملائكة في هذا الشأن ﴿وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَائِكَةِ إِنِّي جَاعِلٌ فِي الْأَرْضِ خَلِيفَةً قَالُوا أَتَجْعَلُ فِيهَا مَنْ يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ الدِّمَاءَ وَنَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَ قَالَ إِنِّي أَعْلَمُ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾(البقرة:٣٠). ودائما يأتي الإخبار عن الخلق بضمير المفرد الغائب، ودائما بصيغة واحدة لا تتغير ﴿وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَائِكَةِ﴾ في سور (ص:٧١) و(الحجر:٢٨) و(البقرة:٣٠).

يلي هذا الوحدة الثانية "سجود الملائكة وامتناع إبليس" التي تأتي بالصيغة نفسها، ودائما بضمير الجماعة الدال على العظمة، ودائما بالصيغة الواحدة التي لا تتغير: ﴿وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَائِكَةِ اسْجُدُوا لِآدَمَ فَسَجَدُوا إِلَّا إِبْلِيسَ﴾ في سور (طه:١١٦) و(الكهف:٥٠) و(الإسراء:٦١) و(البقرة:٣٤). وتكتمل الوحدة بالصيغة ذاتها، لتعرض لطاعة الملائكة، واستكبار إبليس، وامتناعه عن السجود، ومن ثم ذلك الحوار الطويل بينه وبين الله، الذي يأتي في صيغة المنقول المباشر لأهميته الشديدة، لا في قصة آدم فحسب، وإنما -كما قلنا من قبل- في قصة الحياة بصفة عامة.

وفي قصص الأنبياء، نجد دائما وظيفتَي الدعوة والتكذيب تأتيان بهذه الصيغة (المنقول المباشر) بعد أن يتم التحضير لهما بصيغة الخطاب المسرود. ففي سورة الأعراف ﴿لَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَى قَوْمِهِ فَقَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ﴾(الأعراف:٥٩)، ﴿وَإِلَى عَادٍ أَخَاهُمْ هُودًا قَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ﴾(الأعراف:٦٥)، ﴿وَإِلَى ثَمُودَ أَخَاهُمْ صَالِحًا قَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ﴾(الأعراف:٧٣)، ﴿وَإِلَى مَدْيَنَ أَخَاهُمْ شُعَيْبًا قَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ﴾(الأعراف:٨٥).. الصيغة دائما واحدة، والدعوة أيضا واحدة.

وهذا أيضا ما نجده في سورة هود وفي سورة الشعراء ﴿كَذَّبَتْ قَوْمُ نُوحٍ الْمُرْسَلِينَ ۞ إِذْ قَالَ لَهُمْ أَخُوهُمْ نُوحٌ أَلاَ تَتَّقُونَ ۞ إِنِّي لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ﴾(الشعراء:١٠٥-١٠٧)؛ ﴿كَذَّبَتْ عَادٌ الْمُرْسَلِينَ ۞ إِذْ قَالَ لَهُمْ أَخُوهُمْ هُودٌ أَلاَ تَتَّقُونَ ۞ إِنِّي لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ﴾(الشعراء:١٢٣-١٢٥)؛ ﴿كَذَّبَتْ ثَمُودُ الْمُرْسَلِينَ ۞ إِذْ قَالَ لَهُمْ أَخُوهُمْ صَالِحٌ أَلاَ تَتَّقُونَ ۞ إِنِّي لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ﴾(الشعراء:١٤١-١٤٣)؛ ﴿كَذَّبَتْ قَوْمُ لُوطٍ الْمُرْسَلِينَ ۞ إِذْ قَالَ لَهُمْ أَخُوهُمْ لُوطٌ أَلاَ تَتَّقُونَ ۞ إِنِّي لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ﴾(الشعراء:١٦٠-١٦٢)؛ ﴿كَذَّبَ أَصْحَابُ لْئَيْكَةِ الْمُرْسَلِينَ ۞ إِذْ قَالَ لَهُمْ شُعَيْبٌ أَلاَ تَتَّقُونَ ۞ إِنِّي لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ﴾(الشعراء:١٧٦-١٧٨). هذا الاتحاد في الصيغة الكلية للدعوة، بل في كلمات الدعوة، يجعلنا وكأننا أمام نبي واحد، ورسالة واحدة. وإنما لكذلك، وما يزال قول الله تعالى لدى هبوط آدم ﵇ إلى الأرض ﴿قُلْنَا اهْبِطُوا مِنْهَا جَمِيعًا فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُمْ مِنِّي هُدًى فَمَنْ تَبِعَ هُدَايَ فَلا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾(البقرة:٣٨) يتردد ما دامت السماوات والأرض، وما زال الهدى يأتي من الله، فمن تبعه نَجا وسلم.

خصائص الرؤية السردية في القرآن الكريم

من خلال تتبع تقنيات الرؤية السردية في القصص القرآني نعاين هيمنة الرؤية المحايدة على الحكي. وفي هذه التقنية يتم تنظيم الحكي من موقع خارجي، بينما تُترك شخصيات السرد تتحدث بأصواتها دون تدخل، مما يعطي انطباعا للمتلقي بصدق ما يتلقى، حين يجد نفسه مشاركا في الحكي بوصفه مشاهدا حاضرا ومستمعا لما يجرى من حوار. تتجلى هذه الرؤية في وظيفة الدعوة، من قصص الأنبياء، وما يصاحبها من جدل التكذيب، حيث الحاجة إلى معرفة التفاصيل المتلبسة بالدعوة، كعلاقة الرسول بقومه، ومنهجه في دعوتهم، وهدفه منها... وكل هذا يجري أمام عينَي المتلقي من خلال الرؤية المحايدة، فيرى بموضوعية، وعليه من ثم أن يحكم بعقله على ما رأى، وأن يجنب كل حكم للهوى، أو للعادة.

ويظهر كذلك، وإن بصورة أقلّ، تقنية الرؤية الذاتية، التي تُلحق دائما بنا الفاعلية الدالة على العظمة، ومن خلالها يتم حكي الأحداث الفاصلة في القصص، تلك التي تحتاج إلى قوة قاهرة متصرفة، مثل عملية الخلق، وإرسال الرسل، وإنجاء المؤمنين، وإهلاك الكافرين. فنحن نرى قصص الأنبياء في سورة القمر، تبدأ كلها بالرؤية الذاتية؛ تعرض نماذج لأمم كذبت قبل أمة محمد ﷺ، وكيف كان عذاب الله لهؤلاء المكذبين في الدنيا قبل الآخرة، فلتحذر أمة محمد أن تكذب هي الأخرى بالنذير، فهي أمة كالأمم التي توالى سرد ما حاق بها من عذاب. ولعرض صور العذاب من خلال الرؤية الذاتية أثره البيّن في النفس. فالمتكلم هو الفاعل، ولن يكلفه الأمر شيئا ﴿كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ﴾(القمر:٩)، وعاد وثمود وقوم لوط، وآل فرعون، ﴿فَفَتَحْنَا أَبْوَابَ السَّمَاءِ بِمَاءٍ مُنْهَمِرٍ﴾(القمر:١١)، ﴿وَفَجَّرْنَا الأَرْضَ عُيُونًا فَالْتَقَى الْمَاءُ عَلَى أَمْرٍ قَدْ قُدِرَ﴾(القمر:١٢)، ﴿إِنَّا أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحًا صَرْصَرًا فِي يَوْمِ نَحْسٍ مُسْتَمِرٍّ﴾(القمر:١٩)، ﴿تَنْزِعُ النَّاسَ كَأَنَّهُمْ أَعْجَازُ نَخْلٍ مُنْقَعِرٍ﴾(القمر:٢٠)، ﴿إِنَّا أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ صَيْحَةً وَاحِدَةً فَكَانُوا كَهَشِيمِ الْمُحْتَظِرِ﴾(القمر:٣١)، ﴿وَلَقَدْ صَبَّحَهُمْ بُكْرَةً عَذَابٌ مُسْتَقِرٌّ﴾(القمر:٣٨)، ﴿كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا كُلِّهَا فَأَخَذْنَاهُمْ أَخْذَ عَزِيزٍ مُقْتَدِرٍ﴾(القمر:٤٢)، ﴿أَكُفَّارُكُمْ خَيْرٌ مِنْ أُولَئِكُمْ أَمْ لَكُمْ بَرَاءَةٌ فِي الزُّبُرِ﴾(القمر:٤٣).

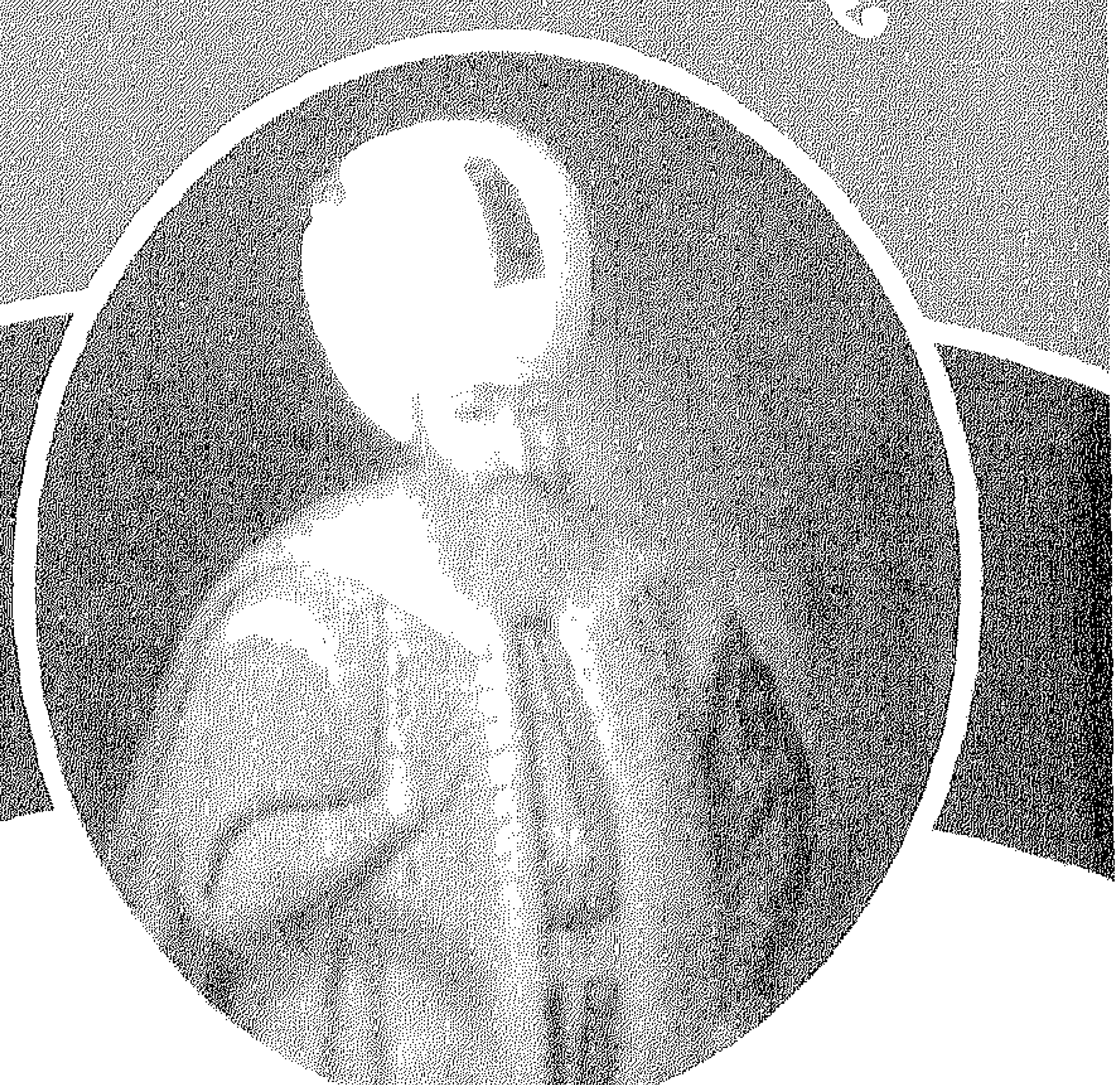
يبقى بعد ذلك الرؤية الذاتية المحايدة، وهي تتخلل القصص القرآني. ومن اسمها فهي تجمع بين الرؤيتين السابقتين، مع غلبة الرؤية الذاتية فيها، وشكلها الأمثل، حيث يأتي قول الحق ﷻ من خلال ضمير العظمة الذي يأتي فاعلا في القصة والسرد على السواء ﴿وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلائِكَةِ اسْجُدُوا لآدَمَ فَسَجَدُوا إِلاَّ إِبْلِيسَ قَالَ ءَأَسْجُدُ لِمَنْ خَلَقْتَ طِينًا﴾(الإسراء:٦١) وهي قليلة وتأتي غالبا تمهيدا للرؤية المحايدة أو في أعقابها.

والرؤية المحايدة الذاتية، وهي على عكس السابقة، تغلب فيها الرؤية المحايدة، وتتمثل في نقل معنى الكلام لا نصه كما في قوله تعالى في قصص لوط ﵇ ﴿وَقَضَيْنَا إِلَيْهِ ذَلِكَ الأَمْرَ أَنَّ دَابِرَ هَؤُلاءِ مَقْطُوعٌ مُصْبِحِينَ﴾(الحجر:٦٦).

وثم ملاحظة نلفت إليها، تتمثل في تداخل الرؤيات الذي نجده في بعض المواضع في القصص القرآني، مثل ذلك القسم الخاص ببني إسرائيل في قصص موسى ﵇ من سورتَي (الأعراف:١٣٨-١٦٨) و(طه:٨٠-٩٨). فلعل هذا التداخل يأتي بقصد التوجيه النفسي للمتلقي مما يناسب ما يؤديه هذا القسم من عرض لانحراف بني إسرائيل وفساد طبيعتهم. ■

(*) جامعة طنطا، كلية الآداب، قسم اللغة العربية / مصر.

بذرة صغيرة تنشئ شجرة باسقة... من ماء مهين نشأ هذا الإنسان العظيم... ومن قطرات الماء هدرت البحار وتصاخبت الأمواج... فإياك أن تستهين بالصغير فإنك لا تدري أي كبير بالغد سيكون...!



كيف تنهار الدول؟

اورخان محمد علي*

كان عهد السلطان سليمان القانوني -في رأي معظم المؤرخين- هو العهد الذهبي للدولة العثمانية. فقد اتسعت حدود الدولة وفتحت بلدان وأمصار عديدة في هذا العهد، وعمّ الرخاء والرفاه جميع أنحاء المملكة. ولكن السلطان سليمان كان يعلم من استعراض التاريخ أن كل دولة قوية لا بد أن تضعف وتدبّ فيها عوامل الضعف والانحلال.. إذ لكل أمة أجل.. فهل سيكون هذا هو مصير الدولة العثمانية أيضا؟ أليس هناك من مهرب من هذا المصير؟ بدأت هذه الأسئلة بإشغال فكره عدة أيام يحاول أن يجد لها جوابا.

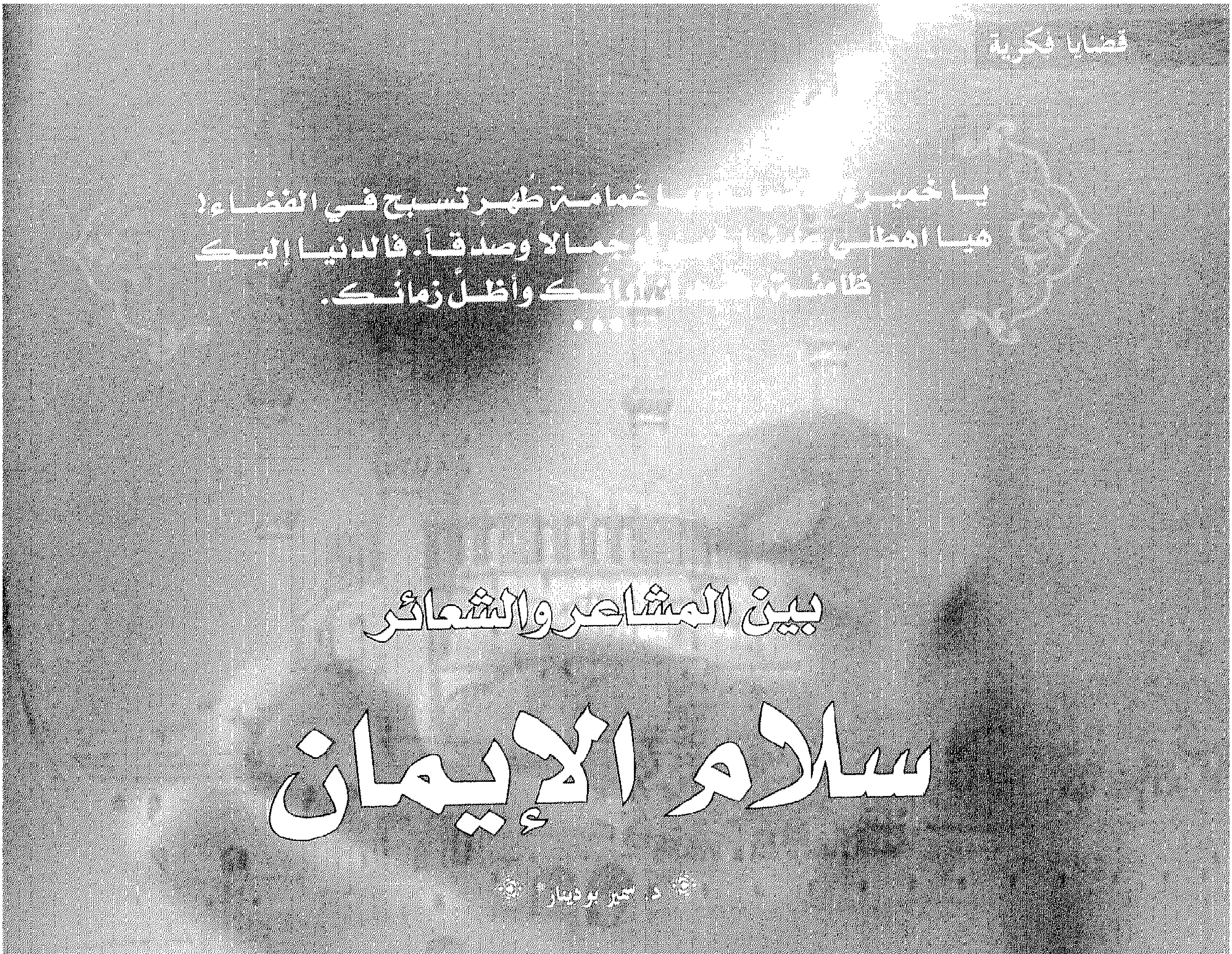
وعندما طال تفكيره وحيرته قرر طرح هذا السؤال وهذا الموضوع على العالِم المشهور "يحيى أفندي" الذي كان في الوقت نفسه أخاه من الرضاعة. لذا كتب له رسالة ضمّنها سؤاله. كان هذا العالم يقيم في تكية في منطقة "بَشكتاش" في إسطنبول. كتب إليه يقول بعد الديباجة الاعتيادية: "أنتم ملمون بمعرفة العديد من الأسرار، لذا نرجو منكم أن تتلطفوا علينا وتُعلمونا متى تنهدم الدول؟ وما عاقبة الدولة العثمانية ومصيرها؟"

كان جواب يحيى أفندي جوابا قصيرا ومحيِّرا في الوقت نفسه. قال في جوابه: "ما لي ولهذا أيها السلطان؟ ما لي أنا؟"

تعجب السلطان سليمان من هذا الجواب وتحير. أيوجد في هذا الجواب معنى سرّيّ لم يفهمه؟ ولم يجد حلاً سوى الذهاب بنفسه إلى يحيى أفندي في تكيّته. وهناك كرر السؤال نفسه وأضاف في لهجة يشوبها العتاب: "أرجو منك يا أخي أن تجيب على سؤالي وأن تعد الموضوع جديا وخبرني ماذا قصدتَ من جوابك؟"

قال يحيى أفندي: "أيها السلطان! إذا انتشر الظلم في بلد وشاع فيه الفساد وقال كل من سمع وشاهد هذا الظلم والفساد "ما لي ولهذا؟" وانشغل بنفسه فحسب.. وإذا كان الرعاة هم الذين يفترسون الغنم، وسكت من سمع بهذا وعرفه.. وإذا ارتفع صراخ الفقراء والمحتاجين والمساكين وبكاؤهم إلى السماء، ولم يسمعه سوى الشجر والمدر... عند ذاك ستلوح نهاية الدولة. وفي مثل هذه الحال تفرغ خزينة الدولة، وتهتزّ ثقة الشعب واحترامهم للدولة، ويتقلص شعور الطاعة لها، وهكذا يكون الاضمحلال قدَرا مكتوبا على الدولة لا مفر منه أبدا." ■

(*) كاتب وباحث تركي.



يا خميرة [illegible] غمامة طُهر تسبح في الفضاء! هيا اهطلي [illegible] جمالا وصدقاً. فالدنيا إليك ظامئة [illegible] وأظلّ زمانك. ...

بين المشاعر والشعائر

سلام الإيمان

د. سمير بودينار*

قيم مؤسسة على الإيمان هي قيم مطلقة في نفس من يؤمن بها كيفما كان ذلك الإيمان، وعن أي مصدر صدر. والقيم والمبادئ التي جاء بها الإسلام مطلقة في وجدان من يؤمن به صلاحية وفاعلية، سواء اتصلت بأحد جوانب الحياة الإنسانية كالجانب النفسي أو الأسري أو الاجتماعي أو الدولي، أو كانت مبادئ وقيما عامة تشمل هذه المستويات كلها كمبدأ السلام.

من هنا نرى أهمية فهم المدخل الإسلامي لفكرة السلام من خلال أصالة المبدأ في التصور الإسلامي، كما في تجليات الإيمان ومستويات السلام الذي يحققه في حياة الفرد والجماعة، استمدادا من مصدر ذلك الإيمان المطلق، بدءً من مستوى الشعار وصولا إلى منزلة الشعائر، فضلا عن اكتنافه مشاعر الإنسان المؤمن الذي تحصل له السكينة والأمان، وينعم في جوانحه بمعاني السلام الدائم المتجدد.

السلام شعارا للإسلام

إن الآصرة الوثقى للسلام بالإسلام تبدأ من مستوى الشعار، أي اسم هذا الدين نفسه. فكلمة الإسلام، وهي اسم الرسالة الموحى به من الله تعالى في القرآن الكريم: ﴿ وَرَضِيتُ لَكُمُ الإِسْلاَمَ دِينًا﴾(المائدة:٣) مشتق من المادة اللغوية "سلم" التي ترد بمعان ثلاث: أولها، معنى الخلوص والتعري من الآفات الظاهرة أو الباطنة؛ وثانيها، معنى الصلح والأمان؛ وثالثها، معنى الطاعة والإذعان.

فترى أن أحد معاني المادة اللغوية للإسلام هو الصلح والأمان، بل إن معاجم اللغة ومصادرها تبين أن كلمة "السلم" قد ترد بمعنى الإسلام. وإذا علمنا وثوق صلة الاسم في اللغة بالمعنى بَانَ أنّ شعار الإسلام نفسَه، وعنوانَه الذي يدل عليه، هو الصلح والأمان الذي جاءت به الرسالة ودعت إليه ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا ادْخُلُوا فِي السِّلْمِ كَافَّةً﴾(البقرة:٢٠٨).

ويتأكد ذلك الارتباط مع كل عناصر عقيدة المسلم؛ فمن أسماء الله تبارك وتعالى "السلام" ﴿هُوَ اللهُ الَّذِي لاَ إِلَهَ إِلاَّ هُوَ الْمَلِكُ الْقُدُّوسُ السَّلاَمُ﴾(الحشر: ٢٣)؛ والجنة التي وعد بها المؤمنون، والتي يتطلعون إليها هي "دار السلام" ﴿لَهُمْ دَارُ السَّلاَمِ عِنْدَ رَبِّهِمْ﴾(الأنعام: ١٢٧)؛ وتحية المسلمين في الدنيا والآخرة "السلام"

﴿تَحِيَّتُهُمْ فِيهَا سَلَامٌ﴾(إبراهيم:٢٣)؛ وكتاب الله تعالى نزل في ليلة كلها سلام، ﴿إِنَّا أَنْزَلْنَاهُ فِي لَيْلَةِ الْقَدْرِ﴾(القدر:١) ﴿سَلَامٌ هِيَ حَتَّى مَطْلَعِ الْفَجْرِ﴾(القدر:٥).

وقد كتب بعض مفكري المسلمين في هذا العصر عن كلمة "السلام" في حياة المسلم وبيّنوا أنها أحد أكثر ما يتردد من كلمات العالم في كل يوم بفضل رسالة الإسلام، وكونها جزءً من عبادة المسلم (الصلاة، الحج) وعلاقته بمن حوله من الناس (التحية).. أوَليس السلام إذن هو شعار الإسلام الأول؟!

السلام النفسي في الإسلام

يرى كثير من علماء الاجتماع والسياسة أن الإنسان هو منطلق العالم نحو السلام، وأن سلام العالم إنما يبدأ من النفس الإنسانية؛ فإذا عاشت هذه النفس سلاما داخليا، أثمر ذلك سيادة معاني السلام في حياة الجماعة والدولة والإنسانية جمعاء، وإذا افتقدته عزّ على العالم أن يدرك هذه الغاية أو يلمس آثارها.

من هنا يُدرك كيف أن كثيرا من المجتمعات ماضيا وحاضرا فقَدت معاني السلام في حياتها، رغم كل المبادئ المعلنة والقوانين المسطرة والشعارات المرفوعة؛ إذ تظل هذه المعاني بعيدة في غياب شروط السلام الداخلي للإنسان وأسبابه. ولهذا ينطلق التصور الإسلامي للسلام الشامل من السلام النفسيّ؛ فالإنسان الحائر المضطرب، الفاقد معاني السكينة والاطمئنان الروحي هو أبعد ما يكون عن إقامة مبادئ السلام في الحياة.

ويقوم مفهوم السلام النفسي في الإسلام على جملة مبادئ عقدية وشعائر تعبدية وقيم أخلاقية، جاءت بها الرسالة، تبلغ في مجموعها النفس الإنسانية منزلة الأمن والسلام، وتعصمها من الاضطراب والتناقض، وذلك من خلال منظومة قيم الإسلام وأحكامه عامة، ومقتضيات العقيدة والعبادة خاصة.

العقيدة مصدرا للسلام

إن الأساس الذي تقوم عليه عقيدة الإسلام وشريعته وسائر أحكامه هو الإيمان بالله وما يترتب عنه من التوكل عليه واللوذ به والإنابة إليه والاعتصام بحبله والتسليم له والأنس به ﴿الَّذِينَ آمَنُوا وَتَطْمَئِنُّ قُلُوبُهُمْ بِذِكْرِ اللهِ أَلَا بِذِكْرِ اللهِ تَطْمَئِنُّ الْقُلُوبُ﴾(الرعد: ٢٨) بكل ما يحمله الإيمان من معاني التسليم لله بقضائه والانقياد لقدره والاعتقاد في أثرهما على مسار الحياة. فالإنسان الذي يظفر بالإيمان الحقيقي يستطيع أن يتحدّى الكائنات ويتخلّص من ضيق الحوادث، مستندًا إلى قوة إيمانه فَيبحرُ متفرجًا على سفينة الحياة في خضم أمواج الأحداث العاتية بكمال الأمان والسلام. وهو أمر يدفع الإنسان إلى العمل والسعي والاجتهاد موقنا بأن قدر الله ماض وأمره نافذ؛ فلا يأسى على ما فاته فتصبح النفس نهبا لليأس، ولا يفرح بما أتاه فتشط بعيدا عن دوام التذكر أن ما بها من نعمة فمن الله، وأن ما أخطأها لم يكن ليصيبها وما أصابها لم يكن ليخطئها وأن لها ربًّا قادرا متصرفا، بيده مفاتيح الغيب وأسرار المستقبل، والنفع والضرر، والعطاء والمنع، ومنه التوفيق والسداد.

ومن فطرة الإنسان المقترنة بخاصية الضعف البشري أنه دائم الحاجة إلى قوة أكبر منه، يشعر في وجودها بالأمان من قوى الكون التي لا طاقة له بها وصروف المستقبل التي يدّخرها، وهي حاجة عبّر الإنسان عنها على امتداد تاريخ الإنسانية في كافة الحضارات والثقافات. فإذا كان الإيمان بالله أساس العقيدة وجوهر التوحيد ومبتدأ الإيمان وأهمّ مفاهيم الإسلام وأسمى أحكامه، أمِنَ الإنسان المسلم في حياته متى انقاد إلى مقتضيات هذه العقيدة، مدركا أن له ربا قويا قادرا وأن هذا الإله سميع بصير، قريب مجيب ﴿وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِي عَنِّي فَإِنِّي قَرِيبٌ أُجِيبُ دَعْوَةَ الدَّاعِ إِذَا دَعَانِ﴾(البقرة: ١٨٦). وحسب هذه الصلة بين العبد وربه، أنها تهب نفس المخطئ الرجاء والأمل، وتحفزه على الأوبة والتوبة الدائمتين، استجابة لنداء الله ﴿قُلْ يَا عِبَادِيَ الَّذِينَ أَسْرَفُوا عَلَى أَنْفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُوا مِنْ رَحْمَةِ اللهِ إِنَّ اللهَ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ جَمِيعًا إِنَّهُ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ﴾(الزمر: ٥٣). وفي التوكل على الله راحة للنفس من عبء ثقيل تحمله النفوس التي لا تهتدي إلى توحيد الله.

أما المؤمن فيتحصّن أمام كل مصيبة مستندًا إلى التوكل، فيمنحه إيمانه هذا الأمان التام والاطمئنان الكامل، وأما غيره فينوء بعبء الحياة الدنيا بهمومها وهواجسها واحتمالاتها، لذلك تظل الأسئلة الوجودية الكبرى التي تلحّ على الإنسان في أي زمان ومكان.. أسئلةُ المبتدأ والمآل، والموجِد، والغاية من الحياة ومصير الكون والإنسان.. تظَلّ حاضرة ملحّة، ما لم يجد لها أجوبة متكاملة، يقدمها الإسلام، ويبّنيها في نفس المسلم الإيمانُ، لتحقق بذلك طمأنينة النفس التي هي أول درجات السلام النفسي الكامل.

شعائر العبادة مصدرا للسلام

لا شك أن الجو النفسي الآمن الذي تشيعه العقيدة في قلب الإنسان يحتاج إلى دوام واستمرار لبقاء تلك المعاني ورسوخها. وهذه وظيفة ضمن وظائف أخرى للعبادة في حياة الإنسان المسلم. وإذا نحن تأملنا الشعائر التعبدية في الإسلام كلها وجدنا أن الخيط الناظم بينها

أنها تُدخل الإنســان مجالا للأمن النفسي من خلال علاقته بخالقه، ليعيش معاني سلام داخلي دائم ومتجدد دوام العبادة في حياته.

فالصلوات مَحطّات يومية في خضـم الحياة للاتصال بالله، وهو أمر لا يمنح المصلي شـعورا بالأمان من مسـتجدات الأيام لارتباطه بالخالق المدبر فحسب، بل يزوّده بقوة نفسية -لمواجهة أعباء الحياة وتحمّل مشـاقها- لا وجـود لها إلا في العبادة. وفي الخطـاب القرآني توجيه إلى هذا المعنى الذي جعل الفلاح والخير في الحياة الدنيا والآخرة معا مقصدا وغاية للصلاة، كما في قوله تعـالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا ارْكَعُوا وَاسْجُدُوا وَاعْبُدُوا رَبَّكُمْ وَافْعَلُوا الْخَيْرَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾{س}(الحج:٨٨)، وقوله سبحانه عن تلبية نداء صلاة الجمعة الأسـبوعي ﴿إِذَا نُودِيَ لِلصَّلَاةِ مِن يَوْمِ الْجُمُعَةِ فَاسْعَوْا إِلَى ذِكْرِ اللهِ وَذَرُوا الْبَيْعَ﴾(الجمعة:٩)، من ما يجعلها في النهاية عنصرَ توجيه وترشيد للسلوك الإنساني باتجاه الفضيلة ومانعًا من الاعتداء على الحقوق ﴿إِنَّ الصَّلَاةَ تَنْهَى عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنْكَرِ﴾(العنكبوت:٤٥).

ومن أراد أن يفهم البعد النفسـي العميـق للعبادة في حياة الإنســان، فليقرأ ما كتبه أولئك الذين حرموا هذه النعمة حينا من الدهر قبل إسـلامهم، وما كان لها مـن أثر الغيث والرحمة على نفوسـهم الظمآى بعد أن عرفوا الإسلام، وأثرها البالغ في إحساسهم بالسكينة والسلام.

وإذا كانت الصلاة محطة يومية وأسبوعية متواصلة، فقد أقام الإسلام محطة سـنوية عامة يدخل فيها الإنسان والمجتمع المسلم دورة تكوين في قيم السلام النفسي والجماعي، هي عبادة الصيام، مـن خلال تقوية النفـس وترويضها على التحكـم في النوازع والأهـواء ولجم الجوارح كلها، حتى عما يباح لها في غير رمضان من أصناف النعم والمتع، فتَسـمُو بذلك نفس الصائم حتى يغدو عامل رحمة وسـلام لنفسه وغيره. ثم إن شـهر رمضان موسم للسلام الاجتماعي، يعيش فيه الناس معانيَ الصبر لا على شهوتي البطن والفرج وحدهما، بل على أذى الناس وجهلهم، فلا يغضب الصائم ولا يرفث ولا يجهل وإن بادره غيره بالاستثارة أو الأذى، لأنه يعيش موسم ترويض على معاني السلام؛ وفي الحديث القدسي "الصيام جُنّة، فإذا كان يوم صوم أحدكم فلا يرفث ولا يصخب، فإن سابّه أحد أو قاتله فليقل إني امرؤ صائم"(متفق عليه).

ثم يبلغ المسـلم قمة العيش في ظلال السلام خلال الامتحان الذي فرض الإسـلام اجتيازه مرة واحـدة على الأقل في حياة المسلم، تتويجا لمحطات التربية اليومية (الصلاة) ودورات التكوين السنوية (الصيام)، حيث يعيش المؤمن رحلة سلام حقيقية وشاملة في الحج، يتدرب خلالها على كافة المبادئ والقيم التي جاءت بها الرسالة، ومنها مبدأ "السلام"؛ فعندما يحرم الحاج يتحول بمقتضى هذا الإحرام إلى عنصر طمأنينة وسـلام في الأرض، للإنسـان والحيوان والنبات، فلا يؤذي غيره ولا يسـلك ما يؤدي به إلى فحش أو خصومة: ﴿الْحَجُّ أَشْهُرٌ مَعْلُومَاتٌ فَمَنْ فَرَضَ فِيهِنَّ الْحَجَّ فَلَا رَفَثَ وَلَا فُسُوقَ وَلَا جِدَالَ فِي الْحَجِّ﴾(البقرة:١٩٧)، ولا يصطاد حيوانا ولا يأكله إذا صيـد له: ﴿أُحِلَّ لَكُمْ صَيْدُ الْبَحْرِ وَطَعَامُهُ مَتَاعًا لَكُمْ وَلِلسَّيَّارَةِ وَحُرِّمَ عَلَيْكُمْ صَيْدُ الْبَرِّ مَا دُمْتُمْ حُرُمًا﴾(المائدة:٩٦)، ولا يقطع شـجرا، ولا يؤذي كائنا. وإنه لمن قبيل الاتسـاق مع جو هذه الرحلة التعبدية، أن يكون من دعاء الحاج عند رؤية الكعبة المشرفة قوله: "اللهم أنت السلام ومنك السلام، فحيّنا ربنا بالسلام"(رواه مسلم).


وفي الحج مبدأ آخر لا يقل أهمية في إشـاعة معاني السلام في النفس والجماعة، وهو مبدأ المسـاواة بين الناس واتخاذها شعارا معلنا وسمتا ظاهرا، إذ يلبس المحرم لباسا لا يميزه عن غيره ليتوحد الجميع في مظهر واحد. وهذا أحد المؤرخين من المسيحيّين يتحدث عـن هذه القيمـة في عبادة الحج فيقـول: "ولا يزال الحج على كرّ العصور نظاما لا يدارى في تشـديد عرى التفاهم الإسلامي والتأليف بين مختلف طبقات المسلمين، وبفضله يتسنّى لكل مسلم أن يكـون رحّالة، مرة على الأقل في حياته، وأن يجتمع مع غيره من المؤمنين اجتماعا أخَويا، ويوحد شـعوره مع شعور سواه من القادمين من أطراف الأرض. وبفضل هذا النظام يتيسـر للزنوج والبربر، والصينيين والفرس والترك والعرب وغيرهم، أغنياء كانوا أم فقراء، عظماء أم صعاليك، أن يتآلفوا لغة وإيمانا وعقيدة".[1]

هذه أمثلة أولية مختصرة لجوانب السلام النفسي والاجتماعي من المشاعر الإيمانية إلى الشـعائر العبادية في الإسلام، تمكّن من القول بكلمة: إن الإسـلام يجعل من الأمن الروحي والنفسـي للإنسان، عبر إشاعة معاني الطمأنينة والسلام بين جوانحه، المدخلَ إلى سـلام الجماعة في دوائر الأسرة فالمجتمع والأمة ثم الإنسانية كلها، لأن الإنسان مادة ذلك كله، وركن بنائه الركين. ■

(*) مدير مركز الدراسات والبحوث الإنسانية والاجتماعية - وجدة / المغرب.

الهوامش

(1) تاريخ العرب لفيليب حِتّي، ١٨٧/١.



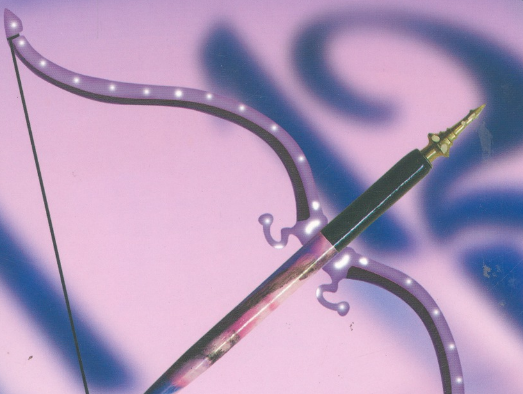
آخر الفرسان
بقلم فضيلة الأستاذ فريد الأنصاري
• ملامح من سيرة الأستاذ النورسي.. بقالب روائي مشوق.
• أدب رمزي في آفاقه واقعي في دلالاته.
• صورة قلمية لفارس فكر لم يترجّلْ بعدُ عن فرسه.
• خيال ثري سريع التدفق والعطاء.
• رواية طافحة بعذوبة الكلمة وجمرة الفكرة.
رواية
آخر الفرسان
فريد الأنصاري
مركز التوزيع فرع القاهرة: ٧ ش البرامكة، الحي السابع، مدينة نصر – القاهرة / مصر
تليفون وفاكس: 2022619204+ محمول: 20127874552+
دار النيل

حراء

مجلة علمية ثقافية فصلية

www.hiramagazine.com





إن البشرية ستتوجه في آخر الزمان بكل طاقتها إلى العلم والفن،
فتستمد كل قوتها من العلم، ويمتلك العلم مرة أخرى الحكم والقوة،
وتلعب الفصاحة والبلاغة دورا جوهريا في قبول الجمهور للعلم.
ويعني هذا عودة عصر العلم والبيان من جديد.

* * *

9 771306 187009 06
www.hiramagazine.com

العدد السابع عشر / السنة الخامسة / (أكتوبر - ديسمبر) ٢٠٠٩

حراء

مجلة علمية ثقافية فصلية

www.hiramagazine.com



لقد اعتاد الذين نذروا أنفسهم لسلوك طريق السعداء -في الماضي والحاضر- ألاّ يطالهم اليأس والقنوط، وألاّ يهتزوا ولا تأخذهم الحدة والغضب حتى وإن تعرضوا من كل جانب لمشاعر العداء والكره.. فهم يدفعون السيئة بالحسنة فيقومون بذلك بإصلاح جميع السلبيات..

المؤمن ووحدة الحياة

في المقال الرئيس للأستاذ "فتح الله كولن" غذاء مجز للعقل والوجدان لمن يلزم نفسه بالتأمل والتفكير. وهو يرسم طريقاً سهلاً للمعرفة والعمل معاً، والولوج إلى فجاج الفكر بقلب ملؤه الاطمئنان والثقة. فالمؤمن -كما يصفه الأستاذ- قد تعصف به العواصف وتتناوشه المحن والخطوب، وقد يهتز بعض الشيء وقد يترنح، لكنه يظل متماسكاً فلا يسقط أرضاً ولا يركع ذلاً ورعباً. فالألم مهما طال فهو إلى انحسار، أما الخوف فلا يقف عند حد، بل يظل ممتداً في النفس حتى يفرغها من الشهامة والغيرة والشجاعة. ثم إذا اهتزّ المؤمن كان ذلك دليلاً على وفرة الحياة عنده وعلى رهافة شعوره وثقافة حسّه ويقظة ذهنه، لأن ميتي الشعور وغليظي الأحاسيس ومتخشبي الأصلاب، لا يهتزون لشيء لأنهم موتى وإنْ كانوا يمشون على قدمين.

والأستاذ "عماد الدين خليل" يتحفنا بواحدة من مقالاته الجادّة عن "غائية الوجود في الأدب الإسلامي" في تحليل رائع للرؤية الإسلامية لغائية الكون ووحدة الحياة، متخذاً من بعض الصراعات الدرامية التي تدور عليها محاور رواياته ومسرحياته نماذج لتقديم هذه الرؤية الإسلامية. وهو يختم بحثه عن "الدراما الإسلامية" فيقول: "إنها الصراع بين العقل والروح والوجدان والجسد، ولن يقدّر لأحد فيها الخلاص إلا من خلال بذل جهد استثنائي للتحقق بالوفاق. أما الأستاذ "البوشيخي" رجل الفكر الرصين، فإنه يحدثنا عن "مفهوم الحياة في القرآن الكريم". هذا المفهوم الذي كثيراً ما يغيب عن أذهان المسلمين أو يختلط بتصورات فاسدة تفقده جوهره وحقيقته، كما أنه لا ينسى أن يحلل لنا حقيقة الموت في التصور الإيماني، ومراحل الحياة والموت، مؤكداً على المعنى الحقيقي للحياة وكيف يصير هذا المعنى دافعاً إلى إيثار الآخرة، ثم يمضي إلى أكثر من ذلك فيعزو سبب الوهن الذي يعاني منه المسلمون اليوم إلى فساد التصور لمفهوم الحياة كما يصورها القرآن الكريم.

أما الأستاذ "رمضان اليوطي" فيؤكد في مقاله الموسوم "لا سلام مع الظلم ولا إرهاب مع العدل" على أن ما يعاني منه العالم اليوم من اضطرابات وقتول وسفك دماء، يعود بالأساس إلى جملة من المظالم التي يتجرعها ضعاف البشر من الأقوياء المتسلطين، وإلى فقدان "العدل" الذي يورث اليأس. وفضيلة الأستاذ "علي جمعة" يقدم لنا على صفحات "حراء" دراسة قيمة عن لوازم العقل التفسيري للقرآن الكريم، مع استعراض شامل وعميق لآراء جمهرة من كبار المفسرين.

وبعد، فإن "حراء" تعتذر للأساتذة الذين لم يسعفنا ضيق المجال للتنويه بمقالاتهم التي تظل مهمة في تشكيل الإطار العام لهذا العدد من "حراء" والله من وراء القصد. ■

حراء
مجلة علمية ثقافية فصلية
www.hiramagazine.com

العدد السابع عشر – السنة الخامسة (أكتوبر – ديسمبر) ٢٠٠٩

التصور العام

- حراء مجلة علمية ثقافية فصلية تعنى بالعلوم الطبيعية والإنسانية والاجتماعية وتحاور أسرار النفس البشرية وآفاق الكون الشاسعة بالمنظور القرآني الإيماني في تآلف وتناسب بين العلم والإيمان، والعقل والقلب، والفكر والواقع.
- تجمع بين الأصالة والمعاصرة وتعتمد الوسطية في فهم الإسلام وفهم الواقع، مع البعد عن الإفراط والتفريط.
- تؤمن بالانفتاح على الآخر، والحوار البناء والهادئ فيما يصب لصالح الإنسانية.
- تسعى إلى الموازنة بين العلمية في المضمون والجمالية في الشكل وأسلوب العرض، ومن ثم تدعو إلى معالجة المواد بمهنية عالية مع التبسيط ومراعاة الجوانب الأدبية والجمالية في الكتابة.

شروط النشر

- أن يكون النص المرسل جديدا لم يسبق نشره.
- ألا يزيد حجم النص على ٢٠٠٠ كلمة كحد أقصى، وللمجلة أن تلخص أو تختصر النصوص التي تتجاوز الحد المطلوب.
- يرجى من الكاتب الذي لم يسبق له النشر في المجلة إرسال نبذة مختصرة عن سيرته الذاتية.
- تخضع الأعمال المعروضة للنشر لموافقة هيئة التحرير، ولهيئة التحرير أن تطلب من الكاتب إجراء أي تعديل على المادة المقدمة قبل إجازتها للنشر.
- المجلة غير ملزمة بإعادة النصوص إلى أصحابها نشرت أم لم تنشر، وتلتزم بإبلاغ أصحابها بقبول النشر، ولا تلتزم بإبداء أسباب عدم النشر.
- تحتفظ المجلة بحقها في نشر النصوص وفق خطة التحرير وحسب التوقيت الذي تراه مناسبا.
- النصوص التي تنشر في المجلة تعبّر عن آراء كُتّابها، ولا تعبّر بالضرورة عن رأي المجلة.
- للمجلة حق إعادة نشر النص منفصلاً أو ضمن مجموعة من البحوث، بلغته الأصلية أو مترجمًا إلى أي لغة أخرى، دون حاجة إلى استئذان صاحب النص.
- مجلة حراء لا تمانع في النقل أو الاقتباس عنها شريطة ذكر المصدر.

يرجى إرسال جميع المشاركات إلى هيئة تحرير المجلة على العنوان الآتي:

hira@hiramagazine.com

مجلة علمية ثقافية فصلية تصدر عن:
Işık Yayıncılık Ticaret A.Ş
İstanbul / Türkiye

المركز الرئيس
HIRA MAGAZINE
Kısıklı Mah. Meltem Sok.
No:5 34676 Üsküdar
İstanbul / Turkey
Phone: +902163186011
Fax: +902164224140
hira@hiramagazine.com

مركز التوزيع
٧ ش الزمالكة - الحي السابع - م.نصر/القاهرة
تليفون وفاكس: 20222631551+
الهاتف الجوال: 20165523088+
جمهورية مصر العربية

نوع النشر
مجلة دورية دولية

Yayın Türü
Yaygın Süreli

رقم الإيداع
١٨٧٩=١٣٠٦

للاشتراك من كل أنحاء العالم
pr@hiramagazine.com

حراء
مجلة علمية ثقافية فصلية
www.hiramagazine.com

المحتويات



EGYPT
7, el-Barameka st, off al-Tayaran st. al-Hay al-Saa
Nasr City-Cairo/EGYPT
Tel-Fax: +20222631551 Mobile: +20165523088

TÜRKİYE
Kısıklı Mahallesi, Meltem Sokak, No:5
34676 Üsküdar-İstanbul/TÜRKİYE
Phone:+90(216) 318 60 11 Fax:+90(216) 422 41 4

USA
The Light, Inc.
26 Worlds Fair Dr. Unit C Somerset,
08873 New Jersey, USA
Phone:+1 732 868 0210 Fax:+1 732 868 0211

SAUDI ARABIA
AL Watania Distribution الوطنية للتوزيع
P.O.BOX 8454 Riyadh Zip Code: 11671 Saudia
Tel: +966 1 4871414
GSM: +966 504358213

SYRIA
GSM: +963 944 355675

MOROCCO
الدار البيضاء ٧٠ زنقة سجلماسة
Société Arabo-Africaine de Distribution,
d'Edition et de Presse (Sapress)
70, rue de Sijilmassa, 20300 Casablanca / Morocco
Tel: +212 22 24 92 00

YEMEN
دار النشر للجامعات
الجمهورية اليمنية، صنعاء، الخط الدائري الغربي، أمام الجامعة القديمة
Tel: +967 1 440144
GSM: +967 711518611

ALGERIA
GSM: +213 770 625650

SUDAN
Tel: +249 918248388

JORDAN
GSM: +962 776 113862

UNITED ARAB EMIRATES
دار الفقيه للنشر والتوزيع
ص.ب. 6677 أبو ظبي
Tel: +971 266 789920



المؤمن لا يسقط وإن اهتز

﴿وَلاَ تَهِنُوا وَلاَ تَحْزَنُوا وَأَنْتُمُ الأَعْلَوْنَ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ﴾(آل عمران:١٣٩)

فتح الله گولن

إن الصورة الحالية للأوضاع صورة مرعبة، ولكنّ تجاوز هذه الأوضاع وتخطيها بالإيمان والأمل والتوجه إلى الله ليس مستحيلاً. فإن سار الإنسان نحو الشمس أو طار فإن ظله سيكون خلفه، ولكن إن أدار ظهره للشمس فإنه يبقى خلف ظله. لذا يجب أن تكون عيوننا مصوبة على الدوام إلى المنبع اللانهائي للضوء. أجل، إن كل شيء كما عبر عنه الشاعر التركي "محمد عاكف" مرتبط بـ"الاستناد إلى الله، والتوسل بالسعي، والاستسلام للحكمة".

ومما لا شك فيه أننا نعيش أزمات حقيقية متداخلة بعضها في بعض، إلا أنه يمكن تجاوزها بمعرفة أسبابها والنضال ضدها بإيمان وعزم وأمل، وإلا فإن الخيال والأوهام ستضخّم صورة هذه المشاكل. كما أن السياسة إن تدخلت فيها واستغلتها فستكبر، وستبدو أكبر بكثير من حجمها الحقيقي، وتصل -نتيجة آثار التخريبات النفسية- إلى وضع يصعب الخروج منه.

نحن نعيش اليوم مرحلة من المراحل التي يتكرر فيها التاريخ بعبره. فقد أحاطت بنا المآسي والمصائب والبلايا من كل جانب؛ كالزلازل والفيضانات والحرائق والضغط على الحريات وكتم الأنفاس... ولكن رغم كل هذه المظالم والبلايا لا زلنا نرى

الساكتين والصامتين المسلوبي الإرادة الخائفين حتى من التأوه أمام المصائب. ومقابل هذا نرى صنفاً من الظالمين، يظلمون الناس ويغدرون بهم، ثم يتظاهرون بالبكاء والشكوى ليقلبوا الحقائق رأساً على عقب ويظهروا المظلومين وكأنهم هم الظالمون. كما أن هناك بعض الكتل الجماهيرية التي نراها -لأسباب مختلفة- غير متوازنة في تصرفاتها، فهي على الدوام غاضبة ومحتدة. وهناك أوساط مختلفة كأوساط الإدارة الفاسدة والأوساط المتحكمة والأوساط المحرضة، والأوساط اللاهية التي لا يهمها شيء، والذين يعدون الخداع مهارة والسرقة شطارة، والانتهازيون الذين لهم نصيب عند هؤلاء، والذين يتحصنون وراء حصاناتهم القانونية، والذين يرفعون شعار "الحق للقوة" ويستخدمونه حتى النهاية، من أئمة الظلم، والمرتشين والآثمين والمختلسين وتجار الأسلحة وشبكات تجارة المخدرات والمدمنين عليها، وتنظيمات ملعونة أخرى لم يعط لها اسم بعد... كل هذه الأوساط تدفع الجماهير الغاضبة التي فقدت اتزانها إلى مزيد من أعمال الشدة والعنف.

أجل، هناك خريف حزين في كل مكان، والقيم الإنسانية سقطت تحت الأقدام. فلا حرمة للفرد، ولا حرمة للقيم الإنسانية. وإذا وُجد هناك بضعة أفراد يتصرفون ببعض الاحترام، فمن أجل الحصول على أجرة وعلى مقابل لهذا الاحترام. والجماهير أصبحت تُعد في كل مكان كتلاً لا قيمة لها، وحالها تفتت الأكباد، في وقت تبذل لها الوعود بالحصول على عمل وعلى لقمة عيش في أوقات الانتخابات فقط. ولكن لم يعد أحد يصدق هذه الوعود لعدم تحققها.. فالعلم لا صاحب له... والمعرفة والعرفان وراء جبل قاف... الفن مجرد حارس للأيدولوجيات... بيوت العلم استسلمت للتقليد... عشق الحقيقة وحب العلم والشوق للبحث أمور لا تستحق الاهتمام والالتفات إليها... أما بعض الجهود المبذولة فربما لا تتعدى نطاق الهواية... مؤسساتنا الحيوية التي أودعْنا فيها حاضرنا ومستقبلنا ميتة ولا حياة فيها... إن استمعتَ إلى الدعايات والادعاءات حسبت أننا نكفي لعوالم عدة، بينما تشير الحقائق صارخة بأننا لا نكفي لمدينة صغيرة. ومن الواضح لكل ذي عينين أن قيمنا الأخلاقية، والشعور بالمسؤولية، والتزامنا بالحق وبالعدل هي دون المستوى العالمي بكثير، فلا تجد عند الكثيرين منا أي حياء أو خجل أو أي احترام للحق ولا أي توقير للفكر... لقد زال منذ زمان بعيد الخشية من الله، وحس الفضيلة... أما الحياء من الناس فنحن الآن نسعى للتخلص من هذا الشعور المزعج(!). لقد تحولنا إلى أكوام بشرية لا قلب لها ولا روح، وانعكس هذا على وجوهنا، فلم يبق عند معظمنا إحساس بالرحمة أوالشفقة، ولا شعورٌ بالاحترام والتوقير. أما عدد الذين يعدون الدين والديانة مؤسسة عتيقة وبالية فلا يستهان بهم... المشاعر الدينية خربة في كل مكان، والتدين مُهان... اللامبالاة منتشرة وكذلك السقوط الأخلاقي... الخيانات متداخلة بعضها مع البعض الآخر في كل جانب، والصرخات والتأوهات تُسمع من هنا وهناك... في هذه الأرواح التي فقدت مشاعرها الإنسانية ترى جموداً في الأحاسيس والعواطف وشللاً... أو معاذير من أمثال "هل أنا المكلف بإنقاذ العالم؟" القلوب الحساسة أصبحت أسيرةَ انفعالاتها وفقدت توازنها... أما عدد الانتهازيين الذين يقولون: "هذا هو يومنا... وهذا هو عهدنا وزماننا" فليس معروفاً... والله تعالى وحده هو الذي يعلم عدد الذين جعلوا الوصول إلى الثروة عن أي طريق هدف حياتهم. في مقابل هذا نرى أن من يفكر ويحس ولو قليلاً يتجرع الآلام من أيدي أصحاب القوة الغاشمة، ونرى أن مصير من يخدم هذه الأمة هو الانسحاق، ومصير من يُخلص لهذه الأمة هو الوقوع في المصايد الشيطانية المنصوبة له في كل منعطف... صحيح أن الساكتين الآن والصامتين لا يصيبهم شيء، ولا يقال لهم شيء، ولكن لا أحد يعرف ماذا سيأتي به الغد.

هناك شرذمة هامشية تثير على الدوام ضجة وجلبة في كل فرصة سانحة لها ضد الإيمان وضد الإسلام. وهي بدرجة عدائها

اليأس عفريت يقطع عليك الطريق، وفكرة العجز وانعدام الحيلة مرض قاتل للروح، والذين برزوا في تاريخنا المجيد برزوا لأنهم ساروا بكل عزم وإيمان. أما الذين تركوا أنفسهم لمشاعر العجز والقنوط فلم يقطعوا أرضاً، بل ضاعوا في الطريق.

للدين وللإيمان تستهين بالرأي الحر والديمقراطية الحقة وحقوق الإنسان، وتعلن الحرب على كل من يخالفها في الرأي وفي الفكر، وتُدين كل من لا يشاركها وجهة نظرها، وتمسّه في عرضه وشرفه بل ربما توسلت إلى التصفية الجسدية لمن لا تستطيع الصمود أمام فكره وحججه، وهناك من بينهم بعض النماذج والأفراد الذين لا يملكون ذرة من شرف الفكر وعفة الروح. ولا يتردد أمثال هؤلاء القيام اليوم بتكذيب ما قالوه في الأمس، وأن يذمّوا غداً ويخسفوا به إلى سابع أرض مَن يصفّق له ويهتف بحياته اليوم. وإذا كانت هناك صفة لصيقة بهؤلاء من ذوي الوجهين فهي أنهم يطفون على السطح دائماً، ويتلذذون بلدغ الآخرين كالثعابين. أما التعصب الكفري الموجود لدى بعض هؤلاء فحدث عنه ولا حرج، فهم لا يؤمنون لا بالله تعالى ولا برسوله ﷺ... قد عميت بصائرهم

إلى كربلاء والأعداء إلى "شِمر"[1] والشهور إلى شهرِ محرم. وقد تتتابع المؤامرات الواحدة منها تلو الأخرى، وتحدث حرائق كبيرة فتحرق إلى جانب بيوتنا ومساكننا آمالنا أيضاً وخططنا وتحولها إلى رماد. وقد يتخلى عنا الجميع... أصدقاء كانوا أم أعداء، ونظل وحيدين ومعزولين، بل قد لا يكتفون بهذا، إذ قد نطعن من الخلف من قبل أشخاص لا نتوقع منهم هذه الخيانة. أجل، نحن نعيش في هذه الظروف التي يَطعن فيها الأعداءُ ويجحد فيها الأصدقاء ويتخلون عنا تماما، فعلينا ألا نستسلم أبداً، ولا ننحني، بل نبقى صامدين وواقفين على أرجلنا مستندين في ذلك إلى إيماننا وآمالنا بل مسرعين نطوي المسافات مثل جواد أصيل يغدو حتى النفَس الأخير.

فلو وصلت المصائب والفواجع إلى أضعاف ما هي عليه



فهم لا يرون، وصمّت آذانهم فهم لا يسمعون، لا يملكون روحاً ولا قلباً، ولا عقلاً متدبراً، ولا يحملون وقاراً لا لله ولا لرسوله ﷺ. جهالتهم جهالة مركبة، فهم لا يعلمون، ولا يعلمون أنهم لا يعلمون، ويحسبون أنهم يعلمون.

والخلاصة أننا خائضون اليوم حتى الركب في جميع السلبيات التي كنا نتمنى عدم وجودها، والأنكى من هذا هو عدم وجود أي خبر أو علامة مما كنا نأمل فيه كأمة منذ سنوات عديدة. وعندما يكون هذا هو المنظر العام فمن الصعب الحديث عن الأمل وعن العزيمة. ولكننا كأمة يجب أن نتجاوز هذه الصعاب، إذ لا خيار آخر أمامنا. لأن المصائب التي نواجهها حالياً قد تظهر أمامنا في المستقبل وقد تتضاعف، وعندها ينقلب البلد من أقصاه إلى أقصاه إلى ما يشبه مقبرة جماعية، وقد يُلف عزم الأمة وأملها مثل كفن على رأسها، وتنقلب الأنهار إلى "نهروان" والسهول

حالياً، ولو أحاط بنا الأنين والنحيب من كل جانب، ولو بلغ الصراخ عنان السماء... حتى لو تحولت المآسي الحالية إلى حمم بركانية متدفقة نحو القلوب... ولو تلوّت الأمة بأجمعها من الألم ومن اليأس، ورَسمت السيوف أقواساً فوق الرؤوس المفكرة، ولو سُحقت الأدمغة بالمطارق، وانفرد الظالمون وبقوا في الميدان وساد ظلمهم كل مكان، ولو غطى اليأس الأسود أفضل القلوب وأطهرها، ولو انهارت البيوت وتقوضت العوائل وانهدمت... لو غرب القمر وانطفأت الشمس، ولو انغمرت القلوب مع الأبصار في ظلام دامس... ولو طغت القوة وتجبرت... لو انسحق الحق تحت أقدامِ وعجلات القوة الغاشمة... لو كشرت القوى الظالمة عن أنيابها، وانزوى الضعيف في صمت... لو خارت قوى أصحاب القلوب العاجزة عن المقاومة واحداً إثر آخر... لو سقط كل أصحاب القلوب...

لو حدث كل هذا لما كان علينا إلا أن نستمر في موقفنا ونعطيه حقه من الثبات دون أن نغير سلوكنا قيد شعرة... نقف في موضعنا لنكون موضع أمل ومنبع وقوة يلجأ إليها الجميع، ونحاول من جديد إشعال جميع المشاعل الخابية.

إن كان إيماننا بالله تامّاً فلابد أن يكون الأمل والعزم شعارنا، وتقديم الخدمة للأمة مهمتنا. يجب أن يكون توقيرنا للحق تعالى وأن ننذر أنفسنا لإسعاد الآخرين بدرجة أن نفضل أن نُطْعِم قبل أن نَطعَم، وأن نكسو قبل أن نُكسَى فيسعد من يرى أسلوب حياتنا الموقوفة للآخرين، وأماناتنا في أداء الأمانة. يجب أن نعيش طاهرين ونزيهين إلى درجة أن أي حرام أو أي أمر غير مشروع لا يستطيع أن يلوث أحلامنا فضلاً عن حياتنا. ومن يدري كم فقدنا وكم خسرنا، وكم هبطنا من علونا جراء بعض هذه التلوثات. فلا يفلح قط من لا يوفي حق موقعه وينحرف عنه. هذا علماً أننا نعد حب الحياة أو المنافع الشخصية انتحاراً فضلا عن الأهواء الدنيوية، بل علينا ألا نجعل حتى الجنة غاية عبوديتنا، لأن علينا أن نربط قلوبنا بالهبات والأفضال الإلهية والسعي لنيل رضاه، واضعين سدّاً منيعاً أمام رغباتنا وأهوائنا الشخصية. نعطي -دون انتظار أي مقابل- ولا نأخذ، بل نحسن على الدوام. وعندما ننطلق نحو "المحبوب" ونسلك سبيل السعداء لا تخطر أنفسنا على بالنا.

إن كان إيماننا بالله تاماً، فلابد أن يكون الأمل والعزم شعارنا وتقديم الخدمة للأمة مهمتنا. يجب أن يكون توقيرنا للحق تعالى وأن ننذر أنفسنا لإسعاد الآخرين وأن نعيش طاهرين ونزيهين إلى درجة أن أي حرام أو أمر غير مشروع لا يقدر أن يلوث أحلامنا فضلاً عن حياتنا.

لقد اعتاد الذين نذروا أنفسهم لسلوك طريق السعداء -في الماضي والحاضر- ألاّ يطالهم اليأس والقنوط وألاّ يهتزوا ولا تأخذهم الحدة والغضب حتى وإن تعرضوا من كل جانب لمشاعر العداء والكره، وإن قاسوا من جحود الأصدقاء وشماتة الأعداء، وإن أصبحوا هدفاً لهجوم أصحاب الأرواح المملوءة حقداً ونفوراً... فهم لا يقابلون هذا بشعور مقابل من العداء والكره، بل يدفعون السيئة بالحسنة وبالكلمة الطيبة وبسلوك الإحسان وبالقول اللين فيقومون بذلك بإصلاح جميع السلبيات، ويقابلون الأفكار الهدّامة بحملات البناء... ولو انقلب كل شيء في البلد -لا سمح الله- في يوم من الأيام رأساً على عقب، وانغمرت الجماهير في الظلام، وتقطعت الطرق وتهدمت الجسور فلن يضطرب هؤلاء ولن يهتزوا، لأنهم يرون أن هذا الاضطراب والاهتزاز منهم يعد عدم توقير لعقيدتهم ولإرادتهم. فبدلاً من إظهار دلائل ومناظر الموت والخراب في جو من اليأس والقنوط يقومون بتحفيز مشاعر الحياة عند الآخرين وتنشيطها وإثارتها، ويهتفون بكل من يستطيع السير: أن الطريق مفتوح.

إنني أعتقد بأن يد العناية ستمتد حتماً إلى أبطال العزم والعزيمة هؤلاء، إن لم يكن اليوم فغداً... وأن العواصف الهوجاء التي تقطع عليهم الطريق ستهدأ وتسكن، وستذوب الثلوج وتزول، وستتحول السهول والوديان القاحلة حولهم منذ قرون إلى جنان نضرة، وسيبتسم لهم الحظ.

إن اليأس عفريت يقطع عليك الطريق، وفكرة العجز وانعدام الحيلة مرض قاتل للروح، والذين برزوا في تاريخنا المجيد برزوا لأنهم ساروا بكل عزم وإيمان. أما الذين تركوا أنفسهم لمشاعر العجز والقنوط فلم يقطعوا أرضاً، ولا ساروا مسافة، بل ضاعوا في الطريق. فمن ماتت عندهم المشاعر والأحاسيس، ومن فقدوا قابلية الحركة لن يقطعوا طريقاً، والنائمون لا يستطيعون الوصول إلى الهدف.

أما الذين فقدوا عزمهم وإرادتهم فلن يستطيعوا البقاء قطعاً على أرجلهم مدة طويلة.

والآن إن كنا نفكر في غدنا، ونأمل في الوصول إلى المستقبل ونحن ننبض بالحركة والحياة، فعلينا ألا ننسى أبداً بأن الطرق تُقطع بالسير، وأن الذرى تبلغ بالعزم والإرادة والتخطيط. إن الذرى التي تبدو مستحيلة الوصول، قد تم الوصول إليها مراراً. وقبّلت القممُ الشاهقة أقدامَ العزم والإرادة وأنارت في أصحابها عزماً جديداً.

والحقيقة أن من عرف طريقه في أي عهد من العهود وعرف الهدف الذي يتوجه إليه، وكان واثقاً من القوة التي يستند إليها استطاع بفضل هذا الشعور وبفضل هذه الديناميكية التي يشعر

بهـــا في أعماقه أن يرقى إلى هذه الـــذرى ويتجاوزها فيصل إلى الشـــاهقة مرات ومرات، وتصغر الأرض تحت أقدامهم، وتَفتح السمـــاواتُ صدرها لعرفانهم، وتقف لهم المسافاتُ تحيةً وإكباراً وتقف لعزمهم وجهودهم احتراماً، وتتحول العوائق والموانع إلى جســـور تنقلهم إلى أهدافهم. أجل، إن الظلام ينتحر دائماً أمام هؤلاء الشـــجعان، وتنقلب المصائب إلى شآبيب رحمة وتتحول المشقات إلى طرق نجاة، والضوائق إلى حوافز انطلاق.

لو أبادوا حاضر مثل هذا الشـــخص نـــراه يمم وجهه نحو المستقبل ويستمر في طريقه المتوجه إلى الغد. ولو هدموا مستقبله أيضاً لما تردد في نخس جواده نحو مســـتقبل أبعد، أي لا يملكون حيلة حيال أمثاله، ولم يســـتطيعوا هـــذا حتى الآن، لأنه حتى لو عاش هزائم، أو سقط على الأرض، فإنه بفضل عزمه وإيمانه وأمله يستمر في وضع خطط جديدة للفوز وللنجاح ويجد فيها السلوى والعزاء. كما أنه عندما يجابه بموجات من الحقد والعداء، وعندما تدلهـــم أمامه الخطوب، وتتكاثف الظلمات بعضها فوق بعض لا يسقط في وديان اليأس والقنوط، ولا يضطرب أو تهتز منه شعرة، لأنه لا يمثل الأمسَ فقط ولا اليومَ ولا الغدَ، بل هو في موقع يَسرِي كلامه إلى الأزمنة جميعا فهـــو "صاحب الوقت" و"ابن الزمان". يعرف إضافة إلى لغة عصره روح الدين وأسرار القرآن.. كل من يراه ويتلمس شـــخصيته يتذكر عصر النبوة والخلفاء الراشدين، وهو بمشـــاعره وأفكاره وبعفته ونزاهته وبوفائه وبصدقه وخلقه المتين يبدو كأنه ضرح من الجلمود أو الجرانيت، إن تهدم كل من حوله وانهار، فلا يتفتت ولا يسقط منه مقدار قلامة ظفر واحدة.

نحن نأمل -بفضل هذه الأخلاق العالية والقوية والراسخة- أن تجد الصدور التي تشتكي الغربة والهجران الشفاء والسلوان إن لم يكن اليوم فغداً، وأن تستقيم أصلاب أولئك الذين عاشوا منحني الظهـــور منذ عصورٍ ظهورَهم، ويهتفوا مؤكدين وجودهم، وأن تحيا الأرواح التي غشيها الظلام وتقوم بتبديد الظلمات التي تحيط بهم وتحاصرهم، وأن يصرف الجميع جهوداً اســـتثنائية ويقوموا -تحت إرشـــاد المعاني المركوزة في جذورهم وأعماق نفوسهم- بتجاوز جميع العقبات فيتّحدون مع ذواتهم وماهيتهم ويصلون إلى ذروة الحظ والسعادة. ■

(*) الترجمة عن التركية: أورخان محمد علي.

الهوامش

(1) شِمِر بن ذي الجوشن: قاتل سيدنا الحسين بن علي رضي الله عنه. (المترجم)



الحمامة الجوّالة

رفرفـــي وحلّقي،
وعُشّكِ فاهجري،
والأجواءَ عطّري،
والجمالَ انشري،
وآثارَ جناحيك على المسالك ارسمي،
وبوجدك احترقي واشتعلي،
والدروبَ نوّري،
ونفسَكِ لا تحمدي،
وتضحيتَكِ إليكِ لا تنسبـــي،
ومنفعتَكِ أبدًا لا تطلبـــي...
* * *



العلم والإيمان متعة العقل والروح

العطري بن عزوز*

إن الحق ﷻ قد منح الإنسان القدرة على العلم والمعرفة والتمييز بين الأشياء، فخلق له الأدوات التي يتمكن بها من تحصيل العلم واكتسابه. وبعد أن قدر الله للإنسان أن يكون عاقلاً مميزا عالما مختارا ومنحه أدوات العلم والتمييز، أمره أن يسلك سبيل العلم وأن ينتفع بأدوات العلم لديه، وأن لا يتبع أمراً لا علم له به، وأنه سيكون مسؤولاً عن الانحراف. إذ لا عذر لإنسان بعد ذلك إذا سلك طريق الضلال، قال تعالى: ﴿بَلِ الإِنْسَانُ عَلَى نَفْسِهِ بَصِيرَةٌ ۞ وَلَوْ أَلْقَى مَعَاذِيرَهُ﴾(القيامة:١٤-١٥). وإذا كان الحق ﷻ هو الذي منحنا السمع والبصر والعقل، أفلا يجدر بهذا الإنسان أن يستخدم هذه الأدوات التي خلقها له ربه في معرفة خالقه ﷻ ورسوله ﷺ قبل أي معرفة أخرى، فيأخذ عقيدته بعلم ويقين حتى يكون من أهل الإيمان الراسخ الذي لا يتزلزل، وليكون من أهل العقول الذين أبصروا بالعلم حقائق الإيمان بالله ورسوله، وبذلك يتذوق ويتمتع حلاوة العلم والإيمان؟!

العلم وصناعة الإنسان المؤمن؟

لقد جعل الله تعالى الطريق للإيمان به وبرسوله يأتي عن طريق العلم وهو الطريق الموثوق للوصول إلى الغاية المقصودة، قال الحق ﷻ: ﴿فَاعْلَمْ أَنَّهُ لاَ إِلَهَ إِلاَّ اللهُ﴾(محمد:١٩). إذن فالإيمان هو المنطلق الصحيح لتصرف الإنسان في هذه الحياة، المحقق للسعادة في الدنيا والآخرة. وكل تصرف ينطلق من غير الإيمان لا يثمر إلا الشقاء والخسران. ولهذا علق الله الفلاح والفوز به، وعلق الخسران والشقاء بفقده، كما قال تعالى: ﴿وَالْعَصْرِ ۞

﴿إِنَّ الإِنْسَانَ لَفِي خُسْرٍ ۞ إِلاَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَتَوَاصَوْا بِالْحَقِّ وَتَوَاصَوْا بِالصَّبْرِ﴾(العصر:١-٣).

فالعلم من أجلّ نعم الله تعالى على الإنسان، حتى أصبح جزء من حياتنا اليومية نحتاجه في أعمالنا، ولا حديث في هذه الأيام إلا على التطورات التكنولوجية. وهنا يطرح السؤال، إلى أي مدى يمكن أن نقدس العلم ونحترمه؟ هل هو مطلوب لذاته؟ وهل هو وسيلة أم غاية؟ إن الناظر إلى واقع الحال سواء في البلاد الغربية أو العربية يجد عجباً؛ الناس يكاد أن يؤلهوا العلم، فتنة بما وصل إليه من تطورات مذهلة، فإن قلت لأحدهم: "يقول الدين كذا وكذا"، يقاطعك قائلا: "دعك من هذا، إن هذا أمر غيبي". وتجد كلاما كثيرا.. أما إذا قلت: "قال العلم كذا وكذا"، فيسكت متقبلا كل الكلام الذي تقوله ويؤمن به إيمانا راسخا لا يتزعزع. فالدين أو الإيمان في نظره غيبي وتخلّف ورجعي، والعلم عنده تطور وحضارة ورقيٌّ. إذن فما الذي حدث؟ إن هذه الفكرة وليدة سلسلة أحداث تاريخية ترجع إلى القرون الوسطى، حيث كانت الكنيسة تحارب العلم، وحدث صراع كبير بين رجال الكنيسة ورجال العلم، وانتصر رجال العلم وكفروا بكل الغيبيات، وكان موقفهم هو معاداة الإيمان، كما انطلقت النهضة العلمية المعاصرة من منطلق مادي صرف معاد لكل معاني الروح، لا يقبل غير المادي.

ونحن نعلم أن الغيبيات في الكون الذي نحن فيه، أكثر من الماديات، ولذلك انغمست هذه الحضارة في الماديات، مع العلم أن هؤلاء الغربيين استخدموا المنهج القرآني -وهو المنهج العلمي التجريبي الذي أسسه علماء الإسلام- ولكنهم سخروه في المادة فقط، فبنوا الإنسان المادي، وغفلوا عن الجانب المهم فيه وهو الروح، ونتج عن ذلك الشقاء والفراغ الروحي وسقوط القيم وتحلل الأسر، وزيادة الأسلحة المدمرة التي تهدد الإنسانية بأكملها. وكل هذا من سمات هذا العصر الذي سمي بعصر التقدم العلمي.

وهكذا أصبح العلم أداة في يد الغربيين لزعزعة الإيمان عن طريق إقناع الشباب بأن العلم وحده كاف للتحضر والتقدم والمدنية ومن ثم الوصول إلى السعادة بعيدا عن قيود الدين. إذن فما مدى صحة هذه الرؤية، فهل صحيح أن العلم وحده كاف لسعادة الإنسان؟

محدودية العقل

ففي قصة موسى عليه السلام دلالة واضحة عن محدودية العقل، حيث برهن القرآن للعقليين بالتجربة الحسية، ضعف العقل. فقد طلب موسى عليه السلام الرؤية، ولما تجلى الله للجبل اهتز وكاد أن يقتلع من جذوره، وأغمي على عقل موسى لأنه لم يستوعب الرؤية. والتعليل واضح وهو أن العقل عاجز عن الوصول إلى كثير من الحقائق، قال تعالى: ﴿وَلَمَّا جَاءَ مُوسَى لِمِيقَاتِنَا وَكَلَّمَهُ رَبُّهُ قَالَ رَبِّ أَرِنِي أَنْظُرْ إِلَيْكَ قَالَ لَنْ تَرَانِي وَلَكِنِ انْظُرْ إِلَى الْجَبَلِ فَإِنِ اسْتَقَرَّ مَكَانَهُ فَسَوْفَ تَرَانِي فَلَمَّا تَجَلَّى رَبُّهُ لِلْجَبَلِ جَعَلَهُ دَكًّا وَخَرَّ مُوسَى صَعِقًا فَلَمَّا أَفَاقَ قَالَ سُبْحَانَكَ تُبْتُ إِلَيْكَ وَأَنَا أَوَّلُ الْمُؤْمِنِينَ﴾(الأعراف:١٤٣). وهكذا يبقى العقل دائما عاجزاً عن إدراك حقيقة الأشياء ما لم يستعن بالوحي. فالعلاقة بين العقل والوحي تأتي من خلال التعرف على كيفية تعامل العقل مع الوحي، أي كيف تتعاون مصادر العلم مع بعضها للوصول إلى الحقيقة. وفي بيان هذه العلاقة يقول الدكتور النجار: "إن العقل لكي يقوم بدوره في تفهم الوحي لابد أن يعتمد أسساً تهديه إلى الفهم، وهي أسس راجعة في أغلبها إلى خصائص الوحي ذاته أو إلى خصائص العقل. وانخرامُ أحد الأسس يؤدي إلى خلل في الفهم، وبالتالي إلى الانحراف في فهم المراد الإلهي".[1]

والقرآن لم يجئ ليعلمنا العلوم، بل جاء ليحث العقول على تعلم العلوم والنظر في الكون والإنسان لتنكشف الأسرار الغامضة، على أن يتعاون الوحي مع العقل في استقراء الحقائق من الكتابين. فالقرآن كلام الله وكتابه المسطور، والكون خلق الله وكتابه المنظور، والحقيقة مبثوثة فيهما.

الإدمان على المعرفة والعلم

بقيت مسألة مهمة وهي لماذا بعض الناس دون غيرهم، لديهم هوس بالعلم والإيمان وشغف بالتعمق فيهما؟ في حين نجد الأغلب ينفرون منهما ويركنون إلى حياة الخمول والجهل. طبعاً الجواب مستمد من الملاحظة واستقراء الحال، وهو أن من تعوّد على البحث والقراءة والتعلم وحل المسائل والتفكر في مخلوقات الله تعالى المبثوثة في هذا الكون، يجد في نفسه متعة وراحة يعجز اللسان عن التعبير عنها، لأنه أمسى مدمنا على المعرفة، يحس بحلاوة الإيمان ويتمتع بالبحث العلمي. علماء الأعصاب قدموا لنا تفسيراً منطقياً وسهلاً لتأكيد أن ثمة متعة حقيقية تجتاح الدماغ، ويُحس بها الإنسان عندما يلتقط المعلومة أو يفهم شيئاً جديداً. وأيضاً قدموا لنا الآلية التي يتم بها نشوء المتعة في الدماغ، وشبهوا

الأمر بالإدمان على الأفيون. ولذا فإن مدمني الأفيون لا يحتاجون هذه المادة من الدماغ، ويغدون أشخاصاً كسولين وخاملين علمياً. أما تعليل الإدمان على المعرفة فقد وصف العلماء الإدمان بلغة بسيطة، وهو الاعتماد على شيء معين كمصدر للحصول على اللذة أياً كان نوعها. ولا تنشأ الحالة إلا لدى من تكرر استخدامه لهذا المصدر، وتعودت نفسه عليه وأحس بالفرق حين حرمانه منه، وهو ما ينطبق على علاقة الدماغ بالمعرفة.

الباحثون من جامعة جنوبي كاليفورنيا يقولون: "إن الدماغ يأخذ مكافأة ذاتية عند التقاطه معلومة جديدة أو حله لمسألة ذهنية صعبة. والمكافأة هذه عبارة عن جرعة من مادة الأفيون تعمل على البدء بسلسلة من التفاعلات الكيميائية السريعة، وتنتج في نهاية الأمر دفقة من مادة طبيعية شبيهة في مفعولها على الدماغ بالأفيون"، وذلك على حد قول بروفسور العلوم العصبية بجامعة جنوبي كاليفورنيا، الدكتور "إيرفنغ بيدرمان" الذي وضع فرضيته الجديدة في نتائج البحث المنشور في العدد الأخير من مجلة: "العلماء الأمريكيون".

ويوضح قائلاً: "حينما يحاول أحدنا فهم نظرية أو معلومة صعبة، فالأمر غالباً شاق وليس مجرد مرح، لكن بمجرد فهمها والتقاط تلك المعلومة بشكل سليم، ينتاب الإنسانَ شعور عارم بالرضا والسعادة". لذا فحاجة دماغ الواحد منّا إلى ما يعيد الهدوء والسكينة إليه أو ما نصفه بالعامية "فلان يحتاج أن يعدل دماغه" هي الدافع للناس كي يرفعوا إلى أقصى حد من قدرات الاستيعاب الذهني لديهم للمعلومات والمعرفة. ويعلق البروفسور بيدرمان قائلاً: "مزاجنا الذهني مفتون بتجميع المعرفة في كل ثانية كما هو حال تجار القطع الأثرية في الحرص على اقتناء القديم والقيم منها".

الإدمان العلمي والإدراك الذكائي

وفرضية "بيدرمان" حول الإدمان المعرفي والعلمي لها قيمة تطورية قوية، ومرتبطة جداً بمستوى الإدراك الذكائي، ويحتاج الأمر إلى عناصر ضاغطة بشكل قوي، كالجوع مثلاً، كي يُوجِل الدماغ رغبته في البحث عن المعرفة. وعلى حد قوله فإن نفس الأمر ينطبق على تقدير الجمال الفني البصري والمتعة في التفاعل معه.

أساس الفرضية وفرضية البروفسور "بيدرمان" مستوحاة من نتائج بحث تم إهماله منذ ربع قرن حول مستقبِلات المواد الأفيونية الطبيعية في خلايا الدماغ، أي نقاط جدار الخلية الدماغية التي تشبك وتعلق عليها مواد اللذة هذه، لتقوم حينها بعث الشعور باللذة في الخلايا الدماغية. وهذه المستقبلات تكثر في الخلايا الدماغية لمنطقة "حزمة أعصاب الطريق البصري الجوفي"، وهي جزء من الدماغ معني بملاحظة وتحليل الصور وترجمة معانيها للذهن وفق آليات غاية في التعقيد. والمستقبلات هذه مجمعة ومركزة بشدة في خلايا الحزمة العصبية في المناطق المعنية بفهم وإدراكِ معاني الصور المرسومة أو المكتوبة. ولا توجد في المناطق المعنية باستقبال الدماغ للصور المرئية في أول الأمر، أي إنها توجد في مناطق تعمل في مراحل متقدمة من عملية التحليل الذهني لمعاني الصور المشاهَدةِ وتحديد مدلولاتها، فلا يُثيرها إلا ما يستدعي التحليل والفهم وليس مجرد الاستقبال الأوّلي المبدئي. ولذا فالباحثون يقولون: "كلما كثر النشاط العصبي في أثناء الجهد للتحليل والفهم في المنطقة الغنية بمستقبلات الأفيون، كان الشعور باللذة أعظم عند نجاحها في الوصول إلى الفهم وحل الغموض".

وفي سلسلة من صور متفرقة لمناطق متنوعة من الدماغ بالرنين المغنطيسي لمتطوعين عُرضت عليهم أنواع عدة من الصور، فوَجد فريق البروفسور "بيدرمان" أنهم فضلوا بشدة الصورَ التي أثارتهم بشكل ملفت لتحليلها وفهمها، وزادت من نشاط الإفراز في المناطق الغنية بمستقبِلات الأفيون، كما لاحظ البروفسور "بيدرمان" أن تكرار عرض الصور الجذابة للشخص في البداية يُؤدي إلى تدن تدريجي في إثارة مناطق إفراز المواد الشبيهة بالأفيون مع تكرار العرض، وبالتالي قلة إفراز المواد الكيميائية الباعثة على الشعور باللذة من فهمها.

إذن، فقراءة الكتب والإقبال على العلم والمعرفة تعني مزيدا من الإيمان، ومن ثم تتأكد متعة العقل والروح حيث يشعر الإنسان بحلاوة الإيمان، وهذا هو السر في مقولة المغني الإنجليزي الشهير الذي أسلم وسمي بـ"يوسف إسلام" حينما سئل عن شعوره بعد إسلامه فقال: "يعجز اللسان عن وصف السعادة التي تغمرني والتي طالما بحثت عنها في جميع الأديان". ■

(*) باحث في الدراسات الإسلامية والإعجاز / الجزائر.

الهوامش

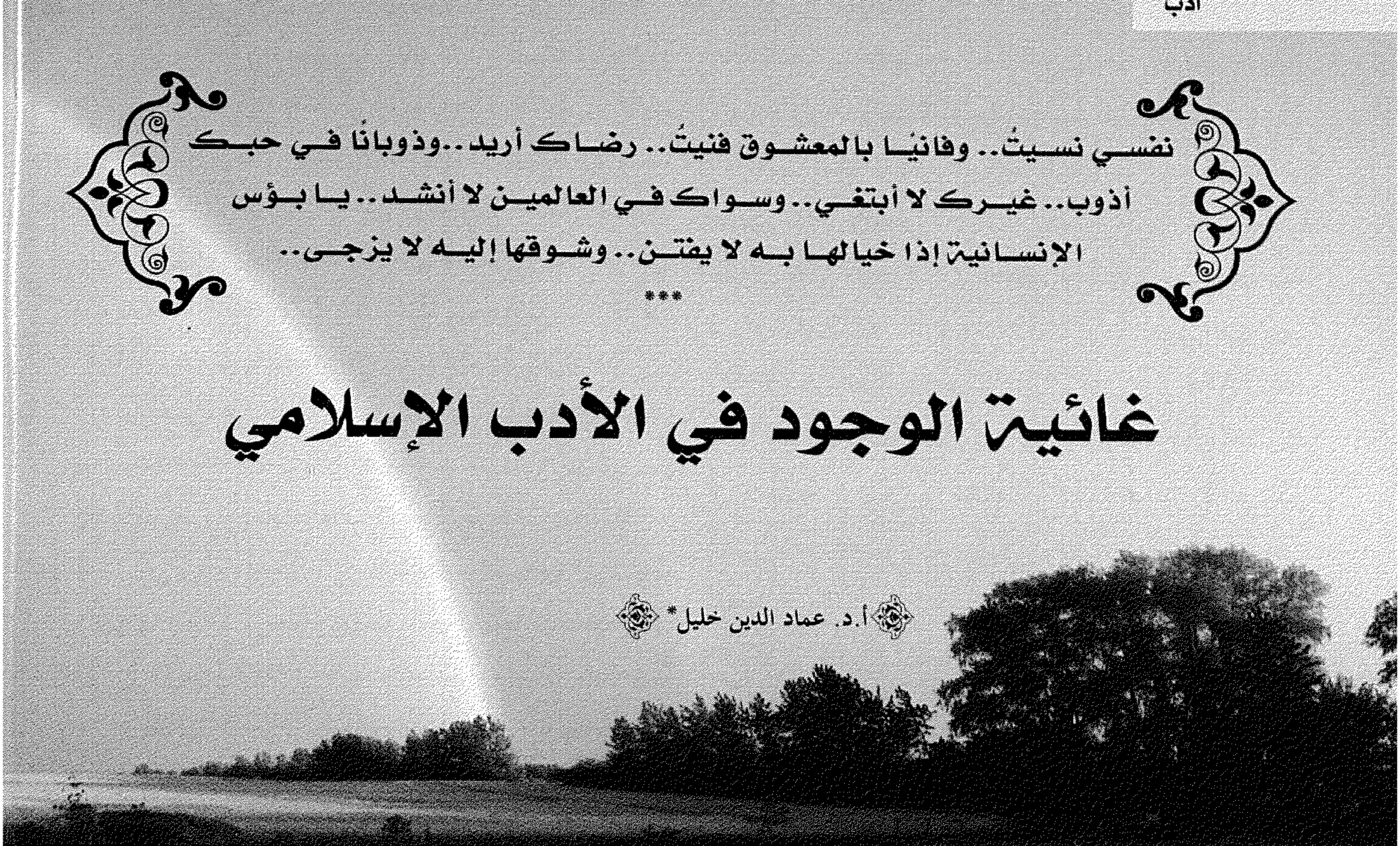
(1) خلافة الإنسان بين الوحي والعقل، لعبد المجيد النجار، ص:٩٦.

نفسي نسيتُ.. وفانيًا بالمعشوق فنيتُ.. رضاك أريد..وذوبانًا في حبك أذوب.. غيرك لا أبتغي.. وسواك في العالمين لا أنشد.. يا بؤس الإنسانية إذا خيالها به لا يفتن.. وشوقها إليه لا يزجى..

***

غائية الوجود في الأدب الإسلامي

أ.د. عماد الدين خليل*



تحدثنا في حلقتين سابقتين[1] عن انعكاس المضمون الفكري للأدب الإسلامي على بنيته الفنية فيما يجعل من "الإسلامية" مذهباً في الأدب يتميز عن المذاهب الأخرى، ليس في مضامينه حسب، وإنما في تكوينه الفني، ويسقط بالتالي مقولة البعض بأن الأدب الإسلامي أدب معياري، وهي الإشكالية التي ناقشناها في كتاب "الغايات المستهدفة للأدب الإسلامي"[2] في موضوع "الأدب الإسلامي بين المعيار والمنهج".

في الحلقتين السابقتين تبيّن كم أن الرؤية الإسلامية لقضية القدر تقدّم فناً مسرحياً مغايراً في شكله ومضمونه للتراجيديا اليونانية، وكم أن الرؤية الإسلامية "للواقع" بأكثر مفاهيمه عمقاً واتساعاً، تشكل أدباً يتميز في بنيته الفنية عن سائر الواقعيات الأخرى.

وفي هذه الحلقة سنقف وبالإيجاز المطلوب، عند مسألة ثالثة وهي التصوّر الإسلامي للكون، ولغائية الوجود، وانعكاسها على الخصائص الفنية للأدب الإسلامي؛ تماماً كما أفرزت هناك -في الساحة الغربية- مذهبها "الطليعي" الذي يسمى صدقاً "بالعبثي" أو "اللامعقول".

الطليعية ودكتاتورية العقل

تنطوي "الطليعية" على رؤية قاتمة تقوم على الاعتقاد بفوضوية الكون وعبث الحياة، ولاجدوى الكدح البشري. ومنذ البدء نجد أنفسنا بإزاء موقف تصوّري نقيض بالكلية لموقف "الإسلامية" القائم على الترابط الكوني، وغائية الحياة، وجدوى الكدح البشري، وعدالة المصير.

والكتاب العبثيون يشتركون جميعاً في الإلحاح على الفوضى التي تلف أقطار الكون الأربعة.. على الجنون الذي يضمّ العالم بين جوانحه.. على اللامعقولية التي تربط بين الإنسان والكون.

إن هؤلاء الكتاب قد غدوا، في النصف الثاني من القرن الماضي، مدرسة متميزة تقوم أوّل ما تقوم على القواعد التي يتفق عليها هؤلاء الكتاب جميعاً وهي الفوضى والعبث واللامعقول، تلك التي وضع "ألبير كامي" حجرها الأساس.

يذكر "ريتشارد كو" في كتابه عن "يونسكو" كيف "أن كل النزعات التي كبحتها دكتاتورية العقل خلال قرنين من الزمان اندفعت على السطح، وشهد النصف الأول من قرننا العشرين، عدة حركات ثورية كالتكعيبية والمستقبلية والسريالية والتعبيرية والدادائية والوجودية، وكلها حركات تسعى بطرائقها



الخاصة إلى إلقاء الضوء على موقف الروح الإنساني في كون غاب عنه المنطق. وعندما يختفي المنطق تختفي أيضاً مبررات الوجود. وهكذا نرى أن "يونسكو" -مثل كامي وسارتر- يرى في وجودنا حقيقة لا هي بالمنطقية ولا هي بالمبررة، إنها حقيقة، ولكنها حقيقة عبثية، فالوجود الذي لا يبرّره منطق عبث".(٣)

ويمضي "ريتشارد كو" يبين كيف سعى الطليعيون إلى إلغاء النظرة القديمة "الكلاسيكية" إلى قواعد الكون الأساسية: الزمان والمكان ووحدة الشخصية، وكيف أنهم كتبوا "دراما الساعات المكسورة" بمعنى أن أبطالهم يعيشون في عالم توقفت ساعاته، وحين يفقد الإنسان الشعور بالزمن، تصبح "السن" كلمة لا معنى لها، وما دمنا قد محونا الزمن فقد محونا "تراكم التجارب" التي يأتي بها الزمن، وعلى ذلك فلا معنى للقول بأن الشيخوخة مثلاً تأتي بالحكمة. وقوانين المكان -من ناحية أخرى- لا معنى لها، فهي تعسّفية، وغياب التتابع المنطقي يستلزم غياب وحدة الشخصية، فليست الشخصية سلسلة متصلة من الصفات كما يزعم الكلاسيكيون، وإنما هي حالات دائبة التغيّر يتبع بعضها بعضاً، وما يقوله "أ" يمكن ببساطة أن يقوله "ب" دون أن ينجم عن ذلك ضرر كبير. إن "الأنا" ما هي إلاّ انعكاس للعالم الخارجي، أو قل: إن العالم الصغير هو صورة مصغرة مثالية للعالم الكبير. ففوضى الأوّل وتشتته تتبدى في الثاني على نطاق واسع وليس هناك خط واضح يفصل بين الاثنين".(٤)

ويبين "يونسكو" -بعبارة واضحة- تهافت الشخصية الإنسانية، لأنها ليست -بعد أن تكشف عبث العالم- سوى قطعة من ملايين القطع التي يعبث بها الكون: "إن كل شخصياتي على خصام مع الدنيا.. لقد غمرهم القلق التاريخي الذي يسود العالم وتورطوا فيه".. "إنه عالم رهيب -يقول يونسكو- إلاّ أنه عالم لا يمكن أن يؤخذ مأخذ الجدّ، فهو يوشك لفرط سخفه أن يكون مضحكاً". ومن ثم فإن رؤية الطليعيين هذه للعبث لم تتح لهم أن يطمئنوا للشكل المسرحي العقلي "الأرسططالي" أداة للتعبير. فالمضمون في العمل الفني هو الذي يحدّد الشكل، لذا تمرد يونسكو ورفاقه على الواقعية المسرحية ورفضوا الواقع المنقوص الذي تصدر عنه وتصوره وتفرضه اعتسافاً، وانصرفوا إلى عرض ما كان يتراءى لحسّهم الفني ووعيهم الإنساني كواقع شامل، بكل ما فيه من مأساة ومن مهزلة، وكل ما فيه من عبث وخواء وتناقض.(٥)



الإحساس بالزوال في عالم بلا فضاء

والطليعيون يخنقهم "إحساس بالزوال، في عالم بلا فضاء من الضوء واللون.. إحساس يبدو الوجودُ من خلاله عديم الجدوى، مستحيلاً، بلا مغزى.. وتلك هي ذروة الوعي بالعبث، حيث يتكشف العالم كخيال موهوم، بعيد عن الاحتمال والتصديق، ويبدو الواقع واللغة فيه كما لو كانا يتفككان ويتهاويان قِطَعاً متناثرة، ويفرغان من كل معنى، بحيث يبدو في النهاية أنه ما دام كل شيء قد تجرّد من الأهمية، فما الذي يسع المرء أن يفعله إلاّ أن يضحك من كل شيء؟".(٦)

وللطليعيين موقف من الموت.. كلنا نعرف كيف أن "كامي" اعتبره السبب الرئيسي في تجريد الحياة من المعنى: "ما دمنا سنموت فليس لأي شيء معنى"، وارتكن إليه في القول بعبثية العالم، إذ لو كان العالم مجدياً "فلماذا يموت الناس وهم ليسوا سعداء؟".

إن "يونسكو" رائداللامعقول، يقف -كبقية رفاقه- أمام الموت يتأمله، وتشيع هذه الوقفة في فنّه، على الأخص في "قاتل بلا أجر" و"الملك يحتضر"، كما تشيع في "الأيام السعيدة" لصموئيل بكت "إن الموت يثير الرعب لا لأنه واقعة فظيعة في حدّ ذاتها، بل لأنه يجعل كل الحياة التي سبقته عبثاً وسخفاً، فضلاً عن أنه في حدّ ذاته لا معنى له.." يقول يونسكو: "لقد خلقنا كي نكون خالدين ومع ذلك نموت. الأمر مخيف ولا يمكن أن يحمل محمل الجد".(٧)

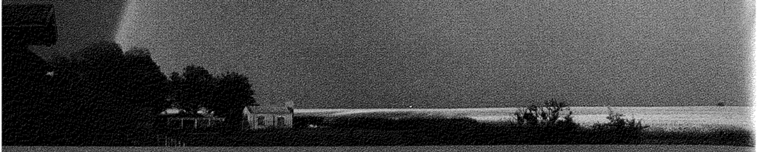
العبثيون واللامعقولية بين الإنسان والكون

ما الذي يستطيعه الفنان إزاء عالم يراه "كابوساً لا يطاق، وشبه حلم مخيف.. عالم يبدو أنه في قبضة حمى رهيبة.. ألا نكون محقين إذا ما أحسسنا أن هذا العالم ليس لنا، إنه ليس عالمنا الحق؟ ما الذي يستطيعه الفنان إزاء عالم كهذا إلا أن يمزق قناع اللاواقع من حوله، قناع المظاهر الذي يصطنع للعالم منطقاً، ويدعي له عقلاً، بالرغم من كل ما يطالع العالم الإنسان به من لا عقل ولا منطق ولا قواعد؟".(٨)

وعند "صموئيل بكت" أن الإنسان "أشرف ما في الكون، والذي ينير حقيقته ليس هو الكون، لأن الكون أبكم أعمى لا ينطق ولا يبين ولا يدري من أمره شيئاً، وإنما يجد الإنسان في داخل نفسه ما يضيء له حقيقة نفسه". وتلك هي خلاصة فلسفة "بكت" التي يدين بها لإمام الوجودية المسيحية "بسكال". فعند الأخير إن الإنسان، وإن يكن نبتاً ضعيفاً، إلا أنه نبت مفكر. وإن الكون إن أهلك الإنسان، فإن الإنسان يكون أشرف ممن يهلكه، لأن الإنسان يعلم أنه يموت، أما الكون فلا يدري ماذا يفعل".(٩)

الرؤية الإسلامية تؤكد على غائية الكون وجدية الحياة، وجدوى الكدح البشري، والعلائق المنطقية التي تربط بين الإنسان والكون، وتقدير قيمة "العقل" واحترام القواعد الأساسية للوجود: الزمان والمكان ووحدة الشخصية، والمعنى الذي يسيّر الكون.

تلك هي -بإيجاز شديد- الخطوط العريضة للرؤية الطليعية التي مارست دورها الملحوظ في بناهم الفنية: فوضى تعم الكون والعالم، ولا تدع لحركة الإنسان فيهما هدفاً محدداً أو مصيراً معلوماً.. كون أنشأته الصدفة العمياء.. وعالم لا يقوم على قاعدة من العقل. وإذا كان الناس طيلة تاريخهم قد اتفقوا على مواضعات وأخلاق وقيم وتقاليد فما ذلك إلا لأنهم مجانين أو عميان، لم يروا بوضوح عبث الكون أو يعقلوا سخف العالم. إذ أنى لهم أن يصطلحوا على ما هو ثابت في حياتهم، وليس هناك شيء يمتلك عناصر الثبات لا الزمان ولا المكان ولا وحدة الشخصية أو اللغة أو العادات والأعراف والتقاليد؟ ثم إن العقل الأكبر الذي ظنوا أنه يسير الكون ثبت انتفاؤه إزاء العبث الطاغي الذي يلف الكون ولا يدع لشيء فيه أن يقرّ له قرار.



هذا هــو -إذن- المضمون الفكري للعبثيــة، وهو في كل مفرداته يشــكل معادلاته الفنية التي تجعل منــه، -بإضافتها إلى خلفياتها التصوّرية- مذهباً في الأدب:

فوضوية الكون وعبــث الحياة، ولاجدوى الكدح البشــري، واللامعقوليــة التي تربط بين الإنســان والكــون، والتمرد على "دكتاتوريــة العقــل"، وربما إقصــاؤه وإلغاء النظــرة العتيقة "الكلاسيكية" لقواعد الكون الأساسية: الزمان والمكان ووحدة الشخصية، وتفكك هذه الشخصية.. القلق التاريخي الذي يسود الدنيا.. السخف واللامعنى اللذان يمسكان برقبة العالم.. الإحساس بالزوال في عــالم بلا فضاء من الضوء واللــون.. اللغة المفككة المفرغة من أي معنى.. الموت الذي يلغي مغزى الوجود البشري.. الأحلام والكوابيس باعتبارهما تكثيفاً لمأزق الإنســان ورعبه.. غياب الأمــل في التصالح مع الكون.. وســخف ادّعاء اليقين.

هذا كلــه ينعكس على أدب العبثيين، لغة وحبكة وســرداً وحواراً ومنولوجات وفضاء وشــخوصاً.. وعلى ســبيل المثال لم تُتح لهم رؤيتهم للعبث أن يطمئنوا للشــكل المسرحي العقلي "الأرســطالي" أداة للتعبير. فالمضمون في العمل الفني هو الذي يحدّد الشكل. لذا تمرد "يونسكو" ورفاقه على الواقعية المسرحية، ورفضوا ما اعتقدوه واقعاً منقوصاً تصدر عنه وتصوّره وتفرضه اعتســافاً، وانصرفوا إلى عرض ما كان يتراءى لحسّــهم الفني ووعيهم الإنساني كواقع شامل بكل ما فيه من مأساة ومن مهزلة، وكل ما فيه من عبث وخواء وتناقض.

غائية الكون والرؤية الإسلامية

الرؤية الإســلامية تبحــر باتجاه معاكس تمامــاً، حيث التأكيد علــى غائية الكون، وجدية الحياة، وجدوى الكدح البشــري، والعلائق المنطقية التي تربط بين الإنســان والكون، وتقدير قيمة "العقل" واحترام القواعد الأساســية للوجــود: الزمان والمكان ووحدة الشــخصية، والاعتقاد العميق بالمعنى الذي يسيّر العالم.. والإحساس بالصيرورة والدوام والامتداد، وبقدرة اللغة اللامتناهية على التواصــل.. والاعتقاد بأن الموت تأكيد لمغزى الحياة وليس نفياً له.. والأمل الدائم بالتحقق بالوفاق والتصالح مع الكون.. ثم اليقين العميق الموغل حتى النخاع بقصدية الوجود البشري على الأرض ووظيفته الكبرى.

هــذه كلها تنعكس بالضرورة على فنية الأداء أو أســلوبيته الإبداعية، وعبر الأجناس الأدبية كافة، تماماً كما انعكست هناك سلباً، ها هي ذي تنعكس ها هنا إيجاباً في الحبكة والسرد واللغة والحوار والمنولوج والشــخوص والفضاء، وسائر المفردات الفنية التي تعين على بناء العمل الإبداعي.

والآن، فإننا لو جئنا إلى ما تلقته مكتبة الأدب الإسلامي من أعمال مسرحية وقصصية وروائية، فإننا ومنذ الوهلة الأولى سنلتقي بناءً فنياً يختلف في مواصفاته الأسلوبية عما قدّمه العبثيون.

وبقدر تجربتي المتواضعة في المسرح والرواية فإنني حاولت ما وســعني الجهد أن أقدّم المعادلات الفنية للمضامين الفكرية. وقد وقفــت قليلاً في الحلقة الأولى من هذه المقالات عند مســرحية "المأســورون" وبنيتها الفنية المغايرة للتراجيديا اليونانية التي امتد تأثيرها إلى المسرح الغربي المعاصر.

رواية "السيف والكلمة"

وأريــد في هذه الحلقــة أن أقف عند روايتي الأخيرة "الســيف والكلمة" للتأشــير على مفاصلها الفنية الأساســية التي تناقض معطيات العبثيين، رغم أنها ترفض التشــنج على التقاليد القديمة للجنس الروائي، وتمارس قدراً ملحوظاً من التجريب، لكن العبرة في المغزى الأخير. والمغزى الأخير يقــدم للقارئ معادلات فنية مغايرة إلى حدّ كبير لمعادلات العبثيين.

كانت "الإعصــار والمئذنة" خطوة علــى الطريق، ومعظم الكتاب -كما يؤكد "كولن ولســون"- "يتعلمون من روايتهم الأولى أكثر مما يتعلمونه من أية رواية أخرى".(١٠)

أما هذه فإنني حاولت فيها -ما وسعني الجهد- أن أنجز عملاً يضيف قيماً فنية جديدة، وأركز على العبارة الأخيرة، لأن الأدباء الإســلاميين بحاجة إلى هذه.. إلى الإضافــة الفنية التي لا يوليها الكثيرون منهم -للأسف- الاهتمام الكافي.



توظيف التقنيات في عمل فني إسلامي

تحاول الرواية توظيف الغزو المغولي لبغداد من خلال تنامي الحدث عبر أربعة أصوات، وبضمائر متغايرة يغيب فيها الراوي تماماً (والذي تختبئ خلفه في معظم الأحيان اقتحامات فجة للروائي نفسه كما فعلت في الإعصار والمئذنة)، وذلك في محاولة لتنفيذ معمار أكثر حداثة في العمل الروائي الإسلامي.

لقد تم كسر حاجز الزمن وتسلسله الرتيب، كما يحدث في بعض أعمال الحداثة الروائية في الغرب، إنه حاضر في نسيج السرد، وليس من الضروري أن يكون هذا الحضور كعقرب الساعة الذي يدور على نفسه ويظل يدور. إن الزمن الروائي في "السيف والكلمة" يماثل سيرورة الزمن الموضوعي في شكل تتابع أفقي "وهذا لم يمنع من رجوع السرد إلى الماضي، فهناك انقطاعات عديدة في سيرورة السرد المستقيم. والرجوع إلى الماضي جاء وفق نسق مزدوج، فهو إما في شكل ذكريات يستعرضها بعض الأبطال، أو يتولون استحضارها لتفسير سلوكهم".(١١)

توظيف الرموز

الرمز وُظِّفَ هو الآخر في "السيف والكلمة"، ليس رمزاً تجريدياً على أية حال، ولكنه مكسّو لحماً ودماً. إن الأبطال المحوريين الأربعة في الرواية هم في حقيقتهم رموز مجسدة لقوى الإنسان في مجابهة المصير. شخوص تعيش الحياة وتنبض بالهم والوجع، وتأكل وتتنفس وتصارع وتحلم وتتعثر وتقوم العقل والروح والوجدان. كلهم يؤول إلى الضياع في نهاية الأمر، لأن الموقف الأحادي قبالة المصير محكوم عليه بالهزيمة، ليس بصيغة مجابهة غير متكافئة على الإطلاق، يتحكم فيها القدر بخناق الإنسان ويسحقه، كما هو الحال في التراجيديات اليونانية "الكلاسيكية"، ولكن بصيغة اختيار قد يكون خاطئاً، وعلى صاحبه -من ثم- أن يتحمل نتائج عمله.

هذا المنظور الفني الصرف يعكس معادلاً موضوعاً إسلامياً: حرية الإنسان، والعدل الإلهي المطلق الذي يرتّب الأسباب على المسببات. إننا بأمس الحاجة إلى قيم فنية تعكس حالتنا الإسلامية بكل مفرداتها وحلقاتها.. تعكسها جمالياً، وليس عبر مقولات العقل الخالص، وهذه هي مهمة الأدب. ومن هنا يمكن للمرء أن يُدِين العديد من الأدباء الإسلاميين الذين لا يُولُون اهتمامهم للجانب الفني، ويرمون بثقلهم صوب المضمون. إنهم في هذه الحالة لا يكادون يفعلون شيئاً إذا أردنا أن نحاكمهم إلى مطالب النوع الأدبي وليس إلى الخطابة أو التاريخ أو الإعلام.

مهما يكن من أمر فإن الذي ينتصر في "السيف والكلمة" هو واحد فقط من بين أربعة شخوص طوتهم المجابهة الصعبة. لماذا؟ لأنه استطاع أن يتجاوز أسر الأحادية وأن يتحقق إنسانياً وفق مطالب الشخصانية الإسلامية التي نادى بها هذا الدين.

مرة أخرى يحدث هذا من خلال نبض البطل ومعاناته وتعامله مع الموجودات والخبرات والأشياء والمرئيات، وليس من خلال تجريد ذهني صرف.

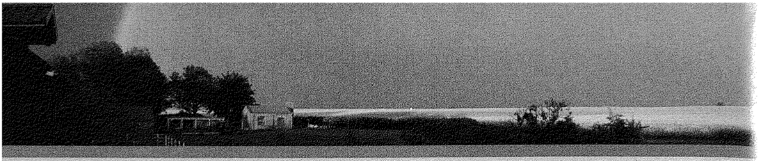
توظيف الجغرافية والتاريخ

حاولت أيضاً أن أوظف الجغرافيا والتاريخ قدر ما أطيق.. لقد درست بإمعان جغرافيةَ بغداد بأحيائها ودروبها وجسورها وأسواقها ومدارسها وملاعبها وحوانيتها... إلخ. درست أيضاً تاريخ بغداد لحظة الغزو المغولي.. عادات الناس وتقاليدهم وطبائعهم وأزياءهم وطعامهم وشرابهم.. جدّهم وهزلهم.. خفقاتهم الاجتماعي هنا وهناك.. لم أرد -طبعاً- أن أكتب عن تاريخ بغداد وجغرافيتها، ولكن جعل الفضاء الروائي أكثر صدقاً فنياً. كان علي أن أعرف حتى مقالات المتصوفة، يومها، وتقاليد العلماء والطلبة والدارسين.

استعرت من "الآخر" بعض الخبرات الفنية. ولم لا؟ ما دام الهدف هو توظيف التقنيات لإنضاج عمل فني يطمح أن يكون إسلامياً؟ ويمكن أن أشير هنا إلى واحدة من تلك الخبرات: ضمير الشخص الثاني الذي اعتمده الأديب الفرنسي المعاصر "ميشيل بوتور" والذي يقول عنه إنه يؤدي دوراً سحرياً، وإنه يدعو القارئ إلى المشاركة بنشاط في حركة القصة.

الصراع بين العقل والروح

الحق أنني وجدت في هذا الضمير ليس تنويعاً فحسب لضمائر



الشـــخوص في "الســـيف والكلمة"، ولكنه -فضلاً عن ذلك- فرصة مناسبة تماماً للمناخ الدرامي والمتوتّر والسريع الذي كانت الشخصيات الأساسية تعيشه.

سأضرب مثلاً واحداً فحسب.. منولوج يديره الأب بصيغة الضمير المذكور:

"ذهبت إلى الكيلاني على استحياء والشوق يدفعك.. أشياء كثيرة أردت أن تفضي بها إليه.. قلبك الذي وســع بغداد كلّها ينـــوء اليوم بهموم بغداد.. ليس هيّناً أن ترى أصدقاءك وإخوانك يقتّلون أو يرحلون.. ليس هيّناً أن تجتاز سوق الكتب فلا تجد فيه شيئاً.. لا أحداً ولا حانوتاً مفتوحاً ولا كتاباً.. ليس هيّناً أن ترى كل شيء جميل يحترق، وكل عزيز عليك يمضغ عذابه بصمت.. لم يكـــن هيّناً -أيضاً- أن ترى ابنك يغيب في الدروب فلا تكاد تلتقيـــه أو تعثر عليه، ولا أن تعطي ابنتك السـكين وتقول لها: اقطعي الحبل الذي يشدّك إلى المحبوب.. الزمن المغولي يضرسك، وجناحـــك يهيض فيتطاير منه الريش.. طال يوم الخلاص يا عبد القادر فكيف السبيل؟

"ذهبـت على عجل، مجتازاً أحيـاء البدرية والجعفرية الأقل زحمة، فقالوا لك: خير لك أن ترجع.. تســاءلت ووجع القلب يشـــدّد عليك الخناق: لماذا؟ قالوا: إنهم يســـدّون عليه الطرق.. صرخت: لماذا؟ قالوا: لن يسمحوا لأحد أن يزوره أو يلتقيه بعد اليـــوم.. صرخت كرة أخرى: لماذا؟ لم يجبك أحد، وكان عليك أن تســترجع الصرخة المدوّمة في الفضاء الذي لا شيء فيه.. إن تعتقلهـــا في روحك الموجعة، فها هـــو ذا الفضاء الوحيد المتبقّي الذي لن يخترقه المغول".

لقد تعامل "المؤرخ" مع الغـــزو المغولي من الخارج، وهو لا يتابع الدقائق والتفاصيل، ولا يحاول النفاذ إلى العمق الإنســـاني للواقعة التاريخية، وإنما يكتفي برســـم الهيـــاكل الخارجية لها، في حين نحن بحاجة إلى رؤية الفنان لكي نســـبر انعكاسات الحدث على النفس البشرية في أزقة بغداد ودُورها وأحيائها ومساجدها وأســـواقها وملاعبها ومكتباتها.. لقد حاولـــت الرواية أن تقدم انطباعاً مأساوياً للاجتياح المغولي لبغداد، وأن تومض -من وراء الحزن والانكسار- بسبيل النهوض والخلاص.

ولقد حاولتُ أن أقيم معمار الرواية وفق صيغة رباعية الأدوار والأصـــوات ينمو فيها الحدث عبر نقلات أربـــع لزاوية الرؤية، ومن خلال فعـــل وتداعيات أبطال أربعة وهم يشـــاركون في صناعة الوقائـــع والأحداث، ويغرقون في تيارات وعيهم الباطن، ويدخلون ســـيلاً من المنولوجات التي تعكس رؤيتهم الانطباعية لتلك الوقائع والأحداث.. وهم ينطلقون منذ اللحظات الأولى، كل من اختياره الحر، لكي ما يلبث أن يجتاز شبكة من الدروب والصدمات والخبرات يجاهد كي يجعل خياره قديراً على تجاوزها بنجـــاح. ولكنه ينهزم في نهاية الأمر لأنه رمى بثقله صوب نقطة ارتكاز واحدة في الكينونة البشرية.

إنها دراما الصراع بين العقل والروح والوجدان والجســـد.. ولن يُقدَّر لأحد فيها الخلاص إلا من خلال بذل جهد اســـتثنائي للتحقّق بالوفاق، وذلك ما تومئ به شخصية البطل الرئيسي. ■

(*) كلية الآداب، جامعة الموصل / العراق.

الهوامش

(1) تناولت أولاهمـــا قضية "القدر والحرية" ووقفت ثانيتهما عند مفهوم "الواقعية"، حيث نشرت أولاهما في مجلة "الأدب الإسلامي" ونشرت ثانيتهما في مجلة "حراء".

(2) دار الضياء، عمان ٢٠٠٠ م، وســيعاد طبعه بعنوانه الأصلي "حول استراتيجية الأدب الإسلامي" في دار ابن كثير، بيروت - دمشق.

(3) ماهر شفيق فريد، مجلة المسرح، القاهرة، العدد ٩، ص:٨٣.

(4) المرجع نفسه، ص:٨٣-٨٥.

(5) يوجين يونسكو: ٥ مسرحيات طليعية، ترجمة وتقديم شفيق مقار، المقدمة، ص:٢١-٢٢.

(6) المرجع نفسه، ص:٢٣-٢٤.

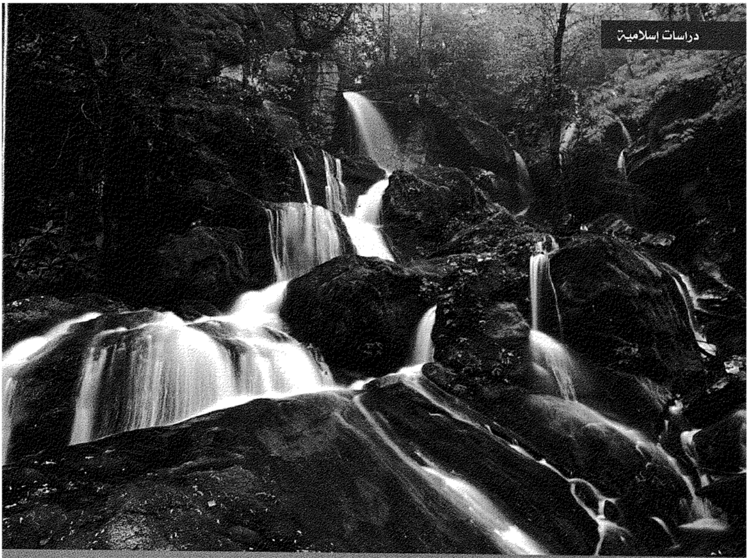
(7) الدكتور نعيم عطية: الخطوط العريضة في مسرح يونسكو، بمجلة المسرح، القاهرة، العدد ١١، ص:٩٥، عن يوجين يونسكو: ملاحظات وملاحظات عكسية، ص:٩١.

(8) يوجين يونسكو: ٥ مسرحيات طليعية، المقدمة، ص:٣٨-٣٩.

(9) جلال العشري: صمويل بكت والأيام السعيدة، بمجلة المسرح، القاهرة، العدد ٨، ص:١٠٤.

(10) فن الرواية، ترجمة محمد درويش، دار المأمون، بغداد ١٩٨٦ م، ص:٢٧٠.

(11) محمد عزام، وعي العالم الروائي، اتحاد الكتاب العرب، دمشـــق ١٩٩٠ م، ص:١٢٢.



مفهوم الحياة في القرآن الكريم

أ.د. الشاهد البوشيخي*

إننا نعيش حضارياً مرحلة في غاية الخطورة والصعوبة، نعيش مرحلة أشار إليها رسول الله ﷺ في الحديث المشهور: "يوشك الأمم أن تَداعَى عليكم كما تَداعَى الأكَلَة إلى قصعتها" (رواه أبو داود). حديث القصعة وحديث الغثاء على طوله، يحدد في الحقيقة ملامح الواقع، كما يحدد الداء ويصف الدواء، ويحدد الداء في الوهن ويصف الدواء في عكسه، ويحدد الداء في حب الدنيا وكراهية الموت، ويحدد الدواء في خلاف ذلك. وفي الآية: ﴿أَوَلَمَّا أَصَابَتْكُمْ مُصِيبَةٌ قَدْ أَصَبْتُمْ مِثْلَيْهَا قُلْتُمْ أَنَّى هَذَا قُلْ هُوَ مِنْ عِنْدِ أَنْفُسِكُمْ إِنَّ اللهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾(آل عمران:١٦٥)، إشارة إلى هذا الموضوع وإلى غيره.. وإن تسليط غير المسلمين على المسلمين إنما هو من البلاء الذي يعاقب به المسلمون على خلل فيهم.

لقد أُخرجت الأمة إلى الناس بالقرآن الكريم، وبه صارت خير أمّة أخرجت للناس، وبه كانت وحضرت في التاريخ، وفعلت ما فعلت من خيرات.. فهل هو الآن في المكان اللائق به؟

فساد التصور سبب فساد الواقع

ما سبب عدم بقاء الأمة في موقعها من الشهادة على الناس، وما سبب تدحرجها من موقع الشاهد إلى موقع المشهود عليه؟ إن خللاً ما وقع في الصلة بينها وبين القرآن، وهي أن لألفاظ كتاب الله ﷻ مفاهيم، ولمجموع تلك المفاهيم نسقاً عاما يمثّل صورة الإسلام بكاملها، ولا يمكن أن يتم التمكّن من ذلك إلا بدراسة هذه المكوّنات لذلك النسق العام، ولتلك الصورة الكاملة.

لا يمكن الفهمُ إلا بهذا الفهم، فهمِ الأجزاء ثم فهمِ الكلّ تبعاً

لفهم الأجزاء. ولا سبيل إلى صنع واقعٍ قبل صنع تصوّر صحيح لما ينبغي أن يكون عليه هذا الواقع. إن فساداً في التصور السليم لمفاهيم ألفاظ كتاب الله ﷻ قد ساد، والحاجة ماسةٌ الآن إلى تجديد فهم هذه الألفاظ، ماذا يريد بها الله ﷻ منّا أفراداً ومؤسسات وأمةً؟

لفظ الحياة في كتاب الله ﷻ

ولهذا اللفظ تصوران مختلفان في القرآن..

أ–التصور الكفري للحياة: وهو تصور يقصر الحياة على الدنيا فقط. لا ينظر إلى ما قبل ذلك ولا ينظر إلى ما بعد ذلك ولا ينظر إلى ما مع ذلك. إذ مع الحياة التي تُرى وتُشاهد كائناتٌ وحياةٌ أخرى لا تُرى ولا تُشاهد. هناك التصور الذي تشير إليه الآية الكريمة محدّدةً له: ﴿وَقَالُوا مَا هِيَ إِلاَّ حَيَاتُنَا الدُّنْيَا نَمُوتُ وَنَحْيَا وَمَا يُهْلِكُنَا إِلاَّ الدَّهْرُ وَمَا لَهُمْ بِذَلِكَ مِنْ عِلْمٍ إِنْ هُمْ إِلاَّ يَظُنُّونَ﴾(الجاثية:٢٤). فهنا حصرٌ لمفهوم الحياة في هذه الدنيا فقط دون أن يُلحَظ وأن يُعتبَر ما سبق، وما سيلحق وما هو كائن الآن. أقصى درجات العلم لديهم لا تجاوز هذا السطح من الحياة الدنيا، ولا تجاوز هذا المحسوس المشاهد. فكل ما ليس بمحسوس هو غير قابل لأن يُعلَم.

فجميع ما يترتّب على هذه النظرة هو فهْمُ الكفار لهذه الحياة التي تُثمر وتُنتج أنشطةً وأعمالاً تنسجم مع التصور الكفري للحياة، وهذا ليس هو العلم. لذلك نفى الله ﷻ العلم عنهم فقال: ﴿وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لاَ يَعْلَمُونَ﴾(الأعراف:١٨٧)، وأثبت لهم العلم الظاهري بالحياة: ﴿يَعْلَمُونَ ظَاهِرًا مِنَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَهُمْ عَنِ الآخِرَةِ هُمْ غَافِلُونَ﴾(الروم:٧).

وأنتج هذا التصور الكفري أموراً وتصرفات كثيرة بناء على العلاقة التلازمية بين التصور والسلوك، كحب الحياة الدنيا والافتتان بزينتها، والاطمئنان والرضا بها والحرص عليها مهما كان الثمن.

كثير من المظاهر وصور السلوك نسبها الله ﷻ إلى الكفّار ونفاها عن المسلمين. وهذه الأمور وقعت بسبب هذا التصور للحياة، أي حين ينطلق الإنسان من أنه لا يملك إلا هذه الحياة الدنيا، وحين يتصور الإنسان أنه لا يملك إلا فترة عمره فقط، فلا شك أنه سيكون حريصاً جداً على الاستفادة من هذه الحياة. أيُّ حياة؟ كيفما كانت. حين ينطلق الإنسان من هذا التصوّر فعلاً يؤثره على سواه، لأنه يؤثر شيئاً بين يديه على شيء لا يؤمن به، فلذلك يقدم العاجلة لكونها عاجلة على الآجلة التي قد تكون وقد لا تكون حسب تصوره الكفري.

ب–التصور الإيماني للحياة: وهو تصور آخر للحياة، حياة ممدودة ممتدة، لا نهاية لها في الزمان البَعْدي ولا نهاية لها في الامتداد الآنيّ. الحياة الآن ليست فقط لهذا الذي يُرى، ولكن هناك كائنات حيةٌ مؤثرة في هذه الحياة، هي الموكول إليها ضبط أمرِ هذه الحياة نفسها. تأمّل قول الله ﷻ: ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا الإِنْسَانَ وَنَعْلَمُ مَا تُوَسْوِسُ بِهِ نَفْسُهُ وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنْ حَبْلِ الْوَرِيدِ﴾(ق:١٦)، بعدها مباشرة: ﴿إِذْ يَتَلَقَّى الْمُتَلَقِّيَانِ عَنِ الْيَمِينِ وَعَنِ الشِّمَالِ قَعِيدٌ ۞ مَا يَلْفِظُ مِنْ قَوْلٍ إِلاَّ لَدَيْهِ رَقِيبٌ عَتِيدٌ﴾(ق:١٧-١٨). وتأمّل قول رسول الله ﷺ: "أَطَّتِ السّماءُ وحُقَّ لها أن تَئِطّ، ما فيها موضع أربع أصابع إلا وملكٌ واضع جبهته ساجداً لله تعالى" (رواه الترمذي). إن كائنات كثيرة تحيط بنا وهي التي وُكِل إليها حفظُنا وحفظ ما يتعلق بهذا الكون مما لا نطيق نحن حفظَه، قال الله تعالى: ﴿وَسِعَ كُرْسِيُّهُ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضَ وَلاَ يَئُودُهُ حِفْظُهُمَا وَهُوَ الْعَلِيُّ الْعَظِيمُ﴾(البقرة:٢٥٥). لقد خلق الله ﷻ جنودا له في السماوات والأرض لحفظ السماوات والأرض وما بينهما.

هذا الإيمان بوجود كائنات حيّة بجانبنا لا تُرى هو من صميم ما يدخُل في مفهوم الحياة في هذه الدنيا، لأن الإنسان عندما يتصور أنه وحده في الكون، يكون له سلوك؛ وعندما يتصور أن معه أحياء لهم دور يكون له سلوك آخر. إذن ماذا بعد الموت؟ هل حقاً ينتهي الإنسان حتى قبل البعث؟ وهل يوجد موتٌ بمعنى الفناء التام؟

حقيقة الموت في التصور الإيماني

الموت في الحقيقة هو مجرد انفصال بين عنصرين اثنين مؤسِّسين للإنسان وهما كما قال الله تعالى: ﴿إِنِّي خَالِقٌ بَشَرًا مِنْ طِينٍ ۞ فَإِذَا سَوَّيْتُهُ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِنْ رُوحِي فَقَعُوا لَهُ سَاجِدِينَ﴾(ص:٧١-٧٢)؛ فآدم عليه السلام في الأصل مسوًّى من عنصر أرضي خالص هو الطين، وفيه عنصر غير أرضي هو من أمر الله: ﴿وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الرُّوحِ قُلِ الرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّي﴾(الإسراء:٨٥).

الإنسان هو ذريّة آدم بعد آدم، يحكمه نفس المنطق، يمكث في بطن أمه أربعين يوما نطفةً، ثم يكون علقةً مثلَ ذلك، ثم يكون مضغةً مثلَ ذلك، ثم يرسَل إليه المَلَك فينفخُ فيه الروح.. هذه الازدواجية في الخلْق تجعلنا نفهم أن حال الموت لا يؤدي إلى إنهاء الطرفين، وإنما يؤدي إلى الفصل بينهما، فيرجع ما أصله الترابُ إلى التراب، وتصعد الروح إلى بارئها، وهو ما يسمى بالحياة البرزخيّة. وقد نُصَّ على الحياة في هذه المرحلة بالنسبة إلى نوعية

معينة نهانا القرآن عن أن نسميهم أمواتا: ﴿وَلَا تَقُولُوا لِمَنْ يُقْتَلُ فِي سَبِيلِ اللهِ أَمْوَاتٌ بَلْ أَحْيَاءٌ﴾(البقرة:١٥٤). هذا النص يدل على أن المجاهدين أحياء، والحقيقة أن الجميع من حيث أرواحهم أحياء، ولكن حياة السعداء في المنهج القرآني هي الحياة. أما البعث بعد الحياة البرزخية فيُعتبر الخلْقَ الثاني قال تعالى: ﴿وَهُوَ الَّذِي يَبْدَأُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ﴾(الروم:٢٧). هذه الإعادة هي على نفس الأصل الأول، يعود العنصر الترابي للالتقاء بالعنصر الروحي فتكون حياة جديدة. فإذن، حتى المرحلة الوسطى المسماة بالحياة البرزخية لا تختفي الحياة فيها بالمعنى الكامل، وإنما تختفي الحياة فقط بالمعنى الدنيوي.

وتبقى حياةٌ لها طبيعةٌ خاصة تتلقى آثارَ الحياة الأولى المشار إليها في قوله تعالى: ﴿إِنَّا نَحْنُ نُحْيِي الْمَوْتَى وَنَكْتُبُ مَا قَدَّمُوا وَآثَارَهُمْ﴾(يس:١٢). وكأن الإنسان بعد مغادرته -بالموت- لهذه الدنيا، كأنه يُفتح له حساب في الدار الآخرة، في الحياة البرزخية، فالأعمال التي لا تنقطع بالموت تستمر وتدخل حسناتها في حسابه. قال ﷺ: "إذا مات ابن آدم انقطع عمله إلا من ثلاث، صدقة جارية أو علمٍ يُنتفع به أو ولدٍ صالح يدعو له" (رواه مسلم). وقال تعالى: ﴿وَنَكْتُبُ مَا قَدَّمُوا وَآثَارَهُمْ﴾(يس:١٢).

الدعوة للهدى أكبر مورْد للحسنات

وعلى رأس تلك الآثار أجر الدعوة للهدى؛ قال رسول الله ﷺ:"مَن دعا إلى هُدًى كان له من الأجر مثل أجور من تبعه، لا ينقص ذلك من أجورهم شيئاً" (رواه مسلم). بهذا المنطق نفسه الذي يشير إليه هذا الحديث يمكن فهمُ المدد المستمر للحسنات والذي لا ينقطع بالموت. ومصدر ذلك الأعمال الصالحة المخلّدة وعلى رأسها الدّعوة للهدى. كما يمكن أن ندرك أن رسول الله ﷺ أعظم المسلمين أجراً لأنّنا جميعاً نُدخِل إلى كتابه حسناتنا، يَدخل إلى حسابه مثلُ ما نفعله من حسنات، لأنه الداعي الأول إلى هذا الخير وإلى هذا الهدى، فمن تبعه ومن تبع مَن تبعه -والأمر ماض إلى يوم القيامة- يستفيد هو ﷺ من كل ذلك. وكل مَن تبعه ودعا بدعوته يستفيد من أجور من استجابوا له، وهكذا دواليك لا ينقطع مدد الحسنات عن الرسول ﷺ والتابعين له.

الحياة الأخرى هي الحياة

هذه الحياة الدنيوية لها خصوصية، وهناك الحياة الأخرى التي هي الحياة، ولذلك قال الله ﷻ: ﴿وَإِنَّ الدَّارَ الْآخِرَةَ لَهِيَ الْحَيَوَانُ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ﴾(العنكبوت:٦٤). وللأسف لا يعلمون. ﴿وَإِنَّ﴾ التوكيد بـ"إن"، والجملة الاسمية ﴿الدَّارَ الْآخِرَةَ﴾، والتوكيد باللام ﴿لَهِيَ﴾، والتوكيد بالضمير "هي" أيضاً، ثم بزيادة الألف والنون في الحياة للمبالغة ﴿الْحَيَوَانُ﴾.. كلها إشارة إلى أنها هي الحياة التي تستحق أن تسمى الحياة، ﴿وَإِنَّ الدَّارَ الْآخِرَةَ لَهِيَ الْحَيَوَانُ﴾. وفعلاً سننسى يوم القيامة هذه الحياة الدنيوية نهائياً ولن تبقى حاضرةً في أذهاننا ﴿كَلَّا إِذَا دُكَّتِ الْأَرْضُ دَكًّا دَكًّا ۞ وَجَاءَ رَبُّكَ وَالْمَلَكُ صَفًّا صَفًّا ۞ وَجِيءَ يَوْمَئِذٍ بِجَهَنَّمَ يَوْمَئِذٍ يَتَذَكَّرُ الْإِنْسَانُ وَأَنَّى لَهُ الذِّكْرَى﴾(الفجر:٢١-٢٣)، ترجع له الذاكرة ليستعيد كل ما مضى، ويتذكر ما قبل ذلك. يتذكر العهد ﴿وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِنْ بَنِي آدَمَ مِنْ ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَأَشْهَدَهُمْ عَلَى أَنْفُسِهِمْ أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ قَالُوا بَلَى﴾(الأعراف:١٧٢) قبل هذه الحياة الدنيا وقبل أن يرسل الله إليه الملك فينفخ فيه الروح، يتذكر العهد الذي أُخذ علينا في مرحلة سابقة للتخلق الدنيوي، وأُخذ على أرواحنا في مرحلة لا ندريها، ولكنه كان.

مراحل الحياة والموت

ومجموع هذه المراحل أربعة وهو ما تشير إليه الآية: ﴿رَبَّنَا أَمَتَّنَا اثْنَتَيْنِ وَأَحْيَيْتَنَا اثْنَتَيْنِ﴾(غافر:١١)؛ موت قبل هذه الحياة، وموت بعد هذه الحياة الدنيا، ثم حياةٌ بين الموتين، وحياة لا موت فيها ولا موت بعدها وهي الأخيرة التي تستحق أن تسمى "الحياة". إذن ما عادت مناقشةٌ في مسألة الحياة، وما عاد لبْس في أمر الحياة الآخرة أنها هي الحياة! فيقول الإنسان النادم بصراحة ناسباً ذلك لنفسه: ﴿يَا لَيْتَنِي قَدَّمْتُ لِحَيَاتِي﴾، وكأن الحياة الدنيوية لم تكن له حياة. لذلك سوف ندرك أن هذه الحياة الأخروية هي الحياة الحقيقية ولكن الناس نيام، فإذا ماتوا استيقظوا وعرفوا الحياة الحقيقية.

هذه النظرة وهذا التصور للحياة الحقيقية الممتدة التي لا نهاية لها، والتي لا يُذاق فيها الموت إلا الموتة الأولى، أي لا موت بعد البعث... هذا التصور لتلك الحياة الممتدة، لها هذا البُعد السابق للدنيا، والبُعد اللاحق للدنيا في صورتين: صورة الحياة البرزخية وصورة الحياة الأخروية وهي الحياة الحقيقية. وكذلك في هذه الدنيا لها الامتداد الأفقي أيضاً الذي يجاوز المحسوس إلى غير المحسوس. هذا التصور إن استقر في القلب وحصل به الإيمان -وأركان الإيمان قائمة على هذا- فإنه يُنتج حياة فردية وحياة مجتمعية وحياة للأمة في صورة معاكسة تماماً للصورة الأخرى، ومغايرة لها كل المغايرة.

التصور المعيَّن يستلزم سلوكاً معيَّناً

وعلى نفس القاعدة المقررة: "أن تصوراً معيناً لابد أن يلزم منه سلوك معيّن"، فتطبيقا لهذه القاعدة تكون تصرفات ابن آدم الخارجية حسب ما هو مستقر في قلبه من التصورات. ويمكن أن نعكس من أجل الدراسة فنقول: إننا من التصرفات الخارجية -إن حلّلناها وعلّلناها بدقة- قد نستطيع استخلاص مدى رسوخ الإيمان ومدى عمق الإيمان ومدى انتفاء الإيمان أيضاً.. فحين نجد في الخارج لدى المسلمين أخلاق الكفار -على سبيل المثال- يصعب علينا أن نقطع بإيمانهم، لأنه لا يمكن مع وجود الإيمان ألا يكون هناك عمل صالح. إذ "ليس الإيمان بالتمني ولكنْ ما وقر في القلب وصدّقه العمل" (رواه البخاري)، حين لا يوجد في الخارج العمل الطيب الصالح الذي يصدق دعوى الإيمان، تتجه التهمة إلى ما في الباطن، أي إلى أن الإيمان غير موجود بالمرة أو ضعيف. لا نستطيع التنقيب عن القلوب، ولكن الظواهر آيات وأمارات وعلامات كما قال ﷺ: "آية المنافق ثلاث" (رواه البخاري)؛ آيات وأدلة على ما لا يُرى.

فإذن هناك قطيعة كاملة بين تصورين للحياة: تصور كفري قاصر قصير محدود، تنتج عنه كذلك أعمال وأخلاق وتصرفات ذات بُعد محدود، وتصور واسع عميق بعيد ممتد لا نهاية له تنتج عنه كذلك أخلاق لا نهاية لسعتها. إن الإسلام رحمة وإن الذي أنزل عليه الإسلام أيضاً صار رحمة ﴿وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلاَّ رَحْمَةً لِلْعَالَمِينَ﴾(الأنبياء:١٠٧).

أصل جميع المعاني الحسنة من الله ﷻ

لابد أن نقرر هاهنا حقيقة قبل المضي في معاني الرحمة، وهي أن جميع المعاني الحسنة أو الأسماء الحسنى إنما هي في الله ومن الله ﷻ، فلا رحمة في الكون ليس مصدرها الله ﷻ من جهة أنه الرحمن الرحيم، ولا علم في الكون ليس مصدره الله ﷻ من جهة أنه العليم، ولا قوة في الكون ليس مصدرها اسم الله من جهة أنه القوي العزيز.. وهكذا.

واستمداد الحياة نفسها من اسم الله الحي كذلك. فكل ذلك يعني أن جميع المعاني الحسنة أصلها من الله؛ فالأخلاق التي هي رحمة مصدرها اسم الله الرحمن الرحيم، إذ رحمته وسعت كل شيء، وإن كانت لن تكتب بعدُ في الحياة الحقيقية إلا للمؤمنين فقط، لأن التقوى فاصل حاسم بين فريق الجنة وفريق النار ﴿إِنَّمَا يَتَقَبَّلُ اللهُ مِنَ الْمُتَّقِينَ﴾(المائدة:٢٧).

الإسلام رحمة شاملة

إذن الإسلام جملةً هو عبارة عن رحمة في قسمه النظري وقسمه العملي. ومحمد ﷺ هو الجانب التطبيقي لهذا القرآن -لأنه أوتي القرآن ومثلَه معه- هو المثلُ ﷺ حين قال وحين فعل وحين أقرّ مما صحّ طبعاً. إذن هو بالقرآن وبالإسلام صار رحمة. لكن لمن؟ هل هو رحمة لنفسه فقط أم هو رحمة لمن آمن به فقط؟ هل هو رحمة للإنسان فقط أم هو رحمة للإنسان والحيوان فقط؟ إنه رحمة للعالمين، والمسلمون رحمة للعالمين أيضاً. والمسلم بقدر قربه من محمد ﷺ يتسع معنى الرحمة فيه، لأن الإسلام الذي جاء من عند الله ، جاء عامًّا، يعمّ نفعه الناس جميعا "مثَلُ ما بعثني اللهُ به من الهدى والعلم كمثَلِ غيث" (رواه البخاري)، حاله كحال ضياء الشمس، حيث تشرق الشمس على البار والفاجر، وكحال هذا الهواء المُشاع للجميع، وكحال الغيث ينزل على الجميع. والمسلمون الذين يمثلون ذلك الهدى -وهم في الحديث الطائفةُ الطيبةُ- عليهم أن يتسعوا في معانيهم حتى يصيروا كالغيث أو كالغيوث، أي كهذا المعنى العام للرحمة بكل مستلزمات الرحمة. إذ يدخل كل ما في كتاب الله في معنى الرحمة سواء ما اتجه منه إلى جهة الإنعام أو ما اتجه منه إلى جهة المؤاخذة والتأديب، فذلك أيضا من رحمة الله، وذلك مظهر من مظاهر الرحمة الشاملة في الدنيا.

المعنى الحقيقي للحياة دافع إلى إيثار الآخرة

هذا المعنى للحياة هو التصوّر الإيماني الحقيقي للحياة، وعليه تُبنى حياةٌ ويُنتَج ويُصاغ إنسانٌ، لا يُؤثِر العاجلة على الآجلة، بل يؤثر الآجلة على العاجلة، على هذا التصور يصاغ إنسان يريد بالدنيا الآخرة ﴿وَابْتَغِ فِيمَا آتَاكَ اللهُ الدَّارَ الآخِرَةَ وَلاَ تَنْسَ نَصِيبَكَ مِنَ الدُّنْيَا﴾(القصص:٧٧). إلا أن الدنيا في موقعها من الحياة جملةً -في التصور الإيماني الروحي هذا- مجرد متاع صغير بسيط واستمتاع بلحظات فقط، وهو نفسه ما تشير إليه الآية: ﴿وَلَكُمْ فِي الأَرْضِ مُسْتَقَرٌّ وَمَتَاعٌ إِلَى حِينٍ﴾(البقرة:٣٦). ولمن ذلك المتاع؟ لمن اعتبره هو الحياة. وهذا المتاع هو الذي يسمى بالنسبة للمغترّ به متاع الغرور ﴿وَمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا إِلاَّ مَتَاعُ الْغُرُورِ﴾(الحديد:٢٠)، لكون الإنسان خُلق خلقا معينا فيه استعداد كبير للتجاوب والاستجابة للشهوات ﴿وَنَفْسٍ وَمَا سَوَّاهَا * فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَاهَا * قَدْ أَفْلَحَ مَنْ زَكَّاهَا * وَقَدْ خَابَ مَنْ دَسَّاهَا﴾(الشمس:٧-١٠). وهذا الاستعداد في الإنسان للاستجابة للشهوات هو الذي رتّب الله عليه سنة الابتلاء ﴿خَلَقَ الْمَوْتَ وَالْحَيَاةَ لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ

عَملاً وَهُوَ الْعَزِيزُ الْغَفُورُ﴾(الملك:٢). وبسبب هذا الاستعداد كانت آيات كثيرة وأحاديث كثيرة تزهّد المسلم في الدنيا، بما في تركيب الإنسان من مَيْل شديد إلى هذا الاتجاه؛ بل وتُمثّل له الدنيا بكاملها على أنها مجرد متاع أو متاع الغرور ﴿وَاضْرِبْ لَهُمْ مَثَلَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا كَمَاءٍ أَنْزَلْنَاهُ مِنَ السَّمَاءِ فَاخْتَلَطَ بِهِ نَبَاتُ الأَرْضِ فَأَصْبَحَ هَشِيمًا تَذْرُوهُ الرِّيَاحُ وَكَانَ اللهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ مُقْتَدِرًا﴾(الكهف:٤٥).

ففي الآيتين معا تصويرٌ للحياة على أنها سريعة عابرة لا ينبغي أن تغرَّ الإنسان بحلولها وحضورها وحضوره هو فيها.. كل ذلك ينتهي سريعاً، ولهذا قال ﷺ: "كنْ في الدنيا كأنك غريبٌ أو عابرُ سبيل" (رواه البخاري). فلو وضعنا زمانَ عمرِ كلِّ واحد منا -ولو كان ذا القرنين- إلى حساب ما سبق وحساب ما يلحَق في الحياة البرزخية، وحساب ما سيلحق في الحياة الأخروية التي لا نهاية لها، لبدَا الإنسانُ مجردَ عابر سبيل فقط، ليست الدار داره ولا مكان إقامته، ولا ينبغي أن يتعلق بها، بل يركب ما فيها ويتجه إلى الحياة الحقيقية، يستعملها ويريد الآخرة بها.

فساد التصور لمفهوم الحياة هو سبب الوَهَن

من هنا نأتي إلى أمر "الوَهَن" الذي بدأنا به الكلام وفسره الرسول ﷺ بحبّ الدنيا وكراهية الموت. ونتساءل كيف يحب المسلم الدنيا؟ لا يحبها إلا إذا شاب تصوّرَه لمعنى الحياة شوائب، إنْ لم يكن قد فسد تماما، إذ ذاك فقط يمكنه أن يقْصر حياته على الدنيا ويتجه إلى الدنيا، ويتعلّق بالدنيا ويهتم ويحرص على الدنيا، ويطمئن بالدنيا ويرضى بالدنيا...

لا يمكن أن يكون هذا إلا إذا كان في التصور فسادٌ. فيجب إذن أن يُرجَع إلى الآيات الكريمة التي تتحدث عن الحياة مطلقاً. فحيثما وجد لفظ الحياة وحيثما كان لفظ الحياة، ينبغي تتبُّعه في سياقاته القرآنية لاستخلاص تصور شامل في النهاية لمفهوم الحياة في القرآن الكريم. لابد أن يُحيي معنى الحياة في القرآن الكريم في النفوس ليستطيع الإنسان أن يعرف معنى الحياة حقيقة. وهذا منهج كامل في استخلاص المفاهيم جملة لتصحيح التصور الجزئي والكلّي لهذا الدين، انطلاقا من كتاب الله ﷻ.

التصور الإيماني لحقيقة الحياة الدنيا

هناك تصوران أيضاً في هذا القسم الصغير المسمى بالحياة الدنيا: تصور يعتبر الحياة هي هذه الحياة المادية ويعتبر الأحياء هم هؤلاء الذين يمتلكون خواص الحركة والنمو.. إلى غير ذلك من المظاهر المادية للحياة. هذا تصور ولا يُنفى؛ ولكن إلى جانبه يأتي تصور ثان للحياة على نفس القاعدة المعروفة: "الحج عرفة" بمعنى أن الحياة الحقيقية هي هذه التي سنتكلم عنها لا تلك التي تعبّر عنها المظاهر المادية.

فما هي هذه الحياة؟ وما هذا التصور لها؟ ذلك ما يشير إليه قوله تعالى: ﴿أَوَمَنْ كَانَ مَيْتًا فَأَحْيَيْنَاهُ وَجَعَلْنَا لَهُ نُورًا يَمْشِي بِهِ فِي النَّاسِ كَمَنْ مَثَلُهُ فِي الظُّلُمَاتِ لَيْسَ بِخَارِجٍ مِنْهَا﴾(الأنعام:١٢٢). ﴿أَوَمَنْ كَانَ مَيْتًا فَأَحْيَيْنَاهُ﴾؟! مَنْ هؤلاء؟ هؤلاء أمثال أبي بكر وعمر وعثمان والمؤمنين جميعا قبلهم وبعدهم حين ينتقلون من حال الكفر إلى حال الإيمان، ينتقلون من الموت إلى الحياة ﴿أَوَمَنْ كَانَ مَيْتًا فَأَحْيَيْنَاهُ وَجَعَلْنَا لَهُ نُورًا يَمْشِي بِهِ فِي النَّاسِ كَمَنْ مَثَلُهُ فِي الظُّلُمَاتِ﴾(الأنعام:١٢٢)، أي في ظلمات الموت الدنيوي. بينما المؤمنون يتولاهم الله تعالى فيحييهم ويخرجهم من الظلمات إلى النور: ﴿اللهُ وَلِيُّ الَّذِينَ آمَنُوا يُخْرِجُهُمْ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ﴾(البقرة:٢٥٧)، ﴿وَجَعَلْنَا لَهُ نُورًا يَمْشِي بِهِ فِي النَّاسِ﴾، هل يستويان؟ أبداً ﴿وَمَا يَسْتَوِي الأَحْيَاءُ وَلاَ الأَمْوَاتُ﴾(فاطر:٢٢).

المعنى الأول بسيط، والمعنى الثاني عميق، والنّذارة عموما لا تنفع إلا في الأحياء بالمعنى الثاني ﴿لِيُنْذِرَ مَنْ كَانَ حَيًّا﴾(يس:٧٠). أما الذي ليس بحيٍّ ولو وصلَتْه النّذارة كأبي جهل وأبي لهب، فإنه لا يستفيد، لن تنفع فيه النّذارة إلا من جهة إقامة الحجة عليه ﴿وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّى نَبْعَثَ رَسُولاً﴾(الإسراء:١٥).

وهذا التفريق بين الحي حقيقة والحي حكما هو الذي جعل القاعدة الكبيرة تطرد في التطبيقات الواضحة في دعوة الله ﷻ للحياة: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اسْتَجِيبُوا لِلهِ وَلِلرَّسُولِ إِذَا دَعَاكُمْ لِمَا يُحْيِيكُمْ﴾(الأنفال:٢٤). فالمستجيبون هم الأحياء والرسول يدعوهم إلى ما يحييهم. فإذن هناك الحياة العادية الحسّية، والإنسانُ بها في المنطق القرآني الإيماني لا يعتبر حيّاً، وإنما هو مؤهّل لأن يكون حيّاً. ذاك تمهيد ومقدمة صحيحة تؤهل صاحبها لأن يتلقى ما يحييه، إذ الميت ولو دعوناه فلن يستجيب ولن يسمع.

فللإنسان إذن في هذه الدنيا حياتان، حياةٌ عادية مادية خبيثة في تصنيف القرآن، وحياة روحية طيّبة في تصنيف القرآن أيضاً ﴿مَنْ عَمِلَ صَالِحًا مِنْ ذَكَرٍ أَوْ أُنْثَى وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهُ حَيَاةً طَيِّبَةً وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَجْرَهُمْ بِأَحْسَنِ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾(النحل:٩٧). حياة طيبة، وعكسُها الحياة الخبيثة التي يكون أصحابها كما قال الله ﷻ فيهم: ﴿أُولَئِكَ كَالأَنْعَامِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ﴾(الأعراف:١٧٩). والسبب أن

الأنعام لها غرائز تهديها بناء على الأصل الكبير ﴿أَعْطَى كُلَّ شَيْءٍ خَلْقَهُ ثُمَّ هَدَى﴾(طه: ٥٠)، هَدى جميع الكائنات هدايةَ عقول، وهداية غرائز، وهداية تسخير وغير ذلك من الهدايات، إذ كل مخلوق ميسَّر لما خلق له، كما قال ﷺ: "اعملوا فكلٌّ ميسَّر لما خلق له" (رواه البخاري). هذه قاعدة في الكائن الإنساني بالنسبة للاختيار في مسألة العمل، أما بالنسبة لباقي الكائنات فالتسخير فيها جِبِليٌّ، يعني في أصل الخلقة. فكل الكائنات مهدية بهذا المعنى، سائرةٌ إلى ما خُلقت له. ولكن بالنسبة للإنسان ابتُلي بالتكليف، والهدى حينما جاءه، جاءه وقد وضع فيه استعدادٌ ليميز بين الخير والشر والصالح والطالح. فإن استجاب واهتدى فقد رشد فعلا وقد اتجه إلى العمل الصالح والحياة الطيبة، وإن لم يستجب صار أحط من الأنعام. لماذا؟ لأن الأنعام مهديّةٌ بالغريزة، وهو لم يهتد إلى هدًى، فصار عاصياً جاحداً للنعمة أصلاً، وصار كافراً بالمرّة، بحسب الدرجة التي استقرت عليها وجهتُه باختياره، ﴿وَلَكِنَّ اللَّهَ حَبَّبَ إِلَيْكُمُ الإِيمَانَ وَزَيَّنَهُ فِي قُلُوبِكُمْ وَكَرَّهَ إِلَيْكُمُ الْكُفْرَ وَالْفُسُوقَ وَالْعِصْيَانَ﴾(الحجرات:٧). إذن هناك الولادة الأولى والولادة الثانية، وما به تتم الولادة الثانية هو الذِّكر. وذلك ما أوضحه الرسول ﷺ في الحديث المشهور: "مَثَل الذي يذكر ربَّه والذي لا يذكرُ ربَّه مثل الحيِّ والميِّت" (رواه البخاري).

والذكر هو كلّ الدين، ولا وظيفة لرسول الله ﷺ غيرُ هذا ﴿فَذَكِّرْ إِنَّمَا أَنْتَ مُذَكِّرٌ﴾(الغاشية:٢١). والذي أنزل عليه هو ذكرٌ ﴿إِنْ هُوَ إِلاَّ ذِكْرٌ لِلْعَالَمِينَ﴾(التكوير:٢٧).

القرآن ماء الحياة الحقيقية

فبهذا القرآن إذن وحده تتم الحياة، ولا سبيل إلى الحياة الثانية بالمعنى الصحيح إلا بماء الحياة. والماء الذي يتم به الإحياء هو هذا القرآن الكريم النازل من عند الله ﷻ، ولا سبيل إلى إحياء الإنسان الفرد ولا الإنسان الأمة بغير هذا الماء.

إن الله تعالى جعل الماء سبباً للحياتين: الحياة العادية المادية ﴿وَجَعَلْنَا مِنَ الْمَاءِ كُلَّ شَيْءٍ حَيٍّ﴾(الأنبياء:٣٠)، والحياة الروحية هي أيضاً من الماء الذي عبّر عنه الرسول ﷺ بالغيث بصريح العبارة: "مَثَل ما بعثني به اللهُ من الهدى والعلم كمَثَل غيثٍ أصاب أرضاً فكانت منها طائفةٌ طيّبة..." (رواه البخاري). فهذا الماء هو غيث الأرواح فعلاً، كما يفعل الماء في الأرض فتنتشر الرحمة ﴿فَانْظُرْ إِلَى آثَارِ رَحْمَةِ اللَّهِ كَيْفَ يُحْيِي الأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا﴾(الروم:٥٠). وإذا نزل غيثُ القرآن في القلوب وامتزج بها وُلدت ولادة جديدة، وولد الإنسانُ الولادة الجديدة ليحيا الحياة الطيبة التي تسمى في منطق القرآن "الحياة الحقيقية".

وجميع أجزاء القرآن هي مُحْييات قال تعالى: ﴿وَلَكُمْ فِي الْقِصَاصِ حَيَاةٌ﴾(البقرة:١٧٩). هذا حُكم من الأحكام فيه عنصر من عناصر الحياة. أما قوله تعالى: ﴿اسْتَجِيبُوا لِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ إِذَا دَعَاكُمْ لِمَا يُحْيِيكُمْ﴾(الأنفال:٢٤). فدعوة للحياة بصفة عامة. فكل ما دعا إليه الرسول ﷺ من كتاب وسنةٍ هو مما يحيي هذا الإنسان، ومما تجب الاستجابةُ إليه لنحصُل على الحياة.

إذا كان الماء يُحدث الحياة في النباتات التي نراها في الأرض، فهو سبب الحياة أيضاً في الحيوانات والإنسان من جانبه المادّي، لكنّ سبب الحياة الإيمانية هو القرآن، ولهذا سماه الله ﷻ روحا ﴿وَكَذَلِكَ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ رُوحًا مِنْ أَمْرِنَا مَا كُنْتَ تَدْرِي مَا الْكِتَابُ وَلاَ الإِيمَانُ وَلَكِنْ جَعَلْنَاهُ نُورًا نَهْدِي بِهِ مَنْ نَشَاءُ مِنْ عِبَادِنَا﴾(الشورى:٥٢). إذا كانت الروح بعد الشهر الرابع تُنفخ في الجنين الطيني فيصير الإنسان بهذه الروح خلْقا آخر كما قال الله ﷻ: ﴿ثُمَّ أَنْشَأْنَاهُ خَلْقًا آخَرَ﴾(المؤمنون:١٤)، وخلقا آخر يتأهّل بعدُ للتكليف، ويتأهّل لعمارة الأرض، ويتأهل للخيرات في هذه الدنيا.. إذا كان بالروح يحدث له ذلك، وينشأ خلقا آخر، فإنه بروح القرآن يُنشأ الإنسان أيضا خلْقاً آخر بالمعنى الثاني للحياة. فتلك روحٌ وهذه روحٌ، روح إذا نُفخت في الفرد صار خلقاً آخر، وصار طاقة جبّارة متحرِّرة مما سوى الله ﷻ، فلم يعد عليه لغير الله سبحانه سلطان. ومثل ذلك يحدث للأمة، إذ لا يمكن أن تتخلّق الأمة -أي أمّة الإسلام- لتصير أمة قوية متحررة من كل سلطان إلا سلطان الله إلا بالقرآن، أي بروح القرآن، بل وتصير أمة متماسكة متساندة كما تحدث عن ذلك الرسول ﷺ في الحديث الصحيح: "مَثَل المؤمنين في توادِّهم وتراحمهم وتعاطفهم مثل الجسد.." (رواه البخاري). فللجسد خصائص الوحدة مع التنوع الداخلي، لكن مع التنوع يوجد التداخل التام والانسجام التام بين الأجهزة المكونة له. فالجسد مع التنوع له خاصية الوحدة، وكذلك الأمة مع تنوع العناصر المكونة لها خصائص الوحدة والتلاحم. وليصير المسلمون جسدا، لابد لهم من هذه الروح ولابد أن يحيوا بهذه الروح أفراداً، ويحيوا بهذه الروح أمّة. ■

(*) الأمين العام لمؤسسة البحوث والدراسات العلمية (مبدع) / المغرب.

لا سلام مع الظلم ولا إرهاب مع العدل



أ.د. محمد سعيد رمضان البوطي*

لا ريب أن السّــلم هو مطمح آمال المجتمعات الإنســانية كلها، إذ هو المناخ الذي يتحقق فيه الأمن وتشيع فيه الطمأنينة.

ولكن السلم ليس شيئاً يصنعه الإنسان أو عملاً يمارسه، إنما هو رغبة في النفس ومقصد من أهم مقاصد الإنسان. وإنما سبيل الإنسان إلى تحقيق رغباته والوصول إلى مقاصده، أن يبحث عن الأسباب الموصلة إلى تلك الرغبات والمقاصد، فيمارسها ويعكف على إنجازها.

فما هو السبب السلوكي الموصل إلى السلم؟ ما هي الوسيلة التي إن تمت ممارستها تحققت في المجتمع الإنساني حقيقة السلم؟

لا توجد إلا وســيلة واحدة لبلوغ هذا المقصد، إنه ممارســة العدالة في علاقة الإنســان مع الإنســان. ومن الواضح أن هذه الممارسة لا تتأتى من شخص واحد، إذ هي علاقة سلوكية تسري ما بين الأشخاص تتلخص في عدم العدوان على حقوق الآخرين، وعدم التقصير في النهوض بالواجبات المرعية تجاه الآخرين، وإنما يتم ذلك بسلوكات نوعية متبادلة.

إذن، فالعدل هو الوسيلة السلوكية المتبادلة التي توصل المجتمع إلى مناخ الســلم، ومن ثم تحقق في حياة أفراده الأمن والطمأنينة، وإذا غاب العدل غاب معه الطريق الموصل إلى السلم.

ولما كان القرآن الذي هو خطاب الله الموجه إلى عباده جميعاً، يتضمن دعوة ملحة إلى ســلوك السبيل المؤدي إلى واحة السلم، وذلــك في مثل قول الله ﷻ: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِيـنَ آمَنُوا ادْخُلُوا فِي السِّلْمِ كَافَّةً﴾(البقرة:٢٠٨)، فقد ركز في تعريفه للسبيل المؤدي إليه، تركيزاً كبيرا متكرراً على ضرورة ممارســة العدل في العلاقات الإنسانية جمعاء، بل إنه يأمر الناس باللجوء إلى هذا الميزان في كل الأحوال ومع الآخرين أياً كانوا، وأياً كان نوع العلاقة معهم.

تأملوا في حرارة هذه التوصيــات وتأكيد الأمر بها بمختلف الأساليب:

- ﴿وَلاَ يَجْرِمَنَّكُمْ شَــنَآنُ قَوْمٍ عَلَــى أَلاَّ تَعْدِلُوا اعْدِلُوا هُوَ أَقْرَبُ لِلتَّقْوَى وَاتَّقُوا اللهَ إِنَّ اللهَ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ﴾(المائدة:٨).
- ﴿وَإِذَا قُلْتُمْ فَاعْدِلُوا وَلَوْ كَانَ ذَا قُرْبَى﴾(الأنعام:١٥٢).
- ﴿إِنَّ اللهَ يَأْمُرُكُــمْ أَنْ تُــؤَدُّوا الأَمَانَاتِ إِلَــى أَهْلِهَا وَإِذَا

حَكَمْتُمْ بَيْنَ النَّاسِ أَنْ تَحْكُمُوا بِالْعَدْلِ﴾(النساء:٥٨).

- ﴿إِنَّ اللهَ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ وَالإِحْسَانِ وَإِيتَاءِ ذِي الْقُرْبَى﴾(النحل:٩٠).
- ﴿فَأَصْلِحُوا بَيْنَهُمَا بِالْعَدْلِ وَأَقْسِطُوا إِنَّ اللهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ﴾(الحجرات:٩).

إن هذه الأوامر المتكررة بأساليبها المتنوعة والموجهة إلى الناس جميعا للانضباط بموازين العدل، ليس إلا تفسيرا لكلمة ﴿ادْخُلُوا﴾ في قوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا ادْخُلُوا فِي السِّلْمِ كَافَّةً﴾(البقرة:٢٠٨). إنها بيان للمدخل الذي لابد منه ولا بديل عنه سبيلا إلى السلم.

وإذ قد ذكرنا معنى العدالة قبل قليل، وهو باختصار شديد رعاية الحقوق والواجبات، فمن اليسير إذن أن نعلم أن التطرف هو الجنوح عن هذه الرعاية. فكأن العدل هو الطريق الآمن العريض الذي تتلاقى على السير فيه الأسرة الإنسانية جمعاء، والتطرف هو الجنوح عنه شارداً ذات اليمين أو ذات السيار. ولا ريب أن هذا الجنوح إذ يبتعد بصاحبه عن صراط العدل، لابد أن يزجّه في لون من ألوان الظلم، إذ هما نقيضان إن غاب أحدهما حل الآخر مكانه. وإذا وقع الظلم انقدحت من جراء ذلك شرارة الفتن، وما هو إلا أن تعصف رياحها برواق السلم وتقضي عليه.

إذن، على كل من ينشد السلم أن يبرهن على صدق بحثه عنه بتوخي العدالة والسهر على حمايتها وحراسة موازينها، بل إننا لا نشك أن كل من استهان بموازين العدل وضحّى بحقوق الآخرين في سبيل مصالحه ورغائبه الذاتية، فهو عدو للسلام، ماض في طريق القضاء عليه، سواء كان فرداً من الناس أو ممثلاً لدولة.

وعلى ضوء ما تقدم بيانه، نستطيع أن نبرز معنى "الإرهاب". هذا المعنى الذي ظل مخبوءاً عن الكلمة المعبرة عنه، على الرغم من إلحاح كثير من الدول والمجتمعات الإنسانية على الذين فاجؤوا العالم بهذا المصطلح واتخذوا منه فتيلاً لإشعال نار الحروب، أن يكشفوا للعالم المعنى الخفي الذي يقصدونه به.. أقول على ضوء هذا الذي تم بيانه، نستطيع أن نبرز معنى "الإرهاب" من تلافيف الخفاء. إنه كل جهد يهدف إلى العبث بميزان العدالة ويلحّ على اغتصاب الحقوق انتصاراً للذات واعتماداً على مبررات القوة التي لا يتمتع بها الآخرون.

فكيف السبيل إلى حماية الطريق إلى السلام أن لا ينسف بأسلحة الإرهاب فتحجز المجتمعات الإنسانية أو أكثرها من السلام الذي تنشده، إذ يقوم بينها وبينه برزخ من القطيعة وفجوة عميقة مما أحدثته يد الإرهاب؟

السبيل إلى ذلك اتباع القانون الذي أخذنا به بيانُ الله القائل: ﴿وَلَكُمْ فِي الْقِصَاصِ حَيَاةٌ يَا أُولِي الأَلْبَابِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ﴾(البقرة:١٧٩). وبعبارة أخرى، السبيل إلى ذلك الضرب على أيدي المتربصين بالسلام. وإنما يكون الضرب على أيديهم بإنزال العقاب المكافئ لجريمتهم، وإنه لَلسِّياج الذي لابد منه لحماية السلام.

ولم ترد في القرآن ألفاظ الجهاد والقتال إلا تعبيراً عن هذا المبدأ، وليس فيه آية تدعو إلى الجهاد أو القتال، إلا ضدّ من يصرّون على إبعاد موازين العدالة عن الطريق إلى تحقيق رعوناتهم وإلى بسط سلطان بغيهم على الآخرين. فإذا أقلع البغاة عن بغيهم وجنحوا إلى السلم، وجب الكف عنهم ومدّ يد التعاون معهم على حراسة السلام وتعبيد الطريق إليه.

يبدو هذا جلياً في قوله تعالى: ﴿وَقَاتِلُوا فِي سَبِيلِ اللهِ الَّذِينَ يُقَاتِلُونَكُمْ وَلاَ تَعْتَدُوا إِنَّ اللهَ لاَ يُحِبُّ الْمُعْتَدِينَ﴾(البقرة:١٩٠).

ونتبيّنه جلياً أيضاً في قوله ﷻ: ﴿لاَ يَنْهَاكُمُ اللهُ عَنِ الَّذِينَ لَمْ يُقَاتِلُوكُمْ فِي الدِّينِ وَلَمْ يُخْرِجُوكُمْ مِنْ دِيَارِكُمْ أَنْ تَبَرُّوهُمْ وَتُقْسِطُوا إِلَيْهِمْ إِنَّ اللهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ﴾(الممتحنة:٨).

ومن كان دأبه أن يتتبع كلمات القتال والجهاد في القرآن، وأن يحصي أعدادها، ثم يقطعها عن المناسبات والجمل التي أحيطت بها، ليتأتى له أن يزعم أن القرآن قاموس إرهابي يُصدر إلى الناس أوامر القتل والبغي والجهاد، فمشكلته أنه يعمي عينيه عن ألفاظ العفو والصفح واللطف والعدل والقسط التي يفيض بها القرآن الكريم. وهي لو أحصاها لبلغت أضعاف ما يتتبّعه من ألفاظ القتال والجهاد؛ على أن الألفاظ أياً كانت، عندما تكون مفردات في القاموس لم تُستعمل بعد للتعبير بها عن حكم أو قرار، فهي كالمادة الخام قابلة لأن تُوجَّه إلى أي غرض أو استصناع. وما لم يتم إدخالها في طور الاستصناع والاستعمال، فهي إذن ليست أكثر من مجرد قابلات لأي توجيه أو صنع.

على أن العدالة إن غابت وحلّ محلها الظلم، فإن من الممكن أن تهتاج لواعج الظلم في نفس المظلوم فيقضي على بعض البرآء في طريق انتقامه من الظالم، ولكن مردّ هذا التصرف إلى الثورة التي يحدثها الظلم في نفس المظلوم، وقد نهى القرآن عن ذلك وأمر المظلوم أن لا يسرف في الثأر أو الانتقام لنفسه بحيث يزهق مع حياة المجرم الذي ظلمه أرواحَ حاشية من البرآء، ألم يقل: ﴿وَلاَ تَقْتُلُوا النَّفْسَ الَّتِي حَرَّمَ اللهُ إِلاَّ بِالْحَقِّ وَمَنْ قُتِلَ مَظْلُومًا فَقَدْ جَعَلْنَا لِوَلِيِّهِ سُلْطَانًا فَلاَ يُسْرِفْ فِي الْقَتْلِ إِنَّهُ كَانَ مَنْصُورًا﴾(الإسراء:٣٣).

ولواعج الثأر من شـــأن الطبيعة الإنســـانية عندما يستشرى الظلم في المجتمع، ويعتدّ القـــوي فيه بقوته إلى درجة أن يجعل منها بديلاً عن القانون وتفسيرا للحق. وهذه اللواعج تجتاح اليوم المجتمعات الغربية أكثر مما هي موجودة في مجتمعاتنا الإسلامية. أياً كان الأمر فإن الشريعة الإسلامية تُلجمها بلجام التربية الدينية التي تتلقى غذاءها من عوامل الخوف من الله والاستسلام لحكمه وسلطانه. وإنا لنعلم أن في قوى الشر ما يستثير هذه اللواعج في نفوس المظلومين، لتدفعهم إلى تجاوزات تتخطى حدود الشرائع والقوانين، كـــي تلصق بهم تهمة الإرهـــاب، فيعثر المخططون لاستلاب الحقوق واستلاب الأوطان على المبررات الشكلية لذلك، وإنّ في أرشـــيف الذاكرة لنماذج ومستمسكات كثيرة لذلك.

يطيب لي أخيراً أن أختم حديثي هذا بسؤال أرجو أن أتلقى إجابة شـــافية عنه. في عام ١٩٧٦م رفع "وليم كليفورد" مدير معهد علم الإجرام في أستراليا تقريرا عن سلسلة مؤتمرات عقدتها المنظمة العربية للدفاع الاجتماعي ضد الجريمة المنبثقة عن الجامعة العربية، إلى هيئة الأمم المتحدة التي كانت قد أرسلته إليها بصفة مراقـــب، تضمن التقرير ما خلاصته لفت نظر الدولة الغربية إلى احتمال ظهور ما سماه "يقظة إســـلامية جادة" في الدول العربية. فـــإذا قرن ذلك بما يملكه بعض هذه الدول من ينابيع النفط، فإن من الراجح أن اجتماع هاتين القوتين سيشكل خطراً حقيقياً على الحضارة الغربية. ثم يوصي التقرير بناءً على ذلك بأن تضع الدول الغربية أيديها بالطرق الممكنة على ينابيع النفط بأســـرع وقت.

إن الملاحـــظ أن التقرير الذي يبلغ ثلاثين صفحة لم ترد فيه كلمة "الإرهاب" على الإطلاق، ولم تكن إســـتراتيجية السياسة الغربية تستعمل هذا المصطلح بعد.

فما السبب في أن لصيقة "الإرهاب" هذه إنما تم العثور عليها ثم لصقها بالإســـلام والمســـلمين، بعد تلقي المؤسسات الغربية المعنيّة، لهذا التقرير الذي ينصح الدول الغربية باســـتلاب ينابيع النفط من أصحابها والعمل على منع "يقظة إسلامية جادة" يمكن أن تنبعث عما قريب.

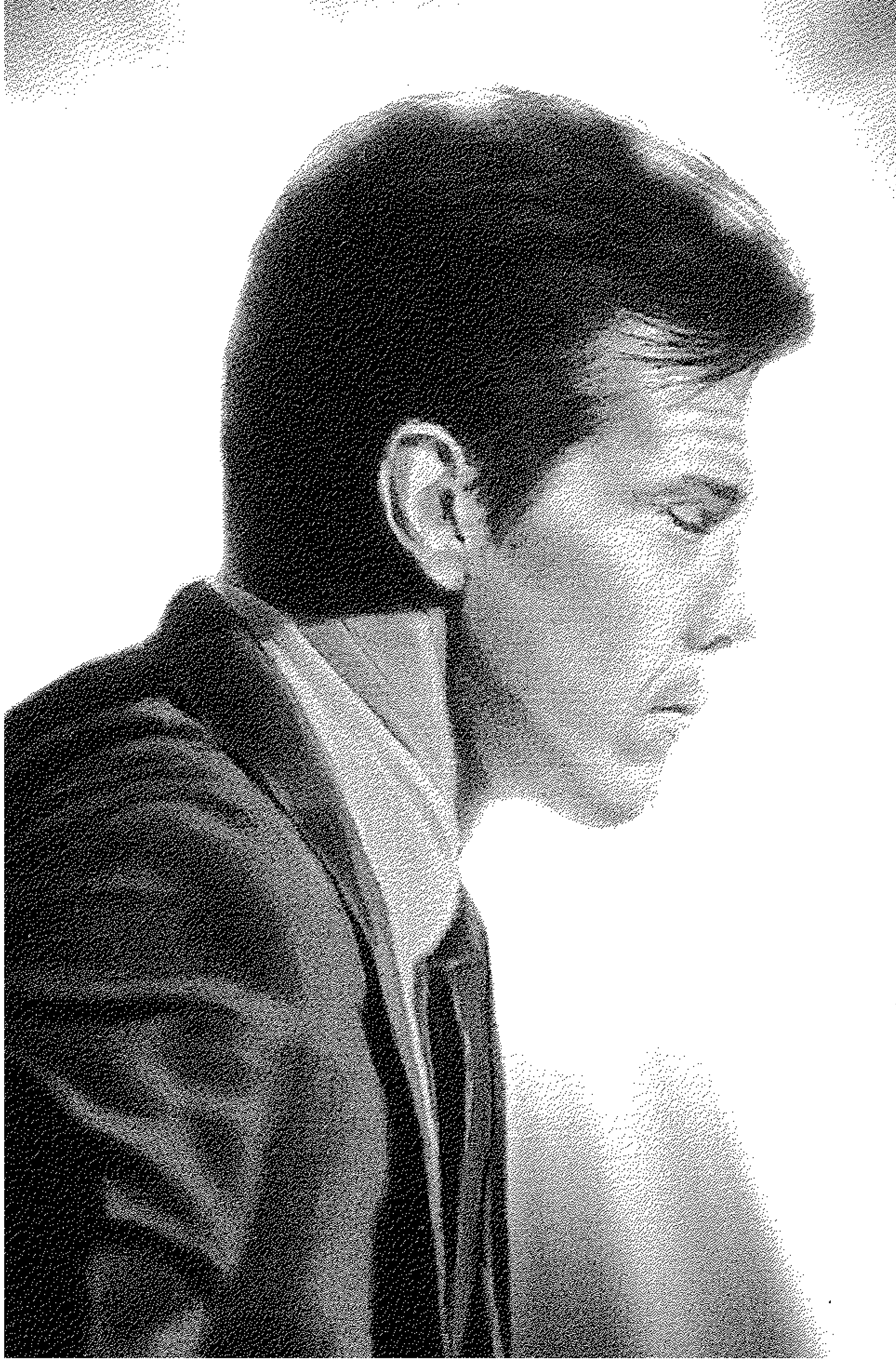
هل للعالم العربي والإسلامي أن يتلقى جواباً شافياً عن هذا السؤال من المصارد التي تلقت تقرير "وليم كليفورد" ثم عكفت على دراسته ووضعه موضع التنفيذ؟ ■

(*) كلية الشريعة، جامعة دمشق / سوريا.

حراء
مجلة علمية ثقافية فصلية
www.hiramagazine.com

الإنسان والجمال

أنعِم -يا إنسان- النّظر،
ومن سجن نفسك تحرَّرْ،
ولمحات الجمال تَشرّبْ...
ودعْ قلبك يطر فرحًا،
وروحك يرقص طربًا...
واستشرف جمال "الجميل" في كل جمال،
تطمئنّ نفسك، ويزددْ إيمانك،
وإلى ربّك تعُد إنسانًا،
وخالصًا في إنسانيتك...
❁ ❁ ❁



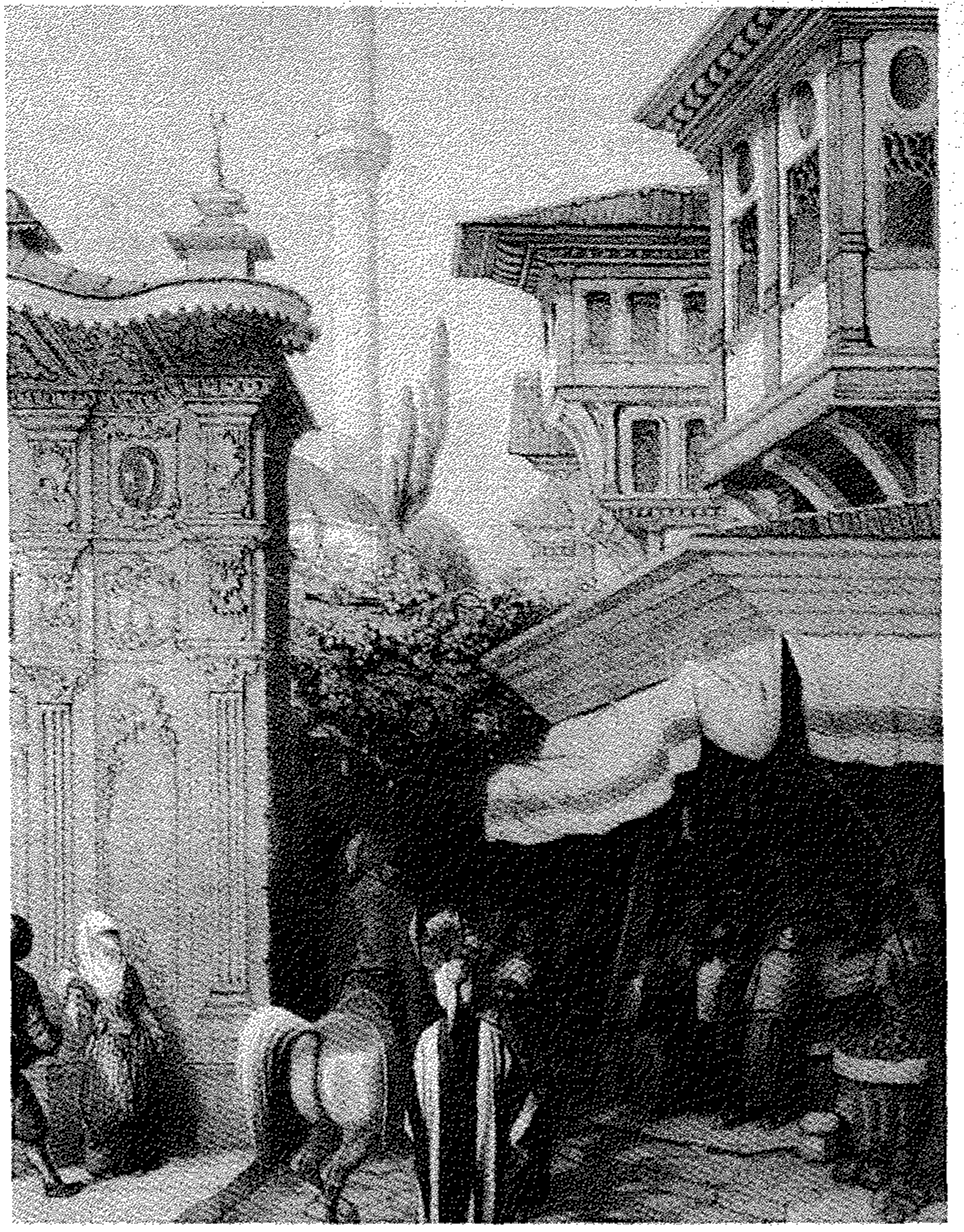


الثقافة التسامحية لدى العثمانيين

أ.د. سعاد يلدريم *

إن أبرز لوحة تُصور موقف الإسلام من غير المسلمين، هي التي نقلها شمس الأئمة أبو بكر محمد بن أبي سهل السرخسي عن الإمام أبي يوسف رحمهما الله. فإن أبا يوسف قال في مناجاته عند موته: "اللهم إن كنت تعلم أني ما تركت العدل بين الخصمين إلا في حادثة واحدة فاغفرها لي". قيل وما تلك الحادثة؟ قال: "ادعى نصراني على أمير المؤمنين دعوى فلم يمكني أن آمر الخليفة بالقيام من مجلسه والمحاباة مع خصمه، ولكن رفعتُ النصراني إلى جانب البساط بقدر ما أمكنني، ثم سمعت الخصومة قبل أن أسوي بينهما في المجلس، فهذا كان جوري". ليُعلَمْ أن هذا من أهم ما ينبغي للقاضي أن ينصرف إليه في العناية لما أشار إليه في الأثر فقال: "...لا يطمعَ شريف في حيفك ولا يخافَ ضعيف من جورك" (رواه البيهقي)، والحيف هو الظلم. فاذا قدّم الشريف طمع في ظلمه وانكسر بهذا التقديم قلب خصمه الضعيف فيخاف الجور".

لنقف قليلاً عند هذه الحادثة.. مواطن عادي مسيحي يجترئ ليرفع شكواه على رئيس دولة المسلمين بكل ثقة واطمئنان. وأبو يوسف هو قاضي القضاة، أي في أعلى منصب قضائي في الدولة العباسية، والدولة في ذروة ازدهارها. وقاضي القضاة استمع إلى الدعوى دون أن يسوي بين الخصمين في المكان، لأن القاضي استحيا من أن يأمر الخليفة بالقيام والاقتراب من خصمه. وهذا خطأ بسيط جداً، إلا أن قاضي القضاة لم ينسه لدرجة أنه رآه الظلم الوحيد الذي ارتكبه في حياته القضائية واستغفر منه. ومن جهة أخرى فإن السرخسي بدل أن يصغر هذا الخطأ فإنه يشتد ويقول: "إن هذا من أهم ما ينبغي للقاضي أن ينصرف إليه". ولا ينبغي لنا أن ننسى أن هذه الحادثة نقلت في كتاب "المبسوط" أي في كتابٍ من أمهات مصادر الفقه الإسلامي، ومؤلفه فقيه مشهور، أي رجل قانون، ولم تنقل في كتاب أدب أو مناقب. وهذا هو الذي يكسب الحادثة قوة كبيرة. ومن ثم نستطيع أن نقول: إن



هذه الحادثة الدالة تكفي وحدها لأن تلخص موقف الإسلام تجاه غير المسلمين. نكتفي بهذا وننتقل إلى تأسيس الدولة العثمانية.

استوطنت عشيرة "قايي" التركية غربي الأناضول في النصف الأخير من القرن السابع الهجري (الثالث عشر للميلاد)، بأمر السلطان السلجوقي "غياث الدين كيخسرو" في حدود الدولة السلجوقية البيزنطية. وإن الأمير "أرطغرل" والد الأمير "عثمان" ينتسب إلى هذه العشيرة.

أقطع السلطانُ لـ"أرطغرل" قرية "سُوغوت" في منطقة "بيلاجيك"حيث اتخذها مركزاً لعشيرته، وكان عامة أهل "بيلاجيك" من المسيحيين. وقد أسس الأمير "أرطغرل" علاقات طيبة قائمة على المحبة مع أمراء هؤلاء الأهالي وكسب قلوبهم. وابنه عثمان (ت ١٣٢٤م) أمر القرى التي بجواره، أن ينقادوا لحكمه مع حسن الجوار بالمسيحيين الذين كانوا يعيشون في تلك الناحية. ونشاهد أن الخط الأساسي في سياسة الدولة العثمانية منذ البداية، هو أن أمراءها توجهوا إلى الدولة البيزنطية، بدل أن يتقاتلوا مع نظرائهم من أمراء الأتراك المسلمين الذين كانوا يتنافسون فيما بينهم. فإنهم توجهوا إلى قلاع البيزنطيين وفتحوها وألحقوها بحكمهم شيئاً فشيئاً. لم يكتفوا باستعمال القوة العسكرية فقط، بل أسسوا علاقات ودية مع السكان غير المسلمين. فمثلاً عشيرة الأمير عثمان كانت تسكن قرية "سوغوت" في فصل الشتاء وتصعد إلى هضبة "دومانيج" في الصيف ويترك أهاليها بيوتهم وأمتعتهم عند أهالي "بيلاجيك". وعند رجوعهم في بداية الشتاء كانوا يقدمون إليهم مقابل ذلك الأغنام والأجبانَ والبسطَ والهدايا المختلفةَ لمحافظتهم على أماناتهم.

وكانوا يرسلون إليهم هداياهم بواسطة نسائهم حتى يأمنوا من سطوتهم. وكان الأمير عثمان، يرى أن فتح أي مدينة عنوة يتسبب في خرابها، ولهذا كان يسعى لتأسيس العلاقات الحسنة لكي يفتحها صلحاً. وإذا سئل عن سبب هذه المعاملة كان يقول: "نحن جئنا إلى هذه البلاد غرباء، وهؤلاء هم أهلها لم يمنعونا منها، فعلينا أن نحترم حقوقهم ونكون أمناء في حقهم".

وفي يوم من الأيام اشترى مسلمٌ تركي من سوق "بيلاجيك" عدة أكواب من تاجر مسيحي و لم يدفع له ثمنها. وعندما علِم الأمير عثمان بهذا، استدعاهما وأخذ حق التاجر المسيحي من المسلم التركي وأرسل منادين في المنطقة ليعلنوا أن الأهالي كلهم تحت حمايته ورعايته، وأنه سيقف ضد أي تعدٍّ نحوهم. ومن ثمرات هذه السياسة نرى أن الأمير أورخان بن عثمان (ت ١٣٦٢م) لم يتعرض لأي مقاومة أثناء فتح مدينة "بورصة" (١٣٢٦م)، حيث سلم أمير "بورصة" المدينةَ صلحاً. واتخذ الأمير "أورخان" مدينة "بورصة" عاصمة للدولة العثمانية.

و لم تكن النصارى وحدهم مَن لاقوا الأذى الكثير من الحكام البيزنطيين، بل اليهود الذين كانوا قد سكنوا القرى المختلفة في منطقة "تراقيا" أيضاً، فرحوا بفتح المسلمين الأتراك البلاد.

ولما سأل الأمير "أورخان" وزيرَ إمارة "بورصة" -الذي لعب دوراً كبيراً في تسليم البلد- عن سبب تسليمهم بلدهم إليه قال: "إن هناك عدة أسباب؛ أولاً: إن دولتكم أصبحت تتسع وتقوى بسرعة، بينما دولتنا بدأت تتهاوى يوماً بعد يوم. وثانياً: إنكم ألحقتم مزارعنا وقرانا حوالي "بورصة" إلى حكمكم، فرأينا العدل والأمان في ظلكم، ولاحظنا أنكم لا تأخذون أي شيء من أموال هؤلاء الناس، كما شاهدنا أن هؤلاء الناس رضوا عن حكمكم وصاروا وكأنهم لا يعرفوننا ولا يذكروننا. فلما رأينا طمأنتهم وراحتهم رغبنا في حكمكم".

ثم واصل سلاطين آل عثمان فتوحاتهم في البلقان. وكان أهالي المنطقة هناك يعانون من الضرائب الباهظة التي فرضتها عليهم الدولة البيزنطية. الأمر الذي جعل معظمهم يحتمي

بالحكم العثماني، حيث كانت الدولة العثمانية تكتفي بضريبة خفيفة، مما مكّنهم من الاحتفاظ بأموالهم وأنفسهم في الوقت نفسه. ومن جهة أخرى فإن عامة أهالي البلقان كانوا ينتسبون إلى المذهب الأرثوذكسي وكان الأوربيون يجبرونهم على الدخول إلى الكاثوليكية ويهددونهم بالقتل. واعتبر هؤلاء الناسُ العثمانيين منقذين لهم من أيدي هؤلاء الظالمين.

واستغلّ الأوروبيون ضعف البيزنطيين وحاجتهم إلى مؤازرتهم وتأييدهم فاشترطوا قبول مذهبهم الكاثوليكي. وفي يوم ١٢ ديسمبر ١٤٥٢م، صلّوا في الكنيسة الكبرى (آياصوفيا) حسب المذهب الكاثوليكي فكرهَهم أهالي القسطنطينية حتى قال رئيس وزراء الدولة البيزنطية مقولته الشهيرة: "بدل أن أرى في القسطنطينية قبعة الكاثوليك أفضّل أن أرى فيها عمامة الأتراك".

يقول المؤرخون إن توسّع أراضي الدولة العثمانية في الأناضول وفي البلقان يرجع إلى أسباب اجتماعية وأخلاقية بجنب قوتهم العسكرية، لأن القوة العسكرية لا تكفي وحدها لإخضاع بلاد تضم أقواماً من مختلف الأجناس واللغات والعروق والأديان..

فهذه ترجمة فرمان السلطان محمد الفاتح الموجه إلى أهل الذمة بعد الفتح في آخر جمادي الأولى سنة ٨٥٧ هـ (١٤٥٣م):

١- أعطيهم حرية العبادة وإجراء طقوسهم وشعائرهم على ما تعارفوا عليه في تاريخهم.

٢- أموالهم وأرزاقهم ومخازنهم وبساتينهم وسفُنهم وجميع أمتعتهم في حمايتنا، وأيضاً نساؤهم وخدامهم وعبيدهم وجواريهم مصونة من تدخلنا.

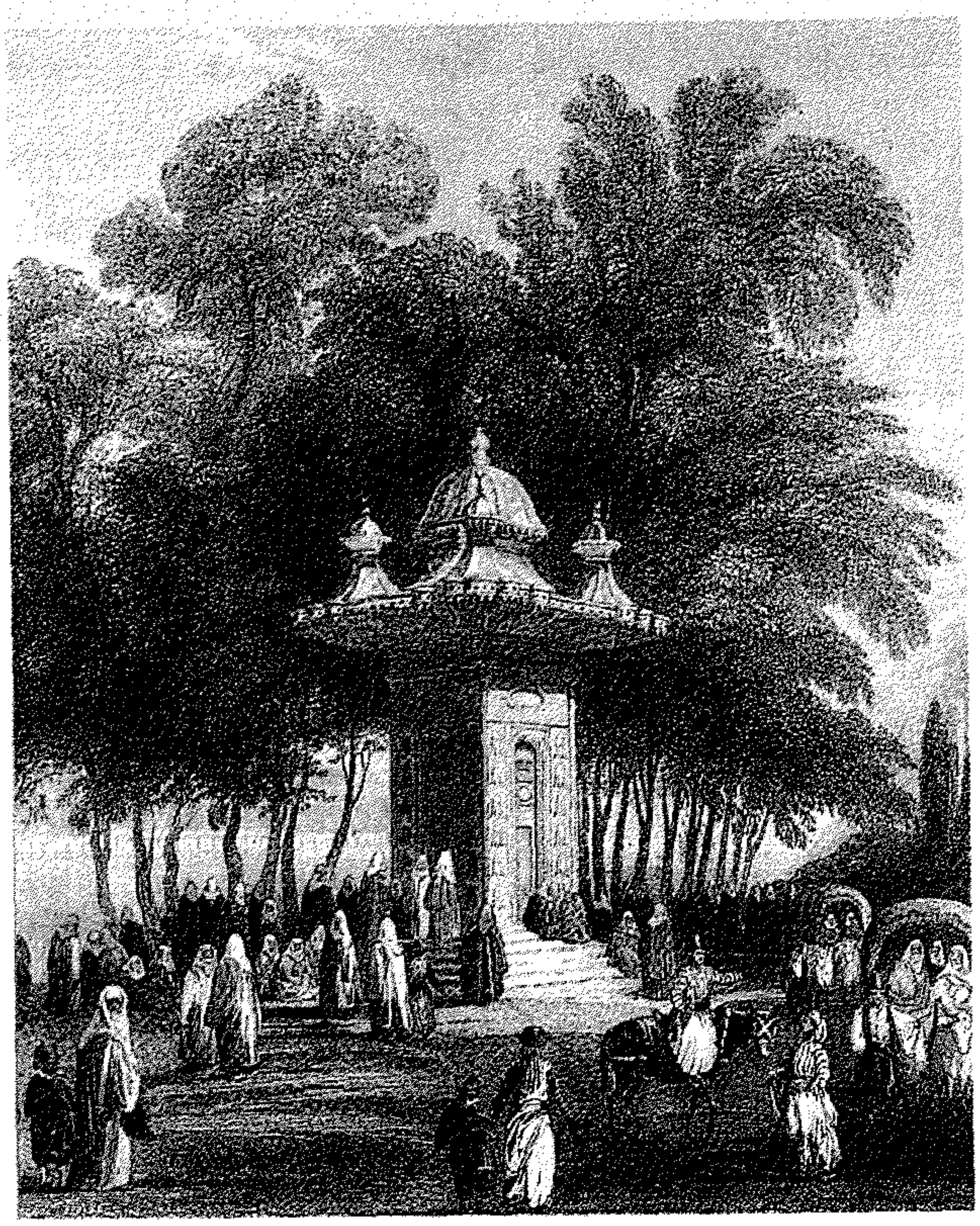
٣- لهم الحق في أن يزرعوا أراضيهم ويسافروا في البر والبحر دون أي تحديد أو تدخل.

٤- عليهم أن يدفعوا الخراج الشرعي سنوياً، وعلينا أن نحفظ أنفسهم وأموالهم.

٥- لهم حق العبادة وإجراء الطقوس ودراسة كتبهم، وليس لهم ضرب الناقوس. وعلينا أن لا نحوّل كنائسهم إلى مساجد وليس لهم إنشاء كنائس جديدة.

٦- ولتجار أهل الذمة أن يتجروا في البر والبحر، وعليهم أن يدفعوا ضريبة الجمرك حسب العرف، وهم مصونون من أي تدخل.

٧- لا نأخذ أولادهم للجيش ولا نجبر أي شخص منهم للدخول في الإسلام بدون رضاه.



٨- ولهم أن يختاروا رئيس جماعتهم لتمشية مصالحهم.

٩- وهم مصونون من أي عمل إجباري ومن أي عمل دون أجرة.

كما أعطى السلطان محمد الفاتح البطريقَ حقوقاً أكثر مما أعطته الدولة البيزنطية. فإنه دعا البطريق "كناديوس" وسماه "رئيس جماعة الروم". وبذلك منحه منصباً دنيوياً وإدارياً بجانب منصبه الروحاني. وكان البطريق يتمتع بمنصب "الباشا"، حيث خصص له محافظون لحراسته، وإنه كان من أعضاء الديوان السلطاني ممثلاً عن المسيحيين.

ومن جهة أخرى دعا السلطان بطريق الأرمن في "بورصة" إلى إسطنبول وعينه رئيساً لجماعات الأقليات من السريان والقبط والغجر إضافة إلى رئاسته لجماعة الأرمن. وقد أدى هذا التصرف إلى هجرة الأرمن إلى إسطنبول إلى أن وصل عددهم في القرن التاسع عشر إلى مائة وخمسين ألف نسمة.

واتصل السلطان محمد الفاتح باليهود ضامناً لهم الحرية الدينية بشرط أن لا يعينوا البيزنطيين. وعندما طرد "لودويج" ملك باويرا سنة ١٤٧٠م و"فارديناند" ملك أراغون سنة ١٤٩٢م اليهودَ، التجأوا إلى الدولة العثمانية ووجدوا فيها المأمن والأمان. كما التجأ قسم من العرب الأندلسيين -في نفس الوقت- إلى

إسطنبول حيث عاشوا كأشقاء مع المسلمين العثمانيين. وكان يهود إسبانيا يتكلمون بلهجة "لادينو"، حيث حافظوا على هذه اللغة قروناً بمسامحة من الدولة العثمانية. وكانت الدولة تريد أن تستفيد من تجربة اليهود التجارية ومن ثرواتهم.

لقد حافظ السلاطين على الكتائب العسكرية المسيحية وأعطتهم "التيمار" (حق تحصيل ضرائب الأراضي المعينة مقابل تجهيز عدد من العسكر)، وبذلك استفادت الدولة من قوتهم في حروبها. ومما يجدر ذكره أن السلطان محمد الفاتح طبّق الأحكام الإسلامية في أهل الذمة، كما كانت هذه الأحكام معروفة لدى الشعب المسلم. ومع ذلك فإن المجتمعات لا تخلو من الناس المتطرفين. فلما اطلع السلطان على تصرف بعض الناس وإجبار غير المسلمين على الإسلام قال: "ما أجْرأ هؤلاء على هذا الفعل! وهل يرون أنفسهم أحرص على الإسلام من الله؟". وحدث أحياناً أن بعضهم قدم طلباً إلى القاضي معلناً عن رغبته في اعتناق الإسلام، فلما تحقق القاضي من أن هذا الشخص أكره على الإسلام، رفض دعواه وأبقاه على دينه. وهذا مدون في السجلات الشرعية.. وحدث أن مسلماً سبّ الدين المسيحي أثناء مناقشته مع مسيحي، فرُفعت قضيته إلى القاضي فحكم القاضي بأن ينفى هذا المسلم من المدينة.

حقوق أهل الذمة

إن الدولة العثمانية طبقت على أهل الذمة أحكام الإسلام كما ذكرنا آنفاً، ويمكننا أن نلخص حقوقهم كالتالي:

١-الحقوق والحريات الأساسية: كانوا يتمتعون بكل الحقوق، كحق الحياة والعمل وحرمة المسكن وحق السياحة والاتصالات مثل المسلمين. وأما الاستثناء الوحيد هو منعهم من الدخول إلى مكة المكرمة والمدينة المنورة. ومنعوا أيضاً في سنة ١٥٨٢م من الدخول إلى منطقة "السلطان أيوب" (المنطقة التي يوجد فيها ضريح الصحابي الجليل أبي أيوب الأنصاري ﷺ صحابي رسول الله ﷺ)، حيث اعتبرت هذه المنطقة من أهم المراكز الإسلامية في إسطنبول. وأسكنت الدولة أهل الذمة في ضواحي إسطنبول في الأحياء المخصصة للروم والأرمن واليهود... إلخ. وقد حدد بعض السلاطين ارتفاع بيوت هؤلاء الأهالي واشترطوا أن يكون ارتفاع بيوت غير المسلمين أقل بقليل من بيوت المسلمين.

٢-لهم الحرية الدينية، أي حرية العبادة والمعبد وتعليم الدين وفتح المدارس الأهلية، إلا أنه كان هناك بعض التحديدات الخفيفة في الشعائر الدينية؛ مثل إظهار الصليب وضرب الناقوس يبقى في داخل المعبد ولا يظهر في الخارج في الأحياء التي كان معظم سكانها مسلمين. وحسب الفقه الإسلامي يستطيع أهل الذمة أن يحتفظوا بمعابدهم القديمة إذا فتحت البلدة صلحاً. وأما إذا فتحت عنوة فالسلطان مخير بين الإبقاء عليها أو هدمها. ورغم هذا الحكم أبقى السلطان محمد الفاتح كنائس إسطنبول كما كانت، وتبعه في هذا الأمر من جاء بعده من السلاطين. وأذن في بعض الأحوال المحددة لإنشاء كنائس وصلوات جديدة (أي معابد اليهود) واشتُرِط إذْن الدولة لترميم المعابد القديمة. وقد بلغ عدد الكنائس مائة واثنتي عشرة كنيسة، وعدد الصلوات ستاً وثلاثين في إسطنبول سنة ١٨٨٥م.

٣-الحرية السياسية والإدارية: لهم حق الدخول في قطاع الدولة كموظفين بإستثناء الوظائف التي تخص المسلمين. وليس لذمي أن يكون رئيساً للدولة أو قائداً للجيش أو رئيساً للوزراء أو والياً في الولاية أو قاضياً. كما كان عليهم أن يراعوا النظام العام والآداب العامة مثل المسلمين تماماً. وخلال حكم السلطان سليم الأول تبين للخليفة أن قسماً من الروم حاولوا أن ينظموا حركة انفصالية، وتعاونوا في ذلك مع نصارى جزيرة "مورا"، فأراد أن يأمر المسيحيين أو يخيرهم بين الإسلام وبين الخروج من إسطنبول، فاعترض عليه شيخ الإسلام "علي جمالي" (الملقب بزنبللي) قائلا: "إن جدك أعطاهم الأمن والأمان، فلا يجوز لك شرعاً أن تكرههم على ذلك".

ولما تحققت الدولة أن بطريق الروم تعاون مع أهل جزيرة "مورا" في سنة ١٨٢١م، اعتقلته ثم أعدمته. ثم ضعفت ثقة الدولة في الروم وبدأت تبعدهم عن الوظائف الحكومية ووجهتها إلى الأرمن بدل الروم.

وكانت العلاقات الإسلامية والمسيحية واليهودية حسنة إلى حد كبير منذ بداية الدولة العثمانية، واستمرت هذه الحالة قرونا. ومنذ بداية القرن التاسع عشر استطاع أهل الذمة أن يتعاقدوا مع شركات وتجار أوروبا ووسعوا ثرواتهم ونفوذهم. وبينما كان المسلمون الأتراك منهمكين بالحروب والإدارة، اشتغل أهل الذمة بالتجارة والصناعة. ونتيجة لهذا أصبح الأتراك محكومين اقتصادياً بعد أن كانوا حكاماً.

واجبات أهل الذمة

وبمقابل هذه الحقوق كان هناك بعض الواجبات على أهل الذمة.

أولاً: الجزية وهي ضريبة يختلف مقدارها حسب الظروف، حيث كانت تؤخذ من الرجال البالغين فقط، ولا تؤخذ من النساء والأطفال والشيوخ ورجال الدين والمرضى. وكانت تؤخذ تعويضاً عن الخدمة العسكرية التي كُلّف بها كل المسلمين. ولذلك غُيّر اسمها إلى "بدل العسكرية" في سنة ١٨٥٦م. وإذا ما التحق أهل الذمة بالجيش، فإن الدولة العثمانية كانت تعفيهم من الجزية. على سبيل المثال، سمحت الدولة العثمانية في القرنين السادس عشر والسابع عشر بدخول المسيحيين في جنوب رومانيا إلى الجيش.

ثانياً: كان الزراع مكلفين بالخراج. وكانت الإدارة العثمانية تعتبر أراضي الأناضول و"الروم إيلي"، أي معظم أراضي الدولة العثمانية من الأراضي "الأميرية" (خراجية)، لذلك كان الزراع كلهم من المسلمين ومن غير المسلمين متساوين في هذه الضريبة.

وثالثاً: كل المستوردين كانوا مكلفين بضريبة الجمرك، إلا أن نسبة ضريبة أهل الذمة كانت أكثر بقليل من ضريبة المسلمين. كما كانت البضائع والأموال التي تستعمل في المعابد الدينية معفوّة من ضريبة الجمرك. وقد خففت جداً هذه الضريبة بالامتيازات التي نالها غير المسلمين منذ القرن السادس عشر.

وكان هناك بعض التحديدات على أهل الذمة:

فهم كانوا لا يظهرون الصليب ولا يضربون الناقوس إلا في داخل الكنيسة. ولا يكون ارتفاع بيوتهم أكثر من ارتفاع بيوت المسلمين. ولا يقلدون المسلمين في ملابسهم ولا يبيعون الخمر ولحم الخنزير إلا في المناطق التي يسكنها غير المسلمين.

وبجانب أهل الذمة الذين كانوا مواطني الدولة، كان هناك المستأمنون من رعايا الدول الأجنبية. وكانوا يتجرون ويتجولون في داخل الدولة للتنزه والاستطلاع تحت حماية الدولة.

وإذا نظرنا إلى أوروبا في تلك العصور فماذا نجد فيها من هذه الحقوق؟ أرغب في هذا الصدد أن أنقل كلام المستشرق "برنارد لويس". فعندما زار تركيا قبل عشرين سنة تقريباً أُجريت معه مقابلة تلفزيونية، وسأله المراسل: "نحن نرى كثيراً من الأوروبيين قد تجولوا وكتبوا مذكرات سياحية داخل الدولة العثمانية منذ القرن السادس عشر حتى القرن العشرين، في حين لا نجد من الأتراك من كتب عن الأوروبيين؟".

فأجاب "لويس": "لم يكن أي مانع في تلك الآونة من زيارة الأوروبيين الدولة العثمانية، لأن الدولة كانت دولة حقوق وقوانين؛ كانوا يدخلون مستأمنين يتجولون ويتجرون، وكان بإمكانهم أن يجدوا من كل المذاهب من يتكلم بلسانهم، أي ما كان هؤلاء يحسّون بالغربة. أما المسلم فما كان له أن يدخل إلى أيّ بلد أوروبي، إلا إذا رضي بالقتل، بسبب التعصب السائد في تلك العصور في أوروبا".

الحقوق الإنسانية في الدولة العثمانية

والدولة العثمانية كانت رائدة في حقل الحقوق الإنسانية الأساسية، ولا سيما في الحرية الدينية كما قال "غيبون": "لا يستطيع أحد أن يعترض على أن الدولة العثمانية هي الدولة الأولى التي اعتبرت مبدأ حرية الأديان كحجر الأساس في نظامهم".

لندع أوروبا في تلك القرون جانباً وننظر إلى أوروبا في القرن التاسع عشر والعشرين؛ فرنسا التي تدّعي أنها مهد الحرية والتي استولت على الجزائر في ١٨٣٠م وبقيت فيها ١٣٢ سنة، ماذا قدّمت للجزائريين من تلك الحقوق؟ فهل يمكن أن نجد وزيراً بل نائباً من الجزائر في برلمان فرنسا؟ لا أبداً.

أما إذا نظرنا إلى الدولة العثمانية فيمكن أن نجد أكثر من خمسين شخصاً من غير المسلمين ما بين وزير ونائب.

وهذه المقارنة توضح لنا كل شيء، إذ نوجزها بأن الدولة العثمانية قصرت صلاحيتها على المجتمع؛ في الحكم والأمور المالية والجيش، وأودعت كل ما وراء ذلك من التعليم والتربية والضمان الاجتماعي والأمور الدينية والأحوال الشخصية وإدارة النفوس والإعلام للمسلمين ولغير المسلمين، إلى الشعب الذين كانوا يديرونها على أساس التنظيمات الدينية والمذهبية، كما أودعت أوقافهم المختلفة. وكان غير المسلمين يُجْرون أمر النكاح والطلاق والنفقة والميراث والوصية داخلَ جماعاتهم في محاكمهم الخاصة. والدولة كانت تنفذ هذه القرارات كما وردت. وكان بإمكانهم أن يفتحوا مدارسهم ويضعوا برامجها ويختاروا مدرسيها بكل حرية.

وبسبب الإهمال في مراقبة تلك المدارس، بدأ يدب فيها الفساد اعتباراً من القرن التاسع عشر. والسبب الأساس يرجع إلى عدم وجود الأشخاص الذين يتقنون اللغات الأجنبية التي كانت لغة التدريس في تلك المدارس والكليات. ولهذا الخلل فإن معظم الأمور الخارجية والدبلوماسية بقيت في أيدي الأقليات غير الإسلامية.

يبدو أن الدولة العثمانية ركزت على وحدة أراضيها وعدم

تجزئتها أكثر من الوحدة الثقافية. ولما لم تستهدف الدولة سياسة الوحدة في اللغة والثقافة لم تتحقق المواطنة المطلوبة بين المسلمين وغير المسلمين. ولذلك لم تستطع الدولة أن تحوّل العلاقة بينها وبين رعاياها إلى علاقة مستمرة باقية. والحقيقة أن الإدارة الذاتية في حقل الدين والأحوال الشخصية، لم تكن لتشكل مانعاً أمام الدولة من تحقيق وحدة المواطنة.

فلو كان باستطاعتها تحقيق حقوق المواطنة مثلما تحقق في الولايات المتحدة الأمريكية مثلاً، لربما استمرت الدولة العثمانية، وهذه فرضية. ومن زاوية أخرى نستطيع أن نقول إن الدولة العثمانية استمرت ستمائة سنة، وماذا تكون عاقبة النظم الحالية بعد مائة سنة؟! والله أعلم.

ونستطيع أن نشير هنا كتتمة لهذا البحث، أن قسماً من أحفاد العثمانيين يواصلون تمثيل هذا الموقف السليم في الوقت الحاضر، فلمحبّي فضيلة الأستاذ المربي محمد فتح الله كولن نشاطات كثيرة في هذا المجال. فهم يقومون من جهة بإجراء الحوار مع المثقفين الذين لم يتربوا تربية إسلامية فصاروا ضد الإسلام والإسلاميين، ومع غير المسلمين من جهة أخرى. وأسس الأستاذ محمد فتح الله كولن علاقات طيبة ببطريق الأرثوذكس ومع البابا يوحنا بولس الثاني في الفاتيكان، ومع رئيس كنيسة اليهود ومع العديد من رؤساء الأقليات الدينية الأخرى. فقد نظمت هذه التجربة عدة مؤتمرات دولية في إسطنبول في أعوام ١٩٩٨-٢٠٠٠م، وفي مدينة "أورفا" عام ٢٠٠٠م. ونظم مركز الحوار في جامعة "جورج تاون" في الولايات المتحدة الأمريكية في شهر مارس من سنة ٢٠٠١م، مؤتمرا لتقييم نشاطات محمد فتح الله كولن. كما حصلت هذه التجربة على ثمرات مفيدة وملموسة من هذا الحوار الذي أسهم في تقليل التوتر بين الثقافات والأديان.

المهم أننا معاشر المسلمين فقدنا قوتنا السياسية والاقتصادية، وليس لنا كلام مسموع في هذه المجالات في الوقت الحاضر. ولكن عندنا ثروة هائلة وقوة عظيمة وهي قوة العقيدة وقوة دين الحق التي لا تنفد.

ولو اتصفنا بالأخلاق الحميدة والاستقامة التي رأيناها عند أبي يوسف وعند السلطان عثمان ومحمد الفاتح، ولو أظهرنا كمالات الإسلام الأخلاقية، لرأينا نتيجة مثمرة مباركة ولحققنا رسالتنا في الحياة والله الموفق. ■

(*) كلية الإلهيات، جامعة مرمرة بـ"إسطنبول" / تركيا.

المأساة

وحدهما...
كوهن النسيم يمضيان،
والطريق يقطعان...
لا دمعة حزن من وليد،
ولا خفقة قلب من حفيد...
آلامَ الغربة يحييان،
ومصيرهما يجهلان...
ولكنهما يمضيان، ولا يلويان...
جناحا وروحيهما مشرعان،
بهما يسارعان...
إلى سحيق من المجهول يُقذَفان،
كمَنْ ضاع عمره، واستنفدَ أيامه...
* * *





بين الشام ومكة

جمال الحوشي*

ا

الطريق إلى مكة من أرض الشام طريق تجاري ضارب في القدم، تلتقي فيه روافد الطرق الأخرى الكثيرة من سائر بلاد العرب. وهو طريق عامر ترتاده القوافل العربية، وبخاصة إذا حل فصل الصيف القاسي في جزيرة العرب، ولا يوازيه شهرة إلا الطريق القادم إلى مكة من أرض اليمن في فصل الشتاء.

على امتداد الطريق الشامي في تلك الليلة المباركة كانت السماء صافية، ونسائم الصبا تداعب كثبان الرمل في ضوء القمر. النجوم أخذت تزهر مذ خيَم الظلام، وبدت كأنها على موعد مع مناسبة سعيدة طال انتظارها. ها هي القوافل تلقي بأحمالها لتستريح في عرض الصحراء الباردة، وقريباً من نيرانها الموقدة تجمع نفر من الرحالة يصطلون ويتسامرون، كما هي العادة في ليالي الصحراء. كان الزمهرير قارساً والظلام حالكاً، ولم يخطر ببال أحد من الرحالة أن ينظر إلى السماء حين اخترق السكونَ

المهيب فجأة فرسٌ مجنّح يطير بسرعة البرق الخاطف قادماً من أرض الشام في طريقه إلى الحجاز.

لم يكن ذلك سوى البراق.. الدابة المباركة التي أعدها الله تعالى لتنقلات أنبيائه ورسله بين قارات العالم. لكنها المرة الأولى التي يشاهد فيها محلقاً فوق سماء الجزيرة منذ انقطاع الرحلات المتكررة للخليل عليه السلام بين مكة وبيت المقدس. فمَن النبي الكريم الذي امتطاه تلك الليلة؟ وأي مهمة عاجلة جاء منها؟

كان الراكب في تلك الليلة المباركة "محمد بن عبد الله" النبي القرشي ﷺ، وقد عاد للتو من بيت المقدس بعد أن أقيمت على شرفه في ملكوت السماء أعظم مراسم الاحتفاء لكائن بشري بعد آدم عليه السلام. غير أن قصة التكريم المحمدي هذه -التي اكتمل تتويجها في ليلة الإسراء والمعراج- تم التمهيد لها قبل ذلك بكثير، بل إن فصولها تعود إلى الأيام الخالدة الأولى في تاريخ النبوات، ولعل أظهرها يومان مشهودان عمرت بهما بطاح مكة وشعابها.

أشرقت شمس اليوم الأول على بيوت مكة مع مقدم شيخ وقور متوجه صوب بيت إسماعيل عليه السلام يتفقد ذريته ويتعهد أهل البيت. كان ذلك إبراهيم خليل الرحمن عليه السلام. أما المهمة التي جاء من الشام لأجلها فمباركة المحضن الصالح وتزكية المنزل الذي ستنتقل منه السلالة الطاهرة التي سيخرج منها الغلام الهاشمي عليه الصلاة والسلام. وفي ضحى اليوم الآخر كان إبراهيم وابنه إسماعيل عليهما السلام يحدان حدود البلدة المباركة، ويخطان الأصول الكبرى لدعوة النبي الخاتم الذي سيظهر منها، وهما يرفعان القواعد ويدعوان الله تعالى: ﴿رَبَّنَا تَقَبَّلْ مِنَّا إِنَّكَ أَنْتَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ ۞ رَبَّنَا وَاجْعَلْنَا مُسْلِمَيْنِ لَكَ وَمِنْ ذُرِّيَّتِنَا أُمَّةً مُسْلِمَةً لَكَ وَأَرِنَا مَنَاسِكَنَا وَتُبْ عَلَيْنَا إِنَّكَ أَنْتَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ ۞ رَبَّنَا وَابْعَثْ فِيهِمْ رَسُولاً مِنْهُمْ يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِكَ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَيُزَكِّيهِمْ إِنَّكَ أَنْتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾(البقرة:١٢٧-١٢٩).

إن الله ﷻ يخلق ما يشاء ويختار. وقد نظر في قلوب العباد فاصطفى قلب سيدنا محمد ﷺ منها، ثم حفظ نسله في رحم الغيب وتنقّل به في محاضن الطهر جيلاً بعد جيل.. ما بين بابل ومصر وإيلياء، ثم اختار له من أرض الحجاز خير دار. ومن جوار زمزم في الوادي المبارك دنت ساعة الرحمة ونبعت عين الحياة، فولد الهدى ﷺ سالماً من النقص، محفوفاً بالتشريف، ومكلوءاً بعين الرعاية والتبجيل.

ومنذ اللحظة الأولى يسند الله تعالى مهمة رعاية الغلام وهدايته وكفايته إليه وحده دون سواه. وبعد أربعين عاماً يرفعه إلى أعلى المقامات ويكرمه بأشرف الكرامات ليصبح الفتى الهاشمي رسول الله وخاتم النبيين. وحين انقطع الوحي يسيراً عنه في مبدأ النبوة، وزعم من كفر بأن ربه قلاه تنزّل الوحي الكريم بقَسَم الرب العظيم مذكراً بلسان المحبة والحفظ: ﴿وَالضُّحَى ۞ وَاللَّيْلِ إِذَا سَجَى ۞ مَا وَدَّعَكَ رَبُّكَ وَمَا قَلَى ۞ وَلَلْآخِرَةُ خَيْرٌ لَكَ مِنَ الْأُولَى ۞ وَلَسَوْفَ يُعْطِيكَ رَبُّكَ فَتَرْضَى ۞ أَلَمْ يَجِدْكَ يَتِيمًا فَآوَى ۞ وَوَجَدَكَ ضَالًّا فَهَدَى ۞ وَوَجَدَكَ عَائِلاً فَأَغْنَى﴾(الضحى:١-٨). وتدنو ساعة التكريم الأعظم في ليلة الإسراء والمعراج بعد عشرة أعوام عطرة من التشريف والكرامة.

موعد قرب زمزم

بعد الخروج من حصار الشعب المجهد الشاق الذي دام ثلاث سنين، فقد النبي ﷺ اثنين من أعز المقربين إليه في أقل من ثلاثة أشهر؛ عمه الرحيم الذي كان يحميه، وزوجته الحنون التي كانت تواسيه. وما هو إلا أن تجرع القلب الكريم مرارة الفراق، واعتصر الفؤاد لألم الوحدة حتى تنزل الأمر الإلهي بإحضاره إلى ملكوت السماء، ليذوق حلاوة الوصل في جوار ربه وليرتفع في مقامات العبودية والتشريف. كان الأمر يفوق الخيال غير أنه حقيقة.

لقد سلك هذا الطريقَ التجاري في شبابه قبل البعثة مراراً، وهو يعلم يقيناً أن رواحل العرب تسير فيه شهراً للوصول إلى الشام، ومثلَه في الإياب منه إلى مكة. لكن ها هو الآن يرى امتداد الطريق يطوى أمامه كالنهر المتعرج، وذلكم مسجد إيلياء يتراءى أمام بصره. أيعقل هذا؟ لقد قطع المسافة كلها في لمح البصر. ومن جوار المسجد يرتقي به أمين الوحي جبريل عليه السلام إلى أعلى متجاوزاً به طبقات الغلاف الجوي، الذي تقطع رواحلُ الغرب الحديثة الطريقَ إليه في ساعات رهيبة ومخيفة، وتعود منه كذلك. ها هو يعبُر المجرة الشمسية، مخلفاً وراءه السدم والأفلاك الكونية ليصعد إلى هناك، حيث أبعدُ نقطة عن عالم الأرض تنقله إلى عالم السماء. ومن باب السماء الأولى يتنزل الأمر الإلهي بالسماح به ليرقى في ملكوت السماء الأعلى، متنقلاً بين مراسم الاستقبال العظيم الذي جمع له فيه من كل سماء مقربوها، والتقى بأشرف ساكني السماء من أنبياء الله تعالى ورسله؛ آدم ويحيى وعيسى ويوسف وإدريس وهارون وموسى عليهم السلام. وفي السماء السابعة استقبله أبوه إبراهيم عليه السلام وسلم عليه. ثم رقي إلى هناك!

حيث لم تطأ قدم قط ولا خفق جناح، وشاهد من العوالم الباهرة ما يعجز عنها الوصف، ولا يفيها بديع الرصف سوى ما ورد في حديث الرب سبحانه وهو يخبر عما جرى هناك بقوله جل شأنه: ﴿مَا كَذَبَ الْفُؤَادُ مَا رَأَى ۞ أَفَتُمَارُونَهُ عَلَى مَا يَرَى ۞ وَلَقَدْ رَآهُ نَزْلَةً أُخْرَى ۞ عِنْدَ سِدْرَةِ الْمُنْتَهَى ۞ عِنْدَهَا جَنَّةُ الْمَأْوَى ۞ إِذْ يَغْشَى السِّدْرَةَ مَا يَغْشَى ۞ مَا زَاغَ الْبَصَرُ وَمَا طَغَى ۞ لَقَدْ رَأَى مِنْ آيَاتِ رَبِّهِ الْكُبْرَى﴾(النجم:١١-١٨). ثم عاد سيدنا محمد ﷺ من ليلته دون أن يشعر بعودته أحد من أهل مكة.

مقدمات الحدث العظيم

كانت التهيئة الإلهية للجسد الطاهر دقيقة لكي يتحمل ما سيعرض له في هذه الرحلة من عوالم لا طاقة لآدمي بتحملها؛ فبعد صلاة العشاء من تلك الليلة المباركة نزل جبريل عليه السلام بأمر ربه إلى الحبيب المصطفى ﷺ ففرج عن سقف بيته، ثم شق صدره وأجرى لـه عملية جراحية ربانية لم يفقد فيها قطرة دم شريفة واحدة. غسل خلالها صدره الشريف بماء زمزم، ثم جاء بطشت من ذهب ممتلئ حكمة وإيماناً فأفرغه في صدره ثم أطبقه وأعاده من جديد كما كان، بل أحسن مما كان.

بعدها أخذ جبريل عليه السلام بيده ﷺ إلى الخارج ليريه دابته التي ستقله إلى المسجد الأقصى في أرض الشام، قال ﷺ: "أُتيت بالبراق؛ دابة أبيض فوق الحمار ودون البغل، يضع حافره عند منتهى طرفه فركبته فسار بي حتى أتيت بيت المقدس" (متفق عليه). وفي أرض النبوات ومنبع الرسالات أظهر الله تعالى فضله على أهل الأرض قاطبة؛ فعند وصوله ربط البراق بالحلقة التي كان يربط فيها الأنبياء، ثم دخل المسجد فصلى فيه ركعتين ثم أتاه جبريل بالمعراج ليصعد فيه فلما استوى عليه صعد به إلى السماء. وقد شهد تلك الليلةَ بِطْريقٌ من المقربين لهرقل ملك الروم، وكاد هرقل نفسه أن يسلم بسببها؛ فبعد هذه الليلة المباركة بقرابة عشر سنين قدم دحية الكلبي رضي الله عنه بكتاب رسول الله ﷺ إلى هرقل. فلما انصرف دحية رضي الله عنه، أمر هرقل بإحضار من بالشام من تجار مكة، وكان هرقل وافر العقل، فسأل عن أقربهم من محمد ﷺ، وكان أبو سفيان، فقال له: هل جربتم عليه كذباً؟ فاجتهد أبو سفيان أن يحقر من أمره ويصغره عنده فلم يجد ما يسعفه. قال أبو سفيان: حتى ذكرت قوله ليلة أسري به فقلت: أيها الملك، ألا أخبرك خبراً تعرف أنه كذاب؟ قال: وما هو؟ قلت: إنه يزعم لنا أنه خرج من أرضنا، أرض الحرم، في ليلة فجاء مسجدكم هذا مسجد إيلياء، ورجع إلينا تلك الليلة قبل الصباح. قال: وبطريق إيلياء عند رأس قيصر، فقال بطريق إيلياء: قد علمت تلك الليلة. قال: فنظر إليه هرقل وقال: وما علمك بهذا؟ قال: إني كنت لا أنام ليلة حتى أغلق أبواب المسجد، فلما كان تلك الليلة أغلقت الأبواب كلها غير باب واحد غلبني، فاستعنت عليه بعمالي ومن يحضرني لمعالجته فغُلبنا فلم نستطع أن نحركه كأنما نزاول به جبلاً، فدعوت إليه النجاجرة فنظروا إليه فقالوا: إن هذا سقط عليه النجاف والبنيان، لا نستطيع أن نحركه حتى نصبح فننظر من أين أتى. قال: فرجعت، وتركت جانبي الباب مفتوحين، فلما أصبحت غدوت عليهما، فإذا الحجر الذي في زاوية المسجد منقوب، وإذا فيه أثر مربط الدابة، قال: فقلت لأصحابي: ما حبس هذا الباب الليلة إلا على نبي، وقد صلى الليلة بمسجدنا.. (مقتبس من الحديث الطويل الذي رواه الحافظ أبو نعيم الأصبهاني في كتاب دلائل النبوة).

> **إن الله تعالى يخلق ما يشاء ويختار. وقد نظر في قلوب العباد فاصطفى قلب سيدنا محمد ﷺ منها، ثم حفظ نسله في رحم الغيب وتنقل به في محاضن الطهر جيلاً بعد جيل. ومن جوار زمزم في الوادي المبارك دنت ساعة الرحمة ونبعت عين الحياة فولد الهدى ﷺ..**

فلما خرج ﷺ من المسجد قدّم إليه جبريل إناء من خمر وإناء من لبن ضيافة للزائر العزيز، وطلب منه أن يختار، قال ﷺ: "فاخترت اللبن"، فقال جبريلَ عليه السلام: أصبت الفطرة، "ثم عرج بي...". (رواه أحمد). وفي السماء أظهر الله تعالى شرفه ورفعته ﷺ، حيث بلغ به مكاناً علياً لم يصله ملك مقرب ولا نبي مرسل، وبلّغه ربه سدرة المنتهى، وهي التي ينتهي إليها ما يعرج به الملائكة من الأرض فيُقبض منها، وإليها ينتهي ما يُهبط به من فوقها، وهناك رأى جبريل عليه السلام مرة أخرى على هيئته التي خلقه الله عز وجل. ثم جاوز به الحد الذي لا يتخطاه جبريل أمين أهل السماء نفسه. وفي تلك البقعة المباركة الشريفة سمع صريف الأقلام،

وفرض الله تعالى عليه وعلى أمته الصلاة، و لم يكن أحد قط أقرب منه ﷺ. ثم هبط إلى بيت المقدس والظلام لا يزال حالكاً، ودخل المسجد، قال ﷺ: "فلم ألبث إلا يسيراً حتى اجتمع ناس كثير، ثم أذن مؤذن فأقيمت الصلاة، فقمنا صفوفاً ننتظر من يؤمنا؛ فأخذ جبريـــل عليه السلام فقدمني فصليت بهم. فلما انصرفت قال جبريل: يا محمد أتدري مـــن صلى خلفك؟ قلت: "لا". قال: صلى خلفك كل نبي بعثه الله عز وجل" (رواه أحمد).

وفي هذا دلالة على أنه ﷺ هو الرئيس المقدم والإمام الأعظم لســائر الأنبياء صلوات الله وسلامه عليه وعليهم أجمعين، حيث قدمـــه جبريل عليه السلام ليكون إماماً لهـــم في دارهم التي هي معدن النبوات وأرض الرسالات. ثم خرج من بيت المقدس فحل رباط البراق وركبه عائداً إلى مكة.

في طريق العودة

ها هو ذا الكوكب الأخضر يَسبح في ملكوت الكـــون الهائل، وبحارُ الســـدم والأفلاك والمجرات تحيط به. وها هي جزيــــرة العرب يقطع وشـــاحها المظلـــم خيـــوط القمر المنسدلة في هدوء، وذاكم هو الخط الترابي الطويل الذي شـــهد سماؤه أعظم رحلة بشرية على الإطلاق، وعلى البعد تُرى قوافل العرب تسير فيه، وأخرى تستريح حوله.

إن هـــذه الرحلـــة الإيمانيـــة (الإسراء) كانـــت الأولى للفتى الهاشمي بعد أن أكرمه الله تعالى بالرسالة. وهي المنطلق الحقيقـــي الذي انتقلـــت الدعوة بعده خارج مكة لتعم أرجاء الجزيرة العربية ثم انتشرت بشكل مذهل في غضون ســـنوات لتعمر جميع أقطار الأرض.

لم تغب عن ذاكرة سيدنا محمد ﷺ مشاعر الحنين في رحلاته الأولى كلما يممت المطايا وجوهها قِبل مكة في طريق عودتها من الشـــام، وكلما رفعت الإبل أعناقها في سيرها الطويل تستشرف جبال مكة من بعيد، شوقاً إلى نسائم البيت وعبق أذاخره، وهي محملة بالبضائع والتحف الشامية النادرة.

غـــير أن هذه الرحلة الإيمانية -خارج حدود الحجاز، وبعيداً عن كوكب الأرض- كانت الأولى للفتى الهاشمي بعد أن أكرمه الله تعالى بالرســـالة. وهي المنطلق الحقيقي الذي انتقلت الدعوة بعده خارج مكة لتعم أرجاء الجزيرة العربية ثم انتشـــرت بشكل مذهل في غضون سنوات لتعمّر جميع أقطار الأرض.

وعلـــى الرغم من درجة الظهور والريادة للطريق الذي يربط بين مكة وبيت المقدس، فقد شـــهد تاريخ النبوات تقارباً كبيراً كذلك بين المســـجد الحرام والمســـجد الأقصى. حتى إن سورة الإســـراء ذاتها قرنت بحديث طويل وجميل عن بني إسرائيل، وفي مطلعها قوله جل شأنه: ﴿سُـــبْحَانَ الَّذِي أَسْرَى بِعَبْدِهِ لَيْلاً مِنَ الْمَسْـــجِدِ الْحَرَامِ إِلَى الْمَسْجِدِ الأَقْصَى الَّذِي بَارَكْنَا حَوْلَهُ لِنُرِيَهُ مِنْ آيَاتِنَا إِنَّه هُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ ۝ وَآتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ وَجَعَلْنَاهُ هُدًى لِبَنِي إِسْرَائِيلَ أَلاَّ تَتَّخِذُوا مِنْ دُونِي وَكِيلاً﴾(الإسراء:١-٢)، بل إن الاسم الآخر لسورة "الإسراء" هو "بنو إسرائيل".

وقبـــل أن يطبق البراق جناحيه، ويهبـــط بجوار البيت العتيق ليعود الراكب الكريم إلى فراشـــه الذي لا يزال ســـاخناً، كان الرســـول ﷺ قد اخترق بروحه وجســـده حاجز الزمن في تلك الليلة المقمرة؛ وعدلت الســـاعاتُ القليلة الماضية الـــتي قطعها ملايينَ السنين الضوئية بمقياس البشر. رأى خلالها من المَشـــاهد والعوالم ما لا قدرة للعقل البشري على إدراكه، وأعاد تاريخ النبوة حياً في القلوب، قلوبِ المؤمنين به مـــن أمته الذين يصدقون بالله تعالى وملائكته وكتبه ورسله، وبقيةٍ قليلة ممن آمن به من أهل الكتاب الذين أمرنا الله سبحانه بالإحسان إليهم، ولين الحديث عند الحوار معهم؛ لأنهم صدقوا بما أنزل الله تعالى على رســـله، قال تعالى: ﴿وَلاَ تُجَادِلُوا أَهْلَ الْكِتَابِ إِلاَّ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَـــنُ إِلاَّ الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْهُمْ وَقُولُوا آمَنَّا بِالَّذِي أُنْزِلَ إِلَيْنَا وَأُنْـــزِلَ إِلَيْكُمْ وَإِلَهُنَا وَإِلَهُكُمْ وَاحِدٌ وَنَحْنُ لَهُ مُسْـــلِمُونَ﴾ (العنكبوت:٤٦).

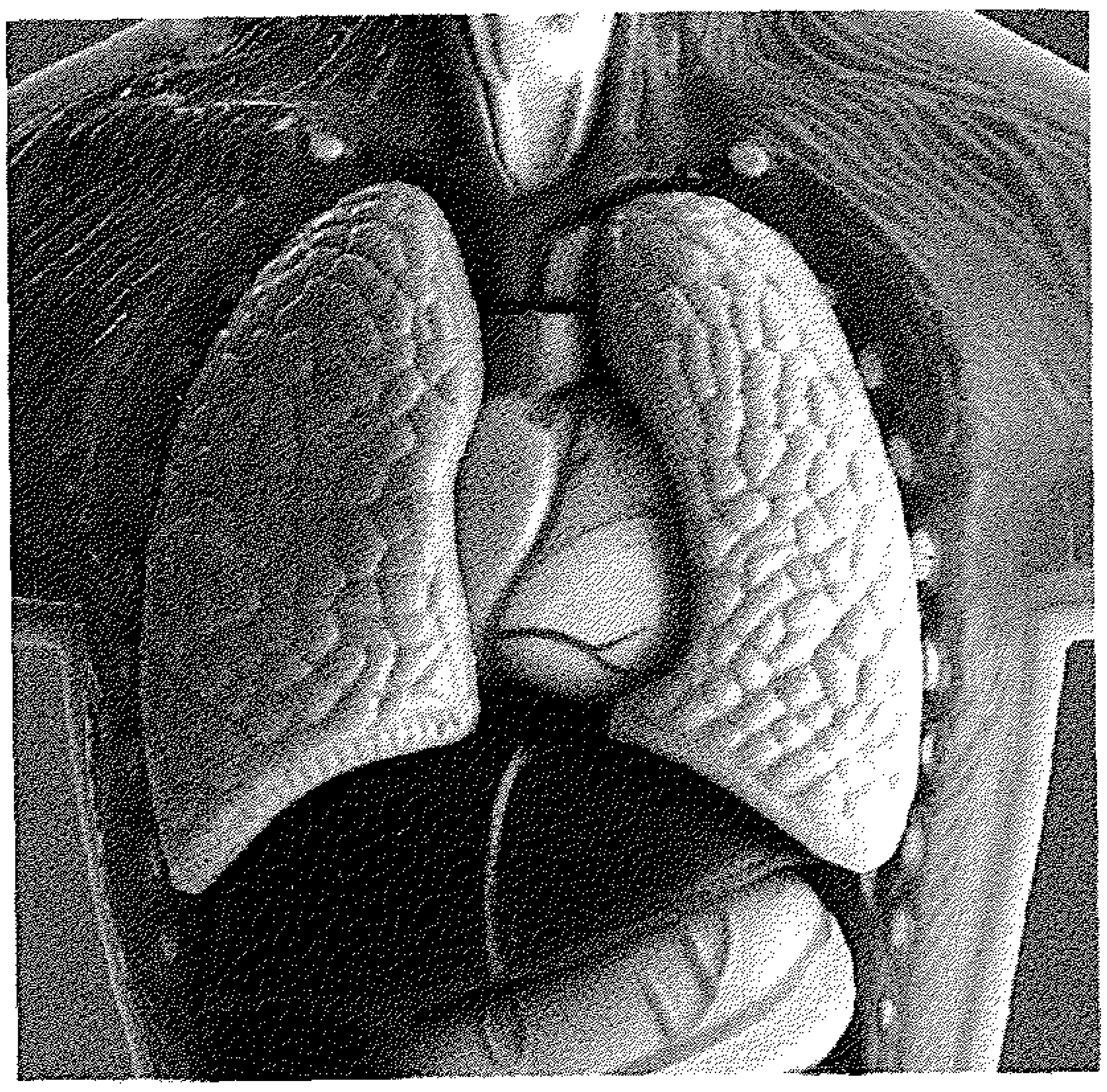
ولا يفوق التقارب بين المسجدين، والطريق الذي يربط بينهما من حيث الظهور والريادة إلا ذلك الترابط الكبير بين سيرة النبي المكي الخاتم من ذرية إسماعيل عليه السلام، وســـيرة النبي المقدسي الخاتم من ذرية إسحاق عليه السلام. ■

(*) مدير تحرير مجلة "مكة" / المملكة العربية السعودية.

عنـد الأثـر الفنـي لا تتوقـف.. وبـه لا تظـل منبهـرا.. فتـش عـن الـروح العظيـم مـن ورائـه.. وعن اليـد الصناع التـي صاغتـه.. وعـن الرسّـام الـذي رسـم.. والنحـات الذي نحت.. والشـاعر الذي شـعر.. والناثر الـذي نثر.. ففـي روح الإنسـان يرقـد الجمـال كلـه.. ويعتلـج الفـن كلـه..

* * *

أنا رئة عبد الله



أ.د. عرفان يلماز*

عزيزي عبد الله... أسند ظهرك للخلف ودعني أمط جسمي قليلاً لأتسع وأملأ جوفي بالهواء. فكلما امتلأتُ بالهواء فإن دماغك سيعمل أحسن، ومن ثم ستعي كلامي بشكل أفضل. وإن سألتني عن العلاقة بينهما أقول، بأن كل عضو في جسمك له علاقة بكل شيء، بل بكل الكائنات. فلكي يعمل دماغك ستحتاج إلى السكر، ولكي تؤمّن الطاقة للخلايا العصبية تحتاج إلى حرق السكر، ولحرق السكر تحتاج إلى أوكسجين، والعضو الذي يؤمّن دخول الأوكسجين هو أنا (الرئة) وسأتحدث لك عن نفسي في هذا العدد.

في الحقيقة إن الحديث عن النفس أمر ليس محموداً، ولكن ما أفعله لا يعد حديثاً عن النفس. فكل ما أبغيه هو الحديث عنه ﷻ وبيان جمال قدرته في إبداعي على أكمل وجه. لذا لا يوجد في جنباتي أي موضع للتكبر أو الاغترار، فكل شيء له ﷻ؛ كل ما أملكه وكل ما أقوم به وكل ما عليّ من التفاصيل والدقائق والصنعة البديعة التي لا تحيطونها علماً، كلها له جلّت قدرته. ولكي تواصل حياتك فإن الله ﷻ قد وظفني في أعمال ووضعني في بدنك العجيب.

لقد أودعني الله في قفص صدرك الذي أحيط بأضلاعك وعضلات صدرك على شكل كيسين هوائيين أيمن وأيسر، أو بعبارة أدق، على شكل منفاخ. كما أني أرتبط من الأعلى بالقصبة الهوائية والبلعوم، وأنفصل عن الأعضاء الداخلية للبطن الموضوعة في الأسفل بالحجاب الحاجز العضلي.

التنفّس الأول للرئة

إن أول نفس استنشقتُه كان مع اللحظات الأولى لميلادك. ومنذ تلك اللحظة ما زلتُ أتنفّس دون توقف، حتى أثناء نومك فإني أزودك بالأكسجين الذي تحتاج إليه، وذلك بتلقي الأوامر آلياً من "البصلة السيسائية" أي، المركز المحرك الوعائي والمركز التنفسي.

إن قريني في العمل هو القلب الذي بدأ نشاطه قبلي بكثير حين كنتَ في الشهر الأول في رحم أمك. في تلك الفترة كنتُ أستريح ولم يكن تكويني قد اكتمل بعد، أي لم تبرز الحاجة إليّ بعد. إذ كانت أمك -التي تجرح قلبها أحياناً- تزودك بدمها، بكل احتياجاتك من الغذاء والأوكسجين. ولو قمتُ أنا بشيء من هذا القبيل، لَاختنقتُ على الفور، لأنك كنتَ تسبح في مادة سائلة في رحم أمك، ولو حاولتَ التنفس لامتلأتُ بهذا السائل واختنقنا سوية.

إن أول نفس أستنشقه عند الولادة مهم جداً وإنه صعب للغاية، لأن القصبة الهوائية عندك تكون أضيق بكثير من حالتها

الاعتيادية، إلا أن عدد الحويصلات الرئوية التي يتم خلالها تبادلُ الأكسجين مع شعيراتك الدموية كثيرة جداً بالنسبة إلى حجمي، وهذا ما يعوّض ضيق القصبة الهوائية عندي. عند أول حركة لي، وبعد أن يمتلئ جوفي بالهواء، أقوم بالضغط على الشرايين والأوردة القادمة إلي من القلب، في حين يبقى شرياني المرتبط مباشرة بالشريان الأبهر خارج نطاق العمل، كما ينغلق الصمام بين الأذينين وينفصل عن دورة الأم. وإذا ما بقي الصمام مفتوحاً دون انغلاق، فإن الدم المؤكسج يختلط بالدم الفقير بالأكسجين ويسبب "المرض الأزرق" أو الزرقة القلبية، حيث يرجع لون الطفل الأزرق إلى أن الدم الأزرق لا يجد مفراً من أن يتجه إلى البطين الأيسر، والشريان الأورطي (الأبهر) ويختلط بدمهما الأحمر، ويوزع هذا الدم الممزوج إلى الجسم فيعطيه اللون الأزرق.

وتظهر الزرقة الناتجة عن نقصان الأوكسجين في الأنسجة على المدخنين أيضاً. ولا شك أن أكبر عدو لي هو التبغ الذي يحتوي على مئات المواد السامة والضارة. ومن إحدى هذه المواد، "مونوكسيد الكربون" أو استنشاق منتوجات غازية تتحد مع مادة الهيموغلوبين (خضاب الدم) وتعيق انتشار الأوكسجين في الجسم. ولهذا فإن شفتي المدخنين تبدو مائلة إلى الزرقة. والحق يقال عجزنا -رغم محاولاتنا الكثيفة- عن مقاومة تلوث الهواء الذي بدأ يزداد بسرعة في عصرنا هذا، فإذا بنا نراهم (المدخنين) قد زادوا الطين بلة بتدخينهم، الأمر الذي يجعلني أجن. كيف يمكن لإنسان أن يكون جاهلا لهذه الدرجة!

آليات حماية الرئة

لقد خلقني ربي ﷻ بطريقة مميزة وفريدة لاستنشاق الهواء وإدخاله إلى الدم بواسطة الضغط العالي، ثم طرح فضلات غاز ثاني أكسيد الكربون الموجود في الدم إلى الخارج قبل أن يرتفع إلى مستوى يؤدي إلى اختناق الجسم. ولأنه ﷻ يعلم أن الهواء سيتلوث إلى هذه الدرجة، فقد زودني ببعض الآليات لحماية نفسي. ونتيجة لذلك فإني أمارس عملي دون أي عطل لمدة طويلة. إلا أن ازدياد المواد الصناعية السامة والغازات بشكل كبير، جعلني لا أقدر على مقاومة الأخطار بسهولة. ثم إنهم ينفثون في وجهي دخان التبغ الذي قيل: إن فيه أكثر من أربعة آلاف مادة سامة ومختلفة.

إنهم أدرى بأنفسهم.. فلو أني فقدتُ المقاومة وضعفتُ عنها، لا أدري كم سأفتح عليهم من أبواب المشاكل. كثيراً ما كنت أصاب في الماضي بمرض السل، أما اليوم فإنني أفضّل الإصابة بمرض السرطان تماشياً مع الموضة!.. وكأن في الأمر دعابة أليس كذلك؟ ماذا أفعل؟ وهل يمكن أن أصاب بالسرطان بإرادتي؟ فكما أن هذا المرض المسمى بالسرطان يمكن أن يصيب أي عضو في أي لحظة، فإنه يمكن أن يصيبني أنا أيضاً أكثر من غيري، لأني على تماس مباشر بالهواء دائماً. فلو أني توقفت عن استنشاق الهواء لَلفظتَ أنفاسك الأخيرة على الفور. ولهذا ينبغي عليك أن تنتبه إلى نظافة الهواء في محيطك.

في الحقيقة أن باطن المجاري الهوائية التي تنقل الهواء إلى داخلي والتي تسمونها القصبة الهوائية والشعيبات الهوائية، بُطِّنَ بشعيرات تلتقط وتدفع ذرات الغبار والمفرزات المخاطية نحو الحلق لكي يخرج بعد ذلك بواسطة السعال، حيث تعمل هذه الشعيرات طوال الليل أثناء نومك، وتَدفع الأغشيةَ المخاطية التي التصقت بها ذراتُ الغبار والتي استنشقتها نهاراً نحو حلقك، وتقوم في الصباح بطرح كتلة الغشاء المخاطي الموجودة في حنجرتك وتتخلص من البلغم. أما المدخّنون فيقتلون ما بين ٨٠٠-١٠٠٠ خلية من شعيراتي الرئوية في كل مرة يسحبون فيها الدخان إلى جوفي. وبعد مدة أعجز عن تكنيس جزيئات المواد السامة الواردة مع الهواء، كذرات الكربون، والكبريت، والرصاص... ذلك لأن خلايا الأهداب أو شعيراتي الرئوية داخل القصبة الهوائية، تموت مع مرور الأيام وتصل إلى حالة لا تُحتَمل فتغير هيكلها وتكوينها. ومن ثم فإن ذرات الغبار الموجودة داخل الهواء المتلوث، تَسُدّ مجرى الهواء كما تُسَد مجاري المدافئ ووصلات المداخن في منازلنا. ولعلي أُصاب نتيجة ذلك بمرض الانسداد الرئوي المزمن أو السرطان.

عزيزي عبد الله... أعرف أنك لا تدخّن، ولكنني أردتُ أن ألمس جوانب الموضوع لتقوم بشرحه لبعض أصدقائك، فأرجو ألاّ تملّ مني.

التكوين المتكامل البديع

وفي هذا الصدد أودّ أن أشرح لك بعض البدائع الفنية في تكويني المتكامل البديع. كما تعرف أنه إذا اجتمعت العناصر الفنية والجمالية والوظيفية في أثر ما، فإنها تعطيه ميزة ذات معنى. وإن تكويني المتكامل -ككل أصدقائي العاملين في بدنك- يهدف إلى التلاؤم مع الوظيفة المهمة التي سأقوم بها. بتعبير آخر، فإنه يستحيل اجتماع الخلايا والجزيئات فيّ عن طريق الصدفة، فإنه يستحيل إيجاد جزيئة واحدة من جزيئات البروتينات المختلفة الداخلة في تركيبي من تلقاء نفسها ودون إدراك. إن الاحتفاظ بالضغط العالي لأوكسجين الهواء الداخل إلى جوفي، ونفاذ الأكسجين من غشائي أثناء الانتشار، ثم النفاذ من أغشية الشعيرات الدموية

العالقة والامتزاج مع جزيئات خضاب الدم، ونفاذ ثاني أوكسيد الكربون ذي الضغط العالي إلى جوفي من نفس الأغشية، وقيامي بطرحه إلى الخارج مع كل زفير وشهيق لـك أمر لا يمكن أن يتحقق بسهولة. إنك تتنفس ١٣-١٤ مرة في الدقيقة، وفي كل مرة تتحقق هذه العملية. يجب علـيّ عند الانتفاخ والانكماش أثناء الشهيق الذي تجريه غالباً دون إدراك، أن أكون في حالة مرنة جداً. وإن أهم خاصية أمتلكها -بالإضافة إلى هذه المرونة- هي إظهار أوسع سطح في أصغر حجم. إن الله ﷻ وضع في صدرك الضيق أغشية تقارب مساحتها ١٠٠ متر مربع، أو يقارب خمسين ضعفاً من جلدك الذي يلف جسمك، وبفضل هذا منحك مساحة واسعة تتيح انتشار الغازات. في حين ينبغي على الغازات هذه، من أجل النفاذ من أغشية الجهاز التنفسي، أن تبقى رطبة على الدوام ولا تجف أبداً. إن سطوح أغشية الجهاز التنفسي الرطبة، ممتازة جداً لانتشار الغازات؛ ولكي لا تلتصق الأغشية الرقيقة ببعضها، ولكي لا يتعرض الجهاز التنفسي للخطر بسبب التوتر السطحي والخاصية الشعرية، يفرز إلى داخلي مادة سائلة تحتوي على مواد سطحية. ولو لم تكن هذه المادة السائلة لالتصقت الأغشية الرقيقة ببعضها ولفشلت عملية الانتشار.

القصبة الهوائية

إن الهواء الداخل إلى جوفي مثل الطرق الثانوية المتفرعة عن الطريق السريع، فهي تضيق وتتفرع وتنتهي بحجيرات مغلقة -تسمى الحويصلات- فتكوّن بذلك شبكة. وإن الهواء الداخل من الفم والأنف يلتقي في الطريق السريع المسمى القصبة الهوائية، حيث يبلغ طول القصبة الهوائية في الشخص العادي حوالي ١٥ سم. وأودّ ها هنا أن أقول لك شيئاً مهماً بخصوص عمل خاطئ تقوم به في كثير من الأحيان، وكان الأولى أن يتكلم عنه العضو الذي تسمونه الأنف. إلا أني سأتطرق للموضوع بشكل طفيف لعلاقته بي.

إنك يا عبد الله كثيراً ما تخطئ في طريقة التنفس، إذ عليك أن تستنشق الهواء من الأنف وتطرحه من الفم، عندها سيسخن الهواء الوارد من أنفك مباشرة ويترطب، ومن ثم ستتخلص من ذرات الغبار فيه. إذا فعلتَ هذا فإنك لا تعرّضني للضيق ولا تصاب بالزكام أو بالتهابات الجهاز التنفسي العلوي. أما إذا استنشقتَ الهواء البارد والجاف من فمك، فإن ذرات الغبار والجراثيم ستدخل جوفي وستسبب الحساسية، بل قد يصل الأمر إلى الالتهاب الرئوي.

كان أبوك وأمك حين كنت صغيراً يحافظان على بقاء مجرى تنفس أنفك سالكاً، فيقطران فيه المصْل الفيزيولوجي لئلا ينسد. وأعتقد الآن أنك عرفتَ سبب سهولة مرض الأطفال الذين ينامون وفمهم مفتوح بسبب وجود الزوائد اللحمية في أنفهم.

عمّ كنا نتحدث وكيف خضنا هذه المواضيع؟ نعم.. نعم تذكرتُ، كنت أتحدث عن طرق الهواء الوارد إليّ.

الإنذار المبكر

إن أطراف القصبة الهوائية التي تُوصِل الهواء إلي -كما هو الحال تماماً في المِدخنة- تتكوّن من ١٦-٢٠ حلقة غضروفية على شكل أنبوب أسطواني. ولئلا تظهر مشكلة بسبب وجود البلعوم والقصبة الهوائية جنباً إلى جنب، فإن آخر حلقة من الحلقات الغضروفية المبنية على بعضها البعض، أكملت بحلقة نسيجية مرنة بدل الغضروف القاسي. ومن ثم فإن غضاريف القصبة الهوائية لن تعيق ابتلاع اللقيمات أثناء الطعام، إذ توجد فوق وبجوار الحلقات الغضروفية ألياف عضلية، حيث توسع أثناء شهيقي القصبات الهوائية بتمدد الحلقات الغضروفية وتضيّقها.

مرت عليك أوقاتٌ نبّهتك فيها عن طريق السعال. ربما أزعجتك بذلك، ولكن لو أنني لم أضيق قُطر القصبة الهوائية وأقلص أحزمتي العضلية حتى تصل إلى ما تحت السدُس، و لم أتسرع بالتنفس من خلال القصبة الهوائية الضيقة هذه، لما استطعت لا أستطيع طرح بعض الأجسام الغريبة التي تدخل جوفي فجأة (كذرات الغبار وبعض القطع الصغيرة)، عندها ينسد جوفي ويؤدي ذلك إلى انعدام الهواء وبالتالي إلى موتك في آن واحد. ولهذا السبب فإن الانفجار السريع الذي تسمونه السعال، يعني التخلص من ذرات الغبار الضارة في داخلي. وقد وضع ربي ﷻ جهازاً صوتيا في الطرف الأمامي لقصبتي الهوائية العريضة جداً والتي تشبه الطريق السريع، وهو جهاز رائع مذهل! ولو قمتُ بالحديث عنه لما كفتني الصفحات. فالهواء الوارد إلي والهواء الفاسد الصادر عني، يحرك الحبال الصوتية عندما يمر من خلال هذا الصندوق الصوتي، ويصدر النغمات الجميلة والأناشيد الرائعة والأحاديث التي تبهج الحياة.

الشعبة الهوائية

إن الهواء الوارد من القصبة الهوائية ينقسم إلى فرعين هما الشعبتان الهوائيتان التوأمتان يمنى ويسرى. وفي الأصل لا نُعتبر توأماً، لأن التي تقيم في الطرف الأيمن تتكون من ثلاث قطع، أما التي تقيم في الطرف الأيسر فتتكون من قطعتين. وكأني أسمع سؤالك،

وما الحكمة من ذلك؟ أستطيع أن نقول لك: إن شقيقتي الشعبة اليسرى خلقت لتتيح مجالاً للقلب وليتخذ مكاناً أوسع ويعمل براحة أكثر، بالإضافة إلى أنه عندما يبدأ السرطان في أي قسم، فيمكن إزالة القسم المصاب فقط بعملية جراحية وبالتالي أستطيع أن أواصل حياتي. وربما هناك حكم كثيرة لا يعلمها إلا ربي سبحانه. وتنقسم الشعبتان الهوائيتان اللتان تدخلان إلى جوفنا إلى ٨-١٠ طرق فرعية دقيقة -كما هو الحال في الطرق السريعة- وكل واحدة من هذه تنقسم إلى فروع أكثر دقة بقطر واحد سم. إن نظام التفرع هذا يشبه منظر شجرة رأسها نحو الأسفل. أما في نهاية هذه الفروع الدقيقة فتوجد شعيبات النظام التنفسي التي تشبه عنقود العنب.

الشعيرات الدموية

وإن آخر نقطة في الطريق هي الكريات التي تشبه الحبات التي تكوّن العناقيد، إذ هي الأجزاء الحياتية الأساسية. كما أن هذه الكريات الصغيرة التي تسمى الحويصلات صنعت من أغشية رقيقة جداً أحيطت بشبكة الشعيرات الدموية. قسمي الوظيفي الأساسي الذي يتم فيه تبادل الغازات موجود هنا. وإن شبكة الشعيرات الدموية التي تلف الحويصلات الرئوية، هي أقسام متفرعة عن شرياني الحامل الدم الفاسد والقادم من القلب (فقير الأوكسجين) وشرياني الذي يجمع الدم النظيف مني (غني الأوكسجين) ويوصله إلى القلب.

توجد طبقتان غشائيتان رقيقتان تحيطان بي وتحميانني؛ إحدى هاتين الطبقتين ملتصقة بي تماماً، والأخرى ملتصقة بالأضلاع الصدرية، وبينهما في الكيس الفراغي مادة سائلة لزجة رقيقة جداً. وأثناء انتفاخي وانكماشي تمنع هذه المادة السائلة اللزجة احتمال كشطي عند احتكاكي بفراغ جدران القفص الصدري. ولولا هذه المادة السائلة لكشط سطحي وانفتح فيَّ ثقب بعد مدة قصيرة جداً. ينبغي على فراغ القفص الصدري أن يتوسع ليفسح لي مجالاً أثناء انتفاخي عند التنفس. فلو لم أجد مكاناً أتسع فيه لما استطعتُ التنفس، ولمتَّ أنت بسرعة. فالشكر للخالق ﷻ الذي صنع قفصاً من الأضلاع لحمايتي، والذي صنع مفاصل مرنة جزئياً تلتوي على الأضلاع، وبالتالي يتوسع فراغ القفص جزئياً ويفسح لي مكاناً. إضافة إلى أن الحجاب الحاجز العضلي الذي يفصلني عن المعدة والأمعاء، يقلل انحناءه ويضغط على الأعضاء الموجودة في البطن نحو الأسفل، مما ينفخ جدار البطن نحو الخارج ويفسح لي مكاناً لأنزل فيه. وبفضل حركة الأضلاع والحجاب الحاجز أتوسع في المكان الذي فسح لي من خلال انتفاخي بملء جوفي بالهواء. إن وجودي معلق في الفراغ الصدري ويتحقق من خلال القصبة الهوائية التابعة لي والشرايين والأوردة.

إن احتمال إصابتي بالأمراض عال جداً نظراً لارتباطي بالعالم الخارجي. ويأتي السعال على رأس القائمة التي أرسل فيها إشارة تحذيرية لإصابتي بالمرض. فأحياناً أُخرج بلغماً مختلطاً بالدم، إضافة إلى أنني أجد صعوبة في التنفس، وأُشعرك بألم في صدرك. عندما ترى هذه الإشارات التحذيرية، ينبغي عليك أن تكون يقظاً جداً، لأن البكتريات والجراثيم إذا ثبتت أقدامها في داخلي، فإنها تتكاثر في الحويصلات الهوائية وتتصلب وتسبب التهابات.

إنني حساسة جداً تجاه الإضرابات التحسسية، فعندما تتلامس جدران العضلات المستوية المتوضعة على جدار الشعبة الهوائية بالمواد الغريبة كغبار الطلع فإنها تتقلص بتأثير إفرازات الهيستامين. إضافة إلى أن الأمراض التحسسية التي تصيب العروق الدموية، تؤثر عليّ جداً لكوني عضواً من أكثر الأعضاء الحاملة للدم. كما تظهر حالة القوة التنفسية عند تقلص عضلات الشعبة الرئوية وعدم إخراج الإفرازات المخاطية التي أفرزها ضد الحساسية، وإنكم تسمونها بمرض الربو. فعندما يمتلئ داخلي بهذه الإفرازات المخاطية التي أُصدرها لحماية نفسي ولا أستطيع إخراجها، أعاني صعوبة في التنفس.

وبمعزل عن هذا، فإنني كثيراً ما أصاب بالأمراض الحادة المزمنة والتهاب الشعب الهوائية وانتفاخ الرئة، حتى إن عصبيتك وانفعالك يؤثر عليّ، إذ أعاني صعوبة في التنفس مباشرة.

لا تؤاخذني يا عبد الله! فمساحتي ضيقة جداً، إذ لا يمكن أن أختصر الحديث عن عمل فني مذهل مثلي في أربع صفحات أو خمس. ولهذا أحيل الباقي إليك، ففي فهمك كفاية. لكن يا قرة عيني، ابتعد عن أماكن التدخين والغازات السامة وأدخنة السيارات. استنشق الهواء بعمق في الأماكن النظيفة وأرسل إليّ أوكسيجيناً كثيفاً، ثم فكر بتمعّن في كل شهقة بصوت "هو" الذي أُصدره وأذكر به خالقنا، وتذكر أنني يمكن أن أتوقف في أي لحظة، فاشكر ربنا العظيم الذي لا نهاية لقدرته. ■

(*) جامعة ٩ أيلول / تركيا. الترجمة عن التركية: محمد ماهر قفص.

محاور أساسية في فهم القرآن



أ.د. علي جمعة*

هناك أساس مهم من أسس تفسير القرآن وهو "أن القرآن يبين بعضه بعضا". ولذا فأول ما ينبغي أن يعتني به المفسر هو أن يجمع المتشابهات ويقرن بعضها ببعض. فرب معنى أجمله القرآن في موضع وفصله في موضع آخر، أو أطلق في موضع وقيد في موضع آخر. ثم إن القرآن ربما تعرض للمعنى الواحد في غير موضع لحكم عالية اقتضت تخصيص كل موضع بالقدر الذي أورد فيه. فإذا ما جمع المفسر كل مواضع وروده تجلى له الهيكل العام الذي أراده القرآن في تلك القضية.

القرآن كله كالسورة الواحدة

وقد علّم رسول الله ﷺ أصحابه ذلك المنهج في فهم القرآن في عدة مواقف. فعن عبد الله بن مسعود ﷺ قال: لما نزلت ﴿الَّذِينَ آمَنُوا وَلَمْ يَلْبِسُوا إِيمَانَهُمْ بِظُلْمٍ﴾(الأنعام:٨٢)، شق ذلك على الناس، قالوا يا رسول الله، وأينا لم يظلم نفسه؟! فقال: "إنه ليس الذي تعنون، ألم تسمعوا قول العبد الصالح: ﴿يَا بُنَيَّ لاَ تُشْرِكْ بِاللهِ إِنَّ الشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ﴾(لقمان:١٣) إنما هو الشرك" (رواه البخاري).

فقد أطلق لفظ الظلم في موضع فشاع في المعنى المعهود في الظلم في عرف الخطاب، بينما هو مفسر في موضع آخر بالشرك. والذي يجعل الموضع الآخر متعينا للبيان هو الفهم العالي لقواعد الشريعة وكلياتها، ومنهجها في تحديد أسباب النجاة وأسباب الهلاك، مما يعين على إلحاق الآيات بعضها ببعض.

وما زال هذا المعنى بهم حتى صرحوا بأن القرآن كله كالسورة الواحدة يحمل بعضه على بعض، قال الإمام الرازي في التفسير الكبير: "لأن القرآن كله كالسورة الواحدة، وكالآية الواحدة يصدق بعضها بعضا، ويبين بعضها

معنى بعض، ألا ترى أن الآيات الدالة على الوعيد مطلقة، ثم إنها متعلقة بآيات التوبة وبآيات العفو".

وللعلامة الطاهر بن عاشور تحرير جيد في هذا المعنى يمثل ضابطا مهما يجب تأمله في قضية حمل بعض القرآن على بعض، حيث قال في التحرير والتنوير: "وهذا كلام لا يحسن إطلاقه، لأن القرآن قد يحمل بعض آياته على بعض، وقد يستقل بعضها عن بعض، إذ ليس يتعين أن يكون المعنى المقصود في بعض الآيات مقصودا في جميع نظائرها، بله ما يقارب غرضها".

وقد ألف ابن الجوزي كتاباً فيما أجمل في القرآن في موضع وفسر في موضع آخر منه، ونبه ابن تيمية على هذا المعنى في أصول التفسير، وكذا ابن كثير في أوائل تفسيره، وكلامه مأخوذ من كلام ابن تيمية، ثم السيوطي في الإتقان وغيرهم كثير.

وهو قريب مما عرف عند المتأخرين بالتفسير الموضوعي للقرآن الكريم وقد كتب فيه كثيرون.

السنة النبوية أول بيان للقرآن الكريم

وأساس آخر مهم من أسس التفسير وهو "أن السنة النبوية ثاني الوحيين، وأنها نابعة من القرآن وموضحة لمعانيه". فهي أول بيان للقرآن الكريم، وهو بيان يمتاز بالعصمة. فإنه أول كاشف دقيق منضبط ومحفوظ يكشف عن معاني القرآن، ولأنه معصوم وحجة فإنه مكمل للهدى القرآني، بحيث يتكون منهما معا توجه الشرع الشريف في كل مسألة أو قضية، بل قال الإمام السيوطي رحمه الله في "الإتقان": "وقال الإمام الشافعي ﷺ: جميع ما تقوله الأمة شرح للسنة، وجميع السنة شرح للقرآن"، وقال أيضا: جميع ما حكم به النبي ﷺ فهو مما فهمه من القرآن. قلت: ويؤيد هذا قوله ﷺ: "إني لا أحل إلا ما أحل الله، ولا أحرم إلا ما حرم الله في كتابه" (أخرجه بهذا اللفظ الشافي في الأم).

قال الشيخ طاهر الجزائري في "توجيه النظر إلى أصول الأثر": "قال بعض علماء الأصول: ما قال النبي ﷺ من شيء فهو في القرآن أو فيه أصله قرب أو بعد، فهمه من فهمه، وعَمِهَ عنه من عمه، وكذا كل ما حكم به، أو قضى به، وإنما يدرك الطالب من ذلك بقدر اجتهاده وبذل وسعه ومقدار فهمه، وقال سعيد بن جبير: ما بلغني حديث عن رسول الله ﷺ على وجهه إلا وجدت مصداقه في كتاب الله".

وقد أدى ذلك كما هو معلوم إلى أن أنشأ المسلمون منظومات كاملة من العلوم الخادمة للبيان النبوي. فنشأت علوم الحديث وعلوم الجرح والتعديل، وأثمرت ذلك النتاج العلمي الفائق الذي لم تعرف أمة من الأمم له مثيلا. وقد نشط الحفاظ لإفراد المؤلفات لما يتعلق بالبيان النبوي القرآني فنشأ ما يعرف بالتفسير بالمأثور، وجمع فيه الحافظ السيوطي جمهرته الضخمة "الدر المنثور، في التفسير بالمأثور" فاستوعب فيها من مصادر واسعة جدا كل حديث أو أثر له وجه تعلق بآية من كتاب الله.

ومن المتأخرين جمع العلامة المحدث السيد عبد الله بن الصديق الغماري كتابا في التفسير بالأحاديث المرفوعة وصل فيه إلى سورة هود.

ولذا فعلى المفسر أن يطلع على ما ورد في كل آية من الأحاديث والآثار، فما كان منها مرفوعا إلى النبي ﷺ حقيقة أو حكما فقد وجب الوقوف عنده واعتباره، وما سوى ذلك فليتأمل. فإن كل واحد من المفسرين كان يحمل معنى الآية على جملة المعارف والعلوم التي انتهى إليه عصره، وأحاط به زمانه، ثم القرآن أكبر من ذلك، وهو مجرد عن الزمان والمكان لا يتقيد بهما ولا بأحوالهما.

علم أصول الفقه

وأساس آخر مهم من أساس التفسير هو "علم أصول الفقه اشتمل على ضوابط فهم النص وتحليله". ولذا فقد وجب على المفسر وذلك لأن أعظم مقاصد المفسر أن يلم بالأدوات والآليات التي يتمكن بها من تحليل التركيب وتفكيك النص وفهمه.

وخدمة النص تحليلا وتفكيكا وإحاطة بأجزائه وكلياته، وسبرا لدلالة ألفاظه وتراكيبه، وتوصلا إلى أغراضه ومقاصده، وتقنينا لأساليب ومسالك الاستنباط منه، هدف يسعى إليه المفسر ويسعى إليه الأصولي على حد سواء.



وقد عني الأصوليون بهذه القضايا وحرروها ودققوا فيها تدقيقا زائدا، ولخصوا كل المقدمات التي يتوقف عليها تحقيق أغراضهم تلك من العلوم الأخرى مع استقراء زائد يليق بمقصودهم حتى استوى علم الأصول ونضجت فيه تلك البحوث، وبلغت حدا متقدما جدا من التحرير والانضباط. حتى إنهم لخصوا بحوثاً من علوم اللغة، ومن علم النحو، ومن علوم البلاغة وغيرها وجعلوها أبوابا في علم الأصول.

فلا يليق لأحد أن يُقْدِم على تفسير كتاب الله تعالى من دون نظر سابق، وتمرس فائق بعلم الأصول. قال العلامة الطاهر بن عاشور في "التحرير والتنوير": "وأما أصول الفقه فلم يكونوا يعدونه من مادة التفسير، ولكنهم يذكرون أحكام الأوامر والنواهي والعموم، وهي من أصول الفقه، فتحصل أن بعضه يكون مادة للتفسير، وذلك من جهتين؛ إحداهما: أن علم الأصول قد أودعت فيه مسائل كثيرة هي من طرق استعمال كلام العرب، وفهم موارد اللغة، أهمل التنبيهَ عليها علماءُ العربية، مثل مسائل الفحوى ومفهوم المخالفة. وقد عد الغزالي علم الأصول من جملة العلوم التي تتعلق بالقرآن وبأحكامه، فلا جرم أن يكون مادة للتفسير. أما الجهة الثانية؛ فهو أن علم الأصول يضبط قواعد الاستنباط ويفصح عنها، فهو آلة للمفسر في استنباط المعاني الشرعية من آياتها".

وربما كان الأمر أكبر من ذلك، حيث يستفيد الناظر في فن الأصول نسقا كليا للتفكير يرث من خلاله أصولا كبرى للنظر، ويلتفت ذهنه إلى قضية القطعية والظنية وأثرها في الفهم، وإلى أبواب التعارض والترجيح وكيف يسلك فيها، وإلى الاستدلال وكيفية استخراج جهة الدلالة من النصوص إلى غير ذلك من أساليب الفهم. ولا تخفى أهمية ذلك لمن يتصدى للإبانة عن معاني كلام الحق جل شأنه.

اتساع مدلولات التركيب

وأساس آخر لا يقل أهمية عما سبقه وهو "اتساع مدلولات التراكيب بحسب اتساع الأسقف المعرفية، والتراكيب الحضارية". فقد قال علماء الأصول: "الاستعمال من صفة المتكلم، والحمل من صفة المخاطب، والوضع قبلهما". والمقصود أن حمل الكلام على معانيه وتأويله على أوضاعه اللغوية من صفات المتلقي أو المستمع. والمقصود أيضاً أن المستمع هو الذي يتلقى الكلام فيقوم بمهمة تحليله واستخراج مضامينه والتغلغل فيه للوصول إلى المقاصد التي حملها المتكلم عليه. وكل ذلك محكوم بالوضع اللغوي الضابط لعملية استعمال الكلام. والذي يؤمّن إيجاد مشترك بين المتكلم والسامع، يتم من خلاله تبادل المعاني، ذلك التبادل الذي على أساسه نهض المجتمع البشري وتراكمت المعارف وسرت بين البشر فنمت الحضارة.

وهذه العملية التي يحكمها الوضع متوقفة عند تنزيل كل لفظ على معناه أو معانيه التي ركب بإزائها منذ أن تم الوضع اللغوي واستقر، بحيث لم يعد من الممكن التلاعب بتلك الدلالة أو تغييرها، إلا بمقدار مأمون ومنضبط من تحريك دلالة اللفظ بحيث ينتقل الذهن من المعنى الأصلي الذي وضع له اللفظ إلى لازم له، أو جزء من مدلوله أو ما أشبه.

وهذا يعني أن لكل مستمع حظا من فهم التركيب، بحيث كلما اتسعت معرفته وازدادت خلفياته وامتد تصوره إلى معان أوسع، رأى أن التركيب يحتملها ويومئ إليها. ولا يكاد أن يقع هذا في كل البشر إلا نادرا لاستواء البشر في المعارف أو تقاربهم فيها. وهم في ذلك محكومون بمعطيات زمانهم، بحيث لا يخطر لأحدهم ما سوف يكشفه الزمن من الأمور بعد زمنه، ليضمن كلامه إشارة إليه. فإن وُجد بشري نابه، أو عبقريٌ فذ وعَرَف بطريق ما شيئا من الأمور المستقبلة وأشار في كلامه إليه، ثم جاءت الأحداث موافقة له اعتبر الناس هذا ظاهرة خارقة تستحق الدراسة كما وقع مثلا حول "تنبؤات نوستراداموس"، وشأنها معروف.

فكيف بالعلم الإلهي الشامل المحيط الذي لا تخفى عليه خافية، وهو سبحانه الذي قدر لكل زمن ما يقع فيه من أحداث ويستجد

فيه من علوم ومعارف، فإنه سبحانه ضمّن كلامه إشارة إلى ذلك كله، بحيث كلما استجد شيء لاحت دلالة النص إليه. فالقرآن الكريم نصٌّ جاءت ألفاظه وتراكيبه من عند الله بحيث لا تتناقض مدلولاته مع أي سقف معرفي يأتي به زمن، وليس ذلك في طوق بشر، بل كلما تدخلت الأهواء البشرية في الكتب السماوية، فإنها بتصوراتها القاصرة التي لا تحيط بمستجدات الأمور في الأزمان المقبلة تقيد طلاقة النص وإطلاقه، وتجعل أحدث الأزمان تناقضه وتصطدم به. ولذا صان الله القرآن وحَفِظه، ولذا اصطدمت نصوص الكتب السماوية المحرفة بالواقع حتى أحدثت مشكلة العلم والدين في أوروبا. وقد تناول هذا المعنى "موريس بوكاي" في كتابه "القرآن والتوراة والإنجيل في ضوء العلم الحديث".

والمقصود أن البشر كلما ارتفعت معارفهم واستحدثت عندهم علوم ومعطيات، وجدوا أن النص القرآني متسق مع تلك المعطيات، بينما يسقط كلام أي بشري عن مواكبة الزمن، لقصور تصور قائله وعدم إحاطته عند صياغة كلامه، وكلما كان قارئ القرآن أوسع إحاطة بالعلوم والأفكار والمناهج المختلفة، اتسعت دلالة القرآن في نظره على نحو معجز. ولذا يظل القرآن متجددا عبر العصور لا تنتهي عجائبه ولا ينضب معينه، بل يزداد ثراء كلما ارتقى البشر في سلم الحضارة والمعرفة. قال الطاهر بن عاشور في التحرير والتنوير: "وأما النوع الثاني من إعجازه العلمي فهو ينقسم إلى قسمين، قسم يكفي لإدراكه فهمه وسمعه، وقسم يحتاج إدراك وجه إعجازه إلى العلم بقواعد العلوم، فينبلج للناس شيئا فشيئا انبلاج أضواء الفجر، على حسب مبالغ الفهوم وتطورات العلوم".

مسالك القرآن في التأثير على النفس

وأساس مهم من أسس التفسير وهو "مسالك القرآن في التأثير على النفس وأثر ذلك في فهم النص القرآني وتحليله، ووجوب تحصيل آليات ذلك". وهو أصل إن غاب عن الناس كلهم فينبغي ألا يغيب عن المفسر. وهو الذي ينقب عن مقاصد القرآن ومراميه، ومدلولات الإيحاءات والمؤثرات التي يستجلبها القرآن ويوظفها في إثارة النفوس وتحريكها، وحملها على النهوض والنشاط والمسارعة إلى ما يريد أو الحساسية والتوجس والفرق مما لا يريد.

وليعلم أن هذا الأصل متوقف على محورين؛ الأول: علوم البلاغة، وهي المعنية بأسرار التركيب اللغوي، والمعاني الكامنة وراء كل تحوير وتغيير في التراكيب، وما يترتب على كل احتمال منها من المعاني المستفادة. الثاني: هو علم النفس، لأنه هو المعني بالبحث في طبيعة النفس البشرية وكيفية صدور الأفعال منها وكيفية استجابتها للمؤثرات المختلفة.

والقرآن الكريم جاء بتصور كامل للنفس البشرية وطبيعتها وأطوارها، وقد سار في تطبيقاته العملية وفي سرده لمقاصده وفي نسجه لكلماته وآياته وفق منهج رباني راق في التعامل مع النفس والتأثير فيها، بحيث إن المفسر إن ألمّ بأطراف من ذلك واتسعت معرفته بهذه المعاني صار يرى وراء كل كلمة وكل تعبير وكل تركيب قرآني تأثيرا نفسيا مقصودا.

قال الإمام الخطابي في "بيان إعجاز القرآن": "في إعجاز القرآن وجه آخر ذهب عنه الناس، فلا يكاد يعرفه إلا شاذ من آحادهم، وذلك صنيعه بالقلوب، وتأثيره في النفوس، فإنك لا تسمع كلاما غير القرآن منظوما ولا منثورا إذا قرع السمع خلص له إلى القلب من اللذة والحلاوة في حال ومن الروعة والمهابة في أخرى ما يخلص منه إليه، تستبشر به النفوس، وتنشرح له الصدور، حتى إذا أخذت حظها منه، عادت مرتاعة قد عراها الوجيب والقلق، وتغشاها الخوف والفرق، تقشعر منه الجلود، وتفزع له القلوب، يحول بين النفس ومضمراتها وعقائدها الراسخة".

قصص الأنبياء مناقشة لأصول المناهج الفكرية

وأساس آخر مهم من أسس تفسير القرآن الكريم وهو أن "قصص الأنبياء مناقشة لأصول المناهج الفكرية التي يدور حولها الفكر الإنساني عبر الزمان". فقد جاءت قصص الأنبياء لمقاصد ربانية متعددة، منها تثبيت فؤاد النبي ﷺ ومن ثم تثبيت أفئدة ورثته وحملة مواريث النبوة وأنوار الهداية من بعده، إلى الخلق من العلماء الهداة والدعاة إلى الله على بصيرة بحق، قال تعالى: ﴿وَكُلًّا نَّقُصُّ عَلَيْكَ مِنْ أَنبَاءِ الرُّسُلِ مَا نُثَبِّتُ بِهِ فُؤَادَكَ﴾(هود:١٢٠).

ومنها أنها موضع نظر وتأمل لأصحاب الفكر، وأهل العقول المستنيرة بحق يقول ﷻ: ﴿لَقَدْ كَانَ فِي قَصَصِهِمْ عِبْرَةٌ لِأُولِي الْأَلْبَابِ﴾(يوسف:١١١). فقوله "عبرة" معناه أن قصص الأنبياء محل نظر واسع، بحيث تستخرج منها فوائد كبرى، وقد توسع العلامة الطاهر بن عاشور -رحمه الله- في المقدمة السابعة من مقدمات "التحرير والتنوير"، في ذكر فوائد قصص الأنبياء، فذكر عشر فوائد مع إفادات جزلة حول قصص الأنبياء وكيفية توظيف القرآن لها.

وقد تأملت قصص الأنبياء في القرآن فلاح لي فيها معنى كلي جليل يجعل فائدتها أوسع وأكبر من أن تكون سردا لأحداث من

تاريخ الأنبياء الكرام، رغم ما في ذلك من الأهمية والجلالة.

وبيان ذلك: أن كل واحدة من قصص الأنبياء تناقش منهجا من مناهج الانحراف، وتتعرض بالتحليل والرد والتقويم لفلسفة من الفلسفات، وتبحث قضية كبرى من قضايا الفكر الإنساني، بحيث تشتمل قصصُ الأنبياء على مناقشة لأصول المناهج الفكرية المنحرفة والمتكررة عبر التاريخ الإنساني بأكمله، حيث إن البشرية في تاريخها الطويل عرفت فكرة مشابهة لفكرة العلمانية مثلا، ففكرة العلمانية وفصل الدين عن مجالات الحياة ليست حديثة أو وليدة عصور النهضة الأوروبية، بل هي منهج فكري بشري قديم برز عند قوم شعيب عليه السلام. فقد حكى القرآن عنهم: ﴿قَالُوا يَا شُعَيْبُ أَصَلاتُكَ تَأْمُرُكَ أَنْ نَتْرُكَ مَا يَعْبُدُ آبَاؤُنَا أَوْ أَنْ نَفْعَلَ فِي أَمْوَالِنَا مَا نَشَاءُ إِنَّكَ لَأَنْتَ الْحَلِيمُ الرَّشِيدُ﴾(هود:٨٧).

فهم يتعجبون من وجود علاقة بين الصلاة وبين إدارة الأموال، وأوجهِ التعامل معها. فقد جاء قوم شعيب فوق الكفر ببلية أخرى، وهي أنهم لا يرون رابطا بين التقوى والصلاة والصلاح وبين الشؤون المالية، وكأنهم يقولون: لا علاقة بين الدين وبين الاقتصاد.

وعليه فإن قصة شعيب أرقى منهج نبوي قرآني ناقش قضية العلمانية، وأبرزُ المحاور المهمة التي تفكك تلك الفكرة، وتبين فسادها وضررها، وتأتي بالبديل الرباني والتوجيه الإلهي في هذا الصدد. وبهذا يتسع لنا مجال آخر في فهم أسباب اختيار الحق سبحانه لقصص معينة من قصص الأنبياء، حيث قال: ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلاً مِنْ قَبْلِكَ مِنْهُمْ مَنْ قَصَصْنَا عَلَيْكَ وَمِنْهُمْ مَنْ لَمْ نَقْصُصْ عَلَيْكَ﴾(غافر:٧٨). وكأن القصص المنتقاة التي أوردها القرآن تناقش رؤوس القضايا الإنسانية والنظريات الفلسفية.

ويترتب على هذا أن يُقبل المفسر على قضية شعيب عليه السلام وأن يجمع كل مواضع ورودها في القرن ثم يتأمل المعالجة الإلهية لقضية العلمانية. وكيف علّم الله تعالى شعيباً عليه السلام المداخل الدقيقة لمناقشة تلك القضية، وما هي المرتكزات التي رشحها القرآن وأبرزها في مناقشة تلك القضية، وذلك بعد أن يقرأ العلمانية وتطوراتها ودرجاتها قراءة دقيقة على غرار ما كتبه الدكتور عبد الوهاب المسيري في كتابه "العلمانية الجزئية، والعلمانية الشاملة"، بحيث يعرف ما ينبغي أن يبحث له من رد وجواب في القرآن.

وبهذا تضيف قصصُ الأنبياء فوائدَ زائدة على العظة والعبرة والتثبيت والتأسي، ويتسع مجالُ النظر فيها وتنفتح لنا دراسات قرآنية جديدة في بحث أساليب القرآن في مناقشة التيارات والمناهج والفلسفات الحديثة، ويتبين أن كل قصة من قصص الأنبياء تمثل مناقشة لفلسفة أو منهج فكري مما يتكرر عبر التاريخ.

محاور السور وأثرها في فهم القرآن

وأساس من أسس التفسير الآخر وهو: "محاور سور القرآن، وأثرها في فهم النصوص القرآنية". ومعناه أن لكل سورة من سور القرآن الكريم محورا محددا تنبني عليه السورة، وتدور حوله وتؤكده بصور ونماذج تفصيلية متعددة، وتجند لأجل خدمته وإبرازه أمثالا وقصصا ومقاطع قرآنية، مطولة أحيانا ومقتضبة حازمة خاطفة في أحيان أخرى بحيث تشتمل تلك المقاطع على أوامر تشريعية ونظم أخلاقية ومناقشة لمناهج فكرية مختلفة وما أشبه مما يشكل مقاصد جزئية، تتعاضد وتأتلف وتتشابك وتتداخل من أجل ترسيخ وتوكيد معنى ذلك المحور الرئيسي الذي تدور السورة حوله.

فمحور سورة البقرة مثلاً في قوله سبحانه: ﴿إِذْ قَالَ لَهُ رَبُّهُ أَسْلِمْ قَالَ أَسْلَمْتُ لِرَبِّ الْعَالَمِينَ﴾(البقرة:١٣١). إذ تدور سورة البقرة حول قضية الإسلام لله، وكيف أنها المدخل الأعظم لتحقيق قضية العبودية والإعانة التي جاءت بها سورة الفاتحة: ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾(الفاتحة:٥)، وأن الأمر فيها ينهض على أساس راسخ من التسليم المطلق لله بالعظمة والربوبية واستحقاق العبادة وأنه وحده الحاكم، وأن التشريع والأمر والنهي له وحده.. حتى إذا ما ثبتت قضية التسليم واستقرت في العقل، وانعقد عليها الجنان أمكن نقل هذا المكلف إلى قضية الاصطفاء وهي محور سورة آل عمران، إذ تدور السورة كلها حول آيتين محوريتين وهما قوله سبحانه: ﴿إِنَّ اللهَ اصْطَفَى آدَمَ وَنُوحًا وَآلَ إِبْرَاهِيمَ وَآلَ عِمْرَانَ عَلَى الْعَالَمِينَ ۞ ذُرِّيَّةً بَعْضُهَا مِنْ بَعْضٍ وَاللهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾(آل عمران:٣٣-٣٤).

وهكذا وكأن سور القرآن تعالج قضية كبرى، ابتداء بقضية العبودية في سورة الفاتحة وقضية الإسلام في سورة البقرة وقضية الاصطفاء في سورة آل عمران وانتهاء بقضية الالتجاء إلى الله والاحتماء به في سورة الناس.

أساس أخير ومهم من أسس التفسير نختم به حديثنا عن أسس التفسير، وهذا لا يعني أن هذه الأسس محصورة وإنما بالتأمل والاستقراء يمكن أن نستخرج أسسا أخرى ويمكن أن نعد هذه الأسس نماذج من الأسس المستخرجة من القرآن الكريم لتفسيره.

الاشتقاق الأكبر وأثره في فهم النص

فمن أسس التفسير "الاشتقاق الأكبر وأثره في فهم النص". فالاشتقاق علم من أعظم علوم اللغة على الإطلاق، وأشدها تأثيرا في فهم دلالة التراكيب. وهو علم دال على ثراء العربية

وسعة بحور اللغة. والأصل فيه إدراك المعاني، ثم ملاحظة سريان المعنى في كل الصور اللفظية المتناسلة الدالة عليه، والتي انتزع بعضها من بعض، أو عكس ذلك؛ بأن تجمع الألفاظ المتشابهة على نحو معين بغية الوصول إلى المعنى الذي تدور حوله، إضافة إلى أنه تستخرج به من اللفظ الواحد صور بالغة الكثرة في تعبيرها عن الأحوال والهيئات والاحتمالات والفوارق الدقيقة التي تطرأ على المعنى الواحد باعتبار تنوع المشخصات واختلاف الأحوال، بحيث يستخرج لكل حال صورة من صور اللفظ.

ثم هو علم واسع دقيق فيه مؤلفات كثيرة، وإنما أردت هنا نوعا محددا من أنواع الاشتقاق، وهو نوع تنوعت أسماؤه عند العلماء، فسماه الفخر الرازي في "مفاتيح الغيب" "الاشتقاق الأكبر". وتبعه محمد راغب باشا في كتاب "السفينة" له، وتبعهما صديق حسن خان في "العَلَم الخفاق من علم الاشتقاق" وغيرهم...

وهؤلاء جميعا يتكلمون على نوع واحد اختلفت أسماؤه. قال الأستاذ عبد الله أمين في كتاب "الاشتقاق": "الاشتقاق الكبار وهو انتزاع كلمة من كلمة أخرى بتغيير في ترتيب بعض أحرفها، بتقديم بعضها على بعض مع تشابه بينهما في المعنى والاتفاق في الأحرف". ويسمى هذا الاشتقاق "قلبا لغويا" تمييزا له من القلب الصرفي الإعلالي وهو إبدال بعض أحرف العلة من بعض.

وقد أسميت هذا القلب اللغوي "القلب الاشتقاقي"، لأنه من مباحث علم الاشتقاق وأكثر ما يكون القلب الاشتقاقي في الكلمات الثلاثية، وبصيغتين في المادة الواحدة مثل: "جذبه، وجبذه" إذا شده إليه..

قال الإمام الفخر الرازي في "التفسير الكبير": "المسألة الأولى: اعلم أن أقصر الطرق في تعريف مدلولات الألفاظ هو طريقة الاشتقاق، ثم إن الاشتقاق صيغة الماضية والمستقبل والمصدر، ومثل اشتقاق اسم الفاعل واسم المفعول وغيرهما منه. وأما الاشتقاق الأكبر فهو أن الكلمة إذا كانت مركبة من الحروف كانت قابلة للانقلابات لا محالة، فنقول أول مراتب هذا التركيب أن تكون الكلمة مركبة من حرفين ومثل هذه الكلمة لا تقبل إلا نوعين من التقليب كقولنا "من" وقلبه "نم".

وبعد هذه المرتبة أن تكون الكلمة مركبة من ثلاثة أحرف، كقولنا "حمد"، وهذه الكلمة تقبل ستة أنواع من التقليبات، وذلك لأنه يمكن جعل كل واحد من تلك الحروف الثلاثة ابتداء لتلك الكلمة، وعلى كل واحد من التقديرات الثلاثة فإنه يمكن وقوع الحرفين الباقيين على وجهين، لكن ضرب الثلاثة في اثنين بستة، فهذه التقليبات الواقعة في الكلمات الثلاثية يمكن وقوعها على ستة أوجه.

ثم بعد هذه المرتبة أن تكون الكلمة رباعية كقولنا "عقرب، وثعلب" وهي تقبل أربعة وعشرين وجها من التقليبات. وذلك لأنه يمكن جعل كل واحد من تلك الحروف الأربعة ابتداء لتلك الكلمة، وعلى كل واحد من تلك التقديرات الأربعة فإنه يمكن وقوع الحروف الثلاثة الباقية على ستة أنواع من التقليبات وضرب أربعة في ستة أنواع من التقليبات، وضرب أربعة في ستة يفيد أربعة وعشرين وجها..".

وعليه يمكن للمفسر أن يتوسع في تحليل لفظ "الملك" والملائكة جنس شريف من الخلق. أورد القرآن بعض أوصافهم وسكت عن بعض اكتفاء بدلالة الصورة الاشتقاقية للفظ الملك. إذ الأصل في اللفظ الدلالة على القوة والبأس، فكان الأصل في الملك القوة، تلك القوة التي تشيع وتسري في كل سماته وأوصافه؛ فهم لا يأكلون ولا يشربون وهذه قوة، وهم لا ينامون وهذه قوة، وهم يسبحون الليل والنهار لا يفترون وهذه قوة. ومنهم خزنة جهنم وهم ملائكة غلاظ شداد وهذه قوة، ثم هم مع بأسهم وسطوتهم وقوتهم يجمعون إلى ذلك غاية الخضوع للحق، فهم يخافون ربهم من فوقهم ويفعلون ما يؤمرون وهم مع حملهم للعرش يسبحون بحمد ربهم ويستغفرون للذين آمنوا.

كل ذلك يلفت نظر المفسر إلى توظيف قضية الملائكة في ترسيخ معنى عظمة الحق سبحانه من حيث خضوع هذه الأكوان العظمة لجلاله، يلفت نظر المفسر إلى جلال وعظمية القضية التي عرضها الحق سبحانه في قوله تعالى: ﴿إِذْ تَقُولُ لِلْمُؤْمِنِينَ أَلَنْ يَكْفِيَكُمْ أَنْ يُمِدَّكُمْ رَبُّكُمْ بِثَلَاثَةِ آلَافٍ مِنَ الْمَلَائِكَةِ مُنْزَلِينَ ۞ بَلَى إِنْ تَصْبِرُوا وَتَتَّقُوا وَيَأْتُوكُمْ مِنْ فَوْرِهِمْ هَذَا يُمْدِدْكُمْ رَبُّكُمْ بِخَمْسَةِ آلَافٍ مِنَ الْمَلَائِكَةِ مُسَوِّمِينَ ۞ وَمَا جَعَلَهُ اللَّهُ إِلَّا بُشْرَى لَكُمْ وَلِتَطْمَئِنَّ قُلُوبُكُمْ بِهِ وَمَا النَّصْرُ إِلَّا مِنْ عِنْدِ اللَّهِ الْعَزِيزِ الْحَكِيمِ﴾(آل عمران: ١٢٤-١٢٦).

وإذا ألفنا النظر والتأمل في المفردات القرآنية بهذه الطريقة انفتحت لنا آفاق رحبة في الوقوف على التصورات الكاملة التي أراد القرآن لنا أن نعرفها ونحيط بها. وذلك لأن الألفاظ حينئذ سوف تنثر لنا مكنوناتها ويبوح كل لفظ بما يحمله معناه من أبعاد، ولا يخفى أن هذا في غاية الأهمية في فهم القرآن. ■

(*) مفتي الديار المصرية.

السوق

أ.د. حسن الأمراني*

نزلتُ إلى السوق كيما أمير ... فميرة أحبابنا فرض عين
فكانت كمعترك لا يلين ... فهذا بصدق، وهذا بمين
وذاك يقارب بين الخطا ... وذلك كالسهم في الخافقين
وآخر قد أتعبتْه السنون ... فأصبح يخطر ما بين بين
وكلهمُ أدرك المبتغى ... وعاد ليرتاح من بَعد أين
ولكنني دونهم مفلسٌ ... فما عدت إلا بخفي حنين
ولما سألت وسال الفؤاد ... بما أثقل النفس والمعصمين
تناهى نداء إلى مسمعي ... وأصبح كالجمر في الأصغرين:
لقد نمتَ حتى انبلاج الصباح ... وكحّل سهدُهم المقلتين
تقلّبهم كان في الساجدين ... وقد شغلتك أمورٌ مَضين
أما زلت في السوق تبغي الفلاح ... أتحسبه ذهبا أو لجين؟
لقد ربح البيع يا بن التراب ... إذا بعت ربّك ما باليدين
وقطّعت ليلك كالعاشقِين ... وذرّفت في جوفه دمعتين

(*) رئيس تحرير مجلة "المشكاة" / المغرب.

بنائية القرآن المجيد

دعامة من دعامات الختم



أ.د. أحمد عبادي*

يعتبر مفهوم المنهج (Méthode) من أنفس ما اهتدى إليه العقل البشري عبر قرون متتالية من الكدح والمكابدة في المجال المعرفي، وهو عبارة عن آليات متضافرة للكشف عن الحقائق المعرفية في مجالاتها المتعددة والمتنوعة، إذ ينصبغ المنهج دوما بصبغة المجال الذي يُعمَل فيه.

وقد أدى إعمال المنهج إلى بروز مفهوم أدق هو مفهوم المنهجية (Méthodologie)، وهي عبارة عن إطار مرجعي جامع لمجموعة آليات استنطاقية بحثية متواشجة ينتظمها ناظم موحد.

ولم يهتد العقل البشري إلى المنهجية في المجال الكوني إلا بعد أن اكتشف أن الظواهر الكونية موحدة عضويا، انطلاقا من إدراك بنائية الكون ووحدته العضوية. وقد تمت تعدية هذا المفهوم إلى المجالات الاجتماعية والإنسانية من لدن مجموعة من المدارس.

وفي مقابل بنائية الكون، التي أطلق اكتشافُها إمكانَ البحث المنهاجي وفجر كلَّ هذه العطاءات المعرفية والمادية التي نشهدها اليوم، فقد منّ الله سبحانه بأن أقر بين ظهرانينا القرآن ترتيلاً، والترتيل لغة من "الرتل وهو حسن تناسق الشيء. وثغر رَتَل ورتِل: حسن التنضيد مستوي النبات، ورتّل الكلامَ: أحسن تأليفه. والرتيلاء: جنس من الهوام" وهي العنكبوت التي تنضد بيتها بشكل شبكي بديع تتفاضى كل مكوناته. غير أننا نجد كثيرا من المفسرين -رغم اتفاق أقوال أئمة اللغة على أن الترتيل مأخوذ من النضد ومن الاتساق ومن التنسيق ومن الانتظام على استقامة- قد قصروه على الجانب الصوتي منه؛ فقالوا هو: "إرسال الكلمة من الفم بسهولة واستقامة". ولما كان الأمر في القرآن ينصرف بالأصل إلى تدبر المعاني وتفهمها، إذ هو كتاب هداية، فإن قَصْر المعنى على الجانب الصوتي من القرآن رغم الحشد الحاشد من الآثار، كآثار ابن عباس ومجاهد وقتادة، ومن كلام أئمة اللغة، كابن الأعرابي والجوهري وابن منظور وابن عباد وغيرهم مما ينص جميعه على حسن تفهم المعاني وتفهيمها، أقول: رغم كل تلك الآثار والأقوال فقد تم إهمال البعد البنائي/النَّضْدي الاتساقي الذي تتضمنه هذه الكلمة: الأمر الذي يعد تحكما بغير برهان، خصوصا إذا وجدنا في تعريفات بعض القراء كأبي البقاء الكفوي للترتيل، النصَّ الصريح على أنه للتدبر والاستنباط أيضا

وذلك في قوله: "وأما الترتيل، فإنه للتدبر والتفكر والاستنباط".

إن الوحدة العضوية في القرآن المجيد، والتي تشكل أحد أهم وجـــوه الإعجاز فيه، تفتح المجال أمام القراءة المنهاجية للآيات/ البصائر صُعُداً نحو مآلات معرفية لا حصر لها.

ولطالمـــا دندن علماؤنـــا كالإمام ابن حزم الأندلســـي (ت ٤٥٦هـــ)، والإمـــام عبد القاهر الجرجـــاني (ت ٤٧١هـــ)، والإمام أبي بكر بن العربي (ت ٥٤٣هـــ)، والإمام أبي إســـحاق الشاطبي (ت ٧٩٠هـــ) وغيرهم حول بنائية القرآن تحت عناوين مختلفة؛ فتارة سموها النظم، وتارة سموها الترتيب، وأخرى سموها الاتساق أو المعمارية أو البنائية مباشرة.

ومن أعظم وأجلى ما كتب حول بنائية القرآن تلك الورقات الوضيئة التي كتبها الدكتور محمـــد عبد الله دراز في كتابه القيم "النبأ العظيم"، وسوف نجتزئ منها بثلاث فقرات نرى فيها تعبيراً واضحا عن إدراكه العميق لهذه البنائية، محيلين على باقيها ليراجع في موضعه.

يقـــول رحمه الله: "فلـــو أنك نظرت إلى هـــذه النجوم عند تنـــزيلها... فرأيتها وقد أُعِدّ لكل نجم منها ســـاعة نزوله سياجٌ خاص يأوي إليه ســـابقا أو لاحقا، وحُدد له مكان معين داخل الســـياج متقدما أو متأخرا، إذن لرأيـــت من خلال هذا التوزيع الفوري أن هناك خطة تفصيلية شـــاملة قـــد رُسمت فيها مواقعُ النجوم كلها من قبل نزولها، بل من قبل أن تخلق أســـبابها، وأن هذه الخطة التي رسمت علـــى أدق الحدود والتفاصيل قد أبرمت بآكد العزم والتصميم.. فما من نجم وضع في سورة ما ثم جاوزها إلى غيرها، وما من نجم جعل في مكان ما من الســـورة آخراً ثم وجد عنه أبد الدهر مصرفا ومحولا...".

ويقول رحمه الله: "أقبل بنفسك على تدبر هذا النظم لتعرف بأي يـــد وضع بنيانه، وعلى أي عين صنع نظامه... ولســـوف تحسب أن الســـبع الطوال من سور القرآن قد نزلت كل واحدة منها دفعـــة، حتى يحدثك التاريخ أنها كلهـــا أو جلها قد نزلت نجومـــا، أو لتقولن إنها إن كانت بعـــد تنـــزيلها قد جمعت عن تفريق، فلقد كانت في تنـــزيلهـــا مفرقة عن جمع، كمثل بنيان كان قائما على قواعـــده، فلما أريد نقله بصورته إلى غير مكانه قدّرت أبعاده ورقمت لبناته، ثم فرق أنقاضا، فلم تلبث كل لبنة منه أن عرفت مكانها المرقوم، وإذا البنيان قد عاد مرصوصا يشد بعضه بعضا كهيئته أول مرة".

ثم قـــال رحمه الله: "ولماذا نقول إن هذه المعاني تنتســـق كما تنتســـق الحجرات في البنيان؟ لا، بل إنها لتلتحم فيها كما تلتحم الأعضاء في جســـم الإنســـان، فبين كل قطعـــة وجارتها رباط موضوعي من أنفســـهما، كما يلتقي العظمان عند المفصل، ومن فوقهما تمتد شبكة من الوشائج تحيط بها عن كثب، كما يشتبك العضوان بالشـــرايين والعروق والأعصاب... كما يأخذ الجسم قواما واحدا ويتعاون بجملته على أداء غرض واحد، مع اختلاف وظائفه العضوية".

أهمية بنائية القرآن المجيد في المجال المعرفي

إن القرآن المجيد في اتســـاق وحدته البنائية يحقق للبشرية وحدة معرفية تلملم شـــتات الإنسان المعرفيّ، وتوحد بين زوايا إدراكه، بما يشبه إكسابه جهاز تنسيق معرفي يُمَكِّنه من الخروج من التفرع الإدراكي ومرحلة الشركاء المتشاكسين، إلى صيرورته سلماً لله رب العالمين، فيطفق في السير ســـوياً على صراط مستقيم. وقد تنبهت د. منى أبو الفضل -رحمها الله- بلوذعية إلى هذه الحقيقة فقالت في معرض حديثها عن حيوية الخطاب القرآني:

"إن هذه الحيوية إنما ترجع في جانب منها إلى الإعجاز البياني في الأسلوب القرآني في الخطاب؛ والذي يجمع بين خطاب النفس الإنسانية في أبعادها الفطرية والوجدانية وخطاب العقل في أبعاده المنطقية والبرهانية. ومنـــاطُ الإعجاز هنا هو في تجاوزه للقوانين النفسية التي بمقتضاها نرى العقل والعاطفة لا يعملان إلا بالتبادل، وبنسب عكســـية نحو تضافر وائتلاف بينهما... والدلالة العملية لذلك في مجال بحثنا، هي أن الأصول المنهجية للتعامل مع مصادر التنظير الإســـلامي لابـــد أن تعتبر بهذا المعنى في أســـلوب البيان القرآني. فإذا كان هناك موضع للتمييز بين تنوع جوانب ومصادر السلوك الإنساني والسلوكيات في المجتمع، فإن علينا أن نتعامل مع الإنســـان في وحدته المتضمنة لأبعـــاده المتنوعة، وأن تنطلق مناهجنا في التعامل مع الظواهر الاجتماعية من تلك القاعدة التي توفّر لها أوسعَ قدر من التكامل الممكن وسعة الأفق.

والوجه الآخر لهذه الملاحظـــة أن علينا أن نتعامل بكثير من التحفـــظ مع المناهـــج المتداولة في مجـــال التخصص، ليس فقط للاعتبار الجوهري الذي يحكم منحاها جميعاً، والذي ينشـــأ عن المنطلقات الفلسفية المعرفية التي تقوم عليها، مما يتنافى مع الأصول المعرفية الإســـلامية، ولكن لأنها لا محالة واقعة بين مثالب الإفراط

والتفريط، على النحو الذي من شأنه أن ينعكس في كل من طبيعة ونتيجة الدراسات التي ترتكز إليها.

وأول ما نستفيده من التعامل مع أسلوب البيان القرآني، هو ضرورة اتساق الأصول المعرفية ومحتوى الرسالة مع الأصول المنهجية أو طرق الاقتراب والتناول لها. بل إننا نرى أنه من شأن تمايز الخطاب القرآني على هذا النحو الذي يؤلف فيه بين المتنافرات، أنْ أوجد نسقا إسلاميا خاصا في المعرفة، قوامه الوحدة والاتساق، وإمكاناتُ التأليف بين المتباينات، وهذا على خلاف النسق السائد في المجال المعرفي المعاصر، والذي هو وليد وميراث التطور التاريخي الخاص بالحضارة الأوروبية في أبعادها الفكرية والروحية والواقعية".

ولقد سُقت هذا النص بطوله و لم أشأ أن أثلمه بتصرف لما له من بالغ الأهمية في هذا الباب.

إن إدراك هذه الحقائق يضع على عاتق علماء الأمة مهمة تجلية مستأنفة لمعالم النسق المعرفي الإسلامي. ومن الواضح قيام هذا النسق على المنهاجية المؤسَّسة بدورها على إدراك البنائيتين في الكتابين: المنظور (الكون) والمسطور (القرآن المجيد). وفيما يلي بيان لعلاقة العلوم المتصلة بالكتابين بوحدتهما البنائية.

علاقة التسخير بالوحدة البنائية للكون

مفهوم التسخير: قال الزبيدي: "والتسخير: التذليل، وسفن سواخر مواخر من ذلك. وكل ما ذل وانقاد أو تهيأ لك على ما تريد، فقد سخّر لك. وسخره تسخيراً: ذلّله وكلفه عملا بلا أجرة... قال الله تعالى: ﴿وَسَخَّرَ لَكُمُ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ﴾(إبراهيم:٣٣). وقوله تعالى: ﴿وَالنُّجُومُ مُسَخَّرَاتٌ بِأَمْرِهِ﴾(الأعراف:٥٤). قال الأزهري: جاريات بمجاريهن".

وتسخير الخليقة للإنسان عام، يقول تعالى: ﴿وَسَخَّرَ لَكُمْ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا مِنْهُ﴾(الجاثية:١٣).

إن الذي يحول دون الإنسان وتسخير الكون هو التعضية والتفرقة بين مظاهره وعدمُ الاستبصار ببنائيته. فمن خلال الاتساق يتمكن الإنسان من إدراك استمرارية النظام الكوني القائم على قوانين وسنن تؤدي وظيفتَها فيه، وتسري سريانا لا يتخلف ولا يقصر عن مظهر من مظاهره، ما علم منها الإنسان وما لم يعلم، وبالطرائق التي أحاطت بها معرفته أو تلك التي لم تبلغها بعد.

إن الكون نظام هادف نابض بالحياة مفعم بالمعنى، حيث إن كل أجزائه تكوّن "بناء عضويا تتفاعل أجزاؤه وأعضاؤه بطرق لا يزال البشر في بداية الطريق إلى اكتشافها بفضل العلم، لكن في أجزاء محدودة جدا من الطبيعة. أما المسلمون فهم يعلمون أن الخليقة كيان عضوي، وأن كل جزء فيها يخدم غاية ما، حتى ولو كانوا لا يعرفونها. وهذا العلم ثمرة لإيمانهم".

ورغم أن وحدة الكون البنائية أضحت اليوم مُدرَكا لا يحتاج إلى مزيد برهنة، فإنه من النافع استحضار الآيات من القرآن التي تفيد بنائية الكون وغائيته وملابسته الحكمة لكل مظاهره ودقائقه آيات كثيرة يتعذر حصرها في مثل هذا المقام، منها قوله تعالى: ﴿أَأَنْتُمْ أَشَدُّ خَلْقًا أَمِ السَّمَاءُ بَنَاهَا ۞ رَفَعَ سَمْكَهَا فَسَوَّاهَا ۞ وَأَغْطَشَ لَيْلَهَا وَأَخْرَجَ ضُحَاهَا ۞ وَالْأَرْضَ بَعْدَ ذَلِكَ دَحَاهَا ۞ أَخْرَجَ مِنْهَا مَاءَهَا وَمَرْعَاهَا ۞ وَالْجِبَالَ أَرْسَاهَا ۞ مَتَاعًا لَكُمْ وَلِأَنْعَامِكُمْ﴾(النازعات:٢٧-٣٣)، قال الزبيدي: "والسَّمْك: السقف، أو هو من أعلى البيت إلى أسفله".

وتلفت الآيات العديدة التي فيها ﴿خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ بِالْحَقِّ﴾ النظر إلى أن الكون بناء تسري في جنباته الحكمة والقصد والغائية.

قال برهان الدين البقاعي في معرض حديثه عن قوله تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللهَ خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ بِالْحَقِّ﴾(إبراهيم:١٩): "بالأمر الثابت من وضع كل شيء منها في موضعه على ما تدعو إليه الحكمة".

إن هذه الوحدة البنائية في الكون هي التي مكّنت العقل البشري -بعد اكتشافها- من تأسيس كل العلوم التي يمكن أن نصطلح على تسميتها "علوم التسخير"، ثم تطويرها إلى حد بلورة المنهجية التوحيدية بين التخصصات، والتي أعطت الفكر العلمي الجديد مددا قويا، وفتحت أمامه إمكانات في غاية الكثرة والتنوع والنفع.

علاقة التيسير بالوحدة البنائية للقرآن المجيد

أ-مفهوم التيسير: اليسر بالفتح، ويحرك: اللين والانقياد... ويسره: لاينه. واليسر محركة: السَّهل اللين الانقياد... واليسر بالضم: السهولة والغنى. واليسر ضد العسر، واستيسر الشيء: تسهّل، ويسره: سهّله... ويسّرت الغنم: كثر نسلها ولبنها.

وقد وردت لفظة التيسير مقترنة بكتاب الله تعالى في ستة مواقع من القرآن المجيد، منها أربعة في سورة القمر بلفظ واحد هو قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ يَسَّرْنَا الْقُرْآنَ لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِنْ مُدَّكِرٍ﴾(القمر:١٧، ٢٢،

٣٢، ٤٠) ومنها قوله تعالى في سورة مريم: ﴿فَإِنَّمَا يَسَّرْنَاهُ بِلِسَانِكَ لِتُبَشِّرَ بِهِ الْمُتَّقِينَ وَتُنْذِرَ بِهِ قَوْمًا لُدًّا﴾(مريم:٩٧)، ثم قوله تعالى: ﴿فَإِنَّمَا يَسَّرْنَاهُ بِلِسَانِكَ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ﴾(الدخان:٥٨). ولفظ التيسير في هذه الآيات جميعها يفيد تسهيل القرآن للذكر من لدن الله الذي يفضي إلى لين وانقياد ذاتي لمن أراد الذكرى.

ب- العلاقة بين علوم التيسير والوحدة البنائية للقرآن الكريم: في مقابل التسخير للكون إذن، نجد تيسير القرآن، وفي مقابل التفكر في الكون المنتج للمعرفة فيه ﴿الَّذِينَ يَذْكُرُونَ اللَّهَ قِيَامًا وَقُعُودًا وَعَلَى جُنُوبِهِمْ وَيَتَفَكَّرُونَ فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ هَذَا بَاطِلاً﴾(آل عمران:١٩١)، نجد التدبر في القرآن المنتج للاهتداء به: ﴿كِتَابٌ أَنْزَلْنَاهُ إِلَيْكَ مُبَارَكٌ لِيَدَّبَّرُوا آيَاتِهِ وَلِيَتَذَكَّرَ أُولُو الْأَلْبَابِ﴾(ص:٢٩). وكما أن علوم التسخير تنتج عن الوعي ببنائية الكون وخضوعه لسنن قابلة للتعقل والإدراك بمقتضى المواءمة التي بين الكون والإنسان، وأنها علوم تتطور بفعل اتباع المنهجية الآياتية، وتفعيل القدرة على تسمية الأسماء -كما سيأتي بيانه حين الكلام عن المنهجية الآياتية- فإن علوم التيسير تنتج عن الوعي ببنائية القرآن المجيد وتضمنه لسنن قابلة للتعقل والإدراك من لدن الإنسان، بمقتضى المواءمة التي جعلها الله بين الإنسان والقرآن. غير أن علوم التسخير -وللنفع السريع الظاهر الذي ينتج عنها- قد شهدت وتشهد تطورات في غاية الأهمية والسرعة، في حين أن علوم التيسير قد أصابتها صنوف من الانتكاس، بسبب عوامل متعددة، أهمها التقليد وانعدام الرؤية وانقطاع الطريق، بفعل الحضور الجبار الكابت للاجتهادات وللجهود الموسوعية التي بذلها السابقون، إلى درجة رواج مقولات محبطة في أمتنا، من مثل: "ليس في الإمكان أبدع مما كان" وغيرها، مما يحتاج إلى استدراك ناجز من لدن مؤسساتنا العلمية والبحثية.

المنهجية الآياتية ثمرةٌ من ثمرات إدراك البنائيتين (بنائية الكون وبنائية القرآن) وبوابةٌ للمعرفة الناجعة الراشدة.

ونقصد بالمنهجية الآياتية المعرفية القائمة على قراءة الآيات والبصائر باسم الذي علم الأسماء، الله الذي خلق.

وقد كان هذا المضمون، هو أول وحي تلقاه سيدنا محمد بن عبد الله ﷺ، وهو قوله تعالى: ﴿اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ ۞ خَلَقَ الْإِنْسَانَ مِنْ عَلَقٍ ۞ اقْرَأْ وَرَبُّكَ الْأَكْرَمُ ۞ الَّذِي عَلَّمَ بِالْقَلَمِ ۞ عَلَّمَ الْإِنْسَانَ مَا لَمْ يَعْلَمْ﴾(العلق:١-٥).

والآيات والبصائر مبثوثة في الكون، كما أنها مكونات القرآن. إن آيات سورة العلق تأمر سيدنا محمدا ﷺ، ومن خلاله الإنسان في كل زمان وفي كل مكان، أن يقوم بضربين من القراءة: قراءة آيات وبصائر الخلق: ﴿اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ ۞ خَلَقَ الْإِنْسَانَ مِنْ عَلَقٍ﴾، وقراءة في الوحي الذي حفظه الله في السطور وفي الصدور: ﴿اقْرَأْ وَرَبُّكَ الْأَكْرَمُ ۞ الَّذِي عَلَّمَ بِالْقَلَمِ﴾. فهي قراءة في آيات وبصائر الكون بتوجيه وترشيد من آيات وبصائر القرآن.

إن الآيات والبصائر في القرآن المجيد تمكّن من إضافة الوجهة إلى قدرات الإنسان التسخيرية، والناجمة أساسا عن تعليم الأسماء الممكّنة من قراءة الآيات والبصائر الكونية كما يتضمن قوله تعالى: ﴿وَعَلَّمَ آدَمَ الْأَسْمَاءَ كُلَّهَا ثُمَّ عَرَضَهُمْ عَلَى الْمَلَائِكَةِ فَقَالَ أَنْبِئُونِي بِأَسْمَاءِ هَؤُلَاءِ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ ۞ قَالُوا سُبْحَانَكَ لَا عِلْمَ لَنَا إِلَّا مَا عَلَّمْتَنَا إِنَّكَ أَنْتَ الْعَلِيمُ الْحَكِيمُ ۞ قَالَ يَا آدَمُ أَنْبِئْهُمْ بِأَسْمَائِهِمْ فَلَمَّا أَنْبَأَهُمْ بِأَسْمَائِهِمْ قَالَ أَلَمْ أَقُلْ لَكُمْ إِنِّي أَعْلَمُ غَيْبَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَأَعْلَمُ مَا تُبْدُونَ وَمَا كُنْتُمْ تَكْتُمُونَ﴾(البقرة:٣١-٣٣)، بيد أن الوجهة التي تحررها لنا آيات الكتاب الحكيم، وهي من الضرورة بحيث بدونها لا ينال رشد ولا يُهتدى إلى قبلة.

نعم، إن الآيات والبصائر الكونية، حتى حين تقرأ بدون هداية من آيات القرآن المجيد تُكسب الإنسان الفعالية التسخيرية، ولكنها فعالية قد تكون مردية في غياب الاستبصار بالوجهة؛ يقول تعالى: ﴿وَعَادًا وَثَمُودَ وَقَدْ تَبَيَّنَ لَكُمْ مِنْ مَسَاكِنِهِمْ وَزَيَّنَ لَهُمُ الشَّيْطَانُ أَعْمَالَهُمْ فَصَدَّهُمْ عَنِ السَّبِيلِ وَكَانُوا مُسْتَبْصِرِينَ﴾(العنكبوت:٣٨).

قال الفراء: "كانوا عقلاء ذوي بصائر"، فهم كانوا ذوي بصائر تسخيرية، غير أن عدم استجابتهم لرسلهم -والذين كسائر الرسل جاؤوا لإضافة الوجهة إلى الفاعلية- أدى بهم إلى الهلاك.

إن قراءة الآيات والبصائر الكونية استهداءً بالآيات والبصائر القرآنية في ضوء الإدراك المنهاجي للبنائيتين، تمكّن الإنسان من وجهته فقبلته، وبالتبع من السجود والاقتراب.

وهنا الفيصل بين منظومتين: منظومة الجمع بين الآيات الكونية والقرآنية، ومنظومة التعضية والتفريق بينهما. وهي منظومة لا ترى في كسب الإنسان إلا أداة إنتاج للمال والطعام/للقيمة المضافة، مما يشكّل حالة عدم إبصار مردية، إذ الكون في منظومة

أرحم الراحمين عطاء غير مجذوذ، يسخر بالقراءة لآياته وبصائره في نور آياتِ وبصائرِ القرآن المجيد، للتمكن من الوجهة والقبلة فالسجودِ، وليس فقط مجالا لإنتاج القيمة المضافة: ﴿وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالإِنْسَ إِلاَّ لِيَعْبُدُونِ ۞ مَا أُرِيدُ مِنْهُمْ مِنْ رِزْقٍ وَمَا أُرِيدُ أَنْ يُطْعِمُونِ ۞ إِنَّ اللهَ هُوَ الرَّزَّاقُ ذُو الْقُوَّةِ الْمَتِينُ﴾(الذاريات:٥٦-٥٨).

فالكـون إذن في منظومة أرحم الراحمين ليس معملا مقتصرًا علـى إنتاج "القيمة المضافة" كما تراه منظومة الذين لا يوقنون ، بل هو ابتداء معمل لعبـادة الله وحده، ووظيفة كل من فيه هي هذه، سجودا وتسبيحا، وهي وظيفة لا تنفي الوظائف الأخرى بـل تؤطرها وتكملها، وحين تُعطَّل من قِبَل مَن حمل أمانة القيام بها إراديا، فإنه ترتّبت على ذلك عواقبه. قال رسول الله ﷺ: "لا تقوم الساعة إلا على شـرار الخلق" ، أي بعد أن تعطل الوظيفة الأصلية للوجود الإنساني في هذا الكون.

إن الإعراض عن الاهتداء بالآيات والبصائر القرآنية في عملية القـراءة للآيات والبصائر الكونيـة، يفضي إلى هلاك لا يصيب المعرضين خاصة، بل يعم معهم مَـن يضلوهم بعلم وبغير علم. يقول تعالى: ﴿إِلَهُكُمْ إِلَهٌ وَاحِدٌ فَالَّذِينَ لاَ يُؤْمِنُونَ بِالآخِرَةِ قُلُوبُهُمْ مُنْكِرَةٌ وَهُمْ مُسْـتَكْبِرُونَ ۞ لاَ جَرَمَ أَنَّ اللهَ يَعْلَمُ مَا يُسِرُّونَ وَمَا يُعْلِنُونَ إِنَّهُ لاَ يُحِبُّ الْمُسْتَكْبِرِينَ ۞ وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ مَاذَا أَنْزَلَ رَبُّكُمْ قَالُوا أَسَاطِيرُ الأَوَّلِينَ ۞ لِيَحْمِلُوا أَوْزَارَهُمْ كَامِلَةً يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَمِنْ أَوْزَارِ الَّذِينَ يُضِلُّونَهُمْ بِغَيْرِ عِلْمٍ أَلاَ سَاءَ مَا يَزِرُونَ﴾(النحل:٢٢-٢٥).

إن العقل العلمي المعاصر يرفض استدماج مفهوم الوحي في بنيته المعرفية، وهو إذ يتسـامح مع بعض موضوعاته، فإنه يصمم على رفـض منهجيته ووحدته البنائية، وإطاره الغائي، مؤكدا على أن اختصاص الكتب الدينية يجب أن يتوقف عند القناعات الإيمانية، وغيبيـات ما وراء الطبيعة... فطالما أن هناك مقولات في الكتب الدينية تتعلق بالغيـب، فإنه لا مجال لاتخاذها مصدرا من مصادر العلم، ومـن ذلك تعريف المعرفة على أنهـا "كل معلوم خضع للحس والتجربة".

إن القـراءة الآياتية للكون تتجاوز بالإنسـان حالة الإفراز الذهني للمعرفة، المنفصل عن الكون والتجريب (الأنموذج اليوناني القديم) كما تتجاوز به حالة الغرق في التجريب، دون النظر إلى الغائية والقصد (الأنموذج المعرفي الغربي المعاصر)، إنها قراءة تمكّن الإنسـان من تجاوز المحدودية التي تفرضها عليه الحتمية الكزّة، نحو آفاق الوصل غير المتناهي بين آيات الكتابين، باعتبار إمكان النظر إليها من زوايا مختلفة، أو باعتبار التفصيل للمجملات الذي يُتيحه إعمالُ قدرة الأسماء، وهو لا شك تفصيل يفتح أمام العقل الإنساني إمكانات في غاية السعة.

إن المنهجية الآياتية تحول دون مُعتمِدها واسـتبداد سَـوْرة الإحساس بامتلاك الحقيقة المطلقة/الاستغناء، مما يوقع في الطغيان، كما تحول دون مُعتمِدها ورفض مـا خضع من المعارف لتأييد الآيات وشهادتها.

إن المعرفة الناتجة عن المنهجية الآياتية أشـبه ما تكون بصراط لامتنـاه نظرا لتجدد القراءة في كل حين، بسـبب تعددِ وتنوع الآيـات. أما إذا تم الانطلاق نحو الربط بين الآيات وبين ما ينبثق من آيات جديدة بعد تفصيلهـا، فإن المعرفة تصبح نابضة بفعل تصديقهـا لما بين يديها والهيمنة عليه نحـو تصديق آخر جديد، بما يشـبه حركة نواسية متنامية سيارة، وهنا تتحول القدرة على التسمية إلى مَعبر نحو إبصار الآيات والبصائر، إذ الأشياء والحقائق تُعرف بكيفية أدق وأمثلَ عبر آياتها، وليس عبر مسمياتها. فتسمية الحياة حياة ليسـت أقدر على التبصرة بماهيتها من الآيات الدالة عليها: ﴿وَمِنْ آيَاتِهِ أَنَّكَ تَرَى الأَرْضَ خَاشِـعَةً فَإِذَا أَنْزَلْنَا عَلَيْهَا الْمَاءَ اهْتَزَّتْ وَرَبَتْ إِنَّ الَّذِي أَحْيَاهَا لَمُحْيِي الْمَوْتَى إِنَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾(فصلت:٣٩).

إن المسمى في نشأته الأولى كان عبارة عن رؤية للآيات/قراءة لها، فهو تسجيل وتعبير عن رؤيةِ راءٍ وقراءة قارئ. والمنهجية الآياتية تلغي الوسائط وتجعل الإنسان في كل مرة محقّقا للاتصال المباشر بالآيات، فحديـث المتحدثين بالأسماء لا يعدو -في ظل المنهجية الآياتية- أن يكون تنبيها للنظر الشخصي في الآيات: ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا كَيْفَ يُبْدِئُ اللهُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ إِنَّ ذَلِكَ عَلَى اللهِ يَسِيرٌ ۞ قُلْ سِيرُوا فِي الأَرْضِ فَانْظُرُوا كَيْفَ بَدَأَ الْخَلْقَ ثُمَّ اللهُ يُنْشِئُ النَّشْأَةَ الآخِرَةَ إِنَّ اللهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾(العنكبوت:١٩-٢٠)، ﴿وَهُوَ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ النُّجُومَ لِتَهْتَدُوا بِهَا فِي ظُلُمَاتِ الْبَرِّ وَالْبَحْرِ قَدْ فَصَّلْنَا الآيَاتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُـونَ ۞ ...قَدْ جَاءَكُمْ بَصَائِرُ مِـنْ رَبِّكُمْ فَمَنْ أَبْصَرَ فَلِنَفْسِهِ وَمَنْ عَمِيَ فَعَلَيْهَا وَمَا أَنَا عَلَيْكُمْ بِحَفِيظٍ﴾(الأنعام:٩٨-١٠٤).

إن هذه المنهجيـة الآياتية باعتبارها ثمـرة من ثمرات إدراك الوحدة البنائية للكتابين المنظور والمسـطور هي التي تعطي لسير الإنسـان في الكون معناه، وتجعل كسبه التسخيري كسبا باحثا عن الرشد، إذ هي منهجية يشـعر إنسانها بالافتقار إلى الوحي:

﴿وَكَذَلِكَ نُرِي إِبْرَاهِيمَ مَلَكُوتَ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ وَلِيَكُونَ مِنَ الْمُوقِنِينَ ۞ فَلَمَّا جَنَّ عَلَيْهِ اللَّيْلُ رَأَى كَوْكَبًا قَالَ هَذَا رَبِّي فَلَمَّا أَفَلَ قَالَ لاَ أُحِبُّ الآفِلِينَ ۞ فَلَمَّا رَأَى الْقَمَرَ بَازِغًا قَالَ هَذَا رَبِّي فَلَمَّا أَفَلَ قَالَ لَئِنْ لَمْ يَهْدِنِي رَبِّي لأَكُونَنَّ مِنَ الْقَوْمِ الضَّالِّينَ﴾(الأنعام:٧٥-٧٧).

﴿وَلَقَدْ آتَيْنَا إِبْرَاهِيمَ رُشْدَهُ مِنْ قَبْلُ وَكُنَّا بِهِ عَالِمِينَ﴾(الأنبياء:٥١). وفي مرحلة الختم للنبوة والحفظ للذكر واتضاح معالم المنهجية الآياتية يصدع القرآن بتحميل إنسانها كامل مسؤوليته، كما يصدع برفع نير الإكراه ونتق معالم القدرة عنه لما استقر في واقعه بطريقة جلية بينة محفوظة من البراهين والحجج، ومن الآيات والبصائر الدالة جميعها على سبيل الرشد: ﴿لاَ إِكْرَاهَ فِي الدِّينِ قَدْ تَبَيَّنَ الرُّشْدُ مِنَ الْغَيِّ فَمَنْ يَكْفُرْ بِالطَّاغُوتِ وَيُؤْمِنْ بِاللهِ فَقَدِ اسْتَمْسَكَ بِالْعُرْوَةِ الْوُثْقَى لاَ انْفِصَامَ لَهَا وَاللهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ۞ اللهُ وَلِيُّ الَّذِينَ آمَنُوا يُخْرِجُهُمْ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ وَالَّذِينَ كَفَرُوا أَوْلِيَاؤُهُمُ الطَّاغُوتُ يُخْرِجُونَهُمْ مِنَ النُّورِ إِلَى الظُّلُمَاتِ أُولَئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ﴾(البقرة:٢٥٦-٢٥٧).

والرشد في القرآن المجيد من الجلاء والبيان بحيث ما لبثت الجن حين سمعته أن قالوا: ﴿إِنَّا سَمِعْنَا قُرْآنًا عَجَبًا ۞ يَهْدِي إِلَى الرُّشْدِ فَآمَنَّا بِهِ وَلَنْ نُشْرِكَ بِرَبِّنَا أَحَدًا﴾(الجن:١-٢).

خاتمة

وإجمالا، فإن من آكد مقتضيات التعامل مع كتاب الختم، الوقوفَ على المنهج القرآني المكنون النابض المتجدّد الذي يقود الإنسان نحو آفاق الإفادة من قابلية القرآن المجيد للهداية للتي هي أقوم ﴿إِنَّ هَذَا الْقُرْآنَ يَهْدِي لِلَّتِي هِيَ أَقْوَمُ﴾(الإسراء:٩)، ولن يتيسّر ذلك إلا عن طريق الاطّراح الملحّ، استنطاقا واستهداء، بين يدي كلام الله تعالى. ومن مقتضيات هذا الاطراح، التلقي المسلّم من الوحي عن طريق الإعمال المتصاعد المتنامي لمنهاجيته السارية فيه والتي تتكشف بالاجتهاد عبر الزمن، وهي منهاجية قد تبدّى من خلال ما سلف، أن من دعاماتها الأساس، الوقوفَ على بنائية القرآن المجيد، وإدراكَ أنه ترتيل، ولنا بعون الله عودة إلى الموضوع. ■

(*) الأمين العام للرابطة المحمدية للعلماء / المغرب.

حراء
مجلة علمية ثقافية فصلية
www.hiramagazine.com

من أجل السلام

آهٍ يا طفلي العزيز!
يا كُلَّ البراءة،
يا كُلَّ الصفاء والنقاء،
يا كُلَّ السلم والسلام...
آهٍ يا صديقي!
ليتك تُدرك؛
كم إلى السلام سعيتُ،
وحمائمي البيض أطلقتُ،
لكل الأرض،
للإنسان،
وللفكر والوجدان...
* * *





الأبـرُو

فن الرسم على الماء

بيرول بيجر*

ليس من المعروف من قام بأول عملية رشّ الألوان على الماء وتمكّن من الحصول على أشكال متنوعة زاهية ثم أخرجها على الورق، أي ليس لدينا المعلومات الكافية عن المسيرة التاريخية لفن الأبرو. ولكن المعروف هو أن هذا الفن المسمى بالأبرو، يتحلى بطابع عثماني أو بطابع تركي.

وتعني كلمة "الأبرو" عند الأتراك، حاجب العين، والورق الملون والمجزّع، أو القماش الملون بألوان مختلفة بشكل مموج يشبه حاجب العين، أو ألوان حجر الرخام. كما تأتي في التركية بمعنى الورق أو القماش الملون الذي يستخدم في تغليف الكتب والدفاتر.

الرسم على الماء

عمل الأبرو فيه لمسات فنية جمالية رائعة، ويحتاج إلى صبر وتأنٍ. وقد يتميز هذا الفن بعدم تكرار نماذجه أو بعدم تقليده. ولصنع الأبرو يحتاج الـ"أبروزَن" أي صانع الأبرو، إلى ورق يمتص الصبغات وإلى حوض على شكل مربع. فيقوم الفنان بخلط مادة بيضاء صمغية تسمى "كِتْرَه" بمقادير معينة مع الماء. وبعدها تفرغ الصبغات المجهّزة على وجه الحوض المليء بالـ"كتره". ثم تحرك البقع الموجودة على سطح الماء بالفرشاة التي يتكون رأسها من شعر ذيل الحصان أو من إبرة بأشكال متعددة. ونتيجةً لذلك تظهر أشكال مبهرة رائعة. وبعد ذلك توضع الورقة الخاصة على سطح هذه الأشكال ثم تُمسك من الأطراف وترفع ثم تقلب دون هز أو تحريك، وعندها تتشكل النماذج وبألوان زاهية وجميلة.

لقد أخذت رسوم الأبرو -في القرن السادس عشر- مكانة مرموقة بين الأمتعة الثمينة في الغرب، بعد قيام السياح الأجانب برحلات إلى الأراضي العثمانية التي بلغت آنذاك أوج ازدهارها في الفن والثقافة والعلم والتكنولوجيا.. وسرعان ما تحول هذا الفن عند الأوروبيين -في القرن الثامن عشر- إلى مُوضة لا يستغنى عنها، وطبعت رسومات الأبرو على معظم مجلدات الكتب الأوروبية.

وقد اعتنى الأتراك بفن الأبرو عناية فائقة ومارسوه مدة طويلة في الخط والتغليف. بيد أن هذا الفن لم يحظ بهوية ذاتية حتى أواخر القرن العشرين. وقد تم استخدامه بادئ الأمر من قبل أقلية من الدراويش المتصوفة لإشباع جانبهم الروحي والمعنوي. وهذا حفظ هويته وساعده على الرقي والازدهار رويداً رويدا. كما أدى هذا الاهتمام الصوفي إلى إحياء فن الأبرو من جديد، واكتسابه هوية ذاتية مستقلة بين الفنون الإسلامية الأخرى.

الأبرو مرآة للثقافة

والجدير بالذكر أن فن الأبرو لم يتميز عن قرينه فن "Suminagashi" في الشرق الأقصى بمعداته وصباغه وألوانه وأشكاله فحسب، بل بطابعه وطبيعته الخاصة به أيضاً. ولكن الميزة التي أعطت هذا الفن هوية أصيلة، هي عكسه الألوان الثقافية والفنية المتنوعة، وكشفه عن ثراء التراث في الحضارة التي عاش تحت ظلها، ومن ثم تقديمه الفن والجمال في نطاق فلسفة داخلية روحية بأبعاد تصوفية، أي أن يكون مرآة للتراث والثقافة التي انبثق منها. وليس المقصود من التراث ها هنا، العادات التي تعيشها الشعوب وتتداولها فيما بينها.

ولا نبالغ إن قلنا إن أجمل رسومات الأبرو موجودة في تركيا، لا سيما اللوحات التي يصنعها الفنانون الذين يسكنون في إسطنبول. ولقد بلغت صور الأبرو -في أيامنا هذه- مرحلة تطورية لم يسبق لها مثيل، حيث أضفت لمسة جمالية على الشكل والمعنى، أبهرت العيون وسحرت القلوب وخلبت الألباب. ولعل هذا التوسع والانتشار السريع لفن الأبرو الكلاسيكي، وبالتالي ازدياد المراكز التعليمية له في تركيا وبخاصة في إسطنبول، أدى إلى ابتعاده عن هويته الأصلية وإلى ضياع تأثيره الروحي.. إذ تأثرت قيمه بعوامل ثقافية خارجية لا تتفق مع طابعه وهويته الذاتية. وهذا الأمر يضعنا أمام شقين اثنين؛ إما أن يستمر فن الأبرو كمرآة يعكس الفلسفة الروحية والنظرة الكونية لثقافة أصيلة، وإما أن ينسلخ عن جذوره وينأى عن مفاهيمه التي تحلى بها منذ عصور ويتحول إلى فن زخارف فحسب.. ولكن رغم كل هذه التغيرات والتحولات الثقافية التي طرأت على الشعب، فإن فن الأبرو ظل قائماً يحافظ على مكانته في الحضارة الإسلامية.

ما الدوافع التي جعلتنا نتمسك بفن الأبرو إلى هذه الدرجة؟ ولماذا يُشعر هذا الفن الكثيرَ منا بأنه فن تصوفي رغم قلة الأشكال الرمزية فيه بالنسبة للفنون الأخرى؟

إن الذين اعتنوا بفن الأبرو وأورثوه الأجيال من بعدهم، وعلى رأسهم منتسبو التكية الأزبكية في منطقة أسكدار بإسطنبول، هم الذين استطاعوا بجدارة أن يغذّوا هذا الفن بروحهم ومشاعرهم وقيمهم التي زينوا بها حياتهم المادية والروحية، وتصوراتهم التي تطلّعوا من خلالها على قيمة الإنسان في الوجود.. لقد أسهم الكثير من الفنانين والخطاطين والنقاشين في تطور فن الأبرو، وحاولوا أن يحافظوا عليه بصدق على مدى الأزمان.

فلوحات الأبرو التي كانت تباع للصحّافين لتأمين حاجات الحجيج القادمين من أوزبكستان والمقيمين في التكية الأزبكية.. والدراويش الذين جردوا أفكارهم من المشاغل الدنيوية أثناء وقوفهم على الحوض، والروايات التي تذكر أن السيد "خطيب محمد" توفي حرقاً عندما أراد أن يخلّص رسوماته من الحريق.. والمجلّدون الذين غلّفوا كتبهم بزخارف الأبرو، والشيخ "أدهم هازرفان أفندي" الذي قدم أعمالا مبتكرة في مجال الفن والعلوم.. والأستاذ "نجم الدين أوقْياي" الذي اشتهر بالخط ونقش الورود ولا سيما بابتكاره لوحة الأبرو التي رسم عليها لفظة الجلالة، و"مصطفى دوزكونمان" العطار الذي استطاع أن يعيّش فن الأبرو لسنوات طويلة في منطقة أسكدار والذي أبدع الـ"أبرونامه".. بالإضافة إلى الذين ورثوا هذا الفن بحق من أجدادهم وأساتذتهم وساروا على نفس الروح والمعنى فيه... كلهم أضفوا على فن الأبرو لمسة جمالية من أرواحهم وأكسبوه مكانة رفيعة وأهمية كبيرة بين الفنون الإسلامية الأخرى.

الأبرو فن أصيل

إن فن الأبرو ليس فنا تقليديا شكليا، بل هو فن أصيل يرتبط بجذور إسلامية متينة له أسلوبه المتميز وطريقته الخاصة به، إنه يتحلى بالروح والمعنى التي تكمن في لب الحضارة الإسلامية. كما أنه فنٌ ظهر على يد فنانين استنشقوا الهواء الروحي من الإسلام ثم توارثوه جيلا بعد جيل حتى وصل إلى يومنا هذا.

والجدير بالذكر أن زهرة الزنبق (لاَلَه) والياقوتية وغيرها من الأزهار اكتسبت روحا جديداً بهذا الفن، ليس برسمها في حوض الأبرو فحسب، بل بإدراك القيم الثقافية والمبادئ

التراثية الإســلامية التي انتمت إليها. وإذا انفصل فن الأبرو عــن هذا التراث وهذه الثقافة فَقَد روحه وتحول إلى مجرد فن تشكيلي لا أكثر ولا أقل.

ولعل الذين مارســوا فن الأبرو وأوصلوه إلى يومنا هذا -وعلى رأسهم أهل التكية الأزبكية- هم أهل التصوف ممن نهلوا من روح الثقافة الإسلامية وعاشوا في ظلها. لذا فلا يحق لنا أن ننسى الجانب التصوفي لفن الأبرو هذا.

ولا يعني كل ما ذكرناه، أن نحصر فن الأبرو في إطار معين محدود، إنما هناك جوانب أخرى تعتبر امتدادا لهذا التراث وهو إعداد المواد الطبيعية التي تُستخدم في هذا الفن.

وليس المقصود من الارتباط بالتراث، أن نكرر نفس النماذج ونبقى على نفس الوتيرة النمطية، إنما المقصود أن نسير ضمن الأساليب التقنية والفلسفية التي تكوّن الأسس الفنية الإسلامية، أو أن ننجز عملاً فنيــاً يعتمد على عناصر التجريد والتنميق والتنويع والتفاني، مما يتيح لنا رؤية فنية تأملية تســاعدنا على إدراك جمال الوجود وفهم الذات الإنسانية والحقيقة الربانية.

أما بالنســبة للفكرة التي يمثلها برعم الوردة في فن الأبرو فهــي "الوحدة"، وأما الوردة المتفتحــة فتدل على "الكثرة" المنبثقة من هذه الوحدة. كما ترمز الوردة المتفتحة أيضاً إلى تمام الكمال، وإلى سمو الروح، وإلى مراتب الإدراك التي تكمن بين "الوحدة" و"الكثرة" هذه. ولا يمكن أن تقدَّم هذه المعاني في أشــكال أو زخارف أخرى، كما لا يمكن أن يمثل شكل من الأشــكال دور الوردة ويوحي بنفس المعنى والروح التي تحملــه في ذاتها. في حين إن هذه المعاني الدلالية لا تُعرض في كل مرة بشكل مختلف، بل تستظل كل الأشكال والزخارف تحــت ظل الوردة ومعانيها. ولعلنا إذا نظرنا إلى نبتة الملفوف نرى أنها تمثل علاقة وطيدة جداً بين الوحدة والكثرة، بيد أن هذا التمثيل لا يرتقي أبداً إلى مستوى الوردة ودلالتها.

أمــا النقاشــات التي دارت حــول أصالة فــن الأبرو والتجديــدات التي طرأت عليه فلم تأتِ بنتيجة ملموســة، وذلك لاختلافاتٍ حــول الجذور والثقافة والهوية لهذا الفن. ولو كانت هذه النقاشــات حول فلسفة الفن وحول مبادئه وأصوله بدلا من الأنماط والأشــكال والتزيينات الظاهرية، لَبلغ الفن إلى الذرى، ولبقي يمارَس بصدق وإخلاص لأزمان طويلة. وإن انكماش النقاش حول النمطية والأشكال فقط، يعني الاســتغناء عن الأبعاد الروحية والمعنوية ومن ثم الابتعاد عن الجذور والذات.

فنٌ لا يعبر عن الذات مباشرة

لا يقوم الفنان في فن الأبرو بالتعبير عن نفسه أو ذاته مباشرة. حتى وإن بدى ذلك، فهذا لا يعني إلا انعكاساً طبيعياً للألوان التي استخدمها أو للأسلوب الذي ابتكره. كما أن الأشكال الــتي يختارها الفنان لا تدل إلا على فكر أو مفهوم اســتمد روحه من الثقافة والحضارة التي نشأ فيها ونما.

فإن فن الأبرو أي الأبرو التقليدي، هو فن يأخذ بالمرء إلى أعماق النفس والذات، ويســمو بالذات إلى ما وراء العوالم، حيث يشــدّ ألباب المهتمين به إليه، ويعيدهم إلى جوهرهم الأصلــي دون إدراك منهم. ولكن هذا لا يعني أن الأبرو هو الســبيل الوحيد في الوصول إلى هذا المبتغى، بل هو وســيلة لتخلية الأذهان من الأفكار المرهقة وتجريدها من الشــوائب، أي إنه أداة مهمة للتركيز والإمعان.

والمقصود من كل ما ذُكر، أن الفنان لا يسعى إلى التعبير عن نفســه أو عن الأشياء التي يرغب في التعبير عنها، بل إلى تجريد نفســه من كافة القيود الخارجية محاولاً إيجاد سبيل له في عــالم المعنى. فقد حملت الفنون الإســلامية الأخرى هذا الروح أيضاً، وســعت إلى التعبير عن القدرة الإلهية في إبداع هذه الجماليات التي تحلّت بها الكائنات. إلى جانب ذلك فقد سيطر على فن الأبرو فكرة التجريد أو تجريد الفنان نفسه من عالم المادة والجنوح بها إلى عالم المعنى.

فنٌ ذاتي وبعيد عن النمطية

إن فن الأبرو لا يسعى إلى نقل أفكار ومعتقدات وأحاسيس الفنانين المتوغّلين في عوالمهم الداخلية. إنما يتطلّب الأمر إرادة ورغبة قوية مــن الفنان وصرفَ جهــودٍ جاهدة منه، كما أن الأشــكال والزخارف التي تحلت بــروح ومبادئ الثقافة والحضارة الإســلامية، تؤدي رسالتها إلى المشاهد أو المتفرج من تلقاء نفسها. وقد تختلف إيحاءات هذه الرسالة من شخص لآخر حسب تصوره الشخصي.

إن فن الأبرو فن ذاتي في كل مراحله، كما أن جلب المواد اللازمة ثم تحضيرها واستخدامها تكون بجهود ذاتية من الفنان. ولعل هذا الفن يتطلب أثناء التعليم أشخاصا عدة، لكنه عند التطبيق يكون ذاتياً بالتمام. ذكرنا أن الفنان يعدّ الألوان بنفسه، إذ كلما أبدى مهارة في إعداد الأصبغة والألوان وقام بنقشها على الماء، ازداد الأثر قيمة وازداد الفنان متعة ولذة. أو بتعبير آخر فإن هذه المراحل العملية في فن الأبرو والاهتمام الذاتي، يجعل الفنان يتلذذ بأداء فنه ويستفيد منه ويزيد عليه ويجدد فيه.

فن الأبرو هو فن يريح النفس ويجردها من العالم الظاهري، كما أنه فنٌّ تجريدٍ يدفع المرء إلى الإمعان في التفكير ويشفي بذلك روحه وقلبه. إنه فن يجب أن يقدَّم إلى المهتمين به بنفس الروح ونفس المعاني الذي تحلى بها منذ القدم. كما أنه وسيلة لشفاء الروح وراحة النفس ورخائها وتغلغلها في العالم الداخلي عن طريق التجريد، ودواء للأمراض النفسية، ووسيلة لإزالة القلق والاضطراب.

الفصل بين الإرادة الجزئية والكلية

لا شك أن أصحاب البصيرة يشاهدون تجليات الإرادة الكلية والإرادة الجزئية في كل أطراف الحياة. إلا أنه ليس من السهل أن يشاهد العقل المتقيد بالأسباب تجلياتِ هاتين الإرادتين في آن واحد. وإن فن الأبرو فن يوضح مكانة الإرادة الجزئية من الإرادة الكلية ويضع الفاصل البارز بينهما؛ إذ ليس للصدفة مكان في هذا الفن، ولا يمكن للفنان الذي يقوم بإنتاج عمل ما -وهو يراعي الأسباب- أن يعرض الصورة التي يفكر بها أو يخطط لها بالشكل الذي يريدها بالتمام.

وقد نرى في بعض الأحيان أن الفنان يحصل على نتيجة فوق التي كان يتوقعها أو يتصورها. وفي الحقيقة هناك صورة معينة في مخيلة كل فنان، ولعل الفنان ينساق حسب الأشكال أو الصور التي تتكون نتيجة وقع قطرات الألوان على ماء الحوض، أي إنه لا يستطيع أن يتصرف بالألوان والأشكال كيفما يريد، حتى إنه لا يستطيع أن يحلل الشكل النهائي للصورة التي وضعها في مخيلته تماماً إلا بعد اقترابها من الانتهاء. وقد وضع فنانو الأبرو مصطلح "لا تكون كلمة الفصل إلا للحوض"، أي إنه صاحب القول الفصل.

رحلة من الكثرة إلى الوحدة

ومن أبرز سمات الأبرو أنها توجهٌ من الظاهر إلى الباطن ومن الكثرة إلى الوحدة، أي إنها توجّه الإنسان إلى داخله وتجرده عن الظاهر ذهناً وفكراً ثم تسير به من الكثيرة إلى الوحدة. فالإنسان يتمكن بهذا الفن من الهروب من العالم الخارجي والتّوغل في العالم الداخلي حيث جوهره وأصله.

إن فنان الأبرو هو الذي يقوم بتحويل الرسومات التي يرسمها على سطح الماء من صورة مؤقتة إلى دائمة، وذلك بنقلها إلى سطح آخر. وهو ما يدل على أن المخلوقات الفانية تصبح باقية عندما تُنقل إلى سطح أو بُعد آخر. ولعل الأشكال المرسومة على سطح الماء هي تعبير عن الفناء كالحياة الدنيا تماما، كما أن نقل هذه الأشكال إلى سطح الورقة إنما يدل على البقاء كالآخرة.

أما الوجود فله وجهان؛ وجه ينظر إلى البقاء ووجه إلى الفناء. وعلى الرغم من أن الأشكال لم تتكون من تلقاء نفسها على سطح الماء، فإن هناك إرادة أوجدتها. والوجود أيضاً لا يتصف بصفة البقاء إلا إذا انتقل إلى سطح يمكّنه من البقاء من قبَل القدرة الإلهية والإرادة الربانية التي أوجدت فيه سمة الفناء. ولا يمكن للماء ولا للورق ولا للأشكال أن تقدر على تحقيق هذا البقاء، بل القدرةُ والإرادة المنبثقة من عشق الفنان والذي يمثّل القدرة الإلهية بحق، هو مَن يحقق هذا البقاء. وإذا نظرنا إلى فن الأبرو من هذه الزاوية، ندرك أن الحوض يمثل الكائنات، والمادة البيضاء الصمغية (كِتْرَه) تمثل عالم الشهود، والفرشاة والألوان تمثل دائرة الأسباب، والفنان يمثل الإرادة والقدرة الإلهية.

ولا نبالغ إن قلنا أخيراً إن فن الأبرو هو فن تتجلى فيه كل جماليات ومحاسن الوجود، وما الوجود إلا تجلّ من تجليات الجمال المطلق. ■

(*) أستاذ فن الأبرو / تركيا. الترجمة عن التركية: نور الدين صواش.



عندما تحرك الفراشة جناحَيها

صالح آدم*

توضع النظريات الفيزيائية لتقديم نماذج تشرح بُنية الكون وكيفية عملها. وقد قام "نيوتن" والعلماء المعاصرون له بوضع أسس العلم الحديث، أو بالأصح بوضع أسس الفيزياء الكلاسيكية. وفي الكون -حسب هذه الفيزياء- نظام دقيق متداخل مع فوضى كبيرة. هذا النظام يعمل حسب آلية ميكانيكية دقيقة. كانت أجزاء الكون -حسب هذا الأنموذج- تتأثر وتؤثر بعضها في بعض بقوى مختلفة، وتتحرك هذه الأجزاء ضمن حركات معينة تحت تأثير هذه القوى وتحت تأثير وضعها في البداية. ونظرًا لقيام الفيزياء الكلاسيكية بحساب الحوادث الفيزيائية المختلفة -التي تبدو وكأنها لا رابط بينها- بدءًا من حركة كرة البيلاردو إلى حركة الأجسام الفضائية، ومن ظاهرة انتقال الحرارة إلى التموجات الصوتيه حسابًا صحيحًا بقوانين قليلة (القوانين الثلاثة لـ"نيوتن"). فقد أصبحت تلك الفيزياء حقيقة مسلّما بها، لا تحتمل أي نقاش أو شك فيها طوال عصور ثلاثة. وهذا النجاح الكبير بهر أعين المفكرين وأثّر على نظرتهم للعالم، بل دعاهم إلى محاولة وضع نظريات مشابهة في علوم الاجتماع.

نقد الفيزياء الكلاسيكية

ولكن النظرة إلى العالم التي شكّلتها الفيزياء الكلاسيكية تعرضت في بداية القرن العشرين إلى نقدين، جاء أحدهما من النظرية النسبية التي وضعها "أنشتاين" ونفى فيها وجود الزمان المطلق والمكان المطلق، ووضع بدلا منهما زمانا ومكانًا يختلفان حسب وضع الشخص

المراقِب، وأهما يتغيران حسب مقدار وكمية الكتلة الموجودة في جوار ومحيط الأشـياء. أما النقد الثاني فجاء من "النظرية الكمية" (Quantum Theory) التي قامت بمعارضة أساس من أسس العلم وهو مبدأ "السبب-النتيجة". وذكرت بأنه لا يمكن إجراء عملية قياس دقيقة في أي منظومة دون التأثير فيها وتغييرها.[1]

ويجب هنـا ملاحظة أمر هام وهـو أن ظهور بعض أخطاء الفيزياء الكلاسـيكية لا يعني أنها باطلة تمامًا وخاطئة و لم تعد لها أي أهميـة أو دور؛ لأن النظريـات الفيزيائية هي نماذج في نهاية المطاف توضع لشرح الحقائق، كما تستطيع الفيزياء الكلاسيكية تفسـيرَ وحلَّ معظم المسـائل اليومية التي نواجهها بدقة كبيرة. ولهذا السـبب أظهرت التجارب والمشـاهدات صحتها طوال عصور ثلاثة. كما نستطيع بها حساب أوقات كسوف الشمس وخسوف القمر ورحلة صاروخ في نظامنا الشمسي وغيرها من الأحداث الفيزيائية والمادية بدقّة كبيرة.

ذكرت النظرية النسـبية أن نظرية نيوتن لا تكون صحيحة في السـرعات الكبيرة التي تقترب من سـرعة الضوء، وكذلك في الأجسـام الفضائية الهائلة الكتلة كالثقوب السوداء والنجوم النيوترونية التي تملـك قوى جذب كبيرة. وكما ذكرت النظرية الكمية فإن نظرية نيوتن لا تصح في تفسير الحوادث الجارية على المستوى الذرّي، أي إن النظرية النسبية والنظرية الكمية تصحّ في السـرع الاعتيادية في حياتنا -حتى سرعة الصاروخ لا تبلغ جزءًا من ألف جزء من سـرعة الضـوء- وفي الأحجام التي تزيد على 10^{-5} سم وتكون نتائجها مساوية لنتائج الفيزياء الكلاسيكية.

نقد "الحتمية" وظهور نظرية الفوضى

وفي ستينيات القرن الماضي تلقّت النظرية الحتمية نقدًا ثالثا من علم بـدأ ينمو ويتطور. كان هذا العلم يبحث عن ظواهر "الفوضى" التي لاحظها العلمـاء في العديد من الحوادث بدءًا من ديناميكية السـوائل إلى الظواهر الجوية إلى بيولوجيا السـكان إلى النظم الاقتصادية. والسبب الذي أدّى إلى ظهور "الفوضى" كفرع من فروع العلم هو أن العلماء الذين كانوا يعملون في ساحات مختلفة لاحظوا عند بحثهم عن حلول للمشـاكل التي تظهر أمامهم أنهم يرون حلولا في شـكل نماذج تكون متشابهة؛ حتى إنهم توصلوا إلى حلول مشـتركة تعود لمسائل مختلفة. ظهر هذا الأمر ليس في الساحات العلمية التي تتطلب اختصاصات معينة، بل في الساحات التي تتقاطع فيها ساحات بعض العلاقات العلمية. رأى العلماء هنا أن النماذج التي تشـرح التصرفات التي تبديها المنظومات المعقدة نماذج متشابهة. والمنظومات المعقدة تتألف من أجزاء عديدة جدًّا، يؤثر كل جـزء في الأجزاء الأخرى، ويتأثر هو أيضا بها، وهناك سـاحات حرة عديدة فيها؛ أي إن هنـاك احتمالات لتصرفات عديدة لها، وهي عادةً منظومـاتٌ مفتوحة[2] تدخل إليها المواد والطاقة وتخرج منها، أي ليست منظومات مغلقة. ومن أمثلة هذه المنظومة هي المنظومات البيئية التي تُشـكِّلها بعض أنواع الأحياء في منطقـة جغرافية معينة، والعناصر الجوّية المختلفة الموجودة معًا كالمقادير المختلفة من الضغط الجـوّي والرياح والحرارة وأنواع النباتات التي تغطّي تلك المناطق، أو المنظومات المعقدة المتشـكلة من مجموعات كبيرة من الخلايا العصبية المتخصصة التي تعمل معًا في أدمغتنا بتلاؤم دقيق.

والعلمـاء يعملون حاليًّـا على منظومات أقـلّ تعقيدًا من المنظومـات المذكورة أعلاه، مثل معدل التغير السـنوي في عدد نوع معين من الأحياء في منطقة معينة، أو درجة انسـيابيةِ سائلٍ يملك لزوجة معينة في أنبوب، أو التموجات الحاصلة في البورصة لسعر سلعة من السلع... هذه هي المسائل أو المشاكل التي يتناولها العلماء حاليًا كبداية لحل مشاكل ظواهر "الفوضى".

ولكن العلم -لنأخـذ الفيزياء مثلا- على الرغم من أنه قَطَع مسافة كبيرة في ساحات عديدة بدءًا من الأجزاء دون الذرية إلى المجرات الهائلة، إلا أنه لم يسـتطع وضع نظرية تشرح الحركات المعقّدة لسـائل ذي لزوجة معينة يسيل في أنبوب، ولا حساب حركات الدوامة والاضطراب الذي يظهر فيها بعد سرعة معينة. وعلى الرغم من أننا نملك معلومات بدرجة ما حول كيفية عمل بعـض الظواهر مثل كيفية تزايد أعداد الأحياء، أو كيفية التطور الاقتصادي، إلا أننا لا نستطيع حدسَ أو معرفةَ كيفيةِ تطور هذه الظواهر وكيفية تغيرها، وعلى أي أساس يحصل هذا التغير بشكل قاطع. ولذا فهناك علم ولد جديدا يحاول وضع أسس عالمية لمثل هذه المنظومات وخصائصها المشتركة ويهدم الجدران الاصطناعية بين العلوم. والسبب الكامن وراء عدم وضع تعريف عام يقبل به الجميع لهذا الفرع الجديد من العلم الذي ندعوه بـ"علم الفوضى"، هو أن إطاره واسع جدًا وهو يشمل مواضيع عديدة جدًّا وحوادث ذات أبعـاد مختلفة، لذا يجب تناولهـا بمفاهيم جديدة ومتطورة، لأن تاريخ هذا الفرع العلمي حديث لا يتجاوز ٤٠-٥٠ سـنة.

شرح مفهوم "الفوضى"

إن أردنا التعبير عن مفهوم "الفوضى"، قلنا: إنه يعني عدم النظام واختلاط الحابل بالنابل والانفلات. ولكن تم إغناء مفهوم هذا الفرع الجديد من العلم بإضافة معان هندسية وعلمية له، لذا فلا يمكن شرح مفهوم "الفوضى" بعدّة جمل. ولكن يمكن شرح كيفية ظهور "الفوضى" وفي أي الظروف تظهر وما النتائج التي تتولد عنها. عندما نقوم بهذا نحصل على فكرة وصورة لهذا المفهوم.

والذي أدّى إلى زيادة الاهتمام بمفهوم "الفوضى" وعده انقلابًا في العلم، هو أن نظامًا معيّنا يسير حسب قواعد معروفة ويتطور بشكل معلوم، فإذا به يتصرف فجأة بشكل فوضويّ. لنأخذ مثالا حول عدد نوع من أنواع الأحياء يعيش في جزيرة. هذا العدد مرتبط بعوامل عديدة؛ منها سرعة التوالد، ومقدار الأغذية الموجودة في الجزيرة، وعلاقةُ وتأثير الأحياء الأخرى الموجودة حواليه... إلخ. وكذلك مثال عدد السيّارات التي تَرِد إلى محطة بنزين معيّنة، أو عدد المراجعين من المرضى لقسم الطوارئ في أحد المستشفيات وساعات هذه المراجعات. في هذه النماذج تعد العوامل المختلفة ثابتة ولا تتغير مع الزمن، وذلك من أجل سهولة الحساب. ومع هذا نرى نتائج غير متوقعة حتى في أبسط هذه النماذج، فمثلا إن كان معامل (Coefficient) التكاثر الذي يعبر عن نسبة التكاثر ونسبة الموت وضبط التوازن بين التكاثر والموت، أكبر من حد معين استحال حساب تغير أعداد ذلك الحي حسب السنوات بأي معادلة من المعادلات. لأن عدد النفوس في كل سنة سيأخذ مقدارًا متغيرًا، أي إن ظاهرة ما تتبع عادةً قوانينَ (السبب-النتيجة) أي "الحتمية"، يمكن أن تنقلب إلى ظاهرة غير منتظمة وغير متوازنة. وأمر آخر مشابه يظهر في حركة انسيابِ سائلٍ ذي لزوجة معينة (أي يولد انسيابه قوة احتكاك)، فالسوائل تتبع القوانين الديناميكية لنيوتن في حالة الانسياب الاعتيادي بشكل جميل، ولكن ما إن تزيد سرعة الانسياب عن حد معين حتى تتولد الدوامات وحركات مضطربة وفوضوية لا تتبع أي قانون.


ظهور الفوضى

يرتبط ظهور الفوضى في أي منظومة بحدود وقيم متغيراتها من جهة وبحالة بداية تلك المنظومة وتركيبها من جهة أخرى. وتظهر الفوضى عادة عندما تكون المنظومة غير مستقرة، (أي عندما لا تكون لديها قابلية إنتاج طاقة، وكذلك عندما تكون بعيدة عن الاستقرار الديناميكي الحراري). والأهم هنا عدم كون المنظومات خطية، لاحتمال ظهور الفوضى في منظومة غير خطية وإن كانت المنظومة بسيطة.[٣] والمنظومات غير الخطية لها علاقة بمشتقة المعادلة الرياضية التي تشرح العلاقات فيها. لذا فإن حلها يكون أصعب من حل المعادلات الخطية، بل يستحيل أحيانًا هذا الحل؛ لأن العلاقات في المنظومات غير الخطية تتبدل في لحظة التغير. فالحالات التي يكون فيها الاحتكاك مرتبطاً بالسرعة أو عدد السكان في حالالت ديناميكية هي حالات تكون فيها المنظومة خطية. فإذا كان الاحتكاك مرتبطاً بالسرعة وتغير السرعة بالاحتكاك المؤثر على سرعة الجسم، فإن تغير السرعة مرتبط إذن بالسرعة نفسها. في مثل هذه الحالات وبخاصة عندما تكون المنظومة مفتوحة، تظهر تصرفات وتغيرات غير متوقعة. فمثلا تتغير مقاومة الهواء لحركة البندول بمكعب سرعة البندول، فإن تم تسليط قوة من الخارج إلى هذا البندول فإن هذه القوة -بعد حد معين من مقدارها- تؤدي إلى حركة فوضوية للبندول الذي يقوم بحركات غير متكررة بعدد لانهائي، ولا يمكن معرفة المدارات التي يرسمها هذا البندول ضمن مستوى معين ذي بُعدَيْن. لذا فإن من خصائص النظم الفوضوية أنها تقوم بتحقيق جميع البدائل المختلفة والممكنة عندما يكون هناك زمن كافٍ.

قانون الأنتروبيا

تناولت الفيزياء الكلاسيكية -في أغلب الأحوال- النظمَ المتوازنة، وَوَضعت قوانينَ الديناميكية الحرارية حسب هذه النظم. أحد هذه القوانين -وربما أهمها- هو قانون "الأنتروبيا". والأنتروبيا يعد مقياسًا للفوضى، وهو يزداد على الدوام في النظم المغلقة. فإن طبّقنا هذا القانون على الكون ككل نقول: إن الكون كان في بدايته منظمًا بدرجة كبيرة، ثم بدأت الفوضى بالزيادة فيه، وفي النهاية عندما تتساوى الحرارة بين كل أجزائه[٤] تتوقف جميع الفعاليات والتفاعلات. أما النظم المفتوحة، أي النظم التي تأتي إليها الطاقة والمادة من الخارج، فهي نظم غير مستقرة في الأغلب، وهي -حسب الديناميكية الحرارية- نظم أهمل تدقيقها، كما أن تدقيقها صعب بدرجة كبيرة. وقد اهتم العالم "بريغوغين" وأصدقاؤه بهذه النظم وتوصلوا إلى نتائج تسترعي الانتباه.

فالدوامات التي تحصل في نهر سريع الجريان، والدوامات الهوائية،



والأعاصير التي تحصل في الطبقات الجوية، والأشـكال المعقدة التي يشكلها بندول متحرك، والأشكال الزخرفية المعقدة التي تتشكل بعد بعض التفاعلات الكيميائية، أمثلة على البنى المعقدة التي تُشكّلها المنظومات غير المستقرة نتيجة قوى خارجية تؤثر فيها. ولكن يجب معرفة التعاريف العلمية والتكنيكية للمصطلحات الواردة هنا من أمثال "المنظومة" و"المعقد" و"النظم المســتقرة وغير المستقرة" وملاحظة معاني هذه المصطلحات والتعاريف. فمثلا يعرض لنا نهر يســيل ببطء سيَلانًا هادئًا ومستقرًّا، ولكن ما إن تزيد سرعة التدفق عن حد معين حتى تتشكل الدوامات فيه، أي تظهر هنا بُنى جديدة وهي بنى الدوامات. ولما كانت هذه البنى الجديدة معقدة التركيب وأكثر ديناميكية، لذا يقال: إن النهر أصبح أكثر نظامًا من حاله الأول القريب من الركود، أي إن درجة النظام في أي منظومة تقاس بمقدار تعقدها وليس ببساطتها. ولا يعني التعقيد هنا، الفوضى وعدم النظام، بل هو مصطلح يعبر عن ارتباط أجزاء عديدة ارتباطًا بنيويًّا ضمن علاقات خاصة لتحقيق مهمات معينة. ولا شك أن هذه المصطلحــات لا تزال مبهمة من الناحية العلمية، و لم يتم التوصل حولها إلى إجماع في القبول. ولكن هناك مساعٍ عديدة تبذل حاليًّا حولها، وهي محل اهتمام خاص.

فإن أردنا التلخيص نقــول بأن الاحتكاك الذي يعد في نظر فيزياء نيوتن (أي الفيزياء الكلاســيكية) عنصرًا ضارًّا يعوق الحركة والطاقة ويعمل ضدهما.. هذا الاحتكاك يؤدي إلى تشــكيل منظومات جديدة وبنى معقدة في بعض المنظومات المفتوحة وغير المستقرة. ثم إن الاحتكاك والمقاومة وغيرها من القوى غير المرغوب فيها عادة قد تلعب دورًا في توليد النظام، وهذا يشــير إلى وجود الجمال والفائدة في كل شيء بالمعنى المطلق.

خواص النظام الفوضوي وتجربة لورنز

أهم خاصية من خواص النظام الفوضوي كونه مرتبطًا بظروف بدايته بشكل حساس، وأفضل مثال على هذا ما نراه في التقلبات الجوية. ففي الستينيات عندما بدأ استعمال العقول الألكترونية (الكومبيوتر) لأول مرة حاولوا الوصول إلى تخمين التقلبات الجوية بوضع الظروف الجوية المختلفة في أنموذج ووضع برنامج لحل هذا الأنموذج. قام أحد أخصائيي الأنواء الجوية واسمه "أدوارد لورنز" بوضع برنامج بســيط أراد من ورائه الوصول إلى تخمين التقلبات الجوية. وما حدث له كان إشارة إلى ولادة علم جديد.

كان "لورنز" يعلم أن التقلبات الجوية تجري حســب قوانين معينة. لذا وضع في جهازه للعقــل الألكتروني أنموذجًا للتقلبات الجوية، ووضع ١٢ معادلة مرتبطة بتقلبات الحرارة والضغط وســرعة الريــح... إلخ. كان يأمل منها حل العلاقات الموجــودة بين هذه العوامل المتغيرة والمؤثــرة في التقلبات الجوية والتوصل إلى تنبؤ صحيــح للأحوال الجوية. فقد تم التوصل مثــلا إلى تواريخ ظهور مذنب "هالّي" وموقعه بالنسبة للدنيا في كل مرة بشكل مسبق، وذلك باستعمال قوانين نيوتن بعد حســاب كتلة الشمس وكتل كواكب المجموعة الشمسية ومواقعها وسرعاتها..

إلخ، لذا خطر بالبال بأننا إن قمنا بمعرفة الشروط المختلفة للأنواء الجوية -التي تشكل منظومة أعقد من مثال مذنّب "هالي"- من خلال تثبيت الآلاف من أجهزة قياس الحرارة والضغط وغيرهما من العوامل المؤثرة في الأنواء الجوية في مختلف الأماكن، ومعرفة هذه الظروف والشروط في فترة زمنية محددة، وأدرجنا هذه المعلومات في العقل الألكتروني، استطعنا التنبؤ مسبقًا بالأحوال الجوية المتوقعة بعد فترة أو بعد زمن محدد. والعنصر الوحيد الذي يمكن أن يؤدي إلى مشكلة هو مدى صحة المعلومات والقياسات التي نحصل عليها في البداية، والبعد قدر الإمكان عن أخطاء القياسات الأولية. ولكن كان من أهم فروض العلم الكلاسيكي ما يأتي:

"إن كنا نعلم الوضع الأولي لمنظومة ما بشكل تقريبي، وكنا نعرف أيضًا القوانين السارية فيها، استطعنا معرفة التصرف التالي للمنظومة بشكل تقريبي". يقول أحد علماء الفيزياء النظرية: "من أهم أسس التفكير العلمي الغربي هو أننا عندما ندقق حركة كرة بيلياردو فوق منضدة، نستطيع أن نهمل حركة سقوط ورقة في كوكب في مجرة أخرى، لأنه يمكن إهمال التأثيرات الصغيرة جدًّا."

واستنادًا إلى هذا الأساس قال علماء الأنواء الجوية بأن المعلومات التقريبية ستعطي لنا معلومات تقريبية أو نتائج تقريبية عند حساب التوقعات الجوية.

كان "لورنز" يفكر هكذا أيضًا، لذا سجل المعلومات الأولية في جهازه مراقبًا ما ستكون عليه الأحوال الجوية. وفي أحد الأيام أوقف حساباته لأنه كان يريد فحص بعض أجزاء نواحي تطورِ وتغير الأنواء الجوية. ثم عاد إلى جهازه وأدخل فيه النتائج التي توصل إليها حتى تلك اللحظة. شغّل جهازه ثم خرج للترويح عن نفسه وشرب القهوة. وعندما رجع بعد ساعة رأى شيئًا لم يكن يتوقعه، فالخطوط البيانية التي كانت تشرح وتشير إلى حالة الأنواء الجوية منذ قيامه بوضع حساباته، كانت تختلف عن الخطوط البيانية الجديدة، أي إنها اختلفت بعد مرور فترة زمنية عليها، وكان هذا يؤدي إلى اختلاف كامل في التوقعات بعد عدة أشهر. فكّر في الوهلة الأولى أن هناك عطلاً ما في جهازه، ولكنه فهم ما حدث بعد حين. تذكر أنه عندما ألقم جهازه بالمعلومات استعمل معلومات تقريبية؛ فمثلا بدلاً من أن يلقم جهازه بعدد (٠,٥٠٦١٢٧)، ألقمه بعدد تقريبي له هو (٠,٥٠٦). وهذا التقريب الذي يبلغ أقل من جزء من ألف جزء تقريب مقبول في الأقمار الصناعية المخصصة للأنواء الجوية. وقيام هذه الأقمار بتسجيل الحرارة بكفاءة جزء من ألف جزء من درجة الحرارة يعد نجاحًا كبيرًا. غير أن خطأً في الأرقام وفي المعلومات يبلغ جزءًا من ألف جزء يكبُر بمضيّ الوقت حتى يبلغ هذا الخطأُ مائة بالمائة، أي إن جميع المعلومات الأولية المسجلة تصبح دون أي فائدة جراء هذا الخطأ الصغير أو هذا التقريب.

لذا فلكي نحسب تقلبات الجو المستقبلية بدقة، علينا أن نعرف القيم الأولية بدقة كبيرة. وهذا ينطبق على أي منظومة ديناميكية أخرى، غير أنه بينما يكبر الخطأ بمرور الزمن في النظم الخطية بشكل خطي، يكبر الخطأ في النظم غير الخطية بشكل يتعلق بمعادلة المنظومة، أي إن زيادة الخطأ في النظم غير الخطية تكون بشكل متسارع جداً بحيث يستحيل تخمين التقلبات الجوية لزمن طويل؛ لأن الخطأ يكبر هكذا في منظومة من الدرجة الثانية (١٠، ١٠٠، ١٠٠٠،... إلخ).

فكّر بعض الباحثين بأننا إن استخدمنا نماذج متقدمة للأنواء الجوية وأجهزة كومبيوتر متقدمة جدًّا سنحصل على تخمينات أفضل ولمدة أطول. لذا استخدموا في الولايات المتحدة الأمريكية كومبيوتراً متقدماً جدًّا اسمه (Control Data Cyber ٢٠٥) حيث يستطيع إجراء ملايين العمليات في الثانية الواحدة، بينما كان الكومبيوتر البدائي الذي استخدمه "لورنز" يستطيع إجراء ٦٠ عملية فقط في الثانية. وبينما اكتفى "لورنز" باستعمال ١٢ معادلة، فقد حُمّل الكومبيوتر العملاق (٥٠٠,٠٠٠) معادلة. وتناولت هذه المعادلات حساب كل المتغيرات المتعلقة بالجو بدءًا من تغير الحرارة نتيجة تكاثف الرطوبة، إلى تأثير الجبال على هبوب الرياح... إلخ. وانهالت المعلومات وقياسات المتغيرات الجوية (حرارة، ضغط، ريح... إلخ.) من جميع الولايات الأمريكية ومن الطائرات في الجو ومن الأقمار الصناعية ومن السفن إلى هذا الكومبيوتر العملاق. ومع كل هذه المحاولات والجهود فلم ينجح تخمين التقلبات الجوية إلا لمدة يومين أو ثلاثة أيام فقط. ثم ابتعدت هذه التخمينات بعد هذه المدة عن الواقع. أما بعد أسبوع فلم تعد للتخمينات أي قيمة.

نظرية تأثير الفراشة

وهناك مصطلح "تأثير الفراشة" وضع بشكل نصف جدي ونصف هزلي، وهو يقول بأن فراشة عندما تهز جناحيها في



"طوكيو" فليس بمستبعد أن تُحدث هذه الهزّة عاصفةً في "نيويورك" بعد شهر. وذلك لبيان كيف أن الأنواء الجوية نظام فوضوي ومعقد وتؤثر فيه عوامل عديدة جدًّا، وكيف ولماذا يستحيل تخمين التقلبات الجوية بعد فترة معيّنة بسبب تضاعف التأثيرات والمتغيرات والأخطاء الدقيقة والصغيرة جدًّا، وتضخمها بسرعة كبيرة. والأمر الذي نريد التنبيه إليه هو أن العواصف لا تتشكل بتأثر التيار الهوائي التي تحدثها الفراشة، لأن الطاقة موجودة في الجو، ولكن المهم توجيه هذه الطاقة. أي إن حدوث تغيرات عديدة في الجو مرتبطة بالظروف والشروط الموجودة في بداية النظام بشكل حساس جدًّا. وهناك عملية حسابية أخرى تذكر أن غياب تأثير قوة جاذبية ألكترون واحد في مجرة أخرى في الطرف الآخر من الكون، قد يُحدث بعد ثلاثة أو أربعة أشهر عواصف في كوكبنا.

وكما ظهر آنفًا، فقد تبين خطأ المقولة العلمية الكلاسيكية الغربية: "إن علمنا القوانين الأساسية المؤثرة في منظومة، وكنا نعلم الظروف الأولية لها بشكل تقريبي نستطيع حساب التطورات المتوقعة لها بشكل تقريبي حسب الفترات الزمنية القادمة". لأن بعض المنظومات مرتبطة بشروطها وظروفها الأولية ارتباطًا وثيقًا وحساسًا جدًّا. لذا فأنت لكي تعرف ما ستؤول إليه هذه المنظومة فيما بعد، يجب أن تعرف ظروفها الأولية والشروط المحيطة بها معرفة خالية من أي خطأ وبشكل مفصل تمامًا. وبما أن الأنواء الجوية منظومة من هذه المنظومات، فإننا مهما حاولنا جمع المعلومات الحساسة والدقيقة حولها، فهناك مقدار زمني إن مرّ عليها فلا تكون لهذه المعلومات أي قيمة. ومن المستحيل أن يزيد هذا المقدار الزمني على بضعة أسابيع في أي حال من الأحوال. لذا فإننا نعلم الآن لماذا كان هطول الغيث -وهو جزء من الأنواء الجوية- في القرآن الكريم يعد من "المغيبات الخمس". من ثم فإننا نقول بأن الحقائق القرآنية لا تشيخ ولا تبلى بمرور الزمن، بل تتوضح أكثر، وإن تقدُّم العلم في المستقبل سيقدم لنا فهمًا أعمق لما جاء في القرآن الكريم. ■

(*) باحث في جامعة الفاتح / تركيا. الترجمة عن التركية: أورخان محمد علي.

الهوامش

(١) فمثلا عندما تريد مراقبة حركة ألكترون فإنك لن تشاهد الألكترون إلا إذا أرسلت لها فوتوناً ضوئية، ولكن هذا الفوتون عندما يصطدم بالألكترون يغير من مكان وموضع الألكترون، فلا يمكن معرفة موضع الأكترون وعزمه الحركي معاً. (المترجم)

(٢) مثلا يعد الكون نظاماً مغلقاً لأنه لا تأتيه طاقة من خارجه، أما الأرض فتعد نظاماً مفتوحاً لوصول طاقة الشمس إليها من الخارج. (المترجم)

(٣) المنظومة الخطية: هي المنظومة التي يكون فيها المجهول من الدرجة الأولى، مثال؛ $x=y+5$، والمنظومة غير الخطية: هي المنظومة التي يكون فيها المجهول من الدرجة الثانية أو أكثر، مثال؛ $y=x^2+x+20$ أو $y^3+x^2=x+5$

(٤) لأن هناك انتقال مستمر للحرارة في الكون من الأجسام الساخنة -كالشموس- إلى أجزاء أبرد منها. ويستمر هذا الانتقال حتى تتساوى درجة الحرارة في جميع أرجاء الكون، وهذا يعني موت الكون. (المترجم)

بروحك ارتقِ وإلى أعلى الشمائل خذها.. جدّد مناقبها واشحن
طاقات عليائها.. ولأنها للخلود مرصودة وبالأبد موعودة..
فاحفظها من الزلل وصُنها من الخطأ وعنها طرفة عين لا تغفل..



المسوّف

رمضان كربش*

أكثر من مرة تثاءب، تمطّى، فرقع أصابع يديه، فرك عينيه.. وهمّ بالنهوض وتركِ الفراش.. غير أن شيئاً ما كان يمسك بتلابيبه ويمنعه من الحراك.. أوه.. هذه أمي.. أسمع وقع خطواتها على السلّم.. وكالعادة ستنهال عليّ توبيخاً وتوقر سمعي بمواعظها.. ما أطيبَ الفراش وما أطيب الدفء الذي يشيعه في نفسي وجسمي.. ها هي تقف قبالة سريري:

– انهض يا بنيّ.. ما هذا الكسل؟ نحن الآن في الظهيرة.. أنسيتَ أم أرى أنك تتناسى.. الامتحانات على الأبواب.. قم وذاكر دروسك يكفيك كسلاً...

– حسناً يا أمي استمعتُ إليكِ.. اتركيني الآن، دعيني أكمل نومي، وسأنهض بعد ذلك وأذاكر كما تريدين!..

عادة "التسويف" هذه صارت طابع حياته، لم يستطع نبذها وراء ظهره حتى وهو طالب جامعي، حيث كانت

سبباً في تأخره عن زملائه في كل شيء. وفي أحد الأيام رجاه أحد زملائه أن يصحبه إلى الجامع لأداء فريضة الجمعة، فوجئ بهذا الرجاء. وعلى الرغم من أنه يدرك أن "الموت" إذا جاء فلا يمكن أن يقول له: انتظر قليلاً، أو من فضلك تعالَ غداً حتى أستعدّ لاستقبالك.. فقد ردّ على زميله:

– اذهب أنت اليوم، ولكني أعدك أني سأباشر الصلاة في وقت لاحق وربما أصطحبتك وقتذاك إلى الجامع...

وغادر كليته بعد فشله سنتين متتاليتين، وهام على وجهه لا يدري ماذا يفعل، ولكن واحداً من زملائه اصطحبه إلى صديق له من رجال الأعمال ورجاه أن يلحقه بعمل ما ليعتاش منه.

مضت الأيام والسنون فإذا به يتزوج ويرزق بأطفال يقوم بتربيتهم ورعايتهم. وحين نصحه صديقه أن يزيد من اهتمامه بأطفاله ويوجههم الوجهة الحميدة تعلّل –كما هو شأنه دائماً– بأن أطفاله لا زالوا صغاراً وأنه سيفعل ذلك عندما يكبرون قليلاً. وعندما كبر هؤلاء الأطفال وباتت تؤرقهم أسئلة كثيرة لا يعرفون جواباً عنها، ويسألون ويلحون بالسؤال على والدهم، اكتشف الوالد نفسه، وعرف أنه لم يكن على دراية ليجيب أولاده عما يختلج في أذهانهم من إشكالات في الدين والحياة، وأنه خالي الوفاض لا يكاد يعرف شيئاً مما ينبغي أن يعرفه كلُّ أب للأخذ بأيدي أبنائه إلى الطريق المستقيم. لم يجد بداً من التردد على المكتبات والاستعانة ببعض الكتب التي يمكن أن تزوده بما هو يفتقر إليه من علم وثقافة. اختار بعضاً من هذه الكتب وأراد أن يدفع أثمانها، توقف قليلاً وتردد وقال في نفسه: "إن ما معي من النقود لا تغطي ثمن هذه الكتب، إذن سأشتريها عندما تتوفر لي النقود اللازمة"، ثم ترك الكتب ومضى لشأنه. وعندما توفرت له النقود لم يخطر بباله العودة إلى المكتبة واقتناء الكتب التي اختارها في المرة الأولى.

وبعد فترة طويلة، وبينما كان ذاهبا لعمله، شاهد متسولا معاقا، وفكر في إعطائه بعض النقود إلا أنه قال في نفسه: "أستطيع أن أعطيها له عند العودة".

وبينما كان يقترب من عمله سمع صوت المؤذن، وكان أحد أقربائه قد توفي.. اغتم من داخله وفكر قائلا: "إن الموت سوف يصيبني ذات يوم، والعمر يمر بسرعة.." ثم سأل نفسه: "ألم يحن الوقتُ بعدُ لدفع متطلبات روحي المعذبة؟".. كان رده بلا تردد: "نعم، ولكن المشاغل في هذه الفترة كثيرة للغاية، ليأت فصل الصيف ونتخفَّف من مشاغلنا عندها نفكر، كما أن أيام الله لا تنتهي"!

وبينما كان يمر في طريقه بين الأكواخ أثناء العودة من العمل شعر في داخله بمرارة، وتذكر سنوات المشقة، "يا إلهي! ما سبب تلك الدموع؟".. لم يتحمل ثقل المشاعر أكثر من ذلك، ففاضت عيناه بالدموع، وعندما نفدت طاقة تحمله جثا على ركبتيه واستمر في البكاء.

وتصدعت روحه بأحاسيس لا يمكن وصفها.. مسح عينيه وتمتم قائلا: "لعلي أستطيع تدوين هذه المشاعر والأحاسيس على الورق لأنها تشكل صفحة مهمة من تاريخ حياتي" ولكنه أردف يقول: "ذات يوم سأفعل ذلك".

كان يوما يساوي ألف شهر، ولكن عليه أن يعلم أنه لكي يتمكن من الوصول لذلك اليوم، يجب أن يعرف قدر كل يوم، وأن يبذل جهده في كل خطوة.

وذات يوم خرق صوت المؤذن سكون الحي، فأقبل الأصدقاء من كل مكان حتى امتلأ صحن المسجد بهم لحضور صلاة الجنازة. كان معروفاً لدى أهل الحي.. ذاك الرجل الذي فقد حياته أثناء ذهابه لعمله نتيجة ارتطامه بسيارة كان يقودها سائق مستهتر.. اصطفوا للصلاة عليه، وأثناء الصلاة فكر صديق له كان يحبه وينصحه دائما بأن لا يؤجل عمله لغد.. ذكر الرجل الذي لم يعط لأيامه أهمية وأمضاها بقوله دائما: "يوما ما".

وعندما بدأت الجماعة في التفرق اقترب صديقه من التابوت، ووضع يده عليه بالرغم من نظرات الإمام وهمس قائلا: "أواه يا صديقي ألم تكن تعلم أن الموت يطاردنا وأنْ لا مناص منه، وها أنت اليوم تلقاه كما سنلقاه نحن من بعدك".. ■

(*) كاتب وأديب تركي. الترجمة عن التركية بتصرف: د. سمير زهران، أديب إبراهيم الدباغ.

في القلب يا حراء

عادل سعيد القدسي*

قبل أشهر من الآن أتتني "دعوة حراء". دعوة لحضور ندوة في صنعاء حول "حراء" المجلة – أعني- لا حراء الغار.. وأنا أنظر في تلك الدعوة الكريمة.. أقلبُ فيها تملكتني حينها مشاعر لذيذة، أحاسيس رائعة.. شدتني تلك المشاعر والأحاسيس من جميع أقطاري.. نقلتني على جناح الحب من دنياي التي أستقيم عليها.. دنيا الناس والدواب.. إلى دنيا غير الدنيا، إلى عالم غير العالم، من عالم البشر إلى عالم الملائكة انتقلت.

يا الله يا الله ما أُحيلاه ذلكم الانتقال، ذلكم التحليق.. من عالم بائس يائس تعيس مليء بالصراعات بالتناقضات، إلى عالم طاهر شفاف.. بلون الحب يتشكل، و"حراء" -إن كنتم لا تعلمون- مجلة ورقية مصقولة.. وبالألوان حملت هذا الاسم الرائع، وحملت معه شبهاً كبيراً به.. على نحو ما قيل: "لكل امرئ من اسمه نصيب".

ما إن تصافح عينيك أو تصافحها حتى تلتهمها.. و"من الغلاف للغلاف".. من الجلدة للجلدة كما تقولون..

المهم.. لبيتُ "دعوة حراء".. وبين يدي "حراء" لا تكون إلاّ التلبية والحضور الفوري.. وسمعاً وطاعة يا "حراء"..

وجئت "حراء".. جئتها روحي قبل جسدي تسبقني، جئتُ وأفكار رأسي تزاحمني.. أيّ "حراء"!! من قلب الصحراء أنتِ، من عمق البادية ولدتِ، من وراء الذكريات والتاريخ تحضرين فتيةً قوية لكأنك ابنة لحظتك.. تجيئين بعد ألف وأربعمائة عام وتزيد من السنين أنيقةً متجددة تجيئين..

ومن أين تجيئين "يا حراء"؟.. من أين تجيئين؟..

من أيّ رحم مبارك تخرجين؟ إنه ذات الرحم المبارك الولود، رحم مكة والمدينة ودمشق وإسطنبول والقاهرة وإسلام أباد.. جئتُ أنا "حراء".. ملبياً دعوتها يحدوني شوق وشوق عارم نحو بلد الإسلام وقلعته الحصينة تركيا.. قطعتُ نحو "حراء" مئات الكيلومترات وكلّي رغبة لمعرفة هذا البلد الحبيب الذي انقطعتْ أو تقطعت به السبل نحو أهله وإخوانه، مثلما كان يحدوني للمجيء ويدفعني رغبتي كرجل فضولي أقصد إعلاميّ هو أن أدس أنفي -المعذرة- (أريد قلمي) في شأن هذه المجلة الحبيبة إلى قلبي، وأن أجد منها "موطئ قلم" أشارك فيها كاتباً أو مراسلاً.. أو -حتى- محرراً ومن قلب المعركة "تركيا".. وهو حلمٌ -لو تعلمون- عزيز.. وما ذلك على الله بعزيز..

وفي ندوة "حراء".. برغم الطقس البارد.. برغم غربة الوجوه وتنائي الديار شعرتُ بدفء عجيب.. بحنان وحب..

"حراء" التي اقتحمت بنا فندق "خمسة نجوم" حولت ذلك الفندق بما فيه بكل ما فيه إلى نجوم لا تعد ولا تُحصى..

ما أُحيلاها تلك الوجوه المؤمنة التي جاءتنا من بلد الإيمان والخير والعطاء من تركيا ومن القاهرة ومن الجزائر..

ما أُحيلاها هذه المجلة تتقدم هذا الموكب الكريم ويقدم أبناؤها حفلة بلغة راقية.. لغة فصيحة تكاد تغيب عن عالمنا العربي القح!!

لكِ الله "حراء".. لكِ الحاضر وكل المستقبل.. ووعد نقطعه أن نكون مع "حراء".. نلبي دعوتها.. ننشر فكرها.. وهو أقل الواجب.. وأضعف الإيمان.. ■

(*) كاتب صحفي من اليمن.

- غيوث هاطلة على جمرات الوجدان وانداء على نيران الاشواق.
- من أعظم ما سطره قلم على لوحة الوجود الانساني.
- المترجم بصدق عن هواتف الروح وانات الفؤاد.

مولانا

جلال الدين الرومي

أ. د. جيهان أوكويوجو



مركز التوزيع فرع القاهرة : [illegible] القاهرة / مصر
تليفون وفاكس: 20222631551+ [illegible] الهاتف الجوال: 20165523088+
www.daralnile.com

دار النيل

حراء
مجلة علمية ثقافية فصلية
www.hiramagazine.com

تركيا: ٥ ليرات • أوروبا: ٣ يورو • أمريكا: ٤,٥ دولار

إن مَن عرف طريقه، وعرف الهدف الذي يتوجه إليه، وكان واثقاً من القوة التي يستند إليها.. استطاع أن يرقى إلى الذرى ويتجاوزها فيصل إلى الشاهقة مرات ومرات.. تصغر الأرض تحت أقدامه، وتَفتح السماواتُ صدرها لعرفانه، وتتحول العوائق إلى جسور تنقله إلى أهدافه..



9 771306 187009 17
www.hiramagazine.com

العدد التاسع / السنة الثالثة / (أكتوبر - ديسمبر) 2007

حراء

مجلة علمية ثقافية فصلية

www.hiramagazine.com



صدورنا بستان، للشفقة والتّحنان. نقطف منها الباقات ونُهديها للإنسان في كلّ مكان.
هلُمَّ يا إنسان! بمُرْهَف إنسانيتك نناشدك! افْتَح لنا الطريق لنتخطّى العقبات ونستقلّ الأجواء ونقطع الأمداء، بروحنا الحنون وجناحنا الرفّاف بالظّلّ والأشواق...!

* * *

قوانا الذاتية

قد لا يكون في وسعنا أن نفهم أو نقيس القوى العظيمة التي تنطوي عليها الأمة حين نقف على ما يطفو على سطحها من ظواهر عادية قد لا تثير اهتمام أحد. وهذه الظواهر لا تعني أنّ القوى غير العادية والخارقة في دواخلها ليست بموجودة؛ بل هي موجودة، غير أنها مصونة عن الأنظار وفي حاجة إلى صاحب النظر النافذ والحاد لكي يقاربها، ومن ثَمّة يبرزها للعيان.

إنّ تعاساتنا وإحباطاتنا المتتالية قد تشكل حاجزاً يعشي أنظارنا فلا نستطيع النظر إلى الأعمق من ذاتية الأمة وتكويناتها الذهنية والوجدانية المطمورة في أعماقها، لذلك فكل جهد يبذل من أجل تحديد النظر إلى ذاتية الأمة وأعماقها التاريخية والحضارية فهو جهد مشكور وهو بالتالي يسهم في عملية الانبعاث المرتقب. فمقال أستاذنا فتح الله كولن في مفتتح "حراء" "نحو عالمنا الذاتي" يهدف في جملته إلى تجديد الأمل في عظمة الأمة وبانبعاثها عندما تتوفر عوامل هذا الانبعاث كما يراها الأستاذ.

وأيُّ انبعاث لا يستند إلى القرآن والسنّة المطهرة جهد ضائع لا يفضي إلاّ إلى المزيد من الإخفاق والإحباط، ومن هنا جاء اهتمام الشعوب الإسلامية غير العربية بالقرآن وبلغة القرآن. وكان الأستاذ الدكتور خالد الصمدي موفقاً في الإشارة إلى هذه المعاني في مقاله "لغة العرب أم لغة القرآن".

والأستاذ البوطي، هذا القلب الحزين والكسير يناجي ربّه مناجاة مقتطعة من حنايا روحه، وإنما بالتأكيد ستشيع في قراء "حراء" حزناً سامياً محبباً يذكّرهم بالعجز والافتقار إلى رحمة الجليل القهار.

ولا نكاد ننتهي من هذه المناجاة حتى يطالعنا أديب الدباغ بصفحة من صفحات "نثره الفني" ذي النفَس الشاعري عن "درويش في بلاد الأناضول" وهو مترع بالرمزية والإيمائية إلى معانٍ يعجز القلم في كثير من الأحيان عن الإفصاح عنها.

ونخرج من هذه "الرمزيات والإيمائيات" لنعود إلى شاعرة الإيماء والرمز سعاد الناصر في قصيدتها الجميلة "همس الورود" وإلى "نبيلة الخطيب" في قصيدتها "طوبى"، ثم إلى كبير شعراء المغرب العربي الأستاذ حسن الأمراني في قصيدته الرائعة "مكة"، والمغربي الآخر الأستاذ الكبير فريد الأنصاري في مقاله الرائع عن "فلسفة العمر"، ومن هنا نعرج لنطالع "فلسفة الإسلام في التعايش مع الآخر الديني والثقافي" للأستاذ الكبير والباحث الجاد الدكتور محمد عمارة الذي لا ينفك يتحفنا بروائعه الإسلامية التي يتتلمذ عليها آلاف القراء في العالمين العربي والإسلامي.. إلى جانب مقالات أخرى تثري حياتنا الفكرية والإيمانية، ومن الله التوفيق.■

بسم الله الرحمن الرحيم

حراء

مجلة علمية ثقافية فصلية

www.hiramagazine.com

العدد التاسع – السنة الثالثة (أكتوبر – ديسمبر) 2007

التصور العام

- حراء مجلة علمية ثقافية فصلية تعنى بالعلوم الطبيعية والإنسانية والاجتماعية وتحاور أسرار النفس البشرية وآفاق الكون الشاسعة بالمنظور القرآني الإيماني في تآلف وتناسب بين العلم والإيمان، والعقل والقلب، والفكر والواقع.
- تجمع بين الأصالة والمعاصرة وتعتمد الوسطية في فهم الإسلام وفهم الواقع، مع البعد عن الإفراط والتفريط.
- تؤمن بالانفتاح على الآخر، والحوار البناء والهادئ فيما يصب لصالح الإنسانية.
- تسعى إلى الموازنة بين العلمية في المضمون والجمالية في الشكل وأسلوب العرض، ومن ثم تدعو إلى معالجة المواد بمهنية عالية مع التبسيط ومراعاة الجوانب الأدبية والجمالية في الكتابة.

شروط النشر

- أن يكون النص المرسل جديدا لم يسبق نشره.
- ألا يزيد حجم النص على ٢٠٠٠ كلمة كحد أقصى، وللمجلة أن تلخص أو تختصر النصوص التي تتجاوز الحد المطلوب.
- يرجى من الكاتب الذي لم يسبق له النشر في المجلة إرسال نبذة مختصرة عن سيرته الذاتية.
- تخضع الأعمال المعروضة للنشر لموافقة هيئة التحرير، ولهيئة التحرير أن تطلب من الكاتب إجراء أي تعديل على المادة المقدمة قبل إجازتها للنشر.
- المجلة غير ملزمة بإعادة النصوص إلى أصحابها نشرت أم لم تنشر، وتلتزم بإبلاغ أصحابها بقبول النشر، ولا تلتزم بإبداء أسباب عدم النشر.
- تحتفظ المجلة بحقها في نشر النصوص وفق خطة التحرير وحسب التوقيت الذي تراه مناسبا.
- النصوص التي تنشر في المجلة تعبّر عن آراء كُتّابها، ولا تعبّر بالضرورة عن رأي المجلة.
- للمجلة حق إعادة نشر النص منفصلاً أو ضمن مجموعة من البحوث، بلغته الأصلية أو مترجمًا إلى أي لغة أخرى، دون حاجة إلى استئذان صاحب النص.
- مجلة حراء لا تمانع في النقل أو الاقتباس عنها شريطة ذكر المصدر.

يرجى إرسال جميع المشاركات إلى هيئة تحرير المجلة على العنوان الآتي:

hira@hiramagazine.com

مجلة علمية ثقافية فصلية تصدر عن

Işık Özel Eğitim Tic. Ltd. Şti.
İstanbul / Türkiye

صاحب الامتياز
أنس أركنه
mergene@hiramagazine.com

المشرف العام
نوزاد صواش
nsavas@hiramagazine.com

رئيس التحرير المسؤول
هانئ رسلان
hraslan@hiramagazine.com

مدير التحرير
أشرف أونن
eonen@hiramagazine.com

المخرج الفني
مراد عرباجي
marabaci@hiramagazine.com

المركز الرئيس
HIRA MAGAZINE
Emniyet Mah. Huzur Sok.
No:5 34676 Üsküdar
İstanbul / Turkey
Phone: +902163186011
Fax: +902163184202
hira@hiramagazine.com

الاشتراكات/مركز التوزيع
٧ ش البرامكة - الحي السابع - م.نصر/القاهرة
تليفون وفاكس: +20222619204
جمهورية مصر العربية
sub@hiramagazine.com

نوع النشر
مجلة دورية دولية

Yayın Türü
Yaygın Süreli

الطباعة
Çağlayan Matbaası
İzmir- Türkiye
Tel: +90 (232) 252 20 96

رقم الإيداع
١٨٧٩-١٣٠٦

المحتويات





نحو عالمنا الذاتي

فتح الله كولن

لقد تكرر الكلام كثيرًا عن دعاوي البناء من جديد في عهود وأزمان متعددة وبقاع متنوعة من الأرض وبعناوين مختلفة. ولكن يبقى صدق هذه الدعاوى قابلاً للأخذ والرد ومفتوحًا للنقاش في كل وقت. إلاّ أن هنالك عالَمًا يوفي عملية البناء حقها... بتناول واحتضان الوجود وما وراء ستار الوجود، والإنسان والحياة جميعًا، عالَمًا حرًّا وطليقًا من كل القيود المذكورة آنفًا. ولا ريب أن هذا العالم، وباعتبار الأمد الطويل خاصة، هو عالمنا ودنيانا نحن.

إن عالمنا هذا -بعد أن عانى على مدى قرون من أزمات وزلازل مديدة- ما زال قادرًا -رغم كل شيء- على تحقيق تكوين في الحاضر من جديد؛ وما برح يحمل في كيانه قوة كامنة للانبعاث من جديد؛ ولديه من تراكم وخزين معرفي وخبرة حضارية ما يؤهّله لإرشاد ما حوله من التكوينات الجديدة؛ ومن جانب آخر إن قيادته للأمم آمادًا مديدة تركت فرصًا مكتسبة

من القبول الكامن تحت الشعور في الشعوب المنقادة له منذ الزمن الغابر، وعالمنا هو مقتدر على استعمالها اليوم. أجل، إنه جاهز تمامًا بالقيام بدوره، لكن عليه أن يستعمل بشكل صحيح وسليم مرة أخرى المحركات التاريخية التي تُعدّ دمَ هذا الماضي العظيم العريق ولحمَه.

كان عالمنا يسبق عصره بخطوات واسعة في العلوم الطبيعية والدينية، وفي التصوف والمنطق، وفي تخطيط المدن والجماليات، وفي كل مجال ومضمار، بدُهاة نفشوا الوجود كالخوارزمي والبيروني وابن سينا والزهراوي؛ وبأساتذة الفقه والحقوق كأبي حنيفة والإمام محمد والسرخسي والمرغيناني؛ وبذوي استعدادات اجتازت المعايير الإنسانية وعاشوا في محور الوجدان بتغليب مزيج القلب والمنطق على المنطق الصرف كالإمام الغزالي والرازي ومولانا جلال الدين الرومي والشاه النقشبند؛ وبأبطال المحاكمة والفطنة كالإمام الماتريدي والتفتازاني والجرجاني والدواني؛ وبعمالقة الفن كالمِعْمار خير الدين والمِعْمار سِنان وعِطْري وديده أَفَنْدي.. إن هذا العالم يُمكنه -بعد هذه الفترة العابرة- أن يحرّك مجدَّدًا كل الأرواح والأدمغة المنورة، فيحقق النهضة العالمية الثانية أو الثالثة.

أجل، إن عالمنا هذا يستطيع أن يفتح صفحة جديدة بالتوصل إلى تفسير جديد للكون من خلال الإحساس بالروح الإسلامي ومعناه؛ وإلى فكر ماورائي عالَمي (كوني) من خلال الأجواء العميقة والربانية للتصوف؛ وإلى التيقظ والتمكين اللذين يكسبان الإنسان قيمة فوق القيم، من خلال المحاسبة والمراقبة الإسلامية؛ وإلى جمالية تتقبلها وتتبنّاها الجماهير، من خلال المدن وتخطيطها بحيث نتمكّن نحن عبرها من التعبير عما بدواخلنا ويتمكن غيرنا من فهم ما أودعنا فيها من المشاعر؛ وإلى أذواق بديعية حقيقية أصبحت أخروية ولطيفة ومتّحدة بعالم الماوراء، من خلال الفن الذي يَنقش في كل مكان الروحَ والمعنى، ويتحرى في نقشه عن اللانهائي. نعم، يستطيع عالمنا أن يفتح هذه الصفحة الجديدة، على الرغم من أنه يبدو عملا غير يسير.

التخلية والتحلية

نعم، إننا لن نقدر على أن نفتح الصفحة الجديدة من غير انتزاع التصورات والأفكار المنحرفة السائبة في أراضينا منذ سنين وسنين، مثل إضناء الحياة الروحية وإذوائها بدرجة كبيرة، وتعطيل عمل معانينا الدينية؛ ووضع الأقفال على ألسنة القلوب بتَنسية الوجد والعشق تمامًا، ولجوء المثقفين المفكرين والدارسين إلى المادية الوضعية الكثيفة وانحباسهم فيها، وإحلال التعصب والتنطع محل الصلابة والثبات في الحق، وحتى في طلب الآخرة والجنة، طلبها بنظر دوام السعادة الدنيوية المعتادة!

وليس المقصود من هذا القول أننا عاجزون عن انتزاع اللوثيات اللاصقة بأرواحنا في القرون الأخيرة، بل الإفادة بأن بلوغ برّ الأمان عسير غاية العسر ما لم نتخلص كأمة من أسباب ودواعي انهيارنا وانحلالنا الحقيقية، مثل الحرص والكسَل وطلب الشهرة وشهوة السلطة والأنانية والميل إلى الدنيا وغيرها من الأحاسيس والمشاعر، وما لم نتوجَّهْ إلى الحق بما يُعدّ جوهر الإسلام وحقيقته كالاستغناء والجسارة ونكران الذات والاهتمام بهَمّ الآخر والروحانية والربانية، وما لم نُصفَّ بمشاعر الحق ونصبَّ في قالبه... لكن العسر الشديد لا يعني المحال. فما لم تَخْلُ الساحة -وهي ليست خالية فعلا- من شجعان مالكين لإرادة تجديدية تحتضن العصر، مع الحفاظ على الجوهر واللب، فسيتحقق -لا شك- هذا التجدد والتغيّر... تجدد وتغير ذو أبعاد قرآنية وسجايا فطرية... سيتحقق هذا بحيث يعجز عن ممانعته الجموع المنغلقة تجاه هذا التصور والمصرّة على هذا الانغلاق، تعجزهم عن صد التيار.

أرواح عظيمة ونهضات عظيمة

فإن النهضات العالمية التي عرفناها وعلمنا بها حتى اليوم، كانت ثمرة سعي الدهاء الفردي، لا حملات الكتل البشرية وحركاتها... فقد كانت التجديدات والتغييرات التي بلغت حد الانفجار أحيانا في السنوات المتعاقبة بعد ظهور الإسلام، من آثار عدد قليل من الأرواح الفذة والعقول الذكية الاستثنائية والأفكار الممتازة التي سمقت في العهد الأموي والعباسي، كما كانت هذه الفكرة الواسعة والروح العميقة والفطرة البراقة خلف التحرك والتكون المنبعث عن المركز في العهد الإِيلْخاني والقَرَه خَاني والسلجوقي والعثماني. إن المسلك الذي افتتحه هؤلاء الروّاد

الذيـــن ظهروا بمعنوية عاليـــة في كل مرحلة من المراحل، تَحوّل بعـــد لأيٍ ومدة إلى مدارس وتيارات تنفخ روح البناء من جديد في الكتل البشـــرية. فتابع من سار خلفهم طريق أولئك الأرواح المرشدة وتعقبوا درب أفكارهم، وانحشرت الحشود على أثرهم، ولجأوا إلى إقليمهم الوضّاء. فعاش هؤلاء المرشـــدون العظام مع الحشود وكأنهم الروح والدم منهم. أما في مراحل أفول الأدمغة العظيمة السامقة هذه، وغياب مَن يسدّ فراغهم من بعدهم، فإن الذهول وتفحّم الفكر وعقم التجديد أصاب المجتمع بكل أصنافه وطبقاته، وأصبح التجدد من قبيل المستحيلات.

وفي هذه الأثناء، إذ تتحول الأيـــام إلى الربيع، ويتبع الفجرَ فجـــرٌ، ينتعش أملنا وانتظارنا، فندعو ربنـــا تعالى أن يهَبنا إرادةً مؤيَّدة بالمشيئة تُعيننا في إقامة صرح روحنا، وجعْل قلوبنا خضراء كربوع الجنة، والســـموّ بقلوبنا إلى فهم أســـرار حرم الألوهية، وأن يُلهم أمتنا طريق التجدد في خط الســـير المحمدي عليه أفضل الصلاة وأتم التسليم.

الأمل المشرق

إن ســـعينا لتحقيق هـــذا الأمل وانتظارنا له هـــو حقنا وواجبنا ومقتضى إيماننا. ولكن من اللازم علينا أثناء اســـتعمال هذا الحق والإيفاء بهذا الواجب أن نراجع ماضينا المجيد باســـتمرار، ونلجأ إلى قيمنا التي جعلت أمسنا زاخرًا بالعظمة. فعندما حقق الغرب نهضة كهذه في مســـيره نحو المدنية الحاضرة، التجأ إلى المسيحية واتّخذ اليونانية مثالاً وتزاوج مع الرومانية القديمة. نرى أشـــباه هذه الأســـس في الحضارات الأخرى في كل زمان. إذن سنلجأ نحن أيضًـــا إلى ماضينا وجذور معانينا ونقتبس من مُثلنا الروحية التي لم يتكدر صفاؤها بتعاقب الزمان. وســـنأخذ من إبداعات عصورنا البيضـــاء التي نراها الفصول الزمنيـــة الذهبية ومصدر فخرنا الأبدي، من الفكر الفلســـفي إلى الحقيقة الصوفية، ومن طبيعة متلقيات الدين المستقرة إلى بعده الأخلاقي... وســـنزيد بغزل النقوش على أردية مرفلة تسربل المستقبل. في هذه النقوش يتجاور "مولانا جلال الدين الرومي" مع "التفتازاني"، ويســـجد "يونس أمْرَهْ" مع "مَخْـــدوم قُولي"، ويضمّ "فضولي" إلى صدره "محمد عاكف". ويقف "الأمير أولـــوغ" تحية لـــ"أبي حنيفة"، ويجلـــس "الخواجة الدهّاني" قبالة "الإمـــام الغزالي"، ويلقي "ابن عربي" وردة على "ابن سينا"، ويفيض "الإمام الرباني السرهندي" ببشـــرى "بديع الزمان النورْسي"... يتوحد عمالقة الأفكار لهذا الماضي العظيم بقاماتهم العملاقة، فيهمســـون في آذاننا طلاسم الخلاص والانبعاث.

المأمول أن نكتشف الشـــعور والفكر والمنهج والفلسفة التي تجمع كل هذه، وأن نجد أســـلوبنا السماوي والخالد. من أجل ذلـــك، أرى -قبل كل شـــيء- أن نعيد النظـــر في طرقنا التي نسلكها، وأن نجدّد إعمارها.

فمن الأسس المهمة لنهضتنا: إلهام العشق والشوق وبَرَكتهما؛ ومتانة "العقل والمنطق" ورصانتهما اللتان تبعثان الأمان؛ واستقرار وإنســـانية الحرية والعودة إلى الذات؛ والبُعد التجريديّ والعمق والدقّة، ومحور المنطق، وروح الوحي في فنّنا وفلسفتنا.

محركات الانبعاث

وفي الطريق نحو هذا التجدد، جعل رضا الله غاية الآمال، وتفضيل الروح على البدن، وجعل النفس تحت إمرة القلب؛ محركٌ أساسي لتفعيل مشاعر الشعور بالواجب.. وحب إنساننا وأوطاننا حرصٌ لا يســـتغنى عنه.. والأخلاقية زادٌ حيويٌّ في المسير لا يترك أبدًا.. والكائنات والإنسان والحياة: كتابٌ محفوفٌ بالأسرار لا يُكفُّ عن نبشه بمختلف أبوابه وفصوله تحت منشور القرآن البلوري.. والإنسان بســـجاياه وقيمه البشرية الحقيقية مصدرٌ مهمّ للقوة.. وكون الطرق الموصلة إلى الهدف والغاية -متناسبًا مع حقانيتهما ومُقَدَّسيتهما- في محور القرآن والسنة، ضمانٌ للثبات على النهج الصحيح.

وإن أمورًا يمكن أن نســـميها بوصفة طبّية لخلاصنا، مثل: أن نهتم بمســـتقبل وطننا وإنساننا، ونجهد في تغيير مصيرنا الذي ساء منذ قرون، ونحيي أجســـادنا بالروح الذي يهدف عجن مجتمعنا وتشـــكيله، ونفتح صفحة تاريخية نقية لأمتنا... هي شـــيء من الأســـس لحضارة ورؤيا تجددية تفوق المدن الفاضلة. وسنعرض هذه الأسس بشيء من التفصيل في فصل يأتي. ■

(*) الترجمة عن التركية: عوني عمر لطفي أوغلو.



لغة العرب أم لغة القرآن

أ.د. خالد الصمدي*

أربعة مواقف متباعدة في الزمان والمكان وحّدها الفكرة والعبرة، وشكلت صورة مكتملة تسمح باستنتاجات وخلاصات جيدة تستند إلى واقع الممارسة في تعليم اللغة العربية لغير الناطقين بالعربية من طرف مدرّسي وموجّهي هذه المادة في البلاد غير العربية، كما تستند إلى معايشة ميدانية في دورات تدريبية أُقيمت ببعض هذه البلدان.

أول هذه المواقف ذاك المشهد الرائع الذي لن ينساه طلبة كلية الآداب بتطوان بالمملكة المغربية سنة ١٩٩٣ حين أعلن مستشرق روماني جاوز السبعين من عمره إسلامه بمدرج العلامة "عبد الله كنون" مقتنعا بعظمة القرآن الكريم، وهو الذي اشتغل به وعايشه ثلاثين سنة يحاول ترجمته، وأقرّ في نهاية الأمر أن ذلك مستحيل، معززا استنتاجه بشواهد علمية. وقد استمع إلى نتائج وخلاصات جهوده، وخلاصات جهود أكثر من عشرين باحثا ومترجما شاركوا في الندوة الدولية في موضوع ترجمة معاني القرآن الكريم التي نظمت بالكلية، وانتهى التفكير بالرجل إلى أن نقر في ليلة من ليالي الندوة نقرات خفيفة على باب غرفة الدكتور فاروق حمادة بالفندق في غسق الليل، سائلا عن طريقة الدخول في الإسلام، وبقي الرجل مشدوها أمام بساطة الإجراءات التي لا تتعدى غسلا مسنونا والنطق بالشهادتين، وفي فرح طفولي سارع الشيخ إلى غرفته ولم يغمض له جفن ليلتها فرحًا بعد أن نطق بالشهادتين، واختار لنفسه من الأسماء "البشير" وبات ليلته الأولى مسلما عن اقتناع، وكان أن زف الخبر للحاضرين صباحا في الجلسة العلمية الأولى من اليوم الثالث للندوة، تحت أصوات مكبرة وحالات من التأثر والفرح ظاهرة.

أما الموقف الثاني فقد جرى بأقاصي بلاد الله بعاصمة دولة "قِرغيزسْتان" سنة ١٩٩٧ وفي مسجد عظيم البناء والزخرفة بالعاصمة "بِيشْكك". هذا البلد (لمن لا يعرفه) ذو أغلبية مسلمة بنى أهله ألف مسجد في جميع أنحاء البلاد في ظرف خمس سنوات من الاستقلال، بعد أن كان الشيوعيّون قبل الاستقلال لا يسمحون ببناء أيّ مسجد جديد، بل ولا يسمحون حتى بترميم

القائم منها والذي أصبح آيلا للسقوط. وسمعتُ من ابن مفتي البلد وقتها أنّ السلطات كانت تمنع من يقل سنه عن الأربعين من الذهاب إلى صلاة الجماعة، وكان ابن المفتي وبعض من صحبه يتسللون إلى المسجد في غسق الليل ليأخذوا اللغة العربية والعلوم الإسلامية عن الإمام الذي لم يكن سوى أبيه المفتي الذي أصبح اليوم طاعنا في السن.

شرّفني هذا الابن وبحضور أبيه شاهد العصر، الحاضرِ بين المصلين في مكان خاص به، بإلقاء كلمةٍ في المصلين قبل خطبة الجمعة، فسررت بذلك، والتزم فضيلته بالترجمة، وما إن شرعت في حمد الله والصلاة على محمد بن عبد الله ﷺ باللغة العربية حتى فوجئت بعشرات العيون تذرف الدموع، ولما أتممتُ كلمتي سألت فضيلة المفتي عن سر ذلك فقال لي: "إن هؤلاء حين يسمعون أحدا يتكلم اللغة العربية فإن أعينهم لا ترى فيه إلا صحابيا جليلا قدم للتو من أرض الرسالة، وربما يتخيلون من فرط الشوق أن يدَه لامست يد رسول الله ﷺ". ثم أردف قائلا: "ثم إنهم يقولون إنكم معشر العرب إن لم تقوموا بواجبكم في نشر الإسلام ليعذبنكم الله تعالى مرتين، أولاهما لأنكم موقنون برسول بعث منكم وبين أحضانكم، والثانية لأنكم تقرؤون القرآن بلغته التي أُنزل بها وبدون واسطة وهو ما يتيح لكم فهمه وتدبره حين يحرمون هم من ذلك".

وقد تركتُ بهذا البلد رجلا مسلما متقاعدا من الجيش الروسي اشتغل مستشارا عسكريا في سوريا في السبعينات، ويدرس اللغة العربية ساعتها بجامعة قرغيزستان، يشتغل بترجمة معاني القرآن الكريم إلى اللغة القرغيزية، وأهداني مشكورا جزءً من هذا العمل، ولست أدري هل أتمّه أم لا، وكل رجائه أن تسارع منظمة إسلامية إلى طبع عمله عند الانتهاء منه، أسأل الله تعالى أن يحقق أمله.

أما الموقف الثالث فهو حضوري لحلقة نقاش علمي عالي المستوى بين علماء الفقه والشريعة والحديث والقرآن الكريم بـ"داكا" عاصمة "بنغلادش"، المشاركين في الدورة التدريبية الوطنية في بناء مناهج التربية الإسلامية التي تعقدها المنظمة الإسلامية للتربية والعلوم والثقافة "إيسسكو"، وجمعية الدعوة الإسلامية العالمية في الفترة الممتدة سنة ٢٠٠٤. وقد تركز النقاش في موضوع شائك يقول: ما الأكثر فائدة في التعامل مع القرآن الكريم في البلدان غير الناطقة بالعربية؟ هل ترجمته إلى لغة البلد؟ أم تعلم اللغة العربية؟ وأجمع المشاركون بعد نقاش مستفيض إلى أن المسلك الرشيد هو تعلم اللغة العربية لأنها لغة الوحي، ورغم أن المسألة مكلفة جهدا، وبطيئة وقتا إلا أنها في نظرهم أبقى أثرا، دون إنكار فائدة الترجمة لكنها دون الخيار الأول أهمية.

أما الموقف الرابع فهو حالة الانتظار القاسي الذي فصل بيني وبين زميلي الدكتور رشدي طعيمة خبير تعليم اللغة العربية للناطقين بغيرها بباب الجامعة، حين كنا في زيارة علمية للجامعة الإسلامية العالمية بماليزيا سنة ٢٠٠٤، الذي استأذنني في زيارة خاطفة لأحد الأساتذة الباحثين المصريين في قسم اللغة العربية بالجامعة، وبعد طول انتظار قررت الانطلاق في رحلة البحث عن هذا القسم، وبجهد جهيد في ردهات وبنايات الجامعة الزرقاء المترامية الأطراف وسط غابة استوائية، وفي ظل جهلي باللغة الإنجليزية أو المالاوية لغتي التخاطب بالجامعة، واختلاط الجنسيات، ساقني القدر إلى مكتب فاخر كتب على بابه "قسم لغة القرآن". وقفتُ مشدوها أمام هذا الاسم الرائع الذي جَعل مساحةَ اللغة العربية تعادل مساحة الوحي، لا تحدّها قومية ولا حدود جغرافية. فساح عقلي في فضاء لامتناه كما لا يتناهى خطاب الوحي في الزمان والمكان، ولم أستفق من هذه اللذة المعرفية إلا على الصوت الجهوري للدكتور طعيمة وهو يفتح الباب مودّعا رئيس القسم الذي كان بالمناسبة أحد طلابه بالجامعة. قال صديقي الدكتور رشدي: "عذرا صديقي فقد عانيتَ في البحث عن القسم كما عانيت -ولا شك- في البحث عني، فقد اكتشفتَ أنه لا يوجد بهذه الجامعة "قسم اللغة العربية"، قلت: "بالعكس أشكرك على هذا التأخر الذي قادني إلى اكتشاف هذه الفائدة الرائعة"، ثم خاطبت رئيس القسم قائلا: بالله عليكم كيف اخترتم هذا الاسم على غير عادة الأسماء المعروفة في الجامعات العالمية "قسم اللغة العربية". قال: "هذا يدخل ضمن الإستراتيجية التربوية للجامعة، ويكفي أن تعلموا أن هذا الاسم كان وحده كافيًا كي يُقبل الطلاب على القسم بنسب تضاعف الإقبال على الأقسام الأخرى، لأنهم يدرسون هنالك لغات قومية ويدرسون هنا لغة القرآن خطابِ الله إلى كل القوميات.

الخلاصات والاستنتاجات

إن هذه المواقف الأربعة تسمح بالخلاصات والاستنتاجات التالية

التي آمل أن تشكل مداخل رئيسية لإعادة النظر في جهود تعليم اللغة العربية وترجمة معاني القرآن الكريم:

١-لا تغني ترجمة القرآن الكريم إلى أي لغة عن سعي المسلمين من أهلها إلى تعلم اللغة العربية، لأن قراءة ترجمة معاني القرآن الكريم، لا تعدو أن تكون قراءة في فهم المترجم للقرآن لا لنصه. والترجمة مهما بلغت دقتها لن تنطق بما ينطق به القرآن فعلا. وإن في القرآن الكريم مفاهيم ومصطلحات يعجز المترجمون عن إيجاد مقابلها في ترجمتهم فيخطئ بعضهم في ترجمتها، ويتوقف الآخرون لينقلوها بلفظها نطقا دون ترجمة، وكثير منها يتعلق بعالم الغيب مما لا يسعف المترجم في فهمها إلا إيمانه بالقرآن الكريم كأسماء الله وصفاته والجنة والنار وصفاقما وعالم الجن والملائكة ومعجزات المرسلين وغير ذلك، مما يبرز الإعجاز القرآني في صورة جديدة دفعت المستشرق الروماني إلى الإيمان بعد جهد كبير وبحث عميق.

٢-إن المنظمات والهيئات الدولية المهتمة بنشر القرآن الكريم، بذلت مجهودات كبيرة في ترجمة معاني القرآن الكريم إلى جلّ لغات العالم، وعملت على طبعها وتوزيعها، إلا أننا نعتقد أن هذه الجهود ينبغي أن تدعم بنشر تعليم اللغة العربية في صفوف غير الناطقين بها، علمًا بأن الملايين من مسلمي شبه القارة الهندية وبلاد الأتراك، وجنوب شرق آسيا مثلا، يحفظون القرآن الكريم عن ظهر قلب دون أن يفقهوا منه حرفا واحدا، ولا أن يكتبوا كلمة واحدة، ومنهم من يقرأ القرآن بالقراءات السبع، ويحفظ الصحيحين، ومع ذلك فهم محرومون من نعمة التدبر والفهم والتفقه، ولذلك سادت بينهم الخرافات والأباطيل المنسوبة إلى الإسلام رغم عنايتهم الفائقة بحفظ القرآن والحديث ولا سبيل لربطهم بالقرآن الكريم فهما وتدبّرا إلا بتعلم اللغة العربية.

٣-إن المسلم الذي لا يملك اللغة العربية يظل متلقيا ومقلدا بإطلاق، ولا يمكنه أن يفهم القرآن الكريم ولا الأحكام الشرعية من مختلف مصادر الفقه الإسلامي إلا بواسطة، ويبقى حاجز اللغة بينه وبين الترجيح بين الفتاوى واختيار الأيسر منها، كما يظل حاجزا بينه وبين التجول الواسع في التراث الإسلامي وقراءته قراءة واعية. وهذه الوضعية هي التي جعلت كثيرا من مسلمي أوروبا رهيني قراءة معينة للإسلام، سواء لجماعة معينة أو لطريقة معينة، دون أن يبذل مجهودا لكسب مساحة واسعة من الحرية في قراءة الإسلام من مصادره الأصلية، والاطلاع على الاجتهادات المختلفة، مع اتخاذ القرار في التمثل والاتباع، ولن تتاح أمامه مثل هذه الفرص إلا بتعلم اللغة العربية.

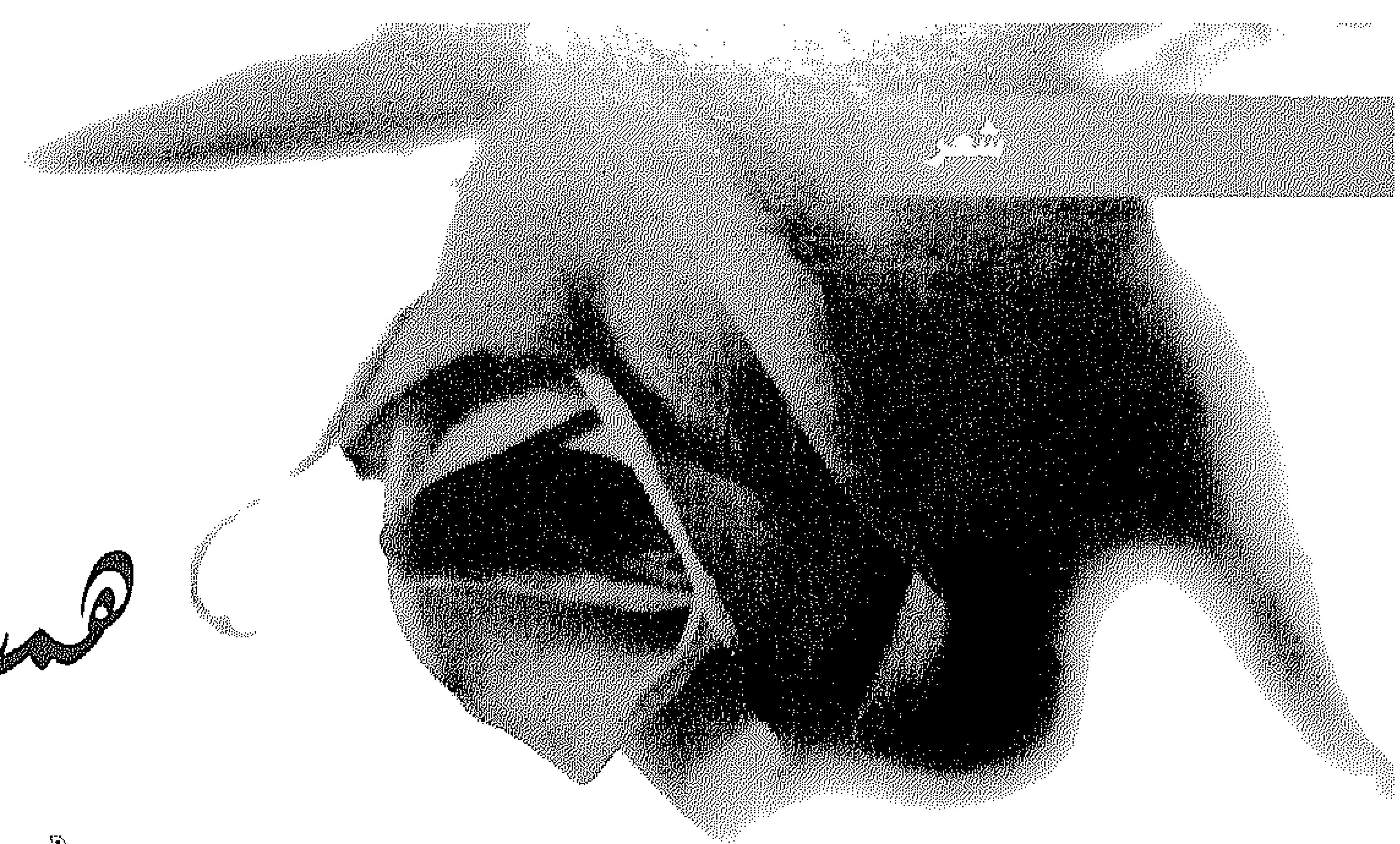
٤-تفشل خطط تعليم اللغة العربية لغير الناطقين بها لأنها تقدم هذه اللغة في بعدها القومي، فتحصر أهدافها في الاطلاع على الحضارة العربية وعادات وتقاليد شعوبها، ويغيب البعد العالمي لهذه اللغة باعتبارها لغة الوحي المنزل للعالمين، والواقع أن نشر هذه اللغة يتعدى البعد القومي ليكون الهدفُ الأسمى هو الاطلاعَ على تعاليم الإسلام باعتباره دينا هاديا ومخلّصا؛ فاللغة في هذه الحال نافذة الدين ومدخله، وفرق كبير بين أن تَربط لغةً مَا بحضارة قومية معينة، وأن تَربطها بدين ذي أبعاد عالمية يسعى إلى أن ينتشر بين الناس عن طريق الحوار والمجادلة بالتي هي أحسن.

٥-ينبغي أن تكون لغة تدريس مادة التربية الإسلامية في المدارس العربية في البلدان غير الناطقة بالعربية هي اللغةَ العربية، لأن في ذلك فائدتين: أولاهما فهم الإسلام من مصادره الأصلية، والثانية تقوية اللغة العربية. ونحن نعلم أن كثيرا من أبناء الجالية العربية في أوروبا لا يتكلمون اللغة العربية، ورغم ذلك تقدم لهم حصص التربية الإسلامية بلغة أجنبية، فيحرمون من فرصة لا تعوض للتمكن من اللغة العربية.

ينبغي أن تُستثمر الحاجة إلى التدين بالإسلام إلى تعلم اللغة العربية باعتبارها لغة الوحي تتجاوز البعد القومي بهدف خلق المسلم الحر الذي يحق له أن يبلغ يوما درجة الاجتهاد، أسوة بالعلماء المسلمين غير العرب الذين أسهموا بحظ وافر جاوز حتى العرب أنفسهم في اللغة والحديث والتفسير، وليس مثال سيبويه والبخاري ومسلم وغيرهم عنّا ببعيد.

والخلاصة: أن دعم جهود تعليم اللغة العربية لغير الناطقين بها له أثره البالغ في التعريف بالإسلام ونشره عند أهله من المسلمين غير العرب، ولدى باقي العالمين من غير المسلمين. وسيعزز ذلك كل الجهود المبذولة في ترجمة معاني القرآن الكريم إلى لغات العالم، شريطة أن ننظر إلى اللغة العربية في بعدها العالمي المستمد من عالمية الإسلام وأن نبذل مجهودات كبرى لننقلها من لغة العرب إلى لغة القرآن. ■

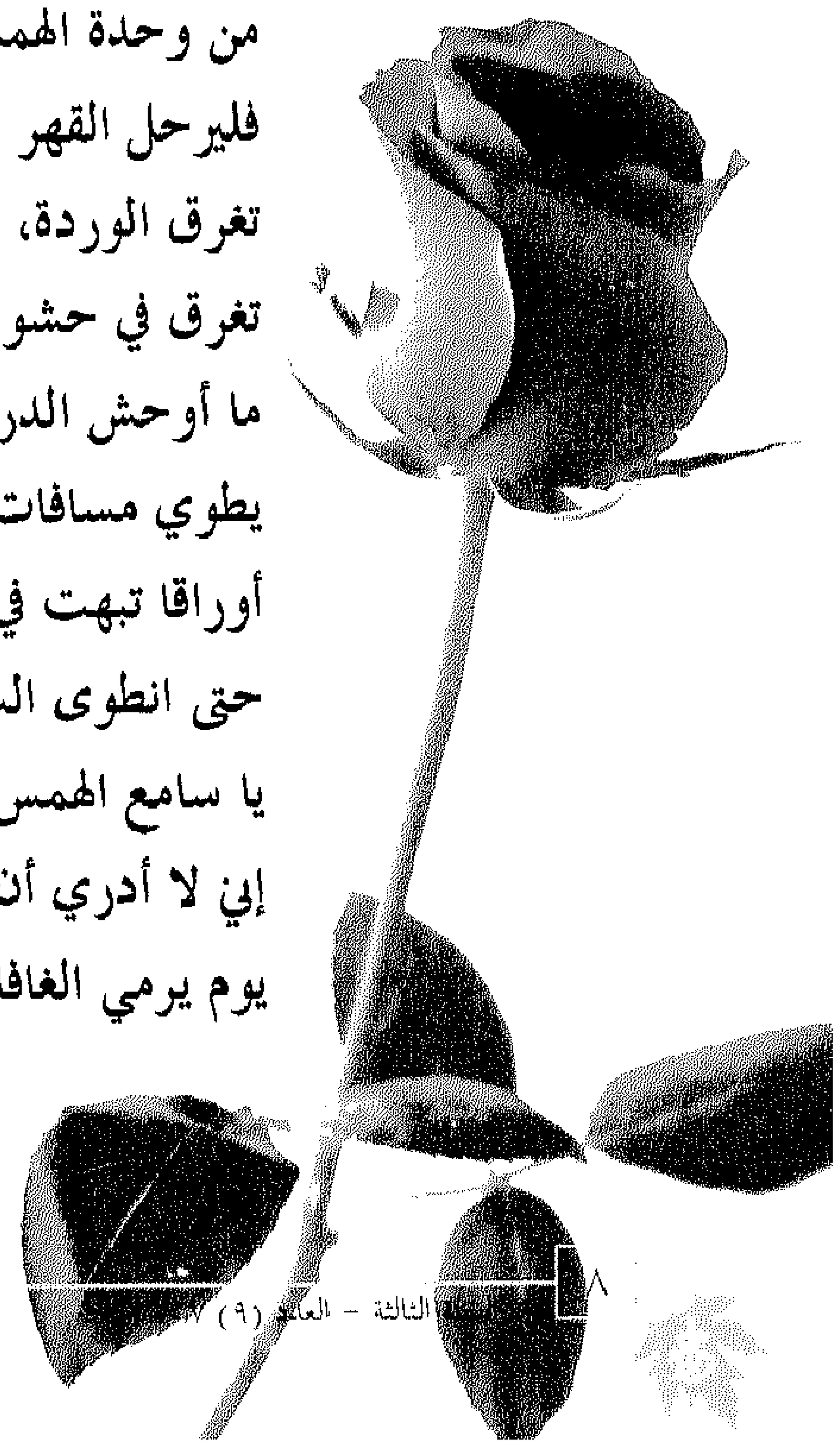
(*) رئيس المركز المغربي للدراسات والأبحاث التربوية الإسلامية / المغرب.



همس الورود

د. سعاد الناصر (أم سلمى)*

ورْدة حمراء في وحدة الهمس،
تنمو، تصعد، نحو النجوم،
دغدغت الصمت الكئيب،
تنشر الفوج عبر الرمال،
حلم الصفاء،
فتحت لي الأبواب أنا الوردة الحمراء،
والتقى همس الورود،
في شبابيك الحنين..
أحداق الفجر النحيب،
يلقي الهم القديم،
فليرحل الألم... لن يعود...
هذي أنا...
ورؤاي التي حطمت قيد الصمت،
عن يقين ننسج الصوت العالي،
من وحدة الهمس،
فليرحل القهر لن يعود...
تغرق الوردة،
تغرق في حشو الأسى،
ما أوحش الدرب إذا تاه الإنسان وخان!
يطوي مسافات اللذة البائسة،
أوراقا تبهت في طيف الأفول،
حتى انطوى السعد عبر الحصار،
يا سامع الهمس في عمق البحر!
إني لا أدري أن يوم الخلاص،
يوم يرمي الغافلون عناء الببغاء...



وردة حمراء في وحدة الهمس
زحفت فوق الأكف الشائكة...
لكن لن تجرحها،
عن يقين ترفع الحمرة
عاليا عاليا،
فليرحل القهر لن يعود...
وليمضي نحو شطآن الاغتراب،
ولترفع الوردة،
عشق الرؤيا راية،
راية البوح الخالدة،
تفرش الظل قطعا للأسر...
وردة حمراء في وحدة الهمس،
تنمو، تصعد، نحو النجوم،
وتدق في جوف الأرض البذور،
ومضات تجتر الظلال،
وتزيح الرماد...
لن يدب اليأس في قلمي،
عجبا... ولماذا أعجب؟
وأنا نبتة الغصن السعيد،
لبّينا نداء هو الحياة،
فتعالت الروح ولم يقطع الجسد الوصل
بالأرض...

(*) جامعة عبد المالك السعدي، تطوان/ المغرب.

كالبحر ليكن صدرك... بالإيمان مترعا...
وبمحبة الإنسان مفعما... وللقلب الحزين مأوى وموئلا...
•••

كيف يتنفس الكون؟

وَاللَّيْلِ إِذَا عَسْعَسَ ۞ وَالصُّبْحِ إِذَا تَنَفَّسَ
(التكوير:١٧-١٨)

أ.د. زغلول النجار*

﴿وَاللَّيْـلِ﴾: "الليل" واحد بمعنى الجمع، وواحدته "ليلة". "الليل" هـو الفترة الزمنية من اليوم الممتدة من مغرب الشمس إلى طلوع الفجر الصادق كما حدده القرآن الكريم. والـواو في قوله تعالى ﴿وَاللَّيْلِ﴾ هي واو القسم.

﴿إِذَا عَسْعَسَ﴾: "العسعسـة" و"العسعاس" رقة الظلام في طرفي الليل، وعلى ذلك فإن من معـاني قوله تعالى ﴿وَاللَّيْلِ إِذَا عَسْعَسَ﴾ أي إذا أقبل وأدبر وذلك في أول الليل وآخره.

﴿وَالصُّبْحِ﴾: "الواو" هنا للقسـم أيضا، و"الصبح" هو أول النهار، ووقت احمرار الأفق بحاجب الشمـس ؛ أي بما يسـبق طلوع الشمس من الأشعة تحت الحمراء. و"الصبح" ضد المساء.

﴿إِذَا تَنَفَّسَ﴾: أي استنشـق الهواء وأخرجـه، و"النَّفَسُ" واحد "الأنفـاس" وهي الرياح الداخلـة والخارجة إلى الرئتين ومنها، وبدونها تنقطع الحياة؛ يقال "تنفس" الرجل أي استنشـق الهواء وأخرجـه، و"تنفس" الصعداء أي فرج الله عنه كربه حتى اسـتراح، وكل ذي رئة "مُتَنَفِّس" و "تَنفّس الصبح" أي تَبَلّجَ، و"تَنفُّـس النهار" عبارة عن توسُّـعه أي امتـداده إلى الظهيرة.

من الدلالات العلمية للآيتين الكريمتين

أولاً: ﴿وَاللَّيْلِ إِذَا عَسْعَسَ﴾: قيل في الفعل "عسعس" إنه مكون من مقطعين: "عس، عس" وهو من أفعال الأضداد أو من الأفعال المشتركة في المعنى لأن من معانيه: أقبل ظلامه أو أدبر. وفي القسم بإقبال الليل وإدباره إشـارة ضمنية رقيقـة إلى كل من كروية الأرض، ودورانها حول محورها أمام الشمس. فلو لم تكن الأرض كرة، ولو لم تكن تلك الكرة تدور حول محورها أمام الشـمس ما أقبل ظـلام الليل ولا أدبر. وهذه الإشـارة الضمنية الرقيقة إلى هاتين الحقيقتـين العلميتين من حقائق الأرض وهما كرويتها ودورانها حول محورها أمام الشـمس، هي من الدلالات القاطعة على صدق القرآن الكريم، وعلى سـلامته من أي نقص، خاصة وقد نزل في زمن سـادت الخرافات والأسـاطير، وغلبت على أذهان الناس، فرأوا في الحركة الظاهرية للشمس أن الأرض ثابتة والشمس هي التي تدور من حولها، ورأوا في أبعاد الأرض الكبيرة شـهادة على انبساطها وعدم تكورها. ولم تثبت كروية الأرض ودورانها حول محورها أمام الشمس إلا بعد تنـزل القرآن الكريم بعدد من القرون المتطاولة، وهذا السبق القرآني بأعداد من الحقائق

العلمية هو ما يعرف باسم "الإعجاز العلمي في القرآن الكريم".

ثانياً: ﴿وَالصُّبْحِ إِذَا تَنَفَّسَ﴾: التنفس عملية حيوية يأخذ فيها كل من الإنسان والحيوان غاز الأكسجين من الهواء الجوّي ليتم بواسطته أكسدة الدم الفاسد المتحرك إلى الرئتين، وذلك في عملية "الشهيق" التي تتمدد فيها الرئتان تمدداً ملحوظا. ثم يخرج الغازات السامة من مثل غاز ثاني أكسيد الكربون ومعه بعض بخار الماء وذلك في عملية "الزفير" التي تنكمش فيها الرئتان انكماشا واضحًا. وهذه الآية الكريمة تشبّه عملية تمدد نطق الغلاف الغازي للأرض مع بدء طلوع الشمس حتى غروبها، ثم انكماشها مع غياب الشمس إلى طلوع الفجر الصادق بعملية تنفس الأحياء من أمثال كل من الإنسان والحيوان. وهو تشبيه معجز، خاصة وأن نُطُق الحماية في الغلاف الغازي للأرض لم تكتشف إلا في العقود المتأخرة من القرن العشرين.

نطاق الغلاف الغازي للأرض

تحاط الأرض بغلاف غازي يقدر سمكه بعدة آلاف من الكيلومترات، ويتناقص فيه الضغط مع الارتفاع من كيلو جرام واحد على السنتيمتر المكعّب تقريبا (١,٠٣٣٦ كج/سم^{٣}) عند مستوى سطح البحر إلى قرابة الصفر عند ارتفاع ستين كيلومترًا فوق مستوى سطح البحر.

وعموما تحتوي المسافة من سطح البحر إلى ارتفاع ٣٥ كيلومترا على حوالي ٩٩٪ من كتلة الغلاف الغازى للأرض المقدّرة بحوالى خمسة ألاف مليون مليون طن. ويقسم هذا الغلاف الغازي للأرض على أساس من درجة حرارته إلى عدة نطق من أسفل إلى أعلى على النحو التالي:

١- نطاق التغيرات الجوية (The Troposphere): ويمتد من مستوى سطح البحر إلى ارتفاع (١٦كيلومترا) فوق خط الاستواء، ويتناقص سمكه إلى حوالي عشرة كيلومترات فوق قطبَي الأرض، وإلى حوالي (٧-٨ كيلومترات) فوق خطوط العرض الوسطي. وعندما تغيب الشمس فوق تلك المناطق يتقلص هذا السمك تقلصا ملحوظا. ويحتوي هذا النطاق على حوالي ٨٠٪ من كتلة الغلاف الغازي للأرض، وعلى جميع ما به من بخار ماء. وعندما يتحرك الهواء من خط الاستواء في اتجاه القطبين فإنه يهبط فوق هذا المنحنى الوسطي، فتزداد سرعته. ثم إن حركة الأرض في دورانها حول محورها من الغرب إلى الشرق تُجبر كتل الهواء على التحرك تجاه الشرق بسرعة فائقة على هيئة تيار هوائي يعرف باسم التيار النفاث. وينخفض الضغط الجوّي في قمة نطاق الرجع إلى عُشر ضغطه عند مستوى سطح البحر، كما تنخفض درجة الحرارة في هذا النطاق باستمرار مع الارتفاع بمعدل ١٠ درجات لكل كيلومتر ارتفاع إذا كان الهواء جافًا، و٦,٥ (ست ونصف) درجة للهواء المشبع ببخار الماء حتى تصل إلى (-٦٠°م) في قمته فوق خط الاستواء، وذلك نظرًا للابتعاد عن سطح الأرض الذي يعمل على تدفئة هذا النطاق بعد غياب الشمس. فسطح الأرض يمتص حوالي ٤٧٪ مما يسقط عليه من أشعّة الشمس، فترتفع درجة حرارته أثناء النهار. وعند غياب الشمس تبدأ صخور الأرض في إعادة إشعاع الحرارة التي امتصتها على هيئة أشعة تحت حمراء إلى الغلاف الغازي للأرض خاصة إلى ما به من جزيئات ثاني أكسيد الكربون وقطيرات الماء المعلقة في السحب. فترد السحب ٩٨٪ من تلك الأشعة على هيئة "رجع حراري" لولاه لتجمدت الأرض بما عليها من مختلف صور الحياة بمجرد غياب الشمس. ويَحدّ هذا النطاقَ من أعلى سطحٌ افتراضي يعرف باسم سطح توقف نطاق المناخ، ينتهى عنده فيض الحرارة المنسابة من سطح الأرض.

٢- نطاق التطابق أو التطبق (The Stratosphere): ويمتد من فوق نطاق التغيرات الجوية إلى حوالي ٥٠ كم فوق مستوى سطح البحر، وترتفع فيه درجة الحرارة من -٦٠°م إلى الصفر المئوي في قمته. وفي قاعدة هذا النطاق توجد طبقة أو نُطيق الأوزون (Ozonosphere)، وتمتد من ارتفاع ٢٠ كيلومترا حتى ٤٥ كيلومترا فى المتوسط. وينتهي هذا النطاق عند سطح افتراضي ينتهي عنده التأثير الحراري لطبقة الأوزون، ويعرف باسم خط توقف نطاق التطبّق.

٣- النطاق المتوسط (The Mesosphere): ويمتد من فوق خط توقف نطاق التطابق إلى ارتفاع يتراوح بين ٨٠ كم - ٩٠ كم فوق مستوى سطح البحر، وتنخفض فيه درجة الحرارة إلى - ١٢٠°م.

٤- النطاق الحراري (The Thermosphere): ويمتد من فوق النطاق المتوسط إلى عدة مئات من الكيلومترات فوق مستوى سطح البحر، وترتفع درجة الحرارة فيه باستمرار إلى ٥٠٠°م عند ارتفاع ١٢٠ كم فوق مستوى سطح البحر، وتبقى

ثابتة عند هذا الحد إلى أكثر من ٦٠٠ كم ثم تقفز إلى ١٥٠٠°م في فترات نشاط البقع الشمسية. وفي أجزاء من هذا النطاق تتأين جزيئات الغلاف الغازي بفعل أشـــعة الشمس، خاصة الأشعتين السينية وفوق البنفسجية. ولذا يعرف باسم النطاق المتأين (The Ionosphere).

٥- النطاق الخارجـــي (The Exosphere): يعرف الجزء الخارجي من النطاق الحراري باســـم النطاق الخارجي ويقل فيه الضغط والحرارة بشـــكل ملحوظ، حـــتى تصل إلى قرابة الصفر المطلق، ولا يحده إلا نهاية النطاق المغناطيسي للأرض.

٦- النطاق المغناطيسي للأرض (The Magnetosphere): ويمتد من مستوى سطح البحر إلى عشرات الآلاف من الكيلومترات فوق هذا المســـتوى. وعند قمّته تتوقف آثار مغناطيسية الأرض وينتهـــي الغلاف الغازى للأرض الذي هـــو خليط من غازات الأرض ودخان الســـماء. وهذا النطاق يحمي الأرض من الأشعّة الكونية المتّجهة نحو الأرض، وما يمسك به من هذه الأشعة يكون أحزمة الإشعاع. وفي النظام المغناطيسي يتضاءل الضغط، وترتفع درجات الحرارة بشكل كبير، ويصل متوسط ارتفاع هذا النطاق إلى (٤٦,٠٠٠-٦ كم) فوق مستوى سطح البحر.

٧- أحزمـــه الإشـــعاع (The Radiation Belts): وهي عبارة عن زوجين من هلالية الشـــكل الـــتي تحيط بالأرض، مع زيادة ملحوظة في الســـمك حول خط الاستواء، ورقة شديدة عند القطبين. وهذه الأحزمة مليئة بالبروتونات والنيترونات وهي مشحونة أساسا بالبروتونات والإليكترونات التي يصطادها المجال المغناطيســـي للأرض من الأشـــعّة الكونية المتساقطة من الفضاء الكوني في اتجاه الأرض. ويتركز الزوج الداخلي من هذه الأحزمة حول ارتفاع (٣٢٠٠ كم) فوق مســـتوى ســـطح البحر، وهو مشحون أساسا بالإليكترونات، بينما يتركز الزوج الخارجي من هذه الأحزمة حول ارتفاع (٢٥٠٠٠ كم) فوق مستوى سطح البحر، ويفصل هذين الحزامين منطقة خالية من الإشعاع.

مكونات الغلاف الغازي

هذه النطق المكونة للغلاف الغـــازي للأرض تبدأ في التمدد مع بـــزوغ الفجر الصادق لتصل إلى أقصى درجات تمددها في وقت الظهيرة، ثم تبدأ في الانكماش حتى الغروب لتصل إلى أدنى سمك لها مع دخول الليل. وهذه الحركات من التمدد والانكماش تشبه عمل الرئة في مرحلتَي الشـــهيق والزفير ولذلك عبر عنها القرآن الكريم بالتنفس فقال تعالى ﴿وَالصُّبْحِ إِذَا تَنَفَّسَ﴾.

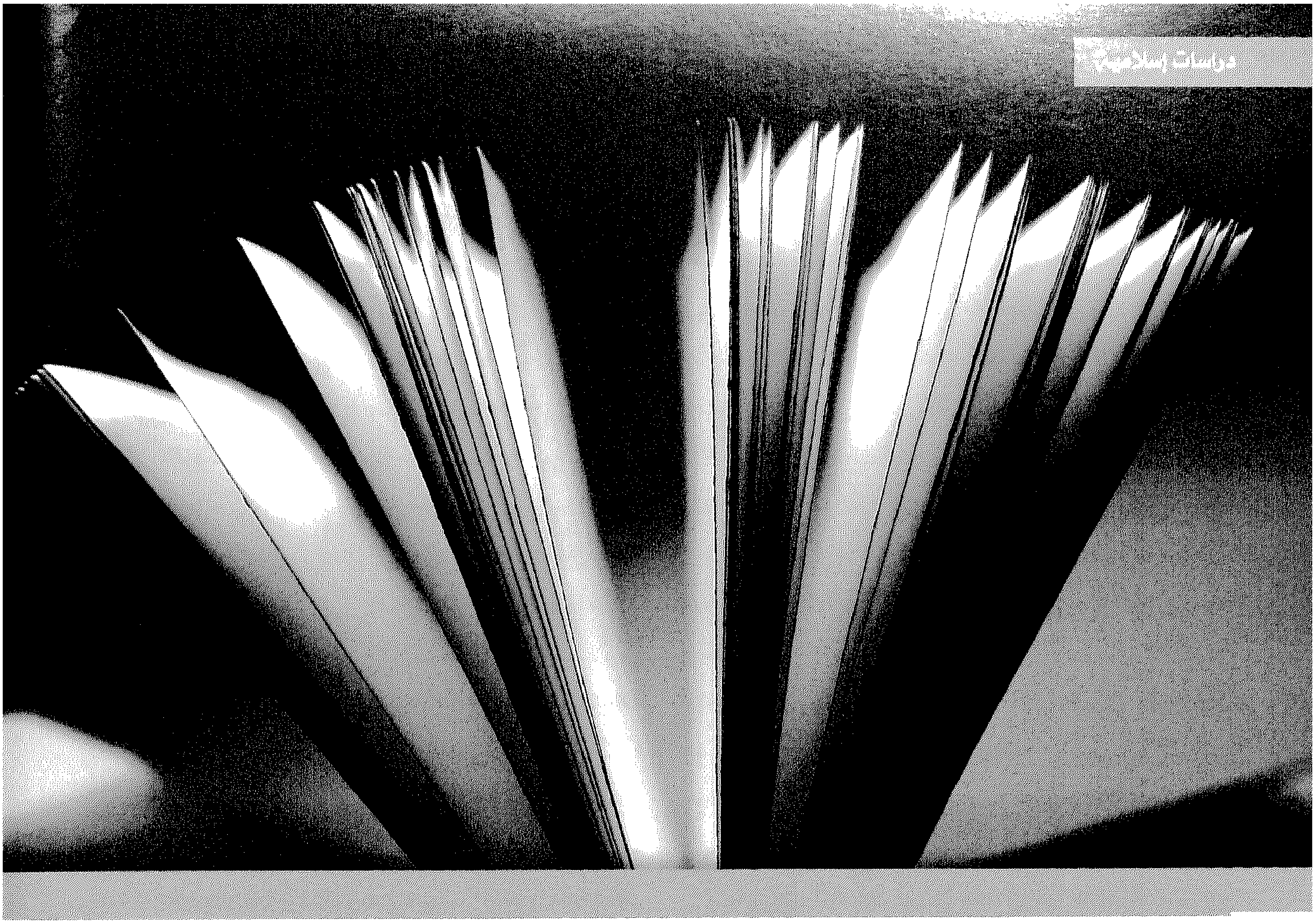
ونطق الغلاف الغازي للأرض لَم تكتشـــف بالكامل إلا بعد ريادة الفضاء في بدايات النصف الثاني من القرن العشـــرين (سنة ١٩٥٨م)، ولم يثبت تمددها مع طلوع الشمس وانكماشها عند الغروب إلا بعد قياســـات عديدة اســـتغرقت جهود مئات من العلماء لعشرات من السنين حتى تأكدوا من ذلك.

وسَبْق القرآن الكريم بالإشارة إلى هذه الحقيقة الكونية من قبل ألف وأربعمائة ســـنة -حتى ولو جاء ذلك في مقام التشبيه- لمّا يشـــهد لهذا الكتاب الخالد بأنه لا يمكن أن يكون صناعة بشرية، بل هو كلام الله الخالق الذي أنزله بعلمه على خاتم أنبيائه ورسله، وحفظه بعهده الذي قطعـــه على ذاته العلية، في نفس لغة وحيه (اللغة العربية)، وحفظه حفظًا كاملا على مدى يزيد على أربعة عشر قرنا، وتعهد بهذا الحفظ تعهدًا مطلقا حتى يبقى القرآن الكريم حجة على الخلق أجمعين إلى قيام الســـاعة بأنه كلام رب العالمين في صفائه الرباني، وإشراقاته النورانية، وصدق في كل ما جاء به.

ويبقى هذا الســـبق القرآني بالعديد من حقائق الكون أيضا حجة على الخلق أجمعين بصدق نبوة النبي والرســـول الخاتم ﷺ. وذلك لأن العلوم المكتسبة لم تصل إلى معرفة نُطُق الغلاف الغازي للأرض بالكامل إلا في النصف الأخير من القرن العشـــرين، ولم يعلم شيئًا عن تمددها مع طلوع الشمس وانكماشها عند الغروب إلا بعد مجاهدة العديد من العلماء لعشـــرات من السنين إلى نهاية القرن العشرين. وفى هاتين الآيتين الكريمتين يبلغ الإعجاز اللغوي والعلمي مداه في اختيار لفظة ﴿الصُّبْحِ﴾ للتعبير عن هذه الظاهرة الجوية فقال ربنا تبارك وتعالى: ﴿وَالصُّبْحِ إِذَا تَنَفَّسَ﴾.

وذلك لأن تمـــدد نطق الغلاف الغازي لـــلأرض يكون في أعلـــى درجاته مع بداية الصبح إلى الظهيرة، ثم يأخذ في التناقص والانكماش بعد ذلك إلى لحظـــة الغروب حين يصل سمك هذه النطق إلى أدنى مستوياته. وهذا يدل على الدقة العلمية البالغة في القرآن الكريم والدالة على صدق وحيه وعلى صدق النبي الخاتم الذي تلقاه صلى الله وســـلم وبارك عليه وعلى آله وصحبه ومن تبعه ودعا بدعوته إلى يوم الدين. ■

(*) أســـتاذ علوم الأرض ورئيس لجنة الإعجاز العلمي بالمجلس الأعلى للشـــؤون الإسلامية / مصر.



الأستاذ النورسيّ
والبعد الجمالي في أسلوبيات القرآن الكريم

أ.د.عماد الدين خليل*

الإعجاز البلاغي أو البياني أو الأدبي أو اللغوي أو الفني في القرآن الكريم ينطوي كما هو معلوم على جمالياته الخاصة. وقد كتب في ذلك الكثير، منذ فجر الدراسات القرآنية وحتى اللحظات الراهنة. وهو مع ذلك يتطلب المزيد بالنسبة لكتاب ليس كالكتب وظاهرة جمالية فريدة لا تنقضي عجائبها.

بديع الزمان سعيد النورسي أدلى بدلوه هو الآخر، وكان هذا منطقيا تماما بالنسبة لرجل تدفقت رسائله المائة والثلاثون من نبع كتاب الله المترع عذوبة وسخاء، ونسجت كلماتها على هديه.

وهو منطقي مرة أخرى لأن خلفيات الفكر النورسي تنبض بعشق الجمال، وتراه انعكاسا مدهشا للإبداع الإلهي في الكون.

وهو (أي النورسي) في وقفته إزاء كتابَي الكون المنظور والمقروء، كان يولي اهتماما ملحوظا ومؤكدا لمتابعة الملامح والتشكيلات والقيم والمفردات الفنية والجمالية هنا وهناك. إنه مهندس معماري من طراز أول، وإن المرء ليلمس وهو يجتاز رسائله كافة كيف أن رؤيته للعالم والأشياء والكلمات هي رؤية مهندس يلمح ببصيرة ثاقبة وخبرة عميقة عناصر التوازن والتناظر في معمار الكون الكبير والكلمة المعبرة.

عالج النورسي جلّ المسائل والقيم الفنية والجمالية التي عني بها القدماء والمحدثون في دراساتهم البلاغية والأدبية والفنية واللغوية لكتاب الله، بدءً من الجاحظ والزمخشري والسكاكي والجرجاني وصولا إلى الخولي وسيد قطب وبنت الشاطئ وعشرات بل مئات غير هؤلاء وهؤلاء... وهو لم يكد يترك واحدة من هذه القيم الفنّية دون أن يقف عندها متأملا، مدققا، مستدعيا الشاهد الذي يؤكدها.

القيم أو المعطيات البلاغية

ينطلق النورسي في تعامله مع "البلاغة" القرآنية وإعجازها، من الخصائص التي أكدها القدماء والمحدثون: جزالة النظم وحسن متانته، وبداعة الأسلوب وغرابته وجودته، وبراعة البيان وتفوقه وصفوته، وقوة المعاني وصدقها، وفصاحة الألفاظ وسلاستها،(١) مؤكدا أن "البيئة" التي تنزّل فيها القرآن كانت في أشد حالات فصاحتها الفطرية وبلاغتها المطبوعة تألّقا وتمكنا.

لقد عُوّض العرب بغياب التدوين ذاكرة حادة، وسلامة في الأداء الشفاهي جعلتهم يتعاملون مع "الكلمة" في سويتها التي لا يشوبها دخل. ولقد عبّر شعرهم، ومعلقاتهم السبع التي وضعت على جدار الكعبة، عن المستوى "البلاغي" العالي الذي بلغوه. فلمّا تحداهم القرآن ليأتوا بمثله، أو بعشر سور من مثله، أو بسورة واحدة، وعجزوا عن الاستجابة، كان هذا بحد ذاته تأكيدا لمعجزة القرآن.(٢)

كان هناك كما يقول النورسي دافعان في غاية القوة لمعارضة القرآن والإتيان بمثله. أولهما: حرص الأعداء على معارضة كهذه، وثانيهما: شغف الأصدقاء بتقليده. والنتيجة: "لا شَيء". وأصبحت محاولة كمحاولة مسَيلمة الكذّاب -رغم أنه من أصحاب البلاغة- مثلا يتندر به المتندرون وصورة من صور الهذيان الذي لا يستحق الالتفات.

عناصر الإعجاز البلاغي للقرآن الكريم

يبدأ النورسي بتحليل عناصر الإعجاز البلاغي الخمسة فيبدأ بالنظم هذا الذي وقف عنده طويلا في كتابه المعروف "إشارات الإعجاز في مظان الإيجاز". ويضرب لذلك مثلا: عقارب الساعة العادّة للثواني والدقائق والساعات والتي يكمّل كل منها نظام الآخر "كذلك النظم في هيئات كل جملة من جمل القرآن، والنظام الذي في كلماته، والانتظام الذي في مناسبة الجُمل كل تجاه الآخر".(٣)

١-النظم

إن النورسي يوظف هنا بعض معطيات ما يسميه المحدثون بنظرية النظم التي بلغت على يد عبد القاهر الجرجاني أقصى حالات اكتمالها في كتابيه المعروفين "أسرار البلاغة" و"دلائل الإعجاز".. ويحاول متابعة الارتباط أو العلاقات الداخلية -إذا صح التعبير- في نسيج النص القرآني بين الكلمات والجمل والتعابير والأنساق، فيما عده البعض جهدا بنيويا بشكل من الأشكال.

وفي تفسيره لسورة البقرة في "إشارات الإعجاز" نفّذ النورسي محاولة تطبيقية لنظرية النظم هذه في بعض جوانبها، ولكنه في "الكلمات" يكتفي بشواهد محددة فحسب حيث لا يتسع المجال للاستفاضة. ومن هذه الشواهد تفسيره لقوله تعالى: ﴿وَلَئِنْ مَسَّتْهُمْ نَفْحَةٌ مِنْ عَذَابِ رَبِّكَ لَيَقُولُنَّ يَا وَيْلَنَا إِنَّا كُنَّا ظَالِمِينَ﴾ (الأنبياء:٤٦) حيث يقول: "هذه الجملة مسوقة لإظهار هول العذاب، ولكن بإظهار التأثير الشديد لأقله، ولهذا فإن جميع هيئات الجملة التي تفيد التقليل تنظر إلى هذا التقليل وتمده بالقوة كي يظهر الهول. فلفظ ﴿لَئِنْ﴾ هو للتشكيك، والشك يوحي القلة. ولفظ "مَسَّ" هو إصابة قليلة يفيد القلة أيضا. ولفظ ﴿نَفْحَةٌ﴾ مادّته رائحة قليلة، فيفيد القلة، كما أن صيغته تدل على واحدة، أي واحدة صغيرة، كما في التعبير الصرفي -مصدر المرّة- فيفيد القلة. وتنوين التنكير في ﴿نَفْحَةٌ﴾ هي لتقليلها، بمعنى أنها شيء صغير إلى حد لا يعلم فينكر. ولفظ ﴿مِنْ﴾ هو للتبعيض، بمعنى جزء، فيفيد القلة. ولفظ ﴿عَذَابِ﴾ هو نوع خفيف من الجزاء بالنسبة إلى النكال والعقاب، فيشير إلى القلة. ولفظ ﴿رَبِّكَ﴾ بدلا من القهار، الجبار، المنتقم، فيفيد القلة أيضا وذلك بإحساسه الشفقة والرحمة. وهكذا تفيد الجملة أنه إذا كان العذاب شديدًا ومؤثرا مع هذه القلة، فكيف يكون هول العقاب الآلهي؟! فتأمَّلْ في الجملة لترى كيف تتجاوب الهيئات الصغيرة، فيعين كلٌّ الآخَرَ، فكلٌّ يمد المقصد بجهته الخاصة".(٤)

ولا ينسى النورسي أن يشير إلى الأسباب التي قد تخلّ في الحالات الاعتيادية بقدرة الخطاب على الاحتفاظ بسلامة "نظمه" من الخلل والاضطراب. أما في كتاب الله فإن الإعجاز القرآني يعرف كيف يتمثلها ويطويها.

فهناك ما يقارب تسعة أسباب: "إذ إن القرآن المبين نزل في ثلاث وعشرين سنة نجما نجما لمواقع الحاجات نزولا متفرقا متقطعا، مع أنه يظهر من التلاؤم الكامل كأنه نزل دفعة واحدة.

وأيضا إنه نزل في ثلاث وعشرين سنة لأسباب نزول مختلفة متباينة، مع أنه يظهر من التساند التام كأنه نزل لسبب واحد. وأيضا إنه جاء جوابا لأسئلة مكرّرة متفاوتة، مع أنه يظهر من الامتزاج التام والاتحاد الكامل كأنه جواب عن سؤال واحد. وأيضا إنه جاء بيانا لأحكام حوادث متعددة متغايرة، مع أنه يبين من الانتظام الكامل كأنه بيان لحادثة واحدة. وأيضا إنه نزل متضمنا لتنزلات كلامية إلهية في أساليب تناسب أفهام مخاطبين لا يحصرون، ومن حالات من التلقي متخالفة متنوعة، مع أنه يبين من السلاسة اللطيفة والتماثل الجميل كأن الحالة واحدة والفهم واحد، حتى تجري السلاسة كالماء السلسبيل. وأيضا إنه جاء مكلما ومتوجها إلى أصناف متعددة متباعدة من المخاطبين، مع أنه يظهر من سهولة البيان وجزالة النظام ووضوح الإفهام كأن المخاطبين صنف واحد بحيث يظن كل صنف أنه المخاطب وحده بالأصالة. وأيضا إنه نزل هاديا وموصلا إلى غايات إرشادية متدرجة متفاوتة، مع أنه يبين من الاستقامة الكاملة والموازنة الدقيقة والانتظام الجميل كأنّ المقصد واحد. فهذه الأسباب مع أنها أسباب للتشويش واختلال المعنى والمبنى إلاّ أنها استخدمت في إظهار إعجاز بيان القرآن وسلاسته وتناسبه..".(٥)

٢- المعنى

المعنى هو العنصر الآخر في الإعجاز البلاغي للقرآن، يقول النورسي: "تصور نفسك قبل مجيء نور القرآن، في ذلك العصر الجاهلي، وفي صحراء البداوة والجهل، فبينما تجد كل شيء قد أسدل عليه ستار الغفلة وغشيه ظلام الجهل ولف بغلاف الجمود والطبيعة، إذا بك تشاهد بصدى قوله تعالى: ﴿سَبَّحَ لِلهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾(الحديد:١) أو ﴿تُسَبِّحُ لَهُ السَّمَوَاتُ السَّبْعُ وَالْأَرْضُ وَمَنْ فِيهِنَّ﴾(الإسراء:٤٤) قد دبّت الحياة في تلك الموجودات الهامدة أو الميتة بصدى ﴿سَبَّحَ﴾ و﴿تُسَبِّحُ﴾ في أذهان السامعين فتنهض مسبحةً ذاكرة لله. وإن وجه السماء المظلمة التي تستعر فيها نجوم جامدة، والأرض التي تدبّ فيها مخلوقات عاجزة، تتحول في نظر السامعين بصدى ﴿تُسَبِّحُ﴾ وبنوره إلى فم ذاكر لله، كل نجم يشعّ نور الحقيقة ويبث حكمة حكيمة بالغة. ويتحول وجه الأرض بذلك الصدى السماوي ونوره إلى رأس عظيم، والبر والبحر لسانَين يلهجان بالتسبيح والتقديس، وجميع النباتات والحيوانات كلمات ذاكرة مسبحة حتى لكأن الأرض كلها تنبض بالحياة".(٦)

إن معاني القرآن كلها، بفضاءاتها الفسيحة، يقدمها الخطاب القرآني للناس في كل زمان ومكان بأسلوبياته المتميزة التي هي وحدها كفاء لمضامين هذا الخطاب.

٣- الأسلوب

وهذا ينقلنا إلى العنصر الثالث في الإعجاز البلاغي لكتاب الله: الأسلوب.. إنه غريب وبديع، كما هو عجيب ومقنع: "لم يقلد أحدا قط ولا يستطيع أحد أن يقلده. ولقد حافظ وما يزال يحافظ على طراوته وشبابيته وغرابته مثلما نزل أول مرة".(٧)

وفي مكان آخر يقف النورسي طويلا عند إحدى الخصائص الأسلوبية للقرآن، تلك هي "جامعيته" المثيرة للدهشة "حتى إن سورة واحدة تتضمن بحر القرآن العظيم الذي ضمّ الكون بين جوانحه، وإن آية واحدة تضم خزينة تلك السورة، وإن أكثر الآيات -كل منها- كسورة صغيرة، وأكثر السور -كل منها- كقرآن صغير. فمن هذا الإيجاز المعجز ينشأ لطف عظيم للأرشاد وتسهيل واسع جميل. لأن كل إنسان على الرغم من حاجته إلى تلاوة القرآن كلَّ وقت فإنه قد لا يتاح له تلاوته.. فلكي لا يحرم أحد من القرآن فإن كل سورة في حكم قرآن صغير. بل كل آية طويلة في مقام سورة قصيرة، حتى إن أهل الكشف متّفقون أن القرآن في الفاتحة والفاتحة في البسملة. أما البرهان على هذا فهو إجماع أهل التحقيق العلماء".(٨)

٤- اللفظ

أما العنصر الرابع فهو "اللفظ". "نعم، إن القرآن كما هو بليغ خارق من حيث أسلوبه وبيان معناه، فهو فصيح في غاية السلاسة في لفظه. والدليل القاطع على فصاحته هو عدم إيراثه السأم والملل، كما أن شهادة علماء البيان والمعاني برهان باهر على حكمة فصاحته".(٩) ويمضي النورسي إلى القول بأنه "لو كرر ألوف المرات فإنه لا يورث سأما ولا مللاً، بل يزيد لذة وحلاوة. ثم إنه لا يثقل على ذهن صبي بسيط فيستطيع حفظه، ولا تسأم منه أُذن المصاب بداء عضال الذي يتأذى بأدنى كلام، بل يتلذذ به وكأنه الشراب العذب".(١٠)

ويبحث النورسي عن الأسباب وراء تألق اللفظ القرآني ويقول: "إن القرآن قوت وغذاء للقلوب، وقوّة وغناء للعقول، وماء وضياء للأرواح، ودواء وشفاء للنفوس، لذا لا يملّ.. إنه حق

وحقيقة وصدق وهدى".[11] ويضرب على ذلك مثلا آية واحدة من سورة آل عمران.[12]

وما دام النورسي يتعامل ها هنا مع "الألفاظ" فإنه يجد نفسه ملزما بالرجوع كرة أخرى إلى "النظم" القرآني الفريد: "نعم، إن الألفاظ القرآنية قد وضعت وضعا بحيث إن لكل كلام بل لكل كلمة بل لكل حرف بل حتى السكون أحيانا وجوها كثيرة جدّا، تمنح كل مخاطب حظه ونصيبه من أبواب مختلفة؛ فمثلا ﴿وَالْجِبَالَ أَوْتَادًا﴾(النبأ:٧). فحظ عامي من هذا الكلام أنه يرى الجبال كالأوتاد المغروزة في الأرض كما هو ظاهر أمام عينه، فيتأمل ما فيها من نعم وفوائد ويشكر خالقه.

وحصة شاعر من هذا الكلام أنه يتخيل أن الأرض سهل منبسط، وقبة السماء عبارة عن خيمة عظيمة خضراء ضربت عليه، وزُيّنت الخيمة بمصابيح، وأن الجبال تتراءى وهي تملأ دائرة الأفق، تمس قممها أذيال السماء، وكأنها أوتاد تلك الخيمة العظيمة، فتغمره الحيرة والإعجاب ويقدس الصانع الجليل.

أما البدوي البليغ فحصته من هذا الكلام أنه يتصور سطح الأرض كصحراء واسعة، وكأن سلاسل الجبال سلسلة ممتدة لخيم كثيرة بأنواع شتى لمخلوقات متنوعة، حتى إن طبقة التراب عبارة عن غطاء ألقي على تلك الأوتاد المرتفعة فرفعتها برؤوسها الحادة، جاعلة منها مساكن مختلفة لأنواع شتى من المخلوقات. وكذا يفهم فيسجد للفاطر الجليل سجدة حيرة وإعجاب بجعله تلك المخلوقات العظيمة كأنها خيام ضربت على الأرض.

أما الجغرافيّ الأديب فحصّته من هذا الكلام أن كرة الأرض عبارة عن سفينة تمخر عباب بحر المحيط الهوائي أو الأثيري. وأن الجبال أوتاد دقّت على تلك السفينة للتثبيت والموازنة. هكذا يفكر الجغرافي ويقول أمام عظمة القدير ذي الكمال الذي جعل الكرة الأرضية الضخمة سفينة منتظمة وأركبنا فيها، لتجري بنا في آفاق العالم: "سبحانك ما أعظم شأنك".

أما المتخصص في أمور المجتمع والملم بمتطلبات الحضارة الحديثة فحصّته من هذا الكلام أنه يفهم الأرض عبارة عن مسكن، وأن عماد حياة هذا المسكن هو حياة ذوي الحياة، وأن عماد تلك الحياة هو الماء والهواء والتراب التي هي شرائط الحياة. وأن عماد هذه الثلاثة هو الجبال، لأن الجبال مخازن الماء، مشاطة الهواء ومصفاته إذ ترسّب الغازات المضرة، وحامية التراب إذ تحميه من استيلاء البحر والتوحل، وخزينة لسائر ما تقتضيه حياة الإنسان. هكذا يفهم فيحمد ويقدس ذلكم الصانع ذا الجلال والإكرام الذي جعل هذه الجبال العملاقة أوتادا ومخازن معايشنا على الأرض التي هي مسكن حياتنا.

وحصّة فيلسوف طبيعي من هذا الكلام أنه يدرك أن الامتزاجات والانقلابات والزلازل التي تحصل في باطن الأرض تجد استقرارها وسكونها بظهور الجبال، فتكون الجبال سببا لهدوء الأرض، واستقرارها حول محورها ومدارها وعدم عدولها عن مدارها السنوي، وكأن الأرض تتنفس بمنافذ الجبال فيخف غضبها وتسكن حدتها. هكذا يفهم ويطمئن ويَلِج في الإيمان قائلا: "الحكمة لله".[13]

٥- البيان

أما العنصر الخامس وهو "البيان" فيقف عنده طويلا باعتباره جماع العناصر كافة. إنه أعلى مرتبة من مراتب طبقات الخطاب وأقسام الكلام كالترغيب والترهيب، والمدح والذم، والإثبات والإرشاد، والإفهام والإفحام.[14]

"ومن بين آلاف أمثلة مقام الذم والزجر الآية الكريمة: ﴿أَيُحِبُّ أَحَدُكُمْ أَنْ يَأْكُلَ لَحْمَ أَخِيهِ مَيْتًا فَكَرِهْتُمُوهُ﴾(الحجرات:١٢). تنهى هذه الآية الكريمة عن الغيبة بست مرات وتزجر عنها بشدة وعنف، وحيث إن خطاب الآية موجَّه إلى المغتابين فيكون المعنى كالآتي: إن الهمزة الموجودة في البداية، للاستفهام الإنكاري حيث يسري حكمه ويسيل كالماء إلى جميع كلمات الآية، فكل كلمة منها تتضمن حكما؛ ففي الكلمة الأولى تخاطب الآية الكريمة بالهمزة: أليس لكم عقل -وهو محل السؤال والجواب- ليعي هذا الأمر القبيح؟ . وفي الكلمة الثانية ﴿أَيُحِبُّ﴾ تخاطب الآية بالهمزة: هل فسد قلبكم -وهو محل الحب والبغض- حتى أصبح يحب أكره الأشياء وأشدها تنفيرا. وفي الكلمة الثالثة ﴿أَحَدُكُمْ﴾ تخاطب بالهمزة: ماذا جرى لحياتكم الاجتماعية -التي تستمد حيويتها من حيوية الجماعة- وما بال مدنيتكم وحضارتكم حتى أصبحت ترضى بما يسمم حياتكم ويعكر صفوكم. وفي الكلمة الرابعة ﴿أَنْ يَأْكُلَ لَحْمَ﴾ تخاطب بالهمزة: ماذا أصابت إنسانيتكم حتى أصبحتم تفترسون صديقكم الحميم. وفي الكلمة الخامسة ﴿أَخِيهِ﴾ تخاطب بالهمزة: أليس بكم رأفة ببني جنسكم، أليس لكم صلة رحم تربطكم معهم حتى أصبحتم تفتكون بمن

هو أخوكم من عدة جهات، وتنهشون شخصه المعنوي المظلوم نهشا قاسيا، أيملك عقلا من يعضّ عضوا من جسمه؟ أوَليس هو بمجنون؟! وفي الكلمة السادسة ﴿مَيْتًا﴾ تخاطب بالهمزة: أين وجدانكم؟ أفَسدتْ فطرتكم حتى أصبحتم تجترحون أبغض الأشياء وأفسدها -وهو أكل لحم أخيكم- في الوقت الذي هو جدير بكل احترام وتوقير".(١٥)

ثم يخلص النورسي إلى القول بأن هذه الآية يفهم منها: "وبما ذكرنـــاه من دلائل مختلفة في كلماتهـــا، أن الغيبة مذمومة عقلا وقلبا وإنســـانية ووجدانا وفطرة وعصبية وملّة. فتدبر هذه الآية الكريمـــة، وانظر كيف أنها تزجر عن جريمـــة الغيبة بإعجاز بالغ وبإيجاز شديد".(١٦)

خاتمة

إن النورسي وهو يتحدث عن البعد الجمالي في أسلوبيات القرآن الكريم ويحاول أن يجزّئ المعطى الجمالي بالإحالة على مصطلحات البلاغيين كالنظم والمعنى والأسلوب واللفظ والبيان والتكرار... الخ.. لم يقصـــد ألبتـــة أن يحصر هذه المعطيـــات في دوائر تلك الحلقات المحددة في الدراسات البلاغية، ولا أن يخصص للموضوع عـــددًا من المقاطـــع والمباحث والرســـائل والكلمات، ثم يمضي لمعالجة الموضوعات الأخرى بعيدًا عن أطرها أو نبضها الجمالي.

ذلك أن الإحساس بالجمال، ورؤيته، والتفاعل معه، وتلقيه، وتحليل أبعاده وعناصره -ســـواء في كتاب الكـــون المنظور أو الكتاب المقروء- يهيمن على كلمات النورســـي ورســـائله من بدئها حتى منتهاها.(١٧) ومن ثم فإن ما يقوله النورسي ها هنا عن جماليات الأســـلوب القرآني، قد ينتشر بالكلمة القرآنية نفسها، جنبا إلى جنب مع الإبداع الإلهي في الكون والعالم، عبر الرسائل المائة والثلاثين جميعا.

ولكنها ضرورات الدراسة -كما يقولون- تقتضي -أحيانا- من الطرفين: المفكر ودارســـيه، تحجيم القيـــم والمعاني من أجل السيطرة عليها.

ويبقى كتاب الله، قبل هذا وبعده، ينطوي على ما هو أغلى وأعلى وأكثر إثارة للدهشة والإجلال والتقدير: إنه الجلال الإلهي الـــذي تعجز الكلمات عن تقريب أبعاده للمتلقي، لأنه كلام الله جلّ في علاه، والذي يمكن للمرء أن يلمســـه ويحسّه وينفعل معه وهو يقرأ في كتاب الله منذ أول كلمة فيه حتى آخر حرف، لكنه لـــن يكون بمقدوره أن يصفه، أو يحدده، أو يكتب عنه بما يوازي تمامًا حجمه أو تأثيره الحقيقي.

هذا الجلال القرآني الذي ينبض بالجمال.. بالتناظر والتناسب، والتوزيع المذهل للأبعاد والمساحات.. هذا التدفق الموصول الذي لا يكف عن الخفقان لحظة واحدة، ولا عن الإيماض لحظة واحدة، ولا عن الوعد بالعجيب المدهش لحظة واحدة.

أليـــس هو قبل هذا، ومعه وبعده، من عطاء الله الجميل الذي يحب الجمال، والذي لا تنفد كلماته، والذي إذا أراد شـــيئًا أنْ يقول له "كُن" فيكون؟!. ■

(*) كلية الآداب، جامعة الموصل / العراق.

الهوامش

(١) الكلمات، لبديع الزمان سعيد النورسي، ص٤٢٤.
(٢) انظر بالتفصيل: الكلمات ص ٤٣٤-٥١٨، ٤٢٦-٥٢٢، ٥١٩.
(٣) الكلمات ص ٤٢٦؛ وانظر: إشارات الإعجاز، ص ٢٠٨، ١٣٤.
(٤) الكلمات ص ٤٢٦-٤٢٧
(٥) الكلمات ص ٤٨١-٤٨٢
(٦) الكلمات ص ٤٢٩-٤٣٠.
(٧) الكلمات، ص ٤٣١.
(٨) الكلمات، ص ٤٥٩-٤٦٠.
(٩) الكلمات، ص ٤٣٦.
(١٠) الكلمات، ص ٤٣٦.
(١١) الكلمات، ص ٤٣٧.
(١٢) ﴿ثُمَّ أَنْزَلَ عَلَيْكُمْ مِنْ بَعْدِ الْغَمِّ أَمَنَةً نُعَاسًـــا يَغْشَـــى طَائِفَةً مِنْكُمْ وَطَائِفَةٌ قَدْ أَهَمَّتْهُمْ أَنْفُسُهُمْ يَظُنُّونَ بِاللهِ غَيْرَ الْحَقِّ ظَنَّ الْجَاهِلِيَّةِ يَقُولُونَ هَلْ لَنَا مِنَ الأَمْرِ مِنْ شَـــيْءٍ قُلْ إِنَّ الأَمْرَ كُلَّهُ للهِ يُخْفُونَ فِي أَنْفُسِهِمْ مَا لاَ يُبْدُونَ لَكَ يَقُولُونَ لَوْ كَانَ لَنَا مِنَ الأَمْرِ شَـــيْءٌ مَا قُتِلْنَا هَاهُنَا قُلْ لَوْ كُنْتُمْ فِي بُيُوتِكُمْ لَبَرَزَ الَّذِينَ كُتِـــبَ عَلَيْهِمُ الْقَتْلُ إِلَى مَضَاجِعِهِمْ وَلِيَبْتَلِيَ اللهُ مَا فِي صُدُورِكُمْ وَلِيُمَحِّصَ مَا فِي قُلُوبِكُمْ وَاللهُ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ﴾(آل عمران:١٥٤)
(١٣) الكلمات ص ٤٥٢- ٤٥٣.
(١٤) الكلمات، ص ٤٣٩.
(١٥) الكلمات ص ٤٣٩- ٤٤٠.
(١٦) الكلمات ص ٤٤٠- ٤٤١.
(١٧) ســـبق وأن أنجز الباحث دراســـة بعنوان "الكلمات: رؤيـــة جمالية" تناولت الأســـلوب والتقنيات، والموضوع الجمالي في الطبيعـــة والعالم والكون وقد نشـــرت في المجلد الخاص ببحوث الندوة العالمية الثانية حول فكر النورســـي، إستانبول، دار سوزلر - ١٩٩٣م.



جمالية العمارة في الثقافة الإسلامية

ا. د. بركات محمد مراد*

نجح فن العمارة الإسلامية في تحقيق التوازن التام بين الجوانب المادية والمشاعر الروحانية من خلال مجموعة من القواعد والأسس والتراكيب التي توصّل إليها كل من المعماري والفنان المسلم، وأمكنه من خلالها حلّ مشاكل البناء بحلول فعّالة، متوائمة تماما مع عقيدته الدينية السمحة، وبما يحافظ على القيم والتقاليد الاجتماعية، وتوظيف معطيات بيئته، أو جلب ما لم يكن متوافرا في بيئته، وتصنيعه وتعديله حتى يتوافق مع قيمه وبيئته.

ولقد حقق معالجة فعالة في مجال تقنين الضوء باستخدام "المشربية" أو "الروشان" أو "الشنشنيل" وكذلك نوافذ الزجاج المعشّق بالجصّ. كما تمكن من تحقيق المحافظة على الحياة الجوّانية التي يحياها الإنسان المسلم في بيته وبيئته المكانية، من خلال مواصفات خاصة حققها معماريا. وتجلّت واضحة في الفناء الداخلي لمنزله وسكناه.

ونلاحظ أن الفناء الداخلي في البيت العربي تتجلى فيه معالجة معمارية تحجب الساكن عن جميع تقلبات الطبيعة وتترك له التمتع بالسماء وحدها، سماء الشرق وصفائه وسحره وروعته. فإن فكرة الفناء الداخلي نابعةٌ من بذور الفكر الشرقي واستجابةٌ صريحة لمقتضيات المناخ الشرقي. إن الفناء الداخلي أو الحديقة الخاصة التي يتجمع فيها أهل البيت تقوّي من الروابط الأسرية وتزيد بالتالي الشعور بالانتماء للأرض والمجتمع، ويعتبر مسكنًا مريحا يشعر فيه بالخصوصية وتوفير حديقة خاصة أو فناء خاص بكل مسكن حيث ينمو الشعور بالجيرة، ومراعاة الجار، وبالتالي الإحساس بالانتماء.

وكان الفناء في الأغلب يحتوي على فسقية داخل الحديقة، في أشكال هندسية مثمّنة داخل مربّع، وإن شكل الفسقية هذا لم يأتِ صدفة، وإنما اختير -كما يقول أحد الباحثين- لقيمة رمزية؛ فالمنزل بالنسبة للمسلم كان عبارة عن تكوين صغير، وباستخدام الرمز والعناصر المعمارية للتعبير عن نظرته الكونية كان يعتبر القبة رمز السماء، ولهذا ولكي يشد قبة السماء إلى وسط الدار ويجعل قدسيتها تتسرب إلى الحجرات، فإنه عمِل الفسقية على شكل القبة الساسانية مقلوبة لتنعكس السماء الحقيقية على أسطح المياه في هذه السماء الرمزية.

هكذا توصل البدوي العربي إلى إدخال الطبيعة والكون اللذين كان دائم الاتصال بهما في حياته البدوية في الصحراء إلى البيت الحضري بواسطة الرمز وتحويل الطبيعة إلى عناصر معمارية، غير أن المعماريين يعتبرون تدفق المياه من نافورة أو سلسبيل هو في حد ذاته رمز للحياة التي يتأملها الإنسان، إضافة إلى أنها تساعد على ترطيب الجو والهواء.

المشربية أشكالها وخصوصيتها

وقد تميز البيت المصري في العصر الإسلامي -مثلا- بوجود مشربية، تسمح بدخول الهواء ولا تسمح بدخول أشعّة الشمس، وعادة ما توضع المشربيات لتغطي المسطح الخارجي للشبابيك أو البَلْكونات أو الشمعة التي تستعمل للجلوس في الداخل والتمتع بالخصوصية، وتلطيف الرياح دون التعرض لأشعّة الشمس. وتعتبر المشربية مظهرا من مظاهر العمارة الإسلامية جاء متوافقا مع الظروف المختلفة للمجتمع الإسلامي.

والمقصود بالمشربية ذلك الجزء البارز عن سمت حوائط المباني التي تطل على الشارع أو على الفناء الأوسط للمنازل الإسلامية بغرض زيادة مساحة سطح الأدوار العليا. ويستند هذا الجزء البارز إلى "كوابيل" و"مدادات" من الحجر أو الخشب تربط الجزء البارز من المبنى، بينما تُغطّى الجوانب الرأسية الثلاثة لهذا الجزء البارز بحشوات من الخشب الخرط المكوّن من "برامق" مخروطية الشكل دقيقة الصنع تجمع بطريقة فنية بحيث يَنتج عن تجمعها أشكالٌ زخرفية هندسية ونباتية أو كتابات عربية.

وسميت المشربية بهذا الاسم لوجود صلة وثيقة بين هذا الجزء من المبنى وبين أواني الشراب (القلل الفخارية) التي كانت توضع بها. وتعرف المشربية في بعض بلدان العالم الإسلامي باسم "روشن أو روشان" وهي تعريب للكلمة الفارسية "روزن" وتعني الكوّة أو النافذة أو الشرفة.

وقد وصل فن المشربية إلى درجة كبيرة من الإتقان في مصر خلال العصر المملوكي، ويظهر ذلك بوضوح في القطوع الخشبي المنقول من مدرسة السلطان حسن إلى متحف الفن الإسلامي بالقاهرة وفي مجموعة المشربيات في منزل "زينب خاتون" وغيرها.

وتستعمل المشربيات، التي هي معالجة مصرية إسلامية، في الجزء السفلي من السكن لكسر حدة الضوء وتوفير الخصوصية، أما الأجزاء المرتفعة فتستعمل لها مشربيات أوسع تساعد على التهوية. ومما هو جدير بالذكر أن الوحدات المختلفة لهذه المشربيات، أو بمعنى أدقّ لهذه المقاسات المطلقة لا يمكن تكبيرها أو تصغيرها، حيث إن هذه المشربيات تستعمل لكسر حدّة الضوء الناتج عن شدة الإضاءة. وقد عجز معماريو الغرب عن تفهم عمق الحلول المعمارية في الشرق، فاقتبسوا أشكالها دون جوهرها؛ فأتت استعمالاتهم لأشكالها -كما يقول باحث معاصر- إلى عكس الغرض منها، فزادت حدة الضوء في كثير من الحالات.

والمشربية تبرز عن البناء إلى الأمام كلها من الخشب الأرابيسك، تَحظى بالدقة والمهارة في صنعها وزخرفتها، كما تحجب السكّان عن عيون المارة بتوزيع الضوء والظل على تكوينها في تدرج رائع، يعلوها طاقات من الزجاج الملوّن المعشق.

وقد ظهرت المشربية في العمارة الإسلامية مرتبطة بالخصوصية، وأخذت أشكالا عدة، وتطورت تطورا كبيرا؛ ففي القصور أخذت شكل المقصورات التي تطل على "التختبوش" وهي الجلسات الخاصة حول الحديقة الداخلية بنافوراتها وطيورها. والمقصورة قد تكون مثلثة الشكل أو مربعة أو مستطيلة أو دائرية، وتظهر في الوكالات والخانات التي لا زالت موجودة حتى الآن كوكالة الغوري وخان الخليلي.

وهذا الشكل من البلكونات أو المشربيات يعتبر صبغة معتدلة في العمارة الإسلامية إذ تحفظ الخصوصية، وتعطي للساكن حرية الرؤية والمشاهدة، وخاصة في الخانات والوكالات التي كانت تعتبر سكنا جماعيا للأغراب وغيرهم. كما أنها تعمل على تلطيف

درجة الحرارة من خلال النسيم الذي يمرّ من بين هذه الفتحات، خاصة وأن التكوين الهيكلي والزخرفي للمشربية يتفق تماما مع الظروف المناخية لمعظم بلدان العالم الإسلامي والذي تسوده في معظم فصول السنة شمس ساطعة.

وتعد المشربية من أحسن الحلول لهذه المظاهر الطبيعية، إذ إن الفتحات الضيقة التي تتخلل قطع الخرط تتحكم في كمية الضوء النافذ إلى الغرفة المقامة عليها المشربية، وتعمل بذلك على تلطيف درجة الحرارة. ومن اللافت للنظر أن المشربية كانت تُصنع من أخشاب لها خواص معينة تمتص الرطوبة، وتمنع زَغْللة العينين، بل من خلال التحكم في "دانْتيللا" المشربية يمكن التحكم في حركة الهواء، ومعالجة الإضاءة في المناطق الشديدة الحرارة.

ومن الجدير بالذكر أن طريقة المشربية كنوافذ للتهوية والإضاءة تمثل جانبا اقتصاديا مهمّا، فقد كانت الأجزاء الصغيرة المتبقية من عمل الأسقف والأبواب والنوافذ وغيرها من وحدات البناء التي تعتمد على الخشب تستغل في تصنيع المشربية، كما أن الاعتقاد بارتفاع تكلفة المشربية أمكن التغلب عليها باستخدام خامات بديلة رخيصة الثمن، مثل خشب النخيل بعد معالجته بالمواد التي تقاوم الحرارة والرطوبة.

من البيت إلى المدينة

كذلك نجد تخطيط المدينة الإسلامية يتميز بالأصالة، وإذا كان للبيت استقلاله وقدسيته وارتفاع جدرانه مع ضيق نوافذها وعلوها، فإن المدينة ككل يجب أن تكون مسورة ومخنْدقة ومليئة بالمرافق، وما يحكم الأمر كله هو تداخل الأشياء وتتابعها وانتشارها وتجريدها.

فإذا كان هناك تعامل مع العناصر النباتية والهندسية، وقوامها الخطوط المنحنية والمستديرة والملتفة مع مراعاة للتقابل والتوازن، فإنه يلاحظ عدم وجود بداية أو نهاية لها، فهي تمتد وتأخذ في الامتداد لتعبر عن الأزلي، وعن انطلاقة الروح إلى ما يسمى "التآلف العذب" للوصول إلى التيه الأعذب، بواسطة الدوائر المتماسة والمتحاورة والخطوط المنكسرة والمتشابكة، فضلا عن وجود المثلث والمربع والشكل الخماسي والسداسي، كما يتضح لنا في تلك الزخارف التي أبدعها الفنان المسلم، وزخرف فيها أبنيته ومساجده ومنازله وأسواقه.

شهادة على العصر

ومن هنا فإذا حرص الفنان المعماري في العصور الإسلامية على إضفاء طابع الإبهار على الشكل الذي أنتجه، فلا نرهق أنفسنا -كما يقول باحث وناقد للفن المعاصر- كثيرا في البحث عن أصول بيزنطية أو ساسانية، لأن الفنان هنا وبمعناه الشامل يقدم رؤية كاملة وشهادات على عصره. فتفسيره يكمن في الفكر الذي وجهه وقيده أحيانا في مقابل الفنون السابقة في عصور ما قبل الإسلام. فقد أحل الإسلام مبادئ التوحيد والمساواة، وألغى الصراع بين الإنسان والغيب، وبينه وبين الطبيعة، وبينه وبين الخطيئة، وسرعان ما تلقى المعمار والفنان هذا، وترجمه إلى شكل ومضمون.

لم يكن المعمار المسلم، وذلك منذ البداية مشغولا ببناء عمارة للمدن تعبّر عن انتصار وطموح إلى سلطان واسع -كما جرت العادة في الحضارات السابقة- بل كان مهتما ببناء عمارة لا تنتصر لأنها لا تُهزم. والمدينة التي لا تفتقر، إنها الحق الواحد الشاهدة على عرَضية وفناء كل شيء إلا هو ﷻ؛ فهو الحي الغالب الغني الباقي. ولذا فعندما بنى المسلمون المنتصرون في الأندلس حفروا على جدرانها عبارات "لا غالب إلا الله ".

الفنان المسلم واستغلال البيئة

ولا يمكن أن نغفل استغلال الفنان المسلم للمواد المعمارية الموجودة بوفرة في البيئة، وهذا نجده واضحا في الأبنية والقصور والمساجد التي أنشأها الفنان المسلم في الجمهوريات الإسلامية الواقعة جنوب الاتحاد السوفيتي سابقا، مثل تركستان وما وراء النهر وإيران وأذربيجان وأفغانستان.

فمن غير المنتظر أن يتّخذ نشاط البناء والإنشاء المعماري فيها كلها طرازا واحدًا ذا هيئة واحدة متميزة بخصائص واضحة، وإنما الرابطة هنا تتمثل في خصائص تفصيلية تتصل بالمواد المستعملة والطرق الفنية التي لجأ إليها المعماريون في علاج المشكلات المعمارية، وكذلك في أنواع معينة من الزخارف التي سادت فيها.

قال "برنارد بيترسون" في خطاب إلى "جون ديريك": "إن طبيعة الصخور هناك تمكن المعماري من إنشاء مبان تشبه الجواهر في دقتها وإحكامها". وبالفعل فإن خامات الصخور التي أنشئت منها المباني السلجوقية بديعة في صلابتها واستجابتها للنحت

والزخرفة في آن واحد. والنتيجة أن الصخور وحدها مكّنت المعماري من إنشاء أعمال ذات متانة وجمال؛ فالجدران والبوّابات والأعمدة والعقود تقوم متينة محكمة، والمزخرِف ينقش فيها ما يشاء في إحكام ودقّة، وألوان هذه الأحجار طبيعية متنوعة، تكفي وحدها لإخراج صور فنية جميلة ذات ألوان. وقد كان ذلك مُعينا للبنّاء والمزخرِف على ابتكار "صنعة خاصة" وصل بها إلى ذروة حقيقية من ذرى الإبداع المعماري على مر العصور.

وقد أبدع المعماريون المسلمون في استخدام هذا الآجرّ في البناء والزخرفة على نحو لا يضارعه فيه إلا الفنانون الأندلسيون، الذين استخدموا الآجرّ في بناء منشآت الطرازين المستعربين والمدجّنين الأندلسيين.

القبة رمز السماء

والقبة في العمارة الإسلامية رمز للسماء، وخاصة في عمارة المساجد والأضرحة. فمبنى المسجد يعبر عن انفتاحه في اتجاهين بتصميمه وتكويناته المعمارية في الاتجاه الأول رأسيا للاتصال بالسماء وللاتجاه الثاني أفقيا نحو الكعبة المكرمة للاتصال بكعبة المسلمين، وهو بذلك قد حقق الرمز باتصاله بالسماء على مستوى الجماعة بواسطة المئذنة في فكرة التسامي إلى العلا في عمارة الجامع بالمئذنة.

ومما لا شك فيه أن القباب القرطبية كان لها أعظم الأثر في إلهام الفنانين الفرنسيين في منطقة "أبل دي فرانس" إلى الحل المعماري الفريد الذي تكشف عنه القباب القوطية عندما وفقوا إلى فكرة دمج الضلوع القرطبية في القبوة المتعارضة عن طريق دعم الأجزاء البارزة من هذه القبوة الأخيرة بإدخال نظام الضلوع المتقاطعة الصلبة. ولم يلبث هذا الابتكار أن طبق في تغطية مسطحات واسعة بالكنائس عوضا عن مواضع ضيقة محصورة.

وهنا ينحصر عنصر الإبهار في إدراك المعمار المسلم لأصول الجمال الناشئ من تشابك الضلوع وتقاطعها هندسيا حيث تؤلف أشكالاً نجمية متناسقة، وعبّر المقري في كتابه "نفح الطيب" عن هذا الإبهار بقوله: "وظُهورُ القباب مؤللةٌ وبطونها مهللة، كأنها تيجان رصع فيها ياقوت ومرجان".

فكانت الزوايا والأسقف المحلية أو المقببة التي استعملها المعماري القدير "حسن فتحي" في عمارته عنصرا رئيسيا أو العنصر الرئيس الأوحد في تغطيتها، حيث يرى لها مزاياها الفريدة، فهي تعكس أكبر قدر من أشعة الشمس، كما توفر قدرا من الظلال والظل، الأمر الذي يخفف من الأحمال الحرارية في الداخل، ومن ناحية فإن هذه الأبنية أو القباب تعمل على زيادة ارتفاع الجزء الأوسط من السقف من الداخل الأمر الذي يساعد على امتصاص الجو الحار الذي يرتفع إلى أعلى، كما أن حركة الهواء تزيد على الأقبية والقباب.

الإيقاع المعماري

والإيقاع يوصف بأنه كم التدفق الذي نقيس به مدى الحيوية أو الخمود في الشعر والموسيقى أو أنه تيار الحياة الذي يسرى في كيان الصياغات بقدرٍ من شأنه أن يَطرق عتبة مشاعرنا ليثبت وجوده.

ويكشف عنصر الإيقاع في مجال العمارة عن نوازع مبدعيه. فاستخدام المنحنيات المراوغة برؤوس أعمدة الكرنك في قباب مساجد بلاد الشرق يدل على سحر البيئة، وعلى انجذاب الشرقيين الصوفي نحو أبواب السماء. وفي انضباط التربيع في رحاب ساحات المعابد دلالة على مدى انضباط الطابع الموسوعي للفكر الإغريقي، واستخدام الرومان لشكل القوس النصف دائري علامة على مدى الصلف وشدة الاعتداد بالنفس، وشكل ارتفاع الانسياب الحلزوني في نوافذ البيوت ببلاد المغرب هو الذي يكشف عن مدى طموح المغربيين.

وهكذا يمكننا أن ندرك تلك العلاقات الخفية التي تنشأ بين مختلف الفنون، ولذلك كانت علاقة العمارة بالشعر والموسيقى موضع دراسة في العصر الحديث، ويمكننا أيضا أن نستشف علاقة العمارة بالفلسفة، حين نحاول قراءة الفلسفة المختفية خلف العمارة الإسلامية، أو قراءة ما توحي به هذه العمارة من فلسفة ورؤى فكرية أو روحية مستمدة في الأساس من الإسلام كوحي إلهي. ■

(*) رئيس قسم الفلسفة والاجتماع، كلية التربية، جامعة عين شمس / مصر.

طوبى

نبيلة الخطيب*

خُلقنا..
وما عبثاً
كان كل الذي فوقها
من ترابْ...
دحاها مِهاداً
لمن يسكنون،
وأودَعنا اللهُ
سرّ التماهي،
وعلّمها كيف تغدو دِثاراً
وأُمَّا رَؤومًا
لمن يهجعون...
فما العمرُ إلا رفيفُ الثواني،
كما زَغَبٍ في رياش السّنين...
وما الموتُ إلاّ
طقوسٌ من الصمْتِ
في بُرهة من سكونْ...
ونعلمُ أنّا بدنْيا امتحانٍ
لماذا إذن يُحزمُ اللبُّ
ذاكرةً من سراب؟!
ونسى القواعدَ عند المرور،
ولا نحتفي جيدًا بالحساب؟!
فينسرحُ العقلُ من صحوة الروحِ
ترنيمةً للجنون!
نخطّ على صفحة العمرِ..
بالجمر..
ننقشُ وشماً
على جبهة الدهرِ،
ندري بأنّا سنمضي،
ونلقي بأجسادنا للتراب،
ونسعى بأرواحنا
كي تقرّ
إذا ما استقرّت
مع الخالدين...
سلامٌ عليها من الله
في كل حين..
لهذا يحسّ المسافرُ منّا،
بأروع ما يُبهجُ النفسَ،
في مهرجان الإياب...
سلامٌ علينا من الله
في كل حين...
وطوبى...
لمن يُتقنون التبصّرَ
حتى وإنْ أطبقَ السرمدان:
الدجى والضباب...
وطوبى.. لمن ينثرونَ
بذارَ الحياةِ
بأرض يباب...
لمن يُغدقونَ
بفصل الجفاف الرّواء...
فتخضرّ فينا رياضُ الكلام،
وتمتدّ فيها حقولُ الضياء،
وطوبى..
لمن يعمُرونَ
بيوتًا على الأرضِ
تغدو قصورًا لهم
في أعالي السماء...

(*) شاعرة وأديبة – الأردن.





حضارتنا الإسلامية... من المرض إلى النهضة

أ.د. عبد الحليم عويس*

في بعض ظروف الخلل لا نريد الذهاب إلى الطبيب المختص النطاسي، ونذهب إلى أطباء، نعرف بحواسنا ومشاعرنا أنهم يستوردون الأمراض التي ليست من أمراض بيئتنا، ويصفون أدْوِيَة لأمراض غير موجودة. إنهم يفرضون علينا المرض، ثم يصفون الدواء المستورد. أما أمراضنا الحقيقية فهم أبعد الناس عن التعرف عليها وعلاجها.

وإنما مرضنا في هذا الجانب هو "الفقر العام" الذي مبعثه "الفقر العقلي" والجمود الحضاري الذي يجعلنا نترك الملايين من الأفدنة الخصبة الصالحة للزراعة في بلادنا؛ بينما يُصلِح غيرنا الأرض الصحراوية. ثم نشكو قلة المحاصيل ونستوردها من بلاد أقل منا في الإمكانيات الزراعية بكثير، لكنهم أغنى منّا عقلا، ووعيا، وتخطيطا، وإرادة.

وإنما أمراضنا في حقيقتها أمراض نبعت من انحرافات في فترة حضارتنا، وصلت بنا إلى انحطاط فكري، وتخلف، وخمول، ومضاعفات أخرى؛ تراكمت في ظل انفكاك ارتباطنا بديننا بشموله وانسجامه وصفائه وإيجابيته.

بعض المعالم الأساسية في طريق النهضة

ونبدأ الآن في الإلماع إلى بعض المعالم الأساسية في طريق النهضة بإذن الله. فالخطوة الأولى في عملية العودة إلى قطار الحضارة الإسلامية تنحصر في شرطين متكاملين:

١-أن تتهيأ النفس المسلمة لتلقي الإسلام

٢-أن يعرض الإسلام كما هو من القرآن والسنة، لا من ضغوط الواقع المريض وبدون أن نلجأ إلى علم النفس الفردي، أو علم النفس الاجتماعي؛ فإننا نميل إلى أنه من الصعب التفرقة بين الإنسان كفرد والإنسان كعضو في المجتمع؛ وبالتالي فإن ما نريد تقديمه من علاج لا بد أن يلاحظ التيارات المزاحمة، أي إنه بينما يحاول تهيئة النفس لتلقي الإسلام الصحيح، فإن عليه أن يلاحظ أن عمله هذا يتعرض كل يوم لضغوط معاكسة، وما لم يعدّ لهذا التزاحم عناصر مقاومة فإنه لن يصل إلى تقدم في العلاج.

كما أن تفريغ النفس مما ورثته في حضارتها وطفولتها من مفاهيم، لن يتم إلا بوضع البديل الذي يطرد القديم. فالنفس لا تعرف "الخلاء المطلق"، وحبذا أن نركز على الجيل الجديد، الذي قد يسهُل تقديم التصورات الصحيحة له عن طريق تقديم "ثقافة إسلامية" تنقل له الإسلام كما هو.

وإذا كان القرآن يقول لنا: ﴿إِنَّ اللهَ لاَ يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّى يُغَيِّرُوا مَا بِأَنْفُسِهِمْ﴾(الرعد:١١)، فمن الواضح أن تغيير ما بالنفس لن يتم إلا عن تغيير ما بالفكر، وبالتالي فالثقافة الإسلامية الصحيحة بمجالاتها في التوجيه، والتربية، والأخلاق، وغرس النزعة الجمالية، والسلوك المنسق البناء... هي الخطوة الأولى لإيجاد "إنسان الحضارة الإسلامية" القادر على النهوض بها في دورة جديدة للتاريخ.

إن حضارتنا تقبل -بطبيعتها- أي انفتاح أو "عصرية" عقلانية في مجال الدراسات الطبيعية والكونية. وهي واثقة أن علماء الطبيعة وغيرهم لو التزموا المنهج الموضوعي، فلن يصلوا -ولم يصلوا حتى الآن مع أنهم في القمة- إلى شيء من معطيات هذه العلوم تستطيع أن تهز أسسها الفكرية.

وبالتالي، فهي ترى ضرورة الجمع بين "الثابت" (الأصالة)، و"المتغير" (نتاج الفكر). وترى أن ما جاء في القرآن والسنة الصحيحة هو هذا "الثابت" الذي تبنى فوقه الطوابق "المتغيرة".. ولا تعارض بين الثابت المتصل بالفطرة الممنوح ممن خلق الخلق، ويعلم جوهرهم، وبين المتغير المحض من اجتهاد العقل البشري الذي يتطور عاما بعد عام وقد يُرفض في جيل ما أثبتته أجيال كثيرة سابقة.

إن "الأصالة" شرط أساسي من شروط بقاء هويتنا وكياننا الداخلي في عالم يعج بألوان الصراع الحضاري. كما أننا في حاجة إلى "العصرية" لكي نستطيع الحياة مع أبناء هذا العصر، وبهما معا، وممتزجين، نستطيع أن نسير في موكب التاريخ.

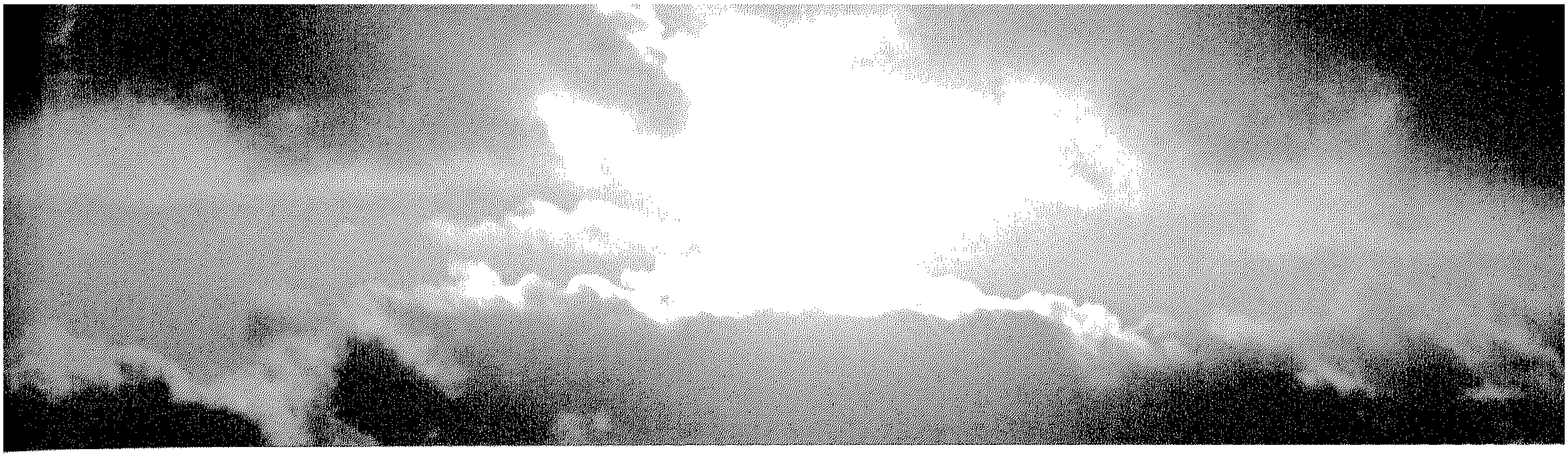
إن الاعتماد على ما تقدمه الأصالة وحدها، إنما يعني الاكتفاء بالحلول المستوردة من الماضي، كما أن الاعتماد على التجارب المعاصرة إنما يعني الاكتفاء بالحلول المستوردة من الخارج. وكلا النوعين من الاستيراد لن يكون مطابقا لما تحتاجه ذاتنا وظروفنا بكل أبعادها وأجزائها وتحدياتها. وبالتالي فإن استئناف حضارتنا الإسلامية في القرن الحادي والعشرين (الخامس عشر للهجرة) يقتضي أن ننطلق من فكر إسلامي أصيل؛ يعي جذوره الحضارية، ويعي التحديات التي يواجهها، والواقع الذي يعيشه؛ ليعبر عن الشخصية المسلمة، وعن غاياتها وأهدافها في الحضارة والتاريخ بكافة أعماقها وشمولها.[1] وهو عمل لا يصنعه فرد واحد؛ لأنه لا بد أن يكون شاملا للجوانب الاجتماعية كلها سياسية واقتصادية وأخلاقية، بل هو مهمة المؤسسات العلمية والإعلامية والمفكرين الإسلاميين والحكام؛ بل وكل مهتم بقضية مستقبل هذه الأمة، ودورها الحضاري في التاريخ.

لقد واجه الخليفة الراشدي الثاني عمر بن الخطاب ﷺ حضارتين انفتحتا على الدولة الإسلامية وقدّمتا من التصورات والمشكلات والأوضاع والضغوط، ما كان كافيًا لأن يهز قواعد الدولة الإسلامية الناشئة من أساسها. لكن عبقرية عمر ﷺ، وعبقرية الجيل الإسلامي الأول، وشعوره، وإيمانه بتفوق مبادئه، ووعيه بدور الأصالة في تكييف المعاصرة، وضمان السيطرة عليها لا الذوبان فيها.. هذا كله كان له أكبر الفضل في أن يستطيع عمر بن الخطاب ﷺ وجيله الراشدي تحقيق الانتصار الحضاري أيضا -بعد العسكري- على الحضارات الجديدة، ونجح المجتمع المسلم في الإفادة من إيجابياتها، ونفي سلبياتها، وتم صهر هاتين الحضارتين في الوعاء الإسلامي، وأصبحتا جزءً من الحضارة الإسلامية.

وما فعلته الحضارة الإسلامية في موقفها من الرومان والفرس فعلته أوروبا في أخذها من الحضارة الإسلامية حين قطعت الجذور الإسلامية لما اقتبسته.

ولا يتردد مفكر كبير كـ"أرنولد توينبي" خلال أبحاثه الحضارية في الربط بين الحضارة الأوربية والكنسية الكاثوليكية. وفي رأيه أن الحضارة عموما تنشأ عن الأديان، أي من "الشرارة الإلهية الخلاّقة".

فلماذا لا ننطلق من ديننا وأصالتنا حاملين القرآن والعربية في



يد، وكل ما نســتطيع الوصول إليه من إبداع علمي وفني في اليد الأخرى!

إن العالم المتحضر يقوده خلاصــة صفوته المثقفة، وإن هذه الصفوة لتشكل مؤسسات تستغل كل معطيات العقل الحديث، وتتمتــع -كقيادة حضارية- بكل الإمكانــات الاجتماعية التي تمكنها من أداء دورها.

وقد فطنت "اليابــان" -بعد أن دمــرت في الحرب العالمية الثانية- إلى أهمية هذا الأساس في بناء الأمم، فأعطت للمدرسين مرتبات وُكلاء الــوزارة وصلاحيات وُكلاء النيابة، ووفّرت لهم كل إمكانيات البناء. أما طبقة "العلماء" أو "التكنوقراطيّين" فهي تتمتع في العالم المتقدم كله بما كانت تتمتع به أيّ صفوة ممتازة في الحضارة السابقة. ولذا، فليس عجبًا أن عادت اليابان خلال أقل من ربع قرن لتشــارك في قيادة العالم، بعد أن كانت قد دمرت تدميراً شبه كامل بأسلحة أمريكا الذرّية.

إن الطبقات التي تقود الفكر والأخلاق يجب أن "تستشــار" على الأقل، بطريقة مدروسة ودائمة وبشكل قانوني في خطوات الطريق الحضاري للأمة المســلمة، على أن تكون هذه الطبقات موثوقا في انتمائها لعقيدة الأمة وتراثها، وعلى أن تكون من أهل الكفاية والدين لا من أهل الثقة والدنيا.

ومن خلال الخطين المتكاملين -لا المتوازيين- أي خط القيادة الحضاريــة المتمثلة في الصفوة المختارة، وخط الرعية المســؤولة أيضاً قَدْر حجمها "كلكم راع وكلكم مسؤول عن رعيته" (متفق عليه)... من خلال هذين الخطين المتكاملين تتحرك الأمة كلها في سلّم الحضارة بانسجام وتآزر.

"ولا ريب أن أعباء ومسؤوليات التوجيه والابتكار والنظر إلى المســتقبل، والتطلع إلى الأعلى، تُلقي بثقلها على كواهل النخبة والصفوة. وبقدر ما يكون شعور الطليعة بضخامة الأعباء مرهقا، وبقدر ما تواجهه النخبة بتصورات ســليمة وبعقليات متفتحة.. بقدر ما تتمكن هذه النخبة من تجاوز المشكلات الحضارية، ومن دفع الأمة في مجالات الرقــي والتصعيد". "وتظل الأمة والجماعة بخير طالما أن هذه الطليعة متفتحةُ الأفق، مدركةٌ لحركة التطور، عارفة بطبيعة عصرها، وبأســاليب الحياة المستجدّة. وعندما تبدأ هذه النخبة بالانغلاق على نفســها، أو عندما تصاب هذه الفئة أو تفســد، أو يقع الشقاق بين أفرادها؛ فإنها تكون قد استنفدت أغراضها فتعجز عن القيادة الراشدة".(٢)

فالنخبة في ظل القاعدة البشرية التي تتجاوب معها، تستطيع أن تترجــم تطلعات الأمة إلى واقع ملمــوس، كما أن القاعدة الواعية تستطيع أن تحاسب النخبة الراشدة، وتعصمها من أمراض الزعامة وانحرافاتها. وبالتالي تتبادل النخبة والقاعدة التأثير والتأثر، وتمضي سفينة الأمة متخطيةً العواصف والتقلبات بفضل تماسكها التام ووعيها الحضاري الكامل.

الدور العالمي

لن يستطيع المســلمون الخروج من مشكلاتهم الصغيرة والجزئية والمبعثرة في أكثر أركان فكرهم وحياتهم إلا بالإصرار على رفض التمزق الداخلي، والانهيار النفسي الذي تُحدثه هذه المشكلات. ولن يتم لهم ذلك إلا بالإحساس بمسؤولية كونية وعالمية ليس تجاه أنفسهم ومجتمعاتهم فحســب؛ بل تجاه الإنسانية كلها. وهذا ما تحدده لنا الآية الكريمة: ﴿وَكَذَلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَــطًا لِتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ﴾(البقرة:١٤٣). وكما يقول المفكر الهندي المسلم: "وحيد الدين خان": "فإنه لم يوجد عصر من العصور تفتحت فيه آفاق العمل لرسالة الإســلام العالمية مثل القرن العشرين، بفضل النتائج الدنيوية لثورة الإسلام التوحيدية".

فهناك كل أنواع التأييد للفكر الإسلامي والتصور الإسلامي للكون والحياة، تقدمها العلوم الإنســانية التي تندرج تحتها علوم النفس والاجتماع والتاريخ والتشــريع، كما أن ما اكتشف من

أحسن إلى من أساء إليك... وبالذوق الرفيع قابل المفتقر إلى الذوق... فالأقداح بما فيها تنضح... وبعلو نفسك وسمو خُلقك عامل فقراء السلوك والخُلق.

* * *

حقائق الكون قد دحض بعض الأساطير التي قدمتها الأديان الأخرى، وأكّدت -في الوقت نفسه- أحقّيّة الدين الوحيد الجدير بهذه التسمية، وهو الإسلام.

ومما قدمه العصر من وسائل العون للدعوة الإسلامية والحضارة الإسلامية:[٣]

١-شيوع حرية الرأي والبحث.

٢-شيوع تدبر ظواهر الكون وتسخيرها.

٣-شيوع المنهج العلمي والفكر التاريخي الذي قضى على الأسطورة والفكر الخرافي.

٤-توفر الوسائل الإعلامية كأجهزة الإعلام السمعية والمرئية والمطبعة.

وثمة جانب آخر خطر يساعد تحول المسلم إلى رسول حضارة إنسانية في هذا العصر بحيث ينظر إليه على أنه المنقذ من خطر الفناء الإنساني الشامل.

وهذا الجانب يتمثل في الأوضاع التي انتهت إليها الحضارة الأوربية التي توشك أن تقضي على إنسانية الإنسان ومستقبله.

الأفول الحضاري

في ظل هذه الحضارة "لا ندري إلى أين نحن سائرون.. ولكننا نسير" كما عبّر الشاعر الأمريكي "بينيه". أما "رينيه دوبو" فيعبر عن هذا الانهيار في كتابه "إنسانية الإنسان"، ويصف الحضارة الأوربية في كلمات قليلة: "كل حياة شخصية ناجحة، وكل مدينة ناجحة عمّتْها أجهزةٌ منظمة من العلاقات التي تصل الإنسان بالمجتمع وبالطبيعة، وهذه العلاقات الأساسية تضطرب بسرعة وعمقٍ الآنَ بسبب الحياة العصرية التي نحياها. والخطورة ليست مقصورة فقط على اغتصابنا للطبيعة، بل في تهديدنا لمستقبل البشرية نفسها".

وعن "دوبو" ننقل كلمة رئيس بلدية "كليفند" متهكما: "إذا لم نكن واعين فسيذكرنا التاريخ على أننا الجيل الذي رفع إنسانا إلى القمر، بينما هو غائص إلى ركبته في الأوحال والقاذورات".

ولن نستطيع تتبع ما قاله كل المشخّصين لحضارة أوربا من أبنائها، وذلك كـ "ألكسيس كاريل" في كتابه "الإنسان ذلك المجهول"، أو "أرنولد توينبي" في دراسته للتاريخ، أو "اشبنجلر" في كتابه "عن أقوال الغرب"، أو روجيه جارودي في كتابه "حوار الحضارات"، أو "كونستاتنان جورجيو" في قصته "الساعة الخامسة والعشرون"، وهي الساعة التي يرمز بها "جورجيو" إلى أفول الحضارة الأوربية وانهيارها، واكتساح حضارة جديدة قادمة من الشرق: "حيث يكتسح رجل الشرق المجتمع الآلي، وسيستعمل النور الكهربائي لإضاءة الشوارع والبيوت؛ لكنه لن يبلغ به مرتبة الرقيق، ولن يُرفع له معابد وصوامع كما هو الحال في بربرية المجتمع الآلي الغربي. إنه لن يضيء بنور "النيون" خطوط القلب والفكر. إن رجل الشرق سيجعل نفسه سيداً للآلات والمجتمع الآلي".

إن الفكر الإنساني المتحرر المستوعب لأزمة الحضارة المادية التي تكاد تخنق إنسانية الإنسان، وتدمر الجنس البشري.. هذا الفكر الإنساني سيجد في الصياغة الإسلامية للحضارة المحضن والملاذ والملجأ؛ لكن المهم أن يدرك المسلمون دورهم، ويخططوا له ويستغلوا الإمكانات المتاحة للدعوة في هذا العصر. ويتقدموا بقلب واثق مؤمن، وعقل قوي منفتح إلى الساحة التي تناديهم: ﴿وَيَوْمَئِذٍ يَفْرَحُ الْمُؤْمِنُونَ ۞ بِنَصْرِ اللَّهِ يَنْصُرُ مَنْ يَشَاءُ وَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ﴾(الروم:٤-٥). ■

(*) أستاذ التاريخ والحضارة الإسلامية / مصر.

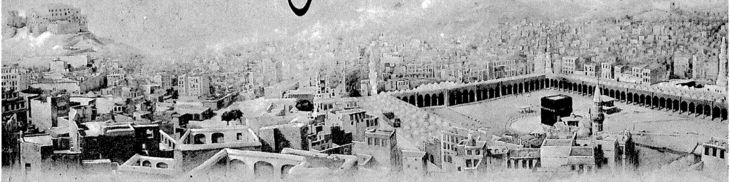
الهوامش

(١) د. عبد الحميد أبو سليمان، اللقاء الرابع للندوة العالمية بالرياض ١٩٧٩ م.

(٢) محمد علي طنطاوي: (الحضارة الإسلامية بين التحدي والتعطيل)، اللقاء الرابع للندوة العالمية بالرياض، سنة ١٣٩٩ هـ.

(٣) انظر بتصرف رسالة "إمكانات جديدة للدعوة" نشر القاهرة.

مكة



أ.د. حسن الأمراني*

مـن وحي مكـة تزدهي أشـعاري … وتفيـض لحنًـا رائقـا أوتـاري

الوحـي منهـا جاءنـا متلألئـا … فازدانـت الآفـاق بالأقمـار

لم يَبـق في الأرض الفسيحة بُقعـة … إلا ارتـوت مـن دافـق الأنـوار

فانجابـت الظلمات وازدهـت الدُّنا … ألقـاً، وزان الطّيب خـير جِوار

فله بـأرض الـروم شمسُ حقيقةٍ … ولـه بـأرض الهنـد نـورٌ سـار

"إقبـالُ" لمّـا مـسّ خافقـه ارتوى … عِشـقا، ففاض السـحر في القِيثار

لـولاه لم تَشـرح حمامـةُ أَيكـة … أشـواقَها للـدوح والأزهـار

ولَمَا اسـترقّ العشـقُ قلبَ فَراشة … فهَـوتْ مسـبّحة بقلـب النّـار

أختـاه! إن نَعشَـق فـإنَّ إمامنـا … قِدمـا أتـى العشّـاقَ بالأخبـار:

من عـفّ في درب المحبّـة وارتدى … حُلـل التّقـى، أضحى بخير جوار

أختـاه، نور الحـق يهْـدي خطونا … والنـور في الصحـراء نهرٌ جـار

غنيتْ قلوب النـاس يـا أخت التقى … حبًّـا، فما اغتـرّوا بسـحر نُضار

هـل كان غير الحـبّ يمـلأ درْبنا … بالحسـن، بالخـيرات، بالإيثـار؟

نبـني الحضـارة عـزة ومهابـة … لكـنّ حـبّ الله خـيرُ شـعار

(*) رئيس تحرير مجلة "المشكاة" / المغرب

إنه سميع الدعاء



في ليلة طويلة ظلماء، ساقني الكرب إلى أعتاب الخالق ﷻ. وهناك لقيت من الأنس أضعاف ما أملته من دنيا الناس وشؤونهم. فغمرتني نشوة الذل لقيّوم السماوات والأرض، وفاض القلب بهذه النجوى:

مناجاة قلب كسير

أ.د. محمد سعيد رمضان البوطي*

وكيف يكون كسيرا وأنت النور الذي يشعّ في حناياه والأمل الذي يخفق به ويعيش عليه!..

بل كيف لا يكون كسيرا وقد ذلّ لعظيم سلطانك، ودان لسابق حكمك وقضائك!..

بلائي به محض العبودية لك، والتجاؤه إليك، محض رعاية وتوفيق منك. فلأيّهما أدين بالشكر، وعلى أيهما أبذل التحمّل والصبر، وأقسى ما في كلّ منهما نعمة منك لا أستحقّها، ويد جميلة لا قبَل لي بأداء شكرها.

مولاي!

لئن نسيتْني أفراحُ الدنيا، فإن عزائي بما فاتني منها عظيم ما ألقاه من الأنس بذاتك، والأملِ في رحمتك. ولئن أبكتْني صروف الليالي والأيام فإن عزائي معها بكائي على أعتاب لطفك وبين

يدي ربوبيتك. وشتان بين دموع اعتصرتْها الآلام من العيون، ودموع استجابتْ لذلّ العبودية فانحدرت تبكي لمن خلق الوجد في القلوب، وأودع الحرقة في الدموع.

مولاي!

أأشكرك على ما أوليتني من نعمة الصبر على البلاء، أم أشكرك على ما أوليتني بذلك من سعادة القرب إليك ولذّة المناجاة لك؟.. جلّت حكمتك يا سيدي، وصدق ما قاله الواصلون: "إنّ في كلّ جلال جمالا، وفي كل ابتلاء منّة ولطفا". وهل في اللطف ما هو أعظم من انصراف العبد إليك، وتحوله عن الأغيار إلى ملازمة بابك الكريم.

إلهي!

أي شيء يوحشني من الدنيا فقْده بعد أن رأيتك أمامي، وأنست بك في سري وجهري؟!. بل أي منّة منك أعظم وأجلّ من أن تُزيح عني حجابا كان قد شغلني عنك، فشُغلتُ بك عنه بما أكرمتَني من الاعتصام بك والتضرع إليك؟..

أجل يا سيدي... لقد ذهب موسى عليه السلام ليقتبس نارا، فعوّضتَه عن ذلك بعظيم نجواك!.. نعم، إن القلب قد يتألم ولكن ما ألذَّ الألَم الذي يذيق صاحبه طعم العبودية لك، وحلاوة الرضا بحُكمك!..

ولكني يا مولاي، أجدني قد تطاولتُ بهذا القول إلى مكانة ليس لي شرف الدنوّ إليها. وما أنا -وحقك- في المنزلة ممن يَحسُن بهم أن يقولوا: "عذِّبْ بما شئتَ، غيرِ البُعد عنك"..

إنني يا مولاي عبد إحسانك وفضلك، أفرّ من كل ضائقة إلى ظلال رحمتك، وأرتمي هاربًا من كل بلاء أمام أعتاب جودك. حسبي أن أتعلق في الخوف من كل كرب بنجوى أحبِّ خلقك إليك: "ولكن عافيتك أوسع لي". وبدعاء نبيك الكليم: ﴿رَبِّ إِنِّي لِمَا أَنْزَلْتَ إِلَيَّ مِنْ خَيْرٍ فَقِيرٌ﴾(القصص:٢٤)، وبنداء رسولك الصابر الأواب لربّه: ﴿أَنِّي مَسَّنِيَ الضُّرُّ وَأَنْتَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ﴾ (الأنبياء:٨٣).

وكيف لا أتعلق بفضلك وأطمع بعافيتك، وأنت الذي لم تُقصِني عن مائدة إحسانك في يوم من حياتي، ولم تقطع عني وابل رحمتك في لحظة من عمري؟!.. أم كيف أركن إلى البؤس والضيق، وأنت الذي عوّدتَني العطاء، ونشّأتني في ظلال الرخاء؟!.

أعوذ برحمتك التي غمرتَ بها وجودي كله، من أن تبدّل بها شدة لا قبل لي بها، أو بلاء لا صبر لي عليه.

إلهي!

سألوني عن وجودك، فقلتُ لهم: "متى عرفتم أنفسكم رأيتموه، ولولا ضلالكم عن كَينونتكم لَما افتقدتموه".

إن الذي ينظر إلى العالم ذاهلا من وراء منظار، جدير به أن يفتقد منظاره ولا يراه، ومهما أدار عينيه فيما حوله فإنه لن يعثر عليه، حتى يهتدي إلى ذاته ويتحسس المنظار القائم أمام عينيه.

وسألوني عن أقدس سرّ من أسرارك، فقلت لهم: "إنه القلب!".. يخفق ويحسّ، ويحنّ ويئنّ، في عالم لا تطوله فيه يدُ المال والمتاع، ولا الصّنعة والخداع، ولا الدنيا وزخرفها، أو المادة وقيمها!..

عروش الدنيا وممالكها، وبطشها وسلطنتها.. كل ذلك أقلّ من أن يقاوم خفقة من خفقات قلب محبّ!..

ونعيم الدنيا وأفراحها، ولهوها ولذائذها.. كل ذلك أقلّ من أن يخلق لمعةَ فرح في قلب حزين!..

يمضي الناس في معالجة مدَنياتهم وحضاراتهم، ويتسابقون إلى دنياهم وملاذهم، وتبقى هذه القلوب الخفاقة فوق ذلك كله، لا تطوّرها يد الحضارة ولا تغيرها آثار المدنية.

فهل في أسرار ما صنَعه الخالق شيء أقدس وأعجب من القلب.

وسألوني يا مولاي عن أبدع مخلوقاتك وأجمل آثارك، فخرجت بهم أجتلي مغاني الربيع!..

ولما توسطنا السفوح الخضر، وهي ترتجّ وتموج بما انبسط فوقها من أفانين الخضرة الفاتنة، والرياحين العطرة، والأزاهير التي تذوب وراء جمالها العين، ناديت بأعلى صوتي: ﴿فَانْظُرْ إِلَى آثَارِ رَحْمَةِ اللهِ كَيْفَ يُحْيِي الأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا﴾(الروم:٥٠)!..

انظر إلى آثار رحمة الله، كيف بدّلت وحشةَ الأرض أُنسًا، وحوّلت جدبها اخضرارًا، وأخرجت من قسوتها رقة تثمل بها النفس، وفتنةً ينتشي بها القلب!..

بالأمس كنتَ تنظر إلى هذه الأرض وهي بلقع تلفّها وحشة اليأس، واليوم تبعث العينَ فيها وإذا هي تفيض حياة ونضارًا، وتزدان برونق الأمل!..

بالأمس كان يُبصر فيها العاشق الملتاع صدى لوحشته وعذابه، واليوم يجلس إليها ليتّخذ منها نجيّ أشواقه، وسمير آلامه ومبعث آماله.

أجل.. ﴿فَانْظُرْ إِلَى آثَارِ رَحْمَةِ اللهِ كَيْفَ يُحْيِي الأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا﴾ (الروم: ٥٠).

مولاي!

هل كان فيما أبدعه صُنعكَ هذا -ما بين شتاء وربيع- إلاّ صورة رائعة أبرزتَ فيها -بعظيم إبداعك- كيف يتحول اليأس المحرق إلى أمل خافق منعش، وكيف تُنشَّأ الحياة المضيئة من جوف ظلام ميت!..

جلّت حكمتك وعظمت رحمتك يا مولاي... متّعتَ أعين العشاق بالورود الحمراء، وأنطقتَها لهم بلغة من الجمال تتقاصر عنها لغة الكلام، حتى يكون لهم من ذلك عزاء عن الجمال الذي افتقدوه، وسلوًى عن الأمل الذي خسروه!..

أنعشتَ نفوسَهم بعبق الرياحين وعطر الزهور، حتى يغسلوا أفئدتهم بها من غبار الكآبة وألم الهجران!..

أقمتَ لهم من مرأى الخمائل بكل ما زيّنتَها به من فتنة وجمال نديمًا يسامرهم وجليسا يؤنسهم ونجيا يتأثر لأنّاتهم ويتمايل لآهاتهم!..

وأبدعتَ لهم ذلك كله -يا مولاي- من جوف أمّهم الأرض!..

ألا بوركتِ أيتها الأرض، مصدر سلوى لأبنائك الذين لا تزال الحياة تحرّكهم على ظهرك ولْيزدك الله رحمة بنا وحنانًا، يوم يعيدنا الردى منك إلى الأعماق.

ورأيتُ يا مولاي، أشتاتا من الناس يسرحون ويمرحون خلال تلك الآثار كما تسرح الدوابّ والأنعام!.. وقد اتخذوا من دونك حجابا، وجعلوا من نعمائك شغلا لهم عنك، ومن عطائك سببا لكفرانهم بك!..

ورأيتُهم يسجدون للمرآة التي يسطع فيها خيال الشمس، وهم عن وجود الشمس وحقيقتها غافلون!..

ورأيتهم قد فُتنوا بعبق الرياحين وصور الورد والزهر والياسمين؛ ولكنهم عموا أو تعاموا عمن أبدع الرائحة في العطر، وخلق النشوة في الخمر، وأخرج الورود من أكمامها، وفجّر الخضرة من جذورها!..

ورأيتُكَ يا مولاي، تشملهم جميعا بالمنّة والعطاء، وتوليهم جميعا الرحمة والنّعماء. تلك هي رحمتك بمن قد نسيَك وتاه عنك. فكم هي رحمتك -ترى- بمن عاش يرقب فضلك ويستمطر جودك وإحسانَك؟!..

إلهي!..

أي شيء يوحشني من الدنيا فقْده بعد أن رأيتك أمامي، وأنست بك في سري وجهري؟!. بل أي منّة منك أعظم وأجلّ من أن تُزيح عني حجابا كان قد شغلني عنك، فشُغلتُ بك عنه بما أكرمتَني من الاعتصام بك والتضرع إليك؟..

أيتها الرياض النّضرة!..

أيتها الورود الناعمة الضاحكة!..

أيتها الروائح المسكرة العبقة!..

لَشدَّ مَا يطربني وينعشني أن أجدني غريقا فيما بينكم، ملفوفا بتَحنانكم، ولكني ما انتعشت منكم بشيء أكثر من الأمل!..

الأمل!.. أقرؤه في تماوج العشب مع الرياح السارية، وأجده في انبعاث روائح منعشة شتى من تلك الورود النضرة، وأسمعه من حفيف الأغصان وتصفيق أوراقها الرقيقة الخضرة.

أجل.. إنه الأمل الذي صورتْه يد الخلاّق، إذ أنبَتَكم من طوايا أرض مظلمة جامدة؛ أبدع حياة الأرض من موتها، وأخرج زينة الدنيا من كآبتها، وأظهر أرقّ ما في الكون من قسوته وصلابته!..

يا من استوى في خلقه الأملُ واليأس، وتلاقى في تقديره الموت مع الحياة!..

يا مُنشئ النور من الظلام، ومبدع الفرح من الأحزان!..

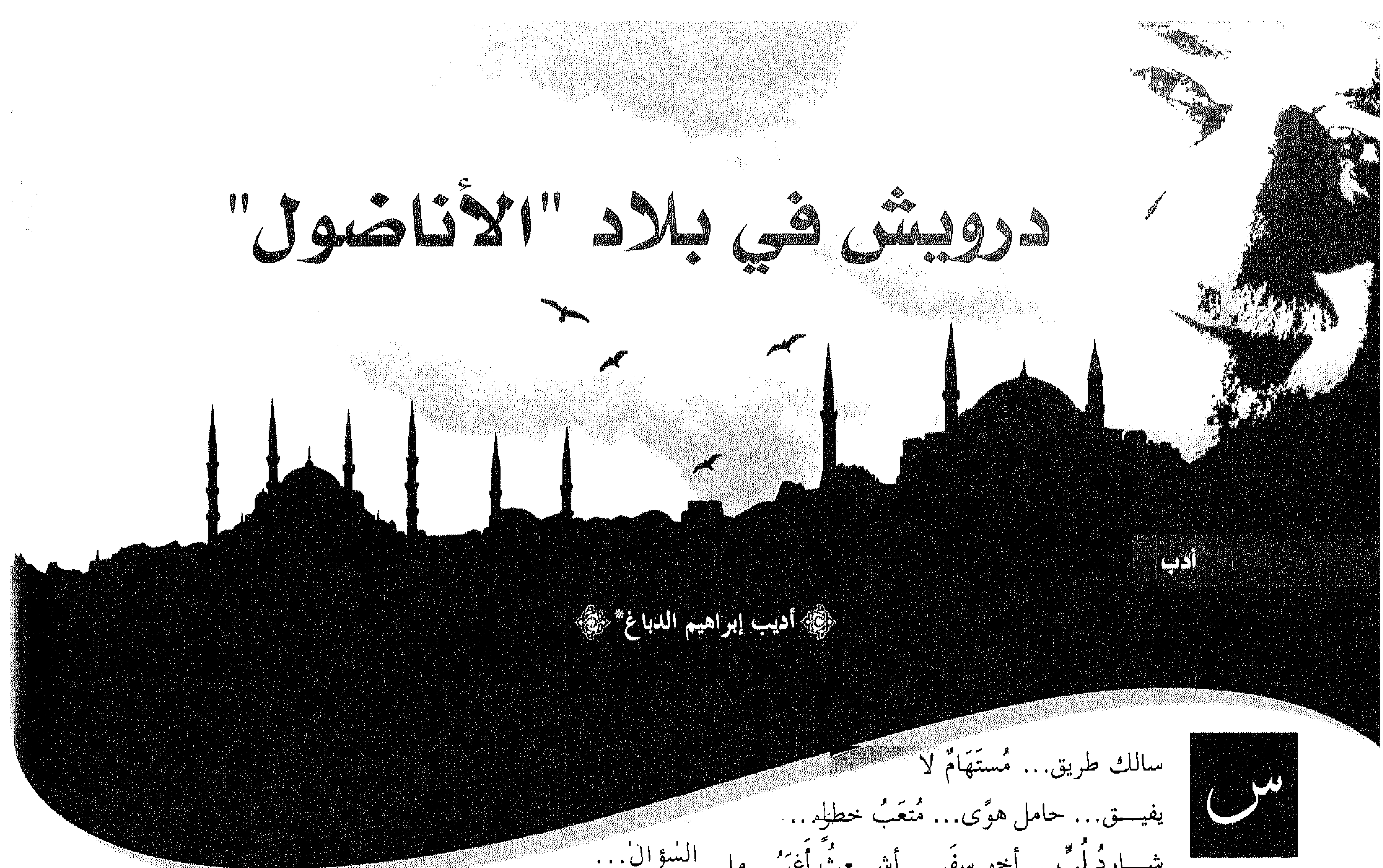
يا من هذا سرّ لطفك وطعم إحسانك وحنانك؟..

يا إلهي!

كيف أيأس إذاً وأنت ربّي، أم كيف لا يُنعشني الأمل وأنت حسبي؟!.. ■

(*) كلية الشريعة، جامعة دمشق / سوريا.

دراويش في بلاد "الأناضول"



أدب

أديب إبراهيم الدباغ*

س سالك طريق... مُستهَامٌ لا يفيق... حامل هوًى... مُتعَبُ خطاه... شاردُ لُبٍّ... أخو سفَر... أشعثٌ أغبرُ.. ما استظلَّ بظلٍّ... ولا بأرضٍ أقام... ولا بمنزلٍ نزل... إذا حَلَّ ارتحل... فلا أراحَ ولا استراح... على نفسه علا... وسلالمَ الروح ارتقى... وبسَنَا أشواقه اهتدى... وبساطَ الأكوان طوى... وفضاءَ الكشف والعيان اعتلى...!

فادْعُ -يا درويش- همَّتكَ... فالطريق لا زالت طويلة... مُنداحَةَ الآفاق... مَهُولَةَ الأمداء... فامتطِ متنَ عزيمتك... واركبْ جوادَ إرادتك... وإيّاك أنْ تَنْصَبَ.. وخباءَك وسْطَ الطريق تَنْصِب... وعن عصا ترحالك تتخلّى... فذاك موتُك... فذاك موتُك...!

يا "درويش"... يا قلبًا ذابَ حتّى عَذُبَ... يا فؤادًا هامَ وعشق... يا حزنًا تعالى وتزكّى... والعالَمَ احتوى... والإنسان بكَى... وعلى ضَيَاعِهِ نَاحَ وانتحب...!

يا "درويش"... يا حامل حيرة الإنسان من قديم الزمان... مَنْ أنا...؟ وأينَ أنا...؟ ولماذا أنا...؟ وتظلُّ وراء الجواب تجري... قطعتَ الفيافي والقفار... وجُبْتَ البحار... وعلوتَ الجبال... وسألتَ الشجَرَ والزهر... والنجم والقمر... وغبْتَ في غابِ الأقلام... وَخُضْتَ في مداد العقول والأذهان... فَزِدْتَ ضياعًا... وفِضْتَ حيرةً... فلا أنتَ عرفتَ.. ولا أنتَ وصَلْتَ...! ولكنَّ صوتًا من ذاتِكَ يأتي: "اِشحذْ ذِهْنَكَ تَسمَعِ الجواب... وتدرك مَبْعَثَ السؤال...

لك وحدك أستطيع أَنْ أُفضي بجميع مكنونات صدري... لكَ وحدكَ أفتحُ أبوابَ كنوزي... وبين يديك وحدك، أنثر دُرَرَ علومي ومعارفي...!

سمعتُ مَرَّةً "درويش الأناضول" يحدثُ فيقول:

"من الطريق تعلّمتُ كيفَ أعيش الخطر... وأمشي على حاجز الموت... آنسًا بهدير العواصف... ومستضيئًا ببوارق الرعود... نابذاً عيش الهامدين... رافضًا سلامة العاجزين... أولئك العوّامين فوق الخواء... الناكصين عن مطاولة الأعماق... المشفقين من السباحة ضدَّ التيار...!

ومن الطريق تعلمتُ كيف أنقذ روحي من الهاوية... وكيف أخرق بها السبْع الطباق... وكيف أرتقي الأسباب... وأعلو على الأسَى... وأستعذب الألم... لأحظى بالوصل وأنال المراد...!

ومن الطريق تعلمتُ كيف أخاف نفسي... وَأَفْرَقُ من طغيان وجودي... وأحذر من ربوبية أَنايَ... وأتجنّب خيالات وهمي... وشطحات فكري... ومزاعم هواي... فلا أرى في الكون غيري... ولا في العالم سواي... وكأني أنا الفِكْرُ والمُفكِّرُ والمُفَكَّرُ به... ولا شيءَ غير ذلك..! وهذه هي الطامة الكبرى!

وعلّمتْني الطريق إذا كبوتُ نهضتُ... وإذا تأخّرتُ تقدّمتُ... وإذا فَتَرتُ هجتُ... وإذا خمدَ لهيبُ روحي أوقدتُ... وإذا نئتُ

بقيدي كسرتُ... وإذا احتجبتُ خرقْتُ... وجهلي قهرتُ... وسفينتي أطلقتُ... ونفسي في هادر الروح قذفتُ... وربّي ناديتُ... أيدني -يا ربُّ- وثبتني... وعلى معرفتك أعنّي... وعنك لا تبعدني... وبالقرب منك أبقني... وزدني صحوًا ووعيًا... ومسكنةً وفقرًا... فكيف تبارحني الحياة وأنتَ حياتي... وكيف يخونني حزمي وأنتَ حزمي وقوتي...؟!

ألفَ مرّة... في اليوم والليلة... أموتُ في العشق وأحيا... أُوجَدُ وأفنَى... يا رماد قلبي المحترق... اِجمَعْ ذَرَّاتِك... وقُمْ من جديد... فؤادًا فتيًا... عاشقًا أبديًا... واقطع مسافات الوجود... وَاضْوِهِ تحت جناحك... وعُدْ إلى نفسك منقبًا عن جواهر علومك... وارتفع ثُمَّ ارتفع... لتصبح نزيل علوم السماء... وأسرار الأرض...!"

سريتَ حيثُ سَرَتْ بك دروب "الأناضول"... طرقتَ أبواب الجامعات غير هياب... واعتليتَ أسوار المدارس والمعاهد... وجُبْتَ الأسواق... واقتحمتَ المقاهي والمطاعم والمعامل... فأثرتَ استغرابًا واستنكارًا... وألفُ سؤال وسؤال دار في الأذهان... ما رأينا في الدراويش درويشًا كهذا... ماذا يفعل عندنا... ولماذا يخترق صفوفنا.. ويقتحم علينا مجتمعاتنا...؟ يا ويحه... يا ويحه...!

ويأتي من بعيد صوت... اِنْتَبِهْ يا "درويش"!... فالليل سَاجٍ... والنّجمُ في الأُفُقِ باكٍ... اِلبَسْ جَنَاحَ الليل... وبجلبابه تجلببْ... ثُمَّ قُمْ تضَرَّعْ... وألطافَ الله تَشَرَّبْ... فالْمَلأُ الفرعونيُّ بكَ يأتمرون... ليُبْعدوك أو ينفوك... وخارجَ التُّخوم يقذفون...!

تجرَّعْ يا "درويش" سُمُوَّ أحزانك... واعْتَنِقْ طُهْرَ آلامك... واستمطرْ بَرَكاتِ غُربتك... فقد انكسرتْ أَقْفال العقول... وتحطَّمَتْ أَغْلالُ النفوس... وانكشفَ المستور... وسطع النور... وانفجر الينبوع... وأشرق سَنَاءُ الكتاب المهجور[١]... من القلب المبعوث[٢] رحمةً للعالمين... ■

إليه تعود

يا سالك الطريق
يا رجلُ يا مقدام...
لا تبالِ الهموم والأحزان...
ما دمتَ على الطريق سائراً،
وإليه ماضياً... فلا تبالِ الصعاب،
فأنت إليه عائد...
فإذا ما وصلتَ... أخذك إلى كنفه،
ومسح آلامك... وكفكف دمعك،
وفي حظيرة قدسه آواكَ ونَعَّمك...
وبمحبته أكرمك...

***



(*) كاتب وأديب / العراق.

الهوامش

[١] المقصود: القرآن الكريم.

[٢] المقصود: الرسول ﷺ.



مراكز النشاط الاقتصادي في الدولة العثمانية

د. ناظم إينتبه*

إن شبّهنا الدولة بجسم مخلوق حي، فإن بقاء هذا الحي مرتبط بعمل أجهزته المختلفة مثل الجهاز التنفسي وجهاز الدوران، وجهاز الإفراغ...الخ، بالإضافة إلى توفر الشروط الضرورية الأخرى.

فإن نظرنا إلى الدولة العثمانية من هذه الزاوية، نجد أنها لم تنشغل فقط بالحياة الدينية وبالأمور العسكرية والحربية وبالتعليم والتربية فقط، بل كانت تملك تقاليد تجارية ومؤسسات تجارية عريقة. وطوال أكثر من ستة قرون لم ينشغل المسؤولون عن إدارة الدولة بالحياة الدينية وبناء القلاع والحصون والثكنات العسكرية والمدارس والجوامع فقط، بل برزوا أيضاً في وضع تقاليد عريقة للتجارة وللمؤسسات التجارية، فبنوا المراكز التجارية والخانات والأسواق الكبيرة ومراكز كبيرة على الطرق الرئيسية للتجارة لاستراحة المسافرين والتجار والقوافل. وذلك لتشجيع التجارة وتوسيعها وفتح الأبواب أمامها. وكان هناك مراكز تُجمع فيها البضائع التجارية في الدولة العثمانية الواسعة الأرجاء وتقوّم قيمها وتُثبت أسعارها، أي كانت تعمل عمل البورصة في أيامنا الحالية. وكان يطلق على هذه المراكز التجارية اسم "بَدَسْتان" (bedesten).

تأسست هذه المراكز أولا في مدينة "بورصه" وفي "أدرنه" ثم انتشـــرت منهما إلى أرجاء الدولة العثمانية. يأتي "بَدَسْت" بمعنى "السوق، والبورصة، والمركز التجاري". ويأتي جذر هذه الكلمة من العربية والفارسية من كلمة "بازِستان"، أي المكان الذي تُباع وتُشترى فيه الأقمشة. كما أطلق على "بَدَست" اسم "قيصرية" أحيانا، ومعناها "داخل القلعة". كانت "بَدَسْتَانْ"، مركز التجارة بين المدن وكذلك بين الدول، كما كانت بمثابة المراكز التجارية في المدن، فتعد من أهم الأبنية في كل بلدة.

التجارة الدولية

كانـــت التجارة الدولية في القرن الرابع عشـــر بيـــد البرتغاليين والجنويّـــين (البنادقة). وكانت البضائع الثمينة تتجمع في الموانئ، حيث تتم التجارة فيها عن طريق النقل البحري بواسطة السفن. كانت الدولة العثمانية على وعي بأن ازدهار التجارة في أي بلد يســـاعد على ازدهار ذلك البلد، وتخلفها يعني تخلف ذلك البلد. لذا قامـــت بإحياء طريق الحرير التاريخـــي، وأمّنت بذلك تحول التجـــارة إلى الطريق البري مرة أخـــرى. لذا بنت الخانات –أي الفنادق– ومراكز التجارة على الطرق التجارية المهمة. وأنشأت هذه المراكز في داخل المدن أيضاً. واستطاعت الدولة –بتحقيقها الأمن والأمان للتجارة والتجار في أراضيها الواسعة وتيسير سبل التجارة أمامهم– الســـيطرة على التجارة الدولية بدءً من القرن الرابع عشر حتى القرن السابع عشر.

البدستانات تختلف عن الخانات وعن "كَرْوان سَرايْ" (وهي أبنية محمية ومقامة على الطرق الرئيســـية لاســـتقبال القوافل). فقد اســـتعملت الخانات بدءً من القرن الثالث عشر وحتى القرن الخامس عشر لتأمين حاجات المســـافرين والتجار. وأطلق اسم "بَدَسْـــتان" في هذا العهد على هذه الخانات أيضاً. ولكن اقتصر اسم الـــ"بدستان" في القرنين الخامس عشر والسادس عشر (عهد نضوج الدولة) في جميع المدن الكبرى على مراكز البورصة والتجارة فقط، واقتصرت الخانات على أماكن استراحة المسافرين.

"بَدَسْتان" والعمارة

كما قلنا فإن الـــ"بدستان" كانت مباني تجارية ظهرت عند ظهور الدولة العثمانية وتوســـعها. ولم يكن فنها المعماري يشبه مثيلاته في حضارات الأناضـــول وفي الحضارة البيزنطية القديمة، كما لم يكن يشبه "القيصرية" وهي الأسواق المفتوحة وغير المسقفة والتي كانت موجودة في جنوبي شـــرق الأناضـــول؛ بل كانت تحمل الســـمة المعمارية للمدن "العثمانية-التركية" مثلما كانت المراكز والمباني الدينية والتجارية الأخرى الكبيرة (كجوامع الســـلاطين الكبرى) تحمل سمتها الخـــاص بها. كانت هذه المباني تحتل مركز المدينة وترمز إلى أنها مدن عثمانية.

كانت الـــ"بدســـتان" في الدولة العثمانية مربعة أو مستطيلة الشـــكل. لها قبب مغطاة بالرصاص، وتنقسم إلى أجزاء وأقسام لتكون صالحة لأفضل استخدام واستعمال، ولها جدران سميكة من الحجر، وترتفع في وسط المدينة وكأنها حصن أو قلعة، وتشرف بأبراجها علـــى المدينة من عل، ويمكن رؤيتها من بعيد والتعرف عليهـــا. كان لها في العادة باب أو بابـــان، وأحياناً أربعة أبواب رئيســـية. وكانت مفتوحة على الشـــارع أو الشوارع الرئيسية للمدينة. كانت الـــ"بدســـتان" مقسمة من الداخل إلى ٤-٢٠ قسما مربع الشكل، ولكل قسم قبة فوقه. ويدخل الضوء من نوافذ صغيرة موجودة في أعلى الجدران. وفي خارج بناية الـــ"بدستان" تلتصـــق جدران الدكاكين بها، كمـــا تنتظم الدكاكين ومحلات العمل على جانبي الطريق الخارج من الـــ"بدستان". كما توجد حول هذا المجمع دكاكين مربعة أو مستطيلة الشكل.

تكون مداخل الـــ"بدســـتان" في العـــادة مرتفعة وفخمة، كمداخـــل المعابـــد، وجدرانهـــا الحجرية مزينة بأشـــكال فنية وزخارف. أبوابها من الحديد أو من خشـــب الأبنوس ومزخرفة كذلك بزخارف حديدية أو خشـــبية. ودكاكينها مصانة جيدًا. والبناية تحتوي على دكاكـــين وعلى المخازن العائدة لها. وقبابها مغطاة بالرصاص لحفظ البناية من تسرب مياه الأمطار والثلوج. لذا فإن بنايات الـــ"بدستان" كانت تحمل طابعًا عثمانيًّا متميزاً. ولكونها مبنية من الحجر كانـــت أيضاً رمز المتانة والقوة والعمر الطويل.

وفي الخانات كانت السلالم موجودة على يمين ويسار المدخل مباشرة وتؤدي إلى الطابق الثاني بـــ(٢٠-٣٠) درجة. وفي القسم الأمامي من الطابق العلوي يوجد "رَواق"، وفي القســـم الخلفي توجد حوانيت أو متاجر. وبينما تغطي القبب أعلى الرواق تكون سقوف الحوانيت على شكل أقواس وقناطر. وكل حانوت عبارة عن غرفة واحدة. أما الحوانيت في الأركان فيكون كل منها عبارة عـــن غرفتين أو ثلاث غرف. ويوجد أيضاً رواق أمام المتاجر في الطابق الأرضي. وتحت هذه الحوانيـــت والمتاجر، توجد مخازن لخـــزن البضائع. وفي هذه المخازن توجـــد صناديق حديد تحفظ فيهـــا الأمتعة الثمينة. ويذكر "أَوْلِيـــا جلبي" الإصطبلات الملحقة



بهذه "الخانات"، حيث تستريح فيها الحيوانات التي تحمل البضائعَ والنــاسَ في القوافل. والإصطبل الموجود في "قوزاخان" في مدينة "بورصه" يعد أنموذجاً لإصطبل الجمال، حيث اســتعمل القسم العلوي منه لاستراحة المسافرين ولخزن البضائع. وتوجد مواقد في غرف الطابق العلوي، وترتفع المداخن من جانب القبب. وتوجد ميضأة في وسط باحة الخانات، وفي المؤخرة يوجد مسجد.

مبادئ عمل مراكز الـ"بدستان"

كما توجد حاليا قواعد ومبــادئ معينة في المراكز التجارية وفي البورصـــات وفي المناطق الصناعية التعاونيـــة حددتْها القوانين، كذلك كانت لمراكز الــ"بدســـتان" في الدولة العثمانية قواعد يجب العمل بها. فهي تؤسس أولاً إما بفرمان من السلطان أو بأمر من وزير. وعندما يتم بناؤها تصبح مركز جذب للتجار الأغنياء الذيـــن يرغبون بالتعامل في مراكز تجاريـــة آمنة. ويقول المؤرخ التركي المعروف "خليل إنالجيـــك": "كان من القواعد المعروفة أن الــ"بدستان" تعد مركزا للتجارة في المدينة، وكذلك مركزاً للتجارة بين الأمم." لذا نرى أن أسواق الـــ"بدستان" ومراكزها في الدولة العثمانية كانت طوال مئات الســـنين محلاً لزيارة آلاف التجار القادمين من إيران والهند وأوروبا، ومحل تعارفهم ولقائهم وإقامتهم، ومحل بيعهم وشرائهم. وقد أنشأ السلطان محمد الفاتح بفرمان منه، "بدستان إســـطنبول" والسوق المحيطة بها بعد الفتح مباشرة، لتكون مركزاً تجاريا كبيراً وآمنا على طريق الأناضول – الروملي ولمدينة إسطنبول كذلك، حيث استطاعت هذه السوق استيعاب الفعاليات التجارية الكبيرة آنذاك.

ومع أن جزءً من إيجار الـــ"بدســـتان" والخانات كان يذهب إلى باني هذه البنايات، إلا أن الجزء الأعظم منه كان يصرف لبناء الجوامع والمدارس الدينية والكليات ومراكز توزيع الأطعمة مجانًا للفقـــراء، أي كان يصرف لأعمال البر والخير. فقد صرف إيجار الـــ"بدستان" التي شيدها السلطان "محمد جلَبي"، في مدينة أدرنه عام ١٤١٨م، لتعمير جامع "أسكي جامع"، وإيجارُ الـــ"بدستان" التي شـــيدها الســـلطان محمد الفاتح وكذلك إيجار سوق "قبالي جارشي" للصرف على أياصوفيا التي حوّلها من كنيسة إلى جامع. وصرف إيجار الـــ"بدستان" التي شيدها السلطان بايزيد الثاني في مدينة بورصه لتعمير جوامع إسطنبول ومراكز مساعدة الفقراء.

التجارة والنشاط الاجتماعي

لم يفصل العثمانيـــون الحياة التجارية عن الســـاحات الأخرى للحياة. واستفادوا في تأسيســـهم هذا التوازن بين مناحي الحياة من خزين التجارب الإســـلامية الطويلة الأمد، والتي بدأت من عهد المدينة المنورة في حياة الرسول ﷺ، واستمرت طوال عصور عديدة وفي بلدان إسلامية متعددة.

كان التجار في العهد العثماني على نوعين: التجار المتجولون، والتجار المقيمون في المدن. فكانت مباني الـــ"بدستان" محل عمل التجار المقيمين في المدن ومركزاً لتعيين أسعار البضائع أيضاً، أي كانت تعمل عمل البورصة الحالية. كما كانت دائرة لاســـتيفاء الضرائب. وكان الموظفـــون الرسميون الذين يعيّنون الأســـعار ويســـتوفون الضرائب يقيمون هنا. لذا لم يكن يســـمح بزيادة الأســـعار خارج الحد المعقول، أي لم يكونوا يسمحون بالتعامل بـــ"السوق السوداء".

كانت كل "بدستان" تشكل نواة الأسواق الكبيرة. وكانت جميع أنواع السلع والبضائع تباع وتشترى فيها مثل أسواق "سوبر ماركت" في أيامنا الحالية. كان بعض هذه المراكز التجارية مراكز لأنـــواع معينة من البضائع ولمنتوجات أصحاب مهن معينة. مثلا هناك مركز للصياغة، أو لبيع السجاجيد أو الأقمشة أو البهارات أو الكتـــب أو للعطارين، وكان يوجـــد حولها بياعو الحاجيات

إذا تجوهر الإيمان في القلب أنقلب إلى منجم حب ومحبة... فأنى لمعدن الكراهية أن ينجم فيه... فكما الشيطان في الكراهية مغمور فأنت -يا مؤمن- بالمحبة معجون...

* * *

اليومية من الأغذيــة كالفواكه والخضروات والطحين والملح... الخ. أو مــن أنواع الوقود كالحطب والفحم.. أو من المواد الخام كالدهون والزيوت والأصباغ.. وكذلك كان أصحاب الحرف الأخــرى كالخياطين وأصحاب المطاعــم وصناع الخزف..الخ، يزاولون نشــاطهم هنا. كما كانت هذه الأسواق تضم الأماكن الضرورية لحاجات الناس كالمســاجد وأماكن الوضوء وأماكن القراءة والمقاهي والحلاقين والحمامات...الخ.

كان أصحـــاب الحرف المختلفة يعملون في الــ"بدســتان" كعائلة واحدة، وكانت لهم منظمات ذات تقاليد عريقة ومستقرة مثل نقابة "الأخوة" (Ahîlik). ولم يكن يؤخذ إلى هذه النقابة من أصحاب المهن من لم يمر بمرحلة التدريب والتعليم التي تتدرج من مرحلة المتعلم الناشــئ أو العامل المبتــدئ إلى المتدرب إلى المعلم (المحترف). كان يتم تعليم الشــباب المبتدئين الحرف المختلفة في ظل تدريب وتعليم يأخذ بنظر الاعتبار التدريب المهني والتجاري مع الحرص على ترسيخ مفاهيم أخلاقية أهمّها أن يكون كل منهم إنساناً محبًّا للخير وجاراً حسن الخلق، أي يتلقون تدريباً وتعليماً أخلاقيا أيضاً. وكان يتم ترقية هؤلاء الشباب من صنف "المبتدئ" إلى صنف "المتدرب"، ثم إلى صنف "الأستاذ" أو "الأسطة" بالتعبير السائد آنذاك في مراسيم احتفالية. وهكذا كانت "بدستان" تنشئ كادرها وتحافظ عليه.

كانت للــ"بدستان" أربع وظائف مهمة:

١-تعيين أسعار البضائع.

٢-فرض الضرائب على البضائع واستيفائها.

٣-خزن البضائع والســلع الغالية والثمينة العائدة للدولة أو للتجار، مثــل الذهب والمجوهرات والأقمشــة الغالية، والوثائق المهمة، حيث كانت هــذه البضائع تحت ضمان الدولة، فتخزن بشكل آمن، ثم تعرض للبيع.

٤-كونها مقرًّا للتجار المحليّين، حيث كانوا يقومون بأنشطتهم التجارية، ومنها كانت تنطلق قوافلهم إلى البلدان الأخرى.

كان لكل "بدســتان" سَريّةُ أَمنٍ خاصة بها، وشخص مؤتمن. وكانت الأموال المفقودة (أي الأموال التي فقدها أصحابها) تبقى عنده مدة معينة. فإن لم يظهر صاحبها تســلم لبيت المال. كما كانت تودع عنده أموال اليتامى حتى يبلغوا ســن الرشد. كما كانت الــ"بدســتان" تقوم بوظائف شــبيهة بوظائف البورصة التجاريــة في أيامنــا الحالية (بورصة القطــن أو بورصة الزبيب مثلاً).

كانت الــ"بدستان" في بعض المدن مركز عمل التجار الذين يقومون بتجارة الأقمشــة الثمينة. وكان كل منهم يملك فرمانًا من السلطان وأمرًا من القاضي كضمان وتأييد له عند قيامه بهذه التجارة. وكانت أي تجارة سِرّيّة تجرى خارج الــ"بدستان" تُعد تجارة غير قانونية ومنافســة غير شريفة بالنسبة للتجار الموجودين في الــ"بدستان" الذين يدفعون الضرائب بانتظام. فمثلاً، حدث في عام ١٦٠٩م، أن طرق سمع تجار "بدســتان" أن بضائع معينة (مثل العطور) تباع سراً في منطقة "غلطة" إلى العطارين، فتقدموا بالشــكوى إلى الســلطان وتمت معالجة الأمر. أما سيطرة تجار الأقمشــة الذين هم أحد عناصر الاقتصاد المضبوط رسميًّا، فقد اســتمرت حتى أواسط القرن الســادس عشر، حيث صدر قرار بالسماح لتجارة الأقمشة خارج الــ"بدستان" ما لم يكن هناك قرار من الحكومة بالمنع.

نعتقد أنه من المفيد إجراء تحليل مقارن بين الــ"بدستان" التي كانت تحتلّ مكانًا مرموقًا في الحياة التجارية في الدولة العثمانية، وبين المراكز التجارية الحالية. فهذا مفيد، ليس من الناحية التاريخية فقط، بل من الناحية التجارية والاجتماعية كذلك. فمن ناحية، هناك فائدة في ضبط الفعاليــات التجارية ومراقبتها، وأن تكون هذه الفعاليات على أســاس مشروع وتُراعى فيها الحقوق؛ ومن ناحية أخرى، فإن عدم الســماح للشخص بالعمل التجاري (إن لم يكــن أهلا له ولم يدرّب بعد عليه) أيضاً من الأمور التي يجب مراعاتها. ■

(*) كاتب ومؤرخ تركي. الترجمة عن التركية: أورخان محمد علي.



فلسفة العمر

أ.د. فريد الأنصاري*

من أهم مصادر الجمال في الإسـلام عقيدةُ اليوم الآخر، لكننا لن نـذوق جماليتها إلا بعد معرفة ما "العمــر"؟ هذا الامتداد الزماني الحاد المحدود، الذي يحد فترة حياة الإنسان، من الولادة إلى الممات.

العمر هبة إلهية كبرى.. إنه تجــلٍّ من تجليات الحياة، بيد أن حقيقته نسبية ككل حقائق الحياة الدنيا. فليس فيه -إذا تفكرت- طويــل وقصير، وإنما هو قصير كله. فمن حيث منطق الأشـياء وطبائعهــا: كل ما ابتدأ لينتهي لا يكــون إلا قصيرا. أليس كل الناس يموتون بعد ســنوات من تاريخ ميلادهم؟! نعم، سنوات، وإن هي إلا سنوات، لا مئات السنين، ولا آلافها.

ثم إن المقارنة النســبية بين أعمــار الخلائق المختلفة تبيّن لك نسبيّة الطول والقصر باعتبار آخر. فمن الخلائق التي تعيش مئات الســنين أو آلاف، من غير البشر، كالأشجار، والجبال ونحوها، وكالشــياطين -وقد قال إبليس اللعين: ﴿قَــالَ رَبِّ فَأَنْظِرْنِي إِلَــى يَوْمِ يُبْعَثُونَ ۞ قَالَ فَإِنَّكَ مِــنَ الْمُنْظَرِينَ ۞ إِلَى يَوْمِ الْوَقْتِ الْمَعْلُومِ﴾(الحجر: ٣٦-٣٨)- إلى الكائنات التي تعمر الشهر والأسبوع واليوم، كبعض الحشرات، من مثل النحل، والذباب، والفراش. فلو نظرت إلى ما يشــعر به المعمَّر مئات الســنين أو آلافها وهو ينظر إلى عمر الإنسان لوجدته يتأسف على شدة قصره، ويأسى على الإنسان الذي لم يمد له في عمره إلا قليلا، وهو لا يدري أن عمره هو أيضا بالنسبة إلى من هو أطول عمرا قصير جدا.

قصر الأعمار

ولو نظرت أنت -باعتبارك الإنســاني- إلى أعمار الحشرات التي تعيش شهرا أو أســبوعا أو يوما، لأشفقت عليها من شدة قِصَرِ ما تعيشــه من لحظات. ومما أرويه عن علماء الأحياء، أن ضربا

من الفراش يعيــش دورته البيولوجية الكاملة، في مدة لا تتجاوز أربعا وعشرين ساعة. يكون بيضة، ثم يخرج منها، فيدبّ دودة، ثم يلتف حول نفســه في غشائه، ليطير بعد ذلك فراشة، ثم يبيض ما شــاء الله له ليخلّف ذريته بأمان، ثم يموت. كل ذلك في أربع وعشــرين ســاعة! وعندما كنتُ أقرأ أن بعض الحشرات يعيش ثمانيــة أيام على الأكثر، كان يتبادر إلى ذهني أن تلك الحشــرة إذا طال عمرها إلى اليوم الثامن، تنشــد كما أنشد الشاعر العربي القديم:

سَئِمْتُ تَكَالِيفَ الْحَيَاةِ ومَنْ يَعِشْ

ثَمَانِينَ حَوْلاً -لاَ أَبَا لَكِ- يَسْأَمِ!

واليوم الواحد بالنســبة إلى وجدان الحشــرة كعشر سنوات كوامل، لا فرق. ولو نظرت إلى ما أخبر به الله عن الزمان الكوني في القرآن، لأدركت أن الأعمار كلها بالفعل قصيرة.

الزمان الكوني وتجلياته

والزمان الكوني صور وأقســام شــتّى، يتجلى بعضها في بُعْده "المِعْرَاجِــيّ"، وهو نوعان: الزمان الأمــري والزمان الملائكي. فـــ"الزمان الأمري" هو المشــار إليه في قوله تعالى: ﴿يُدَبِّرُ الأَمْرَ مِنَ السَّــمَاءِ إِلَى الأَرْضِ ثُمَّ يَعْرُجُ إِلَيْهِ فِي يَوْمٍ كَانَ مِقْدَارُهُ أَلْفَ سَنَةٍ مِمَّا تَعُدُّونَ﴾(السجدة:٥)، و"الزمان الملائكي" هو المشار إليه في قوله سبحانه: ﴿تَعْرُجُ الْمَلاَئِكَةُ وَالرُّوحُ إِلَيْهِ فِي يَوْمٍ كَانَ مِقْدَارُهُ خَمْسِــينَ أَلْفَ سَــنَةٍ﴾(المعارج:٤). كما يتجلى في صورة "الزمان العِنْديّ" وهو المشــار إليه في قوله تعالى: ﴿وَإِنَّ يَوْمًا عِنْدَ رَبِّكَ كَأَلْفِ سَنَةٍ مِمَّا تَعُدُّونَ﴾(الحج:٤٧). وهو زمان "الملائكة العندية" المشار إليها في قوله تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ عِنْدَ رَبِّكَ لاَ يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِهِ وَيُسَبِّحُونَهُ وَلَهُ يَسْجُدُونَ﴾(الأعراف:٢٠٦){س}. ثم "الزمان الأخروي" وهو الزمان الخالد السرمدي الذي لا ينتهي أبدا.

وفي ذهنك، أنــت أيها المعمَّر مائة عام أنك عشــت عمرا مديدا. نعم تماما كما عُمِّرَت الحشرةُ ثمانيةَ أيام، أو أربعا وعشرين ساعة.

ولك أن تتفكر في نســبية الزمن عنــد تقلّب أحوال النفس الإنســانية، بين شتّى ضروب الانتظار مثلا.. عندما تنتظر حلول لحظة ســعيدة لم يبق بينك وبينها إلا لحظات يســيرة من دقائق معدودات.. تَشــعُر أنها تمر ببطء شــديد، وتقلــق من "طول" الانتظار؛ فكأنّ وقع الدقائق تلك في نفسك عدة أعوام. وعندما تحلّ اللحظة السعيدة، تشعر -رغم طول مدتها بالنسبة إلى لحظات الانتظــار- أنها قصيرة جدا، فكأن وقتهــا يتصرم منك تصرما. الزمن نسبي.. وتلك هي حقيقة الأعمار.

الطول والعرض في الأعمار

والعمر -عند التفكر في الخلق الإلهي- هو حقيقة الإنســان. إذ ليس المرء إلا بداية ونهاية! ســاعة ولادة فســاعة وفاة. ولكن.. شتان شتان بين عمر وعمر! ليس ذلك باعتبار الطول والقصر؛ إذ الأعمار كلّها قصيرة كما أسلفنا، ولكن باعتبار العرض والضيق، إذ قد يكون العمر طويلا -حســب العد البشري النسبي- ولكن يكــون ضيقا من غير ســعة. كما قد يكون قصــيرا بالاعتبار نفســه، ولكنه عريــض جدا، حتى لكأنه لا يــكاد ينتهي أبدا.

وبيان ذلك بالمثال التالي: هَبْ أن العمر عبارة عن طريق يقطعها الإنسان، لها امتداد طولي وآخر عرضي. والعادة أن الإنسان إنما ينتبه إلى الطــول؛ لأن ذلك هو المتعلق بمفهــوم الزمن (الماضي والحاضر والمســتقبل)، ولكنه قلّما ينتبه إلى العرض؛ لأن هذا إنما يتعلق بالأعمال والمنجزات خــلال كل فترة من فترات الزمن.

فالإنسان في ســيره خلال عمره نوعان: نوع يخطو دون أن ينتبه إلى عرض الوقت، فيلتهم من طوله ما هو مقدّر له، فلا يشعر ببركة العمر مهما طال، حسب العد البشري النسبي. ونوع ينتبه إلى العرض؛ ولذلك فهو إذ يخطو الخطوة الواحدة من عمره، لا ينتقل إلى الثانية حتى يخطو مثلها على عرض الطريق لا على طولها ليعيش باقي اللحظات التي هي من الخطوة الطولية الأولى نفسها التي خطاها.

وهكذا يبقى يخطو على عرض الطريق حتى يستوعب كل عرضها. وحينئذ فقط، ينتقل إلى أمام ليخطو خطوة أخرى على طولها، ثم يستأنف بعد ذلك خطوات العرض. فهو إذن يسير طولا وعرضا.

إن مفهوم العرض رمز إلى اســتغلال الوقت استغلالا كاملا. لأن الناس -في الغالب- يعيشــون اللحظة الواحدة، بما لا يكفي لعمارتها من الأشــغال والأعمال. وربما أمضوها بالفراغ، وذلك هو ما يسمى بقتل الوقت. والعرض هو استنفاد كل الحيز الزمني للحياة بالمنجزات الإيجابية، والأعمال الحية التي تملأ رصيد العبد بالحياة الحافلة بالخير. وتلك هي "بركة العمر" المرجوة في الأدعية المأثورة. وإني إذ أذكر هــذا المعنى أذكر وصف الله للجنة بقوله

سبحانه: ﴿سَـــابِقُوا إِلَى مَغْفِرَةٍ مِنْ رَبِّكُمْ وَجَنَّةٍ عَرْضُهَا كَعَرْضِ السَّـــمَاءِ وَالْأَرْضِ﴾(الحديد:٢١)، ذلك أن الجنة زمن خالد، فأنت تعيش اللحظة الواحـــدة مرات عديـــدة، لا تنقضي أبدا. كما أن نعمها الوفيرة لا تســـتنفد أبـــدا. فذلك هو العرض ذو المعاني الجميلة.

أمـــا الطول فهو يوحي بالنهاية والـــزوال، ومن هنا لم تكن للأعمار قيمة مـــن حيث طولها أو قصرها. وإنما البليد من الناس من يتشبث بالطول الدنيوي. قال تعالى:

﴿قُـــلْ إِنْ كَانَتْ لَكُمُ الـــدَّارُ الآخِرَةُ عِنْـــدَ اللهِ خَالِصَةً مِنْ دُونِ النَّاسِ فَتَمَنَّوُا الْمَـــوْتَ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ ۞ وَلَنْ يَتَمَنَّوْهُ أَبَدًا بِمَـــا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ وَاللهُ عَلِيـــمٌ بِالظَّالِمِينَ ۞ وَلَتَجِدَنَّهُمْ أَحْرَصَ النَّاسِ عَلَى حَيَاةٍ وَمِنَ الَّذِينَ أَشْـــرَكُوا يَوَدُّ أَحَدُهُمْ لَوْ يُعَمَّرُ أَلْفَ سَـــنَةٍ وَمَا هُـــوَ بِمُزَحْزِحِهِ مِنَ الْعَذَابِ أَنْ يُعَمَّـــرَ وَاللهُ بَصِيرٌ بِمَا يَعْمَلُونَ﴾(البقرة:٩٤-٩٦).

ذلك أن جشع الكفار وجهلهم بحقيقة الحياة، يجعلهم ينظرون للدنيـــا من خلال بُعْدٍ واحد، هو البعد الطولي. وهو بعد خداع، لأن الألف سنة فيه كاليوم لا فرق، ما دام الطول ينتهي إلى حد. والعدد في الوحدات الزمنية الدنيوية -كما رأيت- نسبي، ورب حشـــرة عاشـــت بضع لحظات، أو بضعة أيام، أزكى عمرا ممن عمر ألف سنة. ومتى كان الإنسان هو المقياس الحقيقي لوحدات الزمن؟!

العمر الطولي والعرضي

ومـــن هنا ذمّ الله الحياة الدنيا، من حيـــث هي طول يُتلهف فيه على المتع الزائلة، والمكاسب الفانية: ﴿وَمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا إِلاَّ مَتَاعُ الْغُرُورِ﴾(الحديـــد:٢٠)، وقال ﷺ: "مَا لِي وللدُّنيا..؟ ما أنا في الدنيا إلا كَرَاكِبٍ اسْـــتَظَلَّ تحت شَجَرَةٍ ثم رَاحَ وتَرَكَها!"(رواه الإمام أحمد والترمذي).

والأحاديث في ذم الدنيا والركون إليها كثيرة جدا، تملأ أبوابَ الرِّقَـــاق من كتب الحديث النبـــوي الصحيح. وهي لا تخرج في معناها عن التنبيه إلى خطورة النظر القاصر إلى الزمن، والتكالب على استنفاد لحظات العمر في عَدٍّ طولي لا يمنع من الموت شيئا.

والجميل في الأمر أن العرض لا ينقضي بوفاة الإنسان، بل يمتد حتى بعد وفاته؛ فلا تجده يشعر ذلك الشعور اليائس الذي يزلزل نفسية الكفار، إذ يشعرون عند ذكر الموت بهول "الفناء".

وقد رأينا كثيرا من علماء الأمة الإســـلامية ممن لم يعمَّر من حيث الطول إلا ثلاثا وخمسين سنة، كالإمام الشافعي رحمه الله، ولكن ها أنت تراه -بعد وفاته بأكثر من ثلاثة عشـــر قرنا- يملأ الدنيا بالحياة. فهذا مذهبه الفقهي يملأ عرض الدنيا وطولها، وهذه كتبـــه العلمية تملأ كل أعمار الناس. فهل عاش الشـــافعي بضعا وخمسين سنة فقط؟! إنه نظر قاصر لمفهوم الزمن إذن.

وكذلك الشـــأن بالنســـبة للإمام النووي رحمه الله، الذي لم تزل مصنّفاته هي مادة التربية الإيمانية لملايين المسلمين، ككتاب "رياض الصالحين"، وكتـــاب "الأذكار"، و"الأربعين النووية"، و"شـــرح صحيح مســـلم". فهذا الرجل العظيم قد عاش عمرا مباركا عريضا جدا، في خمس وأربعين سنة فقط.

ومن المعاصرين الإمام حســـن البنا رحمه الله الذي استشهد عن عمر لا يتجاوز الثلاث والأربعين سنة، ولكنه لم يزل يمتد في حياة الأجيال امتدادا قويا، لا تحدّه مقاييس الأعمار الفانية.. إنك تراه هنا وهناك حيا، يحرك الأحداث المعاصرة، ويهز الحياة الدينية والاجتماعية والسياســـية هزا في كل مـــكان. أولئك قوم عرفوا كيف يعيشون عرض العمر، و لم يأبهوا لطوله الكاذب.

وقـــد وجدنا النصوص القرآنية والحديثية تنبّه المســـلمين إلى هـــذا المعنى العظيم، حيث يملك المرء معه أن يعيش حتى التخمة، حياة حافلة بالحياة. يقول الله ﷻ في العبد يستثمر وقته في العمل الصالح: ﴿مَثَلُ الَّذِينَ يُنْفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ فِي سَـــبِيلِ اللهِ كَمَثَلِ حَبَّةٍ أَنْبَتَتْ سَبْعَ سَنَابِلَ فِي كُلِّ سُنْبُلَةٍ مِئَةُ حَبَّةٍ وَاللهُ يُضَاعِفُ لِمَنْ يَشَاءُ وَاللهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ﴾(البقرة:٢٦١)، وهو ما فسره النبي ﷺ بقوله: "إلى سبعمائة ضعف، إلى أضعاف كثيرة"(متفق عليه).

ويموت الإنســـان لكن يمتد عرض عمره بعده. قال ﷺ: "إذا مـــات ابن آدم انقطع عمله إلا من ثلاث: صدقة جارية، أو علم ينتفع به، أو ولد صالح يدعو له"(رواه مسـلم) وقال أيضا: "مَنْ سَنَّ في الإسلام سُنَّةً حســـنةً فله أجرُها وأجرُ مَنْ عَملَ بها بعده، من غير أن يُنْقَصَ مِنْ أُجُورِهِمْ شَـــيْءٌ."(رواه مسـلم). وذلك كل فعل الخير الذي لا ينقطع أثره بالموت.

الحياة الآخرة

ثم إن الإيمان بالحياة الآخرة يشعر المسلم بأن الموت إنما هو مَعبر إليها، فلا يحس في وجدانه العميق بأنه ينتهي بالموت؛ فيعيش الحياة بذوق آخر، ملْؤه العمل والأمل في أن تكون أخراه أفضل من دنياه..

فيا لبؤس عمر يعيشه الإنسان وهو يشعر بأن الموت هو آخر المطاف! انظر إلى هذه الإشارة الإلهية في وصف نفسية الملاحدة المنكرين للبعث، إذ يقتلهم اليأس، ويدمرهم القنوط.

قال تعالى: ﴿فَمَنْ يُرِدِ اللهُ أَنْ يَهدِيَهُ يَشْرَحْ صَدْرَهُ لِلإِسْلاَمِ وَمَنْ يُرِدْ أَنْ يُضِلَّهُ يَجْعَلْ صَدْرَهُ ضَيِّقًا حَرَجًا كَأَنَّمَا يَصَّعَّدُ فِي السَّمَاءِ كَذَلِكَ يَجْعَلُ اللهُ الرِّجْسَ عَلَى الَّذِينَ لاَ يُؤْمِنُونَ﴾(الأنعام: ١٢٥)، وقال سبحانه: ﴿وَمَنْ يُشْرِكْ بِاللهِ فَكَأَنَّمَا خَرَّ مِنَ السَّمَاءِ فَتَخْطَفُهُ الطَّيْرُ أَوْ تَهْوِي بِهِ الرِّيحُ فِي مَكَانٍ سَحِيقٍ﴾(الحج:٣١).

فانظر إلى هذا الزلزال النفسي، والشعور بالدمار والخراب في الحياة! الذي يملأ صدور الكفار، واليأس القاتل الذي يجثم على أحلامهم، لما يعيشونه من فقر شديد في العلم بالله. بينما يملأ هذا حياة المسلم سعة ورحمة، بسبب ما يتيحه له من آفاق أرحب، للنظر في الحياة والكون والمصير. وفقدانه يعني فقدان التوازن النفسي حتما في التعامل مع العمر.

هذا الرصيد الوحيد لدى الإنسان، الذي عليه أن يوظفه ليسعد أو ليشقى. ودون هذا الفضاء الواسع الرحب لا يوجد إلا اليأس القاتل، والخراب المدمر، وهو حال كل منكر للبعث من الكفار والملاحدة أجمعين. وما ذلك إلا لأنهم -كما وصفهم الله تعالى- ﴿قَدْ يَئِسُوا مِنَ الآخِرَةِ كَمَا يَئِسَ الْكُفَّارُ مِنْ أَصْحَابِ الْقُبُورِ﴾(الممتحنة:١٣).

ومن هنا فأنت ترى أن الباب الفسيح الذي يمد عمر المسلم بالاتساع، إنما هو مفهوم "الغيب".

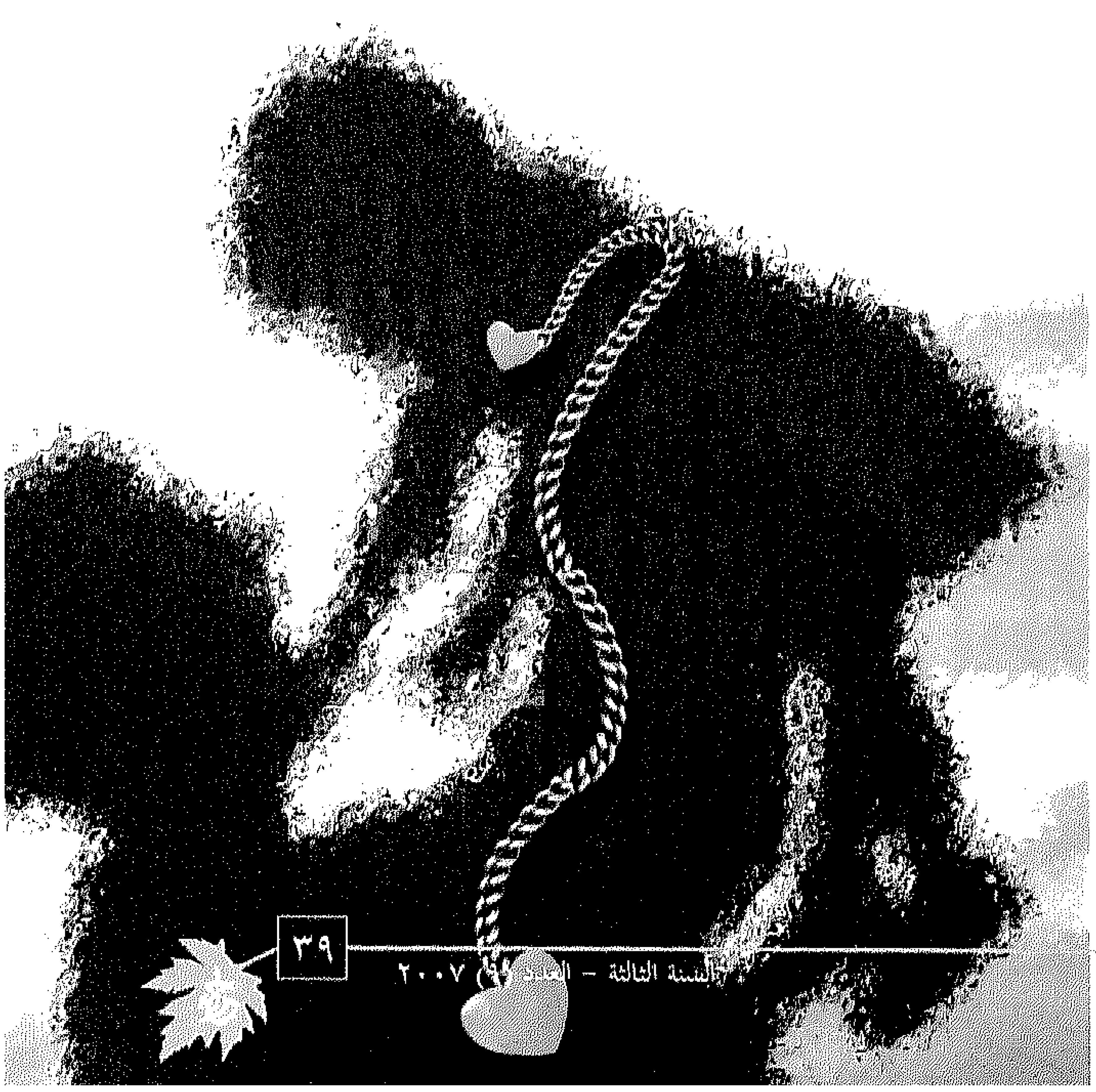
هذا المفهوم الذي تقوم عليه العقيدة الإسلامية بأكملها. فهو الذي يملأ حياة العبد العامل أملا، ويغمر وجدانه حياة متدفقة أبدا، لا يحدها أجل، ولا تقطعها وفاة! ■

(*) جامعة مولاي إسمعيل، ورئيس المجلس العلمي بـ"مكناس" / المغرب.

هذا المخلوق العجيب

يا إنسان...
يا صنعة الله...
يا مجمع الأسرار...
يا مَصَبَّ الأنوار...
يا مناراً مشعاً...
للتائه والمحتار...
أنت لأخيك الإنسان مرآة...
على مرآة قلبه تنعكس صورتك...
وعلى مرآة قلبك تنعكس صورته...
فبينكما ألف رسالة ورسالة...
وسؤال وجواب... وعتاب واعتذار...
ولكن أنّى للنائم أن يدرك
ما يقول القلب للقلب...؟

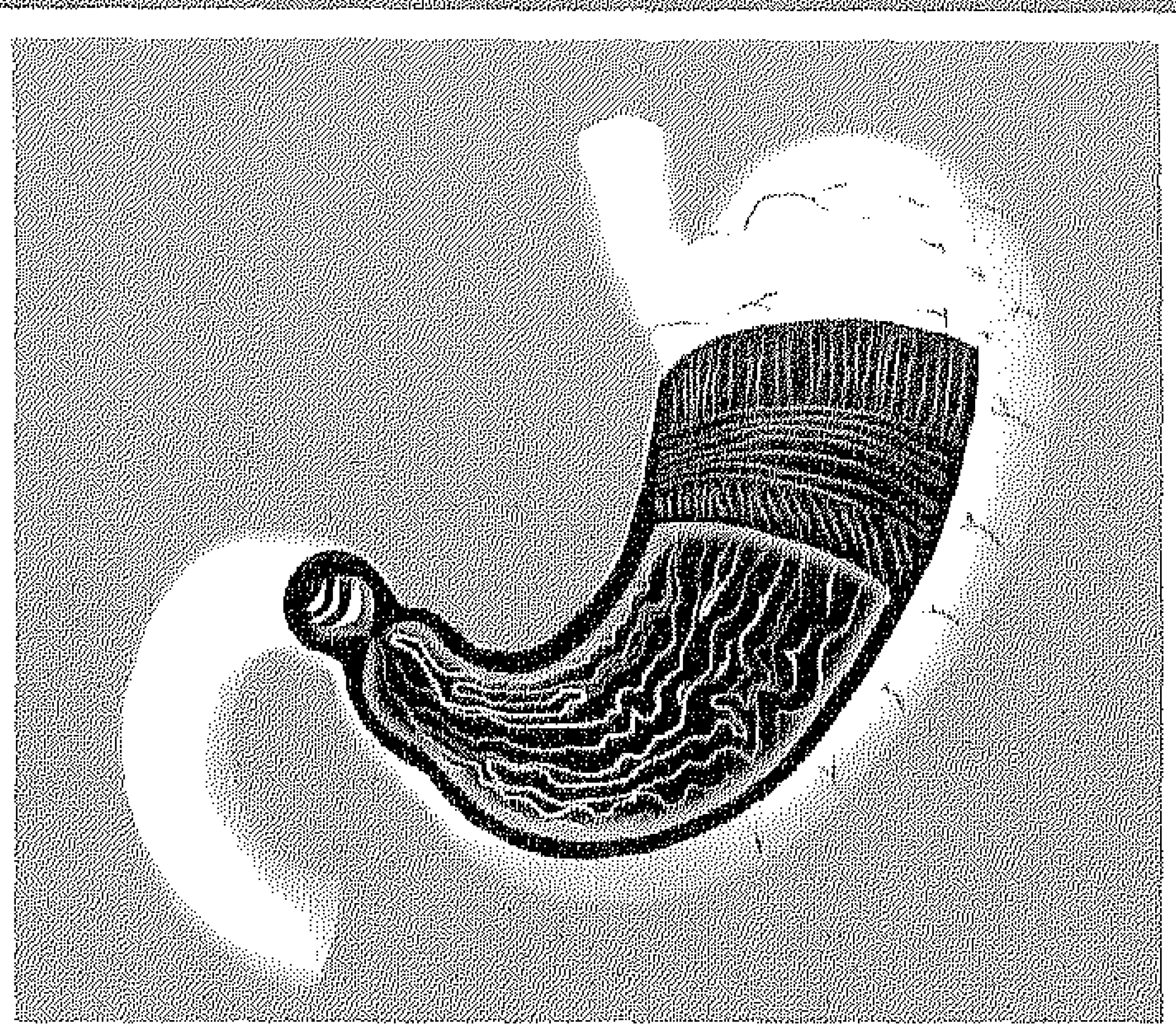
* * *



من كان قلبه بالحق تعالى موصولا كيف يكون حبل ودّه مع الناس مقطوعا...؟ وكيف تغشاه وحدة... أو تنفرد به وحشة...؟

•••

أنا معدة عبد الله



أ.د. عرفان يلماز*

حبيبي عبد الله!..

عندما كلمك جاري، القلبُ الموجود فوقي، وعرّفك بنفسه سمعت ما قاله لك، وربما ساورك بعض الغضب بسبب حديثه، لكن أعتقد أن كل كلامه لصالحك أنت. فهو من جانبٍ قدّم لك نصائح تهمّ صحتك، ومن جانب آخر وجّه نظرك إلى الخالق ﷻ الذي وهب لك القلب ففتح بذلك آفاق تفكيرك. وقد أعجبني كلامه جدًّا، وسررت منه، لذا ساورتني الرغبة -أنا المعدة- للتحدث إليك والتسامر معك. وأعتقد أنك إن أصخت السمع فستستفيد من الناحيتين المادية والمعنوية.

أين مكاني؟

أنا أشغل مكانًا في القسم العلويّ من تجويف البطن وتحت التجويف الصدري. ولكي لا يتولد أي ضرر بيني وبين جارَيّ الموجودَين فوقي، القلب والرئة، فقد وضع خالقنا ستاراً داخل القفص الصدري، أي وضعهما داخل قفص عظميّ. ولكن لا تتصور أنني غير مصانة، فقد صان ربنا كل واحد منا بالشكل المناسب. فلو كان هناك سقف من العظام فوقي لوجدتَ صعوبة في الأكل والشرب. ثم نظرًا لعجزي آنذاك من خزن ما تأكله، كنتَ تضطر آنذاك لتناول وجبات طعام بكمّيات قليلة ولكن بشكل دائم. ولكن نظراً لوجودي في تجويف ذي جدران مرنة جدّاً -مثل التجويف البطني- فإنني أستطيع الاحتفاظ بما تأكله وتشربه حتى إتمام عملية الهضم. وهكذا تستطيع تناول الطعام في وجبات معينة للتفرغ بعدها لمشاغلك الأخرى.

قد يبدو شكلي العام بسيطًا جدًّا في نظرك. لذا ترى بعض من يتكلم عني يقول مهونًا من شأني بأنني عضو يشبه الكيس. وإذا أردت أن تعرف قدري ومقدار أهميتي، فاسأل من أصيب بالقرحة أو بسرطان المعدة. ذلك لأنني إن تعطلتُ أو أصابني الخلل أو المرض ضاقت أمامك الدنيا، فكل شربة ماء أو لقمة طعام ستكون عذابًا لك، فلا تجد طعمًا لحياتك ولا لذة.

دماغ ثانٍ

تتألف جدراني التي تشبه الكيس ظاهريا من أربع طبقات من أنسجة خاصة. تتكون الطبقة الخارجية من نسيج قوي، وتليها طبقات من العضلات العرضية والطولية، تليها طبقة رخوة تحتوي على الغدد، والطبقةُ الأخيرة طبقة داخلية رقيقة من نسيج "ظهاري" (Epithelium). طبعاً لا يجوز أن ننسى شبكة الشرايين الدمَوية التي تغذي جدران هذه الطبقات العضلية، وكذلك شبكة الألياف العصبية التي تنتشر في كل أجزائها.

وشبكة الألياف العصبية هذه التي أمتلكها معقّدة إلى درجةٍ

مذهلة. فأنا أملك شبكة كبيرة من الأعصاب بحيث أكون مطلعة على ما يجري في جميع أنحاء الجسم وكأنني دماغ ثانٍ. فلو أصيبتْ قدمُك بشوكة، أو لو حزنتَ لأمرٍ ما، أو فرحت كثيراً وضحكت تأثّرتُ بكل هذه الأمور. وهذه الشبكة من الأعصاب حساسة جدّاً بحيث يمكن أن تؤثر على حركتي وعلى إفرازات غددي، وقد تعطلها أو تحرّها.

عمل الشبكة العصبية

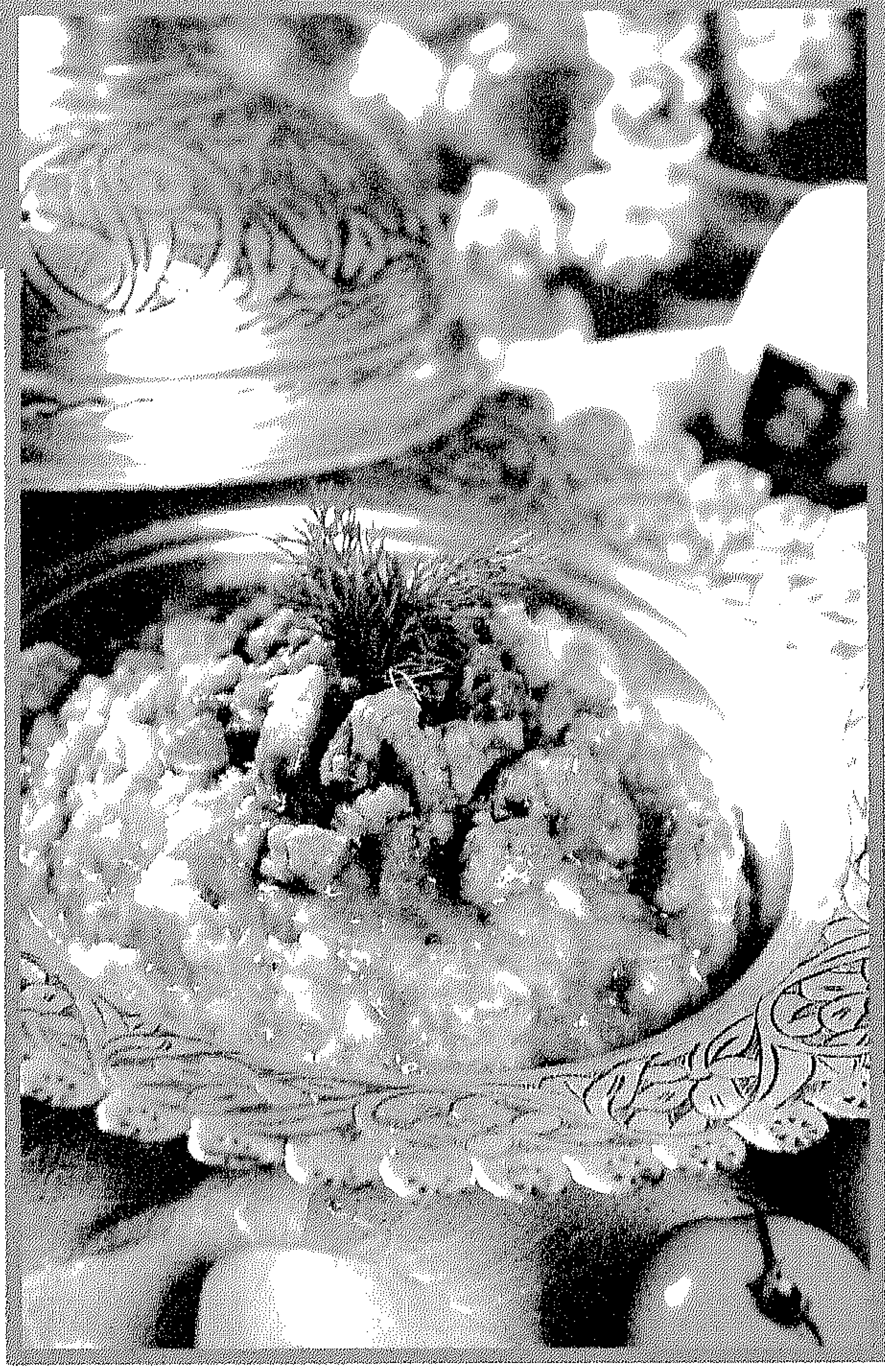
بفضل هذه الشبكة العصبية أبدأ بالسيطرة على حركتي وعلى إفرازات غددي بدءً من قيامك بشم رائحة الطعام والتهيؤ للأكل، وهكذا أُنقذك من أي ضيق بعد تناول الطعام.

كذلك فأنا سهلة القياد، إذ تستطيع -إن أردتَ وعقدتَ العزم- أن تروّضني لطراز جديد من الحياة. فهناك من تعوّد على تناول ثلاث وَجَبات من الطعام يوميّاً، وبعضهم على وجبتَين، وآخرون على وجبةٍ واحدة فقط. أمّا نصيحتي لك فهي الاعتياد على وجبتين في اليوم.

ولكي تتجزأ الأغذية التي تتناولها ويتمّ امتصاصها من قِبل أمعائك وتكون جزءً من جسدك لا بد أن تمر بي. لأنه لا تتم تجزئةٌ كيميائيّة كبيرة في الفم: كلّ ما يحصل هو تفتّت الطعام إلى قطع صغيرة بطريقة ميكانيكية وتحوّلها إلى قِوام لين يمكن قبوله من قِبلي. فإن استعجلت في الأكل وبلعت الطعام دون مضغ ودون تليين كافيَين أتْعبتَني جدّاً. كما أن اللُّقَم الآتية إليّ بهذا الشكل قد تقوم بخدش جدران قناة المريء، وقد تُدميها. والأفضل هو مضْغ كل لقمة ثلاثين مرة. ولكن معظم الناس لا يفعلون هذا مع الأسف، فبعد مضغ لمرتين أو ثلاث يرسلون الطعام لي. وهم لا يُحسون بأنهم شبعوا، لذا يأكلون كثيراً فيُخلّون بتوازني.

وأما إذا أكلتَ ببطء فإني فورَ أخذك حاجتك من الطعام سأقوم بإخبار المركز المختصّ في الدماغ بذلك ليقوم بقطع شهيتك.

وهكذا تكون قد وفّرت عليّ التعب من جهة، وتجنبتَ الإسراف من جهة أخرى. وعندما تأكل بسرعة أكون قد امتلأتُ



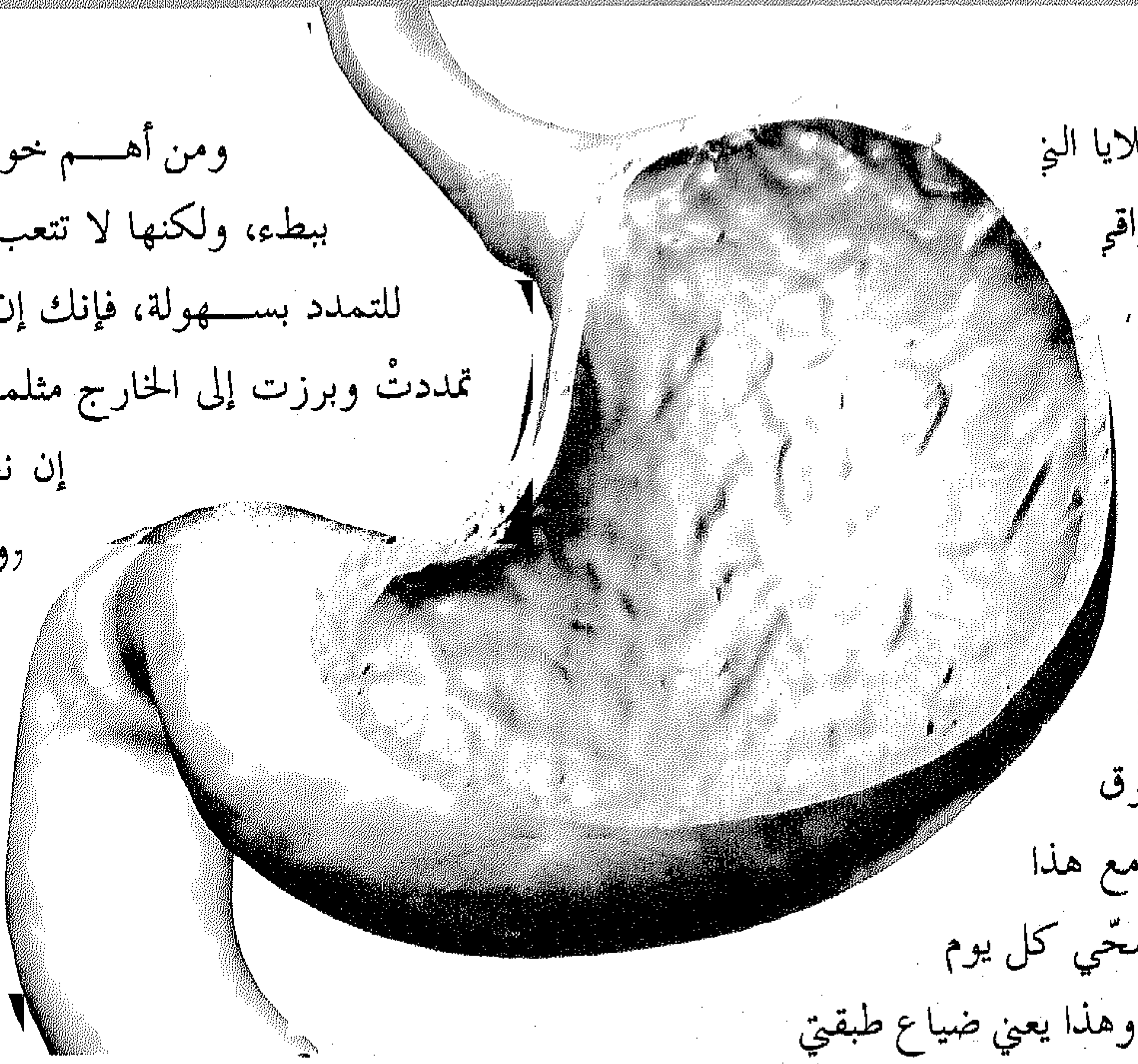
قبل أن أجد الفرصة لإرسال الجزئيات التي تبعث إشارات الشبع، فلا يبقى عندي مكان لا للماء ولا للهواء.

أنواع الخلايا

هناك ثلاثة أنواع من الخلايا في الغشاء المخاطي الذي يبطنني، أي في الغشاء الذي يكون على تماس مع الأغذية. النوع الأول منها يقوم بإفراز حامض الهيدركلوريد "HCl" القوي جدّاً.

يقوم هذا الحامض الذي يستطيع إذابة حتّى الحجر بتجزئة جميع البروتينات ومنها اللحم، وبقَتل الجراثيم الداخلة مع الأغذية والسوائل. ولو لم يوجد هذا الحامض لَما نشطت غدد إفراز أنزيم مادة البَبْسين "Pepsinogen". وهذا الأنزيم لا يعمل وحده، لذا لا يُفرز عندما لا يوجد طعام في جوفي. وعندما يبدأ الطعام بالدخول إليّ يبدأ بإفراز هذه المادة مع إفراز حامض الهيدوكلوريد معًا.

وقد تتساءل: ألا تتضرّر جُدراني بمثل هذا الحامض القوي وهذا الأنزيم الهاضم للبروتينات؟ الجواب: لا يقع مثل هذا الضرر لأن الخالق الرحيم يغطي -بآلية دقيقة- جدراني بشكل



مؤقت بمـادة واقية. والخلايا التي تفرز السائل المخاطي الواقي تقـوم بعملها هـذا قبل إفراز الحامض وقبل إفراز الأنزيم المفتّت للبروتينات، أي يعمل هذا السـائل المخاطي عمل طبقة الجص أو الإسمنت الـتي تَصون الجدران المبنيـة من الطابوق من التأثيرات الخارجية. ومع هذا فبتأثير الحامض والأنزيم أضحّي كل يوم بـــ(١,٥) مليون خلية. وهذا يعني ضياع طبقتي الداخلية كل ثلاثة أيام. ولكن أحمد الله الذي أعطاني قدرة كبيرة على تجديد خلاياي حيث أسـتطيع تجديد طبقتي الداخلية بخلايا جديدة.

متى يحصل العطب

أحيانا يحصل عطب أو خلل في إفراز هذه المادة الواقية مما يؤدي إلى تآكل خلايا الجدران بتأثير الحامض والأنزيم، ويبدأ نضْح الدم من الشرايين الدموية الموجودة في الطبقة الداخلية. وهذا يشير إلى إصابتي بـــ"القرحة"، أي ظهور الجروح وبدء النـزيف في جدراني.

ولا تظهر هذه القرحة عند الأشـخاص غير الحسّاسين، لذا فلا تتأثر المنظومة العصبية عندهم. أما الأشـخاص الحساسـون فنظـرًا لكونهم يتأثرون كثيرًا فإن منظومـة الإفراز تتأثر عندهم بسـرعة، لـذا يتعرض هـؤلاء للإصابـة بالقرحة بسـهولة.

لـذا فإن مـن الأصـوب العيـش باعتـدال وتعقل دون الانحـراف إلى القلـق والخوف والحـزن الشـديد أو الفرح الشـديد، أي مواجهة الأحـداث بصبر. فـإن راعيتَ العيش بتـوازن فلـن تتسـبب في تخريـب نظـام الإفـراز عندي.

أنت لا تستطيع تحريك العضلات التي تشكل نسبة كبيرة من سمك جدراني مثلما تحرك مثلا عضلات يديك أو رجليك. تعمل هذه العضلات اللاّإرادية في هذه المنظومة العصبية دون أن تشعر أنت بها، فهي تتلقى أوامرها وتعمل دون إرادة أو شعور منك.

ومن أهـم خواص هذه العضلات أنها تعمل ببطء، ولكنها لا تتعب بسـرعة. ونظرًا لأنها قابلة للتمدد بسـهولة، فإنك إن لم تكـن متوازنا في الأكل تمددتْ وبرزت إلى الخارج مثلما تبرز شُرفة البناية.

إن نفسـك المائلة إلى الإسراف والجشع تضرّني كثيرًا، وتجعلني أداة ضارة لك. إذن فعليك ألاّ تسـتجيب لألاعيب النفس، وتكون متوازنًا في طعامك وشـرابك، وإلا حوّلتَـني إلى مخزن نُفايـات وجلبتَ الضرر والبلاء على نفسك.

الأمور التي أكرهها

أودّ أن أعلمك ببعض الأمور التي أكرهها، وعلى رأسها المأكولات والمشروبات الحارة جدّاً والباردة جداً. فكلٌّ منهما يخرّب عمل أنزيماتي ويعرقل عملها.

وأفضل درجة حرارة تعمـل فيها هذه الأنزيمات هي درجة الحرارة القريبة من حرارة الجسـم، أي بدرجة حرارة ٣٦-٣٧ مئوية.

إن هناك الآن شبهات قوية من أن الأطعمة الحارة جدّاً تسبب في إصابة خلاياي بالسرطان. أما الأشياء الباردة جدّاً فإن تلُكْها أو تُبقِهـا فترة في فمك لتدفئتها قليلا ثم تبلعها تكون قد حفظتني من الإصابة بالـبرد، لأنني إن أصبتُ بالـبرد تقلصتْ عضلاتي وفقدتُ توازني فلا أستطيع أداء مهمتي.

أقوم بمخْض وتحريك الأطعمة التي تأتيني من البلعوم وأعالجها بالأنزيمات حتى تتحول إلى حالة سائلة، ثم أدفعها -بعد أن تتحول إلى القوام المطلوب- تدريجيًّا نحو الأمعاء الموجودة تحتي والمسماة بـــ"الإثنَي عشر".

فأنا أشـبه الدنيا التي توصف بأنهـا دار ذات بابَين، لأنني لا أحتفظ بشيء في جَوفي، بل آخذ الأغذية من جهة، ثم أرسلها من جهـة أخرى. لم يوضع بيني وبين قناة الطعام (البلعوم) أيّ باب،

لذا أستطيع إن لزم الأمر أن أُرجع بعضَ ما يدخل إلى جوفي إلى الخارج بعملية التقيؤ.

وقد يبدو التقيّؤ في الوهلة الأولى شيئًا غير مستحسن، لذا فقد تتساءل: لماذا لم يوضع باب أو حاجز هنا؟ ولو كان ما تقوله صحيحًا فأنا أسألك: ماذا ستكون حالك إن تناولت عن طريق الخطأ سُمًّا أو غذاءً فاسدًا أو متعفنًا؟ كان من الضروري آنذاك إما تنظيف معدتك أو إجراء عملية لك حياتك. وقد تموت قبل إجراء تلك العملية. بينما أستطيع بقابلية التقيؤ هذه إخراج ما أشعر بضرره، ويمكن كذلك مدّ خرطوم إلى جوفي لتنظيفه.

فهل فهمت الآن لماذا لم يوضع باب أو حاجز بيني وبين القسم العلوي فيّ؟ وعلى العكس من هذا فقد وضع باب بيني و بين الأمعاء لكي لا ترجع الأطعمة الموجودة في الأمعاء إليّ مرة أخرى، ولكي لا يختلّ الجوّ الحامضيّ الموجود عندي. لأن الأنزيمات التي تعمل في الأمعاء ذات طبيعة قاعدية أو حيادية وتعمل في وسط قاعدي. والجو الحامضي الموجود عندي يخرب عمل أنزيمات الأمعاء ويخل به. فلو تدفقت إليّ أملاح كيس الصفراء المفرزة من الكبد أو أنزيمات البنكرياس، لاختلت الأمور عندي تمامًا، وقد تم تهيئة جو مناسب في الأمعاء لظروف عمل تلك الأنزيمات والإفرازات.

اسمعْ نصيحتي

عندي لك توصية أخرى يا عبد الله!.. إياك أن تمارس الرياضة وجوفي مملوء. ذلك لأن طبقة العضلات السميكة لجدراني تحتاج إلى كمية كبيرة من الدم، لذا يتم سحب مقدار كبير من الدماء من الأجزاء الأخرى من الجسم ويُرسل إليّ. فإن مارست الرياضة في هذا الوقت فلن تتم تغذية الأجزاء الأخرى من جسمك بالدم بشكل كافٍ، وهكذا سيتعب قلبك.

سأفشي لك سرّاً آخر: أنت تقترف خطأً كبيرًا كلما تَزيد من إرسال الطعام إليّ دون مبالاة بأي شيء ودون الاهتمام بالحلال والحرام؛ لأن صحتك الجسدية وصحة حياتك الروحية تتناسب عكسيًّا مع حجمي. فإن زدتَ من حجمي زاد حجم الدهون المتراكمة في قلبك وفي شرايينك، وتَعرقَل عملُه وعملها. ويقول العديد من أهل العرفان بأن الأكل الكثير يؤدي إلى صدأ الأحاسيس الروحية وضعفها. والحقيقة أن الإنسان يكفيه ما يقيم به صُلبه. لذا فإن لم تصبح أسيرًا للذة الأكل، وتذكّرت صاحب النعم والأفضال ﷺ، وبقيت في دائرة الحلال، وأكلتَ ما يكفيك مع أداء الشكر... كنتُ أنا مرتاحة هنا وأنت مرتاحًا في الدار الآخرة. بالنسبة لي لا فرق بين قطعة حلوى تجتاز فمك إليّ وقطعة خبز، لذا فكن مراقبًا لما يدخل في فمك لكي تتجنب الإسراف وتراكم الشحم والسمنة.

المعدة بيت الداء

قد يضحك بعضهم من هذه النصائح الأخيرة ويقولون: "اللّذة الأكل من نعيم الحياة.. كما يجب أن نتغذى جيداً"، لذا فلا يهتمّون ولا يلتفتون إليها. ولكن الطبّ الحديث والمختصّين بعلم الأغذية وصلوا ومنذ سنوات عديدة إلى النتيجة نفسها التي ذكرتُها لك، حيث يقولون الآن: "أجل!.. أنتِ محقّة!.. حَسْبُ ابن آدم لُقَيمات يقمن صُلبه".

إن ملء المعدة سبب مهم للعديد من الأمراض. إذن فإن كان الأكل طريقاً للذة فهو طريق إلى الأمراض أيضًا.. إذن فالمهم والضروري هو التوازن في التغذية. فهذا هو ما يوصي به العلم الحديث.

وبفضل التغيير الذي تقوم به في السَّنَة شهرًا واحداً (رمضان المبارك) في نظام الأكل فأنا وجميعُ مساعديّ نقوم بتجديد أنفسنا، وكأننا دخلنا في مخيّم أو في دورة تدريب. وهذه حاجة ضرورية لنا لندخل موسماً جديداً بعد نيل الراحة اللازمة لنا. وقريبًا سيحلّ موعد المخيم من جديد، لذا فأنا أنتظر حلول هذا الموعد لآخذ قسطا من الراحة.

عزيزي عبد الله!

أنت في حاجة إليّ للحصول على الغذاء وعلى الطاقة اللازمة، لأنني إن لم أكن موجودة لا يعمل حتى قلبُك، كما يجب أخذ الغذاء الكافي لتأمين الطاقة لكل عملية بيولوجية. فأنا سَيف ذو حدّين. يجب ألا تهملني كثيراً، وألا تدلّلني أيضاً كثيراً. وأنا أنتظر منك مثل هذا التصرف المتوازن. ■

(*) جامعة ٩ أيلول / تركيا. الترجمة عن التركية: أورخان محمد علي.

أعراض الوحي المنزل على ذات النبي المبجل



د. رابح المغراوي*

ظل محمد ﷺ يواظب على ما اعتاده من لذة خلوته، ومناجاة ربه في غار حراء، شهرا من كل سنة، إلى أن أشــرق عليه اليوم الذي تحقق فيه الاصطفاء، وتأكد فيه الاجتباء، ليكون آخــر لبنة في صرح العناية الربانية، وآخر جوهرة في نظم الرعاية الرحمانية، اســتجابة لسنة التعهد المرعية، تفقدا للبشــر بالتوجيه والترشيد والهداية، مباشرة ليطلوا على صلة بخالقهم وبارئهم ورازقهم، قال عليه الصلاة والسلام: "مَثَلي ومثل الأنبياء مِنْ قبلي كَمَثَلِ رَجُلٍ ابْتَنَى بُيُوتاً فأَحْسَنَــهَا وأَكْمَلَهَا وَأجْمَلَها إلاّ مَوْضِــعَ لبِنَة في زاوِيَة من زَوَاياها، فَجَعَلَ النّاسُ يَطُوفُونَ ويَعجَبونَ من البُنيان بالبيت فَيقولونَ: ألا وَضَعتَ ها هنا لَبنَةً فيتمّ بُنيانُكَ؟"قال النبيُّ ﷺ: " فكنتُ أنا اللَّبنةَ"(١)

في مغارة من مغارات جبل حراء الذي سيصطلح على تسميته بـــ"غار حـــراء" تحقق الاصطفاء بالمخاطبة عن طريق ما اصطلح على تســميته بـــ"الوحي"، فما هي الحمولة الدلالية لهذا اللفظ الغريب على بيئته، الجديد على معجمه؟

وهل كان الوحي يأتي على صورة واحدة، أم كان على صور متعددة؟

وإذا كانت له صور متعددة، فما حقيقة تلك الصور؟

وهل كان الوحي مجرد تفهيم وتعليم في ســـرعة وخفاء كما يدل علـــى ذلك معناه اللغوي، ليس له أعـــراض أو آثار يراها المشاهد؟

أم كانـــت له أعراض غاية في الوضوح والبيان حفظها تاريخ الرسالة الإسلامية الخالدة، وتراث النبوة المحمدية الباقية؟

ذلك ما ســأحاول رصده من خلال هـــذه المقالة الوجيزة، فأقول:

الوحي لغة هو "الإشـــارة والكتابة والرسالة والإلهام والكلام الخفـــي وكل ما ألقيته إلى غيرك"(٢)، ومن معانيه أيضا الإعلام في خفاء، ومنه الوَحى ومعناه العجلة والسرعة.(٣)

ويمكن اختصـــار معاني الألفاظ التي ذكـــرت في القول بأن الوحي هو الإعلام الخفي والسريع.

أما اصطلاحا فهو ما يوحيه الله تعالى إلى أنبيائه ورســـله من كلام أو معنى أو غير ذلك مما يعلمونه في خفاء وسرعة.

والوحي هو الركن الأساس الذي تستند عليه النبوة بحيث ينعدم مدلولها بدونه، وهو المصدر الوحيد لكافة الأخبار الغيبية، والمبادئ العقدية، والأحكام التشريعية، وهو الذي يميز بين الإنسان الذي يعتمد فكره ورأيه، وبين الإنسان الذي يصدر عن ربه بأمانة.(٤)

والوحـــي هو آية النبوة الكـــبرى، ومظنة التصديق بها، وهو عماد اليقين الذي لا ينبغي أن يتطرق إليه الشـــك، إلا انهار كل ما ترتب عليه مما ذكر.

كما أن الموقف من الوحي تصديقا أو تكذيبا هو الفرقان بين الإيمان والكفر، والفيصل بين الإسلام والشرك.

وهو أيضا سنة من سنن الله مع أنبيائه، قال تعالى: ﴿إِنَّا أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ كَمَا أَوْحَيْنَا إِلَىٰ نُوحٍ وَالنَّبِيِّينَ مِنْ بَعْدِهِ وَأَوْحَيْنَا إِلَىٰ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ وَالْأَسْبَاطِ وَأَيُّوبَ وَيُونُسَ وَهَارُونَ وَسُلَيْمَانَ وَآتَيْنَا دَاوُودَ زَبُورًا وَرُسُلًا قَدْ قَصَصْنَاهُمْ عَلَيْكَ مِنْ قَبْلُ وَرُسُلًا لَمْ نَقْصُصْهُمْ عَلَيْكَ وَكَلَّمَ اللَّهُ مُوسَىٰ تَكْلِيمًا﴾(النساء: ١٦٣-١٦٤).

ولذلك يتعين على الباحث عن الحق في أمر الوحي أن يستقصي حقيقته، ويتأمل صوره، ويستكشف آثاره، من خلال النظر فيما حفظ في هذا الشـــأن من نصوص غاية في الدقة، وآية في الحجة، تبعث على التعجب والذهول، زيادة في البيان، وإمعانا في ترسيخ اليقين في الوجدان، مظنة الإيمان المكين، وأساس الاعتقاد المتين، الذي يبعث على الثقة والتصديق ويرقى بصاحبه إلى مقام الإحسان.

فكيف كانت آثار هذه التجربـــة الفريدة على النبي الكريم، والخبرة اليتيمة على محمد عليه الصلاة والســـلام؟ وما هي كافة مظاهر هذا الأمر على جسمه الشريف عليه الصلاة السلام؟

لقد كان حقا لعملية اســـتقبال الوحي آثـــار مادية ظاهرة، وأعراض فســـيولوجية بادية للمشاهدة والمعاينة يدركها كل من حضر، وهو ينظر إلى النبي الكريم وهو يكابد استيعاب التنـــزيل، ويعاني استقبال الترتيل، نذكر منها الأعراض الآتية:

١-تصبب العرق

قالت عائشـــة رضي الله عنها: "ولقد رأيتهُ ينـــزل عليه في اليوم الشديد البرد، فيُفْصَمُ عنه وإنَّ جبينَهُ لَيَتَفَصَّدُ عَرَقاً"،(٥) وهذا يدل على المعاناة الشديدة الناجمة عن ضخامة الجهد الذي كان محمد ﷺ يبذله أثناء هذه العملية.

٢-تبدل لون الوجه

من الأعراض التي كانت تعتري جســـمه الشريف عليه الصلاة والســـلام، تغير لون بشـــرته، وقد جاء في ذلك نصوص متعددة دلت على الحقائق الآتية:

أ-احمرار الوجه

وقـــد جاء هذا الحديث الصحيح الـــذي روي عن يعلى بن أمية حيث ورد فيه: "... فإذا النبي ﷺ محمر الوجه...".(٦)

وأعتقد -والله أعلم- أنـــه ربما قد لا يكون هناك تلازم بين عرض احمرار الوجه وعرض تصبب العرق، إذ قد يحمر الجســـم دون أن تكون هناك إفرازات عرقية، كأن يتصبب الجســـم عرقا دون أن ترتفع درجة حرارته.

بـــ-الرُّبْدَةُ

وقد دل على ذلك الحديث الذي أخرجه مســـلم عن عبادة بن الصامت: "أن النبي ﷺ كان إذا نزل عليه الوحي كرب له وتربَّد وجهه".(٧)

والرُّبدة في اللغة هي الغُبرة، ومن معانيها السواد المختلط، أو الحمرة التي خالطها ســـواد، وتربّد وجهه: أي تغير من الغضب، وقيل صار كلـــون الرماد، وتَرَبَّدَ الرجـــل: إذا تَعَبَّسَ، وتَرَبَّدَت السماء: تَغَيَّمَت.(٨)

وحُقَّ لرســـول الله ﷺ أن يعتريه الكرب العظيم لهيبة المقام، وهَـــول التجربة، وجســـامة التبعة، يتفاوت الكـــرب بتفاوت الواجبات والمعاني والمقامات والأحوال التي تتحدث عنها الآيات والسور، أكّد هذا ما روي عن زيد بن ثابت رضي الله عنه، قال: "كان إذا نزلت على رســـول الله ﷺ السورة الشديدة أخذه من الشدة والكرب على قدر شدة السورة، وإذا نزلت عليه السورة اللينة أصابه من ذلك على قدر لينها".(٩)

وزيد بن ثابت رضي الله عنـــه يتحدث عن موضوعٍ خبرتُه به عظيمة، لاضطلاعه بأمانة تدوين وحي الســـماء بأمرٍ من الله سبحانه وتعالى ورسوله ﷺ.

٣-تتابع الأنفاس وترددها

وهذا مما قد يدل على أن عملية التلقين والإلقاء في الرُّوعِ لم تكن عملية ذهنية صرفة، وأن العملية، مهما كان محلُّ الأمرِ المُلَقَّنِ الذهنَ والدماغَ والقلبَ بصفة عامة كما تقرره اللغة، فإن لها تأثيرا على أجهزة كثيرة من جسم النبي الكريم عليه السلام، إن لم نقل الجسم برمته، وبخاصة جهاز التنفس الذي له علاقة بإمداد الهواء، ودقات القلب، التي هي أظهـــر الأمور وأبينها في المواقف التي لا تطاق.

هذا طبعا إذا لم يكن مراد الله عز وجل إظهار الأعراض إمعانا في الإتيان بالحجة البالغة لإقامة الدليل.

٤-الغطيط

روى الإمـــام البخاري عن يعلى بن أمية، أنه كان يقول لعمر بن الخطـــاب رضي الله عنه: ليتني أرى نبي الله يوحى إليه، فلما كان بالجِعْرانة[١٠]، وعلى رســـول الله ثوب قد أظل به، ومعه ناس من أصحابه منهم عمـــر، إذ جاءه رجل عليه جبة متضمّخة بطيب، فقال: يا رســـول الله كيف ترى في رجـــل أحرم بعمرة في جبة بعدما تضمَّخ بطيب؟

فنظر النبي ﷺ ساعة، ثم سكت فجاءه الوحي فأشار عمر إلى يعلى: تعال، فجاءه يعلى فأدخل رأسه، فإذا النبي ﷺ محمرّ الوجه يغط كذلك، فمكث كذلك ســاعة، ثم سري عنه، فقال:" أين الذي سألني عن العمرة آنفا؟"...إلى آخر الحديث.[١١]

والغطيط: صوت تنفس غير عاديّ يحدثه النائم عندما يكون على هيئة غير مريحة، ينبعث من الحنجرة والخيشوم، أو عندما يلم به كابوس مزعج.

٥-انبعاث الأزيز ناحية رأسه

عن عمر بن الخطاب رضي الله عنه، قال: " كان رســـول الله ﷺ إذا أنزل عليه الوحي يُسْـــمَعُ عند وجهـــه كَدَوِيِّ النحل، فأُنزل عليه، فمكثنا ساعة، ثم ســـري عنه، فقرأ:﴿قَدْ أَفْلَحَ الْمُؤْمِنونَ﴾ (المؤمنون:١)" إلى آخر الحديث.[١٢]

وهـــذا الصوت كما يفهم من الحديـــث لا علاقة له بعملية التنفس التي مركزها الصدر والفم والأنف التي هي عَرَضٌ بذاها، وإنما له علاقة بالدماغ ولا شـــك، وربما كان الصوت منبعثا من الرأس، أو لربما كان منبعثا من الأذن أو منهما جميعا.

٦-ثقل الوزن

وقد جاء في ذلك أحاديث طريفة منها ما ورد في صحيح البخاري عـــن زيد بن ثابت رضي الله عنه، قال: "أنزل الله على رســـوله وفخذه على فخذي، فثقلت عليّ حتى خفت أن ترض فخذي".

وروي عن أبي أروى الدّوســـي: "رأيت الوحي ينـــزل على رسول الله ﷺ، وإنه على راحلته فترغو وتفتل يديها حتى أظن أن ذراعها ينفصم، فربما بركت وربما قامت مؤبدة يديها حتى يسرى عنه، من ثقل الوحي وإنه لينحدر منه مثل الجمان".[١٣]

وعـــن أسماء بنت يزيد قالت: "إني لآخذة بزمام العضباء ناقة رســـول الله ﷺ، إذ نزلت عليه المائدة كلها، وكادت من ثقلها تدق عضد الناقة".[١٤]

ولقد شـــاهد الصحابة رسول الله ﷺ كيف أن ناقته التي تقله وهو يكابد الوحي لا تقوى على حمله فتخر على الأرض راغمة، عن عائشة رضي الله عنها، قالت: "إن كان ليوحى إليه وهو على ناقته فتضرب بجرانها من ثقل ما يوحى إليه".

وصدق الله العظيم إذ يقول: ﴿إِنَّا سَنُلْقِي عَلَيْكَ قَوْلاً ثَقِيلاً﴾ (المزمل:٥)، وقوله: ﴿لَوْ أَنْزَلْنَا هَذَا الْقُرْآنَ عَلَى جَبَلٍ لَرَأَيْتَهُ خَاشِـــعًا مُتَصَدِّعًا مِنْ خَشْـــيَةِ اللهِ﴾(الحشـر:٢١) فالثقل هنا إذا ليس معنويا فحسب وإنما هو أيضا ماديا حسيا، بما أوحت به كافة النصوص الدالة على ذلك.

هكـــذا كانت أعراض الوحي كما قررها الآثار المختلفة التي دلت بجلاء على شدة التجربة ومضائها على كيان محمد النبي عليه الصلاة والسلام بكليته.

إنها خبرة لم تكن ســـهلة عليه كمـــا قد يتبادر إلى أذهان من لم يطلعوا على حالها كمـــا وُصِفت، وصورها كما جليت، أما حقيقتهـــا في جليتها فلا يعرف كنهها إلا الله ســـبحانه وتعالى ورسوله عليه الصلاة والسلام. ■

(*) أستاذ بجامعة محمد الأول، وجدة / المغرب.

الهوامش

(١) البخاري، المناقب، ١٨؛ مسلم، الفضائل،٧؛ السنن الكبرى، للبيهقي، ٥/٩، دلائل النبوة، للبيهقي، ٣٦٥/١- ٣٦٦؛ المسند، للإمام أحمد، ٣٦١/٣.

(٢) لسان العرب، لابن منظور، ٤٧٨٧/٦.

(٣) انظر: لسان العرب، لابن منظور، ٤٧٨٨/٦.

(٤) كبرى اليقينيات الكونية، لمحمد سعيد رمضان البوطي، ص: ١٥٤.

(٥) البخاري، بدء الوحي، ٢؛ مسلم، الفضائل، باب عرق النبي ﷺ في البرد وحين يأتيـــه الوحي؛ الموطأ، للإمام مالك، كتاب القرآن، باب: ما جاء في القرآن، ٢٠٢/١. دلائل النبوة، للبيهقي، ٥٢/٢.

(٦) البخاري في صحيحه، ١٦٧/٢. ومســـلم في صحيحـــه، كتاب الحج، ٨.

(٧) كتاب الفضائل، باب عرق النبي ﷺ في البرد وحين يأتيه الوحي، حديث ٨٨.

(٨) لسان العرب، لابن منظور، ١٥٥٥/٣.

(٩) الوفا بأحوال المصطفى، لعبد الرحمن بن الجوزي، ص: ١٦٦.

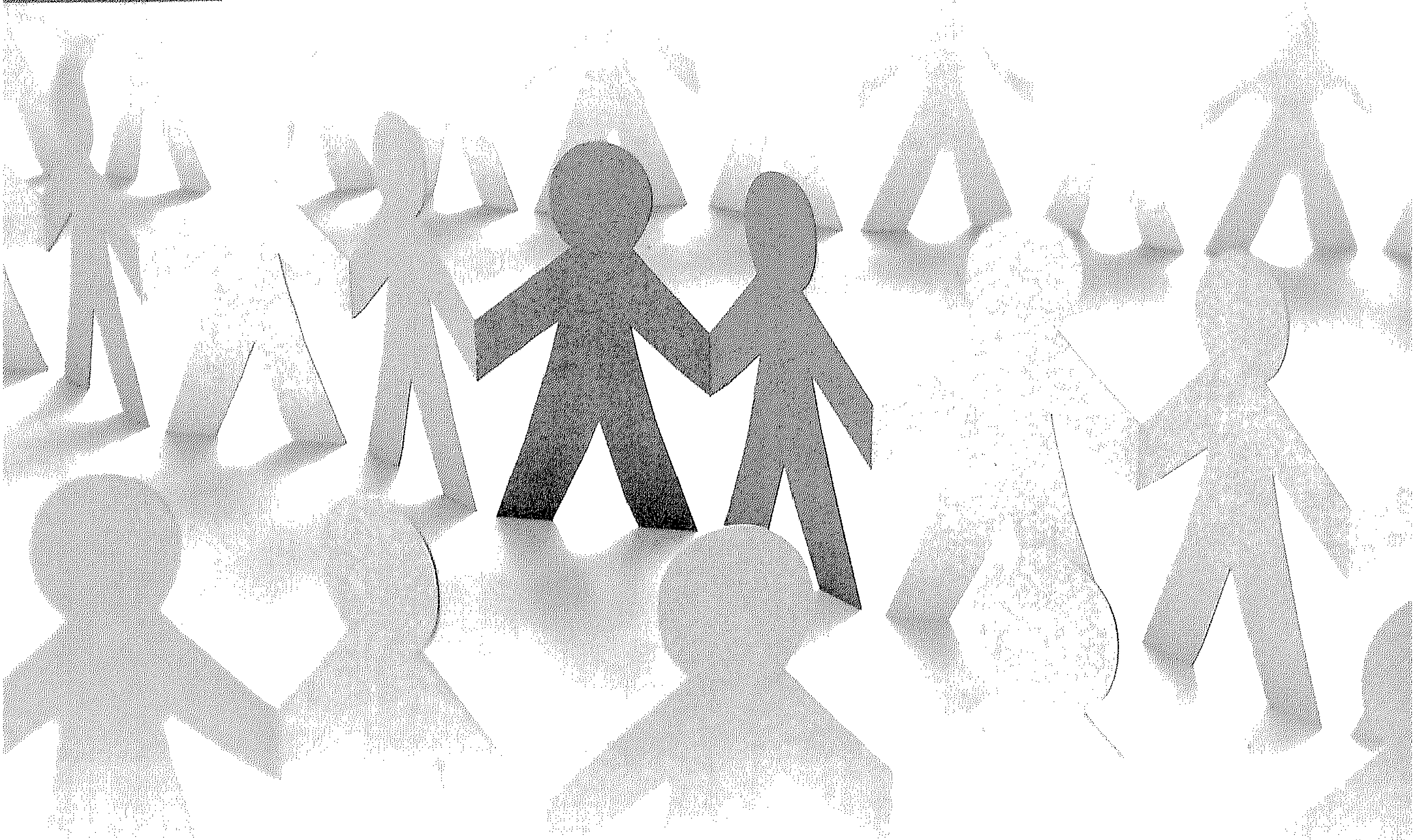
(١٠) اســـم موضع مابين الطائف ومكة وهو إلى مكة أقرب. الروض المعطار، ص: ١٧٦-١٧٧.

(١١) أخرجه البخاري في صحيحه، ٢/ ١٦٧. ومسلم في صحيحه، كتاب الحج، ٨.

(١٢) المستدرك، للحاكم النيســـابوري، ١/ ٥٣٥؛ المسند، للإمام أحمد، ٣٤/١؛ الترمذي١٥١/٤؛ الدلائل، للبيهقي، ٥٥/٧.

(١٣) الوفا بأحوال المصطفى، ص: ١٦٨.

(١٤) الوفا بأحوال المصطفى، ص: ١٦٨.



الفروق الجنسية في العملية التربوية

شمس الدين بولات*

عندما نتحدث عن زيادة كفاءة الأفراد في تركيا وفي العالم، فإن أول ما يتبادر إلى الذهن طبعاً هو المؤسسات التربوية. وعندما يكون الإنسان هو الموضوع نتذكر المثل القديم: "العلم في الصغر كالنقش في الحجر". هذا المثل محق وهو يشير إلى أهمية التعليم والتربية وكيفية تشكل خلفية خزين المعلومات، وشكل التربية لدى الإنسان وأنها تستمر مثلما تشكلت، وأن إحداث أي تغيير فيما بعد يحتاج إلى انقلاب ذهني كبير. لذا فسنقوم هنا بنقد ذاتي لعملية التربية والتعليم الموجودة حالياً في المؤسسات التي تعد قاعدة التعليم، وهي المدارس الابتدائية والمتوسطة والثانوية، وأحياناً مدارس الحضانة أيضاً. كما سنقدم بعض الاقتراحات التي نعتقد أنها تفيد في رفع الكفاءة في هذه المؤسسات التعليمية.

الهوية الجنسية

اكتشف العالم النفسي "هربرت لاندسال" في مركز أبحاث "Bethesda" بأن النساء والرجال الذين أصيبت عندهم الأقسام الدماغية نفسها بالخلل يتأثرون بشكل مختلف. فقد اختار لدراسته مجموعة مصابة بالصرع وقد نُزع القسم الأيمن من دماغهم وهو القسم الذي يحدد الإحساس بالحيز أو الفضاء الموجود حول الإنسان ويعين شكل الأشياء المحيطة به. فشاهد أن النساء



اللائي نُزع القسم الأيمن من دماغهن لم يفقدن الشيء الكثير من قابلياتهن. بينما شاهد أن الرجال الذين نُزع هذا القسم من دماغهم قد فقدوا قابلياتهم المتعلقة بالإحساس بالمكان والفضاء في تجارب (IQ)[1] التي أجراها عليهم.

وقام "لاندسال" أيضاً بتجارب حول القسم الأيسر من الدماغ الذي يسيطر على قابلية اللغة. فشاهد أيضاً أن الرجال الذين تضرر هذا القسم من دماغهم فقدوا قابلية الكلام، أما النساء اللائي تضرر هذا القسم من دماغهن فلم يفقدن معظم هذه القابلية، مع أن قابلية الرجال في الكلام واللغة أكثر من قابلية النساء بثلاثة أضعاف.

الفروق الدماغية بين الأنثى والذكر

وأدى هذا بـ"لاندسال" إلى استنتاج ما يأتي: "إن النساء يملكن قابلية الإحساس بالمكان وقابلية الكلام في كلا القسمين من الدماغ". وهذه النتيجة أصبحت مقبولة بشكل عام. ومع أن هاتين القابليتين أي قابلية الإحساس بالمكان وقابلية الكلام موجودة بشكل أقوى في الرجال إلا أن قابلية الإحساس بالمكان وبالفضاء موجودة عندهم في القسم الأيمن من الدماغ، وقابلية الكلام واللغة موجودة في القسم الأيسر منه. وقد أيدت التجارب العديدة الأخرى التي جرت في هذا الخصوص هذا الاستنتاج. وتوصلت العالمة الكندية "ساندرا وتلسون" إلى أن الفروق الدماغية في الرجل تيسر له القيام بفعاليتين في الوقت نفسه. فمثلا يستطيع الرجل القيام بنشاطين مثل القيام بقراءة خارطة والتحدث في اللحظة نفسها بشكل أيسر من المرأة. وهي تقول بأن السيطرة على فعاليتين أو نشاطين في الوقت نفسه يتم في الرجل في فصين مختلفين من فصي الدماغ. أما في المرأة ففي الفصين معاً، لذا يصعب عليها التحدث وقراءة خريطة في اللحظة نفسها. لذا فالأبحاث التي تناولت تشريح الدماغ دلت على أن الفروق بين دماغ الرجل ودماغ المرأة تجعل الرجل أفضل من النساء في النشاطات المتعلقة بالفضاء والمكان، لأن هذا النشاط في المرأة يتم عن طريق فصي الدماغ معاً.

إذن فهذه الأبحاث تؤكد على وجود فروق في الدماغ بين الرجل والمرأة، وأن لكل منهما بنية مختلفة عن الأخرى. وهذا يؤدي إلى فروق في التخصص بينهما، كما يدل أيضا على أن دماغ الرجل قد تخصص أكثر من دماغ المرأة.

هنا يخطر على البال هذا السؤال: هل يبدي كلا الجنسين ردود الفعل نفسها أمام الأشياء نفسها ما دام لكل منهما بنية دماغية مختلفة عن الآخر أم ردود فعل مختلفة؟ هذا هو ما يهمنا هنا. وقد دلت المشاهدات والأبحاث العلمية على أن الرجل يستخدم فص دماغه الأيسر في حل المعضلات التجريدية، بينما تستخدم المرأة فصي الدماغ في هذا الأمر. وتم قياس التيار الكهربائي الذي ينشره

أحببتم، ومن مقالع محبتكم تنشئون، تتعبون ولكنكم تبتسمون، وتعرقون ولكن عزاءكم أنكم تبنون، وعالم المحبة والنور تشيدون، السماء تحييكم، ونجومها إليكم ترنو، وجباهكم تقبّل.

***

الدماغ عند الأولاد وعند البنات لدى قيامهما بإسقاط شكل ثلاثي الأبعاد على الورق، فلوحظ أن الفص الأيمن عند الأولاد يعمل بنجاح أكبر. أما في البنات فهذا العمل يستوجب منهن عمل فصي الدماغ. كما لوحظ في التجارب التي أجريت على الأولاد والبنات بعرض مشكلة أمام العين اليسرى (للوصول إلى الفص الأيمن مباشرة)(٢) أن الأولاد كانوا أكثر نجاحاً في حل المشكلة.

لقد نوقشت نتائج هذه التجارب وهذه المعلومات من قبل مئات الباحثين وتم التوصل إلى النتائج الآتية:

- الفروق الموجودة في بنية الدماغ تؤدي إلى فروق في السلوك وفي القابليات بين الجنسين.
- البنات أسرع من الأولاد في تعلم القراءة.
- البنات أكثر نجاحاً في الامتحانات الشفوية من الأولاد.
- الرجل أكثر نجاحاً في القابليات المتعلقة بـ"الفضاء والمكان"
- تستعمل البنات الطرق الشفوية أكثر في حل المسائل الرياضية التجريدية.
- تبدأ الطفلة بالكلام أسرع من الطفل، ويكون خزينها من الكلمات أكثر.
- يملك الرجال قابلية في الأمور المشخصة أو الملموسة.
- البنات في مرحلة الدراسة الابتدائية أكثر نجاحاً من الأولاد في تعلم القراءة، لذا يُتهم الأولاد بأنهم أغبياء. ويترسخ هذا في لاشعورهم مما يكون له أسوأ الأثر في المراحل المقبلة من التعليم.
- تؤسس الطالبات علاقات أفضل مع المدرسين والمدرسات، ويشاركن في الدرس بصورة أكثر إيجابية من الطلاب.
- يبدي الطلاب نجاحاً أكثر من الطالبات في الرياضيات والمواضيع المشخصة (أي غير التجريدية) والنظرية الأخرى.

آليات التعليم والفروق الدماغية

فاستناداً إلى هذه المعطيات يجب التوجه إلى شكل جديد من التعليم قائم على أساس هذه الفروق بين الجنسين. فكما تُعطى مناهج مختلفة من التعليم لمجموعتين مختلفتين من ناحية الاختصاص (مثلا دروس الفيزياء التي يدرسها المهندسون مختلفة عن دروس الفيزياء لمدرسي الفيزياء) كذلك يجب مراعاة هذه الفروق في القابليات للوصول إلى أفضل النتائج.

ثم لننظر إلى هذه المسألة من زاوية المعلمين والمدرسين والأساتذة. فهل على هؤلاء القيام بتعليم مفردات المناهج التعليمية بشكل مختلف للطالبات عن الطلاب؟ أم أن هناك طريقاً وسطاً بين هذه الثنائية؟

هذه الفروق بين المرأة والرجل ليست فروقاً سطحية كما يتوهم البعض. ولا شك أنهما متساويان في الحقوق والواجبات في المجتمع، ولكن إن قمنا بتدقيق القابليات نرى فروقاً كبيرة بين قابلياتهما.

تقول "آنا موير" موضحة هذه المسألة: "تترل هذه الفروق إلى أعماق كبيرة، وهي تبدو في الدماغ وفي بنيته وفي أولويات كلا الجنسين واستراتيجياتهما. وهي توجه آمالنا وأهدافنا وقابلياتنا ومهاراتنا. أما حصر هذه الفروق في ساحة التناسل فليس خاطئاً من الناحية العلمية فقط، بل هو إهمال لإنسانيتنا كذكر أو كأنثى".

وحول فكرة المساواة بين الجنسين تقول "أليس روسي": "التنوع ظاهرة بيولوجية، أما المساواة ففكرة ومفهوم أخلاقي وسياسي واجتماعي". وهي بذلك تبدي شكوكها حول مدى تلاؤم مفهوم المساواة مع العلم.

في مرحلة الحضانة والتعليم الابتدائي لا يكون الطلاب موفقين تماما. ولكن ما إن يبلغ الطالب مرحلة المراهقة حتى يبدي تقدما كبيراً حيث يستطيع اللحاق بالطالبات في موضوع القراءة والكتابة

والحديث، ثم يتجاوزهن في ساحة الرياضيات؛ حيث نرى أن درجات (IQ) التي يحصل عليها الطالب البالغ سن الرابعة عشرة والسادسة عشرة ترتفع بشكل ملحوظ، بينما تراوح درجات (IQ) التي تحصل عليها البنات في هذا السن في مكانها، بل ربما تهبط أيضاً.

ومع أن البنات يتعلمن العد والحساب بصورة أسرع من الأولاد، (في الحقيقة هن يتعلمن كل شيء في البداية أسرع من الأولاد)، إلا أن الأولاد لا يلبثون أن يتفوقوا عليهن في المنطق الرياضي. وتتناقص قابلية البنات بمرور الوقت في الرياضيات كلما اتجهن من العمليات الحسابية الأربعة -كالطرح والجمع- إلى المستويات النظرية؛ أي إن الفروق في القابليات بين الجنسين موجودة في جميع المراحل العمرية.

قامت جامعة جون هوبكنس في الولايات المتحدة الأمريكية عام ١٩٧٢ ببحث حول قابليات الأطفال الأذكياء في مدينة "بوسطن". وقد شمل هذا البحث آلافاً من الأطفال من كلا الجنسين بعمر ١١-١٢ سنة. وكان البحث يدور حول القابليات الرياضية لهؤلاء الأطفال المتفوقين من ناحية حاصل الذكاء (IQ) والذين كانوا يشكلون ٣٪ ضمن المتفوقين في موضوع الرياضيات والامتحانات الشفوية، فظهر أن الأولاد أكثر قابلية من البنات في موضوع الرياضيات. وكلما زادت صعوبة الامتحانات زادت نسبة نجاح الأولاد بالنسبة للبنات.

ففي التجارب التي أجريت وشارك فيها المئات من الطلبة من كلا الجنسين لوحظ أن نسبة نجاح الطلاب إلى الطالبات في مستوى +٤٢٠ هو ١,٥÷١ وفي مستوى +٥٠٠ (أي في تجارب وامتحانات أصعب).

كانت النسبة ١÷٢، وفي مستوى +٦٠٠ أصبحت النسبة ١÷٤ وفي مستوى +٧٠٠ (وهو أعلى مستوى) وصلت النسبة إلى ١÷ ١٣ كما لوحظ أن الفروق المتعلقة بالجنس تتوضح أكثر كلما تقدم العمر. فهرمون الرجولة يقوي قابلية الرجل المستندة إلى النظر والمتعلقة بالفضاء-المكان، بينما يُضعف هرمون الأنوثة هذه القابلية. لذا تتوضح فروق القابلية في علم الرياضيات عند الرجل بعد بلوغه ونضجه.

تناول الباحثون النظرية القائلة بأن الطلاب أكثر نجاحاً في المنطق الرياضي بينما الطالبات أكثر نجاحاً في عمليات الجمع والطرح... تناولوا هذه النظرية بالفحص والنقاش فأعطوا مفردات في علم الرياضيات إلى الطلاب تختلف عن المفردات المعطاة للطالبات. ولكن الفروق في القابلية في علم الرياضيات لم تظهر إلا بعد إعطاء المفردات نفسها لكلا الجنسين.

ولتفسير هذا الأمر ذكروا ما يأتي: "إن معظم مدرسي الرياضيات هم من الرجال، لذا فإن لغة علم الرياضيات ولسانها لغة ذكورية ولا تناسب الطالبات".

الانقلابية في فلسفة التعليم

لذا نستطيع القول بوضوح بأن على نظام التعليم عندنا قبول وجود هذه الفروق بين الجنسين وأخذها بنظر الاعتبار وتجديد نظام التعليم حسبها. فإن كنا نرغب في تشويق الطالبات وحثهن للدخول إلى كلية الهندسة، علينا أن نجعل درس الرياضيات في المدارس أسهل بالنسبة للطالبات، وهذا يحتاج إلى تعليم الطالبات هذا الدرس بشكل مناسب لعقولهن.

هناك أدلة تبرهن على إمكانية التغلب على العقبات التي يصادفها الطلاب الصغار في مراحل التدريس الأولية، فهم يلاقون في البداية صعوبة في التعلم لأن المناهج الدراسية موضوعة حسب عقول وقابليات الطالبات، ولكن إصرار عوائل الطلاب على قيام أبنائهن بالتعلم يدفع هؤلاء الطلاب إلى اجتياز هذه العقبة وتعلم القراءة والكتابة بسلاسة. ولكن الطالبات لا يستطعن اجتياز عقبة تعلم العلاقات المكانية-الفضائية بسهولة، أي بينما يستطيع الطلاب اجتياز الصعوبات التي يلاقونها في المراحل الأولى من التعلم لا تستطيع الطالبات تطوير قابلياتهن فيما يتعلق بالمكان-الفضاء.

والنتيجة التي نخلص إليها في الختام هي وجوب تقويم الطلاب والطالبات في النظام التعليمي حسب قابلياتهم الفطرية لكي يمكن الاستفادة من هذه القابليات بشكل صحيح. وهذا يستوجب وضع مفردات مختلفة في مناهج التعليم للطالبات وللطلاب تكون متلائمة مع قابلياتهم واستعداداتهم الفطرية. ونحن نأمل زيادة في البحوث العلمية في هذا المجال لكي يمكن الاستفادة بشكل أفضل من قابليات كلا الجنسين. ■

(*) كاتب وباحث في مجال التربية / تركيا. الترجمة عن التركية: أورخان محمد علي.

الهوامش

(١) IQ: intelligence guatient: أي حاصل الذكاء أو درجة الذكاء ونحصل عليها بقسمة السن العقلي للإنسان على عمره وضرب حاصل القسمة في مائة. (المترجم).

(٢) لأن الفص الأيمن يسيطر على الجزء الأيسر من الجسم. والفص الأيسر على الجزء الأيمن منه (المترجم)



شهادات استشراقية

أنصفت الحضارة الإسلامية

د. عماد عجوة*

نستقرئ مما اعترف به المنصفون من المستشرقين أن الحضارة الإسلامية كانت هي صاحبة الفضل في إرساء الحجر الأساس للحضارة الأوروبية الحديثة؛ حيث أسهمت بكنوزها في الطب والكيمياء والرياضيات والفيزياء في الإسراع بقدوم عصر النهضة وما صحبه من إحياء للعلوم المختلفة. فبينما كانت الحضارة الإسلامية تموج بديار الإسلام من الأندلس غربا لتخوم الصين شرقا كانت أوربا وبقية أنحاء المعمورة تعيش في ظلام حضاري وجهل، وامتدت هذه الحضارة القائمة بعدما أصبح لها مصارفها وروافدها لتشع على الغرب وتطرق أبوابه. فنهل منها معارفه وبهر بها لأصالتها المعرفية والعلمية.

فلم تَخلُ أوروبا من مؤرخين أبصروا ما للمسلمين من فضل في الحضارة الإنسانية على الحضارة الأوروبية؛ فألفوا كتباً ودراسات منصفة تشيد بفضل المسلمين الذي لا يمكن إنكاره. فقد نذكر نفرًا منهم درسوا هذه الحضارة دراسة وافية وأبدوا إعجابهم بها.

فمثلاً يقول "توماس أرنولد": "كانت العلوم الإسلامية وهي في أوج عظمتها تضيء كما يضيء القمر فتُبدد غياهب الظلام الذي كان يلف أوربا في القرون الوسطى."

ويقول "جورج سارتون" في كتابه "مقدمة في تاريخ العلم": "إنّ الجانب الأكبر من مهام الفكر الإنساني اضطلع به المسلمون؛ فـ"الفارابي" أعظم الفلاسفة، و"المسعودي" أعظم الجغرافيين، و"الطبري" أعظم المؤرخين".

كذلك يُبدي "تومبسون" إعجابه بالعلوم الإسلامية فيقول: "إن انتعاش العلم في العالم الغربي نشأ بسبب تأثر شعوب غربيّ أوربا بالمعرفة العلمية العربية وبسبب الترجمة السريعة لمؤلفات المسلمين في حقل العلوم ونقلها من العربية إلى اللاتينية لغة التعليم الدولية آنذاك." ويقول في مكان آخر: "إن ولادة العلم في الغرب ربما كان أمجد قسم وأعظم إنجاز في تاريخ المكتبات الإسلامية."

هذا، وقد أبدى الباحث اليهودي "فرانز روزانتال" إعجابه الشديد ودهشته البالغة لسموّ الحضارة الإسلامية وسرعة تشكلها، فيقول: "إن ترعرع هذه الحضارة هو موضوع مثير ومن أكثر الموضوعات استحقاقًا للتأمل والدراسة في التاريخ. ذلك أن السرعة المذهلة التي تم بها تشكل وتكوّن هذه الحضارة أمر يستحق التأمل

العميق، وهي ظاهرة عجيبة جدًّا في تاريخ نشوء وتطور الحضارة، وهي تثير دومًا وأبدًا أعظم أنواع الإعجاب في نفوس الدارسين. ويمكن تسميتها بالحضارة المعجزة، لأنها تأسست وتشكلت وأخذت شكلها النهائي بشكل سريع جدًّا ووقت قصير جداً، بحيث يمكن القول إنها اكتملت وبلغت ذروتها حتى قبل أن تبدأ."

وقد أشاد أحد الباحثين وهو "روبرت بريفولت" بالحضارة الإسلامية فقال: "إن القوة التي غيرت وضع العالم المادي كانت من نتاج الصلة الوثيقة بين الفلَكيين والكيميائيين والمدارس الطبية. وكانت هذه الصلة أثرًا من آثار البلاد الإسلامية والحضارة العربية. إن معظم النشاط الأوربي في مجال العلوم الطبيعية إلى القرن الخامس عشر الميلادي كان مستفادًا من علوم العرب ومعارفهم، وإني قد فصلت الكلام في الدور الذي لعبته العربية في اليقظة الأوربية، لأن الكذب والافتراء كانا قد كثرا في العصر الحاضر، وكان التفصيل لا بد منه للقضاء عليهما".

ويقول المستشرق "أدم متز" في كتابه "الحضارة الإسلامية في القرن الرابع الهجري": "لا يعرف التاريخ أمة اهتمت باقتناء الكتب والاعتزاز بها كما فعل المسلمون في عصور نهضتهم وازدهارهم، فقد كان في كل بيت مكتبة."

ويقول "رينيه جيبون": "لم يدرك كثير من الغربيين قيمة ما اقتبسوه من الثقافة الإسلامية، ولا فقهوا حقيقة ما أخذوه من الحضارة العربية في القرون الماضية".

ويذكر "هينولد" أن ما قام على التجربة والترصد هو أرفع درجة في العلوم، وأن المسلمين ارتقوا في علومهم إلى هذه الدرجة التي كان يجهلها القدماء. فقد قام منهاج المسلمين على التجربة والترصد وكانوا أول من أدرك أهمية المنهاج في العالم، وظلّوا عاملين به وحدهم زمنًا طويلاً.

ويقول "دُولنبر" في كتاب "تاريخ الفلك": "لقد منَح اعتمادُ العرب على التجربة مؤلفاتِهم دقة وإبداعاً، ولم يبتعد العرب عن الإبداع إلا في الفلسفة التي كان يتعذر قيامها على التجربة". ويستطرد قائلاً: "ومن مباحثنا في أعمال العرب العلمية أنهم أنجزوا في ثلاثة قرون أو أربعة قرون من الاكتشافات ما يزيد على ما حققه الأغارقة في زمن أطول من ذلك كثيرًا، وكان تراث اليونان قد انتقل إلى البيزنطيين الذين عادوا لا يستفيدون منه زمنا طويلا، ولما آل إلى العرب حوّلوه إلى غير ما كان عليه، فتلقّاه ورثتهم (يقصد الأوروبيين حديثاً) وحوّلوه مخلوقاً آخر."

ويقول "مسيو ليبري": "لو لم يظهر المسلمون على مسرح التاريخ لتأخرت نَهضة أوروبا الحديثة عدة قرون". ولقد أشار أيضاً إلى هذا المعنى المؤرِّخ الفرنسيُّ الشهير "سديو" في تاريخه الكبير، الذي ألفه في عشرين سنة، بحثًا عن تاريخ المسلمين، وعظيم حضارتهم، ونتاجهم العلمي الهائل، فقال: "لقد استطاع المسلمون أن ينشروا العلوم والمعارف والرقيَّ والتمدُّن في المشرق والمغرب، حين كان الأوروبيون إذ ذاك في ظلمات جهل القرون الوسطى...." إلى أن يقول: "ولقد كان العرب والمسلمون – بما قاموا به من ابتكارات علمية– ممن أرْسَوا أركان الحضارة والمعارف، ناهيك عما لهم من إنتاج، وجهود علمية، في ميادين علوم الطب، والفلك، والتاريخ الطبيعي والكيمياء والصيدَلَة وعلوم النبات والاقتصاد الزراعي وغير ذلك من أنواع العلوم التي ورثناها نحن الأوروبيين عنهم، وبحقٍّ كانوا هم معلمينا والأساتذة لنا." ويذكر العلامة "سديو" أيضا: "أن المسلمين سبقوا كيبلر وكوبرنيك في اكتشاف حركات الكواكب السيارة على شكل بَيضي وفي دوَران الأرض. وفي كتبهم من النصوص ما تعتقد به أن نفوسهم حدثتهم ببعض اكتشافات العلم الحديث المهمة".

هذا، ولم ينسَ فضلاء علماء الغرب أن يعترفوا بهذه الحقيقة، ونستقي من كتاب "حضارة العرب" لـ"غوستاف لوبون" حيث يقول: "وكلما أمعنا في دراسة حضارة العرب والمسلمين وكتبهم العلمية واختراعاتهم وفنونهم ظهرت لنا حقائق جديدة وأفاق واسعة، ولسرعان ما رأيتَهم أصحاب الفضل في معرفة القرون الوسطى لعلوم الأقدمين، وإن جامعات الغرب لم تعرف لها مدة خمسة قرون موردًا علميًا سوى مؤلفاتهم، وإنهم هم الذين مدَّنُوا أوروبا مادة وعقلاً وأخلاقا، وإن التاريخ لم يعرف أمة أنتجت ما أنتجوه في وقت قصير، وأنه لم يَفُقْهم قوم في الإبداع الفني". ويستطرد قائلاً: "ولم يقتصر فضل العرب والمسلمين في ميدان الحضارة على أنفسهم؛ فقد كان لهم الأثر البالغ في الشرق والغرب، فهُما مدينان لهم في تمدّنهم، وإن هذا التأثير خاص بهم وحدهم؛ فهم الذين هذّبوا بتأثيرهم الخُلُقي البرابرة، وفتحوا لأوروبا ما كانت تجهله من عالَم المعارف العلمية والأدبية والفلسفية، فكانوا مُمدِّنين لنا وأئمة لنا ستة قرون. فقد ظلّت ترجمات كتب العرب ولا سيما الكتب العلمية مصدرًا وحيدًا

للتدريس في جامعات أوروبا خمسة أو ستة قرون. فعَلى العالم أن يعترف للعرب والمسلمين بجميل صنعهم في إنقاذ تلك الكنوز الثمينة".

ويذكر المستعرب الصيني "لي قوان فبين" وكيل وزارة الخارجية الصينية، وعضو مجمع الخالدين (اللغة العربية) بالقاهرة، وصاحب الدراسات العاشقة لتراث وحضارة العرب والمسلمين "أن الحضارة الإسلامية من أقوى حضارات الأرض، وأنها قادرة على اجتياز أي عقبات تواجهها لأنها حضارة إنسانية الطابع، عالمية الأداء، رفيعة القدر علميًا وفكريًّا وثقافيًا. وبعدما تعمّقتُ في الأدب العربي القديم والحديث ازْداد اقتناعي بأن الشرق يمتلك سحر الحضارة والأدب والثقافة، وأنه صاحبُ الكلمة المفكِّرة والعقلية المنظمة؛ إذن فالحضارة الإسلامية تحمل عوامل البقاء، لأنها عصية على الهدم، لتوافر أركان التجدد والحيوية في نبضها المتدفق، وهي من أقوى حضارات الأرض قاطبة؛ لأنها تستوعب كل ما هو مفيد من الآخر وتصهَره في نفسها ليصبح من أبنائها، بخلاف الحضارة الغربية المعاصرة، كما أن الحضارة العربية الإسلامية تتسم بأنها عالمية الأداء والرسالة، إنسانية الطابع، جوهرها نقي ومتسامح".

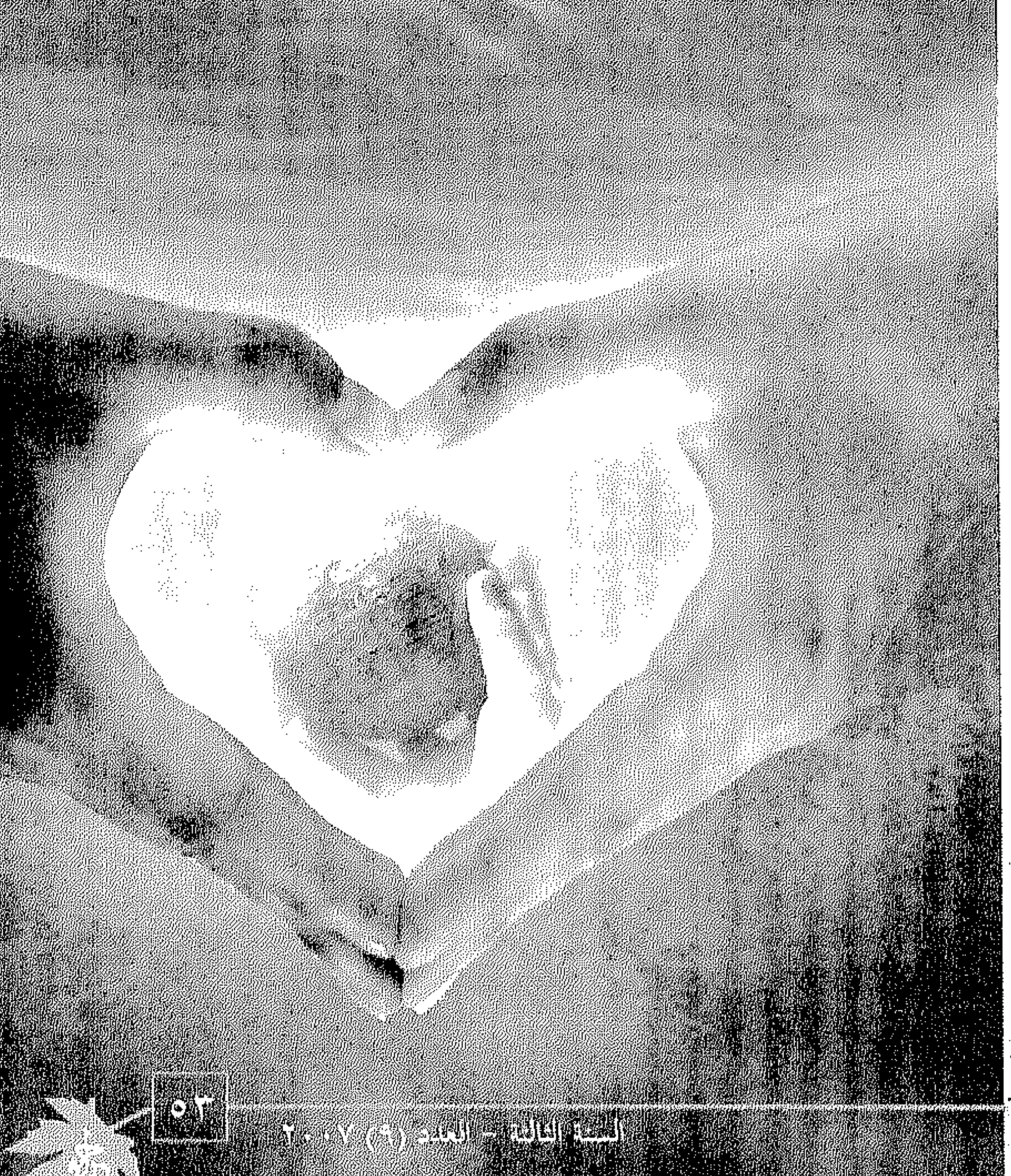
ويقول الدكتور "خوسيه لويس بارسلو" أحد الباحثين الأسبان: "يجب أن نقرر الأهمية الحقيقية لتأثير العلوم الإسلامية، فهي من الناحية الموضوعية قد ساعدت على وجود المعايير الطبية الحالية". ويذكر من هذا المنطلق: "فقد أرسى الإسلام مدنية متقدمة تعد في الوقت الحاضر من أرْوع المدنيات في كل العصور، كذلك فإنه أيضا قد جمع حضارة متينة متقدمة، وذلك إذا ما طرحنا جانبًا الاضمحلالَ الواضح للقوى السياسية، والتفكك الظاهر للدول الإسلامية. فإن الشخصية الجماعية للإسلام قد صمَدتْ أمام كافّة أنواع التغيرات، ذلك لأن معيار الشخصية الجماعية هو المدنيةُ عامة والتقاليد التي لم تنطفِئْ أو تَخمُد. هذه هي روح الإسلام كما يجب أن يفهمها أولئك الذين يحاولون عن عمدٍ وسوء نية تشويه صورته".

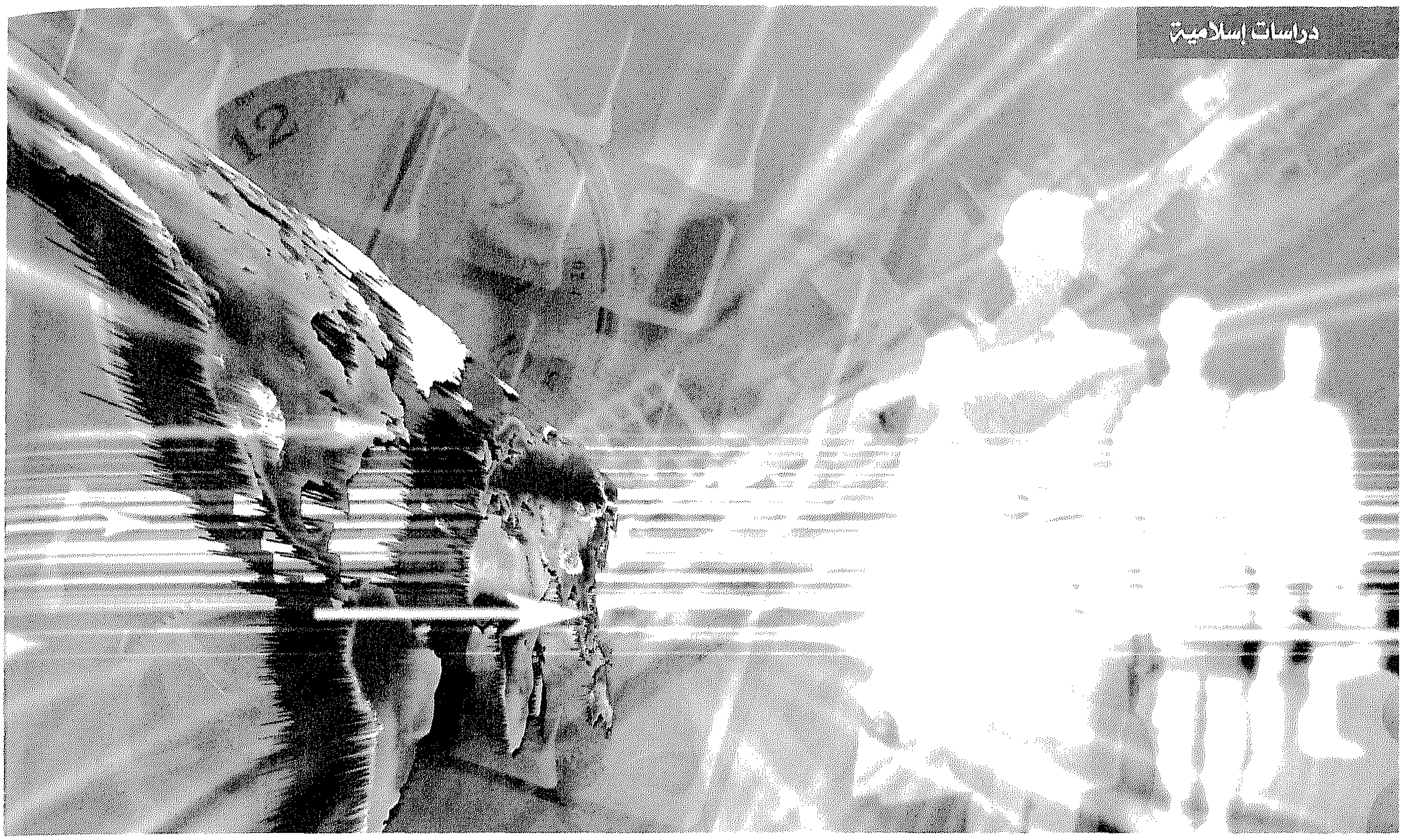
وقد حان الوقت لنستذكر هذه الحقائق عن حضارتنا آملين الإفادة منها لنهوضنا من جديد. ■

(*) باحث في التاريخ والحضارة الإسلامية / مصر.

لمَنْ ستكون الدنيا؟

راكضون لاهثون...
على الدنيا يتسابقون...
الأقوياء في خضمها يتصارعون...
ومفتولَ عضلاتهم يستعرضون...
والحشود في صمتٍ ينظرون...
قانعون خانعون...
وبسماتِ الأيام يستجْدون...
أما المظلومون...
فهم يتألمون...
وحظهم العاثر يندبون...
* * *





فلسفة الإسلام في التعايش مع الآخر الديني والثقافي

أ.د. محمد عمارة *

يؤسس القرآن الكريم لفلسفة إسلامية متميزة في رؤية الكون والحياة والعلاقات بين الأحياء. وفي هذه الفلسفة الإسلامية المتميزة معالم رئيسية، يمكن أن نشير إلى عدد منها:

أ- أن الواحدية والأحدية هي فقط للذات الإلهية.[1]

ب- وأن التنوع والتمايز والتعدد والاختلاف هو سنة إلهية كونية مطردة في سائر عوالم المخلوقات. وأن هذه التعددية هي في إطار وحدة الأصل الذي خلقه الله سبحانه وتعالى. فالإنسانية التي خلقها الله من نفس واحدة تتنوع إلى شعوب وقبائل وأمم وأجناس وألوان. وكذلك إلى شرائع في إطار الدين الواحد. وإلى مناهج، أي ثقافات وحضارات في إطار المشترك الإنساني الواحد، الذي لا تختلف فيه الثقافات. كما تتنوع إلى عادات وتقاليد وأعراف متمايزة حتى داخل الحضارة الواحدة، بل والثقافة الواحدة.

وهذا التنوع والاختلاف والتمايز يتجاوز كونه "حقًا" من حقوق الإنسان، إلى حيث هو "سنة" من سنن الله: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ نَفْسٍ وَاحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالاً كَثِيراً وَنِسَاءً﴾(النساء:١).. ﴿وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ لَجَعَلَ النَّاسَ أُمَّةً وَاحِدَةً وَلاَ يَزَالُونَ مُخْتَلِفِينَ ۞ إِلاَّ مَنْ رَحِمَ رَبُّكَ وَلِذَلِكَ خَلَقَهُمْ﴾(هود:١١٨-١١٩). وكما يقول المفسرون: "فللاختلاف خلقهم".

فالواحدية والأحدية فقط للحق سبحانه.. والتنوع هو السنة والقانون في كل عوالم المخلوقات.

جـ- وأن هذا التنوع والتمايز والتعدد والاختلاف له مقاصد عديدة، منها: تحقيق حوافز التسابق على طريق الخيرات بين الفرقاء المتمايزين: ﴿لِكُلٍّ جَعَلْنَا مِنْكُمْ شِرْعَةً وَمِنْهَاجًا وَلَوْ شَاءَ اللهُ لَجَعَلَكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً وَلَكِنْ لِيَبْلُوَكُمْ فِي مَا آتَاكُمْ فَاسْتَبِقُوا

الْخَيْـرَاتِ﴾ (المائـدة:٤٨). ومنها: فتح أبــواب الحرية للاجتهاد والتجديد والإبداع، الذي يســتحيل تحقيقــه دون تفرد وتمايز واختلاف: ﴿وَلِكُلٍّ وِجْهَةٌ هُوَ مُوَلِّيهَا﴾(البقرة:١٤٨).

د- وأن علاقــة الفرقــاء المتمايزين والمختلفــين والمتعددين يجب أن تظل في إطار الجوامع الموَحّدة، وعند مســتوى التوازن والعدل والوسطية: ﴿وَكَذَلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطًا﴾(البقرة:١٤٣). "فالوســط" -بنص الحديث النبوي- هو "العدل" الذي يجب أن يحكم علاقات الفرقاء المختلفين،" (رواه الإمام أحمد).

هــ- فإذا اختلت موازين العدل والوسط بين الفرقاء المختلفين والمتمايزين في الطبقات الاجتماعية أو الشرائع الدينية أو الفلسفات أو الحضارات، فإن الفلسفة الإسلامية تحبذ طريق "التدافع" الذي هو حراك يُعَدّل المواقف والمواقع والاتجاهات، فينتقل بها من مستوى الخلل والظلم والجور والعدوان إلى مستوى العدل والتوازن والوسط والتعايش والتعارف، مع المحافظة على بقاء التنوع والتمايز والتعدد والاختلاف: ﴿وَلاَ تَسْتَوِي الْحَسَـنَةُ وَلاَ السَّيِّئَةُ ادْفَعْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ فَإِذَا الَّذِي بَيْنَكَ وَبَيْنَهُ عَدَاوَةٌ كَأَنَّهُ وَلِيٌّ حَمِيمٌ﴾(فصلت:٣٤).

وهــذا "التدافع" الذي هو وســط بين تفريط "الســكون والموات" وبين إفراط "الصراع"، هو المزكي للتعددية، وللتنافس والتســابق على طريق الخيرات، بينما السكون يفضي إلى الموات للمســتضعفين. كما أن الصراع يفضــي إلى نفس النتيجة؛ لأن القوي يصرع الضعيف، فينفرد بالساحة، وينهي التعدد والتمايز والاختلاف. فالتدافع هو الذي يُعَدّل المواقف الظالمة، مع الحفاظ على التعددية وعلى التنافس والتســابق على طريق الخيرات. فهو سبيل للإصلاح في ظل التنوع والتعدد، وليس على أنقاض التنوع والتعدد: ﴿وَلَوْلاَ دَفْعُ اللهِ النَّاسَ بَعْضَهُمْ بِبَعْضٍ لَفَسَـدَتِ الأَرْضُ وَلَكِنَّ اللهَ ذُو فَضْلٍ عَلَى الْعَالَمِينَ﴾(البقرة:٢٥١).(٢)

هــذا هو موقع التنوع والتعدد والتمايز والاختلاف في الرؤية الإســلامية للكون والحيــاة والعلاقات بين عــوالم المخلوقات والأفكار، ودور هذا التنوع في التقدم والإصلاح.

وذلك هو تميز الفلسفة الإسلامية بالوسطية الجامعة عن غيرها من نزعاتِ وفلسفات الدمج القسري للكل في واحد.. أو نزعات وفلسفات الصراع التي تفضى هي الأخرى إلى انفراد طرف واحد -هو الأقوى- بالساحة والامتيازات. فطرَفا الغلو يفضى كل منهما إلى ذات النهاية.. وبينهما تتميز الوسطية الإسلامية في هذا الميدان..

مع الآخر الديني

وفي دولة النبوة بالمدينة المنورة ســنّ رســول الله ﷺ ثلاث سنن جسّدت فلسفة الإســلام في العلاقة بالآخر الديني؛ الكتابي منه والوضعي: اليهــود والنصارى، والمجوس ومــن ماثلهم.. ولقد صيغت هذه الســنن النبوية، المعبرة عن هذه الفلسفة الإسلامية، في وثائق دســتورية، طبّقتها دولة النبــوة، ورعتها دولة الخلافة الراشدة، وظلت مبادئها مرعية إلى حد كبير عبر تاريخ الحضارة الإسلامية وأوطان عالم الإسلام.

١-مع الآخر اليهودي

وأُولى هذه الوثائق الدستورية هي "الصحيفة، الكتاب"، دستور دولة المدينة المنورة، الذي وضعه رســول الله ﷺ عقب الهجرة، وفــور إقامة "الدولة" ليحدد حــدود الدولة، ومكونات رعيتها (الأمــة)، والحقوق والواجبات لوحدات الرعية، بمن فيهم الآخر الديني (اليهود العرب وحلفاؤهــم العبرانيون)، وليحدد كذلك المرجعية الحاكمة للدولة ورعيتها.

وفي هذه الوثيقة الدستورية تحدثت موادها -التي زادت على الخمســين مادة- عن التنوع الديني في إطار الأمة الوليدة والدولة الجديدة، وعن المســاواة بين الفرقاء المتنوعين، فقالت عن العلاقة بين المسلمين واليهود، أي عن التنوع الديني في إطار وحدة الأمة: "..ويهــودُ أمةٌ مع المؤمنين، لليهود دينهم وللمســلمين دينهم، مواليهم وأنفسهم، وأن بطانة يهود كأنفسهم، إلا من ظلم وأثم، فإنه لا يوتغ -"يُهلك"- إلا نفسه وأهل بيته، ومن تبعنا من يهود فإن له النصر والأُســوة مع البرّ المحض مــن أهل هذه الصحيفة، غير مظلومين ولا مُتَنَاصَرٍ عليهــم، ينفقون مع المؤمنين ما داموا محاربين. على اليهود نفقتهم، وعلى المسلمين نفقتهم. وأن بينهم النصــر على من حارب أهل هــذه الصحيفة، وأن بينهم النصح والنصيحة والبر دون الإثم.." (٣)

فكانت هذه الوثيقة الدستورية أول "عقد اجتماعي وسياسي وديني" -حقيقي وليس مفترضاً ومتوهما- لا يكتفي بالاعتراف بالآخر، وإنما يجعل الآخر جزءً من الرعية والأمة والدولة -أي جزءً من الذات- له كل الحقوق، وعليه كل الواجبات، وذلك في زمن لم يكــن فيه طرف يعترف بالآخر على وجه التعميم والإطلاق.

٢-مع الآخر النصراني

أما الوثيقة الدســتورية الثانية، فهي خاصــة بالعلاقة مع الآخر

النصراني، وضعها رسول الله ﷺ لنصارى نجران -عهداً لهم ولكل المتدينــين بالنصرانية عبر المكان والزمان- وذلك عند أول علاقة بين الدولة الإســلامية وبين المتدينين بالنصرانية. وفي هذا العهد الدســتوري كتب رســول الله ﷺ: "لنجران وحاشيتها، وسائر من ينتحل دين النصرانية في أقطار الأرض جوار الله، وذمة محمد رسول الله ﷺ، على أموالهم وأنفسهم وملتهم وغائبهم وشاهدهم وعشــيرتهم وبِيَعهم وكل ما تحت أيديهم مــن قليل أو كثير.. أن أحمــي جانبهم وأذبّ عنهم وعن كنائســهم وبِيَعهم وبيوت صلواتهم ومواضع الرهبان ومواطن الســياح، وأن أحرس دينهم وملّتهم أين ما كانوا بما أحفظ به نفسي وخاصّتي وأهل الإسلام من ملــتي؛ لأني أعطيتهم عهد الله على أن لهم ما للمســلمين، وعليهم ما على المسلمين، وعلى المسلمين ما عليهم، حتى يكونوا للمسلمين شركاء فيما لهم وفيما عليهم"(٤)

فبلغــت هذه الوثيقة في الاعتراف بالآخر الديني، والقبول به، والتكريم لــه، والتمكين لخصوصياته، والاندماج معه، ما لم تبلغه وثيقة أخرى عبر تاريخ الإنســانية، مع ميزة كبرى، وهي جعلها لهذا التنوع والاختلاف في إطار وحدة الأمة، تجسيدًا لفلسفة الدين الإسلامي في العلاقة بالآخر، وليس على أنقاض الدين كل دين.

٣-مع الآخر أهل الديانات الوضعية

أما الســنة النبوية الثالثة التي قننــت للعلاقة بالآخر الديني، فلقد مــدّت نطاق الآخر إلى أهل الديانات الوضعية؛ فعاملتهم معاملة أهل الديانات الكتابية. ولقد بدأ تطبيق دولة الخلافة الراشدة لهذه الســنة عندما دخل المتدينون بالمجوســية في إطار الرعية الواحدة لدولة الخلافة الراشــدة على عهد الراشد الثاني عمر بن الخطاب ؓ. فلقد عرض عمر ؓ هذا الواقع الجديد على مجلس الشورى (مجلس السبعين)، وســأل: "كيف أصنع بالمجوس؟" فوثب عبد الرحمن بن عوف ؓ فقال: "أشهد على رسول الله ﷺ أنه قال: "سُنّوا فيهم سنة أهل الكتاب".(٥)

التواترات الدينية استثناء من السنة النبوية

منذ القرن الهجري الأول ضمت الدولة الإسلامية أوطاناً وديارًا وأقاليم، كما ضمّت شعوبًا وقبائل وديانات وفلسفات ومذاهب جســدت كل ألوان وأطياف التنوع والاختــلاف الذي عرفه الإنسان في ذلك التاريخ.

ولقد تعاقب على حكم الخلافة الإسلامية، والدول التي تفرعت عنها وورثت سلطانها ألوان من الخلفاء والسلاطين والولاة، منهم الصالح ومنهم الطالح، ومنهم العادل ومنهم الجائر، ومنهم الذي جمع بين المتناقضات.

ولا يتصور عاقل أن تاريخًا بهذا الطول (قرابة خمسة عشر قرنًا) لأمة بهذا التنوع، وعالم بهذا الاتساع، وفي ظل تحديات خارجية شرســة، يمكن أن يخلو من التوترات الدينية بــين الفرقاء الذين عاشــوا على أرض الإسلام. لكن النظر إلى هذه التوترات الدينية التي تمثل خروجًا عن السنة النبوية التي تقررت منذ دولة الإسلام الأولى في المدينة المنورة يجب أن يكون في حجمها الحقيقي، وفي إطار مقارنتها بمــا كانت عليه الحضارات الأخرى، كما حدث بين البروتســتانت والكاثوليك في الحروب الدينية الأوروبية التي دامت أكثر من قرنين، وأبيد ٤٠ ٪ من شــعوب وسط أوروبا، والحروب بين البيض والســود في أمريــكا.. وفوق ذلك ومعه، يجب النظر إلى هذه التوترات الدينية والطائفية في إطار الأسباب الحقيقية التي ولّدت وقائعها وأحداثها.

ولعل شــهادة العلماء والباحثين غير المسلمين أن تكون خير شاهد من أهلها على حقيقة حجم هذه التوترات وأسبابها:

فالعالم الإنجليزي الحجة "ســير توماس أرنولد" يشهد للحرية الدينية التي قرّرها الإســلام وحضارته، والتي وســعت التنوع والاختلاف، وأتاحت إنقاذ النصرانية الشرقية من الإبادة الرومانية البيزنطية، حتى ليمكن القول: إن بقاء النصرانية الشرقية هو "هبة الإسلام".(٦)

والعالم الألماني الحجة "آدم متز" يتحدث عن دور غير المسلمين في إدارة دواوين الدولة الإسلامية عبر التاريخ الإسلامي، فيقول: "لقد كان النصارى هم الذين يحكمون بلاد الإسلام".(٧)

أما الباحث والمؤرخ المسيحي اللبناني "جورج قرم"، فإنه يرجع التوترات الدينية والطائفية -العابرة والمحدودة- التي شهدها التاريخ الإسلامي إلى عوامل ثلاثة، هي: ١-المزاج الشاذ لبعض الحكام الشواذ الذين حكموا بعض البلاد الإسلامية لبعض الوقت والذين اضطهدوا الأقليات كجزء مــن اضطهادهم العام للرعية كلها. ٢-صلف الوزراء والجباة والقادة غير المســلمين، واستعلاؤهم على جمهور المســلمين، وثراؤهم المستفز، وظلمهم واضطهادهم لعامة الفقراء المســلمين؛ الأمر الذي ولّد ردود أفعال طائفية لم تقف عند الذين ظُلموا من أبناء هذه الأقليات خاصة، وإنما عمت البلوى جماهير الأقليات. ٣-غواية الاســتعمار الأجنبي-الصليبي

والإنجليزي والفرنسي- لقطاعات من أبناء الأقليات، كي تمالئ الغزاة، وتخون أمتها ووطنها، ونجاح هذه الغوايات الاستعمارية في كثير من الأحيان، الأمر الذي ولّد ردود أفعال عنيفة ضد أبناء هذه الأقليات التي وقعت في شباك الغوايات.(٨)

هذا هو حجم التوترات الدينية في التاريخ الإسلامي.. وتلك هي أسباب هذه التوترات، كما شهد بها المنصفون من العلماء والباحثين غير المسلمين.(٩)

العلاقة مع الآخر الثقافي

في الموقف من الثقافات التي تنتشر على النطاق العالمي، وفي إطار الحضارات غير الإسلامية، هناك مواقف ثلاثة، لكل واحد منها أنصار ومحبذون:

وأول هذه المواقف هو موقف المثقف "خالي الشغل"، ذلك الذي يمثل عقله صفحة بيضاء خالية من الموقف والخصوصية والذاتية الحضارية، وتنطبع عليها كل ألوان الوافد والمستورد، حتى لكأن عقله هذا مكتب من مكاتب الاستيراد، التي تعيش بها وعليها طبقة "الكومبرادور" الطفَيلية، التي لا علاقة لها بالإنتاج الوطني والقومي، ولا علاقة لعقولها بالإبداع الفكري والثقافي والحضاري.

وثاني هذه المواقف هو موقف الانغلاق دون الثقافات العالمية جميعها، وتحريم الاستفادة من تجارب الأمم الأخرى في الحفاظ على لغاتها وآدابها وفنونها وثقافاتها، وفي التطوير لهذه الثقافات، والتجريم لكل ألوان الانفتاح على هذه الثقافات.

وأصحاب هذا الموقف يحلمون بـ"المستحيل - الضار".. فما يريدونه مستحيل التحقيق، لأن بناء أسوار صينية بين الثقافات العالمية لم يتحقق قديمًا، فما بالنا به في عصر ثورة وسائل الاتصال؟!

وهذا المستحيل ضار -على فرض إمكان تحققه- لأن الانغلاق الثقافي يؤدي بأصحابه إلى مثل ما يؤدي إليه الإضراب عن الطعام والشراب بجسم الإنسان، حيث يتغذى الجسم على ذاته، فيستهلك هذه الذات، ويصاب بالذبول والضمور والاضمحلال.

وإذا كانت التبعية الثقافية تؤدّي بأصحابها إلى التقليد الذي يذيب التميز، فتضمحل به الذاتية والخصوصية، فإن الانغلاق يقود -هو الآخر- إلى ذات النتيجة البائسة والمأساوية.. فكلا التفريط والإفراط يفضيان إلى مأساة الذبول والاضمحلال للشخصية الوطنية والقومية في الثقافة والحضارة.

موقف التفاعل المتوازن

أما الموقف الثالث من الثقافات العالمية، فهو الوسط العدل الذي يختار طريق "التفاعل" مع الحضارات والثقافات العالمية، من موقع الراشد المستقل، دونما إفراط في الخصوصية يؤدي إلى "الانغلاق" أو تفريط يؤدي إلى "التبعية" والتقليد والذوبان.

وهذا التفاعل مع الثقافات العالمية هو الذي يميّز بين خصوصيتنا الثقافية المتمثلة في منظومة القيم الإسلامية، التي هي معايير القبول والرفض لما لدى الآخرين، وبين ما هو مشترك إنساني عام، سواء أكان هذا المشترك علومًا طبيعية ودقيقة ومحايدة، أو تطبيقات لهذه العلوم في التقنيات التي يتم بها عمران الواقع المادي في المجتمعات الإسلامية، أو كان هذا المشترك الإنساني العام خبرات وتجارب إنسانية في ميادين ترقية الثقافة واللغة وتطعيم ثقافتنا وإثرائها بالقوالب المستحدثة والنافعة في الفضاءات الثقافية الأخرى.

فهذا الموقف الثالث -موقف التفاعل الخلاق بين الثقافات والحضارات- هو النافع... وهو الوسط العدل بين غلوّ الإفراط والتفريط في الانغلاق والعزلة وفي التبعية والتقليد.

بل إن هذا الموقف الثالث (الوسطي والمتوازن والعادل) يكاد يكون هو القانون العادل الذي حكم العلاقات الصحية والناضجة بين الثقافات والحضارات على مر التاريخ.

فالمسلمون عندما انفتحوا على ثقافة مدرسة الإسكندرية في القرن الهجري الأول، ترجموا علوم الصنعة (تقنيات العلوم الطبيعية والدقيقة والمحايدة) ولم يترجموا ديانات مصر (الوثنية أو النصرانية) ولا الفلسفات الهلينية والغنوصية. وكذلك صنع المسلمون عندما انفتحوا على التراث الروماني، منذ عصر الراشد الثاني عمر بن الخطاب ﷺ، فلقد أخذوا نظم الدواوين، دون أن يأخذوا القانون الروماني. وكذلك كان الحال في التفاعل الإسلامي مع الحضارة الفارسية؛ فلقد أخذ المسلمون تجارب الفرس في التراتيب الإدارية، دون أن يأخذوا فلسفات المجوسية وعقائدها الدينية. وبنفس المعايير كان الانفتاح والتفاعل الإسلامي مع المواريث الهندية؛ إذ أخذ المسلمون فلك الهند وحسابها، دون أن يأخذوا فلسفتها وديانتها. ولقد حكمت ذات المعايير الانفتاح الكبير للحضارة الإسلامية على التراث الإغريقي؛ فأخذوا من الإغريق العلوم الطبيعية والتجريبية، دون أن يأخذوا وثنية الإغريق. وبنفس المعايير كان انفتاح الحضارة الأوروبية -إبان نهضتها- على الحضارة الإسلامية، عندما أخذت العلوم التجريبية والمنهج

التجريبي، والخبرات الإسلامية، دون منظومة القيم الإسلامية، والعقائد الإسلامية، وفلسفة العلم عند المسلمين.

إن الخصوصية الثقافية هي الضرورة المحركة للعقل المسلم كي يبدع ويجدد؛ بينما الانغلاق والتبعية والتقليد تفضي إلى الذبول والذوبان والاضمحلال.

لقد تميزت فلسفة الإسلام في النظر إلى الشرائع والملل والنحل الدينية غير الإسلامية، وفي العلاقة بالمتدينين بتلك الشرائع والملل والنحل بالموقف الوسطي الذي قرر أن دين الله واحد، من آدم إلى محمد ﷺ. إن الشرائع السماوية متعددة بتعدد أمم النبوات والرسالات في إطار وحدة عقائد هذا الدين الإلهي الواحد. فتحققت بهذه الفلسفة الوحدةُ الدينيةُ مع التمايز في الشرائع الدينية أيضًا.

وبهذه الفلسفة الإسلامية في النظرة للآخر الديني حقق الإسلام "ثورة إصلاحية.. وإصلاحًا ثوريًّا" تجاوز الاعتراف بالآخر والقبول به والتمكين له، إلى حيث جعل هذا "الآخر في الشريعة" جزءً من "الذات الدينية الواحدة"، وذلك لأول مرة في تاريخ العلاقات بين أبناء الديانات والحضارات.

ووحده الإسلامُ هو الذي بدأت به مسيرة جعل الآخر جزءً من الذات الدينية؛ فقرر للآخرين ذات الحقوق وذات الواجبات في الدولة والأمة: "لهم ما للمسلمين، وعليهم ما على المسلمين، حتى يكونوا للمسلمين شركاء فيما لهم وفيما عليهم..".

بل لقد جعل الإسلام من الآخر الديني جزءً من أولي الأرحام عندما أقام الأسرة -وليس فقط الأمة- على التنوع الديني. فأصبحت الزوجة الكتابية سكنا يسكن إليها المسلم، وموضع محبته ومودته، بينهما ميثاق الفطرة.. حتى لكأنهما ذات واحدة يجمعها لباس واحد: ﴿هُنَّ لِبَاسٌ لَكُمْ وَأَنْتُمْ لِبَاسٌ لَهُنَّ﴾ (البقرة:١٨٧).(١٠)

ولأن فلسفة الإسلام وهي تتطلع إلى المثالي، لا تغفل عن مكنونات "الواقع" تميزت بالعدل الذي لا يضع كل أهل الكتاب في سلّة واحدة وصنف واحد، بينما ميّزت بين فرقائهم بحسب موقف كل فريق من "الكلمة السواء"، التي هي التمايز في الشرائع بإطار وحدة الدين: "الأنبياء أبناء علاّت، دينهم واحد، وأمهاتهم شتّى" (متفق عليه). ﴿قُلْ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ تَعَالَوْا إِلَى كَلِمَةٍ سَوَاءٍ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ أَلاَّ نَعْبُدَ إِلاَّ اللهَ وَلاَ نُشْرِكَ بِهِ شَيْئًا وَلاَ يَتَّخِذَ بَعْضُنَا بَعْضًا أَرْبَابًا مِنْ دُونِ اللهِ فَإِنْ تَوَلَّوْا فَقُولُوا اشْهَدُوا بِأَنَّا مُسْلِمُونَ﴾ (آل عمران:٦٤).

فأهل الكتاب ﴿لَيْسُوا سَوَاءً مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ أُمَّةٌ قَائِمَةٌ يَتْلُونَ آيَاتِ اللهِ آنَاءَ اللَّيْلِ وَهُمْ يَسْجُدُونَ ۞ يُؤْمِنُونَ بِاللهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ وَيَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَيُسَارِعُونَ فِي الْخَيْرَاتِ وَأُولَئِكَ مِنَ الصَّالِحِينَ ۞ وَمَا يَفْعَلُوا مِنْ خَيْرٍ فَلَنْ يُكْفَرُوهُ وَاللهُ عَلِيمٌ بِالْمُتَّقِينَ﴾(آل عمران: ١١٣-١١٥).

وليس من العدل أبدًا التسوية بين هؤلاء الذين تفيض أعينهم من الدمع مما عرفوا من الحق، وبين الذين دخلوا في لون من الشرك والكفر: ﴿لَقَدْ كَفَرَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللهَ هُوَ الْمَسِيحُ ابْنُ مَرْيَمَ وَقَالَ الْمَسِيحُ يَا بَنِي إِسْرَائِيلَ اعْبُدُوا اللهَ رَبِّي وَرَبَّكُمْ إِنَّهُ مَنْ يُشْرِكْ بِاللهِ فَقَدْ حَرَّمَ اللهُ عَلَيْهِ الْجَنَّةَ وَمَأْوَاهُ النَّارُ وَمَا لِلظَّالِمِينَ مِنْ أَنْصَارٍ﴾(المائدة:٧٢).

لكن الإسلام مع هذا التمييز بين فرقاء أهل الكتاب، والعدل في التمييز بين مواقفهم من "الكلمة السواء"، قد جعل حساب كل ذلك إلى الله وحده يوم الدين. أما في الدنيا والدولة والتكريم الإلهي لمطلق بني آدم، فقد قرر الإسلام لكل هؤلاء الفرقاء ذات الحقوق وذات الواجبات التي قررها للمسلمين المؤمنين بكل الكتب وكل النبوات والرسالات.. وبنص عبارة رسول الله ﷺ في عهده لنصارى نجران وكل من ينتحل دعوة النصرانية: "فإن لهم ما للمسلمين، وعليهم ما على المسلمين، وعلى المسلمين ما عليهم، حتى يكونوا للمسلمين شركاء فيما لهم وفيما عليهم".

تلك هي مرتكزات التعايش مع الأديان الأخرى، في القرآن الكريم، وفي التطبيق النبوي لهذا القرآن الكريم.. ■

(*) كاتب ومفكر إسلامي / مصر.

الهوامش

(١) انظر: ﴿قُلْ هُوَ اللهُ أَحَدٌ ۞ اللهُ الصَّمَدُ ۞ لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يُولَدْ ۞ وَلَمْ يَكُنْ لَهُ كُفُوًا أَحَدٌ﴾(الإخلاص:١-٤).

(٢) وانظر: ﴿وَلَوْلاَ دَفْعُ اللهِ النَّاسَ بَعْضَهُمْ بِبَعْضٍ لَهُدِّمَتْ صَوَامِعُ وَبِيَعٌ وَصَلَوَاتٌ وَمَسَاجِدُ يُذْكَرُ فِيهَا اسْمُ اللهِ كَثِيراً..﴾(الحج: ٤٠).

(٣) مجموعة الوثائق السياسية للعهد النبوي والخلافة الراشدة، لمحمد حميد الله، القاهرة ١٩٥٦ م، ص١٥-٢١.

(٤) مجموعة الوثائق السياسية، لمحمد حميد الله، ص١٢٣-١٢٨.

(٥) فتوح البلدان، للبلاذري، القاهرة ١٩٥٦م، ص ٣٢٧.

(٦) الدعوة إلى الإسلام، سير توماس أرنولد، القاهرة ١٩٧٠، ص ٧٢٩-٧٣٠.

(٧) الحضارة الإسلامية في القرن الرابع الهجري، آدم متز، بيروت ١٩٦٧م، ١/١٠٥.

(٨) تعدد الأديان وأنظمة الحكم، جورج قرم، بيروت ١٩٧٩م، ص ٢١١-٢٢٤.

(٩) انظر: السلوك لمعرفة دول الملوك، للمقريزي (٧٦٦-٨٤٥هـ)؛ عجائب الآثار، للجبرتي (١١٦٧-١٢٣٧هـ).

(١٠) وانظر: ﴿وَقَدْ أَفْضَى بَعْضُكُمْ إِلَى بَعْضٍ وَأَخَذْنَ مِنْكُمْ مِيثَاقًا غَلِيظًا﴾(النساء:٢١).



الثالثة إلا عشر دقائق

محمد ساجد أرواسي*

هتفت وهي تنزل السلم مسرعة:

- حسنًا!.. حسنًا!.. أتيتك!

الظاهر أن طارق الباب كان على عجل!... لأنه ما إن لمس مطرقة الباب لم يدع الطَّرْق... كان يطرق باستمرار... وعندما فتحت الحاجّة حسيبة الباب بقلق ممزوج بالغضب، ذهلت و لم تصدق عينيها:

- جميل!!..

لفظتْ اسم ابنها في صرخة نداء من بين شفتيها...

...

كانت العمة حسيبة قد ودّعت فلذة كبدها جميل إلى "سيبيريا" مدرّسًا قبل ستة أشهر، و لم يجُلْ في خيالها أنه سيعود هكذا مبكرًا.

وقبل ذهابه إلى سيبيريا كانت قد انتظرته أعواما وأعواما بنافذ الصبر لينهي دراسته الجامعية. فبينما هي تأمل أن تنقضي أيام الفراق وتتحقق آمالها الحلوة فيه، إذا به يفاجئها بقوله:

- يجب أن أذهب...

يجب أن أذهب يا أمي!.. عليّ أن أكرّس عمري من أجل هدف إنساني!..وعليك أنت أن تهبي ابنك لهذا الهدف، مثلما فعل أسلافنا، فوهبوا أعمارهم وثرواتهم وأبناءهم.

فحقّ فيها ما قيل:

"فارَقْتُه لم تكن عالمة أنّ يوم الملتقى يوم اللّقاء"

...

هكذا هي امرأة الأناضول.. رمز التضحية والبراءة والصفاء... فكلّما استمعت إليه لاحت لها بوارق الحق في كلامه، قالت له:

- اذهب يا بنيّ!..

ودّعته كالأمهات اللواتي أرسلن أبناءهن للدفاع عن الوطن من محطة "بِيلَجِكْ"، قائلة:

- اذهب يا بنيّ!.. اذهب.

فذهب إلى سيبيريا القارسة البرد التي ما لبثت حتى تحولت في عزيمته إلى أكثر الأنسام عذوبة ودفئاً.

ولكن في المساء الأخير قبيل ذهاب ابنها، وكان رأس ابنها في

حجرها، تداعب شعر رأسه كما كانت تفعل عندما كان طفلاً فتحت صندوق عرسها وأخرجت منه ساعة بسلسلة وقدمتها له قائلة:

- خذ يا بني!.. هذه الساعة ذكرى من والدك، ورثها هو من والده... ستتذكر أمك وستدعو لأبيك كلما نظرت إليها..

قبّل يدي أمه ومسح وجهه بيديها:

- وهل يمكن أن أنساكِ يا أمي؟!.

ثم نهض وأخرج ساعة دقاقة من حقيبته:

- ما دام الأمر هكذا... إذن أترُك لك ساعتي هذه... ليست ساعة اعتيادية يا أمي!.. إنها تدق مع دقات قلبي...

كان جميل قد أضاف ثلاث حلقات إلى الساعة. كان هناك سهم متّجه من كل حلقة نحو مركز الساعة. في الحلقة الأولى كانت توجد كلمة "الفجر" وفي الثانية كلمة "الضحى" وفي الثالثة حرف "ت"[1] فقط. كانت هذه الحلقات موجودة على الساعة وحسب الأوقات.

فتح عينيه على جو جديد من الحياة، لذا فما إن يصحو في الفجر ويصلي حتى يغيّر ساعته على حلقة الضحى ثم على حرف "ت". شرح هذا لأمه ثم قال لها:

- اعملي أنت الشيء نفسه يا أماه!!.. وادْعي لي!

ثم حدثها عن أشياء كثيرة...

أيقظته أمه في ساعة صلاة الفجر وودعته.

...

سافر إلى سيبيريا كأنه فارس على صهوة جواد من نور ينطلق في الظلام مودعا أمه في الفجر... ينطلق إلى أماكن لم تر بعد نور الشمس ولم يلمسها بعد شعاعها الذي يحيي الموات. وبينما كانت تتوقع أن تتأخر هذه العودة إذا بها تراه أمامها. وكما تفعل كل أمّ فقد فتحت ذراعيها إلى أقصى ما تستطيع واحتضنته...

فتحت عينيها على غرفة مظلمة، فصحتْ من رؤياها... تقلبت في فراشها ببطء وهي تتنهد قائلة: "آه يا بني!" كانت الساعة تشير إلى وقت حلقة "ت"، تمتمت بوهن وهي تضغط على زر الساعة:

- هذه الليلة لم تبق لي حاجة إليكِ... لقد أيقظني صاحبكِ.

قامت وتوضأت... وعندما فرشت سجادتها ألقت نظرة على الساعة... كان ميلاً الدقائق والساعات متوقفين، وكانت الساعة تشير إلى الساعة الثالثة إلا عشر دقائق. تناولت الساعة وتمعّنت فيها... عجباً! كانت الساعة متوقفة... وبدون أن تشعر، ودون أن تَدري السبب هتفت:

- آه يا بني!.. كيف عرفت أن الساعة متوقفة فقمت بإيقاظي؟!!..

وقفت خاشعة للصلاة... كانت في حالة روحية غريبة... تضرعت وقرأت الأدعية حتى الصباح.

.....

بعد أيام دُق بابها دقات وجلة ومترددة... نزلت ودرَجُ البيت القديم يصرّ تحت قدميها، وفتحت الباب... كان هناك شابّان وضيئا الوجه... قال الشاب الطويل بصوت خافت:

- هل أنت العمّة حسيبة؟!

- أجل!

- هل نستطيع الدخول يا عمة حسيبة؟.. نحن أصدقاء "جميل".

لمعت عينا العمة حسيبة. قالت بفرحة غامرة:

- طبعًا!.. طبعا!.. تفضلوا يا أولادي!..

ثم أردفت بانفعال:

- "جميل"... هل أتى "جميل" أيضاً؟

- كلا!.. لم يأت جميل يا عمة حسيبة.

- ولكن هذه الحقيبة في يدك هي حقيبته!.

نكّس كلاهما نظرهما إلى الأرض... ربّاه!.. كم كان هذا الأمر صعبًا. تمالك أحدهما نفسه بصعوبة وقال:

- هذه الحقيبة حقيبته يا عمة حسيبة! ولكنه...

لم يستطع أن يكمل الجملة... تحولت الكلمات عنده إلى دموع... فهمتْ العمة حسيبة... وهل هناك أحد يفهم أفضل من الأم لغةَ الدموع؟ تهاوت في مكانها... مَن يدري كم استمر ذرفها للدموع... ثم قالت أخيراً:

- "إنا لله وإنا إليه راجعون"...

ارتسم التوكل وتسليم أمرها لله خطوطا على وجهها. سألت:

- كيف حدث هذا؟

- مرض قليلا.. ذهبنا به إلى الطبيب... كان يسير نحو الشفاء... في تلك الأمسية أيضًا كان وضعه جيدًا حتى إن طلابه جاؤوا لزيارته، وبعد أن غادروا قال:

- أعتقد أنني تعبت...

وذهب إلى غرفته. نام ولم يستيقظ.

- وأين نعشه؟..

قالت هذا، وأخذها نوبة أخرى من البكاء.

مدّ الشاب الطويل بعض الأوراق إليها وقال:

- وجَدْنا في الصباح هذه الأوراق في جانبه... وكأنه أحسّ بدنو أجله... كان يصرّ في هذه الأوراق على دفنه في اليوم الثاني في البلـدة التي تُوفّي فيها... لم نجد بُـدّاً من تنفيذ وصيته فقمنا بدفنه في حديقة مدرسـتنا... أي في مكان يسـتطيع فيه سماع أصوات طلابه الذين أحبهم كثيرًا.

ثم أخرج من جيبه سـاعةً بسلسلة وظرفَ رسالة، وقدّمهما للعمة حسيبة قائلا:

- لقد ترك هذه الأغراض لكِ يا عمة... هذه سـاعة ابنك، وهذه هي الرسالة الأخيرة التي كتبها لك.

لفّتْ العمة حسيبة السلسلة على ذراعها وأخذت الساعة في راحة يدها. ثم -وبيد مرتعشـة- أخذت الرسالة... قربتها من شفتيها وقبلتها ثم بكت طويلا. وعلى الرغم من حالها المؤلم فقد حافظت على رقّتها وأدبها الجم وقالت لهما:

- أرجو المعذرة منكما...

ثم قامـت وذهبت إلى الأريكة الطويلة التي جلسـت عليها مع ابنها لآخر مرة... كان ابنها قد وضع رأسـه في حجرها... تذكرت كلماته الأخيرة لها:

- لم يبق لي يا أمي سـوى الدعاء لـك... أما أنا، فمُهمّتي تقديم خدماتي حتى الرمَق الأخير... وربما سـنجلس معا يا أمي في الجنة على أريكة من الزمرّد، وسأضَع هناك رأسي في حجرك وستلمسـين شعري وتنشدين لي أغنية من أغاني الأطفال... وما أجمل أن يضع ابن رأسـه في حجر أمه ليسـمع أغنيتها الحنونة الصادرة من قلبها في مقرٍّ فـوق الزمان والمكان... آه! ما أجمل هذا!!..

وبصعوبة فتحت الرسالة:

- أماه!.. لا أدري هل أسـتطيع إتمام رسالتي هذه قبل وفاتي أم لا؟.. أريـد أن تحتفظي برسـالتي هذه سـرًّا بينك وبيني... ما أبرد هذا البلد يا أماه... أشـعر بالقُشَـعْريرة وهي تسري في جسدي... أشعر بالبرد يا أمي... أكتب هذه الرسالة على فراش المرض... جاء تلاميذي في المساء لزيارتي... طلبت منهم الدعاء لي بالشفاء... آهٍ يا أمي، لو شاهدت كيف دعوا... لو شاهدت أسـلوب وكيفية دعائهم... لو كانـت لي ألف روح وتجمّدت كل منها واحدة إثر أخـرى لَما ترددت في المجيء إلى هذا البلد البارد. لو كنت هنا إلى جانبي لهيأتِ لي شراب النعناع والليّمون لأعرق وأشـفى. لم أعُد الآن أحزن لعدم كونك معي وبجانبي، لأنني غفوت لحظة فإذا ببابي يُفتح ويدخل شـخص نوراني... ما إن رأيته حتى حاولت أن أهبّ من مكاني.. ولكني لم أسـتطع.. فقد كنت خائر القُوى.. قال لي:

- هل أصبت بالبرد يا جميل؟ هل بردت كثيرا يا جميل؟..

تصوري! قال لي "يا جميل؟!" ثم نزع بردته وألبسني إياها... والأَهم أنه قال:

- تعال!.. لن تشعر بالبرد من الآن فصاعداً... وإلى الأبد..

وفي أثناء محاولتي القيام مـن الفراش وقعت على الأرض... سأُلبّي دعوته يا أماه!.. وقد أمرّ بك قبل الذهاب... لا تحزني يا أماه من أجلـي... ولن أحزن من أجلك... عندما ودّعتِني قلتِ لي:

- أستودعك الله...

وأنا الآن أسـتودعك الله وأدعكِ في كنفه وفي كنف رسوله وحبيبه... أُتلي سـورة الفاتحة من أجلي... ودُمتِ في رعاية الله وحفظه يا أماه!

ابنك جميل...

...

وقعت الرسالة من العمة حسيبة، وتحركت شفتاها دون إرادة منها بسورة الفاتحة. وكأنها تتلو له قصيدة حب. وفيما هي تمسح وجهها بيدَيها وقع نظرها على السـاعة التي أعطَتها لجميل... سـاعة العائلة وميراثها... كانت متوقّفة وتشير إلى الساعة الثالثة إلا عشر دقائق. ■

(*) كاتب وأديـب تركي. الترجمة عن التركية: أورخـان محمد علي. وهي قصة حقيقية وقعت في بلاد الجليد، سيبيريا.

(1) وهو الحرف الأول من كلمة "التهجد".(المترجم)

الانتصار الأخير

عمر فاروق كولدرن*

أقبل هذا المساء على المدينة المغمورة بالثلوج موحشا كئيبا.. وألقى عليها مع قساوة البرد وشاحا أسود حزيناً.. الغيوم السوداء تخنق الضوء والنور.. صمتٌ كالح.. هدوء مخيم على الشوارع.. وإذا بحافلة البلدية تقف بفرملة مزعجة تخدش الآذان.. نزل وهو شارد الذهن.. رفع رأسه ودار بنظراته الحزينة هنا وهناك.. وقف لحظات ثم أخذ يسير في طريقه رويداً رويداً..

الأمر هذه المرة جد مختلف.. شحب وجهه وتندت عيناه بالدموع.. تنهد ثم تمتم في أسى:

– إنا لله وإنا إليه راجعون!..

دَق الجرسَ.. فتحت زوجته الباب والقلق العميق بادٍ على وجهها.. ركزت نظراتها في وجهه الشاحب آملة أن يخبرها عما جرى معه اليوم.. نظر إليها وابتسم ابتسامة باهتة ودخل بهدوء.. توقعت أن الأمر ليس على ما يرام!.. وما إن رأى أطفاله حتى احتضنهم وضمهم إلى صدره بشوق وقبّلهم بحرارة وكأنه يودّع.. توجهت زوجته "وفاء" نحو المطبخ لتحضير العشاء وقد احتل الضيق صدرها.

وخلال تناولهم الطعام كان "صابر" معتصما بالصمت وغارقا في التفكير.. لم يمازح أولاده ويداعبهم، لم يسألهم عن يومهم في المدرسة هذه المرة.. وعندما كانت وفاء تجمع أطباق الطعام من فوق المائدة ملأ جميع أطراف الغرف صوت ندي.. أذان العشاء يُرفع.. نهض صابر من مكانه وتوجه إلى المغسلة ليتوضأ.. انزوى في غرفة كان قد جعلها مسجدا في بيته.. وبعد لحظات وقف وأهله إلى الصلاة في جماعة.. وقف باستسلام خاشعاً متضرعاً.. ارتجف صوته وتساقطت دموعه على خديه واحدة إثر الأخرى.. لم يعد يشعر بنفسه أو بما حوله.. كان يوقن أن الله معه وقريب منه جداً.. وبعد الأوراد والتسبيحات قام أولاده فقبّلوا يده ثم ذهبوا إلى غرفهم، عندها سددت وفاء نظراتها إليه وقالت بصوت خافت:

– ما الأمر يا عزيزي، لستَ طبيعيا اليوم؟!..

– اطمئني أنا بخير الحمد لله..

– هل ذهبت إلى المستشفى؟

– نعم ذهبت!..

– وماذا قال لك الدكتور؟!..

– لم يقل شيئاً مهماً.

اجتاحتها موجة من الضيق.. وحط على قلبها حزن عميق أسود.. دارت بنظراتها الحزينة في جنبات الغرفة وقد تشبعت عيناها بالدموع.. عرفت أن حالة زوجها ليست جيدة هذه المرة.. اقتربت منه ثم جلست إلى جواره بتأدب وأسندت رأسها على كتفه:

– أرجوك يا عزيزي لا تخف عني شيئاً..

كان لا يريد أن يحزنها أكثر، ولا يريد أن يبين عن همومه واضطرابه.. ولكن..

قال وعيناه على المكتبة:

– قال لي الدكتور بأن مرضي انتقل إلى الرئة.

– إلى الرئة!؟..

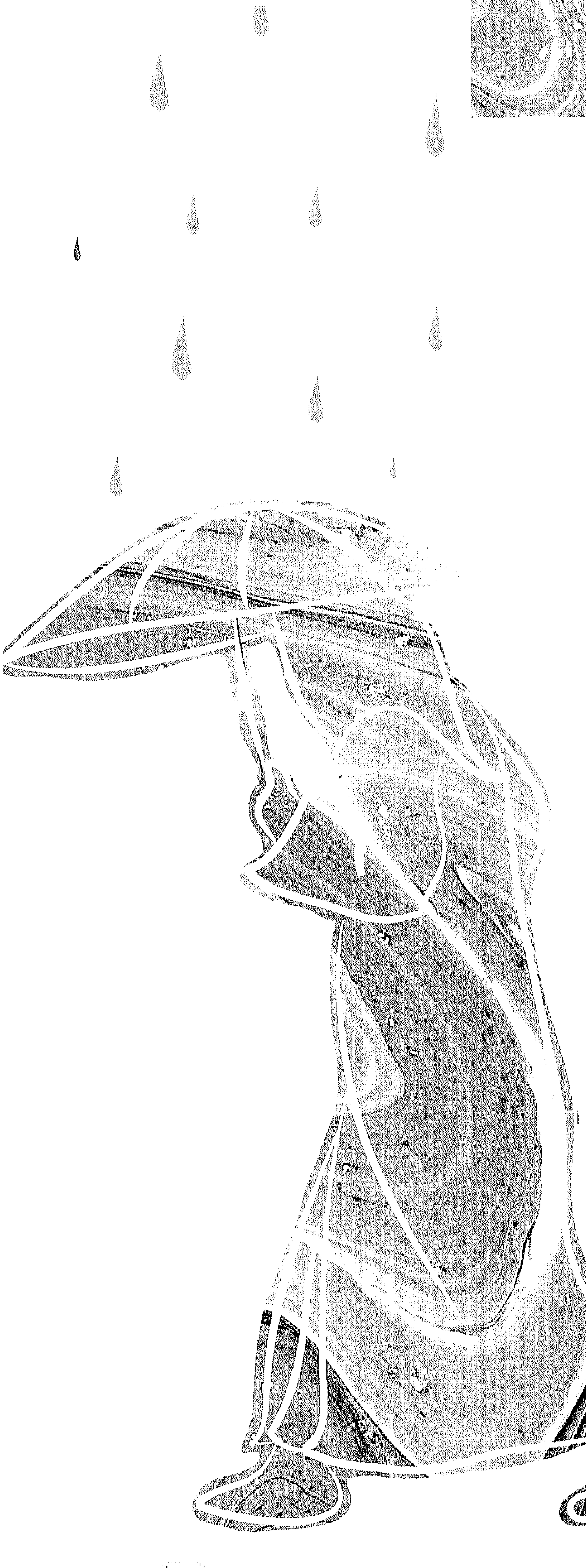
– نعم، ولكن لا تقلقي!.. لكل داء دواء.. والشافي هو الله!..

كان يدرك أن الأمر جد خطر، وأن ليس لهذا المرض دواء.. لقد نصحه الدكتور بأن يستريح جيداً ولا يتعب نفسه لمدة ثلاثة أشهر ثم يعود إليه.. آمن بأن المرض الذي انتابه هو تقدير إلهي، ولا اعتراض لحكم الله.. كان يعرف معنى التوكل معرفة حقيقية.. قام وخطا نحو المكتبة وتناول منها المصحف الشريف.. وراح يتلو سورة الكهف.. قالت وكلها آذان صاغية لما يتلو:

– ولـمَ سورة الكهف!.. ولـمَ لا نتابع تلاوتنا من المكان الذي وقفنا عنده؟!..

– قرأتُ في حديث شريف للنبي صلى الله عليه وسلم أنه إذا قرئت هذه السورة ليلة الجمعة كانت دواء لكل داء.. وإني أؤمن من صميم قلبي أنه الصادق المصدوق وأن أقواله دواء لكل مرض





وشفاء لكل مريض بإذن الله تعالى..

صمت لحظات، ثم أخذ يحدثها عن اليقين العميق مستشــهدا على ذلك بهذه القصة...

- لقد أصاب قحط قاتل قرية من القرى. فلم يبق عند أهلها قطرة ماء يشــربونها أو يســقون بها دوابهم.. لم يجدوا سبيلا سوى الدعاء إلى المولى عز وجل.. احتشــدوا رجالا ونساءً، صغاراً وكباراً، جمعوا دوابهــم وخرجوا إلى البراري والقفار راجين من الله أن يغيثهم .. إمامُ القرية يدعو والأهالي يؤَمّنون، يستغفر فيستغفرون، يوحّد فيوحّدون.. وما هي إلا دقائق حتى تراكمت الســحب وأمطرت عليهم الســماء مــدراراً.. فتبلل الجميع إلا فتاة صغيرة.. آمنت إيمانا يقينا بنزول المطر عنــد خروجها من القرية، فأخذت معهــا مظلة كي تحميها من البلل وقطرات المطر..

ثم قال:

- ونحن الآن يا عزيزتي في أمس الحاجة إلى الدعاء..

منذ ذلك اليوم راح صابر ووفاء يتلوان ســورة الكهف كل ليلة جمعة.. ويناديان ربهما بقلب خاشع، وإيمان تام في غسق الليالي.. طرقا باب الشافي سبحانه بإلحاح وتضرعا إليه باستمرار..

وبعد ثلاثة أشهر وعندما ذهب ووفاء إلى الطبيب لآخر مرة، كان الحزن قد أرخى سدوله عليهما بأنواع الهموم والاضطرابات.. ألم يكن مرض بلا دواء؟! إذن لمــاذا الأمل والرجاء؟!.. قدمت الممرضة نتائج التحليــل إلى الطبيب.. تناولها وراح يجــول بنظراته فيها دون أمل.. صمت طويل ومثير.. وفجأة أشــرقت أسارير الطبيب وحدق بعينين مذهولتين متعجبتين.. كانت النتائج كلها إيجابية.. وقد توقف المرض وتراجع.. قال وهو مبهور الأنفاس:

- يا إلهي!؟.. لا أصدق ما أراه!.. توقف المرض! كيف حصل ذلك؟..

كلمــات بعثت البهجة والضيــاء في وجه صابر ووفاء، فتألّقت عيناهما بوميض مشرق. فتمتم صابر:

- الحمد لله.. هذا من فضل ربي العظيم.. ■

(*) كاتب وأديب تركي. الترجمة عن التركية: نور الدين صواش.

واحة القراء



السلام عليكم ورحمة الله وبركاته..

أما بعـــد، أحمد الله العلي القدير الذي عرّفني بهذا العلم الغزير والنبع الطيب للدراســـات الإســـلامية لمختلف المفكرين، ألا وهي مجلة "حراء". لقد كان أول لقاء مع هذه المجلة أن كانت هدية لي من طرف أســـتاذي التركي. ومنذ تلـــك اللحظة عزمت إلا أن أتبع هذا الضوء الروحاني الذي يعالج مختلف القضايا التي تمس الروح. أشـــكركم جزيل الشـــكر، شكرا لا حدود له لأني أحب مجلتكم القديرة والرائعة.. أتمنى لكم دوام التألق والنجاح..

محبتكم خديجة / الجزائر

السلام عليكم ورحمة الله وبركاته، وبعد

أتابع بكل التقدير والإعزاز أعداد إصداركم الجاد المتميز، والتي هي بحق منارة إســـلامية ثقافيـــة فكرية لا غنى عنها للباحـــث أو للقارئ، حيث أنها تمثل بجـــلاء منهج الاعتدال والوســـطية الذي يمثل فكرنا الإسلامي خير تمثيل، فمعكم الله تعالى، وإلى الأمام دائمًا من أجل إثراء الفكر الإسلامي المستنير.

يسري عبد الغني عبد الله / مصر

السلام عليكم ورحمة الله..

مجلتكم تستحق التقدير والتشجيع.. فجزاكم الله خيرا، وأتمنى لكم النجاح ومسيرة طويلة لخدمة الأمة الإسلامية...

محمد بن الطاهر / المغرب

السلام عليكم ورحمة الله تعالى وبركاته..


أتقدم لســـيادتكم الموقرة بهذا الطلب، راجيا منكم إفـــادتي بالأعداد الأخيرة لمجلة "حراء" التي اكتشـــفتها صدفة عن طريق الانترنت وقرأتهـــا.. وما جذبني إليها موضوعاتها الحديثة ومنهجها الإســـلامي وبخاصـــة مواضيع التربوية بحكم مهنتي أســـتاذ تعليم ورئيس جمعية اجتماعية.

عمار جلود / الجزائر

السلام عليكم ورحمة الله وبركاته..

أشـــكركم جزيل الشكر على الجهود التي تبذلونها لإنجاح هذه المجلة المتميزة، والتي أتابعها باهتمـــام بالغ. مع تحياتي الخالصة، مصحوبة بدعواتي الصادقة لكم جميعا بالتوفيق، وبمزيد من النجاح للمجلة. والســـلام.

رشيد سوسان / المغرب


• تجربة خصبة وعميقة في العمل الدعوي
• صياغة جديدة لفقه الدعوة والدعاة
• فقه المعاناة والألم من أجل الدعوة
• قواعد أساسية منضبطة في العمل الدعوي
• الدعوة حياة، وحياتها بأنفاس دعاتها
الإرشاد
في الفكر والحياة
المؤلف: محمد فتح الله كولن
عندما لا يحترق القلب شوقا، والروح عذابا، والذهن هما فلا تتكلم،
وإلا فلن تجد أحدا يصغي إليك.
مركز التوزيع فرع القاهرة: ٧ ش البرامكة، الحي السابع، مدينة نصر - القاهرة / مصر
تليفون وفاكس: 20222619204+
دار النيل

حراء

مجلة علمية ثقافية فصلية

www.hiramagazine.com

مصر: ٧ جنيهات • تركيا: ٥ ليرات • أوروبا: ٣ يورو • أمريكا: ٤,٥ دولار



الضوء والزيت

ضوءٌ محبوس في مشكاة فانوس، ولولا الزّيت المسكوب من زيتونة المولى المعبود...
لَمات النور وعَمَّ الديجور، وتهاوى إلى القاع كُلُّ مُتعَبٍ وخَوَّار، ومتعثّر ومحتار...
بينما الأمل معقود، وعون الله ممدود، للصادقين السائرين...
الذين لا يتعبون، وعن السير لا يتوقّفون...

* * *

ISSN 1306-1879
www.hiramagazine.com
9771306187009 09

حراء

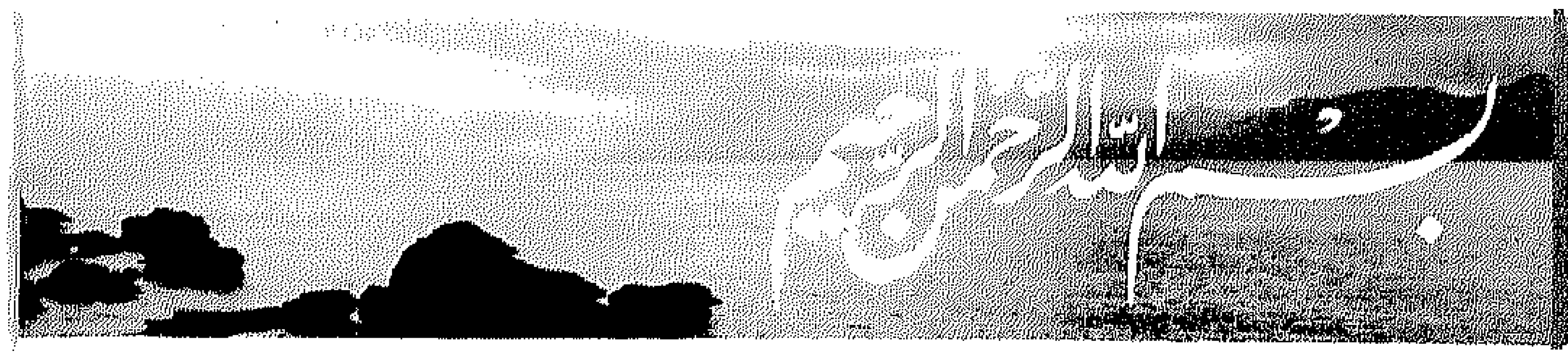
مجلة علمية ثقافية فصلية

www.hiramagazine.com

العدد الخامس / السنة الثانية / (أكتوبر - ديسمبر) 2006



- **... وخاتم المنبئين عن الغيب** – فتح الله كولن
- **الوهج الروحي في حياة النورسي** – أ.د. محمد سعيد رمضان البوطي
- **التأسي بين التبرك والوظيفية** – أ.د. أحمد العبادي
- **الليل والنهار في القرآن الكريم** – أ.د. زغلول النجار
- **من "ديتون" الأمريكية إلى "أبنت" التركية** – أ.د. إبراهيم البيومي غانم



الإنسان والعالَم

العلاقة الجدلية بين العالم والإنسان علاقة تفكرية بالأساس. عالم قبالتنا يصدمنا بحدّة فيكون ردٌّ فعلنا على فعله استنهاضًا لقوانا الذهنية للتفكر به، والكشف عن مستوره، وتفسير أحاجيه. ومن بين هذا الفعل وردِّ الفعل تنهض الحضارات وتقوم المدنيات وتزدهر الثقافات ممّا يدلّ على أن قوى الإنسان الواعية لا زالت على أشدِّها لم تُصَبْ بالإرهاق والعقم.

فلا يمكن التصور للحظة واحدة عالم من دون إنسان، أو وجود إنسان من دون عالم، ونجد مصداق هذه الحقيقة في ثقافتنا القرآنية والسنّية. ومن هنا جاءت مقالات هذا العدد من "حراء" تدور حول الإنسان والعالم والإتيان بالشواهد على هذه العلاقة الجدلية بينهما كما سبقت الإشارة إلى ذلك.

ومن أبرز هذه الشواهد وأعظمها "محمد" ﷺ الذي تألق قلم الأستاذ فتح الله بالكلام عنه من حيث كونه مفسّرًا للعالم وشارحًا لمغزى الوجود ومعنى الإنسان. فمقاله يروي الظماء، ويسقي العطاش، إنه يستقي من ينبوع سماوي ثرٍّ فتنهال عليه الأفكار، وتتداعى عليه المعاني ويتحول قلمه بين أنامله إلى عمود نوراني مغموس برحيق كوني عذب المذاق، فيوقظ عين الزمن عليه، ويملأ كؤوس المعارف بشراب رسالته.

أمّا الأستاذ الدكتور أحمد العبّادي فيردف مقالا آخر يبين فيه مهمة التعامل مع آثار النبوة في الفرد والمجتمع. وللأستاذ الكبير د. محمد سعيد رمضان البوطي كلام عن الوهج الروحي في حياة الأستاذ "سعيد النورسي"، إضافة إلى الأستاذ الدكتور عبد الحليم عويس الذي يكتب عن الهجرة من حيث كونها مشروعًا لبناء حضارة إيمانية جديدة. وأما الأستاذ الفاضل أديب الدباغ فيكتب في مقاله "الضاربون في الأرض" عن أولئك الفتيان ذوي الهمم العالية وهم يسيحون في الأرض حاملين شعلة الإيمان إلى كل مكان من هذا العالم. وقد أتحفنا الأستاذ زغلول النجار بأحد مقالاته عن إعجازية الليل والنهار ودلالات هذه الإعجازية في القرآن الكريم. وفي الشخصيات الإسلامية يحدثنا الأستاذ الدكتور عمّار جيدل عن ريادة المفكر الإسلامي شيخ الإسلام مصطفى صبري. أما عن المسافة بين "دايتون" الأمريكية و"أبنت" التركية وعما يشتركان فيه ويختلفان، فكان في مقال للأستاذ الدكتور إبراهيم البيومي غانم.

فمن خلال ما توحي به مقالات هذا العدد من "حراء" نستطيع التوكيد على حقيقة كون الإنسان والعالم يشكلان وحدة واحدة مثيرة لاهتمامات المفكرين الجادين في كل وقت. فما زال العالم يدور في دواخلنا مولدًا فيها أعظم الخواطر والأفكار، وما زال العالم كتابًا مغلقًا في حاجة إلى المزيد من القراءة والتصفح، وما زال القرآن والسنة يمداننا بالمساعدة على تحمل معاناة فهم العالم وإدراك مقاصده وغاياته، ولا زال الذكاء البشري في حاجة إلى "الوحي" ليوجه خطاه ويصحح خطأه، ويحدوه في رحلته الصعبة الطويلة غير المتناهية. ■

حراء

مجلة علمية ثقافية فصلية

www.hiramagazine.com

العدد الخامس – السنة الثانية (أكتوبر – ديسمبر) 2006

التصور العام

- حراء مجلة علمية ثقافية فصلية تعنى بالعلوم الطبيعية والإنسانية والاجتماعية وتحاور أسرار النفس البشرية وآفاق الكون الشاسعة بالمنظور القرآني الإيماني في تآلف وتناسب بين العلم والإيمان، والعقل والقلب، والفكر والواقع.
- تجمع بين الأصالة والمعاصرة وتعتمد الوسطية في فهم الإسلام وفهم الواقع، مع البعد عن الإفراط والتفريط.
- تؤمن بالانفتاح على الآخر، والحوار البناء والهادئ فيما يصب لصالح الإنسانية.
- تسعى إلى الموازنة بين العلمية في المضمون والجمالية في الشكل وأسلوب العرض، ومن ثم تدعو إلى معالجة المواد بمهنية عالية مع التبسيط ومراعاة الجوانب الأدبية والجمالية في الكتابة.

شروط النشر

- أن يكون النص المرسل جديدا لم يسبق نشره.
- ألا يزيد حجم النص على ٢٠٠٠ كلمة كحد أقصى، وللمجلة أن تلخص أو تختصر النصوص التي تتجاوز الحد المطلوب.
- يرجى من الكاتب الذي لم يسبق له النشر في المجلة إرسال نبذة مختصرة عن سيرته الذاتية.
- تخضع الأعمال المعروضة للنشر لموافقة هيئة التحرير، ولهيئة التحرير أن تطلب من الكاتب إجراء أي تعديل على المادة المقدمة قبل إجازتها للنشر.
- المجلة غير ملزمة بإعادة النصوص إلى أصحابها نشرت أم لم تنشر، وتلتزم بإبلاغ أصحابها بقبول النشر، ولا تلتزم بإبداء أسباب عدم النشر.
- تحتفظ المجلة بحقها في نشر النصوص وفق خطة التحرير وحسب التوقيت الذي تراه مناسبا.
- النصوص التي تنشر في المجلة تعبّر عن آراء كُتّابها، ولا تعبّر بالضرورة عن رأي المجلة.
- للمجلة حق إعادة نشر النص منفصلاً أو ضمن مجموعة من البحوث، بلغته الأصلية أو مترجمًا إلى أي لغة أخرى، دون حاجة إلى استئذان صاحب النص.
- مجلة حراء لا تمانع في النقل أو الاقتباس عنها شريطة ذكر المصدر.
- يرجى ارسال جميع المشاركات إلى هيئة تحرير المجلة على العنوان الآتي:

hira@hiramagazine.com

مجلة علمية ثقافية فصلية تصدر عن:
Işık Özel Eğitim Tic. Ltd. Şti.
İstanbul / Türkiye

صاحب الامتياز
أنس أركنه
mergene@hiramagazine.com

المشرف العام
نوزاد صواش
nsavas@hiramagazine.com

رئيس التحرير المسؤول
حسام الدين السيد
hosam@hiramagazine.com

مدير التحرير
أشرف أونن
eonen@hiramagazine.com

المخرج الفني
مراد عرباجي
marabaci@hiramagazine.com

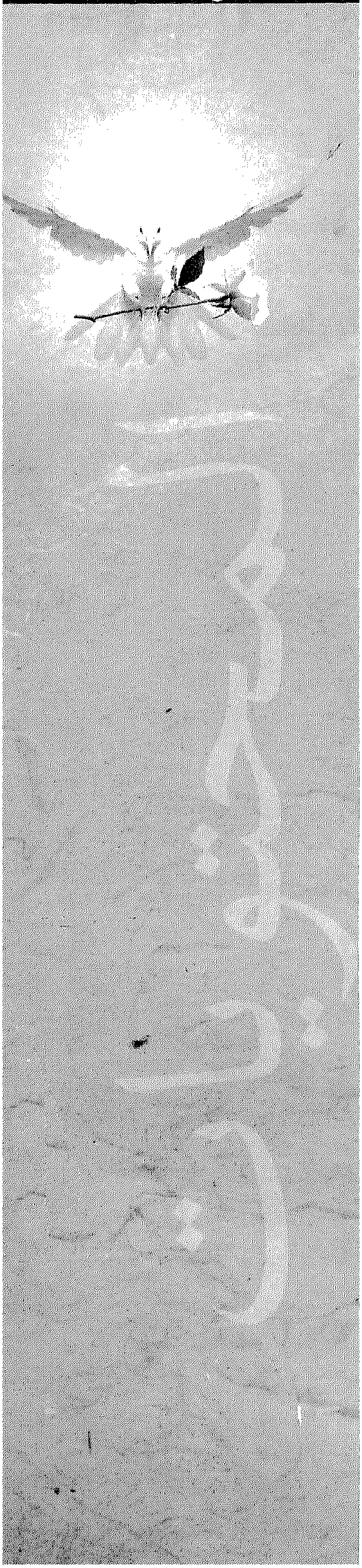
المركز الرئيس
HİRA MAGAZİNE
Emniyet Mah. Huzur Sok.
No:5 34676 Üsküdar
İstanbul / Turkey
Phone: +902163186011
Fax: +902163184202
hira@hiramagazine.com

الإشتراكات/مركز التوزيع
٧ ش البرامكة – الحي السابع – م.نصر/القاهرة
تليفون وفاكس: 2022619204+
المحمول: 20127874552+
جمهورية مصر العربية
sub@hiramagazine.com

الطباعة
Çağlayan Matbaası
İzmir- Türkiye
Tel: +90 (232) 252 20 96

رقم الإيداع
١٨٧٩-١٣٠٦

المحتويات





... وخاتم المُنْبِئين عن الغيب

فتح الله گولن

القـــول الفصل الأخير حـــول حقيقة "الله والكون والإنســـان" هو لحضرة محمد ﷺ الذي هو شجرة الوجود، والعلة الغائيـــة لكتاب الكائنات، وأقوى صوت للدعوة إلى الحق تعالى... إنه هو المُخبر الأخير "عن الغيب" وعن "غيب الغيب"، وهو المفســـر السديد للأشياء والأحداث، وهو المبيّن للعلاقة بين الإنســـان والخالق من غير أدنى لبس، وهو الموضح عيانا وجهاراً مقتضيات هذه المناسبات. هو المرشد إلى القرب الرباني؛ وهو الأول والأقـــرب إلى الحق تعالى من جهة، والأخير والأعظم أمانة من وجهة أخرى.

صاحب القول الفصل

الملائكة انتظرته، والأنبياء بشـــروا به، والأولياء ثمراته التي تقتبس منه النور. مشـــكاة النبوة اتقدت به بدايـــة، وبه أيضاً ظهرت زبدة معناها ومحتواها في أبهى صورة وأنْورِها. نوره الأول سباق الأنوار، وطوفان ضوئه الأخير هـــو ظهوره في العالم الخارجي. ومن جهة أخرى، هو فهرســـت الآفاق والأنفس، ولب الوجود وعصارته، وأضوأ ثمار شـــجرة الخلق من حيث الغاية، وســـيد الإنس والجن أجمعين باسم الخالق الجليل.

هـــو فوق الوصف أبداً من حيث جوهره وموقعه، لا نظير له باعتبار ذاته، فريد الكون والزمان بأعماقه الأخروية، وبرهان ظاهر بالرسالة التي يحملها. شـــهرته تمتد إلى ما قبل آدم النبي، وضياؤه لهجت به الألسن من قبل وجوده، وقدومُه -وقدمه تاج رؤوسنا- إحسان للإنسانية جمعاء. وجوده أصفى لؤلؤة في صَدَفة الوجود، ورســـالته أشمل الرسالات. علمه زبدة العلوم كلها، وعرفانه منبع نقي وصافٍ يجمـــع حوله أضوأ الوجـــوه، وأُفقُه كمرصد تهرع إليه الأرواحُ الصافيـــة المتطلعة إلى اللانهاية. العيون حظيت بقراءة

الأشياء على وجهها الحقيقي بفضل النور الذي نشره في الأرجاء. والآذان استمعت في ترانيم أقواله إلى أنغام روحانية من جواهر الكلمات لم تسمعها من قبل. وكم سرٍ ظهر عيانا بيانا، وكم فكرٍ كدرٍ صفا إلى الصفوة في أجوائه. من رآه واستمع إليه زال عن روحه الصدأ، وانقشع عن عينه الضباب. وما أن أخبر عن أولِ كلِ أول، وآخرِ كلِّ آخر حتى عُرف كل مجهول عجزت عن إدراكه عقول البشر، وتحلى غير المعلوم بلباس العلم والمعنى، وأصبح الوجود كله قصيدة شعرية تنشد على كل لسان، ونغما أبديا يُفَسِّر غاية الخلق ومقصده.

العلوم ما هي إلا قطرة من بحر علمه، والحكمة برمتها رشحة نزرة من شلال معارفه. الأزمنة كلها لا تعدل لحظة من لحظات عمره. كرة الأرض التي لا تزن جناح بعوضة في الكائنات، هي عالم يعدل الوجود بسر كونها مسقط رأسه. هو المقدم في التعيّن والبرنامج القدري، وهو صاحب القول الفصل الأخير في قضية النبوة، وهو الشارح الحقيقي للظاهر، وهو الناطق بأسرار الباطن. هو سلطان عرش النبوة بخَلقه خلقا ملائماً لتلقي الحقائق العلمية والعقلية من روح القدس، وبشعوره الرحيب، وبإدراكه الرفيع، وبقلبه المنفسح لما وراء الملكوت، وبسر استعداده للاطلاع على ما وراء الوراء. وهو أفصح ترجمان لعالم الرسالة الإلهية مبلغا ما تلقاه إلى الأرواح والعقول من غير عارض أو خلل، كجهاز استقبال نوراني منفتح على الماورائيات.

وهو -مع أن له خصوصيات ذاتية سامية- يخبرنا بمقتضى نبوته عن الحق تعالى، ويُعَرّفنا به، بذاته وأسمائه وصفاته، ويُحفّز فينا الشعور بالمسؤولية أمام الحق تعالى. ومن هذه الجهة هو معرّف ومعلم أكبر يُبَيّن ما لا يَبين ويشعر أرواحنا بما لا يُدرك. أما من جهة تبليغ الأحكام الدينية وتعليم القيم الإنسانية وتمثيل الأسس الأخلاقية، فهو مُشَرّع موظف وواضع للقوانين وقول شارح لحقيقة الحقائق.

الجامع بين الظاهر والباطن والأول والآخر

إن النبوة والرسالة وتحت وصايتهما الولاية، كما أنها متفتحة على الظاهر، كذلك هي "مُفَتّحة الأبواب" على الباطن. وإن عقول هؤلاء (الأنبياء والرسل والأولياء) أيضاً قد اصطبغت بصبغة هذا المنصب الإلهي... لكنها تقف من ورائهم بخطوات، تنتظر الأوامر منهم. إن عقلاً مدركاً لحدوده -مثل عقولهم- داخلاً في وصاية النبوة، يتنور بـ"الروح الأعظم" ويصير بُعداً مهما من أبعاد حقيقة الإنسان. وبمرور الزمان يبدأ باستشعار الباطن مع الظاهر، والآخر مع الأول.

وإن للوجود ظاهراً وباطناً. الظاهر يُرَى بالعين ويُدرَك بالحواسّ، ويُقَوّم بالعقل والمحاكمة العقلية. أما الباطن فلا تفتح أبوابه إلا من قبل الله لمن خُلِق بجَهاز يستشعره، فيتم الإحساس به صوتاً ونَفَساً ولوناً ونقشاً مختلفا عن الظاهر. فالأنبياء يستمعون إلى هذا الصوت والنَفَس بموجات مختلفة الأطوال مدى الحياة، ويتصرفون أبداً بمقتضاه.

وإن حضرة سيد الأنام، عليه أكمل التحايا، رمزٌ وصوتٌ للفائقية المطلقة من حيث جهازه الخاص المتناسب مع حاله الخاص. فالله يُسمعه ما لا يُسمَع، ويريه ما لا يُرى، ويُقدمه على الروحانيين بإكساب روحه ماهية فوق الزمان والمكان أحياناً، فيتقدم على الملائكة، أكرم عباد الحق تعالى، فيصل إلى "قاب قوسين أو أدنى". وله مكانة وقَدْر متمادٍ ووطيد عند الخلق كدرجته عند الحق تعالى؛ فإنه ما حاد عن الاستقامة قيد شعرة في عمره كله، ووَثِق به الجميع من صديق أو عدو، وبلّغ المخاطبين بما أُوحي إليه من الحق تعالى في بهائه الرباني، ولم يُذكر إلا بالعصمة، ولم يُعرف إلا بالصون الإلهي، وقرأ -دائما- الطبيعة وما وراء الطبيعة قراءة سديدة، وفسرهما تفسيراً صحيحا بروحه النيرة وبفطنته النافذة المتفتحة على عوالم المادة وما وراء المادة؛ ولذلك هرع إليه من غير توان صاحب كل وجدان نظيف متنزه عن أي حكم مسبق، وخضعت له أعصى النفوس تمرداً، واستسلمت له أذكى الأدمغة قاطبة؛ إذ قرأت في رسالته غاية خلق العقل. وبفضله انسلخ الإنسان من الحيوانية والجسمانية وتوجه تلقاء أفق في مرتبة حياة القلب والروح. هو -باعتبار أفق الوجود- المفتاح السري للباب الموصل إلى الوجود الخارجي، وهو -باعتبار تحقيق الهدف من خلق الوجود- الهادي إلى الصراط المستقيم الموفي إلى الحق تعالى، ونبع شفاعة السعادة الأبدية.

كل الأنبياء الذين مضوا من قبله قد قالوا ما قاله... والأولياء والأصفياء من بعده كلهم أجمعون -وأحوالهم الخارقة شاهدة على دعواهم- صدّقوه وشهدوا على صدقه، وأقروا واعترفوا بأن حظوظهم هي منه. فإنه قد قال "الله" ولفت الأنظار إلى التوحيد. وإن أصوات الأنبياء والمرسلين وأنفاسهم، ومشاهدات الأولياء والأصفياء وكشوفاتهم طراً، تؤيده وتسنده.

وكان صرحاً للإيمان... يعيش ما يقوله بمعيار أدقّ من شعرة شطرت أربعين مرة، ويزن تصرفاته بموازين الآخرة الدقيقة، ويحيا حياته في عمق كأنه يرى الله، وفي عمق رؤية الله له. هو الأرهف حساسية في تصرفاته، والأعظم جدّاً في المسؤولية، ويسعى حثيثا في أثر حسن العاقبة ولا يحيد طرفة عين عن الهدف، بل يهرع أبداً إلى النقطة التي اختير لها... وإذ يهرع إليها، يمد للجميع خطوط المعاني حُزماً حُزماً من الروابط بينه وبين الله تعالى.

شارح معنى الوجود

وهو الذي شرح معنى الوجود فربطه بصاحبه الحقيقي، وبيّن الحكمة المكنونة في لب الأشياء والأحداث، وذكّرنا مرارا بأننا لسنا وحيدين هنا، فشرح صدورنا بإشعار أرواحنا بأننا تحت الرعاية الربانية، وأزال الوحشة من نفوسنا وسما بأرواحنا إلى العلياء بنفحات أنسه، وسقانا مشاعر السكون والاطمئنان التي نشعر بها في ربوعنا وبين أهلينا. فإن كنا نحس بأن كل شيء في محله في هذا المأوى الدافئ، وإن كانت قلوبنا تخفق بعشق الحقيقة، وإن كنا نطلق أنظارنا في آفاق الكون الشاسعة مفكرين متأملين، فهذا كله بفضل النور الذي أوقده في عقولنا. وكل ما نعرفه عن الإنسان والوجود والكائنات برمتها، فهو تفصيل لمجمل ما أودعه في نفوسنا، ونمو لبذور الحقائق التي بثها في أرواحنا.

هو باني الإنسانية من جديد، ولا يزال، وسيبقى بانياً، في أمسها ويومها وغدها. وكما بدل في عصره بحملة واحدة، وبنفخة واحدة، مفاهيمَ ضالةً، وسلوكيات غير إنسانية، وانحرافات سوءِ الأخلاق والمزاج المغروسة في الطبائع من آلاف السنين، فسيُسمِع صوته -يقيناً وحقاً- للجموع المنفلتة، المنفرط عقدها اليوم، ويضبطهم بضوابطه إن عاجلاً أو آجلاً، ويظهر قوة رسالته... وسمّه -إن شئت- تجديد القراءة السديدة والتفسير الصائب في حقيقة (الإنسان والكون والألوهية) مرة أخرى، واتخاذ الإنسان موقفا يناسب دوره اللائق به في الوجود.

لقد أُرسل حضرة سيد الأنام (عليه ألفُ ألفِ صلاة وسلام) برسالة تتعلق بكل أحد وكل شيء. وكان يوفي وظيفته حقها ويؤديها بعمق فتمتلئ بحبه الأفئدة وتنجذب إليه القلوب. فهو يتفتق تكاملاً شاسعاً في خلقته، وصدقا منقطع النظير في تصرفاته، وربانية تتجاوز جوانبه المادية دائماً في سلوكياته. وهو -فوق هذه الجماليات الظاهرية الباهرة- صاحب أخلاق رفيعة لم يطلها أحد، سماها القرآن الكريم بـ"الخُلق العظيم".. حتى إن مَن يدخل رحابه لمرة واحدة من غير أحكام مسبقة، لا بد أن يدخل تحت تأثيره ويتعلق به إلى أبد. وعنده -مع هذه المحاسن والمعالي- بيان يأخذ بالألباب؛ فإذا تكلم أبكَمَ أمهرَ حُذّاق اللسان، فيغوصون في مراقبة السكوت، وينجرفون في تيار جذب قوله.

هيبته عليه الصلاة والسلام

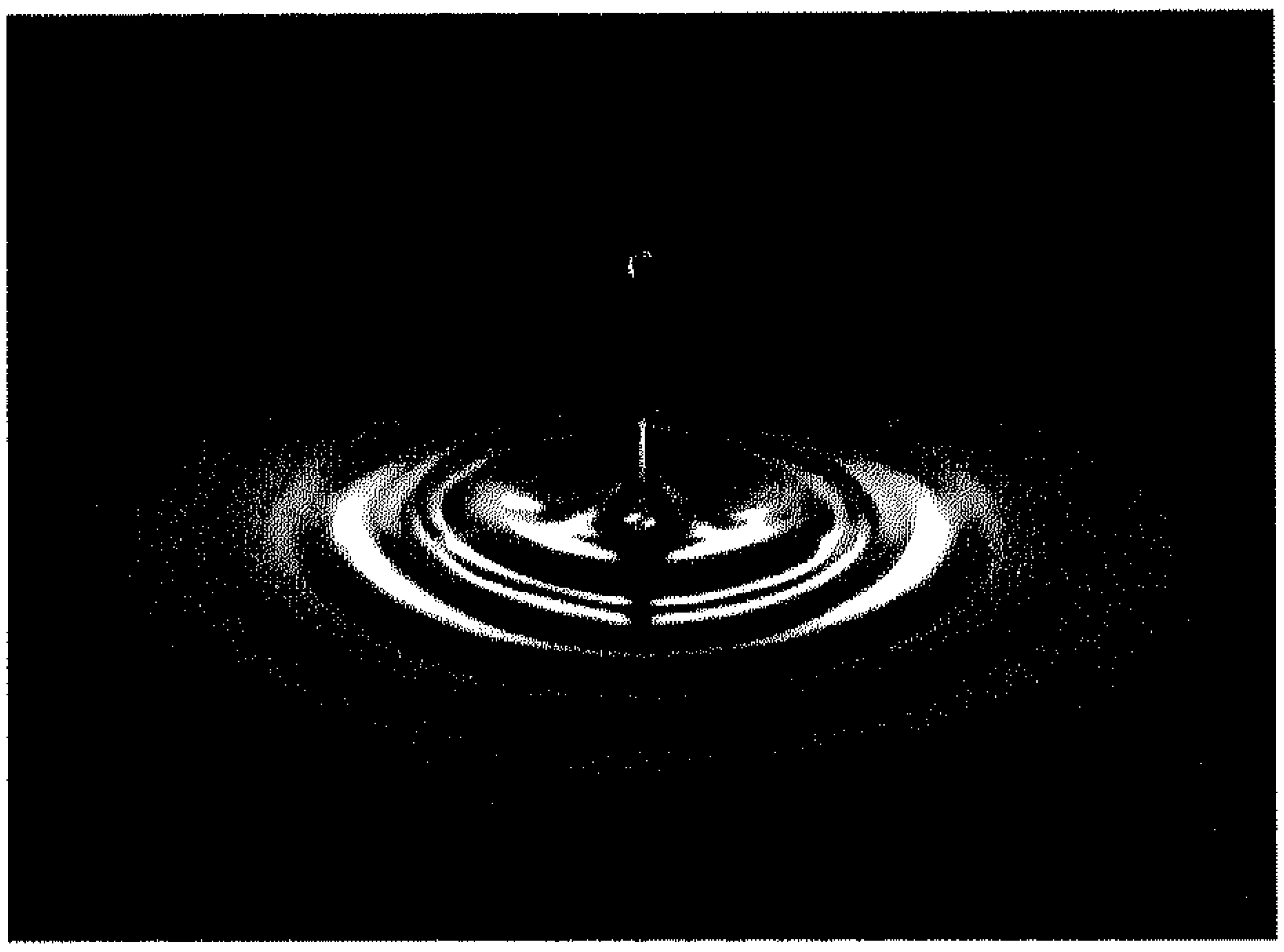
وإليك شيئاً من تفصيل ما قلناه آنفا: لقد وهبه الله تعالى السعة في خلقته الداخلية والخارجية، فهو مهيب في تواضعه، جذاب في شخصيته... حتى إن دَخَلَتْ إلى حضرته أشدُّ النفوس كبراً وغروراً، ارتعشتْ من هيبته، وتصرفت بغير ما نوت وتصورت؛ وإن رسل كسرى المتكبرين ذهلوا وأُلجموا حيال صرح المهابة هذا. ومع هذه الهيبة، وهذا الجد والوقار، كان فيه لين عجيب يجذب إليه النفوس، حتى لَيحس من يعرفه عن قرب بأنه أقرب إليه من الولد والأم والأب وكل حبيب، بل يكاد "يدمِن" عليه فلا يود أن يغادر مجلسه أبداً. أحواله وتصرفاته كلها تبث ثقة عميقة في القلوب، وأقواله وأفعاله وملامحه تدل على حضوره الدائم أمام الله تعالى. يبث الأمان دوماً، وينشر الاطمئنان في الجميع حُزَماً ورُزَماً.

فقد عُرف بالأمين أولاً وآخراً... فالأمن يشع من نظره، وكلامه يدور بلا توان حول الأمن، وفي حضوره تسمع نغمات الأمن. وكانت تصرفاته وعقله وروحه وعواطفه ومنطقه في توازن وانسجام تام. وإن ذكاءه المتقد، وفراسته السديدة، وثباته الذي لا يعرف التردد، عزمه وإقدامه، إستراتيجيته المحيرة للعقول مع تجنبه الكذب والخداع، صبره وثباته حيال أشد الأهوال، وتبسمه في وجه المصائب، وقراءته للملمّات قراءة صائبة، واستخلاصه منها عبراً ملء الكتب، وحلمه الوطيد، ووقاره الراسخ حيال الأحوال الموجبة لأشد العنف والغضب والحدّة، لهي نبذة يسيرة من خصاله وخلقه التي تبرز شخصيته المتميزة بين البشرية، وتفصح عن مقامه ومكانته ووقفته الفريدة التي تناسب هذه المكانة السامية. فله المواقف البطولية حيث يضطرب الجميع ويذهلون، إذ تتبدل بها الهزيمة إلى الظفر، والفر إلى الكر، فترفل رايات النجاح الإستراتيجي في خِضَمِّ المعارك ودخان الحروب.

كان بين أهله رب عائلة لا نظير له ولا شبيه، وبين أصحابه معلّماً ومرشداً كاملاً يدلف شغاف قلوبهم بلينه الأخوي، وهادياً سديد الرأي لا يخذل من اتبعه، وخطيباً سيداً على الكلام، ذا قلب رباني، وحكيما أستاذاً في استخدام العقل، ورئيس دولة لم يعرف

مثله، وقائدا عظيما يحول الهزائم إلى انتصارات بحملة واحدة. فأنواع الكمالات كلها تبلغ فيه الذروة العليا، لكنه يتصرف أبداً بين الناس كفرد من الناس، ويعد نفسه واحداً منهم، فيؤذيه -من كثرة تواضعه- أن يُسند الناس إليه -أدبا منهم- مقامات رفيعة هو حقيق بها أصلا، فيحذر أصحابه بين فينة وأخرى من ذلك تحذيراً شديداً قد يصل إلى حد التوبيخ أحيانا.

كان بمثابة "علة غائية" للوجود، لكنه ما كان يوليه اهتماماً بقدر جناح بعوضة. رفع السلاطين إلى العروش وألبسهم التيجان، لكنه عاش زاهداً أشد الزهد، فكأنه صائم عن الدنيا؛ فأشبع و لم يأكل، وألبس و لم يلبس، وهتف بالشكر مئات المرات حيال قطرة من نعمة، مستشعرا فضل الله عليه وإحسانه على الدوام. فهو يسابق الملائكة في مضمار المعرفة الربانية والمحبة والخشية. أجل، كان في الدنيا، لكنه لم يكن دنيويا، بل كان في طريق العقبى... بل لم يكن مرتبطاً حتى بالعقبى أوّلا وبالذات، ذلك لأن قلبه كان معلقا بربه، وعينه في آثاره وفي أسمائه الحسنى التي تضفي على آثاره ألواناً وصورا ومحاسن شتى. كان ينظر إلى الدنيا وكأنها خليج للعقبى، ويراها وكأنها مزرعة يزرع فيها ويحصد، ويحيل الحاصل إلى الآخرة. وكان يَهُبّ ويروح ويغدو كالرياح التي تحمل البذور وتطير يمينا وشمالاً لتودعها أمانة للفلق والنماء، فكان يعتني بالفقراء ويرعاهم، ويطعم الجياع، وكثيراً ما يبيت هو جائعاً خاوي البطن. إنه سلطان عالَمي الدنيا والآخرة، لكنه إذ ارتحل إلى ربه، لم يورث أهله قصراً ولا عقاراً ولا مالاً ولا ريشاً. فقد عاش عيشة تليق به، وقوّم الدنيا تقويما يناسب شخصيته، ورحل منها رحلة توافق مكانته وعظمته. ومعلوم أنه لم يكن تاركاً للدنيا تماما، كما أنه لم يكن جامعا لها ومشغولا بها قط. فإنه كان يهتم بالدنيا بقدر حجمها وفنائها، ويهتم بالآخرة وما وراء الآخرة بحسب خلودها وسرمديتها، فيتخذ موقفه منهما بناء على هذا التصور.



ومع مهابته الرائعة المحيرة للعقول الحاصلة من علوّ الأصالة وسموّ النجابة وصِلته الوثيقة بالحق تعالى، كان متواضعاً أشد التواضع وكأنه يجمع بين الأضداد، حتى إن من لا يعرف خصاله وسجاياه المذكورة آنفاً، كان يحسبه من آحاد الناس. كان لا يعير اهتماما بتعظيم أصحابه وتوقيرهم له، فيقعد معهم ويأكل ويشرب، ويستر عنهم فوارقه وخصوصياته السامية التي تفرد بها عنهم أشد الستر حتى لا يشعرهم بالتمايز، ويريح مَنْ حوله أحياناً بمُلَح من ألوان التجليات الجمالية من العبرة والحكمة والمزاح أحيانا لكي لا يثقل عليهم عبء ما في طبعه من المهابة والعظمة والمخافة؛ فهو يزين عِزّتَهُ بالتواضع، ويلطّف مهابته بالشفقة، ويقدم لونه الناسوتي(1) ليزيد حلاوة إلى شهد مقامه وحلو طعمه.

كان حليما ومأمونا ورزينا، ليّنا أعظم اللين حتى في الأحيان التي تستفز فيها وتثار مشاعر الحقد والكره والغضب، فيخفف شدة الطيش وحِدَّةَ الغيظ، ويسكّن بنظرة واحدة عداوة ألدّ أعدائه؛ وكان كلما أريد سحبه إلى موقف الخصم قفز إلى موقع الحَكَم. كان عفوّاً وسمحاً ما لم تُنتهك حرمة لله تعالى أو يهضم حق عام. وفي السيرة النبوية مئات الأمثلة والشواهد على عفوه وصفحه وسماحته.

وفاؤه بالعهد عليه الصلاة والسلام

وما كان له نظير في الوفاء بالوعد؛ فلم يخلف وعداً قط ولو مرة واحدة، و لم يرجع عن قول ألبتة، و لم يقل شيئاً ثم خالفه، أو نطق بشيء خلاف الواقع حتى وإن كان إيماء، سواء قبل البعثة أو بعد نيله شرف النبوة. فسيرته صرح للأمانة والصدق والوفاء، وحزمه ضد من يخون العهد والميثاق معلوم ومشهور.

كان سلطان عالم البيان، ولقد بلغ جوهر القول قيمته الحقيقية على لسانه. لم يمسك بيده قلما ولا قرطاسا، و لم تطالع عيناه كتابا، و لم يجلس في حلقة درس، و لم يحتج قط إلى أن يقول لأحد "أستاذ"، بل كان أستاذ الكل في الكل، وما من

شيء يستطيع أن يمس أستاذيته الكلية. وفي هذا صيانة من الله لأوامره الإلهية أولاً، وصيانة لِمَلَكات النبي الفطرية ثانيا وتاليا، من التأثيرات والتصورات الخارجية، حتى لا تُكَدِّر المكتسباتُ الذهنية والمعلوماتُ الأجنبية تفسيرَ الأوامر الإلهية، ولا تتلوّن بلون غير لونها، أو تصب في قالب غير قالبها. فكان أميا بهذا المعنى -ونفوسنا فداء لذاك الأمي-، ولكن له أقوال وأحكام وقررات في شتى الشؤون من أمور الدنيا والعقبى -باعتباره أستاذ الكل- حيرت وأدهشت الكل؛ بدءً من المتبحرين في العلوم وامتدادا إلى فحول العباقرة، وإلى العقول الضليعة في الفلسفة، وإلى النفوس الصافية والأرواح المستنيرة. والتاريخ يشهد أن أحداً لم ينل من رصانة بيانه، أو يقدح في حكم له، أو يتجاسر على أن ينتقص من إجراء له.

كان خزينة للمعرفة وحوضا للعلم نقيا متلألئا، لم يعترض أحد على إخباره عن الأحداث الغابرة، ولا إخباره عن شؤون الديانات والمذاهب والثقافات والتقاليد والأعراف العائدة إلى أمم بائدة في التاريخ، وما كان لأحد أن يعترض، لأنه رسول الله، ومصدر علمه السديد الذي يصب في ذلك الحوض وتلك الخزينة، هو الله تعالى. فكان في البيان سلطانَ بيان وصاحب القول الفصل، وكان في المنطق صرحَ محاكمة، وفي الفكر بحراً محيطاً كفؤا لضخامة مهمته ورحابة رسالته العالمية. إن عباراته من السلاسة والانسياب، وبيانه من الوضوح والفصاحة، وأسلوبه من الغزارة والتلون والبهاء، بحيث يستطيع أن يعبر عن حقائق ملء الأرض في جملة أو جملتين، ويضمّن شؤونا تَسَعُ المجلدات في كلمات، وينطق بجواهر، وأيما جواهر، ليودعها عند أساطين التفسير والتأويل. وفي حديثه: "أعطيت جوامع الكلم"[٢] إشارة منه إلى هذه الرحاب الفسيحة.

وكان الناس يمطرونه بوابل أسئلتهم في كل شأن من كل جهة، فيرد عليهم من فوره بغير أدنى تلكؤ. كلامه سهل يفهمه السواد الأعظم، ويعبر عن مقصوده بعيداً عن التشوش أو التشويش في إيجاز صاف وسيّال. وحين يتكلم يراعي مستوى المخاطبين لكي يفيدهم، من عالم وجاهل، وذكي وغبي، وقليل خبرة وخبير، وشاب وكهل، ورجل وامرأة، فيَبعث الاطمئنان في قلوبهم.

وإن أقواله وخطبه كثيرة، حيث خاض في شؤون مختلفة، وحلل موضوعات متنوعة، لكنه لم يجانب الحقيقة والواقع في أي من أقواله وأفكاره. فلم يستطع أحد أن يلحظ على بياناته وأقواله ما يخالف الواقع، حتى إن ألد خصومه الذين يترقبون زلة منه ليوقعوا به، لم يجرؤوا على إسناد الكذب إليه، بل عجزوا عن ذلك.

والحق أن من صان لسانه وكل تصرفاته عن مخالفة الواقع صوناً أدق من الشعرة، من طفولته إلى شبابه، ثم إلى سن تشرفه بالنبوة في الأربعين، لا يُتصور أن يقوم بادعاء النبوة زوراً. وإن تصوراً كهذا شيءٌ يتجاوز الإثم إلى تعصب كفري أعمى، واستهانة بالعقل والمنطق. هذا، وإن تبليغاته وموضوعات أحكامه رحيبة وسعت الماضي والحاضر والمستقبل، ومحتوياتها متنوعة تتعدى عقول البشر: فهو يتكلم في العقائد، ويضع الأحكام في العبادات، ويتحدث في الشؤون الاجتماعية والاقتصادية والعسكرية والإدارية، وينفّذ ما يقول، ويجني ثمرات ما ينفذ، ويتخذ من التاريخ شاهدا على صواب الأسس التي وضعها فيودع هذه الشهادة أمانة في الضمائر المنصفة البعيدة عن الأحكام المسبقة، وبعد ذلك يصدّقه بختم التصديق آلافُ المفسرين والمفكرين والخبراء المتفننين في فنون كثيرة، ومئات الفلاسفة، على ما قال قول، وعلى الأسس الاجتماعية والاقتصادية والنظم العسكرية والإدارية، والقواعد التربوية التي وضعها. وزد عليهم جميعاً أن ملايين الأولياء والأصفياء يؤيدونه تصديقاً في كل حكم وفي كل بيان لهم، ويهتفون أنهم بلغوا المراتب والمقامات بهدايته. لذلك فإن من يقول له "لا"، فهو إما مخبول لا يدري ما يقول، وإما بائس بسوء الحظ مغسول الدماغ. فما شهد الماضي والحاضر أحدا مثله استطاع أن يقول شيئاً أو يضع أحكاما ثابتة في مسائل كثيرة مختلفة، ولا سيما في موضوعات تتطلب حنكة واختصاصا ومهارة، فيدومَ طرياً ونديا أبداً مع الدهر. وكما نبّه بديع الزمان النورسي رحمه الله: "إن الإنسان قد يستطيع أن يقول شيئاً ذا بال في بضعة فنون أو علوم. لكن حضرة ذاته صلى الله عليه وسلم أدلى بدلوه في شؤون دقيقة تتعلق بالوجود والأحداث كلها، وقال أقوالا نافذة في كل زمان ومكان، وبأسلوب بديع في المهارة والحكمة، وباطمئنان من غير تردد وتلكّؤ، لا يملك حياله من رآه وعرفه، ومن سمعه فأنصت إليه من غير حكم مسبق إلا أن يقول: "آمنتُ وصدّقتُ". ■

(*) الترجمة عن التركية: عوني عمر لطفي أغلو

الهوامش

(١) الناسوت: الطبيعة البشرية.

(٢) البخاري، الجهاد ١٢٢؛ مسلم، المساجد ٦.

ظِلُّ عصاً معوجّة لا يستقيم،
فكيف يستقيم ظلُّ إنسان معوج النفس ومنحرف القلب ...

***

التأسي بين التبرك والوظيفية



نحو استئناف التأسيس المنهاجي لعلم التعامل مع آثار النبوة

أ.د. أحمد العبادي*

عانت البشرية كثيرا –ولا تزال– في مجال العلوم الإنسانية والاجتماعية من جراء عدم الاستبصار بمعالم وسمات الإنسان السوي والمجتمع السوي، اللذَين ينبغي أن يشكلا الوحدة القياسية التي يجب أن يُتيمّم شطرها بالمناهج والبرامج التربوية، وكذا بمختلف أنواع الكسب العلمي والعملي في المجالات الاجتماعية.

ولذلك نرصد في مختلف حقب تاريخ البشرية المعروف، كثيرا من التخبطات وأضرب الخرص في المجالات التربوية والاجتماعية والإنسانية بسبب غياب هذا الوعي الأساس.

وتأتي الأهمية البالغة للوحدة القياسية الدالة على حالة السواء،

من كون التعـرف على حالات الاختـلال والانحراف لا يمكن بدونها، كما لا تمكن بدونها معالجة هذه الاختلالات والانحرافات. وهذه حقيقة ماثلة في مختلف مجالات العلوم المادية والإنسانية، غير أنها أجلى وأظهر في العلوم المادية البحتة منها في العلوم الإنسانية.

ولنأخـذ مثالا على ذلك علم الطـب. فهذا العلم يتمَفصل حول محاور ثلاثة:

١-العلم بالجسـم وأعضائه في حالة السواء، والتعرف عليه شمولا وعلـى وظائفه، ثم التعرف علـى أعضائه تفصيلا وعلى وظائفها، وهو علم الأناتوميا والهيستوسيتولوجيا.

٢-العلـم بحـالات الانحـراف والقصور الـتي تطرأ على الجسـم وعلى أعراضها وأوصافها وأسمائهـا تفصيلا، هو علم السيميوباتولوجيا.

٣-العلم بكيفية رد حالات الانحراف إلى السواء مرة أخرى بالصيدلة أو بالجراحة، وهو علم الفارماكولوجيا وعلم الجراحة.

والعلمان الثاني والثالث يتفرعان عن العلم الأول، إذ لولا العلم بحالة السواء وضبطها لما أمكن الوقوف على حالات الانحراف ثم لما أمكن ردها إلى حالة السـواء بعد ذلك مرة أخرى؛ إذ كيف يُرَدُّ الاختلال إلى السواء إذا لم يمكن التعرف عليه؟ وهو أمر غير وارد ما لم تكن حالة السـواء الشاهدة معروفة بتفصيل وتدقيق بحيث يسهل تبين التغيرات التي تطرأ عليها ذاتا وأداءً.

غير أن هذا -وكما سلف- رغم وضوحه في العلوم البحتة الكونية فإنه ليس بالوضوح نفسه في العلوم الإنسانية والاجتماعية.

يوطبيات وأبطال

لقد حاولت البشـرية في مختلف مواقعها عـبر تاريخها الممتد أن تحل إشـكال الوحدة القياسية على الصعيد الاجتماعي من خلال إنتاج "يوطبيات" حول طبيعة ومكونات المجتمع الفاضل والمدينة الفاضلة، وعلى الصعيد التربوي من خلال إنتاج مفهوم البطل.

أنموذجـا على المحـاولات في الجانـب الاجتماعي، جهود أفلاطون في "المدينة الفاضلة" وجهود القدّيس أغوسطين في "مدينة الإله" وجهود الفارابي في "المدينـة الفاضلة" أيضا. وكذا جهود كارل ماركس وبعده لنين وكذا تصورات كل من ستالين وهيتلر وموسوليني للمجتمع الفاضل؛ وهي يوطبيات جرّت لعدم مواءمتها لطبيعة الإنسان والكون على العالمين وبالاً غير قليل.

وأنموذجا على المحـاولات في الجانب الفردي ما يوجد في الأعراف المصرية والإغريقية والهنديـة والصينية وفي حضارات بلاد الرافدَين وكـذا في الحضارة الرومانية مـن إقامة النُّصب والتماثيل لأشخاص مختارين يرفعون إلى مصاف الأبطال ليكونوا مثـلا تربوية يعاد إنتاجها، غير أن ضعـف المؤهلات الإدراكية والآليات التفكّيكة لم يكن يمكن من الرسـم العلمي والوظيفي لمعالم شـخصياتهم وسمات نفسياتهم ومراحل مساراتهم، مما كان يؤدي في كثير من الحالات إلى الانحسار في التقديس.

ويمكن رصد الظاهرة نفسها في كتب "البانتاتوك" والأبوكريف اليهوديـة التي تبنّت بعضها النصرانية. وقد اسـتمر هذا الخط في الحضارة الغربية المعاصرة إذ يلحظ اسـتمرار البحث عن الأبطال لإرسـائهم نماذج تحتذى وصب سمات شخصياتهم الأساسية في المناهج التربوية. غير أن هذا النهج كذلك لم يحقق لغياب الاستبصار بحقيقة الإنسان السوي ودوره الكوني إلا نتائج جزئية.

تقديس أم حرمان من ثمرات النبوة؟!

ساهم اعتقاد طوائف كثيرة من النصارى بأن المسيح ابن الله (!) في حرمانهم الكلي أو الجزئي من التأسـي بنبي الله عيسى ﷺ، إذ كيف يُتَأسَّـى بمن هو ابن الله؟! فكان هـذا الاعتقاد متيحا لهامش غير قليل من راحة الضمير -ولو في حالة المخالفة لتعاليم المسيح ﷺ- عند إنسـان حضارة "Christendom" على حد تعبير "مارشـال هودسون" لأن ذاك ابن الله، وإذا أخطأ الإنسان العادي في اتباع جوانب مـن تعليماته فلا حرج(!) الأمر الذي حاول القديس "بينيديكت" استدراكه في قانونه التربوي المشهور "Code de St Benedict"، غير أنه لصرامته الشديدة كان غير ذي قابلية للتحقق خارج بعض الأديرة المحدودة جدًّا.

ويمكن رصد القطائع نفسها بين النبي والأتباع -وإن بشكل مغاير- في ديانات أخرى بسـبب رفع النبي فوق مصافّ البشر؛ بـل وربما إلحاقه في بعض الأحيان بمصـاف الآلهة؛ مثل ما جاء في قوله تعالى: ﴿وَقَالَتِ الْيَهُودُ عُزَيْـرٌ ابْنُ اللهِ وَقَالَتِ النَّصَارَى الْمَسِيحُ ابْنُ اللهِ﴾ (التوبة: ٣٠).

الإسلام وردم الهوة بين المتأسي والمُتأسَّى به

حين نبحث إشكال التأسـي في القرآن المجيد وفي السنة النبوية المطهرة نجد تَمحورا حول المحاور الكبرى الآتية:

١-النبي بشر عبدٌ لله مثل البشـر، غير أنه اصطُفي بعلم الله ليوحَى إليه

ونجـد ذلك في آيات كثيرة من كتاب الله منها قوله تعالى: ﴿قُلْ

إِنَّمَا أَنَا بَشَرٌ مِثْلُكُمْ يُوحَى إِلَيَّ أَنَّمَا إِلَهُكُمْ إِلَهٌ وَاحِدٌ فَمَنْ كَانَ يَرْجُوا لِقَاءَ رَبِّهِ فَلْيَعْمَلْ عَمَلاً صَالِحًا وَلاَ يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِ أَحَدًا﴾ (الكهف: ١١٠). وقوله ﷻ: ﴿قُلْ سُبْحَانَ رَبِّي هَلْ كُنْتُ إِلاَّ بَشَرًا رَسُولاً﴾ (الإسراء: ٩٣). وقوله عز من قائل: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا قَبْلَكَ مِنَ الْمُرْسَلِينَ إِلاَّ إِنَّهُمْ لَيَأْكُلُونَ الطَّعَامَ وَيَمْشُونَ فِي الأَسْوَاقِ وَجَعَلْنَا بَعْضَكُمْ لِبَعْضٍ فِتْنَةً أَتَصْبِرُونَ﴾ (الفرقان: ٦).

وتثبيتا لهذه الحقيقة قال ﷺ: " أجلس كما يجلس العبد وآكل كما يأكل العبد، فإنما أنا عبد"[١]. وقال عليه الصلاة والسلام: "إنما أنا ابن امرأة من قريش كانت تأكل القديد"[٢]. وقال ﷺ منعا لأسباب إنتاج الفجوات السابقة[٣] بين الأنبياء والمؤمنين: "لا تطروني كما أطرت النصارى المسيح ابن مريم"[٤].

وعموما فإننا نجد في القرآن المجيد التأكيد على عبودية الأنبياء عليهم السلام، سدا لكل ذريعة قد تؤدي إلى إحداث هوة بين النبي والمؤمنين. فقال ﷻ حكاية عن المسيح عليه السلام: ﴿فَأَشَارَتْ إِلَيْهِ قَالُوا كَيْفَ نُكَلِّمُ مَنْ كَانَ فِي الْمَهْدِ صَبِيًّا ۞ قَالَ إِنِّي عَبْدُ اللهِ آتَانِيَ الْكِتَابَ وَجَعَلَنِي نَبِيًّا﴾ (مريم: ٢٩-٣٠). وقال تعالى: ﴿وَوَهَبْنَا لِدَاوُودَ سُلَيْمَانَ نِعْمَ الْعَبْدُ إِنَّهُ أَوَّابٌ﴾ (ص: ٣٠). وقال عز من قائل: ﴿وَاذْكُرْ عَبْدَنَا أَيُّوبَ إِذْ نَادَى رَبَّهُ أَنِّي مَسَّنِيَ الشَّيْطَانُ بِنُصْبٍ وَعَذَابٍ﴾ (ص: ٤١).

٢-التأسي في القرآن المجيد يتم بالنظر إلى النبي المثال، فبالنظر إلى الحال ثم العمل على الانتقال من الحال إلى المثال

قال تعالى في معرض الكلام عن نبيه إبراهيم عليه السلام وعن أتباعه الخُلّص: ﴿لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِيهِمْ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِمَنْ كَانَ يَرْجُو اللهَ وَالْيَوْمَ الآخِرَ﴾ (الممتحنة: ٦). وقال ﷻ عن خاتم النبيين سيدنا محمد ﷺ: ﴿لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ اللهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِمَنْ كَانَ يَرْجُو اللهَ وَالْيَوْمَ الآخِرَ وَذَكَرَ اللهَ كَثِيرًا﴾ (الأحزاب: ٢١).

فالأنبياء إذن مثال هاد لمن قام في قلوبهم الشوق والتوق إلى ما عند الله ﷻ وتجلى هذا الشوق وذاك التوق بالذكر الكثير له ﷻ. والأنبياء هم الوحدة القياسية المرجع التي تمثل حالة السواء الشاهدة التي ينبغي أن يرصد من خلالها الحال لكي يتم العمل العالم المهتدي على نقله إليها. فهو إذن شوق وتوق وذكر كثير ونبي شاهد وعمل دؤوب عالم ففضل من الله كبير مع وجوب الانتباه إلى العقابيل الحائلة دون هذا الإنجاز الضخم (التأسي) الذي عليه يقوم تحصيل السعادتين في النشأتين بالتوكل على الله تعالى.

٣-النبي شاهد وشهيد مُؤَيَّد

النبي هو الوحدة القياسية الشاهدة التي تمثل حالة السواء في المجال الإنساني والتي بالنظر الواعي إليها يتم التعرف على الاختلالات التي في هذا المجال جمعا وإفرادا. بذلك يحصل إمكان العمل على ردها إلى حالة السواء، وتلك نعمة من الله جُلّى؛ حتى إذا تمت إفادة الأمة من النبي فإنها بدورها تصبح وحدة قياسية على الصعيد الاجتماعي والحضاري يمكن التعرف عليها من خلال التعرف على الاختلالات في هذه الأصعدة ومن ثم يُمكِّن هذا التعرف من العمل على ردها إلى حالة السواء[٥] وهذا هو ما يتجلى في قوله تعالى: ﴿وَجَاهِدُوا فِي اللهِ حَقَّ جِهَادِهِ هُوَ اجْتَبَاكُمْ وَمَا جَعَلَ عَلَيْكُمْ فِي الدِّينِ مِنْ حَرَجٍ مِلَّةَ أَبِيكُمْ إِبْرَاهِيمَ هُوَ سَمَّاكُمُ الْمُسْلِمِينَ مِنْ قَبْلُ وَفِي هَذَا لِيَكُونَ الرَّسُولُ شَهِيدًا عَلَيْكُمْ وَتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ فَأَقِيمُوا الصَّلاَةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ وَاعْتَصِمُوا بِاللهِ هُوَ مَوْلاَكُمْ فَنِعْمَ الْمَوْلَى وَنِعْمَ النَّصِيرُ﴾ (الحج:٧٨). وفي قوله ﷻ: ﴿وَكَذَلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطًا لِتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ وَيَكُونَ الرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيدًا﴾ (البقرة: ١٤٣).

وحتى يكون النبي بعد اصطفائه لهذه الوظيفة التكوينية الخطيرة قادراً على الاضطلاع بها، يكون إنعام الله بالتأييد. قال تعالى في معرض الكلام عن الرسل عامة ومن اتبعهم من المؤمنين: ﴿كَتَبَ اللهُ لأَغْلِبَنَّ أَنَا وَرُسُلِي إِنَّ اللهَ قَوِيٌّ عَزِيزٌ ۞ لاَ تَجِدُ قَوْمًا يُؤْمِنُونَ بِاللهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ يُوَادُّونَ مَنْ حَادَّ اللهَ وَرَسُولَهُ وَلَوْ كَانُوا آبَاءَهُمْ أَوْ أَبْنَاءَهُمْ أَوْ إِخْوَانَهُمْ أَوْ عَشِيرَتَهُمْ أُولَئِكَ كَتَبَ فِي قُلُوبِهِمُ الإِيمَانَ وَأَيَّدَهُمْ بِرُوحٍ مِنْهُ﴾ (المجادلة: ٢١-٢٢).

وقال ﷻ عن نبيه عيسى عليه السلام: ﴿إِذْ قَالَ اللهُ يَا عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ اذْكُرْ نِعْمَتِي عَلَيْكَ وَعَلَى وَالِدَتِكَ إِذْ أَيَّدْتُكَ بِرُوحِ الْقُدُسِ﴾ (المائدة: ١١٠). وقال تعالى عن نبي الختم ﷺ: ﴿وَإِنْ يُرِيدُوا أَنْ يَخْدَعُوكَ فَإِنَّ حَسْبَكَ اللهُ هُوَ الَّذِي أَيَّدَكَ بِنَصْرِهِ وَبِالْمُؤْمِنِينَ﴾ (الأنفال: ٦٢).

كما أن النبي لهذا القصد -قصد أن تمثُل فيه الوحدة القياسية الشاهدة- يُصنع ظاهراً وباطنا على عين الله. وقال ﷻ عن نبيه موسى عليه السلام: ﴿وَأَلْقَيْتُ عَلَيْكَ مَحَبَّةً مِنِّي وَلِتُصْنَعَ عَلَى عَيْنِي﴾

(طه: ٣٩). وقال تعالى: ﴿وَاصْطَنَعْتُكَ لِنَفْسِي﴾ (طه:٤١). وقال ﷺ عن خاتم النبيين: ﴿أَلَمْ نَشْرَحْ لَكَ صَدْرَكَ ۞ وَوَضَعْنَا عَنْكَ وِزْرَكَ ۞ الَّذِي أَنْقَضَ ظَهْرَكَ ۞ وَرَفَعْنَا لَكَ ذِكْرَكَ﴾ (الشرح:١-٤). وقال ﷺ في هذا المعنى: "أدّبني ربي فأحسن تأديبي"[٦]. فكانت النتيجة في حقه ﷺ هي قوله تعالى: ﴿وَإِنَّكَ لَعَلَى خُلُقٍ عَظِيمٍ﴾ (القلم:٤).

ومن أجل ذلك كان اتباعه والتأسي به ﷺ هو المرقاة إلى مرضاة الله ومحبته. وقال عز من قائل: ﴿قُلْ إِنْ كُنْتُمْ تُحِبُّونَ اللهَ فَاتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ اللهُ﴾ (آل عمران:٣١).

نحو استئناف التأسيس المنهاجي لعلم التعامل مع آثار النبوة

إن مكونات علم التأسي منتشرة بفضل الله في سجلات السنة النبوية المطهرة ومجامع التفسير ومصنفات علم التزكية والتصوف وكذا في كتب الفقه والأصول ولا تحتاج إلا إلى الجمع والمنهجة.

فالآيات المباركة في كتاب الله الكريم قد ألقت الأنوار حول الصفات المحورية للأنبياء والرسل وفي مقدمتهم إمامهم وخاتمتهم سيدنا محمد ﷺ. كما أن المصنفات في الشمائل النبوية وفي دلائل النبوة قد ألقت الأضواء على شهادته ﷺ وعلى هديه عليه الصلاة والسلام. كذلك، فكتب السيرة عامة قد حاولت رصد حياته الشريفة ﷺ بدقائقها وتفاصيلها، فحصلت عندنا بحمد الله مجامع ما تحتاج إلا إلى التثمير والتوظيف.

ويمكن تبيُّن المعالم الكبرى لعلم التأسي على المستويين الفردي والجماعي كما يأتي:

١-الوحدة القياسية على المستوى الفردي

لقد ساد بين المسلمين في الأزمنة الأخيرة من تاريخهم، على خلاف ما كان عليه الأمر في عهد الصحابة الكرام ﷺ، التعامل التبرّكي مع آثار ودلائل النبوة وشمائل النبي ﷺ وسيرته العطرة عليه الصلاة والسلام. وفي ذلك خير كثير في ذاته، غير أنه لو شُفع بالوظيفية لكان الخير أعم وأتم، ونقصد بالوظيفية هنا أن يتم طرح الأسئلة العملية على آثار النبوة من أجل تبين أوجه الشهادة النبوية في مجال مخصوص، وتحديد منهجية الرد إلى الوحدة القياسية..

وهي أسئلة لا يمكن طرحها بطريقة سليمة إلا من لدن العالمين بالمجال قيد الدرس، إذ العلم بالمجال هو الذي يمكّن من تلمس مواطن الهدي النبوي فيه للتأهيل الناجم عن استتباب التضاريس المعرفية والمركبات المفاهيمية والأنساق القياسية ذات الصلة بالمجال في أذهان المشتغلين به، مما لا ينتج إلا بطول الممارسة للبحث في مجال معين، والتعاطي مع المشاكل المنهجية التي فيه.

ففي التربية مثلا، لن يكون أقدرُ على مساءلة آثار النبوة في هذا المجال من التربويين، لمكابدهم له ولمعاناتهم البحثية داخله، معاناة تنشئ الشوق والتوق وكذا الاستعداد لوجدان الحلول.

وهل أقدر على استجلاب الدرّ من أعماق البحار ممن يعرفه ويعرف قيمته؟!

وأجلى مثال على ذلك في مجال التربية محاولة الجواب عن السؤال المؤرّق الذي مفاده: من هو الإنسان الأمثل الذي ينبغي أن يكون القطب الجاذب للمناهج والبرامج التربوية بحيث تتغيّى الوصول بالخاضعين للعملية التربوية إلى أفقه، دونما خشية من آثاره المضادة؟

وإذ إن البشرية اليوم تعيش في حيرة بهذا الخصوص من جراء توهم عدم التوافر على مثال حي خلو من النقائص، فإن أهل الاختصاص -بدعوى الوظيفية- يحاولون النظر في ما هو متعارف على كونه مشروعا مجتمعيا لاستخلاص مختلف الاحتياجات في الموارد البشرية ثم لتصيير تيسير هذه الاحتياجات وتوفيرها أهدافا تربوية تسكب في البرامج التربوية وتبدع مناهج تربوية وتُصمَّم لتحقيقها.

وإذا علم أن المشاريع المجتمعية نفسها ناتج التدافع بين موازين القوى في المجتمعات فإن الأمر يصبح أكثر تركيبا وتعقيداً. فالأقوى والأكثر نفاذا هم الذين يصوغون معالم المشروع المجتمعي ويشكلون العقول لقبوله، وذلك عن طريق خماسي: الإبستيم والأكاديم والاقتصاد والسلطة والإعلام.

فالإبيستيم الذي يجمع بين الرؤية للعالم "الكوسمولوجيا" والأطر المرجعية/البرادكمات (Paradigma) واليطوبيا والمنهاجية. إما أن يكون وليد -انطلاق استنباطي من الوحي- أو توليد فلسفي مقولاتي نسبي حر، أو إملاء متحكم "نومونكلاتورا" يفرض ما يريد مثل ما نقل عن فرعون في كتاب الله ﴿قَالَ فِرْعَوْنُ مَا أُرِيكُمْ إِلاَّ مَا أَرَى وَمَا أَهْدِيكُمْ إِلاَّ سَبِيلَ الرَّشَادِ﴾ (غافر: ٢٩). وجلي أن النمط الأخير هو السائد في عالمنا بألطف الطرق وأدقّها أحيانا، وبأصفقها وأعنفها أحيانا أخرى.

فبما أن الأكاديم يأتي في الدرجة الثانية ضمن النمط الإملائي التحكمي بخلاف النمط الاستنباطي من الوحي والنمط الفلسفي المقولاتي النسبي الحر حيث يكون الإبيستيم متفرعا عن الأكاديم، بما أن الحال كذلك في النمط الإملائي التحكّمي، فإن الفرد المتحكم أو الجماعة المتحكمة تكون هي المنتجة للإبستيم

والفارضة له على الآخرين. وهذا لا يُخلي بحال ساحة الخاضعين من المسـؤولية. يقول ﷻ: ﴿وَنَادَى فِرْعَوْنُ فِي قَوْمِهِ قَالَ يَا قَوْمِ أَلَيْسَ لِي مُلْكُ مِصْرَ وَهَذِهِ الأَنْهَارُ تَجْرِي مِنْ تَحْتِي أَفَلاَ تُبْصِرُونَ ۞ أَمْ أَنَا خَيْرٌ مِنْ هَذَا الَّذِي هُوَ مَهِينٌ وَلاَ يَكَادُ يُبِينُ ۞ فَلَوْلاَ أُلْقِيَ عَلَيْهِ أَسْوِرَةٌ مِنْ ذَهَبٍ أَوْ جَاءَ مَعَهُ الْمَلاَئِكَةُ مُقْتَرِنِينَ ۞ فَاسْتَخَفَّ قَوْمَهُ فَأَطَاعُوهُ إِنَّهُمْ كَانُوا قَوْمًا فَاسِقِينَ﴾ (الزخرف: ٥١-٥٤).

ويـأتي دور المكون الاقتصادي الـذي يكون عموما بأيدي فارضي النوموكلاتورات بتصيير الأكاديم في وضع التابع حتى في عين كينونتـه، إذ التمويل للجامعات ومراكز البحث والأبحاث التي تُجرى فيها يصبح مشروطا بالسير في سياق الإبستيم السائد، رغم أن الحق مع موسى ﷺ!

فيقع الأكاديم في التنظير لأنماط التوجهات والسـلطة المادية والمعنوية والدسـاتير والقوانـين والوسـائل المُمَكّنة من حماية وتنـزيل الإبيسْتيمات السـائدة فهي حماية متبادلة بين السلطة والإبيستيم المسخر للأكاديم.

ليرفد الأكاديم بعد ذلك الإعلام بحمولاته الداعمة الداعية إذ لن يُنتِـج الأكاديم في هذه الحال إلا التوجهات والرؤى المتفرعة عن الإبستيم الحاكم.

فهذه حلقة مفرغة محكمة قادت وتقود العالم نحو أزمات صفيقة. وآية إفراغها وإحكامها أن المشاريع المجتمعية التي من المفروض أن تستهدي بها علوم التربية في وضع البرامج والمناهج التربوية لن تمنح سوى هذا الهدي التحكمي المُفرغ للإنسان من إنسانيته.

ومن هنا فإنه لا سـبيل للخروج من هذه الأزمة إلا بالتعرف على الإنسـان الشـاهد -الوحدة القياسـية- الذي يمثل حالة السـواء والذي من خلال التعرف على بنائه النفسي والشخصي والقصدي يمكن الشـروع في العمل على إنتاج العلوم الوظيفية والمناهج العملية الممكّنة من ردّ الاختلالات إلى حالة السـواء. وهنـا الدور المحوري الخطير لوظيفة النبوة ووظيفة الذكر الذي تأتي به متى ما حلَّ الرشد في التعامل معهما والتأسي بهما.

فالتعرف على حالة السـواء -وكما تقدم- يمكن من تجريد المثـال التفصيلي الذي ينبغي أن يشـمّر -مـن خلال البرامج والمناهج- للسير بالمتربّين نحوه بغير عوَج ولا أمْت. وهذا مضمار -في العلوم التربوية- للبحث والإبداع فسيحٌ خصيب.

ودائما في علاقة بالوحدة القياسية على المستوى الفردي فإن علم النفس وعلم النفس السـلوكي وعلم التحليل النفسي كلها علوم تعاني الأمرّين لغياب العلم بماهية حالة السواء، ولا شك أن أهل هذه المجالات إن أعملوا عقولهم ووجداناهم لتجريدها من آثار النبوة، فسوف يحلّون إشكالات أليمة ومكلّفة.

إن إنعـام الله بأن تولّى ﷻ في مرحلة الختم بذاته العليّة حفظ الذكر: ﴿إِنَّـا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَـهُ لَحَافِظُونَ﴾ (الحجر: ٩)، فحفظت بذلك آثار النبوة المنيرة، واستمر إمكان التعرف على النبي الشـاهد وعلى حالة السواء من خلاله.. إن هذه النعمة الجُلّى إن شكرت بحسن التوظيف والتثمير، ولم تُكفر بالإنكار والاستهتار لَمن شأنها أن تهدي العالمين إلى مستقبلات أكثر إشراقا.

٢-الوحدة القياسية على المستوى الجماعي

لقد عانت البشرية كثيرا على الصعيد الاجتماعي من آثار الجهود الخارصة لتبيّن معالم وسمات العمران البشري الأمثل، كما عانت عبر تاريخها من إملاءات وتحكمات المستبدّين أفرادا وجماعات. وقد كانت الذعائر والتكاليـف باهضةً، إذ كم قُدّم ويقدّم من الأبرياء الذين لا يسـتطيعون حيلة ولا يهتدون سبيلا حطبًا لهذه المشـاريع اليوطوبية، ليتبيّن بعد حين أنها لم تكن سوى سراب يباب، ولات حين مناص، وما الحالة السوفياتية منّا ببعيد.

وبما رحمة من الله تعالى فقد جعل ﷻ الوحدة القياسـية على المسـتوى الاجتماعي تتمثل في المجتمع النبوي حيث تمكن النبي الخاتم ﷺ من جعله بهداية الله وتوفيقه يَنُثُّ كله بالهداية للتي هي أقْوم فضاءً وعمرانا وإنسانا ووظائف ومراكز وعلائق.

وقد كان البدء بأن تم تغيير اسم مهاجر الرسول الخاتم ﷺ من طَيبة ويثرب إلى المدينة -بألف ولام التعريف- ليفهم أن العمران الشاهد كان هو ذاك.

ولئن تكلم الفلاسفة عن المدينة الفاضلة وتاقوا إلى التعرف على الوحدة القياسية بهذا الخصوص، فإن النبوة -بأمر الله وفضله- قد أنشأتها واقعا حيا نابضا حفظت معالمه المركزية رغم كل التفريط والتقويض الذي يَنْدُر مثله عن البشر.

فالنبي الخاتم ﷺ قد زرع آيات الوحي وعلاماته وبصائره في نفوس أصحابه الكرام ﷺ، فانْدَهَقَتْ منها إلى واقعهم لتكون هاديات خالدة للمحجة البيضاء التي لَيلُها كنهارها ولا يزيغ عنها إلا هالك.

إن في كتاب الله كما في سـنة سيدنا رسول الله ﷺ البنيات الوافرة على السُّـلَط والمراكز والأدوار و التدبيرات والوظائف والعلائق والنماذج والأخلاق والقيم التي ينبغي أن تَشْـخَص في المجتمع الشاهد؛ في حالة السراء وفي حالة الضراء، في حالة الشدة

وفي حالة الرخاء، في حالة السلم وفي حالة الخوف وكذا الحرب واللأواء،[7] مما ليس ينتظر إلا العقول المتمرسة الخبيرة لطرح الأسئلة المنهجية من أجل رفع صرح علم التأسي على الصعيد الاجتماعي.

خـــاتـــمـــة

وجب ختاما التنبيه إلى بعض الأسس المهمة من أسس علم التأسي وآكدها:

١-أن يعلَم المتأسّي حيثيات السياق الزماني والعمراني الذي يوجد فيه، وحيثيات سياق المتأسى به ﷺ الزمانية والعمرانية والبيداغوجية.[8]

٢-أن يعلَم المتأسي الفروق الأنتروبولوجية والثقافية والعُرفية وغيرها بين السياقين حتى إذا ساءل في أي مجال من المجالات، استدمج هذه الفروق ليكون التنزيل سليما، ولا يخفى ما يقتضيه هذا من جهد بحثي ممنهج.

٣-أن يستدمج المتأسي العلم بالمقاصد العامة للنبوة، رحمتها وجمالها وشرائعها حتى لا يفرط في الأصول لحساب الفروع أو يقدم ما من شأنه أن يؤخّر أو العكس... وهذا داخل ضمن فقه الموازنات والترجيحات. وقد قام علماء الأمة جزاهم الله خيرا بجهود وضيئة في هذه المضامير.

٤-أن يستحضر المتأسي وجوب النظر في المآلات، واعتبارها حتى لا يكون جالبا لمفاسد على نفسه ومحيطه من حيث يريد جلب المصالح، وكثيرا ما يحصل ذلك إذا أغفل البعد المستقبلي في التنزيل.

٥-كما أن من آكد الشروط أيضا وجوب المقاربة التكاملية التي لا تهمل جانبا من الجوانب أو تطغيه، بل تحرص على حضورها ومراعاتها جميعا بشكل مقدّر متوازن.

وبدون مراعاة هذه الشروط فإنه لا يمكن تفعيل وظيفة ودور الشهادة كما جاءت في مثل قوله تعالى: ﴿وَكَذَلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطًا لِتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ وَيَكُونَ الرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيدًا﴾ (البقرة: ١٤٣).

بقيت الإشارة أخيرا إلى أن في تراثنا جهوداً مباركة وجب استئنافها في هذا الاتجاه لعلماء أفاضل هم بسبق حائزون تفضيلا مستوجبون من أمتهم ثناءها الجميل، كأمثال القاضي عياض السبتي في "شفائه" والشاطبي في "موافقاته" و "اعتصامه" وابن القيم في "زاد المعاد" والصالحي في "سبل الهدى والرشاد" وشاه ولي الله الدهلوي في "الحجة البالغة" وبديع الزمان سعيد النورسي في "رسائل النور" وعبد الحي الكتاني في "التراتيب الإدارية في الحكومة النبوية" وغيرهم ممن وجب البناء على جهودهم وتثميرها.

كل ذا دون فقدان الاستبصار بأنه رغم كل ما يمكن أن يبذل في مجال علم التأسي، فإنه يبقى مجالا متجددا بتجدد الأزمنة والأمكنة والأحوال والأعراف والعادات. ويرحم الله الإمام السهيلي إذ سَمّى سيرة رسول الله ﷺ: "الروض الأُنُف"[9].

والحمد لله رب العالمين. ■

(*) الأمين العام للرابطة المحمدية للعلماء – المغرب

الهوامش

(١) شعب الإيمان للبيهقي، ١٠٧/٥.

(٢) مجمع الزوائد للهيثمي، ٢٠/٩؛ ابن ماجه، الأطعمة ٣٠.

(٣) فالنبوة مؤسسة واحدة تتكامل لبناتها ويستدرك اللاحق منها بمنهجية التصديق والهيمنة ما كان في السابق ليخلص البناء في النهاية كاملا شاملا حجة ﴿لِئَلاَّ يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَى اللهِ حُجَّةٌ بَعْدَ الرُّسُلِ﴾ (النساء: ١٦٥). ﴿آمَنَ الرَّسُولُ بِمَا أُنْزِلَ إِلَيْهِ مِنْ رَبِّهِ وَالْمُؤْمِنُونَ كُلٌّ آمَنَ بِاللهِ وَمَلاَئِكَتِهِ وَكُتُبِهِ وَرُسُلِهِ لاَ نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِنْ رُسُلِهِ وَقَالُوا سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا غُفْرَانَكَ رَبَّنَا وَإِلَيْكَ الْمَصِيرُ﴾ (البقرة: ٢٨٥).

(٤) البخاري، أحاديث الأنبياء ٤٨

(٥) يلاحظ أن حالة السواء في كتاب الله نسق مفتوح آخذ بعين الاعتبار للخصوصيات والسياقات، وهو ما نرجو بعون الله تفصيل القول فيه في بحث لاحق.

(٦) فيض القدير للمناوي، ٢٢٤/١.

(٧) وما أروع الصورة المشرقة التي يعرضها كتاب الله لمجتمع المدينة الشاهد وهو بعد في طور التكوين في مثل قوله تعالى من سورة الحشر ﴿وَالَّذِينَ تَبَوَّءُوا الدَّارَ وَالإِيمَانَ مِنْ قَبْلِهِمْ يُحِبُّونَ مَنْ هَاجَرَ إِلَيْهِمْ وَلاَ يَجِدُونَ فِي صُدُورِهِمْ حَاجَةً مِمَّا أُوتُوا وَيُؤْثِرُونَ عَلَى أَنْفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ وَمَنْ يُوقَ شُحَّ نَفْسِهِ فَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ ۞ وَالَّذِينَ جَاءُوا مِنْ بَعْدِهِمْ يَقُولُونَ رَبَّنَا اغْفِرْ لَنَا وَلإِخْوَانِنَا الَّذِينَ سَبَقُونَا بِالإِيمَانِ وَلاَ تَجْعَلْ فِي قُلُوبِنَا غِلًّا لِلَّذِينَ آمَنُوا رَبَّنَا إِنَّكَ رَءُوفٌ رَحِيمٌ﴾ (الحشر ٩-١٠). وفي سورة البقرة وآل عمران والنساء والمائدة والفرقان والطلاق والمجادلة وغيرها غرر بهذا الصدد لا تنتظر إلا التجلية المتجددة. ولعل تنبه الإمام مالك بن أنس الأصبحي ﷺ إلى هذه الحقيقة بشكل عام كان وراء افتراعه لأصل من أصول مذهبه المبارك، حيث جعل "عمل أهل المدينة" أصلا من أصول التشريع لما تضمنه هذا المجتمع الشاهد من هاديات لن تتكشّف كل حقائقها إلا عبر الزمن. كما علم أهل المدينة أن أمير المؤمنين عمربن الخطاب ﷺ لتنبُّهه إلى أهمية حفظ هذه الوحدة القياسية الاجتماعية في مرحلة التكوين حتى تثبت أركانها، كان قد نهى الصحابة رضوان الله عليهم عن مغادرة المدينة المنورة حتى يستتبّ البناء وتُحفظ الشهادة، فلم يتمكنوا من مغادرتها إلا بعد وفاته ﷺ.

(٨) لأنه ﷺ جاء معلما للناس ﴿كَمَا أَرْسَلْنَا فِيكُمْ رَسُولاً مِنْكُمْ يَتْلُو عَلَيْكُمْ آيَاتِنَا وَيُزَكِّيكُمْ وَيُعَلِّمُكُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَيُعَلِّمُكُمْ مَا لَمْ تَكُونُوا تَعْلَمُونَ﴾ (البقرة: ١٥١). فوجب أن يؤخذ هذا الجانب التعليمي أيضا بعين الاعتبار حين التأسي.

(٩) أي الروض البكر الذي لم يُدخَل قط.



كن نقّاد نفسك وخصيم أخطائك كأنك مدّعٍ عام،
وابحث عن تبرير لأخطاء غيرك كأنك محامٍ...

***

الليل والنهار في القرآن الكريم

أ.د. زغلول النجار*

جاء ذكر الليل في القرآن الكريم اثنين وتسعين مرة، وفي المقابل جاء ذكر النهار في القرآن الكريم سبعة وخمسين مرة. كما وردت ألفاظ "الصبح" و"الإصباح"، و"الفلق"، و"بكرة" ومشتقاتها بمدلول النهار في آيات أخرى عديدة، وجاءت كلمة "يوم" أحيانا بمعنى النهار في عدد من آيات القرآن الكريم.

وفي هذه الآيات يمن علينا ربنا تبارك وتعالى بتبادل الليل والنهار ويعتبرهما من آياته الكبرى، لأن في ذلك استقامة للحياة على الأرض، وعونا للإنسان على تحديد الزمن، والتأريخ للأحداث المتتالية. وبدون هذا التبادل بين الليل المظلم والنهار المنير تتوقف الحياة على الأرض، ويتلاشي إحساس الإنسان بمرور الزمن، وتتوقف قدرته على متابعة الأحداث والتأريخ لها.

والليل والنهار آيتان كونيتان عظيمتان من آيات الله في الخلق تشهدان على دقة بناء الكون، وعلى انتظام حركة الأرض حول محورها المائل بقدر محدد، وبدقة فائقة في مدار محدد حول الشمس، وما يستتبعه ذلك من تحديد لسنة الأرض، وتبادل للفصول المناخية، ومرور للشهور والأسابيع والأيام، وتعاقب الليل والنهار على نصفي الأرض.

التبادل المنتظم بين الليل والنهار

إن التبادل المنتظم بين الليل المظلم والنهار المنير على نصفي الكرة الأرضية هو من الضرورات اللازمة للحياة الأرضية، ولاستمرارية وجودها بصورها المختلفة حتى يرث الله تعالى الأرض ومن عليها. فبهذا التبادل بين الظلمة والنور يتم التحكم في توزيع ما يصل إلى الأرض من الطاقة الشمسية، وبالتالي يعين

على التحكم في درجات الحرارة والرطوبة وكميات الضوء في مختلف البيئات الأرضية؛ كما يعين على التحكم في العديد من الأنشطة الحياتية وغير الحياتية من مثل التنفس والأيض في كل من الإنسان والحيوان، وعمليات النتح والتمثيل الضوئي في النباتات؛ ويتم ضبط التركيب الكيميائي للغلافين الغازي والمائي المحيطين بالأرض، وضبط الكثير من دورات النشاط الأرضي من مثل دورة الماء بين الأرض والطبقات الدنيا من غلافها الغازي، وحركات الرياح والسحاب في هذا الغلاف، وتوزيع نزول المطر منه (بتقدير من الله)؛ كما تتم دورة تعرية الصخور بتفتيتها، ونقل هذا الفتات أو إبقائه في مكانه من أجل تكوين التربة أو الرسوبيات والصخور الرسوبية وما بها من خيرات أرضية.

وبالإضافة إلى ذلك فإن في اختلاف الليل المظلم والنهار المنير تقسيما لليوم الأرضي إلى فترة للحركة والعمل والنشاط، وفترة للراحة والاستجمام والسكون. فالإنسان محتاج إلى السكينة بالليل كي يخلد فيه إلى شيء من الراحة النفسية بالعبادة والتفكر، والراحة البدنية بالاسترخاء والنوم والإغفاء حتي يستعيد كلا من نشاطه البدني والذهني، ويستجمع قواه فيتهيأ للعمل بالنهار التالي وما يتطلبه ذلك من القيام بواجبات الاستخلاف في الأرض. وقد ثبت علميا أن أفضل النوم يكون بالليل، وأقله فائدة هو نوم النهار (فيما عدا فترة القيلولة). كما ثبت أن كثرة النوم بالنهار تؤثر في نشاط الدورة الدموية في جسم الإنسان، وتتهدده بالتيبس في العضلات، وتؤدي إلى تراكم الدهون وزيادة الوزن، وإلى العديد من صور التوتر العصبي والقلق النفسي.

وربما كان من مبررات التوجيه الرباني بالنوم بالليل والنشاط بالنهار أن طبقات الحماية التي أوجدها ربنا تبارك وتعالى في الغلاف الغازي للأرض، ومن أهمها "النطق المتأينة" وما بها من "أحزمة الإشعاع" تتمدد بالنهار فتزداد قدراتها على حماية الحياة الأرضية مما يسمح للإنسان بالحركة والنشاط دون مخاطر. وهذه النطق تنكمش انكماشا ملحوظا بالليل، مما يقلل من قدراتها على الحماية؛ فينصح الإنسان بالركون إلى النوم والراحة حماية له من تلك المخاطر. وفي ذلك يقول ربنا تبارك وتعالى: ﴿وَجَعَلْنَا اللَّيْلَ لِبَاسًا ۞ وَجَعَلْنَا النَّهَارَ مَعَاشًا﴾ (النبأ: ١٠-١١). قال تبارك وتعالى: ﴿هُوَ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ اللَّيْلَ لِتَسْكُنُوا فِيهِ وَالنَّهَارَ مُبْصِرًا إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَسْمَعُونَ﴾ (يونس: ٦٧).

من هنا كان التدبر في ظاهرة تعاقب الليل والنهار دعوة إلى الخلق كافة للإيمان بالله. ومن هنا أيضا جاءت الآيات التي تشير إلى تبادل الليل والنهار في صياغة معجزة. ومن جوانب ذلك الإعجاز إشارتها إلى أعداد من الحقائق الكونية التي لم تكن معروفة وقت تنزل القرآن الكريم، ولا لقرون متطاولة من بعد ذلك مما يجزم بأنه لا يمكن أن يكون صناعة بشرية، بل هو كلام الله الخالق الذي لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه، ويشهد للنبي الخاتم والرسول الخاتم الذي تلقاه بالنبوة الحقة والرسالة الخاتمة.

الشواهد العلمية المستقاة من تبادل الليل والنهار

١- التأكيد على كروية الأرض: فإن تبادل الليل والنهار على نصفي الأرض وتعاقبهما وإيلاج كل منهما في الآخر، واختلافهما وتقليبهما، وإدبار أحدهما وسفور الآخر، وإغشاء نور النهار بحلكة الليل، وتجلية حلكة الليل بنور النهار، وتكوير الليل على النهار، وتكوير النهار على الليل، كل ذلك إشارات ضمنية رقيقة إلى كروية الأرض. فلو لم تكن الأرض كرة ما أمكن حدوث شيء من ذلك أبدا، وأبسطه تبادل الليل والنهار على نصفي الأرض.

هذه الحقيقة العلمية جاء بها القرآن الكريم من قبل ألف وأربعمائة من السنين في وقت ساد فيه الاعتقاد باستواء الأرض لدى كل الناس، على الرغم من إثبات عدد من قدامى المفكرين غير ذلك.

ونزول الآيات القرآنية العديدة بهذه الحقيقة الكونية الثابتة في الجزيرة العربية التي كانت في ذلك الوقت القديم بيئة بدوية بسيطة ليس لها أدنى حظ من المعرفة العلمية ومناهجها ولا بالكون ومكوناته، لمما يقطع بأن القرآن الكريم لا يمكن أن يكون صناعة بشرية، بل هو كلام الله الخالق الذي أبدع هذا الكون بعلمه وحكمته وقدرته، والذي هو أدرى بصنعته من كل من هم سواه، وأن سيدنا ونبينا محمدا ﷺ كان موصولا بالوحي، ومعلما من قبل خالق السماوات والأرض.

٢- التأكيد على دوران الأرض حول محورها أمام الشمس: فلو لم تكن الأرض كروية، ولو لم تكن تلك الكرة تدور حول محورها أمام الشمس ما تبادل الليل والنهار. وهذا الدوران عبرت عنه الآيات القرآنية في أكثر من عشرين آية صريحة بتعبيرات ضمنية رقيقة، ولكنها مصاغة صياغة علمية دقيقة، تبلغ من الدقة والشمول والكمال ما لم يبلغه العلم الحديث.

وقد أنزلت هذه الآيات مؤكدة حقيقة دوران الأرض حول

محورها في وقت ساد فيه الاعتقاد بثبات الأرض ورسوخها، بمعنى عدم دورانها أو تحركها، وهو أمر معجز للغاية.

٣- التأكيد على أن سرعة دوران الأرض حول محورها أمام الشمس في المراحل الأولى لخلق الكون كانت أعلى من سرعتها الحالية: وهذه الحقيقة لم يتوصل العلم المكتسب من إدراكها إلا في العقود المتأخرة من القرن العشرين، وقد سبقها القرآن الكريم بأكثر من أربعة عشر قرنا، وذلك بالإشارة إلى هذه الحقيقة في قول الحق تبارك وتعالى: ﴿إِنَّ رَبَّكُمُ اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ اسْتَوَى عَلَى الْعَرْشِ يُغْشِي اللَّيْلَ النَّهَارَ يَطْلُبُهُ حَثِيثًا وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ وَالنُّجُومَ مُسَخَّرَاتٍ بِأَمْرِهِ أَلَا لَهُ الْخَلْقُ وَالْأَمْرُ تَبَارَكَ اللَّهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ﴾ (الأعراف:٥٤).

وإغشاء النهار بالليل جاء في القرآن الكريم أربع مرات (الأعراف:٥٤، الرعد:٣، الشمس:١-٤، الليل:١،٢). والمرة الوحيدة التي جاءت فيها الصفة ﴿يَطْلُبُهُ حَثِيثًا﴾ أي سريعا، هي هذه الآية الرابعة والخمسون من سورة الأعراف، لأنها تتحدث عن بداية خلق السماوات والأرض؛ وهي حقيقة مدونة في هياكل الحيوانات وأخشاب النباتات بدقة بالغة، و لم يكن لأحد من الخلق إلمام بأية فكرة عنها إلا في العقود المتأخرة من القرن العشرين حين اكتشف العلماء أن تبادل الليل والنهار كان يتم في العقود الجيولوجية القديمة بسرعة فائقة جعلت من عدد الأيام في السنة عند بدء الخلق أكثر من ألفي يوم، وجعلت من طول الليل والنهار معاً أقل من أربع ساعات. وكان إبطاء سرعة دوران الأرض حول محورها بمعدل جزء من الثانية في كل قرن من الزمان آية من آيات الله في إعداد الأرض لاستقبال الحياة، لأن صور الحياة -وفي مقدمتها الإنسان- ما كان ممكنا أن تتلاءم مع هذه السرعات الفائقة لدوران الأرض، وكذلك مع قصر أو طول كل من الليل والنهار.

٤- التأكيد على سبح الأرض في مدارها حول الشمس: يعبر القرآن الكريم عن الأرض في عدد من آياته بالليل والنهار كما جاء في قول الحق تبارك وتعالى: ﴿وَهُوَ الَّذِي خَلَقَ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ كُلٌّ فِي فَلَكٍ يَسْبَحُونَ﴾ (الأنبياء:٣٣)، وفي قوله عز من قائل: ﴿لَا الشَّمْسُ يَنْبَغِي لَهَا أَنْ تُدْرِكَ الْقَمَرَ وَلَا اللَّيْلُ سَابِقُ النَّهَارِ وَكُلٌّ فِي فَلَكٍ يَسْبَحُونَ﴾ (يس:٤٠).

وذلك لأن كلا من الليل والنهار عبارة عن ظرف زمان وليس جسما ماديا، ولابد للزمان من مكان يظهر فيه. والمكان في هذه الحالة هو كوكب الأرض الذي يقتسم الليل نصفه، والنهار النصف الآخر في حركة دائبة وتبادل مستمر. ولو لم تكن الأرض كروية، ولو لم تكن تدور حول محورها أمام الشمس لما تبادل سطحها الليل والنهار في تعاقب مستمر. ولولا جري الأرض في مدارها حول الشمس ما تغيرت البروج. ولو لم تكن الأرض مائلة بمحور دورانها على دائرة البروج بزاوية مقدارها ٦٦،٥ درجة تقريبا ما تبادلت الفصول. ولولا علم الله بجهل الناس لتلك الحقائق في الأزمنة السابقة لأنزل الحقيقة الكونية بلغة صادعة قاطعة، ولكن لكي لا يفزع الخلق في وقت تنزل القرآن الكريم أشار إلى جري الأرض في مدارها المحدد لها حول الشمس بسبح كل من الليل والنهار. والسبح لا يكون إلا للأجسام المادية في وسط أقل كثافة منها. فالسبح في اللغة هو الانتقال السريع للجسم المادي بحركة ذاتية فيه من مثل حركات كل من الأرض والقمر والشمس وغيرها من أجرام السماء، كل في مداره وحول جرم أكبر منه. ويؤكد هذا الاستنتاج صيغة الجمع "كل في فلك يسبحون" التي جاءت في الآيتين، لأنه لو كان المقصود بالسبح الشمس والقمر فحسب، لجاء التعبير بالتثنية و"كلاهما يسبحان".

٥- التأكيد على الرقة الشديدة لطبقة النهار في الغلاف الغازي لنصف الأرض المواجه للشمس: وهي حقيقة لم يدركها الإنسان إلا بعد ريادة الفضاء، في منتصف الخمسينات وأوائل الستينات من القرن العشرين. وقد سبق القرآن الكريم هذا الكشف العلمي بأربعة عشر قرنا وذلك في قول الحق تبارك وتعالى: ﴿وَآيَةٌ لَهُمُ اللَّيْلُ نَسْلَخُ مِنْهُ النَّهَارَ فَإِذَا هُمْ مُظْلِمُونَ﴾ (يس:٣٧).

وهذه الآية الكريمة تؤكد أن الأصل في الكون الظلام، وأن طبقة النهار في الغلاف الغازي المحيط بنصف الأرض المواجه للشمس، والتي تتحرك باستمرار لتحل محل ظلام الليل بإشراق الفجر، هي طبقة بالغة الرقة لا يكاد سمكها أن يتعدى ٢٠٠ كم فوق مستوى سطح البحر. وإذا نسبنا هذا السمك إلى المسافة بين الأرض والشمس، وهي مقدرة بحوالي المائة وخمسين مليون كم، كانت النسبة واحدا إلى سبعمائة وخمسين ألفا تقريبا. وإذا نسبناه إلى نصف قطر الجزء المدرك من الكون، والمقدر بأكثر من اثني عشر بليون (ألف مليون) سنة ضوئية اختفت هذه النسبة تماما أو كادت. ومن هنا تتضح ضآلة سمك الطبقة التي يعمها نور النهار، كما يتضح عدم استقرارها لانتقالها باستمرار من نقطة إلى أخرى على سطح الأرض مع دورانها حول محورها أمام الشمس؛ ويتضح كذلك أن تلك الطبقة الرقيقة من نور النهار تحجب عنا ظلام الكون الخارجي، لأن الذين تعدوا طبقة النهار

مـــن رواد الفضاء رأوا الشـــمس في منتصف النهار قرصا أزرق في صفحة ســـوداء. وبهذه المعلومات التي اكتشفت منذ أقل من نصف قرن تتضح روعة تشبيه القرآن الكريم انسلاخ نور النهار عن ظلمة كل من الليل والكون بســـلخ جلد الذبيحة الرقيق عن كامـــل بدنها. وهذا يؤكد أن الظلمة هي الأصل في هذا الكون، وأن النهار ليس إلا ظاهرة نورانية عارضة رقيقة جدا، لا تظهر إلا في الطبقات الدنيا من الغلاف الغازي في نصفه المواجه للشمس؛ وبواســـطة دوران الأرض حول محورها أمام ذلك النجم ينسلخ النهار تدريجيا أمام ظلمة ليل الأرض والتي تلتقي بظلمة السماء.

٦- التأكيد على دقة الحساب الزمني بواسطة كل من الليل والنهار والشمس والقمر: من المعروف أن السنة الهجرية هي سنة شمسية/قمرية، لأن هذه السنة تحددها دورة الأرض حول الشمس دورة كاملة تتمها في ٣٦٥,٢٥ يوما تقريبا، وأن هذه السنة تقسم إلى اثني عشر شهرا بواسطة دوران القمر حول الأرض؛ كما يقسم الشهر إلى أسابيع وأيام وليال بنفس الواسطة. وقد تقسم الشهور بواسطة البروج التي تمر بها الأرض في أثناء جريها في مدارها حول الشـــمس، كما تدرك الأيام بتبادل كل من الليل والنهار، ويقسم النهار إلى وحدات أصغر بواسطة المزولة الشمسية؛ ومن هنا كان القســـم القرآني بالليل والنهار والشـــمس والقمر في خمس آيات (الأنعام:٩٦، إبراهيم:٣٣، النحل:١٢، الأنبياء:٣٣، فصلت:٣٧).

٧- الإشـــارة إلى أن ليـــل الأرض كان في بدء الخلق ينار بعدد من الظواهر الكونية: وفي ذلك يقول الحق تبارك وتعالى: ﴿وَجَعَلْنَا اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ آيَتَيْنِ فَمَحَوْنَا آيَةَ اللَّيْلِ وَجَعَلْنَا آيَةَ النَّهَارِ مُبْصِرَةً لِتَبْتَغُوا فَضْلاً مِنْ رَبِّكُمْ وَلِتَعْلَمُوا عَدَدَ السِّنِينَ وَالْحِسَابَ وَكُلَّ شَيْءٍ فَصَّلْنَاهُ تَفْصِيلاً﴾ (الإسراء:١٢).

ويستشف من هذه الآية ظاهرة الشفق القطبي وأطيافه والتي تعرف أيضا باســـم ظاهرة الأنوار القطبية أو باسم ظاهرة فجر الليـــل القطبي؛ وهي ظاهرة نورانية تـــرى بالليل في سماء المناطق القطبية وحول القطبية، وتتكون نتيجة لارتطام الأشـــعة الكونية الأولية التي تملأ فســـحة الجـــزء المدرك من الكـــون على هيئة الجسيمات الأولية للمادة بالغلاف الغازي للأرض، مما يؤدي إلى تأينه وإصدار أشـــعة كونية ثانوية. ونتيجة لذلك تتصادم الأشعة بشـــحناتها الكهربية المختلفة مع كل من أحزمة الإشعاع ونطق التأيـــن في الغلاف الغازي للأرض وتفريغ شـــحناتها فتوهجها. والجســـيمات الأولية للمادة متناهية في الدقة، وتحمل شـــحنات كهربية عالية، وتتحرك بسرعات تقترب من سرعة الضوء، ولم تكتشف إلا في ســـنة ١٩٣٦. والأشعة الكونية تتحرك بمحاذاة خطوط المجال المغناطيســـي للأرض والتي تنحني لتصب في قطبي الأرض المغناطيســـيين فتؤدي إلى تأين الغلاف الغازي للأرض، ومن ثم إلى توهجه.

ومن الثابت علميا أن نطق الحماية المتعددة في الغلاف الغازي للأرض من مثل نطاق الأوزون، ونطق التأين، وأحزمة الإشعاع، والنطـــاق المغناطيســـي للأرض لم تكن موجـــودة في بدء خلق الأرض. ولذلك فقد كانت الأشعة الكونية تصل إلى المستويات الدنيـــا من الغلاف الغازي للأرض فتؤدي إلى توهجه ليلا حول كافـــة الأرض، وبعد تكون نطق الحمايـــة المختلفة أخذت هذه الظاهـــرة في التضاؤل التدريجي حـــتى اختفت، فيما عدا مناطق محدودة حول القطبين، تبقي شـــاهدة علـــى أن ليل الأرض في المراحل الأولى من خلقها كان يضاء بوهج لا يقل في شـــدته عن نور الفجر الصادقت.

فسبحان الذي أنزل من قبل أربعة عشر قرنا قوله الحق على لسان نبيه الخاتم: ﴿وَجَعَلْنَا اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ آيَتَيْنِ فَمَحَوْنَا آيَةَ اللَّيْلِ وَجَعَلْنَا آيَـــةَ النَّهَارِ مُبْصِرَةً لِتَبْتَغُوا فَضْلاً مِنْ رَبِّكُمْ وَلِتَعْلَمُوا عَدَدَ السِّنِينَ وَالْحِسَابَ وَكُلَّ شَيْءٍ فَصَّلْنَاهُ تَفْصِيلاً﴾ (الإسراء:١٢).

هذه الشـــواهد العلمية المســـتقاة من تبادل الليل والنهار بدء بتأكيد كرويـــة الأرض، ثم دورانها حول محورهـــا، وتباطؤ هذا الـــدوران مع الزمن، وجريها في مدارها المحدد حول الشـــمس، والرقة الشديدة لطبقة النهار، والدقة الفائقة لحساب الزمن بواسطة تتابع كل من الليل والنهار والشمس والقمر، وأن ليل الأرض كان يضاء في بدء الخلق بوهج لا يقل في شدته عن نور الفجر الصادق، وأن من بقايا هذا الوهج القديم ظاهرة الفجر القطبي...

هذه الشـــواهد لم يصل الإنســـان إلى إدراكها إلا في العقود المتأخرة من القرن العشـــرين. وورودها في كتاب الله الذي أنزل على نبي أميّ ﷺ في أمة كانت غالبيتها الساحقة من الأميين، ومن قبل أربعة عشـــر قرنا لمما يقطع بأن القرآن الكريم هو كلام الله الخاتم والخالد، وأن النبي والرسول الخاتم الذي تلقاه كان موصولا بالوحـــي، ومعلما من قبل خالق الســـماوات والأرض، ولذلك وصفه ربه ســـبحانه وتعالى بقوله: ﴿وَمَا يَنْطِقُ عَنِ الْهَوَى ۞ إِنْ هُوَ إِلاَّ وَحْيٌ يُوحَى ۞ عَلَّمَهُ شَدِيدُ الْقُوَى﴾ (النجم: ٣-٥). ■

(*) أســـتاذ علوم الأرض ورئيس لجنة الإعجاز العلمي بالمجلس الأعلى للشـــؤون الإسلامية / مصر.



لزومية

أ.د. حسن الأمراني*

أختاهُ! إنّ العيش عيشُ الآخرة
فهي المعاني والمغاني الزاخرة

فتأنّقي برياض ذكْرٍ مونقٍ
وتألّقي شِعْرا.. لآلئَ فاخرةً

شعْرًا إلهيّا يؤانسني إذا
ما صرتُ -يا أختي- عِظامًا ناخرة

ما هذه الدنْيا وإن عرضت لنا
صورَ الجمال سوى فُصولٍ ساخِرة

بحرٌ خضمّ مَوْجُه متَلاطمٌ
والناسُ فيه أمْنياتٌ ماخرة

والحبّ خيْرُ الزّاد لو علم الفتى
وفعاله الموفور نعْم الباخرة

ماذا علينا لو ركبْنا عُرْضَه
شوقًا، ووِجهتنا نعيمُ الآخرة؟!

(*) رئيس تحرير مجلة المشكاة / المغرب



مدارس ودروس

من "دايتون" الأمريكية إلى "أبنت" التركية

أ.د. إبراهيم البيومي غانم*

قالوا قديماً إن في السفر فوائد كثيرة تظهر في جوانب مختلفة من حياة المسافر، منها زيادة رزقه، واتساع علمه، وتقوية صحة جسمه، وسكينة نفسه، ونضج خبرته، وكثرة معارفه وأصدقائه، وتجديد الحنين إلى أهله ووطنه والديار التي كان فيها مسقط رأسه. وقد جمع الشاعر بعض تلك الفوائد في قوله:

تغرَّبْ عن الأوطان في طلب العلا
وسافر ففي الأسفار خمس فوائدِ
تفريج هم واكتساب معيشة
وعلم وآداب وصحبة ماجد.

فوائد الأسفار

ولكن يبدو أن فوائد السفر الحديث في أيامنا تختلف في عددها وفي نوعها عن فوائد السفر القديم الذي عرفه البشر في الأيام الخالية. فهي أكثر منها عدداً وأعمق منها أثراً. وهذا هو ما تبين لي بعد سفرتين متتابعتين: الأولى كانت من يوم ٢٢ يونيو حتى ٣ يوليو ٢٠٠٦ إلى مدينة "دايتون" في ولاية "أوهايو" الأمريكية للمشاركة في الملتقى السنوي لـ "كاترنج فاونديشن" (Kettering Foundation) حول "الديمقراطية التداولية"، وبرامج علمية أخرى مصاحبة لهذا الموضوع، ومنها لقاء المجموعة العربية لبحوث وقياسات الديمقراطية. أما الرحلة الثانية فقد كانت من يوم ٩ حتى ١٧ يوليو ٢٠٠٦ إلى إسطنبول، ومنها إلى منتجع "أَبَنْت" (Abant) بمدينة "بُولُو" (Bolu) التركية -على مسافة ١٥٠ كلم شمال العاصمة أنقرة- وذلك للمشاركة في منتدى "أَبَنت" حول "سياسات العولمة ومستقبل الشرق الأوسط".

أما المدة التي استغرقتها في الرحلتين فكانت ثلاثة أسابيع، قضيتُها مناصفة بين أمريكا وتركيا. وكان من تقدير الله سبحانه -وبدون سابق ترتيب مني- أن أشارك في ندوات علمية تكاد تكون متماثلة في الرحلتين، وأن أزور بعض المؤسسات والهيئات الاجتماعية والثقافية التي تنتمي إلى المجتمع المدني في الحالتين؛ إلى جانب التجوال الحر ورؤية بعض المعالم الأثرية والمزارات

السـياحية في بعض المدن الأمريكية هناك في أقصى غرب العالم، وفي بعض المدن التركية هنا في قلب الشرق، وتحديداً في إسطنبول التي كانت يوماً عاصمة الشرق كله.

هموم الأسفار

بالنسـبة لفائدة "تفريج الهم"، فإن الذي حدث معي هو العكس في سـفرتي إلى الولايات المتحدة الأمريكية؛ إذ إن همومي زادت ولم تنفرج! وأول ما وجدته هو أنني أوجسـت في نفسي خيفة عندما وطِئَت قدمي أرض مطار "سينسـيناتي" في وسط غرب الولايات المتحـدة الأمريكية. كانت هذه هي أول رحلة لي إلى أمريكا، وأنا طبعاً قادم من بلد شـرق أوسـطي قديم، إلى بلد غربي متطور علمياً وتكنولوجياً، وشعرت ساعتها بأنني في حيرة من أمري؛ فمطار سينسـيناتي هائل الحجم، هائل التنظيم، هائل النظافة، يعجّ بالمغادرين وبالقادمين، وكلها أمور أثارت في نفسي خواطـر مختلطة بين الإعجاب والضيق، وكنت كلما نظرت إلى النظافة والتنظيم والانضباط والسهولة في الحركة داخل المطار في سينسـيناتي، وقارنت ذلك كله بما رأيته وعرفته ويعرفه كثيرون عن مطارات شرق أوسطية -ومنها بعض مطارات بلادي- زاد اختلاط الإعجاب بالضيق في نفسي، وضاق صدري ولم ينطلق لسـاني أكثر من مرة، فلم أردّ على تعليقـات أحد رفقائي في الرحلة كان يحاول لفت نظري إلى بعض تلك المعاني التي جالت في خاطري.

ثم جاء مشـهد إجـراءات الأمن والسـلامة التي يخضع لها الجميع، مع قليل من التمييز السـلبي ضد ذوي الملامح الشـرق أوسطية أمثالنا وغير الأمريكيين عموماً، ولكن التعامل مع الجميع كان مهذباً ولم يخل من بعض الدعابات.

لم تفارقـني همومي التي حملتها من بلدي، بل إن تلك الهموم كانـت تزيد ولا تنقص ناهيك عن أن تنفرج كلما مر يوم عليّ في "دايتـون" أو في ضواحيها. وهمومي الـتي أتحدث عنها هي هموم التخلف الذي نعيشـه في بلادنا، وهموم حالة الفوضى غير الخلاّقة التي تسـحق آدمية أغلبية أبناء شعوبنا العربية والإسلامية ويصادفونهـا في معظم زوايا حياتهم. وجدت أن ثمة فجوة هائلة بيننا وبينهم فجوة أكبر بكثير مما كنت أتصور وأعرف من خلال قراءاتي ومعرفتي عن بُعد بالمجتمع الأمريكي. كنت أمنّي نفسي في أول مرة أسـافر فيها إلى الولايات المتحدة بأن تكون الفجوة بيننا وبينهم أقلّ عمقاً وأضيَق نطاقاً، وأن يكون عبورها مقدوراً عليه في عدد معقول من السـنين عقد أو عقدين مثلاً، ولكن ما كل ما يتمنى المرء يدركه، وما رأيته زاد همومي ولم يفرجها.

مشاهد البهجة في مطار إسطنبول

وإذا كانت أول فوائد السـفر القديم قد ضاعت مني في رحلتي إلى أمريكا في الغرب، فقد أدركتُها في سـفري التالي إلى تركيا في الشرق. كان المشهد الأول مبهجاً في مطار إسطنبول: مطار حديـث على آخر صيحة وقد هبطت الطائرة في المطار الجديد، وهو كبير الحجم، فائق النظافة، دقيق التنظيم والانضباط وسهولة الحركة، وإجراءات الأمن والسلامة والتفتيش تتم بيسر وسهولة، ويخضع لها الجميع دون أدنى تمييز بين المسـافرين، لا فضل لعربي على أعجمي، ولا لتركي على أوربي أو أمريكي. ولا تسـتغرق عملية تدقيق الجوازات وتأشـيرات الدخول سوى بضع دقائق. وما كدنا نخرج من بوابة الخروج حتى وجدنا في اسـتقبالنا ثلّة من الفتية ذوي الوجوه البشوشـة، والأيدي الممدودة لمساعدتنا في حمل الحقائب، مع كلمات الترحيب بلغة عربية رشـيقة تحبها وتتمتع بسماعها من أفواه شباب أتراك تفانَوا في خدمتنا من أول يوم حتى آخر لحظة. قبل مغادرتنا إسطنبول حتى كدنا نبكي من فرط كرمهم وتواضعهم.

كان هذا المشهد الأول في تركيا كفيلاً بأن يبدد بعض الهموم المختزنة من رحلتي إلى "دايتون"، فها هم أولاء أناس من بلد مسلم وشرق أوسطي عريق مثل تركيا يقدّمون نموذجاً لا يقل في روعته عما شـاهدناه في أمريكا من النظام والنظافة والانضباط وسهولة الحركة وكفـاءة العمل في مرفق حيـوي وواجهة من واجهات الدولة. ويوماً بعد يوم في تركيا من إسـطنبول إلى "بورصة" إلى "بولو" ومنتجع "أبنت"، كانت همومي تنفرج شيئاً فشيئاً؛ وذلك بعد أن أخذَنا أصحاب الدعوة من تلامذة الأستاذ "محمد فتح الله كولن" في جولة سياحية وعلمية، رأينا فيها عدداً من المشروعات الحديثة فائقة الروعة في شكلها ومضمونها، أو في مبانيها ومعانيها: مدرسة وجامعة ومستشـفى وصحيفة وتلفزيون؛ كما رأينا فيها سلسلة من الآثار التاريخية النادرة وفي مقدّمتها المساجد والقصور التي تشـتهر بها تركيا عامة، وإسطنبول خاصة؛ والمتاحف وأهمها متحف "طوب قابي" الذي يضمّ آثار العهد العثماني.

شخصية الأستاذ "فتح الله كولن"

والأستاذ "فتح الله كولن" هو من الشخصيات ذات الأثر الواسع داخل تركيا وخارجها، ويحتاج إلى أكثر من مقالة لتعريف القارئ

العربي به وبأفكاره ومنهجه في الإصلاح. وهو ممن استوعب منهج بديع الزمان النورسي في فهم الإسلام، وقد استطاع أن يقدم رؤية خاصة به في الإصلاح والدعوة، وله عديد من المقالات والمؤلفات القيمة، كما أن له تياراً واسعاً المحبين له والمتأثرين برؤيته الحضارية، منهم نسبة مؤثّرة من رجال الأعمال والأثرياء الذين يتولون تمويل المشروعات الخيرية التي أكد الأستاذ على أهميتها وحث على تفعيلها طوال حياته، وما أكثرها، وذلك من خلال نظام الوقف المنتشر على نطاق واسع في تركيا، حتى إن لكل مرفق أو خدمة "وقفاً" يوفر المال اللازم لتمويل المشروعات والبرامج التي يقدمها، ويغْني تلك المؤسسات والمشروعات عن ذل الحاجة إلى التمويل الأجنبي الذي ابتليتْ به كثير من بلداننا العربية.

نعود إلى بقية فوائد السفر القديم وهي "اكتساب العلم والآداب وصحبة الماجد"، وقد حصلت من ذلك قدر استطاعتي. وقد حفزتني الرحلتان إلى أمريكا وإلى تركيا إلى ضرورة إعادة النظر فيما قاله السابقون عن فوائد السفر القديم، واكتشفتُ فوائد جديدة تزيد كثيراً على ما ذكره قدماء المسافرين. ومما اكتشفته: اكتساب الخبرة، ونقد الذات، وإدراك القواسم المشتركة بين بني آدم أينما كانوا وحيثما حلوا، وتبادل الدروس الإنسانية، ومقارنة المدارس التعليمية والتربوية بين الشرق والغرب، وغير ذلك مما يطول شرحه ويصعب حصره هنا. ووجدت أن لكل فائدة مدرسة تنتجها، ودروساً تعبّر عنها. ومن الموافقات الحسنة وجود أوجه شبه مثيرة بين مدارس ودروس السفر إلى دايتون في أمريكا، ومدارس ودروس السفر إلى "أبنت" في تركيا، وهذه هي خلاصتها:

مدرسة في التربية والتعليم، ودرس في العطاء

على الجانب الغربي وفي "دايتون" كانت المدرسة -بالمعنى الواسع لكلمة مدرسة- هي مؤسسة "كاترنج" التي ترعى عديداً من البرامج التعليمية والتدريبية والبحثية، وتقوم بتمويلها من عوائد وقفيتها الخاصة، وتركّز منذ عقود على قضية أساسية هي ما تطلق عليه "الديمقراطية التداولية"، أو "الديمقراطية التشاورية". أما درس العطاء فقد لمستُهُ من أغلب العاملين في "كاترنج" بدءً بريئس المؤسسة ديفيد ماثيوس، مروراً بمساعديه بمختلف مستوياتهم. حقيقة وجدتهم يعملون بروح الفريق، وبدافع قوي لا يمكن أن ينبع إلا من الإيمان بالرسالة التي تقوم بها المؤسسة في خدمة العلم والمعرفة بشكل عام، وفي تقدم المجتمع الأمريكي بشكل خاص.

أما على الجانب الشرقي وفي "إسطنبول"، فقد كانت المدرسة -بالمعنى الواسع أيضاً- عبارة عن سلسلة من المشروعات والمؤسسات التعليمية والبحثية والثقافية، تعتمد في تمويلها على رَيع وقفيات -أيضاً كما في حالة كاترنج الأمريكية- خصصها رجال أعمال ومحسنون أتراك، أغلبهم من تلامذة الأستاذ "فتح الله كولن". هي مدرسة ذات طابع مختلف عن مدرسة "مؤسسة كاترنج"، ولكنها تقوم بمهمات مماثلة في نشر العلم وإنتاج الثقافة وبناء مجتمع المعرفة، وتسعى للإسهام بجدية بالغة في تقدم المجتمع التركي خاصة، وفي إسعاد الإنسانية عامة. أما درس العطاء فقد لمسته، كما لمسه جميع رفقائي في الرحلة، في الأداء رفيع المستوى، بالغ الإتقان لكل من قابلناهم في تلك المؤسسات، وليس ثمة مصدر يدفعهم لذلك سوى الإيمان العميق بالرسالة التي يؤدونها. وكان لافتاً للنظر أنك لا تستطيع أن تحدد أيهما أكثر روعة: العنصر البشري العامل في تلك المؤسسات من الشباب والشابات، أم تلك المؤسسات نفسها. وذات مرة قلت لأحد رفقاء السفر: ما أروع هذا المبنى، فرد قائلاً: الأروع هم هؤلاء البشر المتفانون في عملهم. قلت: لن نختلف كثيراً؛ فمبنى رائع كهذا لا بد أن يشيّده ويديره أناس رائعون كهؤلاء.

أحد المحسنين الذين قابلناهم هو "الحاج علي كَرْوَانْجِي"، رجل أعمال عصامي، لفت نظره أن الأستاذ "فتح الله كولن" يحرص بإصرار على أن لا تمس يدُه أموالَ المتبرعين لأعمال الخير التي يدعوهم لها، فقرر أن يقف ثروته وحياته للأنظمة الإنسانية التي يشجع عليها؛ فبنَى سلسلة بديعة من المدارس ومسجداً أنيقاً إذا دخلته تحب أن تبقى فيه ولا تخرج منه، من فرط الراحة التي تشعر بها وأنت داخله. وأمثال الحاج "علي كروانجي" كثيرون في تركيا، وبفضل عطائهم نشأت مؤسسات ومشروعات حضارية بكل ما تحمله كلمة "حضارة" من معنى.

مدرسة في الأخلاق ودرس في التسامح الإنساني

على الجانب الغربي وفي "إنديانا" هذه المرة كانت مدرسة الأخلاق -بالمعنى الواسع لكلمة مدرسة كذلك- هي جامعة "نوتردام" الكاثوليكية. والحقيقة أنني لم أتوقع وجود مثل هذه النزعة الأخلاقية من حيث الأصل في بلد مثل أمريكا. وجامعة نوتردام هي من الجامعات المحافظة بكل المعاني التي تشير إليها كلمة "المحافظة". وقد أتيح لي أن أطلع عن كثب على أحد المعاهد التابعة لها، وهو "معهد كروك"، وتحدثتُ مع مديره "سكوت أبلبي"، ومع عدد من الباحثين والموظفين، وكان أكثر ما شدّ

انتباهي هو المناخ الأخلاقي الذي يعمل فيه الجميع، استناداً إلى قاعدة قوية من التعاليم الدينية الكاثوليكية، ربما كان أفضل مَن يجسدها هو مدير معهد كروك الدكتور القسّ سكوت أبلبي. قال لي: "لو خُيرت بين أن أشغل أعلى منصب في الدنيا، وبين البقاء في هذه الجامعة لاخترت البقاء في جامعة نوتردام". أما الدرس الأكثر تأثيراً فيمن يدخل هذه المدرسة فهو درس التسامح الإنساني، الذي عبرتْ عنه ليس فقط كلماتُ من قابلناهم في المعهد، ومشاعرُهم الودودة تجاهنا، رغم علمهم أننا شرق أوسطيّون، وإنما أيضاً وجودُ أناس مختلفي المواقف من الدين ذاته، ومن الكاثوليكية نفسها التي هي جزء من اسم جامعة نوتردام. فهناك مسلمون، ويهود، ومسيحيون، ودهريون"، وكأن لسان الحال يردد قول الله تعالى ﴿لَكُمْ دِينُكُمْ وَلِيَ دِينِ﴾ (الكافرون:٦)، وكذلك عبرتْ عن هذه النزعةُ الإنسانية المشروعات والبرامج البحثية والتعليمية التي تستهدف في أغلبها دعم قيم الحوار والسلام والتسامح بين مختلف الشعوب والأمم.

أما على الجانب الشرقي، وفي مختلف المشروعات التي زرناها في إسطنبول وفي مدينة "بُورْصَة"، تجلّت مدرسة الأخلاق بأبهي ما يكون التجلي؛ وإذا قارنّاها بمدرسة "نوتردام" الأمريكية التي أومأْنا إليها، سنجد أن مدرستنا في تركيا أعمق جذوراً، وأكثر غصوناً، وأصدق قيلاً، وأتقن فعلاً؛ فهذه جامعة، وهذا مستشفى، وتلك صحيفة، وهذه مدرسة ابتدائية، وهذا تلفزيون... جميعها في إسطنبول، وبعضها له أفرع خارج إسطنبول، وكلها مؤسسة على أحدث تكنولوجيا العصر؛ حتى إنها تُبهر الزائر وتجعله لا يصدّق ما تراه عيناه، وربما يشعر أنه في حلم وليس في "علم" يراه رأْي العين، فلا يملك إلا أن يقول "ما شاء الله لا قوة إلا بالله"، ولا يملك إلا أن يدعو للقائمين على تلك المؤسسات بالسداد والتوفيق، ولا يملك إلا أن يتحسر على أحوال بلاده المتردية -كما هو حالنا- في أغلب المؤسسات والمرافق الحكومية وغير الحكومية. والأمر المهم في كل ذلك هو أن تلك المشروعات على تنوعها نبعت من أصل واحد هو الروح الإسلامية، والأخلاقية الإسلامية، التي تحض في أحد مبادئها على حتمية أن يُتقن الإنسان عمله، وذلك انطلاقاً من قول الرسول الكريم ﷺ : "إن الله يحب أحدكم إذا عمل عملاً أن يتقنه"(١)، وقد شهدنا بما علمنا ورأينا أن هؤلاء المسلمين الأتراك قد أتقنوا ما عملوه من مشروعات عالية الجودة، فائقة التقدم، وافرة النفع للمجتمع والدولة، للمسلمين ولغير المسلمين، دون تفرقة، أو تمييز. وفي كل مؤسسة من تلك المؤسسات لمسنا درس التسامح الإنساني في عمقه الإسلامي. ومن أفضل التعبيرات عن هذا الدرس ما قاله بعفوية أحد المسؤولين عن تلك المؤسسات وهو: "إذا تحدث العالم عن الإنسان، فنحن المسلمين أول من يحب البشر، ونحب الكون؛ لأن الله خلق هذا وذاك، وعلينا أن نتحاور مع الآخر بهذه الروح، حتى وإن كان يفكر بطريقة مختلفة عنّا"، و"إن الغاية من هذه المؤسسات هي تنشئة أجيال صالحة تعمل لخير الإنسانية". أنا قرأتُ كل تلك المشروعات الراقية باعتبارها تطبيقاً لمدرسة الأخلاق الإسلامية العملية، وباعتبارها درساً في التسامح الإسلامي الإنساني، وهذا هو لب الرسالة الإسلامية؛ إذ ليست تعاليم الإسلام مجرد كلام نظري، بل هي قول وعمل، وإيمان وتطبيق، وهذا ما رأيناه بأمّ أعيننا هناك في تركيا، ونود أن نرى مثله في بقية البلدان العربية والإسلامية.

مدرسة في المجتمع المدني ودرس في المشاركة

هناك في "دايتون" اطلعنا على مدرسة متكاملة في "المجتمع المدني"، أو ما يمكن أن نسميه "السياسة المدنية"، بالمعنى الذي قصده الفارابي وابن خلدون وغيرهما من أعلام الفكر الإسلامي، وهذا المعنى يركز على التدبر في كيفية تسيير شؤون الناس اليومية بأفضل طريقة تكفل تحقيق مصالحهم المادية والمعنوية معاً. هذا هو جوهر معنى السياسة المدنية، أو المجتمع المدني كما قدمه علماؤنا السابقون، ويطبقه الأمريكيون فيما بينهم وعلى مستوى قضاياهم الداخلية على الأقل. وهذا هو ما رأيته وأدركته من خلال مشاركتي في الملتقى السنوي لمؤسسة كاترنج حول "الديمقراطية التداولية". وسواء اقتبسوا هذا المعنى المدني للسياسة من عُلمائنا أم توصلوا إليه باجتهادهم فالنتيجة واحدة، وهي أنهم جادّون في البحث عن كيفية تفعيله في واقعهم الاجتماعي، وكيفية إعادة المواطنين إلى المجال العام والمشاركة في قضايا هذا المجال والابتعاد عن العزلة.

وقد دأبتْ مؤسسة كاترنج منذ خمسة وعشرين عاما على تنظيم حلقات نقاش حول قضايا الديمقراطية، واستطاعت أن تقدم للمجتمع الأمريكي مجموعة من الإسهامات المهمة النظرية والتطبيقية، التي استهدفت حل المشكلات التي تعترض المواطنين في علاقاتهم بالسلطة والسياسة والشؤون العامة من جهة، وبناء ثقافة السياسة المدنية وتفعيلها على أرض الواقع من ناحية أخرى، وهذا هو جوهر "درس المشاركة" الذي جعلته مؤسسة كاترنج نصب

عينها منذ عدة عقود. ويتضح من مراجعة البرامج والمشروعات البحثية التي ترعاها كاترنج أنها تشعر بأن الديمقراطية الأمريكية في خطر نتيجة تزايد حالة العزلة والاغتراب بين المواطنين، وعدم الاهتمام بالشؤون العامة، ومن ثم اجتهدت المؤسسة في البحث عن الطرق الكفيلة باستدعاء دور الشعب من جديد، وإعادة اكتشاف المواطنة، وبالتالي ترميم الثقافة المدنية التي تمهد لإشراك الشعب في الحياة السياسية من جديد.

وفي "أبنت" التركية اطلعنا على برامج ومشروعات مدرسة أخرى في "المجتمع المدني" بالمعنى السابق شرحه، وشاركنا في لقائها الدوري للحوار والتداول في الشئون العامة التي تهم تركيا وتهم غيرها من بلدان منطقة الشرق الأوسط. وقصة "منتدى أَبَنْتْ" كمؤسسة من مؤسسات المجتمع المدني بدأت قبل نحو عشر سنوات بهدف لـمّ شَمل المثقفين والأكاديميين الأتراك من كل الاتجاهات السياسية والفكرية والمذهبية، والانتقال من حالة الاحتراب والصراع إلى حالة السلم الاجتماعي والتعاون، وبهدف تقوية الثقافة المدنية السلمية داخل المجتمع التركي، ثم اتسعت اهتمامات المنتدى بعد ذلك إلى خارج تركيا من أجل تحقيق الأهداف ذاتها ولكن على مستوى عالمي. ويعتبر "منتدى أبنت" أحد المؤسسات التابعة لـ"وقف الصحفيّين والكتّاب" الذي كان قد تأسس بمبادرة من الأستاذ "فتح الله كولن" سنة ١٩٩٤.

سمعنا من رئيس وقف الصحفيين والكتاب قصة نشأة الوقف، وكيف تطورت أهدافه ونمت مشروعاته، وكيف انبثقت منه فكرة منتدى "أبنت" للحوار، وكيف أضحى المنتدى مستقلاً في إدارته وفي نشاطاته عن وقف الصحفيين والكتاب. وتبين أن الفكرة الأساسية الموجهة لهذا المنتدى هي فكرة "الحوار المدني"، وهي من أفكار الأستاذ "فتح الله كولن" من أجل تكوين قاعدة صلبة للمشاركة في الشؤون العامة، والتوصل إلى أفضل الحلول للمشكلات التي تواجه المجتمع التركي، ثم اتسعت آمال أصحاب المنتدى إلى النطاق العالمي، وأضحى المنتدى "نموذجاً" يبرهن على إمكانية التعايش بين المختلِفين، والتعاون فيما هو متفق عليه، واحترام وجهات نظر المخالفين، مع إعمال التفكير النقدي فيها لتوسيع القواسم المشتركة وتضييق مواطن الاختلاف قدر المستطاع.

درس "المشاركة" في الشأن العام انطلاقاً من مفهوم المجتمع المدني والسياسة المدنية، عبّر عنه بعض المشاركين في منتدى "أبنت"، ولكن بطريقة مختلفة عن تلك التي وجدناها عند مؤسسة كاترنج في دايتون الأمريكية؛ هناك في دايتون كان همهم الأساسي هو كيف يمكن تقوية الثقافة المدنية الكفيلة باستعادة المواطنين إلى السياسة وشؤون المجال العام، وكيف يمكن ترميم الديمقراطية الأمريكية بعد أن أصابها الوهن وتهدمت بعض دعائمها. أما في "أبنت" فقد كان الهم الأساسي هو كيف يمكن بناء المجال العام، وكيف يمكن تهيئة البنية الأساسية للممارسة الديمقراطية، أو الشورية. كان ذلك واضحًا في الملتقيات الماضية للمنتدى، وحتى في الملتقى الأخير في يوليو الماضي -رغم أن موضوعه كان عن سياسات العولمة وانعكاساتها على مستقبل الشرق الأوسط- وقد عبر عن هذا الدرس بوضوح وعمق في آن واحد البروفسور "كمال كَارْبَات" -وهو أحد أشهر أساتذة التاريخ في تركيا- وذلك عندما شدد في كلمته بالمنتدى على أن لب المشاكل التي تعاني منها بلدان الشرق هي "أن المجال العام في هذه البلدان لم يتطور، ولذلك اتسعت الفجوة بين الشعوب والحكام، وما لم يتطور المجال العام، وينخرط فيه أكبر عدد ممكن من المواطنين، فسوف يظل الاستقرار بعيد المنال، وسوف يظل التحديث ضرباً من الخيال". هكذا تحدث كمال كَاربات، والحق معه فيما قال. هناك مشوار طويل أمام مجتمعاتنا في الشرق لتعلم درس المشاركة وتحويله إلى ممارسة مؤسسية، وهذا أحد أهم الدروس التي تجتهد فيها "مدرسة المجتمع المدني في تركيا"، ويسهم فيها منتدى أبنت بسهم وافر.

بعد الرحلتين؛ إلى الولايات المتحدة الأمريكية في الغرب، وإلى تركيا في قلب الشرق، وبعد أن تبين ما هنالك من هموم مشتركة، وجهود متشابهة تسعى للتغلب على المشكلات التي تعاني منها الإنسانية المعاصرة، قلت: لا بد من إعادة النظر في قول كيبلنج -شاعر الإمبراطورية البريطانية العجوز- "الشرق شرق، والغرب غرب، وهيهات أن يلتقيا"، فهما قد يلتقيان، وقد بدءا يلتقيان في بعض الحالات، حتى وإن حاول محترفو السياسة الإبقاء على الفرقة بين الشعوب والأمم. فمن مصلحة البشرية أن يلتقي بنو آدم جميعاً؛ كانو في الشرق أم في الغرب، في الشمال أم في الجنوب. وقبل أكثر من خمسة عشر قرناً قرر الإسلام العظيم المساواة بين البشر جميعاً، وأكّد أن كلنا لآدم وآدم من تراب، وأنه لا فضل لعربي على أعجمي، ولا لأبيض على أسود إلا بالتقوى والعمل الصالح.[1] ■

(*) أستاذ العلوم السياسية - جامعة القاهرة / مصر.

(1) مجمع الزوائد، ٤/٩٨.



المنهج الروحي في حياة الأستاذ سعيد النورسي

أ.د. محمد سعيد رمضان البوطي*

قالوا: "كان التصوف في صدر الإسـلام مسمّى لا اسم له، ثم أصبح اليوم اسماً لا مسمّى له".

وأقول هي كلمة صحيحة ودقيقة؛ فإن المسلمين في صدر الإسلام كان همّهم الأول تزكيةَ النفس الأمارة بالسوء، والسـموّ بها في مدارج التربية إلى مرتبة النفس الراضية والمطمئنة دون أن يدعوا لذلك اسماً غير الاسم الذي سماه الله ﷻ به، وهو الجهاد التأسيسي الذي يبدأ بتزكية النفس وتربيتها، وهو العمود الفقري في منهاج السلوك إلى مرضاة الله.

ثم إنه خلَف بعد ذلك الرعيلِ الأول خلف، أفردوا لهذا المنهج السـلوكي اسماً جديداً لا عهد لمن قبلهم به، وما لبثوا أن أولوه أهمية بالغة من حيث إنّ هذا المنهج التربوي هو المدخل الذي لا بدّ منه لسائر أنواع الصلاح الفردي والاجتماعي.

غير أن الاهتمام بالاسـم الجديد تغلب شـيئاً فشـيئاً على الاهتمام بالمسـمى القديم، فتولد من ذلك تيار من الانجذاب إلى

كلمة التصوف. ولا ريب أن العامل الأول لهذا الانجذاب إنما كان اقتران الكلمة بأعمال التربية النفسية التي هي لباب السير على صراط الله ﷻ، ومن ثم فهي لباب الإسلام. ولَعلَّ رجال "الرسالة القشيرية" من أبرز من يمثلون هذا العهد.

ثم جاء على أعقابهم خلف آخر غدت كلمة التصوف عندهم أشبه بقُبّة ليس في داخلها مزار، ولقد امتدّ عهد هذا الخلف إلى عصرنا الذي نحن فيه. إنك تتأمل فتجد أن التعامل اليوم إنما هو مع بريق هذه الكلمة وما يشعّ منها -بحكم الاقتران الطويل- من مظاهر الصلاح والتقوى وأصولِ الإرشاد ومناهج التربية والسلوك إلى مرضاة الله. وعندما تبحث عما تحت هذه الكلمة من هذه المضامين لا تجد شيئاً. وهكذا فقد غدا التصوف اليوم -كما قالوا- اسماً لا مسمى له.

النورسي الاستثناء

غير أن من المعلوم أنه ما من قاعدة إلا ويعتريها شذوذ، وما من عموم إلا ويلحقه استثناء، فلا يزال في المتصوفة من هم على سنن الرعيل الأول. وإني لأجد أن سيرة الأستاذ المرشد سعيد النورسي، كانت مظهراً لهذا الاستثناء. كانت مظهراً لحال الرعيل الأول من المسلمين؛ إذ كان التصوف عندهم مسمى لا اسم له. ولا ريب أن في عالمنا العربي والإسلامي من يَشرَكه في هذه الحال الاستثنائية. ولكنهم قلّة لا يتجاوزون عدد الشذوذ من القاعدة والاستثناء من العموم.

في أكثر من موضع في (اللمعات) يصرح الأستاذ النورسي رحمه الله بأنه ليس صوفياً. ولكنه في كل ما يخاطب به تلامذته من فنون النصح والتربية والإرشاد، لا يخرج عن ذلك اللباب الذي كان هو مسمى التصوف بل مسمى الإسلام في عصر السلف الصالح رضوان الله عليهم.

ولقد كان في مقدمة العوامل التي أكرمته بالصفاء الروحي وأيّدَته بالإلهام الصائب والفتوحات الربانية تلك الساعات الطويلة التي كان يأخذ نفسه فيها بالأذكار المأثورة والأوراد التي تنسب إلى كبار الأولياء والمرشدين، كالأوراد القدسية للشاه نقشبند، وكالجوشن الكبير الذي كان يقرؤه ويوصي بقراءته؛ كما كان من أهم تلك العوامل خلواته الكثيرة والطويلة التي يمضيها في شواهق الجبال، وأحياناً على مقاعد في أعالي الأشجار، يحاسب فيها نفسه ويراقب فيها ربَّه، ويتأمل صفات الخالق في مرآة مخلوقاته الكونية. وهل كان ذلك كله إلا جزءاً من المسمى الذي لم يكن له في صدر الإسلام هذا الاسم الذي شاع له من بعدُ "التصوف". ولكنه كان -كما قلتُ لكم- لُباب الإسلام ومكنونه، وكانت علاقته بأحكامه السلوكية الظاهرة، كعلاقة الروح بالجسد.

سنوحات ربانية

ولقد كان من نتائج هذه العوامل سنوحات ربانية عُلوية، يفيض بها قلبه، تعلو به في سلّم المقامات، وترقى به إلى أعلى تلك الدرجات. من هذه المقامات أن يصل السالك من جهوده وجهاده إلى نكران الذات والفناء في المنعِم ﷻ والرقي إلى أعلى درجات الإحسان، وهو عدم شعور العبد بإحسانه، وذهوله عن أحواله ومقاماته.

وإليكم بيانه لهذه الرتبة التي لا يتذوقها ولا يرقى إليها إلا من أخذت بمجامع نفسه نشوة العبودية لله، وناله منها ما يشبه السُّكْر، يقول: "قال لي أحد الأتقياء في قسطموني شاكياً: لقد ترديتُ وتقهقرتُ عن حالي السابق.. إذ فقدتُ ما كنت عليه من أحوال وأذواق وأنوار. فقلت له: بل ترقّيتَ، واستعليتَ على الأذواق والكشوف التي تلاطف النفس وتذيقها ثمراتها الأخروية في الدنيا، وتعطيها الشعور بالأنانية والغرور.. وقد طرتَ إلى مقام أعلى وأسمى، وذلك بنُكران الذات وترك الأنانية والغرور، وبعَدم التحري عن الأذواق الفانية.. نعم إن من الإحسان الإلهي للعبد أن يُنسيَه إحسانَه بفنائه عن نفسه التي لا حول لها ولا قوة ولا وجود إلا بالمحسِن الأوحد وهو الله سبحانه".[1]

أليست هذه السنوحات من المسميات التي لم يكن لها في صدر الإسلام اسم مختصّ به؟ لقد كان لها حضور بارز في ذلك الصدر الأول، ولكن لم يعبَّر عنها إلا بما سماها الله تعالى به، وهو تزكية النفس والصعود الدائم في درجات الإحسان.

ولقد كان من آثار هذه العوامل أيضاً تنامي مشاعر الخشية من الله بين جوانحه، وهيمنةُ الرقابة الإلهية على قلبه، وتعاظم الخوف في نفسه مما هو مقبل عليه بعد الموت. وكلها مسمّيات قدسية لهذا الذي يسمى اليوم تصوفاً، ولكن لم يكن لها وراء اسم العبودية الضارعة لله تعالى حينذاك أي اسم مصطنع آخر.

ولنتأمل ترجمة هذه الآثار لديه في هذا الدعاء الواجف الذي صاغه الأستاذ النورسي رحمه الله باللغة العربية، وكان يناجي به ربه ﷻ في أوقاته الخاصة. يقول رحمه الله:

"يا إلهي الرحيم يا إلهي الكريم! قد ضاع بسوء اختياري عمري وشبابي، وما بقي من ثمراتهما في يدي إلا آثام مؤلمة مذلة، وآلام مضرّة مضلّة، ووساوس مزعجة معجزة... وأنا بهذا الحمل الثقيل والقلب العليل والوجه الخَجِل، أدنو إلى باب قبري.. بيت

الوحدة والانفـــراد في طريق أبد الآباد، مفارقاً هذه الدار الفانية الهالكة باليقين، والآفلة الراحلة، والغدارة المكّارة لا ســيما لمثلي ذوي النفوس الأمارة.

فيا ربي الرحيم ويا ربي الكريم! أراني عن قريب وقد لبســت أكفاني وركبت تابوتي، وودّعــت أحبابي، وتوجهت إلى باب قبري. فأنادي وأنا على باب رحمتك: الأمان الأمان، يا حنان يا منان، نجني من خجل العصيان.

آه.. كفَني على عُنقي، وأنا قائم عند رأس قبري، أرفع رأسي إلى باب رحمتــك، أنادي: الأمان الأمان، يــا رحمن يا حنان، خلّصني من ثقل حمل العصيان.

آه.. أنا ملتفٌ بكفني وساكن في قبري، وقد تركني المشيّعون، وأنا منتظر عفوك ورحمتك مشـــاهد بأن لا ملجأ ولا منجى إلا إليك، وأنـــادي: الأمان الأمان من ضيق المكان ومن وحشـــة العصيان، ومن قبح وجه الآثام، يا رحمن يا حنان ويا ديّان، نجني من قيود الذنوب والعصيان.

إلهي! رحمتك ملجئي ووســيلتي، وإليــك أرفع بثّي وحزني وشكايتي.

يا خالقــي الكريم، ويا ربي الرحيم، ويا ســيدي ومولاي! مخلوقك ومصنوعك وعبدك العاصي العاجز الغافل الجاهل العليل الذليل المســيء المسنّ الشقي الآبق، قد عاد بعد أربعين عاماً إلى بابك، ملتجئــاً إلى رحمتك، معترفاً بالذنوب والخطيئات، مبتلى بالأســقام والأوهام، متضرعاً إليك.. فــإن تقبل وتغفر وترحم فأنت لذلك أهل وأنت أرحــم الراحمين، وإلا فأيّ باب يُقصد غــير بابك، وأنت الرب المقصود والحق المعبود، ولا إله إلا أنت وحدك لا شريك لك.

آخــر كلامي في الدنيا وأول كلامــي في الآخرة وفي القبر: أشــهد أن لا إله إلا الله وأشــهد أن محمداً رسول الله صلى الله عليه وسلم".(٢)

تأمــل في هذه المناجاة التي لا تنبثق إلا من قلب ملتاع بلوعة التعظيم والخشــية والحب، فيّاض بمشــاعر العبودية الواجفة لله ﷻ.. وتَســاءلْ معي: مِن أين تفجّرت في قلبه هذه الأحاسيس العلوية المنصرفة بكليتها إلى الملأ الأعلى، والمعرضة عن ملكوت الأرض وزخارف الدنيا؟

أما إن هذه الأحاســيس لا تنبثق إلا من قلب مَن أخذ نفسه بأوراد الصباح والمســاء، وغذّى فطرته الإيمانية بالكثير من ذكر الله ومراقبتــه، وألزم نفســه بمنهاج دائم مــن التنقل في مدارج السالكين. وهل كان هذا إلا دَيدن الرّعيل الأول من المسلمين، وهل كان هذا في حياتهم إلا عملاً بدون عنوان مثير، ومســمى بدون اسم مصطنع؟!

وما أظن أن الأستاذ النورسي نفى اسم التصوف عن نفسه في أكثر من مناسبة وقعتُ عليها، إلا ليجعل من نفسه أمام الله تعالى فعّــالاً بتواضع وصمت، لا قوّالاً يتجمّل أمــام الناس بالعناوين والألقاب، ولعله أراد بذلك أن يشــد نفســه إلى عهد السلف الصالح فيســير على نهجهم وينهل من وِردهم، ويحقق بذلك في نفسه الشطر الأول من مقولة: "كان التصوف في صدر الإسلام مسمى لا اسم له..".

موقف الأستاذ النورسي من البدع

في الناس من يظن أنّ مِن شــأن الذين يكثرون الاهتمام بأسباب التزكية النفســية، وأحوال القلب ومقامات القرب من الله، أن يتســاهلوا في البدع وأن يذهلوا عن خطورة الركون إليها وعن شدة تحذير رسول الله ﷺ منها.

غــير أن الواقع مخالف لهذا الظن تمامــاً؛ فما تتبعنا حال من سلكوا -بصدق- مسالك التزكية النفسية واهتمّوا بمراقبة أحوال القلب وسبل التقرب إلى الله، إلا ورأيناهم من أكثر الناس ابتعاداً عن البدع ومن أشدهم تحذيراً منها. وارجع إن شئت إلى الرسالة القشــيرية وتأمل في تراجم رجالها، تجد الجامع المشــترك بينهم تلاقيَهم على نبذ البدع ومحاربتها.

والأستاذ النورسي وإن كان متأخراً عن الرعيل الأول وسلف هذه الأمة في الوجود، إلا أنه ليس متأخراً عنهم في المكانة والرتبة فيما نحسب، ولا نتألّى على الله.

فقد أكثر الأســتاذ في رســائله، وفي لمعه وفي إشعاعاته، من التحذير من ممارســة البدع باسم الدين، ومن التنبيه إلى ضرورة التمسك بأهداب السنة النبوية وعدم الخروج عليها. وهو إذ ينبّه إلى ذلك يلفت النظر إلى أن التمســك بالســنة النبوية والحرصَ الشــديد عليها وعلى عدم الشــرود عنها، هو دأب أولياء الله تعالى وشأن المرشدين الربانيين. يقول رحمه الله في اللمعة الحادية عشرة: "إنّ مَن يجعل اتباع السنة النبوية عادته، فقد حوّل عاداته إلى عبــادات، ويمكن أن يجعل عمره كله مثمراً ومثاباً عليه". ثم يقول: "لقد قال الإمام الرباني أحمــد الفاروقي رحمه الله: بينما كنت أقطع المراتب في السير والسلوك الروحاني، رأيت أن أسطع ما في طبقات الأولياء وأرقاهم وألطفهم وآمنهم وأســلمهم، هم أولئك الذين اتخذوا اتباع السنة الشريفة أساساً للطريقة". ويعلّق الأستاذ النورســي على كلام الإمام الرباني هذا قائلاً: "نعم إن

الإمام الرباني مجدد الألف الثاني ينطق بالحق. فالذي يتمسك بالسنة الشريفة ويتخذها أساساً له، لهو أهل لمقام المحبوبية في ظل حبيب الله ﷺ".[٣]

ومن هذا المنطلق ينكر الأستاذ النورسي رحمه الله على الشيخ محي الدين بن عربي فكرة وحدة الوجود، ولكنه لا يرميه بسببها بكفر أو زندقة أو فسوق، ولا يتجاهل سعة علومه وعمق أفكاره وعلوّ مقامه. يقول جواباً عن سؤال يتعلق بابن عربي رحمه الله: "إنك يا أخي بسؤالك هذا تضطرني إلى أن أناقش -وأنا الضعيف العاجز- خارقة الحقيقة وداهية علم الأسرار محي الدين بن عربي، ولكن لما كنتُ سأخوض في البحث معتمداً على نصوص القرآن الكريم، فسوف أستطيع أن أحلّق إلى أعلى من ذلك الصقر وأسمى منه، وإن كنتُ ذبابة." ثم يقول: "اعلم أن محي الدين بن عربي لا يَخْدع ولكنه ينخدع، فهو مهتد ولكنه لا يكون هادياً لغيره في كل ما كتبه، فما رآه صِدق وَصَواب ولكن ليس هو الحقيقة.."

وقد أطال الأستاذ النورسي في مناقشة أفكار ابن عربي رحمه الله، ملتزماً ضوابط اللياقة والأدب دون تجريح ولا اتهام له، وأتى بكلام دقيق مقنع يضيق هذا المقام عن نقله. وبوسعنا أن نوجز ذلك كله في قوله عنه: "ولما كان الشيخ قد انتهج مسلكاً مستقلاً، وكان صاحب مشرب مهم وله كشفيات ومشاهدات خارقة، فإنه يلجأ باضطرار إلى تأويلات ضعيفة وتكلف وتمحّل ليطبق بعض الآيات الكريمة حسب مشربه ومشهوداته، مما يخدش صراحة الآية الكريمة ويجرحها.. فالشيخ ابن عربي له مقام خاص لذاته، وهو من المقبولين، إلا أنه بكشفياته التي لا ضوابط لها، خرق الحدود وتجاوزها وخالف جمهور المحققين العلماء في كثير من المسائل"[٤]

أقول: ولم أجد في شيء من أحاديثه عن ابن عربي رحمه الله، ما يذكره جل المترجمين له من أن الباطنيّين دسّوا في كتابه "الفتوحات" كثيراً من الأفكار الباطنية والعقائد الكفرية التي يتبنّوها، منهم ابن العماد في كتابه "شذرات الذهب"، وابن المقري في "نفح الطيب"، والإمام الشعراني في "اليواقيت والجواهر"، وحاجي خليفه في "كشف الظنون". وأعتقد أن هذه حقيقة تعلو على الريب والظن. لا أدلّ على ذلك من أنك لا تجد في فتوحاته فكرة تناقض العقائد الإسلامية إلا وتجد في مكان آخر فيه ردّاً عليها وتحذيراً من الأخذ بها. تأمل في هاتين البيتين من تائيّته تجد أنهما ينطويان على نقيض وحدة الوجود ويقرران العقيدة الإسلامية المأخوذة من كلام الله وسنة رسوله ﷺ:

وجدتُ وجوداً لم أجد ثانياً له
وشاهدتُ ذاك الحق في كل صنعة
وطالب غير الله في الأرض كلها
كطالب ماء من سراب بقيعة

النورسي والتربية الروحية

وبعد، فكلنا يعلم أن الأستاذ النورسي ما إن تجاوز الأربعين من عمره حتى نفض فكره ويديه من السياسة وأحابيلها، واتجه في أنشطته الإسلامية إلى ميدان التربية وتزكية النفس ونقد الذات، وافتتح حياته الجديدة بقوله: "أعوذ بالله من الشيطان والسياسة".

كانت صلته بالناس الذين يرشدهم ويربيهم عن طريق رسائله التي يكتبها إليهم فتنتشر فيما بينهم، أما هو فكانت تتلقاه السجون سجناً إثر سجن، لا يتأتى له -إلا نادراً- الجلوسُ إليهم والتحاور معهم. ومع ذلك فقد أثمرت جهوده هذه كما لم تثمر جهود أي جماعة إسلامية أو حزب إسلامي؛ اتخذ من السياسة سلّماً للبلوغ به إلى عقول الناس وأسماعهم. ها أنتم ترون اليوم ثمار تربيته الروحية والسلوكية، يانعة متجددة على عَرض هذا المجتمع وطُوله، يبدد ضياءه الساطع ما تراكم من ظلمات الجهالة والفسوق والإلحاد. وكأنه ضياء أشرق للتوّ أو لكأنها تربية تلقتها الآذان والألباب بالأمس القريب.

فما السرّ الكامن وراء هذه الظاهرة الغريبة التي تتبدى في سطور ورسائل وكلمات مضى على توجيهها إلى الناس ما يناهز القرن من الزمن؟ السر يكمن في هذه الإشراقة الروحية التي كانت تتوهج بها حياة الأستاذ النورسي. لقد كان هذا الوهج هو الروح السارية في رسائله وكلماته، وكان مَعينه متمثلاً في ذلك الجهاد الخفي الذي كان يأخذ به نفسه، مراقبةً لله، وذكراً دائماً له، والتجاءً إليه بالأسحار، وملازمة للأوراد التي تصفّي القلب في البكور والآصال. وإنه للجهاد القدسي الذي كان في صدر الإسلام مسمى لا اسم له، ثم غدا اليوم اسماً لا مسمى له. ■

---

[*] كلية الشريعة، جامعة دمشق / سوريا.

الهوامش

[١] الشعاعات لبديع الزمان سعيد النورسي، ترجمة: إحسان قاسم الصالحي، ص ٣٧٤.

[٢] اللمعات ص ١٩٧-١٩٨ ؛ المثنوي العربي النوري ص ٢٨١-٢٨٢

[٣] اللمعات ص ٨١.

[٤] اللمعات ص ٥٢ و٥٣.



كلام بلا عمل هباء، وفقه بلا ورع ضياع،
وعلم بلا زهد جهالة، وصداقة بدون وفاء خداع،
وحياة بلا قلب موت وسراب...

***

أنفاس ظمئنا إليها...

إطلالة على الداعية المرتقب

نوزاد صواش*

ا

الدعوة إلى الله ليست مسألة مزاجية يزاولها الداعي قبل أن يعبأ لها فكريا ونفسيا وروحيا. ومن دون ذلك يمكن أن يؤدي عمله العشوائي والمزاجي إلى العكس من المرجو من هذه المهمة النبيلة. فالدعوة "علم وفن".[1]

الدعوة علم وفن

فما لم يكن الداعية على علم معمق بالذي يريد قوله، وما لم يكن على دراية بأقصر الطرق الموصلة إلى روح الإنسان فإن الإخفاق سيكون من نصيبه. وإن آمادا بعيدة ما زالت تفصل بين الدعاة وجوهر الإنسان، وإلى هذا يعزى فشل الداعية في كسب المخاطب إلى صف دعوته. فما لم يكن بوسع الدعاة الوصول إلى هذا الجوهر الذي يقوم عليه كيان الإنسان، ثم إزالة ما تراكم عليه من صدأ كي يتألق من جديد ويتبين معدنه النقي النفيس فإن الإخفاقات ستتوالى بدون انقطاع.

نعم، "إذا كان الإنسان جزء مهما من هذا الكون فينبغي ألا نسمح له بتدمير نفسه وسحق روحه، لأن دمار هذا الجزء المهم من الكون قد يسبب دمارا للكون كله. فنحن مسؤولون كونيا وأخلاقيا عن هذا الجزء وصيانته من الانهيار، ولن نسمح له بأن يخرج على التوافق الكوني المدين بدين الله".[2] فقضية الإيمان قضية تتعلق بالكون كتعلقها بالإنسان، وإن صلاح الكون بصلاح الإنسان، وفساده بفساد الإنسان.

ومن ثم على الدعاة أن يعوا هذه القضية كل الوعي بأبعادها الكونية والإنسانية، وأن يرتفعوا إلى مستوى المسؤولية. وذلك بإخصاب أرواحهم وإذكاء أفئدتهم وشحن أذهانهم وموازنة حياتهم وتعميق رؤاهم الإيمانية. وأن يدوروا مع الزمن حيثما دار، ويجروا مع الحياة حيثما جرت، ويركضوا وراء الإنسان حيثما مضى، وإلى أي عالم كان انتماؤه، وأي ثقافة كانت ثقافته ولغته.

في عصر العولمة هذا، أصبح للعقل الجمعي قوة تأثيرية أوسع وأسرع مما تستطيعه العقول بجهدها الفردي. فقيادة العالم وإحداث التغيير فيه نحو الأسوأ أو الأفضل، يمكن أن يكون أكثر فاعلية إذا مارست العقول نشاطاتها الذهنية والمعرفية من خلال المؤسسات، سواء كانت هذه المؤسسات علمية أو اجتماعية أو اقتصادية أو ثقافية أو أخرى.

السكونية والحركية

ليس هناك شيء أكثر خطورة على المسلمين من السكون والاسترخاء والاستسلام للنوم والأحلام. "فالسكونية عفونة روحية تقتل المواهب وتحطم الإبداع وتخنق البطولة وتكتم أنفاس العبقرية. ومنذ مات النازع الحركي في المسلمين، وتوقفوا عن الهجرة والانسياح في أرجاء الأرض حاملين دعوتهم إلى العالم... منذ ذلك الوقت توقفت إبداعاتهم وغاب فهمهم ونجمت في أوساطهم إشكالات فكرية موهومة وخصومات مذهبية جدلية، وانشغل بعضهم ببعض، وربما قاتل بعضهم بعضا، متناسين مهمتهم الدعوية الأساس التي ندبهم الله تعالى إليها. إن دعاة الإيمان إذا ما ساحوا وهاجروا إلى أي مكان في العالم وضربوا جذورهم فيه، فإن الشجرة لا بد أن تنبت عن قريب، وأن تورق وتثمر، وإن تاريخا جديدا للإسلام سيبدأ يتشكل في المكان الذي زرعوا أنفسهم فيه."(٣)

وهذه طبيعة الإسلام، فالإسلام يأبى السكونية والهمودية ويأبى المحدودية، وقد هاجر المسلمون الأوائل وهم يجرون في العالم حيث يجري بهم الإسلام. وإذا كان العالم قد استنزفته اليوم قوى الغرب وقيمه وسلوكياته النفعية، وأفرغته من كثير من قيم الإيمان، فإن هذا يحتم على المسلم أن يبادر بنفسه لكي يعيد لإنسان اليوم عمق الهدفية الإلهية في نفسه.

ومن المنطلق حث فضيلة الأستاذ فتح الله كولن رجال التربية والاقتصاد والثقافة وأهل الحمية من الشعوب مرات عديدة وبمناسبات شتى على إنشاء مدارس وجامعات في تركيا وفي مختلف أرجاء المعمورة، وجعلها مراكز للتربية والتعليم، تدعو إلى الحب والسلام، والحوار والتسامح، ومزج العلم بحقائق الإيمان، ومواكبة العصر من حيث التطورات العلمية والتكنولوجية، مع أخلاق سامية يشار إليها بالبنان. وربما يكون هذا أسلوبا جديدا غير مسبوق في تعريف الشعوب برسالة الإسلام السمحة. وقد أثبت نجاحَه حيث استطاع أن يوصل صوت الإيمان إلى أصقاع قصية لم تكن قد سمعت بالإسلام وسماحته في شرق العالم وغربه وشَماله وجنوبه وكافة قاراته.

الانفتاح على معطيات العصر

إن الدعوة إلى الله منفتحة على معطيات العصر في العلوم والفنون والأفكار المتنوعة والثقافات المختلفة. وذلك لإكسابها مزيدا من الاحترام في أوساط واسعة من المثقفين والمفكرين في شتى أنحاء العالم. ينبغي على المسلم أن يكون هو الأرقى والأفضل بين العقول، وأن يحتل كرسي الأستاذية التي يرجع إليها في أمور الثقافة والحياة والإيمان، وألا يكون منكفئا ومنغلقا وبعيدا عن الواقع.

أجل لا شك أن العقلية الحضرية رافد من روافد تشكيل العقل الدعوي، إلا أنها يجب ألا تستعبد الداعية يوما، ولا يكون هو سجين نظريات وآراء، بل حرا يقبل منها ما له ملمح إيماني، ويترك ما ليس له مثل هذا الملمح، وهو لا يعرف هذا الصراع المؤلم بين ما يقرؤه فكرا ويحياه عملا. الفكر عنده هو الحياة، والحياة عنده هو الفكر.

والداعية كتاب مفتوح، كل صفحاته وسطوره مقروءة ومكشوفة، ليس فيه صفحات مطوية عن العيون أو صفحات مكتوبة بالحبر السري. وكما كان رسولنا الحبيب صلى الله عليه وسلم سفرا مفتوحا يقرؤه من يريد، من تاريخ ميلاده إلى انتقاله إلى الرفيق الأعلى، هكذا تكون حياة أصحاب الدعوات وأفكارهم. حياة كلها نهار لا ليل فيها، وضحى واضح لا لبس فيه، وظاهر لا باطن له.

إنقاذ الإيمان

الداعية إلى الله لا يزاحم أهل الدنيا على دنياهم ولن يزاحمهم. إن الدنيا نفسها لو جاءته تسعى لعزف عنها وأدار إليها ظهره. إنه مشغول بدعوته، بإنقاذ إيمان الناس. إن إنقاذ إنسان واحد من وهدة الضلال هو خير له من الدنيا وما فيها. وإعادة إيمان غائب إلى قلب إنسان هو أعظم ما يطمح إليه، وإيصال صوت الإيمان إلى أسماع من لم يسمع به هو غاية الغايات عنده. هذه هي دعوته يعلنها على رؤوس الأشهاد لا يكتم منها شيئا ولا يخفي منها شيئا.

التركيز على جوهر الإنسان

إن معالجة الجفاف الروحي والجدب الفكري لدى المسلمين هو من أبرز مهماتنا. وجهلنا بالإنسان يجعلنا نقف حائرين تجاهه، ومن ثم علينا أن نهتم بالدراسات التي تعمل على كشف أسرار الإنسان ظاهرا وباطنا، ونشجع الدعاة على التخصص بها لكي تتوفر للدعوة معلومات عن كينونة الإنسان وكيفية التعامل دعويا معها، والتعمق في حقيقتها. لأن الفوضوية الروحية تجتاح العالم اليوم وتستدر العطف والإشفاق من أصحاب الغيرة على الإنسان.

إن سر قوة الدعوة هو في تطابقها مع قوانين النفس البشرية. والذين سئموا من التحليق حول جيف الدنيا سيجدون في أجوائها ما يتوقون إليه من الطهر والنقاء، وأصحاب الذهنيات المعذّبة والنفوس المحترقة سيرون واحتهم البرود في إقليمها. أما اولئك الذين يتهيبون الإسلام ويخافون منه فسيلمسون ألا شيء أكثر أمنا وأمانا وسلاما من الالتجاء إلى حماه، وأن المعرفة كل المعرفة فيه، وأن من لا يعرفه فإنه لا يعرف في الحقيقة شيئا. وسكارى الأحزان ومسحوقو الأوجاع سيجدون في صيدلية هذه الدعوة البلسم والشفاء.

إن الدعوة كلها دعاء، وليست شيئا آخر غير الدعاء. دعاء بلسان الحال أو بلسان المقال. وبين الحال والمقال ترتفع الليالي مثقلة بالتهجدات، موقورة السمع بالتضرعات، نضاحة بدمع القلوب، صراخة بوجد الأرواح. وركب الدعوة يمضي في طريقه مشرقا أو مغربا يقوده صواب المنطق، وتحدوه فطنة الحكمة، ويأتيه المدد الإلهي من كل جانب، وتواكبه العناية الربانية حيثما مضى وأنى ألقى عصا ترحاله.

فالداعية يحذر من الهلاك الروحي المخيف، والسقوط في هاوية الانحلال النفساني الداخلي. إنه لا ينفك يدعو اولئك الذين يريدون الخروج من مستنقع الوحل ولكنهم لا يعرفون السبيل إلى ذلك، إنه يدعوهم إليه لينخرطوا في صفوف الإيمان.

الحوار مع الآخر

إن سر الدعوة يكمن في علانيتها ووضوحها وعموميتها، وفي المرونة التي تؤهلها لمحاورة الآراء والأديان والثقافات المختلفة، لتكشف لهم عن حقيقة رسالتها، وتزيل التساؤلات التي تثار حولها، وتعبر عن ذاتيتها بنفسها، ولا تدع لأحد مجالا لتشويه صورتها.

إن الدعوة كائن روحي في إهاب بشري، شخص معنوي ذو ذاتية مستقلة، لكنها منفتحة على جميع الذوات، وذو إدراك عال، غير أنه ملزم بمخاطبة جميع الإدراكات. "وإذا كانت دعوة الإسلام قد غيرت وجه العالم القديم، ورسمت خارطة جديدة لفكره الديني، فهي اليوم مرشحة كذلك للقيام بالدور نفسه إذا ما وجدت ممثليها الحقيقيين.(٤)

الداعية المرتقب

الداعية المرتقب كيان إنساني مشع لا يتوقف عن بث شعاعه. فكما أن بعضا من عناصر الطبيعة المشعة لا تستطيع أن تكف نفسها عن الإشعاع، وكما أن الشمس لا تستطيع التوقف عن إرسال ضوئها إلى الأرض، والقمر لا يقدر أن يحرم الليل من نوره، هكذا الإنسان الداعية لا يمكنه أن يحبس نوره عن الآخرين أو يستر ضياءه عنهم، لأن الدعوة لهب يشعل ذرات دمه، وضياؤه يموج في حنايا ضلوعه. فهو يضيء في أي مكان يحل فيه أو يرتحل عنه.

فلو انهار الكون فجأة، وتناثرت كواكبه، واصطدمت أجرامه، وسقطت السماء على الأرض، وكادت القيامة تقوم وفي يد الداعية فسيلة نور، فإنه يبحث عن قلب يزرع فيه فسيلته قبل أن يغدو العالم رمادا تذروه رياح العدم. ولأن العطاء عنده صار طبيعة وسجية فهو لا يستطيع أن يتوقف عن العطاء، كما لا يرجو سوى مرضاة الله تعالى أجرا. لذا فإن دائرة مستمعيه في اتساع، وصوت دعوته في ارتفاع.

دعاة الإسلام الحق إخوة البشر وأشقاء الإنسان، لأنهم يمتون بنسب إلى كل قلب، يرثون للأرواح السليبة من النور، وللقلوب المجدبة من فجر اليقين. إنهم أطباء القلوب، وكما تنبجس الحياة من الموت، هكذا وبلمسة منهم تنفجر الحياة في موتى القلوب. لذلك صاروا مثابة يؤمهم الجم الغفير من أخيار الناس طلبا للنجاة والشفاء. هؤلاء هم الدعاة العالمون العاملون، أما اولئك الذين يعلمون ولا يعملون فإنهم كالثقوب السوداء لا تعكس نورا إلى شيء.

إن الداعية المثالي بطل ثابت الجأش متماسك النفس قوي الإرادة، صاحب رصانة علوية، نبيل الفكر والروح دائم التوثب، لا يخفت حماسه، ولا ينطفئ وجده، لا يعيا ولا يكل، في روحه تسكن أمجاد أمة وتاريخ إيمان وفجر الأبد ويقين الخلود. إنه عالَم متين من القوة التي لا تعرف الضعف والانهزام، يجيش قلبه بالرأفة على اولئك التائهين الضالين من بني الإنسان. وعلى وفرة رجولته ورجاحة فضله

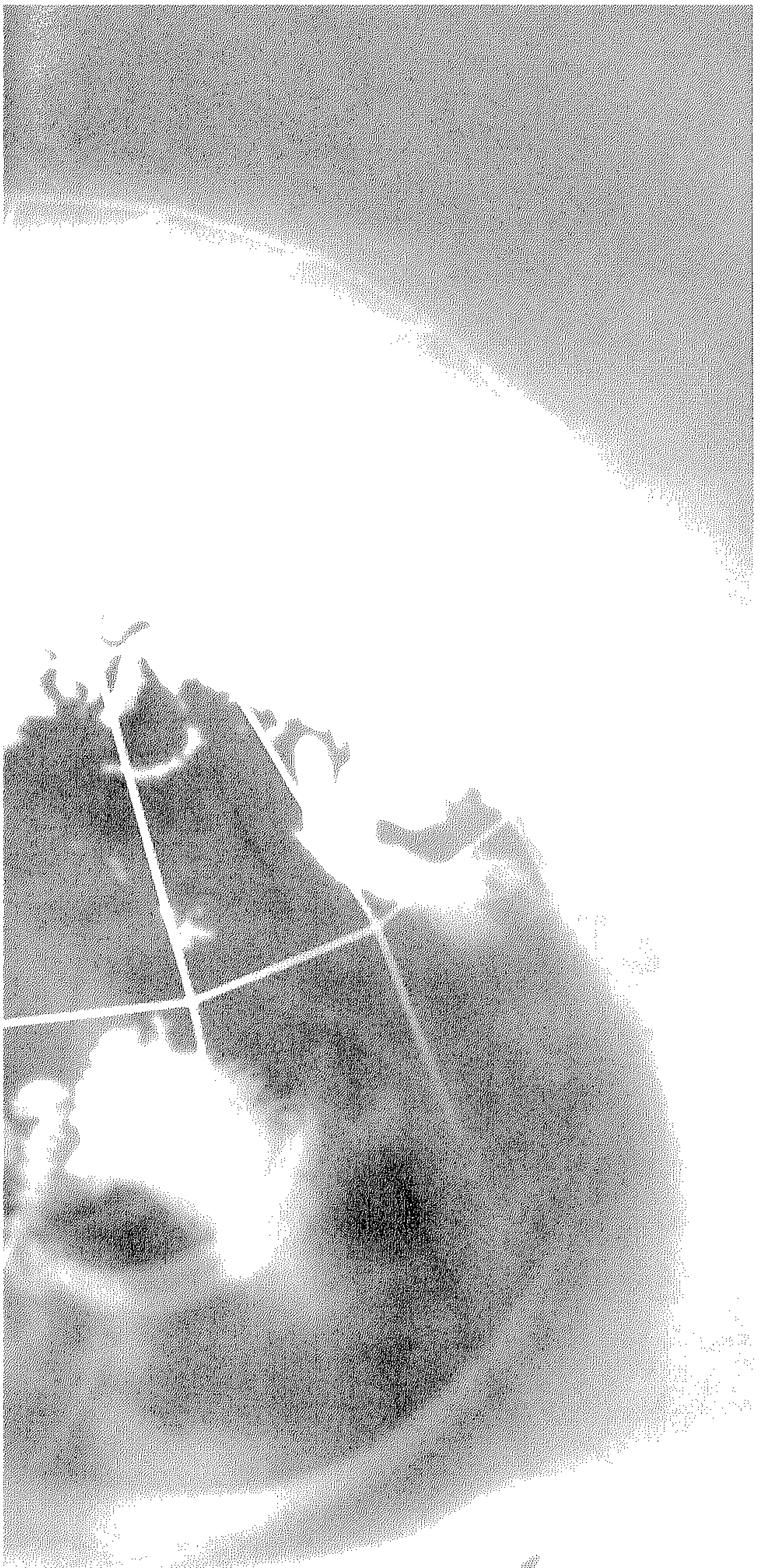
جم التواضع، صوام اللسان إلا عند الضرورة، لا يثير ضجيجا، ولا يقيم مناحة، لا يتفجع ولا يتشكى. إنه يدور مع القدر حيث دار، ومع القدرة يستمد منها القوة، ويطلب منها المدد.

يقول صاحب كتاب طرق الإرشاد في الفكر والحياة: "اعلموا أن الغرب لن يستجيب لدعوتكم إلا إذا وجد أمامه أناسا تنفطر قلوبهم حزنا من أجل خلاص الإنسانية، وإشفاقا عليها... أناسا يقضون لياليهم بالتهجد والقيام لله، وألسنتهم رطبة بذكر الله، لا يهدرون الوقت عبثا، بل يقضونه بما يفيد البشرية وينفعها. أجل، الغرب لن يسلّم روحه إلا أناسا مشحونين بمثل هذه الطاقة. فإذا أصبح ممثلو الإسلام على هذه الشاكلة، فسيهرع الغربيون إلى الإسلام ويدخلون في دين الله أفواجا. ولكن، والحالة معكوسة، فقد تجلت النتيجة معكوسة أيضا".[٥]

إن عظماء الدعاة مشغولون دائما بأقدس الأفكار وأطهرها. "فهم يعلمون جيدا أن المسلم عنصر أساس في نظام العالم، فكما لا يمكن الحديث عن النظام في عالم خال من المسلمين، كذلك لا مجال للإرهاب والفوضى في أماكن يوجد فيها المسلمون. وهذا منوط بأداء المسلم وظيفة التبليغ والتمثيل حق الأداء."[٦]

فهم يراقبون أنفسهم ويسارعون في ترميم ما ينهار من عزائمهم وما ينصدع من إرادالهم باللجوء إلى كتاب الله والاستمداد من نور رسول الله صلى الله عليه وسلم. واغترابهم الروحي ميزة عالية ينجذب إليها من يرى فيها استعلاء على تفاهات البشر. وعلاقاقم الحميمة مع "جنس الإنسان" تفتح لهم منافذ الاتصال بالعالم. وما يلاقونه في سبيل الدعوة من عقبات صغيرةً كان أو كبيرةً لا تثبط هممهم ولا تقتل رجاءهم.

إنهم أذكياء اللب شهماء الأفئدة، على قلوبهم مدونات نورانية من عالم الغيب. فقلوبهم في جيشان دائم لا يتوقف، وصدرورهم تنطوي على رغبة في اعتناق كل البشر. إنهم بشريون حقا ولكنهم في قلوب ملائكية، وآدميون ترابيون، إلا أن أرواحهم تسبح في الملأ الأعلى. ■



شجرة الإخلاص

لا تتكلَّمْ قبل أن تَغْمس لسانَ قلبكَ برحيقِ رُوحك لتتهافَتَ عليك الضمائر تَهافتَ الفَراش على رحيق الزَّهر، وكم من القلوب ستغتسل بأضواء قلبك عندما تورقُ شجرة إخلاصك..

(*) كاتب وباحث / تركيا

الهوامش

(١) طرق الإرشاد في الفكر والحياة، تأليف: م. فتح الله كولن. ترجمة: إحسان قاسم الصالحي، دار النيل للطباعة والنشر، ص ١٠٣ وما بعدها.

(٢) المصدر السابق.

(٣) نحو الفردوس المفقود، فتح الله كولن، كتاب لم يترجم بعد، ص ٦-٧

(٤) انظر طرق الإرشاد في الفكر والحياة، ص ١٨٥-٢٠٨

(٥) المصدر السابق، ص، ١١١.

(٦) المصدر السابق، ص، ١١١.

الضاربون في الأرض

أديب إبراهيم الدباغ*

شباب أطهار، ذوو قلوب فتية نابضة بالإيمان، وإرادات شمّاء، وعزائم لا تعرف المستحيل، يقود خطاهم إلى فجاج الأرض شوق مُبَرِّح، ويلهّب حماسهم فكر دعويّ إبداعي، ورؤية فيّاضة بالوضوح، وحدّة في البصر والبصيرة... أخذوا كتاب الله بقوة، وضَمّوه إلى صدورهم وكأنه عليهم يتنـــزَّل، وإياهم يخاطب، يحرصون عليه حرصهم على ماء عيونهم، ويرومون إيصال رسالته إلى أيِّ إنسان في أيِّ مكان من العالم، حتّى لو خاضوا إليه أشدّ البحار نأياً واستيحاشاً، أو جابوا إليه قرارة الكون، أو غاصوا إليه طبقات الأرض، أو اعتلوا إليه أطباق السماء... معهم مدرسة ينشئونها، وكتاب يدرسونه ويدرِّسونه، وقلَم يُعَلِّمون به ويتعلمون منه. إذا ما رأيتهم في حومة الفكر أو العمل، وهم يشفون عن روح مشرق، وقلب وَضّاء، وفكر خصب.. لك أنْ تتساءل: أهم أَنْداء سماوية منهلّة على عطش الأرض، وجَدب الحياة؛ أم هم جنس إنساني جديد غير هذا الجنس، انشقت عنهم أرض غير هذه الأرض؛ أم قذفتْ بهم أمواج الغيب على ضفاف الدنيا لكي يشاركوا في إصلاحها قبل أن تطيش وينقلب عاليها سافلها.

أما البؤساء المثقلون بالآلام والدموع والدماء فهم يرقبونهم من بعيد، رافعين نحوهم أذرُع الضراعة، ومعبرين عن شوقهم للقياهم ومنتظرين يدهم الآسية، وروحهم المواسية، وقلبهم المعَزّي، ونداهم الهابط على القلب القاحل، والنفس اليابسة، والذهن الناشف. إنهم طاقة إيمانية كبرى أحسبها لو سلطت على جبل لجعلَتْه دكّا ولخرّ صَعِقاً.

إنهم إبداعيون ابتكاريون، غير تقليديين، قادرون على تجديد فكرهم الدعويّ بين يوم وآخر، وفي ذهنهم دائماً السؤال الملحّ: هل من المحتمل أنه على الرغم من كل التجارب الدعوية التي عرفناها وعرفها الدعاة منذ قرنَين من الزمن فإننا ما نزال نعاني من السطحية والضبابية في الفهم والعمل؟! وهل من المحتمل أننا قد أخطأنا فهم تاريخ العمل الدعوي وقصرناه على أنماط تقليدية واحدة ولم نحاول التجديد فيها، وهذا هو الذي يسبب لنا اليوم الكثير من الإحباط؟! أجل إنَّ ذلك قد يكون محتملاً.

وكما يضرب هؤلاء الفتية في الأرض -كُلِّ الأرض- لا يَصُدُّهم شيءٌ، ولا يحول بينهم وبين مبتغاهم حائل، فإنهم يضربون كذلك في "النفس البشرية" وينطلقون وراء أشدّ تخوم النفس ظلمةً، وأكثرها رعباً واستعصاءً، حيث تتصارع في الأعماق مئات من الـــ "أنا" ليصالحوا بينها، وينشروا الأمن والسلام في أرجائها، ويسلكوا بها نحو "المعرفة القرآنية" التي تسوّي جميع صراعات الإنسان مع نفسه ومع الكون ومع الله تعالى.

إنّه الإصلاح العقلي والروحي الذي ينشده هؤلاء الفتية لأنفسهم وللآخرين، وهم في الوقت نفسه يبشرون بطريقة جديدة للحياة يتعاون فيها "العقل القرآني" -إذا صَحَّ التعبير- مع جِدَّة التجربة، وشدّة المعاناة التي تنجي الإنسان من السطحية والتفاهة، وتشعره بقدسية الحياة من حيث كونها مرآة واسعة تعكس المفهوم القرآني في إعجازيتها وكونها آية من آيات الخلق والإيجاد.

والداعية من هؤلاء الفتية سهل هيّن ليّن، لا يبني حول نفسه جداراً عقلياً أو نفسياً، ولا يحيط نفسه بهالة فخمة لا يستطيع الآخرون أن ينفذوا منها إليه، بل هو على استعداد دائم لقبول الآخرين والاستماع لآرائهم والإفادة من تجاربهم بكل صدق وحميمية، وهذا هو الجانب الأخلاقي المطلوب من كل داعية يتصدى للدعوة إلى الله. ■

(*) كاتب وأديب / العراق



الهجرة

مشروع لبناء حضارة إيمانية جديدة

أ.د. عبد الحليم عويس*

عندما هاجر الرسول ﷺ من مكة لم يهجر قلبه تراب مكة ولا الكعبة الرابضة في قلب مكة، ولقد أعلن ﷺ ذلك بعبارة صحيحة عندما التفت إلى مكة وهو يودعها قائلاً: "ما أطيبك من بلد وأحبك إليّ! ولولا أن قومي أخرجوني منك ما سكنت غيرك." (رواه الترمذي)

وعندما هاجر الرسول ﷺ من مكة لم يهجر قريشاً ولا بني هاشم، فلقد كان يحب الجميع ويتمنى لهم الهداية والخير، كما أنه -وهو الوفي- لم ينس لبني هاشم -مُسلمهم وكافرهم- مواقفهم معه عندما قادَتْهم عصبية الرحم فحموه من كل القبائل، ودخلوا معه شعب أبي طالب يقاسون معه ومع المسلمين الجوع والفاقة، ولا يَمنّون عليه بذلك، مع أنهم على غير دينه، لكنه الولاء للأرحام.

هاجر عليه السلام ولكنه لم يهجر

فالرسول المهاجر ﷺ لم يهجر كل ذلك بل حمله معه في قلبه، يحنّ إلى ذلك اليوم الذي يعود فيه إلى مراتع الصبا، وإلى الرحم الذي وقف معه حتىّ قال قائلهم وسيدهم أبو طالب: "اذهب يا ابن أخي! فقل ما شئت فوالله لن أسلمك أبداً"، مع أنه لم يكن على دينه.

وإنما كانت هجرة الرسول ﷺ من مكة هجراً للوثنية المسيطرة التي لا يريد أصحابها أن يتعاملوا بمنطق الدين أو منطق العقل أو منطق الأخلاق. فهذه وثنية يجب أن تُهجر وأن يهاجر من مناطق نفوذها وإشعاعاتها.

وإنما هاجر الرسول، وهجر -إلى جانب الوثنية المسيطرة- تلك العصبية المستعلية التي تعرف منطق القوة، ولا تعرف منطق الحق، وليس في وعيها ولا في قاموسها أن تهادن الإيمان، وأن تترك مساحة للتفاهم والحوار، وبالتالي تصبح الحياة معها -بعقيدة إيمانية بعيدة عن إشعاعاتها- أمراً مستحيلاً.

إننا نريد أن يفهم مضمون الهجرة الإسلامية كما ينبغي أن يفهم، وأن تكون هجرة الرسول هي المرجعية لهذا الفهم. فقد بُعث محمد ﷺ "رحمة للعالمين"، فكيف تكون إذن رحمته بالقوم الذين انتسب إليهم، أو بالقوم الذين عاش معهم، أو بالأرض الطاهرة التي نشأ فيها، وتربّى في بطاحها وتنسم عبيرها، وشاهد جموع الزاحفين إلى أرضها الطاهرة من كل فج عميق؟!

إن رحمته -بالضرورة هنا- لا بد أن تكون أكبر من أي رحمة أخرى... ولهذا نراه ﷺ يرفض دائماً أن يدعو على أهل مكة، وحتى وهو في هذه اللحظة البالغة الصعوبة، عندما وقع في حفرة حفروها له في موقعة أحد، وتناوشته سهامهم من كل مكان، وسالت دماؤه الطاهرة على جبل أحد الذي كان يتبادل الرسول ﷺ الحب معه، لأن بعض قطرات دمائه الزكية قد اختلطت بتراب أحد الطاهر، فأصبحا حبيبين... حتى في هذه اللحظة البالغة الصعوبة لم يستطع لسانه الزكي، ولا قلبه التقيّ أن يدعو عليهم، ولا أن يشكوهم إلى الله، وإنما كان يردد على مسمع من الناس جميعاً: "اللهم اهد قومي فإنهم لا يعلمون"(متفق عليه).

وعندما كان يرى تمادي قريش في الحرب كان يتأسف عليهم ويقول: "يا وَيحَ قريش لقد أكلَتهم الحربُ، ماذا عليهم لو خلَّوا بيني وبين سائر الناس" (رواه الإمام أحمد في مسنده).

وكم راودته الجبال الشم -بأمر من الله- أن تطبق عليهم فكان يرفض ويقول: "أَرْجُو أَن يُخرج اللهُ مِن أَصلابِهم مَن يَعبد اللهَ وحده لا يُشرك به شيئا"(متفق عليه). وعندما جاءته فرصة السلام معهم أصرّ عليها، مع تعنّتهم في الشروط تعنّتاً أغضب أصحابه، لكنه كان يريد لهم الحياة، وألا تستمر الحرب في أكلهم، وألا يبقوا -وهم قومه وشركاؤه في الوطن- مستمرين في تأليب القبائل عليه لدرجة أنهم أصبحوا العقبة الكأداء في طريق الإسلام؛ مما يفرض عليه بأمر الله الجهاد لإزالة هذه العقبة، ونجح الرسول في إزالة عقبتهم بقبول شروطهم المجحفة، حبّاً لهم، وحفاظاً على بقائهم، وأيضاً لإفساح الطريق أمام دين الله.

أما حين دخل مكة ﷺ فاتحا فقد حافظ بكل قوة على كرامتهم ودمائهم، و لم يقبل مجرد كلمة خرجت من فم سعد بن عبادة ﷺ -أحد الصحابة والقادة الأجلاء- وذلك عندما قال: "اليوم يوم الملحمة" فنـــزع الراية منه، وأعطاها لابنه قيس وقال "لا، بل اليوم يوم المرحمة، اليوم يعزّ الله قريشاً".(١)

وعندما استسلمت مكة كلها تماماً، وقف أهل مكة ينتظرون حكمه فيهم مستحضرين تاريخهم الظالم معه، لكنهم سرعان ما تذكروا أنه الرؤوف الرحيم الطاهر البريء من رغبات الانتقام أو المعاملة بالمثل. فلما سألهم: "ماتظنون أني فاعل بكم"، قالوا: "أخ كريم وابن أخ كريم"، فرد عليهم قائلاً: ﴿لاَ تَثْرِيبَ عَلَيْكُمُ﴾ (يوسف: ٩٢)، وهي كلمة نبي الله يوسف عليه السلام التي قالها لإخوته، ومنها ندرك أنه اعتبرهم جميعاً إخوته، كأنهم إخوة يوسف عليه السلام، ثم أعلن العفو العام بتلك الجملة الخالدة: "اذهبوا فأنتم الطلقاء لوجه الله تعالى"(٢). فكأنه أنقذهم من الموت الزؤام عليه الصلاة والسلام.

دعوة لمهاجري العصر الحاضر

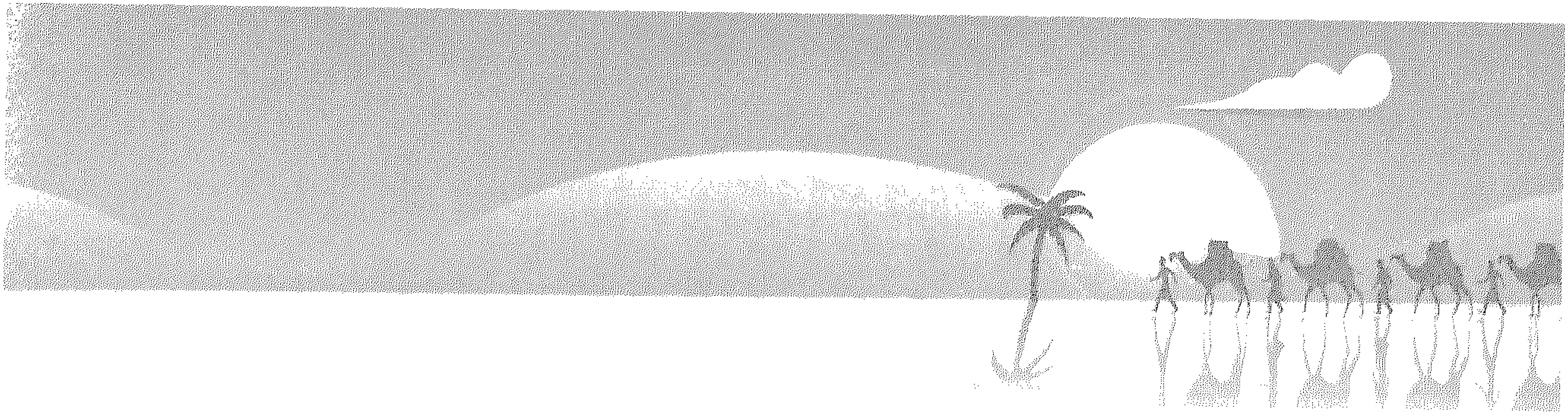
ونقول للمهاجرين من أبناء عصرنا لظروف مختلفة إلى أي بلد من بلدان العالم: هذه هي هجرة رسول الله ﷺ بين أيديكم، وهي كتاب مفتوح، فأمعنوا القراءة فيه لتدركوا منه أن هجرتكم من بلادكم -لأي سبب من الأسباب- لا تعني القطيعة مع أرض الوطن، ولا مع الأهل والعشيرة، ولا مع المسلمين في أي مكان، مهما تكن الخلافات الظرفية الطارئه معهم؛ بل يجب أن تبقى الصلة قائمة بينكم وبين الأهل والقوم، تمدونهم بأسباب الحفاظ على الدين من مواقعكم، لكي يثبتوا ويمتدوا بإشعاعات الإيمان إلى أكبر مدى ممكن، لاسيما ووسائل التواصل الآن في أقوى مستوى عرفته البشرية، وبالتالي تكونون قد وصلتم الرحم، وجمعتم بين الثلاثية المتكاملة التي تمثل بأركانها الثلاثة وحدة لا تنفصم، وإلا فقدت الأمة "مكانة الخيرية" التي رفعها الله إليها عندما قال: ﴿كُنْتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِاللهِ﴾ (آل عمران:١١٠) إنها ثلاثية الإيمان والهجرة والجهاد.

أجل! في عصرنا هذا يجب أن يعود معنى الهجرة إلى منبعه النبوي، فليست الهجرة هجراً للوطن، وقطيعة تاريخية أو معرفية معه، بل هي هجرة موصولة بالماضي، تعمل على تعميق الإيمان فيه، وتبني قلاعاً للإيمان في المهجر الجديد، وتصل بين الماضي والحاضر والمستقبل انطلاقاً من درس الهجرة النبوية.

التواصل مع ماضي المهاجر مطلوب

إن الحرية التي تريد أن تتمتع بها في مهجرك، والثروة التي تريد أن تكوّنها، وحتى الدعوة التي تريد أن تبلّغها -إن كنت ممن اصطفاهم الله للدعوة والبلاغ-... كل هذه تدفعك إلى التواصل مع الماضي من جانب؛ وتدفعك إلى بناء حدائق للإيمان يفوح عطرها في وضعك الجديد، وبلدك الجديد، من جانب آخر.

ليكن معنى الهجرة واضحاً في وَعيك، فهي ليست هجرة من أرض ولا أهل إلى أرض وأهل آخرين، بل هي هجرة من قيم ضيّقة ضاغطة تكبل حركة الإيمان، وتفتعل الصدام المستمر، وترفض الحوار بين الأفكار والعقائد، إلى قيم أخرى تسمح لأشجار الإيمان أن تنمو، وتسمح بالتفاعل والتحاور، ومواجهة الرأي بالرأي، والحجة بالحجة، وتكون مؤهلة لأن تسمح لأهل



الإيمان والحق أن يعيشوا كما يريدون، وأن يبنوا قلاع الإيمان في النفوس عن طريق الدعوة إلى الله بالحكمة والموعظة الحسنة، والجدال بالتي هي أحسن.

إن الهجرة النبوية الإسلامية هجرة يقصد بها كسر القيود التي تفرض على الإيمان، وفتح نوافذ أخرى في أرض جديدة. وليست الهجرة الإسلامية أبداً من تلك الهجرات التي تعني زحفاً على البلاد على حساب أهلها، أو لتحقيق الثروة ثم الخروج بها، أو للاعتماد عليها لقهر أصحاب البلاد الأصليين، وجعلهم مجرد منفذين وأدوات لمشروعاتٍ وطموحاتِ المهاجرين إليهم.

فالهجرة الإسلامية اليوم -إلى أيّ بلد في العالم- يجب أن تكون هجرة تسعى إلى التواصل والتعارف والتحاور والحب؛ بحيث يشعر كل الناس أنّ الأفراد المسلمين أو المجموعات الإسلامية التي تعيش بينهم إنما تمثل روحاً جديدة، تبني ولا تهدم، وتزرع الخير، و تقاوم الشر، ولا تعرف التفرقة في ذلك بين المسلم وغير المسلم، والوطني، والوافد، والأبيض والأسود.

وكل ذلك لن يتحقق إلا إذا رأى الناس في المسلم المهاجر إليهم -من خلال أقواله وأفعاله، وإسهاماته الخدميّة، وآفاقه المعرفية، وعبوديته لله- شخصية متميزة جادة تفعل ما تقول، وتعيش معهم حياتهم اليومية، وآمالهم، وآلامهم، يفيض منه الخير والنور، تلقائياً وعفوياً، كأنه بعض ذاته، وكأنه مرآة قيمه، وصدى أخلاقه، وأثر منهجه في الحياة.

وهنا يتساءل الناس من غير المسلمين: من أين لهذا المهاجر كل هذا الخير والنور؟ من أين له هذه الإنسانية المتدفقة؟ ومن أين له هذه الرحمة التي تعم الإنسان كل إنسان، بل والحيوان والنبات أيضاً... فسيصلون حتماً إلى الإجابة الصحيحة، وهي أن هذا الإنسان يرتشف من نبع الأنبياء، ويستمد وعيه الحضاري ومشروعه الإنساني الرحيم من نبيّه وإمامه، وإمام المسلمين الأعظم، بل وإمام الإنسانية محمد ﷺ.

فقد كانت هجرته المباركه روحاً جديدة، عبّر عنها أحد الصحابه الكرام (أنس بن مالك ﷺ) في قولته المعروفة التي ذكر فيها أنه عندما دخل الرسول ﷺ المدينة بعد نجاح هجرته: "أضاء منها كل شيء، وعندما مات ﷺ أظلم فيها كل شيء". وهذا على العكس من مكة التي تسلل منها المسلمون هاربين بدينهم، فأظلم فيها كل شيء، ولم يبق فيها إلا الطغيان، والنـــزوع إلى الحرب. فلما فتَحها الرسول ﷺ انبعث فيها النور، وأضاءت الكعبة، وجاء الحق وزهق الباطل، وأصبحت مكة قلعة الإسلام الأولى.

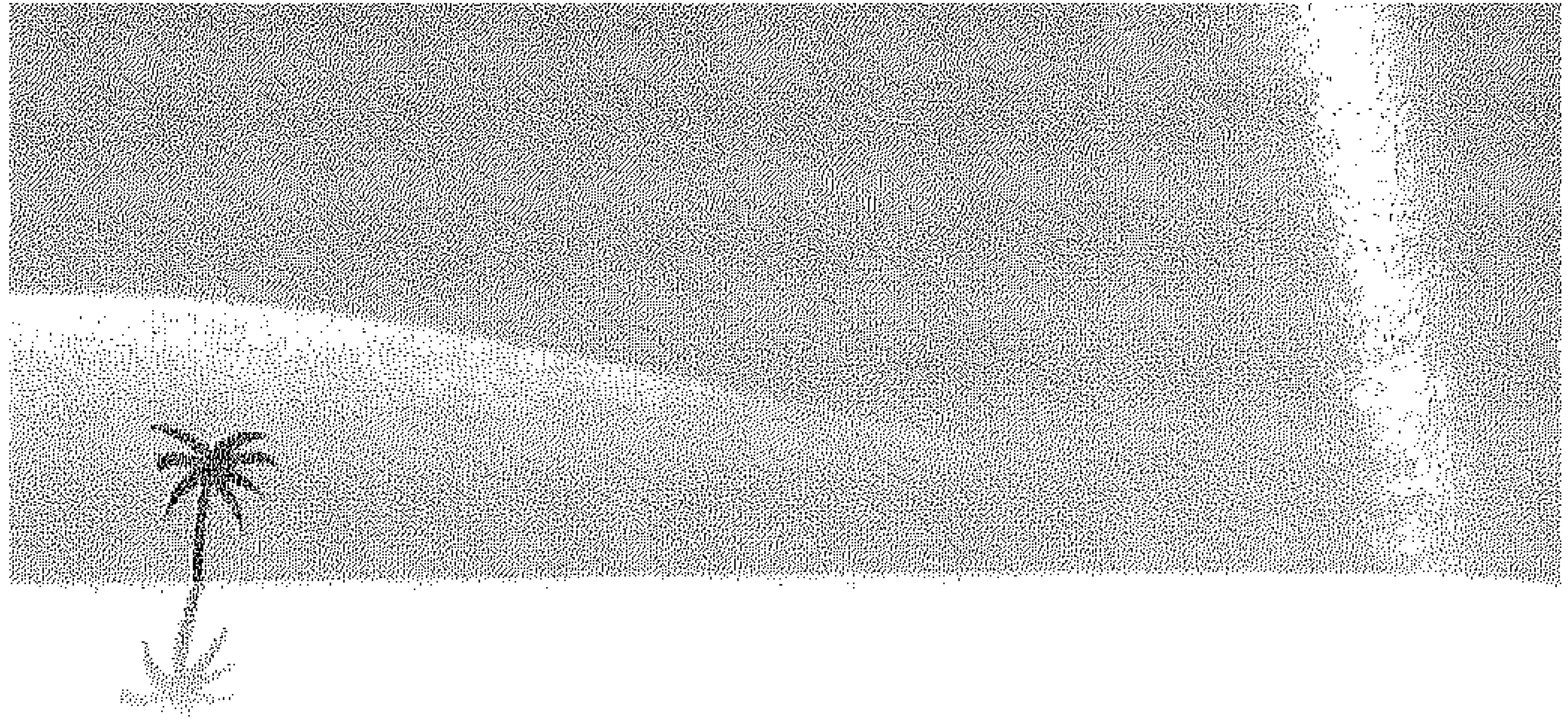
إن هذا المعنى للهجرة يجب أن يبقى فوق كل العصور؛ لأنه اتصل بنبيّ الرحمة في كل العصور وكل الأمكنة، وأصبح -بالتالي- صالحاً لكل زمان ومكان، صلاحية كل حقائق الإسلام الثابتة.

ولئن كنا نؤمن بأنه "لاَ هجرةَ بعد الفَتح"(متفق عليه) كما قال الرسول ﷺ، فإننا يجب أن نؤمن في الوقت نفسه ببقية الحديث، وهو قول الرسول: "ولكن جهاد ونية"، وهذا يعني أن الهجرة بعد مرحلة الهجرة الأولى قد أخذت بُعداً اصطلاحياً جديداً. ففي البُعد الأول كانت الهجرة مرتبطة بمكان هو المدينة، ولكنها بعد ذلك أصبحت مطلقة من المكان، فهي إلى أي مكان شريطة أن يكون "الجهاد والنية" هما الهدفين المغروسين في النفس. فهما -أي الجهاد والنية- قد انفصلا عن قيد وحدة المهجر (المدينة) الذي كان في صدر الدعوة، وأصبحا صالحين في كل العالم يمشيان مع رجال الدعوة والبلاغ، ويضمنان سلامة الأعمال وارتفاعها على المنافع الاقتصادية أو الظروف السياسية.

الهجرة والتكافل الإيماني

وعندما يستقّر هذا المعنى في النفس نستطيع أن نطمئن إلى أن أبطال الدعوة والبلاغ سينشئون في كل مكان يحلّون فيه حديقة جديدة للإيمان، وتاريخاً جديداً يبدأ كأشعّة الشمس في الصباح، ثم ينساب عبر كل زمان منطلقا إلى مساحة جديدة في الأرض.

وعلى المسلمين إذن -عندما يكونون في أرض المهجر- أن يسارعوا إلى الالتحام ببعضهم، وتكوين مجتمع إيماني يقوم على



"المؤاخاة" التي ترتفع فوق الأخوّة، وهي مستوى خاص فوق أخوّة الإيمان التي هي مستوى عام، وأن يتكافلوا مع بعضهم تكافلاً مادياً ومعنوياً، تحقيقاً لقوله تعالى ﴿وَتَعَاوَنُوا عَلَى الْبِرِّ وَالتَّقْوَى﴾(المائدة: ٢) وقوله أيضاً ﴿وَتَوَاصَوْا بِالْحَقِّ وَتَوَاصَوْا بِالصَّبْرِ﴾(العصر: ٣).

والتكافل "المادي" يعني التعاون على ضمان الحد الأدنى المطلوب للحياة لكل أخ مسلم، طعاماً أو شراباً أو علاجاً أو تعليماً أو كساءً. والتكافل "المعنوي" هو التعاون على ضمان التزام "الأخوة" في الإسلام بأداء "الفرائض" والبعد عن "المآثم"، وتفعيل وظيفة الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر في إطار البيئة التي يعيشون فيها وبالأساليب المناسبة لها. وعليهم أيضاً أن يبنوا "مسجداً" يضم الرجال والنساء والأطفال، مهما يكن مستواه متواضعاً. فقد حذّرنا الرسول من وجود عدد -مهما يكن قليلاً- من المسلمين لا تقام الجماعة فيهم، كما أن "المسجد" سيكون محور لقاءاتهم وتعارفهم وتكافلهم المادي والمعنوي. ومن المسجد ينطلقون إلى صور من التكامل فيما بينهم تأخذ طابعاً علمياً ومؤسساتياً يجعل لهم قيمة وتأثيرا وإشعاعاً في مهجرهم الجديد.

لقد أخبرنا الرسول ﷺ أن مما فضل به على بقية الأنبياء أن الأرض جعلت له مسجداً. وقد حقق المسلمون السابقون العظماء "مسجدية الأرض" في كل الأرض التي هاجروا إليها، فهل يمكننا أن نستأنف المسيرة ونحذوا حذوهم.


فلعل الأرض تتخلص من الغيوم السوداء المتلبّدة وتعود مسجدًا طهورًا. ولعل الله يجري على أيدينا وأيدي المستخلفين من بعدنا نهراً جديداً للإيمان، وتاريخاً جديداً تتعانق فيه راية الوحي مع العلم، والحق مع القوة، ويسود العدل الشامل والرحمة المحمدية العالمية كل الكون... وما ذلك على الله بعزيز! ■

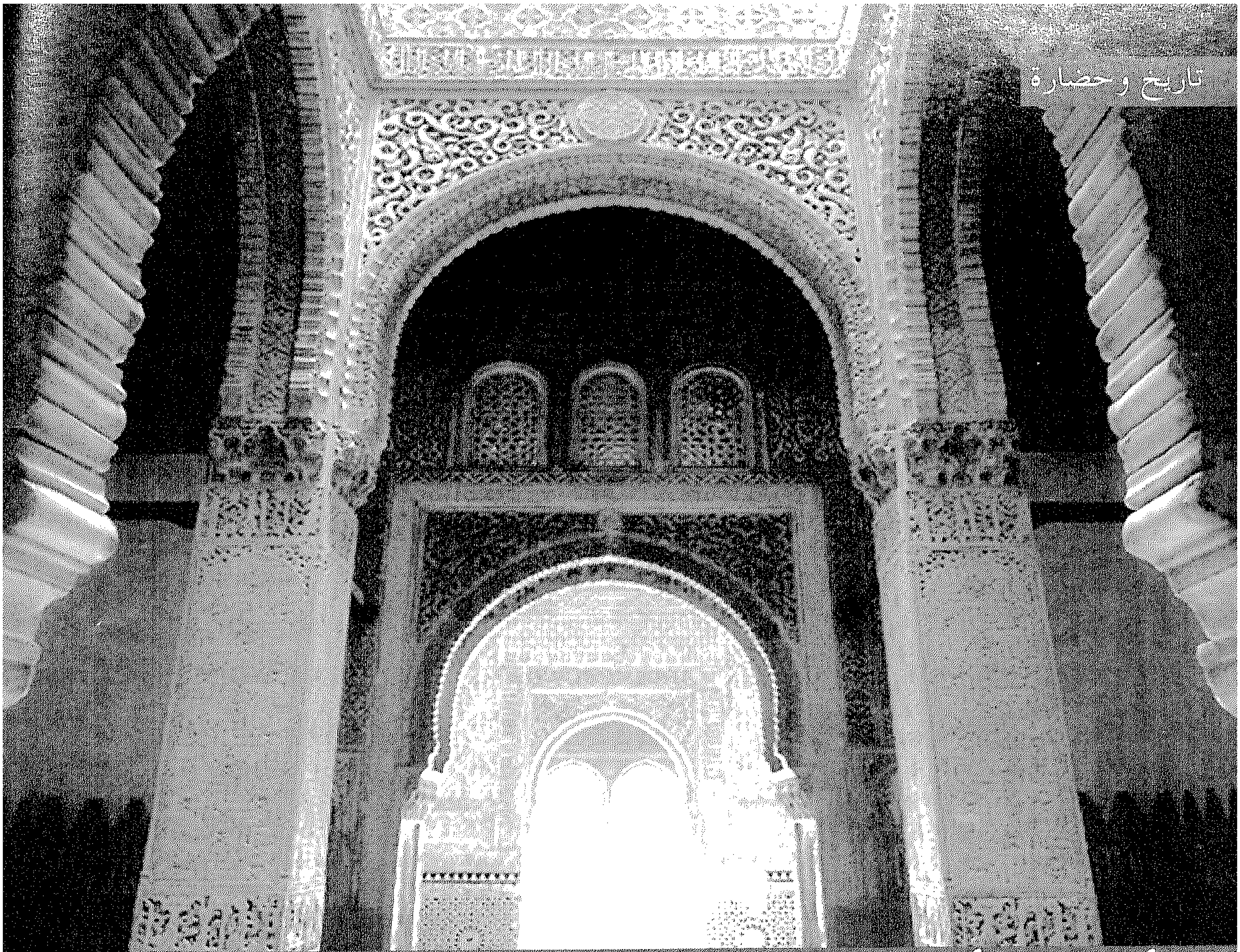
(*) أستاذ التاريخ والحضارة الإسلامية / مصر.

الهوامش

(1) الاستيعاب لابن عبد البر، ٥٩٧/٢.

(2) سنن البيهقي الكبرى، ١١٨/٩.





مأساة الأندلس وموقف العثمانيين

أورخان محمد علي*

هناك أسئلة حائرة تجول في أذهان العديد من المثقفين في العالم العربي حول التاريخ العثماني ومن أهمها سؤال: "لماذا لم تقم الدولة العثمانية بمساعدة مسلمي الأندلس عندما داهمهم الخطر الإسباني الماحق؟ ألم يكن في وسع الدولة العثمانية -وهي في أوج قوتها- الحيلولة دون وقوع تلك المأساة المروعة لمسلمي الأندلس. لنتناول هذا الموضوع بإيجاز.

من المعلوم لدى الجميع أن تفرق المسلمين في الأندلس إلى دول طوائف أضعفهم، وأن العديد من حكام هذه الدول الصغيرة بدؤوا يستعينون بالإسبان ضد الحكام الآخرين من المسلمين، وهكذا بدأت القصة الأليمة لأفول شمس الإسلام من سماء الأندلس. وبينما كان المسلمون غارقين في خضم الفرقة والشتات، خطا الإسبان خطوة مهمة في مضمار الوحدة عندما تزوّج "فرديناند" ملك أراغون من "إيزابيلا" ملكة قشتالة، وأصبح الهم الوحيد للأسبان القضاء على آخر دولة إسلامية في الأندلس وهي دولة بني الأحمر في غرناطة والتي كان يحكمها آنذاك أبو عبد الله محمد وامتدت مدة حكمه عشر سنوات (١٤٨٢ – ١٤٩٢م).

العثمانيون والانتصار للأندلس

والحقيقة أنه كان من المتوقع انتهاء حكم مسلمي الأندلس قبل هذا التاريخ بمئات الأعوام لولا المساعدات الخارجية التي كانت تأتيهم من الدول الإسلامية في شمالي أفريقيا. فقد قامت دولة "المرابطين" بنجدتهم ضد "ألفونصو" السادس ملك قشتالة، ثم جاءت مساعدات دولة "الموحدين" بعد ذلك وبقيت أسرة الموحدين في الأندلس حتى انتصار ألفونصو الثامن عليها في معركة "نافاس دي طولوسا".

ولكن الوضع تغير في أواخر عمر دولة بني الأحمر في غرناطة، فلم تكن هناك دول إسلامية قوية في شمالي أفريقيا، بل دول ضعيفة، وفي أحيان كثيرة دول متعاونة مع الإسبان والفرنسيين

مثل دولة بني حفص في تونس والمرينيّين في المغرب. كما قام الأسبان بسد مضيق جبل طارق ليمنعوا وصول أي نجدة من مسلمي شمالي أفريقيا إلى الأندلس. فلم يبق أمام مسلمي الأندلس سوى الاستنجاد بأقوى دولتين إسلاميتين آنذاك وهما الدولة العثمانية في آسيا الصغرى، ودولة المماليك في مصر، فأرسلوا وفدا لكل منهما طلبا لنجدتهم.

الوفد الأندلسي في إسطنبول

وصل الوفد الأندلسي إلى "إسطنبول" عاصمة الدولة العثمانية التي كان على رأسها السلطان بايزيد الثاني ابن السلطان محمد الفاتح، وقام رئيس الوفد بتسليم رسالة استغاثة مؤثرة حفظها التاريخ من مسلمي الأندلس إلى السلطان، نُورِد هنا مقدّمتها:

"الحضرة العلية وصل الله سعادتها، وأعلى كلمتها، ومهّد أقطارها، وأعزّ أنصارها، وأذلّ عُداتها. حضرة مولانا وعمدة ديننا ودنيانا، السلطان الملك الناصر، ناصر الدنيا والدين، وسلطان الإسلام والمسلمين، قامع أعداء الله الكافرين، كهف الإسلام، وناصر دين نبينا محمد عليه السلام، مُحيي العدل، ومنصف المظلوم ممن ظلم، ملِك العرب والعجم، والترك والديلم، ظل الله في أرضه، القائم بسنته وفرضه، ملك البرّين، وسلطان البحرين، حامي الذِّمار، وقامع الكفار، مولانا وعمدتنا، وكَهفنا وغيثنا، لا زال ملكه موفور الأنصار، مقرونا بالانتصار، مخلّد المآثر والآثار، مشهور المعالي والفخار، مستأثّرا من الحسنات بما يضاعف الأجر الجزيل، في الدار الآخرة والثناء الجميل، والنصر في هذه الدار، ولا برحت عزماته العليّة مختصة بفضائل الجهاد، ومجردة على أعداء الدين من بأسها، ما يروي صدور السفح والصفاح، وألسنة السلاح بَاذلة نفائس الذخائر في المواطن التي تألف فيها الأخيار مفارقة الأرواح للأجساد، سالكة سبيل الفائزين برضا الله وطاعته يوم يقوم الأشهاد".

وكان هناك مع هذه الرسالة أبيات طويلة من شعر مؤثر للشاعر أبي البقاء صالح بن شريف يصف مأساة المسلمين في الأندلس وغدر الأعداء بهم:

سلام عليكم من عبيد تخلّفوا
بأندلس بالغرب في أرض غربة
أحاط بهم بحرٌ من الردم زاخر
وبحر عميق ذو ظلام ولجة
سلام عليكم من عبيد أصابهم
مصاب عظيم يا لها من مصيبة
سلام عليكم من شيوخ تمزّقت
شيوخهمُ بالنتف من بعد عزة
سلام عليكم من وجوهٍ تكشفت
على جملة الأعلاج من بعد سُترة
سلام عليكم من بنات عواتِق
يسوقهم اللبّاط قَهرا لخلوة
سلام عليكم من عجائز أُكرهت
على أكل خنزير ولحم جيفة

وبعد هذه المقدمة المؤثرة تشرح القصيدة غدر الأعداء الإسبان وكيف يقومون بتنصير المسلمين قهرا وجبرا وكيف أن المسلمين جاهدوا ولكنهم قلة أمام جموع الأعداء:

غُدرنا ونُصّرنا وبُدّل ديننا
ظُلمنا وعوملنا بكل قبيحة
وكنا على دين النبي محمد
نقاتل عمال الصليب بنية
ونلقى أمورًا في الجهاد عظيمة
بقتل وأسر ثم جوع وقلة
فجاءت علينا الروم من كل جانب
بجد وعزم من خيول وعدة
فكنا بطول الدهر نلقى جموعهم
فنقتل فيها فرقة بعد فرقة
وفرسانها تزداد في كل ساعة
وفرسانُنا في حال نقص وقلة
فلما ضعفنا خيموا في بلادنا
ومالوا علينا بلدة بعد بلدة
وجاءوا بأنفاط عظام كثيرة
تهدم أسوار البلاد المنيعة
وشدوا عليها الحصار بقوة
شهورا وأياما بجد وعزمة
فلما تفانت خيلنا ورجالنا
ولم نر من إخوننا من إغاثة
وقلت لنا الأقوات واشتد حالنا
أحطناهمُ بالكره خوف الفضيحة
وخوفا على أبنائنا وبناتنا
من ان يؤسروا أو يقتلوا شر قتلة
على أن نكون مثل من كان قبلنا
من الدجن من أهل البلاد القديمة

ثم يقول الشاعر بأنهم أصبحوا ضحية الغدر وعدم الوفاء بالوعود والبنود التي بلغت خمسة وخمسين بندا في عقود الصلح، من أنهم سيستمرون في إقامة شعائرهم الإسلامية بكل حرية، ولكنهم عندما دخلوا تحت حكمهم نسوا تلك الوعود والعهود وتركوا المسلمين أمام خيارين لا ثالث لهما فإما التنصر أو القتل.

ثم يستغيث الشاعر بسلطان الدولة العثمانية، ويعقد آماله عليه:

فها نحـن يـا مـولاي نشـكو إليكم
فهـذا الـذي نلنـاه مـن شـر فرقـة
عسـى ديننـا يبقـى لنـا وصلاتنـا
كمـا عاهدونـا قبـل نقـض العزيمـة
وإلا فيجلونـا جميعًـا عـن أرضهـم
بأمـوالنـا للـغـرب دار الأحـبـة
فأنتـم بحمـد الله خـير ملـوكنـا
وعـزتكـم تعـلـو علـى كل عـزة
وثـم سـلام الله قلـت ورحـمـة
عليكـم مـدى الأيـام في كل سـاعة

دعا السلطان بايزيد الثاني الصدر الأعظم والوزراء والقواد إلى مجلس اجتماع طارئ لبحث الموقف وما الذي تستطيع الدولة العثمانية تقديمه في تلك الظروف.

بحث المشاركون في المجلس الظروف التي تمر بها الدولة العثمانية آنذاك، ونوع ومدى المساعدة التي تستطيع الدولة تقديمها لمسلمي الأندلس. ولسوء حظ مسلمي الأندلس فقد كانت الدولة العثمانية تمر بظروف قاسية جدًّا، كما كان بعد المسافة، وعدم وجود طريق برّي مباشر إليها يزيد من حدة المشكلة ويعقدها.

الظروف الصعبة للدولة العثمانية

نستعرض هنا باختصار شديد الظروف الصعبة التي كانت تعيشها الدولة العثمانية آنذاك:

العثمانيون والمماليك

كانت الدولة العثمانية آنذاك في حرب مع دولة المماليك في مصر، بسبب نزاعات بدأت من عهد السلطان محمد الفاتح (والد السلطان بايزيد الثاني). فقد عرض السلطان محمد الفاتح على أشرف سيف الدين حاكم دولة المماليك في مصر (الذي كانت مملكة الحجاز ونَجد تحت سيطرته) قيام الدولة العثمانية بتعمير وإصلاح قنوات الماء في الحجاز دون مقابل تيسيرا للحجاج، فقوبل برفض فظ من قبله. ومما زاد من التوتر بين الدولتين قيام المماليك بفرض ضريبة على الحجاج العثمانيين. وفي عهد السلطان بايزيد الثاني أبدى المماليك رغبتهم في ضم منطقة "جُوقُورْ أُوَه" العثمانية إلى الأراضي السورية التي كانت تحت حكمهم. كما حدثت مشاكل أخرى بين الدولتين لا نتطرق إليها هنا. والخلاصة أن الوفد عندما جاء إلى السلطان كانت الجيوش العثمانية في حرب مع جيوش المماليك التي تقدمت فعلا إلى منطقة "جوقور أوه".

مشكلة الأمير "جَمْ"

كانت الدولة العثمانية تعيش مشكلة الأمير "جَمْ" (الأخ الأصغر للسلطان بايزيد) الذي شق عصا الطاعة على أخيه السلطان مطالبا بالعرش لنفسه. وحدثت معارك بين الأخوين انتهت بانتصار السلطان بايزيد وهرب الأمير جَمْ إلى مصر حيث استقبل من قبل حاكم مصر بحفاوة، وكان هذا عاملا مضافا لزيادة التوتر بين البلدين مما أدّى إلى إشعال فتيل الحرب بينهما. ولم تقف مشكلة الأمير جَمْ بإحداث التوتر بين هاتين الدولتين بل إن الأمير جم عندما أسر من قبل القراصنة وهو على ظهر سفينة وتمّ بيعه إلى البابا، أصبح ورقة تهديد في يد الدول الأوروبية والبابا ضد الدولة العثمانية، وأدى إلى توتر العلاقات بين الدول الأوروبية وبين الدولة العثمانية، وإلى تحالف صليبي جديد من البابا "جويلس الثاني" وفرنسا والمجر وجمهورية البندقية ضد الدولة العثمانية مما حدا بالدولة العثمانية إلى تركيز اهتمامها على الخطر القادم إليها من أوروبا.

خطورة الدولة الصفوية

كانت الدولة الصفوية تحاول نشر المذهب الشيعي في الأناضول وترسل المئات والآلاف من شباب التركمان الشيعة -بعد تدريبهم- إلى الأناضول لهذا الغرض. وكانت نتيجة هذه الجهود حدوث حركات عصيان مسلّحة قادها الشيخ جُنَيد أولا ومن بعده ابنه حيدر، أي كانت هناك قلاقل كبيرة في الأناضول، ولم تتخلص الدولة العثمانية من هذه القلاقل ومن خطر الدولة الصفوية إلا في عهد السلطان سليم (ابن السلطان بايزيد الثاني).

إذن فالدولة العثمانية كانت في ضائقة شديدة وكانت في حرب فعلية مع المماليك من جهة، وفي مشاكل كبيرة مع الدول الأوروبية حيث نرى أنه بعد سنوات قليلة اضطرت الدولة العثمانية لإعلان الحرب على المجر وعلى بولندة. كما اتفقت بولندة والمجر وليتوانيا ضد الدولة العثمانية وأعلنت عليها الحرب، كما كانت تعاني من وجود قلاقل وحركات تمرد وعصيان في الداخل. لا نريد الخروج عن الموضوع وإيراد تفاصيل جانبية، ولكن كان من الضروري إلقاء نظرة على وضع الدولة العثمانية آنذاك.

"بايزيد" يفعل ما يستطيع

بعد دراسة لكافة الظروف الداخلية والخارجية قرر السلطان بايزيد إرسال قوة بحرية تحت قيادة "كمال رَئِيس" على وجه السرعة. كان ذلك في عام ٨٩٢هـ/ ١٤٨٧م. أي قبل سقوط غرناطة بخمس سنوات. وكانت الدولة العثمانية بعملها هذا تعلن الحرب على عدة دول مسيحية في أوروبا؛ كانت تعلن الحرب على قسطاليا وعلى آراغون وعلى نابولي وعلى صقلية وعلى البندقية؛ أي أن الدولة العثمانية على الرغم من مشاكلها الكثيرة -التي ذكرنا أهمها- كانت الدولة الإسلامية الوحيدة التي مدت يد العون لمسلمي الأندلس على قدر طاقتها، ودخلت من أجلهم في حالة حرب مع دول عدة؛ بينما توقّفت عن ذلك الدول الإسلامية الموجودة في شمالي أفريقيا والتي كان بإمكانها من الناحية الجغرافية مسلمي الأندلس كالدولة الحفصية في تونس والدولة الوطاسية في المغرب.

قام "كمال رَئِيس" بضرب سواحل جزر جاربا ومالطا وصقلية وساردونيا وكورسيكا، ثم ضرب سواحل إيطاليا ثم سواحل إسبانيا، وهدم العديد من القلاع والحصون المشرفة على البحر في هذه السواحل. وقام أحيانا بإنزال جنوده في بعض السواحل لهدم تلك القلاع. ولكنه لم يكن يستطيع البقاء طويلا، لأن الحرب البحرية لا تكفي للاستيلاء على المدن ولاسيما المدن الداخلية البعيدة عن البحر، فلا بد من مشاركة القوات البرية التي تستطيع التوغل في الداخل وتثبيت وإدامة السيطرة على المدن المفتوحة. ولم يكن هذا ممكنا آنذاك، لبُعد الشقة بين الأندلس وبين الدولة العثمانية وكذلك بين مصر والأندلس. ولو صرفت الدولة العثمانية كل طاقتها وحاولت الوصول برّا إلى الأندلس (وهذا ما لا يتوقعه عاقل) لكان عليها محاربة العديد من الدول الأوروبية لعشرات الأعوام. هذا علما بأن الدول الأوروبية كانت قد قطعت كل صلة لمسلمي الأندلس مع البحر الأبيض المتوسط، كما سدّوا مضيق جبل طارق ليمنعوا وصول أي نجدة إليهم من الدول الإسلامية. وقام "كمال رئيس" بقصف بعض سواحل تونس بسبب كون الدولة الحفصية الحاكمة في تونس في حلف مع الأسبان ومع فرنسا ضد إخوانهم من مسلمي الأندلس.

وكم كان من المؤسف أن هذه القوة البحرية العثمانية اضطرت أخيرًا إلى مواجهة الدولة الحفصية في تونس لكونها تقوم بمساعدة الفرنسيين. ولكون الدولة العثمانية في حرب مع المماليك فقد وقعت هذه القوة البحرية بين نارين، لذا لم تؤد هجمات هذه القوة البحرية إلى نتائج ملموسة. وفي عام ٨٩٧هـ/ ١٤٩٢م استسلمت مدينة غرناطة وانتهى حكم المسلمين في الأندلس. ولكن هذه القوة البحرية قامت بنقل ما يقارب من ٣٠٠ ألف من المسلمين التاركين بيوتهم والهائمين على وجوههم من الأندلس، إلى المغرب وإلى الجزائر.

أما الوفد الأندلسي الثاني المرسل إلى دولة المماليك في مصر فلم يحصل على أي نتيجة أيضا حيث إن مصر بعيدة عن الأندلس، ويحتاج إنقاذ هؤلاء المسلمين إلى قوة برية. كما كانت في حرب مع الدولة العثمانية كما ذكرنا.

كان الأشرف سيف الدين قايتباي (١٤٦٨- ١٤٩٦م) هو الذي يحكم دولة المماليك آنذاك، فلم يجد وسيلة لنصرة مسلمي الأندلس سوى إرسال وفود إلى البابا وإلى الأسبان ليقول لهم أن هناك العديد من المسيحيين يعيشون في مصر وفي سورية وأنهم يتمتعون بكامل حرياتهم الدينية ولا يتعرض لهم أحد، وليحذرهم بأنه سيقوم بقتل جميع المسيحيين وإجبارهم على اعتناق الإسلام إن قام الأسبان بقتل المسلمين أو إجبارهم على التنصر. ولم يهتم الأسبان ولا البابا بهذا التحذير الذي عدوه مجرد تخويف لأنهم يعلمون أن الدين الإسلامي يمنع إكراه أحد على ترك دينه. وقد ادعى الأسبان لوفد مصر أن المسلمين تنصروا بملء إرادتهم ولم يجبرهم أحد على هذا. وجاءوا بشهود زور تم تهديدهم وتخويفهم فشهدوا بذلك.

وقد سجل أبو البقاء في شعره هذه الحادثة وذكر أسماء المدن التي عذب أو أحرق أهلها أو ذبحوا بالسيف قائلاً:

فسـل وحرا عن أهلها كيف أصبحوا
أسـارى وقتلـى تحـت ذل ومِهنة
وسـل بلفيقـا عـن قضيـة أمرها
لقد مُزقوا بالسـيف من بعد حسـرة
وضيافـة بالسـيف مـزق أهلهـا
كـذا فعلـوا أيضـا بأهل البشـرة
وأنـدرش بالنـار أحـرق أهلهـا
بجامعهـم صـاروا جميعـا كفحمة

وهكذا بقي مسلمو الأندلس وحدهم في الميدان وتجرعوا الآلام وبادت دولتهم الزاهرة جزاء تفرقهم إلى طوائف عديدة. فجرّوا على أهاليهم وبلدهم تلك النهاية المروعة التي ستبقى من أكثر المآسي المروعة في التاريخ الإنساني. ■

(*) كاتب وباحث تركي



العقيدة الإسلامية بين جمال القرآن وتقسيمات علم الكلام

أ.د.فريد الأنصاري*

كلمة البدء في الإســـلام هي "لا إله إلا الله"، وهي كلمةُ سِرٍّ، ســـر في غاية اللطافة والبهاء. نعم، كل المســـلمين يقولونها، ولكن القليـــل منهم هم الذين يتذوقونها حقا؛ ذلك أن انصرافهم إلى التصورات الكلامية في مجال العقيدة قد صرفهم عن فضاءاتها الجميلة ومواجيدها الجليلة.

الإسلام عقيدة تربوية في الأساس

إن عقيدة الإسلام لم تكن في القرآن الكريم ولا في السنة النبوية إلا لمسة تربوية ذات أثر روحي عميق على الوجدان والسلوك. وقد كان المسلمون عندما يتلقونها بعباراتها القرآنية الجليلة، يتفاعلون معها تفاعلا عجيبا؛ إذ يتحولون بســـرعة وبعمق كبير من بشر عاديين، مرتبطـــين بعلائق التراب، إلى خلائـــق سماوية تنافس الملائكة في الســـماء، وما هم إلا بشر يأكلون الطعام ويمشون في الأسواق. ولذلك حقق الله بهم المعجزات في الحضارة والتاريخ. إن الكيمياء الوحيدة التي كانوا يتفاعلون بها هي "لا إله إلا الله"، لكن ليس كما صورها علم الكلام بشتى مدارسه ومذاهبه، وإنما كما عرضها القرآن آيات بينات ومحكمات.

إن التقسيمات الكلامية للعقيدة الإسلامية التي أملتها ضرورة حجاجية حينا، وضرورة تعليمية حينا آخر، ليست ذات جدوى في عالم التربية الإيمانية؛ لخلوها من روحها الرباني وسرها التعبدي، الذي لا تجده إلا في كلمات القرآن وأحرفه: "من قرأ حرفا من كتاب الله فله حسنة، والحسنة بعشر أمثالها. لا أقول "الم" حرف، ولكن ألف حرف، ولام حرف، وميم حرف"(رواه الترمذي). ثم إن التعبير عن حقيقة الذات الإلهية لا يكون على كمال صدقه، جلالا وجمالا، إلا إذا كان بما عبر الله به عن ذاته سبحانه وصفاته. وما كان للنسبي المحدود أن يحيط وصفا وعلما بالمطلق غير المحدود. ومن هنا كان التوقيف في مجال التعبير العقدي في الإسلام.

تفعيل العقيدة

كثير من الناس يتكلم في العقيدة اليوم ولكن قليلا منهم يتفاعل معها؛ لأن العلم الجدلي ما كان له أن يؤتي ثمارا قلبية، وهو قد أنتج أساسا لإشباع رغبات العقل المماري، لا لإشباع حاجات القلب الساري. وقد كان الرسول عليه الصلاة والسلام يخاطب بالعقيدة الإيمانية العقول، خطابا ينفذ من خلالها إلى القلوب، حيث تستقر بذرة، تنبت جنات وأشجارا.

إن السر الذي تتضمنه عقيدة "لا إله إلا الله" والذي به غيرت مجرى التاريخ مرات ومرات والذي به صنعت الشخصيات التاريخية العظيمة في الإسلام، إنما يكمن في "جمالها". الجمال، ذلك الشيء الذي لا يدرك إلا بحاسة القلب. إنه إحساسٌ: "كم هو جميل أن يكون المرء مسلما!". ودون هذا الإدراك اللطيف للدين، إدراكات أخرى من أشكال التدين، لا تغني من الحق شيئا. لقد ضاع صفاء الدين وجماله السماوي في غبار التأويلات ورسوم التقسيمات. وقد ذم قوم "الكلامَ"، لكنهم لم يدركوا أنهم في خضم الصراع المذهبي ردوا وقسموا "فتكلموا"، وسقط عنهم بذلك بهاء الدين وجماله وهم لا يشعرون. أو -على الأقل- لم يترك ذلك في الأتباع لمسات الجمال، وأذواق الصفاء في السلوك الذي يصنفون به على أنهم "مسلمون". فكانت التصورات في واد، والتصرفات في واد آخر. وذلك لعمري هو الخسران المبين.

إن القرآن الكريم والسنة النبوية يقولان لنا حقيقة جليلة عظيمة، لم يستطع أن يوصلها إلينا علم الكلام: هي أن عقيدتنا جميلة.

عقيدة جمالية

ولكم هو مؤسف حقا أن يضيع هذا المعنى من تدين كثير من المسلمين اليوم، فلا يرون في الدين إلا خشونة وحزونة. هذا التخشب في الأقوال والفعال، الذي سيطر على تدين كثير من الناس اليوم؛ إنما كان لأسباب سياسية واجتماعية مختلفة، ليس هذا مجال بيانها. ولا يجوز أبدا أن تكون مسوغا للانحراف عن بهاء الدين وجماله. وإنما أنزله الله ليكون جميلا، تتذوقه القلوب، وتتعلق به الأنفس؛ فلا تستطيع منه فكاكا، فتُسْلِمُ -بجذبه الخفي وإغرائه البهي- لله رب العالمين.

"لا إله إلا الله" -إذ يقولها العبد مستشعرا دلالتها اللطيفة- كلمة "قلبية" مدارها على وصف حال، والاعتراف بذوق صفات الكمال والجلال. إنها تعبير عن الخضوع الوجداني التام لله. نعم، قلت "الوجداني" لأنها -ببساطة- كذلك وردت في سياقها القرآني الأصيل.

ولو تأملت هذه العبارة العظيمة في اللغة، لوجدتها تقوم على لفظتين أساسيتين، هما مدار الإسلام كله: "الله" و "الإله".

فأما كلمة: "الله" فهو لفظ الجلال، الاسم العَلَم على الذات الإلهية، الاسم الجامع لكل الأسماء الحسنى والصفات الإلهية العُلَى. ولفظ "الله" فرد في اللغة، فلا يجمع ولا يتعدد.

وأما كلمة "الإله" فهو لفظُ وصفٍ، يدل على معنى شعوري قلبي؛ ولذلك فهو يتعدد، إذ يجمعُ على "آلهة". وأما باقي العبارات في "لا إله إلا الله" فهي "لا" النافية، و"إلا" الحاصرة، تقومان بدور البناء والتركيب اللغوي؛ للنفي والإثبات، الذي يربط نوع العلاقة في قلب المؤمن بين الوصف "إله" والاسم "الله". وحقيقة تلك العلاقة هي ما يهمنا في هذا البحث. إنها علاقة تملأ الوجدان بما يفيض به قلب العبد المعبّر بها حقا وصدقا من الاعتقاد والشعور تجاه مولاه جلّ علاه.

ذلك أن كلمة "إله" في أصل الاستعمال اللغوي كلمة قلبية وجدانية، كما ذكرنا. أعني أنها لفظ من الألفاظ الدالة على أحوال القلب كالحب والبغض والفرح والحزن والأسى والشوق والرغبة والرهبة... إلخ. أصلها قول العرب: "ألِهَ الفَصيلُ - يَألَهُ - ألَهاً" إذا ناح شوقا إلى أمه. والفصيل ابن الناقة إذا فطم، وفصل عن الرضاع، يحبس في الخيمة وتترك أمه في المرعى، حتى إذا طال به الحال ذكر أمه وأخذه الشوق والحنين إليها -وهو آنئذ حديث عهد بالفطام- فناح وأرغى رغاء أشبه ما يكون بالبكاء، فيقولون: "ألِـهَ الفصيلُ" فأمه إذن ههنا هي "إلهه" بالمعنى اللغوي، أي ما يَشُوقُه. ومنه قول الشاعر: "ألِهْتُ إليها والرِّكائبُ وُقّفٌ"

جاء في اللسان: اسم "الله": تفرد سبحانه بهذا الاسم، لا يشركه فيه غيره، فإذا قيل: "الإله" انطلق على الله سبحانه وعلى

ما يعبد من الأصنام. وإذا قلت "الله" لم ينطلق إلا عليه سبحانه وتعالى. وقيل في اسم الباري سبحانه: إنه مأخوذ من ألِهَ - يَأْلَهُ: إذا تحيَّـرَ، لأن العقول تَأْلَهُ في عظمته. وأَلِهَ يَأْلَهُ أَلَهاً: أي تحيَّرَ، وأصله وَلِهَ يَوْلَه وَلَهاً. وقد أَلِهْتُ على فلان: أي اشتد جزعي عليه مثل وَلِهْتُ. وقيل: هو مأخوذ من ألِهَ يَألَهُ إلى كذا، أي: لجأ إليه؛ لأنه سبحانه الْمَفْزَعُ الذي يُلْجَأُ إليه في كل أمر"(١). إذ "الإله" في هذا السياق اللغوي هو: ما يَشُوقُ القلب، ويأخذ بمجامع الوجدان، إلى درجة الانقياد له والخضوع. قال عز وجل: ﴿أَفَرَأَيْتَ مَنِ اتَّخَذَ إِلَهَهُ هَوَاهُ﴾(الجاثية:٢٢).

والراجح فعلا أن "ألِهَ" هو من "وَلِه" ومنه اشتق الاسم العلم "الله"؛ لأن مدار كلا المادتين على معاني القلب، فأبدلت من الواو همزة. قال الراغب الأصفهاني: "أَلَـه فلانٌ - يأله: عَبَدَ. وقيل: أصله وِلاه، فأبدل من الواو همزة، وتسميته بذلك لكون كل مخلوق والِهاً نحوه، إما بالتسخير فقط كالجمادات والحيوانات، وإما بالتسخير والإرادة كبعض الناس، ومن هذا الوجه قال بعض الحكماء: الله محبوب الأشياء كلها"(٢).

و"الوَلَهُ": هو الجنون الحاصل بسبب الحب الشديد، أو الحزن الشديد، يقال: امرأة وَلُوهٌ: إذا أحبت حتى جنت، أو إذا ثكلت؛ فحزنت حتى جنت. قال ابن منظور: "الْوَلَهُ: الحزن. وقيل هو ذهاب العقل والتحير من شدة الوجد، أو الحزن أو الخوف. والوله: ذهاب العقل لفقدان الحبيب وناقة مِيلاهٌ: هي التي فقدت ولدها فهي تَلِهُ إليه. يقال: وَلَهَتْ إليه تَلِهُ أي تحنّ إليه وناقة وَالِهٌ: إذا اشتد وجدها على ولدها"(٣).

عقيدة حب ووجدان

وهكذا فأنت ترى أن مدار المادتين "أله" و"وله" هو على معان قلبية، ترجع في مجملها إلى التعلق الوجداني والامتلاء بالحب، فيكون قول المؤمن "لا إله إلا الله" تعبيرا عما يجده في قلبه من تعلق بربه تعالى، أي لا محبوب إلا الله، ولا مرهوب إلا الله، ولا يملأ عليه عمارة قلبه إلا قصد الله. إنه أشبه ما يكون بذلك الفصيل الصغير الذي ناح شوقا إلى أمه، إذْ أحس بألم الفراق ووحشة البعد. إن المسلم إذ "يشهد" ألا إله إلا الله، يقر شاهدا على قلبه أنه لا يتعلق إلا بالله رغبةً ورهبةً وشوقاً ومحبةً. وتلك لعمري "شهادة" عظيمة وخطيرة، لأنها إقرار واعتراف بشعور، لا يدري أحد مصداق ما فيه من الصدق إلا الله، ثم الشاهد نفسه، ومعاني القلب لا تحد بعبارات ولا تحصرها إشارات. ومن هنا كانت شهادة "ألا إله إلا الله" من اللطافة بمكان، بحيث لا تدرك على تمام حقيقتها إلا ذوقا.

قال ابن القيم رحمه الله: "إن محبة العبد لربه فوق كل محبة تقدر، ولا نسبة لسائر المحابّ إليها، وهي حقيقة لا إله إلا الله!"(٤) إلى أن يقول في نص نفيس تشد إليه الرحال: "فلو بطلت مسألة المحبة لبطلت جميع مقامات الإيمان والإحسان، ولتعطلت منازل السير إلى الله. فإنها روح كل مقام ومنزلة وعمل. فإذا خلا منها فهو ميت لا روح فيه. ونسبتها إلى الأعمال كنسبة الإخلاص إليها، بل هي حقيقة الإخلاص، بل هي نفس الإسلام. فإنه الاستسلام بالذل والحب والطاعة لله. فمن لا محبة له لا إسلام له البتة، بل هي حقيقة شهادة أن لا إله إلا الله. فإن "الإله" هو الذي يألهه العباد حبا وذلا، وخوفا ورجاء، وتعظيما وطاعة له، بمعنى "مألوه": وهو الذي تألهه القلوب. أي تحبه وتذل له فالمحبة حقيقة العبودية"(٥).

معنى الإسلام

ذلك أن معنى "الإسلام" هو الخضوع لله رب العالمين، والاستسلام لأمره تعالى. إنه الاعتراف الوجداني، أي التعبير العملي عن الشعور الحقيقي الذي يلامس القلب، عندما يدرك العبد و"يجد" أنه "عبد" لسيد هذا العالم العظي.! وحقيقة كون المسلم عبدا هي الحقيقة التي تغيب عن أكثر المسلمين، فيحدث بسبب ذلك الانحراف بشتى ألوانه وأشكاله.

إن "العبد" مسلوب الإرادة. ليس بالمعنى الكلامي ولكن بالمعنى الوجداني، أعني أن تجد الشعور بأنك أيها المسلم مِلْكٌ لله الواحد القهار، تدور في فلك العبودية والخدمة كما تدور الكواكب في الأفلاك. ﴿لَهُ مَقَالِيدُ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ وَالَّذِينَ كَفَرُوا بِآيَاتِ اللهِ أُوْلَئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ﴾(الزمر: ٦٠). وتلك هي مدارات اللفظ (عبد) في اللغة. إنها لا تخرج عن معاني الذلة والخضوع والخنوع والانقياد، كما تنقاد الأنعام المذللة لمالكيها رغبةً ورهبةً، انقياداً لا تشنّج فيه ولا تَفَلُّت.

والعبد لا يكون إلا في باب الخدمة بين يدي مولاه، واقفا على العتبة ينتظر الأمر والنهي بشوق المحب، ليبادر إلى التنفيذ دون سؤال: علامَ ولِمَهْ؟ ﴿لاَ يُسْأَلُ عَمَّا يَفْعَلُ وَهُمْ يُسْأَلُونَ﴾(الأنبياء: ٢٣). إنه الرب المحبوب الأعظم، المرغوب المرهوب، رب الكون والخلق أجمعين. يُمكنك أن تُعَرِّفَ عقيدة الإسلام في نهاية المطاف، فتقول إنها ميثاق المحبة بين الله وعباده! أو هي دستور السلام.

وحينما نقول "المحبــة" فهي بمفهومها القرآني الجامع المانع، لا مــا ذهبت إليه طوائف من الغلاة من هذا الاتجاه أو ذاك، ممن قالوا بها فأبطلوا كل منازل الإيمــان من خوف ورجاء. فانتهى بهم الأمر إلى دعاوى عريضة يتشــدقون بها، ما أنزل الله بها من ســلطان. كلا، بل لا تقوم المحبة بقلب العبد الصادق إلا على جناحــي الخوف والرجاء، وما تفرع عن ذلك من معاني الرَّغَبِ والرَّهَبِ. والقرآن العظيم والســنة النبوية واضحان في هذا غاية الوضوح. ولا يزيغ عنهما إلا جاهل أو صاحب هوى. والمحب الحقيقي الصادق يخاف من الحرمان، ويخشــى من العقوبة؛ بقدر ما يرجو ويشــتاق. فإذا جرد المحبــة عن الخوف والرجاء كان من الكاذبين.! كيــف ورب العالمين يقول عن صفوة من أنبيائه ورســله: ﴿إِنَّهُمْ كَانُوا يُسَــارِعُونَ فِي الْخَيْرَاتِ وَيَدْعُونَنَا رَغَبًا وَرَهَبًا وَكَانُوا لَنَا خَاشِعِينَ﴾ (الأنبياء: ٩٠). كيف وهذا محمد رسول الله ﷺ ســيد الأولين والآخرين يعلنهــا في الأمة: "أمَا والله إني لأخشــاكم لله وأتقاكم له. [وفيه قال:] فمن رغب عن ســنتي فليــس مني"(متفق عليه). ألا وإن أي انحراف عن هذه الســبيل لا يكون إلا جهلا بالدين أو زيغا من الضلال المبين.

فعلى هذا الوِزَانِ إذن نقول إن عقيدة الإســلام قائمة على المحبة، بــل إنها ميثاق المحبة. وبذلك المعنى كانت تفيض بأنوار الجمال ومباهج الجــلال. فليس عبثا أن يقول النبي ﷺ: "إن الله تعــالى قد حرم على النار من قال "لا إلــه إلا الله" يبتغي بذلك وجه الله"(متفــق عليه). أكلمة واحدة تتلفظ بها فتدخل الجنة؟ نعم، ولكنْ، إنها ليســت بكلمة ولا كلمات، إنمــا توجه قلبي وميل وجداني، إنها مســألة "حب". وإن من أحب الله أحبه الله. إنها حقيقة جميلة وعظيمة. وإن عدم إدراكها ذوقا ووجدانا قد كان سببا في تضييع معاني الدين، وانحراف كثير من الناس عن منهاجه المستقيم. ■

(*) جامعة مولاي إسماعيل ورئيس المجلس العلمي بمكناس / المغرب.

الهوامش

(١) لسان العرب: مادة "أله".

(٢) المفردات في غريب القرآن: مادة "أله".

(٣) لسان العرب: مادة "وله".

(٤) مدارج السالكين لابن القيم، ١٨/٣.

(٥) مدارج السالكين: ٢٦/٣.



أنين الأرض

لن يستمر هذا الأنين حتى يوم القيامة،
رب مفاجأة يخبّئها القدر،
فقد يظهر ليث وهو يزأر،
زئيرًا يليق به بين أشجار الغابة،
فتكفّ الأرض عن النواح،
ويأتي الربيع...



الخط الفاصل بين الإيمان والإلحاد:

البعث بعد الموت

أ.د. محمد بوزغيبة *

إنّ حياة الإنسان بعد موته هي الخيط الفاصل بين الإيمان والإلحاد، بين التّفسير الدّيني لحقيقة الإنسان الذي يجعل لحياته ومصيره معنى وغاية وهدفا لقوله تعالى: ﴿أَفَحَسِبْتُمْ أَنَّمَا خَلَقْنَاكُمْ عَبَثًا وَأَنَّكُمْ إِلَيْنَا لَا تُرْجَعُونَ﴾ (المؤمنون: ١١٥)، وبين التّفسير المادّي للإنسان الذي لا ينظر إلاّ إلى غذاء جسده، والذي ستنتهي مسرحيّة حياته بالموت والفناء.

فالإنسان متكوّن من مادّة وروح، والرّوح من سنن الله البديع يجعل للإنسان قيمة إلهيّة بما يبثّ من فضيلة ويزرع من خير وينشر من ضياء؛ فتتغيّر بذلك نظرته للحياة ويرى بعين البصيرة ما وراء النتائج العاجلة من سلوك النّاس وتصرّفاتهم.

يقول ابن عطاء السكندري في مواعظه: "لو أشرق لك نور اليقين لرأيت الآخرة أقرب إليك من أن ترحل إليها، ولرأيت محاسن الدنيا قد ظهرت كسفة الفناء عليها". ففي المعتقد الدّيني لا موتَ إلاّ في هذه الحياة، فمن فارقها انتقل إلى حياة خالدة لا موت فيها. ولكنّ الفارق كبير والبون شاسع بين موت وموت؛ فموت المؤمن العارف فوز ونجاة، وموت الجاحد الكافر حرمان وشقاء.

دعت جميع الأديان السّماوية إلى الإيمان بالبعث والنّشور على لسان رُسلها وأنبيائها. فنوح عليه السّلام قال لقومه: ﴿وَاللَّهُ أَنبَتَكُم مِّنَ الْأَرْضِ نَبَاتًا ۞ ثُمَّ يُعِيدُكُمْ فِيهَا وَيُخْرِجُكُمْ إِخْرَاجًا﴾ (نوح: ١٧-١٨). وموسى عليه السّلام قال في دعوته: ﴿مِنْهَا خَلَقْنَاكُمْ وَفِيهَا نُعِيدُكُمْ وَمِنْهَا نُخْرِجُكُمْ تَارَةً أُخْرَى﴾ (طه: ٥٥). وعيسى عليه السلام قال وهو في المهد: ﴿وَالسَّلَامُ عَلَيَّ يَوْمَ وُلِدتُّ وَيَوْمَ أَمُوتُ وَيَوْمَ أُبْعَثُ حَيًّا﴾ (مريم: ٣٣).

ولقد وصف القرآن الكريم نكران عرب الجزيرة عقيدة البعث والنشور عندما قال تعالى على لسان معطّلة العرب مثلما سمّاهم الشّهرستاني في كتابه "الملل والنّحل": ﴿وَقَالُوا مَا هِيَ إِلَّا حَيَاتُنَا الدُّنْيَا نَمُوتُ وَنَحْيَا وَمَا يُهْلِكُنَا إِلَّا الدَّهْرُ وَمَا لَهُم بِذَٰلِكَ مِنْ عِلْمٍ إِنْ هُمْ إِلَّا يَظُنُّونَ﴾ (الجاثية: ٢٤).

لقد اقتضت الحكمة الأزليّة أن يُبتلى الإنسان بزينة الحياة الدّنيا وبالهوى، فكان بذلك عُرضة للفسوق والعصيان والغفلة والنّسيان والإعراض عن الحقّ. فأرسل الله إليه رسله وأنزل كتبه، وبيّن له مواقع رِضاه وغضبه، وأنّ النّعيم لا يدرك بالنّعيم، وأنّ أعظم اللّذات محجوب بأنواع المكاره، فلم تقوَ عُقول الكثيرين على إيثار الآجل المنتظر بعد فناء الدّنيا على هذا العاجل الملموس، بل إنّ خيالهم لم يتّسع لتصوّر نشر جديد بعد ظلمة القبر وفناء الجسد، وأنّا سنموت كما سنَنام ونُبعث كما سنستيقظ، ولاسيما العرب الذين لم يكلّفوا قطّ بشريعة، لوجودهم في فترة من الرّسل بين جدّهم إسماعيل ومحمّد عليهما السّلام.[1]

البعث في القرآن والسنّة

لقد استعمل القرآن الكريم في ردّه على منكري البعث على اختلاف اتجاهاتهم مختلف البراهين لإقناعهم بأنّ الساعة حقّ وأنّ الله يبعث من في القُبور. وتقوم عقيدة البعث على أصول لا بدّ من اعتبارها في عقيدتنا، وهي:

يوجّه القرآن الكريم الأنظار إلى أنّ الله تبارك وتعالى لم يخلق هذا الكون باطلاً ولغير هدف. يقول جلّ ذكره: ﴿وَمَا خَلَقْنَا السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا لاَعِبِينَ ۞ مَا خَلَقْنَاهُمَا إِلاَّ بِالْحَقِّ وَلَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لاَ يَعْلَمُونَ﴾ (الدّخان:٣٨-٣٩). وبيّن سُبحانه أنّه لم يخلق الإنسان عبثاً، قال عزّ جلّ: ﴿أَفَحَسِبْتُمْ أَنَّمَا خَلَقْنَاكُمْ عَبَثًا وَأَنَّكُمْ إِلَيْنَا لا تُرْجَعُونَ﴾ (المؤمنون:١١٥).

تبين العقيدة الإسلاميّة أنّ الإنسان له حريّة عميقة في كيانه، لكنّها ليست حرّية الفوضى الخلقية التي تنتهي دائماً بتهديم الإنسان وتمزيق علائقه مع الوجود الخارجي من حوله.

فالحقّ الذي خلق الله تعالى به الكون يتنافى مع الفلسفة الوجوديّة المُلحدة؛ فليس ثمّة عبث كما يرى "ألبير كامو"، وليس ثمّة لامعقوليّة للحياة والوجود كما يرى "كافكا"، وليس ثمّة حرّية لأخلاقيّة مُطلقة من كلّ قيد كما يرى "سارتر"، وليس ثمّة تناقضات نفسيّة لا نهاية لها تنتهي دائماً بالضياع كما يرى "دستوفسكي". ذلك أنّ الإسلام يستمدّ تجاربه الباطنيّة من خلال الحقيقة لا الزّيف، ومن الاستقامة لا الانحراف، ومن المعرفة لا الضياع.[٢]

وإنّ ارتباط الوجود الإنساني بمصيره هو النّقطة التي تفترق فيها الطُّرق بين النّاس، لا في نظرتهم إلى الحياة وفلسفتهم فيها فحسب، بل في أخلاقهم ونمط سلوكهم ومدى إيمانهم. فالإيمان بمصير الإنسان بعد الموت يجعل لحياته غاية سامية وهدفاً أعلى. والقرآن الكريم حافل بآيات تُقيم الأدلّة على أنّ الكون ليس مهملا كما يزعم الملاحدة، بل خلق الخلق بالحقّ ليكون الابتلاء والاختبار الذي سيعقبه بعث للحساب والجزاء، قال تعالى: ﴿الَّذِي خَلَقَ الْمَوْتَ وَالْحَيَاةَ لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلاً﴾(الملك:٢).

فالإيمان بالله تعالى يُحقّق المعرفة بالمصدر الأوّل؛ والإيمان بالبعث يُحقّق المعرفة بالمصير الذي ينتهي إليه هذا الوجود؛ وعلى ضوء المعرفة بالمصدر والمصير يمكن للإنسان أن يُحدّد هدفه ويرسم غايته، ويتّخذ من الوسائل والذّرائع ما يُوصله إلى الهدف ويبلغ به الغاية. ومتى فقد الإنسان هذه المعرفة، فإنّ حياته سوف تبقى بلا هدف ولا غاية. وحينئذ يفقد الإنسان سموّه الرّوحي ويعيش كما تعيش الأنعام. وهذا هو الانحطاط الرّوحي المدمّر لشخصيّة الإنسان والمنافي للحكمة الإلهيّة العُليا من هذا الوُجود.

نهاية العالم

تُؤكّد عقيدة البعث على فناء هذه الدّنيا وانتفاء أزليّة هذا الكون، ويؤكّد علماء الفلك حتميّة اختلال الأجرام السماويّة.[٣] ويؤكّد ذلك قوله تعالى: ﴿إِذَا السَّمَاءُ انفَطَرَتْ ۞ وَإِذَا الْكَوَاكِبُ انتَثَرَتْ ۞ وَإِذَا الْبِحَارُ فُجِّرَتْ ۞ وَإِذَا الْقُبُورُ بُعْثِرَتْ ۞ عَلِمَتْ نَفْسٌ مَا قَدَّمَتْ وَأَخَّرَتْ﴾ (الانفطار:١-٥).

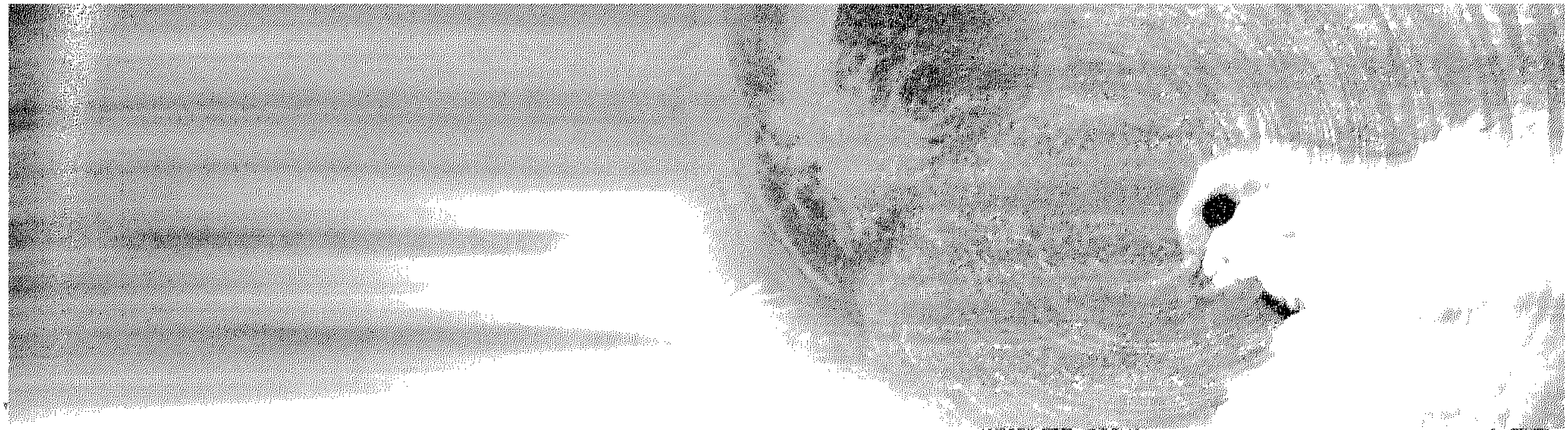
جاء في كتاب "المعاد" قوله: "إنّ قانون الدّيناميكيّة الحراريّة يثبت أنّ الحرارة ليست دائمة إلى الأبد، وأنّ يوم انتهائها سيأتي حتماً، والكون يتّجه إلى درجة تتساوى فيها حرارة جميع الأجسام وينضب فيها مَعين الطّاقة، ويومئذ لن تكون هناك عمليات كيميائيّة أو طبيعيّة، وذلك بحكم الانتقال الحراريّ المستمرّ من الأجسام الحارّة إلى الأجسام الباردة. ولا يمكن أن يحدث العكس بقوّة ذاتيّة، بحيث تعود الحرارة وترتدّ من الأجسام الباردة إلى الأجسام الحارّة، وعندئذٍ تقف حركة الحياة ويموت الأحياء".[٤]

سكرات الموت ونهاية الإنسان

ليس الموت ختاماً لمعنى الحياة وابتداء لحالة أخرى لا شعور فيها ولا إحساس معها، إنّما هو مرحلة تحوّل من طوْر إلى آخر. إنّ الموتَ هو الفجيعة الكُبرى للجاحدين الذين سيعرفون بعد الموت كلّ شيء وسيُدركون أنّهم كانوا في ضلال بعيد، سيتمّ ذلك بعد فوات الأوان. تثبت العقيدة الإسلاميّة أنّ ما يقع للجسد من فساد لأجهزته وفنائه لا يؤثّر في حقيقة الرّوح ولا في كيان الإنسان المعنويّ.

ولقد عبّر القرآن الكريم عن لحظة الفزع ولحظة خروج الرُّوح من الجسد بسكرة الموت، قال جلّ وعلا: ﴿وَجَاءَتْ سَكْرَةُ الْمَوْتِ بِالْحَقِّ ذَلِكَ مَا كُنْتَ مِنْهُ تَحِيدُ﴾ (ق:١٩). وقال ﷺ يوم مفارقته الدُّنيا وهو يمسح وجهه بالماء: "لا إله إلاّ الله إنّ للموت سكرات".

وإنّ أوّل منازل الآخرة هو القبر، فهو يضيق ويتّسع ويُظلم ويُنوّر بحسب مكانة صاحبه عند ربّه. والأدّلة على ذلك كثيرة، منها قوله ﷺ فيما رواه البخاري أنّه لمّا مات أبو سلَمة دخل عليه الرّسول ﷺ ثمّ قال: "اللّهم اغفر لأبي سلمة وافسح له في قبره ونوّر له فيه". أمّا الدّليل على سؤال الميّت في القبر ما أخرجه مسلم أنّ النبي ﷺ كان إذا فرغ من دفن ميّت وقف عليه وقال: "استغفروا لأخيكم وسلوا له التّثبيت فإنّه الآن يُسأل".



فالقبر فيه فتنة ووحشة وابتلاء وسؤال الملكين، والدّليل على وجود عذاب القبر الحديث الذي رواه مسلم في صحيحه قال ﷺ: "إنّ أحدكم إذا مات عرض عليه مقعده بالغداة والعشيّ، وإنْ كان من أهل الجنّة فمن أهل الجنّة، وإنْ كان من أهل النّار فمن أهل النّار، فيُقال هذا مقعدك حتّى يبعثك الله يوم القيامة". وممّا يؤكّد هذا الحديث قوله تعالى في آل فرعون: ﴿النَّارُ يُعْرَضُونَ عَلَيْهَا غُدُوًّا وَعَشِيًّا وَيَوْمَ تَقُومُ السَّاعَةُ أَدْخِلُوا آلَ فِرْعَوْنَ أَشَدَّ الْعَذَابِ﴾ (غافر:٤٦).

فإنّ وقت الموت أو المرحلة بين الدّنيا والبعث هي حياة البرزخ التي قال فيها تبارك وتعالى: ﴿حَتَّى إِذَا جَاءَ أَحَدَهُمُ الْمَوْتُ قَالَ رَبِّ ارْجِعُونِ ۞ لَعَلِّي أَعْمَلُ صَالِحًا فِيمَا تَرَكْتُ كَلَّا إِنَّهَا كَلِمَةٌ هُوَ قَائِلُهَا وَمِنْ وَرَائِهِمْ بَرْزَخٌ إِلَى يَوْمِ يُبْعَثُونَ﴾ (المؤمنون: ٩٩-١٠٠). يقول القشيري: "من مات فقد دخل البرزخ، وما بين الموت والبعث فإمّا راحة متّصلة وإمّا آلام وآفات غير منفصلة".(٥)

وإنّ الأرواح متفاوتة في مستقرّها في البرزخ حسب شقاوة صاحبها وسعادته إلى أن يأتي اليوم الآخر. هذا اليوم العظيم الذين اهتمّ به القرآن الكريم اهتماماً بالغاً، فتناول حقيقة اليوم الآخر وما يكون فيه من بعث وحساب وجزاء، ثمّ ما يتبعه من حوض وصراط وشفاعة، واعتبره ركناً من أركان الشّريعة الإسلاميّة.

ويتجلّى هذا الاهتمام بكثرة ذكر القرآن الكريم لليوم الآخر، فلا تكاد تخلو سورة من الحديث عنه ولو في إشارة أو تلميح مع تقريبه إلى الأذهان، تارة بضرب الأمثال، وتارة بالحجّة والبرهان، وكثيراً ما نجد القرآن الكريم يتحدّث عن الدّنيا كأنّها ماضٍ كان، وعن الآخرة كأنّها الحاضر الآن.

الأدلّة الشرعيّة المثبتة للبعث

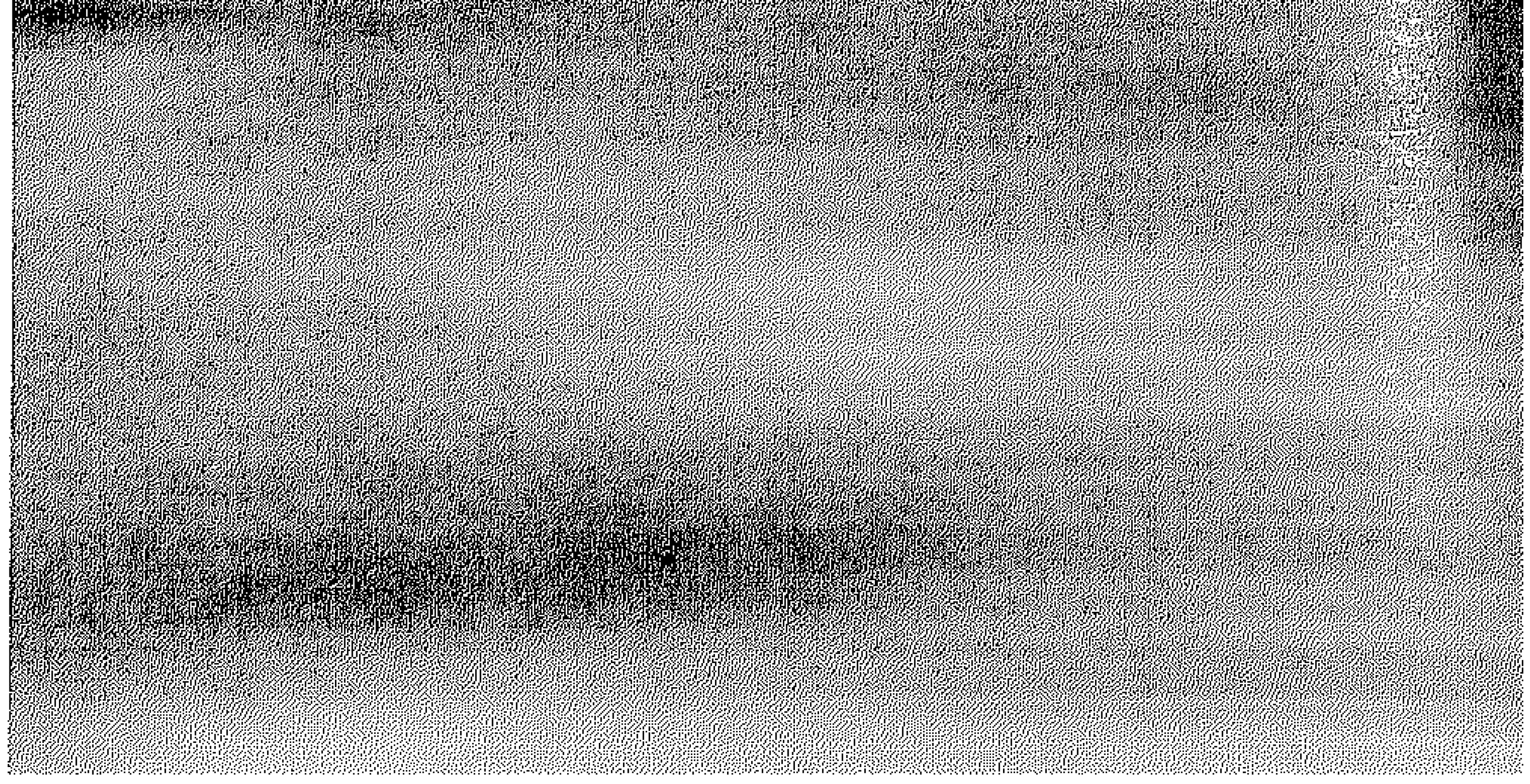
إنّ الموت في واقعه ليس انعداماً لأجزاء الإنسان، بل تفريقاً لها. وعندما تتعلّق إرادة الله بعودة الأجسام، يجمع هذه الأجزاء المشتّتة ويؤلّفها على حالتها السابقة جسماً وروحاً، وذلك هو المعاد. وما وقع لإبراهيم الخليل عليه السّلام لمّا سأل ربّه بقوله: ﴿رَبِّ أَرِنِي كَيْفَ تُحْيِي الْمَوْتَى﴾، وجواب الله تعالى له خير دليل على إعادة الخلق من جديد، قال تعالى: ﴿فَخُذْ أَرْبَعَةً مِنَ الطَّيْرِ فَصُرْهُنَّ إِلَيْكَ﴾ بمعنى أن يقطعها إبراهيم عليه السّلام إلى أجزاء صغيرة يختلط بعضها ببعض خلطاً غير قابل للتجزئة والتّمييز ﴿ثُمَّ اجْعَلْ عَلَى كُلِّ جَبَلٍ مِنْهُنَّ جُزْءًا ثُمَّ ادْعُهُنَّ يَأْتِينَكَ سَعْيًا﴾ (البقرة:٢٦٠).

قال الشيخ محمد الطاهر ابن عاشور: "يميّز الله تعالى أجزاء كلّ طير عن صاحبه ويجمع أجزاء كلّ واحد منها مستقلاً عن الباقي، فإذا اكتملت لكلّ طائر هيئته الخاصّة به أودع فيه الحياة حتّى يطمئن إبراهيم إلى هذه الحقيقة، ويتحقّق عِلْمه، وينتقل من معالجة الفكر والنّظر إلى بساطة الضرورة بيقين المشاهدة، وانكشاف المعلوم انكشافاً لا يحتاج إلى معاودة الاستدلال ودفع الشّبه عن العقل".(٦)

وهذا المثل القرآني الدّقيق صريح الدّلالة على أنّ الموت تفريق للأجزاء، وليس انعداماً لها كما يظنّ المفكّرون الذين استعظموا عودة الحياة الإنسانيّة بعد انقطاع الحواس وانفصال الشّعور عن الجسد.

والنّصوص القرآنيّة التّي تُؤكّد إعادة الخلق والبعث والنّشور كثيرة ووفيرة منها قوله تعالى:

﴿وَيَقُولُ الإِنسَانُ أَئِذَا مَا مِتُّ لَسَوْفَ أُخْرَجُ حَيًّا ۞ أَوَلاَ يَذْكُرُ الإِنسَانُ أَنَّا خَلَقْنَاهُ مِنْ قَبْلُ وَلَمْ يَكُنْ شَيْئًا﴾ (مريم: ٦٦-٦٧). ﴿ذَلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ هُوَ الْحَقُّ وَأَنَّهُ يُحْيِي الْمَوْتَى وَأَنَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ۞ وَأَنَّ السَّاعَةَ آتِيَةٌ لا رَيْبَ فِيهَا وَأَنَّ اللَّهَ يَبْعَثُ مَنْ فِي الْقُبُورِ﴾ (الحج: ٦-٧). ﴿وَمِنْ آيَاتِهِ أَنَّكَ تَرَى الأَرْضَ خَاشِعَةً فَإِذَا أَنزَلْنَا عَلَيْهَا الْمَاءَ اهْتَزَّتْ وَرَبَتْ إِنَّ الَّذِي أَحْيَاهَا لَمُحْيِي الْمَوْتَى إِنَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ (فصلت: ٣٩). هذا نوع من قياس الدّلالة وهو "الجمع بين الأصل والفرع بدليل العلّة وملزومها" مثلما قال علماء أصول الفقه. فدلّ سبحانه في هذه الآية عباده



بما أراهم من الإحياء الذي تحقّقوه وشاهدوه على الإحياء الذي استبعدوه، وذلك قياس إحياء على إحياء واعتبار الشيء بنظيره، والعِلّة الموجبة هي عموم قدرته سبحانه وكمال حكمته، وإحياء الأرض دليل العلّة.

والقرآن الكريم إذْ يدعم عقيدة البعث بمختلف الوسائل والطُّرق، فليس ذلك فقط على قرارٍ ألزم الله به نفسه، وإنّما على أحد مستلزمات العدل الإلهي والحكمة السّامية، حتّى لا تكون حياة الإنسان بلا غاية ولا هدف. إنّ حاجة الإنسانيّة ملحّة إلى الآخرة لضمان الخلود وإقامة العدل وتنظيم الحياة.(٧) وهكذا، فإنّ الإيمان بالبعث كالإيمان بالله كلاهما لا يقبل شكّاً ولا تردّداً، لأنّ الفِطرة السليمة تنساق إلى هذا الإيمان.

فالإيمان بالله يعترف بالمصدر الأوّل للوجود، والإيمان بالبعث يعترف بمصير الإنسان فيه. ومن حُرم هذه المعرفة أضحت حياته كحياة الأنعام تقوده الأهواء وتُسيّره الغرائز. والله تعالى لم يخلق الإنسان بيديه، ولم ينفخ فيه من روحه ولم يأمر ملائكته بالسّجود إليه، ولم يحمّله الأمانة ولم يجعل له الخلافة، ولم يسخّر له ما في السّموات والأرض إلاّ ليجعل من وجوده غاية سامية تتّفق مع حِكمته العُليا وعدله المُطلق، حتّى لا تذهب جهود هذا الإنسان سدى مصداقاً لقوله جلّ ثناؤه: ﴿وَخَلَقَ اللهُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ بِالْحَقِّ وَلِتُجْزَى كُلُّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ وَهُمْ لاَ يُظْلَمُونَ﴾ (الجاثية: ٢٢). ■

(*) جامعة الزّيتونة / تونس

الهوامش

(١) بلوغ الأرب في معرفة أحوال العرب، لمحمد شكري الآلوسي، ص ١٠٩.

(٢) في النّقد الإسلامي المعاصر، لعماد الدّين خليل، ص ٤٢.

(٣) الإسلام يتحدّى، لوحيد الدّين خان، ص ٨٢-٨٣.

(٤) المعاد، لمحمد حسن آل ياسين، ص ٥٠.

(٥) لطائف الإشارات، للقشيري، ٤/٢٤٤.

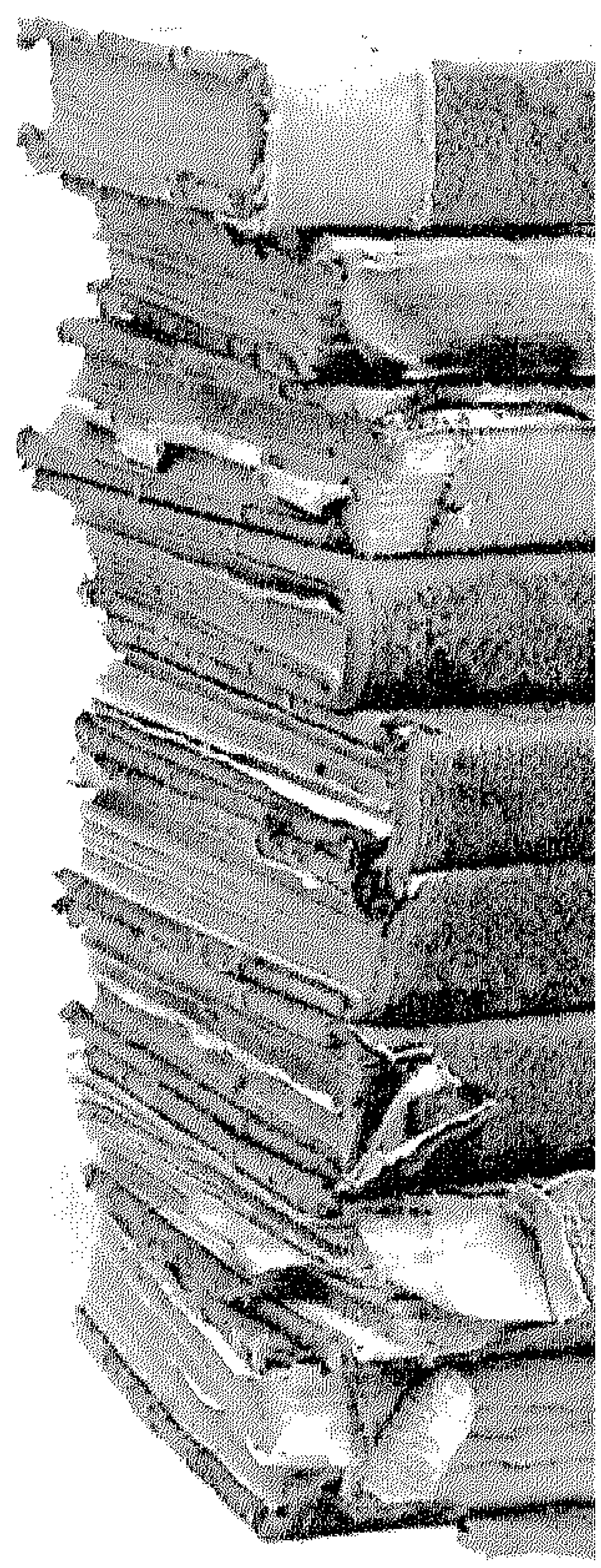
(٦) التحرير والتنوير، لابن عاشور، ٣/٣٩.

(٧) عقيدة البعث في الإسلام، للتهامي نقرة، ص ١٤٠.

دموع وقلب

دموعك تمزق قلبي،
لا أحد يكفكف هذا الدمع...
أصيب العالم بسكتة دماغية خرساء...
مشاهد الآلام تمضي سريعًا،
دون أن تخدش ضميره،
كمن يجلس في صالة عرض
يشاهد فلمًا للراحة والتسلية
والظالم يزداد عتوًا كل يوم
أما رائحة الموت فقد ملأتْ أجواء الدنيا





> انثرْ بذورك وامضِ ولا تلوِ على شيء،
> ودعْ أيّاً كان يحصد ما بذرت...
>
> ***

قراءة في عنوان ما صنّف في الحديث والقرآن

تطور نظام العنونة في الثقافة الإسلامية

د. محمد جكيب*

ارتبط بزوغ شمس الحضارة الإسلامية وتطورها بتدوين المعرفة. وتعتبر العنونة مظهرا من المظاهر التي عكست ذاك البزوغ. فقد تطور نظام العنونة في الثقافة الإسلامية تطورا ملموسا تسرب إليه من الرقي الملموس الذي حققته مختلف الجوانب والمدنية والمعرفية. ولا شك في أن الإسلام كان العامل الأقوى المؤثر في هذا التطور لرسم الخطوات الكبرى والأولية لهذه الحضارة، بدءا من مركزية القرآن الكريم في صلب الحركة المعرفية الإسلامية.

العنونة في الثقافة الإسلامية

لم يعرف التاريخ كتابا تسمى بـ"القرآن"، فهو اسم خاص بالكلام المنزل على الرسول ﷺ. وعمليا يعد مصطلح "قرآن" أول عنوان الحضارة الإسلامية. فرغم كونه اسم جنس دال على "الكلام المعجز المنزل على النبي ﷺ، المكتوب في المصاحف، المنقول عنه بالتواتر المتعبد بتلاوته"(١) فقد وظف بدلالة عنوانية. والمتتبع لقصة كتابة القرآن يلاحظ أن الصحابة الذين اهتموا بتدوين القرآن كسيدنا عمر وأبي بكر وزيد بن ثابت وغيرهم من الصحابة رضي الله عنهم، كانوا يستعملون لفظة "قرآن" ببعد عنواني(٢) للدلالة على هذا الخطاب المعجز.

وكان من الطبيعي أن تظهر للقرآن أسماء جديدة بعد أن جمع على عهد عمر رضي الله عنه، يقول صبحي الصالح: "ويبدو أن تسمية القرآن "بالمصحف" نشأت على عهد أبي بكر، فقد أخرج ابن أشته في كتاب "المصاحف" من طريق موسى بن عقبة عن ابن شهاب قال: لما جمعوا القرآن فكتبوه على الورق قال أبو بكر: التمسوا له اسما. فقال بعضهم "السفر" قال: ذلك اسم تسميه اليهود. فكرهوا ذلك وقال بعضهم: "المصحف" فإن الحبشة يسمون مثله. فاجتمع رأيهم على أن يسموه "المصحف"".(٣) وبذلك صارت اللفظة عنوانا جديدا للقرآن في شكلها الجديدة، وأصبح القرآن يحمل عنوانين:

- الأول متصل بطبيعة المادة، وهو عنوان توقيفي.
- الثاني متصل بشكل المادة التي أصبح عليها، وهو عنوان تواضعي وعملي.

وبهذا فـ"القرآن" و"المصحف" هما أقدم العناوين في تاريخ الثقافة الإسلامية، ويتربعان على قمة العناوين في عصر التدوين.

ولقد أصبح القرآن الكريم مع توالي الزمن منطلقا للعديد من المصنفات والمؤلفات والكتب التي تناولته بالشرح والتفسير، عارضة مختلف مواطن إعجازه، وكاشفة كنوزه المعرفية والدينية.

والعنوان موطن يجلي المجهود الذي صرفه العقل الإسلامي في هذا المجال، كمّاً وكيفاً. وللمس هذا الجهد نشير إلى أن تدوين المعرفة الإسلامية قد مر إجرائيا بثلاث مراحل أساسية هي: مرحلة الجمع والنقل، ثم مرحلة التدوين، وأخيرا مرحلة الترتيب والتصنيف.

تعد المرحلة الأولى حاسمة لتركيزها على تحصيل ما في الصدور من معارف؛ وتطلب ذلك جهدا كبيرا تجسد في شدة الحرص على طلب كل ضروب المعرفة، ووضع الأسس الواقية من الوقوع في الزلل، والتثبت من صحة ما يجمع وينقل.

وأما المرحلة الثانية فكانت مرحلة التدبر فيما تم جمعه وتدوينه، تمهيدا للاستفادة منه في فهم القرآن والحديث في المقام الأول، والعلوم الأخرى التي نشأت على هامش الأصول الكبرى في المقام الثاني. وهي المرحلة التي صنفت فيها أمهات الكتب التي وضعت الثوابت المعرفية الأساسية للثقافة الإسلامية.

وأما المرحلة الثالثة فيمكن اعتبارها مرحلة إعادة التأمل فيما تم تدوينه من معارف بالشرح والتعليق والتفسير وضع الحواشي.

ولكل مرحلة عناوينها المبرزة لطبيعة النشاط السائد. ويكفي العودة إلى المصنفات التي اهتمت بالتأريخ للمجهود الذهني كـ"الفهرست" لابن النديم و"تاريخ آداب العربية" لكارل بروكلمان و"تاريخ التراث العربي" لفؤاد سزكين، للوقوف على مدى التلاحم بين العنوان وطبيعة المرحلة تأليفا وتصنيفا والنشاط المعرفي السائد.

علوم القرآن ونشوء مدارس القراءات

فالنصف الثاني من القرن الهجري الأول كان هو البداية الفعلية للعنوان التخصيصي في علوم القرآن، ونشوء مدارس القراءات، التي تكونت حول عدد من التابعين الذين تلقوا القراءات عن الصحابة في المدينة والكوفة والبصرة. وأقدم كتاب معروف في الموضوع كتاب عنوانه "كتاب في القراءات" ليحيى بن يعمر (ت:٨٩ هـ / ٧٠٧م)، وهو أحد تلاميذ أبي الأسود الدؤلي؛ وكتاب آخر لعبد الله بن عامر اليحصبي (ت:١١٨هـ / ٧٣٦ م)، وعنوانه "اختلاف مصاحف الشام والحجاز والعراق". والراجح أن كتبا أخرى قد جرى تصنيفها في هذه المرحلة في ضوابط القراءة وقواعدها، وفي اختلاف المصاحف المستعملة في مختلف الأمصار، ولكن عناوينها لم تصل إلينا.

ويلاحظ في عناوين هذه المرحلة، على قلتها، إشارتها إلى المضمون إشارة مباشرة، زيادة على بساطة تركيبها، وأصالتها، وهي لا تعطي الانطباع بوجود تخصيص لمجال دون آخر.

لقد أصبح القرآن موضوعا للتأليف والتصنيف منذ زمن متقدم جدا، إذ لم تكد تصل نهاية القرن الأول الهجري حتى كانت تصانيف بعض علوم قد أخذت مكانتها، وبدأت شخصيتها تتبلور. وتميزت عناوين هذه المرحلة بمميزات أهمها:

١- البساطة، وتتجلى في الإحالة على طبيعة الجهد الذي لا يخرج في الغالب عن دائرة القراءة والتفسير.

٢- الإحالة المباشرة على المضمون، والابتعاد عن التكلف اللغوي، والإطناب. ولذلك مبررات أهمها طبيعة المجال المشتغل فيه وهو القرآن الكريم الذي يحتم عدم التكلف؛ وطبيعة المرحلة التي تتميز بكونها بداية محتشمة ومسكونة بإعطاء فكرة صادقة عن المضمون دون زيادة.

٣- سيطرة النزعة التقريرية في بعض العناوين، وهو ما يفسر طول بعضها، كـ"كتاب اختلاف مصاحف الشام والحجاز والعراق".

٤- تشابه عدد من العناوين في الصيغة كـ"كتاب المقطوع والموصول" الذي نجده عند عامر وعند حمزة الزيات، وكـ"كتاب القراءة" الذي نجده عند "ابن كثير" وعند "نافع". ويرد ذلك إلى عدم نضج فكرة العنوان لدى المصنفين الأوائل. فغالبا ما يضاف مضمون الكتاب إلى مصنفه، وتلك ممارسة تجد تعليلها: في قلة المصنفات مقارنة بالمراحل الآتية، وفي الحرص على الرواية الصحيحة التي تستند على التأكد من هوية المصنف، وهو مرتكز أخلاقي وحضاري سيفتح الباب لظهور علم الجرح والتعديل.

٥- الراجح أن عددا من الكتب والرسائل لم يصل إلينا في الشكل والصورة التي صيغ بها ويحتمل أن تكون العناوين الحقيقية لهذه المصنفات ضاعت وعوض بها عناوين تقريرية ومباشرة، وهو ما يرجح تناقلها مشافهة في أول الأمر، ثم تدوينها بعد ذلك.

٦- وأخيرا فإن أصالة هذه العناوين ظاهرة وواضحة. فلا أثر فيها للمؤثرات الأجنبية الدخيلة، فهي من صميم الدين الجديد.

وعلى العموم ففكرة صياغة العنوان لم تكن واضحة وجلية نظرا للأسباب التي ذكرنا. فالإشارات الواردة في عناوين هذه المرحلة تعبر بشكل من الأشكال عن المدونة. فإذا قيل مثلا "كتاب ابن عباس"، فهذه العبارة عنوان على مدونة لابن عباس دوّن فيها ما فسره من آي القرآن الكريم وملاحظات أخرى.[٤]

إن الغالب على عنوان هذه المرحلة هو الطابع التداولي الرامي إلى التسهيل على الراغب في التعرف على المضمون، مع ربطه بالمصدر المتمثل في اسم المؤلف. وإذا كان ضبط القراءة والتفسير هو عمق الجهد المطلوب في هذه المرحلة، فإن علة ذلك هي

الحاجة إلى الفهم الصحيح للقرآن والمحافظة عليه.

وأمـا بخصوص الحديث فالمؤكد تاريخيـا أن تدوينه كان بدأ على عهد الرسـول ﷺ، فقد روى الإمام أحمد في مسنده أن عبد الله بن عمر كان يكتب الحديث عن رسـول الله ويكتب كل ما يسـمعه عنه، وكان الرسـول ﷺ يؤيده في ذلك، وكان عبد الله يسـمي الرقعة التي كتب عليها الحديث "الصادقة"(٥) التي نعتبرها أول مدونـة في الحديث وأول عنوان فيه. ويوازيها عنوانا آخر هو "الصحيفة الصحيحة" وأطلقه همام بن منبه على مجموع الأحاديث التي سمعها عن أبي هريرة ﷺ. وتأثير العنوانين في المصنفات الحديثية سـيظهر جليا في تصانيف كثيرة لاحقـة. فقد عنونت الكثير من كتب الحديث بـ"الصحيح"، ولسـنا هنا بصدد التأريخ لتدوين الحديث، ولكننا نرغب في تتبع التطورات التي عرفها عنوان المصنف الحديثي، لأنه يكشـف عن قدر من التطور المنهجي والمعرفي الذي عرفه هذا المجال الذي توج في القرن الثالث الهجري بظهور أغلب المجامع الصحيحة التي تمثل عصارة جهود جمع الحديث ونقله من أفواه الرواة وصدور العلماء والمدونات المتفرقة.

العنونة وتدوين الحديث

وفيما يرجع إلى العنونة، فقد تطـورت موازية لتدوين الحديث والتأليف فيه. يلمس ذلك من خلال بعض الكتب المصنفة خلال المراحـل الثلاثة مثـل "صحيفة" عبد الله بـن عمرو بن العاص (الصادقة)، و"صحيفة" جابر بن عبد الله، و"الحديث" لنبيط بن شريط الأشحصي الكوفي وأمثالها من المصنفات.

الطابـع الغالب على هذه العناوين هـو عدم خروجها عن الإشـارة إلى طبيعة المصنف، بالاكتفاء بالإحالة على المادة التي كتب عليها النص (صحيفة)، أو بنوعية المادة المكتوبة (حديث)، ونسـبة ذلك إلى مدونها أو الذي وجدت عنده ساعة التصنيف والجمع، دون الاعتنـاء بموضوع المصنف أو محتواه. الأمر الذي يسمح بأن نتصور بنية العنوان على هذه الصيغة: الحالة (حديث أو صحيفة) + اسم المصنف.

ولا تعكـس هذه العناوين وعي العقـل خلال هذه المرحلة بأهميـة العنوان، لأنه لم يكن غاية في ذاتـه؛ فقد ظل مجرد دال على شكل ومضمون المعنون. الأمر الذي يعكس انشغال علماء الحديث برغبة الإسـراع في تدوينه مخافة موت حملته الذين مات عدد منهم في الفتوحات، وسيعرف هذا الجهد فيما بعد بمصطلح "تقييد الحديث".

مهدت هذه مرحلـة لظهور العلوم الـتي تهتم بـ"تصنيف الحديث". وشـكلت بعـض هذه المصطلحـات وغيرها على الأرجح اللبنات الأولى لظهور كتب كثيرة تحمل عناوينها عبارة: "مصنف"، و"سنن"، و"موطأ"، و"جامع"، و"صحيح".

تتميز العناوين التي تمتد إلى حدود القرن الثالث الهجري بغلبة الطابع الموضوعاتي الذي يكشـف عن وجـود نزعة تقريرية في أغلب العناوين إن لم نقل كلها، إذ تحمل كل مدونة عنوانا يحيل على موضوعها (الأحاديث، كتاب الدعاء، كتاب الصلاة).

والمتنعم في الأسماء سيلاحظ أن العنوان ظل ميالا إلى البساطة إلى حدود القـرن الثاني الهجري، ولم تخرج هذه البسـاطة في الغالـب عن إطار كلمة أو كلمتين (كتاب السـنن، أحاديث، المناسك...). وسيعرف النصف الأول من القرن الثالث تغييرا في بنية العنوان بميلـه إلى التركيب (كتاب الأمالي في آثار الصحابة - معرفة الرجال وسـؤالات إبراهيم بـن عبد الله الجنيد الختلي - كلام يحيى بن مصعب في الرجال "كتاب المجروحين"). كما تجسد هذه العناوين دخول الحديث وعلمه مرحلة جديدة تميزت بالرغبة في التحديد وتدقيق الإشـارة إلى المحتوى وضبط المادة، مما يعد امتدادا لطبيعة العنوان في المرحلة السابقة، ولكن مع ميل إلى التعامـل مع الحديث في إطار موضوعـات دقيقة، ككتاب المناسك، وكتاب الجهاد، وكتاب الصلاة، وكتاب البر والصلة.

ونلمس في عدد من العناوين البواكر الأولى لاستقلال كل علم من علوم الحديث بشخصيته وتخصصه كـ"معرفة الرجال"، و"طبقات الرواة"، التي حملت في أحشائها بوادر بعض علوم الحديث الأساسية كعلم الرجال أو علم الجرح والتعديل أو طبقات المحدثين.

وتبدو هذه العناوين في الأخير أحادية الاتجاه لكونها مسكونة برغبـة إخبار المتلقي بالمضمون في المقـام الأول. الأمر الذي لا يترك مجالا للعناية بالعنوان من الناحية الفنية، نظرا لسيطرة النزعة النفعية في بعدها الأخلاقي الديني على كل العناوين.

علـى الرغم من عدم وجود حـدود صارمة تفصل مرحلة سـابقة عن أخرى لاحقة في مجال المعرفة، فإن المرحلة اللاحقة سـتعرف دخول علم الحديث مرحلة جديدة شكلا ومضمونا. وقـد عكس العنوان هذا التحول الذي تجسـد في العطاء الكثير وظهور أئمة الحديث الكبار كالبخاري ومسلم والترمذي.

إن الملاحظة الأساسـية التي تنطق بها مؤلفـات هذا القرن هي غزارة التصنيف في هذه المرحلـة، فهي كثيرة يمكن العودة إليها في الكتب التي تؤرخ للتراث. فالقرنان الثالث والرابع عرفا حركة فكرية نشيطة في كافة المجالات. وعلم الحديث أحد تلك المجالات التي تجسـد فيها النضج الفكري والحضاري للثقافة.

والمتأمل في هذه العناوين سيلاحظ توجهها إلى:

١- الموسوعية، وتتجلى في الدلالة على عمق الاستقصاء والجمع (الجامع الصحيح - التاريخ الكبير - كتاب الطبقات - كتاب السنن...).

٢- التخصص، ويتمثل في تدقيق موضوع الكتاب (كتاب الضعفاء - كتاب الكنى - كتاب رفع اليدين في الصلاة - كتاب العلل - كتاب الجمعة...)، ويتمثل كذلك في بروز هوية أهم علوم الحديث كعلم الرجال المرتبط بعلم الجرح والتعديل، وعلم الرواة وطبقاتهم.

وإضافة إلى ذلك فإن الطابع التاريخي صار ميزة تسيطر على أغلب العناوين نظرا لارتباط علم الحديث بالتوثيق، وضرورة التيقن من سلامة رجال الحديث ونزاهتهم، إضافة إلى عامل المدة الفاصلة بين عصر هؤلاء المؤلفين وعصر الرسول ﷺ والصحابة والتابعين.

أسباب العنونة الطويلة

وعلى مستوى الصياغة بقي عنوان هذه المرحلة مشدودا إلى صورة الصياغة القديمة من حيث البساطة، وغلبة البنية الاسمية، وانعدام التركيب إلا نادرا، والارتباط المباشر بالمضمون، الذي أدى في بعض الأحيان إلى صياغة عناوين طويلة دون أن يصبح ذلك قاعدة كـ"تسمية الإخوان الذين روي عنهم الحديث" وكـ"معرفة المجروحين من الرجال". ويجسد الطول النسبي لهذه العناوين التطور الذي عرفته مضامين المؤلفات والتي بدأت تجمع بين الجمع والشرح والتفسير. فصياغة العنوان أصبحت تتم في ضوء الحرص على تقديم صورة دقيقة عن المؤلف. ويلمس ذلك بالعودة إلى "الجامع الصحيح" للبخاري. فقد قسم إلى كتب، ويدل مصطلح كتاب على الجزء أو الفصل، ولا يتجاوز العنوان مصطلح "كتاب" مضافا إلى كلمة واحدة تدل على الموضوع المراد الوقوف عنده كـ"كتاب الإيمان، وكتاب العلم، وكتاب الوضوء...". وهي بنية مركزية يجري تقسيمها إلى أبواب، ويحمل كل باب عنوانا قد يتسع طوله بحسب تشعب الموضوع كـ"باب الإيمان، وباب سؤال جبريل النبي ﷺ عن الإيمان والإسلام...". وكان البخاري حريصا فيما يبدو على أن يكون للباب عنوان يدل على مضمونه دلالة واضحة وبسيطة تسهل على المتلقي الوصول إلى مبتغاه.

ومن هنا يمكن القول إن البخاري في جامعه قد كان معنيا بمتلقيه؛ فالبعد التداولي في بنية العنوان التي تنطلق من استكناه أفق انتظار المتلقي يتحكم فيها عاملان؛ عامل ديني يتمثل في تسهيل الوصول إلى القضية الدينية كما وردت عن الرسول ﷺ، وعامل موضوعي يتمثل في تنظيم المعرفة الدينية المتضمنة في الصحيح.

ونظرا لأهمية صحيح البخاري في حياة المسلمين الدينية، لقي عناية كبيرة جدا. والعناوين المصنفة على هامشه شرحا وتفسيرا وضبطا تجسد ذلك. وهي جهود بدأت مع تصنيفه واستمرت إلى حدود القرن السابق، بل وما تزال إلى اليوم. وأهم ما يسجله المتأمل فيما صنف على هامش هذه الموسوعة هو الكثرة والدقة والموسوعية والتنوع. وهي عناصر تحمل أكثر من دلالة، نتبينها من خلال تحليل بعض النماذج العنوانية مثل "منحة الباري في جميع روايات البخاري"، و"شرح مشكل البخاري"، و"العقل الجلي في حل إشكال الجامع"، و"الإفهام لما في الصحيح من الإبهام"، و"نفحة المسك الدّاري لقارئ صحيح البخاري"، و"المتجر الربيح على الجامع الصحيح...".

تدل هذه العناوين دلالة مباشرة على مضامينها، وهي تحمل في طياتها بعدا دلاليا دقيقا يدل على حاجات المتلقي المتزايدة إلى الجامع الصحيح، تبعا لتغير أوضاع الحضارة؛ وتدل من جهة أخرى على تبعيتها إلى مصدر واحد ترفع من قيمته التداولية بين الناس مع عمق الإشارة إلى الموضوع المعالج.

ومن الخصائص المتصلة ببعض العناوين، تمثيلها لطبيعة المرحلة من الناحية الفنية. فابتداء من القرن الثامن أخذ العنوان يأخذ مسلكا غير معهود من قبل، وهو سيطرة الصنعة في بنائه من خلال التركيز على التناغم الموسيقي المتمثل في السجع والجناس والطباق. فالعنوان كغيره من ضروب المعرفة الأخرى عكس مستوى الضعف الذي عرفه العالم الإسلامي والذي تجسد في العناية بالأشكال قبل المضامين، وإن كانت هذه الصنعة تعكس عناية بالمتلقي. كما تعكس بعض العناوين صورة الحياة التي عاشها المسلمون على امتداد الرقعة الإسلامية، ويتجلى ذلك في الرياض والرياحين والأنهار والأزهار التي تضمنتها بعض العناوين مثل. كتاب "روضة العقلاء ونزهة الفضلاء".

وحسبنا في هذه العجالة أن ننبه المهتمين والباحثين إلى قيمة البحث في مجال العتبات التي يتحتم المرور منها قبل الولوج إلى النص. ■

(*) جامعة شعيب الدكالي، كلية الآداب والعلوم الإنسانية - الجديدة / المغرب

الهوامش

(1) مباحث في علوم القرآن، لصبحي الصالح، ص٢١.

(2) المصدر نفسه، ص٦٩-٧٠.

(3) المصدر نفسه، ص٧٧-٧٨.

(4) العنوان في الأدب العربي، لمحمد عويس، ص١٠٥.

(5) الطبقات الكبرى لابن سعد، ٤/٢٦٢.



كما تتساكب قطرات الغيث من بين الغيوم،
هكذا ينساب جمال النفس من القلب الموصول بالله...

* * *

مع النبي ﷺ في أحزانه

أ.د. إسماعيل لطفي جقان*

إن سبر أعماق أي إنسان صعب جدًّا، فالجوانب الأعماقية ليست سواء عند كل الناس، فالكلامُ عن الحالة النفسية لشخص ما -حتى ولو كان إنسانا عاديًّا- ليس بالأمر اليسير؛ لأن هذا الجانب موضوع ذاتي يختلف من شخص لآخر. فما بالك إذا كان الحديث عن العوالم الداخلية للنبي المصطفى (عليه أكمل التحايا) الذي هو معلّم جميع البشر ومرشدهم؛ لأن عالمه الداخلي ﷺ يتضمن أمثلة عالمية مثالية. فالذين حاولوا أن يقصّوه ﷺ علينا من الناحية الخَلقية والخُلقية يَلفتون أنظارنا إلى كونه ذا وجه طليق دائم الابتسام، وذا مسحة حزن خفيفة تغشى وجهه الكريم، ويركّزون على هذا الوصف. فكون المرء في آن واحد محزونا من ناحية ومتبسما من ناحية أخرى نعتقد أنه خاصّ بالرسول ﷺ. فحزنه عليه السلام حزن محبَّب، كما أنّ ابتسامه ابتسام وقور، وهذا يدل على صعوبة الكلام عن حياته ﷺ الروحية والمعنوية.

ومن هنا عندما نلقي نظرة على ما أُلِّف عن رسول الله ﷺ نجد الكتب التي تتحدث عن عالمه الداخلي هي قلة قليلة جدًّا. ويؤيد قولنا هذا -ولو من جهة أسماء الكتب- كتاب صلاح الدين المنجِّد المسمى بـ"معجم ما أُلِّف عن رسول الله ﷺ".(1)

نريد أن نتحدث في مقالنا هذا عن موضوع لم نر في الكتاب المذكور آنفا اسم أي بحث عنه، وهو "حزن النبي ﷺ". ففي الكتب المشهورة حول سيرته ﷺ من أمثال "الشّفا بتعريف حقوق المصطفى" للقاضي عياض، و"زاد المعاد" لابن القيم،

و"المواهب اللدنية" للباجوري، لم نعثر على موضوع تحت عنوان "حزن النبي ﷺ". ولكن من البديهي أن المواضيع والأحداث التي تسببت في حزنه ﷺ، هي في غاية الأهمية من حيث كونها تنمّ عن حياته الوجدانية والروحية.

العبد الأسوة والنبي الخاتم محمد ﷺ في حزنه وألمه أيضا هو أسوة لأمته والإنسانية جمعاء. فهو الأنموذج المثالي الذي يمثل القمة العليا في كافة الأعمال الفاضلة التي تناسب طبيعة الإنسان وفطرته التي فطره الله عليها. ومن ثم فهو قدوة في عواطف الحزن والألم كذلك، وهي من الجوانب الفطرية للإنسان. وهل التربية سوى تهذيب العواطف والسلوكيات!..

فحزنه ﷺ من حيث كونه قُدوة للأمّة، ورسولاً للهداية، ومرشداً، ومعلمًا، ومُصلحًا، ورئيسًا للدولة، يختلف تمامًا من حيث العمق والمستوى عن حزنه وتألمه كإنسان، كأب، كصديق، كزوج ..إلخ. ولكن من الصعب جدّا تمييز هذه الحالات عن بعضها أثناء كل حادثة؛ ولذلك حاولنا تقديم الموضوع ككلّ ولم ننهج طريقة تقسيم حالاته المذكورة من حيث "كونه بشرا" و"كونه رسولا"، وإن بدا التقسيم الموضوعي أكثر منطقيا. فعلى هذا سنقدم باقة من حياته ﷺ التي تشكّل مثالا ومقياسا في حزن المؤمن وألمه.

بادئ ذي بدء نريد أن نلفت الأنظار إلى قاعدة وهي أن الأنبياء عليهم السلام لا يرفعون آلامهم وأحزانهم إلا إلى الله تعالى. وقد سجل هذا وأعلن على لسان يعقوب عليه السلام في القرآن الكريم: ﴿قَالَ إِنَّمَا أَشْكُو بَثِّي وَحُزْنِي إِلَى اللهِ﴾ (يوسف:٨٦). أما نبيّ الحزن ﷺ فقد شكا حزنه أثناء عودته من الطائف إلى ربه قائلا: "اللهم إليك أشكو ضعف قوتي، وقلة حيلتي، وهواني على الناس، يا أرحم الراحمين أنت رب المستضعفين، وأنت ربي، إلى من تكلني؟ إلى بعيد يتجهمني، أم إلى عدو ملّكته أمري؟ إن لم يكن بك عليّ غضَب فلا أُبالي، ولكن عافيتك هي أوسع لي. أعوذ بنور وجهك الذي أشرقتْ له الظلمات، وصلح عليه أمر الدنيا والآخرة، من أن تنزل بي غضبك، أو يحلّ عليّ سخطك. لك العتبى حتى ترضى، ولا حول ولا قوة إلا بك."(٢) ورفعُ النبي ﷺ أحزانَه إلى الله تعالى ليست خاصة بحادثة، بل هي عادة جارية في كل أموره.

ونلاحظ الصّادق المَصدوق ﷺ يعبر عن مدى اطمئنان قلبه أثناء الهجرة في غار ثور عندما يهدّئ رَوع صاحبه أبي بكر ويخفف من وطأة حزنه قائلا: ﴿لاَ تَحْزَنْ إِنَّ اللهَ مَعَنَا﴾ (التوبة:٤٠). فكونه في منتهى الثقة والاطمئنان في تلك اللحظة المرعبة وطمأنته لصديقه الصدّيق ما هي إلا ترجمة فعلية منه ﷺ بلسان القال والحال لقول الله تعالى ﴿وَاللهُ يَعْصِمُكَ مِنَ النَّاسِ﴾ (المائدة:٦٧). إن حزنه وقلقه في ذلك الموقف العصيب لم يكن بسبب ما يمكن أن يتعرض له من أذى أبدا، إن حزنه كان أوسع وأضخم من ذلك بكثير، إنه حزن عظيم يحتضن أمته والناس أجمعين. وقول الله ﷻ ﴿عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ﴾ (التوبة:١٢٨) يدل على صحة هذا المعنى.

أما شفقته وحنانه ورأفته، ورغبته وحرصه على اهتداء الناس إلى الطريق القويم كان يقض مضجعه ولا يدعه يتذوق حلاوة النوم، وقول الله تعالى ﴿لَعَلَّكَ بَاخِعٌ نَفْسَكَ أَلاَّ يَكُونُوا مُؤْمِنِينَ﴾ (الشعراء:٣) أفضل ما يعبر عن هذا المعنى. فذات مرة جاء المشركون إلى سيد الأنام ﷺ وسألوه عن بعض الأمور، فقال لهم رسول الله ﷺ: "أُخبِرُكم بما سألتم عنه غدا"، ولم يستثن، فانصرفوا عنه. فمكث ﷺ -فيما يذكرون- خمس عشرة ليلة لا ينزل الله إليه في ذلك وحيا، ولا يأتيه جبريل. فحزن سيد الأوّابين ﷺ لانقطاع الوحي عنه، وشقّ عليه ما يتكلم به أهل مكة، ثم جاءه جبريل من الله ﷻ بسورة أصحاب الكهف، فيها معاتبته إياه على حزنه عليهم، وخبر ما سألوه عنه من أمر الفتية، والرجل الطوّاف، والروح.(٣) وقوله تعالى ﴿فَلَعَلَّكَ بَاخِعٌ نَفْسَكَ عَلَى آثَارِهِمْ إِنْ لَمْ يُؤْمِنُوا بِهَذَا الْحَدِيثِ أَسَفًا﴾ (الكهف:٦) يدل على حالته ﷺ الروحية أثناء هذه الأحداث. فهذه الآيات تدل على مدى استشعاره -كرسول الهداية- بالآلام، وضخامة حزنه من أجل إنقاذ البشرية. ونعتقد أن "حزن النبي ﷺ" هو متمركز في هذه النقطة؛ وأن محور حزنه ﷺ هو الإيمان، ومركزه الهداية: ﴿وَمَنْ كَفَرَ فَلاَ يَحْزُنْكَ كُفْرُهُ إِلَيْنَا مَرْجِعُهُمْ فَنُنَبِّئُهُمْ بِمَا عَمِلُوا إِنَّ اللهَ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ﴾ (لقمان:٢٣)... فهذه الآية دليل قرآني على هذه الحقيقة، فحزنه ﷺ كان ساميا وفريدا من نوعه.

ومن ناحية أخرى لم يكن سيد الأنام ﷺ ملاكًا، فمن الطبيعي أن تظهر عليه بعضُ الحالات المتوقّعة من البشر. ولكنه عاش حياة نموذجية ومثالية للغاية على مستوى عالميّ بدَت معالمها وانعكاساتها على عواطفه وأحاسيسه بنفس المستوى وبمنتهى الاتزان.

إن دعوة لم تتغذ بالأحزان ولم تتقلب بالهم والآلام لن تثمر أبدا. إن الدعوة إذا فشلت في مخاطبة عواطف الإنسان السامية وإثارة مكامن الحزن المقدس، فلن تكون دعوة الإنسانية جمعاء، ولن يكون أصحابها دعاة حقيقيين.

يروي لنا القاضي عياض (٥٤٤هـ/١١٤٩م) رحمه الله في



كتابه "الشـفا" عن علي ﷺ، أنه قال: سـألت رسـول الله ﷺ عن سـنّته، فقال: "المعرفة رأسمالي، والعقـل أصل ديني، والحب أساسـي، والشوق مركبي، وذكر الله أنيسـي، والثقة كنـزي، والحزن رفيقي".(٤)

والذين يصفونه ﷺ يركّزون على حزنه المتواصل وديمومة فكرته، قال ابن أبي هالة: كان رسول الله ﷺ متواصل الأحزان، دائم الفكرة، ليسـت له راحة...(٥) ذكر هؤلاء "الحـزنَ" و"الفكرة" معًا يعني أنه ﷺ قد جمع بين المشـاعر السامية والتفكر. فسَـيّد البشَر ﷺ كان يُظهر فرحه بابتسـامة؛ أما إظهار حُزنه أحيانا فكان بإهراقه الدموع الساخنة، وأحيانا بتكراره عبارة أكثر من مرة، وأحيانًا -ولو بنَدرة- بالدعـاء على مَن أحزنوه؛ لأن الدمـوع إن كانت نوعا من إظهار الحزن، فالدعاء على المتسبّبين للحزن هو طريق آخر لإظهار الحزن.

١-كونه ﷺ صَديقا وقريبا

من ناحية أخرى ما حزن رسـول الله ﷺ حزنا يسئمه من الحياة، ولكن فقدان أحبائه قد أحزنه مثلما يحزن أي إنسان. فالعام الذي توفيت فيـه زوجته خديجة رضي الله عنهـا، وعمه وحاميه أبو طالب كان "عام الحزن" لجميع المسلمين وعلى رأسهم النبي ﷺ.

ويوم استشـهد جعفر بن أبي طالـب ﷺ، ذهب النبي ﷺ إلى بيت جعفر وضمّ أولاده إلى صدره، ومسـح رأسهم بشفقة وبكي. فعَن عائشة رضي الله عنها زوج النبي ﷺ، أنها قالت: "لمّا أتى نعي جعفر عرفنا في وجه رسول الله ﷺ الحزن."(٦)

ولما أصيب زيد بن حارثة في معركة "مؤتة"، أتاهم النبي ﷺ، فجهشـت بنت زيد، أي تحركت وهمّت بالبكاء في وجه رسول الله ﷺ فبكى رسول الله ﷺ حتى انتحب. فقال له سعد بن عبادة: يا رسول الله ما هذا! قال: "هذا شوق الحبيب إلى حبيبه"(٧)

٢-كونه ﷺ مهاجرًا

فقد اضطر مَفخرة الإنسانية ﷺ إلى الهجرة من مكة تحت ضغط المشـركين. وفي أثناء الهجرة اتجه نحو مكة واقفا على الحزورة، فقال: "ما أطيبك من بلد وأحبك إليّ، ولولا أن قومي أخرجوني منك ما سكنت غيرك".(٨)

إذا كانت مشـاعر الحزن المؤلمة تغمر جوانح الإنسـان -لا محالـة- لدى فراقه لمنزله أو قريته أو مدينتـه بإرادته، فما بالك إذا كان هذا الفراق بسـبب الاضطهاد والإبعاد، وإذا كان هذا الشخص رسول الله ﷺ. فهو بكلماته المؤثرة عبر عن أحاسيسه نحو كعبة التوحيد في إطار بشري طبيعي مشيرا إلى مصدر حزنه ﷺ الحقيقي.

٣-كونه ﷺ أبًا

النـبي ﷺ قد حزن على ولده إبراهيم وحفيـده من زَينب أثناء وفاتهما، وعبّر عن مدى حزنه بسـكب عبراته الشريفة. فلنتابع معًا الرواية في هذا الصدد:

عن أنس بن مالك ﷺ قال: دخلنا مع رسـول الله ﷺ على أبي سـيف القين، وكان ظئرا لإبراهيم ﷺ، فأخذ رسـول الله ﷺ إبراهيـم فقبّله وشمّه، ثم دخلنا عليه بعد ذلك، وإبراهيم يجود بنفَسه، فجَعلت عينا رسول الله ﷺ تَذرفان، فقال له عبد الرحمن بن عوف ﷺ: وأنت يا رسـول الله؟ فقال: "يا ابن عوف، إنها رحمة". ثم أتبعها بأخرى، فقال ﷺ: "إن العين تدمع والقلب يحزن، ولا نقول إلا ما يرضى ربنا، وإنا بفراقك يا إبراهيم لمحزنون"(٩) وبقوله الشريف هذا عبّر عن عمق تأثر مشاعره بموت ولده.

فشَرَف نوع الإنسان ﷺ -بلا شك- كان يفصح عن أسمى وأمجد أحاسـيس حزنه نحو ابنه. وقد أظهـر لنا كيفية تصرف المسلم المثالي حيال تلك الظروف، وأثبت ﷺ أن البكاء ودمع العين وحزن القلب لا يخالف شأن الرجولة، وأن الصراخ وتمزيق الملابس وشق الجيب وراء الميت ليس من شأن المسلم ولا يليق به.

٤-كونه ﷺ زوجًا أو ربَّ أسرة

النبي ﷺ كزوج عاش أحزانا كثـيرة... عاش حزنا بفقدان أُمّنا

خديجة رضي الله عنها وذكرياتها حيّة في ذهنه دائما.. وعانق الحزن بافتراء المنافقين على أُمّنا عائشة الطاهرة رضي الله عنها في حادثة "الإفك".. وتجرّع الحزن بالابتعاد عن أزواجه تسعة وعشرين يوما في حادثة "الإيلاء". وفي جميع هذه الحالات عانى الرسول كزوج وربّ أسرة من أحزان عميقة بأبعادها المختلفة، حتى إن الحزن الذي كابده أدّى به أحيانا إلى المقاطعة والترك.

٥-كونه ﷺ قائدًا وإمامًا

لمّا جاء رسولَ الله ﷺ خبرُ بئر معونة وقتل سبعون من صحابته الكرام ظهر حزنه ﷺ بالدّعاء عَلَى قَتَلَتِهم قائلاً: "اللهم اشْدُدْ وَطْأَتَك على مُضَر، وَاجعَلها عَليهم سِنِينَ كَسِنِي يُوسُف، اللهم عليك ببني لحيَان وعضل والقارة وزغب ورعل وذكوان وعصية فإنهم عصوا الله ورسوله"[١٠] فعندما يصف لنا أنَس بن مالك ﷺ حالة النبي ﷺ آنذاك يقول: "ما رأيت رسول الله ﷺ وجد على شيء قط ما وجد على أصحاب بئر معونة".[١١]

فدُعاء النبيّ المرسل رحمةً للعالمين ﷺ على مضر من أجل شدة حزنه، له معان خاصة جدّا؛ لأن منع تبليغ الإسلام وقتل العلماء بنصب كمين لرجال الإرشاد والعلم الساعين في نشر الدين الإسلامي قد دفع الرسول ﷺ إلى حزن بالغ. وبدعائه ﷺ على المجرمين طوال شهر بالهلاك، كان يعلن هذه الجريمة الشنيعة إلى كل العالم بأسلوب بليغ. ونعتقد أن هذا الدعاء النبوي بالهلاك، في الآن نفسه موجّه إلى من يقف ضد تبليغ الإسلام ودعاته وفي جميع الأزمنة.

٦-أسباب أخرى لحزن النبي ﷺ

نرى نبي الحزن ﷺ قد حزن من تصرفات بعض أصحابه خاصة وأمته عامة، وقام بالإفصاح عن حزنه لمن حوله. وفيما يلي سرد لبعض الأمثلة.

أ-التباطؤ في الامتثال لأوامره ﷺ

لما واثق رسول الله ﷺ المشركين في الحديبية عام الحديبية وحال كفار قريش دون البيت، أمَر رسول الله ﷺ المسلمين أن ينحروا ويحلوا، ولكن ما قام منهم رجل، حتى قال ذلك ثلاث مرات. فلما لم يقم منهم أحد -لأن بعضهم كان قد استثقل بعض موادّ الصلح، وبعضهم لا يزال يأمل في العمرة- قام فدخل على أمّ سلمة رضي الله عنها فذكر ذلك لها. فقالت أمّ سلمة: "يا نبي الله! اخرج ثم لا تكلم أحدا منهم بكلمة حتى تنحر بُدْنك وتدعو حلاقك فتحلق". فقام فخرج فلم يكلم منهم أحدا حتى فعل ذلك، فلما رأوا ذلك قاموا فنحروا وجعل بعضهم يحلق بعضا، ففعلوا ولكن بعد توقف منهم كان قد أغضب رسول الله ﷺ. وفي رواية عندما أمرهم، حلَق رجالٌ وقصر آخرون؛ فقال رسول الله ﷺ: "يرحم الله المحلقين"، قالوا: والمقصرين يا رسول الله؟! قال: "يرحم الله المحلقين"، قالوا: والمقصرين يا رسول الله؟! قال: "يرحم الله المحلقين"، قالوا: والمقصرين يا رسول الله؟! قال: "والمقصرين"، فقالوا: يا رسول الله فلِمَ ظاهرت الترحيم للمحلقين دون المقصرين؟ قال: "لم يشكّوا".[١٢]

ب-الجهالة

ففي مقدمة الأمور التي دفعت الرسول إلى الحزن وجعلته يغضب ويتأذّى، هو مسارعة بعض المسلمين بإبداء آرائهم من دون روية -كما ينبغي- في بعض الأمور وتسبّبهم في أخطاء. والحادثة التالية موضّحة لهذا الأمر بأحسن صورة. عن جابر ﷺ قال: خرجنا في سفر فأصاب رجلاً منا حجرٌ فشجّه في رأسه ثم احتلم، فسأل أصحابَه فقال: "هل تجدون لي رخصةً في التيمم؟" فقالوا: "ما نجد لك رخصةً وأنت تقدر على الماء". فاغتسل فمات. فلما قدمنا على النبي ﷺ أُخبر بذلك فقال: "قتلوه قتلهم الله، ألا سألوا إذ لم يعلموا، فإنما شفاء العيّ السُّؤالُ، إنما كان يكفيه أن يتيمم ويعصر على جرحه خرقةً، ثم يمسح عليها ويغسل سائر جسده".[١٣]

فإظهار الرسول ﷺ مدى حزنه بهذه الطريقة، وتفسيره للحادثة بهذا الشكل، والدعاء على من أفتى بقوله "قتلوه قتلهم الله"، هو تهديد وتأنيب لمن يُفتي في أمور الدين دون الاطلاع على حقيقة الأمر. فقول الرسول ﷺ المذكور يدل من ناحية على عمق حزنه وتأثّره بالحادثة، ومن ناحية أخرى هو تنبيه وتحذير لمن سيكون في وضع من يُفتي بغير علم. فليتنبه الذين يُبدون آراءهم ويقولون في أيامنا هذه في الأمور الدينية بغير علم، دون أن يكون لهم نصيب من العلم في أمور الدين، ودون الخوف من الإفتاء فيما يجهلون حكمه.

جـ- الغلظة

عن أسامة بن زيد رضي الله عنهما قال: بعثنا رسول الله ﷺ إلى الحرقة، فصبحنا القوم فهزمناهم، ولحقت أنا ورجل من الأنصار رجلا منهم: فلما غشيناه قال: "لا إله إلا الله"، فكفّ الأنصاريُّ عنه، فطعَنْتُه برمْحي حتى قتلتُه، فلما قدمنا بلغ النبيَّ ﷺ فقال: "يا أسامة! أقتلتَه بعد ما قال لا إله إلا الله". قلت: كان متعوذا. فما زال يكررها، حتى تمنيتُ أني لم أكن أسلمتُ قبل ذلك اليوم".[١٤]

فهذه الحادثة مختلفة عن السابقة من ناحية. فالتصرُّف في تطبيق الموضوعات الدينية ثم القضاء على حياة مسلم كما دفع الرسول ﷺ إلى الحزن، كذلك محاولة تفسير الدين من وجهة قناعات شخصية وصبّها في هذا القالب أحزنه ﷺ أيضا. أما سلوك الرسول ﷺ بهذه الطريقة نحو الحادثة المذكورة للتركيز على أن أحوج ما تحتاجه المسائل والأوضاع من اعتدال وتبجيل وتطبيق على بصيرة هو أثناء القيام بأداء الوظيفة الدينية، وأن العلاقات بين المسلمين لا بد أن تجري وفق الروح الإسلامي، وعكس هذا هو سببٌ في "الحزن".

د- الإفراط والتفريط

ومن الأسباب التي أحزنته ﷺ وأغضبته هي الابتعاد عن خط الاعتدال في اتباع السنة النبوية من خلال ابتداع مبررات لا أساس لها. فتنبيه الرسول المجتبى ﷺ في هذا الموضوع كان جادًا وذا أبعاد مهدِّدة. عن مَسْرُوق أن أُمنا عائشة رضي الله عنها قالتْ: صَنعَ النبيُّ ﷺ شيئاً فرَخَّص فيه فتَنَزَّه عنه قَومٌ فبَلَغ ذلك النبيَّ ﷺ فخَطَب فحَمِدَ اللهَ ثم قال: "ما بَالُ أَقوام يَتنَزَّهون عن الشيء أَصنَعُه، فوَاللهِ إنّي لأَعلَمهُم بالله وأَشَدُّهم له خَشيةً"[١٥] وهناك مثال آخر في هذا الموضوع يمكن ذكره في هذا الصدد: عن أَنَسَ بن مالك رضي الله عنه يقول: جاء ثلاثةُ رَهْط إلى بُيوت أزواج النبيِّ ﷺ يسألون عن عبادة النبي ﷺ، فلمّا أُخبِرُوا، كأنّهم تَقَالُّوهَا، فقالوا "وأين نحن من النبي ﷺ قد غُفر له ما تَقدّمَ من ذَنبه وما تأخّر." قال أحدُهم "أمّا أنا فإنّي أُصَلّي الليلَ أبداً"، وقال آخَرُ "أنا أَصُومُ الدّهرَ ولا أُفطرُ"، وقال آخَرُ "أنا أَعتَزلُ النساءَ فلا أَتَزوّجُ أبداً". فجاء رسولُ الله ﷺ فقال: "أنتم الذين قلتم كذا وكذا، أَمَا واللهِ إنّي لأَخشاكم للهِ وأَتقاكم له، لكنّي أَصُومُ وأُفطِرُ، وأُصلّي وأَرقُدُ وأَتزوَّجُ النّساءَ، فمَن رَغِبَ عن سُنّتي فلَيس منّي".[١٦] فمثل هذا التهديد والتنبيه هو عبارة عن حزن ذي أبعاد غاضبة.

هـ- الحزن بسبب التفرقة والاختلاف

فكل تصرف يؤدي إلى تفرقة الأمة وفقدان وحدتها كان يغمر الرسول ﷺ في حزن عميق. وأكبر دليل على هذا هو ما قاله لمسلمَين يشتجران ويدعو كل منهما عشيرته ليعينه. ونعتقد أن الأمة الإسلامية الممزّقة اليوم إلى آلاف قطع سبب حزن له صلى الله عليه وسلم بهذا المعنى.

حزن عظماء الرجال يتناسب مع قدرهم فيكون كبيرًا وعميقًا. أما حزن سيد السادات ﷺ فهو أعظم حزن وأسماه دون شكّ. فسيّد الأنبياء ﷺ كما هو فريد في شمولية نبوته، كذلك هو متفرد في عمومية حزنه، بحيث يغمر جميع الكائنات ويشمل الناس أجمعين. فالرسول ﷺ أسوة حسنة في ضبط وموازنة جميع تصرفات المسلمين وسلوكهم ومعاملاتهم. كذلك هو قدوة في عمق الحزن ومصدره وغايته. ■

---

[*] جامعة مرمره، كلية الإلهيات - إسطنبول / تركيا. الترجمة عن التركية: أشرف أونن

الهوامش

[١] صلاح الدين المنجّد في كتابه "معجم ما ألف عن رسول الله ﷺ" يذكر اسم كتابَين في هذا المجال وهما: "روحانية الرسول ﷺ" لمحمد الغزالي، بيروت؛ و"حياة محمد" لعليّ عبد الجليل، القاهرة ١٩٦٤م.

[٢] السيرة النبوية لابن هشام، ٢/٦١-٦٢.

[٣] السيرة النبوية لابن هشام، ١/٣٢٢-٣٢٣.

[٤] الشفا للقاضي عياض، ١/٢٨٨-٢٨٩.

[٥] الشفا للقاضي عياض، ١/٢٨٨-٢٨٩.

[٦] السيرة النبوية لابن هشام، ٤/٢٢-٢٣.

[٧] الطبقات الكبرى لابن سعد، ٢/٤٧.

[٨] الترمذي، المناقب ٦٩.

[٩] البخاري، الجنائز ٤٣؛ مسلم، الفضائل ٦٣.

[١٠] البخاري، الأذان ١٢٨؛ الطبقات الكبرى لابن سعد، ٢/٥٣.

[١١] المسند للإمام أحمد، ٣/١٣٧؛ الطبقات الكبرى لابن سعد، ٢/٥٤.

[١٢] السيرة النبوية لابن هشام، ٣/٣٣٤.

[١٣] أبو داود، الطهارة ١٢٥؛ ابن ماجه، الطهارة ٩٣.

[١٤] البخاري، المغازي ٤٥، الديات ٢.

[١٥] البخاري، الأدب ٧٢.

[١٦] انظر إلى: البخاري، النكاح ١؛ مسلم، النكاح ٥.



العظام البشرية
مصدر إلهام للهندسة المعمارية

أ.د. محمد سامي بولاط أُوز*

باتت تصاميم العظام الإنسانية تشكل مصدرًا للهندسة المعمارية الحديثة. لقد نجح مهندسان معماريان بريطانيان في تصميم جسر مستلهم من عظام العمود الفقري.

إن الكائنات الحية تستطيع أن ترفع الأحمال الثقيلة بمنتهى السهولة بفضل تكوين هيكلها العجيب ونظامها العظمي الخارق الذي متعها الخالق الحكيم به. "كريس ويليامز" من جامعة "باث" يقول: "ليس هناك أدنى شك في أنه لو تمت مقارنة يدِ الإنسان مع أي جهاز مُصَنَّع، فسيتضح أن هيكل اليد العَظْمِي يعمل بصورة أكثر دقّة وأرقى جودة".

إن العظام تمتلك تكوينا هندسيا في منتهى التعقيد والتركيب. الأمر الذي يضع الباحثين أمام جهد كبير للاسفادة منه في التصاميم المختلفة. بيد أن "ويليامز" وزميله "نسوغبه" قد طوّرا نموذجًا في الرياضيات أثبتا من خلاله إمكانية إنجاز منشآت معمارية تشبه التصاميم العظمية. إن "ويليامز" استطاع أن يبني جسره المركب ويعبر عنه بالاعتماد على معادلة رياضية بسيطة. فلقد كانت الجسور التقليدية تتكون من عناصر كثيرة ومختلفة في خواصها الميكانيكية؛ كما أن الثقل الذي يحْمله كل عنصر مختلف كذلك. وفي هذه الحال يصعب التكهن بالكيفية التي ستتحرك بمقتضاها هذه العناصر بعد تركيبها. فمثلا جسر "ميلنيوم" في لندن بدأ بالاهتزاز في أثناء سير المارة عليه، الأمر الذي وضع المصممين في موقف حرج، في حين أن توقع تحركات جسر تم إنشاؤه والتعبير عنه بمعادلة واحدة بسيطة سيكون أكثر سهولة.

هناك فوائد أخرى لهذا التصور الجديد؛ فإن "فينسنت" من جامعة "ريدنج" يقول: "إذا كان هناك بيان رياضي واحد لبناء بأكمله، فذلك يعني أن البيان متماسك ومتكامل إلى أقصى حدود". ومن ثم إذا كانت الأشكال الهندسية تتغير ببطء دون أن تُبدي تغيرًا مفاجئا، فهذا يعني أن هذه الأنواع من المباني منشآت منتظمة التغيير ومتماسكة البناء. أما المنشآت التي تتعرض لتغيرات آنية ومفاجئة، فإن التمددات تتكاثف وتزداد لتكوّن مناطق ضعيفة تساعد على إسراع تحطم الخامات وتهشمها. في حين أن التغير في البناء العظمي منتظم ومتماسك ويزيد من مقاومة الكيان العظمي ومتانته، وذلك يساعد على توزيع الطاقات بشكل أكثر تجانسًا وتوازنا داخل البنية. من هنا يمكن القول بأن الأشكال الهندسية التي يتم إعداد تَصامِيمَها بوحي من النظام العظمي في جسد الإنسان سوف تتمتع بنفس الأوصاف المذكورة.

إن هناك حاجة ماسة لأبحاث ودراسات متقدمة تفسح المجال أمام إمكانية نقل التصاميم العظمية إلى قطاع الهندسة المعمارية. ولما كانت هذه التصاميم شديدة التركيب والتعقيد فيجب فهم خصائص كافة الأشكال بالتفصيل، وإلا فإن التقليد الأعمى لن يؤدي إلى أي فائدة.

هذا، ومع تطور العلوم الحديثة اليوم يمكن فهم أسرار التصاميم العجيبة الموجودة في أجسام الكائنات الحية بصورة أفضل والاستفادة منها في مجالات شتى من الحياة. كما يمكن كذلك فهم العناية الربانية الشاملة والعلم الإلهي المحيط والحكمة الخارقة والصنعة البديعة المتلألئة في كل مكان. ■

(*) كاتب وباحث تركي. الترجمة عن التركية: أ.د. الصفصافي أحمد القطوري.

رائد الفكر الإسلامي الحديث



شيخ الإسلام مصطفى صبري

أ.د. عمار جيدل*

العلماء في الثقافة الإسلامية ورثة الأنبياء، لهذا يعد عملهم امتدادا لعمل الأنبياء، فينسجون وفق مسلك الأنبياء في إنقاذ مجتمعاهم من دركات فساد الاعتقاد والأخلاق والقوانين وسائر الأحوال. والقيام بتلك الوظيفة على أكمل وجه يقتضي من العلماء استصحاب المعطى الثقافي والحضاري الذي تتحرّك فيه دعوهم فاعلة ومتفاعلة. ولعل أصدق أنموذج معبر عن استحضار لتلك المعطيات من الناحية النظرية، العمل الجبار الذي أنجزه شيخ الإسلام مصطفى صبري رحمه الله؛ فقد كان بحق رائدا من رواد المقاومة الفكرية في المجتمع العثماني الحديث.

نبذة عن حياته

فمن هو شيخ الإسلام مصطفى صبري وأين نشأ وترعرع وتعلم، وما الأعمال التي تؤكد ما مِلنا إليه في مدخل المقالة؟

ولد الشيخ مصطفى صبري من أبوين تُركيَين في تاريخ ١٢ ربيع الأول ١٢٨٦ هـ ١٨٦٩م في الأناضول بمدينة "توقاد" التي ينسب إليها. تتلمذ في بداية تحصيله العلمي على يد والده الأستاذ أحمد التُّوقادي، وأتمّ دراسته الأولية في مسقط رأسه حيث حفظ القرآن الكريم بها، ثم واصل رحلة التحصيل بمدينة قيسري، ثم انتقل بعدها إلى الآستانة ونال إجازتين. انخرط مصطفى صبري ابن الثاني والعشرين ربيعا في سلك كبار المدرسين بصفة أستاذ محاضر في جامع السلطان محمد الفاتح، بعد امتحان التدريس

بدرجة مدرس عام سنة ١٣٠٧هـ/١٨٩٠م. وقد تخرج على يديه عدد لا يستهان به من الطلبة، ويذكر أنه سلّم إجازات لخمسين طالبا. اختير بتاريخ ١٦ يناير ١٩٠٠م عضوا في ديوان القلم (أمانة السر). واختارته هيئة كبار العلماء المعروفة بالجمعية العلمية رئيسا لصحيفتها الأسبوعية التي كانت تصدرها بعنوان بيان الحق، ليعيّن بعدها عضوا في دار الحكمة "هيئة كبار العلماء"، تولى بعدها تدريس الحديث الشريف في مدرسة السليمانية. اختير نائبا عن مدينة توقاد في المشروطية الثانية بتاريخ ١ يناير ١٩٠٨م، ثم تولى في عهد وزارة الداماد فريد باشا الأول المشيخة الإسلامية سنة ١٩١٩م بناء على الإرادة السلطانية، وظل محتفظا بمنصبه في الوزارتين المتعاقبتين.

ولما ضاق به حال البلاد بناء على ما تعرّض له من ضغط وتقييد اضطر إلى الهجرة. سافر إلى مصر سنة ١٩٢٣م ومنها إلى لبنان، وبقي على تلك الحال متنقلا، فزار مكة، وعاد إلى مصر سنة ١٩٣٢ م وهذا بعد الإقامة القصيرة بتركيا.

آثاره العلمية ووقفة مع كتاب "موقف العقل"

تتوزّع آثاره العلمية على العديد من أنواع التأليف؛ ففيها الكتاب الجامع وفيها الكتاب البسيط ومنها أيضا المقالات المتخصصة. وقد ألّف باللغتين العربية والعثمانية (التركية القديمة). وأهم كتبه: النكير على منكري النعمة من الخلافة والأمة، موقف البشر تحت سلطان القدر، قولي في المرأة ومقارنته بأقوال مقلدة الغرب، القول الفصل بين الذين يؤمنون بالغيب والذين لا يؤمنون بالغيب، موقف العقل والعلم والعالم من رب العالمين وعباده المرسلين.

تضمن كتاب "موقف العقل" زبدة أفكاره وآرائه السياسية والعلمية. فهو كتاب غني بالمطارحات الفكرية المتنوعة حيث تجد المناقشات الفلسفية العالية والكلامية الدقيقة والسياسية في جانبيها النظري والعملي. والكتاب من عنوانه يدل على أن الغرض الأصلي منه هو الدفاع عن عقيدة الإسلام. والقيام بهذا العمل فرض عليه الحديث المسهب عن كثير من القضايا حيث أنه:

- كشَف المؤامرات التي تعرّض لها الإسلام من زاويتي التحدي بالسلاح من خلال هجمات الغربيين، والتحدي الفكري العقدي الذي تقوده قوى الإلحاد والفجور، فعمل بهذه المطارحات على مجابهة الفريقين.
- بيّن في كتابه قيمة الدليل العقلي مقارنة مع الأدلة التي استند إليها المثقفون الغربيون أو المتغربون. فبرهن بأن الدليل العقلي أيقن من الدليل التجريبي، ويعد النقاش في هذه المسألة تأريخا لوجودها في البيئة الإسلامية المعاصرة.
- ناقش أدلة فلاسفة الغربيين على وجود الله، كما ردّ شبه النافين من الملاحدة. وهذا الجهد يدل على إحاطته بالفكر والفلسفة الغربيين عامة بخلاف ما ذهب إليه بعض الباحثين.
- حارب الشبه المعربة عن الفكر الغربي (المترجمة)، والتي منها الاستخفاف بالدليل العقلي والاستناد الكلي للدليل التجريـــبي، حتى غدا المنهج التجريبي هو المنهج الأصيل والوحيد الممثل للثقافة الإسلامية.

ولقد نشر للشيخ مصطفى صبري مقالات باللغة التركية والعربية في الجرائد اليومية، كما نشر له مقالات في المجلات العلمية في تلك الفترة. وتعد هذه المقالات على تنوّعها دفاعا عن الإسلام وإبرازا لقوته العلمية. إنه حاول إرجاع هيبة الإسلام المفقودة، وذلك ببعث قوّته العلمية والفكرية في ساحة كثر فيها العلماء المعجبون بالغرب وحضارته وفلسفته، حتى عد المنافح عن دينه وحضارة أمته نشازا يشار إليه بالبنان.

سمات مؤلفاته

القراءة الفاحصة لعناوين المؤلفات يبيّن بجلاء أننا أمام شخصية علمية نذرت نفسها لمدافعة الباطل والدفاع عن الحق في العلم والسياسة. فالعناوين المختارة دالة بنفسها على ملكة المطارحة، ويؤكد هذا المسلك القراءة الأولية لما كتبه الرجل. إن المصطلحات الموظفة في التعبير عن عناوين الكتب والمقالات تدل بنفسها على العقلية الجدلية التي يتميّز بها.

إن كتبه باللغة العربية أكبر من أن نشرحها لدلالتها المباشرة على ما رمنا بيانه في الفقرة السابقة. انظر معي لفظ "النكير"، فهو دال بنفسه على الاستنفار والإنذار والتنبيه مع شدّة في اللفظ، إنه نكير على منكري النعمة من الخلافة والأمة. وأعمل مسلك الإنكار نفسه في كتابه "مسألة ترجمة القرآن"، فقد عرضها كمسألة يراد توجيه الأنظار فيها إلى رأي مرجوح، فرام من خلال المطارحة الهادئة والهادفة إلى بيان القول الفصل في المسألة. ونسج على المنوال نفسه في كتابه "القول الفصل بين الذين يؤمنون بالغيب والذين لا يؤمنون بالغيب"، فحاول الفصل في مسألة كثر فيها الكلام وفق مشارب الآخر، لهذا ركب فرسه للمدافعة والمرافعة عن الغيب الذي يراد إبعاده خدمة للثقافة الغربية وانسجاما معها.



وبذلك المنهج كتب كتابه "قولي في المرأة"، إذ يدل بقية العنوان على الغرض الأصلي من الكتاب "ومقارنته بأقوال مقلدة الغرب". إنه يرمي إلى إبطال أقوال الغربيين ومقلديهم في مسألة المرأة في الإسلام.

أما موسوعته "موقف العقل والعلم والعالم من رب العالمين وعباده المرسلين" فهو بيّن من عنوانه "موقف". فهو دفاع عن موقف العقل والعلم والعالم من رب العالمين وعباده المرسلين ضد أولئك الذي نصبوا بينها برازخ لا تتجاوزها، بينما هم يتضافرون جميعا (العقل والعلم والعالم) في الدلالة على بطلان أقوال المنكرين والملحدين وصحة ما ذهب إليه أهل الإيمان برب العالمين.

وتتأكد النـــزعة التي أصبحت في الرجل ملكة أكسبته الاستقلال الفكري فيما قرأناه في تلك المؤلفات، إذ يصرح بأنه لا يريد "أن يقول بفكرة إن قال بها كبير أيا كان، ولا يتخلى عنها إن لم يقل بها أو قال ثم رجع عنها". لهذا تراه لا يوجّه اهتمامه إلى تحقيق رأي فلان أو علان، ويرى ذلك شأن غير الباتين في الحكم بعقولهم فيوازنون درجة المذاهب في الصحة أو الفساد بدرجة مراكز المنتمين إليها.(١) وتماشيا مع ما ذكره تراه ينقد الخطأ حيث وجده غير مهتم بمركز القائل، ينتقد الغزالي وابن تيمية وابن القيم وغيرهم من العلماء.

أما بالنسبة للعلماء المعاصرين فقد ناقش أقوال أكثرهم شهرة كالشيخ جمال الدين الأفغاني ومحمد عبده وشلتوت... وبالدرجة نفسها التي ناقش بها فلاسفة الغرب كباركلي وهيوم وكنط... وقد سبب له هذا النقد كثيرا من الحرج والمتاعب، فقيل له "كيف تنقد هؤلاء الأعلام؟" فقال "إن كتابي كتاب مبادئ لا كتاب تراجم".(٢) إنها كلمة رائعة يجب أن تكون قانونا يعمل به في تمحيص الأفكار والآراء بصرف النظر عن أصحابها ومراكزهم.

جهوده العلمية

المتتبع لعناوين كتب الشيخ مصطفى صبري يدرك أن المقصد الأساسي من مؤلفاته هو الدفاع عن الإسلام والعلوم الإسلامية بصفة عامة، وذلك بصد الهجمات التي تعرّض لها من قبل أبنائه، وخاصة تلك التي تلبّست بالإلحاد القائم على المبادئ المادية في العلوم أو التي قامت على المبادئ القومية في الجانب السياسي.

لهذا انصبت جهوده على محاربة العقليات السائدة في الوسط الثقافي والسياسي، وعلى رأسها محاربة العقلية الآيلة إلى الإلحاد في البيئة الإسلامية المعاصرة. وأصل هذا الداء -في رأيه- الذي ساق المتعلمين الجدد إلى الشك المنتهي إلى الإلحاد اعتقاد أنه "لا يثبت وجود الله علميا، لأن العلمية ربطت بالثبوت التجريـــبي الحسي وفق ما ثبتت به سائر المعارف والعلوم في العلم الحديث، وهذا لا يَعتدّ بالدليل العقلي لعدم إمكان سلامته من الخطأ، وبالتالي لا يمكن الوثوق به"، فنجم عنه تسرّب أمراض خطيرة إلى بيئتنا الإسلامية، لعل أهمها:

- عدم الاستناد إلى الأدلة النقلية، وترتب عليه إنكار مسائل غيبية ثابتة، واضطرهم هذا إلى التأويل مسايرة للعلم الحديث، حتى غدا التأويل المتعسّف مسلكا لدى كثير من أعلام هذا العصر، وقد كان محمد فريد وجدي أكثرهم غلوا ومسايرة للعلم الوضعي (التجريـــبي الحسي).
- عدم التعويل على الأدلة العقلية في إثبات واجب الوجود، وحصرت الأدلة في العلم الحديث المبني أساسا على قاعدتهم المشهورة "كل معقول لا يؤيده محسوس لا يعتد به"، رغم كون القاعدة مبطلة لنفسها بنفسها لأنها "معقول لا يؤيده محسوس"، فنجم عن ذلك إهمال المنطق والعلوم التجريدية، وحصرت الثقة في المحسوس، وهذا ما يفسر الهجمات التي تعرّض لها علم الكلام.
- الفصل بين الدين والسياسية؛ وقد خُدم هذا المبدأ بطريقتين اتخذت أولاهما الطريقة المباشرة كالمحاولة التي قام بها الشيخ علي عبد الرازق؛ وسلكت الثانية طريقا غير مباشر من خلال إخراج الفقه من دائرة الدين وفق ما ذهب إليه الشيخ محمد مصطفى المراغي، ويقرب منه قوله بجواز التعبد بالقرآن المترجم.
- ظهور محاولة إنقاذ الدين من العقل وفق ما قام به الفيلسوف الغربي "كنط" حينما أقام دليل العقل العملي على وجود الله (دليل الأخلاق). ومبنى هذا الرأي التأسيس للعقيدة المسيحية التي لا تتلاءم والعقل، لهذا عدت محاولة النسج على منوالها متجاوزة لكل مسلمات العلم، إذ تختلف الديانة الإسلامية عن الديانة المسيحية المحرّفة في أساسهما العقدي. فأساس الأولى الفصل بين عالمي العقل والقلب الذي من مهماته العقيدة والإيمان، بخلاف ما هو عليه الإيمان في الإسلام، فهو

موجّه إلى العقل في اللحظة نفسها التي يتوجّه إلى الوجدان. وقد رام تحقيق هذه المهمة المستعصية الشيخ فريد وجدي، فحاول إقامة البرهان على وجود الله تعالى دون الاستناد إلى الدليل العقلي[٣]، وهي محاولة لا يمكن أن تنجح ولا ينبغي لها أن تنجح، وإن نجحت فإنها من قبيل الغلطة الناجحة، لأنها متصورة في المسيحية وغير متصورة في الإسلام.[٤] فالمسيحي يضطر إلى إهانة عقله ليسلم له دينه، وكذلك الحال بالنسبة للملحد الغربي والشرقي، فإنه يضطر إلى الاستهانة بالدين ليسلم له عقله. والمسلم بخلاف ذلك تماما؛ فالعقل والدين لا يفترقان حتى غدت عند المسلمين قاعدة مشهورة "من لا عقل له لا دين له".

- تسرّب ضلال الاستخفاف بالعقل، وتأصّل ذلك بانتشار المذهب التجريبي وبناء العلم عليه بعد الفيلسوف بيكون، فطبق المذهب التجريبي بطريق الفلسفة الوضعية على العقائد، وقد زاد الأمر شناعة شيوع تقليد كل ما وفد إلينا من الغرب أو صدّروه إلينا.[٥]

وفي ضوء ما سلف حصر الشيخ مهمته فيما يأتي:

- مكافحة الشبهات ومكافحة مروجيها والكشف عن المكامن التي يتستر المثيرون لها، حتى يتزعزع مكان الشبهات ومكانة مثيريها في قلوب الناس كائنين من كانوا، "فتنهار الشبهات ومروجوها وتسلم عقيدة المؤمنين من شرورهم وتساؤلاتهم".[٦]
- الدفاع عن مركز علم الكلام وإثبات صدقه وصحة استثمار معارفه، والسعي إلى إثبات أن وجود الله لا يمكن أن يستند إلى الدليل التجريبي الجزئي الذي فتنهم، ولا يكون بغير الدليل العقلي، لأن الدليل العقلي أقوى وأيقن من الدليل التجريبي.
- محاربة اللادينيين بالقضاء على كل شك يرمون إلى تكريسه بطريق الإلحاد. وبهذا الصدد عمل على شحذ الهمم وتنبيه العقلاء إلى خطر تسرب العقليات الغربية المناوئة للدين إلى أذهان المثقفين المسلمين، ويتطلّب هذا الجهد سرد شواهد من كلمات رجال يستدل بأهمية مراكزهم الرسمية والأدبية على أهمية المسألة[٧]، لهذا اضطر إلى تفحّص أقوال وأفكار الفلاسفة الغربيين وأيّد رأيه بكثير من أقوالهم وتصريحاتهم.
- حاول بيان المرض العقلي الذي هيمن على العقليات في مصر الحديثة نظرا لخطورته البالغة، إذ يرجع إليه حسب تقديره سبب هلاكها في الدنيا والآخرة إن بقي الأمر على حاله.[٨]
- الدعوة إلى إصلاح الأوضاع العلمية في العالم الإسلامي، بصفته الطريق الوحيد للنجاح السياسي والاجتماعي في الحاضر والمستقبل.

موقفه من الهجمة المنظمة على العلوم الإسلامية

عمل الشيخ على عدة جبهات لمدافعة الهجمات التي تتعرض لها العلوم الإسلامية إرضاء للفكر الغربي الحديث، وبهذا الاتجاه قام بجهود جبارة في المطارحات الإعلامية والسياسية والتعليمية، وتجلى هذا المسلك في الجهود الآتية:

- العمل على بيان الخلل الطارئ على العقلية الإسلامية وخاصة في تسليم زمام أمورها إلى الفكر الغربي ممثلا في الفلسفة الغربية ولاسيما الوضعية. وقد سعى جاهدا في هذا الجانب إلى بيان بطلان أساس ما تبنى عليه هذه الفلسفة، فبيّن الفرق بين الدليل العقلي التجريدي والدليل (العلمي) التجريبي، فبرهن على تفوّق الأول على الثاني، بل أساس دلالة التجريبي مبنية أساسا على الدليل العقلي في مرحلة من مراحل الاستدلال أو تبليغ الدليل.
- ناضل حاملي الفكر الغربي في البيئة الإسلامية فحاول قطع الطريق على أولئك الذين حاولوا التعامل مع الثقافة الإسلامية من منطلق الفكر الوافد، وكأن الثقافة الإسلامية عارية عن كل أصالة وقوة إقناع.
- دافع الشيخ عن الخلل المتوقّع من تصريحات بعض كبار أعلام المسلمين في العصر الحديث، فدافع عن معجزات الأنبياء بوصف إنكارها طريقا معبّدا لإنكار كل ما له صلة بعالم الغيب الذي منه عقائد المسلمين، وما ركب ذلك إلا خوفا من استشراء هذا الداء العضال في أوساط الأمة، فإنه إن تمكّن منها سيأتي على الأخضر واليابس.
- دافع عن موقع الفقه في الشريعة الإسلامية والدين الإسلامي عموما، خوفا من يأتي اليوم الذي لا ندري فيه كيف نعبد الله، وخوفا من أن يصبح الفقه ليس من الدين على قول بعض العلماء المعاصرين.

- دافع عن الحديث النبوي ضد أولئك الذين اختصروا الحديث الصحيح من الكتب المدونة بنسبة الواحد من مائة وخمسين حديثا، بناء على تفسير خاطئ لقول البخاري بأنه لم يصح عنده إلا أربعة آلاف حديث من ستمائة ألف حديث، فراموا تطبيق القاعدة على الأربعة آلاف حديث التي استخلصت من الستمائة ألف حديث. ونظرا لبطلان هذه الأفكار، بل وحملها بذرة الفناء فيها، فقد أفل نجمها وقبرت إلى غير رجعة وعادت للسنة مكانتها في البيئة الإسلامية المعاصرة.
- دافع من منطلق معرفي عن وضع المرأة في الإسلام، وناقش ما يهيأ من قوانين وتصورات يراد فرضها على الأمة. فكشف بأسلوب رائع أصل الداء الذي حاولوا تسويقه في مجتمع النساء، وأرجع الداء كله إلى تقليد الغرب حتى في أوضاعه التي لا يحسد عليها، فأريد تحويل المرأة إلى سلعة تتداول وتتقاذفها الأجسام الآسنة ذات الروائح الكريهة أولئك الذين لخصوا وجود النساء في المتعة واللذة ففقدوا إنسانيتهم وأُسروا لشهواتهم.
- أرجع الخلل في الإعجاب بالغرب في السياسة إلى الخلل في التكوين الثقافي. فالمسألة السياسية ترجع أساسا إلى خلفية ثقافية يجب أن يبدأ الإصلاح منها. فالإصلاح الثقافي أصل الإصلاح السياسي، لهذا رتّب الشيخ الأولويات في بداية عهده بمدافعة العمل السياسي الأعوج الأعرج الذي يراد فرضه على البيئة العثمانية الجديدة، ولكن لما يئس من نجاح محاولات الإصلاح السياسي المباشر سواء بطريق الحوار والمطارحة الفكرية، تأكد أنّنا إنما لدغنا من جهة الثقافة والتكوين الدقيق في العلوم الإسلامية. ومن ثمّ مال إلى طريق الإصلاح العلمي بالتأليف والنصح المستمر للمسلمين وعلمائهم. وأكبر شاهد على ما ذهبنا إليه آخر كتبه تأليفا كتابه "موقف العقل والعلم والعالم من رب العالمين وعباده المرسلين". فقد بيّن وبما لا مزيد عنه أن مشكلتنا ثقافية بالدرجة الأولى، ويجب تعهدها بالإصلاح والتنبيه والتيسير في كل الأوقات.

أقوال العلماء عنه

تكاد تتفق كلمة الباحثين المعاصرين على أنّ الشيخ مصطفى صبري نسيج وحده لا مثيل له بين بني عصره. فقد ظهرت ميوله إلى العلوم العقلية من كلام وفلسفة ومنطق وما شاكلها من معارف منذ الصغر، يؤكد ذلك قوله عن نفسه: "الاجتهاد في العلوم العقلية يلتئم مع فطرتي ومزاجي والتي لا يبتعد عنها علم أصول الدين"[٩]، لهذا عرف بين أهل الاختصاص بسعة الاطلاع والقدرة الفائقة على المناظرة.

قال عنه محب الدين الخطيب "فحل الفحول الصائل الذي يعد فضله أكبر من فضل معاصريه"[١٠] لأنه دافع عن الإسلام في أيام كان فيها الانقضاض على الإسلام باسم الإسلام وبمباركة علمائه. وقال عنه الشيخ زاهد الكوثري "قرّة أعين المجاهدين"، وقد مدحه الشيخ عبد الفتاح أبو غدة قائلاً "إن كتابه موقف العقل هو كتاب القرن بلا منازع"، وقال الشيخ البوطي عن كتابه آنف الذكر "هو كتاب لا مثيل له".

جوانبه الأخلاقية

عاني شيخنا رحمه الله طوال حياته من الفقر الذي كان به فخره؛ فقد عاش فقيرا ومات على تلك الحال غير آبه بجمع حطام الدنيا. وأكبر شاهد على ما ذهبنا إليه اضطراره إلى بيع كتبه ليحصل على ثمن تذاكر سفر من الدرجة الثالثة بالباخرة له ولسائر أفراد أسرته، وذلك من الآستانة إلى الإسكندرية، وهذا رغم توليه منصب "شيخ الإسلام" لسنوات عديدة.

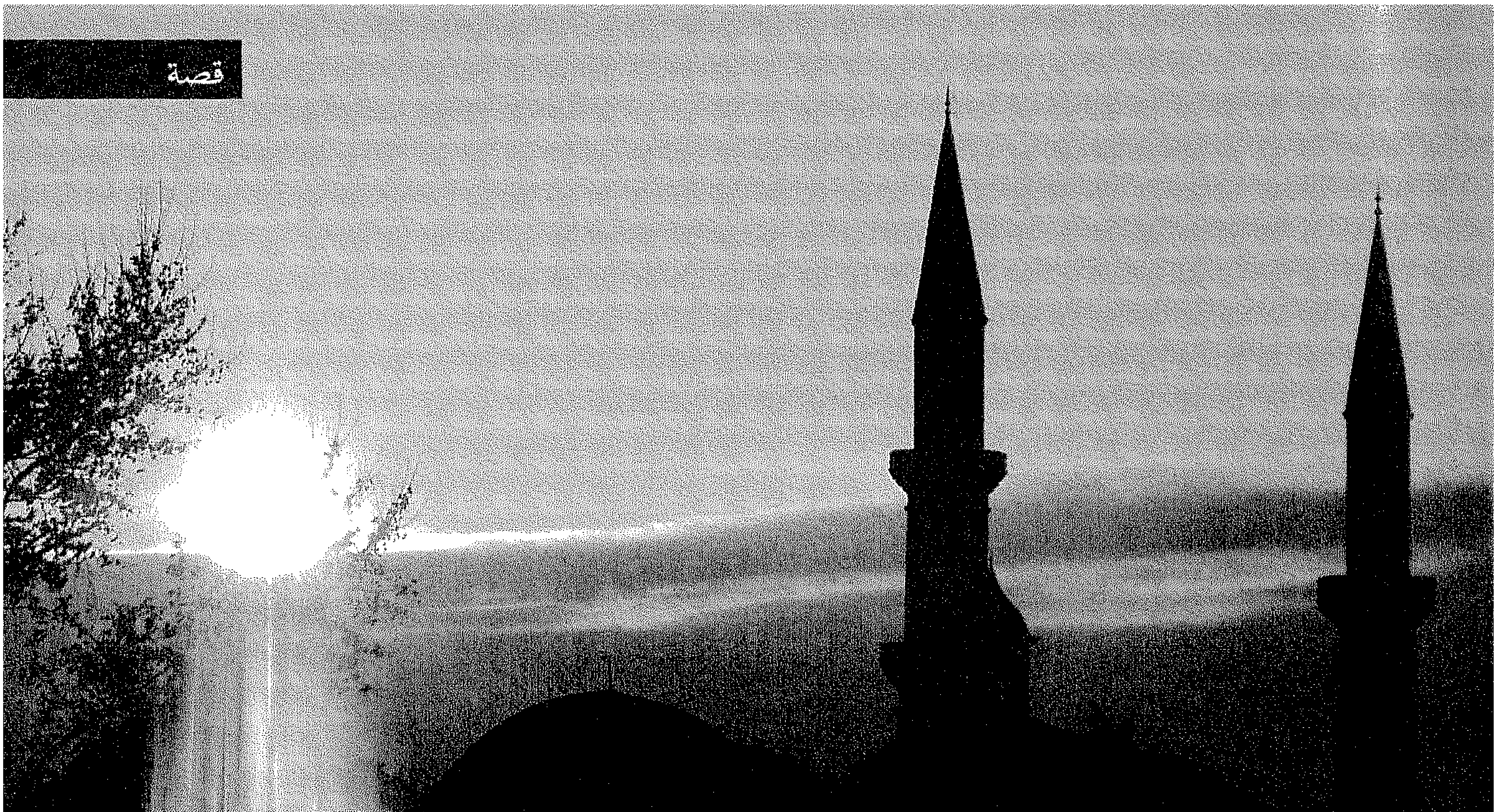
وكانت شجاعته مضرب الأمثال بين علماء عصره؛ فقد حارب الاتحاديين وعلماء الدين المتغربين، ولحقه من جراء ذلك أذى كبير من قبل المثقفين والساسة. وقد عمل طوال حياته على تغيير الوضع نحو الأفضل، وقد زاد نشاطه منذ أن أحس بالخطر المحدق بالدين الإسلامي في العالم الإسلامي، وبقي على ذلك المنهج غير متزعزع أو مستجيب لترغيب أو الترهيب.

غادرنا الشيخ مصطفى صبري رحمه الله إلى عالم الخلود من الأنبياء والشهداء والصالحين بمصر ٧ رجب ١٣٧٣هـ الموافق ٢ من مارس ١٩٥٤ م. رحم الله شيخنا وأجزل مثوبته، ونفعنا بتجربته وأفادنا من علمه، إنه على ذلك قدير وبالإجابة جدير. ■

(*) جامعة الجزائر المركزية / الجزائر.

الهوامش

(١) موقف العقل، ٣/٩٢، ٤/٣٨٦.
(٢) المصدر السابق، ٤/٣٨٦.
(٣) أنظر: موقف العقل، ١-٦٨، ٦ ٤٠.
(٤) موقف العقل، ٢/١٥٧.
(٥) المصدر السابق، ٢/٣٢٣.
(٦) المصدر السابق، ١/٤٤.
(٧) المصدر السابق، ١/٤٤.
(٨) المصدر نفسه، ١/٦٦.
(٩) المصدر السابق، ٤/٣٨٧.
(١٠) مقال محب الدين الخطيب، بحلة الفتح الإسلامي، العدد ١٩٤.



كأني أكلت

جمال أمين*

كان شريط المساجد اللامع عالقا في جدار ذهنه المشبع بالنفاذ الروحي. الشيخ إسماعيل أفندي حمامة مسجد كما يقول عنه تلاميذه الخلص.

كيانه الجامع، ذرات فطرته البيضاء، طائره الإيماني المحلق في الأعالي، تسكن كلها مآذن وقباب إسطنبول المتوهجة بالندى والطهر. المساجد السلطانية العملاقة تستبطن أحاسيسه الدافقة... أذانها المطلول المبغوم... ابتهالاتها الندية المتموجة... تراتيلها المعرشة بالألحان المرشوشة الغضة. ويلج باحاتها الفسيحة مدّ البصر، بواجهاتها الرخامية المصقولة، فيتوثب قلبه الرهيف، وتتلبسه أحاسيس سلطانية عظيمة، لعظام بناة، وسواعد متوضئة، ومحاميل حجارة منتقاة بعناية، و"سنان" المعلم العظيم يرشها بلمسات فنه الساحر المتكلم.

كان يسبح بباصريه مذهولا وهو يلج الصدفات المكنونة بسر السماء، وتمتصه محاريبها الفارهة... أعمدتها الأسطوانية الرابضة... قبابها الأهرامية السماوية... لغات كثر تناجي قلبه المدهوش... تنبعث بنمنماتها الساحرة: الضوء المتكسر المشعث المتماوج، اللون الطاووسي السابغ، الخط المعشوشب الفتان، الزجاج الفسيفسائي المزركش، رجلاه لا تقويان على حمل عراجين عشقه المتهدل "بالدهش" و"العطش". كم قضى ليالي قمراء في باحة مسجد "الفاتح"، قرب الضريح الرخامي الجاثم في ظلال الشجر الفينان، يستل أحلامه المتوثبة، يناجي عرائسها المخبوءة.

إن ما يقلقه ويمضه هو ضيق ذات يده، وانحباس حياته في دارة العطايا النزرة المتقطعة. منذ نزوحه المبكر إلى إسطنبول رفقة شيخه الروحي وهو يعيش في ظلال التكايا والزوايا، بين همهمات الذاكرين، وتوسلات الزائرين، ورباطات المريدين، إلى أن ورث (سر) المشيخة الروحية بزاويته المتواضعة، فازدادت أعباؤه أثقالا من إشراف على مواسم تعبدية خاصة، واستقبال للعطايا والهبات المتنوعة، واحتفاء بالضيوف والزوار الوافدين،

وإنفاقات متواصلة على تلك المراسيم والموالد. فما يأتي به نهر اليوم يبتلعه بحر الغد. والدائرة تدور، والأيام تدول، ورحى العمر تطحن الرغائب الحسان، وظلالها تبهت وتصفر بفعل اليبوسة الزاحفة، وصراع محموم بدأ يشتعل ويتلظى بين عقله السؤول وقلبه الملول، بين طموحه الأخروي وانجذابه الدنيوي، بين رسوم العبادة وعبادة الرسوم، بين ولائم الطاعة وطاعة الولائم... بين وبين وبين... دوامة عاشها وهو يتربع على عرش المشيخة بين أتباعه ومريديه.

قال عنه مريده (ن): "إن شيخنا إسماعيل أصابه ما أصاب شيخنا جلال الدين الرومي مع التبريزي من خلوة عن الأتباع والزوار وسياحة انفرادية في مساجد اسطنبول العتيقة". وشاهده مريده (ش) وهو يتسلق قمة (شامليجا) قبل الغروب، مقتعدا مكانه المعلوم قبالة المساجد/الأهرامات مذهولا... مشدوها... ملتاعا.

وراقبه صديقه الدرويش (ع) وهو يطوف بمساجد السليمانية والفاتح والسلطان أحمد، لا تطرف له عين ولا يغمض له جفن، ولا تكل له قدم، ثم يستلقي في أفنائها متأملا سارحا يعب من جمالها المجسد الضافي. وقالت عنه زوجته (ر): "إن زوجي قد أصابه الذهول والذبول منذ تلك الليلة التي قضاها معتكفا في مسجد الفاتح منتصف رجب الماضي".

كان إسماعيل أفندي مستلقيا في باحة مسجد الفاتح، وهو يستعيد شريط حياته الحافل، ورشاش زبد تلك "الرؤيا" الغريبة يمتلك مجامع قلبه وروحه. في نفس هذا المكان المقدس وفي مثل هذه الساعة الليلية الواعدة... شاهد في الحلم خيال محمد الفاتح قادما من المحراب الرخامي... ينتصب قبالته بلباسه الأبيض الناصع... عطور سماوية تفعم أنفه، صوته الندي يسر في أذنيه حديثا نبويا مأثورا "من بنى مسجدا لله ولو كمفحص قطاة بنى الله له بيتا في الجنة"، ثم يغيب خياله وابتسامة وضيئة ترسم دوائر النور على وجهه الوضاح. يغيب وتغيب منذ تلك اللحظة الفاصلة رغائبه التي استطالت مثل الأظافر حتى غدت مخالب تخدش إيمانه الأخروي.

إن ما يقلقه ويمضه هو ضيق ذات يده بفعل الإسراف الزائد، والعطايا المهدورة في الولائم والضيافات. جبال من الجليد العائم الكاذب تحجزه عن التحديق والتحليق. وفي مثل لحظة كلمح بالبصر قرر -وذكرى الفاتح لا تطرف عينها في خياله المشبوب- بناء مسجد -ولو كمفحص قطاة- يكون أساسا ركينا لبيت لا محدود في الجنان... "يا لروعة التقابل الشهودي الغيبي ينث شهدا وحلاوة من كلام الرسول المعلم ﷺ -قال ذلك محدثا نفسه- بيت لله فوق هذا الكوكب الهاوي، وبيت لك في الملأ الأعلى، أيّ "وجبة" مجزية يمنحها لك هذا الحديث، أيّ مصير خالد يمنحه لك هذا الألق النبوي... لو وَضَعْتَ سنوات الزوايا والتكايا في كفة أخرى لطاشت بالأولى لثقلها الأخروي).

تذكر في غمرة هذا التحول النفسي/الكياني "سر" عظمة السلاطين الأوائل... سر امتدادهم التاريخي الخصيب في حنايا المعمور وثنيا الدهور... إنها المساجد/الأهرامات التي تنتشر في ضفاف البسفور كأزهار الأقحوان متفتحة باسمة قبالة السماء المغسولة. "إنك يا إسماعيل ستنافس عظمتهم الأخروية بعد أن غلبوك في عظمتهم الدنيوية، ستنتشر ذكرك بهذا المجد الموعود في عالم الآخرة، وهي خير وأبقى". هكذا حدث نفسه القلقة.

قَرَّرَ مصمما في غمار تحولاته سلوك رياضة نفسية جديدة تحقق له حلم حياته الأخروية. إنها "لعبة الوهم" المتبادل بينه وبين نفسه، وهم التشبع بلذائذ الأطعمة والأشربة، وهم الموائد الممدودة الحافلة في المواسم المكرورة والضيافات المتجددة. قرر تحطيم وهم "التشبع" بمعول إيمانه الأخروي... "الاستغناء" و"الادخار" هما شعاره الجديد في رحلته الجبلية الجديدة، وهو يتوقل حزون النفس وذراها.

قالت عنه زوجته: "كلما أخبرت زوجي بأطايب الطعام التي سَتُشْتَرَى له، رفض ذلك ورد ثلثيها وأبقى على الثلث فقط، مدخرا نقودها في صندوق خشبي مرددا جملة غريبة (كأني أكلت... كأني أكلت...)".

وقال عنه جاره البقال (ف): "كلما همَّ الشيخ إسماعيل باقتناء فواكه الصيف النضيجة كعادته، أسرع بإرجاعها كمن لدغته أفعى قاتلة مرددا كلاما غريبا (كأني أكلت... كأني أكلت)". وقال عنه مريدوه: "إن طقس (الانجذاب) الذي جلل شيخنا في سنواته الأخيرة أصابه بالذبول والذهول، فلا هم له إلا الادخار في ذالك الصندوق الخشبي العتيق مرددا جملته المأثورة (كأني أكلت .. كأني أكلت)".

وقال عن البنّاء (ك): "كان الشيخ إسماعيل يتعهد بناء مسجده الصغير بالمراقبة اليومية، بل كان يساهم بوضع لبناته الصخرية بيديه المتوضئتين. وكلما استطال البناء أبصرت وجهه الوضاح يستنير بنور سماوي غريب كأنه فلق الصبح الأزهر".

وحين استتم الحلم الأخروي شكله الصخري المستدير، واستكمل زينته الزخرفية المتواضعة في طابقيه الصغيرين، عقد فيه الشيخ إسماعيل أولى حلقاته الندية معلنا لطلابه وزواره أنه قرر تسميته جامع "كأني أكلت". ■

(*) كاتب وأديب / المغرب. قصة حقيقية جرت في عهد الدولة العثمانية.



هو ﷺ فوق الوصف قاطبة من حيث جوهره ومكانته،
فريد الكون والزمان بأعماقه الأخروية،
وضياؤه لهجت به الألسن قبل وجوده،
فهو باني الإنسانية من جديد، وقدومُه إحسان للإنسانية جمعاء...

ISSN-1306-1879
9 771306 187009 05
www.hiramagazine.com